تاريخ الدولة العثمانية

يلماز أوزتونا

منشورات
مؤسسة فيصل للتمويل
تركيا

يلماز أوزتونا

تاريخ الدولة العثمانية

ترجمة
عدنان محمود سلمان

مراجعة وتنقيح
دكتور: محمود الانصارى

المجلد الأول

منشورات
مؤسسة فيصل للتمويل
تركيا
استانبول ـ ١٩٨٨

بسم الله الرحمن الرحيم

FAİSAL FİNANS KURUMU

FAISAL FINANCE INSTITUTION INC.

Kemeraltı Cad. 46 Tophane-İstanbul/TURKEY Phone: (1) 151 65 20 Fax: (1) 145 56 33 Telex: 25694 ffk tr. - 25729 ffk str. (For Exc.)

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ ومن أحسن قولاً ممن دعا إلى الله
وعمل صالحا وقال إننى من المسلمين ﴾

صدق الله العظيم
فصلت / ٣٣

الطبعة الأولى

١٤٠٨هـ ١٩٨٨م

مقدمة

يستهل المؤرخ النمساوى البارون فون هامر Baron Von Hammer – مؤلف أشهر كتب التاريخ العثمانى حتى يومنا هذا – مقدمة الأجزاء التسعة عشر لترجمة كتابه إلى اللغة الفرنسية* بالكلمات التالية :

« الإمبراطورية العثمانية إمبراطورية واسعة . وهى ذات أهمية غير متناهية من الناحية التاريخية .. الإمبراطورية العثمانية أشبه ماتكون بمارد يقبض بأذرعه الجبارة على ثلاث قارات فى وقت واحد ، ولو أنها سقطت فى وقت من الأوقات – كأية إمبراطورية أخرى – فإن أنقاضها سوف تغطى قارات آسيا وإفريقية وأوربا . وحتى فى الوقت الحاضر (١٨٣٥) ، فإن الإمبراطورية العثمانية تحكم أقطارا « تفوق سعتها ماكانت تحكمه الإمبراطورية البيزنطية فى أوج عظمتها »[1] .

ويكتب Pené Herpin أحد المفكرين الفرنسيين الذين عاصروا الإمبراطورية العثمانية فى أوج عظمتها فيقول :

« تفوق قدرة تركيا اليوم (١٦٢٩) قدرة مجموع دول العالم أجمع »[2]

---

* نشر هذا الكتاب عام ١٨٣٥ .

1) Histoire de L'empire Ottaman, جزء ١ ، باريس ، ١٨٣٥ ، ص ١ – ٢

2) Apalogie، جنيف ، ١٦٢٩ ، ص ٦

ومثل هذه الأفكار يسجلها المؤرخون والمفكرون المعاصرون الذين كتبوا بعد سقوط الدولة العثمانية ، فمثلاً يقول Margnthan آخر سفير للولايات المتحدة الأمريكية لدى الدولة العثمانية ، في كتاب Soliman لدونى (ص ٢٤٠) مايلى :

« أسس العثمانيون في آسيا وإفريقية وأوربا واحدة من أوسع الإمبراطوريات التى عرفها العالم »[٣] .

أما المستشرق الفرنسى Sovwaget فيقول : « لم يشهد التاريخ الإسلامى كياناً سياسياً قوياً ومستقراً كالإمبراطورية العثمانية . لقد كانت الإمبراطورية العثمانية هى الدولة الأكبر ، والأوسع ، والأكثر استقرارا . كانت تمتلك أكبر المصادر الاقتصادية في أوربا ، وكان جهازها الإدارى في حد ذاته بناءً راسخا يخدم ويرعى مصالح الشعب العثمانى . كان الأسطول العثمانى يسيطر على كامل البحر الأبيض ، وكانت اسطمبول تبهر أنظار السياح الأوربيين كأكبر مركز للحضارة في العالم ، يضاف إلى ذلك كله التميز المتفرد للأتراك بالطاعة والنظام »[٤] .

ويؤكد المستشرق الألمانى Babinger : « كانت الإمبراطورية العثمانية دولة عالمية كبرى بحق »[٥] .

ونفس الكلمات تقريبا يسجلها Grausset من الأكاديمية الفرنسية ، حيث يقول : « كانت الإمبراطورية العثمانية دولة عالمية كبرى بحق »[٦] .

3) Downey, Soliman, N.Y, 1929
4) Sawaget, Intraduction à L'Histoire de L'Orient Musulman, ، باريس ١٩٤٣ ، ص ١٦٤
5) Balrnger, Mehmed der Eroberer, ، ميونخ ١٩٥٣ ، ص ٤٦٩
6) L'Empire du Levant, ، باريس ١٩٤٩ ، ص ٦٤٣

أما المؤرخ الإنجليزى Downey فيقول : « الدولة العثمانية هى إحدى أهم ظواهر التاريخ العالمى المذهلة جدا ، والخارقة للعادة ، فقد حاولت هذه الدولة أن تجمع حضارات البحر الأبيض كلها فى إمبراطورية واحدة »[٧] .

ويقول الفيلسوف الإنجليزى Toynbee « الإمبراطورية العثمانية هى الدولة الوحيدة التى جمعت الشرق الأوسط تحت حكمها أطول حقبة فى التاريخ ، وذلك أمر لم توفق إليه الإمبراطورية الفارسية أو الرومانية أو العربية »[٨] ، ويضيف توبنى إلى ذلك : إن كافة الأقوام الناطقة بالعربية اجتمعت تحت راية دولة واحدة ، ويسترسل قائلا : « إن أيا من الدول الأوربية الاستعمارية التى أخذت مكان الدولة العثمانية ، سواء إنجلترا أو فرنسا أو إيطاليا أو روسيا لم تتمكن من إدارة هذه الأقطار مدة طويلة وبطريقة مستقرة كما أدارتها الدولة العثمانية ، فهذه الدول عندما استولت على تلك الأقطار لم تلبث أن تركت أماكنها إلى الدول البلقانية والعربية خلال فترة قصيرة ، على الرغم من أن استيلاءها عليها كان بزعم إدارتها بصورة أرقى » ويضيف توبنى : إن إدارة الدولة العثمانية للشرق الأوسط كانت خير إدارة على مدى التاريخ وحتى يومنا هذا ، وإن الدولة العثمانية هى الوارث بحق للإمبراطورية الرومانية .

لقد أطلق المؤرخون المعاصرون على الأسلوب العثمانى الذى حكم الشرق الأوسط لعدة قرون مصطلح Pax Ottomana وهو يقابل Pax Romana وهو التعبير اللاتينى لمفهوم « النظام العالمى » الذى يرد ذكره فى دستور فاتح (قانون نامة) .

لقد كان من الممكن الاسترسال فى إيراد الكثير من كتابات المؤرخين الأجانب أو الأتراك التى تعالج موضوع نشأة الدولة العثمانية واتساعها ، غير أننا نكتفى بما أوردناه من نماذج .

---

7) Downey, Soliman, ١٩٢٩ نيويورك ، ص ٣٣

8) Toynbee, the Ottaman state and its place in the world, lieden 1974,P.15.

إننا نحسب – دون إدعاء أو إسرافـا – أنه يتعذر تفهم وإدراك الجمهوريـة التركية الحالية والعالم العربى وتكوينه دون معرفة التاريخ التركى ، بل إننا نذهب إلى أبعد من ذلك فنقول : إنه لايمكن إدراك سير التاريخ العالمى وتفهم البحوث التى دارت حوله دون معرفة التاريخ العثمانى ، والقارىء للتاريخ العالمى دون التعرف على التاريخ العثمانى كالسائر فى الظلام .

إن المشكلة الهامة والجادة هى حاجة جمهور الشباب والجماعات الأخرى إلى كتاب يحيط بالتاريخ العثمانى فى سلاسة ودون تقصير وبغير أخطاء متعمدة أو غير متعمدة ، ومن أجل هؤلاء ولسد هذا الفراغ .. كان اهتمامنا بتأليف هذا الكتاب الذى استغرق وقتا غير قليل .

واستكمالا للفائدة فقد حرصنا فى تأليفه على أمرين ، أولهما : السرد التاريخى للأحداث حتى وقت الانتهاء من تأليف الكتاب (١٩٨٥) وثانيهما : تناول موضوعات التشكيلات الثقافية والحضارة والفن العثمانى . ولم نهمل عند تحريره أى مصدر من المصادر الجغرافية والأدبية .

وحرصا على ألا تزداد صفحات الكتاب تضخما عما هى عليه، فقد آثرنا ألا نضع خرائط جغرافية فى المتن ، وإن كنا نوصى بشدة بأن يستصحب القارىء أطلس يضعه تحت يده وهو يطالع الكتاب .

ولعل تركيزنا على الجانب الثقافى من التاريخ العثمانى كان له مايبرره ، فلئن كان القارىء الأجنبى يجهل الثقافة العثمانية فإن الجيل التركى الحالى – مع الأسف – لايقل عن الأجنبى جهلا بمكتسبات ومعطيات هذه الثقافة على الرغم من أنه من أبنائها .

وأمر آخر كان يمثل جزءا من دوافعنا لتأليف هذا الكتاب ، ذلك هو أنه على الرغم من أن التاريخ العثمانى مايزال يمثل أحد التشكيلات السياسة للأمس القريب ، فإن المعروف عنه أقل بكثير من المعروف

عن الإمبراطوريات المناظرة كروما والخلافة العربية والإمبراطورية البريطانية ، ولاينسحب ذلك على الجانبين: السياسى والعسكرى من التاريخ العثمانى فحسب ، بل يمتد كذلك إلى الجانبين : الثقافى والحضارى فى التاريخ العثمانى .

إن تجربة نظام الدولة التركية التى اتخذت شكل الإمبراطورية التركية العربية على يد العثمانيين لَموضوع جدير بأن يكون أحد موضوعات الدراسات التاريخية الهامة .

وفى هذا الصدد قد تجدر الإشارة إلى أنه ينبغى على الأقطار العربية أن تهتم أكثر من غيرها - بعد الجمهورية التركية - بدراسة التاريخ العثمانى . وهنا يرد تحفظ على جانب كبير من الأهمية ، مؤداه أن التاريخ العثمانى الذى تعرفه الأقطار العربية قد حررته وصورته أقلام أجنبية موتورة ، ومن ثم فإن هذا التاريخ يأتى مزيفا متحيزا يجرد التاريخ العثمانى من كثير من عناصر العظمة والتميز ، وذلك بعينه هو الذى يدعونا اليوم إلى تنبيه المسلم المثقف إلى أن يقرأ ماكتبه الأجانب (الإنجليز والفرنسيون وغيرهم) ببصيرة يقظة وفكر ناقد .

وقد يصحح هذه المسألة ويقلل من أخطارها أن يكتب التاريخ العثمانى قلم تركى نابع من تركيا ذاتها ، ولايقدح ذلك فى أن الكتابة عن التاريخ مجال مفتوح للجميع ، وانشغال غير أبناء الشعب بكتابة تاريخ الشعب أمر محبب وجميل ، وإن كان يقفز إلى الذهن هنا أن أفضل وأرقى ماكتب عن التاريخ الألمانى حرره المؤرخون الألمان ، وينسحب ذلك بنفس المقدار على التاريخ الإنجلوسكسونى والتاريخ الروسى .. الخ ، ويساند هذه المقولة اعتبار مهم نستطيع أن نلاحظه فى أخطاء كتابة التاريخ التى قد لاتنشأ عن عمد وإنما عن عدم تفهم أو تمثل لقيم وعادات وثقافة وطريقة معيشة الشعب الذى يكتب عنه أو يؤرخ له ، ومن ثم فإننا نأمل فى أن يكون كتابنا هذا الذى يكتبه تركى من تركيا قد تحاشى الكثير من الهنات التى أشير إليها وحقق الغايات التى أشرنا إليها من قبل .

وإنه ليمكن القول دون مغالاة إنه يتعذر أن نتعرف على كيفية ظهور وتشكيل الدول العربية الحالية دون معرفة التاريخ الصحيح للدولة العثمانية ، ولقد حرصنا بالفعل فى هذا الكتاب على أن نركز البحث فى مواطن عديدة منه على الأقطار العربية . وعندما يطلع القارىء العربى على التاريخ العثمانى فإنه يكون بذلك قد اطلع على تاريخه هو لفترة أربعة قرون ، وسوف يتذكر وهو يقرأ النظام والدستور السياسي الذى عاشه شعبه لمدة أربعة قرون ، وسوف يقرأ كذلك مجريات الأحداث فى الإمبراطورية التى هى دولته ، ولاشك فى أنه سوف يجد إجابات شافية عن كثير من الأسئلة التى ثارت فى ذهنه ولم يجد لها جوابا من قبل .

وكم يحدونا الأمل فى أن يكون الكتاب شائعا بالنسبة للقراء جميعا على اختلاف جنسياتهم ، وأن يكون أكثر تشويقا للقارىء العربى بوجه خاص ؛ ذلك لأن القارىء العربى قد عاشت أمته فى ظل الدولة العثمانية عدة عصور يستوى فى ذلك من كان مقيما فى اليمن أو فى الجزائر ، وهذا أو ذاك كان أبوه أو جده واحدا من أفراد تلك الدولة ، شعر بشعورها ، وعاش مصيرها ، وشاركها فعالياتها ، وإن كانت هناك أمور أو حالات تعارضت فيها المصالح فمن حقه أن يعرف الأسباب والحقائق التى كانت وراء الاتفاق أو التعارض .

● ● ●

والمجلد الأول من هذا الكتاب يعرض التاريخ السياسى والعسكرى للدولة العثمانية ، ملقيا الضوء على الإمبراطورية منذ ظهورها إلى انحلالها ، وحتى يسهل على القارىء تفهم كيفية ظهور العثمانية على مسرح العالم فقد قدمنا لذلك بتلخيص مجمل للمجريات التاريخية للأتراك قبل العثمانية وخارج النظام العثمانى .

أما المجلد الثانى من هذا الكتاب فيتناول الحضارة العثمانية بما يشتمل عليه مفهوم الحضارة من ثقافة وفن وأسلوب حياة .

وقبل أن نودع القارىء نريد أن نرد على نقد قد يثار ، ذلك أنه كان ينبغى لهذا الكتاب أن يتناول التاريخ الداخلى للقوميات التى ارتبطت طوال ستة قرون بالنظام العثمانى ، وأن يتناول كذلك الجوانب الثقافية والفنية لتلك القوميات ، ولكن ذلك كان غير ممكن لسببين أولهما : أن ذلك كان سوف يخرج بالكتاب عن الحجم الممكن المعقول ، وثانيهما : أن هذه الموضوعات قد تناولها بالفعل بدقة وعمق واستفاضة مؤرخو تلك القوميات ، ويكفى فى ذلك أن نشير إلى ماكتب عن أدب اللغة العربية فى تونس ، أو ماكتب عن الفن فى رومانيا فى العهود العثمانية .

أما القائمة البيلوجرافية التى يحتويها هذا الكتاب فإنها يمكن أن تعطى فكرة لطالب الدراسة فى التاريخ العثمانى عن مبلغ مانشر فى مختلف اللغات عن هذا الموضوع ، ومع أن القائمة البيلوجرافية فى كتابنا هذا لم تسجل كافة أسماء الكتب التى تمت الإفادة منها كمصادر وعلى الأخص تلك التى كانت منها على شكل مقالات ، فإنها على كل حال تفى بالغرض لأولئك الذين يرومون البحث والتعمق فى موضوع التاريخ العثمانى .

بقيت كلمة أخيرة تحتم الأمانة أن نثبتها ، تلك هى أن النظام العالمى العثمانى Pax Ottomana ، لم يستهدف يوما إنكار كيان أية قومية مهما صغرت ، ولم يعمل أو يفكر فى محوها ، بل على العكس من ذلك كان نظاما حريصا على أن يجعل من هذه القوميات تحت مظلته قوى فاعلة ومشاركة فى صنع السياسة والمدنية العثمانية .

والحمد لله الذى بنعمته تتم الصالحات .

المؤلف

المبحث الأول

الأتراك قبل تأسيسهم الدولة العثمانية

الباب الأول

فترة قبل الإسلام

١) الأتراك :

الأتراك ، عرق أبيض عريض الجمجمة Braehyeephalic وغالبا مايطلق عليهم في الكتب الأدبية لفظ « طوراني » (بالفرنسية : Touranien) وهم القوم الذين ينحدرون من فرع آلتاى Altay التابع لمجموعة أعراق أورال - آلتـاى Ural-Altay . اللغة التركية كثيرة المقاطع ، تشتق كلماتها باضافة مقاطع إلى نهاية الكلمة الأصلية وهى لغة غنية جدا بصيغ أفعالها .

يدين الأتراك القدامى بدين كوك تنرى Gök Tenri (وباللغة التركية القديمة : كوك تنكرى Kök Tengri) . إلا أننا نجد الشامانية لدى القبائل التركية التى ابتعدت كثيرا وبقيت فى سيبيريا وظلت تحت تأثير مغل شامان .

ديانة كوك تنرى ، ليس لها نبى ، ولا كتاب مقدس ، ولامعبد ولاعبادة منظمة . لها معبود واحد (تك تنكرى) . وهو رب الأتراك فقط وليس ربا للعالمين كإله المسلمين .

السماء والأرض والماء مقدسة . يدفن الموتى ، يمكن تحنيطهم . تدفن معهم كذلك حاجياتهم الضرورية لاستعمالها فى الدار الأخرى .

لايجوز لأى فرد من المجتمع التركى أن يصبح عبدا أو جارية داخل مجتمعه التركى . يستخدم المجتمع التركى العبيد والجوارى من الأقوام الأجنبية . كل تركى حر وكلهم محاربون ، حتى المرأة تمتطى الحصان وتستعمل السلاح ولاتتحجب وتختلط بالرجال ولاتنفر منهم . لايربى الخنزير ولايؤكل لحمه إلا عند المجاعة . إن تربية الخنزير وأكل لحمه ، علامة للمغول . يهتم المجتمع التركى بالبكارة وعفة المرأة اهتماما كبيرا . اكرام النساء للغير وعدم الإكتراث بالبكارة ، علامة أخرى من علامات المغول . ان العقوبة الوحيدة لهتك العرض هى الإعدام . إلا إذا قبلت التى اعتدى عليها - وكانت سيدة غير متزوجة أو أرملة - الزواج ممن اعتدى عليها .

إن نظام المراتب المتسلسلة Hierarchy هو الأساس فى المجتمع التركى القديم ويستند على النظام العسكرى . لقد سلح هذا النظام المجتمع وجعل منه مخيما عسكريا يمكنه الوقوف حتى أمام أكبر جماعات الأعداء فى سبيل الذود عن الحرية والاستقلال أو بقصد الفتوحات .

إن سبب تنظيم الأتراك على هذه الشاكلة ، هو مواجهتهم منذ فجر التاريخ ، للصينيين الذين يفوقونهم عددا واضطرارهم إلى مجابهتهم فى معركة حياة أو موت . طبقة الأشراف جزء من المجتمع . أكثرية الضباط من الأشراف . تمنح رتبة الجنرالية ، إلى سلالة عائلة الخان أو الخاقان ، وفى حالات كثيرة خصصت لامراء الخاقانية - الذين يطلق عليهم اسم « تكين » Tegin و« شاد » Sad - والأمراء فقط هم الذين يمكن أن يصبحوا جنرالات . ولايستحسن انتسابهم إلى سلك آخر .

الأتراك القدامى ، عرق الأقاليم الباردة ، يقاومون البرد ، ويرتدون اللباس الخاص لاتقائه . يزاولون التزحلق ويستعملون المزالج ، لكن الأتراك الذين جاءوا إلى الشرق الأوسط وإلى تركيا ، فقدوا على مر الزمن هذه المقومات ، وأصبحوا يخشون البرد ويتحملون الحر .

تعلم الأتراك ، فى أوقات مبكرة جدا ، تطويع المعادن وصناعة الأسلحة وترويض الخيول والأغنام ، وخاصة للضرورات العسكرية . هم أمهر صناع الجلود

وأمهر الفرسان وأمهر مزينى الخيول فى العالم . يرتدون الثوب والسروال والسترى وقد علموا ذلك أولا للصينيين ثم للرومانيين إبتداء من القرن ٥ الميلادى ، وأصبحوا مؤسسى اللباس الأوربى بشكله الحالى . يطيل الرجل والمرأة من الأتراك شعره ويدليه خلف ظهره أو يعطيه شكل ذيل الحصان . الشعر القصير واللحية الطويلة هى علامات أخرى للمغول . يطيل الرجال الشارب ونادرا مايطيلون اللحية .

إن الأتراك القدامى المتهجنين (المختلطى المولد) لونهم فاتح وعيونهم زرق (أزرق ، أخضر ، أخضر - أزرق ، كستنائى ، أصفر) ، يميلون إلى الشقرة ، عيونهم ليست ممشوقة ولاكروية وعظام وجناتهم ليست بارزة . تلك هى علامات المغول والصينيين . ويشاهد كذلك أتراك اختلطوا مع هذه الأقوام . وبالنسبة إلى قانون مندل ، فان اللون الغامق يطغى على اللون الفاتح . يلد على الأغلب من الرجل والمرأة ذوى العينين المختلفى اللون أحدهما غامق والآخر فاتح ، طفل غامق العينين . وبالنسبة إلى لون البشرة ، يسرى القانون نفسه ، الأتراك ناصعو بياض البشرة ، السمرة تبين الاختلاط بالأعراق الأخرى .

لايروق للأتراك البقاء فى مكان واحد ويسرهم الترحال . ولقد كانت هذه الخاصية أحد أسباب ذهابهم إلى أقطار مختلفة جدا . أسسوا فى الأزمنة المبكرة مدنا كبيرة وقلاعا أيضا . أكثرها اكتشف فى عصرنا . وقد كان الاعتقاد قبل اكتشاف هذه الآثار ، أن الأتراك القدامى رحّل تماما .

يمتطون الخيل منذ صغرهم . يوضع الطفل ، وهو فى الرابعة من عمره وعلى أقصى تقدير فى الثامنة ، على ظهر الحصان ويقوم والده بسحب الحصان ويجرى به جولة بطيئة . ولايفارقون الحصان بعدها . « لذلك يقال عنهم إنهم ولدوا مع الحصان » . ونتيحة لذلك ، لايهابون المسافات ويسوقون خيولهم إلى حدود البحار المفتوحة والمحيطات ويقفون عندها . لايحبون البحر ولاالبحرية ، لكنهم اضطروا إلى مزاولة الأمور البحرية عندما استوطنوا تركيا الحالية فى أواخر القرن ١١ . لاتوجد بحرية تقريبا لدى الأتراك خارج تركيا . هم أناس عاشوا فى السهول القاحلة . ونادرا مايعيشون فى الجبال ، كذلك لايروق لهم العيش فى الغابات كالمغول والسلاف ، يذهبون إلى الغابة للاصطياد فقط . آلاتهم الزراعية وأسلوب الرى عندهم متقدم ، تعودوا بصعوبة على الزراعة ، لأنهم يفضلون أن يكونوا ملاك

أراضٍ فقط ، وقد استخدموا فى أراضيهم ، الأقوام الذين سيطروا عليهم . لكنهم يعشقون تربية الحيوانات . هم أساتذة فى تربية الخيول والأغنام . ان لحوم الخيل والأغنام غذاؤهم الذى لاغنى لهم عنه . ثم هم أضافوا إليها بعد ذلك الجمل (خاصة ذا السنامين) والبقر والجاموس . يشربون الـ « قيميز Kimiz » من المشروبات الكحولية (ويصنع من لبن الفرس) والشراب من الكروم . منع الإسلام المشروبات . يندر أن يشاهد القمار لدى الأتراك القدامى .

ليست لديهم أى أفكار إيجابية أو سلبية تجاه لغات أو أديان أو ثقافات أو اعراف وعادات الأقوام الأجنبية . لايحاولون اجبار الأقوام الأخرى على تعلم دينهم ولغتهم . يتقبلون بعد عدة أجيال دين ولغة الأكثرية فى الأقطار التى دخلوها كفاتحين وينصهرون فيها .

لهم رؤساء قبائل ، إلا أنه لغرض رئاسة اتحاد القبائل وخاصة اتحاد ولايات القبائل المتحالفة وحكمها ، يقتضى الأمر الحصول من الإله كوك تنكرى على السعد والبركة والقداسة Kut almak أما الإله Tengri فقد منح هذا السعد إلى السلالة المسماة آجين أوغوللرى Açinögullari فقط ولم يمنحه إلى سلالة تركية أخرى . إن كافة السلالات التركية الخاقانية اعتبارا من سلالة هون فى القرن الثالث ق . م وحتى بنى عثمان فى القرن ٢٠ ، ينحدرون من آجين أوغوللرى وسلالة متة Mete ، أما الذين ينحدرون من عائلة غيرها فإنهم يعتبرون غير شرعيين كما يعتبرون غاصبين لاتجب طاعتهم .

يعتبر الامبراطور التركى المسمى « خاقان » مؤلها ومقدسا ، هو ليس إلهاً تاماً ، ولكنه « شبيه الإله » . ان الخاقانية تتوارث من الأب إلى الأبن وعلى الأغلب يرثها الابن الأكبر ، وإن كان هذا لايعتبر قاعدة ، فقد يتمكن أمير من أمراء السلالة أن يدعى حقه فى العرش ، لأن سلالة متة منحها الإله « القداسة » Kut فإذا ماتفوق وتمكن من الجلوس على العرش ، فإنه يعتبر مختارا من قبل كوك تنكرى ، وعندئذ تلزم طاعته . وقد كان هذا النظام سبباً فى تجزئة الامبراطوريات التركية واضمحلالها بسرعة ، كما كان سببا كذلك فى تكوين نظام اقطاعى وشللى ؛ فالأمراء الآخرون الذين لم يعتلوا العرش ولم يصبحوا خاقان ، ويتولون صلاحيات الحاكم على الأقطار والأراضى الواسعة ، لايطيعون الخاقان إلا بنسبة اقتداره ،

ويتمردون عليه فى حالة ضعفه . وبموجب هذا النظام أيضا ، فإن الحاكم إن كان ذا إمكانية واقتدار ، فإنه ينهض بالدولة ويعلى شأنها ، أما إذا كان ضعيفا ، فإنه يسبب الاسراع فى اضمحلالها وسقوطها . ولقد ظل هذا النظام ساريا فى العهد الإسلامى التركى إلى أن تمكن بنو عثمان من تغييره .

إن موضوع وطن ومنشأ الأتراك ، ليس من المواضيع التاريخية التى لاتقبل النقاش كما هو الحال فى أقوام كثيرة أخرى . ولكى نصل فى هذا الصدد إلى صورة قطعية ، فإن الأمر يقتضى مزيدا من التوسع فى تناول الحدود الزمانية والمكانية .

إن وطن الأتراك بالنسبة لمعلوماتنا حاليا ، هو المثلث الكبير الذى ينحصر بين بحيرة آرال - جبال آلتاى - جبال تانرى (تيانشان) والذى تدخل فيه بحيرة بالقاش . لكنهم فى الأزمنة المبكرة انتشروا فى المنطقة بسرعة وتقدموا خاصة نحو الشمال الشرقى واستوطنوا فى شمال الصين ، عن قوة ، وامتزجوا مع الأقوام الإيرانية وتدفقوا نحو الغرب باسم سقا Saka (Skit) .

يحتمل أن يكون نطق كلمة « ترك » Türk قبل القرن ٧ بعد الميلاد على شكل « تُرُك » (بضم حرفى التاء والراء) Türük وتعنى « قوى ، مقتدر ، كثير ، مكثر » وهو جذر للمصدر Türemek (تكاثر) . استعملت هذه الكلمة كاسم مشترك لجميع الأقوام الناطقة بالتركية منذ القرن ٦ ومنذ أتراك كوك (كوكتوركلر) .

وكانت فى القرون السابقة ، تطلق الكلمة على واحد فقط من الأقوام أو القبائل التى تنطق التركية . وللمرة الأولى مرت كلمة « ترك » فى المصادر الصينية التى ترجع للقرن ١٨ ق . م . بنطقها بصورة تك Tik ولم يعثر على مصدر موثوق أقدم منه .

إن العائلة التى منحها الإله كوك تنكرى القداسة والسعد Kut لتتولى حكم الأتراك ، هى سلالة آجينا Agina . أو باللهجات التركية المختلفة آشينا Asina ، بورى Böri ، قورد Kurd وهو اسم الحيوان الذى يسمى ذئب . إن هذا الذئب هو كوك بورى Kök Böri أى ذئب املح . إن جد السلالة تناسل من هذا الذئب ،

وبذلك تكاثرت السلالة . الذئب الأملح رمز وطنى . والقمر على شكل هلال ، رمز وطنى آخر (رمز النجمة ، حديث جدا) إن اللون السلالى لأسرة بنى آجين هو الأحمر (حمرته ليست حمرة تامة وإنما بلون اللهب الذى يميل إلى الطرنجى أو الأحمر الفاتح) وهو اللون السلالى للسلالات التركية الخاقانية (الحاكمة) الكبرى ومنها بنو عثمان ، والذى كونّ لون العلم التركى الحالى . كما أن لون سلالة جابت Capet الأبيض ، الهاشميون الأخضر ، العباسيـون الأسود ، الامبراطوريات الرومانية والبيزنطية الافلاطونى (الارجوانى) .

يستمد امبراطور الأتراك الكبير - الذى كان يطلق عليه فى السابق اسم « ياكبو Yagbu » ثم « كغان Kağan » وهو اللفظ الذى تطور على أساس تفضيل المقطع الطويل وأصبحت « خاقان » - سلطته على الأتراك من إله الأتراك الذى يسمى « تنكرى » ، ثم أخذ يستمده من الله فى الفترة الإسلامية . قال بلكه كغان فى كتابات أورهن مايلى : « جلست على عرش آبائى لأن التكرى أراد ذلك » . ان السلالة شرعية من الناحية القانونية لكونها هى مؤسسة الدولة والوحدة الوطنية ، بواسطة الفتوحات .

الخاقان لايأمر ، بل يصدر إراده ، ومنبع هذه الإرادة هو الإلهام الإلهى (تنكرى) ، لذا فإن إرادة السلطان لاتناقش وتعتبر مناقشتها مخالفة للإله . يطلق على زوجة الخاقان التى من السلالة ذاتها اسم « كتون Katun » التى أصبحت تنطق بعد ذلك : « خاتون » وهى نفس كلمة « قادين Kadin » (وتعنى امرأة ، لها دور مشروع فى أمور الدولة بقدر معين ، تتمكن من الجلوس على العرش بجنب زوجها الخاقان » .

٢) تصنيف التاريخ التركى :

إن الأزمنة التى تسبق القرن ٣ ق . م ، هى فترة قبل التاريخ بالنسبة للأتراك . ونحن نستطيع أن نتعرف على عدة أسماء من حكام الأتراك للفترة التى تسبق هذا القرن فقط ، ولاتوجد لدينا قائمة حكام كاملة .

إن المنطقة الرئيسية للدولة التركية فى القرن ٣ ق . م ، هى شمال المنطقة الوسطى لدولة مغولستان الحالية ، أى جنوب بحيرة بايكال مباشرة وحوض نهر

أورهن وهى المنطقة التى بقيت قاعدة للدولة التركية حتى عام ٨٤٠ . أما الأتراك الذين انتقلوا فى هذا التاريخ إلى تركستان الشرقية ، ووسط آسيا ونحو أقصى الجنوب – الغربى فقد نقلوا مركز ثقلهم بمرور الزمن من تركستان الشرقية إلى تركستان الغربية وأخيرا نقلوا مركز ثقلهم مع السلاجقة إلى خراسان وإيران .

وعند تأسيس الدولة التركية فى الأناضول عام ١٠٧٤ ، تكّون أتراك الغرب . وأخذ خاقانات تركيا فى تمثيل أتراك الغرب والشرق ، قد دام هذا الوضع إلى زمن قريب من وقتنا الحاضر . ان التاريخ التركى الأساسى هو : تركستان وتركيا ،

إلا أنه إلى جانب ذلك ينبغى أن نذكر أنه قد تأسست امبراطوريات تركية جانبية ، فقد تشكلت فى كلتا شعبتى خاقانية تركية الكبرى ، امبراطوريات تركية جانبية فى أوربا الشرقية ، الهند ، إيران ، مصر والصين ، كخاقانيات جانبية ليست لها علاقة مع تركية وتركستان . ويقتضى ان نضيف إلى ذلك الشعبة السفلى للهند الجنوبية . وعلى هذا الأساس يمكن تصنيف المناطق التى تأسست فيها الامبراطوريات التركية على الشكل التالى :

١ – الشرق أو تركستان .
٢ – الغرب أو تركية .
٣ – أوربا الشرقية .
٤ – إيران .
٥ – الهند .
٦ – الهند الجنوبية .
٧ – الصين .
٨ – مصر .

ومع أن الأتراك أسسوا امبراطوريات فى تركستان وفى أوربا الشرقية والهند قبل الإسلام ، لكنهم لم يتمكنوا من تأسيس امبراطوريات فى تركية وإيران والهند الجنوبية ومصر إلا بعد دخولهم الإسلام .

وبموت تيمور أوغلو شاه رخ فى ١٤٤٧ ، ينتقل مركز ثقل التاريخ التركى بصورة نهائية من الشرق (تركستان) ، إلى الغرب (تركية) . وبذلك لاتصبح

الدولة التركية الأساسية الأهم فى تركستان ، وإنما فى تركيا وهى الدولة العثمانية .
جلس على عرش الخاقانية فى الدولة التركية الأساسية ١٨٢ خاقان تركى ، وهم ينقسمون إلى ١١ سلالة حاكمة تنحدر من سلالة آجينا أومته Mete وهى :

١ – الهون (٣٩ خاقان) : ٢٦٥ ق . م – ٢١٦ ب . م = ٤٨١ سنة .
٢ – التابغاج (١٦ خاقان) : ٢١٦ – ٣٩٤ = ١٧٨ سنة .
٣ – الافاريون (١٣ خاقان) : ٣٩٤ – ٥٥٢ = ١٥٨ سنة .
٤ – كوكترك (٢٧ خاقان) : ٥٥٢ – ٧٤٥ = ١٩٣ سنة .
٥ – اويغر (١٤ خاقان) : ٧٤٥ – ٨٤٨ = ١٠٣ سنوات .
٦ – القره خانيون (١٠ خاقانات) : ٨٤٨ – ١٠٤٠ = ١٩٢ سنة .
٧ – بنى سلجوق (٢٠ خاقان): ١٠٤٠ – ١٣٠٨ = ٢٦٨ سنة .
٨ – الايلخانيون (٢ خاقان) : ١٣٠٨ – ١٣٣٥ = ٢٧ سنة .
٩ – جغتاى (٧ خاقانات) : ١٣٣٥ – ١٣٧٠ = ٣٥ سنة .
١٠ – بنى تيمور (٣ خاقان) : ١٣٧٠ – ١٤٤٧ = ٧٧ سنة .
١١ – بنى عثمان (٣١ خاقان) : ١٤٤٧ – ١٩٢٢ = ٤٧٥ سنة .

كان الخاقانات حتى عام ٩٢٤ يدينون بدين كوك تنكرى أما الذين بعد هذا التاريخ فهم مسلمون سنيون حنفيون .

[الإستثناءات هى : ٢ خاقان خلال ٥٥٤ – ٥٨١ بوذيين ، الذين حكموا خلال ٧٤٧ – ٨٤٨ مانويين ، وخاقان واحد خلال ١٣٣٥ – ١٣٣٨ مسيحى أرثوزكسى] .

السلاجقة خلال ١١٥٧ – ١٣٠٨ ، هم سلاجقة تركية .

٣) السقه Saka (القرن ٧ – ٣ قبل الميلاد) .

إن أهم كيان سياسى كونه الأتراك قبل الفترة التاريخية ، أى قبل القرن ٣ ق .م ، هى الدولة التى أسسها السقه ، وهم الأتراك الذين نزحوا إلى الجنوب – الغربى ، نحو إيران والذين اختلطوا على نطاق واسع بالعناصر الإيرانية الآرية . ويطلق اليونانيون على هؤلاء القوم اسم « سكيت » Skit . إن هذه العائلة المالكة والعنصر الحاكم ، أتراك ، وهذه هى التجربة التاريخية التى حققها الأتراك لإدارة الآريين والأقوام الأخرى ، وجمعهم تحت رايتهم .

إن حاكم السقه الأكبر هو آلب – أر – نتغا الذى يسميه الإيرانيون أفراسياب هو أحد أجداد مته . ويحتمل أن يكون جده فى البطن العاشر . عاش فى القرن ٧ ق . م ، ولم ينس رغم مضى قرون طويلة ، جاء ذكره فى « ديوان لغات الترك » (القرن ١١) ، كما جاء فى « شاهنامة » الفردوسى ، فهو إذن لم ينس حتى الفترة الإسلامية ، لا من قبل الأتراك ولا من قبل خصومهم الإيرانيين .

دخل آلب – أر – نتغه صراعاً طويلاً جدا مع الإيرانيين . طارده شهنشاه إيران كيخسرو لغاية جبال الطاى ، وأخيرا قتله خصمه الشهنشاه فى اذربيجان عام ٤٢٦ ق . م . بدأ يتشتت اتحاد سقه أثر ذلك ، لكن ملوك سقه حكموا لعدة عصور أخرى وجاءت القبائل التركية-من جماعة سقه إلى إيران ، قفقاسيا ، أوربا الشرقية ، البلقان وأخيرا إلى الأناضول ووضعوا فيها أول دم تركى . إن الامبراطورة توميريس (تقابل كلمة « دمير » التركية التى تعنى حديد) التى حاربت عام ٥٢٩ ق . م شهنشاه إيران الشرقية دارا الكبير ، هى ابنة حفيد آلب – أر – تونغه .

٤) الهون Hun (٢٦٥ق . م – ٢١٦ ب . م) .

يطلق الصينيون على سلالة أو قبيلة هون Hun اوكن Kun اسم هيونك – نو Hiung-nu ، ويحمل حكام الهون من سلالة آشينا وعشيرة توكو Tuku (من المرجح أن هذه الكلمة هى نفس كلمة « ترك ») لقب Tanhu التى تحورت فى اللغة الصينية إلى لفظ شانيو Sanyu . إن الاسم الخاقانى لخاقان الهون الذى يحمل هذا اللقب والذى يعنى « الإله كوكنتكرى الذى يمنح القداسة » ، هو ياكبو Yabgu ، وتعنى هذه الكلمة التى تعتبر أكبر لقب للحكم لدى أتراك أوغز ، فى فترة الهون : « خاقان ، الامبراطور التركى ، الامبراطور الكبير » .

تم تدوين اسم أول حاكم تركى فى التاريخ فى المصادر الصينية عام ١٧٦٦ ق . م . باسم جون – كوى çun- Goey وهو الذى يحتمل أن يكون جد مته فى البطن الـ ٥٠ . نظم كل من شانيو ابو تيؤمان (٢٦٥ – ٢٤٤ ق .م) وابنه تيؤمان (٢٤٤ – ٢٠٩) الهون ، وجعل ابن تيؤمان مته Mete (٢٠٩ – ١٧٤) من الامبراطورية دولة عالمية كبرى تمتد اعتبارا من الخزر إلى البحر اليابانى ، ومن جبال الهمالايا إلى سيبيريا فى آسيا الشمالية ووسّعها وجعلها تبلغ نحو ١٨ مليون كم[٢] . وقد أصبح من المؤكد بدرجة كبيرة فى الوقت الحاضر ، أن أصل أسمى

الحاكمين الذين يطلق عليهما اسمى تيؤمان ومته هو تومان Tuman وموتن Motun .

كان مته هو أول من أسس الجيش النظامى والوحدات على نظام العشرات ، حيث ينقسم الجيش الذى يتكون بأجمعه من الخيالة إلى أقسام مؤلفة من ١٠ ، ١٠٠ ، ١٠٠٠ ، ١٠٠٠٠ شخص . يسمى القسم الكبير المؤلف من ١٠٠٠٠ شخص والذى يقوده الأمراء . Tumen ، وتستعمل هذه الكلمة فى الجيش التركى الحالى كذلك . يعظم الأتراك مته فيطلقون عليه لقب « أوغزخان » أى الخان الأعظم ، وتنحدر سلالة آشينا من أولاد مته الـ ٦ ومن الأبناء الأربعة لكل واحد منهم . ويعتبر الذين ينحدرون من قايى خان Kayi Han [الابن الأكبر لابنه الكبير وخلفه كونخان Gun Han (١٧٤ - ١٦٠] ، أشرفهم حيث ينحدر منهم بنو عثمان ، ويعتبر تنرى كوت وهو خان يابكو (٥٨ - ٥٦ + ٣٦ - ٣١) وأخوه تنرى كوت جيجى يابكو (٥٦ - ٣٦) وتنرى كوت يولو يابكو (٨٤ - ٨٩ ب . م) ، هم حكام الهون العظام .

٥) التابغاج Tabgac (٢١٦ - ٣٩٤) والآفـار Avar (٣٩٤ - ٥٥٢) .

اعتلت عرش الخاقانية الكبرى بعد الهون ، سلالتا تابغاج ومن ثم آفار Apar الملكيتان . ويطلق الصينيون على التابغاج Sien- bi و T'o- Pa . وهم ينحدرون من سلالة أحد أمراء هون التى كونت فى البداية ملكية تابعة للهون ، ثم أخذت مكان الهون واصبحت تابعة للملكيات الهونية التى دامت عدة قرون أخرى ، وأشهر حكامهم هو رابعهم Lievi (سلطنته ٢٦١ - ٢٧٧ ب . م) الذى يقال إنه عاش ١٠٤ سنوات .

يقابل اسم آفار باللغة الصينية لفظ جوان - جوان وقد ترك الآفار لقب « يابكو » واستبدلوا به اسم « كغان » Kagan ، حيث استخدم الحكام العثمانيون هذا اللقب حتى عام ١٩٢٢ . واصبح « يابكو » بعد ذلك ، لقبا يتخذه ملوك الأتراك التابعون للكغان .

أعظم حكام الآفار هم الأول والسادس والثانى عشر واسماؤهم بالترتيب : طولن

Tolun (٣٩٤ - ٤١٠) ، جلك Guluk (٤٤٤ - ٤٦٤) وأونابوى Onaboy ، وكلهم كغان .

أخذت حدود الدولة التركية فى التقلص بعد مته ، فمثلا ، بقى الآفار بين بحيرة بالقاش والبحر اليابانى كالتابغاج ، حقيقة لقد حافظوا على تركستان الشرقية وبعض مناطق الصين الشمالية ، لكنهم لم يتمكنوا من الامتداد نحو الغرب ، إلى المناطق القريبة من أوربا وإلى بحر الخزر مثل الهون . وكنتيجة لعدم تمكنهم من بسط نفوذهم على القبائل التركية فى الغرب ، أخذ شأن المغول المقيمين فى شمال شرقى الأتراك يتعاظم وبدءوا يختلطون بالأتراك .

ومن المهم أن نذكر أن سد الصين الشهير الذى شيد فى تلك الأثناء ضد مته لم يمنع مته ولاخلافه فقد اخترقه الأتراك مئات المرات .

إن اسماء أكثر من ٣٠ ملكية وإمارة تركية فى أواسط آسيا وشمالها قبل الإسلام ، معلومه ، وبعض هذه الملكيات والامارات استمر قرونا طويلة تابعا للخاقانات الذين ينحدرون من السلالات السالف ذكرها .

٦) كوكترك Gokktrk (٥٥٢ - ٧٤٥) .

تنحدر سلالة كوكترك من مته ، وقد سميت فى البداية توسوكو Tusuku (يحتمل انها صيغة الجمع لكلمة ترك) ، ثم كوكترك Gokturk (Kokturk) . وبعد أن بقيت هذه السلالة وقبيلة كوكترك ٩٦ عاما فى البلاد التى تسمى « ارغنكون » Ergenkon ، خرجت منها في ٥٣٥ ، وأخذ رئيسهم بومين Bumin اللقب الامبراطورى كغان Kagàn أو هغان Hgan . وصنعوا الحديد من منجم كبير في ارغنكون ودججوا أنفسهم بالسلاح بصورة متقنة وكسروا الآفار واحتلوا مكانهم . ثم تمكن بومين من التنسيق والعمل مع اخيه استمى Istemi ، فقضى على الآفارين عام ٥٥٢ وحصل على لقب الخاقان الأكبر (بيوك - خاقان) .

حتى ذلك التاريخ كانت تطلق على القبائل التركية التى تنطق باللغة التركية ، أسماء مختلفة ، ولكن بعد أن حصل أتراك كوكترك على الشهرة وأمنوا الوحدة ، أطلق اسم ترك على كافة الأقوام الناطقة بالتركية . وكلمة كوك Kok,gok تعنى باللغة التركية « سماء ، سماوى (أزرق ، أزرق - أملح) ومن المهم أن نشير

إلى أن كلمة كوك ترك Gokturk ، وتعنى « الأتراك السماويين » قد تم استخدامها على سبيل ادعاء العظمة ؛ ذلك أن الأتراك الذين دخلوا ارغنكون كقبيلة هونية خافتة الذكر تعاظم شأنهم فيها خلال قرن وخرجوا منها على شكل كوكترك . كما أنهم اخضعوا كافة القبائل التركية وفتحوا شمال آسيا ، واستطاعوا لأول مرة بعد مته ، أن يدركوا الحدود التى أدركها .

ولدخول هؤلاء إلى إيران واجتياحهم أوربا الشرقية ، وفتحهم قرم فى العام الأخير من حكم استمى كغان Istemi Kagan فى ٥٧٦ ، (بذلك يكونون قد اجتازوا حتى الحدود التى ادركها مته) ، فإن المؤرخين يعتبرون أنهم الأجداد الأصليون للعثمانيين والطليعة المبشرة لهم . وقد استعمل كثير من المؤرخين الأوربيين الحديثين تعبير « من أتراك كوكترك إلى العثمانيين » .

واتوكن Otuken هى مدينة عرش أتراك كوكترك الذين يدينون بدين كوكتنرى ، وهى على مسافة ٦٠ كم من شمال قره قورم Karakurum مدينة عرش جنكيز ، وتقع بين نهرى أورهون وسلنكه (Tamir) فى شمال مغلستان الحالية وقرب بحيرة كوشو جايدا (٣٠ / ٤٧ درجة عرض و٣٠ / ٩٧ درجة طول) ، وقد أطلق على أباطرتهم لقب (كغان) كالآفاريين ، ثم اصبحت هذه الكلمة تنطق منذ عهد أتراك كوكترك بلفظ هكان Hagan ويوجد « كغانان » منفصلان أحدهما فى الشرق والآخر فى الغرب ، والمقيم منهما فى اوتكن هو كغان الشرق ، وهو الخاقان – الأكبر ويتبعه كغان الغرب .

ولعل أهم الأسماء بين خاقانات وأمراء كوكترك هم : Bumin Kagan (وفاته ٥٥٣) ، أخوه Istemi Kagan (وفاته ٥٧٦) ، Mukan Kagan (وفاته ٥٧٦) ، Bilge Tardu Kagan (وفاته ٦٠٣) ، TOng Yabu Kagan (وفاته ٦٣٠) ، Kur Sad (وفاته ٦٩٣) ، Ilteris Kulug Kagan (وفاته ٩٦٣) ، Bulankagan (وفاته ٦٤٠) ، Bilge Tonyukuk (وفاته ٧٢٥) ، Kapgan Kagan (وفاته ٧١٦) ، Kul Tegin (وفاته ٧٣١) ، Bilge Kagan (وفاته ٧٣٤) ، ومؤلف كتابات أورهون الداهية Yulig Tegin (وفاته ٧٣٥) .

وبينما انشغل أتراك كوكترك الشرقيون بالصين ، استمر أتراك كوكترك الغربيون

فى صراعهم الطورانى - الإيرانى القديم مع إيران الساسانية . وقد سعوا فى مناسبات كثيرة إلى تحسين علاقاتهم مع البيزنط (روما الشرقية) لمواجهة إيران . وبلغ حد العلاقات الودية أن تبادل استمى كغان السفراء مع معاصره جوستينيان الكبير (Justinianus) . وقد بدأ العرب المسلمون فى عهد الأمويين فى نهاية القرن ٧ وبداية القرن ٨ فى فتح بلاد ماوراء النهر فى تركستان الغربية . (أراضى أتراك كوكترك الغربيين) . حيث جرت حروب عربية - تركية طاحنة استمرت سنوات صعاب ، وفى غضون هذه الحروب اهتدى إلى الإسلام أتراك كثيرون ، ومنذ ذلك الحين أخذ المسلمون الأوائل من الأتراك فى الظهور . وبالرغم من أن المسلمين احتلوا سمرقند وبخارى أيضا ، فإنهم لم يتمكنوا من التقدم إلى أبعد من ذلك بسبب المصاعب الجغرافية التى واجهتهم . وقد زالت إثر ذلك ، العداوة التركية - العربية ، حيث قبلت قبيلة كارلك Karluk التركية الدخول فى الإسلام .

وفى عام ٧٥١ ، حاصر الصينيون الذين ساروا بجيش عرمرم ، القائد الأعلى العربى زياد بن صالح فى Talas ، وفور أن علم خاقان كوكترك الغربية ذلك ادرك جيش كوتلغ بلكه كغان وأخذ الكوكترك اماكنهم فى صفوف العرب المسلمين ضد الصينيين أعدائهم التقليديين ، فمنى الصينيون بهزيمة كبرى ، وقد لقيت هذه المساندة من الأتراك ، الذين اهتدوا حديثا إلى الإسلام ، امتنانا كبيرا من العباسيين الذين تسلموا الحكم حديثا ، والذين لم يكونوا متعصبين للعنصر العربى كالأمويين ، وبدأ التقارب التركى - العربى ، وأمتلأت بغداد بالأتراك المسلمين الذين وفدوا إليها للانخراط فى جيش الخليفة .

فتح طونغ - يابكو كغان ، رى (طهران) واصفهان من إيران عام ٦٢٠ وأضعف الشهنشاهية الإيرانية فى الصميم . وبذلك سهل على العرب المسلمين فتح إيران بعد ٢٠ عاماً ، ولولا ذلك لكان فى استطاعة إيران المقتدرة أن تقاوم المسلمين كالبيزنطيين ، ولولا ذلك أيضا لاستمر المسلمون عاجزين عن اقتحام السد الإيرانى ، ولتبدل عندئذ سير التاريخ .

٧) أتراك أويغر Uygur (٧٤٥ - ٨٤٠)

احتل دوقوز - اوغز - اون - اويغولر (وباختصار ايغرلر Uygurlar) ، مكان كوكترك كفرع من سلالتهم ، من أهم حكامهم Moyuncur Kagan (٧٤٧ -

٧٥٩) وابنه Bogu Kagan (٧٥٩ – ٧٨٠) . ترك مويتجر وخلفاؤه ديانة كوك تنرى ودخلوا الديانة المانوية Mani . ولعل هذا مما قد تسبب خلال نسلين فى اضمحلالهم وفقدان الاويغريين لقوتهم القتالية . كانت مدينة عرَشهم قره بالاساغون ، المجاورة لاوتوكن Otugen .

طرد أتراك قيرغز الوحشيين القادمين من الشمال ، والاويغريين من غابات أوتوكن . ترك Uge Kagan (وطن الأتراك الذين يرجع تاريخه إلى ألف سنة) بعد أن أستصحب معه الأكثرية العظمى من الأتراك . وبقيت مغلستان الحالية مدة لدى أتراك قيرغز . وقد تنازعت القبائل مع بعضها بسبب عدم وجود كغان على رأسهم يستمد القداسة (قوت آلمش) من سلالة مته الملكية ، ولكونهم قلة من ناحية أخرى . دفع المغل القادمون من غابات الشمال ، أتراك قيرغز نحو الجنوب – الغربى وحازوا على الأكثرية فى مغلستان الحالية ، على أنه ينبغى ألا نعتقد أن جميع الأتراك اخلوا مغلستان (بلاد المغل) . إذ من المعروف بشكل لامجال للشك فيه ، انه حتى فى القرن ١٣ على عهد جنكيز ، كانت أكثر القبائل التركية الموجودة فى البلاد تنطق باللغة التركية .

أصبح التاج الخاقانى التركى الكبير بعد عام ٨٤٠ موضع نزاع بين أتراك أويغر ، قرلوق وقره خان الذين يترأسهم جمعيا كغانات من سلالة مته ، والصحيح الذى يجب ألا يفوت علينا أن الكغان القره خانى يعتبر أكبر حاكم تركى بعد عام ٨٤٠ .

جاء الاويغريون الذين كانوا يعيشون على الأغلب فى شمال تركستان الشرقية فى المنطقة المتاخمة لمغلستان ، إلى تركستان الحالية . تركوا الديانة المانوية وتقبلوا البوذية . وعندما أزاح الكيتان ، وهم قبيلة مغولية ، أتراك قيرغز من مغلستان الحالية ، راجعوا كغان أويغر المقيم فى قره هوجو ، وطلبوا إليه أن يقدم إلى أوتوكن مرة أخرى ويصبح خاقاناً عليهم ، وفى هذا دليل على عدم اطاعة المغل للحكام الذين لاينحدرون من نسل مته ، لكن الأويغريون المستقرين فى هذه المنطقة والذين انتقلوا إلى حضارة متأثرة بالبوذية والذين ابتعدوا عن تقاليد اوتكن لم يقبلوا الدعوة إلى الهجرة .

وقد أخذت ملكيات الأويغريين ، الذين كونوا حضارة وثقافة لامعة ، تتقلص ، بعد أن دامت دولتهم التابعة لخاقانات الترك والمغول حتى عهد قريب جدا من

عام ١٤٠٠ . ويشكلون حاليا الأكثرية الكبرى من أتراك تركستان الشرقية . أما الأويغريون الصفر (صارى أويغرلر) فهم الأويغريون الذين قطنوا ايالة قانصو الصينية واعتنقوا البوذية وإن كانوا لايزالون يتكلمون التركية .

إن جميع الأويغريون الموجودين فى تركستان الشرقية حاليا ، مسلمون سنيون - حنفيون - استعملوا أحرف الهجاء العربية فى القرون الأخيرة . نسوا حاليا أحرف كتاباتهم . وتركوا الأحرف الهجائية لكوكترك واستعملوا ونشروا الأحرف الأويغرية . وعلى الرغم من استخدام أحرف الهجاء العربية فى القرن ١٠ ، عاشت الأحرف الأويغرية حتى القرن ١٥ ، وفى القرن ١٥ ، كانت لاتزال تستعمل فى القطر العثمانى . أما الأويغريون الصفر ، فإنهم استعملوا هذه الأحرف حتى العصر ١٧ ، ثم استخدموا فى هذا العصرالكتابة الصينية . أما أماكن سكن الأويغريين الصفر فى قانصو حاليا ، فهى سوجوف وكاجوف . (عثر العالم الروسى مالوف Malov فى بداية عصرنا الحالى ، على أحد كتب اللغة التركية القديمة التى لاتموت Altun - Yaruk Sutra لدى الأويغريين الصفر) .

ان كوجلغ خان Kuelug Han الذى كون امبراطورية خلال ١٢١١ - ١٢١٨ وقوضت امبراطوريته من قبل جنكيز ، هو حاكم قبيلة نايمان التركية ومن نسل خاقانات أويغر . وقبيلة Kereyit التركية المسيحية النسطورية والتى قضى عليها فى القرن ١٣ من قبل جنكيز أيضا ، تستحق الذكر كذلك .

٨) خاقانية هون الأوربية :

لما لم تتمكن السلالة الهونية من الحفاظ على عرشها وانتقل العرش إلى تابغاج ، جاء بالامر Balamir حفيد مته فى البطن ١٥ وجيجى يابكو فى البطن ٩ من آسيا الوسطى خلال ٣٥٥ - ٣٦٥ مع فريق من القبائل الهونية ، واستوطن فى الوطن الأعلى (بين الخزر وآرال) ، وفى ٣٧٤ ، انتقل منها إلى ضفة نهر أورال ودخل أوربا ، وقضى على دولة غوت Got الشرقية فانتحر ملكها Ermanarih ، ثم جاء فى العام التالى إلى ضفة دنيبر (أوكرانيا) وأغار على آتانارين ملك غوت الغربية (Vizigot) ولم يشأ أتانارين أن تصبه عاقبة سلفه فأخذ شعبه وانسحب إلى أسبانيا ونجا من الهلاك . وهكذا بدأت « هجرة الأقوام

الكبرى » فى أوربا . ساق Balamir كافة الأقوام الآرية والأقوام الجرمانية والسلافية أمامه إلى أوربا ، وبذلك تكونت الجغرافية العرقية الحالية لأوربا ، واضمحلت امبراطورية روما الغربية كذلك نتيجة الهجرة ، وانتهت القرون الأولى وبدأت القرون الوسطى (٤٧٦) .

أجتاز بالأمر خاقان نهر الطونة (الدانوب) ودخل تراقيا . وعبر جيشه الآخر نهر الدون وجبال القفقاس ودخل إلى الأناضول . حقق هذا الجيش الذى يقوده الأمير Basik والأمير Kursik حملات ارضروم – ملاطية – أورفه – انطاكية – قدس ، وعاد إلى شمال البحر الأسود مجتازا القفقاس عن طريق فلسطين – لبنان – سوريا – الأناضول الوسطى والشرقية – اذربيجان الشمالية . تمكن ابنه اولدز Uldiz (بالتعبير التركى الحالى : يلدز وتعنى كوكب) (٤٠٠ – ٤١٠) ، من اكساب حركات ابيه العسكرية نطاقا عالميا ، فقد اباد جيش التحالف الذى تشكله الأقوام الجرمانية فى واقعة Friesole الميدانية فى جنوب فلورنسا فى آب ٤٠٦ وخلص روما . ولم تتمكن الأقوام البربرية من الاستقرار فى أوربا الوسطى لمطاردات Uldiz وبدءوا بالنزوح إلى أوربا الغربية وسكنوها . عبروا الراين وانسحبوا من أمام الهون (واندال ، آلان ، كلت ، سواب ، سرمات الخ) . وقد وحد أولدز خاقان كلاً من آسيا وأوربا تحت حكمه اعتبارا من قوزاقستان إلى الراين ، وجاء روا Rua (٤٢٢ – ٤٣٤) فطوّر هذا الوضع . لكن الذى أقام أوربا واقعدها حقا ، هو ابن حفيد اولدز آتيلا Attila (٤٣٤ – ٤٥٣) ، ذلك أنه عندما اعتلى آتيلا (الذى حصل فى شبابه على ثقافة كلاسيكية فى سراى روما وهو ضيف الامبراطور) العرش ، سيطر على معظم أوربا اعتبارا من قوزاقستان ، قفقاسيا والأورال ووصل إلى حدود بحار المانش والبلطيق والادرياتيكى ، كما فتح كامل ألمانيا ، معظم البلقان ، شمال إيطاليا ، شرق فرنسا وجنوب السويد ، وفرض الجزية السنوية على امبراطوريتى الرومان شرقا وغربا ، ووصل إلى منطقة قريبة من استانبول . وكانت مدينة عرشه فى المجر الحالية . مات آتيلا فجأة وعمره ٥٣ سنة فى عام ٤٥٣ ، قبل فتح البيزنطية (استانبول) بـ ١٠٠٠ عام اثناء إعداده حملة على الامبراطورية الإيرانية الساسانية ، ثم تبعثرت امبراطوريته بعد مدة ، إذ أن الهون الذين جلبهم من آسيا كانوا من القلة بحيث لايمكنهم السيطرة على اقطار واسعة إلى هذا الحد .

(٩) الآفاريون Avar (٥٦٥ - ٨٣٥) :

وفي هذه المرة ، طرد الكوكترك السلالة الآفارية من عرش الخاقانية - الكبرى في شمال آسيا ، تقدمت السيدة كغان من أميرات آفار ومن خلفها بعض القبائل الآفارية إلى أوربا وبدأت بالفتوحات (٥٦٥ - ٦٠٢) بدعوى احياء امبراطورية آتيلا . لكنها لم تتمكن من التوصل إلى حدود خانية الهون الأوربية وبقيت على مسافة بعيدة منها . سيطرت على أوكرانيا ، رومانيا ، بلغاريا والمجر الحالية ، غير أنه تعذر الحفاظ حتى على تلك الحدود بعد وفاة السيدة ، ورغم محاصرة الآفاريين كل من سلانيك واستانبول مرتين ، فإنهم لم يتمكنوا من اسقاط هاتين المدينتين البيزنطيتين ، وإن كانوا قد تسببوا في سلافية شبه جزيرة البلقان على نطاق واسع نتيجة جلبهم السلاف إلى البلقان .

(١٠) خاقانية الخزر HAZAR (٦٢٠ - ٩٦٢)

تقدم Bulan اخو فاتح ايران كغان كوكترك الغربيه تونغ - يابكو نحو عام ٦٢٠ على رأس بعض القبائل التركيه وفتح شمال البحر الاسود . كان حكام هذه الدولة يحملون لقب « كغان » كحكام أوربا الآفاريين . لم يتمكن الآفاريون من الحفاظ على ديانة كوكترك مدة طويلة ، فقد أصبح قسم منهم موسويا ، وقسم مسيحيا أرثوذكسيا والقسم الآخر مسلماً . ويعتقد ان يهود اوكرانيا الحاليين ، هم أحفاد أتراك الخزر الذين اعتنقوا الديانة الموسوية . اتفق الخزريون مع البيزنطيين ، وأرادوا وقف العرب المسلمين ، إلا أن الخليفة الأموى مروان بن محمد طارد الخزريين حتى دلتا نهر الفولتا بجيش إسلامي مكون من ١٥٠,٠٠٠ شخص في ٧٣٧ . وفي نفس الوقت حاول القائد الخزرى المسمى آست تارخان الرد عليه بجيش مؤلف من ١٠٠,٠٠٠ شخص حتى شمال الأناضول عام ٧٦٥ . كانت قرم في ذلك الوقت تابعة للامبراطورية الخزرية . لكن قاعدتها كانت على الفولغا ، وفي النهاية ، قضى النورمان الذين جاءوا من الشمال على الدولة الخزرية .

(١١) البلغـار Bulgar (٥٨٤ - ١٠١)

ترأس كبرات (Kurt)(Kubrat) خان ، وهو ابن حفيد آتيلا - قبيلتى Uturgur و Kuturgur التركيتين التابعتين للخزريين بعد توحيدهما في عام ٥٨٤ . سميت

القبيلتان ، بعد توحيدهما ، باسم « بلغار » وهى كلمة تركية . كانوا يعيشون فى شمال شرق القفقاس . ساق كبرات ، قبيلة بلغار على امتدار شمال البحر الاسود (اوكرانيا الحالية) ، ومن هناك إلى سهل المجر . حيث تفرقوا إلى ثلاثة أطراف رئيسية : أهمها أولئك الذين ذهبوا إلى سواحل الفولغا بقيادة كوتراغ Kotrag خان اوسط ابناء كبرات الخمسة حيث نزلوا إلى الطونة مع مؤسسى خانية بلغار فى فولغا فى تاتارستان (قازان) الحالية ، تحت إدارة Asparuh اصغر ابناء كبرات واستوطنوا بلغاريا الحالية . وقد تطورت هذه الأخيرة خلال مدة قصيرة واصبحت خاقانية (امبراطورية) . وبينما أرادت الأمبراطورية البيزنطية قلع وازاحة البلغار الذين جاءوا إلى دلتا الطونة بضغط الخزريين قبل ٦٥٩ ، إلا أنها انهزمت فى ٦٥٩ .

وفى ٦٨١ ، انفصلت المنطقة الواقعة بين نهر الدونه وجبال البلقان عن البيزنط وانتقلت إلى الاتراك البلغار . واستمر النزاع بعد هذا التاريخ ، بين هذه الدولة والبيزنط لقرون طويلة حول السيطرة على البلقان .

كانت الحدود القصوى للدولة هى بلغاريا الحالية ، دوبروجه ، افلاق (اولاهيا / رومانيا الجنوبية) ، مكدونيا الشمالية ، صربيا .

اباد كورم Kurum خان مع الامبراطور Nikehoros الجيش البيزنطى فى الحرب الميدانية Vribiski (٨١١/٧/٢٢) . وهذه هى الحادثة الأولى التى فقد فيها امبراطور بيزنطى حياته . حاصر Kurum استانبول ، لكنه مات خلال الحصار وفك الحصار . كانت قاعدة الدولة Pliska قرب شومنو ، نقلت فى ٨٠٩ إلى صوفيا .

ترك بوغورس Bogoris (بالتركية الحالية : Pars وتعنى نمر ارقط ، وقد حورت بالسلافية على شكل "Boris") ديانة كوكتنرى التى هى ديانة اجداده وغلبته الدعاية الثقافية لألد اعدائه البيزنط ، وصار مسيحيا أرثوذكسيا ، وأسفر ذلك عن زوال اتراك بلغار ، وخلال عصر واحد انصهر اتراك بلغار وهم أقلية اساسا رغم انهم زمرة حاكمة وأصبحوا سلافيين وأخذوا يتكلمون بدلا من التركية ، لهجة سلافيه هى اساس اللغة البلغارية الحالية ، واهملت كذلك ابجدية كوكترك واستخدمت الابجدية السلافية (Kiril) . ترك Simeon خان ، لقب « خان » التركى واتخذ لنفسه لقب « جار » Car (امبراطور) السلافى بصورة رسمية . اعتبارا من هذا الوقت خرج التاريخ البلغارى عن كونه قطعة من التاريخ التركى ،

على الرغم من ان الحكام البلغار ، كانوا حتى ١٣٩٣ ، شخصيات تطبعت على السلافية من السلالة التركية . لم يجلس على العرش البلغارى أى شخص من السلالة السلافية .

(١٢) المجريــون

كانت قبيلة مجر التى تتكون من ٦ عشائر تركية وواحدة فينية Fin تعيش تابعة لكوكترك فى شمال (اوفا Ufa) التابعة لباشكردستان الحاليه ، على السفوح الغربية من جبال الأورال . اصبحت القبيلة تابعة لخاقانية الخزر فى القرن ٩ ، وفى عام ٨٣٠ ، نزلت إلى شمال بحر آزوف (آزاك) إلى المنطقة المسماة ليفاديا Levadya الواقعة بين نهرى الدون الدنيبر . وتحت الضغط الذى مارسته قبيلة بجنك Peçenek التركية فى عام ٨٨٩ ، خرجت قبيلة مجر منها واستوطنوا فى ٨٩٦ فى وطنهم الحالى الكائن فى السهل المجرى فى حوض نهر الطونه .

رئيسهم المسمى Arpad (بالتركية : آرباجك) خان ، من احفاد آتيلا . امدت سلالته المجر بالملوك حتى ١٣٠١ . وقد حققوا خلال القرن ١٠ حملات كبيرة عبارة عن : ٢٠ حملة على المانيا ، ٧ على إيطاليا ، وحملة على هولندا ، ٤ على فرنسا ، ٩ على البيزنط وحمله واحدة على أسبانيا . وفى عام ١٠٠٠ ، تركوا ديانة كوكتنرى وأصبحوا مسيحيين كاثوليك . نسوا التركية وبدءوا يتكلمون المجرية الحالية التى هى إحدى اللغات الفينية . واستخدموا الابجدية اللاتينية مكان ابجدية كوكترك .

(١٣) البجنك Peçenek (٨٨٩ - ١٠٩١)

البجنك ، هى إحدى القبائل الـ ١٢ التى تشكل فرع أوج اوق (وتعنى الأسهم الثلاثة) الاوغزى . كانت البجنك عبارة عن قبيلة تبلغ تعدادها حوالى ٥٠٠٠٠ نسمة تابعة لخاقانية كوكترك فى بداية القرن ٨ ، تزايد عددهم بدرجة كبيرة فيما بعد وكونوا مع القبائل التركية الأخرى احلافاً بلغ تعدادها عدة ملايين . لكنهم لعدم وجود من يترأسهم من نسل سلالة متة كانوا ينتخبون اقدر رؤساء القبائل ، الا أن هؤلاء الرؤساء لوصولهم إلى هذا المنصب بالانتخاب ولعدم تمتعهم بمباركة كوكتنرى فانهم كانوا يعانون صعوبة فى تأمين الوحدة . اخرجتهم من ديارهم قبيلة

قارلق Karluk عام ٧٥١ ، بينما كانوا يسكنون فى اطراف بحيرة بالقاش . جاءوا اولا ، إلى شمال غربى بحيرة آرال ، ثم إلى شمال شرقى بحر الخزر ، ولم يتمكنوا من الاستقرار هنا ، كذلك بسبب ضغوط قبائل اوغز الاخرى . عبروا نهر اورال (بالتركية : Idil) . وفى ٨٨٩ تقدموا نحو الجنوب – الغربى ووصلوا سواحل نهر الدون (بالتركية : Ten) وساقوا المجريين الموجودين فيها إلى بلاد المجر (مجرستان) وساعدوهم فى استيطانها وتكوين وطن لهم فيها . واعقبهم الغوز Guz الذين استمروا فى دفع البجنك نحو الغرب ، والكومان Kuman الذين دفعوا بهؤلاء من خلفهم ، والقيبجاق Kipçak الذين ساقوا هؤلاء من اقصى الشرق ، وفى النهاية خلف الكيم Kim هؤلاء ايضا . كانت هذه القبائل التركية ، تدفع إحداها الأخرى وتسوقها نحو أوربا .

تبع البجنك خاقانية الخزر حتى ٩٥٠ ، وفى ٩٧٢ ، أبادوا الجيش الروسى مع أميرهم الكبير Svyatoslav فى سواحل دنيبر . وظفروا بغرب البحر الاسود وبدءوا بتهديد البلقان والبيزنط . وفى ١٠٢٠ ، اجتازوا الطونة نحو الجنوب للمرة الأولى . وفى ١٠٥٠ ، وصلوا إلى سواحل بحر مرمره ، وفى ١٠٦٤ وصلوا إلى سلانيك ومورا . كثير منهم سجلوا أنفسهم فى الجيش البيزنطى . وعند بدء حرب ملازغرت Malazgirt الميدانية فى ١٠٧١ ، انضمت وحدة بجنك الموجودة فى الجيش البيزنطى إلى صفوف الجيش السلجوقى الذى يقوده ألب ارسلان لتكلمهم اللغة ذاتها ، رغم أن هذه الوحدة كانت تدين بدين كوك تنرى بينما الجيش السلجوقى مسلم . انمحى اسمهم فى القرن ١٢ ، وانصهر الكومان – قيبجاق ، فى المجريين والسلاف . وتركوا أسماء أماكن جغرافية كثيرة فى أوكرانيا ، المجر ، رومانيا ، البلقان والأناضول بقيت مستعملة حتى الآن كذكرى لهم .

(١٤) الكومـــان Kuman (١٠٥٠ - ١١٠٣)

اسم هذه القبيلة التركية ، هو نفس كلمة « كومرال » التى تعنى باللغة التركية « اشقر غامق » . ويعتقد انهم من القبائل التركية التى كانت تعيش فى اقصى الشرق ، فى شمال منشوريا على سواحل آمور خلال القرن ٥ – ٨ . وبعد عام ٨٤٠ ، انتقلوا إلى آسيا الوسطى . وبعد الضغط الذى مارسه القره هيتاى المغل فى ١٠١٧ ، تركوا

تلك المنطقة وعبروا نهرى أورال (بالتركية : Idil) وفولغا (بالتركية : Yayik) وجاءوا إلى اوروبا . وامتدوا لغاية الطونة . وفى ١٠٩١ ، ملئوا الأماكن التى فرغت من البجنك . حاربوا الروس حروبا عدة أشهرها التى أسر فيها كونجك Konçek خان ، امير Novgorod ايكور Igor فى شباط عام ١١٨٥ ، وتشكل هذه الحرب موضوع الملحمة الوطنية الروسية Prens Igor Destani (بالروسية : Slavoo Polku Igoreve) وهى من روائع الأدب الروسى . وأصبحت موضوعا لاوبريت الاميرايغور التى لحنها الملحن Borodin . ولقد دخلت رقصات بولوفج Poloveç (كومان) بين روائع الموسيقى الغربية .

(١٥) القبجاق Kipçak (١١٠٣ - ١٢٢٣)

قبجاق ، هو وطن القبائل التركية ، كان وقتئذ حوض نهر ارتش فى سهل سيبيريا . نزلوا إلى الجنوب الغربى بضغط من قبيلة Kimek التركية نحو ١٠٣٠ ثم ساقوا قبائل اوغز التى كانت امامهم ودخلوا أوربا . وأخذوا مكان الكومان وانصاع لامرهم الكومان والبجنك الذين تطبعوا على السلافية . وكان ضعف هؤلاء الاكبر يتمثل فى أنه ليس لديهم رئيس من سلالة متة . وقد ابادهم باطوخان حفيد جنكيزخان مع تابعيهم الامراء الروس فى ٣١ ايار ١٢٢٣ فى حوض نهر حلقه Halka ، واصبحوا تابعين لخاقانية الطون اوردى . اكتسبوا الدم المغلى ، لكنهم جعلوا المغل فى النهاية « يستتركون » ويتكلمون اللغة التركية . أطلق الكتاب العرب المسلمين ، اعتبارا من عهد القيبجاق ، على أوكرانيا الحالية دشت قيبجاق / سهل قيبجاق .

من المعلوم أن معظم سلاطين السلطنة المملوكية التى تأسست فى مصر - سورية عام ١٢٥٠ اتراك قبجاق وقسم منهم اوغز وكومان . صنف كثير من المؤلفين العرب فى تلك الآونة كتبا لتعليم اللهجة القبجاقية التركية للعرب لاستعمالها فى مصر خاصة . ومنها ، كتاب الادراك للسان الأتراك ، وكتاب ترجمان تركى وعربى ، وكتاب القوانين الكلية فى ضبط اللغة التركية ، وكتاب المشتاق فى لغة الترك والقبجاق .

ويجب أن نضيف إلى ذلك أن أشراف الرومان الذين يطلق عليهم اسم « بويار » ،

وكثير من اشراف الأوكران والمجر وعائلاتهم المشهورة ، من أصل أتراك كومان أو قبجاق وشجرة عائلاتهم معلومة بشكل لايقبل الشك . وأساسا فإن أسماء عائلاتهم أسماء تركية ويبلغ عدد هذه العائلات من الشرفاء الأتراك المئات .

وقد عثر علماء الآثار الروس فى الحفريات ، خاصة تلك التى جرت فى أعوام ١٩٢٩ ، ١٩٣٤ ، ١٩٣٩ ، على آثار ثقافية وجماجم للكومان والقبجاق ، واثبتت الفحوصات الانتروبولوجية لهذه الجماجم - التى تمثل هيئة الشخص التركيى قبل اختلاطه بالمغل وتشكيله نوعية أتراك الشمال الحالية - بأنها خالية بصورة قطعية من أى أثر من آثار الهيئة المغلية كمشق العين وبروز الوجنة وشكل الأنف . وتثبت الأدلة التاريخية أن بشرتهم ناصعة البياض ولون شعرهم اشقر فاتح ، كما عثر العلماء المجريون فى عام ١٩١٣ على آخر شخص كومانى مسيحى (كاثوليكى) لم ينس التركية ، وقد أصبح هذا الشخص موضوعا لفحوصات طويلة الأمد للعلماء المجريين . كان الكومان - قبجاق ، مع كونهم مسيحيين ، لايزالون ينطقون بالتركية بصورة عامة فى القرن ١٦ الذى فتح فيه العثمانيون المجر .

(١٦) الأدب التركى قبل الإسلام

يقال إن بعض الاشارات الموجودة على قبر « الرجل ذو اللباس الذهبى » (القرن ٥ ق .م) هى الشكل البدائى لأبجدية كوك ترك . ويرجع الهيكل العظمى الذى سماه علماء الآثار « الرجل ذو اللباس الذهبى » إلى أمير تركى أخرجه الروس مؤخرا من قبر يقع على بعد ٥٠ كم عن قبر آلما آتا الموجود فى كازخستان . وهو هيكل عظمى مكسو بزينة ذهبية لرجل شاب ، والحروف التى يدعى أنها تركية ، منقوشة على الصحن الفضى الموجود بجانبه .

يطلق على أول كتابات تركية جدية اسم « كتابات ينسى » Yenisey Kitabeleri وقد عثر عليها بكثرة فى شمال جبال الطاى وكلها تقريبا كتابات حجرية قصيرة ، يعود أقدمها إلى القرن الميلادى ٥ ، وقد كتبت بلهجة كوك ترك وبأبجدية كوك ترك .

ومع ان أبجدية كوكترك قاصرة من ناحية الأحرف الصوتية بالنسبة للتركية (لها ٤ أحرف صوتية بينما التركية تحتوى على ٨ أحرف صوتية ، وإن كان المستعمل

فى التركية التى تكتب بالأحرف العربية ٣ أحرف صوتية فقط) إلا أنها أبجدية غنية تحتوى على ٣٨ حرفا . يقول عالم اللغة التركية المجرى Rasonyi عن هذه الأبجدية مايلى : « إن نظام كتابة كوكترك ذات أهمية كبرى من الناحية الصوتية (اللفظية) Phonetic ولايمكن أن يضع هذا النظام إلا أشخاص يفكرون بعقلية علمية . وفى هذا دليل واضح على أن للأتراك القدامى ثقافة راقية » .

يبرز أمامنا النتاج الأول فى الأدب التركى الذى يمكن أن يقال عنه إنه أدبى بما تعنيه هذه الكلمة من معنى كنتاج مبدع فريد . وهو لايزال حتى الآن من أبدع الآثار الكتابية المحررة فى اللغة التركية فى جميع الأزمنة . كتب هذا النتاج على ٣ قطع حجرية يبلغ ارتفاع كل منها ٣/٧٥ متر – تسمى كتابات كوكترك أو كتابات أورهن .

لم يتمكن أحد خلال سنوات طويلة من قراءة هذه الكتابات ، وفى النهاية تمكن رئيس أكاديمية العلوم الدنماركية العالم فى اللغة التركية Wilhelm Ludvig Pefer Thomsen (١٨٤٢ – ١٩٢٧) من حل أبجدية كوكترك عام ١٨٩٣ فقرئت وترجمت ثم نشرت . ثبتّ ثومسن أولا كلمات « تنكرى » (Tonri إله) ، « ترك » و« كل تكين » Kul Tegin التى تتكرر بكثره ، ثم تمكن من حل جميع الأبجدية ، وتعد قراءة نصب كوكترك مرحلة جديدة فى تاريخ علم الآداب التركية . يسرد فى هذا النصب خدمات خاقانات كوكترك بلغة نثرية متينة جدا مؤثرة جدا ومحكمة وبتعبير ملحمى قصصى وبنظرة وطنية لاتكاد تصدق بالنسبة لذلك العصر . أما القطع الشعرية للفترة غير الإسلامية التى توفرت فقد جمعها رشيد رحمتى آرات فى مجلد كبير باسم Eski Türk Siiri أى الشعر التركى القديم (انقرة ١٩٦٥) .

أما القطع الأدبية التركية التى عثر عليها فى تركستان الشرقية (تركستان الصين) والتى تعود للعهد الأويغرى ، فتبلغ المئات ، ولم تعد تقتصر على الكتابات الحجرية ، فهى مكتوبة على الورق أو مطبوعة ، حيث أن أتراك أويغر ، هم مكتشفو أو مطورو الورق والطباعة .

استعملوا كذلك فى طباعتهم الأحرف المتحركة والتى تبين أنهم تقدموا فى طريقة الطباعة بالكلائش الخشبية التى استعملها الصينيون . وقد انتشر الورق الذى صنعه الأويغريون فى العالم الإسلامى عن طريق سمرقند واحتل مكان الجلود الحيوانية .

ترك الأويغريون ، الذين هم فى ذات الوقت أساتذة كبار فى فن نحت التماثيل والرسم ، ابجدية كوكترك ، واستعملوا الابجدية التركية الاخرى التى تسمى الأبجدية الأويغرية . وهى الأبجدية الثانية التى استعملها الأتراك قبل استعمالهم الأحرف العربية .

(١٧) الأتراك فى الهند

أسس الأتراك قبل الإسلام امبرطوريتين فى الهند . دولة كشان Kusan (٣ - ١٧٦ ب.م) ودولة آقهون Akhun (٤٩٦ - ٥٦٧ ب.م) كانت الدولة الثانية أكثر اتساعا وتسيطر ، بالإضافة إلى شمال شرق الهند ووادى الكنج ، على تركستان كذلك . وهم أقوام شمال آسيا الذين نزلوا إلى الجنوب بقيادة قسم من امراء الهون عند فقدان الآقهون والهون عرش الخاقانية التركية الكبرى فى شمال آسيا . قائدهم الشهير هو تورامان Toraman .

(١٨) الأتراك فى الصين

الصينيون ، هم الجار الكبير للأتراك قبل الإسلام . ويمكننا أن نقول ببعض المبالغة ، إن التاريخ العسكرى - السياسى التركى قبل الإسلام ، عبارة عن صدام تركى - صينى ؛ فالأتراك الرّحل المنظمون جدا من الناحية العسكرية والمجهزون بأسلحة معدنية وخيالة متفوقة ، أزعجوا الصين من الشمال عصورا طويلة ، واستمر تدفق ملايين من الأتراك إلى الصين منذ قبل أربعة آلاف سنة ولمدة ثلاثة آلاف سنة ، فسكنوا فيه ، وبعد عدة أجيال نسوا لغتهم وأصبحوا صينيين . لكنهم تركوا فى الصين تأثيرات كبيرة .

إن الدم التركى الشمالى ، هو الصفة المميزة التى يتميز بها طابع الصينى الشمالى عن طابع الصينى الجنوبى . ولقد اقتبست الصين من الأتراك التشكيلات العسكرية ، الفروسية ، الأسلحة وعناصر ثقافية كثيرة أخرى تقبلها الصينيون وهضموها بمهارة فائقة ، ومن المعلوم أن قسما من السلالات الامبراطورية الصينية الحاكمة ذات أصل تركى وأشهرها سلالات جو Cu (١١١١ ق . م - ٢٥٦) ، جى çi (٤٧٩ - ٥٧٧) ، توبا Toba (Wei بالتركية تابغاج Tabgaç) (٣٨٦ - ٥٥٦) ، شا -

تو Sa - T'o (بالتركية : جول çol) (٩٢٣ ـ ٩٥٠) ، هسى – هسيا - Hsi Hsia (١٠٣٨ – ١٢٢٧) .

(١٩) الأتراك فى الوقت الحاضر

قد نجد بعض الفائدة إذا مااستعرضنا فى عدة جمل مختصرة وضع الأتراك الذين قدمنا خلاصة لتاريخهم لما قبل الإسلام تحت العناوين السالف ايرادها – فى عالم اليوم (١٩٨٥) .

عندما نقول اليوم « تركى » ، نفهم من ذلك أنه الشخص الذى ينطق باللغة التركية (أية لهجة من لهجاتها) ، ولاندخل فى مفهوم كلمة « تركى » ، من لايتكلم التركية كلغة أم أساسية له . ومن الطبيعى أن دم ملايين من الاتراك موجود فى الصين ، الهند ، روسيا والعالم العربى ، لكن هؤلاء صهروا فى بنية أقوام تلك الأقطار ونسوا لغاتهم وثقافاتهم .

إن اللغة التركية اليوم (١٩٨٥) ، فى المرتبة ١٠ بين لغات العالم التى تتكلم كلغة أم أساسية (وحسب التسلسل : الصينية ، الهندية ، الانكليزية ، الأسبانية ، العربية ، البنغالية ، الروسية ، البرتغالية ، اليابانية ، التركية ، ثم الألمانية ، الايطالية ، التلوغوية ، الفرنسية ، التاميلية ، الكورية ، البنجابية ، الفيتنامية ، السيامية . هذه هى اللغات التى ينطق بها أكثر من ٥٠٠ مليون شخص كلغة أم أساسية) . إن اللغة الأم لما يقرب من ١٢٥ مليون نسمة هى التركية (إحصاء بداية عام ١٩٨١ ، ١١٣٢٨٨٠٠٠ نسمة ، توزيعهم بالنسبة للقارات كما يلى : ٩٣٠٤٠٠٠٠ آسيا ، ١٩٠٠١٠٠٠ أوربا ، ٧٨٥٠٠٠ أمريكا الجنوبية ، ٢٠٢٠٠٠ أمريكا الشمالية ، ١٣٠٠٠٠ أوقيانيا ، ١٠٠٠٠٠ أفريقيا) . وهى حاليا لغة أم لـ ٢١ مليون شخص فى أوربا ، وهى العاشرة بين اللغات التى تتكلم فى أوربا (وبالتسلسل بعد الألمانية ، الروسية ، الايطالية ، الانكليزية ، الفرنسية ، الاوكراينية ، البولونية ، الاسبانية ، والرومانية) .

إن ٤ / ٥١ مليون نسمة من الأتراك تقريبا ، هم فى تركيا اليوم (١٩٨٥) . يتكلم هؤلاء ، اللهجات التى تسمى « التركية العثمانية ، تركية الاناضول ، تركية تركيا » . إن تركيا التى استعملت الأحرف العربية حتى نهاية ١٩٢٨ ، وافقت على

استعمال الأحرف اللاتينية فى هذا التاريخ . يعمل عدة ملايين من رعايا الجمهورية التركية خارج تركيا ، وعلى رأس هؤلاء ٢/٢ مليون تركى يقيمون فى ألمانيا الغربية ، وفى هولندا مايزيد على الـ ٢٠٠ الف ، وفى النمسا مايزيد على الـ ١٠٠ ألف ، وفى فرنسا مايزيد على الـ ١٣٠ ألف شخص ، كما يوجد عدد غير قليل من العمال الأتراك فى ليبيا والعربية السعودية واستراليا وكندا والولايات الامريكية المتحدة .

أما فى البلقان فقد قل فيها كثيرا عدد الأتراك ، ويبلغ حاليا تعداد الأتراك الذين يحملون الجنسية التركية والذين تركتهم العثمانية فى تلك الدول كالآتى : فى بلغاريا نحو نصف مليون ، وفى رومانيا ٤, من المليون ، وفى يوغسلافيا ٤, من المليون ، وفى اليونان ٢, من المليون ، وفى البانيا ١, من المليون . ويضاف إلى هؤلاء ٢, مليون تركى فى شمال قبرص . كل هؤلاء تقريبا يتكلمون اللهجة التركية ، ولهجة الـ ٢/١ مليون تركى الموجودين فى العراق كذلك قريبة جدا من اللهجة التركية .

أما القطر الذى يلى تركيا فى من حيث تواجد الاتراك ، فهو الاتحاد السوفييتى ، ففيه مايقرب من ٤/ ٤٩ مليون نسمة تنطق بالتركية . اللهجة الرئيسية هى لهجة الاوزبكيين (١٥ مليونا) ثم القوزاق (٤/٨ مليون) التاتار (٣/٧ مليون) ، الآذريين (٦/٦ مليون) ، القرغز (٣/٣ مليون) ، التركمان (٦/٢ مليون) ، الجاووش (١/٢ مليون) ، الباشقرط (٧/١ مليون) والآخرون ، وبعد ان جربوا الأبجدية اللاتينية لعدة سنوات ، استعملوا حاليا الأبجدية السلافية (الروسية / الكيريلية) وذلك بعد أن كانوا يستعملون الأبجدية العربية . إن أقرب اللهجات إلى لهجة تركية تركيا من بين هذه اللهجات ، هى اللهجة التى يتكلمها الآذريون (الاذربيجانيون) . يسكن أتراك الاتحاد السوفييتى فى تركستان الغربية ، والجماعة التى نسميها أتراك الشمال (التاتار ، الباشقرط ، الجاووش الخ) فى سواحل نهر الفولغا وأورال وفى قفقاسيا الجنوبية . ويوجد أتراك متفرقون فى عدد غير قليل فى المناطق كقفقاسيا الشمالية وسيبيريا .

يسكن الأتراك فى الصين فى تركستان ، عدا صارى أويغرلر (الأويغر الصفر) الموجودين فى قانصو . يوجد ٩/١١ مليون تركى (٩/ – مليون قوزاق ، ١/– مليون صارى اويغر ، ١/ – مليون قرغز ، البقية اويغر) .

وتأتى إيران بعد تركيا والسوفييت فى وفرة عدد السكان الاتراك (١٦/٦ مليون تقريبا) . لهجتهم قريبة جدا للهجة تركيا .

على الأقل فإن خمس الـ ٥/٤ مليون تركى الساكنين فى منطقة تركستان الجنوبية من الأفغان (تركستان الأفغان) ، لاجىء فى باكستان . وهم أوزبك وتركمان ومنهم قرغز . ولم يبق فى الأقطار الأخرى أتراك من الذين حافظوا على لغتهم الا القليل (فى سورية ١٣٢٠٠٠ ، فى العربية السعودية أكثر من ١٠٠ ألف تركستانى واكثر من ١٠٠ الف عامل تركى ، فى الاردن ٥٥٠٠٠ ، فى لبنان ٩٠٠٠ ، فى مغلستان ١١٠٠٠٠ قوزاق .. الخ .) .

إن الأتراك مسلمون سنيون – حنفيون وجميع الأتراك تقبلوا المذهب الماتريدى . ولأن الخلفاء العباسيين حنفيون ، فقد تقبل الاتراك كذلك هذا المذهب . وأصبح المذهب الحنفى علما للأتراك فى العالم الإسلامى . إن السكان التابعين للمذهب الحنفى والذين لم تبق لهم اليوم علاقة بالأتراك ، الموجودين فى أقطار عديدة ، إما أنهم ينحدرون من عائلات تركية الأصل ، أو إنهم يشكلون شاهدا على ان الدين الإسلامى دخل إلى ذلك القطر على يد الاتراك . ويندر من بين الاتراك اتباع المذهب الشافعى ، وإن عثر عليهم ، فإن تدقيقا بسيطا فى أنسابهم يدلنا على أنهم ينحدرون من أصل عربى وكردى .

يشاهد الشيعة لدى أتراك الغرب ، ولا يشاهدون لدى أتراك الشرق (تركستان والشمال) . إن معظم أتراك إيران شيعة جعفريون . ويوجد فى الأناضول أتراك علويون .

قل كثيراً اليوم ، عدد المجتمعات التركية التى لم تعتنق الدين الاسلامى بعد ، والتى ظلت بعيدة عن العالمين الإسلامى والتركى وهى : ثلاثة ارباع أتراك جواش çuvas (نحو ١/٥ مليون) مسيحيين ارثوذكس . ونحو نصف مليون من اتراك ياقوت ، شامانى أو مسيحى أرثوذكسى . ونحو ٢٠٠٠٠٠ من أتراك غيغاووز Gaygavuz وهم مسيحيون أرثوذكس ، وقد كان الذى يقدم منهم إلى تركية ، يهتدى إلى الإسلام . وعدا هؤلاء نجد أن الأقوام التركية فى سيبيريا (تورا Tura ، الطايلى Altayli ، تلوت Teleut ، شور Sor) ، شامانيون (نحو ٣٣٥٠٠٠) .

ونحو ٧٠٠٠ تركى قرمى الذين يطلق عليهم اسم قرائم Karaim ، موسويين . الاويغريون الصفر بوذيون (نحو ١٠٦٠٠٠) . وهناك كذلك نحو ألف أو ألفين من الأتراك الكاثوليك فى بولونيا ولتوانيا . ويمكننا أن نقول إن مجموع الأتراك غير المسلمين من بين الـ ١٢٥ مليون تركى ، يبلغ ٢,٦٥٠,٠٠٠ شخص .

الباب الثانى

فترة بعد الإسلام

(٢٠) اعتناق الأتراك للإسلام

اجتاز الأمير الأموى قتيبة بن مسلم ، نهر عمودريا (بالعربية : جيحون) ودخل تركستان وفتح بخارى فى سنة ٧٠٩ ، وسمرقند (التى دافع عنها اتراك كوكترك بشدة) فى ٧١١. صار الأتراك وجها لوجه أمام قوم جدد ، أمام العرب ، لكن الأهم من ذلك أمام دين جديد ذاع صيته وطغى على العالم أجمع .. أمام الإسلام . كانت المواجهة شديدة فى البداية ، ثم سلست بعد ذلك ، إذ ليس لدى الأتراك تعصب مسبق تجاه الأديان الجديدة . وعندما أصبح الأمير العباسى زياد بن سالح – الذى ابتعد عن قاعدته مسافة كبيرة – فى وضع عصيب أمام الجيش الصينى فى تالاس Talas عام ٧٥١ ، لم يتردد الجيش التركى الذى أدركه ، فى أن يأخذ مكانه ضد عدوه التقليدى الصين والانضمام إلى صفوف الجيش الإسلامى . وقد خلص انتصار Talas تركستان من الاستيلاء الصينى وفتحها للدين الإسلامى وأمّن التقارب العربى – التركى الذى سبب انتشار الدين الإسلامى فى تلك الامصار .

لفتت قيمة الاتراك كجنود انظار العرب . وعند اضمحلال الحكم الأموى فى خراسان ، انحاز الأتراك كالإيرانيين إلى الجانب العباسى . إذ أنهم كانوا قد نفروا من سياسة الأمويين العنصرية . أما العباسيون ، فقد عاملوا المسلمين كافة بالتساوى و لم يفرقوا بين عربى وغير عربى . جاء إلى بغداد أتراك كثيرون . وانضموا إلى جيش

الخليفة الخاص كجنود اجراء ، وارتقى بعضهم إلى مرتبة أمير الأمراء وقيادة الجيش فى دولة الخلافة الإسلامية وقدم خدمات مهمة . وقد اعتمد بعضهم على قوته العسكرية ، وحاول التحكم فى الخلفاء العباسيين اعتبارا من القرن ٩ . اسلم الاتراك الذين جاءوا إلى اقطار الخلافة والذين عاشوا فيها ، وبهذا يكون قد انضم إلى الاسلام بشكل أو بآخر قوم جدد ذوو مقدرة عسكرية متفوقة ، ولكن الكتلة التركية الأصلية الكبرى التى كانت تقيم فى الدولة التركية ، بقيت محافظة على ديانتها القديمة .

اشترك الأتراك ، فى الانجازات العلمية والفنية للدين الاسلامى ، وأخذوا مكانهم فى الحضارة والثقافة العربية الإسلامية فى القرون الوسطى . ونستطيع أن نشير إلى بعض هؤلاء الاعلام ممن ينحدرون من أصل تركى ، كالفيلسوف الفارابى ، اللغوى جوهرى ، الشاعر صولى والشاعر بشار . يقول المؤرخ الالمانى فون قره باجاق مايلى : « إن إعتناق الأتراك الدين الإسلامى وظهورهم على مسرح التاريخ كعنصر إسلامى بدأ كظاهرة محدودة الأهمية فى البداية ، ثم احدثت هذه الظاهرة ذلك التأثير العظيم ، الذى لامثيل له تقريبا فى التاريخ العالمى » .

أعلن الخاقان – الأكبر قره خانلى ساتك بغرا خان ، الذى سمى نفسه « عبد الكريم » واعتلى العرش فى ٩٢٤ – أن الدين الإسلامى (السنى – الحنفى والمذهب الماتريدى) هو الدين الرسمى والوحيد للخاقانية والسلالة التركية . وكان هذا الحادث هو إحدى نقاط التحول لا فى التاريخ التركى الإسلامى فحسب بل فى التاريخ العالمى من جهة التطورات والآثار المستقبلية .

ويذكر التاريخ ظهور سلالات تركية حاكمة فى أقطار كمصر واذربيجان تعترف بتبعيتها للخليفة العباسى . لكن قبول الدولة التركية الأصلية والكتلة التركية الكبرى للدين الإسلامى بصورة قطعية ، كانت مسألة تختلف عن ذلك تمام الاختلاف ، فقد انتشر الإسلام بين أتراك آسيا الوسطى بسرعة فائقة وفجأة إلى درجة ، لم يبق معها فى ربع القرن الذى يلى عام ٩٢٤ إلا عدد قليل من الاتراك ينتسب إلى أديان كوكتنرى ، البوذية ، المسيحية ، المانوية والشامانية ، وهؤلاء ، هم الكتل التى بقيت بعيدة عن العالمين التركى والإسلامى ، أما أتراك أوربا الشرقية فقد بقوا مصرين على ديانة كوكتنرى لعدة قرون أخرى . وهذا مما سبب انصهارهم على نطاق واسع ضمن الأقوام المسيحية .

(٢١) القرة خانيون (٨٤٠ - ١٠٤٠)

تسلمت سلالة قرة خانلى وهى فرع آخر من سلالة مته ، عرش الخاقانية - الأكبر مكان سلالة اويغر (دوقوز - اوغز - اون - اويغر) . وإذا كانت هذه السلالة لم تتمكن من تأسيس امبراطورية تحتوى على كامل آسيا الشمالية ، على غرار الهون وكوكترك . إلا أنها أثرت على التاريخ التركى والعالمى من ناحيتين : الأولى اعتناق الدين الإسلامى كدين رسمى وحيد للأتراك ، كما أسلفنا وبذلك ، حصل الإسلام على قوم جدد ورقعة جغرافية كبيرة . والثانية ، تحويل مركز ثقل الدولة التركية إلى تركستان الحالية ، وعلى الأصح إلى تركستان الشرقية . وبذلك ، فإن الاتراك بينما كانوا حتى عام ٨٤٠ ، من ناحية مركز الثقل ، ينتمون إلى أقوام الشرق الأقصى ، اصبحوا بعد هذا التاريخ من أقوام آسيا الوسطى بصورة تامة . ولم تكن تركستان الحالية حتى ذلك القرن ، بلادا تركية صرفة كما هى الآن ، فقد كان الأتراك يعيشون فيها بصورة مختلطة مع الأقوام الإيرانية ، ومع انهم عناصر حاكمة فى عدة مناطق ، لكنهم كانوا أقلية من حيث العدد . وعندما بدأ اتراك مغلستان الحالية بالهجرة إلى تركستان بادئين من الشرق ، بدأت تتكون فى هذا القطر الكبير ، أكثرية تركية . إن قبر عبد الكريم ساتك بغراخان الذى اعتنق الدين الإسلامى موجود فى كاشغر (٩٠١ - ٩٥٥ ، جلوسه ٩٢٤) .

احتل أرسلان ايليغ خان ، (وفاته ١٠١٣) من السلالة ذاتها الذى يحمل اسم « نصر » الإسلامى ، بخارى فى ٩٩٩/١٠/٢٣ وانهى الحكم الإيرانى فى تركستان بصورة حاسمة . وأزال الدولة السامانية من الوجود ، وسيطر الأتراك على مدنهم الكبيرة كسمرقند وبخارى وعلى ماوراء النهر ووقفوا عند حدود خراسان .

وفى عهد القرة خانيون ، شارك فى الأدب الإسلامى بلهجة الخاقانية ، الأتراك الذين يملكون أدبا غير إسلامى غنى بلهجات كوكترك واويغر .

(٢٢) بداية الأدب التركى الإسلامى

ترك القرة خانيون الابجدية الاويغرية ، وبدءوا بكتابة التركية بالأحرف العربية ، وبذلك بدأت دورة دامت ألف عام فى كتابة اللغة التركية بالأحرف العربية ،

ودخلت إلى اللغة التركية آلاف الكلمات الفارسية وخاصة العربية ، وأهملت آلاف الكلمات التركية واستعملت مكانها كلمات من هاتين اللغتين ، وهكذا تكونت التركية الحالية .

إن وزن العروض العربي فى الشعر ، اقتبس عن الإيرانيين ، واتخذ الشعر الإيرانى نموذجا فى الشعر . وقد استعملت اللغة العربية فى المؤلفات العلمية والدينية ، وأصبحت هى لغة التدريس فى المدارس (الدينية) التركية . وهكذا دخل الاتراك فى الحضارة الإسلامية – تلك الحضارة التى تميزت برقيها فى القرون الوسطى – بكل مايملكون من طاقة واخلاص .

إن أول شاعر تركى كبير معروف ، هو يوسف خاص حاجب ، اكمل ملحمته الشعرية الفلسفية المكونة من ٧٠٠٠ بيت ، المسماة **Kutadgu Bilig** فى سراى كاشغر عام ١٠٧٠ . وضح فيها حكمة وفلسفة الدولة التركية . أما محمود كاشغرى (أحد أمراء قرة خانلى) فقد توخى فى مولفه باللغة العربية المسمى « ديوان لغات الترك » تعريف العرب بصورة موسوعية باللغة التركية وبالثقافة التركية . وقد تم تأليف هذا الكتاب الذى يعتبر من الروائع الكبيرة المعدودة فى الثقافة التركية ، فى الفترة من عام ١٠٧٢ – ٧٧ ، وقدم إلى الخليفة المقتدى فى بغداد .

إن هذا النتاج الذى ظهر نحو عام ١١١٠ ، يشكل المرحلة الكبيرة الثانية بعد « كتابات أورهن » فى تكوين وتطوير علم اللغة التركية .

ودخل الأتراك كذلك فى التصوف الإسلامى وتعمقوا فيه ، وكونوا عدة طرق صوفية . وممن يذكرون فى هذا المجال الخواجة أحمد يسوى الذى نشأ فى جنوب قازاخستان الحاليه (وفاته ١١٦٦) ، فقد استطاع أن ينشر بوساطة اشعاره التصوفية ذات اللغة التركية الواضحة – الدين الإسلامى بقد رة فائقة بين الأتراك الرحل . وأصبح المؤسس الحقيقى للطريقة اليسوية والتصوف التركى .

ترك القرة خانيون عرش الخاقانية الأكبر إلى السلجوقيين فى ١٠٤٠ وتبعوا السلاجقة . وفى ١٢١٢ ، لم يكن لديهم سوى وادى فرغانة فقط . ثم ازيحوا منه خلال مدة قصيرة . وانتهى دورهم التاريخى .

(٢٣) ولاة وحكام الأتراك فى مصر (٨٤٥ - ٩٦٩)

كان فى مصر قبل الطولونيين (٨٤٥ - ٨٦٨) ، ٦ ولاة عباسيون من أصل تركى ، جاء هؤلاء فى البداية إلى مصر مع الوحدات التركية ودخلوا فى خدمة الولاة العرب ثم طلبوا مقام الولاية من الخليفة بقدراتهم العسكرية وحصلوا عليه ، ٣ منهم اخوة وأبناء ، وبذلك تظهر أول محاولة لتأسيس سلالة حاكمة . أولهم عتاق (تركى) ، يليه فتح بن خاقان بن أرتق (تركى) . ثم اقتدى بهما احمد بن طولون ، الذى حاز اعجاب الخليفة كعسكرى بعد أن تلقى ثقافته فى سراى بغداد على النمط العربى بصورة جيدة ، وأصبح والياً على مصر . سيطر على فلسطين وسوريا مع لبنان . وقد فتح أحمد بن طولون لنفسه ولجياه عهدا لامعا استمر حتى ٩٠٥ تابعا للعباسيين بالاسم ، ثم استعاد العباسيون مصر من بنى طولون عام ٩٠٥ .

وفى ٩٣٤ ، نجد تركيا آخر هو محمد بن اخشيد الذى صار واليا عباسيا على مصر وأسس سلالة حاكمة جديدة قضى عليها الفاطميون العرب الشيعة - الاسماعيلون القادمون من شمال افريقيا (المغرب) فى ٩٦٩ . حيث انفصلت مصر عن العالم السنى العربى - الإسلامى وعن خلفاء بغداد وظلت تحت إدارة شيعية إلى أن جاء صلاح الدين الأيوبى .

وخلال ٨٩٢ - ٩٣٠ ، أسس الساجيون (بالعربية : بنى ساج) الأتراك الأصل فى أذربيجان وأرمنية سلالة حاكمة صغيرة تحت سيادة العباسيين .

(٢٤) الغزنويون Gazneliler (٩٦٢ - ١١٨٧)

فى سنة ٩٦٢ احتل تركى اسمه آلب تكين قلعة غزنه التى بقيت حاليا لدى افغانستان ثم أصبح أحد خلفائه المدعو سفوك تكين (سلطنتة ٩٧٧ - ٩٩٧) المؤسس الحقيقى للدولة وأخذ الافغان الحالية واجتاز ممر خيبر واخذ يهدد أبواب الهند .

يرجع تاريخ دخول الدين الإسلامى إلى الهند إلى عام ٧١١ عندما فتح محمد بن القاسم اقليم السند ، إلا أن محمد بن القاسم لم يتمكن من اجتياز نهر السند (Indus) إلى مسافات بعيدة . وقد اهتدى إلى الإسلام بعض الاهالى المحليين من

شعب بلوجستان والسند الحاليه . لكن الذى ادخل الدين الاسلامى إلى القارة الهندية باقتدار ، هو سفوك تكين وابنه سلطان محمود غزنوى .

حاول السلطان محمود (٩٩٨ - ١٠٣٠) بسط سيادة الخليفة العباسى ونشر المذهب الحنفى - السنى فى تلك المناطق بشكل تام ، وأبدى فى نفس الوقت تشددا مع الإيرانيين الشيعة ، والسلطان محمود كالعثمانيين من بكّات قبيلة قايى الاغوزية ، وقد تأثر تأثرا كبيرا بالثقافة الايرانية ، ولم يكن على الثقافة التركية الخالصة كالقرة خانيين . كان هو الذى طلب من الفردوسى كتابة « الشهنامة » . ولم يلق عنده الفردوس قبولا حسنا ، لأنه أشاد فى مؤلفه بانتصار الشهنشاهات الايرانيين على خاقانات الاتراك . حمى السلطان محمود ، الشعراء والمؤلفين الكبار الآخرين الذين يكتبون بالفارسية والذين ينتمى بعضهم إلى الأصل التركى . وقد استعمل السلطان محمود اللغة الفارسية فى الأدب والعربية فى المكاتبات الرسمية والعلوم . وكانت التركية لغة السراى والجيش .

احتل محمود الغزنوى مدينة بشاور سنة ١٠٠٠ . وفى السنة التالية ، فتح بنجاب بعد إبادة الجيش الهندوسى المكون من ٤٢٠٠٠ جندى و ٣٠٠ فيل ، وحاز على لقب « غازى » . وفى حملته الهندية العاشرة . فتح وادى الكانج (البلاد التى سماها المسلمون « هندوستان ») ودلهى وأطرافها . وفى حملته ١٣ افنى جيشا هندوسيا مكونا من ١٥٠,٠٠٠ شخص واستولى على أكثر من ١٠٠٠ فيل حربى . وفى حملته ١٦ (١٠٢٥ - ٢٦) فتح كجرات ، وسيطر على نحو ٥ ملايين كم^2 من الأراضى (ايران ، افغانستان ، ماوراء النهر ، باكستان الحالية ، ايالات الهند الشمالية - الغربية) . ثم تراجع الغزنويون أمام السلاجقة وحاولوا ابقاء ملكهم فى بنجاب ولاهور تحت سيادة السلاجقة ، لكن الدين الإسلامى كان قد دخل القارة الهندية فى عز قوته وبالمذهب الحنفى السنى ووضع الاساس الحقيقى لباكستان الحالية .

(٢٥) الدولة السلجوقية الكبرى

بنى سلجوق ، هم بكات قبيلة قنق Kinik المنحدرة من أوغز . كان قسم من الأوغز قد أسسوا دولة بين الخزر وآرال التى تسمى الوطن العلوى . ورث بنو سلجوق هذه الدولة وأصبحوا قادة كبارا (سوباشى) فى نهاية القرن ٨ ، وحوالى

عام ٩٩٠ أصبحوا ملوكا لها (Yabgu) . ولقد صد السلطان محمود الغزنوى هؤلاء السلاجقة الذين أسلموا حديثا والذين حاولوا النزول إلى العالم الاسلامى فى الجنوب ، واستمرت مقاومة طغرل بك حفيد سلجوق بك واخيه جاغرى بك للغزنيين الذين قطعوا طريقهم . تمكن طغرل بك وأخوه من الوصول إلى الاناضول وجاهدا بغزواتهم ضد البيزنط وتمكنا اخيرا من دحر الجيش الغزنوى المتفوق جدا فى معركة دندانكان (١٠٤٠/٥/٢٣) الميدانية واستوليا على خراسان بصورة حاسمة . واتخذا نيشابور عاصمة ، وبعد ان اجبرا كلا من الغزنويين والقره خانيين على الاعتراف بدولتهم كأكبر وأقدر دولة تركية ، حاربا الدول الإيرانية واستوليا على إيران وأصبح للدولة منفذ إلى البحر الابيض .

وبعد أن كسر الخاقان – الأكبر محمد طغرل بك (١٠٤٠ – ١٠٦٣) ، الدولة الشيعية البويهية فى إيران وثبّت أركان المذهب السنى ، انتقل إلى العالم العربى . كان الخليفة يسكن منذ مدة طويلة جدا فى بغداد تحت سيطرة الشيعة البويهيين ، ولما علم الخليفة « القائم » أن البويهيين يستعدون لاعلان خليفة البويهيين الفاطمى الشيعى فى العراق ، خليفة فى (القاهرة) ، أمر بتلاوة اسم السلطان طغرل بك بعد اسمه فى الخطبة فى بغداد (الجمعة ١٥ ك ١/١٠٥٥) .

قضى طغرل بك الذى قدم إلى بغداد بعد ١٠ أيام ، على السلطة الشيعية ، وأعلن الحرب على الإمام الفاطمى وأمر بتلاوة الخطبة باسم الخليفه العباسى واسمه هو فى كل مكان ، وعين فى بغداد واليا عسكريا تركيا . وأعلن أن الخليفة هو الرئيس الروحى لجميع العالم الإسلامى ، أما الحكم الدنيوى فيعود إلى إدارة بنى سلجوق . انتقل العالم العربى الشرقى (المشرق) إلى الحكم التركى . وبذلك يكون قد انفتح دور الإدارة التركية فى المشرق ، وسوف يستمر ذلك الدور تسعة قرون .

خلف السلطان طغرل بك ، ألب ارسلان (١٠٦٣ – ١٠٧٢) ، وابن اخيه الكبير جغرى بك ، وابن هذا سلطان مليكشاه (١٠٧٢ – ١٠٩٢) ، ثم أبناء هذا وعددهم ثلاثة هم : سلطان ركن الدين بركياروك (١٠٩٣ – ١١٠٤) سلطان محمد طابار (١١٠٤ – ١١١٨) ، سلطان معز الدين سنجار (١١١٨ – ١١٥٧) .

ويمكن تلخيص سياسة الدولة السلجوقية العالمية ، على الوجه التالى ؛ دفع الشيعة إلى افريقيا ، وتوحيد العالم الإسلامى الآسيوى تحت النفوذ المعنوى للخليفة العباسى السنى ونفوذهم الإدارى وإزاحة البيزنط من آسيا إلى أوربا والتواجد المستقر على البحر الأبيض . لم يتحقق امل السلجوقيين فى اقتلاع الفاطميين الشيعة من مصر بسبب بدء الحروب الصليبية ، لكنهم أزاحوهم من سورية .

إن الامبراطورية السلجوقية التى تمتد غربا إلى استانبول وبوغاز جناقلعه إلى بحرى مرمره وايجه ، والجنوب - الغربى إلى برزخ السويس وإلى البحر الاحمر ، وجنوبا إلى المحيط الهندى وبحر عمان ، وشرقا إلى الهند الوسطى ، إلى حدود الصين ، وشمالا إلى سيبيريا والشمال - الغربى إلى جبال القفقاس ، استطاعت أن تؤسس بعد الامويين والعباسيين نظاما امبراطوريا متينا ، لكنها لم تتمكن من الانتقال إلى قارتى افريقيا واوربا . كان جيش الامبراطورية السلجوقية يبلغ مليون جندى يقوم على حماية سكان الامبراطورية البالغ عددهم ١٠٠ مليون نسمة يقيمون فى اراض تبلغ مساحتها ١٥ مليون كم^2 ، من مآثر الامبراطورية السلجوقية انها نقلت تدريس العلوم الإسلامية العالية من المساجد إلى الجامعات التى أسسها السلاجقه وسموها « مدرسة » . وعلى الرغم من أن هذا النظام القويم سرعان ماتبدد ، فإن الكيان الأساسى لنظام الدولة السلجوقية استمر على يد الأيوبيين والعثمانيين ودول غيرها .

(٢٦) الخوارزم شاهيون Harezm - Sahlar (١١٥٧ - ١٢٣١)

خلفت الدولة السلجوقية الكبرى ، سلالة تركية أخرى هى الخوارزم - شاه . كانت حدودهم متواضعة جدا (ايران ، افغانستان ، ماوراء النهر) . واعتبارا من ١٠٩٧ ، وبعد انتهاء السلجوقية الكبرى بوفاة سلطان سنجر ، وكذلك بعد قضائهم على سلاجقة العراق ، أصبحوا خاقانات تركستان ، بينما كانوا ولاة سلجوقيين لخرزم (خوارزم) . كانت قاعدتهم سمرقند . أرادوا اخضاع الخليفة العباسى لسلطتهم السياسية باتباعهم سياسة محمود الغزنوى والسلجوقية الكبرى وسلاجقة العراق . فصرفوا جهدهم فى نشر قوة الخليفة المعنوية والروحية لدى كافة المسلمين . ثم قضى عليهم المغول .

(٢٧) سلاجقه العراق ، سوريه وكرمان

أراد أبناء اخوة سلطان سنجر بعد وفاته ، إبقاء الدولة السلجوقية بصورة مستقلة باسم سلاجقة العراق (١١٥٧ - ١١٩٤) . قضى خوارزم شاه على سلاطين هذه الدولة التى تأسست فى ١١١٧ .

سلاجقة سوريه (١٠٩٤ - ١١١٧) هم سلاطين بنى سلجوق الذين أسسوا حكمهم تحت سيادة السلجوقية الكبرى فى سوريه ، لبنان ، فلسطين والاردن واتخذوا من الشام وحلب قاعدة لهم ، واستطاع فرع آخر من فروع السلالة السلجوقية ذاتها ابقاء سلطنتهم فى كرمان فى جنوب شرقى ايران مدة قرن ونصف (١٠٤١ - ١١٨٧) .

(٢٨) الاتابكـــه Atabeyler

يطلق اسم « ملك » على الأمراء الأباطرة من سلالة السلجوقيين ، وقد كانوا يعطون كل ملك فى طفولته لأمير تركى لتربيته عسكريا . وفى الحقيقة فإن بعض هؤلاء الأمراء ، أصبحوا على مر الزمن وباسم السلاجقة ، أصحاب دولة مستقلة . اشهرهم ايلدنيزليون Ildenizliler الذين يطلق عليهم اسم اتابكة آذربيجان (١١٤٦ - ١٢٢٥) ، بنو بورى الذين يطلق عليهم اسم اتابكة الشام (١١٠٩ - ١١٥٤) ، بنو بكتكين Beyteginliler الذين يطلق عليهم اسم اتابكة اربيل (١١٤٤ - ١٢٣٣) ، بنو سلغر Salgurlular الذين يطلق عليهم اسم اتابكة فارس (١١٤٧ - ١٢٨٧) ، بنو قطلغ - خـان Kutlug - Hanlar (١٢٢٢ - ١٣٠٣) .

(٢٩) الزنكيون Zengiler (١١٢٧ - ١٢٦٢)

لاشك أن اشهر سلالات الأتابكة هم اتابكة الموصل الذين يسمون الزنكيون ، ومؤسس السلالة هو عماد الدين زنكى ابن آقسنغر بك من أمراء السلاجقة من قبيلة آفشار الاوغزية . ولى حكم حلب والموصل فى عهد السلاجقة فى ١١٢٧ ، وحارب الصليبيين ونال شهرة واسعة . وابنه اتابك نور الدين محمود زنكى ، الذى

فاق شهرة ابيه بجهاده ضد الصليبيين . اتخذ من الشام قاعدة له وأدام سلطنته (١١٤٦ - ١١٧٤) . كان صلاح الدين الأيوبى أحد ضباط الحرس الخاص لنور الدين زنكى .

أرسل نور الدين ، صلاح الدين إلى مصر مع جيش استطاع أن يسيطر به على مصر بدون قتال وانهى الحكم الشيعى الذى دام قرنين وأمر بقراءة الخطبة باسم الخليفة العباسي . وبذلك انتهى العهد الفاطمى فى مصر .

مات نور الدين فى هذه الأثناء ، فأعلن صلاح الدين نفسه سلطانا على مصر مكان سيده . وبعد هذه الفترة تبع الزنكيون الايوبيين ، وتسلم صلاح الدين الايوبى سيف الجهاد بيده ، وابقى التشكيلات العسكرية والادارية السلجوقية والزنكية ، وأسس دولة إسلامية مقتدرة . عادت الثقافة العربية والأدب العربى للازدهار مرة أخرى فى العهد الايوبى .

(٣٠) المغـــول

ظهر جنكيزخان فى بداية العصر ١٣ . وهو ينحدر من سلالة أحد أمراء كوكترك الذين تمغلوا ، كان فقيراً ، لكنه كان من أشراف المغول . سيطر على مغولستان وآسيا الوسطى . استولى على بكين وفتح امبراطورية الصين الشمالية . وبعد أن زحف على الشرق الأقصى بجيش مدهش من الخياله مكون من المغول والاتراك الذين لم يدخلوا الإسلام بعد ، وصل فى سنة ١٢٢٠ إلى حدود خاقانية تركستان (التابعة للخوارزم شاهيين) ثم إلى الحدود الشرقية للدولة الإسلامية . جرى قتال عنيف ، انكسر فيه الأتراك ، وانهزم جلال الدين خرزم - شاه إلى حدود الاناضول ، وانتقلت تركستان وإيران لحوزة المغول المشركين .

استمرت السلالة من نسل أولاد جنكيز الأربعة وأبنائهم .

سيطر المغول تقريبا على كامل قارة آسيا عدا اليابان والهند وتقريبا على كامل أوربا الشرقية . كان المغول فى عام ١٢٩٤ ، يحكمون دولة تتسع حدودها اتساعا لم يحدث لاية دولة أخرى فى التاريخ . ولما كانت مساحة الاقطار المكتشفة فى العالم حينذاك تبلغ ٦٤ مليون كم^2 ، فقد كان المغول يملكون ٤٤ مليون كم^2 منها . وكان يقدر سكان هذه الأراضى بـ ٣٠٠ مليون نسمة (كان تعداد فرنسا فى السنوات ذاتها

١٠ ، انكلترا ٢ مليون) . ومع ذلك لم يكن للدولة المغولية دور بنفس درجة الدول التاريخية العالمية (العظمى) كامبراطوريات روما أو الخلافة العربية العثمانية أو بريطانيا العظمى ، ذلك أن المغول الذين اعترفوا لغاية ١٢٩٤ (ولو نظريا) بكئان – كبير Buyuk - Kaan (امبراطور كبير) ، تفرقوا بعد هذا التاريخ إلى دول منفصلة ، فقد تصين الفرع الصينى (اصبح صينيا) ، بعد أن أصبح بوذيا وانسحب منهم قسم آخر إلى مغولستان وتمكن من الحفاظ على مغوليته ، أما أقوام تركستان التى تسمى جغتاى ، وأوربا الشرقية التى تسمى جوجى أولوصو والطون اوردى وفرع ايران الذى يسمى ايلخانلى ، فقد انصهرت جميعا ضمن الكتل التركية الكبرى الموجودة فى هذا القطر ، ونسيت اللغة المغولية وأصبحت تنطق بالتركية وصارت مسلمة سنية – حنفية كالأتراك . جاءت كتل تركية كبيرة إلى تركستان على عهد المغول وبسبب استتراك المغول ، أصبحت البلاد قطرا تركيا تاما ، ذلك بالاضافة إلى أن المغول ساقوا ملايين الأتراك أمامهم إلى إيران والأناضول ولعبوا دورا هاما فى تتريك هذين القطرين .

وفى ١٢٥٨ ، احتل هولاكو حفيد جنكيز وأول حكام السلالة المغوليه الايرانية التى تسمى ايلخانية ، بغداد وقضى على الخلافة العباسية .

لجأت الخلافة العباسية إلى القاهرة .

ولاينسى التاريخ الاسلامى والتركى والعثمانى لهؤلاء المغول المشركين هدمهم المدن الإسلامية الكبرى وماقاموا به من مذابح وماأجروه من تخريب للمراكز الثقافية سواء التركية أو العربية ولئن كان إسراعهم فى اعتناق الدين الاسلامى واستتراكهم ، قد جعلهم يشاركون كعنصر جديد فى الحضارة والثقافة الإسلامية ، ألا أن ماقاموا به من تخريب لم ينسه التاريخ حتى الآن .

(٣١) الايلخانيون Ilhanlilar (١٢٥٦ – ١٣٤٤)

اعتنقت سلالة هولاكو التى تسمى ايلخانلى ، الدين الإسلامى بشكل قطعى فى ١٢٩٥ . ويقال عنهم مغول إيران كذلك .

أخذت هذه السلالة سلاجقة تركيا (الاناضول) تحت سيادتها ، ودخلت فى صراع جغرافى – سياسى واسع النطاق ، سواء مع مماليك مصر أو مع التون اوردى

الذى دخل الإسلام قبلها . وفى ١٣٤٤ ، تركوا سلطنتهم إلى الجلايريين Celayirliler وهى سلالة مغولية مستتركه مثلهم ، وانتقل كامل العراق مع ايران من الايلخانيين إلى الجلائريين .

(٣٢) التون اوردى ALtinordu (١٢٢٣ - ١٥٠٦)

تسمى الدولة التى أسستها سلالة جوجى خان ابن جنكيز الاكبر فى أوربا الشرقية باسم التون اوردى وتعنى الجيش الذهبى .

دخل بركة خان ابن جوجى الإسلام منذ ١٢٥٧ وسبق هذا الفرع ، الفروع الأخرى فى الهداية واستترك . وحكم كامل روسيا الأوربية الحالية والبلقان وقسما من أوربا الوسطى . وفى الربع الأخير للعصر ١٤ ، دخل فى صراع كبير مع تيمور ، فخسر وتقلصت دولتهم واندثرت .

تكّونت على أراضيهم عدة امارات (خانلق) تركية واستفادت امارة موسكو - الكبرى من هذا الوضع وبدأت فى التوسع .

(٣٣) جغتـــاى çagatay (١٢٢٧ - ١٨٧٠)

حكمت سلالة جغتاى خان ثانى أبناء جنكيز ، تركستان وسيطرت عليها حتى ظهور تيمور فى ١٣٧٠ . ثم انسحبت إلى تركستان الشرقية وبقيت هناك عصورا طويلة كدولة متواضعة . استترك هذا الفرع وبدأ يتكلم التركية بسرعة وأخذ المذهب السنى - الحنفى عن الاتراك ودخل بكامله إلى الهداية الاسلامية .

(٣٤) بنى تيمور Timurogullari (١٣٧٠ - ١٥١٢)

ظهر تيمور (١٣٣٦ - ١٤٠٥) أحد بكات (أمراء) تركستان الغربية ، على مسرح التاريخ فى ١٣٧٠ . وبسط سيادته على التون اوردى (أوربا الشرقية) والهند الشماليه والخاقانيات التركية (تركيا) العثمانية ، ووصل الأمر إلى حد أن السلطان المملوكى المصرى بعد أن فقد سوريا دخل تحت سيادة تيمور أتقاء لشره . سيطر تيمور الذى كان يستند إلى قوة عسكرية مدهشة على أقطار تبلغ مجموع مساحاتها ١٤ مليون كم^2 . كانت التركية لغته الأم ومذهبه السنى - الحنفى . إلا أن تأثيرات الثقافة الايرانية كانت كبيرة على امبراطوريته كما أنه قلد جنكيز فى اسلوب فتوحاته .

مات عندما كان يستعد لفتح الصين لتحقيق خير أعماله كفاتح مسلم وقد حاول أصغر أبنائه الأربعة شاهرخ ، صيانة الامبراطورية التيمورية لغاية ١٤٤٧ .

وبالاضافة إلى أن الامبراطورية التيمورية فقدت بعد ذلك أقطارا عديدة ، فقد انقسمت إلى امبراطوريتين : ماوراء النهر (سمرقند) ، وخراسان (هرات) .

وفى ١٥١٢ ، طرد أتراك اوزبك الرحل القادمين من الشمال ، التيموريين من تركستان ودفعوا بهم إلى الهند .

ازدهرت لهجة جغتاى (تركستان) والأدب والشعر التركى على أيام التيموريين ، وفى عهدهم نشأ على شيرنوائى من أكبر الشعراء الأتراك فى سراى سلطان حسين بايقره (١٤٦٩ - ١٥٠٦) بن تيمور فى هرات .

٣٥) السلالات التركية فى الهند لغاية بنى تيمور :

اعقبت الغزنويين فى الامبراطورية الإسلامية التركية فى الهند الشمالية ، سلالات الغور (١١٨٧ - ١٢٠٦) ، مماليك الهند (١٠٢٦ - ١٢٩٠) ، بنو هلاج (١٢٩٠ - ١٣٢٠) ، بنو طغلق (١٣٢٠ - ١٤١٣) ؛ بن سيد (١٤١٣ - ١٤٥١) ، اللوديين (١٤٥١ - ١٥٢٦) ، الصوريين (١٥٤٠ - ١٥٥٥) .

بذل كل من السلطان معز الدين محمد (١١٨٧ - ١٢٠٦) ، السلطان آيك (١٢٠٦ - ١٢١٠) ؛ السلطان التوتمش (١٢١٠ - ١٢٣٦) ، السلطان بالابان (١٢٦٦ - ١٤٨٦) ، السلطان علاء الدين محمد (١٢٩٦ - ١٣١٦) ؛ السلطان فيروز - شاه طغلق (١٣٥١ - ١٣٨٨) جهودا كبيرة لنشر الدين الإسلامى فى الهند وتوسيع حدود الدولة باستمرار نحو الشرق والجنوب . ولأول مرة فى التاريخ وحد علاء الدين محمد ، كامل الهند (بما فى ذلك باكستان الحالية وبنغلاديش) تحت حكم دولة واحدة .

جرت حروب شديدة مع المغول واصبحت الهند من الدول الآسيوية الإسلامية النادرة التى لم يتمكن المغل من السيطرة عليها .

يلاحظ سيطرة الثقافة العباسية ، حيث كانت هى لغة الفن بينما التركية لغة الجيش والسراى ، وقد شيدت فى هذه الفترة آثار عمرانية هائلة ، وتأسست مدن

جديدة وكانت دلهى مدينة العرش . ثم تقلصت الحدود ، وخلال ١٣٩٨ - ١٤٢١ تبعت سلطنة دلهى تيمور وخلفاءه .

كانت السلالات الأخيرة هى اللوديون والصوريون .

(٣٦) بنو تيمور الهند (١٥٢٦ - ١٨٥٧)

عندما طرد الأزبك بابرشاه (١٤٨٣ - ١٥٣٠) حفيد تيمور فى البطن ٥ (حفيد جنكيز فى البطن ١٣ من جهة أمه) من عرش خاقانية تركستان ، استوطن فى كابل واحتل الأفغان الحالية .

وفى ١٥٢٦ ، قوض سلطنة لودى وفتح سلطنة دلهى . كانت القوة التى مكنته وسلالته من الهند لمدة ٣ قرون وجعلته ينتصر على الجيش اللودى المكون من ١٠٠,٠٠٠ جندى و١٠٠٠ فيل خلال ٧ ساعات ، عبارة ١٣٥٠٠ جندى تركى تضم سرية مدفعية يقودها ضابط مدفعى عثمانى (معركة بانيبات **Panipat** الميدانية ٢١ / ٥ / ١٥٢٦) ، وقد استطاع فى السنة التالية (١٦ / ٣ / ١٥٢٧) أن يفنى الجيش الهندوسى المكون من ١٠٠,٠٠٠ جندى وأكثر من ١٠٠٠ فيل مصفح عن بكرة أبيه ، ونال لقب « غازى » .

يعتبر بابر من أكبر الشعراء الأتراك وقد اشتهر فى التاريخ بمذكراته المسماة « بابرنامه » التى حررها باللغة التركية والتى تعتبر أحد روائع النثر التركى التى تعد على الأصابع .

عقب بابر (الأب والابن) ، همايون شاه (١٥٣٠ - ١٥٤٠ - ١٥٥٥ - ١٥٥٦) ، أكبر شاه (١٥٥٦ - ١٦٠٥) جهانكيرشاه (١٦٠٥ - ١٦٢٧) ، شاهجهمان الذى شيد تاج محل (١٦٢٧ - ١٦٥٨) ، افرنكزيب عالمكير شاه (١٦٥٨ - ١٧٠٧) .

تكونت حضارة غنية جدا تحت تأثير الثقافة الفارسية . وقد وحد عالمكير للمرة الثانية فى التاريخ ، كامل الهند تحت حكم سياسى موحد ، وبدأ بعدها الانقسام .

احتل الإنجليز البنغال فى نهاية القرن ١٨ . اضرمت قوات الخيالة « السباهى » التركية بمساندة بنى تيمور ، نار ثورة كبيرة لطرد الانجليز ، لكنها اخمدت . خلع

الانجليز بابرشاه الثانى (١٨٣٧ - ١٨٥٨) اخر حكام بنى تيمور من عرشه ونفوه إلى برمانيا (٤ / ١٢ / ١٨٥٨) (وفاته : رانغون ، ٧ / ١١ / ١٨٦٢) .

استمر اسم « المغول » الذى أطلقه الإنجليز على بنى تيمور الهند فى المؤلفات التاريخية على الرغم من أنه ليست هناك للدولة علاقة بالمغل .

٣٧) امبراطورية الهند الجنوبية :

أسس البهمنيون (١٣٤٧ - ١٥٢٥) فى الهند الجنوبية امبراطورية مركزها دكن Dekken منفصلة عن سلطنة دلهى .

انقسمت هذه الامبراطورية إلى ٥ دول ، أهمها دولة عادل - شاه الذين يعتبرون ورثة للبهمنيين (١٤٩٠ - ١٦٨٦)

كان أول حاكم لهم هو الأمير التركى المسمى يوسف عادل - شاه ، وهو ثائر ظفر بالعرش مدعيا أنه الأخ الأصغر للسلطان فاتح العثمانى . أما القطب شاهيون (١٥١٢ - ١٦٨٧) فهم أمراء (بكات) قرة قويونلو التركمان .

جميع هذه الدول ؛ سواء هاتين الدولتين ، أو الثلاث الآخريات اللواتى تقاسمن الهند الوسطى والجنوبية كانت من قبل بنى تيمور .

٣٨) الدول التركية الأخرى فى الهند :

أهم الدول التركية الأخرى التى تأسست فى الهند هى : المابريون (١٣٣٤ - ١٣٨٨) فى جنوب الهند وقاعدتهم مادورا ، وديان بنغال (١٢٠٢ - ١٢٩١) ، وملوك بنغال (١٣٣٨ - ١٥٧٦) وغوور مالوا (١٣٩٢ - ١٥٣١) ، فى الهند الوسطى فى برار ، وسلاطين هانبور شرقى (١٣٩٩ - ١٤٩٩) ، وأمراء خاندش فاروقى فى الهند الوسطى (١٣٩٩ - ١٦٠١) ، والشاهيون فى كشمير (١٣٣٤ - ١٥٦١) ، والأركون فى بلوجستان (١٤٧٥ - ١٥٥٤) ، والطرخانيون فى السند (١٥٥٤ - ١٥٩٩) . وكل هؤلاء تقريبا قضى تيمور عليهم .

(٣٩) السلطنة التركية فى مصر (١٢٥٠ - ١٥١٧) :

تسلم الحكم فى مصر فى ١٢٥٠ جيش الحرس التركى الخاص بالسلطان الأيوبى (خاصة اوردوسى) وتأسست أقوى سلطنة مملوكية فى القرون الوسطى سميت « الدولة التركية » بصورة رسمية (مصر ، سوريا ، لبنان ، فلسطين ، الأردن ، الأناضول الجنوبية ، الحجاز ، اليمن ، السودان ، ولفترة ليبيا وحتى تونس) .

وقد اعتمد الحكام المقتدرون مثل آيبك (١٢٥٠ - ١٢٥٧) ، قطز (١٢٥٧ - ١٢٥٩) ، بيبرس (١٢٦٠ - ١٢٧٧) ، قلاوون (١٢٧٩ - ١٢٩٠) ، ناصر الدين محمد (١٢٩٣ - ١٣٤١) ؛ على جيش قوى وحضارة تزينها آثار معمارية فريدة تستمد أصالتها من ثقافة عربية غنية .

انتصر السلطان قطز فى واقعة عين جالوت وصد المغول المشركين واوقفهم عند باب مصر وافريقيا ، ثم استرجع المماليك آخر قاعدة للصليبيين فى شرقى البحر الأبيض .

يلى عهد المماليك الأتراك أو البحريين (١٢٥٠ - ١٣٨٢) الذين حافظوا على الخليفة وبلدانه المسلمة المقدسة (مكة ، المدينة ، والقدس) - عهد المماليك الشراكسة أو البرجيين (١٣٨٢ - ١٥١٧) . وقد اعتلى العرش فى هذه الفترة سلاطين الشراكسة المستتركين وعانت الدولة المملوكية من عدم تملكها من تشكيل قوة بحرية وضعفها فى هذا المجال مما اسفر عنه انضمامها إلى الدولة العثمانية .

٤٠) الامبراطورية التركية فى إيران :

انتقل حكم إيران - العراق بعد الايلخانيين إلى الجلائريين (١٣٣٦ - ١٤١١) ، فالتيموريون ثم إلى حكم سلالتين تركمانيتين هما أصحاب الخرفان السود (قرة قويونلولر) (١٤٣٧ - ١٤٦٧) وأصحاب الخرفان البيض (آقويونولو) (١٤٦٧ - ١٥٠٢) .

كانت هذه السلالات سنية – حنفية وكانت مسيطرة على الاناضول الشرقية كذلك وكانت قاعدتهم تبريز .

٤١) الصفويون (١٥٠٢ – ١٧٣٦) :

ظهر بعد ذلك شاه إسماعيل . ثامن شيوخ الصفويين الاردبيل ذوى النفوذ القوى جدا منذ ١٣٠١ والذين بدءوا سنيين ثم اصبحوا شيعيين . كان من ناحية الأم حفيدا للسطان آقويونلو أوزون حسن بك (١٤٥٣ – ١٤٧٨) . جمع حوله مئات الألوف من الاناضوليين التركمان تحت الشعار الشيعى وانتقل إلى إيران .

أجبر إيران أهل السنة على التشيع على مذهب الأثنى عشرية بالدم والنار . .

وحد بساط المشيخة مع تاج الشاهية ، وأسس فى إيران دولة قوية جدا . وقد كانت هذه الدولة التى أخذت بمرور الزمن تتقبل الثقافة الإيرانية ، تستند على جيش تركمانى خيال . لكن لم يكن لديها قوة بحرية .

كون الشاه إسماعيل الذى يمتاز بأنه من أكبر شعراء اللغة التركية ، امبراطورية كبرى ، بين دياربكر وطاشقند . وازداد نفوذ هذه الدولة كثيرا على أيام ابنه شاه طحمسب (١٥٢٤ – ١٥٧٦) وحفيده شاه عباس (١٥٨٧ – ١٦٢٨) .

شطرت هذه الدولة العالم الإسلامى والتركى إلى شطرين ثم ضعفت بعد ذلك واضمحلت السلالة .

٤٢) الأوشار Avsarlar

جلس نادر شاه اوشار (١٧٣٦ – ١٧٤٧) على عرش شاهات الصفويين ، بينما كان أحد أمراء (بكات) التركمان ، هو آخر فاتح عالمى فى التاريخ التركى . قام بحملات واسعة للسيطرة على قفقاسيا وتركستان والهند .

كان سنيا حنفيا فى باطنه . غير أنه لم يتمكن من اعلان المذهب السنى فى إيران الشديدة التشيع . حاول أن يحمل الخليفة فى استانبول على الاعتراف بالمذهب الشيعى الجعفرى المعتدل ، لكنه لم يوفق .

٤٣) القاجاريون Kacarlar (١٧٧٩ - ١٩٢٥) :

القاجار ، هى آخر سلالة تركمانية جلست على العرش الإيرانى . خرجت إيران من عداد الدول العظمى وانسحبت من ققفاسيا عندما غلبتها روسيا فى ١٨١٣ و١٨٢٨ .

خلع الشاه رضا ، الشاه القاجارى السابع أحمد شاه قاجار عن عرشه وأسس السلالة البهلوية وأنهى عهد الحكام الأتراك الذى دام ٩ قرون (كانت امه كذلك تركية) .

٤٤) الامارات التركستانية :

بعد أن طرد الشيبانيون ، وهم إحد فروع سلالات جنكيز فى ماوراء النهر (١٥٠٠ - ١٥٩٩) ، التيميوريين من تركستان وقذفوا ببابورشاه إلى الأفغان ، وزحفوا على الهند لفتحها ، كونوا دولة ذات قدرة كبيرة (قاعدتهم سمرقند وعلى الأغلب بخارى) .

مؤسس السلالة محمد شيباك (شيبانى) خان (١٥٠٠ - ١٥١٠) ، من الشعراء المتميزين فى اللغة التركية .

غلبه الشاه إسماعيل وقتله . كان عبد الله خان (١٥٨٣ - ١٥٩٨) من أقدر حكام السلالة ، وقد خرجت تركستان أى خاقانية الترك الشرقية بعده من عداد الدول العظمى ثم تمزقت تركستان بين خاقانيات الترك الصغرى وفقدت مكانتها فى التاريخ العالمى .

بسط الجانيون (١٥٩٩ - ١٧٨٥) الذين اعقبوا الشيبانيين وكانوا من سلالة جنكيز مثلهم ، نفوذهم على قسم كبير من ماوراء النهر . كانت قاعدتهم بخارى .

وقع المانغت (١٧٨٥ - ١٩١٩) الذين احتلوا مكانهم تحت سيطرة الروس فى ١٨٧٣ وتركوا للروس حتى طاشقند وسمرقند . استمر حكمهم فى بخارى وجوارها حتى ١٩١٩ ، وفى الثورة الشيوعية ، تأسست فى البداية جمهورية بخارى ، ثم جمهورية اوزبكستان التابعة للاتحاد السوفييتى . وهكذا انتهى عمليا ١٩١٩ الوجود السياسى التركى فى تركستان .

دامت سلطنة خانات خرزم (١٥١٢ - ١٨٠٤) ، ثم سلالة كونغرات (١٨٠٤ - ١٩١٩) وكليهما من سلالة جنكيز فى البلاد التاريخية المسماة خرزم (خوارزم) فى جنوب بحيرة آرال فى قره قالباقستان الحالية ، واتخذوا حيوه عاصمة لهم . سقط هؤلاء كذلك تحت النفوذ الروسى فى ١٨٧٣ وبقى حكمهم الذاتي وسلالتهم حتى قدوم الشيوعيين فى ١٩١٩ .

الحقت إمارة (خانية) خوقند فى فرغانة (١٧١٠ - ١٨٧٦) بروسيا . تقلصت إمارة قازاق (١٤٥٠ - ١٨٧٣) التى يترأسها خانات من سلالة جنكيز فى قازاخستان الحالية وانفصلت إلى أقسام .

جاهدت فى استمرار كيانها تحت الاحتلال الروسى حتى ١٨٧٣ . فتح قينسارى قاسم خان (وفاته ١٨٤٧) أحد خانات القوزاق ، استمر جهادهم ضد الروس لمدة ٣٠ سنة .

استطاع يعقوب (١٨٧٠ - ٧٧) وبك قولو (١٨٧٧ - ٨٢) فى كاشغر فى تركستان الشرقية أن يحافظا على استقلالهما فى مواجهة الصين مع استمرار تبعيتهما للعثمانية ، لكنهما لم يتمكنا فى النهاية من صد الاجتياح الصينى ، وجدير بالذكر أن الحركات الاستقلالية فى تركستان الشرقية قد استمرت حتى عصرنا الحاضر ولقد تم لعدة مرات اعلان تأسيس دول تركية ، ولكن استولى عليها الصينيون .

انكسر الفريق الأول عبد النياز بك مع جيشه التركى البالغ ٨٠,٠٠٠ جندى ، أمام الجيش الروسى - الصينى الاتحادى واستشهد (١٥/ ٨ / ١٩٣٧) .

٤٥) أتراك الشمال :

تعتبر إمارة قرم (١٤٢٧ - ١٧٨٣) من أهم الدول التى تكونت على أنقاض خاقانية الطون أوردى كما هى الحال فى دول أتراك الشمال الأخرى فى أوربا الشرقية . وهذه الامارة يجب النظر اليها ضمن إطار التاريخ العثمانى .

أما إمارة (خانلق) قزان (١٤٣٧ - ١٥٥٦) التى تنحدر من فرع جوجى اولوصو لسلالة جنكيز فهى مثل إمارة قرم ، ظلت حتى عام ١٤٦٧ ، تحت سيادة

إمارة موسكو الكبرى . وحتى يتسنى لها الاستمرار فقد تبعت العثمانية لفترة من الزمن . لكنها تعرضت للاستيلاء الروسى . أما إمارة قاسم (قسيم) الصغيرة (١٤٤٥ - ١٦٨١) والتى كان حكامها من بنى جنكيز فقد تمكنت من الاستمرار بخضوعها إلى سيادة موسكو فى ١٥٠٦ رغم أن مدينة عرشها تقع على مسافة ٢٣٠ كم جنوب شرقى موسكو .

لم تتمكن إمارة آسترخان (١٤٦٦ - ١٥٥٧) - من بنى جنكيز كذلك ، رغم انها تبعت العثمانية لفترة - من صيانة ستقلالها تجاه الروس . وبذلك لم يكن الروس فى ١٥٥٦ - ٥٧ قد امتدوا بسهولة على ضفاف الفولغا فحسب بل كانوا قد تمركزوا فى دلتا الفولغا وتوصلوا إلى شمال بحر الخزر ، وان كانوا لايزالون بعيدين جدا عن البحر الأسود بسبب المانع العثمانى ، وعن البلطق بسبب المانع السويدى .

احتل خانات تمن Tumen (١٥٦٣ - ١٦٥٦) من بنى جنكيز سيبيريا الغربية ، مكان خانات قرغز (١٢٠٠ - ١٥٦٣) الذين سبقوهم وتعرضوا لاستيلاء الروس .

وقبل عدة سنوات من حلول عام ١٦٠٠ دخل الروس سيبيريا أو بالأحرى آسيا وامتدوا إلى المحيط ، وخلال قرن واحد ، أصبحوا جيران الصين فى الشمال .

الباب الثالث

تركية قبل العثمانية

٤٦) فتح الأتراك للأناضول :

كانت بعض الأقوام التركية قد غزت الأناضول قبل الإسلام ، فقد جاب الجنود الأتراك الذين دخلوا فى خدمة الخليفة العباسى بعد الإسلام بخيولهم سفوح جبال طوروس وسواحل الفرات عصورا طويلة لحساب بغداد . وفى هذه الفترة كانت الاناضول من جملة الأراضى البيزنطية (روما الشرقية) .

تمكن العرب من فتح جنوب شرقى الأناضول فقط ودعوة سكانها إلى الدين الإسلامى ، ومن الواضح انه لم يتسن القضاء على البيزنط .

أخذت السلالات العربية الحاكمة الصغيرة تتولى مهمة الغزو والجهاد ضد البيزنط والدفاع عن الحدود الإسلامية فى الأناضول ، بعد أن ضعفت الدولة العربية العالمية (العظمى) وفقد الخليفة سلطانه فى بغداد . وقد أهمل الهدف الذى كان قائما فى صدر الإسلام وهو جعل الأناضول أراضى إسلامية والانتصار على البيزنط ، والحقيقة ان ازدياد القوة العسكرية البيزنطية على أيام السلالة المكدونية ، وحملات الجيش البيزنطى المؤثرة على أعماق سوريا ، جعلا تحقيق هذا الهدف غير ممكن . ولكن الحقائق التاريخية تؤكد أن أول من فكر فى فتح الاناضول هم السلاجقة .

وفى ١٠١٥ ، أجرى سلجوق أوغلو جغرى بك أول حملة أناضولية تعرف فيها على مقاومة البيزنط فى الأناضول الشرقية ، وفى هذه الحملة هزم سلجوق أوغلو قتالمش بك الجيشَ البيزنطى فى حرب باسينلر Pasinler الميدانية قرب أرضروم ، وأسر القائد العام Liparit مع ١٠٠٠٠٠ بيزنطى (١٨ / ٩ / ١٠٤٩) ، وأرسل الامبراطور البيزنطى فدية إلى الخاقان الأكبر أرطغرل بك (وهو أخو جغرى بك وعم قتالمش بك) لاعادة Liparit . إلا أن أرطغرل بك أعاد الفدية ووعد باطلاق سراح لباريد مقابل إعادة فتح الجامع الذى أغلق فى استانبول لعبادة المسلمين المقيمين فيها ، وقد تم بالفعل فتح الجامع وتلى فيه اسم أرطغرل بك بعد اسم الخليفة العباسى .

جاء أرطغرل بك بنفسه إلى الأناضول فى ١٠٥٤ ، وأخذ قلعة بايبرت Bayburt ووقف أمام قلعة ملازغرت Malazgirt لكنه لم يوفق فى إسقاطها ، فعاد بعد تجواله حول محيط بحيرة وان .

قام ملوك السلاجقة وأمراء الأتراك بترتيب غزوات على الأناضول فى كل سنة تقريبا وأخذوا يتقدمون فى غزواتهم نحو الغرب .

كان هذا الوضع عند وفاة أرطغرل بك فى ١٠٦٣ ومجىء خلفه ابن أخيه سلطان ألب – أرسلان بن جاغرى بك .

أخذ أفشين بك أحد أمراء (بك) السلجوقيين ، قيصرى بعد أن هزم الجيوش البيزنطية فى ١٠٦٦ فى حصن منصور (آدى يامان) وفى السنة التالية قرب ملاطية . دخل أفشين بك التابع لأمر سليمان – شاه بن قتالمش بك الموجود فى آذربيجان ، إلى قونية فى ١٠٦٩ ، وبعد أن هزم فى السنة التالية قرب نهر قيزل ايرمق الأمير Manuel Komnenos تقدم إلى دنيزلى ، وأدخل وحداته الطليعية حتى بحر إيجه ومرمرة .

وبعد هذه الغزوات التى كسرت قدرة البيزنط الدفاعية من الناحيتين الاقتصادية والعسكرية ، أرسل افشين بك تقريره حول مواتاة الفرصة لفتح الأناضول إلى قائده سلجوق أوغلو سليمان – شاه والى الخاقان الأكبر السلطان ألب – أرسلان .

دخل ألب – أرسلان فى صيف ١٠٧٠ إلى الأناضول وأخذ مدينة ملازغرت ، وانتقل منها إلى عامد (دياربكر Diyarbakir) وبقى مدة فى هذه المدينة التى يحبها كثيرا . ورغم جهوده التى دامت مدة ٥٠ يوما ، لم يتمكن من إسقاط قلعة أورفه البيزنطية ، فجاء إلى حلب واستراح فيها وغادر الأناضول عن طريق عامد – بتلس – أخلاط ، مصمما على أن يعاود الكرة فى السنة القادمة .

٤٧) وقعة ملازغرت الميدانية (٢٦ آب ١٠٧١)

تقابل السلطان ألب – أرسلان ، وجيشه البالغ ٥٠٠٠٠ جندى مع جيش امبراطور البيزنط Romanos Diogenes البالغ عدده ٢٠٠٠٠٠ جندى أمام سفوح قلعة ملازغرت صباح يوم الجمعة الموافق ٢٦ آب . أباد السلطان ألب – أرسلان الجيش البيزنطى وأسر الامبراطور .

من بين أسباب الانتصار التركى ، تشكيل الجيش البيزنطى من عناصر متعددة لايعرف أحدها لغة الآخر ، وانتقال الوحدات الأجيرة الناطقة بالتركية كالبجنك Peçenek والأوز Uz التى لم تدخل الإسلام بعد – إلى صفوف السلاجقة قبل الحرب بمدة وجيزة ، كما أن مشاة البيزنط لم تدرك قصد مناورات الخيالة التركية والوحدات التركية التى استهدفت غش العدو . أمر السلطان ألب – أرسلان ابن أخيه قتالمش أوغلو سليمان – شاه بفتح الأناضول بعد واقعة ملازغرت .

تعد واقعة ملازغرت إحدى الحوادث الأم فى التاريخ ، التى أسفر عنها تحول الأناضول إلى أراض إسلامية ووطن ثان ، كما تعد هذه الواقعة كذلك إحدى الحوادث السياسية فى تأسيس الدولة التركية وتكوين الحملات الصليبية ، وعلى العموم يمكن النظر اليها على أنها كانت الحادثة التى هيأت الأسباب لولادة الدولة العالمية العظمى ، العثمانية .

(٤٨) تأسيس الدولة التركية (١٠٧٤) :

فتح الغازى سليمان – شاه الأناضول بسرعة . جاء إلى اسكدار وإلى الضفة الأناضولية من البوغاز واستشرف قبه اياصوفيا . أرسل السلطان ملكشاه بن ألب

أرسلان – الذى اعتلى العرش حديثا فى نهاية العام ١٠٧٤ – إلى سليمان – شاه منشور سلطنة الأناضول .

تأسست الدولة التركية وكانت مدينة العرش إزنك Iznik القريبة جدا إلى بحر مرمرة .

أخذ السلطان سليمان – شاه الأول مخرج البيزنط إلى أوربا تقريبا ، فاتح الأناضول ، بانى الدولة التركية وسلطانها الأول ، أنطاكيةَ من البيزنط (١٣ / ١٢ / ١٠٨٤) . جاء مئات الآلاف من الأتراك ، من الشرق واستوطنوا الأناضول مبتدئين بالمدن أولا ، مات سليمان – شاه (٥ / ٦ / ١٠٨٦) فى حرب مع ابن أخيه (سلطان قطلش بن ألب – أرسلان) قرب حلب . خلفه ابنه الطفل قيليج – أرسلان الأول .

كان سليمان – شاه قد ولى على أزمير التى فتحها .

يعتبر الأميرال جقا بك فى ١٠٨١ ، هو المؤسس لأول أسطول تركى فى التاريخ . ذلك أن الأتراك حتى ذلك التاريخ كان يشتهرون بقوة جيوشهم ، ولم يكونوا يهتمون بالبحر .

تعتبر تركيه هى الدولة الوحيدة التى اهتمت بالبحر. أمر جقا بك بصنع ٤٠ سفينة حربية فى أزمير ، فتح جزر ايجه (ساقز ، مديللى ، رودس ، سيسام .. الخ) .

٤٩) الحملة الصليبية الأولى (١٠٩٦ – ١٠٩٩) وسلطان قيليج – أرسلان الأول (١٠٨٦ – ١١٠٧) :

تشير جميع الشواهد ومن بينها وصول الأتراك إلى المضائق : مرمرة وإيجه فى حملة واحدة ، إلى أنهم سوف يفتحون البيزنط وأن البيزنطيين سوف لا يتمكنون من صدهم ، قد ولد هذا الهياج فى أوربا . فالمرابطون فى أسبانيا والأتراك فى الأناضول قبضا على خناق أوربا من جانبيها وكانا يخنقان العالم المسيحى الذى كان متدهورا من الناحية الاقتصادية ، وقد ولد هذا الهياج فى أوربا ولذا تشكلت الحملة الصليبية الأولى .

جاءت القوة المسيحية التى تجمعت من هنا وهناك ، والتى تقدر بـ ١٥٠٠٠٠ شخص ، إلى منطقة قريبة من إيزنك مدينة عرش تركيا ، فأفناها السلطان قيليج – أرسلان . اتحدت الموجة الثانية من الحملة الصليبية الأولى ، التى تبلغ نحوا من ٦٠٠٠٠٠ مسيحى ، مع الجيش البيزنطى وعبرت إلى الأناضول . كانت الدولة التركية فتية جدا . لم يكن عمرها قد بلغ ربع القرن . ولم يكن من الصعب على قوة صليبية كهذه ان تقلع الأتراك من الأناضول وتخرجهم وتطاردهم حتى إيران . استسلمت إيزنك ونقلت العاصمة التركية إلى قونية . جابه السلطان قيليج – أرسلان ، الجيش الصليبى فى اسكيشهر (٣٠ / ٦ / ١٠٩٧) ، حيث جرى قتال دموى شديد ، لم يتمكن جيش السلطان من إفناء جيش العدو . استخدم البادشاه السلجوقى مع العدو حرب العصابات وكبدهم خسائر جسيمة .

خسر الصليبيون أثناء خروجهم من الأناضول نصف مليون شخص ، وتركوا الأناضول متوجهين لاحتلال أنطاكيا ، والقدس مع ١٠٠٠٠٠ شخص فقط . استرجع البيزنط الذين استفادوا من هذا الوضع من الأتراك كامل إيجه ومرمرة وسواحل البحرين الأبيض والأسود .

اضطرت الدولة التركية ــ التى أزيحت عن البحار ــ إلى الدخول فى صراع طويل الأمد لاستعادة منافذها على البحار .

تمكن قيليج – أرسلان الأول من الحفاظ على كيان واستقلال الدولة التركية .

أخذ الموصل ، ولكنه غرق أثناء عودته مع حصانه فى النهر ودفن فى ميافارقين (Silvan) . خلفه ابناه : السلطان ملك شاه (١١٠٧ – ١١١٦) ، وعلى أثر وفاته فى سن الـ ٢٠ خلفه مسعود الأول .

٥٠) السلطان مسعود الأول (١١١٦ – ١١١٥) والحملة الصليبية الثانية (١١٤٧ – ٤٩)

جلس السلطان مسعود حفيد سليمان شاه الأول (الذى مات وعمره ٤١ سنة) ، وابن قيليج أرسلان الأول (الذى مات وعمره ٣٤ سنة) على العرش وهو فى الـ ١٨ من عمره ، فى الوقت الذى كانت لاتزال التأثيرات السيئة للحملة الصليبية الأولى مستمرة ، وكانت تركيا قد حرمت من النفاذ إلى البحار ، وكانت

الدولة اللاتينية (الكاثوليكية) التى تكونت فى الأناضول ، سوريا ، وفلسطين ، قد أصبحت بلاء مسلطا على العالم الإسلامى ، فقد اكتسب البيزنط قوة وباتوا ينتظرون الفرصة المناسبة .

قَدِمْ عشرات الألوف من الأتراك سنويا من الشرق وسكنوا فى الأراضى الأناضولية ، وكان الإقطاعيون الأتراك فى الأناضول الذين يعترفون بتبعيتهم للدولة السلجوقية الأناضولية ، أى للسلطنة التركية ، قد أصبحوا وكأنهم حكام مستقلون . وخلال هذه الأزمة ، تكونت الحملة الصليبية الثانية .

تقدم امبراطور ألمانيا Konrat الثالث مع جيشه البالغ ٧٥٠٠٠ شخص إلى حدود سهل قونيه . أفنى مسعود الأول الصليبيين الذين اصطدم معهم فى الحرب الثانية الميدانية اسكيشهر (٢٥ / ١٠ / ١١٤٧) . لجأ الامبراطور مع ٥٠٠٠ من جنده إلى إيزنك . دخل الأناضول بعده ملك فرنسا لويس ٧ مع ١٥٠٠٠٠ جندى ، ولما لم يكن جيش السلطان مسعود بالعدد الذى يمكنه من التغلب على هذه القوة فى معركة ميدانية ، فقد فضل الانسحاب على احتمال التفريط فى مستقبل دولة تركيه الفتية ، ومارس حرب العصابات مع الصليبيين أثناء اجتيازهم جبال طوروس وكبدهم خسائر فادحة .

انسحب ملك فرنسا من الأناضول . توفى مسعود الأول بعد سلطنة دامت ٣٩ سنة وعمره ٥٧ سنة ، فخلفه ابنه قيليج - أرسلان وعمره ٣٩ عاما وهو خامس حكام تركيا .

٥١) قيليج أرسلان الثانى (١١٥٥ - ١١٩٢) ، مريوكفالون (١١٧٦) والحملة الصليبية الثالثة (١١٨٩ - ١١٩٢)

أخضع السلطان قيليج أرسلان الثانى الأمراء الاقطاعيين فى الأناضول تحت سيطرته وألغى وصفى بعض الاقطاعيات واستخدم سياسة إعمارية واسعة فى الأناضول .

تمكن بسياسته الحكيمة من إسكان ملايين الأتراك الذين قدموا إلى ذلك التاريخ ، فعمّر المدن الصغيرة الفقيرة وحولها إلى مدن كبيرة .

بدأ البيزنط الذين شاهدوا تزايد قوة تركيا الفتية واستيطانها فى الأناضول ، بصورة تامة ، باتخاذ التدابير .

دخل الامبراطور Manuel Komnenos الأراضى التركية . واجه قيليج أرسلان الجيش البيزنطى فى موقع مريو كفالون Miryokefaion على مقربة من شمال بحيرة اغريدر Egridir وهزمه شر هزيمة (١٧ / ٩ / ١١٧٦) .

أمر الخليفة فى بغداد بإقامة احتفالات كبيرة والدعاء لأرواح الشهداء الأتراك فى خطبة الجمعة .

أصبح من الثابت عدم إمكان هدم الدولة التركية وعدم إمكان إزاحة الأتراك من الأناضول ، ولم يحاول أحد بعد ذلك التاريخ أن يقوم بشىء من هذا القبيل .

لكن موجات الحملة الصليبية الثالثة . اصطدمت بالأناضول مرة أخرى ، وذلك عندما دخل امبراطور ألمانيا فريدريك بارباروسا Friedrich Barbarossa الأناضول مع ٢٠٠٠٠٠ جندى ومعهم ٤٠٠٠٠٠ من شذّاذ الآفاق ، وجاء إلى قونية . وبعد أن تكبد خسائر جسيمة ، تقدم فى سواحل البحر الأبيض ومات غرقا فى النهر ، وبقى فى الأراضى الأناضولية ، وبينما انشغل السلطان التركى ى دفن الامبراطور الألمانى ، كان صلاح الدين الأيوبى يقاتل ملوك إنجلترا وفرنسا فى فلسطين .

٥٢) أبناء قيليج أرسلان الثانى (١١٩٢ - ١٢١١)

توفى قيليج أرسلان الثانى وهو فى سن ٧٦ ، فخلفه أصغر أبنائه كيخسرو الأول (١١٩٢ - ١١٩٦) ، ثم كبير أبنائه سليمان شاه الثانى (١١٩٦ - ١٢٠٤) ، وعلى أثر وفاته ــ وهو فى سن ٥٤ ــ اعتلى العرش كيسخرو الأول مرة أخرى (١٢٠٥ - ١٢١١) ، حيث استشهد وهو يجابه البيزنط وعمره ٤٢ سنة . ولقد اقتفى هذان الحاكمان المهمان أثر أبيهما فى إزاحة بيزنط من الأناضول على قدر الإمكان ، كما نفذا إلى سواحل البحر الأسود مرة أخرى ، وعلى رأس المنافذ التى حازاها مدينة صمصون .

٥٣) كيكاووس الأول (١٢١١ - ١٢١٩) وعلاء الدين كيكباد (١٢١٩ - ١٢٣٧) :

جلس على العرش التركى بعد غياث الدين كيخسرو الأول ، السلطانان التاسع والعاشر فى التاريخ التركى ، وهما أكبر أبنائه عزالدين كيكاووس الأول وعلى أثر وفاته فى سن ٣٥ أعتلى العرش أخوه علاء الدين كيكباد .

استولى كيكاووس على سينوب وأسس فيها معملا للسفن وأسطولا للبحر الأسود . أصبحت امبراطورية طرابزون البيزنطية تحت السيادة التركية . يطلق على أخيه السلطان كيكباد لقب « علاء الدين الكبير ، علاء الدين المعلى » وهو فى تركيا السلجوقية ، بمثابة السلطان سليمان القانونى فى تركيا العثمانية . امتاز عهده بالرفاهية وزيادة العمران وتطور التجارة وتنمية الصناعة وتقدم الزراعة استطاع أن يجعل من تركيا أغنى بلد فى العالم . وقد كان ذلك بسبب سياسته العسكرية الراجحة ودبلوماسيته المتفوقة .

أرسل أسطولا إلى قرم وأخضعها للسيادة التركية ، وارتبطت الملكية الأرمنية فى كليكيا ، بقونية بروابط اكثر متانة ، كما قوى السلطان علاء الدين علاقته بالعالم الإسلامى بمصاهرته السلطان الأيوبى الملك العادل .

ألغيت الامارات الاقطاعية التركمانية فى الأناضول واستعيض عنها بإدارات من الولاة يتم تعيينهم مركزيا .

أخذت من البيزنط جميع سواحل البحر الأسود المنحصرة بين أركلى وأونيه (كانت السواحل البيزنطية تبدأ اعتبارا من غرب قره دنيز اركليسى وسواحل امبراطورية الروم فى طرابزون شرقى اونيه)تم اخضاع امبراطورية طرابزون للسيادة التركية ، وارتبطت بها بروابط متينة .

خلال هذه الأيام ، وكمغامرة دخل خاقان أتراك الشرق (تركستان) جلال الدين خوارزم شاه إلى الأناضول ، فخرج إليه خاقان أتراك الغرب (تركية) وقابله قرب ارزنجان وأخرجه من الأناضول (الحرب الميدانية ياصى جمن ١٠ / ٨ / ١٢٣٠) . وفى هذه الحرب ، كان بك أخلاط أرطغرل بك موجودا فى جيش علاء الدين كيكباد أى فى الجيش التركى . ارطغرل بك هو أبوعثمان غازى الذى

يعتبر مؤسس الدولة العثمانية . وقد وضع السلطان السلجوقى حجر أساس الدولة العثمانية بمنحه ارطغرل أراضى على الحدود البيزنطية ، مكافأة لخدماته فى هذه المعركة .

وصل السلطان علاءالدين إلى أرضروم . أعلن ملكا حلب والشام الأيوبيان ، إنهاء تبعيتهما للسلطان الأيوبى فى مصر وأعلنا خضوعهما للسلطان علاء الدين كيكباد .

استولى علاء الدين الذى اتخذ لقب « سلطان الأعظم » وأعلن أنه الخلف الشرعى للسلطانين الأيوبى والسلجوقى على سواحل البحر الأبيض اعتبارا من خليج فينيقيا **Finike** نحو الشرق . وأسس فى علائية (آلانيا) مصنعا للسفن وأسطولا للبحر الأبيض . أخضع المناطق المحيطة ببحيرة وان ، وقبل تابعية آتابك الموصل وأربيل . كان ملوك الأيوبيين فى ميافارقين **(Silvan)** وحصن كيفاء **(Hasankeyf)** وملوك أرتقلو فى ماردين تابعين لقونية .

اضطرب السلطان الأيوبى - الأكبر فى مصر ، استصحب معه ١٦ ملكا أيوبيا وحاول دخول الأناضول مع ١٠٠٠٠٠ شخص ولكنه خسر وانسحب ، صادق الخليفة العباسى فى بغداد بصورة رسمية على لقب السلطان الأعظم « أعظم سلطان إسلامى » ، الذى أطلق على علاء الدين . فى نفس الوقت شعر البادشاه العثمانى باقتراب الخطر المغولى فرفع ميزانية الدفاع السنوية إلى ١٠٠ مليون دينار ذهبى ، وكانت هذه أكبر ميزانية عسكرية فى العالم . مات مسموما وعمره ٤٥ سنة . ولم يفلح السلاجقة بعد ذلك ، وبدأ الانحطاط فى فترة غير متوقعة أبداً ، مع مجىء ابنه الذى خلفه غياث الدين كيخسرو (١٢٣٧ - ١٢٤٦) .

٥٤) بنو سلجوق الأخيرون (١٢٣٧ - ١٣٠٨) :

آخر خاقانات تركية من بنى سلجوق هم كيكاووس الثانى (١٢٤٦ - ١٢٥٦) (١٢٥٧ - ١٢٦١ وفاته ١٢٧٨) بن كيخسرو الثانى ، ثم ابنه قيليج أرسلان الثالث (١٢٥٦ - ١٢٥٧) (١٢٦١ - ١٢٦٦) ، ثم ابنه كيخسرو الثالث (١٢٦٦ - ١٢٨١ - وفاته ١٢٨٣) ، وكيكباد الثالث (١٢٩٧ - ١٣٠٢) وغياث الدين مسعود الثانى . توفى مسعود الثانى (١٢٨١ - ١٢٩٧) (١٣٠٢ - ١٣٠٨) بن كيكاووس الثانى وعمره ٥٠ سنة فى سراى قيصرى .

كان من أهم أسباب تهيئة الجو لاضمحلال الدولة التركية الاستيلاء المغولى ، بالاضافة إلى عدم كفاءة السلاطين ، وقلة الوزراء الحريصين ، وقلة المخلصين منهم .

وكذلك الحكام الذين ارتقوا العرش وهم فى سن الطفولة .

فر الجيش السلجوقى أمام الجيش المغولى فى كوسه داغ شرقى سيواس (٣ / ٧ / ١٢٤٣) ، ولكنه لم يدخل تحت سيطرة المغول حتى ١٢٧٦ . حيث سقط تحت سيطرة المغول (الايلخانيين) التامة اعتبارا من ١٢٧٦ واستولى المغول على الأناضول .

٥٥) الدولة التركية فى الأناضول فى عهد السلاجقة :

عاشت بعض الدول التركية التابعة لخاقانية تركية التى سلف وصفها فى الأراضى الاناضولية تحت سيطرة السلالات التركمانية : بنى دانشمند (١٠٩٥ – ١١٧٥) . [الذين اتخذوا مدن نكسار ، ملاطية ، قيصرى ، سيواس كعواصم] ، وبنى سلتوق Saltukogullari (١٠٨٠ – ١٢٠١) فى أرضروم ، وبنى منكجك Mengucekogullari (١٠٧١ – ١٢٥٢) [الذين اتخذوا مدن ارزنجان ، كماه ، ديوريكى عواصم] ، وبنى سكمن Sokmenogullari (١٠٩٨ – ١٢٣١) بنى ارتق Arlukogullari (ينتسب إلى هذه السلالة بلك بك المشهور الذى سقط شهيدا فى جهاده ضد الصليبيين) وايلغاز (١١٠٤ – ١٤٠٧) فرع بنى ارتق فى ماردين ، بنى سكمن (١١٨٥ – ١٢٣٣) فرع بنى ارتق فى خربوتة ، وملوك الأيوبيين (١٢٠٠ – ١٢٥٩) فى ميافارقين (حاليا سلفان) ، وأتابكات آخلاط (١١٠٠ – ١٢٠٧) الذين يطلق عليهم اسم أرمن – شاهيّون ، واتابكات دياربكر (١٠٩٥ – ١١٨٣) الذين يطلق عليهم اسم بنى اينان ، والسوتاى (١٣١٢ – ١٣٥٠) الذين اعقبوهم فى عامد (اسمها الحالى دياربكر) . واكثرية هؤلاء قضى عليهم السلاجقة .

٥٦) الإمارات الأناضولية :

تزايد الأمراء التركمان الذين يطلق عليهم اسم أوج بك (أمراء الايالات الحدودية) بعد خضوع الامبراطورية التركية لسيادة الايلخانيين واسس كل منهم

سلالة حاكمة أدت دورا فى صيانة الحدود التركية - الإسلامية تجاه البيزنط والمسيحيين فى الأناضول الغربية ، وقد كان هؤلاء حتى عام ١٣٠٨ أمراء تابعين لسلطة البادشاه المقيم فى قونية (وأحيانا فى قيصرى) .

لم يتوج الايلخانيون بعد وفاة مسعود الثانى فى ١٣٠٨ ، ملكا سلجوقيا على العرش التركى ، وإنما كان آمراء (بكّات) التركمان هؤلاء يتبعون ايلخان المقيم فى تبريز مباشرة ، وتحت رقابة والى الأناضول العام الايلخانى المقيم فى أناضول الوسطى أو الشرقية .

دام هدا الوضع حتى عام ١٣٣٥ ، وعندما بدأت الدولة الايلخانية فى الانهيار (انهارت تماما فى ١٣٤٤) ، صارت الامارات الأناضولية مستقلة تماما . انقسمت الأناضول إلى دول متعددة وأصبحت مشابهة لألمانيا القرون الوسطى .

وهكذا انفصم الاتحاد التركى ، واستمر الوضع على هذا المنوال حتى مجىء العثمانية واخضاع هذه الامارات والقضاء عليها الواحدة تلو الأخرى .

من ناحية أخرى كانت هنالك فى الأناضول ، أراضٍ لدول أخرى أيضا ، مثل مناطق : انطاكية ، عنتب ، مراش ، ملاطية ، حصن منصور (حاليا آدى يامان) ، كانت تابعة لمماليك مصر - سوريا ، واقصى الأناضول كان تابعا للجلائريين الذين خلفوا الايلخانيين ، ولاصحاب الخرفان السود ، ولاصحاب الخرفان البيض وإلى ملوك الارتوقيين والأيوبيين الذين يبقون على كيانهم ، وكانت الامبراطورية الرومية قائمة فى مناطق طرابزون ، ريزه ، أرتفين ، والموانىء كاماسرا ، صمصون ، بيغا كانت فى حوزة الجنويين . أما البيزنط فقد بقيت لهم أراض قليلة فى الأناضول ، إذ إن السلالات التركمانيةفى الأناضول الغربية ، فتحت الأناضول الغربية واخرجت البيزنط منها كما اخرجتهم من البحر الأبيض وايجه . ان إمارات بنى بروانه Pervaneogullari (١٢٧٧ - ١٣٢٢) ، بنى جوبان çobanogullari الأمير الكبير لقطاع شمال الأناضول الغربية المتاخم لحدود البيزنط فى قسطمونى (١٢٠٤ - ١٣٢٠) ، ارتنا أوغللرى Eretnaogullari فى سيواس وقيصرى (١٣٢٧ - ١٣٨٠) وقاضى برهان الدين الذى احتل مكانهم وأسس دولة قوية فى القطاع الشرقى من أناضول الوسطى (١٣٨٠ - ١٣٩٨) - لاتعتبر من الامارات التركمانية الأصلية للأناضول الغربية .

أهم السلالات التركمانية الأصلية التى سميت الامارات الأناضولية باسمها هى :
بنو قرة مان (١٢٥٠ - ١٤٨٧) الذين اتخذوا بين فترة وأخرى مدن أركلى ، أرمنك ، لارندة (حاليا قرة مان) وقونية .. عواصم لهم . اشتهر قره مان أوغلو محمد بك الأول باعلانه فى ١٣ آيار ١٢٧٧ فى مدينة قره مان ، اللغة التركية ، اللغة الرسمية الوحيدة المعتبرة . حيث قد أكثر بنو سلجوق من استعمال الفارسية فى الشعر والعربية فى المعاملات الرسمية ، ولم يكن للشعب معرفة بهاتين اللغتين .

بلغ الحد الأقصى الذى توصل إليه توسع بنى قره مان (نحو ١٣٦٠) ١٠٠٠٠٠ كم[٢] تقريبا . وقد عاشوا مدعين انهم الورثة الشرعيون للسلاجقة وإن كانوا لم ينجحوا فى جعل هذا الإدعاء مقبولا .

بنوجرميان Germiyanogullari (١٢٦٠ - ١٤٢٩) ، وهؤلاء كانوا أمراء حدود كبارا للقطاع الجنوبى من الأناضول الغربية المتاخم للبيزنط . قاعدتهم كوتاهية ، حدهم الأقصى فى التوسع هو ٤٤٠٠٠ كم[٢]

بنو قراسى Karasiogullari (١٣٠٣ - ١٣٤٥) ، أقصى ماحكموا من الأراضى ٢٤٠٠٠ كم[٢] . مركزهم بالكسير . قواعد بنى آيدن Aydinogullari (١٣٠٠ - ١٤٥٥) هى آيدن (قديما كوزل حصار) ، برغى ، أيا سلوغ وزامير ، أقصى مساحة توصلوا إليها ٢٠٠٠٠ كم[٢] . وقد أسس آيدن أوغلو غازى عمر بك أسطولا كبيرا وسيطر على بحر إيجه . وحقق هجمات بحرية كثيرة على الجزر واليونان ، وتراقيا وأنزل فيها جيوشه ، واستشهد فى أزمير أمام الصليبيين فى ١٣٤٨ .

بنو صاروخان Saruhanaogullari (١٣٠٠ - ١٤١٠) ، بلغت مساحة مملكتهم ١٤٠٠٠ كم[٢] ، قاعدتهم مانسيا .

بنو منتشه (١٢٨٠ - ١٤٢٦) أقصى مساحة توصلوا اليها فى حكمهم ٢٣٠٠٠ كم[٢] فى بجين وبالاط ، استمر حكمهم فى ولاية مغلا الحالية .

بنو أشرف Esrefogullari (١٢٨٠ - ١٣٩١) ١٦٠٠٠ كم[٢] ، قواعدهم أولوبورلو ، أغريدر ، حامد آباد (حاليا اسبارطه) وأحد فروعهم بنو تكه Tlekeogullari (١٣٠٠ - ١٤٢٣) ١٤٠٠٠ كم[٢] فى أنطالية وقور قودايلى .

بنو اينانج Inançogullari (١٢٧٦ - ١٣٦٨) ، فى لادك (حاليا دنيزلى) ٨٠٠٠ كم٢ وهم فروع من بنى كرميان .

ومن الإمارات التى تستحق الذكر الإمارة التى سميت فى البداية جاندار أوغللرى ثم اسفنديار أوغللرى (١٢٩١ - ١٤٦١) وسعتها العظمى ٥٠٠٠٠ كم٢ قواعدها افلانى ، قسطمونى وسينوب .

تاج الدين أوغللرى (١٣٠٨ - ١٤١٥) بلغت سعتها العظمى ١٢٠٠٠ كم٢ قاعدتها نكسار .

قوتلوشاهلر (١٣٤٠ - ١٣٩٣) ، سعتها العظمى ٥٠٠٠ كم٢ فى آماسيا .

راحت أوغللرى ، فى سيواس خلال القرن ١٣ - ١٤ .

جمهورية آخيلر فى أنقرة (١٢٩٠ - ١٣٥٤) .

بنو دلقادر Dulkadirogullari (١٣٧٧ - ١٥٢٢) حدها الأعظم فى الاتساع ٧٠٠٠٠ كم٢ فى البستان وقد تبعت المماليك حتى ١٣٩٩ ، وبعدها تبعت العثمانية ، دام حكمهم على شكل إمارة حاجزة بين الدولتين الكبيرتين . تصاهر دلقادر أوغللرى مع العثمانيين بعدد كبير كبنى جاندار وبنى قرة مان . وعلى سبيل المثال فإن عائشة خاتون والدة السلطان سليم الذى أدمج السلطنة المملوكية فى الدولة العثمانية ، أميرة دلقادرية .

بنو رمضان Ramazanogullari (١٣٥٢ - ١٦٠٨) ، إمارة أخرى حاجزة بين المماليك والعثمانية . حدها الأعظم فى الاتساع ٣٣٠٠٠ كم٢ ، حكمت فى البستان وبعد ١٣٨٣ فى أدنة . سيطرت على جقوراوفا . خضعوا للمماليك حتى عام ١٥١٦ . استمروا بعد ذلك كولاة للعثمانية .

استمرت هذه الإمارات بدخول معظمها فى خدمة العثمانية ، ولايزال بعضها الآخر مستمرا حتى يومنا هذا .

٥٧) الحياة الثقافية فى تركيه السلجوقية :

عاش كل من مولانا جلال الدين الرومى (١٢٠٧ - ١٢٧٣) ، وحاجى بكتاش ولى (١٢٠٩ - ١٢٧١) ، ويونس أمره (١٢٤٠ - ١٣٢٠) فى تركيا

السلجوقية . تأسست فى الأناضول فى هذا العصر طريقتان كبيرتان كالمولويه والبكتاشية تخاطب إحداهما المثقفين وتخاطب الأخرى الشعب .

جادت قريحة يونس امره بأجمل نماذج الشعر الصوفى ، ومن الناحية الأخرى نشأ وتطور الشعر الكلاسيكى التركى ، ويعتبر دهانى أكبر شاعر كلاسيكى تركى فى القرن ١٣ ، وقد جاء من خراسان ، وسكن فى قونية .

أما المؤسس الحقيقى للطريقة المولوية فهو سلطان ولد (١٢٢٦ - ١٣١٢) ابن مولانا ، ويعتبر عاشق باشا (وفاته ١٣٣٧) من بين الشخصيات الممتازة التى كتبت الشعر الصوفى التركى .

نصر الدين خوجا (خواجا نصر الدين) (١٢٠٨ - ١٢٨٤) الذى يعتبر داهية المزاح التركى ، من رجال العصر ذاته .

أحمدى (١٣٣٤ - ١٤٣٣) من الذين نهضوا بالشعر الكلاسيكى وخاصة فى أغراض الغزل والمثنوى .

وأخيرا ، نسيمى الذى أعدم فى السنوات الأولى للقرن ١٥ لكونه حروريا . من أصحاب الشعر الصوفى الوجدانى الذين ظلت اشعارهم تتلى فى العالم التركى لعصور طويلة .

وكتاب ده ده قورقود الجامع والذى يحتوى على ١٣ حكاية ملحمية يعتبر من روائع الأدب التركى الكبرى ، وقد حرر باللغة الكتابية فى أواخر القرن ١٥ ، غير أنه مشبع بعناصر التراث .

كان الأتراك الذين استوطنوا فى الأناضول وأسسوا الدولة التركية ، ينطقون بلهجة أوغز (أو الغرب) التركية . انقسمت هذه اللهجة فى أواخر القرن ١٥ إلى ٣ لهجات : اللهجة العثمانية أو الأناضولية أو التركية ، اللهجة الآذرية ، واللهجة التركمانية . أما لهجة أتراك الشرق الأدبية ، فكانت لهجة جغتارى ، واستعملت حتى نهاية القرن ١٩ .

وقد كونت اللهجات المحلية كذلك ، أدبا جديدا فى القرن ١٩ . وحتى العصر ١٥ ، سميت اللغة المستعملة فى الأدب التركى فى تركيا (لغة) أناضول القديمة ثم التركية (اللغة) العثمانية .

لقد حاولنا فيما تقدم أن نرصد ونوضح الخطوط الرئيسية للتاريخ التركى غير العثمانى ، ولاشك فى أن ذلك يمثل فائدة ، بل مدخلا ضروريا هاما قبل البدء في تناول التاريخ العثمانى . وتزداد هذه الفائدة والضرورة وضوحا بالنسبة للقراء الأجانب والمثقفين .

مصادر الكتب . إن مصادر الكتب بالنسبة للدول التركية الإسلامية ، متنوعة جدا وغنية جدا ، ولعدم تعلقها بموضوعنا فقد تحاشينا كتابتها . ومعظم المصادر لفترة قبل العثمانية من تاريخ تركية مدون باللغة العربية الفارسية واليونانية ، أما البحوث فمعظمها باللغة التركية ، وهى عبارة عن الكتب التى نشرت فى السنوات الأخيرة . وسوف تأتى مصادر الكتب لفترة تركية قبل العثمانية فى نهاية كتابنا ضمن مصادر العثمانية وضمن بحث بداية العثمانيين .

البحث الثانى

ظهور العثمانية وتطورها

(١٣٣١ - ١٤٥٣)

ظهور العثمانية وتطورها (١٢٣١ - ١٤٥٣)

١) منشأ بني عثمان :

أرطغرل بك هو الشخصية الأولى – التى لدينا معلومات تاريخية عنها – من الأسرة التى سميت فيما بعد « عثمان أوغلو » (بنوعثمان) .

أرطغرل بك هو : أرطغرل بن كندز ألب بن قايا ألب بن كوك ألب بن صارقوق ألب بن قايى ألب . وهذه هى شجرة أرطغرل بك الافتراضية ، ومن المعلومات المؤكدة انه ينحدر من القبيلة الأولى من قبائل أوغز البالغة ٢٤ ومن عائلة بكات إحدى عشائر قايى التى تعتبر سلالة خاقانية ، ومن المعلومات المؤكدة أيضا أن أباه وأجداده هم بكات (أمراء) هذه العشيرة . ومذهب الأسرة هو المذهب السنى الحنفى .

يقال أن القصة التى شاعت أخيرا حول أن أول من اعتنق الإسلام من الأسرة هو أرطغرل بك وابنه عثمان بك ، قصة قد لفقت لاعلاء شأن العائلة .

من المحتمل أن قبيلة قايى ، التى تحتل الدرجة الأولى بين أجداد بنى عثمان ، هى من الأوغز Oguz الذين استوطنوا فى الأناضول الشرقية بعد انتصار ملازغرت مباشرة فى ١٠٧١ . إن الفرضية التى تقول بأن الاستيطان حدث نحو ١٢٢٠ على أثر زحزحة جنكيز الأوغزيين المقيمين فى الوطن الأعلى (تركمنستان الحالية وشمالها) من أماكنهم وإجباره إياهم على الفرار إلى الأناضول عن طريق إيران ، هى فرضية غير صحيحة ، حيث إن أجداد بنى عثمان سكنوا مدة طويلة فى أخلاط .

والمعروف أن بنى سلجوق عندما انتقلوا من ماوراء النهر إلى خراسان نحو عام ١٠٤٠ ، جاءت قبيلة قايى خان كذلك إلى ماهان جوار مرو . ويفترض أن هذه القبيلة قد انتقلت بعد ١٠٧١ إلى الأناضول الشرقية ، ومن المحتمل أن قايى آلب جد أرطغرل غازى كان على رأس قبيلة قايى عند القدوم إلى الأناضول (إذا كانت ولادة أرطغرل غازى فى ١١٩١ ، فإن الأمر يقتضى أن تكون ولادة قايى ألب فى ١٠٢٤) .

ومن حيث شجرة الأنساب العثمانية الرسمية ، فإن عثمان غازى بن أرطغرل غازى ، هو حفيد مته الذى يطلق عليه الأتراك اسم « أوغز خان » فى البطن الـ ٤٦ ، وبذلك يكون قايى ألب حفيده فى البطن الـ ٤٠ ، وإذا كان فرق السنين بين ولادة مته وعثمان غازى نحو ١٥٠٠ عام ، وإذا قسمت هذه المدة على ٤٦ يكون الناتج ٣٢,٥ سنة (١٥٠٠ ÷ ٤٦) فإن ٣٢,٥ سنة تعتبر مدة مثالية لنسل (بطن) واحد . (وفاة مته ، ١٧٤ ق . م) .

والمعروف أن عشيرة قايى قد سكنت فى المراعى المجاورة لاخلاط وأن هناك أحجارا وقبورا كثيرة لأجداد بنى عثمان الذين هم أمراء (بكات) عشائر قايى .

أخلاط قصبة تركية وبلدة مهمة من بلدان القرون الوسطى تقع على الساحل الشمالى - الغربى من بحيرة وان الكبرى فى شرق الأناضول (حاليا مركز قضاء فى ولاية بتلس) .

إن اسم والد أرطغرل بك هو كندز ألب ، ويبدو أن الروايات التى تقول بأن هذا الاسم هو سليمان شاه ، ضعيفة . والأرجح أن سليمان شاه هو ذكرى باقية من اسم فاتح الأناضول ومؤسس الدولة التركية ومن اسم أول سلطان لها ، وأن التفكير فى هذا الاسم قد نشأ ليكون اسما يربط بنى سلجوق ، ببنى عثمان ، خاصة أن بنى عثمان قد ظهروا على مسرح التاريخ مدعين أنهم الخلفاء الشرعيون لبنى سلجوق .

ومن المحتمل كذلك أن كندز ألب كان أميرا من الدرجة الثانية فى خدمة الملك المنصور ناصر الدين ارتق أرسلان ، الملك السادس لبنى ارتق ماردين . ومن المعلوم أن بنى ارتق أيضا ينحدرون كبنى عثمان من قبيلة قايى . ويحتمل أن قايى

بك جاء إلى الأناضول كأحد أمراء اكسيك أوغلو ارتق بك أحد فاتحى الأناضول .

وتدل المعلومات على أن عشيرة قايى قد تحركت من أخلاط نحو عام ١٢٢٩ ، ثم تركت أخلاط إلى جهة أخرى ، ومع أننا لانعرف سبب ذلك ، فإنه يحتمل أن لذلك علاقة بالاضطراب الذى أحدثه الاجتياح المغولى الذى وصل حتى أبواب الأناضول . ياترى هل دعيت العشيرة تحت قيادة كندز ألب بأمر من ارتق أرسلان الأمير الارتقى فى ماردين للانضمام إلى الجيش الارتقى للدفاع عن ماردين دون المغول أو جلال الدين خرزم شاه أو أيوبيى حلب ؟ ان احتمالا كهذا وارد كذلك . (المسافة بين أخلاط وماردين ، عبارة عن ٢٠٠ كم) .

ونحن لانعلم كذلك سبب هبوط كندز ألب من حوض بحيرة وان إلى حوض نهر دجلة ، ومجيئه من ماردين إلى مسافة ٢٥٠ كم (مسافة مستقيمة) إلى جوار قلعة جابر نحو الجنوب – الغربى من سواحل الفرات . يحتمل أن ذلك كان بناء على أمر من الملك الأرتقى ، خاصة أن من المؤكد أنه كانت هناك علاقة بين جابر وبنى عثمان .

أما بالنسبة للرواية الكلاسيكية التى تقول بغرق سليمان شاه أبى أرطغرل بك بحصانه أثناء عبوره الفرات قرب جابر ، فإنه لايمكن القطع بها ؛ فمنطقة جابر هذه تقع بين رقه ومسكنه ، وهذا المكان ليس بعيدا عن المكان الذى سقط فيه قتيلا فاتح الأناضول سلجوق أوغلو سليمان شاه (٥ حزيران سنة ١٠٨٦) ، كما أن قيليج أرسلان الأول بن سليمان شاه ثانى سلاطين تركيا ، قد غرق كذلك مع حصانه فى خابور رافد دجلة فى شرق تلك المنطقة أثناء عودته من الموصل (تموز ١١٠٧) ، ومن الأمور المحتملة كذلك أن يكون مبعوث كندز ألب قد هاجم الأيوبيين فى حلب وغرق فى النهر أثناء ذهابه إلى تلك المنطقة .

على كل حال فإنه من المعلوم أن الفرنسيين قد وافقوا على ترك الموقع المسمى تورك مزارى أى « القبر التركى » – قرب جابر ، للأتراك فى معاهدة لوزان ١٩٢١ ، ١٩٢٣ على الرغم من أنه يقع داخل الأراضى السورية ، كما سمح الفرنسيون للأتراك بحق رفع العلم التركى على هذا الموقع وحراسته بجنود أتراك .

إن قصة جابر مازالت قصة لايمكن القطع بصحتها ومن المحتمل أن تكون

القصة برمتها قصة ملفقة ، وعندئذ تكون عشيرة قايى قد جاءت من أخلاط رأسا إلى الشمال الشرقى إلى ارزنجان التى تبعد عنها ٢٧٠ كم .

وعموما فإن تمحيص الموضوع يمكن أن يوصلنا إلى نتيجة تبدو أكثر صحة وأقرب إلى المنطق ، فضلا عن أنه يمكن استنباطها من جميع الروايات التاريخية . تلك هى أن اسم أبى أرطغرل غازى على الأرجح هو كوندز ألب وان هذا الشخص توفى فى ١٢٣٠ أو نحو ذلك وترأس العشيرة بعده أرطغرل بك .

يقال إن أرطغرل غازى من مواليد ١١٩١ . وبذلك يكون عمره فى عام ١٢٣٠ ، ٣٩ وهى سن نضج . نجد أرطغرل فى الشمال على مقربة من ارزنجان التى تقع على مسافة ٤٣٠ كم من جابر . أكثر مما نجده فى ضفاف الفرات وسوريا .

يلاحظ أنه فى ١٠ آب ١٢٣٠ كانت ارزنجان ميدانا لإحدى أكبر الحروب فى القرون الوسطى ، حيث تقابل الجيشان الأخوان التركيان ، السنيان - الحنفيان : عندها اجتاز السلطان جلال الدين خاقان الترك الشرقيين وآخر سلطان خرزم - شاهى الذى طرده المغول من أراضى أجداده فى تركستان - حدودَ سلطنة تركية ودخل الأناضول وأخذ يتقدم فيها غير مبال بنصيحة السلطان علاء الدين كيكباد ، والتقى بجيش علاء الدين الكبير قرب ارزنجان حيث انكسر وترك أراضى الدولة التركية وابتعد عنها .

وقد يجدر أن نضيف إلى ما تقدم أن علاء الدين الكبير عندما دعا محاربين كثيرين للانضمام إلى الجيش الأناضولى ، كان من بين من سارع بتلبية هذه الدعوة أرطغرل وعشيرة قايى ، حيث شاركوا فى حرب ياصى جمن **Yassicemen** ، وهى حرب مهمة فى التاريخ التركى .

وتعتبر هذه من الحقائق التاريخية المستنبطة من الحكاية الموضوعة لاكساب السلالة العثمانية شرف الانضمام إلى الجانب السلجوقى وتأمين انتصار علاء الدين الكبير .

ومن الأمور المؤكدة أن أرطغرل غازى وعشيرة قابى قد اكتسبوا تقدير البادشاه التركى ، وكوفئوا على ذلك بتمكينهم من الحصول على أراض فى الغرب على

الحدود البيزنطية . ومما لاشك فيه أن أرطغرل بك لم يعامل كأحد الأمراء الكبار المرتبطين بالحاكم التركى وبقونيه . حيث يبدو أن عدد عشيرته لم يكن كبيرا جدا ، ولكن البادشاه السلجوقى منح أرطغرل غازى بك قطاعا حدوديا صغيرا جدا ليتمكن من صيانة الحدود وتوسيعها واعطى أرطغرل غازى لأمر أمير بنى جوبان ، الأمير الأكبر القطاع الشمالى من الحدود البيزنطية .

وهكذا أستوطن أرطغرل بك وعشيرة قابى فى القسم الشمالى – الغربى من الأناضول . وقد كان ذلك فى عام ١٢٣١ على أرجح الأقوال .

٢) أرطغرل بك (١٢٣١ – ١٢٨١) :

قطع أرطغرل بك من ارزنجان نحو الغرب ٩٠٠ كم (مسافة مستقيمة) وجاء اقطاعيته (بالتركية : ديرلك) . تقع الأراضى التى أعطيت له ولعائلته لادارتها والتى تسمى بالتركية « يورد » عند حدود اسكيشهر – بيله جك – كوتاهية من الجمهورية التركية الحالية . وتقدر مساحة هذه الاقطاعية بما بين ١٠٠٠ إلى ٢٠٠٠ كم٢ . وهكذا وضع حجر أساس الدولة العثمانية فى ١٢٣١ .

اكتسب طغرل بك لقب « غازى » نتيجة غزواته المستمرة ضد البيزنط.استطاع توسيع أراضيه خلال مدة نصف قرن قضاها كأمير (وال) على مقاطعة حدودية (بالتركية أوج بك Marquis) ، إلى ٤٨٠٠ كم٢ تقريبا . توفى فى ١٢٨١ وعمره ٩٠ سنة ودفن فى قصبة سوغت التى استولى عليها من البيزنط واتخذها قاعدة له . تضم الدولة التى خلفها أرطغرل بك ، بالنسبة للتقسيمات الإدارية الحالية ، بصورة تقريبية : سوغت وبوزيوك التابعة لولاية بيله جك ، اقضيه دومانج لولاية كوتاهية وناحية يارمجه الواقعة بين نهرى بورسك وسقاريا لولاية اسكيشهر ، والقسم الشمالى من أسكيشهر إذا ماتركنا مدينة أسكيشهر فى الخارج .

هذه هى معالم الإمارة التى دامت نصف قرن (٥٠ سنة) لغاية ١٢٨١ . ونستعرض فيمايلى الصفات المميزة لهذه الإمارة .

٣) الصفات المميزة للمقاطعة (الولاية) الحدودية العثمانية (اوج بكلك) :

كتب الشاعر نامق كمال بك الأبيات التالية :

نحن ذلك النسل الكريم من العشيرة العثمانية
أصولنا امتزجت بدم الشهادة من الرأس إلى القدم
نحن أصحاب همم عالية ، نحن اصحاب جد واجتهاد
استطعنا بذلك أن نكون دولة عالمية كبرى من عشيرة واحدة

تعكس أبيات نامق كمال بك عددا من الحقائق ، فقد كانت عشيرة قايى التى ينتسب اليها أرطغرل بك عبارة عن ٤٠٠ خيمة ، لايحتمل أن يزيد عددها على ٤٠٠٠ شخص بمن فيهم النساء والأطفال . وهؤلاء الذين كونوا نواة الدولة ، وانضم إلى هؤلاء فيما بعد ودخلوا تحت سيادة أرطغرل بك التركمانُ الذين قدموا بعد ذلك عندما اتسعت رقعة أرطغرل بك بالأراضى التى استولى عليها من البيزنط خلال نصف قرن ، كما اصبح من بين رعايا إمارته مسيحيون (روم) نتيجة الفتوحات .

يشكل التركمان الرحل القادمون ، القلبَ النابض فى المقاطعات الحدودية العثمانية وأمثالها ، وقد كان هؤلاء أكثر فعالية من الأتراك ذوى الثقافة الفارسية والعربية المستوطنين فى المدن الكبيرة فى الأناضول ، لقد كان هؤلاء التركمان محاربين جيدين ، يتلهفون إلى الجهاد والغزو ، ينتسب كل منهم إلى أحد شيوخ الطرق وإلى إحدى التكايا ، حيث تعلموا معنى وجاذبية وسمو « إعلاء كلمة الله » .

كان الشيوخ والدراويش (يسمون أحيانا الغزاة الدراويش) المتحمسون لترويج طرق « أولياء خراسان » يقومون بتربية التركمان الذين ليست لديهم روابط وثيقة بالدين الإسلامى تربية إسلامية ويشبعونهم بالقيم التى تتمثل فى تعظيم فتح الأقطار لاكتساب أراضٍ جديدة لتوسيع رقعة دار الإسلام . ويتم توطين هؤلاء فى الأراضى التى فتحت حديثا ويتم تحريك الكتل الأكثر حيوية وحماسة وشبابا إلى أقصى الغرب إلى نهاية الحدود . وتحور القصبات إلى مدن تركية إسلامية ، مركزها المسجد الذى تقام حوله مؤسسات اجتماعية مثل التكية والمكتب (مدرسة

ابتدائية) ، والمدرسة (مؤسسة التحصيل المتوسط) ، والحمام ، والجشمة (حنفية ماء للوضوء والشرب مشيدة بشكل خاص) ، وكان أمراء (ولاة) المقاطعات الحدودية يسددون ضرائب طفيفة جدا إلى البادشاه السلجوقى فى قونية ومن ثم إلى إيلخان فى تبريز ويتلون الخطبة باسميهما ويستعملون مسكوكاتهما التى يسكانها .

كان أرطغرل غازى يتقاضى حتى من تكفور قلعة بيله جك الرومى خراجا سنويا . إذ لم يكن لديهم بعد السلاح الكافى لفتح قلعة . ومن المعلوم أن قواتهم كانت تعتمد فى ذلك الوقت على الخيالة .

٤) عثمان بك (١٢٨١ - ١٣٢٤) :

احتل عثمان بك – وهو فى سن الرابعة والعشرين على الأرجح – مكان أبيه أرطغرل الطاعن فى السن ، كان عثمان بك أيضا من ولاة المقاطعات الحدودية (أوج بك ، بالفرنسية : Marquis) وكان الوالى الحدودى الكبير (بالفرنسية : Duc) فى القطاع الشمالى من الحدود البيزنطية فى الأناضول الغربية : تابعا جوبان : ألب – يورك بك ، ثم مظفر الدين يلك أرسلان بك (١٢٨٤ – من جوبان : ألب – يورك بك ، ثم مظفر الدين يلك أرسلان بك (١٢٨٤ – ١٢٩٢) ، وآخرهم ناصر الدين محمود بك (١٢٩٢ – ١٣٠٠) ، ثم احتل بنو جاندار مكان بنى جوبان ولعل هذا يفسر استكبار بنى جاندار على العثمانيين بعد ذلك (ان بنى جاندار كبنى جوبان أما بنى عثمان من قبيلة قايى الأوغزية فقد استوطنوا فى أراضيهم كأمراء عشيرة قابى) . .

أما القطاع الجنوبى للحدود البيزنطية ، فكان يتولاه فى البداية بنو دانشمند كأمراء مقاطعات كبار ، ثم تولاه بنو جرميان الذين احتلوا مكانهم . أما أمراء الحدود الصغار كبنى آيدن وبنى ساروخان ، فهم أمراء (بكات) بنى جرميان من قبيلة آوشار الأوغزية . أما كاراسى أوغللرى الذين ينحدرون من بنى دانشمند ، فقد كانوا مستوطنين فى غرب بنى عثمان على ضفاف آسيا من بوغاز جناقلعة . وقد تبع عثمان بك بنى جرميان لفترة من الزمن بدلا من بنى جوبان الذين فقدوا

أهميتهم . وقد كان مما زاد فى أهمية واعتبار بنى جرميان قيام أمرائهم (أمير آيدن ، وأمير ساروخان ، وأمير منتشه) بالاستيلاء على كافة ضفاف ايجه من يد البيزنط .

والسؤال الآن : كيف برزت العثمانية بين هذا العدد من أمراء المقاطعات الحدودية ؟ لقد كانوا فى البداية إحدى أكثر الإمارات الحدودية تواضعا ، حتى انه لم تكن بأيديهم بلدة يمكن أن تكون بمثابة مدينة . فأية معجزة تلك التى أبرزت بنى عثمان وألمعتهم كالشمس بينما لم يبق لسلالات الامارات الحدودية العديدة الأخرى من اسم ولاجسم ؟ .

ان لذلك سببين رئيسيين :

السبب الأول جغرافى – سياسى ، وهو يدخل فى إطار ضربات الحظ الاستثنائية التى لاتتكرر ، فقد أتاحت الظروف لأرطغرل بك وطنا فى جنوب شرقى بحر مرمرة وكأنه على مدخل البيزنط ، وبذلك فقد كان أرطغرل بك أقرب أمير من حدود البيزنط ، ولم يكن سواه من الأمراء الحدوديين فى مثل هذا الوضع الخطير . وقد أوجب هذا الوضع على العثمانية أن تتخذ الحذر الدائم ، وأن تكون على أهبة الاستعداد للقتال والجهاد والغزو فى كل لحظة ، وهو موقف يبرره أن اكتساح الروم لمثل هذه الإمارة بوضعها الجغرافى كان من الناحية الجغرافية يسهل من اكتساح غيرها من الإمارات .

والسبب الثانى : هو الخصائص الجسمية والنفسية لارطغرل بك ونسله الذى جاء من أخلاط إلى دومانيج . ونحن لانكاد نجد لدى الإمارات التركمانية فى الأناضول الغربية عسكريا وإداريا داهية بالمعنى التام عدا آيدن أوغلو أومور بك ، أما الآخرون فلا يزيدون على كونهم قادة يقومون بأداء واجباتهم على الوجه الأكمل . وعلى خلاف ذلك كان الوضع بالنسبة للسلالة العثمانية ، فقد أنجبت دهاة متعاقبين ، وكل حاكم اعتلى العرش تفوق على من كان قبله بامكاناته وخصائصه ، كما تميزوا بالقدرة على التخطيط والحركات العسكرية المحسوبة التى كانت تستهدف كل منها هدفا معينا ، وأيضا قاموا بتنظيم أنفسهم فى تشكيلات جيدة جدا ، ولقنوا رعاياهم الاعتماد الكبير على أنفسهم .

كان عثمان غازى الذى خلف أباه فى اعتلاء إمارة المقاطعة الحدودية تابعا فى البداية لجوبان أوغلو (قسطمونى) ، ثم للسلطان السلجوقى من خلال جرميان أوغلو (كوتاهية) ، الذى كان تابعا بدوره لايلخان . واننا لنجد فى الحقيقة أن البادشاه السلجوقى قد فقد فى هذه الفترة القدرة الفعلية على تسيير الأمور ، وكان إيلخان يسير اعماله بواسطة الولاة العاملين الذين هم فى الوقت ذاته قادة عامون يعينهم فى الأناضول ، وكان على الأمراء الحدوديين - ومن بينهم عثمان بك - أن يرسلوا الجند فى حالة طلب والى إيلخان ذلك .

ازدادت أهمية عثمان بك قبل مضى ١٠ سنوات . فتح قره جه حصار قرب اسكيشهر فى ١٢٨٨ أو ١٢٩١ ، وجعلها قاعدة له وأمر بتلاوة الخطبة باسمه . وبطبيعة الحال ، فإنه كان يذكر أولا اسم الخليفة العباسى فى مصر ، ثم ايلخان المقيم فى تبريز ثم البادشاه السجلوقى فى قونيه ثم اسم عثمان بك . وفى كانون الثانى ١٣٠٠ ، أرسل السلطان السجلوقى علاء الدين كيكباد الثالث إلى عثمان غازى علامات السلطنة كالطبل ، والعلم (الراية) وشارة الرأس (طوغ) . وبذلك أصبح عثمان بك - بصورة رسمية - أمير مقاطعة حدودية كبيرا (بيوك اوج بك) . (الفرنسية : Duc) ، لايفوقه فى وضعه هذا أى أمير حدودى آخر . وفى هذه الفترة كان عثمان بك تابعا لسلجوق أوغلو بصورة مباشرة ، ثم تابعا لايلخان فى تبريز بصورة مباشرة بعد وفاة البادشاه السلجوقى الأخير مسعود الثانى بعد ١٣٠٨ وحتى ١٣٣٥ حقق عثمان بك فى هذه الفترة انجازات ضخمة ، فقد هزم تكفور (والى) بورصة البيزنطى الذى سار اليه بـ ٥٠٠٠ جندى فى الحرب الميدانية قويونحصار (٢٧ / ٧ / ١٣٠٢) وأصبح اسمه مشهورا لدى البيزنط . على الرغم من أن عثمان بك كان يستهدف بورصة فإنه أسس فى عام ١٣٠١ قصبة ينيشهر على طريق ايزنك - بيله جك ، واتخذها قاعدة مؤقتة له لفترة من الزمن .

وبكل المقاييس فإن عثمان بك يعتبر مؤسسا للسلالة ، ولايقدح فى ذلك أنه لم يسم خانا أو سلطانا إلا بعد وفاته ، حيث إنه لم يلقب حال حياته بغير بك (أمير) وان كان من المعروف أنه لقب بألقاب أخرى مثل فخر الدين ومحيى الدين .

ومن الأمور التي ينبغي أن تذكر أن العثمانية قد قدمت عددا كبيرا من أمرائها شهداء فى حروبهم مع البيزنط ، ومن بين هؤلاء الشهداء كوندز ألب بك (المسمى باسم جده) أخو عثمان بك الذى استشهد فى عام ١٣٠٦ ، والأخ الآخر لعثمان بك والمسمى غازى صار يياطى صاوجى بك الذى استشهد فى عام ١٢٨٨ ، وابنه بكخوجة بك الذى استشهد فى عام ١٢٨٧ .

بلغت مساحة الإمارة التى تركها عثمان غازى فى ١٣٢٤ ، ١٦٠٠٠ كم٢ فقط . وإذا ماوضعنا فى الاعتبار أن أبا عثمان بك ترك له ٤٨٠٠ كم٢ من الأراضى فإن ١٦٠٠٠ كم٢ التى تركها عثمان بك تعادل تقريبا ٥ / ٣ أضعاف مساحة الإمارة التى تركها أبوه .

ومن الأمور التى تلفت النظر أن فتوحات عثمان بك كانت ذات أهداف ومغزى ، شمالا وصل إلى الضفة الشرقية من نهر سقاريا واقترب كثيرا إلى مدخل النهر والبحر الأسود . وفى الغرب نفذ إلى البحر حيث استولى من البيزنط على الضفاف الجنوبية لبحيرة ايزنك وكذلك أخذ الضفاف الشرقية لبحيرة اولوباد(Apolont) ونفذ إلى بحر مرمرة بعد أن ظفر على الضفاف الجنوبية لخليج كملك ورصيف مودانيا الذين يقعان بينهما فى منطقة متوسطة . (تعتبر إيزنك أهم مدينة للبيزنط فى الأناضول تقع على الحدود العثمانية) .

ولقد كان عثمان بك استراتيجيا بعيد النظر حيث وجه فتوحاته إلى البيزنط باعتبار أن كل فتح يناله منهم سيزيد من قوته . كما أنه فى نفس الوقت تحاشى بكل جهده التصادم مع جيرانه أمراء الأناضول المحيطين به كإمارة جيرمان أوغلو القوية التى كانت تغطى كامل جنوب امارته ، وكأمارة جمهوية آخى شرقا فى أنقرة التى كانت تحت نفوذ وحماية إمارة قره مان المقتدرة ، وكأمارة جاندار أوغللرى التى تقع الى الشمال الشرقى من إمارته ، وأراضى كاراسى أوغللرى الواقعة غربا . وعلى الرغم من أن كل هذه المنطقة كانت تشكل مجالا ملائما للانتشار العثمانى من حيث الخروج إلى البحار المفتوحة فإن عثمان بك ، لم يمسها .

من فتوحات عثمان بك اسكيشهر فى ١٢٨٨ ، بيله جك فى ١٢٩٩ (أو ١٣٠٤) ، وفى العام نفسه اينه كول ، ومودانيه فى ١٣٢١ ، حاصر عثمان بك

بورصة سنوات عديدة . ولم يكن فى ذلك الوقت يملك الأسلحة الكافية لاسقاط هذه القلعة بالقوة ، ومات قبل استسلامها ، ولو تم له فتحها لكان بذلك قد حصل على مدينة وقاعدة حقيقية وبالنسبة للتقسيمات الإرادية الحالية فإن الدولة التى تركها عثمان بك عبارة عن : ولاية بيله جك ، وقضاء اسكيشهر المركزى ، واقضيه كيفه ، وآقيازى ، وخندق التابعة سقاريا ، وقضاء دومانج فى كوتاهية ، واقضيه مودانيه ، وينيشهر ، واينه كول فى ولاية بورصة .

٥) السلطان أورخان (١٣٢٤ - ١٣٦٢) :

اشتهر أورخان بك في عهد أبيه كعسكرى ممتاز ، تولى الإمارة وعمره ٤٣ سنة كأمير كبير لمقاطعة حدودية (بيوك أوج بل) . كلف اخيه علاء الدين على بك بانجاز الأعمال المدنية ، فقام بانجاز ما كلف به حتى استشهد أمام البيزنطيين فى بيغا عام ١٣٣٣ (استمر نسله لغاية ١٥٣٠) .

استولى أورخان غازى على بورصة فى ٦ نسيان ١٣٢٦ واتخذها قاعدة له . وأصبح بعد هذا الفتح سلطانا وملكا حقيقيا . لم يرفض تبعيته لايلخان حتى ١٣٣٥ ، وفى هذا التاريخ اصبح مستقلا تمام الاستقلال ، وبصفته أقدر أمراء ورثة السلاجقة التركمان ، فقد أعلن بصورة رسمية أنه الخلف الشرعى للعرش السلجوقى الذى خلا .

اختلفت مواقف الإمارات الأخرى إزاء هذا الإدعاء ، فبينما عارضته صراحة إمارة قرة مان أوغلو الذى كانت بيده قونية مدينة عرش السلاجقة ، تأرجحت مواقف الإمارات الأخرى بين التعاون مع إمارة قرة مان أوغلو والموافقة على موقفهم المعارض أحيانا وبين مساندتهم لبنى عثمان كسبا لودهم وخشية من قوتهم العسكرية المتنامية أحيانا أخرى .

بعد فتح بورصة فتح أورخان غازى إيزنك التى تمتاز بأنها أكبر بورصة (فى ذلك العهد) فى أيار ١٣٢٩ وبصورة قطعية فى ٧ / ٣ / ١٣٣١ ، ولم تفلح حملة الامبراطور البيزنطى **Andronikos Poleologos** الثالث على العثمانية لتخليص ايزنك عندما قابل أورخان غازى الامبراطور فى موقع **Pelekanon** بالقرب

من كنره داريجاسى فى شمال خليج ايزمت مع جيشه البالغ ٨٠٠٠ شخص . تمكن اوزخان غازى من هزيمة العدو بسهولة ، وجرح الامبراطور ، وفقد أورخان فى هذه الواقعة ٢٧٥ شهيدا فقط ، وغنمت العثمانية السرادق الامبراطورى والرايات الامبراطورية وطلب الامبراطور بحث طرق المصالحة .

طبقت شهرة السلطان أورخان بك العثمانى العالم بأسره . وحصل نحو عام ١٣٣٥ على ألقاب « سلطان » و« سلطان الغزاة » و« غازى ابن الغازى » و« شجاع الدين ، اختيار الدين ، سيف الدين » .

إن هزيمة الحاكم البيزنطى الذى يعد (امبراطور روما) والحاكم الأول من جهة الألقاب والتشريفات الأوربية فى حرب صحراوية مفتوحة ، زادت فى نفوذ السلطان أورخان فى تركية ونفوذه على الإمارات الأناضولية ، كما أنه غدا ينظر إليه فى البلقان كعنصر موازنة .

بدأ السلطان أورخان فى اتباع سياسة دقيقة مع البيزنط تساندها القوة العسكرية ولاتميل إلى البدء بالاعتداء . صرحت العثمانية منذ ذلك بسياستها التى تتلخص فى النفاذ إلى البحار المفتوحة والوصول إلى المضايق .

ألحقت بالعثمانيين فى ١٣٤٥ أول إمارة تركية ، كاراسى . وهكذا ضبط العثمانيون ضفاف آسيا من بوغاز جناقلعة ، والضفة المقابلة كانت أوربا .

إن العثمانيين الذين وصلوا فى الجنوب إلى خليج جاندارلى أخذوا من البيزنط آخر الأراضى المتبقية فى جنوب بحر مرمرة (كيرماستى وقره جه بك ١٣٤٢ ، شبه جزيرة قابودا فى ١٣٤٥ ، جزر مرمرة ١٣٥٢) ، وقد دخلت شبه جزيرة قوجا إيلى حوزة العثمانية . وهكذا فُتح الجانب الآسيوى من ضفاف بوغاز استانبول كذلك ، عدا بعض القرى . انتقلت اسكدار إلى حوزة العثمانية . بولو ، فى ١٣٢٦ وبصورة قطعية فى ١٣٥٤ ، انتقلت الإمارة الصغيرة التى كانت تحت نفوذ جاندار اوغللرى الذين يطلق عليهم أومور بك أوغللرى إلى العثمانية . انتقلت كافة سواحل البحر الأسود من رصيف آقجه قوجا إلى البوغاز ، وجميع ضفاف مرمرة الجنوبية والشرقية ، إلى العثمانية ، وأخيرا فى ١٣٥٤ ، أخذوا انقره وانتهت جمهورية آخى . كان هذا التطور يكسب العثمانية وفرة فى العدد وفى القوة

الاقتصادية اللازمة . ولم تعد بها حاجة إلى التصادم مع جاراتها أورخان أوغلو الجنوبية – الغربية ، كرميان أوغلو الجنوبية ، قرة مان اوغلو الجنوبية الشرقية ، ارتنا أوغللرى الشرقية ، جاندار أوغلو جارتها الشمالية – الشرقية .

(٦) الغازى سليمان باشا والعبور إلى روملى (١٣٥٣ – ١٣٥٧)

يعتبر العبور إلى روملى ودخول الأتراك العثمانيين إلى البلقان والقارة الأوربية ، أحد أهم الوقائع التاريخية ؛ إذ إنه عدا تأمينه تأسيس الامبراطورية العثمانية ، فانه غير مجرى التاريخ الأوربى ومصير الدول الاوربية كذلك .

كان رئيس البيزنط حاكم شبه جزيرة البلقان السابق ، على خلاف مع الاقوام والدول البلقانية ، ولم يكن قادرا على إدارتهم . وعندما تقابل أورخان بك بالامبراطور فى ١٣٤٧ فى اسكدار تناولا بالحديث التدابير المشتركة .. تجاه الخطر السلافى فى البلقان .

وفى ٣ شباط ١٣٤٧ ، دخل – كحلفاء وبدعوة من الامبراطور – ٦٠٠٠ – جندى عثمانى ليلا إلى مدينة (استانبول) البيزنطية ، وكان الامبراطور قد دعا السلطان اورخان كذلك إلى المدينة ، لكن البادشاه لم يقبل الدعوة . منذ ذلك الحين اخذت الوحدات العثمانية – وعلى الاغلب بقيادة ولى عهد .. شهزاده سليمان باشا الابن الاكبر للسلطان أورخان ، فى العبور إلى روملى ، يحاربون السلاف الذين أصبحوا بلاء على البيزنطيين ، ويعودون .

جاء طليعة الغازى سليمان باشا ، وهو آيدن أوغلو غازى أوموربك مع جيشه وأسطوله عدة مرات لمساعدة الامبراطور البيزنطي ودخل روملى ثم عاد . وفى المرة الآخيرة وعندما طلب الامبراطور المساعدة من أوموربك ، اجابه آيدن أوغلو بأنه مشغول بالحرب مع الكاثوليك اللاتين – اعداء البيزنط – فى أزمير ، ومن ثم فانه سوف يتعذر عليه المجىء ، وأوصاه بطلب المعونة من أورخان بك بن عثمان . وقد نفذ الامبراطور ذلك .

وفى ١٣٤٧ ، أراد سليمان غزو جزيرة امروز ، لكنه هزم . ثم اجتاز سليمان باشا إلى روملى مع ١٠٠٠٠ جندى فى البداية ، وفى ١٣٤٩ مع ٢٠٠٠٠ جندى وأوقف أعداء الأمبراطور عند حدهم .

وصل سليمان باشا فى حملته الاخيرة هذه إلى سلانيك وخلص المدينة من الحصار ، وقد كانت على وشك السقوط فى يد الصرب ، وسلمها إلى الامير Mattheos Kantakuzinos . اشتركت فى هذه الحملة ٢٢ قطعة من سفن العثمانية .

وفى عام ١٣٥٢ عبر ولى عهد - شهزاده غازى سليمان باشا إلى روملى ، وشتت بسهوله جيش الاتفاق الصربى - البلغارى الذى كان ينوى الحملة على استانبول فى الحرب الميدانية Dimetoka .

اعترافا بفضل سليمان باشا ، أهدى الامبراطور إليه فى ١٣٥٣ قلعة جمبة Gimpa الصغيرة الواقعة على الضفة الاوربية من بوغاز جناقلعة ، لتسهل عبوره إلى أوربا .

وهكذا حازت العثمانية وللمرة الأولى أرضا فى القارة الأوربية بصورة رسمية وشرعية . وذلك بعد ٩٠ عاما من الاجتياز الأول للامارات التركمانية الذى كان فى عام ١٢٦٣ (يعتبر اجتياز عام ١٣٥٣ هو الاجتياز الـ ١٧) . وعلى ذلك فان فتح روملى يكون نتيجة جهود مرحلة تحضيرية طويلة .

وعند إلحاق العثمانية دولة قراسى أصبحت تمتلك أسطولا صغيرا أيضا . وبالحاق دولة قراسى بالعثمانية أصبح للعثمانية أسطول صغير ، فقد كان لبنى قراسى (قراسى اوغوللرى) أسطول حربى وجنود بحرية وأميرالات مجربون .

طور سليمان باشا هذا الاسطول وجهز رصيف أدنجك (آيدنجك) المواجه لباندرمه ، فى الرأس الشرقى لخليج اردك ليكون قاعدة بحرية لهذا الأسطول . وبهذا الأسطول عبر سليمان باشا بوغاز جناقلعه وفتح فى ٢ آذار ١٣٥٤ قلعة غاليبولى ذات الأهمية البحرية - كقاعدة - فى جهة بحر مرمرة من شبه جزيرة غاليبولى على الساحل الأوربى ، ولذلك فان هذا الفتح يشكل إحدى وقائع التاريخ التركى المهمة .

وحتى ايلول ١٣٥٧ ، وزلل أرجل حصان سليمان باشا وكبوته ووفاته باصطدام رأسه على الحجر وعمره ٤١ سنة ، (اى خلال مدة ٣/٥ سنة) - استطاع سليمان باشا الاستيلاء على كامل شبه جزيرة غاليبولى ، وفتح المناطق فى الشمال حتى لوله برغاز ، ووصل فى الغرب إلى حدود نهر مريج ، وفتحت جورلو مع لوله برغاز فى العام ذاته (١٣٥٧) ، وبذلك أصبح البيزنط محاصرين من الغرب كذلك .

ترأس حركات روملى بدلا من سليمان باشا ، أخوه ولى العهد الشهزاده (الامير) مراد بك واستمر فيها .

توفى السلطان أورخان فى آذار ١٣٦٢ بعد سلطنة دامت ٣٨ سنة ، وعمره ٨١ سنة . بلغت مساحة الأراضى العثمانية فى هذا التاريخ ٩٥٠٠٠ كم٢ ، وهى تمثل ٦ أضعاف الاراضى التى كانت عند جلوس السلطان أورخان : تشمل هذه المساحة كامل ولايات بيله جك الحالية ، بورصه ، بالكسير – مع جزر مرمرة – ، سقاريا ، قوجا ايلى ، وبالاضافة إلى ولاية جناقلعه : اقضية بيغا ، امروز (كوكجه آدا) ، بوزجا آدا ؛ ولاية أسكيشهر عدا جفته لروسيد غازى ، قسم آسيا من استانبول عدا عدة قرى فى الجزر والبوغاز ، اقضية كشان وايبسالا لولاية ادرنه ، وقضاء لوله برغاز لولاية قرقلر ايلى ، ولاية تكرداغ عدا قضاء سراى ، اقضية سوما وقرق آغاج لولاية مانيسا ودومانج لولاية كوتاهية وبرغامة وديكيلى وقينق لولاية أزمير ، أقضية المركز ، نالليخان ، بك بازارى ، عياش ، قيزاجه حمام ، حيمانا ، بولاتلى لولاية أنقره .

وهكذا ترك السلطان أورخان قطرا لايستهان به ، خاصة اذا عرفنا أن تعداد هذه الاراضى فى ذلك العصر كان يفوق بكثير تعداد ملكية إنكلترا (الدولة العثمانية نحو ١٣٦٢ ، أكثر بقليل من ٣ ملايين تقريبا ، أما إنكلترا فكانت مليونين اثنين) . الأمر الآخر الذى ينبغى الإشارة إليه أنه منذ ١٣٣٢ ، كان للسلطان أورخان ٩٠٠٠٠ جندى (٤٠٠٠٠ منهم خيالة و٥٠٠٠٠ مشاة) ، وعند فتح إمارة قراسى فى ١٣٤٥ ، انضم جنود هذه الامارة البالغ عددهم ٢٥٠٠٠ إلى العثمانية ، ولم يكن على هذه الايام لاى امير اناضولى بصورة قطعية ١١٥٠٠٠ جندى . وعلى سبيل المثال فان من بين أقدر الجيوش ، كان جيش قره مان اوغلو ، وهو عبارة عن ٥٠٠٠٠ جندى منهم ٢٥٠٠٠ خيال و٢٥٠٠٠ مشاه . وتبين هذه الارقام مقدار أرجحية كفة الميزان لصالح العثمانية . ولقد ولد توفير الغازى سليمان باشا الفرصة لنفسه من أعماله فى روملى وقدومه إلى انقرة ، وقبول انقرة الانضمام إلى العثمانية دون اية مقاومة مثل دولة قراسى – قلقا جديا فى قره مان ، وأخذت تتراءى فى الافق حرب عثمانية – قرة مانية اكيدة .

(٧) مراد الأول (١٣٦٢ - ١٣٨٩) يفتح البلقان

عقدت ولاية العهد لمراد الأول قبل أربع سنوات ونصف من وفاة السلطان أروخان وذلك بدلاً من شقيقه سليمان باشا الذى يكبره بعشر سنوات . وعند وفاة السلطان أورخان جلس على العرش السلطان مراد وعمره أنذاك ٣٦ سنة .

جلس فى آذار ١٣٦٢ وفى تموز من العام ذاته أخذ أدرنة .

اصبحت أدرنة مركزا لروملى ومدينة العرش الثانية ، وتحولت من مدينة بيزنطية متواضعة كبورصة إلى بلدة إسلامية تركية كبيرة .

كان السلطان مراد امبراطورا حقيقيا (سلطانا معظما) ، نال بصورة رسمية ألقاب : « سلطان الغزاة والمجاهدين ، ملك المشايخ ، غياث الدنيا والدين ، شهاب الدين غازى هنكار خداوندكار ، ليث الاسلام ، او الفتح ، غياث المسلمين ، السلطان العادل » وقد صادق على هذه الالقاب الخليفة العباسى فى القاهرة .

فى السنة التالية لجلوس السلطان مراد ، أى فى عام ١٣٦٣ ، اجتاز نهر مريج نحو الغرب ، وفتح فيليبه واجتاز مريج نحو الشمال وفتح اسكى زغرا ووصل جبال البلقان .

دعا البابا اوربانوس الخامس ، المسيحيين إلى حملة صليبية ضد « الاتراك الكفرة » .

اتحد ملوك المجر : صربيا وبوسنة مع أمير رومانيا (افلاق) ، واقتربوا إلى مسافة عدة كيلو مترات من أدرنة . لم ير حاجى الـ بك ضرورة لانتظار البادشاه ، وجابه العدو فى الموقع الذى سيدعى صرب صنديغى وأباده فى ١٣٦٤ . وبذلك يكون العثمانيون قد قطعوا فى البلقان مسافة لايستهان بها .

نجا ملك المجر لايوش الاول من الموت صدفة . وعند عودته إلى بلاده شيد كنيسة لمرضاة السيدة مريم ، إظهارا لشكره . هذه هى الحملة الاولى التى جهزت ضد العثمانية .

فتحت وأخذت الاراضى حتى تساليا ومكدونيا ، والمراكز كده ده آغاج (١٣٦٢) ، كمولجينه (١٣٦٣) ، ساماكوف (١٣٦٧) قاوالا (١٣٧١) ،

دراما (١٣٧١) . اعترف ملك بلغاريا الذى اتخذ ترنوفا مركزا له فى ١٣٧٠ بتبعيته للعثمانية .

تحالفت بلغاريا ورومانيا عسكريا وأرادتا دفع الاتراك إلى الخلف . وفى الحرب الميدانية جيرمن Girmen (١٣٧١/٩/٢٦) هزم جيش بلغاريا ورومانيا ، وقتل كل من ابنى ستيفان دوشان ، أحدهما ملك صربيا فوكاشين (١٣٥٥ - ١٣٧١) وأخوه ولى العهد - أمير اوكليشا Uglesa . وصل الغزاة الاتراك ، إلى سواحل الادرياتيكى .

وفى عام ١٣٦٥ اعترفت جمهورية دبروفنك (بالايطالية Ragusa) الواقعة على الادرياتيكى بسيادة العثمانية . وانتقلت المراكز مثل كارافيرا (١٣٧٢) ، كوسنتدل (١٣٧٢) ، نيش (١٣٧٥) ، صوفيا (١٣٨٢) ، مناسطر ، كوريجه ، اوهرى ، دبره (جميعها فى ١٣٨٥) ، ترنوفا ، لوفجه ، بلونه ، زشتوفى ، رسجك ، تتراكان ، سليستره (جميعها فى ١٣٨٨) إلى الاتراك . اعترفت ملكية الصرب بالسيادة العثمانية عليها ، وحذا أمير دوبروجه حذوها فى ١٣٨٨ . اخذ الأتراك تساليا ووصلوا شمالا إلى الطونة وجنوبا إلى آتيكا وغربا إلى البانيا وفى الشمال - الغربى إلى بوسنه .

اضطر حميد أوغلو إلى ترك أكثر من نصف أراضى الإمارة بسعر رمزى قدره ٨٠٠٠٠ قطعة ذهبية . وانتقلت الاماكن مثل آقشهر ، بكشهرى ، سيديشهرى ، يالواج ، شرقى قره آغاج - إلى حوزة العثمانية .

فصلت الدولة العثمانية إمارتى جرميان وقره مان ودخلت بينهما وأصبحت تحاصر قره مان من الشمال ومن الغرب .

وفى ١٣٨٢ ، اعترفت إمارة حميد بالسيادة العثمانية ، وفى السنة التالية اعترفت أيضا إمارة جاندار بالسيادة العثمانية ، وأعقب هؤلاء أمير آماسيا فى ١٣٨٥ . ورغم أن بنى جاندار وبنى قرة مان تزاوجوا مع العثمانية وارتبطوا بروابط قرابة متينة ، لكنهم كانوا بعيدين عن فكرة الموافقة على إحداث وحدة أناضولية لصالح العثمانية . وفى جوكهذا ، أضرمت نار أول حرب عثمانية - قره مانية فى ١٣٨٦ - ١٣٨٧ .

كانت قره مان تعتمد على ملكية قبرص اللاتينية وعلى سلطنة مصر المملوكية التى

تدعى (أى قره مان) أنها تحت سيادتها . وعندما عقدت معاهدة صداقة بين السلطانين العثمانى والمملوكى فى ١٣٨٦ ، خرمت قره مان من المساندة المملوكية . ورغم ذلك تجاسرت على احتلال بك شهرى التى أخذتها من إمارة حميد العثمانية .

سار السلطان مراد إلى قرة مان بـ ٧٠٠٠٠ جندى ، وبمناورة عسكرية آنية اجراها ولى عهد - شهزاده بايزيد التى أكسبته لقب « يلدرم » (برق) وأسفرت المناورة عن انهزام القرة مانيين بسرعة البرق ، شتت الجيش القرة مانى .

ذهبت نفيسة ملك سلطان خاتون زوجة قره مان أوغلو علاء الدين بك ، إلى أبيها السلطان مراد وانكبت على قدميه طالبة العفو عن زوجها . وجاء قره مان أوغلو وقبل يد أبى زوجته البادشاه ، فعفا عنه .

كان للسلطان مراد شأن فى البلقان ، ولم يكن يرغب فى زج نفسه فى قضايا الأناضول الوسطى ، وكان يعلم ان كل انتصار يحرزه فى البلقان سيكون السبب فى انضمام إمارة جديدة فى الاناضول إلى العثمانية دون قتال .

دخل قولا شاهين باشا إلى بوسنة مع ٢٠٠٠٠ جندى فى عام ١٣٨٨ . هزم فى بلوشنيك قرب نيش وخسر ١٥٠٠٠ جندى بين شهيد وأسير وجريح . أما الوزير الاعظم جاندارلى - زاده على باشا ، فقد خرج مع ٣٠٠٠٠ جندى على ضفاف الطونة ، واستولى على آخر ماتبقى لدى ملكية بلغاريا من الاماكن .

قام الصرب - البوسنويين الذين أثبتوا إمكان الانتصار على الأتراك بواسطة ٣٠٠٠٠ جندى ، بمحاولة تنظيم حملة صليبية جديدة . تجمع جيش مسيحى جديد . بقيادة حاكم صربيا لازار ومساعده ملك بوسنه Tvrtko . شارك فى هذه الحملة كل من أمراء المجر ، بولونيا ، رومانيا (أفلاق) ، مولدفيا (بغدان) وبلغاريا بوحداتهم .

التقى السلطان مراد وابناه الاثنان مع العدو فى صحراء كوسوفا فى ٢٠ حزيران ١٣٨٩ . دامت الحرب الميدانية الكبرى مدة ٨ ساعات ، أبيد العدو عن بكرة أبيه ومعه قائده العام . استشهد السلطان مراد وعمره ٦٣,٥ سنة بعد سلطنة دامت ٢٧ سنة و٣ أشهر أثناء تفقده ساحة الحرب بعد الانتصار على يد أمير صربى جريح أقترب منه بدعوى أن لديه مايعرضه . دفنت أحشاؤه فى صحراء كوسوفا فى القبر الذى

سمى مشهد خذازندكار والذى بقى حتى يومنا هذا مقاما مقدسا بالنسبة لمسلمى البلقان . نقل جثمانه إلى بورصة .

ادخل انتصار كوسوفا الساحق البلقان تحت الحكم التركى الاسلامى لمدة ٥٠٠ سنة . ترك السلطان مراد إحدى أقوى الامبراطوريات العالمية وخاصة من الناحية العسكرية . بلغت مساحة الامبراطورية عند وفاة السلطان مراد ٠٠٠ ٥٠٠ كم٢ تقريبا . (مساحة الاراضى الاوروبية فى البلقان ٢٩١٠٠٠ كم٢ ، والاراضى العثمانية فى الأناضول فى آسيا تتجاوز ٢٠٨٠٠٠ كم٢) .

وتفصيلا على الوجه التالى :

فى الأناضول (بالنسبة إلى التقسيمات الإدارية الحالية) : ولايات بورصة ، بالكسير ، بيله جك ، قوجاايلى ، سقاريا ، أسكيشهر ، بولو ، كوتاهيه ، أفيون ؛ ولاية جناقلعة عدا مروز وبوزجه آدا ؛ ولاية أنقرة عدا كسكين ، قيريقلعه شرفلى قوجحصار ؛ ولاية استانبول عدا الجزر ؛ اقضية آقشهر التابعة لقونيا ، أقضية بلك شهرى ، سيدى شهرى ، يالواج التابعة لاسبارطه ، شرق قره آغاج ، سوما التابعة لمانيسا ، قرق آغاج ، برغامة التابعة لازمير قينق ، ديكيلى ؛ وكمناطق حماية : امارة جاندار (ولايات قسطمونى ، سينوب ، صمصون ، زنغلداق ، جانقرى وقسما جورم) ، إمارة اماسيا ، إمارة حامد (ولايتى بوردر واسبارطة) .

وفى البلقان : شبه جزيرة غاليبولى Gelibolu ولايات ادرنه ، قرقلارايلى ، تكرداغ ، قضاء جتالجه ، كامل بلغاريا الحالية ، تراقيا الغربية عدا جزيرة سمندرك ، مدينة سلانيك بشبه جزيرة هالكيدكيا ، مكدونيا الجنوبيه عدا جزيرة تاشوز ، تساليا ، مكدونيا الشمالية (مكدونيا اليوغسلافية) ، كوسوفا ، نيش (صربيا الجنوبية) ؛ شرق ألبانيا ، شرق قره داغ وكمناطق حماية : جمهورية دبروفنك إمارة دوبروجه ، إمارة صربيا .

وهكذا تكون مساحة الامبراطورية التى خلفها السلطان أورخان قد تضاعفت أكثر من ٥ أضعاف خلال ٢٧ سنة .

ونورد فيما يلى آراء بعض المؤرخين المسيحيين بشأن السلطان مراد :

كتب أحدهم : « خاض السلطان مراد بنفسه ٣٧ حربا ، انتصر فيها جميعا ، أصبحت له شهرة القائد الذى لايقهر ، تميزت كل تحركاته بأنها كانت تستند إلى خطة ، وحتى فى شيخوخته لم يفقد شيئا من قدرته ودهائه » (المؤرخ البيزنطى المعاصر له Phrantzes ، طبعة بون ، ص ٨١) .

وكتب آخر :

« قاد ٣٧ حربا فى روملى والأناضول وانتصر فى جميعها . كان جسورا ، رابط الجأش ، فعالا ، شديدا ونشيطا فى شيخوخته كما فى شبابه ؛ منظما ، لايهمل أى تدبير ، ولا يشرع فى عمل مالم يخططه بكامل وجوهه . يعامل الدول والأشخاص الذين يطيعونه ويقومون بخدمته بالحسنى واللين والكرم مهما كانت أديانهم . كان قاسيا على من يظهر له العداء . لم ينج أحد من قبضته . يصدق فى قوله حتى ولو انقلبت الأمور إلى ضده بعد ذلك ، حصل على ثقه الجميع سواء من الأعداء أو الأصحاب » (المؤرخ البيزنطى المعاصر له Khalkokondylas طبعة باريس ، ص ٢٩) .

وكتب ثالث :

« كان متفوقا على جميع معاصريه من الحكام ورجال الدولة فى العالم . فاق الحدود التى تخيلها والده . أمن مصالح الدولة العثمانية التى هى أحد التطورات المذهلة جدا فى التاريخ كله ، نال ثقة الروم وربما محبتهم . عامل الأرثوذكس معاملة أفضل بأضعاف من معاملة الكاثوليك للأرثوذكس » (المؤرخ الانكليزى Gibbons ، اوكسفورد ١٩١٦ ص ٥٢) .

وكتب رابع :

« لايمكن أن يعثر على حاكم على مستوى السلطان مراد ، بين معاصريه من الحكام الأوربيين . لم يكن داهية عسكريا وأستاذا استراتيجيا فحسب ، بل كان فى ذات الوقت دبلوماسيا مرهفا . كان حاكما بالفطرة . جعل من العثمانيين ، أمة موحدة . عرفهم بالمثل وزودهم بها . كان عند وفاته قد أمن مستقبل هذه الدولة لـ ٥ قرون » (المؤرخ الفرنسى Fernard Grenard ، باريس ١٩٣٨ ص ٥٢) .

(٨) يلدرم بايزيد (١٣٨٩ - ١٤٠٢)

يحقق وحدة الأناضول

بايزيد هو الأبن الأكبر للسلطان مراد وولى عهده ، أطلق عليه لقب « يلدرم » (برق) منذ حملة قره مان ١٣٨٧ .

اعتلى العرش وعمره ٢٩ سنة ، فى عام ١٣٧٨ صاهر جرميان أوغلو الذى تنازل له عن مدينة عرشه كوتاهية وجوارها كجهاز لابنته . جلس بايزيد على عرش جرميان فى كوتاهية ، وفى ١٣٨٦ ، أصبح إضافة لذلك أول لواء (وال ، سنجق بك) لحميد (اسبارطة) كما أصبح لفترة من الزمن ، أول لواء (وال) على آماسيه .

اشترك فى حملات أبيه بجنود هذه الألوية وكان يقود على الأغلب الجناح الأيمن للجيش العثمانى.نودى به سلطانا فى ساحة الحرب على إثر استشهاد أبيه فى صحراء كوسوفا .

ثارت قرة مان واحتلت كوتاهية بينما كانت العثمانية فى معركة البقاء أو الفناء فى كوسوفا ، وأغرى ذلك بعض الإمارات الخاضعة للنفوذ العثمانى كصاروخان ، آيدن ، تكه ، جرميان وحتى إمارة حميد التابعة لحكم العثمانية المباشر - بالثورة . أعلنت تلك الإمارات أنها لن تسمح بحدوث أى تغيير فى الموازين الحالية بين الإمارات الأناضولية ، ولن تسمح بتحقيق الوحدة التركية . من الواضح أن قره مان كانت ترى أنها مادامت لم تتمكن من تأسيس الوحدة فى تركية السلجوقية ، فانها لن تسمح للعثمانيين بإنجاح ذلك .

أنهى يلدرم بايزيد أعماله فى روملى ، وجاء مسرعا إلى بورصة . وفى الأيام الأولى من عام ١٣٩٠ تحرك نحو الجنوب . ودخل خلال أشهر شباط وآذار بالتسلسل إلى إمارات جرميان ، آيدن ، منتشه ، صاروخان ، عرض الأمراء طاعتهم للبادشاه وتخلوا عن إماراتهم لصالح العثمانية دون أية مقاومة . أعطى بايزيد لكل منهم مقاطعة (ديرلك) . الحقت بالعثمانية ولايات صاروخان (مانيسا) ، ازمير ، آيدن ، منتشه (موغلا) ، اوشاق ودنيزلى . وبذلك حاز العثمانيون أعظم الموانىء فى ايجه ، آيدن ، منتشه ، كما حازوا أسطول صاروخان ونفذوا من سواحل منتشه إلى البحر الأبيض . كما حازوا قلعة آلاشهر وهى القلعة الأناضولية الوحيدة التى بقيت لدى البيزنط .

جاء السلطان بايزيد إلى أنقرة ، وهى أكبر مركز لايالة أناضولى ، وقضى شتاء عام ١٣٩٠ - ٩١ فيها .

أقلق قضاء الجيش العثمانى فصل الشتاء فى الشمال وفى موقع مركزى ، عدو العثمانية قاضى برهان الدين المتمركز فى القسم الشرق من الأناضول الوسطى ، كما أقلق قرة مان المتمركز فى القسم الغربى منها . وفى خريف عام ١٣٩١ ، تحرك البادشاه من أنقرة إلى أسبارطة مرة أخرى ومنها دخل إلى مدينة قونية ، كان قره مان اوغلو داماد علاء الدين بك زوج أخت السلطان بايزيد قد هرب من قونية إلى طاش إيلى ، دعاه السلطان بايزيد وأخبره بأنه سيترك الإمارة له ، شرط الاخلاص له وعدم الخروج على تبعيته ، ثم ترك قونية . رافق الامبراطور البيزنطى مانويل الثانى ، يلدرم بايزيد فى حملته الأناضولية الثانية . وقد كان بايزيد ينظر إلى الامبراطور على أنه تابع له بينما كان الامبراطور يعتبر نفسه حليفاً على قدم المساواة مع السلطان بايزيد ، ظل الامبراطور مانويل الثانى ضيفا فى سراى بورصة مدة طويلة وكان شخصا عالما ويحسن التكلم بالتركية ، وقد التزم باتجاهات السياسة العثمانية الخارجية إزاء البيزنط .

دكت ٦٠ قطعة من قطع الأسطول العثمانى جزر ساقز ، كيكلاد ، آغيبوز التى يحتلها اللاتين الكاثوليك وبذلك يكون السلطان بايزيد قد أخطر جمهوريات البنادقه ، الجنويين والايطاليين ، إنه كان يستعد لمحاصرة البيزنط .

وفى ١٣٩١ اصطف ٦٠٠٠ جندى تركى على امتداد السور وراقبوا الدخول والخروج لمدة ٧ أشهر ، ويفهم من هذا الإجراء إنه لم يكن حصارا بالمعنى المفهوم للحصار وإنما كان مجرد حجز ، وقد كان السلطان يأمل أن يخضع له الامبراطور دون حرب كما فعل أمراء الأناضول .

وفى صيف ١٣٩١ ، ولأول مرة اجتاز بايزيد الطونة نحو الشمال ودخل رومانيا ، وشتت الجيش الرومانى فى الحرب الميدانية Argeso . وأسر الأمير Mircea .

ودخلت رومانيا المسماة افلاق (رومانيا الجنوبية) تحت الحماية العثمانية ، وسيظل هذا الوضع ٤٨٧ سنة حتى ١٨٧٨ .

وفى ١٣٩٢ ، فتح البادشاه سلانيك وأخذ شبه جزيرة هالكيدكيا من البيزنط

وقطع ارتباط البيزنط بمكدونيا ، ثم جاء إلى كارافيريا وينى شهر (باليونانية . Larissa) ، وألحق تساليا .

وفى ١٧ تموز ١٣٩٣ ، دخل الجيش التركى إلى ترنوفا وخلع ملكها الأخير شيشمان من العرش ، أما أخوه الأمير ستراتسمير فقد تمكن من البقاء حتى ت ١٣٩٦/١ .

(كانت ترنوفا وفيدين يحكمهما أميران بلغاريان يتبعان الإدارة العثمانية) .

وفى الوقت الذى كان فيه البادشاه فى روملى ، شكل فى الأناضول كل من قره مان – وجاندار وقاضى برهان الدين حلفا ضد العثمانية .

جاء السلطان بايزيد من بورصة إلى قسطمونى . أراد جاندار اوغلو سليمان باشا الثانى ، صهر فاتح روملى ولى عهد – شهزاده غازى سليمان باشا ، صده ، ولكنه هزم وسقط قتيلا (ت ٢/ ١٣٩٢) . انتقلت ولايات قسطمونى ، زونغلداق ، جانقيرى ، جورم إلى العثمانية . أما اسفنديار بك أخو سليمان باشا الثانى الموجود فى سينوب – من بنى عثمان من جهة الأم – فقد عرض طاعته .

أما الحرب مع قاضى برهان الدين فقد كانت أشد ، كان الجيش العثمانى قد دخل فى البداية إلى سيواس ، ثم قيصرى (إيلول ١٣٩١) . هزم القاضى برهان الدين ، الجيش العثمانى الذى يقوده ابن يلدرم الثانى شهزاده أرطغرل فى حرب قرق ديليم الميدانية قرب جورم وقتل الشهزاده (تموز ١٣٩٢) . جاء شهزاده محمد إلى آماسيا مع ٣٠٠٠٠ جندى (ك ١٣٩٣/٢) .

استمرت الفتوحات فى مكدونيا الشمالية وفى البانيا . فتحت اسكب التى استعادها الصربيون لفترة ، بصورة نهائيه (١٣٩٢/١/٦) .

وفى ١٣٩٧ ، جاء السلطان يلدرم بايزيد إلى اليونان . دخل أثينا . انتقل إلى مورا . أرغم أمراء البيزنط الموجودين فى مورا على قبول خضوعهم لسيادته . وقعت هذه الحملة بعد انتصار نيغبولو .

عاود قره مان التمرد عندما كان الجيش العثمانى فى نيغبولو ، فسار إليه يلدرم بعد عودته من حملة اليونان ألغى البادشاه الذى دخل قونيا فى ١٣٩٧ إمارة قره مان

وألحقها كايالة ثالثة بعد ايالتى اناضولى وروملى .

جاء يلدرم إلى مدينة لارنده (قره مان) . أمر باعدام زوج أخته قره مان أوغلو علاء الدين بك وانتقلت قونية ، نيغده ، اقسراى وديوه لى حصار - إلى العثمانية . سمح يلدرم لفرع من بنى قرة مان بأن يستمر تحت سيادة العثمانية فى الجنوب فى سواحل البحر الأبيض ، فى موت ، سلفكه وآنامور (ايجل وطاش ايلى) .

وفى ربيع عام ١٣٩٨ ، جاء يلدرم إلى صمصون . ألحقت العثمانية سواحل البحر الأسود إلى الحكم العثمانى حتى نهر هارشيت . كانت أراضى امبراطورية طرابزون الرومية (البيزنطية) تبدأ من شرق نهر هارشيت . قتل قاضى برهان الدين فى هذه الأيام (تموز ١٣٩٨) . دخل ولى عهد - شهزاده سليمان مع ٢٤٠٠٠ جندى سيواس وضم جميع أراضى قاضى برهان الدين إلى العثمانية .

وفى ربيع عام ١٣٩٩ ، جاء يلدرم كذلك إلى سيواس وشاهد الوضع . أصبح شهزاده محمد جلبى واليا على سيواس . أخذ البادشاه ملاطية من المماليك فى صيف عام ١٣٩٩ ، وقد أدى ذلك إلى توتر العلاقات بين العثمانيين والمماليك فى الوقت الذى كان فيه خطر تيمور ماثلا على أبواب الأناضول (ايلول ١٣٩٩) .

احتل يلدرم كذلك المدن المملوكية كحصن منصور (آدى يمان) ، كاهته ، بسنى دارنده ، ديوريغى ، البستان ووصل الفرات بسيطرة تامة . اعترف بنو دلقادر بعد ذلك بالسيادة العثمانية عليهم (١٣٩٩/٩/٢) ، وخضعت خربوت وارزنجان . وهكذا تكونت الوحدة الأناضولية وأعيد إحياء تركية علاء الدين كيكباد .

(٩) نيغبولو (٢٥ ايلول ١٣٩٦)

كان من نتائج عبور العثمانية من شمال ألطونه ودخولها الأراضى الرومانية والمجرية ، وتهديدها البيزنط بصورة خطيرة ، توحيد جميع أوربا ضد تركية . كما أن محاصرة أو حجز العثمانيين للبيزنط للمرة الثانية طيلة أشهر صيف عام ١٣٩٥ ، وماترتب على ذلك من عدم إمكان الدخول إلى الأسوار البيزنطية أو الخروج منها دون موافقة العثمانية ، بالإضافة إلى قيام السلطان بايزيد بتشييد القلعة المسماة كوزلجه حصار (اناضولى حصارى) على الضفة الآسيوية من البوغاز ، ومحاولة العثمانيين إخراج

اللاتين الكاثوليك من بحر الخرز (ايجه) .. كل ذلك حرض أوربا على تشكيل حملة صليبية جديدة .

حشدت أوربا ١٣٠٠٠٠ جندى مسيحى مجهزين بصورة جيدة ومن خيرة وحدات كل قطر .

أرسلت ملكية المجر ، وملكية فرنسا ، وملكية إنكلترا ، وإمبراطورية ألمانيا ، وملكية بولونيا ، وجمهورية البندقية ، وملكية كستيليا (اسبانيا) ، وملكية آراغون ، والبابوية ، وفرسان رودس ، وملكية النرويج ، وملكية اسكتلندا ، وفرسان توتون Toton ، وجمهورية جنوة ، ودول أوربية صغيرة أخرى – وحداتها الممتازة جدا للانضمام إلى هذا الجيش . ووضعت البندقية أسطولها تحت أمر الحملة . استغرقت الاستعدادات وقتا طويلا ، وكان البابا هو صاحب الدعوة . صرفت الدراهم بمبالغ لم يسبق أن شوهدت فى أوربا القرون الوسطى .

كان كل ذلك يشير إلى أن أوربا قد قررت بصورة نهائية إخراج الأتراك من البلقان وسوقهم إلى الأناضول ، ثم يأتى بعد ذلك الجيش الصليبى إلى القدس ليخلصها من المماليك ! كانت هذه هى الخطة فيما يبدو .

اجتمع المجلس العسكرى الأعلى فى بودابست وانتخب ملك المجر سيغوسمند الأول للقيادة العامة . أعلنت تركيا التى كانت على علم بكل هذه الترتيبات الحرب على المجر فى شباط عام ١٣٩٦ . اجتاز الجيش الصليبى الحدود المجرية – التركية ودخل الأراضى العثمانية . وجاء أمام قلعة نيغبولو على الضفة الجنوبية من ألطونة . لم يستسلم قائد القلعة دوغان بك ، وجاء يلدرم بايزيد أثناء ذلك مع ٧٠٠٠٠ جندى إلى ترنوفا ، وأتم استعداداته النهائيه وسار إلى الصليبيين الذين جاءته الأنباء بتوقفهم منذ ١٥ يوما أمام قلعة نيغبولو . وكان يلدرم بايزيد أرسل من ناحية أخرى ٢٠٠٠٠ جندى إلى ممر شبقا لم يشتركوا فى الحرب .

كان الجيش الصليبى مؤلفا من ١٣٠٠٠٠ جندى ، ٦٠٠٠٠ منه عبارة عن جيش ملكة المجر المكون من أقوامها المختلفة . والوحدة الكبيرة التى تليه هى ١٠٠٠٠ فرنسى بقيادة الأمير الفرنسى قورقوسز (الجسور) Jean . لم يكن هؤلاء قد شاهدوا حربا بهذا الحجم ولاطالعوها فى الكتب . كانوا جنودا جيدين ،

لكنهم كانوا قد اعتادوا على مقاتلة خمسة أو عشرة آلاف شخص وجها لوجه على أكثر تقدير . كل منهم لايجيد لغة الآخر ، وكانوا يجهلون تكتيك الحرب التركى . اضطربوا عندما ضيق يلدرم بايزيد عليهم الخناق ، وأرادوا النجاة عن طريق ألطونة ، لكنهم شاهدوا أن النهر من أوله إلى آخره مرصوف بالسباهية الأتراك . كان الأتراك يقتلون بالسيف من لم يستسلم منهم . سقطت الراية الفرنسية الكبرى على الأرض ورفعت ست مرات لسقوط ستة رجال مختلفين من حملة الراية ، قتلى . أخذ الأتراك الراية عند سقوطها للمرة الأخيرة من يد قائد القوات البحرية الفرنسية الأميرال Jean de Vienne الميت . لم تنجح هذه المقاومة العنيدة فى تلافى وقوع الهزيمة .

مات أو غرق فى نهر ألطونة حوالى ١٠٠٠٠٠ جندى مسيحى ، كما وقع حوالى ١٠٠٠٠ جندى أسرى فى يد الأتراك وتمكن حوالى ٢٠٠٠٠ من الهرب بشكل منفرد . (خسائر الأتراك غير معلومة ؛ تذكر المصادر الأوربية أن حجم الخسائر قد بلغ ٣٠٠٠٠ جندى تركى بين قتيل وجريح) من بين القتلى الأمير فيليب دى لابار والاميرال Devienne .

ومن بين الذين تمكنوا من الهروب ، ملك المجر سيغسموند ، هنرى الرابع ملك انكلترا القادم ، الاميرال الكبير البندق Mocenigo (الذى أصبح بعدها رئيسا للجمهورية) ، Friedrich Von Hohenzollern قائد فرسان تولون Tolon . اما اهم الذين وقعوا فى الأسر ، فهم كونت بوركونديا Jean Sons Peur (قورقوسز جين اى جين الجسور « الذى لايهاب » وهو أحد الشخصيات المهمة فى التاريخ الفرنسى) ، الامير Philippe de Capet - Artois - Eu القائد العام لملكية فرنسا ، الأمير Jacques de Copet - Bourbon - de la Marche ، الامير هنرى دى لورين Hrnri delorraine ، المارشال Bouci cault ومجموعة من ٢٧ شخصا من أكبر أشراف فرنسا ، وأمثال ذلك من الأمم الأخرى .

جرى حصار استانبول الثالث فى ١٣٩٧ بعد نيغبولو ، وجرى الحصار الرابع خلال ١٣٩٩ - ١٤٠١ على إثر ذهاب الامبراطور البيزنطى مانويل الثانى لانكلترا وزيارته المراكز الأوربية مدة ١٣ شهرا لطلب المساعدة . وكان الحصار الرابع ويحتمل الأخير مستمرا عند دخول تيمور إلى الأناضول . تحقق للقوة البحرية التركية التفوق

البحرى فى بحر ايجه ، بعد نيغبولو وسبقت البندقية فى هذا المجال وقامت بتحركات مهمة .

(١٠) واقعة أنقرة (٢٨ تموز ١٤٠٢)

وخلال هذه السنين أسس تيمور بك الكبير خاقان أتراك الشرق (تركستان) ، امبراطورية عظمى تمتلك أقدر جيش ودولة فى العالم تمتد من الصين إلى مصر . وكان يلدرم بايزيد قد أثبت خاصة بعد انتصاره فى نيغبولو – لأوربا المتحالفة ، انه يملك دولة كبرى وجيشا عظيما ، وانه المقتدر الثانى فى العالم بعد تيمور .

لايمكن لدولتى العالم الأولى والثانية الكبيرتين أن تقيما علاقات حسنة من الناحية الجغرافية السياسية ، حتى ولو كانتا تتكلمان اللغة ذاتها وتدينان بالدين والمذهب ذاته . وهذا ماحدث . تمكن يلدرم من النجاة من بلية تيمور باتباعه دبلوماسية دقيقة . كانت مواهب يلدرم العسكرية أكثر تفوقا من مواهبه الدبلوماسية .

اقترب تيمور إلى تركيا وهو متردد . حمت العثمانية أعداء تيمور بشكل سافر . كان تيمور قد أصبح كبير السن ولم يكن كثير الرغبة فى الحملة على يلدرم بايزيد بنى عثمان الذى يعتبر أكبر الغزاة فى العالم الإسلامى وإثارة مشاعر العالم الإسلامى التى لم تكن أساساً فى صالحه . لكنه كان عازما على فتح الصين وادخال هذه البلاد إلى الإسلام ، وكان يعلم أن العثمانية لاتبالى بأية حدود ، وكان يخشى من استيلائها على أقطار الشرق الأوسط وأقطار الحكام الذين لجأ بعضهم إلى بورصة التى فتحها تيمور حديثا . من المعلوم أن يلدرم كان شابا جسوراً مغروراً وحريصا .

قام تيمور بحملته الأولى على الأناضول فى عام ١٤٠٠ . جاء إلى سيواس . أقام مالقوج أوغلو مصطفى بك دفاعه الطويل والمخيف بـ ٤٠٠٠ من جنده تجاه مالا يقل عن مائتى ألف من جيش تيمور . دخل تيمور المدينة وخربها . قتل كافة الأسرى العثمانيين وعددا غير قليل من الشعب . لكنه لم يكن قد شاهد خلال حياته الطويلة صمود قلعة إلى هذه الدرجة من الشدة . وأدرك عدم إمكان اسقاط القلاع الأناضولية الواحدة تلو الأخرى على هذا المنوال . كان عليه ان يظفر بالجيش العثمانى السيار ، ويبيده . انسحب تيمور من الاناضول إلى قفقاسيا بعد أن أخذ من العثمانية ملاطية (١٤٠٠/٩/١٥) ، وخلال ذلك كان السلطان بايزيد قد حضر مع جيشه

إلى قيصرى . رفض تيمور الحرب ، كان يأمل أن يقر يلدرم بتبعيته له مثل سلاطين ألطون اوردى ، المماليك والهند . لم يتحقق أمله هذا ، وردّ يلدرم طلب تيمور بصيغة فيها تحقير . حاول تيمور خلال قضائه الشتاء فى قفقاسيا ، اقناع امرائه بشن حرب نهائية مع العثمانية . كان رأى أمراء تيمور وحتى أولاده وأحفاده ، أنه لايليق بهم الحملة على الدولة العثمانية السنية – الحنفية مثلهم والتى تنطق بالتركية والتى تعتبر حاملة لراية جهاد الدين الإسلامى . أقنع تيمور قواده الذين خالفوه فى رأيه باحتمال ضرب يلدرم الجيش التيمورى من الخلف أثناء حملته على الصين . وساعده على إقناعهم بهذا سياسة يلدرم .

دخل تيمور الأناضول مجددا فى ١٤٠٢ ، وفى شهر تموز وصل أنقرة . تجول مدة طويلة فى الأناضول وأتعب يلدرم الذى كان يتعقبه . كان لديه ٣٠٠ . ٠٠٠ جندى وجميعهم منظمون جدا .وفى مقدمة الجيش ٣٢ فيلا مدرعا تدهش الناظرين . كان أبناء تيمور واحفاد كثيرون له قواد فرق فى الجيش . جاء يلدرم مع ١٢٠ . ٠٠٠ جندى . بدأ الصدام فى صباح يوم ٢٨ تموز واستمر حتى غروب الشمس . لجأ جميع الأمراء التركمان الذين حرمهم يلدرم من عروشهم إلى تيمور وانضموا بوحدات اماراتهم إلى جيشه . كان ذلك أحد الأسباب الكبرى فى هزيمة العثمانية . ذلك بالاضافة إلى أن فارق العدد كان كبيرا ، ونحو العصر ، قطع ولى عهد – شهزاده سليمان مع الوزير الأعظم جاندارلى – زاده على باشا الأمل فى النصر ، فتركا ساحة الحرب مع فيلق مؤلف من ٣٠ . ٠٠٠ شخص .

كان البادشاه فى القلب وقد ظل يحارب إلى أن أسر ليلا فى جتالتبه .

كانت خسائر تيمور ٤٠ . ٠٠٠ ، وهى خسارة لم يسبق له أن تكبدها ، فقد كان أقصى ماتكبده من خسائر فى معارك سابقة لايزيد على ٦٠٠٠ . كان طريق سمرقند – انقره ، الذى يبلغ طوله الحقيقى حوالى ٦٠٠٠ كم بعيدا جدا عن قاعدته . وقد أخطأ يلدرم خطأ كبيرا بقبوله الحرب الميدانية بدلا من حرب العصابات .

كانت معركة أنقرة أكبر حرب ميدانية حدثت على وجه الأرض خلال القرون الوسطى (٤٧٦ – ١٤٥٣) . وفى هذه الحرب التحم اثنان من أكبر الحكام العسكريين فى التاريخ ، وفيها تبارى لاحراز النصر خاقانان تركيان مسلمان كانا يقتسمان الاقطار بين الصين والادرياتيك ومعهما أبناؤهما .

ولذلك فإن معركة أنقرة تعد فى التاريخ التركى إحدى أكبر الكوارث التى أخرت نمو العثمانية وفتوحاتها نصف قرن ، كما أطالت عمر البيزنط والقرون الوسطى ٥٠ سنة ، بالاضافة إلى أنها أخرت وحدة الأناضول ٧٠ سنة . ولم يتمكن السلطان ياوز سليم من ضم بعض الأراضى التى كانت على عهد يلدرم أراضى عثمانية إلى الأراضى التركية مجددا إلا بعد ١١٥ عاما من معركة أنقرة .

عاش السلطان بايزيد الذى أسره تيمور فى الأسر مدة ٧ أشهر و١٢ يوما . توفى فى آقشهر قرب قونيه فى ٣ آذار ١٤٠٣ . ارسل جثمانه إلى بورصه . وعلى اثر وفاته ، اطلق تيمور سراح موسى جلبى أحد ابنى بايزيد الذين أسرا معه . وأحضر مصطفى جلبى ابنه الآخر الذى يكبره إلى سمرقند .

دامت سلطنة يلدرم بايزيد مدة ١٣ سنة ، وشهراً ، و٨ أيام وكان عند وفاته فى سن ٤٣ .

نال بصورة رسمية وكذلك بتصديق من الخليفة العباسى فى القاهرة لقب « سلطان إقليم روم » وأعلن نفسه امبراطورا على روما وأضاف هذا اللقب إلى سلطنته حيث إنه كان متبوعا لامبراطور روما الشرقية .

بلغت مساحة دولة تركية قبيل معركة انقرة ٩٤٢٠٠٠ كم^2 ، بما يعنى أنها توسعت خلال ١٣ سنة نحواً من ٤٤٣٠٠٠ كم^2 منها ٤٤١٠٠٠ كم^2 منها فى أوربا فى البلقان ، ونحو ٥٠٠٠٠٠ كم^2 فى آسيا فى الأناضول .

أما الدول المستقلة ذاتيا فى هذه الأراضى فهى : إمارة افلاق (رومانيا) وإمارة الصرب وإمارة مورا البيزنطية ودوقية أثينا اللاتينية وإمارة دلقادر . وبقية الإمارات كان يديرها الولاة العثمانيون بصورة مباشرة .

من أشهر القواد الذين ساعدوا يلدرم بايزيد والسلاطين الذين سبقوه فى هذه الفتوحات : حاجى ايلبكى (وفاته ١٣٦٤) والوزير لالاشاهين باشا (وفاته ١٣٨٦) والوزير الأعظم جاندارلى خير الدين باشا (وفاته ١٤٠٦) والوزير قره تيمور طاش باشا (وفاته ١٤٠٤) وغازى افرنوس بك (وفاته ١٤١٧) وغازى اسحق بك (وفاته ١٤١٥) .

(١١) دور الفترة : سليمان الأول (١٤٠٢ - ١٤١٠) و موسى جلبى (١٤١٠ - ١٤١٣)

خلف يلدرم بايزيد أبناء كثيرون وهم حسب تسلسل أعمارهم : سليمان الاول (١٣٧٥ - ١٤١٠) (ولى عهد فى ١٣٨٩ - ١٤٠٢) ، شهزاده ارطغرل (١٣٧٦ - ١٣٩٦) عيسى جلبى (١٣٧٨ - ١٤٠٥) ، مصطفى جلبى (١٣٨٠ - ١٤٢٢) ، محمد الأول (١٣٨٢ - ١٤٢١) ، موسى جلبى (١٣٨٨ - ١٤١٣) ، شهزاده قاسم (١٣٩٧ - ١٤١٧) ، شهزاده يوسف ، شهزاده إبراهيم الذى توفى وأبوه على قيد الحياة ، شهزاده حسن (وفاته ١٤٠٣) ، وابن آخر شهزاده بيوك موسى جلبى مات وهو طفل نحو ١٣٨٨ .

ترك أولو شهزاده سليمان ومعه اخوانه ، ساحة حرب أنقرة وجاء إلى بورصة ، وخرج من مدينة العرش على وجه السرعة بحيث ترك فيها الخزينة وارشيف الدولة ، فقد كان يطارده ٣٠٠٠٠ خيال تركستانى واثنان من أحفاد تيمور سلطان محمد وأبو بكر ميرزا . نهب التيموريون خزينة بنى عثمان التى كانت حصيلة ٤ بطون وحرقوا أرشيف الدولة ، لذلك فإن الوثائق الرسمية الموجودة فى حوزتنا التى ترجع للقرن ١٤ من التاريخ العثمانى غير وافية . جاء أبو بكر ميرزا بعد ذلك إلى ايزنك ونهبها كذلك .

اجتاز شهزاده سليمان البوغاز وذهب ناجيا بنفسه إلى ادرنه . أعلن نفسه سلطانا باسم سليمان الأول . وخلال ذلك أعاد تيمور إلى أمراء الأناضول السابقين دولهم التى أخذها منهم يلدرم بايزيد قبل عدة سنوات .

لم يحاول العبور إلى روملى ، فقد كان يخشى الكوماندو الخيالة فى روملى الذين يسمون (روملى آقينجيلرى) الذين سمع بشهرتهم وشجاعتهم فى القتال ، وكان يريد فى الوقت ذاته الإسراع فى الذهاب إلى الصين . أعيد احياء امارات (بكلك) قرة مان ، آيدن ، صاروخان ، منتشه ، جرميان ، جاندار ، تكه .

أعطى تيمور إلى اثنين من أولاد يلدرم هما عيسى ومحمد جلبى المناطق الأخرى من الأناضول ، أما سليمان الأول الذى يحكم الأراضى الأوربية ، فقد قبل أن يكون تابعا لتيمور .

جاء تيمور أمام أزمير ، وكانت المدينة مقسمة بين الأتراك وفرسان رودس (Saint - Jean) ، قسم من القلعة كان بيد الفرسان وكان يسميها الأتراك « كاوور أزمير » بمعنى « أزمير الكافرة أو غير المسلمة » ، وكان آيدن أوغلو غازى أومور بك قد سقط شهيدا أمام أسوار هذه القلعة عندما أراد استرجاعها .

احتل تيمور القلعة بعد حصار دام ١٥ يوما وسلمها إلى آيدن أوغلو ، ويعتبر هذا هو العمل المجدى الوحيد الذى حققه فى الأناضول .

انهى تيمور حملة الأناضول المشئومة وقد أصبح الأناضول تابعاً لـ ٦ امبراطوريات ؛ ألطون أوردى (أوربا الشرقية التركية) ، والمملوكية المصرية — السورية ، والهندية ، والتركية (العثمانية) ، والبيزنطية وامبراطورية طرابزون الرومية ، ولعشرات الملوك ومئات الأمراء . ذهب نحو تركستان لحملة الصين ، ولو شاء لتمكن من فتح البيزنط خلال عدة أسابيع ولو فعل ذلك لحصل على شرف كبير ، لكن سحر الصين كان قد غلب عليه .

يطلق فى التاريخ العثمانى على الفترة الزمنية المنحصرة بين حرب أنقرة وتوحيد تركية تحت إدارة واحدة على يد محمد الأول « دور الفترة » (فترت دورى) ، وهى فترة الخصام على العرش بين أبناء يلدرم بايزيد ، ومدتها ١٠ سنوات ، و١١ شهرا ، و٨ أيام . كان تيمور فى الأناضول فى الثمانية أشهر الأولى منها (غادر تركية فى آذار ١٤٠٣) .

لاشك فى أن البادشاه كان هو سليمان الأول الموجود فى أدرنة ، وكان أخوه محمد جلبى المقيم فى آماسيا يمتلك أراضى كبيرة . أما عيسى جلبى ، فانه سيطر لفترة من الزمن على بورصة لكن أخاه الصغير محمد جلبى نحاه وقتله .

وكان أصغر الأخوة هو موسى جلبى . وكل الأخوة كانوا يعترفون بلا شك بسلطنة سليمان الأول ، لكنهم كانوا يسعون لحصره فى حدود ضيقة ، أو اسقاطه إذا أمكن .

أنهت إقامة السلطان سليمان فى أدرنه دور مدينة بورصه كقاعدة ومدينة عرش دامت ٧٦ سنة ، و٤ أشهر (١٣٢٦ — ١٤٠٢) وبدأ دور مدينة أدرنه التى ستظل

مدينة العرش لمدة ٥١ سنة (حتى عام ١٤٥٣) . ظل دور بورصه مستمرا كمدينة عرش للأراضى الأناضولية .

حاول السلطان سليمان ، حيازة الأراضى الأناضولية . أخذ بورصة ، أنقرة ، أزمير . بقى لدى محمد جلبى منطقة أماسيه - توقات - سيواس فقط .

دخلت آيدن وجرميان تحت سيادة محمد جلبى واعتبراه سيدا لهما .

أخذ السلطان سليمان الذى جاء إلى أزمير آيدن من حوزة ايدن اوغلو جنيد بك وانهى إمارته مرة أخرى .

كان قرة مان ضد السلطان سليمان ويزعم انه حليف لمحمد جلبى . اعلن موسى جلبى طاعته لاخيه الكبير محمد جلبى واجتاز إلى روملى بغية اسقاط السلطان سليمان لحساب محمد جلبى وباسمه .

اعترف أمير رومانيا (افلاق) بتبعيته لموسى جلبى ، أما أمير صربستان فقد اعترف بسيادة السلطان سليمان .

وقع الصدام الأول قرب جتالجه ، وفر موسى جلبى أمام أخيه الكبير . لكن بعض القواد لم يكونوا مرتاحين للسلطان سليمان ، فدعوا موسى جلبى الذى هرب إلى رومانيا . بوغت السلطان سليمان بالهجوم على مسكنه ، فترك ادرنه ، وقتل فى الطريق (١٨/٥/١٤١٠) وعمره ٣٥ سنة . دامت سلطنته ٧ سنوات ، و٩ أشهر ، و٢١ يوما .

اعتلى السلطان موسى العرش . بينما كان قد وعد بأخذ روملى من أكبر اخوته السلطان سليمان باسم محمد جلبى الذى سانده على هذا الأساس . كان عسكريا شديدا ، من جهة الأم من بنى كرميان ومن جهة أم أمة من أحفاد مولانا جلال الدين الرومى . أعلن نفسه سلطاناً وبقى أخوه محمد جلبى فى الأناضول .

كان محمد جلبى دبلوماسيا حاذقا . أخذ الأمبراطور الذى تخلص من الحصار بصعوبة ، بمساندة محمد جلبى بكل إمكاناته .

أراد موسى استعادة سلانيك من البيزنط ولكنه لم يوفق ، واستعاد جتالجه وهزم قرب جتالجه أخاه محمد جلبى الذى ثار عليه . جرح محمد جلبى وذهب إلى البيزنط

ونجا بنفسه ، وبقى مدة فى استانبول كضيف على الامبراطور الذى رحب به وعمل على معالجته .

كرر موسى خطأ أخيه سليمان وأغضب أمراء صاعقة روملى المغاوير ، بدأت كفة الميزان تميل فى غير صالح موسى ، وأعلن أمير الصرب تبعيته لمحمد جلبى ، وجه أمراء صاعقة روملى الدعوة لمحمد جلبى ، عبر محمد جلبى إلى روملى للمرة الثالثة ومعه ٣٠٠٠٠ جندى وانضم إليه مغاوير روملى كما أرسل أمير صربيا وحدات عسكرية إليه ، هزم جيش موسى جلبى قرب ويزه .

تعقب محمد جلبى أثر أخيه الصغير موسى وهزمه وقتله فى الحرب الميدانية جامورلو دربند التى وقعت قرب ساماكوف فى جنوب شرق صوفيا . أرسل نعشه إلى بورصة كما أرسل نعش سليمان الأول . كان عمره ٢٥ سنة . دامت سلطنته ٣ سنوات ، وشهرا ، و٢٣ يوما . لم يعقب ولدا ، أما سليمان الأول فقد خلف الشهزاده أورخان (١٣٩٥ - ١٤٤٩) ، الشهزاده محمد - شاه (١٤٠٨ - ١٤٢١) و ٣ اطفال باسم باشا - ملك - خاتون ، وأحفاد كثيرون من هؤلاء .

أرسل أصغر أبناء تيمور الرابع الخاقان الأكبر سلطان شاه رخ ، كتابا إلى محمد جلبى الذى كان تابعا له ، يكدره فيه لقتله أخيه موسى . أجابه محمد جلبى برسالة يعتذر فيها ، وحصل بهذه الرسالة على مصادقته على سلطنته . وهكذا انتهى دور الفترة .

قضى محمد جلبى على امارة صاروخان فى دور الفترة منذ ١٤١٠ ، واعترفت أكثرية الامارات الاناضولية التى أحياها تيمور عدا قره مان ، بسيادة بنى عثمان عليها منذ عهد الفترة ، ورغم ذلك فإن الأراضى التى تحت حماية أو حكم العثمانية فى ١٤١٣ ، تسجل نقصا قدره ٢٤٧٠٠٠ كم٢ عما كانت عليه فى عهد يلدرم فى ١٤٠٢ ، وهذه خسارة لايستهان بها . كان محمد جلبى فى ١٤١٣ يسيطر على أراض تبلغ مساحتها ٦٩٤٠٠٠ كم٢ منها ٣٦٨٠٠٠ كم٢ فى أناضولى و٣٧٦٠٠٠ كم٢ فى روملى . مناطق تكه ، آيدن ، دلقادر ، افلاق ، صربستان ، (محميات دبروفنك ضمن هذا العدد) . أما إمارات جرميان ، جاندار ، منتشه ، وقره مان ، فقد كانت تدعى الاستقلال تماما أو الاعتراف بسيادة بنى تيمور .

(١٢) السلطان محمد جلبى (الأول) (١٤١٣ - ١٤٢١)

أصبح الآن على عاتق السلطان محمد جلبى العمل على توحيد الوضع الدبلوماسى المبعثر إلى درجة كبيرة فى الأناضول ، والوصول بالدولة - قدر الإمكان - إلى مرحلة من القوة التى كانت عليها أيام والده ، وبالنظر إلى التوفيق الكبير الذى صادف السلطان محمد جلبى فى تحقيق ذلك ، فإن بعض المؤرخين العثمانيين يعتبرونه المؤسس الثانى للدولة .

وبينما كان السلطان محمد منشغلا فى روملى ، لم يضيع الفرصة ابن عمته قرة مان اوغلو محمد بك الثانى الذى زاد فى غضبه ، إعلان جرميان اوغلو يعقوب بك خضوعه لمحمد جلبى ، وسار إلى بورصة ولكنه رغم محاصرته حاجى عوض باشا الذى دافع عن القلعة مدة ٣١ يوما ، لم يتمكن من الاستيلاء عليها . وعلى اثر ذلك أخرج من قبر يلدرم بايزيد الموجود خارج القلعة عظام البادشاه الذى توفى قبل ١٠ سنوات ، وقام بعمل شنيع لايتقبله العقل فأحرق عظام خاله يلدرم بايزيد ، الذى يعتبره مسلمو العالم أجمع سلطان الغزاة وأكبر بطل إسلامى ، واثناء ذلك كانت وحدة عثمانية صغيرة تجلب نعش موسى جلبى إلى بورصة ، فظن قرة مان اوغلو ان هذه الوحدة طليعة للجيش العثمانى ، وأعطى أمر الانسحاب . لم يتمالك أحد القره مانيين من ضباط الخاصة الملقب « هارمان داناسى » الذى تأثر لهذا الأمر ، إلا أنه قال : « سيدى السلطان ، تهرب من ميت بنى عثمان بهذا الشكل ، فماذا يكون حالك لو جاءك حيه ؟ » اعدم هذا الضابط شنقا فى الحال لجرأته على هذا القول .

وهكذا بدأ السلطان محمد جلبى سلطنته فى مثل هذا الجو الفوضوى . كان لدى محمد جلبى تجربة حكم لمدة ١١ سنة فى دور الفترة . جاء إلى أزمير . ألغى إمارة آيدن . قبل خضوع جاندار اوغلو . استصحب معه وحدات تابعية جاندار وجرميان وسار على قرة مان . أسر ابن عمته قره مان اوغلو محمد بك الثانى ، لكنه بعد أن سمح له بتقبيل يده وأخذ منه عهد الاخلاص - الذى لن يوفى به أبدا - أطلق سراحه . قلص حدود قره مان بصورة كبيرة وذلك بالحاقه سيورى حصار ، بك بازار ، يالواج ، شرقى قره آغاج ، قيرشهرى ، آقشهر ، بكشهرى ، سيد يشهرى التى اعطاها تيمور لقره مان ، إلى العثمانية . مثل فى حضرة السلطان - خلال حملته الأناضولية هذه - كل من أمراء جرميان ، منتشه ، تكه ، استاذ اعظم رودس وامراء

جنوه وقبلوا يده . أرسل الأسطول بقيادة جالى بك إلى جزر آغريبوز وكيكلاد التابعة للبندقية . وفى أيار عام ١٤١٦ ، جاء الأسطول البندقى إلى مدخل بوغاز جناقلعة للانتقام . جرح الأميرال Loredano ، واستشهد جالى بك الذى كان قائدا لـ ٤٢ سفينة .

استمر ملوك المجر وبوسنه فى البلقان على موقفهم المعادى للعثمانية . انتخب ملك المجر سيكسموند Sigismund فى ذات الوقت امبراطورا على ألمانيا . ومن ثم فقد تحتم على العثمانية اتخاذ التدابير حيال تفاقم الخطر فى شمال الطونة . اقترب الامبراطور - الملك سيكسموند إلى الحدود التركية ، فالتقى غازى اسحق بك بجيش العدو فى DoboJ فى خرواتيا فبعثره . أدى انتصار قائد تركى برتبة لواء (سنجق بك) فى معركة ميدانية على امبراطور إلى إخافة أعداء الأتراك فى البلقان . أعلن دوق هرسك طاعته للبادشاه . فتحت بعض الأماكن فى بوسنه . تقدم اسحق بك حتى وصل سلوفينيا . سقطت القصبة الصغيرة المسماة (سراى بوسنه) SaraJevo التى يسميها الاتراك « بوسنه سراى » على يد العثمانية بعد حرب DoboJ عام ١٤١٥ ، وقد جعل الاتراك من هذه القصبة الصغيرة بلدة كبيرة وشرعوا فى تجهيزها لتكون مركزا لبوسنه .

وفى ١٤١٦ استصحب السلطان محمد الوحدات التى أرسلها إليه تابعيه قره مان وجاندار ، واجتاز الطونة نحو الشمال ودخل رومانيا . شيد قلعتى تورنو ويركوى داخل رومانيا فى شمال الطونه . ربط افلاق بتركيا براوبط أمتن . عقابا للمجر رتب السلطان محمد هجمات على ترانسلفانيا (بالتركية : اردل) فى السنوات ١٤١٦ ، ١٤٢٠ و ١٤٢١ على التوالى . (الحملة الأولى على جرت فى ١٣٩١) .

دخل اسحق بك إلى ستيريا . أراد الجيش الألمانى - المجرى الدفاع عن شبه الجزيرة (شبه الجزيرة التى يقع غليها ميناء تريسته) . خسر ١٢٠٠٠ قتيل من المشاة ، ٧٤٠٠ من الخيالة ، ٣ جنرالات . أغرى هذا النصر اسحق بك فسار إلى ترانسلفانيا ؛ لكنه استشهد فيها .

ارتبطت دوبروجا بالنظام العثمانى بروابط متينة .

دخل الجيش العثمانى بيسارابيا وحاصر قلعة Cetatea Alba (بالتركية : اكيرمان) لكنه لم يتمكن من الاستيلاء عليها .

جاء السلطان محمد فى السنة التالية إلى سينوب وصامصون وألحق بامبراطوريته بعض أراضى جاندار بصورة مباشرة .

فى غضون ذلك كله ، بدأ عصيان الشيخ بدر الدين .

من هو الشيخ بدر الدين وماأفكاره ؟

كان الشيخ بدر الدين عالما إسلاميا كبيرا ، ألف فى العلوم الدينية باللغة العربية ، تولى وظيفة « القاضى عسكر » لجلبى ، شارك فى مناظرات دينية عديدة فى حضرة تيمور فى تبريز ، وعندما ذهب إلى القاهرة ، أصبح استاذا للسلطان المملوكى فرج .

بدأ الشيخ بدر الدين فى نشر عقيدة غريبة وجمع حوله حشودا،مستثمرا الآثار الناشئة عن اضطرابات وآلام دور الفترة ، الأمر الذى أحدث تأثيرا فى النظام .

تتلخص آراء الشيخ بدر الدين فى:-إنكار الوجود المادى للجنة ولجهنم موئلا ماورد فيهما من آيات على محمل الأثر النفسى الذى يجده المؤمن من عمل الحسنة أو اقتراف السيئة ، ويرتبط بذلك انكاره للقيامة والبعث بعد الموت

- تساوى الموسويين والمسلمين فى الناحية الإيمانية
- أن الرسول ﷺ ليس أفضل من غيره من الرسل ، وأن رسالته لاتختلف عنهم
- إنكار حق التملك ، والقول بشيوعية المال والملك .

كثر اتباع الشيخ بدر الدين ، وأخذوا فى نشر مذهبهم بالقوة والتعرض للناس والأموال ، فقتلوا الآلاف واجترءوا على أمير لواء أزمير اسكندر بك وقتلوه .

قبض على الشيخ بدر الدين فى دلى اورمان جنوب دوبروجه فى روملى ، وحاكمه السلطان محمد فى Serez واعدمه فى ١٤٢٠ .

ظهر مصطفى جلبى الأخ الأكبر للسلطان محمد فى مثل هذا الجو .

كان تيمور قد أرسل مصطفى جلبى إلى سمرقند ، وبعد سنوات طويلة اطلق سراحه وعاد إلى تركيا .

لاتوجد معلومات عن حياته وأعماله خلال هذه الأعوام الـ ١٦ .

وعلى الرغم من أنه من الثابت أنه الابن الحقيقى للسلطان يلدرم بايزيد ، فإن جلبى محمد أعلن أنه شخص محتال وأنه « ددزمه مصطفى » أى مصطفى المزيف .

مكث مصطفى عند قدومه إلى تركيا فى نيغده قره مان أولا ، ثم ذهب هناك إلى افلاق ، وحصل على تأييد أميرها وتأييد آيدن اوغلو جنيد بك الذى عين واليا (سنجق بك) على نيغبولو فى جنوب افلاق ، ثم نزل إلى الجنوب مع بعض الوحدات التى انضمت إليه . هزمه أخوه السلطان محمد قرب سلانيك . تمكن من الهرب مع جنيد بك إلى سلانيك ولجأ إلى البيزنط . نفاهما الامبراطور إلى جزيرة ليمنى ، واقسم الامبراطور على عدم إطلاق سراحيهما مادام مصطفى جلبى حيا مقابل ٣٠٠ ٠٠٠ آقجه يتسلمها كل عام .

جاء السلطان محمد إلى إستانبول ، وزار الامبراطور مانويل الثانى بصورة رسمية للمرة الثانية . كان مجىء السلطان محمد بواسطة البحر ، ونزل إلى البر فى دولمه بقجه . وعند عودته عبر معه الامبراطور إلى اسكدار ، أى حتى حدود الأراضى العثمانية .

وفى ١٤٢١/٥/٤ توفى غياث الدين غازى جلبى سلطام محمد خان ، فى سن ٣٩ فى ادرنه ، ونقل إلى بورصه ودفن فى قبرها المشهور بيشيل تربه (أى القبر الأخضر) ، لم يذع خبر وفاته مدة ٤١ يوما ، وأغلقت كل الحدود لحين حضور ابنه الذى كان واليا فى آماسيا ، إذ كان يخشى من قدوم السلطان مصطفى من ليمنى التى هى أقرب إلى ادرنه وجلوسه على العرش .

دامت سلطنته منفردا ٧ سنوات ، ٩ أشهر ، ٢٦ يوما . وإذا أدخلنا دور الفترة تصبح المدة ١٨ سنة و٩ أشهر و٧ أيام..كانت مساحة الامبراطورية عام ١٤٠٢ (٩٤٢٠٠٠ كم^2) ، وعند وفاة السلطان محمد عام ١٤٢١ كانت مساحة الامبراطورية ٨٧٠٠٠٠ كم^2 ، ولاينبغى النظر إلى الفارق (وقدره ٧٢٠٠٠ كم^2) على أنه نقص ، بل إن الدولة تعتبر قد قطعت مرحلة كبيرة . أما هذا النقص فقد نشأ أساساً عن ظروف دور الفترة وماكتنفها من كثرة مناطق الحماية (كانت مناطق الحماية : جمهورية دبروفنك ، إمارة افلاق ، إمارة صربيا ، إمارة قره مان ، دلقادر ، جاندار ، تكه ، منتشه وجرميان) .

١٣) مراد الثانى (١٤٢١ - ١٤٥١) :
فترة سلطنته الاولى

ولد فى آماسيا فى ١٤٠٤ ، أمه دلقادر أوغلوا أمينة خاتون ، تولى العرش وهو فى سن الـ ١٧ فى جو متأزم ؛ فقد أعلن السلطان مصطفى الذى خرج إلى ميناء غاليبولى ، سلطنته للمرة الثانية ، بعد أن أطلق الأمبراطور البيزنطى سراحه ، ومعه جنيد وعشرة من رجاله عند وصول مراد الثانى إلى ادرنه بعد وفاة والده بـ ٤١ يوما كما أشرنا من قبل .

اعترف الجيش فى روملى بسلطنه السلطان مصطفى على أساس انه مادام العم موجودا فلا مبرر لجلوس ابن الأخ على العرش ، جاء مصطفى جلبى إلى أدرنه وجلس على العرش (١٤٢١/٨/٣٠) .

لم يبق أمام مصطفى جلبى إلا أن يحتل الأناضول وينحى ابن أخيه . اجتاز بوغاز جناقلعه من غاليبولى وصعد إلى البر من لابسكى (١٤٢٢/١/٢٠) . وسار نحو بورصة حيث السلطان مراد مع ١٢٠٠٠ خيال و ٥٠٠٠ من جنود المشاة . تقابل الجيشان فى ساحل نهر اولوباد .

لم تكن لدى الطرفين رغبة فى القتال ، وأخذ الطرفان ينظر أحدهما إلى الآخر دون أن يشهر أحد منهم السلاح . وبعد حوار ونقاش ، رجحت كفة الطرف الذى يساند السلطان مراد .

هرب السلطان مصطفى مع معية قليلة إلى غاليبولى ، ومنها إلى ادرنه ، طارده ابن أخيه ، وقبض عليه فى شمال ادرنه وأعدمه بدعوى أنه منتحل للشخصية الحقيقية لمصطفى .

دامت سلطنته الثانية هذه فى أوربا ٩ أشهر (آذار ١٤٢٢) . كان عمره عند إعدامه ٤٢ سنة .

وفى ١٤٢٥ قبض على ابنه الشهزاده وعلى ايدن اوغلو جنيد بك واعدما فى ايسالا .

حاصر مراد الثانى البيزنط لإطلاقهم سراح عمه وهو الأمر الذى تسبب فى حرب داخلية .

استمر هذا الحصار – وقد كان من أشد المرات التى ضرب فيها الحصار – مدة ٦٤ يوما بأسطول وجيش قوامه ٣٠٠٠٠ جندى ، لكن المدافع التركية لم تحدث أضرارا جدية فى الأسوار ، ومع ذلك فقد كان احتمال سقوط المدينة كبيرا .

رفع مراد الثانى الحصار على اثر ادعاء أخيه الصغير أمير ايسالا (حميد) كوجوك (الصغير) مصطفى البالغ عمره ١٣ سنة – بتحريض من البيزنط – السلطنة فى ايزنك . (كان الشهزاده مصطفى قد قدم إلى استانبول وقابل الامبراطور) . قبض عليه واعدم .

عقد صلح مع البيزنط شرط دفعهم ٣٠٠٠٠٠ آقجه ضريبة سنوية (١٤٢٤/٢/٢٢) .

كان السلطان مراد قد حاصر سلانيك عام ١٤٢٣ ، لكنه لم يتمكن من أخذها . وافقت البيزنط على دفع ١٠٠٠٠٠ آقجه فى السنة كخراج عن سلانيك .

وجه السلطان مراد حملته بعد ذلك إلى الأناضول على الإمارات التى تمردت أثناء انشغاله مع البيزنط .

جاء إلى إمارة جاندار وقلص حدودها ، لكنه ترك جاندار اوغلوا سفنديار بك فى منصبه لأعتبارات خاصة ، فقد كان اسفنديار بك من بنى عثمان من جهة الأم ، وزوّج ابنته من مراد الثانى ، كما تزوج ابنا اسغنديار أوغلو باختى البادشاه .

نزل السلطان مراد بعد ذلك إلى البحر الأبيض فى ١٤٢٥ . وقضى بصورة نهائية على إمارتى منتشه (موغلا) وآيدن . ومنيت إمارة تكه بالعاقبة نفسها .

حاول قرة مان اوغلو محمد بك الثانى الاستيلاء على المرفأ العثمانى انطاليه ، ولكنه مات بقذيفة مدفعية أطلقت من القلعة . ومع أنه حفيد مراد الأول من جهة الأم ، كان ألد أعداء العثمانية زوج السلطان مراد أخواته الثلاث بأبناء محمد بك الثلاثة وأرسلهم إلى روملى كأمراء ألويه .

توفى جرميان اوغلو يعقوب بك وهو طاعن فى السن (ك ١٤٢٨/٢) ، وأوصى عند وفاته باعطاء إمارة جرميان (كوتاهيه) إلى قريبه مراد الثانى ونفذت وصيته .

وهكذا أمحت فى السنوات الأولى من جلوس السلطان مراد ، كل من امارات آيدن تكه ، منتشه ، جرميان وأصبحت فى ذمة التاريخ .

بدأت الحرب التى سوف تستمر ٥ سنوات مع جمهورية البندقية فى ١٤٢٥ ، وفى هذه الحرب انضمت ألمانيا والمجر إلى البندقية .

هزم مراد الثانى الذى اجتاز الطونه من فيدين ، الجيش المجرى (١٤٢٦) . دخل الجيش المجرى صربيا بقيادة الأمبراطور – الملك سيكسموند ، هزمه أمير لواء فيدين سنان بك (١٤٢٨) فى الحرب الميدانيه كورجينلك Guvereinlik .

طلبت المجر الهدنة لمدة ٣ سنوات بعد هذه الحرب التى خسر فيها امبراطور امام أمير لواء (Tumgeneral) وبقيت البندقية بمفردها أمام تركيا . سار البادشاه نحو سلانيك ، كان هذا الميناء المهم البالغ تعداد أهله ٤٠٠٠٠ نسمه يديره البنادقه باسم البيزنط قد بقى ٨ سنوات و٤ أشهر تحت الإدارة التركية على عهد يلدرم ثم استعاده البيزنط الذين استفادوا من هزيمة أنقرة .

فتح مراد سلانيك بشكل نهائى (١٤٣٠/٣/١٣).بعد حصار استمر لمدة ٣ أسابيع واستعمل الاتراك فيه المدافع .

فتحت يانيا (١٤٣١/١٠/٩) واستعيدت اتير التى خرجت من حوزة العثمانية بعد هزيمة أنقرة .

طلبت البندقية الصلح واعترفت الجمهورية التى وقعت على معاهدة غاليبولى Gelibolu بالفتوحات التركية (١٤٣١) .

وعلى إثر تدخل المجر فى صربيا وبوسنة ، نشبت الحرب مجددا مع هذه الدولة . كانت المجر والبندقية قوتين كبيرتين فى العالم المسيحى ؛ فقد كانت المجر أقدر دولة برية ، وكانت البندقية أقدر دولة بحرية فى ذلك العصر .

انضمت ألمانيا إلى المجر . دخل الوزير صاريجه باشا إلى سمندره مركز إمارة صربستان . وعقد صلحا وتزوج مراد الرابع بابنة أمير صربيا مارا .

فى عام ١٤٢٦ قام افرنوس اوغلو على بك بحملة رابعة على ترانسلفانيا (اردل) ،

وفى ١٤٣٢ ، قام بحملة خامسة قوامها ٧٠٠٠٠ من خيالة الصاعقة ، وفى ١٤٣٧ قام بحملة سادسة .

جاء مراد الثانى فى العام ذاته إلى ترانسلفانيا وقضى فيها ٤٥ يوما ، ثم أخذ سمندره بالقرب من جنوب بلغراد بعد حصار دام ٣ أشهر (١٤٣٩/٨/١٨) . وخلال ذلك ، قام البادشاه بحملة على قرمان لإخماد عصيان إبراهيم بك الثانى .

وفى ١٤٣٩ ، حاصر افرنوس اوغلو على بك القلعة المجرية المستحكمة بلغراد لمدة ٦ أشهر ، ولم يتمكن من إسقاطها . وفى غضون عدة سنوات ألغيت إمارة صربيا وأديرت باسم لواء سمندره . اعترفت ملكية بوسنه فى المعاهدة التى عقدت معها (ت ١/ ١٤٣٢) بسيادة البادشاه . وقبلت تسديد ضريبة سنوية . وقد أغار جنود الصاعقة مرات عديدة على خرواتيا .

جاء السلطان شاه رخ بن تيمور المتبوع السامى لجميع الدول الموجودة فى تركية ومنها العثمانية والخاقان التركستانى ، إلى شرق الأناضول مرتين فى ١٤٢٩ وفى ١٤٣٥ .

قلقت تركيا والسلطنة المملوكية لذلك ، وإن كان مراد الثانى قد أرسل اليه تعظيماته بواسطة السفراء .

تجدد عصيان قره مان اوغلو ١٤٣٧ ، ولكنه خنع عندما ثار عليه أخو زوجته مراد الثانى ، وعلى الرغم من عدم ارتياح المماليك لنفوذ العثمانية على إمارتى قره مان ودلقادر فإن وضع العثمانيين كأكبر غزاه يجاهدون المسيحية فى هذا الوقت ، حال دون أن يترجم المماليك عدم ارتياحهم إلى صورة عملية .

كان الأمبراطور Ioannes الثامن (١٤٢٥ - ١٤٤٨) ، يراقب ازدياد قوة الدولة العثمانية بقلق ، رغم سياسة مراد الثانى التى تبدى جانب الصداقة .

تجول فى أوربا لطلب قروض ومساعدات عسكرية لمواجهة الأتراك .

أعلن البابا اوجينيوس الرابع فى ١٤٣٩ الحملة الصليبية ضد الأتراك ، وفى ١٤٣٩ عندما أصبح ملك بولونيا لاديسلاس ملكا على المجر وبوهيميا فى نفس الوقت ، تشكلت فى شمال الطونه كتلة كاثوليكية مقتدرة معادية للاتراك ، وكانت هذه الدولة

تمتد – بواسطة امارة مولدافيا – (بغدان) التى تحت سيادتها – من البلطق إلى البحر الأسود ؛ وظهر كذلك فى هذه الآونة Hunyadi Janos اكبر عسكرى مسيحى فى عصره .

كان Hunyadi Janos ابنا غير شرعى لملك المجر السابق وأصبح قائدا للمجر ، وكان كاثوليكيا متعصبا هدفه الوحيد فى الحياة إخراج الأتراك من البلقان ومن أوربا . درس تكتيك الحرب العثمانى بصورة جيدة ، وتمكن بهذا من الانتصار على بضعة جيوش عثمانية سارت إليه . اضطر السلطان مراد أن يحمل بنفسه على العدو وسط الشتاء ، وعلى اثر انهزام طليعة السلطان مراد فى الممر المسمى Izladi Derbendi فى شرق صوفيا (١٤٤٣/١٢/٢٤) ، انسحب إلى ادرنه لمعاودة الحملة فى الربيع . وصل هينادى إلى فيلبيه يرافقه الملك الشاب لاديسلاس ، وبينما كان الوضع متأزما إلى درجة لم يسبق لها نظير فى روملى ، بدأت فى الأناضول تحركات مضادة للعثمانية .

فى هذه الظروف عاود الأمل قرة مان اوغلو إبراهيم بك الثانى فأرسل إلى ملك المجر – بولونيا رسالة كان من بين فقراتها « لتسر أنت من الأمام وأنا من الخلف ؛ لتكن روملى لك وأناضولى لى ؛ ولنزيل العثمانية من الوجود » ، ثم اجتاز حدوده ودخل الأراضى العثمانية ، لكنه انسحب إلى قونيه على اثر حملة ولى عهد – شهزاده ٣ علاء الدين على عليه .

أثناء هذه الأيام توفى عهد – شهزاده فى أماسيا (آذار ١٤٤٣) وعمره ١٨ سنة ، كانت وفاته كارثة كبيرة بالنسبة للسلطان مراد . نقل جثمان ولى العهد إلى بورصه ودفن فيها ، وأصبح شهزاده محمد بن البادشاه الثانى الذى يبلغ عمره ١١ عاما ، وليا للعهد .

وافق البادشاه فى ظل هذه الظروف على إجراء مفاوضات للصلح مع المجر (١٤٤٤/٥/٢٢) ، فابرمت معاهدة Segedin (١٤٤٤/٧/١٢) ، وتم تبادل نسخ المعاهدة بين أدرنه وبودابست .

اقسم الملك « بالانجيل » و « البادشاه » « بالقرآن » على عدم مخالفتهما شروط هذه المعاهدة ماداما على قيد الحياة .

أسست إمارة صربيا مجددا على أن تكون تابعة للعثمانية ، وهكذا أنشئت منطقة عازلة بين تركيا والمجر .

عقد السلطان مراد فى الشهر ذاته معاهدة صلح مع قره مان .

أفتى مؤرخ الدولة المملوكية - الكبير والفقيه الشافعى ابن حجر العسقلانى (وفاته : ١٤٤٨) وسعد الدين ديرى من قضاة المذهب الحنفى بالقاهرة (وفاته ١٤٦٢) ، بوجوب قتل إبراهيم بك إن لم يتب ويستغفر بسبب ضربه العثمانية من الخلف أثناء جهادهم للكفار .

اضطر قرة مان اوغلو تحت وطأة الضغط المعنوى إلى الاقتراب من الصلح ، ونفذ قسمة مدة ٧ سنوات حتى وفاة مراد الثانى فى (١٤٥١) ، ثم ثار على محمد الثانى بعد وفاة مراد الثانى بحجة أن قسمه كان لشخص البادشاه .

نظرا لاحساس السلطان مراد الثانى بالتعب ، فقد تخلى وعمره ٤٠ سنة عن العرش لصالح ابنه وانسحب إلى سراى مانيسا (آب ١٤٤٤) .

جاء محمد الثانى إلى ادرنه وجلس على العرش وعمره ١٢ سنة ونصف .

(١٤) فترة السلطنة الثانية لمراد الثانى (١٤٤٤ - ١٤٥١) انتصارى فارنا (١٤٤٤) وكوسوفا الثانية (١٤٤٨)

بطبيعة الحال فإن تخلى سلطان كمراد الثاني ــ بخبرته المشهودة ــ على العرش ، وتنازله عن السلطة إلى طفل ، أنعش الأمل فى صدور الأوربيين وعلى رأسهم المجر والبيزنط . وبالفعل فقد أبلغ الكاردينال جساريني ، ملك المجر ــ بولونيا الملك لاديسلاس ، بأنه فى حل من القسم الذى تعهد به لأنه قسم جرى مع « المسلمين الكفرة » ، ومن ثم فإن البابا يبطل هذا القسم .

اتحدت المجر ، بولونيا ، ألمانيا ، فرنسا ، البندقية ، البيزنط ، البابوية وبرغونديا ، وتشكلت الحملة الصليبية الخامسة ضد العثمانية .

دخل الجيش الصليبى الذى يقوده ظاهرا الملك لاديسلاس ، ويقوده فعلا هنيادى ، إلى تركيا ونزل إلى ساحل البحر الأسود واقترب من فارنا ، حاولوا فى

طريقهم أخذ قلعتى فيدين ونيغبولو ، ولكنهم لم يوفقوا ، نهبوا كل المدن والقصبات والكنائس الأرثوذكسية التي صادفتهم فى طريقهم ، وكان ملك بولونيا – المجر الشاب لاديسلاس قد خطط للذهاب إلى استانبول ليكون صهرا للامبراطور ولم يخطر بباله أن البادشاه سوف يجرؤ على العبور من الأناضول إلى روملى .

بينما تجرى هذه التحركات اجتمع مجلس شورى السلطنة فى أدرنة ، واتخذ قراراً أبلغه الوزير الأعظم جاندارلى زاده خليل باشا إلى محمد الثانى الطفل ، هذا نصه :

« لايمكننا الرد على مقاومة العدو ، اللهم إلا إذا أعتلى والدك السلطان مكانك . أرسلوا والدكم ليجابه العدو وتمتعوا براحتكم . تعود السلطنة إليكم بعد إتمام هذه المهمة » .

أرسل محمد الثانى فى دعوة والده مراد الثانى الموجود فى مغيسيا ، غير أن مرادا الثانى – تحاشيا لكسر سلطان ابنه-أبلغه أن الدفاع عن دولته من واجبات ذاته السلطانية ، فكتب محمد الثانى إلى والده العبارات التالية :

« إن كنا نحن البادشاه فإننا نأمرك : تعالوا على رأس جيشكم ، وإن كنتم أنتم فتعالوا ودافعوا عن دولتكم » . جاء مراد الثانى إلى أدرنه واختار من الجيش أحسن ٤٠٠٠٠ جندى وجاء إلى فارنا Varna دون أن يخلع ابنه .

كان قد مضى على واقعة نيغبولو ٤٨ سنة وشهران عندما واجه حفيد غالب نيغبولو ، الصليبيين (١٤٤٤/١١/١٠) .

بدأت الحرب بهجوم هنيادى على ميمنة الجيش التركى وجناحه الأيسر، ترك السلطان مراد العدو يتوغل إلى عمق صفوف الأتراك ، ثم أعطى أمر الهجوم . لم يدرك الملك لاديسلاس أن الاتراك قد طوقوه . اقترب الأتراك بعد قتلهم ٥٠ فارسا من الحرس الملكى نحو لاديسلاس الذى كان يقاتل بنفسه . رمى أحد جنود المشاة البلطة (نوع من الفئوس) على ساق حصان الملك فسقط الملك . قطع نقيب المشاة ، المسمى قوجا قره جه خضر آغا ، رأس الملك بالسيف وقتل الكاردينال Cesarini كذلك .

وضع رأسا الملك والكاردينال جسارينى على مزراقين ومعاهدة سكدين على

مزراق آخر وشهرت على الكتائب التركية المظفرة . لم تستغرق الحرب وقتا طويلاً فقد بدأت مساء فى الظلام فى الساعة التاسعة .

وفق عدد قليل من العدو من بينهم هنيادى فى الهروب . بلغ عدد أسرى العدو مابين ٨٠ و٩٠ ألف جندى وأبيد البقية . استشهد من الأتراك نحو ١٥٠ ، لكن عدد الجرحى كان كبيرا. من بين شهداء الأتراك جنرالان هما : داماد قرة جه باشا (زوج أخت البادشاه وكانت رتبته بكلربك = فريق أول ، واستشهد فور بدء الحرب) ، وعثمان بك حفيد تيمورطاش وابن اومور باشا (وكانت رتبته سنجق بك = لواء) .

يعتبر موت لاديسلاس الثالث ملك بولونيا ، المجر ، بوهيميا ، دوق كبير ليتوانيا الذى يحكم المنطقة المنحصرة بين البلطق - الادرياتيك - البحر الأسود ، التى تبدأ من الحدود الشرقية من غرب موسكو ، وعمره ٢٠ سنة بدون وارث من أهم وقائع التاريخ الأوربى ، فقد انفصلت إثر ذلك بولونيا والمجر عن بعضهما مرة ثانية بل وحرصتا على عدم الظهور أمام تركيا كدولة واحدة .

خطت واقعة فارنا مصير البيزنط الذى سنراه بعد ٩ سنوات ، وتأكد عدم إمكان قلع حكم الأتراك الموجود فى البلقان .

لم يقتصر الاحتفال بهذا النصر على تركيا وحدها بل امتد إلى العالم الإسلامى أجمع ، وفى الجمعة الأولى من وصول الخبر إلى القاهرة (١٤٤٥/٤/١) ، أمر السلطان جقمق بتلاوة اسم السلطان مراد - مجاملة - بعد اسم الخليفة العباسى والدعاء لأرواح الشهداء العثمانيين فى الأقطار المملوكية ، وأقيمت الاحتفالات بهذا النصر فى مصر .

طلب الجيش وأدرنه ، بعد واقعة فارنا ، اعتلاء مراد الثانى العرش مجددا . اعتلى مراد الثانى العرش مرة ثانية فى (ك ١٤٤٥/٢) ، ولكنه تخلى مرة أخرى عن العرش بعد ١١ شهراً (١٤٤٥/١٢/١٢) ، ثم قبل مضى ٥ أشهر وبإصرار من رجال الدولة ، اعتلى العرش للمرة الثالثة فى (١٤٤٦/٥/٥) . وفى غضون هذه المدة اعتلى ابنه محمد العرش وتخلى عنه مرتين .

كان مراد الثانى قد قام بحملته الأولى على مورا فى (١٤٣٩ ــ ١٤٤٠) ، وفى (١٤٤٦ ــ ١٤٤٧) ، قام بحملة ثانية على مورا . حاصر (١٤٤٦/١١/٢٧) قلعة كورينثوس Korinthos واستولى عليها (١٠ /١٢) ودخل شبه الجزيرة واحتل باتراس . مات فى هذه الأيام من البيزنط Ioannes الثامن وعمره ٥٧ سنة (١٤٤٩/١٠/٣١) فجاء أخوه الأمير كونستانتين من مورا إلى استانبول واعتلى العرش (هو كونستانتينوس الحادى عشر آخر امبراطور بيزنطى) .

وفى ربيع عام ١٤٤٧ ، استصحب البادشاه ابنه محمدا الثانى البالغ عمره ١٥ سنة وخرج فى حملة إلى ألبانيا (عرنووطلك) .

كان السبب فى قيام هذه الحملة عصيان اسكندر بك فى ألبانيا بمساندة الدول الأوربية وخاصة ملكية نابولى ، (اسكندر بك هو أحد أمراء ألالبان ارتد عن الدين الإسلامى وتنصر) . كانت الحملة الأولى لمراد الثانى على البانيا فى عام ١٤٢٣ .

بعد فارنا بأربع سنوات ، أراد Yunyadi Janos (Yanos) تجربة حظه ، فجهز الحملة الصليبية الـ ٦ ضد العثمانية . اتحدت فى هذه الحملة المجر ، ألمانيا ، بولونيا ، صقلية ، نابولى ، البابوية ومولدافيا .

دخل فى هذه المرة جيش صليبى مؤلف من ١٠٠٠٠٠ شخص إلى تركيا من الغرب . وتقدم حتى صحراء كوسوفا . (تعتبر هذه صدفة مشئومة بالنسبة للصليبيين ؛ فقد لقى الصليبيون فى هذا الموقع ضربة قاسية جدا قبل ٥٩ سنة ، شمال شرق ألبانيا) .

جاء السلطان مراد مع ابنه محمد الثانى البالغ من العمر ١٦/٥ سنة آنذاك .

استمرت الحرب ٣ أيام و٣ ليال (١٧ ، ١٨ ، ١٩ ت ١/ ١٤٤٨) ، وكان الطرفان يملكان المدافع .

كان الصليبيون منقسمين إلى ٣٨ كتيبة ، معظمها لاتعرف إحداها لغة الأخرى ، قاتلت الكتائب وخاصة المجرية بشجاعة . وفى اليوم الثالث فقط حاصر السلطان مراد الثانى العدو المنهوك القوى ، بعد أن كلف تورخان بك (باشا) باغلاق طريق العودة ، وعند دخول المساء ، كانت الوحدات الكبيرة للعدو قد أبيدت .

قاوم هنيادى حتى حلول الليل ، وعندما حل الظلام تمكن من الهرب . خسر المسيحيون ١٧٠٠٠ قتيل ، وأسر الباقى ، وبلغ عدد شهداء الاتراك ٤٠٠٠ شهيد وفق ماتذكره المصادر الأوربية .

وقد تجدر الإشارة إلى أن حجم الآمال التى كان يعلقها الصليبيون على فارنا أكبر بكثير من حجم الآمال التى كانوا يعلقونها على كوسوفا ، ولكنهم فى كل الأحوال كانوا يقومون بالمحاولة السادسة والأخيرة التى يؤملون منها إخراج الأتراك من البلقان ، وذلك أنهم تحولوا بعدها إلى موقف المدافع وليس المهاجم ، وقد توقفت أوربا بعد واقعة كوسوفا لعصور طويلة عن التفكير فى إخراج الأتراك من جنوب الطونة .

كان بطل انتصار كوسوفا الثانى هو مراد الثانى ، وبطل انتصار كوسوفا الأول هو ابن حفيد مراد الأول .

وفى صيف عام ١٤٤٩ ، استصحب السلطان مراد ابنه محمدا الثانى الذى تجاوز عمره الـ ١٧ سنة وسار مرة أخرى فى حملة على ألبانيا ، لكنه لم يتمكن من العثور على اسكندر بك .

زوج مراد الثانى ابنه محمدا الثانى بابنة دلقادر اوغلو مكرمه خاتون فى أدرنة (١٤٤٩/١٢/١٥) ووضع ابنه على عرش صاروخان (مانيسا) التى يتقلد ولايتها (سنجق بك) ، وكان هذا لقاءه الأخير مع ابنه الذى أحبه كثيرا .

فى ٣ شباط ١٤٥١ ، توفى فى سراى أدرنة سلطان المجاهدين ، أبو الخيرات غازى السلطان مراد خان الثانى بعد مرض دام ٤ أيام . كان عمره يتجاوز الـ ٤٦ بـ ٨ أشهر . مجموع سلطناته الثلاث ٢٩ سنة ، وإجمالى المدة من جلوسه لحين وفاته ٢٩ سنة ، ١٠ أشهر ، ٢٦ يوما . نقل جثمانه إلى بورصه ودفن فى قبره المفتوح .

كان مراد الثانى عالما ، شاعرا ، موسيقيا . حمى الفن والعلم بكل مافى الكلمة من معنى ، وأصبح المبشر بالنهضة العثمانية .

لم يفكر قط فى حرب تيمور أوغلو سلطان شاه رخ ، وعلى الرغم من أنه حاكم ثانى الدولتين المقتدرتين فى العالم ، فإنه لم يرفض سيادة شاه رخ - حتى وفاته فى ١٤٤٧/٣/١٢) ، ولو كان ذلك اسميا . وفى ١٤٤٧ ، أصبح سلطانا للدولة العظمى الأولى فى العالم .

كان تحصيله العلمى ممتازا . كان ابن عرب - شاه (١٣٨٩ - ١٤٥٠) أحد أساتذته . كان من أكابر المهتمين بالاعمار ، فالجوامع والكليات الموجودة فى بورصة وفى أدرنة من انجازاته وكذلك دار الحديث (١٤٣٥) ، والجامع ذو الثلاث شرفات (١٤٤٧) وكلياته ، واوزون كوبرى على نهر أركنه الذى استغرق تشييده ١٦ سنة وافتتح فى ١٤٤٣ ، وكان طوله ٣٩٢ مترا،من بين انجازاته المهمة التى شيدها بأموال الغنائم . ولقد كان من بين الأسباب التى عمقت محبته فى القلوب لعصور طويلة ، أنه كان يخوض معاركه من أجل الدفاع عن الوطن ، وانه كان الشخصية الوحيدة فى التاريخ العثمانى والتركى التى تخلت عن العرش ورئاسة الدولة بمحض إرادته دون أن يتعرض لأى ضغط مادى أو معنوى .

كانت شخصيته مشابهة لأبيه جلبى محمد الأول ، ومخالفة لشخصية جده يلدرم بايزيد وابنه الفاتح محمد الثانى .

قد أجمل المؤرخ البيزنطى **Chalcondylas** الذى اجتمع معه شخصيا وصف شخصيته فى عبارته : « كان رجلا مستقيما وعادلا » .

ويقول عنه المؤرخ البيزنطى المعاصر **Prens Dukas** (١٤٠٠ - ١٤٧٠ ، ٣٣ ، ١٣٩) ، « كان يفيض حبا للشعب ، وكرما على المعوزين ، ولايفرق فى هذا بين مسلم أو مسيحى من رعيته فكلاهما يلقى منه نفس المعاملة ، كان يفى بعهوده مع أعدائه ، ومن كان منهم ينقض عهده معه كان يتعرض لعقاب الله ، كان ينفر من الحرب ويفضل الانشغال بالعلوم والفنون والاعمار فى ظل السلام . لم يحارب إلا مضطرا ، وعندما كان ينتصر على أعدائه لم يكن يثخن فيهم إلى حد الإفناء بل كان يفتح الباب للجنوح إلى السلم .

ويقول المؤرخ الالمانى فون هامر **Van Hammer** (٢ ، ٣٥٢ - ٣) : « حكم السلطان مراد فى امبراطوريته بعدالة وشرف طيلة ٣٠ سنة . كان عادلا سليم النية مع رعيته دون التفريق بين الأديان . كان وفيا بوعده فى الحرب كما هو فى السلم . يفضل الصلح ، لكنه لم يكن يتردد فى الحرب إن دعت الضرورة لذلك . كان انتقامه شديدا من الذين لايوفون بعهودهم ، فلا بأس عنده فى هذه الحالة من إبادتهم . لم يفقد دهاءه إلى نهاية سلطنته » .

ويقول المؤرخ الفرنسى Crenard (ص ٦٨) : « إن كان مراد الأول معمار الامبراطورية العثمانية ، فإن مرادا الثانى هو بانيها الثانى » .

(١٥) فتح استانبول (٢٩ آيار ١٤٥٣)

ولد محمد الثانى أمير لواء (سنجق بك) صاروخان (مانيسا) ، فى سراى أدرنة الهمايونى ، فى الساعة الـ ٣/٠٨ من صباح يوم ٣٠ آذار ١٤٣٢ . توفيت أمه هما خاتون فى بورصة فى أيلول ١٤٤٩ قبل اعتلائه العرش ، لكنها شهدت سلطنة ابنها فى طفولته (فى آب ١٤٤٣) . صار محمد الثانى وليا للعهد فى حزيران عام ١٤٤٣ وعمره ١١ سنة اثر وفاة أخيه الكبير علاء الدين على الذى كان يكبره بـ ٧ سنين .

بعد وفاة السلطان مراد فى شباط ١٤٥١ ، جاء الخاقان الجديد البالغ عمره ١٩ سنة إلى أدرنة وجلس على العرش . قام بعد مدة قليلة (صيف عام ١٤٥١) بحملته الهمايونية الأولى على قرمان الذى عصى وأخذ منه بعض الأماكن وعاد .

كان الهم الأكبر للسلطان محمد هو البيزنط ، ولاسقاط البيزنط ، كان يجب السيطرة على بوغاز استانبول وإحكام الرقابة التركية على جميع السفن المارة من البوغاز . ومن أجل هذا شيد محمد الفاتح روملى حصار المسمى « بوغاز كسن حصارى » أى القلعة قاطعة البوغاز (آذار - تموز ١٤٥٢) .

تم بناء هذه القلعة فى زمن قياسى خاصة إذا علمنا أن ارتفاع القلعة عن سطح البحر يبلغ ٨٢ مترا ، وأنها تشتمل على ٣ أبراج إرتفاع كل منها ٢٦/٧٠ م ، وأن مساحة الأرض التى تشغلها ٣٠ ٢٥٠ م٢ . تعلو أمامها على الضفة المقابلة أناضولى حصارى التى شيدها أبو جده يلدرم بايزيد . لم يكن ممكناً لأية سفينة أن تمر من البحر الأسود إلى البحر الابيض أو بالعكس تحت النيران المتقاطعة للمدافع المثبتة على الطرفين ، دون إذن من الاتراك ، ولم يحدث ذلك حتى يومنا هذا . لذا فان مؤسس نظام المضايق ، هو السلطان محمد . من المعلوم أن الموقع الذى شيد فيه القلعتين المتقابلتين هو أضيق نقطة فى مضيق استانبول حيث ينخفض العرض فى هذه النقطة إلى ٦٦٠ م .

بهذا يعتبر السلطان محمد هو مؤسس نظام المضايق ، وبعد أن انهى الخاقان إنشاء القلعة والتحكيمات اللازمة عاد إلى أدرنة فى أول أيلول ١٤٥٢ .

وبينما انشغل الامبراطور الذى أدرك نية السلطان محمد بدعوة أوربا إلى المساعده ، قضى البادشاه شتاء عام ٥٢ - ١٤٥٣ فى أدرنة فى استعدادات مدهشة . أمر بسبك المدافع بأقطار لم يسبق أن شوهدت من قبل ، ومدافع الهاون التى استعملت لأول مرة فى التاريخ ، وقد خطط لهذه المدافع بنفسه كما اختبرها بنفسه . كانت نتيجة تجربة المدفع الكبير حسنة ، فقد سمع صوت انفجار البارود عند اشعاله بالنار ، من مسافة ١٠٠ ستاد (٢/٥ ميل) ، وسقطت القذيفة على مسافة ميل واحد وحفرت عند سقوطها حفرة بعمق ١ قولاج (مسافة مابين اليدين إذا فتحتا بشكل مستو) . وارتكزت فى التراب اللين وبقيت فيه (Dukas ، ٣٥ ، ١٥٢) .

انقسم البيزنط إلى قسمين . كانت أوربا تطلب من البيزنط ، لكى تساعدها ، تركَ مذهبها الارثوذكسى واعتناق المذهب الكاثوليكى . اما الامبراطور البيزنطى ، فقد كان حاميا للمذهب الارثوذكسى وحاميا للبطريك العالمى الارثوذكسى ،ومن ثم فانه من غير الممكن أن يتبع البابا من الناحية الدينية . وعلى الرغم من عمق جذور العداوة التاريخية بين الكاثوليك والأرثوذكس ، فقد جرت مراسم دينية على الأصول الكاثوليكية فى أياصوفيا أكبر كنيسة فى العالم فى ١٢ ك ١٤٥٢/٢ ، وتولى إدارة المراسم الكاردينال Isidore الذى أرسله البابا . اشمئز الشعب البيزنطى كله وقال رئيس وزراء البيزنط الدوق - الأكبر Noraras جملته التاريخية معبرا عن شعور البيزنطية : إننى أفضل أن أشاهد فى ديار البيزنط عمامة الأتراك ، على أن أشاهد القبعة اللاتينية (Dukas ، ٣٧ ، ١٦١) .

قضى البيزنط شتاء مريرا تحت ظل أسوار قلعة (حصار) بوغاز كسن التى تمتد على طول ٢٠٠٠م . لكنه كان يعتمد على أسواره - التى لم يتمكن من فتحها أشد الغزاة قساوة - وعلى تركيب نارهم (بالفرنسية : Feu grégoris) التى لايعلم سرها سوى البيزنط والتى تزداد لهيبا كلما صب عليها الماء ، وعلى السيدة مريم .

كانت مناعة أسوار استانبول تأتى فى المرتبة الأولى فى العالم ، فقد كان ارتفاع الشرفات ١٧ م ومابين الشرفات ١٥ متراً ، ويبلغ السمك فى الذروة ٤ م وفى

القاعدة أكثر بكثير ، وكان عرض الخندق الموجود أمام الأسوار ١٨ ½ متر وعمقه ٩ أمتار وكان مليئا بالماء ، وكان للأسوار المكونة من طوابق عديده ٣٠ برجا مكسيا بالرصاص . وكان المعروف أن المدينة لايمكن إسقاطها إلا بحصار محكم يتمكن من إجاعتها لمدة ست سنوات ، ومن البدهى أن الدول الأوربية سوف تأتى خلال هذه المدة ، ومن ثم فإنه سوف يتعذر عمليا استمرار الحصار .

ولذلك كان تخطيط محمد الثانى يقوم أساساً على أن تتكفل مدافعه بإنهاء العملية قبل أن تصل أية نجدة أوربية .

وقد جرت الأمور على الوجه التالى :

– بدأت العملية بتسوية طريق أدرنة – استانبول بمعرفة ٢٠٠ عامل يشرف عليهم ٥٠ عاملاً ماهراً ، وتم إخراج المدفع الكبير من أدرنة إلى الطريق فى شباط ١٤٥٣ يجره ٦٠ ثورا ، ٤٠٠ جندى على جانبى الثيران (٢٠٠ جندى فى كل جهة لتأمين عدم التزحلق والميلان) . وصل المدفع على بعد ٥ أميال من أسوار أستانبول فى آذار (Dukas ٣٧ ، ١٥٨) وكان على رأس قيادته قره جه ياشا الذى استولى ومعه ١٠٠٠٠ جندى على القصبات البيزنطية المجاورة . حصل البيزنط خلال أشهر الشتاء على إمدادات من الجنود والسفن والمهمات من أوربا .

– تحرك البادشاه من أدرنة فى ٢٣ آذار ١٤٥٣ ووصل أمام استانبول بعد ١٣ يوما فى ٥ نيسان .

– بدأ الحصار فى ٦ نيسان ، ويمكن تلخيص موقف الجانبين على الوجه التالى : قام الأميرال بلطة أوغلو سليمان بك فى ١٨ نيسان باحتلال جزر استانبول وقرية طرابيا فى البوغاز ، قوام الجيش التركى حوالى ١٠٠٠٠٠ شخص ، نظم الاتراك مدافعهم على شكل ١٤ فصيلة ، كان لدى الأتراك منجنيق هائل بحجم لم يسبق له مثيل ، صنعه محمد الثانى ، ذلك بالاضافة إلى أربعة أبراج متحركة ، وقذائف طيارة تتساقط كالشهب ، المدافع التى لدى الاتراك من النوع الثقيل الذى يحتاج إلى ٢٠٠٠ جندى لسحبه ، ويستطيع المدفع الواحد إطلاق سبع طلقات فى اليوم زنة كل منها طنان ، واطلاقه واحدة بالليل ، حيث يستغرق ملء المدفع وتبريده ساعتين .

بدأت أربعة مدافع من النوع الكبير باطلاق النيران وتلتها فصائل المدفعية الأصغر ، وأطلق أول مدفع هاون فى التاريخ يوم ٢١ نيسان على أسطول العدو فى الخليج .

على الجانب الآخر وفى مقابلة هذه القوة،التى تعتبر أكبر قوة حربية فى العالم ، كان للبيزنط أسوار مستحكمة بطوابق متعددة ، ١٥٠٠٠ جندى غير المتطوعين ، بالاضافة إلى أسطول بيزنطى - جنوى - بندق - بابوى رابض فى الخليج ينتظر فى كل لحظة وصول الأسطول البندق من البوغاز وقدوم الجيوش التى سوف تدخل تركيا عن طريق الطونة .

فى ١٨ نيسان جاء سفراء من المجر ، وأعلنوا باسم العالم المسيحى كله أن جيوش أوربا المتحدة سوف تستولى على تركيا فى حالة عدم رفع الحصار .

- تمكنت ٤ سفن جنوية وواحدة من مورا من دخول الخليج

- بلغ من شدة غضب محمد الثانى لهذا الحادث أن قام بعزل بلطه اوغلو سليمان بك ــ قائد القوة البحرية ــ الذى لم يتمكن بسبب اتجاه الريح من وقف هذه السفن ، وعين بدلاً منه المشير البحرى (قبودان دريا) احمد بك بن جالى بك أحد قواد البحر السابقين .

- كان خليج استانبول مغلقا بسلسلة غليظة جدا (السلسلة موجودة بالمتحف العسكرى حاليا) ومن ثم فانه كان يستحيل على السفن التركية اجتياز البوغاز .

- أفاد الوزير الأعظم جاندارلى - مزاده خليل باشا أنه قد يكون من الممكن اسقاط البيزنط إلا أن هذا سوف يجر تركيه إلى حرب مع أوربا بأسرها (وقد تحقق هذا فعلاً) ، واقترح على البادشاه قبول ٧٠٠٠٠ ليرة ذهبية كضريبة سنوية وابرام الصلح مع الامبراطور .

- رابط الوزير الداماد رغانوس محمد باشا فى انجاد قاسم باشا ومعه ١٥٠٠٠ جندى ، وطفق فى قصف الاسطول البيزنطى المحصور فى الخليج بمدافع الهاون ، فاصيبت عدة سفن بيزنطية .

- تمت فى ليلة ٢٣ نيسان عملية مذهلة تمثلت فى تسيير ٦٧ قطعة صغيرة من الاسطول التركى على البر (لتفادى السلسلة الغليظة التى تغلق خليج استانبول) -

ن ، ومن بين مظاهر الاعجاز فى هذه العملية أنها تمت فى ليلة واحدة ودون أن يشعر بها العدو .

– أحدثت هذه العملية انهياراً فى معنويات البيزنط ، فقد أصبحوا يوم ٢٣ نيسان على منظر الخليج ، وهو يموج بقطع الاسطول التركى .

يعبر بعض الشيء عن هذا التأثير ، ماكتبه المؤرخ البيزنطى والدبلوماسى الأمير دوكاس والذى التقى بمحمد الثانى شخصيا ، كتب دوكاس : « مارأينا ولاسمعنا من قبل بمثل هذا الشيء الخارق ؛ محمد الثانى يحول الأرض إلى بحار وتعبر سفنه فوق قمم الجبال بدلاً من الأمواج ، لقد فاق محمد الثانى بهذا العمل الاسكندر الأكبر » . فتح محمد الثانى استانبول ، وقضى على البيزنط ، وملك كافة المدن التى تزين العالم » (٣٨ ، ١٦٦) .

– خلال ليلة واحدة ، وهى الليلة التالية على ليلة ٢٣ نيسان ، نصب الاتراك جسراً على الخليج يسمح عرضه بمرور ٥ جنود جنبا إلى جنب .

– أمر امبراطور البيزنط ليلة ٢٨ نيسان بابادة الاسطول التركى الذى نزل إلى الخليج ، وتدمير الجسر الذى تم نصبه ، مهما كلف الأمر .

ولم تنجح هذه المحاولة ؛ فلم يدمر الجسر ، ولم تغرق سفينة تركية واحدة ، وفقد ١٥٠ بحارا بيزنطيا حياتهم فى هذه المحاولة .

– أعدم الأمبراطور الغاضب الاسرى الاتراك الذين تحت يده وعددهم ٢٦٠ أسيرا ، وقطع رءوسهم وألقاها من الأبراج امام الاتراك .

– اغرق الاتراك سفينة الاميرالية لاسطول العدو التى لجأت إلى سواحل وأسوار الخليج ، وغرقت سفينتان تركيتان بالنيران التى انهمرت من الأبراج .

كان لدى البيزنط مدافع ، ولكنها كانت بدائية واضعف من أن تقوم بالدور الذى تلعبه المدافع التركية ، وكان اعتماد البيزنط اساساً على النار المسماة « روم آتشى » (نار الروم) أو « نار غريغوار » التى كانوا يحتفظون بتركيبها لعصور طويلة كسر وطنى .

– فى ٥ مايس حرك الاتراك بعض فصائل المدفعية حيث ركزوها على مرتفعات بك اوغلو .

– فى ٦ مايس أمر الخاقان بالهجوم العام الأول من المنطقة المقابلة لطوبقابوسى .

– فى ١٢ مايس أمر الخاقان بالهجوم العام الثانى من المنطقة المقابلة لادرنة قابوسى .

– كان يواكب كل ذلك محاولة ملء أجزاء من الخندق العميق المملوء بالماء الموجود أمام الأسوار – بقطع الحجارة ، وأيضا أحدث الأتراك ثغرات كبيرة فى الأسوار ، كان يتعذر على الشعب البيزنطى اصلاحها ، على الرغم من أنهم كانوا جميعا يعملون ٢٤ ساعة متصلة .

– فى ٢٣ مايس أوفد محمد الثانى ، اسفنديار اوغلو داماد قاسم بك إلى البيزنط كسفير ليبلغ الامبراطور أن المدينة معرضة للسقوط فى أول هجوم عام ، وانه إذا أعلن الإمبراطور استسلام المدينة ، فانه وفقا لقواعد الإسلام لن يصاب أحد من أهلها بسوء وسيأمن الجميع على أموالهم وأنفسهم ، أما إذا اسقطت بالقوة فان السلطان محمدا الثانى لن يكون مسئولاً عما يحدث وعن الدماء التى ستهدر .

– افاد الامبراطور بأن مايراد تسليمه ليست قلعة بل هو أكبر تاج امبراطورى مسيحى يرجع تاريخه إلى ألف وخمسمائة عام ، وأنه مستعد مقدماً لقبول أية شروط من البادشاه عدا تسليم المدينة ، وأنه فى نفس الوقت سوف يقاتل حتى الموت .

– بدأ الأتراك فى ١٦ آيار فى حرب انفاق دموية .

– فى ٢٦ آيار حضر من المجر إلى محمد الثانى وفد كبير باسم المسيحية وهدد بأن أسطول البندقية (الذى كان الأسطول الأول فى العالم فى ذلك التاريخ) معزز بأساطيل أوربا المختلفة ، على وشك اجتياز بوغاز جناقلعة ، وأن جيشا مسيحيا كبيرا اكمل استعداداته الأخيرة لاجتياز ألطونة نحو الجنوب .

كان قرة مان أوغلو إبراهيم بك قد اتفق كذلك مع البنادقة على ضرب العثمانية من الاناضول حالما يتعرض الجيش المسيحى من الشمال .

كرر الوزير الأعظم خليل باشا نصيحته للامبراطور بأنه يرى فرض شروطه ورفع الحصار .

– عارض مرشد الخاقان الشيخ آق شمس الدين ذلك بشدة معلنا أنه تلقى بشارة

فتح استانبول وتلا الحديث الخاص بالفتح : « لتفتحن القسطنطنية ، ولنعم الأمير أميرها ، ولنعم الجيش ذلك الجيش » .

– زيدت كثافة القصف التركى إلى أقصاها .

– فى ٢٧ ايار (مايس) استشهد مراد باشا أثناء محاولته الدخول إلى المدينة من إحدى الثغرات .

– فى ليلة ٢٨ آيار ، جمع الامبراطور البيزنطيين فى اياصوفيا ، وأجرى لهم مراسم دينية واخبرهم باقتراب وقت قدوم السيدة مريم .

– جمع محمد الثانى المجلس العسكرى ، وأعلن انه سوف يمنح الذين يسبقون غيرهم فى الصعود إلى الأسوار ، رتبة اضافية .

– بعد أن أدى البادشاه صلاة الصبح يوم ٢٩ آيار ، امتطى جواده وتقدم إلى الصف الأمامى مع جميع أركانه ، وبدأت المدفعية فى اطلاق نيرانها مع أشعة الشمس الأولى ، وبدأ الجند تحت ستار هذه النيران فى الضغط على الأسوار ، ومحاولة تسلقها من جميع الجهات ، وفرق المهتر (الموسيقى العسكرية) تدوى نغملتها بشكل تئن له السماء والارض ، ورجال الدين والطرق يتجولون بين الصفوف يشجعون المقاتلين ويتلون الأدعية وينشدون الأشعار والمنظومات الدينية ، ويرددون الآيات القرآنية والأحاديث النبوية التى تحث على الجهاد والقتال فى سبيل الله .

– لم ينم الشعب البيزنطى ليلة ٢٨ – ٢٩ آيار . استراح قسطنطين الحادى عشر الذى خرج من الاحتفال الدينى ، عدة ساعات فى سراى **Vlarhena** (بالتركية ، تكفور ، سرايى) ثم جاء إلى باب **Ayios Romanos** (بالتركية ، طوبقابوسى) أما محمد الثانى ، فكان فى الجهة الثانية من هذا الباب ، حيث ستتحدد فى هذه الجهة النتيجة النهائية لهذه المعركة .

كان مشاة البحرية يتسابقون إلى إلقاء أنفسهم فى البحر فى سواحل مرمرة مجازفين بحياتهم فى سبيل تسلق الأسوار التى تشرف على بحر مرمرة ، وكانت المعركة الدائرة أمام أسوار طوبقابو دموية وشديدة يقاتل فيا كلا الطرفين بتضحية وبسـ... مستميتين فى القتال .

كانت موجات الجنود الأتراك الذين يصعدون على الأسوار بالسلالم ، تنال الاستشهاد فى الحال بأسلحة البيزنطيين ، وفى نفس الوقت كان الشعب البيزنطى يخلى البيوت والشوارع ملتجئا إلى الكنائس وهو فى أشد حالات الاضطراب والفزع لمشاهدته الجنود الاتراك ، أما الجزء الذى لم يهرب منهم فكان يدافع مع الجيش البيزنطى ، أما الكنائس التى لم تكف أجراسها عن الصليل فقد كانت فى الحقيقة توحى بقرب حلول اللحظات الأخيرة .

استمر ضغط الأتراك وتعزيز وحداتهم بصورة مستمرة ، ولم تستطع الأحجار الكبيرة التى تلقى على الجنود أو نار الروم المعروفة أن تثنى الموجات المتتالية من الجنود الاتراك عن محاولات تسلق الاسوار من جهة طوبقابوسى .

وفى الوقت الذى كان فيه الامبراطور يقوم بسوق ماتبقى من احتياطاته الاخيرة التى يقودها الامير **Nicolas Paleologos** والأمير **Demetrios Kantakuzinos** إلى طوبقابوسى ، جرح الجنرال **Givstiniani** وترك ساحة الشرف بغير شرف قائلا : « سأسلك الطريق التى فتحها الله للأتراك » .

كانت أصداء تكبيرات الغزاة الدراويش فى صفوف الجيش التركى التى يتجول بينها أستاذا الخاقان آق شمس الدين وملا كورانى ، والدعاء الذى رددوه عقب صلاة الصبح ، والخطاب القصير المؤثر الذى ألقاه البادشاه فسرى كالكهرباء فى أعصاب الجيش التركى – كان ذلك كله يؤتى ثمرته فيتجسد أمواجا متعاقبة على الأسوار البيزنطية ، تلتطم بها لتجتاز أكبر قلاع القرون الوسطى المستحكمة ، وتنتشر كولولة تزينة داخل البلدة الكبرى جوهرة الدنيا وامبراطورة المدن . أما قسطنطين الحادى عشر ، الخلف الشرعى لـ **Avgustus** فقد استمر فى الدفاع مبديا الشجاعة دون أن يترك مكانه ، لكنه كان ينظر بعيون غارقة بالدموع وبحزن شديد إلى تصدع وانهدام وانفتاح الأسوار البيزنطية .. تحت وطأة الهجمات التركية المتعاقبة التى لاتفتر .

اقتربت الساعة من السابعة ، كانت أواخر أيام الخريف ، حيث أخذت الحرارة اللطيفة الفاترة الخاصة باستانبول تنتشر فى هذا الموسم .

لم يغب عن فطنه محمد الثانى الذى يراقب الوضع بكل كيانه ، التوقف الآنى الذى نشأ عن ترك **Giustiniani** وجنوده الايطاليين الدفاع ؛ فأصدر امره للصف

الرابع من الجيش التركى بتسلق أسوار طوبقابوسى ، وقد كان هذا يعنى ان البادشاه يعتقد أن ذلك هو الهجوم النهائى .

سبق ضابط شاب صغير الرتبة حديث السن اسمه اولوبادلى حسن مع ٣٠ جنديا من معيته مفارزَ الهجوم الاخرى وركز راية الخاقان فوق اسوار طوبقابوسى ، واستشهد فى نفس اللحظة بنار وسهام وحجارة البيزنطيين التى وجهت اليه من مئات المواضع . واستشهد معه ١٨ من معيته ، لكن بقية الـ ١٢ حافظوا على الراية فلم تسقط من أيديهم ، ولم تسقط بعد ذلك أبدا .

ترجل محمد الثانى عندما شاهد العلم التركى يرفرف فوق طوبقابوسى عن حصانه وخر على الارض ساجدا سجدة الرحمن ، حامدا المولى على تحقيق نبوءة الرسول ﷺ على يديه . ومنذ تلك اللحظة نال محمد الثانى لقب « الفاتح » .

كان القطاع بين طوبقابوسى واكريقابو (باب Caligaria / Charsias) مليئا بالاجساد البشرية من كلا الطرفين ، بحيث لايمكن اجتيازه . انتقلت باب Kerkoporta (بالتركية : جنبازخانه) لحوزة الاتراك بعد دقائق من تركيز العلم التركى ، ودخل إلى المدينة من هذا الموقع ، اول جندى تركى . تم اجتياز السور الثانى كذلك .

أوقف ضابط الوحدة الاولى التى دخلت وحدته خلف الوحدة البيزنطية ، ولم يتقدم نحو المدينة . هجم البيزنطيون الذين شاهدوا ذلك جنودا ومدنيين ، على هذه الوحدة بغرض ابادتها . تم تعزيز الوحدة بالامدادات فلم يستطع البيزنطيون ابادتها ، ولما لم تتزحزح من مكانها ، فقد قطعت طريق الرجعة على جيش البيزنطى ، وحالت دون هروبه نحو المدينة .

اصيب الشعب البيزنطى سواء الذى شاهد الجيش التركى فى المدينة او الذى علم بقدومه بالفزع وأخذوا يتجمعون فى طريق أياصوفيا .

قاوم الجيش البيزنطى الذى قطعت عليه سبل العودة بشده ، واحتشد عدد كبير من الجند فى ساحة ضيقة وتداخل مع بعضه بحيث سحق الامبراطور الذى جرح وسقط على الارض تحت الاقدام . أنزل أحد جنود البحرية الضربة الاخيرة على الحاكم . (كان عمره يتجاوز الـ ٤٩ بـ ٣ شهر ، ١٩ يوما) فتح الجيش التركى

الذى دخل المدينة أبواب القلاع الواحد تلو الآخر ويسر دخول كافة الوحدات التركية .

أخذ الجيش الهمايونى الذى قضى على أوكار المقاومة الأخيرة بالسير فى تشكيل نظامى نحو ميدان أياصوفيا الذى شاهد تجمع الشعب فيه .

أخذ البيزنطيون الذين لم يدخلوا اياصوفيا منذ اتحاد الكنيستين يملئون المعبد الكبير فى انتظار انشقاق الجدار وظهور مَلَكَ (بفتح الحرف الثانى) بيده سيف ليخلصهم من الأتراك . ولكن هذه الاسطورة التى كانوا يعتقدون فيها منذ عصور لم تتحقق . كتب الامير دوكاس يقول : إنه لو ظهر فى تلك اللحظة ملك وسأل البيزنطيين ، عما اذا كانوا يفضلون أن يصبحوا كاثوليك وينجوا من الاتراك ، أم أن يظلوا ارثوذكس ويعيشوا تحت إدارة الاتراك ، لفضل كل بيزنطى الشق الثانى (٣٩) .

وهكذا انتهى الحصار الـ ٢٩ والأخير لمدينة استانبول . وقف الجيش الذى تجمع فى اقسراى بنظام الصفوف أمام أياصوفيا فى انتظار البادشاه ، ولم يكن وقت صلاة الظهر قد حان بعد . وفى غضون هذه اللحظات كانت مقاومة بحارة كريت فقط مازالت مستمرة فى باغجه قابو . أعجب البادشاه بهذه البطولة فأمر بعدم أسرهم والسماح لهم بالذهاب إلى سفنهم مع اسلحتهم وعودتهم إلى جزيرتهم (لقد كان مثل هذا التصرف معارضا لعقلية القرون الوسطى . لكن محمدا الثانى ، كان رجل العصر الحديث . كما ستؤكد ذلك فيما بعد تحركاته القادمة) .

لم يعتدِ الجيش على أحد من عشرات الألوف من البشر المتجمعين فى اياصوفيا ولم يمسهم بأدنى سوء وأخذ فى انتظار الخاقان وماسيأمره بشأن هذا الشعب .

دخل السلطان محمد خان إلى المدينة من طوبقابوسى وقت الظهر . جاء إلى اياصوفيا بصفة « فاتح » و« امبراطور روما » بين تصفيق الشعب البيزنطى وأصوات تكبيرات وأذان الجيش التركى .

سجد كافة الشعب وعلى رأسهم الرهبان الكبار على الأرض . قال السلطان محمد « انهضوا .. لاتخشوا بعد هذه اللحظة على حياتكم ولا على حريتكم » ، ثم ساعد بطريك الارثوذكس العالمى الذى كان راكعا على النهوض وكرر عليه الكلام نفسه . أفرغ أياصوفيا وتفقدها . أمر برفع الأذان ، وأدى صلاة العصر بداخلها فورا . امر

بالبحث عن جثة الامبراطور واحضرها وسلمها إلى الرهبان وأمر بدفنه باقامة المراسم ذاتها التي أقيمت على الامبراطور السابق .

عزل فى اليوم التالى ، البطريك الارثوذكسى العالمى ، وأمر المجلس الروحانى بانتخاب بطريك جديد بدلا منه ، وذلك بسبب تأييده البابا فى الاتحاد الارثوذكسى - الكاثوليكى واقامته المراسم الكاثوليكية فى اياصوفيا . اما Cennadinos الذى انتخب بدلا منه ، فكان مخالفا لهذا الاتحاد .

كان ذلك يوم جمعة ١ حزيران . أقيمت صلاة الجمعة فى ايا صوفيا ، حيث تلا الخطبة آق شمس الدين باسم الفاتح .

اخذ فاتح محلة غلطه من حوزة جمهورية جنوه ، وأنهى تجارة جنوة الحرة فى البحر الأسود ، وهكذا خرجت جنوه من عداد الدول العظمى .

وفى ١٩ تموز ، عزل جاندارلى خليل باشا وأعدم . وقد اختلفت الاقوال فى سبب إعدامه ، فقد قيل إنه بسبب معارضته فتح استانبول بدعوى ان ذلك سيسبب اثارة العالم المسيحى بأجمعه ضد الدولة العثمانية (وقد حدث ذلك بالفعل) ، وقيل انه بسبب بقاء مقام الصدارة منذ ٩٠ عاما لدى اسرة جاندارلى ، وعدم رغبة الفاتح فى تأسيس سلالة خاصة بالصدارة بموازاة سلالة السلطنة لتوقعه محاذير من ذلك .

أعلن الفاتح ، مدينة استانبول ، مركزا للدولة ومدينة العرش . غادر استانبول فى ٢١ حزيران متوجا إلى أدرنة ، وبذلك فانه يبدو أنه بقى فيها ٢٣ يوما .

لم يكن يسكن فى ذلك التاريخ داخل أسوار استانبول ، أكثر من ٥٠٠٠٠ بيزنطى (عدا قرى البوغاز والضواحى) . فقدت استانبول سكانها البالغ عددهم اكثر من مليون نسمه فى الاجتياح اللاتينى فى ١٢٠٤ ، وأخذت بعد ذلك فى التقلص . قبل أن يمضى شهر ايلول جلبت إليها ٥٠٠٠ عائلة من أناضولى ومن روملى واسكنت فيها .

بدأ العمل لاعمار المدينة على قدم وساق ، واشتغل فى هذا الاعمار البيزنط الذين نجوا من الموت واسروا ، وقد اطلق سراحهم عند انتهاء العمل بأمر الفاتح على أساس انهم سددوا فديتهم بعملهم .

عومل الروم والكنيسة الارثوذكسية بلين لايتصوره العقل ، ولعل أحد الاسباب لذلك ، ضمان عدم اقترابهم من العالم الكاثوليكى ، وتفادى وقوعهم فى أحضان البابا الذى يشكل روح الاتفاق الأوربى ضد العثمانية .

كان سرور العالم الإسلامى بالفتح كبيرا . أنيرت القاهرة أياما طويلة وأقيمت فيها احتفالات كبيرة (ابن اياس) ٢ ، ٤٤) . أرسل السلطان المملوكى ، وسلطان الهند الجنوبية البهمنى وحكام مسلمون عديدون سفراء خاصين لتهنئة السلطان محمد الفاتح .

يعتبر فتح استانبول أكبر حدث فى التاريخ التركى ، فقد بشر ذلك الفتح بصورة قطعية بأن تركيا سائرة فى طريق الدولة العظمى . والمعروف أن الفتح هو نهاية القرون الوسطى وبداية القرون الحديثة . بجل الاتراك الفتح باطلاقهم عليه اسم « فتح مبين » ، وبلغ التبجيل حد القول بانهم اكتشفوا ان تعبير « بلدة طيبة » الموجود فى « القرآن » يشير بحساب الابجدية إلى التاريخ الهجرى للفتح المبين .

يعتبر الفتح ، من أهم الوقائع فى التاريخ الأوربى كذلك . كتب البابا ، على أثر وصول خبر سقوط البيزنط ، خطابا إلى جميع الحكام الأوربيين طالبا منهم تشكيل اتفاق صليبى جديد .

وفيما يلى رأى بعض المؤرخين الأوربيين القدامى والجدد حول الفتح والفاتح :

« انحنت Labarum (راية الامبراطورية البيزنطية المشغول عليها علامة عيسى عليه السلام) أمام الراية (السنجق) الشريفة . ارتجف الغرب مدة قرنين أمام اباطرة المسلمين الذين سيطروا منذ ذلك اليوم على بوغاز إيجى (مارشال فون مولتكه ، ص ١٥١) .

« كافح البيزنطيون كفاحا شديدا طوال مدة أكثر من قرنين ، لحماية الأناضول من العرب . ولقد كانت هذه حادثة فى الدرجة الأولى من الأهمية بالنسبة لمستقبل الحضارة الأوربية . ولو خسر البيزنط وتحقق الفتح الإسلامى فى ٦٧٣ أو ٧١٧ وليس فى ١٤٥٣ ، فماذا كان سيحدث عندئذ لوضع أوربا التى لم تثبت رشدها حتى الآن ؟ لما أمكن حدوث أية حركة إصلاحية أو نهضة علمية .. تفكك البيزنط فى القرن ١١ نتيجة لاستيلاء إسلامى ثان أكثر شمولا من الاستيلاء العربى . كان ذلك

بسبب فتوحات الاتراك السلجوقيين . انقذ العرب سورية ، وادى الرافدين ومصر فقط من اليونانية ، ثم أصبحوا ساميين مجددا . أما الاناضول فخلال مدة ٢٠ سنة ، أصبحت تركستان جديدة . وانسحبت حدود أوربا من أرمنستان إلى بوغاز إيجى . كان الاتراك فى ايزنك . ان فتح ١٤٥٣ كاد يتحقق فى غضون ١٠٨١ ، لولا التدخل الغربى الذى غير القدر . تحرك الغرب لتقوية البيزنط بغرض دفع آسيا إلى خلف الاماكن التى حازتها من أوربا . لايمكن اعتبار الحروب الصليبية تجمعات ايديولوجية صرفة ولاحروب فتوحات . إنها تظهر رد الفعل الأوربى الدفاعى تجاه التهديد الآسيوى . بدأت الجولة الإسلامية الثالثة ، مع العثمانيين . كان العثمانيون فى القرن ١٤ فى بورصة ، وفى القرن الـ ١٧ وصلوا إلى فيينا ، وبانسحابهم فى ١٩١٢ إلى أدرنة ، انتهت هذه الجولة ... وفى النهاية وفق العثمانيون فى انجاز فتح الامبراطورية الرومانية ؛ لوجودهم على ضفاف مرمرة ، ولانه تيسر لهم حكاما عظاما جدا تلا احدهم الآخر . ان هؤلاء الحكام كانوا على درجة من الدهاء العسكرى ، لايمكن مقارنته بدهاء أعدائهم . كانوا على علم بما يريدون ، ولم تكن لهم أية غاية عدا الفتوحات . وفق بنو عثمان ، السلالة الاستثنائية ، فى إحياء الغاية المقدسة للحملات النبوية بعد عصور طويلة (Réne Grousset ، الاكاديمية الفرنسية ، L'Empice du Levant ، ص ٨ – ١١ ، ٦٠٩ – ٦١٠) .

« إن اسباب توفيق الاتراك الذين انهوا القرون الوسطى ، هى وضعهم تكتيكا جديدا للحرب وتأسيسهم جيشا منظماً » (Histoire du Monde , R. Sedillot ، ص ١٨٤) .

« كان تكتيك الحرب لدى الاتراك الذين أنهوا القرون الوسطى ممتازا إلى درجة انهم استعملوا قذائف اللهب الطيارة التى تعتبر الاصل فى اكتشاف سلاح V - 1 ، لأول مرة فى فتح البيزنط . اهتم المهندسون الأوربيون فى القرن ٢٠ بنظام عمل هذه القذائف بعد أن نسى لعصور طويلة » (Benoit - Méehin ، ص ٥٤ – ٥٥) .

« فتح استانبول هو أحد أكبر وقائع التاريخ العالمى . كان تأثيره كبيرا جدا على مستقبل أوربا . بدل سير التاريخ بأكمله . أغلق القرون الوسطى وفتح القرون الحديثة » (Gustave Schlumberger Introduction) .

« إن قبول أوربا جميعها بعد فتح استانبول لسلاح المدفع ووضعه على السفن ، واخذ الاسطرلاب عن العرب ، أجبر أوربا التى اختنقت بالفتوحات التركية ، وقطع الطريق عليها ، ان ترمى بنفسها بكل قوة نحو البحار المفتوحة ، وان تبحث عن ايجاد طرق جديدة وتعويض احتياطى ذهبها الذى نفد » (Pirenne ، Histoire Universelle ، ٢ ، ٣٠٠) .

« من أهم لحظات التاريخ ، ويحتمل أن تكون أهمها جميعا : فتح الاتراك لاستانبول » (Franz Bobinger , Mehmed der Eroberer ، الترجمة الفرنسية ، ص ٧) .

لايشك أحد فى كون السلطان محمد امبراطور روما . أن الذى يستولى على مدينة عرش الامبراطورية هو إمبراطور من الناحية الشرعية ، ومدينة عرش الامبراطورية الرومانية ، هى استانبول (الأسطر التى حررها المؤرخ البيزنطى Yorgios Trapezutios فى ١٤٦٦) .

« السلطان محمد ، هو أحد فلاسفة عصرنا الذين يملكون ذكاءً يمتاز بالحدة الشديدة » (المؤرخ البيزنطى Kitovulos ، ص ١٧٧) .

« السلطان محمد ، يندر أن يضحك . ذكاؤه يعمل بصورة مستمرة . كريم جدا ، عنود وجسور وجرىء فى تصميمه ، ذكاؤه متقد . هو كإسكندر الكبير لايشبع من الشهرة والرفعة . يتحمل البرد والحر والجوع والعطش . كلامه قطعى . لايخشى أحداً . بعيد عن اللهووالمجون . يتكلم التركية واليونانية والصربيه بصورة جيده ويجيد قراءة وفهم اللغات الأخرى . يعكف على المطالعة كل يوم مدة من الزمن . ومن الكتب التاريخية التى يطالعها ، التاريخ الرومانى ، كتب التاريخ الاخرى Laerce ، هيرودوت ، Quinte - Curse , Tite - Live تاريخ البابوات ، أباطرة ألمانيا وملوك فرنسا ولمباردیا . له علم بجغرافية إيطاليا بصورة دقيقة وبكامل فروعها . على علم كذلك بجميع الحكومات الموجودة فى أوربا . لايستغنى عن خارطة كبيرة لاوربا . يتتبع العلوم العسكرية والجغرافية برغبة شديدة . ماهر فى تكييف نفسه على عادات وتقاليد الأقطار المختلفة الموجودة فى دولته » (معاصره الايطالى Zorzo Dolfin ، ص ٢٤) .

« السلطان محمد ، هو أعظم حاكم فى يومنا ، أعظم من كيروس ، من إسكندر الكبير ، من سيزار وبكلمة واحدة أعظم من جميع الحكام السابقين » (Babinger ، نقلا عن البيزنطى Yorgios Trapezuntios ، ٢٩٨) .

« فاتح ، ليس متخصص لغات من الدرجة الأولى ، ومؤرخا وفيلسوفا فحسب ، بل هو إلى جانب ذلك إدارى عظيم ، خيال وخبير فى استعمال الأسلحة بشكل خارق للعادة (The Harem , N . M . Panzer ، لندن ١٩٣٦ ، ص ٢٣٧) .

« يبدأ عصر النهضة العلمية ، مع فتح البيزنط فى عام ١٤٥٣ على يد الفاتح . فاتح ، أحد أكبر حماة الاصلاح والنهضة العلمية الحديثة (Renaissanee) . إن عصر النهضة العلمية مدين بالكثير لتسامح فاتح وخلفيه الاثنين . يسر فاتح انتشار اللغة اليونانية القديمة فى أوربا . دعا كل من بايزيد وياوز ، فى ١٥٠٦ و١٥١٩ ، انجيلو وليوناردو دافينشى إلى استانبول بصورة رسمية . بينما لم يسمح لهما البابا بذلك » (La Renaissanee, P. Faure ، ٧ ، ٤٦ ، ١٠٢ ، ١٠٤ ، ١١٤) .

« لكى ندرك التاريخ العثمانى ، لابد أن نعطى بنى عثمان حقهم كثانى مؤسسين لامبراطورية روما الشرقية ، يقر المؤرخون البيزنطيون المعاصرون لفاتح مثل Kritovulos Chalcondylas , Dukas Trapezuntios بأن بنى عثمان قد احتلوا مكان أباطرة روما ، وأنهم أصبحوا خلفاءهم الشرعيين ، وأنهم يحملون هذه الصفة » (Grenard ، ١٠١ - ١٠٢) .

« ان فتح استانبول ، هو انجاز شخصى لمحمد الثانى . ولايمكن قبوله كنتيجة للتطور الطبيعى للدولة العثمانية » (Voyageurs Francais dans l'orient , N . Lorge ص ٢١) .

إن إجادة فاتح اللغات اليونانية والصربية والإيطالية وفهمه عدة لغات أخرى ، هذا عدا اكتشافاته فى البلستك (مايخص القذائل الحربية) ودهاؤه فى الرياضيات ومعرفته العلوم الدينية بصورة فائقة وإجادته العربية والفارسية تجبرنا على الاعتراف بأن السلطان محمد الفاتح هو أعظم حاكم وأكبر عسكرى وأكبر رجل دولة سياسية ورئيس « الدولة العالم » الممتاز فى التاريخ العثمانى . وبالنسبة إلى كثير من المؤرخين فإن محمد الفاتح هو أكبر شخصية انجبها الأتراك طوال التاريخ .

وقد تجدر الإشارة إلى تعداد العالم عام ١٤٥٣ أثناء الانتقال إلى القرون الحديثة يقدر بـ ٤٠٠,٠٠٠,٠٠٠ نسمة ؛ ٢٧٥ مليون نسمة تسكن فى آسيا ، و٧٠ مليونا فى أوربا ، و٤٠ مليونا فى أفريقيا ، و١٥ مليونا فى أمريكا .

المبحث الثالث

نحو الدولة العالمية

(١٤٥٣ - ١٥٢٠)

نحو الدولة العالمية
(١٤٥٣ - ١٥٢٠)

(١) فاتح والبلقـــان (١٤٥٣ - ١٤٦١)

يطلق على الحملات العسكرية التى يكون البادشاه قائدها العام فى علم الاصطلاحات الفنية العثمانى ، « سفر همايون » أى الحملة الهمايونية ، وكان فاتح قد اشترك فى الحملات الـ ٣ الأخيرة لأبيه مراد الثانى (الحملات الهمايونيه مورا الثانية فى ١٤٤٨ ، ألبانيا الثانية فى ١٤٤٨ وألبانيا الثالثة فى ١٤٥٠) .

أما الحملة الهمايونية الأولى لفاتح فهى حملة قرةمان ، والثانية استانبول ، والثالثة إنز Enez .

فى الحملة الثالثة أستولى الفاتح على إنز (ك/١٤٥٣) ، وهو مرفأ جنوى يقع على مصب نهر مريج وكان تابعا للعثمانية منذ ١٣٨٣ ، وبعد أن استولى على المرفأ أرسل اسطولا مؤلفا من ٥٥ قطعة إلى كفه مستعمرة جنوة فى قرم (تموز ١٤٥٤ .

قاد فاتح حملة صربيا الأولى وهى الحملة الهمايونية ٤ له (١٤٥٤) ، وبعد أن عاد إلى استانبول ، قام القبودان دريا (مشير البحر) حمزة بك بحملة على جزر إيجه الشمالية ، بعد حملة كفه والحقها بالعثمانية ، وبذلك تكون الجزر التى الحقت رأسا فى بحر ايجه هى بوزجه آدا (حزيران ١٤٥٣) وطاشوز (صيف عام ١٤٥٥) ، وفى حملة حمزة بك للسنة التالية (فى ربيع عام ١٤٥٦) جزر ليمنى ، امروز ، سمنديرك .

وهكذا أصبح مدخل بوغاز جناقلعة مغلقا بصورة تامة .

وفى ١٤٥٥ ، هاجمت ٨٠ قطعة من الأسطول الهمايونى جزيرة رودس التابعة لفرسان سانت - جين ، لكنها لم تتمكن من أخذ الجزيرة .

خرج فاتح فى ١٤٥٥ فى حملته الهمايونية الخامسة (حملة صربيا ٢) . وفى عودته مر على صحراء كوسوفا وزار مشهد خداوندكار . وفى ١٤٥٥ ، قبلت الامارة الرومانية (الارثوذكسية) مولدافيا (بالتركية : بغدان) تبعيتها للعثمانية ، وهكذا انضمت الامارة الرومانية الثانية إلى تركيه بعد ٦٠ سنة من انضمام افلاق . وانتقل ساحل البحر الأسود إلى العثمانية ، وحرمت ملكيتا المجر وبولونيا الكاثوليكيتان اللتان كانتا تدعيان السيادة على بغدان ، من البحر الأسود .

الحملة الهمايونية الـ ٦ لفاتح ، هى حملة بلاد الصرب (١٤٥٦) ، وفيها اجتاح بلاد الصرب بجيش يتألف من ١٥٠٠٠٠ مقاتل ، و٣٠٠ مدفع ، ٢٠٠ قطعة من الأسطول الرفيع (الأسطول النهرى الذى يتكون من قطع رفيعة وطويلة) ووصل امام قلعة بلغراد المجرية القويه فى الحدود الشمالية لبلاد الصرب حيث حاصرها مدة ٣٩ يوما (١٣ حزيران - ٢٢ تموز) ، ولم يتمكن من فتحها ، وفى هذه الحملة جرح فاتح ومات هنيادى يانوش متأثرا بجراحه أثناء دفاعه عن القلعة .

الحملة الهمايونية الـ ٧ ، هى حملة مورا الأولى (١٤٥٨) وفيها دخل اثينا التى يطلق عليها الاتراك « مدينة الحكماء » . سمح فاتح للدوق اللاتينى الأخير Franco Acciajuoli بأن يأخذ كامل ثروته ويذهب إلى إيطاليا .

دخل إلى مورا من برزخ كورينشوس وجاء إلى باتراس وأسس فيها لواءً تركيا على الأراضى التى تشمل ثلث مورا ، وسمح لاميرين من سلالةPaleologos بادارة الثلثين الباقيين ، تحت حماية العثمانية .

هدم فاتح بنيران مدفعيته ٢٩٢ قلعة من مجموع الـ ٣٠٠ قلعة الموجودة فى مورا وترك ٨ قلاع فقط ، وهكذا انهى القرون الوسطى فى مورا .

الحملة الهمايونية الـ ٨ (١٤٥٩) ، هى حملة الصرب ٤ التى سقطت فيها سمندره (١٤٥٩/١١/٨) وانهيت فيها إمارة صربيا وتأسس لواء سمندره الذى يبدأ من السفوح الجنوبية لقلعة بلغراد التى تشكل حدودها الشمالية .

كانت إمارة الصرب قد الحقت بتركيا لمدة ٥ سنوات (١٤٣٩ - ٤٤) ، ثم تأسست مجددا تحت حماية العثمانية لتكون دولة عازلة بينها وبين المجر الكاثوليكية .

الحملة الهمايونية الـ ٩ (١٤٦٠) ، هى حملة مورا ٢ . وفيها ضم فاتح الأراضى التي كانت تحت الادارة المباشرة للاخوينَ الاميرين البيزنطيين ، وأخرجهما من مورا . الأميران هما الأمير ديميتريوس والامير توماس اخوا الامبراطور قسطنطين الاول ، وقد توفى ديميتريوس فى أدرنة عام ١٤٧١ بعد أن عاش حياة مرفهة كاحد رعايا الاتراك . أما توماس ، فقد هرب ولجأ إلى البابا ، وتوفى فى روما سنة ١٤٦٥ .

(٢) فاتح وجنوب البحر الاسود (١٤٦١ - ١٤٦٣)

فتح امبراطورية طرابزون

الحملة الهمايونية الـ ١٠ لفاتح (بداية ١٤٦١) تم فيها فتح ميناء وقلعة آماسرا التابعة لجنوة على البحر الأسود .

وفى الحملة الهمايونية الـ ١١ (ربيع ١٤٦١) ، وهى حملة اسفنديار ، تم القضاء على تابع العثمانية امارة جاندار (واسمها الاخير اسفنديار) .

كان أميرها الاخير داماد إسماعيل بك رجلا من الأشراف . كان لداماد اسماعيل بك فى قلعة سينوب ١٠٠٠٠ جندى ، و٢٠٠٠ مدفعى و٤٠٠ مدفع . خرج دون أية مقاومة وقبل يد فاتح . منحه فاتح إقطاعية فيليبة . مات فيها فى ١٤٧٩ وعمره ٦١ سنة . كان متزوجا بأخت فاتح . له كتاب مهم فى الفقه.استمرت سلالة بنو اسفنديار إلى يومنا هذا من نسل اخيه سلطان - زاده (سليل العائلة السلطانية) داماد (الصهر) قيزيل احمد باشا .

وبذلك تكون قد بقيت فى الأناضول ٣ إمارات فقط من الأسر التركمانية ، وهى : امارتا قرة مان ودلقادر التابعتان للعثمانية وإمارة رمضان التابعة لمماليك مصر .

الحملة الهمايونية الـ ١٢ (صيف عام ١٤٦١) ، هى حملة طرابزون . سار فاتح من سينوب إلى شبين قره حصار بجيش لم يسبق أن شوهد حجمه على هذه الاراضى على مدى التاريخ ، ووصل أمام قلعة طرابزون بعد ان اجتاز - بالتسلسل - وسلسلة جبال كموشخانه ، قولات ، طرابزون بعناء كبير لكثافة الغابات .

دخل الأمير كاظم بك مع الاسطول إلى ميناء طرابزون . استسلم الامبراطور David Komnenos دون ان يشهر السلاح .

وهكذا انتقلت إلى الحكم الاسلامى والتركى ٣ ولايات (طرابزون ، ريزه ، آرتفين) اللواتى لم يسبق ان دخلن إلى الحكم الإسلامى فى الاناضول ، وكذلك دخلت كافة السواحل الجنوبية للبحر الاسود دون استثناء ، تحت الحكم العثمانى المباشر فى حملة ١٤٦١ ، وانتهت سلطنة أسرة Komnenos التى دامت فى طرابزون ٢٥٧ سنة .

جرت الحملة الهمايونية الـ ١٣ على رومانيا (بالتركية : افلاق) .

كان Wald Tapes الثالث (١٤٥٦ - ١٤٦٢) الذى يسميه الاتراك « قازقلى فويفودا » (اى الامير ذو الاوتاد) المانياك (اى المجنون) - قد تمرد ورفض السيادة العثمانية ، هرب Wald Tapes من امام فاتح ولجأ إلى المجر . قبضت عليه المجر وسجنته مدة ١٥ سنة بسبب اشتهاره بالظلم .

الحملة الهمايونية الـ ١٤ (١٤٦٢) ، هى حملة بوسنة الأولى .

دخل فاتح أسكب بعد أن قضى على ملك بوسنة الكاثوليكى المتعصب الذى سحق البوشناق (البوسنويين) الذين يدينون بمذهب بوغوميل الذى اقتبس بعض أحكام الاسلام ، وفتح قلعة يايجه Yayçe واخضع بوسنه كذلك .

الحملة الهمايونية الـ ١٥ كانت على الامارة اللاتينية ، وتعتبر هذه الحملة الهمايونية حمله استثنائية لكونها عبر البحار ، إذ إن خروج السلاطين فى حملات عبر البحار كان محظورا فى العرف العثمانى .

قام فاتح بعملية إنزال على الجزيرة من آيوالق Ayvalik بواسطة اسطول مكون من ٦٧ قطعة بحرية . وخلال ذلك أمر فاتح بانشاء قلعتين متقابلتين فى بوغاز جناقلعة للسيطرة عليه بالنار المتقابلة ، على غرار بوغاز استانبول ، فشيد استحكامات ومتاريس قلعة سلطانية (القلعة السلطانية) فى جناقلعة (جهة اسيا) وقلعة كليد البحر (قفل البحر) فى جهة غاليبولى (أوروبا) .

الحملة الهمايونية الـ ١٦ (١٤٦٣) ، هى حملة بوسنة الثانية ، وفيها وصل فاتح إلى صوفيا ثم قفل عائدا .

(الحروب الكبرى تجاه ٢٥ دولة (١٤٦٣ - ١٤٧٣)

الحملة الهمايونية الـ ١٧ (١٤٦٤) ، هى حملة بوسنة الثالثة . اضمحلت ملكية بوسنه وألحقت بالعثمانية وكان قد اهتدى إلى الإسلام الخروات الذين يدينون بمذهب بوغوميل ، كما جاء كثير من الاتراك إلى بوسنة وهرسك واستوطنوا فيهما . شوهد اعتناق جماعات كبيرة فى قطرين بلغاريين كالبانيا وبوسنة للدين الاسلامى ، وصار الألبانيون والبوشناق مسلمين صميمين مع انهم حافظوا على لغاتهم حتى يومنا هذا ، ودخلوا فى نطاق الثقافة التركية ، ولايزالون مسلمين حتى الآن .

حاول ملك المجر أخذ بوسنة ٣ مرات فى ١٤٦٥ ، ١٤٧١ وفى ١٤٧٩ . وقد باءت محاولاته فى المرات الثلاث بالفشل .

الحملة الهمايونية الـ ١٨ (١٤٦٦) ، هى حملة قرةمان الثانية (بعد ١٥ سنة من الأولى) ، وفى هذه الحملة ألغى فاتح الذى دخل قونية ، ثم احتل لارنده (قره مان) ، الامارة وأجلس ابنه الأوسط شهزاده (الامير) مصطفى (امه كلشاه خاتون وهى ابنة قرةمان أوغلو إبراهيم بك) على عرش قرة مان فى قونيه ، وتقبل شعب قونية هذا الوضع بارتياح ، حيث انه كان قد سئم من اتفاق امرائه مع المسيحيين ضد العثمانيين ، ذلك بالاضافة إلى أنهم شعروا بالفخر لتولى الامارة أمير هو ابن فاتح استانبول ، وفى نفس الوقت حفيد قرة مان أوغلو إبراهيم بك الحاكم الذى توفى (١٤٦٤/٨/١٦) قبل سنتين بعد سلطنة دامت ٤٠ سنة . وعلى الرغم من أنه لم تكن هناك أهمية لنسب الأم فى ذلك العهد ، فإن ذلك كان من عوامل كسب ود القونويين .

ظل قسم من بنى قرة مان ممتلكا سواحل البحر الأبيض : ايجل ، وطاش ، يالى .. لفترة اخرى .

الحملتان الهمايونيتان ١٩ و ٢٠ ، هما حملة ألبانيا الأولى (١٤٦٦) والثانية (١٤٦٦ - ١٤٦٧) ، وكلتاهما موجهتان إلى تمرد اسكندر بك .

أسس فاتح فى الحملة الاولى (١٩) قلعة ومدينة الباسان **Elbasan** . ولم يتمكن فى الحملة الثانية (٢٠) من القبض على إسكندر بك .

وافت اسكندر بك المرتد منيته فى ١٤٦٨/١/١٧ فى Alessio (بالتركية : لش) ، وهكذا انتهى عصيان البانيا الكبير .

انتهت علاقة ملكية نابولى مع ألبانيا ، ولكن علاقة جمهورية البنادقة فى الشمال استمرت مع ألبانيا فترة أخرى .

قامت بين تركيا والبندقية فى ١٤٦٣ ، حرب شديدة وطويلة جدا تسمى الحرب الكبرى .

اتفقت على مر الزمن ضد تركيا نحو ٣٠ دولة . اضطرت تركية للاستمرار فى هذه الحرب بدون حليف .

وقد كان ذلك هو ماقاله منذ عشر سنوات جاندارلى – زاده الذى أعدمه فاتح السبب الظاهرى للحرب الكبرى هو الحاق ملكية بوسنة بتركيا ، ولكن السبب الحقيقى هو فتح العثمانية البيزنط ، وغلقها المضايق ، ومنعها مرور السفن إلى البحر الاسود ، وحيازتها على قوة عسكرية واقتصادية لاتسمح لاية دولة أن تنازلها منفردة .

كانت الاستعدادات الاولى لتشكيل ائتلاف ضد الاتراك قد جرت بقيادة البابا فى الاجتماع الذى عقد فى Regensburg ، منذ نيسان ١٤٥٤ .

كانت الاستراتيجية الأوربية فى هذه المرة تستند على اساس فكر معين مؤداه : إن هزيمة الاتراك عسكريا واستقطاع اقطار منهم أمر مشكوك فيه أو هو أمر صعب ، ولكنه ليس بالأمر المستحيل إذا مااتحدت أوربا بأكملها ، ولذلك يجب ضرب البادشاه الذى يطلقون عليه لقب « التركى الكبير » من الشرق ، ومن الاناضول بصورة مؤكدة .

لاتوجد فى تلك المناطق دولة مسيحية عدا كرجستان .

كانت قرةمان قد أخذت هذا الأمر على عاتقها فى السابق ولمرات عديدة ، لكنها لم تتمكن من مقاومة العثمانية . لذلك فمن الضرورى تحريض المماليك ضد العثمانية ، ولكن ، القاهرة لاتقدم أبدا على اتفاق مع المسيحيين ضد الدول الإسلامية ؛ لكونها أولا مسلمة ؛ ولأنها تضررت كثيرا من الصليبيين سابقا . كما .. أن خلافات القاهرة مع العثمانية ليست مهمة بالدرجة التى تجعلها تقدم على دخول حرب واسعة .

لاشك فى أن القاهرة لم تكن مستريحة لاطماع العثمانية تجاه قرة مان (قونية) ودلقادر (ماراش) ، لكنها على هذه الحال منذ مدة تقارب القرن ، ولم يؤد عدم ارتياحها لهذا الوضع خلال تلك المدة إلى حرب عثمانية - مملوكية ، ومن الطبيعى أن نتوقع أن تغييرا سوف يطرأ على موقف القاهرة من العثمانية لو أن الاخيرة ركزت نظرها على بلاد رمضان وجوقور أوفا .

على كل الاحوال فانه لم تظهر على سياسة « التركى الكبير » ، أى فاتح ، أية بوادر تشير إلى رغبته فى اجتياز الفرات وجبال طوروس وانما كان كل امله فى أوربا .

وفى ضوء ذلك كله ، نجد أن الدولة الوحيدة ذات المقدرة العسكرية التى يمكنها أن تضرب التركى الكبير من الشرق ، هى اقويونلو (اصحاب الخرفان البيض) الامارة التركمانية المتضخمة .

كان أوزون حسن بك الذى أظهر فى السنوات الاخيرة تقدما كبيرا جدا ، وأثبت قدرة عسكرية هائلة ؛ حتى اطلقوا عليه فى اوربا « كوجوك ترك » (التركى الصغير) - مستعداً للقيام بهذه المهمة ، فهو يسيطر على الاناضول الشرقية ويتميز غيظاً من فاتح الذى قوض امبراطورية طرابزون (التى يرتبط بها بروابط القرابة) ، والذى قضى على قرةمان وأخل بالتوازن . ولو أمكن إعطاء الدور الذى لعبه تيمور إلى أوزون حسن ، لكسبت أوربا الحرب من الناحية الاستراتيجية ، وحتى ان لم يتيسر لها دحر القدرة العثمانية ، فانه سيكون فى إمكانها حصرها فى حدود المعقول .

استغرق تجهيز الاتفاق ضد العثمانية وقتا طويلا ، وتم تدبيره بأناة ، وتم التفاهم فى النهاية على خطة التقسيم التى تحصل المجر بموجبها على حصة الاسد لتخصيصها أكبر قوة عسكرية ، فلها بلاد الصرب ، بلغاريا ، بوسنة ورومانيا (افلاق) ، ويحصل البنادقة كذلك على حصة كبيرة ، اذ إنهم وافقوا على تحمل القسم الاكبر من النفقات المالية علاوة على تخصيصهم لاسطول البندقية القوى . وتحصل « الجمهورية المهيبة » على مورا ، آتيكا ، تيساليا ، ابير . ويعاد إحياء الامبراطورية البيزنطية ، على ان تنحصر حدودها فى تراقيا ، ولاتعطى حدودا واسعة لكونها ارثوذكسية وتكون بمثابة .. الدولة العازلة .. وبذلك يتم إخراج الاتراك من أوربا بشكل كامل .

أما ماهى الأراضى التى ستبقى لدى العثمانية فى الأناضول ، فإن ذلك شىء يعود إلى آقويونلو « كوجوك ترك » أوزون حسن الحليف الكبير للاتفاق ، ولاشأن للدول الأوربيـة بذلك . ومن المؤكد ان أوزون حسن سيعيد تأسيس دولة قرةمان وطرابزون تحت حمايته وسيضم اراضى العثمانية فى الاناضول الوسطى كذلك . وستبقى العثمانية منحصرة بين البحر الاسود – مرمرة – إيجه – البحر الابيض كما كانت فى السابق ، ولن يسمح باقترابها من الاناضول الوسطى خصوصا ، ويمكنها أن تعيش فى غرب الاناضول ، نشرط تحسين علاقاتها مع آقويونلو !

كان العنصر الأساسى فى تطبيق خطة خيالية كهذه ، هو إجبار العثمانية على دخول الحرب بدون حليف (وهذا ماحدث .. لم تتمكن من اتخاذ اى حليف) . ومن حيث المنطق لو ان مايقرب من ٣٠ دولة قامت بتطبيق هذه الخطة بتصميم ، فإن النجاح سوف يكون مضمونا ، وسوف تتعرض العثمانية للعنت ولمصاعب كثيرة وستتردى اقتصاديا وعسكريا كلما طالت الحرب وستكون مرغمة فى النهاية على وقف الحرب (وبالفعل فإن فاتحا لما طالت الحرب ، وضع اليد باسم الجيش على إيرادات الأوقاف غير مبال بعدم الارتياح ولا بالانتقادات الكبيرة التى تعرض لها) .

ولكى يتحقق الانتصار فى حرب كهذه ، فإنه لايكفى استحواز الجيش على الأولوية فى العالم ولايكفى الأسطول الذى اصبح على يد فاتح متفوقا على الأسطول البندقى وجهزه بمدافع ممتازة وجعله الأسطول الأول فى العالم ، ولكن الأمر يحتاج إلى سياسة خارجية مكيافيلية وجهنمية دقيقة جدا ، ولقد رضى فاتح بالحرب ، لأنه كان مقتنعا بأنه سوف يتمكن من السيطرة على هذا العنصر كذلك ، وقد كان بإمكانه الحيلولة دون وقوع الحرب لو أنه اعطى بوسنه إلى المجر واعاد استقلال دولتى قرةمان وطرابزون وجعلهما دولا عازلة بينه وبين آقويونلو وفتح البحر الأسود للبنادقة ، لكنه لو كان فعل ذلك ، فهل تقف الترضيات عند هذا الحد ؟ وهل يمكن لدولة تقدم مثل هذه الترضيات إن تثبت دعواها فى كونها الدولة الأولى فى العالم ؟

تعرضت الدولة الصغيرة دلقادر لضغوط شديدة فى حرب العمالقة هذه ، ولم يخضع التركمان المرعشيين لهذا الضغط ، ولم يتركوا أبدا تبعيتهم للعثمانية ورفضوا كافة الضغوط التى مارستها الدولتان ذوات القدرات العظيمة كمصر

(المماليك) وإيران (آقويونلو ، أى اصحاب الخرفان البيض) بشأن انفصالهم عن العثمانية .

من ناحية أخرى ، فإن القاهرة ماكانت لترضى بالتحرك ضد بنى عثمان ، صحيح أن القاهرة كانت ترى فى أجلاس بنى عثمان ابنهم المتوسط على عرش قرةمان ، وفى صاحب عرش مراش التابع المخلص للعثمانية ، خطرا يهددهم فى سوريا ، لكن كل ذلك ماكان ليجعلهم يتحركون ضد بنى عثمان الغزاة العظام ، وبخاصة عندما تكون هذه الحركة بالاتفاق مع أوربا ، لقد كانوا يرون أن ذلك لايليق بهم .

إن « مصر - سوريا » كانت تسر لانتصارات العثمانية فى أوربا .

وفى ١٤٥٦ ، احتفلت مصر وسوريا ٣ أيام بلياليها عند التأكد من عدم صحة خبر موت فاتح بمرض الطاعون .

لم تكن « مصر - سوريا » مستعدة للاقدام على الحرب مع الدولة العثمانية بسبب مسألة قرةمان ودلقادر .

أما آراء فاتح بالنسبة للدولة المملوكية وسلاطينها ، فلم تكن طيبة على أى حال من الأحوال رغم إخفائها بدقة ومهارة ، كان السلاطين المماليك بالنسبة لفاتح « عبيدا شركسيين » لاينحدرون مثله من أوغزخان ، واضافة إلى ذلك فإن هذه الدولة تحتفظ بالخلافة ، وتسيطر على ٣ مدن إسلامية مقدسة مكة ، مدينة ، والقدس . وبفضل هذه العناصر المعنوية . كانت تدعى بأنها دولة الإسلام العظمى . من الجائز أنها كانت كذلك في وقت ما .. لكن تركيا كانت قد وصلت إلى أوربا الوسطى بعد أن قدمت ٤ ملايين من الشهداء خلال ٤ قرون مبتدئة من ملازغرت ١٠٧١ . كان فاتح هو الخلف الشرعى لبنى سلجوق (هذا هو الرأى الرسمى للدولة العثمانية منذ بدايتها وحتى اضمحلالها) . وبنى سلجوق هم أسياد أسياد (الاتابكة الزنكيين) الايوبيين الذين هم أسياد المماليك .

كان العثمانيون قد تقلدوا سيف الإسلام ، أما المماليك فكانوا يتمتعون بفضل الإسلام .

بطبيعة الحال لم تكن القاهرة على علم بمثل هذه الأفكار الخطيرة التى لدى العثمانيين عنهم ، واستمرت القاهرة فى محبتها للعثمانية حتى النهاية .

علم فاتح وقد كان يملك أقوى شبكة للاستخبارات ، فى العالم وله عيون وأرصاد فى كل منطقة من أوربا ، إجراءات الاتفاق الذى رتب ضده ، خطوة بخطوة ، فسبقهم فى التحرك .

بدأ فى الحرب فعلا يوم ٣ نيسان ١٤٦٣ ، وبناء على ذلك أعلنت البندقية الحرب على تركية فى ٢٨ تموز والمجر* فى ٣٠ تموز .

سحق الوزير الأعظم محمود باشا ، المجر فى الحرب الميدانية Zvornik . تمكن ملك المجر Mathias ابن Hunyadi Janos من النجاة من الموت بصعوبة . غادر البابا بيوس الثانى روما (١٨ / ٦ / ١٤٦٤) لقيادة الجيش الصليبى بنفسه ، لكنه مات فى الطريق ، وتحرك كذلك دوج (رئيس جمهورية) البندقية من البندقية بالسفينة (٢ / ٨ / ١٤٦٤) تجاه تركيا ، ولكنه رجع إلى البندقية عند سماعه خبر وفاة البابا . منح فاتح ، دولة فلورنسا (توسكانا) امتيازات تجارية كبيرة ، وحسن أحوالها المالية بشكل واسع وذلك بغرض إضعاف القدرة المالية والاقتصادية للبندقية .

وبينما كانت تتتابع الدول الأوربية ، والدول الآسيوية كايران (أصحاب الخرفان البيض) ملكية كرجستان (ارثوذكسية) ، ملكية قبرص (كاثوليكية) – فى إعلان الحرب على تركية ، كان فاتح معنيا بشكل خاص بالبندقية ، ذلك أن فاتح لم يكتف بالنسبة للبندقية بالتدابير المتعددة التى اتخذها لتدمير الجمهورية من الناحيتين الاقتصادية والعسكرية ، بل إنه قام معها بمناورات سياسية معقدة جدا ، فقد فتح معها الباب لمفاوضات الصلح (وهذا أمر لايجرى والحرب دائرة) ، ولكن شروط الصلح المغرية بهرت عيون البنادقة ، فأوقفوا الحرب مدة من الزمن ، استطاع فاتح خلالها القضاء على أعدائه الآخرين ، ثم أعلن بعد ذلك أن المفاوضات دخلت فى طريق مغلق ، وبدأت الحرب مع البندقية مجددا .. لقد ابتلعت البندقية ذاتُ الدبلوماسية الراقية ، هذا الطعم مرات عديدة !

ضعضعت الحملات الواسعة النطاق التى بدأت فى ١٤٦٩ ، البندقية بدرجة

كبيرة ، قامت البندقية حتى تموز ١٤٧٩ فقط ، بترتيب ١٤ مؤامرة لاغتيال السلطان محمد الفاتح ، ولم توفق فى أى منها (Babinger ، ٣٤٧) .

سار فاتح فى صيف عام ١٤٧٠ بجيشه فى إحدى حملاته الكبرى وهى الحملة الهمايونية ٢١ ، حملة آغريبوز (أكريبوز) تجاه البندقية . وقد كانت هذه الجزيرة – وهى أكبر جزر إيجة – كأنها ملتصقة بشبه جزيرة آتيكا (تبلغ مساحتها ٢٩٧كم٢) ، بحوزة البنادقة منذ ١٢١٠ ولمدة ٢٦٠ سنة . (وقبلها كانت بحوزة البيزنط) .

دخل الأسطول الهمايونى المكون من ١٠٠ سفينة حربية شراعية كبيرة (كاليون) و٢٠٠ سفينة نقل إلى بوغاز آغريبوز فى ١٤٧٠ . أما الجيش الهمايونى (الامبراطورى) فقد دخل إلى تيساليا من ممر ترموبيل وانتقل منها إلى آتيكا . وجاء إلى منطقة مجاورة لـ (Tebai) Tep وصعد إلى قلعة Chalkis Egripo التى تشكل مركز الجزيرة والتى يطلق عليها الأتراك اسم الجزيرة نفسها : آغريبوز . كانت القلعة الواقعة وسط بوغاز أغريبوز وفى النقطة التى تقترب فيها الجزيرة إلى البر بمسافة ٥ كم ، إحدى أقوى قلاع البنادقة المستحكمة . وحتى ييسر فاتح لجيشه البالغ ٧٠٠٠٠ شخص مهمة العبور ، فقد صف ٢٠٠ سفينة جنبا إلى جنب وبذلك تمكن من إقامة جسر طوله ٥ كم . لم يكن اسطول جمهورية البندقية الذى يقوده الاميرال Nicolo Canale بعيدا ، لكنه لم يجسر على الاقتراب من الأسطول التركى .

دام الحصار ١٧ يوما ، ثم سقطت القلعة فى الهجوم الخامس (١٢ / ٧ / ١٤٧٠) ، وقد ولد سقوط آغريبوز تأثرا كبيرا فى أوربا ، كسقوط استانبول وطرابزون .

ثم قام الوزير الأعظم كديك أحمد باشا بعد ذلك باحتلال نيغده (١٤٧٠) وعلائيه (آلانية) (١٤٧١) وسيلفكة (١٤٧٢) ووصل إلى سواحل امارة رمضان فى جقوراوفا التى كانت تحت حماية المماليك ، وبذلك حقق سيطرة عثمانية تامة على سواحل البحر الأبيض .

يمكن تصوير الوضع عند اقتراب نقطة تحول الحرب ولحظتها الجهنمية فى ١٤٧٣ على الوجه التالى :

- أوربا تعلق الأمل أكثر من أى وقت مضى على التركى الصغير .

كان فاتح بالنسبة لأوربا Great Turk Gran Tureo, Grand Turc . أما أوزون حسن فهو التركى الصغير Piccolo Turco, Petit Yurc, little Turk .

- ازداد بشكل كبير تبادل السفارات بين البندقية وتبريز - أخذت معاهدات الاتفاق تتلو إحداها الأخرى .

- الدول الأوربية من جهة وإيران من جهة أخرى - من المتعذر إجراء صلح منفرد - تتضمن المؤامرة تطبيق خطة التقسيم بعد أن يبيد أوزون حسن جيش العثمانية السيار فى حرب ميدانية - تتمثل خطة التقسيم فى أن البلقان للدول الأوربية ، أما الأناضول فهى لأصحاب الخرفان البيض - تقسيم البلقان والأناضول سيكون بالتراضى بين الأوربيين وأصحاب الخرفان البيض ، بمعنى أن أوزون حسن سوف لايتدخل فى البلقان ، ولاتتدخل أوربا فى الأناضول .

وبطبيعة الحال كان أوزون حسن قلقا بشأن قدرة الأوربيين على سحق العثمانيين واسقاط تلك القلاع المتينة بما فيها من وحدات الصاعقة وجيش روملي واخراجهم من البلقان ، ولكن ذلك لم يكن يعنيه ، وإنما الذى يهمه هو حكم الأناضول حتى ازمير وغاليبولى ، وتكوين امارات عازلة تتولى مهمة الانشغال بالعثمانية التى سوف تستمر فى بورصة وحواليها ، ومن هنا فإنه سوف لاينشغل بأمور الأناضول الغربية ، وإنما سيكون على الأغلب فى موقف الحكم .

كان أوزون حسن مغترا بقتله خاقانين كبيرين جدا من الأتراك وابادة جيشهما ، (الخاقانان هما خاقان قرة قويونلو (اصحاب الخرفان السود) جهان شهاه والخاقان التيمورى أبو سعيد) .

يحكم أوزون حسن الآن المنطقة الواقعة بين أفغانستان وقرةمان ، وبين قفقاسيا وسوريا ، وكذلك كانت إيران والعراق وقفقاسيا الجنوبية والأناضول الشرقية تحت حكمه .

وكان أوزون حسن يعلم بالطبع أن الجيش العثمانى السيار ، أقوى من جيش

قرة قويونلو وتيمور . لكن جيشه كان أكثر عددا ، وقد كان يتصور أنه سيتمكن من اخضاع فاتح ، كما تمكن تيمور من اخضاع يلدرم . لكن الحال كان مختلفا فأوزون حسن لم يكن تيمور ، كما أن فاتح لم يكن يلدرم .

عقدت معاهدة ٢ شباط ١٤٦٨ بين البندقية ، البابوية ، ميلانو ، صقلية ، جنوه ، فلورنسا ، مودينا ، سيئينا ، فرارا ، بيسا ، مانتوفا ، ترينتو ، لوكا ، وأدخلت جميع الدول الايطالية ضمن الاتفاق . أما المجر فقد جمعت حولها ألمانيا ، بولونيا ، كاستيليا (اسبانيا) ، آراغون ، فرانسا ، برغونيا ، قبرص ، رودس وكرجستان . لقد تجاوز عدد دول الاتفاق ضد العثمانية لفترة من الزمن الـ ٢٥ دولة .

تمركز اسطول صليبي في لارنقة ، من بين سفنه ٥٨ سفينة حربية بندقية ، وأخذ يقصف قلاع تركية في البحر الأبيض ، ولكنه لم يتمكن من تحقيق شيء يذكر ، كذلك لم يتمكن من تمرير الأسلحة النارية التي وعد بها أوزون حسن .

تحرك أوزون حسن مع ٣٠٠٠٠٠ من خيالته من خربوت إلى ارزنجان تاركا وراءه ١٠٠٠٠٠ من خيالته .

غادر فاتح استنابول (١١ / ٤ / ١٤٧٣) وجاء إلى سيواس بجيش يتكون من ١٩٠٠٠٠ جندى على شكل ٥ فيالق بتنظيم لايصدقه العقل بالنسبة لذلك الزمن . اضطر إلى ترك قوات كبيرة فى روملى ، وكان مطمئنا إلى أنه سوف يعوض فرق العدد بين جيشه وجيش أوزون حسن بأسلحته النارية . ولم يكن يغيب عن فاتح شجاعة خيالة أوزون حسن التركمان .

أخذ الجيشان يبحث أحدهما عن الآخر ثم التقيا فى أوطلوكبلى **Dtlukbeli** .

تقع أوطلوكبلى ، فى المنطقة التى ينبع منها نهر جوروه **Goruh** وعلى الساحل الشرقى منه ، وبالقرب من جنوب النهر يصب أحد الروافد الصغيرة لنهر قره صو ، وتعلو جبال بولور **Pulur** فى الشمال الشرقى ، وفى الجنوب جبال كشيش . جنوب شرقى قصبة كلكيت ، وجنوبى غربى بايبورت ، وعلى مسافة ٤٠ كم من شمالى شرقى ارزنجان . وحاليا ، فى أقصى جنوب كموشخانة وتقع على بعد كيلو متر واحد شرقيها .

إن الرسائل التى أرسلها السلطان أوزون حسن فى غضون الأيام التى سبقت اللحظة الجهنمية إلى حلفائه الثلاثة ملك البندقية ، وامبراطور ألمانيا فردريك الثالث وملك المجر Matthias Corvinus تدعو إلى الاهتمام .

كتب أوزون حسن فى هذه الرسائل أن العثمانية بادرت بالهجوم عليه ، وأن جيشها كبير لكن جيشه أكبر منه ، وأن هجومها هو لطف من الله ، حيث إنه لايمكن الاستيلاء على الأناضول ما لم يتحقق افناء الجيش العثمانى ، وعكس ذلك ، فإن العثمانية سوف تتحين الفرص للانقضاض عليه واستعادة أراضيها ، وإن إبادة الجيش العثمانى خلال عدة أيام أمر مؤكد وأنه لايستطيع أن يتكهن بما إذا كان سيمكن أسر البادشاه أم لا ، كما تضمنت رسائله ان العثمانية ذات تسعة أرواح ، فقد استطاعت استعادة حيويتها حتى بعد ابادة جيشها ولم تنهزْ (يشير بذلك إلى واقعة انقرة التى جرت قبل ٧١ سنة) ، لذا يجب على الحلفاء الأوربيين عدم التأخر فى احتلال أراضى العثمانية فى روملى فور إبادة الجيش العثمانى ، ولو أنه لايمكن بهذا القضاء على العثمانية بشكل تام ، لكنها على الأقل ستصبح بعد ذلك دولة من الدرجة الثانية وتسقط إلى درك إمارة اعتيادية ، عديمة الشأن والمنزلة ، وسوف لاتتمكن دولة بنى عثمان العاهرة من تهديد أحد !

كانت البندقية عازمة على تكرار ماقامت به تجاه الامبراطورية البيزنطية فى ١٢٠٤ ، حيث كانت قد أعطت أمر اجتياز مضيق جناقلعة واحتلال استانبول فور علمها بخبر ابادة الجيش العثمانى السيار . ستؤسس فيها امبراطورية رومانية شرقية العوبة . لابد أن تنتهى الحرب بكل سرعة .

أبلغت المجر وألمانيا ، البنادقة بفشلهما فى مجابهة الصاعقة وأنهما سوف لم يتمكنا من ذلك ، بالاضافة إلى ذلك فإن رسائل أوزون حسن كانت تفيد عدم إمكان محو العثمانية من سطح الأرض والقضاء على دولتها .

يبدو أن تصور البنادقة كان يقوم على إمكان اختراق الأسطول التركى واحتلال إستانبول ، ولكن أيا من الأمرين يتعذر تحقيقه ، فالأسطول التركى يفوق الأسطول البندقى ، واستانبول يحميها جيش غير قليل ، ومن الناحية الأخرى فإنه إذا كان من المنتظر أن يسير جيش الحلفاء من الشمال فإن ذلك تكتنفه صعوبتان كبيرتان هما : قوة قلاع روملى ، وشدة مراس الصاعقة المغاوير .

كانت سياسية فاتح الخارجية بقدر ماهى جريئة وحافلة بالمفاجآت فانها تتسم بالحذر والدقة والواقعية ، وتتجه نحو الغاية ، كما كانت فى نفس الوقت مجهولة وخافية على الأطراف الأخرى .

أما سياسة أوزون حسن ، فكانت تقوم على التظاهر والغرور .

لم يكن فاتح يعلن شيئا عن قوته وقدرته وإنما كان يحقق ذلك فعليا فى ساحات الحرب .

كان أوزون حسن مستمرا فى الفخر بنفسه ، وقوته ، وقدرته ، وكيف أنه تمكن من هزيمة خاقانين فى حربين ميدانيتين وقتلهما . لقد استطاع السلطان – زاده (سليل العائلة المالكة ، هزيمة ابن عمة فاتح بير أحمد بك – وهو من بنى قرةمان – من جهة الأم)) ، اللاجىء فى سراى تبريز ، والعليم بالتشكيلات العسكرية العثمانية – أن يؤثر على أوزون حسن باطرائه له وامتداحه المستمر لانتصاراته على أصحاب الخرفان السود والتيموريين ، ونجح بذلك فى تهوين القدرة العسكرية العثمانية فى نظر أوزون حسن ، أما بالنسبة لفاتح فانه ماكان ليسمح لأحد أبدا بامتداحه فى وجهه ، فيما عدا الشعراء بطبيعة الحال .

كان هذا هو وضع كل من عثمان أوغلو (بنى عثمان) السلطان محمد البالغ عمره ٤١ سنة وآقويونلو السلطان أوزون حسن البالغ عمره ٥٠ سنة ، كانا يعتقدان أن لهما حقا متساويا فى خاقانية الترك الكبرى ؛ لأن كليهما ينحدران من أوغزخان ، أحدهما من سلالة قايى خان والآخر من سلالة بايندرخان . كان أوزون حسن ، يعتبر العثمانية « جتاق » أى كثيرة الاختلاط بالأجانب ، متفرنجة ، الأمر الذى جعلها مختلطة الثقافة ضعيفة التدين ، لكنه لم يكن يفكر فى الكفاح المرير وكمية الشهداء الذين ضحت بهم فى مواجهتها لأوربا كلها ، حتى وصلت إلى هذه المرحلة .

٤) حرب أوطلوق بلى الميدانية (١١ آب ١٤٧٣) :

كان فاتح قد أعد خطة احتياطية فى حالة دخول المماليك فى الاتفاق ضده ، وذلك بأن يجعل كلا من مصر وإيران (كلتاهما اتراك) خارج الصف ، كلا على

حده ، غير أنه لم تعد هناك حاجة إلى ذلك حيث لم يشترك المماليك فى الحرب .

وبدأت الحرب الفعلية مع آقويونلو قبل أوطلوق بلى بمدة طويلة .

اجتاز جيش آقويونلو الحدود ودخل تركية فى ١٤٧٢ . نهب سيواس وتوقات دون أن يتمكن من إسقاط القلاع بالمباغتة واجتاز قيصرى من الخارج واقترب من قونية . كان ينوى طرد الشهزادة (الأمير) العثمانى من قونية وإجلاس قرة مان أوغلو بدلا منه . كان يوسفجه ميرزا أحد أبناء أوزون حسن ، هو القائد العام لجيش آقويونلو . اضطربت استانبول لاحتلال توقات . اجتاز فاتح إلى اسكدار ، رغم مضى موسم الحملات . وبينما هو على وشك التحرك تسلم خبر انتصار الأمير مصطفى .

سار الأمير مصطفى بكلربك (أمير ، والى) قرة مان من قونية مع مربيه كديك أحمد باشا وداود باشا والى الأناضول (مركزه كوتاهيه) . بدأت الحرب الميدانية فى الموقع المسمى قيرايلى Kireli الواقع على مقربة من شرق بحيرة بكشهرى ، أبيد جيش آقويونلو (١٤٧٢/٨/١٨) .

أسر القائد العام يوسفجه ميرزا ، وأخواه الاثنان و (٢) ميرزا من بنى تيمور ، وتمكن كل من أبناء عمات فاتح ، قرة مان أوغلوبير أحمد بك وقاسم بك اللذين كانا فى جيش آقويونلو ، من الهرب . كان الأسطول الصليبى أثناء ذلك قد قصب ميناء أزمير ، لكنه انسحب عندما علم بهزيمة آقويونلو .

سار فاتح من استانبول (١٤٧٣/٤/١١) قبل مضى (٨) أشهر من هذا الحادث . بدأت طليعة الجيش الهمايونى (الفرقة المؤلفة من ١٢٠٠٠ شخص بقيادة خاص مراد باشا) بالهجوم على آقويونلو ، ولكنها انهزمت ، واستشهد الباشا .

دخل فاتح بعد أسبوع إلى صحراء أوطلوق بلى ، حيث كان أوزون حسن ينتظر فيها مع ٣٠٠٠٠٠ من خيالته (١٤٧٣/٨/١١) .

كان الجيش الهمايونى يتألف من (١٩٠٠٠٠) جندى ومقسما إلى (٥) فيالق .

كان البادشاه على رأس الفيلق المركزى فى القلب (رئيس أركانه الوزير الأعظم محمود باشا) وكان على رأس فيلق الجناح الأيمن « أولو شهزادة » ولى العهد « بايزيد الثانى »(رئيس أركانه كديك أحمد باشا) ، وعلى رأس فيلق الجناح الأيسر شهزاده مصطفى (رئيس أركانه داود باشا) ، احتفظ فاتح بالفيلقين الباقيين للاحتياط (بقى الابن الأصغر للبادشاه الشهزاده جم فى إستانبول كمحافظ للعرش - نائب للسلطنة) .

كان أوزون حسن وهو عسكرى مجرب قد سمع بقدرة الجيش العثمانى ، لكنه لم يكن قد شهد بعينيه الجيش العثمانى السيار . ومما يروى عنه أنه عندما شاهد الجيش عند دخوله صحراء أوطلوق بلى ، ونشره البيارق، وعزف الموسيقى العسكرية (مهتر) ونوعية قماش البدلات العسكرية للجنود ، وتجهيزاته الثقيلة قال : « ويحك يابنى عثمان العاهرة ، أى بحر هذا الذى جهزه ؟ ! » .

لم يكن أوزون حسن قد شهد طيلة حياته حربا تجرى « بالمدافع والبنادق » (نشرى ، ٢٢٨ ب) .

شاهد وهو فى حالة من التأثر الشديد كتائب الخيالة التى تتساقط الواحدة تلو الأخرى بنيران المدفعية العثمانية والمشاة حملة البنادق الثقيلة ، ولم يتمكن من السيطرة على وحداته التى كانت قد تبعثرت بفعل الأسلحة النارية على الرغم من شجاعتهم وشجاعة خيولهم .

قطع فاتح، الذى أعطى أمر غلق الملقط للفيلقين فى الجناحين، بفيلقيه الاحتياطيين طريق الفرار على جماعة آقويونلو الذين حاولوا التخلص من رأس الملقط .

حمل الأمير مصطفى مع فيلقه على جناح آقويونلو الأيسر ، وأباده مع قائد الجناح زينل ميرزا بن أوزون حسن ، وأسر (٣) أمراء إمبراطوريين من بنى تيمور . وفى الساعة الثامنة والأخيرة للحرب ، سار أولو شهزاده بايزيد إلى سرادق أوزون حسن . هرب البادشاه حسن الذى عجز عن المقاومة ، وامتطى جواده العربى المشهور فى زمانه تاركا سرادقه .

من المشهور عنه أنه قال وهو يترك ساحة القتال ، مخاطبا سليل السلطنة (سلطانزاده) قرة مان أوغلوبير أحمد بك : « ياقرة مان أوغلو ، خرّب الله

سلالتك ، سببت عاری وخزیی . مالی وبنی عثمان ! » .

لم يأمر فاتح بمطاردة أوزون حسن وفلول آقويونلو .

مكث (٣) أيام فى صحراء أوطلوق بلى . وبمناسبة خلاص الدولة من أكبر الأخطار التى مرت عليها منذ تيمور ، اشترى بدراهمه الخاصة الأسرى البالغ عددهم ٤٠,٠٠٠ وخلى سبيلهم (من المعلوم أن عتق الأسرى من أفضل القربات إلى الله فى الدين الإسلامى) .

دخلت الوحدات العثمانية شبين قرة حصار فى ٢٤ آب .

بعد هذا الحادث لم تبق أمام الدولة العثمانية مشكلة تسمى مشكلة آقويونلو . عقد أوزون حسن فورا صلحا مع العثمانية رغم إصرار الكثيرين ورجاء الدول الأوربية .

اعترف أوزون حسن فى الصلح بإلحاق طرابزون وقرة مان ، وجمع أولاده وأوصاهم بعدم الهجوم أبدا على العثمانية . اتخذ بنو آقويونلو بعد ذلك فى الشرق ، وضع الحليف بالنسبة للدولة العثمانية . تزوج أوغورلو محمد ميرزا بن أوزون حسن بابنة فاتح الوحيدة جوهر خان سلطان ، وأصبح باشا وفريق أول فى الدولة العثمانية . وتزوج كوده أحمد بك الذى ولد من هذه الزيجة بإحدى بنات خاله بايزيد ثم صار سلطانا على آقويونلو .

توفى فى (١٤٧٤/١٢/٢٥) الشهزادة مصطفى الذى عاد من حملة آقويونلو فى بور قرب نيغده قبل وصوله إلى قونية وعمره (٢٣) سنة . كان عالما شاعرا وقائدا عظيما . نقل جثمانه إلى بورصة ودفن فيها . خلف ابنتين . يعد انتصاره فى الحرب الميدانية قيْريلى Kireli بـ ٥٠٠٠٠ جندى على ٦٠٠٠٠ جندى مع آقويونلو من الخدمات الكبيرة (كان فيلقه من جنود الأناضول ، وفيلق الامير بايزيد ذو الـ ٤٠ كتيبة ، من جنود روملى) .

استمرت الحرب الكبرى بعد ذلك مدة خمس سنوات ونصف ، وإن كان الحلفاء قد خسروا الحرب — من الناحية العملية — فى أوطلوق بلى فى (١٤٧٣) . كان فاتح قد حصل على النتيجة الاستراتيجية لحرب أوربية كبيرة جدا ، فى آناضول الشرقية .

المرحلة الأخيرة للحرب الكبرى (١٤٧٣ - ١٤٧٩)

بدأت الحملات على البندقية والمجر وألمانيا تزداد كثافة بمرور الأيام ، حيث قد أصبحت تركية حرة فى الشرق . وعلى سبيل المثال ، اجتاز ميهال أوغلو غازى علاء الدين على باشا (١٤٥٣ - ١٥٠٧) أحد أمراء الصاعقة ، ألطونة (٣٣٠) مرة نحو الشمال بغرض الغارة . أسر إحدى بنات ملك المجر Matthias Corvinus ، مهتاب خانم وتزوجها ، أنجب منها (٥) أبناء صاروا أمراء صاعقة مشهورين . ولم يكن أخوه الوزير غازى إسكندر باشا (١٤٤٠ - ١٥٠٦) بأقل منه شهرة . وفى حملة المجر التى احتل فيها على باشا فارادين فى (١٤٧٣) ، جلب (١٨٠٠٠) من أفراد الصاعقة إلى تركيا ٦٠,٠٠٠ أسير و٩٠٠,٠٠٠ رأس من الماشية . وتبين هذه الأرقام مقدار الضرر الذى طرأ على القوة الاقتصادية للعدو ، وبالتالى على قوته الحربية . وحملة غاليجيا وبودوليا التى جرت فى خريف عام (١٤٧٤) لاخضاع ملكية بودوليا هى من الحملات الكبرى كذلك .

استمرت الحملات على البندقية متصاعدة على مر الزمن نحو الشمال - الغربى .

إن أفراد الصاعقة الذين اجتازوا فى (١٤٤٧) نهرى Isonso و Tagliamento ، خربوا المنطقة حتى نهر Piave . اشترك فى الحملات التى جرت على البندقية فى (١٤٧٨) ٣٠,٠٠٠ شخص . كان القادة إسكند باشا وأخوه على باشا مع مالقوج أوغلو بالى بك . خربت الحملات سهل البندقية ، واحتلت Friul وأفراد الصاعقة . دخل داود باشا أوستريا فى (١٤٧٩) ، وفى (١٤٧٦) ثم احتلال « زغرب » مركز خرزاتيا و Kalgemfurt مركز Karintiya (أوستريا) ، وجاء طره خان أوغلو عمر بك أمام مدينة البندقية مجتازا نهر Piave (١٤٧٧/١١/٢) ، وشتت الجيش الذى حاول الدفاع عن البندقية ، وأسر قائدهم ، وشاهد الشعب البندقى أفراد الصاعقة أثناء تجوالهم فى بحيرة البندقية .

لقد أنهت وفاة أوزون حسن فى (١٤٧٨) تحريض البندقية اليائس لآقويونلو . وافقت البندقية على شروط تركية الصعبة فى معاهدة استانبول وانسحبت من الحرب (١٤٧٩/١/٢٥) . أجبر السلطان محمد الفاتح الذى يطلق عليه Franz

Babinger لقب « غالب الكون » البندقية على دفع غرامات الحرب والخراج السنوى . ولم تبق إلا المجر . وفى (١٤٧٩) ، دخل (٤٣٠٠٠) من المغاوير ، المجر لاخضاعها . اشترك فى هذه الحملة (١٢) من المغاوير برتبة لواء (سنجق بك صاعقة) بقيادة القائد العام ، علاء الدين على باشا . وفى حملة (١٤٨٠) ، توغل فى النمسا إلى Graz .

قام فاتح فى نهاية سنوات الحرب الكبرى بـ (٣) حملات همايونية . حملته الهمايونية الـ ٢٣(ربيع وصيف ١٤٧٦) ، هى حملة بغدان (مولدافيا) ، وفى هذه الحملة أعيدت هذه الإمارة الرومانية التى خرجت على سيادة تركية فى الحرب الكبرى وأخذت مكانها فى الاتفاق المضاد.

والحملة الهمايونية (٢٤) (نهاية ١٤٧٦) ، كانت على المجر، وهى الحملة التى نظمت للرد على محاصرة ملك المجر Matthias Corvinus سمندره دون جدوى . أسفرت هذه الحملة عن عودة فاتح بسبب فوات موسم الحرب ، وكذلك بسبب عدم سقوط سمندره .

والحملة الهمايونية (٢٥) (١٤٧٨) كانت حملة ألبانيا ٣ والبندقية .

إحدى أمانى فاتح كانت خلع البنادقة من قواعدهم فى البلقان . كان والى روملى الفريق الأول سليمان باشا قد حاصر فى شمال ألبانيا قلعة البنادقة الشهيرة أشكودرا فى (١٤٧٤) مدة ٣/٥ أشهر ، ولكنه لم يتمكن من إسقاطها . وكذلك كان قد حاصر فى (١٤٧٧) Lepanto (بالتركية : اينه بختى) المواجهة لـ Patras فى اليونان ولم يتمكن من إسقاطها ، فتم عزله .

فتح ميهال أوغلو على بك Kroya (بالتركية آقجه حصار) بعد حصار دام (١٣) شهراً (١٤٧٨/٦/١٦) . كانت آقجه حصار مركزاً لـ « إسكندربك » ، وعند وفاته انتقلت إلى حوزة البنادقة . استولى فاتح فى البداية على Alesso (بالتركية : لش) ، التى كانت قلعة للبنادقة بين آقجه حصار واشكودرا . حاصر اشكودرا بشدة . سلمت المدينة إلى تركيا (١٨٧٩/١/٢٦) استعمل فاتح فى حصار اشكودرا ، بالونات لا تحترق وصواريخ حريق و (١١) مدفعا ضخما جداً ، وصواريخ طيارة تتفجر فى المكان الذى تمسه .

حملة اشكودرا فى (١٤٧٨) هى الحملة الخامسة والعشرين لفاتح وهى آخر حملاته ؛ ذلك أن حملته الـ (٢٦) لم تكتمل بسبب وفاته .

(٦) إلحاق إمارة (خانلق) قرم (١٤٧٥/٦/١)

إن إمارة قرم هى أهم الدول التى ظهرت على أثر تجزئة خاقانية ألطون أوردى (أوربا الشرقية) التركية . لعبت قرم أهم دور سياسى بين هذه الدول التى انحدرت من السلالات الملكية ، التى تأتى على رأسها سلالة جوجى أولوسو Cuei Ulusu،أى من نسل كبير أولاد جنكيز الـ (٤) جوجى خان . كانت هذه الدولة التى تأسست فى شبه جزيرة القرم تشمل بشكل واسع أوكراينا الحالية وتمتد نحو قفقاسيا الشمالية ونحو روسيا . كانت توجد على سواحل قرم عدة قلاع – مرافىء جنوية . كانت تجارة البحر الأسود حتى فتح إستانبول تقريبا تحت سيطرة جمهورية جنوة(بالإيطالية : Genova) . أصبحت الجمهورية فى وضع حرج للغاية عند غلق فاتح المضايق وأخذه منطقة غلطه فى استانبول من حوزة الجنوبيين . امحت جمهورية جنوة من عداد الدول العظمى ، واضطرت إلى دفع أجور المرور إلى العثمانية عند مرورها من المضايق لنقل البضائع بين أوربا ومستعمراتها فى (قرم) . كان فاتح يخلق المصاعب للجنويين بسبب عدم استحسانه علاقة دولة أوربية بالبحر الاسود . كان فاتح قد أرسل أسطولا إلى (قرم) فى تموز (١٤٥٤) ، بعد فتح استانبول بعده أشهر . وأجبر « كفه » الميناء الجنوى الرئيس فى قرم على دفع خراج سنوى .

كانت قرم التى تبلغ مساحتها (٢٦٠٠٠) كم٢ تستند بدرجة كبيرة فى وجودها على مستعمراتها الواسعة فى الشمال ، وكان أكبر أعدائها الإمارة الكبرى لروسيا فى الشمال وملكية ـــ دوقية كبرى ـــ بولونيا فى الشمال ـــ الغربى . كانت دولة ألطون أوردى التى مركزها مدينة سراى على نهر الفولغا ، مازالت مستمرة فى ذلك التاريخ . لكنها كانت قد سقطت إلى درك إمارة (خانلق) محلية . كان فى إمكان قرم (التى تمتد على أراض تبلغ مساحتها نحو مليون كم ٢ وأحيانا ترتفع إلى مليونى كم ٢ أن تجهز إذا اقتضت الضرورة (٢٠٠,٠٠٠) جندى خيال . كان هؤلاء الجنود يحاربون على النمط الجنكيزى ، وكانوا مخيفين رغم أنهم لم يجددوا من أساليبهم التى

كانوا عليها فى القرون الوسطى . كانت « باغجه سراى » مدينة خان قرم تبعد عن موسكو (مسافة مستقيمة) (١٢٦٠) كم ، وعن وارسو (١٢٨٠) كم ، عن فيينا (١٢٧٠) كم ، لكنها تبعد عن استانبول (٦٠٠) كم وعن سينوب (٣٣٠) كم .

كانت سياسة فاتح فى جعل البحر الأسود بحيرة عثمانية سياسة معلومة . كان قد أرسل منذ صيف (١٤٥١) وفور اعتلائه العرش ، مشير البحر (قبودان دريا) بلطه أوغلو سليمان بك مع (٥٠) سفينة حربية إلى سواحل البحر الاسود . أحتل سليمان بك باطوم فى الجنوب ، وأدخل الحكم العثمانى على الآجار (أتراك قبجاق الذين أصبحوا كرج) وكذلك أحتل « سوخوم قلعة » فى الشمال ، وأدخل الحكم العثمانى على الابهازه (الابازه عبدة الأصنام) . وبناء على ذلك ، تكون جميع سواحل كرجستان قد انتقلت إلى حوزة تركيا منذ (١٤٥١) وكانت إمبراطورية طرابزون الرومية أيضا قد حوصرت من شرقها . أما سواحل البحر الأسود الشمالية،التى تبدأ من سوجى نحو الشمال الغربى ، فقد كانت تحت رقابة امارة قرم . كانت الاقوام الصغيرة التى تسكن فى هذه المناطق وفى قفقاسيا الشمالية فى ذلك التاريخ ، من عبدة الأصنام ، وقسم قليل منهم صار مسيحيا أرثوذكسيا . (سيسلمون كلهم فى العهد العثمانى) .

انتقلت آجارستان وباطوم إلى الحكم العثمانى بشكل حاسم فى (١٤٧٩) . أسلم الآجاريون . لكنهم ، رغم كونهم أتراكا ، حافظوا على الديانة الكرجية ولو إسميا إلى يومنا هذا . وفى صيف عام (١٤٦٩) ، شوهد المشير البحرى يعقوب بك فى قرم ، وقام بانزال جيش فيها ، وقد كانت هذه الحركة ضد الجنويين . أما بنى جنكيز فى قرم ، فعدا أنهم تنازعوا فيما بينهم على الإمارة ، كانوا لايفتئون يحاربون الإمارات التركية الأخرى،وكان ذلك يحقق مصلحة للروس .

كان المبدأ الذى يتمسك به فاتح ولايقبل تغييره ، هو عدم رفع أى علم عدا العلم العثمانى فى البحر الأسود ، لقد قطع فاتح على الجنويين طريق كفه - إيطاليا ، وكان الجنويون فى كفه ، يستعملون طريق قرم - المجر - ألمانيا - إيطاليا المتعب جدا ويسددون من أجل ذلك ضريبة إلى خان قرم .

سار مشير البحر كديك أحمد باشا من استانبول (١٤٧٥/٥/١٩) بأسطول لم يشهد البحر الأسود طوال تاريخه مثيلا لعظمته (١٨٣ سفينة حربية + ٢٩٠ سفينة

نقل = ٤٧٣ قطعة) ، ورسا فى ميناء كفه فى قرم (١٤٧٥/٦/١) . استسلمت كفه (٥ حزيران) ، ثم مرافىء الجنويين الأخرى وهى سوغداق (Sudak) ومنكب Menqüp . كانت منكب الواقعة فى أقصى جنوب قرم ، وعلى مقربة من غرب يالطه ، لدى الكومنان Comnéne . وهكذا قضى على البقية الأخيرة من بقايا البيزنط . ثم انتقل الأسطول الهمايونى من بوغاز كرج إلى بحر آزوف (آزاك) . واحتل ميناء Tana (بالتركية : آزاك) النهرى الواقع على الضفة الشمالية الشرقية من بحر آزوف على دلتا نهر الدون (بالتركية : تن وحاليا ضاحية روستوف) . شيدت فى آزاك قلعة عثمانية وتشكيلات لواء . وأسست فى كفه المدينة الكبيرة البالغ تعدادها (٧٠ ٠٠٠) نسمة ، وأيضا تشكيلات لواء عثمانى .

وافق خان قرم على الخضوع للعثمانية . ونصت المعاهدة التى وقعها خان قرم مع فاتح ، والتى سوف تشكل نظام قرم لمدة (٣٠٠) سنة ، على أن يتعهد البادشاه بالاحتفاظ بإمارة قرم فى نسل جنكيز خان ، فالبادشاه حر فى تعيين أى شخص خانا (أميرا) على قرم شريطة أن يكون من نسل جنكيز ، ويسمح البادشاه فى مقابل ذلك بذكر اسم الخان فى مساجد قرم بعد اسم الخليفة العباسى واسم البادشاه ، كما يسمح بطبع اسم الخان بعد اسم السلطان على قطع النقود التى يسكها الخان (ماده ١ ، ٤) .

تم تأسيس لواء فى كفه (أصبح إيالة فيما بعد) يديره العثمانيون مركزيا ولاعلاقة له بإمارة قرم .

كان البادشاه يعتبر كافة الضفاف الشرقية لقرم التى استولى عليها من الجنويين ، هدية له من خان قرم ، ويتضح من ذلك أنه يراد أن تبقى الإمارة تحت الرقابة العسكرية العثمانية . كانت هذه الاراضى تشمل الضفاف الجنوبية - الشرقية لشبه الجزيرة ، المناطق المحيطة ببوغاز كرج ، شبه جزيرة تامان ، الموانىء الواقعة على مصب نهر دنيبر (بالتركية : أوزو) ، وكذلك أوزجاكوف (بالتركية : أوزو) ، مصب نهر الدون وخليج تاغانروغ وآزاك (روستوف) .

وتضمنت المعاهدة كذلك تعهد قرم بتزويد الجيش العثمانى بالعدد الذى تطلبه الحكومة العثمانية من الجند وفى الوقت الذى تعينه ، ومن ناحية أخرى ، توافق كذلك

على تنفيذ المهام التى يكلف بها الجيش القرمى منفردا ، وأن ترسل حصة البادشاه من الغنائم .

زوج خان قرم (١٤٦٧ ــ ١٥١٤) منكلى (باللهجة العثمانية : بنلى) كيراى خان (الأول) ، ابنتيه بأميرى العثمانية الأمير (شهزادة) ياوزسليم ، والأمير محمد حفيدَى فاتح وابنى أولو شهزاده (ولى العهد) بايزيد (الثانى) الرابع والسابع .

شاهد منكلى كيراى الأول سلطنة صهره السلطان سليم ؛ أما صهره الصغير الأمير محمد ، فقد تولى لواء كفه حتى وفاته (ك١٥٠٤/١) ، وعند وفاة الأمير محمد ، ذهب الأمير سليمان (القانونى) ابن صهره الكبير السلطان ياوزسليم ، إلى كفه لتسلم ولايتها .

وهكذا اكتسب الحكم العثمانى صفته القطعية فى البحر الأسود ، ودخل البحر تحت الحكم العثمانى ، وامتدت حدود الدولة العثمانية دفعة واحدة إلى خط عرض (٥٥) درجة جنوب موسكو . وفى غضون ذلك ، فتحت جزيرة (سيسام) فى شرق (إيجه) ودخلت ساقز تحت الحماية العثمانية (١٤٧٥) . وفى (١٤٧٩) ، تم فتح مصب نهر كوبان حيث شيدت فيه قلعة آنابا ، وهى منفذ بلاد الشركس إلى البحر .

كان فاتح متأثرا من وجود كافة المدن والمقدسات الإسلامية لدى المماليك ، فى الوقت الذى تعتبر العثمانية أقوى دولة إسلامية .

بدأت القاهرة تتنبه عندما ادعى فاتح الذى يرسل الدراهم سنويا إلى مكة والمدينة كأجداده ، بعض الحقوق فى هاتين المدينتين .

أدرك أولا سلطان خوشقدم نية فاتح ، لكن الذى أدرك مجىء الخطر من العثمانية بصورة مؤكدة ، هو الحاكم الكبير السلطان قايتباى (١٤٦٨ - ١٤٩٥) . وفى ١٤٧٧ جاء بنفسه إلى الأناضول وفتش قلاع المماليك فى أورفه وعنتب .

وخلال تلك الأيام حاول فاتح احتلال رودس للمرة (٣) (١٤٨٠) . كانت هذه الجزيرة قد انضمت فى عهد معاوية إلى الخلافة الإسلامية مدة (٨) سنوات (٦٧٢ - ٦٨٠) ثم استرجعها البيزنط. وعندما طرد المماليك أتباع طريقة

Saint - Jean Hospitalier اللاتينية الكاثوليكية العسكرية من عكا فى (١٢٩١ (هام أتباع هذه الطريقة حتى عام (١٣٠١) فى شرق البحر الأبيض على غير هدى ، وفى تمام (١٣٠١) أسكنهم ملك قبرص ميناء ليماسول ، وفى (١٥ آب ١٣٠٨) ، احتلوا رودس من البيزنطيين واستوطنوا فيها ، ثم فتحوا جزر الاثنى عشر وجزر نيكاريا ، كارباتوس ، وكاشوت ، وجزيرة مئيس الصغيرة ، وميناء بودرم فى الاناضول ، وحتى إخراجهم منها على يد تيمور فى (١٤٠٢) ، كانوا قد فتحوا قلعة ميناء أزمير الكائنة فى قطاع أزمير المسمى « كاوور أزمير » .

قام المماليك بـ (٣) حملات (١٤٢٤ ، ١٤٢٥ ، ١٤٢٦) على قبرص و(٣) حملات (١٤٤٠ ، بواسطة ٨٠ سفينة ٤٢ ــ ١٤٤٣ ، ٤٤ ــ ١٤٤٥) على رودس ، وأجبروا قبرص على دفع ضريبة سنوية ، أما رودس فعلى الرغم من تخريبهم إياها إلا أنهم لم يتمكنوا من إسقاطها .

أرسل فاتح إلى رودس بعد الحملة المملوكية بـ (١٠) سنوات المسير البحرى حمزة بك (١٤٥٥) ، كرر فاتح عملية فتح رودس فى (١٤٦٧) ، ولم تنجح أى من الحملتين .

تم تعزيز « رودس » بشكل واسع تجاه الخطر التركى بمساعدات ضخمة من جميع الدول الأوربية . كانت حملة رودس (٣) التى قادها مسيح باشا ، أقوى من الحملتين السابقتين بمراحل ، فقد تلقى الباشا أمرا مؤكدا من فاتح باحتلال الجزيرة ، ذلك أن فاتح الذى كان يستعد لفتح إيطاليا ، لم يكن يرغب فى أن يترك وراءه بؤرة تولد خطرا عليه فى المستقبل . كان الأمل الوحيد لأصحاب الطريقة العسكرية الذين يحكمون رودس ، هو إشعال حروب مقدسة مع المسلمين ، وقد كانوا يهاجمون سفن المسلمين ويكبدونها خسائر جسيمة .

سار مسيح باشا بـ (١٦٠) قطعة من السفن و٧٠,٠٠٠ جندى من غاليبولى ، ورسا أمام جزيرة رودس (١٤٨٠/٩/٢٣) . وأثناء الحصار ، كان أسطول عثمانى آخر مكون من (١٠٠) قطعة يقوم بإنزال على إيطاليا . وبينما كانت القلعة على وشك السقوط ، وركزت الأعلام التركية على الأسوار ، أبلغ الباشا القائد أمره بمنعه كافة أنواع النهب والأسر وأخذ الغنائم والحرق ، وأن كل الغنائم ستئول للخزينة .

لقد كان مثل هذا الأمر مخالفا للقواعد المتعارف عليها وغير مرضٍ للعسكريين ، إذ إن استحواز الخزينة على الغنائم لايكون إلا فى حالة استسلام الموقع من تلقاء نفسه ، فهذه هى القاعدة المتعارف عليها دوليا .

وإزاء إعلان هذا الأمر لم يتحرك الجند من أماكنهم و لم يدخلوا القلعة ، وخرج الرودسيون الذين شاهدوا ذلك وكبدوا الأتراك خسائر ليست قليلة .

تكبد الاتراك (٩٠٠٠) شهيد (استشهد ٣٥٠٠ منهم خلال الهجوم الأخير) و(١٥٠٠٠) جريحا خلال الحرب التى دامت (٢ شهر ، ١٢ يوما) . و لم يتمكن مسيح باشا من تنفيذ حصار بحرى تام ، واستمر إرسال الإمدادات للعدو . رفع الحصار .

سوف يتدارك السلطان سليمان هذه الأخطاء بعد (٢٤) سنة ، إلا أن ذلك على كل حال تسبب فى تأخير فتح (رودس) (٤٢) سنة ، كما تسبب فى هدر دماء العديد من المسلمين خلال هذه المدة . وبعد أن وبخ فاتح مسيح باشا ، وضربه ، أنزل رتبته من وزير (مارشال) إلى لواء (سنجق بك) .

٧ ــ فاتح وإيطاليا :

فتح كديك أحمد باشا جزر أيونيا (اليونان) الواقعة خارج كورفو ، من دوقات سلالة Tocco الإيطالية .. وهذه الجزر هى Kefalonya (٦٠١ كم٢) ، Zanta (ZaKynthos) (٤٠٨ كم٢) ، Santa Maura (Leukas , Levkas , Aya Mavri) (٣٠٠ كم٢) . وهى مصفوفة على بحر أيونيا (اليونان) على سواحل اليونان .

كانت هذه مقدمة لحركة فتح إيطاليا .

كان من بين أهداف فاتح ، أن يكون إمبراطورا على روما موحدة . ومنذ (١٤٥٣) ، كان يطلق عليه لقب قيصر روم،أى (إمبراطور روما الشرقية = البيزنط) ، ولكى يكون إمبراطورا على روما ، ويوحد تاجى الامبراطوريتين الموجودتين فى أوربا ، كان يجب عليه فتح إيطاليا وروما .

كانت الدولة الكبرى الكائنة فى شمال شرقى إيطاليا هى البندقية ، وكانت بين

البندقية وإيطاليا مصالحة ، ويمكن صرف النظر عنها . إذ أنها كانت خارج خطة فتوحات فاتح .

وكانت الدولة الكبيرة فى جنوب إيطاليا هى ملكية نابولى التى تضم صقلية التى كانت تحت نفوذ أسبانيا (Aragon) ،كانت هذه الملكية هى الهدف .

كان منتصف شبه الجزيرة ، تابعا للبابا ، ومن ناحية أخرى ، كان فى شبه الجزيرة دول أصغر ، كدوقية فلورنسا (Toskana) ، ودوقية ميلانو (لمبارديا) ، وكانت كل واحدة منها مستقلة عن الأخرى ، ولم تكن أى من هذه الدوقيات على نفس مستوى أهمية جمهورية جنوة .

من الواضح أن فاتح كان يفكر فى إلحاق جنوب إيطاليا ، لتكون له السيادة – بصفته إمبراطورا على روما – على الدول الإيطالية الأخرى . ولقد كانت دول إيطالية عديدة قد تقبلت فاتح بهذه الصفة مقدما .

إن الأنواط التى سكتها هذه الدول باسم فاتح والتى تحمل صورته ، موجودة فى حوزتنا حاليا ، وتستطيع أن تقرأ على هذه الأنواط باللاتينية عبارة Svltani Mohammeth Octhomoni Vgli Bizantii Imperatoris 1481 / Svltanus » وتعنى Mohammeth Othomanvs Tvrcorvm Imperator » « سلطان محمد بنى عثمان إمبراطور الأتراك وروما الشرقية » .

لقد عاشت صقلية فى القرون الوسطى حكما عربيا إسلاميا لامعا . ولقد كان من حق فاتح – بصفته إمبراطور روما – طرد الأسبان من صقلية ونابولى ، فقد كانت هذه الاماكن فى ذلك الحين تابعة للإمبراطورية البيزنطية .

سار الوزير الأعظم السابق والمشير البحرى (قبودان دريا)-الحالى كديك أحمد باشا-بالنصف الآخر من الأسطول الهمايونى إلى إيطاليا ، فى ذات الأيام التى تحرك فيها مسيح باشا إلى رودس . كان الأسطول الهمايونى قد عظم شأنه إلى درجة تمكنه من القيام بحركتين عبر البحار على أوسع نطاق .

تجمع الأسطول الهمايونى الذى يتكون من (٤٠) سفينة حربية كبيرة و(٥٢) صغيرة و(٤٠) سفينة نقل فى البداية فى ميناء Avlonya الواقع على بوغاز Otranto ، وتحرك منها (١٤٨٠/٧/٢٦) .

اجتاز بوغاز أوترانتو (٧٥ كم) ، وقام فى (٢٨) تموز بإنزال ١٨٠٠٠ من المشاة ، و (١٠٠٠)خيال وعدد كبير من المدافع فى إيطاليا . كان موقع الإنزال قرب قلعة أوترانتو لايالة Apulya (بالتركية : بوليا) . كان أسطول البنادقة المكون من (٦٠) قطعة فى قاعدة كورفو . ولم يكن تدخله وارداً بسبب الصلح القائم من البندقيه .

استسلمت قلعة Otranto بعد مقاومة شديدة استمرت (١٤) يوما . مات نحو من (١٢,٠٠٠) من جملة (٢٢٠٠٠) من حامية القلعة . قسم كديك أحمد باشا جيشه إلى فرقتين وساق إحداهماإلى الشمال - الشرق إلى برنديزى ، والثانية إلى الشمال - الغربى إلى تارانتو . وجعل أوترانتو ، مركز لواء . كان الأتراك الذين سيطروا على كعب الجزمة (الحذاء الطويل) الإيطالية ، على وشك السيطرة على إيالة Pulya .

بقى آمر لواء أوترانتو خير الدين مصطفى بك فى القلعة مع (٦٥٠٠) من المشاة و(٥٠٠) خيال . لم يجسر ملك نابولى Ferranteعلى الهجوم على الاتراك . بدأ الشعب فى ترك بيوته فى مدينة نابولى وهو فى حالة فزع .

أبلغ أحمد باشا الملك بأن يسلم إيالة بوليا ، وإن لم يتم ذلك ، فإن البادشاه سيأتى فى الربيع إلى إيطاليا ومعه (١٠٠,٠٠٠) من المشاة و(١٨٠٠٠) من الخيالة ومدافع بحجم لم تسبق مشاهدته .

٨ - وفاة الفاتح السلطان محمد خان الثانى (٣ أيار ١٤٨١) وشخصيته

غادر الخاقان سراى طوبقابو يوم (٢٥ نيسان ١٤٨١) . اجتاز البوغاز وجاء إلى إسكدار ، ونصب السرادق الهمايونى فى الموقع الذى سمى بعد ذلك إضافة له « هنكار جايرى » ، أو « سلطان جايرى » (أى مرج السلطان) ، بين مالتبه وكبزه . كان قد شرع فى الاستعدادلحملة كبيرة موجهة على الأغلب إلى إيطاليا . أصابه مغص فجائى ، توفى بعد عدة أيام نهارا حوالى الساعة -/ ١٦ . كان عمره يتجاوز الـ (٤٩ سنة بـ ١ شهر ، ٥ أيام .

مات فاتح نتيجة السم الذى دسه له بصورة تدريجية العميل البندق أحد أطبائه الخاصين المسمى Maestro Lacopo ، الذى ادعى أنه اهتدى إلى الإسلام وتسمى باسم يعقوب باشا .

تعتبر هذه هى المحاولة (١٥) التى رتبتها البندقية لاغتيال فاتح . مزق الجنود الأتراك فى الحال اليهودى البندق ، و لم يتمكن من تسلُّم المكافأة الكبيرة التى وعدته بها البندقية (هذه المكافأة بالسعر الرائج حاليا (١٧) مليون دولار) (Babinger ٣٤٩ ، ٤٩٢ – ٤) . علمت البندقية خبر موت فاتح فى (١٩ أيار ، بعد ١٦) يوماً من الحادث . كانت الرسالة التى جلبها حامل البريد السياسى لسفارة البندقية فى إستانبول تحتوى على هذه الجملة التاريخية La Grand Aquila é Morta = مات النسر الكبير » .

دقت أجراس كافة الكنائس الأوربية،وجرت مراسم الشكر لمدة (٣) أيام مع لياليها بأمر البابا .

جملة سلطنته (٣١ سنة ، ٢١ يوما) (سلطنته (٣) الأخيرة دامت (٣٠) سنة ، ٢ شهر ، ٢٨ يوماً) نقل جثمانه إلى استانبول ودفن فى قبره الكائن قرب جامعه . لم يدفن لا فى قبر فاتح ولا فى قبر حفيده ياوز أحد غيرهما ، هما ينفردان فى قبريهما . من المعلوم أنه قد دفن فى قبور كافة السلاطين الآخرين ، أشخاص آخرون من منتسبى السلالة . فاتح ، هو أول سلطان يدفن فى استانبول بينما دفن الذين سبقوه فى بورصة .

ولد له (٣) أبناء وبنت واحدة فقط ، هى كنة السلطان أوزون حسن .

فتوحات فاتح كبيرة ، مهمة وذات مغزى .

إن القواعد المتينة للدولة العثمانية العالمية العظمى ، قد تم إرساؤها فى هذه الفتوحات .

وصلت الدولة فى حزيران (١٤٥٣) ، بعد فتح استانبول إلى العظمة والقوة التى كانت عليها على أيام يلدرم بايزيد فى (١٤٠٢) ، بل إنها اجتازتها .

كانت الإمبراطورية تمتد على أراض مساحتها (٩٦٤٠٠٠) كم٢ (٤٨٠ ٠٠٠

كم² فى الأناضول ، ٤٨٤٠٠٠ كم² فى البلقان) . كان هناك توازن تام فى الجناحين (أناضولى وروملى) ، والجناحان مفتوحان بشكل جاهز للطيران . وبالطبع ، كانت الدول المستقلة ذاتيا هى : الامارات التركمانية جاندار (اسفنديار) ، قرة مان ودلقادر ، ملكية بوسنه ، إمارة الصرب ، جمهورية دوبروفنك ، إمارة. افلاق الرومانية ، إمارة مورا البيزنطية ، دوقية (Attika) اللاتينية ، دوقية هرسك ، وكانت أهمها قرة مان .

لم تكن لتركية بعد أية جزيرة فى إيجة . كانت موانىء Enez ، آماسرا وبودرم فى الأناضول لاتزال فى حوزة المسيحيين (الأولى فى تراقيا الشرقية) وكذلك كانت ولايات طرابزون وريزه وآرتفين فى حوزة المسيحيين ، وعدا ذلك ، كانت أناضول الشرقية فى حوزة إمبراطوريتى التركمان الإيرانية أولا قرة قويونلو ، ومن ثم آقويونلو، وكان قسم من أناضول الجنوبية لدى سلطنة مصر .

كان الجيش العثمانى هو الجيش الأول على وجه الأرض دون منافس . أما الأسطول العثمانى ، فقد كان الثانى بعد الاسطول البندقى ، كان أقوى بقليل من نصف الأسطول البندقى .

وبعد (٢٨ سنة ، فى ١٤٨١) ، عند وفاة فاتح كانت الخارطة التركية ومكانة تركية فى العالم قد تغيرت من أساسها ؛ اتسعت ووصلت إلى (٢٢١٤٠٠٠ كم² ١٧٠٣٠٠٠) كم² منها فى أوربا و(٥١١٠٠٠) كم² فى آسيا (الاناضولى) . إن قرم وحدها كانت تشمل الأراضى التى تبلغ مساحتها (٩٨٢٠٠٠) كم² . وبذلك تكون مساحة الأراضى الأوروبية قد زادت كثيرا على مساحة الأراضى الآسيوية . وقد أصبحت تركية – عدا [illegible] – قوة كبيرة فى شمال البحر الأسود وأوربا الشرقية .

كانت تركيا ، عدا قرم ، بالنسبة لأراضيها فى البلقان فقط هى الأولى بين الدول الأوربية من حيث التعداد ، ومن حيث المساحة أيضا .

إن الدول التابعة التى كانت تحت الحماية فى (١٤٥٣) ، وزال استقلالها الذاتى وألحقت بالإدارة العثمانية المباشرة هى : ملكية قرة مان ، إمارة اسفنديار ، ملكية بوسنه ، دوقيه هرسك ، إمارة الصرب ، إمارة مورا البيزنطية ، دوقية أثينا . كان

الاستقلال الذاتي لامارة افلاق (رومانيا) ، جمهورية دوبروفنك الصغيرة وإمارة دلقادر مستمرا . وقد أضيفت دول تابعة جديدة هى إمارة بغدان (مولدافيا) ، إمارة (خانلق) قرم ودوقية خرواتيا . وبقبول بغدان الحماية العثمانية في (١٤٥٥/١٠/٥) ، أصبحت الامارتان الرومانيتان تحت حماية الدولة ذاتها .

كانت إمارة قرم تشمل قرم ، القسم الأكبر من أوكراينا ، والأيالات الروسية الحالية Kursk , Rostov , Voronej , Krasnodar Volgagrad . كانت أراضى قرم وقسم من هذه الأراضى تحت حكم العثمانية المباشر ، وكانت العثمانية قد سيطرت كذلك بشكل كامل على القسم الغربى من قفقاسيا الشمالية بسيطرتها على Taman و Anapa .

كذلك كان جوار أوترانتو في إيطاليا أرضاً عثمانية ، كما أن مينائى Enez الواقع على مصب مريج،وآماسرا فى الأناضول ، كانا قد أخذا من الجنويين ، وفتحت كامل البانيا وقره داغ تقريبا ، ولم يبق فى حوزة البنادقة من هذه الأراضى سوى عدة ارصفة بحرية وعلى رأسها Draç .

تم فتح جزر بوزجه آدا ، امروز ، ميديللى ، لمنى سيسام ، طاشوز، سمنديرك القريبة من الأناضول الواقعة فى الأرخبيل ، وأخذت ساقز تحت الحماية . وفتحت كذلك آغريبوز أكبر جزر البحر الواقعة فى الجهة اليونانية . وأخيرا ، انتقلت جزر أيونيا (اليونان)،عدا كورفو ، إلى الحكم العثمانى .

ألحقت طرابزون وريزه والقطاع الساحلى لآرتفين ، وهى الولايات الأناضولية الأخيرة التى فتحت من المسيحيين . كان قسم من ولاية كموشخانه قد أخذ من أصحاب الخرفان البيض .

استتب الحكم العثمانى فى جميع الضفاف الشرقية للبحر الأسود اعتبارا من آجارستان (باطوم) إلى سوخوم قلعه (آبهازستان) ، ومنها إلى بوغاز كرج . وبذلك توطد الحكم العثمانى بشكل متين جدا ، من الفرات وجبال طوروس إلى ألطونة .

بذلك يكون فاتح قد فتح إمبراطوريتين:(روما الشرقية — البيزنطية وطرابزون) ، (٤) ملكيات:(قرم ، قرة مان ، بوسنة ، الصرب) و(١١) إمارة ودوقية (أى

١٧ دولة ، ٥ منها تركية ، والأخريات مسيحية . أما الاقطار ، والمدن ، والقلاع والجزر التى أخذها من الدول الأخرى فهى خارج مجموع الـ (١٧) هذه .

لاشك فى أن فاتح قد اتخذ هذه السياسة بغرض تقوية القوة المركزية للدولة ، ومن ضاعف خلال الـ (٣٠) سنة قدرة وقوة الجيش والأسطول ، إلى عدة أضعاف . إذ جعل من الجيش قوة ضاربة كبيرة جدا على نطاق عالمى ، وعززه كذلك بمدفعية واسعة النطاق لأول مرة بين جيوش العالم .

كان الأسطول العثمانى ، عند اعتلائه العرش ، يحتوى على (٣٠) سفينة حربية (صف حرب ، قادرغه) والأخريات قطع صغيرة ، وكان الأسطول البندق متفوقا على الأسطول التركى بمراحل . وقبل (١٤٧٤) ، جعل فاتح هذا الأسطول يفوق الأسطول البندق (٩٢ قادرغه ، وأكبر منها (١٦) طرادا ، ونحوا من (٤٠٠) سفينة نقل وإنزال) ، ووضع المدافع على السفن . ولم تبق أية سفينة حربية بلا مدفع . وكون قبيل وفاته ، فى (١٤٨٠) ، أسطولا يعادل ضعفى الأسطول البندق ، (٢٥٠) سفينة حرب و(٥٠٠) سفينة نقل . وبتعبير **Franz Babinqer** (ص ٥٣٥) تحققت قوة بحرية نتيجة جهود « تستحق الدهشة تفوق الأساطيل الأوربية » . ولأول مرة فى التاريخ ، أحرز الأتراك الأولوية بين دول العالم فى القوة البحرية ، وسوف يتمكنون من الحفاظ على وضعهم هذا مدة قرنين ونصف .

أسس فى (١٤٥٣) جامعة إستانبول الحالية . وقد استطاع بالتعاون مع وزيره الأعظم الأخير – من سلالة مولانا – قرة مانلى محمد باشا وكاتبه ليث – زاده محمد جلبى من وضع الدستور المسمى « فاتح قونانامه سى » (أى دستور فاتح) والذى بقيت مبادئه الأساسية سارية المفعول فى الدولة العثمانية حتى (١٨٣٩) .

« يعد فاتح بالنسبة للعالم التركى ، هو أكبر الأباطرة حتى يومنا هذا ، من الصعب مقارنته بأى شخصية فى التاريخ البشرى ... محمد الفاتح ، كان بالنسبة للشعب التركى ، الشخصية الخارقة للعادة ، والتى لايمكن تكرارها فى التاريخ كله » (**Babinger** ، ١٩٥٣ ص ٤٩٨ – ٤٩).

« ظهور فاتح ، خطط مصير الغرب بشكل واضح . إن شخصيته القوية التى يحتمل أن تقاس بنابليون فقط ، قد غيرت أوربا بصورة جذرية . إن شخصية فاتح

تعكس الذكاء البشرى فى أعلى مراتبه ، لقد مثلت نظرة فاتح إلى البشرية والعالم طرازا فريدا ومتميزا عند الخروج من القرون الوسطى (Babinger ، ٥١٨) .

« كان محمد الثانى لايحمل إطلاقاً موقفا معاديا تجاه الأديان الأخرى وذلك على خلاف الحكام الأتراك والمغول ... وفى أعمار استانبول ، أصبح جوستينيان (جوستينيانوس) المسلم .... وكافة الروحانيين الأرثوذكس يلهجون بالامتنان لحارس دينهم العجيب . وقد أظهروا هذا الامتنان فى كل مناسبة ... ورغم ذلك ، كانت فترة سلطنة محمد الثانى بالنسبة لسلالات كثيرة فى آسيا وأوربا ، كأنها يوم من أيام القيامة » (Lavisse - Rambaud Histoire Générale ، ٢ ، ١٨٩٤ ، ص ٥٨٦ ، ٥٨٧ ، ٥٨٨ ، ٥٨٩) .

لم تقتصر المؤلفات المنظومة والمنثورة التى كتبت عن فاتح ، على اللغات التركية والعربية والفارسية فحسب ، بل إن كثيرا من هذه الكتابات أوربية .

إن أطول القصائد من بين آلاف القصائد التى كتبت عنه ، هى منظومة Giovanni - Maria Filelfo المكونة من (٤٧٠٦) بيتا . وقد صار بعد وفاته كذلك ، موضوعا لآلاف من المؤلفات الفنية .

لقد ألفت فى إنكلترا فقط خلال السنوات (١٥٩٤ – ١٧٤٩) من طراز المسرحية فقط (٦) مسرحيات عالجت موضوع فاتح . ويمكن قياساً على ذلك تصور ماكتب عن فاتح فى اللغات الأخرى وفى الحقول الأدبية الأخرى .

وقف فاتح أمام Matteo , Gentile Bellini الفيرونى اللذين دعاهما من البندقية وسمح لهما برسم صورته الشخصية .

إن أعمال فاتح المؤثرة ، كقطعه طريق الشرق على الأوربيين ، واكتساحهم ، ودفعهم – باحثين عن النجاة – نحو البحار المفتوحة ، وتحقيق تفوق العثمانيين البحرى فى البحر الأبيض ... كل ذلك يعد من الأسباب المعقولة لدفع أوربا نحو المغرب (العالم العربى الغربى) بحكم كونه أضعف ، كما يعد أيضا من الأسباب التى دفعت الأوربيين إلى التهافت على المحيطات . وقد أدى تهافت الأوربيين على المحيطات إلى زيادة الحيز المكانى المعروف فى العالم (الاكتشافات الجغرافية) غير أنه من المحتمل أن يكون أهم من ذلك كله الانقلاب الذى ترتب على إبراز فاتح لسلاحه المسمى

« مدفع » وتأكيده لدور « المدفع » كعنصر استراتيجى فعال .

لقد أثبت فاتح بصورة مؤكدة فى (أوطلوق بلى) ، دور المدفع كسلاح من الدرجة الأولى فى الحروب الميدانية .

إن أوربا لم تدرك دور المدفع فى الحروب الميدانية ، إلا بعد حروب ياوز الميدانية ، وبصورة مؤكدة فى الربع الثانى من القرن (١٦) . لكن المدفع كسلاح هدام وثاقب للقلاع والأسوار كان معلوما قبلها ؛ إذ إن أى غاز منذ ألف سنة هدم الأسوار البيزنطية ، لكنه لم يتمكن من ثقبها واختراقها . وفى تلك الفترة ، كان الملوك فى وضع حرج مع الإقطاعيين ، وكان الإقطاعيون الصغار والكبار يختبئون وراء قصورهم المستحكمة ويعصون ملوكهم ، ويرسلون ضرائبهم وجنودهم إلى الدولة كما يحلو لهم . وعندما بدأ الملك فى حيازة المدفع وهدم هذه القلاع ، ظهرت فى أوربا دول حقيقية مقتدرة ، تستند على النظام المركزى ، وتتمكن من جمع ضرائبها كما تشاء ، وتنظم فعالياتها العسكرية والاقتصادية والثقافية فى المستويات العالية بالإمكانات التى تيسرها هذه الدراهم . ولم يتمكن بعد ذلك الدوق – الكبير ، الدوق ، الأمراء ، ولاة الحدود (ماركيز) ، القمامس (الكونتات) وكلاء القمامس (الفايكونتات) البارون ، البارونيت (البارونة) ، السنيور والفرسان من التمرد على ملوكهم كما كانوا يفعلون من قبل . وهكذا نجد أن المدفع يمثل صلب هذا العصر .

على أنه ينبغى ألا ننسى أن ذلك قد جرى ببطء ، إذ إن أوربا لم تتمكن من تكوين الجيش النظامى المحترف، الذى كونته العثمانية فى بورصة ، إلا فى القرن (١٧) . والأمر المؤكد أنه نتيجة لذلك ، طويت تماما صفحة قرن مضى ، وفتحت صفحة قرن جديد .

وقد تجدر الإشارة فى النهاية إلى الأخطاء الرئيسية لفاتح . إن أكثر ماانتقده فيه الأتراك فى العصر الحديث ، هو مسألة الامتيازات التى منحها للأرثوذكسيين والكنيسة الأرثوذكسية ، فقد كانت هذه الامتيازات غير طبيعية بالنسبة لذلك العصر . غير أنه يجب النظر إلى هذا الموضوع فى ضوء ظروف تركية فى القرن (١٥) ، وليس القرن (١٩) ، والإنصاف يقتضى أن ننتظر من الديبلوماسى أن

ينظر إلى فترة معقولة من المستقبل ولانتظر منه أن يتحسب الظروف القادمة بعد قرون عديدة .

كان فاتح مضطرا فى ذلك العهد إلى ربط العالم الأرثوذكسى به ، حتى لايتحد العالم الأرثوذكسى مع العالم الكاثوليكى ، ويشكل تجاهه جبهة موحدة تكون خطرا على تركية بشكل كبير . كانت المسيحية منقسمة إلى قسمين: كاثوليك وأرثوذكس فقط، إذ لم يكن المذهب البروتستانتى قد ظهر بعد ، وكان هم الكاثوليك فى ذلك القرن يدور حول إفناء المسلمين . ولم يستهدف هذا الاتجاه — كما سيظهر بوضوح فى الحروب الصليبية — أخذ القدس فحسب ، بل كان يتعدى ذلك إلى احتلال مكة ذاتها . أما الأرثوذكسية ، فقد اعتادت العيش مع الإسلام جنبا إلى جنب منذ عهد عمر (ر . ع) .

أيضا نجد أن فاتح قد انتهج سياسة أضرت بالكيان الوطنى بصورة كبيرة ، لقد كانت سياسة فاتح سحق الأرستقراطية التركية ، وتقديمه الدوشرمة (الذين يختارون وهم أطفال ، من العائلات المسيحية والإسلامية ، ويجرى تعليمهم لدى طائفة الانكشارية أو فى سراى البادشاه) .

وبدأ فاتح بهذا العمل فور فتحه إستانبول بإبعاده أسرة جاندارلى عن السلطة واستمر فى تلك السياسة ، ورغم أنه تراجع فى سنواته الأخيرة وتعيين قرة مانى محمد باشا فى السلطة فإن حزب الدوشرمة ، كان قد حصل على قوة كبيرة خلال ربع القرن ، واستمرت على هذا الحال مدة قرنين على أقل تقدير . لم تتكون فى تركية أرستقراطية تركية حقيقية كما فى أوربا . فقد الأشراف الأتراك الذين سيطروا على الدولة حتى عهد فاتح ، نفوذهم . انفتحت أبواب كافة الوظائف (ومنها رئاسة الوزارة) إلى زمرة الدوشرمه عديمى النسب والتاريخ ، الذين تربوا فى السراى ويعرفون البادشاه فقط سيدا لهم، فهم لا يستمدون قوتهم من عائلاتهم أو ثرواتهم أو ماضيهم ، وإنما يستمدونها بصورة مباشرة من البادشاه والسراى .

لاشك أن فاتح قد اتخذ هذه السياسة بغرض تقوية القوة المركزية للدولة ، ومن الواضح أن فاتح لم يكن يرتاح كثيراً ، إلى أمراء الأناضول التركمان الاقطاعيين بسبب عدم اقترابهم من الاتحاد التركى ، وإملاتهم منه على الدوام . ولأنه رجل عصر جديد ، فقد كان مقتنعا عند اعتلائه العرش بأنه لكى يتمكن من إنجاز أعمال على

نطاق عالمى ، فإنه يلزم أن تكون السلطة المركزية كبيرة ومطلقة ، وإنه لاسبيل إلى ذلك ، إلا بتبلورها فى شخص الخاقان ، ولايمكن استمرار فاعلية عجلة الدولة إلا بذلك . وعكس ذلك ، فان الدولة العثمانية ستكون مثلا ، كامبراطوريات المملوكية والتيمورية وتهوى إلى مصاف الدول الخامدة ، وتفقد كل قدرة لها على الحركة . لم يكن من شأن حاكم كفاتح أن ينتهج سياسة خامدة وثابتة ، فمثل هذه السياسة ستكون معوقة لظهور وتكامل الدولة العثمانية .

كان السلطان محمد الفاتح مولويا كأبيه . شيخه : أمير عادل جلبى .

كان شاعرا ، إخصائيا فى موضوع الأزهار والأحجار الكريمة ، وماهرا فى صناعة الأقواس .

قابلته (مولدته) : ابه خاتون ، مربيته وأمه بالرضاعة:أم كلثوم هاند خاتون .

أساتذته فى العسكرية الوزير صاريجه قاسم باشا (وفاته ١٤٦٠) ، داماد زاغانوس محمد باشا (وفاته ١٤٦٢) ، خضر جلبى (وفاته ١٤٥٩) ، خادم سليمان باشا (وفاته ١٤٩٣) .

Yorgios Amirutzes الطرابزونى ، أحد أساتذته المسيحيين الذى تلقى عنه اليونانية الكلاسيكية بصورة منتظمة (وفاته ١٤٧٥) . وأخذ عن Ciriaco Anconitato (١٣٩١ – ١٤٥٥) اللاتينية ، التاريخ القديم ، الجغرافيا ، علم الآثار ، الإيطالية . وأخذ عن Giovani Mario Angielello (١٤٥١ – ١٥٢٥) التاريخ الإيطالى والأوربى .

ويمكن ذكر قصاب – زاده محمود بك ، نيشانجى إبراهيم باشا ، شهاب الدين شاهين باشا بين أساتذته الآخرين فى العسكرية .

أشهر أساتذته فى العلوم الأخرى هم : حسن جلبى (وفاته ١٤٨٦) ، ملا إياس ، جلبى – زاده إسبارطه لى قينالى عبد القادر أفندى ، خطيب – زاده محيى الدين محمد افندى ، شيخ الإسلام ملاً خسرو ، نيشانجى ملا سراج الدين محمد باشا (وفاته ١٤٨٢) ، ملا خير الدين (وفاته ١٤٧٥) ، خواجه – زاده مصلح الدين مصطفى صالح أفندى (وفاته ١٤٨٨) ، ملا زيرك ، ابن تمجيد (وفاته

١٤٥١) ، ملا أفضل – زاده حميد الدين ، شاعر العصر (١٥) العثمانى الداهية الوزير بورصة لى أحمد باشا (وفاته ١٤٩٧) ، أماسيه لى ملأ إلياس فقيه ، شكر الله جلبى (فى التاريخ وعلم الموسيقى) ، الوزير الأعظم سنان باشا ، مرشده محمد آق شمس الدين (١٣٩٠ – ١٤٥٩) ، آخر رئيس فريق أساتذته فى فترة إمارته شيخ الإسلام ملا كورانى (١٤٠٨ ـــ ١٤٨٨) ، كل محمد ده ده شيروانى (أستاذه فى التفسير) ، ولى الدين أفندى (وفاته ١٤٥٣) (أستاذه فى الموسيقى) .

٩ – بايزيد الثانى والسلطان جم (١٤٨١ – ١٤٩٥) .

تم إبلاغ خبر الوفاة إلى أولو شهزاده بايزيد ، الذى كان واليا على لواء أماسيا ، على أثر وفاة فاتح ، ولحين قدوم بايزيد أعلن ابنه الثالث الموجود فى إستانبول الأمير قورقود نائبا للسلطنة لمدة (١٧) يوما . علم السلطان جم صغير أبناء فاتح الذى كان واليا على قونية ، بالخبر متأخرا . لم يتمكن من المجيء إلى إستانبول ، لكنه لم يعترف بخاقانية أخيه الذى يكبره بـ (٩) سنوات وادعى السلطنة . تأجل إجراء مراسم تشييع جثمان فاتح حتي مجيء بايزيد الثانى ، وأجريت المراسم بعد وفاة الحاكم بـ (١٩) يوما فى (٢٢) آيار . اكتنف السلطان بايزيد بنفسه تابوت أبيه . صلى الشيخ وفاء أفندى صلاة الجنازة فى جامع فاتح مناديا « أركيشى نيته » (الصلاة لصلاة الميت) ودفن فى قبره المتواضع ، بجوار الجامع .

دعا الوزير الأعظم ضارى إسحق باشا صهره الوزير الأعظم السابق كديك أحمد باشا ، إلى إستانبول بصورة مستعجلة . أخذ أحمد باشا الأسطول والقسم الأكبر من الجنود وغادر إيطاليا . حاصر الجيش الإيطالى قلعة أوترانتو . أخبر أمير لواء أوترانتو خير الدين باشا ، ملك نابولى Ferrante ، بأنه سيترك القلعة إذا سمح له بركوب السفن والمغادرة دون تعرض . وافق الملك . إخذ الباشا جنده البالغ عددهم (٨٠٠٠) وخرج من القلعة (١٤٨١/١٠/١٠) . جاء إلى تركية . استمر حكم العثمانية الأول فى شبه جزيرة أوترانتو مدة (١٣) شهرا . لم يلتفت أى من السلاطين الذين تلوه إلى خطة فتح إيطاليا .

انكسر السلطان جم أمام أخيه الذى سار إليه بنفسه فى ينى شهر فى بورصة (١٤٨١/٦/٢٠) . لم يتمكن جم،الذى أمر بتلاوة الخطبة باسمه وسك النقود باسمه

فى بورصة ، من المقاومة فى قونية كذلك ، أكثر من ثلاثة أيام . جاء إلى أدنة . استقبل رمضان أوغلو التابع للمماليك الشهزادة وقبل يده . ضيف الشهزادة (الأمير) الذى جاء إلى الشام مع (٣٠٠) شخص فى سراى Ablah . انتقل منها إلى القاهرة (١٤٨١/٩/٢٦) . أرسل السلطان بايزيد ابنه الكبير أولو شهزاده داماد عبد الله ، بدلاً من أخيه إلى عرش قرة مان فى قونية .

استقبل السلطان قايتباى ، « جم » فى القاهرة استقبالا جيدا وحضنه . رحب الشعب من صميم قلبه بابن فاتح البيزنط . بقى « جم » ضيفا على القاهرة عدة أشهر ، ذهب خلالها إلى الحج . الأمير « جم » هو الشخص الوحيد من بنى عثمان ، الذى حج طوال (٨) قرون (هناك من حج من السلطانات أى الأميرات العثمانيات) . ومع أن ذلك غريب بالنسبة لسلالة حملة الخلافة أكثر من ٤ قرون ، لكن هذه هى الحقيقة التاريخية .

خرج « جم » من القاهرة (١٤٨٢/٣/٢٦) ، وذهب إلى حلب (٦ آيار) ، أدنه (١٤ آيار) ومنها أجتاز الحدود المملوكية - العثمانية ودخل تركية،وكان قد رفض عرض أخيه الكبير بايزيد الثانى بأن يعطيه مليون آقجه كمخصصات سنوية حالة تركه ادعاء السلطة وإقامته فى بلد مملوكى معقول كالقدس .
كالقدس .

استقبل « جم » الذى جاء إلى الأناضول بعد أخذه (٦٥٠٠٠) ليرة ذهبية من السلطان قايتباى خاله قرة مان أوغلو سلطان - زاده قاسم بك . توجه « جم » إلى قونية (٢٧ آيار) ، ومنها إلى أنقرة . ولم تقبله المدينتان . أراد الشهزاده الذى خاب أمله ، العودة إلى مصر ، فعبر إلى رودس بالسفينة (٢٩ تموز) ، وكان الأستاذ الأعظم Pierre d'Aubusson (كان فرنسيا) قد أقسم على إيصال الأمير إلى مصر . لكنه لم يف بقسمه ، وأخرج الشهزاده ومعيته الذين مكثوا (٣٤) يوما فى رودس إلى البر فى نيس بعد سفرة بحرية دامت (٤٦) يوما . وهكذا بدأت إقامة « جم » فى فرنسا التى سوف تستمر « ٦ » سنوات و « ٤ » أشهر . نقل من قلعة إلى أخرى من قلاع الفرسان . تعهد بايزيد الثانى فى اتفاق (٧ ك ١٤٨٢/١ ، بدفع ٤٥٠٠٠ ليرة ذهب فى ١ آب) من كل سنة إلى الأستاذ الأعظم لقاء نفقات العناية بأخيه . وعد السلطان قايتباى بـ (١) بمليون ليرة ذهب لإرسال « جم » إلى مصر . لم

تم الموافقة . أخذت (٤) دول كبيرة هى : فرنسا ، المجر ، البندقية ومصر فى الضغط على الفرسان لتسليم الأمير إليهم ، وبعد مفاوضات طويلة قرر الفرسان أنهم لايملكون القدرة على الأحتفاظ بالأمير لديهم ، ووافقوا على تسليمه إلى البابا ، بموجب الاتفاقية المحررة فى (٥ ت ١٤٨٨/١) .

جىء بالأمير إلى ليون فى (١٨ ت ١) ، وبعد أن استضيف فيها مدة (٤٧) يوما ، نقل إلى طولون فى شباط (١٤٨٩) ، ثم سيق منها بالسفينة إلى إيطاليا . دخل روما (١٤٨٩/٣/١٤) . وبذلك بدأت مرحلة النفى الثانية فى إيطاليا .

خلال هذه السنين ، حقق بايزيد الثانى حملته الهمايونية الأولى على المجر Morava (١٤٨٣) ، ثم قام بحملة بغدان (١٤٨٤) . غادر استانبول فى (١٨٨٤/٥/١) بعد أن استجم فيها بعد حملته الأولى مدة (٥/٥) أشهر . جرت حملة بايزيد الثانى على بغدان (مولدافيا) بعد (٨) سنوات من حملة أبيه عليها . وطبعا جرى ذلك لتتبيع الإمارة الرومانية بروابط أمتن . فتحت Kilye (١٥ تموز) و Akkerman (٩ آب) .

كانت القلعة الثانية،أى (Akkerman = Cetaea Alba) الواقعة على الشرم الذى يصب فيه دنيستر فى البحر الأسود ، قلعة مهمة . اشترك خان قرم منكلى كيراى فى الحصار مع (٧٠,٠٠٠) خيال . كان العثمانيون قد حاصروا أكرمان (٣) مرات فى (١٤١٩ ، ١٤٥٤ ، ١٤٧٤) ولم يتمكنوا من أخذها . أرسل سلطان فاس سفيرا خاصا وهنأ بايزيد الثانى) . جردت إمارة بغدان من البحر الأسود ، ولم يترك لها ساحل على هذا البحر . وانتقل القسم الساحلى إلى الحكم العثمانى المباشر . كما ألحقت به الأراضى المنحصرة بين Dnyestr , Prut .

أصبح البحر الأسود بحيرة تركية بصورة تامة .

بقى بايزيد الثانى شتاءين متعاقبين فى أدرنة ولم يعد إلى إستانبول إلا بعد سنتين فى (١٤٨٦) .

بدأت الحملة الهمايونية (٣) بمجىء البادشاه إلى صوفيا أولا . لكن البادشاه، الذى ولى سليمان باشا حملة المجر التى هدفها بلغراد ذهب إلى ألبانيا ، عاد إلى استانبول بعد (٥ / ٩) شهور فى الأيام الأخيرة من سنة (١٤٩٢) . أما

سليمان باشا ، فقد حاصر بلغراد (وهى المحاصرة العثمانية ٣) . لكنه لم يتمكن من أخذها .

دخل آمر لواء (والى) بوسنه قائد الصاعقة الشاعر يعقوب باشا ، إلى سلوفينيا ومن ثم إلى ستيريا Stirya مع (٨٠٠٠) من المغاوير ، إلى شبه الجزيرة التى تقع عليها تريسته . وأثناء عودته قطع الجيش عليه الطريق فى Adbina (بالتركية ، كاراتوفا) فى خرواتيا . قتل يعقوب باشا (٥٧٠٠) من جنود العدو وأسر (٢٥٠٠٠) منهم (١٤٩٣/٩/٩) . سجل انتصاره هذا بقصيدة منظومة .

مكث السلطان « جم » ٦ سنوات فى إيطاليا (١٤٨٩/٣/١٣ - ١٤٩٥/٢/٢٥) . استقبل فى روما بمراسم فوق العادة . تقابل مرات عديدة مع البابا Innocentius (٨) ، وبعدها مع خلفه Alessandro (٦) . خصص سراى سان آنجيلو لاقامته . وعند دخول ملك فرنسا جارلس (٨) إلى إيطاليا ، لم يتمكن البابا من مقاومة ضغوطه وسلمه « جم » . مرض الأمير أثناء ذهابه من روما إلى نابولى بصحبة الملك وتوفى فى نابولى (١٤٩٥/٢/٢٥) وعمره يتجاوز الـ (٣٥) سنة بـ (٣) أشهر ، (٣) أيام . والمعتقد بصورة أكيدة أن البابا قد دسَّ له السم أثناء تسليمه إلى ملك فرنسا . ويحتمل كذلك أن بايزيد الثانى قد دفع رشوة للبابا لهذا الغرض . أعلن الحداد فى تركيا لمدة (٣) أيام بأمر السلطان بايزيد وأقيمت صلاة الميت للغائب،ووزعت الصدقات على الفقراء . لقد أصبح جثمان « جم » مسألة دولية . نقل النعش إلى تركية بعد مكوثه فى حديقة ملك نابولى مدة (٤) سنوات . أرسل إلى بورصة ودفن . سدد بايزيد الثانى للفرسان والبابا معا مبلغ (٦٠٠,٠٠٠) ليرة ذهبية لقاء العناية بأخيه .

لقد ترتب على بقاء السلطان « جم » فى أوربا مدة (١٢ سنة ، ٤ أشهر ، ٢٩ يوماً) تأثيرات مهمة فى الحياة الاجتماعية الفنية الأوربية ، فقد أجبر بايزيد الثانى خلال هذه المدة على الالتزام بسياسة محايدة تجاه أوربا . لم يتمكن البادشاه الذى اعتاد على سياسة كهذه ، من تغيير سياسته إلى سياسة أكثر فاعلية حتى بعد وفاة أخيه .

خلف « جم »-ذو الدواوين الشعرية باللغة التركية والفارسية - (٣) أبناء وابنتين . تزوجت ابنته جوهر - ملك سلطان ، بالسلطان قايتباى فى القاهرة فى

(١٤٩٥) . لكن السلطان المملوكي توفى بعد ٣ سنوات . جاءت جوهر – ملك سلطان إلى إستانبول وتزوجت مرة أخرى ، وابنتها خانم – سلطان التى ولدت من هذه الزيجة ، كانت لا تزال حية فى (١٥٦٨) . توفى ابنا « جم » وهما طفلان ، وعاش ابنه الآخر الشهزاده مراد (١٤٧٥ – ١٥٢٢) فى القاهرة ورودس . وعند فتح الأتراك لرودس فى (١٥٢٢/١٢/٢٧) ، أعدم مع ابنه الشهزاده « جم » وأرسلت ابنتاه مع أمهما إلى استانبول وأسكنوا فيها.طلب بايزيد الثانى من السلطان قايتباى ، أثناء وجود « جم » فى أوروبا ، إرسال والدة « جم جيجك خاتون » الموجودة فى القاهرة مع ابنتى « جم » إلى استانبول . ولما لم يستجب هذا الطلب ، أضرمت نار أول حرب عثمانية – مملوكية وهى الحرب التى يمكن النظر إليها على أنها حصاد توتر طويل الأمد .

(١٠) الحرب العثمانية – المملوكية (١٤٨٥ – ١٤٩١)

كانت تركيا ومصر فى ذلك التاريخ ، دولتى العالم الأولى والثانية . منذ قرن كامل ، لم تتحاربا أبدا مع أنهما جارتان . كانت السلطنة المملوكية من الدول النادرة التى لم تحاربها العثمانية . توترت العلاقات فى السنين الأخيرة . قدمت شكاوى عديدة حول سلب البدو للحجاج الأتراك فى الطريق ، وطلبت تركيا إذنا لإرسال جنود للمحافظة على الأمن فى طريق الحج فى الدولة المملوكية . أخر المماليك الذين غضبوا لذلك المجوهرات التى أرسلها سلطان الهند الجنوبية البهمنى محمود شاه ، إلى السلطان بايزيد ، مدة طويلة فى مصر ثم أرسلوها إلى استانبول .

بدأت الحرب بصورة فعلية على أثر إسقاط قرة كوز محمد باشا تحكيمات المماليك فى بوغاز كللك ، ودخوله جوقور أوفا (أيار ١٤٨٥) . كان قد مضى (٤) سنوات على وفاة فاتح .

من المهم أن نذكر هنا أن الإمبراطوريتين حاولتا جهديهما حصر الحرب فى نطاق محلى ، وعدم تصعيدها أو تحويلها إلى حرب شاملة .

ولم تطأ أقدام الحاكمين ساحة الحرب أبدا ، وكان قصد العثمانية – إن أمكن –

حيازة إمارة رمضان أى جوقورأوفا ، وقصد المماليك - إن أمكن - حيازة دلقادر، أى منطقة ماراش ، ومن ثم عدم التقدم أية خطوة بعد ذلك .

احتل قرة كوز باشا طرسوس ونزل إلى البحر الأبيض . جاء رمضان أوغلو محمود بك إلى استانبول وعرض تبعيته للعثمانية وخروجه من تبعية المماليك .

رد المماليك على ذلك بدخولهم إلى دلقادر . كان دلقادر أوغلو علاء الدولة بورقورد بك أبا لزوجة بايزيد الثانى وأبا كذلك لوالدة الأمير (شهزاده) ياوزسليم . أخرج أمير لواء (والى سنجق بك) قيصرى يعقوب بك المماليك من دلقادر ، وجاء أمام القلعة المملوكية ملاطية . أباد القائد العام المملوكى أوزبك بك فى هذا الموقع ، يعقوب بك مع وحدته ، ثم دخل جوقورأوفا ، وأخرج العثمانيين منها ورمى بهم إلى الطرف الآخر من طوروس . مات كل من أمير لواء طرسوس داماد فرهاد بك وأمير لواء أدنة موسى بك أثناء دفاعهم عن جوقورأوفا .

وفى ك (١٤٨٦/٢) ، نزل أمير لواء (أمير الأمراء ، والى) أناضولى هرسك - زاده أحمد باشا إلى جوقواوفا ، وانتصر عليه أوزبك بك وأسره ، وسيق إلى القاهرة .

وافق قايتباى على مقابلة داماد أحمد باشا الذى صار وزيرا أعظم بعد ذلك ، وطلب إليه أن يبلغ البادشاه بأن هذه الحرب لاطائل وراءها ، وأنه على استعداد لعقد صلح تقر فيه الأطراف بحدود ماقبل الحرب ، وأنه يبلغه أيضا أنهم لايرغبون فى الحرب مع العثمانية التى تجاهد بصورة مستمرة ضد المسيحيين ، وأن هذا لايليق بهم ، كما طلب منه كذلك أن يبلغ البادشاه أنه لاينوى ترك أراض للعثمانية ، وخلى سبيله . جاء أحمد باشا إلى استانبول وسرد ذلك ، لكن الديوان العثمانى لم يكن قد اعتاد إنهاء حرب لم تتكلل بالنجاح .

احتل العثمانيون طرسوس مرة أخرى فى (١٤٨٧ . وفى صيف ١٤٨٨) ، احتل الوزير (وزير أعظم فى المستقبل) على باشا مع (٣) بدرجة فريق أول (بكلربك) كامل جوقورأوفا وبضمنها أدنة .

لحق الأمير أوزبك رجل الحرب الكبير ، وهزم على باشا (١٤٨٨/٨/١٦) .

استسلمت أدنة للمماليك بعد أن قاومت (٧) أشهر (١٤٨٩/٤/٢) .

وفى ١٤٩٠ ، حاصر أوزبك بك الذى انتصر على على باشا فى حرب آغا جايرى الميدانية ، قلعة قيصرى ، وأسر هرسك - زاده أحمد باشا ، الذى جاء للدفاع عن قيصرى للمرة الثانية . وسيق إلى القاهرة كذلك .

وفى هذه المرة ، عامل السلطان قايتباى ، صهرَ بايزيد الثانى أحمد باشا ببرود . لكنه تأثر عندما علم أن السلطان بايزيد سيخرج بحملة . حيث لم يكن يرغب فى أن تتطور الأمور إلى حرب شاملة .

كان يعلم أن تيمور فقط هو الذى تمكن من الانتصار على العثمانية فى حرب شاملة فى تاريخ العثمانية بأجمعه ، وليس هناك مثال آخر .

اتصل بسلطان تونس الحفصى يحيى الثالث . وطلب إليه أن يتوسط لتأمين الوئام بينه وبين السلطان بايزيد ، والحيلولة دون إراقة دماء المسلمين .

وافق السلطان بايزيد على تدخل السلطان يحيى ووساطته ، واقترح السلطان يحيى الصلح على أساس ترك الوضع على حاله (Statu quo) . وافق الطرفان .

ثبتت الحدود كما كانت عليه قبل بداية الحرب ، فعادت إمارة رمضان أوغلو إلى تبعيتها للماليك ، وإمارة دلقادر إلى العثمانية . زوج السلطان بايزيد جوهر ملك سلطان ابنة أخيه جم بالسلطان قايتباى وحاول إزالة البرود الكائن بينهما ، واستمر بعد ذلك متعقبا سياسة مساندة الدولة المملوكية بإخلاص كما سيظهر فيما بعد .

إن الحرب التى مرت بتفوق المملوكية على الأكثر ، وجهت أنظار العثمانية إلى جوقور أوفا التى احتلتها عدة مرات . إن سياسة الدولة العالمية التى اتبعتها العثمانية ، أظهرت لزوم توسعها فى الأناضول وهبوطها إلى العالم العربى .

(١١) الدولة العثمانية والأندلس :

فى هذا التاريخ كان قد تبقى فى أسبانيا العربية المسلمة ، فى الأندلس ، دولة إسلامية واحدة ، هى دولة النصريين أو بنى الأحمر . كانوا يحكمون منذ (١٢٣٢) ومدينة عرشهم غرناطة (بالأسبانية : Granada) ، لكنهم كانوا فى القرن (١٥)

قد أزيحوا ودفعوا إلى حدود ضيقة جدا . ومع ذلك ، فإنه من الممكن القول بأن تعداد تلك الدولة يصل إلى مليونى نسمة ، ومثل هذا العدد يعتبر بالنسبة لذلك العصر عددا كبيرا . أما العاصمة،غرناطة ، فقد كانت أكبر المدن كثافة فى التعداد فى كامل القارة الأوربية ، فقد كان تعدادها يبلغ (٥٠٠,٠٠٠) نسمة،فاقت استانبول غرناطة فى تعداد سكانها فى السنوات الأخيرة للعصر .

يتكون شعبها من البربر والأسبان (Wisigoth) الذين أسلموا ويتكلمون اللغة العربية ، وكذلك العرب الخلص . كان للدولة كذلك رعايا كثيرون من المسيحيين (الكاثوليك) والموسويين .

وفى (١٤٨٢) ، اضطرت ملكية الأندلس ، أن تدخل تحت سيادة ملكية كاستيليا ومركزها طليطلة (Toledo) . فقد كانت متفوقة من حيث الحضارة والثقافة والصناعة ، وللكنها نتأخرة جدا من الناحية العسكرية .

دفعت ملكية كاستيليا الأندلس السنية - المالكية نحو الجنوب بصورة مستمرة وقلصت حدودها .

كانت كاستيليا دولة ذات جيش قوى . أما ملكية آراغون الكاثوليكية المتعصبة بنفس الدرجة ، والتى تأسست فى الإيالات الشمالية - الشرقية من أسبانيا ، فقد كانت دولة بحرية مهمة فى البحر الأبيض . لغة هذه الدولة هى القتلونية (حاليا كذلك) ، أما كاستيليا ، فقد كانت تتكلم الأسبانية،وهى لغة لاتينية تختلف عنها تمام الاختلاف .

أخذ الأسبانيون من العرب موانىء:جبل طارق (١٤٦٢/٨/٢٠) ، روندو (١٤٨٥/٥/٢٠) ، ألمرية (بالأسبانية : Almeria) ، مالقة (بالأسبانية : Malaga) ، مدينة ولزمالقة Velez Malaga (أخذت جميعها فى ١٤٨٧) . انحطت دولة الأندلس إلى درك دول البحر الأبيض التى لاأهمية لها ، وأصبحت مقتصرة على غرناطة وأطرافها . لكن مع ذلك فإن مستوى شعب هذه الدولة البائسة ، كان مايزال هو الأول فى العالم أجمع .

أشرف الحكم الإسلامى الذى كان مستمرا فى شبه جزيرة إيبيريا منذ (٧١١) سنة ، على الانتهاء . ومنذ ذلك الحين كان لملكيتى كاستيليا وآراغون ملايين من

الرعايا المسلمين ، الذين كانوا يحاولون الإبقاء على كيانهم فى جو من الضغط والشدة لم يشهده التاريخ لإجبارهم على اعتناق الكاثوليكية .

كانوا يثورون بين الحين والآخر ، وكانت تسفر ثوراتهم عن مزيد من الشدة فى سحقهم .

كان هدف ملكية كاستيليا،بوجه خاص ، اقتلاع الحكم الإسلامى بكامله من أى شبه جزيرة إيبيريا ، ثم أضيف إلى هذا الهدف ، سياسة عدم Reconquista الإبقاء على أى شخص ينتسب إلى الدين الإسلامى . كان الموسويون معرضين إلى ذات المعاملة التى تطبق على المسلمين .

من الذى سيقوم بإنقاذ هذه الجماعة الإسلامية البائسة التى كانت أستاذا معلما ومربيا لأوربا فى كافة المجالات الحضارية ؟ لاشك فى أن هذه المهمة تقع على عاتق سلطنة فاس التى تعتبر من الدول الكبرى ، والتى حكمت فى البداية فى الأندلس كما تقع كذلك على بنى مرين .

كانت تركية ومصر فى الجانب الآخر من البحر الأبيض ، وأساسا فإنه لم يكن لمصر القوة البحرية التى تمكنها من القيام بهذا العمل . أما السلطنة الحفصية فى تونس فإنها كانت فى حالة تدهور .

إن اتحاد ملكيتى كاستيليا وآراغون بصورة فعلية فى (١٤٦٩) ، وتشكيلهما أسبانيا موحدة ، سبب زيادة مصائب الأندلس .

تزوجت ملكة كاستيليا إيزابيلا Isabella بملك آراغون Fernando el Catolico ، وكانت هذه الزيجة التى استمرت (٣٥) سنة لغاية وفاة إيزابيلا وعمرها (٥٣) سنة ، مثمرة للغاية بالنسبة لأسبانيا . وأضحت أسبانيا أقوى دولة فى أوربا والعالم المسيحى .

اعتلى فرناندو الذى يصغر زوجته سنة واحدة ، عرش أبيه فى (١٤٧٩) ، أما إيزابيلا فإنها اعتلت عرش أبيها فى (١٤٧٤) . وبناء على ذلك فإن الوحدة فى (١٤٧٩) ، تأسست بشكل متين . ولم تنفصل بعدها أبدا .

كانت ملكية صقلية تعود أساسا إلى آراغون ، وانتقلت ملكية نابولى إلى أسبانيا .

إن أسبانيا التى سيطرت بهذه الصورة على جنوب إيطاليا أيضا ، أصبحت دولة مقتدرة فى منتصف البحر الأبيض ، كما كانت فى غربه . وبدأت بتهديد كل الأطراف .

ولد سقوط مالقة المدينة العربية المسلمة منذ (٧٧٦) سنة ، التأثر والهياج فى العالم الإسلامى بأسره (١٤٩٨/٨/١٨) .

قرر الأسبانيون الذين أرادو فى هذه الحملة أخذ غرناطة كذلك ، الانتظار مدة من الزمن . كانوا يخشون تدخل تركية ومصر .

كانت تركية ومصر فى هذه الأيام فى حالة حرب . وعندما عقدت الهدنة لفترة بين الدولتين ، اضطربت أسبانيا .

طلب ملك غرناطة أبو عبدالله محمد (١١) مساعدة استانبول وكذلك القاهرة بصورة رسمية . وقد كانت خشية الأسبان لمصر أكثر وأشد ؛ لأنهم لم يسمعوا بعلاقة تركية بغرب البحر الأبيض وبالمغرب .

أرسل السلطان قايتباى راهب دير فرانسيسكن الكاثوليكى فى القدس كسفير إلى توليدووأبلغهم بأنهم إن لم يرفعوا يدهم عن غرناطة ، فانه سيقتل كافة المسيحيين الموجودين فى كنيسة قمامه فى القدس ، وأنه سيغلق فلسطين فى وجه كافة الحجاج المسيحيين .

لم تعر أسبانيا أية أهمية لهذا التهديد ؛ لأنها لم تكن قد سمعت أبدا بأن دولة إسلامية أضرت برعاياها المسيحيين المطيعين . حيث إن المماليك ، لم يمسوا المسيحيين فى فلسطين بسوء ، ولم يمنعوا الحجاج المسيحيين .

عرض السفراء الذين أرسلهم أبو عبد الله محمد (١١) الذى يسميه الأوربيون « بو عبد الـ Boabdil » (بكسر الدال وتفخيم الواو) ، وعرب المغرب « بو عبد الـ Bû Abdel » (بفتح الدال) ، على بايزيد الثانى الوضع الأليم المذكور أعلاه . قرر الديوان الهمايونى إرسال أسطول إلى غرب البحر الأبيض . وهكذا تحققت الحملة الأولى لكمال رئيس (١٤٨٧) ، وللمرة الأولى وطئت أقدام الأتراك غرب البحر الأبيض .

وهكذا دخلت تركيا الحرب تجاه (٤) ملكيات (كاستيليا ، آراغون ، نابولى ، صقلية) وباختصار تجاه إسبانيا . (سوف تستمر هذه الحرب قرونا طويلة دون عقد صلح) .

قصف قرة مانلى كمال رئيس بالتسلسل جربة ، مالطة ، صقلية ، ساردونية ، كورسيكا ، جزر باليرِ وسواحل إيطاليا الجنوبية ودخل المياه الأسبانية . وقصف كافة موانىء آراغون (كاتالونيا) . واستولى بصورة فعلية على ميناء مالقة الذى أخذه الأسبان من العرب قبل عدة أشهر وأحرقه أثناء انسحابه .

عاد من مضيق جبل طارق وصعد نحو الشمال الشرقى إلى السواحل الفرنسية، ثم عاد فقصف الموانىء الأسبانية فى البحر الأبيض مرة أخرى . وعبر إلى بحر Tiren عن طريق مضيق Bonafacio الذى يفصل جزيرتى كورسيكا وساردونيا عن بعضهما . مر على بعض موانىء سلطان تونس الحفصى ، الذى قدم تسهيلات إلى الأسبان ، ورفع الراية فيها ثم عاد .

لكن هذا الاستعراض ، لم يثن عزم الحكام الكاثوليك . انتهى الحكم الإسلامى الذى دام فى أسبانيا - البرتغال (٧٨١) سنة باستسلام غرناطة (١٤٩٢/١/٢) . هرب محمد (١١) إلى فاس . أحرق بأمر أحد الكرادلة السفلة أكثر من (٥٠٠,٠٠٠) من الكتب المخطوطة فى ميدان غرناطة الكبير ، وكان هذا العدد من الكتب يفوق كافة الكتب الموجودة فى مكتبات أوربا بكاملها ، وهى مؤلفات جمعت من جميع أنحاء العالم خلال (٨) قرون .

لم تكن فى هذا التاريخ فى أوربا كلها مكتبة واحدة تمكنت من جمع (١٠,٠٠٠) مجلد .

فور سقوط غرناطة ، انتشر (٣٠٠,٠٠٠) عربى على سواحل أسبانيا .

حالت مدافع الأسطول التركى دون إفناء هؤلاء وتم نقلهم إلى فاس والجزائر . مئات الألوف منهم ، أحرقوا بالنار بصورة جماعية . وضع اليد على كيان المسلمين كاملا . لكن عدة ملايين من المسلمين ، أصبحوا مشكلة أسبانيا الكبرى لمدة قرن ونصف . يكتب نامق كمال مايلى : « عندما أخذ الأسبان غرناطة أحرقوا الشعب بالنار لإجبارهم

على تبديل دينهم . وعندما أخذنا نحن استانبول ، منحنا الحرية الكاملة لسالك كل مذهب فى ممارسة شعائره الخاصة » .

بينما كانت غرناطة قد استسلمت شرط عدم المساس بأموال وأنفس وكافة الحريات الدينية للعرب . كانت أسبانيا فى ذلك التاريخ تضم نحو (٣) ملايين من العرب المسلمين و(٣٠٠,٠٠٠) موسوى . وفى (١٤٩٢) ، أصدرت أسبانيا أمراً ملكيا إلى الموسويين بترك أسبانيا دون استصحابهم أية حاجة ثمينة ، فى حالة عدم قبولهم الكاثوليكية ، خلال فترة (٤) أشهر .

وفى (١٤٩٧) ، أعلن ملك البرتغال منشورا بنفس المحتوى . لكن البرتغال أعلنت أن اليهود الذين يتركون البلاد لايمكنهم استصحاب أولادهم (بناتهم وأبنائهم) الذين تقل أعمارهم عن (١٤) ، سنة وأن هؤلاء سيظلون فى البرتغال لتنشئتهم على المذهب الكاثوليكى .

قبلت تركيا يهود البرتغال والأسبان وأسكنتهم أماكن عديدة على رأسها استانبول ، وهذا هو منشأ يهود استانبول الذين ينطقون الأسبانية ، وكان هناك من قدم من العرب كذلك إلى استانبول وسكنوها،لكنهم على الأكثر كانوا يذهبون إلى فاس والجزائر لقرب المسافة .

أغضب هذا الظلم التعسفى الأتراك ، فقررت الدولة العثمانية التدخل فى المغرب .

وسوف نتناول سياسة العثمانية بشأن التدخل فى المغرب فى المبحث المخصص لذلك .

لقد تصادف أن يقع فى عام واحد سقوط غرناطة واكتشاف الجنوى كريستوفر كولمبس لأمريكا ، فقد اكتشف كولمبس القارة الجديدة باسم أسبانيا وبدأت تتكون فيها مستعمرات أسبانية (مغادرة كولمبس ١٤٩٢/٨/٣ ، وصوله إلى جزائر بهاما ١٤٩٢/١٠/١٢) .

اقتحم الأسبان أفريقيا السوداء كذلك . إن تاريخ ذهاب أول قافلتين للزنوج الذين ساقوهم إلى أمريكا لتشغيلهم بعد اصطيادهم من سواحل غينيا ، هو (١٥٠١) و(١٥٠٥) . وسوف لاينقطع بعد ذلك سوق هذه القوافل من أفريقيا إلى أمريكا .

وهكذا تكونت إلى يومنا هذا أقلية زنجية قوية فى أمريكا التى لم تكن تحتوى على زنجى واحد .

سار كمال رئيس بحملات عديدة على غرب البحر الأبيض . قصف أسبانيا ، نهبها . نقل المهاجرين إلى شمال أفريقيا . إن حملته الأخيرة فى (١٥١٠) ، جرت بعد (٢٣) سنة من أولاهن . ذهب إلى فاس وقابل ابن محمد (١١) آخر ولى عهد للأندلس . كان يرافقه ابن أخيه محيى الدين بيرى رئيس الذى كان عمره (٢٠) سنة ، وهو أعظم راسم للخرائط الجغرافية وجغرافى بحار فى القرن (١٦) . كان أحمد كمال الدين بك المعروف بـ « كمال رئيس » لواء بحريا ، وهو ابن قره مانلى على ، هو مؤسس المدرسة البحرية العثمانية العالمية . مات أثناء غرق سفينته عند عودته من حملة أسبانيا بالقرب من قاعدته غاليبولى (١٥١١/١/١٦) .

كتب المؤرخ الفرنسى Michelet ، أن الاسبان أفنوا فى غضون الـ (١٠) سنوات الأولى بعد سقوط غرناطة (١,٠٠٠,٠٠٠) مسلم بطرق شتى كحرقهم بالنار ، وإجاعتهم وإغراق سفنهم فى البحر وقتلهم (Renaissance ١٣٥ – ٧) .

(١٢) فترة السلطنة الثانية لبايزيد الثانى (١٤٩٥ – ١٥١٢)

أدى تحرش بولونيا فى بداية (١٤٩٨) ببغدان (مولدافيا) التابعة للدولة العثمانية إلى نشوب حرب مع هذه الدولة . كلف قائد الصاعقة المعروف ، أمير لواء سلستره مالقوج أوغلو بالى بك (باشا فى المستقبل) بإدارة الحرب . سار بالى بك إلى بولونيا بحملتين كبيرتين فى ربيع وخريف سنة (١٤٩٨) . اشترك فى هاتين الحملتين (٤٠,٠٠٠) من الصاعقة .

انهزم ملك بولونيا ، فى حرب Bukovina الميدانية وفر تاركا حمولة (٢٠,٠٠٠) عربة من مهمات جيشه .

دخل بالى بك أهم المدن البولونية مثل Lublin , Radom , Jaroslaw , Lwow وارشو، وحرقها . وصعد إلى الشمال حتى خط عرض (٥٣) . ووقف على مسافة (٢٢٠) كم عن بحر البلطق .

كررت هذه الحملة فى الخريف بعد (٣) أشهر . خربت المنطقة التى ينبع منها نهرى دنيستر وسان .

أعلنت كل من المجر والبندقية الحرب على تركيا خشية اندحار بولونيا – ليتوانيا فى حملة جديدة ، وذلك على أثر الحركات الشديدة التى جرت لحمل بولونيا على الابتعاد كلية عن التدخل فى شئون بغدان ، وبالتالى فى شئون البحر الأسود .

اجتاز إسكندر باشا (الذى غزا دالماجيا قبل ١٤٩٩) أنهار , Tagliemento Isonzo (بالتركية : آقصو) و Piave ودخل سهل البندقية . ترك مدينة البندقية وراءه واجتاز نهر Brenta حرق مدينتى Vieenza و Padova . وعاد من نهر Adige قرب Verona . وبهذه الصورة تقدم نحو الغرب حتى خط طول (١١) . كان قوام هذه الحملة الشهيرة (٢٠,٠٠٠) من جنود الصاعقة . أحرقت الحملة ١٣٠ مدينة وقصبة ، ولم تتمكن البندقية من صيانة وطنها الأصلى لانشغال القوات البندقية الكبرى فى الحروب فى مورا . دخلت قوات الصاعقة فى فترة جمود لمدة ربع قرن ، بعد سنة (١٥٠٠) .

لاتوجد غارات كبيرة خلال هذه الفترة ، فقد انشغلت تركية بالشرق وهى بشكل عام فى حالة صلح مع أوربا ، وسوف تبدأ الغارات مجددا على أوربا على نطاق واسع فى عهد السلطان سليمان القانونى .

بذلك دخلت العثمانية البحرب مجددا مع (٣) دول كبرى هى : البندقية والمجر وبولونيا ، والدول الصغيرة ، التى تساندها البابوية ، كرودس وأمثالها . كانت حالة الحرب مستمرة أساساً مع أسبانيا بسبب قضية الأندلس ، ولم تكن هناك مشكلة فى الشرق بسبب اطمئنانها من ناحية المماليك وآقويونلو وإيران . دخلت ألمانيا كذلك الحرب ضد تركيا . تضعضعت ألمانيا بسبب انفصال الاتحاد السويسرى فى ١٤٩٩ عن الإمبراطورية الألمانية وتشكيلها دولة مستقلة تماما .

قام بايزيد الثانى بحملتى الهمايونية (١٤٩٩ ، ١٥٠٠) على البندقية واليونان وجنوب مورا . أصبحت رودس عاجزة – لمدة من الزمن – عن مساعدة البندقية بسبب إبادة أسطول رودس مع أميرالاته وسفينة الأميرالية على يد كمال رئيس .

سار البادشاه من استانبول فى (٣١ آيار ١٤٩٩) ، وأرسل قسماً من الأسطول الهمايونى إلى قبرص فاضطرت البندقية إلى أن ترسل قوات كبيرة إلى قبرص ، خوفا من عملية إنزال تركية .

أسر والى كورفو Andrea Lorenado وقتل لسوء معاملته للأسرى الأتراك .

جاء البادشاه إلى Lepanto (بالتركية : إينه بختى) وهى قلعة بندقية مهمة تقع على الساحل الشمالى من خليج كورينثوس .

وخلال هذه الأيام ، كان الأسطول البندقى المكون من (٢٠٠) قطعة بقيادة الأميرال أنطونيو كريمالدى على مسافة من مياه جزيرة سابينزا Sapienza الصغيرة فى الناحية الغربية من مياه رأس (Galto (Messenya الواقع فى رأس مورا الجنوبى - الغربى .

التقى الأسطول الهمايونى بقيادة كمال رئيس ، بالأسطول البندقى فى هذا الموقع . كان قائد جناح اليمين الأميرال Barak (براق) رئيس الذى سبق أن أرسله البادشاه إلى فرنسا فى مهمة ديلوماسية . دخل العدو على العمق فى الجناح الأيمن للأسطول التركى ، وحاول إنزال راية الرئيس براق . كانت جميع السفن قد اقتربت من بعضها .

فجر براق رئيس خزان البارود فى سفينته وحرق نفسه مع قسم كبير من الأسطول البندقى واستشهد ، ومات معه فى سفينته ربان السفينة قرة حسن رئيس و(٥٠٠) من جنود البحرية وكثيرون من الجدافة (الأسرى المسيحيين) . كان بين الذين ماتوا نتيجة الانفجار ، الأميرالان البندقيان Loredanoو Armenio .

ولهذا لم يقترب كمال رئيس ، وأخذ يقصف قطعات الأسطول البندقى الأخرى ، وكان كمال رئيس قد وضع فى السفن التركية — ولأول مرة فى تاريخ البحرية العالمية — مدافع ذات مدى بعيد ، بحيث تتمكن من إصابة سفن العدو من مسافة معينة ، بينما تسقط طلقات العدو خارج مجال مرمى السفن التركية ولاتصيبها .

أدار الأسطول البندقى دفته نحوَ الشمال وهو فى حالة يرثى لها .

تقابلت فى هذه الحرب (٤٠٠) سفينة ، وعشرات الألوف من رجال البحرية

وجها لوجه ، وهى أول حرب بحرية مفتوحة كبرى ، انتصر فيها الأتراك (١٤٩٩/٧/٢٨) . سمى الأتراك جزيرة Sapienza ، جزيرة براق رئيس .

سقطت Lepanto (١٤٩٩/٨/٣٠) بعد (٣٣) يوما من انتصار Sapienza البحرى . أما البنادقة فقد احتلوا جزيرة كفالونيا التى كانت لدى الأتراك منذ (٢٠) سنة (١٤٧٩ ــ ١٤٩٩) ، حاولوا أخذ Preveze ، لكنهم شتتوا .

سار بايزيد الثانى من أدرنة بعد أن قضى الشتاء فيها ، يوم (٧ نيسان ١٥٠٠) وجاء مع الأسطول إلى قلعة Modon البندقية فى جنوب مورا ، وخلال الفترة من (١٠ - ١٦) آب (١٥٠٠) ، استسلمت القواعد البحرية والقلاع البندقية الموجودة فى جنوب مورا بالتسلسل Navarin , Fenar , Milona , Modon , Koron . وهكذا تم تصفية البندقية ، من مورا واليونان . وفى هذه الحرب ذاتها كذلك ، تم فتح Drac آخر قاعدة للبنادقة فى ألبانيا (١٥٠٢/٨/١٣) .

أرادت فرنسا فى هذه الأيام أن تساند البندقية ، فجاء الأسطول الفرنسى الذى يحتوى على (١٠,٠٠٠) جندى مشاة أمام ميناء ميديللى فى أواسط أيلول (١٥٠١) ، وحاول لمدة ستة أشهر إسقاط القلعة ، ولكنه لم ينجح فى ذلك ، وعلى أثر انتشار خبر قدوم الأسطول التركى إلى المنطقة ، أراد الأميرال Revenstein ، اللجوء إلى جزيرة Cergio (بالتركية : جوها) الواقعة جنوب مورا . غـرق كل الأسطول الفرنسى هنا على أثر هبوب عاصفة وتمكن عدة أشخاص فقط من النجاة (هامر ، ٤ ، ٧٠) .

طلبت البندقية الصلح . لم يتمكن Andrea Gritti – الذى انتخب بعدها دوج رئيس جمهور – حين حضر إلى استانبول لإجراء مفاوضات الصلح ، من الحصول على نتيجه . وأرسل Zacharia Freschi بصلاحيات أوسع ، وأبرمـت فى (١٤ ك ١٥٠٢/١) معاهدة استانبول المكونة من (٣١) مادة . أعطيت كافلونيا فقط للبنادقـة . عقـدت، بعدها تركيا صلحا مع كل من المجر (١٥٠٣/٨/٢٠) ، فرنسا ، إنكلترا ، وأسبانيا ، والبرتغال ، وبولونيا ، ونابولى ، ورودس .

بدأت فى أوربا فترة صلح دامت قرابة (٢٠) سنة . كانت الدولة العثمانية مضطرة للالتفات نحو الشرق ، حيث كانت تجرى أمورا مهمة فيه .

وفى الوقت الذى ساد الاعتقاد فيه أن مسألة قرة مان قد أغلقت وطويت فى سجل التاريخ ، جاء قره مان أوغلو مصطفى بك ، الذى كان يسكن فى تبريزه منذ سنين إلى الأناضول . وهو حفيد أول قرة مان بك نوره صوفى فى البطن (٨) وحفيد محمد بك الثانى فى البطن (٣) ، واحتل لارنده (قره مان) مع التركمان الذين جمعهم حوله . وعندما ثار عليه الأمير شهنشاه ابن البادشاه الساكن فى قونيه (أمه قره مانية) ، فر إلى طرسوس ولجأ إلى المماليك . أمر السلطان المملوكى الذى لايود نزاعاً مع العثمانية بسبب القرمانيين بقتله .

(١٣) ظهور الشاه إسماعيل

كان مؤسس الطريقة الصفوية الشيخ صفى الدين متصوفا سنيا خالصا ، حصلت تكيته التى أسسها فى مدينة أردبيل فى جنوب آذربيجان ، على شهرة واسعة من (١٣٠١) حتى وفاته فى (١٣٣٤) ، وقد وصلت مكانة وشهرة هذه التكية إلى حد أن تيمور زارها وتبرع لها . اعتنق حفيد حفيده ، شيخ الطريقة الخامس (١٤٤٧ - ١٤٦٠) جنيد ، المذهب الشيعى وأدهش الجميع ، وقد كان المذهب الذى اختاره من بين مذاهب الشيعة هو مذهب الشيعية الإثنى عشرية التى لاتخلو من الإفراط . ويترتب على هذا بطبيعة الحال أن يرفض سلطة الخليفة ويعترف بالشيخ الصفوى إماما .

خرج الشيخ جنيد الشاب ، فى السنة التالية (١٤٤٨) لجلوسه على بساط المشيخة ، من أردبيل وجاء إلى الأناضول .

جمع حوله بالدعاية عشرات الألوف من التركمان الجهلة . تزوج (١٤٥٨) بأخت السلطان أوزون حسن ، خديجة بغيم السنية - الحنفية الخالصة . كان أوزون حسن سنيا صميما ، ولكنه لعدم وجود نزعة التعصب تجاه الأديان والمذاهب الأخرى لدى الاتراك ، أراد أن يرتبط بهذا الشيخ ليتمكن من جمع الشيعة حوله لمواجهة تركمان قرةقويونلو عدوه الشيعى الذى يريد التخلص منه ، ولم يخطر بباله قط أن هذه المعاهدة سوف تشكل عليه خطرا فى يوم من الأيام .

قتل الشيخ جنيد . تسلم المشيخة (١٤٦٠/٣/٣) بدلا منه ابنه الطفل المولود من خديجة بغيم . سانده كذلك خاله أوزون حسن . لم يكترث بمذهبه الشيعى أبدا .

قام حيدر الذى ولد فى نيسان ١٤٦٠ فى سراى اقويونلو المملوكة لخاله فى مدينة عامد (دياربكر) ، بإدارة تكية أردبيل بالوكالة و لم يكثر التردد عليها . قتل وعمره (٢٨) سنة (١٤٨٨/٧/٩) . كان قد تزوج فى (١٤٧٧) عند بلوغه سن (١٧) بابنة خاله أوزون حسن ، حليمة علم – شاه بغيم . ولد من هذه الزيجة الشاه إسماعيل فهو بذلك حفيد لأوزون حسن كذلك .

أعلنت فى (١٤٩٤) مشيخة إسماعيل وعمره ٧ سنوات بعد مقتل أخيه الكبير . بدأ تعقب أتراك أقويونلو للصفويين ، بسبب تجمع تركمان الأناضول حول شيوخ الصفوية .

كانت حليمة بغيم التى لم تترك المذهب السنى أبدا ، تقوم بحراسة ابنها إسماعيل الطفل . وبعد نزاع مرير ، طرد الشيخ إسماعيل وعمره (١٥) سنة ، أتراك آقويونلو من تبريز (١٥٠٢) وأعلن نفسه شاها .

أمر بقتل والدته التى ثبتت وأصرت على المذهب السنى ، وحول إيران السنية بالدم والنار ، إلى إيران شيعية . حظر اعتناق المذهب السنى ، وقتل من قبض عليه من الرجال السنيين ، وأرسل النساء والبنات إلى دور البغى .

هزم خاقان تركستان (أتراك الشرق) شاياك خان بن جنكيز ، فى حرب ميدانية وقتله وكسى جمجمته بالذهب الخالص ، وشرب فيها الشراب .

تفوق على المماليك عسكريا واقتصاديا ، وأصبح حاكما للدولة المقتدرة الثانية فى العالم بعد العثمانية . كانت إمبراطوريته تشمل إيران ، شرق الأفغان ، المناطق الوسطى والشرقية من قفقاسيا الجنوبية ، داغستان ، الأناضول الشرقية ، العراق والأحساء فى البلاد العربية .

كانت الدولة الصفوية ، دولة تركية كذلك ؛ فالجيش بكامله يتكون من الأتراك . وجميع ولاة الإيالات ، أمراء تركمان ذهبوا من الأناضول . الشاه إسماعيل ، هو أحد أكبر الشعراء الأتراك .

الشاه فى نظر رعاياه ، وخاصة جيشه شيء قريب إلى الله ، وهناك عدد غير قليل من التركمان الجهلة الذين يعتقدون بأنه هو الله بذاته .

وهكذا قسم الشاه إسماعيل العالم الإسلامى السنى والتركى إلى فريقين . كان قد دخل بين تركيا و تركستان وألقى بمستقبل التاريخ التركى إلى متاهات مظلمة . كان دخوله إيران واستيطانية فيها باقتدار وقوة ، أقوى بكثير من مجيء الفاطميين – فى حينه – من المغرب واستيطانهم فى مصر . وبينا استؤصل المذهب الشيعى من مصر بضربة واحدة من صلاح الدين الأيوبى ، ماتزال إيران حاليا شيعية سواء كانت لغتها الأم تركية أم فارسية . حقق الشاه إسماعيل هذه النتيجة باستيلائه على إيران (التى يشكل أكثريتها السنيون) من حوزة أتراك آقويونلو السنيين .

كان هدف الشاه إسماعيل ، هو تركية العثمانية . إذ إنه كان تركيا . لم يكن الشاه إسماعيل من نسل أوغزخان ، لكنه تربى فى جو تركمانى التقاليد . كان يدرك أن انتصاره النهائى سيحرزه بالقضاء على العثمانية . كان قد جلب كامل جيشه من الأناضول ، وكان لايزال آلاف التركمان يردون سنويا من الأناضول وينضمون إلى جيشه .

كان التركمان ، وخاصة أمراءهم فى الأناضول ، قد فقدوا كافة امتيازاتهم تحت وطأة الإدارة المركزية المركزة ، وأصبحوا مواطنين عاديين ، وكانت امتيازات الإمارة بالنسبة لهم أهم من مسألة المذهب .

لم يترددوا فى الذهاب إلى إيران واعتناق المذهب الشيعى ، بينما كانوا سنيين فى الأناضول ؛ حيث إن والى الإيالة هناك ، يكون قائدا وتستمر امتيازاته كلها . أما فى الأناضول فكانوا تحت إمرة الموظف الصغير الذى ترسله العثمانية من إستانبول . ولا يمكنهم جمع الضرائب وحشد الجنود أو ممارسة السلطة .

أرسل الشاه إسماعيل عملاءه وعيونه ــ الذين يسمى واحدهم « خليفة » ــ إلى الأناضول لإدخال « التركمان » الذين لم يسكنوا المدينة ، ويصبحوا « أتراكا » ، إلى المذهب الشيعى .

من ناحية أخرى ، كان يسعى إلى إضعاف وكسر شوكة الدولة العثمانية فى الأناضول عن طريق الفوضى والإرهاب .

وعلى الرغم من أن مصر كانت حائزة على الخليفة ، والمدن الإسلامية المقدسة والأمانات الإسلامية المقدسة والمؤسسات الإسلامية الكبرى كالجامع الأزهر ، فإنها كانت بالنسبة للشاه مسألة ثانوية ، ذلك أنه كان يدرك أنه عندما تتضعضع العثمانية فسوف تضمحل المماليك . والعكس ليس صحيحاً ، وكان يعلم أن الدولة المملوكية فى حالة انحطاط وفى فترة تدنٍ ، أو هى على أقل تقدير ، فقدت حيويتها ، أما العثمانية ، فإنها تعيش فترة حيويتها ، مستهدفة إقامة الدولة العالمية .

أرسل الشاه ، سفراء إلى البندقية ليخبرها بأنه عازم على القضاء على العثمانية ، وأنه على الدول الأوربية إن كانت تريد الحصول على بعض المكاسب أن تتحرك من روملى . كان يعلم أن البندقية ، هى مركز الدبلوماسية الأوربية .

لم يسع البندقية أن تقبل طلب حفيد حليف البندقية السابق أوزون حسن ، فقد كانت قد خرجت من حرب كبيرة مع العثمانية ، جلبت لها الهزيمة والانهيار الاقتصادى ، وهكذا لم يتيسر للشاه ، فى الوقت الحاضر، أن يجد له حليفا جادا .

قدم الطلب ذاته إلى القاهرة ، ولكن مصر كانت تدرك أنه لو اضمحلت العثمانية فسوف يتسلط الشاه إسماعيل عليها ، فأعرضت عن هذا الشيعى العاصى الذى تنفر منه .

طلب الشاه إسماعيل فى (١٥٠٧) ، إحدى بنات دلقادر أوغلو عبد الدولة بوزقورد بك ، للزواج بها . رفض دلقادر أوغلو تزويج ابنته من شيعى . اتخذ الشاه هذا الرفض ذريعه ودخل أراضى دلقادر . خرب مرعش وألبستان وأحرق جميع قبور سلالة دلقادر الموجودة فى تلك المدن ، وتمكن من القبض على أحد أبناء وحفيدى علاء الدولة وقتلهم . أرسل إلى بايزيد الثانى رسالة يعتذر فيها لاضطراره إلى المرور من الأراضى العثمانية .

كان دلقادر أوغلو علاء الدولة بك ، والد زوجة بايزيد الثانى ووالد أم الأمير ياوز سليم عائشة خاتون . لم تبد القاهرة واستانبول أى رد فعل إزاء مافعله الشاه ؛ وبناء على ذلك زاد اعتبار الشاه فى الأناضول وفى العالم الإسلامى بصورة كبيرة (١٥٠٨) .

جاء جيش عثمانى مكون من (١١٥٠٠٠) جندى إلى قيصرى . انتظر فيها طيلة سنة (١٥٠٨) تردد الشاه فى دخول حرب ميدانية ، وأرسل إلى البادشاه رسالة يستهلها بقوله : « أبى المبجل والمعظم » وأنسحب إلى عامد (دياربكر) .

جاء رد الفعل من الأمير (الشهزاده) سليم ، والأمير سليم هو حفيد (من ناحية الأم) دلقادر أوغلو علاء الدولة بك الذى فر من بلاده عندما ثار عليه الشاه .

كان سليم -رابع أبناء بايزيد الثانى الثمانية- واليا على لواء طرابزون ، وكانت أمه دلقادر أوغلو عائشة خاتون ، قد توفيت فى طرابزون قبل هجوم الشاه على بلاد دلقادر بقليل (١٥٠٥) ، ودفنت فى الجامع الذى شيدته فى هذه المدينة .

استدعى الشهزاده سليم ، آقويونلو (أصحاب الخرفان البيض) سلطان مراد آخر إمبراطور لأتراك آقويونلو فى إيران الذى طرده شاه إسماعيل من عرشه إلى طرابزون ومنحه وأولاده بيوتا ووظائف .

كان السلطان مراد متزوجا بعمة الشهزاده سليم ، وكانت أخت السلطان مراد ، تاجلى بغيم متزوجة بالشاه إسماعيل ، وكما سنرى سوف تؤسر تاجلى بغيم فى واقعة جالديران من قبل السلطان سليم .

سار السلطان سليم على كرجستان بـ (٣) حملات ، أشهرها حملة Kütayis فى (١٥٠٨) .

فتح فى هذه الحملات من الكرج الـ (١٥) قصبة الموجودة حاليا فى الجمهورية التركية ضمن الإيالات: قارص ، أرضروم آرتفين ، وأضافها إلى الأراضى العثمانية بصورة نهائية (بوسوف ، هاناك ، أردخان ، جلدر ، كوله ، إيسبر ، طورطم ، نارمان ، أولطو ، اولر ، شنقايا ؛ شاوشات ، آردانوج ، يوسف إيلى ، مركز آرتفين) . وفتح عدا ذلك آهيسكا وآهيلكلك اللتين بقيتا فى كرجستان حاليا .

أسلم جميع الكرج القاطنين فى هذه المناطق بصورة كاملة .

واحتل كذلك المدن من مخلفات إمبراطورية آقويونلو وهى: بايبورت، آرزنجان ، كاه ، إيسبر ، كموشخانه ، جميشكزك (طونجلى) وماجاورها وأضافها إلى لوائه .

أرسل الشاه ، الذى يدعى أنه وريث كل مخلفات آقويونلو ، أخاه إبراهيم ميرزا لاسترجاع هذه الأراضى . استصحب الشهزادة سليم ابنه الوحيد الشهزاده سليمان البالغ عمره (١٢) سنة وسار بسرعة إلى أخى الشاه . عثر على الجيش الصفوى قرب آرزنجان ودمره ، وأسر إبراهيم ميرزا .

أدت انتصارات الشهزاده سليم على الشاه ، الذى يسعى الخاقان جهده لعدم خلق مشكلة معه،إلى إكساب سليم اعتبارا كبيرا ، ولحنت فيه قصائد شعبية مثل:« سر سلطانى سر ، اليوم يومك » .

إن إدراك سليم للخطر الشيعى بهذا الشكل ، وإثباته فعليا قدرته على اتخاذ التدابير وحيازته على لواء فى مكان بعيد كطرابزون ، فتح طريق العرش أمام ابن البادشاه الصغير السن .

بناء على شكاية الشاه ، أملى الديوان الهمايونى على البادشاه رسالة لابنه . أطلق الشهزاده سليم سراح أخى الشاه ، ذلك بالإضافة إلى إخلاء آرزنجان ، وبايبورت ، وكماه وإيسبر وإعادتها للصفويين ، لكنه أعلن أن هذا العمل يعنى انعدام الشرف وأن آرزنجان لم يمض وقت طويل على فتحها على يد يلدرم بايزيد .

استاء الجيش من تسليم أراض للصفويين ، لم يلق تصرف الديوان الهمايونى ارتياحاً سواء لدى الجيش أو شعب أناضول ، أو الشهزاده سليم .

بعد أن نفذ أوامر الديوان وهو غاضب ، ترك سليم لواءه،دون طلب موافقة ، وانتقل فجأة إلى قرم فى خريف (١٥١٠) ، وأبلغ إستانبول بذريعة تهكمية مفادها اشتياقه لابنه الوحيد الشهزاده سليمان ، الذى كان أميرا على لواء كفة فى قرم منذ (١٥٠٩/٨/٦) ، والحقيقة أنه ذهب إلى قرم للحصول على مساندة والد زوجته خان قرم منكلى كيراى ، حيث كان إخوته الكبار قد بدءوا التحرك لوراثة العرش .

١٤ – مسألة الشهزادات (الأمراء) (١٥٠٩ – ١٥١٢) .

خلف بايزيد الثانى (٨) أبناء و(١٩) ابنة . أبناؤه حسب تسلسل أعمارهم هم : أولو شهزاده (١٤٨١ – ١٤٨٣) داماد عبد الله (١٤٦٥ – ١٤٨٣) ،

أولو شهزاده (أى ولى العهد) (١٤٨٣ - ١٥١٢) سلطان أحمد (١٤٦٦ - ١٥١٣) ، شهزاده سلطان قورقود (١٤٦٧ - ١٥١٣) ، ياوز سلطان سليم (١٤٧٠ - ١٥٢٠) ، شهزاده شهنشاه (١٤٧٤ - ١٥١١) ، شهزاده محمود (١٤٧٥ - ١٥٠٧) ، شهزاده محمد (١٤٧٦ - ١٥٠٤) ، شهزاده علم شاه (١٤٧٧ - ١٥٠٢) .

وبوفاة أمير لواء (والى) صاروخان الشهزاده محمود فى أواخر (١٥٠٧) فى مانيسا ، بقى للبادشاه (٤) أبناء أحياء : أحمد ، قورقود ، سليم وشهنشاه . كانت والدة آخرهم قرة مان أوغلو حسن (بضم حرف الحاء) شاه خاتون . ولذا أعطى الشهنشاه عرش قرة مان،أى أصبح واليا (فريق أول ، بكلربك) على قونية ، وقد حكم هذه الأيالات ذات البلايا بدراية تامة - بصحبة والدته - مدة ٢٦ سنة ، (٧) شهر وتوفى فى قونية فى (١٥١١/٧/٢) وعمره (٣٧) سنة ، ودفن فى بورصه . وبناء على ذلك ترك الشهزاده الأخير الذى يمكن أن يرث العرش المسرح فى صيف (١٥١١) ، وبقى المجال للإخوة أحمد ، قورقود وسليم .

كان السلطان أحمد أولو شهزاده ، أى ولى العهد ، منذ سنوات طويلة منذ وفاة أخيه الكبير أولو شهزادة عبدالله فى (١٩٨٣/١١/٦) . وكان واليا (سنجق بك ، لواء) على آماسيا (وبضمنها طوقات) منذ (١٤٨١/٥/٣) . كان السلطان قورقود خان الذى يصغره سنة واحدة رجلا داهية ، له ابنتان ، ومات له ابنان من الأمراء وهما طفلان . أى أنه بلا وريث . وكان ذلك مما يضعف حق ادعائه العرش . تولى قورقود خان لواء صاروخان (مانيسا) مدة (١٩) سنة (١٤٨٣/١٢/٣٠ - ١٥٠٢) ، ومكن لنفسه فى لواء صيغلا (أزمير) خلال هذه المدة . وفى (١٥٠٢) كلف بإدارة ألوية تكه وحميد (أنطالية وإسبارطه) ودفع إلى مناطق أبعد ، مما أدى إلى حالة عدم ارتياح واضحة لدى الشهزاده ، وقد كان ذلك مكيدة دبرها أخوه الكبير الشهزاده أحمد .

كان السلطان قورقود حاميا كبيرا للبحارة الأتراك ، البحرية وصاعقة البحر، الذين يطلق عليهم اسم « قرصان » ، وكان محبوبا من البحرية التركية . لكن البحرية لم يكن لها نفوذ يعتد به فى النظام العثمانى،فى أى وقت من الأوقات ، إذا ماتكلم الجيش .

ترعرع وازدهر أميرالات البحرية التركية العظام فى القرن (١٦) بحماية السلطان قورقود لهم . ومن بين هؤلاء أوروج رئيس ، وأخوه بربروس ، وطرغد باشا .

له مؤلفات بالعربية والتركية فى علوم الفقه ، والكلام ، والأخلاق، والتصوف .

كان الشهزاده عالما وفى ذات الوقت شاعرا ، وخطاطا ، وموسيقارا (فى موسيقى الساز التركية) وملحنا قديرا .

إن الحركات العسكرية المهمة التى حققها أخوه السلطان سليم ضد الصفويين دون حصوله على إذن من إستانبول ، وطبيعة الشهزاده قورقود ، لفتت فى إستانبول أنظار البادشاه ، الديوان (الحكومة) والجيش ، وأصبح واضحا أن جلوس أولو شهزاده أحمد على عرش أبيه لن يقابل بارتياح عند حلول موعد الجلوس .

تحرك قورقود بـ (٨) سفن و(١٣٧) شخصا من معيته من أنطاليا معرباً عن عزمه على الذهاب إلى الحج مقلدا عمه السلطان « جم » لإلقاء الخوف فى قلب أبيه . وفى ٢٩ أيار ، استقبله السلطان قانصوه فى القاهرة باحتفال عظيم جدا . ثم عاد .

لم يستجب طلبه فى منحه ولاية مانيسا القريبة من استانبول والتى ولى فيها سابقا . وأعطيت له إدارة أنطاليا وإسبارطة .

أما السلطان سليم ، فكان يقضى وقته فى قرم . كتب أولو شهزاده أحمد رسالة إلى خان قرم منكلى كيراى ، أبلغه فيها بأنه سوف يشكوه إلى أبيه ويطلب عزله، وطلب إليه أن يترك مساعدته لصهره سليم . لم يلتفت منكلى كيراى لذلك . أصدر الديوان أمره إلى الأمير بالعودة إلى لوائه فى طرابزون ، ولكن السلطان سليم ، إضافة إلى انه لم ينفذ أمر العودة إلى طرابزون ، ترك قرم وانتقل إلى روملى وطلب منحه لواء فى روملى، ولم تكن تعطى ألوية إلى الأمراء فى روملى نهائيا فى ذلك الوقت .

رغم ذلك ، أعطى للشهزاده سليم فى (١٥١١) ، إدارة (٥) ألوية دفعة واحدة (سمندرة ، وفيدين ، وآلاجه حصار ، ونيغبولو، وأيزفورنك) . وطد الشهزاده أقدامه بشكل متين فى ضفاف ألطونة الجنوبية .

كانت الأناضول فى هذه الأيام مسرحا للدم والنار ، وقد فتح ذلك طريق العرش أمام الشهزاده سليم ، باعتباره الشخص الوحيد الذى يمكنه دفع المصيبة الصفوية .

حدث عصيان شاهقولو فى هذه الأيام ، وشاهقولو هذا تركمانى من تكه (أنطاليا) ، أصبح لمدة من الزمن ضابطا سباهيا (خيالا) فى الجيش العثمانى ، ثم هرب إلى إيران بناء على دعوة من الشاه . حيث جرى تعليمه هناك وأصبح خليفة (وكيل مخابرات) فى أعلى المراتب .

جمع شاهقولو حوله جماعة من المهاجرين بعد دخوله خلسة إلى الأناضول . سار الوزير الأعظم على باشا إلى المتمردين . أباد شاهقولو وأعوانه فى الحرب الميدانية كوكجاى بين قيصرى وسيواس ، لكنه استشهد (تموز١٥١١) . ولقد كان موت على باشا الذى بقى فى السلطة مدة (٧) سنوات وكان مؤيدا للشهزاده أحمد ، عاملا آخر لصالح الشهزاده سليم .

جاء الشهزاده سليم من فيدين إلى أدرنة فى نفس اليوم الذى سقط فيه الوزير شهيدا (تموز ١٥١١) ، وتقدم حتى جورلو . ولما خرج أبوه أمامه ، تشتت وحدات الشهزاده ، وتمكن من الهرب بفضل حصانه العداء المسمى « قره بولوت » أى السحاب الأسود (أوغراش ده ره سى ، ١٥١١/٨/٣) . ولم يتمكن من العودة إلى روم‌للى .

ركب البحر وذهب إلى كفة فى قرم جوار ابنه سليمان .

تقدم أولو شهزاده محمد ، الذى ظن أن الفرصة قد واتته ، إلى مدخل استانبول وجاء حتى مالتبه (١٥١١/٨/٢١) ، لكن الجيش لم يرغب فى دخول ولى العهد إلى استانبول ، فقام بمظاهرات .

أمر الديوان ولى العهد بالعودة إلى لوائه .

جاء السلطان أحمد إلى قونية بدلا من ذهابه إلى آماسيا ، وطرد ابن أخيه محمد شاه (ابن الشهزاده شهنشاه) الذى كان واليا (سنجق بك) على لواء قونية ، وأعلن سلطنته فيها ، وهكذا أصبح فى وضع المدعى ، وفقد صفة ولى العهد الشرعى .

ظن الشهزاده قورقود أنه نال السلطنة عندما أصبح أخوه فى وضع العاصى . وكان يأتى بعده حسب تسلسل العمر ، فجاء فجأة من مانيسا إلى إستانبول . واجتمع بأبيه ، وبالجيش وبالعلماء . أظهر الكل له المودة والاحترام ، لكنهم أبلغوه بأن الحل الوحيد هو جلوس الشهزاده سليم .

جاء قرار تخلى بايزيد الثانى عن العرش نهائيا كمراد الثانى . وقد كان يرغب التخلى لصالح ولى العهد الشرعى أبنه الأكبر أحمد . لكن كون سليم ، الشهزاده الوحيد الذى تعلق عليه الآمال فى دفع البلية الصفوية ، وتمكن سليم من تقديم نفسه للجيش على هذا الأساس ، بالإضافة إلى طبع السلطان أحمد المنافى للسياسة..كل ذلك جعل البادشاه يدرك أنه لـن يتمكن من التخلى عن العرش إلى شخص آخر ، غير ابنه سليم ، وقد صاحب ذلك كله أن انتهز الشاه فرصة ترك السلطان أحمد أماسيا وإقامته فى قونية بدون إذن ، فأرسل خليفته المسمى نور على إلى منطقة آماسيا – طوقات . حيث ولد اضطرابات كبيرة ، سببت زيادة سقوط اعتبار السلطان أحمد .

أقام الجيش فى إستانبول مظاهرة كبيرة تؤيد السلطان سليم شاه بصراحة (١٥١٢/٣/٦) .

أدرك السلطان بايزيد أن الدماء ستهدر فى حالة إصراره على ابنه الكبير .

دعى السلطان سليم بصورة رسمية من سمندرة التى يقيم فيها . جاء الشهزاده إلى استانبول فى (١٩) نيسان .

كان السلطان قورقود الذى يكبره سليم بـ (٣) سنوات ، فى استانبول . استقبل أخاه بنفسه وهنأه ، وبذلك يكون قد أظهر قبوله سلطنة أخيه .

كان عمر بايزيد فى ذلك التاريخ (٦١/٥) سنة ، والسلطان أحمد (٤٦) سنة ، السلطان قورقود (٤٥) سنة ، والسلطان سليم (٤٢) سنة .

أعلن السلطان بايزيد فى (٢٤) نيسان وكان مريضا تخليه عن العرش لابنه سليم .

كان السلطان سليم راغبا فى إقامة والده فى السراى القديم فى بايزيد ، لكن السلطان بايزيد رغب فى الإقامة فى سراى Dimetroka .

تحرك السلطان بايزيد إلى Dimetoka بعد مكوثه (١١) يوما فى السراى القديم ، ولم يستطع ركوب الحصان لمرضه ، فنقلوه على المحفة .

شيعه ابنه السلطان سليم حتى الأسوار ، وودعه مقبلاً يده .

كان موكبه يسير بطيئا بسبب مرضه ، وكان يستريح فى كل موقف عدة أيام . لم يتمكن من الوصول إلى قرب ديمتوكا ، وتوفى بعد (٣٢) يوما من مغادرته إستانبول فى قرية آبالر فى قصبة حوصة (حفصة) (١٥١٢/٥/٢٦) .

نقل جثمانه إلى استانبول ودفن فى قبره الكائن قرب الجامع الذى شيده .

دامت سلطنة بايزيد الثانى (٣٠ سنة ، و١١ شهر ، و٢٢ يوما ، وبعبارة أخرى ٣١ وشهرين و٢٨ يوما) كان قبلها قد عمل وليا للعهد لمدة طويلة جدا (٣٠ سنة ، ٢ شهر ، ٢٨ يوما) . كان طفلا قد أكمل الأشهر الأربعة من عمره ، عندما اعتلى أبوه فاتح العرش للمرة (٣) (على اعتبار الرواية القائلة : إن ولادته (ك ١٤٥٠/١) ، وتقول الرواية الأخرى : إن ولادته حدثت فى (ك ١٤٤٨/٢) . تطلق عليه صفات ولى ، وصوفى، وغازى .

كان شاعرا ، وملحنا ، وعالما ، وخطاطا ، ومذهبا ، وصانع أقواس ، وهو أعلم بنى عثمان بعد أبيه فاتح . أخذ العلم عن علماء وجنرالات على درجة عالية من العلم والقدرة .

كان يجيد الأبجدية الأويغرية ، وتعلم جيدا اللغات الشرقية مع آدابها . وإضافة لذلك أخذ الرياضيات والفلسفة ، والعلوم الدينية عن أعلام تلك العلوم فى عصره . ولمزاياه هذه ، كان لوفاته وقع أليم ليس فى تركيا فحسب ، بل فى العالم الإسلامى أجمع . وعند سماع القاهرة بخبر وفاته ، أقيمت صلاة الجماعة للميت الغائب ، وكان على رأسها السلطان قانصوه.

توطدت واستقرت بشكل كامل فتوحات أبيه الكبرى . حافظ على سياسة والده العسكرية والبحرية ، وعزز الجيش والبحرية وجعلها ضعف ماكانت عليه فى السابق . زود بعض سرايا الانكشارية بالبنادق وأسس أول مشاة من حملة البنادق . كانت له مكانة عالية فى جميع الأقطار الإسلامية ، فى آسيا وفى أفريقياوكانت له مكانة كبيرة فى إيطاليا .

ساند كثيرين من الحكام والفنانين الإيطاليين ماديا بالنقود ، وعندما توسط فى إطلاق سراح دوق Mantova الذى أسره البنادقة نفذ مجلس الأعيان البندقى رغبة البادشاه فى جلسة واحدة (هامر ، ٤ ، ١٠٤) .

كان الشاعر الإيرانى الكبير ، "جامع" المقيم فى هرات ، وشيخ النقشبندية الكبير المقيم فى بخارى يتسلم كل منهما سنويا من السلطان بايزيد مبلغ (٥٠٠) آقجه ، ويمكن قياس عطاياه الأخرى على ذلك .

كان يقرأ بدقة كل مؤلف جديد يهدى إليه ، ويعطى للمؤلف مكافأة تتفق وقيمة الكتاب كأجر عن التأليف ، ويستدعى المؤلفين ذوى الكتب القيمة ويقابلهم ، ولايشجع المؤلفين الذين كتبوا مؤلفاتهم تملقا ومداهنة . كان رحيما ووفيا ومنصفا .

كتب الدبلوماسى الشهير Andrea Gritti الذى أصبح بعدها دوج،أى رئيس جمهور،البندقية ، على أيام بايزيد الثانى باليوز (سفير) البندقية فى استانبول ، يصف البادشاه فى رسالته السرية التى أرسلها إلى مجلس الأعيان يقول (١٥٠٣ ، Cantacasin ، Origine des Turcqz ، ص ٥٩ - ٦٢) :

« قامته أطول من المتوسطة ... لايتعاطى الشراب أبدا ؛ كان يشرب فى شبابه ثم تاب بضغط من أبيه ، يأكل قليلا ، يسر جدا لركوب الخيل ... أحب شيء إليه الصيد ورياضات الفروسية . يعظم الشعائر الدينية ويتصدق كثيرا ، يهتم بالفلسفة وعلوم الفلك ... وعدا الوقت الذى يقضيه فى الاطلاع ، فإنه يخصص وقتا طويلا للاهتمام بأمور إصلاح جيشه وتنسيقه وتنميته ... زاد عدد الانكشارية ، جهز جيشه بالأسلحة الحديثة والنارية ، أجرى إصلاحا جذريا خاصة بالنسبة للمدفعيين ونقلة المدافع . يتابع هذه الأعمال بدقة . خيالته وأسطوله ، هما اللذان حققا الأحداث الخارقة التى شهدناها ، فقد نظمها بشكل تستطيع به التجمع والاحتشاد بسرعة » .

لم يشهد عهده تلك الفتوحات الكبيرة جدا ، التى شوهدت على عهد أبيه وعلى عهد ابنه . تمكن خلال (٣٠) سنة من التوسع بمقدار (١٦٠,٠٠٠) كم² .

كانت مساحة الإمبراطورية عند وفاته نحو (٢,٢٧٣,٠٠٠) كم²،والدول التابعة المستقلة ذاتيا ضمن هذه المساحة وهى : إمارة قرم ، إمارة قسيم الواقعة بالقرب من

موسكو ، إمارات أفلاق، بغدان، والرومان ، جمهورية دبروفنك الصغيرة ، إمارة دلقادر .

أطول من بقى فى السلطة من وزارئه الأعظمين (رؤساء الوزارة) ، هم داماد قوجا (بالتركية : بغدان عن سواحل البحر الأسود بشكل تام وفتحه القلاع .. ولو أنها تبدو وكأنها عمليات صغيرة ، إلا أنها انتصارات إستراتيجية مهمة .

أطول من بقى فى السلطة من وزرائه الأعظم (رؤساء الوزارة) ، هم داماد قوجا داوود باشا (١٤٨٢ - ١٤٩٧) ، خادم عتيق على باشا (١٥٠١ - ١٥٠٣ + ١٥٠٦ - ١٥١١) ، داماد هرسك - زاده أحمد باشا (١٤٩٧ - ١٤٩٨ + ١٥٠٣ - ١٥٠٦ + ١٥١١) . منح الوزارة العظمى (رئاسة الوزارة) (١٤٩٨ - ١٤٩٩) إلى إبراهيم باشا ، كذلك ابن جاندارلى - زاده خليل باشا الذى أعدمه فاتح .

توفيت أمه كلبهار خاتون وهى ألبانية الأصل فى (١٤٩٣) خلال سلطنته وعمرها (٥٨) سنة .

(١٥) السلطان ياوزسليم وإخوته الكبار (١٥١٢ - ١٥١٣) .

كان السلطان سليم ــ الذى سمي « ياوز » ، أى (شديد) لقسوة طبعه منذ أن كان أميرا ، « سليم شاه » ــ مضطرا التأمين الأمن والوحدة فى الداخل لحل قضية إيران ، لذا كان يجب عليه قبل كل شيء ، تنحية أخيه الكبير ، الذى لايزال يدعى حق ولاية العرش .

دعا ابنه من كفة فى قرم إلى استانبول ، عند اعتلائه العرش . ترك أولو شهزاده سليمان ، نائبا للسلطنة فى استانبول عندما انشغل بقضية إخوته فى الأناضول، وكذلك خلال فترة حملة إيران الطويلة . كان سليمان ، الابن الوحيد للسلطان ، فى الـ (١٧) من عمره عند جلوس أبيه .

خرج مع (٧٠,٠٠٠) جندى إلى بورصة ، ومنها جاء إلى أنقرة . ترك السلطان أحمد قونية وذهب إلى آماسيا ، ولم يتمكن من البقاء فيها وهرب ، فى اتجاه ملاطية .

أرسل ابنيه إلى تبريز لطلب المعونة من الشاه إسماعيل الذى يتحين الفرصة لهدم تركيا ، والذى تسبب، حتى ذلك ، الحين، فى مقتل آلاف العثمانيين بمؤامراته فى الأناضول .

من الواضح ـــ بطبيعة الحال ـــ أن مجال النزاع كان واسعا ، ويؤكد ذلك ضخامة العدد الذى استصحبه ياوز من الجنود ، ففلم يكن قليلا عدد الذين يعتبرون السلطان أحمد بادشاه شرعيا لكونه الابن الأكبر ، ومن بين هؤلاء الوزير الأعظم لياوز ، قوجا مصطفى باشا ، وقد أعدم عندما ضبطت مراسلاته السرية مع السلطان أحمد .

استوزر داماد هرسك – زاده أحمد باشا للمرة (٤) وأصبح وزيرا أعظم . فى نفس الوقت لم يكن عدد الذين يخشون قسوة ياوز قليلين .

كان الوضع خطيرا إلى الدرجة التى قضى فيها ياوز شتاء (١٥١٢ – ١٣) فى بورصة دون أن يعود إلى إستانبول .

جرؤ السلطان أحمد على المجيء إلى يني شهر التابعة لبورصة . شتت ياوز قوات أخيه الكبير بسهولة ، فى الحرب الميدانية التى جرت فى (١٥١٣/٤/٢٤) .

خُنق السلطان أحمد بالقوس والوتر بعد أسره ، ودفن فى بورصة وكان عمره (٤٧) سنة .

كان لياوز أخ آخر على قيد الحياة ، وكان أحب إخوته إليه ، وهو السلطان قورقود الذى يكبره بـ (٣) سنوات . كان ياوز قد ولى أخاه السلطان قورقود الذى اجتمع به فى إستانبول على (٣) ألوية مدى الحياة (تكه = أنطالية ، حميد = اسبارطة وميدللى) . وقد طلب قورقود إضافة ألوية صاروخان (مانيسا) ، صيغلة (أزمير) ، آيدن ، منتشه (مغله) أى منطقة إيجه بكاملها ، ولم يجب طلبه .

كان قورقود قد غادر إستانبول ، وأقسم على عدم ادعائه حق السلطنة فى أى وقت من الأوقات ، وذهب إلى أنطالية .

أراد ياوز تجربة أخيه وطلب إلى الوزراء أن يحرروا رسائل بأسمائهم تشوقه إلى السلطنة . تورط قورقود وأرسل أجوبة إيجابية على تلك الرسائل المزيفة . اعتقل إثر

ذلك وأعدم فى (١٥١٣/٣/١٧) ، وقد جرى هذا الإعدام قبل إعدام السلطان أحمد بـ (٣٨) يوما .

أعدم ياوز كذلك أبناء إخوته ، ولم يستبق أى أمير عدا ابنه سليمان وعدة أمراء لجئوا إلى مصر وإيران ؛ ذلك أنه كان يعتقد أن أبناء إخوته سوف يدعون الحق فى العرش فى غيابه عند خروجه لحملة إيران .

(١٦) حملة إيران الهمايونية (١٥١٤/٣/٢٠ - ١٥١٥/٧/١١) .
انتصار جالدران (١٥١٤/٨/٢٣) .

أعلنت الحملة فى (٢٠) آذار،وسار الجيش من أسكدار فى ٢٣ نيسان . وصل قونية فى (١) حزيران واستراح مدة (٣) أيام . زار السلطان سليم ، المولوى كأكثرية السلالة ، مرقد مولانا .

ترك الخاقان فى سيواسى التى جاء إليها قوة مكونة من (٤٠,٠٠٠) جندى ، وواصل السير مع (١٠٠,٠٠٠) شخص :

وصل آرزنجان فى (٢٤) تموز وأرضروم فى (٥) آب .

أحرق التركمانى الأناضولى اسطه جالو محمد خان ، أكبر قواد الشاه ، كافة المحاصيل ، كما أحرق بقدر الإمكان ، المساكن الموجودة على الطريق الذى سيسلكه الجيش العثمانى اعتبارا من آرزنجان إلى تبريز .

تقدم الجيش الهمايونى (الإمبراطورى) بصعوبة . كان يسير أياما عديدة وليست لديه أية أخبار عن العدو . كانت المهمات الثقيلة الأساسية قد أرسلت من إستانبول بواسطة الأسطول إلى طرابزون ، ثم تحركت من هناك إلى آرزنجان وتم إيصالها إلى الجيش . جاء الجيش إلى قصبة بايزيد (دوغو بايزيد) ودخل منها إلى آذربيجان ، ونزل نحو الجنوب - الغربى بمحاذاة نهر زنكمار ، ووصل صحراء جالدران قرب ماكو . كان جبل آغرى على بعد (٥٠) كم نحو الشمال ـــ الغربى ، يتطلع إلى الجيشين العثمانى والصفوى .

إن جالدران هذه التى بقيت حاليا لدى إيران هى موقع فى شرق تبريز ، وهى ليست - كما تذكرها بعض الكتب - جالدران مركز ناحية قضاء مراديه لولاية وان . إن جالدران الأخيرة هذه ، أخذت اسمها كذكرى عن جالدران التاريخية .

كان الجيش الصفوى فى جالدران منذ مدة ، دخل الجيش العثمانى إلى صحراء جالدران يوم (٢٢) آب .

قرر المجلس العسكرى (ديوان حرب) العثمانى الذى اجتمع ليلة (٢٢ - ٢٣) آب ، القيام بالهجوم فجر يوم (٢٣) آب . كان يوم (٢٣) آب يوما من الأيام التاريخية التى ستقرر مصير تركية . لم تكن الدولة قد تهددت حتى ذلك اليوم بخطر خارجى كبير على هذه الدرجة ، عدا تيمور . كان الشاه تركيا كتيمور ، لكن تيمور كان سنيا ـــ حنفيا ، أما الشاه ، فإنه بالإضافة إلى أسرة للأقطار ، كان يريد أسر النفوس والضمائر ، وكان يستعمل لتحقيق ذلك الإرهاب والدم والنار والسيف . كان من الممكن أن يسفر انهزام الجيش العثمانى عن فرض الصفويين التشيع على أناضول الوسطى وإلحاقها بإيران . حيث إن مدينة عرش الصفويين ، كانت مدينة تبريز ، ولم تكن بعيدة جدا كمدينة عرش تيمور فى سمرقند فى تركستان .

فى الحروب الميدانية العثمانية ، يكون البادشاه دائما فى القلب،ويوجد على طرفيه فى الجناحين فيلقان ، تلتحق بها،إضافة لذلك ، وحدات الطليعة والاحتياط القوية جدا .

أما فى الجيش الإيرانى ، فإن الشاه كان فى الجناح الأيمن ، وكان على قيادة الجناح الأيسر والى دياربكر الفريق الأول اسطه جالو محمد خان تركمن ، ولم يكن هناك فيلق مركزى مستقل .

كان الطرفان متعادلان عددا (١٠٠٠٠٠ محارب لكل منهما) ، وكانوا قد أحضروا وحداتهم الممتازة جدا .

كان الخيالة التركمان ، يشكلون معظم الجيش الإيرانى ، وكانوا قد فرزوا حسب ألويتهم وأيالاتهم ، وعلى رأس كل واحد منها أمراء تركمان .

كان فى الجناح الأيمن العثمانى الفريق الأول سنان باشا،الذى كان واليا على الأناضول ثم صار بعدها وزير أعظم ، ورئيس أركان الجيش والى قرة مان الفريق

الأول زينل باشا ، وسباهيون الأناضول التمارلى ، وفى الجناح الأيسر والى رومللى الفريق الأول (بكلربك) حسن باشا وسباهيون روملى التمارلى . وفى المركز ، البادشاه ، والوزير الأعظم داماد هرسك - زاده أحمد باشا،وكانت فرقة مشاة الإنكشارية الثقيلة موجودة مع فرقة المدفعية ، وكانت فرقة صاعقة روملى فى مقدمة المركز .

كانت أسلحة الجيش العثمانى حديثة ، وتجهيزاته أكمل ، لكن الوحدات كانت مرهقة فقد قطعت طريقا مضنيا ، وقضى أكثرية الجند الليلة دون نوم بسبب التوتر الذى ولدته أخبار الحرب التى ستجرى فى صبيحة اليوم التالى .

كان تركمان الشاه ، شيعة متعصبين وفرسانا شجعان ومهرة ، لاهدف لهم سوى التضحية بأرواحهم فى سبيل شاههم ، ولم يكن للشاه مدفعية ولامشاة من حملة البنادق .

أما لدى العثمانية ، فإن الانكشارية الذين يبلغ عددهم (١٠,٠٠٠) - عدا بعض سراياهم - وكذلك وحدات كثيرة من المشاة الخفيفة (العزب ،مجهزون بالبنادق ، ولم يكن المدفع قد أصبح بعد ، لافى أوربا ولا فى آسيا ، سلاحا قطعيا ومؤثرا فى الحروب الميدانية ، وإنما كان يعتبر سلاح قلاع وحصار . وإن كان فاتح قد أثبت عكس ذلك عدة سنوات فى أوطلوق . بلى ان الدولة الوحيدة التى اعتبرت المدفع ، السلاح الذى لايمكن الاستغناء عنه فى الحروب الميدانية ، هى العثمانية .

بدأ جنود صاعقة روملى بالهجوم استشهد كل من ابنى ماقوج أوغلو بيوك بالى باشا فاتح وارشو ، الذى اشتهر بحملاته على بولونيا ، ولواءى الصاعقة أميرى لواء المغاوير الأخوين على بك وتور على بك،الواحد تلو الآخر،لايفصل بينهما غير دقائق . وقد دهش الشيعة التركمان ، الذين لايعترفون بوجود محاربين أقدر منهم ، عند مشاهدتهم الهجوم المخيف الذى شنه جنود صاعقة روملى .

أمر البادشاه بفتح الجناحين على شكل هلال ، وأخذت فرقة المدفعية موضعها ، وأخذت كتائب التركمان الشجاعة ، تتساقط بسرعة بنار المدفعية العثمانية . وبينما كان ياوز يتطلع إلى صحراء جالدران المليئة بعشرات الألوف من جنود الصفويين أغلق فيالقه فى الجناحين الأيمن والأيسر ، وساق فرقة الاحتياطية إلى الأمام ، وأمر بالهجوم

على مركز الجناح الأيمن الصفوى الذى يضم الشاه . جرحت يد الشاه ورجله ، وأخذ يستعد للهرب . خاب ذكر الرجل الذى أفنى « درزنا » (١٢) من الدول خلال (١٥) عاما . دخل بين صفوف الأتراك تركمانى شبيه بالشاه مرتديا لباسه قائلا باللهجة التركمانية ، « شاه منم » (أنا الشاه) ، وتمكن الشاه من الفرار أثناء انشغال السباهيين الأتراك الذين ظنوا أنهم أسروا الشاه .

ضحى (١٤) فريق أول تركمانى فى ساحة القتال وعدد غير معلوم من الضباط برتبة لواء بأنفسهم فى سبيل الشاه . استشهد من العثمانيين فريق أول واحد و(٩) ضباط برتبة لواء (سنجق بك) . على رأس كبار الصفويين الذين قتلوا : الصدر الأعظم الصفوى الباق بك ، ووالى ديار بكر الفريق الأول وأحسن قواد الشاه اسطه جالى محمد خان توركمن ، والقضعسكر (قاضى العسكر) الصفوى سيد حيدر ، ووالى (فريق أول) بغداد وأخو زوجة الشاه خلفاء بك توركمن ، ووالى (فريق أول) خراسان لالابك توركمن ، ووالى عراق العجمى (همدان) تكه لى (أنطاليه لى) يكان بك .

انتقل سرادق الشاه ، وعرشه ، وخزينته التى تضم أكبر الماسات العالمية وزوجته تاجلى خانم لحوزة العثمانية . بقي السلطان ياوز سليم يومين فى ساحة الحرب ، ودخل تبريز بعد مسيرة (١١) يوماً (١٥١٤/٩/٦) .

قرر الشاه عدم إمكان الدفاع عن مدينة العرش تبريز بعد مروره عليها ، وهرب إلى المناطق الداخلية من إيران . كان عدد سكان تبريز فى ذلك التاريخ يتجاوز المليون نسمة ولم يكن فى أوربا – بما فيها إستانبول – أى مدينة بهذا الحجم . كانت تبريز مدينة تركية تماما . تليت الخطبة بالشعائر السنية ، وباسم السلطان سليم (١٥١٤/٩/٨) . أمر ياوز بإرسال نحو ألف فنان وعالم وشاعر من تبريز إلى استانبول ، وألحقهم جميعا فى وظائف فى السراى الهمايونى ، ومكث البادشاه فى تبرير (٩) أيام .

يعتبر أهم شخص أرسله البادشاه إلى استانبول ، هو آخر خاقان لخراسان (هرات) لبنى تيمور السلطان بديع الزمان ميرزا ، وهو الابن الأكبر للسلطان حسين بايقره وخلفه . الذى لجأ إلى سراى تبريز عندما طرده من هرات جنكيز

أوغلو محمد شاياك خان ، ولقى احتراما من الشاه ، وقد أبدى له ياوز احتراما أكثر وخصص له راتبا كبيرا جدا ، وقد أجلس بديع الزمان على عرش أقامه بجنبه ، وتوفى الخاقان التركستانى والشاعر باللغة التركية فى استانبول وعمره ٤٦ سنة (١٥١٥/٨/١٢) .

احتل محمد شاياك خان الذى ينحدر من سلالة جنكيز خان وجوجى أولوسو ، سمرقند كذلك بعد هرات وأخرج بنى تيمور من تركستان إلى الأفغان والهند . تدهورت مدينة هرات ، أكبر مدينة فى العالم (تقريبا ٣ ملايين) بعد هذا الاستيلاء بسرعة ، لكن الشاه إسماعيل انتصر على شاياك خان فى الحرب الميدانية طاهر آباد ، قرب مرو وقتله (١٥١٠/١٢/٢) .

توجه الشاه بعد ذلك ، نحو الغرب ، نحو الأناضول ، إلى العثمانية . وقد كانت الأناضول الشرقية والجنوبية - الشرقية أساساً فى حوزته .

أصيب الشاه بعد جالدران ، بفقدان الأمل والكآبة ، كجده أوزون حسن تماما .

لم تظهر فى تركية مسألة صفوية لمدة (٢٠) سنة ، ولكن لم يتم القضاء على الصفويين،ولا أمكن تخليص إيران من التشيع . إذ إنها كانت دولة شابة فى فترة تأسيسها .

كان هدف ياوز أخذ إيران والدخول إلى تركستان ، ولكنه لم يتمكن فى حملته هذه من تحقيق ذلك الهدف . ظهرت علامات عدم الارتياح لدى الجيش . ولم يرغب فى الحملة على إيران ، وتقرر إرجاء فتح إيران إلى حملة جديدة .

كان مراد خان آخر سلاطين اقويونلو ، قد اشترك فى جالدران فى صفوف العثمانية . أسفرت معركة جالدران عن انتقال الأناضول الشرقية والجنوبية إلى العثمانية عدا القسم الموجود لدى المماليك .

أخذ أمراء الأكراد السنيون الشافعيون ، الذين ظلوا تحت ضغط الشيعة ، فى الانضمام إلى الدولة العثمانية الواحد تلو الآخر .

ألحقت إمارة دلقادر - التى كانت تحت حماية العثمانية منذ (١١٧) سنة - بالحكم المباشر (منطقة ماراش) .

منح ياوز لبنى دلقادر رتبا ووظائف كبيرة ، لكونه من سلالة دلقادر من جهة الأم . عين دلقادر أوغلو علي باشا ، كأول وال (بكلربك) على إيالة دلقادر التى تأسست حديثا ، وهو خال ياوز من الدرجة الثانية (ابن عم أمه) (١٥١٥/٦/١٢) .

استولى والى (فريق أول) آرزنجان بييقلى محمد باشا (سابقا أمير آقويونلى) على مدينة عامد البلدة الكبيرة من الصفويين (١٥١٥/٩/١٩) . قاومت غامد بشدة . كان والى دياربكر اسطه جالو قرة خان تركمن ، أخا لمحمد اسطه جالو بك الذى مات فى جالدران . صان شرف الشاه حتى الممات .

. كسر بييقلى محمد باشا مقاومة الصفويين ، وأباد الجيش الصفوى فى الحرب الميدانية التى جرت فى قوجحصار (١٥١٦/٥/٤) على بعد (١٥) كم من جنوب غربى ماردين . وأصبح أول وال على إيالة دياربكر التى تشكلت حديثا .

لجأ سليمان توركمن خان أخو قره خان إلى ماردين . فتحت ماردين على يد بييقلى محمد باشا بعد أن قاومت حتى (٧ نيسان ١٥١٧) . انتقلت بيره جك الميناء النهرى المهم الواقع على ساحل الفرات الشرق خلال تلك الأيام ، وملكية حصن كيفاء (Hasankeyf) الأيوبية إلى العثمانية . ترك ياوز الملك على عرشه إجلالا لذكرى صلاح الدين الأيوبى . ثم ألحق حصن كيفاء بالحكم المباشر على عهد القانونى عند وفاة الملك .

هبط بييقلى محمد باشا إلى رقة فى سوريا واحتلها كذلك . وهكذا أصبحت الأراضى العثمانية على حدود الدولة المملوكية .

(١٧) بداية حملة مصر الهمايونية (١٥١٦/٦/٥)

مكث السلطان سليم فى استانبول بعد عودته من جالدران ، مدة (١٠) أشهر ، (٢٥) يوما . وفى (٥) حزيران (١٥١٦) ، عبر إلى إسكدار . تعتبر هذه هى الحملة الأولى والأخيرة لحاكم عثمانى على المماليك ، فعلى الرغم من أن يلدرم بايزيد كان قد احتل بنفسه (ملاطية) من المماليك فإن حملته لاتعتبر حملة مملوكية ،

عين الوزير (٣) بيرى محمد باشا نائبا للسلطنة فى إستانبول . أما الشهزاده سليمان ، فإنه أرسل إلى أدرنه محافظا للعرش والإشراف على روملى.

من المعلوم أن المماليك كانوا يتحاشون الحرب مع العثمانية ، ويعملون جهدهم لتفاديها ، لكنهم كانوا عازمين على الدفاع عن قطرهم بكل قوتهم .

غادر السلطان « قانصوه» القاهرة فى (١٨ آيار ١٥١٦) وجاء إلى سوريا لغرض التفتيش ، وكان يصاحبه الخليفة المتوكل (٣) وقضاة القضاة للمذاهب السنية الأربعة .

كانت الإمبراطورية المملوكية المصرية ـــ السورية ، الثالثة فى الأهمية فى العالم بعد تركية وإيران .

حمى المماليك سابقا سورية من المغول والإيلخانيين وتيمور بنجاح ، احتلت سورية ، لكنها استعيدت . أما مصر ، فقد كانت تعتبر قطرا مصانا من الناحية الجغرافية .

وفى (٢٣) تموز ، جاء ياوز مع الجيش الهمايونى إلى ألبستان (وتقع بين ماراش وملاطية) ، وكانت لدى المماليك . التأم فى هذا الموقع مع جيش سنان باشا البالغ (٤٠,٠٠٠) جندى . وفى هذه النقطة سوف تتحدد وجهة الجيش،إما تجاه إيران وإما تجاه مصر . وقد كانت رغبة ياوز فى حملة ثانية على إيران ومحوها من الخارطة أمرا معلوما ، وكان الشعب فى القاهرة ، يبارك الفتوحات التى حققها بييقلى محمد باشا على الصفويين ، حتى شهر تموز (١٥١٦) .

لكن السلطان سليم ، اجتاز فى ٢٧ تموز الحدود العثمانية – المصرية وجاء فى اليوم التالى أمام ملاطية . وهكذا اتضح هدف الحملة .

فى (٣٠) تموز اجتمع المجلس العسكرى فى الضفة الجنوبية من نهر Tohma على مقربة من شمال ملاطية . وفى (٣) آب ، حضر بييقلى محمد باشا من دياربكر مع حفيده . وفى (١٨) آب احتل العثمانيون بسنى من أملاك المماليك . وفى اليوم ذاته ، جاء يونس بك والى عينتاب (Gaziantep) أعلى ولاة المماليك فى الأناضول ، وسلم مفاتيح المدينة إلى البادشاه . أما رمضان أوغلو فى جقورأوفا التابع للمماليك ، فكان قد فعل ذلك منذ (٢٧ تموز ١٥١٦) . والحقيقة أن رمضان أوغلو

محمود بك ، كان قد أعلن طاعته فى نهاية (١٥١٤) وجاء فى (١٥١٥) إلى إستانبول ودخل فى خدمة العثمانية . وهو الآن يلحق الإمارة بالعثمانية . أعطى البادشاه إدارة أدنة إلى بنى رمضان ، وسوف يظل لواء أدنه لدى بنى رمضان حتى (١٦٠٨) ، وسوف يصبح أمراء هذه السلالة ولاة على الأيالات الممتازة جدا .

وبينما تجرى الأمور على هذا الشكل الذى يصعب على العقل تصوره ، راجع السلطان قانصوه، الشاه إسماعيل وطلب إليه الحملة على العثمانية ، وإلا فإن العثمانية سوف تتجه إلى إيران بعد أن تفرغ من مصر . لكن الشاه،الذى يبدو أنه قد اتعظ بصورة جيدة من الدرس الذى تلقاه ، رفض اتفاق مصر .

(١٨) واقعة مرج دابق (١٥١٦/٨/٢٤)

كانت قد مضت على جالدران سنتان بالضبط . وفى هذه المرة ، تقابل الجيشان العثمانى والمصرى فى مرج دابق (بالعربية : مرج الدابق) . وهى قريبه جدا من حلب .

كان مع الجيش العثمانى (٣٠٠) مدفع ، وكان عدد جيش المماليك (٨٠,٠٠٠) جندى ، لم يتمكن المماليك من الاستفادة من قلة عدد العثمانيين (٦٠٠٠٠) بفضل هذه المدافع الـ (٣٠٠) .

كان نائب السلطنة للشام شباى فى الجناح المملوكى الأيمن ، ونائب السلطنة لحلب خيرباى فى الجناح الأيسر . والسلطان قانصوه،وعمره (٦٦) سنة ، مع الخليفة فى القلب .

كان قانصوه شاعرا فى اللغات التركية العربية والفارسية ومؤلفاً فى العربية ، كان حاكما قديرا وعسكريا قديما ومجرباً .

كان السلطان ياوز سليم فى سن الـ (٤٦) .

كان الجيش المملوكى يتكون من الشراكسة والتركمان ، عدا عدة كتائب من البدو ، كانو محاربين شجعان معتدين بأنفسهم ، فقد كانوا ورثة الجيش الذى نال انتصارات كبيرة على الصليبيين والمغول المشركين .

لكن السلطان سليم أنهى الحرب نحو العصر فى أقل من (٨) ساعات . مات السلطان قانصوه وشباى (Sibey) فى الحرب . أسر الخليفة . انتقلت الخزينة المملوكية والسرادق السلطانى إلى حوزة الأتراك . فر خيرباى ، لكنه أسر بعد مدة .

دخل السلطان سليم حلب بعد (٤) أيام (١٥١٦/٨/٢٨) . كانت إحدى أكبر بلدان العالم ، ومركزا كبيرا للتجارة . أسست إيالة حلب وولى قره جه باشا على حلب . عومل الشعب وكأنه من الرعية العثمانية منذ القدم ودخل الجيش وكأنما يدخل مدينة عثمانية . كان ذلك من معالم سياسة السلطان سليم الإسلامية وسياسته فى الاتحاد الإسلامى .

(١٩) انتقال الخلافة الإسلامية من العباسيين إلى بنى عثمان (١٥١٦/٨/٢٩) .

كان مقام الخلافة الإسلامية ، لدى السلالة العباسية منذ سنة ٧٥٠ أى منذ ٧٦٦ سنة . كان العباسيون حتى (١٢٥٨) فى بغداد . وعلى أثر استيلاء المغول - المشركين فى هذا التاريخ - على بغداد انتقلوا إلى القاهرة وأصبحوا خلفاء تحت حماية السلطان المملوكى . وعندما كانوا فى القاهرة ، لم يكونوا أصحاب دولة أو حكم .

كان المماليك ، بحيازتهم للخليفة ، والمدن المقدسة (مكة ، والمدينة ، والقدس) ينظرون إلى أنفسهم على أنهم الدولة العليا فى العالم الإسلامى . كانت القدس المدينة المقدسة الأولى بالنسبة للأديان المسيحية والموسوية أيضا . كان (٣) من البطاركة الـ (٤) الأرثوذكسيين فى البلاد المملوكية (إسكندرية ، قدس ، أنطاكية) . انتقلت الآن كافة هذه المميزات المعنوية العليا ، إلى العثمانية .

كانت الفكرة فى حملة ياوز على مصر ، أنها تمثل أهم مرحلة من مراحل أفكاره الأساسية فى تكوين الاتحاد الإسلامى : اتحاد إسلام) ، ذلك أنه كان يرى أن مماليك مصر لم يقدروا ولن يقدروا على تحقيق هذا الهدف ، وكان السلطان سليم مقتنعا بأن العثمانية ، سوف توفق إلى تحقيق ذلك الهدف .

وعند عودة البادشاه من مصر ، استصحب معه إلى استانبول كلا من الخليفة

المتوكل على الله (٣) ، أبناء عمومته أبا بكر وأحمد وقاضى القضاة الشافعى فى مصر ، وشخصيات رفيعة أخرى بينها ابن السلطان قانصوه محمد بك وعائلته (ابن إياس ، (٣ ، ١٩ = ٢٠) . لم يعط السلطان سليمان القانونى إذنا بعودة الخليفة إلى القاهرة ، إلا فى (١٥٢١) (ابن إياس ، وقائع ٩٢٦) . وبذلك يكون المتوكل قد عاش فى استانبول مدة (٣) سنين . عاش بعد عودته إلى القاهرة مدة (٢٢) سنة ، ومات فيها فى (١٥٤٣) . كان المتوكل (٣) قد تسلم الخلافة فى (١٥٠٩) عن أبيه المستمسك الذى عزل من مقامه وبقى فى الخلافة (٧) سنوات واستمرت مصر معترفة بالمتوكل (٣) كخليفة بعد وقوعه فى يد العثمانية ، لكنها عينت ابوه المستمسك وكيلا لابنه . سقط المستمسك من الوكالة عندما استولى ياوز على مصر فى السنة التالية . لم يستصحبه البادشاه إلى استانبول لكبر سنه .

كان المتوكل (٣) ، الخليفة الـ (٧٣) ، من سلسلة الخلفاء والخليفة الـ (٥٤) من الخلفاء العباسيين والخليفة (١٧) من الخلفاء العباسيين فى القاهرة . والمتوكل الذى جرده طغرل بك السلجوقى من صلاحياته الدنيوية (وقد قلد المماليك السلاجقة فى هذا الشأن) والذى جعله رئيسا روحيا ورمزا للاتحاد الإسلامى ، كان حفيدا للقائم فى البطن (١٥) ، ولهارون الرشيد فى (٢٣) ، وللخليفة العباسى (٢) ومؤسس مدينة بغداد المنصور فى (٢١) ، وللعباس عم الرسول ﷺ فى (٢٩) ولعبد المطلب جد الرسول ﷺ فى البطن (٣٠) . خلف عدة أبناء ، ولكن السلالة العباسية ، انقطعت بعد ذلك .

وتقول إحدى الروايات : إن المتوكل (٣) تنازل عن الخلافة إلى بنى عثمان فى مراسم جرت فى أياصوفيا بعد عودته مع ياوز إلى استانبول .

من الممكن أن تكون قد حدثت مثل هذه المراسم،ولكنه ينبغى أن تلاحظ أن السلطان سليم قد أصبح خليفة بالفعل عندما كان فى حلب قبل هذه الحادثة .

ومن الروايات التاريخية الأخرى ، أن المتوكل (٣) قلد السلطان سليم السيف والبسه الخلعة فى جامع أيوب سلطان (بالعربية : أبو أيوب الأنصارى) بعد مراسم أياصوفيا ، وقد اشترك فى هذه المراسم علماء الأزهر الذين جلبوا إلى استانبول وعلماء العثمانية ، وأن الخلافة انتقلت إلى بنى عثمان بقرار هذا المجلس .

ولكن المؤكد كذلك أن السلطان سليم قد اعتبر نفسه خليفة فى أول صلاة جمعة فى حلب ، فعندما وصف الخطيب الذى تلا الخطبة باسم السلطان سليم فى أول صلاة جمعة (١٥١٦/٨/٢٩) فى الجامع الكبير فى حلب ، ياوز بوصف « حاكم الحرمين الشريفين » تدخل البادشاه وبدل كلمة « حاكم » إلى « خادم » . والمعلوم أن الخلفاء الذين انحدروا من بنى عثمان ، لقبوا بصورة رسمية حتى ١٩٢٤ بلقب « خادم الحرمين الشريفين » .

خر السلطان سليم الذى لم يتمكن من السيطرة على دموع عينيه ، على الأرض ساجدا سجدة الشكر ، ووضع رأسه على أرض المسجد المرمرى بعد رفعه للسجادة من الموضع الذى يجلس فيه ، فرحا لنيله خلافة الرسول ﷺ الشرعية .

لقد أثار هذا التدين والتواضع الجماعة وكهربها .

خلع ياوز بعد ذلك خلعته التى لاتقدر بثمن وألبسها الخطيب . ثم أمر بنقل الأمانات المقدسة الموجودة فى القاهرة ومكة إلى سارى طوبقابو فى استانبول، وشيد جناح خرقه، شريف (البردة الشريفة) لحفظها ، واكتملت صفة خلافة السلطان سليم بانتقال القدس ، والمدينة المنورة ومكة المكرمة إلى الإدارة العثمانية .

(٢٠) من حلب إلى القاهرة (١٥١٦/٩/١٩ - ١٥١٧/١/٢٢) .

جاء السلطان سليم ، من حلب إلى حماه(١٩ أيلول) ، وإلى حمص (٢١ أيلول) ، وإلى الشام (٢٧ أيلول) . لم يلق مقاومة . بقى فى مدينة عرش الأمويين شهرين و(١٨) يوما حتى (١٥ ك ١) . أمر بإصلاح الجامع الأموى وقبرى صلاح الدين الأيوبى والشيخ الأكبر محيى الدين بن العربى . وطلب تشييد جامع باسمه (دفن أكثرية بنى عثمان الذين توفوا فى المنفى فى نصف القرن الذى يلى ١٩٢٤ فى حديقة جامع السلطان سليم فى الشام) .

تقدم الوزير الأعظم سنان باشا مع (٧٠٠٠) جندى كوحدة طليعية . التقى بـ (١٠,٠٠٠) جندى مملوكى لجانبرد (وبلغة تركية تركيا : جان ويردى) غزالى فى خان يونس على حدود سيناء ـــ فلسطين ، هزمهم فى(١٥١٦/١٢/٢١) ، وتمكن

(١٠٠٠) جندى مملوكى فقط من الفرار إلى مصر . أسر البقية .

غادر السلطان سليم الشام فى (١٥ ك ١) ووصل القدس الشريف فى (٣٠ ك ١) . صلى فى المسجد الأقصى ــ الذى أنير ترحيبا بقدومه بـ (١٢٠٠٠) قنديل ــ ركعتى صلاة الحاجة (فتحنامة ديار عرب v. 33 B) .

تحرك فى اليوم التالى ووصل غزة فى (٢ ك ١٥١٧/٢). واحتفل فيها بالعيد الأضحى وبعد مكوثه (٣) أيام ، ذهب فى (٦ ك ٢) نحو الشرق إلى خليل الرحمن وزار قبر إبراهيم (ع . س) ، وفى (٩ ك ٢) جاء إلى صحراء التيه (سيناء) وبدأ فى اجتياز الصحراء .

تمكن السلطان سليم مع جيش كبير خلال (١٣) يوما (٩ – ٢٢ ك ٢) من تحقيق محاولة اجتياز صحراء التيه ، وهى الصحراء التى لم تحاول أية شخصية عالمية فى التاريخ تجربة اجتيازهاجبرا (حتى تيمور خشى من ذلك) والمشهور عنه أنه اجتاز المسافة بين قطية وقنطرة ، والتى تبلغ (٥٠) كم فى يوم واحد . لكن مسيرة الجند تراجعت فى بعض الأيام إلى (١٨) كم . كان معدل السير (٣٠) كم فى اليوم . كان سنان باشا يتقدم الجيش مع (٦٠٠٠) خيال . كان الأسطول الهمايونى فى شرق البحر الأبيض . وأخيرا تم اجتياز برزخ السويس ودخول مصر . توجه السلطان سليم نحو الجنوب – الغربى واقترب من القاهرة وكان قد تسلم فى (٢١ ك ٢) من سنان باشا تقريرا مفصلا عن النظام العسكرى للمماليك .

(٢١) واقعة الريدانية (٢٢/ ك ٢/ ١٥١٧)

استعد السلطان طومان باى الذى انتخب مكان السلطان قانصوه وأبدى جهودا جبارة فى تجهيز جيشه بشكل تام ، وقام بتحصين القاهرة بصورة ممتازة . كان شخصا جسورا . كانت الخطة المملوكية مبنية على أساس هزيمة ياوز وإجباره على التراجع إلى الصحراء ومطاردته فيها وإبادته ، ثم يكون استرداد سورية بعد ذلك من الأمور البسيطة .

كان عدد الجيش المملوكى فى ذلك العهد ٤٢٦٠٠٠ شخصا ، وبالطبع فانه ليس بالامكان جمع كامل هذه القوه فى حرب ميدانية واحده . كانت القوة الضاربة الاساسية ١٣٣٠٠٠ خيال من الاتراك او الشراكسه المستتركين . وكان لديه ٩٣٠٠٠ بدوى من المتطوعين الذين كانوا لا يستخدمون فى الحروب الميدانية . كانوا يقومون بالواجب الذى تقوم به الصاعقة العثمانية ، لكنهم لم يكونوا منظمين فى تشكيلات منتظمة كالصاعقة التركيـة ، كما أنهم لم يكونـوا خـاضعين لتنـظيم مركـزى . ومن المعلوم أن البدو يحبون القتال ، ولكنهم أحرار المزاج ، ولاتروقهم الحرب النظامية ، ومن ناحية أخرى ، كان للمماليك جيش مكون من ١٨٠ ٠٠٠ تركمانى وجيش احتياطى يبلغ عدده ٢٠ ٠٠٠ من الأكراد أكثره خيالة ، وكانت هذه القوات تجمع من الأناضول وشمال سورية وتستدعى عند الحاجة ، ولما كان هذان القطران تحت سيطرة العثمانية حاليا ، فقد كان من المتعذر الاستفادة من تلك القوات (خليل الظاهرى ، زبدة كشف الممالیك ، منشورات P.Ravaisse باريس ١٨٩٤ ، ص ١٠٤) .

نزل السلطان سليم حتى خط عرض ٣٠ . ولم يسبق لأى بادشاه عثمانى أن نزل إلى تلك الدرجة (نزل القانونى ومراد فقط إلى بغداد فى خط عرض ٣٣) .

كانت الظروف مواتية لصالح المماليك ، فقد كانوا فى قطرهم ، وهم بذلك سوف يدافعون عن أراضيهم التى حكموها بلياقة والتى أقاموا فيها منذ مئات السنين .

ولم يكن العثمانيون أكثر دراية من المماليك بالظروف الطوبوغرافية والاثنوغرافية البشرية والاجتماعية لهذه البلاد ، كما أن الخيال المملوكى لم يكن أقل شجاعة من السباهى التركى ، وكان طومان باى عسكريا شابا نشطاً ومقتدرا .

كان للمماليك ٢٠٠ مدفع حصلوا عليها من العثمانية والبنادقة . لكنها كانت مدافع قلاع ليست سيارة ، ولايمكن مقارنتها بالمدافع العثمانية .

استعمل ياوز فى حملته هذه للمرة الأولى المدافع ذات السبطانات الأخدودية التى يمكن مشاهدة نماذجها حاليا فى المتحف العسكرى فى استانبول ، أما فى أوربا فقد استخدمت هذه المدافع ذات السبطانات الأخدودية لأول مرة فى الجيش البروسى فى ١٨٦٨ .

استعمل السلطان سليم لأول مرة كذلك فى الريدانية ، المدافع المسبوكة حديثا والمجربة التى تطلق من ٥ إلى ١٠ طلقات بين الواحدة والأخرى فترة زمنية قصيرة جدا .

بالإضافة إلى ماتقدم يجب أن نضع فى الاعتبار أن نظام الجيش العثمانى ليس له مثيل فى أية دولة أخرى فى ذلك العصر . إن الدهاء العسكرى للسلطان ياوز سليم خان الذى كان عمره ٤٧ سنة ، لامثيل له .

كان المماليك ينتظرون العثمانيين من ناحية عادلية ، فقد كان هذا هو الطريق الملائم والمفتوح . ولايمكن دخول القاهرة قبل اجتياز الاستحكامات المملوكية الموجودة فيها . كانت فوهات ٢٠٠ مدفع موجهة نحو المستولى فى العادلية ، وكان تقرير الاستطلاع لسنان باشا قد أعلم السلطان سليم بتحكيمات عادلية ، وأن مدافع المماليك مثبتة ولاتتحرك ، وبناء على ذلك وبعد أن أمر البادشاه عدة كتائب بالتظاهر بالهجوم ، نزل بالقوات الكبيرة إلى الجنوب واستدار حول جبل المقطم وأصبح خلف القوات المملوكية . ويعتبر بهذه المناورة التاكتيكية قد انتصر فى المعركة ، وكسب الحرب فى ذات الوقت .

عندما شاهد طومان باى ، الذى كان قلقا من أن ينتهى إلى نفس عاقبة عمه فى مرج دابق والذى رسم خطتهعلى أساس إهلاك السباهيين العثمانيين أمام المواقع الاستحكامية وإفنائهم ؛ .. عندما شاهد العثمانية خلفه ، أدرك حلول العاقبة التى كان يخشاها ، واضطر إلى الخروج إلى الصحراء المفتوحة ومجابهة العثمانيين ، ولم تتمكن المدافع المملوكية الموجهة إلى جهة عكسية من عمل شىء ، لعدم إمكان تحريكها من أماكنها .

أخذ طومان باى فرق خيالة قورتباى وآلانباى الثقيلة المصفحة وحمل بنفسه على قلب العثمانية . كان يروم قتل البادشاه وحل القضية من أساسها . حيث إنه كان قد تحرى وعرف أن خطة العثمانية تتمثل فى إرهاق العدو عدة ساعات ثم تشرع فى القضاء عليه ، فأراد الا يتيح ذلك للعثمانية . لكن البطولة لم تجد نفعا تجاه المدافع العثمانية .

انسحب طومان باى بعد أن تكبد خسائر جسيمة . أما جانبردى غزالى ، فقد حمل على جناح العثمانية الأيمن ، فأصيب الوزير الأعظم سنان باشا الذى كان يقود هذا

الجناح ، وبذلك يكون غزالى قد انتقم لنفسه من سنان باشا الذى هزمه فى حرب غزة (خان يونس) الميدانية .

مات رمضان أوغلو محمود بك ومبارك كيراى أحد الأمراء القرميين . كما كان بين القتلى كذلك أهم رجال المملوكية .

تكبد المماليك ٢٥٠٠٠ قتيل ومايقرب من هذا الرقم من الأسرى ، وترك السلطان طومان باى ساحة الحرب ، وانتقل سرادقه وخزينته لحوزة العثمانية . كان الوقت مساءً . تفقد السلطان سليم فى اليوم التالى ساحة ردانية (شمالى شرقى القاهرة) . وعين بدلا من سنان الدين يوسف باشا ، الوزير ٢ يونس باشا ، وزيرا أعظم .

(٢٢) فتح القاهرة (٢٤/ك ١٥١٧/٢)

دخل العثمانيون القاهرة فى ٢٤ ك٢ .

كانت القاهرة من أكبر وأغنى مدن العالم . انتقلت الخزينة المملوكية وقسم من الامانات المقدسة لحوزة العثمانية وأرسلت إلى استانبول . مثل فى اليوم التالى محمد بك ابن السلطان قانصوه الذى مات فى مرج دابق بين يدى السلطان سليم الذى أرسله معززا مكرما إلى استانبول ، وقد كان محمد بك قد سعى إلى أن يكون سلطانا مكان أبيه ، لكن أمراء المماليك كانوا قد انتخبوا ابن العم طومان باى ، ولذلك فقد كان محمد بك غاضبا على طومان باى وعلى الأمراء .

حمل طومان باى الثانى على القاهرة فى ٢٨ ك ٢ قبل طلوع الفجر . كان الجيش والسلطان سليم خارج القاهرة ، وكان قد ترك فى المدينة وحدة عثمانية صغيرة . ذبح طومان باى كامل أفراد هذه الوحدة . وحاول الدفاع عن القاهرة بمساعدة الشعب ، وكان معه ١٠٠٠٠ جندى ، جرت مصادمات دموية فى الشوارع والأزقة ، وكان الشراكسة يدافعون عن بيوتهم طابقا فطابقا ، وغرفة فغرفة . هدرت الدماء دون جدوى ، إذ لم يكن بالإمكان دحر العثمانية بهذه الطريقة .

اضطر طومان باى الثانى إلى ترك القاهرة بعد ٤٨ يوما ، ودخل السلطان سليم المدينة بمراسم هائلة فى ١٥ شباط وأمر بسك نقود عثمانية ذهبية باسمه فى معمل نقود المدينة .

أزعج طومان باى العثمانيين كثيرا بحرب العصابات والضربات المباغتة عندما كان السلطان سليم فى القاهرة . وأخيرا دل العرب الذين يكرهون الشراكسة على مكانه ، فأسر .

وضع ياوز عرشا بجنبه وأجلس عليه الحاكم المملوكى . خاطب طومان باى الحاكم العثمانى بكلام خالٍ من اللياقة ، قائلا له:إنه لم ينتصر على المماليك بشجاعته ، وانما انتصر بمدافعه وبنادقه ، فأجابه السلطان سليم متسائلا ، لماذا لم يتزود وهو على رأس دولة كبيرة بهذه الأسلحة ؟ وتلا عليه الآية الكريمة التى تأمر بمقابلة العدو بمثل أسلحته ، وأفحمه .

كان الشراكسة الذين التحقوا بخدمة العثمانيين يخشون نقمة طومان باى ؛ فأخبروا السلطان سليم بأنه لايزال يسعى وراء سلطنة مصر ، وشرحوا له ذلك بإسهاب ، وأقنعوه بوجوب إعدام طومان باى .

سلم طومان باى إلى دلقادر أوغلو على باشا وأعدم على باب زويلة ، وكان المماليك قد أعدموا والد على باشا دلقادر أوغلو شهسوار بك قبل ٤٥ سنة على هذه الباب لصداقته للعثمانية (آب ١٤٧٢) .

وفى ١٦ نيسان ، أقيم لطومان باى احتفال تشييع جثمان لامثيل له ، بحيث لو مات وهو على العرش لما أقيم له مثل هذا الاحتفال . ورغم أن السلاطين الأتراك يحملون فى بعض الأحيان توابيت آبائهم ولايدخلون تحت أى تابوت آخر ، فقد اكتنف السلطان سليم تابوت طومان باى الثانى . وحضر مراسم تشييع الجثمان الرسمى كافة رجال العثمانية والمملوكية . وزع البادشاه على الفقراء – تطييبا لروح السلطان المرحوم – النقود الذهبية لمدة ٣ أيام .

(٢٣) أسباب هزيمة المماليك

كيف انهارت بصورة كاملة وبضربة واحدة ، الدولة العظمى رقم ٣ فى العالم بعد تركية وإيران ؟

تنبأ ابن خلدون ، أحد ألمع العلماء الذين أنجبتهم البشرية ، بالوضع الذى ستأخذه

تركية فى المستقبل وتكهن منذ ١٢٠ سنة ، على عهد يلدرم بايزيد بأن « لاخطر على مصر إلا من بنى عثمان » (ابن حجر ، أنباء الغمر ، ١ ، وقائع ٧٩٧) .

كان الفرق بين مدفعية العثمانية والمملوكية فى حرب ردانية ، فرقا يزيد على نصف عصر . منذ ١٤١٠ ، كان السلطان المملوكى قد طلب من سليمان الأول مدفعيين وبحريين أتراكا ، وأجيب إلى طلبه ، إذ كانت تركية تفوق مصر حتى فى ذلك التاريخ .

وقد كانت عملية إرسال المهمات الاستراتيجية ، والمدفعيين ، والبحارة والفنيين إلى مصر فى عهد بايزيد الثانى ، قد اكتسبت أهمية كبيرة . وعلى سبيل المثال ، أرسل إلى مصر فى ك ٢/ ١٥١١ ، ٤٠٠ مدفع وكميات هائلة من البارود والنحاس . والجنرالات الأتراك الدهاة المقتدرين مثل عروج رئيس ، وسليمان رئيس ، وكمال رئيس . إما أنهم التحقوا بخدمة مصر ، أو قاموا بنقل المهمات الاستراتيجية والموظفين الفنيين إلى مصر ، وأصبحت البحرية المصرية تقريبا تحت إدارة الاميرالات وضباط البحرية العثمانية ، بحيث كان يتوجب على السلطان سليم القضاء على الجيش البرى فقط للدولة التى وضع اليد على أسطولها .

وفى الوقت الذى كان يستقبل فيه السلطان قانصوه فى القاهرة كمال رئيس ، وآيدن رئيس ، وحامد رئيس ، وحسن رئيس بأبهة لاتجرى إلا للحكام ، كان صغير أبناء البادشاه العثمانى شهزاده سليم فى طرابزون مشغولا بتخطيط فتح مصر . وبناء على ذلك ، أصبحت مصر فى النصف الثانى من القرن ١٥ ، مفتقرة إلى العثمانية من ناحية المهمات الاستراتيجية والضباط البحريين . ولأجل حصولها على ذلك ، أظهرت عناية خاصة للتعايش بوئام مع العثمانية التى تقدرها أصلا ، مع فاتح وبايزيد الثانى ، وكانت ترسل من إنطاليا إلى الإسكندرية فى كل سنة سفنا مليئة بالأخشاب والحديد والنحاس ، والكبريت ، والزفت ، والأسلحة النارية وأمثالها من المواد المشغولة .

وعندما نشبت حرب عثمانية مملوكية موضعية على عهد بايزيد الثانى دامت ٦ سنوات ، وبالرغم من أن هذه الحرب قد انتهت بتفوق المماليك فإن الجيش والأسطول المملوكى حرما من المساعدات العثمانية . وقد بذل السلطان قايتباى الذكى جدا ، مابوسعه — من اتصالات واجتماعات بصهر بايزيد الثانى أحمد باشا سلطان تونس يحيى — لإنهاء هذه الحرب .

ولقد جنت النزعة الخيالية وعدم الاعتراف بالواقع على المماليك ، فقد كانوا مغرورين بحيازتهم للمدن المقدسة ، والخليفة ، الأمانات المقدسة ، والأزهر مركز العلوم الإسلامية ، ولم يتنازلوا عن فكرة أن فرسان الترك والشركس ، أشجع الجنود ولايمكن قهرهم ، كانوا يظنون أنهم يعيشون على عهد السلطان بيبرس . يحتمل أن جيوشهم لم تكن أقل من ذلك العهد ، لكنه على الناحية الأخرى كان الجيش العثمانى قد اجتاز ذلك العهد منذ زمن بعيد ودخل القرون الحديثة .

عاشت مصر فى راحة واسترخاء دون أن تتعرض لخطر استيلاء ، مدة قرن كامل منذ أن تجاوزت الخطر التيمورى . أما العثمانية فكانت فى حرب دائمة فى كل لحظة ، ولم تكن تحارب دولة واحدة ، بل كانت تحارب دائما خمس دول أو عشر وأحيانا عشرين أو ثلاثين دولة . وفى وضع كهذا ، كانت وجها لوجه أمام ضرورة قهر أعداء العثمانية . ولم تبال بالتضحية بكل شيء فى سبيل إقامة جيش قوى وأسلحة متفوقة ، ومن ثم فقد فرضت كل هذه الظروف على العثمانية القتال المستمر وعدم الراحة أو الاسترخاء .

وبينما كانت القوة المادية والأدبية للعثمانية فى تعاظم كانت مصادرها الاقتصادية غير متناهية . ماليتها قوية . أصبح القدوم من كافة أنحاء العالم الإسلامى والحصول على وظيفة لدى العثمانية ، من الأمور المشرفة بالنسبة للمسلمين ذوى الخبرة .

لقد درس السلطان طومان باى بصورة جيدة أسباب الهزيمة التى منى بها عمه فى مرج دابق ، وأدرك نوعية السلاح والتكتيك الذى تفوقت به العثمانية ، وأراد تعليم جيشه تكتيك الحرب الميدانية العثمانية ، لكن الوقت كان متأخرا ، فقد كان ياوز يسير إلى مصر فى هذه الأثناء . كان الوقت قد فات منذ زمان بعيد .

وبالإضافة إلى الاسترخاء الناشيء عن عدم وجود أى خطر خارجى يهدد المماليك بعد تيمور ، كانت الدولة المملوكية تعيش دور الانحطاط والعثمانية تعيش دور الفتوحات . كانت الخطوط المميزة للدورتين فى حياة كافة الدول ظاهرة فى كلا الطرفين . يضاف إلى ذلك التفوق النوعى لحكام العثمانية ، فحكام المماليك فى هذه الفترة لايمكن مقارنة إمكاناتهم الشخصية بالحكام العثمانيين فى الفترة ذاتها . وعنصر آخر ، يتمثل فى طريقة تولى العرش فالحاكم العثمانى يصل إلى العرش بالوراثة وفى ذلك مافيه من التمكين على خلاف السلطان المملوكى الذى كان يصل إلى العرش فى هذه

الأونة من خلال موافقة أمراء المماليك ، وفى ذلك مافيه من الصراع الذى يؤثر على الحاكم وإطلاقاته وصلاحياته .

وأخيرا ، كان المماليك صنفا يستشعر الامتياز ، وكانوا لايزيدون على عدة من مئات الألوف من الأشخاص ، ولم يكونوا ملتحمين بالشعب ، وكان السلاطين يتكلمون التركية ، وأكثرهم لايفهم العربية . فمثلا ، كان قلاوون - وهو من السلاطين المتأخرين - يفهم العربية بصعوبة ، وكان للمماليك امتيازات كبيرة كفئة إقطاعية ، وقد استمرت هذه الامتيازات فى العهد العثمانى إلى أن قضى عليها محمد على باشا . أما الدولة العثمانية فقد كانت كيانا سياسيا مندمجا فى الشعب وغير معزول عنه .

شىء آخر ، هو أن الاقتصاد المملوكى كان قد تدهور ، ولم يعد كما كان فى العصور السابقة ، بحيث أصبح لايمكن مقارنته مع مصادر العثمانية الاقتصادية والمالية .. تلك هى الخطوط الرئيسية للهزيمة المملوكية .

(٢٤) الحاق الحجاز وتسليم الأمانات المقدسة (٦ تموز ١٥١٧)

رسا الأسطول الهمايونى المكون من ٣٠١ قطعة فى ميناء الإسكندرية فى ١٩ آيار ١٥١٧ . خرج السلطان سليم من القاهرة فى ٢٨ آيار لتفتيش الأسطول . قضى معظم أيام سياحته التى بلغت ١٥ يوما ، لحين قدومه إلى القاهرة فى ١٢ حزيران ، فى الإسكندرية . زار المدن فى الدلتا . رافقه ٥٠٠ إنكشارى . مكث الأسطول فى الإسكندرية مدة ٥٧ يوما ، وفى ١٥ تموز ، استصحب معه ١٨٠٠ من أعيان ووجوه المصريين وغادر متوجها إلى استانبول . أرسلت جمهورية البندقية سفيرا إلى السلطان سليم الموجود فى القاهرة ، أعلمه بأن الـ ٨٠٠٠ ليرة ذهب التى تسدد سنويا لمصر عن قبرص سوف تسدد بعد الآن إلى العثمانية .

أرسل أمير مكة الشريف بركات الثانى (١٤٩٧ - ١٥٢٥) ابنه الكبير محمد أبى نمى إلى السلطان سليم فى القاهرة (وفاته ١٥٨٣) . سلم أبو نمى مفاتيح مكة ، المدينة ، الكعبة والروضة المطهرة والأمانات المقدسة الأخرى الموجودة لدى الأشراف إلى السلطان سليم ، وعرض عليه دخول الحجاز تحت حماية العثمانية (١٥١٧/٧/٦)

(فتحنامه ديار عرب ، V . 66 a-b) . إن أهم مافى الأمانات المقدسة ، الراية الشريفة والبردة (خرقه سعادت) . خطّى يد على (ر.ع) وعثمان (ر.ع) ومصحفان . أرسلت جميعها إلى إستانبول وحفظت فى جناح « خرقه شريف » الذى شيد خصيصا لها فى سراى طوبقابو ، ومازال موجودة فيه .

تشكلت هيئة برئاسة القضعسكر (شيخ الإسلام فى المستقبل) كمال باشا - زاده أحمد شمس الدين أفندى ، ومشاورة خير بك ونظمت إيالة مصر بالصورة الملائمة للنظام العثمانى . وتقرر أن تحتل مصر الدرجة الأولى فى قائمة تشريفات الإيالات فى الإمبراطورية (كانت روملى تحتل المرتبة الأولى حتى ذلك التاريخ) . لم تتغير مرتبة الأولوية لمصر واستمرت حتى تاريخ الانفصال النهائى لمصر عن الامبراطورية فى نهاية سنة ١٩١٤ . أصبح الوزير الأعظم يونس باشا (١٥١٧/٤/١٠ - ١٥١٧/٨/٢٩) أول وال (بكلربك ، فريق أول) على مصر ، وعلى أثر إعدامه جىء بدلا منه بخير بك باشا أحد رجال المماليك القدامى .

كانت خريطة العالم السياسية قد تغيرت من أساسها ، عند إقامة ياوز فى القاهرة ، وهذا التغير سوف يظل مستقرا قرونا طويلة .

تغلغل النفوذ العثمانى فى السودان ، وليبيا والجزائر .

عرض سفراء اليمن الذين جاءوا إلى القاهرة ولاءهم وتابعيتهم إلى السلطان سليم ، وقد كانت فى زبيدة منذ مدة حامية عسكرية عثمانية . عين جركس حسن ، أول وال على اليمن .

فتح كوجوك سنان باشا خلال هذه الأيام مصّوع ، ميناء إرتيرة (The Bloss History of Suakin ١٨٧) .

كان الأسطول المملوكى يشرف على البحر الأحمر ومتحفزا تجاه البرتغاليين الذين بدءوا فى التسلط عليه .

كان كمال رئيس قد جاء إلى مصر ونظم الأسطول المملوكى على عهد السلطان قانصوه وبإذن من بايزيد الثانى ، وقد عين سلمان رئيس لقيادة هذا الأسطول وحسين رئيس مساعدا له ، وبوفاة كمال رئيس(١٥١١) ، جاء ابن أخيه محيى الدين بيرى رئيس وأصبح رئيس ملاحى (قبودان) سلمان رئيس .

احتل سلمان رئيس عدن فى ١٥١٦ وأراد غلق باب المندب ، ولما لم يوفق فى ذلك عاد ودخل ميناء جدة . وخلال وجوده فيها فى شباط ١٥١٧ ، علم بانتصار السلطان سليم فى ردانية . سأل السلطان سليم عما يأمر به . أمر البادشاه بأن يبقى فى جدة مع ٥ سفن ، وأن يرسل الـ ٣٠ قطعة من سفن الحرب إلى القاهرة القاعدة البحرية الكبرى للمماليك . أمر السلطان سليم بتوسيع معمل السفن فى القاهرة وإنشاء سفن جديدة فيها . عين سلمان رئيس أميرالا على البحر الهندى .

وبقدر ماأحدث فتح مصر وهزيمة المماليك - التى تعتبر من الدول التى لايمكن أن تقهر - تأثيرا فى العالم الإسلامى ، أحدث فى أوربا كذلك تأثيرات كبيرة جدا . إن ردانية ، تعتبر الخطوة نحو الدولة العالمية الكبرى . سيطرت الدولة العثمانية على شمال وشرق أفريقيا بشكل واسع جدا ، وانفتحت نحو المحيط الهندى . أخاف هذا الانتصار أوربا ، كما مهد للسلطان سليم السبيل إلى تحقيق أعمال كبيرة فى الشرق . وقد أراد النزول إلى السودان والحبشة ، لكن الرغبة كانت شديدة لدى الجيش فى العودة إلى أوطانهم . مكث البادشاه والجيش الهمايونى فى مصر ٨ أشهر (إلا يومين) .

غادر السلطان سليم القاهرة (١٥١٧/٩/١٠) وجاء إلى الشام (٧ ت ١) . جاء الوزير الأعظم (رئيس الوزراء) الجديد بيرى محمد باشا من استانبول إلى الشام (١٥١٨/١/٢٥) وقابل البادشاه . جاء سفراء الشاه إسماعيل فى ١٥ شباط وطلبوا الاتفاق على معاهدة صلح نهائى . أعاد ياوز السفراء ، فقد كان عازما على فتح إيران وتركستان . مكث فى الشام مدة ٤ أشهر ، و١٦ يوما ونظم تشكيلات الأقطار السورية ايضا (قضى الـ ١٥ يوما الأولى فى مقر الجيش خارج الشام . تحرك من الشام (١٥١٨/٢/٢٢)، وجاء إلى حلب (١٥١٨/٣/٥) وبقى فيها مدة شهرين ويومين . جاء إلى عينتاب (Gaziantep) (١٥١٨/٥/١٧) . وأرسل بعد يومين بيرى باشا إلى العراق .

عاد السلطان سليم إلى استانبول (١٥١٨/٧/٢٥) من حملة مصر (أطول حملة فى التاريخ العثمانى) بعد سنتين وشهرين . عاد وهو فاتح للاقطار التى يعيش فيها اليوم ١٢٠ مليون نسمة ،وحائز على الخلافة الإسلامية . كان « خادما » للبلدان المقدسة . كانت استانبول قد حرمت من سلطانها مدة سنتين . وقد علم أن شعب

استانبول أعد مراسم كبيرة للاستقبال ، فخجل من الخروج أمام حشد كهذا يصفق له . انتظر حتى حلول الليل ، واجتاز بالقارب خلسة إلى سارى طوبقابو ، ولم يعلم الشعب أن سلطانهم فى السراى إلا فى اليوم التالى .

وعلى بساطة هذا الحادث ، فانه يشير إلى العلاقة بين تواضع السلطان وعظمة الدولة ، وقد كانت هذه العلاقة بين عظمة الدولة وتواضع السلطان ملحوظة فى الدولة العثمانية ، ويتضح ذلك جليا عند مقارنة حرص السلاطين على المظاهر والتظاهر فى فترة انحطاط الدولة العثمانية .

مكث ياوز ١٠ أيام فى استانبول وتحرك إلى أدرنة خلال ٩ أيام (١٥١٨/٨/١٣) . واجتمع بابنه الشهزاده سليمان محافظ العرش فى روملى المقيم فيها ، وأرسله إلى لوائه مانيسا . جدد معاهدات الصلح مع البندقية والمجر . وأخذ يستعد لحملة إيران الثانية .

عاد كذلك الوزير الأعظم بيرى محمد باشا من حملة العراق وجاء إلى أدرنة (١٥١٨/١٢/٢٠) .

فتحت هذه الحملة ألوية الموصل ، كركوك وأربيل من الصفويين . وهكذا اقتربت الحدود العثمانية إلى ١٠٠ كم من شمال غرب بغداد . وانتقلت بادية الشام بكاملها إلى الحكم العثمانى .

(٢٥) وفاة السلطان ياوز سليم (١٥٢٠/٩/٢٢) وشخصيته

غادر الخاقان أدرنة فى ١٨ تموز ١٥٢٠ متوجها إلى استانبول . كان يعتزم التوجه من استانبول إلى أسكدار ويخرج منها فى حملة ، لكنه لم يتمكن من الوصول إلى استانبول وتوفى مساء ٢٢ أيلول ١٥٢٠ نحو وقت المغرب فى طريق أدرنة فى السرادق الهمايونى فى قرية صرت Sirt بسبب التأخر والخطأ فى مداواة القرحة التى كانت فى ظهره والتى تسمى (شيربنجه) . لم يكن قد أكمل الـ ٥١ من عمره . دامت سلطنته ٨ سنوات و٤ أشهر و٢٨ يوما وخلافته ٤ سنوات و٢٣ يوما . ترتيبه الـ ٧٤ بين خلفاء المسلمين . لم يعلن خبر وفاته لمدة ٩ أيام لحين قدوم ابنه من مانيسا .

نقل جثمانه إلى استانبول ودفن فى قبره الكائن بالقرب من جامع السلطان سليم الذى شيده ابنه باسمه وهو كجده فاتح ، يرقد فى هذا القبر وحده .

له ديوان باللغة الفارسية أشعاره التركية قليلة ، وهو أحد أفضل الذين استعملوا الفارسية من الشعراء العثمانيين . له أشعار باللغة العربية كذلك . درس الرياضيات ، والفلسفة ، والآداب ، واللغات الشرقية والعلوم الإسلامية وتعمق فيها ، وكان عالما فى بعض بحوثها . ولى على طرابزون وعمره ١٧ سنة ولمدة ٢٤ سنة (١٤٨٧ – ١٥١١) . اشتهر فيها بحملاته على إيران وكرجستان . وطأت له هذه الشهرة الجلوس على العرش رغم إخوته الكبار . توفى أحد أبنائه (أورخان) وعمره ١٠ سنين ، ومات ابناه الآخيران (موسى وقورقود) وهما طفلان . وعند اعتلائه العرش كان له ابن واحد هو شهزاده سليمان . وإلى اليمن أويس باشا (وفاته ١٥٤٦) ابنه من جارية ، بناته خديجة ، حفصة ، فاطمة وشاه سلطان .

نقل جثمانه إلى استانبول بيرى محمد باشا على رأس الجيش الهمايونى . استقبل السلطان سليمان الجثمان عند أسوار استانبول ودخل تحت التابوت . جىء به على الأكتاف إلى جامع فاتح حيث أقيمت صلاة الميت .

قبيل وفاته كانت ١٥٠ سفينة فى حالة إنشاء فى مصنع السفن فى استانبول ، ويحتمل أن هذه السفن كانت تعد لحملة لفتح رودس .

عاش أطول من جده فاتح سنة واحدة ، لكن جلوسه على العرش لم يكن بقدر مدة جده فاتح .

قام خلال ٨ سنوات بأعمال لايستوعبها العقل ، وجعل من الامبراطورية العثمانية دولة عالمية حقيقية كبرى (١٥١٧) ، وحافظت الدولة العثمانية على فتوحاته مدة ٤ قرون . ترك دولة مخيفة لأعدائها تمتد بين فاس وحضرموت ، سوذان وروسيا . كان هدفه أن يحقق فى إيران ماحققه صلاح الدين الأيوبى فى مصر من حيث القضاء على الحكم الشيعى – الذى لم يكن قد أكمل بعد سنته الـ ٢٠ ، والسعى لإقامة الاتحاد الإسلامى ، والوصول إلى طوران ، تركستان والهند . دخلت السياسة الخارجية العثمانية بعده فى غير المجرى الذى رسمه لها ، ولم يتحقق هذا المشروع .

كان متوسط القامة أقرب إلى الطول ، قاصب الحاجبين ، شديد النظرات ، غير

ملتحج ، طويل الشاربين ، عصبيا ، جسورا ، صيادا ماهرا ، فارسا ماهرا فى استعمال الأسلحة .

ترك التقاليد و لم يلتح حتى وفاته (كان قد منع إطالة اللحية بالنسبة للأمراء أبناء السلاطين أو أبناء أبنائهم) كان مولويا ومؤمنا بفلسفة وحدة الوجود . أبدى احتراما كبيرا لمحيى الدين بن العربى ومولانا جلال الدين الرومى . يظهر من قراءته بواسطة النظارات أنه كان مصاباً بمرض طول النظر (Hypermetropia) (كان تيمور كذلك يستعمل النظارات وقد شاهد الأوروبيون أول نظارة عندما استعملها تيمور) . كان يجتمع بالعلماء والفنانين ويتباحث معهم ، لم يكن يسمح أبدا بدخول المشروب إلى هذه المجالس ، كما كان يفعل بعض خلفاء الأمويين والعباسيين والعثمانيين . يمتاز لباسه بالبساطة التامة عدا المراسم الكبرى . سخر من ابنه سليمان الذى يحب الزركشة فى اللبس . له ولع شديد بالخيل ويملك أرقى أنواع الخيول فى العالم . يسير أمور الدولة ضمن منهج وخطة مدروسة ، يستشير ثم يتوصل إلى قرار ، ويعاقب الذين لايمتثلون لهذا القرار بالإعدام أحياناً . كان مطلعا بشكل فائق على السياسة العالمية ، وكان لايستغنى ولايترك أبدا قطع خريطة العالم التى رسمها بيرى رئيس (إحدى هذه القطع هى خريطة أمريكا المحفوظة حاليا فى سارى طوبقابو) . كان يعنى ببقاء الخزينة مليئة فى جميع الأوقات . مصاريفه الشخصية لاتذكر . دهاؤه العسكرى لامثيل له ، ولايفوقه فى هذا المجال غير الفاتح فقط . رجل دولة رائد ، ويأتى ترتيبه كسياسى وخبير فى السياسة الخارجية .. بعد فاتح وابنه سليمان القانونى ، ويمكن القول بأنه أعلم سلاطين بنى عثمان بعد جده الفاتح وأبيه بايزيد .

اعتلى العرش وهو يرث إمبراطورية تمتد على أراض مساحتها ٢٣٧٣٠٠٠ ٢ كم٢ ؛ منها ٥٩٦٠٠٠ كم٢ فى آسيا (الأناضول) ، والبقية فى قارة أوربا (١٧٧٧٠٠٠ كم٢) . أما الامبراطورية التى تركها لابنه عند وفاته (١٥٢٠) فقد كانت تمتد على أراض مساحتها ٦٥٥٧٠٠٠ كم٢ ؛ ١٧٠٢٠٠٠ كم٢ فى أوربا ، ١٩٠٥٠٠٠ كم٢ فى آسيا ، ٢٩٥٠٠٠٠ كم٢ فى أفريقيا . ويعنى هذا إن مقدار الاتساع يبلغ ضعفين ونصفا خلال ٨ سنوات .

كانت قد تأسست فى أفريقيا ، إيالة مصر العظيمة التى تمتد إلى ليبيا ، والسودان وبلاد الحبش ، وإيالة جزائر التى سيأتى ذكرها فيما بعد . وكان الاتحاد الأناضولى

قد تحقق تقريبا ، وألحقت ولايات أدنة ، غازى عنتب ، هاتاى ، أورفة ، دياربكر ، ماردين ، سعرت ، موش ، بينغول ، بتلس ، طونجلى ، أرزنجان وكموشخانه . وقد أخذ قسما من ولايات حكارى وأرضروم وسوف يجرى القانونى بعد عدة سنوات التعديلات الأخيرة ، ويضع النقاط على الحروف ، وسيلحق بالدولة مناطق ولايات أرضروم ، وأرتفين ، وآن ، وآغرى التى لم تلحق ، ويحصل على الحدود الحالية . كانت حدود الدولة فى تلك الأيام تمتد بين أفريقيا الوسطى ، وأوربا الوسطى وجنوب موسكو ، وبإلحاق إمارتى دلقادر ورمضان ، أصبحتا آخر إمارتين تذكرنا بعهد الإمارات التركمانية فى الأناضول ، فى ذمة الماضى .

« أصبحت تركية على عهد ياوز سليم ، دولة عالمية .. دولة عالمية كبرى حقيقية ، ومع أنه ترك الحرية لأوربا فإن فتوحاته التى لاتعد ولاتحصى فى آسيا وأفريقيا ، جعلت من الدولة دولة عالمية كبرى . كان البحر الأبيض على وشك أن يصبح بحيرة تركية ، ووصل إلى المحيط الهندى » (L'Empire du Levant, Rene GRousset ٦٤٢ — ٤) .

(٢٦) منشأ الأخوة بربروس (١٥٠٠ - ١٥١٣)

والد الأخوة بربروس ، هو أبو يوسف نور الله يعقوب آغا . وقد كان هو وأبوه عبد الله آغا تمارلى سباهى (أى ضباط فروسية) . جاءوا من قاراسى (بالكسير) وأخذوا تمار (أراض تعطى من قبل الدولة لإصلاحها) فى شبه جزيرة غاليبولى ، إيجة آباد (مايدوس) ، ثم فى فاردار ينيجه سى (تراقيا الغربية) . وعلى أثر اشتراك يعقوب آغا ، فى فتح فاتح لجزيرة ميديللى فى ١٤٦٢ ، أعطيت لهم فيها أراض أوسع . استوطن فى ميديللى وتزوج بإحدى بناتها ، وأنجب ٥ أبناء ، ٤ منهم اشتهروا فى التاريخ ، وأسماؤهم حسب التسلسل إسحق ، أوروج ، خضر ، إلياس ، وفرق العمر بينهم قليل جدا . إن لقب « بربروس » الذى أطلق على هؤلاء الإخوه وخاصة على أشهرهم أوروج وخضر ، هو لقب يعتقد أنهم لقبوا به لكونهم حمر اللحى .

كان وضع المغرب ، (العالم العربى الغربى بخطوطه الرئيسية) فى النصف الأول من القرن ١٦ قبيل تدخل الإخوة بربروس فى أفريقيا كما يلى :

كانت إمبراطورية فاس فى هذه المنطقة دولة كبيرة ، وكانت تشمل أقصى غرب المنطقة بين البحر الأبيض والأطلسى . (بالعربية : المغرب الأقصى) .

كان الوطاسيون (فرع المرينيين البرابرة المستعربين) يتنافسون على فاس مع شرفاء السعدية .

كانت فاس التى تمتد فى الجنوب بشكل واسع نحو أفريقيا قد فقدت مجدها الذى كانت عليه على عهد المرابطين ، والموحدين ، والمرينيين الأوائل ، وانشغلت بالفوضى الداخلية ونزاع السلالات .

وبالإضافة إلى أنها لم تثبت وجودها فى الدفاع النهائى عن الأندلس ، فإنه لم يكن بإمكانها التصدى لتسلط الأسبان على شمال إفريقيا وسواحل الأطلسى لفاس . لكن الدولة الأكثر اقتدارا والأقوى مكانة ، كانت المغرب ، وكان الاستيلاء عليها من الخارج صعبا .

كانت السلالة المسماة عبد الواد أو زيانى، تحكم غرب الجزائر ومدينة عرشها تلمسان . وكان هؤلاء فقدوا قوتهم منذ زمن بعيد ، وكانوا عاجزين عن الدفاع حيال الهجوم الأسبانى .

وفى تونس ، كان الحفصيون .

تأسست السلطنة الحفصية فى ١٢٢٨ ، وبمضى الوقت تدهورت وضعفت ، وكانت تحافظ على بقائها بالتعايش مع الأسبان . وبحكم موقع تونس جنوب صقلية ، فإن أسبانيا التى تسيطر على صقلية ونابولى ، كانت تشكل خطرا على تونس .

كان وضع الجزائر الوسطى والشرقية ضعيفا تماماً . وكذلك قبيليّة فى الجنوب . كان شيوخ البرابرة المستعربون فى نزاع قتّال ، وكل واحد منهم يسعى لإفناء الآخر ، وليس من بينهم من يحمل صفة الحاكم . وبذلك يمكن القول بأن قطاع ساحل الجزائر كان مفتوحا وميسرا لاستيلاء الأسبان .

كانت كافة هذه الأقطار سنية – مالكية ، ولم يكن هناك حنفيون لعدم مجىء الأتراك ، وفى ذلك التاريخ ، كان معظم السكان ينطقون باللغة البربرية ، وهى لغة حامية ، وكانت العربية تكاد تكون خاصة بالمدن .

غادر الكاردينال Ximenés مع ٣٣ سفينة حربية و٥١ سفينة نقل تحمل ٢٤٠٠٠ جندى أسبانى ، ميناء قرطاجنة فى جنوب أسبانيا واحتل ميناء أوران (بالعربية : وهران) فى الجزائر الغربية (١٥٠٩/٥/١٦) ، ذبح ٤٠٠٠ مسلم وساق البقية كعبيد إلى أسبانيا . أصبحت وهران أهم قاعدة للأسبان فى شمال أفريقيا . بينما لم يبق للمسلمين فى أسبانيا أية قاعدة فى ذلك التاريخ .

وفى ١٥٠٨ ، احتلت أسبانيا Penon de Velez ثم جاء Don Pedro Navarro مع ١٥ سفينة حربية و١٤٠٠٠ جندى إلى بجاية (بالفرنسية : Bougie) ، واحتل هذا الميناء كذلك ، وهكذا أصبحت سلطنة تونس محاطة من الغرب والشرق ، بالقواعد الأسبانية .

انتقلت مدن جزائرية كثيرة لحوزة أسبانيا أو اعترفت بسيطرة الأسبان عليها مثل تنسى مستغانم ، شرشل ، دلس .

احتل دون بيدرو المنطقة الحجرية التى تبعد مسافة ٣٠٠ متر عن ميناء الجزائر ، وشيد فيها قلعة Penon d'Argel ، وكان بإمكانه قصف مدينة الجزائر ومينائها والسفن التى تدخل إلى الميناء بنار المدفعية كما يحلو له .

كان المدفعيون الأسبان يتسلون بتوجيه مدافعهم أثناء أذان المؤذن فى مدينة الجزائر ويصوبونها نحو المؤذنين فى المنارة ويدمرونها .

تعهد العرب بعدم إدخال أية سفينة لايقبل الأسبان دخولها إلى أى من الموانىء الجزائرية .

وهكذا تأسست مستعمرة الجزائر الأسبانية ، ووضع حجر أساس متين لجعل شمال أفريقيا ، أمريكا اللاتينية ، وكان الوضع يوحى بأنه لا توجد قوة تحول دون أن يلقى شمال أفريقيا نفس عاقبة الأندلس والقارة الأمريكية .

أقام دون بيدرو فى مدينة وهران بلقب ماركيز Gomares كوالٍ عام على مستعمرات شمال أفريقيا . أما البرتغال فقد شيدت قلعتى Mazagan و Âzemûr على سواحل فاس فى الأطلسى .

كان الأخوة بربروس ، خلال السنوات التى كانت تعانى فيها أفريقيا من هذا

الوضع ، يعملون كملاك سفن يربحون من تشغيل سفنهم .

كانوا فى البداية يعملون فى الجزر فى بحر إيجة ، ثم أخذوا يعملون بين موانىء سلطنة مصر الواقعة شرق البحر الابيض وتركيا . وفى إحدى هذه الاسفار ، اثناء ذهابهم من ميديللى إلى طرابلس الشام ، اعترضت طريقهم سفن فرسان رودس ، واستشهد صغيرهم إلياس رئيس وعمره حوالى ٣٠ ، ووقع كبيرهم أوروج رئيس فى الأسر .

كان الأخوة بربروس أصحاب سفن أغنياء ، وقد وصلت شهرتهم إلى تركية وكانوا معروفين فى مصر ورودس .

جاء أخوه خضر رئيس إلى بودرم ، وعندما علم بأسر أخيه وسوقه إلى رودس لحمل الأحجار ، وعد بافتداء أخيه بفدية كبيرة ، لكن الفرسان كانوا لايريدون إطلاق سراح أوروج لعلمهم بخبرته وتفوقه فى البحر .

وفى هذه الأيام كان السلطان قورقود أخو السلطان سليم الكبير واليا فى أنطاليا . اتفق مع الفرسان على أن يسلموا سنويا إلى الشهزاده ١٠٠ أسير مسلم ويتسلمون هم عوضا عن ذلك أسرى مسيحيين أودراهم . كان الفرسان يعتزمون عدم ادخال أوروج ضمن قوافل الـ ١٠٠ التى تم الاتفاق عليها ، لكن أوروج ، كان فى تلك السنة فى سفينة الفرسان التى تنقل الأسرى المسلمين إلى أنطاليا كجداف (وقد حدث ذلك نتيجة لغفلتهم) ، وعندما شاهد سواحل أنطاليا ، خرج من سلاسله ، وتمكن من القفز إلى البحر والخروج إلى البر .

استمر أوروج الذى نال حريته فى العمل فى سفنه فى البحر الأبيض . ويحتمل أن سنة خلاصه من الأسر هى ١٥٠٦ .

يقال إن السلطان قانصوه استدعاه عندما كان فى ميناء الإسكندرية ، وذهب إلى القاهرة ومثل بين يدى السلطان الذى كلفه بقيادة الأسطول المصرى الرفيع ، فوافق . وقاد أوروج أيضا الأسطول المملوكى الذى أعاد الشهزاده قورقود من الإسكندرية إلى أنطالية . كلفه السلطان قانصوه أميرالية البحار الهندية . وافق فى البداية ثم اعتذر بعد مدة حيث كان لايرغب فى الذهاب إلى المياة الهندية وإنما كانت رغبته فى البحر الأبيض .

ترى لو كان قد وافق على أميرالية الهند ، ماذا كان سيصبح مستقبل المغرب ؟

جاء أوروج رئيس إلى مانيسا واجتمع بالسلطان قورقود وتسلم منه سفينتين حربيتين كهدية . ذهب إلى ميناء أزمير وتسلم سفينتى الشهزاده . كان قورقود يفكر فى تأسيس أسطول قراصنة (الصاعقة البحرين) . وعندما مثل أورج بين يدى السلطان قورقود ليشكره ، تساءل الشهزاده عن سبب عدم ذهابه إلى غرب البحر الأبيض وأخبره بأن المسيحيين هناك يستولون على المسلمين ، وأوصاه بالذهاب ومشاهدة الوضع شخصيا ، وأن يسير فى أثر كمال رئيس . قبل يد السلطان قورقود ونال دعاءه .

ذهب بسفينتيه الحربيتين إلى مياه إيطاليا الجنوبية ، وضرب السفن الأسبانية والبندقية ، وعاد إلى خليج أزمير .

كان يريد تقبيل يد السلطان قورقود ، ويشكره ويقدم هدية له ، وقبل دخوله ميناء أزمير ، سمع بخبر جلوس السلطان سليم واعتقاله أتباع أخيه السلطان قورقود . ويمكننا أن نقول دون كثير مبالغة أن معظم البحارة الأتراك هم من أتباع قورقود وأنهم يدينون له بالولاء . نزل أوروج فى أنطاليا دون أن يمر بأزمير . كان يريد أن يعرف ما إذا كان لقورقود أى أمر يقضيه . وهناك علم مع الأسف باعتقال وإعدام الأمير . كان مقتنعا بأن حياته هو كذلك فى خطر .

ترك أوروج المياه التركية ، ودخل ميناء الإسكندرية مع ٤ قطع من سفنه (١٥١٣) . أرسل يحيى رئيس إلى القاهرة إلى السلطان قانصوه مع ٤ عبيد و٤ جوارى وهدايا ثمينة . ومع أن السلطان صرح ليحيى رئيس بأن أوروج بك كان فى خدمته فى السابق وأنه ترك خدمته ولامه على ذلك ، فإنه قبل هداياه وقال إنه بإمكانه أن يعتبر نفسه من رعايا السلطنة المملوكية وبإمكانه أن يطلب الأسلحة والمعدات التى لايستطيع توفيرها . (يبين هذا شدة حاجة المماليك للبحارة) . غادر أوروج الإسكندرية فى صيف سنة ١٥١٣ وجاء إلى جزيرة جربة الواقعة بين تونس وليبيا . وبمجيئه هذا ، تغير سير تاريخ شمال أفريقيا بصورة جذرية .

(٢٧) أوروج بك فى المغرب (صيف ١٥١٣ - ١٠/١٠/١٥١٨)

سأحاول فيما يلى أن أقدم الخطوط الرئيسية لحياة أوروج بك الملحمية خلال السنوات الخمس التى قضاها فى المغرب . إن مساحة جزيرة جربة التى رسا فيها أوروج (والتى ستذكر بعد الآن مئات المرات فى تاريخ البحرية التركية)، ٥٤٠ كم٢ . فيها أماكن تقترب من تونس بمسافة ٢ كم٢ .

يسكن الجزيرة البرابرة الذين استعرب أكثرهم من ناحية اللغة ، وعدا السنيين - المالكيين ، توجد جماعة الخارجية - العبادية كذلك ، ويتبع شيوخ البرابرة الموجودون فى الجزيرة السلطان الحفصى فى تونس .

كان كمال رئيس قد ذهب من قبل إلى جربة مرات عديدة . وكان كمال رئيس قد توفى قبل أن تطأ أقدام أوروج رئيس الجزيرة بسنتين ونصف فقط . كان كمال رئيس والبحارة الذين ذهبوا إلى جربة هم السبب فى مجىء أوروج إلى جربة . وطد أوروج قدمه فى الجزيرة ، واشترى قسما من الساحل من الشيوخ ، وأسس قاعدة وتأسيسات مهمة .. وبدأ منها بحملاته ، وبعد مدة جاء أخوه خضر رئيس من ميديللى إلى جربة خوفا من ياوز ، وجلب معه سفنا ومعدات كثيرة . كان أوروج بك ، لايريد قطع علاقته بمصر ، ولم يكن مطمئنا إلى ما إذا كان قد اعتبر فى تركيا عاصيا أم لا ، والحقيقة أن عائلته الموجودة فى ميديللى ، لم تتعرض لأى ضغط ، لكنه لم يكن من الميسور معرفة نوايا سليم ، خاصة أنه لم يكن من عادته أن يصرح مسبقا بما سيفعله . أرسل أوروج إلى السلطان قانصوه باستمرار هدايا من الغنائم التى حصل عليها من المسيحيين . كان يبتاع المهمات البحرية من مصر . وقد صرح السلطان قانصوه فى شأنه قائلا : « إن كان هناك شخص لاينكر النعمة ويعرف الخير فى العالم ، فهو ابنى أوروج قبطان » . إن عبارة كهذه فى ذلك العهد ، كانت يستعملها السلاطين الكبار فى حق تابعيهم الحكام الصغار فقط .

لقد كان يجب على الأخوة بربروس الذين يعيشون فى الأراضى التونسية ، أن يؤسسوا علاقات حسنة مع السلطان التونسى .

كان أبو عبد الله محمد الخامس (١٤٩٤ - ١٥٢٨) ، على عرش تونس فى هذه

الأيام . هو خلف وابن أخ يحيى الثالث (١٤٨٨ - ١٤٩٤) الذى توسط لعقد الصلح العثمانى - المملوكى .

جاء الإخوة بربروس إلى تونس فى ١٥١٣ ومثلوا بين يدى السلطان وقدموا له هدايا ثمينة .

وافق السلطان على إعطائهم قلعة حلق الواد (بالفرنسية : La Goulette) . وهى مجاورة لتونس ، وكانت ميناء متحكما فى خليج تونس ، وكان على الإخوة بربروس أن يقدموا إلى السلطان مقابل ذلك خمس الغنائم .

وفى هذه الأيام ، كان لأوروج ١٢ سفنية حربية ، وكان معه أخواه ، ونوتية أتراك قديرون ، وكان لديه ١٠٠٠ جندى بحرى (لوند) فقط .

كان أوروج فى حاجة شديدة إلى جلب جنود بحريين من الأناضول . فقد كان لديه أعوان كثيرون من العرب والبرابرة ، لكنهم ليسوا بحارة . ولتحقيق مشاريعه كان بحاجة شديدة إلى جنود البحرية .

كانت حلق الواد على وشك أن تشهد أحداثاً كبيرة . قضى أوروج شتاء ١٥١٣ - ١٥١٤ فيها . ثم ذهب إلى المياه الخارجية لساردونيا ، استولى بعدها على سفن كثيرة جدا . التقى بين كورسيكا وألبا بسفينتين galerruvayalli للبابا . كانت هاتان السفينتان العملاقتان تعتبران من الطرادات الكبيرة فى ذلك العهد ، وكانت قطعات أوروج الصغيرة بمثابة الزوارق إذا ماقورنت بهاتين السفينتين كانت كل سفينة من هاتين السفينتين تسير بواسطة ٥٠ زوجا أى ١٠٠ مجداف وفى كل مجداف أكثر من درزن من الجدافة ، وهما مبتعدتان عن الساحل ، استولى أوروج على الأولى ، ثم على الثانية . ذاع صيته فى كامل أوروبا باسم « بربروس » .

كان مقتنعا بوجوب تأسيس دولة فى شمال أفريقيا ، لإمكان صد المسيحيين .

أراد أولا تحقيق ذلك فى تونس . لكن الحفصيين كانوا سلالة متمكنة ، ومن المحتمل أن تؤدى إزالة عائلة كهذه إلى فقدان محبة شعب شمال أفريقيا .

أما فى الجزائر فلم يكن فيها سلالة ولاحاكم .. وكانت معرضة أكثر من غيرها للتسلط المسيحى ، وقد انتقلت أماكن كثيرة منها لحوزة الأسبان . ورغم أن الشيوخ

والقواد فى الجزائر كانوا يعترفون ظاهرا بتبعيتهم لملك أسبانيا أو والى عام أوران وللسلطان فى الغرب وللسلطان العبدى (نسبة إلى عبد الواد) فى الشرق ، لكنهم فى الحقيقة كانوا مستقلين .

قرر أوروج بك البدء من بجاية (بالفرنسية : Bougie) ، التى كانت مرفأ أسبانيا على بعد نحو من ٢٠٠ كم غربى مدينة الجزائر . وقد كان بإمكانه التمركز فيها ، والتوصل إلى مدينة الجزائر وإنهاء التسلط الأسبانى عليها .

دخل بجايه بـ ٤ سفن . أغرق إحدى السفن الأسبانية الـ ٩ التى حاولت منعه . ظفر باثنتين منها وأجبر الـ ٦ الباقية على الفرار . أنزل أوروج بك الجنود والمدافع إلى البر وبدأ بحصار القلعة . وفى اليوم ٨ من الحصار (ك ١٥١٤/١) ، أصابت إحدى طلقات المدفعية ذراعه اليسرى إصابة بالغة . رفع الحصار ، وبترت ذراع الرئيس .

أخذت أساطيل الأخوة بربروس فى الاتساع على مر الزمن . وبدأت بضرب السفن المسيحية على نطاق واسع . وعلى سبيل المثال : تمكن خضر رئيس فى بداية سنة ١٥١٥ فى حملته خلال الشتاء من الاستيلاء على ٢٠ سفينة و٣٨٠٠ أسير . كثيرون من ربابنة السفن الشهيرين جاءوا من الأناضول والتحقوا بالأخوة بربروس ، من هؤلاء ابن أخ كمال رئيس راسم الخرائط البحرية الشهير بيرى رئيس ، آيدن رئيس ، قورقود أوغلو مصلح الدين رئيس ، صالح رئيس (باشا) ، ابنى خضر الاثنين بيوك حسن رئيس (باشا) ، كوجوك حسن رئيس (باشا) ويحيى رئيس . وكافة هذه الأسماء تدخل ضمن أشهر أميرالات القرن ١٦ .

كانت الحاجة الشديدة إلى جنود البحر ماتزال مستمرة . تحسنت صحة أوروج بك فى صيف عام ١٥١٥ وبدأ بالخروج فى الحملات . رسا فى جزيرة Minorka ، رفع الراية وقام بعرض فى خليج جنوة وبحر Ligurya . أخذوا بترتيب أسفار كثيرة وبدءوا بنقل عشرات الألوف من الأندلسيين من أسبانيا إلى شمال أفريقيا ، حيث كان عملا خطيرا يجرى والأسبان يطاردونهم .

لم يعد أوروج رئيس يخشى السلطان سليم ، فقد كان قد أدرك سياسته الإسلامية وأيدها . كان هو كذلك يقوم بنفس المهمة فى المغرب . بعث بمحيى الدين بيرى

رئيس إلى استانبول مع ٦ قطع من السفن . قابل ياوز بيرى (آذار ١٥١٦) ، وأهداه سيفين مرصعين قائلا : « يتقلد أحدهما لالا (مربى السلاطين) أوروج والآخر يتقلده لالا خير الدين خضر ويغزوان الأعداء » . ملأ سفينتين حربيتين بالمهمات الإستراتيجية وسلمها إلى بيرى رئيس . تنفس أوروج بك الصعداء ، وعادت علاقته بالوطن الأم . كان ياوز يأمل الشيء الكثير من الأخوة بربروس فى سياسة المغرب .

وفى هذه الأثناء احتل الأخوة بربروس Cicelli ثم ساروا منها على بجاية ، وفى هذه المرة احتلوها (١٥١٦/٨/٤) . أقيمت الدعوات فى كافة مساجد المغرب لتوفيق الأخوة بربروس فى جهادهم . أصبح أسطول أوروج بك ، أسطولا حقيقيا يتكون من ٢٨ قطعة حربية مجهزة بصورة ممتازة جدا ، ولم يكن فى ذلك الحين لدى كثير من الدول الأوربية قوة بحرية تعادلها . استرد الأسبان بجاية فى الحال . إن أوروج ، الذى كان لايبالى بأية ظروف غير مواتية ، دخل ميناء الجزائر بأسطول كبير و ٨٠٠ جندى بحرى و ٥٠٠٠ من العرب المتطوعين الذين انضموا إليه ، واحتل المدينة (ك١٥١٧/٢) . أمر بتلاوة اسمه فى الخطبة بعد اسم السلطان ياوز سليم . وهكذا أعلن حكمه بصورة رسمية .

عاد قورقود أوغلو مصلح الدين الذى أرسله إلى إستانبول مع سفينتين حربيتين عثمانية مليئتين بالمواد الاستراتيجية والجنود البحريين ، وأحضر معه لأوروج بك - الذى سمى فى المغرب « سلطانا » بصورة رسمية - الأمر البادشا هى (الفرمان) المهم الذى أصدره السلطان سليم والذى يخول أوروج جمع جنود البحر (لوند) من الأناضول وابتياع مايحتاج إليه من المهمات العسكرية .

بدأ أوروج بك بحل الخلافات الداخلية للجزائر ، وتحصين الجزائر بالشكل الذى لايمكن الأسبان من الاستيلاء عليها (سوف يستمر أخوه خضر خير الدين على ذلك) .

صرح العقيد مهند الحج عند نيل الجزائر استقلالها فى ١٩٦٢ بهذا البيان : « نحن مدينون بكل مالدينا وحتى بكياننا كشعب واحد للأتراك . كنا قراصنة عند مجىء العثمانيين ، مكونين من مئات القبائل . عين العثمانيون لأدارتنا أحد الباشوات . جمعوا

القبائل المتفرقة وجعلوها كتلة واحدة وجعلوا منها قوما بقى تحت الإدارة التركية المركزية مدة ٣٠٠ سنة وتعلموا قيمة الاتحاد . لقد أصبحنا قوما بمساعدة الأتراك » (صحيفة حريت ، ١٩٦٢/٨/٣) .

احتل أوروج بك تنيس Trnes وسيطر على ١٠ مدن ومنطقة واسعة . اعلنت أسبانيا الحرب على أوروج بك الذى أعلن نفسه سلطانا (١٥١٧/٩/١) . جاء Don Diego de Vera مع ٤٠ سفينة حربية ، ١٤٠ سفينة نقل و ١٥٠٠٠ جندى مشاة أمام قلعة الجزائر . بدأ بقصف القلعة التى حصنها أوروج . كان آلاف من المحليين يساندون الأسبان .

بدأ أوروج بالهجوم على هؤلاء مؤكدا لهم قوته ، وعلى الرغم من أن الأسبان ركزوا العلم على أبراج قلعة الجزائر ، فى ٣٠ أيلول ، فإن أوروج قام بهجوم شديد اضطر Don Diego إلى رفع الحصار ، وطارده الأتراك وقتلوا ١٥٠٠ أسبانى ، وهكذا يكون ذلك البحار المتواضع قد تغلب على أكبر دولة أوربية برية وبحرية .

أحتل أوروج مليانة ومدية . وعاقب الشيوخ الذين تعاونوا مع الأسبان . أجرى فى البلاد تعداد النفوس وتحصيل الضرائب ، وأخذ فى تطبيق النظام العثمانى .

كان أوروج الذى سيطر على سواحل الجزائر الوسطى والشرقية ، يريد إخراج الأسبان من القطاع الغربى . كان الساحل لدى الأسبان (وهران) ، أما القطاع الداخلى الذى يقع على حدود فاس ، فإنه كان لدى سلالة عبد الوادى (تلمسان) .

كانت تلمسان معرضة لتهديد جدى من قبل الأسبان الموجودين فى وهران حيث لم يكن لدى بنى عبد الواد ، الجيش الذى يمكنهم من صد الجنود الأسبان المجهزين بالمدافع والبنادق .

عقد ملك تلمسان محمد الخامس معاهدة مع الأسبان ضد الأتراك . كان مقتنعا بأنه تخلص بذلك من استيلاء أسبانى ، وفى الوقت ذاته تمكن من إيجاد من يدافع عنه ضد الأتراك .

كان فى تلمسان عدد كبير من الأندلسيين . استاء هؤلاء كثيرا من المعاهدة التى عقدت مع الأسبان الذين سفكوا دماء المسلمين ، ولكون المعاهدة ضد المسلمين

الأتراك وهم القوة الوحيدة التى تساعدهم .
ترك أوروج أخاه خضرا فى الجزائر وسار إلى تلمسان .

كانت تلمسان بتعدادها البالغ ١٢٥٠٠٠ نسمة إحدى أكبر المدن الأفريقية ، كانت مزينة ببدائع الفن المعمارى الذى لامثيل له (كان تعداد لندن فى هذا التاريخ ٨٥ ألفا ، وباريس أكبر مدينة مسيحية ٣٨٠ ألف نسمة) . تبلغ المسافة بين تلمسان وتونس (مسافة مستقيمة) نحو ١٠٠٠ كم . كان الإخوه بربروس ، قد تمكنوا خلال ٤ سنوات من تكوين أكبر قوة على مساحة كبيرة كهذه وأثبتوا وجودهم فيها . كان محمد الخامس يسدد إلى الوالى الأسبانى سنويا فى وهران ١٠٠٠٠ ليرة ذهب ، و١٠٠٠٠ رأس غنم ، و١٠٠٠ رأس من المواشى ، و١٠ أطنان حنطة و ١٤ حصانا عربيا و١٤ عبدا أسود البشرة . أفتى علماء تلمسان بوجوب قتل السلطان ، ذهب وفد من أعيان البلد إلى الجزائر ودعوا أوروج .

فتح أوروج قلعة القلاع أو قلعة بنى رشيد (حاليا عويد فضة) وهى على مسافة ١٨٠ كم شمال شرق تلمسان . ترك فيها ٣٠٠ جندى مع أخيه الكبير إسحق رئيس . شتت جيش محمد الخامس الذى يتكون من ٦٠٠٠ خيال و ٣٠٠٠ مشاة بكل سهولة خارج تلمسان ودخل المدينة كصديق . استقبله الشعب بمظاهرات التأييد . أعدم محمد الخامس بناء على فتوى علماء تلمسان (ت ١٥١٧/١) . اعتلى العرش مكانه أخوه ابو حمّو الثالث . بدا الأمر وكأن أوروج رئيس حاكم الجزائر كلها ، عدا وهران .

دخل أوروج بك فاس واحتل وجدة أكبر مدينة فى فاس الشرقية (تبعد ٦٠ كم جنوب غربى فاس) . عقد مع سلطان فاس معاهدة ضد الأسبان ، لكن سلطان فاس هاله جدا رقى الأتراك وكان يستعد للاتفاق مع الأسبان على إبعاد الأتراك من هذه الديار ، ومن هنا فقد اتجه تفكيره إلى أن يتخلص من الأتراك أولا ثم بعد ذلك يفكر فيما يجب عمله !

ولضرورات جغرافية — سياسية ، انتشر أوروج بك على مساحة واسعة جدا . اعتبارا من جزيرة جربة فى حدود ليبيا ، إلى وجدة فى فاس الشرقية ... وقد كان مثل هذا الوضع عرضة للانهيار ، إن لم يتمكن من جلب جنود من تركيا .

كان يظن أن الجميع سوف يؤيدونه لمجهوداته فى نقل الأندلسيين من أسبانيا وجهاده ضد المستعمرين الأسبان فى شمال أفريقيا ولتطبيقه للنظام العثمانى فى الإدارة ، لكن هذا النظام العثمانى كان قد ولّد رد فعل حتى فى الأناضول ؛ فقد ترك الأناضول مئات الآلاف من التركمان الذين لايريدون التنازل عن امتيازاتهم الإقطاعية ، ووصل بهم الأمر إلى حد تغيير مذاهبهم والذهاب إلى إيران . لقد كان توقع أوروج أن تتقبل المغرب الإقطاعية هذا النظام فوراً أو أن تتقبله فى وقت قصير - مخالفا للواقع .

علم أوروج بك ، خلال الأيام التى دخل فيها السلطان ياوز سليم إلى القاهرة ، أن ضغوطا كبيرة ستقع عليه . لم تكن أسبانيا المغرورة تفكر أبدا فى ترك أفريقيا الشمالية . زود الإخوة بربروس أخاهم الكبير إسحق رئيس بالإمدادات لأنه كان هو الأقرب إلى وهران . اجتمع تحت إمرة إسحق رئيس فى قلعة القلاع ٩٠٠ جندى بحرى تركى و ٢٠٠٠ خيال عربى .

سار دون مارتن دى آرغوت إلى إسحق رئيس من وهران ، واتحد مع الأسبان آلاف من خيالة بنى عبد الواد . تقع قلعة القلاع على طريق مستغانم - معسكره ، وتبعد عن وهران ٨٠ كم فقط . كان الأسبان لايرغبون فى بقاء قلعة شديدة الخصومة كهذه ، وكانت مستغانم ومعسكره بيد الأسبان ، وكان يوشك أن يحتلها الأتراك .

قاوم إسحق رئيس حتى النهاية . لم تصل المعونة التى كان ينتظرها من أخيه خضر رئيس فى الجزائر . استشهد إسحق رئيس وأكثرية المتطوعين العرب وتسعة أعشار الجنود البحريين . كان الأسبان قد اكتسبوا قوة كبيرة حيث أرسلت أسبانيا إلى وهران حديثا ١٠٠٠٠ جندى . أما قلعة القلاع فقد حاصرها ٢٠٠٠ أسبانى و ١٠٠٠٠ عربى . نفد عتاد وطعام الأتراك . وعندما دخل دون مارتن القلعة ، أدهشه أن يجد حفنة من الجنود البحريين الذين لم يذوقوا الطعام منذ أيام وكذلك الجرحى - ملتفين حول إسحق رئيس الذى امتلأ جسمه بالجراح . لقد رفض هؤلاء جميعا التسليم وصمموا على الحرب حتى استشهدوا جميعا (١٥١٨/١/٣١) .

(٢٨) استشهاد أوروج رئيس (١٥١٨/١٠/١٠) وشخصيته

وفى هذه الأيام ذاتها سار الجيش الأسبانى الأصلى إلى أوروج بك فى تلمسان . كان مكونا من ١١٥٠٠ أسبانى و ٣٥٠٠٠ عربى ، وكان المشاة الأسبان مجهزين

بالبنادق ولديهم وحدات مدفعية كذلك .

أما أوروج بك فقد تمكن من جلب عدد قليل جدا من المدافع إلى تلمسان ، وكان يعتمد على شعب الجزائر الغربية ، وسلطان فاس . كانت قلعة القلاع قد قاومت ثلاثة أسابيع وأربعة أيام .. فكم من الوقت ستقاوم تلمسان ياترى ؟ .

دافع أوروج بك عن تلمسنان تجاه قاتل أخيه دون مارتن مدة ٦ أشهر . كان يأمل أن يمل الأسبان وينسحبوا ، لكنهم كانوا جنودا عُنَدَاء .

انتظر المعونة من سلطان فاس ، لم تصل المعونة . حتى أخيه خضر بك فى الجزائر لم يتمكن من عمل مايؤدى إلى عدم ضياع مدينة الجزائر ولم يتمكن من المجىء إلى تلمسان التى تبعد مسافة كبيرة . لم يكن التلمسانيون قد شاهدوا حربا تركية وأسبانية تستمر إلى النهاية . ضاقوا بهذا الوضع . أغاروا فى صبيحة يوم عيد الأضحى بعد صلاة العيد على جنود البحر الأتراك وقتلوا عددا كبيرا منهم . تمكن أوروج بك من السيطرة على الوضع بصعوبة . ولكنه أدرك أنه لن يتمكن من الاحتفاظ بالقلعة بهذا الوضع ، ولم ير من وسيلة غير الخروج وخرق الحصار .

كان الأسبان يتسلمون الإمدادات بصورة مستمرة وكان ماركيز غومارس قد حضر بنفسه من وهران لإدارة وقيادة الحصار . نفد طعام أوروج وعتاده . قام بطلعة آنية وقتل ٧٠٠ أسبانى وأسر ١٠٠ منهم . كانت هذه هى حملته الأخيرة . بقى لديه ٤٠ جنديا بحريا (لوند) فقط . وفى إحدى الليالى قبل طلوع الفجر وأثناء نوم الأسبان ، اجتازوا على حين غرة خط الحصار وخرجوا . تعقب الأسبان أثر أوروج بك بعد مضى ساعتين وكان على رأسهم Don Gareia de Tinco .

قام أفراد قبيلة بنى عامر بتعقب أثر ٤٠ تركيا سيئى الحظ لنهبهم . أخرج الجنود كل مايملكونه ورموه عدا الأسلحة . تأخر البدو خلفهم لاقتسامها . لكن الأسبان لم يغفلوا لحظة واحدة عن التعقب . وصلوا إلى نهر Rio Salado . عبر نصف اللوندات النهر ، مع أوروج وقبل عبور نحو ٢٠ منهم لحق بهم الأسبان . تمكن ٤٥ فقط من خيالة Alferez Garcia de Timeo من المجىء . وبناء عليه ، لو كان قد قدر لأوروج أن يستمر فى طريقه لتمكن من النجاة ولتمكن خلال فترة قصيرة من تعويض خسائره ، لكنه عاد إلى النهر إلى الوراء . وعند عودته كان من الطبيعى أن يجد أن

اكثرية الجنود الذين لم يتمكنوا من العبور قد استشهدوا . كانوا جياعا عطاشى ، متعبين ، ويعانون من حرارة الشمس . شاهد كذلك استشهاد آخر جندى له . رفض التسليم .

أغمد الدون غارسيا سيفه فى قلب البحار الكبير . وفصل رأسه عن جسده وأرسله إلى أسبانيا للتشهير . بقى جسده فى الجزائر فى منطقة قريبة جدا من فاس فوق الأراضى المحرقة .

لم تذهب هذه التضحية هباء ، فقد كان من ثمارها تصميم العثمانية على طرد الأسبان من المغرب .

إن خلعة أوروج بك (الذى نجى مستقبل الدين الإسلامى فى أفريقيا من الزوال وأسس الاتحاد الإسلامى) المطرزة بالذهب ، موجودة لدى كاتدرائية مدينة Cordoba (بالعربية : قرطبة) . وقد عرضت سنوات عديدة على الشعب لكسر معنوياته .

كان عمر أوروج بك عند استشهاده ٤٨ سنة (١٥١٨/١٠/١٠) . لم يتزوج ولم يخلف أولادا . قامته أقرب إلى الطول ، أسمر البشرة من تأثير الشمس ، أحمر اللحية ، أشقر الشعر ميال إلى الحمرة ، عيناه كستنائيتان تميلان إلى الصفرة ناريتا النظرات ، عريض الكتفين جدا ، قوى البنية جدا ، كريم إلى درجة كبيرة ، سخى ، رحيم ، خلوق ، كثير الجد وشديد فى عمله ، إدارى ممتاز ، محبوب ومطاع بصورة مطلقة من جنوده البحريين ، شجاع ، جرىء ، ذكى ، ليس له نظير فى حل المشاكل الكبرى ، ماهر فى استعمال الأسلحة ، بحار ذو دهاء عظيم . « داهية عظيم وفاتح عظيم ، إن استيطانه شمال أفريقيا التى لاتحتوى على تركى واحد ، توفيق لايصدق . قلد المارشال الفرنسى Bugeaud فى القرن ١٩ ، تكتيك أوروج وفتح قطر الجزائر » Histoire Générale , Lavisse - Rambaud ، ٤ ، ٨٠٣ ، ٨٠٥ – ٦ ، ٨٠٨) .

(٢٩) تأسيس إيالة الجزائر (١٥١٩/٥/١٥)

تبعت الجزائر ، فرنسا بصورة رسمية فى ٣١ ك ١٥١٠/٢ .

ذهب سالم التومى الذى يقوم بإدارة المدينة ، إلى أسبانيا بنفسه ومثل بين يدى

الملك فرديناند . كان شعب مدينة الجزائر الذى مل من تسلط الأسبان قد أرسل وفدا إلى أوروج بك الموجود فى Cicelli ودعاه . جاء أوروج إلى الجزائر وأمر بقتل الشيخ سالم حيث كان قد علم أن الشيخ سالم قد رتب له عملية اغتيال داخل الجامع أثناء صلاة الجمعة . لم يبق أثرا للقلعة الأسبانية المشيدة على البحر والتى كان الأسبان يصوبون منها على المنائر ويهدمونها للتسلية . قام أخوه خضر خير الدين بك شخصيا ووحده بنقل ٧٠٠٠٠ أندلسى إلى المغرب بأسطوله فى ٧ سفرات بحرية غير مبال بالأخطار الكبيرة . وفى إحدى هذه السفرات نقل بواسطة ٣٦ قطعة من السفن ١٠٠٠٠ عربى مسكين من سواحل Oliva الواقعة على مسافة ٦٠ كم جنوبى شرق بلنسية . واستمر آيدن رئيس وسنان رئيس على هذا العمل متعرضين للأخطار . تمكن من تخليص آلاف من الأندلسيين من الموت حرقا (Hammer ، ٥ ، ٢٤١ ، ٢٥٢) .

وفى إحدى هذه السفرات اعترض طريقه أسطول أسبانى ، فدفع الخطر باستيلائه على ١٥ سفينة حربية وإغراق ٣ منها . ساندت استانبول سياسة تخليص الأندلسيين ، قدر استطاعتها .

جاء حاجى حسين رئيس إلى الإسكندرية مع ٤ سفن فى ١٥١٧ . ذهب إلى القاهرة وقدم الهدايا التى أرسلها أوروج بك . منح ياوز كلا من أوروج بك وخير الدين خضر بك رتبة لواء بحرى بصورة رسمية وبهذا كان قد ضم الجزائر إلى الحدود التركية . تليت الخطبة فى الجزائر وتلمسان باسم السلطان سليم . لم يضع الإخوة بربروس أسماءهم على النقود التى سكوها ووضعوا اسم السلطان سليم ، كان وضعهم بالنسبة للمغاربة « سلطان » وبالنسبة للأوروبيين « rey d'Argel, roi d'Alger » (ملك الجزائر) . أرسل ياوز إلى الجزائر ٢٠٠٠ جندى عثمانى وكمية كبيرة من المدافع والبنادق . وانتخب من بين عدد كبير من المتطوعين من أناضول الغربية الذين يرغبون فى الذهاب إلى الجزائر كجنود بحريين ، ٤٠٠٠ شاب عزب أرسلهم للتدريب ولتعلم استعمال المدافع والبنادق وألبسهم البزة العسكرية ، وأرسلهم إلى الجزائر ، لكن أوروج بك كان قد استشهد عند وصول هذا المدد . مات السلطان سليم كذلك بعد فترة وجيزة . لكن ابنه السلطان سليمان استمر على نفس السياسة تجاه المغرب .

ولّد دخول العثمانية إلى المغرب القلق لدى أوروبا الغربية وعلى رأسها أسبانيا والبرتغال . كما أن السيطرة التركية على غربى البحر الأبيض أضرت بالمصالح القتلونية والفرنسية . وافق السلطان سليم على لقاء الحاجى حسين رئيس فى استانبول (١٥١٩/٥/١٥) حيث استمع منه إلى تفصيلات استشهاد أوروج بك ، تأثر السلطان سليم لذلك ، وأدرك بدهائه المتميز وجوب العناية بالمسألة الجزائرية بصورة أكثر عمقا وتركيزا . منح خضر خير الدين بك رتبة فريق أول بحرى (بكلربك بحرى) ورفع درجة الجزائر من نظام اللواء العثمانى إلى نظام الإيالة العثمانية . وولى بربروس خير الدين باشا على الإيالة ، ومنح ابنه حسن بك البالغ عمره ٢٠ سنة رتبة لواء بحرى (سنجق بك) .

دخل بربروس خير الدين باشا ميناء بلنسية ، وقصف المدينة وأفنى الأسطول الأسبانى الراسى فى الميناء (أيار ١٥١٩) (حضر الأسبان إقامة العرب فى بلنسية فى ١٥٢٦ ، أخرجوا كافة العرب وهدموا كافة المساجد من قواعدها ، Lavisse - Rambaud ، ٤ ، ٣٥١ ، ٣٦٩) . أرسلت أسبانيا التى أرادت الانتقام إلى الجزائر نائب الملك فى صقليا وأكبر قائد أسبانى فى عصره Don Ugo de Moncada . استصحب مونكادا ، الذى جاء من باليرمو إلى وهران ، ماركيز غوماس وذهب إلى ميناء الجزائر مع ١٧٠ سفينة حرب ونقل و ٢٥ ٠٠٠ جندى .

كان لخير الدين باشا فى الجزائر ٣٠٠٠ جندى تركى و ٢٠ ٠٠٠ جندى عربى . كان قد استدعى الوحدة التركية الموجودة فى تلمسان ، لكنها لم تكن قد تمكنت بعد من القدوم .

كان ابن خير الدين باشا حسن بك فى تلمسان مع ٧٠٠ جندى تركى و ٢٠٠٠ عربى . أبلغه مونكادا بأنه لايرغب فى سفك الدماء ، وأنه يسمح لخير باشا بخروج جنوده وحاجاته التى يمكن نقلها معه وذهابه . أجابه الباشا بنار المدفعية ، وبعد قتال طويل ، حمل خير الدين باشا مع ٥٠٠ من جنوده البحريين على سفن المهمات التى رست واقتربت إلى البر . وأثناء انشغال الأسبان الذين ظنوا أن ذلك هو الهجوم الرئيسى ، خرج الباشا من القلعة وصار خلف العدو . ترك نائب الملك مونكادا مدافعه ومهماته وأركب جنوده القلائل الذين تمكنوا من النجاة من سيوف الترك فى أسطوله ورمى بنفسه فى ميناء Ibiza فى جزر بالير .

بذلك يكون خير الدين باشا الذى حصل على رتبة فريق أول قبل ٣ أشهر و ٩ أيام ، قد انتصر على أسبانيا المقتدرة . وقد كان لانتصار الجزائر (١٥١٩/٨/٢٣) آثار كبيرة . أرسل قره حسن باشا إلى بلنسية بعد شهرين . اقتتل الأتراك الذين أنزلوا جنودا فى البر مع الأسبان وجلبوا معهم عددا غير قليل من المهاجرين العرب .

وفى ربيع عام ١٥٢٠ ، هزم الباشا أسطولا مكونا من ١٥ قطعة أرسلته أسبانيا بواسطة ١٨ سفينة ، واستولى على ٥ قطع منها . احتل تنيس من الأسبان ، وخلال ذلك دخل الأسطول الحربى الأسبانى (آرمادا) المكون من ١١٠ قطع من السفن بقيادة الأميرال فرناندو ميناء الجزائر . دمر بربروس ، الذى تمكن من جمع أسطوله ، الأسطول الأسبانى ، واشتهر ذلك فى التاريخ العثمانى بانتصار الجزائر الثانى . أسر ٣٦ من رؤساء ملاحي السفن (قبطان) و ٣٦٠٠ جندى أسبانى ، قتل أكثرهم . انتقلت سفينة الأميرالية لحوزة الأتراك ، وأسر الأميرال .

ثارت خلال هذه الأيام قبائل كثيرة وقسم من شعب الجزائر على الأتراك . قال خير الدين باشا : إنه لم يأت إلى هذه الأراضى لسفك دماء المسلمين ، وإنما جاء للجهاد ، « ليكن وبال المسلمين على رقابكم ، لنرى كيف تصونون البلاد تجاه الكفرة ؟ » قال ذلك وسلم مفاتيح المدينة لأشراف المدينة ، وترك مدينة ، الجزائر (ك١/١٥٢٠) . كان للسلطان الحفصى فى تونس دخل كبير ، فى ذلك . اهتم خير الدين بالسلطان وأخذ يراقبه . وخلال هذه الأيام وصل خبر وفاة السلطان سليم وجلوس السلطان سليمان ، تغير الاسم فى الخطب وفى النقود .

(٣٠) ولاية بربروس خير الدين باشا على الجزائر (١٥١٩/٥/١٥ - ١٥٣٣/١٢/٢٧) :

المرحلة الأولى

بترك خيرالدين باشا مدينة الجزائر فى ك ١٥٢٠/١ ، كان الأتراك بعد منازعات دامت ٦ سنوات كأنهم عادوا إلى وضعهم السابق الذى كانوا عليه فى ١٥١٤ .

كان بربروس خير الدين باشا يقيم فى هذه الآونة فى Cicelli ، وكان يملك أسطولا مهما وجيشا له مكانته .

لم ينس الشعب العثمانية التى أذاقت الأسبان الأمرين . كان بربروس يتجول فى البحر الأبيض مع ٤٠ قطعة من سفنه .

احتل خلال إحدى جولاته جزيرة جربة من سلطان تونس الذى كان يحقد عليه ، وطرد سفراء سلطان تونس كذلك ورفض هداياهم ، وأعلن أنه لن يتكلم مع الذين تعاونوا مع الكفار الذين سفكوا دماء المسلمين فى الأندلس والمغرب . لم يكن يمر يوم واحد دون أن تأتى من الجزائر الوفود والهدايا والدعوات . لم يوافق على الدعوات . كان الشعب الجزائرى متضررا من اختلال الأمن فى المدينة ، ومن الحرمان من النعم التى كانت تدرها الغنائم التركية ، ومن ركود التجارة ، بالإضافة إلى استعلاء الأسبان عليهم .

بعد أربع سنوات ونصف دخل خير الدين باشا شرسل ومنها إلى مدينة الجزائر وسط الهتاف والتصفيق . لم تطلق طلقة واحدة . احتل تنيس Tenes . دخل قسنطينة . طوّع القبيلة . وسيطر على الجزائر مجددا عدا وهران . كانت حامية أسبانية قد تمركزت مجددا فى Penon . أصبحت مدينة الجزائر هادئة منذ عودة بربروس إليها فى ١٥٢٥ . قام خير الدين باشا بإنزال على القلعة بعد أن قصف المنطقة الحجرية مدة ٢٠ يوما . استسلم دون مارتن و ٧٠٠ جندى أسبانى ، وبعد أن أخذ خير الدين باشا Penon (١٥٢٩/٥/٢٧) ، إضافة إلى ردمه المسافة الواقعة بين المنطقة الحجرية والميناء وذلك بتشغيل ٣٠٠٠٠ أسير مسيحى أغلق الميناء بجدار عظيم كاسر للأمواج مايزال يحمل اسمه . ولم يعد ممكنا بعد الآن دخول السفن إلى الميناء قبل إسكات المدافع التركية . وعندما لم تشاهد السفن الأسبانية الـ ٩ ، التى جلبت العتاد والمهمات إلى القلعة ، المنطقة الحجرية ، ظنت فى البداية أنها أخطأت الطريق ، استولت عليها جميعها ١٥ سفينة تركية أمام أعين شعب مدينة الجزائر .

بعث خير الدين باشا الذى علم فى صيف عام ١٥٢٩ ، بمجىء ملك أسبانيا وإمبراطور ألمانيا – Charles Quint إلى جنوة ، صالح رئيس وآيدن رئيس مع ١٤ سفينة إلى بحر ليغوريا . قصف هذا الأسطول بلنسية بعد قصفه مارسيليا ونيس ، وملأ سفينة بآلاف الأندلسيين وتوجه نحو طريق الجزائر . قطع عليه الطريق الأسطول الأسبانى الذى يقوده الأميرال Portondo ، وقد كان الأمبراطور – الملك قد أمر

الأميرال بوقف هذا الأسطول التركى مهما كلفه الأمر وقتل كافة الأندلسيين الموجودين فيه لإرهاب المسلمين الموجودين فى أسبانيا .

أدرك آيدن رئيس بن أحمد (الذى عمل فى السابق كأميرال فى خدمة المماليك) والذى سماه المسيحيون Caccia Diavolo (ضارب الشيطان) ، وسماه الأتراك للمزاح « ضارب الكفار » ، عدم إمكان القتال بسفن مليئة بالبشر ، عاد إلى الساحل مرة أخرى وأنزل الأندلسيين الذين كانوا يتباكون ويعارضون نزولهم ، فى الأراضى الأسبانية ثم جابه الأسطول الأسبانى . بدأ الأتراك بالهجوم واستولوا على ٧ سفن أسبانية ، وتشتت الأسطول الأسبانى الذى لم يستطع مقاومة المدافع التركية بعيدة المدى ودمر ومات Portondo .

اقترب آيدن رئيس من الساحل وعاد عمال سفنه بالأندلسيين الذين تركهم والذين يشكل أكثرهم النساء ، والأطفال ، والشيوخ والمرضى . والذين كانوا كلهم يبكون بصوت عال ويدعون بإخلاص للسلطان سليمان ، سلطان بنى عثمان . لقد أبكت هذه الدعوات حتى الملاحين الأتراك المشهورين بشدة صلابتهم ، حيث كان عقاب الأندلسى إذا قبض عليه بعد محاولته الفرار شيه وهو حى فى نار خفيفة (Les Hauser Debats de L'Age Moderne ، ٤٠١) .

أبلغ خير الدين باشا ، السلطان سليمان بهذا الانتصار الذى جرى فى مياه Formentera المفتوحة فى أسبانيا بعريضة مفصلة .

أبحر خير الدين باشا بأسطول مكون من ٢٨ قطعة على مستغانم أهم بلدة فى حوزة الأسبان بعد وهران وقريبة منها وفتحها (١٥٢٨) . ومنها سار برا إلى قلعة القلاع التى استشهد فيها أخوه الكبير ، ثم تلمسان ، وفتحهما . قاومت تلمسان ٢٠ يوما . سك خير الدين باشا فى تلمسان نقودا باسم السلطان سليمان .

جاء الأميرال Andrea Doroa بأسطول أسبانى - جنوى معزز بـ ٢٠ سفينة حرب فرنسية إلى شرشل (تموز ١٥٣٠) . سار إليه خير الدين باشا بـ ٤٢ سفينة حربية وهزمه . انسحب Doria الذى خسر ١٥٠٠ قتيل و٦٤٠ أسيرا . تعقب الباشا خصمه ، لكنه لم يوفق فى القبض عليه . دخل ميناء مارسيليا . وقصف طولون . دخل ميناء جنوة وأدار فوهات مدافعه نحو المدينة ، وخلص الأميرالين طرغد

رئيس وصالح رئيس اللذان أسرا قبل ثلاث سنوات وقيدا بالسلاسل . لم يتمكن من القبض على دوريا الذى خرج من جبل طارق إلى المحيط الأطلسى .

عند عودته إلى الجزائر ، وجد أمامه التعليمات السلطانية (فرمان) التى تأمره بعدم الإضرار بأى شكل من الأشكال بالسفن والموانىء الفرنسية ، وعلى أثر الأخبار الأليمه الواردة من الأندلسيين ، أرسل أسطولا مكونا من ٣٦ قطعة إلى أسبانيا . تسلم من السلطان سليمان القانونى فى هذه المرة الأمر السلطانى الذى ينص على تعيينه للقياده العامة للقوة البحرية العثمانية (قبودان دريا ، مشير البحر) وناظرا للحربية ، ويأمر بقدومه إلى استانبول . ترك ابنه نائبا عنه واستصحب جميع أميرالاته وتوجه إلى استانبول .

البحث الرابع

« الدولة العالمية » للسلطان سليمان القانوني (١٥٢٠ - ١٥٦٦)

الدولة العالمية للسلطان سليمان القانونى
(١٥٢٠ - ١٥٦٦)

(١) الحملة الهمايونية ١ : بلغراد (١٥٢١)

كان السلطان سليم قد عين خير باى باشا والى إيالة على مصر والمناطق المجاورة ، وجانبرد غزالى باشا على أقطار سورية ، عدا حلب أى المنطقة الشمالية – لبنان ، وفلسطين برتبة بكلر بك (والى) الشام .

كانا كلاهما من رجال المماليك الذين ارتقوا إلى رتبة نائب السلطنة . كتب جانبرد الموجود فى الشام ، عند وفاة السلطان سليم ، إلى خير باى الموجود فى القاهرة بأن البادشاه قد مات وأن إعادة إحياء الدولة المملوكية سهل .

أرسل خير باى إلى جانبرد رسالة توصية بأخذ حلب التى وليها بكلربك عثمانى ، وأرسل الرسالة نفسها التى أرسلها له جانبرد إلى استانبول .

وقعت هذه الحادثة فى غضون شتاء ١٥٢٠ – ٢١ .

انهزم جانبرد الذى حاول محاصرة حلب أمام دلقادر أوغلو على بك (باشا) (١٥٢١/٢/٦) وقطع رأسه ، وعين مكانه والى الأناضول إياس باشا الذى صار بعد ذلك وزيرا أعظم .

لم يمض على وفاة والد السلطان سليمان ٨ أشهر حتى خرج بحملته الأولى ، كان الهدف بلغراد ، مفتاح أوربا الوسطى وأقوى قلعة للمجر فى الحدود التركية التى حاصرها العثمانيون ٣ مرات من قبل ، وقد جرح السلطان محمد الفاتح فى الحصار الثانى ، ومات هنيادى جانوس الذى كان يدافع عن القلعة ، لكن القلعة لم تسقط . كانت القلعة على مسافة ٢٠ كم من الحدود العثمانية .

خرج السلطان سليمان مع ٣٠٠٠ جمل محمل بالبارود والرصاص و ٣٠٠٠٠ جمل محمل بالمهمات وسفينة محملة بـ ٤٠٠ حصان على نهر الطونة ، و٥٠ سفينة حربية ، و١٠٠٠٠ عجلة محملة بالطحين والشعير ، وفيله مدرعة ، ومدافع .. احتل قلعتى بوغوردلن وزملين ، ثم اجتاز فى ٢٦ تموز سافا ، وجاء إلى بلغراد وفتح المدينة فى ٨ آب والقلعة فى ٢٩ آب . وهكذا حقق النتيجة التى تعذر تحقيقها فى محاصرات ١٤٤١ ، ١٤٥٦ ، ١٤٩٢ . بقى ١٩ يوما فى المدينة ، ترك فيها ٢٠٠ مدفع و٣٠٠٠ جندى وعاد من حملته التى دامت ٥ أشهر ، ويومين إلى استانبول فى ١٩ ت ١ .

(٢) الحملــة الهمايونية ٢ : رودس (١٥٢٢ - ٢٣)

كانت رودس بلوى كبرى بالنسبة للمسلمين . كانت طريقة **Saint - Jean** العسكرية التى تسيطر على رودس والجزر الإثنى عشر وبودروم ، قد تأسست خلال الحملات الصليبية في عكا للجهاد ضد المسلمين . كانت هذه الطريقة لاتزال تقوم بمهمتها بواسطة أسطولها ، تضرب السفن التى تسير فى شرق البحر الأبيض بين الأناضول ومصر وسورية .

أمر السلطان فاتح بمحاصرتها ٣ مرات ولم يتمكن من أخذها . أعلن السلطان سليمان أن تحقيق ذلك مهمة سلطانية . غادر الأسطول الهمايونى استانبول فى ٤ حزيران (١٥٢٢) ، وفى ١٦ حزيران غادر الجيش الهمايونى مع البادشاه وشيخ الإسلام زنبيللى على أفندى وابن أخيه الوزير الأعظم بيرى محمد باشا .

جاء الخاقان إلى جزيرة مرمريس ومنها انتقل إلى رودس (٢٨ تموز) بواسطة السفينة الحربية التى يقودها محمد رئيس المسماة يشيل ملك (الملاك الأخضر) (احتفظ الأتراك بهذه السفينة فى مصنع سفن رودس لمدة قرون ، وعرضوها على الناس) ويحتمل أن رودس كانت محصنة أكثر من بلغراد ، ويحتمل أنها كانت تعتبر أكثر تحصينا من أية قلعة أخرى فى العالم . كان القانونى قد درس المحاصرة الفاشلة السابقة بصورة جيدة واستفاد منها . طوق الجزيرة بالسفن . فتح الجزر الإثنى عشر الواحدة تلو الأخرى واحتل بودروم (**Halikarnassos**) آخر أرض مسيحية فى الأناضول .

قاوم الفرسان حتى النهاية . ضحى الأتراك بنحو ٢٠٠٠٠ شهيد ، وفى النهاية استسلم (١٥٢٢/١٢/٢٠) الفرسان الذين أدركوا أن القلعة إن سقطت جبرا - وكان سقوطها رهن أيام - فسيتم إفناؤهم .

كان والى مصر خير باى قد أرسل بواسطة صهره قايتباى بك فى ٩ آب ٢٤ سفينة محملة بالأرزاق والمهمات ، وقد توفى خير باى بعد مدة وجيزة من ذلك وأصبح الوزير ٢ مصطفى باشا الوالى ٣ للدولة العثمانية على مصر . عجز الفرسان بسبب إمكان الرمى داخل القلعة بواسطة مدافع الهاون والقذائف التركية . كان الجاسوس الموجود داخل القلعة ، يخبر بالأماكن الحساسة فى القلعة بواسطة الضوء . لم يقبض على الجاسوس إلا بعد عدة أسابيع حيث مزقه الفرسان (١٤ أيلول) . لقيت الجاسوسات التركيات الـ ٣ الموجودات فى القلعة نفس العاقبة أثناء إضرامهن النار ، ورغم تقطيع أعضاء هؤلاء إربا إربا ، لم يبحن بأسماء الجواسيس الآخرين الموجودين فى القلعة . تظاهر أعضاء شبكة الجاسوسية التى أرسلتها العثمانية إلى رودس قبل سنوات بالمسيحية . ويقال إن الفارس الأسبانى Don Andrea d'Amaral ، حامل رتبة Grand Croix (الصليب الأكبر) ، جاسوس عثمانى كذلك (Atlas Hallert ، ١٩ ، آ) .

أخذ الفرسان أسلحتهم ، عدا المدافع ، وحاجياتهم التى يمكن نقلها وركبوا سفنهم . وافق السلطان سليمان على زيارة الأستاذ الأعظم de l'isle (الذى كان فرنسيا) (٢٦ ك ١) ، حيث مثل بين يدى السلطان مرة أخرى بعد ٦ أيام وشكره على السماح للفرسان بالخروج بسماحة إنسانية لاتصدق .

خلال هذه الأيام ، كان البابا أندريانوس الثانى يجرى مراسم أعياد الميلاد فى كنيسة سان بيترو فى روما ، فتدحرجت حجارة سقطت من حافة سقف الكنيسة نحو قدميه ، فتشاءم البابا . وقال : « سقطت رودس » . كان ذلك اليوم ، هو اليوم الذى قبل فيه القانونى زيارة الأستاذ الأعظم .

دخل البادشاه المدينة يوم ٢٩ ك ١ . أهم الجزر التى فتحت مع رودس هى استانكوى (باليونانية : Kos) . وجزيرة سومبكى (باليونانية : Simi) وهى جزيرة مهمة كذلك . مساحة رودس ١٤١٢ كم^2 وبإضافة الجزر الإثنى عشر

تكون المساحة ٢٦٨٢ كم٢ . كان تعداد سكان هذه الجزر يعادل سكانها حاليا أو أكثر بقليل ، وهى تقع فى منطقة استراتيجية مهمه فى البحر الأبيض .

وهكذا اقتلعت وأزيلت من شرق البحر الأبيض دولة لاتينية (كاثوليكية) من بقايا الحملات الصليبية التى يرجع تاريخها إلى ٢١٣ سنة ، وهى آخر دولة صليبية قضى عليها المسلمون . وفى ١٥٣٠ ، أعطى الإمبراطور – الملك شارل كوينت Charles - Quint إلى الفرسان جزيرة مالطة ، وفى هذه المرة ، قاموا من هذه الجزيرة بإيذاء المسلمين الموجودين فى أواسط البحر الأبيض .

اجتاز البادشاه البحر إلى مرمريس .. فى ٣ ك ٢ (١٥٢٣) مغادرا الجزيرة . وهذه الحملة هى إحدى الحملات الهمايونية عبر البحار النادرة كحملة فاتح على ميديللى وإكريبوز ؛ حيث إن النظام العثمانى لايسمح بخروج البادشاه عبر البحار .

تم تسريح نحو ٦٠٠٠ أسير مسلم فى رودس ، وأعفى الشعب الرومى من الضرائب لمدة ٣ سنوات وأسكنت الجزيرة بالأتراك القادمين من الأناضول ، وأصبحت لواء بحريا . كان كل الولاة الذين عينوا فيها برتبة لواء بحرى .

مات البابا Adrianus الذى علم بسقوط رودس (Lavisse - Rambaud ، ٤ ، ٢٨) .

ولّد سقوط قلعتين من أقوى القلاع المسيحية التى تشكل مفاتيح استراتيجية والتى حاصر العثمانيون كلا منهما ثلاث مرات ، كبلغراد ورودس خلال سنتين متتاليتين الإعجاب والخوف الشديد فى أوروبا تجاه السلطان سليمان . استمرت هذه الحملة الهمايونية ٧ أشهر ، ١٢ يوما .

عاد البادشاه إلى استانبول يوم ٢٩ ك ١٥٢٣/٢ . من حملته هذه التى تعد إحدى الحملات الهمايونية الشتائية النادرة . قاومت قلعة رودس ٤ أشهر و٢٢ يوما .

أحال السلطان سليمان ، الوزير الأعظم (رئيس الوزراء) بيرى محمد باشا ، والذى بقى فى الوزارة منذ عهد أبيه ، إلى التقاعد وعين بدلا منه مقبول إبراهيم باشا (١٥٢٣/٦/٢٧) [الذى كان تربه] وعمره ٢٨ سنة . مات بيرى باشا فى ١٥٣٢/١١/١٣ . اما عمه شيخ الإسلام زنبيللى على جمالى أفندى فإنه توفى فى

١٥٢٦ وبقى فى مقامه حتى وفاته ، كانت مدة مشيخته ٢٣ سنة . ومدة صدارة بيرى محمد باشا هى ٥ سنوات ، ٩ أشهر ، و١٤ يوما .

ترك الوزير الأعظم داماد مقبول إبراهيم باشا استانبول لمدة ١١ شهراً ، ٥ أيام (١٥٢٤/٩/٣٠ - ١٥٢٥/٩/٥) وذهب لتفتيش مصر . أجرى إصلاحات مهمة فى هذه الإيالة ، ونظمها على النمط العثمانى . قلل الضرائب . اجتمع بأصحاب الشكايات من الشعب واستمع إليهم ، عمر جامع عمرو بن العاص فاتح مصر .

لم يتمكن الشاه إسماعيل من التخلص من الكآبة النفسية التى ولدتها هزيمة جالدران ومات فى هذه الأيام (١٥٢٤/٥/٢٢) . كان عمره ٣٧ سنة . احتل مكانه ابنه طحمسب الأول الذى كان عمره ١٠ سنوات ، وانتقلت إدارة الدولة فى الحقيقة إلى الأمراء التركمان .

مات خان قرم منكلى كيراى خان فى سنة ١٥١٤ بعد أن ظل على العرش مدة ٤٤ سنة . شتت كبير أبنائه وخلفه محمد كيراى خان ، الجيوش الروسية فى ١٥٢١ ، ودخل مدينة موسكو وأحرقها . ومنها جاء إلى قزان وأجلس أحد إخوته صاحب كيراى على عرش قزان (جلس صاحب كيراى بعدها ١٩ سنة على عرش قرم) . فتح صاحب كيراى هذا فى ١٥٢٤ Nijni Novogrod (حاليا : غوركى) وهى من أهم المدن الروسية . عاد إلى قرم تاركا ابن أخيه صفاء كيراى بدلا منه فى قزان . حكم صفاء كيراى قزان مدة ٢٣ سنة كممثل للعثمانيين ، وفى ١٥٣٦ ، احتل للمرة الثانية Nijni Novogrod . أما محمد كيراى خان ، فإنه احتل إمارة استرخان فى ١٥٢٢ .

بهذه الفتوحات أصبحت الحدود العثمانية تمتد إلى شمال غربى بحر الخزر ، دلتا الفولغا ، إلى كاما ، إلى موسكو وإلى غوركى . جاء خاه قازان صاحب كيراى فى ١٥٢٤ إلى استانبول ومثل بين يدى السلطان سليمان . فتح إسلام كيراى فى ١٥٢٧ ، مدينة Ryazan فى جنوب شرق موسكو . وصل حكم ونفوذ العثمانية فى أوربا الشرقية إلى حده الأقصى حيث ظهرت بعدها فى أوربا قضايا كبيرة جدا .

الحملة الهمايونية ٣ : حملة أنكرس ٢ (المجر) أو موهاج (١٥٢٦)

يعزى اتجاه السياسة الخارجية العثمانية نحو غرب البحر الأبيض وأسبانيا ، إلى تسلط أسبانيا – التى حققت وحدتها – على المغرب وغرب العالم الإسلامى ، أما سبب اتجاه السياسة الخارجية العثمانية نحو أوربا الوسطى اعتبارا من جلوس السلطان سليمان ، فهو ظهور عهد شارل – كوينت Charles - Quint .

اشتهر الحاكم الذى يحمل لقب كارلوس Carlos الأول كملك أسبانيا وكارل Karl الخامس كإمبراطور ألمانيا ، بلقب « شارل – كوينت Charles - Quint » ، ومع أنه من عائلة هابسبورغ أى انه ألمانى ، الا أنه لم يكن يحسن التكلم بالألمانية . نشأ فى هولندا ثم فى أسبانيا . حاز أجداده وأبواه اقطاراً كثيرة بالتزاوج .

لم ينجب فرناندو (وفاته ١٥١٦) ملك آراغون ونابولى وصقلية الكاثوليكى الذى حقق الوحدة الأسبانية بزواجه فى ١٤٦٩ وجلوسه فى ١٤٧٩ ، بملكة كاستيليا (أى أسبانيا الأصلية) إيزابيلا (وفاتها ١٥٠٤) سوى طفلة واحدة هى جوانا Juana . وحيث يجوز جلوس النساء على العرش فى كاستيليا ولم يكن هذا جائزا فى آراغون ، فإن جوانا لم تتمكن من الجلوس على عرش أسبانيا المتحدة عند وفاة أبيها فرناندو فى ١٥١٦ ، وأصبح ابنها ملكا على أسبانيا بلقب كارلوس Carlos الأول . وبذلك يكون هذا الشاب قد وحد على رأسه تيجان ٤ ملكيات كاستيليا ، آراغون ، صقلية ونابولى . وعند وفاة والد كارلوس (أى شارل – كوينت) ، امبراطور ألمانيا ماكسيميليان الأول ، انتخب إمبراطورا على ألمانيا كذلك . أما أخوات شارل – كوينت ، فقد تزوجن بملوك البرتغال-فرنسا – الدانمارك – النرويج – السويد ، المجر – بوهيميا وأصبحن ملكات تلك الأقطار .

كان شارل – كوينت الذى لايقيم كثيرا فى ألمانيا ويقيم فى أسبانيا وهولندا ، يدير ألمانيا بوساطة أخيه الأرشيدوق فرديناندفون هابسبورغ . كانت عاصمة ألمانيا ، فيينا .

كان فرديناند يقيم فى فيينا كأرشيدوق (دوق كبير) للنمسا وتتبعه نحو ٥٠٠ دولة ألمانية . كانت أخته ماريا قد تزوجت بملك (١٥١٦ – ١٥٢٦) المجر وبوهيميا (جيكوسلوفاكيا) Lajos (وتقرأ لايوش) الثانى وتقيم فى بودابست .

وكان فرديناند متزوجا من أخت لايوش الثانى ، وهى أخته الوحيدة Anna (١٥٠٣ - ١٥٤٧) ولا أخ له ، ولم يكن للايوش الثانى ولد . أى أن الأرشيدوق فرديناند - الذى كان وكيلا للإمبراطور فى ألمانيا نيابة عن أخيه الكبير شارل - كوينت - وملك المجر لايوش أحدهما صهر وكذلك عديل للآخر .

استلفت هذا الوضع اهتمام العثمانية الشديد ، فانتخاب ملك أسبانيا امبراطوراً على ألمانيا ، وكونه الأخ الكبير لملكة المجر (باختصار ، حكمه أو سلطته على أوروبا الوسطى) صنع ماردا عجيبا كان يهدد الدولة العالمية العثمانية ، إذ إنه عدا أن وضع الدولة العثمانية مع أسبانيا بسبب المغرب ومسألة الأندلس واضح ، فإن وضعها المتقابل مع كل من جارتيها الشماليتين المجر وألمانيا معلوم كذلك .

صمم السلطان سليمان على تشتيت هذه الدولة وتقسيمها إلى دول كما كانت فى السابق . ويلاحظ أنه فى ذلك الوقت كانت أسبانيا هى الدولة المسيحية الوحيدة التى تمتلك أقدر جيش وأسطول ، كما كانت قد أصبحت ذات مستعمرات كبيرة فى أمريكا .

وكان يجب ضرب مارد شارل - كوينت فى جبهتين : فى أوربا الوسطى والبحر الأبيض .

قرر السلطان سليمان أن يترك الأمر فى البحر الأبيض إلى بربروس خير الدين باشا ، أما مسألة أوربا الوسطى فقد قرر أن يتبناها بنفسه .

سنرى فيما بعد أن شارل - كوينت سوف يتفق مع إيران الصفوية وسوف يحاول ضرب تركيا من الشرق .

بقى ملك فرنسا فرانسوا Francois وملك إنكلترا هنرى ٨ Henry مستقلين بين الحكام الأوروبيين ، وكان شارل - كوينت قد أدخل البقية بشكل أو بآخر فى قبضته .

عزم فرانسوا ١ على منازلة الإمبراطور شارل - كوينت مهما كلفه الأمر ، لكنه هزم فى الحرب الميدانية وأسر وسيق إلى مدريد وسجن فى أحد القصور .

أرسلت أمه Louise Savoie ، الكونت Jean Frangipani إلى السلطان سليمان

القانونى ورجته تخليص ابنها من السجن . وعندما اطلع السلطان (١٥٢٥/١٢/٦) على كتاب نائبة ملكية فرنسا ووالدة ملك فرنسا ، أصبحت بيدة حجة مهمة تجاه شارل – كوينت كما أصبح معه حليف طبيعى فى الغرب ، وأصبح بإمكانه التحرك باسم ملك فرنسا بصورة شرعية ورسمية ، حيث إن فرنسا قد طلبت منه ذلك بصورة رسمية .

كان شارل – كوينت بالنسبة ، للأوروبيين ، إمبراطورا على روما الغربية ، أما السلطان سليمان ، فإنه إمبراطور روما الشرقية ، وكان السلطان سليمان يرى أنه هو إمبراطور روما الموحدة وان شارل – كوينت غاصب . وبالنسبة للديبلوماسية العثمانية ، كان شارل – كوينت هو « كارلوس ملك أسبانيا » فقط ، ولا نجدأبداً صفة الإمبراطور لشارل – كوينت فى أى وثيقة عثمانية . أما بالنسبة لفرنسا ، فقد كان لجوءها لإمبراطور أوربا الشرعى ، السلطان سليمان ، أمراً مشروعا بالنسبة للقانون الدولى فى ذلك العهد ؛ إذ كان فى ذلك العصر مرجعان اثنان بالنسبة للملوك المسيحيين الذين يصيبهم الحيف : الإمبراطور والبابا ، وكانت قوة البابا العسكرية محدودة ، إذ لم يكن يسيطر إلا على إيطاليا الوسطى فقط .

كان شارل – كوينت قد سجن فرانسوا فى قصر Alcazar (بالعربية : القصر) من مخلفات العرب فى مدريد (بالعربية : مجريط) ، وأجبره هناك على توقيع معاهدة مدريد (١٥٢٦/١/١٤) ذات الشروط الصعبة وأخلى سبيله .

ذهب فرانسوا الذى وقع هذه المعاهدة السيئة للحصول على حريته إلى باريس ناجيا بنفسه ، ولم يكن ينوى أبدا تنفيذ شروط هذه المعاهده ، وأخذ فى تطوير العلاقات التى بدأت والدته بتأسيسها مع السلطان سليمان ، وأخذ يرجو ويطلب من استانبول طلبات لانهاية لها ؛ فقد كانت قوته العسكرية غير كافية لمجابهة الإمبراطور – الملك .

اضطر شارل – كوينت ، خلال سلطنته الطويلة ، إلى مواجهة أربعة أعداء ألداء له : أحدهم سليمان القانونى ، الثانى بربروس خير الدين باشا ، الثالث فرانسوا ١ ، ورابعهم مارتن لوثر .

لقد كان ظهور لوثر فى هذه السنوات بالضبط ، نعمة بالنسبة للعثمانية . تمزقت

الوحدة الكاثوليكية . عمل شارل - كوينت الكاثوليكى المتعصب ، مابوسعه للقضاء على هذا الرافضى المتعنت ، لكن مذهب لوثر انتشر بسرعة فائقة ، وأصبحت أقطار كثيرة تدين بالبروتستانتية ، وانفصلت عن نفوذ البابا . عمل القانونى مابوسعه لمساندة لوثر وتقويته .

وهكذا تمهد السبيل إلى حملة القانونى الهمايونية ٣ (١٥٢٦) وهى أشهر حملة بين حملاته الـ ١٣ . لقد كانت حملة بلغراد التى جرت قبل ٥ سنوات على المجر أيضا (بالعثمانية : إنكرس Engûrüs) ، ولكنها كانت محلية ، ولم تكن تستهدف سوى فتح القلعة مفتاح أوربا الوسطى ، بينما كانت حملة المجر فى هذه المرة حربا شاملة ، تستهدف القضاء على الملكية الكبرى التى دخلت تحت جناح ألمانيا وشارل - كوينت . لم تكن العثمانية ترغب فى ملك يرثه عند وفاته فى بودابست شاب عديم التجربة ، لاوريث له ، صهر وفى نفس الوقت عديل لشارل - كوينت . لم يكن بوسعها أن تسكت على تهديد كبير كهذا فى شمال ألطونة .

لم تكن ملكية المجر ، آنذاك ، المجر الحالية الصغيرة . كانت المجر الكبرى التى تمتد حتى البحر الأدرياتيكى ، والحقيقة أنها تكونت من اتحاد ملكيتى المجر وبوهيميا (جيكوسلوفاكيا) . وهى تشمل عدا جيكوسلوفاكيا الحالية ، كافة الأقطار الشمالية ليوغسلافيا (سلوفينيا ، خرواتيا ، إكلافونيا ، أى مابين سافا - درافا ، فويفودينا) ، ترانسلفانيا (بالتركية : أردل) التى ظلت حاليا فى رومانيا وبانات ، وتشمل منطقة الكاربات التى ظلت حاليا فى أوكرانيا . ومع أن المجريين هم العنصر المسيطر ، إلا أنه كان للملكية كثير من الرعايا السلاف (الجيك ، السلوفاك ، السلوفين ، الخروات) ، وحتى الألمان والرومان والصرب . كانت دولة كاثوليكية تعتمد على جيش قوى . كانت ملكية راسخة يرجع تاريخها إلى ٦٣٧ سنة . كان نفوذ العثمانية كبيرا على دوقية خرواتيا منذ سنوات طويلة .

سار السلطان سليمان من استانبول (١٥٢٦/٤/٢٣) . وصل بلغراد (١٥٢٦/٧/٩) . كان الوزير الأعظم داماد إبراهيم باشا مشتركا فى الحملة . تم الاستيلاء على قلعة بترفارادين ، ذات الأهمية بعد أن قاومت ١٣ يوما (١٥٢٦/٧/٢٧) . تمكن الجيش الهمايونى من العبور من فروع ألطونة براحة وانتظام بفضل الجسور الكبيرة التى تم تشييدها وفى ٢٣ آب ، هدم السلطان سليمان

بنار المدفعية جسر درافا الذى اكتمل فى ١٩ آب ، وكان هذا يعنى أنه لاعودة إلى الوراء . وانه كان يتحتم فتح المجر . دخل الجيش الهمايونى (الإمبراطورى) إلى سهل المجر الكبير (بالمجرية : Alföld)من الجنوب ، وجاء إلى صحراء موهاج التى تقع على مسافة ١٨٥ كم شمال غربى بلغراد ، و١٧٠ كم جنوب بودابست . وبذلك يكون الجيش الهمايونى قد قطع من استانبول مسافة ١٥٠٠ كم خلال ١٢٨ يوما .

كان قوام الجيش الهمايونى ١٠٠٠٠٠ جندى و٣٠٠ مدفع (Hammer و ٥ ، ٧٦) أما الجيش المجرى فقد كان يبلغ عدده نحو ٢٠٠٠٠٠ ، ويتكون من أقوام مختلفة . ومن بين هذا العدد ٣٨٠٠٠ من الوحدات المساعدة التى جاءت من ألمانيا .

كان يقود الجيش ابن عمة البادشاه غازى بالى بك ، ويقود المؤخرة ابن عمة البادشاه كذلك غازى خسروبك ، وكانت فرق الصاعقة تقوم بصيانة طريق الجيش .

جعلت الامطار المستمرة منذ شهور من السهل ، مستنقعات متناثرة ، وكان الرذاذ مايزال يتساقط . وقد كانت بالفعل ناحية من السهل (بالتركية : قره صو) ،مستنقعا كبيرا .

دخل البادشاه بعد صلاة الصبح بين صفوف الجيش وألقى خطبة بليغة ثم دخل بين صفوف فيلق الصاعقة وألقى خطابا على الجند هناك أيضا قال فيه إن : « روح الرسول ﷺ تنظر إليكم » . ويقول جلال – زاده : إن السباهيين لم يستطيعوا السيطرة على دموعهم . كان البادشاه مرتديا درعه .

هجم المجريون الذين سئموا الانتظار فى وقت العصر . أمر البادشاه فرق روملى بالأنشطار إلى قسمين ، وجر العدو إلى الداخل بعد مقاومة قليلة . كان ٣٥ فارسا مجريا قد أقسموا على قتل البادشاه ؛ ٣ منهم الفارس Marczali ورفيقاه ، استطاعوا الاقتراب من البادشاه ، وقتل الآخرون . أصيب القانونى برمية سهم ، لكن السهم لم ينفذ من الدرع ، وقتل الفرسان الثلاثة بسيفه . يعتبر هذا الحادث من الملاحم الوطنية فى التاريخ المجرى . تم تدمير الخيالة المجرية المدرعة التى تعرضت لقصف ٣٠٠ مدفع دفعة واحدة . قام بالى وخسرو بمناورات مستمرة تستهدف سوق العدو نحو المستنقعات . استمرت الحرب ساعة ونصف ساعة فقط . وفى نهاية هذه المدة ، أصبح الجيش المجرى الذى عاش ٦٣٧ سنة فى ذمة التاريخ .

ظل القسم الأكبر من جيش المجر فى ساحة الحرب وغرق أكثرهم فى المستنقعات فى موهاج ، إن هذه المعركة لهى أكبر حروب الإبادة النموذجية والكلاسيكية فى التاريخ .

غرق الملك لايوش الثانى ، و٧ أساقفة ، وجميع القواد الكبار فى المستنقع ، وأسرت البقية وهم ٢٥٠٠٠ جندى .

انتهت الحرب خلال رمشة عين ، حتى إن العدو لم يتمكن من إدراك ماحاق به . كانت خسائر الأتراك ١٥٠ شهيدا ، وبضعة آلاف من الجرحى وقد تحركوا بدقة كبيرة بحيث لم يقع واحد منهم فى المستنقع . « لم يشهد التاريخ حربا كموهاج ، حسمت نتيجتها على هذه الصورة فى مصادمة واحدة ، ومحت مستقبل شعب كبير لعصور طويلة » (Lavisse - Rambaud ، ٤ ، ٦٢٢) .

قام الجيش الهمايونى باستعراض فى صحراء موهاج فى ٣١ آب وحيا الخاقان . هنأ الخاقان وقبل يده جميع القواد ابتداء من الوزير الأعظم فردا فردا . وبعد صلاة الفجر فى يوم ٣ أيلول ، أخذ الجيش فى الصعود نحو الشمال بمحاذاة ساحل ألطونة الغربى . وصلوا إلى بودابست (بالألمانية : Ofen ، بالمجرية : Budapest ، بالعثمانية : بودين) خلال ٨ أيام . دخل السلطان سليمان مدينة عرش المجر (١٥٢٦/٩/١١) . كان قد أحتفل بعيد الفطر فى (١١ تموز) فى بلغراد . استقبل السلطان سليمان تهانى عيد الأضحى فى سراى الملك (١٧ أيلول) . مكث ١٣ يوما فى المدينة .

كانت علاقة فويفودا (أمير) أردل (ترانسلفانيا) (Szapolya (Zapolya متوترة مع الملك ، لذا لم يشترك فى موهاج . جاء مع جنوده الـ ٣٠٠٠٠ إلى البادشاه وعرض طاعته . كان سبب خلافه مع الملك لايوش المتوفى ، ازدياد نفوذ الألمان فى المجر . نصب السلطان سليمان ، Zapolya ملكا على المجر وأميرا على أردل تابعا لتركيا ومنحه عرش بودابست . ألحق إسكلافونيا مباشرة . أما جيكوسلوفاكيا ، فقد ألحقها الأرشيدوق فرديناند المدعى لوراثة لايوش ٢ ، وأصبح ملكا على بوهيميا .

استغرقت الحملة الهمايونية ٣ سنة ، و٦ أشهر و٢٠ يوما . عاد السلطان سليمان إلى استانبول كـ « فاتح المجر » (١٥٢٦/١١/١٣) ، تبدل الميزان تماما فى أوربا

الوسطى ، وصلت الحدود التركية إلى النمسا وجيكوسلوفاكيا . ودخلت العثمانية بين دول أوربا الوسطى .

(٤) الحملة الهمايونية ٤ : حملة فيينـا (١٥٢٩)

بعد أن مكث السلطان سليمان فى استانبول نحو سنتين ونصف غادر استانبول (١٥٢٩/٥/١٠) فى الحملة الهمايونية ٤ . كان يرافقه إبراهيم باشا أيضا . كان يحمل مهمات الجيش ٢٢٠٠٠ جمل وعشرات الألوف من البغال . قبل السلطان زيارة الملك زابوليا الذى جاء مع ٦٠٠٠ خيال فى سرادقه الهمايونى فى صحراء موهاج يوم ١٨ آب ، وسمح له بتقبيل يده . جلس على الكرسيين الذهبيين الموضوعين أمام عرشه الذهبى ، إبراهيم باشا وزابوليا . وكما هو معلوم فإن تيجان ملوك المجر المكونة من تاجين متداخلين أحدهما داخل الآخر تسمى كورونا Corona ، ومن لايملك هذا التاج تعتبر ملكيته مشكوكا فيها . سرق جواسيس الملك فرديناند الكورونا ، وكانوا على وشك أن يهربوا به إلى فيينا . وفى ٢٠ آب قطع بالى بك طريق الجواسيس فى طريق فيينا وتمكن من ضبط الكورونا وأرسله فى ٤ أيلول إلى السلطان سليمان الذى أرسله إلى زابوليا .

كان زابوليا قد فشل فى الدفاع عن بودابست (بالعثمانية : بودين) أمام الألمان وخرجت من حوزته إلى الألمان . كان غرض الحملة استرجاع بودين وإخراج الألمان من المجر . جاء السلطان سليمان فى ٣ أيلول ١٥٢٩ أمام المدينة التى يحتلها الألمان منذ ٢٠ آب ١٥٢٧ . سلم الألمان القلعة والمدينة إلى الأتراك بعد ٥ أيام . غادر الخاقان بودين فى ١٢ أيلول . جاء زابوليا فى ١٤ أيلول ولبس التاج فى سراى الملك . وضع سكبانباشى الإنكشارية التاج على رأس ملك المجر . وفى هذه المرة ترك حسن بك فى بودين كقائد للقلعة . حيث اتضح أن زابوليا بجنوده غير قادر على حماية القلعة فى مواجهة الألمان .

كان السلطان سليمان يبحث عن جيش الملك فرديناند ، ولكن الالمان كانوا حريصين على أن يتجنبوا عاقبة كعاقبة كموهاج .

عثر غازى محمد بك أخو بالى بك على أحد الجيوش الألمانية قرب قصبة Bruek على مسافة ١٥ كم جنوب شرق فيينا وهزمه . أسر القائد العام Von Zedlitz و ٦ من جنرالاته . وفى ٢٧ أيلول ، جاء الجيش الهمايونى والخاقان أمام قلعة فيينا (بالعثمانية : بچ) ، وكانت عرش الامبراطورية الوحيدة للعالم المسيحى .

تم إخلاء المدينة ، كان الألمان قد تركوا المدينة على دفعات فى قوافل ، كل منها ٥٠٠٠ شخص . أسرت الصاعقة بعض هذه القوافل . ترك الملك فرديناند مدينة العرش وانسحب إلى لينز . تولى الدفاع عن فيينا الكونت Nicolas Von Salm وعمره ٧١ سنة مع معاونه الفيلد مارشال Wilhelm Von Rogendorf . بقى فى المدينة ٢٠٠٠٠ من المشاة ، و٢٠٠٠ خيال والمدفعية ووحدات أخرى . أبلغ فرديناند أخاه الكبير شارل - كوينت بأن السلطان سليمان ينتوى الوصول إلى نهر الراين . اتخذ الخاقان Kaiser Ebers dorf الواقعة على مسافة ٢ كم من القلعة ، مقرا له . أحرق الألمان ٢٨ سفينة حربية فى ألطونة لئلا يستولى عليها الأتراك . كان بالقلعة عتاد ومهمات تكفى لعدة شهور .

لم يكن غرض حملة السلطان سليمان احتلال فيينا ، بل كان غرضها العثور على الجيش الألمانى السيار وإبادته . جاء إلى فيينا لتعجيز العدو . ولم يكن ذلك ضمن خطته . حيث إنه كان قد ترك مدافع الحصار الثقيلة فى بودين . حوصرت المدينة مدة ١٩ يوما فقط (٢٧ أيلول - ١٦ ت١/١٥٢٩) . لم تكن هذه المدة كافية فى ذلك العهد لإسقاط قلاع بهذا الحجم عنوة ، فعلى سبيل المثال كان السلطان سليمان قد أسقط قبل عدة سنوات قلعة بلغراد خلال ٣٤ يوما ورودس خلال ١٤٤ يوما . لم يتمكن السلطان من العثور على الجيش الألمانى السيار ، ولم يشأ شارل - كوينت أن يرتكب عملا خاليا من الحيطة كهذا . رفع الحصار عند هطول الثلج .

دامت الحملة الهمايونية ٤ مدة ٧ أشهر ، و٧ أيام . عاد الخاقان إلى استانبول يوم ١٥٢٩/١٢/١٦ . كانت خسائر العثمانية فى هذه المرة ١٤٠٠٠ بين شهيد وجريح .

جرت طوال مدة استمرار الحملة الهمايونية ٤ ، فى صيف وخريف ١٥٢٩ ، أكبر عملية غزو فى التاريخ العثمانى . أصبحت المنطقة من النمسا ، بافيرا ، مورافيا ،

بوهيميا ، سلوفاكيا ، سيليزيا ، سلوفينيا وحتى الحدود السويسرية ، مجالا للغزو . اجتاح ابن عمة القانونى يحيى باشا - زاده غازى محمد بك (شقيق بالى بك) فعليا كلا من بافيرا ، بوهيميا ، مورافيا واحتل فعلاً Regensbuvg مركز بافيرا و Brünn مركز مورافيا .

واجتاح مالقوج أوغلو قاسم بك ، الإيالات النمساوية ودخل فريق من المغاوير Vaduz مركز إمارة Liechtenstein وأحرق قصر الأمير وأسر ابنه ، ثم دخل سويسرا ، ووصل إلى نهر الراين . إلى خط طول ٩ نحو الغرب .

تقع Vaduz على مسافة ٥٠٠ كم (مسافة مستقيمة) جنوب غربى فيينا (Lavisse - Rambaud ، ٤ ، ٧٢٧ ، هامر ، ٥ ، ١٣٢ ، ٤٨١) .

احتل الأتراك فى (١٥٢٩/١١/١٥) Graz المدينة الكبيرة الثانية فى النمسا ، وكذلك Maribor فى سلوفينيا ، وكان الغزو لايزال مستمرا فى ك ١٥٢٩/١ ، حيث كانت الغاية تأمين انسحاب الجيش الهمايونى ، وتأمين عدم تدخل الألمان مرة أخرى فى أمور المجر .

انكسرت شوكة شارل - كوينت وانهارت خطة التحكم فى أوربا . جاء السفراء الألمان إلى استانبول فى ت ١/ ١٥٣٠ ، وطلبوا إقرار صفة الإمبراطور لشارل - كوينت ومنح المجر لاخيه فرديناند بنفس الشروط التى منحت بها إلى زابوليا (أيا كانت) ، أو بشروط أكثر ملاءمة للعثمانية . رفض إبراهيم باشا بصورة قطعية . وعلى أثر ذلك ، ولكى يحصل شارل - كوينت على الصلح الذى ينشده بالقوة ، تحرك فى شتاء ٣٠ - ١٥٣١ .

وفى الأيام التى كان يحاصر فيها قاسم باشا Sigetvar الموجودة فى حوزة الألمان بدأ فرديناند كذلك بمحاصرة بودين . دام الحصار نحو شهرين .

كان حامى القلعة كوجوك قاسم باشا ، وكان بالقلعة ٣٠٠٠ جندى تركى و ١٠٠٠٠ مجرى . لكن المصاعب بدأت تلوح فى بودين . لحق داماد غازى يحيى باشا - زاده سلطان - زاده غازى محمد بك (باشا) ، مع أفراد صاعقته . طارد جيش الفيلدمارشال Von Roggendorf - الذى رفع الحصار بصورة مستعجلة - إلى أعماق النمسا وأسر ١٥٠٠٠ . لكن السلطان سليمان قرر القيام بحملة جديدة

على ألمانيا فى الربيع ، سواء للرد على حصار بودين أو بأمل ضرب جيش شارل - كوينت فى حرب ميدانية .

(٥) الحملة الهمايونية ٥ : الحملة الألمانية ٢ (١٥٣٢)

سار السلطان سليمان الثانى من استانبول ، مع إبراهيم باشا فى ٢٥ نيسان ١٥٣٢ ، مستصحبا معه ٢٠٠٠٠٠ جندى و٤٠٠ مدفع . فتح قلاع Siklos (بالتركية : شيكلوش) (٢١ تموز) ، Kanije (بالمجرية : Nagy Kanizsa ، بالألمانية : Gross - Kanisa) (٣٠ تموز) و١٥ قلعة أخرى من الدرجة الثانية ، هى قلاع المجر الجنوبية - الغربية التى كانت بحوزة الألمان . شيد جسرا على نهر Raba (بالألمانية : Raab) واجتازه . جاء أمام قلعة Güns (بالمجرية : Köszeg ، بالتركية : كونش) وهى قلعة مهمة على بعد ٢ كم من حدود النمسا و٩ كم جنوب فيينا وفتحها فى ٢٨ آب ، ولذلك يطلق على هذه الحملة فى التاريخ العثمانى اسم « حملة كنز » ، « حملة نمجه (أوستريا) » .

ورغم أنه حرر فى ٣٠ آب رسالة شديدة اللهجة إلى الملك فرديناند تساءل فيها عن محل وجوده وأخيه الكبير ، لكنه لم يصادف الجيش الألمانى السيار ، وأيقن جيدا أن شارل - كوينت سوف لايرضى بحرب ميدانية وأنه سيسيطر على المجر بطريقة اضرب وأهرب . وفى ١١ أيلول دخل السلطان سليمان Graz المدينة الكبيرة الثانية فى النمسا . سقطت كثير من القلاع النمساوية ، واحتل المدن والنمسا بكاملها .

عاد الخاقان إلى استانبول (١٥٣٢/١١/٢١) من حملته التى دامت ٦ أشهر ٢٦ ويوماً .

بعد المفاوضات الطويلة مع الدبلوماسيين الألمان ، أبرمت معاهدة استانبول (١٥٣٣/٦/٢٢) . وافق الديوان الهمايونى (حكومة الإمبراطورية العثمانية) الذى قرر الحملة على إيران ، على الصلح مع ألمانيا . تم تثبيت الحدود التركية - الألمانية على أساس الحدود النمساوية - المجرية الحالية تقريبا .

نصت المعاهدة على أن تبقى قلعة Györ (بالتركية : يانق قلعة بالألمانية :

Raab) المهمة – التى تعتبر مفتاح فيينا – لدى العثمانية . تبعد هذه المدينة مسافة ٩٥ كم غربى بودابست و٨٠ كم جنوب شرقى فيينا ، و٦٠ كم جنوب شرقى براتسلافا ، و١٢ كم عن ألطونة ، على الضفة الغربية من نهر Raba (بالألمانية : Raab) .

تضمنت المعاهدة أيضا اعتراف الديوان بفرديناند ملكا على بوهيميا وأرشيدوقا على النمسا ، وتعتبر أسبانيا خارج معاهدة الصلح .

وبموجب المعاهدة أيضا يعتبر فرديناند فى التشريفات معادلا للوزير الأعظم (رئيس الوزراء) ويخاطب أحدهم الآخر بكلمة « أخى » يعتبر الطرف الألمانى Zapolya التابع للسلطان ، ملكا على المجر ومعادلا له ويعترف بالبادشاه « أبا » له .

الحملة الهمايونية ٧ : حملة إيطاليا (كورفو و بوليا) (١٥٣٧)

خرج سليمان الثانى بحملة إيران ١ ، بعد هذه الحملة كما سنرى فيما بعد .

أعلنت الحرب على البندقية وسار البادشاه من استانبول بالأسطول الهمايونى فى ١٥٣٧/٥/١٧ ، وكان مشير البحر بربروس خير الدين باشا قد سار بالأسطول الهمايونى من استانبول قبل ٦ أيام ، وكان إياس محمد باشا ، الوزير الأعظم منذ ١٥٣٦/٣/١٥ ، يرافق البادشاه . أما الوزير ٣ (وزير أعظم فى المستقبل) داماد لطفى باشا ، فقد كان فى الأسطول مع بربروس ويقود جنود المشاة الموجودين فى الأسطول .

وهكذا انهار الصلح الذى كان مستمرا مع البندقية منذ معاهدة ١٥٠٢/١٢/١٤ أى منذ ٣٥ سنة .

ومن أسباب الحملة قيام البندقية بتقديم المساعدات المستمرة خفية لألمانيا – أسبانيا ، ورفضها دعوة الديوان لاتفاق تركية – فرنسا .

كان بصحبة البادشاه من أبنائه الأمير (شهزاده) محمد والأمير سليم (الثانى) ، وكان عمراهما ١٦ و١٣ سنة . أما أولو شهزاده (ولى العهد) مصطفى الذى كان عمره ٢٢ سنة ، فقد كان فى مانيسا يقوم بإدارة لواءيه صاروخان وآيدن . وبالنسبة

للمعاهدة ، كان ملك فرنسا François ، قد احتل من ألمانيا كونتية Savoie ، لكنه لم يجسر على الدخول إلى شمال إيطاليا وأخل بهذا البند من المعاهدة .

جاء السلطان سليمان إلى ميناء آفلونيا فى ألبانيا ، الواقع على بوغاز أوترانتو والساحل المقابل له قلعة – ميناء اوترانتو وإيالة بوليا Pulya الإيطالية ، عن طريق استانبول – أدرنة – فيلبيه – اسكب – الباسان . وكانت إيالة بوليا وجميع جنوب إيطاليا فى حوزة اسبانيا ، أما جزيرة كورفو العائدة للبنادقة فإنها تقع جنوب آفلونيا .

كان الأسطول الهمايونى المكون من ٢٨٠ قطعة والجيش الهمايونى قد دخلا إلى خليج آفلونيا فى ١١ تموز قبل البادشاه بيومين . اجتاز الأسطول بوغاز أوترانتو البالغ طوله ٩٢ كم وأنزل جنودا فى إيطاليا وفتح أوترانتو (١٥٣٧/٧/٢٣) . كان قد مضى ٥٦ سنة على إخلاء الأتراك أوترانتو فى ١٤٨١ .

أعلنت برنديزى خضوعها . لكن لطفى باشا أخلى إيطاليا بعد ٢١ يوما وعاد إلى آفلونيا (١٣ آب) ، وبدأ حصار كورفو (٢٥ آب – ٦ أيلول) التى تقترب من الساحل التركى إلى حد ٥ كم . احتل كامل الجزيرة ، وكانت القلعة مازالت تقاوم ، تم إنزال ٥٠٠٠٠ جندى وأكثر من ٣٠ مدفعا إلى الجزيرة . لكن البادشاه أمر برفع الحصار فى اليوم الـ ١٢ من الحصار . عارض لطفى وبربروس فى رفع الحصارات وأفادا بأن القلعة سوف تسقط بعد ١٢ يوما آخرين ، لم يستمع البادشاه لهما ؛ فقد كان متأثرا بمنظر استشهاد أربعة من الجنود الأتراك دفعة واحدة بقذيفة مدفعية أطلقت من القلعة .

أخليت الجزيرة فى ١٤ أيلول ، وأصدر القانونى أمر العودة . عاد إلى استانبول (١٥٣٧/١١/٢٢) بعد ٦ أشهر و٦ أيام عن طريق منسطر – سلانيك – سرز – قاوالا ، ديمتوكا – أدرنة . مكث ٢٤ يوما فى أدرنه أثناء عودته .

قلب بربروس فى طريق عودته جزر كيكلاد وكريت رأسا على عقب . طلبت البندقية الصلح . رجت فرنسا الديوان فى قبول هذا الصلح . وصل خبر انتصار Vertizo (١٥٣٧/١٢/٢) بعد ٢٠ يوما من وصول القانونى إلى استانبول . كان السلطان – زاده (سليل العائلة المالكة) غازى محمد بك ، قد أباد جيش الجنرال كاتزيانر Katzianer – المكون من ٤٥٠٠٠ جندى و٤٩ مدفعا – الذى اقترب إلى Vertizo قرب Osiyek فى شرق خرواتيا .

(٧) الحملة الهمايونية ٨ : حملة بغدان (مولدافيا) (١٥٣٨)

خرج البادشاه فى السنة التالية بحملة بغدان (١٥٣٨/٧/٨) . وتصادف فى هذه الأيام خروج بربروس خير الدين باشا بحملة البحر الأبيض التى أثمرت انتصار Preveze ، أما والى مصر (وزير أعظم فى المستقبل) سليمان باشا ، فقد كان فى حملة الهند . اشترك فى هذه الحملة كل من الشهزاده محمد والشهزاده سليم (الثانى) ، الوزير الأعظم أياس‌محمد باشا والوزير الثانى داماد لطفى باشا . وكان فاتح وبايزيد الثانى قد قاما سابقا بحملات على بغدان (مولدافيا) .

كانت بغدان (مولدافيا) إمارة رومانية مستقلة ذاتيا تابعة لتركية . لم يكن لديها ساحل على البحر الأسود وكان قسمها الساحلى تابعا لإدارة العثمانية المباشرة . كان دخول الفويفودا (لقب أمراء المجر) بترو ٥ ، بتحريض سرى من ألمانيا ، أراضى ملكية بولونيا المتصالحة مع تركية ، وشكوى السفير البولونى ، أحد أسباب هذه الحملة . أعدم السلطان سليمان جنديين تركيين لحرقهما دارا تخص مسيحياً فى ٢٩ آب عندما كان الجيش فى قيزيل كول قوناغى فى شمال دوبروجه وايساكجى . ثم تسجيل هذا الحادث فى الكتب المدرسية الأوربية كقصة كلاسيكية ، كان الجيش فى أراضى العدو ، لكن الحرب كانت قائمة . ولم يكن الإعدام هو عقوبة هذا الفعل فى أوقات الصلح .

تم اجتياز نهر Prut من الجسر الذى شيده المعمار سنان فى ٣١ آب . جاء الجيش إلى ياشا أكبر مدن بغدان ، ومنها إلى سوجوفا (بالرومانية : Sueeava) عاصمة الإمارة التى تبعد عنها ١١٠ كم (١٥٣٨/٩/١٥) . كان قد تم اجتياز نهر Seret كذلك . مكث القانونى فى سوجوفا مدة ٧ أيام . أعلن البويار (أشراف الرومان) الرومانيون خضوعهم للبادشاه ، وأعلنوا تمرد الأمير الهارب وعدم اعترافهم به . كانت بشرى كبيرة تنتظر السلطان سليمان فى قصر يانبولو عند عودته (١٥٣٨/١٠/١٥) : لقى أمامه حسن بك بن بربروس خير الدين باشا ، الذى قص عليه تفصيلات انتصار Preveze الذى تحقق قبل ١٧ يوما . عاد البادشاه إلى استانبول فى ١٥٣٨/١١/٢٧ من أقصر حملاته التى استمرت ٤ أشهر و٢٠يوما .

نتيجة لهذه الحملة ، ضمت الأراضى الواقعة بين نهرى دنيستر الذى يطلق عليه الأتراك اسم « بوجاق » وبروت ، إلى الإدارة العثمانية المباشرة وفصلت عن بغدان . ومنذ ذلك الحين تقرر تخصيص حامية مكونة من ١٠٠٠ سباهى و٥٠٠ إنكشارى فى سوجوفا بدعوى حراسة الفويفودا . ألحقت بالعثمانية كامل البلاد المنحصرة بين بروت ودنيستر (بالتركيه : تورلا) والتى تسمى بيسارابيا ، وقلصت حدود بغدان بصورة كبيرة . وفى هذه الحملة ، شاهدت الأراضى الرومانية ، لأول مرة فى تاريخها ، الفيلة حاملة الكوس (الطبل الضخم) (كاتب جلبى ، فذلكة ، ٤٠٤/١) .

كذلك أخذت من إمارة أفلاق ، المناطق المحيطة بمدينة إبرائيل وضمت إلى الإدارة العثمانية المباشرة (١٥٤٣) . تمت السيطرة بشكل كامل على المناطق الحساسة لنهر ألطونة . أصبحت دوبروجه منذ ذلك العهد وكأنها بلادا تركية . وارتفع عدد سكان باباداغ إلى ١٠٠٠٠٠ نسمة . جاء خان قرم وخان قازان السابق صاحب كيراى مع جيشه فى هذه الحملة ، وانضم إلى الجيش الهمايونى .

أبرمت مع البندقية معاهدة استانبول (١٥٤٠/١٠/٢٠) . وهكذا تم على نطاق واسع الحيلولة دون انحياز البندقيه إلى شارل -- كوينت . ترك آخر رصيفين بحريين بندقيين فى مورا (Malvoisia = Monemvasia بالتركية : منكشة = بنفشة ، و(Navplion = Nauplia = لتركية : آنابولو) إلى تركيا ، وانتقلت بعض الجزر فى جنوب إيجه ، قلعتين فى دالماجيا (Nadin وUrana) إلى تركية . وسددت البندقية بالإضافة إلى ذلك ٣٠٠٠٠٠ ليرة ذهب كغرامات حرب .

(٨) الحمله الهمايونية ٩ ؛ حملة بودين (١٥٤١)

غادر القانونى استانبول فى حملته الـ ٩ بتاريخ ١٥٤١/٦/٢٠ .

سبق أن ذكرنا أنه قد تم إعلان اعتبار الملك زابوليا فى ١٥٢٩ « ابنا معنويا » للسلطان سليمان (Makkai ، ١٢٤) ، كما وافق القانونى فى ١٥٣٣ على اعتبار الملك فرديناند كذلك ابنا معنويا له .

لم يكن فرديناند قد ترك بعد أطماعه فى المجر ، وكان كبير الأمل فى ذلك لأن الملك زابوليا ، زوج أخت ملك بولونيا ، لم يكن له ابن ، لكن زابوليا تزوج بأمر القانونى بابنة ملك بولونيا Sigismund الأول ، وأنجب ابنا ، لكنه توفى بعد ١٥ يوما من ولادة الطفل (١٥٤٠/٨/٢٢) وعمره ٥٣ سنة بعد أن ظل ملكا على المجر مدة ١٥ سنة .

إن ترك طفل لايتجاوز عمره ١٥ يوما على عرش المجر - ترانسلفانيا ، كان يعنى تحريكا لأطماع فرديناند ، وبخاصة أن الأم البولونية ، شابة وليست ذات نفوذ ، وتشغل موقع نيابة السلطنة وهى ليست ذات كفاءة للمنصب .

كان هذا هو الوضع الذى استدعى قيام الخاقان بحملة جديدة . كان يرافقه أبناؤه شهزاده سليم (الثانى) وعمره ١٧ سنة وشهزاده بايزيد وعمره ١٥ سنة ، قضعسكر (قاضى العسكر) روملى (شيخ الإسلام فى المستقبل) أبو السعود أفندى ، سليمان باشا الذى صار صدرا أعظم بدلا من داماد لطفى باشا .

أرسل فرديناند الذى أراد السبق والمبادرة ، جيشا ألمانيا كبيرا بقيادة Von Roggendorf وحاول فتح بودين . فاجأ غازى محمد بك (باشا) الجيش الألمانى (ليلة ٢١ - ٢٢ آب ١٥٤١) فى Istabur خارج بودين . هرب الألمان بعد أن تكبدوا خسائر فادحة جدا . نصب السلطان سليمان سرادقه خارج بودين بعد الانتصار بـ ٤ أيام فى ٢٦ آب . وفى ٢٠ آب استقبل الملك المسمى Janos الثانى = يانوش » وعمره سنة واحدة بمراسم خاصة ، احتضن الأمراء (شهزادات) الطفل ولاطفوه بمحبة . أعلن السلطان سليمان ، أنه منح يانوش الثانى إمارة أردل (ترانسلفانيا) وأنه يسمح له بأن يحمل لقب « ملك » إلى نهاية حياته .

أما المجر ، فقد أعلن أنها أصبحت إيالة باسم « إمارة بودين » (١٥٤١/٨/٢٩) . سوف تصبح الإيالة الثانية بعد مصر ، وقبل روملى .. فى التشريفات العثمانية . ومن الصدف الغريبة ، أن ذلك اليوم صادف الذكرى السنوية الـ ١٥ لانتصار موهاج . عين رمضان أوغلو أزون حسن واليا على الإيالة بمرتبة وزير ، وهذا الأمير التركمانى كان قبل عدة سنوات أول وال للدولة على إيالة بغداد (العراق) . وهو حفيد محمد بك الذى توفى فى معركة ردانية وابن رمضان أوغلو

كباد باشا . وعين لولاية بودين بعد سليمان باشا ، ابنا عمته يحيى باشا – زاده غازى بالى باشا ، وبعد وفاته ، أخوه غازى محمد باشا .

خصص لقلعة بودين ٦٠٠٠ جندى وفى مراكز الالوية حاميات لاتقل أعدادها عن ١٠٠٠ جندى . أما أردل (٨٤٠٠٠ كم٢) فقد أصبحت إمارة مجرية مستقلة ذاتيا .

دخل القانونى بودين بمراسم عسكرية واستمع إلى الخطبة التى تلاها أبو السعود أفندى فى جامع فتحية (١٥٤١/٩/٢) . أخلت الملكة السراى الملكى ، وقام الأتراك بصيانته والعناية به ، واعتبر قصرا للبادشاه ، ولم يخصص لإقامة الأمراء ، حيث أقاموا فى سراى آخر .

ظل شريط من الأراضى فى شمال شرق المجر بحوزة الملك فرديناند . ووفقاً لمعاهدة استانبول كان فرديناند بالنسبة لهذه الأراضى تابعا للبادشاه ويدفع سنويا ضريبة قدرها ٤٠٠٠٠ ليرة ذهبية .

دامت هذه الحملة ٥ أشهر ، ٧ أيام . عاد السلطان سليمان الذى أقام فى بودين ٢٦ يوما إلى استانبول فى ١٥٤١/١١/٢٧ .

قام فرديناند بمحاولة أخرى لأخذ بودين . جاء منتخب براندنبورغ Joachim الثانى Von Hohrnzollern أمام بودين (١٥٤٢/١١/١٧) ، بجيش صليبى مكون من ١٠٠٠٠٠ جندى ؛ منهم ٤٠٠٠٠ من المشاة و٨٠٠٠ خيال من الألمان والبقية أسبان ، وقوات البابوية الخ .

بدأ يواكيم Joachim الثانى الذى يجلس على عرش برلين (وعمره ٣٧ سنة) ، بقصف قلعة بودين بواسطة ٤٠ مدفعاً .

جاء القانونى من استانبول إلى أدرنة لمراقبة الوضع عن كثب : هزم الألمان فى كل من الهجومين العامين . أعطى المنتخب فى ليلة ٢٣ – ٢٤ ت ٢/(١٤٥٢) أمر الانسحاب بصورة سرية ، لكنه شاهد فى صبيحة يوم ٢٤ ت ٢ ، جيوش السلطان – زاده غازى بالى باشا مع ٨٠٠٠ من جنوده تطارده . قتل وأسر الباشا أكثر من نصف الجيش بعد أن تمكن من اللحاق به .

(٩) الحملة الهمايونية ١٠ : انتصار استركون (١٥٤٣)

سار القانونى من أدرنة التى قضى فيها شتاء كاملا (١٥٤٣/٤/٢٣) .

اخذت ٣٧١ قطعة من أسطول ألطونة الرفيع (الأسطول النهرى الذى يتكون من قطع بحرية رفيعة وطويلة) فى حمل الأرزاق والمهمات من دلتا ألطونة فى البحر الاسود ، والمسير على طول نهر الطونة . وفى الوقت الذى خرج فيه السلطان سليمان فى حملة ألمانيا ، كان بربروس كذلك يسير فى حملة فرنسية غرب البحر الأبيض ، تجاه أسبانيا . كان قد فتح جبهة ثانية . استعيدت بج(٤ تموز) التى كانت فى حوزة الألمان منذ ٣ سنوات واستعيدت كذلك شيكلوش (٥ تموز) .

وفى ٢٩ تموز جاء البادشاه أمام استركون (بالمجرية Esztergon وبالألمانية : Gran) ، التى كانت قلعة مهمة جدا على مسافة ٣٠ كم شمال غربى بودين ، على الساحل الجنوبى من ألطونة (الساحل المواجه له ، سلوفاكيا) . قصفت القلعة بواسطة ٣١٥ مدفعا ، واستعيدت بعد ١٢ يوما (١٥٤٣/٨/١٠) . استشهد عقيد مشاة وعقيد بحرية واحد . مات بالى باشا فى تلك الأثناء وعين مكانه أخوه محمد باشا واليا على بودين .

كانت هناك قلعة مهمة أخرى يحتلها الألمان منذ ٣ سنوات وهى استولنى – بلغراد (بالمجرية : Székesfehervar بالألمانية : Stuhlweissenburg) تقع على مسافة ٥٠ كم من جنوب غربى يورش . تم استعادتها فى ٤ أيلول ١٥٤٣ بعد أن قاومت ١٥ يوما .

كانت استركون مركزا دينيا للمجر ، يقيم فيه رئيس أساقفة المجر الكاثوليك . كان الأتراك يحترمونه . أما استولنى – بلغراد ، فكانت هى المدينة التى يدفن فيها ملوك المجر ، وكان الملوك الذين يتوجون فى هذه الكاتدرائية يدفنون فيها عند وفاتهم . كانت القاعدة أنه يتم تحويل الكنائس الكبيرة فى المدن التى لاتستسلم من تلقاء نفسها وتفتح بالقوة إلى جوامع . لكن السلطان سليمان الثانى ، مراعاة لشعور المجريين ، لم يأمر بتحويل هذه الكاتدرائية إلى جامع وأمر بتحويل كنيسة أصغر منها ، وأعاد الكاتدرائية لإدارة الرهبان الكاثوليك ، وتحتوى الكاتدرائية على صلبان من الذهب موضوعة على نعوش الملوك ، وفى أصابعهم محابس من الماس ، وعلى رءوسهم تيجان مرصعة . لم يمس الأتراك أبدا هذه الخزينة .

ارتبطت استركون واستولنى – بلغراد ببودين كمركزى لواءين مهمين . وأصبحت استركون من أهم قواعد جنود الصاعقة . حيث إنها كانت على الحدود الألمانية تماما . عين والى بودين أحمد بك شقيق غازى محمد باشا ، واليا على لواء استولنى – بلغراد وهو ابن عمة البادشاه .

دامت الحملة الهمايونية ٦ أشهر و٢٣ يوما . عاد الحاكم العالمى السلطان سليمان إلى استانبول فى ١٦ ت١٥٤٣/٢ .

أحيل الوزير الأعظم سليمان باشا – المشهور بحملته على الهند – إلى التقاعد ، وحل محله فى هذا المقام زوج ابنة القانونى الوحيدة .. داماد رستم باشا . فتح والى بودين غازى محمد باشا ، بالاشتراك مع والى بوسنة أولاما باشا ، قلاعاً كثيرة من الألمان بعد عودة البادشاه . طلبت ألمانيا الصلح .

أبرمت فى البداية مع ألمانيا فى ١٠ ت١٥٤٥/٢ ، هدنة لمدة ١/٥ سنة . طالت مفاوضات الصلح بسبب دلال العثمانية . لكن فيينا التى تفقد فى كل سنة عدة قلاع فى حروب الحدود والتى عجزت عن صد هجمات الصاعقة ، مالت إلى الصلح ، وكان الديوان الهمايونى الذى يريد التوجه نحو الشرق ، نحو إيران ، يؤيد الصلح كذلك . تم التوقيع على معاهدة استانبول فى ١٩ حزيران ١٥٤٧ وصادق عليها شارل – كوينت فى ١ آب وصادق عليها السلطان سليمان فى ٨ ت ١ .

جرت مراسم التوقيع فى سراى رستم باشا فى استانبول . وقع رستم باشا نيابة عن تركية . مات فى هذه الأثناء بربروس ، وكانت السياسة الأسبانية للقانونى قد دخلت مرحلة التوقف لعدة سنوات . ولم تعد فرنسا تراعى شروط المعاهدة ، وتقوم بالاتفاق مع شارل – كوينت كلما وجدت ظروفا مواتية لها .

كان القانونى يستعد لحملة ثانية على إيران .

تتلخص أهم شروط معاهدة استانبول التى تعتبر انتصارا كبيرا للديبلوماسية التركية فى القانون الدولى فيما يلى :

– الاعتراف بالفتوحات التركية .

– يعتبر فرديناند حاكما تابعا للبادشاه فيما يتعلق بالأراضى العائدة للتاج المجرى السابق والموجودة فى حوزته .

– يدفع ضريبة سنوية تبلغ ٥٣٠٠٠ ليرة ذهبية .

– كملك بوهيميا وأرشيدوق النمسا ، لايكون فرديناند تابعا للبادشاه .

– يسمح لرعايا الإمبراطوريتين التركية والألمانية بزيارة قطرى احدهما الآخر بصورة متقابلة ، وبحرية ، وكذلك المتاجرة فى كلا القطرين شرط سداد الرسوم الجمركية .

– يعاد الشخص من رعايا العثمانية الهارب إلى ألمانيا ، فى الحال إذا طلبت العثمانية ذلك – سواء كان مسيحيا أو مسلما .

– لايعاد اللاجئون إلى تركيا من الرعايا الألمان إن كانوا مسلمين ، أما إذا كانوا مسيحيين فإن الدولة العثمانية سوف تعيدهم إذا أسفرت نتيجة التحقيق عن أنهم مجرمون عاديون ، ولاتعيد المجرمين السياسيين .

– يعتبر الملك فرديناند فى التشريفات العثمانية معادلا للوزير الأعظم ، ويتم تنظيم جميع المكاتبات على هذا الأساس . ويعتبر الخاقان التركى أباً له ، ويطيعه كالابن .

– لاتخل هذه الشروط بتابعية فرديناند لأخيه الكبير ومتبوعه أمبراطور ألمانيا وملك أسبانيا شارل – كوينت .

– يقر شارل – كوينت بشروط هذه المعاهدة سواء كإمبراطور المانيا ، أو كملك أسبانيا .

– لايستعمل الإمبراطور – الملك صفة الإمبراطور أبداً فى مكاتباته مع الجهات الديبلوماسية التركية ولايطلب استعمالها ، ويعتبر كملك لأسبانيا فقط ، ويوافق على استعمال عبارة « كارلوس ملك ولاية أسبانيا » .

– لاتستعمل صفة الإمبراطور فى أوربا فى المكاتبات الديبلوماسية مع تركية ، إلا بالنسبة « لبادشاه العالم » السلطان سليمان .

– تتعهد دول كل من : فرنسا ، البندقية والبابوية برعاية شروط هذه المعاهدة .

تمثل هذه المعاهدة القمة التى توصلت إليها شوكة تركيا طوال فترة التاريخ (Hammer ، ٥ ، ٣٩٥ - ٦) .

لقد جعلت هذه المعاهدة أوربا جميعها توافق بصورة رسمية على رجحان الوضع القانونى لتركية وعدم مساواتها مع أية دولة اخرى .

وهكذا يكون نزاع القانونى - شارل - كوينت ، قد انتصر فيه القانونى بشكل حاسم ، بعد حروب استمرت ٣٠ سنة .

(١٠) العلاقات التركية - الألمانية من معاهدة استانبول (١٥٤٧/١٠/٨) إلى تنازل شارل - كوينت عن العرش (١٥٥٦/١/١٦) .

اعترت العلاقات التركية - الألمانية فترة توقف فى غضون الأربع سنوات التى تلت معاهدة استانبول . قام القانونى خلالها ، بحملته الـ ٢ على إيران .

جرت حملة والى (بكلربك ، فريق أول ، أمير الأمراء) روملى صوقوللو محمد باشا على أردل فى ١٥٥١ ، بسبب تدخل الملك فرديناند فى قضايا أردل بصورة سرية وقت أن كان البادشاه فى إيران .

غادر صوقوللو فى ١٠ تموز ١٥٥١ ، مركز إيالة روملى صوفيا وجاء إلى بلغراد . وفى ٧ أيلول اجتاز ألطونة نحو الشمال بجيشه البالغ ٨٠٠٠٠ جندى و١٥٠ مدفعا ، واحتل كافة القلاع الموجودة بحوزة الألمان فى بانات وأردل والتى أهمها Libva (Lippa بالرومانية : Lipova) ، Arad ، جاناد (بالمجرية : Csanad) . أما تامشوار (بالرومانية : Timisoara بالمجرية : Temesvar) فقد حوصرت مدة ١٥ يوما ورفع عنها الحصار فى ١٦ ت ٢ . كان قد تجمع فيها جيش ألمانى مكون من ١٠٠٠٠٠ شخص . ومع أن الجنرال Toth حاصر Segedin بجيشه البالغ ١٠٠٠٠٠ جندى ، فإن الفريق الأول على باشا الذى جاء من بودين (١٥٥٢/٢/٢٤) افنى الجيش الألمانى عن بكرة أبيه .

وعندما لم يتمكن صوقوللو من إسقاط تامشوار ، أرسل فى السنة التالية الوزير ٢ داماد قره أحمد باشا (وزير أعظم فى المستقبل) كقائد عام . احتل القلعة من

الألمان بعد حصار دام ٢٨ يوما (١٥٥٢/٧/٢٦) . أما والى بودين على باشا ، فقد أباد الجيش الألمانى الذى بادره بالهجوم فى حرب Fülek الميدانية (١٥٥٢/٨/١١) وأسر القائد العام ومساعده . وبعد تطهير قره أحمد باشا ، اردل من الالمان ، واحتلال Szolnok فى ٤ أيلول سار بجيشه على قلعة أكرى (بالمجرية : Eger بالألمانية : Erlau) المهمة جدا التى بحوزة الألمان والواقعة فى شمال شرق المجر . والتى تبعد مسافة ٩٠ كم شمال شرق بودين . كان والى بودين على باشا ، ووالى إيالة روملى صوقوللو محمد باشا ووالى بوسنه أولاما باشا بمعية أحمد باشا . لم ينته الحصار إلى نتيجة ومن ثم فقد تم رفعه فى ١٩ ت ١ بعد أن استمر ٣٩ يوما . كانت المدفعية التركية قد قذفت القلعة خلال هذه المدة بـ ١٢٠٠٠ طلقة (Hammer ، ٦ ، ٥٠) . سيفتح أحمد الثالث أكرى بعد ٤٤ سنة من هذا التاريخ .

ودخلت العلاقات الألمانية – التركية مرة أخرى فى فترة توقف . وخلال تلك الفترة حاصر والى بودين على باشا Sigctvar مدة ٣٢ يوما (٢١ آيار – ٣١ تموز ١٥٥٦) لكنه لم يتمكن من إسقاطها ، وسوف يحتلها القانونى بعد ١٠ سنوات . كانت خسائر تركيا فى هذا الحصار ضابطا واحدا برتبة لواء و ٣ عقداء خيالة واستشهد ٧٠٠ ضابط وجندى ، وجرح ضابطان برتبة لواء .

كان المارد العجيب المسمى شارل – كوينت ، قد انهزم تجاه العثمانية فى أوربا الوسطى ، وفى شمال أفريقيا والبحر الأبيض ، كما سنرى فيما بعد . وقد شهد خلال سنى حكمه ، انقسام أوربا من الناحية الدينية إلى فريقين عدوين كاثوليك وبروتستانت . وفشل فى منازلة القانونى وبربروس ولوثر .

حاولت أسبانيا تعويض خسائرها فى أوربا ، باتخاذها مستعمرات فى القارة الأمريكية . وبدأت تعتمد عليها اقتصاديا .

إن استعمار أسبانيا للعالم الجديد يشكل صحائف مشينة فى التاريخ كأعمالهم فى الأندلس ، فعلى سبيل المثال ، كان تعداد جزيرة هائيتى فى السنة التى اكتشف فيها البيض القارة عام ١٤٩٢ ، نحو ٥٠٠٠٠٠ نسمة . وبعد ٢٢ سنة ، فى ١٥١٤ ، بقى فيها من السكان المحليين ١٣٠٠٠ ، أفنى المستعمرون الأسبان بقيتهم . إن الأسبان الذين اصطادوا الزنوج من ضفاف خليج غينة فى أفريقيا ، اعتبارا من

١٥٠١ ، ساقوهم أولا إلى جزر الانتيل ، ومن ثم إلى القارة الأمريكية واستعبدوهم كعمال أراضى ومناجم ، كانوا عاملا فى تكوين كتلة كبيرة من الزنوج الموجودين حاليا فى القارة الأمريكية ، ولقد لجأ الأسبان إلى ذلك لأن تشغيل سكان أمريكا المحليين الذين يتكونون من مئات الأعراق ، والذين يطلق عليهم اسم الهنود الحمر ، كعبيد فى الأراضى والمناجم ، كان من الأمور الصعبة جدا . أفنى الأسبان السكان المحليين بالقتل الجماعى فى كل مكان يتواجدون فيه ، أحرقوهم بالنار ، اصطادوهم كالحيوانات ، وأجبروا الباقين منهم على اعتناق المذهب الكاثوليكى وعلى تكلم اللغة الاسبانية . درست آثار حضارات inka الكبرى ، Aztek و Maya ، وبدائعها المعمارية ومدنها . نهب كل ماكان موجودا . احتلت بهذا الشكل فى ١٥١٩ - ٢٢ دولة Aztek فى المكسيك وفى ١٥٣٢ - ٣٥ دولة Inka فى بيرو . احتلت فنزويلا فى ١٥٢٠ - ٤٠ ، وشبه جزيرة Yukafan فى ١٥٢٧ - ٤٧ ، كولومبيا فى ١٥٣٨ ، شيلى فى ١٥٤٠ . واعتبارا من ١٥٥٠ ، أصبحت الأرجنتين وباراغواى مستعمرة أسبانية . استوطن هذه الأراضى على مر الزمن ملايين الأسبان . وأصبحت هذه المستعمرات - وبخاصة مناجم الفضة فى بيرو - المصدر الرئيسى لتمويل القوات البرية والبحرية الأسبانية فى القرن ١٦ .

انتشرت على مر الزمن البروتستانتية التى بدأت بـ « احتجاج » مارتن لوثر على بيع صكوك الغفران (موافقات البابا على دخول الجنة) .

قامت حرب كاثوليكية - بروتستانتية لايتصور العقل فظاعتها ، حاول فيها كل طرف من الطرفين إفناء الآخر .

لم يتمكن المذهب الجديد من النفاذ أبدا إلى أسبانيا أو البرتغال أو إيطاليا . أثر قليلا على فرنسا والأقطار الألمانية كالنمسا ، لم ينفذ كذلك إلى بافيرا ، ولم ينتشر فى الأقطار الأرثوذكسية ، وأوربا الشرقية والبلقان . حقق نفاذا فى الاقطار الكاثوليكية على الأخص .

على أثر قبول كثير من الدول الألمانية ، المذهب الجديد اضطر شارل - كوينت إلى الاعتراف بصورة رسمية بالمذهب البروتستانتى الذى ينفر منه ، وذلك للحفاظ على صفة إمبراطور ألمانيا ولمنع انقسام الإمبراطورية . ولكن سلالة هابسبورغ حاملة

تاج الإمبراطورية ، وسلالة Capet أكبر سلالة مسيحية فى فرنسا ، بقيتا على المذهب الكاثوليكى .

بدأ الحكام البروتستانت وعلية القوم فى أوربا فى طلب المعونة المستمرة من الديوان الهمايونى . كان البروتستانت يطلبون معونة بادشاه العالم لمواجهة « الكاثوليك الوثنيين والإمبراطور الذى يؤيدهم » . ذهب محرم جاووش إلى أوربا كممثل شخصى للقانونى وحمل معه كتاب السلطان الذى يؤيد فيه مساندة البروتستانت . ووصل حتى هولندا ونقل الخطاب السلطانى إلى الأمراء معتنقي المذهب البروتستانتى (صورة الخط السلطانى : منشئآت السلاطين ، ٢ ، ٤٥٠) .

ساند الديوان الهمايونى كافة الحكام البروتستانت وجميع معارضى الإمبراطور والبابا . كان الخط الهمايونى المؤرخ ١٥٥٢/٥/١٠ ، يقدم الضمانات لحاكم سكسونيا موريس الأول (١٥٤١ - ١٥٥٣) ، ولدوق بروسيا آلبرت (١٥٢٥ - ١٥٦٨) ولحكام البروتستانت الألمان الأقل رتبة ، فى مواجهة من الإمبراطور ، كما كان يتضمن التعليمات حول السياسة التى يجب عليهم اتباعها .

أضطر شارل - كوينت إلى إصدار المنشور Augusburg المؤرخ (١٥٥٥/١٠/٣) والذى يظهر فيه الليونة ، والموافقة على الحريات المذهبية للحكام البروتستانت ، ثم تنازل عن العرش (١٥٥٦/١/١٦) ، وانسحب بعدها إلى سراى الحمراء فى غرناطة Granada ولم يخرج منه . وكان قد عقد الصلح مع فرنسا بمعاهدة Vaueelles تاركا فكرة ابتلاع فرنسا التى تصدى له فيها الأتراك على نطاق واسع ، وترك الإمبراطورية الألمانية وكافة الأقطار التابعة لها إلى أخيه الوحيد فرديناند ، وترك ملكية أسبانيا وكافة الأقطار التابعة لها والمستعمرات الأمريكية لابنه الكبير فيليب الثانى (بالفرنسية : Philippe) . وبذلك أصبح فيليب الثانى وارثا لأقوى وأقدر دولة مسيحية .

تحققت كل هذه النتائج بسبب سياسة القانونى التى اتبعها على مدى ٣٥ سنة ، تمزق المارد ، بل وفقد العالم الكاثوليكى اتحاده « وفى الحقيقة ، يمكننا أن نقول إن كافة الحكام المسيحيين البروتستانت مدينون بسلامتهم لسليمان المعظم » (Hammer ، ١٥ ، ٣٢٦) . لم تتحقق هذه النتيجة بوساطة سياسة أوربا

الوسطى وحروبها التى أجملناها فيما سبق أو بواسطة المغرب والاسطول ، التى سنجملها فيما يلى .

(١١) نظارة البحرية وقيادة القوات البحرية (قبودان دريالك) لبربروس خير الدين باشا (١٥٣٤/٤/٦ - ١٥٤٦/٧/٤)

غادر والى الجزائر بربروس خير الدين باشا فى يوم من أيام الشتاء ، الجزائر مستصحبا ٤٤ قطعة من أسطوله و١٨ من أميرالاته ، وجاء إلى استانبول (١٥٣٣/١٢/٢٧) بناء على الأمر السلطانى (الفرمان) للسلطان سليمان القانونى الذى يستدعيه إلى استانبول .

وصل استانبول – بعد أن قام بهجوم بحرى كبير على أسبانيا – عن طريق خليج جنوة ، بحر ليغوريا ومضيق مسينا ، واستولى على كافة السفن الأسبانية التى كانت راسية فى ميناء مسينا (صقلية) وعددها ١٨ سفينة ، (Hammer ، ٥ ، ٢٤٣) . اتجه إلى Andrea Doria الذى علم بوجوده قرب Preveze ، لكن الأميرال الجنوى ، انسحب ولم يستجب للقتال .

كانت البحرية الهمايونية راسية فى ميناء Navarin جنوب غربى مورا تحت قيادة مشير البحر كانكش أحمد باشا . دخل بربروس الميناء ، تبادل الأسطولان التحية بطلقات المدفعية . انضم الأسطول الهمايونى إلى بربروس وحضر معه إلى استانبول . كان عرضا كبيرا .

خرج شعب استانبول برمته وتجمع بامتداد السواحل . هذه هى المرة الأولى التى يحضر فيها خير الدين باشا إلى استانبول التى تسمى باى تخت جهان (مدينة عرش العالم) . وفى اليوم التالى سمح السلطان لبربروس و١٨ من أميرالاته بتقبيل يده فردا فردا بمراسم الديوان ، أى باحتفالات إمبراطورية (لم يكن فى ذلك العهد فى التشريفات العثمانية ، تقبيل الأرض ، الأقدام ، الرداء ، الأغطية) لم يحضر هذه الاحتفالات الوزير الأعظم داماد إبراهيم باشا ، لوجوده فى حلب استعدادا لحملة إيران .

وبعد أن اجتمع بالبادشاه وتباحث معه مدة طويلة بشئون أسبانيا ، والبحر الأبيض ، والمغرب والأسطول ، تحرك إلى حلب للاجتماع بالوزير الأعظم . وصل حلب راكبا الحصان خلال ١٠ أيام . بقى فيها يومين . وعاد خلال ١٠ أيام راكبا الحصان كذلك ، وهذا أمر يلفت النظر بالنسبة لشخص فى الـ ٦٣ من عمره . وفى الطريق مكث يوما فى بورصة ويوما فى قونية . وبذلك استطاع أن يجد وقتا لتقبيل كسوة قبر مولانا فى قونية .

اقترح على إبراهيم باشا ضرورة إرسال أسطول إلى أمريكا التى تسمى « العالم الجديد » والحصول على مستعمرة فيها ، لكن الباشا أفاد بأن لديهم أعمالا مهمة وكثيرة فى البحر الأبيض ، حيث إنه يجب كف يد الأسبان عن المغرب بصورة مطلقة وإلا فسوف تفعل أسبانيا فى المغرب مافعلته مع الشعب فى الأندلس وفى العالم الجديد ، وسوف تسعى إلى كثلكة شمال أفريقيا بكامله من الأطلسى إلى مصر .

عاد بربروس إلى استانبول (١٥٣٤/١/٢٢) وبتعيينه قائدا للقوات البحرية وناظرا للبحرية (١٥٣٤/٤/٦) أصبح عضوا فى الديوان الهمايونى وكلف فى الوقت ذاته بإدارة ولاية الجزائر . غادر استانبول بحملة تونس قبل مضى ٤ أشهر على تعيينه . وخلال هذه المدة القصيرة وضع فى معمل استانبول لإنشاء السفن، هيكل ٦١ سفينة .

ساند السلطان سليمان سياسته البحرية بكل مافى الكلمة من معنى . تتلخص هذه السياسة فى تعزيز الأسطول الهمايونى بحيث يكون أقوى من مجموع بقية كافة الأساطيل . ومع احتمال تعذر ذلك من حيث عدد السفن ، فقد تعهد بربروس بإمكان تحقيق ذلك من حيث تأمين تفوق مرمى المدافع وتربية وتدريب الأفراد . وتقرر استبدال السفن والمدافع وتجديدها خلال بضع سنوات وبيع القديم منها إلى الداخل والخارج وتجهيز السفن بصورة متفوقة . أصبح بربروس ، أقرب مستشارى القانونى خلال توليه القيادة البحرية ، ولم يتمكن الوزير الأعظم والوزراء من الاعتراض على ذلك . وقد أبدى خير الدين فطنة سياسية كبيرة وتمكن من الحفاظ على قربه من البادشاه بعدم المساس بمشاعر أحد منهم . ومع أنه كان هناك من يحسده على إكسابه الدولة قطرا كالجزائر ، إلا أن هؤلاء تحاشوا إظهار مثل هذه المشاعر .

وهكذا اهتم السلطان سليمان خان الثانى القانونى بالأسطول بقدر اهتمامه بالجيش حتى إنه أعطى للسياسة البحرية أولوية فى بعض السنوات لم تشاهد من قبله ولا من بعده . لم يكن للقانونى مثيل فى تركيا كافة ولا فى تاريخ الأتراك بأسره . لم تكن سياسته سهلة التطبيق ، لكنه طبقها بنجاح وجنى ثمارها . كان للجيش التركى ماضٍ عريق يرجع إلى مئات من السنين ، بينما كان الأسطول قد ظهر مع مجىء الاتراك إلى الأناضول قبل أربعة قرون ونصف وعاش تحت ظل الجيش دائما . حقق السلطان سليمان سياسته البحرية فى دعم الأسطول دون أى اعتراض أو شكوى من أى فئة من فئات الجيش . ولم ينج الأميرالات وجنود البحرية من بعض حوادث الغيرة والحسد ، بل وحتى المؤامرات فى استانبول ، لكن ذلك لم يجد فرصة للتوسع ، وأخمده السلطان سليمان بدراية . لم يكن وزراء الديوان الهمايونى والذين أكثرهم من الجنرالات ، يستسيغون كثيرا السياسة البحرية ، وكانوا حانقين بوجه خاص على تبجح الأميرالات الذين نشأوا فى الجزائر وجاءوا إلى استانبول . ورغم كل ذلك استمرت سياسة القانونى .

(١٢) فتح تونس (١٥٣٤/٨/٢٢) وفقدانها (١٥٣٥/٧/٢١)

سار ناظر البحرية قائد القوات البحرية والى الجزائر بربروس خير الدين باشا – خضر رئيس سابقا – بأسطوله الهمايونى البالغ ١٠٤ قطع محملة بـ ٨٠٠٠ من المشاة البحريين مغادرا استانبول (١٥٣٤/٨/١) . دخل مضيق مسينا **Messina** . احتل مدينة **Reggio** الواقعة على الضفة الإيطالية من المضيق واستولى على ٢٤ سفينية أسبانية . قام بإنزال الجنود فى موانىء جنوب غربى إيطاليا وميناء ساردونيا . دخل ميناء بنزرت (بالفرنسية : **Bizerte**) فى ١٥ آب .

كانت المناطق الشرقية والجنوبية لقطر تونس فى حوزة العثمانية أساساً . احتل خير الدين باشا مدينة تونس بلا مقاومة فى (٢٢ آب) ، واستقبل الشعب العثمانيين بكل ترحاب لنفورهم من سلطانهم مولاى حسن الذى كان شبيها بالسفاك كاليغولا .

كان السلطان الحفصى مولاى أبو عبد الله حسن الذى اعتلى العرش فى ١٥٢٦

كسلطان ٢٢ للسلالة ، بعد أن قتل ٤٤ أخا له ، قد باع الجوارى الموجودات فى السراى ، وأسس حرسا من ٤٠٠ شاب .

تمكن أحد إخوته المسمى مولاى رشيد من التخلص منه والفرار إلى استانبول ، كان السلطان الحفصى مكروها من شعب تونس برمته بسبب أخلاقه هذه وبسبب دعوته للأسبان ضد العثمانيين فى كل فرصة ، كان قد انسحب إلى الجنوب إلى الصحراء واستنجد بالأسبان عند دخول الأتراك إلى مدينة العرش .

لم تكن أسبانيا تعير أهمية كبيرة لمناطق تونس الأخرى الموجودة بحوزة العثمانية ، لكن الوضع كان مختلفا بالنسبة لمدينة تونس لأنها كانت تواجه صقلية .

لما علم خير الدين باشا أن السلطان الذى ينفر منه فى قيروان ، سار إليه . والمشهور عنه أنه ركب الأشرعة على عجلات المدافع وسيرها فى الصحراء .

بانتقال كامل قطر تونس ومدينة تونس ، التى تبعد عن صقلية ١٥٠ كم وعن ساردونيا ١٨٥ كم ، إلى العثمانية ، تبنى المسألة شارل - كوينت بنفسه بدعوى الدفاع عن السلطان الشرعى تجاه العثمانية المستولية .

أصبح خير الدين باشا وكيلا لوالى (فريق أول) إيالة تونس لحين صدور تعيين من استانبول .

كان السلطان سليمان خلال هذه الحوادث ، فى حملة إيران وفى تبريز . سار شارل - كوينت من ميناء برشلونة Barselona (١٥٣٥/٢٩) بأسطول مكون من ٥٠٠ سفينة حرب ونقل حاملة ٣٠٠٠٠ من المشاة ، والخيالة ، ومدفعية البر .

وفى ١٥ حزيران ، أنزل جنودا فى ميناء حلق الواد فى تونس . كان اللواء سنان رئيس يحمى قلعة حلق الواد ، وكان بربروس فى مدينة تونس مع ١٢٠٠٠ جندى . تعرضت حلق الواد للقصف بواسطة ١٢٠ مدفعا من جهة البر ، وبمئات المدافع البحرية من أسطول أندريا دوريا من ناحية البحر . أجرى سنان رئيس ٣ طلعات وكبد العدو ٦٠٠٠ قتيل . كان الأسطول الهمايونى ومعه بربروس فى استانبول . قتل كبار الأسبان كدوق Sarno وماركيز Mondeia ، لكن مولاى حسن جاء لإمداد شارل - كوينت بحمولة ٨٠٠٠ جمل من الأرزاق و١٦٠٠ خيال . أطلق

جنود خير الدين باشا البالغ عددهم نحو ٦٠٠٠ متطوع بربرى ، بسبب وعود مولاى حسن وخوفا من الأسبان ، سراح مايقرب من ١٠٠٠٠ أسير مسيحى فى مدينة تونس . اشترك هؤلاء الأسرى مع البرابرة فى القتال ضد جنود البحرية الأتراك . سقطت حلق الواد فى ١٥ تموز .

جاء سنان باشا مع حفنة من جنوده البحريين إلى مدينة تونس وانضم إلى خير الدين باشا . كان مع الباشا ٩٧٠٠ جندى تركى ، إلا أنه كان من غير الممكن مقاومة قوات العدو البالغة ٣٠٠٠٠ جندى و٥٠٠ سفينة ومئات المدافع . لم يتمكن من المقاومة أكثر من ٦ أيام بعد سقوط حلق الواد ، وانسحب من مدينة تونس .

وفى ٢٩ حزيران ، جاء مولاى حسن إلى الإمبراطور وخر على قدميه . فقد خير الدين باشا فى أول هجوم ٢٥٠٠ شهيد ، كان حر الصيف والعطش يؤديان إلى تكبده أضرارا تماثل أضرار العدو . قام الباشا بهجومه الأخير بواسطة ٧٢٠٠ من جنده . وعندما أراد العودة إلى المدينة ، كان المسيحيون الأسرى ، الذين سيطروا على المدينة ، قد أغلقوا الأبواب دون الأتراك . خرق بربروس خط العدو بهجوم مدهش . أدى هذا الهجوم إلى استشهاد عدة آلاف أخرى من جنود البحر . نجا خير الدين باشا مع عدد من أميرالاته المسنين كآيدن رئيس وسنان رئيس وعدة آلاف من جنود بحريته ، وألقوا بأنفسهم فى بلدة العناب (رأس بون) . كان الإمبراطور موقنا من أسر خير الدين باشا . ولذلك فقد اغتاظ كثيرا وعاقب قواده .

دخل الصليبيون مدينة تونس فى ٢١ تموز . كانت بلدة كبيرة . يهون الظلم الذى ارتكب فى الحملات الصليبية إذا ماقورن بالظلم الذى ارتكب فيها ؛ لقد ذبح ٣٠٠٠٠ عربى ، واستحيى ١٠٠٠٠ امرأة شابة وطفل كعبيد ، وتم تخليص وتسريح ٣٠٠٠٠ أسير مسيحى ، ونهبت السرايات ، وأحرقت عشرات الألوف من الكتب المخطوطة ، وأتلفت البدائع الفنية النادرة ، وهدمت الجوامع ، والمدارس والقبور المشيدة (Hammer ، ٥ ، ٢٥٢ - ٢٥٣) .

دخل شارل - كوينت المدينة التى باتت وكأنها مذبح . « تصادف أن الأيام التى دخل فيها شارل - كوينت تونس ، هى أيام دخول السلطان سليمان بلدتى ألد أعدائه الصفويين الغنيتين والكبيرتين جدا بغداد وتبريز ، لم يحدث أى نهب أو أى ظلم » (Von Hammer ، ٥ ، ٢٥٦ - ٧) .

أصبح مولاى حسن تابعا لأسبانيا بمعاهدة ١٥٣٥ . كان عليه أن يسدد ١٢٠٠٠ ليرة ذهبية ، كضريبة سنوية ، ويبقى ١٠٠٠ جندى أسبانى و١٠ سفن حربية فى تونس بصورة دائمة .

وهكذا سيبدأ فى مدينة تونس وشمال تونس الحكم الأسبانى الذى سوف يستمر ٣٩ سنة وشهرا ، و٢٣ يوما بعد الحكم العثمانى الأول الذى دام ١١ شهراً . وفى ١٥٤٢ ، فقئت عينا مولاى حسن على يد ابنه مولاى أحمد (١٥٤٢ - ١٥٦٩) وأرسل إلى قيروان ، ومات فيها ١٥٥٠ .

جاء خير الدين باشا إلى الجزائر . غادر ميناء الجزائر فى (١٥٣٥/٨/١٥) بأسطول مكون من ٣٢ قطعة بعد ٣٢ يوما من مغادرته تونس . قلب جزر باليرر رأسا على عقب واستولى على ميناء ماهون فى مينوركا ، أسر ٥٥٠٠ شخص . خرج من جبل طارق وجاء إلى خليج قادش وضرب ميناء Faro الكائن فى جنوب البرتغال . وأحتل بنزرت ميناء مدينة تونس ، أثناء عودته إلى استانبول ووضع فيها حامية . ترك ابنه الكبير حسن بك الأول وكيلا عنه فى الجزائر وعاد إلى استانبول .

(١٣) انتصار بروزة Preveze (٢٨ أيلول ١٥٣٨)

غادر بربروس استانبول مع الأسطول فى ١١ آيار ١٥٣٧ . سار القانونى من استانبول بالجيش بعد ٦ أيام إلى البنادقة فى حملة على أوترانتو وكورفو كما أسلفنا من قبل . تعتبر هذه الحملات من الحملات الهمايونية النادرة فى التاريخ العثمانى التى يشترك فيها الأسطول .

كان الأسطول مكونا من ٢٨٠ قطعة ، عليها ٣٠٠٠٠ جداف ، وعشرات الألوف من جنود البحرية و٤٠٠٠ انكشارى و٦٠٠ مدفعى برى وعده آلاف من الفرسان السباهيين (تمارلى) . سلم بربروس بعد انسحابه من إيطاليا ، القسم الأكبر من الأسطول إلى الوزير ٣ داماد لطفى باشا الموجود فى ميناء مودن Modon فى مورا للإبحار به إلى استانبول . وجاء هو مع ٧٠ سفينة إلى جزر كيكلاد (أيلول ١٥٣٧) فى جنوب إيجه التى يحكمها البنادقة . كان شعب هذه الجزر روماً ، وكانت

هذه الجزر دوقية إيطالية تابعة للبندقية . تجول فى كافة الجزر الواحدة تلو الأخرى وأجبر الدوق (Giovanni Crispo) على إعلان تبعيته لتركية وتسديده مبلغ ٥٠٠٠ ليرة ذهب ، كضريبة سنوية .

غادر خير الدين باشا استانبول بعد أن قضى فيها الشتاء والربيع فى ٧ حزيران ١٥٣٨ . سوف يغادر السلطان سليمان مدينة عرشه بعد ٤١ يوما فى حملة بغدان ٨ . وسوف يغادر والى مصر – وزير أعظم فى المستقبل – سليمان باشا السويس بعد ٦ أيام من مغادرة بربروس استانبول بأسطول آخر فى حملة إلى الهند .

عاد بربروس إلى جزر كيكلاد مرة أخرى وضرب الجزر التى شاهد فيها جنود البنادقة . انضم إلى أسطول صالح رئيس (باشا) المكون من ٢٠ قطعة . جاء فى تموز إلى كريت وخرب هذه الجزيرة التى يحكمها البنادقة من أولها إلى آخرها . وفتح جزر كربة (Karpatos) الواقعة بين جزيرتى رودس وكريت وجزر كاشوت . علم الديوان الهمايونى بتشكيل أسطول صليبى جهنمى بقيادة أندريا دوريا . أرسل طرغد رئيس (باشا) مع ٢٠ سفينة إلى بحر اليونان (أيونيا) للاستطلاع . كان دوريا قد انسحب إلى كورفو ، دخل بربروس بروزة وأصلح القلعة .

كان الأسطول الصليبى مكونا من أكثر من ٦٠٠ سفينة حرب ونقل منها ٣٠٨ سفينة حربية من أنواع (galerruvayyal , Karaka ، قادرغة ، كاليون) وتحمل ٦٠٠٠٠ جندى . يجدف فيها عشرات الألوف من الجدافة . وكان بينها نحو ٢٠ سفينة عملاقة ذات ٣ طوابق تحمل أكثر من ٢٠٠٠ جندى .

كان الأسطول الهمايونى يحتوى على ١٢٢ سفينة حرب و٢٢٠٠٠ جندى .

دعا بربروس أميرالاته إلى سفينته الأميرالية ، وتباحث معهم طويلا . تردد بعضهم إزاء تفوق العدو . كان رأيهم انتظار دخول العدو إلى شرم Preveze حيث يتم تدميره بمدافع القلعة وبمساندة جنود البر . قال خير الدين باشا ، إن الحرب البحرية تكون فى البحار المفتوحة ولاتكون فى الساحل ، ولايمكن القيام بالمناورة (الحركة والاستدارة) فى الساحل ، وإن المدافع بعيدة المدى ستفقد تفوقها عند زيادة اقتراب العدو ، وإنه فى حالة إصابة إحدى السفن فإن السفن حاملة جنود البر ، خاصة

الذين لم يألفوا البحر سيرمون بأنفسهم فى البحر دون نظام ناشدين البر ، وتاركين السفينة بدون طاقم .

خرج من شرم بروزه وحماية مدافع القلعة ؛ وفى ٢٧ أيلول من خليج Arta وابتعد عن الساحل مسافة ٩ كم . وبعد إجراء المناورات والاستدارات اللازمة ، التقى الأسطولان فى بحر أيونيا (اليونان) فى مياه انجير ليمانى (بالإيطالية : Porto Fogo ، باليونانية : Vasiliko فى الجنوب ـــ الغربى من جزيرة Aya Mavri المواجه لخليج Arta (Preveze) .

وفى صبيحة يوم السبت الموافق ٢٨ أيلول ، شاهد الأسطولان أحدهما الآخر بوضوح . كان مشير البحر قائد القوات البحرية فى المركز . أهم مساعديه ابناه الرئيسان حسن الكبير (بيوك حسن) وحسن الصغير (كوجوك حسن) (كلاهما باشا فى المستقبل) . وفى الجناح الأيمن صالح رئيس (باشا) ، وفى الجناح الأيسر سيدى على رئيس العالم الشهير فى الجغرافية والرياضيات ، وفى الاحتياط طرغد رئيس (باشا) ويرافقه الرؤساء مراد ، وصادق ، وكوزلجه محمد . كان كل من الرؤساء سنان ، وشعبان وجعفر قواد أساطيل خفيفه فى الجناحين .

كان الأميرال الأسبانى الكبير الجنوى الأصل Andrea Doria على رأس الأرمادة (الأسطول) الصليبى . وكان الأميرال - الكبير Vineenti Capelli يقود الاسطول البندق ، وMarco Grimani يقود الأسطول البابوى . لم يكن الأسطول أسطولا وطنيا متجانسا ، ولذلك لم ينفذ الكثير من أوامر دوريا.أدى دهاء بربروس ، وقدرة السفن التركية على المناورة وبعد مدى مدافعها ، وعدم مقدرة السفن الصليبية على الاستدارة السريعة إلى هزيمة المسيحيين . ظهرت نتيجة المعركة خلال ٥ ساعات تقريبا . أعطى دوريا أمر إطفاء الضوء وتراجع . كانت خسائر الأسطول الصليبى كبيرة ، أما الأتراك فقد فقدوا عدة سفن .

اجتمع بربروس - زاده حسين بك بعد الانتصار بـ ١٧ يوما ببادشاه العالم السلطان سليمان أثناء عودته من حملة بغدان الهمايونية ٨ فى قصر يانبولو على نهر

طونجه Tunca وقبل يده ، وبعد تلاوته رسالة أبيه بشأن خبر الانتصار كتبليغ رسمى أمام الديوان الذى اجتمع ، عرض تفصيلات الانتصار شفويا . ولإظهار الحمد لله ، استمع البادشاه لتلاوة كتاب الانتصار وقوفا على قدميه دون أن يجلس .

أمر باعتبار بروزة جهادا أكبر وإقامة الاحتفالات فى جميع أنحاء الإمبراطورية . وفى ٢٣ ت ١ ، جاء بربروس بنفسه إلى أدرنة ، وسرد خلال عدة أيام على البادشاه تفصيلات بروزة وسياسة البحر الأبيض الذى أصبح منذ الآن بحيرة تركية .

عاد حسن بك إلى الجزائر . قصف السواحل الأسبانية . نقل الأندلسيين ونقل إليهم الأسلحة . احتل قلعة جبل طارق مرتين وخربها . أرسل شارل – كوينت رجاله بصورة سرية إلى بربروس عارضين عليه أنه سيجعله حاكما مستقلا على كافة المغرب وشمال أفريقيا فى حالة قطعه علاقته بتركيا . ثم قدم نفس العرض بالنسبة للجزائر فقط ، إلى حسن بك الذى ينوب عن أبيه فى الجزائر . سرد بربروس ذلك على الديوان وبين احتمال قيام الإمبراطور بحملة كبيرة ويائسة ، وقد تحقق ذلك فعلا فى ١٥٤١ . اعتقل بأمر البادشاه اليهودى الدكتور Romeo التركى الجنسية فى الجزائر الذى قدم هذه العروض وسيق إلى استانبول ، حيث أجرى التحقيق معه وسجن .

(١٤) انتصار الجزائر (٢٤/ ت١ / ١٥٤١)

مضت على بروزة ٣ أعوام . قرر شارل – كوينت فتح الجزائر بنفسه كما جاء وفتح مدينة تونس بنفسه . سيكون هو بنفسه على رأس جيشه ، وكأنه يريد أن يلعب لعبة السلطان سليمان . وخلال الأيام التى تصادف عودة القانونى من حملته الهمايونية ٩ ، يوم ٢٠ ت ١ / ١٥٤١ أخذ فى إنزال قواته الصليبية من أسطوله المخيف فى حلق مرج حراش قرب ميناء الجزائر .

إن الارمادة (الأسطول) الصليبية التى يقودها أندريا دوريا تتكون من ٥١٦ قطعة بحرية ، منها ٢٧٤ سفينة حربية و ٦٥ سفينة عملاقة تبهر النظر من نوع Galerruvayyal . كان الأسطول يضم عدا الجدافة ، ١٢٣٣٠ جنديا بحريا

و٩٠٠ ٢٣ جندى برى ، وبذلك يكون المجموع ٢٣٠ ٣٦ محارباً (أخذت هذه الأرقام عن مصادر مسيحية ، وعند كتاب جلبي ٥٠ ٠٠٠ محارب) استصحب كبار أشراف الأسبان ، القتلون ، الإيطاليين والألمان زوجاتهم الدوقات الماركيزات والكونتيسات وحضروا لمشاهدة انتصار إمبراطورهم الملك .

كان بيوك حسن رئيس (بك) الابن الأكبر لخير الدين باشا ، يقيم فى الجزائر كنائب للوالى (البكلربك ، الفريق الأول) برتبة لواء بحرى ، وكان بمدينة الجزائر ٦٠٠ جندىً بحرى (لوند) تركى و ٢٠٠٠ متطوع عربى فارس ومدفعى ، ولم يكن فى ذلك التاريخ قد تأسست فى الجزائر حامية الانكشارية (أى صنف المشاة) . كان أسطول الجزائر فى البحر الأبيض . ولم يكن بإمكان القوات العثمانية الموجودة فى المدن الأخرى أن تخترق جيشا مسيحيا على هذه الدرجة من القوة وتأتى للمساعدة (Hammer ، ٥ ، ٣٤٦) . هجم فى الطليعة فى الصف الأمامى الفرسان الأسبان ملك صقلية الأمير Eernando Gonzaga و١٤٠ فارسا مالطيا و٤٠٠ مقاتل (مبارز) مالطى بقيادة الأمير Camillo Colonna . وكان كل من فاتح المكسيك وواليها العام ماركيز Hernan do Cortez Vallée d'Oaxaca (الذى كان عمره حينذاك ٥٧ سنة) وابنيه الاثنين دوق آلبا ، والجنرال فون Frundsberg (الذى يقود القوات الألمانية ، والجنرال البابوى Anguillara فى الصف الخلفى (- Lavisse Rambau ، ٤ ، ٨١٠ - ١) .

ورغم أن هذه القوات تمكنت من احتلال مرتفع قدية الصابون ، انهزمت وتراجعت أمام الدفاع الشديد يوم ٢٣ ت ١ . وقبل أن يتمكن العدو من لم شعثه ، قام حسن بك ليلة - ٢٣ - ٢٤ ت ١ بهجوم مفاجىء . قتل ٣٠٠٠ من جنود الأعداء . ونظراً لشيوع خبر اقتراب قدوم أسطول الجزائر ، أو الأسطول الهمايونى ، فقد تردد الإمبراطور وأمر الجيش بركوب السفن ، ولو أنه ثبت لأمكنه أخذ الجزائر . لم يتمكن الإمبراطور من التعرف على مبلغ قلة عدد جنود حسن بك ، وكان شعب الجزائر يضغط على حسن بك للتفاوض مع الإمبراطور كى يترك المدينة عن طريق الصلح دون قتال . حيث لم يكن قد غاب بعد عن الأذهان ماعمله شارل - كوينت بشعب مدينة تونس التى دخلها عنوة .

كان الصليبيون قد انتشروا على نطاق واسع . أمر الإمبراطور بتجمعهم فى رأس

Matifou (بالعربية : قنطرة المغرون) . صدر أمر انسحاب كافة الجنود إلى سفنهم . كان العدو ينسحب . كان من الممكن أن يسر حسن بك بانسحابهم وذهابهم ، لكنه لم يكتف بذلك . كان عازما على إعطاء الصليبيين الدرس اللازم حتى لا يفكروا بعدها فى التسلط على الجزائر . عَلم بقرب هبوب عاصفة شديدة فأراد الاستفادة من ذلك . وفى الحقيقة كانت أكثر من نصف سفن الأسطول قد رست وقعدت فى رمال الساحل . هاجمت القوات العثمانية السفن . كان الجيش المسيحى جائعا وعطشانا لسوء تنظيم مراكز التموين ، وكان ناعسا ومرهقا وفى حالة يرثى لها من أثر العاصفة . ذبح الأتراك جياد العدو التى نجت من الغرق والتى بقيت من مجموع جيادها الأصيلة ، وكان عددها ٤٠٠٠ . كان بارودهم قد ابتل ، فلم تعد أسلحتهم صالحة للإطلاق . لم يتمكنوا من إعادة نقل مهماتهم الثقيلة إلى السفن . غرق وأسر وقتل بسيف المسلمين ٢٠٠٠٠ من جنود الصليبيين . امتلأ الساحل على مدى كيلومترات بجثث العدو وأنقاض السفن اعتبارا من شرسل إلى دنيس . حصل المسلمون على غنائم كبيرة ، ووقع فى أسرهم كبار القواد ، والأمراء والأميرالات وزبدة المجتمع الأوربى من سيدات الأسبان ، والإيطاليين والألمان ، وغرقت سفينة فاتح المكسيك الدموى عديم الشرف ، طريد السجون السابق Cortez ، المليئة بالبضاعة المسروقة من الأزتك Aztek لكنه تمكن من النجاه بنفسه (Hammer ، ٥ ، ٣٤٨) .

مات غرقا أكثرية الجدافة المسلمين الأسرى فى الأسطول الصليبى . تمكن حسن بك بصعوبة من تخليص ١٨٠٠ منهم من الموت . اغتنم الأتراك (ليلة ٣١ ت ١) ١٣٠ سفينة للعدو ، كانت سفينة الأميرالية لأندريا دوريا وسفينة أبن أخيه Gianetto Doria بين السفن الغارقة (Hammer ، ٥ ، ٣٤٧) .

أركب دوريا ، شارل - كوينت على ظهر إحدى السفن بصعوبة . بكى الإمبراطور ، ولشدة تأثره ألقى بتاجه الذى يلبسه على رأسه فى البحر (Alexandre de la Borde ، ص ٨٥) . وذبح جواده الذى لايقدر بثمن وأكله . لم يتمكن حسن بك من أسر الإمبراطور لعدم كفاية قوته ، ولم يتمكن من خرق جدار الحماية الذى أحاطه به فرسان مالطة الذين دافعوا عنه بتضحية كبيرة .

أبحر القسم المتبقى من الأسطول فى ٢ ت ٢ . تمكن الصليبيون من البقاء فى

الأراضى الجزائرية مدة ١٣ يوما فقط . اطلع السلطان سليمان فى استانبول على جميع تفصيلات النصر عند عودته من حملته ٩ فى ٢٧ ت ٢ . حضر بربروس إلى الجزائر بعد الحادث بشهر واحد . ولو كان قد تمكن من الحضور قبل هذا الوقت لأمكنه أسر الإمبراطور . لقد كان اقتراب بربروس ، هو أحد أسباب اضطراب وهزيمة الصليبيين .

كان الصليبيون قد اختاروا الوقت المناسب وقاموا بهجوم مفاجىء فى الوقت الذى لم يكن فيه الأسطول موجودا فى الجزائر . لكن عزم بربروس – زاده حسن بك ، كان فائقا . ولم تتمكن أية قوة بعد ذلك من التفكير فى أخذ الجزائر حتى عام ١٨٣٠ . لواء بحرى عثمانى ، يتغلب على الإمبراطور شارل – كوينت الذى يحكم نصف العالم المسيحى . جددت هزيمة الجزائر عزم فرنسا على الصراع مع الإمبراطور . سار خير الدين باشا للحملة على فرنسا من أجل هذا الصراع ، كما سنرى فيما بعد .

(١٥) حملة فرنسا (١٥٤٣ - ١٥٤٤)

كانت ملكية فرنسا ، بتعدادها البالغ ١٥ مليونا ، أكبر المجتمعات الأوربية كثافة فى النفوس . كان فرانسوا François الأول عازما على عدم الدخول تحت نفوذ شارل – كوينت . تمكن من ذلك بمساندة العثمانية . وفى ١٨ شباط ١٥٣٦ ، وقع الوزير الأعظم داماد إبراهيم باشا على معاهدة الامتيازات (بالفرنسية : Capitulations) التى تحصل فرنسا بموجبها على بعض الامتيازات (هى معاهدة مساعدة ، لتنمية فرنسا عسكريا واقتصاديا والحيلولة دون وقوعها لقمة سائغة لألمانيا – أسبانيا) ، وهكذا منح الديوان الهمايونى فرنسا بعض الامتيازات التجارية التى من شأنها تقويتها ببعض الميزات التى لم يعترف بها لغيرها من الدول . كانت البندقية قد حصلت من قبل على بعض التعهدات السلطانية التى تعترف لها ببعض التسهيلات التجارية . لكن الامتيازات التى منحت لفرنسا كانت شاملة ، وأعقب ذلك تقديم مساعدة مالية كبيرة لفرنسا فى ١٥٣٦/٢/١٨ .

غادر بربروس خير الدين باشا استانبول مع الأسطول الهمايونى فى ٢٨ آيار ١٥٤٣ .

وهكذا تحقق طلب فرانسوا الأول بشأن إرسال جيش وأسطول إلى فرنسا ، وقد كان يصر على ذلك منذ سنوات عديدة مع طلباته الأخرى ، كالطلبات المالية والتجارية وفتح جبهات متعددة .

كان السلطان سليمان قد سار من استانبول بحملة استركون ١٠ قبل ٣٥ يوما .

كان الأسطول الهمايونى مكونا من ١٥٤ قطعة ويحمل عدا الجدافة ٤٤٠ ٢٩ جنديا .

جاء الأسطول إلى مضيق Messina فى ٢٠ حزيران . استسلمت مدينتا مسينا (صقلية) وريجيو Reggio (إيطاليا) الواقعتان على ضفتى المضيق دون مقاومة . دمر بربروس الاستحكامات العسكرية لهاتين المدينتين وجعلها كأن لم تكن . لم يمس الشعب واستمر فى طريقه .

قاوم القائد الأسبانى Don Diego Gaetano فى قلعة Gaeta الواقعة بين نابولى وروما . احتل الأتراك القلعة بعد أن قدموا ٣ شهداء فقط ، ولم يمسوا أحدا بسوء . كانت ابنة الدون دياغو التى يبلغ عمرها ١٨ سنة ، حسناء ، وقد اشتهرت بجمالها فى كافة أنحاء أوربا ، عقد بربروس عقدة النكاح عليها وأرسلها إلى استانبول .

احتل الأسطول بعد ذلك ميناء أوستيا Ostia الواقع على مصب نهر Tevere (بالتركية : تيبر) والذى يبعد ١٥ كم عن روما .

كان بربروس يروم الدخول إلى روما وإجراء عرض فيها . لكن السفير الفرنسى الموجود فى الأسطول ، خر على قدمى القائد البحرى ورجاه ألا يفعل ، إذ إن ذلك لايساعد فرنسا وإنما يحمل البابا على الحكم بالحرمان على مليكه .

انتقل من بحر Tiren من مضيق Bonifacio إلى غربى البحر الأبيض ، ودخل الأسطول الهمايونى فى ١١ تموز ميناء طولون قاعدة الأميرالية الفرنسية فى البحر الأبيض فى ذلك العهد ، كما هو حاليا . رفعت السفن الفرنسية الأعلام التركية وأطلقت مدافعها تحية له .

دخل الأسطول الفرنسى المكون من ٤٤ قطعة تحت امرة قائد القوات البحرية . وفى ٢٠ تموز جاء إلى مرسيليا . استقبل الأميرال الفرنسى الكبير دوق Enghien

الامير فرانسوا دى بوربون ، بربروس باسم الملك ورحب به . وفى ٢١ تموز نزل بربروس إلى البر باحتفال لايقام عادة إلا للحكام . حيث إنه كان لايزال يعتبر فى أوربا ملكا على الجزائر .

مكث بربروس ١٦ يوما فى مرسيليا وعاد إلى طولون . ذهب إلى Antibes ومنها إلى نيس . كانت نيس تابعة إلى شارل - كوينت . استسلمت قلعة نيس فى ٢٠ آب . استشهد أمام نيس ١٠٠ من جنود البحر . لم يمس الأتراك الشعب بأى أذى . سلم بربروس مفاتيح مدينة نيس إلى الفرنسيين ، وعند انسحاب الأتراك ودخول الجيش الفرنسى المدينة ، قام الجيش الفرنسى للأسف بعملية سلب فظيعة .

عاد الأسطول الهمايونى إلى طولون Toulon لقضاء الشتاء . تركت المدينة لإدارة الأتراك طيلة مدة بقاء الأسطول التركى فيها بموجب معاهدة ١٥٤٣/٩/١٦ . انسحب كافة الموظفين الفرنسيين . رفع العلم التركى فى المدينة . رفع الأذان المحمدى فى الأوقات الخمسة . جمع الأتراك ضرائب تلك السنة . وظلوا فى طولون مدة ٨ أشهر . وخلال هذه الفترة ، قصف الرئيسان صالح وبربروس - زاده كوجوك حسن ، سواحل أسبانيا وإيطاليا . غادر الأسطول الهمايونى طولون فى نيسان ١٥٤٤ . عاد بربروس من حملة فرنسا التى استغرقت سنة و٣ أشهر إلى إستانبول ولم يخرج بعدها إلى البحر .

ألقت هذه الحملة اليأس فى قلب شارل - كوينت وأجبرته على عقد مصالحة Crespy مع فرنسا ، لقد كان كل أسطول يرسو سنويا فى فرنسا يمثل كابوسا لشارل - كوينت .

وهكذا انتهى دور المساعدة العثمانية لفرنسا الذى بدأ بمراجعة الديوان الهمايونى فرانسوا الأول فى ١٥٢٥ بالكتاب السلطانى الشهير للقانونى الذى ورد فيه « أنت يافرانسيسكو Françesko ملك ولاية فرنسه ... » .

مات فرانسوا بعد قليل ، وخلفه ابنه هنرى الثانى . وتشكل المساعدات التى قدمت له المرحلة الثانية .

توفى بربروس خير الدين باشا كذلك فى استانبول يوم ٤ تموز ١٥٤٦ وعمره ٧٤ سنة أو أكبر بقليل . وترك ٣٠ سفينة حرب كبيرة من نوع كالير (galley) ،

التى أنشأها وأثثها وجهزها بدراهمه الخاصة ، للدولة كما ترك عبيده الـ ٨٠٠ الذين تربوا بصورة ممتازة – للسلطان ، وترك ٢٠٠ عبد له للصدر الأعظم داماد رستم باشا ، و١٠٠٠٠ ليرة ذهبية إلى ابن أخيه (إسحق رئيس) بربروس – زاده مصطفى بك ، و٣٠٠٠٠ ليرة ذهبية إلى أوقاف الجامع والقبر والأعمال الخيرية الأخرى التى شيدها فى بشكتاش ، وكافة أمواله وأملاكه الموجودة فى الجزائر إلى ولده وخلفه كوالٍ على الجزائر بيوك حسن باشا ، وبقية ثروته ومن بينها ١٠٠٠ عبد وجارية وسراية فى استانبول لولده الوحيد بربروس – زاده كوجوك حسن باشا (وهو صهر طرغد باشا) . ولم يدون شيئا بالنسبة لما تركه لابنته زوجة طرغد باشا ، حيث إن هذه السيدة كانت غنية جدا بفضل زوجها . وإضافة إلى ذلك ، منح لمئات من رجاله نقودا وأملاكا تؤمن عيشهم مدى الحياة . أوصى ابنه حسن باشا بعدم مطالبة رستم باشا بالدين الذى قدمه له قبل مدة والبالغ ٢١٠٠٠٠ ليرة ذهبية ، وكذا بعدم قبول المبلغ فى حالة إذا ما أراد رستم باشا دفعه .

حيا الأسطول الهمايونى أثناء مغادرته إستانبول فى كل حملة يقوم بها على مدى عصور ، قبره الكائن على ساحل البحر فى بشكتاش بإطلاق نيران كافة مدافعه . ويقام حاليا أمام قبره سنويا احتفالات بحرية .

يعتبر من أبرز الشخصيات التى تعد على الأصابع فى التاريخ التركى . إن طول عمره ، ومعيشته فى عصر علت فيه شوكة الأتراك إلى القمه خلال تاريخهم كله وسمى « العصر التركى » كالقرن ١٦ ، وكونه أخا لداهية كأوروج رئيس ، واقتفائه أثره ، ووجود حام له ذو دراية تامة كالسلطان سليمان ... كل ذلك كان عاملا فى إطلاق مواهبه وتفجرها .

(١٦) إيالة الجزائر البحرية بعد بربروس خير الدين باشا (١٥٤٢ – ١٥٦٨)

تولى إدارة شئون إيالة الجزائر البحرية خلال فترة قيادة بربروس خير الدين باشا للقوات والتى استمرت ١٢ – ١٣ سنة ، ابنه حسن بك (بيوك حسن ، حسن أغا رئيس ، بك ، باشا الأول) .

منحه الديوان على أثر انتصار الجزائر ، رتبة بكلربك (فريق أول بحرى) أى رتبة أبيه . وعند وفاة بربروس ، أصبح واليا على إيالة الجزائر بالأصالة .

وفى ١٥ ت ١٥٤٥/٢ ، أعفى الديوان الهمايونى حسن باشا الأول من وظيفته هذه وأرسل بدلا عنه من إستانبول لهذه الوظيفة ، ابن بربروس الأصغر منه سنا حسن باشا الثانى . انشغل حسن باشا الأول بالأملاك والأوقاف الكبيرة التى تركها له أبوه فى الجزائر وتوفى فى ١٥٤٩ وعمره ٥٨ سنة . استمرت ولاية حسن الثانى الأولى مدة ٥ سنوات و١٠ أشهر و٧ أيام حتى ١٥٥١/٩/٢٢ .

حاول الكونت Alkoder الموجود فى وهران احتلال تلمسان مرتين ، لم يتمكن من الحفاظ عليها . وفى هذه المرة أراد سلطان فاس أخذ تلمسان واحتلها بالفعل .

جاء حسن باشا إلى مستغانم وانتصر على جيش مولاى عبد القادر البالغ ٢٠٠٠٠ شخص بجيشه المكون من ٦٠٠٠ جندى تركى و ٨٠٠٠ عربى بدوى فى الموقع المسمى Rio Salado .

انسحب الفاسيون من تلمسان ، وكان أحد ملوك سلالة عبد الواد حاكما عليها بصورة رسمية . أنهى صالح باشا هذه السلالة فى ١٥٥٥ وضم تلمسان إلى الجزائر كلواء . وانتهت سلطنة بنى عبد الواد التى استمرت ٣١٩ سنة .

انتهى بذلك نظام الحماية العثمانية الذى استمر ٣٨ سنة وذلك بإلحاقها بالعثمانية بصورة قطعية . كانت هذه خطوة مهمة فى توحيد الجزائر . جاء حسن باشا إلى قبيلّة وجهز القبائل البربرية عسكريا . وعلى أثر تلكئه ومماطلته فى تنفيذ الأمر الذى تسلمه من الديوان حول مساندة فرنسا لعدم ارتياحه للفرنسيين ، استدعى إلى استانبول . عين بدلا منه صالح باشا واليا (١٥٥١/٩/٢٢ – حزيران ١٥٥٦) .

قازداغلى صالح باشا ، من مواليد جناقلعة كان عمره ٦٣ سنة عندما أصبح بكلربك (فريق أول بحرى) ، وهو أميرال له شهرة واسعة فى جميع أنحاء أوربا والعالم الإسلامى . كان من معية أوروج رئيس وأول من وطئت أقدامهم شمال أفريقيا معه ، ثم أصبح خير أميرال لخير الدين باشا . حقق مع زميله طرغد رئيس (باشا) حملات بحرية موفقة جدا . نقل المهاجرين الأندلسيين مرات عديدة ، أسر كذلك مع طرغد

وبقى ٣ سنوات كجداف فى سفينة جنوية حتى خلصهما بربروس . اشتهر بذكائه المفرط ، وكان دوريا يخشاه بعد بربروس وطرغد . وعندما ولى على الجزائر ، ربط الجزائر الجنوبية بالدولة بواسطة ٤٠٠٠ جندى تركى ، ٨٠٠٠ جندى عربى تحت قيادة الأمير عبد العزيز . اجتاز جبال أطلس التل وأطلس الصحراء ونزل حتى رغله . ثم نزل إلى أقصى الجنوب وتجول فى الصحراء الكبرى . وأخضع برابرة الطوارق ، وتعد هذه الحملة من الحملات الهامة من الناحية الجغرافية (Gyver ، - Lavisse Rambaud ; Encyelopédie de L'Islam, Supplément ، ٤ ، ٨١٤) . لم يكلل بالنجاح قيامه بإرسال سنان رئيس المسن مع رمضان رئيس (باشا) الشاب إلى قابلية ورغبته فى إعدادها كلواء ، فقد عارض القابليون وأفادوا بأنهم سيدفعون الضرائب ويرسلون من يرغب من المتطوعين إلى الجيش ، لكنهم لايرغبون فى أن يرأسهم موظف عثمانى فهم قادرون على إدارة أنفسهم بأنفسهم .

وفى غضون تلك الأيام ، كان أشراف السعديين فى فاس قد أسسوا سلالة جديدة وانشغلوا بإخماد بقايا مقاومة السلالة المرينية – الوطاسية القديمة . خرج صالح باشا من مدينة الجزائر فى ت ١٥٥٣/١ . رسى بـ ٢٢ سفينة حربية فى ريف ، أى سواحل ، فاس على البحر الأبيض . كانت آثار التمرد والاعتراض التى بدت عند سقوط الوطاسيين فى ١٥٥٠ قد ظهرت بشكل واسع ، فى شمال فاس ومدينة فاس ، تجاه السعديين القادمين من الجنوب من مراكش . كان السلطان السعدى محمد الثانى ، ينتظر صالح باشا مع ٨٠٠٠٠ جندى و٢٠ مدفعا وكتيبة الحرس الخاص التى يشكلها الأتراك . لكنه ترك هذه الكتيبة فى فاس بعد أن تأكد من عدم إمكان استعمالها ضد العثمانية .

اجتاز صالح باشا ، فى الأيام الأولى من شهر ك ١ (١٥٥٣) ، الحدود العثمانية – الفاسية من تلمسان ، وتمكن بفضل تفوق مدفعيته من تشتيت الجيش الفاسى قرب تازة على مسافة ٦٠ كم شرقى مدينة فاس . لمَّ محمد الثانى فلول جيشه فى ٥ ك ١٥٥٤/٢ وهجم على الباشا مرة أخرى فى الساحل الجنوبى من سبع . هزم مرة أخرى . وانتصر صالح باشا فى المعركة التى جرت فى اليوم التالى أمام أسوار فاس ودخل فاس نحو الظهر .

مكث صالح باشا فى فاس مدة ٤ أشهر حتى بداية شهر آيار . عامل الشعب بلين . أرسل زوجة محمد الثانى وحرمه إلى مراكش مكرمين معززين . دخل ريف وأخذ من الأسبان Penon وVelez (التى لازالت لدى أسبانيا) استمر حكم العثمانية فى مدينة فاس وشمال فاس لمدة ٨ أشهر و١٦ يوما . استعاد محمد الثانى فاس بعد انسحاب الأتراك فى ٢١ أيلول ١٥٥٤ .

سار صالح باشا بعد ذلك على بجاية (بالفرنسية : Bougie) شرق مدينة الجزائر . استسلمت قلعتها التى تحتوى على ٦٠٠ أسبانى بعد قصفها بـ ١٤ مدفعا لمدة ١٢ يوما (١٥٥٤/٩/١٦) ، وترك فى بجاية على رئيس مع ٦٠٠ من جنود البحرية ، وأعلم الديوان الهمايونى فى استانبول بأنه لايمكن تأمين وحدة الجزائر مالم يتم إخراج الأسبان من وهران وطلب الموافقة والمدد لتنفيذ ذلك . أرسلت استانبول ٤٠ سفينة حربية و ٦٠٠٠ انكشارى .

سار صالح باشا إلى وهران من البحر بأسطول مكون من ٧٠ سفينة حربية ، وسار هو من البر بجيش مكون من ٤٠٠٠٠ شخص أكثره من العرب ، مات فى الطريق وعمره آنذاك ٦٨ سنة .

أرسل الديوان بربروس - زاده حسن بك للمرة الثانية من استانبول واليا (بكلربك) على الجزائر . وناب عنه لحين قدومه صالح باشا - زاده محمد بك (باشا) .

وأرسل الديوان إلى الجزائر أولوج على رئيس وأمره بإعادة الانكشارية مع الـ ٤٠ سفينة إلى استانبول ، وأبلغه بصرف النظر عن فتح وهران .

بقى محمد بك نائبا عن الوالى (الفريق الأول) ، مدة ١٤ شهرا . لم يتمكن حسن باشا من القدوم إلى الجزائر وتسلم الإدارة إلا فى آب ١٥٥٧ (تعيينه الرسمى حزيران ١٥٥٦) .

أبلغ الديوان حسن باشا بوجوب صرف النظر حاليا عن مسألة وهران وأبلغه أيضا إن سلطان فاس محمد الثانى قد عقد معاهدة مع ملك أسبانيا فيليب الثانى ضد العثمانية ، وأن هذه المسألة أكثر أهمية إذ من الممكن أن تكون وخيمة العاقبة .

أراد السلطان أن يحتل تلمسان مرة أخرى ، ولم يوفق .

سار حسن باشا إلى فاس بجيشه المكون من ٦٠٠٠ جندى تركى و١٧٠٠٠ جندى عربى . من ناحية أخرى كانت كتيبة الحرس الخاص لمحمد الثانى مشكلة من الجنود العثمانيين بقيادة صالح كاهيه الذى كان تركيا ومن رجال صالح باشا . قتل صالح باشا وكتيبته ، محمد الثانى خارج مدينة مراكش (١٥٥٧/١٠/٢٣) ، (وكان عمره ٦٩ سنة) ، وأرسل رأسه إلى استانبول عن طريق تلمسان والجزائر وشهّر به . كان السلطان سليمان قد غضب غضبا شديدا على محمد الثانى . حيث كانت دماء كثير من المسلمين قد سفكت فى سبيل المغرب ، ومن ثم فإن الاتفاق مع أسبانيا المتسببة فى ذلك يعتبر خيانة (L'Etablissement des , August Cour Dynasries) (des Chérifs au Maroe et Leur Rivalité avee les Tures, P . 130) .

عزز تمكن حفنة من الأتراك من قتل حاكم دولة كبيرة كفاس جلس على عرشها تلك المدة الطويلة ، بتهمة خيانته وخروجه على الإسلام نفوذ العثمانية فى المغرب تجاه المنافقين . تمكن صالح كاهيه وجنوده بعد خسائر كبيرة من التخلص من مطاردة الفاسيين والذهاب من مراكش إلى تلمسان .

وكالعادة ، بدأ النزاع على العرش فى فاس .

دخل بربروس - زاده حسن باشا ، فاس . لم يحقق الطرفان نتيجة فى حرب وادى البند الميدانية (كان جيش فاس يتكون من ٤٥٠٠٠ جندى و ٣٠٠٠٠ خيال و١٠٠٠٠ مشاة و٤٠٠٠ حملة بنادق ومدفعية) ، وبينما يستعد حسن باشا لهجوم جديد ، علم باستعداد الكونت Alkodet فى وهران للهجوم عليه من الخلف . كان الكونت يضفى الشرعية على حركته بإدعاء تنفيذ شروط المعاهدة المنعقدة مع السلطان المقتول .

خرج من وهران (١٥٥٨/٨/٢٢) ١٢٠٠٠ أسبانى وعدد يماثله من الجنود المحليين والمدفعيين وكان يريد تلمسان . استولى الأتراك على ٤ سفن تحمل له المهمات ، فتدهورت الروح المعنوية للأسبانيين . علم الكونت بالاستعدادات الممتازة التى أعدها أمير لواء (سنجق بك) تلمسان أولوج Uluç على رئيس (باشا) ، فغير رأيه ، وبدأ بحصار مستغانم ، ثم رفع الحصار عندما شاهد حسن باشا أمام مستغانم ومعه ٦٠٠٠ تركى و١٦٠٠٠ عربى ، واتخذ تشكيل حرب الميدان ، إلا أن الـ ١٢٠٠٠ عربى الموجودين فى الجيش الأسبانى ، عندما شاهدوا أمامهم حسن

باشا ابن بربروس الذى لايقهر ، انسحبوا دون أن يطلقوا رصاصة واحدة .. الأمر الذى أدى إلى تقرير مصير الحرب .

تعد واقعة مستغانم الميدانية (١٥٥٨/٩/٥) إحدى الانتصارات الهامة التى أحرزها الأتراك تجاه الأسبان . مات فى ساحة الحرب ١٢٠٠٠ جندى إسبانى والكونت Alkodet العسكرى الكبير المجرب والبطل ، والكبير السن ، وأسر ابنه دون مارتن Don Martin . اشتهرت هذه الحرب بأنه لم يبق منها جندى واحد على قيد الحياة . كان شارل – كوينت فى هذه الأيام قد تخلى عن العرش ، وكان مريضا وطريح فراش الموت فى سراى الحمراء ، لم يبلغ بكارثة مستغانم لئلا تعجل بموته .

وهكذا فشلت خطة إفناء ابن بربروس والتى كانت تستهدف جعله بين نارى الفاسيين والأسبان ، وانتهت بلجوء الأسبان إلى داخل أسوار وهران .

ترك حسن باشا الذى لم يرضخ لطلبات انكشارية الجزائر (المشاة) الذين حسدوا جنود اللوند (البحرية) ، الإيالة وجاء إلى استانبول وطلب من الديوان اعفاءه من وظيفة الولاية (ت٢ / ١٥٦١) . عين أحمد باشا وأرسل إلى الجزائر . جاء إلى الجزائر بالأسطول واعتقل الانكشارية العصاة وساقهم إلى استانبول لمحاكمتهم ، لكنه توفى بأجله فى السنة التالية (ك ١ / ١٥٦٢) . عين الديوان حسن باشا للمرة ٣ على الجزائر وأمره بالتوجه إليها ، ولحين مجيئه ، أصبح يحيى رئيس الكبير السن ، وكيلا عن الوالى فى الجزائر لمدة ٣ أشهر .

جاء حسن باشا من إستانبول إلى الجزائر ترافقه ١٠ سفن حربية . سار من مدينة الجزائر (١٥٦٣/٢/٥) فى الحال بعد أن أخذ معه ١٦٠٠٠ تركى و ١٢٠٠٠ جندى قاصدا وهران . جاء أمام مياه وهران فى ٣ نيسان . كان قد استبقى أمير لواء تلمسان ريزه لى على إسكندر بك مع عدة آلاف ، فى منطقة بين الجزائر ووهران تحسباً لاحتمال حدوث إنزال من قبل الأسبان . استولى هذا الأميرال على أسطول أسبانى محمل بالإمدادات مع سفينة الأميراليه ..كان يتولى الدفاع عن حامية وهران Don Alonzo de Cordoba واخوه ماركيز كورتيس Don Martin ابنا الكونت Alkodet ، وكانا جنرالين قديرين نشآ فى شمال افريقيا .

كانت وهران التى بقيت بحوزة الأسبان منذ ١٧/ ١٥٠٩/٥ ، تبعد ٢٠٠ كم

عن ميناء المريه (Ammeria) فى أسبانيا . استمر الحصار مدة ٢٦ يوما اعتبارا من ١١ آيار حتى ٥ حزيران . جرى قتال شديد . تكبد الطرفان خسائر جسيمة . بالنظر إلى توقع مجيء أسطول (أرماده) أسبانى ، فقد قام حسن باشا بفك الحصار ، وبالفعل لم تمض ٤٨ ساعة حتى دخل وهران أسطول إسبانى مخيف .

أرسل الديوان الذى خشى من عملية إنزال أسبانية على فاس طرغد باشا مع ٦٠ سفينة حربية من طرابلس إلى سواحل ريف (فاس) . اشترك حسن باشا بعد ذلك فى حصار مالطه (١٥٦٥) ثم استدعى إلى استانبول فى شهر ك ٢ سنة ١٥٦٧ ، وعين مكانه محمد باشا ابن صالح باشا .

تبلغ مجموع ولايات حسن باشا الثلاث ١٥ سنة و ٤ أشهر . استدعى محمد باشا كذلك إلى استانبول (١٥٦٨/٦/٢٧) وعين بدلا منه أولوج على باشا . توفى حسن باشا فى استانبول وعمره ٧٢ سنة ، ودفن بجوار أبيه (١٥٧٢/٣/١٥) .

(١٧) طرغد باشا وليبيا

ولد طرغد ابن أحد الرعاة ، فى قرية تابعة للواء منتشة..(موغلة) فى سنة ١٤٨٥ . دخل البحرية كجندى بحرى (لوند) عادى فى سن مبكرة جدا تقارب سن الطفولة . وفى الوقت الذى لفت فيه انتباه السلطان قورقود ، كان شابا عمره ٢٥ سنة ملاحاً لسفينة . أصبح أولا قائدا لسفينة أوروج ثم لخضر خير الدين باشا ثم أصبح قائدا لقطعة من الأسطول . قدم خير الدين باشا – عند مجيئه إلى استانبول لتعيينه قائدا للقوات البحرية – طرغد رئيس الذى تعاظمت شهرته ، إلى السلطان كأحد أميرالاته الـ ١٩ ؛ كان عمره آنذاك ٤٨ سنة .

منح القانونى ، طرغد رئيس رتبة لواء بحرى وأصبح اسمه فى الوثائق العثمانية الرسمية (طرغد جه بك) . اشتهر على الأغلب كرئيس قراصنة . قام بإدارة القراصنة (الصاعقة البحرية) لسنوات طويلة . يلى بربروس خير الدين باشا مباشرة من حيث الشهرة ، وكان قد صاهر بربروس كذلك . نظراً لمزاجه وعدم رعايته قواعد التشريفات ، لم يحصل على رتبة قبودان دريا (مشير ، قائد القوات البحرية) ولم

يتمكن من دخول الديوان الهمايونى ، لكنه بقى محافظا على صفته كرئيس حقيقى للبحارة الأتراك . كانت قاعدته جزيرة جربة . تمكن على مر الزمن من الاستيلاء على أربعة أخماس القطر التونسى وحشر السلطان الحفصى فى مدينة تونس وضواحيها . احتل ميناء بنزرت . لكنه أولى اهتماماً خاصاً بتحصين قلعة مهدية فى الجنوب كقاعدة بحرية ، بصورة ممتازة .

كان أوروج رئيس قد فتح من قبل مدينة مهدية (مدينة العرش الفاطمية القديمة) . فشلت كل المحاولات الاسبانية - الحفصية المختلفة حتى ١٥٥٠ فى إخراج طرغد من مهدية . كان طرغد فى ربيع هذه السنة ، أوّلا فى خليج بلنسية Valeneia ثم فى جزر بالير Balear . كان فى مهديه كل من عيسى رئيس ، وابن أخ طرغد حصار رئيس . شوهد عند ذاك أسطول Andrea Doria المكون من ٤٧ قطعة أمام مهدية (١٥٥٠/٦/٢٨) .

جاء دوريا إلى مهدية بعد أن أخذ مناسطر من الأتراك ومعه جيش بقيادة نائب الملك فى صنقلية Don Juan de Vega ، وكان السلطان الحفصى قد انضم كذلك إلى هذا الجيش . أما حامية عيسى رئيس فقد كانت تتكون من ٢٣٠٠ جندى بحرى تركى و٥٠٠٠ خيال عربى . أطلقت مدافع الأعداء حتى ٢٦ آب ٧٠٠٠ قذيفة . كان يوم ١٠ أيلول اليوم ٤٣ من الحصار . كانت قد انفتحت ثغرات واسعة . دل إبراهيم برات من تجار المهدية المشهورين الصليبيين على أماكن الأسوار التى تركها الأتراك مفتوحة ، لقاء دراهم . دخل العدو إلى القلعة وذبح وقطع المسلمين . أسر عيسى رئيس مع حفنة من بقايا جنوده . كان هو و٧٠ من جنود بحريته جرحى (سيتخلصون من الأسر بعد مدة عن طريق المبادلة) . أخذ الصليبيون سكان المدينة البالغ عددهم ٧٠٠٠ كعبيد . أدرك الأسبان بعد ذلك عدم إمكان احتفاظهم بمهدية ، فهدموا القلعة من أساسها فى بداية سنة ١٥٥٤ وانسحبوا . تأثر الديوان الهمايونى من سقوط مهدية وأرسل إلى شارل - كوينت رسالة شديدة اللهجة . أجاب الإمبراطور بأن حربه ضد قرصان وليست ضد الأتراك .

وحتى يمكن القبض على طرغد قرر دوريا ضرب جربة . جاء إلى جربة مع ١٥٠ سفينة . أنزل طرغد أسطوله بواسطة مزالق مدهونة إلى الطرف الآخر من الجزيرة ولم يقبض عليه (Hammer ، ٦ ، ١٧٩ - ٨٠) .

استدعى الديوان فى ربيع سنة ١٥٥١ ، طرغد بك مع عقدائه السبع البحرين (قبودان) إلى استانبول وكان من بينهم بربروس ــ زاده غازى مصطفى بك (ابن شهيد إسحق رئيس) وألوج (قيليج) على رئيس باشا) .

الذى أصبح فيما بعد قائدا للقوات البحرية وواليا على الجزائر . أعطيت لأمر طرغد بك ٩٠ سفينة حرب وعدد مماثل من سفن النقل . جاء طرغد إلى صقلية على رأس الأسطول الهمايونى . أنزل إلى البر ١٥٠٠ من جنود البحرية واحتل ميناء Augusta على مقربة من شمال سيراقوسا Siracusa بعد مقاومة استمرت يومين . انهزمت القوات الصقلية التى جاءت بقيادة Don Hernan do Vega . كانت خسائر الأتراك ١٠٠ شهيد و ١٤ أسيرا . جاء الأسطول الهمايونى إلى مالطة (١٥٥١/٧/١٦) حيث أنزل الجنود فيها وخربها ، وتم الاستيلاء على جزيرة Gozo وأسر كافة سكانها (٧٠٠٠ شخص) ، وأركبوا البواخر ووضعت فى الجزيرة حامية عسكرية .

وهكذا بقيت جزيرة غوزو الملاصقة لمالطة بيد الأتراك فترة طويلة (Histoire de Malte , J.Godeehot ، ص ٤٦) . هبت عاصفة شديدة وأغرقت ٨ سفن من الأسطول الإسبانى الذى جاء للمساعده كما غرق ١٥٠٠ إسبانى قرب جزيرة لامبيدوسا .

جاء طرغد بك من مالطة إلى طرابلس الغرب . فى ذلك العهد كانت السفينة تستطيع أن تجتاز تلك المسافة فى الأجواء الطبيعية خلال ٣٠ ساعة . كان كامل ليبيا تقريبا بما فى ذلك بنغازى (برقة Sirenaika) تحت سيطرة الأتراك ، إلا أن البلدة الرئيسية للقطر ميناء طرابلس الغرب والمناطق المجاورة لها ، كانت لدى المسيحيين منذ ١٥١٠ وهى الآن لدى فرسان مالطة (من المعلوم أن الفرسان من ألد أعداء المسلمين) كان الأتراك قد أسسوا قاعدة فى تاجوار تبعد مسافة ٢٠ كم عن طرابلس . كان مراد آغا وحفنة من جنوده يحاولون منذ سنين منع الفرسان من النفاذ إلى المناطق الداخلية من البلاد وارتكاب المظالم ، ولم يكن الفرسان قد تمكنوا من إخراج مراد أغا من تاجوار .

أنزل طرغد بك ٤٠ مدفعا و ٦٠٠٠ جندى . واستولى من الفرسان على طرابلس ، (١٥٥١/٨/١٥) وأخرجهم منها . دافع عن القلعة الفرنسى Gaspard de Vallier ومعاونه Desroches . كانت مساعدة العرب المحليين للأتراك كبيرة .

أصبح مراد آغا ، أول وال (فريق أول) على أيالة طرابلس البحرية ، وأصبحت طرابلس ، هى الأيالة البحرية (بالفرنسية : Province maritime) الثانية للدولة العثمانية بعد الجزائر وستكون تونس الأيالة الثالثة . كان مراد باشا قد خدم فى تاجوار وقام بصيانتها بصبر مدة ٣١ سنة منذ ١٥٢٠ . بقى واليا عليها حتى وفاته فى ١٥٥٦ . قاد جيشا إلى فيزان (فزان) ، وأخذ المناطق الجنوبية حتى جبال Tlbesti وضمها إلى الإدارة العثمانية وأخضع الملكيات الزنجية فى الجنوب وأدخلها تحت النفوذ العثمانى . غطى النفوذ التركى المناطق التى تتعدى بكثير بحيرة جاد .

على الرغم أن طرغد بك هو فاتح الأيالة ، لكنه أصبح ثانى وال عليها . وهكذا رقّى إلى رتبة بكلربك بحرى أى فريق أول بحرى فى ١٥٥٦ وعمره ٧١ سنة . حكم ليبيا مدة ٩ سنوات حتى وفاته . كان يدير خلال قيامه بواجب الولاية أربعة أخماس ليبيا .

قاد طرغد بك الأسطول إلى إستانبول . ذهب إلى مركز لوائه برَوزة Preveze . أقلع منها بأسطول مكون من ١١٢ قطعة . رسى فى ميناء Pozzuoli ضاحية نابولى الغربية . كان السفير الفرنسى d'Aramont يرافقه فى الأسطول . كلف طرغد بك بمهمة الدفاع عن فرنسا ومساعدتها بسبب إعلان شارل – كوينت الحرب على فرنسا مجددا فى ١٥٥١/٩/٢٨ . كان طرغد بك يكره الفرنسيين بسبب نكثهم المتكرر لعهودهم . سار دوريا إلى طرغد . تقابل الأسطولان بالقرب من جزيرة Ponza فى مياه خليج Gaeta (١٥٥٢/٨/٥) . انسحب دوريا بعد أن عجز عن حماية ٧ من سفنه انتقلت لحوزة طرغد ، هذا عدا السفن الغارقة . يعد انتصار بونزا هذا ، أحد أهم إنجازات طرغد . احتل جزيرة كابرى المواجهة لنابولى (Sorrento) بعد أن سيطر على بحر Tiren مدة شهرين .

غادر طرغد بعد أن قضى الشتاء فى إستانبول مع ٤٥ قطعة من السفن فى ١٥٥٣/٦/١٥ . كان هنرى الثانى يعترف بالبادشاه كإمبراطور أوروبا الأوحد وسيده المبجل بموجب معاهدة إستانبول فى ١٥٥٣/٢/١ . وكان يضع الأسطول الفرنسى رهنا لتركيا فى مقابل المساعدات البحرية التركية ، (تترك فرنسا أسطولها إلى تركية فى حالة عدم تسديدها مصاريف الحملة البحرية) نص المادة الخاصة بذلك فى المتن الفرنسى من المعاهدة :

engagés en neantissement de la somme précitée, Jusque'a ce que cette derniére somme soit payéa a l'Amiral du Grand - Seigneuv يقول هنرى الثانى فى رسالة منه إلى السلطان سليمان : « لم يبق لدى فرنسا أى أمل فى المساعدة من أى مكان آخر عدا حضرة سلطان العالم ؛ حيث إن حضرة سلطان العالم قد قدم من قبل مساعداته لمرات عديدة . إن فرنسا ستكون ممتنة إلى الأبد لو سوعدت بمقدار من النقود والبضاعة . ستطبق شهرة الكرم التركى العالم أجمع ، إن مثل هذه المساعدة تعتبر لاشىء بالنسبة إلى سلطان العالم » .

وبعد أن ضم طرغد بك الأسطول الفرنسى الموجود فى Modon (Mora) وارتفع عدد سفنه إلى ١٥٠ قطعة ، أنزل جنودا فى كاتانيا (المدينة الثانية فى صقلية) ، وكذلك أنزل جنودا فى Bastia مركز كورسيكا . واستولى على المدينة والقلعة (١٥٥٣/٨/١٧) . أبيد جيش العدو المكون من ٧٠٠٠ شخص . قاوم Bonifacio مدة أسبوع ، ثم فتحت . انتقلت الجزيرة لحوزة الأتراك . تم تخليص ٧٠٠٠ أسير مسلم كانوا فى الجزيرة . عاد طرغد إلى استانبول بعد أن سلم إدارة كورسيكا بأمر الديوان إلى الفرنسيين .

لم يتمكن الفرنسيون من الحفاظ على كورسيكا أمام أسبانيا . جاء أندريا دوريا فى الأشهر الأخيرة لسنة ١٥٥٣ وأخذ الجزيرة من الفرنسيين . تأخر استرداد الفرنسيين للجزيرة مدة ٢٠٠ سنة . كانت الجزيرة التى ينطق شعبها الإيطالية – ولازالت كذلك – من أملاك الجمهورية الجنوية وكانت الجمهورية تحت حماية أسبانيا .

(١٨) قيادة القوة البحرية لبيالة باشا (كانون الثانى ١٥٥٤)

عين بيالة بك خلال هذه الفترة قائدا للقوات البحرية وناظرا للبحرية (قبودان دوريا) برتبة لواء بحرى . كان عمره ٣٨ سنة . خرج بالأسطول الهمايونى فى صيف ١٥٥٤ إلى البحر الأبيض . كان عليه بموجب أمر الديوان أن يفتح كورسيكا للمرة الثانيه ويسلمها إلى الفرنسيين . كانت فرنسا قد اراقت الكثير من ماء وجهها فى هذا السبيل . أخذ لأسطوله طرغد بك ثم والى الجزائر صالح باشا . والتأم بأسطول

البارون de la Garde الفرنسى . رسى فى ميناء Piombino الإيطالى . أنزل إلى البر فى كورسيكا ٣٠٠٠ جندى . حاصر Calvi . لكنه غضب على الفرنسيين ورفع الحصار . وجلى عن كورسيكا ، ولم يتمكن الفرنسيون من أخذها .

خرج بيالة باشا فى السنة التالية بأمر الديوان لمساعدة فرنسا كذلك (١٥٥٥/٦/٢٦) . التقى بطرغد بك . احتلا Reggio . ذهب طرغد رئيس حتى إسبانيا . عاد بيالة بك الذى لم يعثر على دوريا إلى استانبول .

وفى السنة التالية ، سار بيالة باشا من استانبول فى صيف سنة ١٥٥٦ بـ ٤٥ سفينة حربية . ذهب إلى الجزائر ثم عاد . وفى ١٥٥٧ ، سار بحملة بحرية قوامها ٦٠ سفينة حربية . لم يتمكن من العثور على دوريا كذلك ، رفع الراية وقام بعرض فى البحر الأبيض . استقال أندريا دوريا الذى تقدم فى السن ، والذى تأثر كثيرا لتخلى شارل - كوينت عن العرش ، من قيادة القوة البحرية الأسبانية وانسحب إلى قصره الكبير فى جنوه . عين لقيادة القوة البحرية الأسبانية ، ابن أخيه Gian Doria .

وفى صيف سنة ١٥٥٨ ، سار بيالة بك ، مع طرغد باشا بأسطول مكون من ١٥٠ قطعة . احتل كامل جزر بالير . عقدت إسبانيا التى لم تقدر حتى على صيانة جزر بالير معاهدة صلح Chateau - Cambrésis مع فرنسا فى ١٥٥٩ . رقى بيالة بك عند عودته من هذه الحملة إلى رتبة فريق أول بحرى . وفى صيف ١٥٥٩ خرج بيالة باشا مع ٩٨ سفينة حربية وجاء إلى آفلونيا ودخل البحر الأدرياتيكى . رفع الراية وقام بعرض فى تلك البحار .

(١٩) انتصار جــربة (١٥٦٠/٥/١٤)

كانت أسبانيا مضطرة لإثبات وجودها ، ومن ثم فقد اختارت طرغد باشا وقاعدته الرئيسية جزيرة جربة هدفا لها . أرسل طرغد باشا فى شباط ١٥٦٠ أمير لواء (والى) صيغلة (أزمير) الذى يرافقه ، اللواء البحرى أولوج على رئيس (قيليج على باشا) إلى الديوان فى استانبول ، وأخبرهم بأن المسيحيين قد جهزوا تحت إمرة أسبانيا أسطولا هائلا ومن المحتمل أن يكون هدفهم جربة .

كان هذا الأسطول ، أعظم أسطول جهزوه منذ بروزه يتكون من ٢٠٠ سفينة حربية ، تحمل ٣٠٠٠٠ جندى . كان الأسطول بقيادة Gian Andrea Doria ، وكانت القوات البرية بقيادة نائب الملك فى صقلية Don Juande la Cerda (دوق Medinaceli) ، والأسطول البابوى بقيادة الأمير Flamino Orsini ، والأسطول الفلورنسى (توسكانا) بقيادة الأمير Andrea Gonzag . اشتركت فى الأسطول سفن ألمانية ، ومالطية ، وجنوية ، وحتى سفن موناكو . غادر الأسطول صقلية (١٥٦٠/٢/١٠) ولم يتمكن لسوء حالة الجو من التجمع ولم يتمكن من الوصول إلى جربة ، إلا فى ٢ أيار وأنزل جنوده فى الجزيرة حتى ٧ من أيار . كان فى جربة ١٠٠٠ جندى بحرى ، قاوموا ٥ أيام وانسحبوا إلى طرابلس . أخذ الأسبان الجزيرة وشيدوا فيها قلعة عظيمة . وضعوا فيها ٢٢٠٠ جندى بقيادة Don Alvaro de Sandi .

جهز بيالة باشا الأسطول ، على إثر إرسال أولوج على رئيس مع سفينتين حربيتين إلى استانبول من قبل طرغد باشا . كان الصليبيون يريدون الحملة على طرابلس الغرب واحتلالها . وبينما هم على وشك المغادرة ، آثروا انتظار الأتراك فى جربة عند سماعهم خبر حركة الأسطول الهمايونى . كان بيالة باشا قادما مع ١٢٠ سفينة . إن قدومه بمثل هذا العدد من السفن بينما يملك العدو ٢٠٠ سفينة ، يدل على مبلغ اعتماده على سفنه وجنوده . لكنه أضاف فى الطريق إلى الأسطول ٦ سفن حربية و ٢٤ سفينة نقل . تم إبلاغ كل من طرغد باشا فى طرابلس وحسن باشا فى الجزائر بأن يكونا على استعداد . جاء بيالة باشا إلى مالطة خلال ٣٣ يوما ومنها إلى جربة خلال يومين ورسى على بعد ٣ أميال منها .

اتفقت آراء أمراء البحر فى المجلس الحربى (العسكرى) على تطبيق خطة بربروس التى استعملها فى بروزه . كان قائد الجناح الأيسر ، أمير لواء(والى)صيغلا (أزمير) اللواء البحرى أولوج على رئيس (قائد القوات البحرية وناظر البحرية قيليج على باشا فى المستقبل) ، ويقود الاحتياط سيدى على رئيس . كان عمر طرغد باشا آنذاك ٧٥ سنة ، وبيالة باشا ٤٥ سنة ، وسيدى على رئيس ٥٣ سنة . كان قادة الأساطيل الخفيفة أمير لواء ميديللى اللواء البحرى المسن قورد أوغلو الدين مصطفى رئيس (كان قد أصبح قائدا للأسطول قبل ٣٩ سنة فى حملة القانونى على رودس) ، أخيه

أمير لواء رودس اللواء البحرى قورد أوغلو أحمد رئيس ، أمير لواء كاراسى (بالكسرة) اللواء البحرى غضنفر رئيس .

من الملفت للنظر أن أمراء البحر كانوا مسنين وبحارة قدماء ، ولكن يبدو أن الدهاء البحرى التركى فى النصف الثانى من القرن ١٦ – ولو أنه لا يتضح فى تلك الأيام ــ كان قد بدأ يدخل مرحلة توقف ويحتمل مرحلة ضمور .

جرت حرب جربة البحرية ، بعد بروزة بـ ٢١ سنة و٧ أشهر و١٦ يوما . جرت فى صباح يوم ١٤ أيار ١٥٦٠ ، على مسافة من جزيرة جربة وهى إحدى أكبر المعارك البحرية فى التاريخ العالمى . انهزم الصليبيون خلال ساعات عديدة . كان تكتيك الحرب التركى سليما خاليا من العيب وخارقا للعادة . قتل أو غرق أو أسر ٢٠ ٠٠٠ جندى من جنود الصليبيين الـ ٣٠ ٠٠٠ عدا الجدافة . أسر كثير من الأشراف وأمراء البحر والجنرالات . قتل الأمير Orsini . غرقت ٧٠ سفينة صليبية . انتقلت لحوزة الأتراك ٢١ سفينة حربية ، ٢٦ سفينة نقل . وأصيبت معظم السفن الأخرى . كانت خسائر الأتراك قليلة كما فى بروزة بشكل مدهش ؛ عدد الشهداء أقل من ١٠٠٠ وغرقت بضعة سفن تركية فقط .

كانت معركة جربة ، أكبر معركة بحرية جرت فى البحار المفتوحة انتصر فيها الأتراك بعد بروزة على مدى التاريخ التركى . كان دوريا وعمره ٩٤ سنة فى قصره الكائن فى جنوة ينتظر خبر انتصار ابن أخيه الصغير . وعندما علم بخبر الهزيمة ، بات طريح فراش الموت . مات فى ١٥٦٠/١١/٢٥ . جرت فى أيام ١٦ و ١٧ أيار حركات مطاردة ناجحة جدا . تولاها طرغد باشا الذى جاء من طرابلس بعد إحراز النصر مع ١٢ سفينة حربية .

ومع أن الديوان قرر إعطاء الباشا رتبة وزير (أميرال – كيير) ، لكن السلطان سليمان لم يصادق على هذا القرار قائلا : إنه نال رتبة فريق أول بحرى قبل سنتين وإنه سوف لا تبقى للرتب قيمة إذا ما نالها الضابط بهذه السرعة . لكنه كافأ بيالة باشا شخصيا بتزويجه حفيدته . إن الرتب التى لم يفرط السلطان سليمان فى منحها إلى الباشا بربروس خير الدين ، طرغد ، بيالة ، سوف تمنح بعد مدة قصيرة وبعد جيل واحد إلى العسكريين ورجال الدولة الذين لم يحققوا واحدا على المئة من

الإنجازات التى حققها هؤلاء . هنأ السلطان سليمان كلا من بيالة باشا وطرغد باشا بكتاب سلطانى مستقل .

طوق بيالة باشا وطرغد باشا قلعة جربة بـ ١٤٠٠٠ جندى من البر وبالسفن من البحر . كان قد تجمع فى القلعة الصليبيون الذين لجأوا مؤخرا و ٨٠٠٠ من الجنود المسيحيين ، كانوا قد تلقوا أمراً من فيليب بعدم ترك القلعة قبل أن يموت آخر جندى . دام الحصار ٦٣ يوما واستسلمت القلعة فى ١٥٦٠/٧/٣٠ . أطلق الأتراك خلال هذه المدة ١٢٠٠٠ طلقة مدفع وأكثر من ٤٠٠٠٠ سهم . لقد كانت هذه المعركة إحدى معارك التاريخ الدموية ، وكانت فى هذه الفترة قد انقلبت الحرب من حرب قلاع إلى حرب آبار المياه الإرتوازية ، فالطرف الذى يحوز الآبار يكون هو الطرف المنتصر . تمكن أولوج على رئيس من حيازة بئر واحدة فقط بعد قتال دموى شديد ، وظلت البقية لدى الأسبان . كان الأتراك لايجدون الماء بدرجة كافية ، أما المسيحيون فلم يكن لديهم أى مصدر للمياه عدا الآبار . شوهد أسبان جنوا يلجأون من شدة العطش إلى الأتراك . استشهد وجرح بجراحات بليغة ٧ قواد سفن (قبطان) برتبة عقيد بحرى دفعة واحدة ، أمام بئر واحدة . اقتربت الخنادق من بعضها إلى درجة أن الأتراك والأسبان كان يكلم بعضهم بعضا من أماكنهم ، أبدى الدون آلفارو شجاعة بحيث اقترب من سرادق طرغد باشا . نفذ توصية مليكه ؛ فلم يبق عند سقوط القلعة ، شخص واحد حى من جنود الأسبان الذين كان عددهم ٨٨٠٠ . عندما أسر دون آلفارو لوحده ، كان قد اقترب إلى مسافة بضعة أمتار من سرادق طرغد باشا .

كان دون آلفارو قد اشتهر بمعاملته السيئة للجدافة المسلمين ، ولذلك فقد حاول الذين كانوا أسرى وجدافة تمزيقه . جعل دورمش رئيس ربان سفينة الأميرالية (القيادة العامة) لبيالة باشا من جسمه سدا لجسم الأميرال ونجاه من الموت . سيق دون آلفارو مع عدد كبير من أمراء البحر والجنرالات الذين أسروا إلى إستانبول .

قدم الأتراك فى محاصرة قلعة جربة نحو ١٠٠٠ شهيد أكثرهم من الضباط . جرح كل من ابن اخت طرغد إلياس رئيس ومساعده محمد رئيس بجراحات بليغة . جاء بيالة باشا وطرغد باشا إلى طرابلس بعد تحصين القلعة ، مكثا فيها ٣ أيام وغادرا سوياً فى ١٠ آب . احتفل الأسطول بعيد الأضحى فى بروزة Preveze . دخل

الأسطول الهمايونى استانبول فى ٢٧ أيلول (١٥٦٠) . كان الشعب قد تكدس على السواحل ، أما الخاقان فكان مع الوزراء والسفراء الأجانب فى قصر المراسم . حى الأسطول الخاقان ، بإطلاقه نيران مدافعه .

اعتبر الاشتراك فى حرب جربة ، شرفا كبيرا بين جنود البحرية كما كان الحال فى حرب بروزة Preveze . والجنود الذين اشتركوا فى كليهما ، اعتبروا أبطالا ذوى امتياز كبير .

قام بيالة باشا فى ذكرى الحملات للسنوات ١٥٦١ ، ١٥٦٢ ، ١٥٦٣ بعرض فى البحر الأبيض ورفع الراية . وفى ١٥٦٤ ، جاء إلى الريف (سواحل فاس فى البحر الأبيض) . كانت أسبانيا قد شيدت خلال ١٥٦٠ — ٦٥ بعد تضحيات كبيرة ٥٠ سفينة حربية وجهزتها . كانت بذلك قد عوضت خسائرها فى جربة . فتح بيالة باشا عدة قلاع قرب نابولى وسلمها إلى الفرنسيين لكنهم لم يتمكنوا من الحفاظ عليها (Von Hammer ، ٦ ، ٤٩٣) .

تعاظم نفوذ العثمانية فى هذه الأيام فى ريف وشمال فاس . كان بعض الزعماء الفاسيين ، وأمراء أسر الشريف ، وحتى بعض السلاطين قد اعترفوا بنفوذ الخليفة وبدأوا بالتعاون مع العثمانية . لكن بعضهم كان لايزال يعقد مع أسبانيا اتفاقيات معقدة لاتتفق والعقل السليم ، بأمل التغلب على صراعات الأسر والعثمانية . لم يكونوا قد أدركوا بعد أن الإمبراطورية العثمانية ، دولة إسلامية . كانوا يخشون من مجىء العثمانية وإلغائها الامتيازات الإقطاعية التى يتمتعون بها .

كان بيالة باشا قد عين قرة مصطفى رئيس فى جزيرة Penon do Velez التى تبعد ١٠٠ كم عن أسبانيا (الأندلس) وجعلها مقراً له . كانت تطوان وكذلك صافى فى الأطلسى تحت نفوذ الأتراك ، أسسوا فى كل منها أساطيل للقراصنة المجاهدين . وبناء على ذلك كان اجتياز مضيق جبل طارق إلى البحر الأبيض أو العكس ، يشكل مشكلة بالنسبة للأسبان . احتل جيبون دوريا Penon de Velez فى ١٥٦٤/٨/٣١ بـ ٨٩ سفينة حربٍ و ٢٠٠٠٠ جندى . كان مصطفى رئيس فى تطوان . لم يتمكن الأسبان من المجىء إلى تطوان التى تقع فى الداخل وعلى مسافة ليست بعيدة عن الساحل . لكن Penon de Velez بقيت لدى الأسبان حتى يومنا هذا .

كان ينوب عن طرغد باشا فى طرابلس (ليبيا) ، خلال وجوده فى الحملات وفى استانبول ، محمد باشا الذى قام بهذا الواجب مدة ٢ سنة ، ٧ أشهر ، وعند وفاة طرغد أصبح تلميذه أولوج على باشا واليا (بكلربك) لمدة ٥ أشهر ، ثم جاء والى لواء رودس البحرى يحيى رئيس وحكم الايالة لغاية ١٥٧١/٣/٢٨ بلقب يحيى باشا .

(٢٠) حملة مالطه (١٥٦٥)

أقام فرسان الطريقة العسكرية Saint - Jean الذين تركوا رودس فى الأسبوع الأول من سنة ١٥٢٣ فى جزر مالطة و Gozo التى منحها إياهم شارل — كوينت فى ١٥٣٠/١٠/٢٥ .

كان تعداد سكان مالطة ٩٠ ألفا وغوزو ٧ آلاف . ظلت جزيرة غوزو تحت نفوذ الأتراك مدة طويلة (١٥٣٠ — ٦٥) ورغم أنهم كانوا يقصفون مالطة فى كل سنة تقريبا ، إلا أنهم لم يتمكنوا من زحزحة الفرسان منها . وقد راجع طرغد باشا ، الديوان مرات عديدة لفتح مالطة وإخراج الفرسان الذين سفكوا دماء كثير من المسلمين من الجزيرة .

كان الأستاذ الأعظم (grand - maître) أى رئيس الدولة فى تلك الفترة ، فرنسى من إقليم بروفانس Provence اسمه De la Valette Parisot . ولد فى سنة ١٤٦٤ ، وانتسب إلى فرسان مالطة عام ١٥١٥ وعمره ٥١ سنة . كان موجودا فى فتح القانونى لرودس فى ١٥٢٢ وكذلك عند الانتقال إلى مالطة فى سنة ١٥٣٠ . جدف كأحد الجدافة المسيحيين الأسرى سنوات عديدة فى سفينة عبد الرحمن رئيس ، ثم تخلص من الأسر ، أوقف حياته لمقاتلة طرغد باشا ، كان يجيد ٥ لغات أوربية ، كما كان يجيد التكلم باللغة التركية ويتكلم أيضا قليلا من العربية .

كانت جزر Lampedusa و Linosa بحوزة الأتراك . ورغم جهود La Valett الذى انتخب أستاذا أعظم فى ١٥٥٧/٨/١٧ فإنه لم يتمكن من إخراج الأتراك من هذه الجزيرة الصغيرة . تنبأ لافاليت منذ سنوات بأن العثمانية لابد وان تقوم إن عاجلا

أو آجلا بحملة كبيرة جدا على مالطة ، ومن ثم فقد استعد وجهز الجزيرة بتحصينات تفوق تحصينات رودس وسدود وأنفاق يتاه فيها وجعل منها عش صقر داخل صخور . راجع لافاليت الذى أرهقته غارات الأساطيل التركية المتكررة فى كل سنة ــ إسبانيا قائلا إن قطعة الصخرة هذه لا تستأهل كل هذه التضحية ، وأنه يجب إخلاؤها وتركها على شكل تلال صخرية ليحتلها الأتراك ، وأن يأخذواهم جزيرة كورسيكا الأفضل صيانة فى الشمال . وافق فيليب . لكن جمهورية جنوة استرحمت الملك فعدل عن قراره ، فلم يكن على لافاليت بعد هذا ، سوى الدفاع عن مالطة مهما كلفه الأمر .

يتكون الأسطول الهمايونى الذى سيقوده بيالة باشا من ١٣٠ سفينة كبيرة وسفينة حرب و ١١ كاليون (سفينة حرب شراعية) ، ٣ سفن من نوع قرة مرسل ، ٥٠ سفينة نقل . كان الذى سيقود القوات البرية التى ستنزل فى جزيرة مالطة ، الوزير ٥ اسفنديار أوغلو ــ سلطان زاده مصطفى باشا . حمل الأسطول عدا الجدافة ، ١٣٠٠٠ جندى بحرية ، ١٦٠٠٠ جندى مشاة (٤٥٠٠ انكشارى ، ٣٥٠٠ سباهى روملى ، ٨٠٠٠ سباهى أناضولى) ، ١٧٥ مدفع حصار ، ٢٠ ٠٠٠ قنطار بارود ، ٤٠ ٠٠٠ طلقة ، ١٠ ٠٠٠ معول ، ١٠ ٠٠٠ مجرف ومهمات أخرى تعادلها فى العدد .

كان مصطفى باشا ، وعمره ٧٠ سنة ، هو ابن عمة السلطان سليمان ، لايفهم الأمور البحرية ، مغرور عنيد ، لكنه كان عسكريا بطلا برتبة مشير (مارشال) . لم ينسجم مع بيالة باشا الذى يقود أسطولا يجدفه ٧٠٠٠ جداف (فورصة = أسرى مسيحيين) ولامع طرغد باشا الذى عين مستشارا له وأمره الديوان الأيحيد عن توصياته . كان لدى لافاليت ١٠٦٥٠ جنديا يعتبرون من أجود محاربى ذلك العصر فى العالم المسيحى ،كما كان يعتمد من ناحية أخرى ، على الشعب كله الذى يستتر وراء الصخور ويدافع .

وصل الأسطول الهمايونى الذى غادر استانبول بعد أن حيا قبر خير الدين باشا بمدافعه فى ١٥٦٥/٤/١ إلى مالطة فى ١٩ وأنزل فى الجزيرة ٢٠ ٠٠٠ جندى خلال ٤٨ ساعة . كان صالح باشا ــ زاده محمد بك (باشا) قد أجرى فى وقت سابق

استطلاعاً من البحر ومن المعروف أن الجزيرة بقيت تحت سيطرة العرب المسلمين خلال ٨٢٤ ــ ١١٢٧ والشعب يتكلم لغة ممزوجة بالعربية .

أدى تأخر مجيء طرغد فى ٢ حزيران بصحبة ٢٣ سفينة حربية و ٢١١٠ من مشاة البحرية (عزب) ، وحالة بيالة النفسية غير الهادئة إلى ارتكاب مصطفى باشا أخطاء تكتيكية . جرى قتال دموى رهيب . أصيب طرغد باشا فى الهجوم ٦ بشظية فى رأسه ، وجرح بصورة بالغة ، واصطبغت لحيته البيضاء بلون أحمر قانىء . جاء فى الحال كل من مصطفى باشا ، وأقرب صديق له محمد باشا ابن المرحوم صالح باشا ، وتلميذه المحبوب أولوج على بك . تلا مصطفى باشا القرآن ، ومات شهيدا بعد عدة ساعات ، كان عمره ٨٠ سنة . تقرر نقله إلى طرابلس التى خلصها أولوج على بك وطرغد من ظلم المسيحيين حيث دفن هناك وشيد له قبر فيها . يطلق على الموقع الذى استشهد فيه الباشا حاليا اسم Pointe Dragut (رأس طرغد) . كانت الطلقات التى أطلقت على قلعة مالطة خلال محاصرتها ومايماثلها من الحاجيات التذكارية ، يلتقطها السياح من الأرض ويأخذونها معهم للذكرى . يكتب الأميرال Stanley Lone-poole : « كان طرغد على مستوى بربروس من حيث إمارة البحر ، ويفوق دوريا » .

ومع أن قلعة Sant'Elmo سقطت فى ١٥٦٥/٦/٢٣ إلا أن القلعة الأصلية قاومت . كلفت هذه القلعة الأتراك ٦٠٠٠ مابين شهيد وجريح . رمى لافاليت ١٠٠٠ مسلم من الأسرى أمام الأتراك بعد أن قطعهم إربا إربا . وخلال ذلك ، كان أسطولا صليبيا مكونا من ١٠٠ قطعة قد تجمع فى صقلية بهدف إنزال قوة فى مالطة ، دون أن يهاجم سفن بيالة باشا البالغة ٢٣٦ سفينة .

شرع فى محاصرة القلعة الأصلية فى ١ تموز . مضى شهر تموز تحت أشعة الشمس المحرقة وعلى الصخور أو بداخلها ، فى قتال دموى رهيب بالنسبة للطرفين .

اعتبار من ٢ آب ، بدأ صالح باشا ــ زاده محمد بك (باشا) فى قتال الألغام (أنفاق تحت الأرض) ، وفى ٧ آب هجم مصطفى باشا بـ ٢٠٠ ٢٢ جندى دفعة واحدة . استمر هذا الهجوم ٨ ساعات . احتل محمد باشا برج Castilla . واعتقد أن القلعة قد سقطت ، لكن لافاليت ، انقذ الموقف نحو الليل . وفى الأيام ذاتها

وصلت أخبار بأن ٢٠٠ جندى مسيحى تمكنوا من التسلل من صقلية إلى مالطة وأن ذلك سوف يستمر ولايمكن منع تكرره . أبلغ حسن باشا ابن بربروس خير الدين باشا ، القائد العام بالقيام بهجوم آخر تحت قيادته هو فإن لم يوفق فإن رفع الحصار يكون أوفق ، إذ سوف لايمكن الاستمرار على القتال مالم تصل إمدادات من الجزائر واستانبول ومالم يؤخذ بعين الاعتبار قضاء الشتاء فى مالطة .

رفع الحصار فى ٨ أيلول وتحرك الأسطول الهمايونى من مالطة فى ١١ أيلول . شحت المؤن لطول فترة الحصار . قدم الأتراك ٨٠٠٠ جندى بين شهيد وجريح ومريض وأسير ، وأصبح عدد الجند الباقين غير كاف للاستمرار فى حصار يؤمل منه النجاح . تحرك حسن باشا متوجها إلى طرابلس مع أسطوله يرافقه جثمان طرغد باشا وكذلك أولوج على باشا الذى عين مكانه واليا . عاد مصطفى باشا بأسطول خفيف إلى استانبول . تجول بيالة باشا مع القوات الأساسية عدة أشهر أخرى فى البحر الأبيض وإيجه . تحسبا لاحتمال قيام المسيحيين بحركة نتيجة عدم التوفيق فى مالطة . مات كذلك فى حصار مالطة أكثر من ٨٥٠٠ جندى مسيحى ، كما قتل ٢٦٠ من فرسان مالطة من جملتهم البالغة ٥٠٠ كلهم من الأشراف وبدرجة « فارس » . جرح بيالة باشا فى ساقه فى ١٨ آب . رميت الجزيرة بـ ٨٠٠٠٠ طلقة مدفع . امتلأت كافة الأطراف بأكوام الرماد . بدأ لافاليت **La Valette** بالإنشاء مجددا . اشترك ٣٠٠٠ عامل فى بناء المدينة المسماة حاليا **La Valetta** وهى عاصمة الجزيرة بالقرب من المدينة العربية المسماة مدينة .

أبحر بيالة باشا الذى جاء إلى استانبول فى الأيام الأخيرة من سنة ١٥٦٥ ، فورا فى ١٥٦٦/٣/٢٦ . دخل ميناء ساقز بـ ٧٠ سفينة حربية (١٥٦٦/٤/١٤) . كانت جنوة تدير الميناء تحت حماية العثمانية ، لم تقاوم ، وألحقت الجزيرة كلواء بحرى وأنهى الحكم الإيطالى .

دامت قيادة القوة البحرية لبيالة باشا ، مدة ١٤ سنة ، وفى ١٥٦٨ ، أصبح وزير قبة ووزير ٢ .

(٢١) الأتراك والبرتغاليون فى البحار الهندية

كان المحيط الهندى والبحار التابعة له حتى القرن ١٦ ، بحرا إسلاميا . كانت السفن الإسلامية وعلى رأسها العربية تسير فيه محملة بالبضائع .

دخلت البرتغال ، القرن ١٦ كدولة بحرية كبرى سيطرت على الميحط الهندى وادعت أنها هى التى تجلب البضاعة الآسيوية وتوزعها من لشبونة على أوروبا ولهذا فقد استحوذت على أرصفة بحرية فى جنوب آسيا .

لعدم وجود أية دولة إسلامية تمتلك قوة بحرية كبيرة عدا العثمانية ، فقد تحير المسلمون ؛ كان البرتغاليون ينفذون فى جميع أفراد سفن المسلمين التى يقبضون عليها ، القتل بالتعذيب طويل الأمد الذى يستمر عدة أيام ، يقطعون فى كل يوم جزءا من أجسامهم ، وكانوا يهدفون من وراء ذلك منع المسلمين من الخروج إلى البحار الهندية .

كانت أوروبا فى حاجة إلى كثير من البضاعة الآسيوية وكان هذا العمل يدر الربح الكبير ؛ حيث كانت البضاعة الواردة من أى قطر آسيوى ، تباع فى أوروبا بسعر يصل إلى ٢٠ ضعفا من سعر شرائها ، وقد كانت هذه البضاعة توزعها على أوربا فيما مضى دولتا المملوكية فى مصر والعثمانية ، تبيعانها إلى الجنويين ، وهم بدورهم ينقلونها إلى الأقطار الأوروبية ، وبعد تسلط البرتغاليين على البحر الهندى ، بقى لدى العثمانيين الطريق البرى فقط الذى كانت تعترضه إيران المخاصمة ، وهكذا أصبح من الصعب جلب البضاعة من الأقطار الآسيوية النائية عن طريق البحر والاستفادة من أرباح المرور (الترانست) . وقد تأثرت التجارة البندقية والجنوية بصورة كبيرة لمصلحة البرتغاليين . وبينما كان البحر الأبيض ، مركزا للتجارة العالمية ، تكونت باكتشاف أمريكا تجارة الأطلسى .وبدأت منذ ذلك الحين تتشكل تجارة المحيط الهندى التى يسيطر عليها الأوربيون .

دعت سلطنة كجرات فى الهند أياز بك من تركية وإستخدمته فى تأسيس وحدات بحرية ومدفعية لها . إتخذ أياز بك جزيرة ديو Diu فى أقصى جنوب كجرات قاعدة له . خسر البرتغاليون أكثر من ٧٠٠٠ أسير عندما أغاروا على رجل البحر العثمانى

الذى يلقب بـ « ملك بومباى » (History of Gujarat, Bailey ، بومباى ١٨٩٦ ، ص ٣٢٢) . استشهد من العثمانيين الذين يقودهم حسين بك ، نحو ٤٠٠ ومن الكجراتيين ٦٠٠ . يبين هذا الحادث علاقة العثمانية بالمحيط الهندى قبل فتح العثمانية لمصر وهبوطها إلى البحار الهندية . عاد حسين بك من كجرات فى ١٥١١ . وعين واليا مملوكا على جدة وقائدا للأسطول . أمر السلطان سليم سلمان رئيس عندما كان فى مصر ، بأن يقتل حسين بك هذا ولانعرف سببا لذلك .

جاء حسين رئيس آخر من تركية ، وأصبح قائدا لقوات السلطان قانصوه البحرية . سار إلى صنعاء بأسطوله فى ١٥٠٧ وأعلن الحكم المملوكى فى اليمن . أرسل بايزيد الثانى بعد ذلك ، كمال رئيس إلى مصر مع ٣٠٠ مدفع و ١٥٠ عمودا لربط الأشرعة ، ٣٠٠٠ مجرفة وكميات كافية من الأشرعة ، والأخشاب ، والزفت ، والفئوس الخ . وأهدى ٨ سفن حربية إلى المماليك . أمر كمال رئيس الفنيين الذين تركهم فى مصر بصنع ٣٠ سفينة حربية فى السويس . ولأن هذه القوة سوف تقوم بحماية التجارة الإسلامية فى البحر الأحمر وخارجة فى مواجهة البرتغاليين ، فإن خدماتها سوف لا تقتصر على المماليك فحسب بل ستتعداها إلى خدمة العثمانية والعالم الإسلامى بـأسره (Relations et Commeree de l'Afrique ، Mas Latrie Septentrionale de Moyen - âge ، باريس ١٨٨٦ ، ٥٠٣ — ١٠) . أرسل بايزيد الثانى كذلك ، أحمد أوغلو آيدن رئيس الذى سيشتهر بين أمراء البحر للإخوة بربروس ، ثم حامد رئيس مع كمية كبيرة من المهمات لخدمة المملوكية وإصلاح الأسطول المصرى . وعندما أراد المماليك دفع ثمن المهمات ، رفض قائلا : إن هذه قضية الإسلام المشتركة ضد الكفرة.

عين السلطان سليم عند فتحه مصر فى ١٥١٧ ، سلمان رئيس برتبة « قبودان السويس » (وتلفظ قبطان) (قائد السويس) وكان يطلق عليه اسم « قبطان مصر ، قبطان الهند » كذلك (سيقوم بمهمته فى الدولة المملوكية ، وسوف يكون أميرالا – كبيرا عثمانيا مسئولا عن البحر الأحمر وجميع البحار المتصلة بهذا البحر) ، كانت رتبة وظيفته هذه لواء بحرى ، وكان مستقلا عن قائد القوات البحرية (قبودان دوريا) ؛ فقد كان تابعا إلى والى مصر بالنسبة للأمور المالية ورأسا إلى الديوان بالنسبة للأمور العسكرية .

وسع كل من السلطان سليم والوزير الأعظم مقبول إبراهيم باشا مصنع السفن المصرى بشكل كبير عند قدومه لإصلاح مصر ، وأمر كلاهما بإنشاء سفن حربية جديدة وجهزاها وعززا أسطول سلمان رئيس . ويجب ألا ننسى عدم إمكان إمرار السفن من البحر الأبيض إلى البحر الأحمر بسبب عدم وجود قناة . وقد كانت هذه هى مشكلة العثمانية . أراد السلطان سليم الثانى (١٥٦٦ — ٧٤) فتح القناة كما فى العهود السابقة . لكن هذا المشروع أهمل بعد ذلك .

سار سلمان رئيس فى ١٥٢٣ بحملة ، كان البرتغاليون قد احتلوا جزر كاماران المواجهة لليمن . أخرج البرتغاليين من هذه الجزر ومن البحر الأحمر . اشترك فى هذه الحملة ٤٠٠٠ جندى مشاة عثمانى بقيادة خير الدين حمزة بك .

أسس سلمان رئيس قاعدة بحرية فى جزر كاماران ، وعين لحمايتها خوجة صفر رئيس . وفى ١٥٢٧ ، أسس سلمان رئيس الحكم العثمانى فى القسم الأكبر من اليمن . حصل خلاف بينه وبين خير الدين بك ، ومات فى المبارزة التى جرت بينهما ، أحد أقدر أمراء البحر فى العثمانية ، سلمان رئيس الأكبر سنا . دعا مصطفى بك ابن أخ سلمان رئيس ، خير الدين بك إلى المبارزة وقتله فيها .

أراد سلمان رئيس أخذ عدن بـ ١٩ سفينة عليها ٢٤١ مدفعا ، لم يوفق (بجوى ، ١ ، ٨٤ ؛ تحفة الكبار ، ٢٤ — ٥) .

عين الديوان بعد وفاة سلمان رئيس ، مصطفى بك ابن أخيه بهرام بك ، واليا على لواء اليمن (سنجق بك ، لواء) ، لكن جنود المشاة العثمانيين الموجودين فى اليمن ، اعترضوا على مصطفى بك وجنوده البحريين لقتله قائدهم خير الدين بك .

استدعى الديوان بهرام بك إلى استانبول وأمر ابنه مصطفى بك بالعودة إلى القاعدة البحرية فى قره مان .

جاء مصطفى بك إلى عدن لكنه لم يتمكن من أخذها (شباط ١٥٣٠) . عين سيدى على رئيس واليا على اليمن وأصبح أحمد بك ابن سلمان رئيس معاونا له (أى أنه عين لهذا المقام شخصين بحريين) . يظهر بوضوح أن الديوان لم يكن يشغله فتح اليمن وإنما كان يشغله تسلط الأساطيل البرتغالية على البحر الأحمر .

جاء بهرام بك ــ زاده مصطفى بك ، مع مساعده خوجة صفر رئيس إلى ميناء الشحر (شيح ، شحرات) . وأعطى أمير الشحر ١٠٠ من جنود البحر ومدافع وحذره من قبول البرتغاليين بأمر خليفة روى زمين (خليفة سطح الأرض) ، وغادر المدينة فى ١٥٣٠/١٢/٢ . كان قد ترك خوجة صفر رئيس لدى بدر أمير شحر . جاء البرتغاليون فورا إلى شحر لكن صفر رئيس ردهم ، ثم غادر صفر رئيس فى ١٥٣١/٣/٤ للحاق بمصطفى بك . اجتمع سلطان كجرات بهادرشاه ، فى جامبانير بالأميرالين التركيين . وخلال تلك الأيام ، كان على رأس أسطول كجرات الذى يقوده العثمانيون فى جزيرة ديو ، ملك دوغان ابن ملك آيازبك الذى جاء من تركية .

غادر الأميرال البرتغالى Nuno da Cunha قاعدته فى Goa فى ١٥٣١/١/٦ ، ووصل ديو Diu فى ٧ شباط مع ١٩٠ سفينة حربية و ٢١٠ سفينة نقل محملة بـ ٢٦٠٦٠ جنديا ؛ ٢٦٠٠ منهم جندى برتغالى ، والبقية محليون وشرع فى قصف ميناء ديو بـ ٤٠ مدفعا ترمى قذيفة من عيار ١٢ ليبرة . دافع عن ريو ملك دوغان بك ، ومصطفى وصفر رئيس . وبعد أن ضعضعت المدافع البرية التركية الأسطول البرتغالى ، أبحر الأسطول التركى وابتعد عن الساحل وأغرق ٤٠ سفنية للعدو واستولى على ٢٠ سفينة ، وقتل ١٥٠٠ برتغالى و آلاف الهندوس الذين يخدمونهم .

أصبح مصطفى بك واليا على صورات وأميرالا على خليج كامبى . وبدلا من أن يتعاونا مع ملك دوغان أمير البحر العثمانى الذى حصل قبلهما على شهرة فى البحار الهندية وأحرز نفوذاً واسعا فى الهند ، تعاونا مع ابن أخ وابن سلمان رئيس اللذين لم يكن لديهما دهاء لأخوة بربروس ، واتفقوا وسعوا ضده وفى النهاية تسببوا فى أن يقتله الشاه ، وهكذا مات معه أمل الحصول على مجال عثمانى فى المحيط الهندى .

بعد سنوات استولى تيمور أوغلو همايون شاه وهو ابن بابور شاه ، وخلفه ، على كجرات . دخل مصطفى بك فى خدمته كقائد للمدفعية . أما شاه كجرات بهادر ، فقد أرسل خزينته بكاملها إلى الخليفة فى استانبول أى إلى السلطان سليمان لئلا تقع بيد همايون ، كما أحرق سفنه الـ ١٠٠ التى سعى أمراء البحر الأتراك فى إعدادها منذ سنوات ، خوفا من وقوعها بيد غريمه . وبطبيعة الحال سعد البرتغاليون بذلك .

سار الأميرال البرتغالى Nuno da Cunha بـ ٣٠ سفينة وتمركز فى جزيرة ديو

(١٥٣٥/١٠/٢٥).. حاول صفر رئيس إخراج العدو من ديو ، لكنه لم يكن يملك سفنا فقد أحرقت كلها ، لم يوفق . لكنه انغمس فى جهاد طويل الأمد ، إلى أن واتته المنية فى ١٥٤٦ برصاصة من بندقية برتغالية . أصبح ابنه رجب بك واليا مكان أبيه على صورات بلقب أبيه « خداوند خان » ، قتل هو الآخر فى ١٥٦٠ . كان خوجة صفر رئيس (رئيس ملاحى سلمان رئيس وولده الشرعى) ، هو الذى أوحى إلى محمود شاه ابن أخ بهادر الذى إحتل مكانه وأصبح شاها على كجرات ، بطلب المعونة من حضرة خليفة الكرة الأرضية السلطان سليمان .

(٢٢) حملة الهند لسليمان باشا (١٥٣٨)

أمر الديوان ، خادم سليمان باشا (وزير أعظم بعد ذلك) وهو برتبة وزير ومن أكبر إداريى العثمانية فى القرن ١٦ والى إيالة مصر ، بالحملة على الهند .

كان عمر سليمان باشا فى ذلك التاريخ ٧١ سنة ، لكنه كان رجل دولة مليء بالحيوية ، شديد الطبع ، إدارى ، ذكى وداهية . سار الباشا من ميناء السويس بأسطول مكون من ٧٦ قطعة (١٥٣٨/٦/١٣) ، وسوف يتحرك السلطان سليمان من استانبول بعد ٢٥ يوما بحملته الهمايونية ٨ . وكان بربروس قد سار من استانبول بالأسطول الهمايونى قبل ٦ أيام إلى بروزة .

كان على أسطول سليمان باشا ٧٠٠٠ انكشارى و ١٣٠٠٠ جندى بحرى عدا الجدافة . وكان سليمان باشا واليا على مصر منذ ١٢ سنة . اجتاز البحر الأحمر بتأن ودون عجلة وأصلح كل مايمس سلطة الدولة فى البحر الأحمر ولو كان طفيفا . جاء من السويس إلى عدن خلال ٣٤ يوما . احتل عدن فى ٢٧ تموز . شنق أمير عدن عامر الثالث (كان من عائلة طاهرى التركية الأصل) على صارى سفينته الأميرالية . اتهمه بتقديم التسهيلات للبرتغاليين وعدم إطاعته الخليفة .

كان سليمان باشا يريد إخراج البرتغاليين من جزيرة Diu . تبعد جزيرة ديو عن شمال جزيرة بومباى بمسافة ٢٥٠ كم . فتح الباشا أولا قلعتى Gokala (بندر = ميناء ترك وباللغة التركية : ترك ليمانى) و Kat . لجأ البرتغاليون إلى ديو بعد أن تكبدوا نحو ١٠٠٠ قتيل .

أنزل الأتراك جنودهم فى الجزيرة الصغيرة فى ٢٧ آب وبدأ الحصار فى ١ أيلول . كان Antonio da Sylveria يحمى القلعة . تكبد العدو خسائر جسيمة وبينا انفتحت ثغرات كبيرة فى القلعة أمر سليمان باشا رفع الحصار بعد ٢٠ يوما (٢٠ أيلول) لاعتبارات سياسية أكثر مما هى عسكرية .

وبالنسبة لكتب التاريخ الهندية المدونة فى ذلك العصر (فرشتة ، ٢ ، ٣٧٢) ، فإنها تشير إلى أن سليمان باشا كان يسعى فى الهند وراء الفتوحات أو أنه على الأقل كان يريد أخذ سلطنة كجرات ، وكانت الدولة العثمانية التى يمثلها ، دولة فتوحات .كما تشير إلى أن شنق الباشا أمير عدن ، ألقى الفزع فى قلب محمود شاه ، الذى كان قد تورط فى طلب المساعدة من الخليفة .

أما بالنسبة لكتب التاريخ العثمانية ، فقد كانت لسليمان باشا مهمتان : إنهاء مظالم البرتغاليين التى استهدفت إخراج مسلمى الهند والتى كانت شبيهة بمظالم الأسبان التى ارتكبوها تجاه العرب فى الأندلس والمغرب وكان هذا دينا فى رقبة الدولة العثمانية بحكم كونها دولة الخلافة ، وبحكم كونها أقدر دولة عسكرية ، وكونها الدولة الإسلامية الوحيدة التى تمتلك أسطولا . أما المهمة الثانية لسليمان باشا فهى إعادة فتح طرق تجارة الهند أمام البحارة المسلمين وطرق المرور للعثمانية ولمصر كقطر عثمانى ، فقد كانت مصر من أكثر الأقطار التى تضررت من توقف تجارة المرور ، ولايخفى أن ذلك كان عاملا اقتصاديا هاما منذ عهد المماليك . وقد كان استخدام المماليك للبحارة الأتراك باستمرار ، بغرض دفع هذه الأزمة أو تقليلها .

من ناحية أخرى ، كان من الواضح أنه لايعنى محمود شاه كجراتى ــ الذى يتعاون مع البرتغاليين ــ أن يسيطر البرتغاليون على المحيط الهندى أو أن يتسلطوا عليه ، وإنما كان الذى يعنيه فى المقام الأول هو شئونه الداخلية ، ومن هنا فإن افتراض اتفاقه مع البرتغاليين لإزاحة العثمانية يعتبر أكيدا ومن المعلوم عنه أنه تظاهر بأنه تمكن من الحصول على رسالة محررة باللغة البرتغالية ــ وطبعا مزورة ــ تقول إن إسطولا برتغاليا مكونا من ٣٠٠ قطعة على وشك الوصول إلى ديو ، وعرض هذه الرسالة على الباشا وأقنع الباشا الذى لايعرف القطر بصورة جيدة بما جاء

فيها ، كما وأن الوحدات الكجراتية المساعدة ، كانت تتظاهر بمساعدة الجيش العثمانى ، بينما تخلق اضطرابات عديدة . ومن المعروف كذلك أن الشاه أقنع بعض ضباط العثمانية بترك خدمتهم بإعطائهم رواتب توازى رواتب الوزراء الذين يتقاضونها فى تركيا .

كان بابورشاه قد فتح الهند قبل ١٢ سنة بواسطة ١٣٥٠٠ جندى تركى وسرية مدفعية عثمانية واحدة ، وقد أدهش ذلك كافة الحكام المسلمين والهندوس الموجودين فى الهند . ظن محمود شاه الذى شاهد مدافع سليمان باشا المخيفة وآلاف الخيالة ، أنه بعد أخذه ديو سينقض عليه ويدخل أحمد آباد ، وطبعا فإن المعلومات التى تمكننا من الإجابة على ما الذى كان سيعمله الباشا لو احتل ديو ، غير متوفرة لدينا .

وقد أدرك الباشا الخيانة ، ولكنه لم يلجأ إلى معاقبة الشاه ؛ حيث كان الشاه صاحب دوله إسلامية ، كان هجومه على حاكم دولة إسلامية قبل إنهائه قضية البرتغاليين ، مخالفا للأوامر التى تسلمها من الديوان ، لذلك فقد أعطى الباشا أمر العودة ، لكنه قدم لصفر رئيس الضابط البحرى العثمانى المستخدم لدى دولة كجرات مهمات ومدافع بأحجام لم تسبق مشاهدتها . والمشهور عن أكبر شاه حفيد بابور شاه وابن همايون شاه (الذى كان يحكم البلاد أثناء حملة الباشا) أنه عندما فتح كجرات بعد سنوات طويلة ، شاهد هذه المدافع المدون عليها اسم السلطان سليمان وأخذها معه .

مكث سليمان باشا فى موانىء الشحر ، عدن ومخا بعد أن تجول فى سواحل عمان وحضرموت وأخضعها للعثمانية . أرسل المدافع والبنادق إلى مسلمى أريترة والصومال ضد البرتغاليين وحليفتهم ملكية الحبشة . وعين والى (برتبة لواء « سنجق بك ») لواء غزة مصطفى بك واليا (برتبة فريق أول « بكلربك ») على أيالة اليمن على أن يكون المركز زبيد (مصطفى بك هو ابن بييقلى محمد باشا الذى فتح جنوب غربى الأناضول ودياربكر من الصفويين) ، وترك له قوات مهمة .

وهكذا تأسست أيالة عثمانية جديدة ، وقد كانت إدارة اليمن حتى ذلك الحين كلواء (سنجق) .

وأعلن الإمام الزيدى الموجود فى الأقسام الداخلية خضوعه .

رسى سليمان باشا فى جده(١٥٣٩/٣/١٣) ، وذهب إلى مكة وحج ، ونظم الحجاز على أساس النظام العثمانى . استبقى الأسطول فى السويس وجاء إلى القاهرة . أمر الديوان بقدومه إلى استانبول وتقديم تقرير تفصيلى بنفسه عن حملة الهند التى استغرقت سنة كاملة .

أراد بعض الوزراء فى الديوان إجراء تحقيق بشأن الحملة ، لكن الديوان قرر فى النهاية بأصوات الأكثرية ، أن الباشا حقق حملة ناجحة ومفيدة (بجوى ، ١٢ ، ٢٢٥) . تقرير الباشا حول حملة الهند موجود فى أرشيف سراى طوبقابو ، رقم E ٩٦٦٣ .

نقل سليمان باشا إلى الديوان كوزير قبة وأصبح بعد فترة قصيرة وزيرا أعظم . تم توسيع شبكة الاستخبارات العثمانية فى الهند بعد حملته ، قد يكون من المفيد أن نقول إن سليمان باشا إدارى ووالٍ قدير جدا ، لكنه ليس على تلك الدرجة فى السياسة الخارجية والعسكرية .

(٢٣) فتوحات السودان والحبشة لأزدمير باشا

لم تكن أرباح البرتغال التى حصلت عليها من تجارة الهند ، بأقل من أرباح الأسبان من مناجم الفضة الأمريكية . ورغم ذلك ، لم ينج الأسبان والبرتغاليون من أزمات اقتصادية لعدم حسن استخدام الأموال وإسرافهم فى حياتهم فى أوطانهم الأصلية . وعلى سبيل المثال ، كان لأكبر حاكم مسيحى كشارل — كوينت ديون باهظه فى الداخل والخارج . وعدا أن شيئا من هذا القبيل ، لم يكن وارداً بالنسبة للدولة العثمانية ، فإنها كانت أصلا قد أسست اقتصادا مكتفيا بذاته ، وكانت تقوم بتجارتها الرائجة لغرض غنائها ورفاهتها .

كانت ديون شارل — كوينت فى سنة ١٥٥١ ، تقدر بالسعر الحالى ، بما يزيد على ٣ مليارات دولار (Meizig ، ٥٦ ، ٦١ ، ٦٥ ، ٨٠ — ١) .

لم تتمكن البرتغال — رغم آمالها الواسعة — من تأسيس إمبراطورية مستعمرات

فى القارة الهندية . لكنها تمكنت بواسطة قواعدها البحرية من السيطرة على تجارة المحيط الهندى ، وقد كان نجاحها الاستعمارى أكبر فى أندونيزيا وخاصة فى شرقى أفريقيا ، إذ لم تكن فى هذه المناطق دول منظمة عسكريا لتقف حيالها . وعدا أن العثمانية تمكنت بقدر ماسمحت لها الظروف ، من الدفاع عن شرقى أفريقيا وغربى أندونيزيا تجاه البرتغال ، كما فتحت جبهة كبيرة جدا فى شمال غربى أفريقيا فى فاس ، فإنها حطمت فى النهاية تلك الدولة البحرية الاستعمارية المقتدرة .

كان أوزدمير بك قد اشترك كلواء فى حملة سليمان باشا على الهند . وهو أصلاً من بكات المماليك أى من أتراك مصر ، وكان مستشارا خاصا لسليمان باشا مختصا بالأمور الأفريقية (وخاصة الحبشة وجنوب البلاد العربية) . خدم أوزدمير بك ، الذى انتسب إلى الجيش العثمانى فى ١٥١٧ عندما كان برتبة نقيب (يوزباشى) ، فى أيالة مصر بصورة مستمرة .

كانت الخدمة الأخيرة التى قدمها سليمان باشا عند ذهابه إلى استانبول وقبيل مغادرته النهائية للقاهرة ، هى إرساله أوزدمير بك بأسطول إلى النيل بغرض الكشف . خرج أوزدمير بك الذى نزل إلى النوبة ، إلى البحر الأحمر فى سواكن ، وبذلك جذب انتباه الديوان الذى أمَر بتقديم كافة التسهيلات والدعم لولاة مصر الذين تلوه لتحقيق حملات مشابهة لحملات أوزدمير بك .

تمكن أوزدمير بك على مر الزمن من أخذ كامل أريترة ، القسم الأكبر من الصومال واستقطع قسما من الحبشة الأصلية وربطه بأيالة مصر . لكن الديوان الذى ارتأى صعوبة إدارة هذه الأقطار النائية ، من القاهرة ، أسس أيالة الحبشة (حبش) وعين أوزدمير باشا واليا عليها . إن ملكية هرر ، أهم دولة إسلامية فى الحبشة وحاكمها إبراهيم أوغلو أحمد غران (١٥٠٦ ــ ١٥٤٣) كانت تحت نفوذ العثمانية . كان يهدف الديوان إلى دفع ملكية الحبشة الأرثوذكسية ــ اليعقوبية أى المسيحية ــ على مر الزمن ــ إلى أنجاد الحبشة ، وإبعادها عن البحار بصورة مطلقة ، وقطع علاقتها مع البرتغاليين التى تتعاون معهم .

وتجاه ذلك ، كان البرتغاليون يقدمون إلى David الثانى (١٥٠٨ ــ

١٥٤٠) ملك الحبشة مساعدات كبيرة لئلا يبتلعها المسلمون . وهكذا فإن مجالا كأنجاد الحبشة يصعب أن يخطر على البال ، أصبح أحد المراكز الحساسة للنزاع العثمانى ــ البرتغالى الاستراتيجى .

تسلم ملك الحبشة الجديد Glâvdêdos (Claudiius) (١٥٤٠ ــ ١٥٥٩) ، فى ١٥٤١ المدافع والبنادق المرسلة من لشبونة وهى أول مرة يمتلك فيها سلاح . انهزم أحمد غران الذى يحتوى جيشه على ٢٠ ضابطاً من الفرسان العثمانيين وعدة ضباط مدفعيين عثمانيين ، واضطر إلى ترك قطعة كبيرة من الأراضى . وعلى أثر ذلك ، أرسل والى اليمن محمد باشا ــ زاده مصطفى باشا ، إلى أحمد غران ١٠ مدافع و ٩٠٠ جندى عثمانى حملة بنادق . تمكن أحمد غران بهذه القوات من كسر الجيش الحبشى المسيحى الذى يحوى ٤٥٠ جنديا برتغاليا بقيادة Don Christopher بصورة شديدة فى معركة Afla الميدانية ، أسر Don Christopher da Gama (آب ١٥٤٢) . أرسل رأس الجنرال البرتغالى ، إلى مصطفى باشا فى زبيد أدت هذه الحرب الميدانية إلى تقوية النفوذ العثمانى فى الحبشة بشكل واسع . لكن أحمد غران استشهد فى إحدى الغارات المسيحية (١٥٤٣/٢/٢١) . خلفه أمير عباس .

حاول الأسطول البرتغالى أخذ عدن . أباد والى لواء عدن عبد الرحمن بك ، الأسطول البرتغالى وأسر الأميرال Don Marco وأرسله إلى استانبول . وعندما شرع أسطول تركى مكون من ٤٥ سفينة حربية من التجول فى البحر الأحمر ، خليج عدن وبحر عمان بصورة مستمرة ، أدرك البرتغاليون عدم إمكان اجتيازهم باب المندب . فتح أوزدمير باشا بعد ذلك أرضا واسعة من أراضى الأحباش المسيحيين . وخضعت للعثمانية دول محلية كثيرة فى السودان ، كانت أكثرها وثنية فى ذلك العهد . بدأت بدفع ضريبة سنوية لوالى الحبشة .

ولى أويس باشا اليمن بعد مصطفى باشا ، (وهو ابن السلطان سليم من جارية ملك يمين) . احتل قلعة تعز التى كانت بحوزة الزيديين (١٥٤٦/٢/١٢) . ثم سار أوزدمير باشا إلى الإمام الزيدى . وبعد مقاومة استمرت ٦ أيام ، احتل صنعاء . انتقل مركز الإيالة من زبيد إلى صنعاء . استدعى الديوان أوزدمير باشا بعد ذلك إلى استانبول . أصبح المستشار السرى للسلطان سليمان لشئون أفريقيا

وبقي سنوات عديدة دون أن يكلف بواجب رسمي . أرسل إلى الحبشة مرة أخرى . جاء إلى عاصمتها مصوع . توفى فيها فى ١٥٦٢ وعمره ٦٢ . ابنه الوزير الأعظم أوزدمير أوغلو عثمان باشا .

(٢٤) حملة بيرى رئيس (١٥٥٢)

محيى الدين بيرى رئيس ، من عائلة قرة مانية (قونية) ، ولد فى غاليبولى كعمه كمال رئيس (كمال الدين بك) ، لم يبق فى البحر الأبيض ساحل أو جزيرة أو ميناء أو صخرة لم يشاهدها ، رسم خرائطها كلها ، وبعد وفاة عمه ، عمل لدى أوروج رئيس ومن ثم لدى خير الدين باشا . وفى ١٥٠٠ أصبح قبطانا (عقيد بحرى) وهو شاب . اجتمع بالسلطان سليم بعد بايزيد الثانى . حرر وخطط كتابه المشهور المسمى « كتاب بحرية ودنيا خريطة سى » وقدمه إليه . شغل وظيفة قبطان (عقيد بحرى ربان سفينة) لسفينة الأميرالية التى ركبها الوزير الأعظم داماد إبراهيم باشا خلال تفتيشه مصر وأصبح مستشارا خلال إصلاحاته فى مصر والتى دامت سنة واحدة . وفى ١٥٤٧ ، عين لقيادة أسطول الهند بدلا من صولاق فرهاد بك وجاء إلى السويس . كان البرتغاليون قد احتلوا عدن . استرجعها بيرى رئيس (٢٦/٢/ ١٥٤٨) . جاء إلى مسقط مع ٣١ قطعة من السفن (٢٤ منها سفينة حرب) . كان البرتغاليون قد احتلوها كذلك . أسر الحامية البرتغالية فى مسقط التى قاومت ١٨ يوما مع الجنرال Zoao delisboa . جاء إلى شحر وحذر شيوخ حضرموت من مغبة خروجهم على تعليمات خليفة الكرة الأرضية ، وأوصاهم بعدم استقبال البرتغاليين ، وتنفيذ ماكلفوا به . جاء إلى قلعة هرمز التى فى حوزة البرتغاليين ، بعد أن احتل جزيرة كشم الموجودة فى ضفة لارستان فى إيران . حاصرها بشدة . لم يتمكن من أخذها . دخل ميناء إيران الذى سمى بعد ذلك باسم بندر عباس وقام بعرض فيه ولام المسلمين الذين يتعاونون مع البرتغاليين . زار إمارات عمان ، قطر وبحرين وحصل على اعتراف منهم بتابعيتهم للعثمانية . كان اعتبار العثمانية متبوعا فى هذه المناطق ، يعتبر اسميا فقط . دخل ميناء البصرة . أودع سفنه فى البصرة لإصلاحها وعاد إلى السويس تصاحبه ٣ سفن حربية . أبلغ كباد باشا (الذى يحكم مناطق جنوب العراق ، الكويت ، لحساء ، شمر ونجد كوال (بكلربك ، أمير

الأمراء ، فريق أول على البصرة) ، الديوان الهمايونى بأمر إيداع السفن فى البصرة لإصلاحها ، بصورة يدين بها بيرى رئيس . رفض وزراء الديوان الذين يجهلون المياه الهندية ، دفاع بيرى رئيس المتمثل فى أنه كان من الخطر إعادة السفن قبل إصلاحها . وحكموا عليه بالإعدام . استدعى الأميرال وعمره ٨٠ سنة من السويس إلى القاهرة وأعدم . وهذا من أسوأ أحداث عهد القانونى .

كانت مسقط بحوزة البرتغاليين منذ ١٥٠٦ . وفى السنة التالية لفتح بيرى رئيس لها ، استولى عليها البرتغاليون . وفى ١٥٨٠ فتحها على بك مجددا . عاد واحتلها البرتغاليون ، ثم أخرجوا من مسقط بصورة نهائية فى ١٦٥٠/١/٢٣ .

(٢٥) حملة مراد رئيس (١٥٥٢ ــ ٥٣)

عين والى قطيف اللواء البحرى مراد رئيس (ك١/١٥٥٢) ، لقيادة الهند مكان بيرى رئيس . جاء إلى البصرة . ترك فى قاعدة بصرة البحرية ٨ سفن من الأسطول الذى استبقاه بيرى رئيس ، وسار بـ ١٨ سفينة حربية وخرج إلى بحر عمان . هاجم أسطول البرتغال المكون من ٢٥ سفينة حربية . لم يتمكن أى من الطرفين من التغلب على الآخر . غرقت عدة سفن برتغالية وسفينتى سلمان رئيس ورجب رئيس . استشهد كلاهما . ارتأى مراد رئيس خطورة الذهاب إلى السويس بسبب العطب الذى أصاب سفينته وعاد إلى البصرة . عزل وعين مكانه سيدى على رئيس (١٥٥٣/١٢/٦) . تعتبر حرب مضيق هرمز ، من أشد الحروب الدموية التى جرت فى البحار المفتوحة بين العثمانيين والبرتغاليين . جرت فى صيف محرق شديد الحرارة .

(٢٦) قيادة الهند لسيدى على رئيس (١٥٥٣ ــ ٥٧)

ومع أن سيدى على رئيس من مواليد استانبول ، إلا أن عائلته من سينوب . وسواء جده أو أبوه ، كانا مستشارين بحريين (ترسانة كتخداسى) فى مصنع السفن . اشترك فى فتح رودس فى شبابه (١٥٢٢) ، ودخل ضمن أمراء البحر المعتمدين لدى بربروس . كان أميرال الجناح الأيسر فى بروزة . كان مساعدا لطرغد

رئيس فى فتح طرابلس عين مستشارا بحريا فى مصنع السفن ، ثم أصبح مستشارا خاصا للسلطان سليمان للشئون البحرية . كلفه السلطان سليمان بقيادة الهند أثناء وجوده فى حلب . وافق (١٥٥٣/١٢/٦) وجاء من حلب إلى البصرة عن طريق بغداد (١٥٥٤/٢/٣) . غادر البصرة مع ١٥ سفينة حرب (١٥٥٤/٧/٢) . جاء إلى بندر بوشير وقطيف والبحرين . قطعت ٢٥ سفينة حرب برتغالية طريقه فى مضيق هرمز (١٥٥٤/٨/٩) ،. ابتعد العدو عن الأسطول العثمانى عند غرق سفينة برتغالية . أخذ الإمدادات وعاد إلى مياه مسقط وجابه سيدى على رئيس مجددا (١٥٥٤/٨/٢٥) . كانت حرارة الجو مخيفة (Von Hammer ، ٦ ، ١٨٦) . كان Don Fernan do ابن نائب الملك Alfonsa de Noronha قائدا للبرتغاليين . استمرت الحرب مدة ١٨ ساعة بدون توقف بالقرب من الساحل والسفن جنبا لجنب وبشكل دموى لايمكن تصوره . غرقت ٧ سفن تركية و ٦ برتغالية . لم يعد للجدافة القدرة على سحب المجاديف ولا للمدفعيين على إشعال نار المدفع . ابتعد الأسطولان أحدهما عن الآخر .

استمر سيدى على رئيس فى طريقه بـ ١١ سفينة . فاجأته فى سواحل حضرموت عاصفة تسمى « طوفان الفيل » أدار الدفة نحو الشرق . تمكن بصعوبة كبيرة من الوصول إلى كجرات بسفنه التى تفككت خشبات أرضيتها ، ٣ من سفنه اصطدمت بالأرض ، و٨ سفن كانت فى حالة تحتاج معها إلى إصلاح طويل الأمد . كانوا قد رموا كافة المهمات الثقيلة فى البحر لإنقاذ السفن من الغرق .

ألقى سوء الأحوال الجوية بالأسطول التركى على مسافة بعيدة من ميناء Demen (Damao) جنوب ميناء صورات وعلى مسافة ١٦٠ كم عن شمال بومباى . أهدى سفينتين حربيتين إلى والى Demen العثمانى الأصل ملك أسد ودخل صورات (Seret) بـ ٦ سفن (١٥٥٤/٨/٣٠) . أهدى سفنه هذه ومدافعها إلى والى صورات العثمانى خداوند خان . ولأجل إمكان استعمالها ، ترك معظم طاقمها فى الهند . غادر مع نحو ٥٠ من جنوده الذين لم يرغبوا فى البقاء فى الهند . شكر سلطان كجرات أحمد شاه الثانى (١٥٥٣ ـــ ١٥٦١) ، سيدى على رئيس على مساعدته العسكرية التى قدمها وأعلمه بتابعيته السلطان .

جاء سيدى على رئيس وجنوده إلى دلهى . استقبل تيمور أوغلو همايون شاه (وهو ابن بابور فاتح الهند) الأميرال العثمانى بترحيب منقطع النظير وبشكل لم يكن يتوقعه أبدا ؛ حيث إن بنى عثمان وبنى تيمور وكلاهما سنى ـــ حنفى لايحب أحدهما الآخر أبدا . لم يغفر العثمانيون حتى فى القرن ٢٠ ، لتيمور استيلاءه المفجع على الأناضول وسفكه دماء الأخوه . بينما كان سيدى على رئيس ، ينتظر البلاء من التيموريين بسبب تقديمه إلى شاهات كجرات أعداء التيموريين والذين يتظاهرون بتبعيتهم للعثمانية ، مساعدة عسكرية وإعطائه لهم المدافع والسفن والجنود ، لم يأخذ عليه ذلك التصرف همايون المثقف جدا مثل أبيه والشاعر باللغة التركية . أصبح مستشارا خاصا لهمايون . لكن همايون سقط من السلم الذى صعد عليه لإحضار كتاب من الرفوف العليا من مكتبته ومات بسبب النزيف الدماغى وعمره ٤٨ سنة . كان ابنه أكبر شاه طفلا . لم يبد أمراء الأتراك الذين وضعوا اليد على الدولة باسمه ، نفس الترحيب بالعثمانيين ، وتساءلوا عن سبب وجودهم فى الهند . لكنهم لم يزيدوا على ذلك بسبب قبول الحاكم السابق لهم . غادر الأميرال العثمانى وجنوده البحريون الذين استثقل وجودهم حاكم الدولة قره قويونلو (أصحاب الخرفان السود) بإيرام خان (وهو شاعر مهم فى اللغة التركية) ، دلهى فى سياحة سوف تستغرق ١٥ شهرا .

خرجوا من الأراضى التيمورية على طريق سند ـــ ملتان ـــ بشاور ـــ خيبر ـــ كابل وانتقلوا إلى أراضى تركستان لبنى جنكيز ، واتبعوا طريق سمرقند ـــ بخارى ـــ حيوه لكنهم لم يتبعوا طريق الشمال واستداروا إلى الجنوب ودخلوا أراضى عدو العثمانية اللدود الشيعى الصفوى . ومن خلال هذه المصاعب تمكنوا من التوصل إلى الأراضى العثمانية فى العراق وألقوا بأنفسهم فى بغداد . ذهب سيدى على رئيس إلى قصره المشهور فى غلطة فى استانبول (١٥٥٧/٥/١) . لكن السلطان سليمان كان فى أدرنة . دعى السلطان ، المعروف بهوايته للأمور البحرية ومحبته للبحارة ، سيدى على رئيس فى سراى أدرنة لزيارته الخاصة واجتمع به لعدة ليال ، وأمر بمنحه رواتبه المتراكمة وأمره بكتابة مذكرات سياحته .

كان سيدى على رئيس ، أحد أكبر شخصيات تاريخ العلوم المثبتة فى القرن ١٦ ، وله مؤلفات قيمة فى الجغرافية ، والرياضيات والفلك وفضلا عن ذلك فإنه شاعر .

اشترك فى حرب جربة عام ١٥٦٠ . توفى بقصره الكائن فى غلطة فى استانبول وعمره ٦٥ سنة (ك١٥٦٣/٢) ، وكان قد مضى عند وفاته ٣ سنين على حرب جربة و٦ سنين على عودته من الهند .

وخلال وجود سيدى على رئيس فى الهند ، عين لقيادة الهند قورد أوغلو خضر رئيس (ك ١٥٥٤/١) . بقى ١٥ سنة فى مقامه هذا . وعندما أرسل لحملة أندونيزيا فى ١٥٦٩ ، عين مكانه محمود رئيس . ثم جاء سنان رئيس إلى هذا المقام وانتصر على الأسطول البرتغالى فى المحيط الهندى فى ١٥٧٧ .

وباختصار يمكننا أن نقول ، إن إمبراطورية كجرات ، كانت دولة إسلامية فى دور اضمحلالها . كانت بالضبط كالدولة المملوكية (مصر) فى عهدها الأخير ، كانت قواتها البحرية والمدفعية وحتى ولاية إيالاتها قد انتقلت لإدارة الضباط العثمانيين .

لم يتمكن الديوان الهمايونى من الاستفاده من هذه الميزة ويحكم كجرات . ولو كان قد تمكن من ذلك ، لحل مشكلة البرتغال من أساسها ولأمكنه تكرار السياسة الموفقة التى اتبعها فى المغرب تجاه الأسبان والتى تكللت بالنجاح على الرغم من شدة قرب المسافة بين المغرب وإسبانيا .

أما بالنسبة للهند فقد كان هناك بحر كبير بين الأراضى العثمانية والهند ، ولكن كان يوجد بين البرتغال والهند محيطان . وعندما قوض تيمور أوغلو أكبر شاه ، دولة كجرات فى ١٥٧٢ وألحقها كأيالة ، لم يبق للعثمانية مجال فى تلك الأراضى . إن محاربة بنى تيمور الذين يحكمون الدولة ٣ فى العالم بعد تركية وإيران ، لم تكن مطروحة ، ولو كانت ، لكان من المحتمل أن تخرج العثمانية من تلك الحرب وهى مغلوبة .

وفى أواخر القرن استلفت الأنظار تحركات والى عدن اللواء البحرى على بك . ذهب إلى مسقط وطرد البرتغاليين منها . ثم جاء بأسطوله إلى كينيا ورسا فى ميناء مالیندى Malindis (١٥٨٤) . استقبل المحليون وخاصة الأقلية العرب والسواحليون والهجناء العرب — الزنوج الموجودين فيها ، العثمانيين بحفاوة بالغة . أسس على ، منهم وحدة عسكرية . احتل جزيرة لاموفى الشمال ، وميناء مومباسا

فى الجنوب والساحل الذى ينحصر بينهما ، وألحقها بالحكم العثمانى . كانت هذه المناطق حتى موزمبيق فى الجنوب قد اعترفت بالسلطان سليم متبوعا لها ، من قبل أسرة شيرازى المحلية . (هذا يعنى أن العثمانية لم تكن تجهل هذه الأراضى) . كافحت القوات العربية التى شكلها على بك بنجاح وتمكن البرتغاليون من أخذ ماليندى فقط .

وفى ١٥٨٩ ، جاء على بك ثانية مع ٤ سفن حربية وسفن نقل كثيرة . دخل مومباسا . أرسل نائب الملك البرتغالى فى Goa — وهو أكبر موظف برتغالى فى المحيط الهندى — أخاه (Don Thome) (de Souza Countinho) ، بأسطول للحملة على على بك . أُسر على بك وأُرسل إلى لشبونة . فر جنود البحرية الأتراك إلى المناطق الداخلية من تنجانيقا . ظفر بهم زنوج Zimbas الذين دمروا أفريقيا وأكلوهم بعد شيهم فى النار . وهكذا فشلت عملية إخراج البرتغاليين من سواحل تنجانيقا وموزمبيق . لكن الشيرازيين سيطروا على مناطق من هذه البلاد هنا وهناك واستمروا تابعين للعثمانية . وخلال هذه الأيام كان رمضان باشا فى فاس ، قد أفنى الجيش ، والأسطول ، والملك ورجال الدولة البرتغالية وقوض دولتها . ولو أن الديوان أرسل أسطولا أكبر إلى المحيط الهندى ، لكان من الممكن إخراج البرتغاليين من شرق أفريقيا وانتشار المسلمين بوضع أفضل من الوضع الحالى والحيلولة دون دخول الدين المسيحى .

كانت فتوحات أوزدمير باشا التى حققها فى السودان والحبشة خلال ٥ سنوات ، عظيمة .

كان تحت إمرته ٣٠٠٠٠ جندى ؛ ١٠٠٠ منهم انكشارية حملة بنادق جلبوا من استانبول و ٦٠٠٠ متطوعين جمعوا من أتراك مصر والأكثرية الباقية هم أبناء جنود الدولة المملوكية السابقة . اكتشفت مناطق لم تطأها قدم أجنبى حتى ذلك التاريخ . تجول فى الأراضى المنحصرة بين الشلالات ١ ً و ٦ ً . تأسس الحكم العثمانى على ضفتى النهر وتأسس نظام الحماية العثمانية فى المناطق الداخلية . تأسست حاميات فى جميع الأماكن ، وكان الضباط من الأتراك فقط والأفراد من السكان المحليين . فتحت أريتره والصومال وأدخلت قطعة ليست صغيرة من المناطق الداخلية للحبشة تحت الحماية . توفى أوزدمير باشا فى مدينة بندية التى

اتخذها قاعدة له بعد إصابته بمرض استوائى . دفن جثمانه فى القبر الفحم الذى شيده ابنه في مصوع . وعين مكانه ابنه عثمان بك وعمره ٣٤ سنة بلقب بكلربك (أمير أمراء والى) الحبش عثمان باشا (١٥٦٠) . ولحين استدعائه إلى استانبول (١٥٦٧/٨/٢٢) ، وسع مجال فتوحات أبيه . نشر الدين الإسلامى ، والمساجد وأدخل النظام العثمانى وعناصر المدنية والثقافة التى لم تشهدها تلك الأقطار أبدا .

(٢٧) الحملة الهمايونية ٦ : حملة إيران ١ (١٥٣٣ - ٣٥)

جمدت ضربة جالدران ، الإمبراطورية الإيرانيه الصفوية التركية وهى الإمبراطورية الثانية فى العالم بعد تركية وجعلتها دون حراك لمدة ١٩ سنة حتى عام ١٥٣٣ .

تنازعت خلال هذه المدة إيران مع خاقانية تركستان الشرق .

وفى ١٥٣٣ ، كانت قد مضت ٩ سنوات على وفاة الشاه إسماعيل وأدرك ابنه الشاه طحمسب الـ ١٩ من عمره . أصبح طحمسب بالنسبة للسلطان سليمان ، أكبر منافس وعدو بعد شارل - كوينت . كان القانونى يكبر شارل - كوينت بـ ٥ سنوات وطحمسب بـ ١٩ سنة .

كان يتحتم على الدولة العثمانية التى تسيطر على شمال العراق ، لكى تصون اعتبارها ، أن تنزل إلى خليج البصرة وتسيطر على بغداد . ومن ناحية أخرى ، لم تكن إيران الصفوية قد تركت بعد أطماعها فى مناطق عديدة من شرقى الأناضول . كانت تحتفظ بـ « وان » ، وكانت تغرى خان بتليس التابع للعثمانية ، باتباع الشاه (١٥٣٢/٩/٢١) .

إزاء هذا الوضع ، سار الوزير الأعظم داماد مقبول إبراهيم باشا ، إلى إيران (١٥٣٣/١٠/٢١) . قضى الشتاء فى حلب . ثم جاء إلى مدينة عامد (دياربكر) (١٥٣٤/٥/١٤) حيث بقى فيها شهرا واحدا . أخذ من إيران كل من أخلاطه وعادل جواز ، وأرجش ثم وان (١٥٣٤/٦/٢٣) ، وأخرج الصفويين من منطقة بحيرة وان ، وكذلك احتل فى شمال شرقى أرضروم مناطق تبارا من باسينلر إلى

أولطو ، وكذلك أخذت بايزيد (ولاية آغرى الحالية) من الصفويين .. وبذلك تكونت حدود تركية الشرقية .

أما السلطان سليمان ، فقد سار من استانبول (١٥٣٤/٦/١١) للانضمام إلى قوات الوزير الأعظم . وهذه هى حملته الهمايونية ٦ التى تشكل حملة إيران الأولى ، وتشتهر فى التاريخ العثمانى باسم حملة « العراقين » (العراق العربى والعراق العجمى) ، وهى أشهر حملة همايونية للسلطان سليمان ، ذلك أن حملة موهاج ٣ أكسبته لقب فاتح المجر ، وأكسبته هذه الحملة لقب فاتح بغداد . ترك أولو شهزاده (ولى العهد) مصطفى ، كمحافظ للعرش (نائب السلطنة) فى استانبول .

دخل إبراهيم باشا إلى تبريز (١٥٣٤/٧/١٣) مدينة عرش إيران السابقة . لم يمس أحد بسوء . عين أولاما باشا ، واليا على تبريز (جنوب آذربيجان) . كان قد مضى على فتح ياوز لتبريز ١٩ سنة و١٠ أشهر و٧ أيام أعلن دوباج إسحاقى أمير كيلان (رشت) خروجه عن تبعيته للصفوية وإقراره بالتبعية العثمانية (١٥٣٤/٨/٢١) . دخل أيضا الشيروانشاهيون الموجودون فى شمال آذربيجان إلى التبعية العثمانية . ولم تعد تبريز حينذاك مدينة العرش لإيران . كانت مدينة العرش قد تحولت قبل عدة سنوات إلى قزوين فى الداخل . كانت تبريز قريبة إلى الحدود التركية ولم يكن بالإمكان الدفاع عنها تجاه العثمانية .

خلال ذلك ، تم أخذ حكارى والأراضى التى تشكل حاليا أرمنستان السوفيتية . جاء القانونى السلطان سليمان خان الثانى ، خلال جريان هذه الأحداث ، إلى قونية وقبل حاشية ستار ضريح مولانا (١٥٣٤/٧/٢٠) . وإبان وجود البادشاه فى قيصرى ، كان بربروس خير الدين باشا يغادر استانبول (١٥٣٤/٨/١) لفتح مدينة تونس . وفى ٢٠ آب ، عرض شيروانشاه تبعيته للبادشاه الذى كان فى أرزنجان . جاء البادشاه إلى تبريز فى ٢٨ أيلول . فقدت المدينة التى كانت وقت أن فتحها ياوز ، إحدى أكبر وألمع المدن فى العالم ، إعمارها وأهميتها السابقة . التقى البادشاه والوزير الأعظم فى ٢٩ أيلول فى هضبة أوجان .

سار الجيشان بعد التآمهما فى ٥ ت١ تحت قيادة البادشاه متحركا من هضبة

أوجان . وصل سلطانية فى طريق تبريز – قزوين فى ١٣ ت١ . صدر أمر عودة أمير كيلان إلى رشت . كان السلطان سليمان يتلكأ ويقوم بالتحريات للعثور على الجيش الصفوى . أما الشاه فقد كان عازما بصورة أكيدة على عدم الخروج والتورط فى حرب ميدانية لئلا تصيبه العاقبة التى أصابت أباه فى جالدران . لم يتمكن السلطان سليمان من إغراء وإجبار شارل – كوينت أو طحمسب لدخول حرب ميدانية . أسس البادشاه أيالة أرضروم على أن تشمل شمال شرقى الأناضول وعين لإدارتها دلقادر أوغلو محمد خان (باشا) الذى كان أبوه ابن خال السلطان سليم . جاء الجيش الهمايونى إلى همدان (٢٩ ت١) وهى مركز العراق العجمى . كانت العراق مقر عرش السلاجقة . كانت تلك المناطق مسكونة بالأتراك أيضا كما هو الحال الآن .

عندما اتضح أن الجيش الهمايونى سائر إلى بغداد أدرك تكه لو (من أنطالية) محمد خان توركمن والى بغداد الصفوى تعذر مقاومة المدينة أمام العثمانية ، فأخلى المدينة .

دخل السلطان سليمان مدينة الخلفاء بغداد (١٥٣٤/١١/٢٨) .

قال الشاعر التركى الكبير فضولى البغدادى الذى يعيش فى هذه المدينة المصراع التالى باللغة التركية ، والذى معناه : « جاء البادشاه الشهير إلى برج الأولياء » ، ويشير به الشاعر إلى تاريخ (٩٤١) وهو مصراع من قصيدته الشهيرة ذات الـ ٧٠ بيتاً التى استقبل بها السلطان مهدياً له إياها . ذهب البادشاه فى الحال إلى مرقد الإمام الأعظم أبى حنيفة وزاره وأمر بإعمار الأعظمية . وفى هذه الأيام ذاتها انتقلت مدينتى الشيعة المقدستين (كربلاء والنجف) لحوزة العثمانيين . واعتنى بهما كذلك لكونهما مقدستين لدى السنة أيضاً .

ظل البادشاه فى بغداد مدة ٤ أشهر ، ويوم واحد وغادرها (١٥٣٥/٤/١) . فتح كامل العراق الأوسط . تمت الموافقة على تابعية الأمير رشيد فى البصرة . جاء إلى بغداد وقبل يد الخليفة . استرجع الشاه تبريز وقت وجود البادشاه فى بغداد (١٥٣٤/١٢/٩) ، وبذلك يكون حكم العثمانية الثانى فى تبريز ٤ أشهر و٢٧ يوما . زار الخاقان فى آذار ١٨ ـــ ٢٣ كربلاء ونجف ووزع الصدقات فى قبرى

الحسين (ر.ع) وأبيه على (كرم الله وجهه) . أسس إيالة بغداد ، وعين رمضان أوغلو أوزون سليمان باشا واليا عليها ، وهكذا صار الأمير التركمانى ، أول وال على بودين (المجر) .

أما الشاه الذى أظهر علنا عدم قبوله الحرب الميدانية بإجلائه ــ لفترة من الزمن ــ مدينة العرش قزوين كذلك ظنا منه أن العثمانية قادمة (Von Hamner ، ٥ ، ٢٠٨) فإنه بدخول الجيش الهمايونى إيران مجددا ، لم يدافع عن تبريز .

احتلت تبريز للمرة ٣ (١٥٣٥/٦/٣٠) ، ومكث الخاقان ١٧ يوما فى سراى شاه إيران . دام الحكم الصفوى فى الفترة بين الاحتلالين ٦ أشهر و٢٢ يوما .

حضر أخو الشاه ميرزا وعمره ١٨ سنة والذى كان واليا على خراسان = هرات ، إلى تبريز ولجأ إلى السلطان سليمان (١٥٣٥/٧/٢١) . وقد كان ذلك حدثا مهما .

أرسل الشاه أسطة جالوخان تركمن كسفير وطلب الصلح . كان شرطه ، ترك الأقطار التى فتحت فى الأناضول فى الحملة الهمايونية على يد العثمانيين والتى تبلغ مساحتها التقريبية ٥٠٠٠٠٠ كم٢ إلى العثمانية ، واستعادة الأراضى المحتلة فى أذربيجان وإيران والتى تبلغ مساحتها ٤٠٠٠٠٠ كم٢ .

كان الشاه الذى أحس بالخطر على نفسه فى قزوين فى هذه الأيام ، قد انسحب إلى أصفهان ، ولاشك ان العثمانية كانت قادرة على المجىء إلى قزوين وأصفهان . انسحب الشاه والجيش التركمانى إلى مشهد ، هرات وقندهار ، وهكذا وضحت الاستراتيجية الصفوية . عاد السلطان سليمان الذى بحث عن الشاه مدة ١٨ يوما ، إلى تبريز بعد ٣١ يوما (٢٠ آب) . تحرك فى ٢٧ آب . جاء إلى أخلاط . كان هذا موطن الأجداد للعثمانيين . ومنها حضروا إلى سوغت Sogut . لكن الصفويين كانوا قد احتلوا وان ، وتعذر استرجاعها حينذاك .

جاء الجيش الهمايونى إلى دياربكر فى ٢٠ ت ١ وبقى فيها ٢٢ يوما . جاء إلى حلب فى ٢٤ ت ٢ ، بقى ٨ أيام وغادرها .

عاد السلطان سليمان فى هذه المرة إلى استانبول بصفة فاتح بغداد .

دامت الحملة الهمايونية (السلطانية ، الامبراطورية) مدة ١ سنة و٦ أشهر و٢٧ يوما . أما اعتبارا من مغادرة إبراهيم باشا من استانبول ، فكانت قد مضت مدة ٢ سنة ، وشهرين و ١٨ يوماً .

تكتسب هذه الحملة أهميتها من أنها ضمت العراق إلى الاتحاد العثمانى ، وأبعدت الصفويين عن العالم العربى بصورة نهائية . تأسست إيالة أرضروم (١٥٣٥/١١/١) ، وتم تأمين حدود تركية فى القفقاس . وعند عودة العثمانية ، استرجع الصفويون تبريز والأراضى التى بقيت لدى إيران حاليا . وكانت لاتزال بحوزتهم فى الأناضول ، بعض المناطق كوان .

بذلت الدولتان التركيتان الإسلاميتان الكبيرتان جهودهما خلال ١٥٣٦ ــ ٤٨ للحفاظ على بقاء الوضع على حاله Stafu quo .

حدثت تطورات فى صالح العثمانية . فتح دلقادر أوغلو محمد بك والى (فريق أول) أرضروم ، آهسكة (١٥٣٦/٧/٤) وأخضع قسما كبيرا من كرجستان للنفوذ العثمانى ، ورغم أن التركمان كانوا ينتسبون إلى المذهب الشيعى بسهولة ، فإن الأكراد كانوا يثبتون على المذهب السنى (الشافعى) ، ولذا كانوا على الأغلب يلتزمون الجانب التركى . أخذ النفوذ العثمانى فى الازدياد فى المنطقة الجنوبية ــ الغربية من إيران ، المسكونة بالأكراد .

تأسست إيالة البصرة (١٥٣٨/٧/٢٤) ، وارتبطت بها مناطق جنوب العراق ، الكويت ، الحساء ، قطيف ، نجد ، قطر ، بحرين ، عمان المتصالح وجبل شمراما رأسا أو بقبول شيوخ العرب الحماية العثمانية .. وهكذا تحقق انتشار عثمانى واسع على خليج البصرة .

جاء القاس ميرزا الأخ الآخر للشاه إلى استانبول فى ١٥٤٧ ولجأ إلى البادشاه . وأصبح ذلك بداية لفتح حملة جديدة على إيران .

كان السبب الأصلى للحملة هو استمرارهم فى إرسال عملاء الشاه الذين يطلق عليهم اسم « خليفة » خلسة إلى الأناضول وجنوب القفقاس لبث المذهب الشيعى ونشر الدعاية للانحياز إلى الشاه .

تأكدت ضرورة القيام بحملة جديدة ، عند بدء الصفويين فى تطبيق ذلك بشكل

دموى فى شيروان (شمال آذربيجان) ، أما فى الأناضول ، فإن عملية تبديل العقيده كانت تجرى بدعاية دقيقة وسرية . أراد الصفويون بعد شيروان ، تبديل مذهب شعب داغستان السنى الشافعى فى شرق قفقاسيا الشمالية وإدخالهم إلى المذهب الشيعى بحد السيف .

لجأ أمير (بك) داغستان ، قرم شامحال إلى العثمانية وطلب المعونة . قرر الديوان الهمايونى أن إيران التى لم تتمكن من هزيمة العثمانية ، سوف لاتتوقف لتعويض خسائرها ــ عن سياسة التسلط على جميع الدول السنية الصغيرة .

احتل العثمانيون داغستان وشيروان . اضطرب الشاه الذى شاهد تطويقه من الشمال . وافق على اقتراحات شارل ــ كوينت ، واتفق مع ألمانيا ــ أسبانيا . أما فى الأناضول ، فقد شوهد مجددا خروج كثير من التركمان والأكراد من المذهب السنى وإقرارهم المذهب الشيعى . ثبت أن عملاء الصفوية قد أثروا فى مناطق توقاط ، آماسيا ، جورم ، سيواس ، طرابزون ، أرزنجان ، أورفة ، دياربكر وحتى قونية . عجز أئمة السنة ورجال الدين حيال هذه الدعاية الشيعية . كان النظام العثمانى لايسمح بشهر السلاح على رعية البادشاه غير العصاة والضغط عليهم بسبب العقيدة والمذهب ، وبناء عليه ، كان المسئولون العثمانيون عاجزين كذلك . إلا أنه تم إعدام عدة أشخاص من الذين يتجاوزون الحدود ويحرضون شعب أناضول علنا ضد العثمانية ويدعونهم للانحياز إلى جانب الشاه كـ « بير سلطان إبدال » . كان كل شخص يقر بالعلوية يدفع ضريبة إلى الشاه تسمى « نذر » ، وتذهب هذه النقود إلى إيران . ثبت أن الدعاية العلوية قد تفشت بين أفراد الجيش فى إيالة روم (سيواس) كذلك . لم يكن من الممكن أن تسمح الدولة العثمانية بشىء من هذا القبيل .

ثبت أن ٢٠ لوندا (جنود حرس الوالى) ، كانوا يعملون كعملاء لإيران وصدر أمر بالقبض عليهم وقد تم ذلك أثناء هروبهم إلى إيران ، جىء بهم إلى أرضروم وتم إعدامهم . قرر الديوان إعلان الحرب على إيران فى الوقت الذى أوشكت فيه الأناضول أن تدخل حربا أهلية دموية كالتى بين الكاثوليك والبروتستانت فى أوروبا . حرر كتاب سلطانى (نامة همايون) إلى خاقان تركستان ، طلب فيه الهجوم على إيران من الشرق .

كانت سياسة الأناضول الشرقية للسلطان سليمان سياسة حكيمة وواقعية . كانت هذه السياسة تحرص على عدم إجراء أي ضغط على العلويين أو الذين يتظاهرون بالعلوية مالم يمارسوا دعاية علنية مضادة للدولة . لكن إيالتى أرضروم وفى الجنوب دياربكر لم تستطيعا حماية الأناضول من تعرض إيران المادى والمعنوى . أنشأ الخاقان (الذى شعر بضرورة تأسيس إيالات جديدة فى أقصى الشرق) ، إيالة قارص فى شرق أرضروم وإيالة وان فى شرق دياربكر ، ومنح كل من دلقادر أوغلو ميرزا على بك وجركس صارى إسكندر بك رتبة فريق أول ولقب الباشوية وأصبح كل منهما أول وال على قارص (الأول) وعلى وان (الثانى) .. وهكذا أمكن فى ١٥٤٨ فقط ، تثبيت وضمان حدود تركية الشرقية الحالية بصورة قطعية ، وقد سلف أن ذكرنا الحدود التى توصلت إليها العثمانية فى هذا التاريخ .

أعلن القانونى القاس ميرزا السنى شاها مكان أخيه الكبير طحمسب ، ورغم أن ميرزا استولى على عدة بلدان إيرانية من بينها قم ، وكاشان لكنه لم يتمكن من إظهار كفاءة وبسبب هذا ، ولضعف شخصيته ، لم تتحقق إمكانية دحر الحكم الشيعى فى إيران (تاريخ أعلم آراى عباسى ، ص ٧٤ ـــ ٥) .

من ناحية أخرى ، كان الحكم العثمانى فى شيروان (شمال أذربيجان) عبارة عن ٥/٢ سنة . وتأخر فتح الأقضية الأخيرة لآرتفين وقارص من الصفويين ، لغاية ١٥٥١ .

(٢٨) الحملة الهمايونية ١١ : حملة إيران الثانية (١٥٤٨ ـــ ٤٩)

تبلغ الفترة مابين الحملتين الإيرانيتين للسلطان سليمان ١٣ سنة ، حقق خلالها ٤ حملات همايونية على أوروبا . والحملة الإيرانية ٢ ، هى حملته الهمايونية ١١ .

بدأت هذه الحملة بتحركه من استانبول (١٥٤٨/٣/٢٩) . اشترك فى الحملة أصغر أبناء البادشاه شهزاده جهانكيز . أما القاس ميرزا فقد أرسل قبل القوات الأخرى ومع القوات العثمانية الأمامية إلى إيران .

كان الشاه فى تبريز . أجلى المدينة وانسحب إلى قزوين بعد أن علم بمجيء البادشاه إلى خوى . كان عازما بشكل أكيد على عدم المجابهة فى حرب ميدانية . احتل

العثمانيون تبريز (١٥٤٨/٧/٢٧) . كان قد مضى على إخلاء العثمانيين لتبريز للمرة ٣ ، ١٢ سنة ، و١١ شهرا ، ويوم واحد . جاء الخاقان إلى وان ، بعد أن بقى فى المدينة ٥ أيام . استسلم الصفويون فى ٢٩ آب بعد أن قاومت القلعة ١٠ أيام . غادر البادشاه بعد أن حصن القلعة بصورة جيدة إلى دياربكر (٢٩ أيلول) ، ومنها إلى حلب (٢٥ ت٢) حيث قضى الشتاء فيها . مكث البادشاه فى حلب مدة ٦ أشهر ، و١١ يوما حتى ١٥٤٩/٦/٦ .

خلال ذلك ، كان القاس ميرزا قد قام بحملات كرمنشاه ــ همدان ــ قم ــ كاشان – أصفهان ، لكنه لم يتمكن من إجبار أخيه الكبير على إحناء رأسه . ظفر به أخوه الكبير وأرسله إلى قلعة قهقهة (آلاموت) .

قضى القانونى الشتاء فى حلب مع ابنيه بايزيد وجهانكيز وتحرك . حط قرب دياربكر مع الجيش الهمايونى لمدة طويلة (٢٥ آب ــ ٥ ت١/ ١٥٤٩) . استمرت حملة السلطان سليمان الذى عاد إلى استانبول فى ٢١ ك ١ مدة ١ سنة و ٨ أشهر ، ٢٣ يوما . جاء الشاه طحمسب فى صيف سنة ١٥٥١ إلى شرق الأناضول واجتاح إيالتى وان وأرضروم .

(٢٩) الحملة الهمايونية ١٢ : حملة إيران ٣ (١٥٥٣ ــ ٥٥)

سار السلطان سليمان من استانبول (٢٨/٨/ ١٥٥٣) بحملته الثالثة على إيران بعد عودته من حملة إيران ٢ ، بـ ٣ سنوات ، و٨ أشهر ، و٨ أيام . تسمى هذه الحملة « حملة نهجوان » . كان عمره قد تجاوز الـ ٥٨ سنة . استصحب أصغر أبنائه شهزاده (الأمير) جهانكيز وانضم إليه فى الطريق ابناه الأوسطان شهزاده سليم (الثانى) وشهزاده بايزيد . قرر قضاء الشتاء فى حلب التى يحبها ، كما فعل قبل ٥ سنوات . مكث فى حلب مدة ٥ أشهر ، ويوما واحدا (١٥٥٣/١١/٨ ــ ١٥٥٤/٤/٩) . جاء إلى روان (أريوان) فى ١٨ تموز . احتل هذه المدينة التى هى مركز إيالة ، واحتل كذلك مدينة نهجوان ــ التى سميت الحملة باسمها ــ فى الساحل الشمالى لنهر آراس ، واجتاز آراس إلى جنوب آذربيجان . طلب الشاه الصلح . أبلغت الاستخبارات العثمانية البادشاه بأن الشاه مصمم على عدم الدخول

فى حرب ميدانية وأن العثور على الجيش الصفوى غير ممكن . عاد الخاقان إلى الأناضول . مكث ٢٤ يوما فى أرضروم وغادر فى ٢٨ أيلول . وصل آماسيا وقضى فيها الشتاء ، وبقى فيها ٧ أشهر ، و ٢٢ يوما (١٥٥٤/١٠/٣٠ ـــ ١٥٥٥/٦/٢١) .

قضى البادشاه ـــ خلافا للعادة ـــ شتائين متعاقبين فى الأناضول ، أخاف الشاه . عقدت بين تركيا وإيران ـــ بعد مفاوضات طويلة جدا ـــ معاهدة آماسيا (١٥٥٥/٥/٢٩) . اقتسمت كرجستان ، وتم الاتفاق على الحدود الحالية تقريبا بالنسبة للأناضول . كانت الحدود فى العراق فى الجنوب كما هى حاليا تقريبا .

جرت مفاوضات طويلة مع السفير الألمانى البارون Von Busbek كذلك . ولكن لم يتم عقد صلح ، وإنما جرت هدنة لمدة ٦ أشهر فقط فى ٢ حزيران .

دخلت كل من الدولتين العظمتيين الأولى والثانية فى العالم ، تركية العثمانية وإيران الصفوية فى فترة صلح ستستمر ٢٣ سنة .

فى غضون ذلك ، تخلى شارل ـــ كوينت وانفصلت ألمانيا وأسبانيا عن بعضهما ، وتنفست أوروبا والعثمانية الصعداء .

سوف تحارب العثمانية ألمانيا وأسبانيا مرة أخرى ، ولكنها فى هذه المرة ستحارب دولتين منفصلتين .

كان من نتائج عقد الصلح مع إيران بعد ٣ حملات همايونية ، إلحاق العراق وشرق الأناضول ، تحقق الوحدة الأناضولية واكتسابها صفتها القطعية لصالح العثمانية ، والحصول على مكاسب مهمة فى قفقاسيا .. وكل هذه تعد مكاسب عظيمة للعثمانية ، وإن كانت بعيدة عن أن تكون حلاً جذرياً .

لاشك أن معاهدة أماسية هى إحدى الوثائق العديدة التى تثبت أن العثمانية دولة عالمية عظمى ، ولكنها فى الوقت ذاته ، تعتبر وثيقة تبين انقسام العالم التركى إلى قسمين بمعنى دخول إيران الشيعية بين تركيا وتركستان وعدم إمكان اجتياز هذا السد ، وبالتالى ترك ملايين من الاتراك تحت رحمة إيران لينقلبوا إلى إيرانيين ويصبحوا من رعايا إيران ، وإضافة إلى ذلك ، فإن الدولة العثمانية العالمية التى لم تعترف

لشارل – كوينت وخلفه فرديناند بلقب إمبراطور والتى أجبرتهما على قبول عدم اعترافها هذا ، كانت قد أقرت بصورة رسمية بكون الشاه حاكما تعادل درجته البادشاه وتساوية . إن مقولة « لولا الشاه ، لوصلت العثمانية إلى الراين » الشائعة الدائرة فى أوروبا ، صحيحة . وإن كانت المقولة المقابلة « لولا أوروبا ، وخاصة أسبانيا وألمانيا ، لوصلت العثمانية إلى تركستان » لم تتردد فى إيران على الرغم من كونها حقيقة .

ربما يقال ماكان ينبغى على العثمانية أن تجتاز سد فينا ، ويحتمل أن ذلك لم يكن ضروريا أبدا ، ولكن تحطيمها السد الصفوى ، كان سيغير أحداث التاريخ فى صالح آسيا .. لكن إمكانات العثمانية لم تكن كافية لذلك .

(٣٠) قضية ولى عهد - شهزاده (الأمير ولى العهد) سلطان مصطفى خان

أولاد السلطان سليمان القانونى هم : ولى عهد - شهزاده (١٥٢١/١٠/٢٩ - ١٥٥٣/١١/٦) مصطفى (١٥١٥ - ١٥٥٣/١١/٦) ، شهزاده محمد (١٥٢١ - ١٥٤٣/١١/٦) ، مهرماه سلطان (السلطانة) (١٥٢٢ - ١٥٧٨/١/٢٥) ، سليم الثانى (١٥٢٤/٥/٢٨ - ١٥٧٤/١٢/١٥) ، شهزاده بايزيد (١٥٢٥/٩/١٤ - ١٥٦٢/٧/٢٣) ، شهزاده جهانكيز (١٥٣١ - ١٥٥٣/١١/٢٧) . عدا ٥ شهزاده و٣ سلطان (سلطانة) ماتوا وهم أطفال . كان كبير أبنائه أولو شهزاده (ولى العهد) محمود ، قد توفى وعمره ٩ سنين (١٥٢١/١٠/٢٩) . ولد محمد ، مهرماه ، سليم ، بايزيد وجهانكيز كلهم من خرم خاصكى سلطان (١٥٠٦ - ١٥٥٨/٤/١٧) . أما والدة أولو شهزاده مصطفى ، فهى ماه دوران خاصكى (١٤٩٩ - ٣/٢/ ١٥٨١) .

حصلت خرم خاصكى على نفوذ متزايد لدى السلطان سليمان وأصبحت كأنها زوجته الوحيدة ، وكانت هى والدة الأولاد ، عدا الشهزاده الكبير (ولى العهد) . كان عليها أن تنحى ولى عهد - شهزاده لتضمن العرش لأحد أبنائها . ولأجل ذلك ، بدأت فى اتباع سياسة تتسم بالصبر والدقة والمؤامرات واستمرت سنوات طويلة . ونذرت نفسها لهذا العمل .

كان داماد مقبول إبراهيم باشا (١٤٩٥/٤/٢٥ - ١٥٣٦/٣/١٥) الذى عينه

القانونى للوزارة العظمى بعد إحالته بيرى محمد باشا على التقاعد قد ظل فى مقامه مدة ١٢ سنة ، و٨ أشهر ، و١٨ يوما (١٥٢٣/٦/٢٧ - ١٥٣٦/٣/١٥) . كان زوجا لأخت البادشاه خديجة سلطان (١٤٩٦ - ١٥٨٢ . كان سياسياً لامعاً ، وسير أعمال الحكومة بكفاية تامة . لم يكن بالإمكان تحريك وزير أعظم كهذا ضد ولى العهد الشرعى . إن أحد أسباب سقوط إبراهيم باشا وإعدامه فجأة ، هو المؤامرات الدقيقة الخفية التى لاتطفو على سطح الماء لخرم التى حفرت البئر له . تخلصت خرم من وزير أعظم ذى نفوذ . حيث لم يتمكن أى وزير من الذين تلوه ، أن يحصل على نفوذ إبراهيم باشا . إن الذين تلوه كوزير أعظم هم بالتسلسل : آياز محمد باشا (١٥٣٦/٣/١٥) ، وبوفاته ، صهر البادشاه المتزوج بأخت أخرى له داماد لطفى باشا (١٥٣٩/٧/١٣) ؛ وبعزله خادم سليمان باشا (١٥٤١/٤/٢٧) ، وأخيرا داماد (صهر) رستم باشا (١٥٤٤/١١/٢٨) .

توفى خلال ذلك كبير أبناء خرم وثانى أبناء القانونى شهزاده محمد فى مانيسا (صاروخان) التى كان واليا عليها . جىء بجثمانه إلى استانبول ودفن فى مقبرته الكائنة قرب جامع شهزاده الفخم الذى شيده والده وأوصى المعمار سنان بهندسته . كان على خرم أن تسعى بعد الآن لأبنائها الآخرين . لم يتغير تصميمها بشأن ولى عهد - شهزاده مصطفى ، بعد وفاة شهزاده محمد .

تزوج داماد رستم باشا (١٥٠٥ - ١٥٦١/٧/١٠) ، بابنة القانونى الوحيدة التى يحبها كثيرا مهرماه سلطان (١٥٣٩/١١/٢٦) . وسواء ابنتها أو صهرها أصبحا واسطتين لخرم خاصكى . بدأت هذه المؤامرة تسير نحو هدفها خطوة فخطوة . وفى النهاية ، وصلوا إلى حد ترتيب أوراق مزورة بشكل فنى تتضمن هذه الأوراق ، أن السلطان مصطفى قد اتفق مع الشاه طحمسب على أن يصاهره وأن الشاه سوف يساند الشهزاده لإجلاسه على عرش أبيه .

كان الشىء الذى يخيف الديوان الهمايونى فى السياسة العثمانية لذلك العصر أكثر من غيره ، هو سريان التشيع إلى الأناضول .

ونتيجة مؤامرات متتابعة لالزوم لذكرها هنا ، اقتنع السلطان سليمان ، بأن ابنه الكبير سيعصاه وسوف يزج بالدولة فى بلية كبيرة . استعد لحملته الهمايونية ١٢ •

(حملة إيران ٣) تجاه إيران ، وكان السلطان قد قرر التخلص من ابنه الكبير فى الطريق .

خنق ولى عهد شهزاده فى معسكر آقتبة قرب قونية أركليسى بالحبل (١٥٥٣/١١/٦) . إستاء الجيش بصورة كبيرة وأظهر عدم رضائه وسخطه وحدثت ردود فعل شديدة . اضطر السلطان سليمان إلى عزل عضو المؤامرة الكبير صهره رستم باشا .

يعتبر قتل السلطان مصطفى خان ، أحد أبشع وأشأم الأحداث التى جرت على عهد القانونى . كان عمره ٣٨ سنة وكان وليا للعهد منذ ٣٢ سنة ، و١٠ أشهر والوارث الشرعى اللائق لعرش بنى عثمان الذى يفتخر بكونه سلطنة العالم . راح السلطان سليمان ضحية دسائس عديدة وقسى على أغلى أبنائه . كان السلطان مصطفى محبوبا لدى الجيش والشعب وكان نموذجا مطابقا لجده السلطان ياوزسليم . إن شبهه الشديد بالسلطان سليم – وجهاً – زاد فى محبته . كان شاعرا وخطاطا . ماتت ابنتاه بعده . توفى ابن السلطان سليمان الأصغر جهانكير الذى تأثر كثيرا لهذا الحادث فى حلب وعمره ٢٢ سنة . دفن مصطفى فى قبره الكائن فى بورصة ، أما جهانكير فقد دفن فى استانبول . شيد أبوه جامعا فى استانبول وسماه جهانكير . وهكذا بقى للعرش العالمى وريثان : ولى عهد – شهزاده سليم وشهزاده بايزيد الذى يصغره بـ ١٦ شهرا فقط . كلاهما ولدا من خرم . كان بايزيد أكثر فعالية وأكثر حرصا . والآن سوف يتنازعان على العرش العالمى .

أصبح الوزير ٢ وزوج إحدى شقيقات البادشاه داماد قرة أحمد باشا وزيرا أعظم ، بعد عزل رستم باشا (١٥٥٣/١١/٦) . كان عسكريا كبيرا . أعدم بغير حق (١٥٥٥/٥/٢٩) . عاد رستم باشا وأصبح وزيرا أعظم .

(٣١) قضية شهزاده سلطان بايزيد

كان تبديل لواء شهزاده بايزيد الذى كان يديره منذ ١٧/٥ سنة من كرميان (كوتاهية) إلى أماسيا التى أبعد منها إلى استانبول بمسافة كبيرة (١٥٥٨/١٢/٢١) ، وبقاء أولو شهزاده فى قونية ، إشارة إلى أن البادشاه عازم

على مساندة ولى العهد الشرعى سليم . ثار بايزيد على أخيه الكبير . لكنه هزم فى حرب قونية الميدانية (٣٠ - ١٥٥٩/٥/٣١) . جاء أماسية وغادر إلى إيران بجيش عدده ١٢٠٠٠ جندى . لم يتمكن الجيش الذى تعقبه من اللحاق به . دخل إيران . دخل مدينة العرش الإيرانية قزوين بعد ٣/٥ شهر (١٥٥٩/١١/٢٤) . كان قد دعاه الشاه طحمسب واستقبل ، بحفاوة بالغة . شتت جيشه عندما اكتشفت محاولة قلبه الشاه بالجيش الذى يقوده ، ووضع هو تحت رقابة شديدة . وافق الشاه فى النهاية على طلب السلطان سليمان وأمر بقتل شهزاده بايزيد مع أبنائه الـ ٤ وسلمهم إلى السفراء العثمانيين (١٥٦٢/٧/٢٣) . أرسلت نعوش الأمراء إلى سيواس حيث شيدت لهم قبور دفنوا فيها .

طلب الشاه من السلطان سليم لقاء العمل القذر ١٢٠٠٠٠٠ ليرة ذهب وقلعة قارص . أخذ ٥٠٠٠٠٠ ليرة ذهب ومجوهرات قيمة فقط كان عمر شهزاده بايزيد ٣٧ ، وعمر أخيه الكبير سليم ٣٨ ، والقانونى ٦٧ سنة . أما الشاه فكان عمره ٤٨ سنة .

كان شهزاده بايزيد شاعرا فى اللغتين التركية والفارسية (مخلصه شاهى) ، خطاطا وعسكريا قديرا . اشترك فى الحملات الهمايونية ٩ ، ١٠ ، ١١ ، ١٢ . شاهد الأقطار اعتبارا من البلاد العربية إلى المجر وإيران . قتل كذلك ابنه الخامس وأكبر أبنائه أورخان الذى كان واليا (سنجق بك ، لواء) على لواء جورم وعمره ١٩ سنة . بناته الـ ٤ بقين على قيد الحياة .

تزوجت هماشاه سلطان (١٥٤٤ ـــ ١٥٨٢) ابنة الشهزاده محمد ، ٣ مـــرات . أنجبت حفيدة القانونى هذه أولادا كثيرين . ولكن وبعد سقوط بايزيد ، بقى أمير واحد يمكنه أن يعتلى العرش وهو السلطان سليم .

مات رستم باشا ، عندما كان السلطان بايزيد فى قزوين (١٥٦١/٧/١٠) . دامت صدارته الأولى ٨ سنة و ١٠ أشهر و ٨ أيام ، والثانية ٥ سنة و ٧ أشهر ، و ١٩ يوما ومجموع صدارتيه ١٤ سنة و ٧ أشهر و١٩ يوما . وهو الوزير الأعظم الذى ظل فى مقامه أطول مدة فى عهد القانونى ، وحسب ا لتسلسل يعتبر هو ٨ بين رؤساء الوزارة فى التاريخ التركى فى طول مدة بقائه فى المنصب . غير

محبوب من طبقة الشعب والمثقفين . بخيل تجاه الأشخاص ، وإن كان كريما فى إنشائه المؤسسات الاجتماعية ، الوقفية والخيرية ، خلف مؤسسات خيرية تدهش العقل . حصل على قسم من ثروته عن طريق الرشاوى . له شهرة سيئة كإدخاله الرشوة إلى الدولة العثمانية . حرر تاريخا عثمانيا ترجم إلى اللغة الألمانية ، ليست له قيمة كبيرة . ماكر متآمر ، لديه استعداد للظلم لولا خوفه من البادشاه . حازم فى الأعمال الحكومية وأهل لها . لايبتسم .

احتل سميز (بمعنى بدين) على باشا مكانه تلقائيا لكونه وزيرا (٢) ، كان هذا على عكسه بشوش الوجه فى جميع الأوقات صاحب دعابة ، ممازحا وسياسيا ذكيا ورجل دولة قدير . كان بدينا جدا . دامت صدارته ٤ سنة إلا ١١ يوما . مات بأجله (١٥٦٥/٦/٢٨) . احتل مكانه تلقائيا الوزير ٢ صوقوللو داماد محمد باشا . هو آخر وزير أعظم للقانونى وهو الصهر الكبير لأولو شهزاده سليم (الثانى) الذى يصغره سناً .

(٣٢) الحملة الهمايونية ١٣ والأخيرة : حملة سيجتوار Sigervar (١٥٦٦)

كان السلطان سليمان قد أعلن عن شيخوخته بعدم مسيرته بحملة منذ عودته من حملة نهجوان قبل ١٠ سنة و ٩أشهر . كان قد انهار بسبب وفاة أبنائه الأربعة وزوجته . لم يرغب الموت فى قصره . أراد أن يموت بين جيشه ، بين أصوات المهتر (الموسيقى العسكرية) والمدافع . سار من استانبول (١٥٦٦/٥/١) . هناك أدلة تشير إلى توقعه عدم عودته حياً من هذه الحملة .

نصب فى ٢٩ حزيران السرادق الهمايونى فى صحراء زملن Zemlin فى الساحل المقابل لبلغراد . مثل بين يديه هنا أمير أردل الملك يانوش Janos الثانى . سمح للملك الذى ركع ثلاث مرات وقبل الأرض ، بتقبيل يده ورحب به ترحيبا كبيرا بقوله « كيف حالك ياولدى العزيز ؟ » يانوش هذا ، هو ابن زابوليا الذى جعله القانونى ملكا على المجر ، وعلى أثر وفاة أبيه أصبح ملكا وعمره ١ سنة ، قابله القانونى وهو طفل فى القماط ، أرسل إلى ترانسلفانيا بعد منحه إمارة أردل . أصبح عمره الآن ٢٦ سنة . كانت قد مضت ٤٠ سنة على انتصار السلطان سليمان فى حملة موهاج وفتحه المجر وتعيينه زابوليا ملكا ومضى كذلك منذ مجيئه إلى

صحراء زملن الموجود فيها الآن وفتحه بلغراد فى حملته الهمايونية الأولى ٤٥ سنة كاملة . كان يانوش الثانى قد ترك الكاثوليكية وأقر بالبروتستانتية .

جاء السلطان سليمان فى ٥ آب أمام قلعة سيجتوار . كانت قلعة ألمانية تبعد ٣٠ كم عن جنوب غربى مدينة بـج peç إحدى مراكز لواء إيالة بودين . كان خان قرم دولت كيراى فى هذه الأيام فى سلوفاكيا (هامر ، ٦ ، ٣١٠). كانت Sigervar قد حاصرها قبل ١٠ سنوات والى (فريق أول) بودين على باشا مدة ٦٩ يوما ، ولم يستطع إسقاطها . امتطى السلطان سليمان جواده وهو مريض ، ورغم رجاء معيته إياه وهم يتباكون ، فتش صفوف الحصار وأعطى أوامره النهائية . من الواضح أنه كان يريد التطلع لآخر مرة لجنوده الذين يعشقهم . ذهب إلى سرادقه منهار القوى وألقى بنفسه على الفراش ولم يتمكن من القيام بعدها . سقطت القلعة الخارجية فى ٥ أيلول ، كانت القلعة الداخلية تقاوم .

مات « خاقان العالم » الذى يسميه الأتراك « القانونى » و « غازى » ، والأوروبيون « العظيم » (Magnificent) و « الكبير » السلطان سليمان خان الثانى فى وقت مبكر جدا فى الساعة ١/٣٠ من صباح يوم السبت الموافق ٧ أيلول ١٥٦٦ . هو السلطان الثانى الذى مات فى ساحة الحرب ولو أنه لم يمت شهيدا مثل مراد الأول . ومع أن فاتح وكذلك ياوز لم يموتا فى السراى وماتا أثناء الحملة ، لكنهما لم يكونا فى أراضى العدو وساحة الحرب .

كانت قد مضت ٤ أشهر و ٦ أيام على مسيرة السلطان سليمان من استانبول . دامت حملته الهمايونية ١٣ التى انتهت بمجيء جثمانه إلى استانبول ، مدة ٧ أشهر و ٥ أيام . كان عمره قد تجاوز ٧١ سنة بـ ٤ أشهر و ١٠ أيام . ولم يصل من سبقه من السلاطين إلى هذه السن عدا أورخان غازى . معظم السلاطين الآخرين ماتوا وهم فى أعمار تعتبر اليوم سن الشباب أو متوسطى العمر . دامت سلطنته ٤٦ سنة إلا ١٥ يوما على التقويم الميلادى وتقريبا ٤٧ سنة و ٤ أشهر على التقويم الهجرى . ولم يتمكن من مشاهدة القلعة الداخلية لسيجتوار ، لسقوطها بعد وفاته بـ ٥ ساعات . دفن فى قبره الكائن فى جامع سليمانية . أما أعضاؤه الباطنية فقد دفنت خلف الموضع الموجود عليه عرشه ثم شيد عليه قبر .

وهذا القبر موجود حاليا فى المجر والذى يسميه السواح « المكان الذى دفن فيه قلب سليمان العظيم » .

(٣٣) شخصية السلطان سليمان القانونى

كان السلطان سليمان شاعرا صاحب ديوان كبير (مخلصه محبى) ، خطاطا ، أخصائيا فى الأحجار الكريمة وعدا إجادته اللغات الشرقية ، كان يجيد اللغة العربية كذلك . كان ينشغل بهذه الأمور وبالقراءة للترويح عن نفسه .

مجموع المدة التى استغرقتها حملاته الهمايونية الثلاث عشرة هى ١٠ سنة و ٧ أشهر و ٧ أيام . قضى السلطان سليمان هذه المدة ، خارج استانبول بين جنوده على ظهر حصانه أو فى سرادقه ، أما إقامته فى أدرنة دفعات متكررة ، وذهابه إلى بورصة والمدن الأخرى فهى خارج هذه المدة .

يلى فاتح من ناحية الدهاء الذى أبداه فى النواحى الدبلوماسية وإدارة الدولة بين كافة بنى عثمان ، ويلى فاتح وأبيه من ناحية الدهاء العسكرى .

شخصيته كحاكم نموذجى ، لاتقبل القياس إلا مع شخصيات قليلة . « لايوجد أى حاكم فى عصره حصل على تعليم أفضل من سليمان القانونى ولانشأ نشأة عملية لامعة فى إدارة دولة عظمى مثله » (The Middle, S.N. Fisher East, A Hisrory ، نيويورك ١٩٥٩ ، ص ٢٢٢) . « كانت شخصيته أعظم من شارل — كوينت . طوّر الإمبراطورية التركية التى يحكمها وسلمها إلى خلفه بدرجة من التكامل ، لايمكن قياسها مع تكامل أية دولة أوروبية خلال المدة ذاتها » (Voyageurs Français dans l'Orient, N.Iorga ، ص ٢١) . « أعظم حاكم فى القرون الحديثة . يمكن قياس عظمة لويس ١٤ فقط بعظمته » (Atlas, Hallert ، ص ٢٠ ب) . « إن السلطان سليمان الذى يتقاضى الضريبة من أربع دول كبيرة كألمانيا وروسيا وبولونيا والبندقية ، أدخل فرنسا كذلك تحت حمايته » (Tableau General de l'Empire Ottoman, d'Ohsson ، ٧ ، ٤٤٣) .

نشر القانونى الكثير فى أوروبا عن تركية فى تلك السنوات ؛ وعلى سبيل المثال ، صدر فى أوروبا ٥٦ كتابا يبحث عن تركية خلال سنة ١٥٢٩ و ٧٦

كتابا خلال سنة ١٥٣٢ و ٥٩ كتابا خلال سنة ١٥٣٣ و ٧١ كتابا خلال سنة ١٥٤٢ وصدرت كتب فى السنوات الأخرى على هذا القياس (Die Europäisehen Jahrhunderts Türkendruck des, Göllner ، بخارست (١٩٦١) . كما أصبح فى أوروبا موضوعا لروايات ، أوبرات وتمثيليات عديدة .

وبالنسبة لـ Geuffroy أحد فرسان مالطة الذى شاهدة شخصيا « طويل القامة ، ضعيف ، أسمر الوجه ذو جبهة عريضة وعالية » . وتكتب المصادر الأخرى عنه أنه ، مع أنه ليس مقطب الجبين ، فإنه نادرا مايبتسم . جاد ، وقور ، وهو لايستحسن عدم المبالاة ، يتكلم قليلا وبشكل حاسم . كان عالما فى مجالى الحقوق والآداب . إن القوانين التى وضعها مع شيخ الإسلام أبو السعود أفندى بقيت نافذة المفعول حتى بداية القرن ١٩ ، ولم تبدل بعض موادة حتى نهاية الامبراطورية . إن قانو نامة سلطان سليمان (دستور السلطان سليمان) ، هو دستور مكمل لدستور فاتح . والقوانين الأخرى التى سنت ونشرت على عهده كثيرة وقد وضع أيضا قوانين كثيرة للإيالات كذلك راعى فيها الظروف الخاصة بتلك الأقطار ، كيفها ولاءمها أبو السعود أفندى مع الشريعة والقواعد العرفية بمهارة فائقة .

وضع قوانين كثيرة باسم الخاقان ، دون أن تعارض أسس الفقه الحنفى . طبقت هذه القوانين بدقة .

لم يطلق الشعب لقب « القانونى » على السلطان سليمان لوضعه القوانين ، بل لتطبيقه هذه القوانين بعدالة ، والألقاب التى أطلقها الأوروبيون فى حينه وبعد ذلك مثل « الكبير » « العظيم » تعتبر تافهة عند قياسها بلقب القانونى الذى يمثل العدالة .

وضع مواد قانونية متقدمة جدا ، ومرعية حاليا لدى العالم المتمدين كافة ، وماكانت هذا المواد يمكن أن تخطر على البال فى أية دولة أخرى فى ذلك العصر . أحدها ، تمتع الرعايا بحقوق متساوية . وتطبق العقوبة الموضوعة بالنسبة للجرم المقترف على الأشخاص الذين اقترفوها مهما كانت منزلتهم (قانو نامه سلطان سليمان ، الباب ١ ، الفصل ١) .

إن تقسيم الأراضى الامبراطورية على القارات حين وفاة السلطان ياوز سليم

(١٥٢٠) هى كما يلى :
١٧٠٢٠٠٠ كم² فى أوروبا + ١٩٠٥٠٠٠ كم² فى آسيا + ٢٩٥٠٠٠٠ كم² فى أفريقيا = ٦٥٥٧٠٠٠ كم² .

توسعت الخارطة السياسية إلى أكثر من الضعفين قبل مضى نصف قرن وأصبحت ١٩٩٨٠٠٠ كم² فى أوروبا + ٤١٦٩٠٠٠ كم² فى آسيا + ٨٧٢٦٠٠٠ كم² فى أفريقيا = ١٤٨٩٣٠٠٠ كم² .

كانت الفتوحات التى جرت على عهد القانونى فى أوروبا ـــ بالنسبة للحدود السياسية الحالية ـــ هى المجر عدا Eszak ، أردل (ترانسلفانيا ، رومانيا الحالية) ، Banat (فى رومانيا الحالية ويوغسلافيا) ، بلغراد وفويفودينا (فى يوغسلافيا) ، خرواتيا وسلوفينيا ؛ فى إيجة جزر كيكلاد وسبورات ، فى مورا ميناء Nauplion ، فى جنوب صقلية جزر بانتللاريا ولامبادوسا .

أما الفتوحات فى قارة آسيا فهى : رودس والجزر الإثنتى عشرة ، البلاد العربية ، كرجستان الغربية ، قسم من شرق الأناضول (وان ، آغرى ، حكارى الخ .) .

كانت المناطق التى دخلت تحت الحماية والنفوذ والتبعية العثمانية فى البلاد العربية هى جنوب اليمن ، حضرموت ، قطر ، عمان المتصالح ، نجد ، عمان ، الكويت والبحرين . والمناطق كجزيرة ساقز وأرضروم ، قارص وآرتفين ألحقت مباشرة وبشكل قطعى .

والمكاسب فى قارة أفريقيا : أريترة ، جيبوتى ، صومالى ، مناطق حرار وأوكادن فى الحبشة ، ليبيا ، القسم الأعظم من تونس (عدا مدينة تونس ومحيطها)، الصحراء الكبرى ، مناطق حماية فى منطقة جاد ـــ نيجر .

وتبلغ مساحة الأماكن التى فتحت على عهد القانونى ولم يمكن الحفاظ عليها والتى لم تكن ضمن الحدود العثمانية حين وفاة البادشاه فى ١٥٦٦ ، تبلغ ١ مليون كم² تقريبا وهى لاتدخل ضمن المجاميع أعلاه : إمارة قزان ، إمارة استرخان ، جواشستان ، استولى عليها الروس قبل وفاة القانونى بـ ١٠ أعوام . إن الشيروانشاهيون فى شمال آذربيجان ، شمهالية داغستان ، الإمارة الإسحاقية فى كيلان (رشت) تبعن العثمانية لفترة من الزمن ثم بقين لدى الصفويين . واحتل العثمانيون قطعاً من

جنوب آذربيجان ، لورستان ، همـدان ، خـمسة ، كرمـنشاه ، أردلان (كردستان) ، جنوب خوزستان (عربستان الإيرانية) ، يزد ، قزوين ورى ، لمدد متفاوتة ، لكنها بقيت لدى الصفويين .

أما شمال فاس ، وشمالها ـــ الشرقى ، عدة إيالات من النمسا ، موانىء ريجيو Reggio ، أوترانتو Otranto ، مسينا Messina فى إيطاليا ، جزركورسيكا وغوزو ، جزر الباليز ؛ Rutenya ، Nijniy Novgorod (Gorky) فى روسيا ، ومناطق أخرى كثيرة فهى أراض أخرى بقيت تحت الاحتلال التركى الموقت .

لم يكن عهد القانونى ، عهد توصلت فيه الحدود إلى أقصاها من الاتساع . إنما هو العهد الذى تمت فيه إدارة أعظم دولة بأرقى شكل إدارى . إن الحدود القصوى التى توصلت إليها العثمانية ، تحققت بعد ربع قرن من وفاته ، فى السنوات الأخيرة من عهد حفيده مراد الثالث .

يعبر لطيفى الذى عاش فى تلك السنوات عن دور القانونى بهذه الجملة البليغة التى لاتنطوى على مبالغة (تذكرة الشعراء ، ص ١٣) « إنه عظيم الشأن ، تتلى خطبته فى كل حطة ، وله جنود فى آلاف القلاع » .

البحث الخامس

الدولة العثمانية العالمية بعد القانوني (١٥٦٦ - ١٦٨٣)

الدولة العثمانية العالمية بعد القانوني
(١٥٦٦ - ١٦٨٣)

١) جلوس سليم الثاني (١٥٦٦/٩/٧)

كان سليم الثاني وليا للعهد منذ قتل أخيه الكبير مصطفى خان قبل ١٣ سنة (١٢ سنة و ١٠ أشهر و ١ يوم) والآن يرتقى العرش وعمره ٤٢ سنة .

ولى ٦ سنوات على قره مان (قونية) ، ١٤ سنة على صاروخان (مانيسا) ، وأخيرا ٥/٥ سنة فى جرميان (كوتاهية) .

جاء إلى استانبول وارتقى العرش بعد ٢٣ يوما من وفاة أبيه فى سيجتوار (١٥٦٦/٩/٣٠) . بقى فيها ٣ أيام ثم غادرها ، وعند مجيئه إلى بلغراد ، كان الجيش يتحرك للعودة بقيادة صهره الوزير الأعظم صوقوللو محمد باشا . كان فى صحراء موهاج . كان قد مضى ٤٨ يوما على وفاة السلطان سليمان ، وعندما أبلغ الجيش بوفاة البادشاه ، تأثر إلى درجة كادت أن تنقلب إلى قلاقل . كان قد بقى على قيد الحياة قليل جدا من الجنود الذين شاهدوا سلطانين ، يتذكرون عهد السلطان سليم (ياوز) . اعتلى السلطان سليم خان الثانى العرش بعد يومين أمام الجيش فى صحراء سيرم Sirem خارج بلغراد . أقام الجيش صلاة الميت للقانونى فى ٢٦ ت١ فى صحراء سيرم . نادى أستاذ سليم الثانى الأستاذ السلطانى (خواجه سلطانى) عطاء الله أفندى ، قائلا « الصلاة للميت » وأقام الصلاة . وصل الجثمان إلى استانبول فى ٢٨ ت ٢ قبل وصول الجيش بأسبوع . وقد أقام شيخ الإسلام أبو السعود أفندى صلاة الميت مرة أخرى فى استانبول . اشترك فى حمل الجثمان إلى سليمانية مئات الآلاف من أهالى استانبول .

بقى سليم الثانى فى استانبول ٦ أشهر و ١٨ يوماً وغادرها (١٥٦٧/٦/٢٢) متوجها إلى أدرنة . قضى الشتاء فى أدرنة . اجتمع به سفيرا إيران وألمانيا . تجددت معاهدات الصلح مع هاتين الدولتين وصودق عليها . وضع حجر الأساس لجامع سليمية فى أدرنة فى نهاية سنة ١٥٦٧ .

٢) القضية اليمنية (١٥٦٧ ــ ٦٩)

برزت القضية اليمنية بتمرد الإمام الزيدى . انحصر العثمانيون فى شريط ساحلى ضيق . انتقل القسم الأعظم من القطر لحوزة الإمام . قسم الديوان اليمنى ــ لغرض تأمين دفاع أفضل ــ إلى إيالتى اليمن وصنعاء على أن يكون مركزها زبيد ، وكانت الأولى منها تشمل البحر الأحمر التى تسمى تهامة ، والثانية المنطقة الجبلية التى تسمى جبل . ارتبطت عدن وحضرموت بصنعاء ، وقد سهل هذا انتقال القطر بكامله لسيطرة الإمام . لأن السلطة والجيش العثمانى انقسمت إلى قسمين . ونزل الإمام مطهر إلى الساحل واحتل مخا . تمكن العثمانيون بصعوبة من الاحتفاظ بزبيد وعدن .

عين الديوان أوزدمير أوغلو عثمان باشا واليا على صنعاء (١٥٦٧/١٢/١٦) . كان والد عثمان باشا قد سبق وأخذ صنعاء من الإمام . وعثمان باشا ، كان يعرف القطر بصورة جيدة . كان عثمان باشا قد نقل قبل مدة من منصب والى (فريق أول) الحبشة ، ويقيم فى القاهرة فى انتظار تعيينه الجديد . كلف والى مصر قوجا سنان باشا بإخماد عصيان اليمن كقائد أعلى (سردار) (١٥٦٨/٨/١٥) ، ورفعت رتبته إلى درجة وزير (مارشال ، مشير) . خصص قائد الهند قورد أوغلو خير الدين خضر رئيس ، مع ١٧ سفينة حربية لأمر عثمان باشا . جاء عثمان باشا بأسطول من السويس إلى جدة . أنزل خيالته فيها وساقهم برا إلى اليمن . وسار هو وجنوده المشاة عن طريق البحر ونزلوا فى الأراضى اليمنية عن طريق ميناء حديدة . احتل تعز التى كانت قد انتقلت لحوزة الزيديين قبل ١٠ أشهر . أما سنان باشا ، فقد سار بجنده من القاهرة فى ١٥٦٩/١/٥ عن طريق البر واجتاز الحجاز ، عسير ، اليمن وجاء إلى المناطق الجنوبية من القطر .

دب الخلاف منذ المقابلة الأولى بين القائد والوالى،بين سنان باشا وعثمان باشا . وقد كان بينهما أساساً نفور متبادل . كان عثمان باشا من رجال والى الشام السابق لالا مصطفى باشا الذى كان عدوا لدودا لسنان باشا . وكان سنان باشا ، من رجال الوزير الأعظم صوقوللو محمد باشا ، وكان يعتمد عليه . كان لالا مصطفى باشا من أسرة صوقوللو (صوقوللو ـــ زاده) . لكنه كان يأمل إسقاط ابن عمه صوقوللو محمد باشا ويحتل منصبه هو . كان هناك نزاع عنيف بينهما وهما من أسرة صوقوللو . سيسرى هذا النزاع من استانبول إلى اليمن ، إلى مصر ، إلى بودين وقفقاسيا .

كان العلماء معارضين لصوقوللو . إذ إنه كان بمثابة الوزير الدكتاتور . كان يستفيد من ترك سليم الثانى كامل أمور الدولة إلى الحكومة . وكان المعروف أن سليم الثانى لايكن محبة متزايدة لصهره صوقوللو ويحب مودبه (لالا) السابق مصطفى باشا . لكنه كان عازما على عدم إظهار مشاعره هذه ومزجها بأمور الدولة ، وظل هذا شأنه إلى النهاية . حاول جهده الحيلولة دون سحق صوقوللو منافسيه ، ولم يفكر فى عزله . إذ إن صوقوللو كان ملتزما من قبل صنف الجيش الموجود فى استانبول المسمى حاميات قابوقولو ، وخاصة من قبل الانكشارية الذين هم أقدر هذه الحاميات . كان الوزير ٣ وثم ٢ داماد بياله باشا ، قد تزوج بابنة سليم الثانى الثانية . كان ينفر من صوقوللو ، لكنه لم يكن يظهر ذلك أبدا . كان يأمل أن يتصدر تلقائيا فى حالة وفاة صوقوللو . أما لالا مصطفى باشا ، فكان قد قدم خدمات جمة إلى سليم الثانى ويمكن أن يقال بأنه ضمن له العرش ، ويسر له أن يتغلب فى نزاعه مع إخوته ، أذكى وأمكر رجل فى عهده . أما عثمان باشا ، فإنه أعظم جنرال فى عهده . كان يحاول أن يقى نفسه من عداء سنان باشا المخيف معتمدا على دهائه العسكرى ومستندا على لالا باشا .

جاء أوزدمير أوغلو عثمان باشا إلى استانبول على أثر عزله من وظيفته كوال على اليمن من قبل سنان باشا وتعيين حسن باشا مكانه ، تاركا جنده لسنان باشا ، للتعرف على أوامر الديوان . تمكن لالا مصطفى باشا مستفيداً من تأثيره على السلطان ، من إنقاذ عثمان باشا أكبر عسكرى وزير فى القرن ١٦ من غضب صوقوللو بصعوبة ، حيث قد اتهم عثمان باشا بترك جنده ، وطلب إعدامه . قال

للبادشاه : « سيدى السلطان : إن عبدكم عثمان باشا أكسب دولتكم العلية الأقطار كالسودان ، الحبشة واليمن ، أوزدمير باشا هو ابن العبد المخلص لوالدكم طيب الله مثواه في الجنة ، سلك درب أبيه وحصل على مكاسب كثيرة في اليمن ، لاشك أنه يليق بعفوكم » . أمر الخاقان صوقوللو بتعيين عثمان باشا واليا على إيالة البصرة ، وحذره من إصابة عثمان باشا بأى ضرر . بقى عثمان باشا الذى ذهب إلى إيالة البصرة التى تشمل عدا العراق ، شرق الجزيرة العربية وكامل الساحل الغربى لخليج البصرة ، وبقى إلى حين بعيدا عن مؤامرات استانبول السياسية . كان قد ذهب إلى قطر يعرفه جيدا ويجيد لغته ويستطيع فيه أن يظهر قدارته العسكرية .

من ناحية أخرى ، استرجع سنان باشا اليمن من الأمام وساق الزيديين من الشمال إلى بحر عمان فى الجنوب . وجاء قورد أوغلو خضر رئيس بأسطوله واسترجع عدن من الزيديين (١٥٦٩/٥/١٥) . انتهت حركات اليمن باسترداد صنعاء فى ٢٦ تموز (١٥٦٩) . كانت قد بقيت لدى الإمام مطهر قلعة كوكبان . تم الاستيلاء عليها كذلك (١٥٧٠/٥/١٨) . تعهد الإمام بطاعة الخليفة . ورغم سفك دماء عثمانيين كثيرين ، لم يمس بسوء بسبب هويته الدينية . وخشى كذلك من ثورة الشعب الزيدى . كان الزيديون الذين هم شيعة معتدلون ، يعيشون مع السنيين على قدم المساواة . ولكن كان من الخطر ترك اليمن لإدارة الزيدية ؛ إذ إن البرتغاليين سيحتلونها فور انسحاب الجيش العثمانى . جاء بهرام باشا إلى زبيد (١٥٧٠/٥/٢١) . وكوال (فريق أول) أخذ عهدا من الأشراف ومن بينهم شيوخ حضرموت . كان يعرف البلاد بصورة جيدة ويجيد التكلم بالعربية حيث إن والده قرة شاهين باشا وكذلك أخيه الكبير رضوان باشا كانوا ولاة على اليمن . حكم اليمن بدراية تامة لمدة ٧ سنين .

أما سنان ، فقد أركب جنوده سفن الأسطول من مخا وغادر اليمن (١٥٧١/٣/١) . كان قد ترك القاهرة قبل ٢ سنة و ٢ شهر ، وبقى فى اليمن ١ سنة و ١٠ أشهر . صعد إلى البر فى جدة . حج . اجتمع بأمير مكة أبو نمى . انشغل فى الحجاز بالأمور الإدارية وجاء إلى استانبول . دخل إلى الديوان الهمايونى ، إلى حكومة الإمبراطورية العثمانية كوزير ٧ وأخير . أما الوزير ٦ ، فكان خصمه اللدود لالا مصطفى باشا .

٣) حملـــة أندونـــيزيا (١٥٦٨ ــ ٦٩)

أسرة قورد أوغللرى ، هى إحدى الأسر التركية البحارة الشهيرة فى القرن ١٦ . إن قائد الهند قورد أوغلو خضر خير الدين رئيس الذى حقق حملة أندونيزيا ، هو ابن مصلح الدين رئيس ، قائد الأسطول فى محاصرة القانونى لرودس سنة ١٥٢٢ ، الذى سمى ابنه باسم زميله بربروس خير الدين باشا .

كانت توجد فى سومطرة فى ذلك القرن ، ملكية آجه Açe المحلية المسلمة . دامت هذه الدوله من ١٥١٤ إلى ١٩٠٣ . تسلط البرتغاليون على هذه المناطق أيضا . بدأوا بإعاقة الأمور البحرية للآجيين . كان الجالس على العرش ، علاء الدين رعايت شاه قهار (١٥٣٧ ــ ١٥٦٨) الحاكم ٣ لآجه . وهو الذى طلب المساعدة من العثمانية . لكن كان الجالس على العرش خلال حملة أندونيزيا ، حسين شاه (١٥٦٨ ــ ١٥٧٥) .

كان قد مضى ٣٠ سنة على حملة الهند التى جرت فى ذات الموسم الذى جرت فيه حملة بروزة لسليمان باشا ، و ٧٠ سنة على وصول أول سفينة برتغالية جلبت بضاعة من الهند ، إلى أوروبا فأصابت البندقيه بالقلق خوفا على تجارتها .

لم يكن الحكام المسلمون فقط هم الذين يطلبون المساعدة من استانبول ، وإنما بدأ الحكام الهندوس كذلك . فمثلا ، كان اثنان من راجات سيلان والبنغال قد أرسلا رسالتين إلى استانبول ، يذكران فيها أنه فى حالة مساعدتهما عسكريا وتكنولوجيا ، فإنهما سيعترفان بالبادشاه متبوعا لهما ويقران الدين الإسلامى . أرسل السلطان سليمان مساعدات تكنولوجية إلى خاقانات وخانات تركستان كذلك . أرسل مدافع ، بنادق وعسكريين فنيين .

فكر السلطان ياوز سليم فى فتح قناة السويس واعادة الحركة لطريق البحر الأبيض . وبذلك سوف تقل الرغبة فى طريق رأس الرجاء الصالح الطويل جدا . لكن وافاه الاجل . والقانونى كذلك كان قد أمر الوزير الأعظم سميز على باشا ببحث موضوع القناة . وقد أخذ مشروع القناة بعين الاعتبار فى عهدى كل من سليم الثانى وابنه مراد الثالث ، ولم يتحقق ، فقد أصر قائد القوات البحرية قيليج على باشا على

ذلك ، عارضه صوقوللو محمد باشا . وربما كان ذلك لأن العثمانية كانت أغنى دولة فى العالم ، ولم تتمكن آسيا التى لاحظت غناء أوروبا الذى يفوق التصور لغاية أواسط القرن ١٨ ، من اتخاذ التدابير اللازمة ، ولم يتيسر إدراك قرب انتقال تفوق عالم البحر الأبيض الذى يرقى عهده إلى ٢٠٠٠ سنة ، إلى غرب البحر الأبيض .

كان السلطان سليمان قد أرسل مساعدة إلى آجه قبل قورد أوغلو خضر رئيس . وعلى سبيل المثال ، أرسل لطفى بك كسفير وأرسل معه ٨ من المدفعيين وعدة مدافع . أخذ سلطان آجه الهدايا ، قائلا : إنه عبد الخليفة المخلص ، وإنه سيعامل أى جندى يرسله ، معاملة الأمير ، وطلب مساعدة على نطاق أوسع . أرسلت إليه عدة مساعدات أخرى بأساطيل صغيرة . وأصبحت آجه بهذه المساعدات على مر الزمن ، صاحبة حصة عثمانية كبيرة . وفى حملة ملقة ١٥٦٧ ، كان تحت إمرته ٤٠٠ جندى بحرى عثمانى (لوند) (Menez Pinto Les Voyages ، باريس ١٦٢٨) . إن وفاة القانونى فى الوقت الذى قرر فيه تقديم مساعدة كبيرة ، واستبقاء الأسطول بسبب قضية اليمن ، أدى إلى تأخير المساعدة لعدة سنوات . وأخيرا ، أبحر قورد أوغلو من السويس فى ١٥٦٨ بـ ٢٢ قطعة من سفنه . سلم إلى السلطان مهمات تكنولوجية كثيرة ومئات من المتطوعين البحريين والمدفعيين . توسعت بذلك حدود الدولة العثمانية إلى الشرق الأقصى إلى جنوب شرق آسيا وإلى أندونيزيا . اعترفت دولة آجه التى تحكم شمال سومطرة وماليزيا ، بالعثمانية متبوعا لها . منح الأتراك القادمين مراتب عالية . أعطيت لهم قيادة الأسطول . قام الآجيون بواسطة هذا الأسطول بفتوحات مهمة . وهناك من هؤلاء الأتراك الذين تزوجوا بالنساء الآجيات من ارتقى إلى مرتبة الإمارة . احتفظ شعب آجه بالمدافع والأعلام التركية كذكرى مقدسة حتى يومنا هذا . واليوم يقول كثير من أهالى آجه بأنهم أحفاد البحارة الأتراك ، لكنهم نسوا التكلم بالتركية (ولمزيد من التوسع راجع الوثائق الأرشيفية العثمانية الرسمية فى سجل الوقائع اليومية للديوان الهمايونى Dîvân-Hümayûn Mühimme defteri ، انظر العقيد (ميرالاى) البحرى صفوت بك ، Bir Osmanli Filosunun Sumatra Seferi, TOEM no.10,11 .) لقد دحرت بدرجة كبيرة المساعدة العثمانية التعرض البرتغالى فى أندونيزيا ــ ماليزيا .

٤) حملة استراخان (١٥٦٩)

إن إمارة (خانلق) استرخان Astirhan (أجدرخان Ejderhan، استراخان Astrahân) هى دولة تركية يترأسها أمراء من أسرة جوجى أولوصو المنتسبة إلى بنى جنكيز ، وإحدى الدول التى تشكلت من أنقاض دولة الطون أوردى .. كانت الدولة فى أواخر عهدها تابعة للعثمانية . لكن روسيا احتلتها فى ١٥٥٦ وسيطرت على دلتا الفولغا ، وكان القطر عند القيام بحملة استرخان ، تحت الحكم الروسى منذ ١٣ سنة .

كان هدف الحملة استرداد الإمارة القديمة وأكثر من ذلك ، فتح قناة بين نهرى الدون والفولغا وتأمين المرور بين البحر الأسود والخزر بصورة متقابلة والوصول إلى تركستان عن طريق البحر . لو حفر طريق طوله ٥٠ كم من الموقع الذى ينعطف فيه النهران ، فسوف يمتلىء الطريق بالماء . وهكذا كان بالإمكان تأمين طريق نهرى طوله ٩٥٠ كم بين الميناء التركى Azak(Rostov) الواقع على بحر آزوف Azak واسترخان الواقعة على بحر الخزر . توجد حاليا مدينة فولغاغراد (قديما جارستان وحاليا ستالينغراد) فى الموقع الذى يقترب فيه نهر الفولغا (بالتركية : Idil) من الدون (بالتركية : Ten) على منعطف الفولغا . حفر الروس هذه القناة فى ١٩٥٢ ، وربطوا البحرين ببعضهما .

أمر سليم الثانى (Dîvân-Hümayûn Mühimme Defterleri ، ٧ ، ٩٤٨) باسترداد إمارة قزان التى كانت فيما مضى تابعة للعثمانية من الروس . وعلى الرغم من أن عملا كهذا كان مهما جدا .. يقتضى ذهاب البادشاه أو على الأقل الوزير الأعظم ، فإن صوقوللو محمد باشا لم يكلف أحد الوزراء ، وإنما كلف مستشار المالية جركس قاسم بك الذى عينه واليا (فريق أول) على كفه . ولم يتمكن هذا من السيطرة لا على الجند ولا على جيش العمال ولاعلى خان قرم . تصرف خان قرم بطريقة تؤدى إلى تمييع هذا العمل وعدم وصوله إلى نتيجة . كان يخشى من بقاء جنود البحرية والمشاة العثمانيين بصورة مستمرة فى حالة فتح القناة وأخذهم قرم من سلالة كيراى إذا اقتضى الأمر .

تحرك الأسطول لحملة استرخان من استانبول (١٥٦٩/٨/٤) ، ودخل ميناء

آزاك (روستوف) أى إلى مصب نهر الدون . بدأ ٨٠٠٠ انكشارى ، أكثر من ٢٠٠٠٠ سباهى تمارلى و ٣٠٠٠٠ عامل فى حفر القناة اعتبارا من آزاك . أما خان قرم دولت كيراى فإنه دخل مع ٣٠٠٠٠ من خيالته استرخان (١٥٦٩/٩/١٢) . ورغم سرية المدفعية العثمانية فقد رفع حصار القلعة بعد ٨ أيام ، وبناء على ذلك تعذر أخذ قلعة المدينة من الروس . جدير بالذكر أن القراميين غزاة وصاعقة ينفرون من محاصرة القلاع لأنها عملية شاقة وتستدعى خسائر كثيرة . من الواضح أن روح اللامبالاة التى أحاطت بالعملية لم يكن يتوقع معها أى نجاح للعملية .

لقد كانت عملية مهمة ؛ لأنها تجتاح السدين:الإيرانى والروسى ، وتربط تركية بتركستان ، ومع ذلك فقد توقفت . أوقفت الأعمال فى القناة بحجة هجوم البرد . إن قصد خان قرم ومبلغ فزعه من العثمانية يظهر من كلامه التالى :

« عندما تبدأ جنود العثمانية بالقدوم إلى الأراضى القبجاقية وشيروان (أوكراينا وشمال آذربيجان) سوف لاتبق هناك قيمة للتتر ويحتمل أن تذهب قرم من أيدينا ! » .

ألقى سليم الثانى مسئولية عدم التوفيق فى هذه العملية على عاتق صوقوللو بهذه الكلمات : « يقتضى تغريمك كافة المصاريف والأضرار ! » لقد كان تشخيص العثمانية للخطر الروسى فى هذه الفترة وحتى بعدها بوقت طويل .. قاصراً ؛ فقد كان ينظر إلى موسكو على أنها دولة من الدرجة الثانية تسدد ضريبة سنوية للعثمانية . أما قرم فإنها لم تفكر فى هذا الخطر أبدا (لأجل تدقيق الوثائق العثمانية الرسمية عن المعلومات حول هذه القناة ومحاولة فتح استرخان وقزان ، انظر أحمد رفيق ، Bahr-i Hazar-Karedeniz Kanali ve Ejderhan Seferi, TOEM, No. 43) .

٥) حملة قبرص (١٥٧٠ ـ ٧١)

انتقلت جزيرة قبرص التى أخذت فى الحملة الصليبية الثالثة من البيزنطيين والتى اسس فيها ملكية كاثوليكية لاتينية وجىء بأسرة Lusignan الفرنسية لرئاستها .. إلى حوزة البندقية وأصبحت مستعمرة بندقية . ولكون الشعب القبرصى رومى الأصل ، فقد عامله الإيطاليون الذين تلو الفرنسيين معاملة الكلاب . قامت مصر (المماليك)

فى ١٤٢٤ بمحاولة جدية لفتح الجزيرة . احتل الأسطول المملوكى الذى أنزل الجنود فى ميناء Limasol (بالتركية : ليماسون) Magosa (بالتركية : ماغوسا) ، وأسروا الملك Janus وأرسلوه إلى القاهرة . أصبحت قبرص تابعة للسلطان المملوكى وتدفع ضريبة سنوية . وعندما انتقلت الجزيرة لادارة البندقية ، أخذت البندقية كذلك فى تسديد هذه الضريبة إلى القاهرة . وبانتقال مصر إلى السلطان سليم فى ١٥١٧ ، أبلغت الجمهورية البندقية من تلقاء نفسها بأنها سوف تدفع ضريبة قبرص السنوية بعد الآن إلى استانبول .

لم تكن قبرص وكرا للقراصنة وبلية على المسلمين كجزيرة رودس فى حالة الصلح مع البندقية ، ولكنها كانت كذلك عندما تكون البندقية فى حالة حرب مع تركية ، لكن وجود مستعمرة لاتينية من بقايا الحروب الصليبية فى شرق البحر الأبيض ، كان شيئا قد مضى عهده . كانت تقطع طريق الأناضول ــ مصر البحرى . هذا عدا أنها كانت فى عهد الأمويين وبداية عهد العباسيين تشكل إحدى إيالات الامبراطورية الإسلامية ، ثم انتقلت لحوزة البيزنط ، ومازال بقبرص أماكن إسلامية مقدسة من بقايا عهد الحكم العربى .

نشأت فكرة فتح قبرص عند سليم الثانى . كان صوقوللو معارضا . كان الأميرالات يضغطون على البادشاه لتحقيق ذلك ويبحثون عن محاذير بقاء مستعمرة أوروبية فى شرق البحر الأبيض . كان خروج السلطان والوزير الأعظم فى حملات عبر البحار ممنوعا فى النظام العثمانى . كان صوقوللو يخشى من وزير يفتح قبرص فيحصل على شهرة فينافسه . وفى الوقت ذاته ، كان يقول : إن محاولة كهذه سوف لاتقتصر على حرب عثمانية ــ بندقية وإنما سوف تجر إلى حرب أوروبية جديدة .

قام الوزير داماد بيالة باشا بواسطة التشكيلات السرية العثمانية بعملية تدمير واسعة فى ميناء ومصنع السفن البندقى . شب حريق كبير ، استولى الذعر على الناس ، احترقت سفن كثيرة فى الميناء وفى المصنع ، انتبه مجلس السناتوفى البندقية اتضح أن الهدف هو قبرص . ذهب أسطول مسيحى مكون من ٢٠٤ قطعة إلى المياه القبرصية لحماية الجزيرة . رتب الديوان لقبرص أكبر عدد من السفن لم يسبق أن تجمع حتى ذلك التاريخ دفعة واحدة ، خصص لهذه العملية ٤٠٠ . جاء أسطول الاستطلاع لمراد رئيس إلى مياه قبرص فى شهر آذار وفى شهر

أيار ، سار الوزير ٣ داماد بيالة باشا بالقسم الأعظم من الأسطول الهمنايونى من استانبول (١٥٧٠/٥/١٥) . ولكون قائد القوات البحرية وناظر البحرية مؤذن ــ زاده على باشا جنرالا بالأصل وليس أمير بحر ، عين للقيادة بيالة باشا . أما الجيش البرى فقد تولى قيادته الوزير ٦ لالا مصطفى باشا وسوف يكون هو المسئول عن فتح الجزيرة . وبذلك يكون قد كلف لفتح قبرص ١ أميرال ــ كبير ، ١ مارشال (مشير) ٣ فريق أول بحرى و ٧ فريق أول . الفرقاء الأول البحريون هم ناظر البحرية على باشا ، بربروس ــ زاده حسن باشا وأولوج على باشا . كان الأسطول يحتوى على ١٠٠٠٠٠ شخص ؛ ٦٠٠٠٠ منهم جنود مشاة والبقية بحرية وجدافة . دخل الأسطول ميناء ليماسول (١٥٧٠/٧/١) وجرت عملية الإنزال فى اليوم التالى .

إن أقرب نقطة من قبرص إلى الأناضول ٧٠ ، إلى سورية ١٠٠ ، إلى مصر ٣٨٠ كم . وفى ٤ تموز جرى إنزال على ميناء لارنقة كذلك (بالتركية : طوزلا) . فتحت Kyrinia (بالتركية : كيرنة أو سرينية) فى ٩ تموز وبدأت محاصرة لفكوشة فى ٢٢ تموز . كان مركز الجزيرة لفكوشة ، لكن أقوى القلاع تحصينا كانت ماغوسا . كانت حامية لفكوشة ١٠٠٠٠ جندى بندق و ١٥٠ مدفعا . فتحت لفكوشة فى الهجوم العام الثالث بعد ٤٩ يوما (١٥٧٠/٩/٩) ، قتل والى عام قبرص Nicolo Dandolo. وبعد فترة قليلة استسلمت باف ، ليماسول ولارنقة . عين لالا مصطفى باشا ، والى شهرزور السابق مصطفى باشا واليا على قبرص واستبقاه فى لفكوشة مع ٢٠٠٠ جندى وجاء أمام ماغوسا .

كان ٥ جنرالات بندقيين يقومون بحماية ماغوسا المحصنة جدا ، ومعهم ٧٠٠٠ من جنودهم و ٧٥ مدفعا (Von Hammer ، ٦ ، ٤٠٨) ، لكنها تسلمت فى هذه الأيام ١٦٠٠ جندى وكمية كبيرة من المهمات . عاد بيالة باشا إلى استانبول فى ٦ ت١ (١٥٧٠) وفى ٤ آيار ١٥٧١ ، غادر استانبول الوزير ٢ برتو باشا (الذى لم يكن أميرالا وكان عسكريا بريا) وعين « قائدا للأسطول » « دونانمه سردارى » كان بيالة باشا . وهذه إحدى ترتيبات صوقوللو الغريبة التى تدل على نفوره من البحريين . أبحر برتو باشا مع قائد القوات البحرية مؤذن ــ زاده على باشا ، مع ٤٠٠ قطعة من الأسطول الهمايونى إلى إيطاليا ، وحالوا دون قدوم المساعدات إلى

قبرص بنجاح . وفى الوقت الذى كان فيه الأسطول يقوم بإنزال على صقلية ، كان لالا باشا مستمرا فى حصار ماغوسا وكان قد استبقى تحت إمرته ٤٠ سفينة فقط . كان باقى الأسطول قد انتشر فى مياه إيطاليا وبضمنه أولوج على باشا وبربروس — زاده حسن باشا .

سقطت ماغوسا فى الهجوم (بالعثمانية : يورويوش) ٦ (١٥٧١/٨/١) وتم فتح قبرص فى غضون ١٣ شهراً . تكونت الإيالة الجديدة بإضافة ٤ ألوية (علائية = آلانية ، إيجل = سلفكة ، طرسوس ، سيس = قوزان) من الأناضول . تم إسكان عدو كبير من الأتراك الأناضوليين فى الجزيرة . وبينما كان تعداد قبرص التى يسميها الاتراك « يشيل أده » (أى الجزيرة الخضراء) عند الفتح ١٢٠ ٠٠٠ (روضة الأبرار ، ص ٤٥٠) زادت إلى ٣٦٠ ٠٠٠ .

منحت العثمانية لرئيس الأساقفه الأرثوذكسى كافة الصلاحيات وأعطته الصلاحيات المدنية بالنسبة للجماعة الرومية ، ولم تكن لرئيس الأساقفه هذه الصلاحية فى العهد البندقى . غنم الأتراك المدافع الموجودة فى الجزيرة وعددها ٧٦٠ مدفعا .

بقى « فاتح قبرص » لالا مصطفى باشا فى الجزيرة مدة مجموعها ١ سنة ، ١/٥ شهر . أما الحملة فقد استمرت نحوا من ١/٥ سنة . غادر لالا باشا الجزيرة فى ١٥ أيلول (١٥٧١) (Hammer ، ٦ ، ٤١٧) .

٦) هزيمة اينبختى Inebahti (١٥٧١/١٠/٧)

عقد البابا فى ٢٥ آيار ١٥٧١ معاهدة الاتفاق ضد العثمانية مع ملك أسبانيا ، دوج (رئيس جمهور) البندقيه وضموا إليها بعض الدول الصغيرة كذلك . هذا هو الاتفاق ١٣ الموجه ضد تركية منذ تأسيس الدولة العثمانية (Hammer ، ٦ ، ٤٢٠ — ١) . ذكر البابا بيوس ٥ فى الكتاب الذى حرره إلى ملك أسبانيا فيليب — ابن شارل — كوينت — المؤرخ ١٥٧٠/٣/٨ مايلى : « لاتوجد فى العالم المسيحى أية دولة مسيحية يمكنها أن تقف لوحدها تجاه العثمانية . وبناء على ذلك يجب على كافة الدول المسيحية أن تتحد لتكسر الغرور التركى . » .

كانت أجهزة المخابرات التركية فى البندقية وروما قد أبلغت الديوان الهمايونى خبر

معاهدة الاتفاق عندما كانت فى مرحلتها التحضيرية ، على بساط الفاوضات . وفى سنة ١٥٧٠ وصيف ١٥٧١ كان الأسطول الهمايونى قد فتش عن الأسطول الصليبى ولم يعثر عليه ، ولعل ذلك يؤكد أن العثمانية لم تكن غافلة .

كان قائد الأسطول الوزير ٢ برتو باشا ، قد تسلم أمر العثور على الأسطول الصليبى وإبادته ، وكان الديوان قد أعطى الأمر القطعى ذاته إلى قائد القوات البحرية . لكن كلاً من برتو باشا أو مؤذن ــ زاده على باشا ، كانا قائدين لم يركبا السفن إلا حديثا وقضيا حياتهما كجنرالين فى القوة البرية . ومع أن الأسطول التركى فى البحر الأبيض يبلغ نحو ٤٠٠ سفينة ، لكنها توزعت عند حلول الخريف إلى قواعد مختلفة . أما السفن الـ ١٨٤ التى تشكل القسم الكلى ، فهى بإمرة برتو باشا ومؤذن ــ زاده على باشا ، فقد جاءت إلى قاعدة اينبختى (Lepanto) . ذهب عدد غير قليل من الضباط بإذن أو بدون إذن إلى هنا وهناك لقضاء الشتاء . ويظهر كذلك إن الجنرالين لم يتمكنا من السيطرة على الأسطول وضبطه . وهناك عدد كبير من السفن كانت تحتاج إلى إصلاح وأودعت مصنع التصليح فى إينبختى بسبب سيرها مدة طويلة . اينبختى Inebahti ، وهى ميناء عثمانى فى اليونان على خليجى باتراس ــ كورنثوس ، الساحل المواجه لها مورا وميناء Patras (بالعثمانية : باللى بادرا) .

كان الأسطول الصليبى (أرمادا) يحتوى على ٢٩٥ سفينة و ٣٠٠٠٠ جندى ، ١٦٠٠٠ جداف (فورسا) و ٢٠٨ من السفن الحربية (قادرغه) ؛ ١١٤ منها بندقية و ٧٠ أسبانية و ١٢ بابوية و ٦ مالطية و ٣ جنوية و ٣ سافوائية . كان القائد العام أخو فيليب الثانى Don Juan « وهو ابن الإمبراطور كارلوس الثانى ابن زنى » (كاتب جلبى ، تحفة الكبار ، ص ٩٢) ، أى أنه كان ابنا غير شرعى . كان قائد الأسطول البندقى الأميرال ــ الكبير Veniero ، والأسطول البابـوى الأمير Marco-Antonio Colonna . ويقود الأسطول الأسبانى Giovanni Andrea Doria الذى هزم فى جربة أمام بيالة باشا . كان الأميرال ــ الكبير لصقلية Cordona على رأس ٨ قطع من الأسطول الطليعى . كان الاميرال ــ الكبير لنابولى Marki Bazzano على رأس أسطول الاحتياط المكون من ٣٠ قطعة . ويحتوى الأسطول على أميرالات مشهورين بينهم دوق Parma ، أميرال ــ كبير جنوة دوق Urbano ، أميرال ــ كبير كاستيليا ، صهر ملك البرتغال ولى عهد بارما Alessan dro

Farnese ، أميرال ـــ كبير مالطة Guistiniani (Hammer ، ٦ ، ٤٢٢ ـــ ٥) .

كان الأسطول التركى يحتوى على ١ وزير (مارشال ، الوزير ٢ برتو باشا) ، ٤ فريق أول بحرى (قائد القوات البحرية مؤذن ـــ زاده على باشا ، والى الجزائر ألولوج على باشا ، والى طرابلس الغرب جعفر باشا وبربروس ـــ زاده حسن باشا الذى كلف بواجب المستشار لبرتو باشا) ، ١٥ لواءً بحرياً ، ونحو ٢٠٠ قائد سفينة (قبطان) . كان حسن باشا الذى يعيش أشهره الأخيرة فى الـ ٧١ ، وألوج على باشا فى الـ ٦٤ سنة من عمره . كان بين الألوية البحريين صالح باشا ـــ زاده محمد بك ، بربروس ـــ زاده محمود بك ابن حسن باشا المولود من ابنة طرغد باشا . كان جميع الجدافة الموجودين فى الأسطول التركى على الإطلاق من المسيحيين . كان هذا الأمر عنصرا مهما . إن كثيراً من الضباط الذين شاهدوا السفن وقد ألقت مراسيها فى إينبختى لقضاء الشتاء وتوقعوا أن العدو لايهجم فى هذا الموسم ، انفصلوا عن سفنهم ، وفضلا عن ذلك كان هناك نقص فى الجدافة (بجوى ، ١ ، ٤٩٦ ؛ منجمباشى ، ٣ ، ٥٢٨ ؛ سلانيكى ، ١٠٥ ؛ تحفة ، ٩٢) .

وعلى أثر اقتراب العدو ، جمع برتو باشا فى سفينته الأميرالية ١٩ أميرالا ٤ منهم فرقاء أول (بكلربك) و ١٥ منهم ألوية (سنجق بك) ، وعلى أثر اختلاف الرأى وانقسامه إلى قسمين ، انفض المجلس الحربى دون قرار . كان الثقل فى جانب برتو باشا ومؤذن ـــ زاده على باشا ، إذ إن كليهما كانا مسئولين أمام الديوان . كلاهما لم يكن من البحرية . اقترح أمراء البحر الحقيقيون تكتيكا مغايرا وأصروا عليهم وخاصة أولوج على بك ، ولكنهم لم يفلحوا فى إقناع برتو باشا ومؤذن ـــ زاده على باشا . أراد الأميرالات عدم دخول هذه المعركة إلا بعد قصف قطعات العدو بمدافع القلاع وإتلافها ومن ثم تعقبه . وعندما أفاد برتو باشا وعلى باشا بأنهما استلما أمر الهجوم بصورة مؤكدة ، أجابوا بوجوب الخروج إلى البحار المفتوحة . أفاد الباشوات بأنهم سوف لن يبتعدوا عن الساحل . اكد قائد القوات البحرية خاصة أنه هو المسئول عن الأسطول وكرر ذلك مرارا ، إن عباراته التالية التى تدل على جهله أصبحت فى ذمة التاريخ : « أى كلب هو ذلك الكافر حتى نخافه ؟ » (سلانيكى ، ١٠٤ ؛ « إننى لاأخشى على منصبى ولا على رأسى ، أن الأوامر الواردة من الديوان تشير إلى الهجوم » (بجوى ، ١ ، ٤٩٦ ـــ ٧) ؛ « لاضير من

نقص خمسة أو عشرة أشخاص من كل سفينة .. ألا توجد غيرة على الإسلام ، ألا يصان شرف البادشاه ؟ » (منجمباشى ، ٣ ، ٥٢٨ ــ ٩) . ولم يجد صياح أولوج نفعا إذ قال « أين الذين حاربوا مع خير الدين باشا وطرغدجه باشا ، لماذا لايتكلمون ، هل يمكن أن تكون حرب بحرية فى ساحل ؟ » (تحفه ، ٩٣) .

جرت حرب إينبختى (Lepanto) إحدى أكبر الحروب فى التاريخ ، بشكل دموى رهيب . استشهد قائد القوة البحرية مؤذن ــ زاده على باشا وابنه ، وأسر الأسبان ابنه الآخر . قتل الأميرال البندق Barbarigo . غرقت سفينة الأميرالية لبرتو باشا وشدت إلى الساحل بتضحية كبيرة وأنقذت . كان أولوج على بك يقود الجناح الأيمن . لم يفقد أية سفينة حربية من سفنه البالغ عددها ٤٢ . أباد كامل الأسطول المالطى الذى جابهه . قتل الأميرال ــ الكبير المالطى واغتنم رايته . استصحب بربروس ــ زاده حسن باشا وابتعد عن ساحة القتال . حيث لم تعد ترجى فائدة من المركز والجناح الأيسر العثمانى .

إن كشف خسائر الحرب كان مخيفا لكلا الطرفين . ١٤٢ سفينة تركية بين غريقة وجانحة على الأرض أو مستولى عليها . استولى العدو على ٦٠ سفينة ، اقتسمت بين دول الاتفاق ، كما استولى على ١١٧ مدفعا كبيرا و ٢٥٦ مدفعاً صغيرا صالحة للاستعمال خرجت من هذه السفن . تم تخليص ٣٠٠٠٠ من الأسرى الجدافة المسيحيين الذين كانوا فى الأسطول الهمايونى . سقط آلاف من الأتراك شهداء و ٣٤٦٠ أسيراً . كان مجموع الشهداء والأسرى الأتراك يقارب ٢٠٠٠٠ . كانت خسائر المسيحيين ٨٠٠٠ قتيل ، ٢٠٠٠٠ جريح ، وقليلا جدا من الأسرى (Hammer ، ٦ ، ٤٢٩) . لم تبق تقريبا سفينة حربية أو ناقلة مسيحية غير مصابة . فقد Cervantés كاتب دون كيشوت – الذى كان قد عاش سنين طويلة فى الجزائر كأسير لدى الأتراك – ذراعه اليسرى . جرح أيضا القائد Don Juan .

كان ٣ من أسرى الأتراك برتبة لواء بحرى وأحدهم ابن قائد القوات البحرية . حاز المسيحيون على ٣ شارات رأس لبرتو باشا ، راية مؤذن – زاده الحريرية المطرزة بالذهب (أعاد البابا هذه الراية إلى تركية فى ١٩٦٥ كرمز للصداقة) .

لم تكن خسارة العثمانية الحقيقية خسارة مادية وإنما كانت خسارة معنوية . زالت شهرة العثمانية بأنها دولة « لاتقهر » ، وثبت فعليا إمكان قهرها . كانت تركية حقا

هى المنتصرة فى حرب البندقية ، ولم تكن إينبختى سوى حرب واحدة ضمن تلك الحروب ، لكنها كانت حربا ذات مغزى كبير . رقصت أوروبا فرحا .

« أثبتت إينبختى بأنه يمكن قهر الأتراك . ولكن لونظرنا إلى نتيجة الحرب كما كتبها فولتير فى Essai Sur les Moeurs لاعتقد المرء بأن الأتراك هم الذين انتصروا فى إينبختى » . إن هذا الانتصار لم يحقق للمسيحيين والدول المسيحية أدنى مكسب ، فهذه الهزيمة أفادت العثمانيين من حيث إثبات أنهم أمة على درجة من القدرة والرفاهية ، فهم قد شيدوا عددا من السفن يعادل مافقدوه فى اينبختى ، وجهزوها وأثثوها وأنزلوها فى البحر الأبيض خلال عدة أشهر .. ويعتبر هذا العمل من أسرع الأعمال التى سجلها التاريخ ، وفى الوقت الذى كان البنادقة يشيدون التماثيل فيه على شرف انتصارهم ، كان الأتراك يعملون فى مصانع سفنهم على قدم وساق وبجهد منقطع النظير ، لقد منح البادشاه قسما من أراضى حديقته الخاصة إلى المصنع لغرض إنشائه ٨ سفن ، وشيد الأتراك خلال شتاء واحد وهو الذى عقب إينبختى ١٥٣ سفينة حربية وجهزوها وهى أكثر من التى فقدوها فى إينبختى . وبذلك يكون الأسطول التركى قد فاق عدد مجموع سفن دول الاتفاق . وأساساً فإن المعاهدة التى عقدت مع البندقية صريحة جدا ، وهى تبين من هو المنتصر فى الحرب . إن انتصار اينبختى لم يجد نفعا للمسيحيين (Von Hammer ، ٦ ، ٤٣٠ - ٣) .

ولتقوية الروح المعنوية لشعب إستانبول ، استصحب أولوج على باشا صديقه بربروس - زاده حسن باشا مع القطع البحرية الموجودة فى بحر إيجة ، ودخل إستانبول بعد الهزيمة بشهرين ، ١٣ يوما مع أسطول كبير يتألف من ٨٧ سفينة حربية . مثل الأميرال بين يدى سليم الثانى ، وبدل اسمه إلى « قيليج على » (على القاطع أو على السيف) . تمت ترقيته من منصبه إلى قائد القوات البحرية وناظر البحريه . وهكذا دخل بين أعضاء الديوان بحار صلب لايستريح له صوقوللو أبدا . لكن الوزير ٢ برتو باشا ، أحال نفسه على التقاعد . سر صوقوللو لخلاصه من أحد منافسيه . أصبح بيالة باشا المكروه أكثر من صوقوللو وزيرا ثانيا . توفى بربروس - زاده حسن باشا بعد عدة أسابيع من عودته إلى إستانبول .

غادر قيليج على باشا إستانبول مع ٢٤٥ سفينة حربية (١٥٧٢/٦/١٣) . كانت خطة أسطول الحلفاء إنقاذ قبرص . لكنه كان قد قدم ضحايا كثيرة من السفن

وخاصة من البشر ، ولعدم امتلاكه مخزونا من الأطعمة لم يتمكن من الدخول إلى قبرص ، فاتجه إلى المياه التركية بعد أن ضمد جراحه بأمل الاستيلاء على مورا ومودن . لكن دون جوان ابتعد وذهب حينما شاهد قيليج على باشا قادما مع أسطوله ومتجها نحوه . إن تمكّن الأسطول التركى من تعويض خسائره خلال شتاء واحد خيب آمال إسبانيا والبندقية . اختلف دون جوان مع البنادقة أيضا وعاد إلى إسبانيا . مات البابا بيوس ٥ الذى كتب رسالة إلى الشاه الصفوى كما كتب إلى الإمام الزيدى فى اليمن يدعوهما للتحالف (١٥٧٢/٥/١) .

عقدت معاهدة إستانبول بين تركية والبندقية (١٥٧٣/٣/٧) ، وهى تتكون من ٧ مواد من بينها ؛ تسدد البندقيه إلى تركية ٣٠٠٠٠٠ ليرة ذهب كغرامات حرب رمزية ، تزاد الضريبة السنوية لجزيرة زنتا Zenta الموجودة فى حوزة البندقية من ٥٠٠ ليرة ذهب إلى ١٥٠٠ . تبقى قبرص لدى تركية . تلقت البندقية - التى خشيت من احتمال هجوم قيليج على باشا على كريت - خبر الصلح بسرور .

تحرك قيليج على باشا بالأسطول من إستانبول فى السنة التالية (١٥٧٣/٦/٣) . كان الوزير ٢ داماد بيالة باشا موجودا كذلك . تم تدمير سواحل إيطاليا الجنوبية المشرفة على بحرى Adria و Tiren . كانت هذه الحملة التى جرت بواسطة ٢٢٠ سفينة حربية مقدمة لفتح تونس . لقد كان أخذ قبرص من البندقية بمثابة تعويض عن خسارة إينبختى ، وسوف تؤخذ بعدها تونس من إسبانيا .

(٧) فتح موسكو (١٥٧١/٥/٢٤)

سار خان قرم دولت كيراى فى ربيع ١٥٧١ بجيش مكون من ١٢٠٠٠٠ خيال أكثرهم من قرم ، وقسم منه جنود عثمانيون ، إلى روسيا . استصحب معه سرية مدفعية عثمانية . جرت هذه الحملة للتعويض عن هزيمة استرخان وتحذيرا للروس من محاولتهم التوسع أكثر . تشتت الجيش الروسى بعد أن خسر ٨٠٠٠ شخص ولم يتمكن من الدفاع عن موسكو . دخل الأتراك موسكو وأحرقوا المدينة . عاد الخان إلى قرم مع ١٥٠٠٠٠ أسير وعلى أثر انتصاره ، حصل على لقب « تخت - آلان » (كاسب العرش) . شاهد الأتراك الذين دخلوا موسكو فى ٢٤ أيار ١٥٧١

وأحرقوا حتى سراى الكرملين،فرارمعظم الأهالى وأسروا البقية . وفى ١٥٧٢ ، سار دولت كيراى بحملة ثانية . اجتاز نهر Oka ، لم يصعد إلى الشمال أكثر من ذلك . دفعت روسيا ضريبة سنوية قدرها ٦٠٠٠٠ ليرة ذهباً وعقدت صلحا مع قرم (d'Ohsson ، ٧ ، ٤٤٣ ؛ Lavisse - Rambaud ، ٥ ، ٧٤٩ ؛ Hammer ، ٦ ، ٤٤٦) . لقد أدى ترك القيصر إيفان (المدهش) الرابع ٣٠٠٠٠ خيال و ٦٠٠٠ جندى مشاة من حملة البنادق وفراره من موسكو واغتنام الأتراك خزينة القيصر الموجودة فى قصر الكرملن (هذه الكلمة تركية الأصل) ، ومقتل أخوى زوجة القيصر الإثنين ، كل ذلك أدى بسلالة Rurik إلى الانقراض . بارك سليم الثانى دولت كيراى بإرساله إليه سيفا مرصعا وخلعة وكتابا سلطانيا . لم يلتفت الديوان أبدا إلى سفراء الروس الذين جاءوا لإيقاف الغزوات القرامية ، وكان الشعب فى إستانبول حانقا جدا على الروس بسبب احتلالهم إمارات قزان وإسترخان . إن هاتين الإمارتين هما من أوائل الأقطار التى انتقلت لحوزة المسيحيين،وحاليا مسلمة ومازالت لدى الروس .

(٨) حملة تونس (١٥٧٤)

كانت مشكلة مسلمى الأندلس مستمرة بين العثمانية وإسبانيا ولاتزال تشكل جرحا بليغا وداميا وتعرقل الديوان عن عقد الصلح مع أكبر دولة مسيحية .

كانت إسبانيا فى حالة حرب مستمرة ، تزعم الثوار المسلمين فى الأندلس بالتسلسل ابن أمية ، عبد الله بن عبدو ومحمد منصور .

صعد جماعة الأندلسيين المحاربين إلى سفوح سيرانفادا ، ثم إلى ذراها ، ذبحهم دون جوان غالب إينبختى بصورة قذرة . حقيقة لقد تكبد الإسبان خسائر جسيمة ولكنهم لم يكن قد بقى لديهم مايخشون على ضياعه (١٥٦٩) .

اقترفت إسبانيا الظلم ذاته تجاه رعاياها البروتستانت الموجودين فى إسبانيا ، هولندا . وأشهر اثنتين من هذه المجازر البشرية هى ذبح كل سكان مدينة Harleem البالغ عددهم ١٥٠٠٠ نسمة فى ١٥٧٣ وتكرار الفعل ذاته فى ١٥٩٥ مع كل سكان مدينة Dullans البروتستانت البالغ عددهم ٤٠٠٠ نسمة (Lavisse-Rambaud ، ٥ ، ١٣٠) .

استمر أولوج على باشا فى الاهتمام بقضية المهاجرين الأندلسيين عند تعيينه واليا (فريق أول) على الجزائر اعتبارا من ٢٧ حزيران ١٥٦٨ وحتى تعيينه ناظرا للبحرية وقائداً للقوات البحرية (قبودان دريا) . وكان قبلها قد قام بالولاية (برتبة لواء) على تلمسان لمدة طويلة ، ونقل مهاجرين أندلسيين على دفعات عديدة . وهو أحد الأميرالات من بقايا عهد الإخوة بربروس الذين قلوا كثيرا ، كما أنه خبير كبير بأمور المغرب والأندلس . أرسل سفنه الـ ٤٠ إلى ميناء Almeria (بالعربية : المرية) فى إسبانيا . وتمكن من توصيل قدر كبير من الأسلحة النارية إلى الثوار فى جبال الأندلس . أركب آلاف المهاجرين من الذين أمكنهم الاقتراب إلى الساحل .

اجتاز المياه المواجهة لوهران ودخل فاس مع ١٤٠٠٠ جندى تركى ، ٦٠٠٠٠ جندى عربى بربرى أكثرهم مهاجر أندلسى و ١٤٠٠ جمل محمل بالبارود وجاء أمام أسوار فاس .

تمكن عدة مئات من جنود البحرية الأتراك من النزول فى الأراضى الإسبانية مع أسلحتهم النارية ومن بينها المدافع ، والوصول إلى الثوار الأندلسيين والانضمام إليهم .

وفى ١٥٦٩ جرى إنزال على الأندلس على نطاق أوسع . عدة مئات من جنود البحرية ، دخلوا أعماق الأندلس ومعهم ٤٠٠٠ بندقية ومهمات أخرى وانضموا إلى الثوار .

ومن ناحية أخرى ، كان شعب مدينة تونس يعانى من أمرين ، ظلم الإسبان والحفصيين . جاء أعيان الشعب وممثلوهم إلى إستانبول أيضا وشكوا مصائبهم بعد استراحتهم فى الديوان (١٥٦٣) . كانوا يريدون قدوم العثمانية وطرد السلطان والحامية الإسبانية من مدينة تونس ، خاصة وأن التونسيين كانوا يشاهدون المدن وعلى رأسها مدينة الجزائر والموانىء الجزائرية قد اغتنت جدا بفضل مبيعات الغنائم التركية ، كما استقر فيها الأمن بشكل لم يسبق له مثيل من أية إدارة حتى ذلك التاريخ .

سار أولوج على باشا بعد أن ترك وكيلا عنه فى الجزائر ، على تونس بـ ٥٠٠٠ جندى تركى و ٦٠٠٠ عربى (أيلول ١٥٦٩) . ورغم أن السلطان الحفصى قابله بـ ٣٠٠٠٠ جندى فقد انتقل هؤلاء الجنود إلى صفوف أولوج على باشا .

لجأ السلطان إلى الحامية الإسبانية فى حلق الواد .

دخل الباشا مدينة تونس (ك١/١٥٦٩) استبقى رمضان بك (باشا) فى المدينة كوال .

جاء السلطان الحفصى بعد مدة مع الإسبان وطرد رمضان بك وجنوده الـ ٣٠٠٠ . ورغم أن أولوج على باشا راجع الديوان مرارا سواء حول القيام بإنزال واسع النطاق على الأندلس أو فتح مدينة تونس الحاسم ، لكنه لم يحصل على أية نتيجة من بطل الصلح صوقوللو محمد باشا .

حاول أولوج على باشا بعد أن أصبح عضوا فى الديوان الهمايونى وقائدا للقوات البحرية باسم قيليج على باشا فى إستانبول أن يشرح الوضع للوزراء فى الديوان . ومع أن بيالة باشا أيده ، إلا أن الأكثرية فى الديوان كانوا ينظرون إلى الكلمة التى ستخرج من فم الوزير الأعظم صوقوللو محمد باشا . وصرح للديوان بأن بربروس - زاده حسن باشا الكبير السن مطلع أتم الاطلاع على قضايا المغرب وأوصاهم بتعيينه مرة أخرى فى الجزائر بدلا منه . أنفذ الديوان هذا التعيين ، لكن حسن باشا توفى قبل مغادرته إستانبول (١٥٧٢/٣/١٥) .

رفع اللواء البحرى والى قوجا إيلى (إزميت) أحمد بك إلى رتبة الأميرالية (فريق أول بحرى) وأرسِل إلى الجزائر .. ولحين قدومه قام ميمى Memi رئيس أحد الأميرالات المشهورين بإدارة الإيالة بالوكالة (Divân - Hümayûn Mühimme Defteri ، ١٠ ، ١٧٩) . كان الوالى الجديد أحمد باشا ، أميرالا قديرا نشأ فى كنف قيليج على باشا ، ولأن أمه إسكندرانية ، كان يجيد التكلم بالعربية وكان أمير لواء بحرى (والى) على رودس ، قبل كونه واليا على قوجا إيلى .

ورغم أن ثلاثة أرباع تونس تابعة للعثمانية لإيالة طرابلس ، إلا أن إسبانيا كانت تحتل شمال القطر ومدينته الكبيرة تونس .جاء دون جوان مع ١٣٨ سفينة حربية و ٢٧٠٠٠ جندى إلى تونس . كان رمضان بك (باشا) الشهير الذى كان يحمل لقب « تونس سنجق بك » (أى لواء بحرى « والى » تونس) قد ترك مدينة تونس وأقام فى القيروان التى لايصلها النفوذ الإسبانى - الحفصى . استدعى الديوان أحمد باشا إلى إستانبول وعين رمضان بك بمنحه رتبة بكلربك (فريق أول بحرى) واليا على إيالة الجزائر (١٥٧٤/٣/٢٧) بدلا منه ، استنادا إلى أنه أكثر خبرة منه بأمور

المغرب . كان دون جوان قد ترك فى تونس ٨١٠٠ جندى ثم عاد . كان رمضان باشا عازما على إخراج الإسبان من تونس وكذلك من فاس ، وكان عالما بأن أستاذه قيليج على باشا سوف يسانده فى الديوان . كان أميرالا واسع البصيرة ويحتمل أنه آخر بحار تركى داهية فى القرن ١٦ ، وأصغرهم سنا . فصل الديوان الأراضى التونسية من إيالة طرابلس وأسس إيالة تونس الجديدة وعين حيدر باشا واليا عليها (١٥٧٣/٥/١٧) . كان حيدر باشا مقيما فى القيروان . وفى هذه الحالة كان فتح تونس الحاسم قد استكمل وفى انتظار المحاولة العثمانية .

خلع الإسبان السلطان أحمد الذى لم يستطع الدفاع عن تونس وظفر بها الأتراك . توسل أخوه مولاى حميد لدى الدون جوان لاحتلال مكان أخيه الكبير ، وحاول كثيرا فى هذا الشأن دون جدوى . أرسل مع عائلته للإقامة فى مدينة نابولى . لكن الأخ الآخر مولاى محمد ، أصبح الحاكم ٢٤ والأخير لحفصيى تونس بلقب « نائب الملك الإسبانى وأمير (infant) الملكية الإسبانية فى تونس » . كانت نهاية هذه السلالة السنية – المالكية البربرية المستعربة التى دامت ٣٤٦ سنه منذ ١٢٢٨ قد دنت .

سار الأسطول الهمايونى من إستانبول (١٥٧٤/٥/١٥) لأخذ مدينة تونس من الإسبانيين . جرت مراسم عسكرية ودينية كبيرة أمام قبر بربروس ، وبعد تحية القبر بمدافع السفن أبحرت ٢٩٨ سفينة تحمل ٤٠٠٠٠ جندى ، ٧٠٠٠ منهم إنكشارية و ٤٨٠٠٠ جدافة . كان ناظر البحرية المشير البحرى قيليج على باشا قائدا للأسطول ، والقائد العام الوزير قوجا سنان باشا قائدا للقوات البرية . جاء الأسطول إلى تونس (٢٢ تموز) بعد أن دخل ميناء مسينا وقام بعرض . كان الأسطول يحتوى عدا قائد البحرية على ٤ فرقاء أول بحريين (والى طرابلس مصطفى باشا ، والى تونس حيدر باشا ، والى الجزائر رمضان باشا ، والى الجزائر السابق ثم والى قبرص أحمد باشا) . كان الإسبانيون قد حصنوا قلعة حلق الواد (بالفرنسية : La Goulette ؛ بالإسبانية : Gouletta) بشكل ممتاز . قاوم الإسبان بشدة فى هذه القلعة التى سبق أن انتقلت لحوزة العثمانيين مدة ٣٣ يوما . فتحت فى ٢٤ آب . قتل ٥٠٠٠ جندى إسبانى – إيطالى وأسر ٣٠٠٠ منهم . كان الأميرال Pagano Doria بين القتلى ، وكان القائد العام Don Pietro والسلطان الحفصى محمد بين

الأسرى . أرسل مولاى محمد مع عائلته إلى إستانبول وخصص له قصر أقام فيه إلى نهاية عمره . غنمت العثمانية ٢٢٥ مدفعا و ٣٣ راية ، أرسل منها ١٩٠ مدفعا إلى إستانبول . زرع قيليج على باشا ٣٠ لغما وفجر هذه القلعة الشهيرة ليقطع الطريق على مجيء الإسبانيين الذين لم يكن أمامهم بعد تفجير القلعة سوى مدينة تونس المفتوحة .

أنقذت البلاد التونسية من تسلط الإسبان مدة قرن تقريبا . سقطت فى ١٣ أيلول قلعة Bastion (بالعربية : البسطيون) الموجودة فى أحد جوانب مدينة تونس التى يقوم بحمايتها ٢١١٠٠ إسبانى بعد حصار دام ٦ أيام . دخلت المدينة الكبيرة التى تحتوى على أكثر من ١٠٠ ألف نسمة من السكان فى حوزة العثمانية لمدة ٣٠٧ سنة . دامت الحملة ٦ أشهر و ١٦ يوما . وقف السلطان سليم الثانى الذى تسلم خبر الفتح بعد ٣٤ يوما (١٧ ت ١) من الفتح لمشاهدة عودة الأسطول الهمايونى (١٥٧٤/١١/٣٠) . كان قد بقى من عمره ١٥ يوما . أهدى قيليج على باشا سيفا مرصعا و ٣٠٠٠ ليرة ذهب وهدايا أخرى .

نقل حيدر باشا مركز الإيالة من قيروان إلى مدينة تونس ، زوده قيليج على باشا بـ ٤٠٠٠ جندى إضافى . أسست فى تونس كما فى الجزائر حامية إنكشارية من المتطوعين القادمين من الأناضول الذين ليست لهم أية علاقة بحامية الإنكشارية الموجودة فى إستانبول . (تحفة الكبار ، ٩٧ – ٨ ؛ يجوى ، ١ ، ٥٠١ – ٣ ، صولاقزاده ، ٥٩٤ ؛ منجمباشى ، ٣ ، ٥٣١) .

(٩) وفاة السلطان سليم الثانى (١٥٧٤/١٢/١٥) وشخصيته

توفى السلطان سليم خان الثانى على أثر سقوطه من جراء انزلاق قدمه أثناء استحمامه فى حمامه فى سراى طوبقابو . توفى بعد عدة أيام من هذه الحادثة بسبب نزيف دماغى (١٥٧٤/١٢/١٥) . كان عمره يتجاوز الـ ٥٠ سنة بـ ٦ أشهر و ١٨ يوما . دامت سلطنته ٨ سنوات و ٣ أشهر و ٨ أيام . توفى فى ذات العمر الذى توفى فيه جده السلطان ياوز سليم الأول وسلطنة ياوز تزيد على سلطنة حفيده بـ ٥٠ يوما فقط . الشبه ينتهى هنا ، فقد كان سليم الثانى هو السلطان العثمانى الأول الذى

لم يتمكن من اللحاق بركب أجداده . ومع أن حلقة الدهاة قد جاءت بعد ذلك بين الحين والآخر بثمارها لكنها اكتملت بالسلطان سليمان القانونى ولم تتعداه إلى السلطان سليم الثانى .

كان السلطان سليم ، أول سلطان يولد فى إستانبول ، وهو كذلك أول سلطان يموت فيها . دفن فى فناء جامع أياصوفيا فى قبره الجميل من بناء سنان ، ورغم تشييده جامعه الكبير سليمية فى أدرنة ، إلا أنه لم يتيسر أن يدفن فيه .

كان متوسط القامة ناصع الجبين . عيناه كستنائيتان تميلان إلى الصفرة ، أشقر ، صيادا وصانع أقواس ماهرا . اشترك فى حملات أبيه الهمايونية ، وشاهد أقطارا كثيرة جدا ، تمت تنشئته وتعليمه بشكل ممتاز لكنه ترك أمور الدولة بشكل واسع إلى صهره صوقوللو محمد باشا الذى كان أكبر منه سنا . وهو وزيره الأعظم الأوحد . هو أول حاكم لم يخرج إلى الحملات بنفسه . ويجب أن يؤخذ بعين الاعتبار أن الحملات كانت عبر البحار وأن صوقوللو اتبع سياسة عدم خروج البادشاه للحملات لئلا يخرج هو كذلك .

لم يخرج صوقوللو إلى الحملة أبدا طيلة مدة وزارته العظمى الطويلة . ومع خشيته من صوقوللو ، والأصح من الانكشارية الذين يستند عليهم ، لم يسمح لصوقوللو بالقضاء على كثير من رجال الدولة الذين أراد البطش بهم . وحماهم بشكل يليق بذكائه . ولولا هذه الحماية لما تمكن لالا مصطفى باشا (الذى سيفتح قبرص) ولا أوزدمير أوغلو عثمان باشا (الذى سيفتح القفقاس) من احتفاظهما بحياتهما . وكذلك كان فتح قبرص وتعيينه أميرالا كقليج على باشا إلى القيادة البحرية ونظارة البحرية ، نتيجة لقراره الشخصى ، واستمر على طريقة أبيه فى محبته للبحارة .

كان حاكما رقيقا ، حساسا ، متواضعا ، يحب المشروبات ، مدركا لمصلحة الدوله ولايقبل على العمل الكثير . شاعريته مشهورة . إن بيت الشعر التالى الذى قاله يعتبر من أجمل الأبيات فى الشعر التركى بأسره ، البيت معناه :

نحن بلبل يشكو من حرقة نار الفراق لو مرت ريح الصبا بحدائق أورادنا لانقلبت نارا

بناته ، أسمهان سلطان (١٥٤٤ - ١٥٨٥/٨/٧) ، جوهرخان سلطان (١٥٤٤ - ١٥٨٠) ، فاطمة سلطان (١٥٤٨ - أيلول ١٥٨٠) وقد تزوجن بالتسلسل بالوزير الأعظم داماد صوقوللو محمد باشا (١٥١٠ — ١٩٧٩/١٠/١٢) ، الوزير ٢ داماد بيالة باشا (١٥١٠ —— ١٥٧٨/١/٢١) ، الوزير الأعظم داماد سياوش باشا (وفاته ١٦٠٢) . ابنته الأخرى شاه سلطان (١٥٤٤ ــ أيلول ١٥٨٠) تزوجت بداماد جارقجيباشي حسن باشا (وفاته ١٩٧٤/١/١٣) (وزير) ، ثم بالوزير داماد زال محمد باشا (١٥٣٠ ــ ١٥٨٠) .

كان أولو شهزاده (ولى العهد) مراد واليا على مانيسا . جاء إلى إستانبول مساء يوم ٢١ك١٥٧٤/١ وجلس على العرش . أمه نوربانو والده سلطان (١٥٣٠ - ١٥٨٣/١٢/٧) . كان السلطان مراد ٣ واليا على آقشهر مدة ٣ سنوات ، ثم مايقرب من ١٤ سنة واليا على صاروخان (مانيسا) ووليا للعهد منذ جلوس والده نحو ٨ سنوات و ٣ أشهر . كان عمره عند جلوسه ٢٨/٥ سنة . وفى صباح يوم ٢٢ك١ تقبل بيعة صهره الوزير الأعظم داماد صوقوللو محمد باشا ، صهره الآخر الوزير ٢ داماد بيالة باشا ، الوزير ٣ أحمد باشا ، صهره الآخر الوزير ٤ دماد زال محمود باشا ، الوزير ٥ لالا مصطفى باشا ، الوزير ٦ قوجا سنان باشا ، شيخ الإسلام حامد أفندى ، الأفنديه قضاة العسكر وناظر البحرية قيليج على باشا .

(١٠) اتحاد امبراطورية فاس مع الدولة العثمانية (١٥٧٦/٣/٩)

مات أبو عبد الله محمد المهدى الشيخ سلطان فاس ، بعد سلطنة دامت ١٨ سنة ، عن عمر يناهز ٦٩ سنة (١٥٥٧/١٠/٢٣) .

كان والى الجزائر صالح باشا قد دخل مدينة الجزائر على عهده فى ١٥٥٣ وأسس نظام الحماية العثمانية . لكن فاس كانت قد رفضت هذه الحماية بعد عدة سنوات . ولكن نفوذ العثمانية لم يرفع عن إيالة الجزائر فى أى وقت من الأوقات . كانت العثمانية تتخوف من اتفاق فاس مع إسبانيا والبرتغال ؛ حيث إنها كانت قد سلكت هذا الطريق مرات عديدة . كان ٨ من أولاد محمد ٢ العشرة ، على قيد الحياة حين وفاته فى ١٥٥٧ . كان قد قتل بنفسه أحد ابنيه اللذين ماتا وهو مولاى عبدالله الأول فى ١٥٥٠ ، والآخر هو مولاى عبد القادر ، قتله بربروس - زاده حسن باشا فى العام ذاته . كان عبد الله الأول

(أبو محمد عبد الله الغالب) الذى خلف محمد ٢ وعمره ٣٠ سنة قد تعايش مع العثمانية بصورة جيدة ؛ أرسل إلى سليم الثانى سفراء وهدايا . ومات بعد سلطنة دامت ١٦ سنة (١٥٧٤/١/٢١) . خلفه ابنه الأصغر محمد ٣ . لكن عميه مولاى عبد الملك ومولاى أحمد حاولا إسقاط ابن أخيهما والجلوس على مقام السلطنة . وقد كان مثل هذا الوضع مألوفا لدى سلالة فاس الحاكمة وهو أحد أسباب الضعف الكبرى لهذه الدولة ؛ إذ كان يستعين الذى يريد قهر خصمه بالإسبانيين أو البرتغاليين . وهذا كان يسبب قلقا كبيرا للدولة العثمانية .

جاء مولاى عبد الملك إلى إستانبول . صعد أولا إلى الديوان الهمايونى وقابل أركان الحكومة العثمانية بصورة رسمية ، ثم اجتمع بمراد الثالث بناء على طلبه . وطلب عرش فاس على أن يكون تابعا للبادشاه .

أيد قيليج على باشا فى الديوان هذا الطلب بشدة . حيث إن الاتحاد مع فاس ، عدا أنه حلم كافة ولاة الجزائر ، فإن مولاى عبد الملك (وهو صديق قيليج على باشا) كان أميرا صديقا للعثمانية ويجيد اللغة التركية ، وكان قد بقى فى الجزائر ضيفا على قيليج على باشا لسنوات طويلة . أدرك مبلغ قدرة العثمانية لا بالسماع ولكن بالمشاهدة . كان يكره الإسبانيين والبرتغاليين لما فعلوه مع بالمسلمين فى الأندلس والمغرب ، كذلك كان يخشى كثيرا من استيلاء المسيحيين على فاس . وكان يدرك جيدا أنه لولا وجود العثمانية لاحتلت إسبانيا والبرتغال كافة المغرب منذ زمن بعيد ، تزوج بابنة التاجر الفاسى الحاج موراتو المقيم فى إستانبول .

تحرك الديوان بعد أن تسلم بيان والى الجزائر رمضان باشا العلنى عن مولاى عبد الملك وتقرير قيليج على باشا السرى . كتب رسالة إلى محمد ٣ ابن أخ عبد الملك وطلب تركه نصف شمال القطر لعمه عبد الملك ، حيث إن فاس الشمالية هى من المناطق الحساسة التى تخشى العثمانية تعرضها للاستيلاء الإسبانى أو البرتغالى . رفض محمد ٣ .

سار رمضان باشا من الجزائر ، ويلاحظ أنه بالإضافة إلى عدم وجود وحدة داخلية فى دولة فاس ، فإنها كانت مفتوحة للاستيلاء الخارجى ، خرج كل من عبد الملك وأخيه عبد المؤمن الذى يؤيد أخاه الكبير اللذين كان يتسلم كل منهما

راتبا شهريا قدره ألف ليرة ذهبا ، من الجزائر مع رمضان باشا . كان الجيش العثمانى مكونا من ٧٠٠٠ جندى بحرية و ٧٠٠ سباهى (فارس) و ١٠٠٠ قول أوغلو (التركى المولود من أم عربية) و ٦٠٠٠ فارس عربى بربرى (المجموع ١٤٧٠٠ جندى) . وبالطبع كانت المدفعية متوفرة كذلك .

وقد انضم إليهم فى الطريق الفاسيون المؤيدون لعبد الملك . ارتفع عدد الجيش إلى ٢٠٠٠٠ .

اجتاز الباشا مدينة فاس . شوهد جيش محمد ٣ البالغ ٦٠٠٠٠ شخص قرب مكناس . لكن الأندلسيين الموجودين فى هذا الجيش انضموا إلى الصفوف العثمانية . تمكن الباشا من كسر السلطان بسهولة . فر محمد ٣ .

دخل العثمانيون مدينة العرش فاس . أعلن رمضان باشا مولاى عبد الملك ساطانا (١٥٧٦/٣/٩) باسم خليفة الكرة الأرضية مراد خان الثالث . جاء قيليج على باشا بصحبة الأسطول الهمايونى إلى البحر الأبيض للحيلولة دون مساعدة إسبانيا لمحمد ٣ . لم يكن محمد ٣ الذى خلع بعد سلطنة دامت سنتين وشهرا وتسعة عشر يوما ، ينوى ترك العرش لعمه مولاى عبد الملك الذى كان عمره ٤٩ سنة . وطلب المعونة من إسبانيا والبرتغال الدولتين المسيحيتين الحائزتين على أكبر قوة عسكرية وبحرية فى العصر واللتين كانتا ألد أعداء العثمانية والعالم الإسلامى كافة فى ذلك التاريخ . انسحب محمد ٣ إلى مراكش مركز البرابرة الخالص فى الجنوب .

كان السلطان عبد الملك حاكما عاقلا ، تمكن من تنمية معلوماته فى السياسة العالمية باختلاطه بالمحيط العثمانى ، وقد أدرك بأن فاس فى حالة انحطاط وأنه يعيش حاليا عصر المرابطين والموحدين وبداية عهد المرينيين ، ومن ثم فإن من مصلحته أن يلتف بصدق حول السياسة العثمانية ، وإلا فستكون بلاده طعما لإسبانيا والبرتغال .

أرسل إلى إستانبول ٢٠٠٠٠٠ ليرة ذهباً ضريبة عن السنة الأولى ، وأفاد بأنه خادم السلطان مراد المخلص ، وبدأ بإصلاح الجيش والنظام الفاسى متخذا تشكيلات النظام العثمانى نموذجا له ، وقد جلب لهذا الغرض من الجزائر ضباطا أتراكا ، وكان لباسه كلباس البادشاه العثمانى وقلنسوته مماثلة له ، وكان يخرج لصالة الاستقبال يوم الجمعة باحتفال عسكرى مثله ، وحتى تشكيلات الحراسة فى قصره جعلها على غرار

تشكيلات سراى طوبقابو . وأخذ من الجزائر كميات كبيرة من المدافع والتجهيزات العسكرية الأخرى ، وسدد لخزينة الجزائر عن المساعدات التى تسلمها مبلغ ٤٨٠٠٠٠٠ قطعة ذهب . وتقلد السيف الذى أرسله له مراد الثالث وارتدى الخلعة .

سار بجيشه إلى ابن أخيه محمد ٣ واحتل مراكش . جاء رمضان باشا إلى واحة فجيج وألحقها بإيالة الجزائر . إلا أن الديوان عزل رمضان باشا لعدم تقديمه المساعدة إلى السلطان عبد الملك فى حملته على مراكش وأمره بالبقاء فى موقعه لحين استلامه أمرا جديدا . نقل الأميرال أولوج حسن بك الشجاع والشديد جدا وعمره ٣٠ سنة من وظيفة لواء بحرى فى سلانيك إلى وال على إيالة الجزائر مع ترفيعه إلى رتبة فريق أول .

نشأ أولوج حسن باشا كجندى بحرى لدى طرغد باشا ، ثم كضابط بحرى لدى قيليج على باشا ، وقبطان (قائد سفينة) ثم لواء بحرى فى حمايته ، كان قد عين كوال (فريق أول بحرى بكلربك) على الجزائر بتوصية قيليج على باشا أيضا . وكان الأديب الإسبانى الشهير Cervantes قد أسر على يدميمى Memi رئيس وأهدى إلى حسن باشا ، ثم أطلق سراحه بعد أن خدم عدة سنوات لدى حسن باشا كعبد . وكان مؤلف دون كيشوت ، قد كتب عن سيده أولوج حسن باشا قائلا : « رجل لامع العينين ، معجب بنفسه ، ظالم » . والمعلوم أن اولوج حسن باشا ، أصبح ناظرا للبحرية وقائدا للقوات البحرية بعد وفاة قيليج على باشا وبقى فى هذا المقام ٣ سنوات ، ٣ أشهر ومات وهو ناظر للبحرية وعمره ٤٤ سنة (١٥٨٨/٤/١٤ – ١٥٩١/٧/١٢) ولو قدر له أن يعيش لأصبح أميرالا مرشحا ليكون من كبار البحارة المشهورين .

(١١) انتصار وادى السيل (١٥٧٨/٨/٤)

جاء أولوج حسن باشا إلى الجزائر ١٥٧٧/٧/٢٧ وسار فورا بحملة جزر باليار Balear . أمر الديوان الذى علم بأن محمد ٣ طلب مساعدة من إسبانيا والبرتغال ، حسن باشا بتولى أمور إيالة الجزائر وأسطولها والحملات البحرية ، والانتباه إلى عدم

إصابة الجزائر بأى ضرر من قبل العدو ، أما رمضان باشا فقد كلفه الديوان بالدفاع عن سلطان فاس عبد الملك ضد المستولين المسيحيين .

كان ملك البرتغال Sebastiano ، يستعد لحملة فاس منذ ٣ سنوات . طلب مساعدة إسبانيا أيضا . وعد فيليب الثانى ملك البرتغال الشاب بالمساعدة ، شريطة أن يتزوج بإحدى بناته . وافق سيباستيانو رغم نفوره من النساء . وهكذا تسلم من اسبانيا ٥٠ سفينة حربية و ٥٦٠٠ جندى مشاة . سيدفع فيليب ثلث مصروفات الحملة ، على أن تكون ثلث الفتوحات التى ستجرى فى فاس لإسبانيا ، وثلثيهما للبرتغال . حقا إنها كانت قسمة عادلة ! .

ستكون سواحل فاس على الأطلسى بكاملها من حصة البرتغال ، وتقسم سواحلها على البحر الأبيض بين البرتغال وإسبانيا ، وتكون سلطنة فاس دولة برية ، تؤخذ تحت حماية البرتغال ، ويطرد العثمانيون منها ويزاحون .

غادر الملك Sebastiano البرتغال (١٥٧٨/٦/٤) لتحقيق هذا الهدف وأنزل الجنود فى ميناء أرزيلة على الأطلسى فى جنوب غربى طنجة ، بهدف أخذ ميناء العريش (بالفرنسية : Larach) . لكنه عندما علم بمسيرة رمضان باشا إليه من الجزائر ، نزل إلى سهل وادى السيل على مقربة من الجنوب - الشرق للقضاء على العثمانية . شاهد الجيشان بعضهما قرب مدينة القصر الكبير (بالإسبانية : Alcazarquivir) الكائنة فى هذا السهل . ستحسم كل من تركيا والبرتغال نزعهما الخفى طيلة ٦٠ سنة والذى يجرى على الأغلب فى البحار الهندية ، فى هذا الموقع .

كان رمضان باشا قد عين فى هذه الأيام واليا (فريق أول) على إيالة تونس ، لكنه نظراً لسعة معرفته بشئون فاس كلف من قبل الديوان بمهمة طرد المستولى فى فاس ، ولم يكلف أولوج حسن باشا .

جاء من تونس إلى شمال فاس مسرعا ، وعلم أن مجموع الوحدات الإسبانية المساعدة والفاسيين الموالين لمحمد ٣ والجيش البرتغالى قد ارتفع عدده إلى ٨٠٠٠٠ جندى و ٣٦٠ مدفعا . كان هذا الجيش يشتمل على وحدات بابوية ، وإيطالية ، وألمانية ، وحتى فرنسية . أما الأسطول البرتغالى - الإسبانى ، فكان على سواحل الأطلسى من فاس . تمكن رمضان باشا من جمع مايقرب من ٣٠٠٠٠ جندى تركى

ونحو ۳۰۰۰۰ جندی عربی . سمى الأوربيون هذه المعركة باسم « معركة الملوك الثلاثة » ، لوجود ملك البرتغال ومحمد ۳ فى صفوف جيش العدو ووجود السلطان عبد الملك فى الطرف المقابل . وفى الحقيقة كانوا ٤ ملوك ، حيث إن أخا عبد الملك ، سلطان المستقبل أحمد الثانى كان فى الجيش العثمانى .

أباد رمضان باشا ، الجيش الصليبى بشكل حاسم خلال ساعات . خسر العدو نحو ۲۰۰۰۰ قتيل ونحو ٤٠٠٠٠ أسير . تمكن ۲۰۰۰۰ من جنود العدو من النجاة واللجوء إلى الأسطول فى الساحل بصورة مشتتة (Hammer ، ٧ ، ٥٥) . كان ملك البرتغال وكبار رجال الدولة البرتغالية بين القتلى . انتقل ٣٦٠ مدفعا لحوزة العثمانيين . أمر رمضان باشا بقتل محمد ۳ الذى دعا المسيحيين إلى البلاد فورا . كان السلطان عبد الملك مريضا . لكنه رغب فى أن يترأس الوحدات الفاسية . كان يائسا تماما . كان لايعتقد أن الجيش العثمانى الصغير سيتمكن من قهر العدو الذى جاء بجيش جرار ، كان قلقا جدا خشية دخول بلاده تحت الحكم المسيحى . ياترى هل سيتمكن الجيش العثمانى - الفاسى من الانسحاب بخسائر طفيفة ؟ وعندما علم بحصول رمضان باشا على نتيجة حاسمة وأن الملك كذلك قتل مات فى لحظتها من شدة الفرح . وطارد الباشا العدو حتى ساحل الأطلسى ، وأعطى للأسطول التركى الذى يقوده سنان رئيس أمر الهجوم . انكسر الأسطول البرتغالى - الإسبانى الذى لم يتمكن من التحرك والاستدارة بسبب تعب الجنود المنهزمين . غرقت كثير من السفن البرتغالية ومات آلاف البرتغاليين . أنقذ الأتراك ٥٠٠ منهم وانتشلوهم من الماء إلى السفن التركية . ولم يفقد الأتراك ولا سفينة واحدة .

أعلن رمضان باشا حينما علم بوفاة السلطان عبد الملك فى ساحة الحرب أخاه مولاى أحمد سلطانا بلقب « أبو عباس أحمد المنصورى الذهبى » . كان أحمد الثانى فى الـ ۲۹ من عمره . وهو ۷ الأشراف السعديين . قضى فى العرش مدة ٢٥ سنة حتى ١٦٠٣/٩/٥ . يعتبر عهده من ألمع الفترات التى عاشتها فاس . حرص على التعايش مع الدولة العثمانية . كان أحمد الثانى فى الـ ۸ من عمره عندما احتمى مع أخويه الكبيرين عبد الملك وعبد المؤمن لدى والى تلمسان كلاجئين سياسيين ، ثم لدى والى (فريق أول) إيالة الجزائر ، وكان قد أقام سنوات عديدة فى الجزائر . تعلم اللغة التركية ، شاهد قدرة العثمانية بعينيه . ولد مولاى إسماعيل أحد ابنى

السلطان عبد الملك فى هذه المدينة ، عاش فى إستانبول وتطبع بالعادات التركية وأصبح كالأتراك .

سار السلطان أحمد ، فى الطريق التى سلكها أخوه . دعا آلاف العثمانيين إلى فاس . جدد تشكيلات دولته على النظام العثمانى . قسم بلاده إلى إيالات كما فى الدولة العثمانية . وعين على رأس كل منها والى إيالة بلقب « باشا » وهذا النظام مطابق للنظام الملكى (المدنى) العثمانى ، تمثل ألقاب باشا وبك التى يمنحها سلاطين فاس ؛ ذكريات بقيت من هذا العهد ، كما ساند الحركة الوطنية البرتغالية ضد إنكلترا وهولندا وإسبانيا ، بناء على مارسمته سياسة الديوان ،وطبق سياسة مخاصمة تماما لإسبانيا . تسلم من السلطان مراد الثالث رسائل سلطانية عديدة تبين امتنانه . وكانت العثمانية قد اتخذت كافة التدابير لمنع أى تدخل برتغالى أو إسبانى فى فاس بعد الآن . وعلى سبيل المثال ، أمر أولوج حسن باشا ، بقتل وزير (رئيس وزراء) فاس المدعو ابن رضوان الذى ثبتت علاقته بالإسبانيين . أنقذ مراد الثالث أحمد الثانى وأبناءه من قلقهم بشأن المدعين بالسلطنة بتكراره مراراً أن فاس ستبقى لأحمد الثانى ومن ثم لأبنائه . ومن كتاب البادشاه المؤرخ ١٥٨٢/٨/١٣ الموجه إلى السلطان أحمد : « ستنتقل ولاية فاس عن طريق الإيالة نسلا بعد نسل (من الأب إلى الابن) إلى انقراض الزمان وتعتبر كبقية ملحقات إمبراطوريتنا » (مهمة دفترى ، ٤٨ ، ٣١) .

قلق السلطان أحمد بقدر ماقلقت إسبانيا من حملات قيليج على باشا فى غرب البحر الأبيض فى ١٥٨٢ و ١٥٨٣ . حيث إن فكرة الباشا فى جعل فاس إيالة كالجزائر كانت معلومة . لكن الديوان كان يعلم بأن فاس لاتشبه الجزائر ، وأنها تملك سلالة حاكمة عريقة جدا ومنحدرة من نسل الرسول (ص) . ورغم محاولات الباشا العديدة لم يسلك الديوان هذا الطريق . إن الكتاب السلطانى المؤرخ ١٥٨١/٣/٨ الذى أرسله مراد الثالث لوالى (فريق أول) الجزائر يدعو إلى الانتباه : « يبقى السلطان أحمد فى مقامه مادام يتلو الخطبة الشريفة فى منابر مساجد بلاد فاس ويطبع السكة اللطيفة باسمى ولايصدر منه مايشعر بالخيانة » (مهمه ، ٤٢ ، ٨٣) .

استدعى أولوج حسن باشا من الجزائر إلى إستانبول بعد ٥ سنوات و ٧ أشهر . أصبح جعفر باشا لمدة ١١ شهراً ، ثم (ت /١٥٨٣/٢) رمضان باشا للمرة الثانية ، وبعد عدة أشهر تولى أولوج حسن باشا مرة أخرى ولاة على الجزائر . قتل رمضان

باشا ١٥٨٩ بطلقة أثناء شجار جرى بعد مجيئه من تونس إلى الجزائر بقليل .

سيطر أولوج حسن باشا فى فترة ولايته الثانية مع أميراليه المشهورين جدا الرئيسين ممى (محورة عن كلمة محمد) ومراد على غرب البحر الأبيض . طارد Giovanni Andrea Doria حتى ميناء جنوة . حرق ميناء Alicante الإسبانى . أوصل المساعدات إلى الأندلسيين . نقل كثيرا جدا من الأندلسيين إلى المغرب . خرب المناطق المجاورة لبرشلونة وأنقذ ٢٠٠٠ تركى من الأسر . اختلف مع السلطان أحمد بسبب فجيج . جاء السلطان أحمد إلى هذه الواحة وأعاد المسئولين الأتراك بعد إعزازهم وإكرامهم إلى الجزائر . أبلغ حسن باشا بأن هذه الواحه التى ألحقها رمضان باشا سابقا تعود لإيالته وطلب تخليتها فى الحال . قال السلطان أحمد بأن السلطان مراد كان قد تلطف وأهداه هذه الواحة . سأل حسن باشا الديوان . أيد الديوان ذلك . وأمر ترك الواحة إلى السلطان (١٥٨٤/١/٢٦) . إن مجموع مدة إدارة حسن باشا للجزائر فى الدفعتين ٩ سنوات و ٧ أشهر . وقد تسلم أمر تعيينه ناظرا للبحرية وقائدا للقوات البحرية وطلب قدومه إلى إستانبول (١٥٨٨/٤/١٤) وبعد ٢٤ ساعة من وفاة أستاذه قيليج على باشا أصبح كل من محمد باشا والى طرابلس الغرب ، وبعده بعدة أشهر استانكويلو أحمد باشا والبين (فريق أول) على إيالة الجزائر . قام أحمد باشا بحملة كبيرة على إسبانيا ، لكنه نقل فى السنة التالية (١٥٨٩) إلى إيالة طرابلس . أصبح خضر باشا وبعد ٤ سنوات (١٥٩٣) شعبان باشا والبين برتبة فريق أول . استدعى إلى إستانبول بعد سنتين (ك١٥٩٥/٢) . قام بإدارة الإيالة بالوكالة لمدة ٤ أشهر مصطفى بك أحد فرقاء أول البحريين وقريبه من الدرجة الأولى . ولى خضر باشا للمرة الثانية . وأصبح مصطفى بك واليا برتبة الباشوية (ك١٥٩٧/٢) . استدعى إلى إستانبول وأرسل بدلا منه دلى حسن باشا (ك١٥٩٩/١) . عين سليمان باشا واليا (ك١٦٠٠/١ – ١٦٠٤) وعلى أيامه جاء قائد القوات البحرية وناظرها – الذى صار بعدها وزيراً أعظم كذلك – إلى الجزائر (١ أيلول ١٦٠١) مع ٧٠ سفينة حربية و ١٠٠٠٠ جندى مشاة ، ورغم أنه بحث عن الأسطول الإسبانى إلا أنه لم يعثر عليه . ولى خضر باشا للمرة ٣ ، لكنه توفى فى مقامه (١٦٠٥/٥/١٨) . حكم الجزائر فى المرات الثلاث مدة ٧ سنوات . عين كوسة محمد باشا (١٦٠٥/٥/١٨) ثم

مصطفى باشا برتبة وزير (ك/١٦٠٥) ورضوان باشا (١٦٠٨) ومصطفى باشا مرة أخرى (١٦١٠ - ١٦١٣) ولاة على الجزائر .

(١٢) تونس وطرابلس الغرب وإفريقية الوسطى

فصل لواء فيزان (فزان) عند تأسيس إيالة تونس ، عن إيالة طرابلس وألحق بإيالة تونس . كان مركز الإيالة مرزوق صرف والى (برتبة لواء) فزان محمد بك جهدا كبيرا فى نقل النظام العثمانى إلى أواسط إفريقية . نزل من مرزوق مع ٥٠٠ جندى نحو الجنوب مسافة ١٩٥٠ كم عن البحر الأبيض بخط مستقيم . ووصل شمال بحيرة جادو . إن القسم الأكبر من الصحراء يشكل أقساما غير صغيرة من دولتى جادو والنيجر الحالية . تم ربطها بلواء فزان . تبعت دولة بورنو التى تقع على جنوبها ، العثمانية . أما الدول الزنجية المسلمة الموجودة فى غرب إفريقية بين الأطلسى ونهر النيجر فكانت تابعة لفاس وبذلك كانت تتمتع بنظام عثمانى . ورغم أن ملك بورنو إدريس يملك ١٥٠٠٠ فارس و١٥٠٠٠ جندى مشاة فقد راجع الديوان وعرض أن يكون خادما لخليفة سطح الأرض (خيلفة روى زمين) ، لكنه مل من ضغط محمود بك . أمر الديوان محمود بك بعدم المساس باستقلال بورنو وأن يطبق عليها نظام الدول التابعة (مهمة ، ٣٠ ، ١٨٨ ، ٢١٣ — ٥)

وخضوعا للضرورة أعيد تشييد قلعة حلق الواد التى هدمها قيليج على باشا (١٥٨٨) . فصل لواء سفاقس Safaskus بأمر الديوان من إيالة طرابلس (ليبيا) ، وضم إلى إيالة تونس (مهمة ، ٦٤ ، ١١٦) . جعلت جزيرة جربة لواء وربطت بطرابلس . أدار ممى رئيس (محمد باشا) طرابلس والجزائر كوال ، إدارة ممتازة . كان رجلا مسنا . أما استانكويبو أحمد باشا فقد عين واليا على الجزائر وطرابلس بعد تونس واستشهد أثناء إخماده إحدى حركات التمرد ودفن فى طرابلس ابنه الوزير الأعظم على باشا .

وقد يجدر بنا تحقيقا للفائدة أن نشرح النظام العثمانى لفاس (La Pax Ottomawa ، بالعثمانية : نظام عالم) .

لم تكن تبعية إمبراطورية فاس للإمبراطورية العثمانية تبعية عادية . إن تبعيتها كملكية بولونيا تماما . كان سلطان فاس تابعا للبادشاه العثمانى مباشرة . أى أنها لم تكن ضمن نظام الدول التى تتسلم الأوامر من الديوان الهمايونى مباشرة . التزم مولاى أحمد المنصور الثانى الذى توفى فى مراكش السياسة الخارجية العثمانية تماماً ، وأرسل ضريبته إلى إستانبول ، وعلى الأصح للبادشاه تأكيدا صريحا لتبعيته .

لقد طبق النظام العثمانى فى بلاده وقام بحملة إصلاحات عسكرية واجتماعية ، لكنه لم يدع للأتراك مجالا للتدخل فى الشئون الداخلية . كان ولاة الجزائر يرغبون فى التدخل فى شئون فاس الداخلية ، فحاول الحيلولة دون ذلك بدقة .

وخلفه بعد وفاته (١٦٠٣/٩/٣) أبناؤه الثلاثة بالتسلسل . أحدهم زيدان الناصر (١٦٠٣ - ١٦٢٧) سعى جهده فى عدم الانفصال عن الدولة العثمانية . لكن الإثنين الآخرين لم يهتما كثيراً بذلك وانفصلت فاس على مر الزمن عن النظام العثمانى وأخذت تتقدم منفردة نحو مصير منفصل .

وأخذ الفلاليون (أشراف الفلالية) الذين هم فرع لنفس الأسرة الحاكمة يتنازعون فى ١٦٤٠ مع السعديين (أشراف السعدية) من أجل فاس . وفى ١٦٥٨ انفردوا بالحكم فى فاس ، وانقطعت العلاقة مع الدولة العثمانية على عهد الفلاليين .

أخذ نفوذ العثمانية يتزايد فى الملكيات الزنجية فى إفريقية الوسطى ووصل إلى غايته . حاول طرغد باشا اعتبارا من ١٥٥٠ إدخال بورنو ، أقدم (تأسست نحو عام ١٠٠٠) وأهم دولة إسلامية فى هذه المنطقة ، إلى النفوذ العثمانى . لكن إرسال الملك إدريس ٣ سفراء لإستانبول فى ١٥٧٧ وعرضه تبعيته ، أكسب الوضع صفة قطعية (بورنوسنية - مالكية) . إن إدريس ٣ هو ابن أخ الملك محمد الذى عرض تبعيته لطرغد باشا فى ١٥٥٠ . وفى ١٥٧٧ أرسلت الأسلحة النارية بأمر الديوان للمرة الأولى فى التاريخ من طرابلس إلى بورنو (**Ki - Zerbo Le Monde Contemporain** ، باريس ١٩٦٢ ، ص ٦٢٩) . حيث كانت بورنو فى مقدمة الدول الإسلامية التى كافحت الوثنيين ونشرت الدين الإسلامى فى إفريقية .

لقد كان وادى السيل نهاية للدولة البرتغالية المعظمة . امحت البرتغال من الجغرافية السياسية لمدة ٦٠ سنة . لم تستطع البرتغال التى فقدت جيشها وأسطولها ومليكها

فى وادى السيل أن تصون استقلالها تجاه جارتها إسبانيا لمدة ٦٠ سنة (١٥٨٠ – ١٦٤٠) وأصبح ملك إسبانيا ملكا على البرتغال فى ذات الوقت . وفى هذه المرة أخذ الديوان فى مساندة البرتغال ، وإرسال المساعدات إلى الوطنيين البرتغاليين الذين ثاروا ضد إسبانيا . أرسلت تعليمات محدودة بهذا الشأن لفاس وللجزائر ؛ إذ إن اسبانيا – برتغال متحدة ، كانت مخالفة لسياسة الديوان . وعلى الرغم من أن البرتغال كانت ماتزال محتفظة ببرازيليا إلا أنها لم تعد بصورة نهائية فى عداد الدول العظمى .

١٣) إدخال إنكلترا تحت الحماية العثمانية

على الرغم من أن إسبانيا ادركت بعد حرب عثمانية دموية شديدة دامت ٦٥ سنة أنها فقدت المغرب وأنها سوف لاتتمكن من جعل المغرب أمريكا لاتينية ، الا أنها استمرت فى تسلطها على جميع الأماكن ؛ تسعى من ناحية لإفناء العرب المسلمين من رعاياها بأنواع التعذيب التى لايصدقها العقل ، وتتسلط من ناحية أخرى على فرنسا التى ضعفت بسبب دخولها فى النزاع الكاثوليكى – البروتستانتى . وآسى فيليب الثانى نفسه بأخذه ملكية البرتغال على عاتقه . لكنه لم يقنع ، ذهب إلى حد التفكير فى الاستيلاء على إنكلترا . لم يكن ذلك عسيرا بسبب كون هولندا وبلجيكا مستعمرتين إسبانيتين . اضطرب الديوان الهمايونى . كان قد أنقذ فرنسا من براثن شارل – كوينت ، والآن سيضع كافة إمكاناته فى المساعدة لإنقاذ إنكلترا من براثن ابنه .

اعترف الديوان لإنكلترا ، بعد البندقية وفرنسا بحق المتاجرة بحرية فى موانىء تركية مع تطبيق تعريفة جمركية مخفضة (١٥٨١/٩/١١) وذلك بغرض تنمية تجارة إنكلترا .

طلبت الملكة اليزابث فى رسالتها إلى مراد الثالث مساعدته ضد الكاثوليك الذين سمتهم « عبدة الأصنام » وذكرت أن عبادة التصاوير فى المذهب البروتستانتى ممنوعة كما فى الدين الإسلامى (Hammer ، ٧ ، ١٤١ ، ٢٥٢) .

كتب السلطان فى خطابه السلطانى الذى حرره فى ١٥٨٠ للملكة « وأنتم كذلك عليكم الطاعة والانقياد لبابى العالى » ووعدها بالمساعدة المالية والعسكرية .

حررت الملكة كتبا عديدة ومنفصلة – تطلب فيها المساعدة – إلى الوزراء الأعظم كسنان باشا وسياوش باشا ، وناظر البحرية قيليج على باشا ، والأستاذ السلطانى (شيخ الإسلام) سعد الدين أفندى وإلى زوجة البادشاه صفية خاصكى سلطان وأرسلت إليهم هدايا ثمينة . كانت إليزابث فى ١٥٨٧ ترجو « إرسال ٦٠ – ٧٠ سفينة حربية تركية على الأقل » تجاه الأسطول الإسبانى (Hammer ، ٧ ، ٢٦٥) . طلبت فرنسا كذلك المساعدة . كان الملك فى باريس يلقى الفزع فى قلب السفير الإسبانى بقوله: إن ٢٠٠ سفينة حربية عثمانية مستعدة لفتح طولون ، رهن إشارته . كانت فرنسا مطوقة لأن شمال وجنوب إيطاليا ، وفى الشمال بلجيكا ، كانت تعود لإسبانيا (كانت منطقة إيطاليا الوسطى فقط تعود للبابا والشمال – الشرق من إيطاليا للبنادقة) . زار السفير Sir William Horborne ، قيليج على باشا فى مقامه فى سفينته الإميرالية (١٥٨٤/٤/١٦) ، وقبل يد قائد القوات البحرية (قبودان دريا) وسلمه كتاب الملكة . (يورد السفير فى تقريره السياسى تعجبه من طلاء سفينة الباشا من الخارج والداخل بطلاء الذهب) أجابه الباشا بأنه سوف يقدم لإنكلترا المساعدة القصوى التى يعينها الديوان .

فوجىء الأسطول الإسبانى المخيف الذى أعلنته إسبانيا بأنه « الارمادة التى لاتقهر » بعاصفة لم يسبق لها مثيل وتحطم فى بحر الشمال (آب ١٥٨٧) بعد أن جعلت إسبانيا العالم بأسره يصدق أنها سوف تحتل إنكلترا .

تنفس الديوان والدول التى سئمت من التسلط الإسبانى الصعداء .

١٤) دخول بولونيا التبعية العثمانية (١٥٧٣ – ١٥٩٢)

مات فى ١٥٧٢/٧/٧ آخر ملك لبولونيا ودوق – كبير ليتوانيا من أسرة Yagellon (بالبولونية : Jagellonsky) . ظل عرش بولونيا خاليا . كانت بولونيا من الدول العظمى وتعتبر فى ذلك العهد ملكية أقوى بكثير من روسيا . كانت تمتد اعتبارا من داخل ألمانيا إلى منطقة قريبة من غرب موسكو (٦٩٧ ٠٠٠ كم^2 و ٧ ملايين نسمة ولأجل المقارنة ، ملكية إنكلترا ٣٤٧ ٠٠٠ كم^2 ، ٥/٩ مليون نسمة) .

أرادت ألمانيا أى أسرة هابسبورغ إجلاس أرشيدوق (أمير إمبراطورى) من سلالة هابسبورغ على عرش كراكوفى Krakovi . كانت صلة القرابة بالأسرة البولونية المالكة تعطى ألمانيا مثل هذا الحق . قرر الديوان الهمايونى الحيلولة دون ذلك ؛ إذ إن تشكيل ألمانيا تمتد من الراين إلى موسكو سوف يصنع بالنسبة للعثمانية ماردا جديدا .

قرر الديوان بعد إجراء المحادثات اللازمة إجلاس أحد الأمراء من فرنسا التى تحت حمايتها على عرش كراكوفى . اتفق فى هذا الشأن مع كل من مجلس الأشراف (Diyet) البولونى وملك فرنسا شارل ٩ . انتخب هنرى شقيق شارل ٩ لملكية بولونيا وأعلن بالكتاب السلطانى لسليم الثانى ملكا على بولونيا (١٥٧٣/٥/١٧) (« استنادا لأمرنا الشريف نصبنا وعينا شقيق ملك فرنسا ملكا على ولاية بولونيا (Leh) أتفضل عليكم أنتم أمراء بولونيا ، أن تتقبلوا كلكم بالإجماع الملك المشار إليه عند قدومه إلى بولونيا ؛ وفى حالة مخالفتكم أمرى الشريف لايتقبل منكم أى عذر » .

أعلن ، على أثر هذا الخط السلطانى ، مجلس الأشراف البولونى (Leh Diyet) Henri de Valois ملكا على بولونيا . جاء الملك هنرى إلى بولونيا . لكنه بقى ٤ أشهر و ٢٣ يوما فقط ثم غادرها إلى باريس خلسة دون أن يخبر الشعب الذى انتخبه ملكا . مات أخوه الكبير هنرى ٩ دون أن يخلف ولدا . أعلن ملكا على فرنسا بدلا منه بلقب هنرى ٣ . استاء الديوان . كان عرش بولونيا قد خلى مرة أخرى . تجدد أمل ألمانيا . كانت ألمانيا قد هددت بحرب أكيدة وكان الديوان قد اضطرها إلى العدول عن ذلك ، لكن الديوان كان يخشى من الأمر الواقع . وفى هذه المرة انتخب باقتراح صوقوللو ، الأمير Bathory أمير أردل (ترانسلفانيا) التابعة للعثمانية ، أى أحد المجريين ملكا على بولونيا وتمكن من الحصول على موافقة مجلس الأشراف البولونى (١٥٧٥/١٢/١٣) . يأمر الخط السلطانى (١٥٧٦/١/٢٣) الذى أرسله مراد الثالث إلى الملك باثورى بأنه « أمر وتفضل » بمنح إمارة أردل كذلك ، لكنه سيقوم بإدارة أردل وبولونيا - ليتوانيا كدولتين منفصلتين وأن كلا الدولتين هما جزءان لاينفصلان عن الدولة العثمانية « بمثابة ممالكنا المحروسة وتلتزم بالطاعة والانقياد » . وافقت بولونيا فى معاهدة ١٥٧٧/٧/٣٠ المكونة من ٢٤ مادة على كونها جزءاً من

الدولة العثمانية ، وأن الملك Bathory بصفته ملكا على بولونيا ودوقا – كبيرا لليتوانيا تابع للبادشاه ، وبصفته أمير أردل سيتلقى الأوامر من الديوان بصورة مباشرة .

جلس مراد الثالث ، وقد انضمت دولتان كبيرتان كفاس على الأطلسى فى الغرب ، وبولونيا – ليتوانيا على بحر البلطيق فى الشمال إلى النظام العثمانى .

مات الملك Bathory فى ١٥٧٨ بلا وريث . ووقع الديوان كذلك فى مشكلة . عرض دوق – كبير فلورنسا استعداده لدفع مليون ليرة ذهبا دفعة واحدة للديوان ، إذا ماانتخب ملكا على بولونيا ، وأن يسدد ضريبته السنوية بانتظام .

لم يسع الديوان انتخاب أمير لهذا العرش تابع لإسبانيا . وانتخب الأمير السويدى Sigismund الذى لم يكن لقطره أية مشكلة مع العثمانية . كان إمبرطور ألمانيا رودلف ٢ (١٥٧٦ – ١٦١٢) ، يرغب فى تزويج ابنه بأميرة السويد وتنصيبه ملكا على بولونيا . راجع الديوان ، فرفض ، وبناء على ذلك سار الأرشيدوق Maximilian بجيش ألمانى على بولونيا ودخلها وظفر بالأميرة عنوة وأراد تحقيق رغبته بالأمر الواقع .

هزم الجيش البولونى المعزز بوحدات الصاعقة التركية الألمان فى حرب Krakovi الميدانية (١٥٨٨/٦/٢٦) وأسر الأرشيدوق . أجلس Sigismund الثالث على عرش بولونيا ؛ كما أصبح بالإضافة إلى ذلك فى ١٥٩٢ ملكا على السويد . كان قد ترك المذهب البروتستانتى وأقر المذهب الكاثوليكى عند تتويجه ملكا على بولونيا ، ونظرا لعدم موافقة السويديين فى ١٦٠٤ على ملك كاثوليكى ، ترك عرش السويد ، وظل ملكا على بولونيا فقط . احتل ملك بولونيا الذى توج بحضور طرغد جاووش أحد مرافقى السلطان مراد الثالث بخط سلطانى ، موسكو فى ١٦١٠ – ١٢ ولبس تاج القيصر فى الكرملن . كان عداء السويد وبولونيا تجاه الروس متمشيا مع سياسة الديوان .

نظم كل من Bathory و Sigismund الجيش البولونى على غرار الجيش العثمانى . رفعت المتبوعية العثمانية عن بولونيا بعد ذلك ، لكن النفوذ العثمانى استمر على مدى سنوات طويلة . تعتبر معاهدة ١٥٩١/٩/١٦ وثيقة هامة ، وهى تبين تبعية بولونيا – لتوانيا العثمانية ، وتنص على أن تسدد بولونيا إلى إستانبول ٢٥٠٠٠٠ ليرة ذهبا سنويا

وتسدد من ناحية أخرى ضريبة إلى قرم ، كما تنص على أن تتعهد باتباع السياسة الخارجية العثمانية .

كان الإمبراطور الألمانى ، ليس بصفته إمبراطوراً ، وإنما بصفته أرشيدوق النمسا ، تابعا للبادشاه (هامر ، ٧ ، ٤٠) ، وكان يهتم بإرسال ضريبته إلى البادشاه كل عام . وكان عليه أن يأخذ موافقة إستانبول حتى فى اختيار الأميرة التى سيتزوجها ابنه . وبينما وصلت شوكة العثمانية فى الخارج إلى هذا الحد ، بدأ الفساديدب فى الداخل . لكن العالم الخارجى لم يكن قد أحس بهذا الفساد بعد . كانت « الدولة العالمية العثمانية » أمرا واقعا ، ولم تكن أية دولة تقوم بأى عمل على رغم العثمانية وإنما كانت تستأذنها وتأخذ موافقتها ، وكانت الدول المقاومة للعثمانية كأسبانيا وإيران لاتوفق غالباً فى مساعيها .

ومع أنه لم يشعر لا العالم الخارجى ولا العثمانيون فى تلك الفترة بنثر بذور الانحطاط العثمانى ، كذلك لم يشعر أحد بنثر بذور الانتعاش الروسى . لم تكن لروسيا أية أراض فى القارة الآسيوية فى ١٥٨٧ ، وخلال المدة القصيرة جدا لغاية ١٦٠٠ احتلت قسما لايستهان به من سيبريا ، ومنذ ١٥٩٢ توسعت أراضيها إلى حد ٥ ملايين كم^2 و ٧ ملايين نسمة ، وبالنسبة للعثمانية كانت روسيا دولة من الدرجة الثانية تابعة لها بل كانت تابعة لتابعها قرم . ولم تكن فكرة أوروبا عن روسيا مختلفة عن هذه .

كان القيصر بالنسبة لملك بولونيا « سائس خان قرم » . والملك بالنسبة للروس « خادم الأتراك » (Lavisse – Rambaud ، ٥ ، ٧٥٢) . ترك إيفان « الرهيب » (مدهش) (١٥٣٣ – ١٥٨٤) لقب « الأمير – الكبير » لأجداده الحكام واتخذ لنفسه فى ١٥٤٧ لقب « قيصر » (جار) الذى يعنى « ملك – كبير » أو « إمبراطور – صغير » .

كان على سطح الأرض حتى سنة ١٥٨٩،٤ بطاركة أرثوذكس ، وكان هؤلاء البطاركة المقيمون فى كل من إستانبول ، القدس ، أنطاكية وأسكندرية من رعايا العثمانية وكان الأول الذى « يسمى جهان بطريكى » (بطريك العالم) أرفعهم منزلة . رفع Yeremia بطريك إستانبول فى ذلك التاريخ درجة مطران موسكو إلى

درجة بطريك أرثوذكس خامس بعد ذهابه إلى موسكو مرات متعددة . وهكذا ظهر بطريك ليس من رعايا العثمانية . كان ذلك أول علامة على عدم تمكن العثمانية من احتضان كامل العالم الأرثوذكسى (Lavisse-Rambaud ، ٥ ، ٧٥٨ – ٩) . وإن كانت العثمانية حتى ذلك الوقت قادرة على سحق روسيا . تقدم خان قرم غازى كيراى ٢ فى ١٥٩١ ، حتى أسوار موسكو . وانتصر على القيصر مثلما انتصر أبوه دولت كيراى فى حروب عديدة وأجبره على دفع ضريبة سنوية ، وسوف يسدد القيصر هذه الضريبة لخان قرم لغاية ١٦٨٩ .

١٥) بدء الحرب مع إيران (١٥٧٨/٤/٥)

استقبل الشاه طحمسب جلوس مراد الثالث بسرور بالغ . مثل بين يدى السلطان مراد ، (١٥٧٥/٥/١٣) طوقمان محمد خان من الأتراك الآزريين ابن الصدر الأعظم شاه قولو الذى قدم آنذاك إلى تركية (١٥٦٨/٢/١٦) للتوقيع على معاهدة أدرنه . كان الوفد الإيرانى مكونا من ٢٥٠ شخصا يصحب معه هدايا محملة على ٥٠٠ جمل . قدمت لخاقان العالم ٦ جرارات مليئة بالماس ، الزمرد ، الياقوت ، اللؤلؤ والهدايا الأخرى . مات الشاه طحمسب بعد فترة قصيرة (١٥٧٦/٥/١٤) . دامت سلطنته ٥٢ سنة إلا ٢١ يوما . كان عمره ٦٢ سنة ، وشهران و ٢٠ يوما . وكان قد ترك لإيران الدولة الثانية فى العالم خزينة احتياطية لايصدقها العقل . خلع (١٥٧٧/١١/٢٤) ابنه إسماعيل الثانى الذى خلفه لميله إلى المذهب السنى – الشافعى . خلفه أخوه الكبير محمد خدابنده . كان أعمى وعمره ٤٥ سنة . كانت السلطة الحقيقية بيد أبنائه ميرزا حمزة وعباس . كان الوضع الداخلى لإيران متأزما .

وكانت العثمانية تشعر أنها دائنة ، وتطلب من الصفويين الشىء الكثير . أخذ هذا التفكير يتعاظم على مر الزمن .

عارض صوقوللو بشدة الحرب مع إيران ، لم يتمكن من منعها . حال دون ذهاب البادشاه إلى إيران ، ولم يذهب هو أيضا .

أعطيت القيادة لفاتح قبرص لالا مصطفى باشا . سار القائد من إستانبول . أعلنت الحرب على إيران بصورة رسمية (١٥٧٨/٤/٥) . ولكن بإصرار من

صوقوللو انقسمت جبهة إيران بعد قليل إلى قسمين ، بقيت الجبهة الشمالية لدى الوزير ٣ لالا باشا . عين خصمه اللدود قوجا سنان باشا الذى كان برتبة وزير ٤ فى الديوان ، لقيادة الجبهة الجنوبية (١٥٧٨/٥/٩) . ولم يكلف الوزير ٣ داماد بيالة باشا بواجب فى البر ، لكونه أميراً بحريا .

جاء لالا باشا إلى قونية . قبل غطاء صندوق قبر مولانا . فتح صحيفة من المثنوى - بصورة غير مقصودة - فى حضور المتصوف الكبير المعنوى . كانت أمامه أبيات شعرية تتحدث عن فتوحات إسكندر الكبير . سر القائد . كان لالا باشا قد طلب أوزدمير أوغلو عثمان باشا مساعدا له (رئيس أركان الجيش) . عين عثمان باشا واليا (فريق أول) على البصرة ومن ثم على دياربكر . عزله صوقوللو الذى ينفر منه ، من إيالة دياربكر ، وعين بدلا منه ابن عمه صوقوللو - زاده درويش باشا . لم يذهب عثمان باشا إلى إستانبول خشية إصابته بحادث . كان مقيما فى دياربكر . جاء إلى لالا باشا الذى عسكر فى قرية جنس Cinis (١٥٧٨/٧/١) . كان يحمل مهمات الجيش العثمانى ٤٠٠ قطار من الإبل (القطار الواحد = ٧ جمال) وكان القطار ٢٦ هو الذى يحمل الخزينة والحاجات الثمينة ، أما القطار ١٥٠ فكان يحمل الأعتدة والبقية تحتوى على الأطعمة . كلف القائد العام ، الذى سمع بخبر هزيمة الوالى خسرو باشا لأمير خان قرب وان أوزدميرا أوغلو بمهمة إيقاف الجيش الصفوى المقبل عليه . خرج أوزدميرا أوغلو قبل الجيش ، وصل الجيش العثمانى إلى شمال غربى بحيرة جلدر Çildir . شوهد الجيش الصفوى بقيادة طوقماق خان الذى كان قد جاء إلى إستانبول مع الوفد قبل مدة .

١٦) حروب ميدانية كبيرة فى صيف وخريف ١٥٧٨ وفتح قفقاسيا

كان لدى طوقماق خان ٣٠٠٠٠ فارس. كان مساعداه والى كنجة أمام قولو خان وقره خان أسطه جالو . كان والى أرضروم بهرام باشا ووالى دلقادر (مراش أحمد باشا) ، فى جناحى عثمان باشا . كانت كتيبة الاستطلاع تتقدم الجيش العثمانى بقيادة آمر كتيبة بايبورت بكربك ، ويعقبه فورا كوحدة طليعية والى (برتبة لواء) أردخان عبد الرحمن بك . وسوف يحدد هذا القتال مصير قفقاسيا ، إما أن تظل لدى إيران ، أو تنتقل إلى العثمانية .

كسر عثمان باشا الجيش الصفوى التركمانى الذى يتكلم اللغة ذاتها بسهولة . ترك طوقماق خان الذى قدم ٥٠٠٠ قتيل و ٥٠٠ أسير وآلاف الجرحى ساحة القتال . كانت خسائر العثمانية عبارة عن ٧ أمراء كتيبة من الأكراد و ٢٠٠ شهيد وعدة مئات من الجرحى (حرب جلدر الميدانية ١٥٧٨/٨/٩) . دخل لالا باشا إلى تفليس (١٥٧٨/٨/٢٤) بعد أن احتل آخيلكلك فى ١٠ آب . لم يتمكن Dawith ملك الكرج فى كارتلى Karthli من صيانة مدينة عرشه وكان قد لجأ إلى متبوعه الشاه . كانت مدينة أرثوذكسية مسيحية ، وكان بها مسلمون كثيرون . لم يمس الشعب بأى سوء . عين لالا باشا والى قسطمونى محمد بك ابن صولاق فرهاد باشا والى بغداد ، أول والٍ على تفليس . كان Alexandré ٢ ملك كاختى Kakheti الكرجى الأقل أهمية فى الشرق ، جاء إلى تفليس وقبل يد لالا باشا . جعل لالا باشا من Kakheti إيالة كذلك باسم إيالة كرجستان وعين الكساندرخان واليا (فريق أول) عليها (١٥٧٨/٩/١) .

أصبح من الواضح أن هدف الفتح العثمانى هو شيروان (شمالى آذربيجان) . أراد الصفويون قطع طريق شيروان . جاء أمير خان وطوقماق خان مع ٢٠٠٠٠ من فرسان التركمان . هزم أوزدميرا أوغلو عثمان باشا الجيش الصفوى مرة أخرى (معركة قويون كجيدى الميدانية ١٥٧٨/٩/٩) . قتل ٥٠٠٠ جندى صفوى . مات ١٠٠٠٠ غرقا فى آراس أثناء انسحابهم . أسر أو هرب ٥٠٠٠ من الجرحى . كان بمعية عثمان باشا فى هذا الانتصار ٤ فرقاء أول (ولاة) ، (حلب ، أرضروم ، دياربكر ، دلقادر) . وجدير بالذكر أن عثمان باشا الذى أكسب الدولة كرجستان بانتصاره فى جلدر ، كان قد أكسبها كذلك آذربيجان التى يطلق عليها اسم « شيروان » بانتصاره فى قويون كجيدى . كان لالا باشا أدهى وأذكى رجال الدولة فى عهده . ترك إدارة جميع الحروب لعثمان باشا ، ولم يبد أدنى علامة للغيرة والحسد . وتأخر هو مرحلة عنه إلى الوراء . كان لالا باشا كذلك أكبر عسكرى فى عهده ، لكن عثمان باشا كان يتمتع بدهاء عسكرى منقطع النظير . ولو كان صوقوللو أو سنان مكانه لقضيا فى الحال على جنرال يظلل شهرتهم . سرت إستانبول سرورا كبيرا بفتح شيراون وذلك لكونها بلادا غالبية أهلها سنيون ويتكلمون التركية . بقى لالا باشا فى إرش Eres مركز القطر اعتبارا من ١٢ أيلول حتى ٨ ت ١ . شيد

قلعة عظيمة وضع فيها ١٠٠ مدفع . عين والى (برتبة لواء) صاروخان قيتاس بك ، أول وال (فريق أول) على شيروان (منجمباشى ، ٣ ، ٥٤١) .

كان القطاع الغربى من شيروان قد تم فتحه ، والقطاع الشرقى أى سواحل الخزر لايزال لدى الصفويين . كان شعب هذا القطاع سنيا ، وعند اقتراب العثمانية ثار ضد الصفويين الذين عانوا من ظلمهم وطردوهم . دخل لالا مصطفى باشا وأوزدمير أوغلو عثمان باشا إلى شيروان الشرقية بسهولة وأمعنا النظر فى المياه الخضراء لبحر الخزر بسرور .والآن كان الأمر يقتضى ذهابهم إما إلى داغستان فى الشمال ، أو إلى آذربيجان الجنوبية التى مركزها تبريز فى الجنوب . كلاهما كانا قطرين تركيين . رُجح الذهاب إلى داغستان لكونها سنية لإنقاذ شعبها من سيطرة الشيعة .

أمر لالا بإجراء تعداد فى شيروان . تم تثبيت ضريبة القطر السنوية بـ ٢٥ مليون آقجه ؛ مليون آقجه من هذا المبلغ كان ضريبة تؤخذ من نفط (بترول) باكو . قام بهذا التعداد المؤرخ الشاعر دالى محمد جلبى الذى عين واليا بعد ذلك . عين آمر كتيبة آفلونيا واليا (لواء) على باكو بعد ترفيعه . كلف لالا باشا أولاً فريق أول (والى) دياربكر درويش باشا ومن ثم فريق أول (والى) حلب محمد باشا أن يكونا واليين على شيروان ووعدهما إن وفقا فى واجبهما فسيرفعان خلال عدة سنوات إلى رتبة وزير (مشير) . اعتذر كلاهما رغم هذا الوعد . إذ كان واضحا أن الجيش الصفوى ويحتمل الشاه بالذات سيدخل الإيالة فور انسحاب القائد . طلب أوزدمير أوغلو عثمان باشا هذه الولاية التى لم يرغب فيها أحد . أثنى لالا باشا كثيرا على تضحية صديقه هذه . تشكلت داغستان كإيالة مستقلة . أعطيت إدارة كلا الإيالتين اللتين تفصل بينهما جبال القفقاس إلى أوزدمير أوغلو ، ويمكنه إدارة الإيالتين بواسطة واليين منفصلين يكون هو آمرا لهما . إن هذا الاستعداد لدى أوزدمير أوغلو لتحمل المسئولية سوف يفتح أمامه باب رتبة الوزارة العظمى . رفع القائد قبيل مغادرته رتبة عثمان باشا إلى وزير (مشير) .

حصلت الإمبراطورية خلال الفترة آب – ت٢ من سنة ١٥٧٨ على ٤ إيالات جديدة . كانت أهمها شيروان .

انسحب عثمان باشا الذى كان يتسلم ٢ مليون آقجه كمخصصات،إلى دمير قابو مركز داغستان فى الشمال . أعطى إدارة أرش Eres إلى قيتاس باشا أى ولاه على

شيروان بمخصصات قدرها ٧٠٠٠٠٠ آقجه . قسمت شيروان إلى ١٦ لواء وداغستان إلى ٦ ألوية . خصص لأوزدمير أوغلو ٣٠٠٠ إنكشارى و ١١٠٠٠ سباهى ، ٦٦ مدفعا و ١٨٠ صندوق عتاد . وأعطيت وجدان أخرى لأمراء الأولوية . سدد القائد لالا مصطفى باشا رواتب ٦ أشهر مقدما لأفراد الجيش الذين سيبقون فى القفقاس وانسحب فى شهر ت ١ إلى أرضروم لقضاء فصل الشتاء وكانت دغستان التى تشكل كامل جنوب القفقاس والقطاع الشرقى من شمال القفقاس التى تبلغ مساحتها ١٧٤٠٠٠ كم٢ الغنية ذات الكثافة السكانية والتى يشكل أكثريتها السنيون ، وقد فتحها الصفويون خلال شهرين (٨ آب ــ ٨ ت ١) . وكانت روان ، أران ، قره باغ وناهجوان لا تزال لدى الصفويين . كان أوزدمير أوغلو عثمان باشا بانتصاره فى معركتين ميدانيتين بفاصل زمنى مدته ٣١ يوما قد أضاف كذلك إلى فتوحاته فى الحبشة واليمن لقب « فاتح قفقاسيا » .

كان الصفويون عازمين على استرداد القفقاس من العثمانية . فى الوقت الذى غادر فيه لالا باشا أرش إلى أرضروم (٨ت١) ، كان أوزدمير أوغلو قد نصب مقره العسكرى فى شمهى Samahi (شماهى Semahi) بين باكووارش Eres . اعلن اميرى الكرج Imerethi فى كوتايس و Guria فى بوتى تابعيتهما للعثمانية (١١ ت٢) . أسس لالا باشا فى هذه المنطقة إيالة جلدر ودعى إليها مصطفى باشا . كانت تشمل بعض أراضى كرجستان وقسما من أراضى لواء قارص الحالى .

كان على الصفويين أن يجتازوا نهر كور Kür (Kura) ليتمكنوا من الدخول إلى شيروان . كان عثمان باشا قد شيد ٥ سفن حربية نهرية للحيلولة دون اجتيازهم النهر . اجتاز الجيش الصفوى المكون من ٢٥٠٠٠ شخص النهر ودخل البلاد بقيادة والى شيروان السابق أوروس خان . وجاء جيش الفرسان التركمانى الذى اجتاز النهر من ساليان وصعد نحو الشمال – الغربى أمام شماهى والتقى بجيش عثمان باشا المكون من ١٤٠٠٠ . جندى . سار جيش صفوى آخر مكون من ١٥٠٠٠ فارس إلى قايتاس باشا الذى كان لديه حينذاك ٣٠٠ جندى فى أرش . عزم الفريق الأول الشاب قايتاس باشا ، بدلا من أن ينسحب ويحصل على الإمداد ، على الدفاع ، استشهد هو مع وحدته ، أسر عبد الرحمن بك أحد الضباط برتبة لواء . دخل الصفويون أرش وذبحوا أهاليها السنيين .

أرسل الديوان الهمايونى الذى كان ينتظر هجوما صفويا كهذا فرسان قرم الذين

اعتادوا على مناورات الشتاء إلى قفقاسيا . دخل عادل كيراى ولى عهد (كالغاى) قرم القفقاس مع ١٥٠٠٠ جندى . كان يرافقه ٣٠٠ انكشارى و ١٠ مدافع ووالى آزاك (روستوف) محمد بك . « تفضل وأمر » الديوان رؤساء القبائل السنية فى قفقاسيا بالذهاب لنجدة عثمان باشا . ولكن قبل أن تصل كل هذه الإمدادات أفنى عثمان باشا جيش أوروس خان عن بكرة أبيه بعد أن دمره وأتلفه بصورة تامة بواسطة الـ ٦٦ مدفعا الموجودة لديه . تمكن عدة آلاف من الجرحى والجنود المشتتين من الجيش الصفوى الذى خسر ١٥٠٠٠ قتيل ، نحو ١٠٠٠٠ أسير من النجاة بشكل غير نظامى (حرب شماهى الميدانية الأولى ١٥٧٨/١١/١١) . أسر القائد العام أوروس خان وابنه ده ده خان واثنان من أمراء التركمان وقطعت رؤوسهم لإعطائهم أمر مذبحة أرش الجماعية . عين عثمان باشا ، بيالة بك أحد الضباط برتبة لواء واليا على شيروان مع ترقيته لرتبة الباشوية بدلا من قايتاس الذى استشهد . وأمر عادل كيراى الذى وصل آنذاك بأن يبيد الوحدات الصفوية التى يلاقيها فى شمال نهر كور Kür وألا يحاول اجتياز النهر نحو الجنوب . علم لالا مصطفى باشا بخبر انتصار شماهى الأول فى أرضروم (٢١ ت٢) التى استغرق قدومه إليها من أرش ٤٤ يوما .

سار ولى عهد الإمبراطورية الصفوية حمزة ميرزا إلى عثمان باشا الذى انتصر فى ثلاث حروب ميدانية بفترات زمنية قصيرة جدا ، على أساس أنه لايمكن القضاء عليه إلا بخروج ولى عهد صفوى يقود الحملة الموجهة إليه . ولكن لكونه صغير السن فى ١٢/٥ من عمره ، كان الهدف من وجوده رفع الروح المعنوية لجيشه فقط . وكانت القيادة الأصلية لدى سلمان خان . سار الصفويون على شكل ٤ فيالق . كان الجيش الصفوى البالغ ١٠٠٠٠٠ شخص يحتوى على أكثر من ٥٠ فريق أول (بكلربك) الذى يسمى « خان » ولواء (سنجق بك) الذى يسمى « سلطان » . كانت قوات أوزدمير أوغلو ١٤٠٠٠ جندى عثمانى و ٢٥٠٠٠ جندى قرامى و٧٦ مدفعا . كان الباشا داخل قلعة شماهى وأما القراميون فكانوا خارج القلعة ؛ حيث إن القلعة ، لم تكن تستوعب هذا العدد من الجند . وقع عادل كيراى فى كمين فى اللحظة التى هاجم فيها وحسب أنه انتصر ، وأسر مع بيالة وسيق إلى سراى قزوين . عرض الشاه هناك على ولى عهد قرم اعتناقه المذهب الشيعى . وعدا أن عادل كيراى رفض ذلك،عشقته زوجة الشاه وكذلك أخت الشاه وأوقع الخلاف بينهما لتنازعهما عليه . أمر الشاه الذى علم بخبر هذه الفضيحة ، بقتل الأمير . كان

عادل كيراى محاربا ممتازا إلى درجة أنه قتل ٧ من أفراد الحرس الصفوى الخاص الذين حملوا عليه ثم سقط « شهيداً للعشق » .

من ناحية أخرى ، لم يكن عثمان باشا قد خضع للصفويين رغم أنه فقد ١٠ ٠٠٠ من جنده وكبد الصفويين ٢٠ ٠٠٠ قتيل . لم تسفر حرب شماهى الميدانية الثانية (١٥٧٨/١١/٢٧) عن نتيجة حاسمة . لكن عثمان باشا الذى قل عدد جيشه ، ترك شيروان للصفويين وانسحب إلى دمير قابو (بالفارسية : دربند ، بالعربية : باب الأبواب) فى داغستان (٧ ك٢) . وفى ١٢ ك ٢ ، جاء إلى دمير قابو . أما بيالة باشا الذى وقع فى اسر الصفويين مع عادل كيراى فقد نجح فى الفرار من قزوين إلى سمرقند . استقبل هناك بحفاوة بالغة وأكرمه خاقان تركستان عبد الله خان ، وعاد إلى إستانبول بصحبة سفيره .

حاول الصفويون الذين استرجعوا شيروان أخذ تفليس مفتاح كرجستان قبل حلول الربيع وقدوم لالا بباشا . بدأ حصار تفليس (١٥٧٩/٣/٣٠) . أما لالا باشا ، فلم يتمكن من التحرك قبل ١١ تموز (١٥٧٩) بسبب انتظاره قدوم الجند من الإيالات . سار من أرضروم بـ ١٠٠ ٠٠٠ جندى .

١٧) حركات عام ١٥٧٩

يعتبر دفاع محمد باشا عن تفليس بـ ١٨٠٠ من جنوده تجاه ١٥٠٠٠ من جنود إمام قولوخان ، من أكبر حروب الدفاع فى التاريخ .

بدأ الحصار الشديد فى ٣٠ آذار ، لم يبق من جند فرهاد باشا - زاده محمد باشا فى نهاية تموز سوى ٧٠٠ جندى . أكلت جميع الحمير والقطط والكلاب بعد الخيل الموجودة فى القلعة وأصبح سعر الكلب الواحد داخل القلعة سعرا خياليا مثل ٢٠٠٠ آقجه . وخلال هذه الأيام ، جاء قائد القوات البحرية وناظرها قيليج على باشا إلى Poti (بالتركية : فاش) وشيد فيها قلعة وأسطولا نهريا رفيعا . أما القائد العام لالا باشا ، فقد جاء فى ٢٦ تموز إلى قارص وأمر بإنشاء قلعة محصنة جدا . وبينما الباشا يقترب رفع امام قولو الحصار المدهش الذى دام ١٢٤ يوما (١ آب) . والمشهور

عنه أنه عندما سمع عزف الموسيقى العسكرية (مهترخانة) لم شعثه فى الحال وهرب . وكان والى (فريق أول) دلقادر مصطفى باشا فى المقدمة يقود الوحدة الطليعية . فتح محمد باشا مع ٧٠٠ من جنده الذين أشرفوا على الموت من الجوع ، باب القلعة وحضن مصطفى باشا باكيا . كان قد صرف ثروته البالغة ٥٠٠٠٠ قطعة ذهب التى ورثها عن أبيه للدفاع عن تفليس .

أنجز خلال ٢٧ يوماً بناء قلعة قارص فى ٢٣ آب ، ويعتبر ذلك من ألمع الأعمال والإنجازات فى التاريخ العسكرى التركى . كان مجموع طول الأسوار والحصن ، والخنادق ٥٠٠ / ٣٠ م . فى ٢٧آب ، جاء والى (برتبة لواء) آزاك محمد بك مع ١٠ آلاف جندى إلى دميرقابو (داغستان) والتقى بقوات أوزدمير أوغلو وأعلمه باقتراب خان قرم محمد كيراى . أسس أوزدمير أوغلو أسطول الخزر على أن تكون القاعدة دمير قابو (دربند) كان الديوان قد أرسل ٢٠ قائد سفينة (قبطان) ، جنود بحرية ، مدفعيين ، مهندسين ، معماريين ، أخشاب ، قطران ، مجادف ، مدافع بحرية وأنواع أخرى من المهمات . عين لقيادة أسطول الخزر والى آزاك محمد بك . رفعه أوزدمير أوغلو إلى رتبة فريق أول . كان أسطول الخزر تابعا للديوان مباشرة ، كأسطول الهند (السويس) وألطونة ، وليس تابعا إلى القائد العام ناظر البحرية .

كان لالا باشا فى قارص . أنشأ مدينة بعد إنشائه القلعة . كان العثمانيون قد تسلموا قارص كما تسلموا أرضروم خالية خربة وغير مسكونة . شيد لالا باشا فيها ٥ مساجد ، وجسرين ، وسراى للوالى ومدرسة (التحصيل المتوسط والعلوم الدينية) ، ومكتبا (التعليم الابتدائى) ، ثكنة ، حمامات ومساكن وافتتح المدينة فى ٢٢ أيلول . وطلب قدوم الأهالى من المناطق المجاورة وسكناهم فيها . تم تحصين تفليس . أسر العثمانيون الذين دخلوا روان فى ٦ ت ١ ، ٢٠٠٠٠ صفوى . وجاء محمد كيراى خان إلى دربند فى ٧ ت١ والتقى بأوزدمير أوغلو . كان الخان يبغى الانتقام لأخيه وولى عهده عادل كيراى . وكان قد سار من قرم فى ٢٦ تموز بـ ٨٠٠٠٠ فارس . وفى ١١ ت١ ، سار أوزدمير أوغلو مع الخان من دربند . دخل باكو . قتل فريق أول (والى) شيروان الصفوى محمد خان الذى حاول الدفاع عن شيروان مع ١٥٠٠٠ من جنوده . لم يدم الاحتلال الصفوى فى شيروان سوى

عشرة أشهر ونصف . وقع فى هذه الأيام حادث امتد صداه وشمل العالم بأسره ؛ فقد اغتيل فى إستانبول الوزير الأعظم داماد صوقوللو محمد باشا ، واحتل مكانه الوزير ٢ أحمد باشا . وبذلك ارتقى لالا مصطفى باشا من رتبة الوزارة ٣ إلى الوزارة ٢ ، وأصبح سنان باشا وزيرا ٣ . وفى ٢٢ ت١ انسحب لالا باشا مع جنوده وعددهم ١٠٠ ٠٠٠ إلى أرضروم لقضاء الشتاء . انتهى موسم هذه الحملة بفتح روان واسترداد شيروان وهماشمالى آذربيجان وأرمنستان الحالية . لكن تحقيق لالا باشا هذه الانجازات بواسطة قواده التابعين له وانشغاله هو فى قارص بإنشاء المدينة مدة شهرين ، ٢٧ يوما وعدم تقدمه ، أفاد كثيرا أعداءه فى الديوان . ورغم أن أوزدمير أوغلو كان قد اقترح على القائد العام لالا باشا بأن هناك ٨٠ ٠٠٠ جندى قرامى وأنه بالإمكان الدخول إلى قزوين والقضاء على إيران بقيادة لالا باشا ، إلا أنه لم يتمكن من الحصول على موافقته . إذ إن مسألة إيران بالنسبة إلى لالا باشا هبطت إلى الدرجة الثانية . كان كل همه وتفكيره فى تبديل السلطة فى إستانبول . كان مقتنعا بأن أحمد باشا شخصية ضعيفة وأن باب الصدارة قد انفتح له ، وسيمكنه ترأس مقام الإجراء فى الدولة العالمية الذى حاول اقتناصه قبل ١٣ سنة . أما خان قرم فإنه ودع أوزدمير أوغلو فى ٧ ت٢ وذهب إلى قرم . ترك لأوزدمير أوغلو وحدة عسكرية بقيادة أخيه غازى كيراى .

(١٨) حركـــات عـــام ١٥٨٠

كان بقاء الباشا القائد عاطلا فى الوقت الذى كان فيه القضاء على إيران ممكنا خطأ عسكريا وسياسيا كبيرا . ولكن كان الشائع أنه لم يكن يرغب فى إكساب أوزدمير أوغلو عثمان باشا الذى ذاع صيته وفاقه شهرة لقب فاتح إيران . نقل الديوان وزيره ٢ من القيادة العامة لحملة إيران (١٥٨٠/١/٧) ، وعين مكانه الوزير ٣ قوجا سنان باشا الذى كان سيىء السجايا وعديم الأخلاق ، ولا قيمة له من الناحية العسكرية . ومن غير الممكن أن يستعاض به عن لالا باشا ، ويصبح وهو عدو لأوزدمير أوغلو قائدا له . لكن سنان باشا وعد فى الديوان بأنه إذا ماأعطيت القيادة العامة له فإنه سيكبل الشاه بالسلاسل ويقتاده إلى إستانبول ، وقد صدق الديوان هذه الثرثرة . جاء كل من لالا باشا إلى إستانبول ليحتل مكانه كوزير ٢ فى الديوان ، وسنان باشا إلى أرضروم . وبوفاة أحمد باشا بعد عدة أسابيع ، أصبح لالا مصطفى

باشا وزيرا أعظم بعنوان « وكيل السلطنة » (١٥٨٠/٤/٢٨) وكان يستعد للقضاء على سنان باشا ، لكنه مات بعد ٣ أشهر و ٩ أيام من الحياة السياسية والعسكرية الصاخبة . وعندما علم سنان باشا العاطل بدون عمل بوفاة غريمه الأكبر ، أقام احتفالا فى الجيش عندما كان بجوار تفليس وعاد إلى إستانبول بصفة وزير أعظم . وهكذا قضى سنان باشا الذى لم تكن له أبداً نية إرسال جنود إلى أوزدمير أوغلو ، ولا الالتئام به ، سنة ١٥٨٠ دون حركة وبلا مكسب . وأعطى مجالا لإيران لكى تلم شعثها . كان يعلم - رغم كونه قائدا عاما - أنه لو اشترك فى حركات عسكرية فإن النصر سيعود لعثمان باشا وليس له . حيث إن الشعب لم يكن غبيا . كان الكل يعلم أن سنان باشا عسكرى متملق . وعثمان باشا رجل حرب داهية .

١٩) حركـــات عـــام ١٥٨١

هكذا توفى صوقوللو - زاده داماد قره لالا مصطفى باشا (١٥١١ - ١٥٨٠) ، فاتح قبرص وأحد أكبر العسكريين فى القرن ١٦ بعد صدارة دامت ٣ اشهر و ٩ أيام وعمره ٦٩ سنة . أخواه الوزير ٢ دلى خسرو باشا (وفاته ١٥٤٤) وفريق أول (والى) إيالة روملى محمود باشا (وفاته ١٥٨٠) . وقد خلف مؤسسات خيرية كبيرة جدا . تزوج أولا بفاطمة خاتون حفيدة سيباى نائب السلطنة المملوكية فى الشام المولودة من ابنته والسلطان قانصو غورى ، وتزوج بعدها هما سلطان ابنة الشهزاده محمد ابن القانونى . تزوج أحد أبنائه الوزير جعفر باشا (وفاته ١٥٨٧) بصفية خانم سلطان ابنة صوقوللو محمد باشا المولودة من ابنة سليم الثانى .

إن حاجى قوجا سنان باشا عدو لالا باشا مدى الحياة والذى يعتبر من الشخصيات النموذجية لبداية عهد الانحطاط العثمانى - ألبانى (١٥٠٦ - ١٥٩٦) . أخوه الكبير هو الوزير إياز باشا (١٥٠٠ - ١٥٦٠) . كان سنان باشا الذى يكبر لالا باشا سنا ويأتى بعده مباشرة فى القدم متزوجا بأميرة هى (خانم سلطان) ابنة السلطان ياوز سليم . وقد ترك هو كذلك أعمالا خيرية تحير العقل .

انقضت سنة ١٥٨١ بجمود بسبب عجز سنان باشا وطلب إيران الصلح . كان أوزدمير أوغلو قد نقل قاعدته إلى باكو ، واهتم بتحسين إنتاج آبار نفط باكو

وإصلاح قلعة باكو ، كما عني بتعزيز أسطول الخزر وكان ينتظر قدوم الجند ، لكنه لم يتمكن من الحصول من قرم على أكثر من ٥٠٠٠ جندى فقط . دُمر جيش سلمان خان أثناء محاولته اجتياز نهر كور Kur لاستعادة شيروان على يد غازى كيراى الذى أرسله أوزدمير أوغلو لصده . تمكن ٣٠٠ جندى فقط من النجاة من بين ١٨٠٠٠ من جنود الصفويين (ك٢/١٥٨١) . ثم حاصر سلمان خان آخر وهو صدر أعظم إيرانى باكو لكنه انسحب منهزما . هنأ مراد الثالث عثمان باشا وغازى كيراى . أما الوزير الأعظم سنان باشا ، فإنه لم يكتف بعدم مساعدة عثمان باشا الذى صاحب لالا مصطفى باشا مدى الحياة ، بل إنه كان يبحث عن الوسائل التى تمكنه من القضاء عليه . لكنه لم يتمكن من تحقيق ذلك بسبب شهرة الباشا العسكرية الفائقة . استمرت قيادة سنان باشا الذى عاد إلى استانبول فى ٢٢ تموز (١٥٨١) مدة سنة و ٦ أشهر و ١٥ يوما . وكان قد قضى ٥ أشهر و ٥ أيام من هذه المدة فى أرضروم فى توزيع الإيالات والألوية على مؤيديه .

٢٠) حركـــات عـــام ١٥٨٢

جاء السفير الصفوى إبراهيم خان توركمن فى ١٥٨٢/٣/٢٩ حاملا مقترحات الصلح . وأفاد بأن الشاه موافق على الصلح مع بقاء كرجستان وداغستان لدى العثمانية شريطة إعادة شيروان . لكن شيروان كانت بحوزة العثمانية ، وكان ترك العثمانية شيروان السنية التى حصلت عليها بسكب الدماء معارضا لمبادئها . كانت إيران فى هذه الأثناء تحارب الخاقان التركستانى جنكيز أوغلو عبد الله خان شيبانى. لم يفكر سنان باشا حتى من الاستفادة من هذا الوضع . عزل مراد الثالث ، الذى غضب على طلب السفير الإيرانى استعادة شيروان،سنان باشا من الوزارة العظمى ، كان الشاه فى خراسان فى حملة ضد الخاقان التركستانى . كان وضع إيران حرجا . لكن جبهة إيران ، كانت بعهدة أوزدمير أوغلو مع جيش غير كاف أبدا . ترك الجيش الموجود معظمه فى أرضروم عثمان باشا لحاله فى ضفاف الخزر ، لعدم تسلمه أمراً من إستانبول .

دخل بيكر خان مع ١٥٠٠٠ جندى صفوى إلى شيروان . انتصر على غازى كيراى الذى حمل عليه بـ ٣٠٠٠ فارس قرامى وأسره كما كان قد أسر أخاه الكبير

عادل كيراى . غازى كيراى عسكرى فائق ، يجيد لغات عديدة ، عالم ، شاعر متميز باللغة التركية وملحن قدير جدا . بهر ولى عهد الإمبراطورية الإيرانية حمزة ميرزا بهذا الأمير القرمى الذى يجمع كل هذه الصفات ، وأكرمه كثيرا . عرض عليه أنه يمكنه أن يطلب مايريد فى حالة اعتناقه المذهب الشيعى وحاول معه كثيرا فى هذا الصدد . وعلى أثر معارضة غازى كيراى ، حبسه فى قلعة قهقهة (آلاموت) . بقى الأمير القرامى حفيد جنكيز فى البطن ١٦ وعمره ٢٨ سنة فى الزنزانة عدة سنين لكنه لم يترك اعتقاده السنى . أسر بعد مدة أمير اللواء دال محمد بك (باشا) وسيق إلى حجرة غازى كيراى . كان هو كذلك شاعرا ومؤرخا . بدأ الأميران قضاء الوقت فى الأحاديث وقراءة الأشعار والنظم .

حرر أوزدمير أوغلو عثمان باشا رسالة إلى مراد الثالث . ذكر فيها أنه أصبح ألعوبة بأيدى الرجال عديمى الكفاءة فى إيران ، وأنه ظل منذ سنوات فى الجبهة الإيرانية وأن فرصا كبيرة قد ضاعت ، وأنه فى حالة عدم إصلاحه هذا الوضع فسوف يصاب شرف الدولة بالشوائب . جن الوزير الأعظم والديوان الهمايونى . كيف يمكن لهذا الوزير أن يتجاوزهم ويراجع البادشاه مباشرة ؟ لكن البادشاه لم يعط أذنا مصغية للأقوال الصادرة عن الديوان ، وأرسل جيشا من إستانبول إلى كفة فى قرم . اجتاز الجيش الذى توحد تحت قيادة جعفر باشا فريق أول (والى) كفة جبال القفقاس الهائلة وجاء من كفة إلى دمير قابو خلال ٨٠ يوما (١٥٨٢/١١/٢٤) . حصل عثمان باشا على الجنود الذين كان فى انتظارهم منذ سنين . وتخلص من حرج الوضع .

٢١) حركات عام ١٥٨٣ ، انتصار مشعلة لر (١٥٨٣/٥/١١) ، فتح روان (١٥٨٣/٨/١٥)

منح فرهاد باشا رتبة الوزارة (مارشال) وعين قائدا عاما على الجبهة الإيرانية (١٥٨٣/٣/٢٨) . تحرك القائد فى ١٠ نيسان من إستانبول مع ٦٠/٤٠٠ جندى و ١٠ . . . عامل بناء و ٣٠٠ مدفع للحاق بالجيش فى أرضروم . سار أمام قولو خان الذى علم بخبر قدوم جيش كبير ، بـ ٥٠ . . . جندى قاصدا القضاء على عثمان باشا قبل قدوم هذا المدد . اقترب حتى الضفة الجنوبية من نهر سامور Samur الذى

يفصل شيروان عن داغستان . وجاء إلى سهل بيلاسا Bilasa قرب مدينة كوبا . تقابل الجيشان التركيان مرة أخرى للنزاع على شيروان . ورغم أن الحرب الميدانية بدأت فى ٨ أيار لم يتمكن عثمان باشا من تحقيق نتيجة حاسمة إلا بعد ٣ أيام . كان والى كفه الفريق الأول جعفر باشا فى الجناح الأيسر ، ووالى سيواس الفريق الأول جركس حسن باشا فى الجناح الأيمن . كان القائد العام (السردار) عثمان باشا قد قطر ٣٠ مدفعا أمام جيشه . وفى ليلة ٩ - ١٠ أيار ، اقتتل الطرفان على ضوء المشاعل ليرى كل منهم خصمه ويحسن قتله . تفكك الصفويون فى وقت مبكر من الصباح .

كان الفرسان التركمانيون الصفويون الأبطال الذين خسروا ١١٠٠٠ قتيل و ٣٠٠٠ أسيراً وعشرات الألوف من الجرحى يتساقطون على الأرض الواحد تلو الآخر بمدافع العثمانية . بدءوا فى التراجع . ورغم أن امام فولو خان توركمن تقدم جيشه المنهزم مناديا باللهجة التركمانية : « ياهذا ، إلى اين تذهبون ؟ هل تحرمون عليكم خبزة الشاه ؟ » ، لكنهم اكتسحوه معهم وذهبوا به . انتصر عثمان باشا على الصفويين انتصاره ٤ والأكبر (حرب مشعله لر (المشاعل) الميدانية ١١/٥/١٥٨٣) .

وفى ٣ حزيران دخل أوزدمير أوغلو شماهى للمرة الخامسة . كانت شيروان قد أنقذت وبقيت روان (أرمنستان الحالية) مفتوحة وبدون مدافع أمام العثمانية . أمر عثمان باشا بإنشاء قلعة كبيرة فى شماهى ، أنجزت خلال ٤٤ يوما (٢٠ تموز) ، حفر حولها خندق ملأه من ماء نهير Pirsagat . عين والى (برتبة لواء) آماسيا مصطفى بك واليا (برتبة فريق أول) على شماهى (شيروان) بعد ترقيته إلى رتبة الباشوية وإعطائه مدافع ثقيلة .

أما فرهاد باشا فقد جاء إلى قارص فى ١٢ تموز مع ١٠٠٠٠٠ جندى . وعندما علم بانتصار مشعله لر دخل روان بسهولة (الأيام الأولى من شهر آب) . جاء عثمان باشا إلى باكو فى ١٦ أيلول ، بعد أن مكث فى شماهى ٣ شهر و ١٣ يوما . شيد فرهاد باشا فى روان قلعة كبيرة (٤/٩ - ١٨/١٠/١٥٨٣) . وضع على القلعة التى تحتوى على ٥١ برجاً ، ٥٣ مدفعا . وأصبح خضر باشا واليا على روان . ترك لخضر باشا ٥٦٠١ جنـدى ، ولجغال أوغلو سنان باشا الذى رفع إلى مرتبة الوزارة بصفته قائدا لروان - والذى هو بالأصل أميرال - ٨٠٠٠ جندى ، وانسحب لقضاء

الشتاء . كانت المصروفات السنوية لهذه الوحدات ٥١٤٤٠٠٣٤ آقجه ، ويبين هذا الرقم ماتتكبده العثمانية بسبب الحروب الإيرانية . وعين والى مورا اللواء على بك قائدا لحامية قلعة خوى فى جنوب آذربيجان وخصص له ٨٠٠٠ جندى و ٢٠٠ مدفع . أرسل صوقوللو – زاده حسن باشا مع ٨٠٠٠ جندى إلى باطوم . عين الفريق الأول دلقادر أوغلو ميرزا – على باشا واليا على تفليس . وبعد إنجاز فرهاد باشا هذه التدابير انسحب إلى أرضروم .

غادر أوزدمير أوغلو عثمان باشا دمير قابو (١٥٨٣/١٠/٢١) متجها إلى إستانبول وسوف تستغرق هذه السفرة ٨ أشهر و ٨ أيام . وترك فريق أول (والى) كفة جعفر باشا فى دمير قابو وكيلا لقائد الجبهة . اجتاز نهر Terek فى شهر ت٢ . اجتاز السفوح الشمالية لجبال القفقاس اعتبارا من الشرق إلى الغرب . اجتاز نهر كوبان المنجمد وعبر مضيق كرج ، وبدخوله مدينة كرج وطئت قدماه أرض قرم . جاء إلى مركز الإيالة العثمانية كفة .

٢٢) حركـــات عـام ١٥٨٤

كانت سن محمد كيراى خلال هذه الفترة ٥٠ سنة ، وخانا على قرم منذ ٧ سنوات . ولعدم رغبة سميز محمد كيراى كبير أبناء دولت كيراى الـ ١٨ الذى اعتلى العرش الدخول تحت إمرة وزير عثمانى ، لم يذهب إلى عثمان باشا فى داغستان مختلقا أعذارا واهية ، رغم أمر الديوان ، وأرسل وحدات بقيادة الأمراء القراميين . قرأ عثمان باشا عند وصوله إلى كفة أمر الديوان بعزل محمد كيراى من الإمارة . وصل قائد القوات البحرية وناظرها قيليج على باشا إلى كفة مع ٣٥ سفينة حرب محملة بـ ١٠٠٠٠ جندى . كان قد استصحب إسلام كيراى البالغ عمره ٢٤ سنة الذى كان مقيما فى قونيه منذ ١٠ سنوات ، قرأ الخط السلطانى (الفرمان) بتنصيبه أميرا (خان) . كان إسلام كيراى شقيقا لمحمد كيراى . أعدم (١٥٨٣/٤/٢٤) محمد كيراى الذى أبى أن يخضع لأخيه الذى عمره بقدر عمر ابنه بعد مقاومته . كان حاكما وعسكريا ممتازا . ولو لم يكن مصابا بالشعور بنقص عدم تسلمه الأوامر من الوزراء العثمانيين كبنى جنكيز وتعاون مع عثمان باشا بصورة صادقة ، لكان

بالإمكان الحصول على نتائج مهمة من إيران (بجوى ، ٢ ، ٩٠ – ١ ؛ منجمباشى ، ٣ ، ٥٥٣ ؛ صولاق – زاده ، ٦٠٧) .

ركب أوزدمير أوغلو عثمان باشا الذى رفع إلى مرتبة الوزارة ٢ على ظهر سفينة الأميرالية لقيليج على باشا المطلية بماء الذهب والمفروشة بالأطلس وجاء بواسطتها من كفة إلى إستانبول (١٥٨٤/٦/٢٨) . كانت قد مضت ٦ سنوات منذ انضمامه إلى الجيش فى مقر أرضروم فى ١ تموز ١٥٧٨ . وفى غضون هذه المدة كان قد انتصر فى ٤ حروب ميدانية تحت أقسى الظروف ، وفتح من إيران التى تعتبر الدولة الكبرى الثانية فى العالم ، أقطارا مهمة جدا تبلغ مساحتها ٣٠٠ ٠٠٠ كم٢ . استقبله شعب استانبول بمظاهرات كبيرة جدا . كان أبوه أوزدمير باشا ، صديقا شخصيا وكاتم سر معتمدا للسلطان سليمان القانونى جد مراد الثالث . استقبل مراد الثالث عثمان باشا بصورة خاصة فى قصر يالى كشك (القصر المطل على البحر) الواقع على المضيق واجتمع به مدة ٤ ساعات بصورة انفرادية (١٥٨٤/٧/٥) . خلع السيف المرصع المعلق فى خاصرته ، وخنجره المرصع ، وشارة رأسه المكونة من أنواع الماسات النادرة وأهداها إلى عثمان باشا . ويسجل مؤرخو ذلك العهد الثقات أن السلاطين لم يكرموا أحدا أو يحتفوا به بمثل ماأكرم مراد الثالث عثمان باشا .

لايمكن لاحد أن يضع عائقا أمام بطل وطنى يحمل هذه الصفات ، ولايمكن لأية قوة أن تحرمه من السلطة . عزل سياوش باشا وعين أوزدمير أوغلو عثمان باشا وزيرا أعظم (١٥٨٤/٧/٢٥) . كانت قد مضت ٢٤ سنة على وفاة والده أوزدمير باشا وتعيينه مكان أبيه واليا (فريق أول) على إيالة الحبشة ، و ٦ سنوات على حصوله مرتبة الوزارة . بقى فى إستانبول مدة ٣ أشهر و ١٧ يوما . غادر إستانبول فى ١٥ ت١ (بجوى ، ٢ ، ٩١ – ٥ ؛ صولاق – زاده ، ٦٠٧ – ٨ ؛ منجمباشى ، ٢ ، ٥٥٤ ، ٥) . وكل نيابة عنه الوزير ٢ مسيح باشا كوكيل لرئيس الوزارة (صدارت قائمقامى) . لم يكن هناك نظير للزحام والمظاهرات التى جرت له عند مغادرته إستانبول . يصف حريمى جاووش إستانبول يوم مغادرة أوزدمير أوغلو ببيت من الشعر معناه : « هكذا امتلأت الشوارع بالعوام والخواص – لو رميت إبرة ماسقطت على الأرض من كثرة الأشخاص » .

جاء الوزير الأعظم والقائد الأعلى إلى قسطمونى فى ١٨ ك١ . كان قيليج على

باشا فى سينوب منذ ٢٤ ت١ ، أمر عثمان باشا بقدوم ١٢ فريق أول ، ومن روملى ١٧ لواء ومن إستانبول ٤٠٠ مدفع وتجمعوا فى سيواس ، ونزل خان قرم إلى قفقاسيا . لكن ساءت صحته ، لقد سبب بقاؤه فى قفقاسيا ٦ سنوات بعد أن قضى سنوات طويلة فى حر السودان واليمن الجهنمى وفى الصحراء فى البصرة والأحساء، إصابته بالبرد . لم يتمكن من الركوب على الحصان ، وكان يتقدم بواسطة المحفة .

٢٣) حركـات عـام ١٥٨٥ ، فتح تبريز (١٥٨٥/٩/٢٢)

وجد أوزدمير أوغلو ، عند مجيئه إلى سيواس ، ٢٠٠ ٠٠٠ جندى بصورة مجتمعة . استكثر هذا العدد وأعاد ٤٠ ٠٠٠ منهم إلى أماكنهم . وبقدر ضخامة عدد الجيش ، كانت تتعاظم أمور الإقامة والتموين . وفى ١ آب خيم مع ١٦٠ ٠٠٠ جندى خارج أرضروم . كان سبب مجيئه من قسطمونى إلى أرضروم خلال مدة ٣ أشهر و ٢٣ يوماً ، هو بقاؤه ٢٢ يوما فى آماسيا و ٢٠ يوما فى سيواس وانشغاله بأمور الدولة والجيش . التقى فى طوقات بالقائد العام السابق الوزير فرهاد باشا (وزير أعظم فى المستقبل) الذى غادر أرضروم فى طريق عودته إلى إستانبول وتحادث معه . سر عثمان باشا عند مشاهدته فى أرضروم غازى كيراى ودال محمد بك (باشا) الذين كانا أسيرين لدى الصفويين وسجينين فى سجن قلعة آلاموت بعد فرارهما من السجن . كان كلاهما صديقيه الشخصيين . كانا قد تمكنا من الفرار من قلعة تدهش العقل كآلاموت وإضافة إلى ذلك كانا منفصلين عن بعضهما ، ولايمكن لأحدهما استقصاء أخبار الآخر . أخبر الباشا غازى كيراى بأنه سيعينه خانا على قرم بدلا من أخيه الصغير إسلام كيراى ٢ فى أقرب فرصة . كان غازى كيراى قد فر من أقرب الطرق عن طريق آلاموت – تبريز – وان . ولم يكن دال محمد محظوظا مثله واضطر إلى اختيار طريق آلاموت – أصفهان – شيراز – بصرة – بغداد – دياربكر ، عانى مصاعب لايمكن وصفها فى الأراضى الإيرانية حتى وطئت قدماه أرض البصره ، واضطر إلى التسول حافى القدمين ليستمر فى سفره .

بقى الجيش الهمايونى ١٠ أيام فى أرضروم ، ثم تحرك فى ١١ آب . اشتد مرض

القائد الأعلى . كان سابقا يمتطى جواده العربى الأسود المشهور جدا المسمى قره قايتاس (وتعنى الحوت الأسود) منذ مايقرب من ٣٠ سنة ، كان كل أفراد الجيش يتعرفون على هذا الجواد . كان كثير من أفراد الجيش يعتقد أن الباشا إنما حصل على فتوحاته الفريدة لكون هذا الجواد مسحورا . كان الاعتقاد السائد أن صهيل الجواد إشارة للنصر . تشاءم الجيش عندما لم يشاهد القائد الأعلى على ظهر هذا الجواد . وصل الجيش فى ٧ أيلول إلى صحراء جالدران الذى حصل فيه ياوز على انتصار كبير . كان عثمان باشا يعتقد بأنه سوف يتقابل مع الشاه . تأثر عثمان باشا عندما علم بأن الشاه فر من تبريز فى ٢٧ آب .

شوهدت تبريز فى ٢١ أيلول . أصبح فتح هذه البلدة لدى الباشا الذى كان يتمتم كل يوم « أين أنت ياتبريز ؟» فكرة ثابتة وعقيدة لايحيد عنها . ظهر الجيش التركمانى الكبير لحمزة ميرزا ابن الشاه فى ضواحى آبوار ، لكنه لم يتمكن من صيانة تبريز . وهذه هى المرة ٤ التى يفتح فيها العثمانيون تبريز . وهكذا تأسست إيالة تبريز التى سوف تستمر ١٨ سنة و ٢٨ يوما .

دخل عثمان باشا المدينة فى ٢٥ أيلول ، وفى ٢٦ منه تقبل تبريكات عيد الفطر . وفى ٢٧ منه استمع فى جامع حسن باشا (أوزون حسن) لخطبة الجمعة على الأصول السنية وكان ياوز قد صلى صلاة الجمعة فى ذات الجامع قبل ٧١ سنة و ٩ أيام (بجوى ، ٢ ، ٩٨ - ١٠٠ ؛ منجمباشى ، ٣ ، ٥٥٧ ؛ حريمى ، غونجه باغ مراد ؛ دال محمد بك ، شجاعتنامه) . وفى ٢٩ منه شرع فى بناء قلعة عظيمة على أن تتم خلال شهر . خصص لها ٨٠٠٠ جندى . وعندما ازدادت صحة عثمان باشا سوءا عين سنان باشا وكيلا للقائد العام ، وهو القائد الوحيد فى الجيش برتبة وزير ، وعين والى طرابلس الشام الفريق الأول جعفر باشا واليا على تبريز . وعد جعفر باشا بأنه إذا احتفظ بتبريز مدة ٣ سنوات وأدى خدمات جيدة ، سيمنحه مرتبة وزير ويعطيه إدارة بودين (المجر) . ركز عدة مئات من المدافع فى تبريز . سدد رواتب الجنود الموجودين فى تبريز من دراهمه الخاصة مدة طويلة وبلغت ١٠ ملايين آقجه وعين فريقا أول (والى) حلب محمد باشا معاونا لجعفر باشا لتوفير راتب شخص برتبة فريق أول فى تبريز ، ليكون بديلا عن جعفر باشا فيما إذا أصيب بحادث من قبل حمزة ميرزا الذى يتجول فى المنطقة . خرج من تبريز ، وفى ٢٨ ت١ ، جاء على

رأس جيشه إلى ضاحية شنب غزان . كان حمزة ميرزا قد حصل على معلومات خاطئة تفيد وفاة الباشا . وقام بهجوم ليلى مفاجىء . هجم على مؤخرة العثمانية بـ ٣٠٠٠٠ فارس تركمانى . لكنه هزم وتراجع . كان هذا آخر انتصار سمعه عثمان باشا . وبينا يعسكر الجيش فى ساحل آجى صو توفى ليلة ٢٩ - ٣٠ نحو منتصف الليل (١٥٨٥) . إن عينيه اللتين أغلقتا كانتا تنظران فى اتجاه تبريز . كان قد ولد فى القاهرة . ودع الحياة وعمره يتجاوز ٥٨ سنة بعدة أشهر ، فى جانب آخر من الدولة العثمانية العالمية قرب تبريز - نقل جثمانه حسب وصيته إلى مدينة دياربكر ودفن فى قبره الموجود فيها . كان عباسيا من جهة الأم ، أى أن والدته كانت أبنة أحد خلفاء العباسية . حقق فتوحات عظيمة فى مناطق تختلف أقاليمها عن بعضها تمام الاختلاف . كان أكبر عسكرى عثمانى فى القرن ١٦ ، عدا القواد من الحكام . ولم تجد العصور التالية بعسكرى على هذا القدر . وحين وفاته ، كانت أمه وزوجته وابنته على قيد الحياة فى إستانبول . أحدثت وفاته حزنا كبيرا فى إستانبول . وضع النعش على ظهر حصانه الذى كان يمتطيه منذ ٣٠ سنة المسمى قره قايتاس مع وضع السرج على المقلوب - حسب الطريقة التركية القديمة - وجىء به إلى عامد (دياربكر) عن طريق وان . قامت المدينة كلها واشتركت فى مراسم تشييع الجثمان .

أصبح الوزير ٢ مسيح باشا وزيرا أعظم بصورة تلقائية وسنان باشا قائدا عاما بالأصالة . لكن عين بعدها الوزير ٣ فرهاد باشا قائدا عاما (١٥٨٦/١/١٤) ، تحرك من إستانبول إلى الشرق لتسلم القيادة من سنان باشا . وفى أثناء ذلك كان ولى العهد الإيرانى حمزة ميرزا وعمره ١٩ سنة قد جاء أمام تبريز ، وبدأ فى حصار المدينة (١٥٨٥/١١/١٣) .

٢٤) حركـات عـام ١٥٨٦

دام حصار تبريز ٩/٥ أشهر حتى ١٥٨٦/٨/٣٠ . كان عثمان باشا يدافع بجنوده البالغ عددهم ٨٠٠٠ تجاه جيش جرار للعدو . لكن كانت لديه مدافع كثيرة والمدافع الصفوية غير كافية . كان حمزة ميرزا يتوقع نفاذ عتاد ومؤن العثمانية واستسلامها بعد تكبدها خسائر كبيرة . أخرج الشعب الشيعى من القلعة توفيرا لاستهلاك

الأطعمة . بقى الشعب السنى فقط فى القلعة . كانت حربا قذرة . سار فرهاد باشا من أرضروم إلى تبريز بجيش عدده ٨٠٠٠٠ جندى . وفى الوقت الذى اعتقد فيه مدافعو القلعة بأن نهايتهم قد دنت إذا بهم يشاهدون أفراد الجيش الصفوى الكبير يمتطون جيادهم وينسحبون بسرعة . أدركوا الوضع بعد فترة قصيرة عند سماعهم صوت الموسيقى العسكرية (مهترخانة) . لم يبق فرهاد باشا فى تبريز مدة طويلة . لكنه أعطى جعفر باشا ٢٠٠٠٠ جندى ودراهم تقدر بـ ٢٢ مليون آقجه . وأطعمة مقدارها حمولة ١٠٠٠ جمل . كان أوزدمير أوغلو قد كدس فى القلعة كمية كبيرة من العتاد ، ورغم الحصار الذى دام ٩/٥ أشهر كان لايزال هناك عتادا يكفى لمدة سنه . تم ترميم القلعة . انسحب القائد العام والجيش الهمايونى إلى أرضروم لقضاء شتاء عام ١٥٨٦ - ٨٧ . هنأ الديوان جعفر باشا لدفاعه عن تبريز ومنحه رتبة وزير (مارشال ، مشير) (شباط ١٥٨٦) . قتل خلال ذلك ولى العهد الإيرانى حمزة ميرزا وعمره ٢٠ سنة فى حادث اغتيال (١٩٨٦/١٢/٥) . ومات الشاه خدابنده وعمره ٥٥ سنة ، بعد عدة أشهر (أيار ١٥٨٧) . صار عباس ميرزا البالغ عمره ٣٠ سنة شاها . دامت ولاية جعفر باشا لتبريز مدة ٨ سنوات ثم عين واليا على إيالة وان .

تشمل الحرب الإيرانية جبهة العراق الجنوبية كذلك . لكن حروب هذه الجبهة لم تصل فى أى وقت من الأوقات إلى درجة عظمة حروب الجبهة الشمالية أى جبهة قفقاسيا . بدأت الحرب فى هذه الجبهة باحتلال دينور على يد والى (فريق أول) شهر زور إسفنديار أوغلو محمد باشا فى ربيع عام ١٥٧٨ . عرض أمير الحويزة الذى يسيطر على المدن كالمحمرة فى القطاع الجنوبى من خوزستان شستر ديزفول تابعيته للعثمانية . وهكذا انتقلت سواحل خليج البصرة الشمالية لحوزة العثمانية . أسست إيالة جديدة فى بلنكان وعين والى (برتبة لواء) أربيل أحمد بك واليا (برتبة فريق أول) عليها . هزم فريق أول (والى) بغداد الورد - زاده (آل الورد) على باشا ، أحد أمراء آقويونلو الصفويين فى حرب ديزفول الميدانية (١٥٨٣/١١/٧) . جاء شعب قبائل وأمراء المناطق التى تعتنق المذهب الشافعى فى غرب إيران إلى العثمانية وأعلنوا خضوعهم وطاعتهم فردا فردا . وهكذا انتقلت الإيالات من الجنوب إلى الشمال خوزستان ، لورستان ، كرمنشاه ، أردلان (كردستان) لحوزة العثمانية . وكانت إيالة آذربيجان فى الشمال قد فتحت كذلك . بقيت إيالات همدان وخمسة

مفتوحة لاحتلال العثمانية . عين جغالوغلو سنان باشا قائدا عاما على الجبهة الجنوبية ، ووضع تحت إمرته كل من ولاة بغداد ، موصل ، شهرزور (كركوك) ، بصرة ، بلنكان . جعل من دينور مركزا لإيالة جديدة وعين لها والى درنتك سنان بك . جاء جغالوغلو إلى ديزفول ، ومنها إلى نهاوند . جعل هذه المدينة مركزا للإيالة وعين لها معاونه محمد بك واليا برتبة فريق أول . سار فريق أول (والى) همدان الصفوى قورقماز خان إلى القائد العام . فقد الصفويون فى الحرب الميدانية (١٥٨٧/١٠/٣٠) التى وقعت على مقربة من نهير جاماساب ، ٩٠٠٠ قتيلاً وأسير ، كان الخان بين الأسرى . كان اليوم التالى عيد الأضحى . استمر الوزير ٤ جغالوغلو سنان باشا على قيادة الجبهة الجنوبية حتى تعيينه قائدا للقوات البحرية وناظرا للبحرية بدلا من أولوج حسن باشا الذى توفى فى ١٥٩١/٧/١٢ .

٢٥) حركـــات عـــام ١٥٨٧

خرج فرهاد باشا من أرضروم (١٥٨٧/٧/٣٠) . جاء إلى Gori مركز الإيالة العثمانية (١١ أيلول) . شيد قلعة خلال ٢٧ يوما ، وسماها (حسن آباد) . جعل تومانيس مركزا لإحدى الإيالات . وظلت تفليس ، بين إيالتى غورى وتومانيس . وفى الجنوب كانت تمتد بكلربك (إمارة الأمراء) روان . وفى جنوب نهر آراس ، كانت تبدأ أراضى إيالة تبريز . أنشئت هذه الإيالات الصغيرة لتقوية الأسلوب الدفاعى تجاه الصفويين . عاد فرهاد باشا فى ٣٠ ت١ إلى أرضروم لقضاء فصل الشتاء لعام ١٥٨٧ - ٨٨ .

٢٦) حركـات عـــام ١٥٨٨

غادر فرهاد باشا أرضروم فى ١٥٨٨/٧/٢١ . استغرقت حملته فى العام الماضى مدة ٣ أشهر ، ويوم . واستغرقت حملته أرضروم - كنجة فى هذا العام مدة ٣ أشهر و ١٩ يوما . لم تكن هنالك أية صعوبة فى الاستيلاء على قزوين . لكن فرهاد باشا كان عسكريا من النوع الذى يهتم فى الدرجة الأولى بتأمين الحفاظ على

مابحوزته ، ولم يكن فاتحا مثل أوزدمير أوغلو . كان الشاه عباس فى خراسان فى معركة بقاء أو فناء تجاه جنكيز أوغلو عبد الله خان شيبانى . حاصر عبد الله خان الثانى المسمى « الكبير » مشهد ، المدينة الشيعية المقدسة ، بجيش مؤلف من ١٠٠٠٠٠ جندى . بادرشاه عباس الذى سيطلق عليه اسم « الكبير » للدفاع عنها . وعلى الرغم من أنه كانت هنالك روابط متينة بين إستانبول وسمرقند إلا أنه لم يتسن تحقيق خطة مشتركة للقتال (هامر ، ٧ ، ١٩٦) .

كانت خاقانية تركستان تعيش أواخر سنين عظمتها ، وبعد مدة سوف تفقد قدرتها على مجابهة إيران وتنقسم إلى خانات صغيرة .

أما العثمانية فكانت منتشرة فى منطقة واسعة جدا ، وكان همها الحفاظ على ماتملكه ، وكانت قد بدأت تفقد دهاءها وقدرتها على الانطلاق نحو تحقيق مامن شأنه أن يغير سير التاريخ ؛ لقد كان القائد فرهاد باشا شديد الخوف من أن يؤدى فشله إلى فقدان مركز الصدارة الذى سوف يستحقه عن قريب أمر الخاقان قائده الأعلى تحريريا بالبحث عن الشاه والانتصار عليه فى معركة حاسمة ، وإن لم يجده ، فالاستيلاء على أقطاره الخالية من جيش العدو ، وأن هذا الاستيلاء فى مقدور أى ضابط . قرر القائد وبحذر شديد فتح كنجة . كان نجاحا مهما ، لكنه لايمكن أن يكون حركة استراتيجية من شأنها هزيمة الصفويين .

كنجة ، شمال آراس هى أهم الأماكن المعدودة التى بقيت بيد الصفويين . البلدة التركية التاريخية الكبيرة ، وطن « نظامى » أكبر شاعر مثنوى (حكاية منظومة) تركى الأصل .

قدم الجيش إلى قارص فى ٢٥ تموز . أرسل السلطان رسالة همايونية (سلطانية) يخبر فيها بتواجد الشاه فى خرسان ، وخلاء قزوين من الجيش وأمر بالاستيلاء عليها .

تظاهر الإنكشارية الذين جرأهم - أغلب الظن - فرهاد باشا ، وهتفوا « ليأت سيادة السلطان شخصيا ، ونذهب سوياً ، إن شاء الله نذهب إلى قزوين فى السنة القادمة ! » تأخر الباشا ١٦ يوما فى قارص ، تحرك فى ١٠ آب ووصل كنجة مركز إيالة قره باغ مجتازا تفليس . مجيئه من أرضروم إلى هنا فى ٤٢ يوما . ذهب الصفويون الذين تيقنوا من عدم إمكانهم الدفاع وانسحبوا . دخل الباشا كنجة وأخذ فى تشييد

قلعة كبيرة . تم إنشاء القلعة التى أحيطت بسور له برج و ٧ أبواب حديدية وبارتفاع ٢٠ ذراعا وعرض ٣ أذرع ، محيطه ٣٨٠٠ ذراع . عين حيدر باشا لإدارة بكلر بكية كنجه . وضع تحت إمرته ٣٠٠٠ جندى . هجم جعفر باشا بكلربك (أمير الأمراء - فريق) شيروان ، بحملة مؤلفة من ٣٠٠٠٠ جندى على زياد أوغلو محمد خان ، بكلربك الصفويين فى كنجة وأفنى نصف الجيش الإيرانى (١٥٨٨/٩/٢٩) . قاد جعفر باشا الجيش وهو فى حالة مرض . مات بعد فترة قصيرة (٢ ت١) . وصار حسن باشا بكلربك حلب ، بكلربك لشيروان برتبة وزير . غادر فرهاد باشا الذى بقى ٤٤ يوما فى كنجة وشيد قلعة خلال ٣٧ يوما ، يوم ١٥ ت١ ، ووصل معسكره فى أرضروم يوم ٨ ت ٢ .

تعنى أذربيجان (تبريز) بالنسبة للصفويين مثل مايعنيه لواء أرطغرل (بيلة جك) ، أو لواء خداوندكار (بورصة) بالنسبة للعثمانيين ؛ فهى موطن الصفويين ؛ وشريان الحياة بالنسبة لإيران . وقد أجبر عدم التمكن من استردادها الشاه عباس على الصلح والانتظار لفترة استعداد طويلة المدى . إن سقوط كامل خراسان فى الشرق (التى تبلغ ٤٥٠٠٠٠ كم^2) بأيدى الأوزبك الأتراك الشرقيين ، واستيلائهم على مشهد المدينة المقدسة أعجز إيران . كانت علاقة بنى تيمور الهند التابعة لإيران ، سيئة كذلك مع أكبر شاه ، وكانوا على خلاف دائم مع الأفغان . كانت الدولة الصفوية التركية الشيعية المحاطة بثلاث إمبراطوريات تركية سنية - حنفية ؛ فى موقف الكفاح من أجل البقاء أو الفناء .

٢٧) معاهدة إستانبول (١٥٩٠/٣/٢١)

كان دحر جعفر باشا بكلربك تبريز بجيشه البالغ ١٥٠٠٠ شخص الجيش الصفوى الذى أغار عليه قد قطع أمل الشاه فى استرجاع تبريز بالمرة .

طلب الصلح . ترأس وفد السفارة الإيرانية بصورة فخرية حيدر ميرزا ابن حمزة ميرزا ولى عهد إيران المقتول . قابل فرهاد باشا الوفد فى مقره الكائن فى حسن قلعة يوم ١٥٨٩/١٠/١٤ . قبل الوزير الثانى فرهاد باشا يد ولى العهد الطفل . أطلقت المدافع فى مقر القيادة العامة العثمانية على شرف حفيد حفيد الشاه إسماعيل . وفى

عيد الأضحى (٢٠ ت١) ، رتب فرهاد باشا وليمة على شرف البكوات الأتراك الصفويين ، وكان على رأسهم مهدى قولو خان أسطة جالو ، والى أردبيل . جاء إلى إستانبول كل من فرهاد باشا الذى رفعت عنه صفة القيادة بانتهاء الحرب فى ١٤/١٠/١٥٩٠ ، وحيدر باشا ومعه معيته الكبيرة العدد فى ٢٨ ك٢ . عين المؤرخ الشهير مصطفى أفندى السلانيكى دليلا لميرزا . خصص قصر برتو باشا الكائن فى وفاء ميدانى لإقامة ولى العهد الصفوى . هب شعب إستانبول ، رجالا ونساء لرؤية ولى العهد الذى استقبله فى أسكدار ، الأميرال الكبير (مشير البحر) أولوج حسن باشا . ولشدة الزحام أخذ الوفد يسير ببطء إلى درجة أنه لم يتمكن من الوصول إلى قصر برتو باشا إلا وقت العشاء . أخلد ولى العهد إلى الراحة فورا . واستعد الديوان بميزانية ضخمة لمصروفات الوفد (يوميا ١٠٠٠٠٠ آقجة و ١٠٠ رأس غنم و ١٠٠ كلة (قطعة كبيرة) سكر و ١٠٠ كيلة شمع وماينا سب العدد من الخضر والفاكهة ، الخ .) . وفى اليوم التالى (١٥ ك٢) ، قدم مهدى قولوخان توركمن أوراق اعتماده إلى الوزير الأعظم (رئيس الوزراء) قوجا سنان باشا .

استقبل مراد الثالث صدر ميرزا فى ٢٩ ك٢ فى احتفال عمد فيه إلى أن يكون رائعا ليبهر عيون الإيرانيين . يعتبر إرسال ولى عهد الدولة الوحيدة على وجه الأرض ، التى تعتبرها العثمانية معادلة لها إلى إستانبول إشارة إلى أن إيران ، لم تعد تعتبر دولة على قدم المساواة مع الدولة العثمانية . وبعد وليمة الغداء التى قدمها الوزير الأعظم سنان باشا بالصحون الذهبية جلس السلطان مراد على التخت الموجود حاليا فى سراى طوب قابو ، المرصع والمذهب الذى صنع حديثا ، وسمح لولى العهد بتقبيل يده . وبعد إجلاس ولى العهد الطفل على كرسى إلى جانب السلطان أخبر سنان باشا مهدى قولوخان بالإذن له فى الحديث . بدأ المرخص الأول الصفوى بإلقاء خطاب طويل باللغة التركية (طبعا) . استمع السلطان بإنصات . ذكر فى خطابه أن الشاه يعترف بكافة الفتوحات العثمانية ، ويطلب الصلح على أساس مبدأ الـ **Statu quo** = (الوضع الراهن) أى الاعتراف بالوضع الراهن وبقاء الأماكن الكائنة لدى الدولتين حاليا ، بصورة فعلية ، على حالها ، وأن الشاه هو من جملة الحكام الذين يجرون سلطناتهم تحت سيادة السلطان . يعتبر هذا الحادث ذروة الشوكة فى التاريخ العثمانى إنه يعنى أن الشاه قد قبل أن يكون السلطان هو الحاكم الأعلى . ولم يكن الشاه

إسماعيل قد صرح إلى ياوز ، ولابنه تحمسب القانونى بمثل هذا التصريح . قدمت الهدايا التى أرسلها الشاه إلى السلطان ، والموجود أكثرها حاليا فى متحف طوب قابو سراى . يستنتج من كل هذا أن الشاه عباس قد طلب الصلح بشكل قطعى . وأنه قد أيقن أنه سوف لن يتمكن من العثمانيين مالم يلم شعثه بصورة جيدة .

وقعت معاهدة إستانبول بتاريخ ٢١ آذار ١٥٩٠ . وانتهت حرب من أقسى حروب التاريخ العثمانى التى استمرت منذ ١٢ عاما تنقصها ١٤ يوما . حرر المعاهدة الشيخ سعد الدين أفندى (المتن . منشآت السلاطين ، ٢ ، ٢٤٩ – ٥٢) انضمت إلى الدولة العثمانية الأراضى التى فتح أكثرها أوزدمير أوغلو عثمان باشا والبالغة ٥٩٠٠٠ كم٢ ، وأمتدت حدود الدولة بشكل قطعى حتى غربى سواحل بحر الخزر (قفقاسيا الشمالية ، داغستان ، روان ، كرجستان ، شيروان ، آدربيجان ، آردلان ، كرمنشاه ، لورستان ، خوزستان) . وبالاضافة إلى قبول إيران احترام حرية المذاهب السنية فإنها وافقت على عدم سب شخصيات السنة العظام . وتنص المعاهدة على مبادلة الأسرى وعلى رأسهم ٣ بكلربك صفويين لدى العثمانية و ٢ بكلربك عثمانى لدى الصفويين .

زادت هذه المعاهدة من اعتبار العثمانية فى تركستان كذلك . وأساساً ومنذ عهد القانونى فإن تركمان ياكا الذين كانوا يحتلون قسما من تركستان الحالية كانوا يعتبرون العثمانية متبوعة . والوزير الأعظم فرهاد باشا الذى كان يخاطب خاقان تركستان ويصفه بالخاقان المعظم والخاقان الأعظم « عبد الله خان » كان يملى عليه أوامر سلطانه بشكل جلى ضمن هذه الألفاظ التوقيرية الرقيقة (منشآت السلاطين ، ٢ ، ٢٣٩ ومابعده) . وعدا ذلك فإن معاهدة إستانبول أمنت حماية المذهب السنى لمسلمى القفقاس إلى يومنا هذا . ولو استمر الحكم الصفوى لمدة أطول لأصبح أهل السنة القاطنون فى هذه الأقطار شيعة . ولغرض حل مشكلة كيلان ارتأى الديوان إعطاءها إلى الصفويين كتعويض . وكانت سلالة كاركيائى السنية – الشافعية ، تعترف بولاية العثمانية ، على أن يكون مركزها فى رشت – كيلان . والثانى عشر من هذه السلالة أحمد خان الذى استمرت سلطنته أكثر من نصف قرن ، هو من السلاطين الذين نظموا الشعر وكتبوا النثر باللغتين التركية والفارسية ولحنوه ، وفى الأيام الأولى لعام ١٥٩٣ جاء إلى إستانبول ومات فيها ١٦٠٠ .

أقيم لولى العهد حيدر ميرزا ، فى قصر صوقوللو فى ميناء قدرغة فى إستانبول مراسم ختان فخمة (١٥٩٣/٥/١٧) . واشترك فى هذا الحفل الوزير الأعظم قوجا سنان باشا ، وكافة الوزراء وجميع شعب استانبول . وفى جو كهذا بدأت حرب ألمانيا الكبرى . إيران كانت تسعى لإزالة آثار ضعفها . وقد وسع أكبر شاه فى الهند ، سلطنة بنى تيمور . ولو ملكت الإمبراطوريتان التركية فى إيران ، والتركية فى الهند ، الأسطول فى هذا العهد كما ملكه العثمانيون لتغير سير التاريخ العالمى ، ولما تمكن الأوربيون من التدخل فى شئون آسيا .

٢٨) المرحلة الأولى للحرب التركية - الألمانية الكبرى (١٥٩٢ - ١٥٩٥)

ساءت العلاقات التركية - الألمانية ، بالغارات المتوالية التى أجراها تلى حسن باشا بكلربك بوسنة على الأراضى الألمانية ، وخاصة الغارات الأخيرة فى صيف عام ١٥٩٢ . أعلم الإمبراطور رودلف الثانى الديوان بواسطة سفيره فى إستانبول بأن الأراضى الألمانية اخترقت على العمق ، وقتل ٢٠٠٠ جندى ألمانى وجرح الآلاف ، وأسر حسن باشا ١٠٠٠ جندى ألمانى وأرسلهم إلى إستانبول مع ١٢ مدفعاً و ٧ رايات ألمانية ، وبناء على ذلك فإنه بعد الآن سوف يمتنع عن دفع الضريبة السنوية ، وفى العام التالى أغار الألمان إغارة انتقامية على ضفاف نهر كولبا الذى يشكل القسم الشمالى من حدود بوسنة ، إيالة حسن باشا وباغتوه أثناء تواجده فيها مع ١٠٠٠٠ جندى . وأحرز الجيش الألمانى البالغ ٤٠٠٠٠ شخص نصرا حاسما (١٥٩٣/٦/٢٠) قرب قصبة سيساك (Sissek بالتركية شيشكـا) (فى الجنوب - الشرق من زغرب) . واستشهد ٧٠٠٠ جندى عثمانى من بينهم حسن باشا ، وشابان مشهوران جدا من العائلة السلطانية هما الأخوان محمد بك ومصطفى بك وهما ابنا بنت بنت القانونى بكوات برتبة لواء لفرق الصاعقة ، أى أنهما ابنا أخ السلطان مراد الثالث (بجوى ، ٢ ، ١٢٨ - ٩ ؛ نعيما ، ١ ، ٨١ - ٣) . وفور وصول هذا الخبر إلى إستانبول أعلن الديوان السلطانى بعد جلسة صاخبة الحرب على ألمانيا (١٥٩٣/٧/٤) .

كانت الامبراطوريتان:التركية والألمانية فى حالة صلح منذ ٢٥ عاما و ٤ أشهر و١٦ يوما . وخلال هذه الفترة جرت حوادث كثيرة جدا على الحدود بصورة

متقابلة ، أكثر هذه الحوادث قام بها الطرف العثمانى . إلا أن هذه الحوادث اعتبرت مناوشات عادية بين الولاة العسكريين فى حدود كلا الطرفين ، ولم يذهب الأمر إلى حد تصعيد تلك المناوشات إلى حروب . ألمانيا كانت تدفع ضريبتها . وفى الحقيقة كان حادث هزيمة Kulpa ضربة قاسية ولكنه كان رداً على غارة حسن باشا فى العام الماضى . لكن استشهاد الشابين الجنرالين حفيدى السلاطين والذين كانت لهما مكانة مرموقة ولدت هياجا كبيرا . كان من رأى الشيخ سعد الدين أفندى ذى النفوذ القوى مساندة إنجلترا وفرنسا وهولندا ، تجاه أعداء الدولة الرئيسيين إسبانيا ، ألمانيا وإيران . وكان سائرا على سياسته هذه بنجاح . ورغم أنه كان عدوا للألمان إلا أنه عارض بشدة إعلان الحرب على ألمانيا ، وتراشق بالألفاظ الشديدة ، مع قوجا سنان باشا الذى يترأس الديوان . وأفاد سنان باشا بأنه سوف يكبل « ملك بج (فينا) » إى إمبراطور ألمانيا بالسلاسل ويحضره إلى إستانبول . كانت هذه الأكذوبة تعادل أكذوبته التى قالها قبل مدة وهى أنه سوف يقوم بأسر الشاه . أفاد سعد الدين أفندى بصراحة أن دعوى سنان باشا هذا كذب وتلفيق . إلا أن الوزراء أيدوا رئيس الوزراء خشية منه وصوتوا فى صالح الحرب (بجوى ، ٢ ، ١٣٣ ؛ منجم باشى ، ٣ ، ٥٦٥) ، واندلعت حرب كرامة طويلة الأمد ، لا تستند إلى سبب حياتى أو استراتيجى .

أخذ وظيفة السردار الأكرم (القائد الأعلى) على عاتقه الوزير الأعظم قوجا سنان باشا ، خرج فى حملته ضد ألمانيا (١٥٩٣/٧/٢٩ - ١٥٩٤/١/١٠) . وبعد استيلائه على قلعة أو قلعتين لا أهمية لهما انسحب إلى المشتى فى بلغراد (١٥٩٤/١/١٠ - ١٥٩٤/٥/٥) . وخلال انسحابه إلى المشتى شرع الجيش الألمانى فى محاصرة أستولنى - بلغراد . وهزم صوقوللو حسن باشا بكلربك (بودين) (ابن صوقوللو محمد باشا) الذى هرع مع قوته البالغة (٢٠٠٠٠ جندى)وهى أقل بكثر من قوات العدو لفك الحصار عن أستولنى - بلغراد ، واستشهد ٦٠٠٠ ، واستولى الألمان على ٤٤ مدفعا . تمكن ترياكى حسن باشا العسكرى بدهائه من تخليص أستولنى-بلغراد . وهكذا انتهت السنة الأولى للقتال بحصول العثمانيين على قلعتين صغيرتين من الألمان ، وحصول الألمان على ١٠ قلاع صغيرة من العثمانية .

وبعد أن مكث سنان البالغ ٨٠ عاما فى بلغراد مدة ٣ أشهر و ٢٦ يوما تحرك فى ٥ أيار ، واجتاز الحدود الألمانية ووصل يانق قلعة فى ٧ آب (١٥٩٤) . كان فى الجيش الخاقانى ٧ بكلربك . والمدينة التى يسميها الأتراك « يانق قلعة » والتى حوصروا فيها تسمى بالألمانية : Raab وباللغة المجرية ، Györ) ، وتقع على مسافة ١١٠ كم على الشمال - الغربى من بودابست وعلى مسافة ١٠٠ كم من الجنوب - الشرق من فينا و ٦٠ كم على الجنوب - الشرق كذلك من Bratislava . وهى قلعة محكمة جدا تعتبر منفذا لفينا . وكان قد فتحها القانونى من قبل ، وتعذر الحفاظ عليها . استمر الحصار ٥١ يوما . كان الكونت هاردك يحمى القلعة ومعه ١٠٠٠٠ جندى و ٢٩٠ مدفعا . وكان جيش الإمبراطورية الألمانية البالغ ١٠٠٠٠٠ شخص بقيادة الأرشيدوق ماتياس Matthias (الذى صار بعدها إمبراطورا) يراقب الحصار من الساحل الشمالى لنهر الدونة ، ولكنه لم يكن راغبا فى اجتياز النهر ومجابهة الجيش العثمانى الذى يفوقه قوة بكثير والاشتباك معه فى حرب ميدانية كبرى . نصب الجيش العثمانى الجسور على الدونة واجتازها وشتت الجيش الألمانى الذى يضم كتائب الميليشيات الإسبانية ، الفرنسية ، البابوية ، البولونية والروسية ، واستولى الأتراك على ٤٠٠ مدفع ، ١٠ سفن صغيرة و ٦٠٠ زورق على نهر الدونة ومات الآلاف من الألمان . واستسلمت يانق قلعة . ونظرا إلى أن الكونت هاردك استسلم من تلقاء نفسه ودون مقاومة أخذ جيشه البالغ ١٠٠٠٠ جندى وانسحب . لكن الـ ٢٩٠ مدفعا وكافة المهمات الموجودة فى القلعة انتقلت إلى يد العثمانية . ذهب الكونت هاردك وقواده الجنرالات إلى فينا . وضعهم الإمبراطور فى مخزن وبنى فوقهم جدارا . أصبحت يانق قلعة مركزا للإيالة وعين بها عثمان باشا بكلربك (فريق) الذى كان أمير لواء شكودرا .

يعود الفضل فى الدرجة الأولى فى فتح « يانق قلعة » إلى غازى كيراى الثانى خان قرم الذى جاء فى ١١ آب مع ٤٠٠٠٠ خيال أمام القلعة ، وعسكرى كبير آخر ، صار فيما بعد وزيرا أعظم ، هو صوقوللو - زاده لاله محمد أغا (الذى كان رئيسا « أغا » للانكشاريين) . وبفضل التكتيك العسكرى الذكى الذى استخدماه ، أمكن فتح القلعة المهمة ، بالإضافة إلى شريط كبير يمتد بين بودين وفينا كما تمكنا من تشتيت الجيش الإمبراطورى والانتصار عليه فى معركة ميدانية . لكن سنان باشا أرجع الفضل

فى هذه الانتصارات إلى شخصه – كما هى عادته – وأصبح أنفه فى السماء (بجوى ، ٢ ، ١٤٦ – ٥٤ ؛ صولاق – زاده ، ٦٢٠ ؛ هامر ، ٧ ، ٢٧٢) .

وفى ٣ ت٢ (١٥٩٤) ، غادر سنان باشا بودين ، عائدا إلى بلغراد لقضاء فصل الشتاء فيها . وتم تثبيت الحدود العثمانية – الألمانية ، على مسافة ٧٥ كم من فينا (Lavisse - Rambaud ، ٥ ، ٨٠٩) . لكن فويفودات (أمراء) كل من أردل (ترانسلفانيا) أفلاق (رومانيا) وبغدان (مولدافيا) أعلنوا عصيانهم على الدولة العثمانية ، وانضموا فى الحرب إلى جانب ألمانيا .

ويعتبر خريف عام ١٥٩٤ ذروة الدولة العثمانية العالمية . حيث وصلت إلى الحد الأعلى فى التوسع الجغرافى ، واعتبارا من الخريف يبدأ السقوط من الذروة .

وفى ٥ ت٢/١٥٩٤ ، أعلن البابا اتفاقا مقدسا جديدا ضد العثمانية وأعلن أن هذا الاتفاق مفتوح للدول الإسلامية فيما عدا العثمانية . استجاب لهذه الدعوة فورا فويفودا (إمارة) مجرية وأخريان رومانيتان من الإمارات المرتبطة بالدولة العثمانية بروابط التبعية المتينة . لم يكن ذلك أمرا سهلاً ، إذ إن هذه الإمارات كانت منسجمة تمام الانسجام مع النظام العثمانى ، ذلك بالإضافة إلى أن أردل فقط كانت كاثوليكية والأخريان كانتا أرثوذكس . لكن فويفودة بغدان عندما أوضح سبب عصيانه تلفظ بهذه الجملة التاريخية : « إن الأتراك الحاليين هم ليسوا أتراك الأنسال الماضية الذين يفتحون الأقطار بعدالتهم ودون قتال » . ويقتضى أن نشير هنا إلى حادث إجبار سنان باشا هذه الإمارات الثلاث على دفع الجزية بالمقادير الفاحشة لأغراضه الشخصية والتى لم تكن موجودة فى النظام العثمانى إلى ذلك الحين . وهذه الفويفودات (الإمارات) أخذت فى إعدام البويار (الأشراف الذين يرفضون العصيان . وفى أردل أعدم ٧ أمراء من ذوى النسب الرفيع لموالاتهم العثمانية (مكائى **Histoire de Transylvanie Makkai** ، ١٩١) . وأرسلت ألمانيا معونة عسكرية كبيرة لكل من الأمراء الثلاثة (هامر ، ٧ ، ٢٧٦) .

بدأ العصيان فعلا فى الإمارات (١٥٩٥/١١/١٣) أثناء السبات الشتائى فى بلغراد لسنان باشا البالغ سنه ٨٠ عاما . ذبحت معظم الأقلية التركية والرومية الموجودة فى الإمارات بالسيف . قتل ٤٠٠٠ تركى من الساكنين فى بخارست والمشتغلين بالتجارة . أغار بغتة على القلعة التركية المسماة يركوى (بالرومانية :

Giu giu) وقتل الـ ٤٠٠٠ تركي الموجودين فيها . حرق Mihai Viteazul فويفودا الأفلاق الذى كان يعيش بخيال تأسيس ملكية رومانية كبرى ، قلعة إبرائيل الكائنة فى دلتا ألطونة ، وقصف سلسترة الكائنة مقابل ألطونة وحرقها (٦ ك٢) . وبعد حادث سلسترة بـ ١٠ أيام ، توفى مراد الثالث وانتقلت الحرب الألمانية إلى عهد سلفه محمد الثالث (نعيما ، ١ ، ١٠٣ - ٦ ؛ بجوى ، ٢ ، ١٥٦ - ٦٢ ؛ منجم باشي ، ٣ ، ٥٨٢ - ٤ ؛ صولاق - زاده ، ٦٢٢ - ٣) .

٢٩) بعض المسائل الداخلية لعهد مراد الثالث (١٥٧٤ - ١٥٩٥)

توفى داماد بيالة باشا فى بداية سلطنة مراد الثالث على رتبة وزير ثان (١٥٧٨/١/٢١) . ولو قدر له أن يعيش سنتين أخريين لأصبح وزيرا أعظم (رئيسا للوزراء) محل صوقوللو . قبطان دريا (مشير بحرى) لمدة ١٤ عاما ، بعدها وزير ثالث وثان لمدة ١٠ سنوات تقريبا ، حقق خلالها حملات بحرية بالأسطول الهمايونى كل عام تقريبا وانتصر فى جميعها ، وفى انتصار « جربة » سجل اسمه ضمن أميرالات التاريخ الخالدين . بعد ٤ أيام توفيت السلطانة مهرماه ، عمة السلطانه جوهران وزوجة بيالة باشا ، كأغنى امرأة فى العالم . كانت الأبنة الوحيدة للقانونى .

زادت المعارضة داخل الديوان الهمايونى وخارجه ضد صوقوللو محمد باشا الوزير الأعظم الأخير للقانونى ، والوحيد لسليم الثانى ، والأول لمراد الثالث . لم يفكر فى تلطيف حكمه الدكتاتورى ، كما لم يفكر فى التنحي عن الحكم كذلك . ولم يكن إعدام ابن عمه صوقوللو ـــ زاده مصطفى باشا ، الإدارى الفائق القدرة دون ماسبب تقريبا (١٥٧٨/١٠/١٠) كافيا لتنبيه صوقوللو .. أدار مصطفى باشا إيالة بودين (المجر) مدة ١٢ سنة و٣ أشهر و٧ أيام بدراية فائقة . أخذ مراد الثالث ، ينفر من زوج أخته صوقوللو . وأخيرا طعن أحد الدراويش الوزير الدكتاتور بطعنة خنجر ، أثناء خروجه من إحدى جلساته فى الديوان ، قيل عن الدرويش : إنه مجنون (١٥٧٩/١٠/١٢) . من المؤكد تقريبا أن حادث الاغتيال كان بتدبير السلطان . لم يتمكن من عزله بصورة رسمية ، خوفا من حدوث ثورة ، وذلك لاعتماده على تشكيلات الانكشارية . قضى صوقوللو الذى ترك عددا لا يحصى من المؤسسات

الخيرية مدة ١٤ سنة و٣ أشهر و١٥ يوما فى وظيفة وزير أعظم . ويأتى تسلسله التاسع فى طول مدة بقائه فى رئاسة الوزراء فى تاريخ تركية . لم يخرج بنفسه خلال رئاسته للوزارة لأية غزوة ، وأرسل قادة ، ولم يرض بخروج كل من سليم الثانى ومراد الثالث لأية حملة ، وتجاوز تقاليد عصر القانونى .

خلف صوقوللو فى رئاسة الوزارة - بصورة أوتوماتيكية دون تعيين - أحمد باشا ، بسبب كونه وزيرا ثانيا وكان من معارضى صوقوللو . كان متزوجا بالسلطانة مهرماه وعائشة خانم - سلطانة ابنة رستم باشا . توفى بعد ٦ أشهر و١٦ يوما (١٥٨٠/٤/٢٨) . جاء بعده لمنصب الرئاسة بصورة أوتوماتيكية وبدون تعيين الوزير الثانى لاله مصطفى باشا ، وبعد بقائه فى منصبه هو كذلك مدة ٣ أشهر ، و٩ يوم (٧ /١٥٨٠/٨) جاء بعده رئيسا للوزارة بصورة أوتوماتيكية الوزير ٢ قوجا سنان باشا . عزل من منصبه بعد ٢ سنة و٤ أشهر (١٥٨٢/١٢/٦) جرى حفل الختان الذى أقيم للشهزادة (الأمير) ولى العهد محمد (الثالث) (٢٩ آيار - ٢٤ تموز ١٥٨٢) . فى عهد صدارته ، ويعتبر هذا الاحتفال أكبر احتفال جرى فى العهد العثمانى . كان معرضا باهرا لبيان عظمة دولة عالمية .

أخذ مكان سنان باشا بعد عزله الوزير ٢ ، داماد سياووش باشا الذى عزل بعد سنة و٧ أشهر و٢٠ يوما (١٥٨٤/٧/٢٥) . جرى على عهده حادث وفاة نور بانو ، السلطانة الوالدة « والدة سلطان » (١٥٨٣/١٢/٧) وإرسال شهزاده - ولى العهد محمد إلى مانيسا لجلوسه على عرش ساروهان (١٥٨٣/١٢/١٧) . خلفه أوزدمير أوغلو عثمان باشا الذى توفى فى جبهة القتال (١٥٨٥/١٠/٣٠) ، مدة صدارته سنة و٣ أشهر و٦ أيام . وخلال ذلك توفيت السلطانة أسمهان زوجة صوقوللو وابنة سليم الثانى الكبرى (١٥٨٥/٨/٧) . تم صنع العرش الذهبى للسلطان مراد الثالث وتسليمه له ٢٣ أيلول ١٥٨٥ وهو العرش الذى جلس فيه بنو عثمان فى الأيام الخاصة كاحتفالات الجلوس والأعياد حتى عام ١٩٢٤ .

خلف أوزدمير أوغلو بعد وفاته الوزير ٢ نصوح باشا . كان عمره ينوف على الـ ٨٠ . استقال بعد ٥ أشهر و١٤ يوما (١٥٨٦/٤/١٤) . أصبح سياووش باشا وزيرا أعظم مرة أخرى . وسقط بعد سنتين و١١ شهراً و١٨ يوما فى الثورة التى تسمى واقعة بكلربكى (١٥٨٩/٤/٢) . وخلال ذلك توفى قيليج على باشا فى سن الـ ٨٠ ، وهو الذى كان قبطان دريا (مشير البحرية) منذ أكثر من ١٥ عاما

(١٥٨٧/٦/٢١) . خلف مؤسسات خيرية عديدة ، ورثته ماتوا قبله . ثروته البالغة ٥٦٠٠٠٠ سكة ذهبية انتقلت إلى الخزينة . بعد عدة أشهر توفى المعمار سنان عن عمر يناهز ٩٨ عاما (١٥٨٨/٤/٩) . أخذت سلسلة الدهاة الذين أخذهم القانونى تحت حمايته ورفعهم إلى منزلتهم هذه ، أخذت تتقطع ، وتنقرض ، وتفنى .

وفى الحقيقة فإن واقعة بكلربكى (١٥٨٩/٤/٢) ، أثبتت أن الإمبراطورية ، أخذت تسير نحو الأزمات فى الداخل . إن الدراهم المتداولة لدى العثمانية هى المسكوكات الفضية المسماة « آقجه » ، والمسكوكات الذهبية كانت تستعمل فى المبايعات الكبيرة . كان يدفع القسم الأعظم من الرواتب بالـ « آقجه » . وخلال ١٥٨٤ – ٨٩ ، شرع فى تصغير حجم الآقجه تدريجيا حتى بلغت ٥٠٪ من حجمها السابق . أى أن المسكوك الذى نقص بمقدار النصف من الفضة صار العملة الرئيسية للدولة . كان هذا الوضع يقتضى أن تزيد الدولة الرواتب بمقدار الضعفين . بقيت الرواتب كما كانت فى السابق من ناحية عدد الـ « آقجه » مع العلم بأنها فى الحقيقة فقدت قيمتها بمقدار النصف . ومنذ ذلك التاريخ إلى يومنا هذا (١٩٨٥) أخذت الرواتب فى تركية فى الهبوط بصورة مستمرة . العلاوات التى أضيفت على الرواتب لم تكن فى أية فترة من الفترات كافية لمواجهة تضخم العملة ، وكانت قوتها الشرائية تحت معدل التضخم باستمرار ، الأمر الذى سبب ثورة الإنكشارية . ولأول مرة فى التاريخ العثمانى يطلب من السلطان قطع الرءوس . لم يتمكن السلطان من إخماد العصيان . فقد وزيرا المالية (باش دفتردار) محمود أفندى ودوغانجى محمد باشا حياتهما . نجا الوزير الأعظم سياووش باشا ، المسئول الحقيقى عن الأزمة المالية من الموت بعزله . وهكذا يبدأ عصر قيام الإنكشارية بتشكيل عصبة لهم ، تسعى وراء مطاليب سياسية ، وتعصى عند عدم تحقيق مطالبهم التى سوف تستمر ٢/٥ عصر . وقد كان ذلك من أهم أسباب إضعاف الدولة .

صار ، قوجا سنان باشا ، وزيرا أعظم للمرة الثانية ، عزل بعد سنتين ، و٣ أشهر و٢٩ يوما (١٥٩١/٨/١) . وكما منع صوقوللو فتح قناة السويس وقناة الدونة – فولغا كذلك منع مؤيده سنان باشا فتح قناة مرمرة – صقاريا ، الذى استغرق تصميمها الجهد والوقت الطويل (١٥٩١/٤) . الوزير ٢ فرهاد باشا أخذ مكان سنان باشا . عزل بعد ٨ أشهر و٤ أيام بفضل مؤامرات سنان باشا

(١٥٩٢/٤/٤) . احتل سياووش باشا مجلس الصدارة للمرة الثالثة ، وعزل بعد ٩ أشهر و٢٤ يوما (١٥٩٣/١/٢٨) . عزل من صدارته الأولى بسبب عصيان الإنكشارية ، أما عزله عن صدارته هذه فكان بسبب عصيان السباهية (صنف من الخيالة) . كان عصيان السباهيين أيضا بسبب قضية تخفيض سعر الـ « آقجه » إلى النصف . بدأت فترة الصدارة الثالثة لقوجا سنان باشا الذى فتح فيها بلية الحرب الألمانية (١٥٩٣/١/٢٨) وعزله عن صدارته هذه محمد الثالث بعد ٣١ يوما من وفاة مراد الثالث . استمرت صدارته هذه سنتين و١٩ يوما (١٥٩٥/٢/١٦) .

توفى السلطان مراد خان الثالث بسبب مرض المثانة ، عن عمر يتجاوز الـ ٤٨ عاما بـ ٦ أشهر و ١٣ يوما . دامت سلطنته ٢٠ سنة ، وشهرا ، ويومين . وعندما كان شهزاده (أميرا) ، أصبح صنجق بك (أمير لواء) ، أولا لأقشهر ٣ سنوات ، ثم لصاروهان (مانيسا) لمدة ١٣ سنة و٨ أشهر و٢٧ يوما . ولد فى مرتفع بوزدوغان قرب مانيسا ، وتوفى فى سراى طوب قابو فى إستانبول ، دفن فى ضريحه الكائن فى رواق أياصوفيا . خطاط ، مؤلف كتاب عن التصوف ، شاعر له ديوانان باللغة التركية وديوان فى كل من اللغتين العربية والفارسية . أساتذته فى الدرجة الأولى شيخ الإسلام خواجة سلطانى محمد سعد الدين أفندى (١٥٣٦ - ١٥٩٩) ، بقائى أفندى (وفاة ١٥٩٥) ، الشيخ شجاع أفندى ، إبراهيم أفندى (وفاة ١٥٧٣) ، مربوه ترياكى حسن باشا المشهور ، فروخ بك ، إسفنديار أوغلو سلطان زاده شمسى أحمد باشا .

أكثر من له أولاد من بين السلاطين أجمعهم هو مراد الثالث . صار له ١٠٢ شهزاده (أمير) ، أكثرهم ماتوا وهم فى المهد ، وأطول من عاش من بين هؤلاء الأمراء وصل سن ١٧ ، عدا ابنه الكبير محمد الثالث الذى خلفه فى العرش . أما بناته اللواتى بلغن سن الزواج فهى السلطانة عائشة التى تزوجت ٣ زيجات (١٥٧٠ - ١٦٠٥/٥/١٥) السلطانة فاطمة التى تزوجت ٤ زيجات (١٥٨٠ - ١٦٢٠) ، السلطانة فخرية التى تزوجت زيجتين (١٥٩٤ - ١٦٥٦) ، أما اللواتى تزوجن مرة واحدة فهن السلطانة مهرماه (١٥٩٢؟ - ؟) ، السلطانة خديجة ، السلطانة رقية ، السلطانة مهربان .

زوجة (خاصكى سلطان) مراد الثالث هى السلطانة الوالدة صفية المشهورة

(البندقية ١٥٥٠؟ – إستانبول ، ١٦٠٥/١١/١٠) . وخلال سلطنة ابنها محمد الثالث أصبحت والدة – سلطان (السلطانة – الوالدة) مدة ٩ سنوات وأصبح لها نفوذ كبير . كانت ابنة والى كورفو من عائلة بافو العريقة النسب فى البندقية .

ومع أن الدولة خلال عهد مراد الثالث أعلم رجال بنى عثمان وأكثرهم ثقافة قد وصلت إلى ذروة قدرتها وحدودها وعظمتها إلا أن آثار الانحطاط بدأت تظهر بصورة واضحة ، خلال السنة أو السنتين الأخيرتين؛التضحم المالى ، عصيان صنف قابو قولو فى المركز وتشكيلهم عصبة ، انشغال نساء السراى بالسياسة ، انتشار الرشوة ، تفشى الفخفخة ، الإسراف ، الحرص على المظاهر والعظمة ، إمكان حصول الأشخاص الذين لاقيمة لهم على المناصب الحساسة ، تناسى الفتوحات وإعلاء كلمة الله ، ظهور وزراء يتسمون بالدكتاتورية ، إمكان عزل شيوخ الإسلام كالموظفين ، طروء الفساد على زمرة العلماء ، ظهور زمرة الأشقياء فى الأناضول باسم « جلالى » . كل ذلك بدأ فى الظهور فى هذه الدورة أو بعدها بقليل . رجال الدولة،الفن والعلوم ، الدهاة الذين عاصروا القانونى يتوفون الواحد تلو الآخر ويظل مكانهم شاغرا ، خاصة فى المجالات العسكرية ، البحرية ، الإدارية والسياسية وغيرها ويقل شأن الدولة ، ومن ثم تقع مقدرات الدولة فى أيدى الكوادر الضعيفة ، وهؤلاء بدورهم يبدون اهتمامهم الزائد بانتقاء كوادر أضعف منهم . مع كل هذا فإن أسس الدولة كانت قائمة على درجة من المتانة لايمكن تصديقها ، وكان يجرى بطبيعة الحال بين الحين والآخر حركات إصلاح ، وتمر فترات لامعة ، وهذا هو الذى سبب إطالة حياة وحيوية الدولة والنظام .

ويجب ألا ننسى أن العصر ١٦ هو « عصر الأتراك » . أما العصر ١٧ الذى نحن على أبوابه فيمكننا أن نقول إنه العصر الثانى الأفضل فى تاريخ تركية بأجمعه بعد العصر ١٦ . ومن ناحية أخرى ، فإن أوروبا لم تكن قد وصلت بعد إلى الحد الذى يمكنها معه ابتلاع الشرق ، والإسلام ، والأتراك . ولكى تصل إلى ذلك الحد ، احتاجت إلى عدة عصور . كان كيان المجتمع ، ونظام الدولة ومستوى الرفاهية ، سواء فى العثمانية أو فى العالم الإسلامى وحتى فى آسيا كلها ، متقدما على أوروبا بشكل بارز .

وفى ١٥٩٠ ، حتى شيخ مومباسا الواقعة بين كينيا وتانجانيكا دخلت تحت الحكم

العثمانى (A.Warner, Mombasa, IA,410 a) . كانت الأساطيل التركية فى المحيط الأطلسى والمحيط الهندى . ولو أن البحث عن الانحطاط فى مثل هذا العصر يتراءى كأنه مبالغة إلا أنه حقيقة . وفون هامر يكتب مايلى (٧ ، ٢٩٠) : « عند وفاة مراد الثالث ، كانت الإمبراطورية تمتد من المحيط الأطلسى إلى قفقاسيا ، من الحبشة إلى الدونة وتحوى أراضى ٢٠ دولة ملكية بالضبط . وصل الأتراك إلى فينا وهى منتصف طريق إستانبول – باريس تقريبا. بولونيا كانت دولة يعين البادشاه ملكها وتدفع ضريبة سنوية إلى إستانبول وكذلك تدفع إلى قرم التى هى من أتباع إستانبول الاعتياديين . وكان وضع الدول الأوروبية الأخرى تجاه العثمانية يشابه هذا الوضع » . كان هنالك رجال دولة ، تجار وأصحاب سفن .. دخلهم يفوق دخل ملوك أوروبا . مثلا كان دخل صوقوللو السنوى يفوق مليون سكة ذهبية .

إن الدولة التى خلفها القانونى فى ١٥٦٦ ، كانت تقريبا ١,٩٩٨,٠٠٣ كم٢ فى أوروبا + ٤,١٦٩,١٧٧ كم٢ فى آسيا + ٨,٧٢٥,٧٢٠ كم٢ فى إفريقية = ١٤,٨٩٢,٩٠٠ كم٢ . وفى أواخر سلطنة مراد الثالث كانت : ٢,٨٤٨,٩٤٠ كم٢ اوروبا + ٤,٨١٥,٨٣٢ كم٢ آسيا + ١٢,٢٣٧,٤١٩ كم٢ أفريقية = ١٩,٩٠٢,١٩١ كم٢ . هذا الرقم يبين أوسع ما ملكته العثمانية من الحدود فى آن واحد . وهنالك أقطار أخرى دخلت تحت حكم الأتراك خارج هذه الحدود المذكورة ، وهى واسعة كذلك إلى درجة كبيرة ؛ إن مجموع مادخل فى حكم العثمانية من الأراضى فى التواريخ المختلفة يبلغ ٢٣ مليون كم٢ : ٣,٥٤٣,٦٦٢ كم٢ فى أوروبا + ٥,٧٢٩,٢٨٥ كم٢ فى آسيا ١٣,٧٢٧,٤٦٤ كم٢ فى إفريقية = ٢٢,٩٩١,٤١١ كم٢ . ولا يدخل فى هذا الحساب كافة الأقطار التى وصلتها كتائب الصاعقة والقراصنة وتمكنوا من الاستيلاء عليها ، والتى دخلت ضمن السيطرة العليا ونفوذ العثمانية .

وضمن حدود عام ١٥٩٢ ، احتسبت بولونيا (٦٩٦,٧٣٧ كم٢) فى أوروبا ، فاس وأقطار الزنوج التابعة لها (٣٠٥١٦٩٩ كم٢) فى إفريقية . وألحقت قبرص شمال تونس فى زمن سليم الثانى ، وفى آجه (أندونيسيا) أسس نظام الحماية . وفى عهد مراد الثالث تم ضم أراض تبلغ مساحتها ٥٩٠,٠٠٠ كم٢ من شمال وجنوب

القفقاس مع غرب إيران . وأدخلت أماكن كثيرة فى إفريقية الشرقية ، أفريقية الوسطى . تحت الحماية .

ويقدر عدد سكان كافة الأقطار العثمانية هذه ، فى ١٥٩٢ ؛ ١٠٠ مليون نسمة . ٧ ملايين منها تشكلها بولونيا - لتوانيا و ٩ ملايين تشكلها الأقطار المرتبطة بفاس . بلغ تعداد إستانبول مع الضواحي ١٢٠٠,٠٠٠ وتعداد القاهرة ٧٥٠,٠٠٠ نسمة . أما الإمبراطوريات التركية الأخرى فتقدر هكذا فى نفس التاريخ كما يلى : ٠٠٠ ٦٢١ ١ كم٢ و ١٥ مليون نسمة صفويين إيران ، ٠٠٠ ٦٧٤ ٣ كم٢ و ١٢٠ مليون نسمة بنى تيمور فى الهند ، ٠٠٠ ٥١٣ ٥ كم٢ و ١٢ مليون نسمة بنى جنكيز فى تركستان ، ٠٠٠ ٤٥٣ كم٢ و ٢٢ مليون نسمة بنى عادل شاه فى الهند الجنوبية . وكانت الإمبراطورية الصينية فى هذا التاريخ تقريبا ٠٠٠ ٢٦٨ ١٢ كم٢ والسكان ٨٠ مليون نسمة .

أما فى الدول الأوروبية فكان تعداد النفوس حينئذ قليلا جدا (وضمنها كافة المستعمرات) : ملكية إسبانيا ٠٠٠ ٥٧٥ ٢٤ كم٢ والنفوس ٣٣ مليون ، إمبراطورية ألمانيا ٠٠٠ ٦٥٩ كم٢ والنفوس ١٧/٥ مليون نسمة ، ملكية فرنسا ٠٠٠ ١٤٢ ١ كم٢ والنفوس ١٥ مليون . ملكية إنكلترا ٠٠٠ ٣٤٧ كم٢ والنفوس ٥/٩ مليون ، جمهورية البندقية ٠٠٠ ٥٥ كم٢ والنفوس ٣/٨ مليون ، إمبراطورية روسيا ٠٠٠ ٠٠٠ ٥ كم٢ والنفوس ٧ ملايين .

نماذج من الدول العالمية الأخرى التى لاتعتبر دولا كبرى : ملكية السويد ١٠٥٨٠٠٠ كم٢ والنفوس ٢/٦ مليون ؛ ملكية الدانمارك ٥٥٩٠٠٠ كم٢ والنفوس ١/٦ مليون ؛ البابوية ٤٥٠٠٠ كم٢ والنفوس ١/٩ مليون ؛ إمبراطورية اليابان ٠٠٠ ٣٧٤ كم٢ والنفوس ١٤ مليون ؛ القطب شاه (أتراك الهند الجنوبية) ٢٩٥٠٠٠ كم٢ والنفوس ١٠ ملايين .

وفى ١٦٠٠ تقريبا كان تعداد العالم حوالى ٥٤٨ مليون نسمه . وتوزيعه على القارات كما يلى : آسيا ٣٥٠ ، أوروبا ١٢٢ ، إفريقية ٦٠ ، أمريكا الشمالية ٩/٥ أمريكا الجنوبية ٥ ، المحيطات ٢ مليون .

٣١) جلوس محمد الثالث (١٥٩٥/١/٢٧) والحوادث الداخلية

جاء محمد الثالث من مانيسا وجلس على العرش فى إستانبول . كان فى سن ٢٧/٥ . كان سنجق بك (أمير لواء) لساروهان فى مانيسا منذ ١١ عاما . عزل قوجا سنان باشا (١٥٩٥/٢/١٦) وعين فرهاد باشا وزيرا أعظم للمرة الثانية . استمرت الصدارة الثالثة هذه سنة و ١١ شهرا و ١٩ يوما . خرج فرهاد باشا لحملة ألمانيا ، وعلم فى روسجك بعزله نتيجة مؤامرات سنان باشا . دامت صدارته هذه ٤ أشهر و١٩ يوماً ، ومجموع الصدارتين سنة و٢٢ يوما . كان عسكريا قديرا . عمل سنان باشا كل ماوسعه لإزاحته باعتباره أكبر منافس له فى الحياة ، وفى النهاية أعدم فرهاد باشا (١٥٩٥/١٠/٩) . إن صدارة سنان باشا الرابعة (١٥٩٥/٧/٧) ، عبارة عن ٤ أشهر و١٣ يوما . صار لاله محمد باشا وزير أعظم ، مات بعد ٩ أيام . اعتلى سنان باشا منصب الصدارة للمرة الـ ٥ (١٥٩٥/١١/٢٨ - ١٥٩٦/٤/٣) . صدارته هذه دامت ٤ أشهر ، و٥ أيام ومجموع صداراته الخمس ٧ سنوات و٤ أشهر و٥ أيام . خلف سنان باشا الجبان بقدر ماهو خائن ، والعاجز جنسيا بقدر ماهو عديم الأخلاق ، خلف ثروة كبيرة لايتصورها العقل ، والقسم الكبير من هذه الثروة حصيلة النهب والرشوة . نظم الشعراء قصائد الفرح عند موته فى صدارته الخامسة .

خلفه الوزير ٢ داماد إبراهيم باشا ، ورؤساء الوزارة على التوالى جغال أوغلو سنان باشا (١٥٩٦/١٠/٢٧) ، إبراهيم باشا للمرة الثانية (١٥٩٦/١٢/٥) ، الوزير الـ ١٣ حسن باشا (١٥٩٧/١١/٣) ، وبعد ٥ أشهر و٦ أيام الوزير الـ ٢ داماد جراح محمد باشا (١٥٨٩) ، وبعد ٨ شهر و٢٧ يوما إبراهيم باشا للمرة ٣ (١٥٩٩/١/٦ - ١٦٠١/٧/١٠) . دامت صدارة إبراهيم باشا الأخيرة سنتين ، و٦ أشهر و٥ أيام ومجموع صداراته الثلاثة ٤ سنوات إلا يومين . توفى خلال ذلك شيخ الإسلام حاجه سلطانى خوجا سعد الدين أفندى وسنه ٦٣ (١٥٩٩/١٠/٢) . كان رجل دولة كبيرا فى عصره وسياسيا ومؤرخا . هو الشخص الذى قال عنه هامر : « هو من أكبر الدهاة الذين شرفوا الأدب العثمانى » (٧ ، ٣٧٣) . هو جد العائلة العلمية المشهورة التى تسمى بالنسبة إليه خوجا

– زاده لر ، وبالنسبة لأبيه حسن خان – زاده لر ، وابنين من أبنائه شغلا منصب شيخ الإسلام . وبعد ذلك بقليل توفى « باق » الشاعر الأكبر الذى ترك الحياة السياسية عندما كان قاضى عسكر (قاضى عسكرى) لقضاء رومة لى ، قبل أن يتمكن من نيل مقام « شيخ الإسلام » (١٦٠٠/٤/٧) . باق الذى كان صديقا لسعد الدين أفندى ومنافسه ، والذى يكبره بـ ٩ سنين كان شاعر السلطان سليمان المفضل . وهكذا انتقل آخر دهاة عصر القانونى إلى الماضى .

دامت صدارة داماد يمشجى حسن باشا سنتين وشهرين و٢٥ يوماً (١٦٠١/٧/١٠ – ١٦٠٣/١٠/٤) . كان رجل دولة وعسكريا لاقيمة له . جىء به محل داماد إبراهيم باشا على أثر وفاته . وكان مالقوج أوغلو ياووز على باشا ، الوزير الأعظم الأخير لمحمد الثالث واليا على مصر ، واستدعى من القاهرة إلى إستانبول .

كثرت الاضطرابات فى الأناضول فى عهد سلطنة محمد الثالث . أخذ العصيان يتلو الآخر باسم « ثورة الجلالى » ضد الولاة الذين أرسلتهم إستانبول . وانتقل العصيان إلى إستانبول كذلك (١٦٠٣/١/٦) .

وفى الوقت الذى تعالج فيه العثمانية ، الحرب الألمانية فى الخارج ، وثورة الجلالى ، فى الداخل ؛ كانت إيران تلم شعثها . توفى عبد الله خان٢ ، خاقان تركستان الذى يسمى « الكبير » ، قبل وصول سفيره – الذى سيطلب النجدة لمواجهة إيران – إلى إستانبول بشهر واحد (ك١٥٩٨/٢) . انقسمت تركستان إلى خانلق (مقاطعات يحكمها الخان) لم تعد من بين الدول الكبرى ، ودخلت فى فترة عجز اقتصادى كبير . لأن طرق التجارة تغيرت . استرجع الشاه عباس من تركستان إيالة خراسان العظيمة التى تشتمل على هرات ومشهد . وفى ١٥١٧ قدم إلى إستانبول سفير تيمور أوغلو أكبر شاه سلطان الهند لاستلفات نظر الديوان ضد الخطر الإيرانى .

عكر حادث إعدام الشهزادة الأعظم محمود فى سن ١٦ نتيجة لمؤامرة فى القصر (١٦٠٣/٦/٧) صفو الأيام الأخيرة لمحمد الثالث وفتح طريق العرش للسلطان أحمد بشكل غير متوقع أبدا .

٣٢) حرب ألمانيا : حركات عام ١٥٩٥

تحرك الوزير الأعظم فرهاد باشا إلى جبهة ألمانيا بصفة سردار أكرم (قائد أعلى) (١٥٩٥/٤/٢٧) . وعزل نتيجة مؤامرات سنان باشا ، قبيل اجتيازه الدونة فى رسجك (١٥٩٥/٧/٧) . صار سنان باشا رئيسا للوزارة وقائدا أعلى ، وظل داماد ابراهيم باشا برتبة وزير ٢ كقائمقام الصدارة (وكيل رئيس الوزراء) فى إستانبول كذلك .

خلال هذه الأيام بدأ الجيش الإمبراطورى الألمانى المؤلف من ٥٠٠٠٠ مشاة و ٢٠٠٠٠ خيال بقيادة الأمير مانسفلد بمحاصرة Estergon (١ تموز) . ولحين قدوم الوزير الأعظم أعطيت قيادة الجبهة إلى ابن قوجا سنان باشا الوزير محمد باشا الذى يفوق أباه فى النذالة ، لايفقه من العسكرية شيئا ، جبان وعديم الشرف ، وكان يلقب بـ « المخنث » . أراد مجابهة الجيش الألمانى بالجيش الموجود تحت قيادته . غلب نتيجة عدم استماعه إلى الجنرالات المقتدرين الموجودين تحت إمرته . وبعد حرب شديدة خارج استركون . استولى الأمير Mansfeld على ١٥٠٠ خيمة تركية و٢٧ راية و٣٩ مدفعاً .

أما سنان باشا فقد دخل الأفلاق لغرض إخماد العصيان (١١ آب) . عبر الدونة فى رسجك وانتقل إلى رومانيا . دخل بخارست فى ٢٨ آب . مركز فويفودة (إمارة) أفلاق فى ذلك العهد لم يكن بخارست وكان فى Tragoviste على بعد ٧٥ كم فى الشمال – الغربى منها . دخلتها الصاعقة أيضا ، ولكن لم يتم العثور على الأمير Mihai والتخلص منه .

قاومت أستركون الحصار مدة شهرين ويومين بعد قصف مدافع الحصار الألمانية الـ ٤٢ التى كانت تقصف بمعدل ٢٠٠٠ قذيفة يوميا . رضى غزاة الأتراك بالتسليم ، بعد أن ظلوا عدة أيام يلعقون المرمر لإزالة عطشهم ، بعد أن قطع الألمان مجارى المياه الواردة إلى القلعة . وافق الأرشيدوق الذى حضر أمام القلعة على انسحاب الأتراك وذهابهم مع مايمكنهم حمله من الحاجيات . ترك بكلربك الأناضول القلعة باكيا وهو يقسم على استعادتها (١٥٩٥/٩/٢) . أستركون ، بلدة الغزاة التى تقع

على طريق بودابست – فينا ، كل حجر من أحجارها مسقى بدم وعرق ودموع العثمانيين والتى كان قد فتحها السلطان سليمان القانونى قبل ٥٢ سنة و ١٣ يوما . وهكذا بدأ الاحتلال الألمانى لإستركون الذى استمر ١٠ سنوات ، وشهرا ، ويوما . وسقطت قلعة فيشغراد بعد ٦ أيام . « عندما احتل الأتراك ، إستركون فى عهد القانونى احترموا كافة الآثار القديمة فى المدينة ، وحافظوا بعناية على القصور وعلى ماتحويه من قطع التماثيل . ولكن الألمان نهبوا كافة الآثار التاريخية وخربوها عند دخولهم المدينة » (فون هامر ، ٧ ، ٣٠٨) .

وأثناء حدوث هذه الكوارث مكث سنان باشا ١٦ يوما فى بخارست ، وعين ساطرجى محمد باشا بكلربك لأفلاق وتركه مع ٢٠٠٠ جندى فى بخارست ، وجاء هو مع ١٠٠٠٠٠ جندى ، إلى خلال ٥ أيام (١٨ أيلول) . وكان الفويفودا Mihai قد أخلى أفلاق وفر إلى أردل . وبذكائه تمكن من تشخيص عدم لياقة سنان باشا ، وكان ينتظر الفرصة للبطش به . لم يمر أكثر من جيل واحد على الزمن الذى كان ينتصر فيه أمراء اللواء على الأباطرة ، والآن يرتجف الصدر الأعظم أمام الفويفودات العصاة .

سنان باشا ، الذى شيد قلعة فى كل من بخارست وتاركوفيشتة (لم تكن هنالك أية قلعة فى الأفلاق وبغدان بموجب النظام العثمانى) ، غادر المدينة فى ١٧ ت١ ، بعد أن أبقى فى تاركوفيشته حيدر باشا – زاده على باشا بكلربك طرابزون . كان الفويفودا ميخائى يتعقب الجيش الهمايونى على مدار الـ ٢٤ ساعة . وفى ١٩ ت١ ، دخل ميخائى إلى تاركوفيشته . أجلس ٣٥٠٠ تركيا على الأوتاد . شوى على النار الخفيفة على باشا وكبار الضباط الأتراك « وأكلهم بكامل الشهية » مع معيته فى طعام العشاء . وأثناء حدوث هذه الوحشية التى لايتقبلها المنطق أمر سنان باشا بالانسحاب ، خوفا من الهجوم المفاجىء . وصل يركوى التى تقع على الدونة ، وعلى الضفة الثانية تقع أمامها مدينة رسجك . بدأ الجيش فى اجتياز الدونة الكبير . حل الخريف ، الدونة هائج بأمواجه المتلاطمة .

فى مثل هذه الحركات العسكرية لايعبر صنف الصاعقة (الكوماندو) الجسر إلا بعد أن يعبره الجيش بكامله ، لحماية مؤخرة الجيش من العدو . حصل الجيش وخاصة الصاعقة على غنائم كبيرة . وينص القانون ، وكذلك الدين على أن يكون خمس الغنائم

من حق الخزينة . كان سنان باشا طماعا لايشبع من المال . عين حرسا على رأس الجسر ، وبدأ بحصر الغنائم والاستيلاء على خمسها . استمر هذا العمل أثناء اقتراب العدو من الجسر . وبسبب ذلك استغرق عبور الجيش ومهماته الجسر مدة ٣ ليال . بقى صنف الصاعقة فى الضفة الثانية . وأثناء وجود جيش الصاعقة فوق الجسر ، أدركهم ميخائى بجيشه (المكون من جنود الأفلاق - بغدان - أردل - ألمان) ، الذى يقال إنه يبلغ ٧٠٠٠٠ وهدم الجسر بنار مدفعيته . حدثت كارثة كبيرة ، سقط خيرة كتائب الصاعقة فى الدونة وغرقوا . تكبدت الصاعقة التى كانت القوة الضاربة الرئيسية فى الفتوحات العثمانية خسائر كبيرة . ولم يتيسر تعويض هذه الخسارة فى المستقبل . ولهذا أصبح الجيش العثمانى بحاجة إلى خيالة قرم لتعويض ذلك . ولأن هؤلاء لم يكونوا منظمين بنفس درجة كتائب الصاعقة فقد سببوا للدولة كوارث عديدة .

لم يظهر سنان باشا تأثرا كبيرا على كارثة الصاعقة ، والتى تتضاءل أمام خياناته السابقة ، ولم يقلق على شيء ، كما قلق على منصبه والتخطيط لرشوة الأشخاص الذين لهم تأثير على بقائه فى منصبه فى إستانبول من الغنائم التى استولى عليها على أنها حق قيادته . دخل ميخائى قلعة يركوى وقتل المسلمين بمن فيهم النساء والأطفال بالسيف وحول المدافع التركية نحو مدينة رسجك الواقعة فى الساحل المقابل وأحدث تخريبات غير قليلة فى هذه المدينة التركية المهمة .

انتشر الجيش هنا وهناك بحجة التشتى ، دون طلب الإذن من الوزير الأعظم (نعيما ، ١ ، ١٦٩ - ٧٢ ؛ منجم باشى ، ٣ ، ٥٨٢ - ٤ ؛ صولاق - زاده ، ٦٢٢ ومابعده ؛ هامر ، ٧ ، ٣٠٣ - ٦) . عزل سنان باشا بعد ١١ يوما من عودته من رسجك .

سقطت عدة قلاع فى أردل ، واتسعت حدود أردل حتى بلغت أسوار تامشوار Tamesvar إحدى الإيالات التركية .

وهكذا انتهى عام ١٥٩٥ على هذا الوضع المشئوم جدا .

٣٣) حملة أكرى Egri الهمايونية (١٥٩٦/٦/٢٠ - ١٥٩٦/١٢/٢٢)

تجددت إزاء وضع كهذا ضرورة خروج السلطان للحملة . لم يخرج سلطانان إلى الجبهة منذ وفاة القانونى أى قبل ٣٠ سنة . كما يعبر الكتاب العثمانيون « فطس gebermis) سنان باشا ، ابراهيم باشا ، وصار وزيرا أعظم . دعى السير إدوارد بورتون Sir Edward Burton) سفير اليزابث الذى تحميه العثمانية للاشتراك فى الحملة . خرج محمد الثالث إلى الجبهة ، تاركا فى خزينة السلطان فى إستانبول ٢٢ مليون سكة ذهبية وأخذ معه ١٨/٥ مليون قطعة ذهبية (خزينة السلطان ليست هى خزينة الدولة) .

استقبل الشعب محمد الثالث فى بلغراد ، بحفاوة منقطعة النظير ، جرت مراسم استعراض للجيش . بقى ١١ يوما ثم تحرك (٢١ آب) جاء إلى Segedin (٧ أيلول) . وصل قلعة أكرى . بدأ الحصار (٢٤ أيلول - ١٢ ت١) . كانت أكرى (بالألمانية : Erlau ، بالمجرية : Eger) قلعة مهمة جدا فى المجر الشمالية ، فى حوزة الألمان . لم يتمكن عسكرى مقتدر كالوزير الأعظم قره أحمد باشا فى عهد القانونى من فتحها ، رغم محاصرته لها ٣٩ مرة . يعتبر فتح قلعة كهذه خلال ١٨ يوما ؛ توفيقا كبيرا . قتل ١١٠٠٠ جندى ألمانى . أقيمت صلاة الجمعة فى أكرى يوم ١٨ ت ١ ، وتلا الخطبة سعد الدين أفندى . جعلت مركزا للإيالة وعين لها بكلربك أرضروم ، صوفو سنان باشا (فتح نامة أكرى ، منشئات السلاطين ، ٢ ، ١٠١ - ٢ ؛ بجوى ، ٢ ، ١٩٣ ومابعده ؛ نعيما ، ١ ، ١٤٤ - ٥٣ ؛ صولاق - زاده ، ٦٣٠ ومابعده ؛ منجم باشى ، ٣ ، ٥٨٧ ، ٩ ؛ هامر ، ٧ ، ٣١٩ - ٢٤) .

فى حرب هاجوفا الأولى Haçova (٢٢ ت١) انتصر الجيش الألمانى على مقدمة الجيش العثمانى ، سقط ١١٠٠ جندى عثمانى شهيدا وفقد ٤٢ مدفعا ، إن معركة هاجوفا الكبرى الأصلية بدأت بعد ٤ أيام (١٥٩٦/١٠/٢٦) .

كان مع الأرشيدوق Maximilian أخو الإمبراطور ، ٣٠٠٠٠٠ جندى وأفراد مساعدون و ١٠٠ مدفع فى الصحراء التى يسميها الأتراك هاجوفا (بالمجرية : Keresztes-mezoe) التى تقع على الضفة الغربية من نهر Tisa .

كان قوام الجيش الهمايونى ١٤٠٠٠٠ جندى (٦٠٠٠٠سباهى (تمارلى سباهى) خيال و٥٥٠٠٠ من صنف قابوقولو و٢٥٠٠٠ قرمى) كان فتح كيراى أخى غازى كيراى ٢ يقود خيالة قرم .

بدأت الحرب بهجوم الألمان واختراقهم مراكز العثمانية فى العمق ووصولهم بالقرب من المخيم السلطانى .

ترجل محمد الثالث عن حصانه ، دخل خيمته ، على كتفيه بردةالرسول ﷺ الشريفة ، وممسك بيده رمح الرسول ﷺ ، كان يصلى ويدعو الله .

دخل الوزير الأعظم إبراهيم باشا إلى السرادق ، وقطع الدعاء مخبرا السلطان بأن انسحابه أصبح من الضرورات العسكرية ، ومن المؤكد أنه كان يخشى وقوع السلطان فى الأسر ، فيصيب الدولة مكروه لايمكن إصلاحه ، لأنه كان طيبا وعسكريا شجاعا . استمع محمد الثالث للتوصية ، وحالما امتطى جواده أمسك خوجة سعد الدين أفندى رئيس أساتذته وأساتذة أبيه بعنان الجواد قائلا : إن الجيش الذى لايرى السلطان فى مكانه يتشتت ، وإن الحرب مستمرة وليس هناك هزيمة ، وإن روح الرسول تنظر إليهم . بدأ أفراد الصاعقة الذين شاهدوا البادشاه على صهوة جواده وأستاذه ممسك بالأعنة بهجوم مدهش .

هزم الجيش الألمانى . قتل ٥٠٠٠٠ من أفراد العدو فى ساحة القتال و٢٠٠٠٠ فى المستنقعات التى سيقوا إليها ، واغتنم ١٠٠ مدفع . كانت خسائر العثمانية عبارة عن عدة آلاف من الشهداء . كانت جثث قتلى العدو مكدسة فى ساحة القتال الواحد فوق الآخر . وتعقب كل من فتح كيراى وجغال أوغلو سنان باشا العدو المغلوب ، وأسرا قسما منه .

كانت هاجوفا Haçova من أكبر إنتصارات العثمانيين . ولكنه انتصار لم يقيّم استراتيجيا . عادوا إلى الخلف بعد إفناء جيش العدو . ولو ذهبوا بالبادشاه إلى الأمام لفتحوا بالتأكيد أقطارا عديدة . ولكن العثمانية كانت قد بدأت تأخذ بفكرة الحفاظ فقط على ماتملكه . فقد العثمانيون روح الفتوحات وطاقة التحرك . حملة أكرى ، هى الحملة الهمايونية الوحيدة خلال الـ ٥٥ عاما من ١٥٦٦ إلى ١٦٢١ (كاتب جلبى ، الفذلكة ، ١ ، ٩٠ ومابعده ، بجوى ، ٢ ، ١٩٥ – ٢٠٣ ؛ صولاق –

زاده ، ٦٣٤ ومابعده ؛ منجم باشى ، ٣ ، ٥٩٠ ومابعده ؛ نعيما ، ١ ، ١٥٥ — ٦٨ ؛ هامر ، ٧ ، ٣٢٨ ومابعده) .

فى السنة التالية ، عين الوزير الشاب ساطرجى محمد باشا قائدا عاما للجبهة الألمانية (١٥٩٧/٦/٩ — ١٥٩٩/١/٦) . لم يكن الوزير الشاب هو الشخص الذى يمكنه القيام بمثل هذا الواجب العسكرى . جاء إلى بلغراد فى ١٣ آب ، وقضى فيها مدة ٢٣ يوما . أثناء اقتراب القائد من بودين ، كان الألمان يحاصرون يانق قلعة . وفى ٢ ت١ خسروا ٢٠٠٠ قتيل ثم انسحبوا . استولى صاطرجى باشا على Tata وأبعد الألمان عن شمال بودين وخلص Yanik و Tamesvar ، إلا أن يانق قلعة انتقلت إلى يد الألمان بشكل غير متوقع (١٥٩٨/٣/٢٩) . كان الألمان يتجسسون من فينا على القلعة التى تبعد عنها ٩٠ كم . كانت الأرزاق تصل إلى القلعة عن طريق أستولنى — بلغراد .

جاءت ليلا قافلة تتكلم التركية وأفادت بأنها تحمل الأرزاق . فتح الحرس الذين كانوا سكارى باب القلعة . اجتاز الألمان الذين كانوا فى كمين الجسر ، ودخلوا القلعة . أشعل بكلربكى محمود باشا مخزن البارود مع ٣٠٠ جندى ، وقتلوا كلهم مع مئات الألمان نتيجة الانفجار . كانت حامية القلعة تتألف من ٤٠٠٠ جندى ، إلا أنهم كانوا منتشرين فى النواحى المجاورة ، ولايتوقعون هجوما شتويا ، بقى فى القلعة ٣٠٠ جندى فقط تحت قيادة ضابط انكشارى سكران اسمه يحيى أغا . لم يستمر الحكم الثانى للعثمانية فى يانق قلعة إلا ٣ سنوات و٦ أشهر ويومان . وكأنما تعادل النصر الذى حصلت عليه العثمانية فى فتح أكرى مع هذه الخسارة .

عند حُلول الصيف تفقد الباشا مع غازى كيراى ٢ الجبهة . استولى القائد على جاناد (Csanad) وآراد ، وفى ٢ ت ١ شرع فى حصار فارات ، وفى ٣ ت٢ رفع الحصار ، وخلال هذه الأيام شرع الأرشيدوق Matthias فى محاصرة بودين بقوته البالغة ٨٠٠٠٠ جندى (٢٨ أيلول) ، لكنه انسحب فى ٢ت٢ . احترق ٨٠٠٠ بيت فى بودين نتيجة قصف مدفعية العدو . كانت خسائر الطرفين كبيرة . استشهد ٢ بكلربكى ، جرح ترياقى حسن باشا . عزل صاطرجى محمد باشا عن القيادة بعد عودته إلى بلغراد بـ ٢٩ يوما . وفى نفس اليوم عزل فى إستانبول عن الصدارة جراح محمد باشا . صار داماد إبراهيم باشا وزيراً أعظم وقائداً أعلى (١٥٩٩/١/٦) .

دامت قيادة صاطرجى سنة و ٦ أشهر و ٢٧ يوما (نعيما ، ١ ، ٢٠٤ ؛ منشآت السلاطين ، ٢ ، ١١٨ - ٩) .

٣٤) حملتا أويفار Uyvar (١٥/٥ - ١٥٩٩/١١/٢٦) وقانيجة Kanije (٨/١٤ - ١٦٠٠/١١/٣٠ لداماد إبراهيم باشا

خرج إبراهيم باشا من إستانبول إلى الجبهة بعد ترأسه الوزارة بـ ٤ أشهر و ١٠ أيام (١٥٩٩/٥/١٥) . انضم غازى كيراى ٢ إلى الجيش . استولى إبراهيم باشا على أويفار (بالسلوفاكية : Nové Zamky) القلعة الألمانية المهمة (حاليا فى جيكوسلوفاكيا) . طلبت ألمانيا الصلح ، جزع الفويفودا Mihai من ذلك ، وعرض عبوديته واسترحم الديوان الهمايونى كى يقبله . عين للمفاوضات بكلربك دياربكر قويوجى مراد باشا ، وهو صهر قاضى - زاده على باشا بكلربك بودين . لكن المفاوضات لم تسفر عن نتيجة . قضى ، الوزير الأعظم والقائد الأعلى داماد إبراهيم باشا الشتاء فى بلغراد (١٥٩٩/١١/٢٦ - ١٦٠٠/٨/١٤) . حاصر قانيجة (١٢ أيلول) وفتحها (١٦٠٠/١٠/٢٢) . انتقلت قلعة مهمة تقع بين بحيرة Balaton ونهر Dtava (بالمجرية : Nagy - Kanisza) ليد الألمان بعد أن كانت فى السابق لدى العثمانية . ورغم أن Philippe Emmanuel دوق Lothringen (Lorraine) هرع لنجدة قانيجة بـ ٤٠٠٠٠ جندى ؛ إلا أنه هزم وانسحب . جعلت قانيجة مركزا لإيالة وخصص لها ٥٠٠٠ جندى .

قضى إبراهيم باشا فى بلغراد شتاء آخر (١٦٠٠/١١/٣٠ - ١٦٠١/٧/١) . تحرك بحملة جديدة على ألمانيا ، توفى فى الطريق (١٠ تموز) . ختم حياته العسكرية والسياسية بشكل لامع . أدار دفة الحرب لصالح العثمانية باستيلائه على قلعتين مهمتين جدا كأويفار وقانيجة وقلاع كثيرة فى الدرجة الثانية من الأهمية . لم يكن خلفه الوزير الأعظم والقائد الأعلى يمشجى حسن باشا جديرا بهذا المنصب . تحرك من إستانبول (١٦٠١/٨/٩) . وفى هذه الأيام ، قتل ميهاى ، وعندما استولى محمود باشا على الأفلاق بكاملها عرضت بغدان وأردل طاعتهما . سيبدأ يمشجى حسن باشا مرحلة تثبت عجزه وتخريبه للمخطط العسكرى الموفق الذى ورثه عن سلفه إبراهيم

باشا ، شاهد الألمان تجوال القائد الأعلى فى الحدود دون جدوى ، جاءوا فى الخريف أمام قانيجة .

٣٥) محاصرة قانيجة (١٦٠١/٩/٩) والانتصار (١٦٠١/١١/١٨)

جاء الأرشيدوق Ferdinand الإمبراطور فى المستقبل بقوته البالغة ١٠٠٠٠٠ جندى و ٤٧ مدفع حصار أمام قانيجة . سيقوم بالدفاع عن القلعة تجاه الأرشيدوق البالغ سنه ٢٣ بكلربك ترياكى حسن باشا البالغ سنه ٨٠ ، والذى قضى حياته على الحدود ، كان ذكيا ، بقدر ماهو حاضر الحيلة ، وداهية عسكريا ، شهد الحرب والضرب فى عصر القانونى . كانت قواته ٩٠٠٠ جندى و ١٠٠ مدفع دفاع . كان ١٠٠٠٠ جندى من بين جيش الأرشيدوق أرسلهم البابا ، وكانت هنالك وحدات إيطالية ، مالطية ، ووحدات متطوعة مجرية وفرنسية . وخلال نفس الأيام بدأ جيش ألمانى أصغر منه بمحاصرة أستولنى – بلغراد .

بدأ حصار قانيجة ، وكان يطلق عليها يوميا من ١٠٠٠ إلى ٢٠٠٠ قذيفة . وبالرغم من أن حسن باشا كان موجوداً على مقربة من القلعة الا أنه لم يجسر على المجىء لنجدتها « أودع كانيجة لأمان الله » وانسحب إلى مشتاه . أذهل حسن باشا العدو بحيله البارعة .

رفضت الوحدات المجرية فى الجيش الألمانى القتال مع الأتراك ، كما سرى التشاؤم من موت ابن أخى البابا برصاصة أطلقت من القلعة من بندقية تركية وحالات شبيهة .. كل ذلك أدى إلى تضعضع الألمان . نصب الألمان الأكواخ فوق الثلوج واستمروا فى الحصار . قلت ذخيرة ترياكى حسن باشا ، ولم يبق الا القليل . وبحيلة عسكرية تمكن من إيهام الألمان بهجوم ليلى ، على أساس أن قوات يمشجى حسن باشا على وشك الوصول . كانت ليلة ١٧ – ١٨ ت٢ – وهو اليوم ٦٩ من الحصار – استولى الرعب الشديد على الألمان ، ظنا منهم أن الجيش الهمايونى أغار عليهم بغتة وأخذوا فى التراجع .

ترك الألمان الذين خسروا ٨٠٠٠٠ جندى كافة مهماتهم . انتقل ليد الأتراك ،

٤٧ مدفع حصار بحجم هائل و١٤٠٠٠ بندقية و٦٠٠٠٠ خيمة و١٤٠٠٠ معول ومسحاة ، آلاف العربات المليئة بالطعام والملابس والأدوية والبارود والأسلحة ، وسرادق الأرشيدوق وخزينته . تمكن الأرشيدوق من امتطاء جواده بملابس النوم والهروب . تعقب ترياكى حسن باشا العدو بواسطة ٣٠٠٠ من خيالته حتى داخل الأراضى النمساوية . انتقلت ٣٠٠٠ قرية ألمانية إلى سيادة الأتراك . ولد إفناء الجيش الألمانى بشكل غير متوقع السرور العظيم فى إستانبول . منح محمد الثالث رتبة الوزارة (الماريشالية ، مشير) إلى ترياكى حسن باشا ، وسيفا مرصعا وباركه بكتاب همايونى (نعيما ، ١ ، ٢٥٤ - ٨١ ؛ هامر ، ٨ ، ٩ - ١٤) .

استرجع يمشجى حسن باشا ، الذى تحرك من بلغراد ، أستولنى - بلغراد ، التى انتقلت إلى يد الألمان ، خلال هذه الأيام (١٢ تموز - ٦ آب ١٦٠٢) . حاصر الألمان بودين بـ ٨٠٠٠٠ جندى . إلا أنهم هزموا بخروج لاله محمد باشا (١٦٠٢/١١/١٨) ، لاله باشا أصبح وزيراً ٣ وقائداً أعلى . خرج إلى الجبهة فى ١٦٠٣ (١١ أيار - ٢١ أيلول) ، جرت معارك عنيفة قرب بودين ، انسحب إلى بلغراد لقضاء الشتاء . توفى محمد الثالث فى هذه الأثناء (١٦٠٣/١٢/٢١) .

٣٦) وفاة محمد الثالث ، جلوس أحمد الأول (١٦٠٣/١٢/٢١)

عاش محمد الثالث ٣٧/٥ عاما ، دامت سلطنته ٩ سنوات إلا ٢٥ يوما ويعرف بـ « فاتح أكرى » ، وكان مثقفا ثقافة عالية وله ديوان شعر . أساتذته الرئيسيون شيخ الإسلام سعد الدين أفندى (وفاة ١٥٩٩) قاضى عسكر عزمى أفندى (وفاة ١٥٨٢) ، نوالى أفندى (وفاة ١٥٩٥) ، جعفر أفندى (وفاة ١٥٧٤) ، حيدر أفندى (وفاة ١٥٨٠) ، مربيه الوزير الأعظم مانيسالى لاله محمد باشا (وفاة ١٥٩٥) (هو ليس الوزير الأعظم صوقوللو - زاده لاله محمد باشا العسكرى الكبير) رمضان أفندى ، مصطفى باشا - زاده قورد بك ، لاله على باشا الذى استشهد عندما كان بكلربك لتبريز (وفاة ١٦٠٤) . سماه القانونى وهو ابن الحفيد الأول له . عند وفاة القانونى كان عمره ٣ أشهر و١٢ يوما .

جده سليم الثانى وأبوه مراد الثالث ، كانا سلطانين بمعنى الكلمة ، لهما حظهما

من الدهاء لترعرعهما على عهد القانونى . كان محمد الثالث شخصية ضعيفة ، وقد كان السبب فى إحياء سلطنة النساء فى الدولة وإظهار كافة مساوئها بسبب ضعفه الشديد تجاه والدته وبقائه تحت تأثيرها . أبناؤه أولو شهزاده (١٥٩٥ – ٩٧) سليم (١٥٨٠ – ١٥٩٧/٤/٢٠) ، شهزاده جهانكير (١٥٨١ – ١٥٩٦) ، أولو شهزاده (١٥٩٧ – ١٦٠٢) محمود (١٥٨٧ – ١٦٠٣/٦/٧) ، أحمد الأول ، (الذى خلفه) . له ١٠ بنات وصلن سن الزواج . أصغر أولاده مصطفى الأول .

ولد أحمد الأول فى قصر مانيسا (١٥٩٠/٤/١٨) . ولد أبوه محمد الثالث وجده مراد الثالث فى مانيسا كذلك . جلس أحمد الأول على العرش بعد ولاية عهد دامت ١/٥ سنة ، وكان عمره يجاوز سن ١٣ بـ ٨ أشهر ، لم يكن قد تم تختينه ، فجرى ختانه فورا . لم يرسل إلى مانيسا بسبب صغر سنه ، ولهذا فقد كان أول سلطان اعتلى العرش دون أن يوفى وظيفة سنجق بك (أمير لواء).. استمرت الحرب الألمانية خلال السنوات الـ ٣ الأولى من سلطنته وأسفرت عن نتائج .

٣٧) الصفحة الأخيرة للحرب الألمانية (١٦٠٤ – ١٦٠٦) ، معاهدة Sitvatorok (١٦٠٦/١١/١١)

جاء من القاهرة إلى إستانبول ، مالقوج أوغلو ياووز على باشا بكلربك مصر ، الذى صار وزيرا أعظم بدلاً من يمشجى حسن باشا (١٦٠٣/١٢/٢٩) . كان السلطان أحمد الثالث حينذاك سلطانا منذ ٣ أيام . أخذ القيادة العامة فى ٢ شباط (١٦٠٤) ، من صوقوللو – زاده لاله محمد باشا على عاتقه . تحرك من إستانبول (١٦٠٤/٦/٣) . لكنه توفى عند وصوله إلى بلغراد (١٦٠٤/٧/٢٦) . صار صوقوللو زاده لاله محمد باشا وزيراً أعظم وقائداً أعلى . تحرك من بلغراد (٥ آب) ، وصل بودين فى ٢٥ أيلول ، حاصر Estergon ٣١ يوما ، لم يتمكن من فتحها . نقل المبادرة فى الحرب إلى الطرف العثمانى بشكل قطعى . وبعد بقائه فى بلغراد عدة أشهر قدم إلى إستانبول فى ٩ شباط (١٦٠٥) ، تحرك فى ١٦ أيار . وفى ٢٩ آب (١٦٠٥) كان أمام أستركون . دام الحصار ٣٥ يوما ، كان الحصار شديدا جدا .

فتحت أستركون التى أكملت حديثا السنة الـ ١٠ من سنين بقائها تحت الاستيلاء الألمانى ، فى (١٦٠٥/١٠/٣) . وكذلك تم استرداد قلاع عديدة كفيشغراد ، تبة ده لن ، جكرده لن (حاليا فى جيكوسلوفاكيا) ، Vespirem , Palota . وخلال نفس الشهر استرجع سرخوش إبراهيم باشا ابن أخى لاله باشا أويفار Uyvar وصار بكلربك لها . كانت أويفار ، حاليا فى جيكوسلوفاكيا ، قلعة مهمة ، تقع على بعد ٥٠ كم فى الشمال - الغربى من أستركون . وخلال ت ١ / ١٦٠٥ ، فتح سخوش إبراهيم باشا مع ٢٠٠٠٠ من جنود الصاعقة akinci على الحدود النمساوية واجتاح كل من النمسا الشرقية ، Karinthia , Karniol , Stirya . وصل لاله باشا إلى أقصى الشمال الشرقى من المجر . وفى صحراء راكوش (حاليا أوكرانيا ، أقصى الشرق من الجمهورية السوفيتية) ، منح أمير أردل Istvan Bocskay لقب « ملك » وألبسه التاج (١٦٠٥/١١/٢٠) . ركع الأمير أمامالقائد الأعلى وقبل يده ثلاث مرات . عاد لاله باشا إلى إستنانبول (٣/١٦ / ١٦٠٦) . كان قد أدار دفة الحرب لصالح العثمانية دون جدال . توفى صوقوللو زاده لاله محمد باشا بعد أن عين الوزير ترياكى حسن باشا وكيلا للقائد الأعلى فى بلغراد ، أثناء استعداده للخروج لحملة جديدة ، ولم يشهد المصالحة (نعيما ، ١ ، ٤١٢ ، ٢٥ ؛ بجوى ، ٢ ، ٣٠١ - ٨ ؛ صولاق زاده ، ٦٩٠ ؛ منجم باشى ، ٣ ، ٦٢٢ ، ٣ ؛ هامر ، ٨ ، ٨١ ومابعده) .

أدركت ألمانيا خسارتها فى الحرب فكانت تريد الصلح . وكانت العثمانية من أجل التفرغ لإيران وخروج لاله باشا لحملة إيران ، تطلب الصلح كذلك . أزيح العدو من المجر وفتحت سلوفاكية الجنوبية . قام بالمفاوضات التمهيدية والهدنة مع الألمان قويوجو مراد باشا ، أما المعاهدة الأصلية فأجراها أبو زوجته قاضى زاده على باشا بكلربك بودين . جرت المفاوضات فى بودين (بودابست) . وفى النهاية تم الاتفاق على المعاهدة الشهيرة المسماة Sitvatorok ١٦٠٦/١١/١١) .

انتهت بلية الحرب العثمانية - الألمانية الكبرى التى زج فيها قوجا سنان باشا الدولة دون سبب والتى استمرت ١٣ سنة و٤ أشهر و٨ أيام . كانت هذه المعاهدة طويلة الأمد ؛ استمرت ٥٦ سنة و٥ أشهر ، ويوما حتى إعلان تركية الحرب مجددا على ألمانيا فى ١٦٦٣/٤/١٢ .

تتألف المعاهدة التى اتفق الأطراف على استمرارها ٢٠ عاما قابلة للتجديد والتى أبرمت نتيجة المؤتمر الذى استمر ٢٢ يوما فى موقع سيتفاتوروك (Zsitvatorok)

وهى قصبة تركية تقع بين أستركون و Komarno على مقربة من الشمال الغربى لبودين – من ١٧ مادة . وأهم شروطها :

تسدد ألمانيا إلى العثمانية غرامة حرب قدرها ٦٧٠٠٠ سكة ذهبية . إلغاء الضريبة التى يسددها الإمبراطور للبادشاه ، ويستعاض عنها بهدية عينية يقدمها للبادشاه كل ٣ سنين ، على ألا تقل عن قيمة معينة . يعامل البادشاه الإمبراطور « بشفقة مثل معاملته لابنه » . تثبيت الحدود على أساس الأراضى الموجودة لدى الطرفين فى تاريخ عقد المؤتمر ، وليس هنالك مبادلة فى الأراضى . تمتنع الدولة العثمانية بعد الآن عن مخاطبة ومكاتبة الإمبراطور الألمانى بصفة « ملك » ، وتعترف بصفته إمبراطورا وتستعمل هذه الصفة فى كافة الوثائق الدبلوماسية . (كانت هذه هى أهم مواد الاتفاقية) . يوضح هذا أن العثمانية تركت ماسبق وأن دافع عنه الديوان بشدة ، وطلب كل من الفاتح والقانونى رعايته بإصرار ، وهو أن إمبراطور روما الفرد فى أوروبا هو الخاقان العثمانى . إن الصفة الرسمية لإمبراطور ألمانيا هو « إمبراطور روما الغربية » ولم يكن تعبير « إمبراطور ألمانيا » رسميا . ولكنه استعمل بكثرة فى ذلك العصر ، كما يستعمل فى يومنا هذا ؛ وعلى هذا فإن قبول الديوان الهمايونى للقب إمبراطور روما الغربية لحاكم ألمانيا يعنى ضمنا موافقة البادشاه على أنه ليس هو إمبراطور روما الوحيد ، وأنه تقبل كونه إمبراطورا لروما الشرقية (البيزنط) فقط . ولكن ، يظهر من معاهدة سيتفاتوروك التى تنص على أن يكون البادشاه أبا والإمبراطور ابنا أنه حصلت الموافقة على أن البادشاه هو الإمبراطور الأكبر . وهذه القاعدة ، مطابقة للقاعدة التى كانت معتبرة فى وقت ما فى روما . حيث كان فى روما إمبراطوران حتى عام ٣٩٥ م ، ولكن كان أحدهما يعتبر أرفع شأنا من الآخر . ويستخلص من ذلك ، أن المعاهدة تحافظ على علو منزلة الدولة العثمانية والخاقان الذى يمثلها . من ناحية أخرى :تقوم ألمانيا بتخلصها من عبء دفع الضريبة السنوية (التى تقلل شأن دافعها) بدفعها كل ٣ سنين ، أو بحصولها على موافقة أقوى دولة فى العالم ، على قبول اللقب الحقيقى لحاكمها ، تكون قد حصلت على مكسب منهم بالقياس إلى ماسبق ، وعلى أقل تقدير من ناحية صيانة كرامتها ، إذ إنه لم يتمكن حتى أقوى الأباطرة قدرة مثل Charles-Quint ولا أخوه F erdinand من الحصول على ذلك .

وتنص إحدى فقرات معاهدة سيتفاتوروك ، على أن شروط هذه المعاهدة مفتوحة بالنسبة لإسبانيا كذلك ، إلا أنه من الناحية العملية لم يكن معقولاً أن يوقع الديوان على صلح مع إسبانيا ، حيث كانت هذه الأعوام تصادف الفترة التى قضت فيها أسبانيا على البقية المتبقية من المسلمين :

وفى أيلول ١٦٠٩ صدر مرسوم ملكى باسم فيليب الثالث ابن وخلف فيليب الثانى ينذر كافة المسلمين الموجودين فى إسبانيا بتركهم الأراضى الملكية خلال ٧٢ ساعة ، وإذا عرفنا أنه ليس بالإمكان فى ذلك العهد السفر بين أقرب مدينتين خلال ٧٢ ساعة فإن القصد يكون واضحاً جدا ؛ وهو إفناء آخر من بقى من المسلمين ، وقد استمر هذا الافناء ١٠ أشهر ، وتم فى تموز عام ١٦١٠ .

كان قد بقى فى البلاد فى هذا التاريخ ، ٦٠٠٠٠٠ عربى ، وقد سهل قتلهم انتشارهم على نطاق واسع فى إيالات بلنسية ، الأندلس ، مرسية ، قشتالة ، أرغون وقاتلونيا . كان هذا هو عدد البقية المتبقية من ملايين المسلمين . البقية قتلوا ، نصروا ، هربوا إلى إفريقية الشمالية . كان هنالك مهاجرون أندلسيون مستوطنون فى الأناضول ، وأيضا فى إستانبول . القسم الأعظم من الإسبان اليوم فى إسبانيا الجنوبية ، هم عرب برابرة من جهة الدم . قتل ٤٠٠٠٠ مسلم وهم الذين قاوموا بالسلاح فى جبال بلنسية . ويقدر المؤرخون أن ١٥٠٠٠٠ عربى نقلوا بالسفن العثمانية إلى الجزائر و٥٠٠٠٠ وهبت لهم حياتهم لقاء عبوديتهم وتنصرهم ، و ٤٠٠٠٠٠ منهم قتلوا خلال ١٠ أشهر (Pirenne ، ٢ ، ٥٦١ ؛ Lavisse - Rambaud ، ٥ ، ٦٥٢) .

كان العرب فى طليعة سكان القطر تقدما فى الفنون اليدوية والصناعة والزراعة . ولم يتمكن الإسبان من ملء الفراغ الذى أحدثه العرب لجهل الأسبان وتخلفهم بالقياس إلى العرب .

فقدت البلاد قدرا كبيرا من رفاهيتها . وفى نفس عام ١٦٠٩ ، انفصلت هولندا عن إسبانيا ، بعد صراع دموى استمر ربع قرن ، وصارت دولة مستقلة ، أخذت مكانها بسرعة كبيرة بين الدول الكبرى فى الشئون البحرية والمصرفية . أما بلجيكا الكاثوليكية فظلت مع إسبانيا . أما هولندا ، التى أسرعت فى الدخول فى مجال

الاستعمار فقد دخلت جاوا فى ١٦١٠ ، وأخذت مكان البرتغاليين فى المحيط الهندى . ملأت هولندا الفراغ الذى أحدثه انضمام البرتغال إلى إسبانيا خلال هذه الأعوام . وهكذا يكون القرن ١٦ قد مر بسيطرة البرتغال البحرية فى المحيط الهندى ، والقرن ١٧ بسيطرة هولندا ، والقرن ١٨ بسيطرة إنكلترا .

٣٨) الحروب التركية - الإيرانية (١٦٠٣ - ١٦١٨)

بدأت الحرب بين تركية العثمانية وإيران الصفوية بهجوم الصفويين على تبريز ، بعد صلح دام ١٣ سنة و ٦ أشهر و ٦ أيام (١٦٠٣/٩/٢٦) . كانت هذه هى السنين الأخيرة لحكم محمد الثالث . بدأ شاه عباس الكبير بتطبيق سياسة الاسترداد بالقوة العسكرية . كان عازما قدر الإمكان على استعادة الأقطار التى لم يتمكن من الحفاظ عليها ، واستولت عليها العثمانية .

افتتح الشاه دورة القتال تجاه العثمانية واستعد دبلوماسيا بعد مراسلات طويلة مع البابا والإمبراطور وملك إسبانيا . وعدا هذه الدول التي هى فى حالة حرب مع العثمانية أرسل سفراء إلى الأقطار الأخرى كإنكلترا ، أسكوجيا ، فرنسا ، روسيا ، بولونيا ، هولندا ، وهى الدول التى يستبعد احتمال دخولها فى حرب مع العثمانية طالبا الاتحاد معها . وحاول الاتفاق مع بنى تيمور الهند الذين يكرهون الصفويين (Hammetr,VIII,38; Lavisse-Rambauel, 871: Grenard,93) كان الشاه مقتنعاً بأنه أجرى صلحا مهدراً لكرامته مع العثمانية ، وأنه اعترف رسميا بأن البادشاه حاكم أعلى ، لذا كان يريد أن ينتقم . وبهجوم مفاجىء أسقط تبريز خلال ٢٢ يوما . انتهى فى تبريز آخر حكم عثمانى كان قد استمر ١٨ سنة و ٢٨ يوما . وباستيلائه بعدها بصورة سريعة على القسم الأكبر من أذربيجان الجنوبية ؛ أزاح فعلا الإيالة العثمانية من الوجود . انتقل إلى شمال آراس . استولى كذلك على إيالة ناهجوان (١٦٠٣/١٠/٢٦) . وبعد حصار شديد دام ٦ أشهر و ٢٣ يوما ، استولى على مركز إيالة عثمانية أخرى وهو روان (١٦٠٤/٦/٨) حاليا أرمنستان السوفيتية التى كانت حينذاك قطرا تركيا صرفا .

صار جغال أوغلو سنان باشا الوزير الأعظم السابق قائدا أعلى على الجبهة الإيرانية وتحرك من إستانبول (١٦٠٤/٦/١٥) . لم يتمكن من اجتياز قارص وأغلق موسم الحملة (١٦٠٤/١١/٨) . وفى آب أغار على تبريز آملا استعادة أذربيجان . وغلب فى معركة أورمية الكبرى أمام الجيش التركمانى الصفوى المؤلف من ٥٠ ٠٠٠ شخص ، بقيادة الشاه شخصيا (١٦٠٥/٩/٩) ، انسحب إلى دياربكر وتوفى فيها متأثرا بهزيمته (١٦٠٥/١٢/٢) . عين مكانه سردار (قائد) ، دلى فرهاد ، أحد الوزراء وتحرك من إستانبول (١٦٠٦/٦/٢٥) . أما الصفويون فقد استولوا على كنجة (١٦٠٦/٧/٦) وشماه (١٦٠٧/٦/٢٧) واجتازوا نهر كور ، واستولوا على القسم الأكبر من شيروان . لم يتمكن الشاه من التقدم أكثر من ذلك . ودخلت الحرب فى دور الركود .

عين الوزير الأعظم (رئيس الوزراء) قويوجو مراد باشا سردار أكرم (قائدا أعلى) على الجبهة الإيرانية (١٦١٠/٤/٢٩ – ١٦١١/٨/٥) ، تحرك من إستانبول . تقابل فى أرضروم مع سفراء الشاه . طلب الشاه الذى أرسل هدايا ثمينة جدا الصلح على أساس معاهدة أماسيا التى عقدت فى عهد القانونى . جاء قويوجو باشا إلى تبريز التى يتواجد فيها الشاه . حاول الشاه إفناء الجيش العثمانى خارج تبريز مدة ٥ أيام و ٥ ليال ولكن ، لم يتمكن كلا الطرفين من إحراز نصر حاسم على الآخر . كرر الشاه طلب الصلح (١٦١٠/١١/١٦) . انسحب الباشا الذى لم يرض عن قضاء الشتاء فى تبريز إلى (عامد) فى دياربكر ، توفى هناك (١٦١١/٨/٥) . عين مكانه الوزير نصوح باشا بكلربك دياربكر وزيراً أعظم وسرداراً أكرم (قائدا أعلى) . قدم إلى إستانبول (١٦١٢/٩/٢٧) ووقع على معاهدة إستانبول مع إيران (١٦١٢/١١/٢٠) . انتهت الحرب التى دامت ٩ سنوات وشهرا و٢٤ يوما . فى هذه المعاهدة اتفق على حدود معاهدة أماسيا التى تختلف قليلا عن حدود إيران العراقية والتركية الحالية . أعيد بموجب هذه المعاهدة مايقارب ٤٠٠ ٠٠٠ كم^2 من مجموع الأراضى البالغة ٥٧٠ ٠٠٠ كم^2 التى حصلت عليها العثمانية قبل ربع قرن . انتقلت إلى الصفويين المناطق المحيطة ببحيرتى أورمية وكوكجة ، شرق مجرى نهرى أراس وكور ، وبعبارة أوضح ، روان ، نهجوان ، قرة باغ (عران) أذربيجان (شيروان) الشمالية والجنوبية ، وفى مقابل ذلك يبقى القسم الأكبر من كرجستان وداغستان وقفقاسيا الشمالية لدى العثمانية .

لم يدم الصلح أكثر من سنتين و ٦ أشهر و ٣ أيام . أعلنت الحرب على إيران . صار الوزير الأعظم داماد أوكوز قرة محمد باشا ، سرداراً أكرم (١٦١٥/٥/٢٢) ، غادر فى ١١ حزيران ووصل حلب فى أيلول . ظل فيها ٧ أشهر ، ثم تحرك (١٦١٦/٤/١٨) بجيشه البالــــغ ١٠٠٠٠٠ شخص ووصل روان (١٦١٦/٩/١١) حاصرها مدة ٥٤ يوما ، لم يتمكن من الاستيلاء عليها . كان الشاه موجودا فى نهجوان التى تبعد ١١٥ كم فى الجنوب – الشرق . لم يتمكن من الحملة على الجيش العثمانى . انسحب العثمانيون عند حلول فصل الشتاء . صار السردار الأكرم الوزير الأعظم الجديد خليل باشا (١٦١٧/٦/١٥) . قضى شتاء عام ١٦١٧ – ١٨ فى دياربكر . وجاء جانى بك كيراى ، خان قرم مع ٤٠٠٠٠ خيال من قفقاسيا الشمالية وقلب إيالات كنجة ونهجوان رأسا على عقب ، وبقضاء فصل الشتاء مع الوزير الأعظم جاء هو كذلك إلى دياربكر . تحرك الوزير الأعظم مع الخان من هنا فى ١٦١٨/٥/١٦ . كان قالغاى (ولى عهد قرم) شاهين كيراى فى المقدمة ، وقع أسيرا فى يد الشاه ، أطلق الشاه سراح قالغاى ، دليلا على طلبه الصلح . دخل الجيش الهمايونى أذربيجان الجنوبية . ووصل قرب أردبيل ، المدينة المقدسة للصفويين . وفى الحرب الميدانية المسماة بول شكسته (قيريق كوبرى) (١٦١٨/٩/١٠) خسر العثمانيون ١٥٠٠٠ مابين شهيد وجريح و ٥٠٠ أسير ، واستشهد ٣ بكلربك (فريق) ، ووقع اثنان منهم فى الأسر ، لكن خليل باشا تمكن من لم شعث الجيش وأنثاه عن التراجع . كرر الشاه طلب الصلح . وقعت أمام أسوار أردبيل معاهدة أردبيل (١٦١٨/٩/٢٦) ، وهى تختلف عن معاهدة إستانبول فى أنها خفضت الـ ٢٠٠ حمل من الحرير الذى تقدمه إيران كخراج سنوى إلى العثمانية ؛ إلى ١٠٠ حمل . دام الصلح ٥ سنوات . وبعد ٥ سنوات استولى الصفويون على بغداد ، توسعت الحرب العثمانية – الصفوية بدرجة لم يشهد لها مثيل .

٣٩) المسائل الداخلية لعهد أحمد الأول (١٦٠٣ – ١٦١٧)

على أثر وفاة الوزير الأعظم والسردار الأكرم مالقوج أوغلو ياووز على باشا فى بلغراد أخذ صوقولوزاده لاله محمد باشا على عاتقه كلا الوظيفتين وحافظ على زمام

السلطة بيده حتى وفاته مدة سنة و١٠ أشهر و٢٦ يوما ، محرزا انتصارات لامعة (١٦٠٤/٧/٢٦ - ١٦٠٦/٦/٢١) . مدة سلطة سلفه ياووز على باشا ، الصدر الأعظم الأخير لمحمد الثالث والأول لأحمد الأول . عبارة عن ٩ أشهر و١١ يوما . خدم لاله باشا فى بلغراد كما خدم كذلك فى الجيش .

صار درويش محمد باشا وزيرا أعظم وولى فرهاد باشا سردارا (قائدا) على إيران . على أثر إعدام درويش باشا ، حل مكانه قويوجو مراد باشا ، الصدر الأعظم القوى السلطة ، ذو الشخصية الكبيرة فى عهد أحمد الأول . دامت سلطته حتى وفاته ٤ سنوات ، و٧ أشهر و٢٧ يوما (١٦١٦/١٢/٩ - ١٦١١/٨/٥) . وهى أطول مدة صدارة ، منذ وفاة صوقولو قبل ٢٧ سنة .

كان مراد باشا سياسيا صبورا ، ماهراً ، صلبا جدا ، قائداً جيداً ، كبير السن ، رجل دولة مجربا . وكان صهرا لقاضى زاده على باشا الذى قام بإدارة المجر فترة طويلة وبلياقة تامة بلقب بكلربك . سقط من على ظهر جواده ، أثناء مصادمته مع الصفويين ، سقط فى البئر قبل ٢١ عاما (١٥٨٥) عندما كان بكلربك فى معية أوزدمير أوغلو ، قام الصفويون بانتشاله من البئر وسجن فى **Alamaut** ثم عاد من إيران . أطلق عليه لقب « قويوجو » نسبة إلى « البئر » . ولقب « قوجا » (الكبير) لكبر سنه .

كان يقصد مراد باشا الذى غادر إستانبول فى ١٦٠٧/٧/٢ تخليص الدولة من الجلاليين الذين أصبحوا دولة داخل الدولة ، وكان يتعاون معهم كثيرون من البكلربكى (فريق) وسنجق بكى (أمير لواء) . اختل الأمن فى الأناضول ، وتدهور الوضع الاقتصادى الممتاز الذى كانت عليه البلاد فى العصر ١٦ .

كان يرافق مراد باشا الوزير ترياكى حسن باشا بكلربك روملى البالغ عمره ٨٠ عاما ، وفى الطريق قتل وسفك دماء كثيرة من الجلاليين ، حتى وصل حلب فى ٩ ت ٢ (١٦٠٧) .. حيث قضى الشتاء فيها واستمر فى تنظيف الدولة من الجلاليين فى السنة التالية . عاد إلى إستانبول فى ١٦٠٨/١٢/١٨ . وهكذا تكون حركة تنظيف الجلاليين قد استمرت سنة و٥ أشهر و١٧ يوما . تم إخماد الجلاليين ، ولكن لم يقض عليهم ؛ لأنهم كانوا يمثلون قسما من شعب الأناضول . لم يخرج

مراد باشا للجبهة فى ١٦٠٩ . ظل يؤدى واجبه فى استانبول مدة سنة و٥ أشهر و٧ أيام . غادر إستانبول فى ١٦١٠/٥/٢٤ ، وجاء إلى تبريز ثم عاد إلى دياربكر ومات هناك . وهكذا توفى آخر من أدرك عهد القانونى من رجال الدولة . صار فى ١٥٦٠ معاون بكلربك اليمن ، وفى ١٥٦٥ سنجق بك لمصر ، وفى ١٥٧٦ بكلربك لكل من اليمن ، ثم قره مان ، دياربكر روملى .

بدأت صدارة داماد نصوح باشا التى استمرت ٣ سنوات و شهرين و ١٣ يوما (١٦١١/٨/٥ - ١٦١٤/١٠/١٧) . كان فى مدينة دياربكر مع مراد باشا . وعين مكانه . مكث فى جبهة إيران سنة وشهرا و٢٣ يوما . وفى ٢٧ أيلول جاء إلى إستانبول ووقع مع إيران معاهدة صلح . ارتاح الشعب لعقد صلح مع إيران ، بعد ألمانيا وحل مشكلة الجلاليين فى الأناضول - ولو بصورة مؤقتة .

وخلال هذه الأيام ترعرع السلطان أحمد وأجتاز مرحلة الشباب وأصبح خاقانا ناضجا ، عاقلا وحذرا . تفقده تراقيا الغربية ، وذهابه إلى غاليبولى مع ٤ ضباط فقط فتح قلب الشعب وملأه سرورا . ذهب إلى بولاير وزار قبر الغازى سليمان باشا ، فاتح روملى ، وغطى قبره بوشاح فخم ملىء بشغل الذهب الكثيف . أخذ مسجد السلطان أحمد الملىء بالظرافة والذوق الرفيع والفن الذى يلقى فى القلب البهجة والسرور فى الارتفاع مقابل أياصوفيا . سمى الشعب هذا الميدان (الساحة) ، وقد كان يسمى منذ عصور « آط ميدان » باسم « سلطان أحمد ميدانى » دامت سياحته لتراقيا ، ٤ أشهر و١٤ يوما . سكن فى إستانبول ٦ أشهر و٢٠ يوما فقط . ثم ذهب إلى أدرنة مرة أخرى . قضى فصل الشتاء وعاد فى ربيع عام ١٦١٣ إلى إستانبول .

أعدم الوزير الأعظم نصوح باشا . ترك ثروة عظمى . صار داماد قره إبراهيم باشا وزيرا أعظم مدة سنتين و شهرا و يوما (١٦١٤/١٠/١٧ - ١٦١٦/١١/١٧) . كان رجل دولة قديرا . جاء سفراء فاس وألمانيا (١٦١٦/٩/٤) وعرضوا ضرائبهم وهداياهم وتابعيتهم وإجلالهم للبادشاه باسم حكامهم (فون هامر ، ٨ ، ٢٢٦ - ٣٣) . عزل محمد باشا الذى لم يتمكن من الاستيلاء على روان وعقد صلح مع إيران . وأخذ مكانه خليل باشا . وفى عهد صدارته ، افتتح جامع السلطان أحمد للصلاة (١٦١٧/٦/٩) . استمر الإنشاء مدة

٧ سنوات و٥ أشهر و٦ أيام ، وهو المسجد الوحيد فى العالم الإسلامى ذو المآذن الست من آثار قوجا محمد أغا المبدع .

أهم حملة بحرية فى هذه المرحلة هى حملة البحر الأبيض (٥/١٣ - ١٦١٤/١١/٢٨) . التى حققها « قبودان دريا » (مشير البحر) داماد خليل باشا ، الذى صار بعد ذلك وزيراً أعظم . استشهد مراد رئيس ، آخر من بقى من نسل البحارة القدامى ، فى سن متقدمة جدا ، عندما كان سنجق بك (أمير لواء) مورا بعد إفنائه أسطولا مالطيا (١٦٠٩) ، وكان فى سن ٨٠ . كانت حالة الحرب مستمرة مع مالطة ، البابوية وإسبانيا ، كانت الإيالات البحرية الجزائر ، تونس وطرابلس الغرب ، التى تملك القطع البحرية تلعب دورا مهما فى مثل هذه الحروب ، إلا أن سفر دايى ، وكيل بكلربك فى طرابلس ، ماطل فى تنفيذ الأوامر . أنزل خليل باشا الجنود إلى مالطة ، بواسطة ٤٥ سفينة من الأسطول الهمايونى وخربها ، ثم جاء إلى طرابلس ، وأعدم سفر دايى الذى كان يظلم الشعب ، أمام داره . سعى فى شئون السكان المهاجرين فى أماكن كأدرنة ، طرسوس ، طرابلس الشام ، وغلطة فى إستانبول (Mühimme, LXXV111,441) .

بعد ٨٩٩ عاما من فتح المسلمين لإسبانيا والبرتغال ، وبعد ١١٨ عاما من سقوط آخر دولة إسلامية فى إسبانيا لم يبق مسلم واحد فى إسبانيا والبرتغال ؛ كانت طائفة من الذين تنصروا لايزالون يصلون سراً فى مساكنهم ويذهبون إلى الكنيسة أيام الآحاد . كانوا يقدمون المعلومات عن الأسطول الإسبانى ، موانئه وقواته العسكرية إلى بكلربك الجزائر بواسطة رسائل سرية . وبعد مدة انتهت أيضا هذه الأعمال . قوضت كافة بدائع الهندسة المعمارية الإسلامية . وفى أواسط القرن ١٧ أصبح من الممكن أن نقول : إنه لم يكن هنالك فى أى وقت من الأوقات حكم إسلامى فى شبه جزيرة إيبريا ، وأن هذا القطر كان كاثوليكيا منذ الأزل . لكن المشاهد الذى يدقق عن كثب ، الهندسة المعمارية الإسباية ، الموسيقى ، الرقص ، العرف والعادات يمكنه أن يلمس استمرار التراث العربى الذى لانفاذ ولانهاية له .

أرسل الديوان فى ١٦١٠ ، الحاج إبراهيم أغا إلى لندن سفيرا فوق العادة ، ولقد كان الغرض الحقيقى من ذهابه إلى أوروبا الغربية هو جمع الأندلسيين الذين لم يتمكنوا من الوصول إلى شمال إفريقية ، ولجئوا إلى غرب أوروبا والذين كان أكثرهم فى عداد

العبيد . جمع العائلات التى تمكن من العثور عليها ونقلها إلى الأراضى العثمانية ، ويعتبر هذا نموذجا مريرا لسياسة الشفقة الإسلامية للدولة العثمانية . وفى ١٦٠٦ ، أعلن مصطفى باشا ، الذى قدم من الجزائر ، مولاى زيدان ، سلطانا . ولكن الباشا قتل فى فاس فى تموز عام ١٦٠٩ . أستمر أكثرية الذين جلسوا على عرش فاس فى استلام المعونة العثمانية والاعتراف بالبادشاه – خليفة متبوعا (August Cour, Etablissement des Chérifs du Moroc Les Tures, Paris 1904, ص ١٤٩ ومابعده) .

٤٠) وفاة السلطان أحمد خان الأول (١٦١٧/١١/٢٢)

توفى السلطان أحمد على حداثة سنه ، بعد مرض أصابه فى بطنه يصاحبه حمى ، دام عدة أسابيع . كان قد تجاوز سن ٢٧ بـ ٧ أشهر و ٤ أيام . وحتى ذلك التاريخ ، لم يتوف أى خاقان فى مثل هذا السن عدا موسى جلبى . سببت وفاته فى هذا السن جلوس بادشاهات أطفال وحديثى السن على العرش لمدة طويلة . وكانت هذه من بين العوامل التى أدت إلى تعرض الإمبراطورية لاضطرابات داخلية . نضج السلطان أحمد مبكرا وأظهر فى سن طفولته قدرات حكام عظام ، وسوف تظهر هذه القدرات بشكل أبرز فى أبنائه عثمان الثانى ومراد الرابع . لأول مرة منذ عهد القانونى ، يسعى سلطان فى أمور الدولة ، بشكل جاد ولايترك كل شىء لوزرائه . كان معتدلا فى ذوقه وأنسه ، لايشرب المسكرات ، متدينا جدا ، ملبسه بسيط ، عدوا لسيطرة النساء فى السراى ، مولويا كأجداده ، شاعرا فى اللغتين التركية والفارسية ، مصارعا بارعا فارسا ، راميا ويستعمل السلاح بمهارة . رمى الـ « ششبر » (آلة حربية – كرة ذات ٦ رءوس) من برج علوه ٣٠ مترا وأصاب هدفا على بعد ٥٠٠ متر . وشيد فى مكان سقوط (الششبر) مسلة (نشان طاش) وهو نصب تذكارى حجرى ليكون ذكرى أبدية لهذه الرمية القياسية (رفعت عثمان ، أدرنة سرايى ، ٢٨) .

ولد فى مانيسا وجاء إلى إستانبول مع أبيه البادشاه وعمره ٥ سنوات . ولصغر سنه ، لم يرسل إلى مانيسا لتعلم إدارة الألوية . لم يخرج للجبهات . خرج للأماكن القريبة مثل أدرنة ، بورصة ، جناق قلعة . لم يمض سنين سلطنته فى السفر إلى الأقطار

والقارات والحروب كبقية السلاطين . لكنه عمل مابوسعه لحماية مصالح الدولة العليا ، إلا أن عمره لم يمهله كي يعيش أكثر من ذلك ومات فى مقتبل عمره . تمكن فى سن طفولته من تحجيم النفوذ السيئ لجدته (والدة أبيه) السلطانة - الوالدة صفية وتدخلها فى السياسة فى عهد أبيه ، وفور جلوسه على العرش ، أخرجها من سراى طرب قابو ونفاها إلى السراى القديم . توفيت السلطانه صفية التى لم تتمكن من العيش بدون سياسة بعد عدة أشهر وهى فى حالة حزن شديد . أما خانداں ، والدة السلطان أحمد ، السلطانة - الوالدة (١٥٧٤؟ - ١٦٠٥/١١/٢٦) فقد توفيت فى شبابها فى نهاية السنة الثانية من سلطنة ابنها . لم يكن من الممكن للسلطان أحمد المعارض لسيطرة النساء إلى هذه الدرجة أن يتنبأ بأن إحدى زوجاته كوسم ماه بيكر ستكون أكثر النساء تدخلا فى السياسة فى تاريخ تركيا كلها وتظهر على المسرح بأدوار منحوسة للغاية . ورغم أنه كان مولويا فقد كان شيخه عزيز محمود خدائى المتصوف الكبير جدا (وفاة ١٦٢٨) ، شيخا للطريقة الجلوتية التابعة البايرامية . ورئيس أساتذته هو حاجة سلطانى آيدنلى مصطفى أفندى (وفاة ١٦٠٧) وهو والد شيخ الإسلام مسعود أفندى (وفاة ١٦٥٦) .

جلس أبناء السلطان أحمد الأول الثلاثة على العرش ، ومجموع مدد مكوثهم على العرش ١٩ سنة و شهرا و ١٩ يوما . تسلسل أبنائه كما يلى : عثمان الثانى (١٦٠٤/١١/١٣ - ١٦٢٢/٥/٢٠) ، ولى عهد - شهزاده (أمير) (١٦١٨ - ١٦٢١) محمد (١٦٠٥/٣/٨ - ١٦٢١/١/١٢) ، مراد الرابع (١٦١٢/٢/٢٧ - ١٦٤٠/٢/٨) ، ولى عهد - شهزاده (١٦٢٣ - ١٦٣٥) بيازيد (١٦١٢/١٢ - ١٦٣٥/٧/٢٧) ، ولى عهد - شهزاده (١٦٣٥ - ١٦٣٨) قاسم (١٦١٤ - ١٦٣٨/٢/١٧) ، شهزاده سليمان (١٦١٥ - ١٦٣٥/٧/٢٧) . والشهزادات (الأمراء) الـ ٥ الآخرون لم يعيشوا أكثر من ٤ سنوات .

بناته - عدا بناته الـ ٤ اللواتى توفين وهن صغيرات جدا - السلطانة عائشة (١٦٠٥ - ١٦٥٧/٥) التى تزوجت ٨ مرات (٤ منهم وزير أعظم) ، السلطانة فاطمة (١٦٠٦ - ١٦٧٠) التى تزوجت ٦ مرات (واحد منهم وزير أعظم) ، السلطانة جوهران (١٦٠٨ - ١٦٦٠) التى تزوجت بـ ٢ وزير أعظم ،

السلطانة خانزاده (١٦٠٩ - ١٦٥٠/٩/٢١) التى تزوجت مرتين (أحدهم وزير أعظم) ، السلطانة برناز عاتكة (١٦١٤ - ١٦٧٤) التى تزوجت ٣ مرات ، السلطانة عابدة (١٦١٨ - ١٦٤٨) التى تزوجت مرة واحدة .

لم يستمر نسل بنى عثمان من أى من هؤلاء وإنما استمر من السلطان إبراهيم ، أصغر أبناء السلطان أحمد (١٦١٥/١١/٥ - ١٦٤٨/٨/١٨) . احتل مكان السلطان أحمد أخوه مصطفى الأول وصار سلطانا لمدة ٣ أشهر ، ثم جلس على العرش بعده عثمان الثانى ، الابن الكبير للسلطان أحمد .

٤١) الحرب البولونية ، حملة خوتين الهمايونية (١٦٢١ - ٢٢)

كان الوزير غازى إسكندر باشا المختص بشئون بولونيا هو الذى يتولى قضايا الحدود مع بولونيا خلال هذه السنوات . وهو من الأشخاص الذين دربهم غازى ترياكى حسن باشا . خرج إسكندر باشا بحملة ضد بولونيا ، على أثر تدخلها فى شئون بغدان (Moldavya) واجتيازها Dnyestr (بالتركية : Turla) التى تشكل الحدود . كان جانى بك كيراى خان قرم يقود المقدمة . وفى الحرب الميدانية المسماة « ياش » (١٦٢٠/٩/٢٠) خسر البولونيون ١٠٠٠٠ قتيل . تعقب الباشا العدو . وفى الحرب الميدانية Dnyestr (Turla) (٧/ ١٦٢٠/١٠) التى جرت بعد ١٨ يوما ، أفنى كامل جيش بولونيا تقريبا ، البالغ عدده ٦٠٠٠٠ ومن بينهم القائد العام Zolkiewsky ، تمكن ٤٠٠ جندى بولونى فقط من الفرار ، اغتنم الجيش العثمانى ١٢٠ مدفعاً ومئات من عربات المهمات (هامر ، ٨ ، ٢٦٠) . كان الجيش العثمانى ، ٤٢٠٠٠ شخص ؛ ٣٠٠٠٠ منهم من قرم . أسر مئات من الجنرالات البولونيين وذوى النسب العريق ، وتم سوقهم إلى إستانبول . وبعد عدة أشهر فى أوائل عام ١٦٢١ توفى إسكندر باشا .

افرحت هذه الحملة روسيا ! قضت بولونيا الشتاء وهى فى حالة حذر خشية عودة الأتراك فى صيف عام ١٦٢١ . وفى الحقيقة كان السلطان عثمان الثانى قد قرر الخروج إلى الحملة بنفسه . كان قد مضى على الحملة الهمايونية لجده محمد الثالث على أكرى - خاجوه ، مدة ٢٥ عاما . انتقل الخاقان الشاب ، فى ٨ آذار إلى مقر

الجيش ، وفى ٢١ أيار (١٦٢١) تحرك من إستانبول . كان فى مقدمة الجيش مهترخانة همايون (موسيقى الجيش الهمايونية) وأمامها الفيلة الـ ٤ هدية الشاه عباس وكل منها يحمل طبلا (كوس) . كان عدد الجيش العثمانى ١٠٠٠٠٠ جندى . وفى أيلول ، جاءوا أمام قلعة خوتين (Hotin) الواقعة على خط العرض ٤٨ ، ٣٠ ، فى الساحل الجنوبى لـ Dnyestr وهى المدخل إلى Podolya وحتى غاليجية ، كانت قلعة بولونية مهمة . جاء جانى بك كيراى فى اليوم الثانى ، وقبل يد الخاقان . وفى اليوم الأول من حصار خوتين فى ٣ أيلول والذى سيستمر ٣٣ يوما ؛ استشهد بكلربك بوسنة . وفى الأيام التالية استشهد كل من قرة قاش محمد باشا بكلربك بودين (المجر) ودوغانجى على باشا بكلربك قرة مان . وبالرغم من تحقيق ٦ غارات عامة وتقديم آلاف الشهداء وقيام جيش الصاعقة بضرب بولونيا فى العمق وجلبهم ١٠٠٠٠٠ أسير فقد قاومت القلعة . لكن بولونيا طلبت الصلح . وبناء على ذلك ، أبرمت معاهدة صلح خوتين (١٦٢١/١٠/٦) : التى نصت على : اعتبار أحكام المعاهدة التى أبرمت مع بولونيا فى زمن القانونى سارية المفعول ، وكذلك الحدود التى تقرها تلك المعاهدة ، يهدم البولونيون جميع القلاع التى شيدوها على حدود العثمانية منذ ذلك العهد ، تستمر بولونيا فى دفع الضريبة السنوية إلى قرم ، تترك خوتين إلى العثمانية . يمكن للعثمانية نقل جنودها من أوروبا الشرقية إلى المجر فى أى وقت تشاء بإخطار مسبق شرط عدم إحداث أية تخريبات مهما كانت صغيرة .

تعتبر شروط هذه المعاهدة شديدة بالنسبة لبولونيا ، وأعتقد أنها تشكل الصفحة الأولى من خروج عثمان الثانى إلى البلطيق ، ولأن هذه المعاهدة جعلت دولة شديدة العداء لروسيا فى وضع حرج فإنها فى الحقيقة لم تكن تحقق النفع للعثمانية فى المستقبل ، ولكنها تشكل بالنسبة لروسيا نموذجا فى كيفية ضرب بولونيا كبرى . استمرت الحملة الهمايونية ٨ أشهر و ٥ أيام . عاد البادشاه إلى إستانبول فى منتصف الشتاء (١٦٢٢/١/٢٥) شاهد كافة نقاط الضعف بعينه وعن قرب نفر – محقا كان أم غير محق – من جيش هذا وضعه . عاد الجيش وهو ناقم على حاكم يخفى عدم رضائه الشديد منه .

٤٢) السلطان مصطفى والسلطان عثمان

عند وفاة السلطان أحمد الأول كان المفروض أن يجلس على العرش ابنه الكبير وولى عهده السلطان عثمان . إلا أن طبع هذا الطفل ، الذى دخل حديثا سن الشباب والذى يفوق طبع أبيه شدة – أخاف الكثيرين . وخاصة أن زوجة أحمد الأول المفضلة ماه بيكر خاصة كى التى تسمى « كوسم » أنفقت كل ثروتها وجندت ذكاءها الشيطانى لمنع حدوث هذا حيث كان من المحتمل أن يضر بأبنائها . خرقت القوانين ، وتم إجلاس السلطان مصطفى ابن السلطان أحمد الأول الصغير المريض على العرش .

ولكن اتضح بعد مدة أن السلطان مصطفى مجنون . كان من الواضح أن سلطنته ستكون قصيرة الأمد . ليس من الممكن – لا من الناحية الشرعية ، ولا من حيث العرف العثمانى – أن يكون بادشاه خليفة شخصا مجنونا . وخلال هذه الفترة القصيرة كانت مهبيكر خاصكى تأمل أن تتخلص من الأميرين وليي العهد الأولين للسلطان أحمد ، السلطان عثمان والسلطان محمد ؛ بواسطة السلطانة – الوالدة ، والدة مصطفى الأول ، التى كانت حذرة وغادرة ، بقدر ماكان ابنها متخلفا عقليا . وشهزادات (الأمراء أولاد السلطان أحمد الأول) الذين يأتون بعد ذلك هم مراد ، قاسم ، إبراهيم والسلطانة عائشة وفاطمة وقد ولدوا كلهم من كوسم مهبيكر . كانت كوسم فى هذه الأثناء ، أرملة فى الـ ٢٩ من عمرها .

صار مصطفى الأول ، الذى ولد فى مانيسا عام ١٥٩٢ ، ولى عهد لمدة ١٠ أشهر ، لحين ولادة الابن الأول لأخيه الكبير أحمد الأول (١٦٠٣/١٢/٢١ – ١٦٠٤/١١/٣) . كان عمره عند جلوسه ٢٥ عاما . خلع بعد ٣ أشهر و ٤ أيام . جلس السلطان عثمان على العرش . كان رد فعله شديدا على الذين استهتروا بالحق وخالفوا القوانين بشكل يهدد نظام الدولة وأجلسوا عمه المجنون على العرش . كان سنه يزيد على ١٣ سنة بـ ٣ أشهر و٢٤ يوما . لكنه سبق أباه فى النضوج والكمال . كان يؤمن بحاجة الدولة إلى تبديل نظامها فى كافة المجالات بإصلاحات جذرية .
الخاقان على العرش ، على صغر سنه هذا ، آخذا الصلاحيات التى تمكنه من تحقيق إصلاحات
ـ البارى عز وجل . شيد قبرا لأبيه فى رواق مسجده المشهور .

أمه خديجة مهفيروزة السلطانة - الوالدة (١٥٩٠ - ١٦٢١) باش خاصكى (زوجة السلطان) لأحمد الأول منذ ك ٢ / ١٦٠٤ ، وأصبحت الآن السلطانة - الوالدة ، لكنها توفيت بعد ٣ سنين . السلطانة - الوالدة هذه هى التى ولدت كلا من الشهزادة (أمير) بيازيد ، الشهزادة سليمان ، الشهزادة حسين ، ويحتمل أن تكون قد ولدت سلطانتين (أميرتين) أو أكثر ولو أنها تظهر كأنما هى والدة للشهزادة محمد كذلك ، الذى هو ولى عهد الآن ، إلا أن اليوم الذى ذكر تاريخاً لميلاده يضعف هذا الاحتمال .

عزل عثمان الثانى خليل باشا الذى ظل فى مقامه منذ سنتين و٣ أشهر ويومين ، وعين مكانه داماد أوكوز قره محمد باشا وزيراً أعظم لمرتين (١٦١٩/١/١٨) . عزله بعد ١١ شهرا و٦ أيام (١٦١٩/١٢/٢٣) . ومجموع صدارتى محمد باشا ٣ سنوات و٧ أيام . صار سنجق بك لبحرية دمياط (مصر) ، بكلربك يمن ، وزير قبه ، قبطان دريا . وعلى عهده أمر السلطان عثمان بخنق أخيه الشهزادة سلطان محمد الذى كان حينذاك ولى عهد (١٦٢١/١/١٢) . تسبب مقتل الابن الثانى للسلطان أحمد الشاب هذا عن عمر يزيد على الـ ١٥ سنة بـ ١٠ شهر و٥ أيام ، المفجع والذى لاداعى له - فى بث الكراهية ضد البادشاه . كان الشهزادة قد نشأ نشأة حسنة ، إن دعاءه أثناء موته على أخيه بأن تصيبه نفس العاقبة - مشهور . والذى يليه من إخوة السلطان عثمان هو السلطان مراد (الرابع) الذى صار وليا للعهد .

تجمد المضيق بشكل لم يسبق له مثيل منذ عهد البيزنطيين ، سبب عبور الناس مشيا على الأقدام من أسكدار إلى إستانبول (١٦٢١/٢/٩) ، وارتفاع أسعار المواد الغذائية بسبب البرد غير الطبيعى ، زيادة التذمر لدى الشعب . وخلال هذه الأيام ، توفى كوزلجة جلبى على باشا (١٦٢١/٣/٩) . دامت صدارته سنة ، وشهرين و١٧ يوما . جاء الصدارة أوهريلى حسين باشا ، ولعدم مساعدته منافسه محمد باشا بكلربك بودين أثناء حصار خوتين وخيانته فى الحركات العسكرية عزل من منصبه أثناء استمرار الحصار (١٦٢١/٩/٧) . استمرت صدارته ٦ أشهر ، و٩ أيام . لم يكن الوزير ديلاور باشا بكلربك دياربكر الذى عين مكانه بأليق منه . استمرت صدارته حتى ١٦٢٢/٥/١٩ مدة ٨ أشهر ، ويومين ، قتل على يد الإنكشارية . لم يتمكن عثمان الثانى من انتقاء الشخصيات الجديرة بسبب قلة تجربته ،

وإضافة إلى ذلك فقد قلت بشكل بارز فى كافة القطاعات الإدارية للدولة الشخصيات الفذة التى كانت موجودة فى العهود السابقة .

جرت الحملة البحرية على إيطاليا (صيف عام ١٦٢٠) ، التى حققها داماد خليل باشا ، خلال إشغاله منصب قبطان - دريا للمرة الثالثة ، فى عهد السلطان عثمان . قصفت السواحل الإدرياتيكية لإيطاليا . بدأت فى أوروبا خلال هذه الأيام حروب الثلاثين سنة المفجعة (١٦١٨ - ١٦٤٨) . بدأت كحرب كاثوليكية - بروتستانتية ، خلال هذه الأيام أيضا (تموز ١٦١٨) تم إعلان سلطان فاس تابعيته ، وإظهار الشاه عباس رغبته فى استمرار الصلح بإرساله هدايا ثمينة جدا .. كل هذا من جملة التطورات الإيجابية الأخرى .

٤٣) الهائلة العثمانية (هائلة عثمانية) (١٨ ، ١٩ ، ٢٠ أيار ١٦٢٢)

فكر عثمان الثانى فى إصلاحات عامة فى كافة القطاعات ، بدأ بتطبيق بعضها .

الموضوع الذى يستحق الاهتمام هو إلغاء التشكيل العسكرى الذى يسمى (قابو قولو) وتنظيم جيش مركزى جديد . شرع فى محاولاته الجدية بهذا الشأن وأرسل تعليمات سرية إلى العديد من البكلر بك (فريق) . وطبعا سمع الناس بمحاولات البادشاه هذه . وبسبب تقليصه - غير العادي - لصلاحيات العلماء ، حدثت مواجهة معهم ، وحتى مع أبى زوجته شيخ الإسلام خوجه أسعد أفندى ، وهو ابن شيخ الإسلام خوجه سعد الدين أفندى وأخوشيخ الإسلام محمد أفندى .

كانت فكرة إصلاح الجيش وخاصة صنف قابو قولو وصنف الإنكشارية ، من بنات أفكار الخوجه سعد الدين أفندى . تشير التحريات الأولية إلى أن ذلك يرجع إلى عام ١٥٩٦ ، ثم ورث هذه الفكرة بعد ذلك حاجه سلطانى (أستاذ السلطان) عمر أفندى وهو أستاذ عثمان الثانى ، وهو الذى لقن البادشاه الشاب فكرة كثير من الإصلاحات . بعبارة أخرى نريد أن نقول:، إن فكرة إصلاح بعض المؤسسات فى الإمبراطورية لم تكن من بنات أفكار عثمان الثانى . لكن السلطان عثمان أخذ يجرى هذا العمل باستعجال شديد دون مراعاة شعور الناس ، مما سبب تخوفهم . هذا فضلا

عن أن نجاح الإصلاحات يحتاج إلى إعداد كوادر جديدة ؛ ولم يكن هنالك أثر لهذه الكوادر . كان البادشاه يعتقد أن كل ماينطق به .. قانون . كان هذا الاعتقاد مضرا ، لأنه كان حبرا على ورق .

صبر تشكيل قابو قولو بما فيه الكفاية على البادشاه الذى حقرهم بصورة علنية . لكن إعلان البادشاه عزمه على مغادرة إستانبول بحجة ذهابه إلى الحج ورفضه بفظاظة كافة المحاولات لإثنائه عن عزمه ، ونصبه سرادقه وفتحه البيارق فى ضحية يوم ١٨ أيار فى صحراء أسكدار - سبب عصيان تشكيلات قابو قوله ، وبالأصح تشكيل الإنكشارية الذى صادف عصيانهم نفس ساعات خروج البادشاه . والمعروف أن خاقانات العثمانية اعتبارا من ياووز لايذهبون إلى الحج ، رغم أنهم خلفاء ، لأن أداء مناسك الحج يستغرق وقتا طويلا ، الأمر الذى يؤدى إلى ابتعاد البادشاه عن أعمال الدولة مدة طويلة . وهنالك فتاوى لشيوخ الإسلام تفيد بأن اشتغال الخاقان بأمور الدولة والشعب عبادة تفوق عبادة الحج .

كان عصيان الإنكشارية وإجتماعهم فى جامع السليمانية ، بعد ساعتو ونصف فقط من ركز البيارق فى أسكدار دليلا كافيا على مبلغ تيقظهم واستعدادهم . جاء الإنكشاريون إلى ساحة سلطان أحمد ، أى أمام سراى طوب قابو الذى يتواجد فيه البادشاه ، حاملين بأيديهم الفتوى التى حصلوا عليها من شيخ الإسلام خوجه - زاده أسعد أفندى والتى تقول « لالزوم لحج البادشاهات ، البقاء فى مكانهم والعدل أولى لهم . حتى لا تكون هناك فتنة » .

كان من الواضح تأييد العلماء للإنكشارية . إن أى عصيان عسكرى فى التاريخ العثمانى لايؤيده العلماء كان يخمده الخاقان ، ولم يحدث أن استطاع أى خاقان إخماد عصيان عسكرى أيده العلماء .

كانت الإنكشارية تريد ألا يغادر البادشاه إستانبول . ولما مزق السلطان الفتوى وألقاها فى وجوههم وأصر على الذهاب إلى الحج انقلب الوضع إلى ثورة ؛ إذ إنه أصبح من المعروف أن البادشاه اتخذ بورصة عاصمة مؤقتة ، وأنه سيأتى إلى إستانبول مع الجنود الذين جمعهم من الأناضول ويلغى جنود القابو قولو ، وأنه أعطى الأوامر بهذا الشأن إلى الأسطول . وعند اقتراب مساء يوم ١٨ أيار ، اشتد تأزم الوضع .

ورغم إعلان السلطان عثمان عدم تركه إستانبول وقف الثوار أمام حاكم البلاد بطلبات جديدة ، لقد أيقنوا أنه لاخلاص لهم من شر هذا الخاقان وأنه سيبطش بهم فى أول فرصة .

وفى اليوم التالى (١٩ أيار) من هذه الثورة التى سميت فى تاريخ تركية « الهائلة العثمانية » والتى ليس لها شبيه توترت أعصاب كلا الطرفين . صلى الثوار صلاة الصبح ، مع جماعة كبيرة فى جامع فاتح . هدد الإنكشارية أصناف الكابوكولو الآخرين والعلماء الذين لا يساندوهم بالموت وقدموا إلى ساحة سلطان أحمد . وطلبوا من السلطان رءوس ٦ أشخاص ، أولهم حاجه سلطانى (أستاذ السلطان) عمر أفندى الذى يعتقدون أنه هو صاحب الفكرة الحقيقية للإصلاح ، وكان حينئذ تسلسله فى بروتوكول العلماء الثانى بعد شيخ الإسلام . وعد بيان البادشاه - رغم إصرار المحيطين به - بأنه لن يعدم أحدا من الـ ٦ الذين يطلبون إعدامهم فإنه أخذ فى تهديد الثوار علنا . فتح الثوار باب السراى التى تركت مفتوحة دون دفاع نتيجة للخيانة ، وتجمعوا فى الرواق الأول . كان وراء الثوار السلطانة - الوالدة ، والدة السلطان مصطفى ، وكوسم مهبيكر خاصكى والوالدة ولى عهد شهزادة مراد . وكانتا قد سخرتا الكثيرين من رجال السراى . ولما لم تكن فكرة احتمال إجلاس عمه المجنون السلطان مصطفى على العرش مرة ثانية ، قد خطرت على بال السلطان عثمان كما لم يخطر على باله أيضا احتمال إجلاس أخيه مراد الذى لم يكمل سن العاشرة ، فانه لم يمسسهما بسوء ، وقتل فقط كبير إخوته الصغار الشهزاده محمد .

وعند اقتراب المساء قتل الوزير الأعظم دولار باشا ، الذى لم يتخذ أى تدبير ضد الثورة . صدارته دامت ٨ أشهر و يومين . كان العلماء يعتقدون بإمكان ارتداع البادشاه وإجباره على الطريق الصواب ، فلم يطلبوا خلعه بشكل قطعى . لكن الإنكشارية شهروا السيوف . إن محاولة إجلاس البادشاه المجنون السلطان مصطفى وصرف النظر عن ولى العهد - شهزادة مراد الشرعى ، وخاصة عدم معرفة ماهية المؤامرة التى جرت بشكل لايخطر على البال - أخافت العلماء ، واتضح أن الثورة قد فقدت منطقها . ومن المحتمل أن تدبير الإنكشارية لهذه المؤامرة وهم يعلمون جيدا بأن شخصا مجنونا لايمكن بقاؤه على العرش إنما كان بغرض الحصول على إكرامية الجلوس عند جلوس السلطان مصطفى ، ثم الحصول على إكرامية أخرى

عند خلعه جبرا وجلوس السلطان مراد . وقد ظهر نتيجة الحوادث الأخيرة ، أنهم ارتشوا وحصلوا على وعود كبيرة من السلطانة – الوالدة ، والدة السلطان مصطفى المرأة الغبية ، ومن السلطانة أخت السلطان مصطفى ومن زوجها الوزير داود باشا .

بعد ظهر ١٩ أيار بايع العلماء السلطان مصطفى تحت ظل السيوف . ولأول مرة فى التاريخ العثمانى منذ الجلوس الأخير للسلطان محمد الفاتح فى ١٤٥١ يجرى جلوس بادشاه قديم مجددا ، سوف لايتكرر بعد ذلك مثل هذا الحادث . دامت سلطنة السلطان عثمان ٤ سنوات و شهرين و ٢١ يوما . وهو أحد البادشاهات النوادر الذين ولدوا وهم أولياء عهد . ظل ولى عهد لمدة ١٣ عاما و ٣ أشهر و ٢٣ يوما ، وفى هذا السن جلس على العرش . وبعد مقتل دولار باشا على يد العصاة عين أوهريلى حسين باشا وزيراً أعظم للمرة الثانية ، لكن حسين باشا قتله العصاة كذلك فى اليوم التالى . فر السلطان عثمان فى بداية الأمر إلى بورصة وأراد المقاومة ، ولكنه عندما شاهد قطع العصاة للطرق ، لجأ إلى باب الآغا ، مقر الإنكشارية والمحل الذى يتواجد فيه رئيس (آغا) الإنكشارية الكائن فى السليمانية وقضى تلك الليلة هناك .

وفى صبيحة اليوم الثالث والأخير لـ « هائلة عثمانية » ٢٠ أيار ١٦٢٢ خطب السلطان عثمان فى جماعة العصاة الإنكشاريين . قطع خطابه بين الحين والآخر ولم يحصل على نتيجة ، وقيل فى ذلك اليوم إن السلطان مصطفى وداماد قره مصطفى باشا الذى انتخبته الإنكشارية فى الحقيقة وزيرا أعظم قد تلقيا أمرا من أم زوجته السلطانة – الوالدة بالقضاء على السلطان عثمان . ولأن السلطان كان مجنونا ومصيره الخلع فإن خوف عثمان كان كبيرا جدا . كان رأى جنرالات الإنكشارية المحافظة على حياة عثمان ، إلا أنه بالرغم من النقاش الشديد لم يستطيعوا إملاء رأيهم هذا على تابعيهم من الإنكشارية . أخذ العصاة عثمان الثانى من أورطة جامع فى السليمانية وتوجهوا به إلى يدى كولة . وهناك حمل عليه ١٠ جلادين . ورغم أنه كان أعزل قتل ٣ منهم ثم قتل خنقا بخيط من حرير . وذلك مساء يوم ٢٢ أيار .

كان عثمان الثانى شخصية فذة جدا ، بأفكاره الابتكارية عن الإمبراطورية خلال إدارته لها . كان قد تجاوز سن ١٧ بـ ٦ أشهر و ١٧ يوما . كان متزوجا بعائشة خاتون ابنة المرحوم برتو باشا ، الوزير ٢ وبعقيلة خاتن ، ابنة شيخ الإسلام أسعد

أفندى . خلف ٢ شهزادة (أمير) وسلطانة (أميرة) واحدة ، توفوا فى المهد . منح بصورة استثنائية رئيس أساتذته خاجه سلطانى آماسيالى عمر أفندى (إستانبول ١٥٥٥ - مكة ، شباط ١٦٣٠) مرتبة المشيخة التى يحملها شيوخ الإسلام ، وهو أول من منحت له هذه المرتبة فى التاريخ العثمانى من بين منتسبى فئة العلماء الثلاثة الذين نالوا هذه الرتبة قبل أن يصيروا شيوخ إسلام فعلا . كان شيخه عزيز محمود خدائى أفندى وأحد أساتذته شيخ قره باشا عبد الرحمن أفندى ، ومستشاره الرئيسى فى دار السعادة أغاسى مصطفى أغا . وتحصيله العلمى ممتاز جدا ، قرأ كتبا أوروبية وأصبحت لديه فكرة عن أوروبا . كتب أشعارا جيدة . كان قوى الجسم جدا . مصارعا ماهرا ويستعمل السلاح بدراية . يسمى بأسماء كنج (شاب) ، غازى وشهيد ، ويسميه الشعب « كنج عثمان » . قلد السيف من قبل أسعد أفندى أحد أساتذته . أقام صلاته الشاعر الأعظم شيخ الإسلام يحيى أفندى .

٤٤) السلطنة الثانية لمصطفى الأول (١٦٢٢/٥/١٩ - ١٦٢٣/٩/١٠)

طالت مدة سلطنة السلطان مصطفى الثانية بشكل غير متوقع أبدا سنة ، و٣ أشهر و٢١ يوما . أمه السلطانة - الوالدة ، كانت نائبة السلطنة ، وزوج ابنها الوزير الأعظم قره داود باشا كان فى الظاهر رأس الثورة . كانت السلطة فى الحقيقة بيد جماعة الإنكشارية . مضت مدة سلطنة السلطان مصطفى كلها ، بردود فعل حادثة « هائلة عثمانية » وانتشار الثورة فى كافة أنحاء الإمبراطورية . فى صبيحة ٢٢ أيار وزع على جماعة القابو كولو ، مبلغ مليون ونصف سكة ذهبية ، إكرامية الجلوس .

بدأ شعب الإمبراطورية الذى لم يشعر بالمحبة تجاه البادشاه فى حياته ، يذرف الدموع الغزيرة على استشهاد السلطان عثمان بشكل مفجع . إن الثورة المنفرة التى تعتبر كربلاء التاريخ العثمانى صارت وجها لوجه أمام ثورة معادية وضربة مضادة . انتهز الفرصة داود باشا أحد أنذل من شهده التاريخ العثمانى ، ونهب سراى طوب قابو ، وسرق حتى السيوف والخيول والحاجيات الأثرية الخاصة بالسلطان عثمان (بستان - زاده يحيى أفندى ، واقعة سلطان عثمان) ثم أراد قتل شهزادات السلطان أحمد ، ابتداء من ولى عهد - شهزاده مراد (نفس الأثر) ولما كان السلطان مصطفى

لايقرب النساء فإن أحداً لم يكن يعلم كيف يفكر فى استمرار السلالة . انتقلت الدولة إلى أيدى أشخاص لايشعرون بالمسئولية على أى وجه ، وأنما يفكرون فقط فى قضاء يومهم . عين داود باشا أحد رجاله (آغا) للباب الهمايونى ووعده برتبة الوزارة وإيالة مصر إذا تمكن من القضاء على ولى العهد . تقدم نحو ولى العهد شاهرا السيف ، لكن أحد حراس ولى العهد الرماة رماه بالششبر (كرة ذات ٦ رءوس) فأصابه فى رأسه فسقط على الأرض ، توالى عليه الحراس ضربا بالسيوف والخناجر وتمزق شر ممزق . وفى اليوم التالى صلب على شجرة فى ميدان سلطان أحمد (نفس الأثر ، ٤٩ ب) . اقشعر الشعب مرة أخرى دهشة ونفورا . الشهزادة الذى أريد قتله عمره ١٠ سنين . تكونت شخصيته وسط هذه الحوادث . لايستطيع أحد آنذاك أن يتنبأ بأن ١٠ سنوات فقط ستكون كافية لسفك دماء هؤلاء الثوار وإفنائهم عن بكرة أبيهم .

لم يستطع داود باشا الحفاظ على وظيفته أكثر من ٢٤ يوما وساءت سمعته وأصبح يلقب بـ « قاتل البادشاه » (نعيما ، ٢ ، ٢٣٦) جيء بدلا منه بـ قرة حسين باشا ، وهو من الوزراء المعزولين من بكلربك مصر والموجودين فى إستانبول (١٦٢٢/٦/١٣) وقد كان أحد أجهل وأعجز وزراء العثمانية . عرنووطى (ألبانى) كان طباخا للقائد الوزير صاطرجى محمد باشا ، يتكلم التركية بصعوبة . كان قد اختلس ٣٠٠٠٠٠ سكة ذهبية فى مصر أثناء الاضطرابات فى فترة الثورات (من المؤسف أن يتولى السلطة أمثال هؤلاء) . وفى اليوم الـ ٨ من صدارته ٢١ حزيران صعد أحد ضباط السباهيين الشباب على إحدى شرفات مآذن جامع السلطان أحمد وقتل رميا بالنبل ٨٠ جنديا هجموا عليه ، وهكذا ظهر أول طالبى دم السلطان عثمان . هيج هذا الحادث الشعب ، وقوبل بالرضا من جميع أفراده . لم يتمكن قرة حسين من البقاء فى السلطة أكثر من ٢٥ يوما . وأعطى المهر الهمايونى (الختم السلطانى) إلى لفكة لى مصطفى باشا (١٦٢٢/٧/٨) زوج مربية السلطان مصطفى . صار صدراً أعظم عندما كان بدرجة وزير ٤ . لم ترض الإنكشارية بهذا الصدر الأعظم الذى يبدى ليناتجاه معارضى الثورة . عزلته السلطانة – الوالدة (١٦٢٢/٩/٢١) . ظل فى السلطة شهرين و ١٤ يوما . جاء مكانه كرجى محمد باشا .

اضطربت فى هذه الأثناء الأناضول بكاملها ، انتشر التذمر حتى وصل إلى سورية والعراق ، وفى كل إيالة ظهر من يطالب بدم السلطان عثمان ، كثيرون من البكلربك والسنجق بك (أمراء الألوية) القضاة ، والشعب بالذات ، وأخذوا يقتلون الإنكشارية الذين يشاهدونهم فى الخارج ، وإن لم يستطيعوا ذلك كانوا يحقرونهم .

دبر أول ثورة مضادة بكلربك أرضروم آبازا محمد باشا ، وجمع حوله عددا آخر من البكلربك (أمير الأمراء) وقتل من وجدهم من الإنكشارية بالسيف . لم يكن هذا البكلربك يبلغ الـ ٣٥ من عمره ، ومن المعروف أنه كان من ولاة الإيالات التى اتفقت مع السلطان عثمان مسبقا وبصورة سرية على الإصلاح العسكرى ، وبينما كان الشعب يندب السلطان عثمان وينظم ويلحن المرثيات فيه ثار فى إستانبول صنف السباهى . مرة ثانية (١٦٢٢/١٢/٣١) ، وطلبوا قتل المسئولين عن مقتل السلطان ، وأعلنوا أن شرفهم العسكرى قد ضاع (نعيما ، ٢ ، ٢٤٧) . أعلن فروخ جلبى (مشيخته ١٥٩١ – ١٦٣٠) رئيس طريقة المولوية الساكن فى قونية أنه سوف يساند آبازا محمد باشا فى المطالبة بدم السلطان عثمان . قام السباهيون فى اليومين الأولين لعام ١٦٢٣ فى ١ و ٢ك٢ فى إستانبول بترتيب مظاهرات للمرتين: الثالثة والرابعة .

ساندت أكثرية الإنكشارية السباهيين ، وأعلنوا أنهم لاعلاقة لهم بمقتل البادشاه ، وأن هذا الجرم قد ارتكبه بعض الخونة من بينهم وأنهم يؤيدون معاقبتهم . الديوان الهمايونى الواقع تحت تأثير نائبة السلطنة التى هى فى نفس الوقت السلطانة – الوالدة ، انتابه القلق . العلماء يطالبون بمعاقبة القتلة وخلع البادشاه . صمم الديوان فى صبيحة يوم ٧ ك٢ ، على قتل داود باشا . أعدم داود باشا وعدة أشخاص من القتلة فى اليوم التالى ، وخلال ذلك أعدم دلاويش باشا بكلربك بودين ، عزلت السلطانة – الوالدة التى أيقنت أن عاقبة ابنها قد اقتربت كرجى محمد باشا الذى يقارب عمره الـ ٨٠ عاما بعد ٤ أشهر و ١٤ يوما ، وعينت مكانه للمرة الثانية قرة حسين باشا (١٦٢٣/٢/٥) .

خلال مدة ٦ أشهر ٢٣ يوما ظلم قره حسين باشا واختلس الكثير فى سبيل إطالة سلطنة السلطان مصطفى (وفى الحقيقة سلطنة السلطانة – الوالدة) . جمع شيخ الإسلام يحيى أفندى العلماء فى جامع فاتح وأقنعهم بعزل هذا الشخص الجاهل .

صار الوزير ٤ إسبارطة لى كمانكش قره على باشا صدرا أعظم (١٦٢٣/٨/٣٠) . كان قد عين بوظيفة وزير قبة بعد تواجده فى إيالات دياربكر وبغداد . ضغط خليل وكرجى محمد باشا من رؤساء الوزراء السابقين على على باشا لخلع السلطان مصطفى . كان على باشا بالذات يتفق معهما . كان قد اتفق مع كوسم مهبيكر خاصكى والدة ولى عهد – شهزادة مراد وأخذ منها مبلغا كبيرا من الدراهم لتوزيعها على الجهات اللازمة . وزع الدراهم على الجهات اللازمة كل من الوزير بابور محمد باشا بكلربك مصر الذى قدم إلى إستانبول ، وأخيه قاضى إستانبول حسن أفندى . وتمكن الصدر الأعظم الجديد على باشا من الحصول على فتوى الخلع ، بعد هذه المساعى التى استمرت ١١ يوما أيدت جماعة القبو قولو ذلك ، لأنهم سيمنحون إكرامية الجلوس كما أنهم كانوا يفكرون فى ضرورة إزالة آثار عدم رضا الرأى العام .

خلع السلطان مصطفى للمرة الثانية فى ١٠ أيلول ١٦٢٣ . وفى الحقيقة فإنه لم يكن له علم لابسلطنته ولابعزله عنها . وزع فى هذه المرة ٢ مليون سكة ذهبية لإكرامية الجلوس . وإكراميات الجلوس لاتسدد من خزينة الدولة ، بل من خزينة البادشاه المنفصلة عنها . ولعدم وجود هذا القدر فى خزينة السلطان جمعت أوانى وأطباق السراى وسكت منها عملات ذهبية . كان رصيد خزينة السلطان أحمد من المسكوكات الذهبية فقط ٥٠ مليون قطعة . وكان هذا المبلغ هو أكبر مبلغ يملكه حاكم من حكام العالم كله (Pirenne ، ٢ ، ٥٢٥) . لكن هذا المبلغ تم تبديده وإهداره خلال السنة والنصف التى استمرت فيها الثورة بشكل لايقره العقل والشرع . أرسلت أم السلطان مصطفى إلى شقتها فى السراى القديم . وحجر السلطان مصطفى ، فى شقته الموجودة فى سراى طوب قابو . ومجموع سلطنتيه سنة و ٦ أشهر و ٢٥ يوما . عاش بعدها أكثر من ١٥ سنة . مات بأجله وعمره ٤٧ (١٦٣٩/١/٢٠) . وهو مدفون فى ضريحه الكائن فى أياصوفيا . كان ابن أخيه عثمان الثانى قد دفن فى مقبرة سلطان أحمد بجوار أبيه .

تم إجلاس ولى عهد – شهزادة مراد على العرش بلقب « مراد الرابع » . كان سنه يزيد على ١١ سنة بـ شهر و ١٥ يوما . أمه كوسم مهبيكر ، السلطانة – الوالدة ، صارت نائبة السلطنة . كانت فى سن ٣٤ عاما . وصار الشهزاده بيازيد الذى يصغره بـ ٥ أشهر فقط ولى عهد (نعيما ، ٢ ، ٢٠٨ – ٦٣ ؛ فذلكة ،

٢ ، ٤ ومابعده ؛ بجوى ، ٢ ، ٣٨٠ - ٩٨ ؛ صولاق - زاده ، ٧٠٣ - ٣٦ ؛ منجم باشى ، ٣ ، ٦٥٠ - ٧ روضة الأبرار ، ٥٣٥ - ٥٥ صولاق - زاده نوعى ، سبب خلاص سلطان مصطفى ، يحيى أفندى ، واقعة سلطان عثمان خان ، Madame de Gomez, Histoire d'Osman مجلدين باريس ١٧٣٤ ، هامر ، ٨ ، ٢٨٤ - ٣٧٦ ؛ Lorga ، ٣ ، ٤٤٨ ومابعده ؛ دانشمند ، ٣ ، ٢٩٠ - ٣٢٤) .

٤٥) الدورة الأولى لسلطنة مراد الرابع (١٦٢٣ - ١٦٣٢)

كان إسبارطة لى على باشا مغرورا بسبب إجلاسه ولى العهد المشروع السلطان مراد . أراد التخلص من الصدرين الأعظمين الأسبقين داماد خليل باشا وكرجى محمد باشا ، لاعتباره إياهما منافسين له ، واتهامهما بمناصرة الثورة المضادة . لم يحتمل ذلك لاكوسم والدة ولاتشكيلات القابوقولو التى تساندها ، قطع رأس على باشا بعد ٧ أشهر و٤ أيام (١٦٢٤/٤/٣) . كان من الممكن أن ينجو بعزله ، لكنه ارتكب جرم الكذب على البادشاه الذى يعتبر ذنبا عظيما فى النظام العثمانى . وضع السلطان موضع الطفل ولم يذكر الصدق وإنما تأول فى موضوع سقوط بغداد .

أعطت كوسم والدة الختم الهمايونى لابنها إلى جركس محمد باشا الشخص المسن والمجرب الذى صار وزير قبة بعد أن كان بكلربك على الشام ، ولغرض إخماد عصيان الأناضول واسترداد بغداد من الصفويين صار سردارا أكرم وغادر إستانبول (١٦٢٤/٦/١٧) . صار الصدر الأعظم السابق كرجى محمد باشا وكيل الصدارة . كان القسم الأعظم من الأناضول يتلقى أوامره من أباضه محمد باشا وليس من الديوان ، وكان لأباضه مؤيدون كثيرون بين رجال الدولة فى إستانبول . كانت خزينة السلطان التى سلبت فى واقعة السلطان عثمان وصرف منها ٤ إكراميات جلوس خلال ٦ سنوات فارغة تماما (هامر ، ٩ ، ٣ ، ٢٣) . تجاسر أباضه محمد باشا إلى حد محاصرة مدينة بورصة . استمرت حملة جركس باشا للأناضول حتى ٢٨ك ١٦٢٥/٢ ، لكنه اتفق مع أباضه محمد باشا ثم عاد . توفى الصدر الأعظم ، أثناء قضائه فصل الشتاء فى طوقات (١٦٢٥/١/٢٨) . كان يستعد للحملة على بغداد

فى الربيع ، أصبح الوزير داماد حافظ أحمد باشا بكلربك الذى كان حاضرا مع الجيش فى طوقات صدراً أعظم وسرداراً أكرم . تزوج من السلطانة عائشة الابنة الكبيرة للسلطانة كوسم . عاش أياما عصيبة أمام بغداد . كان رجل دولة جيدا وشريفا ، لكنه لم يكن قائدا قديرا . وعندما لم يتمكن من استرداد بغداد عزل بعد سنة و ١٠ أشهر و٢١ يوما (١٦٢٦/١٢/١) . صار داماد خليل باشا ، صدراً أعظم للمرة الثانية . غادر إستانبول فى ٤ كانون ٢ (١٦٢٦) لحل مشكلة الأباضة . ظل فى حلب ٣ أشهر و١١ يوما ، وفى ٧ آب (١٦٢٧) جاء إلى عامد (دياربكر) . حاصر أرضروم مدة ٤١ يوما ، لكنه لم يستطع الاستيلاء عليها . ولأنه لم يستطع حل قضية الإباضة عزل بعد عودته لقضاء فصل الشتاء فى طوقات ومكوثه فيها مدة ٣ أشهر و٢٧ يوما (١٦٢٨/٤/٦) . دامت صدارته سنة و٤ أشهر و٥ أيام ومجموع صدارتيه ثلاث سنوات و٧ أشهر و٧ أيام .

صادف مجىء تيمور أوغلو باى سنغر ميرزا إلى إستانبول فى سنة ١٦٢٨ هذه جلوس ابن عمه شاه جهان على عرش الهند وقتله ٣ من إخوته . لجأ إلى تركية . أحسن السلطان مراد استقباله وإكرامه بشكل منقطع النظير ، لكنه لم يحصل على المعونة العسكرية التى طلبها (هامر ، ٩ ، ٩٨) . وعاد إلى الهند .

صار داماد خسرو باشا ، الذى ارتقى من رتبة أغا للإنكشاريين إلى وزير قبة قبل سنة و ٤ أشهر فقط صدراً أعظم . كان متزوجا من السلطانه عائشة ، إحدى بنات محمد الثالث وهو ابن أحد بكلربك المسمى خضر باشا . كان ذكيا ، ماكرا ، قوى الشكيمة ، ظالما للغاية ، طموحا ، متآمرا أنانيا ، قائدا جيدا . جاء إلى طوقات بعد تعيينه واستلامه الصدارة بـ شهر و٢٤ يوما . وتحرك بعد شهر و٢١ يوما ، ووصل أرضروم بعد شهر و ٩ أيام وبدأ فى الحصار بعد ٧ أيام ، وخلال ١٤ يوما أجبر أباظة محمد باشا على التسليم (١٦٢٨/٩/٢٢) . أغلقت مسألة أباظة التى استمرت ٦ سنوات ، سيق إلى إستانبول . تحرك خسرو باشا الذى ظل ٢٢ يوما أخر فى أرضروم ووصل إستانبول خلال شهر و ٢٦ يوما (١٦٢٨/١٢/٩) . سرح الجيش الذى كان فى حالة تأهب فى الأناضول منذ ٤/٥ سنة . قابل مراد باشا ، أباظة محمد باشا عند حضوره ، وبعد توبيخه بشكل صورى أرسله إلى بوسنة برتبة بكلربكى . والحقيقة أن مقاومة الباشا مدة ٦ سنوات للمطالبة بدم أخيه الكبير عثمان كانت قد أسّرته .

مكث خسرو باشا فى إستانبول ٧ أشهر و يوما . تحرك لحملة إيران (١٦٢٩/٦/١٠) . قاد الحروب الإيرانية الشديدة خلال ١٦٢٩ - ٣١ ، لكنه لم يستطع الاستيلاء على بغداد . عزل عندما كان فى طوقات (١٦٣١/١٠/٢٥) . دامت صدارته ثلاث سنوات و ٦ أشهر و ١٩ يوما . جاء حافظ أحمد باشا إلى الصدارة مرة أخرى .

ظلم خسرو باشا الكثيرين وأعدم وبطش . تقمص شخصية الوزير الدكتاتور بكل مافى الكلمة من معنى . كان يستند على جماعة الإنكشارية فى إستانبول . كان يوجه تلك الجماعة فى إستانبول بواسطة داماد رجب باشا . كان هذان الوزيران رغم أنهما يقومان بأعمال من شأنها إخافة السلطان مراد ، الذى أخذ يكبر كلما تقدم الوقت ، فإن وضعهما يدل على أنهما كانا على استعداد لإجراء حركات أكبر من ذلك . كانا يريدان سلطانا مطيعا لهما فاقد العزيمة . أنتج عزل خسرو باشا ونقل السلطة إلى حافظ أحمد باشا أحد رجال السراى الموالين للبادشاه ؛ أخافة هذه الزمرة . أحدث رجب باشا عصيانا فى جماعتى الإنكشارية وسباهية قابوقولو وأضاف إليهما زمرة العاطلين عن العمل فى إستانبول وأحدث ثورة ١٩ رجب (١٦٣٢/٢/١٠) . وتعتبر هذه الثورة التى حدثت فى فصل الشتاء « هائلة عثمانية » على نطاق صغير . كان الهدف منها إسقاط حافظ أحمد باشا وتهديد البادشاه . استشهد حافظ أحمد باشا أمام أنظار البادشاه بشكل مفجع . استمرت الصدارة الثانية ٣ أشهر و١٦ يوما فقط ، تحملتها طغمة الاشقياء بصعوبة . مجموع صدارتيه سنتين ، وشهرين و ١٨ يوما . وبضغط الجماعة وإرادة نائبة السلطانة التى تتحرك بمؤازرة الجماعة صار داماد رجب باشا الذى يسميه مراد الرابع « رئيس الأشقياء » صدراً أعظم .

لكن السلطان مراد كان يعلم أن خسرو باشا المعزول الموجود فى طوقات والأذكى منه والأكثر طموحا يقف وراءه ويسانده . أمر السلطان مرتضى باشا بالقبض على خسرو باشا . جاء مرتضى باشا إلى طوقات وعرض الخط الهمايونى للبادشاه . ولأول مرة فى التاريخ العثمانى يعترض وزير على فرمان (أمر سلطانى) الخاقان المقدس ولايسلم نفسه . قصف مرتضى باشا قصر خسرو باشا بالمدفع وقطع رأسه . شهر السلطان مراد الرأس المقطوع على شعب إستانبول بعد شهر بالضبط ، يوم ١١ آذار (١٦٣٢) . وفى اليوم التالى حدثت الثورة الثانية . وهذه ثورة ٢٠ شعبان .

وبتحريض من رجب باشا جمعت العصبة القابو قولو وجميع شذاذ الآفاق الموجودين فى إستانبول وكدستهم أمام باب السراى . ولإفزاع البادشاه طلبت رءوس أقرب الناس إلى البادشاه . خرج مراد الرابع للمواجهة العلنية التى تسمى (آياق ديوانى) . حدثت حوادث قتل ونهب . طرحت فكرة إجلاس ولى عهد – شهزادة بيازيد على العرش ، لكن نائبة السلطنة كوسم مهبيكر السلطانة – الوالدة عارضت ذلك ، لأنها لم تكن هى والدة السلطان بيازيد . فشل التمرد فى إخضاع السلطان مراد فى هذه المرة كذلك . أمر بإعدام زوج أخته داماد رجب باشا فى ١٨ أيار (١٦٣٢) . مدة صدارة طوبال رجب باشا كانت عبارة عن ٣ أشهر و٧ أيام . تجمع المتآمرون فى ساحة سلطان أحمد فى ٨ حزيران . دعا السلطان مراد ، الديوان والعلماء لعقد اجتماع . ألقى خطابا طويلا ذكر فيه أن الفوضى تغلغلت فى كيان الدولة ، وأن الجيش أصبح لايحارب ، وأن الجندى أصبح لايؤدى واجبه بسبب تدخله فى السياسة وأنه غير مستعد لأن يقدم الدولة لقمة سائغة للأشقياء واللصوص ، وأنه سوف لايتردد فى البطش بمن لايطيعه مهما كان ذلك الشخص . أحدثت الخطبة أثرها فى الشعب فأخذوا يهتفون مؤيدين البادشاه ، ذلك أن تحكم الأشقياء كان قد أضر بالكثيرين من أفراد الشعب ورجال الدولة . مضى على « العائلة العثمانية » ١٠ سنين و ١٩ يوما بالضبط . كانت واقعة كنج عثمان سببا فى فتح الباب أمام فترة فوضى دامت هذا القدر الطويل من الزمن . انتهت فترة نيابة السلطانة كوسم التى دامت ٨ سنوات و٨ أشهر و١٣ يوماً . سحبت السلطانة – الوالدة البالغ سنها ٤٣ عاما يدها من السياسة وهى رهينة الحزن والتأثر .

افتتحت الدورة الثانية لسلطنة السلطان مراد التى ستكون إرادته فقط هى الحاكمة فى هذه الدورة ، ولن يسمح لأية قوة بالتدخل فى إرادته .

٤٦) الدورة الثانية لسلطنة مراد الرابع (١٦٣٢ – ١٦٤٠)

دامت هذه الدورة حتى وفاة البادشاه ٧ سنوات و٨ أشهر ويوما . ألغى فصيل « أورطة » الذى ينتسب إليه الإنكشارية الـ ١٠ قتلة عثمان . وكان الإنكشارية بالذات يلعنون هذا الفصيل بمراسم عسكرية كبيرة يرتبونها كل ٣ أشهر ، دامت لحين إلغاء صنف الإنكشارية فى ١٨٢٦ .

هدد السلطان مراد الرابع والدته الحريصة جدا على السياسة ومنعها من التدخل فى شئون الدولة . بحث عن كل شخص له علاقة قريبة أو بعيدة بمقتل كنج عثمان وأمر بقتله . ثم انتقل إلى الأناضول وأمر بإعدام كل من ارتكب الشقاوة فى المنطقة أو تظاهر بها أو سرق أموال الدولة أو ظلم الشعب . منع استعمال التبغ فى ١٦ أيلول ١٦٣٣ . كانت القهوة تشرب فى إستانبول منذ عام ١٥٥٥ مدة ٧٨ سنة والتبغ يدخن منذ ١٦٠٥ مدة ٢٨ سنة . لم يكن التدخين متفشيا بكثرة فى حينه ، كان العلماء يناقشون شرعيته من عدمها (وفى النهاية قرروا أنه مضر ولكنه ليس حراما وسمح باستعماله) . هدمت كافة المقاهى لأنها كانت مركزا لتجمع أفراد الجيش والمداولة فى السياسة بدلا من قيامهم بالتدريب العسكرى فى ثكناتهم . الراغب يشرب القهوة فى داره . لكن التبغ كان ممنوعا تدخينه حتى فى الدار (رفع هذا الحظر فى عام ١٦٤٠) ؛ لأن حريق إستانبول الكبير فى ١٦٣٣/٩/٢ ، حدث بسبب النار التى ولدها تدخين التبغ واحترق ٢٠٠٠٠ مسكن . كان ذلك فى الحقيقة مجرد وسيلة ، أما غرض السلطان الحقيقى ، فقد كان إحاطة الدولة بجو إرهابى بحجة تدخين التبغ . ولأول مرة فى التاريخ العثمانى يعدم شيخ الإسلام أخو زاده حسين أفندى (١٦٣٤/١/٧) . لايقر النظام العثمانى إعدام أى فرد من أفراد طائفة العلماء ، حتى ولو كان فى أدنى المراتب ، ويمكن فقط عزله أو نفيه . والآن يقطع رأس الشخص الذى هو فى ذروة هذه الطائفة . كان السلطان مراد يريد أن يثبت بذلك أن ليس هنالك امتياز لأى صنف من الأصناف أمام سلطة الدولة . كان ذلك إخطارا للعلماء الذين أصبحوا آلات عمياء مسخرة فى أيدى الأشقياء فى واقعة « هائلة عثمانية » . وفى ١٦٣٤/٨/٥ منع شرب المشروبات الكحولية . أغلقت كافة أماكن الشرب ، حظر الشرب على المسلمين ، حتى فى بيوتهم ، لأن الشريعة منعت تعاطى الخمر . كان حظر المشروبات الكحولية قد صدر قبل نصف قرن ولكن لم يكن مطبقا ، والآن أعدم فى محل الارتكاب كل من شرب الخمر أو دخن التبغ رغم المنع . كان البادشاه يعطى شعبه درسا فى إطاعة أوامر الدولة ، لكنه كان هو نفسه يتعاطى المشروب فى السراى .

وفى جو كهذا ، كادت تحدث حرب بولونية . البادشاه الذى قرر حملة همايونية بعد ١٣ سنة من حملة أخيه الكبير على بولونيا التى امتنعت عن دفع الضريبة وهدم

قلاع الحدود ، جاء فى ٢٧ نيسان إلى أدرنة (١٦٣٤) . لكنه اتفق مع بولونيا وتحرك عائدا إلى إستانبول فى ٢٧ تموز .

عندما كان مراد الرابع فى حملة إيران الأولى أرسل أمرا إلى إستانبول أعدم بموجبه ولى عهد – شهزاده بيازيد الذى كان فى ٢٣ من عمره وشهزاده سليمان فى ٢٠ من عمره بحبل حريرى . ولم يمس الشهزادة قاسم الذى كان سنه متوسطا بين هذين السنين بسوء لكونه شقيقه من السلطانة كوسم ، وصار ولى عهد . الشهزادتين (الأميرين) المقتولين دفنا فى مقبرة أبيهما السلطان أحمد . الشهزادة بيازيد ، كان أميرا مقتدرا جدا ، وكان ولى عهد أخيه الكبير مراد الرابع منذ جلوسه قبل ١١ سنة و ١٠ أشهر و ١٧ يوما . بدأت الألسن فى آسيا وإفريقية تلوك هذا الحادث بشكل كبير . تعالج هذا الموضوع (مأساة) Racine ذات الـ ٥ فصول والتى تسمى تراجيديا Bajazet (١٦٧٢) وعندما كان البادشاه فى حملة إيران الثانية أرسل أمرا إلى إستانبول بموجبه قتل خنقا أخوه قاسم المولود من نفس الأم البالغ سنه ٢٤ عاما والذى كان ولى عهد منذ سنتين و٦ أشهر و٢١ يوما . دفن الشهزاد فى مقبرة مراد الثالث الكائنة فى أياصوفيا . أصغر إخوة البادشاه إبراهيم المولود من السلطانة كوسم من أم وأب واحد صار ولى عهد ، كان سنه ٢٢ عاما ، ولم يبق عداه من بنى عثمان على قيد الحياة . شهزادات السلطان مراد كانوا يموتون بعد ولادتهم بعدة أشهر .

عندما تسلم السلطان مراد زمام السلطة بيده وأعدم رجب باشا عين طابانى ياصى محمد باشا صدراً أعظم . ساعد هذا الصدر الأعظم البادشاه متطوعا ، وعمل مابوسعه لإعادة سلطنة الدولة مجددا . عزل بعد ٤ سنوات و ٨ أشهر و ١٥ يوما (١٦٣٧/٢/٢) . كان موجودا عند عزله فى مقر الجيش فى عامد (ديار بكر) ، أرسل إلى بودين (المجر) وصار بكلربك لها . عين مكانه صدر أعظم ووزير مقتدر مثله وهو داماد بايرام باشا . كان متزوجا بالسلطانة خان – زاده الأخت الكبيرة للبادشاه منذ ١٥ عاما . كان قائمقام الصدارة (وكيل رئيس الوزراء) فى إستانبول أثناء السنوات التى كان فيها طابانى ياصى محمد باشا فى الجبهة الإيرانية ، ونائب السلطنة عندما كان السلطان مراد فى حملة إيران الأولى . صار بايرام باشا كذلك سردارا أكرم مثل محمد باشا .

حولت الفوضى التى استمرت ١٠ سنين كافة الأنظار إلى حوادث العصبة (Junto) فى إستانبول ، حدث شغب كبير فى الإيالات . ضعف نفوذ بكلربك الإيالات البحرية ، الجزائر ، تونس ، طرابلس الغرب ، وزاد نفوذ جنرالات الإنكشارية الذين يسمون « دايى » . كان أيدن باشا يحافظ بصعوبة على أراضى الحبشة الواسعة ، وفى اليمن لم يتمكن قانصو باشا ، من الوقوف أمام الإمام الزيدى ، وانسحب تاركا له كافة الأقسام الجبلية للقطر ، عدا الساحل (١٦ - ٣٣) . وحتى قوزاق أوكراينا استولوا على قلعة آزاك (Rostov) (١٦٣٧/٧/٥) .

توفى الصدر الأعظم بايرام باشا ، عندما كان مع البادشاه قرب بيرة جك مع الجيش الهمايونى (١٦٣٨/٨/٢٦) . دامت صدارته سنة و ٦ أشهر و ٢٢ يوما . حل مكانه وزير مقتدر آخر هو طيار محمد باشا الذى كان - من قبيل الصدف - مثل بايرام باشا من أهالى لادك أيضا (بين صمصون وآماسيا) . كان الوزير موسى باشا فى إستانبول يقوم بوظيفة محافظ العرش (نائب السلطنة) وفى نفس الوقت ، قائمقام الصدارة . لكن طيار محمد باشا سقط شهيدا أمام أسوار بغداد بعد ٣ أشهر ، ٢٨ يوما (١٦٣٨/١٢/٢٣) ، وبعد يومين فتحت بغداد . كان أبوه أوجار مصطفى باشا قد استشهد كذلك على يد الصفويين عندما كان بكلربك لبغداد . دفن محمد باشا فى الأعظمية خارج بغداد وشيد له قبر فيها . صار « كمانكش » مصطفى باشا صدراً أعظم ، ولقب بهذا اللقب لأنه كان من أشهر رماة السهام فى عصره ، ومنذ شبابه يلقب « كمانكش » كان قبطان دريا برتبة وزير .

وبعد حملة إيران الثانية تفادت العثمانية بصعوبة نشوب حرب مع البندقية Venedik . ونشأ الخلاف من الوضع المتقابل للقلعة العثمانية فى دالماجيا وقلعة البندقية تم تفادى الحرب أو على الأصح أجلت لمدة ٦ سنوات بمعاهدة إستانبول (١٦٣٩/٧/١٦) . سددت البندقية غرامات قدرها ٢٥٠٠٠٠ سكة ذهبية . ومع ذلك أمر السلطان مراد بتأهب الأسطول تجاه البندقية ، لكنه توفى قبل إعلانه حربا مع البندقية ، بعد أن ترك فكرته هذه ميراثا لأخيه السلطان إبراهيم .

ضعف نفوذ البكلربك الذين أرسلتهم إستانبول إلى الجزائر ، وأصبحوا يمثلون فى البروتوكول فقط . وسيطر جنرالات الإنكشارية فى الجزائر الذين يسمون « دايى » على الإيالات فعلا . اكتسب أسطول الجزائر قوة كبيرة ، إلا أن اهتمام أميرالات

الأسطول بشئون إدارة الدولة أصبح أقل مما كان عليه فى السابق ، واتخذوا من الأسطول أداة للقرصنة . كانوا يقومون بتحركات معلومة عند تسلمهم الأوامر من إستانبول ، وبعدها كانوا ينضمون إلى الأسطول الهمايونى ، ويخرجون للقرصنة فى فراغهم . كان مجالهم وسط وغرب البحر الأبيض والأطلسى . وكان الأسطول الجزائرى المكون من ٢١٠ قطعة ، وكل قطعة مجهزة بـ ٢٥ - ٤٠ مدفعا أكبر قوة بحرية فى العالم بعد الأسطول الهمايونى . ولد ضعف الأسطول والقدرة العسكرية الإسبانية فرصا كبيرة . جرت عدة حملات وغارات بحرية فى هذه الفترة وهى (ستعالج الأحداث فى الميحط الأطلسى فى الصفحات التالية) : الاستيلاء على ٩٣٦ سفينة خلال ٨ أعوام وجلبت إلى الجزائر السفن التى نهبت فى عرض البحر وأغرقت ، خارج هذا العدد . شرع بعد ذلك فى التعرض للسفن الفرنسية، ترك الديوان سياسة حماية فرنسا بمناسبة ضعف إسبانيا . وخلال ١٦٢٩ - ٣٤ تم فى الأطلسى الاستيلاء على ٥٢ ، وفى البحر الأبيض على ٢٨ سفينة فرنسية وجلبت إلى الجزائر . كان الهدف هو السفن الإسبانية والإيطالية التابعة لإسبانيا لأن أمر الديوان كان ينص على ضربها أينما وجدت . كانت حالة الحرب مستمرة بين العثمانية وإسبانيا . وفى ١٦٣٦ أغار الأسطول الجزائرى على ميناءى **Reggio** و **Messina** . تم تحقيق إنزال على كورسيكا ، وفى ربيع العام التالى ١٦٣٧ جرى إنزال على **Sardunya** . وفى الخريف تم إنزال الجيش فى **Gaeta** بين نابولى وروما . وفى ١٦٣٩ عاد على رئيس من سواحل صقلية وكالابريا بغنائم كبيرة . كانت القطع البحرية لتونس وطرابلس أصغر . وكانوا يقلدون الجزائر ويحذون حذوها قدر طاقتهم . أسس آخر من نفى من العرب من الأندلس عام ١٦١٠ نوعا من الجمهورية فى الأس البحرى **Sale** الكائن على المحيط الأطلسى فى فاس على مقربة من شمال الرباط ، متخذين تشكيلات الأسطول التركى نموذجا لهم . كبدوا السفن الإسبانية فى المحيط الأطلسى أضراراً فادحة ، ساندتهم الجزائر وتسلموا أوامر منها .

٤٧) الصفحة الأولى للحرب التركية -الإيرانية الجديدة (١٦٢٤ - ١٦٣٥)

استولى الصفويون على بغداد بعد حصار دام ٣ أشهر (ليلة ١١ - ١٦٢٤/١/١٢) . فتح الباب للشاه ليلا - بصورة سرية - درويش محمد بك ،

ابن بكر باشا بكلربك بغداد ، الذى كانت علاقته متوترة مع أبيه . منحه الشاه رتبة بكلربك بلقب « خان » عذب الشاه عباس بكر باشا الذى رفض أن يكون شيعيا ، مدة ٧ أيام ثم أركب فى زورق ملىء بالنفط ، وأشعل فيه النار . قتل كل من قاضى بغداد عمر نورى أفندى خطيب أولو جامع محمد أفندى ومئات من ضباط وموظفى العثمانية ، أشراف السنة بنفس الطريقة . سيقت زوجاتهم وبناتهم إلى دور الزنى العامة فى إيران . تصادف هذه الفترة تماما فترة حروب الثلاثين سنة المدهشة التى ذبح فيها الكاثوليك والبروتستانت بعضهم البعض وهدم فيها أحدهم مدن وقرى الآخر وسحقها وجعلها مزارع . افتتحت سلطنة مراد الرابع بمثل هذه الفاجعة .

أصبح صافى قولو خان تركمن بكلربك بغداد للصفويين . بدأت دورة حكم الصفويين فى بغداد – لمدة ١٥ سنة – (التى قد فتحها من قبل السلطان سليمان القانونى جيث تسلمها من الشاه طحمسب قبل ٨٩ سنة وشهر و٤ أيام) . حاصر بغداد الصدر الأعظم والسردار الأكرم حافظ أحمد باشا (١٦٢٥/١١/١٣ – ١٦٢٦/٧/٣) . حضر الشاه فورا ، لكنه لم يجرؤ على مواجهة حرب ميدانية مع العثمانية ، وإن كان مجيئه قد ثبط عزم العثمانية على استرداد بغداد . عاد حافظ باشا . أهدر الحصار الذى دام ٧ أشهر و٢٠ يوما دماء الكثير من الطرفين . انتقلت المدن المقدسة ككربلاء والنجف ليد إيران . لم تتمكن السياسة العثمانية فى هذه المرة كذلك من تشكيل استراتيجية موحدة مع الهند وتركستان ، اللتين هما فى حالة حرب وخلاف دائمين تقريبا مع إيران ؛ الأمر الذى يقتضى أن يكونا حلفاءها الطبيعيين . توالى ذهاب ومجىء السفراء من تركستان ومن الهند ، ولكن لم يسفر ذلك عن اتفاق جدى .

أحس الشاه عباس بأنه على وشك إكمال سلطنته التى قضاها بالسطوة والقوة . كان أمله الوحيد هو إجبار العثمانية على الموافقة على بقاء العراق الوسطى لديها ، لكنه لم يتمكن من تأمين ذلك ، لأنه كان على درجة من بعد النظر ، بحيث يستطيع التنبؤ بأن العثمانية سوف تسترد بغداد بعده بصورة أكيدة . مات فى سن ٧١ وهو أعظم حاكم فى العالم بعد مراد الرابع (١٦٢٨/١/٢٧) . دامت سلطنته ٤٠ سنة و ٨ أشهر ، كان معاصرا لـ ٥ بادشاهات عثمانيين . كان قد أمر بقتل ابنه ولى العهد صافى ميرزا . جاء مكانه ابن صافى ميرزا هذا ، ولقب « الشاه صافى الأول » وجلس على عرش جده ، ولكن البون كان شاسعا بين قدراته وقدرات جده . وخلال هذه

السنوات اكتسب بنو تيمور فى الهند مقدرة كبيرة جدا وازدهروا وصاروا أقوى دولة فى العالم بعد العثمانية ودفعوا إيران الصفوية من الدرجة الثانية التى حافظت عليها مدة أكثر من ١٢٠ سنة إلى الدرجة الثالثة . ظل الشاه صافى على العرش حتى عام ١٦٤٢ أى أكثر من ١٤ عاما .

تحرك الصدر الأعظم والسردار الأكرم الجديد دماد خسرو باشا من إستانبول (١٦٢٩/٧/١٠) للاستيلاء على بغداد التى لم يستطع حافظ باشا الاستيلاء عليها . لكنه بدلا من أن يتجه إلى بغداد قضى الشتاء فى كركوك . انتقل ٣٩ سنجق (لواء) كردى وتركمانى مع أكثر من ٢٠ عشيرة كردية - الذين كانوا فى السابق تابعين للعثمانية - من الحكم الصفوى إلى الحكم العثمانى مرة أخرى . وجاء بكواتهم فردا فردا إلى السردار الأكرم وأعلنوا طاعتهم . استرجع بارمقسز مصطفى باشا بكلربك طرابلس الشام ، الحلة ، كربلاء ، النجف ، الكوفة وضواحيها من الإيرانيين . تراجع الصفويون إلى داخل أسوار بغداد . أعدم الشاه خان خانان (الصدر الأعظم) زينل خان بسبب هزيمته مع جيشه البالغ ٤٠٠٠٠ شخص ، أمام العثمانية فى المعركة الميدانية المسماة « مهربان » .

اجتاز خسرو باشا الأراضى التى يسكنها الأكراد ، ودخل الأراضى الإيرانية التى يسكنها الأتراك فتح همدان (١٦٣٠/٦/٩) ومع أنها كانت قد فتحت فى عهد القانونى الا أن ذلك كان نصرا مهما ، حيث كانت مركزا للعراق العجمى ومدينة العرش لسلاجقة العراق (على مسافة ٤٠٠ كم (مسافة مستقيمة) عن شمال شرق بغداد ، و ٢٥٠ كم على الجنوب الغربى من طهران) . جاء الجيش الهمايونى إلى دركوزين على طريق همدان - قزوين فى ١٨ حزيران . وتمكن من إفناء حسين خان بكلربك لورستان مع جيشه البالغ ٨٠٠٠ خيالة و ٤٠٠٠ مشاة حاملى البنادق . وعلى هذا تكون كافة إيران الغربية (العراق العجمى) ، وبتعبير أوضح إيالات كرمنشاه ، كردستان (أردلان) ، لورستان وخوزستان قد انتقلت إلى الحكم العثمانى . إلا أن الديوان الهمايونى اتهم خسرو باشا بمخالفة الأوامر وعدم استيلائه على بغداد وسوقه الجيش إلى داخل إيران على خلاف ماهو مخطط . وفى ٥ ت١ حاصر بغداد راميا ٥٠٠ قذيفة مدفع يوميا (هامر ، ٩ ، ١٥١) رفع الحصار بعد ٣٩ يوما (١٦٠٣/١١/١٤) . كانت الأعظمية بيد العثمانية . استشهد الوزير

مرتضى باشا.رابط خليل باشا بكلربك دياربكر فى الحلة مع ١٠٠٠٠ جندى . ولما انسحب خسرو باشا ، جاء الشاه صافى بنفسه واستولى على الحلة وكركوك . مكث خسرو باشا ٤١ يوما فى الموصل و٤ أشهر فى ماردين . وجاء إلى دياربكر ، وهنا انضم ٣٠٠٠٠ خيال قرمى إلى الجيش الهمايونى . لكن خسرو باشا علم بعزله خلال تواجده فى هذه المدينة . انسحب إلى طوقات . كان الجيش متعبا ، كما أنه تحمل خسائر كبيرة فى حملة إيران ، ولم يسترح منذ مدة طويلة .

خرج الصدر الأعظم والسردار الأكرم طاباني ياصى محمد باشا من إستانبول إلى الجبهة (١٦٣٣/١٠/٢٢) . رافقه مراد الرابع لغاية أزميت . قضى الصدر الأعظم شتاء عام ١٦٣٣ – ٣٤ فى حلب . ثم انتقل إلى دياربكر وانتظر قدوم البادشاه .

٤٨) الحملة الهمايونية الإيرانيـــة (روان) الأولى (١٦٣٥/٣/٢٨ – ١٦٣٥/١٢/٢٧)

أثناء مغادرة مراد الرابع إستانبول ، لحملة إيران (٢٨ آذار) ، تحرك جيش آخر بقيادة طاباني ياصى محمد باشا من دياربكر (٦ نيسان) ووصل أرضروم (٥ حزيران) . سار البادشاه رويدا ، كان النظام والسكون المطلق مستتبين فى الجيش إلى درجة لم يشاهد عليها أبدا منذ عهد القانونى . قبض على العصاة وأعدموا فى كل مكان يمر به الجيش . صعد الخاقان إلى حضور مولانا جلال الدين (قدس الله سره) المعنوى فى قونية . وفى ١٧ حزيران التقى فى بايبورت البادشاه مع الصدر الأعظم . وفى طريق إستانبول – بايبورت أمر السلطان مراد بإعدام وزير (مارشال) و٣ بكلربك (فريق) ، سنجق بك (أمير لواء) قضاة قونية ، قيصرى ، ازمير ، قره أغاج وكثيرين من موظفى الدولة الأصغر رتبة وعدد كبير من الشعب الذين يهددون الناس . ظل ٩ أيام فى أرضروم وتحرك فى ١١ تموز . ترك ٥٠٠٠٠ جندى فى أرضروم . ولتسهيل إمداد المؤن تحرك مع ٢٠٠٠٠٠ جندى و ١٣٠ مدفعا ثقيلا فقط روضة الأبرار ، ٥٨٥ – ٦) . وفى الاستعراض الذى نظمه خارج أرضروم ، أثبت وجود ضبط ونظام لامثيل لهما فى الجيش الهمايونى . يسجل ذلك كاتب جلبى عالم عصره الكبير الموجود آنذاك فى الجيش

فى الـ ٢٥ من عمره ، فيقول إنه لم يجتمع – فى أى وقت من الأوقات – جيش ضخم كهذا .

بدأت محاصرة روان فى ٢٧ تموز . كان يدافع عن القلعة طهمسب قولوخان ابن أمير كونة خان بكلربك الإيالة . وعندما علم بأن الهدف هو روان أدخل الشاه فى آخر لحظة إلى القلعة ١٢٠٠٠ من المشاة حاملى بندقية ، وعزز دفاعه . ورغم وجود الجيش الإيرانى الإمبراطورى بقيادة رستم خان فى مكان قريب لم يفكر فى حرب ميدانية مع العثمانيين . استسلمت روان بعد ١١ يوما (١٦٣٥/٨/٨) . وهكذا استرجعت القلعة التى بقيت لدى العثمانية خلال ١٥٨٣ – ١٦٠٤ بعد ٣١ سنة و شهرين . ولد فتح روان التى لم يقدر القانونى على فتحها فى وقت قصير كهذا صدى كبيراً . أقام شيخ الإسلام يحيى أفندى صلاة الجمعة فى ١٠ آب . تعقب السلطان مراد الذى ظل ١٢ يوما الجيش الصفوى وواصل النزول إلى الجنوب الشرقى على امتداد نهر آراس ؛ لكنه لم يتمكن من التوصل إلى العدو . لم يسر الصفويون دخول الجيش العثمانى إلى روان بنظام لامثيل له ودون سفك قطرة دم بل بالعكس ، أصابتهم الدهشة . وأثناء اقتراب البادشاه إلى مدينة بيازيد رأى غرابا على مئذنة الجامع مضى بحصانة المسمى « نوكاى الجيسى » مسرعا ومن مسافة مرمى السهم ، رمى الجريدة وأصاب الغراب . وضع نصبا تذكاريا من المرمر فى مكان سقوط الغراب كتب عليه السلطان مراد الذى دخل خوى فى ١ أيلول دخل تبريز فى ١١ أيلول . هذا هو سادس فتح لتبريز على يد العثمانية . ويدون المؤرخون أن تعداد هذه المدينة كان فى ذلك الحين ٥٥٠٠٠٠ نسمة (Chardin ، ٢ ، ٣٢٨) بينما كانت مدينتان فقط من مدن المسيحيين هما لندن وباريس يبلغ تعدادهما هذا الرقم .

انتقلت تبريز مرة أخرى من العثمانيين إلى الصفويين قبل مايقارب ٣٢ سنة . ظل البادشاه ٤ أيام ثم تحرك . ولمرضه عدل عن خطة ذهابه إلى أصفهان . مكث فى دياربكر وقدم الكثيرين من موظفى الدولة والمشبوهين فى كسبهم إلى الجلاد . عاد إلى إستانبول بعد ٩ أشهر بالضبط . كانت سنه ٢٣/٥ عاما . وفور انسحاب العثمانيين جاء الصفويون إلى روان وعلى رأسهم الشاه صافى . وبعد حصار دام ٣ أشهر و ٧ أيام فى وسط الشتاء واستشهاد الوزير مرتضى باشا استسلمت روان . استمر الحكم العثمانى فى هذه المرة ٧ أشهر و٢٤ يوما . واسترجع الصفويون تبريز

والقسم الأكبر من أذربيجان . ثم نزل الشاه إلى الجنوب . وفى معركة مهران الميدانية (١٦٣٦/٩/٢) قاوم الوزير كوجوك أحمد باشا بكلربك الشام ، رغم مرضه ، لكنه غلب واستشهد . أعاد الشاه - الذى أعجب ببطولة هذا الباشا - جسده إلى العثمانيين . عاد الصدر الأعظم والسردار الأكرم طابانى ياصى محمد باشا الذى كان قد ذهب خلال الشتاء من دياربكر إلى قارص ولم يتمكن من إمداد الجيش فى كلا المنطقتين . غضب عليه مراد الثالث وعزله ، لم يعدمه على خلاف عادته نظرا لخدماته الكثيرة وعينه بكلربك على بودين .

٤٩) الحملة الهمايونية الإيرانية (بغداد) الثانية (١٦٣٨/٥/٨ - ١٦٣٩/٦/١٢)

غادر السلطان مراد إستانبول لحملة إيران الثانية مستصحبا معه شيخ الإسلام الشاعر الكبير يحيى أفندى الذى كان يكن له محبة كبيرة ويدعوه « بابا » البالغ سنه ٨٥/٥ سنة . طريق بغداد - إستانبول وهو مقسم إلى ١١٠ منازل وقد أنشئ فى كل منزل ، مراكز لتموين الجيش . وفى ١٧ حزيران صعد الخاقان إلى حضور مولانا جلال الدين المعنوى فى قونية . ووصل فى ٢٢ تموز حلب التى هى نصف مسافة طريق إستانبول - بغداد تماما . التقى فى بيرة جك مع جيش الصدر الأعظم داماد بايرام باشا . لكن بايرام باشا توفى قرب أورفة فى ٢٦ آب . صار طيار محمد باشا صدراً أعظم . جاء الخاقان الذى بقى ١٠ أيام فى دياربكر إلى الموصل فى ٧ ت١ وافق على دخول رسل تيمور أوغلو شاه جهان إلى حضرته . قطع طريق إستانبول - بغداد خلال ٥ أشهر و ٨ أيام وشرع فى محاصرة بغداد فور وصوله ليلة ١٥ ت ٢ .

كانت فى المدينة حامية قوية جدا مؤلفة من ٤٠٠٠٠ جندى تحت قيادة بكتاش خان تركمن . كان الشاه صافى فى قصر شيرين مع جيشه السيار ، تابع الحصار العثمانى يوما بيوم ، لكنه كان لايستطيع الاقتراب من الجيش العثمانى . ورغم دخول السلطان مع ١٢٠٠٠ سباهى داخل إيران وسحقه منطقة شهربان لم يستطع إجبار الشاه على الدخول فى معركة ميدانية . كان الشاه يعتمد على جيشه المرابط فى بغداد وعلى أبراج قلعته الـ ١٢ ومئآت مدافعه . كان يؤمل انسحاب السطان مراد بعد

أن ييئس من الحصار . ولما وصلت المدافع الثقيلة إلى العثمانيين عن طريق دجلة اشتد الحصار . نصبت خيام الجرحى حول سرادق البادشاه . كان السلطان مراد يزور الخيام كل يوم ويقدم لكل غاز ٥٠ آقجة . كان شيخ الإسلام فى المقدمة وفى أسفل السور يقوم بتشجيع الغزاة . بدأ قتال شديد بين كلا الجيشين التركيين . كان أحد الأطراف ينادى « شاه » والطرف الآخر ينادى « بادشاه » . وفى ٢٣ ك ١ استشهد طيار محمد باشا برصاصة أصابته فى جبينه ، وكان أبوه أوجار مصطفى باشا قد استشهد أيضا برصاصة صفوية فى بغداد سابقا .

طيار محمد باشا هو رابع صدر أعظم يسقط شهيدا فى ساحة الحرب فى التاريخ العثمانى . لكنه كان قد استولى على عدة أبراج . وقبل مضى ٤٨ ساعة استسلمت بغداد (١٦٣٨/١٢/٢٤) . دام الحصار ٣٩ يوما . خلال هذه المدة استشهد ٥٠٠٠ جندى عثمانى وجرح مايقارب ١٠٠٠٠ . وقتل مايقارب ١٠٠٠٠ جندى صفوى . تم تخليص المدينة التى بقيت تحت الاحتلال الصفوى ١٤ سنة و ١١ شهراً ، ١٣ يوما . بقيت بغداد فى الإدارة العثمانية بعد فتح القانونى لها مدة ٨٩ سنة و شهرا و ٤ أيام . أما بعد أن فتحها مراد الرابع فقد ظلت ٢٧٨ سنة ، ٣ أشهر ، ويومين فى الإدارة العثمانية . مجموع المدتين ٣٦٧ سنة و ٣ أشهر و ٦ أيام . بعد فتح بغداد صار يدعى السلطان مراد باسم « فاتح بغداد » .

أمكن استعادة بغداد بعد أدمى وأكبر حروب تركية – إيرانية استمرت ١٥ عاما . قدم الطرفان خسائر كبيرة . استشهد فى هذا السبيل الكثيرون من ذوى الرتب العالية آلاى بك ، سنجق بك ، بكلربك بمن فيهم الوزراء وصدرور أعظم عثمانيون . يكفى أن نتذكر أن رئيس الكتاب (وزير الخارجية) إسماعيل أفندى استشهد مع طيار محمد باشا فى نفس اليوم . كان هنالك شاب أكرمه السلطان مراد شخصيا ، استشهد أبوه وعمه واثنان من أخوته وعدة أشخاص من أقربائه فى هذه الحرب . كانت حربا وحشية إلى حد بعيد . ومما زاد فى وحشية الحرب إصرار ٢٠٠٠٠ جندى صفوى بقوا فى القلعة الداخلية – على المقاومة ، وقد قتل جميعهم عدا ٣٠٠ بالسيوف . وقع عدة خانات للصفويين (بكلربك) وكثير من سلاطين (سنجق بك) أسرى بيد العثمانيين وسيقوا إلى إستانبول . ولم تنته الفاجعة عند هذا الحد . قام قسم من الأهالى الشيعة بتفجير مخزن البارود ، وتسبب ذلك فى قتل

٨٠٠ جندى عثمانى . تم سجن وقتل ١٤٠٠ شيعى . أرسل أهالى المدينة الشيعة كلهم إلى أماكن مختلفة فى وسط العراق وأسكنوا هناك . منع لمدة طويلة إقامة غير أهل السنة فى المدينة . آلاف الأجساد تكدست فى شوارع المدينة ، ثم ألقى بهم فى نهر دجلة لعدم إمكان دفنهم . ولكون الموسم شتاء لم تحدث أمراض . جيء بعشرات الألوف من الأتراك من الأناضول وأسكنوا بغداد وضواحيها . إن الذين لايزالون يتكلمون اللغة التركية فى خانقين،بعقوبة،مندلى هم من نسل هؤلاء ، أما الذين فى بغداد فإنهم نسوا التركية فى النصف الأخير من القرن . إن مجرد قراءة الفذلكة لكتاب جلبى أكبر علماء عصره الذى اشترك فى الفتح والحصار تكفى لمعرفة مبلغ شدة هذه الحروب الدموية .

وأثناء ذهاب السلطان مراد ، لم يعرج على الأعظمية قائلا « ليسل لدى اللياقة للصعود إلى حضور الإمام الأعظم ! » ولكنه زاره عند عودته . تم إصلاح وبناء قبر أبى حنيفة ووضعت فيه حاجيات ثمينة جدا . عين كوجوك حسين باشا بكلربك (أمير الأمراء) لبغداد ووضع تحت إمرته ١٢٠٠٠ جندى ؛ ٨٠٠٠ منهم إنكشارية . وعندما شاهد الخاقان خلال عودته عدم كفاية هذه الحامية أرسل وحدات جديدة إلى المدينة ، تم إصلاح كافة الأسوار والقلعة ، وجددت المدافع . أصبحت المدينة فى وضع لايمكن الصفويين من اقتحامها . مكث البادشاه فى بلدة الخلفاء ٢١ يوما وتحرك يوم ١٤ ك٢ (١٦٣٩) . صلى الجمعة فى الأعظمية . أبقى الصدر الأعظم والسردار الأكرم قرة مصطفى باشا فى بغداد ، لإجراء مفاوضات الصلح . وفى ١٨ ك٢ ، علمت إستانبول خبر فتح بغداد ، كان اليوم ١٣ رمضان . قام شعب إستانبول الذى لاتفوته م'ل هذه الفرص خاصة وأنه ضاق كثيرا بإجراءات الإدارة العرفية للسلطان مراد التى لم يشاهد مثلها حتى ذلك التاريخ – بترتيب الأفراح ورفهوا عن أنفسهم مدة ٢٠ يوما حتى العيد بحجة الاحتفال بفتح بغداد .

تحرك البادشاه والجيش من الأعظمية فى ١٧ ك٢ ، ومن الموصل فى ٢٨ ك ٢ . أراد السلطان مراد أن يقضى الشتاء فى دياربكر ويحمل فى السنة القادمة على أصفهان ، إلا أن المرض اشتد عليه وأصابه ألم شديد . ويعتقد أنه كان يشكو من مرض « دمله » (بالفرنسية : Goutte) وسيروز (تشمع الكبد) . المرض الأول وراثى لدى بنى عثمان . اضطر إلى مغادرة الموصل والتوجه إلى دياربكر خلال ٨

أيام . بقى هناك طريح الفراش مدة ٧٠ يوما . وهو على الفراش كان يصدر أوامره ويرسل أفراد الصاعقة إلى إيران ، كما أملى تعليمات شروط الصلح وعالج أمور الدولة الأخرى والتعيينات . تحرك قرة مصطفى باشا نحو إيران فى ٢٣ آذار بعد أن ترك فى بغداد ٢٠٠٠٠ جندى . وأثناء تقدمه نحو الشمال الشرقى فى قزلرباط جاء رسل الشاه وطلبوا الصلح . قال الصدر الأعظم ، إن لديه تعليمات بالدخول إلى أصفهان فى حالة عدم عقد الصلح فورا . ومن الناحية الأخرى تحسنت صحة السلطان مراد نسبيا وتمكن من المجيء من دياربكر إلى أنقرة خلال ٣٤ يوما (١٦٣٩/٥/٢٠) . وكان يرافق ركب القادمين مع البادشاه إلى إستانبول ٢٢ بكلربك صفوى يحملون لقب « خان » فى إيران ، مئات - أكثرهم تقريبا من أصل تركى - من رجال الصفويين فيهم علماء ، فنانون ، موسيقيون . كان شيخ الإسلام يحيى أفندى البالغ سنه ٨٦/٥ الذى يرافق البادشاه ، - أبوه زكريا أفندى صار شيخ الإسلام كذلك - ينتسب إلى إحدى عائلات أنقرة ، الشهيرة استضاف البادشاه فى داره الواسعة داخل مزرعة كروم الكائنة فى أنقرة والتى ورثها عن أبيه . والطباخ الذى أعجب السلطان بأكلته المشهورة « أورمان كباب » عاش حتى عام ١٦٩٤ وافتخر بهذه الحادثة أكثر من نصف قرن (نعيما ، ٣ ، ٤١ ، ٤١٩) .

وقبل أن يستقبل شعب أنقرة بكامله السلطان مراد خارج المدينة وقع الصدر الأعظم مع إيران على معاهدة قصر شيرين (١٦٣٩/٥/١٧) . قصر شيرين التى عقدت فيه المعاهدة يقع على الجنوب - الشرق من كركوك ، على الحدود العراقية - الإيرانية ، وقع المعاهدة صارى خان توركمن نيابة عن الشاه ، ثم تبودلت وصدق عليها الشاه والبادشاه . وهكذا انتهت الحرب التركية - الإيرانية التى استمرت ١٥ سنة و ٤ أشهر و ٧ أيام . المعاهدة التى وقع عليها على أساس بقاء الوضع على ماهو عليه تحدد تقريبا الحدود التركية - الإيرانية والتركية - العراقية الحالية . حتى إنها تحدد حدود تركية - جمهورية أرمنستان السوفيتية كذلك . وبعد ذلك وبين الحين والآخر قدم العثمانيون هذه الحدود داخل الأراضى الإيرانية نحو أقصى الشرق ، ولكن فى النهاية ظلت حدود معاهدة قصر شيرين معتبرة حتى هذا اليوم . كان الشاه يخشى من استيلاء عثمانى ولذلك فقد صدق على المعاهدة بعد ٣ أيام من التوقيع عليها .

عاد السلطان مراد إلى إستانبول يوم ١٢ حزيران ١٦٣٩ من هذه الحملة الهمايونية

التى استغرقت سنة و شهرا و ٤ أيام . سحب السلطان من الأسطول الهمايونى فى أزميت ٥٨ قادرغة (قطعة بحرية) أرسلت إلى إستانبول . جرت مراسم إستقبال عظيمة . أعلنت الأفراح فى كافة الإمبراطورية مدة أسبوع . عاش السلطان مدة ٨ أشهر و ٢٦ يوما بعد عودته إلى إستانبول . وفى هذه المرة صرف النظر عن الحملة التى كان يريد توجيهها إلى أوروبا . أمر بإنشاء كشك روان الظريف لإحياء ذكرى حملة روان . ثم أمر المعمار قاسم أغا بإنشاء كشك بغداد الذى يعتبر من بدائع الهندسة المعمارية التركية فى ١٦٤٠/١/٥ ، أى قبل وفاة البادشاه بـ ٣٤ يوما ؛ ولقى من السلطان مراد تقديرا وبقى تأثير هذا التقدير ساريا بعد سنين طويلة من وفاة السلطان مراد ، لم يبدل خلفه وأخاه السلطان إبراهيم ، هذا الصدر الأعظم .

٥٠) وفاة السلطان مراد خان الرابع (١٦٤٠/٢/٨) وشخصيته

مراد خان الذى أصبح طريح الفراش فى اليوم الثانى من عيد الأضحى توفى بعد أسبوعين فى ٨ شباط ١٦٤٠ الساعة ٢٠ . كانت سنه قد تجاوزت الـ ٢٧ عاما بـ ٦ أشهر و ١٢ يوما . أغمض عينيه فى غرفة منام أخيه من أمه وأبيه أولو شهزاده – سلطان قاسم . دامت سلطنته ١٦ سنة و ٤ أشهر و ٢٨ يوما ، وكان قبلها ولى عهد لمدة سنتين و ٧ أشهر ، ٢٩ يوما . أطلق عليه « فاتح بغداد ، غازى ، صاحب قران » . مولوى ، شاعر ، خطاط ، ملحن كبير . كان مرتبطا معنويا بالشيخ عزيز محمود خدائى أفندى . ظل ٩ سنوات تحت نيابة والدته وهى سنين الفوضى ، ومارس السلطنة شخصيا مايقارب ٨ سنوات . كان شيخه فى المولوية أبا بكر جلبى (١٥٥٨ – ١٦٤٢ ، مشيخته ١٦٣١ – ٤٢) . مجموع مدة حملتيه الهمايونيتين ١ سنة و ١١ شهراً و ٣ أيام . وعدا ذلك فله سفرات سياحية إلى أدرنة ، بورصة أزميت . فى أوروبا لم يتعد أكثر من أدرنة . مستشاروه السريون كوجى بك وروزنامه جى إبراهيم أفندى . سكن مدة طويلة فى سراى إسكدار . ولد له ١١ أبنا و٤ بنات توفوا فى المهد وأكثرهم بعد الولادة مباشرة . بناته الآتية أسماؤهن ، وصلن سن الزواج : السلطانة رقية التى تزوجت مرتين (١٦٤٠ –ك١٦٩٠/٢) ، السلطانة قايا أسمهان التى تزوجت الصدر الأعظم

غازى ملك أحمد باشا (١٦٣٣ - ١٦٥٩/٢/٢٨) السلطانة خان - زاده (١٦٣١ - بعد ١٦٧٥) ، السلطانة كوهر - خان (الولادة شباط ١٦٣٠) والسلطانة صفية التى استمر نسلها حتى هذا الوقت . وبناء على ذلك فإن السلالة العثمانية استمرت إلى زمننا هذا من السلطان إبراهيم أصغر أبناء السلطان أحمد المقتدرين .

ومراد الرابع هو أكبر مستبد فى تاريخ تركية كلها . وفى الحقيقة فإن استبداده استمر ٨ سنوات . لكن اسمه حفظ النظام وأرجف القلوب لمدة طويلة حتى بعد موته . جلس على العرش كسلطان والدولة فى حالة فوضى ، لم يشهد التاريخ العثمانى مثيلا له.تعرض للاغتيالات وهو فى سن الطفولة . كان طفلا تربى على يد أم لاتتردد فى عمل أى شىء فى سبيل السياسة والسلطة . كانت تلك الأم أداة شر بيد جنرالات العصبة الذين يطلق عليهم اسم تشكيلات الأغوات (أوجاق أغالرى) وكانت تتقاسم مصالح الدولة معهم بشكل غير مشروع . مات فى سن مبكرة من الشباب تاركا سلطة قوية مستقرة للدولة ، ونظاما وطاعة فى الجيش لم يشاهد مثلها منذ عهد القانونى ، شهرة واسما كبيرين على سطح الكرة الأرضية .

تأثر الشعب كثيرا لوفاة السلطان مراد - الذى يقال إنه لتأمين النظام فى الدولة أمر بقتل ٢٠٠٠٠ شخص خلال فترة مابين ٧ - ٨ سنين . جرت لمراد الرابع مراسم تشييع الجثمان على الطراز الذى كان يجـرى لخاقانات الأتراك قبل الإسلام بشكل لايكاد ينسجم مع الأعراف الإسلامية . وضعت السروج على العكس على ٣ من خيله التى ركبها فى غزواته ، وسيرت أمام الجثمان . وفى تشييع جثمان السلاطين الذين تلوه تركت هذه العادة القديمة . دفن السلطان مراد فى رواق جامع السلطان أحمد فى القبر المتواضع جنب أبيه أحمد الأول وأخيه الكبير عثمان الثانى . لأن العرف العثمانى على عكس الدول الأخرى ينظر إلى صنع القبور الفخمة على أنها خطيئة . إن مراد الرابع أكبر سلاطين العثمانية خلال ٢٤٢ سنة من وفاة السلطان سليمان القانونى (١٥٦٦) حتى جلوس محمود الثانى (١٨٠٨) وبالنسبة إلى هامر ، أطال حياة الدولة وعظمتها مدة نصف قرن ، ولو لم يأت هو لما بدأ الانحطاط فى ١٦٨٣ ، ولبدأ قبل نصف قرن . « كان رجلا جميلا حسن المنظر . كان أمهر وأقدر محارب فى إمبراطوريته . كان طويل القامة متناسب البدن . تنبع من وجهه آثار العظمة

والمهابة . وكانت له عينان زرقاوتان لماعتان ذواتا تأثير » (Abrégé des Vies des Empereurs Turcs ، أمستردام ، ١٦٦٥ ، ص ١٨٨). » داهية مثقف ، لكنه ظالم جدا (M.d'Ohsson ، ١ ، ٤١٢) .

إن نعيما الذى حرر تاريخ هذه الفترة يخصص ١/٥ مجلد من مصنفه المكون من ٦ مجلدات للسلطان مراد (٢ ، ٢٦٣ - ٤٥١ ؛ ٣ ، ٢ - ٤٣٥) . ويسرد مايلى : من ناحية الصفة والقدرة يشبه السلطان ياووز سليم جده فى البطن السادس . أجرى مثله حملتين فى أسيا . لكنه عند جلوسه لم يجد نظام الدولة الذى وجده ياووز عند جلوسه . كان الجيش يفتقد الضبط ، والنظام مختل ، والمالية فى حالة يرثى لها . جلس على العرش وهو طفل ولم يجلس فى سن الكمال كما جلس ياووز (فى سن ٤٢) . كان فى الوقت الذى يثقف فيه علميا يتعلم كيفية إدارة الدولة . لذلك لم يقدر له أن يكون جهانكير (فاتح عالمى) . لكنه أحرز توفيقا كبيراً فى المجالات العسكرية وإدارة الدولة . كان قائدا عظيما . أبدى صلابة إلى حد الظلم . لكنه لم يكن يبالى بقول الحق ، كان يستفيد من الآراء القيمة . ويمكن إيراد أمثلة كثيرة فى هذا المجال . ولو عاش لكان أهلا لتحقيق نجاحات أعظم ، لأنه كان قد أسس سلطة تمكنه من تحقيق ماينطق به أو مايفكر فيه . كان يميل جدا إلى الهزل ، النكتة ، الطرب ومع الأسف إلى السفاهة ، لم تكن مثل هذه النقائص ، لدى جده ياووز . لم يكن رجال الدولة المحيطون به ذوى قيمة بدرجة رجال الماضى . ولو كان رجال الدولة القدامى على عهده لكان من المحتمل أن يسبق كافة سلاطين العثمانية الذين أتوا قبله . هذه هى خلاصة آراء المؤرخ العثمانى الكلاسيكى الذى عالج هذا الدور بشكل موسع جدا .

فتن الجيش ، دهاؤه ، ذكاؤه المفرط ، بعده تماما عن الشعور بالخوف ، احتماله جميع أنواع المشقات ، ولادته وهو عسكرى . ملأ الخزينة التى وجدها فارغة تمام الفراغ حتى نهايتها وسلمها إلى خلفه على هذا الوضع . إن السهم الذى يسحب قوسه يقع أبعد من مرمى البندقية ، ولاتوجد مادة لايمكن ثقبها بالجريدة التى يرميها (هامر ، ٩ ، ٣٨٥) . كان باستطاعته رفع الكرز (كرة حديدية تزن ٢٠٠ أقة . كان يستعمل كافة الأسلحة بنفس الدرجة من المهارة . تعلم رمى السهام سنين طويلة عن رماة عصره الكبار حسام - زاده عبد الرحمن أفندى وحاجى سليمان أغا

وصارى صولاق أغا (أولياء جلبى ، ١ ، ٢٥٧) . تعلم الفروسية على يد أمير آخور جندى خليل باشا (بجوى ، ٢ ، ٤٤٢) وصار أمهر فرسان جيشه . كان ترسه من جلد الكركدان الذى جلبه ظريف بك سفير شاه جهان من بادشاه الهند على أساس أنه « لاتمضى فيه الرصاصة ولا السيف » ، ثقبه أمام أعين السفير ثقبين الأول بالحربة والثانى بالسهم . حفظ الترس للذكرى بين الحاجيات الأثرية (نعيما ، ٣ ، ٣٣٨) . إن الجريدة التى رماها من السراى القديم (البناء المركزى لجامعة إستانبول) ، أصابت هدفا موضوعا فى أسفل مئذنة جامع بيازيد . والرمح الذى رماه من قلعة حلب أصاب الهدف الموضوع فى ميدان سراجخانة فى المدينة ، وفى أوق ميدانى أصاب هدفا على بعد ١٠٧٠/٥ ذراع وحصل على رقم قياسى وشيد نصبا تذكاريا فى محل سقوط السهم (أولياء ، ١ ، ٢٥٧ ؛ كانى ، تلخيص رسائل الرماة) . الـ ١٢ ترسا التى ثقبها بالجريدة علقت للذكرى على باب بج (فينا) لبودابست ، والـ ١٢ درعا التى ثقبها بالسهم علقت على قلعة القاهرة (تاريخ غلمانى ، ١٧) . كان يحب الخيل إلى درجة مرضية . كانت الخيول المسماة « طيار » ، داغلر دليسى ، جلالى ياغيزى ، نوكاى الجيسى وخاصة آغا آلاجاسى .. خيولاً ليس لها مثيل على وجه الأرض (بجوى ، ٢ ، ٤٤٢) .

خلف نظاما واستقراراً فى الداخل،دولة تهاب شوكتها كل الدول ، وجيشا جعله أكبر قوة ضاربة فى العالم ، ومالية منتظمة . أصلح أجهزة المخابرات الموجودة فى أوروبا مجددا وجعلها كما كانت عليه فى عهد القانونى . وعند وفاته كانت خزينة البادشاه تحتوى على ١٥ مليون سكة ذهبية ، ونفس القدر من الدراهم الفضية التى تسمى (آقجة) والماس المنقطع النظير (Sagredo ، ٤ ، ٤٢١) . وعلى أيامه خاصة أمر بإجراء غارات مهمة على أوروبا ودرأ الخطر القادم من تلك الجهة . اجتاح جيش الصاعقة شبه جزيرة Stirya بكاملها واجتازوا النمسا ودخلوا بافيرا وحرقوا عاصمتها ريجنسبورغ (Ratisbon) . لم تحدث غارة كهذه منذ عهد القانونى . وينبغى ألا ننسى أن ريجنسبورغ تقع على بعد ٣٢٠ كم (مسافة مستقيمة) على الشمال – الغربى من فينا . وبالنسبة إلى Sagredo (١١ ، ١٣٨)،قرأ ماكيافلى واستلهم عنه . باليوز (سفير) البندقية الذى قابله وهو لايتجاوز الـ ١٧ عاما خشى من ذكائه وصلابته ، وأخبر مجلس الأعيان الجمهورى بأنه على وشك تحقيق أعمال

كبيرة (هامر ، ٩ ، ١٠٢ ؛ بجوى ، ٢ ، ٣٩٩ ؛ أولياء جلبى ، ١ ، ٢٢٢) . كان تأثيره كبيرا فى أوروبا ، رغم أنه لم يجر أية معركة مهمة . الأناضول مليئة بذكرياته . كان قد شيد فى الجنوب الشرق من الأناضول الخانات (المنازل) ومحطات الاستراحة الكبيرة ، وطرقا وجسورا كبيرة . وأحد روافد الفرات لايزال يحمل اسمه .

٥١) عهد السلطان إبراهيم (١٦٤٠ - ١٦٤٨)

جلس السلطان إبراهيم على عرش أخيه ، وكان الوحيد من بنى عثمان الذين بقوا على قيد الحياة ، ولم يسبق للسلالة أن تكون فى وضع كهذا فى أى وقت . ولو مات السلطان لانقطع النسل من جهة الرجال . مرت الأشهر الأولى للسلطان الجديد وهو فى هذا الوضع المقلق . كان الأمر يقتضى للعرش ورثة جددا .

كان سن إبراهيم خان عند وفاة أبيه السلطان أحمد سنتين . قضى فترة إمارته (شهزاده) طيلة عهد أخويه المخيفين عثمان الثانى ومراد الرابع فى أحد شقق سراى طوب قابو . شاهد إعدام إخوته الكبار الأربعة الآخرين الذين كانوا كالأبطال والذين آخرهم الأمير قاسم المولود معه من نفس الأم بأمر أخويه السالف ذكرهما . وبالسلطان إبراهيم يجلس أول شخص على العرش دون أن يكمل تحصيله العلمى أو العسكرى ، جلس وهو يفتقر إلى كل هذا . وعلاوة على ذلك كان قد أمرضه الخوف المستمر من الجلادين ، ويعتقد أنه مصاب بالشقيقة . وبسبب ذلك كان عصبيا ومضطربا لايقر على شيء . عند جلوسه حاول أن يقلد أخاه الكبير مراد الرابع ويسير على نهجه . ولكن لم تكن له صفات أخيه .. عين للرئاسة قرة مصطفى باشا ، وعندما شاهد هذا ضعف السلطان بعد قوة السلطان مراد ؛ زاد استبداده . كانت كوسم مهبيكر السلطانة - الوالدة هى والدة السلطان إبراهيم كما كانت والدة السلطان مراد الرابع . حافظت على عرش السلطانة - الوالدة (مقام السلطانة - الوالدة يأتى بعد الخاقان ، وفى البروتوكول العثمانى يعتبر المقام الثانى ، إن مكانها هذا ، لم يتبدل فى أى وقت ، ويأتى تسلسل ولى عهد - أمير بموجب البروتوكول ، الثالث بعد السلطانة - الوالدة ، إلا أنه فى حالة عدم وجود السلطانة الوالدة ، أى إذا كانت متوفاة مسبقا يكون الثانى) .

كان السلطان إبراهيم ولى عهد منذ إعدام أخيه الكبير قاسم سنتين (إلا ١٠ أيام) . أراد السلطان مراد قتل إبراهيم أيضا . لكن والدته السلطانة كوسم التى سألته عما إذا كان يريد انقراض سلالته منعته من ذلك بصعوبة . كان السلطان مراد ينتظر أن يكبر أولاده الشهزادات (الأمراء) ويصلون إلى سن معينة ، ليقتل أخاه الذى لايعيره أية أهمية ، ولكن لم يعش أى أمير من أمرائه (أولاده) . وكان السلطان إبراهيم مريضا ، ولكنه لم يكن أحمق . كان يعلم حرص أمه على السياسة . ولذا أخذت علاقته تتأزم مع والدته ، وفى النهاية اضطر إلى تهديدها بإبعادها من سراى طوب قابو ، فى حالة تدخلها فى شئون الدولة وإرسالها إلى قبرص . هذا هو وضع السلطان الذى جلس على العرش عن عمر يتجاوز الـ ٢٤ سنة بـ ٣ أشهر .

وفى ٢ك١٦٤٢/٢ ولد ولى عهد – شهزاده (أمير) محمد وبعده عدة أمراء ، وانتهى بذلك كابوس احتمال انقراض السلالة العثمانية الذى استمر سنتين . إن وحدة وقدرة الإمبراطورية تستند على بنى عثمان . والكل يعلم دون تردد ، بأنه فى حالة عدم وجود بنى عثمان فإنها تنقسم وتتفرق . أبعد السلطان إبراهيم ندماء أخيه الكبير الذين سببوا انحرافه إلى حياة اللهو . لكنه انخرط هو بالتدريج فى نفس تلك الحياة . أفسدت أخلاقه المداواة التى جرت له لكى يحصل على ابن ، وتقديم جاريات عديدات . كانت الكتابات التى صدرت بشأنه عبارة عن مبالغات من تلفيقات المؤرخين الذين لايلتزمون ، وأكثر ماكتبوه بعيد عن الحقيقة . لم يكن لمرضه علاقة بالجنون أبدا . أما عهده الذى استمر ٨ سنوات فقد سمى بـ « صامور دورى » ، وصامور نوع من الفرواى « دور الفرو » وهذا التعبير كناية عن الفخفخة ، واللهو والسفاهة .

عين الوزير سميز محمد باشا قائدا عاما (١٦٤٢/٢/٣) وأرسل لاسترداد آزاك (Rostov) التى انتقلت ليد الروس فى ١٦٣٧/٧/٥ محمد باشا كان كبير السن نوعاً ما . هدم الروس القلعة وانسحبوا . شيد الباشا القلعة مجددا . فى صيف ١٦٤١ جرت غارة جديدة وكبيرة على Bavyera (هامر ، ١٠ ، ١٠) . وفى صيف عام ١٦٤٢ أحرق قبطان دريا (مشير البحر – أكبر رتبة بحرية) كوجوك بيالة باشا ، سواحل كالابريا Kalabriya الإيطالية التابعة لإسبانيا (هامر ، ١٠/٣٣) . وفى ١٦٤٢/٥/١٤ توفى الشاه صافى الأول بعد سلطنة دامت ١٤ سنة و٣ أشهر و ١٨

يوما كثالث حاكم ذى قدرة فى العالم بعد بنى عثمان وبنى تيمور . وجلس بعد الشاه الصفوى الـ ٧ لمدة ٢٥ سنة ابنه البالغ ٩ سنين الشاه عباس الثانى . إن دور التوقف الذى بدأ بالشاه صافى الذى توفى فى سن ٣٤ ، وظهر بشكل واضح فى دور الشاه عباس الذى يكتب الشعر بالتركية والفارسية سبب تحول السياسة العثمانية نحو أوروبا .

أعدم كانكش قره مصطفى باشا بالذى استمرت صدارته فى عهد السلطانين ، مدة ٥ سنوات و شهرا و ٨ أيام ولم تطل صدارة أى شخص منذ وفاة صوقوللو عام ١٥٨٩ كما طالت صدارته (١٦٤٤/١/٣١) . وأعطى السلطان قليل التجربة السلطة لوزراء لاقيمة لهم . وفى البداية صار محمد باشا الذى يسمى « سلطان - زاده ، جوان قابوجى باشى ، سمين » صدرا أعظم ، وهذا ابن بنت بنت سليمان القانونى . كان شديد التملق . وهو أحد الذين رغبوا إليه حياة السفاهة . وبوفاة شيخ الإسلام يحيى أفندى بعد سقوط قره مصطفى باشا بـ ٢٧ يوما (١٦٤٤/٢/٢٧) فقدت الدولة عنصرا آخر من عناصر التوازن الكبيرة . وأخذ يشغل فى بعض الأوقات مقام المشيخة (الوظيفة المهمة الثانية للدولة) أشخاص غير لائقين . كان يحيى أفندى عند وفاته فى سن ٩١ عاما وشهر ، شغل مقام المشيخة ٣ مرات لمدة ١٨ سنة ، وشهرين و ٢٤ يوما (وهو الخامس بين كافة شيوخ الإسلام فى طول مدة بقائه فى الوظيفة) . كان رجل دولة مثقفا سمحا ، مفرط الذكاء . من أكبر شعراء الغزل فى الشعر التركى . مئات الألوف اشتركوا فى تشييع جثمانه . أقيمت صلاته فى مسجد فاتح بزحام كبير ملأ الشوارع .

وفى ١٦٤٥ ، أرسل Aleksiy الأول من عائلة رومانوف ، البالغ سنه ١٥ عاما إلى السلطان هدايا بالغة القيمة ، وأبلغه أنه جلس على العرش بلقب القيصر الثانى . هنأه البادشاه قائلا: بأنه يعترف به على أساس أنه « ملك موسكو » Mosku وأخطره فى الكتاب الهمايونى « أرسلوا الضرائب التى كانت ترسل فى القديم إلى خان قرم كالمعتاد وفى موعدها » وتحرك جيش قرمى ووصل إلى مكان قريب من جنوب روسيا ، لإخطار القيصر الجديد (هامر ، ١٠ ، ١٣٠) .

عزل سمين أحمد باشا ، ذليلاً بعد سنة و ١٠ أشهر و ١٧ يوما (١٦٤٥/١٢/١٧) . وصار الباش دفتردار (وزير المالية) صالح باشا ، صدراً

أعظم . وبعد بقائه فى وظيفته مدة سنة و ٩ أشهر أعدم (١٦٤٧/٩/١٦) . صار صدراً أعظم لمدة ٥ أيام فقط ، الوزير موسى باشا من مارشالية البحر السابقين ثم عين مكانه هزار بارة أحمد باشا الذى صار وزيرا ثانيا قبل ٥ أيام (١٦٤٧/٩/٢١) . وهو شاب ، مُراء ، متملق .

٥٢) حربا البندقية وكريت (١٦٤٥ - ١٦٤٨)

إنه مما يدعو إلى الدهشة أن ترضى دولة عالمية ، لها أسطول دائم فى المحيط الأطلسى الذى يمتد إلى إندونيسيا بأن تكون جزيرة كريت التى تقع فى متناول يدها لدى دولة مثل البندقية ، تبلغ مساحة كريت قدر قبرص ، لكنها جبلية أكثر منها بكثير ، مما يجعلها ملائمة جدا للدفاع ، معظم سكانها يتجمعون فى القسم الشمالى منها . الجزر تعزل بحر (إيجة) عن البحر الأبيض ، ومن الجنوب تسد بحر جزر الأرخبيل . تقترب حافتها الشمالية - الشرقية من الأناضول بمسافة ١٨٠ كم تقريبا . وتبعد عن مورا ٩٥ كم . فتحها المسلمون العرب وأسسوا فيها إمارة عربية دامت ١/٥ قرن ، وفى عام ٩٦١ استرجعها البيزنط من المسلمين . ولاختلاط الدم العربى ، فإن الشعب المحلى يختلف عن بقية اليونانيين . وفى ١٢٠٢ انفصلت عن البيزنط وأصبحت مستعمرة للبندقية . عامل البندقيون وهم كاثوليك إيطاليون الشعب الروم الأرثوذكس « معاملة الكلاب » . وأصبح الرهبان الأرثوذكس فى وضع لايتمكنون معه من القيام بشعائر مذهبهم ، فرضت ضرائب باهظة على الشعب ، كانت تطبق عليهم معاملة استعمارية ظالمة (Hippolyle Noiret, Documents Inédits Pour Servir à l'Histoive de la Domination Venitienne en Créte, Paris 1892, S.V, vl; Perrot, L'llede Créte . Paris 1867, S. 151)

ثار الروم فى الجزيرة ٢٠ مرة خلال الـ ١٥٠ سنة الأخيرة . كانت كل ثوراتهم تسفر عن مذابح جماعية . كانت البندقية تُبقى فى الجزيرة فى الأوقات الاعتيادية ٢٠ . . . جندى وأسطولا كافيا وتعزز قواتها هذه عندما تكون فى حالة حرب مع العثمانية . كان آيدن أوغلو عمر بك قد قصف كريت فى حملته البحرية عام ١٣٤١ .

أما أول غارة للأسطول العثمانى فكانت فى ١٤٢٧ . واعتبارا من ١٤٥٣ أخذت البندقية فى تحصين الجزيرة تجاه الخطر العثمانى ، وسعت لأن تجعل من كاندية Kandiye ، خاصة قلعة لايمكن إسقاطها . وكان بربروس خير الدين باشا قد حقق فى السنتين المتعاقبتين ١٥٣٧ و ١٥٣٨ إنزالين كبيرين على الجزيرة وقصف كاندية ، وصعد إلى سواحل Resmo ودخل Suda وخرب خانيا Hanya . وفى ١٥٦٧ نفذ إنزالاً جديداً . كان السلطان مراد عازما على حل هذه المشكلة . وعند نشوب الحرب العثمانية — البندقية الجديدة كانت كريت (بالعربية اقريتش ، باليونانية : كريتى Kriti) قد بقيت تحت الحكم البندقى مدة ٤٤١ عاما .

قرر الديوان فتح كريت على أثر استيلاء قراصنة مالطيين على سفينة تركية فى تموز عام ١٦٤٤ خارج جزيرة كارباتوس Kerpe فى طريق إستانبول – إسكندرية وبيع قسم من الغنيمة – خلافا للمعاهدات المرعية – فى ميناء خانيا فى كريت ، وتحصيل البندقية ضريبة عن هذا البيع ، وإذاعتها هذا الخبر على أوروبا . أذاعت العثمانية بأن الحملة تقصد فتح مالطة . كانت جزيرة كريت هى الأراضى الوحيدة لجمهورية البندقية فى البحار المفتوحة . ورغم تصديق البندقية هذه الرواية إلى حد ما ، أرسلت ٢٣ سفينة مليئة بالجنود والمهمات لتقوية الجزيرة .

كان السلطان إبراهيم يذهب يوميا إلى الترسخانة (ميناء صنع السفن) ويشرف على الاستعدادات . وفى ١٦٤٥/٤/١٩ أعلن بصورة رسمية بأن الحملة ستكون على مالطة ، أعطيت القيادة العليا لمشير البحر (قبطان دريا) الوزير يوسف باشا ، ووزيرين مساعدين له . تحرك يوسف باشا من إستانبول فى ٣٠ نيسان (١٦٤٥) مع ١٠٦ (قدرغة) سفينة و ٣٠٠ ناقة جنود و ٧١٠٠٠ جندى و ٥٠ مدفع حصار و ٣٠٠٠٠ فورس . مكث ٣١ يوما فى نافارين منتظرا أساطيل الجزائر ، تونس ، طرابلس الغرب . وفى ٢١ حزيران جمع الأميرالات على ظهر سفينة القائد وفتح كيس القذيفة المختوم وقرأ الخط الهمايونى للبادشاه ، عندها علم الأميرالات بأن الحملة التى كانوا يظنون أنها ستكون على مالطة ستتجه إلى كريت .

وخلال ٣ أيام وصلوا إلى كريت من نافارين وشرعوا فورا فى نثر الجنود على البر . استمر حصار خانيا ٥٥ يوما من ٢٧ حزيران إلى ٢٢ آب (١٦٤٥) . كان يحمى المدينة ٣٧٥ مدفعا (هامر ، ١٠ ، ٩٧ ، ١٠٠) . كانت الأسوار على

ـرجة من السمك بحيث يمكن لـ ٥ خيالة من المسير عليها جنبا إلى جنب بكل راحة . أما فى المنحدر الواقع خلف الأسوار فبإمكان ٢٠ خيالا المسير جنبا إلى جنب فوقها . عمق الخندق الملىء بالماء الذى يحيط بالقلعة ١٨ مترا وعرضه ٨٦ مترا . ذخائر القلعة محفوظة فى مخزن محاط بالرصاص (هامر ، ١٠ ، ١٠٠) . كان يدافع عن خانيا الجنرال نافاكيرو Navagiero .. ومع كل هذا استسلمت هذه القلعة أركب كافة البندقيين مع نسائهم وأطفالهم وحاجياتهم التى يمكنهم حملها على ظهر ٥ سفن تركية وأرسلوا إلى كاندية مخترقين الجيش التركى . ولأن الروم المحليين ، وبقية اليونانيين أجمعهم من التبعة العثمانية ؛ فقد استقبلوا الأتراك بسرور حقيقى كبير ، انتقلت كافة مدافع البندقيين ليد العثمانية . تم الاستيلاء على أهم قلعة ومدينة فى الجزيرة بعد كاندية . لكن يوسف باشا كرر الخطأ الذى وقع فيه سفنديار أوغلو فى محاصرة مالطة عام ١٥٦٥ ، فبدلا من ذهابه إلى القلعة الأولى للجزيرة أغار على القلعة الثانية . وكانت فكرته أنه فى حالة سقوط هذه القلعة تضعف القوة المعنوية لكاندية مركز الجزيرة ، وقد كان هذا حسابا خاطئا أدى إلى إطالة الحرب إلى ربع قرن .

تلقت أوروبا إنزال كريت بالدهشة . قدمت دول كثيرة مساعدات عسكرية إلى البندقية ، وأخذت المساعدات فى الازدياد كلما مضى الوقت . كان Girolamo Morosini ، ينتظر فى عرض البحر مع الأسطول البندقى مراعيا أن يكون بعيدا عن الأسطول الهمايونى ، وكان يستعد للإنزال على الجزيرة ، فى حالة انسحاب الأتراك ، وفى ٢١ ت١ ، غادر الأسطول الهمايونى كريت التى ظل فيها مدة ٤ أشهر إلا ٤ أيام . وأبقى كوجوك حسن باشا بكلربك روملى مع ١٢٠٠٠ جندى للمحافظة على خانيا ، عادت أساطيل الجزائر ، تونس ، طرابلس إلى أسسها . لم يتمكن يوسف باشا من الاستيلاء على الأسطول البندقى الذى تسانده أساطيل الحلفاء ؛ رغم تتبعه له حتى Cerigo (بالتركية جوها) ، ولو أمكن إفناء أسطول العدو لانتهت الحرب ولاستكمل فتح كريت . جاء يوسف باشا إلى إستانبول بعد شهر ١٦٤٥/١١/٢٠ . إلا أنه أعدم بعد ٦٣ يوما نتيجة المؤامرات التى دبرها رجال الدولة الذين يحسدونه (١٦٤٦/١/٢٢) .

صار الوزير الثانى حسين باشا محافظا لخانيا (١٦٤٦/٢/٢) ومن ثم قائدا أعلى على كريت (١٦٤٦/٨/١٢) وهو أكبر عسكرى فى هذا العصر من الذين كونهم

السلطان مراد الرابع . صار قائدا أعلى ، على أثر وفاة الصدر الأعظم السابق سمين محمد باشا الذى توفى نتيجة عدم تحمله ويلات الحرب فى الجزيرة . وبسبب بدء الفوضى فى إدارة الدولة فى إستانبول .

لم يعد الجيش العثمانى الموجود فى كريت يتسلم من المعونات إلا القليل . أما البندقيون فقد انهالت عليهم المساعدات من كافة أوروبا . وأصبحت كريت ساحة حرب بين شعوب أوروبا والعثمانية . فتحت Resmo المدينة الثالثة للجزيرة (١٦٤٦/١١/١٥) .

وفى السنة التالية بدأ حصار كاندية (١٦٤٧/٧/٧) . جاء المشير البحرى (قبطان دريا) فضلى باشا وحصل على إمدادات (١٦٤٧/٩/٢٨) ، وانتصر المشير البحرى الآخر عمار - زاده محمد باشا على الفينيقيين فى المعركة البحرية أيبسارا Ipsara (١٦٤٨/٣/٩) غرقت ستة وعشرون سفينة (قدرغة) ومات الأميرال الكبير Grimavy (هامر ، ١٠ ، ١٤١) لكن كاندية لم تسقط ، كما لم يتمكنوا من إزاحة الأسطول البندقى من بحر الأرخبيل ، بل إنه تجرأ على القدوم إلى مدخل مضيق جناق قلعة . أغلقت مرحلة حرب كريت التى جرت فى عهد السلطان إبراهيم . فتحت أواسط وغرب الجزيرة بإراقة دماء عثمانية غزيرة . كان القسم الشرقى لايزال بيد البندقيين .

٥٣) خلع السلطان إبراهيم (١٦٤٨/٨/٨)

بدأ أغوات التشكيلات فى التكتل ، وتشكيل عصبة مجددا ونهب الدولة حاول السلطان إبراهيم التخلص من الأغوات ، ولكنهم علموا بمقصده . حدثت ثورة . اضطر إلى عزل الصدر الأعظم هزار - بارة أحمد باشا (١٦٤٨/٨/٧) الذى مزقه العصاة إلى قطع . وصار الوزير الصوفى المولوى غير المناسب قليل العقل الظالم المسمى قوجا محمد باشا الكبير السن والمتآمر مع العصبة .. صدراً أعظم . دامت صدارة أحمد باشا ١٠ أشهر و ١٦ يوما . كانت تقف وراء الثورة السلطانة كوسم ، التى ترغب فى أن تكون نائبة السلطنة . خُلع السلطان إبراهيم ، وسقط حاكم غير قدير إلى حد كبير ، لكن وجوده كان سيمنع - على الأقل - الكثير من

سوء التصرف ، أصبحت الدولة عرضة لكل سوء تصرف وفوضى ؛ لجلوس طفل على العرش . « لم يكن السلطان إبراهيم ظالما كالسلطان مراد الرابع ولاأحمق كالسلطان مصطفى الأول . ولإظهار قدرته الجنسية أنجب أكثر من ١٠٠ ولد كالسلطان مراد الثالث . كتب المؤرخون كثيرا عن سفاهته وفضائحه ، ولم يكن هذا صحيحا تماما ؛ فسفاهته كانت مقصورة على شخصه ، أما الدولة فلم تتأثر كثيرا بذلك ، كما أن الدولة لم تتعرض على أيامه إلى أى تأثير خطر .. لكن وقوعه تحت سيطرة النساء والخليلات وحياة السفه .. أدى إلى وصف معاصريه له بالسوء » (فون هامر ، ١٠ ، ٢) .

كان عمر السلطان إبراهيم الذى قتل بعد ١٠ أيام من خلعه يتجاوز الـ ٣٢ بـ ٩ أشهر و ١٣ يوماً . دفن فى قبره الكائن فى رواق جامع أياصوفيا ، إلى جانب عمه مصطفى الأول . ٣ من أولاده جلسوا على العرش الواحد تلو الآخر ، مجموع سلطنتهم ٤٦ سنة و ٥ أشهر و ٢٩ يوما : محمد الرابع (١٦٤٢/١/٢ - ١٦٩٣/١/٦) ، سليمان الثالث (١٦٤٢/٤/١٥ - ١٦٩١/٦/٢٢) وأحمد الثانى (١٦٤٣/٢/٢٥ - ١٦٩٥/٢/٦) ابنه الآخر الشهزاده سليم توفى بأجله وعمره ٢٥/٥ سنة . وتوفى له من ناحية أخرى ٨ أبناء و٣ بنات عند بلوغهم سنة وسنتين . بناته البالغات هن : السلطانة أم كلثوم التى تزوجت بوزير واحد (ك١٦٤٢/٢ - ١٦٥٥) ، السلطانة فاطمة التى تزوجت بـ ٣ وزراء مختلفين (أيلول ١٦٤٢ - ١٦٨٢؟) ، السلطانة عاتكة التى تزوجت بوزيرين (١٦٤٦ - ١٦٨٦) ، السلطانة جوهر - خان التى تزوجت بـ ٣ وزراء (١٦٤٢ - ١٦٩٤/١٠/٢٧) ، السلطانة بكخان التى ولدت مع محمد الرابع من نفس الأم وتزوجت بـ ٣ وزراء اثنان منهم شغلوا وظيفة صدر أعظم (١٦٤٥ - ١٧٠١/٣/٤) ، السلطانة قاية التى تزوجت بوزير واحد (١٦٤٢؟) ، السلطانة عائشة التى لم تتزوج أبدا (١٦٤٢ - بعد ١٦٧٥) .

٥٤) سلطنة الأغوات (١٦٤٨/٨/٨ - ١٦٥١/٩/٣)

أجلس على العرش الابن الكبير للسلطان إبراهيم وولى عهده الذى تجاوز عمره الـ ٦ سنوات بـ ٧ أشهر و٨ أيام ؛ السلطان محمد خان الرابع . أصبحت نائبة

السلطنة السلطانة – الجدة كوسم مهبيكر و لم تصبح والدته الشابة السلطانة – الوالدة خديجة تارخان . وتسمى فترة نيابتها للسلطنة التى استمرت ٣ سنوات و ٢٦ يوما – وهى الدورة الأولى لعهد سلطنة محمد الرابع – « سلطنة الأغوات » فقد سيطر أغوات الإنكشارية وجنرالات العصبة junto على زمام الحكم كله متجاوزين بذلك الحكومة ومخالفين أحكام الدولة . كانت غايتهم أن يكونوا أغنياء بجمع المال ، أما غاية السلطانة كوسم فكانت بث سيطرتها وإعطاء الأوامر وإدارة الدولة . كانت تعشق السلطة والسياسة وأسيرة لهما ، ولم تكتف بخلع ابنها من العرش ، بل سلمته بعد ١٠ أيام إلى الجلاد وقتلته (١٦٨٤/٨/١٨) لأنه كان متهما بتهديدها بإبعادها عن السياسة ونفيها إلى رودس Rodos فى حالة استمرارها فى التدخل فى شئون الدولة (نعيما ، ٤ ، ٣١٧ ؛ هامر ، ١٠ ، ١٦٥ ، ١٧٧) . دبرت هذا الحادث بمهارة فائقة وسرية تامة ووجهت تشكيلات (أوجاق) الكابوكولو ، العلماء ، الوزراء بدراية منقطعة النظير ، إلى حد أن الشعب أشفق عليها – مخدوعا – لما تعرضت له من مصائب بخلع ابنها وقتله . ولد خنق السلطان ابراهيم عنوة بحبل حريرى ، شعور المحبة الفائقة تجاهه . ظهر المطالبون بدم السلطان إبراهيم ، وتضعضعت مكانة العصبة وخاصة تشكيلات القابو قولو ؛ فقد ولد قتل سلطان ثان بعد مضى ٢٦ عاماً على قتل أخيه الكبير السلطان عثمان الشاب – النفور . ثار السباهيون ودحرتهم الإنكشارية بشكل دموى . تقاتل صنفا الجيش الهمايونى الذى كان قدوة للعالم فى نظامه فى حرب ميدانية وفى ساحة السلطان أحمد وأمام سراى البادشاه وقد مات مئات القتلى .

عزل صوفى محمد باشا الذى يناهز عمره الـ ٨٠ عاما ، بعد ٩ أشهر و ١٥ يوما (١٦٤٩/٥/٢١) وخنق بعد عدة أيام . عُيّن أحد أغوات الإنكشارية ، قره مراد أغا ، رغم أنه برتبة بكلربك (فريق) ولم يحصل على رتبة وزير (مشير) صدراً أعظم خلافا للأصول المتبعة . كان هذا هو أقدر أفراد العصبة ، أشرفهم ، عسكريا جيدا ورجل دولة ذكيا . قدم الاستقالة إلى نائبة السلطنة فور تهديده بالقتل ، عند إصراره على عدم تحقيق رغبات أصدقائه غير المشروعة (١٦٥٠/٨/٥) . استمرت صدارته سنة و شهرين و ١٥ يوما . صار الصدر الأعظم داماد ملك أحمد باشا أحد الوزراء والذى نشأ على يد مراد الرابع وكان صهرا له . لم يتمكن أحمد باشا اللين

بعد مراد باشا الصلب من الوقوف أمام الفوضى . وبعد هذا ثار الشعب الذى نهبته العصبة . استقال ملك باشا بعد صدارة دامت سنة و ١٧ يوما (١٦٥١/٨/٢١) . صار أباضة سياوش باشا وزيراً أعظم . لم ينجح هذا التدبير المسكن فى إطالة سلطة الأغوات والسلطانة كوسم أكثر من ١٣ يوما ؛ لأن ثورة الشعب لم تكن ضد ملك باشا ، بل كانت ضد جنرالات العصبة الذين لم تكن السلطانة كوسم تستطيع سحبهم من مسرح السياسة ، لأنها لاتملك القدرة على ذلك ، ولأن ذلك لم يكن يلائمها ، لأن سلطتها هى كذلك ستنتهى ، فهى شريكة مع العصبة فى جرائم عديدة ؛ ولأنه كانت وراء الثورة السلطانة – الوالدة خديجة تارخان أم البادشاه الطفل . فإن السلطانة كوسم (التى تعلم ذلك) أرادت لكى تكسر شوكة سلطة زوجة ابنها وتعزلها من عرش السلطانة – الوالدة (والدة سلطان) – قتل حفيدها محمد الرابع الذى لم يكمل بعد سن الـ ١٠ سنوات ، وإجلاس ولى عهد – أمير سليمان الذى هو من أم أخرى . كشفت هذه الخطة القذرة . خنق رجال السلطان والسلطانة – الوالدة السلطانة كوسم ، حيث اقتحموا منزلها ليلة ٣/٢ أيلول (١٦٥١) .

كانت السلطانة – الوالدة الكبيرة (الجدة) كوسم مهبيكر أشهر نساء التاريخ العثمانى بأجمعه ، فى الـ ٦٢ من عمرها . دفنت فى مقبرة السلطان أحمد ، إلى جانب زوجها أحمد الأول وابنها مراد الرابع . كان قد مضى ٤٧ عاما بالضبط على زواجها بأحمد الأول عام ١٦٠٤ . كانت السلطانة – الوالدة (والدة سلطان) خلال مدة سلطنة ابنيها مراد الرابع وإبراهيم خان مدة ١٧ سنة و ٦ أشهر و ١٢ يوما و ٨ سنوات و ٥ أشهر و ٢٨ يوما = جمعا ٢٤ سنة و ١٠ شهر و ٢٨ يوما + ونائبة السلطنة خلال فترة سلطنة حفيدها محمد الرابع مدة ٣ سنوات و ٢٦ يوما . ولما كانت نائبة السلطنة كذلك خلال فترة طفولة ابنها مراد الرابع مدة ٨ سنوات ، ٨ أشهر و ٨ أيام ، فيكون مجموع رئاستها الدولة العالمية بصورة رسمية وبصفة نائبة ١١ سنة و ٩ أشهر و ٤ أيام . كانت ذكية إلى درجة استثنائية . ماكرة مراوغة ، أستاذة فى صنع خطط سياسية ومؤامرات متعددة الوجوه ، مؤثرة ومقنعة فى كلامها . كانت تعنى بإرضاء الشعب ، لذا فقد تركت مؤسسات خيرية كثيرة العدد إلى درجة لايستوعبها العقل . انتقلت ثروتها العظمى إلى الخزينة .

كانت المعونات إلى كريت بدرجة غير كافية خلال فترة سوء التصرف فى شئون

إدارة الدولة بسبب الثورة الداخلية فى إستانبول . القتال الدموى مستمر فى الجزيرة .. ولأول مرة منذ سنتين أخذ دلى حسين باشا معونة من قبطان دريا وزير داماد فوينوك أحمد باشا . لكن القبودان دريا (مشير البحر) استشهد عندما كان يقصف قلعة Suda من البحر (١٦٤٩/٧/٢٨) . شدد حسين باشا الضغط على كاندية . قتل الكونت Colloredo والى كريت العام القائد العام أثناء خروجه من القلعة (١٦٤٩/٨/٣٠) . حصل حسين باشا ، على شهرة واسعة فى أوروبا . صنع الرسامون له ولحصانه المسمى قايتاس صورا كبيرة طبعت ثم بيعت . أصيب برصاصتين الأولى ثقبت واخترقت فمه وخرجت ، والأخرى بقيت فى فمه . ربط فمه بالمنديل واستمر فى القتال .

٥٥) سنوات نيابة السلطانة – الوالدة تارخان (١٦٥١/٩/٣ – ١٦٥٦/٩/١٥)

كان سن نائبة السلطنة الجديدة السلطانة – الوالدة خديجة تارخان ٢٤ عاما ، كانت جارية ، عنيت بتربيتها وتثقيفها أخت زوجها السلطانة عاتكة ، إحدى بنات أحمد الأول وقدمتها إلى أخيها إبراهيم . كانت من أصل أوكرانى مثل السلطانة خرم « طويلة القامة ، لطيفة القوام ، زرقاء العينين ، ذهبية الشعر ، بيضاء صافية اللون » (Petit de la Croix ، ١ ، ٥٥٦) وبولادتها مولودها الأول السلطان محمد نجت السلالة من الانقراض . لم يترك الشعب ميدان سلطان أحمد خاليا منذ ليلة فقدان السلطانة كوسم حياتها . كانوا يطالبون برءوس أغوات العصبة . الذين اختفى كل واحد منهم فى مكان . كان يقبض كل يوم على واحد أو اثنين منهم ويعدمان . أعدم ٣٨ منهم وانتقلت ثرواتهم غير المشروعة إلى الخزينة (Ricaut ، ١ ، ٤٨ ، ٥٨ ، ٧٢) وجدوا لدى أحد جنرالات الإنكشارية الذى يسمى قول كاهيه سى ، من الدراهم النقدية فقط خمسة ملايين سكة ذهبية وفضية ، ويبين هذا مبلغ مانهب من الإمبراطورية خلال ٣ سنين .

انتهت سلطة الأغوات ، لكن نظام الدولة خرج عن طوره . كانت النائبة الشابة مهتمة بالبحث عن الصدر الأعظم الذى يمكن أن تعتمد الدولة عليه ، لكنها لم تجد

ضالتها . أعدم سياوش باشا بعد ٩ أشهر . وأخرج درويش محمد باشا (١٦٥٣/٣/٢١) بعد سنة و ٧ أشهر و ٨ أيام بسبب إصابته بالفالج ، وعلى أثر ذلك جاء داماد أبشير باشا (١٦٥٣/١٠/٢٨) الذى أعدم بعد ستة أشهر و١٤ يوما ثم جيء للمرة الثانية بقرة مصطفى باشا (١٦٥٥/٥/١١) وباستقالته بعد ٣ أشهر ، ٩ أيام (مجموع صدارتيه ١ سنة و ٥ أشهر و ٢٤ يوما) جيء بداماد سليمان باشا (١٦٥٥/٨/١٩) وباستقالته بعد ٦ أشهر و ١٠ أيام جاء للصدارة الوزير الثانى القائد الأعلى دلى حسين باشا (١٦٥٦/٢/٢٨) ، وبعد ٦ أيام ، وقبل مجيئه من كريت إلى إستانبول وللضرورة ؛ أعطيت الصدارة إلى مصطفى باشا (١٦٥٦/٣/٥) . وبعد صدارته التى استمرت ٦ ساعات وهى أقصر مدة صدارة فى التاريخ العثمانى ، تصدر سياوش باشا للمرة الثانية وعلى أثر وفاته بعد شهر و ٢٢ يوما (مجموع صدارتية شهران و ٢٩ يوما) ، تصدر جانكلى (من صممصون) بوينو أكرى (مجروح الرقبة) محمد باشا (١٦٥٦/٤/٢٦) ، كل هؤلاء أخذ نصيبه من السلطنة ، ولكن لم يستطع واحد منهم تأمين النظام الذى كانت تنشده نائبة السلطنة . عزل بوينو أكرى محمد باشا البالغ عمره ٨٠ عاما بعد ٤ أشهر و ١٩ يوما لعدم تمكنه من إبعاد الأسطول البندقى من باب مضيق جناقلعة .

كانت حرب كريت مستمرة . اشتبك الأسطول الهمايونى الذى يقوده قبودان دريا الصدر الأعظم الأسبق مراد باشا مع الأسطول البندقى فى فتحة مضيق جناقلعة . وكانت قطع الأساطيل التى أرسلت من كل من الجزائر ، تونس ، طرابلس الغرب ؛ منضمة إلى الأسطول الهمايونى . دام القتال مدة ٦ ساعات . غلب البندقيون الذين خسروا سفينة الأميرالية الكبيرة وسفينة الأميرالية الثانية ، و ٤ سفن أخرى و ٣٠٠٠ وبضع مئات من الجرحى . تعقب الأسطول العثمانى البندقيين إلى جزر **Kikland** . أرسلت قطع أساطيل الجزائر ، تونس ، طرابلس الموجودة فى كريت إلى أقطارها . حمل الأسطول الهمايونى الذى قدم إلى إستانبول معه ٢٥٠٠ أسير بندقى . جرى القتال البحرى فى فتحة جناقلعة بتاريخ ١٦٥٤/٥/١٦ (هامر ، ١٠ ، ٢٤٠ - ١ ، ٣٤٢) . لكن الأسطول البندقى تمكن من لم شعثه ، وبعد سنتين فى ١٦٥٦/٦/٢٦ جاء مرة أخرى إلى فتحة مضيق جناقلعة . تمكن البندقيون من إنزال جنود فى جزر بوزجه آدا ، لمنى وسمنديرك واحتلوها عندما تعرض الأسطول الهمايونى بقيادة قبطان

دريا (مشير البحر) داماد كنعان باشا لعاصفة جعلته يتفرق . كانت الخسارة البحرية هذه واستيلاء الجزر من الأسباب التى صاحبت سلطة كوبرولو والتى ولدت هياجا كبيرا .

تمكن نور الدين قرم (ولى العهد الثانى) عادل كيراى من الوصول إلى ضواحى موسكو . سدد القيصر الروسى ١٠٠٠٠٠ سكة ذهبية وعقد صلحا مع قرم . زادت بولونيا ضريبتها السنوية إلى قرم إلى ٢٤٠٠٠٠ سكة ذهبية (حليم كيراى ، قرم تاريخى ، ص ١٠) .

كانت الوالدة تارخان فى محاولة للبحث عن مخرج للدولة ، مع مستشاريها السريين أمثال سرمعمار قوجا قاسم آغا فوجى بك ، صولا قزاده ، شامى زاده محمد أفندى ، وكان قاسم أغا البالغ عمره ٨٠ عاما يلقن الوالدة ويوصيها بإصرار بالوزير المسن وغير المشهور كوبرولو محمد باشا منذ مدة طويلة . وفى النهاية رضيت نائبة السلطنة بمقابلة كوبرولو باشا بتأثير مستشاريها الذين يفوقون قاسم أغا علما وفنا . قابلته بشكل سرى وخاص . دهشت عندما وضع الوزير الكهل شروطا عديدة لقبوله الصدارة . لم يسبق فى النظام العثمانى أن يسرد الوزير شروطا لقبوله الصدارة . تمكن الوزير الكهل من إقناع نائبة السلطنة بأنه سوف لن يتمكن من أداء الخدمات المنتظرة للدولة إذا ماتصدر دون أن يعطى الصلاحيات المطلقة التى طلبها (١٦٥٦/٩/١٥) . بدأ دور كوبرولو (عائلة كوبرولو) الذى سيستمر مدة ٢٧ عاما حتى ١٦٨٣ . أعلن رشد محمد الرابع عند تجاوز سنه الـ ١٤ بـ ٨ أشهر و ١٦ يوما ، وانتهت فترة نيابة جدته (أم أبيه) وأمه التى استمرت ٨ سنين و شهرا ، ٨ أيام .

كانت نيابة الوالدة تارخان قد استمرت ٥ سنوات و ١٢ يوما . وعندما تركت السلطة كانت فى الـ ٢٩ من عمرها . أما صفتها السلطانة – الوالدة فقد استمرت مدة ٣٤ سنة و ١٠ أشهر و ٢٨ يوما لغاية وفاتها وبلوغها الـ ٥٦ من عمرها فى ١٦٨٣/٧/٥ . وهو أطول مدة لصفة السلطانة – الوالدة فى التاريخ العثمانى . تركت مؤسسات خيرية عظيمة جدا . لكن الخدمة التى أدتها إلى الدولة العثمانية قد سبقت بكثير حتى الآثار الخيرية التى تركتها . لم يكن لديها أى حرص شخصى . كانت تملك الشخصية والذكاء وحب الوطن ، والتضحية والشجاعة التى تؤهلها لحماية

هذه المصلحة بكفاءة . أعطت السلطة إلى كوبرولو . ولم تتدخل بعدها فى السياسة ، ولكنها استمرت فى تلقين دروس التضحية وحب الوطن إلى ابنها بصورة سرية حتى وفاتها . خلصت الدولة من فوضى مدهشة وفتحت دور « الكوبرولو » . أعدت لأبنها سلطنة ذات شوكة ، تشابه تلك التى فى عهد القانونى . على درجة من الذكاء تماثل ذكاء أم زوجها السلطانة كوسم ، لكنها لم تصرف ذكاءها مثلها إلى الشر وإلى الأمور الشخصية ، بل صرفتها إلى الخير وإلى صالح الدولة . شخصت ماهية الأضرار التى تكبدتها الدولة بسبب تدخل أم زوجها فى السياسة . عملت بكل مافى إمكانها لمنع تدخل نساء السراى فى السياسة ، ولم يكن ذلك سهلا أبدا ، بسبب كونها هى امرأة ، وعلى رأس جماعة النساء . وقد وفقت فى هذا إلى الدرجة التى أغلقت نهائيا الدور المسمى فى التاريخ العثمانى « سلطنة النساء » ، والذى كان يظهر بين

الفترة والأخرى خلال الفترة الزمنية المنحصرة بين عهد السلطانة خرم وعام ١٦٥٦ وهو تاريخ انسحابها من النيابة . لم يشاهد فى التاريخ العثمانى بعد ذلك أية امرأة والدة أو زوجة سلطان تتدخل فى شئون الدولة . اهتمت بتربية زوجة ابنها أمة الله كلنوش – التى ستكون السلطانة الوالدة لسلطانين – وربتها على هذه النشأة وزوجتها بابنها . علمتها ولقنتها واجبات الخاصكى (زوجة السلطان) السلطانة – الوالدة فى الدولة العثمانية العالمية بدقة ، وليس من بين هذه الواجبات ماهو ذو علاقة بالسياسة . لم يهتم المؤرخون بذكر هذه الخدمة بالذات للسلطانة تارخان . ومن آثارها التى تتذكرها الأجيال بالخير الجامع الفخم وسوق مصر المسمى « مصر جارشيسى » الذى شيده المعمار مصطفى أغا . دفنت فى أحد زوايا هذا الجامع الذى هو عبارة عن كلية عظمى .

٥٦) صدارة كوبرولو محمد باشا (١٦٥٦/٩/١٥ - ١٦٦١/١٠/٣٠)

أعطيت لكوبرولو القيادة العليا (سردار أكرم) . كانت الشخصية التى اقتدى بها كوبرولو ، هى شخصية مراد الرابع . لكنه لم يكن لديه الثقافة العالية التى كانت لدى مراد الرابع . تمكن فقط من تطبيق سياسة الشدة التى اشتهر بها مراد الرابع . اتخذ سياسة الترهيب وإراقة الدم (دون مبرر مرات كثيرة) لتأمين سلطة الدولة .

ومع ذلك فقد كان داهية حقا ، حيث أنقذ الدولة من شفا هاوية ، وأدخلها فى الدور الذى يسمى فى التاريخ بدور « كوبرولولر » الذى يشبهه بعض المؤرخين بدور القانونى . جاء إلى جناقلعة وفتش كلا ضفتى المضيق . كان الأسطول البندق مقتربا جدا من المضيق . هدف شاب من جنود المدفعية على مخزن البارود فى سفينة الأميرالية الكبرى فأصابها بقذيفة مدفعية . انفجرت سفينة الأميرالية الكبرى وتناثرت فى الجو ، ونسف الأميرال الكبير Mocenigo الذى يسميه الأتراك « القبطان الأعور » . أكرم الصدر الأعظم ، المدفعى الشاب من الذهب ملء الحضن . انسحب أسطول العدو من أمام المضيق . اعتبر افتتاح دور سلطة الصدر الأعظم بمثل هذا الحادث فأل خير . تم فى ١ أيلول تخليص جزيرة بوزجة إدا وفى ١٥ ت٢ لمنى من الاستيلاء البندق .

كان أكبر ظلم وجور ارتكبه كوبرولو هو إعدامه الغازى حسين باشا . الوزير الأعظم السابق ، الوزير ٢ ، القائد الأعلى لكريت منذ سنوات عديدة ، البطل الوطنى . دعاه كبير عساكر دوره إلى إستانبول بحجة تكليفه الصدارة (١٦٥٨/١٢/٢٩) . سبب هذا الحادث حزن الشعب العميق . وصار لكوبرولو صيت مفزع . تولى القيادة العليا وأخذ على عاتقه حل مسألة أردل (Transilvanya) (١٦٥٨/٦/٢٣) .

استولى أمير أردل György Rakoczi الثانى (١٦٤٨ - ١٦٦٠) (الولادة ١٦٢٠) ، فى آذار ١٦٥٧ - على Krakovi العاصمة السابقة التى أخذتها بولونيا من وارشو ، وفى أيار أخذ Brest-Litovsk (Brezese) الواقعة شرق وارشو . كان الديوان يرى أن هذه الانتصارات فى صالح الدولة . لكن بعد مقابلة كوبرولو لسفير بولونيا الذى جاء يشكو له من أمير أردل أمر الأمير بإيقافه حركات بولونيا ، وإخلائه الأراضى البولونية ، وقطع علاقته مع السويد . أرسل Görqy الثانى رسله إلى إستانبول مستفسرا عن سبب تكديره ، فى الوقت الذى وسعت فيه العثمانية حدودها . غضب كوبرولو لهذا الاستفسار وأصر على تنفيذ أمره فورا ، أمر محمد كيراى خان قرم بدخول أردل . تمكن محمد كيراى من العثور قرب سواحل Vistül على جيش أردل المجرى المغرور بفوزه المتعاقب على بولونيا ، وأفناه (١٦٥٨/٧/٣١) . إلا أن هذا الحادث بدلا من أن يسبب إطاعة جيورجى الثانى سبب عصيانه السافر للدولة العثمانية .

كان حساب جيورجى الثانى هو سقوط كوبرولو كأسلافه من الصدور خلال مدة قصيرة والاتفاق مع الصدر الأعظم الجديد . ولم يفكر قط فى بقاء كوبرولو . دخل كوبرولو إلى أردل مستصحبا معه أمراء أفلاق وبغدان . وجاء خان قرم كذلك . أعلم ملك بولونيا الصدر الأعظم بأنه صادق وممتن للبادشاه وطلب حماية دولته من الأردليين . أخذ كوبرولو أردل الغربية بكاملها من الإمارة وألحقها بإيالة بودين (yanova, Arad, Sebes, Lugos) ظل كامل الإمارة تحت السيطرة العثمانية ، مدة سنين . لجأ جيورجى الثانى إلى ألمانيا ، وفى ١٦٦٠/٥/٢٢ مات (Makkai, Histoire de Tiansilvanie ، ص ٢٤١ – ٥) عين القبطان دريا (مشير البحر) الوزير كوسه على باشا سردار وصهر كوبرولو ، الوزير سيدى أحمد باشا ، مساعدين له وتمكنا من الاستيلاء على قلعة Varat (بالألمانية : Grosswardein بالرومانية : Dradea Mare بالمجرية : Varad) المهمة جدا والتى كانت تحت السيطرة الألمانية ، خلال حصار دام ٤٥ يوما (١٦٦٠/٨/٢٧) . تم اغتنام ٧٠٠ مدفع فى القلعة . وجعلت القلعة مركزا لإيالة جديدة ، ومن أجل مراقبة الأفلاق بشكل أدق طلب كوبرولو أن يسكن الفويفودا فى بخارست ، وليس فى عاصمة الإمارة Tarqoviste ، وهكذا أصبحت بخارست عاصمة لرومانيا (١٦٥٩/١١/١٢) . قلص كوبرولو الذى جعل من يانوفا (بالمجرية : Jeno) إيالة إمارة أردل ودفعها ضمن حدود ضيقة جدا . أخذ البروتستانت الموجودين فى الإمارة تحت حمايته ، كان هؤلاء البروتستانت من أصل كومان – قيبجاق الذين تنصروا سابقا ، أى أنهم من أصل تركى . توترت علاقات الباب العالى مع ألمانيا التى تساند عصيان أردل (نعيما ، ٦ ، ٣٠٢ – ٥٩) ؛ سلاحدار ، ١، ١٩٣ – ٢٢٠ ؛ أولياء ، ٦ ، ١٧ ؛ Iorqa ، ٤ ، ٩٢ – ١٠٢ ؛ Makkai ، ٢٤٠ ، ٢٤٥ – ٨ ، ٢٥٥ ، ٢٦٣) .

وفى هذه المرة أصبح كوبرولو « سردارا أكرم » فى مواجهة الجلاليين (١٦٥٨/١١/١٣) . اتفق العديد من البكلربك والسنجق بك فى الأناضول ، الذين يخشون كوبرولو وقرروا إسقاط الصدر الأعظم . طلب ١٥ بكلربك و ٥٠ سنجق بك من السلطان عزل هذا الصدر الأعظم الظالم ؛ فصلوا فى عريضتهم المظالم التى ارتكبها كوبرولو بالتسلسل واحدة بعد أخرى ، وأفادوا بأن غايته الوحيدة هى التخلص منهم وعدم إبقاء رجال دولة فى الدولة . ورشحوا للصدارة الوزير أحمد

باشا ، ابن طيار محمد باشا الصدر الأعظم لمراد الرابع الذى استشهد أمام أسوار بغداد . أعطى محمد الرابع هذه العريضة التى أرسلها الولاة العسكريون الذين يحكمون تقريبا كامل الأناضول وسورية ، إلى كوبرولو محمد باشا دون أن يبدى أية ملاحظة . تجمع العديد من البكلربك (فريق) والسنجق بك (أمير لواء) فى حلب . أعلن كوبرولو أن كافةالولاة الذين تركوا مراكز عملهم دون أخذ موافقة إستانبول وذهبوا إلى حلب .. عصاة . دعا الوزير مرتضى باشا ٣١ باشا إلى قصره فى حلب (القصر الحكومى) بحجة التفاهم فى مسألة كوبرولو خلال وليمة العشاء ، وقطع رءوسهم جميعا وسط الوليمة .

خشى كوبرولو ، من رد فعل إعدام ٣١ باشا مرة واحدة . أرسل الوزير بوشناق إسماعيل باشا بوظيفة « مفتش الأناضول » . ويروى أن إسماعيل باشا أمر بقتل ١٠٠٠٠ شخص بتهمة الجلالية . ويمكننا أن نقول إن عهد الجلالية قد أغلق بعد هذا التاريخ .

بسبب تدخل روسيا المتزايد فى شئون أوكراينا ، ولكون القسم الأكبر منها أراضى عثمانية تأزمت علاقة الدولتين . سار محمد كيراى بجيش قرمي – عثمانى . تمكن من العثور على الجيش الروسى فى Konotop فى نقطة عرض ٥٢° التى تتصل فيها حدود أوكراينا – روسيا البيضاء – روسيا شرق مستنقعات Pripet ، على مسافة ١٥٠ كم غرب جرنيكوف . كان الروس الذين يقودهم الأمير Trubeckoy ، ٣٥٠٠٠٠ جندى ، هزم هذا الجيش الذى لم يدرب أى تدريب عسكرى جدى ، بسهولة ، قتل ١٢٠٠٠٠ روسي وأسر ٥٠٠٠٠ ، وكان القائد بين القتلى . قطع هذا النصر على روسيا طريق أوكراينا لمدة نصف قرن (نعيما ، ٦ ، ٤٠٦ ومابعده ؛ هامر ، ١١ ، ٦٩ – ٧٣) . وفى ١٦٦١ ، تم فى أوكراينا إنشاء القلعة المسماة سد الإسلام أو دوغان كجيدى وأريد بذلك منع دخول الروس إلى أوكراينا والقفقاس الشمالية . أدت هذه القلعة – التى وصفها هامر تمثال عظمة الدور العثمانى وسط جرداء أوكراينا وصحراء التترستان (١١ ، ٧٩) – واجبها مدة طويلة ، اتضح من الرسائل التى ضبطت أن البطريق العالمى الأرثوذكسى فى إستانبول Parthenios الثالث تراسل مع روسيا ضد تركية . أعدم البطريق ، وأبطل كوبرولو الفرمان الذى يعطى البطريق درجة وزير فى البروتوكول والذى منحه السلطان الفاتح

للبطريق عام ١٤٥٣ ، وأنزله إلى بروتوكول بكلربك . سوف تعاد للبطريق امتيازاته السابقة بعد التنظيمات (E.Pitzipios, L'Eglise Orientole ، روما ١٨٦٦ ، ٣ ، ٨٣) .

وفى ١٦٥٦ جاءت رسل شاه جهان.حمل هدايا شاه جهان ، بادشاه الهند ، ٢٥ شخصا . كان شاه جهان ، يطلب بعض التسهيلات للحجاج القادمين من الهند ، والتضييق على إيران من الغرب ، وأحد معمارى القبب العثمانية (قبل فترة وجيزة شيد تاج محل أحد طلاب المعمار سنان) . وفى ١٦٥٨ أرسل محمد الرابع ، معان - زاده حسين بك سفيرا للهند . وخلال نفس العام ، خلع شاه جهان عن العرش بعد سلطنة زفيعة دامت ٣١ عاما وعن عمر يناهز الـ ٦٥ عاما . جاء مكانه ابنه أورنكزيب عالمكير شاه وهو حفيد تيمور فى البطن الـ ١٠ وبابور فى البطن الـ ٥ . وهكذا افتتحت سلطنة عالمكير شاه من مواليد ١٦١٨ التى ستستمر ٤٩ عاما .

نشب فى أواخر أيام كوبرولو ، أكبر الحرائق ، البلية الكبرى لإستانبول ، أكثر بلدان العالم - ذات البيوت الخشبية - زحاما (١٦٦٠/٧/٢٤) . تلف ثلث إستانبول الأصلية الكائنة داخل الأسوار . احترق ٨٠٠٠٠ دار و٣٠٠ سراى وقصر و٣٦٠ مسجدا و١٠٠ خان تجارى و٤٠ حماما عاما وماشابه ذلك من الأبنية الكثيرة العدد . مات أو جرح ٤٠٠٠ شخص ، تلفت أو تضررت آثار تاريخية مهمة . استمر الحريق ٤٩ ساعة .

توفى كوبرولو بعد صدارة دامت ٥ سنوات وشهرا و١٥ يوما (صباح ١٠/٣٠/ ١٦٦١) . توفى فى أدرنة . نقل إلى إستانبول ودفن قرب مسجده . كان عمره ٨٣ عاما . وبناء على وصيته أعطى محمد الرابع الختم الهمايونى إلى كبير أبنائه كوبرولو - زاده فاضل أحمد باشا .

٥٧) حرب ألمانيا (١٦٦١ - ١٦٦٤)

كان فاضل أحمد باشا أصغر رئيس وزراء فى تاريخ تركية عمره ٢٦ سنة . عنى أبوه الجاهل بتحصيله عناية فائقة ، تخرج من القسم العالى لمدرسة إستانبول ، صار مدرسا ، بكلربك ووزيرا. كان قد سافر إلى الأناضول ، سورية ، روملى . قضى

عام ١٦٦٢ فى الانشغال بشئون الإمبراطورية الداخلية ، وسنة ونصفا فى إستانبول وأدرنه ، فى تفهم شئون الدولة المركزية . ومع مافيه فإنه سيترك بعد الآن مهام مركزه إلى مرزيفونلى قرة مصطفى باشا بصورة دائمة ، ويكرس جهوده إلى الأمور الخارجية والحروب . مضى على عقد معاهدة سيتفاتوروك ٥٦ سنة و ٥ أشهر . حدثت خلال هذه المدة مع ألمانيا خلافات ، مناوشات موضعية ، اشتباكات لكنها لم تنقلب إلى حرب شاملة . أعلنت الحرب على ألمانيا (١٦٦٣/٤/١٢) على أثر إنشاء الألمان خلافا لمعاهدة سيتفاتوروك قلعة Serinwar (بالتركية ينى قلعة) على الحدود ، مقابل قلعة العثمانية وعدم هدمهم لها رغم إخطار الديوان .

تحرك الصدر الأعظم والسردار الأكرم (القائد الأعلى) فاضل أحمد باشا من أدرنة (١٢ نيسان) ووصل المجر . الجيش الهمايونى المؤلف من ١٢٠ ٠٠٠ جندى ، ١٠٠ ٠٠٠ خيال قرمى و ١٥٠٠٠ مشاة قرمى ، عدا ذلك ، وحدات الصاعقة ، ١٢٣ مدفع صحراء ، وذخائر محملة على ٦٠ ٠٠٠ جمل و ١٠ ٠٠٠ بغل ، دخل سلوفاكيا من إستركون مجتازا الدونة (٣ تموز) . ورغم أن الجنرال Forgacs ، حاول وقف الاجتياز لكنه خسر أكثر من ٥٠٠٠ قتيل وأسير . حوصرت قلعة أويفار فى ١٨ آب (بالألمانية : Neuhausel بالسلوفاكية : Nove Zamky بالمجرية : UJvar) . أويفار التى انتقلت إلى العثمانية مرات عديدة ، حصنها الألمان وجعلوها فائقة الاستحكام لكى تصبح أقوى قلاع أوروبا ، تقع شمال - غرب بودابست ، على الشرق من فينا بـ ١١٠ كم ، ومن براتسلافا بـ ٨٠ كم . كان خان قرم محمد كيراى الرابع ، وفويفودات (أمراء) أردل ، بغدان ، أفلاق ضمن الجيش العثمانى . سلم الجنرال Forgacs القلعة بعد ٣٧ يوما (١٦٦٣/٩/٢٤) . انسحب جند الألمان من بين صفوف الأتراك وهم يعزفون الموسيقى وذهبوا إلى النمسا . قلبت فرق الصاعقة رأسا على عقب كلا من سلوفاكيا ، النمسا ، بوهيميا ، مورافيا ، سيليزيا ، بولونيا وحرقوا براتسلافا ووصلوا أمام فينا . أحدثت هذه الحملة والتى تسمى حملة أويفار السرور العظيم فى الإمبراطورية وأدهشت أوروبا من الناحية الأخرى (راشد ، ١ ، ٤١ - ٨) ، وبعدها استسلمت حوالى ٣٠ قلعة ألمانية : أهمهن Novigrad (٤ ت٢) و Nrutra (بالسلوفاكية : Nitra) فى شمال أويفار (١٨ ت٢) . أسست إيالة أويفار فى جنوب سلوفاكيا التى تشكلها السهول . تم الاستيلاء على

سلوفاكيا حتى جبال تاترا . ازدادت الدهشة عندما دخلت فرق الصاعقة Olmütz (بالجيكية : Olomoue) ، قلب جيكوسلوفاكيا (٢ أيلول) .

قضى كوبرولو – زاده الشتاء فى بلغراد . وتحرك فى الربيع (١٦٦٤/٥/٧) . تعاطف كل حكام أوروبا مع الإمبراطور ، حتى لويس الرابع عشر ملك فرنسا ، أكبر أعداء ألمانيا ، أرسل لأمر الإمبراطور فرقة ممتازة مؤلفة من ٥٠٠٠ شخص . جاء كوبرولو – زاده إلى كانيجة واجتاز الحدود الألمانية وفتح ينى قلعة (Serinwar) (٦ حزيران) ، وهى القلعة التى شيدها الألمان حديثا وسببت نشوب الحرب . تقع القلعة فى الموقع الذى يبتعد فيه نهر مور عن درافا . أصيب القائد العام للإمبراطورية الكونت Von Strozzi ومات . جاء مكانه قائد عام للإمبراطورية ، الماريشال كونت Montecueulli ، وهو من أشهر العسكريين فى القرن ١٧ .

كان الجيش الألمانى فى الغرب على الضفة الأخرى من نهر رعب (Raba) بينما كان كوبرولو – زاده أمام ينى قلعة .

وبعد أن اجتاز ١٠٠٠٠ جندى تركى إلى الطرف الآخر من الماء نسف Montecuculli الجسر بقذائف المدفعية .

جرت حرب الجيش الألمانى غير المتكافىء مع هؤلاء الـ ١٠٠٠٠ جندى أمام أعين الجيش العثمانى الكبير الموجود على الضفة الأخرى (١٦٦٤/٨/١) .

لم يستطع كوبرولو – زاده إلا أن يرسل مساعدات قليلة للطرف الآخر ، كما لم يسمح بإطلاق نيران المدافع والرصاص ؛ لأن الـ ١٠,٠٠٠ عثمانى كانوا مختلطين ومتداخلين مع الألمان إلى الدرجة التى لو فتح فيها النار من الجهة المقابلة لأثرت على الجند العثمانى بنفس الدرجة التى تؤثر فيها على الآخرين . استمر القتال بين ٦٠٠٠٠ ألمانى و ١٠٠٠٠ عثمانى مدة ٧ ساعات . وحاول كوبرولو – زاده خلال هذه المدة نصب جسر والعبور إلى الطرف الآخر ، إلا أن نار مدفعية العدو والمطر الغزير حالا دون ذلك . أفنى الـ ١٠٠٠٠ جندى عثمانى المتشكلين من السباهية والإنكشارية على التساوى وعلى رأسهم إسماعيل باشا بكلربك بوسنة فرقة المقدمة للجيش الألمانى المكونة من ٣ أفواج مشاة وفوج خيالة ، واستولى على قرية

Mukkestrof وحاول الاحتماء باستحكامات مستعجلة ، لكن أمير Baden أسقط القرية وحاصر الأتراك وأفناهم . تقدر خسائر العدو بـ ١٠٠٠٠ (Ricaut ، ٢ ، ٥٩٦ - ٨) . قتل ٦٠ جنرالا وشريفاً من العدو . طلب الإمبراطور الصلح .

تم التوقيع على معاهدة فاشفار (بالمجرية : Vasvar) بعد ٩ أيام (١٦٦٤/٨/١٠) . فاشفار (بالألمانية : Eisenburg ،) هى قصبة تقع بين كانيجة و Szombathly . عقد ممثلو الطرفين مؤتمرا فيها . كانت قصبة عثمانية تبعد عن حدود النمسا ٢٥ كم . وعند التوقيع على المعاهدة المكونة من ١٠ مواد بدأ الجيش الهمايونى بإطلاق المدافع والرصاص وترتيب الأفراح . بموجب هذه المعاهدة تبقى جميع مواد معاهدة سيتفاتوروك معتبرة ، وتدفع ألمانيا غرامات حرب رمزية قدرها ٢٠٠٠٠٠ سكة ذهبية ، وتبقى كافة القلاع مثل أويفار ، نوفيكراد ، ينى قلعة التى فتحها الأتراك لدى العثمانية . وعلى هذا تكون الحرب قد انتهت خلال سنة ، و٣ أشهر و٢٨ يوما . تحرك الصدر الأعظم بعد أن أتخذ التدابير اللازمة على الحدود ، إلى أدرنة (١٦٦٥/٤/١٧) (سلاحدار ، ١ ، ٣٣٥ - ٣٧٤ ؛ راشد ، ١ ، ٢٥ - ٩٠) .

٥٨) إكمال فتح كريت من البندقيين (١٦٦٤ - ١٦٧٠)

أرسل الإمبراطور ، بعد الصلح ، الكونت Leslie إلى محمد الرابع مع هدايا ثمينة . ورد عليه السلطان بإرسال محمد باشا إلى فينا بلقب بكلربك (أمير الأمراء) وسفير فوق العادة . دخل الباشا مع معيته البالغة ٢٩٩ شخصا . تكدس الشعب الذى كان متلهفا على مشاهدة العثمانيين فى الشوارع . أجر لأشراف الأماكن فى محلات المرور بأبهظ الأسعار . كانت فرقة موسيقى الجيش (مهتر طاقمى) تتقدم الوفد تسير بخطا هائلة عازفة إحدى قطعها المهترية التى ترتجف بصداها السماء والأرض (Takats ، Macaristan Türk Âleminden Cizqiler ، ٣١٥) . وفى ١٦٦٥/٦/١٨ استقبل الإمبراطور محمد باشا عند حضوره باحتفال لم يجر قبلا لأى سفير ، وخلافا للعادة كان أولياء جلبى أكبر كتاب العصر فى معية الباشا . نظم حكام أوروربا بعد هذا الحادث فرق موسيقاهم على غرار المهترخانة (مؤسسة

الموسيقى العسكرية) التركية . وافق الباشا على إجراء مقابلات عديدة مع الدوقات والماركيزات والكونتسات ، وكان يجيب بحرية على أسئلتهن عن تركية والمرأة العثمانية . كان يصلي صلاته للأوقات الخمسة في حديقة السراى المخصص لإقامته ، وكان يحدث زحام كبير أمام الحديقة فى أوقات الصلاة (هامر ، ١١ ، ١٥٥) .

من ناحية أخرى كانت العلاقات مع فرنسا تسير نحو التأزم . واعتبارا من ١٦٤٨ كانت أقدر دولة مسيحية هى فرنسا وليست إسبانيا . فرنسا وإنكلترا ، كانتا تنموان ، بينما كانت إسبانيا تسير نحو الانحطاط . كسر رئيس الوزراء الكاردينال ريشيليو شموخ ألمانيا ، قلل من شأن إسبانيا ، أخضع الإقطاعيين الأشراف فى الداخل للملك وخلف دولة فرنسية ذات مكانة . بدأت اللغة الفرنسية وأدبها الرفيع فى الانتشار بين الشعوب المسيحية كافة . سبقت الفرنسية اللاتينية والإيطالية بمراحل ، وصارت فى أوروبا Lingua Franca التى ستحافظ على وضعها هذا فى العالم أجمع حتى ١٩٤٠ ، وسوف تترك فى هذا التاريخ مكانها إلى اللغة الإنكليزية . كان الملك لويس ١٤ مسيحيا متعصبا ، ويلقب بـ « الكاثوليكى المركز » . كان يساند بصورة دائمة البندقية التى كانت فى حالة حرب مع تركية ، ويرسل إلى كاندية فى كريت وحدات ومساعدات كبيرة . حقر سفراء عديدين لهذا السبب ؛ لكنه لم يمتنع عن مساعدة البندقية . وافق كوبرولو - زاده على مقابلة الشاب السفير LaHaye ، وبعد أن هدده وحقره بوصفه « يهودى » وطرده من حضرته ، وعند خروجه صفعه على خده أحد مرافقى الصدارة (١٦٦٥/١٢/٧) (فون هامر ، ١١، ١٥٩ - ٦٠) . حرضت إستانبول أسطول الجزائر ، على ضرب فرنسا . أنزل الأسطول الفرنسى بقيادة دوق Beaufort ٨٠٠٠ جندى مشاة على Cieelli واستولى على هذا الميناء الجزائرى . أدركهم شعبان أغا قائد الإنكشارية فى الجزائر وذبح بالسيف ٢٠٠٠ فرنسى ، وركب البقية سفنهم وهربوا إلى فرنسا . جرى هذا الحادث فى ١٦٦٤ . وصار له صدى كبير بحيث لم يتمكن الفرنسيون من تحقيق إنزال آخر على الجزائر الا بعد ١٦٦ سنة فى عام ١٨٣٠ (Watbled, Expédition du Duc de Beaufort Contre Gigelli, Revue Africaine, 1873; Montchicourt, L'Expédi tion de Djidjelli en 1664, Revue Maritime, 1898) .

أعطيت القيادة العليا لحرب كريت إلى كوبرولو – زاده (١٦٦٦/٥/١٥) . مضت ٢١ سنة على فتح حملة كريت . كانت كاندية وعدة قلاع صغيرة تقاوم حتى الآن . كانت أوروبا تمطرها بالمساعدات . الوحدات الفرنسية ، الإنكليزية ، الإيطالية ، الألمانية ، البابوية جعلت من كريت الشرقية ساحة مناورات . أخذ الأمر شكل مسألة كرامة بالنسبة للمسيحيين تجاه الإسلام . تحرك البادشاه مع كوبرولو – زاده من أدرنة وشيع السردار الأكرم لغاية ميناء Golos فى Tesalya . صعد فاضل أحمد باشا إلى خانيا بـ ١٦٧ قطعة بحرية (١٦٦٦/١١/٣) . قضى فصل الشتاء هناك . اشتغل بتجهيز جيشه مدة ٦ أشهر و ١٣ يوماً . تحرك من خانيا فى ١٦ أيار وشرع فى حصار كاندية صباح يوم ٢٦ أيار ١٦٦٧ .

دام الحصار ٦ أشهر و ٢١ يوما . لم تسقط القلعة . استشهد خلال هذه المدة ٨٠٠٠ جندى . انفجر ٨٠٠٠ لغم . استهلك ٢٠٠٠٠ قنطار من البارود . أمطرت القلعة بمعدل ٤٠٠ قذيفة يوميا . وفى ١٦ ت ١٦٦٧/١ رفع الصدر الأعظم الحصار لكنه لم يترك مواقعه أمام كاندية . قضى فصل الشتاء تحت الأرض فى المدينة ، فى الملجأ الذى حفره أمام كاندية ، كانت والدته عائشة خاتون وأخوه الصغير على بك يرافقانه . لأول مرة فى التاريخ يدخل جيش كبير تحت الأرض ويمضى الشتاء .

وفى ٣٠ حزيران ١٦٦٨ بدأت حرب كاندية مجددا بهجوم العثمانية . تحرك السلطان من أدرنة (١٦٦٨/٦/١٨) وجاء إلى Golos ، حتى إنه فكر فى العبور إلى كريت . قضى الجيش الهمايونى والصدر الأعظم شتاء عام ١٦٦٨ – ٦٩ فى مدينة تحت الأرض أمام كاندية . جاء فى ذلك الشتاء من البندقية إلى أدرنة أحد السفراء فوق العادة . وبناء على طلبه سمح له بالمثول أمام الوزير الثالث من زيفونلى قره مصطفى باشا ، قائمقام الصدارة (وكيل رئيس الوزراء) . صرح بأنه مفوض للتفاهم حول أى طلب تطلبه العثمانية لعقد الصلح ، شرط أن تبقى كاندية لدى البندقية . وأفاد بأن المسألة لو كانت فى سلطة مجلس أعيان الجمهورية لترك كاندية منذ زمن بعيد ، فقد أصبحت هذه القضية بلية ، ولاتستأهل فقدان البندقيين هذا القدر من النفوس والأموال ، لكنه يخشى أن يحاسبهم حكام الدول الأوروبية العديدة

وعلى رأسهم البابا ولويس الرابع عشر على ماأرسلوه من مساعدات وجنود ونقود كثيرة إلى كاندية .

كان لويس ١٤ قد أرسل إلى Morosini ، الذى يدافع عن كاندية فرقة بقيادة دوق ومبالغ كبيرة من النقود (Bougeois ، ١ ، ٧١) ، ومن ناحية أخرى كان السفير التركى سليمان أغا المرسل إلى باريس ، يستقبله لويس ١٤ بمراسم فوق العادة . إن الذى عرف القهوة – التى يحب شربها الفرنسيون الآن – للفرنسيين وجعلهم يتذوقونها هو سليمان أغا هذا . وقد انتشرت فى فرنسا مع هذه البعثة عادات وأزياء ملابس الطراز التركى وأصبحت طرازا ونموذجا عاما . إن موليير يستهزىء بهذا الطراز المسمى « Turquerie » فى كتابه Bourgeois Gentilhomme وينقد أشراف الفرنسيين الذين يقلدون الأتراك (هامر ، ١١ ، ١٩٥ ؛ Vandal, Marquis de Nointel ، ٢٢ ٣٤) . وقد لحن ملحن القرن ١٧ الفرنسى الكبير Lulli الأغانى على شرف السفير التركى .

وخلال المرحلة الأخيرة لحرب كاندية كان محمد الرابع يتجول فى Tesalya للعبور إلى كريت إذا اقتضت الضرورة . وذات مرة تسلق على ذروة جبل أوليمبوس الذى يعتبر ملتقى آلهة اليونان القدامى . وأثناء تسلقه سقط حصانه الذى كان يركبه إلى الهاوية ومات . ورغم أن البادشاه نجا من قبيل الصدف ، إلا أنه استمر على الصعود مشيا على الأقدام . والمشهور عنه أنه أثناء اقترابه من الذروة قفز بحصانه من حافة هاوية عريضة مما أدهش معيته الذين لم يجسروا على ذلك (هامر ، ٢٠٠/١١) .

بدأ الحصار النهائى لكاندية فى ١ حزيران ١٦٦٩ . وفى ٢٤ حزيران جاء الأسطول الفرنسى ودخل الميناء بغتة ، وأنزل ١٦٠٠٠ جندى فرنسى آخر إلى القلعة . كان هذا الجيش يضم عدة أمراء فرنسيين وأشراف . قتل فى ٢٥ حزيران دوق Vendôme الأمير François (١٦١٦ – ١٦٦٩) حفيد هنرى ٤ وابن أخ لويس ١٤ ، وفى ٢٩ حزيران قتل الدوق Beaufort أحد دوقات الإنكليز . خرج الإنكيز الموجودون فى القلعة وبيدهم العلم الأبيض وأفادوا بأن الدوق هو ابن أخ الملك ، ورجوا تسليم الجثة إليهم لإرسالها إلى إنكلترا ، ووصفوا الامير بإسهاب .

أمر الصدر الأعظم بالبحث عن الجسد ، ولم يعثر عليه بين آلاف القتلى . وفى ٣ تموز ، نقلت ١٥ سفينة فرنسية و ٩ بابوية و ٧ مالطية و ٤ بندقية المعونات إلى كاندية . كان يدافع عن القلعة ١١٠٠ مدفع بندق ، عدا مدافع الأسطول الراسى فى الميناء . لم تكن السفن التركية تستطيع الدخول إلى الميناء ، إذ إن جهة القلعة التى تشرف على البحر كانت تحمى بمدافع جبارة . وفى ٩ آب ، أصيب كونت Waldeek أحد الحكام الألمان ومات .

كان Francesco Morosini يتولى الدفاع عن كاندية منذ ١٣ عاما ويعتبر من أكبر العسكريين فى عصره . جمع جنرالات وإميرالات الأقطار المختلفة فى مجلس عسكرى ، وأفاد بأنهم يملكون القسم السطحى فقط للقلعة وأن الأتراك أسسوا مدينة تحت القلعة وشقوا لها شوارع وأزقة ، وأنهم يفجرون الأنفاق عدة مرات يوميا . أفهمهم بأن ليس بالأمكان الدفاع عن هذه القلعة أكثر من ذلك ، وحتى لو أمكن استمرار الدفاع فإن القلعة لاتعادل حجم الخسائر فى الأرواح والأموال . راجع Moro Sini فى ٢٨ آب (١٦٦٩) فاضل أحمد باشا ، وطلب المفاوضة .

وأثناء استمرار المفاوضات يوم ٣١ آب جمعت الأساطيل الفرنسية والبابوية والمالطية جنودها الأحياء والجرحى وتركت كاندية . وبخ البابا بعد ذلك ، أشد التوبيخ أميراله الذى ترك كاندية قبل انتهاء المفاوضات . ولم يوافق لويس ١٤ حتى نهاية حياته على مقابلة الدوق Noailles لهروبه من كاندية . لقد أفزعت دموية ووحشية الحرب الأوروبيين . والحقيقة هى أن القائد العام البندق موروسينى لم يطلب المفاوضة وضمان الأمان من العثمانية ، إلا بعد تصريح دوق Noailles الذى حدث فى ٢٠ آب والذى ذكر فيه أنه سيسحب جنوده إلى فرنسا وأنه تكبد خسائر فادحة .

وقعت المعاهدة يوم ٥ أيلول وأوقفت الحرب . دام حصار كاندية النهائى هذا ٣ أشهر و ٤ أيام . تنص معاهدة كاندية المحتوية على ١٨ مادة والتى عقدت بعد مؤتمر دام ٨ أيام على مايلى :

تنتقل إلى العثمانية كاندية والـ ١١٠٠ مدفع الموجودة بداخلها وجميع المهمات العسكرية. تعود جزيرة كريت لتركية . تترك ٣ قلاع صغيرة للبندقية ، شرط عدم

استعمالها فى غير المعاملات التجارية (ضمت هذه القلاع بعد مدة إلى العثمانية) . يمكن لأفراد حامية كاندية الذهاب إلى البندقية سالمين حاملين معهم مايستطيعون حمله من المال والسلاح . لايسمح بحمل الأموال بواسطة الدواب . تخلى المدينة وتسلم إلى الجيش العثمانى خلال ١٢ يوما . لايسمح خلال هذه المدة بإجراء أية معاملة سيئة ، مهما كانت ، تجاه المسلمين الأسرى الموجودين داخل القلعة ، وأساسا فإنه سيتم خلال هذه المدة مبادلة أسرى كلا الطرفين ، وفور التوقيع على المعاهدة ، ستعلن الهدنة بإطلاق المدافع وسوف لايطلق بعد ذلك أى سلاح .

وهكذا انتهت الحرب العثمانية – البندقية التى دامت ٢٤ سنة و ٤ أشهر و ١٦ يوما والتى كانت دموية حقا بمؤتمر صلح دام ٨ أيام فقط . مضى على الحصار الأول لكاندية الذى أجراه فاضل أحمد باشا سنتين و ٣ أشهر و ٢٠ يوما و وخلال هذه المدة فقط استشهد تقريبا ٣٠٠٠٠ جندى عثمانى ، استهلك ٧٣٠٠٠٠ قنطار من البارود ، فجر ٣٥٠٠ لغم (نفق أرضى) أما البندقيون فخلال نفس المدة خسروا ٢٠٠٨٨ قتيلا ، حققوا ٨٠ خروجا ، صدوا ٦٩ هجوما عثمانى وفجروا ١٣٦٩ لغما . ويروى أن ١٣٠٠٠٠ عثمانى قتلوا فى كريت خلال ربع قرن . وبهذا فقط أمكن إزاحة حكم الإيطاليين من الجزيرة الذى دام ٤/٥ قرن . كان عزم كوبرولو – زاده هو الذى حقق فتح الجزيرة . ولولا وجود شخص يعتمد عليه تمام الاعتماد ، فى العاصمة مثل مرزيفونلى قره مصطفى باشا لما وجد أى صدر أعظم فى نفسه الجرأة الكافية للابتعاد عن المركز هذه المدة الطويلة . إذ إنه لم يخرج من كريت أبدا طيلة ثلاث سنوات ونصف . وقد عمل ذلك ليكون قدوة للجيش .

وفى الساعة ٩ من صباح يوم ٢٧ أيلول (١٦٦٩) قدم البندقيون إلى السردار الأكرم داخل صينية فضية مفاتيح كاندية الـ ٩٣ . بدأت الوحدات التركية فى دخول المدينة . أخذ الروم المحليون يهتفون الهتافات الموالية ؛ لأن آخر قطعة أرض يتكلم ساكنوها اليونانية تنضم إلى الدولة العثمانية . و بعد ذلك ، استقبل كوبرولو – زادة Moroxsini الذى دافع عن القلعة بشرف سنين طويلة . حادثه بكلمات رقيقة جدا وقدم له الهدايا الثمينة . قام باشوات العثمانية بزيارات مجاملة للأشراف الإيطاليين ، الفرنسيين ، الألمان ، الإسبان ، الإنكليز الذين كانوا يدافعون فى الخنادق المقابلة لهم وكان بينهم أيضا Duc de la Feuillade من أكبر أشراف الفرنسيين . زار أغا

الإنكشارية (ينى جرى أغاسى) الجنرال Coigny السويسرى وأثنى على قدرته العسكرية وهنأه على ذلك . كان العدو ممتنا بقدر ماكان الأتراك كذلك عند إنزال الصلبان الموجودة على القلعة ورفع العلم التركى ذى الهلال مكانها . استقبل الكل بسرور انتهاء هذه الحرب الجنونية .

أنيرت الجزيرة بكاملها ٧ ليال وأطلقت القذائف الضوئية تعبيراً عن الفرح طيلة ٧ ليال . قبل كوبرولو - زاده يد والدته المسنة عائشة خاتون ، التى أصرت على عدم الذهاب إلى الحج قبل أن ترى فتح كاندية .عاشت مع ابنها تحت الأرض ، وتحركت الآن متوجهة إلى الحج مرتاحة الضمير . والمعلوم أن كوبرولو محمد باشا ، مدين برخائه لثروة زوجته الكبيرة عائشة خاتون والكوبرولو الأصلى هو يوسف أغا والد عائشة خاتون الذى كان فويفودا (أمير) الجسر (كوبرى) لـ (وزير كوبرى) . كان محمد الرابع فى هذه الأثناء يذهب من ينى شهر إلى آغرى يوز ، كان فى Livadya (شمال - شرق أثينا) . عندما أيقظ مرزيفونلى قره مصطفى باشا قائمقام الصدارة السلطان من نومه ليلا وأعلمه بفتح كاندية ؛ أظهر الخاقان سروره بقوله « الحمد لله » . وبينما كان يريد التوجه إلى كريت قرر العودة إلى سلانيك . أرسل إلى كوبرولو - زاده سيفا مرصعا وخطا همايونيا يبلغه فيه تبريكه .

قضى كوبرولو - زاده شتاء عام ١٦٦٩ - ٧٠ كذلك فى كريت وأشرف على إصلاح القلاع والأسوار والأبنية وإنشائها مجددا وجرى العمل على قدم وساق . غادر الجزيرة بعد فتح كاندية بـ ٧ أشهر و ٨ أيام (١٦٧٠/٥/٥) . قضى فى جزيرة كريت بصورة كاملة مدة ٣ سنوات و ٦ أشهر ، ٣ أيام يشاهد بدهشة عظيمة التغيرات والحفر الكبيرة والتلال الصناعية التى أحدثتها مدافع وألغام الطرفين فى طبغرافية الجزيرة . صار الوزير عنكبوت أحمد باشا قائد كريت السابق بكلربك على كريت . نزل كوبرولو - زاده إلى البر فى تكرداغ وذهب إلى أدرنة لمقابلة البادشاه . وفى ١ تموز ١٦٧٠ استقبله محمد الرابع بتلطف لم يسبق له مثيل إلى ذلك الحين - خارج أدرنة وهو على ظهر جواده . كان البادشاه قد بلغ ٢٨/٥ عاما والصدر الأعظم يكبره بـ ٦ أعوام فقط .

لم يسبق حتى ذلك اليوم وفى أى قطر من أقطار العالم أن يكرّس جهد لقلعة واحدة كما كرس لكاندية ، ولم يسبق أن يصرف على أى موقع مستحكم هذا القدر

من الأنفس والأموال . حوصرت القلعة ٣ مرات خلال ٢٥ عاما . قصف كلا الطرفين الآخر بقذائف يزن بعضها ٥٠٠ ليبره . أطلق البندقيون ، للدفاع عن القلعة ما مجموعه ٢٧٦٧٤٣ قذيفة مدفعية و ٤٨١١٩ قبرة ، ١٠٠٩٧٠ قبرة يدوية ، ٤٨٧٤ قبرة كيماوية واستهلك لذلك ١٨٠٤٤٩ قنطارا من الرصاص ، ١٢٥ ١٣٠ فتيلة ، ٥٢٧٠ برميل بارود . أما الأتراك فاستهلكوا ٠٠٠ ٧٣٢ قنطارا من البارود (فون هامر ، ١١ ، ٢٢٧) .

قسمت إيالة كريت إلى سناجق (ألوية) خانيا ، كاندية ريسو وانتقل أحد المراكز البحرية من المراكز الثلاثة التى تركت للبندقية Granbosa فى ١٦٩٢ و SUda و Spinalonga فى ١٧١٥ إلى العثمانية ، وهذه آخر بقايا حكم إيطاليا الكاثوليكية واللاتين الذى استمر عصورا طويلة – وكلها من نتائج الحروب الصليبية التى تم قلعها من أرخبيل الجزر وشرق البحر الأبيض .

٥٩) تشكيلات الإنكشارية فى المغرب (مغرب أوجاقلرى ، بحريات إيالات الجزائر ، تونس ، طرابلس ، ليبيا)

إن خدمات القطع البحرية للجزائر ، تونس ، طرابلس كانت خدمات كبيرة طيلة فترة استمرار حرب كريت وذلك إما بدخولها إلى مياه كريت واشتراكها فى القتال ، أو بقطع طرق المعونات الأوروبية . ومنها قوة جزائر البحرية . كانت أسطولا بالمعنى الصحيح . وفى ربيع عام ١٦٥٠ قصف الأسطول الجزائرى خليج ليون ، Côte d'Azur ، بحر ليكوريا ، كورسيكا وفى أيلول شوهد فى نابولى . وفى عام ١٦٥١ التالى حققوا إنزالا على Civitavecehia ووصلوا قرب روما . وفى ١٦٥٣ قصفوا Balearlar وخرجوا إلى المحيط الأطلسى ودخلوا بحر المانش وأحرقوا Saint Malo مركز قراصنة الفرنسيين مع السفن الراسية فى الميناء ، ثم دخلوا ميناء Plymouth وحرقوا السفن الإنكليزية . وبهذا يكونون قد انتقموا منهم لمساعداتهم التى قدموها لكريت .

وعند تثبيت نهر Tafna حدودا فى ١٦٤٩ انتقلت Vacda – وهى أهم مدن فاس القريبة من الجزائر – إلى إيالة الجزائر . كانت تطوان مركز البحر الأبيض ،

وسالة مركز المحيط الأطلسى لقراصنة فاس . كان أكثرية الربابنة أتراكا من الأناضول ، وأكثرية الملاحين من المهاجرين الأندلسيين . الأميرالان : رئيس القراصنة الأندلسى الأصل المسمى عياشى وخلفه غيلان كانا يتسلمان المعونات سواء من الجزائر أو من إستانبول رأسا ، وكانا يرسلان الهدايا إلى السلطان .

وفى عام ١٦٦١ سار أسطول الجزائر فى البحر الأدرياتيكى واليونانى واقتحم المدن التابعة للبندقية وإيطاليا . وعاد إلى الجزائر بغنائم تقدر بـ مليونين سكة ذهبية . وبعد ضرب إسبانيا و **Balearlar** ، جرى إنزال على **Livorno** . وفى ١٦٦٣ اقتحم أحد الأساطيل نابولى ، واقتحم الآخر قادش **Cadiz** أكبر مركز بحرى لإسبانيا على المحيط الأطلسى . وحصل أسطول الجزائر (الذى اقترب حتى ميناء البندقية فى ١٦٦٤) ، فى السنة التالية فى المحيط الأطلسى بقطعه طريق السفن التى تنقل البضاعة من الهند – على غنائم تقدر بـ ٢ مليون سكة ذهبية . اقتحمت نابولى فى ١٦٦٦ ، وبعدها جرى إنزال على **Otranto** .

وفى ١٦٦٧ أوقف أحد الأساطيل فى الأطلسى السفن التى تنقل البضاعة من الهند ، وحقق أسطول آخر إنزالا على سواحل نابولى وجزيرة كابرى . وفى ١٦٦٨ تم حرق السفن الراسية فى ميناء **Genova** ثم قصفت سواحل **Pulya** . وفى ١٦٦٩ قصفت **Côte d'Azur** وخلال ذلك تم قصف ميناءى **Genova** و **Monaco** . وفى العودة تم تحقيق إنزال على كورسيكا . وتم فى ١٦٧٠ تخريب موانىء خليج **Man Fredonia** فى الأدرياتيك . وفى ١٦٧١ تم قصف سواحل **Kalabria** ، **Pulya** صقلية التابعة لإسبانيا . وتم فى ١٦٧٢ تخريب سواحل نابولى والأدرياتيك . وفى ١٦٧٥ تم قصف سواحل **Latium** التابعة للبابوية ، ومحيط روما وجنوب إيطاليا العائدة لإسبانيا وصقلية . وقصف ميناء **Malaga** العائد لإسبانيا وموانىء البرتغال الواقعة على الأطلسى (لخص عن **Grammont**) .

كان فى الأسطول الجزائرى ، عام ١٦٢٠ ، ٣٠٠ ربان (قبطان) تركى ماهر ، ٨٠ سفينة ومئات من السفن الصغيرة . كان قوام تشكيلات (أوجاق) الإنكشارية فى الجزائر ٢٢٠٠٠ شخص . أما صنف قول أوغوللرى ووحدات الخيالة من العرب البرابرة المحليين فكانوا يشكلون وحدات منفصلة . تغير هذا الوضع فى أواخر العصر ١٧ أخذ عدد الأتراك القادمين من الأناضول وروملى إلى الجزائر يقل جدا . وعدد

جنود البحارة الإنكشاريين (لوند) أخذ يقل هو الآخر بشكل خطر . عدد الإنكشارية هبط من ٥٠٠٠ فى ١٧٦٩ ، إلى ٣٢٠٠ فى ١٨١٧ . اضطر البكلربك (دايى) إلى تقديم رتب جماعة « القول أوغوللرى » وتشكيل الجيش من أفرادهم . إن « القول أوغوللرى » هم أتراك مولودين من النساء المحليات و لم يكن فى استطاعتهم تنفيذ شئون البحارة (لوند) ، لكنهم كانوا عساكر بر قديرين . أخذت عناية إستانبول بالجزائر تقل على مر الزمن لانشغالها فى مشاكلها . لم تكن المساعدات تصل كما كانت فى السابق . هيأت هذه العوامل الجو الملائم لفرنسا للاستيلاء عليها عام ١٨٣٠ .

وفى ١٦٧٩ اقتحمت فى الأطلسى جزر Asor التابعة للبرتغال ، وفى ١٦٨١ اقتحمت سواحل كورسيكا ، صقلية ، نابولى ، لاتيوم وتم الاستيلاء على ١٠ سفن بابوية راسية فى Civitavecchia . وفى ١٦٧٩ أراد سلطان فاس إسماعيل الكبير ، الاستيلاء على الجزائر لكنه هزم وانسحب . وفى ١٦٨٢ تم الاستيلاء على ٢٩ سفينة فرنسية ، و ٣٥٠ سفينة إنكليزية خلال ٤ سنوات . وقبل ٣ أيام من بدء مرزيفونلى قره مصطفى باشا محاصرة فينا صار ميزومورتا حسين رئيس « دايى » فى الجزائر (١٦٨٣/٧/١١) ومنح رتبة الباشوية وبكلربك (فريق) . هذه الشخصية صارت بعد ذلك قبطان دريا (مشير بحرى) وهو آخر أميرال داهية أنجبه الأتراك . وفى ١٦٩٠ استدعى ميزومورتا حسين باشا إلى إستانبول ، وترك شعبان دايى نائبا عنه فى الجزائر . صار فى البداية أميرالا لأسطول السفن الحربية الشراعية (كاليون) ، وبعد مدة صار قبطان دريا . وفى ١٦٩٣ دخل مولاى إسماعيل الكبير إلى الجزائر مع ١٤٠٠٠ مشاة و ٨٠٠٠ خيال ومدفعى ، واسترجع Vacda . أدركه شعبان دايى مع ١١٠٠٠ انكشارى و ٣٠٠٠ سباهى و ١٠٠٠ خيال عربى.رغم تكبد الجيش الفاسى ٥٠٠٠ قتيل ، ظلت Vacda لدى فاس . استاءت إستانبول من إدخال دولة إسلامية كفاس جنودها فى إيالة الجزائر فى الوقت الذى تخوض فيه العثمانية مع أوروبا معركة حياة أو موت . أرسلت إستانبول سفيرا إلى مكناسة . أراد سلطان فاس إرسال مولاى عبد الملك أحد أبنائه إلى الجزائر لحل مشاكل الحدود . إلا أنه لم يحصل اتفاق . غلب وجرح السلطان إسماعيل الذى يقود ٥٠٠٠٠ جندى تجاه مصطفى دايى وقتل أكثر من ٣٠٠٠٠ فاسى فى الحرب الميدانية جدوئة

(١٧٠٠/٤/٢٨) . وانتقل مزراق السلطان ليد الأتراك . ترك مولاى إسماعيل الذى عاشت فاس على عهده آخر أيام عظمتها التدخل فى شئون الجزائر .

وفى السنين ١٦٩٢ و ١٦٩٥ طلب الديوان انسحاب الأسطول الجزائرى إلى بحر الأرخبيل ، كان أسطول الجزائر حتى ١٦٩٩ يشترك فى حروب العثمانية ضد الدول الأوروبية ، وضرب فى كل عام تقريبا إيطاليا وصقلية . إلا أنه فى هذا التاريخ عقد صلح بين العثمانية وأوروبا . وقلت الغنائم التى كانت ترد إلى الجزائر . وبسبب عدم مجىء (لوند) بحارة إنكشارية من الأناضول ، أخذ أسطول الجزائر يتقلص . ازدادت الحاجة إلى البحارة إلى درجة أن أسطولا جزائريا جاء فى عام ١٧٠٠ إلى ميناء فوجا فى أزمير وأخذ ماصادفه من الشباب بالقوة إلى الجزائر وسجلوهم بحارة . احتسبت هذه العملية ضد أسطول الجزائر ، حيث ألغى الديوان الهمايونى ، امتياز تسجيل الجزائر لشباب الأناضول الراغبين اختياريا الانخراط فى سلك البحرية والذى كانت الجزائر قد حصلت عليه منذ منح السلطان ياووز سليم هذا الامتياز إلى أخوة باربروس ، لكنه أجاز ذهاب شباب الأناضول الراغبين إلى الجزائر وتسجيلهم بحارة (لوند) وقد بقى هذا السماح الأخير حبرا على ورق . إذ إن ذهاب شاب أناضولى فى ذلك العهد إلى الجزائر بإمكاناته الخاصة لم يكن بالأمر السهل (Mühimme ، ١١١ ، ٤٩٣) . وفى مستهل القرن ١٨ كانت بحرية بكلربكية الجزائر العظمى فى قمة عظمتها ، ثم أخذت فى التدهور .

ونفس الحكم سار بالنسبة لبحريتى البكلربكوية الآخريين من بحريات البكلر بكوية الثلاث التى يطلق عليها العثمانيون اسم « مغرب أوجاقلرى » وهى بحرية تونس وطرابلس (ليبيا) .

وفى تونس بقيت الإيالة تحت إدارة أغوات الإنكشارية فعلا والتى تسمى (دايبلق دورى) فترة الدايات التى استمرت ٦٥ سنة من ١٦٤٠ إلى ١٧٠٥ .

وفى ١٧٠٥ عاد حكم البكلربك . صار حسين باشا ابن تورك على باشا بكلربك (١٧٠٥/٧/٩) . بدأ بعد هذا التاريخ فى تونس تعيين البكوات من هذه العائلة ، تأسست السلالة التى تسمى الحسينيين ، والتى يطلق عليهم اسم « بكوات تونس » . أما فى طرابلس فقد بدا عهد « الداى » بعد أن خسر عثمان باشا الكفاح ضد

الإنكشارية (١٦٧٢/٤/٢٩) . ولكن كان بعض البكلربكوات يملون رغباتهم على الدايات ويتحكمون فى إدارة الإيالة .

٦٠) حرب بولونيا (١٦٧٠ - ١٦٧٦)

فى هذه الفترة التى أخذ فيها نجم أوروبا الغربية كفرنسا ، إنكلترا ، هولندا ، السويد فى التألق دخلت بولونيا (بالتركية لهستان) فى دور الانحطاط مثل إسبانيا والبندقية . ورغم أنها كانت آنذاك دولة أهم من روسيا إلا أنها استنفدت قوتها السابقة (فى عام ١٧٠٠ تقريبا ، كان تعداد روسيا وبولونيا يساوى أحدهما الآخر وكل منهما ١٢ مليونا) . عين سوبياسكى Sobiesky فى ١٦٥٦ سفيرا فى إستانبول (هو الذى سينتخب ملكا فى ١٦٧٤) . ويروى أن تفشى الطاعون عام ١٦٦٠ ، قضى على ثلث نفوس بولونيا (A.Jobert, Histoire de la Pologna ، ص ٢٩) (وبعدها طاعون عام ١٧١٠ - ٢٠ السارى ، أفنى الملايين من البولونيين ، نفس الكتاب ، ٣١) . ومع ذلك كانت بولونيا - ليتوانيا لاتزال الثالثة من جهة التعداد فى قارة أوروبا بعد تركية ، فرنسا ، ألمانيا ، بينما كان تعداد الدول كروسيا ، إسبانيا ، إنكلترة فى قارة أوروبا أقل من ذلك . ومع أن بولونيا دخلت فى فترات مختلفة تحت النفوذ العثمانى حتى إنها اعترفت بتبعيتها للسلطان ودفعت ضريبتها السنوية إلا أن خلافات تركية معها والتى كانت تتطور بين الحين والآخر إلى درجة القتال لم تحقق النفع للعثمانية ، وفيما لو أخذنا بعين الاعتبار التطورات التى حصلت بعد ذلك وأنها - لكونها كانت تؤمن النفع لروسيا - فإنها كانت مضرة للعثمانية ، إذ لم يكن بالإمكان فى القرن ١٧ رؤية التطورات المقبلة حيث إن بولونيا كانت فى البداية دولة أقوى وأكثر أوروبية من روسيا ، وكان من الطبيعى أن ترجح العثمانية الوقوف أمام الأقوى . ثم إن بولونيا كانت كاثوليكية . ولم تكن علاقات العثمانية حسنة مع العالم الكاثوليكى . ولم يتسن فى أى وقت من الأوقات عقد صلح مع دولة البابوية ، أو التوقيع معها على معاهدة . لأنه لم يأت بابا على الإطلاق مستعد لترك فكرة إزاحة العثمانية من القارة الأوروبية . أما روسيا فكانت أرثوذكسية ، ولم يكن ارتباطها بالبابا بل بالبطريق العالمى فى إستانبول . إذ إن باتريك (بطريق) موسكو كان تابعا لبطريق

فنر Fener فى إستانبول . أما البادشاه بصفته إمبراطور البيزنط (بالعثمانية قيصر الروم) فقد كان حاميا للأرثوذكسية والباتريك العالمى وفى نفس الوقت حاكمهم . كان عدم جعل الأرثوذكسية لقمة سائغة للكاثوليكية هو مبدأ سياسة العثمانية الذى لم يتغير لعدة عصور . إن تحركات روسيا كان فى الإمكان وقفها عند حدها بواسطة خان قرم . أما بولونيا فقد استوجبت تحركاتها إدخال الجيش فيها مرات عديدة حيث كان يسهل على بولونيا أكثر من روسيا الاتفاق مع الدول الأوروبية للوقوف ضد العثمانية .

كانت القضية الرئيسية .. أوكراينا . كانت سواحل البحر الأسود لأوكراينا الحالية مسكونة بالأتراك ، وتحت إدارة العثمانية – وكان يسكن بقية البلاد ، الأوكران (الأوكرانيون) وهم أرثوذكس ، والقسم الأكبر من اوكراينا كان تحت إدارة قرم أو تحت نفوذها . أما القسم الشمالى – الغربى من البلاد ، فكان تحت حكم بولونيا الكاثوليكية . وكان احتمال تدخل الروس من الشمال يزداد يوميا . هتمان (أمير) أوكراينا دوروشنكو ، صار تابعا للعثمانية ومنح رتبة صنجق بك بينما كان تابعا لبولونيا . وعندما عارضت بولونيا ذلك ، أرسل الديوان الهمايونى ٦٠٠٠ جندى لمساندة دوروشنكو ضد الإستيلاء البولونى ، سرت روسيا لتورط العثمانية وبولونيا بسبب أوكراينا سرورا كبيرا . لم يفزع بولونيا ادعاء العثمانية حكم أوكراينا بأجمعها ، ومساندة هذا الإدعاء بالسلاح والجيش ، ولم تتخل عن اوكراينا . على أثر ذلك ، قررت الحملة الهمايونية (الحملة التى يقودها البادشاه بنفسه) . وكان قد مضى على الحملة الهمايونية لعثمان الثانى عم محمد الرابع – على بولونيا ، ٥١ عاما .

تحرك محمد الرابع للحملة الهمايونية مع الجيش من أدرنة (١٦٧٢/٦/٤) . كانت القيادة الفعلية للصدر الأعظم كوبرولو – زاده فاضل أحمد باشا . نصب أحد ضباط الاستحكامات المسمى بلغرادلى زعيم يوسف أغا على نهر دجلة جسرا طوله ٥٦٥ مترا وعرضه ٧ أمتار واجتاز عليه الجيش إلى مولدافيا (سلاحدار ، ١ ، ٥٧٥) . كان فويفودا افلاق هتمان دوروشنكو ، خان قرم سليم كيراى ، ضمن الجيش العثمانى . جاءوا إلى قلعة كامانيجو (بالاوكرانية : Kamenec Podolsk ، بالبولونية : Kaminiee) وبعد حصار دام ٩ أيام ، فتحت القلعة (١٦٧٢/٨/٢٧) . تقابل هذه القلعة قلعة خوتين التى استولى عليها الأتراك على

عهد عثمان الثانى ، وتقع خوتين على الساحل الجنوبى مـــن نهر Dnyestr (بالتركية تورلا) ، أما كانيجه فتقع على مسافة ٢٠ كم فى الشمال – الشرق وعلى الضفة الشمالية من النهر ، وتقع مدينة جرنوفيج على مسافة قريبة من جنوب – غربى خوتين .

كان يقدر للقلعة أن تقاوم مدة شهرين ، ولما سقطت خلال ٩ أيام ، ولد ذلك الذعر فى وارسو . كان القائد العام البولونى سوبياسكى ، على رأس قواته ، وكان يراقب حركات الجيش العثمانى من مسافة معينة ، ويحرص على عدم الاقتراب . تقدم الوزير قبلان مصطفى باشا (الذى كان صهرا لكوبرولو محمد باشا،كما كان مرزيفونلى قره مصطفى باشا) ، نحو الشمال – الغربى مع عدة فرق ، وحاذى السواحل الشمالية لنهر Dnyestr حتى وصل مصبه . وخلال شهر أيلول استولى على بولونيا بأسرها وغاليجيا . وفى ٩ أيلول ، فتح Lwow (Lemberg / Leopol بالتركية ايلباف) وهى من أكبر مدن بولونيا (حاليا فى اوكراينا) وصار يذكر باسم « فاتح ايلباف » . استمر نحو الشمال – الغربى واستولى على مدينة Lublin ، والمناطق الواقعة على شرق نهرى سان وفيستول . وصل نقطة عرض ٥٢ وعلى بعد ١٠٠ كم من وارشو . طلبت بولونيا الصلح ، فأوقفت العثمانية الحركات العسكرية .

وقع فى قصبة بوجاس (Buezacz) فى بولونيا على معاهدة ذات ٤ مواد (١٦٧٢/١٠/١٨) :

تبقى بولونيا لدى العثمانية وغاليجيا ، لدى بولونيا ، تقطع بولونيا كافة علاقاتها مع اوكراينا ، وتعترف بالبادشاه متبوعا لها وتدفع ضريبة سنوية قدرها ٢٢٠٠٠٠ سكة ذهبية . تم تأسيس بكلربكوية (إمارة) Ilbav فى بلاد Padolya بين Dnyestr و Bug ، استمرت الحملة الهمايونية ٦ أشهر ، ٥ أيام وعاد محمد الرابع إلى أدرنة (١٦٧٢/١٢/٩) .

تحرك البادشاه والصدر الأعظم اللذان بقيا فى أدرنة ٨ أشهر ، لحملة بولونيا الثانية فى ١٦٧٣/٨/٧ . اعترض ديت بولونيا (مجلس الأشراف) على معاهدة بوجاش . كانت كل من اوكراينا وبادوليا فعلا بيد العثمانية ، لكن عدم الاعتراف بمعاهدة موقعة ، أدى إلى الحرب . وكانت العثمانية ، قد أخلت بموجب معاهدة بوجاش ، غاليجيا والأراضى البولونية التى تقع على شمالها .

كذلك كانت بولونيا قد اعتمدت ، على وعود المانيا والبابا بالمساعدة . استعاد سوبياسكى من العثمانية ، فى فصل الشتاء لوبلين (على بعد ١٥٥ كم من جنوب - شرق وارشو) ، وحتى Lwow . ثم هزم بجيشه البالغ ٨٠٠٠٠ جندى ، جيش صارى حسين باشا البالغ ٣٠٠٠٠ جندى فى حرب ميدانية خلال ٣ ساعات واستعاد خوتين (١٠/١١/١٦٧٣). أدى هذا الانتصار إلى انتخاب سوبياسكى ملكا.

بقى الجيش الهمايونى مع البادشاه والصدر الأعظم ٦١ يوما فى اساكجه على نهر الدونة ، وفى ٢٠ ت٢ ، دخل المشتى فى حاجى اوغالو بازارى . تحرك الجيش الهمايونى ، مع البادشاه والصدر الأعظم ، من حاجى اوغلو بازارى فى ١٦/٦/١٦٧٤ . دخل اوكراينا وبولونيا . طلب سوبياسكى الصلح ، بقى محمد الرابع ٣٢ يوما فى Ladjin (Ladyzyn) على نهر Bug بين بودوليا واوكراينا ، وبعد تثبيت مواد الصلح ، تحرك فى ١٨ أيلول وعاد إلى أدرنة (٢١/١١/١٦٧٤) . دامت حملة بولونيا الثانية سنة وثلاثة أشهر وخمسة عشر يوما ، ووقعت معاهدة Zorawno (٢٧/١٠/١٦٧٦) على أن تبقى خوتين بادوليا ، Lwow (Ilbav) ، اوكراينا لدى العثمانية ؛ غاليجيا ولوبلين لدى بولونيا . وهكذا انتهت الحرب التركية - البولونية التى استمرت ٤ سنوات ، ٤ أشهر ، ٢٣ يوما . أمَّنت هذه المعاهدة بين الدولتين صلحا لمدة ٧ سنوات . والغت المادة التى تنص على تبعية بولونيا للعثمانية فى معاهدة بوجاش .

٦١) وفاة كوبرولو - زاده فاضل أحمد باشا وصدارة مرزيفونلى قره مصطفى باشا (٣/١١/١٦٧٦)

توفى فاضل أحمد باشا عن عمر يناهز ٤١ عاما ، بعد أن بقى فى الصدارة بصورة مستمرة ١٥ سنة ، ٤ أشهر (تسلسله فى طول المدة ، الخامس بين رؤساء وزراء تركية) . قضى القسم المهم من صدارته فى جبهات المانيا ، البندقية (كريت) ، بولونيا . بقيت الإدارة الداخلية خلال هذه المدة بيد وكيله الوزير ٣ مرزيفونلى قره مصطفى باشا ، بصفة وكيل رئيس الوزراء . ولم تكن صدارة الوزير ٢ ، داماد صاحب مصطفى باشا ، موضوع بحث ؛ بسبب كونه من المنتسبين إلى السراى .

كان فاضل أحمد باشا أحد أكبر رؤساء الوزارة فى تاريخ تركية المعدودين ، لم يخلف ولدا . استمر نسل كوبرولو ، من أخيه فاضل مصطفى باشا . كان فاضل أحمد باشا ذا عينين كبيرتين فاتحتين ، أبيض البشرة ، طويل القامة ، ضعيفا ، ذا لحية صغيرة ، جذابا ، محبوبا ، جادا ، كريما ، وقورا ، مجتهدا . زاد بالمشروب اتلاف جسمه الرقيق ، وكان كلامه منسقا جدا ومؤثرا ينفر من الرشوة إلى حد أنه لايقبل هدية . (يعيد الهدية ولايحقق طلب مرسلها ، إن كان له طلب) . لم يرث عن أبيه ظلمه واستبداده ، بل ورث عنه عزمه ودهاءه . قوى الذاكرة ، واضح التفكير ، سريع البديهة ، حذرا ، حازما عند اللزوم . لايعد بما لا يستطيع تنفيذه . ينفر من المرائين والثرثارين والمتملقين . يتكلم باحترام مع الأشخاص الجادين والعلماء ، ويحاول تحقيق كل طلباتهم ، وعلاوة على ذلك ، كان يحميهم شخصيا . وكان غنيا جدا . خصص معظم ثروته للأعمال الخيرية . كان عالما . بدأ حياته المسلكية كمساعد لشيخ الإسلام قره جلبى – زاده عبد العزيز أفندى . كان عالما فى حقول الفقه ، الكلام ، التاريخ . كان من طلاب درويش على أفندى ، خطاطا جيدا وقوى النثر فى الكتابة . مقتدرا على كتابة أعوص المسائل على شكل تقارير دولة ودون كتابة مسودة . كان الشاعر الكبير نابى ، يقوم بوظيفة سكرتاريته الخاصة . حصل على شهرة عالمية تملى الخشية والاحترام لفتوحاته اويفار ، كانديه ، كامانيه ، حروبه فى جبهات المانيا ، كريت ، بولونيا . جعل الدولة تحيا حياة الرفاهية والنظام والعظمة التى كانت فى عهد القانونى ، مدة ١٥ عاما . وكانت السلطانة – الوالدة تارخان ، تلقن سرا ابنها محمد الرابع مساندة صدره الأعظم فى كل الأمور . لم يكن اعتباره لدى الحكام الأجانب بأقل من البادشاه . حقيقة لقد سحق بولونيا ، مما سبب توسع روسيا وتوليد العداء تجاه العثمانية فى بولونيا ، لكن بولونيا كذلك كانت مخطئة بنفس الدرجة فى عدم رؤيتها المستقبل البعيد .

ولد خلفه مرزيفونلى قره مصطفى باشا ، من عابده خاتون فى قرية Marinca القريبة جدا من مرزيفون ، فى نفس العام الذى ولد فيه فاضل أحمد باشا من عائشة خاتون فى قصبة وزير كوبرى . أبوه اوروج أغا ، أحد ضباط السباهية الذين استشهدوا تحت أسوار بغداد فى محاصرة مراد الرابع لبغداد عام ١٦٣٩ ، وفى هذا التاريخ كان قره مصطفى فى الرابعة من عمره . كان اوروج ، فى ذلك التاريخ برتبة

مقدم وكتن أقرب أصدقائه خلال ذلك ، هو سنجق بك (أمير اللواء) كوبرولو محمد بك (باشا) . وقد اعتنى كوبرولو بتربية ابن صديقه مع أبنائه فاضل أحمد وفاضل مصطفى ، المتقاربة أعمارهم ، اصطحبه إلى استانبول واعتنى بتحصيله ، واعتبره ابنه المعنوى ، ثم زوجه بعد ذلك بابنته وجعله صهرا له . كان الشعب يعتبر مرزيفونلى ، الابن الآخر لكوبرولو باشا . أدار الدولة العالمية ، مع أخى زوجته ، صديق طفولته وأخيه المعنوى فاضل أحمد باشا بتناسق تام . وخلال سنوات حملات فاضل أحمد باشا الطويلة ؛ أقام فى إستانبول وأدرنه وأدار دفة الإمبراطورية بجدارة وبصلاحيات غير محدوده . صار سنجق بك (أمير لواء) فى سن ٢٤ ، وبكلربك وتسنم وظيفة قبطان دريا (مشير البحر) مدة ٤ سنوات ، شهر ، ١٤ يوما ووكيل رئيس الوزراء مدة طويلة . تنحدر عائلة مرزيفونلى - زاده - مثل عائلة كوبرولو - زاده - من ناحية الأم ، من صالحه خاتون بنت كوبرولو الذين أدركوا زماننا هذا وقدموا للدولة العثمانية العديد من رؤساء الوزراء ، وزراء ، بكلربك ورجال دولة . أهدى منجم باشى شيخ أحمد ده ده ، كتابه المسمى جامع الدول ، أبدع وأروع ماكتب فى التاريخ العثمانى باللغة العربية ؛ إلى مرزيفونلى قره مصطفى باشا .

٦٢) عهد مرزيفونلى قره مصطفى باشا ،وحرب روسيا (١٦٧٦ - ١٦٨٣)

نشبت الحرب مع روسيا بسبب اوكراينا ، عين فى أوائل عام ١٦٧٧ الوزير شيطان ابراهيم باشا سردارا ، وكان يرفقته سليم كيراى خان قرم . حضر ٤٠ ٠٠٠ جندى عثمانى - قرمى أمام قلعة جهرين (Czehryn) فى اوكراينا . أبدى الـ ٦٠ ٠٠٠ جندى روسى واوكرانى الموجودين فى القلعة ، مقاومة مدهشة . رفع السردار الحصار (١٦٧٧/٨/١٤) ، عزل كل من السردار والخان . وهكذا عزل قره مصطفى باشا ، شخصا قديرا جدا ، آخر عسكرى قرمى كبير مثل سليم كيراى ، وعين مكانه مراد كيراى وهو شخصية ضعيفة وجعله خانا .

غادر محمد الرابع والصدر الأعظم استانبول للحملة الهمايونية الروسية الأولى (١٦٧٨/٤/٣٠) . هذه هى الحملة الأولى لسلطان عثمانى على روسيا . كان يقوم بهذه المهمة فيما مضى - والى ذلك التاريخ - القائد الأعلى وخاصة خان قرم . جاء

الجيش أمام قلعة جهرين على ساحل نهير Tiasmin (بالتركية : تاسما) قرب الساحل الجنوبى لنهر Dnyepr ، ولهذا السبب تسمى هذه الحملة « حملة جهرين » أيضا . كانت قلعة جهرين تقع على مسافة ٤٠ كم فى الجنوب - الغربى من مدينة Kremençug ، وجنوب - شرق كييف بمسافة ٢٣٠ كم . كانت مركزا لقوزاق اوكراينا ودخلها الروس بموافقة القوزاق . كان تحصين القلعة جيدا لاحاطتها بالمستنقعات والصخور المرتفعة وكانت الأراضى ضيقة إلى درجة لاتسمح لجيش كبير بولوجها ومحاصرتها . كان الجيش الروسى البالغ ٢٠٠٠٠٠ شخصا والذى يقوده الأمير Romo danowsky ، مرابطا على الجهة الأخرى من المستنقعات ، أى أنه كان يتخذ المستنقع حاجزا بينه وبين العثمانية .

سقطت جهرين ، رغم ذلك ، بعد حصار دام ٣٢ يوما (١٦٧٨/٨/٢١) . قتل ٢٠٠٠٠ جندى معاد والقيت أجسادهم فى نهر Tiasmin . لم يتقدم محمد الرابع إلى جهرين ، حيث كانت روسيا دولة من الدرجة الثانية ، وبقى فى سلستره ، ثم عاد إلى أدرنه ، وعاد مرزيفونلى كذلك إلى أدرنه فى ١٦٧٨/١١/٢٠ .

غادر محمد الرابع استانبول للحملة الهمايونية الروسية الثانية (١٦٨٠/١٠/٢٩) . بعد مضى سنتين على الحملة الأولى ، وقضى فصل الشتاء فى أدرنة ، لكنه عقد صلحا مع روسيا ولم تتحقق هذه الحملة .

بموجب معاهدة أدرنه (١٦٨١/٢/١١) : التى وقعت عليها العثمانية مع روسيا ، دون وساطة قرم ، ومدتها ٢٠ عاما ؛ تقسم اوكراينا بين العثمانية وروسيا . تبقى ضفاف Dnyepr الشمالية التى تقع بعد كرمنجوغ لدى روسيا ، وضفافه الجنوبية لدى العثمانية ، تبقى مدينة كييف الارثوذكسية المقدسة التى تقع على ضفافها الغربية لدى روسيا ، وعلى هذا الأساس ، فان شريطا سميكا شمال اوكراينا ينتقل إلى روسيا . يستمر القسم الأكبر من البلاد تحت الحكم العثمانى وقرم . تستمر روسيا فى تقديم الضريبة السنوية إلى قرم وتدفع المتراكم خلال سنوات الحرب الثلاث ، دفعة واحدة . بعد عقد الصلح فى استانبول استقبل محمد الرابع ، السفير الروسى (١٦٨١/٥/١٦) ، وقدم السفير هدية القيصر وهى ١١٩٤ قطعة فرو زبلن ، ١٠ مورس انثي ، ١٠ طيور صيد (هامر ، ١٢ ، ٥٥) . قال البادشاه للسفير : « قل

لمليكك ، آن يراعى الصلح ، والا تعرض للعقاب » (سلاحدار ، ١ ، ٧٥٣) . تتضح من هذه الافادة ، ماهية روسيا ومنزلتها بالنسبة إلى العثمانية .

كان لنهيبة Côted Azur فى ١٦٦٢ ودحر الأسطول الفرنسى فى البحر الأبيض على يد الأسطول الجزائرى واغتنامه ٢٩ سفينة حربية فى ١٦٨١ ، وقع أليم على فرنسا . لم يتلق سفراء فرنسا الذين قدموا شكاوى عديدة لاستانبول ، اية اجابة ؛ لأن الباب العالى ، لم ينس تأييد فرنسا للسياسة الكاثوليكية للبندقيين والألمان اثناء ماكانت العثمانية فى حرب . يقدر عدد السفن التى كان يستولى عليها شهرياً من فرنسا وتجلب إلى الجزائر خلال العصر ١٧ ، بـ ٢٠ سفينة . كان لويس الرابع عشر ، يشعر بآثار الضرب والصفع على وجهه . لويس الرابع عشر هو الذى ضُرب سفيره بالفلقة وصفع وحبس فى يدى كوله – ولم تكن فرنسا لتجسر على مجابهة الإمبراطورية العثمانية بالحرب ، بسبب مصالحها التجارية الكبرى معها . ولكنها ساندت اعداءها جهرا فى الحروب ضد العثمانية دون أن تدخل الحرب . وهكذا ، فانه فى الوقت الذى كانت فيه الدولة العثمانية فى مستهل خلاف شديد جدا مع المانيا ، كانت علاقتها متوترة جدا مع فرنسا التى هى أقدر دولة مسيحية ، وكانت فى حرب مستمرة مع أسبانيا ، علاقتها مع بولونيا سيئة جدا . البندقية وروسيا ، تمنيان النفس بالخلاص من صفع العثمانية . كان هنالك شيىء واحد يريح النفس ، فى هذا المشهد السياسى ، وهو أمانها فى الشرق من إيران .

كانت وفاة الوزير قبلان مصطفى باشا فى سفينة الإميرالية (١٦٨٠/١٢/٥) فى أزمير ، خسارة كبيرة للدولة . قبلان مصطفى باشا الذى كان صهرا لكوبرولو محمد باشا ، شغل وظيفة قبطان دريا ٧ سنوات ، ١١ شهرا ، ١٠ أيام . وخلال هذه الأيام كذلك ، منح فاضل مصطفى بك ، ابن كوبرولو فاضل محمد باشا المتوسط ؛ رتبة وزير (مشير) (١٦٨٠/٦/٢٩) .

كانت الدولة العثمانية العالمية فى قمة اعتبارها . كان هذا الاعتبار ، على الأغلب ، يقوم على الخوف . كانت العثمانية ، قد افزعت أوروبا بدرجة كبيرة ، وكانت أوروبا تريد الخلاص من هذا الخوف ، وتبحث عن وسيلة لذلك ، ولكنها لاتجدها . أقلق فينا قلقا عظيما استيلاء القائد اوزون ابراهيم باشا على كامل سلوفاكيا من أولها إلى آخرها ، وإسقاطه قلعة Fülek بعد حصار دام ١٧ يوما (١٦٨٢/٩/٢٩) واستيلائه على ٢٨ قلعة فى المنطقة ، ومنح Tökeli Lmre ، القومى المجرى عدو

الألمان ، لقب « ملك المجر الوسطى » . كانت المانيا وراء سياسة استعادة سلوفاكيا وأخذ أردل (ترانسلفانيا) تحت نفوذها ، دون أن تدخل مع العثمانية فى حرب شاملة . وكانت هذه السياسة ، تغضب قره مصطفى باشا ، وأخذت تستحوذ عليه فكرة ضرب المانيا ضربة قوية لكف يدها عن التدخل فى شئون المجر ، وتمكن من إقناع البادشاه والديوان بذلك .

٦٣) الحرب مع المانيا

اتخذ الديوان الهمايونى قرار إعلان الحرب على المانيا (١٦٨٢/٨/٦) تحرك محمد الرابع على رأس الجيش الهمايونى من ادرنه (١٦٨٣/٤/١) ، كان قد مضى على مصالحة فاشفار ١٨ سنة ، ٧ أشهر ، ٢٢ يوما ، والسلطان وابناه الشهزاده (ابن السلطان - امير) مصطفى (الثانى) والشهزاده أحمد (الثالث) ظلوا فى بلغراد . تحرك الصدر الأعظم قره مصطفى باشا مع الجيش من بلغراد (١٦٨٣/٥/٢٤) . إن تحرك السردار الأكرم « للإستيلاء على النمسا بجيش لم تتمكن أية دولة حتى ذلك التاريخ من تأليفه وجمعه » (Fernard Grenad ص ٩٩) ، لم يقلق المانيا وحدها فقط ؛ بل أقام أوروبا وأقعدها .

عند أى حد سيقف هذا العثمانى ؟ هل يريد الوصول إلى الراين ويجاور فرنسا ؟.

كان يحمى مقدمة الجيش الهمايونى بكلربك دياربكر الوزير قره محمد باشا والمؤخرة الوزير حسين باشا بكلربك الشام . وجاء كل من خان قرم ، وملك المجر الوسطى ، وفويفودات أردل وبغدان وافلاق وقبلوا رداء الصدر الأعظم فردا فردا وانضموا إلى الجيش الهمايونى . حضر بانات الخروات والسلوفينيا إلى الجيش واقروا للسلطان بأنهم أحقر التابعين له . كانت ١٥٠ قطعة من السفن غير العريضة فى الدونة تتقدم مؤخرة الجيش .

أبلغ لويس ١٤ ، الامبراطور بأنه يمكنه سحب جميع قواته الموجودة على الراين واستعمالها ضد الأتراك ، وقدم له تأكيدا بعدم حدوث أى ضرر من فرنسا وأنه سيرسل له فرقة أخرى . أخذت الحرب العثمانية - الألمانية ، طابع القتال بين

المسيحيين – الإسلام ، أوروبا – آسيا ، الصليب – الهلال . وبينما كان حزب Whig فى انكلترا ، يؤيد العثمانية ، وحزب Tory يؤيد الألمان ، اتخذ حزب Whig فى ١٦٨٣ قرارا بمساندة حزب Tory والتحرك ضد العثمانية . كانت هولندا ، تنفذ رغبات انكلترا ، وكانت إيطاليا وأسبانيا والبرتغال أيضا إلى جانب ألمانيا ، دعا البابا كافة المسيحيين إلى الجهاد المقدس . كانت بولونيا والبندقية مصممتين على التحامل على العثمانية وتعويض أضرارهما . كان القيصر بترو الكبير ، لايزال مترددا ، فقد كان يخشى قرم وبولونيا والسويد ، كانت السويد ، تقف على الحياد ، وكان الدانمارك عدو السويد إلى جانب المانيا .

فى ٢٧ حزيران (١٦٨٣) جمع الصدر الأعظم والسردار الأكرم (القائد الأعلى) مرزيفونلى قره مصطفى باشا ، مجلس الحرب فى Istolni - Belgrad (بالمجرية : Székesféhervr بالألمانية : Stuhlweissenburg) . وأعلن أنه سيستولى على فينا ويملى على المانيا شروط الصلح هناك ، لأن مجرد الإستيلاء على يانق قلعه (بالمجرية : Raba ، بالألمانية Raab) ، لايمكن أن يخضع المانيا ويجعلها تكف يدها عن شئون المجر . تحير الوزراء . وقال الوزير داماد إبراهيم باشا بأن إرادة البادشاه هى الاستيلاء خلال هذا العام على يانق و Komorn ومناوشة أوروبا الوسطى بواسطة كتائب الصاعقة ، ويحتمل أن تكون الحملة إلى فينا فى العام المقبل . أجاب مصطفى باشا أنه فى الوقت الذى يتجمع فيه جيش كهذا ، فإن الأمر يقتضى إنزال ضربة قاضية ، والا فستطول الحرب ، وأن المانيا عقدت الصلح مع فرنسا وبقيت حرة فى الغرب وأن الملك سوبياسكى ، اتفق مع الإمبراطور لاستعادة بادوليا ، ولابد من أن تكون البندقية كذلك ضمن هذا الاتفاق ، وأن روسيا ، فى محاولة البحث عن السبل التى توقع بها العثمانية ، وأن الدول التى لم تعقد صلحا مع تركية كاسبانيا ، البابوية ، مالطه ، فلورنسا من الطبيعى أن تكون بجانب المانيا ، إن هذا الاتفاق ، إما أن يكسر هذا العام ، أو أن الحرب ستطول كثيرا إلى زمن غير محدد . لم يبلغ السردار الأكرم ، البادشاه بتوجيه حملته نحو فينا ؛ إلا بعد بدء الحصار بـ ٦ أيام فى ١٨ تموز وقال محمد الرابع مخاطبا وكيل رئيس الوزارة الوزير الثالث ابراهيم باشا : « لو كنت أعلم ذلك مقدما لما أذنت » (سلاحدار ، ٢ ، ٣٩) ؛ وعلى هذا فإن رجال العثمانية يكونون قد انقسموا إلى قسمين: فريق يرى

أن تهديد فينا عاصمة المانيا الإمبراطورية سيخيف كافة أوروبا ويحرضها على القيام ، ويؤيد هذا الرأى قره مصطفى باشا ، وفريق يرى أن الاستيلاء على يانق قلعة ، سيخيف المانيا ويحول دون حصول اتفاق كبير ضد العثمانية وهذا هو الذى يراه البادشاه .

٦٤) بدء حصار فينا الثانى (١٦٨٣/٧/١٤)

وصل الجيش الهمايونى أسوار فينا (بالعثمانية يچ) بعد ٣ أشهر ، ١٣ يوماً من حركته من أدرنة (١٦٨٣/٧/١٤) . جاء السردار الأكرم إلى المحل الذى نصب فيه السلطان سليمان القانونى سرادقه الهمايونى قبل ١٥٤ سنة . وخلال ذلك ، كانت وحدات الصاعقة قد استولت بشكل تام على ايالات Burgenland Stirya وايالة النمسا الشرقية النمساوية ، ووادى الدونه حتى Linz ، وكذلك دخلت بعض وحدات الصاعقة إلى سويسرا . بدأ قره مصطفى باشا الحصار بـ ٦٠٠٠٠ جندى ووزع جيشه على ساحة واسعة جدا كان قصده ، قطع طريق المساعدات القادمة ، لكن ذلك كان فى الحقيقة خطأ عسكريا .

هُزم دوق لورين (Lothringen) جارلس (الملك) الذى عين قائدا عاما لجيوش الإمبراطورية أمام قره مصطفى باشا ، وبدأ فى جمع جيوشه فى شمال – غربى فينا وأخذ ينتظر الجيوش التى ستأتى من أوروبا ، وترك الإمبراطور ليوبولد الأول فينا وابتعد والشعب يصيح ويصرخ . نهب الشعب الغاضب ، سراى الإمبراطور وبقى دفاع فينا على عاتق الكونت Ernest rüdger Von Starhem berg المسن . كانت المدينة تعتمد على مدافعها التى تعد بالالآف ، وأُسوارها المتينة وخنادقها ، وقوات الإمدادات التى ستصلها . فتح حسين باشا براتسلافا (بالالمانية : Pressburg) واغتنم تاج امبراطور المانيا الموجود فيها (١٦٨٣/٦/١١) . وبعدها تم الاستيلاء على كامل سلوفاكيا إلى حد مورافيا وغاليجيا – راتسلافا هى مركز سلوفاكيا الموجود على حدود النمسا ، على مسافة ٣٠ كم عن شرق فينا – وصل الأتراك كذلك إلى حد بافيرا .كان الامبراطور ليوبولد ، فى لينز ، أما القائد العام كارل فقد كان فى ليوبولد ، على بعد ١٥ كم من فينا ، وأرسل مرزيفونلى محمد باشا ، بكلر بك أدنه

للحملة على كارل ، وقد كان لدى كارل دوق اللورين ، ٤ فرق المانية وفرقتان بولونيتان وبعد التحامه مع الأتراك الذى دام ساعتين ، هزم وطلب إلى جنرال شولتر نسف الجسر الموجود على الدونة وانسحب إلى الضفة الأخرى من النهر . ونفذ قراره القطعي والصائب بعدم دخول أية حركة مالم يتسلم الإمداد . دخل الأتراك مدينة ليوبولد وأحرقوا قصر الإمبراطور الصيفى (هامر ، ٩ ، ٩٨ - ٩) .

كان قره مصطفى باشا ينتظر وهو متأكد من سقوط المدينة ، وفى أواخر أيام الحصار استشهد ٢٠٠٠ سباهي خيال تقريبا ، ٢٠٠٠ خيال قرمي تقريبا ، ٢٥ يايا باشي (نقيب انكشارى) ، ١٦ شوربه جى (مقدم انكشارى) ٣ ، بكلربك (فريق) . وبالنسبة إلى هامر (١٢ ، ٥٠٨ - ١٠) كان الجيش الهمايونى يتكون من ١٦٢٠٠٠ جندى تقريبا ؛ حوالى مائة الف منهم منتشرون على ساحة واسعة ، ومايقارب ستين الفا يشتركون فى الحصار . كان مدافعو فينا ، فى بداية الحصار ١١٥٠٠ جندى ، انخفض عددهم إلى ٥٥٠٠ ، البقية ماتوا ، وقتل من أفراد الشعب ١٦٤٨ شخصا .

كان لدى دوق لورين ٨٥٠٠٠ جندى . أما الملك سوبياسكى فكان فى الطريق مع ٣٥٠٠٠ جندى وعلى وشك الانضمام إلى جيش الألمان الإمبراطورى السيَّار . وكان ٤٠٠٠٠ من هذا الجيش البالغ ١٣٥٠٠٠ جندى ، خياله . اعتبارا من أول أيلول ، بدأت الجيوش فى الانضمام ، وبدأت المساعدات فى الوصول من جميع الأطراف . استحوذت جاذبية فينا على قره مصطفي باشا ، وشلت بصيرته . وبدلا من أن يفرق هذا الجيش ، كان ينتظر سقوط المدينة . والواقع أنه لو تمكن من إفناء جيش العدو أو على أقل تقدير ، لو كسره وشتته ، لسقطت المدينة لحالها . التأمت جيوش الأعداء بشكل كامل فى ٧ أيلول ، وترك دوق لورين القيادة العامة إلى سوبياسكى الذى يفوقه منزلة فى السلطة ، لكن العسكرى الفعلى الكبير ، هو الملك دوق لورين . وبينما استكملت كافة استعدادات المتفقين فى ١١ أيلول ؛ كان الكونت يشعر من فينا بأن سقوط القلعة رهين بأيام أو ساعات . وعلى هذا أقدموا على عمل ، كثيرا ماترددوا فى فعله ، وهو عبور جسر الدونه جبرا ، مع القبول بالخسائر الكبيرة التى ستحدث ، لأن الجسر بيد الأتراك .

لم يكن بالإمكان إيصال الإمدادات إلى فينا دون عبور الجسر . كلف قره مصطفى باشا ، خان قرم مراد كيراى بمهمة حراسة الجسر ، ونسفه عند الضرورة وعدم السماح للعدو بعبوره . كان مراد كيراى . يكره الصدر الأعظم الذى يعامله معاملة قائد صغير . كان يعتقد بأن فشل الصدر الأعظم فى فينا ، يسقطه من السلطة ، ولم يكن يخطر بباله بأن خسارة كهذه ، ستغير مجرى التاريخ العالمى . قرر حفيد جنكيز ، فى البطن ١٨ ، أن يظل متفرجا على عبور المتفقين الجسر بحرية وفكهم الحصار ، وتوضيحا لهذه النقطة ينبغى أن نذكر أنه كان بالجيش العثمانى وزراء وبكوات (بكلربك) عديدين يخشون جدا من أن يكون قره مصطفى باشا فاتحا لفينا ، التى لم يقدر السلطان سليمان القانونى على فتحها . ويذكر المؤرخ الكبير ، ومحافظ مخزن الأسلحة السلطانى مستقبلا فندقلى محمد آغا ، الذى اشترك فى الحصار بالذات ، مسألة عبور المتفقين الجسر كما يلى بالضبط (٢ ، ٨٢) :

« كان حضرة الخان مكلفا بحماية جسر اسكندر (Insburg) الحجرى الكائن على نهر الدونه العلوى الذى يبعد عن بج (فينا) مسافة ٦ ساعات مع جنوده التتر منذ بدء الحصار . وبينما كان قادرا على منع مرور الجيشين النمساوى والبولونى ، لم يصدهما وأخذوا بالمرور فوجا فوجا وأغاروا على عساكر المسلمين. كان منذ يوم واحد يقف ممتطيا جواده على مكان عال مشرف على الجسر وبيده السوط ؛ ضاغطا على قبضته بكفه واضعا يده على خصره يتفرج على مرور الكفار (من الجسر) . وعندما اقترب إليه الإمام الموجود فى معيته قائلا « أيها الخان ألا يمكن ضرب هؤلاء الكفار الذين يمرون فوجا فوجا وقطع مؤخرتهم ؟ » أجاب : يا أفندى ، أنت لاتعلم مبلغ الظلم الذى لاقيناه من هؤلاء العثمانيين . قللوا من شأننا إلى درجة أن قيمتنا لديهم لم تعد بقدر قيمة كفرة افلاق وبغدان ؛ كتبت وأعلمت (السردار الأكرم) مرات عديدة ، عن تجمعات وحركات هذا العدو .. لم يرتد عن عناده ولم يعر كلامى أى اهتمام . وفى أجوبته العديدة المليئة بالعتاب التى أرسلها ، كتب يقول : إننا سوف نأكل لحم الحصان الجائف ، إن شاء الله تعالى ، إن دفع هذا العدو ، كان سهلا بالنسبة لى ، وأعلم أن ذلك خيانة ، لايسمح بها ديننا ، فلير العثمانيون ماذا يعادل قدرهم (كم قرشا يعادل قدرهم) ، وليعلموا منزلة التتر . قال ذلك ولكز حصانه آخذا جنوده التتر ، سائرا أمام الكفار ... متلكئا ، اليوم (١٩ رمضان = ١١ أيلول الجمعة) الوقت يقترب إلى العصر ،

جاء إلى الجيش الهمايونى الكائن أمام فينا متوجها إلى سرادق السردار الأعظم ونزل وسرد واقع حال العدو (عبوره الجسر) » .

وبهذه الفاجعة التى حدثت فى ١١ أيلول ، جرت خيانة من أكبر الخيانات التى شهدها التاريخ التركى . وفى يوم السبت المصادف ٢٠ رمضان ١٠٩٤ من الهجرة و ١٢ أيلول ١٦٨٣ من الميلاد ، قبل العيد بـ ١١ يوما ، تقابل الجيشان أمام عاصمة إمبراطورية روما الغربية ليتجمد سير تاريخ المستقبل .

٦٥) معركة KAHLENBER 6 (بالعثمانية : المان داغى) الميدانية (١٦٨٣/٩/١٢)

كان ضمن جيش المتفقين ، ملك بولونيا ، رئيس وزرائها ، وخمسة أمراء لواء بولونى ، ومن الألمان ٨ دوق ، ٢ Margrav (ماركيز) ، ٧ كونت ، ٤ أمراء ، (أكثر هؤلاء حكام المان) ، ٩ من هؤلاء برتبة مارشال (مشير) وكل واحد منهم على رأس فرقة من الجيش . ومن ناحية أخرى ، كان فى جيش العثمانية ٩ مارشالية و ٨ برتبة فريق (للتعرف على أسمائهم : هامر ، ١٢ ، ١١٤) . يقول المؤرخ الكبير النمساوى البارون فون هامر « كان هذا جيشا جيدا ويوم ١٢ أيلول ١٦٨٢ ، كان يوما جيدا » .

كان المتفقون مزهوين باجتيازهم الدونه دون أن تسكب قطرة دم واحدة ، ولكنهم كانوا مع ذلك حذرين . كان العثمانيون فى حالة سأم ، لعدم تمكنهم من إسقاط فينا ومذهولين لاجتياز العدو الجسر . لم يتبلور الوضع بصورة تامة فى الحرب الميدانية التى بدأت صباحا ، حتى وقت الظهر . لم يقاتل القرميون كما يجب بل كانوا مشغولين بحماية أنفسهم وغنائمهم ، ذلك أنهم كانوا قد حصلوا على غنائم ثمينة جدا ولايشغلهم إلا إيصال هذه الغنائم إلى بلادهم وهم أحياء . كانت علاقة الوزير قوجا إبراهيم باشا ، قائد الجناح الأيمن ، سيئة جدا مع الصدر الأعظم ، وبعد الظهر بقليل ، سحب الجناح الأيمن من ساحة الحرب وانفصل ، فى الوقت الذى لم تكن هنالك أية علامة للهزيمة .. هذه الخيانة سببت الهزيمة . هجم العدو بكل قوته على مركز العثمانية ، وحوالى الساعة ٤ (١٦) ، أدرك المتفقون أنهم على وشك

الانتصار . لم يكن الجيش العثمانى يحارب جيدا ؛ فقد شرب طيلة مدة الحصار آلاف البراميل من الشراب ، وعاشر آلاف النساء ، وحصل على غنائم ثمينة . وفى الساعة ٧ (١٩) مساء ، قطع السردار أمله فى النصر ، ولكى ينقذ الجيش ، أعطى أمر الانسحاب . نجت فينا فى الساعة الـ ٧ مساء (هامر ، ١٢ ، ١١٥) .

وقع فى يد المتفقين ، سرادق السردار الأكرم الذى يقارب حجمه السراى الكبير ، ٥٠٠٠ خيمه ، ٣٠٠ مدفع ، أرشيف الجيش ومهمات كثيرة جدا . استشهد مايقارب ١٠٠٠٠ جندى عثمانى ، وجرح آلاف . وكانت خسائر العدو بنفس الدرجة . لم يعد أمام قره مصطفى باشا مايفعله ، سوى تركه ساحة القتال وقد وفق فى تحديد ساعة الانسحاب بشكل صائب جدا ؛ فقد كانت مقاومته أكثر من ذلك تولد فاجعة ، وانسحابه قبل ذلك ، كان من الممكن أن يسبب كارثة أيضا . فتح فى السور ٦ فتحات ، كل فتحة بعرض مترين ولتوسيع هذه الفتحات ، وضعت الألغام وهى على وشك التفجير ، أدهش هذا المنظر ، قيادات المتفقين . جرح الكونت Von Starhemberg وفقد ثلثى جنده ، قتل ٢ كونت ٣ بارون . أخذ الجيش التركى معه أثناء انسحابه ٨١٠٠٠ أسير ، أمكن إنقاذ البقية (هامر ، ١٢ ، ١١٩) . وفى اليوم التالى كان الملك سوبياسكى ، يكتب إلى ملكته الحبيبة الفرنسية الأصل هذه الرسالة : « إننى عاجز عن تعريف العظمة والثراء والذوق الرفيع الذى شاهدته فى سرادق مصطفى باشا . داخل السرادق ، توجد حمامات ، حدائق ، حنفيات وطيور ... إن أهم غنيمة حصلت عليها من بين حاجيات داخل السرادق ، نطاق ملىء بالماس ، ساعتا جيب مرصعتان بالماس ، يواقيت لآلى ، يواقيت زرقاء ، أثمن أنواع السجاد وألف خارقة لم أستطع كتابتها . ولاننس أثمن أنواع الزبلن (الفرو) على وجه الأرض . لكننى لم أستطع أن أظفر بخزينة الجيش . يظهر أن الأتراك هربوها . إن الحاجيات التى ذكرتها أعلاه ، كلها حاجيات السردار الشخصية » .

٦٦) نهاية حملة فينا

وهكذا غادر الجيش الذى يقوده قره مصطفى باشا فينا ومعه ٨١٠٠٠ أسير والغنائم التى يمكن حملها ، وتركت المهمات الثقيلة للعدو .

وتؤكد وثائق الأرشيف البولونى التى نشرت ، أن خيانة مراد كيراى ، لم تكن بالشىء البسيط ، وإنما كانت خيانة كبيرة جدا ، اقترفت عمدا ، فهو يصرح فى رسالته التى كتبها لسوبياسكى بأنه سينسحب دون قتال . ويظهر أن ذلك أعطى لسوبياسكى الجرأة على عبوره الجسر دون خشية . ومن ناحية أخرى فإن أخطاء قره مصطفى باشا كانت كبيرة كذلك ، فمثلا أثناء احتفال المسيحيين بيوم خلاص فينا التى يقدسونها ، انسحب قره مصطفى باشا المغرور ، البخيل والحريص من النمسا إلى المجر ، ولم يحاول إسقاط فينا بهجوم عام ؛ فقد أدى بخله المفرط إلى الحرص على ألا ينهب جيشه المدينة ، وانتظر استسلامها لحالها » (فون هامر ، (١٢ ، ١٢١ – ٢) . حيث ينص القانون الدولى ، على ألا تنهب المدن التى تستسلم لحالها .

فقدت الدولة التركية ، بهزيمة فينا ، ديناميكية الهجوم والتوسع الذى بدأه السلطان الب ارسلان فى ٢٦ آب ١٠٧١ . ينتظر تركية ، بعد هذا التاريخ التوقف ، الانسحاب ، الانفكاك ، السقوط . وسوف يصل هذا فى ١٩٢١ إلى حد نهر صقارية .

جاء الجيش الهمايونى الذى حاصر فينا ٥٩ يوما أمام يانق قلعة فى ١٤ أيلول وهو نصف طريق فينا – بشته . كان داماد إبراهيم باشا بكلر بك بودين (المجر) ينتظر قدوم الجيش هنا . جاء إبراهيم باشا الذى قيل إن « تركه ساحة القتال لغرض شخصى وإقدامه على الفرار قبل الكل ، كان سببا للهزيمة » (راشد ، ١ ، ٤٢٠) ، فقد قصد الإيقاع بقره مصطفى باشا ، لكي يعود ذليلاً . عزل إبراهيم باشا ، الذى ترك ساحة الشرف دون أن يكون هنالك أى سبب عسكرى ودون أن يحصل على إذن من القائد الأعلى ، وسبب انكسار ثلث الجيش التركى والهزيمة النهائية فى الحرب ، نزل أمام سرادق السردار وقبل رداء السردار » (سلاحدار ، ٢ ، ٨٨) . وبخه مصطفى باشا قائلا « أيها الشيخ الملعون ، فررت ، وبفرارك كنت السبب الكلى فى هزيمة العساكر الإسلامية كافة » وأمر بقتله .

لم يكن إبراهيم باشا جبانا ، أو عسكريا غير قدير ، فحياته العسكرية الطويلة مليئة بالشرف ، ولكنه ارتكب هذه الخيانة التى لايصدقها العقل ، لإسقاط مصطفى باشا لاغير هامر (١٢ ، ١٢٢ ـــ ٣) . وقبل قطع رأسه ، قال للشاويش باشى

(رئيس مرافقى السلطان) هذه الجملة : « قل لبادشاهنا ، لايستطيع أحد أن يتلافى مافات غير مصطفى باشا » . يقصد بذلك ، ألا يعزل البادشاه مصطفى باشا بسبب الهزيمة،وأن الشخص الوحيد الذى يمكنه أن يزيل آثار الهزيمة هو مصطفى باشا . يظهر أن ضميره أنبه وأدرك إضراره بمستقبل الدولة التى منحته مؤخرا رتبة الوزارة وبنت السلطان .

وفى هذه الأثناء ، كانت كنائس فينا كلها تدق أجراسها ، فتجاوبها كل الكنائس القريبة التى تسمع صوت الأجراس . وهكذا وخلال عدة أيام ، بدأت كافة أجراس العالم المسيحى تدق – إلى أبعد الأماكن فى أوروبا – على شرف خلاصها من الخطر التركى .

سيطر مرزيفونلى ، الذى مكث ٣ أيام فى يانق قلعة على ضبط الجيش بشكل تام . لم يكن هنالك خسائر مهمة . كان الجيش الهمايونى ، يقدم عادة خسائر بنفس هذه الدرجة فى انتصاراته الكبيرة . كانت هنالك فى أيالتى Stirya و Burgenland النمساوية وحدات عثمانية تحت قيادة ٣ بكلربك . وعند سماع هذه الوحدات خبر الهزيمة ، التأمت أولا ، قرب Graz ، ثم انسحبت إلى Kanije (هامر ، ١٢ ، ١٢٤ – ٥) . وفى ٢٢ أيلول ، قدم الجيش إلى بودين . ظل قره مصطفى باشا ، هنا ٢٤ يوما إلى ١٦ ت١ . ولكى يعدم مراد كيراى فى أول فرصة ، عزله وعين مكانه ابن عمه حاجى كيراى ، خانا . عزز قلاع الحدود .

من ناحية أخرى ، تحرك جيش المتفقين من فينا ، على أمل استقطاع بعض الشىء من العثمانية ، قبل فوات موسم القتال ، كان الملك Tökeli قد أخلى Bratislava وانسحب إلى Kosiee (بالعثمانية كاشا) . اجتاز المتفقون نهر Raba نحو الشرق ودخلوا الأراضى العثمانية . كانت هنالك ضاحية جكردلن (بالألمانية : Parkany) فى الساحل الشمالى من الدونة واستركون (حاليا جيكوسلوفاكيا) وكان يربطهما جسر (بقايا هذا الجسر الحجرى العظيم المنهدم تشاهد على نهر الدونه فى الحدود المجرية – الجيكية ، كنموذج يظهر عظمة العثمانيين حتى يومنا هذا . كان بكلربك (فريق) بودين الوزير قره محمد باشا ، حديث السن ، جسورا ، عسكريا مقتدرا . جاء إلى هنا وأخذ ينتظر العدو ، تقابل هنا الملك سوبياسكى بجيشه البالغ ٦٠٠٠٠ مع ٣٠٠٠٠ من جنود محمد باشا . قتل محمد باشا ، الذى خرج من بين الأدغال

بغتة أمام الفرق البولونية فى المعركة الميدانية جكردلن (١٦٨٣/١٠/٧) ١٠٠٠٠ جندى معادى بخسائر طفيفة . تراجع سوبياسكى الذى ظن أن قره مصطفى باشا باغته . وبعد يومين توحد مع دوقين لورين ؛ فأصبح ١٥٠٠٠٠ جندى معاد أمام ٣٠٠٠٠ من جنود محمد باشا ، وانسحب بعد أن خسر ٧٠٠٠ شهيدا و ٣٠٠٠ جريح. وتسمى هذه الهزيمة معركة جكردلن الميدانية الثانية . استشهد بكلربك بوسنه خضر باشا وأسر كل من خليل بآشا بكلربك سيواس ومصطفى باشا سنجق بك سلستره . كان Tökeli Imre مع ٣٠٠٠٠ مجرى وحاجى كيراى مع ٣٠٠٠٠ خيال قرمى على وشك اللحاق . وعندما علموا بهزيمة محمد باشا ، عادوا على أعقابهم . قاومت استكون تجاه المتفقين ٢٢ يوما وسقطت يوم ١ ت١٦٨٣/٢ . كان المتفقون قد نسفوا جسر استركون – جكردلن الكبير على نهر الدونه ومنعوا وصول الإمدادات ؛ ومعنى ذلك أن محمد باشا لم يتمكن إلا من إدخال ٥٠٠ جندى فقط إلى استركون . انتقل فى استركون إلى يد المتفقين ٥٠ مدفعا و ١٠٠٠ كنتال بارود . كانت كل من جكردلن واستركون مركزا هاما لكتائب الصاعقة ، وكلتاهما من فتوحات السلطان سليمان القانونى ، وقد ظلت تحت الحكم العثمانى ١٢٨ سنة (١٥٤٣ – ١٥٩٤ ١٦٠٥ – ١٦٨٣) . فتح ، هذه القلعة التى كانت محل إقامة أسقف المجر والمركز الدينى للبلاد ؛ القانونى تجاه ٥٠٠٠٠ من جنود الأرشيدوق ماثياس Mathias وحكمها حكما عظيما جدا وفى اليوم التالى ، عاد سوبياسكى ، مودعا دوق لورين إلى وارشو .

من ناحية أخرى ، أمر ، قره مصطفى باشا الذى جاء من بودين إلى بلغراد خلال ٣٣ يوما (١٨ ت٢) خان قرم ، أن يقضى الشتاء فى الحدود . وعندما علم مراد الرابع بالهزيمة ، تحرك فى ١٢ ت ١ من بلغراد إلى أدرنة . حاجى كيراى البالغ عمره ٣٥ عاما ، اتخذ مدينة ياش مقرا لمشاته . وهكذا أغلق عام ١٦٨٣ المشئوم.تسلقت العثمانية وآسيا إلى القمة ، ثم سقطت منها . شرح الفرنسى Fernard Grenard الاخصائى الكبير فى تاريخ آسيا ، التوازن العالمى فى تلك الحقبة فى أثره الذى كتبه عام ١٩٣٨ كما يلى :

« نحن الآن فى النصف الثانى من القرن ١٧ ، فى عهد لويس ١٤ . آسيا فى ذورة عظمتها وسطوتها . هذه القارة ، تحت سيطرة ٤ دول كبرى – الثلاث الأول

تركية – الهند ، ايران – والصين . تضم بين جوانحها أقدم حضارات العالم وذكريات التاريخ البشرى التى تستحق أجل الاحترام . أما الشعوب الأوروبية ففى نزاع تتقاسم قطع الإمبراطورية الوحيدة التى ورثوها ، روما الغربية ... تعداد آسيا فى ذلك التاريخ ، ٣ أضعاف تعداد أوروباوهذه النسبة التى انخفضت اليوم (١٩٣٨) إلى نسبة ١/٨ ، تكون بالضبط بنسبة ٣/٤ . كانت تعيش بسعادة فى جو عظمة ورفاهية ، تنبع تربيتها عن عاداتها وأعرافها ، لها تاريخها البعيد الجذور فى الفن والأدب لقد وصلت المدى الذى لايتصور أن تصل إلى أبعد منه . كان ثراء مواردها وخزائنها ، يبهر العقول ويغذى الخيال . أما الغربيون ، فمجتمعون حول بضعة ملايين من الذهب المتداولة فى أوروبا ، يولولون ويصرخون ولولة وصراخا عظيمين ، وبنو تيمور فى الهند مستغرقون فى رفاهية لامثيل لها . كأنهم فوق هاوية لاقعر لها مليئة بالذهب ، والفضة ، والماس . أما تركية فتمتاز فوق ذلك بأنها أقدر قوة عسكرية على وجه الأرض .. إن أباطرة الشرق هؤلاء ، حتى ولو أنهم اعترفوا بحكام أوروبا ، كحكام ؛ إلا أنهم ينظرون إليهم من علو شاهق . يقبلون السفير ، لكنهم يتعالون عن إرسال سفير دائم إلى أوروبا ... » .

المبحث السادس

عصر التوقف
(١٦٨٣ - ١٧٦٨)

عصر التوقف
(١٦٨٣ - ١٧٦٨)

(١) سقوط مرزيفونلى قره مصطفى باشا (١٦٨٣/١٢/١٥)

انتهت الدولة العثمانية العالمية . كانت العثمانية لاتزال أيضا الدولة الأولى فى العالم ، لكن العصور التى كان فيها نفوذها يعبر القارات ويوجه سياسة وتاريخ العالم ، أصبحت فى ذمة الماضى . كانت قد بليت وانقرضت فيها قوة الاندفاع ، الفاعليه ، الجرأة ، دهاء التوسع . وفى العصر التالى ستكون غايتها الوحيدة هى الحفاظ قدر الإمكان ، على ماتملكه .

تلقى محمد الرابع خبر الهزيمة ، ولم يعره اهتماماً فى البداية ؛ فالأمر لايزيد على أنهم فشلوا فى الاستيلاء على قلعة !! وهكذا الحرب .. لاتنتهى ضرورة بالنصر !! .

فتح كوبولو - زاده فاضل أحمد باشا ، كاندية بعد جهود دامت سنوات طويلة . أرسل إلى مرزيفونلى قره مصطفى باشا ، عندما كان فى بودين ، سيفا مرصعا وكتابا همايونيا يواسيه ويباركه لتمكنه من إعادة الجيش إلى بودين بخسائر قليلة .

كانت السلطانة - الوالدة الذكية التى تتبنى عائلة كوبرولو ، قد توفيت قبل هزيمة فينا ببضعة أشهر (١٦٨٣/٧/٥) . وقد عبر الشعب الذى يعلم دورها الكبير فى الدولة عن تأثره بهذه الجملة « ذهب ركن الدولة الأعظم » (راشد ، ١ ، ٤١٥) .

كان مرزيفونلى ، حديث السن ، ولم يكن معتل الصحة مثل فاضل أحمد باشا ، كان قوى البنية ، لايتعاطى المشروب ، ترى هل سيبقى صدراً أعظم إلى نهاية حياته ويكون استمرارا لدور الباشوات كوبرولو محمد باشا وفاضل أحمد باشا ؟ .

كان كثير من الوزراء يتحرقون شوقا لمنصب الصدارة ، ولم يكن هنالك ذريعة ، أحسن من هزيمة فينا . فى المرة القادمة وفى أول فرصة ، سيعدل مرزيفونلى الوضع بصورة أكيدة ، وسوف لايمكن إزاحته بعد ذلك عن منصبه مطلقا . أخذ العديد من رجال الدولة فى التأثير على مراد الرابع لإسقاط صدره الأعظم . كان رائدهم الوزير الثالث وقائمقام الصدارة (وكيل رئيس الوزراء) قره مصطفى باشا . المعروف فى استانبول عن صارى سليمان باشا ، أنه عندما سمع خبر هزيمة فينا ، أمسك المنديل بيده وأخذ يرقص . لأن مرزيفونلى ، كان وزيرا شديدا ومغرورا . فاضل أحمد باشا كذلك ، كان محسودا ، لكن الحملة ضده لم تكن قوية جدا . يكن مغرورا ولامتكبرا ، وكان يعامل أصدقاءه من الوزراء معاملة الصديق لصديقة ولايتكبر عليهم .

ولما لم تجد اللمذات والايحاءات التى دبرتها أخت البادشاه (التى أمر مرزيفونلى بإعدام زوجها الخائن ابراهيم باشا) ، فى اقناع البادشاه ، عندئذ رتبوا رسائل مزيفة تفيد أن الجيش لايريد مرزيفونلى وأنه سوف يعلن عصيانه ، إذا بقى على رأسه صدرا أعظم مغلوبا .. تمكنوا من غش محمد الرابع . ولما كان الجيش هو درع الدولة الأول ، ولايمكن اللعب معه ، عزل محمد الرابع ، قره مصطفى باشا وعين مكانه الوزير الثالث قره إبراهيم باشا (١٦٨٣/١٢/١٥) . صدارة مرزيفونلى ، دامت ٧ سنوات ، وشهرا ، ١٠ أيام . وأعدم بعد ١٠ أيام (٢٥ ك١) . قرأ قره مصطفى باشا الذى سعى ليلا ونهارا فى تجهيز الحملات والذى يملك مكانة ممتازة فى الجيش ، الخط الهمايونى الذى حمله له رئيس تشريفات السلطان ، كزار – زاده أحمد أغا بكل هدوء . صلى . ثم صاح بالجلاد بنفسه وطلب قطع رأسه . سودت هذه الفاجعة التى جرت فى بلغراد ، مستقبل الدولة وقضت على الشخص الوحيد الذى كان يملك القدرة لتعويض ماضاع . كان فى سن ٤٨/٥ .

انتهى دور كوبرولولر (عائلة كوبرولو) . وبدأ « قحط الرجال » ، كما كان فى الأزمنة التى تسبق عهد كوبرولو محمد باشا قبل ٢٧ عاما . بدأ الأشخاص الذين لايستطيعون تنفيذ واجباتهم التى تقتضيها مقاماتهم ، يتعاقبون الواحد تلو الآخر . قره مصطفى باشا ، الذى يقال عنه « من أعظم وزراء العثمانية ومن أعظمهم غرورا بنفس الدرجة » (هامر ، ١٢ ، ١٣٥) المكروه لدى العالم المسيحى آنذاك والآن أيضا .

كان قائمقام الصدارة فى المركز لسنوات عديدة ، طيلة مدة بقاء قره مصطفى باشا فى الحملات ، بايبوردلى قره مصطفى باشا ، فى ٦١ من عمره وزيرا حريصا ، ولئيما ، وجبانا وغير كفء . وقد حافظ داماد صاحب مصطفى باشا أحد رجال السراى الذى يحمل لقب الوزير الثانى منذ سنوات عديدة ؛ على مقامه . ينشغل بأعمال السراى والأمور العلمية والفنية ، ولايتدخل كثيرا بالسياسة ، ولايؤمل أن يكون صدرا أعظم . قره إبراهيم باشا ، هو الشخص الذى سانده مرزيفونلى وأعطاه الرتبة . وهذا يعنى أن مرزيفونلى ، لم يتمكن حتى من اختيار الوكيل الجديد له . كان هنالك وزير يمكنه صيانة الإمبراطورية من المصائب ، وهو كوبرولو - زاده فاضل مصطفى باشا ، لكن قره إبراهيم باشا ، عين هذا الوزير الذى يصغر مرزيفونلى بسنتين خارج استانبول فورا . كان كأنما هنالك اتفاق بين العديد من رجال الدولة على التخلص من (كوبرولولر) عائلة كوبرولو .

٢) السنوات الأولى للحرب الكبرى (١٦٨٤ - ١٦٨٦)

تسمى فترة الـ ١٥ سنة ، ٤ أشهر ، ١٤ يوما التى مضت بين هزيمة فينا وصلح كارلوفجه فى التاريخ العثمانى « سنوات المصيبة » . حرب العثمانية لوحدها أمام ائتلاف أوروبى (١٢/٩/١٦٧٣ - ٢٦/١/١٦٩٩) أعلن الحرب على العثمانية كل من امبراطور المانيا ، ملكية بولونيا ، جمهورية البندقية ، البابوية ، ملكية اسبانيا ، دوقية توسكانا الكبرى ، فرسان مالطه ، وبعد مدة ، روسيا القيصرية . وكانت العثمانية فى وضع صيانة حدودها الممتدة من قفقاسيا إلى فاس . لكن الحروب الكبرى جرت فى المجر ، بولونيا ، اوكراينا ، دالماجيا ، مورا . المفروض أن تبقى فرنسا على الحياد ، ولكنها ساندت المتفقين بإرسالها وحدات . إن الائتلاف المسمى « Sainte - Allianee » (الاتفاق المقدس) ، كان يحمل الروح الصليبية والنزعة الكاثوليكية . كانت الغاية منه إخراج المسلمين والأتراك من أوروبا إلى آسيا ، وتنحية تركيا ، وجعل آسيا بلا مدافع لوضع اليد على أكبر قارة فى العالم .

الصدر الأعظم الذى سيدافع عن العثمانية تجاه هذا الائتلاف ، هو الصدر الأعظم قره مصطفى باشا الذى يجزع من الخروج إلى الحملات . كان قره مصطفى باشا

يريد فقط أن يكون صدراً أعظم ويتخلص من تحكم مرزيفونلى . أعطى قيادة الجبهة الألمانية إلى الوزير بكرى مصطفى باشا ، وجبهة بولونيا إلى الوزير الثالث صارى سليمان باشا . انضمت البندقية إلى الاتفاق ١٦٨٤/٤/٢٥ وأعلنت الحرب على تركيا . عين على جبهة البندقية من الوزراء الباشوات بالتسلسل كور شعبان ، شاهين مصطفى ، اسباناقجى اسماعيل ، خليل باشا . ومن بين هؤلاء القواد كان بكرى مصطفى باشا من القواد متوسطى الدرجة . صارى سليمان باشا تافه للغاية وعاجز ، والبقية عسكريون عديمو الكفاءة . كان هدف المانيا المجر ، وهدف بولونيا Podolya ، وهدف البندقية مورا ، وإن أمكن هرسك ، وهدف روسيا ، الحصول على قطعة كبيرة من اوكراينا . وأخطر هؤلاء ، كانت المانيا . كان القائد العام للإمبراطورية أحد حكام الألمان دوق لورين (Karl) V. Charles (Lothringen) ، عسكريا كبيرا .

كانت أكبر حروب عام ١٦٨٤ هى حرب حصار بودين الذى جرى من قبل الألمان واستمر ٣ أشهر ، ١٩ يوما (١٥ تموز - ٣ ت٢) . دافع عن بودين بكرى مصطفى باشا . معاوناه هما العسكريان الكبيران ، وكلاهما برتبة وزير ؛ ديوريكلى قره محمد باشا بكلربك بودين الشاب ، وداماد شيطان إبراهيم باشا الكهل . كانت بودين تقصف يوميا بمعدل ١٠٠٠ - ١٥٠٠ قذيفه و ٧٠٠ - ٨٠٠ قنبله ، هذا عدا فتح الألغام . وكان الأتراك يحققون تقدما متواصلا . حاول الألمان قطع مجارى المياه للمدينة ، لكنهم لم يوفقوا . تسمر الألمان أمام بودابست هذا العام ؛ كما تسمر العثمانيون أمام فينا فى العام الماضى . ترك بكرى مصطفى القلعة إلى قره محمد باشا بكلربك بودين وانسحب . قطعت إحدى القذائف ، يد محمد باشا فى ٢٠ تموز . استمر فى الدفاع بعد سكب زيت زيتون حار على يده . وفى آب ، أصابت إحدى القذائف بطن الوزير الشاب . نادى محمد باشا ، الباشوات محاولا جمع أمعائه بيده السالمة ، وأخبرهم بأنه عين مكانه داماد شيطان إبراهيم باشا ، وأمرهم باطاعته والدفاع عن بودين حتى آخر جندى ثم استشهد . جاء إلى بودين فى ٩ أيلول منتخب بافيرا ؛ أهم حاكم المانى بعد الإمبراطور ، حصل على امدادات وتسلم القيادة . وانتقلت الحرب إلى خارج القلعة .

خسر الألمان ثلاث حروب ميدانية : انهزم الألمان فى كرز الياس ، أمام قاضى

كويلى محمد باشا بكلربك روملى (١٩ أيلول) ، وفى أوفا قابوسى ، أمام سياووش باشا بكلربك دياربكر (٢٧ أيلول) ، وفى بشته ، أمام أحمد باشا بكلربك أكرى (٢٤ ت١) . انسحب الألمان فى ليلة ٢ - ٣ ت٢ . وعلى أثر هذا النصر ، استبدل محمد الرابع لقب داماد إبراهيم باشا من « شيطان » إلى « ملك » . وعينه قائدا مكان بكرى مصطفى باشا ، وعين عبد الرحمن عبدى باشا أحد الوزراء المسنين ؛ بكلربك على بودين (سلاحدار ، ٢ ، ١٤٠ - ٨٥) .

كان سليم كيراى الذى عاد وصار خانا لقرم ؛ عسكريا كبيرا . تمكن بمهارته من تعويض عجز سليمان باشا قائد عام جبهة بولونيا . هزم سليم كيراى ، الملك سوبياسكى فى الحرب الميدانية كامانيجه (١٦٨٤/٩/٢٦) . فر غالب فينا ، تاركا وراءه ٢٧ مدفعا ثقيلا للحصار وآلاف القتلى (سلاحدار ، ٢ ، ١٨٥ - ٨) .

قدمت البندقية فى ١٥ تموز إلى الباب العالى ، مذكرة إعلان الحرب . وحققت إنزالات عديدة على سواحل داماجيا ، هرسك ، البانيا ، مورا . كان قائد عام البندقيين موروسينى ، هو العسكرى الكهل الذى سلم كانديه ، إلى كوبرولو - زاده . أطلق البابا بصورة رسمية ، على هذا الاتفاق المقدس الجديد اسم « الحملة الصليبية ١٤ ضد الأتراك » . وكما لاحظ هامر (١٢/١٦١) ، أن هذه الحرب هى الحرب الأولى والأخيرة فى تاريخ البندقية كلها التى أعلنت فيها البندقية الحرب على العثمانية ، أما فى بقية الحروب الأخرى ؛ فكانت تركية هى التى تعلن الحرب . احتلت البندقية جزيرة آيا مافرى خلال ٦ أيام (٨ آب) ، وسيبينيك (Sebenico) وأماكن عديدة فى داماجيا ، واحتلت Preveze فى ٧ أيام (٢٨ أيلول) وأُغلقت عام ١٦٨٤ وهى رابحة (سلاحدار ، ٢ ، ١٩١ - ٢٠٠) . ولكن فندق مصطفى باشا بكلربك بوسنه ، تمكن فى السنة التالية من هزيمة البندقيين فى الحرب الميدانية المسماة شين (بالإيطالية : Sign) (١٦٨٥/٤/٧) واغتنام ٩٠ راية . تمكن البندقيون الذين أنزلوا جيوشهم فى Koron جنوب مورا ، من الاستيلاء عليها بعد حصار طويل وذبحوا كافة سكانها المسلمين .

استولى الألمان على Szolonk ، وهجم العثمانيون على يانق قلعة . حاصر ملك إبراهيم باشا استركون مدة ١٦ يوما ، لم يتمكن من الاستيلاء عليها . استسلمت اويفار إلى دوق لورين بعد حصار دام ٥٠ يوما (١٦٨٥/٨/١٩) (هامر ، ١٢ ،

١٨١ ؛ راشد ، ٤٧٤ - ٧ ؛ سلاحدار ، ٢ ، ٢١١ - ٤) . استمر آخر حكم للأتراك فى اويفار ، منذ فتح كوبرولو - زاده الأخير لها ٢١ سنة ، ١٠ أشهر ، ٢٥ يوما . وهكذا زالت من الوجود ، إيالة عثمانية صغيرة . لكن جنوب - شرق سلوفاكيا ، مازال عثمانيا . كان الاستيلاء على اويفار ، سببا فى إقامة الأفراح فى العالم المسيحى كافة (هامر ، ١٢ ، ١٨٤) .

اجتاز الكلك سوبياسكى دنيستر نحو الجنوب ، معلقا آمالا كبيرة على النصر ، ولكن جيش سليم كيراى المؤلف من ٨٠٠٠٠ شخص (٥٠٠٠٠ قرمى) ، هزم الملك فى الحرب الميدانية المسماة بويان Bojan) (١٦٨٥/١٠/١٠) . انسحب سوبياسكى تاركا وراءه ٦٠٠٠ قتيل و ٥٠٠٠ أسير .

استمر قره إبراهيم باشا فى أعماله الدنيئة وأعدم العسكرى الفذ والمسن ، داماد ملك إبراهيم باشا ، الذى اتهمه بمسؤليته عن سقوط اويفار ، وقد كانت الحقيقة أنه كان يخشى أن يحتل مكانه . قطع رأس ملك إبراهيم باشا فى بلغراد فى ١٦٨٥/١٢/٣ (سلاحدار ، ٢ ، ٢١٥ - ٧) . لكن قره إبراهيم باشا ، لم يتمكن من الحفاظ على مقامه بعد منافسه ، سوى ١٥ يوما . عزل محمد الرابع ، الصدر الأعظم هذا ، لرفضه الخروج للحملات (١٦٨٥/١٢/١٨) ، ونفاه إلى جزيرة رودس وأمر فى آيار ١٦٨٧ بإعدامه هناك . دامت صدارته سنتين ، ٤ أيام . جيء مكانه بالوزير الثالث يناجى صارى إبراهم باشا ، وهو مثال النذالة والجبن وآخر من يصلح للصدارة بسبب كونه عديم الشأن محروما من الاخلاق ومن العلم العسكرى والشجاعة . تمكن من الحفاظ على السلطة وادعاء شرف النصر الذى احرزه سليم كيراى فى معركتين ميدانيتين فى سنتين متتاليتين تجاه سوبياسكى فى جبهة بولونيا . جاء فى ك٢ من عام ١٦٨٦ إلى أدرنة وتسلم الختم الهمايونى . ولم يكتف بذلك ، وإنما أصبح علاوة على ذلك سردارا أكرم (قائدا أعلى) على جبهة ألمانيا (سلاحدار ، ٢ ، ٢٢٥ ـ ٦ ، ٢٢٨ ـ ٣٠ ؛ راشد ، ٤٨٤ ـ ٦) .

كانت مورا ، لواء (سنجق) بحريا عثمانيا مقسما إلى ٢٣ قضاء . كان هذا اللواء ، هدف البندقية . وكان استيلاء البندقية عليها سيغطى على ضياع كريت بشكل واسع . استولى موروسينى على نافارين خلال ١٣ يوما (١٦٨٦/٦/١٥) (سلاحدار ، ٢ ، ٢٤١ - ٢) . واسقط كورون بعد حصار دام ٣٠ يوما (١٢

آب) . كانت هذه الأماكن كلها تعود إلى البندقيين وفتحت خلال عهدى فاتح وبيازيد الثانى . احتل موروسينى ، عدا قطع البندقيين ، فرقة سكسونية وفرقة Braunschweig ، وفرقة من ميلانو بقيادة الأمير Visconti ، وفرسان مالطه واحد كبار عسكريى العصر وهو الماريشال السويسرى الكونت Königsmark . أكمل موروسينى فتح مورا بعد أن استولى فى تموز ١٦٨٧ على باتراس ، وبعدها على Korinthos . انسحب السردار أحمد باشا من مورا إلى أثينا . واجه المتفقون العثمانية فى جبهة مورا ، بقوات كبيرة ودهاة عسكريين مثل موروسينى وكونيكسمارك . أما إستانبول ، فلم تتمكن من إرسال قوات كافية ولاقادة ذوى مقدرة عسكرية . ورغم ذلك ، تمكن القبطان – دريا مصرلى أوغلو إبراهيم باشا من تشتيت الأسطول البندقى خارج ميديلى ، فى معركة بحرية استمرت ٣ ساعات (ت١/١٦٨٦) . منح مجلس السناتو (الأعيان) الجمهورى البندقى ، موروسينى أعلى رتبة للأصالة ، وهى رتبه لم تمنح لغيره خلال الألف سنة من تاريخ البندقية ؛ الا لشخصين فقط (هامر ، ١٢ ، ٢٢٥) .

٣) سقوط بودين (١٦٨٦/٩/٢)

شرع المتفقون الذين اتعظوا من هزيمة بودين فى العام الماضى ، بمحاصرة المدينة بواسطة جيش كبير (١٦٨٦/٦/١٨) . كان البكلربك (الفريق) عبد الرحمن عبدى باشا ، الكبير السن ، يدافع عن المدينة . سار الصدر الأعظم والسردار الأكرم آيناجى صارى سليمان باشا من بلغراد مع جيش عدده ٥٠٠٠٠ جندى ووصل المجر . يشبه هامر ، جيش الاتفاق الذى جاء إلى بودين ، بجيش الصليبيين الذى خرج أمام ييلديرم بيازيد فى نيغبولى قبل ٢٩٠ عاما ؛ من ناحية أنه كان ممثلا لكافة شعوب أوروبا تقريبا (١٢ ، ١٩٨) . كان عدد الجيش الألمانى ٨٠٠٠٠ جندى وبقية الجيش من الشعوب الأخرى . أما عبدى باشا الذى يناهز عمره الـ ٧٠ عاما ، فكان لديه ١٦٠٠٠ جندى ممتاز ومدرب وعتاد كاف ومهمات كثيرة .

أهم قواد الجيش الصليبى : من اسبانيا دوق Vexas ، دوق Escalona ، ١١ ماركيزاً اسبانيا ، من فرنسا ٣ ماركيز و ١ كونتا ، من انكلترا الابن غير الشرعى

للملك جيمس الثانى ، أمير Ruppert ، ٤ لورد ، من ايطاليا ٥ كونت أحدهم ماريشال ، من المانيا منتخب بافيرا ، دوق لورين ، دوق كروى ، دوق Courland ، أمير Neuburg أمير Velden ، ماركيز Baden ، ٩ كونت ٢ منهم برتبة ماريشال ، ٢ بارون الخ . كان الجيش الألمانى يتألف من ٨٠٠٠ جندى أرسلوا من Brandenburg - Prusya ، ٥٠٠٠ من ساكسونيا ، ٨٠٠٠ تحت قيادة منتخبهم البافارى بنفسه ٦٠٠٠ من دوق Würtemberg ، ٣٠٠٠ من دوق ساكسونيا ، وكان الجيش الشخصى للإمبراطور عبارة عن ٥٠٠٠٠ جندى (هامر ، ١٢ ، ١٩٨ - ٩) . ولو أن القائد العام ، كان منتخب بافيرا اسما ، باعتبار أنه كان أعلى حاكم ، لكن القيادة العسكرية الفعلية ، كانت بيد العسكرى الكبير جارلس ، دوق لورين .

كان الحصار ، شديدا جدا . سقط ٤ كونتات قتلى . وفى ١٦ تموز أصيب ميناء إنشاء السفن النهرى لبودين (ترسخانه) ، وأدى انفجار ٣٦٠٠٠ قطار من البارود إلى استشهاد ٤٠٠٠ جندى عثمانى . انفتحت فى الأسوار ثغرة بعرض ٦٠ قدما ، وحدد هذا الحادث مصير بودين . تغير مجرى نهر الطونه من شدة الانفجار (هامر ، ١٢ ، ٢٠١) . أعلم دوق لورين عبدى باشا ، بأنه ليس بإمكانه بعد الآن الدفاع عن القلعة التى دافع عنها حتى اللحظة الأخيرة ببطولة مكنته من إنقاذ شرف البادشاه ، وعرض عليه ترك بودين والذهاب مع جنده أحرارا . رفض الباشا . وفى ٢٧ تموز ، حدثت أمام باب بج (فينا) للمدينة ، معركة دموية شديدة سقط على أثرها وخلال ساعات ٢٦٠٠ جندى نمساوى ، ٤٠٠ بروسى ، ٨٠٠ - منهم أكثر من ٢٠٠ ضابط - بافيرى . تمكن عبدى باشا ، من صد ودحر ١٨ هجوما عاما كما تمكن من تكبيد العدو عشرات الآلاف من الخسائر ، ولكن لو تمكن ذلك الشخص الجبان الذى يحمل رتبة السردار الأكرم عن غير جدارة ولياقة ، من التدخل من الخارج لأمكنه إنقاذ بودين . إلا أن سليمان باشا اقترب إلى حد حمزه بك ، ولكنه بعد أن خسر ٣٠٠٠ شهيد ، انسحب مذعورا تاركا بودين لقدرها ، انتشر خبر حصار بودين فى جميع أنحاء الإمبراطورية . كانت تجرى مراسم الدعاء فى كافة المساجد لأجل المدافعين عن بودين . كما كانت تجرى مراسم الدعاء فى كنائس أوروبا لفتح بودين ، وهكذا تطور القتال ، إلى صراع بين الهلال - الصليب .

فى اليوم الـ ٧٤ لمحاصرة بودين (حصار فينا الثانى استغرق ٥٩ يوما) ، لم يبق لعبدى باشا إلا نفر قليل جدا . كان يحاول الدفاع عن باب بج بالسيوف فقط ، كانت أكبر فتحة فتحتها مدافع العدو ، فى تلك الناحية . قتل الدوق Asty الذى كلفه دوق لورين جارلس بالهجوم وقتل معه آلاف ، نتيجة قصف المدفعية التركية . دخل الصف الثانى من العدو إلى المدينة من باب بج واستشهد الوزير عبدى باشا الذى كان أمام الباب وبيده السيف ، وسحقته أقدام آلاف الجنود الذين مروا متجهين نحو ميدان بالى باشا . تجمع حفنة من الجنود الأتراك ، فى الميدان الذى يحمل اسم الغازى بالى باشا ، ابن عمة السلطان سليمان وأول بكلربك على بودين ، وهم يستعدون للدفاع الأخير . فضلوا جميعهم الشهادة على التسليم واستشهدوا . وبينما حاول بضعة من الجنود الأتراك النجاة بإلقاء أنفسهم فى الطونه ، عادوا وانضموا إلى الجيش ثانية عند مشاهدتهم شروع العدو فى ذبح الأهالى المسلمين القاطنين فى المدينة . ورغم إخلاء القسم الأعظم من الأهالى المدنيين من المدينة قبل بدء الحصار ؛ فإن عائلات تركية كثيرة لم ترض بالنزوح من بودين . تمكن بضع مئات من هؤلاء فقط من الهرب عن طريق الطونه . وعندما مل العدو من القتل العام للأهالى ؛ أسر عدة آلاف وهى البقية الباقية من الأتراك . حرقت آلاف الآثار المعمارية التركية وفى مقدمتها ٨١ مسجداً ، بمثل هذه البربرية . هرع الكونت Marsigli وهو جنرال إيطالى من Bologna فى خدمة الألمان مع بضعة من جنوده إلى القصور ، المكتبات ، المساجد وتمكن من إنقاذ الكثير من الكتب والآثار الفنية التركيةالتى أهدى فيما بعد قسما منها إلى المكتبة الإمبراطورية فى فينا ، وقسما منها إلى المكتبة والمتحف الموجودين فى Bologna . كان الكونت Marsigli الذى مكث مدة طويلة فى استانبول ، يجيد التكلم باللغة التركية . وله مؤلف قيم جدا فى التشكيلات العسكرية العثمانية .

لايستطيع أى مؤرخ أن يدعى أن العثمانية لم تدافع جيدا عن بودين . وهكذا انتهى الحكم الإسلامى التركى فى المدينة التى فتحها فاتح المجر السلطان سليمان خان القانونى بنفسه قبل ١٦٠ عاما . عبدى باشا ، الذى عين قبل سنة واحدة و ١٠ أشهر على بودين ، كان البكلربك (الفريق) الـ ٨٦ على بودين وآخرهم (سلاحدار ، ٢ ، ٢٤٩ - ٥٣) . وبعد ٢٤ يوما (صباح ٢٦ أيلول) ارتجت إستانبول لخبر سقوط بودين ، ارتجاجا لم يحدث من قبل عند سماع نصر أو هزيمة .

حدثت مظاهرات ضد الحكومة ، وتطاول البعض على السلطان علنا ، وكتبت المرثيات ولحنت .

استولى دوق لورين ، بعد انتصاره هذا ، الذى أقام أوروبا وأقعدها والذى كتب حوله مئات من كتب الثناء والتبجيل ؛ على القسم الأكبر من المجر . بعد ضياع أكبر بلدة من بلدان الحدود ، التى لم يحرزها العدو فى أى وقت من الأوقات . تضعضعت معنويات الجيش التركى وأخذت القلاع الموجودة فى المجر فى الاستسلام الواحدة تلو الأخرى . لم تكن المصيبة الحقيقية ، محاصرة فينا الفاشلة قبل ٣ أعوام ، بل كانت سقوط بودين .

سقطت شيموتورنا (Simotornia) فى (١٥ أيلول) ، شيكلوش (Siklos) ذات الـ ١٣ مسجداً (١٩ أيلول) ، بج Peç (بالمجرية : Pécs ، بالألمانية : Funfkirchen) ذات الـ ١٧ مسجداً ، مركز لواء تركى مهم (١٠ ت١) ، سكدين (Segedin) بعد دفاع دام ٢٤ يوما (١٢ ت١) ، كابوشفار (Kaposwar) (٢٩ ت١) . وعلى أثر انتقاد شيخ الإسلام جاتالجالى على أفندى للحكومة انتقادا شديد اللهجة ، عزله محمد الرابع بضغط من قائمقام الصدارة (وكيل رئيس الوزراء) رجب باشا . كان يشغل مقام المشيخة الإسلامية منذ ١٢ سنة ، ٧ أشهر ، ٣ أيام (سلاحدار ، ٢ ، ٢٤٥ - ٨) .

توقفت الحركات العسكرية فى شتاء عام ١٦٨٦ - ٨٧ ولم يجرؤ العدو على اجتياز Drava كان الصدر الأعظم ، مع ٥٠٠٠٠ جندى فى بلغراد وقالغاى قرم مع ٦٠٠٠٠ خيال تقريبا فى تامشوار (راشد ، ١ ، ٤٩٠ ومابعده)

٤) حركات عام ١٦٨٧

استغرق إعادة تجهيز جيش دوق لورين جارلس زمنا ، بسبب تكبده خسائر كبيرة فى بودين ، وهذا هو الذى أخر افتتاحه موسم الحرب . أما العثمانية فكان همها الدفاع وكانت فى وضع صعب . اقترب كونت Pallfy من Osiyek لكنه هزم وقتل (٢٠ تموز) . أنسحب جيش الاتفاق على أثر ذلك ، إلى موهاج . جاء صارى سليمان

باشا ، الذى شعر بتردد دوق لورين بعد هزيمة Osiyek ، إلى موهاج . كان قد مضى على إفناء السلطان سليمان القانونى ، جيش الملكية المجرية الكبرى فى صحراء موهاج (١٥٢٦/٨/٢٩) ١٦٠ سنة ، ١١ شهرا و ١٤ يوما بالضبط . كان جيش الاتفاق يفوق الجيش العثمانى عددا ، وكان سليمان باشا ، على علم بذلك . ترك ساحة القتال بعد أن خسر ٢٠٠٠٠ شهيد . كانت خسارة المتفقين ١٠٠٠ قتيل (١٦٨٧/٨/١٢) (هامر ، ١٢ ، ٢١٣) . العدو يستولى على سرادق صدر أعظم آخر قبل أن تمضى على هزيمة فينا ٤ سنوات ، وهذا السرادق عبارة عن سراى سيار يحتوى على ١٤ شقة . أخذه منتخب بافيرا . « كان Karl-Ludwig دوق لورين على الجناح الأيمن ، ومنتخب بافيرا على الجناح الأيسر . كانت قيادة الأتراك غير جيدة ، وكانوا يحاربون بشكل جيد . اتخذ الأتراك من الأشجار سدا ودافعوا فترة من الزمن ، ثم تركوا لنا ساحة القتال وانسحبوا بشكل غير منتظم ، ولم يتمكنوا من أخذ معظم مدافعهم ومهماتهم وانتقلت الينا . وقد حققت حرب موهاج هذه فوائد كبرى للعالم المسيحى والإمبراطورية . كانت السبب فى جلب المصائب الكبرى للسلطان » (كونت Marsigli ، ص ٢٣٥) .

لم يذق محمد الرابع الطعام مدة ثلاثة أيام . مرضت رابعة أمة الله كلنوش ، السلطانة – خاصكى (زوجة السلطان) (السلطانة – الوالدة بعد ذلك) . وصل الحزن والاستياء حده الأقصى فى الإمبراطورية وخاصة فى إستانبول . كان كامل نصف المجر تقريبا فى هذه الأثناء بيد الألمان ، أما نصفه الشرقى الأكبر فكان بيد العثمانية إلا أن الألمان أوقفوا حركاتهم فى التقدم عند حلول فصل الخريف .

كانت جبهة بولونيا فى عهدة السردار (القائد) العسكرى الجيد الوزير داماد بوزوكلو (من يوزغات) بيبقلى مصطفى باشا . قوته تتألف من ٥٨٠٠٠ جندى (٢٠٠٠٠ منهم تمارلى (نوع من الخيالة) ، ٨٠٠٠ انكشارى ، ٣٠٠٠٠ قرمى) . أراد الملك سوبياسكى أخذ كامانيجه لكنه دحر وتراجع (١٦٨٧/٩/٣) . دخلت روسيا كذلك الحرب فى هذه الأثناء . أرسل مصطفى باشا ، بعد انتصار كامانيجه ؛ نور الدين قرم (ولى العهد الثانى) على الجيش الروسى . تمكن نور الدين من العثور على الجيش الروسى الذى يقوده Prens Galitzyn قرب كييف Kiev وهزمه بسهولة .

تمكن الجيش البندقى الذى تسانده قطع اسبانيا ، توسكانيا ، ميلانو ، مالطه ، البابوية ، المانيا ، السويد من عبور برزخ Korinthos والدخول إلى شبه جزيرة Attika . استولى على أثينا (١٦٨٧/٩/٢٥) . خربوا ونهبوا المدينة بشكل فظيع . « الألمان والبندقيون الذين هم أكثر همجية من الأتراك ، هدموا ماحافظ عليه الأتراك لعصور طويلة من الآيات الفنية الأثرية التى تعتبر رمز الآثار القديمة وجعلوها هباء منثورا ، وتحولت المدينة المعمورة ، خلال أيام معدودة ، إلى كتل من الحجارة وبقايا الحريق . سقطت إحدى القنابل التى أطلقت من سفينة بندقية فى وسط Parthenon ونسفت أجمل قسم من المعبد » (فون هامر ، ١٢ ، ٢٢٧) ، كانت أثينا تحتوى على عدد قليل من الأتراك . ولأن الشعب كان أرثوذكسى المذهب ، فقد ذبحهم الكاثوليك بلا رحمة؛ لأنهم كانوا يعتبرون الأرثوذكس مسيحيين منحرفين .

كان الصدر الأعظم والسردار الأكرم (القائد الأعلى) آيناجي صارى سليمان باشا ، الذى لعب أهم وأقبح دور فى إسقاط مرزيفونلى ، عديم الأخلاق والضمير ، ظالما ، عديم الكفاءة . أفسد النظام والضبط الصارم الذى أسسه الكوبرولولر (المنتسبين إلى عائلة كوبرولو) فى الجيش التركى بشق الأنفس . تمرد الجيش وأراد قتل الصدر الأعظم . فر صارى سليمان باشا إلى إستانبول ، واستقال (١٦٨٧/٩/١٩) . دامت صدارته سنة ، و ٩ أشهر ، ويومين . أمر محمد الرابع بإعدام صارى سليمان باشا ، وعين سياووش باشا ، صدرا أعظم وسردارا أكرم . كان سياووش باشا صهرا لكوبرولو محمد باشا . كان يحمل هذه الميزة ، لكنه شخصيا لم يكن شخصا ذا قيمة . تمرد الجيش ، بقيادة عصبة من ضباط الإنكشارية ذوى الرتب الصغيرة وطلب خلع البادشاه من عرشه ، كان يريد التحكم فى الدولة ونهبها كما حدث قبل ٣١ سنة فى العهد الذى يسبق كوبرولو . لم يعد مثل هذا الجيش يعير شأنا للقتال . لم يكن شعب إستانبول يريد البادشاه ، فقد حدثت على عهده هزائم لم تحدث فى تاريخ الدولة . لكن الحقيقة أن عدم الرضا الذى يظهره شعب إستانبول ، كان بسبب مكوث البادشاه بصورة مستمرة فى أدرنة وقلة مجيئه إلى إستانبول ، واستفادة أدرنة من ميزات كونها مدينة العرش .

٥) خلع محمد الرابع (١٦٨٧/١١/٨) وشخصيته

يمكننا القول إن كربرولو – زاده فاضل مصطفى باشا ، هو الذى رتب هذا الأمر . اتخذ موقفاً مضادا من البادشاه وشهزاداته (أبنائه) الاثنين . كان فاضل مصطفى باشا يرى أن هذا البادشاه ، هو الذى سبب ضعف الدولة العالمية بإبعاده عائلة كوبرولو عن السلطة منذ هزيمة فينا . خلع كوبرولو – زاده ، الذى عينه محمد الرابع وكيلا للصدارة ، البادشاه فى إستانبول ، عندما كان الجيش المتمرد فى ادرنه . كان السلطان مصطفى (الثانى) الأبن الكبير لمحمد الرابع ؛ هو ولى العهد الشرعى . لكن كوبرولو – زاده ، انتقاماً لأبيه ، أبعد كلا من ابنى مراد الرابع . وأجلس على عرش الشهزاده (الأمير) السلطان سليمان كبير أخوى محمد الرابع الذى على قيد الحياة . وبهذا شذ عن قاعدة الوراثة المتبعة للسلالة السلطانية .

كانت أكبر عيوب مراد الرابع ابتلاءه وشغفه بالصيد . إلى درجة مرضية . وصار لايمكنه العيش بدون الصيد . وفى الحقيقة ، كان مراد الرابع حاكما من النوع الذى يفوض إدارة الدولة للوزراء ويقوم بواجب رئاسة الدولة بكل وقار . لكن المجتمع العثمانى ، لم يكن معتادا على مثل هذا النوع من الحكام . كان يريد خاقانا يجمع كامل السلطة فى يده ويعرف كيفية إدارة هذه السلطة .

ترك السلطان محمد خان الرابع العرش إلى أخيه الذى يصغره بـ ٣أشهر ، ١٣ يوما . استمع إلى قرار خلعه بكل هدوء . وسأل دون اهتمام ، فيما إذا كان قد صدر قرار باعدامه أم لا . وعندما علم بعدم صدور قرار بقتله ، لم يظهر أدنى علامة للسرور . كان هدافا إلى درجة لاتصدق . فارسا ممتازا . وفى يوم شتاء ، امتطى الجواد من يان بولو إلى أدرنه طيلة ٢٠ ساعة دون أن يترجل من على الحصان إلا لتبديله فقط ودخل السراى دون أن تظهر عليه إمارات التعب ، أما معيته فمرضوا وأصبحوا طريحى الفراش لعدة أيام . قصد بإجراء سفرة كهذه أن تكون عبرة لمعيته الذين أخطئوا بقولهم للسلطان أنه من غير الممكن السفر فى شتاء كهذا الشتاء . كان أحد أشهر رماة الجريدة من بين الرماة الذين أحرزوا أرقاما قياسية فى الإمبراطورية . كتب عدة أشعار . وسار على التقليد المتبع فى رعاية الشعر والأدب والموسيقى والفن . لكنه بقى بعيدا عن التعمق فى ولوج هذه الحقول كما فعل

أجداده . جلس على العرش وعمره ٦ سنوات و ٧ أشهر و ٧ أيام ، ورغم أنه استمر على تحصيل العلم أثناء سلطنته مدة طويلة ؛ لكن تثقيفه لم يكن كأجداده . كان محظوظا جدا ، من جهة وجود أم له مثل السلطانة - الوالدة خديجه تارخان . ارتاح جدا فى دور الكوبرولولر (عائلة كوبرولو) (١٦٥٦ - ١٦٨٣) ، وقضى سلطنة ذات شوكة عظمى تشبه تلك التى فى عهد القانونى . وفى كل فرصة سنحت له ، ترك إستانبول التى تذكره بالثورات التى جرت فى طفولته وسكن أدرنه ، و لم يكن هذا مناسبا من ناحية صيانة نظام الدولة . عاشت أدرنه فى عهده المع وأعظم فترات تاريخها ودخلت ضمن أكبر بلدان العالم المعدودة . لم يكن مغرما بالنساء أو المشروب . ولدت الباشخاصكى (زوجته المفضله) السلطانه رابعة أمة الله كلنوش ، التى عنيت بتربيتها والدة زوجته ، له ابنيه ، ولو أنها لم تكن الزوجة الوحيدة له ، إلا أنها احتلت مكانها المرموق كزوجته المفضلة بين الحرم الهمايونى . أعدامه ، قره مصطفى باشا ، وتعيينه بدلا منه باشوات غير جديرين ، أحدهم أسوأ من الآخر مثل إبراهيم باشا وسليمان باشا ؛ وضع السد المانع ضد سلطنته ، وأولاده وضد استمرار الدولة العالمية . أكمل بقية حياته سعيدا فى سرايات إستانبول وادرنه . لم يعش طويلا لتأثره من حرمانه من الخروج للصيد .

دامت سلطنته ٣٩ سنة ، ٣ أشهر ، ويوما . كان عمره عند خلعه يتجاوز الـ ٤٥ عاما بـ ١٠ أشهر و٧ أيام . هذه المدة ، هى أطول مدة لرئيس دولة فى تركية بعد عام ١٥٦٦ . مدة هذه السلطنة هى الرابعة فى التاريخ العثمانى بعد مدة سلطنات ارطغرل غازى والقانونى وعثمان غازى . كان من السلاطين النوادر الذين أصبحوا « ولى عهد » فور ولادتهم . عاش بعد خلعه ٥ سنوات ، وشهرا ، ٢٨ يوما . مات فى سارى أدرنه وعمره يتجاوز الـ ٥١ بـ ٥ أيام (١٦٩٣/١/٦) . نقل جثمانه إلى إستانبول ودفن جوار والدته السلطانه تارخان . ورغم مناداته سنجق بك (أمير لواء) على ساروخان (مانيسا) فى أواخر ولايته للعهد (ك ١٦٤٦/٢) ، فإنه لصغر سنه ، لم يلتحق باللواء . زار فى الأناضول ، الأماكن القريبة مثل جناقلعه ، أزميت ، بورصه . أما ناحية روملى فشاهدها كما زار تلك المناطق بشكل موسع حتى داخل بولونيا . توجب علينا الحقيقة أن نذكر مسيرته إلى عدة حملات همايونية ، ولو أنه لم يكن هو قائدها بنفسه .

جرت عملية ختانه بعد جلوسه على العرش بسنة واحدة وشهرين ونصف ، مع إخوته الثلاثة ، رئيس أساتذته (باش معلم) خواجه سلطاني وانى محمد أفندى . ومن بين أساتذته الذين يستحقون الذكر ، كل من المؤرخ الشهير والشاعر الوزير الثانى عبد الرحمن عبدى باشا ، شيخ الإسلام منقارى - زاده يحيى أفندى ، عمته السلطانه عاتكه . أستاذه فى التاريخ ، هو المؤرخ المشهور جدا والطبيب هزار فن حسين أفندى (وفاته ١٦٩١) . لم يفارقه بعد خلعه ابناه الإثنان . عاش مع ابنيه وأمهما السلطانة رابعة فى قصر طوب قابو حتى ربيع عام ١٦٨٩ ، ثم فى السراى الهمايونى فى أدرنه . يلقبه العثمانيون « آوجى » (صياد) و « غازى » ، ويلقبه الأوربيون بـ « الكبير » .

أولاده : السلطان مصطفى الثانى (١٦٦٤/٦/٥ - ١٧٠٣/١٢/٣٠) ، السلطان أحمد الثالث (١٦٧٣/١٢/٣١ - ١٧٣٦/٧/١) ، السلطانة خديجة (١٦٦٢ - ١٧٤٣/٥/٩) ، السلطانة فاطمة (١٦٨١ - ١٧٠٠/١٢/٦) ، السلطانة أمة الله « آمى » « كوجوك » (١٦٧٠ - ١٧٠٠/١٢/١٣) . توفى له ٣ شهزاده (أمير) و سلطانه (أميره) وهم أطفال ، استمرت السلالة إلى زماننا هذا عن طريق أحمد الثالث ، لكن ابنى مصطفى الثانى كذلك جلسا على العرش . السلطانة خديجه ، تزوجت أولا بالوزير الثانى داماد صاحب مصطفى باشا (وفاته ت١/١٦٨٦) ، ثم بالصدر الأعظم مورالى سلاحدار أنشته حسن باشا (١٦٥٦ - أيار ١٧١٣) ، وأنجبت من الأول ٤ ومن الثانى ولدين . إن والدة السلطانه خديجه ، هى كذلك السلطانه رابعة كلنوش والدة كل من مصطفى الثانى وأحمد الثالث . تزوجت السلطانه فاطمه بداماد طرناقجى جركس إبراهيم باشا (وفاته شباط ١٦٩٧) ، وبداماد طوبال يوسف (وفاته ت ١٧١٦/٢) ، وخلال الفترة بين زواجيها آنفى الذكر ، تزوجت بالداماد مصرلى محمد باشا ، ورزقت ببنت من كل من ابراهيم باشا ويوسف باشا . جرى نكاح السلطانة أمة الله وهى طفلة إلى مرزيفونلى قره مصطفى باشا ولكن لم يجر الزفاف ، ثم تزوجت بالداماد سلاحدار جركس كوجوك عثمان باشا (وفاته ١٧٢٧/١/٨) وأنجبت منه ٣ خانم سلطان (سلطانه) .

تنقسم سلطنة محمد الرابع إلى هذه الأدوار : ١) دور النيابة (١٦٤٨/٨/٨ -

١٦٥٦/٩/١٥ = ٨، ١، ٨) : أ- نيابة أم أبيه السلطانة - الوالدة الكبرى كوسم مهبيكر (١٦٤٨/٨/٨ - ١٦٥١/٩/٣ - ١٦٥٦/٩/١٥ = ٥، - ١٢،) ٢) دور الكوبرولولر (١٦٥٦/٩/١٥ - ١٦٨٣/١٢/١٥ = ٢٧ ، ٣ ، -) : أ - صدارة كوبرولو محمد باشا (١٦٥٦/٩/١٥ - ١٦٦١/١٠/٣٠ = ٥، ١، ١٥) ،
ب - صدارة كوبرولو - زاده فاضل أحمد باشا (١٦٦١/١٠/٣٠ - ١٦٧٦/١١/٣ = ١٥ ، - ، ٤) ،
ج - صدارة مرزيفونلى قره مصطفى باشا (١٦٧٦/١١/٣ - ١٦٨٣/١٢/١٥ = ٧ ، - ، ١ ، ١٢) ، ٣) الدور الأول من سنى المصائب (١٦٨٣/٢/١٥ - ١٦٨٧/١١/٨ = ٣ ، ١٠ ، ٢٤) : أ - دور الحرب التوازنية إلى سقوط بودين (١٦٨٣/١٢/١٥ - ١٦٨٦/٩/٢ = ٢ ، ٨ ، ١٨) و ب - دور الهزيمة التامة (١٦٨٦/٩/٢ - ١٦٨٧/١١/٨ = ١ ، ٢ ، ٦) .

كانت الدولة فى تاريخ خلع محمد الرابع ، قد فقدت ٢٨ ٠٠٠ كم٢ تقريبا من أراضيها للبندقيين و ١٠٠ ٠٠٠ كم٢ تقريبا لألمانيا وكلها كانت أقطارا مهمة للغاية : القسم الأعظم من المجر الوسطى والغربية ، قسم من سلوفاكيا ، سلوفينيا ، خرواتيا ، مورا ، جزيرة آيا مافرى Aya Mavri ، أثينا وجوارها ، Preveze و Inebahti ، دالماجيا التركية . وخلال ذلك ، سقطت بكلربك (إمارة) بودين (بودابست) الإيالة الثانية بعد مصر وإيالة اويفار الصغيرة وذهبت فى ذمة الماضى .

٦) الدور الأول لسلطنة سليمان الثالث (١٦٨٧/١١/٨ - ١٦٨٩/١٠/٢٥)

سليمان الثالث ، هو الابن الثانى للسلطان إبراهيم . أمه السلطانة - الوالدة صالحة دلاشوب (١٦٢٧ - ١٦٨٩/١٢/٥ ، فى سراى أدرنه) . سمى المؤرخون العثمانيون ، سليمان ١ « أمير سليمان » وطفروا وسموا القانونى « سليمان ١ » وسليمان ٣ هذا ، سموه « سليمان ٢ » . استعمل الاوروبيون تعابير سليمان ١ ، ٢ ، ٣ - كما استعملناها نحن فى كتابنا هذا - على شكله الصحيح .

أساتذته ، حاجه سلطانى عرب - زاده عبد الوهاب أفندى ، شيخ الجلوتية آطبازارلى عثمان فضلى أفندى (وفاته ١٦٩١) . وبسبب منع الشهزادات (الأمراء

أبناء السلاطين) من إنجاب الأولاد فى العصرين ١٧ و ١٨ ، لم يرزق خلال فترة سلطنته بأولاد ، رغم أنه كان متزوجا بـ ٦ زوجات . كان سليمان ٣ المسمى « غازى » ولى عهد لمدة ١٦ سنة تقريبا ، خلال الفترة من جلوس أخيه الكبير محمد الرابع (١٦٤٨/٧/٨) إلى تاريخ ولادة مصطفى ٢ الابن الأول لأخيه الكبير (١٦٦٤/٦/٥) . (حتى أنه توجد محاولة انقلابية فى ١٦٥١/٩/٣ لخلع محمد الرابع وإجلاس الشهزادة الكبير سليمان) . وفى آذار ١٦٨١ ، عين الوزير السابع كوبرولو - زاده فاضل مصطفى باشا ، مرافقا لحماية كل من سليمان ٣ وأخيه أحمد ٢ ، خلال سفرتهما من إستانبول إلى أدرنه ، وبذا سنحت له الفرصة للتعرف على هذين الشهزادتين عن كثب ، أحبهما وصار مؤثرا فيما بعد لجلوس كليهما على العرش . عاش مدة طويلة فى أدرنه عندما كان أميرا . انشغل كثيرا بالخط . وحصل على أجازتين فى خط الثلث والنسخ من طوقاتلى أحمد أفندى .

سقط سياووش باشا ، صهر كوبرولو من الصدارة بعد ٥ أشهر و ٩ أيام (١٦٨٨/٣/٢) ، صار ، آياشلى نيشانجى اسماعيل باشا ، صدراً أعظم . سببت ثورة ٢٨ ربيع الأول ، سقوط سياووش باشا ، وهذه الثورة من أقذر ثورات التاريخ العثمانى ، فلقد قتل الثوار العصاة الذين اقتحموا سراى سياووش باشا ، الباشا مع ١٥٠ من رجاله (هامر ، ١٢ ، ٢٥٠) .

وبينما أصبح السفلة أصحاب النفوذ فى إستانبول ، كان يجرى فى المجر قتال دموى عنيف . استولى الجنرال Caraffa ، على مركز الإيالة اكرى (بالمجرية : Eger بالألمانية : Erlau) مع Vire (١٦٨٧/١٢/١٤) . وهكذا خرج شمال المجر من الحكم العثمانى . كان محمد الثالث قد فتح أكرى قبل ٩١ سنة ، وشهرين ، ٣ أيام . سبب استسلام القلعة لحالها بعد سقوط البكلربك حسن باشا شهيدا ، هو كثرة نفوس المسلمين فى المدينة . خرج هؤلاء بأمان . لكن الألمان نسفوا كافة الآثار المعمارية العثمانية فى المدينة ومن بينها ٤١ مسجدا ، جعلوها قاعا صفصفا . إلى حد أنه لايمكن لأحد أن يقول بأن هذه البلدة ، شهدت حكما عثمانيا . وتوجد الآن فى أكرى ، مأذنة واحدة - لاأحد يعلم كيف سلمت - كأنها تشهد على الماضى . تقع أكرى على بعد ٩٥ كم فى شمال - شرق بودابست . اغتنم الألمان الـ ١١٣ مدفعا الموجودة فى القلعة . اولو جامع (المسجد الكبير) صار كنيسة القديس ليوبولد . الذى احتل أكرى ، هو المؤرخ الشهير الكونت ماسيكلى مساعد Caraffa .

انتخب موروسينى الذى فتح كامل مورا ١٦٨٧/٨/١١ ، دوج على البندقيين (رئيس جمهور) . انتقلت إلى يد البندقيين ، كامل دالماجيا تقريبا ، كان يسكن اثينا ٣٥٠٠ تركى ، جاءوا إلى أزمير .

لم يتمكن اياشلى اسماعيل باشا من البقاء فى السلطة ، أكثر من شهرين . وأصبح تكرداغلى بكرى مصطفى باشا ، صدراً أعظم (١٦٨٨/٥/٢) .

انهارت كامل جبهة المانيا تقريبا ، فى صيف عام ١٦٨٨ . وصل منتخب بافيرا إلى القرب من بلغراد . سقطت قلعة Golumbacz ، وهى القلعة التى فتحها بيلديرم بيازيد . كانت هنالك عائلات تركية تسكن منذ ٢٩٠ عاما . نصروا ٣٠٠ إمرأة مسلمة وزوجوهن بالجنود الألمان . سقطت أستولنى – بلغراد (بالمجرية : Székesfé hervar) ، مركز لواء مهم على بعد ٥٠ كم فى جنوب – غرب بودابست ، رغم دفاعها الشديد (١٦٨٨/٩/٦) . قتل خلال هذا الدفاع أمير Liechtenstein و ٤ حكام ألمان يحملون لقب كونت . جرح دوق Mantova ، أمير Savoie المشهور Eugen ، كان القائد العام منتخب بافيرا بين الجرحى . استشهدت كامل الحامية العثمانية لاستولنى – بلغراد البالغة ٧٠٠٠ شخص وذبح كافة المسلمين الموجودين فى المدينة . انتقل ليد العدو ٧٩ مدفعا عثمانيا ، وقد دهش الألمان عند مشاهدتهم أحدها الذى كان يقذف قذيفة بحجم ٤٤٠ « ليفره » . أهدى المنتخب ماكسيميليان Maximilian الراية العثمانية التى اغتنمت ، إلى البابا Innocentius الحادى عشر . علق البابا هذه الراية إلى جانب راية مرزيفونلى قره مصطفى باشا التى سبق أن أرسلها إليه سوبياسكى .

سقطت قلعة بلغراد بعد سقوط استولنى – بلغراد بيومين وبعد قتال شديد جدا (١٦٨٨/٩/٨) . استمر الحصار ٢٩ يوما . كان قد تم إجلاء الشعب المسلم وإرسالهم إلى الداخل عن طريق الطونه . ذُبح الذين لم يرغبوا فى الذهاب ، بالسيوف مع بقية الحامية التركية . حول أكثر من ١٠٠ مسجد ، إلى كنيسة .

دخل والى بادن Ludwig ، أيالة بوسنه واحتل Banyaluka و Zvornik (١٦٨٨/٩/٤ ، ١٦٨٨/١٠/٤) . أزيح الأتراك بصورة كاملة من درافا التى كانوا قد وصولها فى عهد السلطان مراد الأول (١٣٦٢ – ١٣٨٩) . لكن البكلربك

الوزير محمد باشا ، هزم العدو فى بيهاج وتمكن من الحفاظ على خط الطونه .

كان النصر ، فى جبهتى بولونيا وروسيا ، يلازم الطرف العثمانى . وفى شتاء عام ١٦٨٨ فى المعركة الميدانية Sireth . اقترب الجيش الروسى الذى يقوده الأمير Vassili Galitzyn لأول مرة فى التاريخ إلى اورقابو ، وهى باب قرم . لكن الجيش المؤلف من ٣٠٠ ٠٠٠ شخص انهزم بشكل قطعى فى الحرب الميدانية أمام سبيم كيراى (١٦٨٩/٥/٣٠) .

جاء موروسينى ، فى عام ١٦٨٨ إلى أثينا . كان يريد الاستيلاء على آغريبوز . سلم القيادة العامة إلى العسكرى السويدى الكبير الماريشال الكونت Königsmark . كان مساعداه ، أميرا Wütem berg و Braunschweig ، وأمير d'Harcourt الفرنسى . كان جيشا إيطاليا - ألمانيا كبيرين. جاء أسطول الاتفاق المؤلف من أساطيل البندقية - البابوية - مالطه - توسكانا ، إلى بيره Pire . كان الأسطول مكونا من ١٣٤ سفينة حربية و ٢٠٠ سفينة نقل . كان يدافع عن آغرى بوز ، جلبى إبراهيم باشا . تحرك أسطول الاتفاق من بيره (١٦٨٨/٧/١١) ودخل ميناء آغرى بوز ، مركز جزيرة آغرى بوز (باليونانية : Chalkis ، بالإيطالية : Egripo) . هذه القلعة ، قريبة جدا من شبه جزيرة Attika وتقع على مضيق آغرى بوز الذى يفصل الجزيرة عن شبه الجزيرة . تمكن جلبى إبراهيم باشا من الدفاع عن الجزيرة أمام العدو الذى يفوقه عسكريا وبحريا بدرجة لاتقبل القياس ؛ مدة ١٠٦ أيام . أصيب القائد العام الماريشال الكونت Königsmark ومات ، احتل مكانه ، أحد الحكام الألمان أمير Barunschweig . جرح أمير Würtemberg (٢٠ آب) بلغ القتال الذى يجرى وجها لوجه فوق الأسوار ، والصدام الذى يجرى تحت الأرض بحفر الانفاق ، درجة مخيفة . أمر موروسينى ، برفع الحصار وإخلاء الجزيرة (١٦٨٨/١٠/٣٠) . قتل ٢٣٠٠٠ جندى من الأعداء وجرح عشرات الألوف منهم . لم تجد نفعا الـ ١٨٢٠٠٠ قذيفه و ٣٦٠٠٠ قنطار من البارود التى قذفت القلعة العثمانية . كان نصرا عظيما لجلبى إبراهيم باشا الذى قصفه العدو بمعدل ١٨٠٠ قنبلة يوميا . شخّص موروسينى المجرب ، خور قوات البندقية . اكتفى بـ Mora . وأيقن عدم إمكان تقدمه أكثر من ذلك . أراد أن يرسل الأسطول إلى سواحل الأناضول لاستعراض قوته وإخطار العثمانية ، لكن القبطان دريا (مشير البحر ، أكبر رتبة بحرية) مصرلى

أوغلو إبراهيم باشا ، هزم الأسطول البندق بعد إغراقه ٨ سفن معادية ، وفقد البندقيون فى السنة التالية كذلك ٩ سفن . أما قلعة العثمانية الأخيرة فى مورا ، بنفشه (Malvasia) فقد استسلمت بعد نفاد قنابل الـ ٧٨ مدفعا الموجودة فيها وبعد مقاومتها مدة ١٤ شهرا (١٦٩٠/٨/١٠) .

جاء سليمان الثالث إلى أدرنه ، على أثر سقوط بلغراد . وبتحركه منها ، وصل صوفيا خلال ١٩ يوما (١٦٨٩/٦/٢٥) . انتهت هنا الحملة الهمايونية الألمانية التى أعلنت فى ٦ حزيران (١٦٨٩) . لأن الوزراء لم يجرؤا على إرسال البادشاه إلى أبعد من ذلك .

كان البادشاه مريضا . وكان سردار (قائد) جبهة ألمانيا ، عرب رجب باشا ؛ عديم الكفاءة بشكل كبير . انهزم فى المعركتين الميدانيتين Batucina (٣٠ آب) وبعدها نيش (٢٤ أيلول ١٦٨٩) . استولى ماركيز بادن الذى اغتنم ٢٠٣ مدافع عثمانية ، على نيش . نقل الوزراء الذين ارتأوا خطورة بقاء البادشاه حتى فى صوفيا ، سليمان الثالث الذى كان يسكنها منذ ٥ أشهر ، إلى أدرنه . أعدم رجب باشا . أسقط الألمان الذين استولوا على صربيا ، Vidin ، ودخلوا بلغاريا ، وأخذوا يقتربون إلى اسكب ، مكدونيا والبانيا . تم وقف البندقيين ، وتم دحر البولونيين والروس باستمرار . ولكن ، كأنما لاتوجد هنالك أية قوة لوقف الألمان . قرر شورى السلطنة فى أدرنه بالإجماع أن الحل الوحيد هو تعيين كوبرولو – زاده فاضل مصطفى باشا ، صدرا أعظم وسردارا أكرم وعرض ذلك على البادشاه ، وقد صوت تكرداغلى مصطفى باشا ، الذى يشغل منصب الصدارة منذ سنة ، ٥ أشهر ، ٢٤ يوما (والذى عمل مابوسعه دون حصوله على نتيجة) ، مؤيدا ذلك (١٦٨٩/١٠/٢٥ . كان فاضل مصطفى باشا البالغ عمره ٥١/٥ عاما ، محافظا لجزيرة ساقز ، استدعى إلى ادرنه . كان حاصلا على رتبة وزير قبل ٩ سنين وعمره ٤٢ عاما . بينما أخاه ، كان قد حصل على رتبة الوزير وعمره ٢٤ عاما وصدراً أعظم وعمره ٢٦ عاما .

٧) الدور الأخير لسلطنة سليمان الثالث (١٦٨٩/١٠/٢٥ - ١٦٩١/٦/٢٢)

يعود شرف طرح فكرة تكليف كوبرولو - زاده فى شورى السلطنة لأول مرة والتذاكر فى هذا الموضوع ، إلى شيخ الإسلام دباغ - زاده محمد أفندى . أما البادشاه ، فكان يضمر الامتنان نحو كوبرولو - حيث أن هو الذى نحى ولى العهد السلطان مصطفى وأجلسه على العرش ، إلا أن رجال الدولة ، كانوا على درجة من ضعف السجية والأخلاق ، وكأنهم عقدوا اتفاقا سريا بينهم لإبعاد عائلة كوبرولو من السلطة ، وذلك خوفا من مجيء صدر أعظم قوى على رأسهم ، يقف أمام مطامعهم فى سلب الدولة كيفما يشاءون . لم يكن سليمان الثالث بالشخصية التى تستطيع أن تقف أمام النظام العثمانى الصارم ذى القدرة المدهشة . لكن دخول العدو إلى الأقطار التى فتحت فى عهد مراد خداوندكار ، كان السبب فى إذعان الجميع أمام كوبرولو - زاده .

كان فاضل مصطفى باشا ، أحد أكبر دهاة الإداريين فى التاريخ العثمانى . كان يعلم عدم إمكانه دخول الحرب بجيش لايتردد جنوده فى نهب مهمات جيشهم فى ساحة القتال ويعتبرونها كأنها غنائم حرب سلبت من العدو . وكان يعلم كذلك بأن أمامه شتاءً واحداً فقط ، لإصلاح مثل هذا الجيش ، حيث أن الألمان سوف لن يمهلوه عند افتتاح موسم القتال فى الربيع القادم ، ولاأحد يعلم عندئذ ، إلى أى مدى سيتقدمون .

عندما أعلم سليمان الثالث ، بأن كوبرولو - زاده ، حمل الختم الهمايونى ، بنفس الصلاحيات التى حملها أبوه محمد باشا ، أخيه الكبير أحمد باشا وزوج أخته قره مصطفى باشا ، جزع المتمردون ، إن المتمردين فى هذا الدور ، هم الضباط صغار الرتبة ، أما عدد الجنرالات المشاركين معهم ، فقد كان قليلا جدا . كان الجنرالات قد سئموا من تحكم هؤلاء ، وكانوا مستعدين وراغبين باسم الدولة فى مساندة صدر أعظم كهذا . وينبغى أن نذكر أن المتمردين الذين سبقوا كوبرولو محمد باشا ، لم يكونوا من الضباط صغار الرتبة ، بل كانوا من الجنرالات .

كانت المشكلة الخارجية الوحيدة لكوبرولو محمد باشا ، هى دفع الأسطول البندق

الذى اقترب إلى فتحة مضيق جناقلعة ، كما أنه يمكن القول بأن أدرنه ، لم تكن سالمة من الخطر ، عند مجيء فاضل مصطفى باشا إلى السلطة . كان لدى كوبرولو الوقت الكافى لتصفية المتمردين ، وإن كان الوقت بشكل عام ضيقا جدا ، ورغم ذلك ، فقد وفق توفيقا خارقا للعادة ، من ت ١٦٨٩/٢ حتى تموز ١٦٩٠ (مدة ٨ أشهر) ، لم ينم ليلا ولانهارا ، وعاد بنظام الدولة إلى مستوى نظام عام ١٦٨٣ تقريبا .

أحدث إصلاحات جذرية فى مجالات المالية والزراعة وأنظمة الدولة ترتقى إلى درجة إصلاحاته فى الجيش . انشغل بالسياسة الخارجية . استحوذ جنون لذة الفتوحات على الألمان ، ودخلوا إلى عمق الأراضى العثمانية وسط الشتاء . ذبح سليم كيراى بالسيف فى صحراء Kosova ٢٠ ٠٠٠ جندى ألمانى واغتنم ٣٢ مدفعا . المشهور عن هذه المعركة الميدانية ، أنه لم يتمكن سوى جنديين المانيين فقط من الهرب والنجاة (سلاحدار ، ٢ ، ٤٩٤) ، لأنهم كانوا قد ابتعدوا جدا عن مراكزهم . ظفر قالغاى دولت كيراى مع حسن بك – زاده محمد باشا بجيش ألمانى آخر فى Prizrin وتمكنا من إفنائه . كان منقوشا على صدور جنود هذا الجيش المؤلف من ٨٠٠٠ شخص – كما فى الحروب الصليبية – صلبان كبيرة . طارد سليم كيراى العدو حتى صربيا وجاء إلى ادرنه ، أخبر السلطان كوبرولو – زاده بأنه تعب جدا وعرض عليه قبول تنازله عن العرش (١٦٩٠/٢/٢٣) . رفض كوبرولو – زاده طلبه مخبرا إياه بأن الزمن ، زمن جد . وقع خبر مجيء كوبرولو – زاده إلى السلطة فى أوروبا ، وقع القنبلة . لأن الألمان كانوا قد تذوقوا طعم إسقاط السردارات (القواد) الذين كان كل منهم أتفه من الآخر .

سقطت قلعة Kanije ، قبل خروج كوبرولو – زاده من أدرنه إلى الحمله ، بيومين (١٦٩٠/٧/١١) . كانت القلعة مركزا للإيالة بين سلوفينيا فى المجر وحدود النمسا . استمر حكم العثمانية فى كانيجه ١٥٨ عاما ، إلا ١٨ يوما . لم يتمكن كوبرولو – زاده من مغادرة أدرنه ، إلا فى ١٣ تموز (١٦٩٠) . وخلال تقدم ميزومورتا حسين باشا ، أميرال أسطول القطع النهرية (القليلة العرض) للطونه ، نحو بلغراد ؛ تحرك هو من أدرنه ووصل شهر كوى (Pirot) واستعاد هذه القلعة من الألمان ، وأجبر جيش الإمبراطورية الذى يقوده Von Schenkendorf على التراجع

مغلوبا على أمره . واستولى على قلعة موسى باشا (١٢ آب) ، وعلى نيش التى يحميها ١٠٠٠٠ جندى المانى بواسطة ٩٠ مدفعا ، بعد حصار ٢٣ يوما (٩ أيلول) ، وخلال يومين استولى على سمندره (٢٧ أيلول) ، Vidin ، اورشوفا وفتح الإسلام ووصل بلغراد .

عنى العثمانيون بصيانه قلعة بلغراد وتحصينها تحصيناً جيدا ، وكان الألمان قد أصلحوها بشكل فائق . كانت القلعة مكونة من ٩ طوابق ، ١١٦ برجاً ، وأسوار متتالية يمكنها مقاومة أضخم الجيوش بكل سهولة لمدة شهرين أو ثلاثة . هذه القلعة استولى عليها كوبرولو - زاده بعد قصفها مدة ٧ أيام ليلا ونهارا بواسطة ٤٩ مدفعا ضخما (١٦٩٠/١٠/٨) . استشهد ٥٠٠٠ جندى تقريبا . استشهد بكلربك روملى مصطفى باشا برصاصة أصابت رأسه . صلى عليه ، فاضل مصطفى باشا بنفسه وقام بمهمة الإمام . خسر الألمان ١٥٠٠٠ قتيل و ٣٩٦ مدفعا المانيا ، تم الاستيلاء على ١٢ سفينة حربية على الطونه (هامر ، ١٢ ، ٣١٤) . أسر آلاف الألمان . كانت بلغراد قد بقيت تحت حكم الألمان مدة سنتين ، وهكذا بدأ دور حكم العثمانية الجديد فى بلغراد لمدة ١٨٨ عاما . عاد القليل من الأتراك الذين تركوا المدينة قبل عامين . خرجت بلغراد ، عن كونها مدينة تركية . وفقدت كذلك هويتها كمدينة مجرية . وأخذت تزدهر كمدينة صربية . استعيدت الأراضى الممتدة من Vardar إلى Darva التى تزيد على ٢٦٠٠٠٠ كم٢ . استعيدت كامل صربيا . تم طرد العدو من بوسنه وبلغاريا بشكل تام . اقتحم فرسان قرم Esklavonya ، ولكنهم لم يتمكنوا من الاستيلاء على Osiyek . كان الصربيون يتعاونون مع الألمان . عفا كوبرولو - زاده عن الصربيين ووزع البذور والحيوانات والحبوب مجانا على مناطق القحط . تم إرضاء الصربيين وكسب ودهم بشكل حال بينهم وبين التفكير فى العصيان ضد الدولة العثمانية طيلة عصر واحد .

قدم البادشاه من أدرنه إلى إستانبول ، على أثر سماعه بخبر الانتصار . استقبل الشعب كوبرولو - زاده بمظاهرات ترحيب عظيمة . خلع ، سليمان الثالث فى السراى ، البردة الموجودة على ظهره والبسها لفاضل مصطفى باشا . ودعا له باكيا . استعد فاتح نيش ، فيدين ، سمندره وبلغراد ؛ لاسترداد المجر فى العام المقبل . زاد الخوف فى المانيا ، جددت تحصينات قلعة فينا ، كما أعيد تحصين بودابست .

ورغم استشهاد جركس أحمد باشا برصاصة مسدس معاد ، تمكن من هزيمة جيش الجنرال Caraffa البالغ ٢٦٠٠٠ جندى فى معركة Zernest الميدانية (١٦٩٠/٨/٢١) . نجا ٢٠٠ جندى معاد فقط ، وقتل ١٢ وأسر ١٨ جنرالا من الأعداء . اغتنم العثمانيون ٣٠ مدفعاً، ٧ رايات ، ١٥ علما . كان عدد شهداء الأتراك قليلا جدا وجرح ٣٠٠ منهم . على أثر ذلك جاء ماركراف (ماركيز) بادن Ludwig فى السنة التالية بجيش أضخم ، بقصد الاستيلاء على أردل (Transilvanaya) أيضا واستولى على هذه البلاد المجرية . الغيت الإمارة المجرية فى أردل وضمت إلى الإمبراطورية الألمانية كمقاطعة (١٦٩١/١٢/٤) . وانتهى الحكم العثمانى الذى استمر ١٦٥ سنة (Makkai, Histoire de T,ansylvanie ، ٢٥٣ - ٤) .

سار كوبرولو - زاده من أدرنه لحملة المانية ثانية (١٦٩١/٦/١٤) . توفى سليمان الثالث الذى كان مريضا منذ زمن طويل ، بعد ٨ أيام (١٦٩١/٦/٢٢) . دامت سلطنته ٣ سنوات ، ٧ أشهر ، ٤ أيام . كان عمره يتجاوز الـ ٤٩ بشهرين و٧ أيام . نقل جثمانه من أدرنه إلى إستانبول ، ودفن فى مقبرة جده السلطان سليمان الثانى القانونى .

غادر كوبرولو - زاده أدرنه ، وهو يعلم أن البادشاه على فراش الموت ، لكنه لم يرغب فى تأجيل تاريخ مسيرته وتفويت الموسم . كان قبل ذهابه ، قد هدد كافة رجال الدولة لإجلاس أخ البادشاه ، السلطان أحمد على العرش ؛ حيث كانت الأكثرية تريد إعادة إجلاس محمد الرابع على العرش ، وكان قسم آخر ، يريد إجلاس ولى عهد - سلطان مصطفى ، الابن الكبير لمحمد الرابع ، وقليل أولئك الذين كانوا يريدون إجلاس السلطان أحمد . وعلى الرغم من هذا الوضع ، فقد تم إجلاس السلطان أحمد على العرش خوفا من كوبرولو .

٨) دور السلطان أحمد الثانى (١٦٩١/٦/٢٢ - ١٦٩٥/٢/٦)

أحمد الثانى ، هو الابن الثالث للسلطان إبراهيم . وهو أصغر من أخيه الأكبر محمد ٤ بسنة ،أشهر ، ٢٤ يوما ، وأصغر من أخيه الكبير الآخر سليمان الثالث بـ ١٠ أشهر ، ١٠ أيام . أمه خديجه معزز الخاصكى (زوجة السلطان) الثانية ، كانت

قد توفيت قبل ٤ سنين (١٦٢٧؟ - ١٦٨٧/٩/١٢) . صار ولى عهد ، طيلة سلطنة أخيه الكبير سليمان الثالث ، بضغط من كوبرولو ، ولكن بعد سليمان الثالث ؛ كان عدد الذين يريدون إجلاس محمد الرابع مرة أخرى أو إجلاس ابنه السلطان مصطفى ، أكثر . جلس على العرش وعمره ٤٨ عاما و ٣ أشهر و ٢٥ يوما وهو أكبر من جلس على العرش عمرا حتى ذلك التاريخ . كان مولويا ، شاعرا ، خطاطا ، ملحنا ومؤلفا وكان مستوى تحصيله أعلى من كل من أخويه الكبيرين . ولده الوحيد عدا ٣ سلطانات (أميرات) و شهزاده (أمير) توفوا فى سن صغيرة جدا هو الشهزاده - سلطان إبراهيم (١٦٩٢/١٠/٦ - ١٧١٤/٥/٤) الذى ولد توأما ، وصار ولى عهد لابن عمه أحمد ٣ مدة ١٠ سنوات ، ٨ أشهر ، ١٢ يوما وتوفى وعمره يتجاوز الـ ٢١ عاما بـ ٧ أشهر ، دفن فى مقبرة جده السلطان إبراهيم . وفى ١٧٠٣ حدثت محاولة لإجلاسه محل أحمد ٣ ، الإ أن مؤيدو أحمد ٣ ، انتصروا . زوجة أحمد الثانى ووالدة ولى عهد - شهزاده سلطان إبراهيم ، هى رابعة خاصكى - سلطان (زوجة السلطان) (وفاتها ١٧١٢/١/١٤) ، مدفونة فى مقبرة القانونى .

كان الجيش الإمبراطورى ، تحت قيادة ماركيز بادن Salankamen على بعد ٥٠ كم (مسافة مستقيمة) من شمال - غرب بلغراد . كان جيشا كبيرا مؤلفا من ٥٠٠٠٠ مشاة و ٥٠٠٠٠ خيال ووحدات أخرى . قضى الألمان الشتاء فى الاستعداد بشكل جيد وحصلوا على امدادات . انضم الملك Tökeli مع ٨٠٠٠ مجرى إلى الجيش العثمانى ، أما خان قرم فكان فى الطريق . أخذ قائد أسطول الطونه مصطفى باشا يتقدم باسطوله النهرى صاعدا إلى مابعد بلغراد . وعلى مقربة من Salankamen فى الموقع الذى يصب فيه Tisa على الدونه ، تقابل مع ٨٠٠ سفينة نقل نهرية المانية تحمل العتاد والمهمات . أغرق القسم الأكبر منها وأسر قسما آخر . كان الألمان مترددين ، بسبب هزيمة العام الماضى واسم كوبرولو . كانوا يدافعون عن المجر ويعلمون أنهم سيفقدونها نتيجة لإحدى الهزائم . حفز وضع الألمان المتردد هذا ، أركان العثمانية ، وكوبرولو الذى ينتظر الجيش القرمى الذى يبعد مسافة ٧ ساعات ، على الهجوم قبل وصول القرميين . بدأت المعركة الميدانية عصرا باطلاقات المدافع المتبادلة بين الطرفين (١٦٩١/٨/١٩) . وخلال ساعات ، أخذت صفوف الألمان

فى الانحلال والتراجع . شهر فاضل مصطفى باشا سيفه وتقدم فى الصف الأول لتشجيع جيشه وتحقيق نتيجة حاسمة . وفى تلك اللحظة ، أصابت جبينه إحدى الرصاصات . صاح شخص أو شخصان من عديمى الأخلاق الموجودين حوله منادين باستشهاد السردار بشكل كأنما يراد به إسماع كافة الجيش ، فانحلت الصفوف . جمع الماركيز Ludwig الذى شاهد تغير الوضع ، فرقه المبعثرة وشرع فى الهجوم . لم تقدم الأفواج التركية على القتال وبدأت فى الانسحاب . وهكذا تسلم الألمان الذين تكبدوا خسائر جسيمة ، ساحة القتال من العثمانية التى كانت أضرارها طفيفة . لم يتمكن الماركيز الذى خسر ٤٠٠٠٠ جندى من مطاردة الأتراك. كان عدد شهداء الأتراك ٥٠٠٠ تقريبا . غير أن القسم الكبير من المدافع والمهمات العثمانية انتقلت ليد الألمان . سعادت كيراى خان الذى جاء إلى بلغراد مع جيشه بعد يومين ، شاهد باكيا ، دخول الأفواج العثمانية إلى المدينة . الحقيقة أنه تأخر ، لأنه لم يكن يملك سطوة سليم كيراى ، ولم يتمكن من جمع جيشه فى الوقت المحدد . وتمكن فقط من مطاردة العدو . جاء أولا إلى صحراء Salankamen . شاهد القتلى الألمان الذين يبلغ عددهم أضعاف الشهداء الأتراك ، متروكين دون دفن وشاهد حرق قسم من المهمات العثمانية التى لم يتمكن العدو من نقلها بكاملها . طارد الألمان حتى Petervaradin . قتل فى هذه المعركة دوق هولشتاين Christian أحد الحكام الألمان مع ٣ كونت من الحكام أيضا . كان رئيس أركان الماركيز ، هو المارشال الكونت Von Caprara . كانت الخسارة الكبيرة التى تفوق خسارة الحرب والتى لايمكن تعويضها ؛ هى استشهاد فاضل مصطفى باشا . دامت صدارته ١٢ سنة ، ٩ أشهر ، ٢٥ يوما . كان عمره ٥٣ عاما . استمرت عائلة كوبرولو ، من أبنائه الصدر الأعظم نعمان باشا ، السردار الوزير عبد الله باشا ، الوزير أسعد باشا .

صار قائمقام الصدارة ، عربه جى خوجه قوجا قاضى على باشا ، صدراً أعظم (١٦٩١/٨/٣٠) . كان شيخا حريصا وظالما . كان من غير الممكن أن يسد الفراغ الذى تركه كوبرولو - زاده . والحقيقة أنه لم يكن هنالك من يستطيع سد هذا الفراغ . جيء بقوجا خليل باشا بكلربك حلب ؛ قائدا عاما لجبهة المانيا .

استمر القتال فى خريف عام ١٦٩١ . انهزم الملك سوبياسكى فى كامانيجه أمام قهرمان باشا ، انهزم الألمان أمام Lippa تجاه طوبال حسين باشا بكلربك (أمير

الأمراء) تامشوار . أعدم على باشا ، ٣ من منافسيه مدعيا أنهم السبب فى هزيمة Salankamen . عزل سعادت كيراى الذى لم يتمكن من اللحاق بالجيش فى الوقت المحدد ونفاه إلى رودس حيث توفى هناك بعد مدة وجيزة . انشغل مدة ٦ أشهر و٢٩ يوما باجراءات كهذه . نفى إلى رودس وأعدم فيها ، وصار الصدر الأعظم البكلربك على دياربكر الوزير مرزيفونلى جالك حاجى على باشا (١٦٩٢/٣/٢٧) . كان وزيرا قديرا . أرسل الإمبراطور ، الكونت Marsigli الذى اشترك فى كافة المعارك فى الجبهة الألمانية منذ حصار فينا فى سنة ١٦٨٣ والذى يجيد اللغة التركية ، لغرض عقد صلح . استقبله أحمد الثانى مرتين فى إستانبول وفى أدرنه ، لم تؤد المفاوضات إلى أية نتيجة . خرب القرميون فى ١٦٩٢ غليجيا وشمالها الأقصى وخلال ذلك مدينة Lwow استسلمت Varat (بالرومانية : Oradeà Mare ، بالمجرية : Warasdin بالألمانية : Grosswardein) إلى الألمان مع ٩١ مدفعا ، ٢٠٠ كنتال قذائف ، ٧٠٠ كنتال بارود التى كانت موجودة فيها (١٦٩٢/٦/١٢) .

جاءت أساطيل البندقية – مالطه – البابوية – فلورنسا إلى كريت تحت قيادة الأميرال الكبير موروسينى وانسحبت بعد محاصرتها خانيا مدة ٤١ يوما وخسارتها ٤٠٠٠ جندى (١٦٩٢/٨/٢٨) . دافع عن خانيا ، الوزير اسباناقجى إسماعيل باشا . دخلت جيوش البندقية ، دالماجيا من ناحية ، ودخلت الجيوش الألمانية من ناحية أخرى ، خرواتيا ، ولكن دحر كلاهما .

منح جالك على باشا ، القيادة العليا . سار من أدرنة بعد ٥ أشهر ، ١٢ يوما (١٦٩٢/١٢/١٢) . عين سليم كيراى – كان عمره ٥٨ عاما – خانا على قرم للمرة الثالثة (١٦٩٢/١١/٦) . كان جالك على باشا وزيرا ذا أخلاق عالية كما كان اداريا قديرا . لكنه لم يكن رجل الأزمات الكبرى . تمكن من حمل عبء الصدارة مدة سنة ، ويوما ثم استقال (١٦٩٣/٣/٢٧) . توفى فى كاندية عندما كان واليا على كريت عام ١٧٠٠ عن عمر يناهز الـ ٦٠ عاما (سلاحدار ٢ ، ٦٩٥ ومابعده) . عين مكانه بوزوقولو (من أهالى يوزغات) بييقلى مصطفى باشا ، وهو أيضا من ذوى الأخلاق العالية ومن الأشخاص الذين دربهم مرزيفونلى قره مصطفى باشا ، وأعطيت له القيادة العليا (سردار أكرم) كذلك .

سار بوزوقلى بييقلى مصطفى باشا من أدرنة (١٦٩٣/٧/٦) . اجتاز فى ٢٧ تموز الطونه من Tutrakan . كان يريد استعادة أردل . لكنه غير اتجاه مسيرته ، عندما علم بأن الألمان توجهوا نحو بلغراد . حاصر الجيش الألمانى الذى يقوده دوق Croy ، بلغراد فى ٢٩ تموز . رفع الحصار فى ١٢ أيلول . قتل ١٠٠٠٠ ألمانى ، ٤٤٠٠ شهيد تركى . دافع عن القلعة ، جعفر باشا ، طارد الصدر الأعظم مصطفى باشا ، العدو المنهزم حتى Petervaradin ، وكبده خسائر جسيمة وعاد إلى بلغراد (١٧ أيلول) . دخل سليم كيراى كذلك أردل ، أسر ٢٠٠٠٠ جندى . عاد مصطفى باشا ، إلى أدرنة بعد ٤ أشهر ، ٢٤ يوما (١٦٩٣/١١/٢٩) . عزل بعد أن قضى فى الصدارة ١١ شهراً ، ١٨ يوما ، (١٦٩٤/٣/١٤) .

أرسل الختم الهمايونى إلى الوزير ديمه توكالى سورمه لى على باشا بكلربك (فريق) طرابلس الشام . جاء إلى أدرنة خلال ٣٠ يوما . ومنح القيادة العليا وسار من أدرنة لحملة Varadin (١٦٩٤/٦/٢٨) . حاصر فارداين مدة ٢٣ يوما ، ولم يتمكن من فتحها (٢ ت١) . عاد إلى أدرنة من حملته التى استغرقت ٥ أشهر ، ١٠ أيام (١٦٩٤/١٢/٨) .

تحرك أسطول البندقية – البابوية – التوسكانية – المالطية المشترك من البندقية ، بقيادة الدوج (رئيس جمهور) فرانسيسكو موروسينى وجاءوا إلى مورا . مات هنا العسكرى الكبير Morosini ، احتل مكانه Antonio . نشر ١١٥ سفينة حربية بحرية ، ١٢٠٠٠ جندى فى ميناء ساقيز أمام جشمه واحتل القلعة والجزيرة بقصفها من البحر (١٦٩٤/٩/٢١) . استمر الحصار ١٥ يوما ، ولأن القلعة استسلمت لحالها ، تمكن الأتراك من الذهاب أحرارا إلى جشمه . لكن سقوط ساقيز ، التى هى جزء من الأناضول قلبت إستانبول رأسا على عقب . قال البادشاه « ساقيز ، أحرقت قلبى ، لو رأيت استعادة ساقيز ، ومت ، لما اكترثت » لكنه مات متأثرا ولم يشهد استعادة ساقيز (١٦٩٥/٢/٦) . سبب ضياع ساقيز ، المصائب للعديد من رجال الدولة .

نقل السلطان أحمد خان الثانى الذى توفى فى أدرنة ، إلى إستانبول ودفن فى مقبرة سليمانية . كان عمره يتجاوز الـ ٥١ عاما بـ ١١ شهراً و ٩ أيام . عاش أكثر بقليل من سلفيه وهما أخواه الكبيران . ومن أغرب الصدف ، أن مدة سلطنته

دامت بالضبط ، (بحساب الأيام) بقدر مدة سلطنة أخيه الكبير سليمان الثالث ٣ سنوات ، ٧ أشهر ، ١٤ يوما . خطٌ ، عندما كان شهزاده (أمير) قرائين جميلة جدا . كانت لديه خبرة باللغات الشرقية . فى حوزتنا دفتر مذكراته اليومية عندما كان شهزاده ، لايوجد لأى بادشاه مثل هذه المذكرات . فاق اهتمامه بأمور الدولة ، اهتمام أخويه الكبيرين .

٩) المعارك البحرية مع البندقيين (١٦٩٥)

خرج ولى عهد – شهزاده سلطان مصطفى خان ، الذى علم بوفاة عمه بعد دقائق – دون دعوة من أحد – من جناح ولى العهد فى السراى الهمايونى فى أدرنة وجاء إلى جناح الهنكار (السلطان) وجلس على العرش ونادى رجال الدولة لمبايعته . كان عمره يقرب من الـ ٣١ عاما . هو كبير ابنى محمد الرابع . أمه السلطانه – الوالدة رابعة أمة الله كلنوش (١٦٥٢ – ١٧١٥/١١/٦) ، « سمراء ذات عينين سوداوين وشعر مسترسل أسود » كانت امرأة جميلة جدا ، عنيت بها أم زوجها السلطانه تارخان ، طيلة مدة كونها السلطانه – خاصكى (زوجة السلطان المفضلة) وجهزتها بعناية فائقة بما تحتاج إليه من الخصال لتكون أهلا لمنصب السلطانة ــ الوالدة (والدة السلطان) شغلت عرش السلطانة الوالدة ، خلال فترة حكم ابنيها الاثنين مدة ٢٠ عاما و٩ أشهر بلياقة كبيرة جداً . وبموجب التربية التى حصلتها ، لم تزج نفسها فى أعمال الدولة أو الأمور السياسية . شيدت آثار خيرية كبيرة واشتهرت بكرمها الواسع .

جدد العرش ، شبابه . كان مصطفى الثانى ، الذى احتل مكان عمه ، يصغره بـ ٢٠ عاما . أسقط كوبرولو – زاده فاضل مصطفى باشا حقه فى ولاية العرش ، حيث أجلس على العرش مكان أبيه الذى خلع ، عميه الاثنين الواحد تلو الآخر . وعلى هذا يكون مصطفى الثانى قد حرم من إمكان جلوسه قبل ٧ سنوات ، ٣ أشهر عندما كان فى الـ ٢٣ من عمره . اشترك فى عهد أبيه فى الحملات الأوروبية ، وعاش فى عهد أعمامه حرا فى إستانبول وأدرنة . جلس على العرش وهو السلطان الأكثر فعالية وثقافة والأكبر مقدرة من جميع السلاطين الذين حكموا بعد مراد الرابع . والحقيقة ، أن تحصيله كان عاليا .

كان أحمد الثانى ، قد اهتم قبل وفاته بتجهيز الجيش والبحرية لاسترداد ساقيز . صار السردار الأكرم (القائد الأعلى) الوزير مصرلى اوغلو ابراهيم باشا . القبطان دريا (مشير البحر) السابق وبكلر بك طرابلس الغرب السابق ، عزل ميزومورتا حسين باشا بكلربك الجزائر السابق من منصب قبطان دريا وصار قبطان الكاليونات قائد « فريق البحر » أسطول المراكب الشراعية الحربية) .

تمكن ميزومورتا بالأسطول الهمايونى البالغ ٤٨ قطعة من العثور على الأسطول البندق المكون من ٦٥ قطعة . جرت معركة مضيق ساقيز البحرية ، فى المجال البحرى الكائن فى شمال – شرق الجزيرة . كان الأسطول البندق المعزز بأساطيل البابوية ، مالطه ، وتوسكانا ، بقيادة الأميرال الكبير (مشير البحر) Benedetto Pisani أصيبت سفينة الأميرالية المسماة Vittorio (الظفر) ، ومات ، وعندما شاهد مساعده الأميرال Contarini الذى احتل مكانه ، غرق ٦ من سفنه وإصابة الكثير منها ، وغرق سفينتين فقط للعثمانية ؛ انسحب إلى ميناء ساقيز (١٦٩٥/٢/٩) .

بعد ٩ أيام ، ظفر ميزومورتا فى هذه المرة بالأسطول البندق ، على مقربة من جنوب جزر قويون (صباح ١٨ شباط) الذى يقرب من موقع المعركة السابقة . ورغم غرق ٩ سفن من سفن الأميرال الكبير لم يتمكن من إغراق سفينة عثمانية واحدة . ترك ساقيز وهرب إلى مورا . وبهذا اتضح مصير ساقيز (راشد ، ٢ ، ٣٠٥ – ١٠ ؛ نصرت – نامه ، ١ ، ١٠ – ١٦ ؛ Rycault, History of The Turks ، ٥١٨ – ٢٦ ؛ هامر ، ١٢ ، ٣٧٧ – ٨ ؛ ف . قوردوغلو ، Mezomorta Hüseyin Pasa ، ٥٩ – ٦٢ ؛ وثائق ارشيفيه : صفوة بك ، Koyunadalari Deniz Harbi ، ٣ ، ١٥٠ – ٧٧) .

تم استرداد ساقيز (١٦٩٥/٢/٢٢) . كانت مدة الحكم البندق فى الجزيرة عبارة عن ٥ أشهر ، ويوم فقط . انتقلت ليد العثمانية ٨ سفن بندقية راسية فى الميناء ، وفى القلعة ١١٢ مدفعا ، ٥٠٠ بندقية ، ٣٥٠٠٠ قذيفة ، ١٢٠٠ قنطار بارود ، ٢٥٠٠ قنطار رصاص ، ٨٠٠ قنطار فتيل ، ٦٠٠٠ كيلة حنطه ، ٥٠٠٠ كيلة ذره (لم يتمكن العدو من نقلها معه) ، و ٧٨٠ جنديا بندقيا (نصرت – نامه ، ١ ، ١٦) . رفع ميزومورتا حسين باشا ، الذى حقق استعادة ساقيز ، إلى رتبة قبطان دريا (أميرال كبير ، مشير البحر) مع منحه لقب وزير .

تجمع البندقيون ، فى مورا ، ودخلوا مرة أخرى ، ارخبيل الجزر (ايجه) مع اسطول مكون من ٧٧ قطعة بحرية . وبعد أن أعجز ميزومورتا حسين باشا ، العدو خارج مياه جزيرة Sisam (١٧ أيلول) ، طاردهم مدة يومين وظفر بهم فى هذه المرة فى Yera خارج مياه جزيرة ميديلى (١٦٩٥/٩/١٩) . غرقت سفينتان بندقيتان وأصيبت ١٠ سفن باصابات بليغة ، فتحولت إلى قطع يمكن سحبها فقط كسفن احتياطية . قتل ٥٠٠٠ بندق . لم يقع أى ضرر على السفن العثمانية وكان مجموع الشهداء مع الجرحى ، عبارة عن ٣٠٠ .

وفى بداية عام ١٦٩٥ ، اجتاح شهباز كيراى ، ابن سليم كيراى خان ، مع ٧٠ ٠٠٠ خيال ، غاليجيا ووصل حتى Lwow ، خرب ٠٠٠ ١٠ قرية وقصبة ، عاد ومعه ٠٠٠ ٣٠ أسير .

عندما علم مصطفى الثانى بخبر استرداد ساقيز ، عزل رجل الدولة السيىء سورمه لى على باشا بعد صدارة دامت سنة ، شهرا ، ١٩ يوما (١٦٩٥/٥/٢) ، وعين مكانه الماس محمد باشا ، الذى كان قد حقره سلفه تحقيرا شديدا (عمره ٣٣ عاما) . لكن هذا التعيين ، أثار الغيرة الشديدة بين رجال الدولة . وفى ٢٥ أيار ، أمر باستقدام أستاذه شيخ الإسلام السالف فيض الله أفندى من أرضروم وجعله شيخ الإسلام مرة ثانية . سيحتفظ فيض الله أفندى بمقامه هذا إلى نهاية سلطنة البادشاه .

١٠) الحملتان الهمايونيتان ، الأولى والثانية على ألمانيا (١٦٩٥ ، ١٦٩٦)

سار السلطان مصطفى مع الصدر الأعظم ، من أدرنة للحملة الهمايونية الأولى على ألمانيا (١٦٩٥/٦/٣) . اشترك شيخ الإسلام حاجة سلطانى أرضروملى سيد فيض الله أفندى فى الحملة . ولدت الانتصارات على البندقية وبولونيا ، جوا من التفاؤل . استولى على Lwow ، وأفنى جيشا بولونيا عدده ١٢٠٠٠ جندى (نصرت – نامه ، ١ ، ٢٣) .

مكث البادشاه أسبوعين فى صوفيا واستقبل فى ٢ آب فى بلغراد بـ ٤٠٠ إطلاقة مدفعية . كان الجيش الهمايونى ٠٠٠ ١٥٣ جندى ، ومن ناحية أخرى ، كانوا فى

انتظار الجيش القرمي . حضر كذلك ملك المجر الوسطى Tökeli Imre . جاء البادشاه إلى Tamesvar مركز الإيالة . يسجل فندقلى لى محمد آغا ، خازن الأسلحة الشهريارى (السلطانى) الموجود فى معية البادشاه فى الحملة ، بأن مصطفى الثانى هو البادشاه الأول الذى يصل إلى تامشوار (نصرت - نامه ، ١ ، ٧٢) . استولى على Lippa مع الـ ٤٣ مدفعاً الموجودة فيها خلال ساعة ونصف (٩ أيلول) . أسر الماريشال Marquis de Mirmillis الفرنسى الأصل والذى كان فى خدمة الإمبراطور . كان جيش الإمبراطورية الألمانى فى صحراء Lugos . جرت هنا حرب ميدانية (١٦٩٥/٩/٢٢) سقط آلاف الألمان قتلى ، أسر ٥٠٠٠ . كان القائد العام Frederico Veterani ورئيس أركان جيشه أمير Liechtenstein بين القتلى . استسلمت قلعة Lugos . ينوف عدد الشهداء على الـ ٧٠٠ ويقارب عدد الجرحى الـ ١٠٠٠ . كان بين الشهداء وزير (شاهين محمد باشا) ، ابكلربك ، اسنجق بك (أمير لواء) . دفنوا بملابسهم الملطخة بالدماء فى صحراء النصر . أما جراح محمود باشا بكلربك روملى ، فكانت بليغة ، ولانه مات بعد مدة ، فقد جرت مراسم دفنه حسب الأصول . جرح بكلربك واحد وسنجق بك واحد (نصرت - نامه ، ٩٥) .

تم الاستيلاء على قلعة شبش (بالمجرية : Sebes) ، وهكذا اكتسب الحكم العثمانى الصفة القطعية فى Banat وادمج جنوب - غرب أردل فى إيالة تامشوار . كانت أردل مفتوحة للاستيلاء العثمانى بعد انتصار Lugos . لكن روح الفتح والدولة العالمية كانت قد ماتت لدى العثمانية . اقنعوا البادشاه بالعودة بحجة حلول الخريف . عاد مصطفى الثانى إلى إستانبول بعد ٤ أشهر ، ١٨ يوما (١٦٩٥/١١/١٨) . عين الوزير جلبى ابراهيم باشا ، قائدا عاما على المجر والوزير مصرلى أوغلو إبراهيم باشا قائدا عاما على مورا تجاه البندقيين . وأحال إلى التقاعد وزيرا واحدا و ٦ بكلربك وهم الذين لم ترقه خدماتهم فى هذه الحملة ، وخصص لكل منهم راتبا تقاعديا قدره ٣٠٠ آقجه (عملة فضية) يوميا .

كان معروفا ، أن هدف القيصر بطرس الكبير هو الوصول إلى البحار المفتوحة ، خاصة البحار المفتوحة الدافئة . البحر الدافىء المفتوح ، هو البحر الأسود . فى الوقت الذى كانت فيه السويد تسد البلطق ، والعثمانية تسد البحر الأسود عن روسيا ؛ كانت

روسيا تعيش كأية دولة برية ، تتحسر على حرمانها من نعم البحار . ورغم محاولاتها ، لم تتمكن من النهوض والدخول فى عداد الدول الأوربيـة . جاء جيش بطرس الشاب مع ٣٠٠٠٠٠ جندى أمام آزاك (Rostov) . ولو تمكن من الإستيلاء عليها لأمكنه الوصول إلى البحر الأسود من أقصى حافته . دافع عن القلعة ، مرتضى باشا بكلربك كفه Kefe مدة ٣ أشهر ، ٤ أيام . جرى قتال عنيف جدا . تسجل المصادر الروسية أنه ، قتل مايقارب ٣٠٠٠٠ وبالنسبة للمصادر العثمانية ٦٠٠٠٠ جندى روسى . طارد ٥٠٠٠ جندى عثمانى ، القيصر أثناء انسحابه وقتلوا ٤٠٠٠ جندى روسى آخر تقريبا (نصرت – نامه ، ١ ، ١٢١ – ٩ ؛ هامر ، ١٢ ، ٣٩٥ – ٦) . درس بطرس أسباب هذه الهزيمة بدقة ، وتوصل إلى نتيجة مؤداها أنه لايمكن محاصرة قلعة دون حيازة المعلومات التكنولوجية ، وأن الجيوش الكثيفة بدون ضبط وتعليم ، هى قطعان لافائدة فيها . وفى ١٣ ت١/١٦٩٥ وقبل مضى سنة واحدة على الهزيمة ، جاء إلى آزاك ١٦٩٦/٦/٣ . شيد مصنعا للسفن الخفيفة (النهرية) فى Voronej على الدون ، وأخذ فى انتاج السفن ، وعلاوة على ذلك ، أعطى قيادة الجيش الروسى إلى الجنرال الاسكتلندى Gordon وإلى الفرنسى السويسرى Lefort . جاء مع ١٠٠٠٠٠ جندى . لم يكن الجيش العثمانى قد أصلح بعد قلعة آزاك و لم يعزز الحامية . حفر المهندسون البندقيون والسويديون ، والدانماركيون والهولنديون والانكليز الأنفاق المؤدية إلى قلعة آزاك . لم يتمكن ٥٠٠ جندى عثمانى وهم الموجودون فى القلعة من المقاومة أكثر من ٦٣ يوما واستسلمت فى ٦ آب . أعدم ٣ بكلربك الذين لم يتمكنوا من إمداد القلعة فى حينه . حكم بطرس قلعة آزاك واحتفل بنصره هذا فى موسكو بإقامة الأفراح . ومن ناحية أخرى ، أستولى على القرية التركية الواقعة على الساحل الشمال – الشرق من بحر آزاق المسماة Taygan وسماها Taganrogوجعلها مركزا بحريا . حكم العثمانيون ضفتى مضيق Kereç وكذلك عززوا Karasnodar الواقعة على نهر Kuban . قوبل ضياع آزاك باستياء فى إستانبول ، (نصرت – نامه ، ١٥١) ، ورغم أن آزاك سوف تسترجع بعد ١٥ سنة ، فإن روسيا كانت قد تذوقت طعم البحر الأسود .

سار القبطان دريا ميزومورتا حسين باشا مع ٦٦ قطعة بحرية إلى الحملة (١٦٩٦/٥/١٣) ، انضم إليها فى فوجا Foça ١٠ سفن حربية جزائرية

و ٥ تونسية و٣ طرابلسية . ظفر بالأسطول البندق فى ١٨ أيلول فى المياه المفتوحة لجزيرة Andros من جزر Kikland . غرقت ١٣ سفينة بندقية ، و٦ عثمانية . قتل ٥٠٠٠ بندق واستشهد ٣٠٠ تركى . قتل ٢ أميرال بندقيان وقطعت اليد اليسرى لآخر .

سار السلطان مصطفى الثانى من إستانبول للحملة الهمايونية الثانية (١٦٩٦/٤/٢٠) . ظل شهرا ، ٢٠ يوما فى أدرنة . جاء إلى بلغراد فى ٣ آب . كان الملك Tökeli Imre ضمن الجيش العثمانى .

كان الجيش الألمانى يتكون من ٤٥٠٠٠ خيال ، ٤٠٠٠٠ مشاة ، ووحدات إضافية ، و ١١١ مدفعا . القائد العام للإمبراطورية ، هو منتخب ساكسونيا Friedrich - August الذى يسميه الأتراك - بسبب كونه عسكريا فظاً - « نالقيران » (كاسر النعل) وهو الذى انتخب كذلك ملكا على بولونيا بعد وفاة سوبياسكى فى هذه الأثناء كان رئيس أركانه الماريشال الكونت Von Caprara ، قائد الجناح الأيمن الماريشال Von Taafe ، قائد الجنـاح الأيسر الماريشال Von Haeusler . كان السلطان مصطفى ، على وشك دخوله المجر ، عندما علم بمحاصرة الملك ــ المنتخب ، لتامشوار ، فغير اتجاهه إلى تلك الناحية . أما الملك فإنه عندما علم بقدوم البادشاه نحوه ، رفع الحصار وجاء إلى الصحراء .

أصدر الملك المنتخب ، أمر التراجع عند خسارته ١٦٠٠٠ قتيل فى الحرب الميدانية Olas (١٦٩٦/٨/٢٧) ، كان بين القتلى Von Haeusler و ٣ كونت من حكام الألمان . كانت خسارة الأتراك مايقارب ١٥٠٠ شهيد و ٢٠٣٢ جريحا . استشهد وزير واحد وبكلربك واحد ، وقطعت إحدى القذائف اليد اليسرى للوزير مصطفى باشا ، أخ الصدر الأعظم الماس محمد باشا ، لكنه نجا من الموت . اغتنم العثمانيون ٢٢ مدفعا و ٩ رايات ومهمات على نطاق واسع . وبعد هذا الانتصار كذلك ، لم يفكرون فى استعادة أردل . جاء الجيش الهمايونى إلى تامشوار فى ٣١ آب . شيخ الإسلام وحاجه سلطانى (أستاذ السلطان) فيض الله أفندى الذى اشترك فى هذه الحملة ذبح القرابين ؛ لأن ٩ قذائف ألمانية مرت من فوق رأس البادشاه وارتكزت فى الأرض . استمرت الحملة مدة ٦ أشهر و ٥ أيام . عاد مصطفى الثانى إلى أدرنه (١٦٩٦/١٠/٢٥) .

وفى ١٦٩٦ ، اجتاح سعادت كيراى غاليجيا أيضا إلى Lwow وعاد ومعه ١٠٠٠٠ أسير (نصرت – نامه ، ٢١٧) . ظفر ميزومورتا حسين باشا فى ١٦٩٧ بأسطول البندقية وحلفائها ، خارج مياه جزيرة Andros وهزمه (٢ أيلول) . حاصر البندقيون قلعة أولكون (بالصربية : Ujcin ، بالإيطالية : Duleigno) على ساحل قره داغ . تسجل المصادر الأوربية أنهم خسروا ٥٠٠٠ ، وتسجل المصادر العثمانية أنهم خسروا ١٢٠٠٠ قتيل ثم انسحبوا . وفى ١٦٩٧ اجتاح القرميون دلتا الفولغا حتى استرخان . ساند القالموقيون البوذيون هنا (إحدى العشائر المغولية) الروس ، ولم يساندوا الأتراك . وفى السنة التالية ، ظفر ميزومورتا حسين باشا بالأسطول البندق فى المياه الخارجية لزيتون بورنى جنوب ميديلى (١٦٩٨/٩/٢٣) . غرقت سفينتان للبندقيين ، أصيب أكثرها ، وسقط ١٢٠٠ قتيل و ٢٥٠٠ جريح تقريبا . خسائر العثمانية ٣٠٠ شهيد و ٥٠٠ جريح تقريبا . جرح الأميرال الكبير Cornaro فى يده اليمنى .

١١) الحملة الهمايونية الثالثة ، هزيمة Zenta (١٦٩٧/٩/١١)

سار مصطفى الثانى من أدرنه للحملة الهمايونية الثالثة (١٦٩٧/٦/١٧) . جاء إلى بلغراد فى ١٠ آب . كان فى انتظار البادشاه فى هذه المرة ، أحد أكبر العسكريين فى العصر وهو أمير Savoie الماريشال Eugen بصفته قائد الإمبراطورية . الأمير الذى ولد فى باريس عام ١٦٦٣ ، يكبر السلطان مصطفى بسنة واحدة . كان قد طلب من لويس ١٤ قيادة فوج ، وعلى أثر إفادة الملك بأنه حديث السن ، غادر فرنسا ، وحصل من الإمبراطور على قيادة فوج ، اشترك فى القتال بصفته هذه وهو فى سن الـ ٢٠ أمام مرزيفونلى قره مصطفى باشا فى معركة Kahlenberg الميدانية (بالعثمانية المان داغى) ، وتمكن بدهائه الخاص من التعمق فى فهم أصول القتال التركى وتشكيلاته العسكرية . حارب الأتراك بصفة قائد فوج ، لواء ، فرقة ، جيش . عين فى ١٦٩٧ قائدا عاما على القوات البرية للإمبراطورية الألمانية وعمره ٣٤ عاما . سيحارب الأتراك بصفته هذه للمرة الأولى وأمامه الخاقان – الخليفة العثمانى بنفسه وليس سردارا اعتياديا .

اجتاز الجيش الهمايونى ٩ جسور ووصل Zenta . وهى قرية تقع فى جنوب المجر ، وتبعد ٤٠ كم عن جنوب Srgedin و ٣٥ كم عن جنوب – شرق Subotica . ونهرها هو Tisa . الأراضى المجرية ، تأتى بعد عبور الجسر . أسر الألمان فى هذه الأثناء ، أحد البكلربك الخونة المسمى كوجوك جعفر باشا . قابل هذا الشخص الأمير أوجين . يقول الكونت Marsigli الذى اشترك فى هذه الحرب (ص ٢١٤) : « علم الأمير من الباشا التركى بأن السلطان اجتاز Tisa مع الخيالة ، وأن المشاة والمهمات جاهزة للعبور وأن الجيش بكامله سوف يعبر خلال أيام . جاء إلى Zenta ، وشاهد صحة ماقاله الباشا التركى ، وأدرك أن الفرصة سنحت له » .

قصف الأمير أوجين بنار المدفعية ، الجسر الذى يجتازه الجيش الهمايونى . سقط فى النهر آلاف الجنود العثمانيين من الجسر الذى انهار من ناحيتين . والأنكى من ذلك ، آن الجيش انقسم إلى شطرين ، وظل على ضفتى النهر . كان الوزير بيوك جعفر باشا ، بكلربك روملى فى الجناح الأيمن ، والوزير مصرلى أوغلو إبراهيم باشا بكلربك الأناضول فى الجناح الأيسر . وكان الملك Tökeli Imre وشهباز كيراى أمير قرم كذلك موجودين ضمن الجيش . جرت المصيبة المسماة معركة زنتا Zenta الميدانية بين الألمان وشطر الجيش الذى تمكن من العبور . بقيت الوحدات العثمانية التى لم تتمكن من العبور متفرجة فقط ، ولم تتمكن حتى من فتح النار . لأن النار التى ستفتح يمكن أن تصيب الطرفين ، بسبب تشابكهما .

تقول المصادر الألمانية أن حوالى ٢٠٠٠٠ عثمانى استشهدوا ، و ١٠٠٠٠ تقريبا غرقوا فى النهر (فون هامر ، ١٢ ، ٤٢٣) . أما بالنسبة لراشد (٢ ، ٤١٤) فمجموع شهداء الأتراك ١٣٠٠٠ تقريبا . استشهد كل من الصدر الأعظم الماس محمد باشا بكلربك الأناضول وأميرال عصره الشهير مصرلى أوغلو الوزير إبراهيم باشا ، بكلربك تامشوار الوزير قوجا جعفر باشا ، بكلربك روملى الوزير بلطه جى أوغلو محمود باشا . انتقل إلى حوزة الألمان الختم الهمايونى الذى يتأبطه الصدر الأعظم ، مدافع كثيرة ، ٩٠٠٠ عجلة ، ٦٠٠٠٠ جمل ، ١٥٠٠٠ ثور ، ٧٠٠ حصان ، ٢٦٠٠٠ اطلاقة مدفعية ، ٥٥٣ قذيفة ، ٥٠٠ طبل ، ٨٨ جرسا ، ٤٠٠٠٠ سكة ذهبية نقدية ، عربة البادشاه التى تسحبها ٨ خيول . وانتقل إلى حوزة الألمان كذلك التاج الملكى المجرى الذى كان لدى Tökeli Imre . عندما

قدمت الغنائم إلى الإمبراطور ، أبدى سروره بهذا التاج والختم الهمايونى .

كان انتصار الأمير أوجين كبيرا؛ حيث أنه لم يصغ لأمر الإمبراطور ببقائه فى حالة الدفاع وعدم دخوله حرب ميدانية بسبب عدم خسارة أى بادشاه ، فى حرب ميدانية حتى ذلك التاريخ ؛ ولم يفوت الفرصة عندما ظفر بالجيش الهمايونى على الجسر . والحقيقة ، أنه حتى ذلك التاريخ ، – عدا معركة انقره – لم يهزم أى بادشاه فى حرب ميدانية ، فى أية حملة همايونية . ولأن معركة انقرة خسرت تجاه حاكم مسلم ، فيكون الأمير أوجين ، قد أظهر فعلا ، إمكان انتصار جيش مسيحى على خاقان عثمانى فى حرب ميدانية . إذ لم يكن البادشاه ، قائدا عاما فى أية معركة سابقة انتصر فيها المسيحيون .

كان البادشاه وكذلك الصدر الأعظم فى شطر الجيش الذى اجتاز إلى الضفة الثانية . وبتضحيات كبيرة ، أمكن إنقاذ حياة البادشاه وإعادته إلى الخلف . لكن الجنود ، لم يعاملوا الصدر الأعظم بنفس المعاملة . بل بالعكس ، شهر الانكشاريون الخناجر على الماس محمد باشا ، استشهد الصدر الأعظم وجرح أخوه الوزير مصطفى باشا (الذى كان ذا ذراع واحدة) بجراح بليغة . ألقى الجند مسئولية نسف الجسر على عاتق الصدر الأعظم . والذى ألقى هذه الفكرة فى أذهان الجنود ، هم منافسو الماس باشا الذين يريدون التخلص منه . وبطبيعة الحال فانه ليس من السهل ، الحرب بجيش بهذا الوضع . أدرك مصطفى الثانى ذلك . « وأثناء انسحاب البادشاه بسكون مع سباهيته الخيالة إلى تامشوار ، لم يستصحب معه أية وحدة من وحدات الانكشارية التى يكرهها . لم يتمكن الأمير أوجين من مطاردة الأتراك ، بسبب وجود النهر الذى يفصل بين الفريقين . وبعد انتصارنا انتقلت إلى حوزتنا كافة القلاع التى كانت باقية لدى الأتراك . أكثرها استسلمت بسبب الجوع وانسحبت وحداتها وذهبت بحرية . لم يبق بعد الآن علاقة للأتراك بالمجر . والأهم من ذلك ، انقطع أملهم فى استعادة المجر » (Kont Marsigli ص ٢١٥ ، ٢٦٠) .

هكذا انتهت صدارة الماس باشا التى دامت سنتين و ٤ أشهر و ١٠ أيام صار عموجه – زاده حسين باشا ، صدراً أعظم . كان أعظم وزراء عصره . كان عمره ٤٩ عاما . وهو ابن عم لكل من كوبرولو – زاده فاضل أحمد باشا وفاضل مصطفى باشا . كان حسين باشا ، الذى يسمى كذلك باسماء « كوبرولو – زاده ، يكن

(ابن عم) ، مولوى ، سرخوش (سكران) » ؛ يريد توجيه الدولة نحو الصلح . أما مصطفى الثانى ، فكان يزعم أنه سوف يسترجع المجر ويعتبر هزيمة زنتا ، صدفة سيئة نعيما ، كتب تاريخه المشهور الذى اسمه الأصلى روضة الحسين ، على اسم حسين باشا هذا .

وبهجوم مفاجىء ، دخل الأمير أوجين ، بوسنة سراى بعد زنتا بشهر واحد (١٦٩٧/١٠/١٧) . لاتوجد قلعة فى بوسنة سراى . إذ إنها كانت تعتبر مدينة داخلية . ولم يكن فى المدينة جنود ، فكلهم ذهبوا إلى الحملة . ولم يكن بكلربك بوسنة كذلك موجودا فى المدينة . كانت بلدة ثقافية عثمانية كبيرة يبلغ عدد نفوسها ١٢٥ ٠٠٠ نسمة ، تحوى ١٧٧ مسجداً ، ١٨٠ مدرسة ، ٤٧ تكية ، ٧٣ خان ، ٣ كروان سراى (منزل) ٧ عمارات (مراكز توزيع الطعام للفقراء) . بقى الأمير ٢٤ ساعة فى البلدة وحرق ١٢٠ مسجدا (هامر ، ١٢ ، ٤٢٧ - ٨) ؛ راشد ، ٢ ، ٤٢٢ - ٣) ولأنه حقق هذه الغارة الجرئية بقوة بسيطة قوامها ٤٠٠٠ خيال ، ٢٥٠٠ مشاة ، ١٤ مدفعا ، فقد انسحب فى الحال عندما علم بقدوم وحدة عثمانية نحوه .

١٢) معاهدة-كارلوفجه (١٦٩٩/١/٢٦)

كانت كل من المانيا وفرنسا ، تستعدان فى هذه الأثناء لحرب ترث فيها إسبانيا . اخذت كل من انكلترا وهولندا ، مكانها بجانب المانيا وكانتا عازمتين على سحق فرنسا فى هذه الحرب . دولتان بحريتان كبيرتان كانكلترا وهولندا ، اتحدتا تحت إدارة وليم ٣ William (بالفلامانية : Willem) وكان لويس ١٤ ملك فرنسا عازما على تفريق هذا الاتحاد . وفى إستانبول ، كان لورد Lord Paget سفير انكلترا و Collyer سفير هولندا يمثلان اصلاً ، نفس الحاكم (رئيس الدولة) . وليم ، الحاكم الهولندى الأصل الذى صار - فى نفس الوقت - ملكا على انكلترا بلقب « وليم ٣ » . إن قوة انكلترا - هولندا معا ، تقل عن قوة فرنسا . إلا أنه ، لو أمكن إدخال ألمانيا كذلك فى هذا الاتفاق ، لأمكن التفوق على القوة العسكرية الفرنسية . لذا شرع السفيران فى إستانبول فى الدعاية الكبيرة لاقناع رجال الدولة بمصالحة ألمانيا وقدموا رشاوى كبيرة . ولو تقدمت المانيا بالصلح ، فسوف تتلهف على الدخول فيه بطبيعة

الحال البندقية ، بولونيا وروسيا لأنهم سيكونون لقما سائغة للعثمانية بدون ألمانيا .

كان الصدر الأعظم عموجه - زاده حسين باشا ، يريد إنهاء هذه الحرب وتضميد جراحات الدولة . رجال الدولة الآخرين كانوا يؤيدون الصدر الأعظم ، سواء لأنهم كانوا يؤيدون الصلح باخلاص ويرون أن سلامة الدولة فى هذا الاتجاه ، أو لأنه غرر بهم سفيرا انكلترا وهولندا الموجودان فى إستانبول . لم يجد مصطفى الثانى حوله من يؤيده فى الحرب إلا القليل جدا . كان قبول الصلح ، يعنى ترك المجر وموروا . جهز مصطفى الثانى جيشا عظيما وسط الشتاء لاستعادة المجر . لكن الوزراء مانعوا فى مسيرة البادشاه إلى الحملة عام ١٦٩٨ . ومرت السنة بكاملها فى مفاوضات الصلح ومحاولات السفيرين - لصالح العثمانية كما يزعمون - للوساطة فى الصلح . فرنسا التى شعرت بالإحاطة بها كانت ترغب وتستحث العثمانية على الاستمرار فى الحرب . لكن الباب العالى ، كان قد سئم من تقلب لويس ١٤ . كان يعلم أنه عدو الإسلام والأتراك ، ولايعتمد عليه إطلاقا . وفى الواقع فإن فرنسا ، كانت تزين فقط ، ولاتقترح دخول الحرب بجانب العثمانية . ومن جهة أخرى ، فان السفيرين كانا محايدين فى الظاهر ، ولكنهما فى الحقيقة ، كانا يخدمان مصالح المانيا حليفة رئيسى دولتيهما ، ويسعيان فى تحقيق صلح لصالح ألمانيا على قدر الإمكان . Collyer الذى يمثل هولندا فى إستانبول منذ ٢١ عاما ، يتكلم التركية ، ويذهب إلى بيوت الوزراء ويأكل الطعام متربعا على الطريقة العثمانية ، ويشرب القهوة والجبك (نوع من الغليون طويل الأنبوب) . وبناء على ذلك فإنه كان بالنسبة للكثيرين من رجال الدولة العثمانية السذج كافراً يحب العثمانيين . كان عموجه - زاده الذى كان إداريا جيدا ولكنه لم يكن عسكريا يخشى من خروج البادشاه بحملة جديدة ويريد التعجيل بالصلح . وفى جو كهذا ، لم تحدث أية حركة عسكرية مهمة فى الجبهات خلال عام ١٦٩٨ .

كانت البندقية ، تغرى فيينا بعقد الصلح خشية احتمال فقدانها مورا فى حالة استمرار الحرب وتيقنها كذلك من عدم قدرتها على استقطاع شيء جديد من العثمانية ، بسياستها الواقعية . بولونيا عاجزة أمام القرميين الذين يجتاحون غاليجيا ويدمرونها كل عام ، وتطلب الصلح . والقيصر بطرس فقط ، اقتناعاً بأنه لم يتمكن من استقطاع شيء من العثمانية ، واعتماداً على حصانته الجغرافية ، ولأنه ، لايبالى بعدد الجنود الذين يفقدهم فى الحرب ؛ كان يعارض الصلح مع فيينا .

كان العالم الإسلامى ، متأثرا من تكبد العثمانية خسائر كبيرة فى هذه الحرب . قدم الشاه إلى العثمانية فى إيران ضمانات أكيدةلأمن الحدود من جهة إيران وأنه يمكنها سحب جنودها الزائدة من الحدود الشرقية لاستعمالهم فى الحرب فى أوروبا ، وقد بر بوعده ، أرسل مصطفى الثانى رئيس الكتاب السابق (وزير الخارجية) محمد باشا إلى أصفهان وشكر الشاه حسين . ويبدو أنه قد انتهت الفترة التى كان لايمكن لأوربا فيها مقاتلة العثمانية ، إلا بمساعدة إيران ، والآن ، أصبحت أوربا ، مقتنعة بأنها تستطيع تحقيق ذلك بمفردها ، إذا مااتفقت فيما بينها . أما تيمور أوغلو أفرنكزيب علمكيرشاه ، الذى وفق للمرة الثانية فى التاريخ - بعد السلطان علاء الدين محمد - فى توحيد الهند تحت ظل دولة موحدة واحدة والحاكم المقتدر الثانى على وجه الأرض بعد البادشاه ، فإنه لم يظهر أية إشارة تدل على ميله نحو العثمانية . كان من الواضح أنه يحسد البادشاه على حيازته صفة الخلافة . وبسبب كثرة عدد حجاجه ، ووجود تجارة عثمانية - هندية واسعة النطاق ، لم يظهر كذلك أى عداء تجاه العثمانية . وكان وجود ايران ، بين الدولتين ، يمنع ذلك . إن خانات تركستان وخاصة سبحان قولوخان ، الذى هو أعظمهم اقتدارا (١٦٨٠ - ١٧٠٢) ، ساند العثمانية فى هذه الحرب مساندة علنية . أفاد خطيا بأن البادشاه العثمانى ، كما أنه خليفة له بالذات ، فهو كذلك خليفة المسلمين كافة وأخ كبير له (سلاحدار ، ٢ ، ٤١٨) . ولكن لم يكن باستطاعته عمل الكثير . ساق جيشا ، وعزل روسيا عن قرم ، وهذه ليست بالخدمة اليسيرة ؛ إذ يسر بذلك للجيش القرمى أن يحارب فى جبهات بولونيا وألمانيا وهو فى أمان من ناحية روسيا . سلطان فاس اسماعيل ، ولو أنه يعتبر حاكما أقل شأنا بالنسبة لبادشاهات الأتراك فى الهند وايران ، لكنه على كل حال ، حاكم دولة كبيرة وأكبر شأنا من خانات تركستان وقرم ، لم يكن وضعه مواليا تجاه العثمانية . أزعج إيالة الجزائر بصورة مستمرة ، حيث كانت الجزائر مضطرة لإرسال أسطولها سنويا إلى مجالات الحرب العثمانية ، لكنه لم يحصل على شيء سوى الخسارة . وهكذا ، فانه بينما لم يكن هنالك اتحاد فى العالم المسيحى ، كذلك لم يكن هنالك اتحاد فى العالم الإسلامى .

منح حسين باشا ، فى ٣ أيار (١٦٩٨) رتبة السردار الأكرم (القائد الأعلى) وسار من أدرنه ، جاء إلى صوفيا . أرسل رئيس الكتاب (وزير الخارجية) رامى

محمد أفندى إلى بلغراد من أجل مؤتمر الصلح الذى سيجتمع فى كارلوفجه . وسافر مفوضا انكلترا وهولندا ، فى المؤتمر بصفة وسيطين ، وحصل هذان الوسيطان فى ٢٢ تموز من الصدر الأعظم على وثيقة تقر بقبول أساس الـ Statu quo (على حاله) فى المفاوضات ، أى قبول بقاء الأماكن الموجودة الآن لدى أية دولة ، على وضعها الحالى . هذه الوثيقة ، حددت مهمة رامى أفندى الدبلوماسية بشكل كبير . وسببت له المصاعب الكبيرة . ولايعلم أحد ماهية سلسلة الخيانات التى تمخضت عنها تقديم هذه الوثيقة إلى السفراء .

وإزاء احتمال فشل المفاوضات ، تجمع فى بلغراد ١٠٠٠٠٠ جندى عثمانى و٣٠٠٠٠ قرمى . بقى عموجه - زاده ستة أشهر و١٥ يوما فى بلغراد وعاد إلى أدرنة فى ١٤ ك١ (١٦٩٨) . كان بزوقلو مصطفى باشا ، خلال هذه المدة ، قائمقام الصدارة فى أدرنة . وكانت ٢٠٠ قطعة من الأسطول الخفيف (النهرى) تنتظر فى بلغراد . كان سليم كيراى خان فى البداية ، فى بلغراد ثم انسحب إلى تامشوار لقضاء الشتاء . أخذت ٤٥ قطعة من الأسطول تجوب فى شمال البحر الأسود . جاء القيصر إلى فيينا وتكلم مع الإمبراطور شخصيا لإقناعه بترك الصلح . أفاد الإمبراطور بعد أن شرح وضع الأتراك العسكرى ، أن كافة الدول أصبحت تريد الصلح مع العثمانية . غادر القيصر فييناغاضبا . كانت روسيا ، قد أصبحت على قدم المساواة مع بولونيا من حيث القدرة .

تقع كارلوفجه ، التى عقد فيها المؤتمر على بعد ٦٥ كم عن شمال - غرب بغلراد ، قريبة من Petervaradin . كان ممثلو ألمانيا هم الماريشال كونت Wolfgang Von Ottingen الماريشال Von Schlink ، الفريق الكونت Marsigli الذى يجيد التركية . لم يتمكن الممثلون البولونيون والبندقيون والروس والعثمانيون من الحضور قبل ٢٤ ت١ وأفتتحت الجلسة الأولى للمؤتمر فى ١٣ ت٢ (١٦٩٨) .

يقول الكونت Marsigli الذى اشترك كممثل ألمانى ثالث (ص ٥٢) « لايمكن تصور عمل أصعب من عقد صلح مع الأتراك ، من شأنه أن يجلب لهم المصائب والشقاء أو أن يكون سببا فى تركهم مدينة ... أما المعاهدة التى أبرمت فى كارلوفجه فهى أكثر المعاهدات إضرارا بالأتراك من بين المعاهدات التى وقعوا عليها حتى الآن . إن الحرب بالنسبة للأتراك عمل أسهل وأخف من عقد صلح . عند جلوسهم على

مائدة الصلح ، يغطون فى نقاش لانهاية له ويخلقون كل المصاعب للطرف المقابل . وعند البحث على مائدة الصلح عن كلمة حدود ، تسليم مدينة ، تخريب أو إنشاء قلعة أو كلمة لاتعجبهم فى متن المعاهدة ، يعملون كل مايخطر أو لايخطر على البال من فنون الخداع والحيل . يطيلون المفاوضات ويوقعون الطرف المقابل فى الضجر والملل ، وكأنهم يبحثون عن ذريعة لرفض الصلح والقتال مجددا . ولذا فان الممثلين المسيحيين ، أصبحوا بين الحين والآخر ، فى حالة يرثى لها أمام الأتراك » . يبدو أن الكونت شرح نسبيا وضعه الشخصى أمام رامى أفندى فى كارلوفجه .

وفى ٢٤ ك٢ ، وقع الممثلون الروس على صلح لمدة سنتين . وتقرر عقد مؤتمر فى إستانبول لمفاوضات الصلح النهائية . (أى أن روسيا ، لم توقع على معاهدة كارلوفجه) . وقع على المعاهدة ، قبل الظهر بقليل فى الساعة ١١/٤٥ باجراء المراسم بعد افتتاح الجلسة الأخيرة فى الساعة ١٠ من صباح يوم ٢٦ ك٢/١٦٩٩ . وبعد تبادل التوقيعات ، خرج حشد المراسلين من باب الصالة وتحركوا فورا إلى إستانبول ، أدرنة ، فيينا ، البندقية ، وارشو ، لندن لاعلان انتهاء المؤتمر والتوقيع على المعاهدة . طلقات الفرح التى أطلقت من المدافع فى كارلوفجه ، أجابت عليها فى مساء نفس اليوم ، مدافع الألمان التى أطلقوها فى بيترفارادين والأتراك فى بلغراد . لم يلق الصلح استحسانا فى فيينا ، وارشو والنبدقية وأعتبر أن السياسيين الأتراك غرروا بالطرف الآخر . انتقدت بشدة ، المواد التى تعطى للعثمانية إينه باختى (Lepanto) و Preveze من البندقية ، والتى تنص على إخلاء القلاع الألمانية الأقل أهمية الموجودة فى الحدود المجرية وإعطائها إلى العثمانية ، رغم أن المؤتمر افتتح على أساس الـ Statu quo . « لكن معاهدة كارلوفجه ، كانت تلغى الضرائب السنوية المخلة بالكرامة التى كان يسددها الإمبراطور والبندقية إلى تركية ، وكذلك الضرائب التى تسددها بولونيا إلى خان قرم الذى يعتبر تابعا بسيطا للبادشاه . وتعيد لهذه الدول كرامتها . كانت تبعد الأتراك وتخرجهم من بولونيا والمجر بصورة أبدية . تمحى من مخيلة أوربا التفوق العسكرى المدهش الذى كانوا يصفون به الأتراك . توضح إمكان هزيمة الأتراك واستقطاع أقطار منهم . الانحطاط التركى ، كان أعظم مما يتصور ، وتدل الاصطلاحات والنجاحات التى حققها مراد الرابع وعائلة كوبرولو ، أنها كانت مؤقتة وغير كافية لتضميد الجراح » (فون هامر ، ١٢ ، ٤٧٣ - ٤) .

وحتى البادشاه ، وافق على مخاطبة حكام أوروبا فى مكاتباته بخطاب « أنتم » ، بينما كان يخاطبهم فى السابق بخطاب « أنت » . كانت أول اتفاقية فى صالح أوروبا وضد تركية . « إن عام ١٦٩٩ من أهم أعوام التاريخ . كان يظهر انتقال التفوق الآسيوى إلى أوروبا » (Grenard) . كانت الاتفاقية ، تنهى حالة الحرب بين العثمانية وكل من ألمانيا التى استمرت ١٥ سنة و ٦ أشهر و ٢٥ يوما ، بولونيا ، التى استمرت ١٥ سنة و ٤ أشهر و ٩ أيام ، البندقية التى استمرت ١٤ سنة و ٦ أشهر و ١٢ يوما ، روسيا ، التى استمرت ٩ سنوات و ٧ أشهر و ٢٧ يوما . وتغلق فترة الـ ١٥ سنة التى تسمى « سنين المصائب » فى التاريخ العثمانى . إن حالة الحرب ، كانت مستمرة رسميا مع دول البابوية ، مالطه ، توسكانا وأسبانيا ولكنها فعلا ، أخذت تنقلب إلى حالة هدنة .

تُركت أراض مجموع مساحتها ٣٤٦٠٠٠ كم٢ تقريبا ، منها ٢٤٩٠٠٠ كم٢ إلى ألمانيا ، و ٣٢٠٠٠ كم٢ إلى البندقية ، و ٤٥٠٠٠ كم٢ إلى بولونيا ، و ٢٠٠٠٠ كم٢ إلى روسيا . ورغم أن بولونيا هزمت ، فقد تخلت العثمانية عن إيالة بولونيا ومنحتها لتلك الدولة .

بالنسبة للمعاهدة الموقعة مع ألمانيا (عشرون مادة) : تنتقل كامل المجر ، سلوفاكيا ، خرواتيا ، أسكلافونيا ، سلوفينيا وترانسلفانيا من العثمانية ، إلى ألمانيا . هذه خسائر هائلة ، فقد كانت المجر ، اسكلافونيا وترانسلفانيا (بالتركية أردل) لدى العثمانية منذ ١٥٢٦ ، ولأن نهر ماروش ، يشكل خط الحدود ، فقد ظلت قطعة صغيرة ، تدخل ضمن المجر الحالية ، بيد العثمانية (جنوب سكدين = Szegedin) . كانت بانات وتامشوار بكاملها لدى العثمانية . تشكل جبال الالب الترانسلفانية فى الجنوب ، والكاربات الشرقية فى الشرق ، الحدود التركية - الألمانية . مولدافيا وعلى شمالها Bukovina (جرنوفيج وخوتين ، حاليا لدى السوفييت) كانتا لدى العثمانية . ولأن البلاد التى كانت تسمى فى حينه ، المجر واليوم ، خروات والتى تسمى « Esklavonya » الواقعة بين Sava و Drava ، تركت لألمانيا القديمة ، ظلت بلغراد ، على الحدود ولدى تركية . وعلى ذلك ، تكون حدود العثمانية التى انحدرت فى الغرب إلى أقصى الجنوب ، كانت فى الشرق ، لاتزال فى أقصى الشمال . بقى فى حوزة الأتراك ، لواء سمندره (بلغراد) فقط من إيالة بودين .

أما إيالات بودين ، كانيجه ، اويفار فأصبحت بعد الآن فى حوزة ألمانيا . كان نهر Una يشكل الحدود الشمالية - الغربية . وعلى هذا الأساس ، تبقى خرواتيا ، لدى ألمانيا وبوسنة ، لدى العثمانية (بضع مئات ألوف من المجريين القاطنين فى Banat لايزالون يحملون الجنسية العثمانية) . أما الكتلة المجرية الكبيرة التى تعيش فى المجر ، اسكلافونيا وترانسلفانيا ، فقد كانت المعاهدة بالنسبة لهم ، بداية لأيام تعسة ، لأن الألمان سوف يعاملون المجريين ، بدون رحمة .

تتكون المعاهدة التى عقدت مع البندقية من ١٦ مادة : تترك مورا ، وعلى جنوبها Cerigo (بالتركية : جوها) و Cerigotte و Hydra و Salamin الواقعة على الشمال - الشرقى منها ، وجزر آيا مافرى (باليونانية : Leukas) ودالماجيا التركية ، إلى البندقية . ونظرا لبقاء مدينة Korinthos (بالتركية : Cördes) لدى العثمانية ، تكون السيطرة على برزخ كورينثوس ، لدى العثمانية ، وتعاد إلى العثمانية ، الأماكن الكائنة فى ATTika فى شمال خليج كورينثوس والموجودة فى حوزة البندقيين (أثينا ، كان قد استرجعها العثمانيون خلال الحرب) .

وتتكون المعاهدة التى عقدت مع بولونيا من ١١ مادة : تعطى قلعة كامانيجة ومعها Podolya ، غاليجيا التركية وبعض الأراضى فى أوكراينا ، إلى بولونيا ، كان نهر Dnyestr (بالتركية : TUrla) يشكل الحدود . كانت Bukovina ، خوتين ، بيسارابيا لدى العثمانية . جبال الكاربات تخط الحدود البولونية - الألمانية . تبقى لدى ألمانيا ، كاربات أوكراينا التى يسكنها المجر (حاليا لدى السوفييتية ، Munkaç ومحيطها) .

سوف تركز السياسة العثمانية هدفها بعد الآن على استعادة مورا من البندقية وآزاك من روسيا وسيتحقق هذان الهدفان . ولكن ، ورغم كل الجهود ، سوف لايمكن استعادة ولو قسم من الأماكن التى ظفر بها الألمان . سوف لاتطبق سياسة الاسترجاع تجاه بولونيا بعد الآن ، وسوف لاتحدث حرب تركية - بولونية بعد الآن ، سوف تتكثف الجهود السياسية التركية المقبلة ، فى الحيلولة دون إبتلاع ألمانيا وخاصة روسيا لبولونيا .

عقد الصلح مع روسيا بمعاهدة استانبول (١٧٠٠/٧/١٤) . وبالنسبة لهذه المعاهدة المكونة من ١٤ مادة والتى وقع عليها نتيجة مفاوضات استمرت ٥ أشهر :

تترك Azak (روستوف ومحيطها) إلى روسيا ، تعاد إلى العثمانية الـ ٤ قلاع التى استولى عليها فى هذه المنطقة بعد هدمها . يوافق الباب العالى على أن روسيا « دولة مستقلة » ويلغى الضريبة التى كانت تدفعها إلى خان قرم . وقع على هذه المعاهدة ، رامى أفندى (راشد ، ٢ ، ٥٠٠ - ٣) . وأغرب مادة تستلفت النظر فى هذه المعاهدة هى (المادة ١٤) التى تنص على أن ذهاب وإياب السفير الروسى إلى إستانبول ، يكون عن طريق البر ولايكون مروره عن طريق البحر الأسود . حيث أن البحر الأسود ، بحر عثمانى مغلق لاتطأه قدم روسى . أجاب مصطفى الثانى ، عندما التمس منه القيصر الروسى السماح للسفن التجارية الروسية بالملاحة فى بحر آزاك : « أسمح للروس أن يدخلوا سرايى الهمايونى ، أما جولانهم فى البحر الأسود ، فان سماحى الشاهانى ، لن يشمل ذلك أصلا » .

اقتسمت السلطة ، بعد الصلح - بتسلسل النفوذ بعد السلطان - بين شيخ الإسلام فيض الله أفندى ، الصدر الأعظم حسين باشا ، رئيس الكتاب (وزير الخارجية) رامى أفندى . لكن نفوذ شيخ الإسلام ، كان أقوى وفى ازدياد على مر الزمن . لم يحصل أى شيخ إسلام فى الدولة العثمانية ، على مثل هذا النفوذ لاقبله ولابعده .

جاء إلى إستانبول ، فى ٢٦ أيلول ١٦٩٩ ، وفد سفارة إمبراطور ألمانيا برئاسة كونت Ottingen ومعه دوق هولشتاين Adolf-August و ١٥ حاكما ألمانيا بدرجة كونت وأمير واحد . وكما أشار إلى ذلك هامر (١٣ ، ٢٤ - ٥) لم يسبق أن اجتمع فى آية هيئة سفارة ، جماعة من الأشراف على هذه الدرجة من الكثرة . اهتدى إلى الإسلام من بين هذه الهيئة ، عام ١٧٢٠ تقريبا ، الأمير Ernst Sehmid Von Anhalt - Zerbst وهو العم الأصلى للأميرة التى ستكون امبراطورة لروسيا باسم Ekaterina الثانية .

قابل مصطفى الثانى ، ذلك بالمثل ، وأرسل الأميرال إبراهيم باشا الذى اشترك فى حملة فيينا عام ١٦٨٣ ، مع وفده البالغ ٥٧١ شخصا والذى يحوى ٤٢٢ حصان ركوب ، ١٠١ حمار ، ١٨١ جملا ، ٢١٥ عربة حاجيات ، مئات الخيول والبغال . كانت حادثة فوق العادة ، إلى درجة أن الإمبراطورة ، كانت على فراش النفاس ؛ لكنها أرادت بإصرار مشاهدة دخول العثمانيين إلى فيينا . طلبت تكريم الوفد فى يانق

قلعة لعدة أيام ولحين الولادة . نفذ طلبها . حيث استقبل الوفد عندما كان لايزال فى Osiyek الكونت الماريشال Guido Von Starhemberg . كانت المهترخانة (الموسيقى العسكرية العثمانية) تتقدم الوفد . ثم نشر بعدها علم تركى حريرى أحمر واسع جدا . ومن بين الملابس الرسمية لجنود حرس الباشا السفير ، فراء النمور والفهود الملقاة على أكتافهم . صرفت ألمانيا لتكريم وفد السفارة هذا مبلغ ٤٥٠٠٠٠ عملة ذهبية لكيلا تكون مقصرة ويصيبها الخجل . أخبر وزير المالية ، الإمبراطور بأن مالية البلاد لاتتحمل صرف هذا المبلغ لمثل هذه المظاهر . لكن الإمبراطور ، أجاب بأن صرف مبلغ كهذا ، فى محله وهو لايختلف عن صرفه فى الحرب ، وذلك لكى تثبت ألمانيا لجارتها تركيا أن حاكم ألمانيا ، ليس حاكما أقل شأنا من البادشاه وملوك فرنسا وأسبانيا . لم يستوعب الوفد التركى سراى واحد ، وخصص له ثلاث سرايات (Takatsa, Macaristan Türk Âleminden, Cizqiler ، ٣١٩ - ٢١ ، ٣٢٣) .

أرسلت بولونيا إلى إستانبول ، هيئة سفارتها المكونة من ٥٠٠ شخص تقريبا وصانت بذلك شرفها الوطنى . كان سفير بولونيا فى إستانبول Winiawa Leszcynsky ، جداً لأب لزوجة لويس ١٥ وجداً لأب كذلك لام أب لويس ١٦ . أول سفير قديم إلى إستانبول ، كان سفير البندقية الذى دخل إلى الميناء على ظهر مركب جدافى عظيم (قادرغة) .

اتخذت الدولة ، تدابير واسعة على الحدود الجديدة . أرسلت وحدات عسكرية إلى مابين نهرى دون وكوبان . مضيق كرج ، خوتين ، السواحل الجنوبية لنهر دنيستر ، أجريت فيها استحكامات مهمة . أخذت تشكيلات الإنكشارية التى قلص البادشاه عددها من ٧٠٠٠٠ إلى ٣٤٠٠٠ تستعد للإيقاع به . كان القبطان دريا ميزومورتا حسين باشا ، يؤمن بفوات دور المراكب الجدافية (القادرغة) وأنها صارت ملكا للتاريخ ولاتفى بالمرام . استبدل بالمراكب التى تسير بالجدف ، السفن الشراعية (القاليون) وخلال عدة أعوام ، فاق عدد القاليونات ، عدد المراكب الجدافية (القادرغة) وتوقف بعد مدة ، صنع المراكب الحربية الجدافية . أعفى الأهالى فى الحدود الذين تضرروا .. من الضرائب ، وأرسلت المعونات إلى المحتاجين منهم . سمح لروسيا فى ١٧٠٢ بتمثيلها بسفير دائم فى إستانبول . منح هذا السماح ، لها بعد السماح الممنوح لكل من البندقية بـ ٢٤٩ ، ولفرنسا بـ ١٦٠ ، ولانكلترا

وهولندا بأكثر من ١١٠ ، ولألمانيا وبولونيا بأكثر من ١٠٠ سنة . لم يتوقف مولاى اسماعيل الكبير عن استقطاع الأراضى من الجزائر . وسار نحو الجزائر بجيش كبير ، هزم وانسحب إلى فاس (J-L. Miege, Le Maroc ، ٣٦) . آخر ملك لمجر الوسطى للأتراك Emeric Thököly (وفاته ١٧٠٥/٩/١٣) والملكة Ilona توفيا فى أزميت نقلت عظامهما فى ١٩٠٦ فى احتفال مهيب من أزميت إلى المجر . كان صديقا كبيرا للعثمانية وعدوا لألمانيا . ترأس حركة التحرير المجرية Ferenc Rakoczy ، صهر الملك ، الذى سيسعى طيلة مدة حياته لتحرير المجر من ألمانيا بمساندة تركية وفرنسا (Lavisse- Rambaud ، ٦ ، ٥٩٧ – ٨) . نقل نصف مليون مجرى من اسكلافونيا إلى المجر . وهكذا أصبحت حدود المجر فى الجنوب ، نهر درافا Drava بينما كان سافا Sava . وأصبحت البلاد المجرية الواقعة بين النهرين ، أقطارا خرواتية وسلافية .

توفى فى ١٧٠١/٧/٢١ خارج مياه جزيرة Paros من جزر Kiklad فى غرفة النوم فى سفينة الإميرالية وهو على رأس الأسطول الهمايونى ، ميزومورتا حسين باشا ، البحار الأخير الذى أنجبته تركية على نطاق عالمى والذى سن قوانين جديدة وحقق إصلاحات أساسية فى القوات البحرية . حقق عندما كان مشيرا للقوات البحرية ٨ معارك بحرية انتصر فيها جميعا ، هذا عدا انتصاراته عندما كان بكلربك فى الجزائر . كان عدد القطع البحرية فى الأسطول البندق – البابوى – المالطى – التوسكانى فى المعارك الـ ٨ ، أكثر من عدد القطع العثمانية (فوزى قورد أوغلو ، ميزومورتا حسين باشا ، ص ٩٢) . دامت قيادته العامة للقوات البحرية ٦ سنوات و ٣ أشهر و ١٦ يوما . منح خلال الفترة بين قيامه بوظيفة بكلربك فى الجزائر وتعيينه مشيرا للقوات البحرية ، منح رتبة قيادة كاليونات (السفن الشراعية الحربية) الأسطول الهمايونى . وفى عهده جددت كافة قطع الأسطول وإضافة إلى ذلك أصلح جميع مصانع السفن وأكسبها حيوية جديدة . نص فى أنظمته الجديدة بصورة صريحة ، على عدم إمكان حصول أى شخص على رتبة الضابط البحرى العثمانى ، مالم يكن أبوه ضابطا أو جنديا حائزا على سجل مشرف فى الأسطول الهمايونى . هذه المادة ، كانت تطبق سابقا ، فى تركية – كما كانت تطبق فى انكلترا – لكنها لم تكن مادة مكتوبة . نقل جثمان ميزومورتا حسين باشا ، بمراسم عسكرية كبرى أجرتها البحرية الهمايونية ، من Kiklad إلى جزيرة ساقيز ودفن فى الجامع الموجود فيها .

١٣) واقعة أدرنة (١٧٠٣/٨/٢٢)

استقال عموجه – زاده حسين باشا من الصدارة فى ٤ أيلول ١٧٠٢ . استمرت صدارته مدة ٥ سنوات إلا أسبوعين . سبب الاستقالة ، تدخل شيخ الإسلام فيض الله أفندى ، بصورة غير قانونية فى جميع أمور الدولة ، تدخله فى التعيينات ، تعيين أقاربه فى مناصب عالية وتدخله فى صلاحيات الصدر الأعظم وعرقلته نظام الدولة . السبب الآخر ، كان الادعاء القائل بأن ابن عمته قبله لى – زاده على بك ، أصبحت له علاقة سرية مع إحدى السلطانات (أميرات الإمبراطورية العثمانية) ، أمر البادشاه باعدام الشاب ، رغم توسلات حسين باشا . كان على بك قائدا للاسطبلات الهمايونية (أمير آخور أول شهريارى) وبرتبة بكلربك .

كان السلطان مصطفى ناقما على عموجه – زاده لإجباره على توقيع معاهدة كارلوفجه وينتظر الفرصة لعزله وكذلك ، كان شيخ الإسلام لايرغب فى بقاء هذا الكوبرولو – زاده القوى السلطة ، فى مقام الصدارة . لذا نرى أن الختم الهمايونى ، أعطى إلى مناصطرلى مصطفى باشا ، الوزير التافه الجاهل . جاء مصطفى باشا ، من بغداد الذى كان بكلربك عليها ، إلى أدرنة (٢٧ أيلول) وتسلم الختم الهمايونى ، وجد أمامه فى الديوان ، رامى أفندى القوى السلطة . منح فى عهد عموجه – زاده رتبة وزير (مارشال) إلى ٣ من عائلة كوبرولو : نعمان باشا ، الأبن الكبير للصدر الأعظم الشهيد فاضل مصطفى باشا (الذى صار فيما بعد داماد (صهر) وصدراً أعظم فى تموز عام ١٧٠٠ ، وعبد الله باشا ، الابن المتوسط له وصهر شيخ الإسلام فيض الله أفندى (صار قائمقام الصدارة فى بداية عام ١٧٠٣) ، على باشا الابن الوحيد لمرزيفونلى قره مصطفى باشا عمره ٢١ عاما ، رجل دولة قدير جدا ، فى آذار ١٧٠١ (زوج ببنت مصطفى الثانى السلطانة صفية) (راشد ، ١١ ، ٥٢٤ ، ٥٢٨ ، ٥٧٨) .

أصبح رامى أفندى الشاعر والكاتب الذى اشتهر فى أوروبا بأنه دبلوماسى كارولوفجه القدير ، وزير قبه ، بينما كان رئيسا للكتاب (وزير الخارجية) (١٧٠٢/١٢/٢١) (راشد ، ٢ ، ٥٦٤ – ٥) . اتفق مع شيخ الإسلام على عزل مصطفى باشا ، الذى تجرأ على مخالفة شيخ الإسلام (١٧٠٣/١/٢٤) دامت صدارة مصطفى باشا ٤ أشهر و ٢٠ يوما ، أعدم بعد ٣ أيام (راشد ، ٢ ، ٥٦٥ – ٧٦) . صار رامى باشا صدرا

أعظم قبل مضى شهر واحد من حصوله على رتبة الوزير . كان دبلوماسيا لامعا فى الـ ٤٩ من عمره ، وكان مثقفا جدا . حاول ان تكون علاقته جيدة مع حميه فيض الله أفندى ، لكنه لم يوفق . قرر اسقاط شيخ الإسلام ، حفاظا على نظام الدولة . لم يكن بالإمكان إقناع البادشاه بذلك ؛ إذ إن هذا يعنى عزل السلطان ، فى الحال . حاول تحقيق ذلك بتحريك الجيش ، هذا علاوة على أنه سعى للحصول على تأييد العلماء الذين كانوا فى حالة عدم رضا . وفى النظام العثمانى ؛ اتفاق الجيش + العلماء = يعنى الثورة .

فيض الله أفندى ، عالم قدير فقيه ، متدين لكنه حريص وشديد التحيز لأقاربه . وزع أعلى المناصب العلمية بين أبنائه وأقاربه ، بحيث لم يكد يبق للعلماء الآخرين منصب يرقون إليه . منح أبنه الكبير درجة المشيخة للمرة الثالثة والأخيرة فى التاريخ العثمانى والتى تعادل درجة الصدارة . ولكونه كبير السن ، فكأنه أعلن ولى العهد لمنصب شيخ الإسلام ، صار كل من فتح الله أفندى نقيبا للأشراف ، أخيه مصطفى أفندى قاضيا عسكريا على الأناضول ، ابن عمه محمد أفندى قاضيا عسكريا على روملى . الأفندية القضاة العسكريون على روملى والأناضول الذين تأتى درجتهم بعد درجة شيخ الإسلام ، يصيرون أعضاء فى الديوان الهمايونى (الحكومة) . وهكذا وزعت المناصب بين فيض الله – زاده لر (عائلة فيض الله) .

السبب الآخر للانقلاب ، هو أن أدرنة صارت مركزا للعرش (العاصمة) بصورة فعلية منذ نصف قرن . وكان مصطفى الثانى ، كأسلافه ، يصر على السكنى فى أدرنة ، الأمر الذى كان يسبب حرمان شعب إستانبول وتشكيلات القابوقولو الموجودة مقارهم فى إستانبول ، من منافع عديدة . بدأت الثورة فى إستانبول (١٧٠٣/٧/١٨) . أشعل نار العصيان ٢٠٠ جيبه جى (فرق الاعاشة فى الجيش) الذين حرضوا على ذلك وانضم إليهم الإنكشارية . انضم العاطلون والرعاع إلى الجيش البالغ عدده ٢٢٠٠٠ جندى ، فتشكل زحام بشرى قوامه ٥٠٠٠٠ شخص . تحرك هذا القطيع فى ٩ آب ، من إستانبول إلى أدرنة . كان فى أدرنة ٨٠٠٠٠ جندى . ورغم أنه من المؤكد ، أنه كان باستطاعة هؤلاء تفريق هذا الحشد القادم بكل سهولة ، فإن كل الجهات وكل شخص ، ومن بينهم البادشاه ، خشوا اندلاع حرب داخلية . خلع البادشاه من العرش (١٧٠٣/٨/٢٢) . لكن المعارضة أو بالأحرى التردد ، كان كبيرا نحو ولى العهد – شهزاده أحمد الذى كان

أخا من نفس الأم والأب لمصطفى الثانى . وفى الوقت الذى كان فيه ، من المعهود فى النظام العثمانى ، أن يكون هنالك خلاف - فى أغلب الأحيان - بين البادشاهات وولاة العهد ؛ إلا أن علاقة هذين الأخوين كانت ممتازة . كان العصاة يخشون انتقام السلطان أحمد . وطالبوا باجلاس ابن عمه ، أى ابن السلطان أحمد الثانى ولى العهد الثانى الشهزادة (الأمير) السلطان إبراهيم الذى لم يكمل الـ ١١ من عمره ، ليعبثوا كيفما يشاءون تحت ظل سلطان طفل . لكن طلبهم هذا ، لم يتحقق ، وأجلس ولى عهد - شهزاده على العرش فى أدرنة بعنوان « أحمد الثالث » .

١٤) شخصية مصطفى الثانى

دامت سلطنة مصطفي الثانى الذى ولد ، جلس على العرش ، وخلع من العرش فى أدرنة ، مدة ٨ سنوات و٦ أشهر و١٦ يوما . هو من الشهزادات النوادر الذين ولدوا وهم « ولى عهد » . مات بسبب تأثره بعد خلعه بـ ٤ أشهر ، ٩ أيام (نصرت نامه ، ٢ ، ٢٠٩) . كان عمره يتجاوز الـ ٣٩ بـ ٦ أشهر ، ٢٥ يوما . والواقع أنه بعد « مصالحة كارلوفجه » ، أصبح لايبالى بشىء . دفن فى مقبرة ينى جامع جوار أبيه . شاعر ، موسيقى ، خطاط ماهر ، ذو ثقافة عالية . أساتذته فى الخط ، الحافظ عثمانه أفندى (١٦٤٢ - ١٦٩٨) وخواجه - زاده محمد أفندى ، أساتذته الآخرون القضعسكر (القاضى العسكرى) أدرنة لى ابراهيم أفندى ، سيد محمد أفندى (وفاته ١٦٧٠) ، بورصه لى شيخ محمد أفندى ، وانى محمد أفندى وصهر هذا ، هو رئيس أساتذته شيخ الإسلام حاجه - سلطانى شهيد سيد فيض الله افندى . مجموع مدة حملاته الهمايونية الثلاث سنة ، شهر ، ٢٩ يوما . أشترك فى الحروب فى عهد أبيه ، مطلع بصورة جيدة على منطقة روملى ، لكنه لم يطلع على الأناضول . دامت سلطنته حتى مصالحة كارلوفجه ، ٣ سنوات ، ١١ ، شهرا ، ٢١ يوما ، المدة بين المصالحة وواقعة أدرنة هى ٤ سنوات ، ٦ أشهر ، ١٩ يوما .

أبناء مصطفى الثانى : محمود الأول (٢/٨/ ١٦٩٦ - ١٧٥٤/١٢/١٣) ، عثمان الثالث (١٦٩٩/١/٣ - ١٧٥٧/١/٣٠) ، ٩ شهزادات (أمراء) توفوا وهم صغار السن جدا وأطول من عاش من بينهم هما شهزادة سليمان (١٧٠٣ -

١٧١٠) وشهزادة محمد (١٦٩٨/١١/٢٢ - ١٧٠٣/٦/٥) ؛ وشهزادة السلطان حسن (١٦٩٩/٣/٢٧ - أيار ١٧٣٣) . ولأن أيا من هؤلاء لم يخلف ولدا ، فقد استمرت السلالة عن طريق أخيه أحمد الثالث وليس من مصطفى الثانى .

بنات مصطفى الثانى : السلطانه أمة الله (١٧٠١/٦/٢٢ - ١٧٢٧/٤/١٢) ، تزوجت بوزير واحد ورزقت بابنة واحدة ، السلطانة عائشة (١٦٩٦/٤/٣٠ - ١٧٥٢/٩/٢٦) ، تزوجت أولا بكوبرولو - زاده داماد نعمان باشا ، وعلى أثر وفاته (١٧١٩/١/٢٨) تزوجت بـ ٣ وزراء آخرين ، لم تنجب ولدا ، السلطانة أمينة (١٦٩٦/٩/١ - ١٧٣٩) ، تزوجت بـ ٤ وزراء أشهرهم الصدر الأعظم داماد سلاحدار جورولوا على باشا (وفاته ١٧١١/١٢/٢٧) ، لها ابن واحد ، السلطانة صفية (١٦٩٦/١٢/١٣ - ١٧٧٨/٥/١٥) ، تزوجت بمرزيفونلى قره مصطفى باشا - زاده داماد كنج على باشا وبعد وفاته (ت ١٧٢٢/٢) ، تزوجت بوزيرين ، رزقت من زيجاتها الثلاث بـ ٤ أبناء وابنة .

ترك العرش بعد أن نصحه أخوه . تأثرت السلطانة - الوالدة رابعه أمة الله كلنوش ، لخلع ابنها لكن وضعها لم يتبدل . لأنها كانت والدة أحمد الثالث كذلك . استمرت صفة السلطانة - الوالدة التى تحدثنا عنها .

مصطفى الثانى هو آخر خاقان تركى سار إلى الحرب . لم يصبح أى أحد من البادشاهات الذين تلوه ، قادة فعليين . كان أحمد الثالث الذى احتل مكانه ، يصغره بـ ٩ سنوات ، ٦ أشهر ، ٥ أيام . وهنالك فى التاريخ العثمانى سلطانان آخران ولدا من أم واحدة ، هما مراد الرابع - إبراهيم خان .

واقعة أدرنة ، هى أحدى الثورات المشئومة والدنيئة فى التاريخ العثمانى . والحقيقة أنه لايوجد انقلاب فى التاريخ العثمانى لم يأت بالضرر الكثير . مزق العصاة ، فيض الله أفندى وابنه الكبير فتح الله أفندى (راشد ، ٣ ، ٧٧) وأعلن العلماء أنهما شهداء ، وهو شيخ الإسلام الثالث والأخير فى التاريخ العثمانى الذى قتل . تمكن أبناؤه الآخرون من النجاة من القتل . إثنان منهم صارا فيما بعد شيوخ إسلام . استمرت عائلة فيض الله (فيض الله زاده لر) كأشهر عائلة من العائلات العلمية ، إلا أن أحمد الثالث لم يوظف أحدا من هذه العائلة حتى ١٧٣٠ . قضت واقعة أدرنة ،

على الحياة السياسية لرامى باشا . صار واليا على رودس ومصر وتوفى فى ١٧٠٨ عن عمر يناهز الـ ٥٤ . وقضت كذلك واقعة أدرنة على بقاء أدرنة عاصمة فعلية . لم يجرؤ بعدها أى بادشاه على ترك إستانبول والسكنى فى أدرنة لمدد طويلة . استصحب أحمد الثالث ، أخاه الكبير مصطفى الثانى ، ووالدته ، والسلطان ابراهيم الذى هو ولى عهد - شهزادة وذهب إلى إستانبول مع الجيش ورجال الدولة .

١٥) الدول العالمية خلال تلك السنين

كان وضع الدول العالمية فى سنة ١٧٠٠ كما يلى : تركية ١٥٩٢٤٦٠٦ كم٢ ، والنفوس ٢٨٥٠٠٠ ٧٨ نسمة (فى أوربا ١١٦٧٣٩٤ كم٢ و ٢٤٨٣٠٠٠٠ نسمة فى آسيا ٤٠٩٦٦٧١ كم٢ و ٢٧٨٥٠٠٠٠ نسمة فى افريقيا ١٠٤٧٠٠٠٠ كم٢ و ٢٥٧٤٥٠٠٠ نسمة) ، نفوس أكبر المدن الأوربية والأفريقية (مع ضواحيها بصورة تقديرية) إستانبول ١٥٠٠ ٠٠٠ ، القاهرة ٦٥٠ ٠٠٠ ، أدرنة ٣٥٠ ٠٠٠ ، جزائر ١٥٠ ٠٠٠ ، اسكندرية ١٣٠ ٠٠٠ ، تونس ١٢٥٠٠٠ ، بخارست ١٠٠ ٠٠٠ (عدا المدن الموجودة فى قارة آسيا) .

امبراطورية بنى تيمور الهندية ، كانت الدولة العالمية الثانية : ٤٦٢٢٨٨٥٠٠٠ كم٢ و ١٧٠ ٠٠٠ ٠٠٠ نسمة . وتليها الإمبراطورية الصفوية الايرانية : ١٩٥٦٧٩١ كم٢ و ١٨٠٠٠ ٠٠٠ نسمة ويقتضى بعدها ، وضع الإمبراطورية الصينية فى التسلسل : ١٢٢٦٨٢٠٨ كم٢ و ١٢٠ ٠٠٠ ٠٠٠ نسمة .

ملكية فرنسا ، كانت أقدر دولة مسيحية (مع مستعمراتها) : ٣٦٤ ٤٩٤ ٤ كم٢ و ٢١٤٠٦٠٠٠ نسمة (باريس ٧٣٠ ٠٠٠ ، ليون ١٠٠ ٠٠٠ ، مارسيليا ٩٠ ٠٠٠) . ملكية بريطانيا العظمى ١٨٣٣٤٧٨ كم٢ و ٩٠١١٠٠٠ نسمة (لندن ٦٧٤ ٠٠٠) . هولندا ١٠٢١٢٧٤ كم٢ و ٧٥٣٠٠٠٠ نسمة = ٢٨٥٤٧٥٢ و ١٦٥٤١٠٠٠ نسمة (امستردام ١٨٠ ٠٠٠) ، كانت هاتان الدولتان قد اتحدتا تحت ادارة حاكم واحد بصورة مؤقتة .

الإمبراطورية الألمانية ٨٠٣٨٢١ كم٢ و ٢٢٤٧٩٠٠٠ نسمة (فيينا ١٥٠٠٠٠ ، هامبورغ ٩٥٠٠٠) . ملكية اسبانيا التي لاتزال تحت إدارة عائلة هابسبورغ ١٥٠٨٦٠٠٣ كم٢ و ٣٠٤٠٥٠٠٠ نسمة (نابولى ٢٨٠٠٠٠ ، ميلانو ١٣٠٠٠٠ ، مدريد ١٢٥٠٠٠ ، المكسيك ٩٠٠٠٠) .

ملكية السويد ١٢٧٨٠٢٣ كم٢ و٤٥٠٠٠٠٠ نسمة (ستوكهولم ١٠٠٠٠٠) ؛ جمهورية البندقية ٦٢٦٨٣ كم٢ و٤٥٠٠٠٠٠ نسمة (البندقية ٢٤٠٠٠٠) ، امبراطورية روسيا ١٤٥٦٨٥٤٠ كم٢ و١٢٠٠٠٠٠٠ نسمة (موسكو ١٢٠٠٠٠) ، ملكية بولونيا ٧٦٠٤٠٧ و ١٢٠٠٠٠٠٠ نسمة .

امبراطورية فاس ٣٠٥١٦٩٩ كم٢ و ٨٠٠٠٠٠٠ (فاس ٢٥٠٠٠٠ ، مكناس ١٠٠٠٠٠ ، مراكش ١٠٠٠٠٠) . مجموع الخانات التركية فى تركشتان ٥٥١٢٨٠٠ كم٢ و ١١٥٠٠٠٠٠ نسمة . امبراطورية اليابان ٣٧٣٥١٢ كم٢ و ٢٠٠٠٠٠٠٠ . ملكية البرتغال ٨٧٦٨٢٠٥ كم٢ و ٥٩٠٠٠٠٠ نسمة (ليشبونة ٢٢٠٠٠٠) . ملكية الدانمارك ٥٣٨٩٥٧ كم٢ و ١٤٠٨٠٠٠ نسمة . جمهورية سويسرا ٤٠٠٣١ كم٢ و ١٦٠٠٠٠٠ نسمة . البابوية ٤٧٤٣٣ كم٢ و ٢٢٠٠٠٠٠ نسمة (روما ١٦٠٠٠٠) .

دوقية توسكانا الكبرى ٢١٤٨٩ كم٢ و ١٠٠٠٠٠٠ نسمة .

كانت هنالك أقطارا مازالت مجهولة ، وتقديراتها كالتالى : مناطق الزنوج المجهولة فى افريقيا ١٣٠٨٩٠٧٩ كم٢ و ٣٠٠٠٠٠٠٠ نسمة . المناطق الشمالية من أمريكا الشمالية التى يسيطر عليها البيض ١١٣٠٢٧٦٠ كم٢ و ١٦٠٠٠٠٠ نسمة . قارة اوقيانيا (عدا جزر هاواى) ٩٢٣٦١٦٢ كم٢ و ٣٠٠٠٠٠٠ نسمة .

١٦) السنوات الأولى لدور أحمد الثالث (١٧٠٣ - ١٧١١)

أحمد الثالث الذى شغل منصب ولى العهد مدة ثمانى سنوات ونصف ، فى عهد أخيه الكبير الذى كان منسجما معه تمام الانسجام ؛ لم يكن عسكريا ، قائدا ، مغرورا ، جسورا كأخيه . ولد فى حاجى اوغلو بازارى فى دوبروجه عندما كان

أبوه فى الحرب . كان عمره ، فى فاجعة فيينا ١٠ أعوام ، وعند خلع أبيه ١٤ عاما . لذا كان يحب السلم ، لكنه لايتورع عن دخول الحرب إذا اقتضى الحال . لم تكن درجة ثقافته بقدر أخيه . لكنه كان شاعرا ، موسيقارا ، وبوجه خاص كان خطاطا كبيرا . كان من أبطال رماة السهم فى عصره . حصل على أجازة فى خط الثلث والنسخ من الحافظ عثمان أفندى . ومن بين أساتذته يمكن ذكر شيخ الإسلام فيض الله أفندى ، شيخ الإسلام بورصه لى محمد أفندى (وفاته ١٧٢٩) ، سيد محمد أفندى ، قضعسكر (القاضى العسكرى) والامام السلطانى إبراهيم أفندى . كان هو كذلك كأخيه الكبير ، مطلعا على منطقة روملى ولو أنه لم يكن بدرجته ، كان قد زار مورا لكنه لم تسنح له فرصة الذهاب إلى الأناضول . كان عمره عند جلوسه يقارب الـ ٣٠ عاما . كان ولوعا بالنساء والأنس والملذات . كان يملك وقار الحاكم . أول عمل قام به ، هو اعتقال فاعلى واقعة أدرنة المفجعة ، أمر بقتل كافة الذين خانوا أخيه . لم يبعد أحدا من منصبه مالم يرتكب خطأ جوهريا . كان يحمل فكرة الاصلاح . يؤمن بتجديد المؤسسات . عمل مابوسعه لأجل ذلك . هذه الاصلاحات ، لايمكن أن ينتظر منها أن تكون إصلاحات جذرية ، وإنما حركة تجديد فقط . لايقدم على الاصلاح الجذرى إلا عندما تكون الدولة فى خطر .

كان أحمد الثالث يحاول العثور على صدر أعظم قدير . لأن الصدر الأعظم ، فى النظام العثمانى ، هو الوكيل المطلق للخاقان ، المسئول عن كافة القضايا العسكرية والمدنية والمالية . عزل قاوانوز نيشانجى أحمد باشا ، الذى جىء به مكان رامى باشا ، بعد شهرين ، ٢٦ يوما (١٧٠٣/١١/١٧) . أما داماد أنشته حسن باشا ، فلم يتمكن من البقاء فى السلطة أكثر من ١٠ أشهر ، ١١ يوما (١٧٠٤/٩/٢٨) . عزل قيصريلى قالايلى قوز أحمد باشا بعد شهرين ، ٢٧ يوما (١٧٠٤/١٢/٢٥) . وصار ، قبطان دريا (مشير البحر) محمد باشا ، صدراً أعظم . رجل السراى الصادق الذى ضحى بكل ثروته فى واقعة أدرنة فى سبيل تأمين إجلاس أحمد الثالث وليس الشهزادة إبراهيم ، عزل بعد سنة ، ٤ أشهر ، ٩ أيام (١٧٠٦/٥/٣) . لم يكن أى أحد من هؤلاء رجل منصبه . وفى النهاية ، جاء إلى السلطة رجل الدولة المهم سلاحدار داماد جورلولو على باشا .

كان على باشا وزيرا شابا فى الـ ٣٠ من عمره . قام بادارة الدولة مدة ٤ سنوات ،

وشهر و ١٤ يوما . لم يتدخل البادشاه كثيرا فى أعماله . فتح وهران فى الجزائر من أيدى الأسبان . وقدمت مفاتيح المدينة إلى السلطان أحمد بتاريخ ١٤ ك١/١٧٠٨ . رغبة الصدر الأعظم جورلولو ، فى إعلان الحرب على روسيا ومعارضة البادشاه له ، كانت سببا فى عزله (١٧١٠/٦/١٦) واعدامه بعد سنة ونصف . استمرت عائلة جورلولو ، إلى يومنا هذا . جاء مكانه كوبرولو - زاده داماد نعمان باشا . لم يتمكن من شغل المنصب أكثر من شهرين ويومين ، لم يعط الوقت الكافى ليتمكن من انجاز عمل ، وبعد ٤ سنوات جاء بلطجى محمد باشا من حلب ، صار صدرا أعظم للمرة الثانية (١٧١٠/٨/١٨) .

١٧) الحـرب مع روسـيا (١٧١١)

كان إعلان العثمانية الحرب على روسيا قبل مضى ١١ سنة ، نتيجة لحرب الشمال . ملك السويد كارل ١٢ ، انتصر على الدنمارك ، بولونيا ، روسيا واستولى على بولونيا ودخل إلى أعماق روسيا . لكن عدم إدخال جورلولو ، العثمانية فى الحرب فى تلك الأثناء ، أعطى الفرصة للقيصر . تمكن القيصر بطرس من لم شعثه وأنتصر على ملك السويد فى Poltava . اجتاز الملك الحدود العثمانية ولجأ إلى تركية . وأثناء مطاردة القيصر للملك ، دخل إلى قسم من الأراضى العثمانية . اعتبر الباب العالى ذلك ، سببا للحرب . أما السبب الحقيقى فهو فكرة استرداد آزاك - التى تركت فى معاهدة كارلوفجه إلى روسيا - وقد كانت هذه الفكرة بمثابة خط سياسى لايتبدل لدى الكثيرين من رجال الدولة العثمانية . اضطر البادشاه الذى لايرغب فى الحرب إلى إعلان الحرب على روسيا . أعطيت القيادة العليا إلى بلطجى محمد باشا .

سار بلطجى من إستانبول (١٧١١/٤/٩) مع ١٤٠٠٠٠ جندى وتمكن من العثور على جيش القيصر البالغ ٦٠٠٠٠ جندى فى موقع فالجى (بالرومانية : Falciu) على نهر بروت وحاصره . لذا اشتهرت هذه الحرب بحرب بروت . وهذا الموقع هو موقع عثمانى يقع متوسطا بين مدينتى كالاس وياش . حاول القيصر منع الجيش العثمانى من عبور نهر بروت . لكن عثمان باشا ، تمكن تحت نيران قصف العدو من نصب ٤ جسور والعبور بجيشه بسرعة إلى الضفة الشمالية من بروت . ولذا ، فإن بطرس الكبير الذى تحاشى الدخول فى حرب ميدانية ، اختبأ فى الخنادق التى حفرها على عجل . أجرى بلطجى عدة هجمات ، لكنه لم يوفق فى اختراق الخنادق

الروسية بسبب عدم حماس الإنكشارية لذلك . أرسل القيصر ، رئيس الوزراء البارون شافيروف إلى بلطجي وطلب منه أن يسمح له بالانسحاب مع جيشه وأنه سوف يعيد آزاك وكافة الأماكن التى أخذت فى معاهدة كارلوفجه . مشاوروا بلطجي الصدر الأعظم الثلاثة الذين رشاهم البارون بمجوهرات بالغة القيمة ، تمكنوا من إقناع بلطجي بقبول هذا العرض . هذا هو الوجه الأول من المسألة ، أما الوجه الثاني ، فهو اعتقاد بلطجي المحق فى عدم إمكانه اجتياز الخنادق والتحكيمات الروسية جبرا . كان لايعتمد على جيشه ولديه المبررات لذلك . وكان ملك السويد وخان قرم أعدى أعداء الروس ، على وشك الوصول إلى مقر السردار الأكرم ، وكان مجيئهم سوف يضطر بصورة مؤكدة بلطجي إلى الاستمرار فى القتال ؛ لذلك كله .. عقد الباشا الصلح على عجل . لكن الحقيقة أن وعود القيصر ، كانت حبرا على ورق ، كان همه الوحيد ، هو التخلص من الحصار العثمانى . كانت الأمنية الكبرى للقيصر ، التي توجه كل تصرفاته ، هى الهبوط إلى البحر الأسود ، وسوف لايتمكن من تحقيق هذه الأمنية فى حياته .

كانت العثمانية ، حتى ذلك اليوم ، قد أفنت جيوشا روسية كثيرة جدا ، ولكن روسيا مازالت حية . إن الحكاية التى رويت فيما بعد ، حول مقابلة بلطجي لعشيقة القيصر وامبراطورة المستقبل Ekaterina واستغفالها له ، ليس لها أى أساس صحيح ، فبلطجي لم يقابل ، لا القيصر ولا الإمبراطورة ابدا .

وأثناء التوقيع على مصالحة بروت فى ٢١ تموز باتفاق كافة الوزراء الموجودين فى الجيش ، قام بلطجي بهجوم أخير ، أخذ الجيش الذى لم يقاوم نيران أكثر من ١٢٠ مدفعا روسيا ، بالانسحاب بصورة غير منتظمة ، ولاشتداد الظلام ، لم يشاهد الرّوس ذلك . المادة المهمة فى المصالحة هى ، إعادة آزاك أى روستوف التى هى فتحة نهر الدون إلى العثمانية . المواد الأخرى التى كانت تبدو كأنها فى صالح العثمانية وتشدد على روسيا ، كانت افلاطونية ويشك فى إمكان تطبيقها . بعد فترة وجيزة من التوقيع ، حضر ملك السويد أكبر عسكرى فى عصره إلى مقر العثمانية وترجل عن حصانه الذى يرغو شدقه زبدا . وبعد نقاشه مع الصدر الأعظم نقاشا شديدا ، عاد غاضبا قائلا بأنه سوف يشكوه إلى البادشاه . وحقق ماقاله . أحمد الثالث الذى أمر باقامة حفلات الفرح فى البداية ، عزل الصدر الأعظم عند عودته إلى أدرنة من

الحملة التى دامت ٧ أشهر و ١١ يوما (١٧١١/١١/٢٠) . دامت صدارته سنة ، ٣ أشهر و ٣ أيام ومجموع مدة صدارتيه سنتان و ٧ أشهر ١٢ يوما . كان عمره يتجاوز قليلا الـ ٥٠ . مات فى السنة التالية .

أصبح أغا يوسف باشا ، ثم نيشانجى سلاحدار سليمان باشا صدراً أعظم لمدة ١١ شهرا و ٢٢ يوما (١٧١٢/١١/١٢) . وعندما لم يرض القيصر باعادة آزاك ، جاء البادشاه إلى أدرنة بنفسه للخروج إلى الحرب .

طلب القيصر الأمان . وقعت معاهدة أدرنة (١٧١٣/٦/٢٤) . استعيدت آزاك . انسحب الروس من بولونيا ، حافظ البحر الأسود على وضعه كبحيرة تركية لمدة ٦٠ عاما أخرى . لم يتمكن القيصر من الهبوط إلى المياه الدافئة . كارل ١٢ (بالعثمانية دمير باش شارل) الذى ظل فى تركية خمس سنوات ونصف ، قطع أمله فى زج تركية فى حرب ضد روسيا ، على أثر مصالحة أدرنة ، وغادر تركية (١٧١٤/٩/١٩) . غادر Dimetoka مع ٢٥٠٠ جندى سويدى و٦٠٠ جندى عثمانى يرافقونه وذهب عن طريق افلاق إلى أردل عائدا إلى السويد .

وكنتيجة حرب الشمال ، لم يتمكن القيصر من الهبوط إلى البحار الدافئة ، إلى الجنوب ، لكنه تمكن تماما من الصعود إلى البحار الباردة أى البلطق . الروس الذين احتلوا مصب Neva (١٧٠٣/٥/١٣) ، أسسوا قواعد مدينة Sankt Petersburg (لنينغراد حاليا) . اضطرت السويد ، إلى ترك ساحل مهم فى البلطق إلى روسيا . وصلت روسيا إلى البحار المفتوحة . حصل بطرس فى السنوات الأخيرة من حياته على لقب « إمبراطور » . اما « جار » الذى كان لقبه السابق ، فمعناها إمبراطور صغير أو ملك كبير . اما لقب إمبراطور ، فيدل على ان « الجار » صار يملك صفة حاكم روما الشرقية أى حاكم البيزنط . لم تتقبل هذا اللقب الدول الأوروبية ، وخاصة الدولة العثمانية التى حافظت فعلا على عنوان إمبراطور روما الشرقية . ادعى إيفان الرابع منذ أواسط القرن ١٦ بأنه هو « جار » أى إنه صغير امبراطور روما الكبير الذى هو البادشاه . والآن ، يدعى بطرس أنه الإمبراطور الكبير لروما الشرقية . وعلى هذا يكون تاج روما الشرقية مقسما بين البادشاه والجار . كان أمنية وأمل الروس أن يكون الجار ، إمبراطور روما الشرقية الوحيد ، لكن هذا الخيال لم يتحقق فى أى وقت من الأوقات .

بعد عزل سليمان باشا بعد ٤ أشهر و ٢٥ يوما ، صار القبطان دريا (الأميرال الكبير) خوجه ابراهيم باشا ، صدرا أعظم (١٧١٣/٤/٦) . أعدم أولالى إبراهيم باشا ، بعد ٢١ يوما . كان أميرالا عظيما . عين مكانه ، ايزنيكلى داماد شديد سلاحدار على باشا ، صدر أعظم . سمى « داماد » (صهر) بسبب نكاحه - دون حدوث الزفاف مطلقا - فاطمة الطفلة ، أبنة أحمد الثالث الكبيرة . كان مثقفا بدرجة كبيرة ، له نفوذ لدى البادشاه ، فى سن ناضجة ، ذا مقدرة ، اداريا .

١٨) الحرب مع البندقية والمانيا (١٧١٥ - ١٧١٨) ، معاهدة باساروفجه (١٧١٨/٧/٢١)

استرد ، ماأعطى إلى روسيا فى معاهدة كارلوفجه . وبالنسبة إلى على باشا ، جاء دور استرداد ماأعطى إلى البندقية وألمانيا . أعلنت الحرب أولا على الأضعف ، البندقية (١٧١٤/١٢/٨). مضت على كارلوفجه ١٥ سنة و ١٠ أشهر و ١٣ يوما سار الصدر الأعظم على باشا- الذى صار سردار أكرم (قائدا أعلى)- من إستانبول على رأس الجيش الهمايونى (١٧١٥/٤/١) . شيعه البادشاه حتى أدرنة . تبع القبطان دريا (مشير البحر = الاميرال الكبير) جانم خوجه محمد باشا ، السردار الأكرم بالأسطول الهمايونى وأستولى على جزيرة ثينوس (بالتركية استنديل) من جزر كيكلاد التى كانت بحوزة البندقيين (١٧١٥/٦/٧) . دخل على باشا فى ٢٧ حزيران إلى مورا (وهى اراض بندقية) ، عن طريق كورينثوس .

كان فى مورا فى هذه الأيام ، أكثر من الفى قرية ، قصبة ، مدينة . جعل البندقيون مدينة Nauplion (بالتركية : Anabolu) مركزا . كانوا يذيقون الأهالى الروم الوانا من الظلم . استقبل الروم ، العثمانيين بسرور صادق وحقيقى . وقد ساعد هذا على فتح الجزيرة وسهل عملية الفتح خلال ٥٥ يوما . احتل على باشا كورينثوس (١٧١٥/٧/٤) ، Nauplion (٧/١٩) ، وخلال ٨ أيام Modon (٨/٢١) . ثم ميناء Monemvasia (بالتركية بنفشه) (٩/٤) ، جزر Egin و Salamin (٧/٦) ، جزيرة آيامافرى (بالايطالية : Santa Maura) فى البحر اليونانى (١٠/٥) ، وخلال ذلك ، تم احتلال موانىء البندقية (٩/٢٤) الموجودة فى

كريت . سقطت نافارين وكورون فى ١٣ آب . هرب الأسطول البندق ، من الأسطول العثمانى . حتى ذلك التاريخ ، كان ترتيب الأسطول البندق ، الثانى بعد العثمانية فى البحر الأبيض . خرجت البندقية من صفوف الدول الكبرى فى عام ١٧١٥ ، بعد فقدانها مورا وانقطاع علاقتها ببحر إيجه . وفى ١٧٩٩ امُحيت من الوجود بشكل تام .

قضى على باشا ، شتاء عام ١٧١٥ - ١٦ فى إستانبول . كان يريد فى هذه المرة ، فتح جزيرة كورفو (التى لم يتسن الاستيلاء عليها حتى فى عهد القانونى) ، وتنحية البندقية بشكل تام . أعلنت ألمانيا التى أيقنت فورا أن الدور لحقها ، الحرب (١٧١٦/٤/٢٤) . كان على باشا قد غادر إستانبول فى ١١ نيسان ونظم جيشه لحرب البندقية . كان يلزم لمجابهة ألمانيا ، جيش أكبر ، ورغم ذلك ، غير طريقه وتوجه إلى المجر . جاء إلى بلغراد (١٧١٦/٧/٢٢) ، ولم يستمع للذين أشاروا عليه بقضاء الشتاء فيها والاستعداد لفتح المجر بقوات أكبر فى الربيع ، وقال أنه سينهى قضية المجر هذا العام ويصل إلى الحدود التى كانت فى عهد عائلة كوبرولو . ولأن المجريين يئنون تحت نير ظلم الألمان الشديد ، فقد كان يرى أنه من الممكن فتح المجر بتشتيت الجيش الإمبراطورى فى معركة ميدانية . لعب الوزير بوشناق صارى أحمد باشا بكلربك روملى ، دورا مشئوما فى هذا القرار وخدع الصدر الأعظم باقناعه بهذا الرأى وتنصر بعد مدة ودخل فى خدمة ألمانيا . مثل هذا يعتبر حادثة من اندر الحوادث الاستثنائية التى وقعت فى العثمانية .

تقابل الجيشان فى بترفارادين . فى ٢ آب شتتت مقدمة الجيش العثمانى البالغة ١٥٠٠ شخص ، مقدمة جيش الأمير اوجين البالغة ٨٠٠٠ شخص فى **Karlofca** وبدلا من أن يواصل الهجوم فورا- بينما العدو فى حيرة من أمره- تأخر على باشا ٣ أيام بناء على مشورة صارى أحمد باشا . بدأت معركة **Petervaradin** الميدانية فى الساعة ٧ من صباح يوم ٥ آب (١٧١٦) بهجوم الجناح العثمانى الأيسر الذى يشكله سباهية روملى « تمارلى » (نوع من الخيالة) وشروعه فى تشتيت الجيش الألمانى . ولكن الجناح الأيمن تشتت ، فور سقوط الوزير تورك أحمد باشا بكلربك الأناضول شهيدا . وعندما أراد على باشا تدارك الأمر فتقدم دون احتياط إلى الأمام ، سقط شهيدا برصاصة أصابت جبينه . تركت الوحدات التركية التى علمت بموت

السردار ساحة الحرب وبدأت فى الانسحاب إلى بلغراد . سببت عادة ترك ساحة القتال عند وفاة السردار – وهى عادة سيئة وقديمة لدي الجيش العثمانى – إحراز الأمير اوجين نصرا كبيرا . بعد ١٩ عاما من انتصاره على مصطفى الثانى فى معركة Zenta الميدانية ، ينتصر على أحد سردارات (قائد أعلى) العثمانيين كذلك . كان عمره فى هذه الاثناء ٥٣ عاما واشتهر بأنه عسكرى العالم المسيحى الذى لايقهر ، بطل ألمانيا الوطنى . غنم الأمير ، سرادق على باشا وعدة آلاف من كتبه ذات القيمة الفائقة المخطوطة بثلاث لغات شرقية والتى اعتاد استصحابها معه فى الحملات .

وبذلك تكون صدارة شهيد على باشا قد دامت مدة ٣ سنوات ، ٣ أشهر ، ٨ أيام . حقق خلال هذه المدة أعمالا كبيرة . لكن الفشل فى حملة ألمانيا ، جلب على الدولة مصيبة كبيرة . صار الوزير حاجى خليل باشا محافظ بلغراد ، صدراً أعظم وموشقارالى ابراهيم أفندى (نوشهرلى داماد ابراهيم باشا) الموجود فى الجيش ، قائمقام الصدارة (وكيل رئيس الوزراء) . كان ابراهيم باشا ، فى خدمة أحمد منذ كان شهزادة وكان مقربا إليه . صارى أحمد باشا الذى لم ترقه هذه التعيينات ، تنصر ولجأ إلى الألمان ، قبض عليه الجند الأتراك خارج بلغراد ومزقوه .

سار الأمير اوجين فور انتصار بترفارادين مع ١٨٠٠٠٠ جندى نحو تامشوار . وبعد حصار دام ٤٤ يوما ، استولى على قلعة تامشوار المهمة جدا وهى مركز الإيالة ومدينة مجرية حتى ذلك التاريخ (١٧١٦/١٠/٢٠) . استولى الألمان على Banata . انقطعت علاقة العثمانية بالمجر بصورة تامة . حاصر الأمير اوجين بلغراد (١٧٦٧/٧/٦) . اتحد جيش الصدر الأعظم والسردار الأكرم البستانلى حاجى خليل باشا ، مع ٧٠٠٠٠ من خيالة قرم الذين يقودهم سعادت كيراى خان وهجم من الخارج بغرض فك الحصار عن بلغراد ، لكنه انسحب بعد أن فقد ٢٠٠٠٠ شهيد ، وجريح واسير . دخل الأمير اوجين بلغراد (١٧١٧/٨/١٨) . عرض الألمان الذين احتلوا بلغراد خلال ٤٢ يوما الصلح وهم فى مركز قوة . كان أحمد الثالث وإبراهيم باشا قد قدما إلى صوفيا . تزوج قائمقام الصدارة ابراهيم باشا ، بابنة أحمد الثالث الكبيرة السلطانة فاطمة البالغ عمرها ١٣ عاما وأصبح صهرا له (داماد) . السلطانة فاطمة التى استشهد زوجها شهيد داماد على باشا ، قبل زفافها ، بقيت أرملة . عزل خليل باشا بعد صدارة دامت سنة ، ٢٢ يوما

(١٧١٧/٨/٢٦) . صار قيصريلى نيشانجى محمد باشا ، صدرا أعظم لمدة ١٤ يوما . احتل مكانه داماد ابراهيم باشا (١٧١٨/٥/٩) . أدى عدم حنكة وبصيرة خليل باشا ، إلى احتلال ألمانى لبلغراد دام ٢٢ عاما ، علاوة على عدم إمكان استعادة تامشوار فى أى وقت من الأوقات . ولأن بلغراد استسلمت لحالها ، غادرها المسلمون على شكل قوافل كبيرة . لم تعد بعد ذلك بلغراد ، مدينة تزكية . هاجر المجريون إلى الشمال . وبعد ٢٢ عاما انتقلت إلى العثمانية مجددا على شكل مدينة صربية . استسلمت تامشوار كذلك لحالها ونزح منها الأهالى المسلمون . أخذ الرومانيون فى الاستيطان هناك ، وفى الأماكن التى أخلاها الأتراك ، وفقدت تامشوار هويتها كمدينة مجرية .

كان داماد إبراهيم باشا الذى أصبح صدراً أعظم بعد ماكان قائمقام الصدارة لمدة سنة و ٧ أشهر و ٧ أيام من مؤيدى الصلح كأبى زوجته البادشاه . كلاهما كان مقتنعاً بعدم إمكان الحرب بمثل هذا الجيش . كانت تقوية الجيش تستوجب إضافة معدات تكنولوجية جديدة ، ولتحقيق ذلك ، كانت الدولة تحتاج إلى فترة صلح طويلة الأمد . بعد ١٢ يوما من صدارة ابراهيم باشا ، وقعت العثمانية مع ألمانيا والبندقية معاهدة Pasarofca (١٧١٨/٧/٢١) وهى الاتفاقية المفجعة التى وقعت عليها العثمانية بعد كارولوفجه .

تنهى المعاهدة المكونة من ٢٠ مادة مع ألمانيا ، و ٢٦ مادة مع البندقية ، حالة الحرب مع البندقية التى استمرت منذ ٣ سنوات و ٧ أشهر و ١٤ يوما ، ومع ألمانيا التى استمرت منذ سنتين و شهرين ، ٢٧ يوما . تترك Banat مع مركزها Tamesvar إلى ألمانيا ، نهر Sava يشكل الحدود ، غير أن مدينتى بلغراد وسمنديره اللتين تقعان فى جنوب سافا ، تبقيان لدى ألمانيا . لايبقى تقريبا للعثمانية أية رعايا من المجريين ، ومقابل ذلك تحوز ألمانيا ، على قسم من الرعايا الصرب . كان المسلمون القاطنون فى بلغراد وسمنديره ، (اللتان كانتا مدينتين إسلاميتين حتى ذلك التاريخ) ، ينسحبون إلى الأراضى العثمانية . لم تكن الفتوحات التى أحرزت من البندقية بالأهمية التى يمكن معها تعويض ماأعطى لألمانيا . تبقى مورا ، جزيرة آيامافرى والجزر الأخرى ، لدى العثمانية ، لكن الجزيرة الصغيرة التى تقع بين كريت ومورا تبقى لدى البندقية .

١٩) دور لاله (١٧١٨ - ١٧٣٠)

أغلق الدور الأول لسلطنة أحمد الثالث الذى دام ١٤ سنة و ١١ شهرا و ويومين بمعاهدة باساروفجه . ويطلق على الدور الثانى لسلطنته « لاله دورى » (دور السنبل) وهو الذى يصادف داماد إبراهيم باشا والذى استمر ١٢ سنة ، وشهرين ، ١١ يوما . وفى نهاية هذا الدور حدثت حرب إيران التى كانت أحد أسباب اغلاق هذا الدور .

يمكن تعريف « دور لاله » ، بأنه يتمثل فى رغبة إستانبول والمدن التى تقلدها والتى ملت ويلات الحرب والانقلابات ، فى الاستفادة من نعم الحياة المادية بقيادة إبراهيم باشا . تم إعمار إستانبول والمدن الأخرى ؛ فمثلا ، شيدت القرية التى ولد فيها الصدر الأعظم المسماة موشقاره ، على شكل مدينة وأصبح اسمها نوشهر . ولأول مرة ، يركز الاهتمام على الإعمار المدنى بدلا من الإعمار الدينى ، أستعمل فى البناء الأسلوب الذى يعكس المرح والجانب المشرق للحياة ، تطورت هندسة الحدائق بشكل فائق . أصبحت هواية تربية الأزهار وخاصة « اللاله » (السنبل) الشغل الشاغل للناس ، إبتداء من البادشاه إلى الفقير المعدم . انعكست هذه الروح المرحة المرتبطة بالحياة ، على الشعر والموسيقى . بزغ فى هذا المجال أفذاذ كثيرون . وخاصة نديم الذى تغنى فى اشعاره جو « دور لاله » ، وخاطب فيها القلب بأسلوب وجدانى سلس ، وحتى التصوف الكثير الرواج فى المجتمع العثمانى ، وحياة التكايا والطرق الصوفية ، زادت انفتاحا على الحياة ، وصارت تنظر إلى الحياة بكثير من المحبة والسرور والشكر لنعم الخالق عز وجل . أصبحت كل واحدة من تكايا الطرق الصوفية لدى العثمانية (والتى يطلق على صغيرها زاوية ، وعلى المتوسطة تكية ، وعلى الكبيرة دركاه وعلى الكبيرة جدا آستانة) ، اكاديمية للفنون الجميلة ونادیا يجتمع فيه أهل القلوب . أخذت العلوم العملية حصتها من هذا الجو . بدأ توجيه الاهتمام نحو العلوم العملية ذات العلاقة بالعلوم العسكرية ، دور لاله ، هو بداية حركة التجدد . انفتحت الحركة الأولى على الاقتباس من الثقافة الأوروبية . ثم تلا ذلك التحرى والانتقاء . أخذ المثقفون من العثمانيين يشعرون برغبة ملحة لكشف وتفهم مايجرى واقتباس مايتذوقونه ويعجبون به من الحياة الأوروبية . افتتحت مطبعة الدولة فى عام

١٧٢٧ . كان سبب تأخر تأسيس مطبعة وطنية ، إلى درجة أن الإمبراطورية كانت تطبع كتبها لدى المطابع الخاصة ، وتجلب الكتب المطبوعة من أوربا ، هو الخوف من البطالة التى ستصيب جيش الخطاطين . تم تأمين معيشة الخطاطين بمنع طبع الكتب الدينية فى المطابع (كتب الكونت Marsigli أنه كان فى عام ١٧٠٠ ، ٩٠٠٠٠ شخص يتعيشون بواسطة الخط،الأرجح إن هذا الرقم مبالغ فيه) .

لم يحقق إبراهيم باشا ، هذا الجو بإصلاحات جبرية وفورية ، بل بلين وبإجراءات نموذجية . ومع ذلك ، فإن جماعة المتعصبين المتشددين الذين لم ترقهم هذه التجديدات ، أخذت فى الازدياد .

٢٠) الحرب مع إيران (١٧٢٣ - ١٧٣٠)

جاءت خلال هذه السنوات سلالة أويسى من الأفغان واحتلت إيران بما فيها اصفهان . خربت مدنية الصفويين العريقة . استفاد القيصر بطرس من قتال الصفويين مع الأويسيين ، ودخل ايران . اضطربت العثمانية لذلك بشدة . خرجت داغستان السنية فى ١٧٢٢ من تبعية ايران وأعترفت بالعثمانية متبوعا لها مجددا . ورغم نفور ابراهيم باشا من الحرب ، اضطر إلى التدخل فى ايران . بدأت الحرب بدخول الجيش العثمانى فى تموز عام ١٧٢٣ إلى القسم التابع إلى إيران من كرجستان . احتل بكلربك أرضروم الوزير سلاحدار إبراهيم باشا ، تفليس وغورى وضم شرق البلاد كذلك إلى العثمانية . دخل بكلربك وان الوزير كوبرولو - زاده عبد الله باشا ، إلى اذربيجان . وفى الجنوب قام بكلربك بغداد الوزير ايوبلى حسن باشا باحتلال ايالات لورستان ، اردلان ، كرمنشاه،وهمدان . وهكذا انتقلت إيالات إيران الخمس (١٦٤٠٠٠ كم٢) إلى حوزة العثمانية . أما فى الشمال فتم الإستيلاء على إيالات روان وتبريز (كرمنشاه ١٧٢٣/١٠/١٥ ، سينه ١٧٢٣/١١/١٠ ، خوى ١٧٢٤/٥/٦ ، همدان ١٧٢٤/٨/٣١ ، تبريز ١٧٢٥/٨/٣ ، روان ١٧٢٤/١٠/٣ ، كنجه ١٧٢٥/٩/٤ ، خرم آباد ١٧٢٤/٩/٦) . وبهذا يكون قد تم فصل غرب وشمال - غرب إيران وقفقاسيا الجنوبية عن إيران لصالح العثمانية،وتم الاستيلاء على المدن الكبيرة المذكورة أعلاه الواحدة تلو الأخرى . أحرز كوبرولو -

زاده عبد الله باشا ، شهرة كبيرة بفتح تبريز (هو الأبن الكبير للصدر الأعظم داماد كوبرولو – زاده نعمان باشا) . وهكذا تم فتح ١٢٦٠٠٠ كم٢ من الأراضى فى الشمال (جمعا ٢٩٠٠٠٠ كم٢) . تم التوصل إلى حدود عهد مراد الرابع مجددا ، وتم التوصل إلى الخزر من جديد . أعترف بكل هذه الفتوحات أشرف شاه اويسى بمعاهدة همدان (١٧٢٧/١٠/٤) .

ظهر بعد ذلك فورا نادر خان اوشار . أعلن هذا البك التركمانى أن الأويسيين مغتصبون وغير شرعيين . أجلس على العرش طفلا ، أخذ يسعى فى تطهير إيران باسم الشاهات الصفويين من الاحتلال الأفغانى من ناحية ، والعثمانى من الغرب من ناحية أخرى . أحتل نهاوند من العثمانيين (١٧٣٠/٧/٢) ، اختطف بكلربك همدان عبد الرحمن باشا ، وبكلربك كرمنشاه بجوى باشا واستولى على كلتا المدينتين ، وخلال شهر تموز (١٧٣٠) ، استرجع إيالتى همدان وكرمنشاه (٨٥٠٠٠ كم٢) بحملة واحدة . عند ذلك ، ركزت أعلام الحرب للبادشاه فى صحراء اسكدار فى ٣ آب . لكن البادشاه وصهره الصدر الأعظم أرادا تأجيل الحملة إلى ربيع عام ١٧٣١ على أساس انتهاء موسم القتال . كثف المعارضون الدعاية ضد الصدر الأعظم بحجة أن نادر خان يذبح السنة فى إيران (كانت سلالة أويسى الأفغانية سنية – حنفية) .

٢١) ثورة باترونا (٢٨ أيلول – ١ ت١/١٧٣٠)

حدثت بعد ٢٧ عاما من واقعة أدرنة ، ثورة اتعس وأكثر شؤما منها . إيثار إبراهيم باشا ، أقاربه بالمناصب العالية ، وسلطته التى بدا وكأنه لانهاية لعهدها ، والخشية من انتقال السلطة إلى أحد أقاربه فى حالة وفاته .. كل هذه الأمور استعملت كأدوات إثارة ضده . زج أحمد الثالث فى هذه البلية ، وكذلك كان قد أبتلى ، قبل ٢٧ عاما أخوه الكبير مصطفى الثانى بسبب توزيع شيخ الإسلام فيض الله أفندى مقامات المشيخة والمناصب العالية بين أقاربه بشكل غير مألوف .

كان إبراهيم باشا . رجل دولة حر الفكر جدا ، وعادلا ورحيما . لم يكن معارضوه كثيرين ، لكن عدم اعتماده على تشكيلات صنف القابوقولو بسبب الحرب

الألمانية الأخيرة ، وعزمه على تجهيز الجيش باصناف تكنولوجية جديدة ، وإظهاره عدم الاعتماد على الجيش فى حرب إيرانية ، أثار الانكشارية .

حدثت الثورة فى هذه المرة بين أفراد جنود الانكشارية ولم يشترك فيها إلا عدد قليل من الضباط وبسبب عصيان باترونالى (من أهالى باتُرونا) خليل وهو جندى من صنف البحرية ورفاقه ، اشتهرت هذه الثورة التى أنهت دور لاله ، باسم « ثورة باترونا » وهى إحدى أكبر وأعنف وأشهر الثورات فى التاريخ العثمانى . اعتبر الصدر الأعظم مسئولا عن هروب بكلربك تبريز الوزير جاووش باشى قره مصطفى باشا من تبريز دون أن يطلق طلقة واحدة ، مما يسر لنادرخان احتلالها وقيامه بقطع أفواه وأنوف الشعب السنى .

بدأ العصاة فى التجمع فى ٢٨ أيلول . أهمل أمرهم فى بداية الأمر بشكل لايصدق ، وازداد عددهم ، وبينما كان تشتيتهم من أسهل الأعمال ، لعدم وجود أى رجل دولة على رأسهم أو حتى ضابط . ولعدم تصدى أى شخص فى العاصمة لتحمل المسئولية ، وترك الأمر فى بدايته دون مواجهة بل بتراخٍ وعدم اكتراث ، انقلب الأمر إلى اقتحام السجون وإخراج المسجونين وتسليحهم ونهب البيوت . وفى ٣٠ أيلول ، طلب العصاة من أحمد الثالث قطع رأس ٣٧ شخصا .

أعدم فى ١ ت ١ الصدر الأعظم نوشهرلى داماد إبراهيم باشا مع صهريه قبطان دريا الوزير قايماق مصطفى باشا (حفيد مرزيفونلى قره مصطفى باشا من ابنته) وكتخدا الصدارة (وزير الداخلية) الوزير محمد باشا . هكذا كانت نهاية أقدر صدر أعظم فى القرن ١٨ دون منازع ، طلب الثوار استقالة البادشاه ، لعلمهم بأنه سوف ينتقم . دعا أحمد الثالث ابن أخيه ولى عهد - شهزاده السلطان محمود فى الساعة ٩/٣٠ (٢١/٣٠) من مساء يوم ١ ت١ ، وجعله يقبل يده وقدم له النصح وأعلمه بأنه تخلى عن السلطنة لصالحه .

دامت صدارة داماد إبراهيم باشا ١٢ سنة و ٤ أشهر و ٢٢ يوما . هو رئيس الوزراء الثانى عشر فى تسلسل مدة البقاء فى الوزارة بين رؤساء وزراء تركية ، وهو الثانى فى التسلسل بعد رءوف باشا ، من بين الصدور الأعظم الذين تصدروا بعد وفاة فاضل أحمد باشا فى ١٦٧٦ حتى نهاية السلطنة ، إلا أن صدارة رءوف باشا

فى النصف الأول من القرن ١٩ ، لم تكن على فترة واحدة وأنما هى مجموع مدة بقائه لـ ٥ مرات . ابراهيم باشا الشاعر ، الملحن كان راعيا للعلوم والفنون والأدب والشعر والموسيقى وكان من كبار مشجعى حركة الأعمار .

كان عمر أحمد الثانى يتجاوز الـ ٥٦ عاما بـ ٩ أشهر ويومين . عاش بعدها فى شقته الكائنة فى سراى طوب قابو مع شهزاداته ونسائه مدة ٥ سنوات و ٩ أشهر ، يوم وتوفى وعمره يتجاوز الـ ٦٢ بـ ٦ أشهر و يوم (١٧٣٦/٧/١) . دور لاله ، كان دور استقرار كبير . شيخ إسلام هذا الدور هو ينى شهرلى عبد الله أفندى بقى فى مقامه مدة ١٢ سنة و ٢٤ يوما (١٧١٨/٥/٦ - ١٧٣٠/٩/٣٠) . وهو التاسع فى تسلسل المدة بين شيوخ الإسلام .

يندر من وصل من بين أولاده الذين يبلغ عددهم ١٢ شهزاده (أميرا) و٢٢ سلطانة (أميرة) سن السنتين ، كلهم ماتوا اطفالا . الذين توفوا وهم أطفال و لم يصلوا سن البلوغ هم : السلطانة رابعة (١٧٢٢ - ١٧٢٩) ، السلطانة أم سلمه (١٧٢٥ - ١٧٣٢) ، السلطانة عاقلة (١٧٣٠؟ - ١٧٣٧) ، السلطانة نائلة (١٧٢٢ - ١٧٢٦/١٢/١٠) ، السلطانة أمينة (١٧١٠ - ١٧٢٠) .

أبناؤه : مصطفى الثالث (١٧١٧/١/١٨ - ١٧٢٤/١/٢١) ، عبد الحميد الأول (١٧٢٥/٣/٢٠ - ١٧٨٩/٤/٧) ، السلطان سليمان وهو شهزاده عظيم جدا (١٧١٠/٨/٢٥ - ١٧٣٢/١٢/١١) ، الشهزادة السلطان محمد (١٧١٧/١/١ - ١٧٥٦/١٢/٢٢) الذى صار وليا للعهد لمدة سنتين و ٩ أيام (١٧٥٤/١٢/١٣ - ١٧٥٦/١٢/٢٢) ، الشهزادة السلطان بيازيد الذى صار وليا للعهد لمدة ١٣ سنة و ١١ شهرا و ٦ أيام (١٧١٨/١٠/٤ - ١٧٧١/١/٢٥) ، شهزاذه نعمان (١٧٢٣/٢/٢٢ - ١٧٦٤/١٢/٢٩) ، شهزادة سيف الدين (١٧٢٤ - ١٧٣٢) . والذين جلسوا على العرش من بين هؤلاء هم مصطفى ٣ وعبد الحميد ١ ، صار لهما أولاد ، لكن السلالة استمرت إلى يومنا هذا عن طريق عبد الحميد ١ فقط .

بناته : ١) السلطانة فاطمة (فاطمة الزهـراء) (١٧٠٤/١٠/٢٢ - ١٧٣٣/١/٣) ، جرى نكاحها للصدر الأعظم داماد شهيد سديد سلاحدار ازنيكلى فاضل على باشا ، و لم يحدث الزفاف (١٦٦٧ - ١٧١٦/٨/٥) ، وتزوجت بعده

بالصدر الأعظم داماد نوشهرلى إبراهيم باشا (١٦٧٠؟ – ١٧٣٠/١٠/١) وانجبت ابناً واحداً . ٢) السلطانة أم كلثوم (١٧٠٨/٢/٧ – ت١٧٣٢/٢) ، تزوجت بابن أخ ابراهيم باشا ، الوزير داماد نوشهرلى كنج على باشا (١٦٩٨؟ – ١٧٣٢) ، أنجبت ٤ أبناء وابنة واحدة . ٣) السلطانة عاتكة (١٧١٢/٢/٢٨ – ١٧٣٧) ، تزوجت بابن ابراهيم باشا ، داماد نوشهرلى كنج محمد باشا (١٧٠٢ – ١٧٦٨/٦/١٦) وانجبت ابنا واحدا هو نوشهرلى – زاده سلطان – زاده حاجى ابراهيم بك (١٧٣٠؟ – ١٨١٩) وهو الذى استمرت عائلة نوشهرلى إلى يومنا هذا عن طريقه . ٤) السلطانة صالحة (١٧١٥/٤/٢٠ – ١٧٧٨/١٠/١١) ، تزوجت ٥ مرات وأشهرهم رابعهم الصدر الأعظم داماد قوجا محمد راغب باشا (١٦٩٩ – ١٧٦٣/٤/٨) ، ورزقت من زوجها الأول (وزير داماد صارى مصطفى باشا ابن الصدر الأعظم غازى دلى حسين باشا) بـ٣ بنات وابن واحد . ٥) السلطانة عائشة (١٧١٥/١٠/١١ – ١٧٧٥/٧/٩) ، تزوجت ٣ مرات ورزقت ببنتين وولدين ، زوجها الثانى هو داماد وزير أحمد راتب باشا ، ابن الصدر الأعظم طوبال عثمان باشا ؛ أما زوجها الثالث فهو الصدر الأعظم داماد سلاحدار محمد باشا . ٦) السلطانة خديجة (١٧١٩/١١/٢٠ – ١٧٣٨) ، تزوجت بالداماد حافظ أحمد باشا ابن الوزير داماد كوجوك جركس عثمان باشا . ٧) السلطانة أسماء (١٧٢٦/٣/١٤ – ١٧٨٨/٨/١٣) ، تزوجت ٣ مرات وآخرهم هو الصدر الأعظم داماد محسن – زاده محمد باشا (١٧٠٦؟ – ١٧٧٤/٨/٤) ، ورزقت منه بابنة واحدة . ٨) السلطانة نظيفة (أيار ١٧٢٥ – ١٧٦٤/١٢/٢٩) لم تتزوج . ٩) السلطانة زبيده (١٧٢٨/٣/٢٩ – ١٧٥٦/٥/٦) ، تزوجت بوزيرين . ١٠) السلطانة زينب (١٧١٤/٤/٨ – ١٧٧٤/٣/٢٥) ، تزوجت أولا بداماد نوشهرلى سنك كوجوك مصطفى باشا ابن أخ إبراهيم باشا (١٧٠٩؟ – ١٧٦٤/٢/١١) ورزقت منه بابن واحد ، ثم تزوجت بالصدر الأعظم داماد ملك محمد باشا (١٧٢٠ – ١٨٠٢/٢/٢٢) .

٢٢) دور السلطان محمود خان الأول (١٧٣٠ – ١٧٥٤)

السلطان محمود الأول الذى جلس على العرش ، هو الابن الكبير لمصطفى الثانى . يعرف بلقب « غازى » . أمه السلطانه – الوالدة صالحة سبقتى (١٦٨٠؟ –

١٧٣٩/٩/٢١) . وبعد وفاة الشهزادة ابراهيم ابن عمه أحمد الثانى ، صار مكانه وليا للعهد (١٧١٤/٥/٤) . وبعد بقائه فى منصب ولاية العهد مدة ١٦ سنة و ٤ أشهر و ٢٨ يوما ، جلس على العرش مكان عمه أحمد الثالث وعمره يتجاوز الـ ٣٤ بشهرين ويوم . شاعر ، وحفار أختام وملحن كبير للأغانى الموسيقية التركية (الساز) . تزوج من ١١ زوجة لكنه لم يرزق باولاد ابدا . من بين اساتذته يمكن ذكر قضعسكر (قاضى عسكرى) روملى فيض الله - زاده ابراهيم افندى نذير آغا ، عثمان باشا وأول أستاذ له هو شيخ الإسلام ارضروملى فيض الله أفندى . أول من بايعه عند جلوسه ، شهزادات (أمراء ، أولاد السلاطين) عمه أحمد الثالث الـ ٧ (أحمد الثالث ، مدفون فى مقبرة ينى جامع بجوار أبيه وأخيه الكبير) .

كان محمود الأول ، عاقلا ، دقيقا ، حذرا ، وقورا ، ذا ثقافة عالية ، وعلى خلق . قتل بعد مدة وجيزة جميع مدبرى ثورة باترونا خليل وأنهى الثورة القصيرة وحكم التمرد ، ثم استمر على السير على نمط تراث دور لاله . اتعظ بعاقبة أبيه وعمه وبدل رؤساء الوزراء بصورة مستمرة ، ولم يبق أى صدر أعظم ، مدة طويلة فى السلطة . عين فى مقام المشيخة ، ابنى شيخ الإسلام ارضروملى شهيد حاجه سلطانى فيض الله أفندى (فيض الله - زاده مصطفى أفندى ١٧٣٦/٤/١٣ - ١٧٥٤/٣/٤ وفيض الله - زاده مرتضى أفندى ١٧٥٠/٦/٢ - ١٧٥٥/١/١٢) .

الذين شغلوا منصب الصدر الأعظم خلال دور السلطان محمود ، بعد نوشهرلى ابراهيم باشا هم : سلاحدار داماد محمد باشا ٣ أشهر و ٢١ يوما ، قاره حصارلى قاباقولاق ابراهيم باشا (١٧٣١/١/٢٢) ٧ أشهر و ١٩ يوما ، طوبال عثمان باشا (١٧٣١/٩/١٠) ٦ أشهر ويومين حكيم أوغلو على باشا (١٧٣٢/٣/١٢) ٣ سنوات و ٤ أشهر و يوم ، اسماعيل باشا (١٧٣٥/٧/١٢) ٥ أشهر ، ١٣ يوما ، ديمه توكالى سلاحدار محمد باشا (١٧٣٥/١٢/٢٤) سنة ، ٧ أشهر و ١٦ يوما . (١٧٣٧/٨/٦) ٤ أشهر و ١٤ يوما ، علائيه لى يكن محمد باشا (١٧٣٧/١٢/١٩) سنة و ٣ أشهر و ٤ أيام ، حاجى عوض باشا (١٧٣٩/٣/٢٢) سنة و ٣ أشهر ، ويومين ، انطاليه لى حاجى أحمد باشا (١٧٤٠/٦/٢٣) ١ سنة و ٩ أشهر و ٢٨ يوما ، حكيم أوغلو على باشا للمرة الثانية (١٧٤٢/٤/٢١) سنة و ٥ أشهر و يومين و شبين قره حصارلى سيد حسن

باشا (١٧٤٣/٩/٢٣) سنتان و ١٠ أشهر ، ١٦ يوما ، ترياكى حاجى محمد باشا (١٧٤٦/٨/٩) سنة و ١٦ يوما و كركوكلي حسن باشا – زاده بوينو أكرى عبد الله باشا (١٧٤٧/٨/٢٤) سنتان و ٤ أشهر و ١٠ أيام ، محمد أمين باشا (١٧٥٠/١/٣) سنتان و ٥ أشهر ، ٢٩ يوما ، صوفو عبد الرحمن باشا – زاده باهر مصطفى باشا (١٧٥٢/٧/١) . توفى محمود الأول على عهد هذا . كان عمره يتجاوز الـ ٥٨ بـ ٤ أشهر ، ١٢ يوما . العسكرى الكبير ورجل الدولة الممتاز بين هؤلاء الصدور الأعظم ، هو حكيم الوغلو على باشا . هو أعظم رئيس وزراء فى العصر ١٨ بعد نوشهرلى . أيضا كان طوبال أحمد باشا ، عسكريا كبيرا .

٢٣) الحرب مع ألمانيا وروسيا (١٧٣٦ - ١٧٣٩) ، معاهدة بلغراد

ساءت العلاقات مجددا مع روسيا . ساندت روسيا ، نادرشاه فى حرب العثمانية مع إيران . أزعج إستانبول ازدياد تدخلها فى شئون بولونيا على مر الأيام ، وإرسالها الجنود إلى بولونيا باستمرار ، وبهجوم مفاجىء غير متوقع ، استولى الروس على قلعة آزاك بعد حصار دام ٣٤ يوما (١٧٣٦/٥/٣) . استنادا على ذلك ، أعلن الباب العالى الحرب على روسيا (١٧٣٦/٦/١٦) . وبهجوم مفاجىء كذلك وبقيادة الماريشال Münich الألمانى الأصل، اجتاز الروس لأول مرة فى التاريخ اورقابو ودخلوا قرم وقاموا خلال شهر ، بتخريب كبير (١٧٣٦/٥/٢٨) . هزم فاتح كيراى الثانى الروس وأخرجهم من قرم ، وطاردهم إلى أعماق أوكراينا وعاد إلى قرم مع مائة ألف أسير .

على أثر هزيمة الروس ، أعلنت ألمانيا حليفة روسيا التى خططت تقسيم بولونيا معها بصورة مشتركة ، الحرب على العثمانية (١٧٣٧/٧/١٢) . اجتاز الألمان الحدود العثمانية من ثلاث نقاط وبثلاثة جيوش مختلفة ودخلوا افلاق (رومانيا) وبوسنه وصربيا . سقطت نيش (١٧٣٧/٧/٢٧) . لكنهم هزموا أمام بكلربك بوسنه – الصدر الأعظم السابق – فى المعركة الميدانية بانياقولو (١٧٣٧/٨/٤) . وفى جبهة صربيا ، استرجع كوبرولو – زاده أحمد باشا ، نيش (١٧٣٧/١٠/٢٠) . وفى المعركة الميدانية Vidin هزموا أمام الوزير عوض محمد باشا (١٧٣٧/٩/٩) ولم يكن حظ الألمان حسنا فى افلاق وبغدان كذلك ؛ حيث

هزموا فى تلك المناطق واخرجوا ودفعوا إلى ماوراء الحدود . هزم الروس كذلك أمام آزاك . جاء الماريشال كونت Von Münich (١٦٨٣ - ١٧٦٧) مع ١٨٠ . . . جندى و٩٠ مدفعا أمام القلعة التركية المهمة Özö (بالروسية : Oczakov) بجوار Odesa . وعند تسلم Münich القلعة بعد أن ضحى بـ ٣٠ . . . جندى روسى ، دهش عند مشاهدته ٧٠ جنديا بقوا على قيد الحياة من مجموع ٦٠٠٠ من جنود يحيى باشا وهنأ الباشا على ذلك (Mür'ü't-Tevarih ، ورق ٣٧٢ آ - ب) .

أدخل الألمان إلى بوسنة فقط ١٥٠ . . . جندى ، كانوا قد فقدوا فى حرب بانيالوكا Banyaluka الميدانية ٦٠ . . . جندى من مجموع ٨٠ . . . جندى الذين اشتركوا فى المعركة ، وفقدوا فى معركة Vidin الميدانية ٦٠٠٠ جندى .

عند بدء الحرب مع روسيا ، كانت الدولة فى حرب مع إيران . وعلى أثر دخول ألمانيا الحرب ، عقد الباب العالى الصلح مع إيران بصورة مستعجلة ، لتأمين جهه الشرق . لم تكن العثمانية تثق فى نادرشاه . ولذلك فقد حاربت ثلاث امبراطوريات ، الايرانية ، الألمانية والروسية .

صعد عوض محمد باشا ، إلى الشمال واسترجع من الألمان فتح الإسلام ، آداقلعة وسمنديره . أما نعمان باشا فاسترجع من الروس قلعتى Özö وقيلبورنو . وهب الباب العالى السويد ١٥٠ مليون آقجه وحصل على وعد منها بفتح الحرب من الشمال ضد روسيا ، ولكن على أثر انضمام الدانمارك للجانب الروسى - الألمانى ، لم تتمكن السويد من دخول الحرب واستمرت تركية لوحدها . كانت السويد تحث الباب العالى على سحق روسيا ، أما بروسية فكانت تحثه على سحق ألمانيا (النمسا) وكلاهما تحثان الباب العالى بالقول ، دون أن تقدم أية مساعدة فعلية . أما انكلترا وهولندا وفرنسا فكانوا يغرون تركية بالصلح . أعلم ، يكن محمد باشا الديوان بأن الجيوش الألمانية سحقت فى كافة الجبهات ، وأنه ليس هنالك أسهل من إستعادة تامشوار والمجر وطلب الأذن للهجوم على المجر . لكن الديوان الذى فقد القدرة على إصدار القرارات الصائبة ، لم يسمح بذلك .

سار عوض محمد باشا متجها نحو بلغراد . وصول حكيم أوغلو على باشا ، من بوسنة أعاد الحياة للجيش الهمايونى . بقى ٤٢٠٠٠ جندى ألمانى الذين يبغون الدفاع

عن بلغراد ، فى ساحة الحرب . طلبت ألمانيا الصلح (١٧٣٩/٨/١٣) ، وأعقبتها روسيا فى طلب الصلح . كانت العثمانية تحاصر بلغراد منذ ٢٦ تموز . دخل حكيم أوغلو إلى خرواتيا ودمر Una وKulpa . بدأت أزمة سياسية فى فيينا وقامت مظاهرات ضد الامبراطور . ولكن ، فى الجبهة الروسية ، استولى الماريشال فون مونيخ على خوتين (١٧٣٩/٨/١٩) . ثم أستولى على ياشَ مركز Bukovina وبغدان . أوقف صارى أحمد باشا الروس عند نهر بروت . لم تكن هذه الانتصارات مفيدة للروس . لأن المفاوضات كانت قد تقدمت فى هذه الأثناء وكان قد تم التفاهم على أسس المصالحة العثمانية – الروسية .

طلبت ألمانيا ، وساطة فرنسا وانكلترا وهولندا وإيران لعقد الصلح فى غضون عام ١٧٣٩ ؛ ذلك أن ألمانيا كانت قد قطعت الأمل فى بلغراد ، وأدركت أنها سوف لاتتمكن من الدفاع كذلك عن تامشوار إذا استمرت الحرب إلى السنة التالية . أجرى الوساطة الحقيقية ماركيز Villeneuve سفير فرنسا فى إستانبول ؛ وبهذا تكون دبلوماسية لويس ١٥ قد وصلت الذروة فى أوربـا . تولى المفاوضات الصدر الأعظم والسردار الأكرم حاجى عوض محمد باشا بنفسه . وقع فى ١٨ أيلول ١٧٣٩ على معاهدة بلغراد المكونة من ٢٣ مادة مع ألمانيا ، ١٥ مادة مع روسيا. أخليت بلغراد فى ٤ أيلول وسلمت إلى الأتراك . دام الاحتلال الألمانى للمدينة مدة ٢٢ سنة ، و١٧ يوما. تنتقل سمنديره ، بوغوردلن (Czabacz) ، آدا قلعة إلى العثمانية وكذلك الأراضى التى أعطيت إلى ألمانيا فى معاهدة باسا روفجة ١٧١٨ عدا بانات وتامشوار . تهدم قلعة آزاك وتعطى أراضيها إلى العثمانية ، ويتعهد الروس والعثمانيون كذلك بعدم انشاء قلعة فيها (كانت هذه هى عاقبة قلعة آزاك التى قال عنها السلطان محمد الفاتح « قلعة آزاك ، مفتاح إستانبول ») Mür'üt-Tevarih ورق ٣٧٩ ب – ٨٠ ب) . لاتبحر أية سفينة روسية فى بحر آزاك والبحر الأسود . سيحافظ البحر على وضعه كبحيرة عثمانية . يخاطب الباب العالى ، بعد الآن ، الحاكم الروسى فى المكاتبات بـ « امبراطور » أو « امبراطورة » (وهكذا تمت الموافقة بصورة رسمية على أن روسيا امبراطورية) . تعيد روسيا بشكل كامل خوتين وياش اللتين احتلتهما فى الأونة الأخيرة . بدأت كافة الدول تعتبر وجود خوتين لدى العثمانية ، ضمانا لاستقلال بولونيا . أكرمت فرنسا بمنحها المزيد من الحقوق التجارية المسماة

Capitulation . طبقت جميع بنود المعاهدة ، إلا أن الباب العالى ظل مصرا لسنوات طويلة ، على عدم استعمال لقب « امبراطور وامبراطورة لحكام روسيا ، واعتبر فقط ، سفراء روسيا ، معادلين لبقية السفراء .

معاهدة بلغراد ، وثيقه تثبت أن العثمانية ، هى الدولة العالمية الأولى ، بشكل لايقبل الجدل ؛ حيث أنها حاربت امبراطوريات روسيا ، ألمانيا ، إيران ، انتصرت وحصلت على أراض . تمكنت تركية ، فى أوروبا ، من تأمين فترة سلم ورفاهية استمرت مدة ٢٨ سنة . أثبتت هذه الحرب كذلك ، أن روسيا ، اكتسبت قوة بعد بطرس الكبير وبإصلاحاته التى وضعها ، وأن قوتها العسكرية اقتربت من القوة العسكرية الألمانية .

٢٤) الحرب مع إيران (١٧٣٠ - ١٧٤٦)

استمرت الحرب التى بدأت مع إيران ، على عهد أحمد الثالث ، إلى عهد محمود الأول كذلك . استرجع السردار (القائد) الوزير أحمد باشا بكلربك (فريق) بغداد ، كرمنشاه (١٧٣١/٧/٣٠) ، واسترجع همدان كذلك فى معركة كوريجان الميدانية بعد إفناء ثلاثة أرباع الجيش الصفوى المؤلف من ٤٠٠٠٠ شخص (١٧٣٠/٩/١٦) ، أما السردار الوزير حكيم الوغلو على باشا فاحتل فى الجبهة الشمالية مدينة أورمية (١٧٣١/١٠/١١) واسترد مدينة تبريز (١٧٣١/١٢/٤). وفى ١٠ ك١٧٣٢/٢ ، وقع أحمد باشا على معاهدة الصلح . أعيدت كامل إيران الغربية إلى إيران (بضمنها تبريز ، اذربيجان الجنوبية ، همدان ، كرمنشاه ، لورستان ، اردلان ، خوزستان) . نهر آراس ، يحدد الحدود . أما روان التى كانت تعود فى السابق إلى الصفويين ، نهجوان ، شيروان ، أران أى أذربيجان الشمالية ، كرجستان الشرقية وداغستان فبقيت لدى العثمانية . ورغم تضحية تركية بايران الغربية بغرض إمكان حفاظها على قفقاسيا الجنوبية وحدود بحر الخزر ؛ فإن ذلك لم يكن كافيا لتطمين نادر خان . دام الصلح سنة واحدة وبدأت الحرب بهجوم نادرخان فى ١٧٣٣ ؛ وبعد أن أحتل أربيل ، جاء أمام بغداد (١٧٣٣/١/١٢) . كان أحمد باشا يدافع عن المدينة ، لكنه لم يكن بامكانه الخروج من القلعة بسبب محاصرة الجيش الصفوى الكبير لها . عند قدوم الوزير طوبال أحمد باشا ، إلى بغداد مع ٨٠٠٠٠ جندى ، كانت المدينة تحت الحصار منذ ٧ أشهر ، ٨ أيام . هزم عثمان باشا نادرخان ، أكبر عسكرى فى القرن

١٨ فى العالم أجمع والفاتح العالمى الأخير الذى أنجبه القوم التركى ، بشكل حاسم فى الحرب الميدانية الكبرى التى أستمرت ٩ ساعات (١٧٣٣/٧/١٩) . جرح نادر ، قتل ٣٠٠٠٠ من جنده ، ترك مدافعه وسرادقه إلى العثمانية وانسحب . تم الاحتفال بالنصر فى إستانبول مدة ٣ أيام مع لياليها ومنح السلطان محمود لقب « غازى » .

وفى السنة التالية ، اقتحم نادرشاه بصورة مفاجئة مقر عثمان باشا الصدر الأعظم السابق والباشا السردار المريض جدا الذى كان يقضى الشتاء فى كركوك وقتله شهيدا ودخل كركوك . أعلن نفسه شاها وأنهى بذلك السلالة الصفوية ، وهى من أكبر سلالات التاريخ ، وبدأت فى إيران سلالة آوشار (١٧٣٦/١/٢٧) . انتصر على الوزير كوبرولو - زاده عبد الله باشا الذى صار سردارا (قائدا) مكان عثمان باشا فى معركة باجاى وقتله شهيدا . استولى على روان ، كنجه ، تفليس . واسترجع كافة الاقطار التى حصلت عليها العثمانية منذ ١٧٢٣ . وفى وضعه هذا المتمكن ، طلب الصلح . كان يعلم بأن العثمانية ستقبل الصلح ، لأنها دخلت فى حرب مع ألمانيا وروسيا ، وكان هو (نادرشاه) قد قرر فتح الهند . وافق الطرفان على أسس معاهدة قصر شيرين لعام ١٦٣٩ ووقعت معاهدة إستانبول (١٧٣٦/١٠/١٧) . لم تحصل العثمانية التى سالت دماؤها مدة ١٣ سنة ، من إيران على شىء . كان نادرشاه التركمانى الخالص الدم والمصطبغ بالصبغة الإيرانية ، كما هو الحال فى شاهات الصفويين الأخيرين ، سنيا - حنفيا فى الباطن . أراد إعلان المذهب بصورة رسمية ، إلا أنه خشى من ظهور الاضطرابات . وبناء على ذلك ، أدخل المرونة على مذاهب الإثنى عشرية المفرط للشاه إسماعيل وأعلن مذهب الجعفرية الأكثر اعتدالا ، وأصبح هذا المذهب هو مذهب الشيعة الرسمى والذى هو مذهب إيران منذ ذلك التاريخ وحتى الآن . راجع الخاقان العثمانى ، (الذى هو الخليفة) ، لغرض الاعتراف بالجعفرية مذهبا شرعيا خامساً ، أحال السلطان محمود الموضوع إلى هيئة العلماء برئاسة شيخ الإسلام ، حيث إن الخليفة لايصدر الفتاوى شخصيا ، رفض المجلس بالاجماع الاعتراف بالمذهب الجعفرى كمذهب خامس . لكنه سمح للشيعة بالذهاب إلى الحج فى الأراضى العثمانية ، وزيارة المدن المقدسة فى العراق بحرية كما كان الحال سابقا . كانت هنالك فى النجف ، مدرسة شيعية عالية . وكانت الإدارة العثمانية تتغاضى عن تدريسها العلوم الدينية على الأصول الشيعية ، منذ القدم .

دام الصلح مع إيران مدة ٦ سنوات و ٧ أشهر و ١٣ يوما . بدأ مجددا فى ٢٩ أيار ١٧٤٣ ، وفى هذه المرة استمر لمدة ٣ سنوات و ٣ أشهر و ٦ أيام . أنزل نادر خلال هذه المدة ، ضربة كبرى ببنى تيمور الهند ، وصار سببا لأحد التحولات التاريخية المضرة جدا بالتاريخين التركى والإسلامى . وبهذه الضربة تقوضت سلطة بنى تيمور - الفريدة فى نوعها - فى القارة الهندية وتبعثرت . بدأ الهندوس فى الاعتراض على الحكم الإسلامى الذى استمر عصورا طويلة . تشكلت دولا عديدة واعترفت اسما فقط ، ببادشاه دلهى . وأصبحت الهند ، عرضة لتدخل وإستيلاء خارجى . تراجعت الدولة التيمورية عن وضعها كقوة عالمية ثانية ، واستولت إيران مرة أخرى على هذه الأماكن .

(كانت المدن الموجودة فى القارة الآسيوية كبيرة ومزدحمة جدا نسبيا ولم نذكرها هنا بسبب عدم توافر المعلومات التى يمكن أن تكون أساسا لتقدير عدد نفوس كل منها) :

تركية العثمانية ، كانت لاتزال الدولة الأولى فى العالم : المساحة ١٥٥٣٨٠٠٠ كم٢ والنفوس ٧٦ ١٥٠ ٠٠٠ (إستانبول ١٤٠٠ ٠٠٠ ، القاهرة ٥٨٠ ٠٠٠ ، أدرنة ٣٥٠ ٠٠٠ ، جزائر ١٢٥ ٠٠٠ ، تونس ١١٥٠٠٠ ، اسكندرية ٩٣٠٠٠) . لم تعد الإمبراطوريات الآسيوية ، تأتى بعد تركية من حيث القدرة والأهمية ، كما كانت قبل فترة وجيزة ، وإنما تأتى دولتان أوربيتان هما أولا فرنسا ، ثم بريطانيا العظمى (مع كافة مستعمراتها) :

الملكية الفرنسية ٢٦٢ ٥٣٩٦ كم٢ و ٢٢٦٥٣٠٠٠ نسمة (باريس ٦٠٠ ٠٠٠ ، ليون ١٠٣ ٠٠٠ ، مارسيليا ١٠١ ٠٠٠ ، نانتس ٩٩٠٠٠ ، بوردو ٩٤٠٠٠) . ملكية بريطانيا العظمى ١٨٧١٦٢٩ كم٢ و ١٢٩٨٥ ٠٠٠ نسمة (لندن ٨٠٠ ٠٠٠) .

بعد ذلك يمكن ذكر امبراطوريتى الصين وإيران بالتسلسل . كانت إيران قبل عدة سنوات ، الدولة الثانية ولكنها فقدت وضعها هذا بعد وفاة نادر مباشرة : الصين ١٠٧٩٧٨٠٤ كم٢ ، ١٨٠ ٠٠٠ ٠٠٠ نسمة ، إيران ١٧٥١٧٩١ كم٢ ، ١٦٥٠٠ ٠٠٠ نسمة .

كانت مساحة الامبراطورية الألمانية ٨٣٤٠٠٩ كم٢ ونفوسها ٠٠٠ ٢٦٣٤٤ (فيينا ٠٠٠ ١٦٠ ، ميلانو ٠٠٠ ١٣٠ ، هامبورغ ٠٠٠ ١١٠) . ثم تأتى بعد ذلك الإمبراطورية التيمورية الهندية : ٢٤٣ ١٠٣ ٣ كم٢ ، ٠٠٠ ٠٠٠ ١٤٠ نسمة .

كانت ملكية أسبانيا فى دور الانحطاط ١٥٠٩٨٤٥٥ كم٢ ، ٣٢٤٢٧٠٠٠ نسمة (نابولى ٣١٠٠٠٠ ، المكسيك ١٠٤٠٠٠ ، مدريد ١٠٢٠٠٠ ، باليرمو ٩٥٠٠٠) . الإمبراطورية الروسية ١٨٥ ٥١٧ ١٦ كم٢ ، ٠٠٠ ١٥٠٠٠ نسمة (موسكو ٠٠٠ ١٢٠ ، بطرسبورغ ٠٠٠ ١٠٠) . ومن ثم يمكن ذكر الإمبراطورية الأفغانية لأحمد شاه درانى الكبير (١٧٤٧ - ١٧٧٣) التى اتبعت طريق نادر فى ضرب الإمبراطورية الهندية : ١٦٥٢٠٤٢ كم٢ ، ٠٠٠ ٠٠٠ ٢٢ نسمة .

كانت ملكية بولونيا التى هى فى دور الانحطاط ٤٠٠ ٧٩٠ كم٢ ، ٠٠٠ ١٥٦٠٠ نسمة . ملكية بروسيا ٢٢٤ ١٢١ كم٢ ، ٠٠٠ ٢٤٠٠ نسمة (برلين ١٠٥٠٠٠) كانت بروسيا قد دخلت حديثا فى عداد الدول الكبرى بفضل فريدريك الكبير (١٧٤٠ - ١٧٨٦) . جمهورية هولندا ٢٧٤ ١٠٢١ كم٢ ، ٠٠٠ ٧٩٥٠ نسمة . وقد خرجت فى ١٧١٣ من عداد الدول الكبرى (امستردام ٠٠٠ ٢٠٠) . ورغم أن ملكية السويد ٧٩٤٢٧٨ كم٢ و ٠٠٠ ٤٥٠ ٣ نسمة ، فإنه يمكن اعتبار أنها خرجت من عداد الدول الكبرى .

امبراطورية فاس لاسماعيل الكبير (١٦٧٢ - ١٧٢٧) كذلك يمكن اعتبار أنها خرجت من عداد الدول الكبرى بعد وفاته (نفوس فاس مع أقطار الزنوج) : ٣٥٠١٦٩٩ كم٢ ٠٠٠ ٨٠٠٠ نسمة (فاس ٠٠٠ ٢١٠ ، مكناس ٩٢٠٠٠ ، مراكش ٠٠٠ ٩٠) . ولم تكن جمهورية البندقية كذلك فى عداد الدول الكبرى فى ١٧١٥ : ٥١٠٤٠ كم٢ و ٠٠٠ ٣٠٠٠ نسمة (البندقية ٠٠٠ ١٧٠) .

مجموع مساحة الخانات التركية فى تركستان ٥٥١٢٨٠٠ كم٢ وتحوى على ٠٠٠ ١١٥٠٠ نسمة ، كانت الإمبراطورية اليابانية ٣٧٣٥١٠ كم٢ و ٠٠٠ ٠٠٠ ٢٠ نسمة .

ومن بين الدول الأوروبية الأخرى : ملكية البرتغال ٨٧٦٨٢٠٥ كم٢ و ٦٦٠٠٠٠٠ نسمة (لشبونه ٢٥٠ ٠٠٠) ، ملكية الدانمارك ٢٥٨ ٩٥٧ كم٢ و ١٧٦٠٠٠٠ نسمة ، الملكية العظمى لتوسكانا ٤٨٩ ٢١ كم٢ و ١٠٥٠٠٠٠ نسمة ، جمهورية السويد ٤٠٠٣١ كم٢ و ١٨٠٠٠٠٠ نسمة .

كانت أفريقيا ١٣٠٨٩٠٧٩ كم٢ و ٣٣٠٠٠٠٠٠ نسمة وأمريكا الشمالية ١٠٥٤٨ ٣٠٢ كم٢ و ٣٠٠٠٠٠٠ نسمة ؛ مجهولة تماما من قبل البيض .

كانت توزيع الإمبراطورية العثمانية على القارات بصورة تقريبية كما يلي : فى أوروبا ١١٢٨٠٠٠ كم٢ و ٢٣٨٠٠٠٠٠ نسمة ، فى آسيا ٣٩٤٠٠٠٠ كم٢ و ٢٦٥٥٠٠٠٠ نسمة ، افريقيا ١٠٤٧٠٠٠٠ كم٢ و ٢٥٨٠٠٠٠٠ نسمة (٣٠٤٠٠٠٠ كم٢ و ٧٠٠٠٠٠٠ نسمة منها ، ملكية بورنو الزنجية المسلمة التابعة إلى البادشاه نظرياً) .

ويمكن تقدير نفوس العالم فى ١٧٠٠ بـ ٦٨٤١٠٤٠٠٠ نسمة وفى ١٧٥٠ بـ ٧٠٠٣٩٩٠٠٠ نسمة ، (ليست هناك زيادة مهمة) . وتوزيع النفوس على القارات فى ١٧٠٠ و ١٧٥٠ هو كما يلى : زادت نفوس آسيا من ٤٥٤٩٠٠٠٠٠ – ٤٤٧٠٨٠٠٠٠ ، أوربا من ١٣٤٤١٢٠٠٠ – ١٥٢٣٤٨٠٠٠ أفريقيا من ٧١١١٩٠٠٠ – ٧٥٠٥٥٠٠٠ ، أمريكا الشمالية من ١٠٨٢٣٠٠٠ – ١١٧٢٦٠٠٠ ، أمريكا الجنوبية من ١٠٦١٠٠٠٠ – ١١١٣٠٠٠٠ ، اوقيانيا من ٣١٤٠٠٠٠ – ٣١٤٠٠٠٠ .

٢٦) دور السلطان عثمان خان الثالث (١٧٥٤ – ١٧٥٧)

جلس مكان محمود الأول ، أخوه الصغير عثمان الثالث لمدة سنتين و ٥ أشهر . أبوه ، مصطفى الثانى ، أمه السلطانة – الوالده شهسوار (١٦٨٢؟ – ١٧٥٦/٤/٢٧) . كان وليا للعهد خلال مدة سلطنة أخيه الكبير التى دامت ٢٤ سنة ، شهرين ، ١١ يوما (١٧٣٠/١٠/٢ – ١٧٥٤/١٢/١٣) . رئيس أساتذته هو القضعسكر فيض الله – زاده ابراهيم أفندى . كانت لديه ٤ زوجات ، ولكنه كأخيه الكبير محمود الأول ، لم يرزق بأولاد . لذا فإن السلالة ، لم تستمر من مصطفى الثانى ، بل استمرت من أبنى أخيه أحمد الثالث . إن مدة سلطنة السلطان

عثمان الذى دفن فى مقبرة ينى جامع جوار أخيه الكبير ، عبارة عن سنتين ، شهر ، ١٨ يوما . توفى وعمره يتجاوز الـ ٥٨ بـ ٢٨ يوما . جلس على العرش وعمره ٥٦ عاما ، وهو أكبر السلاطين الذين جلسوا على العرش عمرا إلى ذلك التاريخ .

عثمان الثالث ، من الحكام العثمانيين القليلى الذكر جدا ، وتوجد إمارات تدل على ضعف نصيبه من الخلق العالى . عنيد جدا . صعب المراس ، عصبى ، متردد . لم يتعايش أبدا مع أى صدر أعظم . كان كوسه بدر مصطفى باشا ، صدرا أعظم عند جلوسه على العرش ، وهو ابن الوزير جورلولو صوفو عبد الرحمن باشا . ظل فى مقامه هذا مدة سنتين ، ٧ أشهر ، ١٤ يوما . تصدر حكيم اوغلو على باشا للمرة الثالثة (١٧٥٥/٢/١٥) . لم ينسجم مع البادشاه وعزل بعد ٣ أشهر ويوم بعد نقاش حاد (١٧٥٥/٥/١٨) . مجموع صداراته الثلاث ٥ سنوات ، ٤ أيام . الذى تصدر مكانه ، هو نائلى عبد الله باشا من الرجال المدنيين ، عالم ومن وزراء المالية . عزل بعد ٣ أشهر ، ٧ أيام (١٧٥٥/٨/٢٤) . أما الرجل الشاب بيبقلى على باشا فاعدم بعد ٢ شهرين ويومين (١٧٥٥/١٠/٢٥) . عزل يرمى سكيز جلبى – زاده محمد سعيد باشا بعد أن شغل السلطة مدة ٥ أشهر ، ٧ أيام (١٧٥٦/٤/١) . كان رجلا جيدا ، تواجد فى شبابه فى باريس عندما كان أبوه يرمى سكيز جلبى محمد أفندى سفيرا فيها ، له الفضل فى افتتاح أول مطبعة وطنية ، مؤلف كتب تركية وفارسية . توفى فى ١٧٦١ . أصبح باهر مصطفى باشا صدراً أعظم للمرة الثانية لمدة ٩ أشهر ، ١٠ أيام . واحتل مكانه قوجا محمد راغب باشا (١٧٥٧/١/١١) . دبلوماسى ممتاز جدا عمره ٥٨ عاما ، رجل دولة كبير وشاعر ممتاز . أحسن صدر أعظم فى القرن ١٨ بعد نوشهرلى إبراهيم باشا وحكيم أوغلو باشا .

٢٧) دور السلطان مصطفى خان الثالث (١٧٥٧ – ١٧٧٤)

كان ولى عهد عثمان الثالث ، وابن عمه الذى يصغره بـ ١٨ عاما ، هو السلطان محمد . توفى وفاة عثمان الثالث بـ ٣٩ يوما فقط عن عمر يناهز الـ ٤٠ عاما . كان شهزاده(أمير) نشأ نشأة حسنة ، وفاته أحدثت تأثرا كبيرا . دفن فى ينى جامع جوار أبيه أحمد الثالث . كان أخوه السلطان مصطفى الذى يصغره بـ ١٧ يوما

فقط ، ولى عهد وأصبح بعد ٣٩ يوما بادشاها على أثر وفاة ابن عمه عثمان الثالث . وارتقى أخوه السلطان بيازيد الذى يصغره بسنتين إلى منصب ولى عهد .

مصطفى الثالث ، هو ابن أحمد الثالث . أمه أمينة مهرشاه قادين أفندى (زوجة السلطان) الثانية (١٦٩٣؟ - ١٧٣٢) ، كانت قد توفيت منذ سنين ، وهى والدة الشهزادة سليمان بن أحمد الثالث الكبير ووالدة ولى عهد - شهزادة بيازيد كذلك . دامت سلطنة السلطان مصطفى الذى جلس على العرش وعمره ٤٠ عاما ، مدة تقل عن ١٧ سنة بـ ٨ أيام وتوفى وعمره يزيد على ٥٧ عاما بـ ٤ أيام ، دفن فى قبره الكائن فى جامع لاله لى الذى شيده هو . سمى « غازى » منذ ١٧٦٩ . شاعر وخطاط . سليم الثالث ، هو ابن مصطفى الثالث . ولعدم إنجاب سليم الثالث ، استمرت السلالة من عبد الحميد الأول ، أخ مصطفى الثالث وخلفه . والشهزادة محمد ، الابن الآخر لمصطفى الثالث ، توفى قبل بلوغه سن السادسة (١٧٦٧/١/١٠ - ١٧٧٢/١٠/١٢) . توفيت بناته الخمس قبل بلوغهن سن الـ ٤ ، توفيت السلطانة مهرشاه فى السادسة من عمرها (١٧٦٣/١/٩ - ١٧٦٩/٢/٢١) ، أما بناته الـ ٣ اللواتى عشن فهن : (١) السلطانه شاه (١٧٦١/٤/٢١ - ١٨٠٣/٣/١١) ، جرى عقد قرانها للصدر الأعظم ياغلقجى - زاده حاجى محمد أمين باشا (١٧٢٣ - ك١٧٦٩/١) لكنها لم تزف ، ثم تزوجت بالوزير داماد نيشانجى سيد مصطفى باشا (وفاته ١٨١٣) وأنجبت ٣ بنات . (٢)السلطانة بيخان (١٧٦٦/١/١٣ - ١٨٢٤/١١/٧) ، تزوجت بالوزير داماد سلاحدار بريشان جليك مصطفى باشا (١٧٤٨؟ - ١٧٩٨) وخلفت بنتا واحدة . (٣) السلطانة خديجة (١٧٦٨/٦/١٣ - ١٨٢٢/٧/١٧) ، تزوجت بالوزير داماد سيد أحمد باشا (١٧٤٧ - ١٧٩٩) ، ابن داماد سليمان باشا وأبى داماد علاء الدين باشا .

منحت آخر اكرامية جلوس ، عند جلوس مصطفى الثالث فى ١٧٥٧ ثم تركت هذه العادة بعد ذلك التاريخ . كان مصطفى الثالث ، مجددا وكذلك مشجعا للحركة العمرانية . قام بإصلاحاته الجديدة بعناية ودون إثارة تشكيلات القابو قولو التى يكرهها . لكن هذه الاصلاحات لم تكن كافية وظلت قاصرة . فكر فى فتح قناة السويس . أسس بدلا من المدرسة التى تخرج المهندسين والمسماة « مهندسخانه

همايون » التى كانت قد أسست فيما مضى ، مدرستى « مهندسخانه برى همايون ومهندسخانه بحرى همايون » أى مدرسة الهندسة البرية الهمايونية ومدرسة الهندسة البحرية الهمايونية . الأولى ، جامعة إستانبول التكنولوجية الحالية ، والثانية المدرسة الحربية البحرية . ومن هذه المدرسة تخرج ضباط الاستحكام والمدفعية والبحرية وتم تدريب ضباط الخيالة والمشاة الذين يشكلون نواة الجيش ، فى معسكرات الجيش . ولخشيته من الانكشارية ؛ لم يتمكن من المساس بصنف المشاة . كان هماما ووطنيا . حدث على زمانه زلزال إستانبول الكبير فى ٢٢ أيار ١٧٦٦ . أعاد إنشاء جامعى أيوب سلطان وفاتح اللذين هدما فى الزلزال .

كان ، الصدر الأعظم ، عند جلوسه راغب باشا . توفى بعد صدارة دامت ٩ سنوات و وشهرين و ٢٨ يوما (١٧٦٣/٤/٨) . كان فى سن الـ ٦٤ . لم يملأ الفراغ الذى حدث بوفاته . كانت حرب السنوات السبع فى أوروبا قد انتهت فى عام وفاة راغب باشا ، اسقطت انكلترا ، فرنسا إلى الدرجة الثانية وأصبحت أقدر دولة مسيحية ، أثبتت ملكية بروسيا الصغيرة ، أنها قوة عسكرية لايستهان بها . وبناء عليه ، فإن ميزان قوى الدول فى أوروبا كان قد تبدل . لم يدخل راغب باشا الحرب ، رغم مساندته بروسيا والملك فردريك تجاه روسيا . عاشت تركية عهد استقرار ورفاهية ، فى الوقت الذى كانت فيه أوروبا تشتعل بنار الحرب . لم يكن بالامكان إيجاد حل لضعف بولونيا ، وبالرغم من مساندة العثمانية وفرنسا لها ، فإنها بقيت تحت تهديد ضغوط كل من روسيا ، ألمانيا (النمسا) وبروسيا .

جاء مكان راغب باشا ، نيشانجى حمزه حامد باشا لمدة ٦ أشهر و ٢٣ يوما ، ثم تصدر باهر مصطفى باشا للمرة الثالثة (١٧٦٣/١١/١ - ١٧٦٥/٣/٢٨) . عزل بعد سنة و ٤ أشهر و ٢٧ يوما واعدم بعد ٢٧ يوما . مجموع صداراته الثلاث ٤ سنوات و ٩ أشهر و ٢١ يوما . احتل مكانه داماد محسن - زاده محمد باشا ، رجل الدولة القدير وابن الصدر الأعظم محسن - زاده عبد الله باشا ، عزل بعد ٣ سنوات و ٤ أشهر و ١٠ أيام (١٧٦٨/٨/٧) . لم يتمكن سلاحدار حمزه ماهر باشا البالغ سنه ٤٠ عاما ، من البقاء فى السلطة ، أكثر من شهرين و ١٤ يوما . بدأت على عهده حرب كبيرة جدا مع روسيا .

صار ، ياغلقجى - زاده داماد نيشانجى حاجى محمد أمين باشا ، البالغ سنه ٤٥ عاما ، صدرا أعظم (١٧٦٨/١٠/٢٠) . عزل بعد ٩ أشهر و ٢٣ يوما (١٧٦٩/٨/١٢) . قطع رأسه بعد مدة وجيزة . لم يتمكن قاسطامونيلى مولدوفاجى على باشا ، من البقاء فى الصدارة أكثر من ٤ أشهر و يوم . شغل عوض - زاده خليل باشا ابن عوض محمد باشا ، من الصدور الأعظم السابقين ، منصب الصدارة لمدة ١٠ أشهر و ١٤ يوما (١٧٦٩/١٢/١٢ - ١٧٧٠/١٠/٢٥) . أما داماد سلاحدار محمد باشا ، فظل فى السلطة مدة سنة ، شهر و ١٧ يوما . أصبح محسن - زاده صدرا أعظم للمرة الثانية (١٧٧١/١٢/١١) . ومجموع صدارتيه الاثنتين بفاصل ثلاث سنوات ونصف ؛ ٦ سنوات ، ٤ أيام . توفى على عهده مصطفى الثالث وجلس عبد الحميد الأول .

البحث السابع

دور الانحطاط
(١٧٦٨ - ١٨٢٦)

دور الانحطاط
(١٧٦٨ - ١٨٢٦)

١) الحرب مع روسيا (١٧٦٨ - ١٧٧٤)

بدأت الحرب الروسية - العثمانية الكبرى ، بسبب إدخال روسيا الجنود إلى بولونيا ، رغم مذكرات الاحتجاج العديدة التى أرسلها الباب العالى . أعلنت الحرب على روسيا التى أخذت تطارد الوطنيين البولونيين حتى داخل الأراضى العثمانية (١٧٦٨/١٠/٨) . مر على مصالحة بلغراد ٢٨ سنة و ١٠ أشهر و ١٩ يوما . مرت على تركية فترة صلح غير اعتيادية ، ولعدم دخول الجنود الحرب ، نسوا حتى كيفية القتال . أما الجيش الروسى ، فقد جهزته الإمبراطورة كاترينا الثانية بشكل جيد على الطراز البروسى . حتى ذلك التاريخ . لم تكن دولة أوروبية بمفردها قد استطاعت أن تنتصر على العثمانية .

بدا القتال بصورة فعلية بهجوم شتائى مفاجىء قام به خان قرم كيراى مع جيشه البالغ ١٠٠ ٠٠٠ خيال (١٧٦٩/١/٣١) على اوكراينا وقلبها رأسا على عقب وعاد مع مئات الألوف من الأسرى . أما الصدر الأعظم والسردار الأكرم ياغلقجى - زاده محمد أمين باشا ، فسار من إستانبول (١٧٦٩/٤/٣) ووصل Isakel (١ أيار) على الطونه فى شمال Dobruca وظل فيها ٢٥ يوما . وخلال قضاء الصدر الأعظم وقته مع الجيش الهمايونى فى دوبروجه ، بدأ القتال فى خوتين على نطاق واسع .

خوتين ، باب بولونيا ، تقع على نهر دنيستر وعلى نقطة عرض ٤٨ ٣٠ . لايمكن دخول الروس إلى بولونيا ورومانيا ، دون إسقاط هذه القلعة ، إلا أن يكون ذلك استيلاء مؤقتا . أما القلعة العثمانية القديمة كامانيجه (Kamenec Podolsk) الواقعة فى الضفة المقابلة من دنيستر ، فهى الآن بيد الروس ، وترى خوتين على الضفة المقابلة ، وكانت مدينة جرنوفيج الواقعة على مقربة من جنوب – غرب خوتين ، لدى العثمانية . ولأهميتها الاستراتيجية هذه ، اجتاز الأمير Galitsin مع ٦٥٠٠٠ جندى فى ٢٦ نيسان (١٧٦٩) ، دنيستر ودخل الأراضى العثمانية ، وبعد ٤ أيام وصل أمام خوتين . ولكن الجيش العثمانى الذى خرج فى اليوم الأول من أيار ، شتت الجيش الروسى . لم يتمكن الأمير من لم جيشه وتنظيمه قبل مضى ٣ أشهر و ١٢ يوما ، ثم جاء ثانية أمام خوتين . خرج آخيسكالى حسن باشا من القلعة وهزم الجيش الروسى مرة أخرى (١٢ آب) . لكن الجيش التركى الذى كان تحت إمرة قادة لايفقهون العسكرية و لم يسبق أن دخلوا الحرب ، كان فى حيرة من أمره . تركت حامية خوتين – التى استاءت من سحب الصدر الأعظم الجيش إلى اساكجى لغرض قضاء الشتاء – القلعة وتبعت الجيش . عندما دخل الأمير Galitsin فى ٢١ أيلول إلى القلعة شاهد بدهشة ، عدم بقاء جندى تركى واحد ، ووجود ٣٠٠ مدفع وبجواره عتاد ضخم ترك على حاله . وهكذا ، انقلبت الحرب التى بدأت بانتصار الأتراك ، إلى سقوط خوتين فى خريف عام ١٧٦٩ ، بيد الروس . دخل الروس إلى قفقاسيا كذلك واستولوا على بعض الأراضى التابعة للعثمانية .

كان الأسطول الروسى فى بحر البلطق ، بسبب كون البحر الأسود بحيرة عثمانية مغلقة . فى عام ١٧٦٨ ، أبحر الأسطول الروسى من Kronstadt المركز البحرى له فى خليج فنلنده متوجها إلى المحيط الأطلسى ، واجتازه إلى البحر الأبيض . أخبر السفير الفرنسى الكونت – Saint Priest ، الباب العالى ، بتحرك الأسطول الروسى إلى البحر الأبيض . لكن أحدا من الوزراء ، لم يصدق إمكان اجتياز أسطول العدو لتلك البحار ووصوله إلى المياه العثمانية . (كان بعض الوزراء لايصدقون وجود أسطول روسى بالمعنى الصحيح) . كان أغلب قادة الجيش الروسى جنرالات ألمان ويحوى أسطولهم على أميرالات وضباط انكليز . كان على رأس الأسطول –فى الظاهر – أحد عشاق الإمبراطورة Kont Aleksiy Orlov ، لكن قيادة الأسطول الروسى ،

كانت فى الحقيقة ملقاة على عاتق الأميرال الأسكتلندى Elphiston ومعاونيه الضابطين الانكليزيين Dugdale, Gregg .

أنزل الأسطول المكون من ٢٤ سفينة حربية وسفن عديدة مساعدة أخرى ، جنودا فى مورا وأدى ذلك إلى تمرد الروم . جاء محسن – زاده محمد باشا إلى مورا وقذف الروس إلى البحر وقتل ٧٠ ٠٠٠ من الروم العصاة الذين تجمعوا فى تريبوليجه وسفكوا الدم العثمانى فى مورا (١٧٧٠/٤/٩) . دخل الروس إلى بحر إيجه لتعويض اندحارهم فى مورا .

تقابل الأسطولان العثمانى والروسى فى شمال ساقيز ، غرقت سفينة من كل منهما . انسحب Elphiston من مجال القتال على أثر مشاهدته غرق سفينة الأميرال Spiridov وغرق ٧٠٠ روسى وإنقاذ الكونت Fedor من البحر بصعوبة (صباح ٦ تموز ١٧٧٠) . كان القتال قد استمر مدة ٤ ساعات . القبطان دريا (مشير البحر ، قائد القوات البحرية) ، كان قانعا بانسحاب الروس . رست السفن بصورة متقاربة ودون احتياط . اقتربت إلى الميناء ليلا سفينتان صغيرتان من السفن المساعدة الروسية التى يقودها Dugdale . أراد العثمانيون فى البداية اغراقهما . انتظروا اقترابهما بعد أن قررتا انهما قادمتان لغرض اللجوء . وكانتا فى الحقيقة سفينتى احراق (بالفرنسية : brulot) . كانت فكرة جريئة لـ Elphiston . أشعلت قنابل الحريق التى أطلقتها السفينتان ، شراعات السفن التركية الشراعية وانتقل الحريق إلى السفن الأخرى التى رست جنبا إلى جنب ، ثم انفجرت المعدات الموجودة بالسفن . إحترق الأسطول العثمانى برمته ، عدا سفينتين . دخل الفستون ، ميناء جشمه وقصفه . نجا أكثرية أفراد البحرية العثمانية بقفزهم إلى البحر فى بداية الحريق . أحدثت غارة جشمه هذه (ليلة ٧/٦ تموز ١٧٧٠) صدى عظيما فى أوروبا ، وزادت من اعتبار روسيا . حاصر الروس ميناء Mondros فى جزيرة ليمنى مدة شهرين . أجبر جزائرلى حسن باشا-الذى سار إلى الروس بـ ٢٣ قطعة بحرية – أسطول العدو على التراجع . منح رتبة القبطان دريا وبصورة رسمية لقب « غازى » .

احتل الكونت Romanzov قسماً كبيرا من بغدان (Moldavya) بواسطة ٣٠ ٠٠٠ جندى . أما الكونت Panin فبدأ بحصار قلعة Bender بواسطة ٦٠ ٠٠٠

جندى . كانت بندر قلعة عثمانية مهمة فى Besarabya على الساحل الجنوبى من Dnyestr (بالتركية تورلا) ، قرب مدينة كيشنيف Kisnev . انهزم الصدر الأعظم والسردار الأكرم عوض - زاده خليل باشا ، أمام رومانزوف فى موقع كارتال (بالرومانية : Kagul) قرب ايساكجى (١٧٧٠/٨/١) . ذبح بالسيف ٥٠٠٠٠ جندى عثمانى الذين طوردوا بعد تركهم القتال وهروبهم . وبذلك ، سقطت Bender (١٧٧٠/٩/٢٧) . ذبح الروس الذين تكبدوا خسائر كبيرة فى بندر ، كافة المسلمين بالسيف . الآباء الأتراك الذين قتلوا بأيديهم نساءهم وأولادهم بالخناجر ؛ رموا بأنفسهم بين صفوف الروس ليستشهدوا .

وعلى هذا ، كانت روسيا هى المنتصرة فى الحرب فى بداية خريف عام ١٧٧٠ . وهذه ، نقطة تحول فى التاريخ ، فلأول مرة فى التاريخ تغلب دولة اوروبية لوحدها فى حرب شاملة ، الدولة العثمانية . إن تركية التى كانت حتى هذا التاريخ ، الدولة الأولى فى العالم ، سقطت من حيث القدرة إلى الدرجة الرابعة بعد انكلترا ، فرنسا ، روسيا بالتسلسل .

بدأ الأمير Dolgoruki مع ٩٠٠٠٠ جندى بمحاصرة أورقابو (بالروسية : Perekop) وهى مدخل لقرم واحتلها بعد محاولات دامت ٣ أشهر (١٧٧١/٦/٢٤) . وعدت الإمبراطورة ، خان قرم سليم كيراى الثالث ، بأنها ستعترف بقرم ، دولة مستقلة ، فى حالة انفصاله عن العثمانية . فرق هذا الوعد القرميين إلى فريقين ؛ فريق يريد الاستمرار فى القتال ولايريد الانفصال ، وفريق سيطرت عليه رغبة تكوين دولة مستقلة ، يريد عقد صلح مع الروس ، والانفصال عن العثمانية .

كان جيش قرم المكون من ٨٠٠٠٠ خيال ، جيش قرون وسطى ، لايمكنه دخول حرب جديدة دون مساندة المدفعية والوحدات الفنية الأخرى للجيش العثمانى ، وكان هذا الجيش مفيدا فقط كوحدات للصاعقة . تخلى عن العرش ، سليم كيراى الذى لايرغب فى الدفاع عن قرم منقسمة إلى شطرين ، وجاء إلى إستانبول . ذهب ابناه إلى بطرسبورغ ، لغرض التفاوض مع الإمبراطورة حول استقلال قرم المزعوم . لم يحارب الجيش القرمى وحاربت الوحدات العثمانية الموجودة فى قرم فقط ، واستسلموا مع قائدهم القرمى الونير سلاحدار إبراهيم باشا (١٧٧١/٧/٣) . استولى

الأمير Dolgoruki على كامل الجزيرة . وبذلك انتهى حكم العثمانية الفعلى فى قرم بعد ٢٩٦ عاما . اتضح بشكل مؤكد ، أن روسيا انتصرت فى الحرب بشكل حاسم وأن الدولة العثمانية ، ليست هى الدولة العالمية الأولى ، حققت روسيا حلمها القديم ، وهبطت إلى البحر الأسود بشكل واسع . لم يعد البحر الأسود بعد الآن بحيرة عثمانية . بدأ استيلاء روسى مفجع على الجزيرة التى تضم مليونا ونصف مليون تركى .

وخلال عام ١٧٧١ استولى الروس على بغدان (مولدافيا) ثم على أفلاق (رومانيا) كذلك . ورغم أن الجنرال Essen أراد عبور الطونه نحو الجنوب بجيشه البالغ ٢٠٠٠٠٠ ، فإنه عدل عن ذلك عند تكبده الخسائر (١٧٧١/٩/١٢) . أراد الصدر الأعظم محسن – زاده محمد باشا ، استرجاع بخارست . انهزم فى Dumbovitza أمام الجيش الروسى البالغ عدده ٣٠٠٠٠ جندى (١٧٧١/١٠/٣٠) . استولى الروس الذين طفروا إلى جنوب دلتا الطونه ، على تولجا ، وعلى أثر اقترابهم من باباداغى ، سحب القائد محسن – زاده مقره الموجود فيها ونقله إلى حاجى أوغلو بازارى ، فى شمال فارنا . (وعند مجيئه إلى شومنو ، لقضاء الشتاء ، علم بإعادة تعيينه صدرا أعظم) . إزاء ذلك لم يتمكن الروس من اسقاط القلاع التركية الموجودة فى اوديسا وجوارها الكائنة على البحر الأسود ، وانسحبوا بعد تكبدهم الخسائر .

خارت أنفاس الروس الذين حققوا فتوحات كبيرة . لم يقوموا بأية حركات مهمة خلال عام ١٧٧٢ . أنفقت كاترينا الثانية ، كامل خزينتها الاحتياطية فى الحرب كما فعل مصطفى الثالث . كانت فرنسا وألمانيا (اوستريا) تتبعان سياسة خارجية موالية للعثمانية بسبب قلقهما من التوسع الروسى ، وخشيتهما بوجه خاص من ابتلاع روسيا لبولونيا . أما بروسيا وانكلترا فكانتا تتبعان سياسة موالية لروسيا . ولكنهم كانوا جميعا يبذلون جهدهم للابتعاد عن نار الحرب . جرت مفاوضات صلح ، لكنها لم تصل إلى نتيجة ، إزاء طلبات الروس المفرطة .

أظهرت الحركات الفاشلة التى قام بها الروس فى عام ١٧٧٣ أنهم قد استنفدوا قدرة الهجوم ؛ فمثلا ، فشل الجنرال Unger أثناء عزمه على استيلاء فارنا (١٧٧٣/١٠/٢٠) . عقد مؤتمر صلح فى قصبة كوجوك قاينارجه قرب الطونه فى ربيع عام ١٧٧٤ . كان الأمير Renin والماريشال Romanzov ممثلين عن روسيا

وكتخدا الصدارة (وزير الداخلية) الدبلوماسى الشهير رسمى أحمد أفندى ورئيس الكتاب (وزير الخارجية) الدبلوماسى المعروف كذلك منيب أفندى ممثلين عن العثمانية .

٢) معاهدة قاينارجه (١٧٧٤/٧/٢١)

يومان من المفاوضات ، كانا كافيين للاتفاق على أسس المعاهدة . ورغم أن الممثلين العثمانيين وقعوا على المعاهدة فى ١٧ تموز ، فقد أخر الأمير Renin التوقيع مدة ٤ أيام ووقعها فى ٢١ تموز ، هو يوم ذكرى محزنة لروسيا ، يوم الذكرى الـ ٦٣ لمعاهدة Prut .

احكام المعاهدة المكونة من ٢٨ مادة ومادتين إضافيتين ، كالتالى :

تنفصل خانية قرم ، عن العثمانية ، وتكون دولة مستقلة . روسيا تعترف بصورة رسمية بالخاقان العثمانى خليفة لكافة المسلمين . وبناء على ذلك ، فان تبعية خان قرم للخاقان من الناحية الدينية وتنظيم الأمور الدينية لقرم من قبل شيخ الإسلام فى إستانبول ؛ لاتعتبر منافية لاستقلال قرم . على الجيش الروسى . أن ينسحب من قرم فى أول فرصة تراها روسيا مناسبة . يكون التتار الذين يسكنون على ساحل البحر الأسود التى يسميها الأتراك « بوجاق » فى بيسارابيا ، والتتار الذين يسكنون فى المنطقة التى تسمى « كوبان » فى بحر آزاك ، مستقلين عن الأتراك ، ويشكلون مناطق محايدة عازلة بين روسيا والعثمانية . تترك تركية ، إلى روسيا ساحل البحر الأسود القصير الواقع بين نهرى Bug (بالتركية : آقصو) و Dnyepr (بالتركية : اوزو Özö) ، ميناء كرج المسيطر على مضيق كرج فى قرم وميناء آزاك (Rostov) الواقع فى نهاية بحر آزاك وحواليهما. تبقى لدى تركية سواحل البحر الأسود الواقعة بين Bug و Dnyestr (بالتركية : تورلا) ، وبضمنها Özö وخوجاباشا (Odessa) . تعطى تركية الإمارتين الرومانيتين (أفلاق وبغدان) الاستقلال النسبى ، وسوف يأخذ الباب العالى بعين الاعتبار الطلبات المعقولة من الناحية الدينية لروسيا فى هذه الامارات الارثوذكسية . تعامل العثمانية الملايين من تبعيتها الارثوذكس بشفقة . تستفيد روسيا كذلك كانكلترا وفرنسا من الحقوق

التجارية والعدلية المسماة « Capitulation » فى الإمبراطورية العثمانية . ولأن البحر الأسود سيكون مشتركا بين الدولتين ، فسوف تبحر فيه السفن التجارية الروسية بحرية،وتمر بحرية كذلك من المضايق إلى البحر الأبيض وبالعكس . ستسدد تركية لروسيا خلال ٣ سنوات ، غرامات حرب مقدارها ٧٥٠ مليون آقجه .

على الرغم من أن معاهدة قارينارجه لم تفقد تركية سوى اراض قليلة جدا بالإضافة إلى قرم ، فإنها تعتبر من أتعس المعاهدات التى وقعت عليها تركية على مدى تاريخها .

يشير تحليل الاتفاقية باختصار إلى النتائج التالية :

ترفع المعاهدة روسيا دفعة واحدة إلى الدرجة الثالثة بين الدول بعد انكلترا وفرنسا ، أما تركية فتسقطها مرة واحدة من القمة إلى الدرجة الرابعة .

ينتهى تحكم العثمانية فى البحر الأسود ، ولايقف الأمر عند حيازة روسيا ساحلا لأول مرة ، بل يكون خروجها إلى البحر الأسود بشكل موسع . ومن الطبيعى أنها ، ستؤسس بعد ذلك فى البحر الأسود موانىء لإنشاء وتصليح السفن ويكون لها أسطول فيه ، وإن كانت ستستعمل هذا الأسطول فى البحر الأسود فقط لعدم إمكانها إمرار سفنها الحربية من المضايق ، (المسموح به فقط هو السفن التجارية) .

بسبب وجود رعايا أرثوذكس كثيرى العدد فى الدولة العثمانية والعطف المتوالى على المذهب الارثوذكسى ، فسوف تكون الأمور الدينية هذه ، ذريعة لتدخل روسيا فى شئون العثمانية ، وسوف تبدأ برومانيا .

مع الاعتراف رسميا بأن البادشاه هو خليفة لكافة مسلمى العالم ، إلا أن هذا لايعنى أن البادشاه سيمكنه التدخل فى شئون المسلمين فى روسيا ، لأن تدخلا كهذا ، لايمكن تحقيقه إلا بالقوة العسكرية ، ومن الواضح أن تدخل الطرف الضعيف سيبقى رمزيا فقط .

تدفع الدولة العثمانية غرامات حرب لأول مرة فى التاريخ .

يترك مستقبل قطر صغير كقرم ، القطر التركى منذ ١٥ قرنا والذى يسكنه ١/٥ مليون تركى (يعتبر هذا الرقم عاليا جدا بالنسبة إلى ذلك الزمن) وذى الأهمية الاستراتيجية الكبرى ، بشكل تام إلى نوايا روسيا الطيبة .

دخلت العثمانية هذه الحرب ، التى ساقتها إلى الدمار ، فى سبيل استقلال بولونيا . وقد خشيت كل من فرنسا وسويسرا اللتين تؤيدان استقلال بولونيا بنفس الدجة ، من دخول الحرب . لأنهما ، خشيتا من دخول انكلترا وبروسيا اللتين تتبعان نفس سياسة انكلترا . إن الدولة العثمانية التى لم تستطع الدفاع عن بولونيا ، صارت فى وضع تجهل فيه تماما ، مايمكنها أن تعمله لهذه الدولة بعد الآن ، وبناء على ذلك فسوف تبقى بولونيا دون مدافع ومفتوحة أمام نوايا جاراتها السيئة. والواقع أن روسيا ، لايمكنها وضع اليد على كامل بولونيا دون أن تعطى حصة لكل من جارتيها ألمانيا (اوستريا) وبروسيا ، وحينئذٍ تكون معرضة للصدام مع اتحاد تركى - سويدى - بروسى - ألمانى - فرنسى مخيف . ولكن فى حالة منحها حصة لألمانيا وبروسيا ، فسوف لايكون هناك اتحاد سياسى يمنعها من اقتسام بولونيا . وفى الواقع فان روسيا أظهرت استعجالا بدرجة ما ، باقتسامها بولونيا الاقتسام الأول فى ١٧٧٢ مع بروسيا وألمانيا قبل انتهاء الحرب العثمانية ، ولكن فور احتلالها لقرم وتيقنها بانتصارها فى الحرب ، صارت بولونيا بعد الآن ، « بولونيا صغيرة » ، خرجت عن نطاق الدول العظمى إلى درجة أنها كانت حتى فى حدودها الجديدة هذه ، معرضة لتقسيم جديد .

أعطيت فى معاهدة قاينارجه ، صلاحية تعيين خانات قرم إلى تركية ، وبالأحرى إلى الخاقان - الخليفة ، وقد كان ذلك لمجرد إظهار أن قرم مازالت تابعة للعثمانية ؛ لكن الحقيقة هى أن روسيا كانت تتحفز لضمها فى أول فرصة . وصار من الواضح أن العثمانية ليس لديها القدرة على منع ذلك .

خوتين ، كانت لاتزال لدى العثمانية ، كأنها ذكرى تاريخية لها فى الشمال بين أوروبا الوسطى والشرقية . لقد أبقيت خوتين فى حوزة العثمانية لأن انتقالها إلى روسيا ، سوف يولد المزيد من شكوك ألمانيا . وحقيقه الحال ، أن العثمانية لم تعد فى وضع يمكنها من أن تستعمل خوتين كضمان لاستقلال بولونيا ، كما أن تأمينها القوة التى تستطيع بها تحقيق ذلك كان من الصعوبة بمكان . وبالإضافة إلى مامضى فإن بولونيا كانت قد قسمت التقسيم الأول . إن التقسيم الأول لبولونيا ، لم يكن بالمعنى الصحيح وعلى المدى الطويل فى صالح ألمانيا (النمسا) ، ولا فى صالح بروسيا ، وإنما كان فى صالح روسيا فقط ؛ كان يقرب روسيا ، بصورة أكثر إلى أوروبا الوسطى ، ويجعلها جارة للبلاد الألمانية .

لقد اشتركت فيينا وبرلين فى التقسيم للحيلولة دون ابتلاع روسيا لكامل بولونيا . ولم تكن هذه الأمور ، بعد ، لتشغل بال انكلترا التى أصبحت الدولة العالمية الأولى .

كانت أوروبا البرية ، خارج نطاق السياسة العالمية لانكلترا ؛ فقد كان اهتمام انكلترا موجها إلى القارات الأخرى والمستعمرات . كانت فرنسا فى هذا التاريخ ، هى المنافسة لها فى هذا المجال ، ولم تكن روسيا . وبناء على ذلك ، كانت انكلترا مستعدة لمساندة أى اتفاق ضد فرنسا . اقتسام بولونيا ، كان مخلا بالاعتبار إلى درجة كبيرة كذلك بالنسبة إلى السياسة الخارجية الفرنسية . استمرت الحرب ٥ سنوات و ٩ أشهر و ١٤ يوما،وضعضعت أركان الدولة العثمانية . أظهرت أن الجيش العثمانى فقد روح القتال والقدرة عليه ، وإذا لم يكن الأمر كذلك تماما ، فإن هذه الروح وهذه القدرة قد قلت لديه كثيرا ، وعلى ذلك فانه يكون فقد قوته المهابه والرادعة . ويكون من الصعب عليه،بعد الآن ، وقف تدفق السلاف إلى البلقان وقفقاسيا . لقد كان المد السلافى ، ينساب كذلك نحو الغرب واوروبا الوسطى ، ضد العرق الجرمانى .

ينهى هامر التاريخ العثمانى الكبير بمعاهدة قاينارجه ١٧٧٤ هذه . يبدأ جودت باشا بالتاريخ العثمانى الكبير لفترة ٥٠ سنة اعتبارا من هذه المعاهدة .

حاولت العثمانية منذ هزيمة فيينا ١٦٨٣ وحتى هذا التاريخ ، المحافظة على وضعها كدولة عالمية أولى . خرجت فى ١٦٨٣ من كونها دولة عالمية . لكن قوتها العسكرية والبحرية ، كانت لاتزال تخيف العالم قرابة عصر كامل إلى وقت الحرب الروسية ، فقد كانت لاتزال فى الوضع الذى لم تستطع فيه دولة منفردة الانتصار عليها . كانت لاتزال تحكم الأقطار العظيمة فى القارات الثلاث . ولعدم تحقيق الانقلاب الصناعى فى اوروبا حتى ذلك التاريخ ، كانت بعض الأقطار العثمانية – وإن لم تكن بكاملها – داخلة ضمن الأقطار العالمية الغنية .

إن الحرب التى بدأت فى ١٧٦٨ ، والتى أخذت تميل نحو هزيمة تركيا فى ١٧٧٠ ، ثم اكتسبت الهزيمة صفتها الأكيدة بالاحتلال الروسى لقرم فى ١٧٧١ ثم تسجيل ذلك الوضع فى ١٧٧٤ .. هذه الحرب جعلت تركية العثمانية تهبط دفعة واحدة من وضعها كدولة عالمية أولى ، إلى المرتبة الرابعة ، دون مرورها بالمرتبتين الثانية والثالثة .

وبناء على ذلك ، تفتح صفحة جديدة فى تاريخ الدولة العثمانية . تبدأ بالبحث عن وسائل الإصلاح ، بعد الهزيمة .

ولوجود جيش مغلوب ، فإنه من الطبيعى أن يؤمن الأتراك بأن الإصلاح ينبغى أن يبدأ من الجيش .

لكن الجيش موزع ومفرق إلى عصابات ، اشبه ماتكون بالميليشيات ، ويرفض أن يكون من نفسه جيشا جديدا ، ويخشى من حرمانه من امتيازاته ، وكسبه غير المشروع ، ومايقوم بنهبه .

بسبب ذلك ، أقدم البادشاهات وقسم من الصدور العظام والوزراء على الإصلاح بتردد ، رغم أنهم يؤمنون بضرورته .

لم يتحقق إصلاح جذرى . عرضت زمرة القابوقولو ، ثورة كهذه ، بقطع الرءوس . عاشت الدولة مثل هذه المغامرة فى الفترة التى استمرت حتى ١٨٢٦ . التجديد ، لم يكن بشكل جذرى . بينما كانت فى اوروبا ، فترة النصف قرن التى استمرت حتى ١٨٢٦ ، هى الفترة التى حدث فيها الانقلاب الصناعى ، وصلت رءوس الأموال إلى مبالغ ضخمة . بدأت التكنولوجيا تدخل فى صلب الجيش والبحرية وتصبح لاغنى عنها ، بدأت الميكنه فى انكلترا فى صناعة النسيج ، وتحولت المصانع الصغيرة إلى مصانع ضخمة ، فزاد الإنتاج وأخذ يغزو الأسواق الخارجية ، انتقل هذا الانقلاب – الذى هو المرحلة الأولى للانقلاب الصناعى – فورا إلى فرنسا ومنها إلى دول أوروبا الغربية الأخرى ، وبعدها ، إلى كافة أوروبا تقريبا . أما الدولة العثمانية التى لم تتمكن من إيجاد الفرصة المناسبة لاتخاذ قرار التجديد الجذرى ، الا فى ١٨٢٦ ، فقد وجدت أمامها أوروبا بكاملها تقريبا ، قد تمكنت من تحقيق الانقلاب الصناعى ، ووجدت أوروبا الغربية ، قد اقتربت من المرحلة الثانية من هذا الانقلاب . وسوف نعرض فى الكتاب السابع ، هذا الدور الذى يتميز بتجارب التجديد التى لم توفق إلى تحقيق تغيير جوهرى فى الداخل . أما فى الخارج فسنجد أنه دور يتميز بسياسة استقطاع الدول الأوروبية الكبرى ، التى شخصت ضعف الدولة ، قطعا من العثمانية .

٣) دور عبد الحميد الأول (١٧٧٤ - ١٧٨٩) ، قضية قرم

مات مصطفى الثالث ، بسبب تأثره من الحرب الروسية . وعند جلوسه على العرش ، كان أخوته بيازيد ، ونعمان ، وعبد الحميد أولياء العهد الأول والثانى والثالث بالتسلسل . وبوفاة الشهزادة نعمان (١٧٦٤/١٢/٢٩) صار السلطان عبد الحميد ولى عهد ثانى وبوفاة أولو شهزادة بيازيد (١٧٧٠/١٢/١٩) ، أصبح ولى عهد السلطنة . وبعد ولايته للعهد لمدة ٣ سنوات ، جلس بعد وفاة أخيه الكبير الذى دامت سلطنته ٨ سنوات ، وشهرا ، و٢٣ يوما . وكان عمره ٤٩ عاما تقريبا (٤٨ سنة ، و ١٠ أشهر ، و ٣ أيام) .

عبد الحميد الأول ، هو أصغر أبناء أحمد الثالث . توفيت أمه رابعة شرمى قادين عام ١٧٣٢ ، عندما كان السلطان عبد الحميد فى الـ ٧ من عمره . وعند وفاة أبيه المخلوع ، كان عمره ١١ عاما . استمرت السلالة العثمانية إلى يومنا هذا ، من السلطان عبد الحميد الأول هذا فقط . منح لقب « غازى » بصورة رسمية فى ١٧٨٨/٩/٢١ . دامت سلطنته مدة ١٥ سنة و شهرين و ١٧ يوما . توفى وعمره يتجاوز الـ ٦٤ بـ ١٨ يوما . ومنذ ١٥٦٦ ، أى منذ عهد القانونى ، لم يبلغ أى بادشاه هذا القدر من العمر . دفن فى مقبرة الحميدية فى بقجه قابو .

توفى لعبد الحميد الأول ٩ شهزاده (أمير) و ١٢ ابنة فى سن صغيرة . وأطول من عاش ، هما شهزاده سليمان (١٧٧٩/٣/١٣ - ١٧٨٦/١/١٩) وشهزاده محمد (١٧٧٦/٨/٢٢ - ١٧٨١/٢/٢٠) . واولاده الآخرون هما مصطفى الرابع (١٧٧٩/٩/٨ - ١٨١٨/١١/١٦) ومحمود الثانى (١٧٨٥/٣/٢٠ - ١٨٣٩/٧/١) واستمرت السلالة من هذا الأخير . أما بنات عبد الحميد الأول فهن : (١) اختر - ملك خانم (١٧٥٨ - ١٧٨٦) تزوجت بابن الصدر الأعظم محمد عزت باشا ورزقت منه بابن واحد . (٢) السلطانة عائشة در شهوار (١٧٦٧ - أيار ١٨٢٦) ، تزوجت بالداماد أحمد نظيف أفندى (١٧٤٧؟ - ١٧٨٩/٥/٢١) ورزقت منه بابنتين أحداهما زوجة ابن الصدر الأعظم قوجا يوسف باشا . (٣) السلطانة أسماء (١٧٧٨/٧/١٧ - ١٨٤٨/٦/٤) ، هى زوجة قبطان دريا (مشير البحر) الوزير داماد كوجوك حسين باشا (١٧٦١ - ١٨٠٣/١/٨)

ولم تنجب أولادا . (٤) السلطانة هبة الله (١٧٨٩/٣/١٦ - ١٨٤١/٩/١٨) . زوجة الداماد الوزير علاء الدين باشا (١٧٧٤؟ - ك١٨١٣/٢) ولم تنجب أولادا . علاء الدين باشا هذا ، هو ابن سيد أحمد باشا صهر مصطفى الثالث الذى هو ابن سليمان باشا صهر أحمد الثالث .

حدثت فى عهد عبد الحميد الأول ، حرب إيرانية استمرت ٤ سنوات تقريبا (١٧٧٥ - ١٧٧٩) . البادشاه الذى وقع على معاهدة قاينارجه بعد ٦ أشهر من جلوسه ، جابه إيران بعد عدة أشهر . ظهرت فى هذه الأثناء سلالة تركمانية جديدة ، وهم القاجاريون ، يحاولون جمع شمل إيران . من منافسى تلك السلالة ، كريم خان زند ، بدأ بمحاصرة البصرة فى آذار (١٧٧٥) . على أمل أنه إذا انتصر على العثمانية التى خرجت من الحرب الإيرانية منهزمة ، سيقضى على القاجاريين . أعلن الباب العالى الحرب على إيران (١٧٧٦/٥/٢) . سقطت البصرة فى نيسان ١٧٧٦ بعد صمودها للحصار مدة ١٣ شهرا وبقيت فى الحكم الإيرانى ٣ سنوات تقريبا . هزم السرعسكر (قائد) الوزير حسن باشا بكلربك الموصل ، الجيش الإيرانى فى معركتين ميدانيتين (٢٢/ ١٧٧٧/٤ ، ١٧٧٧/٥/٥) . جرت الثانية فى اردلان قرب سينه . دخلت الحرب بعد ذلك فى فترة التوقف وانتهت بإعادة البصرة إلى العثمانية دون حدوث أى تغيير .

توفى الصدر الأعظم والسردار الأكرم محسن - زاده داماد محمد باشا إثر اشتداد مرضه نتيجة تأثره بمعاهدة قاربنارجه ، فى الطريق أثناء عودته إلى إستانبول (١٧٧٤/٨/٤) . دامت صدارته الثانية سنتين ، ٧ أشهر ، ٢٤ يوما ومجموع صدارتيه ٦ سنوات ، ٤ أيام . أعقبه الصدور العظام التالية أسماؤهم : عزت محمد باشا ، الذى كان قائمقام الصدارة فى إستانبول ، البالغ عمره ٥٠ عاما ، صدرا أعظم وهو من سلالة روم محمد باشا ، أحد الصدور العظام فى عهد فاتح . عزل بعد ١١ شهرا ، ٣ أيام (١٧٧٥/٧/٦) ، ثم جاء كتخدا الصدارة دارنده لى جبجى - زاده محمد باشا لمدة سنة ، ٥ أيام ، ثم فى (١٧٧٨/٩/١) اغا الانكشارية قالافات محمد باشا لمدة ١١ شهراً ، ٢٠ يوما ، أعقبه فى (١٧٧٨/٨/٢١) سلاحدار عربسونلى قره محمد باشا لمدة سنة ، ٥ أشهر ، ٢٩ يوما . وبهذا يكون ٦ أشخاص مختلفين باسم محمد باشا ، تصدروا الواحد تلو الآخر . وبوفاة قره محمد باشا

(١٧٨١/٢/١٩) تصدر مجددا ، عزت محمد باشا الذى كان بكلربك ارضروم ، لمدة سنة ، ٦ أشهر ، ٤ أيام ومجموع صدارتيه سنتان ، ٥ أشهر ، ويوم . عزل علائيه لى يكن محمد باشا (١٧٨٢/٨/٢٥) بكلربك روملى الذى أحتل مكانه ، بعد ٤ أشهر ، ٦ أيام (١٧٨٢/١٢/٣١) . وأخيرا أعتلى السلطة أول صدر أعظم لم يكن أسمه محمد ، وهو اسبارطه لى خليل حميد باشا .

كان خليل حميد باشا فى سن ٤٦ . وكان مصلحا . ولكنه بدلا من أن يتعاون مع البادشاه الذى كان مصلحا كذلك ، أراد خلع السلطان عبد الحميد الأول ، وجعل ابن أخيه ولى العهد السلطان سليم الذى يفوقه رغبة فى الإصلاح ، خاقانا . اكتشفت المؤامرة . عزل (١٧٨٥/٣/٣١) بعد صدارة دامت سنتين ، ٣ أشهر . وأعدم . وبالرغم من علم ابن أخيه (الذى سيكون سليم الثالث فى المستقبل) ، بالمؤامرة وعدم إخباره بها ، لم يمسسه السلطان عبد الحميد بسوء ، لكنه حدد حركاته نسبيا بعد ذلك حيث كانت كل الآمال متعلقة بالسلطان سليم ؛ إذ إن أبناء عبد الحميد الأول كانوا لايزالون اطفالا . كان ولى عهد - شهزاده (الامير ولى العهد) ، يرسل سفيرا بصورة شخصية إلى لويس ١٦ ملك فرنسا ويتراسل معه . عرقلت محاولة خليل حميد باشا الفاشلة ضد البادشاه ، حركة الاصلاح . لأن رجال البادشاه الآخرين المنتقدين له:قره - وزير محمد باشا الذى توفى قبل مدة ، صهر البادشاه نظيف أفندى وقبطان دريا (الاميرال الكبير) جزائرلى غازى حسن باشا - كانوا كلهم محافظين ولايرغبون فى الاصلاح الجذرى . جاء محافظ اوزو إلى إستانبول وتصدر لمدة ٩ أشهر ، ٢٤ يوما . احتل مكانه قوجا يوسف باشا (١٧٨٦/١/٢٤) . ازداد نفوذ قبطان دريا جزائرلى حسن باشا ، إلى حد التحكم على الصدر الأعظم . وقوجا يوسف باشا هذا ، كان كذلك من جماعة حسن باشا الملتزمين ، وولده المعنوى . لكنه كان رجل دولة قديرا . وهو الصدر الأعظم الأخير لعبد الحميد الأول ، والأول لسليم الثالث .

سببت معاهدة كوجوك قاينارجه اختلال التوازن الدولى . لم تحل مشكلة واحدة ، وتمخضت فقط ، عن روسيا كبيرة . لم تطبق روسيا المادة التى تنص على إخلاء قرم من الجيش الروسى . وكذلك لم تخل الدولة العثمانية مناطق بوجاق (بيسارابيا الجنوبية) وكوبان فى قفقاسيا الشمالية . أبلغت العثمانية بأنه إذا سحبت روسيا جيشها من قرم ، فإنها سوف تسحب جيشها المتواجد فى هذه المناطق وتمنح

لها الاستقلال . رفضت روسيا . لأنها كانت عازمة على السيطرة على قرم بشكل تام . ومستعدة لأن تعمل أى شيء فى هذا السبيل . كانت كل من الدولتين تستعدان للحرب بكل مافى وسعهما . كانت روسيا قد خرجت من الحرب متقطعة الانفاس متكبدة خسائر كبيرة ، ولم تكن لدى العثمانيين ، ولا لدى روسيا ، القدرة على دخول حرب جديدة بعد عدة سنوات .

انقسم الشعب التركى فى قرم الذى يطلق عليهم العثمانيون اسم « تتار » إلى قسمين : مؤيدى العثمانية ومؤيدى الروس . كانوا يريدون العثمانية ويخشون روسيا . كان الحزبان ، كأن احدهما عدو للآخر . كان صاحب كيراى الثانى من مؤيدى الروس . تخلى عن العرش بتأثير العثمانية وأحضر إلى إستانبول ، وعين مكانه دولت كيراى المؤيد للعثمانية . ورغم تصديق السلطان عبد الحميد على كونه خانا ، لم يتمكن من البقاء أكثر من سنة ، ٧ أشهر (حزيران ١٧٧٥) . وأجلس مؤيدو الروس ، برشاوى الروس ، شاهين كيراى ، أحد أخوة صاحب كيراى الثانى على العرش . اضطر الباب العالى إلى التصديق على تعيين هذا الشاب المنحط ، خانا . عاش شاهين كيراى عدة سنوات فى سراى الإمبراطورة فى بطرسبورغ ، وكان من المعجبين بالروس والمتطبعين بعاداتهم .

لم تطق العثمانية الصبر على هذه الحال فى قرم ، وكان لدى الشعب العثمانى إصرار كبير على استرداد قرم ، وبينما كانت العثمانية على وشك اتخاذ قرار الحرب ، عرضت فرنسا الوساطة . وافقت روسيا على هذه الوساطة . وعلى هذا الأساس ، عقدت بين روسيا والعثمانية معاهدة آينالى قاياق (اسم السراى الكائن على الخليج فى إستانبول) (١٧٧٩/٣/٢١) . لكن الاتفاقية ، كانت ضد العثمانية ؛ لأنها تلغى حق الأعتراض على خان قرم ، وسوف يصادق البادشاه ، بعد الآن ، أوتوماتيكيا على أى أمير ينتخبه القرميون خانا ، شرط أن يكون من سلالة كيراى ، وستكون كذلك قرم متبوعة لصفة الخليفة . خلال ذلك ، أسقط العثمانيون شاهين كيراى وجعلوا القرميين ينتخبون سليم كيراى الثالث ، ولكن تدخل الروس بعد عدة شهور ، وجعلوهم ينتخبون شاهين كيراى مرة أخرى . كانت خانية شاهين كيراى الثانية التى دامت ٤ سنوات اياما مظلمة لقرم . كان يلبس ملابس الجنرالات الروس المتميزين ويعلق على صدره الأوسمة التى تسلمها من الإمبراطورة . ويسير بين الشعب

راكبا عربته التى صنعها فى بطرسبورغ ولايسير ممتطيا الحصان كما كان يفعل أجداده ، يرتب الولائم بالمشروبات ويجعل المسلمين يرفعون اقداحهم شاربين نخب الشرف . يلغى الأوقاف ويضع يده على إيراداتها ، يحاول تأسيس أسطول لإلغاء سيطرة « العثمانيين الرجعيين » على البحر الأسود .. إلى غير ذلك من الأمور .

كان مقتنعاً بأن الإمبراطورة (الجاريجه) تقدره وتحبه . أما فى إستانبول فكان يضطر لتقبيل أردية الوزراء . لكن هذا العثمانى الغرير ، الذى غره بهرج المدنية الروسية ، سيوقف عند حده ! نفد صبر القرميين .خلعوا ، فى ١٧٨٢ شاهين كيراى من العرش وانتخبوا أخاه الكبير بهادر كيراى الثانى خانا وعرضوا ذلك على تصديق العثمانية . فر شاهين كيراى إلى بطرسبورغ وشكا إلى إمبراطورته ، القرميين وكذلك العثمانيين . أرسلت الإمبراطورة ، شاهين كيراى إلى قرم مع جيش روسى وأجلسته على العرش بعد ٧ أشهر . فربهادر كيراى إلى إستانبول . ولم تدم سلطنة شاهين كيراى ، الذى كان يعتقد أنها ستطول مدى حياته ، أكثر من شهور معدودة .

أستولى الوزير على باشا الموجود فى Kubon ، على Taman . وعندما صرح شاهين كيراى بأن Taman منطقة حيادية وطلب سحب جنده ، أمر على باشا باعدام السفير الذى جاء بالطلب ، لابسبب كونه سفيرا لدولة مستقلة ، بل بسبب كونه خائنا للوطن . أعترض الروس على المعاملة التى جرت مع السفير وأستولوا على شبه جزيرة تامان شمال نهر كوبان ، زاعمين أنهم يعملون ذلك مساندة لشاهين كيراى . نصب الأمير Potemkin القائد العام للإمبراطورية الروسية ومن المع عشاق كاترينا الثانية ، مقره فى قره صوبازارى . لم تذع العكاز Ukaz (ارادة الإمبراطورة) وأخفيت عن الناس رغم توقيع الإمبراطورة عليها فى ١٩ نيسان . تليت بالروسية على أهالى قرم يوم ذكرى جلوس كاترينا الـ ٢١ (١٧٨٣/٧/٩) . تتضمن هذه الإرادة ، ضم قرم إلى روسيا كأيالة جديدة ، ويطلب من أهالى قرم كافة ، يمين الاخلاص للإمبراطورة ، والذين لايرغبون فى أداء اليمين يتركون احرارا ويعطون الاذن فورا للهجرة إلى تركية ، وسوف لايتدخل فى ديانة وعرف وعادات وحرية الذين يرغبون فى البقاء . وبذلك تنتهى سلطنة بنى جنكيز . نقل مركز قرم من باغجه سراى إلى آق مسجد وأرسل إليها وال روسى . توصل إلى ذروة قلة الحياء ، بالتصريح القائل بأن السبب الموجب ، لضم قطر مثل قرم لايسكنه فرد روسى او

مسيحى ، هو التخلص من مشكلة بسيطة تثير حربا جديدة مع العثمانية .

هذا ماآلت إليه خانية قرم التى لم تمس حتى العثمانية استقلالها منذ ٣ قرون . أعدم الأمير بوتمكين أكثر من ٣٠٠٠٠ قرمى وكلهم من الطبقة الممتازة خلال أقل من شهرين . قتل أكثرهم نتيجة التعذيب بتهمة التجسس لحساب العثمانية ! قضى بهذه الطريقة على جميع أصحاب الأراضى . بدأ سيل المهاجرين الروس إلى قرم . مئات الألوف من الأتراك انتشروا على البيوت الساحلية لقرم . بدأو فى البحث عن السبل التى توصلهم إلى الأراضى العثمانية . كانت تجرى فى قرم نفس الحوادث التى جرت فى الأندلس . مات أكثر بكثير من نصفهم نتيجة المطاردات والضغوط الروسية او باسباب اخرى كالمرض والجوع والبرد ، وألقى البقية أنفسهم فى البلقان والاناضول وإستانبول . هبط تعداد قرم الكثيف جدا ، إلى الثلث او إلى نسبة قريبة من ذلك (كان يسكن قرم فى ذلك التاريخ ١/٥ مليون تركى وهذا يعنى ٦٠ شخصا كم٢ . وهذه النسبة ، نسبة عالية جدا فى ذلك العصر) .

خصص الروس اولا ، راتبا لشاهين كيراى . ثم اعتبروا هذا الراتب لاداعى له . ولعدم رغبتهم فى تسديده ، اخذوا فى اذلاله بصورة مستمرة . لم يتحمل الشاب الغافل والخائن ذلك وفر إلى تركية . تغاضى الروس عن هروبه . اولا ليتخلصوا من الراتب الذى يدفعونه له ، وثانيا لمعرفتهم ، العاقبة التى تنتظره فى تركية . أعتقل الباب العالى شاهين كيراى فورا ونفاه إلى جزيرة رودس وهناك قطع رأسه (تموز ١٧٨٧) . مجموع مدة جلوسه خانا للمرات الثلاث هو ٥ سنوات . هو الخان الـ ٤٩ لقرم ، وحفيد جنكيز فى البطن ٢١ . هكذا انمحت من التاريخ خانية قرم ، التى دامت ٣٥٦ عاما ولعبت دورا مهما ، فى أوروبا الشرقية . أما حكم العثمانية فى هذه الإيالة فقد دام ٣١٠ سنين و١٠ أشهر و١٦ يوما ، ولو احتسبت حتى معاهدة قاينارجه فتكون ٢٩٩ سنة وشهرا و٢٠ يوما . أما فترة الاستقلال المزعوم المرتبط صوريا بالبادشاه ، فقد دامت ١١ سنة ، ٨ أشهر ، ٢٦ يوما .

اعترفت تركية بانضمام قرم إلى روسيا باتفاقية ٨ ك١٧٨٤/٢ ، وأعتبر نهر كوبان حدودا ، وتركت كامل قفقاسيا الشمالية إلى العثمانية . لكن الباب العالى لم يكن مخلصا فى هذا الاعتراف . وإنما كان يستعد للحرب وينتظر الفرصة المناسبة . أعلن بعد ٤ سنوات و٤ أشهر من الانضمام ، شهباز كيراى ، خانا وكان عمره ٥٥ عاما ،

وهذا الأمير هو الأخ الكبير لدولت كيراى الرابع (آب ١٧٨٧) ، وأبنه حليم كيراى ، مؤلف مهم لتاريخ قرم (بالتركية) . وبعد سنة ونصف (شباط ١٧٨٩) منح الباب العالى لقب الخان الـ ٥٢ إلى بخت كيراى (شباط ١٧٨٩) مكان شهباز كيراى . حمل هذا اللقب حتى آب ١٧٩٢ . يعيش اليوم فى تركية العديد من نسل كيراى . وشغل بعضهم مناصب عالية فى الدولة العثمانية .

جاءت الإمبراطورة فى ١٧٨٧ مع ٦٠٠٠٠ جندى إلى قرم . استقبلها والى إيالة قرم الأمير Potemkin فى ميناء Kherson فى مصب الدنيبر وأمررت من تحت قوس نصر كتب عليه « طريق بيزنط » . مرت من تحت هذا القوس سوية مع حليفها جوزيف الثانى امبراطور ألمانيا الذى حضر لزيارتها . أعلن الباب العالى الذى علم بهذه الصفاقة ، الحرب على روسيا (١٧٨٧/٨/١٣) . مضى على مصالحة قاينارجه ١٣ سنة ، ٢٣ يوما ، لم تتحسن ولالحظة واحدة ، خلال هذه المدة ، العلاقات العثمانية – الروسية . سيمر التاريخان العثمانى والروسى بعد ذلك بحروب تركية – روسية متعاقبة .

٤) الحرب مع روسيا وألمانيا (١٧٨٧ – ١٧٩٢)

بالنسبة للحرب الروسية ١٧٦٨ – ١٧٧٤ ، كان من غير الممكن كسب تعاطف الشعب لتبنى الحرب ، فلقد كان صعبا أن يتفهم الشعب دخول حرب للحفاظ على استقلال بولونيا . أما هذه المرة ، فإن الحرب لا تتعلق ببولونيا وإنما تتعلق بقضية قرم .

كانت روسيا تجرى على مسلمى قرم الانكزسيون (المجازر البشرية) الحديثة . كل عثمانى كان يضمر الحقد الدفين تجاه روسيا . بعد إعلان العثمانية الحرب انتظر الطرفان الربيع للحرب الفعلية ، الا أن ألمانيا ، قدمت مذكرة إعلان الحرب على العثمانية ، بعد إعلان الحرب بـ ٥ أشهر و ٢٨ يوما وقبل حلول الربيع (١٧٨٨/٢/٩) . كان الإمبراطور جوزيف الثانى مبهورا بالفتوحات والانتصارات السهلة التى احرزتها روسيا على العثمانية فى حرب ١٧٦٨ – ٧٤ ، وكان يريد الآن أن يأخذ حصته من سلب جديد . ونظرا لوفاة فريدريك (الكبير) الثانى فى ١٧٨٦ ، فانه لم يعد أمام روسيا ماتخشاه من جهة بروسيا . لكن السويد التى

خشيت من توجه روسيا نحوها بعد انتصارها ثانية على تركيا وسحقها لبولونيا ، أعلنت الحرب على روسيا ، دون ألمانيا (حزيران ١٧٨٨) ، لكن الجيش السويدى تلكأ دون قصد ، وضيع فرصة غزوا العاصمة بطرسبورغ وأسر الإمبراطورة ، وقد كان ذلك ممكنا لكون العاصمة بطرسبورغ على الحدود السويدية ، ولكون بطرسبورغ خالية من الجيش . حيث كانت روسيا ، قد جمعت كل جيشها على الحدود العثمانية .

سار الصدر الأعظم والسردار الأكرم قوجا يوسف باشا من إستانبول قاصدا تنحية ألمانيا أولا (١٧٨٨/٣/٢٥) . كان الإمبراطور جوزيف الثانى قد اتخذ شبش (بالمجرية : Sebes) فى جنوب أردل (ترانسيلفانيا) مقراً لجيشه . اجتاز الجيش العثمانى الحدود الألمانية وبعد أن تقدم مسافة طويلة جدا ، عثر هنا على جيش الإمبراطورية . شتت الجيش العثمانى الجيش الألمانى بعد تكبيده خسائر جسيمة فى معركة شبش الميدانية (١٧٨٨/٩/٢١) . نجا الإمبراطور من الموت صدفة وبتضحيات . اغتنم الأتراك ٨٠ مدفعا وكافة المهمات و ٥٠٠٠٠ أسير . وكأنما انتقم لـ Zenta بعد عصر كامل . خربت Banat وتامشوار من أولها إلى آخرها . وإزاء هذا الانتصار ، منح العلماء ، عبد الحميد الأول ، بصورة رسمية لقب « غازى » .

أمّن انتصار شبش ، بقاء بلغراد والمناطق المجاورة لها ، لدى العثمانية لعصر آخر . كان هدف الإمبراطور ، هو الإلتئام مع الجيش الروسى . زال هذا الهدف ونحيت المانيا . وظلت العثمانية فى المجال وجها لوجه أمام روسيا ، بعد هذه الحركات الخاطفة .

وفى الجبهة الروسية ، جاء الأمير Potemkin مع ٨٠٠٠٠ جندى إلى Özü (بالروسية : Ocszakov) أهم قلعة فى شمال - غرب البحر الأسود ، واحتل هذه القلعة الشهيرة (١٧٨٨/١٢/١٧) . وجرت مجزرة بشرية ذبح فيها ٢٥٠٠٠ جندى تركى ، ونساء وأطفال . عذب جميعهم ولم يترك فردا واحدا على قيد الحياة . ثم سقطت قلعة خوجا باشا الواقعة بالقرب من أوزو ، حاليا أوديسا . وعلى هذا ، انتقل الساحل الشمالى - الغربى من البحر الأسود الذى يبدأ من غرب قرم ، إلى حوزة الروس . وسقطت بعدها قلعة خوتين فى بودوليا .

انتقل الموقف الحربى وهو على هذا الوضع إلى سليم الثالث . هزم جيش الاتحاد الروسى – الألمانى فى الحرب الميدانية فوكشانى (١٧٨٩/٨/١) أمام جيش القائد الوزير كانكش مصطفى باشا البالغ ٣٠٠٠٠ شخص . فى منطقة فوشكانى ، قرب فرع Siret للطونه بين افلاق وبغدان (كان الجنرال Suvarov يقود الروس ، وأمير Sachsen-Koburg يقود الألمان) ، ثم هزم الروس – الألمان ، الصدر الأعظم والسردار الأكرم جنازه حسن باشا (١٧٨٩/٩/٢٢) فى حرب Buzau الميدانية . استشهد ٢٣٠٠٠ تركى وفقد ٦٨ مدفعا . فى ٩ ت٢ احتل الألمان بخارست ، عاصمة الأفلاق ، واحتل الروس ياش عاصمة بغدان . انسحب العثمانيون الذين انقطع ارتباطهم برومانيا ، إلى جنوب ألطونه .

استولى الألمان الذين يقودهم الجنرال Laudon على بلغراد بعد حصار دام ٣ أسابيع (١٧٨٩/١٠/٨) . ساندت بولونيا وبروسيا ، العثمانية بالطرق الدبلوماسية كما فعلت السويد . لم يكونوا يريدون الاشتراك فى الحرب بصورة فعلية . انهزم الألمان فى الحرب الميدانية يركوى (بالرومانية : Giurgiu) فى الافلاق (رومانيا) فى الساحل الشمالى من الطونه . هرب قائد عام الإمبراطورية أمير Sachsen Koburg بعد أن خسر ٥٠٠٠ قتيل و ١٠٠٠ أسير ، وآلاف الجرحى تاركا ٥٠ مدفعا من مجموع ٦٠ من مدافعه ، للعثمانية . اتضح من ذلك ، عدم إمكان اجتياز الألمان ، الطونة نحو الجنوب .

وفى معاهدة بيقوز (١٧٨٩/٧/١١) منح الباب العالى ١ مليار آقجه إلى السويد كاعانه ، مع أن السويد ، لم تساعد العثمانية فى هذه الحرب ، بصورة فعلية ، عدا أنها ثبتت قسما من الجيش الروسى على حدودها . اجتاز الأمير Potemkin ، دنيستر نحو الغرب ودخل بيسارابيا الجنوبية (بالتركية بوجاق) . استولى على قلعتين عثمانيتين مهمتين جدا Akkerman (١٧٨٩/١٠/١١) و Bender (١٧٨٩/١١/١٤) . ونظراً لسقوط قلعتى خوتين وبلطه،اللتين تشكلان سدا لبيسارابيا فى الشمال ، بيد الروس ، أصبحت بيسارابيا فى خطر . إلا أن الروس انهزموا فى معركة إسماعيل الميدانية فى أقصى جنوب بيسارابيا أمام جزائرلى غازى حسن باشا (١٧٨٩/٩/٢٣) .

احتل Suvarov كيلى Kili (١٧٩٠/١٠/٣٠) ، إسماعيل (١٧٩٠/١٢/٢٢) ، Tulca (١٧٩١/١١/١٦) ، ايساكجى (١٧٩٠/١١/٢٥) . كانت هذه القلاع الأربع مراكز دفاع عثمانية فى دلتا ألطونة بين بيسارابيا ودوبروجه . فقد بوتمكين ، أمام اسماعيل ١٥٠٠٠ قتيل ، فانتقم لذلك بذبح ٣٠٠٠٠ مسلم بالسيف فى إسماعيل ؛ أكثرهم مدنيون ، ونساء وأطفال . أستولى الجنرال Kutuzov على Maçin (١٧٩١/٧/١٠) . كان كوتوزوف هذا ، الذى صار ماريشالا ثم أميرا ، من أصل تركى وقد انتصر حتى على نابليون فيما بعد .

نتيجة لاجتياح الثورة الفرنسية لأوروبا ، طلبت ألمانيا (النمسا) الصلح على أساس Statu quo (أى عرضت العودة إلى حدود ماقبل الحرب) . وقعت على معاهدة زيشتوفى Zistovi (١٧٩١/٨/٤) وهى قصبة تقع على الساحل الجنوبى من الطونه . أنهت هذه المعاهدة المكونة من ١٤ مادة الحرب الألمانية – العثمانية التى كانت مستمرة منذ ٣ سنوات ، ٥ أشهر ، ٢٤ يوما . انسحب الألمان من بلغراد والافلاق التى سيطروا عليها منذ سنة ، ١٠ أشهر ، ٢٦ يوما والأراضى العثمانية التى استولوا عليها قبل الحرب الأخرى بعد إخلائها ، وأعادوا إلى العثمانية كذلك ، قلعة خوتين التى كان قد استولى عليها الروس خلال الحرب وأعطوها إلى الألمان . كان مكسب الألمان الوحيد ، هو انتقال قصبة اورشوفا Orsova التى تقع بين أردل وأفلاق إلى الألمان ، أثناء إجراء تعديلات الحدود . كانت هذه الحرب هى آخر حرب تركية – ألمانية فى التاريخ . لم تحارب تركية ، أية دولة ألمانية بعد ١٧٩١ .

أخذت روسيا كذلك ، تميل نحو السلم بوساطة انكلترا وبروسيا . وبعد مضى ٦ أيام على مصالحة Zistovi تم التوقيع على مهادنة Kalas (بالرومانية : Galati) . أستمر مؤتمر ياش مدة ٤ أشهر . أنهت معاهدة ياش Yas (١٧٩٢/١/٩) الحرب الروسية – العثمانية ، أخليت كل من بغدان ، بيسارابيا ، بودوليا الجنوبية بوجاق وأعيدت إلى العثمانية . أما ساحل البحر الأسود الواقع بين نهرى Bug ودنيستر ، Özü (Oezakov) ، قيلبورون ، خوجا باشا (اوديسا) مع قلاعها فقد انتقلت إلى روسيا . أنقذت الثورة الفرنسية والتوازن الدولى الدقيق فى أوروبا ، العثمانية من خسائر أكبر . ولكن كان يتحتم تجديد الجيش العثمانى وتنظيمه ، حتى لاتتعرض العثمانية لمثل هذه الخسائر فى المستقبل .

٥) جلوس سليم الثالث (١٧٨٩/٤/٧)

أصيب عبد الحميد الأول بنزيف فى المخ ومات ، عند قراءته عريضة الصدارة التى تبين سقوط قلعة اوزو فى اوكرانيا وذبح الأهالى المدنيين . بالسيف . تبين ظروف وفاته ، طبيعته ، ومبلغ أصالته وإنسانيته وشعوره بالمسئولية . كان رقيقا ، مؤدبا ، رحيما ، وطنيا متحمسا ، مصلحا باعتدال .

جلس على العرش ابن أخيه سليم الثالث ، الذى كان يشغل منصب ولى العهد طيلة مدة سلطنة عبد الحميد الأول التى استغرقت أكثر من ١٥ عاما . جدد العرش ، شبابه ، فقد كان سليم الثالث أصغر من عمه عبد الحميد الأول بـ ٣٦ سنة ، ٩ أشهر ، ٥ أيام كانت سن سليم الثالث ، الأبن الوحيد لمصطفى الثالث ، يتجاوز الـ ٢٧ عاما بـ ٣ أشهر و ١٤ يوما ، وكان عمره عندما تولى ولاية العهد إثر وفاة أبيه وجلوس عمه على العرش ١٢ عاما . كان أبوه وهو فى سنه هذه ، يستصحبه معه فى السفرات القريبة والمناورات . أتاح له عمه السلطان عبدالحميد الحر التفكير ، خلال مدة ولاية عهده الطويلة ، حياة حرة واتصالات واسعة ، وحتى بعد المحاولة الانقلابية التى دبرها خليل حميد باشا ، لم يقلص من حرية ولى عهده وابن أخيه ، الا القليل جدا . ويمكننا القول أن سليم الثالث ، هو أرق الخاقانات الذين أتوا بعد السلطان مراد الثالث الذى توفى فى ١٥٩٥ من جهة الثقافة والتحصيل ، وهو كذلك أعظم الخاقانات الذين أتوا بين مراد الرابع (١٦٢٣ - ١٦٤٠) ومحمود الثانى (١٨٠٨ - ١٨٣٩) . وهو كذلك الوحيد من بين سلالة بنى عثمان الذى وصل إلى درجة النبوغ فى أى فرع من فروع الفنون الجميلة ، كان ملحنا نابغاً ، وشاعراً ، وخطاطاً ، وعازفاً على الناى ، ملماً باللغات الشرقية تمام الألمام . مولوليا ، ذكيا ، مجتهدا ، وطنيا ، مصلحاً . ورغم زواجه فى تواريخ مختلفة بـ ١٦ امرأة ، لم يخلف أولاداً ، انقرض فرع مصطفى الثالث واستمر فرع عبد الحميد الأول .

دامت صدارة قوجايوسف مدة ٣ سنوات ، ٤ أشهر ، ١٤ يوما . احتل مكانه حسن باشا ، قائد Vidin (١٧٨٩/٦/٧) ؛ وبعد ٥ أشهر ، ٢٦ يوما جاء القبطان دريا جزائرلى غازى حسن باشا (١٧٨٩/١٢/٣) ، وبوفاته فى Sumnu بعد ٣ أشهر ، ٢٨ يوما (١٧٩٠/٣/٣٠) ، تصدر جلبى - زاده شريف حسن باشا محافظ راخوفا ، أى أن ٣ صدور عظام اسماؤهم حسن باشا تصدروا مددا

قصيرة الواحد تلو الآخر ، ومنهم غازى حسن باشا الاميرال المشهور الذى شغل منصب قبطان دريا (مشير البحر) مدة ١٨ سنة ، وشهرا ، ١٥ يوما ، وقد كانت هذه المدة هى أطول مدة بين كافة الذين شغلوا منصب قبطان دريا فى التاريخ العثمانى (قيليج على باشا هو الثانى فى تسلسل المدد ، داماد بياله باشا الثالث ، باربا روس خير الدين هو الرابع وهؤلاء فى العصر ١٦) أعدم شريف حسن باشا فى Sumnu بعد ١٠ أشهر ، ١٢ يوما (١٧٩١/٢/١٥) . تصدر قوجا يوسف باشا للمرة الثانية وعزل بعد سنة ، وشهرين ، ١٧ يوماً (١٧٩٢/٥/٤) . مجموع صدارتيه الاثنتين ٤ سنوات ، ٧ أشهر ، ويوم . عين داماد ملك محمد باشا ، صدراً أعظم ، وكان عمره ٧٢ عاما وهو أقدم وزير (بالعثمانية شيخ الوزراء) ، وهو ابن فندقليلى سليمان باشا وصهر أحمد الثالث . شغل منصب قبطان دريا لمدة ٤ سنوات ، ٨ أشهر ، ١٧ يوما ، كان واليا على كريت ، جاء من كاندية واحتل منصب الصدارة . كان قد مضى على نيله مرتبة الوزارة مدة ٣٩ عاما . أعلن فى عهدة النظام الجديد (نظام جديد) .

٦) بدء دور النظام الجديد (١٧٩٣/٢/٤)

طلب سليم الثالث فى ت١/١٧٩١ من ١٩ تركيا وأجنبيين أن يقدم كل منهم تقريرا عن أسباب فقدان الإمبراطورية قدرتها السابقة ، واقتراح الإصلاحات التى يلزم إجراؤها حاليا لاستعادتها تلك القدرة (عاصم ، ١ ، ٣٤ ومابعده ؛ جودت ، ٦ ، ٣ ومابعده) . تركز الـ ٢١ تقريرا حول نقطة واحدة : مؤداها أن الدولة العثمانية قد فقدت قدرتها السابقة ، وإن مؤسساتها قد أصبحت فاسدة أو معطلة عن العمل ، وأن الأمر يحتم إجراء إصلاح (Reform) . وكان أصحاب التقارير يبحثون عن العلاج .

كان هناك ٣ جماعات أساسية :

المثاليون المحافظون : كانت العثمانية فى الماضى دولة عالمية ، لم يكن لها منافس ، كانت جميع مؤسساتها فى ذلك العهد قوية تماما . يمكن العودة إلى تلك المؤسسات ولو أمكن إحياؤها لأمكن،بالطبع ، إعادتها إلى قدرتها السابقة .

الرومانطيقيون : « سبقتنا أوروبا فى بعض المجالات منذ مدة . لنأخذ تكنولوجية اوروبا غير الموجودة لدينا ونهضمها دون أن نبدل نظامنا ، ودون استعجال . ولما كان واقع الأمر أن المسافة التى بيننا وبين أوروبا قد انفتحت قبل ٣٠ عاما ، فإنه من الممكن اللحاق بهم بسرعة وعودتنا إلى مركزنا السابق كأكبر دولة » .

الراديكاليون القائلون بتبديل النظام : « من الواضح أن أوروبا الآن قد سبقتنا فى بعض المجالات . ولو بقينا على نظامنا هذا ، لسبقونا فى كافة المجالات . لنغير نظامنا نحن كذلك ونلحق بهم ونسبقهم . ولسنا أقل منهم قدرة أو ذكاء » .

قرأ سليم الثالث ، الـ ٢١ تقريرا . تذكر الإصلاحات التى حققها أسلافه الخاقانات والوزراء ، والتى عزموا على تحقيقها فى السابق قبل مدة ليست بالقصيرة واتخذ قراره دون تردد : سيطبق الشق الثالث . ستطبق الإصلاحات الأساسية (الراديكالية) . سوف يتبدل النظام . ووجد له اسم : النظام الجديد = (بالعثمانية : نظام جديد) .

بعد مضى عصرين ، يمكننا نحن المؤرخين أن نقول : إن البادشاه كان محقا فى ترجيحه ذلك الشق . لكن هناك شيئا غاب عن نظر البادشاه هذا الشىء مهم جدا ، لم يستطع البادشاه أن يراه ، لكننا نستطيع رؤيته اليوم بعد دراستنا للأحداث ، ذلك هو :

أن الراديكاليين الذين رجح البادشاه وجهة نظرهم ، قد يبدون فى ظاهر الأمر متفقين ، لكنهم فى الحقيقة يمثلون ٣ جماعات :

جماعة القائلين بأفضلية كل شىء أوروبى ، وأن كل شىء تركى ، عثمانى ، – ويجوز – إسلامى ، هو فاسد . وهؤلاء ، يعتبرون رومنطيقيين ، كما أنهم يتنكرون للتاريخ التركى والعثمانى والإسلامى .

جماعة المصلحين الحريصين جدا على الثروة والنفوذ والسلطة، وهؤلاء غايتهم الحصول على المناصب وامتصاص البلاد تحت شعار الإصلاح والتظاهر بالنظام الجديد .

و .. رجال الدولة المخلصون الذين يريدون نهضة تركية بإجراءات أساسية (راديكالية) سريعة .

كانت هذه الجماعة الراديكالية الأخيرة ، مقبولة . ومن الطبيعى أن تكون كذلك ؛ إذ لايمكن الحصول على نتيجة ، إلا بترجيح رؤية هؤلاء . ومن الطبيعى أنه فى حالة تدخل الجماعتين الاخريين ، فان جماعة المخلصين هذه ستكون على مر الزمن ، غير قادرة على العمل .

والحاصل أن السلطان سليم الثالث ، اعتبر الراديكاليين كتلة واحدة . كان هؤلاء من مؤيدى النظام الجديد ، وكان واجبه كسلطان ، الدفاع عنهم تجاه المحافظين ، وحمايتهم من أن يكونوا لقمة سائغة لهم . وعند الشروع فى تطبيق النظام الجديد ، كثر عدد المصلحيين الذين لاهم لهم غير الانتفاع ، ظاهرا : يقولون بالنظام الجديد ، « النظام الجديد » وعملاً يركضون وراء جمع المال والملك ؛ والمناصب والرفعة والشهرة . ولذلك فقد أخذ المحافظون يتساءلون « أهذا هو النظام الجديد ؟ » ، أهؤلاء مرغوب فيهم أكثر منا ؟ « وفى النهاية » لماذا يقدم هؤلاء علينا ؟ . يجب وقفهم عند حدهم . أخذت كتلة رجال الدولة ذوى النيات السيئة الذين همهم الانتفاع بدعوى أنهم المحافظون فى تحريض كتله المحافظين الوطنيين المخلصين حقا . فتر حماس الكتلة الكبرى تجاه النظام الجديد وتجاه موجده وممثله الخاقان ، وامتنعوا عن مساندته بإخلاص . والحقيقة أنه لايمكن تحقيق إصلاح حقيقى ، دون الاستناد إلى الكتلة الكبرى . كان من الممكن إجراء إصلاح فى الجماعات الصغيرة والهبوط تدريجيا من الأعلى إلى القاعدة ، إلا أن هذا ، لايعنى نهضة بالمعنى الصحيح .

فى الديمقراطية الغربية لانجد فرقا بين جوهر أهداف المحافظين والمصلحين من حيث المصالح العليا للدولة،ونشاهد أن كلا من الجماعتين تتولى الحكم ولانلحظ خلافاً كبيراً بين أعمال بعضهم البعض .

سليم الثالث هو أول مصلح ، ورائد حقيقى فى التاريخ العثمانى كله ، فى جميع العالم الإسلامى ، فى كامل آسيا ، يستلهم أوروبا بقصد أخذ تكنولوجيتها العليا . كل الذين جاءوا بعده ، قلدوه .

كان أصحاب التقارير الـ ٢١ ، من أكثرهم تحفظا إلى أكثرهم راديكالية ، متفقين

فى نقطة واحدة هى أن : الإصلاح يجب أن يبدأ فى الجيش أولا ! كان اتفاقا مدهشا . مدهشا بالنسبة إلى تشكيلات الإنكشارية . ترى هل ترضى هذه التشكيلات بالاصلاح ؟ لم يتردد سليم الثالث ابدا : كان هنالك بين اجداده ، وبين الوزراء كثيرون فقدوا رءوسهم القيمة ولكنهم لم يتمكنوا من إصلاح الإنكشارية . كانت هنالك حاجة إلى جيش لايتدخل فى شئون الدولة والسياسة ، ولاينهب الشعب عن طريق تدخله فى السياسة ، ويطيع قيادته طاعة عمياء ويكون ملما الماما جيدا بالعسكرية الحديثة . هذا الجيش سوف لايشتغل بالصناعات ، لايفرض الضرائب ، لايزاول أعمال النهب ، لايرفع السلاح فى وجه وطنه وضابطه ، لاينهزم عند رؤيته العدو . سيكون على النظام والضبط الذى كان عليه الجيش فى عهد القانونى ، لكنه سيكون مجهزا بتكنولوجية العصر . سيكون غذاؤه جيداً ، لباسه جيدا ، راتبه جيداً

تابع السلطان سليم ، بكتبه الهمايونية المستمرة ، حركة التجدد (النظام الجديد) خطوة بخطوة وقام بتوجيهها . نشرت كتبه الهمايونية (الأوامر السلطانية) حول النظام الجديد فقط فى مجلدين . أسست خزينة ودفتر دارية (مالية) خاصة بالنظام الجديد لغرض الاصلاحات . وجعلت كوزارة مالية ثانية للدولة . وشرعت الدولة أولا فى تخريج جيش المشاة الحديث ، المدفعية الأكثر حداثة ، رغم أنها أصلحت مسبقا ، المختصين فى القنابل اليدوية (همباره جى) ، فى الاستحكام (لغمجى) ، فى النقل (عربه جى) . أنشأت معسكرات كبيرة لهذه الأغراض فى مناطق لوند ، اسكدار ، سليمية . ومن ناحية أخرى ، كانت تشكيلات القابوقولو ورؤساؤهم التابعون لهم الإنكشارية ، لاتزال مستمرة . استقدم من أوروبا الضباط ، والمهندسين ، والبحريين . البس الجيش ملابس بطراز مستنبط من اللباس الأوروبى .

لم يكن الاصلاح فى البحرية التركية ، بدرجة الاصلاح فى الجيش البرى . لان سلك البحرية كان سلكاً اكثر استناداً على التكنولوجية ، ولم يكن متخلفا إلى الدرك الذى انحط إليه الجيش . لكن السلطان سليم ، كان يريد بحرية ذات قدرة كذلك . أمر بإنشاء أحدث السفن الكبيرة . عين داماد كوجوك حسين باشا ، قبطان دريا (مشير البحر) (١٠/٣/١٧٩٢) الذى كان شابا فى ٣١ من عمره وأخا فى الرضاعة للسلطان سليم . تطوع لتنمية البحرية حتى وفاته مدة ١١ سنة ، ٨ أشهر ، ٢٨ يوما . ويمكن اعتباره مؤسسا للبحرية التركية الحديثة .

لم يكن الأمر سهلا ؛ لأن كامل الشعب ، كان مؤمنا بصورة عميقة – بأفضلية المدنية والثقافة العثمانية ، على الأوروبية .

أحيل داماد ملك محمد باشا ، الكبير السن إلى التقاعد (١٧٩٤/١٠/١٩) . دامت صدارته مدة سنتين ، ٥ أشهر ، ١٦ يوما . صار عزت محمد باشا بكلربك مصر السابق ، صدرا أعظم . ابن أخ قبطان دريا صفرانبولولو مصطفى باشا وعم القبطان دريا صالح باشا .

أعلن بمرسوم همايونى فى ٢٤ شباط ١٧٩٣ ، نظام حركة التجدد (النظام الجديد) . ضعفت سلطة الباب العالى ولو فى قسم من الايالات ، كان قد مضى النظام القديم الذى كان يدار بشكل مركزى بحت . أصبحت ايالات الجزائر ، تونس ، طرابلس فى افريقيا الشمالية ، كأن لهم استقلالا ذاتيا (Autonomy) . كان بكوات المماليك فى إيالة مصر التى تعتبر الإيالة الأولى فى البروتوكول ، يتمردون على البكلربك – الوزراء الذين ترسلهم إستانبول ، ونشأت بكلر بكوات (ولاة) أرثية ، فمثلا فى سوريا آل العظم ، وفى العراق مماليك الأيوبيين . وتركت اليمن لحالها لإدارة الإمام ، وحصلت عائلات « الأعيان » و « الأشراف » على نفوذ واسع فى منطقتى الأناضول وروملى اللتين تعتبران شريان حياة الدولة . كانوا ينفذون أوامر المركز ، وحتى البادشاه ، فى حدود مايحقق مصلحتهم . يرسل الجيش لتأديب ثلاثة أو خمسة منهم ولكن ، يحتل مكانهم خمسة أو عشرة وهناك من لايقدر عليهم . تفشت حوادث السلب والنهب فى كل مكان واختل الأمن فى المدن وعلى رأسها إستانبول . كانت الإنكشارية ، كأنها مافيا فى إستانبول وخاصة فى روملى ومدن أخرى . كانوا يجمعون الاتاوة من الجميع . كثرت حوادث هتك الأعراض . وبينما كان النظام الجديد فى محاولة تأسيس جيش مقتدر لافشال خطط تقسيم الإمبراطورية التى تحاك لها فى الخارج ، كانت الدولة فى الداخل وجها لوجه أمام هذه المشاكل .

٧) الحرب العثمانية – الفرنسية (١٧٩٨ – ١٨٠٢)

كانت أوروبا ، فى هذه الفترة ، تعيش دور الاضطرابات التى سببتها الحروب التى حدثت نتيجة الثورة الفرنسية الكبرى عام ١٧٨٩ . حدثت الثورة الكبرى فى

نفس السنة التى جلس فيها السلطان سليم ، بعد عدة شهور (نيسان وتموز) . كان الجنرال القدير لفرنسا الثورة – التى أصبحت جمهورية فى ١٧٩٢ – فى أواخر العصر ١٨ ، هو نابليون بونابارت . ومنذ حرب Nigbolu فى ١٣٩٦ أى منذ ٤٠٠ سنة لم تعلن فرنسا ولاتركية الحرب على الأخرى منهما بصورة رسمية . حصلت مناوشات وخلافات كثيرة ولكنها لم تصل إلى درجة القتال العام بين الدولتين . وخلال تلك الفترة ، اثبتت فرنسا أنها أقدر من انكلترا التى سبقتها قدرة عام ١٧٦٣ ، وأصبحت الدولة الأولى فى العالم . قضى الجنرال بونابارت على جمهورية البندقية فى ١٧٩٧ ووضع يده على أراضيها الموجودة فى دالماجيا ، واستولى على جزر ايونيا وأصبحت فرنسا فى وضع محاد لتركية للمرة الأولى . قفز بونابارت إلى الهند ، كان قصده قطع شريان حياة انكلترا أعدى أعداء فرنسا . سار بونابارت ، مع الأسطول وبغارة فجائية ، استولى على مالطه (١٧٩٨/٦/١٢) وأنهى دولة فرسان مالطه . ثم شوهد أمام ميناء الاسكندرية ، دون أن يعلن الحرب على العثمانية (١٧٩٨/٧/١) . لم تستطع أية دولة أن تخمن أن الهدف هو مصر .

الأسطول الفرنسى ، كان يتكون من ٤٥٠ قطعة ، أكثرها سفن نقل . كانت تحمل ٣٥٠٠٠ جندى و ٢٥٠٠٠ من جنود البحرية . كان بونابارت ، أكبر عسكرى فى التاريخ المسيحى ، كان عمره ٢٩ عاما . بقى ١٠ أيام فى الميناء واستولى على المدينة دون أن يمس الأهالى . ذكر فى منشوره الذى اذاعه باللغة العربية ، أنه جاء لمعاقبة بكوات المماليك الذين خرجوا على طاعة البادشاه ، وأنه سوف يترك المكان عند تثبيت سلطة البادشاه ، وأنه يحترم الدين الإسلامى واعرافه وعاداته . جاء مستصحبا معه وفدا كبيرا من العلماء والاخصائيين . دأب هؤلاء على دراسة مدنية وثقافة مصر القديمة والحديثة ، تاريخها وجغرافيتها ، بحماس كبير ونشروا عند عودتهم إلى فرنسا ، كتابهم المشهور Deseription de L'Egypte المكون من ١٩ مجلداً مسلسل (الطبعة الثانية ٢٥ مجلدا) .

تقدم بونابارت من الاسكندرية إلى القاهرة . وفى ١٣ تموز شتت بكل سهولة جنود مراد بك أحد المماليك البالغ عددهم ١٠٠٠٠ ، الذى أراد سد طريق القاهرة (معركة رحمانية الميدانية) . وهزم بونابرت جنود الوزير أبو بكر باشا بكلربك مصر البالغ عددهم ٢٠٠٠٠ فى الحرب الميدانية التى جرت فى الجيزة فى ٢١ تموز ، خلال

وقت يقل عن الساعتين . اشتهرت هذه الحرب باسم « حرب الأهرام » . حيث جرت فى الصحراء فى سفوح الأهرام . وخطاب بونابارت الذى قال فيه لجنده قبل الحرب ؛ « تاريخ ٤٠ قرنا ،ينظر إليكم من خلال هذه الأهرام » ، خطاب مشهور . وفى اليوم التالى ، دخل القاهرة . فرض ضرائب على الاغنياء (أخذ فقط من نفيسه خانم زوجة مراد بك الذى فر إلى الجنوب ١٢٠٠٠٠ قطعة ذهبية).

وبعد عدة أيام ، دخل الأميرال نلسون الذى كان يتعقب الأسطول الفرنسى منذ أسابيع ، إلى الاسكندرية وأحرق فى أبى قير الأسطول الفرنسى برمته (١٧٩٨/٨/١) . ظل الجنرال بونابارت الذى أصبح مجردا من الأسطول ، حبيساً فى مصر .

عزل الصدر الأعظم عزت باشا ، على أساس أنه كان قبل تصدره الوزارة بكلربك على مصر وأنه رغم اطلاعه على مصر بصورة جيدة ، لم يتمكن من تجهيز الإيالة ضد الخطر الخارجى (١٧٩٨/٨/٣٠) . لم يكن هذا السبب صحيحا ، إذ إن ماحققه بونابارت من أعمال فى القارة الأوروبية ، كانت أعمالا فوق العادة مثل فتحه مصر . دامت صدارة عزت باشا ٣ سنوات ، ١٠ أشهر ، ١٢ يوما . تصدر الوزير يوسف ضياء الدين باشا بكلربك ارضروم . كان مثقفا ، ورجل دولة قديرا .

أعلن الباب العالى الحرب على الجمهورية الفرنسية (١٧٩٨/٩/٢) . وعلى هذا أصبح حليفا طبيعيا لانكلترا التى تحارب فرنسا . وقعت الاتفاقيتان العثمانية – الروسية (١٧٩٩/١/٣) والعثمانية – الانكليزية (١٧٩٩/١/٥) ، ضد فرنسا .

سار بونابارت ، فى أوائل شباط (١٧٩٩) من القاهرة . احتل غزه فى ٢٥ شباط ودخل فلسطين . وفى (١٣ آذار) جاء إلى يافا وذبح بالسيف مايقرب من الـ ١٠٠٠٠ جندى ومدنى عثمانى . اقترف هذا الجرم لإرهاب السكان المحليين والاستيلاء على سورية دون مقاومة . وفى (١٩ آذار) جاء أمام عكا وهى أقوى قلعة محصنة فى المنطقة . كان الوزير جزار أحمد باشا ، هو الذى يدافع عن القلعة . وكان وضعه جيدا لتسلمه الامداد من جنود النظام الجديد من إستانبول قبل فترة وجيزة . قدم الاسطول المشترك التركى – الانكليزى إلى مياه عكا وفتح النار على الفرنسيين ، الا أن هذا القصف لم يكن بالغ التأثير على الفرنسيين ، ولكنه رفع معنويات مدافعى

عكا وزاد من حماسهم . ظل بونابارت دون حراك أمام عكا . كان رجل حرب ميدانية . نفر من حصار القلعة . لكنه كان متورطا فيه ، وعندما قدمت فى ٧ مايس وحدة جديدة من وحدات النظام الجديد المؤلفة من ٣٠٠٠ جندى ووفقوا فى دخولهم قلعة عكا ، أصبح الفرنسيون فى وضع خطر . كان بونابارت قد ترك عدة آلاف من الجند فى القاهرة . وعلى أثر فشله فى عكا ، علم بقيام عصيان فى القاهرة . وفى ٢١ أيار قطع أمله فى الحصار الذى دام شهرين و١٤ يوما ، ودفن بصورة سرية كافة مهماته وانسحب من عكا . وفى ١٤ حزيران ، نجا بنفسه حيث وصل إلى القاهرة بعد أن طاردته وحدات الجيش العثمانى المظفرة . وقال بعدها « لولا أن وقفت عكا فى طريقى ، لاستوليت على الشرق برمته » .

استقبلت أوروبا بسرور هذه الخسارة الأولى لبونابارت . أرسل سليم الثالث ، إلى جزار أحمد باشا اكليلا من الذهب ، ومنح نلسون الذى أحرق الأسطول الفرنسى وساما من الماس . ولم يزج بونابارت نفسه ابدا ، بعد ذلك التاريخ ، وإلى نهاية حياته فى حصار قلعة ، وبحث عن العدو دائما فى الصحراء المفتوحة .

أنزل كوسه مصطفى باشا ، قرب الإسكندرية ٨٠٠٠ جندى بواسطة ٨٠ سفينة . لكن الفرنسيين أسروه . (١٧٩٩/٧/٢٥) . تخلص أكثرية جنوده من الفرنسيين بصعوبة ، بهروعهم إلى الأسطول . سار جيش من إستانبول متوجها إلى مصر . يظهر فى هذا الوضع أن ليس لبونابارت حظ فى الشرق . ترك مصر فى ٢٥ تموز فى سفينتين . وتمكن من الوصول إلى فرنسا ، دون أن تشعر به الأساطيل الإنكليزية والعثمانية . كان يريد إجراء المساومة حول مصر ، فى باريس . كان قد بقى فى مصر مدة سنة ، شهر ، ٢١ يوما . لم يتمكن من نسيان ذكرياته فى الشرق حتى نهاية حياته . عين Kléber اقدر عسكرى بين جنرالاته لقيادة الجيش الفرنسى فى مصر ، وخلال وجود بونابارت فى مصر ، احتل الاتفاق العثمانى – الروسى جزر ايونيا وموانىء أبير الموجودة فى حوزة فرنسا . وبموجب معاهدة ٢١ آذار ١٨٠٠ ، أعيدت إلى تركية الموانىء الأربعة الموجودة فى أبير Epir ، وبضمنها Preveze . وأسست جمهورية الـ ٧ جزر فى جزر ايونيا (كورفو..الخ .) وأعطيت لادارة العثمانية مثل جمهورية Dubrovink . تسدد للباب ضريبة سنوية قدرها ٣ ملايين آقجه .

كانت فترة النصف الأخير لعام ١٧٩٩ ، عام ١٨٠٠ ، النصف الأول لعام ١٨٠١ ، مليئة بالمصاعب المتزايدة بالنسبة لجيش الاحتلال الفرنسى فى مصر . انتخب الجنرال بونابارت فى باريس رئيسا للجمهورية بلقب « القنصل الأول » وكان يستعد لإعلان نفسه إمبراطورا . جاء الصدر الأعظم والسردار الأكرم (القائد الأعلى) يوسف ضياء الدين باشا ، إلى غزة . أراد الدخول إلى القاهرة ، لكنه انهزم أمام Kléber . ومنى عظم - زاده وزير نصوح باشا ، بنفس العاقبة . وفى ١٤ حزيران (١٨٠٠) ، طعن ، تركى عمره ٢٤ عاما أسمه كليسلى سليمان بك ، Kléber بطعنة خنجر اردته قتيلا . قتل سليمان بك شهيدا بعد تعذيبه بالنار وطعنه بالوتد . سار القبطان دريا (مشير البحر) داماد كوجوك حسن باشا إلى الاسكندرية مع ٧٠ قطعة بحرية وحال دون عودة الفرنسيين عن طريق البحر . وعندما قطع الجنرال Bélard القائد العام الفرنسى الجديد ، أمله فى حصوله على مساعدة من فرنسا ، ولمنع وقوع كارثة ، وقع على اتفاق إخلاء مصر (١٨٠١/٦/٢٧) . دخل الجيش العثمانى فى ١٠ تموز إلى القاهرة وفى ٢٦ آب إلى الاسكندرية التى يدافع عنها الجنرال Menou . اقيمت فى إستانبول الأفراح لمدة ٤ أيام و٤ ليال . منح سليم الثالث لقب « غازى » بصورة رسمية . كان الانكليز قد أخذوا مالطة من الفرنسيين عام ١٨٠٠ .

وقعت معاهدة باريس بين تركية وفرنسا (١٨٠٢/٦/٢٥) وقع المعاهدة باسم فرنسا ، وزير خارجيتها الأمير Talleyrand ، وباسم العثمانية ، سفير باريس وهو من مؤيدى حركة النظام الجديد المشهور غالب أفندى ، الذى صار بعدها الصدر الأعظم غالب باشا . استقال يوسف ضياء الدين باشا ، بعد صدارة دامت ٦ سنوات ، ٧ أشهر ، ٢٥ يوما (١٨٠٥/٤/٢٤) . وهذه أطول مدة صدارة ، اعتبار من ١٧٣٠ وحتى نهاية السلطنة . صار ، قبطان دريا حافظ إسماعيل باشا ، البالغ عمره ٤٧ عاما ، صدرا أعظم .

٨) الوهابية ومشاكل البلاد العربية

أخذت الحركة الوهابية التى ظهرت فى البلاد العربية فى التعاظم على مر الزمن واكتسبت درجة من الأهمية . وضع الفقيه الحنبلى الشيخ محمد بن عبد الوهاب .

أسس مذهب سنى جديد . تتلخص فلسفة المذهب فى إعادة الاسلام إلى منابعه الصافية فى عهد الرسول (ﷺ) ، وتنقية الدين من البدع . صار أمير نجد محمد ابن السعود صهرا للشيخ ، اتبع مذهبه ووفر له الامكانات المادية لنشر المذهب . استمر أخلاف امير نجد محمد ابن السعود الذى دامت إمارته مدة ٣٩ سنة حتى ١٧٦٦ ، على نشر نفس المذهب .

علم الباب العالى باتباع الأمير محمد فى ١٧٤٥ ، المذهب الوهابى . لم يظهر الباب العالى ، فى السنوات الأولى ، اى رد فعل ، بموجب السياسة العثمانية التى ترى عدم التدخل فى شئون المذاهب . ولكن عندما أخذت الحركة الوهابية فى الانتشار خارج نجد ، ارادت الدولة العثمانية أن تتخذ تدبير لذلك . وسع عبد العزيز ابن السعود بن الأمير محمد والذى احتل مكانه بعده والبالغ عمره ٤٣ عاما ، الدعاية لمذهبه وأخذ أتباعه فى الازدياد ودخل الحجاز فى أوائل عام ١٨٠٣ . وبعد حصار دام شهرا واحدا ، احتل الطائف . وفى ٣٠ نيسان دخل مكة . بقى فى مكة ٣ أشهر ، ٦ أيام . استرجع شريف باشا بكلربك الحجاز ، مكة (١٨٠٣/٨/٦) . لكن مجرد بقاء مكة ، ولو لمدة قصيرة بيد الوهابيين ، أحدث تأثيرا كبيرا فى العالم الإسلامى كافة وعرف العالم الإسلامى بالمذهب الجديد . طعن أحد الشيعه الأمير عبد العزيز بخنجر فى الجامع فى عاصمته درعية ، واستشهد (١٨٠٣/١١/٤) . كان عمره ٨٠ عاما . اكتسب المذهب الوهابى قوة كبيرة من خلال دعوته المتصلة طيلة ٣٧ عاما . ورغم شن ، أمير مكة شريف غالب ، ٣ حملات على نجد ١٧٩٠ ، ١٧٩٥ ، ١٧٩٨ لم يتمكن من القضاء على الوهابيين . أغار الأمير عبد العزيز الذى احتل الاحساء فى ١٧٩٠ على كربلاء (١٨٠٢/٤/٢١) ، وفى ١٨٠٠ و ١٨٠١ جاء إلى مكة متنكرا بغرض الحج ودرس وضع المدينة . احتل مكانه ابنه الآمير سعود ابن السعود البالغ من العمر ٥٥ عاما والذى كان يقوم بإدارة الوهابيين ونجد منذ عام ١٧٨٧ باسم أبيه . احتل عمان مرتين فى ١٨٠٣ و ١٨١١ . حكم المدينة مدة ٧ سنوات ، ٥ أشهر (حزيران ١٨٠٥ - ١٨١٢/١٢/٢) ومكة مدة ٧ سنوات (ك١٨٠٦/٢ - ١٨١٣/١/٢٣) .

وهكذا انتقلت المشكلة الوهابية من عهد سليم الثالث إلى عهد محمود الثانى . كانت تدير البلاد العربية الأصلية فى النظام العثمانى السلالات المحلية التى يترأسها حكام

محليون باسم شيخ أو أمير . ويوجد فى مكة والمدينة أحد شرفاء الهاشميين بلقب أمير . كان يشرف على إدارة القسم الغربى من البلاد العربية ، بكلربك العثمانية الساكن فى جدة ، أما القسم الشرقى فكان يديره بكلربك البصرة أو بغداد ، وفى بعض الأوقات بكلربك الإحساء ، ويدير القسم الشمالى بكلربك الشام . كان البكلربكوات (الذين برتبة فريق) يسعون فى تنظيم علاقات الشيوخ مع الأمراء التى لم تكن جيدة .

ظهر الوضع الذى فتح المشاكل الكبيرة على الباب العالى والدولة العثمانية ، فبينما كان الباب العالى يشك فى بكوات المماليك ، إذ بهذه المصيبة تتطور بالشكل الذى لايؤمل ، وتأتى على يد شخص يأتى من الخارج ، هو محمد على باشا .

عندما دخل محمد على أغا ، مصر فى ١٧٩٩ ، كان عمره ٣٠ عاما . كان أميا ولايجيد العربية أبدا . ولد فى Kavala فى مكدونيا الجنوبية . كان واحدا من ١٧ ولدا لإبراهيم أغا ، أحد الضباط العثمانيين من عائلة جاءت من قونيا وسكنت مكدونيا . جاء محمد على من قاوالا إلى مصر كمساعد لابن عمه خليل آغا الذى عين بأمر الدولة قائدا لسرية مؤلفة تقريبا من ٢٠٠ متطوع اختيارى . كانت مصر لاتزال تحت الاحتلال الفرنسى . وعندما فر خليل آغا إلى قاوالا ، ترأس محمد على السرية . أخذ يكتسب الأهمية بصورة مطردة بعد الاحتلال الفرنسى . سخر الجنود المتطوعون الانكشاريون الموجودون فى مصر ، بكوات المماليك ، ضد البكلربك خسرو باشا (الذى صار صدرا أعظم بعد ذلك) . كان يقبض على بكوات المماليك الذين يخرجون على طاعة الباب العالى ويقطع رءوسهم . جذب انتباه الباب العالى ، هذا الضابط الشاب ، الذى عمل مالم يستطع عمله بكلربك مصر ، فبدأ يعتمد عليه . عرض محمد على على الباب العالى ، أنه سيذهب إلى الجزيرة العربية ويقضى على الوهابية ، فيما إذا منح رتبة البكلربك . أصبح محمد على بكلربك مصر برتبة وزير (١٨٠٥/٧/٨) . وخلال ٦ أشهر احتل مصر ذلك القطر الكبير الذى لم يكن يعرفه من قبل .

٩) الثورة الصربية والحرب مع روسيا (١٨٠٦)

ثار الصرب فى ١٨٠٦ . أحد أسباب الثورة هو فكرة القومية التى نشرتها الثورة الفرنسية فى كافة أوروبا وانتقال شرارتها إلى الأقوام المسيحية للدولة العثمانية . السبب الآخر ، هو معاملة جماعة الإنكشارية بوجه خاص للمسيحيين فى البلقان معاملة سيئة ، كان الانكشاريون خلال هذه الأيام ، قد مزقوا محافظ بلغراد حاجى مصطفى باشا . ويمكن أن تتصور زمرة تعامل قائدها بهذا الشكل ، كيف يمكن أن تعامل المسيحيين . وكما هو الحال فى الأناضول ، فان روملى وهى الجناح الآخر للدولة ، كانت كذلك تحت سيطرة الأشقياء الذين يطلق على أكبرهم اسم « أعيان » وكان لبعضهم جيش لايستهان به ؛ فمثلا ، كان لكل من بازفان اوغلو عثمان آغا فى Vidin ، تيرسينيكلى اوغلو اسماعيل آغا فى روسجك قوة كبيرة.. ولسحق أعيان روملى ، استدعى سليم الثالث ، الوزير قاضى عبد الرحمن باشا اشهر قواد حركة النظام الجديد ، من قونية إلى إستانبول . سار الباشا ، مع ٢٤٠٠٠ من جنود النظام الجديد إلى إستانبول (١٨٠٦/٦/٢) . سار فى ١٥ تموز إلى أدرنة وفى الطريق ، قضى على من صادفه من الأعيان ، اقطاعيين ، اشقياء ، جبابرة . شكا اعداء النظام الجديد من رجال الدولة الموجودين فى إستانبول ، الباشا ، إلى السلطان بأنه سفك دماء المسلمين . أمر السلطان سليم ، عبد الرحمن باشا ، بالعودة . وبهذا فقد عرقل عملية تنظيف روملى من الأشقياء الجبابرة ، وإضافة إلى ذلك ، سبب اتساع ثورة الصربيين . ومن ناحية أخرى ، كان ذلك تنازلا كبيرا لأعداء النظام الجديد ومشجعا لهم .

لم يكن كل الأعيان من أعداء النظام الجديد ، بل كان بعضهم من مؤيديه ، وأحد هؤلاء هو أعيان Serez إسماعيل بك . والآخر ، هو علمدار مصطفى آغا ، أعيان روسجك الذى احتل مكان تيرسينيكلى اوغلو بعد مقتله .

شجعت ألمانيا (النمسا)، الثورة الصربية . كان زعيم الثورة ، قره يوركى صنيعة فينا . وفى ١٨٠٤ ، خان أسياده ، وتقرب إلى روسيا من حيث المذهب والقومية . وبعد كفاح طويل احتل بلغراد وذبح بالسيف كافة المسلمين فى المدينة (١٨٠٦/١٢/١٣) . أعلنت روسيا الحرب على العثمانية ، بغية استمرار الثورة

الصربية وعدم القضاء عليها وعلى أمل الحصول على فتوحات جديدة .

استولى الجنرال Mihelson مع ٦٠٠٠٠ جندى على Bender (١٨٠٦/١٢/٨) ، وخوتين (١٨٠٦/١٢/١٦) . وبعد استيلائه على Akkerman و KIlye ، احتل سواحل البحر الاسود لبيسارابيا . انهزم فى اسماعيل ووقف عند دلتا الطونه . بدأت حرب روسية - عثمانية بعد ١٤ سنة ، ١١ شهراً ، و١٤ يوما من معاهدة ياش . انتقلت الحرب من عهد سليم الثالث إلى عهد محمود الثانى .

عزل الصدر الأعظم حافظ اسماعيل باشا ، بسبب تصريحه بعدائه لحركة النظام الجديد بعد سنة ، ٦ أشهر ، ٢٠ يوما (١٨١٦/١١/١٤) . صار ابراهيم حلمى باشا آغا الإنكشارية ، صدرا أعظم وسردارا أكرم . وعندما سار إلى الجبهة ، صار الوزير كوسه موسى باشا قائمقام الصدارة (وكيل رئيس الوزراء) فى إستانبول . وعندما انتصر ، خلال هذه الاثناء ، وإلى سلستره الوزير علمدار مصطفى باشا قرب بخارست ، على الروس للمرة الثانية ؛ هرعت انكلترا لنجدة حليفتها روسيا لانقاذها من وضعها السيىء . سار أسطول البحر الأبيض الانكليزى المكون من ١٦ سفينة حربية بقيادة الفريق البحرى الأميرال John Dukworth ، ورغم أنه اجتاز مضيق جناقلعة وجاء أمام إستانبول (١٨٠٧/٢/٢٠) ، إلا أنه خرج مستعجلا من بحر مرمره . وفى هذه المرة ، قرر نفس الاميرال تجربة حظه فى مصر . احتل الإسكندرية (١٨٠٧/٣/٢٠) . لكن بعد عدة شهور ، أخرجه من الاسكندرية قاوالالى محمد على باشا . صنع هذا الانتصار لمحمد على باشا البالغ عمره ٣٨ عاما شهرة كبيرة فى أوروبا . الصدر الأعظم الذى سار فى ١٢ نيسان (١٨٠٧) وصل سلستره فى ٢٤ أيار . ولرفض تشكيلات القابوقولو ، الخروج إلى الحملة سوية مع جنود النظام الجديد ، لم يرسل الجيش الجديد إلى الجبهة . من الواضح أن دولة كهذه ، لايمكنها الانتصار فى حرب كبرى . ولكن عند الوصول إلى سلستره ، رفضت الإنكشارية عبور الطونه ودخول رومانيا خوفا من الروس الذين كانوا قد ضربوهم ضربا مبرحا فى الماضى ، ولان الروس لم يتمكنوا من حشد قوات كبيرة على الجبهة ، خوفا من نابليون ، أنقلبت الحرب إلى حرب تعادل . أخذ الأسطول الروسى بالتجوال حول بوزجه آدا ، لكنه انسحب عندما جاء القبطان دريا (المشير البحرى) جزائرلى

سيدى على باشا . استولى الروس فى قفقاسيا على تفليس . منح يوسف ضياء الدين باشا الصدر الأعظم الأسبق وبكلربك ارضروم لقب السردار (قائد) وانيط به الدفاع عن الجبهة الشرقية .

١٠) ثورة قباقجى (١٨٠٧/٥/٢٥)

عندما كانت الدولة العثمانية فى حالة حرب مع انكلترا وروسيا اللتين كانتا الدولتين العالميتين المقتدرتين الثانية والثالثة بعد الإمبراطورة الفرنسية ، وكان وضعها الداخلى كذلك يرثى له ، وحتى إستانبول كانت بؤرة للإرهاب ، حدثت ثورة تشبه ثورة باترونا التى جرت قبل ٧٧ عاما ، وأكثر منها ضررا من حيث النتائج . كانت حركة رجعية تماما .

كان العلماء فى البداية ، مترددين تجاه حركة النظام الجديد . كان بينهم من يؤيد الحركة . لكن عدم قدرة بعض رجال النظام الجديد ، وسوء تصرفهم شاع بشكل مفضوح . بدأ العلماء فى المعارضة . وعند مجيء اسحق - زاده محمد عبد الله أفندى إلى المشيخة (١٨٠٦/١١/١٤) ، وعلى الرغم من أنه كان من عائلة قره اسحق - زاده التى شرفت التاريخ العثمانى والتى قدمت الكثير من شيوخ الاسلام ، أخذ على عاتقه عملا غير شريف وحرض العلماء على العصيان ضد النظام الجديد وضد مؤسس هذا النظام البادشاه . من ناحية أخرى كان سليم الثالث كثير التنازل ، كان فناناً كبيرا يتحاشى سفك ولو قطرة واحدة من الدماء . لم تكن اخطاؤه قليلة ، كان كأنه يريد هدم آثاره التى أنشأها بيده . ظن أنه إذا قدم تنازلاً ، فإن المعارضين سيلينون ، والحال ، انهم تشجعوا . لم يتمكن رغم محاولاته ، من تصفية تشكيلات القابو قولو . أما هم ، فكانوا يعلمون أنهم يعيشون أيامهم الأخيرة . سواء كانوا الجند المخلصين الذين يؤمنون بأن ابتعادهم عن تقاليدهم ، وتركهم تشكيلات تقلل من شرفهم ، أو الذين يخشون من فقدانهم الكثير من دخلهم حيث سيقتصر الدخل على الراتب فقط فى حالة دخولهم النظام الجديد ، لم يكونوا راغبين فى الانفصال عن تشكيلات القابو قولو وتسجيل أنفسهم

فى حركة النظام الجديد . كان عدد جنرالات الإنكشارية المثقفين الذين يوقنون بعدم إمكان القتال مع الدول الأوربية بواسطة هذه التشكيلات كبيراً ، وكان هؤلاء مقتنعين بانه ليس هنالك حل بغير الغاء هذه التشكيلات ، ولم يكن هؤلاء يخشون فقدان مناصبهم بسبب كونهم من ذوى الرتب العالية ، حيث أنهم بطبيعة الحال سوف ينقلون إلى مناصب أخرى . لكن عدم وجود الشجاعة الكافية لدى البادشاه لالغاء هذه التشكيلات ، زادت من شجاعة المعارضين . كان رجال الدين الجهلة المتعصبون تعصبا أعمى يدعون أن جيش النظام الجديد كافر لانه يرتدى البنطلون (السروال) بدلا من الشالوار (لباس يغطى النصف الأسفل من الجسم عريض وواسع) ، وأن البادشاه سوف يلبسهم القبعات كذلك وكانوا يثيرون الجهلة بمثل هذه الأقوال . خصصت الدولة للنظام الجديد ميزانية ضخمة قدرها ٣ مليارات آقجه . أما زمرة القابو قولو فكانوا يتسلمون رواتبهم التى تسمى علوفه بصعوبة . كانت الدولة تدفع رواتبهم كرها وتتعمد تأخيرها ، لأنها تعلم أنهم جميعا يشتغلون بالصناعات المختلفة ويتسلمون الجزية . لم يكن من السهل إعاشة جيش طفيلى بالاضافة إلى اعاشة جيش نظامى . كانت هذه التغييرات التى من الواضح جدا أنها من النمط الأوروبى ، تستثير المواطن المحافظ . ولم يكن هؤلاء قليلين . كانوا يتساءلون ، بأى جيش ذهبنا إلى فينا ؟ ولم يكن أحد منهم يسأل نفسه بأى جيش دافعت أوروبا عن فيينا . كان سليم الثالث ، يعامل ولى عهد - شهزاده مصطفى الذى كان يعامله أبوه بشفقة كبيرة عندما كان وليا للعهد ، معاملة حسنة جدا . لكن السلطان مصطفى هذا ، كان يحرض معارضى النظام الجديد ضد السلطة فى سبيل اعتلائه العرش ، وحتى ولع سليم الثالث بالفنون الجميلة ، عزفه على الطنبور ، الناى ، غنائه ، تلحينه .. كان موضوع نقد . هل يليق بالخاقان - الخليفة أن ينصرف إلى أعمال غير لائقه كهذه ؟ أخوات البادشاه ، السلطانه بيخان ، والسلطانتان خديجة وأسماء والأخت الكبرى لولى العهد ، كن يعشن حياةً تكاد تكون أوروبية فى السرايات (القصور) الكائنة على المضيق . كن يتقابلن مع رجال الفن الأوروبيين كالمعمار Melling ، ويستمعن بنشوة إلى الاشعار الغرامية كأشعار الشيخ غالب . وصار ذلك موضوعا للقيل والقال فى الأوساط المتعصبة .

وفى ٢٥ أيار ، تمرد مساعدو الانكشارية الموجودين فى فتحة مضيق إستانبول على

البحر الأسود، بتحريض من رجال الدولة السالف ذكرهم ، ونصبوا على رأسهم جنديا اسمه قاسطامونيلى قباقجى مصطفى . رفضوا لبس ملابس النظام الجديد ومزقوها . مزقوا شر ممزق محمود رائف أفندى ناظر المضيق رئيس الكتاب (وزير الخارجية) السابق ، الفنان والعالم المتميز المسمى « انكليزى » لأنه أكمل تحصيله فى انكلترا . عدة مئات من الغوغاء السفلة الذين مزقوا قائدهم خاصكى خليل آغا ، أخذوا ينتظرون الأوامر من رئيسهم الحقيقى كوسه موسى باشا (لغرض إنقاذ الشريعة) ، الذى كان وكيلا للصدر الأعظم الذى ذهب إلى الحرب ، وبعد أن أمر الباشا بعدم خروج جنود النظام الجديد من معسكراتهم ، أقنع البادشاه ، بأنه سوف يتمكن من القضاء على هذه الحفنة من العصاة بواسطة البستانجى لر (محافظى حدائق السراى) ، وأن اقحام وحدات النظام الجديد ، سوف يسبب إثارة أفراد تشكيلات القابوقولو . وبذلك لم يصدر سليم الثالث أمر خروج وحدات النظام الجديد من معسكراتهم .. وهكذا بدأ دور الرجعية المشئوم الذى سيستمر ١٩ عاما ، وسيترتب على هذا أن تعجز تركية عن سد هذه الفجوة الزمنية حتى يومنا هذا

كوسه موسى باشا وطوبال عطاء الله أفندى اللذان أجبرا سليم الثالث على الغاء النظام الجديد فى ٢٨ أيار لتسكين زمرة القابوقولو ، عزلا فى اليوم التالى البادشاه عن عرشه . وهكذا كانت عاقبة أكثر الحكام ثقافه وتقدمية فى الفكر وأقدر حاكم شهدته الدولة العثمانية منذ ١٦٧ عاما . دامت سلطنته ١٨ سنة ، وشهرا ،و٢٢ يوما . اعتلى العرش مكانه ابن عمه مصطفى الرابع الذى يصغره بـ ١٧ عاما ، و٨ أشهر ، ١٥ يوما . فتح الباب لعهد الرجعية لمدة ١٩ عاما ، وهو العهد الذى فقدت فيه الدولة - التى لم تستطع تأسيس جيش حديث - الكثير من أراضيها . والأهم من ذلك ، أن أوروبا ، فى هذا الدور استعملت البخار فى الصناعات وحققت الانقلاب الصناعى .كانت سن سليم الثالث تتجاوز الـ ٤٥ بـ ٥ أشهر و٧ أيام .

١١) الدول العالمية عند حلول القرن ١٩ (١٨٠٠)

تقدر نفوس العالم فى عام ١٨٠٠ بـ ٨٣٩ ٢٠٥ ٠٠٠ نسمة : ٥٤١ ٤٦٠ ٠٠٠ منهم فى آسيا ، ١٨٨ ٩٧٦ ٠٠٠ فى أوروبا ، ٧٦ ٨٥٧ ٠٠٠

فى أفريقيا ، ١٥٩٨٢٠٠٠ فى أمريكا الشمالية ، ١٢ ٩٧٥ ٠٠٠ فى أمريكا الجنوبية ، ٢ ٩٥٥ ٠٠٠ فى اوقيانيا . وتقدر الزيادة فى نفوس العالم خلال ١٧٥٠ – ١٨٠٠ بمقدار ١٤٠ مليون نسمة . وخلال ١٨٠٠ – ١٨٢٥ بمقدار ١١٦ مليون نسمة . ووصل نفوس العالم فى ١٨٣٥ تقريبا ، إلى مليار نسمة ، وللمرة الأولى خلال القرن الجديد تصل نفوس مدينة مسيحية (لندن) إلى مليون نسمة فى ١٨٠٠ تقريبا ، وتجاوزت نفوس ٢٢ مدينة أوروبية ١٠٠ ٠٠٠ نسمة فى كل منها .

كانت فرنسا ، خلال ١٧٩٩ – ١٨١٢ ، أقدر دولة فى العالم . وبعد ١٨١٢ وحتى ١٩٤٠ صارت انكلترا أقدر دولة فى العالم . كانت فرنسا خلال ١٧٩٢ – ١٨٠٤ جمهورية ، وخلال ١٨٠٤ – ١٨١٥ امبراطورية ، ثم ملكية مرة أخرى . تقدر أراضى ونفوس الدول فى عام ١٨٠٠ بالنسبة لتسلسل أهميتها بما فى ذلك مستعمراتها كما يلى :

جمهورية فرنسا ٣٨١٨٨٤٩ كم٢ و ٣١١٣١٠٠٠ نسمة (باريس ٧٠٠ ٠٠٠ ، ليون ١٣٠ ٠٠٠ ، مارسيليا ١١٥٠٠٠ ، نانتس ٩٦٠٠٠ ، بوردو ٩٥٠٠٠) .

ملكية بريطانيا العظمى ١٣٢٤٢٨٦٦ كم٢ و ٧٨٥٥٠ ٠٠٠ نسمة (لندن ١٠٠٠ ٠٠٠ ، دبلن ١١٠ ٠٠٠ ، كلاسكو ١٠٢٠٠٠ ، بريستول ١٠٠ ٠٠٠) .

امبراطورية روسيا ١٧٨٥٠ ٠٠٠ كم٢ و ٢٢ ٠٠٠ ٠٠٠ نسمة (بطرسبورغ ٢٣٠ ٠٠٠ ، موسكو ٢١٠ ٠٠٠) .

امبراطورية تركية ١٢١٨٧٧٠٥ كم٢ و ٦٣٧٠٠ ٠٠٠ (إستانبول ١٥٠٠ ٠٠٠ (المدينة الأولى فى العالم) القاهرة ٤٠٠ ٠٠٠ ؛ أدرنة ٣٠٠ ٠٠٠ ، الجزائر ١٢٢٠٠٠ ، تونس ١١٢٠٠٠) (لم تحتسب المدن الموجودة فى قارة آسيا) .

الامبراطورية الصينية ١١٧٦٥٠٠٠ كم٢ و ٢٨٠ ٠٠٠ ٠٠٠ نسمة .

الامبراطورية الألمانية ٩٨٠ ٢٣٦ كم٢ و ٤١ ٤٧٠ ٠٠٠ نسمة (فينيا ٢٥٠ ٠٠٠ ، البندقية ١٦٠ ٠٠٠ ، هامبورغ ١٢٠ ٠٠٠) : ألغى الامبراطور

نابليون الامبراطورية الألمانية فى ١٨٠٦ ، وسميت الامبراطورية النمساوية . وقد الغى مايقار ٥٠ دولة ألمانية كانت ضمن الامبراطورية ، وترك مايقارب الـ ٣٠ دولة . وكل هذه الدولة انفصلت عن الامبراطورية النمساوية وشكلت دولا مستقلة .

الملكية الإسبانية ١٤٨٨٧٠٤٨ كم² و ٣١١٥٥٠٠٠ نسمة (مدريد ١٦٤٠٠٠ ، المكسيك ١٢٥٠٠٠) .

ملكية بروسيا ٢٨٠٠٠٠ كم² و ٩ ٥٠٠ ٠٠٠ نسمة (برلين ١٩٠ ٠٠٠) .

امبراطورية ايران ١٧٣٥٦٥٤ كم² و ١٢ ٥٠٠ ٠٠٠ نسمة .

عدا هذه الدول الكبرى ، فان تقديرات أراضى ونفوس بعض الدول الأخرى ، كانت كما يلى : ملكية البرتغال ٨٨٠٢١٩٢ كم² و ٨٣٠٠٠٠٠ نسمة (لشبونه ٢٨٠٠٠٠) ، جمهورية هولندا ١٠١١٠٨١ كم² و ٨٤١٥٠٠٠ نسمة (امستردام ٢٢٠٠٠٠) ، ملكية السويد ٧٩٤٢٧٨ كم² و ٣٧٠٠ ٠٠٠ نسمة ، ملكية الدانمارك ٥٢٨٩٥٧ كم² و ٢١٥٨٠٠٠ (كوبنهاكن ٩١٠٠٠) ، البابوية ٣٥٣٣٦ كم² و ١٦٠٠٠٠٠ نسمة (روما ١٦٥٠٠٠) ، ملكية الصقليتين ٩٨٩٢١ كم² و ٦٣٥٠٠٠٠ نسمة (نابولى ٤٠٠ ٠٠٠ ، باليرمو ١٠٥٠٠٠) ، ملكية ساردونيا ٥٢٧٥٢ كم² و ٣١٥٠ ٠٠٠ نسمة (تورينو ٩٢ ٠٠٠) ، جمهورية سويسرا ، ٤١٢٩٥ كم² و ١٨٧٥ ٠٠٠ نسمة ، دوقية توسكانا الكبرى ٢١٤٨٩ كم² و ١١٢٠ ٠٠٠ نسمة ، جمهورية ليكوريا (جنويز) ٥٤١٧ كم² و ٥٠٠ ٠٠٠ نسمة ، جمهورية ماوراء الألب ٤١٩٣٤ كم² و ٣٥٠٠ ٠٠٠ نسبة (ميلانو ١٤٠ ٠٠٠) ، اتحاد الولايات الأمريكية ١٩٥١٧٨٠ كم² و ٤٣٠٨٠٠٠ نسمة .

امبراطورية اليابان ٤٤٤٥٩٩ كم² و ٢٣ ٠٠٠ ٠٠٠ نسمة ، امبراطورية الأفغان ٩٢٢٣٢٣ كم² و ١٣ ٠٠٠ ٠٠٠ نسمة ، امبراطورية الهند ٢٩٢٨٨٧ كم² و ٢٢ ٠٠٠ ٠٠٠ نسمة ، خانات تركستان ٣٩٥٢٠٠٠ كم² و ١١٠٠٠ ٠٠٠ نسمة ، امبراطورية فاس ٣٠٥١٦٩٩ كم² و ٨ ٠٠٠ ٠٠٠

نسمة ، ملكية بورنو ٢٦٠ ٠٤٠ ٣ كم^2 و ٠٠٠ ٠٠٠ ٧ نسمة .

ممالك الزنوج الأفريقية المجهولة ١٢٣٨٢٢١٢ كم^2 و ٠٠٠ ٠٠٠ ٣٥ نسمة ، اوقيانيا المجهولة ٨٢٠٧٢٤٤ كم^2 و ٠٠٠ ٢٨٠٠ نسمة .

١٢) مصطفى الرابع (١٨٠٧ - ١٨٠٨)

مصطفى الرابع الأبن الكبير لعبد الحميد الأول . أمه ، السلطانة - الوالدة عائشة سينه برور (Sineperver) (١٧٦١ - ١٨٢٨/١٢/١١) . كان السلطان مصطفى وليا للعهد مدة سلطنة ابن عمه السلطان سليم الثالث التى استمرت أكثر من ١٨ سنة . كان عمره عند وفاة والده وشغله منصب ولى العهد ، يتجاوز الـ ٩ سنوات بـ ٧ أشهر . توفيت ابنة السلطان مصطفى الوحيدة التى ولدت بعد وفاته ، بعد ٦ أشهر ، ولم يرزق بأولاد عداها .

ورغم أن السلطان مصطفى وصل إلى العرش مستندا إلى فكرة مخالفته النظام الجديد ، فإنه قتل المتسببين فى ثورة قباقجى فردا فردا .

كان قد قتل فى الثورة ، قسم من رجال النظام الجديد ، وتمكن القسم الآخر من الفرار ، ولجئوا إلى علمدار مصطفى باشا ، أحد مؤيدى النظام الجديد فى روسجك . ويطلق عليهم « روسجك يارانى » (أصحاب روسجك) . وبتشجيع رجال الدولة هؤلاء (الذين أكثرهم شباب) ، قرر علمدار ، إجلاس سليم الثالث على العرش مرة أخرى . ولكن السلطان مصطفى ، الذى مل من تحكم شيخ الإسلام طوبال عبد الله أفندى الذى يعتنق الدكتاتورية ، ويميل إلى تحكم الأشقياء ، استدعى علمدار مع جيشه إلى استانبول . قتل علمدار فى الطريق قاباقجى مصطفى (١٨٠٨/٧/١٣) ووصل إستانبول فى ١٩ تموز . ذهب السلطان مصطفى إلى سراى داود باشا ، خارج إستانبول واستقبل علمدار . عرض « أصحاب روسجك » على علمدار اعتقال البادشاه هنا ، فقال علمدار بأن ذلك يتنافى مع الرجولة ، وهكذا أضاع الفرصة .

عزل ، السلطان مصطفى ، شيخ الإسلام مستندا على علمدار . وفى نفس اليوم ، نفى العلماء الذين تدخلوا فى الحركة الرجعية . شكر البادشاه ، علمدار على خدماته

وأمر بعودته وعدم تركه سواحل ألطونة . تلكأ علمدار مدة أسبوع ، دون قصد . وفى النهاية اقتحم مع ١٥٠٠٠ من جنوده الباب العالى ، وأخذ الختم الهمايونى من الصدر الأعظم عنوة . استمرت صدارة جلبى مصطفى باشا مدة سنة وشهر ، و١٠ أيام . وصار علمدار مصطفى باشا صدرا أعظم بصورة فعلية ، وإن لم يكن بصورة شرعية .

جاء بعد ذلك إلى سراى طوب قابو الذى يبعد عنه قليلا . علم البادشاه بحادث اقتحام الباب العالى ، وعلم بمقصد علمدار ، فاتخذ تدابيره المشئومة . لكن علمدار بدلا من اعتقاله البادشاه أرسل شيخ الإسلام إليه عارضا عليه التنازل عن العرش . أمر السلطان مصطفى الذى لم يستمع حتى إلى أقوال شيخ الإسلام ، بقتل الخاقان السابق سليم الثالث وولى عهد - شهزاده السلطان محمود . وبذلك يبقى هو الوحيد من بنى عثمان على قيد الحياة ، حيث لم يكن هنالك شهزاده (أمير) آخر غيره .

استشهد السلطان سليم بعد مضى ١٨٦ سنة وشهرين ، و٩أيام ، على واقعة « هائله عثمانية » التى استشهد فيها عثمان الثانى . وبامر السلطان مصطفى ، اقتحم ٢٥ شخصا من موظفى السراى ، شقة سليم الثالث ، رئيس الدولة الكبير الذى كان انذاك ينفخ على الناى ، وقتلوه شهيدا بالساطور (١٨٠٨/٧/٢٨)كانت سنة تتجاوز الـ ٤٦ بـ ٧ أشهر و٥ أيام . نقل جثمانه فى اليوم التالى فى حشد غفير إلى مقبرة لاله لى جوار أبيه مصطفى الثالث . لا ولد له .

بعد أن أجهز القتلة على السلطان سليم ، دخلوا شقة ولى العهد . كان ولى العهد ينتظر وبيده السيف . كان رجاله قلائل ، فقضى عليهم أثناء دفاعهم عن ولى العهد . أخرج السلطان محمود بتضحيات كبيرة من نافذة غرفته إلى السطح وأنزل بالسلالم إلى الفناء . كان الفناء فى هذه الاثناء قد امتلأ بجنود علمدار . نجت حياة السلطان محمود .

ولكى يقضى مصطفى الرابع على أمل علمدار ، أمر بنقل جسد سليم الثالث إلى الفناء . وعندما انكب علمدار على النعش باكيا ، جاء السلطان محمود ، وكان أول من بايعه علمدار مصطفى باشا .

دامت سلطنة مصطفى الرابع سنة ، وشهرين . وهى أقصر مدة سلطنة فى التاريخ العثمانى بعد مراد الخامس (١٨٧٦) .

١٣) جلوس محمود الثانى (١٨٠٨/٧/٢٨) .. وشخصيته :

أمر السلطان محمود ، بقتل مايقرب من ١٠٠٠ شخص من الذين قتلوا السلطان سليم ، أو تفرجوا على قتله أو لم يتأثروا لمقتله وكان بينهم ١٠ جوار . ولعدم إمكان إعدام النساء فى النظام العثمانى ، فقد تم خنقهن وإلقاؤهن فى البحر خارج موقع قيز قوله سى .

كانت سن السلطان محمود تتجاوز الـ ٢٣ عاما بـ ٩ أيام . كان تلميذا لابن عمه سليم الثالث الذى يكبره بـ ٢٣ سنة و٧ أشهر ، و٢٧ يوما ووارثا لجميع أفكاره . رباه سليم الثالث الذى لم يكن له اولاد كابنه من صلبه . علمه سليم الثالث ، النفخ فى الناى ، العزف على الطنبور وحتى الموسيقى . أما توصياته السياسية ، فكثفها خاصة خلال الـ ١٤ شهرا الأولى من سلطنة مصطفى الرابع ، حيث كان البادشاه السابق يلتقى بكثرة مع ولى عهد – شهزادة بحجة تعليمه الموسيقى . استفاد السلطان محمود الذى يكن للسلطان سليم حبا عميقا ، من كافة اخطائه . كان يملك الصفات التى تؤهله لتقييم هذه الأخطاء . والحقيقة أن السلطان سليم ، سرد له معظم اخطائه بعد إجباره على التنازل عن العرش ، واوصاه بعدم الوقوع فى الأخطاء التى وقع هو فيها . وازاء الوضع الذى أصبح يتعدى كونه مسألة صيانة شرف سلالة ، إلى كونه مسألة صيانة مستقبل وكيان دولة ، التقت – باقتناع تام – ارادة سليلى بنى عثمان الاثنين : ذو العمر الناضج ، والشاب .

محمود الثانى ، هو الابن الصغير لعبد الحميد الأول وجد جميع بنى عثمان الذين عاشوا حتى يومنا هذا ولايوجد سلالة مستمرة من بادشاه يسبقه . أمه السلطانة الوالدة نقش دل (١٧٦٨ – ١٨١٧/٨/١٨) . لم يكن قد بلغ من عمره الرابعة عند وفاة أبيه . وكان بنفس العمر عندما صار ولى العهد الثانى لسليم الثالث الذى تبناه . كان أخوه الكبير مصطفى الرابع يكبره بـ ٦ سنوات تقريبا . صار وليا للعهد مدة ١٤ شهرا عند جلوس أخيه على العرش .

كان محمود الثانى الذى يسمى كذلك الأدبى « عدلى » ويحمل لقب « غازى » منذ ١٨١٣/٥/٢٨ ، شاعرا ، ملحناً ، نافخا فى الناى ، طنبوريا ، مغنيا ، نقشيا ومولويا وهو خطاط عظيم فى خط الثلث والنسخ والجلى . أعظم بادشاه جاء منذ وفاة السلطان سليمان القانونى فى ١٥٦٦ وحتى نهاية السلطنة ، مؤسس تركية

الحديثة والجيش التركى . من أكبر الشخصيات التاريخية التى أنجبها التاريخ التركى . قامته تكاد تكون أقرب إلى الطول ، موزون الجسم ، جميل الوجه ومستديره تقريبا ، أسود اللحية ، داهية فى السياسة والأمور الإدارية ، ذكي ، وقور فعال ، جسور ، ذو عزم ، صبور . تمكن خلال سلطنته ، من السياحة إلى سواحل الطونة (١٨٣١ - ١٨٣٧) ، وبواسطة يخته البخارى إلى جزر رودس (١٨٢٧) ، ومرتين إلى غاليبولى وبولاير ، وزار فى الأناضول المحلات القريبة كازميت فقط . له المام بعلوم عصره الحديثة ، وتعلم فيما بعد الفرنسية كذلك . له ألمام بالثقافة واللغات الشرقية وإن لم يكن بدرجة سليم الثالث .

١٤) واقعة علمدار (١٨٠٨/١١/١٥) ، انتصار الرجعية الحاسم

استدعى « الأعيان » من الأناضول ورومللى إلى استانبول ، وأفهموا أن الدولة فى حالة حرب مع روسيا وحرروا ميثاق الاتفاق المسمى « سند اتفاق » (سند الأتفاق) الذى بموجبه وقعوا على أنهم سيمتثلون لأوامر الدولة (١٨٠٨/٩/٢٩) . ولحاجة الدولة إلى جيش محارب ، تم إحياء النظام الجديد باسم « سكبان جديد » (١٨٠٨/١٠/١٤) . استدعى الوزير قاضى عبد الرحمن باشا من قونية إلى إستانبول وترأس الجيش . وصار أحد أعضاء المجلس الثورى المسمى « روسجك يارانى » (أصحاب روسجك) ، الدفتردار (وزير المالية) السابق ، بهيج أفندى وزيرا للحربية لهذا الجيش بلقب « أمور جهاديه ناظرى » (وزير الأمور الجهادية) .

كان الصدر الأعظم علمدار مصطفى باشا . عسكريا جيداً . لكنه لم يكن الشخصية التى يمكنها القيام بحركة الاصلاح . كان يجهل أمور إدارة الدولة المركزية . لم يكن نظام جيش علمدار الاختيارى الذى جاء إلى إستانبول من سواحل الطونه بأفضل من الجيش الانكشارى ، بدءوا هم كذلك بأمور الشدة والشقاوة . لم يتمكن البادشاه الشاب المدين بعرشه لعلمدار من استجماع نفوذه لمنع هؤلاء . وفى الحقيقة لم يكن راضيا عن علمدار الذى يميل إلى الدكتاتورية . كان الإنكشارية يستعدون للايقاع بعلمدار الذى أخبرهم بأنه سيلغى تشكيلاتهم . وقائد الجيش الحديث ، « سكبان جديد » قاضى عبد الرحمن باشا كذلك غير مقتنع بعلمدار ، ولايعجبه لاوضعه هو ، ولاوضع جيشه . أما رجال النظام الجديد الشباب المثقفون الذين

يسمون « أصحاب روسجك » ، فكانوا مدينين لعلمدار الذى أنقذ حياتهم . لكنهم لم يكونوا يؤمنون بقدرته على تحقيق الاصلاحات التى رسموها وتجمعوا حول الخاقان الذى وجدوه أكثر شبابا منه . وعلاوة على ذلك ، فهم يتهمون علمدار بعدم استماعه لقولهم وتسببه فى استشهاد السلطان سليم .

وفى جو كهذا ، اقتحم الانكشارية فى ليلة ١٤/١٥ ت٢ (١٨٠٨) سراى علمدار . لم يتدخل قاضى عبد الرحمن . دافع علمدار مع رجاله إلى النهاية . وفى آخر الأمر أطلق النار من مسدسه على برميل البارود الموجود فى مخزنه وفجر السراى . مات نتيجة الانفجار مع أكثر من ٥٠٠ من الانكشارية الذين صعدوا على سطح داره ، أثناء محاولتهم ثقبه . دامت صدارته ٣ أشهر و١٨ يوما . صار مميش باشا ، صدرا أعظم لمدة شهر و٩ أيام . ثم أعطى الختم الهمايونى إلى بكلربك حلب الصدر الأعظم الأسبق يوسف ضياء الدين باشا (١٠٨٩/١/١) . وصار قبطان دريا جرخجى على باشا ، قائمقام للصدارة ، لحين وصوله إلى استانبول ، لمدة ٣ أشهر ، و٢٣ يوما .

استشهد علمدار ، فى الساعات المبكرة من صباح يوم ١٥ ت٢ . وفى نفس اليوم ، أصدر شيخ الإسلام ، فتوى قتل البادشاه السابق السلطان مصطفى . تردد السلطان محمود فى قتل أخيه الكبير . الا أن المتمردين أخذوا فى الهتاف باسم السلطان مصطفى . اقنع رجال الدولة البادشاه ، بأن حوادث سيئة جدا سوف تقع . خنق مصطفى الرابع ، بحزام حريرى (١٨٠٨/١١/١٥) . كانت سنه تتجاوز الـ ٢٩ بشهرين و ٢٨ يوما . كان قد مضى على إبعاده عن العرش مدة ٣ أشهر و١٩ يوما . دفن فى مقبرة حميدية فى بقجه قابو جوار أبيه . لم يبد الشعب أى تأثر لمقتل السلطان مصطفى لأنه كان ناقما عليه ، لقتله سليم الثالث شهيدا ، اشتركت جماعة قليلة فى تشييع الجثمان .

وبقتل السلطان مصطفى ، بقى محمود الثانى ، الشخص الوحيد من بنى عثمان . لم يكن هنالك أى شهزاده (أمير) وأى ولى عهد يرث العرش . بقى العرش دون وارث مدة ٣ سنوات وشهر و٩ أيام لحين ولادة أحد شهزادات السلطان محمود . شهدت الدولة والسلالة هذا الوضع للمرة الثانية ؛ الأولى ، الفترة التى تقل عن سنتين تقريبا التى مضت لحين ولادة محمد الرابع الشهزادة الأول لإبراهيم خان الذى جلس

بعد وفاة أخيه مراد الرابع . كان المتمردون قد فقدوا وعيهم . مزقوا مصطفى رفيق أفندى كتخدا الصدارة (وزير الداخلية) من « أصحاب روسجك » . وتمكن البادشاه من إخفاء البقية . ثم سار العصاة بعد ذلك على البادشاه قاصدين قتله ، أى إفناء السلالة . أجابوا أرباب العقول عند سؤالهم عمن سيكون السلطان ؟ بأنهم سيجلسون السلطانة أسماء أخت البادشاه ، الأرملة التى تكبره بـ ٦ سنين . دافع عبد الرحمن باشا عن سراى طوب قابو مع ٤٠٠٠ من جنود سكبان جديد . مات المئآت من كلا الطرفين . أيقن العصاة بعدم إمكان دخولهم السراى عنوة . أخفى عبد الرحمن باشا أثرهم ، وذبح بالسيف ٣٠٠٠ انكشارى . أمر البادشاه ، البحرية أن تقصف سليمانية المحل الموجود فيه سراى إقامة ومقر آغا الإنكشارية . كان يوما عصيبا كأنه من أيام يوم القيامة . شعب إستانبول ، كان تحت نار بحريته . ومن حسن الحظ ، أن جامع سليمانية الفخم الذى كان قريبا جدا من قصر الآغا ، لم يصب بضرر . أيقن العصاه عدم إمكانهم القضاء على البادشاة . لجأ كافة جماعة القابوقولو ، إلى العلماء ، وأقسموا على الإستجابة لأى قرار يصدرونه بشأنهم . أصدر العلماء القرار التالى : يوقف إطلاق النار فورا من كلا الطرفين ، يدخل القابوقولو إلى ثكناتهم ، يلغى البادشاه جيش « سكبان جديد » . وافق السلطان محمود .

لا الرجعيون تمكنوا من القضاء على الخاقان ، ولا الخاقان تمكن من تطهيرهم . بعد هذا ، تمكن الطرفان من الحفاظ على التوزان بالكاد لمدة ١٨ سنة . كان الحفاظ على هذا التوازن ، وتحويله لصالحه ، الشغل الشاغل للسلطان محمود . انتظر لحظة الانطلاق بصبر كبير . أعلن فى ١٨ ت٢ إلغاء جيش « سكبان جديد » . أرسل الجنود إلى بلدانهم ووظف الضباط . كان العصاة قد عمدوا إلى حرق الأسطول ، ميناء صنع السفن ، الطوبخانه (معمل صنع المدافع) ، معسكرات لوند وسليمية (أى مؤسسات الدفاع التى تستند عليها الدولة) وسببوا حرائق كبيرة . شرع فى إصلاحها جميعا . لكن الانكشارية قبضوا فى الأيام التالية على كثير من جنود وضباط « سكبان جديد » وقتلوهم شهداء .

١٥) حـــرب روسيـــا (١٨٠٩ - ١٨١٢) ، معاهــــدة بخارست (١٨١٢/٥/٢٨)

وقعت روسيا التى كانت تعانى من نابليون ، على هدنة مع العثمانية فى عهد مصطفى الرابع (١٨٠٧/٨/٢٥) . وعندما اتفق القيصر بعد ذلك مع نابليون وأخذ موافقته على انتقال رومانيا إلى روسيا ، بدأت الحرب مجددا . وازاء اتفاق القيصر مع نابليون ، وقعت انكلترا مع تركية على معاهدة اتفاق (١٨٠٩/١/٥) . غادر الصدر الأعظم يوسف ضياء الدين إستانبول بصفته سردار أكرم (قائد أعلى) (١٨٠٩/٧/٢٣) . جاء إلى سلستره . انهزم الجيش الروسى البالغ ٦٠٠٠٠ شخصا وخسر ١٠٠٠٠ قتيل فى المعركة الميدانية « تاتاريجه » الواقعة جوار تلك المنطقة ، وترك الساحة للعثمانية التى فقدت ١٠٠٠ شهيد (١٨٠٩/١٠/٢٤) . تقدم الروس الذين احتلوا « اسماعيل » فى شهر ك١ و « ابرائيل » فى شهر ك٢ (١٨١٠) وأصبحوا يسيطرون على دلتا الطونة وعلى الأراضى الرومانية ، فى قفقاسيا على امتداد ساحل البحر الأسود .

أرادت روسيا فى ربيع عام ١٨١٠ تكثيف حملتها على العثمانية لإجبارها على الصلح ، حتى تتفرغ لفرنسا . احتل الروس سلستره ودوبروجا ، حاصروا فارنا ، ولكنهم انسحبوا على أثر دخول الأسطول الهمايونى فارنا . أوقف تقدمهم فى حرب شومنو الميدانية ، بعد تكبيدهم ٢٠٠٠٠ قتيل (١٨١٠/٨/٤) . واحتلوا فى ٢٧ أيلول روسجك وثم يركوى الواقعة فى شمال الطونة . مر عام ١٨١١ بتوازن . عزل الصدر الأعظم والسردار الأكرم يوسف ضياء باشا بعد سنتين ، ٣ أشهر ، ٩ أيام (١٨١١/٤/١٠) . مجموع صدارتيه الاثنتين ٨ سنوات ، ١١ شهرا ، ٤ أيام . احتل مكانه ايمراخور أحمد باشا . جاء إلى شومنو وترأس الجيش . استرجع روسجوك بعد حصار ١٢ يوما (١٨١١/٧/٩) . وبسبب حملة نابليون على روسيا ، كانت روسيا تريد الصلح مع العثمانية ومستعدة لاخلاء رومانيا التى صممت على أخذها . كان نابليون ، يعرض بصورة مستمرة على العثمانية ، الاتفاق ضد روسيا ويقول بأنهم سوف يتمكنون من القضاء على روسيا فى الجبهتين . لكن ، الباب العالى لم يعد يعتمد على السياسة النابليونية .

انهت معاهدة بخارست (١٨١٢/٥/٢٨) المكونة من ١٦ مادة ، الحرب الروسية - العثمانية : تركت كامل بيسارابيا ، إلى روسيا (حوالى ٧٠ ٠٠٠ كم٢) . ولو أن أهالى بيسارابيا ، كانوا رومانا وقسما منهم اوكرانا ، لكن سكان سواحل البحر الأسود فى الجنوب التى تسمى « بوجاق » كانوا أتراكاً . وهكذا أصبح نهر بروت يشكل الحدود العثمانية - الروسية ، بدلا من دنيستر . تبقى دلتا الطونة ، لدى العثمانية . تنقل القلاع مثل Kilye , Akkerman ، اسماعيل إلى روسيا ، لكن تبقى قالاس ، ابرائيل ، اساكجى ، تولجا لدى العثمانية . يعيد الروس الأراضى الرومانية (افلاق بغدان) والأراضى القفقاسية التى استولوا عليها بعد اخلائها إلى العثمانية . تتأسس إمارة صربية مستقلة استقلالاً ذاتيا فى بلغراد مع شريط من الأراضى يقع فى جنوبها وستكون مستقلة مثل افلاق وبغدان . يستمر الجيش العثمانى فى التواجد فى قلاع بلغراد والقلاع الأخرى . صار استقلال الصرب انموذجا للشعوب البلقانية الأخرى ، وكان سببا فى تحريض اليونان بوجه خاص .

عزل أحمد باشا ، بعد سنة ، ٤ أشهر ، ٢٥ يوماً (١٨١٢/٩/٥) . صار الصدر الأعظم ، قائد صوفيا ، أحمد خورشيد باشا لمدة سنتين ، ٦ أشهر ، ٢٧ يوما . وجاء مكانه بعده محمد أمين رعوف باشا (١٨١٥/٤/١) . ترك منصبه بعد سنتين ، ٩ أشهر ، ٤ أيام إلى محمد باشا والى (بورصه) (١٨١٨/١/٥) . وبعد سنتين ، ويوم ترك منصبه إلى اسبارطه لى على باشا والى خداوندكار (١٨٢٠/١/٥) . على باشا هذا ، فى تلك الحقبة ، هو زوج الأخت الكبيرة لمصطفى رشيد باشا البالغ عمره ٢٠ عاما - « الكبير » فى المستقبل .

استولى الوهابيون الذين قدموا من نجد ، على قسم كبيرا من الحجاز . كلف الباب العالى ، أحد اولاد والى مصر ، قاوالالى محمد على باشا ، والى جدة والحبش (الحجاز واريتره) الوزير محمد طوسون ، لاخراج الوهابيين من الحجاز . استمرت الحركات ضد الوهابيين من ١٨١١ إلى ١٨١٦ . استولى طوسون باشا ، على كل من المدينة (٢/ ١٢ /١٨١٢) ، ومكة (٢٣/ ١ / ١٨١٣) ، الطائف (١٨١٣/١/٢٨) . اكمل حركات طوسون باشا ، اخوه الكبير ابراهيم باشا . وأحتل درعية . ورغم كل ذلك ، استمرت الحركة الوهابية ولم يقض عليها . انتشرت فى الإحساء (١٨٣٠) ، وصلت جزر البحرين (١٨٣٤) ، لكن أصبحت علاقتها مع الدولة العثمانية بعد ذلك اكثر وفاقاً .

كانت المسألة الأخرى التى شغلت العثمانية هى ، تبه دلنلى على باشا . حصل على باشا ، وأولاده وأقرباؤه على الولاية من الدولة وسيطروا على أراض واسعة فى Epir ، والبالنيا ، واليونان ، ومورا . كان مركزه يانيا . على باشا الذى كان من عائلة تركية من كوتاهية ، أخذ يتلكأ فى تنفيذ أوامر إستانبول . سار الصدر الأعظم السابق خورشيد باشا ، على تبه دلنلى . وبعد مقاومته فى يانيا مع ٥٠٠٠ من جنوده ، و٢٠٠ مدفع مدة سنة و٤ شهور ، ٢٥ يوم ، قطع رأسه (١٨٢٢/١/٢٤) . استمرت تبه دلنلى - زاده لر (عائلة تبه دلنلى Tepedelenli) إلى يومنا هذا وانجبوا رجال دولة عديدين للدولة العثمانية .

١٦) الحرب الإيرانية الأخيرة (١٨٢١ - ١٨٢٣)

أراد القاجاريون فى إيران عند بدء الثورة اليونانية ، الاستفادة من الظروف المحيطة بالإمبراطورية العثمانية التى تورطت مع الدول الأوروبية . هجموا على الأناضول الشرقية وعلى العراق (١٨٢١/١١/١٥) . أحتلوا بيتليس وحاصروا بغداد . عقد صلح بعد سنتين على أساس الـ Statu quo أى بقاء الوضع على حاله (١٨٢٣/٧/٢٨) . وهذه آخر حرب تركية - إيرانية جرت فى هذا التاريخ . لم تتمكن الدولتان ، فى أى وقت من الأوقات من الأتفاق ضد روسيا . أخذت روسيا فى استقطاع أقطار كبيرة بهجومها تارة على تركيا وتارة على إيران . وفى معاهدة تركمنجاى ١٨١٣ ، استقطعت من إيران داغستان وشيروان (اذربيجان الشمالية) وفى معاهدة كلستان ١٨٢٨ ، أخذت روان (ارمنستان الحالية) ونهجوان وكانت هذه الأقطار فى التواريخ المذكورة اقطارا تركية بحته . وبمعاهدة ١٨٢٨ خرجت إيران ، لأول مرة فى التاريخ من صفوف الدول العظمى . كانت الدولة العظمى الوحيدة التى بقيت ، هى تركيا . كانت هنالك دولة كبرى غير مسيحية أخرى ، وهى الصين . أصبحت كفة الرجحان والسيطرة بيد الأوروبيين فى القارات الست .

عزل اسبارطه لى على باشا من الصدارة بعد سنة ، وشهرين و٢٤ يوماً (١٨٢١/٣/٢٨) . وأصبح والى جلدر بندرلى على باشا ، صدرا أعظم لمدة شهر ، و٣ أيام (١٨٢١/٤/٣٠) . أعدم بعد ذلك . لم يتمكن ازميرلى صالح باشا من البقاء

فى مقام الصدارة أكثر من سنة ، و٦ شهور ، و١٠ أيام (١٨٢١/٤/٢٩ — ١٨٢٢/١١/١٩) . جرى على عهد هذا الصدر الأعظم نفى نيشانجى (وزير الدولة) قرملى هالت افندى ، الذى سيطر على الدولة بصلاحيات واسعة منذ سنين وكان يسمى « مستشار السلطنة » ويستند على تشكيلات الإنكشارية ، إلى قونية واعدامه . وأصبح دلى عبد الله (حمد الله) باشا ، أحد مشيرى البحر السابقين ، صدرا أعظم . عزل بعد ٤ أشهر (١٨٢٣/٣/١٠) . اعتلى مقام السلطة سلاحدار على باشا ، ابن الوزير هزاركرادلى عزت أحمد باشا ، لمدة ٩ أشهر و٤ أيام . عين مكانه محمد سعيد غالب باشا ، أحد رجال النظام الجديد (١٨٢٣/١٢/١٣) . عين واليا على أرضروم بعد ٩ أشهر ، ويومين (١٨٢٤/٩/١٤) . صار والى سلسترة بندرلى سليم سرى باشا ، صدرا أعظم . حدثت الواقعة الخيرية على زمانه .

١٧) بدء الثورة اليونانية (١٨٢١/٢/١٢) ومرحلتها الأولى

بدأت الثورة اليونانية فى ١٢ شباط فى صبيحة يوم دافىء من أيام شتاء عام ١٨٢١ باحتلال مدينة باتراى من قبل ١٠٠٠٠ مسلح مورالى (من جزيرة مورا) بقيادة Germanos رئيس اساقفة Patras . ثم حاصروا قلعة المدينة . كانت هذه إشارة لعصيان مورا كلها . وفى بداية شهر نيسان ، انتقل كامل الجزيرة ليد العصاة عدا Tripolice مركز سنجق (لواء) مورا . أعلن اليونانيون بأن ميناء Nauplion (بالتركية آنابولى) الواقع فى شمال – شرق مورا ، مركزا لقيادة الثورة .

كانت هذه الثورة ، نتيجة استعدادات طويلة الآمد القت بذورها كاترينا الثانية فى الحرب الروسية – العثمانية فى ١٧٦٨ – ٧٤ . لكن العصيان الذى قام به المانيوتيون Manyot فى مورا ، لم يحقق أية نتيجة ، لاخماده فورا وبشكل حاسم على يد محسن – زاده محمد باشا . ونتيجة ذلك ، تم التخطيط لقيام الثورة فى جميع المناطق وباستعدادات أدق ، بدلا من قيامها فى منطقة واحدة . أخمدت حروب الثورة الفرنسية ، هذه المسألة مدة طويلة . وعلى أثر اكتساب أوروبا روحاً جديدة فى مؤتمر

فبينا عام ١٨١٥ ، أخذ اليونانيون ، تحت حماية الروس خاصة ، فى تأسيس جمعيات علمية ، أدبية ، سياسية . ومن بين هذه الجمعيات ، جمعية « Ethniki Hetairia » التى تأسست فى اوديسا عام ١٨١٤ وكانت جمعية سرية . كانت أهدافها إحياء الإمبراطورية البيزنطية ، أخذ إستانبول من الأتراك ، إخراج الأتراك من أوربا ودفعهم إلى آسيا . لم تكن هذه الأفكار ، أفكارا جديدة . كانت مشابهة للخطط الأوروبية الفاشلة وغير المجدية التى سارت عليها أوربا منذ قرون . لكن الفكرة القومية – بالمعنى الحالى – التى أوجدتها الثورة الفرنسية ، كانت تعطى الشجاعة لليونانيين . تقبلت شعوب الدولة العثمانية الناطقة باللغة اليونانية هذه المدنية القديمة ، رغم عدم وجود رابطة دم أساسية بينهم وبين اليونانيين القدامى ، عدا تكلمهم نفس اللغة بلهجة جديدة ، وبدعاياتهم أفهموا أوروبا أنهم ورثة المدنية اليونانية ، وأن المدنية التى أسسها أجدادهم ، تشكل كذلك الأساس للمجتمع الغربى ، وأنهم الآن يسحقون تحت أقدام الأتراك ، وأنهم فى ضوء ذلك كله أصحاب حق فى طلب الحرية . تمكنوا من إقناع أكثرية المثقفين الغربيين . كانت فكرة طلب الحرية على أساس القومية – الطبيعية جدا فى أيامنا هذه – غريبة جدا بالنسبة للعالم فى ذلك العهد . كانت هذه الأفكار من معطيات الثورة الفرنسية ، ولم تكن قد وضعت فى مرحلة التطبيق .

وفى الحقيقة ، فإن الحكام الأوربيين ، لم يتقبلوا هذه الفكرة ؛ ذلك أنه فى حالة تقبلهم مثل هذه الفكرة فإن العديد من الدول الأوربية سوف تتمزق وتصبح قطعا متفرقة . تقبلها القيصر فقط ، رأى اكساندر الأول الذى ورث هذه الفكرة عن ام أبيه ، أن هذه الفكرة فى صالح روسيا . كان يريد أن يثبت أنه هو حامى الأرثوذكس ، بسبب كونه مؤمنا بنفس المذهب الذى تؤمن به اليونان وخاصة أنه فى روسيا أكبر كتلة من أتباع هذا المذهب ، كما أن هذه الفكرة تضعف الدولة العثمانية وتستقطع منها اقطارا واسعة . يضاف إلى ذلك أن الأمير Lspilanti أحد بكوات بطريقية فنار Fener فى إستانبول ، الذى يدير جمعية Herairia ، كان مرافقا للقيصر . كانت الجمعية تحت حماية القيصر . وساندها بشكل كبير وزير الخارجية الروسى Capo d'Istria اليونانى الأصل Grigorios بطريق الأرثوذكس العالمى فى Fener وكان أكثرية أشراف الروم الذين يسمون « فنار بكلرى » « بكوات Fener » فى تعاون مستمر مع تلك الجمعية .

كان الناطقون باللغة اليونانية ضمن الإمبراطورية العثمانية فى مورا ، Attika وجزر إيجه ، يشكلون كثافة سكانية تزيد على ٥٠٪ من مجموع النفوس . فى كريت وقبرص ، كانوا تقريبا بنسبة ٥٠٪ . وكانوا أقلية فى الأقطار الأخرى ، لذلك تقرر بدء الثورة من المنطقة التى يشكلون فيها كثافة سكانية . أتاح إرسال خورشيد باشا ضد تبه دلنلى على باشا وإخلائه مورا بشكل تام وسحبه جنده ، الفرصة لليونانيين . كانت مدن مورا تحتوى على أقلية لابأس بها من الأتراك وفى مدينة او مدينتين ، كانوا يشكلون الأكثرية . لكنه تقرر فى الحال ، إفناؤهم جميعا بالذبح الجماعى .

المسلمون الذين تمكنوا من النجاة من القتل عند اشتعال الثورة فى باتراس (بالتركية ، باليابادرا) وانتقالها إلى كافة مورا ، وصلوا بالكاد إلى تريبوليجه . لكن تريبوليجه سقطت كذلك (١٨٢١/١٠/٥) وقتل بالذبح الجماعى الجيش الموجود فى القلعة و ٨٠٠٠ تركى مدنى ، بمن فى ذلك المواليد الجدد من الأطفال . كان يسكن مورا ٠٠٠ ٥٠ تركى تقريبا . كان قسم منهم مستوطنا فى مورا منذ ٤٠٠ سنة . قتل القسم الأكبر من سكان مورا الأتراك ، وتمكن قسم قليل من الهروب .

دهش الباب العالى للوهلة الأولى ، ثم غضب غضبا شديدا . الباب العالى الذى حمى اليونانيين منذ عصور ، وحسن حالتهم المادية عن طريق التجارة ، وأعطى أكبر الإمتيازات للبطريق ، والبادشاه هو الذى أعلن أنه بنفسه هو الحامى الرسمى للمذهب الأرثوذكسى ، هذا بالإضافة إلى أن حريتهم الدينية لم تمس ، كما أن الأتراك هم الذين حالوا دون سحق الكاثوليك لهم . وقد تحقق لهم كل ذلك بسفك دماء الكثير من المسلمين . وعندما ثبت اشتراك البطريق غريغوريوس بالثورة بوثائق مكتوبة ، قبض على البطرق العالمى ، وأعدم أمام الباب الوسطى لبطريقية فنار . وشهر لمدة ثلاثة أيام بتعليق لوحة على عنقه تبين خيانته (١٨٢١/٤/٢٢) . وبأمر من البطريق الجديد أغلقت هذه الباب الوسطية منذ ذلك التاريخ وأبطلت وقرر عدم فتحها لحين إعدام رئيس دولة أو حكومة تركية فى نفس المكان ، وحاليا مغلقة ، ولاتزال فى انتظار يوم فتحها .

أعدم كذلك اساقفة قيصرى ، طرابيا ، أدرميت مع عدة بكوات من بطريرقية فنار الذين ثبت اشتراكهم فى الثورة . مرافق القيصر الأمير Lspilanti الذى علم بالعصيان الناجح فى مورا ، جاء من اوديسا إلى ياش مركز بغدان (مولدافيا) مع

٣٠٠٠ رومى متطوع ، واحتلها فى ٥ مارت وفى ١١ منه احتل كالاس ، وفى ٣٠ منه أحتل بخارست مركز افلاق (رومانيا ، رومانيا الجنوبية ، اولاهيا) . استعاد الجيش التركى الذى دخل رومانيا فى الحال جميع هذه المدن وأفنى الروم . ايقن اليونانيون خطأهم الكبير فى اعتقادهم أن الرومانيين سيساندون الثورة لكونهم ارثوذكس مثلهم .

كثف اليونانيون الذين تركوا فكرة إحياء الإمبراطورية على أثر حل مشكلة رومانيا ، جهودهم وعزمهم المتواصل على تأسيس دولة وطنية يونانية فقط . احتج الباب العالى على روسيا . وعلى أثر ذلك ، عزل القيصر ، Jspilanti من وظيفته كمرافق له ، وطرد مرافقه الذى يحمل رتبة جنرال من الجيش .

أعلن الثوار تأسيس اليونان التى تضم مورا ، وجزر كيكلاد ، وجزيرة آغرى بوز وشبه جزيرة Attika وأن الأقطار اليونانية الأخرى ستنظم إليها وانتخبوا الأمير Mavrokordato رئيسا للدولة (١٨٢٢/١/١٣) . كانوا قد احتلوا أكثرية جزر بحر إيجه ، وإحدى هذه الجزر جزيرة سيسام (باليونانية : Samos) التى تقع فى خليج جزيرة قوش آداسى للأناضول وبعد أن سيطر ٦٠٠٠ من سكان سيسام على هذه الجزيرة ، صعدوا إلى الشمال الغربى منها ونزلوا فى جزيرة ساقيز الواقعة مقابل ميناء جشمه . كان تعداد ساقيز ٨٠٠٠٠ ، عدة آلاف منهم أتراك . تعدادها آنذاك يزيد على تعدادها حاليا ، كانوا يعيشون فى رفاهية . أثار السيساميون ، أهالى ساقيز وحرضوهم على العصيان . قتلوا بالتعذيب المسلمين الذين ظفروا بهم . لجأ الذين تمكنوا من الهروب ، إلى قلعة ساقيز التى يدافع عنها الوزير وحيد باشا . دخل القبطان دريا (مشير البحر) نصوح - زاده على باشا ميناء ساقيز (١٨٢٢/٤/١١) بعد ١٩ يوما من بدء العصيان فى الجزيرة ومحاصرة قلعة ساقيز . تم افناء وأسر العصاة الذين قاوموامدة أسبوع . ثار المثقفون الأوروبيون الذين سكتوا على القتل العام الذى جرى للأتراك فى مورا . بكى الشعراء مثل لورد بايرون ، فكتور هوغو والموسيقيون مثل بتهوفن ، والرسامون ، والصحفيون على إخماد عصيان ساقيز بمؤلفات محزنة وألفوا الحكايات الخيالية حول وحشية الأتراك فى أوروبا وأخذت تنهال الأسلحة ، والمتطوعون ، والنقود على اليونانيين من كافة أنحاء أوروبا .

لم تتمكن تشكيلات الإنكشارية التى تعيش لحظاتها الأخيرة من إخماد الثورة اليونانية . ولتحقيق ذلك ، كلف الباب العالى الوزير إبراهيم باشا ابن والى مصر محمد على باشا (١٨٢٤/٤/١) . جاء إبراهيم باشا البالغ عمره ٣٥ عاما ، خلال شهر تموز من اسكندرية إلى رودس مع ٣٠٠٠٠ جندى . كان قد منح رتبة الولاية على رودس بصورة رسمية . كان الأتراك المصريون ، هم الذين يشكلون الجيش المصرى المدرب تدريبا نظاميا . محمد على باشا الذى نصب الشراك لبكوات المماليك وجمعهم فى قلعة القاهرة وأفناهم ، وضع يده على أراضيهم الواسعة ، وثرواتهم الطائلة وأسس بذلك الجيش والبحرية . الشعب المصرى المحلى ، لم يكن يرغب فى الانخراط فى السلك العسكرى . جمع جيشه من المماليك ومن الأتراك الذين استوطنوا فى مصر فى عهد العثمانيين . كان قسم من جيشه يشكله الألبانيون ، الجراكسة ، والأباضة وهؤلاء يتكلمون اللغة التركية .

التقى قبطان دريا خسرو باشا ، مع إبراهيم باشا فى رودس . قضوا شتاء عام ١٨٢٤ - ٢٥ فى كريت . وفى نهاية الشتاء نزلوا فى ميناء Modon الكائن فى جنوب - غرب مورا (١٨٢٤/٢/٢٤) . تم احتلال ميناء نافارين الكائن قرب مودون (١٨٢٤/٥/١٨) ، بدأت حركات تطهير مورا من العصاة . تم خلال عام ١٨٢٥ احتلال كامل مورا عدا Nauplion التى سبق أن أعلن العصاة أنها عاصمة اليونان . سار محمد رشيد باشا من الشمال وجاء إلى Attika . حوصر العصاة بين نارين . جمعوا كامل قواتهم فى عدة أماكن مثل أثينا و Misolongi . سقطت Misolongi . (١٨٢٦/٤/١٣) بعد محاصرتها مدة سنة واحدة ، واستسلمت أثينا كذلك (١٨٢٧/٦/٥) .

أصبحت الثورة اليونانية ، كأنها لم تكن . كانت قد انتهت من الناحية العسكرية ، لكنها لم تنته من الناحية الفكرية . كان قد انطبع فى مخيلة اليونانى الأوروبى ، خيال دولة يونانية مستقلة . منح ابراهيم باشا رتبة الولاية على كريت . اكد أنتصار جيش إبراهيم باشا المدرب تدريبا نظاميا ، وعزز ، لدى السلطان محمود المجرب إلى الدرجة التى لايمكن معها أن يغتر ويعتقد بأن القضية اليونانية قد أنتهت فى هذه المرحلة ، فكرة عدم تأخير تأسيس الجيش الحديث بعد الآن .

١٨) الواقعة الخيرية (١٨٢٦/٦/١٥)

انتظر السلطان محمود ١٧ عاما بكاملها لالغاء تشكيلات القابوقولو . أن جندا لم يتمكنوا من الوقوف تجاه عصيان يونانى ، ماذا سيكون حالهم فى حرب روسية يحتمل أن تعلن فى أى لحظة . لم يكن هذا الأمر يقلق الخاقان فقط ، بل أخذ يقلق جميع رجال الدولة ، وجنرالات الإنكشارية بالذات . لم يكن بالإمكان تحقيق ذلك بارادة البادشاه الذى كان يعتقد فى وقت ما ، أنها تأتى بعد إرادة الله عز وجل . كانت تشكيلات الإنكشارية قد اثبتت بعمليات عديدة وبإراقة دماء كثيرة ، وباظهارها عدم ترددها فى سحق مصالح الدولة الحيوية .. أنها سوف لاتعترف بمثل هذه الإرادة ، كان يجب البدء فى العمل بتأسيس نواة جيش جديد كما عمل سليم الثالث . كان السلطان سليم ، قد لقن السلطان محمود بشكل جيد أن مستقبل الدولة متعلق بذلك .

السلطان محمود الذى لم يغفل عن أخطاء السلطان سليم ، أدخل بين جنرالات الإنكشارية جنرالات من مؤيديه يؤمنون بفكرة تأسيس جيش حديث . لم يكن ذلك بالأمر الهين أو البسيط . سعى لتحقيق ذلك سنين طوالا وباحتياط وصبر . لجأ إلى الطرق الملتوية حتى لايثير الإنكشارية الذين كانوا حذرين وفى قلق . وفى النهاية تم بصورة رسمية إعلان تأسيس تشكيل جديد فى الجيش باسم « تشكيلات اشكينجى » (١٨٢٥/٥/٢٥) . جند فورا ٧٦٥٠ شخصا وشرع بتدريبهم على الطراز الأوروبى . أختير هؤلاء الأفراد من بين الإنكشارية المتطوعين اختياريا . يبين هذا مقدار الدقة والحساسية فى هذا الشأن . أصدر شيخ الإسلام طاهر أفندى فتواه المشهورة حول تأسيس هذه التشكيلات الجديدة . البس الجند الجدد ، اللباس على الطراز الأوروبى وشرع فى تدريبهم (١٨٢٦/٦/١١) . اتخذت كافة التدابير حيال عصيان انكشارى . كان آغا (رئيس) الإنكشارية جلال الدين آغا وجنرالات الإنكشارية الآخرون ، من رجال البادشاه . عين لمحافظية سواحل المضيق الأناضولى ، عزت أحمد باشا . الصدر الأعظم فى المستقبل ، ولمحافظية سواحل روم‌للى آغا حسين باشا عدو الإنكشارية اللدود . كان هذان الجنرالان قد جمعا عساكرهما من الأناضول وعنيا بتعليمهم بشكل دقيق . واستنادا لأمر بادشاهى ، اتخذت

الترتيبات لإمكان إرسالهم إلى المدينة فى أية لحظة . لكن الثورة اندلعت حتى قبل الوقت الذى كان يتصوره السلطان نفسه . الانكشارية الذين صبروا على جنود النظام الجديد ١٤ عاما ، عصوا فى هذه المرة بعد البدء بتدريب تشكيلات اشكنجى بـ ٣ أيام فقط ، مساء ١٤ حزيران . نجا بصعوبة جلال الدين آغا ، آخر أغا للانكشارية فى التاريخ ، من الموت بالتمزيق ، وأعلم السلطان محمود بالوضع .

يوم ١٥ حزيران ١٨٢٦ ، من الأيام المعدودة القليلة فى التاريخ التركى . أخرج الانكشاريون قزانهم (قدرهم) المشهور وقلبوه فى أت ميدان(ميدان آقسراى) . أمر ، الصدر الأعظم بندرلى سليم باشا ، كلا من آغا حسين وعزت باشا ، الخروج إلى المدينة مع جنودهم . أمر السلطان محمود ،بتثبيت راية الرسول ﷺ (بالتركية صنجق شريف) فى ميدان سلطان أحمد . وأصدر الإرادة السلطانية بأن يتجمع كل إستانبولى يحب وطنه ، تحت الراية . حضر شيخ الإسلام طاهر أفندى ومعه اثنان من قضاته العسكريين ، قاضى إستانبول ، العلماء ذوو الرتب العالية ، ٣٥٠٠ طالب علم متعصب تعصب أعمى من الذين يدرسون فى القسم العالى من المدرسة العلمية وتجمعوا تحت الراية الشريفة وأخذوا بالقاء الخطب النارية . وإلى ذلك التاريخ ، كان الانكشارية يسحقون ويقضى عليهم فى كل عصيان يقومون به ، دون الاستناد إلى رجال الدين ، أما اليوم ، فكان فى انتظارهم كارثة كبيرة .

خرج إلى الشوارع كافة سكان استانبول . كانوا ناقمين على الانكشارية . لم يبق شىء مناف للاخلاق لم ترتكبه هذه التشكيلات . شوهد خروج النساء وانتشارهن فى الشوارع ، الأمر الذى لم يسبق أن شوهد فى التاريخ العثمانى . تشكيلات قابوقولو الأخرى ، عدا الانكشارية عرضت طاعتها واخلاصها للبادشاه . فتح نقيب المدفعية قره جهنم ابراهيم آغا نار قذائف بطاريته على ثكنات الانكشارية فى اقسراى . لم يسبق ان اقتحمت ثكناتهم فى أية ثورة إنكشارية سابقة . تضعضعت أسوار الثكنة ، وفتحت فيها ثغرة وانهارت . ودفن معهم كذلك ، دور من أدوار التاريخ التركى . إبراهيم أغا ، أول شخص فى التاريخ يدخل عنوة إلى ثكنات الانكشارية دون أخذ الاذن منهم . استمرت قره جهينم - زاده لر (عائلة قرة جهنم) حتى يومنا هذا ، وصار أحد أفرادها داماد « صهرا » للبادشاة ، وأصيب فى عقب قدمه برصاصة من بندقية إنكشارى .

دخل دارنده لى عزت باشا وآغا حسين باشا ميدان آقسراى . كان يتبعهم جمع غفير هائل من الناس . كان أمام جامع طوبخانه حاجى حافظ أحمد أفندى ، أمام الجند يشجعهم . وعند حلول المساء ، لم يبق شيء اسمه صنف الإنكشارية . قتل ٦٠٠٠ انكشارى . أفنى شعب إستانبول بغضب شديد هذه التشكيلات ، التى تركت الأقطار الإسلامية تحت أقدام الروس والروم العصاة ، والتى كانت تتقاضى الخراج . وفى اليوم التالى . تم اعتقال ونفى ٢٠٠٠٠ انكشارى . ألغيت هذه التشكيلات فى كافة انحاء الإمبراطورية . أبيدت كافة علاماتهم . وجرت حوادث غريبة خلال ذلك ، منها : أغلقت تكايا البكتاشية التى ينتسب إليها الإنكشاريون (ستفتح بعد مدة) ، كسرت علامات رءوس الإنكشارية التذكارية المنحوتة على أحجار المقابر ، محيت آثار الإنكشارية ، كما الغيت أيضاً مهترخانه خاقانى (الموسيقى العسكرية الخاقانية) تلك الموسيقى العثمانية العسكرية العظمى التى اعتبرت من تشكيلات الانكشارية . كان انقلابا . لم يدع هؤلاء مجالا ليذرف أحد الدمع على هذا الصنف الذى يملك ماضيا مشرفا .

أحدث إلغاء التشكيلات التى استمرت ٤٦٥ عاما ، صدى كبيرا فى جميع أنحاء العالم . خصصت الصحف الأوروبية عناوين كبيرة لذلك . هنأ السفراء البادشاه ، فى إستانبول باسم حكامهم . أطلق اسم « عساكر منصورة محمدية » (العساكر المحمدية المنصورة) على الجيش الحديث المزمع تدريبه . تم احداث منصب « سرعسكر » ومنحت له صلاحية وزير الحربية إضافة إلى رئيس أركان الجيش . أصبح آغا حسين باشا أول سرعسكر . السراى القديم الموجود فى بيازيد (حاليا البناية المركزية للجامعة) صار مقرا للسرعسكر ، تم تحويل سراى الاغا الموجود فى سليمانية إلى دائرة مشيخة وأعطيت لشيخ الإسلام .

وهكذا أغلق الدور الأول لسلطنة السلطان محمود الذى دام ١٧ سنة ، ١٠ أشهر و١٨ يوما . وفتح الدور الثانى لسلطنته والذى دام ١٣ سنة وشهرا ، و١٦ يوما . كان فى ذلك التاريخ فى سن الـ ٤١ . ومع أن الدور الثانى هو أصعب من الدور الأول ، لكن حجر الأساس لتركية الحديثه سيوضع فى هذا الدور . كانت المؤسسات التى تسلمها محمود الثانى تتماثل من حيث الشكل مع عهد مؤسسات فاتح ، ولكنها فى الوقت الذى كانت فيه مؤسسات عهد فاتح أرقى المؤسسات فى

العالم ، كانت هذه المؤسسات فاسدة بل إنها وصلت إلى شفا هاوية الانهيار ، ومن ثم فإنه كان يجب انشاؤها مجددا . ليس هنالك حق فى الحياة لدولة لاتتجدد . ازال حادث الغاء تشكيلات الانكشارية وتشكيلات القابوقولو الأخرى بشكل جبرى وعدم التردد فى التعرض لحرب داخل المدن والشوارع والتى انتقلت إلى التاريخ باسم « واقعة خيرية » ، المانع الكبير فى تحقيق حركة التجدد دون خشية . الواقعة الخيرية ، حادث من أهم الحوادث القليلة فى التاريخ التركى بأسره . كانت هذه الحادثة أكبر الانقلابات الجذرية . كانت البداية لتركيا الحديثة .

وهكذا فتح الباب أمام عهد التجديد فى تاريخ الدولة العثمانية ...

« إنتهى الجزء الأول من كتاب تاريخ الدولة العثمانية
ويليه بإذن الله الجزء الثانى » .

المحتويات

يلماز أوزتونا

تاريخ الدولة العثمانية

ترجمة
عدنان محمود سلمان

مراجعة وتنقيح
دكتور: محمود الانصاري

المجلد الثاني

منشورات
مؤسسة فيصل للتمويل
تركيا
استانبول ـ ١٩٩٠

طبع
شركة الهلال المساهمة
للطباعة والنشر والسياحة والصحافة والدعاية
تركية / استنبول - ١٩٩٠

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ ومن أحسن قولاً ممن دعا إلى الله
وعمل صالحا وقال إننى من المسلمين ﴾

صدق الله العظيم
فصلت : ٣٣

الطبعة الأولى

١٤١٠ هـ ١٩٩٠م

بسم الله الرحمن الرحيم

FAİSAL FİNANS KURUMU

FAISAL FINANCE INSTITUTION INC.

الفصل الثامن

التجديد والتنظيمات

(1876 - 1826)

1 – الحرب مع روسيا (1827 – 1829)

بعد الواقعة الخيرية أصبحت الامبراطورية العثمانية الواسعة ، المترامية الأطراف ، بلا جيش يدافع عنها حيث إنها لم تكن قد أسست بعد جيشها الحديث . لم يكن لديها قوة عدا جنود الإيالات المتطوعين . ومن الطبيعي ألا تفوّت روسيا فرصة الاستفادة من هذا الوضع .

وقع الباب العالي – الذي لم يجرؤ على فتح حرب روسية – على معاهدة أكرمان Akkerman (1827/10/7) ، بدعوى أن المعاهدة الجديدة لا تزيد على كونها توضيحًا لمعاهدة بخارست 1812 . وبموجب هذه المعاهدة تم توسيع الاستقلال الداخلي لإمارات رومانيا وصربيا ، كما تقرر عدم وجود أي مسلم محلي في قلاع صربيا عدا جنود الجيش التركي . وبموجبها أيضا ينتخب الباب العالي بكوات الأفلاق وبغدان من بين بويارات (أشراف) الرومان (كان الوضع كذلك قبل 1711) ، وليس من بكوات الروم في بطريقية فنار في استانبول ، ويعين الباب العالي هؤلاء الأمراء لمدة 7 سنوات ، وليس له حق تغييرهم ما لم تكن هناك أسباب جدية .

هذه الأشهر تصادف الأشهر التي أخرجت فيها روسيا إيران من قفقاسيا بشكل كامل ومحتها من صفوف الدول العظمى .

ومن ناحية أخرى ، قوبل إخماد الثورة اليونانية بالاستياء في أوروبا ؛ ووقعت الدول العظمى الأولى والثانية والثالثة في العالم وهي انكلترا وفرنسا وروسيا فيما بينها على اتفاقية

لندن (1827/7/6) . وقرروا الضغط على الباب العالي لصالح اليونان . كانوا يريدون تأسيس إمارة يونانية (عبارة عن شبه جزيرة مورا) مستقلة ذاتيا مرتبطة بالباب العالي ، تدفع الضريبة لتركيا مثل صربيا وأفلاق وبغدان . اشتركت انكلترا في الاتفاقية دون رغبة منها ، فقد كان المثقفون الانكليز يريدون مشاهدة دولة يونانية ، لكن انكلترا لم تكن راغبة في ذلك ، كانت تخشى استفادة روسيا من ضعف الدولة العثمانية ، ومن ثم فإنها لم تشأ أن تترك منافستيها الكبريين فرنسا وروسيا كحاميتين لليونان تنفردان بتسيير دفة القضية .

اتحدت صيف عام 1827 الأساطيل الانكليزية ، الفرنسية ، الروسية تحت قيادة الأميرال الانكليزي Cordington ودخلت البحر اليوناني (Iyonya) ، للضغط على تركيا في قضية الاستقلال الذاتي لليونان .

كان محمود الثاني قد رفض الاستقلال الذاتي اليوناني بعد استرداد مورا ، وكان يخشى أن تصبح اليونان نموذجا تقتدي به الدول البلقانية الأخرى .

شوهدت أساطيل الاتفاق أمام ميناء نافارين Navarin في رأس مورا الجنوبي – الغربي . كانت خيرة قطع الأسطولين العثماني والمصري راسية هنا ، تحت قيادة القبطان دريا جنكل أوغلو طاهر باشا . لم يكن أسطول الاتفاق رافعا لعلم الحرب خلافا لقواعد القانون الدولي ، وكانت تركيا أساسا في حالة صلح مع كل من الدول الثلاث .

ظن طاهر باشا أن الأسطول جاء بهدف الضغط المعنوي . ولم يكن من الميسور على كل الأحوال إمكانية الوقوف تجاه العدو الذي يفوقه بمراحل . أطلق المتفقون مدافعهم سويا . غرقت 57 سفينة عثمانية خلال ثلاث ساعات ونصف واستشهد 8000 جندي . وهذه هي غارة نافارين المشهورة (1827/10/20) .

قوبلت الغارة باستياء في أوروبا الغربية ، ووصفتها الصحافة الحرة بأنها لطخة عار

افادت لندن وباريس وبطرسبورغ ؛ أنها لم تصدر أمرا بهذا الشأن إلى أميرالاتها

قدمت الدول الثلاث اعتذارا للباب العالي ، لكنها لم تعط الضمانات التي طلبها الباب العالي ولا الغرامات الناشئة عن المسألة اليونانية . غادر سفراء الدول الثلاث استانبول (1827/12/8) .

كانت الدولة العثمانية ، بلا جيش ، والآن أصبحت بدون أسطول .

أعلنت روسيا الحرب على تركية (1828/4/26) ، وكان قد مضى على مصالحة بخارست 15 سنة و 10 أشهر و 29 يوما .

تمكن محمود الثاني خلال سنتين من وضع النواة فقط لتأسيس جيش حديث . قضى السنين في غرفة حجرية في ثكنة رامي ، كان يخرج للتدريب في طين الشتاء أمام الجيش كأي زعيم عسكري . لا ينام الليل ويدقق في الكتب الواردة ويشتغل بأمور الدولة . لم يثنه حادث نافارين عن عزمه ، وأخذ يستعد لتأسيس أسطول جديد . وخلال هذه الفترة ابتاع أول سفينة بخارية ، وهي المسماة « سرعت » (سرعة) في 1827 .

اجتاز الروس Prut ، ودخلوا الأراضي العثمانية (1828/5/8) . وهجموا كذلك من قفقاسيا . وفي 12 آيار ، وبدءوا بمحاصرة Anapa (آنابا) وهي قلعة عثمانية مهمة تقع على مسافة 50 كم من قرم في مصب نهر كوبان . سار السر عسكر مشير آغا حسين باشا من استانبول في 24 أيار . كان سيحارب بأفواج المتطوعين اختياريا ، ولم يكن لديه إلا القليل من الجند الحديث . وفي حزيران احتل الروس Isakci وإبرائيل واستولوا على دلتا ألطونة . احتلوا في 11 حزيران Anapa ، وفي 15 تموز قارص ، وفي 28 آب آخيسكا ، انتصروا في الشرق كذلك وأخرجوا العثمانية من سواحل البحر الأسود الشرقية . وفي البلقان احتلوا رومانيا ودوبروجه ، وفي 11 ت 1 احتلوا فارنا . حضر القيصر Nikolay الأول بنفسه إلى فارنا .

ولما كان بتدرلي محمد سليم سري باشا صدر أعظم الواقعة الخيرية قد حافظ على منصبه مدة 4 سنوات ، وشهر ، و 10 أيام فقد احتل مكانه بعد 3 أشهر ، دارنده لي طوبالل عزت محمد باشا (1828/10/24) ، وكان من أبطال الواقعة الخيرية ، يبلغ عمره 36 عاما وقبطان دريا (مشير بحري) . جاء مكانه بعد 3 أشهر و 5 أيام رشيد محمد

باشا بكلر بك روملي (1829/1/28) ، وحضر في 4 نيسان إلى شومنو وترأس الجيش .

مرّ ربيع وصيف عام 1829 في حروب شديدة بين الطرفين . احتل الروس في 1 تموز سلسترة ، وفي 8 منه أرضروم في الشرق . وبعد احتلالهم بورغاز واسليمية دخلوا أدرنة في 19 آب . تقدم Paskieviç في الأناضول ، ومن أرضروم نحو طرابزون و Dibieç في روملي من أدرنة نحو قيرقلارايلي ، تكرداغ وأنيز Enez . تدخلت كل من إنكلترا وفرنسا وبروسيا وذكّرت القيصر بأنه فتح الحرب كان لأجل الدولة اليونانية وليس لأجل الفتوحات .

عند بدء الحرب الروسية أنزلت فرنسا بقيادة الجنرال Maison في 29 آب فرقة من نافارين إلى مورا . بدأ قاوالالي إبراهيم باشا في 7 أيلول بإخلاء مورا . احتل الفرنسيون مورا وأعطوها لليونانيين . اضطر الباب العالي إلى قبول معاهدة لندن (1829/8/15) ، والتي تم الاتفاق فيها على إمارة يونانية تتألف من مورا وجزر كيكلاد ، تابعة لتركيا ، ينتخب أميرها من سلالة إحدى الدول الأوروبية التي ليست من الدول العظمى بموافقة كل من تركية و إنكلترا و فرنسا وروسيا ، وتسدد للباب العالي ضريبة سنوية قدرها 375 000 قطعة ذهبية .

وبعد حرب دامت سنة ، و 4 أشهر و 19 يوما وقعت مع روسيا معاهدة أدرنة التي تتكون من 18 مادة (1829/9/15) . والتى تضمنت أن يترك لروسيا ، ساحل البحر الأسود الشرقي بكامله ، من نهر كوبان في قفقاسيا إلى حد باطوم (باطوم تبقى لدى العثمانية) ، وفي البلقان دلتا ألطونة ، وأن يترك كذلك لروسيا المناطق المسكونة بالأتراك من كرجستان مثل آخيلكلك ، آخيسكا ، كما تضمنت موافقة الباب العالي على اعتبار كرجستان قطرًا روسيًا . وهكذا أصبحت السواحل الروسية في البحر الأسود مساوية تقريبا لسواحل العثمانية فيها .

كما تضمنت المعاهدة كذلك إخلاء الأراضي المحتلة الأخرى ، وزيادة حرية الحكم الذاتي لإمارات بغدان ، أفلاق ، صربيا ، وأن تدفع تركية لروسيا غرامات حرب قدرها 11/5 مليون قطعة ذهبية ، وفي حالة استمرار تسديد هذه الغرامات ستخلي روسيا

الأراضي العثمانية التي استولت عليها بالتدريج . وقد كان القيصر Nikolay يفكر في ذلك لإيقاع السلطان محمود الذي كان يحسد شخصيته جدا ، في ضيق مالي يعوّق تحقيق مشاريعه التجديدية . وفي الواقع ، فإن الحرب في حد ذاتها كانت قد استنفدت مالية العثمانية ودمرتها . وبناء عليه فإن الجيش الروسي لم ينسحب من سلسترة Silistre إلا في 1836/4/8 ، ولم ينسحب من رومانيا إلا في 1834/1/29 .

ترك الاحتلال الروسي الذي دام 5/5 عام ذكريات مريرة في رومانيا . وسيكون تعاون اليونان الأرثوذكسية بعد الآن مع انكلترا وفرنسا ، وليس مع روسيا ، كذلك سيكون اتجاه رومانيا الأرثوذكسية في المستقبل نحو أوروبا الغربية وليس نحو روسيا ، وذلك أن الرومانيين واليونانيين الذين ليسوا « سلافا » ، أصبحوا يخشون روسيا بصورة كبيرة رغم أنها أعادت لهم استقلالهم .

ألغت معاهدة بخارست شروط معاهدة لندن التي عقدت قبل سنة . تأسست دولة يونانية تفوق جدا ما كان يتصوّر . منحت اليونان استقلالا كاملا . كانت أول دولة مستقلة انفصلت عن العثمانية في البلقان . كانت اليونان التي اعترف بها الباب العالي – مستقلة وليست تابعة للعثمانية – بعد 7 أشهر من معاهدة بخارست (1830/4/24) تشمل عدا مورا وكيكلاد ، شبه جزيرة Attika وكذلك جزيرة آغريبوز الكبيرة ، على أن تكون العاصمة أثينا . وهكذا تأسست من العدم ملكية مساحتها 424 49 كم² ، وتعداد سكانها 000 100 1 نسمة . أصبح أحد الأمراء البافاريين ملكا على اليونان .

وسّعت صربيا بمنحها 6 أقاليم أخرى (1830/8/29) . كذلك منحت جزيرة سيسام (Susam ، باليونانية : Samos) الاستقلال الذاتي (1832/12/20) . كان يعيش في هذه الجزيرة التي تبلغ مساحتها 550 كم² 000 30 رومي . وسوف ترسل هذه الجزيرة التي كأنها ملتصقة بالساحل الأناضولي إلى استانبول سنويا مبلغ 000 100 قطعة ذهبية ، وستكون في الجزيرة كتيبة عثمانية مؤلفة من 150 جنديا فقط ، ويعيّن أمراء الجزيرة من قبل الباب العالي ومن التبعية العثمانية على ألا يكونوا من العائلة ذاتها ،

ولن تتدخل في الشئون الخارجية ، استمرت الجزيرة على هذا النظام لحين انضمامها إلى اليونان عام 1913 .

2 - احتلال فرنسا لمدينة الجزائر (1830/7/5)

ضرب أزميرلي حسين باشا - آخر بكلربك للجزائر وكان يطلق عليهم اسم « دايي » - بمهفّته على وجه القنصل الفرنسي عام 1827 ، كانت فرنسا قد استدانت من الجزائر عام 1797 ، وقد تذرعت بأعذار كثيرة في عدم تسديد دينها . راجعت فرنسا الباب العالي طالبة تقديم الباشا ترضية إلى قنصلها . ورغم أن الباب العالي الذي يسبح في خضم البلايا أمر الباشا بتقديم الترضية ؛ لم يستمع حسين باشا لذلك . حاصر الفريق البحري الأميرال Duperré ميناء الجزائر (1827/6/12) . ورغم أن الحصار البحري دام 3 سنوات لم يعجز حسين باشا ، واستعمل الموانئ الأخرى .

أنزل الجنرال Bourmont 36 000 جندي بالقرب من مدينة الجزائر (1830/6/14) وشرع الأسطول الفرنسي يقصف المدينة . استسلم حسين باشا الذي قاوم 21 يوما وكان ذلك في يوم (1830/7/5) ثم (توفي في الإسكندرية عام 1838) .

هدّدت فرنسا بالحرب عند اقتراب قبطان دريا طاهر باشا إلى مياه الجزائر . لم يجرؤ الباب العالي - الذي لم يمض عام على خروجه من الحرب الروسية - على الحرب . لم تبق للعثمانية أى علاقة بالجزائر بعد ترك أمير لواء قسطنينة القتال بعد مقاومته عدة سنوات . احتل الفرنسيون سواحل الجزائر . صار الدفاع عن الجزائر بيد العرب وزعيمهم العظيم الأمير عبد القادر . استمرت الحرب زمنا طويلا ، لم يتوقع الفرنسيون أن تجابههم مقاومة بمثل هذه الدرجة (وحتى في الأعوام الأخيرة للعصر 19 ، كانت هنالك في قبيليّة مناطق لا تعترف بالحكم الفرنسي) إلى حد أن فرنسا فكرت في فترة ما في إخلاء القطر . لكنها لم تقدم على ذلك باعتبارها دولة استعمارية ، كما أنه كان العديد من الفرنسيين قد استوطنوا القطر ، ونهبوا أراضيه .

3 – عصيان مصر (1831 ، 1933 ، 1839)

إن عدم إرسال والي مصر ، قاوالالي محمد علي باشا ؛ الجند للحرب الروسية 1828 – 1829 وتعلله بأعذار مختلفة قد ولّد الشبهات تجاهه لدى محمود الثاني . ولكن وضع محمود الثاني كان ضعيفا ؛ بسبب عدم تمكنه من تأسيس جيشه الجديد . كان البادشاه يعلم جيدا أنه سيقاوم في حالة عزله إياه . وبناء على ذلك فإن علاقة الدولة كانت قد توترت مع والي مصر في 1829 . كان محمد علي يعتقد أنه قدّم للدولة خدمات كبيرة ، وكان يريد أن يحصل على امتيازات ومناطق نفوذ ، كان محمد علي يتصور المجيء إلى استانبول وتصدر مقام الصدارة ، وإدخال السلطان تحت نفوذه والتحكم في الإمبراطورية .

أقام محمد علي باشا في مصر منشآت معمارية ضخمة وعلى رأسها قناة وسد محمودية . ولذا فإنه شغل الفلاح المصري بشكل لا يكاد يختلف كثيرا عما كان عليه في زمن الفراعنة . هرب من مصر 6000 فلاح لم يتحملوا ذلك وذهبوا إلى فلسطين . طلب محمد علي من والي صيدا (فلسطين) الوزير عبد الله باشا ، القبض على الفلاحين وإعادتهم إليه . أفاد عبد الله باشا بأن الفلاحين هم أتباع الدولة وأناس أحرار وليسوا عبيدًا ، ولأن مصر وفلسطين هما من ولايات الدولة ذاتها ؛ فإن لهم الحق في السكنى في المكان الذي يرغبونه . وعلى أثر ذلك سار الوزير إبراهيم باشا الابن الأكبر لمحمد علي باشا البالغ عمره 43 عاما بجيش يبلغ عدده 40 000 جندي وبأسطول مكون من 23 قطعة بحرية نحو فلسطين (1831/10/10) . كان العصيان المصري قد بدأ .

احتل إبراهيم باشا فلسطين دون مقاومة . لجأ عبد الله باشا مع 2000 من جنده إلى قلعة عكا في شمال فلسطين على البحر الأبيض . استولى إبراهيم باشا على هذه القلعة – التي لم يتمكن نابليون من فتحها – بعد محاصرته لها مدة 6 أشهر و 11 يوما (1832/5/27) . ثم احتل الشام (1832/6/15) . وانتصر على كل من حلبلي محمد باشا والي طرابلس الشام ، قرب حمص (1832/7/8) ،وعلي أغا حسين باشا في بلن Belen في هاتاي (الإسكندرون) (1832/7/29) . جاء إلى قونية (1832/11/21) . لم يلق أي مقاومة في الأناضول، لأن الأناضول كانت معتادة على مثل هذه الصدامات

التي يجريها الولاة والأعيان . كان جيش إبراهيم باشا مشكلا من الأتراك أو من الأرناءوط (الألبان) المستتركين والجراكسة . كوّن هؤلاء شعبا غريبا بالنسبة لأهالي الأناضول . حتى إنه شوهد أهالي بعض المناطق الذين كانوا حانقين بسبب الانقلابات التي حققها السلطان محمود يستقبلون إبراهيم باشا بسرور . سار الصدر الأعظم والسر عسكر رشيد محمد باشا في 3 ت 2 بجيش عدده 60000 جندي من استانبول . وصل قرب قونية . وفي جو مثلج ومعتم ، دخل بين خيالة إبراهيم باشا ، ظنا منه أنهم خيالته هو ، وأسر . استقبل إبراهيم باشا الصدر الأعظم بتقبيل ردائه . لم يكن لدى الجيش العثماني رغبة في إسالة الدم المسلم ، وعندما شاهد وقوع الصدر الأعظم في قبضة إبراهيم باشا عاد إلى إستانبول ، تاركا ساحة القتال إلى إبراهيم باشا . هذا الانتصار غير المتوقع لإبراهيم باشا جعل المسألة المصرية في مصاف المسائل ذات الأهمية العالمية .

جاء إبراهيم باشا إلى كوتاهية (1833/2/2) ووقف عندها . حاول تعيين والٍ على أزمير . كان يتحرك وكأنه وزير من وزراء الباب العالي ، ويسعى جهده في عدم إيذاء الشعب . أطلق الصدر الأعظم حرا . عاد رشيد محمد باشا إلى استانبول خجلا . كان السلطان محمود يخشى مجيء إبراهيم باشا إلى استانبول والحصول على الصدارة لأبيه منه عنوة . لم يكن السلطان محمود بحاجة إلى مثل هذا الصدر الأعظم .

أخذت إنكلترا وفرنسا تفكران في كيفية الاستفادة من محمد علي . ولإرهابهما ، طلب البادشاه من القيصر إرسال عدد من الجند . نزل عدة آلاف من الجنود الروس ، الذين جاءوا بواسطة 10 سفن حربية في رصيف هنكار ، وخرجوا إلى بيوك ده ره جايري ومكثوا فيها مدة من الزمن . وردد السلطان محمود جملته « الغرقان يستنجد بالثعبان » ، التي أصبحت بعد ذلك قولا مأثورا لدى الأتراك ، بهذه المناسبة .

فرنسا وإنكلترا اللتان شاهدتا وجود الجيش الروسي في المضيق ، أبلغتا محمد علي بالانسحاب من الأناضول .

كانت فرنسا ترى أن لها الحق في مصر التي احتلها نابليون لعدة سنين ، ومن هنا فإننا سنجد أن فرنسا ستتخذ سياسة مساندة محمد علي إلى النهاية لتحقيق نفوذ عن هذا الطريق .

أما انكلترا فكانت تخشى بشكل كبير من تبعثر الامبراطورية العثمانية وانتقال أقطارها العديدة لروسيا ، وهبوط روسيا إلى البحار الدافئة . أخذت انكلترا تضغط على محمد علي باشا للاتفاق مع البادشاه .

أيقن إبراهيم باشا عدم إمكان الحصول على الصدارة . وبمعاهدة كوتاهية (1833/4/8) . أخلى الأناضول عدا إيالة أدنة . منح محمد علي باشا وابنه بموجب هذه المعاهدة منصب الولاية على إيالات مصر – سودان ، جدة (الحجاز وإريتره) ، صيدا (فلسطين) ، طرابلس (لبنان) ، شام ، حلب وأدنة . لم يسبق في تاريخ الدولة العثمانية أن تعطى ولاية 7 إيالات إلى وال واحد دفعة واحدة . لم يكن محمود الثاني يفكر قط في استمرار هذا الوضع ، فضلا عن أنه كان يود إقصاء محمد علي من مصر .

وقعت مع روسيا معاهدة رصيف هنكار (1833/7/8) ، وبموجب هذه المعاهدة ؛ تعترف تركيا بحق مرور السفن الحربية الروسية من المضايق ، في حالة دخولها في حرب مع أي دولة ، وتتعهد بعدم إمرار سفن الدولة التي تكون روسيا معها في حالة حرب من المضايق ، ومقابل ذلك ترسل روسيا جيشا – شرط عدم تجاوز عدده الحد المعقول – إلى القطر الذي يحدده البادشاه ، في حالة دخول تركية الحرب . وقعت المعاهدة لمدة 8 سنين حتى 1841 . وكان السلطان محمود يخطط خلال هذه السنوات الـ 8 لتأسيس الجيش الحديث وإنهاء قضية محمد علي باشا . ورغم احتجاجات لندن وباريس لم يفسخ السلطان محمود المعاهدة . وبهذا تكون المرحلة الأولى للقضية المصرية قد أغلقت لمدة ٦ سنين .

يمكن القول بأن هنالك علاقة بين الاتفاقية التجارية لعام 1838 التي عقدت مع إنكلترا وعصيان محمد علي ، ولهذا السبب انتقد السلطان محمود مصطفى رشيد باشا – الذي كان أثناء ذلك سفيرا في لندن – المعاهدة انتقادا شديدا ؛ ذلك أن المعاهدة تلغى ضرائب الدولة المفروضة على بعض المواد ، كذلك تجري تخفيضات جمركية لصالح إنكلترا ، وهذا يعنى أن الاتفاقية تجعل من الامبراطورية سوقا مريحا ومربحا جدا لإنكلترا لتصدير حاجياتها . ولأن مصر إيالة من إيالات الإمبراطورية فالمعاهدة تشملها كذلك . أما محمد علي فإنه كان يجمع 60٪ من إيرادات جيشه وبحريته من

تلك الضرائب . وهكذا يصبح محمد علي في وضع لا يتمكن فيه من تجهيز وتموين جيشه . ورغم رفع العثمانية الضرائب الجمركية فيما بعد وقصر التطبيق على بعض المواد فقط ، فقد كتب العديد من المقالات حول عرقلة هذه الاتفاقية تأسيس الصناعات الحديثة في تركيا ، وحول امتلاء الإمبراطورية بالمنتجات الرخيصة للصناعة الإنكليزية ، الأمر الذي يغلق مجال المنافسة أمام الصناعة التركية ، ولكنه على كل الأحوال لا يمكن إلقاء تبعة عدم تأسيس الصناعات الحديثة في العثمانية على هذه المعاهدة ، وإنما يمكن فحسب القول بأن المعاهدة قد جلبت ضررا ماديا على الدولة . وأن الدولة قد أخذت بعين الاعتبار هذا الضرر . ولقد كان عصيان محمد علي باشا أكبر عصيان شهدته الدولة العثمانية طيلة أحقاب التاريخ ، وقد مثل هذا العصيان بالنسبة لحياة الدولة العثمانية مشكلة أكبر بكثير من مشكلة الثورة الأمريكية التي جابهتها إنكلترا قبل نصف قرن .

بدأت الحرب الداخلية التي كان من المتوقع أن تحدث في أي لحظة منذ 6 سنوات بسبب تأخر محمد علي في إرسال ضرائبه السنوية إلى استانبول .

كان إبراهيم باشا الذي يعلم أن البادشاه .. لن يسمح باستمرار هذه الحالة قد جهز في سورية جيشا يبلغ عدده 80000 جندي . وكان محمد علي ينتظر في مصر ، مع 50000 جندي وأسطول . جاء مشير حافظ محمد باشا الذى لا مزيّة له سوى شجاعته مع 40000 جندي إلى نيزيب . انهزم إبراهيم باشا في الحرب الميدانية نيزيب (1839/6/24) . وخلال هذه الأيام كان السلطان محمود على فراش الموت ، ومات بعد 7 أيام . وصل الخبر إلى استانبول قبل وفاة البادشاه بـ 36 ساعة ، وأخفى خبر الهزيمة عن البادشاه .

فتحت المرحلة الثانيـة من عصيان مصر . انتقلت الأزمة بكامل ثقلها إلى خلف السلطان محمود الذي لم يتسن له إنهاء أزمة قاوالالي محمد علي باشا في حياته .

4 ـ الإصلاحات الجذرية (1826 – 1839)

بدأ محمود الثاني بإصلاحاته الجذرية ، بعد انتهاء الواقعة الخيرية (1826) والحرب الروسية (1829) ، كانت هذه الإصلاحات عبارة عن تطبيق النظام الجديد بشكل

جذري وبصورة أكثر شمولا ودون تعويض . كان يتحتم عليه تطبيق هذه الإصلاحات ، في الوقت الذي وصلت فيه سياسة التوسع الاستعماري الأوروبي حدها الأعلى في الخارج ، وعصيان قاوالالي في الداخل . كانت الدولة العثمانية ستقتبس المجالات التي تفوّق فيها الغرب ، شرط البدء من قطاعي الجيش والبحرية ، وكان يجب تنفيذ هذه العملية بسرعة وقبل تفكك الدولة . لم تكن هناك فسحة من الوقت تكفي لقطع مرحلة التكامل التي قطعها الغرب خلال عصور . وبالإضافة إلى ذلك كان الأمر يقتضي الحفاظ على الثقافة والعرف والعادات والتقاليد وعدم الإضرار بها . من الطبيعي أن تكون هنالك أخطاء في حملة إصلاح معقدة إلى هذه الدرجة ، ومن ذلك إغفال بعض العناصر التي يتحتم اقتباسها من الغرب ، واقتباس ما لا يقتضي اقتباسه . وفي الواقع لا توجد في التاريخ العالمي حملة انقلابية تخلو من الخطأ . وتلك الأخطاء يمكن رصدها فقط ، من قبل المؤرخين بعد ذلك وفي ضوء التطورات التي ترى فيما بعد ، حيث إنها كثيرا ما تفوت عن الأنظار خلال حمى الانقلاب وفورانه . وكثيرا ما تحدث عن حسن نية . وبالرغم من كل هذه التحفظات ، فإنه من الحقائق البينة التي لا تدعو إلى الجدل أن إصلاحات محمود الثاني كانت ناجحة ، وأنها أكسبت الدولة الحيوية ، كما أنها كانت الأساس في تكوين تركيا الحديثة . واعتبارا من محمود الثاني وحتى يومنا هذا لم ترض أي حكومة بالتراجع ولو خطوة واحدة إلى الوراء عما أتي به من الإصلاحات ، فضلا عن أنها لم تفكر في ذلك . ولولا تلك الإصلاحات لآل وضع أتراك العثمانية ، بالتأكيد ، إلى ما آل إليه العديد من المجتمعات والأقوام الآسيوية . وآخر ما يقال في هذا الصدد أن تركية هي إحدى الدول الآسيوية النادرة جدا ، التي لم تذق طعم الاستعمار في أي وقت من الأوقات ؛ ويرجع الفضل في ذلك إلى هذه الإصلاحات .

لقد كان قول صهر السلطان مشير خليل رفعت باشا الذي جاء إلى إستانبول (1830/1/13) وتسلم وظيفة قبطان دريا منقولا من سفارة بطرسبورغ : « إن لم نتشبّه بالأوروبيين ، فنحن مضطرون آن ذاك للانسحاب إلى آسيا » ، كان له التأثير في حث البادشاه على زيادة تشدده في الحركة الانقلابية . صرف السلطان جهدا يمكن أن يقال عنه إنه معجزة في تشكيل الجيش الجديد .

خرج البادشاه بنفسه في الشتاء للتدريب في الوحل ، وتحت الثلج المتساقط ، وفتح مكتب فنون حربيه ء شاهانية (المدرسة الحربية الإمبراطورية) التي بدأت بتخريج ضباط المشاة والخيالة الذين يشكلون عماد الجيش . منح للملازمين المتخرجين راتب الزعيم . وسع وجدد مدرسة « مهندسخانهء برّیء همايوني » التي كانت تخرج ضباط المدفعية والاستحكامات منذ القدم ، وأضاف إليها القسم الثاني وهو « مهندسخانهء بحرىء همايون » التي تخرج الضباط البحريين (حاليا الجامعة التكنولوجية ومدرسة الحربية البحرية) وجلب إليهما من أوروبا ضباطا ومهندسين وأساتذة ، وكتبا وأدوات تكنولوجية ، وجعلها من أحدث المؤسسات . فتح « مكتب طبيهء عدليهء عسكريهء شاهانه » (مدرسة الطب العدلي العسكري الإمبراطوري) التي أخذت في تخريج الأطباء العسكريين والجراحين والصيادلة ، وكانت الدراسة في هذه المدرسة بكاملها باللغة الفرنسية . فتح الباب العالي غرفة الترجمة وجعلها تابعة للصدارة (رئاسة الوزارة) . وفي هذه الغرفة تلقي أكثرية الصدور الأعاظم لدور التنظيمات دروسهم إبان شبابهم ، كما أقبل الموظفون الشباب على تعلم اللغة الفرنسية في هذه الغرفة (غرفة الترجمة) .

نظم تشكيلات السراي العظيم الذي يرجع تاريخه إلى عصور مضت ، على طراز قصور العائلات المالكة الأوروبية دون ترك التقاليد العثمانية . أسس الوزارات الحديثة . أطلق اسم وزير الخارجية على رئيس الكتاب ، وعلى كتخدا الصدارة اسم وزير الداخلية ، وعلى الباش دفتر دار اسم وزير المالية ، وبعد فترة سمي الصدر الأعظم رئيس الوزارة ، ولكن هذه التسمية تركت بعد ذلك . ولن نسهب في هذا الموضوع لأننا سوف نتناوله فيما بعد بالتفصيل .

وخلال عدة سنين تمكن السلطان محمود من تأسيس أسطول كبير بدلا من الأسطول الذي أحرق في نافارين . أسس مجالس في الولايات قامت بإنشاء وإصلاح آلاف الأبنية ، وشقت الشوارع ، وأنشأت الجسور ، وأسست نظمًا مالية أكثر حداثة . تم تأسيس تشكيلات البريد والحجر الصحي . جرى تعداد السكان . نشرت جريدة رسمية باسم **تقويم وقائع** اعتبارا من 1 ت /1831/2 باللغات التركية والفرنسية والعربية وبنسخ منفصلة ، وهي المستمرة حاليا باسم **رسمي غزته** (الجريدة الرسمية) . وبّخ البادشاه العالم المشهور أسعد أفندي الذي كلفه بأمور نشر الجريدة بسبب استعماله لغة

صعبه لا يتفهمها الشعب . دخلت الموسيقى الغربية البيانو ، الجوقة ، الأوركسترا ، المسرح ، الأوبرا ، إلى المجتمع العثماني ، وعلى أقل تقدير إلى استانبول . كانت هذه الفنون موجودة سابقا ، يتولاها ويقوم بها الأوروبيون ، والآن أصبحت من مؤسسات الدولة الرسمية .

يعد أكبر انقلاب حققه السلطان محمود في النظام هو تمكينه المدنيين من إدارة الدولة . فرزت الرتب المدنية عن العسكرية . سيتولى إدارة الإيالات والمحافظات منذ الآن موظفون مدنيون وليسوا عسكريين كما كان عليه الحال خلال تاريخ الدولة العثمانية ، وسيكون الآمر المدني في المقدمة في البروتوكول . لن يعنى الضابط بإدارة الدولة وسيقوم بالأمور العسكرية فقط . قلصت كذلك صلاحيات رجال الدين من ذوي اللباس الرسمي ، ونظمت المناهج الانقلابية بشكل يمكن فيه سحب صلاحيات إدارة الأقضية والبلديات والأوقاف والمدارس والمعارف وأخيرا العدلية من أيدي هذا الصنف . ولم يبق في النهاية تحت إدارة رجال الدين سوى المدارس التي تدرس الدين ، ومحاكم الحقوق المدنية وأمور الدين . أعطيت إدارة المحاكم الجزائية والتجارية التي كانت لدى الصنف المدني إلى رجال العدل . كذلك انتقلت مؤسسات المعارف والبلديات إلى المدنيين . تأسست الدبلوماسية التركية الحديثة . احتل العاملون بالخارجية المراكز الحيوية في الدولة كأكبر صنف من الأصناف المدنية .

قانون القيافة (اللباس) الذي صدر في 3 آذار 1829 ، جاء باللباس الأوروبي الطراز إلى المدنيين ، بالإضافة إلى تنظيمه اللباس الرسمي للأصناف العسكرية ورجال الدين . كان على كل موظف حكومي لا ينتمي إلى صنف العسكرية ورجال الدين ، ومن بينهم البادشاه ، أن يرتدي الجاكيت (السترة) والبنطلون (السروال) والطربوش . منع ارتداء القلنسوة ، العمامة ، الشلوار (السروال العريض) ، الجاروك (نعل بشكل خاص) ، الباشماق ، والعمامة والجبة لا يرتديهما سوى رجال الدين فقط . لم يكن جميع رجال الدولة يوافقون البادشاه على إجراءاته ، وكان سكوتهم بسبب خوفهم . لم يكن الشعب مدركا ضرورة هذه الانقلابات . وصار الشعب يسمي محمود الثاني « كاوور بادشاه » أي البادشاه الكافر ؛ ذلك أنه علّق تصاويره في الدوائر الرسمية . وكان يلبس ابنته السلطانة عطية الملابس الرجالية الرسمية للضباط بحيث يجمع شعرها

تحت الطربوش ، ويلبسها السروال ، ويرفق معها أخاها الذي يكبرها سنة واحدة ولي عهد - شهزاده السلطان عبد المجيد ويرسلهما إلى الثكنات العسكرية بين الجنود .

عوقب بشدة كل من سعى ضد الإصلاحات ، سواء من لم يطبقها بشكل جيد أو الذي لم يعرها الأهمية الواجبة ، وأفهم من كان منهم موظفا بالدولة أنه لن يكون له مكان فيها إن لم يبدل أفكاره ؛ لأن عدم تطبيق هذه الإصلاحات معناه انتهاء الدولة ، وفي حالة انتهاء الدولة لن يبقى دين ولا وطن ولا بادشاه ولا دواوين . لم تهمل أبدا الثقافة الشرقية . بدأ ينشأ جيل له إلمام باللغات والثقافات الشرقية (العربية والفارسية) ، ويجيد الفرنسية كذلك ليتمكن من الاطلاع على المدنية الغربية أيضا من الداخل ، وهؤلاء هم الذين احتلوا مناصب الدولة خلال سنوات التنظيمات . تحققت هذه الانقلابات في ظروف كان يمكن لأوروبا فيها أن تزعج الدولة ، وأن تضع العراقيل أمامها وتخلق لها المشاكل في كل لحظة . كانت الإمبريالية الأوروبية كأنها متكالبة على رأس إمبراطورية هائلة مفتوحة الحدود . لم تكن العثمانية قطرا محدودا كاليابان لا يتجاوز النصف مليون كم^2 ، بل كانت منتشرة على أراض تزيد مساحتها على العشرة ملايين كم^2 . ولم تكن دولة قومية يعيش فيها شعب واحد ويتكلم لغة واحدة كاليابان . كانت إمبراطورية ذات أديان ومذاهب متعددة ، ولم تكن قطرا له موانع طبيعية ومحاط بالبحار كاليابان ، كانت مفتوحة وفي متناول يد أوروبا . وخلاصة القول : لم يكن الأمر يقتصر على أن يفقد البادشاه منصبه بل كان الأمر يتعدي ذلك إلى فقدانه رأسه .

سحق السلطان محمود بشكل صارم الولاة المستبدين (الذين يحكمون ذاتيا) ، والإقطاعيين المحليين الذين يسمون الـ « أعيان » والأشراف . لم يتساهل أبدا مع الذين لايصغون لأوامر المركز . أمر بإرسال الأسطول إلى عائلة قره مانلي التي حكمت ليبيا كإقطاعية عثمانية مدة عصر كامل ، وأصبح الولاة يرسلون إليها من استانبول . أوقف المماليك الذين حكموا العراق على أساس أنهم بكلربك بغداد ، وكذلك أشكودرالي - زاده لر (عائلة أشكودرا) الموجودون في أشكودرا والمشابهون لهم ، أرسل لكل الأماكن ولاة من المركز . ألغيت المؤسسة المسماة « الأعيان » ، أسست

إدارات حديثة خاصة في الأناضول وروملي وشمال البلاد العربية . سمي البكلر بك وإل ، والسنجق بك (أمير لواء) متصرف .

ولو قدر للسلطان محمود أن يعيش 10 سنوات أخر ، لكان من المتوقع أن تتغير وجهة تركيا بشكل أعم وأعمق . جهّز أسس التنظيمات ، لكنه مات قبل أن يتمكن من إعلانها .

باختصار استطاع السلطان محمود خلال 13 عاما مشحونة بالكوارث والبلايا أن يغير وجهة الإمبراطورية تغييرا يتعذر معه إمكان العودة إلى الوراء .

5 – وفاة السلطان محمود خان الثاني (1839/7/1)

توفي محمود الثاني كعمه وكأبيه نتيجة الآثار السيئة التي تركتها الحرب الروسية في صحته ، في الساعات الأولى من صباح اليوم الأول من تموز . كان في سن تتجاوز الـ 53 بـ 11 شهرا و 12 يوما . دامت سلطنته 31 عاما إلّا 26 يوما (30 سنة و 11 شهرا و 4 أيام) وهذه المدة هي أطول مدة سلطنة بين محمد الرابع (1648 – 1687) عبد الحميد الثاني (1876 – 1909) . أعلنت أسس التنظيمات التي جهزها هو بعد 4 أشهر و 3 أيام من وفاته . دفن في المقبرة الكائنة في جغالوغلو ، ديوان يولو وباختصار في المكان المسمى « تربه » التي دفن في حديقتها وحول قبره رجال التنظيمات .

مولوده الأول السلطانة فاطمة التي ولدت في 1809/2/4 ومولوده الأخير شهزاده نظام الدين الذي ولد بعد ولادة السلطانة فاطمة بـ 25 عاما في 1833/12/29 . مات له 13 ابنة و 12 ابنًا ، دون أن يتجاوز أحد منهم سن الـ 3 أعوام . أولاده الآخرون هم :

ولي عهد – شهزاده سلطان مراد (1811/12/25 – 1812/7/14) ، ولي عهد – شهزاده سلطان عبد الحميد (1813/3/6 – 1825/4/20 = 12 ، 1 ، 15) ، عبد المجيد الأول (1823/4/25 – 1861/6/25) ، عبد العزيز خان (1830/2/18 –1876/6/4) ، شهزاده نظام الدين (1833/12/29– آذار 1838) ، السلطانة فاطمة (1810/4/30 – 1825/5/7) السلطانــة صالحة (1811/6/16–1843/2/5) ، السلطانــة مهرمــــاه (1812/6/10 –1838/7/3) ، السلطانة عطية (1824/1/2 – 1850/8/11) ، السلطانة خديجة (1825/9/6 – 1842/12/19) ، السلطانة عادلة (1826/5/25 – 1899/2/12) .

تزوجت السلطانة صالحة من داماد محمد خليل رفعت باشا (1795 – 1856/3/4) مشير ، سر عسكر ، قبطان دريا (7 سنين ، 4 أشهر و 6 أيام) ، مشير طوبخانة ، سفير بطرسبورغ ، من مؤيدي التنظيمات الشهيرين . رزقت بابنين توفيا صغيرين وابنة واحدة (خانم – سلطانة صديقة ، زوجها الوزير سروه Server باشا) .

وتزوجت السلطانة مهرماه من داماد بورصه لي محمد سعيد باشا (1798 – ك 1868/1) مشير ، قبطان دريا سر عسكر (وزير حربية + رئيس أركان الجيش) ، وزير تجارة . وهو معارض للتنظيمات ، رفض الصدارة عام 1861 . لم يرزق بأولاد عدا ابن واحد ولد ميتا .

وتزوجت السلطانة عطية من داماد أحمد فتحي باشا (1801 – 1858/2/14) ، مشير ، مشير طوبخانة « مستشار السلطنة » في أواسط عهد السلطان مجيد ، من مؤيدي التنظيمات المشهورين . وأنجبت منه خانم – سلطانة سنية (1843 – 1910) (زوجها مشير حسين حسني باشا) وخانم – سلطانة فريدة (1847 – 1913) (زوجها مشير محمود نديم باشا) .

وتزوجت السلطانة عادلة من داماد محمد علي باشا (1813 – 1868/6/30) وهو صدر أعظم (1852 - 1853) ، مشير المابين ، قبطان دريا (أميرال كبير) (12 سنة و 1 شهر و 2 يوم) . وأنجبت منه خانم – سلطانة خيرية (1846 – 1869) (زوجها وزير اشكودرالي – زادة علي رضا باشا) . وعدا ذلك توفى لها ابنتان وابن في سن الطفولة .

6 – جلوس السلطان عبد المجيد خان الأول (1839/7/1)

جلس السلطان عبد المجيد الأول وعمره يتجاوز الـ 16 سنة بشهرين و 6 أيام . أمه السلطانة – الوالدة بزم عالم (1807 – 1853/5/2) وهي السلطانة – الوالدة لدور التجدد ، وقد شيدت مؤسسات خيرية كبيرة بصفتها هذه ، وبهدف تجديد الإمبراطورية . عبد المجيد الأول (باللغة الشعبية : سلطان مجيد) ، أصبح وليا للعهد

فور وفاة أخيه الكبير سلطان عبد الحميد وعمره سنتان (1825/4/20) . هو حاكم التنظيمات الشهير الذي تلقى منذ حداثته الثقافتين الغربية والشرقية . أول من تعلم الفرنسية بطلاقة من بني عثمان ، حصل على إجازات في خط الثلث ، والجلي ، والرقعة . عازف على البيان ، له إلمام بالموسيقى الغربية . أول حاكم لم يتعلم الموسيقى التركية . مولوى ونجّار دقيق . قام بـ 6 سياحات رئيسية ، خلال سلطنته وزار روملي والعديد من جزر إيجا ومن بينها كريت ، وتمكن من زيارة الأماكن القريبة فقط من الأناضول كازميت ، بورصة ، جنا قلعة . وزار كذلك جزيرتي قوش آداسي ، مارماريس وبودروم .

كان محمود الثاني قد كلّف رءوف باشا بالصدارة للمرة الثانية (1833/2/18) ، بعد صدارة رشيد محمد باشا التي دامت 4 سنوات و 21 يوما . وكان قد مضى على خروج رءوف باشا من صدارته الأولى مدة تزيد على الـ 15 سنة . هذه الصدارة الثانية لرءوف باشا اعتبارا من 1805 هي أطول مدة صدارة حتى نهاية السلطنة . وقد كان في منصب الصدارة عند جلوس السلطان مجيد .

شيوخ الإسلام الذين بقوا في المشيخة أطول مدة ، في عهد محمود الثاني ، هما ياسينجي – زاده عبد الوهاب أفندي الذي بقي 6 سنوات و 4 أشهر و 16 يوما (1819 – 21 و 1828 – 33) ، ومكي – زاده مصطفى عاصم أفندي . وقد اعتلى عاصم أفندي مقام المشيخة 3 مرات مجموعها 17 سنة و 6 أشهر و 18 يوما ، وهو بهذا يعتبر السابع من بين شيوخ إسلام العثمانية من حيث مدة بقائه في المشيخة ، (1818 – 19 و 1823 – 25 و 1833 – 46) . وقد أبقاه السلطان مجيد في مقامه حتى وفاته . وكانت الفترة الثالثة له في المشيخة هي أطول فترات المشيخة عموما بين الأعوام (1574 – 1891) .

السلطان مجيد ، جميل الوجه جدا ، ومقبول الهندام ، متوسط القامة ، عسلي العينين ، كان كأبيه مشغولا بالنساء والشراب ، وبينما كان أبوه معجبا بالنساء السمراوات ، ذوات الشعر الأسود والعيون السود ، كان السلطان مجيد تعجبه النساء الشقراوات ذوات العيون الزرق والقد الرقيق الممشوق . كان مؤدبا ، رقيقا ، حسّاسا ، رحيما ، ذكيا ، وقورا . لم تكن له سطوة أبيه الصلبة ، ولا دهاؤه الواسع ، لكنه صار في مقدمة المتميّزين بين حكام الطراز الأوروبي ، في عصره . لم يقم بإدارة الدولة بشخصه كأبيه ،

ولقد كانت تلك هي رغبة أبيه الذي خطط التنظيمات على أساس ترك إدارة الدولة إلى الطبقة البيروقراطية العليا .

جلس السلطان مجيد على العرش في ظروف صعبة . تُرى هل سيكون بالإمكان في ظل هذه الظروف إعلان التنظيمات ؟

لقد كان الموقف عقب وفاة السلطان محمود على الوجه التالي :

– لم يتردد المعارضون من رجال الدولة للتنظيمات وحركة التجديد في كشف النقاب عن حقيقة نواياهم قبل مواراة البادشاه التراب ، بعد أن زالت خشيتهم من السلطان المسجى .

– انقسم رجال الدولة إلى قسمين :

● قسم محافظ يرى التراجع عن بعض النقاط التي حققها السلطان محمود ، وإن تعذر ذلك فالوقوف تماما عندما حققه وعدم تجاوزه . وهؤلاء هم الأكثرية .

● قسم متحمس لحركة التنظيمات والتجديد ، مصمم على المضي بالحركة على النهج الذي رسمه السلطان .

وفي كل الأحوال لم يكن هنالك من يفكر في الاستغناء عن الجيش الحديث ، أو إغلاق المدارس التي فتحها ، كما كان النفور شديدا وعاما من دور الإنكشارية ، خاصة أن أكبر عصيان شهدته الدولة على مدى تاريخها كان قد اكتسب مرحلة جديدة بهزيمة نيزيب .

دامت صدارة رءوف باشا الثانية مدة 6 سنوات و4 أشهر ، 12 يوما . كان رءوف باشا من المجددين المعتدلين ، ينفذ كل ما يشير به السلطان محمود ، كما كان رجل دولة ذا قدرة على تطبيق إرادة البادشاه بشكل جيد .

انتزع خسرو باشا الطاعن في السن والذي يترأس حزب المحافظين ، الختم الهمايوني من رءوف باشا عنوة ، في تشييع جثمان السلطان محمود ووضعه في صدره . لم يتدخل السلطان مجيد مع أنه لاحظ أنهم ينظرون إليه كطفل ، وفي الحقيقة فإن السلطان

مجيد كان لديه العزم والشجاعة لتحقيق كل ما أوصاه به أبوه بحذافيره (1839/7/2) .

علم قبطان دريا أحمد فوزي باشا ، قائد الأسطول الهمايوني في جناقلعة ، في اليوم التالي ، بخبر صدارة أعدى أعدائه خسرو باشا . سحب الأسطول من جنا قلعة ، وسار به إلى الإسكندرية ، وسلمه إلى محمد علي باشا . حيث كان يعتقد أنه سيأخذ محمد علي باشا ويتجهان معًا إلى إستانبول ؛ ليعطي الصدارة لمحمد علي باشا ويجعله الشخص الثاني .

جعل أحمد فوزي باشا بعمله هذا ، محمد علي مالكا لأقوى أسطول في العالم بعد انكلترا .

يصف التاريخ العثماني أحمد فوزي باشا بالخيانة لقيامه بهذا العمل ، وإن كان هو يبرر عمله هذا بأنه لم يسلم الأسطول إلى محمد علي باشا ، وأن المسألة لا تعدو مجرد نقل الأسطول من ميناء من موانى الدولة العثمانية إلى ميناء آخر تابع للدولة أيضا ؛ وهو الإسكندرية . (هذا القول لا يزيد على كونه تبريرا ؛ لأن القصد كان واضحًا) .

المهم أن الدولة فقدت أسطولها الذي أنشأه السلطان محمود بجهود جبارة وتضحيات كبيرة ، خاصة بعد واقعة نافارين منذ 12 سنة ، كما أن تسليم الأسطول لمحمد علي باشا جعل من الصعب إمكان تقويم محمد علي باشا بواسطة الجيش ، ولذلك فقد قرر مصطفى رشيد باشا اللجوء إلى الطرق الدبلوماسية لتنحية محمد علي باشا .

7 ـ نشأة التنظيمات وحركة التجديد

ولكي ندرك أسلوب هذه التنظيمات بشكل أعمق ، فإن الأمر يقتضي منا التطرق إلى نشأتها .

وقع مؤرخو التاريخ العثماني في خطأ تاريخي جوهري غير قابل للنقاش ، حينما قالوا بأن : مصطفى رشيد باشا هو رائد هذه التنظيمات التي تعتبر بداية لتركيا الحديثة . والحقيقة أن رائد هذه التنظيمات هو السلطان محمود الثاني ، وعلى هذا فإنه يمكن القول بأنه لولا الواقعة الخيرية ، واصلاحات السلطان محمود الجذرية لما أمكن تحقيق هذه التنظيمات .

لقد وجه المؤرخون النقد إلى مصطفى رشيد باشا باعتباره رائدًا للتنظيمات ، في حين أن مصطفى رشيد باشا لم يكن إلا صنيعة السلطان محمود الثاني وتابعه الخاص الذي سار على نهج سيده وأتم ما بدأه .

ومن الواضح أن الذي بدأ حركة الإصلاح ذات النمط الأوروبي الغربي بشكل قطعي هو السلطان محمود الثاني وليس رشيد باشا وذلك بعد الواقعة الخيرية ، وأساسًا فإنه لم يكن ليجرؤ أي بادشاه أن يقوم بإلغاء الجيش وتأسيس جيش جديد بدلا منه ، ولا أن يقوم بسحب العسكريين من الإدارة المدنية وتسليمها للمدنيين ، ولا أن يلغى لبس القلنسوة واستبدال الطربوش بها ... ولا القيام بإصلاحات كثيرة مشابهة . وساعده على ذلك إشراف الدولة العثمانية على شفا الهاوية ، حيث لم يكن فى مقدور أي من بني عثمان أن يحقق مثل هذه الإصلاحات ، على الرغم من الاعتقاد الخاطئ بأن إرادة العثمانيين هي من إرادة الله .

ويقتضي الأمر من الباحث في الحركة الإصلاحية وضرورتها في الدولة العثمانية أن يمعن النظر إلى مرحلتين :

المرحلة الأولى : وتشمل الإصلاح الذاتي الداخلي للدولة ، والمرحلة الثانية : وتشمل النمط الجذري للحركة الإصلاحية التي استلهمت فلسفة الإصلاح من النمط الأوروبي الغربي والتي بدأت مع النظام الجديد عام 1793 .

وخلال المرحلة الأولى لم تتوسع الدولة العثمانية في الاقتباس من النمط الأوروبي الغربي حيث لم يكن قد ثبت لدى قادة الدولة التفوق الأوروبي على آسيا بشكل يدفعهم إلى التوسع في الاقتباس منه ، وكانوا يعتبرون الدولة العثمانية دولة عظمى بالدرجة الأولى ، على الأقل خلال الفترة من 1683 حتى 1770 .

وخلال هذه المرحلة حاول كثير من قادة حركة الإصلاح في الدولة العثمانية القيام بالإصلاحات من منطلق ذاتي دون الاقتباس من الغرب ، ومن هؤلاء القادة : شيخ الإسلام وخواجه سعد الدين أفندي ، خواجة سلطاني عمر أفندي ، والسلطان عثمان الثاني ، كوجي بك – كاتب جلبي ، ومراد الرابع ، وكوبرولو محمد باشا .

ثم تلا هؤلاء القادة فريق من مؤسسي المنشآت الجديدة ، حاولوا الاقتباس من النمط

الأوروبي ولكن بدرجة قليلة حفاظا على الدولة من الأضرار التي يمكن أن تحدث من جراء التوسع في الاقتباس من النمط الأوروبي ، وأيضا لاتقاء شر الإنكشارية الذين لا يرحبون بالاقتباس من النمط الأوروبي ، ومن هؤلاء القادة الجدد : الداماد نوشهرلي ، وإبراهيم باشا ، ومحمود الأول ، ومصطفى الثالث ، وعبد الحميد الأول . والإصلاح الجذري الذي تبناه النظام الجديد لم يقم به سليم الثالث كما كان مفهوما ، وإنما الذي قام به هو خليل حميد باشا الذي قام بمحاولة انقلاب في السلطنة عام 1785 بغرض تسليم زمام الأمور لسليم الثالث ، ولكن محاولة الانقلاب هذه كانت قد انكشفت ، الأمر الذي أدى به إلى الإعدام ، فذهبت أفكاره معه ولم يتمكن من تحقيق إصلاحاته الجوهرية .

وكان خليل حميد باشا قد قام بتنشئة رئيس الكتاب أبو بكر راتب أفندي الذي تزعم الراديكاليين في البيروقراطية العثمانية . وقد كان راتب أفندي أحد أصحاب الـ 21 لائحة التي قدمت لسليم الثالث عام 1791 حول النظام الجديد . الأمر الذي أدى إلى إعدامه عام 1799 في رودس .

وقد كان راتب أفندي سياسيا ، وشغل بعض المناصب السياسية وأهمها وظيفة سفير بلاده في فيينا ، وكان يستعين بمستشار ذي خبرة وتخصص في التاريخ العثماني هو الشاب النمساوي البارون فون هامر المستشرق الشهير .

وخلال تلك الفترة كان يترأس الدولة المجدد الراديكالي سليم الثالث الذي تفوق على الكثير من اسلافه الذين لم يجرءوا على تحقيق الإصلاح الجوهري المنشود ، ومن بينهم أبوه وعمه . وتولى سليم الثالث السلطة وجلس على العرش وهو أصغر من إسلافه سنا وأوفرهم ثقافة . وكان النظام الجديد بالنسبة له عبارة عن جيش جديد . وكان يتوق إلى إصلاح أساسي شامل ، وبدأ بتحقيق هذه الإصلاحات في مجالات عديدة امتدت إلى الموسيقى . وبالإضافة إلى ذلك فإن سليم الثالث كان أول من وضع الراديكالية موضع التطبيق ، وكان أول من حاول من الأسيويين إدخال إصلاحات واسعة تستلهم أسسها من الغرب الأوروبي .

وقد بقي النظام الجديد خلال الفترة من 1793 حتى 1806 حيث وضح آنذاك مدى التفوق الأوروبي ، وكانت الدولة العثمانية قد فقدت القرم أحد شرايينها الأساسية .

خلف سليم الثالث في رئاسة الدولة محمود الثاني الذي لم يتمكن من البدء بالإصلاحات الجوهرية إلا في عام 1826 ، حيث كان الراديكاليون يحافظون على أفكارهم بعناية ، وكانوا يتحفظون جدا في إبداء أفكارهم الجديدة ؛ ليتمكنوا من إنقاذ رءوسهم من سطوة المحافظين والرجعيين الذين كانوا يشكلون الطبقة الحاكمة .

وقد ضحى رجال النظام الجديد أصحاب روسجوك بالعديد من الشهداء . وقد انتشرت الراديكالية في صفوف الجيش كذلك . وكان على رأسهم قاضي عبد الرحمن باشا . وقد كان علمدار مصطفى باشا أحد هؤلاء ولكنه كان جاهلا ، في الوقت الذي كان فيه جميع الراديكاليين على درجة كبيرة من الثقافة . وفي الحقيقة لم يتمكن علمدار مصطفى باشا من الانسجام حتى مع عبد الرحمن باشا الذي كان من مؤيدي النظام الجديد ، رغم أن كليهما كانا ماريشالين للدولة يرومان تأسيس جيش جديد ويؤيدان الحركة الإصلاحية .

انتقلت زعامة الراديكاليين ، بعد إعدام راتب أفندي ، إلى دبلوماسي آخر هو رئيس الكتاب محمود رائف أفندي الذي استشهد في عصيان قباقجي في 1807/5/25 ، وقد أقام محمود رائف أفندي في لندن لمدة ثلاث سنوات تعلم خلالها الإنجليزية والفرنسية بشكل جيد ، وقد خلفه في الزعامة محمد سعيد غالب أفندي الذي صار فيما بعد صدر أعظم غالب باشا (إستانبول 1763 - باليق أسير 1829) ، وكان كل من محمود رائف أفندي ومحمد سعيد غالب أفندي صنيعة للآخر . هذا وقد قام غالب باشا بنقل أفكاره الإصلاحية إلى وزير الداخلية : وزير سعيد برتو باشا (داريجة 1786 - أدرنة 1836/10/8) الذي فقد رأسه في سبيل هذه الحركة فيما بعد .

ظهر في نهاية هذه التغيرات الزعيم الأكبر مصطفى رشيد باشا الذي تعهده بالرعاية والجهود المكثفة رائد البيروقراطية الراديكالية برتو Pertev باشا ، وأيضا بفضل جهود رئيس الدولة الراديكالي محمود الثاني (1800/3/13 - 1858/1/7) .

ثم خلفه الصدر الأعظم محمد أمين عالي باشا ، (1815/3/5 - 1871/9/7) الذي تتلمذ على يد رشيد باشا وكذلك تأثر بالرائد الثاني للحركة التجديدية والتنظيمات الصدر الأعظم كيجه جي زاده بيوك دكتور محمود فؤاد باشا ، وجميعهم من تلاميذ رشيد باشا

وكان عالي باشا من خريجي غرفة الترجمة ، بينما كان فؤاد باشا من المدرسة الطبية ، وكلاهما عمل بالسلك الدبلوماسي مثل رشيد باشا . وقد توفى فؤاد باشا قبل عالي باشا ، وبموتهما تحطمت فكرة التجديد والتنظيمات والانقلابات الفكرية ، وانقسمت الحركة إلى قسمين :

(ا) مؤيدي التنظيمات المحافظين : الذين استهدفوا استمرار مدرسة الباشوات رشيد – عالي – فؤاد .

(ب) الانقلابيين : الذين كانوا يهدفون إلى قلب نظام الحكم وإحداث تغيير حذري ، ولكنهم لم يستطيعوا تحقيق هدفهم إلا في عام 1908 .

وقد تزعم الفريق الأول السلطان عبد العزيز ، ثم جاء بعده السلطان عبد الحميد الثاني ، كلاهما أيد فكرة إدارة البيروقراطيين ذوي المناصب العالية في الدولة لبيروقراطية التنظيمات .

وقد وقف الانقلابيون ضد هذه الفكرة حتى عندما كان عالي باشا على قيد الحياة ، واستمروا في معارضتهم للسلطان عزيز والسلطان حميد .

وتزعم الفريق الثاني ضياء بك (وزير عبد الحميد ضياء الدين باشا) ومعاونه نامق كمال بك اللذان أسسا حزبا أو تيارا فكريا غير رسمي باسم : العثمانيون الجدد (بني عثمانليلر) .

ولم يستطيعا القيام بالمعارضة داخل تركيا ، لذلك أقاما في أوروبا وسعيا لقلب نظام الحكم ، ورشحا مدحت باشا ليتولي زعامة المعارضة ويكون صدرا أعظم ونامق كمال وزيرا للخارجية . ولكن فكرتهم هذه لم تحظ بتأييد البيروقراطيين المؤيدين للتنظيمات ، وقد حاول مدحت باشا استغلال فكرة الثنائي ضياء – كمال ، وارتبط بدولة أجنبية هي انجلترا التي كانت زعيمة أوروبا في ذلك الوقت ، مخالفا بذلك من سبقوه في التاريخ العثماني كله .

وحاول تجريد البادشاه من صلاحياته ليصبح دمية ويستأثر هو بالسلطة ، ولكن خطته هذه لم تجد قبولا من مؤيدي تنظيمات رشيد باشا فضلا عن أنها لم تكن خطة عملية

لأنها ستقوض أركان الإمبراطورية في الحال ، ويتضح من ذلك أن مدحت باشا كان يسعى إلى منافع شخصية .

ورغم أن عبد الحميد الثاني اضطر إلى تغيير جزء كبير من مقررات التنظيمات الإصلاحية وركز على قسم كبير منها فإنه حافظ على استراتيجية التنظيمات كنظام أساسي حتى عام 1908 .

وبعد تنحية مدحت باشا ، ورث أفكاره حزب الاتحاد والترقي السري الذي مارس راديكالية تفوق تصورات رشيد باشا وضياء باشا ، بمراحل كبيرة .

تلك هي الخطوط الرئيسية الأكثر وضوحا في حركة التجديد في الدولة العثمانية ، ذكرناها بإيجاز لتوضيح أن التنظيمات الإصلاحية لم تظهر فجأة ، وإنما مرت بمراحل متعددة . ولنوضح أيضا أن هذه التنظيمات الإصلاحية ليست من بنات أفكار رشيد باشا .

8 ـ إعلان التنظيمات (1839/11/2)

رشيد باشا الذي يعتبر تلميذا للسلطان محمود ، كان وزيرا للخارجية ، وعند وفاة السلطان محمود كان رشيد باشا في لندن ، فعاد مسرعًا وأبلغ السلطان مجيد الشاب طلبات أبيه ، حاول الصدر الأعظم خسرو باشا إقناع البادشاه الشاب بإعدام مصطفى رشيد باشا (عمره آنئذ 40 عاما) ولكن البادشاه كان حكيما فأعلن موافقته على إعلان تنظيمات رشيد باشا .

تلا رشيد باشا ـ مجازفا بحياته ـ أمام كل رجال الدولة والشعب والأجانب فرمان البادشاه الذي هو بمثابة الدستور (1839/11/2) الذي يوضح الحقوق الرئيسية .

تمثل موافقة السلطان مجيد على إعلان التنظيمات تنازلا عن الكثير من الحقوق المتوارثة منذ عصور طويلة لأجداده مؤسسي الدولة ، وقد كان ذلك بلا شك حرصا من السلطان مجيد على مصالح الدولة واستمرار بقائها .

تمت تلاوة فرمان التنظيمات في كلخانة في سراي طوب قابو ، ولذلك فإنه يطلق عليه اسم « كلخانة خط همايوني » ، ويطلق عليه الأوروبيون « خط شريف » ، وبإعلان الدستور أصبحت إصلاحات السلطان محمود قانونية وموثقة .

يوضح الدستور أن الشعب هو أساس وجود الدولة ، وأن الدولة إنما تقوم من أجل الشعب ، وأن مؤسسات الدولة قد تسرب إليها الفساد منذ 150 عاما ، وأنه قد حدث إخلال بحقوق الشعب في الفترات الأخيرة ، ولذلك فقد فقد الشعب رفاهيته كما فقدت البلاد إعمارها ، وأنه على الدولة أن تؤمن الحقوق الأساسية للشعب ، وبناء على ذلك ينص الدستور على أنه لا يجوز بعد الآن :

- إصدار حكم بالإعدام ولا بالسجن ولا بالنفي على أي مواطن ، ما لم تقره المحكمة في جلسة مفتوحة ، لا يمكن مصادرة أموال ونقود شخص أو مؤسسة لصالح الخزانة العامة على أساس أنها أموال دولة مسروقة ؛ ما لم تقر ذلك المحكمة .

- لا يمكن طلب ضرائب أو رسوم ، أو أي خدمات زائدة من الشعب عدا الضرائب التي تقرها القوانين المرعية .

- لا يجوز تجنيد أي مواطن خلافا للقانون أو إبقاؤه في العسكرية مدة أطول من المدة المنصوص عليها في القوانين المرعية .

- لا يجوز لأي موظف أن يتعدى حدود صلاحياته الممنوحة له قانونا ؛ فإن كان عسكريا يشتغل بالأمور العسكرية ، وإن كان من العلماء يشتغل بالأمور الدينية والواجبات الأخرى المحددة .

- يجوز لكل مواطن الاشتغال بالتجارة والزراعة والصناعة بحرية تامة في إطار القوانين .

- لا يجوز إصدار أحكام إعدام أو سجن أو نفي أو مصادرة بإرادة الوزير والبادشاه ، واستنادا لأسباب سياسية مبهمة كما كان في السابق .

- لا يكون للبادشاه بالذات حق سجن ، أو نفي أي شخص .

- يقسم البادشاه على رعاية أحكام الدستور .

- تطبق التعديلات فورا بإنشاء المؤسسات اللازمة لها في كل الإيالات .

- ينفذ هذه الإجراءات الصدر الأعظم الذي يعينه البادشاه .

- ينبغي أن يكون الصدر الأعظم مدنيًا ، فإن كان عسكريا ، فيتحتم أن تكون له مكانة متميزة بين الوزراء الآخرين . (كان ذلك هو الواقع المطبق وإن لم يذكر في الفرمان ، ويعني هذا أن تترك إدارة الدولة بصورة رسمية للطبقة العليا من البيروقراطيين) .

- يقوم البادشاه بواجبات السلطنة ولا يحكم .

- يصدق البادشاه على قرارات الحكومة وعرائض الصدارة بصورة تلقائية ، ما لم يكن هنالك سبب مجبر لردها . (يوضح هذا أن صلاحيات البادشاه قد قلصت بما فيه الكفاية بالنسبة لصلاحيات القيصر مثلا) .

وافق البادشاه على ذلك بمحض إرادته وحريته دون أي ضغط من الشعب أو الجيش كما حدث في معظم الدول الأوروبية .

ومن الواضح أن هذا النظام يعطي السلطة إلى البيروقراطية التي يتزعمها رشيد باشا وإلى الشباب ، ولذا قاومه البيروقراطيون المحافظون المسنون القدامى .

استغرق تأمين التوازن بين هذين التيارين من قِبَل البادشاه مدة طويلة نوعًا ما ، عين خلالها في فترات متفاوتة صدورًا عظامًا من المحافظين .

انتقلت إدارة الدولة في النهاية إلى مؤيدي التنظيمات تماما ، وعدا حادث 1876 ، لم يظهر جنرال يميل إلى التدخل في السياسة ، وقد تولى بعض العسكريين وظائف مدنية نظرا لعدم توافر العدد الكافي من الموظفين المدنيين ، ولكنهم كانوا يقومون بأعباء وظائفهم هذه كأنهم موظفون مدنيون ، وأكثر الذين تولوا هذه الوظائف ، كانوا برتبة مشير .

أخذت صلاحيات زمرة العلماء في التقلص تدريجيا على مر الزمن ، مما سبب عدم الارتياح الداخلي لدى هذه الطبقة .

لم تعد الرغبة السابقة في الانتساب إلى المدارس المدنية كما كانت عليه ، وكانت حصة المدارس العسكرية من الطلاب محدّدة .

والكل يرغب في إلحاق ابنه كاتبا في الدوائر الحكومية ؛ أي جعله في السلك المدني . كانت وظيفة الكاتب ، هي المرحلة الأولى في الوظائف المدنية ، وكان يجري تدريب الموظفين ثم تفريعهم إلى 5 فروع أساسية : الخارجية ، الداخلية ، المالية ، المعارف والعدلية ، وفي ضوء هذا فإن وظيفة الكاتب كانت تعتبر الخطوة الأولى لمنصب الصدارة .

بدأت بيروقراطية الباب العالي التقليدية الكبرى ، وأصبحت للمدنيين رتب معادلة لرتب صنف العسكرية وصنف العلماء ، كما أصبحت لهم ملابس للمراسم ، لكنهم كانوا يرتدون هذه الملابس في المراسم فقط وليس بصفة مستمرة كالعسكريين والعلماء .

دامت صدارة قوجا محمد خسرو باشا ، مدة 11 شهرا و 7 أيام . كان هذا الشيخ غنيا جدا ، ومن كبار أصحاب الخير ، وكان عدوا لدودا لمحمد علي باشا .

صار واليا على مصر قبل محمد علي باشا وشغل منصب قبطان دريا مدة 10 سنوات و 4 أشهر و 12 يوما (1811 – 18 و 1822 – 27) . لم يتمكن من القضاء على وزير الخارجية رشيد باشا لكن رشيد باشا أسقطه . أقنع البادشاه بأنه لا يمكن حل المشكلة الأولى للدولة ، مشكلة محمد علي مادام خسرو باشا باقيا في الصدارة . كان خسرو باشا أكبر عدو لمحمد علي في الظاهر ، لكن الحقيقة أن رشيد باشا ، كان أكبر عدو لمحمد علي على وجه الأرض . كان رشيد باشا عازما على الانتقام من محمد علي جزاء عصيانه لسيده السلطان محمود . لكن محمد علي لم يتمكن حتى النهاية من التعرف على هذه النية التي كان يبيتها له رشيد باشا .

تصدر رءوف باشا للمرة الثالثة (1840/6/8) . بقي في السلطة مدة 1 سنة ، 5 أشهر و 26 يوما . كان مؤمنا بحركة التجديد التي قام بها السلطان محمود ، وتعاون مع رشيد باشا بشكل منسق ؛ كان رشيد باشا مسيطرا على كل الشئون الخارجية للدولة ، ولم ينشغل بالأمور الداخلية لأنها لم تكن من اختصاصه في الأصل .

صار دارنده لي طوبال عزت محمد باشا الذي شغل هذا المقام قبل 12 سنة ، صدرا أعظم (1841/12/4) ، وعزل بعد 8 أشهر و 27 يوما (1842/8/30) . جاء رءوف باشا إلى السلطة للمرة الرابعة .

مجموع صدارتي عزت 1 سنة ويومان .

انقسمت القوات البرية للإمبراطورية على أيام صدارة رءوف باشا الرابعة ، إلى 5 جيوش (1843/9/6) ، وسوف تنقسم فيما بعد إلى 7 جيوش .

9 ـ حل القضية المصرية (1840 ـ 41)

تجدد أمل محمد علي باشا الكبير السن في الصدارة ، بوفاة السلطان محمود وجلوس خاقان ـ خليفة شاب على العرش . كان رشيد باشا قد أجرى اتصالات سرية جدا حول محمد علي في لندن وباريس ، قبل مجيئه لإعلان التنظيمات .

لم يوفق في اتصالات باريس في هذا الشأن حيث كانت باريس مصممة على مساندة محمد علي بصورة مستمرة والحصول بواسطته على النفوذ في مصر . لكن من الثابت أنه وفق في لندن ، وسوف تكون السياسة التي سوف ينتهجها رشيد باشا هي التعاون مع إنكلترا أعظم الدول العالمية ، ولقد كان من دواعي ذلك ومهيئاته عدم رغبة إنكلترا في التوسع الروسي ، واتخاذها الدولة العثمانية أكبر ضمان لذلك . إلى جانب ذلك فقد رأي رشيد باشا أنه من الخطأ اتخاذ جبهة مضادة تجاه فرنسا الدولة العظمى الثانية ، حيث لم تكن لها أطماع توسعية صريحة تجاه الإمبراطورية العثمانية كروسيا . ولذلك فقد قرر ترك الفرنسية لسياسة التموّج (الاتفاق معها تارة والاختلاف تارة أخرى) ، مع تثبيت العلاقة مع إنكلترا .

وقع رشيد باشا ، الذي ذهب إلى إنكلترا بعد إعلان التنظيمات ، على معاهدة لندن (1840/7/15) . وقّعَ على هذه المعاهدة المكونة من 13 مادة ، كلٌّ من تركية ، إنكلترا ، روسيا ، النمسا ، بروسيا . أصرت فرنسا على عدم التوقيع . وهكذا اتفقت جميع دول أوروبا الكبرى ـ عدا فرنسا وأسبانيا ـ حول قضية محمد علي .

كان ذلك بالنسبة للعثمانية نصرا دبلوماسيا كبيرا بدرجة لا تصدق .

تنص هذه الاتفاقية على أن تقدم الدول الـ 5 الكبرى إخطارين لمحمد علي ، كل منهما لمدة 10 أيام يتضمن الإخطار الأول أن يقوم محمد علي بإعادة الأسطول العثماني إلى إستانبول وإخلاء جزيرة كريت وإدنة وسورية ولبنان والحجاز ، وتعطى له كوالِ

للدولة العثمانية ولأبنائه من بعده مصر والسودان ، وتعطى له فلسطين مدى حياته ، فإذا انقضت مهلة الأيام العشرة ولم يستجب ، تؤخذ منه فلسطين وتعطى له مصر والسودان فقط ، فإذا انقضت مهلة العشرة أيام التالية ولم يستجب ، تؤخذ منه مصر كذلك ، وتتعهد الدول الـ 4 بأن تضع الجيوش اللازمة تحت أمر البادشاه لتنفيذ هذا الإخطار .

بعث رشيد باشا مستشار الخارجية صادق بك (باشا) بالإخطارات . أجاب محمد علي باشا صادق بك محاولا الدفاع عن خيانته وتغطية أطماعه الشخصية ، بأنه خاضع ومذعن لأي فرمان يصدر من البادشاه ، ثم تساءل بعد هذا الرياء السافر عن ماهية تقصيره ، وأن أمثال خسرو باشا من أعدائه في شبابه ، قد غشوا سيدنا البادشاه ، وأقنعوه بإرسال جيش ضده ، وأنه جعل من مصر بلادا معمورة للبادشاه ، وأنه يرسل ضرائبه لاستانبول ويرسل الجنود . وأفاد بعد ذلك ، بأنه كعثماني كبير السن ، تأثر جدا من أن تبلغه إخطارات الدولة الأجنبية عن طريق موظف عثماني ، ولذا فإنه لا يقبل الإخطارات . وأخذ في الدفاع عن الإمبراطورية التي أوشكت بفضله على الاضمحلال ، قائلا بأنه لا يمكن لأي دولة ، التدخل في الشئون الداخلية للعثمانية ، ولا يمكنها أن تملي على وال عثماني مثله أمرا . تكلم صادق بك مع محمد علي باشا ، بإسلوب شديد اللهجة ليثير غضبه حسبما أوصاه رشيد باشا .

عاش رشيد باشا يوما من أسعد أيام حياته عندما علم بالرفض . بلغ الدول الـ 4 برفض الباشا ، للإخطار ، وطلب إجراء اللّازم .

رأت روسيا أنه في حالة أخذ مصر من يد محمد علي ، فسوف تتوجه العثمانية نحوها بعد حل مشكلتها هذه (وبالفعل حدث ذلك) ، ومن ثم فقد ألقت باتفاقية لندن عرض الحائط وتبعتها في ذلك بروسيا التي سايرت السياسة الروسية ، ضد علوتها النمسا ، فلم ترسلا جيشا .

أرسلت إنكلترا وفرنسا الجنود والأساطيل التي طلبها الباب العالي . التقوا مع الجيش العثماني ونزلوا في بيروت (1840/9/15) . تعقبوا أثر قاوالالي إبراهيم باشا البالغ عمره آنذاك 51 عاما . انهزم إبراهيم باشا قرب بيروت بشكل حاسم . كانت حالة النفور

عامة في جميع سوريا ولبنان وفلسطين ضد إبراهيم باشا بسبب تكليفه لهم بأعمال إضافية كثيرة دون مقابل . كانت هذه الأقطار تريد عودة العثمانية . ثار الشعب ضد إبراهيم باشا وأظهر موالاته للعثمانية . دخل الجيش العثماني إلى حلب (1840/11/13) ، وإلى الشام (1840/12/29) ، وإلى عكا (1840/11/4) ، وإلى طرابلس (1840/10/16) . نجا إبراهيم باشا بنفسه بالكاد مع بقايا جيشه ، وعاد إلى مصر وسرد الوضع على أبيه البالغة سنة 71 عاما .

في هذا الوضع ، لعبت إنكلترا لعبتها في التحايل على الباب العالي ؛ بالنسبة إلى معاهدة لندن ، كان الأمر يقتضي إخراج محمد علي من مصر كذلك . وعلى أثر تبليغ محمد علي في اتفاقية الإسكندرية (1840/11/27) بأنه يوافق على شروط المذكرة الإخطارية الثانية ، طلبت إنكلترا من الباب العالي إبقاء مصر والسودان – عدا القسم الساحلي – لدى محمد علي . إن إعراض روسيا وبروسيا عن تطبيق معاهدة لندن ، وإعلان فرنسا معارضتها واستعدادها عند اللزوم لمساندة محمد علي بالسلاح ، صراحة ، جعل إنكلترا في تردد . وإضافة إلى ذلك ، كان محمد علي يقوم بوظيفة الولاية بصلاحيات حاكم منذ 35 عاما ، وكانت جذوره قد امتدت وغيَّرت وجهة مصر . وبناء على ذلك ، طلب رشيد باشا إلى البادشاه أن يعلن فرمان مصر (1941/5/24) الذي بقي مرعيا في مصر كدستور حتى نهاية عام 1914 ونهاية الحكم العثماني .

تشتمل أحكام هذا الفرمان على ما يلي :

يتنازل محمد علي عن الإيالات الـ 7 التي أخرج منها أساسًا ، يرسل الأسطول إلى إستانبول . تعطى له ولاية مصر والسودان وراثيًا . تبقى سواحل السودان المسكونة والمشرفة على البحر الأحمر ، لدى العثمانية . تبقى أريتره كذلك لدى الإدارة العثمانية . تعطى فقط نصف شبه جزيرة سيناء إلى محمد علي . يكون أكبر الأبناء الذكور من صلب محمد علي واليا على مصر ، تنتقل الإيالة إلى العثمانية في حالة انقطاع الذكور من سلالة قاوالالي ، لا يكون لأبناء البنات حق في السلطة . يحمل والي مصر لقب « والِ » ورتبة وزير كولاة العثمانية الآخرين ، يدخل في البروتوكول حسب تسلسل القدم ضمن وزراء ومشيري العثمانية الآخرين . يرسل إلى إستانبول ضريبة سنوية

مقطوعة قدرها 4 ملايين آقجه ، يجوز للباب العالي أن يزيد مقدار هذه الضريبة في حالة ازدياد رفاهية البلاد ، ولكن لا يمكن إنقاصها . يكون لوالي مصر الباشا 18 000 جندي . يساق هؤلاء في حالة الحرب إلى الجبهة التي يأمر بها الباب العالي ، وفي حالة السلم يرسل سنويا (بشرط تبديلهم سنويا كذلك) 400 جندي مصري إلى إستانبول . يُسرح الجنود الفائضون ، تباع السفن الحربية ، يلغى الأسطول . يرتدي الجيش المصري البزة العسكرية العثمانية . يرفرف في مصر العلم العثماني ، ولا يستعمل علم غيره . تصك النقود باسم البادشاه . لا تستدين الإيالة من دولة خارجية . تطبق في مصر جميع أسس التنظيمات والقوانين التي أعلنها وسيعلنها الباب العالي . لا يجوز لوالي مصر أن يمنح أحدا رتبة تعلو على رتبة الباي (زعيم) أو ما يعادلها من رتب الصنف المدني وصنف العلماء ، تمنح للمصريين الرتب التي تعلو على رتبة الزعيم من قبل البادشاه فقط ، علامات التقدير والأوسمة تمنح من قبل البادشاه كذلك . وبالنسبة إلى فرمان التنظيمات لا يجوز لوالي مصر معاقبة أي مصري ما لم يكن هنالك قرار صادر من محكمة ، ولا يمكنه جمع الضرائب عدا الضرائب التي تجمع أمثالها من الأقطار العثمانية . لا يجوز للوالي أن يرتبط بأي علاقة خارجية ، يتلقى الأوامر من الباب العالي بشأن كل مسألة مهمة يروم تنفيذها داخل مصر .

يعد هذا الفرمان ، من أعمال رشيد باشا الكبيرة التي دفعت محمد علي إلى حدود التعقل . دام عصيان محمد علي مدة 9 سنوات و 7 أشهر و 5 أيام . امتثل محمد علي بعد ذلك لهذا الفرمان بشكل تام ، حيث إن إحدى فقرات الفرمان تنص على أن تؤخذ مصر من عائلة قاوالالي في حالة مخالفته أي حكم من أحكامه . منح السلطان مجيد عام 1842 محمد علي رتبة الصدارة التي تفوق رتبة الوزارة ، وهذه الرتبة منحت كذلك للولاة الذين جاءوا بعده ، وبذلك تفودى دخول والي مصر في تسلسل البروتوكول بعد الوزراء والمشيرين الأقدم منه . أخذ والي مصر مكانه في البروتوكول الإمبراطوري بعد أعضاء العائلة المالكة ، الصدر الأعظم وشيخ الإسلام ، كثالث موظف دولة كبير ، واستمر ذلك حتى انفصال مصر عن الإمبراطورية في نهاية عام 1914 .

جاء محمد علي باشا ، في 19 تموز 1846 إلى إستانبول وقَبَّل قدم السلطان عبد المجيد

الذي يصغره بـ 54 عاما . كانت سنه آنذاك 77 عاما (عمر البادشاه 23 عاما) . ظل في إستانبول 29 يوما . وحتى في هذا العمر ، أجرى اتصالاته ليكون صدرا أعظم . تدل محاولاته هذه على طبيعة الانتقام ، فقد كان يريد الصدارة لينتقم من أكبر عدو له في الحياة وهو رشيد باشا . زيارة محمد علي هذه لإستانبول هي الأولى والأخيرة طيلة حياته . أما ابنه الكبير إبراهيم باشا ، فكان قد بقي في إستانبول مدة سنة واحدة في شبابه . زار محمد علي بعد عودته من إستانبول مدينة قاوالا التي غادرها قبل 47 عاما . أكرمه البادشاه بضم إدارة جزيرة تاشوز Tasoz المقابلة للمدينة لولاية مصر .

بعد أن انتهى أكبر عصيان وقع في التاريخ العثماني ، كان من الطبيعي أن يعود رشيد باشا إلى موضوع روسيا بعد حله قضية مصر . وقعت معاهدة المضايق (1841/7/13) . وقع على هذه المعاهدة كل من تركيا وإنكلترا فرنسا روسيا والنمسا وبروسيا . وابطلت بشكل كامل اتفاقية رصيف هنكار . تنص المعاهدة على أنه لا يجوز لأي دولة عدا تركية وروسيا اللتين تملكان سواحل في البحر الأسود ، إبقاء أي سفينة حربية في هذا البحر ، ولا يجوز مرور أي سفينة حربية من المضايق إلى بحر مرمره . وعلى هذا ، يكون أسطول البحر الأسود الروسي محجورا في هذا البحر ، وفي الوقت الذي تجبر فيه روسيا على أن تجعل لها في البحر الأسود أسطولا منفصلا ، تكون تركية حرة في سِوْق أسطولها إلى البحر الذي تريده . ومن الطبيعي أن العثمانية هي التي ستعيّن السفن التي يمكنها المرور من المضايق في حالة الحرب .

لم يتمكن محمد علي من مجابهة الضربة التي أصابته من رشيد باشا بسبب تأخره الكبير في حسابها . وفي أحد الأيام ، قال محمد علي لسفير روسيا في مصر عن رشيد باشا « سيلعب هذا الشخص لعبة مدهشة على القيصر Nikolay الذي أزعج سيده السلطان محمود ، كما حكم علي بالحجر في مصر » ابتسم القنصل الذي استبعد هذا الاحتمال . ولكن رشيد باشا سيلعب على القيصر كذلك في حرب القرم ، سينتحر القيصر بخروجه في شدة مرضه لتفتيش جيشه في البرد الشديد هربا من التوقيع على معاهدة باريس التي تعتبر فاجعة له .

بدأت الملكية الفرنسية التي تلقّت ضربة شديدة في القضية المصرية بالتسلط على

لبنان . كانت تعتبر العرب الكاثوليك، المارونيين الموجودين فيه ، ذكرى دور الصليبيين لحكم الفرنسيين في لبنان ، وتعتبر نفسها وارثة لسواحل سورية . اشتد في 1843 صدام المارونيين والدروز في جبل لبنان . حاول الباب العالي في ايلول 1845 اتخاذ بعض التدابير لمنع تحركات الفرنسيين ؛ أسس في جبال لبنان قضاءين مستقلين ذاتيا أحدهما للدروز ، والآخر للمارونيين . وربط القضاءات بالوالي المستقر في صيدا .

10 - الوضع العام في أواسط العصر 19 :

عزل رءوف بك عن صدارته الرابعة (1846/9/28) . ووجد السلطان عبد المجيد أخيرا في نفسه الشجاعة لتعيين زعيم التنظيمات مصطفى رشيد باشا البالغ عمره 46,5 عام . زاد تعيين عالي أفندي (31,5 سنة) ، أقرب الأشخاص لرشيد باشا لتولي وزارة الخارجية ، رد الفعل لدى المحافظين . لم يتمكن رشيد باشا من الصمود تجاه رد الفعل هذا سوى سنة و 7 أشهر . صار إبراهيم صارم باشا وهو من العاملين بالسلك الدبلوماسي كذلك ومن مؤيدي التنظيمات المعتدلين ، صدرا أعظم لمدة 3 أشهر و 14 يوما (1848/4/28 - 1848/8/12) . كان في الـ 46 من عمره . جيء برشيد باشا ، الذي كان وزيرا للدولة في تلك الوزارة ، إلى الصدارة للمرة الثانية . كان رشيد باشا ، قد شكل في صدارته الأولى وزارة المعارف العامة وربط كل المدارس بها ، وبقيت المدارس الدينية تحت إدارة شيخ الإسلام ، والعسكرية تحت إدارة السر عسكر ، واستمرت على هذا الشكل حتى نهاية الإمبراطورية .

صادفت ثورة 1848 الأوروبية الكبرى أيام صدارتي رشيد باشا . بدأت الثورة في فرنسا . تقوضت الملكية البرلمانية وأعلنت الجمهورية الثانية . صار الأمير نابليون ابن أخي نابليون الكبير رئيسا للجمهورية (سيكون أول إمبراطور في نظام الإمبراطورية الثاني لفرنسا بلقب نابليون الثالث عام 1851) . سقط الأمير مترنيخ Metternieh رئيس وزراء الاتحاد النمساوي الذي سيطر على الدبلوماسية الأوروبية طيلة نصف قرن ، وهكذا سقط نظام مترنيخ . فقد الإمبراطور فرديناند عرشه وجلس على العرش Franz Joseph الإرشيدوق الشاب البالغ عمره 18 عامًا الذي سيظل على العرش حتى 1916 . حاولت الدولتان الألمانية والإيطالية الاتحاد ، ولم تتمكنا من تكوين ألمانيا وإيطاليا

متحدة . كان الأمير بسمارك يتزعم الوحدة الألمانية ، ورئيس ساردونية Piemonte الكونت Cavour يتزعم الوحدة الإيطالية .

امتدت الثورة إلى الإمارتين الرومانيّتين اللتين تسميهما تركيا « مملكتين » . خلع الشعب الأميرين . دخل الجيش التركي رومانيا واحتل إبرائيل (1848/8/2) . جاء كيجه جي – زاده فؤاد أفندي إلى بوخارست كمفتش فوق العادة واتخذت تدابير شديدة . وعندما احتل جيش عثماني يتألف من 35 000 جندي روماني ، احتلت روسيا كذلك مولدافيا بـ 35 000 . وافقت روسيا على سحب قواتها فور سحب العثمانية قواتها باتفاقية بلطه ليماني (1849/5/1) . تحاشى رشيد باشا الحرب مع روسيا في هذه المرحلة ، وكان قد وضع جميع خطط هذه الحرب في ثورة عام 1848 ، لكنه أخر الحرب ، لعدم تمكنه من اتخاذ حلفاء حتى ذلك الحين . ثار المجريون في النمسا والبولونيون في روسيا ثورة كبيرة ، كانوا يريدون الاستقلال والجمهورية . ذبح الروس عشرات الآلاف من البولونيين وأخمدوا الثورة . جاء البولونيون الذين نجوا من سيف الروس إلى المجر واتحدوا مع الجيش المجري وزعيمه Layos Kossuth . وعند انكسار الجيش النمساوي أمام المجريين ، طلب الإمبراطور مساعدة القيصر . دخل الجنرال Paskieviç الذي خاض التجربة في الحروب العثمانية ، إلى المجر مع 200 000 جندي ، وأغرق البلاد في الدم وأخمد الثورة (1849/9/12) . دخل الحدود العثمانية 1120 زعيما مجريا وبولونيًا وطلبوا من الباب العالي حق اللجوء . كانت دبلوماسية رشيد باشا ، التي عاصرت تلك الظروف قد بلغت قمتها . كان من بين جماعة الوطنيين اللاجئين جنرالات ودبلوماسيون وفنانون معروفون لدى أوروبا كلها . أبلغت روسيا والنمسا الباب العالي ، بأن يقبل حالة الحرب في حالة عدم إعادته اللاجئين . رفض وزير الخارجية عالي باشا كلا من مذكرتي فيينا وبطرسبورغ بالمذكرتين المؤرختين 17 أيلول و 22 ت2 ونفذ أمر رشيد باشا . اللندنيون الذين خلعوا أحصنة عربة السفير ، سحبوا العربة على أكتافهم وذهبوا بها إلى السفارة العثمانية . جرت مظاهرات كبيرة موالية للعثمانية في الأوساط الحرة في لندن وباريس وأوروبا الغربية . البولونيون والمجريون المقيمون في تلك الأقطار ، كانوا السبب في إثارة هذه المظاهرات . وخلال هذا الظرف ، حاول رشيد باشا إدخال إنكلترا وفرنسا في الحرب ، لكن رئيس الجمهورية الأمير نابليون

الذي لم يكن يفكر آنذاك في شيء سوى إعداد إمبراطوريته ، لم يرغب في الحرب . بقيت إنكلترا في تردد . لم يكن رشيد باشا راغبا في أن يبقى وحيدا تجاه روسيا . أرسل كيجه جي – زاده فؤآد أفندي إلى القيصر برتبة (أولى) ، رجله رقم 2 الدبلوماسي العظيم البالغ عمره 34 عاما . أجرى فؤاد أفندي مع القيصر مقابلة طويلة ، وعلى انفراد خلافا للعادة (1849/10/4) . أقنع القيصر بعدم نشوب حرب . كانت أوروبا متأكدة من نشوب حرب روسية – عثمانية جديدة . عمت شهرة فؤاد أفندي في كل أنحاء أوروبا كدبلوماسي ناجح . فؤاد أفندي الذي بقي في روسيا مدة 3 أشهر بناء على رجاء القيصر ، منح عند عودته إلى إستانبول رتبة « أولى » ووسام الامتياز . ذهب فورا مع جودت أفندي (باشا) كمفتش فوق العادة إلى مصر . ظل في مصر 4 أشهر ، فتش خلالها كيفية تطبيق أسس التنظيمات في مصر .

دامت صدارة رشيد باشا الثانية 3 سنوات و 5 أشهر و 15 يومًا . وظّف مؤيدي التنظيمات في السلطة خلال هذه الفترة . ضعف المحافظون ، وقل جدا معارضو التنظيمات . أثبت رشيد باشا عمليا ، أن حركة التجدد والتنظيمات مفيدة للدولة . السلطان عبد المجيد الذي كان يخشى — حتى ذلك الحين — من أن يؤدي تنافس الحزبين إلى عراك شديد ، أخذ بمساندة رجال التنظيمات بمزيد من الجرأة .

صار رءوف باشا ، صدرًا أعظم للمرة الخامسة والأخيرة (1852/1/26) ، لكنه توفى بعد شهر و 9 أيام (1852/3/5) . كان في الـ 80 من عمره . مجموع صداراته الـ 5 هو : 14 سنة و 9 أشهر و 25 يوما . وهذه هي المدة السابعة من حيث الطول بين رؤساء وزراء تركية . اعتلى السلطة مرتين في عهد السلطان محمود و 3 مرات في عهد السلطان عبد المجيد . أصبح رشيد باشا صدرا أعظم للمرة الثالثة بعد فترة 39 يوما . استقال بعد 5 أشهر لعدم انسجامه مع داماد أحمد فتحي باشا ، من مؤيدي التنظيمات الشهيرين ومشير طوبخانة .

بدأت الصدارة الأولى لمحمد أمين عالي باشا ، شخصية التنظيمات رقم 2 البالغ عمره 37,5 عام (1852/8/4) ، لكنها دامت 59 يوما (1852/10/3) . كانت سنه تصغر رشيد باشا بـ 15 عاما ومساوية لسن فؤاد باشا . شغل في شبابه منصب سفير في

سفارات باريس ، لندن ، كان أكبر دبلوماسي بعد رشيد باشا . أصبح قبطان دريا (مشير البحر) داماد محمد علي باشا ، الضعيف الشخصية البالغة سنة 39 عاما ، صدرا أعظم .

أسّس رشيد باشا خلال فترة صدارته الثانية الأكاديمية الإمبراطورية التي كانت تسمى « أنجمن دانش » (1851/7/18) .

كان قد انتهى النصف الأول من العصر 19 . ارتفع تعداد العالم الذي كان يقدر بـ 955 مليون نسمة في 1825 إلى 000 000 137 1 نسمة في 1850 ، من بين هذا العدد 902 مليون نسمة لدى الدول الـ 9 العظمى ، والبقية البالغة 235 مليون نسمة كانت تتقاسمها جميع الدول الأخرى (كانت هذه النسبة عام 1825 ، 301 مليونا مقابل 654 مليونا) . ومن دول العالم العظمى لعام 1850 ، ملكية بريطانيا العظمى (إنكلترا) ازداد تعدادها خلال ربع قرن من 119 مليونا إلى 259 مليونا ، جمهورية فرنسا من 32 مليونا إلى 39 مليونا ، إمبراطورية روسيا من 48 مليونا إلى 68 مليونا ، إمبراطورية تركيا من 58 مليونا إلى 54 مليونا ، الإمبراطورية الصينية من 320 مليونا إلى 380 مليونا ، إمبراطورية النمسا من 30 مليونا إلى 39 مليونا ، ملكية بروسيا من 11 مليونا إلى 17 مليونا . الولايات المتحدة الأمريكية من 5 ملايين إلى 23 مليونا ، ملكية أسبانيا من 19 مليونا إلى 23 مليونا نسمة . 20 مليونا من سكان روسيا سرف (عبيد يعملون في الأراضي) ، و 3,2 مليونا من نفوس أمريكا ، من العبيد الزنوج . ألغى نظام العبيد في الدولة العثمانية .

منذ عصور ، ولأول مرة ، يزيد عدد سكان مدينة على عدد سكان إستانبول . لندن التي بلغت عام 1825 000 500 1 ، بلغت عام 1850 000 337 2 نسمة . وفي ربع القرن نفسه ، زاد سكان إستانبول من 000 300 1 إلى 000 400 1 وباريس من 000 000 1 إلى 000 398 1 ، ونيويورك من 000 300 إلى 000 991 ، كان قد ارتفع تعداد مانجستر ، بفضل صناعة المنسوجات من 000 280 إلى 000 569 . بكين 000 100 1 ، كانتون 000 000 1 ، تين جين 000 800 نسمة . كان سكان المدن الـ 5 الآتية يتراحون بين 400 إلى 500 ألف نسمة . بطرسبورغ 000 432 ، وبرلين 000 412 ، وفيلادلفيا 000 409 ، ونابابولي

408 000 ، فيينا 400 000 . يقدر عدد سكان المدن العثمانية الأكثر ازدحاما بعد إستانبول كما يلي : القاهرة 355 000 والشام 215 000 وأدرنة 200 000 والإسكندرية 184 000 ومكة 180 000 وبورصة 170 000 وبغداد 160 000 وحلب 150 000 وأزمير 150 000 . وكان هنالك ضمن حدود الإمبراطورية العثمانية عدا هذا 8 مدن يتراوح عدد سكانها بين 100 و 150 ألفا ، و 22 مدينة تتراوح نفوسها بين 50 – 100 ألف نسمة . كان لدى الإمبراطورية البريطانية 63 مدينة تتجاوز نفوسها الـ 250000 ، لدى العثمانية 40 ، لدى فرنسا 17 ، لدى روسيا 15 ، لدى النمسا 12 ، لدى إيران 10 ، لدى اليابان 10 ، لدى أسبانيا 11 ، لدى الولايات المتحدة 6 ، لدى الصين 33 ، لدى بروسيا 7 ، لدى هولندا 5 . وفي 1825 كان هنالك 227 مدينة في العالم يتجاوز عدد سكانها الـ 50 000 ، ارتفع عددها في 1850 إلى 291 ألفا ، أما المدن التي تتجاوز الـ 100 000 فارتفع عددها من 106 000 إلى 115 000 .

كانت بقية الدول الأخرى ترى أنه من ضروب الخيال أن يتم لها سبق إنكلترا في كل المجالات الرئيسية الأخرى عدا الجيش البري . كانت فرنسا التي جربت الجمهورية للمرة الثانية ولمدة 3 سنوات فقط ، تملك أقوى جيش وثاني أسطول في العالم ، وكانت الدولة الثانية التي تملك الصناعات الحديثة بعد إنكلترا . كانت فرنسا تحاول تقليد إنكلترا في الرأسمالية والاستعمار . إنكلترا ، التي استعمرت الهند ، أصبحت تملك مستعمرات كبيرة في القارات الـ 6 . روسيا كانت تملك الجيش البري القوي الثاني في العالم بعد فرنسا . كان لديها ثلاثة أساطيل مستقلة غير مرتبطة بعضها ببعض ، في البلطيق . البحر الأسود ، المحيط الهادي ، لا يمكن ارتباطها بعضها ببعض .

تضعضعت مكانة النمسا بعد سقوط الأمير مترنيخ ، كان لديها ساحل في الأدرياتيك فقط .

كانت بروسيا تملك جيشا عظيما ، ولم يكن لديها أسطول .

الولايات الأمريكية المتحدة كانت تزدهر في الصناعات الكبرى ، ولم تكن قواتها العسكرية والبحرية ذات أهمية بالنسبة للأوروبيين .

الصين كانت مغلقة على نفسها ولا تزال تحافظ على عظمتها .

أسبانيا كانت قد فقدت مستعمراتها الأمريكية العظيمة وفي حالة سيئة .

تكبدت العثمانية خلال ربع القرن هذا خسائر مهمة ؛ مثل الجزائر ، مورا ، آتيكا ، جزر كيكلاد ، آغري بوز ، دلتا الطونة ، ساحل البحر الأسود . لكنها تمكنت من تأسيس جيشها وأسطولها الحديث بفضل حركة التجديد والتنظيمات ، فتحت مدارسها الحديثة . كان جيشها البري ، الجيش الثالث بعد فرنسا وروسيا ، وأسطولها ، الرابع في العالم بعد إنكلترا ، فرنسا ، روسيا .

11 - حــرب قــرم (1853 - 1856)

كان القيصر نيقولاي الأول المتعصب جدا ، يتابع بقلق تدارك العثمانية لما فاتها وإنقاذها نفسها من التشتت بحركة التجديد والتنظيمات ، هذا عدا نموها وتطورها . حيث تكون تركيا قوية فإن ذلك يعني بالنسبة لروسيا قيام سد لا يمكن اجتيازه أمام تحقيق هدفها في الهبوط إلى البحار الدافئة . إن هذا الهدف الذي وضح في وصية القيصر بطرس الكبير ، لا يمكن تحقيقه مادامت تركيا قويّة . إن نيقولاي ، الذي كان يحسد شخصية محمود الثاني ومناداته في أوروبا بلقب « الكبير » سلّط عليه الآن رشيد باشا . لم يكن نيقولاي يبالي بالسلطان مجيد ، فقد كان يعتبره طفلا ، كما كان يعلم أن السلطان مجيد كان سلطانا فقط ، لا يعني بشئون الحكم .

كان مما يزيد من غضب القيصر تمكن رشيد باشا من حل كل المشاكل الخارجية ، الواحدة تلو الأخرى ، وتمكنه من كسب إنكلترا إلى صفه بكل الوسائل ، واتباعه تجاه فرنسا سياسة مذهلة بالاتفاق معها تارة والاختلاف تارة أخرى ، ثم خرج تجاهه إلى الحلبة عالي باشا وفؤاد باشا . شخّص القيصر سياستهما على أنها سياسة شيطانية ومضرة على الإطلاق بمصالح روسيا . كان تشخيصه هذا متأخرا إلى حد ما . كان يفكر بعصبية متزايدة على مر الزمن في كيفية تمكن رشيد باشا من إذلال روسيا في أوروبا الغربية في 1849 ، بعد إذلاله شرف روسيا في أوروبا الوسطى كذلك ، وإرساله له شخصية رقم 2 فؤاد أفندي (باشا) واستطاعة فؤاد أفندي التغرير به . كان القيصر قد أشرف على نهاية سلطته ، وكان عازما بشكل أكيد على اختتام سلطنته بتأديب العثمانية . كان قد تأخر في كشف نوايا رشيد باشا . لم يتمكن بعد من تعليل محاولة

رشيد باشا بدقة متناهية إغضاب روسيا وإخراجها من طورها المعتدل .

لم يكن بالإمكان ابتلاع العثمانية دون إبعاد إنكلترا أولا . ولغرض تنحية إنكلترا ، فإن الأمر يقتضي إعطاء حصة لها .

استعمل تعبير « الرجل المريض » ، الذي اشتهر فيما بعد ، لأول مرة عند مكالمته للسفير الإنكليزي في بطرسبورغ ، مشيرا عليه باقتسام تركيا أو تشذيب أطرافها على أقل تقدير . أعلمت إنكلترا الباب العالي بتلك النوايا السرية للقيصر ، ولم تعلم روسيا بانتقال هذا الخبر إلى العثمانية . أخذ القيصر الذي ظن أنه اصطاد إنكلترا بوضع الطعم لها ، في التضييق على الباب العالي والانتقاص من كرامته ، محرضا على إعلان الحرب ، معتقدا أنه سيواجه العثمانية منفردة . كان رجلا أرثوذكسيا متعصبا ، لا يستوعب إمكان وقوف دولة مسيحية جانب دولة مسلمة في حرب مسلحة ضد دولة مسيحية (أي روسيا) . وعلى كل الأحوال كان يتصور أنه يمكن أن تكتفي إنكلترا بالتدخل بالطرق الدبلوماسية ، وإعطائها حصة من التركة مقابل ذلك . كان هذا هو تفكير القيصر .

دبلوماسية نابليون الثالث كانت تراقب الوضع بقلق ، ولم تكن فرنسا تخفي نفورها من رشيد باشا الذي يعرض دائما عن فرنسا ويتركها في إحدى الزوايا ويتفق مع إنكلترا ، وقد أعلنت فرنسا عن ذلك بصراحة . كان رشيد باشا يعلم نفور فرنسا منه ، لذلك فقد حرص على تقريب عالي باشا كشخص رقم 1 إلى فرنسا (لم تكن فرنسا مدركة لهذا التخطيط) . بالإضافة إلى ما تقدم كانت فرنسا تعتبر إنكلترا أكبر منافسة لها في السياسة العالمية والاستعمار ، ولم تكن لها مصلحة مع روسيا كما لم يكن لها عداء خاص تجاهها . وإلى جانب ذلك فإن نابليون الثالث لم ينس المعاملة التي عاملت بها إنكلترا عمه نابليون الكبير .

لم تكن باريس متأكدة على وجه اليقين مما إذا كانت إنكلترا سوف تدخل فعلا في حرب عثمانية – روسية ، أم لا ؛ فالسياسة الخارجية الإنكليزية كانت متشعبة ، لكنها كانت موقنة من عدم سماح إنكلترا لروسيا بأن تهبط إلى البحر الأبيض . كانت فرنسا متأكدة من أن إنكلترا ستساند العثمانية على أي حال من الأحوال . وكانت فرنسا تقدر أنه لو دخلت إنكلترا الحرب فعلا ضد روسيا فإن الأمر يستلزم أن تدخل فرنسا

كذلك في هذه الحرب ، وإلا فستكون إنكلترا وحدها هي الحاكمة على نظام وتوازن الدول الكبرى الذي يعقب الحرب .

كان من المؤكد أن إنكلترا – تركيا المتفقة ، ستخضع روسيا ومن ثم ستبقى فرنسا مهملة بشكل أكبر ، وسوف لا تكون لها كلمة في السياسة العالمية ، ومن الطبيعي أن تخضع روسيا فورا تجاه اتفاق إنكلترا – فرنسا – تركيا ، أي أنه لن تكون الحرب طويلة الأمد ... هكذا فكرت باريس ، وانطلت حيلة رشيد باشا عليها . لم تقدر أبدا مدى جدية وضخامة الحرب التي أقدمت عليها .

أرسل القيصر الأمير Menaikof إلى إستانبول كسفير فوق العادة (1853/2/28) . قدم الأمير الذي يشغل مناصب والي فنلندا العام ، ووزير البحرية وأميرال كبير ، للباب العالي مذكرة إخطارية لمدة 5 أيام . طلب فيها تنحية الرهبان الكاثوليك ، وأن يكون الرهبان الأرثوذكس هم أصحاب الكلمة في الأماكن المسيحية المقدسة في القدس . أجاب الباب العالي في نهاية الـ 5 أيام (10 آيار) بأن الدولة العثمانية قد نظمت حقوق الأرثوذكسيين بفرماني فاتح والقانوني ، وأنه لا يمكن تغييرهما ، وأن هذه الحقوق تطبق بشكل كامل ، وأن البطريق الأرثوذكسي العالمي بالذات من التبعة العثمانية ، وأن البادشاه هو حامي المذهب الأرثوذكسي . كان هذا الجواب يعني رفض المذكرة ، ويعنى بالتالي قبول الحرب . استصحب الأمير منجيكوف في 21 آذار جميع العاملين بالسفارة الروسية في إستانبول – وهم كثير – وترك تركية . انقطعت العلاقة الدبلوماسية بين البلدين .

انتهت في 13 آيار (1853) صدارة داماد إبراهيم باشا التي استمرت 7 أشهر 11 يوما . وصار ، مصطفى نائلي باشا الذي هو أصلا عرنووط (ألباني) والذي يسمى « كريتلي » لشغله منصب والي كريت لمدة 20 عاما ؛ صدرا أعظم . كان رشيد باشا وزيرا للخارجية والصدر الأعظم المسن ، كان تحت وصايته .

بدأت الحرب بشكل فعلي بدخول 35 000 جندي روسي و 72 مدفعا إلى الإيالة العثمانية رومانيا (1853/7/3) . كان القائد العام لروسيا الأمير Gorçakof . أبلغت روسيا الدول الأوروبية بأنها لم تدخل حربا شاملة ، وأنها احتلت رومانيا لحين اعتراف

الباب العالي بحقوق الأرثوذكس في كنيسة قمامة Kamame في القدس ، وأنها سوف تنسحب فور هذا الاعتراف . يلاحظ أن هذه المذكرة تتعارض مع العرض الذي قدمه القيصر إلى إنكلترا في اقتسام الدولة العثمانية .

خلال هذه الفترة قامت كل من الدولتين المتخاصمتين بإعداد حشود على طول ألطونة في القفقاس . كان في جبهة الطونة (الدانوب) تجاه جيش الأمير غورجاكوف البالغ 000 152 جندي ، 000 133 جندي من جنود السردار الأكرم (القائد الأعلى) المشير عمر باشا ، الذي كان جيشه مجهزا – بالقياس إلى الجيش الروسي – بأسلحة أكثر حداثة ، هذا عدا أن لباسه كان أحسن .

وفي قفقاسيا كان جيش المشير عبد الكريم نادر (عبدي) باشا البالغ 000 150 جندي تجاه جيش Muaviev البالغ 000 160 جندي ، وهؤلاء من الجنود الذين دربوا تدريبا حديثا وإن لم يكونوا قد سلحوا بالدرجة التي سلح بها الجيس التركي في ألطونة .

بدأت الحرب في جبهة ألطونة بقصف المدفعية التركية (1853/10/23) . اجتاز عمر باشا في 27 ت1 منحنى نهر ألطونة في Vidin ودخل رومانيا ، واحتل Kalafat . أدخل إلى رومانيا فرقتين الأولى من Tutrakan والأخرى من يركوي Yerkoy . انهزم الجيش الروسي في الحرب الميدانية Dljeniça الدائرة على الضفة المقابلة لـ Tutrakan (1853/11/5) . أما في القفقاس فلم يتمكن عبد الكريم نادر باشا من التقدم ، رغم مساندة الشيخ شامل له من قفقاسيا الشمالية . عين بدلا منه لقيادة الجبهة رئيس أركان الجيش أحمد باشا .

قام أسطول البحر الأسود بقيادة ناخيموف بهجوم مفاجئ على 12 قطعة من قطعات الأسطول التركي الراسية في سينوب (1853/11/30) . أفنى الأسطول كاملا . استشهد 000 2 جندي عثماني تقريبا وتمكن 000 2 تقريبا من النجاة من الموت سباحة . يقال إن إرسال رشيد باشا أسطولا مكونا جميعه من مراكب بحرية قديمة كهذا إلى سينوب كان متعمدًا ؛ حيث إنه أراد بذلك أن يقضي على تردد إنكلترا وفرنسا في دخولهما الحرب تجاه روسيا ، ويلقي في روع لندن وباريس بأن المضايق قد فتحت للأسطول الروسي . ولقد نشرت بالفعل بعد غارة سينوب في صحف لندن وباريس مقالات شديدة حول الخطر الروسي .

على أثر انهزام الجيش الروسي في الحرب الميدانية جاتانا çatana قرب قالافات (1854/1/15) وعدم تمكنهم من دفع الجيش العثماني من رومانيا إلى ما وراء ألطونة ، رغم هجومهم الذي دام 5 أيام وانسحابهم بشكل مبعثر إلى بخارست ، عزل القيصر الأمير غورجاكوف . وعين الماريشال Paskieviç قائدا عاما .

راجع رشيد باشا امبراطور فرنسا ، وطلب إليه التوسط لدى روسيا للصلح . نابليون الثالث الذي انطلت عليه هذه الخدعة ، قدم مذكرة إلى بطرسبورغ لوقف الحرب ، وأفاد بأنه سوف يتوسط في تحقيق الصلح .

القيصر الذي لم يرض بوقف الحرب في وضع تتفوق فيه العثمانية ، أذاع بلاغا شديد اللهجة أعلن فيه أن الفرنسيين والإنجليز قد خانوا الدين المسيحي بانحيازهم للأتراك المسلمين ، يدخل ذلك في باب قصر النظر . قال القيصر : « أشعر أن يد السلطان على خدّي » .

عرض نابليون على إنكلترا الاتفاق ضد القيصر قائلا « أشعر أن يد القيصر على خدي » . كانت لندن عازمة بشكل قطعي على مساندة العثمانية ، وكانت قلقة من احتمال اتفاق فرنسا مع روسيا . قبلت عرض فرنسا بحماس . كان القيصر قد خسر الحرب منذ البداية بالطرق الدبلوماسية ، وكان هذا هو المهم . انتصار عمر باشا في رومانيا في حروب ميدانية كان في الدرجة الثانية . غادر كل من سفيري إنكلترا وفرنسا بطرسبورغ (1854/2/6) . أثبت رشيد باشا أنه أكبر دبلوماسي في العالم بشكل لا يقبل الجدل .

أثبتت معاهدة إستانبول (1854/3/12) موافقة ملكة إنكلترا فكتوريا وإمبراطور فرنسا نابليون 3 ، على دعوة السلطان عبد المجيد لاتفاقهما مع الدولة العثمانية . وقع على المعاهدة رشيد باشا عن تركية ، تتضمن المعاهدة ألا تعقد أي من دول الاتفاق الثلاث صلحا منفردا مع روسيا . يكون لجيش الاتفاق قائد عام واحد ، يتفاهم قواد دول الاتفاق الثلاث في حربهم تجاه روسيا . تكون الوحدات الإنكليزية والفرنسية والسفن الحربية التي ستأتي إلى إستانبول خاضعة للقوانين العثمانية .

وفي هذه الظروف العصيبة ظنت اليونان الصغيرة بأن العثمانية تورطت مع روسيا

وأن إنكلترا وفرنسا ستستمران في سياسة المساندة لها ، وأرادت الحصول على مقاطعة Epir (Yanya) من العثمانية . أخرج الباب العالي سفير الأورطة اليوناني من تركيا ووضع يده على كل السفن والأموال اليونانية في الأقطار العثمانية . جاء فؤاد باشا إلى Epir و Tesalya وشاهد الوضع . لم يكن بالإمكان أن تساند إنكلترا وفرنسا ، اليونان ، في ظرف وقعتا فيه معاهدة جنبا لجنب مع العثمانية . نزلت في 5 آيار ، فرقة فرنسية إلى Pire واحتلت أثينا مدة 3 سنين . سقطت الحكومة اليونانية الموالية لروسيا .

أعلنت كل من إنكلترا وفرنسا الحرب على روسيا بصورة رسمية في 27 آذار (1854) احتل الروس Dobruca . انتصر عمر باشا في 17 نيسان في الحرب الميدانية قالافات ، وطارد الروس مسافة 80 كم إلى حد Karayova . جاءت القوات الأولى للاتفاق إلى غاليبولي في 31 آذار . كان قائد القوات الفرنسية ، وزير الحربية الماريشال Leroy والماريشال Sainf – Arnaud ، وقائد الإنكليز الماريشال لورد Reglan . ذهب أسطول الحلفاء إلى أوديسا واستولى على 13 سفينة وقصفت المدينة بالمدفعية (1854/4/22) .

بدأ الروس بمحاصرة سلسترة ، القلعة التركية المهمة في Dobruca الجنوبية (1854/5/15) . خلال هذه الأيام ، نصبت إحدى أولى الشبكات اللاسلكية في العالم في تركية وهي خط إستانبول – فارنا – بالقلاوا (قرم) . وصلت أخبار الحرب الجارية في قرم خلال ثوان إلى إستانبول . توجه الماريشال القائد العام إلى سلسترة مع 130 مدفعًا . كان الفريق موسى باشا ، يدافع عن القلعة بواسطة 10 000 جندي . جرح Paskieviç بجرح بليغ في 9 حزيران وعاد إلى روسيا . أصبح الأمير غورجاكوف قائدا عاما للمرة الثانية . جرح هو الآخر في 13 حزيران . مات العميد Shildev وجرح العميد Luders بجرح بالغ إلى درجة قاتلة . رفع الجيش الروسي الحصار الذي دام 41 يوما بعد خسارته 15 000 قتيل و 25 000 جريح (1854/6/25) . مات 9 جنرالات روس ، وجرح جنرالان وماريشالان بجراحات بليغة . منح البادشاه رتبة مشير (ماريشال) إلى موسى باشا ، بعد رفع الحصار بـ 3 أيام . وفي اليوم التالي ، استشهد

موسى باشا بطلقة مدفعية . وفي اليوم الذي يليه شاهد رئيس أركان الجيش رفعت باشا انسحاب الروس مهزومين . (أكسبت مسرحية Vafan Yahud Silistre هذا النصر خلودا وسجلته في القلوب بشكل لا يمحى) . أخلى الروس الأفلاق (رومانيا) وانسحبوا إلى بغدان (مولدافيا) أمام جيش عمر باشا الفتي .

صار قبرصلي محمد باشا صدرا أعظم ، بدلا من مصطفى نائلي باشا الذي دامت صدارته سنة و 17 يوما (1854/5/29) . من كبار رجال التنظيمات الذين أكملوا تحصيلهم في فرنسا .

هزم عمر باشا الروس في 8 تموز ، في الحرب الميدانية يركوي Yerkoy . خسر الروس 6 000 قتيل ، اثنان منهم برتبة جنرال . استرجع عمر باشا أفلاق ، وجاءت الأساطيل التركية . قرر الحلفاء تحقيق عملية إنزال على قرم (1854/7/21) . دخل الجيش العثماني إلى بخارست وسط تصفيق الرومانيين الذين ضاقوا بالظلم الألماني (1854/8/6) .

نزل إلى قرم أولا 24 000 جندي فرنسي و 22 000 جندي إنكليزي و 7 000 جندي عثماني (1854/9/14) . دعم الإنزال 15 سفينة حربية فرنسية و 10 سفن إنكليزية و 9 سفن عثمانية . كان الأمير منجيكوف يدافع عن قرم مع 40 000 جندي ، وبمرور الزمن زادت قوات الطرفين .

حشد الحلفاء قوات كبيرة بواسذة (أكثر من 50 سفينة حربية وأكثر من 300 سفينة نقل) . دخل الروس الذين انهزموا في الحرب الميدانية Alma (1854/9/20) وخسروا فيها 7 000 قتيل و 600 أسير إلى القلعة البحرية المستحكمة سيفاستوبول ، واستماتوا في الدفاع عنها . كانت قوات الروس في سيفاستوبول في نهاية ت 1 حوالى 54000 جندي و 250 مدفعا . خسر الروس كذلك المعركتين الميدانيتين Balaklava (25 ت 1) و Inkermon في 5 ت 2 . لعب العثمانيون الدور الأساسي في Inkerman وخسر الروس 11 000 قتيل و 850 أسيرا . كانت خسائر الحلفاء 4 680 شخصا . مات الأمير Mençikof متأثرا بذلك وتسلم القيادة الأمير Gorçakof . سحبت روسيا جيشها من بغدان (مولدافيا) .

استقال قبرصلي محمد باشا لعدم احتماله سيطرة وزير الخارجية بيوك رشيد باشا ، بعد 5 أشهر و 25 يوما . صار رشيد باشا صدرا أعظم للمرة الرابعة (1854/11/23) .

بعد إخراج الجيوش الروسية من جميع الأراضي العثمانية في جبهة الطونة لم يبق للسردار الأكرم (القائد الأعلى) عمر باشا ما يعمله ، جاء إلى قرم في بداية شباط وكسر الجيش الروسي في المعركة الميدانية Gozleve (1855/2/17) . بلغت قوات الحلفاء المحتشدة في قرم خلال هذه الأيام 202 000 ، منها 55 000 تركية . مات في 2 آذار نيقولاي الأول ، رجل القرون الوسطى المتعصب ، عدو العثمانية والإسلام الكبير الذي أصر على تفتيش جيشه في البرد القارص وهو في أشد حالات مرضه . أصبح ابنه الكساندر الثاني الحر الفكر ، المتعقل ، قيصرا . وقعت معاهدة اتفاق بين العثمانية وملكية ساردونيا (Piemonfe) في 15 آذار . وقع على هذه المعاهدة الصدر الأعظم رشيد باشا ووزير الخارجية عالي باشا Vifforid Emanuele الثاني ملك ساردونيا الذي استهدف تحقيق الوحدة الإيطالية تحت تاجه ، أرسل إلى قرم 16 000 جندي تحت قيادة الجنرال لامارنورا . لم تكن ساردونيا في عداد الدول الكبرى لعدم تحقق الوحدة الإيطالية بعد .

احتل عالي باشا ، مكان رشيد باشا بعد 5 أشهر و 9 أيام ، وصار صدرا أعظم للمرة الثانية (1855/5/2) . كان رشيد باشا قد استقال بسبب معارضته لفتح قناة السويس حيث كان متأكدا من أن هذه القناة سوف تفتح شهيّة فرنسا وإنكلترا للاستيلاء على مصر .

احتل الحلفاء كرج Kerç (1855/5/24) ، و Anapa (1855/5/28) . وفي الهجوم العام الكبير الذي جرى على قلعة سيفاستوبول (1855/6/7) خسر الروس أكثر من 20 000 شخص و 73 مدفعا . كانت خسائر الحلفاء قرابة 5 000 شخص . مات في الجبهة الماريشال لورد Reglan قائد القوات الإنكليزية في قرم (1855/6/28) ، وخلفه الفريق الأول Simpson ، وكان الماريشال Sainf Arnaud قائد القوات الفرنسية قد مات قبله (1854/9/29) ، وخلفه أولا ، الفريق الأول Canrobert ، ثم في (1855/5/19) الفريق الأول Pelissier .

بدأت خلال هذه الأيام (1855/6/28) الدولة العثمانية ، ولأول مرة في تاريخها كله ، الاستدانة من الخارج . اقترضت مبلغ 5 ملايين قطعة ذهبية بفائدة قدرها 5٪ من إنكلترا لتغطية نفقات الحرب . استمر الاقتراض بعد ذلك دون انقطاع ووصلت الخزانة التركية قبل مضي 20 سنة ، إلى درك الإفلاس .

في المعركة الميدانية Traktir (1855/8/16) انهزم الروس وخسروا 7 400 شخص . كان الفريق الأول الروسي Read ، بين القتلى . كان الحلفاء يقصفون سيفاستوبول بـ 800 مدفع ، استولى الماريشال الفرنسي Duc de Mac - Mahon في 1855/9/8 على خندق Malakof الذي يشكل أهم موقع استحكام لحماية القلعة ، (هذا الماريشال من الملكيين وسينتخب في 1873 رئيسا للجمهورية لفرنسا) . بلغت خسائر الروس في المعركة الميدانية Malakof 500 13 ، وبلغت خسائر الحلفاء 340 12 . سقطت سيفاستوبول في اليوم التالي . استمر الحصار 11 شهرا وكان حصارا دمويا شديدا . عين لقيادة سيفاستوبول الفريق الأول الفرنسي Bazain الذي صار بعد ذلك ماريشالا (مشيرا) . قصف القلعة 800 مدفع للحلفاء بـ 000 600 1 طلقة ، قابلها 100 1 مدفع روسي ، استولى الأسطول الإنكليزي خلال ذلك على جزر Aland ، وانقطعت علاقة مدينة العرش الروسية بطرسبورغ بالبحر . لم يبق للروس مجال للاستمرار في القتال .

حاصر الروس الذين احتلوا بيازيد (Dogubayazit) (بيازيد الشرقية) ، قارص (1855/7/15) . دافع عن المدينة المشير محمد واصف باشا بـ 000 15 جندي تجاه 000 40 من جنود Muraviyef والي قفقاسيا العام . لم تكن استحكامات قارص جيدة كما يجب . كانت الإمدادات تصل للروس باستمرار . استمر الروس في القتال رغم خسارتهم في هجومهم العام الذي جرى في 29 أيلول 000 7 قتيل وأكثر من 000 10 جريح . صعد السردار الأكرم إلى Sohumkale ، في أقصى شمال – غرب كرجستان . كانت تحركات الشيخ شامل تجاه الروس في داغستان مفيدة جدا . شتّت عمر باشا الروس في المعركة الميدانية Ingur (1855/11/6) . وبينما كان على وشك الدخول إلى Kufayis ، توجه نحو قارص . لكنه لم يتمكن من اللحاق . استسلمت المدينة بسبب الجوع (1855/11/28) ، بعد حصار استمر 4 أشهر و 15 يوما . لم يبق في القلعة ما يؤكل من الحشيش والنبات . وهكذا شهدت قارص احتلالا روسيا آخر بعد 27 سنة .

انتهت الحرب فعلا ، بسقوط قارص ، لكن روسيا لم تكن راغبة في الصلح . ايقنت بعد المذكرة التي قدمتها النمسا ، بأن دولة محاربة جديدة ستقف ضدها . ثبت بروتوكول فينا ، قواعد الصلح (1856/2/1) . وعلى هذا ، تكون حرب قرم قد استمرت مدة تتجاوز الـ 2.5 سنة . حاربت الدولة العثمانية في السنة الأولى منها ، مدة تزيد على السنة وحدها (1853/7/3 – 1854/9/14) . واتضح أن التهيؤ الحربي للجيش العثماني الحديث ، أثر محمود الثاني ، لا يقل عن التهيؤ الحربي للجيش الروسي . سيعقد الآن مؤتمر الصلح في باريس ويتبوّأ نابليون الثالث ذروة شهرته . كان قد أدخل إلى فرنسا الصناعات الكبيرة والنهضة التجارية خلال مدة قصيرة .

مدّت الإمبراطورية العثمانية التي طورت الخطوط اللاسلكية خلال مدة قصيرة ؛ أول خط لاسلكي في 9 أيلول 1855 . وقد احتلت مكانها في المرتبة الخامسة بعد أمريكا ، وإنكلترا ، وروسيا ، وفرنسا بمدها 95063 كم من الخطوط اللاسلكية حتى عام 1870 . شرعت تركيا في مد أول خط حديدي بين أزمير – طورغودلو . ولكن ذلك التطور الذي حدث في الخطوط اللاسلكية لم يحدث في السكك الحديدية . كان قد تم حتى 1875 ، مد 4632 كم من السكك الحديدية وبهذا تحتل العثمانية المرتبة التاسعة بين الدول العظمى . ومع ذلك ، لم يكن حتى 1875 لا في الصين ولا في اليابان أي خط حديدي (Almanaeh de Gotha - 1873 ص 869) .

12 – المرسوم الهمايوني لإصلاحات عام 1272 هجري (1856/2/18)

انتهت حرب قرم ، أكبر حرب على وجه الأرض جرت بين حروب نابليون وحرب روسيا – فرنسا (1815 – 1870) . نشر السلطان عبد المجيد ، بعد فرمان (أمر سلطاني) التنظيمات بـ 16 سنة و 3 أشهر و 15 يومًا فرمانًا على نفس الدرجة من الأهمية اشتهر باسم « إصلاحات خط همايوني » (ومختصرا 1272 خطي ، أي أمر 1272) .

هذا الفرمان هو من صنع عالي باشا ، وقد نشر بقصد كسب الرأي العام الأوروبي ، والخروج بربح من معاهدة باريس ، وإكساب العثمانية طابع الدولة الأوروبية . ومع ذلك تعرض هذا الفرمان لانتقاد الكثيرين ومن بينهم رشيد باشا ، وأبدى المواطنون

المسيحيون والمسلمون كذلك عدم ارتياحهم له . وقد بقيت أحكام هذا الفرمان سارية المفعول حتى نهاية الإمبراطورية كجزء من دستور النظام الجديد .

وينص الفرمان على أنه :

- لا يجوز للبطارقة أو الأساقفة أو الرهبان جمع إعانات من جماعاتهم ، وسوف يتقاضون الرواتب كالموظفين الحكوميين (هذه المادة أغضبت جميع الرهبان) .

- يكون تشييد الكنائس الجديدة أو إنشاء أوقاف ، بإذن من الباب العالي ، كما كان في السابق ولا حاجة للإذن في إصلاح القديم منها .

- للمواطنين المسيحيين نفس حقوق المواطنين المسلمين ، وتلغى جميع الفروق الموجودة بينهم .

- تجريم استعمال تعبيرات تحقر المسيحيين (لا يجوز تسمية « الكاوور » بكلمة « كاوور » أي لا يجوز تسمية الكافر بكلمة « كافر ») ؛ إذ إن السلطان محمود قال بصورة رسمية « إنني لست خليفة للمسلمين فقط ، إنني بادشاه (سلطان) لجميع مواطني الدولة مسيحيين وموسويين » . وقد صدرت فرمانات مشابهة لهذا في زمن فاتح والقانوني . ونتيجة لذلك ، سوف يمكن قبول غير المسلمين في جميع المدارس الحكومية عدا المدارس الدينيّة ، وستكون جميع وظائف الحكومة مفتوحة لهم .

- تنظر المحاكم الكنسية ، كما كان في السابق ، الدعاوى المدنية التي تحصل بين غير المسلمين ، أما الدعاوى الجزائية فسوف ينظر فيها الحكام العثمانيون ، كما كان في السابق أيضا ، لكنه سوف يكون من الممكن أن يوجد في المحكمة حاكم أو مدع عام مسيحي .

- يجند المسيحيون الذين لم يجندوا حتى هذا التاريخ ، ومن ثم فسوف تلغى الجزية ، وللمسيحيين الذين لا يرغبون في أداء الخدمة العسكرية دفع البدل النقدي .

- يمثل المسيحيون في مجالس الولايات (الإيالات) ، السناجق (الولايات ، الألوية) ، الأقضية ، بنسبة عدد نفوسهم .

كان تعيين غير المسلم حتى عام 1856 في وظائف الدولة ، أمرًا عرضيًا واستثنائيًا .

واعتبارا من عام 1856 وحتى عام 1922 ستستخدم الدولة العثمانية موظفين غير مسلمين . سوف نجد من نالوا رتبة الوزير ، والي فعلي لإيالة ، سفير ، ناظر (وزير) ، وحتى وزير خارجية من بين الرعايا الروم ، ثم الأرمن ، ولكن قليلا جدا من الموسويين وأقل جدا من الأقوام المسيحية الأخرى (العرب المسيحيين ، الألبان المسيحيين ، الخ) من نالوا هذه الرتب . لن نشاهد أي صدر أعظم ، سر عسكر (وزير الحربية + رئيس أركان الجيش) . سيبقى قبول غير المسلمين في المدارس العسكرية حبرا على ورق ، لن نشاهد حتى نهاية الإمبراطورية ، ليس فقط جنرالا ، بل وحتى ضابطا موظفا غير مسلم . إن الجنرالات المسيحيين الموجودين في الجيش العثماني ، ليسوا غير مسلمين من المواطنين العثمانيين ، وإنما هم عسكريون خبراء جُلبوا من الدول الأوروبية لاستخدامهم بعقود لقاء أجر معين . ومن الواضح أن اسم الجزية قد بدّل وسمي بدلا نقديا .

13 – معاهدة باريـــس (1856/3/30)

افتتح مؤتمر باريس في 25 شباط ، ووقعت المعاهدة بعد 34 يوما . اشترك في المؤتمر كل من إنكلترا وفرنسا وروسيا وتركيا والنمسا وبروسية وساردونيا لاشتراكها في الحرب ، رغم أنها ليست من الدول العظمى . مثل تركيا الصدر الأعظم عالي باشا وسفير باريس الوزير محمد جميل باشا الابن الأكبر لبيوك رشيد باشا . ومـمثل فرنسا الكونت **Walewski** وزير الخارجية ، الابن غير الشرعي المولود من **Maria Walewska** عشيقة نابليون الكبير الشهيرة . ومـمثل ساردونيا رئيس الوزراء الكونت **Cavour** ، ومـمثل إنكلترا **Of Clarendon** (كونت) **Earl** . وتنص هذه الاتفاقية الهامة التي خططت الوجهة السياسية لأوروبا العصر 19 ، مع اتفاقيات فينا 1815 وفرساي 1871 وبرلين 1878 ، على ما يلي :

يخلي الروس قارص ويتم تسليمها للعثمانية ؛ ويخلي الحلفاء قرم ويعيدونها إلى روسيا . تعود قوات الحلفاء إلى أوطانها خلال أقصر مدة ممكنة . تنسحب روسيا من دلتا الطونة وتعيد بيسارابيا الجنوبية (بالتركية : بوجاق) ، مع مركزها إسماعيل إلى إمارة بغدان (مولدافيا) التابعة للعثمانية . أما جزر ييلان **Yilan** فتنتقل إلى العثمانية .

أهم مادة في المعاهدة هي جعل البحر الأسود منطقة محايدة وغير عسكرية . كانت هذه المادة كارثة بالنسبة إلى روسيا ، ذلك أنه لن يجوز بعد الآن أن توجد لا للروس ولا للعثمانية أي سفن حربية أو ميناء لصنع السفن العسكرية وتصليحها في البحر الأسود . تسحب روسيا سفنها العسكرية من البحر الأسود وتنقلها إلى بحر البلطق . ليس لهذا المنع ، أهمية بالنسبة للعثمانية ؛ لأنها سوف تتمكن في حالة الحرب من أن تمرر أسطولها من بحر مرمره والمضيق إلى البحر الأسود خلال ساعات . أما روسيا ، فلأنها لن تتمكن بأي حال من الأحوال من وضع سفن حربية أو إدخالها إلى البحر الأسود ، فهذا يعني أن البحر الأسود قد ترك فعلا إلى السيطرة البحرية العثمانية . وقد وضعت هذه المادة المتشددة لأن غارة سينوب أفزعت الحلفاء وجعلتهم يتحسبون لدخول الروس إلى المضايق. سوف تنوء روسيا سنوات طويلة تحت نير هذه المادة . ستقوم الدول الأربع : إمبراطوريتا تركيا والنمسا وملكيتا بافيرا ورتنبورغ التي لها سواحل على الطونة بوضع نظام المرور في نهر الطونة على أسس النظام الحر ، بواسطة لجان مشتركة . ورغم ذلك لم يستحسن رشيد باشا المعاهدة لعدم الحصول على مكاسب أكثر . أراد الاشتراك في مؤتمر باريس بنفسه وكوزير خارجية ، لكن نابليون الثالث اعترض على ذلك لحقده الشخصي تجاه رشيد باشا .

14 – وفاة بيوك مصطفى رشيد باشا (1958/1/7) وشخصيته

انتهت صدارة عالي باشا الثانية بعد سنة و 6 أشهر (1856/11/1) . تصدر رشيد باشا للمرة الخامسة . وبعد 7 أشهر و 7 أيام عين للصدارة مصطفى نائلي باشا للمرة الثانية (1856/8/6) . وبعد شهرين و 17 يوما (1857/10/22) صار رشيد باشا صدرا أعظم للمرة السادسة . مجموع صدارتي نائلي باشا سنة و 3 أشهر ويومان .

دامت صدارة رشيد باشا حتى وفاته مدة 7 أشهر و 16 يوما (1858/1/7) . مات وسنة لا تتجاوز الـ 57 عاما بـ 9 أشهر و 26 يومًا . مجموع صداراته الست 6 سنوات و 10 أشهر و 18 يوما (السادس والعشرون في تسلسل المدة في تاريخ تركيا) ، مجموع وزاراته الثلاث للخارجية 6 سنوات و 3 أشهر و 4 أيام (الثامن في تسلسل المدة بين وزراء الخارجية) ومن ناحية أخرى كسفير في لندن 10 أشهر و 15 يوما ، كسفير في

باريس 6 سنوات و 22 يوما . وشغل عدا ذلك وظائف عديدة . هو أعظم رئيس وزارة في التاريخ التركي بأجمعه وأحد أكابر الدبلوماسيين النادرين . بدأ عمله في إمبراطورية كبيرة أشرفت على شفا هاوية الاضمحلال . وعند وفاته ، كانت هذه الإمبراطورية مرفهة ، منتصرة وقوية . رشيد باشا كذلك ، هو المؤسس الأصلي للبيروقراطية والدبلوماسية التركية الحديثة . كانت آراء رشيد باشا تتلخص في : أنه لا يمكن إدارة إمبراطورية كهذه بالديمقراطية والمجالس كما في إنكلترا ، بسبب عدم وجود فارق بين الوطن الأم والإيالات التابعة واعتبار كل إيالة وطنا أما ، وأنه يمكن تشكيل مجالس شعبية في الإيالات ويمكن أن تكون هذه المجالس استشارية ، وإنه يحظر اشتغال البادشاه بأمور الحكومة ، لأن هذا الاشتغال سيرهق البادشاه صحيا ، وأنه يجب أن يتولى إدارة الدولة موظفو الإدارة العليا ، ويقتضي هذا بصورة حتمية التثقف بالثقافة الغربية بالإضافة إلى الثقافة الشرقية . كما كان يرى أن بقاء الإمبراطورية يتعلق بـ 4 مبادئ : الدين الإسلامي ، خاقان من بني عثمان ، إستانبول كمدينة عرش (عاصمة) ، التركية كلغة رسمية .

وكانت آراؤه في السياسة الخارجية تتلخص في محاولة انتهاج سياسة خارجية موازية على قدر الإمكان لأعظم دولة في العالم ، ومحاولة عدم مجابهتها ، وإن انتهاج مثل هذه السياسة هو العنصر الرادع لتصورات جميع الدول الأخرى ضد العثمانية .

كانت إنكلترا هي أعظم دولة في العصر ، ومن ثم فإنه يجب عدم الدوس على ذنب الأسد البريطاني ، وإن أمكن التعايش مع فرنسا بشكل جيد ، وإن لم يتسنّ ذلك فتترك السياسة الفرنسية لحالة التموج (التقارب تارة والإعراض تارة أخرى) (كانت قضية احتلال فرنسا للجزائر ، لا تزال ضمن منهاج عمل الباب العالي في هذه المرحلة) . كان من غير الممكن جعل روسيا تترك أطماعها تجاه الإمبراطورية العثمانية ، سدت تركيا هذا الطريق عليها . لذا ، كان يلزم الدخول تجاه روسيا ، من خلال توازن الدول العظمى . يجب المحافظة على حداثة الجيش والأسطول والتوسع فيهما . لا يجوز للضابط التدخل في السياسة بأي شكل من الأشكال . لم تترك إيران فكرة عدم التعاون مع العثمانية ، رغم كونها مسلمة ورغم إدارتها من قبل سلالة تركية (القاجاريون) . لم تغير إيران هذه السياسة التي ولّدت وستولّد نتائج سيئة لها . يجب الحذر من اليونان

رغم صغرها ؛ حيث إنها كانت تعامل معاملة طفل أوروبا المدلل ، ويقتضي الأمر التشدد معها في كل مناسبة . حيث إنه ، في حالة التساهل معها ، لن تتوقف طلباتها عند حد .

ومن أعمال رشيد باشا الأخرى الموفقة جدا ، عمله مع فريق (طاقم) جيد ، إيمانه بالعمل على شكل فريق ، دهاؤه في اختيار القابليات أصحاب الاستعدادات والقدرات ومساعدته شخصيا في إعدادهم وعدم تردده في توجيه أخطر الأعمال ذات المسئولية إلى أصغرهم سنا . ومن مشاهير الذين عني بإعدادهم ، عالي باشا ، وفؤاد باشا وجودت باشا وضياء باشا وأحمد وفيق باشا وصفوت باشا وشناسي . لم يتوصل أي رجل دولة عثماني منذ عهد السلطان سليمان القانوني إلى منزلة رشيد باشا بشأن إعداد الصفوف التالية ولن يصل بعده إلى يومنا هذا من يضاهيه في هذا المجال . ويمكننا القول إن فكرة الفريق الممتازة لرشيد باشا في التاريخ السياسي التركي ، قد ماتت بموته . سيفضل أصحاب السلطة الذين تلوه ، التعاون مع الشخصيات الضعيفة والأضعف على مر الزمن ، وسيعنون بدقة بعدم اختيار الشخصيات القوية للسلطة . إن هذه العقلية ، ستدمر الدولة .

لم يحقق رشيد باشا نجاحاته هذه ، التي لا يستوعبها العقل ، وسط التصفيق وهتافات التقدير . تمكن من تحقيقها في محيط مليء بالحسد ، بالمنافسة ، بوضع العراقيل ، بالانتقادات غير البناءة ، بالاتهامات وحتى بمحاولات الاغتيال . الواقع أنه كان تحت الحماية الدائمة للسلطان محمود وابنه السلطان مجيد . لكن مجرد نجاحه في جو كهذا ، يكفي للحكم على مبلغ عظم دهائه . وفي الإدارة الداخلية ، أكمل أثر السلطان محمود ، وتمكن رشيد باشا من تطهير بقايا الإقطاع في الإمبراطورية مثل الأعيان وأمثالهم . أسس نظام التنظيمات المركزي جدا .

صار الصدر الأعظم بعد رشيد باشا ، أشهر تلامذته ، عالي باشا للمرة الثالثة وأصبح صديقه الحميم فؤاد باشا وزيرا للخارجية . وبعد سنة و 9 أشهر و 12 يوما صار قبرصلي محمد باشا صدرا أعظم للمرة الثالثة (1859/10/18) . وبعد شهرين و 6 أيام احتل مكانه مترجم رشدي باشا (1859/12/23) . وبعد 5 أشهر و 5 أيام جاء

إلى السلطة قبرصلي محمد باشا للمرة الثالثة (1860/5/27) . وهو الصدر الأعظم الأخير للسلطان مجيد .

وبموجب معاهدة باريس 19 آب 1859 ، تم اتحاد الإمارتين الرومانيتين (بالعثمانية : مملكتين) أفلاق وبغدان . ولأول مرة في التاريخ ، وولدت رومانيا كاملة . كانت مستمرة في تبعيتها للدولة العثمانية . وقع على المعاهدة فؤاد باشا ، أصبح Couza بك أميرا على رومانيا (1859/9/25) .

بدأت مرة ثانية بعد 15 عاما في جبال لبنان (جبل لبنان) اضطرابات أكثر شدة (1860 – 61) . وعلى أثر انحياز فرنسا لأحد الطرفين المتخاصمين ، المارونيين الكاثوليك العرب ، انحازت إنكلترا للدروز المسلمين . امتد العصيان إلى الشام كذلك ، قتل القنصلان الأمريكي والهولندي . كان في هذه الأثناء المجاهد الجزائري الكبير الأمير عبد القادر ، يسكن الشام . حال دون قتل المسلمين للمسيحيين واقتحام السفارة الفرنسية . حصل على أرفع وسام شرف Légion dHonneur من نابليون 3 . نُقل وزير الخارجية فؤاد باشا إلى سورية . أمر بإعدام 185 شخصا . انتقد بشدة إعدامه المشير أحمد باشا قائد الجيش الموجود في الشام رميا بالرصاص بسبب عدم سيطرته على الوضع . أحمد باشا ، من ضباط الأركان الأوائل . شغل منصب قيادة الحربية ، انتصر في المعركة الميدانية جاتانا Gatana أمام الروس . ساق فؤاد باشا كذلك إلى ديوان الحرب (المحكمة العسكرية) ضابطا واحدا برتبة الباي (زعيم) ، ضابطين برتبة يارباي (عقيد) ، ضابطين برتبة بكباشي (رئيس أول) وأعدموا رميا بالرصاص . حيل دون ابتلاع نابليون 3 لبنان . ظل فؤاد باشا سنة ونصف سنة في سورية . كان وضع سفير باريس أحمد وفيق أنفدي الذي لا يرضى بالتعويض ، يغضب الإمبراطور الفرنسي جدا . شكل الباب العالي في جبال لبنان لواءً له استقلال ذاتي (1861/6/9) . يكون متصرف هذا اللواء البالغ 100 3 كم² مسيحيا ، وكان مركزه دير القمر . أما القسم الأكبر من لبنان ، فسوف يشكل إيالة بيروت . سيسدد اللواء المستقل سنويا 500 3 ثم 000 7 كيس من الضرائب المقطوعة إلى إستانبول . ألغي الاستقلال الذاتي لهذا اللواء بعد 53 عاما في نهاية عام 1914 .

15 ـ وفاة السلطان عبد المجيد خان الثاني (1861/6/25) وشخصيته

مات السلطان عبد المجيد وسنه تزيد على الـ 38 عاما بشهرين (1861/6/25) . دفن في فناء جامع السلطان سليم ، بجوار ضريح ياووز سلطان سليم ، واحتراما له ، دفن في قبره الذي تعمد أن يكون أقل منه ارتفاعا . دامت سلطنته مدة تقل عن 22 سنة بـ 5 أيام .

شخصيته : كان حاكما عظيما . شيد آثارا عمرانية كثيرة . كان كريما ، مسرفًا ، فارسًا ممتازا ، كان مولعا بأولاده ونسائه ، كان له اعتبار كبير في أوروبا . ذهب لأول مرة صالة الرقص . قبل السلطان مجيد من نابليون 3 في حرب قرم أعلى رتبة من وسام Legion d' Honneur ، ومن الملكة فكتوريا وسام رباط الركبة وأرسل إليهم أوسمة بالمقابلة . كان حتى ذلك الحين لا يتقبل البادشاهات الأوسمة من الحكام الأجانب .

شيوخ الإسلام في عهده مصطفى عاصم أفندي (للمرة الثالثة 1833/2/8 ـ 1846/11/20) ، عارف حكمت أفندي (حتى 1854/3/21) ، مشرب ـ زاده محمد عارف أفندي (حتى 1858/12/27) خواجه ـ زاده محمد سعد الدين أفندي (حتى 1863/11/23) .

ولد مولوده الأول في 1840/5/31 ، وولده السادس والأخير محمد وحيد الدين في 1861/2/22 . ولد له 11 ابنا و 15 ابنة ماتوا قبل بلوغهم سن الـ 3 سنوات . أولاده الآخرون مدونون أدناه . استمرت السلالة من السلطان مجيد باسم « مجيد يلر » (المجيديون) ومن أخيه السلطان عزيز باسم « عزيز يلر » (العزيزيون) إلى يومنا هذا . الأول هو الفرع الكبير ، والثاني هو الفرع الصغير . أبناؤه هم :

1 ـ السلطان مراد الخامس (1840/9/22 ـ 1904/8/29) .

2 ـ السلطان عبد الحميد الثاني (1842/9/22 ـ 1918/2/10) .

3 ـ السلطان محمد رشاد الخامس (1844/11/2 ـ 1918/7/4) .

4 ـ أحمد كمال الدين أفندي الذي توفى عندما كان ولي عهد ثانيا (1848/7/16 ـ 1905/4/26) .

5 ـ محمد برهان الدين أفندي الذي توفي عندما كان وليا للعهد (1843/5/23 ـ 1876/11/4) .
6 ـ محمد نور الدين أفندي الذي توفي عندما كان ولي عهد ثالثا (1852/3/31 ـ 1885) .
7 ـ سليم سليمان أفندي الذي توفي عندما كان ولي عهد ثانيا (1860/7/25 ـ 1909/6/16) .
8 ـ السلطان محمد وحيد الدين السادس (1861/2/22 ـ 1926/5/16) .

أولاد أبنائه الأربعة الذين لم يجلسوا على العرش : نور الدين أفندي ، تزوج مرتين ، ليس له أولاد ، وكمال الدين أفندي صار له ابنة واحدة ، وابنة أخرى له ماتت بعد عدة شهور ـ السلطانة منيرة (1880/11/13 ـ 1939/10/7) زوجها أمير اللواء داماد محمد صالح باشا (1884 ـ 1913) (ابن الصدر الأعظم تونسلي خير الدين باشا) (صار لهما ابن واحد) .

أولاد سليمان أفندي : محمد عبد الحليم أفندي (1894/9/28 ـ 1926/5/26) ، السلطانة أمينة ناجية (1896/11/28 ـ 1957/12/5) ، داماد محمد شرف الدين أفندي (1904/5/19 ـ 1966) . السلطانة ناجية زوجها داماد أنور باشا (1881 ـ 1922) ، ناظر الحربية ووكيل القائد العام (2 خانم ـ سلطانة ، 1 سلطان ـ زاده) ؛ السلطانة ناجية ، تزوجت بعد ذلك بالدماد محمد كامل باشا (1886 ـ 1962) (1 خانم ـ سلطانة) . ابنة شرف الدين أفندي : السلطانة مبجل بزم عالم (الولادة 1930/10/27) (1 سلطان ـ زاده) . أولاد عبد الحليم أفندي : السلطانة فاطمة سامرة (الولادة 1920/6/21) وجنكيز أفندي (1925/12/23 ـ ت1950/1) . السلطانة سامرة زوجها داماد دكتور حسين شوقي بك أفندي (من سفراء مصر) (1 خانم ـ سلطانه) .

أولاد برهان الدين أفندي (1849 ـ 1876) : السلطانة فلانة (1876 ـ 1890) وإبراهيم توفيق أفندي (1847/9/25 ـ 1931/12/31) . أولاد الشهزاده توفيق أفندي : السلطانه عارفة قدرية (1895/3/1 ـ 1933/4/5) زوجها داماد فناري ـ زاده محمد

رشيد بك أفندي (وفاته بعد 1955) (2 خانم – سلطانه) ؛ السلطانة فاطمة زهراء (1895/3/20 – 1965/5/26) زوجها داماد سلامي بك أفندي (وفاته قبل 1950) (ابن المشير كاظم باشا وابن الصدر الأعظم أسعد باشا) (1 خانم – سلطانه (أمير) ؛ السلطانة رابعه نيلوفر (1913/1/22) (تزوجت مرتين ، 1 سلطان – زاده) ؛ السلطانة عائشة فتحية (1914/5/8 – 1946) زوجها داماد رشيد بك أفندي (ابن شفيق باشا) (2 خانم – سلطانه) ؛ برهان الدين جم أفندي (1920/4/5) (ابنه : الشهزاده توفيق أفندي 1953) ؛ بيازيد أفندي (1924/11/5) ؛ السلطانة فوزية (1927/12/6) زوجها داماد محمد بك أفندي (ابن جركس محمود خيري باشا والأميرة قدرية حسين كامل) .

بنات السلطان عبد المجيد خان الأول :

1 – السلطانة فاطمة (1840/11/1 – 1884/8/26) زوجها الأول داماد وزير علي غالب باشا (1829 – 1858) (ابن الصدر الأعظم مصطفى رشيد باشا) (وزير خارجية ، أوقاف ، تجارة) أنجبت خانم – سلطانة واحدة توفيت وهي طفلة ؛ زوجها الثاني داماد محمد نوري باشا (1840 – 1890) ، وزير ، مشير مابين ، ووزير دوله (ابن الفريق عارف باشا) أنجبت منه 1 سلطان – زادة و 1 خانم سلطانة ماتا طفلين) .

2 – السلطانة بهية (1841/2/22 – 1847/6/3) .

3 – السلطانة رفيعة (1842/2/7 – 1880/1/4) زوجها داماد مشير محمود أدهم باشا (1836 – 1886) (ابن الصدر الأعظم داماد محمد علي باشا) أنجبت خانم – سلطانة واحدة توفيت وهي طفلة .

4 – السلطانة جميلة (1843/8/17 – 1915/2/26) زوجها داماد وزير جلال الدين باشا (1836 – 1884) (ابن الداماد أحمد فتحي باشا) (وزير التجارة ، مشير طوبخانة) أنجبت فتحية خانم – سلطانة (1859 – 1887) ، التوأمين محمد محمود جلال الدين بك أفندي (1864 – 1916) وثاقب بك أفندي 1864 – 1897 ، عائشة صديقة خانم – سلطانة (1875 – 1937) ، فاطمة خانم – سلطانة (1879 – 1890)

سلطان ــ زاده (أمير) توفي في الثانية من عمره .

5 ــ السلطانة منيرة (1844/12/9 ــ 1862/6/29) زوجها الأول داماد وزير قاوالالي إبراهيم هامي (الهامي) باشا (الولد الوحيد لوالي مصر عباس باشا) (1836 ــ 1860) ؛ زوجها الثاني داماد فريق إبراهيم باشا (1828 ــ 1880) (ابن السر عسكر مشير جهان سر عسكري رضا باشا) . أبناؤهما : السلطان ــ زاده علاء الدين بك أفندي 1861 ــ 1915) .

6 ــ السلطانة بهيجة (1848/8/26 ــ 1876/11/30) زوجها داماد خليل حميد بك أفندي (1854 ــ 1888) (حفيد ، حفيد الصدر الأعظم خليل حميد باشا) .

7 ــ السلطانة سنيحة (1851/12/5 ــ 1931/9/15) زوجها داماد وزير محمود جلال الدين آصاف باشا (1854 ــ 1903) (ابن داماد مشير خليل رفعت باشا) . أبناؤهما : محمد صباح الدين بك أفندي (1877 ــ 1947) وأحمد لطف الله بك أفندي (1880 ــ بعد 1955) .

8 ــ السلطانة مديحة (1856/7/31 ــ 1928/11/7) زوجها الأول داماد وزير أحمد نجيب باشا (1855 ــ 1885) (ابن وزير سامي باشا) أبناؤهما : عبد الرحيم سامي بك أفندي زوجها الثاني الصدر الأعظم داماد محمد فريد باشا (1854 ــ 1923) .

9 ــ السلطانة نائلة (1856/9/30 ــ 1882/1/18) زوجها داماد مشير قبة صاقال جركس محمد باشا (1846 ــ 1909) (زوجة الباشا الثانية : السلطانة أسماء ابنة السلطان عبد العزيز) .

16 ــ جلوس السلطان عبد العزيز خان (1861/6/25)

لم يكن سن السلطان عبد العزيز خان ، عند وفاة أبيه السلطان محمود الثاني ، قد بلغ تسعةأعوامٍ ونصف العام . شغل منصب ولي عهد طيلة مدة سلطنة أخيه الكبير عبد المجيد البالغة 22 عاما . أمه السلطانة ــ الوالدة برتو ــ نيال (1812 ــ 1883/2/5) من كبيرات الخيرات . جلس عبد العزيز خان الذي يسميه الشعب « سلطان عزيز » ، على العرش وسنه تزيد على الـ 31 عاما بـ 4 أشهر و 16 يوما . يصغر أخاه الكبير بـ 6

سنوات و 9 أشهر و 23 يومًا . ملحن.، مولوي ، خطّاط ، أستاذ في العزف على الناي ، عازف على البيانو، لوطه جي ، شاعر ، رسام ، أخصائيّ في السفن ، مصارع ؛ عسكري كامل من حيث النشأة والخلق والمعلومات . كان مثل أخيه الكبير كريما ومسرفا . لكنه لم يكن يتعاطى المشروب مثله . لم يكن مفرطا في ولعه بالنساء ، وكان يعنى بدقه بإبعادهن عن أمور الدولة . لم يتخذ له جواري عدا زوجاته . ذكي ، فعال ؛ يعشق الجيش ، الأسطول والإعمار ، شديد الثقة بنفسه . ذو سطوة ، ذو مهابة ، وقور ، وقف نفسه لإعلاء شأن الدولة . على خلاف أخيه ، لم يتعلم الموسيقى الغربية . عزل قبرصلي محمد باشا عن صدارته الثالثة بعد جلوسه بـ شهر و 11 يوما . مجموع صداراته الثلاث سنة و 10 أشهر و 11 يوما . صار عالي باشا الذي كان وزيرا للخارجية ، صدرا أعظم للمرة الرابعة (1861/8/6) . وبعد 3 أشهر و 17 يوما صار فؤاد باشا صدرا أعظم وعالي باشا وزيرا للخارجية (1861/11/22) .

استقال فؤاد باشا ، الشخصية الثالثة للتنظيمات بعد رشيد باشا وعالي باشا ، بعد سنة وشهر 10 أيام (1863/1/2) . صار يوسف كامل باشا الذي ينحدر من سلالة آق قيونلولر Akkoyunlu صدرا أعظم . احتفظ عالي باشا بوزارة الخارجية ، في هذه الوزارة ؛ أما فؤاد باشا ، فأصبح ناظرا (وزيرا) للعدل . أخمد عصيان قره داغ ، من قبل عمر باشا (آب 1862) . وعند عصيان العربيين في بلغراد ، أمر قائد القلعة عشير باشا بقصف العصاة بالمدافع (1862/6/15) . قتل قسما من شعب بلغراد . ثارت أوروبا . أخليت النقاط العسكرية العثمانية التي كانت موجودة في مدينة بلغراد التي أقرتها اتفاقية إستانبول (1862/9/8) وأعطيت خنادق القلعة إلى الصربيين . انسحب العثمانيون بشكل تام إلى داخل قلعة بلغراد . ترك العثمانيون قلعتين صغيرتين للصرب ، بقيت لدى العثمانية عدا بلغراد 3 قلاع أخرى . هاجر آخر المسلمين من الأراضي الصربية .

17 – تغيير وراثة مصر (1866/5/28) . سياحة السلطان عزيز إلى مصر (نيسان 1863) :

غادر السلطان عزيز إستانبول ، لزيارة مصر بواسطة باخرة فيض جهاد

(1863/4/3) . يرافقه أبناء أخيه الثلاثة الذين تبلغ أعمارهم 19 و 21 و 23 (أبناء السلطان مجيد) وأول 3 من ورثة العرش ، ولي العهد مراد ، شهزاده (أمير) عبد الحميد ، شهزاده محمد رشاد أفندي . اشترك في هذه السياحة الصدر الأعظم السابق ، حاليا سر عسكر (ناظر الحربية) كيجه جي - زاده دكتور بيوك محمد فؤاد باشا ، قريب السلطان عزيز قبطان دريا آتش محمد باشا ، رئيس أساتذة البادشاه خواجه سلطاني وشيخ الإسلام في المستقبل حسن فهمي أفندي . صار نائب السلطنة في إستانبول ، خلال مدة السياحة ، الصدر الأعظم يوسف كامل باشا . شغل المنصب الذي لم يتمكن قاوالالي محمد علي باشا من نيله أبدا ، صهره . سيكون ابن أحد أبناء محمد علي باشا صدرا أعظم فيما بعد .

لم تطأ قدم أي بادشاه ، أرض مصر ، منذ عهد السلطان ياوز سليم . حيث كان هنالك محاذير في ابتعاد الخاقانات العثمانية وذهابهم إلى إيالات بعيدة وتركهم العاصمة ، عدا الحملات الهمايونية . كان من الممكن الآن السياحة بسرعة بوسائط بخارية . انتهى عهد السياحة على الحصان . ولذلك احتشدت مصر كلها . جرت مراسم استقبال السلطان - خليفة ، بود عميق ، حيث كانت مصر تشاهد سلطانا ثانيا بعد مرور 345 عاما . كان والي مصر أثناء ذلك ، إسماعيل باشا حفيد محمد علي باشا وابن إبراهيم باشا .

دامت صدارة يوسف كامل باشا البالغة سنه 55 عاما ، مدة 5 أشهر . وعند العودة من سياحة مصر ، صار فؤاد باشا صدرا أعظم للمرة الثانية (1863/6/1) وظل محافظا على منصب سر عسكر . ولأنه كان متزوجا من عمة إسماعيل باشا والي مصر ، صار يوسف كامل باشا - الذي هو زوج أخته - ناظرا للعدل مرة أخرى .

كان إسماعيل باشا واليا على مصر لكونه أكبر الأفراد الذكور لسلالة قاوالالي محمد علي باشا وذلك بموجب أحكام الفرمان المؤرخ 1841/5/24 الذي قدمه السلطان مجيد إلى محمد علي باشا . كان سيخلفه أخوه مصطفى فاضل باشا . لكن إسماعيل باشا أخذ يحاول منذ سنوات عديلة حجب وراثة مصر عن أخيه وإعطاءها إلى ابنه . وقد أنفق لتحقيق هذا الغرض الملايين من النقود الذهبية على رجال الدولة في استانبول . وفي النهاية لم ير الصدر الأعظم فؤاد باشا وصديقه المقرب الذي لا يفارقه وزير الخارجية

عالي باشا ، بأسا في تغيير وراثة مصر . وطلبا إلى السلطان عزيز نشر فرمان حول نظام مصر (1863/5/28) .

ويقضي هذا الفرمان ، بانتقال ولاية مصر من الأب إلى الابن الكبير ؛ أي أن الذي سيخلف إسماعيل باشا في الولاية ، هو ابنه محمد توفيق باشا .

فقد مصطفى باشا ، أخو إسماعيل باشا ، حق الوراثة ، أو على الأصح ابتعد جدا عن هذا الحق ؛ حيث إنه يلزم لكي يأتي عليه الدور في الولاية ، ألا يكون لأخيه الكبير إسماعيل باشا أي ابن أو حفيد على قيد الحياة . والحال أن لإسماعيل باشا ، أولادًا كثيرين جدا .

كان فاضل مصطفى باشا وزيرا لمالية الدولة العثمانية . تنكر للدولة ، وانتقاما من عالي باشا وفؤاد باشا ، أخذ يدعم الجمعية السياسية غير الرسمية المعارضة لهم المسماة بني عثما نليلر (العثمانيون الجدد) الأكثر راديكالية والتي تطالب بالحكم بواسطة المجالس النيابية . فر زعيما الجمعية ضياء بك (باشا) ونامق كمال بك إلى أوروبا تاركين وظائفهما العالية في الدولة ، وبدآ المعارضة بإدخال الصحف التركية التي يصدرونها في الخارج إلى الدولة العثمانية ، بغرض التأثير على البادشاه لإسقاط ثنائي الباشوات عالي - فؤاد ، وتنصيب ضياء بك صدرًا أعظم ونامق كمال وزيرا للخارجية كان كلاهما شاعرا وأديبا يملكان حظا وافرا من الدهاء ، لكن السلطان عزيز ، رغم أنه أرسل إلى ضياء بك الموجود في جنيف ، مبلغ ألف قطعة ذهبية لم يفكر في المساس بالثنائي عالي - فؤاد .

وبناء على ذلك ، صارت مسألة الوراثة المصرية ، على أساس أن بني عثمانليلر (العثمانيون الجدد) سيستمرون في معارضتهم خارج الدولة العثمانية وذلك بحصولهم على الدعم المادي من مصطفى فاضل باشا ، وفي حالة اعتلاء ضياء بك منصب الصدر الأعظم سيعيد إلى مصطفى باشا حقه في مصر حتى ولو أدى الأمر إلى أن يعزل إسماعيل باشا ويعينه واليا على مصر !

لكن ، وخلال مدة قصيرة ، أدرك مصطفى فاضل باشا عدم إمكان نجاح هذه الخطة

وقرر التقرب إلى البادشاه وذهب وقبل قدمه معتذرا . وعندما رفع دعمه المادي عن العثمانيين الجدد ، ظهر « العثمانيون الجدد » في أوروبا باسم « جون تركلر » وأخذوا في هذه المرة يبتزون إسماعيل باشا .

وبموجب فرمان 28 أيار ، أعطيت إدارة قضاء سواكن التي هي ميناء السودان ومصوّع (أريتره) ، إلى إيالة مصر . وخوِّل والي مصر حق رفع جيشه من 18 000 إلى 30 000 جندي ، وزيدت الضريبة السنوية التي تقدمها مصر إلى إستانبول ؛ من 80 000 إلى 150 000 كيس . وبفرمان (مرسوم سلطاني) آخر ، صدر بعد خمسة أيام (1866/6/2) ، تقرر أن يحمل والي مصر لقب « خديو » الذي يعادل تماما مفهوم اللقب الذي أطلقته إنكلترا ، خلال تلك الأيام ، على الولاة العامين لإنكلترا في الهند وهو « Vice - Roi = نائب الملك » .

رغب السلطان عزيز في الزواج بابنة إسماعيل باشا الكبيرة توحيدة خانم . عارض فؤاد باشا ذلك بشدة . كان يرى أن إكتساب إسماعيل باشا لقب أب زوجة السلطان سيكون سببًا في حيازته على نفوذ كبير . كانت توحيدة خانم في سن الـ 16 . تزوجت بعد سنتين بوزير منصور باشا ابن وزير أحمد باشا من فرع عائلة قاوالايلر المسماة يكن لر Yegenler . عزل فؤاد باشا عن صدارته الثانية التي دامت 3 سنوات و 4 أيام (1866/6/5) . مجموع صدارتيه 4 سنوات وشهر و 14 يومًا (الـ 45 في التسلسل) ، مجموع مدة وزارته للخارجية لـ 5 مرات هي 7 سنوات و 11 شهر و 4 أيام (السادس في التسلسل) . شغل منصب سرعسكر (وزير حربية) 3 سنوات و 3 أشهر . صار مترجم محمد رشدي باشا ، وزير العدل ، صدرا أعظم للمرة الثانية .

ترك الباب العالي 4 قلاع موجودة داخل إمارة صربيا إلى الإمارة ، وسحب جيشه شرط أن يرفرف العلم العثماني فيها (1867/4/10) وهذه القلاع هي بلغراد ، سمنديره ، بوغورده لن ، فتك الإسلام . كانت قلعة بلغراد قد فتحت في أول حرب همايونية بقيادة السلطان سليمان القانوني قبل 345 سنة و 7 أشهر و 3 أيام . آخر قائد لقلعة بلغراد ، هو الفريق جزائرلي علي رضا باشا ـ الذي صار بعد ذلك مشيرًا ـ ألف عددا من الكتب القيمة .

كانت المشكلة الأخرى خلال هذه السنوات ، هي مشكلة كريت . كانت إنكلترا قد منحت اليونان في 1864 جزر أيونيا Iyonya (يونان) المسماة الجزر السبع التي كانت تحت حماية العثمانية حتى أوائل القرن 19 . وبهذا بلغت مساحة اليونان 51371 كم² وتعدادها 1,5 مليون نسمة . وبعد حصولها على هذه الجزر زادت أطماعها ، وأثناء حرب قرم أخذت تفكر في Epir وإن أمكن Tesalya ، ولما لم يتحقق أملها أخذت تفكر في فتح موضوع كريت . كان يعيش في الجزيرة ، الإيالة العثمانية التي تبلغ مساحتها 8379 كم² ، حتى ذلك التاريخ 240 000 نسمة . كان عدد اليونانيين قد زاد زيادة طفيفة على عدد المسلمين الذين يتكلمون اليونانية . كانت روسيا تحشد السلاح في كريت وتحرض ملك اليونان Yorgi (1863 – 1913) المتزوج بدوقة روسية . كانت فرنسا تؤيد روسيا في السياسة الخارجية واليونان في مسألة كريت ؛ ولقربها الشديد من اليونان ، حشدت في الجزيرة كمية كبيرة من الأسلحة والجنود اليونانيين وبدأ العصيان (1866/9/2) . لم يتمكن 40 000 جندي عثماني من إخماد العصيان ؛ لأنها لم تكن حربا اعتيادية ، كان العصاة يختلطون بالقرويين في حالة تطويقهم ، وعند انسحاب العثمانيين يقتحمون القرى الإسلامية ويذبحون أهاليها . أُرسِل إلى الجزيرة لمدة ستة أشهر ونصف ، الصدر الأعظم السابق المسن مصطفى نائلي باشا الذي يجيد التكلم باليونانية والذي يسمى « كريتلي » (كريتي بالنسبة إلى كريت) لشغله سابقا وظيفة والي الجزيرة مدة 30 عاما . لكنه لم يتمكن من التفاهم مع الروم الذين لا يريدون سوى الانضمام (باليونانية : Enosis) .

استقال مترجم رشدي باشا من صدارته الثانية بعد 8 أشهر و 6 أيام (1867/2/11) . صار وزير الخارجية علي نائلي باشا ، صدرا أعظم للمرة الخامسة ، وصار فؤاد باشا وزيرا للخارجية ورشدي باشا سر عسكر (وزير الحربية) .

جاء الصدر الأعظم عالي باشا بنفسه إلى كريت (1867/10/2 – 1868/2/29) وفي الوقت الذي كان عمر باشا ، على وشك إفناء العصاة ، قدمت كل من فرنسا وروسيا وبروسيا وإيطاليا مذكرة رجت فيها الباب العالي ، وقف الحركات العسكرية . لم تشترك إنكلترا والنمسا والمجر في هذه المذكرة . أصدر عالي باشا ، الذي جاء إلى خانيا ، عفوا عاما (1868/1/4) . وتلا بنفسه الفرمان الذي ينظم الإيالة مجددا في 15 شباط .

بقي في الجزيرة مدة 4 أشهر و 29 يومًا . بموجب الفرمان أصبح أحد المعاونين الاثنين لوالي الجزيرة روميًا ، ونصف المتصرفين الـ 5 و القائمقامين الـ 19 أرواما ، ويكون معاونوهم رومًا إن كانوا هم مسلمين ، ومسلمين إن كانوا هم أرواما . وافقت العثمانية على أن تكون اليونانية لغة رسمية مع اللغة التركية . عين مشير حسين عوني باشا واليا وقائدا للفيلق للإشراف على تطبيق النظام الجديد .

لما كان الغرض الحقيقي هو ضم الجزيرة إلى اليونان ، فإن هذه الامتيازات ، عدا أنها آذت الشعب المسلم ، لم يعرها الروم أي أهمية . بدأت سياسة إفناء الشعب المسلم الموجود في الجزيرة وإجباره على الهروب رغم تكلمهم اللغة اليونانية .

18 – سياحة السلطان عزيز لأوروبا (1867/6/21 – 1867/8/7) :

كانت سياحة السلطان عزيز لأوروبا التي استغرقت 46 يوما ، هي السياحة الوحيدة التي أجراها بادشاه لقطر أجنبي في التاريخ العثماني . حتى عام 1950 لم يزر أي رئيس دولة تركي أي قطر أجنبي .

زار السلطان عزيز الإمبراطور نابليون الثالث والملكة فكتوريا بصورة رسمية ، بناء على دعوة منهما . كان ضمن الوفد ولي العهد مراد أفندي البالغ عمره 27 عاما ، وولي العهد الثاني عبد الحميد أفندي البالغ عمره 25 عاما ، الابن الكبير للسلطان عزيز يوسف عز الدين أفندي البالغ عمره 10 سنوات . عمر فهمي أفندي أستاذ السلطان الذي صار شيخا للإسلام بعد مدة قصيرة ، ووزير الخارجية كيجه جي – زاده فؤاد باشا ، ورئيس مترجمي الديوان الهمايوني صدر أعظم المستقبل عارفي بك ، وسفير فرنسا في إستانبول Bourée والمسؤولين الآخرين . كانت عدة سفن تركية مدرعة ترافق يخت الخاقان . ظل الصدر الأعظم عالي باشا في إستانبول كنائب للسلطنة .

وفي مدخل مضيق جنا قلعة ، رافق الأسطول الفرنسي الأسطول العثماني . أما الأسطول الإيطالي فشيّع الموكب من Messina إلى كورسيكا . نزل السلطان عزيز إلى اليابسة (1867/6/29) بمراسم عظيمة جدا ، بعد بربروس خير الدين باشا بـ 324 عاما . تغدى فيها وتعشى في مرسيليا التي وصلها بالقطار . استقبله نابليون الثالث في

محطة قطار ليون لباريس في الساعة 11 من صباح يوم 30 حزيران . جلس مع الإمبراطور الفرنسي في عربة مفتوحة وذهبا إلى سراي Tuileries وسط مظاهرات هائلة . تعرف هناك الخاقان - خليفة ، على الإمبراطورة Eugénie . خصص قصر Elysée لإقامته ، وهو القصر المخصص لإقامة رؤساء جمهورية فرنسا حاليا . تعرف في اليوم التالي على القيصر الكسندر الثاني الموجود في باريس . نال ولي العهد مراد أفندي الوسيم الطلعة ، الممتلئ حيوية والذي يتكلم الفرنسية بطلاقة إعجاب الجميع . شيّع نابليون الثالث السلطان عزيز في 10 تموز في محطة القطار ، بعد بقائه في باريس مدة 10 أيام . ركب السفينة في Boulogne . ترك الأسطول الفرنسي ، الوفد التركي ، في بحر المانش لمرافقة الأسطول الإنكليزي ونزل في ميناء دوفر . استقبله أدوارد الـ 7 أمير غال . التقى في لندن مع الملكة فكتوريا . خصص لإقامته سراي باكنجهام المحل الذي يقيم فيه الحكام الإنكليز حاليا ، (كانت الملكة فكتوريا تسكن سراي وندسور خارج لندن) . بقي السلطان عزيز في لندن 11 يوما ، أكل الطعام مع الملكة وذهب معها إلى المراقص ، الدعوات الرسمية ، المسارح ، المعارض ، مجلس العموم ، مصنع السفن في بورتسموث . منحه رئيس بلدية لندن براءة مواطنة فخرية من الدرجة الأولى . شاهد مع الملكة مناورات السفن الإنكليزية . ذهب إلى دار رئيس الوزراء Palmerston الذي توفي قبل سنتين ، وكان صديقا للأتراك وعدوا للروس ، وواسى عائلته . قابله الشعب بالتصفيق الشديد إلى درجة الجنون . وهنا كذلك ، ولّد ولي العهد مراد أفندي ، حوله هالة من الإعجاب الشديد وانتسب إلى الماسونية تحت إلحاح أمير غال Edward الأستاذ الأعظم لمقصورة أسكتلندا الذي يعتبر كبير ماسونيي العالم . تأسست في إستانبول مقصورة مراد . ورغم التفكير في تزويج مراد أفندي بابنة الملكة فكتوريا الرابعة البالغ عمرها 19 عاما ؛ فإن السلطان عز[illegible] عارض ذلك .

ودّع السلطان عزيز في 23 تموز [illegible] فكتوريا الجالسة على العرش منذ 30 عاما والبالغ سنها 48 عاما . شيّعه الأسطول الإنكليزي من دوفر إلى كاله . وركب القطار منها ووصل في اليوم التالي إلى بروكسل عاصمة البلجيك . تغدى مع الملك ليوبولد الثاني وتحرك في نفس اليوم . زيارته لبلجيكا ، غير رسمية . جاء في اليوم التالي (25 تموز) إلى Koblenz على نهر الراين بالقطار . كانت تلك الأراضي بروسية . استقبله في كوبلنز ملك بروسيا وهلم الأول والملكة .

دعي السلطان عزيز ، خلال وجوده في باريس إلى برلين من قبل سفير بروسيا في باريس باسم مليكه . اعتذر له البادشاه وأخبره بأن منهاجه قد استوجب القطيعة ، عند ذلك حضر ملك وملكة بروسيا إلى كوبلنز التي تبعد عن برلين 460 كم بترتيب من الأمير بسمارك Bismarek ، وتقابلا مع السلطان عزيز . تثير هذه الزيارة الانتباه من حيث الإشارة إلى هيبة واعتبار العثمانية في ذلك العصر ، ذلك أن دبلوماسية الأمير بسمارك لم تكن لتأخذ بعين الارتياح اعتذار السلطان عزيز عن مقابلة حاكم بروسيا في الوقت الذي قابل فيه السلطان حكام إنكلترا وفرنسا والنمسا ، كما قابل القيصر في باريس ، وبخاصة أن بسمارك يعلم ، أن ولهلم الأول هذا سيكون إمبراطورا لألمانيا ، عند تحقق الوحدة الألمانية بعد 3 سنوات ، وكان بسمارك يستعد لذلك . ولما كان كل من نابيون الثالث والملكة فكتوريا قد أطلعا السلطان على الجيش والبحرية حيث أعد نابليون الثالث استعراضًا عسكريًا كبيرًا في Champ de Mars في باريس ؛ كما رتبت الملكة فكتوريا مناورة بحرية لعرض أسطولها ، فقد عرض الملك ولهلم – حتى لا تكون بروسيا أقل شأنا من فرنسا وإنجلترا – في كوبلنز جيشه على السلطان عزيز وجعله يفتشه وأجرى له مناروة كبرى . قال السلطان عزيز لجنرالات العثمانية عند عودته ، إن جيش بروسيا سيكون المنتصر في حرب فرنسية — بروسية . لم يشارك أي جنرال عثماني البادشاه هذا الرأي ؛ حيث كان جيش فرنسا البري هو الجيش الأول في العالم . دار هذا الحادث على الألسن بكثرة أخيرا كمثال لبيان المعلومات العسكرية وبعد نظر السلطان عزيز .

في محطة قطار فيينا استقبل إمبراطور النمسا وملك المجر Franz Joseph الخاقان في 28 تموز . كانت الإمبراطورية النمساوية ، قد تحولت قبل عدة أشهر (1867/2/8) إلى سلطنة ثنائية تتكون من دولتين اتحاديتين إمبراطورية النمسا + ملكية المجر . كان فرانز جوزيف ، ترب السلطان عزيز (كلاهما في سن 37) ، لكنه كان جالسا على العرش منذ 19 عاما . مكث البادشاه 3 أيام في فيينا . جاء بيخته إلى بودابست على نهر ألطونه . استقبل المجريون حفيد حاكمهم السابق بمظاهرات تأييد كبيرة . مكث يوما واحدا في بشته . استقبل في السراي الملكي أعضاء الحكومة المجرية وأشرافهم . غادر باليخت ووصل الحدود العثمانية في ألطونة في 3 آب ، وبعد مدة قصيرة دخل Vidin ، ثم جاء بعدها إلى روسجوك مركز إيالة ألطونة (بلغاريا) . استقبل مدحت باشا ، الذي كان واليا لإيالة ألطونة ، البادشاه في بودابست . صعد لحضور السلطان عزيز ،

متبوعة Karol أمير رومانيا (الملك فيما بعد) الذي جاء إلى روسجوك في 5 آب . في 6 آب جاء إلى فيينا بالقطار من روسجوك . وفي اليوم التالي ، عاد إلى إستانبول من فارنا بواسطة يخته وأسطول تركي . أنيرت إستانبول مدة 3 ليال وأطلقت قذائف الأفراح الهوائية . كانت سياحة ناجحة جدا .

19 ـ تشكيل مجلس شورى الدولة (1868/4/1) :

كان فؤاد باشا قد أعلن قانون « تشكيل ولايت » (تشكيل الولاية) ، (1864/11/7) . نظمت بهذا الإصلاح الإيالات التي تسمى « ولاية » بنظام وتسلسل جديد ، وبشكل حديث . تشكلت مجالس الولاية في الولايات (الإيالات) ، ومجالس اللواء في الألوية (ولاية = بالتركية : IL) ، ومجالس القضاء في الأقضية (بالتركية : Ilee) . ينتخب ممثلو الشعب في هذه المجالس بالنسبة إلى عدد المنتسبين إلى أديانهم ومذاهبهم . لم تكن لهذه المجالس في الحقيقة صلاحية إجرائية . كانت صلاحياتها استشارية فقط . لكنها على كل حال كانت تشكل مرحلة مهمة في إشراك الشعب في الإدارة ، ومع أن هذه المجالس تجتمع بصورة مستمرة ، فقد كان أعضاء ومجالس جميع الأقضية التابعة لكل ولاية يجتمعون مرة واحدة سنويا في مجلس الإيالة ويعدون تقريرا للوالي .

كان قانون شورى الدولة الذي أعلنه عالي باشا في 1 نيسان 1868 ، متمما مهما لهذا الإصلاح . تأسس « مجلس عالي تنظيمات » ومن ثم « مجلس والا » (مجلس العدل) ، بغرض أن تنال الحكومة مساندة الطبقة العليا من البيروقراطيين . يقسم بهذا القانون « مجلس والا » إلى قسمين ، سمي أحدهما شورى الدولة والآخر ديوان الأحكام العدلية . الأول كان يعنى بأمور الدولة الإدارية العليا ، أما الثاني فبالأمور القضائية العليا . سيطلق على رئيس ديوان الأحكام العدلية اسم « عدلية (ومذاهب) ناظري » ويكون تسلسله في بروتوكول الوزارة ، الرابع بعد الصدر الأعظم ، شيخ الإسلام ، سر عسكر (كان رئيس مجلس والا ، عضوا في الوزارة) ، كذلك كان رئيس شورى الدولة ، عضوا في الوزارة ووزيرا وهو الخامس في تسلسل البروتوكول .

لم تكن شورى الدولة التي استمرت حتى نهاية السلطنة ، عبارة عن محكمة إدارية

عليا ، كما في دانشتاى (شورى الدولة) للجمهورية التركية . كانت إما أن تضع بذاتها جميع قوانين الدولة ، أو تصوغ القوانين التي تقرها الدولة وتضع لها شكلها النهائي . أي أنه كان نوعا من المجلس التشريعي الذي تشكله الطبقة العليا من البيروقراطيين .

كانت الميزانية كذلك ، من أعمال شورى الدولة ، لكونها قانونا من قوانين الدولة . وبالأصح ، فإن الميزانية التي تعدها وزارة المالية ، تعرض أولا على الدائرة المالية لشورى الدولة ، ثم على عموم المجلس ، وبعد أن يعطى لها شكلها النهائي ، تعرض على الأمر السامي (تصديق الصدر الأعظم) ، ثم على الإرادة السنية (تصديق الخاقان) . ومن ناحية أخرى ، كان هذا المجلس يقوم بواجبات الديوان العالي وله صلاحية محاكمة الوزراء . يحضر سنويا الأعضاء المنتخبون من الإيالات إلى إستانبول ويعلمون شورى الدولة بمشاكلهم وطلباتهم ، تدرس هذه المشاكل ، أولا ، في الدائرة المدنية لشورى الدولة ومن ثم لدى الهيئة العامة للمجلس ، وتتم مناقشتهاوتبادل الآراء فيها مع الممثلين القادمين كذلك .

أما دائرة التنظيمات التي تعتبر أهم قسم في شورى الدولة ، فتراجع ملاءمة القوانين مع نظام التنظيمات ، وهي مسئولة عن تطبيق التنظيمات في الإمبراطورية ، أي أنها تقوم بواجبات محكمة الدستور حاليا . لا يتدخل شورى الدولة ولا الديوان العدلي بالأمور الدينية ، ويترك هذا المجال تماما إلى المشيخة .

ينقسم ديوان الأحكام العدلية إلى دائرتين كبيرتين هما : التمييز والاستئناف . لا يمكن عزل أعضائه ويعينون مدى الحياة . كان المرجع الأخير لجميع الدعاوى الجزائية والتجارية عدا دعاوي الحقوق المدني . كانت الجرائم المرتكبة ضد الدولة والتي تنظر من قبل محاكم الإدارة العرفية ، خارج نطاق المحاكم .

أراد عالي باشا ، في مجال الحقوق المدني ، اقتباس **القانون المدني الفرنسي** (**Code Napoléon**) وتطبيقه على الكيان العثماني ، ولكن صديقه جودت باشا - أكبر مؤرخ وحقوقي عثماني في العصر 19 - منعه من ذلك . دوّن أحكام الحقوق المدني بالتعاون مع هيئة ، باسم **مجلة الأحكام العدلية** . هكذا ولدت **المجلة** التي تعتبر الذروة في القانون العثماني ، والذي تطبق أحكامه في بعض الأقطار العربية إلى يومنا هذا وطبق في تركيا

حتى عام 1926 . وأصبح القانون المدني لجميع المسلمين في الدولة العثمانية . وقد عدّلت بعض أحكامه ونشرت في **عائلة حقوقي قرارنامه سي** التي نشرت عام 1914 . وأصبح الزواج بأكثر من امرأة واحدة متعذرا من الناحية العملية ، وإن كان ذلك ما يزال متفشيا بين القرويين في الأناضول بصورة فعلية إلى يومنا هذا .

تلك هي الحدود النهائية للديمقراطية التي وضعها نظام التنظيمات للإمبراطورية . واجتياز هذه الحدود ، لم يكن يلائم بنية الإمبراطورية الموزائيكية المكونة من مزيج من الشعوب والأديان والمذاهب المختلفة . كانت الديمقراطية التامة خلال هذه الأيام ، لدى النظام الأنكلو – سكسوني ، كانت لدى إنكلترا والولايات المتحدة الأمريكية و لم تكن تشمل أقطارها التي تعتبر مستعمرة لها . ومن الدول العظمى الأخرى فرنسا ، بدأت الديمقراطية التامة فيها اعتبارا من 1871 فقط . أما الدولتان الأوروبيتان العظيمتان : روسيا وأسبانيا ، فكان نظامهما بالنسبة إلى تركيا التنظيمات ، أقسى سلطة ونفوذا .

أوشكت ، في شتاء عام 1868 – 69 ، أن تنشب حرب مع اليونان . قدّم الباب العالي إلى سفير الأورطة لليونان جوازاته (1868/12/2) . طوق الأسطول التركي جميع الموانئ اليونانية بما في ذلك Pire . قدّم إلى اليونان مذكرة إخطارية في 11 ك1 . وبينما كان الباب العالي يتوقع أن ترفض هذه المذكرة وتوقّف اليونان عند حدها ، طلب انعقاد مؤتمر باريس باجتماع شتى الدول الكبرى . لم يسمح باشتراك اليونان في المؤتمر لكونها دولة صغيرة ، أبلغ المؤتمر اليونان بالأسس التي تتضمنها المذكرة التركية وهي : وقف تدفق السلاح إلى كريت ، ومنع المظاهرات المعادية للعثمانية في أثينا (1869/2/18) . وافق الممثل العثماني الموجود في المؤتمر . لم تتحقق فكرة عالي باشا في إعلان الحرب ضد اليونان .

توفي كيجه جي زاده بيوك محمد فؤاد باشا الركن الثالث من أركان التنظيمات ، أثناء استراحته في نيس (1869/2/12) . نقلت جثمانه سفينة حرب فرنسية إلى إستانبول في 28 شباط ودفن في قبره الكائن قرب سلطان أحمد . أعلن الحداد العام في ذلك اليوم وأغلقت المتاجر . فقد عالي باشا مساعده الأكبر ، وبقي وحده . استمرت عائلة كيجه جي – زاده إلى يومنا هذا وشغلت مناصب مهمة في الدولة العثمانية .

حادثة مهمة أخرى لهذا الدور ، هي افتتاح قناة السويس (1869/11/19) . شرع في حفر القناة في 1859/4/24 واستغرق الحفر 10 سنوات و 6 أشهر و 25 يوما . عمل 60 000 فلاح في حفر القناة البالغة 162,5 كم والتي تمتد بين مينائي السويس في البحر الأحمر وبورسعيد في البحر الأبيض ، لم تكن القنال عميقة وعريضة كما هي اليوم ، لكنها تختصر المسافة جدا بين المحيط الهندي والأطلسي ، وتقضي على احتكار طريق رأس الرجاء الصالح وتعيد إلى البحر الأبيض وضعه الممتاز الذي فقده منذ ما يقارب 4 عصور . وفي نفس الوقت ، كانت تثير أطماع فرنسا وبخاصة إنكلترا حول مصر .

20 ـ وضع الدولة العثمانية عند وفاة عالي باشا (1871/9/7) :

انتصرت بروسيا في الحرب البروسية ـ الفرنسية 1870 ـ 71 ، خلافا للتخمينات . توحدت ما يقارب 30 دولة ألمانية كانت تساندها ومستقلة استقلالا تاما منذ 1806 على شكل اتحاد . أُنتخب ملك بروسيا إمبراطورا على ألمانيا . ولم تنته سلالات الـ 30 دولة ، على عكس الاتحاد الإيطالي ، بل استمروا في سلطناتهم بعناوين ملك ، دوق كبير ، دوق أو أمير .

أصبحت إمبراطورية ألمانيا هذه التي تكونت حديثا ، الدولة العظمى الثانية في العالم بعد إنكلترا . فقدت فرنسا مرتبتها الثانية وتركيا مرتبتها الثالثة وهبطت إلى مراتب بعد هذه الدولة وبعد روسيا .

انتهى الحكم الإمبراطوري في فرنسا . تأسس نظام الجمهورية الثالثة . لم يستقر هذا النظام الجمهوري الغريب الذي يشكل فيه الملكيون الأكثرية في المجلس ، كجمهورية ديمقراطية ، إلا بعد مضي سنوات طويلة .

احتلت ألمانيا ، مكان فرنسا من حيث حيازتها الجيش البري الأول في العالم . كانت ألمانيا تخشى بحرية وأسطول فرنسا المغلوبة وإنكلترا الدولة الكبرى في الاستعمار .

بدأ رئيس الوزراء الأمير بسمارك بتأييد روسيا في السياسة الخارجية . تغير الميزان الدولي الأوروبي ، كان عالي باشا ، هو الدبلوماسي الداهية الوحيد الذي يمكنه تطوير الدولة في ضوء هذا الميزان الجديد ، إلا أنه مات في مثل هذا الظرف .

بعد مؤتمر دام 57 يوما ، اعترفت معاهدة لندن (1871/3/13) ، بحق روسيا في وجود أسطول وميناء لصنع وإصلاح السفن في البحر الأسود . والواقع أن تأسيس أسطول لروسيا في البحر الأسود ، سيستغرق سنين عديدة . بهذا أصيبت معاهدة باريس بضربة شديدة .

توفي عالي باشا ، أثناء ذلك (1871/9/7) . كانت سنه 56,5 عام . صدارته الأخيرة دامت 4 سنوات و 6 أشهر و 24 يوما . تبلغ مجموع صداراته الخمس سنوات و 3 أشهر و 19 يوما (تسلسله الثامن عشر) ، مجموع سنوات وزاراته للخارجية الخمس تبلغ 14 سنة و 4 أشهر و 4 أيام وهي أطول مدة لوزارة الخارجية في تاريخ تركيا منذ تأسيس النظارة (الوزارة) إلى يومنا هذا . وعدا ذلك ، شغل منصب سفير لندن ووزارات أخرى لمدة سنتين و 10 أشهر و 25 يوما . اتفقت صحافة أوروبا بعد وفاته على أنه أعظم سياسي في أوروبا .

منح الخديو إسماعيل باشا الذي كان يحلم بالاستقلال ، رئيس كتابه في اللغة التركية ــ كان له رئيس كتاب في اللغة العربية كذلك ــ مبلغ 1000 قطعة عندما بشره بوفاة عالي باشا . لم يخف ضياء بك (باشا) ونامق كمال رئيسي « العثمانيين الجدد » الداهيتين ، سرورهما بوفاة عالي باشا ، كان عالي باشا ــ كأستاذه رشيد باشا ــ قد وفق في إنجاز أعماله الكبيرة رغم وجود معارضين أشداء من أمثال هؤلاء حصل على شهرة عظيمة في أوروبا ، كان له نفوذ تام لدى البادشاه . أظهر السلطان عزيز تعقلا باقتفائه أثر أخيه الكبير السلطان مجيد ، ولم يرفض له طلبا و لم يتدخل بأمور الحكومة . كان أحد نجاحات عالي باشا الأخيرة دخول اليمن وعسير تحت إدارة الدولة مجددا . أصبحت صنعاء مركزا للإيالة الجديدة وللجيش السابع الذي تأسس حديثا (أيلول 1871) .

21 ــ فساد أسس التنظيمات (1871/9/7 ــ 1876/5/30) :

بدأت في الدولة العثمانية بعد عالي باشا ، دورة « قحط الرجال » . قل مع مرور الزمن ، في كل المجالات رجال الدولة الذين يمكنهم إدارة إمبراطورية كبيرة كما يجب . الصدور الأعظم الذين أعقب بعضهم البعض ، كانوا قاصرين عن أن يسدوا الفراغ الذي أحدثه عالي باشا . أكثر هؤلاء كانوا وزراء موفقين في وزارات عالي باشا وفؤاد باشا وتحت إشرافهما . لكنهم لم يوفقوا كصدور أعظم . يتمكنوا من تشكيل طاقم في العمل ولا شخصية . بدأ الواحد منهم يحفر الحفرة للإيقاع بالآخر . أصبحت غايتهم الرئيسية ، الحصول على المنصب وتسخير الدولة في جمع الثروة والغنى الشخصي . أعقب عالي باشا ، خلال الـ 5 سنوات ، الصدور الأعظم التالية أسماؤهم :

محمود نديم باشا (1871/9/7) ، وبعد 10 أشهر و 24 يوما أحمد شفيق مدحت باشا (1872/7/31) ، وبعد شهرين و 19 يوما مترجم محمد رشدي باشا للمرة الثالثة (1872/10/19) ، وبعد 3 أشهر و 27 يوما أحمد أسعد باشا (1873/2/15) ، وبعد شهر و 28 يوما شيرواني – زاده محمد رشدي باشا (1873/4/15) ، وبعد 9 أشهر و 29 يومًا حسين عوني باشا (1874/2/13) ، وبعد سنة وشهرين و 10 أيام أسعد باشا للمرة الثانية (1875/4/25) ، وبعد 4 أشهر ويوم محمود نديم باشا للمرة الثانية (1875/8/26) ، وبعد 8 أشهر و 16 يوما مترجم رشدي باشا للمرة الرابعة (1876/5/11) . مجموع صدارتي محمود باشا الاثنتين سنة و 7 أشهر و 11 يوما . ومجموع صدارتي أسعد باشا الأثنتين 5 أشهر و 29 يومًا .

كان محمود نديم باشا مرشح العثمانيين الجدد (أي للمعارضة) . كان العثمانيون الجدد يضغطون على البادشاه منذ سنوات لعزل عالي باشا وتعيين محمود نديم باشا بدلا منه .

محمود نديم باشا هو ابن مظلوم باشا أحد الوزراء ، شاعر ، مثقف ، طموح ، مخلص للعائلة المالكة ، لكنه لص ، عديم الأخلاق ، كذاب ، مذبذب ، عديم الكفاءة . ورغم أنه كان قد نشأ كرجل دولة للتنظيمات . والي إيالة ، ووزيرا لها ، لكن سرعان ما ظهرت السجية الإنكشارية المتفسخة المندسة في طبيعته . دمّر أسس التنظيمات وقلبها رأسا على عقب خرب البيروقراطية . لم تبلغ صدارته مدة السنة . جاء مكانه مدحت باشا ، ألمع ولاة الإيالات الذي أنجبه دور التنظيمات ، لم يتمكن من البقاء في السلطة أكثر من 3 أشهر . نشر الفرمان الذي يجيز للخديو إسماعيل باشا الاقتراض من الخارج (1872/9/28) . وزع إسماعيل باشا ، رشا على رجال الدولة والسراي بمقدار مائة إلى مائتي ألف قطعة ذهبية لكل منهم في سبيل صدور هذا الفرمان . من المعلوم أن الاقتراض من الخارج مكّن إنجلترا من السيطرة على مصر . اتضحت بعد سنوات حكمه إصرار عالي باشا — سنين عديدة — على عدم منح هذا الفرمان للخديو . تورطت مصر ، وفقد الخديو كذلك عرشه . تمكن إسماعيل باشا من استصدار فرمان يجمع جميع الامتيازات المعطاة لولاة مصر تحت متن واحد (1873/6/10) . وبينما كان يعتقد أنه سينال الحكم الاستقلالي ، إذ به ينزل الضربة على سياسة الخلافة للسلطان عزيز ويحطم الوحدة الإسلامية ويرمي بمصر ، قرة عين العالم الإسلامي ، في أحضان الإمبريالية الغربية .

أعطى مدحت باشا بيانا كاذبا للبادشاه (يعتبر ذلك أكبر جرم في النظام العثماني) ، بقوله : « إن هنالك فائضا في الميزانية التي تعاني العجز » . حصل حسين عوني باشا على عمولات ضخمة في مبيعات الأسلحة من الشركات الأمريكية والألمانية . تعاقبت الحكومات . زال الاستقرار . عاد محمود نديم باشا إلى الصدارة . ترك العثمانيون الجدد الذين يسمون المشروطيين (مؤيدي الحكم البرلماني) ، مرشحهم للصدارة محمود باشا ، وأخذوا في تأييد مدحت باشا بكل ما يملكون من قوة . أحدث هذا شعورًا بعدم الارتياح لدى المحافظين من مؤيدي التنظيمات والمعارضة وحتى لدى البرلمانيين الراديكاليين ، تجاه السلطان عزيز الذي عاد وعين محمود باشا للسلطة مجددا بعد 3 سنوات .

أحاطت بالدولة على أيام صدارة محمود باشا الثانية ، أزمات كبيرة ؛ استمر عصيان هرسك ، وتعذر إخماده نتيجة عدم المبالاة وتزويده بالأسلحة من قبل روسيا ، من ناحية والنمسا والمجر من ناحية أخرى . أشرفت مالية الدولة على الإفلاس . كلفت مصروفات الجيش والأسطول الحديث الذي أسسه السلطان عزيز والخطوط الحديدية وإنشاء السرايات مبالغ باهظة . حيازة الأسطول العالمي الثالث بعد إنكلترا وفرنسا ، والجيش العالمي الرابع بعد ألمانيا وروسيا وفرنسا ووجود 750000 جندي تحت السلاح (50000 منهم من صنف البحرية) ، كل ذلك ، كان يزيد من أعباء الميزانية ويرهقها .

تلفظ البادشاه عفوا بعزمه على استرجاع قرم ، فلفت أنظار روسيا ، وللتمويه على روسيا ، عين محمود نديم صديق الروس صدرا أعظم ، فسبب هذا إثارة شبهات إنكلترا .

كانت إنكلترا ، تريد أن ترى ولي العهد مراد أفندي على عرش العثمانية ، ومدحت باشا في السلطة . لن تترك إنكلترا هذه الخطة مدة 10 سنين ولحين وفاة مدحت باشا . كان مراد أفندي ، الصديق الشخصي لولي عهد إنكلترا ، أدوارد السابع في المستقبل وكان مزاجه لا يسمح له بالتدخل في شئون الدولة . أما مدحت باشا ، فكان يعتبر

من رجال إنكلترا . وكانت إنكلترا تريد أن ترى حسين عوني باشا الذي كان له علاقات معها ، على رأس الجيش العثماني . ولأول مرة في تاريخ تركيا نشاهد دولة أجنبية تنشغل بالسلطة الداخلية للدولة العثمانية ؛ ومحاولة أعظم دولة في العالم تنظيم هذه السلطة حسب مقتضيات مصالحها وتوزيع الأدوار لرجال العثمانية . تكالبت C.I.A. ذلك العصر (Intelligence Service) على العثمانية ، بكل قوتها ؛ ببنوكها ، بمقصوراتها الماسونية ومؤسساتها . بدأت بدسائسها الشيطانية المظلمة وحيلها الخفية . ولأن الدولة العثماينة ، لم تكن معتادة على هذا النوع من التدخل ، فقد أصابها الكثير من التردد وعاشت فترة من الحيرة .

بلغت الديون الخارجية في 1876 مبلغ 200 مليون قطعة ذهبية (كانت في 1861 – 25 مليون سكة ذهبية) . يقتطع من الميزانية سنويا مبلغ 14 مليون قطعة ذهبية ، للديون الخارجية . لم يكن هذا المبلغ كافيا ، وكان يستلزم سداده الاستدانة مجددا . كان هنالك عجز في الميزانية يقدر بـ 5 ملايين قطعة ذهبية .

أذاع محمود نديم باشا 6 **رمضان قرار نامه سي** (قرارات 6 رمضان) (1875/10/6) : أعلن هذا القرار من جهة واحدة ، أي دون أخذ موافقة الدول لدائنة إنكلترا وفرنسا ، وهو يتضمن تخفيض فائدة الديون إلى النصف . احتجت إنكلترا وفرنسا . تضرر المواطنون العثمانيون الذين اشتروا سندات قرض وتأملوا الربح منها . ويروي أن الفريق الأول الكونت Ignatiev السفير الروسي في إستانبول وزعيم التيّار المسمى Panslavist (الرابطة السلافية) ، قد أغرى الصدر الأعظم بهذا العمل لإذلال كرامة العثمانية لدى الدول الغربية . هبطت في اليوم التالي ، قيم السندات إلى النصف حدثت اضطرابات كبيرة . باع كل من محمود نديم باشا ومدحت باشا الموجود في الوزارة كوزير مالية ووزير التجارة داماد محمود جلال الدين باشا ، والكونت Ignatiev السندات التي بحوزتهم قبل يوم واحد ، وحصلوا على أرباح طائلة . أما السلطان عزيز الذي لم يسلك هذا المسلك ، فقد خسر 3 ملايين قطعة ذهبية .

قام البلغار بعصيان كبير في بلغاريا (إيالة ألطونة) (1876/5/2) ، كانت روسيا قد خططت له من قبل . اشترك في العصيان 55 قرية بلغارية . اجتاحوا القرى المسلمة

وقتلوا 1000 مسلم بوحشية كبيرة . كان عدد نفوس الأتراك يفوق قليلا عدد نفوس البلغار في إيالة ألطونة . واجه المشير عبد الكريم نادر (عبدي) باشا ، العصاة بفرقتين ، قتل 4500 متمرد وأخمد العصيان . نقلت الصحافة الأوروبية الخبر على أن الأتراك قتلوا عشرات الألوف من المسيحيين وهدموا مئات القرى البلغارية وجعلوها قاعا صفصفا . اجتاحت أوروبا موجة دعاية معادية للأتراك . وفي 6 آيار ، قتل الشعب المسلم - نتيجة تدبير روسي يوناني وقنصلي ألمانيا وفرنسا - في سلانيك . ازداد التوتر بشكل كبير . وفي هذا الظرف ، ظل الذين قرروا خلع السلطان عزيز ووضع يدهم على الدولة ، متفرجين ، كان على رأس هؤلاء حسين باشا ، ويدعمهم مدحت باشا .

22 - خلع السلطان عزيز (1876/5/30) :

وزع مبلغ مجيديه واحدة (خمس القطعة الذهبية) على كل فرد من الـ 1000 طالب تقريبا من طلاب المدارس الدينية العالية الذين يسمون « طلبة علوم » والتحق بهم عدة أشخاص من مدرسي العلوم الدينية وجماعة من العاطلين من الشعب ودبرت مظاهرة ضد الصدر الأعظم ، في الباب العالي . هذه الدراهم أخذت من ولي العهد مراد أفندي . وفي اليوم التالي 11 مارس عزل السلطان عزيز ، محمود نديم باشا ظنا منه أن هذه المظاهرات المدبّرة تعبر عن رغبة الشعب . عين مترجم رشدي باشا ، صدرا أعظم . طلب رشدي باشا البالغة سنه 65 عاما ، موافقة السلطان على وزارته التي عين فيها المشير والصدر الأعظم الأسبق حسين عوني باشا البالغة سنه 55 عاما ؛ سر عسكر أي رئيس أركان الجيش ، وحسن خير الله أفندي البالغ عمره 42 عاما ، شيخا للإسلام حيث كان قد شغل هذه الوظيفة سابقا لعدة مرات لفترة من الزمن ، وافق البادشاه . هكذا سلم السلطان عزيز جيشه ليد أعدى أعدائه عوني باشا .

منصب سر عسكر ، كان يشمل وظائف وصلاحيات وزير الدفاع الحالي إلى جانب رئيس أركان الجيش بالإضافة إلى قائد القوات البرية . كان الأسطول والمعامل العسكرية فقط ، خارج نطاق صلاحياته . وإضافة إلى ذلك ، كانت المدارس العسكرية بما فيها الأكاديمية العسكرية ، تحت أمر السر عسكر . كان الذي يشرف على الأسطول ، هو القبطان دريا والوزير الذي يسمى منذ عدة سنوات ناظر البحرية قيصر لي أحمد باشا ؛

بحريا كبير السن ونشأ في البحرية منذ أن كان جنديا وهو مطيع لعوني باشا . كان عوني باشا ، أحد الضباط الأركان الخمسة الذين تخرجوا في الدورة الأولى من الأكاديمية الحربية . ولم يكن قسم الأركان موجودا قبلها في الدولة العثمانية كما هي الحال في بقية الأقطار .

كان حسين عوني باشا ذكيا ، مثقفا ، يجيد لغة أجنبية ، ناجحا عسكريا . منظما . ذا سيطرة . لكنه من عائلة سيئة ، معقد ، مسلّط على أعراض الناس ، مقامر ، لص ، لا يرحم ، ظالم ، حقود إلى درجة ليس لها نظير . تمكن حتى من خلال قواعد نظام التنظيمات ، من دس السم لمنافسيه شيرواني - زاده رشدي باشا ، ومشير أسعد باشا من الصدور الأعظم السابقين . كان عدوا لدودا للبادشاه بسبب نفيه من قبل السلطان عزيز إلى بلده أسبارطة لمدة سنة واحدة ، بعد أن خلع عنه رتبته وأوسمته بموجب المادة التي تقضي بذلك على من يعتدي على أعراض الناس . لكن السلطان عزيز ، كان غافلا إلى درجة أن يعفو عنه ويمنحه أعلى الرتب . عوني باشا ، كان جنرالا ، تدرج في المناصب تحت حماية كيجه جي - زاده فؤاد باشا . كان قد ذهب إلى لندن وأسس فيها علاقات .

إنكلترا ، خشيت من سياسة البادشاه البحرية ونقدته بصورة علنية وتساءلت بصورة رسمية عمّا سيفعله بهذا الأسطول . لم تلق نهضة العثمانية ارتياحا من إنجلترا ، وكما حدث في السابق عندما تم خلع زعيم النظام الجديد سليم الثالث ، لعرقلة النهضة ، فسوف تتكرر نفس اللعبة .

كان مدحت باشا على علاقات مباشرة مع إنكلترا ، وهو الذي أدخل سفير إنكلترا في إستانبول (1867 - 77) Lord Elliot ، ضمن أعضاء زمرة الخلع وتحرك بموجب توصياته . ورغم أنه كان يكره العثمانيين الجدد في قرارة نفسه ، لكن تأييده لفكرة المشروطية (الديمقراطية المتوجة) للعثمانيين الجدد الذين رفعوه إلى السماء بواسطة الصحافة ؛ كان بسبب رغبته في البقاء في الصدارة مدى الحياة . لم يكن في استطاعة مدحت باشا خلع البادشاه ، لولا وجود عوني باشا ، كانت تعوزه هذه الواسطة . كان يرجح التفاهم مع البادشاه على أن يتعاون مع عوني باشا الذي يكرهه . لقد دهش الجميع من اشتراك وزير كبير السن مثل رشدي باشا ، في ثنائي عوني - مدحت

لغرض بقائه في الصدارة إلى نهاية حياته هو كذلك . أما خير الله أفندي ، رابع رجال الدولة الذين يسمون الأربعة الكبار أو أركان الخلع ، فكان مغرورا بفخفخة مقام المشيخة ، شابا ، طموحا ، تافها ، متعصبا تعصبا أعمى ، محتقرا ومكروها من قبل طائفة العلماء ، معروفا باسم « مفسد إمام » (الإمام المفسد) ومتملق عادي من متملقي السراي .

الذي خلع السلطان عزيز من العرش بصورة فعلية ، هو أمير اللواء سليمان باشا . كان قائدا للمدرسة الحربية ، اشتهر بكتبه الأدبية والتاريخية ، عمره 38 عاما . خدع طلاب الحربية وكتيبتين من الجنود الذين جلبوا من سورية قبل عدة أيام ولا يحسنون التكلم بالتركية ، ثم أخبر البادشاه بأن هنالك حادث اغتيال مدبرًا ضده وأن سراي دولمه بقجه سوف يطوق لغرض حمايته ، وفي صباح يوم (1876/5/30) ، استصحب البادشاه معه بالقارب وذهب به إلى سراي طوب قابو وخلعه من العرش . خطط عوني باشا ، مع أصدقائه الوزراء الآخرين الذين أخبرهم بالانقلاب ، بأنه في حالة فشل الانقلاب ، سيلقي الذنب كله على سليمان باشا ، وسيقبض عليه فورا ويعدمه عوني باشا رميًا بالرصاص ، وبهذا يكون عوني باشا قد حقق أمله كذلك في بقائه في الجيش مدى الحياة بصفته منقذ حياة البادشاه . كانت هذه فكرته .

دامت سلطنة السلطان عزيز 14 سنة و 11 شهرًا و 5 أيام وبتعبير آخر 15 سنة إلّا 25 يوما . تقسم فترة السلطنة هذه إلى قسمين : القسم الأول قبل وفاة عالي باشا والثاني بعد وفاته . الدور الأول الذي دام 10 سنوات و 3 أشهر ، هو دور الشوكة والعظمة والنهضة والنظام . والدور الثاني الذي دام 4 سنوات و 8 أشهر و 6 أيام هي سنو الاضطرابات والخيانة والتفكك والفساد . تدخل السلطان عزيز المتزايد في الأمور الحكومية ، خلافا لتعليمات التنظيمات ، بعد مشاهدته عدم كفاءة الصدور الأعظم ، كثّفت الانتقادات ضده .

نهب سراي دولمه بقجه يوم الخلع . سرق الجنود والضباط والجنرالات الذين دخلوا السراي الكثير جدا من الحاجيات . اقتسمت الجواهر الثمينة جدا بين الشخصيات ذوي لرتب العالية الذين اشتركوا في الخلع . أعطيت بقية الجواهر الثمينة التي يقدر

ثمنها بمليون قطعة ذهبية ، إلى صراف السلطان مراد الرومي خريستاكي لبيعها في باريس . يرجع خريستاكي بعد ذلك إلى تركيا ولم يبعث ولا بقرش واحد من ثمن الجواهر . أعطيت سندات القرض العائدة إلى السلطان عزيز البالغ قيمتها 000 400 7 قطعة ذهبية إلى البنك العثماني لتسديد الديون الخارجية . أما النقود الذهبية فوزعت على أفراد الجيش الأول الذين أخذوا يتهامسون مدعين بأنهم غشّوا . وفي اليوم الذي تلا الخلع ، منح كل ضابط من ضباط الجيش الأول رتبة أعلى . ظهرت علامات عدم الارتياح الشديد لدى الجيش السادس الموجود في الخارج . وتشتّتت وحدة الجيش . صرح عوني باشا ، ــ الذي حقق عملا لا يتقبله العقل ، كخلع السلطان عزيز دون سفك ولا قطرة من الدماء ــ إلى إحدى الصحف الأجنبية مفتخرا ، بأن الذين كانوا يعلمون بمؤامرة خلع السلطان هم 68 شخصا فقط ، وأن الآخرين انضموا إلى عملية الخلع دون أن يعرفوا ماهية عملهم .

23 – عائلة السلطان عزيز :

تزوج السلطان عزيز بـ 5 قادين أفندي (زوجة السلطان) ،ولم تقم علاقة بينه وبين أي جارية أخرى . زيجته الأولى في 1856 عندما كان شهزادة (أميرًا) ، زيجته الأخيرة في 1873 . بناته ــ عدا 3 بنات وابن ــ ماتوا قبل إتمامهم السنة الأولى من أعمارهم ، وهم :

1 – السلطانة صالحة (1862/7/11 – 1941) : زوجها داماد مشير ذو الكفل أحمد باشا (ابن مشير خاتون أوغلو كرد إسماعيل حقي باشا) ، رزقا بابن مات في سن السادسة . هذه السلطانة ، كانت في سن طفولتها مخطوبة لإبراهيم حلمي باشا أحد مشيري العثمانية وابن الخديو إسماعيل باشا . لكن عبد الحميد الثاني الذي يكره إسماعيل باشا ، فسخ الخطبة عند جلوسه على العرش .

2 – السلطانة ناظمة (1866/2/25 – 1947) : زوجها داماد مشير علي خالد باشا (1862 ؟ – 1950 ؟) (ابن سر عسكر مشير لوفجالي إبراهيم درويش باشا) . لم يرزقا أولادا .

3 – السلطانة أسماء (1873/3/21 – 1899/5/7) : زوجها داماد مشير قبة صاقان جركس محمد باشا (1846 – 1909) : (زوجته الأولى : ابنة عبد المجيد الأول ،

السلطانة نائلة) . وُلد لها من هذه الزيجة 3 سلطان – زاده (أمير) ، ومن ناحية أخرى سلطان – زاده مات طفلا وخانم – سلطانة (أميرة) .

4 – السلطانة أمينة (1874/8/24 – 1920/1/29) : زوجها داماد وزير جاودار أوغلو أحمد شكري باشا) (رئيس شورى الدولة ، وزير معارف والنافعة (الأعمار) ، مؤلف) رزقا بـ خانم – سلطانة توفيت وهي طفلة .

أبناء السلطان عزيز :

1 – يوسف عز الدين أفندي (1857/10/11 – 1916/2/1) : مشير ، صار وليا للعهد مدة 6 سنوات و 9 أشهر و 4 أيام ، 1909/4/27 – 1916/2/1 . أولاده ، عدا ابن واحد مات طفلا : محمد نظام الدين أفندي (1908/12/18 – 1933/3/19) ، السلطانة خديجة شكرية (1906/2/24 – 1972/4/1) ، السلطانة مهربان مهرشاه (1916/6/21) . السلطانة شكرية ، تزوجت 3 مرات أول أزواجها هو شهزادة داماد محمد شرف الدين أفندي بن سليمان أفندي بن عبد المجيد الأول . لم تنجب من أي منهم . السلطانة مهرشاه ، تزوجت بالشهزاده داماد عمر فاروق أفندي عام 1948 ، لم ترزق بأولاد ، عمها ، ابن عبد المجيد الثاني .

2 – محمود جلال الدين أفندي (1862/11/14 – 1888/9/1) : توفي عندما كان ولي عهد سابعا .

3 – الخليفة عبد المجيد خان الثاني (1968/5/29 – 1944/8/23) : (للتعرف على أولاده انظر البحث) ، هو آخر من توفى من أحفاد محمود الثاني الذكور ، أما حفيدته ، فهي السلطانة نظيمة الأخت الأكبر منه التي توفيت عام 1947 .

4 – محمد شوكت أفندي (1872/6/5 – 1899/10/22) : توفي عندما كان ولي عهد تاسعا . ابنه : محمد جمال الدين أفندي (1891/3/1 – 1947) . أبناء هذا الشهزاده : محمود حسام الدين أفندي (1916/8/25 – 1966/8/7) وسليمان سعد الدين أفندي (1917/11/20) . حصل لسعد الدين أفندي شهزاده (أمير) واحد وسلطانة (أميرة) واحدة ، والشهزاده الذي ولد عام 1955 هو الأمير الوحيد الذي سيديم فرع السلطان عزيز .

5 – محمد سيف الدين أفندي (1874/9/22 – 1927/10/19) : ملحن عظيم ، كان في 1922 ولي عهد ثالثا . أولاده : محمد عبد العزيز أفندي ، ومحمود شوكت أفندي (1903/7/30 – 1973/1/31) وأحمد توحيد أفندي (1904/12/2 – 1966/4/24) وهو توأم السلطانة فاطمة جوهري (1904/12/2 – 1980/12/10) . تزوج شوكت أفندي ، السلطانة نعيمة ابنة عبد الحميد الثاني والسلطانة عادلة خانم – سلطانة ابنة داماد مشير نور الدين باشا ابن غازي عثمان باشا وأنجب من هذه الزيجة السلطانة حميدة نرمين نزاهت (1923/1/27) ، تزوجت ثم انفصلت عن زوجها .

الابن الكبير لسيف الدين أفندي ، هو محمد عبد العزيز (الثاني) أفندي (1901/9/26 – 1977) . كان رئيسا للسلالة العثمانية مدة 4 سنوات من 1973/5/22 حتى وفاته . تزوج بركمال خانم أفندي (السيدة) ، ابنته السلطانة خرّم (1940) .

24 – وفاة السلطان عزيز (1876/6/4) :

قتل السلطان عزيز ، بعد 5 أيام من خلعه (1876/6/4) . فصد القتلة شرايين ذراعيه ، بشكل يشبه الانتحار ، خطط الجناية ، حسين عوني باشا . وأعلنت الدولة انتحاره ببيان رسمي ، لكن الشعب لم يصدق ذلك . ذرف الأتراك والعرب ، وجميع المسلمين الذين يشكلون الدولة العثمانية ، الدموع الدامية ، كتبوا ولحّنوا فيه المراثي كانت سن البادشاه تتجاوز الـ 46 عاما بـ 3 أشهر و 14 يوما . نهضت على زمانه الدولة نهضة كبيرة ، أنفق على إنشاء الخطوط الحديدية فقط مبلغ 20 مليون قطعة ذهبية ، فتح العديد من المدارس الحديثة ، جهز الجيش بأحدث الأسلحة الموجودة في ذلك العهد ، جدد القلاع واستحكاماتها ، كوّن بجهوده الشخصية وبتعشقه العميق للشئون البحرية ، بحرية عظمى ، حوّر مصنع السفن بشكل يمكن المصنع من إنشاء بوارج . كان شابا ، صحته جيدة . خطط تنفيذ أعمال كثيرة . الدول الأجنبية التي استشعرت خطورة هذه النهضة ، دبرت مؤامرة خلعه واستعملت قسما من رجال الدولة العثمانية أداة لتحقيق ذلك . أخل بأهم مبدأ من مبادئ التنظيمات وهو مادة عدم إشراك الضباط في السياسة إخلالا كبيرا . أقحم الجيش في السياسة ، وفي خضم العراك على السلطة . صارت السياسة غذاء لطالب الحربية الشاب . كأنما بعث للوجود ، نوعًا جديدًا من الانكشارية .

كان حسين عوني باشا مستبدا عظيما . عدوا لإعلان المشروطية (الحكم بواسطة مجلس) وإعلان الدستور . اتخذ طور الدكتاتور الكامل . لكن سلطنته لم تدم أكثر من 16 يومًا . اقتحم مرافق الهنكار وأخو زوجة السلطان عزيز البكباشي (الرئيس الأول) جركس حسن بك ، أثناء اجتماع الحكومة ليلة 15 حزيران 1876 مكان الاجتماع ، وقتل بمسدسه عوني باشا وناظر الخارجية رشيد باشا مع عدة أشخاص آخرين .

واقعة جركس حسن زادت في إخلال التوازن العقلي للسلطان مراد . أثر على عقله خطأ وقع يوم خلع عمه ، حيث ظن أن العسكري الذي دخل غرفته لدعوته إلى الجلوس على العرش ؛ قد أرسل من قبل عمه لغرض اعتقاله ، فقد كان الانقلاب قد قدّم عن موعده يوما واحدا ، دون أن يخبر مراد بذلك . خلع السلطان مراد ــ أمل العثمانيين الجدد ومؤيدي المشروطية ــ اضطراريا بعد 3 أشهر . وشفي تماما ، بعد مدة وجيزة .

25 ــ السلطان مراد خان الخامس (1876/5/30 – 1876/8/31) :

السلطان محمد مراد ، هو الابن الكبير للسلطان عبد المجيد الأول وأول الحفداء الذكور لمحمود الثاني . أمه السلطانة ــ الوالدة شوق أفضاء (1820/12/12 – 1889/9/17) ، أصبحت الزوجة الثالثة للسلطان مجيد في 1839 والثانية في 1849 . لعبت دورا سيئا جدا في واقعة السلطان عزيز .

كان السلطان مراد ولي عهد ثانيا ، طيلة مدة سلطنة والده وفور ولادته ، وولي عهد السلطنة طيلة مدة سلطنة عمه التي دامت 15 عاما . جلس على العرش وهو في سن تتجاوز الـ 35 عاما بـ 8 أشهر و 9 أيام . خلع بعد 93 يوما . عاش بعدها 28 عاما ، لم يخرج خلال هذه الفترة من سراي جراغان الذي خصص له ولعائلته وتوفي في 1904/8/29 بمرض السكّر . كانت سنه تنقص عن الـ 64 عاما بـ 24 يوما . دفن في قبره الكائن في يني جامع . مدة سلطنته ، هي أقصر مدة سلطنة في التاريخ العثماني .

نشأ السلطان مراد مجهزا بالثقافة الأوروبية ، أكثر من أبيه . وكان يملك شخصية على النقيض من شخصية عمه السلطان عزيز المتبحرة في الإسلام ، الشرقية ، العثمانية ، التي نشأت على الثقافة والتربية التركية . كان تحصيله كاملا . كان يجيد كلا من الموسيقى الغربية والتركية ، لكنه كان ينشغل أكثر بالموسيقى الغربية . يسير بين

الشعب ، مدمنًا على الشرب ، وسيم الطلعة جدا ، يعزف موسيقى الساز المختلفة ، شاعرًا ، نجارا دقيقا . انتسب إلى الماسونية عام 1867 . أظهر حرصا شديدا وقبيحا قبل أوانه في الجلوس على العرش مكان عمه . ولم يكن بإمكانه ملء الفراغ الذي أحدثه عمه . أصبح آلة بيد إنكلترا والوزراء الذين يلعبون لعبة مؤيدي المشروطية (الحكم البرلماني) . كان معارضا لقتل عمه . كان رجلا رحيما يكره رؤية الدم كأبيه . بنات السلطان مراد ، عدا ابنيه اللذين ولدا وتوفيا في نفس العام ، هن :

1 ـ السلطانة خديجة (1870/5/5 – 1938/3/13) : زوجها الأول داماد وزير علي واصف باشا (1870 – 1918) ، انفصلت عنه وتزوجت زواجها الثاني بالداماد رءوف خير الدين بك أفندي (1871 – 1936) (دبلوماسي ، حقوقي) . ولد لها من زيجتها الأولى الخانم ـ سلطانة عائشة (1902) ، تزوجت باشكدرالي ـ زادة جلال باشا . رزقت من زيجتها الثانية ، عدا ابن واحد مات طفلا ؛ خيري بك أفندي (1912) وخانم سلطانة سلمى (1914 – 1942) التي تزوجت بنواب كتوارا Kutwara في الهند ورزقت منه ابنة . (استلهم الروائي التركي الشهير رفيق خالد قاراي في روايته Turk Prensi Nilgun من سلمى خانم ـ سلطانة هذه) .

2 ـ السلطانة فهيمة(1875/8/2 – 1929/9/15) : زوجها الأول داماد وزير علي غالب باشا (1871 – 1950) افترقت عنه وتزوجت زوجها الثاني محمود بك . ليس لديها أولاد .

3 ـ السلطانة فاطمة (1879/6/19 – 1932/11/20) : زوجها داماد قرة جهنم ـ زادة رفيق إيريس بك أفندي (وفاته 1952) (دبلوماسي) (ابن العين قره جهنم ـ زاده فائق بك والي قونية) . وعدا 2 سلطان ـ زادة ، ولد لها الخانم ـ سلطانة عائشة خديجة (1909 – 1968) وتوأمها محمد علي إيريس بك أفندي (1909) وجلال الدين إيريس بك أفندي (1916) .

4 ـ السلطانة عليّة (1880/٨/24 – 1903/9/19) : لم تتزوج .

الابن الوحيد للسلطان مراد ، هو محمد صلاح الدين أفندي ، توفي عندما كان ولي عهد ثالثا (1861/8/15 – 1915/4/29) . وهو من طلاب سليمان باشا الذي أسقط

السلطان عزيز وحقق الانقلاب وصار مشيرا بعد فترة وجيزة . بنات صلاح الدين أفندي :

1 – السلطانة بهية (1881/8/21 – 1947) : زوجها داماد أمير اللواء حافظ إسماعيل حقي نوري باشا (1878 – 1915) (استشهد عندما كان قائدا للجيش الثالث) ، ليس له أولاد .

2 – السلطانة جليلة (1882/2/3 – 1899/11/24) : لم تتزوج .

3 – السلطانة رقيّة (1885/6/1 – 1971/6/16) : زوجها داماد شريف عبد المجيد بك أفندي (1889 – 1965) (سفير الأردن في لندن وباريس وأنقرة) (ابن وزير شريف علي حيدر باشا ناظر الأوقاف وأمير مكة ، عين الرئيس الثاني لمجلس الأعيان) ، لم يخلّف أولادا .

4 – السلطانة عادلة (1887/2/10 ت 1973/1) : زوجها الأول داماد فائق بك أفندي (ابن مشير عارف باشا ، استمر عقد النكاح 3,5 سنة وحصل الطلاق قبل الزفاف . زوجها الثاني داماد مورالي – زاده صلاح الدين بك أفندي (1885 – 1918) (حفيد مشير مورالي إبراهيم باشا) . ابنتهما الخانم – سلطانة نيلوفر (1916) تزوجت نواب شجاعت علي خان معظّم – جاه وبقيت في عصمته مدة 21 عاما ثم طلقت وتزوجت مرة ثانية . معظّم – جاه ، هو الابن الصغير لعثمان خان نظام حيدر آباد .

5 – السلطانة صفيّة (1887/5/20 – 1911/2/20) : لم تتزوج .

6 – السلطانة أمينة عطية (1892/1/3 – 1978/10/10) : زوجها سركاتبي – زاده عثمان هاني أفندي (حقوقي ، دبلوماسي) (1890) (ابن وزير عثمان فريد باشا) ، ليس له أولاد .

ابنا صلاح الدين أفندي ، عدا ابنيه اللذين توفيا فور ولادتهما ، هما :

1 – أحمد (الرابع) نهاد أفندي (1883/7/6 – 1954/6/4) : صار رئيسا للسلالة العثمانية مدة 9 سنوات و 9 أشهر و 12 يومًا (1944/8/23 – 1954/6/4) .

2 – عثمان (الرابع) فؤاد أفندي (1895/9/26 – 1973/5/22) : أصبح رئيسا

للسلالة العثمانية مدة 18 سنة و 11 شهرًا و 18 يومًا (1954/6/4 – 1973/5/22) . تزوج بالأميرة كريمة عباس حليم ثم طلقها ، ليس له أولاد . تخرج في الأكاديمية العسكرية البروسية . من أبطال الحرب العالمية الأولى ، عين في ك 1918/2 قائدا على الجبهة الليبية برتبة فريق أول . ركب الغواصة من تريسته ونزل في ليبيا ، وتسلم الجبهة . حارب الإيطاليين بنجاح على رأس المجاهدين الليبيين ومع الضباط العثمانيين . وفي الهدنة ، أمر الباب العالي الشهزاده بالتسليم إلى الإيطاليين . لم يطع الأمر رغم مرور أسابيع عديدة . أخفى مجاهدية ، وزّعهم . اعتقله الإيطاليون ، وسجن في نابولي في أحد القصور مدة سنة تقريبا . كانت له معرفة سابقة بليبيا ؛ لأنه كان قد دافع عن ليبيا تجاه الإيطاليين مع أنور بك (باشا) عندما كان طالبا عمره 16 عاما . درس رومل حرب العصابات التي نفذها فؤاد أفندي في حركات ليبيا . وعند استيلاء رومل على ليبيا ، منحت إنكلترا رتبة الزعيم والصلاحية الكاملة لفؤاد أفندي لتدريب الليبيين وتجهيزهم ضد الألمان . أعلم الأفندي بأنه لا يمكنه لبس اللباس العسكري الإنكليزي ، ولا يمكنه مقاتلة زملائه في السلاح ، القدامى . وعند إخراج السلالة من تركيا (1924) ، كتب أتاتورك إليه رسالة يبدي له فيها تأثره لعدم تمكنه من استثناء زميله في السلاح . وفي الهدنة ، قام بحماية الزعيم عصمت بك (اينونو) ، وأسكنه في قصره أشهرا عديدة .

ابن أحمد (الرابع) نهاد أفندي : داماد علي واصب أفندي ، رئيس السلالة العثمانية منذ 1977 . ولد في 1903/10/14 . تخرج في غلطه سراي والكلية الحربية مثل جميع الشهزادات المتأخرين . تزوج بالسلطانه أمينة مقبلة حفيدة السلطان محمد رشاد (1931/4/24) . أبناؤه الشهزاده عثمان صلاح الدين أفندي (1941) ، وأولاد هذا الشهزاده هم شهزاده نهاد رشاد أفندي (1978/9/17) شهزاده محمد مراد أفندي (1972) وسلطانة واحدة (1974) .

الفصل التاسع

السلطان عبد الحميد الثاني (1876 - 1909)

1 ـ جلوس السلطان عبد الحميد خان الثاني (1876/8/31) ، فترة إمارته :

عبد الحميد الثاني هو الابن الثاني للسلطان عبد المجيد خان الأول ، الذي ولد بعد مراد الخامس . هو يصغر مراد الخامس بسنتين بالضبط . ولد في الساعة الخامسة من صباح يوم 22 أيلول عام 1842 في السراي الهمايوني جراغان القديم . كان عند ولادته ، ولي عهد ثالثا . وظل كذلك طيلة مدة سلطنة والده . كان ولي العهد عمه عبد العزيز أفندي وولي العهد الثاني أخاه الكبير مراد أفندي .

والدة شهزاده عبد الحميد أفندي ، هي زوجة السلطان الرابعة تير مشكان ، جركسية الأصل كزوجات أكثرية السلاطين المتأخرين . رفعت في 1849 إلى رتبة الزوجة الثالثة . توفيت السلطانة نعيمة التي ولدتها ، قبل ولادتها لعبد الحميد أفندي ، في سن 2,5 بمرض الجدري (1840/10/11 – 1843/5/1) ، مدفونة في مقبرة لاله لي . عاش شهزاده محمد عابد الذي ولدته بعد ذلك 15 يوما فقط (1848/4/22 – 1848/5/7) ، دفن في مقبرة السلطانة رفيعة في يني جامع . تير مشكان (1819/٨/16 – 1852/10/3) من قبيلة شابصخ « كانت خضراء العينين ، ذات شعر أصفر فاتح ، ذات جلد أبيض شفاف ، نحيفة البنية » . ماتت بمرض السل وسنها 33 عاما ، مدفونة في مقبرة مراد الخامس في يني جامع .

هكذا فقد عبد الحميد أفندي والدته وعمره 10 سنوات . كان من السائد إعطاء أولاد البادشاهات الذين توفيت أمهاتهم إلى زوجات البادشاهات اللواتي لم يلدن ، أو اللواتي فقدن أولادهن ، للعناية بهم ، وليكن أمهات معنويات لهم .

كانت خلال هذه الأيام ، باش أقبال بره ستو خانم ـ أفندي الزوجة الخامسة للسلطان مجيد ، و لم تكن قد رزقت أولادا بره ستو Perestu قادين أفندي التي كانت في آيار 1861 زوجة السلطان الرابعة (بالفارسية : بيرستو = سنونو) (1830 – 1904) كانت الابنة المعنوية للسلطانة « كوجوك » أسماء (1778 – 1848) الأخت الكبرى لمحمود الثاني المشهورة (السلطانة أسماء ، لم ترزق أولادا) ، زوجتها بابن أخيها السلطان عبد المجيد . من قبيلة أوبوخ الجركسية « كانت ذات عينين زرقاوين ، ذات شعر ذهبي أصفر ، وجلد شفّاف ، ونحيفة ، وصغيرة الجسم » (هذه

الأوصاف نجدها عند السلطانة عائشة ، ابنة عبد الحميد الثاني ووالدتها مشفقة قادين أفندي) .

فاطمة خانم ، أخت بيرستو قادين أفندي تزوجت بفاضل بك وولدت طبيب العيون الدكتور أسعد باشا وهو أب حسن أيشيق وزير الخارجية عام 1965 . أخو فاضل بك ، منابير – زادة نوري بك (1840 – 1916) ، هو أخو السلطان حميد بالرضاعة ، من العثمانيين الجدد .

كانت ، بيرستو قادين التي عهد إليها بالسلطان حميد أفندي البالغ عمره 10 سنوات كابن معنوي ، تكبره بـ 12 سنة . وقد أولته حبها وعنيت بتربيته كأم حقيقية . كانت السلطانة جميلة (1843 – 1915) وهي أخت السلطان حميد التي تصغره بـ 11 شهرا . قد فقدت كذلك أمها دزد دل Duzd - Idil قادين أفندي (1825 – 1845/8/18) عندما كانت في سن الثانية من عمرها وأعطيت إلى بيرستو قادين أفندي قبل السلطان حميد بـ 7 سنوات . وبناء على ذلك ، تكون نفس امرأة الأب قد قامت بتربية كل من السلطان حميد والسلطانة جميلة . وهذا هو سبب المحبة الخاصة من السلطان حميد لها أكثر من أخواته الأخريات .

كانت بيرستو قادين من صاحبات الخير . وعند وفاة زوجها السلطان مجيد عام 1816 ، سكنت السراي الذي أهداه لها السلطان عزيز أخو زوجها ، الكائن في ماجقا . سكنت هذا السراي حتى وفاتها (مدته 43 عاما) . أنشأت في إستانبول حنفيات لتوزيع المياه مجانا ، [illegible] مسجد طوبجوباشي (سيبوري قابوسي ، تكيه زقاق) ، حنفيات للوضوء ، [illegible] (دار توقيت الزمن) ، ابنية (1893 – 5) (61 ، Istanbul Sebilleri ؛ 298 ، 1 ، Istanbul çesmeleri) توفيت عن عمر يناهز الـ 74 عاما ، دفنت في قبرها الكائن في منطقة أيوب .

نزرعته بحت بيرستو قادين ، السلطانة – الوالدة مدة 28 سنة . منح السلطان حميد والدته المعنوية عند جلوسه على العرش رتبة السلطانة – الوالدة (1876/8/31) . هي السلطانة – الوالدة الوحيدة التي لم تلد السلطان بالفعل . وفي نفس الوقت ، هي آخر سلطانة – والدة في التاريخ العثماني . حيث إن السلاطين الذين جاؤا بعده ، جلسوا

كلهم على العرش بعد أن توفيت أمهاتهم بمدة طويلة . كانت السلطانة - الوالدة بيرستو ، سيدة فاضلة قضت حياتها في إعانة المعدمين ووهبت نفسها ، خاصة للنساء والبنات الفقراء ، وفضلا عن أنها لم تكن تتدخل في السياسة ولا تقابل السياسيين فقد كانت لطيفة ، ذات خلق ليّن ، بعيدة عن حرص السلطنة ، وقورة ، متواضعة . ماتت شريفة كريمة وسط جو من المحبة والاحترام . هي الثانية بعد السلطانة خديجة تارخان في التاريخ العثماني ، من حيث مدة شغلها منصب السلطانة الوالدة .

تلقى عبد الحميد الثاني الذي يسميه الشعب السلطان حميد دروسه خلال فترة إمارته (شهزاده) على أيدي الشخصيات التالية : تعلم الموسيقى الغربية والبيان على يد أمير اللواء Guatelli باشا ، وأمير اللواء Dussep باشا ، وأمير اللواء Lombardi بك ، والعزف على البيان على يدي Aleksan أفندي ، والخط عن جلال الدين أفندي واعتبارا من 1850 على يدى القضعسكر (القاضي العسكري) توسيالي مصطفى عزت أفندي والعزف على الكمان ، على يدى الكماني هدايت بك ، والفارسية على يدي قضعسكر روملي عجم علي محوي أفندي والصدر الأعظم صفوت باشا . والعربية على يدي القضعسكر شريف أفندي ، وفريد أفندي ، وشيرين حافظ أفندي ، وعمر خلوصي أفندي وتلقى الفرنسية عن مشير نامق باشا و Mosyo Gardet ، والتركية ، والأدب العثماني والعلوم الإسلامية وخاصة الحديث (البخاري) عن كموشخانة لي كردانقيران عمر خلوصي أفندي ، والاقتصاد السياسي عن وزير المعارف وزير محمد طاهر منيف باشا عام 1876 ، والتاريخ العثماني ، عن مؤرخ الوقائع القضعسكر لطفي أفندي ، والرياضة والفروسية عن مربيه محمد صادق آغا وبعد وفاته في 1857 عن مابينجي عثمان بك ، والأدب الفرنسي عن الصدر الأعظم إبراهيم أدهم باشا ، وآداب الطريقة الشاذلية عن شيخه طرابلس غربلي محمد ظافر أفندي ، وبعد وفاة هذه الشخصية ، تلقى آداب الطريقة القادرية على يد شيخه عبد الله أفندي ، ودرس علوم التصوف اعتبارا من 1879 على يد شيخه قضعسكر روملي حلبلي (خان سيحون) صيّاد - زاده أبو الهدى أفندي ، وتعلم العسكرية على يد ضباط عديدين قاموا بواجب زرافق الهنكار (السلطان) . أشرف على تدريسه جميع هذه الدروس وامتحنه فيها ، وزير أحمد كمال باشا (1808 - 1887) الذي صار وزيرا للمعارف 6 مرات ، وللأوقاف مرتين .

السلطان حميد من السلاطين النوادر الذين لم ينتسبوا إلى المولوية . مربياته هن أولا – نركس – مثال خلقه ، ومن ثم دلبر – جنان خلقه . أجرى له عملية الختان وزير دكتور حكيم إسماعيل باشا في قصر حيدر باشا عام 1847 عندما كان في الـ 5 من عمره وبدأ الدراسة في نفس اليوم . أخوته في الرضاعة هم مناعير – زادة نوري بك ، أثوابجي باشي عصمت بك (1842 – 1906) ، طيّار – زادة أحمد بك الذي توفى في سن الـ 6 . ومع أن تربيته جرت على يد بيرستو قادين أفندي ، فإن السلطانة – الوالدة برتونيال والدة السلطان عزيز أشرفت كذلك على تربيته . نظم السلطان حميد عدة أشعار ، وهو أيضا رسام ، وعازف على البيان ، وعازف على الكمان ، وخطاط ، كتب عدة الحان على طراز الموسيقى الغربية . لم يتعلم الموسيقى التركية . لكن استعداداته في الفنون الجميلة تجلت في نجارته الدقيقة ، ويعتبر أثاث الصالون الذي صنعه بيده من أرفع آيات الفن النّجاري . بعض هذه القطع موجودة في المتاحف ، والتي منها مملوكة لأشخاص ، تشترى وتباع بمبالغ ضخمة جدا . تعلم النجارة عن خيل أفندي .

كانت سن عبد الحميد أفندي – أحب الأولاد لأبيه ، عند وفاة أبيه – تتجاوز الـ 18 عاما بـ 8 أشهر و 9 أيام . وعند جلوس عمه ، صار ولي عهد ثانيا ، وظل في هذا المنصب طيلة 15 عاما . اشترك في سياحات عمه التي زار فيها مصر وأوروبا . تقابل مع الحكام والأمراء الذين زاروا إستانبول على عهد عمه ، وأهم الذين زاروا عمه من هؤلاء الحكام إمبراطورة فرنسا Eugénie (1869) ، وإمبراطور – ملك ، النمسا – المجر Franz Joseph (1869) ، ولي عهد بروسيا (ثم الإمبراطور – ملك) Friedrich الأول (1869) ، أمير غال (ثم الملك ادورد السابع) (18621869-) ، ناصر الدين شاه (1873) ، ولي عهد فرنسا الأمير نابليون . وتقابل كذلك مع مجاهدي المسلمين والعرب العظام كالشيخ شامل والأمير عبد القادر .

وخلال فترة إمارته ، كانت له شقة خاصة في دولمة بقجة لكنه لم يكن يسكنها بصورة دائمة بسبب كثرة المراسم في قصر البادشاه ، كان يمكث معظم الوقت في مزرعته الكائنة في طرابيا ، قصر مسلخ الكائن في كاغدخانة ، سراي والدته المعنوية بيرستو قادين الكائن في ماجقة .

كان عبد الحميد أفندي ذا صحة جيدة ، يزاول الرياضة ، وركوب الخيل واستعمال السلاح . مارس الشراب فترة من الزمن ثم تركه . لم يكن يتوانى أبدا في أداء واجباته الدينية . كان مقتصدا ، لكنه لم يكن شحيحا . لديه قدرات وبخاصة في الأمور المالية . كان أغنى الشهزادات (الأمراء) ؛ ففي الوقت الذي بلغت فيه ديون أخيه الكبير مراد أفندي مليون قطعة ذهبية عام 1876 تقريبا . بلغت قيمة مزارعه وأمواله غير المنقولة وسنداته وجواهره ونقوده ملايين القطع الذهبية . حذرا ، كتوما جدا ، قليل الكلام كثير الإصغاء . كان ولوعا جدا بتمحيص أخلاق البشر والنفوذ إلى نقاط ضعفهم . من الصعب جدا غشه . كان أبوه يقول له عند تودده إليه « ابني الشكّاك والصامت » انتمى إلى جمعية العثمانيين الجدد في بداية تشكيلها كأخيه الكبير ، وخلال سنة ، اكتشف غاية الجمعية ووجدها مضرة بمصالح الدولة وسحب يده منها ، بينما ظل أخوه مرتبطا بها إلى النهاية . كان يقابل الشعراء والفنانين والصحفيين ورجال الدولة والأجانب ويحميهم ويهتم بهم ، لم يكن يحضر كأخيه موائد الشراب ويتكلم بما لا يعني . كان يحب عمه بإخلاص ويحترمه ، لم يستطع أن ينسى حتى نهاية حياته فاجعة خلع عمه وقتله . كان قد ترعرع مع أخيه الكبير مراد أفندي ، كانا صديقين ، يحب أحدهما الآخر من صميم قلبه . لكنه لم يكن يستصوب طريقة حياة أخيه . وبخاصة عندما شاهد اشتراكه في الدسائس ضد عمه ، وكان يبتعد عنه بنفس مقدار تورطه . لم تكن له علاقة مع أخيه محمد رشاد أفندي الذي خلفه ، لم تكن طباعهما متفقة . أما أخوه أحمد كمال الدين أفندي الذي ولد بعده ، فكان يحبه جدا ويصادقه . وكان هنالك فارق كبير في العمر بينه وبين أخيه برهان الدين أفندي الذي ولد بعد ذلك ، فكان يحبه ويقوم بحمايته كابنه . لم يكن محبا لأخوته المؤخرين نور الدين وسليمان أفندي . كان يحب أصغر أخوته ، وحيد الدين أفندي الذي سنه ، سن ابنه ، وكان يبسط عليه حمايته .

كان عبد الحميد أفندي يشبه عمه السلطان عزيز في طريقة حياته . يعيش محافظا على التقاليد الشرقية ، الإسلامية ، العثمانية ، التركية . وكان من مؤيدي المحافظة عليها . كان يرى أنه ينبغي الوقوف عند اقتباس تكنولوجيا وعلم الغرب فقط ، والاطلاع على الثقافة الغربية ، دون تقليد الغرب في معيشته ، وبذلك كان تفكيره يختلف عن تفكير أبيه السلطان مجيد وأخيه الكبير السلطان مراد ، لم يرتح لتفرنجهم . كان مؤمنا بنظام

التنظيمات ، وكان معجبا بجده السلطان محمود . كان يعلم أنه ورشيد باشا ، أنقذا الامبراطورية من التبعثر والعاقبة التي لحقت بتركستان وقفقاسيا ، كان قد درس ذلك جيدا ، وكان تفكيره مثل تفكير رشيد باشا ، الذي يعتنق مبدأ الانتفاع من التوازن الدولي . وقد كانت كل الدول تعيش على هذا النمط ، ومن غير الممكن أن تشذ العثمانية على ذلك . كان يعشق السياسة الخارجية وله فى هذا الجانب قدرات ممتازة ، وكان مولعا بمعرفة كل ما يجري في العالم ، يتابع الصحافة يوميا .

عاش عبد الحميد الثاني الذي له هذه السجايا ، مدة تزيد على الـ 33 سنة ، لم يفكر فيها قط في السلطنة . كان عمه كالأسد صحة ، وكان أخوه الكبير شابا . ويحتمل ألا يلحقه الدور . لكن عمه خلع بشكل لا يخطر على البال . وأظهر أخوه الكبير علامات عدم التوازن العقلي يوم جلوسه على العرش . أحدثت واقعة جركس حسن ردود فعل على نطاق عالمي . شاهد العالم حرص وطمع رجال الدولة ، كما شاهد الظالم الجبار المسمى حسين عوني باشا ، ورأي الأطماع السريّة المستندة على القوى الأجنبية لشخص كمدحت ، والرياء والتملق الخسيس لشخص كالمترجم رشدي .

شعر عبد الحميد أفندي باقتراب دور سلطنته ، كانت مدة ولاية عهده عبارة عن مدة سلطنة أخيه الكبير وهي 93 يوما . ولو عاش حسين عوني ، لما أمكن خلع السلطان مراد . كان قصده أن يجعل صلاح الدين أفندي ابن السلطان مراد البالغ عمره 15 عاما نائبا للسلطنة إلى أن يتم شفاء أبيه ، وأن يبقى هو دكتاتورا مدى الحياة . اقنع عبد الحميد أفندي ، مترجم رشدي باشا الكبير السن بإيحائه إليه بأنه سيبقي مدحت باشا في الصدارة مدى الحياة ، وقدم إليه هدايا من البرلنت والماس ، متظاهرا أنه من مؤيدي المشروطية . الحقيقة أنهم لم يقتنعوا ، ولكن لم يكن لهم بد من ذلك . كان من المتعذر أن يبقى بادشاه مختل الشعور على العرش . لم يجر حتى احتفال السيف والتتويج للسلطان مراد . بدأ الهمز واللمز والقيل والقال على نطاق واسع ، كان أكثرية الوزراء والمشيرين يرون أنه لا مخرج من ذلك إلا بإجلاس عبد الحميد أفندي .

صوت كل النظّار (الوزراء) فى اجتماع وزاري لصالح إجلاس عبد الحميد أفندي ، عدا رأي واحد أيد بقاء مراد خان .

أعلن عبد الحميد أفندي ، خاقان – خليفة بلقب « السلطان عبد الحميد خان الثاني » . كان عمره آنذاك 34 عاما إلّا 19 يوما .

جلس على العرش الذي أخرج إلى فناء سراي طوب قابو وتقبل البيعة (1876/8/31 ، الساعة 12) . وفي 7 أيلول جرت مراسم السيف . زار دائرة السر عسكر (رئاسة أركان الجيش) ، نظارة البحرية والمشيخة والمستشفيات العسكرية وأكل القاراوانه (الطعام المطبوخ بقدر كبير) مع الجنود كعمه . أقام مأدبة لرجال الدولة في السراي وخطب فيهم . خرج الشهزادات مع رجال الدولة إلى البحر الأسود وإلى بحر مرمرة باليخت . ذهب إلى المساجد فجأة وصلّى بين الشعب . أخرج أغوات الحرم (الخصي) من البروتوكول ، وأصبحت الرتب التي يحملونها معتبرة داخل السراي فقط . سوف نرى فيما بعد سلسلة الحوادث التي أجبرت السلطان حميد – الذي شوهد في صورة الحاكم الديمقراطي – على ملازمته سراي ييلدز ، خلال مدة قصيرة .

استقال مترجم رشدي باشا من صدارته الرابعة بعد 7 أشهر و 9 أيام (1876/12/19) . تصدّر للمرة الثانية مدحت باشا رئيس شورى الدولة . استقال رشدي باشا ؛ لخشيته من المشروطية التي تمت الاستعدادات لإعلانها ، ولسأمه من دسائس مدحت باشا التي يحيكها لإسقاطه . ولو كان يملك العزيمة القوية التي تمكنه من الاتفاق مع البادشاه ، لكان من الممكن تنحية مدحت باشا وأعوانه . كانت لديه هذه المقدرة ، لكنه رجح الاستقالة .

ومن ناحية أخرى فإن اقتراب حرب روسية الجديدة ، كانت قد أخافت الدول العظمى . اجتمع مؤتمر ترسخانة في إستانبول برئاسة ناظر الخارجية صفوت باشا . عقدت 9 جلسات (1876/12/23 – 1877/1/20) . وبينما كان عصيان بوسنة – هرسك والاضطرابات في كريت مستمرة ، أعلنت كذلك إمارتا صربيا وقرة داغ العصيان ، وحتى الخديو إسماعيل أرسل وحدات مصرية إلى البلقان . وفي 29 ت1 (1876) تمكن الفريق (غازي) عثمان باشا من الانتصار بسهولة على الجيش الصربي الذي يقال إن الفريق الأول الروسي çernayef « فاتح طاشقند » كان يقوده متنكرا ؛ في المعركة الميدانية Aleksinaç . وبينما كان على وشك دخول بلغراد ، قدمت

روسيا مذكرة . منح الباب العالي إلى تبعته الصرب والقرة داغيين العصاة هدنة لمدة شهرين . مثّل في مؤتمر Tersane ، كل من إنكلترا وألمانيا وروسيا وفرنسا وتركيا والنمسا والمجر وإيطاليا ، عدا سفرائهم الموجودين في إستانبول ؛ رئيس مفوض من كل منهم . كان أهم هؤلاء وزير الهند لورد (ماركيز) سالزبوري Salisbury ، صديق الأتراك ، عدو الروس الذي سيكون بعد 4 سنوات رئيسا للمحافظين ورئيسا للوزارة . استقبل البادشاه ، هذا اللورد في 20 ك1 وتكلم معه بواسطة مشير المابين سعيد باشا الملقب « إنكليز » الذي قام بالترجمة . افاد سالزبوري ، بأنه يمكن تفادي الحرب بتقديم تعويضات طفيفة ، وإن إنكلترا ستبقى على الحياد ولا تحارب بجانب روسيا في حالة وقوع حرب ، وعلى العكس من ذلك فإن ألمانيا سوف تساند روسيا . ناقش مدحت باشا البادشاه وأصر على أن اللورد يكذب ويتكلم باسمه هو وليس باسم رئيس وزراء إنكلترا . لم يكن القيصر المصلح الكساندر الثاني ، الذي أطلق حرية 20 مليونا من اسراء الأراضي ، يريد الحرب . لكن كان في روسيا ، كما هي الحالة في تركيا صقور ، وهم الرابطة السلافية ، شنوا حملة واسعة لسحق تركيا . وفي جو كهذا ، بدأت المشروطية الأولى في الدولة العثمانية .

2 – إعلان المشروطية الأولى (1876/12/23) نفي مدحت باشا (1877/2/5) افتتاح مجلس المبعوثان (النواب) (1877/2/19) :

يمكن اعتبار نظام « المشروطية الأولى » التي تسمى (الديمقراطية المتوجة) الذي عاش مدة قصيرة جدا والمعروف كذلك باسم « مشروطية 93 » (بالنسبة إلى السنة الرومية 1293) ، أثرا لمدحت باشا . أعلن القانون الأساسي (الدستور) بصورة رسمية (1876/12/23) ، وبقي ساري المفعول حتى عام 1960 .

لم يحدث إعلان الدستور لدى الدول الأوروبية تأثيرا مواليا للعثمانية ، على عكس ما كان يتصوره مدحت باشا . لكن الباشا الذي لم يدرك ذلك ، استمر على تحريضه لإشعال نار الحرب . مؤتمر ترسخانة ، كان يضغط على الباب العالي لإجراء إصلاحات في إيالات ألطونة (بلغاريا) وبوسنة – هرسك . شكّل مدحت باشا في الباب العالي مجلسا فوق العادة يتألف من : 240 شخصا (60 منهم مسيحيون) لغرض مراجعة

مقترحات المؤتمر (1877/1/18). خطب في هذا المجلس بشكل اتهم فيه مقدما ، الذين يصوّتون ضد الحرب بأنهم غير محبين لأوطانهم بل واتهمهم بالخيانة . وفضلا عن أنه هاجم روسيا بألفاظ لا يصح أن تصدر من رئيس حكومة ، فإنه تطاول على الدول الأوروبية الأخرى كذلك . رفض المجلس اقتراحات مؤتمر ترسخانة ، ووزع الباشا الدراهم على طلاب المدارس الدينية وعلى صنف العاطلين ورتب مظاهرات ساقها حتى نافذة البادشاه تنادي بـ « الحرب » . لم تكن الصحافة العثمانية الجديدة بأقل من الباشا تحريضا على إشعال نار الحرب . ذهب السكون وبدأت ريح الانقلاب تعصف . كان من الطبيعي ألا تسري قواعد الدبلوماسية في مثل هذا الجو ، وإن سرت فإن نتيجتها سوف تكون عكسية . متملقا مدحت باشا الاثنين الجهلة ؛ داماد محمود جلال الدين باشا ومشير رديف باشا ، أفادا للبادشاه بأن الجيش كذلك يطلب الحرب وأن روسيا سوف تندحر ، وأن إنكلترا بطبيعة الحال ستقف بجانب تركيا في الحرب . ورغم أن عبد الحميد الثاني [illegible] بهذه المعلومات ، لم يكن بوسعه منع وقوع الحرب ؛ إذ أن الذين يتشبهون بزعماء الثورة الفرنسية الكبرى ، سوف يخلعونه عن العرش ويجلسون أخاه الكبير السلطان مراد الذي قيل أنه شُفي ويعلنون الحرب . صادق الخاقان على رفض مقترحات مؤتمر ترسخانه . عين جميع سفراء الدول العظمى الموجودين في إستانبول ، قائمين بالأعمال بدلا عنهم وتركوا العاصمة العثمانية . أصبحت تركيا بمفردها وجها لوجه أمام روسيا . بالرغم من كل هذا لم يتراجع مؤيدو الحرب عن تفكيرهم .

لم تدم صدارة مدحت باشا الثانية ، في غمرة هذا الجو الهائج ، أكثر من 47 يوما . عزل عبد الحميد الثاني ، الصدر الأعظم (1877/2/5) . لم تدم صدارتا مدحت باشا ــ الذي أصبح اسمه حديث الجميع والذي روّج أنه أدار دفة الإمبراطورية سنين طوالا ــ أكثر من 4 أشهر و 6 أيام . ومجموع مدة عضويته في وزارات الإمبراطورية كرئيس لشورى الدولة ، ووزير للعدل ، ووزير للدولة عبارة عن سنتين و 4 أشهر و 12 يوما . نشأت شهرته من كونه أقوى والي إيالة انجبته التنظيمات . صار واليا عاما على كل من إيالة ألطونة التي تزيد مساحتها على بلغاريا الحالية ، إيالة بغداد التي تزيد مساحتها على العراق الحالية ، وإيالة سورية ، وإيالة آيدن التي مركزها أزمير وتشمل منطقة إيجه

بكاملها ، إيالة أدرنة التي تشمل كامل تراقيا ، إيالة نيش التي تشمل كل صربيا الجنوبية ، سلانيك (مكدونيا الجنوبية) . شهرته الأولى عمّت في إيالة ألطونة . وضع هنا أسس النهضة لبلغاريا الحالية . وإضافة إلى تأمينه استتباب الأمن والنظام بشكل جيد جدا ، تمكن من تحقيق أعمال كبيرة في المجالات الاقتصادية والتجارية والاعمارية والمواصلات ، مستندا على عشق السلطان عزيز الشديد للاعمار . أثنت عليه الصحافة الأوروبية كثيرا وقدّمته على أنه من أقوى الولاة في العالم . وفى الداخل قامت الصحافة ـــ التي يوجهها العثمانيون الجدد ـــ بنفس العمل . وبينما اتخذ العثمانيون الجدد من مدحت باشا وسيلة لتحقيق غرضهم وجعل زعيمهم الشاعر ضياء باشا صدرا أعظم ؛ إذا به يدوس على ظهور العثمانيين الجدد ويعتلي بواسطتهم السلطة ، وتتأزم علاقته مع الزمرة القيادية للعثمانيين الجدد . وعندما أسس علاقات متينة مع إنكلترا ، وشاهد الصدور العظام وحتى السلاطين ، احتضان لندن في مختلف المناسبات ، لمدحت باشا ، اضطروا إلى منحه السلطة رغم عدم محبتهم له . والسبب في أنه لم يكن محبوبا ، أنه كان أنانيا إلى درجة مذهلة ، يقيم كل الأمور من زاوية نفعه الشخصي ، يرتب كل ليلة موائد الشرب ، يضع أكبر أسرار الدولة المحظورة النشر موضع نقاش وجدل ، يحاول إخافة البادشاه وأصدقائه الوزراء ويهددهم بصحافة إنكلترا والصحافة العثمانية . لم يتمكن أبدا من النجاح في الإدارة المركزية كنجاحه في إدارة الإيالات ؛ كان يجهل السياسة الخارجية تماما لعدم نشوئه في السلك الدبلوماسي . ولذلك فقد ارتكب أخطاء كبيرة وعديدة . ولأن الدولة العثمانية ، لم تكن دولة شعب واحد بل اتحادا لمختلف الشعوب ، فهي تكوين سياسي لا يمكن أن يديره صدر أعظم ووزراء لا يتقنون السياسة الخارجية إتقانا جيدا .

لم يكتف عبد الحميد الثاني بعزل مدحت باشا ، بل نفاه خارج حدود العثمانية . وقد استند في ذلك على المادة التي أدخلها مدحت باشا إلى الدستور خلافا لأسس التنظيمات والتي تمنح الحاكم حق نفي الأشخاص الذين يرى أن بقاءهم مضر من الناحية السياسية . مدحت باشا الذي استند على هذه المادة ، خلال صدارته القصيرة ، في نفي عدد من مخالفيه من رجال الدولة ؛ مهد في ذلك السبيل للخاقان الشاب . والسلطان عبد الحميد الذي شاهد مبلغ سهولة تطبيق هذه المادة ، طبقها أولا على أستاذ هذه المادة .

صار إبراهيم أدهم باشا ، الذي أصبح قبل مدة رئيسا لشورى الدولة بعد أن كان في سفارة برلين ، صدرا أعظم مكان مدحت باشا . كان مدرسا للّغة الفرنسية للبادشاه في عهد إمارته . أخرج مدحت باشا بسفينة خاصة ، إلى برنديزي بناء على طلبه .

افتتح مجلس النواب ، بعد نفي مدحت باشا ، على أيام صدارة أدهم باشا (1877/3/19) . كانت عضوية مجلس سناتو الإمبراطورية التي تسمى « مجلس أعيان أعضاليغي » (عضوية مجلس الأعيان) ، مدى الحياة . أما انتخابات النواب فكانت على مرحلتين . حتى الإيالات البعيدة كاليمن ، ليبيا ، بوسنة .. فانتخبت نوابا وجاءوا إلى إستانبول . بعضهم كان يحضر إستانبول لأول مرة في حياته . كان بعضهم يحسن التكلم بالتركية بالدرجة الكافية، وبعضهم لا يستطيع التكلم بالمرة . ولأن اللغة الوحيدة في المناقشات هي اللغة التركية ، فقد كانوا فقط يرفعون أصابعهم . افتتح المجلس السلطان عبد الحميد الثاني بخطاب . اشترك في الافتتاح أخواه ولي عهد السلطنة محمد رشاد وولي العهد الثاني أحمد كمال الدين أفندي . ترأس المجلس أحمد وفيق أفندي (باشا) . وأخذ في تنظيم وإدارة الجلسات ، حيث لم تكن ماهية النظام البرلماني ، (ما يجب وما لا يجب عمله) ، معروفة ، كانت الأصوات تعلو من كل جانب .

وقعت خلال ذلك ، الدول الأوروبية الـ 6 العظمى — التي سحبت سفراءها من إستانبول ، فيما بينها ، عدا العثمانية — بروتوكول لندن (1877/3/31) . يعرض هذا البروتوكول على الباب العالي شروطا أخف من شروط مؤتمر ترسخانة . يؤمن حدود العثمانية مقابل إجرائها بعض الإصلاحات في الإيالات البلقانية لصالح الرعايا المسيحيين ، وكانت روسيا بالذات مشتركة في هذا التأمين . كان البروتوكول يطلب إعطاء قضاءين من سنجق (ولاية) هرسك المسكونة بالصرب الأرثوذكس ، إلى إمارة قره داغ . سوف تستمر قره داغ في تبعيتها للعثمانية . ويطلب المؤتمر كذلك انسحاب كل من الجيشين العثماني والروسي واللذين احتشدا في الأشهر الأخيرة على الطونة بشكل متقابل ، وإعادتهما إلى العدد كانا عليه كل منهما في وقت السلم . وافق القيصر على ذلك . ورفض الباب العالي هذه الشروط (1877/4/10) . وبناء على ذلك ، أبلغ القيصر الكساندر الثاني الذي لا يريد الحرب ، الباب العالي طالبا إعطاء قضاء Niksik فقط إلى قره داغ ، وبهذا فقط يمكنه إرضاء الوطنيين من الرابطة السلافية الموجه[illegible] سيا والذين

يريدون الحرب ، وقره داغ هي أساسًا قطعة من الإمبراطورية التركية . صار رفض الباب العالي لهذا الاقتراح الأخير فاجعة على العثمانية . لم يفكر الباب العالي فيما سيفقده ويضحى به مقابل عدم إعطاء قضاء تافه مسكون بالمسيحيين إلى قره داغ ، بدعوى أنه « مخالف للقانون الأساسي » (مغاير للدستور) . دُعي القائم بالأعمال العثماني في بطرسبورغ توفيق بك (توفيق باشا آخر صدر أعظم للدولة العثمانية) إلى وزارة الخارجية وأعطي له جواز سفره . زار القائم بالأعمال Nelidof لسفير روسيا في إستانبول الفريق الأول الكونت Ignatiev الموجود في أوروبا ، وزير الخارجية صفوت باشا ، وقدم مذكرة إعلان الحرب لقيصره ، بكل احترام ؛ استصحب معه منتسبي السفارة ، اثنان منهم أمير ، وركب يخته وذهب إلى أوديسا . بدأت الحرب الكبرى (1877/4/24) . أن هذه الحرب الروسية – التركية التي اشتهرت في التاريخ العثماني باسم « حرب 93 » إذ أنها حدثت سنة 1293 الرومية ، هي أكبر حرب عالمية جرت خلال الفترة بين الحرب الألمانية – الفرنسية عام 1870 – 71 والحرب الروسية – اليابانية عام 1904 – 1905 .

بلغ تعداد العالم خلال هذه الأيام (أوائل 1876) 1326 مليونا (1137 مليونا في 1850) . كان تعداد سكان الدول العظمى 898 مليون نسمة في 1850 ، 1108 ملايين نسمة في 1875 . وبينما كان تعداد جميع الدول الأخرى في 1850 ، 219 مليون نسمة ، هبطت في 1875 إلى 189 مليون نسمة . كانت الدول العظمى في 1876 بالنسبة إلى تسلسل الأهمية هي : إنكلترا ، ألمانيا ، روسيا ، فرنسا ، تركيا ، النمسا – المجر ، الصين ، الولايات الأمريكية المتحدة ، إيطاليا ، أسبانيا . وخلال ربع قرن (1850 – 1875) ارتفع تعداد إنكلترا مع مستعمراتها من 259 مليونا إلى 303 ملايين ، وألمانيا من 17 مليونا (بروسيا فقط) إلى 42 ، وفرنسا من 39 مليونا إلى 45 ، وروسيا من 68 مليونا إلى 89 ، وتركيا من 54 مليونا إلى 64 ، والنمسا من 39 مليونا إلى 38 ، والصين من 380 مليونا إلى 430 ، وأمريكا من 23 مليونا إلى 45 ، وإيطاليا إلى 27 مليونا ، وأسبانيا من 19 مليون إلى 25 .

وفي 1850 ، زاد عدد المدن التي يربو تعداد سكانها على مليون نسمة من 5 إلى 8 ، والتي عدد سكانها بين نصف مليون ومليون من 6 إلى 14 ، والتي عدد سكانها بين

المائة ألف ونصف مليون من 104 إلى 169 ، والتي بين الخمسين ألف والمائة ألف من 187 إلى 192 ، وجميع مدن العالم التي يزيد عدد سكانها على الخمسين ألفا من 291 إلى 375 . وفي 1876 كان عدد المدن التي يتجاوز سكانها الخمسين ألفا في إنكلترا 86 ، وفي تركيا 39 ، وفي الصين 34 ، وفي ألمانيا 28 ، وفي فرنسا 26 ، وفي أمريكا 23 ، وفي روسيا 16 ، وفي أسبانيا 15 ، وفي إيطاليا 14 ، وفي اليابان 13 ، وفي النمسا 11 ، وفي هولندا 10 ، وفي إيران 9 ، وفي جميع بقية الدول 51 مدينة .

وفي هذا التاريخ ، ولأول مرة في العالم يصل تعداد سكان مدينة إلى 4 ملايين : لندن 4 ، باريس 2,2 ، نيويورك 1,9 ، بكين 1,7 ، إستانبول 1,2 ، برلين 1,2 ، فينا 1 ، كانتول 1 مليون .

3 – حرب 93 (1877/6/22 – 1878/1/31) :

كان السردار الأكرم مشير عبد الكريم نادر باشا قائدا لجبهة ألطونة وكان يعرف بين الشعب باسم « عبدي باشا » ، كان مقره العام في مدينة شومنو في دلي أورمان . كانت مجموعة جيوش ألطونة لعبدي باشا ، 3 جيوش : مركز جيش الغرب Vidin (مشير عثمان باشا) ، ومركز جيش الشرق روسجوك (مشير أحمد أيوب باشا) ، مركز جيش الجنوب قيزانلق (مشير سليمان باشا) . لم يكن جيش الجنوب قد احتل مكانه عند بدء الحرب ، كان ينتظر قدومه مع فرقة سليمان باشا الموجودة معه في Mostav (هرسك) . وعدا مجموعة الجيوش هذه ، كان لكل من الولاة العسكريين ولي باشا في بوسنة سراي ، ومشير علي صائب باشا في إشكودرا ، ومشير محمد علي باشا في يني بازار فرقة ، يشكلون جبهة تجاه امارتي صربيا وقره داغ العاصيتين . ومن ناحية أخرى كانت توجد في كل من Epir (Yanya) ، Tesalya ، Girit فرقة تجاه اليونان . وبين هذه الجيوش ، تبلغ مجموعة جيوش ألطونة ، 000 200 جندي وأكبر وحدة فيها ، هي جيش أيوب باشا الذي يحتوي على 000 100 جندي تقريبا .

كانت قوات الروس عند بدء الحرب في جبهة ألطونة تبلغ 000 250 جندي و 800 مدفع . وكان احتياطهم كبيرا إلى درجة لا تقبل القياس مع احتياطي العثمانية . كان الخيالة الروس قد جهزوا تجهيزا فائقا . كانت الأسلحة النارية ، لدى العثمانية ، أحدث

وأمتن . ومن ناحية أخرى ، كان على رأس وحدات العصاة في إمارة صربيا جنرالات وضباط روس . وكان في إمارة رومانيا التابعة للعثمانية جيش حديث مكون من 000 50 شخص (4 فرق) .

كانت نقاط الضعف الاستراتيجية والعسكرية متعادلة في كلا الطرفين المتحاربين . ونقاط الضعف هذه كانت كبيرة في كلا الطرفين . إمبراطوريتاهما كانتا مترامیتي الأطراف . روسيا تمتد بين المحيط الهادي وبحر البلطيق ، وبين بحر الشمال الجليدي والخزر والبحر الأسود ؛ أما العثمانية ، فكانت تمتد بين أوروبا الوسطى وأفريقيا الوسطى . بناء على ذلك ، لم تكن كل من الإمبراطوريتين قادرة على حشد قواتها العظمى والحرب في جبهات ضيقة كجيوش ألمانيا وفرنسا البرية . الجبهات كانت واسعة . لم يكن بإمكان كل الإمبراطوريتين إخلاء أقطارها البعيدة من الجيش وحشده في الجبهة . كان الجيش العثماني السابع في اليمن ، كان لدى العثمانية فرقة في كل من الحجاز واليمن ، كما كان لها قوات في الحدود الإيرانية . لم يكن اشتراك هذه القوات في القتال ، واردا في أي وقت من الأوقات . المواصلات في العثمانية ، كانت أسوأ مما كانت عليه في روسيا ، كانت العثمانية من حيث التعداد ، أقل من روسيا بشكل لا يقبل النسبة ؛ حيث كانت جماعة المسيحيين الكبيرة ، لا تشترك في الخدمة العسكرية .

وضع رومانيا كان حرجا . طلبت رومانيا صديقة الأتراك وعدو الروس عند بدء الحرب من الباب العالي أن يمنحها الاستقلال وأن تنفصل عن كيان الإمبراطورية العثمانية ، وفي هذه الحالة تبقى على الحياد في الحرب . رفض الباب العالي هذا الطلب بخشونة . وهكذا رمى بشعب لاتيني في أحضان روسيا التي تتزعم السلاف ، واشتراك القوات الرومانية الفتية في الحرب بجانب روسيا ، قضى على التوازن الموجود في جبهة ألطونة . وسنرى فيما يلي ، الوضع في الجبهة القفقاسية .

اجتاز الجيش الروسي ألطونة بنجاح ، بعد إعلان الحرب بشهرين . تمكن ، ليلة 21 حزيران (1877) الجنرال الروسي ، الألماني الأصل Zimermann من عبور ألطونة من ماجين قرب إبرائيل مع جيشه البالغ 000 40 شخص . واجتازت خلال 4 أيام قوات كبيرة من Zistovi إلى الطرف المقابل . وهكذا تم انتقال الروس من رومانيا إلى بلغاريا

ودوبروجا عند حلول شهر تموز . هذا الاجتياز السهل للروس ، أدهش العالم وجعل العثمانية تخسر الحرب منذ البداية . المسئول عن ذلك هو ضابط ركن نشأ في فيينا لكن معلوماته العسكرية كانت قديمة ، هو عبدي باشا الكبير السن . لم يستفد من عدم سماح السردار الأكرم عمر باشا للروس عبور الطونة في حرب قرم وحيلولته دون ذلك بإجرائه حروبا ميدانية متتالية أثناء محاولتهم العبور . احتل الروس في 7 تموز Tirnova وفي 16 منه Nigbolu ، وفي 19 منه ممر شبقا Sipka . إن الجنرال Gurko باستيلائه على ممر شبقا ، وقطعه بذلك خطوط اتصال القوات العسكرية العثمانية التي بقيت في شماله وجنوبه قد أحرز نصرا كبيرا . وبالنسبة للجانب العثماني ، كان ذلك خطأ فادحا وتقصيرا كبيرا لذا عزل عبدي باشا في 17 تموز . صار المشير محمد علي باشا قائدا عاما . كان عسكريا ممتازا ، أكمل تحصيله العسكري في ألمانيا ، لكنه لم تكن لديه التجربة الكافية لإدارة حرب كبرى كهذه ، فضلا عن تحويلها إلى انتصار . ولصغر سنه لم يكن بمكنته السيطرة على المشيرين الآخرين ، بقدر ما كان ممكنا لعبدي باشا . وأثناء ذلك سار عثمان باشا البالغ عمره 45 عاما ، والذي رقي إلى رتبة مشير قبل سنة ، مع أقسام الوحدات الباقية خارج قلاع جيش الغرب ، بمسيرة إجبارية من Vidin وجاء إلى Plevne . أخذ بتحصين بلونة التي ليس لها قلعة بسرعة وبدهاء عسكري في الاستحكام يفوق عصره . كان مقتنعا بأنه بذلك يمكنه منع زحف الروس من جبال البلقان إلى الجنوب . ولكن لتحقيق ذلك ، كان يجب إمداده من الجيوش الأخرى . أما سليمان باشا فقد ركب مع 25 000 جندي مجهز بتجهيزات كاملة ، الأسطول العثماني الذي كان بانتظاره في ميناء Bar (بالإيطالية : Antivari) على بحر Adria ، وخلال 17 يوما وصل عن طريق البحر إلى السفوح الجنوبية لممر شبقا (1877/7/26) . نقل جيشه عبر البحار وأنزله في ميناء ده ده آغاج ، ونقله من هناك إلى قيزانلق ودمج الوحدات الموجودة هنا ، وشكل جيش الجنوب .

أدرك الجنرال الروسي ، الألماني الأصل Childer - Sehuld نية عثمان باشا وأراد المجيء بسرعة إلى بلونة لكنه شاهد الباشا الذي وصلها قبل 6 أيام بمسيرة جبرية لا تصدق مختبئا تحت الاستحكامات الترابية . أراد قصف جنود عثمان باشا الذين أعياهم حفر الخنادق والمسيرة الإجبارية ، قبل إتمامهم استحكاماتهم وتسلمهم الإمدادات .

انسحب بعد أن ترك 2847 قتيلا ومهمات على نطاق واسع (انتصار بلونة الأول 1877/7/20) . أيقن من عدم كفاية قوته وأخذ ينتظر الإمداد .

تسلم الجنرال Krudner الذي جاء حديثا القيادة ، وهو ألماني . هجم على بلونة مع 50 000 جندي و 184 مدفعا . خسر 7305 قتلى وانسحب للم شعث جيشه المشتت (انتصار بلونة الثاني ، 1877/7/30) . كانت أضرار العثمانية 100 شهيد و 400 جريح فقط . تحولت أنظار العالم إلى بلونة . كثيرون من مراسلي الحرب والملحقين العسكريين الأوروبيين جاءوا إلى طرفي بلونة الروسي والعثماني وأخذوا في متابعة الوضع . نقلت الخطوط اللاسلكية وضع بلونة إلى العالم ساعة بساعة .

سليمان باشا ، الذي أخرج Gurko من Zagva القديمة ورماه إلى شبقا (1877/7/31) ، جعل مقره قزانلق . كان يريد المرور من ممر شبقا والاتصال مع الجيشين الموجودين في الشمال . دفع بالجيش العثماني بعناد مدة 7 أيام و 7 ليال دون أن يبالي بتساقط الجنود بدفعات الرشاشات التي ترش عليهم من فوق رءوسهم أثناء عبورهم من ممر شبقا الضيق والقائم عموديا بشكل مخيف (20 – 1877/8/26) . تابع القيصر والبادشاه حركات شبقامدة أسبوع دون أن يتركوا أماكنهم ليلا قرب جهاز اللاسلكي . وفي 26 آب سحب سليمان باشا جيشه إلى قيزانلق بعد أن أيقن عدم إمكان اجتيازه الممر وتكبده خسائر جسيمة . إن مسئولية إعطاء موقع إستراتيجي كهذا إلى العدو في بداية الحرب ، يقع بلا شك على عاتق عبدي باشا . وفي ليلة 17 أيلول قام سليمان باشا بهجوم مفاجئ تجاه الجنرال لكنه لم يوفق في اجتياز الممر .

كان علي باشا في الشمال في مواجهة أخ القيصر Granduk Nikolay . دافع عن دلي أورمان . ورغم انتصاره في المعارك الميدانية آيازلر (22 آل) ، قهرمان (30 آب) ، قاجيلوفا (5 أيلول) وآبلوفا . لم يتمكن من الوقوف في مواجهة الروس الذين يتسلمون إمدادات مستمرة لا تنضب . وبذلك لم يتمكن لا من تطبيق خطة فتح الممر في هذه المرة من الشمال والوصول إلى شبقا ودحر غوركو ، ولا من تطبيق فكرة الذهاب إلى بلونة وإنقاذ عثمان باشا من الحصار . ومع ذلك كان القتال شديدا . لم يزل الوضع بالنسبة للروس مضطربا وغير واضح في مستهل شهر أيلول . في 21 أيلول

انتصر الغراندوق Nikolay ، على محمد علي باشا في الحرب الميدانية جاقيركوى . قضى محمد علي باشا أسبوعين وهو في ذهول ، ولم يتمكن من الذهاب لا إلى شبقا ولا إلى بلونة خشية فقدانه جنوده . وفي 28 أيلول عزل ، وصار مشير سليمان باشا ، قائدا عاما لجبهة الطونة . جيء به للقيادة بسبب جرأته . حيث إن عامل الجرأة فقط ، هو الذي يمكن أن يجدي نفعا في هذه الحال .

جاء القيصر ألكساندر الثاني مع أخيه قائد عام جيش الطونة الماريشال غراندوق نيقولاي أمام بلونة . قامت مظاهرات مضادة للحكومة في بطرسبورغ . بدأت المحافل العسكرية الأوروبية تستهزئ بالروس . أخذ حشد الوحدات في التزايد أمام بلونة . تسلم عثمان باشا كذلك مساعدات أقل . لكن القوات الروسية لم تكن كافية . وبناء على رجاء القيصر ، انضم الأمير كارول الأول ، مع 50 000 من الجنود الرومانيين (فرقة خيالة ، 3 فرق مشاة) ، إلى 6 فرق روسية . أعطى القيصر قيادة جيش بلونة إلى الأمير كارول . كان رئيس أركان الجيش الجنرال Tottleben ألماني الأصل كأمير رومانيا واشتهر بتشييده استحكامات سيفا ستوبول في حرب قرم . ولأول مرة في التاريخ ، أخذ الجيش الروماني الفتي ، مكانه بجانب أعدى أعدائه الروس بدافع الحصول على استقلال رومانيا . وفي هذه الأثناء اشتد القتال مع صربيا وقرة داغ . كان جيشان عثمانيان يقاتل كل منهما كلا من هاتين الإمارتين بنجاح . كان العدو يقصف بلونة ليلا ونهارا بواسطة 432 مدفعا . كان لعثمان باشا 30 000 جندي و 58 مدفعا . كانت هنالك في الضواحي وحدات تابعة لعثمان باشا ، لكن ارتباطها مع بلونة أخذ في الانقطاع على مر الزمن . وكان سليمان باشا في الجنوب يحاصر شبقا لمنع اجتياز الأعداء . كان يلزم القضاء على بلونة أولا مهما كلف الأمر . قام الروس بهجومهم العام الكبير ظنا منهم أن بلونة أصبحت ملائمة إلى درجة كافية للحملة عليها . استمر الهجوم 12 ساعة . لم تنقطع إطلاقات رصاص البنادق ولا لحظة واحدة خلال مدة الـ 12 ساعة بكثافة لم يشهدها تاريخ الحرب في العالم . خسر العدو 15 553 قتيلا 3 منهم برتبة جنرال و 350 منهم برتبة ضابط . كانت خسائر العثمانية 3 500 تقريبا بين قتيل وجريح (انتصار بلونة الثالث ، 1877/9/11) .

كانت خسائر الروس في أواسط شهر أيلول ، أمام بلونة فقط 50 000 قتيل

وجريح . لم يقدموا في أي قطاع خسائر جسيمة بهذه الدرجة . وباحتلال لوفجة Lofca في 3 أيلول ، أصبحت بلونة محاصرة من ثلاث جهات . كان طريق صوفيا في الجنوب – الشرقي مفتوحا فقط . بالإمكان تسلم العتاد من صوفيا . قطع الجنرال غوركو في 28 ت1 طريق صوفيا – بلونة بواسطة 35000 جندي . وبهذا تمت محاصرة بلونة . اشترك شعب بلونة رجالا ونساءً في القتال ، لكن العتاد قل بشكل خطر . لم يكن المشيران التركيان الآخران يساعدان عثمان باشا – أكبر عسكري تركي أنجبه العصر التاسع عشر – الذي طبقت شهرته الآفاق . نشرت وثائق هذا الوضع المشين ، بعد ذلك بمدة طويلة . منح عبد الحميد الثاني ، عثمان باشا لقب « غازي » على أثر انتصار بلونة الثالث . ورغم أن سليمان باشا أمر ، كلا من المشير محمد علي باشا والمشير رءوف باشا ، لفتحهما طريق بلونة ، فقد كان كلاهما لم يحاول ذلك . انتصر فريق دلي فؤاد باشا في 4 ك1 ، في المعركة الميدانية Elena وغنم 11 مدفعا روسيا . لكن سليمان باشا خسر المعركة الميدانية ماجقة Maeka و لم يتمكن من استعادة Tirnova . حل الشتاء وحل معه البرد والجوع والمرض .

أراد عثمان باشا ، في هذه الليلة الخروج من بلونة ، بطلعة ليلية . إلا أن يهوديا من رعايا العثمانية في مدينة بلونة ، هرب خفية إلى طرف الروس وأخبرهم بأن جيش عثمان باشا وشعب بلونة سيخرجون ويذهبون . اتخذ الروس الذين لم يصدقوا في البداية ، كل التدابير . عثمان باشا ، الذي خسر في طلعته الليلية 2 500 شهيد و 3 500 جريح ، لم يشأ إتلاف جيشه أكثر من ذلك واستسلم (1877/12/10) . قتل الحصان الذي كان يمتطيه عثمان باشا برصاصة ، الرصاصة نفسها ، كانت قد جرحت الباشا في ركبته اليسرى . ضمّد الغراندوق نيكولاي ... اح عثمان باشا وجاء إلى الخيمة وأعاد له سيفه وهنّأه بسبب دفاعه المدهش . والمعلوم ... مقاومة بلونة ، جاءت بمبادئ جديدة في أصول الحرب الدفاعية وفي التعبئة للاستحكام . استقبل القيصر غازي عثمان باشا وهنأه . تم سوقه إلى روسيا ، لا كأسير بل كضيف إلى نهاية الحرب مع معيته الضباط . استقبل وودع بمراسم عسكرية في كل مدينة روسية . وعلى هذا تكون مقاومة بلونة قد استمرت 4 أشهر ، 23 يوما . تكاتف الجيش الروسي – الروماني البالغ 150 000 شخص بعد سقوط بلونة وهجم بكل قواه على جيوش الشمال والجنوب للعثمانية . حيث

تم القضاء على جيش الغرب لعثمان باشا ، سواء بوحداته الأساسية في بلونة ، أو بفرقه وأفواجه المنتشرة في الغرب . لم يعامل الروس الجيش التركي الذي استسلم في بلونة ، المعاملة نفسها التي عاملوا بها عثمان باشا . قتلوا القسم الأعظم من الجيش المستسلم في الطريق بحجة سوقهم إلى روسيا .

دخل الصرب إلى نيش في 14 ك1 . أخذ القره داغيون رصيف بار ولأول مرة خرجوا إلى الأدرياتيك (1878/1/10) . احتل الرومان Vidin (1878/2/24) . أدخلت اليونان 12 000 من جنودها إلى Tesalya دون أن تعلن الحرب (1878/2/2) .

إن العداوة الشديدة والمعيبة بين القائد العام سليمان باشا وقائمقام (وكيل) السر عسكر رفعت باشا ، قضت حتى على أمل إيقاف الروس في جبال البلقان . شتّت الجنرال Radetski بجيشه البالغ 50 000 جندي ، جيش الفريق ويسل Veysel باشا وفتح ممر شبقا نحو الجنوب (1878/1/9) . استسلم ويسل باشا مع 12 000 جندي و 280 ضابطا 4 منهم برتبة آلباي (زعيم) ، وفر النصف الآخر من الجيش متفرقا دون نظام ولم يتجمع بعدها . كان سليمان باشا قد انسحب من قيزانلق إلى تاتاربازارجكي . أخذ بالانسحاب لتفادي الانكسار تجاه جيوش Radetski وقائده Gurko الذي يطارده . انسحب حتى كمولجينه . وهكذا ترك روملي الشرقية (بلغاريا الجنوبية الحالية التي تقع في جنوب البلقان) تحت وطأة أقدام العدو . وسمح للعدو بالوصول إلى تراقيا بقليل من الجهد .

احتل الروس صوفيا (3 ك2) ، قيزانلق (8 ك2) ، Samakov (9 ك2) ، تاتاربازارجكي (14 ك2) ، جيربان (14 ك2) ، Tirnova (16 ك2) ، Filibe (17 ك2) ، جسر مصطفى باشا (19 ك 2) ، وفي النهاية في 20 ك2 (1878) ، احتل الروس أدرنة من أكبر مدن أوروبا . لم يدافع عن هذه الأراضي القائد العام الانقلابي الشهير المؤرخ والأديب « بطل شبقا » المشير سليمان حسني باشا . ترك المشير أحمد أيوب باشا ، أدرنة دون دفاع وانسحب إلى قيرقلارايلي لئلا تخرب المدينة . لكنه أثناء تفجيره العتاد الزائد ، قبل انسحابه ، تسبب في تخريب آثار تاريخية عديدة بسبب تطاير الشرر . والروس الذين دخلوا المدينة ، خربوا كذلك آثارا تاريخية كثيرة جدا . جاء

في 26 ك2 القائد العام الماريشال الغراندوق Nikolay إلى أدرنة . سقطت Dimetoka (26 ك2) ، أوزون كوبري (Egene) (26 ك2) ، جورلو (29 ك2) سيليوري (5 شباط) ، جطالجة (6 شباط) . وحتى يشيل كوى إحدى ضواحي إستانبول احتلت كذلك . نصب الغراندوق مقره العام فيها .

وبذلك ، تكون الحرب ، في الجبهة الأوروبية قد انتهت بانتصار الروس الحاسم . جرت حروب كبيرة في جبهة الأناضول (القفقاس) كذلك وخلاصتها كما يلي : في بداية الحرب ، كان الجيش الرابع الموجود في الحدود القفقاسية عبارة عن 000 90 جندي ، 97 مدفعا صحراويا تحت قيادة بورصة لي أحمد مختار باشا المشير الشاب ذي المقدرة الممتازة والذي فتح قبل عدة سنوات اليمن وفتح عسير مجددا . ولا يدخل ضمن هذا التعداد الجنود الموجودون في القلاع ، ومدافع القلاع . وأهمها كانت قلعة أرضروم . كان مشير خانون أوغلي كرد إسماعيل باشا قائد موقع مستحكما فيها . وكان مشير لوفجالي درويش باشا مع جيش ، في باطوم . كان الخلاف شديدا بين هؤلاء المشيرين الثلاثة ولم يرق للاثنين الآخرين تعيين مختار باشا الأصغر منهم سنا للقيادة العامة للجبهة . وتجاه هذه القوات العثمانية ، كان للفريق الأول Melinkof الأرمني الأصل 000 125 جندي و 189 مدفعا . إلّا أنه حصل على إمدادات مستمرة منذ الأشهر الأولى للقتال . أما الإمدادات التي حصل عليها الطرف العثماني ، فكانت لا أهمية لها .

بدأ القتال في هذه الجبهة قبل جبهة الطونة . احتل الروس بيازيد (1877/4/30) وأردخان (1877/5/17) وأثناء مسيرهم نحو قارص ، انهزم الجنرال Tergukasof في الحرب الميدانية Halyaz أمام أحمد مختار باشا (1877/6/21) . اتجه Melinkof إلى مختار باشا لكنه انهزم بدوره في الحرب الميدانية Zvin (1877/6/25) . عزل القيصر Melinkof ، وعين للقيادة العامة لجبهة القفقاس أصغر إخوته الثلاثة الغراندوق الماريشال Mihaylo الذي له أخ يكبره سنة واحدة Nikolay الذي كان قائدا عاما لجبهة الطونة . أنزل الفريق فاضل باشا فرقة واحدة عن طريق البحر بواسطة أسطول إلى سوخوم قلعة . انتصر مختار باشا كذلك في الحرب الميدانية كدكلر Gedikler (1877/8/25) . حصل من السلطان عبد الحميد الثاني على لقب « غازي » قبل عثمان باشا بـ 17 يومًا . ثم

هزم الروس مرة أخرى في الحرب الميدانية يخنيلر Yahniler (1877/10/4) . أحرز هذا الانتصار بجيش قوامه 34 000 في مواجهة 740 000 روسي . كانت خسائر العثمانية 2 500 والعدو 10 000 تقريبا . لكن الروس هزموا مختار باشا في الحرب الميدانية آلاجاداغ (1877/10/15) . جرت هذه الحرب في الجنوب الشرقي من قارص . هجم الروس دفعة واحدة بواسطة 254 مدفعًا ، 27 فوج خيالة و 29 كتيبة مشاة على قوات مختار باشا الضعيفة . ونظرًا لوقوع الفريق عمر باشا وحاجي راشد باشا ، أسيرين مع 6 000 جندي بأيدي الروس ، لم يستمر مختار باشا في القتال وانسحب . أدخل وحداته في 4 ت2 ، إلى أرضروم بشكل منظم جدا . كان رشيد باشا الذي وقع في الأسر رجلا دنيء النفس ، عين محافظا للبادشاه المخلوع في واقعة السلطان عزيز .

سقطت قارص (1877/11/18) . جاء الروس بكامل قواتهم إلى أرضروم واستولوا على استحكامات عزيزية . تمكن شعب أرضروم الذي دخل الخنادق والذي يشكل أكثريته النساء ، من إخراج الروس من استحكامات عزيزية بعد صدام بطولي يفوق الخيال . حصل الروس في نهاية شهر ت2 على انتصار حاسم في الجبهة الشرقية ، رغم عدم تمكنهم من احتلال أرضروم .

طلب عبد الحميد الثاني من الملكة فكتوريا لاسلكيا ، التوسط لعقد الصلح . رجت الملكة فكتوريا القيصر لاسلكيا عقد الهدنة (1878/1/19) . جاء كل من وزير الخارجية سروهر Server باشا ومشير نامق باشا إلى قيزانلق لمقابلة الغراندوق نيكولاي لعقد الهدنة . غير أن الغراندوق لم يقبل الهدنة إلا بعد الدخول إلى أدرنة (هدنة أدرنة ، 1877/1/31) . وبهذا تكون الحرب قد استمرت 9 أشهر ، 7 أيام . كان أحمد مختار باشا قد استدعي من جبهة القفقاس للدفاع عن استانبول وعين كرد إسماعيل باشا للقيادة العامة لجبهة القفقاس . لم يكن سقوط استانبول محتملا ؛ وكانت قد اتخذت ترتيبات عسكرية فائقة ، هذا علاوة على أن أوربا سوف تتكتل ضد الروس في حالة دخولهم إلى إستانبول ، خاصة أن أسطول البحر الأبيض الإنكليزي جاء أمام إستانبول بحجة الزيارة ، والحقيقة أنه جاء لمنع تعدي الروس على المدينة .

عزل إبراهيم أدهم باشا البالغ سنه 60 عاما عن الصدارة بعد 11 شهرا ، 4 أيام

وأرسل إلى سفارة فيينا (1878/1/11) . ولم يتمكن وزير الداخلية أحمد حمدي باشا من البقاء في السلطة أكثر من 24 يوما . أبعد بعد إعطائه ولاية آيدن (أزمير) . كانت سنه 51 عاما . صار أحمد وفيق باشا ، الدبلوماسي الكبير والأديب الشهير البالغ عمره 55 عاما ، صدرا أعظم (1878/2/4) . كان رئيسا لمجلس النواب وهو الذي أعد لائحة تعطيل المجلس إلى أمد غير معلوم .

4 – تعطيل مجلس النواب ونهاية المشروطية الأولى (1878/2/13) ، واقعة علي سعاوى (1878/5/20)

دامت المشروطية الأولى ، اعتبارا من تاريخ إعلان الدستور ، مدة سنة ، شهر ، 21 يوما ، ظل مجلس النواب مفتوحا خلال الأشهر الـ 10 و 25 يومًا الأخيرة . عطّل المجلس بقرار الحكومة الموشح بالإرادة السنية لأمد غير معلوم (1878/2/13) . سوف يستمر هذا التعطيل مدة 30 سنة ، 5 أشهر ، 9 أيام . هذه المدة التي استغرقت 30 سنة ونصف سنة ، هي دور الإدارة الشخصية للسلطان حميد والتي أطلق عليها معارضو النظام الحميدي « دور الاستبداد » . لم يكن البادشاه قد ألغى أو نحّى الدستور (بالعثمانية : قانون أساسي) . أفصحت الدولة عن عدم إلغائها الدستور بنشرها متن الدستور في النشرة السنوية الرسمية للدولة مدة 31 سنة متوالية ودون انقطاع ، وإن كانت أحكام الدستور لم تطبق فعليا . وطبعا كان هناك على رأس هذه الأحكام ، المجلس الشعبي الذي جاء بالانتخابات . وواقع الأمر أنه لم يكن هنالك مجلس ولا نائب منذ 30 سنة .كانت الحياة التشريعية لنواب (بالعثمانية : مبعوث) المجلس الأول عبارة عن 11 شهرا . ولم يجتمع كذلك سناتو الإمبراطورية المسمى مجلس الأعيان ، وإن كان الأعيان ، قد استمروا في تقاضي رواتبهم واستعمال صفة الأعيان بصورة رسمية مدى الحياة . وعند إعلان المشروطية الثانية في 1918 ، لم يبق على قيد الحياة من الأعيان الذين عينوا مدى الحياة سوى 3 ، واشترك هؤلاء في مجلس عام 1908 كأعضاء طبيعيين .

وعلى هذا الأساس فإن عبد الحميد الثاني ، بإدارته الدولة دون مجلس ، عاد إلى نظام التنظيمات لرشيد باشا وعالي باشا . لكنه تعدى إلى ما وراء هذا النظام وأخذ يدير الدولة شخصيا مثل جده محمود الثاني . وفي الوقت الذي لايجيز فيه نظام التنظيمات تدخل السلطان في شئون الحكومة ويجيز له إجراء السلطنة فقط ، أخذ عبد الحميد الثاني بإدارة الدولة شخصيا وباشتراكه بشئون الحكومة خلافا للتنظيمات والمشروطية التي لم يلغها بصورة رسمية . وفي الوقت الذي تعتبر فيه التنظيمات ، البادشاهات ، رءوسا للإجراء شكلا وقانونا صار هو رأسا حقيقيا وفعليا لها ولهذا اتخذ هوية بادشاه – دكتاتور ؛ حيث إنه استعمل في نظام غير ملغي صلاحيات لم تعط له . ولو كان عدّل أسس المشروطية (الديمقراطية المتوجة) والتنظيمات بصورة فعلية ، لاعتبر آنذاك قد استعمل صلاحياته الطبيعية كما فعل جده محمود الثاني ، لكنه لم يتخذ هذا الطريق .

إن كارثة 93 والتي تسمى واقعة السلطان عزيز – التي سنلخصها فيما بعد – هي النتيجة الطبيعية لقيام عدة أشخاص بخلع السلطان عزيز بدافع الحقد والانتفاع خلافا لأسس التنظيمات . خرج عن طوره ، بهذه الواقعة نظام الدولة ، الذي جاهد كل من محمود الثاني ، ورشيد باشا ، وعالي باشا وسخروا كل ما يملكون من جهد ودهاء في سبيل تقويمه وتنسيقه . كان من الواضح ومن طبيعة قوانين التاريخ ، بعد عدم الكفاءة التي أبداها الذين أعدوا فاجعة نادرة الوقوع في التاريخ التركي كفاجعة 93 ، أن يظهر سيزارا Sezar لوضع قانون جديد . إن هذا الـ Sezar هو عبد الحميد الثاني . لو كان هذا أو ذلك الباشا ، لاضمحلت الدولة . وبهذا يكون عبد الحميد الثاني قد أطال عمر الدولة 30 سنة أخرى .

ولأن فترة سلطنة السلطان حميد التي دامت 1 سنة ، 5 أشهر ، 13 يوما التي تسبق الإلغاء الفعلي للمشروطية الأولى ، قد مرت دون تدخله في أمور الحكومة ؛ فإن هذه الفترة لا تدخل ضمن فترة إدارته الشخصية ، لقد كان نفوذه في هذه الدولة قليلا ، وقد تمكن من حيازة النفوذ الحقيقي ، نتيجة انكشاف سوء تصرف معارضيه وسوقهم الدولة إلى الدمار بصورة فعلية . وبناء على ذلك ، فإن عبد الحميد الثاني غير مسئول عن هذه الدورة التي دامت سنة ونصف السنة .

ولو راجعنا محاضر جلسات مجلس المبعوثان (مجلس النواب) للمشروطية الأولى ، لشاهدنا عدم تفهم النواب ما هية المسئوليات والواجبات التي يلقيها عليهم النظام البرلماني ومحاولتهم التدخل في التنفيذ ، والأدهى من ذلك ، علاقة كل نائب من نواب الأقلية مع إحدى الدول الأجنبية وحصوله على تأييدها وتقاضيه دراهم منها وسعيهم ضد الإمبراطورية التي هم نواب لها . ظهر نواب دافعوا عن التخلي عن كريت ، Tesalya ، Epir إلى اليونان . ونواب طلبوا تأسيس إمارة أرمنية في الأناضول الشرقية . لم يكن السلطان حميد قد عثر على هذه الدولة عن طريق الصدفة ولم يكن كذلك قد ورثها عن مدحت باشا . وإنما انتقلت إليه عن أجداده . لذلك فقد حل هذا المجلس . وانقذ الإمبراطورية من الاضمحلال في تلك السنوات . ولو حدث غير ذلك ، لأصبحت تركيا في 1920 ، في وضع تدافع فيه عن قونية وسيواس وليس عن إستانبول وأزمير . كانت الإمبريالية والاستعمار في هذه الفترة في قمة الشراسة والجنون .

استصوب الأمير فون بسمارك Von Bismarek رئيس الوزراء الفدرالي للإمبراطورية الألمانية ، أكبر رجل دولة وسياسي في عصره ، حل المجلس وعلق على ذلك بقوله « إن لم يكن قوام الدولة شعبا واحدا ، فإن ضرر مجلسها يكون أكبر من نفعه » . تنفس القيصر الصعداء . حيث كان اليساريون في روسيا يطالبون بمجلس . كانوا يعيرون القيصر صراحة بأنه حتى العثمانية لها مجلس . أما الديمقراطيات الحقيقية مثل إنكلترا ، وفرنسا ، وإيطاليا فلم تكن مهتمة بالنظام الذي تسير عليه العثمانية وإنما تهتم فقط بمصالحها لدى العثمانية . كان لديهم أعوان من النواب في المجلس ؛ تأثروا لفقدانهم ، لكن الذي خفف عنهم هو اقتناعهم بأنهم سوف يتمكنون من إيجاد مؤيدين لهم من بين رجال الدولة العثمانية ، ما دامت لديهم نقود .

لكن إنكلترا كانت متأثرة . كانت دولة دنيوية (بالفرنسية : Puissance Mondiale) بالمعنى الصحيح . كانت لها مصالح خاصة في كل قطر من أقطار العثمانية . كانت تريد ، بصورة مطلقة ، أن تكون إدارة هذه الإمبراطورية المسنّة من الأشخاص المقربين لإنكلترا . كانت تتخيل إمبراطورية عثمانية ، على عرشها خاقان – خليفة مراد الخامس ، يتصدرها مدحت باشا ، وعلى رأس جيشها

بصفة ـ سرعسكر ، عوني باشا . كان قد توفي من بين هؤلاء حسين عوني باشا . ومدحت باشا في أوروبا في المنفى . كان يدبر مع المسئولين الإنكليز خلع عبد الحميد الثاني وإعادة إجلاس أخيه الكبير ـ الذي شفي من اختلال الشعور ـ مراد الخامس . ومن الطبيعي أن يعين مدحت باشا ـ في حالة عودته إلى الصدارة ـ لمنصب السر عسكر ، ماريشالا صديقا لإنكلترا .

والواقع أن إنكلترا ، لتحقيق هذا الأمل ، في دولة كبرى أذهلتها الحرب الروسية ، في الإمبراطورية العثمانية ، أرادت ـ مستفيدة من تجربتها في واقعة السلطان عبدالعزيز ـ أن تحقق مؤامرة أخرى . كان يقف خلف المؤامرة الماضية اللورد Elliot سفير إستانبول . عين بدلا منه قبل مدة قصيرة الأركيولوجي الشهير Lord Layard الذي أعد انقلابا جديدا مع وكيل إستانبول للمخابرات الإنكليزية Intelligence Service . اختاروا لهذه المؤامرة الصحفي علي سعاوي أفندي ، من العثمانيين الجدد . وزع سعاوي أفندي النقود* على قسم من المهاجرين المساكين القادمين من روملي الناجين من سيوف الروس والبلغار والذين تجمّعوا في إستانبول وأحالوا مدينة العرش إلى يوم حشر . اقتحموا سراي جراغان çiragan الهمايوني ، محل إقامة مراد الخامس الكائن على المضيق ؛ ولذا سمي هذا الحادث بواقعة علي سعاوي أو اقتحام جراغان (1878/5/20) .

دخولهم إلى السراي بسهولة رغم وجود الجنود في كل مكان ، دليل على وجود خيانة . هب محافظ بشكتاش حسن باشا ، وتناول عصا من أحد الحراس أهوى بها على رأس الصحفي التركي غير المتوازن وقتله . كان سلطان مراد أثناء ذلك يخرج من السراي مع سعاوي أفندي الذي يتأبطه .

كان علي سعاوي ، متزوجا بامرأة إنكليزية « جميلة جدا وأنيقة جدا » اسمها ماري . وعند عدم تسلمها الإشارة المتفق عليها من جهة جراغان ، أحرقت أوراق زوجها السرية وهربت بسفينة أجنبية تنتظرها في الميناء . ذهبت إلى لندن ، تزوجت هناك بشخص أرمني واستقرت في باريس . غضب البادشاه بشدة لعدم القبض على المرأة وحرق الأوراق . حرق الاتحاديون أوراق سراي يلدز المتعلقة بهذا الحادث في ميدان بيازيد مع الوثائق الأخرى عام 1909 . ولا يزال الأرشيف الإنكليزي يمتنع عن فتح

أضابير من هذا القبيل إلى المؤرخين . غير أنه من الواضح أن ماري سعاوي من المخابرات الإنكليزية .

مات في الاقتحام 23 متمردًا ، 15 منهم جرحوا . حوكم الكثيرون في ديوان حرب عرفي (المجلس العرفي العسكري) (لم يصدر حكم بالإعدام) . تمت السيطرة على المؤامرة خلال ساعتين . لكن تأثير هذا الحادث ، شوهد في تصرفات عبد الحميد الثاني طيلة 30 عاما . وكلف الشعب الكثير من الأذى . عبد الحميد الثاني الذي شاهد خلال 3 أشهر ، خلع سلفيه ، ومقتل عمه المفجع ، زادت أوهامه وشبهاته بشكل كبير ، بعد محاولة مؤامرة كهذه جرت في زمن غير متوقع أبدا ، وبزعامة شخص غير متوقع أبدا . تجربة تدبير مؤامرة غريبة قلما تقع حتى في جمهوريات الموز والكاكاو في أمريكا اللّاتينية ، ووقوعها في إمبراطورية كبرى تقف على شفا هاوية ، جيوش الأعداء على أبواب مدنها ، أسفرت من حيث النتيجة ، عن نظام بوليسي . شكل السلطان حميد بعد ذلك ، تشكيلات أمن سريّة مرتبطة به شخصيا ، أقلق موظفو هذه التشكيلات الذين يسمون « خافيه » (تحري) راحة الشعب بشكل كبير طوال 30 عاما وحددوا حرياتهم الطبيعية . ولا يسعنا هنا إلا أن نذكر أن هؤلاء ، خدموا أمن الدولة طيلة الـ 30 سنة .

عزل عبد الحميد الثاني ، الصدر الأعظم صادق باشا ، الذي يعتقد أنه وراء هذا الحادث . كان صادق باشا ، الذي صار صدرا أعظم (1878/4/18) بعد صدارة وفيق باشا التي دامت شهرين ، و 9 أيام ، في الـ 52 من عمره . جيء بدلا عنه ، بعد 40 يوما بمترجم رشدي باشا للمرة الخامسة . كانت إنكلترا قد أومأت للبادشاه بتعيينه للصدارة ، كان السلطان حميد أثناء ذلك ، في وضع يستند فيه – لعقد الصلح الروسي – في الدرجة الأولى ، على الإنكليز الذين يكرههم في الأصل أكثر من الروس . صدارة رشدي باشا البالغ سنه 67 عاما الخامسة هذه ، كانت 7 أيام . مجموع صداراته الخمس سنتان ، 23 يوما . أشهر صداراته هي الثالثة التي اشتهرت بإدراكه دور 3 بادشاهات . وفي صدارته هذه الثالثة كان رشدي باشا ، صدرا أعظم أخيرا لعبد العزيز خان ، الوحيد لمراد الخامس ، والأول لعبد الحميد الثاني . صار صفوت باشا صدرا أعظم وهو من صنائع رشيد باشا ، دبلوماسي مجرب في الـ 63 من عمره . شغل 6 مرات منصب وزير الخارجية وسفير .

5 ـ معاهدتا آياستافانوس (1878/3/3) وبرلين (1878/7/13)

أرادت روسيا أن تملي على العثمانية المغلوبة ، شروطها في الصلح بمعاهدة آياستافانوس (باليونانية : Aya Stephanos بالتركية : يشيل كوي) (1878/3/3) قبل تدخّل الدول العظمى الأخرى . وقع كل من وزير الخارجية صفوت باشا وسفير برلين سعد الله بك (باشا) وهما يذرفان الدموع ، على هذه المعاهدة ، التي لم يعمل بها في أي وقت من الأوقات . وقع عن روسيا الجنرال كونت Lgnatief و Nelidof . وبموجب هذه المعاهدة المكونة من 29 مادة (والتي أصبحت بمعاهدة برلين بعد 4 أشهر ، 11 يوما كأن لم تكن) .

تشكل إمارة بلغارية بسعة غير طبيعية ، حيث أن هذه الإمارة التابعة للعثمانية امتدّت حتى بحر إيجة .

تقسم أراضي روملي العثمانية إلى ثلاث .

تعطى بلغاريا ، مكدونيا ، تراقيا الغربية ، قيرقلارايلي ، إلى هذه الإمارة المستقلة ذاتيا والتي تقرر أن تكون ألعوبة بيد الروس .

تعطى روسيا ولايات قارص ، أردخان وبيازيد (آغري) وقضاء باطوم .

تترك ولاية نيش إلى صربيا ، وتوسع مساحة قره داغ .

حال عبد الحميد الثاني بجهد جهيد ، دون إعطاء 6 بوارج من أحدث سفن الأسطول العثماني كجزء من غرامات الحرب إلى روسيا .

تلقت الدول العظمى معاهدة آياستافانوس ، التي تؤمن التفوق الروسي في البلقان على حساب العثمانية والنمسا ، والتي توصل روسيا إلى إيجة ، بواسطة بلغاريا المستقلة ذاتيا ، وبطريقة غير مباشرة إلى البحر الأبيض ، وإلى البحار الدافئة والبحار المفتوحة ؛ برد فعل . بدأت مرحلة الدبلوماسية الشخصية لعبد الحميد الثاني التي ستستمر 30 سنة والتي ستحافظ على الإمبراطورية هذه المدة ؛ بمحاولاته لهدم معاهدة اياستافانوس. استخدم الخاقان في هذا السبيل ، كامل دهائه الدبلوماسي . عمل كل ما بوسعه لإنقاذ الدولة من المصيبة بأقل ضرر ممكن . تمكن من التوصل إلى أسس معاهدة برلين ، وحيث

كان يريد الحصول على مساندة إنكلترا بالدرجة الأولى ، فقد أعطى إنجلترا في مقابل هذه المساندة لواء قبرص . سيستمر الحكم العثماني في الجزيرة ، لكن ستكون إدارتها من قبل إنكلترا ، سوف لا تعطي إنكلترا إدارتها إلى أية دولة أخرى عدا العثمانية ، وفي حالة إعادة الألوية الثلاثة في شمال – شرقي الأناضول إلى العثمانية من قبل روسيا ، تنتقل عندئذ ، إدارة قبرص كذلك إلى العثمانية مجددا (1878/6/4) . وهكذا خطت إنكلترا خطوتها نحو غرب البحر الأبيض (جبل طارق) ، وسط البحر الأبيض (مالطة) ثم شرق البحر الأبيض .

اشتركت في مؤتمر برلين عدا روسيا وتركيا ؛ ألمانيا ، إنكلترا ، فرنسا ، النمسا – المجر وإيطاليا . كان الأمير فون بسمارك ، رئيس وزراء اتحاد الإمبراطورية الألمانية ، رئيسا . أصبحت معاهدة برلين ، آخر اتفاقية عدّلت الجغرافية السياسية لأوروبا للعصر 19 بعد معاهدات فيينا 1815 ، باريس 1856 ، فرساي 1871 . أطالت حياة العثمانية في البلقان مدة 35 عاما بدلا من معاهدة آياستافانوس التي كانت تجعل من الروس سادة البلقان وتودي بنفوذ العثمانية إلى درجة يرثى لها . وطبعا ، كانت تركية قد غلبت وسحقت بشكل مفجع .

تعتبر معاهدة برلين ، إحدى المعاهدات الأكثر جورا ضد الأتراك التي وقعوا عليها طوال التاريخ ، عدا آياستافانوس . كلتا المعاهدتين تعتبران وثيقتين مهمتين لبيان الفرق بين عقلية مدحت باشا وعقلية عبد الحميد الثاني ومبلغ توفيق كل منهما في السياسة الخارجية .

لم تعط معاهدة برلين لروسيا إلا الشيء اليسير . لا تعتبر تعويضا لتضحياتها العسكرية والمالية الكبيرة ، ولّدت في روسيا عدم ارتياح ، وشعورا بالخيبة ، على نطاق واسع . أما الشعوب البلقانية ، فكانت استفادتها كبيرة ، وهؤلاء من غير المؤكد أن يشعروا بالامتنان تجاه روسيا التي أدت بهم إلى هذا الوضع . ظهرت ، نتيجة 20 جلسة عقدها المؤتمر خلال 31 يوما ، اعتبارا من يوم 13 حزيران ، تتألف المعاهدة من 64 مادة (1878/7/13) .

من المواد المهمة جدا تلك المواد التي أجبرت العثمانية على إجراء إصلاحات في 6

إيالات (بالعثمانية : ولايات ست) في الأناضول الشرقية في صالح الأرمن وفي 3 إيالات (بالعثمانية : ولايات ثلاث) في مكدونيا في صالح البلقان، لم يسر مفعول هاتين المادتين و لم يطبقهما أبدا عبد الحميد الثاني . ولتأمين ذلك ، لعب السلطان دوره بمهارة من خلال المصالح المضادة والتوازن سواء للدول العظمى أو لدول البلقان . كلهم أخذوا يتكالبون ضده ، لكنهم لم يتمكنوا من توحيد مصالحهم لإجباره على تطبيق هاتين المادتين .

ومادة أخرى مهمة جدا ، هي الحكم القاضي بتثبيت غرامات الحرب التي ستسددها العثمانية إلى روسيا وهو 55 مليونا من المسكوكات الذهبية والتي كانت 245 مليون في معاهدة آياستافانوس ، وتدفع هذه على أقساط قدر كل منها 350 000 قطعة ذهبية . سدد عبد الحميد الثاني ، هذه الأقساط بدقة طوال مدة سلطنته .

معاهدة برلين ، هي المرحلة المهمة الثانية بعد معاهدة كارلوفجة 1699 في تصفية العثمانية من أوروبا ، وسوف تستكمل هذه التصفية معاهدة لندن 1913 . تعترف تركية بالاستقلال التام لثلاث إمارات تابعة لها هي رومانيا ، صربيا وقره داغ . وهكذا أنبثقت من اليونان 3 دول بلقانية مستقلة قبل مضي نصف قرن . (هذه الدول البلقانية أرثوذكسية) هذا ، علاوة على إعطاء نيش إلى صربيا . أما قره داغ ، فتتوسع بمقدار الضعفين من ناحية المساحة والنفوس ، وتبلغ مساحتها 9 500 كم^2 ، أصبح لها منفذ إلى البحر (الإدرياتيك) بفضل رصيف بار Bar . وإضافة إلى ذلك . تأخذ رومانيا ، لواء دوبروجه ، لكنها تعيد لواء بوجاق (بيسارابيا الجنوبية) الذي أخذته من روسيا بمعاهدة باريس 1856 إلى روسيا . ومن بين الدول التي حصلت على استقلالها بعد 1878 ؛ كل من رومانيا في 1881 ، صربيا في 1882 ، قره داغ في 1913 حصلت على الاستقلال وارتفعت من درجة الإمارة إلى الملكية . وهكذا ولدت ولأول مرة في التاريخ ، دولة رومانيا المستقلة استقلالا تاما .

ورغم بقاء بوسنة وهرسك لدى العثمانية في معاهدة آياستافانوس ، أجتثت في برلين . تبقى الإيالة تحت حكم العثمانية ، لكن إدارتها تترك إلى النمسا – المجر . تضع النمسا جنودا في لواء يني بازار (بالصربية : Novibazar) الذي يفصل صربيا عن قره داغ ويحول

دون حصولهما على حدود مشتركة . اضطر النمساويون على إبقاء والي الإيالة العثماني (أحمد مظهر باشا) في مقامه سنوات طويلة وجابهوا مصاعب كبيرة في السيطرة على البلاد . حيث قام البوشناق المسلمين ، في سبيل إبقائهم لدى العثمانية ، والصرب الأرثوذكس لانضمامهم إلى صربيا ، بحرب عصابات لسنوات طويلة . أما الخروات الكاثوليك الموجودون في القطر، فتقبلوا الإدارة النمساوية - المجرية بامتنان . أدى جشع النمسا الذي ساقها إلى وضع يدها على بوسنة - هرسك بصورة فعلية ، إلى عدم إمكان تحسين علاقاتها مع روسيا بعد ذلك التاريخ وشكلت أحد الأسباب الرئيسية للحرب العالمية ، حيث اعتبر ذلك في البلقان عاملا ضد السلاف وفي صالح الجرمانية .

تأسست إمارة بلغارية مستقلة ذاتيا ، تابعة للعثمانية بين نهر الطونة وجبال البلقان . أما في جنوب جبال البلقان ، فأسسوا إيالة روملي الشرقية . مركزها **Filibe** ، ميناؤها كان بورغاز . حدودها الجنوبية ، كانت بالنسبة إلى بلغاريا الحالية ، على الشمال أكثر ، في صالح العثمانية سواء من جهة تراقيا أو من جهة مكدونيا . اعترفت بحقوق كثيرة لصالح البلغار في إيالة روملي الشرقية . ينتخب وإليها من بين رجال الدولة المسيحيين للباب العالي . عين لهذا المنصب الوزير الرومي **Aleki** باشا من الرجال المقربين لمدحت باشا الذي أظهر تعصبه بتشتيت السكان المسلمين بالتقتيل والاضطهاد في روملي الشرقية كما أظهر بذلك ماهية الأشخاص الذين تعامل معهم مدحت باشا في الماضي .

يترك لواء تيساليا **Tesalya** إلى اليونان لغرض توطيد التوازن بين دول البلقان . تلكأ عبد الحميد الثاني في تطبيق هذا الحكم لعدة سنين ، لكنه اضطر في النهاية إلى إخلائها وإعطائها إلى اليونان . أعطيت في شمال - شرق الأناضول ، ألوية قارص ، أردخان ، آرتفين ، قضاء باطوم إلى روسيا . لا يجوز للروس احتلال باطوم (آجارستان) عسكريا ، وتستعمله فقط كميناء . بقي لدى العثمانية لواء آغري ، الذي أعطته آياستافانوس إلى الروس . ورغم وعد فرنسا بإيالة تونس في كواليس مؤتمر برلين ، فإنه أنه لم يدرج في متن المعاهدة . احتلت فرنسا ، تونس بعد عدة سنوات .

خسرت الدولة كل ما ذكر ، في سبيل عدم ترك قضاء لقره داغ . أما الخسارة المهمة جدا ، فهي تشتيت السكان المسلمين الموجودين في بلغاريا . هرب ما يقارب

المليون تركي من إيالة الطونة ، سواء من إمارة بلغاريا ، أو من أراضي روملي الشرقية ، وتركوا أوطانهم التي سكنوها طوال خمسة عصور . أسكنوا في إستانبول ، في بورصة ، في الأناضول الغربية ، في روملي العثمانية وفي جميع المناطق . وما يقارب النصف مليون تركي ذبحوا بشكل جماعي بالقتل العام من قبل الروس والبلغار الذين سلحهم الروس . وإحدى هذه المذابح الجماعية المثالية التي حققها لجنرال Gurko في زاغرا Zagra المدينة التركية . انتقلت ليد المسيحيين ثروات المسلمين التي لا يمكن إحصاؤها ، آلاف الآثار العمارية . امّحت عائلات عثمانية عريقة وكريمة يعود تاريخها إلى 500 سنة مضت .

إجمالي الأراضي التي خسرتها العثمانية في حرب 93 المثبتة في معاهدة برلين ، يمكن حصرها كالآتي :

لواء دوبروجه مع إمارة رومانيا 135000 كم^2 – 5 300 000 نسمة (تعداد عام 876) .

أما صربيا مع لواء نيش 45 427 كم^2 – 1 564 000 نسمة .

إمارة قره داغ بشكلها الجديد 9 427 كم^2 – 180 000 نسمة .

لواء تيساليا 13 488 كم^2 – 340 000 نسمة .

بوجاق 13 800 كم^2 – 500 000 نسمة .

مجموع الخسائر المذكورة في أوروبا : 217 298 كم^2 –7 884 000 نسمة :

يضاف إلى ذلك في آسيا ألوية قارص وآرتفين الحالية وآجارستان (باطوم) .

ويلزم أن تحتسب تونس كذلك ، باعتبارها اللقمة التي أصابتها فرنسا في هذه النهيبة العثمانية .

وفي النهاية ، يلزم أن يضاف إلى كل ما مضى بلغاريا ، روملي الشرقية ، بوسنة وهرسك ، يني بازار ، قبرص اللواتي اعترف باستقلالهن الذاتي وتركن للإدارة الأجنبية ، رغم بقائهن تحت الحكم العثماني . يعيش اليوم (1985) في جميع هذه الأقطار التي فقدت أو أصبحت على وشك الفقدان ، 48 مليون نسمة .

كانت كل هذه الخسارة المخيفة ، نتيجة العمل غير الشريف الذي حقّقته الزمرة الموتورة في واقعة السلطان عزيز .

6 – صدور أعظم دور السلطان حميد

عندما حل عبد الحميد الثاني البرلمان ، وضع يده على إدارة الإمبراطورية ، كان أحمد وفيق باشا صدرا أعظم . الصدور الأعظم الذين خلفوه هم : محمد صادق باشا (1878/4/18) بعد شهرين و 9 أيام، ومترجم رشدي باشا للمرة الخامسة (1878/5/28) بعد 40 يوما، ومحمد أسعد صفوت باشا (1878/6/4) بعد 7 أيام و وتونسلي خير الدين باشا بعد 6 أشهر (1878/12/4) ، وأحمد عارفي باشا بعد 7 أشهر و 26 يومًا (1879/7/29) ،وكوجوك محمد سعيد باشا بعد شهرين و 20 يوما (1879/10/18) ، وجناني – زاده محمد قدري باشا بعد 7 أشهر و 20 يوما (1880/6/9) ، وسعيد باشا للمرة الثانية (1880/9/12) بعد 3 أشهر و 3 أيام ، وكرميان أوغلو عبد الرحمن نور الدين باشا (1882/5/2) بعد سنة و 7 أشهر و 20 يومًا ، وسعيد باشا للمرة الثالثة (1882/7/11) بعد شهرين و 10 أيام ، وأحمد وفيق باشا للمرة الثانية (1882/12/1) بعد 4 أشهر و 21 يوما (مجموع صدارتيه شهران و 11 يوما) ،وسعيد باشا للمرة الرابعة (1882/12/3) بعد يومين ، وقبرصلي محمد كامل باشا (1885/9/25) بعد سنتين و شهر و 23 يوما ، وقابا آغاجلي – زاده محمد جودت باشا (1891/9/4) بعد 5 سنوات و 11 شهرًا و 9 أيام ، وسعيد باشا للمرة الخامسة (1895/6/8 .) بعد 3 سنوات و 9 أشهر و 4 أيام ، وكامل باشا للمرة الثانية (1895/10/1) بعد 3 أشهر و 23 يوما ، وخليل رفعت باشا (1895/11/7) بعد شهر و 6 أيام ، وسعيد باشا للمرة السادسة (1901/11/9) بعد 6 سنوات ويومين ، وآفلونيالي محمد فريد باشا (1903/1/14) بعد سنة وشهرين و 5 أيام ، وسعيد باشا للمرة السابعة (1908/7/22) بعد 9 أيام ، وكامل باشا للمرة الثالثة بعد 13 يوما ، يصادف إعلان المشروطية الثانية صدارة سعيد باشا للمرة السابعة . وسوف نرى فيما بعد صدور أعظم دور المشروطية الثانية لعبد الحميد الثاني .

لا يوجد بين الصدور الأعظم السالف ذكرهم أي رجل دولة قدير بالمعنى الصحيح . يحتمل أن يكون كامل باشا أفضلهم . أما سعيد باشا الذي جلبه السلطان حميد للصدارة بإصرار ، من سلك الصحافة ، فهو رجل مثقف ، لكنه جامد ، جبان ، ثرثار متملق ، ميال للخيانة .

من الحوادث المهمة التي جرت في دور إدارة السلطان حميد الشخصية ، تأسيس مؤسسة الديون العمومية (1881/12/20) .

في هذا التاريخ ، بلغت الديون الخارجية 252 مليون قطعة ذهبية . أقنع السلطان حميد الدول الدائنة إنكلترا وفرنسا بتأسيس الديون العمومية وإسقاط 146 مليونا ، ولتسديد الـ 106 ملايين ليرة ذهبية الباقية ، وضعت بعض إيرادات الدولة الرئيسية تحت تصرف مؤسسة الديون العمومية . والحقيقة أن هذه المؤسسة كانت كوزارة مالية ثانية . وقد أمكن بهذه الوسيلة تسديد الديون الخارجية لدولة عثمانية خرجت من الحرب الروسية مدمرة حيث سدت السبل المؤدية لنهضتها ، وتدنّت منزلتها . ويعتبر إسقاط أكثر من نصف الدين نجاحا ماليا حقيقيا . سدد السلطان حميد حتى نهاية سلطنته ، القسم الأعظم من الديون الخارجية وخلّف للإدارة التي أعقبته قليلا من الدين الخارجي . كان حريصا على عدم الاستدانة من الخارج ، فلم يقترض في عهده ، من الخارج إلا القليل .

ومن الحوادث المهمة أيضا في دور إدارة السلطان حميد الشخصية ، أحكام محكمة ييلدز (1881/7/28) ؛ فقد حوكم المسئولون عن قتل السلطان عزيز في محكمة جنائية في جلسة واحدة دامت 3 أيام . حكم بالإعدام على مدحت باشا ، وداماد محمود جلال الدين باشا ، داماد نوري باشا وعدة أشخاص آخرين ليسوا على هذه الدرجة من الأهمية . بدل بأحكام الإعدام السجن المؤبد مدى الحياة في قلعة طائف في الحجاز . نجا من هذا العقاب مترجم رشدي باشا لمرضه ووفاته بعد مدة قصيرة ، أما شيخ الإسلام خير الله أفندي ، فلأنه كان منفيا في الحجاز ، فقد أراد معارضو السلطان حميد استعمال محكمة ييلدز وسيلة للتنديد به . إلا أنه كان من الضروري أولا معاقبة مسئولي واقعة السلطان عزيز وإن كان ذلك العقاب قاصرا أو حتى لو كان بعد سنوات ، كما كانت هنالك ضرورة أيضا للتخلص من مدحت باشا الذي أصبح بلوى مسلطة على رأس الدولة والذي كان ما يزال يهدد الدولة بواسطة إنكلترا .

وعدا محاولات إنكلترا الجديدة لتهريب مراد الخامس من سراي جراغان ، استمرت في علاقاتها مع مدحت باشا سواء عندما كان منفيا في أوروبا ، أو عند عودته إلى تركية

وسكناه في كريت ، أو عندما كان واليا على إيالات سورية آيدن (أزمير) . لم تكن إنكلترا ترغب في أن ترى على عرش تركية خاقانا داهية في السياسة الخارجية ، واقفا بالمرصاد لمحاولات الإمبريالية ، مواليا للعالم الإسلامي كعبد الحميد الثاني .

استمرت إنكلترا في محاولاتها لتقديم مراد الخامس - كخاقان - خليفة للدولة العثمانية ومدحت باشا كصدر أعظم . لم يترك مدحت باشا التفكير في إنكلترا ، حتى في مذكراته التي كتبها والتي بلغت مجلدين في غرفته في قلعة طائف مع خادمه بين صياح وصراخ شعب جده المعارض . كان رئيس الوزراء (مع الأسف) عدوا للإسلام والأتراك بشكل لا يتصور . كان متعصبا إلى درجة ضربه القرآن الكريم على الكرسي في مقصورة مجلس العوام . وعند تسلم الأحرار الحكم بدلا من المحافظين ، ارتاحت العثمانية نسبيا ، انتهت تماما مرحلة وجود رؤساء وزراء وسلطة موالية للعثمانية في إنكلترا . حاولت صحافة إنكلترا بمختلف الوسائل إنقاذ مدحت باشا وداماد محمود جلال الدين (الذي هو أحد رجاله) ، من أحكام محكمة ييلدز . اشترك سفير إستانبول كذلك في تلك الحملة الصحفية . أرسلت إنكلترا طرادا إلى مياه جدة لإنقاذ مدحت باشا ومحمود باشا . وقبض في الطائف على إنكليزي متنكر بزي عربي ، لم تجد كل المحاولات التي بذلت في إنقاذ الباشوات ، لكنه عندما تأكد بأن هذه المحاولات لن تتوقف ، اقتحم الجنود غرفة مدحت باشا ومحمود باشا في الطائف وخنقاهما (1884/5/6) . ترى هل أعطي هذا الأمر من قبل ييلدز ، أو من قبل العسكري الجريء جدا مشير عثمان نوري باشا والي إيالة الحجاز وقائد فرقتها ؟ إن هذا الأمر موضوع نقاش . لكن ، لم تجر تحقيقات مع عثمان نوري باشا ، وأغلق الملف .

اعتبر معارضو عبد الحميد الثاني ، مدحت باشا البالغ عمره 62 عاما ، بطلا للحرية والديمقراطية . إذا كان البادشاه هو الذي أعطى أمر القتل فعندئذ ، يكون ذلك الحادث هو الجناية السياسية الوحيدة خلال سلطنة عبد الحميد الثاني الطويلة . عاقب عبد الحميد الثاني من لهم علاقة بواقعة السلطان عزيز باعتدال ورباطة جأش كبيرين ، بعد تحليله شخصياتهم والأضرار التي سببوها للدولة تحليلا جيدا . مما تجدر الإشارة إليه أن عاقبة كل من اشترك بهذه الواقعة ، لم تكن جيدة .

7 – القضية الأرمنية (1895 – 1896)

عاش الأرمن في الدولة العثمانية حتى حرب 93 في رفاهية وسعادة ، وأثروا بفضل مزاولتهم وظائف كالتجارة والصيرفة وصياغة الذهب . كان تعدادهم داخل الدولة العثمانية ، المليون تقريبا . كانت العائلات الأرمنية المعرفوة تعيش في إستانبول كالأمراء ، وشوهد بعد 1856 من حصل منهم على منصب وزير وهي أعلى رتبة مدنية في الدولة ؛ كان الوزير آكوب باشا وزير الخزينة الخاصة ، أحد رجال السلطان عبد الحميد المعتمدين . .كانت حرية الأديان والمذاهب مؤمنة بشكل حقيقي . أكثر الأرمن ينتمي إلى مذهب أرثوذكس – كريكوريان ، وهنالك من كان منهم كاثوليكيا ومن كان من البروتستانت . كان لبطارقة الأرمن ، مكانتهم في بروتوكول الدولة سواء كانوا كريكوريان أم كاثوليك . كان الأتراك يحبون هذا الشعب الوديع ، المنصرف لأعماله ، المتقبل للثقافة التركية بشكل كبير والمتفهم لهذه الثقافة إلى حد ما . وكما يشاهد في الوثائق الرسمية ، كان يطلق عليهم اسم « ملت صادقة » (الشعب المخلص) .

تبدل الوضع في منتصف العصر . وضعت الدول الإمبريالية روسيا ، إنكلترا ، فرنسا يدها على هذا الشعب وقامت وخاصة روسيا بتجريض الأرمن لغرض ابتلاعها أناضول الشرقية . حيث كان لها رعايا أرمن أسكنتهم في حدود الأناضول الشرقية في روان (بالأرمنية : Erevan) الذي كان قطرا تركيا بحتا حتى النصف الثاني من القرن 19 (أسمته حديثا « أرمنستان ») .

كانت المادة 61 من معاهدة برلين تطلب إجراء إصلاحات لصالح الأرمن في 6 ولايات هي : (أرضروم ، دياربكر ، سيواس ، خربوط = العزيز ، وان وبتليس) ، لم يضع السلطان حميد هذه المادة موضع التنفيذ أبدا . رفض جميع الضغوط التي أجرتها الدول العظمى لتنفيذ هذه المادة (إذا كانت أناضول الشرقية اليوم ، داخلة ضمن تركية فهي نتيجة لتلك السياسة) وحيث لم يكن الأرمن يشكلون الأكثرية في الـ 20 ولاية التي تشكل الـ 6 إيالات هذه ، فإن نسبة نفوسهم لم تكن تبلغ الـ 20٪ في الولاية التي يشكلون فيها كثافة سكانية . وفي إحدى المناسبات ، أبلغ السلطان حميد السفير الألماني بأنه يرجح الموت على أن يطبق هذه المادة السخيفة ، وتمكن من اكتساب مساندة

النمسا – المجر . لم يكن ضغط إنكلترا وفرنسا وروسيا كافيا لوضع هذه المادة موضع التنفيذ . ومما لا شك فيه أنه كان يراد إفناء المسلمين الذين يتكلمون التركية وخاصة الكردية بالقتل العام وإجبارهم على الهروب ولو من قسم من هذه الأراضي وجعله وطنا أرمنيا . كانت هذه الخطة قد طبقت بنجاح في كثير من الأقطار العثمانية وفي تاريخ أقرب في روان الوطن التركي منذ ألف سنة وفي قرم .

كان أمل روسيا الاقتراب إلى البصرة وخليج الاسكندرون بواسطة إمارة أرمنية تكون ألعوبة في يدها . وكذلك كانت إنكلترا تريد إمارة أرمنية تكون ألعوبة في يدها للحيلولة دون اقتراب روسيا إلى هذه الخلجان . أما فرنسا فكانت ترغب في أن تكون لها أرمنستان ، تحت نفوذها ، لإحياء الذكرى البائدة للحروب الصليبية . تم تأمين سلاح وافر للأرمن من كل الجهات ، خاصة من روسيا . كان الأرمن المتمركزون في الأقطار الأوروبية الحرة كسويسرا ، يخططون لهذه السياسة . قتل الأرمن جميعا باقتحامهم القرى المسلمة التي تتكلم اللغة الكردية كل من صادفهم دون التفريق بين النساء والأطفال . وكثيرا ما علّقوهم على الكلاليب ، كانت وسائلهم في القتل الجماعي شاذة لا يتصورها العقل ؛ كبقر بطون النساء الحوامل وإخراج الجنين بالرماح ، قطع أماكن العورة من الرجال ودسّها في أفواههم ، ملء الجوامع والتكايا والمدارس الدينية بالمسلمين وحرقها . كان القصد إجبار المسلمين على الهروب من هذه الأماكن . كانت روسيا في البداية شديدة الرغبة في تأسيس « أرمنستان » لكنها بعد ذلك أخذت في الابتعاد عن هذه الخطة على مر الزمن ، أخذت إنكلترا على عاتقها مهمة تحقيق خيال تأسيس أرمنستان . لأن الإرهابيين الأرمن ، كانوا قد شرعوا في التحرك ضد النظام القيصري في روسيا . كانوا يريدون توحيد أرمنستان التي يزعمون أنهم سيؤسسونها في الأناضول الشرقية مع أرمنستان روسيا في قفقاسيا الجنوبية .

حاولت جمعية خنجاك Hinçak التي أسست في سويسرا عام 1886 التحكم في أرمن العثمانية عن طريق الإرهاب . كان الأرمن راضين عن الإدارة العثمانية ، بل يحتمل أنهم كانوا يشتركون في إدارة هذه الإمبراطورية بنسبة تفوق نسبة نفوسهم . لم يشاهد و لم يسمع في الدول الاستعمارية كإنكلترا وفرنسا وروسيا التي يسكنها عشرات الملايين من المسلمين ، وزير أو حتى نائب مسلم واحد . بينما كان من الممكن في الدولة

العثمانية أن يكون هناك وزير من الأرمن . وعلى هذا الأساس بدأ الخنجاك بإرهاب الأرمن المخلصين الذين لا يرغبون في تنفيذ رغباتهم . وبعد أن اقتحموا قرى أرمنية كثيرة في الأناضول الشرقية وقتلوا كامل نفوسها ، نقلوا هذه الأخبار إلى الصحافة الغربية على أنها مظالم العثمانية ، وفي الوقت نفسه ، أظهروا بذلك مصير الأرمن الذين لا يؤيدونهم .

اتخذ مشير زكي باشا ، قائد الجيش الهمايوني الرابع - المتمركز في أرزنجان والمنتشر في جميع أنحاء الأناضول - تدابير جذرية بأمر السلطان عبد الحميد . لم يتأخر في مكافحة الإرهابيين العصاة الذين سلف ذكر أعمالهم الوحشية . وبناء على ذلك بدأت الصحافة الأوروبية بحملة عنيفة استهدفت شخص البادشاه . استعمل المؤرخ الشهير الكونت Albert Vandal عضو الأكاديمية الفرنسية لقب « Le Sultan Rouge » لأول مرة . الاتحاديون الذين ترجموا هذا التعبير إلى « السلطان الأحمر » ، سوف يتخذون من الأرمن في 1915 مواقف أشد ، سيضطرون إلى تهجيرهم . استعمل بعض الكتاب كذلك ، في عهد الجمهورية ، الذين لا يعلمون السبب في إطلاق تعبير « السلطان الأحمر » على خاقان تركي وخليفة إسلامي ، نفس التعبير الخائن الوقح ، بحق السلطان عبد الحميد الثاني . ومما لاشك فيه أن يصاب الشعب والدولة بكل أنواع البلايا في مثل هذا المحيط الذي حرّف فيه الشعور الوطني بهذا الشكل .

كان الأرمن على درجة من الهياج بحيث وجدوا في أنفسهم الشجاعة على القيام بعصيان في مراكز الإيالات كسيواس وطرابزون وأرضروم ووان وديار بكر كذلك . تم إخمادهم في قطاع الجيش الرابع الذي أعلن فيه الأحكام العرفية .

وتجاه ذلك ، كان من الطبيعي تهيئة الشعب المسلم الذي يتكلم الكردية للدفاع عن النفس ضد الخطر الأرمني . شكل السلطان حميد « أفواج الخيالة الحميدية » . انتخب ضباطها من بكوات وأولاد الأكراد . كانت الرتب المعطاة لهم والتي أكبرها رتبة آلباي (زعيم) ، معتبرة لدى أفواجهم فقط . قامت القيامة لذلك في أوروبا . إن الدول الأوروبية الاستعمارية تبعد جيوشها عن المشاكل المحلية قدر الإمكان وتشكل قوى شعبية غير عسكرية على هذه الشاكلة لتقضي على الأقطار الأجنبية من الداخل . أما الأفواج الحميدية فكانت لغرض الدفاع عن حياة قرويي الأناضول الشرقية . قامت بواجبها

هذا بنجاح حتى إلغائها عام 1908 . إن كان هنالك اليوم شعب في الأناضول يتكلم الكردية ، فذلك بفضل تلك السياسة .

إن القضاء الذي بلغ فيه تعداد الأرمن أعلى نسبة ، بالمقارنة لتعداد المسلمين ، كان قضاء Sason بين زعرت وموش . كان يسكن فيها 000 12 أرمني و 000 15 مسلم . أراد المتمردون إثارة عصيان كبير فيها . مات أثناء إخماد العصيان 000 5 أرمني تقريبا ومئات المسلمين . هرب زعيم العصيان Hamparsum Boyaeiyan ، ونجا من الموت . سيجعل الاتحاد والترقي هذا الشخص بعد 13 عاما ، نائبا لهاربوت . وبعد شهر من حادث Sason (ت1894/2) عصى الأرمن في ديار بكر ، مات في هذا العصيان 1190 أرمنيًا .

كان الأرمن يعلمون أنه لا يمكنهم الحصول على نتيجة بهذا الشكل . لكنهم كانوا يريدون لفت أنظار الدول الأوروبية العظمى بمثل هذه الاضطرابات . قدمت إنكلترا وفرنسا وروسيا مذكرة مشتركة (1895/5/11) وطلبت من الباب العالي تطبيق المادة 61 من معاهدة برلين فورا وتعيين ولاة جدد في الإيالات الست وأخذ موافقتهم حول أسماء هؤلاء الولاة وإلغاء الأفواج الكردية وتأسيس وحدات جندرمة (درك) من الأرمن .

دخلت سياسة عبد الحميد الشخصية دور التأزم . الحقيقة أنه كان قد أمّن عدم اشتراك ألمانيا والنمسا ـ المجر وإيطاليا في هذه المذكرة . لكن كان يجب تنحية إنكلترا وفرنسا وروسيا . نجح في فصل روسيا وفرنسا عن إنكلترا . يروى أن عبد الحميد الثاني أعطى رشوة ضخمة لوزير الخارجية الفرنسي المؤرخ الشهير Hanotaux : الذي منح بصورة رسمية وسام الامتياز الذي يقدم للحكام الأجانب ، حتى ذلك التاريخ . علم السلطان حميد بأن إنكلترا سوف تبقى دون مؤيد لها . رفض المذكرة المؤرخة 11 مارس (1895/6/3) . إنكلترا التي أيقنت من عدم إمكان وقوفها وحدها بحركة مسلحة تجاه تركيا ، سحبت أسطولها الذي سارت به إلى مدخل مضيق جناقلعة لإرهاب البادشاه .

ورغم ذلك ، لم يدرك الأرمن ما جبلت عليه الدول العظمى في لعبها مع الشعوب

الصغرى وسوقها إياهم نحو ما تقتضيه رغباتها ومصالحها ، ثم تركها إياهم وجها لوجه مع الدولة التي حرضتهم ضدها . استمر الأرمن الذين كانوا يغذون بكثير من الدراهم الأوروبية في تنفيذ عملياتهم . وعند عدم نجاحها في الشرق ، رتبت حركة أخرى في إستانبول ، أمام أعين العالم كله . سلّح أزميرليان بطريق الأرمن ، عدة مئات من الأرمن . تم إفناؤهم في منطقة قادرغة بعد مقاومتهم 3 أيام و 3 ليال . كان قصدهم المجيء إلى الباب العالي والقيام بمظاهرات معادية للحكومة . لكنهم عندما قطع طريقهم في منطقة سلطان أحمد ، أنسحبوا إلى منطقة قادرغة التي يكثر فيها نفوس الأرمن . كان هذا هو أول شغب تقوم به الأقلية في مدينة العرش منذ فتح إستانبول حتى ذلك الحين . كان الروم الاستانبوليون ، قد خططوا شيئا من هذا القبيل في بداية الاحتلال اليوناني ، لكنهم لم يجرأوا على تطبيقه .

أعقب الشغب الأرمني الأول (1895/9/30) في إستانبول ، الشغب الأرمني الثاني في إستانبول كذلك (1896/8/26) . اكتشفت رجال التحريات خطة الأرمن في تفجير المصرف العثماني قبل تنفيذها . اعترف المتمردون بعزمهم على تفجير المصرف والباب العالي (رئاسة الوزارة) ، قبض عليهم وهم ممسكون بأسلحة وقنابل . حرض البطرق ، على أثر ذلك ، قسما من أرمن إستانبول على العصيان وأخبرهم – غشا – أن أساطيل الدول العظمى على وشك المرور من مضيق جنا قلعة . أطلق أحد الأرمن رصاصة مسدس على الصدر الأعظم خليل رفعت باشا ، لكنها لم تصبه . قوبل الشرطة والدرك والجنود العثمانيون بالأسلحة والتحقير من الشبابيك ، عند دخولهم أزقة محلات الأرمن . وبناء على ذلك سحب عبد الحميد الثاني من المحلات الأرمنية الشرطة والجيش . أغار حمالو ميناء إستانبول – الذين كانوا حينذاك كثيري العدد وجماعات ضمن المنظمات العمالية – على المحلات الأرمنية بعصيهم ودون أن يحملوا أي آلة نارية أو جارحة . اتضح أن هذه العصي قد صنعت خصيصا في مصانع ييلدز . عزل أزميرليان ونفي إلى القدس .

تركت الدول العظمى الأرمن الذين أقحمتهم في هذه الورطة لحالهم .

8 – احتلال إنكلترا لقبرص (1882/9/15)

لم تتمكن فرنسا التي تفاهمت في كواليس مؤتمر برلين ، مع الدول العظمى حول

تونس ، من الصبر على احتلالها ، أكثر من ثلاث سنوات ، خاصة أن لإيطاليا كذلك أطماعا فيها . ساقت 23 000 جندي من الجزائر و 8 000 عن طريق البحر وشتّت جيش تونس الصغير . وبمعاهدة Bardo (بالعربية : قصر سعيد) أدخلت هذه الإيالة العثمانية المستقلة ذاتيا تحت حمايتها (1881/5/12) ولم تلحق كمستعمرة مثل الجزائر . تأسس نظام الحماية واستمر البايات (جمع باي) من عائلة حسيني ، كحكام لتونس في عهد الفرنسيين كذلك . طلب باي تونس الوزير محمود صادق باشا ، المساعدة من الباب العالي . سارت قطعة من الأسطول العثماني ووصلت إلى مياه جزيرة كريت . صدر إلى قطعة الأسطول أمر الانسحاب والعودة ، عند تهديد فرنسا الباب العالي بالحرب . هكذا فقدت تونس صفتها كقطر من أقطار الدولة العثمانية بعد نصف قرن من فقدان الجزائر. لم يعترف الباب العالي في أي وقت من الأوقات بالاحتلال الفرنسي لتونس . بيد أن تركية ، اعترفت في معاهدة لوزان 1923 بانفصال تونس عن تركية . ويشاهد في كل النشرات السنوية العثمانية الرسمية حتى نهاية الإمبراطورية ، تدوين تونس كإيالة عثمانية تحت الاستعمار الفرنسي غير الشرعي .

كانت المادة 24 من معاهدة برلين تنص على ترك لواء تيساليا Tesalya وقضاء Nadra (باليونانية : Arta) التابع لإيالة أبير Epir (يانيا) إلى اليونان . تباطأ الباب العالي في ذلك لعدة أعوام . لكنه أخلى هذه الأماكن وتركها لليونان (1881/7/2) إزاء الضغوط الكبيرة . كانت Tirhala ويني شهر في تيساليا مدينتين تركيتين تشكلان مركزين ثقافيين عثمانيين كبيرين . هاجر أكثرية المسلمين من هذه الأقطار إلى الأراضي العثمانية . وهكذا ارتفعت مساحة الأراضي اليونانية إلى 74859 كم^2 .

لكن المسألة الكبرى ، كانت قضية مصر . فعندما تمكن الخديو إسماعيل باشا من حصوله من الباب العالي على الفرمان الذي يجيز لمصر الاقتراض من الخارج ، اقترض مبلغا يزيد على 100 مليون ليرة ذهبية من فرنسا وإنكلترا خلال فترة 10 أعوام . وفي تلك الفترة ، كانت الأقطار كالسودان ، أريترة ، أوغندا ، تابعة لإيالة مصر . باع الخديو باشا في ت1875/2 إلى إنكلترا السندات التي يملكها في قناة السويس ، ورغم ذلك لم يتمكن من تسديد ديونه . بدأت كل من إنكلترا وفرنسا في مضايقة القاهرة وإستانبول بطلبات الديون . وإزاء هذا الضغط ، ولغرض الحد من المصروفات ، اضطر الخديو إلى

خفض عدد جنوده من 30 000 إلى 11 000 وإحالة 2 500 ضابط على التقاعد . أعلن الضباط تحت قيادة العقيد أحمد عرابي بك تمردهم على إنكلترا التي زاولت هذا الضغط وعلى إسماعيل باشا الذي خضع لهذا الضغط . أظهر عبد الحميد الثاني تأييده لعرابي بك بترقية رتبته إلى لواء (بالعثمانية مير لواء) Tumgeneral ومنحه رتبة الباشوية (كانت أكبر رتبة يتمكن الخديو من إعطائها شخصيا هي رتبة عقيد « آلباي ») . اضطربت البلاد . أحيل على التقاعد الضباط الذين هم من أصل عربي ، وبقي في الوظيفة أكثرية الذين أصلهم تركي . كان هذا الوضع سببا في شحذ الشعور القومي العربي في مصر . إن القوميين العرب كانوا يقولون إن مصر للمصريين ، لكنهم كانوا يظهرون ارتباطهم بعبد الحميد الثاني ، معلنين أن زعيمهم الأعظم هو الخليفة عبد الحميد الثاني الذي كان يتحين الفرص للإيقاع بالخديو ، عزله (1879/7/25) مستفيدا من هذه الفرصة ، وأصدر الفرمان الذي يعين فيه ابنه محمد توفيق باشا واليا على مصر بلقب « خديو وبدرجة الصدارة » . لم يرغب البادشاه ، في البداية ، حتى في رؤية إسماعيل باشا في إستانبول ، لكنه منحه إذن الإقامة في إستانبول بغرض إبقائه قريبا منه . قضى إسماعيل باشا بقية عمره في قصره الخاص في بيازيد في إستانبول ، وفي قصره الساحلي في إميركان . توفي في إستانبول عن عمر يناهز الـ 65 (1895/3/2) . كان يسمح له مع بقية الوزراء ولعدة مرات في السنة ، في مراسم المعايدات ، أن يحظى بحضور البادشاه ليقبل أطراف عرشه . والمشهور عن عبد الحميد الثاني أنه قبل زيارته طوال هذه السنين ، دون أن يلتفت إليه ودون أن ينطق ولا بكلمة واحدة . حيث إنه كان بالنسبة لعبد الحميد الثاني الشخص الذي كان سببا في استيلاء الإنجليز على قطر كمصر ، قرة عين العالم الإسلامي ، بسبب حرصه الشديد على السلطنة . حكم إسماعيل باشا الذي قام بأكبر نهضة وحركة تجديدية في مصر بعد جده محمد علي باشا ، مدة سنتين ، 5 أشهر ، 14 يوما بلقب والٍ ، و 12 سنة ، وشهر ، 23 يوما بلقب خديو . كان السلطان عزيز قد أهدى له جزيرة ياصي آدا من جزر إستانبول كملك شخصي للخديو . استرجع السلطان حميد هذه الجزيرة التي لم يسكنها الباشا . أول ملك على مصر هو فؤاد ، وهو الابن الصغير لإسماعيل باشا ، والملك فاروق حفيده .

لكن القضية المصرية لم تهدأ بعزل الخديو . أنهى عرابي باشا خدمات الموظفين الأجانب العاملين في مصر . احتجت كل من إنكلترا وفرنسا على الباب العالي ، و لم تستطع أيّ منهما التدخل العسكري لخشيتها من الأخرى ، وطلبتا بصورة مشتركة قدوم الجيش العثماني إلى مصر . لم يوافق السلطان حميد . كان لا يمكنه أن يتولى كخليفة إخماد الحركة القومية في مصر لحساب الدول الأوروبية الإمبريالية . وخلال فترة ، فكر في إلغاء الاستقلال الذاتي لمصر وجعلها كالإيالات الأخرى . لكنه وجد أن هذا لا يحل القضية المصرية ؛ إذ إن المصريين كانوا قد تعودوا على إدارة أنفسهم دون الحاجة إلى الغير ، وشيء آخر ، بالنسبة للسلطان حميد ، ذلك أن تعرض إنكلترا لمصر قد بات أمرا مفروغا منه ، وعندئذ سوف تقف مصر أمام العثمانية بسبب مخالفة العثمانية الفرمان الذي أعطي لمحمد علي باشا .

على أثر ذلك بلّغت إنكلترا كل الدول بأن الأمن مختل في مصر وأن حياة المسيحيين والأوروبيين في خطر ، وأنها راجعت الباب العالي لتأمين استتباب الأمن ، لكن الدولة العثمانية ، التي تتبعها مصر ، لم توافق على إرسال قوات عسكرية وأنه لم تعد هناك طريقة لحماية المصالح الأوروبية في هذا القطر سوى أن تقوم إنكلترا بذلك . غرابي باشا ، صار رئيسا للوزارة . في 11 حزيران ثار شعب الإسكندرية حيث قتل كثيرون وجرح 4 قناصل . قصف قائد أسطول البحر الأبيض لإنكلترا الأميرال Seymour ، الإسكندرية مدة ٦,5 ساعة بصورة مستمرة واحتلها في اليوم التالي (1882/7/12) . وفي معركة التل الكبير تمكن من تشتيت جيش عرابي باشا ، (1882/9/12) . دخل الجيش الإنكليزي القاهرة . وبذلك دخلت مصر تحت الاحتلال الإنجليزي بصورة فعلية (1882/9/15) . نفي عرابي باشا إلى سيلان .

كان وضع مصر والسودان من نهاية عام 1882 حتى عام 1914 كما يلي : وعدت إنكلترا ، مرات عديدة ، بالجلاء من هذه الأقطار ، لم تبر بوعدها . كان المصريون وكذلك الدولة العثمانية والدول العظمى الأخرى يريدون هذا الجلاء . لم يكن لاحتلال إنكلترا لمصر سند شرعي . كان أمرا واقعا . استمر هذا الاحتلال الغريب ، بهذا الوضع . فكرت إنكلترا ، أكثر من مرة وبصورة جدية بالجلاء من هذا القطر ، لكن الباب العالي استمر مترددا في إرسال الجيش ، وقد استمر الحكم العثماني ، رغم الاحتلال العسكري

في القطر ، ورغم تدخل اللورد الإنكليزي المسمى « المندوب السامي » في الإدارة المدنية بشكل واسع ، ورغم وضع اليد على قناة السويس ظلت مصر ترسل ضرائبها السنوية إلى إستانبول حتى عام 1914 ، وكذلك ظل منح الرتب التي تعلو على رتبة عقيد (آلباي) من قبل البادشاه . عاش معظم حكام مصر (خديو) في إستانبول .

ومن المميزات المهمة لهذا الدور ، اتحاد إمارة بلغاريا مع إيالة روملي الشرقية (بالعثمانية روملئ شرقي إيالة ممتازة سي) (1885/9/18) . اعترف الباب العالي بهذا الوضع ووافق على أن يكون أمير بلغاريا بعد الآن واليا على روملي الشرقية كذلك (1886/3/24) . إلا أن ناحيتي Rupeoz وقيرجة علي ، سلخت عن روملي الشرقية وادمجت ضمن إيالة أدرنة .

9 ـ الحرب التركية ـ اليونانية (4/18 ـ 1897/5/20)

اليونان التي سلبت تيساليا في كارثة 93 ، والتي كانت شهيتها تزداد كلما أطعمت ، ركزت أنظارها في هذه المرة على إيالة Epir (يانيا) وولاية كريت التي كانت مستقلة ذاتيا . أدخلت اليونان رجال العصابات إلى هذه الإيالات . وهللت لسحق جنود العثمانية لهذه العصابات ، مستثمرة ذلك في الإعلان عن استمرار الظلم التركي في أوروبا . كان عبد الحميد خان يعلم أن أوروبا ستنحاز للجانب المسيحي في أي حرب تنشب بين دولة مسيحية ودولة إسلامية ، مهما كلفها ذلك ، وإنها سوف تنقذ تلك الدولة ولا تعترف بأي حق للدولة الإسلامية ، كان يتحاشى الحرب في سبيل الأقطار العثمانية التي منحت الامتياز والحكم الذاتي ، لكنه لم يفقد مقاومته في سبيل الأراضي العثمانية التي لم تمنح الامتياز بعد . وقاوم كذلك في سبيل الأناضول الشرقية ومكدونيا بالرغم من معاهدة برلين . ولم يكن في نيته إعطاء أبير لقمة سائغة .

أخرج الباب العالي الرعايا اليونانيين الساكنين في الأراضي العثمانية من الإمبراطورية خلال أسبوعين ووضع يده على جميع الممتلكات اليونانية . أعلنت اليونان على أثر ذلك نفيرا عاما كاملا (1896/12/4) ، أما العثمانية فأعلنت التعبئة الجزئية ، بمقدار ربع التعبئة الكاملة (1897/2/15) وشرعت في الاستعداد للنفير للثلاثة أرباع الباقية في حالة تدخل الدول الأخرى . وإذ تمكن السلطان عبد الحميد من تجريد دول

البلقان الأخرى ، كان قد وضع في اعتباره عدم تمكن الدول الأوروبية العظمى (بالعثمانية دول معظمة) من الاشتراك في الحرب . سلم عاصم بك ، السفير العثماني في أثينا ، مذكرة إعلان الحرب إلى وزير الخارجية اليوناني (1897/4/18) . هكذا بدأت الحرب اليونانية التي ستستمر شهرا في 1313 (رومي) (1897) .

بدأت الحرب باختراق الجيش التركي الحدود في 18 نيسان . انهزمت اليونان في الحرب الميدانية Pirnar . استشهد في هذه الحرب أمير اللواء الكبير السن حافظ عبد الأزل باشا الذي اشترك في حرب قرم وحرب 93 . وفي اليوم الثاني ، انتصر الأتراك في حرب Losfaki كذلك ، رغم استشهاد أمير اللواء جلال باشا . كان القائد العام المشير أدهم باشا . كان القائد العام اليوناني ، الأمير – ولي العهد قسطنطين البالغ عمره 29 عاما والذي أصبح ملكا بعد ذلك . كان المقر العام اليوناني في ترخالا Tirhala في تيساليا . احتل الجيش التركي ترخالا (1897/4/24) وفي اليوم التالي يني شهر (باليونانية : Larissa) . كان قد بقي في كلتا المدينتين قسم من الأتراك . استقبل هؤلاء ، الجيش العثماني بمظاهرات عارمة . وقعت في يد الأتراك مهمات حربية على نطاق واسع .

انهزم بشكل حاسم الأمير قسطنطين الذي أراد إغلاق ميناء Golos (باليونانية : Volos) في المعركة الميدانية جتالجة (باليونانية : Farsala) (1897/5/5) . جاء أدهم باشا الذي انتصر في معركة Velestin كذلك إلى Domeke مع 48.000 جندي . أدخل قسطنطين جنوده البالغ عددهم 35 000 داخل الخنادق المستحكمة . أخرج الجيش التركي اليونانيين من الخنادق ودخل Domeke . امتطى الأمير جواده في ظلمة الليل وهرب (1897/5/17) . سقطت الوزارة في أثينا . راجعت الوزارة الجديدة الدول العظمى طالبة الصلح . خسر اليونانيون في جبهة أبير كذلك وعلى أثر برقية رجاء من القيصر إلى البادشاه ، وافق على الهدنة لقاء إعادة تيساليا ودفع غرامات حربية قدرها 10 ملايين قطعة ذهبية . استمرت الحرب 32 يوما ، تقدم الأتراك 150 كم نحو الجنوب واقتربوا من أثينا بمسافة 150 كم ، وأهم ما في الأمر أن أثينا كانت مفتوحة . إذ لم يعد هنالك جيش يوناني ليتمكن من حمايتها .

افتتح مؤتمر الصلح في إستانبول (1897/6/3) ، برئاسة وزير الخارجية توفيق باشا . استمر مدة طويلة . وفي النهاية وقعت معاهدة إستانبول التي تتكون من 16 مادة (1897/12/4) . أهدى السلطان عبد الحميد إلى توفيق باشا ، الذي ينحدر من عائلة خاقانات قرم ، البناية التي سميت فيما بعد بارك أوتيل والتي يملكها حاليا أحفاد الباشا تقديرا لخدماته . وعدا تعديلات الحدود التي أجريت في صالح العثمانية ، تخلى تيساليا وتعاد إلى اليونان . تسدد اليونان إلى العثمانية غرامات حربية قدرها 000 100 4 قطعة ذهبية . هدّدت كل من إنكلترا وفرنسا وروسيا وإيطاليا العثمانية بالحرب . أمّنوا كذلك ، منح الاستقلال الذاتي التام لكريت (1897/12/18) . سيترك الجيش التركي الجزيرة على مراحل ، ينتخب الوالي من الأهالي الروم ، ستستمر الجزيرة في كونها من جملة الأراضي العثمانية التي تدفع الضرائب . ترك خلال فترة 16 عاما (مابين هذا التاريخ وعام 1913) ، عشرات الألوف من مسلمي جزيرة كريت في مواجهة الضغط الذي مارسه الروم . فقدت الجزيرة هويتها كقطر مسلم .

هذا ما آلت إليه الحرب التي كسبتها العثمانية والتي أفنت فيها الجيش اليوناني خلال ثلاثة أسابيع ووصلت أبواب أثينا . الكلمة الأخيرة كانت للدول العظمى ؛ لأن اليونان كانت مسيحية ، ولأن العثمانية كانت مسلمة ، ضعيفة ؛ فقد كانت في مواجهة اتفاق أوروبي خاص لعرقلة اكتسابها القوة . الإمبريالية الأوروبية ، كانت تحكم العالم . لم تبتعد أوروبا كثيرا عن التعصب والعقلية الصليبيّة ، رغم ادعائها الفكر الحر وتظاهرها بالإنسانية . كانت أوروبا قاسية تجاه الأقوام غير المسيحية . وفي مستهل القرن 20 لم يبق على وجه الأرض ، إلا عدد قليل من الدول التي لم تعتنق المسيحية . ورغم أن المسيحيين يشكلون 1 من 3,5 من مجموع نفوس العالم ، فإنهم حازوا على القسم الأكبر من الكرة الأرضية . أوشكت الإمبريالية والتوسع الاستعماري أن يصل إلى أقصاه ، سوف يصل إلى الذروة في القريب . كان على العثمانية أن تحافظ قدر الإمكان على ما بحوزتها حتى ذلك الحين ، وذلك هو الممكن الوحيد في السياسة . وبالفعل كانت هي سياسة عبد الحميد الثاني .

10 ـ نظام السلطان عبد الحميد ، سياسة الاتحاد الإسلامي

كانت الدول العظمى في مستهل القرن 20 حسب تسلسل أهميتها ، عبارة عن :

إنكلترا ، ألمانيا ، فرنسا ، روسيا ، الولايات المتحدة ، أوستريا ـ المجر ، تركية ، اليابان ، إيطاليا والصين . خرجت أسبانيا من عداد الدول العظمى عند اندحارها أمام الولايات المتحدة الأمريكية عام 1898 وتركها مستعمراتها . حدث تغيير في مجموع النفوس خلال 1875 إلى 1900 وبضمنها المستعمرات ، في إنكلترا من 303 ملايين إلى 382 مليون نسمة ، في ألمانيا من 42 مليونا إلى 66 مليون نسمة . في فرنسا من 45 مليونا إلى 76 مليونا ، في روسيا من 89 مليونا إلى 133 . في الولايات الأمريكية من 45 إلى 86 مليونا . في النمسا من 38 مليونا إلى 45 مليونا . في تركية من 64 مليونا إلى 57 مليونا ، في اليابان من 33 مليونا إلى 56 مليونا ، في إيطاليا من 27 مليونا إلى 33 مليونا ، في الصين من 430 مليونا إلى 348 مليونا ، في أسبانيا من 25 مليونا إلى 19 مليونا . تعداد العالم الذي كان في 1875 هو 000 000 328 1 ، ارتفع في 1900 إلى 000 000 491 1.زاد مجموع نفوس الدول العظمى من 000 000 108 1 إلى 000 000 282 1 في 1900 . أما نفوس بقية الدول جميعها فزادت خلال الفترة 1875 - 1900 من 189 مليونا إلى 209 ملايين نسمة .

كانت الدول المسلمة المستقلة على وجه الأرض ، هي عبارة عن تركية ، إيران ، أفغانستان وفاس ، أما الدول الأخرى غير المسيحية فكانت : الصين ، اليابان ، سيام . جميع الدول المستقلة الأخرى كانت مسيحية (كانت كل من روسيا ، رومانيا ، صربيا ، اليونان ، قره داغ ، الحبشة أرثوذكسية المذهب ؛ والبقية كانت كاثوليكية وبروتستانتية) .

كان عدد المدن التي يتجاوز عدد نفوسها المليون نسمة عام (1875) ، 8 وفي (1900) ، 17 ؛ وعدد المدن التي يتراوح عدد نفوسها بين النصف المليون والمليون ، في (1875) ، 169 ، وفي (1900) ، 241 مدينة . وبينما كان عدد المدن التي يزيد عدد نفوسها على المائة ألف ، في (1875) ، 191 مدينة ، ارتفع عددها في (1900) إلى 288 مدينة . كانت الزيادة في النفوس ، خاصة في المدن الأوروبية ، كبيرة وسريعة خلال ربع هذا القرن . فقدت هذه الزيادة سرعتها اعتبارا من عام 1900 .

كان عدد المدن التي يتجاوز عدد نفوسها المائة ألف في 1900 ، في إنكلترا وبضمنها

المستعمرات 69 . في الولايات الأمريكية 37 . في ألمانيا 29 . في الصين 24 . في روسيا 23 . في فرنسا 18 . في تركيا 11 . في إيطاليا 11 . في اليابان 9 . في النمسا 8 . في أسبانيا 8 . وفي بقية الدول الأخرى 41 مدينة .

وبينما كانت إستانبول أكثر مدن العالم كثافة في النفوس حتى عام 1815 ، سبقتها لندن في هذا التاريخ وأنزلتها إلى المرتبة الثانية . وفي 1852 ، فاقت باريس كذلك إستانبول . وفي 1875 كانت إستانبول في المرتبة الخامسة من حيث كثافة السكان ، وهبطت إلى المرتبة الثانية عشرة عام 1900 . المدن التي يبلغ تعدادها المليون أو أكثر عام 1900 هي : لندن 6,1 ، نيويورك 4,5 ، برلين 2,4 ، شيكاغو 1,7 ، فيينا 1,7 ، فيلادلفيا 1,5 ، طوكيو 1,4 ، بطرسبورغ (لنينغراد) 1,4 ، أسّن 1,3 ، كلكتا 1,3 ، إستانبول 1,3 . موسكو 1,1 . مانشستر 1,1 . كلاسكو – 1 . بكين ثم هامبورغ 0, – أكثر المدن كثافة في السكان في الإمبراطورية العثمانية بعد إستانبول عام (1900) هي المدن التالية : القاهرة 684 ، الإسكندرية 352 ، أزمير 221 ، بغداد 160 ، الشام 154 ، حلب 140 . وكذلك كانت ضمن الدولة العثمانية عام 1900 ، 46 مدينة يتراوح عدد نفوسها بين 40 و 100 ألف نسمة .

موقف الدول في البلقان كان على الشكل التالي : ملكية رومانيا 156 135 كم^2 و 000 913 5 نسمة . ملكية صربيا 427 45 كم^2 و 000 500 2 نسمة . إمارة قره داغ 427 9 كم^2 و 000 228 نسمة . ملكية اليونان 859 64 كم^2 و 000 534 2 نسمة . إمارة بلغاريا التابعة لتركيا (بلغاريا الأصلية) 751 63 كم^2 و 000 644 2 . روملي الشرقية 594 31 كم^2 و 000 100 1 نسمة (345 96 كم^2 و 000 744 3 نسمة) . كريت التابعة لتركيا 379 8 كم^2 و 000 304 نسمة . بوسنة – هرسك تحت إدارة النمسا – المجر التابعة لتركيا 564 51 كم^2 – و 000 737 1 نسمة . الأراضي البلقانية التي تحت إدارة العثمانية مباشرة 344 155 كم^2 – و 000 954 6 نسمة (أوروبا العثمانية وبضمنها الممالك التابعة لها : 632 311 كم^2 – و 000 732 10 نسمة) .

كانت إنكلترا قرابة عام 1900 في المرتبة الأولى في العالم في جميع المجالات تقريبا – عدا الجيش البري – لكن الفروق بين الدول العظمى الأخرى ، أخذت في

التضاؤل . فمثلا ؛ أمريكا وألمانيا ، اقتربتا من إنكلترا بدرجة كبيرة في المجال الصناعي ، بل وأوشكتا أن تسبقاها . وبينما كان الجيش البري الألماني يحتل المرتبة الأولى بشكل لا يقبل القياس ، كانت البحرية الألمانية كذلك على وشك أن تحتل المرتبة الثانية بعد إنكلترا . كانت الصناعات الثقيلة في روسيا في مرحلة التأسيس ، وهذه تحتاج إلى رءوس أموال وخبرة تكنولوجية أجنبية كبيرة . كانت فرنسا ثم روسيا تليان ألمانيا في قوة الجيش وقدرته . كانت اليابان قد أسست جيشها وأسطولها الحديث وصناعتها الثقيلة ، وسحقت الصين حديثا واستولت منها على أقطار عديدة . كانت تستعد الآن للوقوف أمام التقدم الروسي في الشرق الأقصى . رفعت أسبانيا يدها في 1898 عن قارتي أمريكا وآسيا ، واستولت الولايات الأمريكية من أسبانيا – التي انهزمت أمامها – على كوبا ، بورتوريكو ، الفلبين . كانت الولايات المتحدة قد ضمت إليها حديثا إمارة جزر هاواي الكائنة في أوقيانيا ، ووطئت القارات الأخرى وسبقت ألمانيا في معدل سرعة نهضتها ، كانت في مقدمة الدول العظمي . إيطاليا ، خسرت في الحبشة ، وأخذت الصومال من العثمانية ، واتجهت أنظارها نحو الأراضي العثمانية كليبيا واليمن . كان وضع الصين كوضع الدولة العثمانية ، بل أسوأ . لأنها بقيت بعيدة جدا عن حركات التجدد التي حدثت في العثمانية . جميع الدول الإمبريالية الاستعمارية ، كانت قد اتجهت أنظارها نحو 10 ملايين كم² من كل من الأراضي العثمانية الشاسعة في الشرق الأوسط وعلي الأراضي الواسعة للإمبراطورية الصينية في الشرق الأقصى كذلك . كانت الدول الأفريقية المستقلة عبارة عن فاس ، الحبشة ، وجمهوريتي ليبيريا وأفريقيا الجنوبية ، وبعد سنوات ستبقى ليبيريا والحبشة فقط من هذه الدول . أما في قارة آسيا فقد كانت الدول المستقلة هي : تركيا ، إيران ، الأفغان ، الصين ، اليابان وسيام فقط .

بوفاة عالي باشا في 1871 ، فقد الاستقرار في الإدارة المركزية في الدولة العثمانية . تمكن عبد الحميد الثاني من تأمين الاستقرار عام 1880 فقط ، وبصورة قطعية قرابة عام 1882 . الانتصار في الحرب اليونانية عام 1897 والذكرى الـ 25 لجلوسه عام 1900 والاحتفال بها من قبل دول العالم بشكل باهر بإرسال الهدايا والتهاني ، كانت القمة في حكم السلطان حميد . سوف تبدأ مرحلة التقلص بعد هذا التاريخ . عصيان مكدونيا 1902 - 1903 وعدم ارتياح الطبقة المثقفة في الداخل ، خاصة لدى الشباب الجامعي ،

الرغبة في اقتسام ، وإن أمكن ، الاستحواذ على السلطة تحت شعار الحرية ، كانت من دواعي إضعاف البادشاه .

ما الصفة المميزة لإدارة السلطان عبد الحميد الشخصية التي استمرت 30 عاما على جزء كبير ومهم من العالم؟ ما مميزاته ؟ سوف تجيب عن ذلك بإيجاز .

يمكن أن يقال إن أهم ميزة هي كيفية إرتباط جميع مؤسسات الإمبراطورية وكذلك كل القضايا بشخص البادشاه . إن تحقيق طراز إداري طويل الأمد كهذا في دولة تتشكل من إتحاد شعوب مختلفة ، وليست دولة تتكون من شعب واحد ، لم يكن بفضل استعمال القوة القسرية ، على عكس ما يُدعى . كانت القوة القسرية موجودة طبعا ، الشرطة (بالعثمانية الضابطة) ، تحريات قوات الأمن الوطني (بالعثمانية خفيّة) ، لكن ليس أكثر من ذلك . لم يستعمل الجيش أبدا ف ي السياسة الداخلية . كان استعمال الجيش في السياسة الداخلية من أساليب الإتحاديين ، (إتخاذهم مؤامرة حسين عوني باشا في 1876 نموذج واضح) . استعمل الجيش فقط ، تجاه الزمر المسلحة التي عصت ضد الدولة بشكل سافر . كذلك ، لم تكن في هذه الإدارة الشخصية عقوبة الإعدام أو أسلوب الاغتيال . عقوبات السجن كانت نادرة وخفيفة . كانت عقوبات السجن لأسباب سياسية تستبدل بعد مدة وجيزة وفورا إلى نفي في أي مدينة من مدن الإمبراطورية تحت اسم « الإقامة الجبرية » . لم يكن عدد معارضي وأعداء السلطان الألداء قليلين . وحتى بين المسلمين والأتراك ، لم يكن عددهم قليلا . واستمرار الإدارة الشخصية طيلة هذه المدة الطويلة – رغم ذلك – لم يكن إلا على أساس شخصية السلطان . استعمل السلطان عبد الحميد صفة رئاسته لكل مسلمي العالم ، كخليفة وصفة كونه حاكما شرعيا للعثمانيين ، بمهارة فائقة . وبقدر ما طغى تأثيره على الأفراد ؛ طغى على الجماعات والأقوام والملل والشعوب كذلك . هنا يكمن سر دهائه . أكد بمهارة منقطعة النظير أنه أقدر مسلم وتركي على وجه الأرض . ولتوضيح شخصيته يكفي أن نقول ، صار من الواضح أنه أصبح رمزا للمسلمين والأتراك في نظر أعداء المسلمين والأتراك ، وأصبح هدفهم القضاء على هذه الشخصية ذات القدرة المتميزة ، إذ إن القضاء عليه سيؤمن لهم المكسب الرئيسى الذي يتمنونه ، وسيمكنهم بعد ذلك من القضاء على

المسلمين والأتراك بسهولة . وما أصاب المسلمين والأتراك بعد إسقاطه يكفي لإثبات كونه سياسيا قديرا . لقد استطاع عبد الحميد أن يكون رأيا عاما مؤداه أن الذين يشككون في صفاته هذه هم خارجون على الإسلام والعثمانية والأتراك . إن نظاما هذه فلسفته ، أثبت فعليا في الربع الأخير من العصر 19 قابليته للتطبيق . ترى ما وضعه عند التطبيق ؟

كان السلطان عبد الحميد يعزل وينصب الصدور الأعظم والنظار كيفما يشاء . كان من النادر أن يستشير الصدر الأعظم ويطلب رأيه حول النظّار . ويعتبر ذلك مخالفا لأسس التنظيمات . هكذا ربط النظار بشخصه وسلخ من الصدر الأعظم صفة كونه رئيسا تنفيذيا وثبت وضعه على أنه رئيس لهيئة النظار (بالعثمانية هيئة وكلاء) . كل ناظر ، كان مسئولا أمام شخص الخاقان . درجة مسئوليته تجاه الصدر الأعظم كانت مبهمة . أخذت الرقابة التي وضعت على الصحافة والنشر ، الصحف ، المجلات والكتب تشتد . صار الكتاب لا يطبع ما لم يراجع من قبل لجنة ذات صلاحية . كان أعضاء اللجنة ذات الصلاحية هذه متعصبين أكثر من البادشاه . حدث عدة مرات عدم الموافقة على طبع كتب لا محظور فيها . أصبح السلطان عبد الحميد أسيرا للنظام الذي أسسه هو ، ظل ساكتا تجاه تعاظم الاستبداد . أخذت تقارير الخفية (التحريات) ، خاصة في المدة الأخيرة ، في التنكيل بالأفراد وتسبيب نفيهم بدون داع . الحقيقة أن المنفيين من موظفي الدولة ، كانوا يتقاضون رواتبهم في المنفى ؛ لكنهم كانوا يتقاضون هذه الرواتب دون عمل وإضافة إلى ذلك ، كانوا يفارقون عائلاتهم ، إلى جانب هذا كانت هناك حالات نفي ممتازة حيث كان يعين هؤلاء في أماكن نائية ، يبقون فيها سنين ، ويمكنهم استصحاب عائلاتهم معهم . كان من هؤلاء ولاة إيالات وموظفون من ذوي الرتب العالية جدا .

وإذا قيل ما مدى ارتياح الشعب لهذا النظام وهذه الفترة من الحكم ؟ فإنه من المؤكد أن الشعب كان مقتنعا بأنه يساس بشكل جيد ، وأن الدولة تدار من قبل صاحبها الحقيقي والشرعي . وهذا يثبت أن فكرة التنظيمات وخاصة فكرة المشروطية ، لم تسر في سواد الشعب ، وبقيت منحصرة لدى طبقة المثقفين . لكن السبب البارز لهذا الارتياح هو سير التضخم في خط قريب جدا إلى (الصفر) . كانت الحياة رخيصة

إلى درجة لا تصدق . لم تكن الحاجات متعددة في الربع الأخير من القرن 19 ، كما في العصر 20 ، كانت محدودة . كان الشعب قنوعا ، وكان يؤمن عن طيبة قلب بأن الرخاء والنعيم هما فقط من حق العائلات المتميزة . كان يعتبر خطيئة ، أن تتطلع عائلة لا تملك الثروة ، إلى رخاء العائلات الكبيرة . كان الشعب متدينا جدا . كانت الكتلة المسلمة من الشعب الأكثر وطنية وإخلاصا في العالم ، هم أتراك العثمانية . لا يتراخى أبدا في قضاء عبادته ، ويقوم بها حبا في الله ولله فقط . المساكن كانت رخيصة . كل عائلة كانت تملك بيتا له باب خارجي . لا يسكن المسلم التركي في عمارة . كان بالإمكان تحويل الليرة العثمانية الورقية الواحدة إلى ليرة ذهبية واحدة في جميع أنحاء العالم . وكان لا يزال النقد الذهبي والفضي يتداول أكثر من العملة الورقية .

كانت الزمرة غير الراضية هي الشباب والضباط الذين يدرسون في المدارس العالية والمتميزة . إن عدم الرضى الكبير والذي أخذ بالتعاظم ، كان في « مكتب حربية شاهانة » (المدرسة الحربية الإمبراطورية) والمدرسة الطبية العسكرية الإمبراطورية . كان هنالك الكثير من الذين يشكون من النظام بين شبان المدارس المتميزة الأخرى كالمدرسة الملكية (المدنية) الإمبراطورية والمدرسة الطبية الملكية (المدنية) الإمبراطورية ، ومدرسة الأركان الحربية الإمبراطورية ، وكذلك بين شبان الكتب السلطاني (كلية غلطة سراي الإمبراطورية) الممتازة الوضع جدا (رغم عدم كونها مدرسة عالية) . ويظهر أن عدم الرضا في المدارس الأخرى والمدارس الدينية العالية ، كان في حده الأدنى . ويجب أن لا يخطر على البال أن الطلاب كافة مخالفون للنظام ، فقد كان هذا غير ممكن ، حيث إن أولاد القائمين بإدارة النظام يدرسون في معظمها . لكن الشباب معارضي النظام ، أخذوا في بث الدعاية بين رفاقهم . وهذه الدعاية التي كانت عام 1900 غير مهمة ؛ توسعت وعظمت بشكل لا يصدق في الأعوام القليلة التي تلت هذا التاريخ . ومما يلفت النظر ، أن أول من قام بالدعاية المضادّة من الشباب ، هم الشباب القادمين من روسيا ، أولاد العائلات القاطنة مدة من الزمن في أوروبا ، أولاد الأقوام المسلمة غير التركية . كانت الناحيتان اللتان أولاهما السلطان عبد الحميد أهمية مكثفة في السياسة الداخلية ، هما المعارف في الدرجة الأولى ، وفي الدرجة الثانية الإعمار . قال الصحفي الشهير حسين جاهد يالجين ، أحد كبار أعداء نظام السلطان حميد وأحد

أركان جمعية الاتحاد والترقي: « لو كان بالإمكان الحفاظ على السلطة السياسية بالإعمار ، لبقي السلطان حميد محافظا على عرشه حتى وفاته » . إذن ، هل كان السلطان قد أهمل الحياة الثقافية ؟ إن الإجابة عن هذا السؤال أمر معقد جدا ، فمن الحقائق المسلم بها أن الحرب الثقافية كانت مجهولة في ذلك التاريخ . لكن فتح المدارس كان مستمرا ، وحسب أقوال محرري الاتحاد والترقي أخيرا ، فإن عدد متعلمي القراءة والكتابة قد زاد خمسة أضعاف ، وفي بعض المدن عشرة أضعاف ، خلال فترة الـ 33 سنة من جلوس السلطان حميد حتى خلعه ، وكانت الثقافة والتعليم يتطوران . كان الإعجاب بأوروبا يزداد . كانت أوروبا في هذه الآونة في قمة عظمتها . العثمانية كانت تذكر الأزمان التي كانت هي فيها في تلك القمة بتحسر . كان الشاب العثماني يتساءل بينه وبين نفسه ، لماذا يتدنى اليوم . كان يرى أن العلة في النظام ، ويجدها في عدم نيل الحرية . لتأت الديمقراطية ، وكل شيء سوف يستقيم في طريقه . كانت هذه فكرة مدحت باشا ، وكان مدحت باشا بطلا بالنسبة لهؤلاء الشباب . كان الناظر ، يشخص الأمر على الفور ، بأن الشخص الفرد والمطلق الذي يوقف هذا النظام القاصر على قدميه ، هو عبد الحميد الثاني . إذن ، كان يجب إسقاط السلطان عبد الحميد .

لاشك أن للمثقفين حقا في بعض ما ينقلونه . لكن التأثيرات الخارجية كانت قوية كذلك . إن هذه التأثيرات الخارجية ، لم تكن تفكر في سلامة العثمانية . سوف يدركون ذلك بعد فوات الوقت تماما . لاشك أن الشباب كانوا حريصين على السلطة . قسم منهم كان يؤمن من صميم قلبه بأن شعيرات لحية السلطان حميد البيضاء أو الممتزجة بالبياض تدير الدولة خيرًا مما يديرها وزراؤه ومشيروه وقضاته العسكريون .

استفحل الشعور بعدم الرضا بين الضباط والشباب . إن عدم الرضا الذي كان نادرا بين العقداء ، وقليلا بين الرواد (بكباشي) ، أخذ في التعاظم بين الرتب الأصغر ، بين الذين تخرجوا حديثا في المدرسة أو الأكاديمية الحربية ، خاصة بين الذين خدموا في البلقان المجاورة لأوروبا . معارضو النظام بين الجنرالات كانوا معدومين تقريبا . سبب ذلك مادي . والسلطان هنا مذنب من ناحية وفي نفس الوقت معذور من ناحية أخرى ؛ معذور ، لأن موارد الدولة كانت محدودة ، مذنب ، لأنه لم يدرس سبب

عدم الرضى لدى الضابط الشاب ليعالجه . كان سبب عدم الرضا هو أن الدولة بدأت ـ خاصة في السنوات الأخيرة ـ بدفع 6 رواتب بدلا من 12 راتبا إلى الموظفين ومن بينهم الضباط . وهذه الحالة خفّضت مستوى المعيشة إلى النصف . الحقيقة ، أنه كان بالإمكان ، في ذلك الوقت ، المعيشة بالرواتب الستة دون الحاجة إلى أكثر . لكن الموظفين أخذوا يشعرون بأنهم دائنون للدولة وأن الدولة مدينة لهم . ومن ناحية أخرى ، كان الفرق بين الحد الأدنى والحد الأعلى لرواتب الإمبراطورية العثمانية كبيرا جدا ، كما كان الأمر كذلك في جميع أقطار العالم . وكذلك اليوم هو كبير جدا ، لدى أقطار العالم الشيوعية والرأسمالية . زاد البعد بين الحد الأدنى والحد الأعلى بشكل خطر في الجمهورية التركية فقط . كان راتب المشير (الماريشال) في السنوات الأخيرة لعهد السلطان حميد ، 300 قطعة ذهبية شهريا ، وراتب اللواء 60 ، والعقيد 25 ، الرائد 12 ، النقيب المتقدم 10 ، النقيب 5 ، الملازم الأول 3 ، الملازم 2 ليرة ذهبية . وبسبب رخص تكاليف الحياة ؛ فإن الحاجيات التي تصنع وتشترى اليوم بـ 2,5 ليرة ذهبية ، كان ممكنا صنع وشراء ما يعادلها في ذلك الحين بـ ليرة ذهبية واحدة . رواتب الضباط في إنكلترا للسنوات ذاتها ، الفريق الأول 240 ، اللواء 90 ، العقيد 32 ، الرائد 23 ، النقيب 20 الملازم الأول والملازم 7,5 إلى 9,5 (للخيالة والمشاة) ليرة ذهبية شهريا . ولو قورنت مع رواتب الضباط العثمانيين لشوهد فورا التوافق في رواتب الرتب العليا ، وعدمه في الرتب الدنيا . وبذلك يكون كل من الملازم والنقيب العثماني مقتنعا بأنه لم يتسلم حقه ، ولا يدخل في اعتباره كون إنكلترا أغنى إمبراطورية في العالم تمتص موارد 6 قارات . أصبح الوضع وخيما عند هبوط الرواتب إلى مرة في كل شهرين . وربما زاد من وخامة الأمر أن الجيش الأول المتمركز في إستانبول ، وخاصة الفرقة الأولى التي مقرها في ييلدز التي تشكل أكبر قوة ضاربة للإمبراطورية ، أخذت تتقاضى 12 راتبا في أكثرية الأحيان . أما ضباط الجيش الإمبراطوري الثالث في مكدونيا ، فكانوا يتقاضون راتبا واحدا في كل شهرين ، رغم أنهم وجها لوجه أمام العدو ، وفي صراع مستمر ليلا ونهارا مع الثوار . أخذ كل ضابط من الضباط الشباب في الجيش الثالث ـ الذي كان كل واحد منهم في حالة حرب فعلية مع المتمردين ـ يستعدون للمعارضة العلنية ويفتحون آذانهم لمعارضي النظام . وشيء آخر ، لم يكن هنالك من

لم يسمع بأن الضباط والموظفين المقربين للسراي كانوا وما زالوا يتقاضون رواتب إضافية وشهريا من الخزينة الخاصة ، أي من جيب السلطان الشخصي . كان السلطان حميد يبدل بصورة مستمرة الضباط الموجودين في ييلدز وفي إستانبول ، وينقلهم من جيش إلى جيش ، كان تفكيره أن مصاريفهم في العاصمة إستانبول كبيرة ؛ لذا يجب إرسالهم إلى المناطق النائية ليعتادوا على التقشف والاقتصاد ، لكن هذه الفلسفة لم تعد تهمهم في شيء . لم يعثر على حل لذلك ولم يتيسر إيجاد ما يصلح هذا الوضع وكما قال الأستاذ مكرمين خليل ييناج Ord . Prof Mukrimin Halil Yinaç « سقط السلطان حميد لعدم تمكنه من دفع رواتب الضباط في حينه » .

إن التهامس ضد النظام في عام 1900 لم يكن يستهدف شخص البادشاه . اشتد الكلام ضد الخاقان مع حلول العصر 20 أخذ المثقفون يبحثون عن الجو الحر لنظام التنظيمات خلال الأعوام 1839 – 1871 . ولم يفكروا في أن ذلك الجو قد نتج – ولو جزئيا – من عظمة الإمبراطورية في تلك السنوات . تقبل الناس هذه الفكرة – ولهم كل الحق في ذلك – وهي أن الدولة كانت في ذلك الدور تملك رجالا إداريين مقتدرين وإن هذا الدور خال منهم ، إن الإداري الداهية الفرد اليوم ، هو السلطان عبد الحميد . لكن الأشخاص المحيطين به لم يكونوا يساوون ربع القرش . كان واضحا أن الرجال الذين يدير البادشاه الدولة بواسطتهم ، لم يكونوا على مستوى الرجال في الأدوار الماضية ، شاع اصطلاح « قحط الرجال » ولكن اتضح بعد 1908 أن الشباب الذين وضعوا هذا النقد لم يكونوا حتى على مستوى رجال السلطان حميد علما وتجربة .

وبناء على ذلك فإن السلطان حميد ، كان قد وسّع وطور المعارف والإعمار بشكل كبير . لكن ذلك لم يكن عنصرا كبيرا في الاعتبار ، كان العنصر المتفق عليه تقريبا هو كون السلطان عبد الحميد داهية في السياسة الخارجية ، هذا العنصر شهد له به حتى أعداؤه .

كان البادشاه ، الذي أخذت عرى الروابط تتباعد بينه وبين طبقة الشباب من شريحة المثقفين الذين ثقفوا بمعارف التنظيمات التي زودتهم بالثقافتين الشرقية والغربية ، معتمدا

على الشعب بقوة . كان يعلم أن جميع الأقوام المسلمة في الإمبراطورية تكن له المحبة الصادقة ، وأن الذين لا يدينون بالإسلام يؤمنون بأنه شخصية جديرة بالاحترام يخشى جانبها . وخلال هذه الفترة التي تفشت فيها الفاقة (بالفرنسية : disette) والمجاعة (بالفرنسية : Famine) في معظم الأقطار العالمية ، ومات الملايين في إيرلندا والهند بسبب قلة التغذية ؛ لم تكن في الدولة العثمانية مشاكل من هذا القبيل . لم يكن هنالك شخص جائع وبلا مسكن . كان التعاون الاجتماعي متينا بفضل النظام القويم للدين الإسلامي في هذا الجانب . كان طراز الحياة التي يحيونها ، إسلامية . لا يترك أعزب أو أعزبة في محلة أو في أية قرية ، إلا وزوّجوا ، يؤمن عمل للعاطلين . لا يسمح للشباب بأن يكونوا عاطلين وشذاذ آفاق . وبسبب قلة النفوس وعدم اشتغال المرأة ، كانت مشكلة البطالة في حدها الأدنى . موسرو المحلة ، القرية وأشرافها كانوا الحماة الطبيعيين للمعوزين . وبسبب ذلك ، كان الموسرون يلقون احتراما من قبل الشعب كرجال الدولة . استمر هذا البناء الاجتماعي ، حتى الحرب العالمية الأولى . ولذلك فلم يكن ينتظر رد فعل من قبل الشعب ، تجاه النظام الحميدي . وقد جذب هذا اهتمام وأسف معارضي حميد من الاتحاديين . وحاولوا كثيرا استمالة الشعب إلى طرفهم .

السلطان حميد ، كان بالنسبة لأوروبا رجل دولة ، غير محبوب ، يمسك في قبضته ملايين المسيحيين ، وبصفة خلافته ، له نفوذ على رعايا الدول الأوروبية المسلمين ، يثير الفتن بين الدول المسيحية ، لكنه رجل دولة يجب الحذر أو تجوز الخشية منه أو الشعور بالاحترام تجاهه . وكلما ابتلعت الدول الأوروبية قطرا إسلاميا ، زادت عداوتها تجاه السلطان عبد الحميد . كانت خشيتهم الكبرى من صفة خلافته . كان على رأسهم إنكلترا التي كانت مصممة على إلغاء الخلافة ، أو على الأقل نقل الخلافة إلى شخص آخر ، وإن أمكن إلى مسلم صديق لإنكلترا . وجود الخلافة لدى أقوى حكام المسلمين ، كان يزيد من غضب إنكلترا ، إذ كانت إنكلترا آنذاك الدولة التي تشتمل إمبراطوريتها على أكبر عدد من المسلمين في العالم . والعثمانية ، كانت الثانية .

السلطان حميد ، الذي وجد منذ أوائل أيام سلطنته أنه لن يتمكن من إيجاد مجال للتفاهم المتقابل مع الدولة العظمى الأولى في العالم ، حاول مضطرا أن يجذب الدولة العظمى الثانية لصفّه . إذ كان هذا ، قانون دبلوماسية رشيد باشا في التنظيمات . إذ

إن سياسة الانفراد كانت ستجلب على العثمانية ما جلبته على الصين .

الدولة العظمى الثانية ، هي الدولة الاتحادية المغرورة المكونة من إمبراطورية ألمانيا – ملكية بروسيا . كان لألمانيا كذلك مصالح كثيرة جدا في الاقتراب من العثمانية . الإمبراطور – الملك ولهلم ، زار السلطان حميد مع إمبراطورته مرتين بصورة رسمية . لم تكترث برلين بعدم قيام البادشاه برد هذه الزيارات . أبناء الإمبراطوري وضمنهم الأمير – ولي العهد ، زاروا السلطان حميد مرات عديدة . زار الإمبراطور السلطان حميد بصورة رسمية في 1889/11/2 و 1898/11/30 . أحدثت هذه الزيارات أصداء كبيرة في جميع أنحاء العالم . اغتاظت لذلك إنجلترا وفرنسا ، لكن لم يكن هنالك بد من ذلك ، ولا يمكن لتركيا أن تبقى وحيدة . كان أعداؤها يتمنون إمبراطورية عثمانية وحيدة لتكون لقمة سائغة . زار البادشاه في تواريخ مختلفة كلا من 3 أبناء الإمبراطور ، وأخيه ، وأخته كذلك . والملكة فكتوريا كذلك ، أرسلت إبنها وحفيدها ، ولي عهد النمسا – المجر ،إمبراطور وإمبراطورة البرازيل ، ملك إيطاليا Vittorio Emanuele لمرتين ، أبناء القيصر ، إخوته ، ملكة رومانيا ، ملك وملكة السويد – النرويج وثم ولي عهده ، 3 أمراء إمبراطوريين من اليابان ، الرئيس السابق للولايات الأمريكية المتحدة لمرتين ، شاه إيران وأمراؤه ، ، ملك الصوت ، حكام ألمان كثيرون وأمراؤهم ومن فرنسا Poincaré وكثيرون آخرون دخلوا سراي ييلدز وخرجوا منه . وكلهم صرحوا بأنفسهم فيما بعد بأنهم سعدوا بلقاء البادشاه . أما أمير بلغاريا Ferdinand – الذي كان في الأصل ألمانيا – فكان يرتدي بفخر ملابس مشير عثماني ومرافق البادشاه ويكتب التقارير إلى ييلدز بتوقيع « عبدكم فرديناند » وكان يقبل رداء البادشاه في إستانبول . أما أمير قرة داغ نيقولا الكبير السن فلم يتمكن من ترك ما تعوده سابقا ، وأخذ يوقع على الرسائل حتى 1908 بتوقيع « عبدكم نيقولا » هذا ، رغم كونه حاكما مستقلا منذ 1878 . وكان معلما بالأصل ، تسلم راتبا سريا من السلطان حميد طيلة مدة بقائه على قيد الحياة . أما أمراء العالم الإسلامي ، فكانوا يدخلون قصر ييلدز بخشوع ، رغم كون أكثريتهم من الرعايا الإنكليز ، إذ إنهم كانوا فقط يحيّون الحاكم الإنكليزي ، بينما كانوا ينكبون على الأرض – رغم منع السلطان حميد ذلك بصورة قطعية – في حضور أمير المؤمنين .

منع التدريس باللغة التركية في إيران لفترة ما ، رجا البادشاه بنفسه مظفر الدين شاه فصدر الإذن باستئناف التدريس بالتركية . كان السلطان حميد قد حصل على أعلى الأوسمة ودرجات الشرف في العالم . إن هذه الأوسمة ، نهبت في نهيبة ييلدز عام 1909 .

أقيمت علاقات صداقة مع النمسا ـ المجر . روسيا ، التي لديها مشاكل كبرى في الشرق الأقصى وآسيا والتي تخشى ألمانيا كثيرا ، أصبحت محايدة ، لا يخشى شرها تقريبا تجاه العثمانية . لم يكن السلطان حميد يميل إلى فرنسا ، بسبب كونها جمهورية ولترويجها الآراء الثورية وتسميته باسم « السلطان الأحمر » . لكنه كان يحب الثقافة الفرنسية ، والموسيقى الإيطالية . كانت الثقافة الغربية السائدة في العثمانية ، هي الثقافة واللغة الفرنسية . الإنكليزية ، كان يتعلمها الضباط البحريون فقط تقريبا . أخذ عدد متعلمي اللغة الألمانية بين الضباط الأركان في الازدياد . أدخلت اللغة الألمانية مع اللغة الفرنسية في المدارس العسكرية . أما في المدارس البحرية ، فكانت اللغة الأجنبية ، هي اللغة الإنكليزية منذ القدم . اتخذ محمود الثاني ، النظام الفرنسي أساسا لتكوين الجيش التركي الحديث . وكان الجيش الفرنسي أساسا حتى 1871 أعظم جيش في العالم . حل محله في التدريس بعد ذلك ، النظام البروسي . استدعي الكثيرون من الضباط الألمان وبدأوا في التدريس في المدارس العسكرية . ويمكن القول بأن النظام البروسي ظل معتبرا حتى 1945 . جدد النظام بعد هذا التاريخ على أساس الطراز الأمريكي .

كان قد تم تأسيس التوازن ، سواء في أوروبا أو في البلقان . أصبح غير ممكن بعد الآن لإنكلترا ، روسيا ، فرنسا ؛ أن تستقطع أجزاء من العثمانية طيلة استمرار النظام الحميدي . إذ لم يكن بإمكان ألمانيا ، النمسا ـ المجر ، استقطاع شبر من الأراضي دون إعطاء حصة لإيطاليا . أما اقتسام كهذا ، فلم يكن ممكنا . وعلى هذا الأساس كان شخص السلطان حميد عاملا أساسيا وضمانا لسلامة وصيانة وحدة الإمبراطورية ، كشخص Franz joseph في النمسا . ولكن على الجانب الآخر أخذت النظرة إلى شخص السلطان حميد تتجه إلى تقييمه على أنه مانع كبير للدول الاستعمارية وعلى رأسها إنكلترا ، أخذت فكرة إسقاط هذا الحاكم بصورة مطلقة ، تكتسب ثقلا في لندن وباريس .

كان نجاح السلطان حميد الكبير في السياسة الداخلية ، يتمثل في ربطه الأقوام المسلمة في الإمبراطورية ، مع الدولة والعرش بشكل متين . كان مخلصا في عمله هذا ، والأقوام المسلمة التي لمست هذا الإخلاص ، قابلته بالمثل . إن سياسة إثارة الأقوام الإسلامية غير التركية في الإمبراطورية العثمانية ، وفصلهم عن الإمبراطورية والسيطرة عليهم تحت شعار القومية التي انتقلت عن الدول الإمبريالية الغربية ؛ لم تعط أية نتيجة جدية . لم تكن لدى الدول الغربية نية للاعتراف باستقلال أي شعب إسلامي ، وسوف لا تكون لديها هذه النية فيما بعد ذلك بكثير . ولذا ، فإن كل قوم مسلم إنفصل عن العثمانية ، كان لقمة طبيعية للاستعماريين الغربيين .

إن الناطقين باللغة العربية ، هم أكثر الأقوام الإسلامية كثافة في النفوس في الإمبراطورية ، بعد المسلمين الناطقين باللغة التركية . كان العرب راضين عن إدارة السلطان حميد . استمر السلطان حميد في السير على التقاليد العثمانية القديمة حول عدم المساس بتقاليد وأعراف وعادات العرب . كان العرب بالنسبة للعثمانيين « القوم الشريف » بل « أشرف الأقوام » بسبب ظهور الرسول ﷺ . الحقيقة أن اللغة التركية ، كانت معتبرة في جميع الأقطار العربية . لكن اللغة العربية كانت تدرس كذلك في جميع المدارس الدينية في الأناضول وروملي . وكانت اللغة العربية تدرس إجباريا مع الفارسية دون استثناء في جميع المدارس المتوسطة وجميع المدارس المدنية والعسكرية ذات الدرجة العالية التي فتحتها التنظيمات . لا يوجد تركي أنهى الدراسة المتوسطة (رشدية) لم يدرس العربية .

وكانت كل من اللغتين العربية والفارسية وآدابها إجبارية أيضا في المدارس الثانوية (إعدادي) على شكل أوسع .

كان الأكراد مرتبطين بإخلاص ، راضين عن البادشاه الذي حماهم ولم يقدمهم لقمة للأرمن . كان الجركس والأقوام القفقاسية الأخرى ، على الوضع نفسه . أنقذتهم العثمانية من سيف الروس ، فتحت لهم أبواب الدولة . وقد كانت والدة السلطان حميد ووالدات العديد من السلاطين ، من الجركس .

كان من الممكن للمسلم في إستانبول – دون أي تفريق بين التركي وغير

التركي – أن يعتلي أي مقام من مقامات الدولة ، عدا مقام السلطنة . كان بإمكانه بسهولة أن يكون صدرا أعظم . وبإمكانه أن يكون ضابطا ، جنرالا وماريشالا . عمل الأتراك في العسكرية بأكثرية فائقة ؛ كان بسبب عدم تحمل الأقوام المسلمة الأخرى ، مشاق المدارس العسكرية نسبيا ، وعدم رغبتهم في ذلك . لم يكن التفريق سببا في ذلك ، إذ لم يكن التفريق موضع بحث على الإطلاق . ومع أن الأكثرية الساحقة للعسكريين كانت من الأتراك ، كان هنالك بين الضباط الجنرالات والماريشالات ، عدد غير قليل ممن هم من أصل عربي ، ألباني (عرنووط) ، كردي ، جركسي ، تتري (تركي شرقي) ، بوشناق ، أباظة ، جاجان وبينهم من كانت له شهرة كبيرة . كان للبوشناق ، الجركس وخاصة الألبانيين ولع في دخول المدارس العسكرية كلما سنحت لهم الفرص وكان هؤلاء يستتركون بسهولة . أن استتراك العرب ، أي تركهم اللغة العربية وتكلمهم التركية كلغة أم أساسية ، كان أمرا صعبا . وفي مقابل ذلك ، استعرب ملايين الأتراك بعد عدة بطون سواء في عهد السلاجقة أو في الأدوار العثمانية في كل الأقطار العربية تقريبا . استعراب الأتراك ، جرى بسهولة كبيرة .

لاشك أن سياسة السلطان عبد الحميد ، الدقيقة والمخلصة تجاه الأقوم العربية ، كانت من إيجابيات خلافته . لكن عنايته الخاصة بالقوم الألباني كانت معلومة . وبسبب استقرار الدول البلقانية الجديدة في 1878 هناك ، وقرار معاهدة برلين بإجراء الإصلاح لصالح العناصر المسيحية في مكدونيا ، رأي البادشاه ضرورة الاستناد على الألبان المسلمين في غرب روملي على أطراف البحر الأدرياتيكي ، لدرجة أنه اشترط ذلك للحفاظ على روملي . ويقال إن إبقاء السلطان حميد لآخر صدر أعظم له ، التركي الأصل والذي صار ألبانيا على مر الزمن ، المنحدر من عائلة ألبانية عريقة وقديمة جدا Avlonya آفلونيالي – زاده لر ، الإداري اللّامع محمد فريد باشا ، سنوات طويلة في الحكم له علاقة بسياسته هذه .

وقع في 10 تموز 1894 في مدينة إستانبول ، أحد أكبر الزلازل في تاريخها . كانت كارثة كبيرة . أصلحت الأماكن المخربة بسرعة ، أوليت عناية خاصة بالمتضررين . وبينما كان طبيعيا ، في مثل هذه الكوارث ، أن تضعف الإدارات ، فإن هذا الوضع قد زاد في اعتبار السلطان حميد .

أصبحت ييلدز مدينة مستقلة داخل إستانبول . كان يعيش بداخلها عشرات الألوف من الناس والجنود . كل شيء صار مرتبطا ومرهونا بييلدز . أصبحت الدولة تدار من السراي بشكل لم يسبق له نظير . انكسرت سلطة الباب العالي ، وأصبح لا يمكنه البت في شيء دون استشارة السراي . صار واضحا أن البادشاه ، لم يعد يتمكن من الاعتماد على تسليم إدارة الدولة إلى زمرة النظار الذين خلعوا عمه وسكتوا على مقتله . كان تطورا سيئا جدا بلا شك. لم يمكن منع تحكم ييلدز في كل شيء . بالعكس فقد ازدادت حصته في التدخل . لم يكن في أي وقت من الأوقات ، لا سراي طوب قابو للقانوني ، ولا جانقايا لأتاتورك ، مرجعا فردا بهذا الشكل . هذا الوضع أضعف الخاقان ، ضعضع اعتباره . إذ بدأت كل النواقص تعزى إلى ييلدز ، فبدلا من أن يكون المرجع الطبيعي لشكاوى الشاكين ، الباب العالي ، اتجهت نحو ييلدز . ومع أن نية السلطان عبد الحميد ، لم تكن هذه بلاشك ، فإن ذلك زعزع اعتبار العائلة . وكرد فعل لذلك ، أخرج الاتحاديون إلى الساحة في هذه المرة ، رجل دولة من طراز ضعيف - السلطان رشاد - لقد كان من طراز لا مثيل له في أية دولة أخرى . إن هذا الطراز سبّب في هذه المرة ضربة معاكسة ثانية للسلالة . أما السلطان وحيد الدين الذي خلفه ، فقد فقد كل اعتباره لاحتلال العدو لمدينة العرش ، على عهده . ودنت نهاية أقوى السلالات استقرارا في التاريخ .

والمعلوم ، أن السراي يقسم إلى قسمين ، مابين همايون وحرم همايون والقسم الثاني هو دار البادشاه الذي يسكنه مع عائلته ، وليس له علاقة بأمور الدولة . ما بين همايون (البلاط) ، هو القسم الذي يقوم فيه البادشاه بواجب رئيس الدولة . والآمر الأكبر لهذا القسم ، يسمى مشير المابين . بقي غازي عثمان باشا ، ناظر السراي حتى وفاته في هذه الماريشالية . وعند وفاة عثمان باشا ، آخر مشير للمابين في التاريخ العثماني ، احتفظ السلطان حميد بهذا المنصب شاغرا ، مدة 8 سنوات ولم يعين خلالها أحدا . لكنه لم يلغ المنصب . والآمر الكبير الثاني للمابين هو باشما بينجي (رئيس المابين) والموظف الثالث هو كاتب المابين الهمايوني (سر كاتب حضرت شهرياري) . إن هذه المناصب كالنظارات ، والذي يشغلها يصبح له نفوذ أكبر من النظّار . يحتوي السراي على عسكريين مرتبطين رأسا بشخص عبد الحميد الثاني الذي يسمى في السراي

« هنكار » ، وبين الشعب « بادشاه » ، ورسميا « خاقان » ، ولدى العالم الإسلامي « خليفة روي زمين ، أمير المؤمنين » ، كما يحوي على مشاورين من كل صنف ، مئات المرافقين وضباط الخدمات ، دائرة رئاسة الكتابة (التحرير) التي تحوي على تشكيلات ، أكبر من النظارة ، مكاتب البرق ، غرف الشفرة ، غرف الترجمة والمترجمين ، أركسترا (جوقة) خاصة ، باندو ، فرقة الموسيقى التركية (الساز) ، جيش من الأطباء ، وتشكيلات الأمن الوطنية الرتبطة بشخص البادشاه . ويسمى رئيس تشكيلات الأمن السرية هذه « سر خفية حضرت شهرياري » أي « رئيس استخبارات البادشاه الخاص » . شغل الفريق الأول الإنسان والمثقف جدا أحمد جلال الدين باشا ، هذا المنصب لسنوات طويلة . وآخر من شغل مقام كتبة المابين ، اثنان أحدهم ثريا باشا ثم تحسين باشا الذان بقيا مدة طويلة في الوظيفة . كانت كل المكاتبات ورئاسة التحرير باسم البادشاه ، تجري عن طريقه .

وظيفة الإخباريات ، تحولت إلى عمل غير أخلاقي . شوهد تقديم إخباريات من قبل أشخاص معروفين ضد خصومهم . وبينما تنحصر أعمال تشكيلات الشرطة السرية (الخفية) ، بالتحري عن الجرائم التي ترتكب ضد الدولة والبادشاه فقط ، أخذت هذه الحدود في التوسع بشكل خطر واعتباطي . ومع ذلك ، فقد شاهد الاتحاديون بدهشة ، في نهبي سراي ييلدز صناديق كثيرة العدد مغلقة ومليئة بالإخباريات ، ولم يفتح أي ظرف من الظروف التي تحتويها . ورغم ذلك لم يمنع البادشاه تقديم الإخباريات .

وفي الوقت الذي استقر فيه النظام على هذه الشاكلة ، بنواحيه الحسنة والسيئة ، فإن الاضطرابات التي بدأت في مكدونيا ، أخذت بالتزايد وسبّبت الحط من الهيبة وفي النهاية هدم النظام الحميدي . إن عامل تغيّر الزمن في هذه المسألة مهم جدا . لم تكن الإدارة الشخصية للحاكم غير مألوفة ولم تكن مستغربة كثيرا في السنوات التي تلت عام 1876 ، لم تكن مستغربة كذلك ، حتى في أكثر الأقطار حرية في نظامها . خرج النظام الحميدي عن كونه نظاما معاصرا . وإذ يقتضي أن يكون أكثر ليبرالية وحرية على مر الزمن ، أصبح أكثر تعقيدا ، واستبدادا .

كثر البحث عن سياسة السلطان عبد الحميد البانسلامية **Panislamizm** (بالعثمانية

اتحاد إسلام) ، بدأت هذه السياسة على يد السلطان عزيز وخاصة في سنواته الأخيرة ، ثم خلع . سار السلطان حميد في طريق عمه من ناحية ، لكنه عالج هذه السياسة الإسلامية بدقة أكثر ، وبنجاح أكثر وعلى مدى أوسع . أضافت هذه السياسة التي كانت لأجل الإسلام واستنادا إلى واجب الخلافة ، الدول الغربية بشكل كبير ، أخذوا ينظرون إلى البادشاه ، على أنه أعدى أعداء سياستهم الإستعمارية . وكان هذا مما عجّل بانهيار السلطان حميد وحال دون بقاء السلطان حميد على عرشه حتى وفاته عام 1918 وصيانته للدولة من الكارثتين الكبريين ، حرب البلقان والحرب العالمية الأولى .

إن البادشاه الذي عزز صفة الخلافة بشكل واضح ، هو السلطان عبد الحميد . وقد لقي هذا قبولا حسنا لدى العالم الإسلامي . وحتى اليوم ، يذكر العالم الإسلامي ذلك بمحبة . كان العالم الإسلامي في وضع حرج بسبب ضغط الاستعماريين . اجتمع بكل امتنان حول زعامة السلطان عبد الحميد المعنوية . شوهد بدهشة في صحف إستانبول عام 1967 ، خبر تلاوة الخطبة في مساجد بعض المناطق النائية في أفريقيا ، باسم عبد الحميد . وإنني موقن أنه حتى اليوم ما زالت تقرأ الخطب في أماكن كهذه باسم السلطان حميد . بينما جاء بعده 3 خلفاء آخرين .

من السهل ملاحظة مدى الرعب الذي أصاب كلا من روسيا وفرنسا وبخاصة إنكلترا من سياسة عبد الحميد في شأن الاتحاد الإسلامي ، وذلك من خلال الوثائق الدبلوماسية لتلك الفترة . ساح رجال الدين والضباط الذين هم مخبرو الخليفة في كل العالم الإسلامي . ذهبوا إلى جاوة ، سنغافورة ، ماليزيا ، سومطرة ، الصين ، تركستان ، الحبشة وأفريقيا السوداء . بعثوا بتحية الخليفة وجلبوا الهدايا . جابوا الهند . أرسل إلى سلطان فاس الضباط العثمانيين الذين طلبهم ، لكن فاس سقطت في قبضة الفرنسيين ، قبل تمكنهم من إصلاح الجيش الفاسي .

سببت سكك حديد الحجاز وبغداد ، زيادة صلابة أوروبا وخاصة إنكلترا تجاه عبد الحميد الثاني . كان البادشاه مصمما على مد خطوط إستانبول – صنعاء ، إستانبول – كويت ، إستانبول – أرضروم . أظهرت روسيا عدم ارتياح شديد بالنسبة للخط الأخير ؛ لذا

ترك للمرحلة الأخيرة . لكن خط بغداد ، شيّد برأس مال ألماني . وهكذا دخل في الحساب عدم إمكان اقتراب إنكلترا إلى خليج البصرة أكثر من ذلك ؛ حيث إن ألمانيا صاحبة الاعتماد ، ستحول دون ذلك . أما خط الحجاز فشيّد بدراهم العثمانية والمسلمين . أرسلت الإعانات من كل أماكن العالم الإسلامي لربط المدن المقدسة بمركز الخلافة إستانبول . أكبر مبلغ قدم من قبل البادشاه من خزينته الخاصة . وصل الخط إلى المدينة ، وقبل وصوله إلى مكة ، ترك السلطان حميد العرش .

أقلق خط الحجاز إنكلترا بشكل كبير . حيث إن ذلك سيؤمن نقل الجيش بسهولة إلى شبه الجزيرة العربية والبحر الأحمر . وقد أعلن بصورة رسمية التسهيلات التي جرت على سياحة الحجّاج .

والحادث المهم جدا الذي أقام أوروبا ضد السلطان حميد ، هو رفض البادشاه لطلب إسكان المهاجرين اليهود في فلسطين (بالعثمانية قدس شريف صنجاغي) (لواء القدس الشريف) . كان مؤسس الصهيونية الصحفي اليهودي هرزل Theodor Herzl (1860 – 1904) قد جمع في بازل في سويسرا 1897 المؤتمر الصهيوني الأول . فتح اعتمادا بمساندة أصحاب البنوك والممولين اليهود لغرض تأسيس وطن يهودي . جاء هرزل إلى إستانبول . توسط سفير النمسا – المجر في طلبه لمقابلة البادشاه . قابله (1901/5/19) حيث عرض هرزل ، طلب قبول المهاجرين اليهود إلى فلسطين ، مفيدا أن العثمانية قد قبلت في العصر 15 اليهود المطرودين من أسبانيا والبرتغال ، وأن رئيس الحاخامين في إستانبول قد أبلغه بأن القطر الذي لم يضغط فيه على اليهود ، على وجه الأرض ، هو الإمبراطورية العثمانية . وأضاف إلى ذلك أن المهاجرين اليهود الذين سيستوطنون في الأراضي الخالية سيكونون من رعاياها الجيدين وأنه يتكلم نيابة عن يهود العالم أجمع ، وأن مساندة يهود العالم ستكون بجانب العثمانية والبادشاه ، وسوف يقدم للبادشاه في الحال عدة ملايين من الليرات الذهبية كضريبة ودين عرفان . استمع السلطان عبد الحميد لهذا الصحفي الذي تجاسر على تغليف تقديم الرشوة له، بمهارة . كان يعلم من هم الذين وراءه ، ومن بينهم أصحاب البنك الملّي الإنكليزي روتشيلد . أدرك في الحال أن قصد اليهود هو تأسيس وطن لهم في فلسطين وليس السكن ، وفور

تحقيق أكثرية سكانية ، سيطلبون الاستقلال الذاتي ، ويحتمل الاستقلال التام مستندين على الدول الأوروبية .كان أبوه السلطان مجيد قد دخل الحرب في قرم بسبب عدم اعترافه بحقوق فوق العادة للمسيحيين في القدس . والآن ، ليس بإمكانه هو أن يعترف بهذه الحقوق للموسويين . أخرج هرزل من حضرته بشكل عنيف ، تاركا طبعه المعتاد في اللطف ، لا لطلبه ، ولكن لعرضه المغلف للرشوة . لم ينقطع الرجاء في قبول البادشاه المهاجرين اليهود إلى فلسطين . وحتى صديق البادشاه المقرب الإمبراطور ولهلم الثاني ، كان يقول إنه ليس هنالك ضرر في قبول عدد من اليهود المساكين في فلسطين . يظهر أنه كان يريد التخلص من قسم من اليهود (Yidis) المسيطرين على الاقتصاد الألماني . كان القيصر ، يهاجم القرى اليهودية في أوكرانيا ويقتل اليهود بواسطة القوزاق بشكل جماعي . عدد كبير جدا من نفوس اليهود ، لم يستطع السكن في أوروبا وأخذ يهاجر إلى أمريكا . والآن ، يراد إلقاء مشكلة أوروبا هذه على عاتق الإمبراطورية العثمانية دولة المشاكل ، لم يقدم عبد الحميد الثاني أي تعويض . وهذا مما سهّل جدا انهياره . أخذت تشكيلات الجماعة اليهودية التي تمتلك قدرة عالمية ، تنظر إلى شخص السلطان عبد الحميد ، على أنه هو العائق الأعظم لقضية فلسطين . أوعزت إلى جمعية الاتحاد والترقي السريّة في مكدونيا ، التي أخذت بتوزيع الدراهم بواسطة عضو الجمعية اليهودي عمانوئيل كاراسو Emanuel karaso الذي كان عميلا أجيرا لإيطاليا .

أعلن أمير تركستان الشرقية يعقوب بك خضوعه للعثمانية في عهد السلطان عبد العزيز ، وضرب النقود باسم البادشاه ودعا ضباطا عثمانيين . إن هذه التابعية ، استمرت في أوائل عهد السلطان عبد الحميد كذلك . ثم استولت الصين مرة أخرى على تركستان الشرقية . لكن مخبري السلطان حميد ، تحت كسوة الأئمة وغيرها انبثوا بين مسلمي تركستان الشرقية والصين الـ (دونكر) .

تمكن عدد محدود جدا من اليهود من الدخول إلى فلسطين في عهد السلطان حميد ، لم يفتح الاتحاديون هذا الباب ولكنهم واربوه . دخل إلى فلسطين خلال 1908 – 1918 قسم من اليهود وأسسوا مزارع . تأخر الاتحاديون في اكتشاف لعبة الصهيونية ، ولم يدركوها إلا بعد فوات الأوان .

إن الامتيازات الحقوقية والتجارية والاقتصادية المسماة كابيتولا سيون **Capifulation** التي اعترفت بها الإمبراطورية العثمانية للأوروبيين القاطنين فيها ؛ عرقلت حركة السلطان حميد في بعض الأمور . لم يستعمل الأوروبيون هذه الحقوق في تركيا فقط ، بل كانوا يستعملونها في إيران ، الصين ، البرازيل ، فاس وحتى 1900 في الإمبراطورية اليابانية وفي الدول الأخرى . أراد عالي باشا إلغاءها ، ووفق فقط في الحصول على تعويضات غير كافية .

لم يكن السلطان حميد معارضا للشعور القومي لدى الأقوام الإسلامية ، وإنما كان ضده عندما أصبح هذا الشعور يهدد الاتحاد المعنوي الإسلامي ، والاتحاد العثماني ويكون آلة لأوروبا . قدّر أن الشعور القومي الحي ، سوف ينعش المسلمين ويحركهم للتخلص من تحكم الإمبريالية . ساند القوميين للمصريين كعرابي باشا ، مصطفى كامل باشا ، ومنحهما رتبة الباشوية . وساند الحركة القومية التركية . احتضن الأتراك القادمين من روسيا . قوّى التيارات القومية في الإستانبول . قام بحركات قومية ذات مغزى كبير . تحرك بدقّة كبيرة في إيقاد الشعور القومي ؛ ولذا ، فقد بيّن مؤرخون عديدون ، اتباعه لسياسة الاتحاد التركي « **Panfurk** » بجانب اتباعه لسياسة الاتحاد الإسلامي « **Panistam** » . لكن ، يمكن القول بأن سياسته في الاتحاد التركي ، هي جزء من سياسته في الاتحاد الإسلامي . حيث إن جميع الأتراك كانوا مسلمين وكتلة كبيرة من الأتراك ، كانوا يعيشون حياة الاستعمار والاستعباد في روسيا .

عبد الحميد الثاني ، كان قوميا ، على غرار مفهوم القومية التي يتفهمها ثنائي ضياء – كمال . لكنه لم يشترك معهما في أفكارهما البرلمانية **Parlamentorizm** ، وبقي في هذا الشأن صادقا مع مدرسة رشيد باشا . وأساسا ، كان كل من ضياء باشا ونامق كمال قد تركا تأييد المشروطية والحياة البرلمانية بعد كارثة 93 . هذا ويمكن تلخيص هدف السياسة القومية هذه بالشكل التالي ، تكوين جامعة تركية حيّة يمكنها صيانة الاتحاد العثماني ، والاتحاد المعنوي الإسلامي ، وتعطي لصفتي الخاقان والخليفة الاعتبار اللائق بهما وتستطيع تطوير الثقافة الإسلامية والتركية .

11 – ثـورة مكدونيا (1902 – 1903)

كانت مكدونيا تحوي 3 إيالات عثمانية (بالعثمانية ولايات ثلاث) . كان يعيش في الإيالات الثلاث بضمنها كرسوفا (مركزها أسكب) (الأخريان سلانيك ومناسطر) البالغ مساحتها جمعا 400 96 كم² ؛ 4 ملايين نسمة تقريبا . إيالة أشكودرا ، الواقعة في الشمال على البحر الإدرياتيكي في الناحية الغربية وكذلك إيالة يانيا (Epir) الواقعة في الجنوب لم تكونا ضمن مكدونيا . كانت مكدونيا ، مؤلفة من عناصر مختلفة العرق والدين والمذهب . المسلمون (الأتراك والألبان) يتجاوزون قليلا الـ 50٪ من النفوس . البقية مسيحيون أرثوذكس وقليل من الكاثوليك والموسويين . كان 25٪ من مجموع النفوس مكـدون – بلغار . يتكلم المكدون والبلغار ، لهجتي اللغة البلغارية . والجماعة المسيحية الكبيرة الثانية هم اليونانيون في الجنوب ، ثم الصرب في الشمال . كان هنالك قسم من Ulah (الرومان) وعدد قليل من العناصر الأخرى . كان في الإيالات الثلاث 15 ولاية (IL) ، 9 منها ، حاليا لدى يوغسلافيا ، 4 في اليونان ، 2 لدى ألبانيا ، وعدة أقضية فقط في بلغاريا . كان الأتراك والألبان أقوياء في إيالة كوسوفا (Uskup) ، والصرب في إيالة مناسطر واليونانيون في إيالة سلانيك .

كان هنالك عداء شديد بين الأقليات المسيحية . كانت سياسة عبد الحميد الثاني ، هي عدم السماح بانتصار كل من الصرب ، اليونانيين ، البلغار – المكدونيين والرومان بعضهم على بعض ، وجعلهم يستمرون في عدم تفاهمهم ، وبهذه الطريقة حال دون اتفاقهم ضد المسلمين . كانت سياسة واقعية . لكن المادة 23 من معاهدة برلين ، كانت تجبر تركية على إجراء الإصلاحات في مكدونيا لصالح الأقلية المسيحيّة ، كالمادة 61 التي أجبرت كذلك تركية على إجراء إصلاحات لصالح الأرمن في 6 إيالات في الأناضول الشرقية . جابه عبد الحميد الثاني الضغوط الدورية للدول العظمى وحال دون اتفاق الدول المسيحية الست الكبرى (بالعثمانية دول معظمة) في الضغط على العثمانية . وتحاشى إجراء إصلاح من شأنه أن يؤدي إلى استقلال مكدونيا .

كان البلغاريون قد اتجهت أنظارهم بشكل قطعي إلى مكدونيا أو على القسم الأكبر منها على أقل تقدير . إن **Megalo idea** البلغاريين ، كانت مكدونيا ، وما زالت كذلك

اليوم . لذا كان يجب أولا قمع اليونانيين والصرب . وبعد إزاحتهم جميعا يفرغون للأتراك ، وبفضل الدول العظمى ، بسيستقطعون مكدونيا من العثمانية . كانوا معتمدين على المادة 23 . أسسوا في 1893 جمعية ثوار مكدونيا والأعضاء المنفذون لهذه الجمعية هم العصابات . وشكل اليونانيون والصربيون وحتى الرومانيون ، عصابات للدفاع عن أنفسهم . ساند الباب العالي هذه العناصر الثلاثة الأخيرة لئلا يسحقهم البلغار . وسع البلغاريون حركات عصاباتهم المنفردة في مكدونيا ، اعتبارا من 1902 بشكل يمكن أن يقال عنه حرب عصابات حقيقية . شرعوا في قتل البلغاريين الذين لم ينضموا إليهم . كانوا يضعون القنابل في كل مكان . وفي أواخر 1902 ، تحولت حرب العصابات البلغارية إلى ثورة حقيقية . أخمد الجيش الهمايوني الثالث الثورة خلال شهر واحد (1902/9/21) . عصى البلغار مجددا قبل مضي سنة واحدة (1903/8/2) . كانت الثورة في إيالة مناسطر دامية . وقد شغلت الجيش الثالث وقوات الدرك (الجندرمة) العثمانية كثيرا ، كان الضباط المتحمسون جدا والمتخرجون حديثا في المدرسة البحرية ، يرسلون إلى الجيش الثالث ، وهؤلاء خلال مدة قصيرة ، وقبل أن يتعلموا فن القيادة انصبوا إلى عناصر حرب عصابات ، كانوا في كل لحظة تحت تهديد قنبلة بلغارية ، أخذوا يتطورون إلى عصابات تركية ، كانت حالتهم الروحية كأفراد عصابات ، كحركيين . كان ضباط الجيش الآخر السادس المستعدون لحرب نظامية ، يشاهدون ملازمي ونقباء وبعض رواد الجيش الثالث بدهشة . إن شباب الجيش الثالث هؤلاء ، سوف يطبقون ما تعلموه في مكدونيا اعتبارا من 1908 ، في كل أنحاء الإمبراطورية طيلة 10 سنين . أن إدارة إمبراطورية ، هي أدق طراز إدارة في العالم وتحتاج إلى دراية كبيرة ، وعدا أنهم فقدوا الإمبراطورية ، فسوف يصلون إلى الحد الذي يخشى فيه فقدان الوطن الأم .

زادت ضغوط الدول العظمى لإجراء إصلاحات في مكدونيا . كانوا يقولون إن دماء مسيحية كثيرة سالت في مكدونيا . لقد سالت دماء الكثيرين من المسلمين كذلك ، لكن ، لا توجد دولة إسلامية كبيرة عدا العثمانية ، لتدافع عنهم . ولغرض مراقبة الباب العالي الولايات الثلاث من خلال يد واحدة ، أرسل والي اليمن الوزير حسين حلمي باشا (سيكون صدرا أعظم بعد ذلك) إلى سلانيك بشكل دائم باسم مفتش عام الولايات الثلاث ، ووضع الجيش الثالث تحت أمره (1902/2/1) . ومن ناحية

أخرى ، تم في الباب العالي تأليف لجنة إصلاح ولايات روملي الثلاث برئاسة والي إيالة قونية الوزير آفلونيالي محمد فريد باشا ، وبعد مدة وجيزة ، أصبح فريد باشا صدرا أعظم (1903/1/14) . وهي الإشارة المؤكدة لسياسة السلطان عبد الحميد في جعل الألبانيين بشكل قطعي في جانب الأتراك . لكن مكدونيا ، لم تكن في خطر مؤكد ؛ حيث إن العداوة الكائنة بين الدول البلقانية ، كانت شديدة وعدا ذلك ، كان تفاهم أوستريا - المجر مع روسيا كذلك حول البلقان غير ممكن ، أحدهم يمثل الجرمانية والآخر يمثل السلافية ، كان كلا منهم يدعي ذلك .

12 - حادث القنبلة (1905/7/21)

أراد الحركيون الأرمن جذب انتباه الدول العظمى وتشويش الدولة العثمانية وذلك بقتل البادشاه . خططت المؤامرة في سويسرة ، وجود إنكلترا خلفها شديد الاحتمال . اتفقوا مع المتآمر المحترف البلجيكي Jorris . لم يكن لجوريس أية علاقة بالقضية الأرمنية أو بالأرمن . كان أجيرا يحقق رغبة من يدفع له الدراهم . كانت أوروبا في دور اشتدّت فيه تيارات الإرهابيين الذين يرومون قلب النظام الأوروبي القائم واللاشيئيّين العدميّين (Nihilst) الذين يفخرون بعدم إيمانهم بأي شيء . لا يوجد في هذه الآونة رئيس دولة لم يتعرض لمؤامرة . وبفضل تدابير الحراسة الشديدة ، لم يكن بالإمكان الاقتراب إلى السلطان حميد . وبسبب سحقه اليونانيين في الحرب ، ورفضه طلب اليهود في إسكانهم في فلسطين ، وقمعه حركات الأرمن في الأناضول الشرقية ؛ شكّل كل من اليونانيين والروم واليهود والصهيونية العالمية والأرمن جبهة ضد البادشاه .

جاء جوريس إلى إستانبول متنكرا كسائح مع رجاله (وكان بينهم نساء) . ومن خلال مراقبته ، ثبت أن ليس بالإمكان الاقتراب من البادشاه خارج مراسم صلاة الجمعة (سلاملك) ، وأن خروج السلطان من جامع يلدز وركوبه عربته يستغرق دقيقة واحدة ، 42 ثانية ، وأن هذه المدة ، لا تتغير أبدا . جلب العربة التي صنعت في فيينا ، إلى إستانبول على شكل قطع . وضع على هذه العربة ، القنبلة الدقيقة الصنع المسماة ماكينة جهنم (بالفرنسية Machine infernale) التي تحتوي على 80 كغم من المواد

المتفجرة و 20 كغم من المواد المعدنية الجارحة . كان من الأصول المتبعة أن يتفرج الأوروبيون على البادشاه في مراسم السلاملك . ركب العربة جمع من الرجال والنساء ثم تركت في اللحظة الأخيرة على الطريق . كان البادشاه ، قد خرج من الصلاة . وخلافا للعادة ، اعترض شيخ الإسلام جمال الدين أفندي طريق الخاقان ، وعرض عليه بعض الأمور . انفجرت القنبلة قبل علة ثوان . والأصح أنها انفجرت عندما كان البادشاه على عتبات الجامع . و لحظة من التأخر التي أنشدها توفيق فكرت في شعره ، هي التي نجّت حياة الخاقان . نفرت جياد الحرس الخاص الخيالة وتداخلت مع بعضها من شدة الانفجار . مر الخاقان من بين قطع الأجساد البشرية وجثث الخيل ، دون أن يبدو على وجهه أدنى تغيير ، وبالخطى نفسها التي كان يخطوها سابقا وركب عربته المفتوحة التي قادها بنفسه وعاد إلى سراي ييلدز . تقبّل زيارات التهنئة بالسلامة من السفراء الذين كانوا يحضرون المراسم عادة ، لم أكن بعيدا عن البادشاه . هز الانفجار المخيف الأرض التي أدوس عليها ، وكأنما دفع بي إلى الهواء . أعجبت بثبات البادشاه . كانت قسمات وجهه ساكنة . صان برج الساعة الخاقان من شظايا القنبلة المتناثرة . البرج كان متينا جدا ، لم يتأثر من القنبلة . لو انهدم لبقي الخاقان تحته . لم يصب الأمراء (الشهزادات) بضرر . لكن مات حصان أحد الشهزادات . مات اثنان من مربي الأمراء ، وكثير من الجنود . كان الميدان ، كأنه ساحة حرب قصفت بنيران المدافع . أحد جنود الخدمات منكبّ فوق ضابطه الميّت ، أحد السفراء ، كان يحاول بتقزز رمي ساق حصان سقط على حضنه (الفريق البحري **Sir Henry Woods** ، ص 161 – 3) .

هزة أرضية شديدة ، حصلت كذلك قبل مدة في صالة المعايدة في دولمة بقجة أثناء تلقي البادشاه التهنئة بالعيد ، اضطربت الصالة عند سقوط قطع كبيرة من الثريا التي تزن 4,5 طن على رءوس رجال الدولة . لم يتحرك الخاقان وبقي جالسا على عرشه الذهبي ، ورفع يده فقط داعيا الحاضرين إلى السكينة ، لكن خلال ذلك ، كان العديد من رجال الدولة قد هرب من السراي وخرج إلى الشارع .

تسلم السلطان حميد برقيات التهاني بالسلامة من جميع رؤساء الدول في العالم . قبض على المتآمرين وعوقبوا . وكذلك تم القبض على جوريس . منحه البادشاه 500 ليرة

ذهبية وأخلى سبيله . أرسل جوريس في السنوات المتعاقبة معلومات مفيدة جدا من أوروبا إلى السلطان عبد الحميد .

13 – قصبة العقبة (1906)

كان إنشاء خطوط بغداد والمدينة الحديدية ، حائلا دون أطماع إنكلترا في شبه الجزيرة العربية . يظهر أن وجود الجيش الإمبراطوري الخامس في الشام والجيش الإمبراطوري الرابع في بغداد ، والجيش الإمبراطوري السابع في صنعاء ، كان لغرض حماية شبه الجزيرة العربية وخاصة تجاه إنكلترا . ومن ناحية أخرى ، كانت في مكة فرقة مستقلة (ليست مرتبطة بأي جيش) ، تحت إمرة والي الحجاز . كان الأمراء السعوديون الوهابيون في نجد وفي جبل شمّر وأمراء الرشيدي الوهابيين كذلك وأمراء الكويت وأمراء قطر وأمراء حضرموت ولحج ، كانوا موالين للدولة . كان البادشاه يتلطف معهم في كل مناسبة . وحتى الإمام الزيدي في اليمن ، كان كذلك . كانت مراكز إيالات العثمانية في البلاد العربية هي صنعاء ، مكة ، شام ، حلب ، بيروت ، بصرة ، بغداد وموصل .

أسس السلطان عبد الحميد في 1901 ، في برشيبة التاريخية المكونة من عدة أكواخ ، مدينة بئر السبعة وركز فيها حامية عثمانية . تقع في صحراء نجف بين غزة وبحيرة لوط . كان واضحا أنها أساسًا ضد الإنكليز على طريق الحجاز ومصر (جرت معركة غزة الميدانية الثانية ، تجاه الإنكليز وحلفائهم هنا في 17 – 19 نيسان 1917 ، خسر الإنكليز ما يقارب 10 000 شخص ؛ كانت الجيوش الإمبراطورية الرابع والسابع والثامن ، المسماة رهط جيوش الصاعقة ، موجودة في الجبهة) . أثار الإنكليز عصيانا في اليمن عام 1905 . أخمد العصيان ، ولكن سال دم عثماني كثير . حدثت وفيات كثيرة بين جنود الجيش التركي المكون من جنود الأناضول وروملي الذين لم يطيقوا مناخ إقليم اليمن .

إنكلترا عندما لم تتمكن من الإحاطة بالبحر الأحمر من الجنوب ، بدأت في هذه المرة ، في المحاولة من الشمال . أرادت افتعال حادثة من لا شيء على الحدود المصرية . كان أساس المسألة ، قصبة عقبة التي هي الآن الميناء والمنفذ الوحيد للأردن إلى البحر

(البحر الأحمر) . كانت العقبة تدخل ضمن لواء كرك (الأردن) وليس مصر . إلا أن العثمانيين كانوا قد سمحوا منذ زمن طويل بوجود جماعة أو جماعتين من الجيش المصري لغرض مراقبة الحجاج المصريين . أرسلت إنكلترا جيشا إلى هناك ، مدعية أن هذه القصبة هي قطعة من مصر ، وأرادت السيطرة على رأس خليج العقبة ، وبهذا أظهرت قصدها في قطع طرق الحج وربما قطع سكة حديد الحجاز . أرسل السلطان عبد الحميد أحد مرافقيه – الذي صار جنرالا بعد ذلك – العقيد رشدي بك (هو والد فطين رشدي زورلو وزير الخارجية) مع سريتين من الجند ومدفع واحد فقط إلى العقبة . دخل رشدي بك القلعة ، وأخبر الجنود المصريين بأن البادشاه سمح لهم بالعودة إلى مصر ، وأرسلهم إلى بلدهم . احتل قصبة طابا التي يوجد فيها جنود مصريون كذلك وهي قرب العقبة . ورغم هجوم بضعة آلاف من خيالة البدو بقوة الذهب الإنكليزي الباهر في العقبة ، فلقد شتّتوا .

كان وضع إنكلترا في مصر ، من الناحية العسكرية ، ضعيفا وذلك بسبب احتلالها مصر بواسطة 5 000 جندي فقط وبسبب وجود أكثرية هؤلاء في القناة . حشدت وحدات جديدة في مصر . أعلن أسطولها في البحر الأبيض حالة الطوارىء . قام الشعب في القاهرة والمدن الأخرى بمظاهرات أثنى فيها على السلطان عبد الحميد ولعن الإنكليز . كان الاحتلال الإنكليزي لمصر غير شرعي وكان عبارة عن أمر واقع ، لم تعترف به ولا دولة واحدة . دعا السلطان عبد الحميد ، السفير Sir O'connor واستفسر منه عما إذا كان عليه استئذان إنكلترا في إرسال جنود إلى قصبتين من مصر التي هي ولايته ، إلا أن إنكلترا أرسلت إخطارا لمدة 10 أيام ، إلى الباب العالي تطلب خلاله إخلاء العقبة وطابا وفي حالة عدم الاستجابة ، ستقوم حالة الحرب بين الإمبراطوريّتين . أجاب الباب العالي مبينا أن مصر ليست أراض عثمانية ، وإن تعديلات الحدود مع إيالة مصر سوف تجري بين الضباط العثمانيين والمصريين ، ولا حق لأي إنكليزي بالاشتراك في هذه المفاوضات ، وأن احتلال إنكلترا لمصر غير شرعي ومؤقت ، وأن إنكلترا كذلك وافقت على كونه موقتا . تم تعديل الحدود بين الضباط العثمانيين والمصريين (1906/10/1) . تم التعديل على أساس حدود مصر الحالية في سيناء ، بقيت طابا لدى مصر ، والعقبة لدى العثمانية . كانت طابا أساسا قد احتلت لغرض تقديمها كتعويض عن العقبة .

14 – تشكيل جمعية الاتحاد والترقي السياسية وتطورها

أدركت سلطنة السلطان عبد الحميد عام 1908 سنتها الـ 32 وسلطنته الشخصية سنتها الـ 30 . كانت هذه إدارة طويلة ، وكانت إدارة فيها رفاهية وخالية من الويلات، ولكنه ، في الوقت نفسه ، كانت إدارة كبت . (حتى في أحسن الإدارات الطويلة الأمد ، تظهر بين الشعب آثار عدم الارتياح أو الملل على أقل تقدير) . في دور السلطان سليمان القانوني ، الذي هو أفخم دور في التاريخ التركي منذ 2 500 عام وأحد أعظم أدوار التاريخ العالمي ، ظهر عدم الامتنان لدى بعض جماعات الشعب . أما السنوات الأولى للعصر العشرين ، فلم تكن أصلا سنوات جيدة . ولا يمكن حتى مقارنتها مع دور القانوني . كانت حصة المسلمين الأتراك والعثمانية في الدنيا ومنزلتها قد هبطت إلى الحد الأدنى . وسيستمر هذا الهبوط حتى العشرينيات .

لا يمكن القضاء على الأفكار ، لم يخترع سلاح لذلك . والفكر ، لا ينتج الخير دائما ، فهنالك الفكر السيّئ الذي يسوق الشخص والجمعية والدولة ، حتى العالم إلى الدمار . إن فكرة التنظيمات ونظامها كانت قد استقرت وأصبحت مألوفة . لم يكن هنالك أحد يريد استبدال نظام التنظيمات بالنظام القديم الذي يقطع فيه الرأس بمجرد صدور كلمة تخرج من فم الخاقان أو من يمثله ، والذي يجري فيه كل شيء ، دون قانون يستند عليه غير الوجدان والأخلاق ، والذي صار فيه هروب الجيش (القابوقولو والإنكشارية) من ساحة الحرب وقدومه إلى المدينة ليقوم بأعمال الشدة والنهب تجاه شعبه ؛ مألوفا وكأنه واجب . لم يكن هنالك أحد يقول : اغلقوا المدارس الجديدة ، ألغوا الجيش الحديث . لكن هنالك أيضا المشروطية ، أي فكرة الدستور والمجلس التشريعي ، فلسفة الديمقراطية ذات التاج ، التي تتعدد فيها الآراء . لم يكن السلطان عبد الحميد يؤيد هذه الفكرة ، و لم تقترب منها أبدا . لكن المجدّدين العظام ، كانوا هم شخصيات العصر التاسع عشر الكبيرة . كان السلطان حميد سياسيا يقف على مدرج العصرين . وأثناء تخطية الخطوة الأولى نحو العصر العشرين ، سوف يستطيع تكييف نفسه مع هذا العصر ، بقدر ابتعاده عن صورة رجل العصر التاسع عشر . كان السلطان عبد الحميد أساسا بعيدا جدا عن إنكار فكرة المشروطية بصورة رسمية . كان دستور 93

المسمى القانون الأساسي « قانون أساسي » لا يزال ساري المفعول . إن مادته الأساسية الوحيدة التي لم تطبق ، هي كون المجلس التشريعي مجمدا ، عدم إجراء الانتخابات ، عدم انتخاب نواب ، صدور القوانين عن شورى الدولة وليس عن المجلس .

لا يمكن الادعاء بأن الشعب كان راغبا في مجلس ، أما المثقفون فكانوا منقسمين إلى قسمين . أكثرية الشباب كانوا يريدون إمبراطورية ذات مجلس . بذلك كان يمكنهم التخلص من بيروقراطية التنظيمات التقليدية ومشقة الترفيع التي تستغرق سنين طويلة والاشتراك في الحكم ويحتمل السيطرة على الحكم رأسا . أما المثقفون متوسطو العمر والمسنّون فكانوا – باستثناء قليل منهم – لا يريدون المجلس . أولا ، لأنهم كانوا يخشون من استناد النواب المختلفي الشعوب والأقوام ، كل منهم ، على دولة أجنبية وتمزيقهم الإمبراطورية ، ثم لم يكن هنالك مجلس مثقف بثقافة التنظيمات التي نشأوا هم عليها . وأخيرا ، كانوا لا يريدون اقتسام المناصب مع الشباب ، ويريدون الحفاظ على مناصبهم مدة أطول .

إن شخصية خاقان الدولة العثمانية وخليفة مسلمي العالم التي يسميها الشعب بادشاه ، كانت غير مصونة بشكل تام في نظام التنظيمات ، وكذلك في دستور 93 . كان بالإمكان خلعه في حالة خيانته الوطن ، جنونه أو خروجه على الدين (كفره علنا) . لكن هذه الشروط ، من الواضح أنها وضعت بالنسبة للحاكم الذي لا يدير الدولة شخصيا . أما السلطان حميد فكان يدير الدولة شخصيا ، مخالفا في ذلك ، ليس أسس المشروطية فحسب ، بل أسس التنظيمات كذلك . أجبرته الحوادث على اتخاذ هذا الدور لنفسه وإعلان سيزاريته Sezar ، وهكذا نجت الإمبراطورية . ولكن حتى الذين آمنوا بعدم إمكان إنقاذ الإمبراطورية ، إلا بالسيزارية ، أخذوا في التفكير والتساؤل : هل يسوّغ له هذا إدارة الدولة شخصيا مدى الحياة ، أم لا ؟ وبهذا السؤال تبلورت في الأذهان ، الحالة النفسية الجماعية التي تنجم عن الأنظمة طويلة الأمد . كان من المتعذر القضاء على هذه الفكرة ، فقد كانت تترعرع على مر الزمن . اللهم إلا إذا فتحت صمامات الأمان ، وذلك بسحب البادشاه يده من الإدارة ، ووضعه نظام الوزارة المسئولة في حيّز التنفيذ بشكل كامل . واتضح في غضون أوائل العصر العشرين ، أنه حتى ذلك لا يكفي . حيث فتحت المجالس في روسيا 1905 ، وفي إيران 1907 ، رغم معارضة

القيصر والشاه . غير أن العثمانية ، لم تجابه هزيمة مفجعة كهزيمة روسيا تجاه اليابان ، ولم تكن سابحة في خضم الفوضى كإيران . لكن محيطها مليء بالدول ذات المجالس . العصر العشرون هو عصر المواصلات السريعة ، المخابرات السريعة ، التأثرات السريعة .

لم تندثر أفكار العثمانيين الجدد وذلك بسبب تركهم مؤلفات وكتابات وأشعارا ذات قيمة أدبية كبيرة ، ما زالت حيّة جدا بين طبقة المثقفين ومشوقة وجذابة بالنسبة للشباب . كان مدحت باشا بطل المشروطية ، وشهيد الحريّة ! كان هؤلاء الشباب لا يعلمون أي عميل إنكليزي لعين هو ، وكذلك لم يكن من مصلحتهم معرفة ذلك . لأنه كان يلزم لحصولهم على الحكم ، أن يرفعوا نوعا من الشعارات أو المثل ، حتى ولو كانت مفتعلة . من هو أكبر معارض لنظام حميد ؟ مدحت باشا ! إذن ، هو بطل . كان معارضو السلطان حميد الشباب ، لا يريدون التفكير حتى في كونه مستبدا ، ولا في تهيئته الجو الملائم لفاجعة 93 ، ولا جهله بكيان الإمبراطورية ، ولا في احتوائه فكرة المشروطية (الحياة البرلمانية) التي أخذها عن العثمانيين الجدد ، ووضعها في جيبه أو رأسه في سبيل حصوله على السلطة مدى الحياة . ويجب أن نبين أهمية ، أنهم كانوا متأثرين من صميم القلب ، بتناقص أطراف الدولة العثمانية في العالم على مر الزمن ، وانكسار شوكة المسلمين والعثمانية والأتراك . كانوا يعتقدون أنهم سيستطيعون معالجة هذا المرض وهذه المحنة بنظام آخر . كانت الدولة والشعب يتحدان باسم الدين والأمة ، في هذه المحنة ، سواء كان الشعب من منتسبي التيار الإسلامي ، أو العثماني ، أم التركي (قومي تركي) ، أم خارج هؤلاء – مع أن عددهم قليل جدا – من معتنقي الأفكار اليسارية والراديكاليين أكثر . كان اتحادا مدهشا . إذ كان اتحادا ضد البادشاه ، وللجماعات والأفكار التي ليست قريبة لبعضها . كان الشاعر الشاب المؤيد للدين محمد عاكف ، والشاب المفكر القومي ضياء كوكالب الشباب المؤيدون للعثمانية الذين يشكلون الأكثرية ، يتفقون في سقوط نظام السلطان حميد . بدأت الانتقادات بعد الآن تستهدف شخص البادشاه . كان هذا سيئا من ناحية كونه عبثا بكرامة وهيبة السلطنة والخلافة . كان عبثا يمزق الإمبراطورية إربا إربا . إذ إن الإمبراطورية ، في الحقيقة ، كانت تقوم على هذا الاعتبار فقط . لا يمكن لنظام إمبراطوري أن يستمر ويقف على قدميه في سلالة تضعضع اعتبارها ، لا في العثمانية فحسب ، بل حتى في

روسيا وألمانيا والنمسا وبريطانيا . يمكن أن يستمر فقط في الدول القومية التي يشكلها شعب ذو قومية واحدة . ومن الممكن كذلك أن تكون السلالة ليست ضرورية في الدول القومية . إذن ، فإن بذور نظام آخر تنثر . الحقيقة ، أنه ليس هنالك معارض ، إلا وهو من مؤيدي نظام السلطنة ، لم يكن يوجد شخص جمهوري واحد . لكن أي أحد لم يشعر بإعدادهم وسطا كهذا .

أدرك عبد الحميد الثاني في 1908 سن الـ 66 . كان قد تعب نتيجة سعيه المرهق . كان ملولا وغير مكترث ولا يمكن الادعاء بأن أفكاره ظلت على صورتها وبريقها السابق . نابليون Ausferlitz ، لم يكن هو نابليون Mropzig .

مضى على تعطيل عبد الحميد المجالس بالإرادة السنيّة 30 عاما و 5 أشهر و 6 أيام . كان دائما هو صاحب الكلمة الأخيرة في إدارة الدولة ، خلال هذه الفترة . تأخر في اكتشاف تغيّر العصر . ألّف هيئة في السراي وبدأ بترجمة الدساتير المشهورة في العالم . يستفاد من ذلك شيئان : الأول ، عدم إمكان استمرار دولة ، إذا لم يكن دستورها مطبقا بصورة فعلية . الثاني ، أن فكره لم يتغير أبدا في أن دستور 93 سيشتت الدولة ، حيث لو كان قد تغير ، لوضع الدستور المرعي حقوقا في حيز التنفيذ بصورة فعلية ، ولما حاول البحث مجددا عن سبل تعديله وتحويره ليلائم بنية الدولة . لكن القيامة ، قامت قبل أن يكمل البادشاه استعداداته هذه .

أقامت القيامة الجمعية السريّة للاتحاد والترقي . شكلت هذه الجمعية بصورة سرية عام 1890 من قسم من طلاب الحربية والطبية العسكرية ضد نظام السلطان حميد . اكتشفت تنظيمات الجمعية عام 1897 وشتّتت . نفي الكثير من أعضائها ، قسم منهم هرب إلى باريس . ذهب الفريق الأول أحمد جمال الدين باشا ، رئيس شعبة الاستخبارات الوطنية المسمى (سر خفيه ء حضرت شهرياري) ، إلى باريس . أقنع أكثرية الشباب الهاربين . كل منهم حصل على وظيفة في الدولة . لكن أحمد رضا بك ، أصر على البقاء في باريس مع حفنة من مؤيديه .

لا يمكن ادعاء عدم وجود تحريض وصحافة غير منحازة في الغرب . كذلك لا يمكن أن تكون هنالك سياسة غير منحازة . أكثرية الأشخاص الذين تمتدحهم الصحافة

الغربية ، هم الذين يعملون في صالح الدولة المادحة . والذين تذمهم الذين يعملون ضدها ، وحتى في حالات كثيرة ، الذين لا يعملون في صالحها . وإذا كان الشخص موضوع البحث ، غير مسيحي ، تكون هذه المقاييس أكثر تركيزا . ولو نظرنا بدقة ، لشاهدنا أن السلطان حميد كان يذم لخداعه إياهم وعدم خدمته مصلحتهم . ولو أسس أرمنستان في الأناضول الشرقية ، لما لقب حتى بلقب « السلطان الأحمر » . ولو أسكن اليهود في فلسطين ، لكان يصعب جدا خلعه . إذ حتى إنكلترا كانت لن تنشغل كثيرا لشخص آوى اليهود . ولو نشر بيانا يبلغ فيه مسلمي الهند بأنه لا يريد تلاوة اسمه في خطب الجمعة بعد الآن ، لامتدحته لندن . ولو اتفق مع الروس في البلقان ، واعترف لهم ببعض الحقوق في المضايق ، لما بقي لروسيا حساب معه .

لم يعمل ذلك ، لأنه كان يمثل الأتراك والعثمانيين والإسلام . حاول تحقيق هذا التمثيل بوقار في شروط العصر الداخلية والخارجية السيئة جدا . لكنه وجد أمامه صحافة الاتحاديين السرّية . أخذت تصدر ضده صحف كثيرة جدا في أوروبا . وأضيف إلى هذه صحف باللغات العربية والفرنسية وحتى الإنكليزية والأرمنية والألبانية . ولو جمعت الصحف الدورية ، التي طبعت ضد السلطان حميد في الخارج وأدخلت بصورة سرية إلى الأقطار العثمانية ، في مكان واحد لشكّلت مكتبة . ونحن المؤرخين نعلم اليوم ، أن أكثر بكثير من تسعة أعشار ما كتب فيها افتراء ، وما يقارب تسعة وتسعين بالمائة منها نتيجة لتفهم خاطئ ونقد مبالغ فيه . إن صحيفة « مشورت » التي أصدرها أحمد رضا بك في باريس ، أصبحت أكثر تلك الصحف استمرارا وأكثرها انتشارا . كان شخصيا ، رجلا مستقيما . أبوه علي رضا بك (وفاته 1886) أحد أعيان مجلس المشروطية الأولى . جده أحمد أفندي ، كاتب السر لسليم الثالث ولأنه من مؤيدي النظام الجديد ، استشهد في 1807 . (نورد هذا لأهمية إيضاح مبلغ تمركز الأفكار وتخمرها في الماضي البعيد) . سمّي علي رضا بك « إنكليز علي بك » أي (علي بك الإنكليزي) بسبب تحصيله في إنكلترا .

سبب ثبات أحمد رضا بك في باريس ، استمرار حركة الاتحاديين وعدم اندثارها . كان بإمكانه العودة والحصول من البادشاه على وظيفة كبيرة ، قاوم ثم شاهد كيف أن حزبه الذي ترأسه ، سبّب انهيار الدولة . مات في العهد الجمهوري بعد مدة وجيزة

من نشره مذكراته في جريدة **جمهوريت** ، التي اعترف فيها بعدم تفهمهم السلطان عبد الحميد ومدح فيها شخصية الخاقان وسياسته بشكل رفعه فيه إلى السماء . وقد اعترف كل من طلعت وأنور وجمال والزعماء الذين قلبوا الفكرة الاتحادية إلى مؤامرة ، بأنهم لم يستطيعوا فهم السلطان حميد وتركوا وطنهم في نهاية عام 1918 .

ساندت دول كثيرة على رأسها إنكلترا ، الحركة المعادية لحميد في أوروبا لضمان عدم خمودها . ويقتضي استثناء ألمانيا والنمسا – المجر من ذلك . ومع ذلك ، فإن الأخيرة هذه ، اشتركت في حركات كثيرة معادية للعثمانية في السياسة البلقانية .

هرب إلى أوروبا بروكسل في شباط عام 1899 الوزير المسمى داماد محمود جلال الدين باشا (1854 – 1903) ، ودون أن يخبر حتى زوجته السلطانة سنيحة (1851 – 1931) أخت السلطان حميد ، مستصحبا معه أبناءه سلطان – زادة ، صباح الدين بك أفندي (1877 – 1948) ولطف الله بك أفندي . كان ابنا للمشير خليل رفعت باشا رجل الدولة الشهير في فترة التنظيمات وصهر محمود الثاني . كان حانقا على أخي زوجته ، البادشاه ، بسبب عدم منحه امتياز أحد المعادن . مات هذا الشخص عديم المروءة والذي تقف وراءه إنكلترا ، في بروكسل بعد مدة وجيزة . نشر بيانات ضد سلطانه . تسلم مهمته بعده ابنه الكبير صباح الدين بك المسمى « Prinee » العميل الإنكليزي الخالص .

كان الأوروبيون يسمون الشباب العثمانيين الموجودين في أوروبا والذين أخذ عددهم في التزايد ويطعمون جيدا ؛ « جون تركلر » (بالفرنسية : Jeuncs Tures) أي الشبان الأتراك . اجتمع في باريس مؤتمر أحرار العثمانية (أحرار عثمانية) (4 – 1902/2/9) . اجتمع فيه أعضاء جمعية الاتحاد والترقي ، جميع معارضي النظام الحميدي . كان منهم الأتراك وغير الأتراك غير المسلمين . ويدعون كلهم أنهم عثمانيون ويدافعون عن الإمبراطورية العثمانية ويفكرون في إصلاحها وتطويرها وإنقاذها من إدارة الاستبداد .

اتخذ المؤتمر القرارات التالية : تؤسس في الإمبراطورية العثمانية إدارات محلية مستقلة على أساس القوميات . هذا القرار ، يتعدى شموله كثيرا المادتين 23 و 61 من معاهدة برلين التي لم يتمكنوا من إجبار السلطان عبد الحميد على تنفيذها . سيعطى فورا

الاستقلال الذاتي لكل الأقطار . صار البرنس صباح الدين بك ، أكبر ممزق للإمبراطورية بسياسته هذه (الاستقلال الذاتي) التي يسميها « عدم مركزيت » كان حينذاك شابا مسكينا في الـ 25 من عمره ، سقط في أحضان إنكلترا . لكن الإنكليز ، صرفوا الدراهم بسخاء على مصر وسوريا كذلك ، ووجدوا بين العرب عملاء لعدم المركزية (بالعربية لا مركزية) . قبل هذه القرارات من كل ممثلي الأرمن والروم والألبان المشتركين في المؤتمر . كل ممثل من هؤلاء كان عميلا أجيرا لكل من روسيا والنمسا ، وإيطاليا وإنكلترا وفرنسا أو لدولة من الدول البلقانية . بيّن صباح الدين بك للصحافة الأوروبية أن السلطان حميد ، قاتل للأرمن . توفيق فكرت في إستانبول ، حيا المتآمرين الذين أرادوا قتل السلطان حميد بأبيات مؤثرة من الشعر ووصفهم بالأبطال . رفض قرارات المؤتمر بصورة رسمية ، كل من رئيس المؤتمر علي رضا بك وعلي حيدر بك بن مدحت باشا الذي اشترك في المؤتمر ، ولم يوقعا . وعلى أثر ذلك ، انقسمت المعارضة ، وقرر الاتحاديون قيامهم بهذا العمل وحدهم في مكدونيا والحصول على تأييد الشباب من ضباط الجيش الثالث المرابط في هذه المنطقة ، وذلك بسبب وجود مخبرين كثيرين بينهم ، ووجود مؤيدين كثيرين للبادشاه في إستانبول والجيش الأول ، بأسره مؤيد للسلطان حميد . يكتسب هذا القرار أهمية جوهرية بالنسبة للتطورات التي ستحدث في الإمبراطورية العثمانية . خرجت باريس من كونها مركزا . أسس مركز سري في سلانيك . فتحت بعده فورا شعبة مناسطر . انتقلت الإدارة ليد أحد موظفي البريد الصغار المسمى طلعت أفندي (وبعد ذلك بك وباشا) .

وفي 1908 ، يمكن القول بقليل من المبالغة ، إن جميع الضباط الشباب وذوي الرتب الصغيرة ، كانوا اتحاديين . كان بإمكانهم الدخول إلى الجمعية بعد حلف اليمين على القرآن ، العَلَم والسلاح وعيونهم معصوبة ، كانوا يتسلمون الأوامر من أركان العصبة . يقتل الذين لا ينفذون الأوامر . ماذا يكون حال جيش ثالث يديره ضباط يتسلمون الأوامر ، لا من رؤسائهم ، بل من العصبة ؟ كل الملازمين والنقباء ، أعضاء في الجمعية . أخذ الرواد (بكباشي) كذلك في الدخول ، ودخل 1 أو 2 من المقدمين كذلك . وأساسا ، كان الاتحاديون لا يريدون إدخال ضباط كثيرين من ذوي الرتب العالية ، إذ لم يكونوا راغبين في تسليم الإدارة إلى الضباط ذوي الرتب العالية ، كانوا

يريدونها هم . أما الضباط ذوو الرتب العالية والذين رواتبهم ومناصبهم مؤمنة ، فكانوا لا يرغبون في الدخول إلى الجمعية ولكنهم كانوا على مر الزمن يغضون النظر – على نطاق واسع – عن مؤامرات الاتحاديين سواء بسبب عدم رغبتهم في إفساد وحدة الجيش أو بسبب خوفهم من القتل . كثيرون من المدنيين ، انتسبوا إلى الجمعية . كان قسم منهم موظفا صغيرا والقسم الآخر ، صاحب وظيفة حرّة . وفي النهاية ، شوهد دخول أشخاص من ذوي المناصب ، إلى الجمعية . أحدهم كان من أمراء قاوالالي ، محمد سعيد حليم باشا . حفيد قاوالالي محمد علي باشا (ابن ابنه) . كان عضوا في شورى الدولة في إستانبول ، كان عدوا لعبد الحميد الثاني لأنه لم يمنحه رتبة وزير . بينما كان من مؤيدي الوحدة الإسلامية ، وله مؤلف في ذلك . وآخر ، كان من شباب قاوالاليلر الأمير عمر طوسون باشا (1872 – 1944) ؛ كان ابنا لحفيد محمد علي باشا ؛ كان الاتحاديون قد وعدوه بجعله خديوا بدلا من عباس حلمي باشا ، ثم عدلوا عن ذلك . هذا الأمير كان رجلا عالما ومن مشيري الجيش العثماني وكان صهرا لحسن باشا (ابن الخديو إسماعيل باشا) من عائلة قاوالالي أيضا . من المؤكد أن أمثال هؤلاء أدخلوا إلى الجمعية لدعمها ماليا .

إلا أن الأعضاء الأكثر فعالية في الجمعية ، كانوا ؛ طلعت أفندي ، الرائد الركن أنور بك ، بيادة قول أغاسي (نقيب متقدم) نيازي أفندي . كان هؤلاء شبانا حركيين ، متآمرين من الدرجة الأولى ، لا يهابون أي خطر . وقد دخل كذلك إلى هذه الجمعية أركان حرب قول أغاسي (نقيب ركن متقدم) مصطفى كمال أفندي (أتاتورك) ، انسحب بعد ذلك لأنه كان معارضا لتدخل الجيش في السياسة ، لأنه شاهد ضرر ذلك فورا ، وكذلك لأنه لم يتحمل سيطرة أنور وحسده .

من أشهر شعارات الاتحاديين « اتحاد أنصار » . ويعني ذلك أن جميع أقوام الإمبراطورية دون تفريق بين عرق ولغة ودين ومذهب سيكونون – بعد زوال الاستبداد وحلول الديمقراطية – سواء بصفة كونهم رعايا دولة واحدة . إن هذا الشعار يتعدى كثيرا الفلسفة العثمانية لضياء – كمال ، وفيه أيضا جهل بالسياسة العالمية . بدأ الاتحاديون بالتعاون مع الحركيين في البلقان بهذا الشعار . اتفق رجال العصابات البلغار واليونان الصرب الذين أهدروا الكثير من دماء المسلمين

مع الاتحاديين لغرض هدم النظام الحميدي . ليسقط سيزار أولا ، عندئذ سيكون من السهل عليهم القضاء على الاتحاديين . وبالفعل حدث ذلك . قدمت جمعية الاتحاد والترقي السرية ، مذكرة إلى قناصل الدول الأجنبية في مكدونيا وطلبت تدخل دولها لهدم « استبداد حاضر » و « إداره ء مستبدانة » أي لهدم الاستبداد الحالي والإدارة المستبدة . لكن الديمقراطية ، لم تكن نظاما عالميا لكي تتدخل هذه الدول من أجل الطراز الإداري في العثمانية . الحقيقة أن سقوط السلطان حميد ، كان في صالح جميع الدول الكبرى عدا ألمانيا والنمسا . إلا أنه لم يكن بالإمكان تحقيق تدخل بالمعنى الذي يريده الاتحاديون .

بدأ الاتحاديون بقتل الموظفين العثمانيين الذين لا يتعاونون معهم . الرائد أنور بك جرح بمسدسه زوج أخته ، قائد مركز سلانيك العقيد الركن ناظم بك (1908/5/29) . الملازم عاطف بك ، قتل في مناسطر الفريق الأول شمسي باشا بالمسدس (1908/7/7) . اقتحم دار المشير تتار عثمان فوزي باشا الذي أرسل إلى مناسطر بدلا منه ، 2 000 من عصابة الاتحاديين وخطفوه وأرسلوه إلى الجبل (1908/7/22) . رائدان ونقيبان ثلاثة منهم أركان ، شكلوا عصابة وصعدوا إلى الجبل وأشهرهم أنور بك . وكان قد صدر أمر بالقبض عليهم ، وكان البحث عنهم جاريا .

صار لقاء Reval الذي جرى في هذه الأثناء (9 – 1908/6/10) ، وسيلة لحملة كبرى للدعاية الاتحادية . ملك إنكلترا أدورد السابع الذي هو ابن أخ لقيصر روسيا نيقولا الثاني ، التقيا في ميناء (أستونيا) الروسي . كان الموضوع ، اتفاقا إنكليزيا – روسيا تجاه ألمانيا . ولغرض إخفاء هذا الموضوع عن ألمانيا ، أشاع عملاء الروس والإنكليز أن الموضوع هو إصلاحات مكدونيا . ادعى الاتحاديون أن كلا الحاكمين قد اتفقا حول اقتسام مكدونيا و لم يتركوا هذا الادعاء سنين طويلة . والحقيقة أن استيلاء إنكلترا وروسيا على مكدونيا من العثمانية ، دون التفهم مع ألمانيا والنمسا وإعطائهما حصة منها ، شيء غير ممكن . لكن العثمانية ، لم تخل من الكثيرين من ذوي العقليات التي لم تدرك الحقائق المنطقية الواضحة .

قرر عبد الحميد الثاني ، بعد سلسلة من الوقائع التي لا داعي لذكرها هنا ، استئناف تطبيق القانون الأساسي . جيء بكوجوك سعيد باشا إلى الصدارة للمرة الـ 7 – كأول

رئيس وزارة مسئول ـ محل آفلونيالي فريد باشا . عين أركان حربية عمومية رئيسي (رئيس أركان الجيش) رشدي باشا ، لأول مرة بلقب « حربية ناظري » (ناظر الحربية) ، مع عدم تغيير صلاحياته ، بدلا من محمد رضا باشا الذي كان « سر عسكر » منذ 17 عاما (كان يعتبر كذلك لقب قائد القوات البرية ، وواجبات هذا المقام ، كانت ملقاة على عاتق السر عسكر أو ناظر الحربية) .

حدث هذا التغيير قبل يوم واحد من إعلان المشروطية الثانية . لم تأت المشروطية الثانية بديمقراطية حقيقية . كانت تدّعي ذلك ، وتمكنت فقط من تأسيس الديمقراطية شكلا وتحولت رأسا إلى حزب واحد وحتى إلى دكتاتورية المركز العام . ومن ناحية أخرى ، كانت تحوي كل العناصر التي تمزق الإمبراطورية إربا إربا وتمزق الوحدة الوطنية والدولة ؛ كتسليم المناصب لغير أهلها ولعديمي التجربة والجهلة بالسياسة الخارجية ، والافتتان بالأجانب وعملائهم . ولو أعلنها السلطان حميد بإرادته الشخصية ، لكان الانتقال أكثر عقلانية . لكن البادشاه أصبح في وضع أعلن فيه المشروطية مضطرا . أثر هذا على سياسة الدولة وأصبحت الكلمة للرعاع . ورغم ذلك ، كانت المشروطية نظام العصر العشرين ونظام حميد عاش في العصر التاسع عشر و لم يكن استمراره ممكنا . لم تحرك الجيوش الستة للإمبراطورية – عدا الجيش الثالث – ساكنا تجاه ذلك بصورة عامة . تلقى الجيش الأول خاصة ، ذلك بعدم ارتياح كبير . إلا أنه لم تحدث حركة مخالفة صيانة لوحدة الجيش . وأساسًا كان لا يمكنهم معارضة نظام أعلنه البادشاه بنفسه . بالنسبة للقانون الأساسي ، كان البادشاه هو القائد الأعلى . ورغم أن مؤامرة 1876 قد حققها الجيش الأول ، فإن مؤامرة 1908 ، أخذها على عاتقه الجيش الثالث بسبب أن نبض الإمبراطورية كان ينبض في مكدونيا منذ عدة سنين وكون هذه المنطقة متعددة الجنسيات والأقوام والمذاهب ومتداخلة مع أوروبا . الأقطار ذات الأهمية الحيوية كمكدونيا وأبير وألبانيا التي تشكل أحد جناحي الإمبراطورية ـ التي ضعفت بعد كارثة 93 ـ الكائنة بين نهر مريج والبحر الأدرياتيكي ، كانت في عهدة الجيش الثالث .

لو كانت المشروطية الثانية نتيجة حركة شعبية ، لأمكن تخطي الخطوة الأولى للديمقراطية الحقة . لكنها لم تكن كذلك . كان الجيش الثالث وخاصة الاتحاديين من

ضباط هذا الجيش ، يقولون إن المشروطية هي صنيعتهم وحدهم دون غيرهم ، وأخذوا يكررون ذلك على الشعب يعيّرونه ويمنّون عليه حتى انقراضهم وذهابهم . وهذا أثر من آثار قلة التجربة وعدم تفهم الديمقراطية ، ويحتسب هذا الخطأ بالذات على الاتحاد والترقي .

إن الديمقراطية ممكنة بالأحزاب ، وليست ممكنة دون أن يكون هنالك حزبان على الأقل . نعم لقد تألفت أحزاب كثيرة بعد المشروطية . لكن الاتحاد والترقي استصغر شأنها ، وعلى مر الزمن ، أعلن عدم شرعيتها وخيانتها للوطن . أصبحت المعارضة سرية ، وبهذه الحالة المعنوية ، أقدموا على الحركة التحررية والهدنة ، الأمر الذي أدى إلى حدوث أوضاع لا تليق بالشعب التركي . بدأ الاتحاد والترقي بحياة حزبية سيئة للغاية . وبناء على ذلك ، لم تتحقق الديمقراطية بسبب عدم إمكان تشكيل أحزاب سليمة وإعلان الاتحاد والترقي عن نفسه بأنه هو الحزب الوحيد الذي أنقذ الشعب والدولة وأنه بصفته هذه ، صار وصيا على الشعب والدولة . لكن الأسوأ من ذلك هو إشراك الجيش في السياسة والإخلال - بشكل خياني وسافر - بالمبادئ الأساسية للانقلاب الأكبر الذي حققه السلطان محمود في 1826 وهو عدم استعمال الجيش في السياسة الداخلية وعدم تدخل الضباط في السياسة . وقد شوهد في حرب البلقان انقسام الضباط الاتحاديين والمعارضين (الذين يسمون أنفسهم « خلاصكار » أي منقذين) إلى قسمين وقد عامل أحدهما الآخر ، معاملة خائن الوطن . إن جيشا هذا شأنه ، لا يمكنه الانتصار في الحرب ، وهذا ما حدث فعلا .

حكم العوام (الديماجوجية السياسية) ، هو العنصر الذي وضعته المشروطية في حياة المجتمع التركي بشكل تام . استعملت كلمة « مرتجع » (رجعي) بمعنى « مخالف » (معارض) . كما استعملت في تر[illegible] بعد ذلك كلمة « فاشست » بمعنى « الشخص المعارض لتأسيس النظام الشيوعي » . من الواضح أن الاتحاد والترقي قد تأثر بعمق بالكثير من مبادئ الثورة الفرنسية الكبرى . إن شعار الحزب هو « حريت ، عدالت ، مساوات ، أخوت » الذي ترجم طبق الأصل عن الفرنسية . الحقيقة أن الحزب أخذ يتدارك وضعه لكن كان هذا بعد فوات الأوان .

كان الذي يمثل النظام الاستبدادي ، شخصا واحدا . عند سحب السلطة من عبد الحميد الثاني ، ينتهي هذا النظام معه . أما الاستبداد الاتحادي ، فلم يكن يمثله شخص واحد . من ناحية كونه دمويا وتآمريا وإعداميا فإنه يمتاز بالشدة عن النظام السابق الذي يرفع التقارير وينفي فقط ، ومن ناحية حشر الضباط في السياسة ، فقد وضع الديناميت في قواعد الدولة وأصبح تثبيت مصدر السلطة مطاطيا إلى درجة . عاش الناس سكرة الحرية اللطيفة بعد ضغط النظام الحميدي ، مدة عشرة أشهر . ثم فتح دور ، ثلاثي طلعت – أنور – جمال ، الدكتاتوري الاستبدادي المطلق .

15 – إعلان المشروطية الثانية (1908/7/23) وأيامه الأولى

أعلن السلطان حميد إرادة سنيّة بين فيها أنه أعاد العمل بالقانون الأساسي ، وأنه أساسًا كان هو الذي أعلن هذا الدستور قبل 32 عاما ، وعطل المجالس في حينه نظرا لما تقتضيه شروط ذلك الزمن ، وأنه ستجرى الآن التحضيرات لأجل الانتخابات لتأسيس المجالس (1908/7/23) .

وبالنسبة لأحكام المشروطية ، يعين الحاكم الصدر الأعظم وشيخ الإسلام فقط . وبالتعديل الجذري الذي أجري على القانون الأساسي ، يختار الصدر الأعظم نظّاره ، وتبدأ وزارته في العمل ، في حالة حصولها على اعتماد المجلس . للمجلس حق إسقاط الحكومة إذا رأى ذلك .

استمرت صدارة سعيد باشا السابعة 14 يوما . كان منافسه الأكبر كامل باشا ، الذي أصبح صدرا أعظم للمرة الثالثة (1908/8/4) . استقال بعد 6 أشهر و 10 أيام بسبب ملله من الضغوط السريّة المخالفة للدستور التي يمارسها الاتحاد والترقي (1909/2/14) . صار وزير الداخلية حسين حلمي باشا البالغة سنه 53 عاما ، صدرا أعظم مع احتفاظه بوزارة الداخلية . استقال بعد شهر واحد و 28 يوما على أثر واقعة 31 مارس (1909/4/13) . صار أحمد توفيق باشا البالغ سنه 64 عاما ، الصدر الأعظم الأخير لعبد الحميد الثاني والأول للسلطان رشاد . دبلوماسي ، اشتهر بشغله منصب وزير الخارجية مدة 13 سنة و 3 أشهر و 17 يوما (الثالث في التسلسل) في أواخر عهد السلطان حميد .

16 - انفصال بلغاريا وبوسنة - هرسك عن الإمبراطورية (1908/10/5)

على أثر الخطأ الذي ارتكبه الاتحاديون بعدم تخصيصهم مكانا في البروتوكول لممثل أمير بلغاريا المسمى « قابو كتخداسي » بلّغت إمارة بلغاريا الباب العالي بأنها انفصلت عن الإمبراطورية العثمانية وأعلنت الملكية من طرف واحد . وفي اليوم نفسه (1908/10/5) ، بلّغت النمسا - المجر ، بأنها ضمّت بوسنة - هرسك التي تديرها باسم العثمانية ، وأنها ستبقى تحت إدارة الحكم المطلق المزدوج ، أي أنها لن تنضم ، لا إلى الحكم المطلق للإمبراطورية النمساوية ، ولا إلى الملكية المجرية ، وأنها ستكون تحت الإدارة المشتركة لهما معا . وفي اليوم التالي (6 ت1) ، بلّغ مجلس إيالة كريت ، بأنه انفصل عن العثمانية والتحق باليونان .

بدأت المشروطية بمثل هذه الحوادث المؤلمة جدا . وأخذ يتضح مدى دهاء النظام الحميدي في السياسة الخارجية . وهكذا فقدت الإمبراطورية بلغاريا 345 96 كم^2 و 000 338 4 نسمة + بوسنة - هرسك 51564 كم^2 و 000 932 1 نسمة . لم تتمكن كريت من الانضمام إلى اليونان . لم ينقطع ارتباط (379 8 كم^2 و 000 344 نسمة) من الجزيرة مع العثمانية حتى 1913 . ترك الباب العالي في معاهدة إستانبول 1909/2/26 بوسنة - هرسك إلى النمسا لقاء تعويضات قدرها 2,5 مليون ليرة ذهبية .

منحت بلغاريا الاستقلال كذلك لقاء 5 ملايين ليرة ذهبية (معاهدة إستانبول ، 1909/4/19) . ظهرت دولة بلقانية مستقلة أخرى ، اتبعت سياسة خارجيه توسعية سبقت البلقانيين الآخرين . سحبت النمسا جيشها من لواء يني بازار الواقع بين صربيا وقرة داغ ، وجاء محله الجيش التركي .

فرضت المقاطعة على البضائع النمساوية لأشهر عديدة . تأثر الشعب بهذه الخسائر . علّموا الأطفال أناشيد « كريت حياتنا ، نفديها بدمنا » . جاء ملكا الصرب وبلغاريا ، إلى إستانبول . بقيت اليونان وحيدة ، لفترة من الزمن . كان ضم بوسنة - هرسك ، من قبل النمسا - المجر ، أحد أسباب الحرب العالمية . لأن الجرمانية ، غزت شبه الجزيرة البلقانية على العمق وفقدت روسيا - كرئيسة للسلافية ، منطقة نفوذ . دخلت صربيا بعد ذلك تحت حماية روسيا ، وبلغاريا تحت حماية النمسا وقسمت البلقان إلى كتلتين .

كانت صربيا وكذلك النمسا ـ المجر ، تطلبان بوسنة ـ هرسك ، وكانت تهدد كذلك من قبل بلغاريا .

17 – افتتاح مجلس المبعوثان (النواب) (1908/12/17)

جرت الانتخابات الأولى على مرحلتين – كما هي الحالة حتى 1946 – بشكل ابتدائي وبارتكاب مختلف الحيل . انتخب الشعب مرشحي الاتحاديين بقوة السلاح . استخدمت الأقليات دسائس دنيئة ، للحصول على مقاعد أكثر . كان 140 نائبا فقط من مجموع 275 نائبا تركيا . العرب 60 نائبًا (منهم مسيحي واحد) ، الألبان 25 نائبًا (بضعة منهم مسيحيون) ، الأكراد 2 ؛ أما من غير المسلمين ، الروم 23 ، الأرمن 12 ، اليهود 5 ، البلغار 4 ، الصرب 3 ، الرومان (Ulah) نائب واحد . لم يؤيد النواب الدولة منذ الجلسة الأولى ، على عكس ما كان يظن الاتحاديون ، بل أيّدوا الأقوام التابعين لها .

افتتح عبد الحميد الثاني مجلس المبعوثان (1908/12/17) . استصحب ابنه الأوسط المحبوب برهان الدين أفندي البالغة سنه 23 عاما ، بعربة السلطنة الذهبية وجاء إلى المجلس . لم يتردد في أن يشير في خطابه إلى شكّه في اتفاق النواب من مختلف الأقوام حول مصالح الدولة العليا . ورغم تأكيده بأنه هو الذي يعلن القانون الأساسي ، كما كان قد أعلنه هو قبل 32 عاما وكذلك يفتتح هذا المجلس كما افتتح هو المجلس الأول ، ورغم تشديده على هذه الكلمات ، كان الاتحاد والترقي ، بإدعائه الذي شق عنان السماء والأرض ، يعلم أنه هو صاحب « الانقلاب العثماني » . ولو أن الحزب ، تقبل بقوله أن البادشاه هو الذي أعاد العمل بالمشروطية ، وأن ذلك هو رأي الدولة الرسمي لأمكن صيانة سلطة الدولة . لقد عجز الحزب حتى عن إظهار هذه النظرة البعيدة .

وشيء آخر ، هو أن الأقليات لم ترتبط بالدولة ، على عكس إدعاء الاتحاديين بأن ذلك سيحدث فور تطبيق الديمقراطية ، أخذت الأقليات تستهزئ بشعار « اتحاد الأنصار » . عصى الأرمن في إيالة أدنة (1909/4/14) . كان الاتحاديون يتهمون السلطان حميد بسحقه الأرمن . لنرى الآن ماذا فعلوا هم ؟ .

صدر عفو عام عن أفراد العصابات ، البلغار ، الصرب ، اليونان ، الأرمن الذين

أهدروا دماء آلاف المسلمين . عادت مجددا كل العناصر الضارة الهاربة من الدولة العثمانية . فتحت كل الأبواب . أصبح تأمين الأسلحة من الأقطار الخارجية إلى الحركيين سهلا . لم يبق في جعبة الصحافة هراء ولغو لم تكتبه . أخذت مئات الصحف والمجلات في الصدور . والشوارع كل يوم تمتلئ بالمتظاهرين . فتحت جمعيتا طاشناق وخنجاك الأرمنيتان الإرهابيتان في الأناضول شعبا لهما بصورة رسمية وعلقت لوحاتها .

وفي مثل هذا الجو ، حدث تمرد في إستانبول . وفي اليوم التالي للتمرد ، أمر Museg مطران Kilikya الأرمن بالعصيان . هجم الأرمن بجوار أدنة على الناس ، الأعراض ، الأموال لمدة 4 أيام ، 4 ليال (16 – 19 و 24 نيسان 1909) . دافع الشعب المسلم عن نفسه بنفسه . الأرمن الذين قتلوا 1850 مسلما ، قدموا 17 000 قتيل . هرب Museg إلى مصر ولجأ إلى الإنكليز . واقعة أدنة هذه ، كواقعة 31 مارت في إستانبول ، دبرتها وكالة المخابرات الإنكليزية **British Intelligenee Serviee** . غضب وزير الداخلية طلعت بك ، الذي ليست لديه خبرة إدارة قائمقامية قضاء . كان يرى أن المسلمين محقون في الدفاع عن أنفسهم . لكن لماذا لم يقتل من الأرمن بقدر ما قتل من الأتراك وخسائر مواطنينا الأرمن أكثر ؟ إن هذا يتنافى مع قاعدة المساواة ! أرسل صديقه المقرب ، المقدم الركن جمال بك ، كوالٍ لإيالة أدنة .

وبدلا من أن يحقق جمال بك في كيفية سماح قوات الأمن لحدوث عصيان أرمني ، أعلن الأحكام العرفية وأعدم 47 تركيا أحدهم مفتٍ وأرمني واحد فقط . ظن الاتحاد والترقي أنه بعملهم هذا سيضمنون إخلاص الأرمن للدولة ، وقدموا لهم نموذجا في العدالة !

18 – واقعة 31 مارت (1909/4/13)

بدأ الاتحاديون بقتل معارضيهم في الشوارع . قتل على هذا الشكل بالمسدس في شوارع إستانبول كل من إسماعيل ماهر باشا ، الصحفيين الشابين أحمد صميم بك وحسن فهمي بك ، ونشرت الجملة المعهودة « رغم التحريات لم يعثر على القتلة » . لم تكن حوصلة الاتحاديين ، وخاصة زعيمهم طلعت بك ، تستوعب كيفية عدم

امتنان الشعب بأسره دون استثناء لهم رغم إسقاطهم حاكما لم يقدر أحد على إسقاطه مدة 30 عاما وجلبهم الحرية . بالنسبة لهم ، فإن كل شخص لا يقدّر خدمات وتضحيات الاتحاديين ، ولا يصفق لهم ، لا يعتبر ناكرًا للجميل فحسب ، بل خائنا للوطن . بدأ تحزّب مخيف استهدف إبعاد كل موظفي الدولة غير الاتحاديين . لم يكن من السهل تحقيق هذه التصفية بشكل كامل ؛ إذ إنه ليس لدى الاتحاديين كوادر لملء هذا الفراغ ، خاصة أنهم لم يتمكنوا إلا من تقديم ناظر أو ناظرين فقط للوزارة . لم يكن لديهم شخصيات كثيرة . كانوا مضطرين لإبقاء وزراء دور السلطان حميد في أعلى المناصب . ومن جملة هؤلاء ، سعيد باشا ، كان رجلا عديم الخلق . ورغم أنه كان من النوع الذي يمكنه عمل كل أنواع الدسائس والحيل لكسب ود الاتحاديين ، لكنه في الحقيقة ، لم يكن يميل إليهم بالمرة . أما كامل باشا ، فكان فقط يكره الاتحاديين ولا يتردد في التصريح بهذا . كان حسين حلمي باشا مقربا للاتحاديين ولكنه لم يكن منتسبا إلى الحزب .

كان الاتحاديون يشكّون في عدم تمكنهم من السيطرة على الدولة بشكل تام . كان العملاء الأجانب الذين يحيطون بهم – والذين كان الاتحاديون – يجهلون كونهم عملاء – والذين صفّقوا للذين أطلقوا عليهم اسم « جون تركلر » (الشباب الأتراك) مدة من الزمن – يدفعون بهذا الحزب ويحرضونه على القيام بحركات أوسع . كان السلطان عبد الحميد يمثل السلطنة فقط . ليست له علاقة بالحكومة والجهاز التنفيذي . لكن مجرد ظلّه كان يخيف الاتحاديين وكذلك الدول الأجنبية . كان لا يمكن تحقيق العديد من المشاريع مادام باقيا في مقامه . وفي النهاية ، اتفقت جميع قوي الشر على إسقاط حاكم هذا شأنه ، أكبر أستاذ خبير في الحكم والإدارة . العائق الوحيد ، كان الجيش الأول .

كان هذا الجيش المتمركز في إستانبول ، أكبر قوة ضاربة في الإمبراطورية ، خاصة فرقتيه الأولى والثانية ، كانتا قد جهزتا وسلحتا بشكل فوق العادة بالنسبة إلى ذلك العهد . وكان الجيش الأول مخلصا للبادشاه . والأهم من ذلك ، كان ضد الجيش الثالث . إذ إنهم كانوا قد بدأوا بالاستياء من غرور وزهو ملازمي ونقباء الجيش الثالث القادمين بعد المشروطية من سلانيك ومناسطر إلى إستانبول .

جاء الاتحاديون بأحد المشيرين الشباب محمود مختار باشا ـ وهو ابن غازي أحمد مختار باشا وصهر الخديو إسماعيل باشا القديم ـ لقيادة الجيش الأول . أرادوا بذلك منع الحركة المضادة في هذا الجيش . لكنهم لم يتمكنوا من توفير العناصر التي ستنفذ المؤامرة من بين هذا الجيش . جلبوا سرايا القناصة من فرقة الجيش الثالث في سلانيك إلى إستانبول باسم « نكهبان حريت » (حرس الحرية) و « محافظ مشروطيت » . وبهذا كسروا عزة نفس وأنفة الجيش الأول . حيث إن هذا يعني أن الجيش الأول لم تكن لديه القدرة على صيانة الحرية والمشروطية ، الأمر الذي جعلهم يجلبون عدة سرايا لذلك .

قاد العصيان المسمى 31 مارت والذي يصادف بالتاريخ الميلادي 14 نيسان 1909 ، سرايا القناصة التي سيقت إلى إستانبول . لم يكن على رأسهم ضابط واحد . عصى الجنود تحت إمرة العرفاء والرقباء ، بشعارات رجعية وواضحة جدا أنها مرتّبة . قتلوا ناظر العدلية ناظم باشا ، ظنا منهم أنه أحمد رضا بك ، ونائب لاذقية الأمير شكيب أرسلان ، ظنا منهم أنه الصحفي حسين جاهد بك ، وقبطان (رئيس الملاحين) البارجة « آثار توفيق » علي قبولي . استدعى السلطان حميد ، قائد الفرقة الثانية وأشار عليه بضرورة تشتيت هؤلاء العصاة . أفاد قائد الفرقة بأنه لم يتسلم من قائد الجيش أمرا كهذا ، لكنه إذا كان البادشاه يأمر شخصيا بذلك ، فإنه سوف ينفذ الأمر لأن البادشاه هو القائد الأعلى . تردد السلطان حميد . أشار عليه بمراجعة قائد الجيش وتنفيذ ما يأمر به . محمود مختار باشا الذي كان اتحاديا ـ الذي سيكون فيما بعد معارضا شديدا للاتحاديين ـ لم يأمر بذلك .

يتضح ، حتى من هذه الخلاصة المقتضبة ، مدى كون هذه الحادثة مدبرة . حادثة في منتهى القبح ، سبّبت أضرارا كبيرة للدولة ، دبرها الاتحاديون للتخلص من السلطان عبد الحميد . لكن الحقيقة هي أن الاتحاد والترقي ، صار آلة بيد إنكلترا . و لم ينكشف ذلك إلا بعد مرور فترة . كان إسقاط السلطان عبد الحميد ، هو الخطوة الحقيقية الأولى لتمزيق الإمبراطورية . وحتى اسمه كان شعارا يخيف العدو ويبعث الأمل في نفوس الشعوب الإسلامية المظلومة . بسقوطه ، لم تشعر الدول الأوروبية ودول البلقان فحسب بل شعرت كذلك المجتمعات الأرمنية واليهودية التي لا دولة لها ، بأنها اقتربت كثيرا من أهدافها .

واقعة 31 مارت ، حادثة قبيحة من كل الوجوه ، حادثة رجعية . لم تصدر عن الشعب . يحتمل أن يكون الشعب غير راض عن الاتحاديين . لكنه في نفس الوقت ، لم يكن الشعب هو الذي يفعل حادثة من هذا القبيل . إن سياسيين كثيرين من ذوي النوايا السيئة ، اتهموا الشعب التركي بالرجعية بعد هذا التاريخ ، وأومأوا بإصرار بأن الشعب التركي رجعي ، وبأنه يناصر الرجعية ، وبناء على ذلك يجب جعله تحت الوصاية . وهذا ، وسع الهوة ، بين الكادر الإداري والشعب بشكل كبير .

بدأ الاتحاديون بجمع قوات في سلانيك ونقلها بالقطار إلى إستانبول . سميت هذه القوة « حركت أوردوسي » أي جيش الحركة . الجيش الثالث ، كان يحتوي على قليل من الجنود النظاميّين . البقية عصابات يدّعى أنها متطوعة ، أكثرها من أفراد العصابات البلغارية ، الصربية ، اليونانية ، المكدونية والألبانية الذين أهدروا الكثير من الدماء التركية . تولى القيادة في الطريق ، الفريق الأول محمود شوكت باشا . كان قائدا للجيش الثالث . وكلّ نيابة عنه في سلانيك ، هادي باشا . ادعى جيش الحركة بأنه جاء لينقذ البادشاه من العصاة في إستانبو ل ، لكن قوة كهذه تسير نحو إستانبول يشكل أكثريتها المكدونيون قتلة المسلمين ، على رأسها جنرال عثماني معروف ، أثارت التردد لدى الجيش الأول .

مثل الجنرالات بين يدي السلطان عبد الحميد في إستانبول ، وطلبوا منه أمرا لمنع دخول هذه القوة إلى إستانبول . أمر السلطان بشكل قاطع بعدم التحرش بهم . نوقش هذا الأمر كثيرا ، إذ إن التطورات التي حدثت بعده ، كانت ذات تأثير وخيم على مستقبل وشرف الدولة التركية . وذكر بأنه لا يمكنه بعد هذا العمر أن يقتل المسلمين بالمسلمين ، وبالنسبة إلى قوانين المشروطية ، فإنه لا يمكنه التدخل في الإجراءات . وضح هنا ، عدم تركه سياسة بني عثمان ، في عدم استعمال الجيش في السياسة الداخلية ولو كان ذلك ضده . بلغ الأمر إلى حد أن السلطان عبد الحميد ، حصل من قائد الجيش الأول ناظم باشا والجنرالات الذين يرافقونه على قسم ، بعدم استعمالهم السلاح ضد جيش الحركة .

19 - خلع السلطان عبد الحميد الثاني (1909/4/27)

دخل محمود شوكت باشا ، إستانبول في 25 نيسان وسيطر على الوضع . أعلن الإدارة العرفية وأعدم الكثيرين من الأبرياء وشهرهم في الميادين . سطا أفراد العصابات البلقانية المتآمرة على قصر ييلدز ونهبوا الأشياء الثمينة التي تقدر بعشرات الملايين من الليرات الذهبية واقتسموها . وحتى عربة البادشاه الذهبية ، اقتسمت بعد تقطيعها إلى لوحات . نهبت ببغاآت السراي . (معروف من الذي سمح بهذا النهب) .

من ناحية أخرى ، كان الرئيس الثاني لمجلس النواب طلعت بك مسيطرا على المجالس ، بصفته الرئيس العام للاتحاد والترقي . دعا محمود شوكت باشا ، الذي دخل يشيل كوي في 22 نيسان ، مجلسي النواب والأعيان باسم « مجلس عمومي ملي » (المجلس الوطني العام) لاجتماع مشترك . حضر الذين استطاعوا الحضور . كان رئيس مجلس النواب ، الصدر الأعظم الأسبق كوجوك سعيد باشا ، قد اتفق حول موضوع خلع البادشاه . كان طلعت بك يخيف البرلمانيين المترددين باتهامهم بالرجعية . إذ كان قد شرع في إعدام الرجعيين . اختبأ رئيس مجلس النواب أحمد رضا بك الذي أخذت تتردى علاقته مع حزب الاتحاد والترقي الذي كان يرأسه في الماضي .

رفض « فتوى أميني » (المفتي الأكبر) التوقيع على فتوى الخلع . جلبوا أحد رجال الدين الجهلة وحصلوا على توقيعه . كان السلطان عبد الحميد متهما بتدبيره واقعة 31 مارت . ومع أنه قد وضح اليوم ، عدم وجود أية علاقة له بهذه الواقعة ، هذا علاوة على أن طلعت بك ، كان قد بين بصراحة وبصورة قطعية في حينه ، عدم وجود علاقة له بالحادث ، أما سعيد باشا فقد اكتفى بالإيماء فقط بعدم وجود علاقة له إلا أنه كان يلزم إيجاد سبب ديني لخلعه . أضيف إلى الفتوى ، إدعاء حرقه الكتب الدينية إلى جانب إدعاء تحريضه المسلمين على قتال بعضهم البعض . إن هذه الادعاءات مضحكة فقط . كان متهما بالإسراف ، رغم كونه أكثر الحكام اقتصادا . وكان يتهم بالظلم رغم كونه أكثر الحكام تحاشيا لسفك الدماء . وسوف يبين لنا الاتحاد والترقي ، بعد الآن ، وبشكل عملي كيف يكون الحكم الدموي .

إن طريقة إبلاغ قرار خلع السلطان عبد الحميد إليه ، لطخة لا يمكن محوها أبدا

من التاريخ التركي . كلّف 4 موظفين بتبليغ الخلع : نائب سلانيك عما نوئيل كراسو (Emanuel Carasso) يهودي عميل لإيطاليا وقد لعب دورا مشئوما في عملية ابتلاع إيطاليا ليبيا ؛ النائب رام أفندي الذي أباح دماء الكثيرين من الأتراك عند ترأسه الإرهابيين الأرمن ؛ نائب دراج Draç ، لواء الجندرمة (الدرك) الألباني أسعد طوبتاني باشا ، عميل لإيطاليا في استقلال ألبانيا الذي أهدر دماء الكثيرين من الأتراك والذي سبّب قتل الضباط العثمانيين ؛ النائب الكرجي الفريق البحري عارف حكمت باشا ، الذي تعاون مع دول الاحتلال خلال الهدنة . هكذا أخذ اليهود ، الأرمن ثأرهم من السلطان عبد الحميد . اعترف الاتحاديون بعد ذلك بأنهم اقترفوا خطأً كبيرا بانتخابهم هيئة كهذه . أبلغ الخليفة ، زعيم كل مسلمي العالم ، بالخلع بواسطة 2 غير مسلمين ، مسيحي واحد ، وموسوي واحد وباسم المجلس الوطني .

أركب السلطان عبد الحميد ، تلك الليلة فورا مع 38 شخصا من حاشيته ، القطار وأرسل إلى سلانيك . لم يسمح له بأخذ أية حاجة من حاجاته . صودرت كل أراضيه ، دراهمه النقدية ، سنداته التي كانت تعادل عدة مئات الملايين من الليرات الذهبية ، أكثرها تبدّدت . حرمت السلالة من هذه الثروة وصارت إلى وضع تمد فيه يدها إلى الدولة والحكومة . يا ترى ، أية قوة خفية هذه ، ولأي شيء تنتقم من بني عثمان ؟! رافق البادشاه في المنفى بناته الـ 3 اللواتي لم يتزوجن بعد و 2 من أبنائه . خصص له قصر Alatini في سلانيك . قضى هناك سنوات مفجعة جدا وتحت رقابة شديدة . لم يسمح له أبدا بقراءة الصحف .

20 – حول شخصية السلطان عبد الحميد الثاني

ظل السلطان عبد الحميد على رأس الإمبراطورية العثمانية حاكما مطلقا مدة طويلة جدا تنحصر بين الربع الأخير من العصر 19 وحتى أوائل العصر 20 وتحكم في مصير الشعوب كما تحكم في مصير الأفراد . اعتبر خلال هذه المدة الطويلة ، أحد أهم شخصيات العالم السياسية . وخلال مدة الـ 110 سنوات الماضية منذ جلوسه وحتى يومنا هذا ، نشرت عنه كتابات تستوعبها عربات قطارات عديدة ، صعد به بعضها إلى عنان السماء وهوى به البعض الآخر إلى القاع ، شخصيته غامضة ، معقدة ، ذات جوانب

عديدة.. أثر بشكل كبير على السياسة الأوروبية . دامت سلطنته 32 سنة و 7 أشهر و 27 يوما وهي أطول مدة سلطنة في تركيا منذ 1687 وحتى يومنا هذا . وهو السادس بين آل عثمان في طول مدة السلطنة بعد أرطغرل غازي سليمان القانوني وعثمان غازي ومحمد الرابع وأورخان غازي . استمر حكمه بعد المشروطية الأخيرة ، 9 أشهر و 5 أيام . كان عند خلعه عن العرش في سن 66 عاما و 7 أشهر و 7 أيام .

توحدت الآراء بشكل يقرب من الاتفاق ، على أن دهاء السلطان عبد الحميد شوهد في مجال السياسة الخارجية ، كان هذا الاقتناع سائدًا في الخارج أكثر مما هو في الداخل وعندما كان السلطان على قيد الحياة . كانت الدول الخصوم ترى دائما أن سياسة السلطان عبد الحميد عنصر يخشى منه ، عادوه ، لكنهم لم يتمكنوا من إنكار قدرته . يمكن للقارئ عند قراءته المنشورات والصحف الغربية الناقدة لسياسة السلطان عبد الحميد ، أن يدرك ، بقليل من التفكير ، أن هذا النقد ، إنما كتب من أجل المصالح الأوروبية . صرح سفير إنكلترا ـ التي لا يمكن أن يقال إنها صديقة للخاقان ـ في إستانبول (1899 – 1907) Sir Nicolas D'Connor ، أن سياسة السلطان حميد ، هي أكبر عنصر توازن في أوروبا للحيلولة دون وقوع حرب عالمية ، إن نبوءة هذا الدبلوماسي الإنكليزي ، تحققت تماما . حيث إن نشوب حرب البلقان ، التي لم يسمح السلطان حميد بإشعالها أبدا ، نثرت جميع بذور الحرب العالمية . وقد وصف سفير فرنسا (1909 – 1914) Bonpard ، الذي لم يكن كذلك صديقا للأتراك ، السلطان حميد بأنه « أكبر دبلوماسي واقعي في أوروبا » . هنالك اقتناع يقارب الاتفاق التام ، بأن الشخص الذي لم يسمح أبدا باتفاق دول البلقان الصغيرة ، هو عبد الحميد الثاني . يتفق أكثرية المؤرخين ، وأكثرية الدبلوماسيين في ذلك العهد ، على أنه لو بقي السلطان حميد على العرش ، لما أمكن للدول البلقانية ـ التي عداؤها لبعضها ، أشد من عدائها للأتراك الذين كانوا من رعاياهم حتى يوم أمس ـ أن تتوحد وتشعل الحرب . والسلطان حميد ، عدا ذلك ، لم يسمح لروسيا وللنمسا ـ المجر أن تتوحدان تجاه البلقان . وبكسبه لألمانيا بجانبه ، نجا من ابتلاع إنكلترا له .

اشتهر عبد الحميد الثاني الذي فتح في مدن أدرنة ، المؤسسات التعليمية العالية

كالجامعات والكليات والمدارس التعليمية العسكرية أو المدنية ، بتشجيعه المعارف . وكذلك عني بالتعليم الابتدائي والتعليم المهني ، وعني كذلك بتعليم البنات . فتح في مركز كل صنجق (محافظة) مدرسة إعدادية (ثانوية ، وإن كانت ذات 4 صفوف تسمى « سلطاني ») وفي مركز كل قضاء مدرسة رشدية (متوسطة) ، يضاف إلى ذلك المؤسسات الثقافية كالمتاحف ، المكتبات ومؤسسات كثيرة أخرى في مجالات الإعمار والمواصلات . أرسل مئات من الضباط ، الأطباء والمتخرجين الشباب وأرباب المهن الأخرى إلى أوروبا وخاصة إلى فرنسا وألمانيا لغرض التحصيل . ارتقت العلوم العملية كالطب ، والعلوم الاجتماعية كعلم تدقيق الكتابات (Epigraphy) وعلم المسكوكات والمعادن (numizmaties) إلى المستوى الأوروبي . ربى جيلا مجهزًا بالثقافات واللغات الشرقية والغربية . أسس الترام في المدن كإستانبول ، بيروت ، أزمير ، سلانيك . سار في البداية بواسطة الخيل ثم بالكهرباء ، أدخل الهاتف والسيارة ، إلى المدن العثمانية في هذا الدور . تم إعمار مضايق إستانبول وجناقلعة ومنشآت عسكرية كثيرة أخرى . أمكن الدفاع عن جناقلعة عام 1915 بالاستحكامات التي أسسها السلطان حميد .

سدد الديون الخارجية بكامل الدقّة ، اقتصد ، دون أن يهمل المصروفات التي تقتضيها كرامة ومكانة الدولة ، قل ، في دوره الاقتراض . أثنى كثير من المؤرخين ورجال المالية على السياسة المالية للسلطان عبد الحميد .

عاش حياة منظمة ، لم يذق طعم المشروبات الكحولية ، لم يهمل أبدا عبادته ، قام مبكرا ، أظهر مقدرة ونشاطا مذهلا في العمل . كان مدمنا على التدخين وشرب القهوة . كان مولعا بالنساء دون إفراط ودون إسراف وخصص وقتا كثيرًا لهن . لم تكن له علاقة مع أية امرأة خارج حرمه ، ليس هذا فحسب ، بل إنه لم يلتفت إليهن بعين نابية . حافظ على سراي ييلدز ، كمأوى للعفة والأخلاق . عاش في دوره ، سواء القروي ، أم الحضري ، عيشة مرفهة ، بالقياس إلى الأدوار التي تلته . حدث دمار القرية التركية في سنوات الحرب التي تلت السلطان حميد . يجب قراءة أبيات الشعر التي يقارن فيها الشاعر محمد عاكف الذي لا يميل إلى السلطان حميد أبدا ، رفاه قرية الدور الحميدي بفاقة وفقر قرية دور المشروطية بشكل رائع . والمعروف عن ذلك

الدور ، قلة الحوادث الإجرامية فيه ، بسبب علو أخلاق الشعب التركي حينذاك .

ومن الطبيعي أن يكون لمقدرته ونشاطه المذهل في العمل هذا ، نواح منحرفة . شغل وقته بأمور فرعية كثيرة لا مصلحة وطنية عامة ترجى من انشغال حاكم بها . ولا شك أن ذلك يتعلق بشكه ووسوسته المشهورة . فإنه لم يعتمد – في الناحية السياسية – على أي شخص ، ولذا فإنه محّص الحوادث بعمق ، ورغم أنه كثيرا ما كان يعثر على الحقائق ، لكن هنالك حالات يطغى عليه الشك فيها ، ويصل بسبب ذلك إلى نتائج مضرة . وفي الحقيقة ، لم يكن تسلطه أكثر بكثير من معاصريه ؛ القيصر ولهلم الثاني ، القيصر نيقولا ، ولا يمكن حتى قياسه بالميكاد ومتسوهيتو . لكن هذه الإمبراطوريات كانت أقطارا متطورة . الأقطار العثمانية كانت متأخرة . إن هذا التأخر كان عاملا مهما . ولو قرئت أكثرية الانتقادات الموجهة لشخصه بدقة ، لتبين أنها في الحقيقة لا تعكس عيوب البادشاه ، بل إنها تعكس المشاكل الناجمة عن تأخر القطر .

وقد عرف بجانب دهائه السياسي ، بذكائه المتميز ، ذاكرته النادرة ، تجربته ومكره السياسي الذي فاق أكثرية معاصريه ، قدرته على التأثير على الأفراد ، لطفه العميق ووقاره ، مخاطبته بصوته الجهوري الرجالي المؤثر جدا . لم يخاطب أي أحد بخطاب « أنت » ، استقبل الجميع وهو واقف ، عدا معيّته . يخطر موظفو المابين (البلاط) ، كل الذين يمثلون بين يديه لأول مرة ، بعدم تقبيل الأرض . لكن المشاهدين يفيدون بأن أشراف المسلمين القادمين من الأقطار الإسلامية البعيدة ، والأمراء القادمين من خارج الأقطار العثمانية لا يبالون بهذا الإخطار ويخرون بين يديه على الأرض .

نفر من عقوبة الإعدام . صدّق خلال مدة سلطنته الطويلة على 5 عقوبات إعدام فقط ، وبدّل عقوبات الآخرين كلهم إلى عقوبة السجن المؤبد ، ومن بينها العقوبات التي حكمت بها محاكم الإدارة العرفية . نفّذ خلال دوره أقل عدد من عقوبات الإعدام في تاريخ تركيه كلها . لكنه لم يتردد في سوق الجنود لإفناء العصابات التي تقتل المسلمين بالأسلحة .

انتُقد كثيرا لإهماله الأسطول . أخذ المؤرخون البحريون في المدة الأخيرة ، يعتبرون

هذا النقد مبالغ فيه . لم يكن بالإمكان من الناحية المالية ، تجديد الأسطول الثالث في العالم بصورة مستمرة بعد هزيمة 93 . ومع ذلك ، فإن الرأي القائل بفقدان هذا الأسطول الذي أسسه عمه ، مكانته لدى السلطان عبد الحميد بسبب الدور الذي لعبه في خلع عمه – رأي صائب . ومع ذلك فقد ألحقت بالبحرية لأول مرة سفن جديدة من بينها غواصتين وطرادين ، كما تم توسيع وزيادة إمكانيات ميناء تصليح السفن ، كما تطورت مدارس البحرية .

تعتبر من الأمور الأكيدة ، محافظته على تركية من حروب البلقان والحرب العالمية ، لو كان قد بقي في العرش حتى موته الطبيعي ، لكانت سياسته الخارجية سوف تظل سائرة في هذا الاتجاه . لقد كان من الممكن عندما تحل سنوات إتمام الإمبراطوريات لأعمارها الطبيعية ، أن تقوم تركية بمحض إرادتها وبشكل أكثر عقلانية بإجراء التصفية ، فتمنح الاستقلال للأقطار غير التركية ، وترتبط معها بعلاقات مادية ومعنوية ، ويحتمل أن يكون أهم من كل ذلك أنها لن تتحطم ويصيبها الدمار في فترة الحروب التي دامت 10 سنوات بصورة مستمرة ، ولا يصيب عمرانها الخراب ، وأنها سوف تتطور أكثر ويحتمل أن يكون أهم من هذا أيضا ، أنها سوف لن تفقد في الحروب جيلا كله شباب لا مثيل له ، من حيث حيازته على الثقافتين الشرقية والغربية .

لو بقي في العرش ، لما انغمس الضابط العثماني ، حتى رقبته في السياسة ، ولوفق أكثر في سلكه . لكن السلطان عبد الحميد ، لم يتمكن من اجتياز هذا المنعطف والسَير نحو الليبرالية . وحتى في العصر الـ 20 ، يشاهد الكثير من الدكتاتوريين الذين لم يجسروا على السير نحو الليبرالية والحرية . ولهذا السبب ، فإنه يجوز ألا نتهم البادشاه بشكل مفرط . لكن من الواضح أيضا أنه لم يتمكن من الأخذ بنظام لإمبراطوريته يلائم العصر 20 و لم يتمكن كذلك الذين تسلموا السلطة منه من الأخذ بهذا النظام ، لكن هذا لا يشكل عذرا . إذ لو تمكنوا من ذلك لما تكبدت الدولة أضرارا عظيمة جدا . قال السلطان عبد الحميد يوم 30 تموز 1908 هذه الحكمة « لو تمكنوا من إدارة تركية مدة 10 سنين ، فليفرحوا بأنهم قاموا بإدارتها عصرا واحدا » قال ذلك وانسحب من السلطة . إن هذه العبارة التنبؤية إنما صدرت عن سياسي ذي تجربة كبيرة . وحتى

الشعراء المعارضون نظموا أبياتًا من الشعر كالبيت التالي الذي معناه **لو كان نعشك ، لا أنت يحكمنا ، لكان ذلك أليق بنا – ليعد ويجلس تابوتك على العرش العثماني .**

« إن مشروطية 1908 ، غيّرت مفهوم السلطة السياسية التقليدية في تركية . وهو مسألة اتفاق الجيش مع السلطة السياسية . لم يستعمل السلاطين ، في أي وقت من الأوقات ، القوة العسكرية في السياسة الداخلية . كان هذا اختراع الاتحاديين . وهكذا صارت قدرة مقاومة المثقفين السلطة السياسية قبل الاتحاديين ، عبارة عن مظاهرة بطولية خيالية ؛ ولذا فإن المشروطية الثانية ، في تاريخنا السياسي ، من ناحية السيطرة على السلطة ، هي حملة رجعية استبدادية ؛ حيث إن استبداد الزمرة ، حل محل الاستبداد الفردي ، وهذا أشد خطرا من الوضع الأول لأنه جعل المسئولية بشكل مائع ، لا يمكن تحديده » (الأستاذ الدكتور جاهد طانيول) .

كان حاكما ذا مهارة كبيرة في التجارة ؛ يجيد ركوب الخيل واستعمال السلاح ، ذا صوت جهوري ، له نغمة خاصة ، لطيفة ومؤثرة . جسور ، لطيف ، بعيد عن التعصب ، لكنه متديّن ، يتحاشى الإسراف بشدة ، يتفهم الأمور المالية ، دقيق ، حذر ، لكنه شكاك إلى درجة مفرطة . ولو نحّي عن العرش بالموت أو بعزله وجاء مكانه مراد الخامس مجددا ، أو احتل مكانه السلطان رشاد ولي عهده ، لانهارت الإمبراطورية العثمانية تحت شروط أكثر وخامة وشؤما وسرعة . لم يتمكن حتى الذين نظموا الفتوى لتنحيته عن العرش ، من إنكار كونه حاكما جيدا وممتازا ، وإذ بالغوا في بعض عيوبه ، ضطروا غير محقين ، إلى تحميله مسئولية حادث 31 مارت . إن الذين قاموا على أثر فاته بمراسم تشييع الجثمان الدولي الخاص بالأباطرة الجالسين على العرش ومشوا وراء جثمانه مطأطئين رؤوسهم ، هم أنفسهم الذين خلعوه عن العرش بالتحقير . ومع إن ئولاء ، لاشك في كونهم وطنيين ، فإنه لاشك كذلك ، وبنفس الدرجة ، في أن بينهم عملاء حركيين يخدمون أغراض الأجانب (ناهد سرّي أوريك **150 YilinTurk Meshurlari** 195 ، ص 44 آ) .

إن مشاهدات الفريق البحري الإنكليزي السير هنري وودز **Sir Henry Woods** التي ونها في مذكراته التي حررها بعد عبد الحميد الثاني وبعد سقوط السلطنة في تركية ، فت النظر (ص 113 – 39 و 159 – 66) :

« بالنسبة لي ، إن السلطان حميد هو أحد الذين يشغلون أعظم موقع ممتاز بين سلاطين العثمانيين كافة . أحد الحكام الناجحين جدا منذ تأسيس الدولة العثمانية ... كان يعيش عيشة هادئة وبعيدة عن التكلف . ينصت إلى الخبراء في حل مشكلة ما ، لكنه لا يكون أسيرًا لأفكارهم . كان عاقلًا ولطيفًا عندما كان شهزاده (أمير) ، وحينذاك أيضًا ، كانت الشخصيات الأوروبية الممتازة القادمة إلى إستانبول ترغب في زيارته ، ولولا وجود السلطان عبدالحميد ، وإدارته الإمبراطورية بذكائه وإطالته عمرها ، لما أمكن كذلك ، وجود حكومة أنقرة الحالية (1924) . إن تضميده جراحات حرب 93 الروسية ، التي استنزفت طاقة تركية من الناحية النقدية والبشرية ورمتها في أحضان الفاقة وعرقلت تطورها ، مما يدعو إلى الدهشة . سدد الديون الخارجية ، قوى الجيش وأعاد إلى الدولة العثمانية مكانتها إذ جعلها دولة يخطب ودها والاتفاق معها . ولو لم يسقطوا السلطان عبد الحميد ، لما حدثت الحرب العالمية . وحتى لو فرضنا عكس ذلك ، لأبقى السلطان ، تركية على الحياد ، ولبرزت تركية غير المضعضعة أبدًا ، بين الدول المضعضعة ؛ لكن نظام « الخفية » كان سيئًا . كان مخبرو البادشاه ، مع الأسف ، يخبرونه يوميًا حتى بالعلاقات السرية التي بين الدبلوماسيين الموجودين في بك أوغلو ، وبين زوجاتهم وحياتهم الخاصة ، ومحادثاتهم الشخصية السرية . إن تأسيسه شعبة جاسوسية كهذه ، ولو أنها لم تكن ملائمة لسجية السلطان تمامًا ، لكنه لم يتمكن من تركها . انشغل بكل مشاكل طبقات الشعب المعوزة وتأثر لحالهم ، والحق يقال ، إنه لم يفرق رعاياه المسيحيين عنهم . استعمل ثروته الكبيرة جدًا في هذا السبيل . كان قد قرأ ماكيافيلي وتأثر به كثيرًا . بدل النظام السائد ، بنقله إدارة الدولة من الباب العالي إلى ييلدز . كان يتابع الصحافة الأوروبية يوميًا ويأمر بترجمة الكتب المهمة في نفس العام الذي تصدر فيه ويقرأها أو يستمع لقراءتها . وهكذا ترجم 6 000 كتاب ، وجدت في مكتبته على شكل دفاتر . قابله جوزيف شامبر لاين Joseph Chamberlain (أحد كبار رجال الدولة الإنكليز في عصره) . قال لي بعد المقابلة ، إن السلطان هو الرجل الوحيد الذي له شخصية رئيس دولة حقيقي بين الذين تعرف عليهم من الأتراك . الحقيقة أنه كان عدوًا لعدوه . لكن نفوره من المسيحيين ليس صحيحًا . و لم يكن عدوًا حتى للأرمن ، كان عدوا للأرمن المتآمرين . إن شخصين من الأشخاص الثلاثة الذين

يديرون الخزينة الخاصة (التي كانت بمثابة وزارة مالية حقيقية ثانية) برتبة ناظر (وزير) خلال مدة سلطنته الطويلة ، كانا أزمنيين وكان اعتماده على أولهما وهو الوزير آكوب الفندي كبيرًا إلى درجة أنه كان يستخدمه حتى في العلاقات الدبلوماسية السّرية . كانت المبادىء الأساسية لسياسته المضبوطة فى الخارجية هي برودة الطبع ، التريث ، اجتياز خطر الحرب ، تشخيصه السريع لنقاط عدم التفاهم الرئيسية ، العداوات ، الحسد الكائنة بين الدول واستعمالها لصالح العثمانية . كان يعمل منذ ساعات الصباح المبكر إلى ساعات متأخرة من الليل وينام قليلًا جدًا . أولى صفة الخلافة أهمية تفوق الأهمية التي أولاها السلاطين الآخرون . وبينما كانت هذه الصفة ، بالنسبة لأسلافه السلاطين ، واحدة من ألقاب الحكم العديدة التى يحملونها ، أعطاها هو مفهومًا جديدًا . اهتم بالمسلمين الموجودين فى كل أنحاء العالم . ربطهم باستانبول بروابط المحبة والاحترام . آلاف المسلمين كانوا يتواجدون فى استانبول . المسلمون في الأقطار الموجودة في أفريقيا الوسطى وحتى الصين يروحون ويغدون ، يلقنون ويتسلمون الأوامر ، كان حاكمًا أبًا للعائلة بكل معنى الكلمة ، حريصًا على أولاده ، معنيًا بتربيتهم بشكل جيد ، لطيف المعشر . ولو كان عزم على استعمال الجيش ، لما استطاعت أية قوة أن تخلعه عن عرشه . لكنه لم يقترب من ذلك . وبالأساس لم يكن يؤمن بالحرب والعراك ويؤمن بالدبلوماسية الدقيقة . كان جيش الحركة عبارة عن ثلاثة أو أربعة آلاف شخص . كان يشكل أكثريته الألبان ، اليهود ، الروم . ضباطه فقط كانوا أتراكًا . إن 8 000 من جنود الخاصة (حرس السلطان) المدربين تدريبًا جيدًا والذين رافقوه قبل عدة أيام فى استقبال الجمعة الأخير ، كان بإمكانهم تشتيت هذه القوة بمصادمة واحدة . توسل شوكت باشا إلى البادشاه أن يعمل ذلك ، لكنه لم يتمكن من الحصول على موافقته . كان الشعب يحبه جدًا . إن الشعب الذي كانت السماء والأرض ترن لهتافه « بادشاهم جوق باشا » (يعني بادشاه) في مراسم استقبال الجمعة الأخير ، قبل خلعه بعدة أيام ؛ كان صادقًا ... » .

حرر المؤرخ عبد الرحمن شرف أفندي بعد موته هذه الأسطر : « كانت العلامات الخاصة بالسلالة العثمانية تشاهد وتتميز على ملامح وقوام السلطان عبد الحميد . كان ذكيًا وحساسًا ، لا يضيع وقته ، لطيفًا في معاملته الاعتيادية ، يملك صوتًا ذا حلاوة

خاصة . يؤدي بشكل تام ما يستوجبه وقار شخصية ومنزلة خلافته وسلطنته ، يتلطف تابعيه ، ويعلم كيف يسحر الأجانب الذين يقابلونه ، بحلاوة لسانه وجاذبية لطفه ورقته . كان قادرًا تمامًا على تحقيق وعيده ، ومقتدرا على إظهار شدته أو تسكين حدته عند اللزوم » .

شيوخ إسلام دور السلطان حميد هم خير الله أفندي ، خليل أفندي ، أحمد مختار أفندي للمرة الثانية (للمرة الثانية سنة ، 9 أشهر ، 4 أيام) ، عرياني ــ زاده أحمد أسعد أفندي (4 / 12 / 1878 – 17 / 1/ 1889 = 10 سنوات ، شهر ، 14 يوماً ، الحادى عشر في التاريخ العثماني ، من حيث المدة) ، بودرملي حاجي عمر لطفي ، محمد جمال الدين أفندي (4 / 9 / 1891 – 14 / 2 / 1909) ، ثم محمد ضياء الدين أفندي . إن المشيخة الأولى هذه لجمال الدين أفندي دامت 5 / 17 سنة . رجل دولة قدير . مكث في هذا المقام مع مشيخته في المشروطية قرابة 17 سنة ، 11 شهرًا ، 13 يوماً ويعتبر السادس بين شيوخ الإسلام من حيث المدة ، وهو شيخ الإسلام الكبير الأخير . توفي في مصر في نيسان 1919 عن عمر يناهز الـ 71 عاماً . وعند ذهابه إلى مصر بعد المشروطية قامت الأرض وقعدت وقلق الإنكليز بشكل كبير ، رغم أنه كان قد ترك مقام المشيخة بصورة فعلية .

21 ــ عائلة السلطان عبد الحميد الثاني :

سكن السلطان عبد الحميد الثاني في سراي دولمة بقجة في السنين الـ 8 الأولى من سلطنته فقط . سكن سراي ييلدز ، حتى خلعه . كان يذهب إلى سراي دولمة بقجة عدة مرات في السنة لغرض إجراء مراسم المعايدة ومرة واحدة في السنة ، إلى سراي طوب قابو . أصبح سراي ييلدز ، باستمرار إضافة الردهات إليه وبمرور الزمن ، مدينة داخل مدينة ، وإن صح التعبير ، أصبح فرساي إستانبول . سكن بعد خلعه قصر Alotini (1909 – 1912) ، ثم سراي بكلر بك الواقع في ضفة آسيا فى استانبول الذى استعمل منه غرفتين فقط ، رغم تخصيصه له (1912 – 1918) . السلطان عبد الحميد الذي خرج إلى الشوارع في مراسم تقليده السيف (13 / 9 / 1876) ، 000 600 شخص ، توفي في أواخر الحرب العالمية الأولى فى غرفة نومه المتواضعة في سراي بكلر بك (10 / 2 / 1918 ، الساعة 15) وعمره يتجاوز الـ 75 عاماً

بـ 4 أشهر ، و9 أيام . كان قد مضى على خلعه 8 سنوات ، و9 أشهر ، و13 يوماً وكانت الإمبراطورية تشتعل بنيران الحرب . دامت إقامته في قصر آلاتيني 3 سنوات و6 أشهر ، و5 أيام : وفي سراي بكلر بك 5 سنوات و9 أشهر و13 يومًا وخلال إقامته هذه ، لم يخرج من هذه الأماكن إلى الخارج « أبدا » . دفن في مقبرة عظماء الدولة التي خصصت لرجال التنظيمات والتي يسميها الاستانبوليون مختصراً « تربة » بمعنى (مقبرة) . بجوار جده محمود الثاني وعمه المحبوب السلطان عزيز وابن هذا وولي عهد السلطنة عز الدين أفندي .

إن فرع عبد الحميد ، هو فرع المجيديين ، هو أكبر فروع السلالة وأكثرهم عددًا . تزوج السلطان عبد الحميد زيجته الأولى عام 1863 من نازك ـ أداء عندما كان ولي عهد ثانٍ وعمره 21 عاماً ، وهي باش قادين أفندي (زوجة السلطان الأولى « رئيسة الزوجات » (1850 – 11 / 4 / 1895) . وهي والدة السلطانة علوية ، وظلت في رتبتها هذه باش قادين . أفندي » مدة 20 عامًا (1876/8/31)ـــ 1895/4/11 توفيت وسنها 44 عامًا . « كانت سمراء ، ذات شعر أسود اللون وعيون سوداء ، طويلة القامة ، وعازفة على البيان » . احتلت مكانها بدرفلك ، إيلينجي قادين أفندي (زوجة السلطان الثانية) (4 / 1 / 1851 – 6 / 2 / 1930) ، أصبحت « باش قادين أفندي » مدة 14 سنة ، وهي والدة سليم وأحمد أفندي والسلطانة زكية ، « كانت زرقاء العينين ، شقراء » ، تزوجت السلطان حميد في 15 / 11 / 1868 . تزوج السلطان حميد بزوجته الثالثة صالحة ناجية قادين أفندي (زوجة السلطان) (1887 – 4 / 12 / 1923) بعد 41 عاماً من زيجته الأولى (4 / 11 / 1904) ، وهي والدة عابد أفندي .

أقرب الزوجات إليه والتي مكثت معه بعد خلعه بصورة دائمة ، هي دست زر عائشة مشفقة وهي قادين أفندي الرابعة (زوجة السلطان الرابعة) (10 / 12 / 1867 – 16 / 7 / 1961) . هي والدة السلطانة عائشة . تزوجت في 12 / 1 / 1886 . « كانت زرقاء العينين ، شقراء ، بيضاء الجلد ، ذكية جدًا ، ومرتبطة بزوجها بكل كيانها » .

شهزادات (أبناء) عبد الحميد الثاني هم :

1 ـ محمد سليم أفندي (11 / 1 / 1870 – 5 / 5 / 1937) : ولي عهد

18 / 11 / 1922 – 3 / 3 / 1924 ، الرئيس الثاني ، للسلالة 16 / 5 / 1926 – 5 / 5 / 1937 . أولاده : محمد أفندي (1887 – 1890) ، السلطانة أمينة نميقة (9 / 2 / 1888 – 1969) ، محمد عبد الكريم أفندي (27 / 6 / 1906 – 3 / 8 / 1935) .

تزوجت السلطانة نميقة ، إبراهيم باشا – زاده داماد علي كنعان أسين بك أفندي (1884 – 1961) مهندس معادن ، مدير عام للمعادن ، مؤلف ؛ وهو الأخ الذي يكبر أخاه السفير سيف الله أسين بـ 22 عاماً . أولاده هم فاطمة فتحية خانم – سلطان (1912) ، كاظم بك أفندي ، (1918) ، أمينة ساطعة خانم – سلطان (1926) ؛ فتحية خانم – سلطان ، تزوجت سلطان – زاده إبراهيم أدهم بك أفندي ثم انفصلت عنه ؛ تزوجت ساطعة خانم – سلطان بالنائب البروفسور الدكتور عثمان طوران – أولاد الشهزادة عبد الكريم أفندي ؛ هارون أفندي (20 / 12 / 1930) ودندار أفندي (31 / 3 / 1932) . أولاد شهزادة هارون أفندي : أولاخان أفندي (25 / 8 / 1963) ، السلطانة نورخان (20 / 11 / 1973) وعبد الحميد أفندي .

اشتهر عبد الكريم أفندي بالحادث الغريب الذي أصابه والطريقة التي بات بها ؛ ذهب في 1932 إلى طوكيو واتفق مع الحكومة اليابانية على أن يكون خاقاناً لتركستان . وفي هذه الأثناء ، كانت اليابان قد فصلت منشوريًا عن الصين وجعلت إمبراطور الصين السابق إمبراطوراً لها . وفصلت كذلك تركستان الشرقية عن الصين وقررت إعلان عبد الكريم أفندي إمبراطورًا لها . ورغم أن الولايات المتحدة الأمريكية التى ترتبط بالصين ، والاتحاد السوفييتي الذي يخشى من اليابان كانا معارضين لهذا المشروع ، إلا أنه لم يكن هنالك ما يمكن أن يعملانه لمنع ذلك بصورة فعلية . قتل العملاء عبد الكريم أفندي بالمسدس في غرفته في الفندق الكائن في نيويورك وصّور الحادث على أنه حادث انتحار . والمعلوم أنه كان قد تقرر قبل الثورة الشيوعية في 1917 ، تعيين أحد الأمراء العثمانيين ، خاقانا على تركستان الغربية .

٢ – محمد عبد القادر أفندي (16 / 1 / 1878 – ك 2 / 1944) . توفي (30 / 1 / 1938) وهو رئيس ثانٍ للسلالة . أولاده : محمد أورخان أفندي (12 / 10 /

1909) ، الدكتور نجيب أرطغرل أفندي (27 / 3 / 1914) . علاء الدين أفندي (2 / 1 / 1917) ، السلطانة بيدار (3/ 1 / 1924 - 1943) ، عثمان أفندي (1925 - 1934) السلطانة صفوت نسل شاه (25 / 12 / 1925) . تزوجت هذه السلطانة داماد عوني بك أفندي ، أولادها هما صالح وعمر بك أفندي (من مواليد 1954 و 1959) . أولاد الشهزاد (الأمير) أرطغول أفندي ؛ سليم أفندي (1948) والسلطانة ليلي (1950) – أورخاي أفندي (1909) ، هو الرئيس الثاني للسلالة منذ 1978 . ضابط طيار تزوج نافعه يكن خانم أفندي من عائلة قاوالالي ثم انفصل عنها . أولاده السلطانة فاطمة نجلاء (14 / 9 / 1933) وسليم أفندي (1945) . تزوجت السلطانة نجلاء 3 مرات ، ابنها جم بك أفندي من زيجتها الثانية . زوجها الأول هو من عائلة قاوالالي الأمير داماد محمد سعيد حليم بك أفندي . الثاني داماد علي زكي مانكوس بك أفندي . انفصلت عن الثاني كذلك .

3 – أحمد نوري أفندي (12 / 2 / 1878 – 1944) : كان الرئيس الثاني للسلالة في الأشهر الأخيرة من حياته . اسمه الأصلي أحمد . لا ولد له .

4 – محمد برهان الدين أفندي (19 / 12 / 1885 – 15 / 6 / 1949) : توفي في 1944 وهو الرئيس الثاني للسلالة . أولاده : محمد فخر الدين أفندي (14 / 11 / 1911 – 1970) وأرطغرن عثمان أفندي (18 / 8 / 1912) ، كلاهما لا ولد له . – برهان الدين أفندي ، عازف بيانو ، ملحن ، رسام ، بّحار . انتخب في 1913 ملكاً علي ألبانيا ، لكنه رفض بسبب عدم تنازله عن حقه في عرش تركية . انتخب في 1912 ملكاً علي العراق من قبل العراقيين ، لكن الإنكليز أبطلوا ذلك بشكل دموي وأعلنوا حليفهم فيصل ملكاً .

5 – عبد الرحيم خيري أفندي (15 / 8 / 1894 – 1 / 1 / 1952) : مات في 15 / 6 / 1949 كان عند وفاته رئيسًا ثانيًا للسلالة . كان قد خطب السلطانة ناحية ، ضغط أنور باشا على السلطان رشاد وفسخ هذه الخطبة وتزوج هو بها . تزوج عبد الرحيم أفندي بأمينة خانم أفندي ، إحدي أميرات عائلة قاوالالي ثم انفصل عنها .

ابنته ، السلطانة مهرماه سلجوق (15 / 6 / 1920) ، تزوجت أمه بأمير من عائلة قاوالالي ، داماد راتب جزولي بك ، ثم انفصلت عنه ، وتزوجت بداماد إبراهيم عاصم بك أفندي ؛ أولاده هم خديجة - خانم سلطان (1941) ، تركان خانم سلطان (1943 - 1960) ، إبراهيم توران بك أفندي (1948) - كان عبد الرحيم افندي ضابطًا مدفعيًا ، أجري تدريبه في ألمانيا . كان في الحرب العالمية الأولى قائداً لكتيبة المدفعية ، لا أريد محو شهرتي هذه كقائد فرقة « كان من الأمراء الذين يحبهم أتاتورك . إذ إنه ساند حركة التحرير الوطنية . كان موسيقياً بارعاً .

6 - أحمد نور الدين أفندي (22 / 6 / 1901 - ك 1 / 1944) : لا ولد له . هو توأم محمد بدر الدين أفندي (22 / 6 / 1901 - 13 / 10 / 1903) .

7 - الدكتور محمد عابد أفندي (17 / 5 / 1905 - 8 / 12 / 1973) : تزوج سنيه خانم أفندي ، أخت ملك ألبانيا أحمد زوغو ثم انفصل عنها ، لم ينجب أولاداً . تخرج في مدرسة غلطة سراي ، الحربية ، كلية الحقوق ومعهد العلوم السياسية في السوربون وقسم اللغة الفارسية في قسم اللغات الشرقية العالية في باريس ، دكتور في الحقوق . وخلال فترة أصبح سفيرًا لألبانيا في باريس . دعته اليابان لإعلانه امبراطورا علي تركستان بعد مقتل أخيه عبد الكريم أفندي ، رفض بعد مفاوضات طويلة ، عابد أفندي هو آخر من توفي من أبناء البادشاه من الدرجة الأولي أي ابن سلطان رأساً . ذهب إلي الحج في 1971 . توفي في بيروت . دفن في حديقة جامع السلطان ياووز سليم في الشام ، وهو الجامع الذي دفن فيه أكثرية منتسبي السلالة الذين توفوا في الخارج بعد 1924 .

بنات السلطان عبد الحميد :

1 - السلطانة علوية (1864 - 29 / 11 / 1870) : ماتت قضاء .

2 - السلطانة زكية (21 / 1 / 1872 - 1950) زوجها داماد مشير علي نور الدين باشا (1865 - 1953) ، الابن الأكبر لغازي عثمان باشا . بناتها : علوية شكرية خانم - سلطان (1890 - 1893) وعليه فاطمة خانم - سلطان (1891 - 1972) التي تزوجت بمحسن باشا من فرع يكن من عائلة قاوالالي ، وأنجبت ولدين ذكرين .

3 – السلطانة نعيمة (5 / 8 / 1876) – 1945) زوجها الأول داماد مشير محمد كمال الدين باشا ، هو الابن المتوسط لغازي عثمان باشا ، انفصلت عنه وتزوجت للمرة الثانية بداماد وزير اشكودرالي – زاده محمود جلال الدين باشا (1874 – 1944) . أولادها من زيجتها الأولى : داماد محمد جاهد بك أفندي (1899 – 1976) وعادله خانم – سلطان (1900) . تزوج سلطان – زاده جاهد بك أولا بالسلطانه درّية ابنة الشهزاده ضياء الدين . أما عادلة خانم – سلطان فتزوجت أولا بالشهزاده (الأمير) محمود شوكت أفندي وولدت السلطانة نرمين ؛ طلقت ثم تزوجت للمرة الثانية وصار لها ابن واحد و 3 بنات .

4 – السلطانة نائلة (1 / 1 / 1884 – 25 / 10 / 1957) تزوجت بكرميان أوغلو وزير معارف حكمت باشا (1872 – 1942) ، هو ابن نور الدين عبد الرحمن باشا ؛ عضو مجلس الأعيان . ناظر العدلية والمعارف . لم تنجب أولاداً ـــ وبعد السلطانة نائلة ، ولد للسلطان حميد ابنتان باسم السلطانة سنية والسلطانة سنيحة في 1884 و 1885 وتوفيتا في نفس العام .

5 – السلطانة شادية (1 / 12 / 1886 – 20 / 11 / 1977) . هي آخر ولد وابنة سلطان بقيت علي قيد الحياة . زوجها الأول داماد فاخر بك أفندي (1882 – 1922) ، دبلوماسي وحفيد عبد الله غالب باشا . ولد من هذه الزيجة سامية خانم – سلطان (1918) . زوجها الثاني داماد رشاد خالص بك أفندي (1885 – 1944) . كان سفيراً .

6 – السلطانة حميدة عائشة (2 / 11 / 1887 – 11 / 8 / 1960) ، هي مؤلفة المذكرات المشهورة Babam Sultan Abdulhamid (والدي السلطان عبد الحميد) . زوجها الأول داماد أحمد نامي بك أفندي (1873 – 1962) ، حفيد محمود نامي باشا . انتخب رئيساً للجمهورية في سوريا بالدعاية له بأنه صهر السلطان عبد الحميد . زوجها الثاني محمد علي بك أفندي (1877 – 1937) ، عقيد ركن وهو ابن المشير عبدي باشا – زاده سر عسكر مشير محمد رؤوف باشا (وفاته 1909) . ولد من زيجة السلطانه عائشة هذه ، عبد الحميد رؤوف بك أفندي (1921 – 1981) . ومن

زيجتها الأولى: محمد عمر نامي بك أفندي (1911) وعثمان نامي بك أفندي (1918) . وعالية نامية خانم - سلطان (1913) توفيت بعد شهرين . السلطان - زاده عمر بك له ابنة واحدة ، أمها ، ابنة صدر أعظم باشا - زاده أمير اللواء سعيد باشا . أما عثمان بك ، فتزوج مرتين ، زوجته الأولى هي حفيدة مشير البحرية (أميرال كبير) أحمد راتب باشا ابن قبطان دريا (مشير البحرية) طوبجي باشي - زاده محمود باشا ؛ شغل أحمد راتب باشا بوظيفة والي الحجاز لمدة 16 سنة (1892 - 1908) . سلطان - زاده عثمان بك له ابنتان .

7 - السلطانة رفيعة (15 / 6 / 1891 - 1938) زوجها داماد علي بك أفندي (1885 - 1953) ، دبلوماسي ، ابن مشير أحمد أيوب باشا (1834 - 1892) . بناتها هما ربيعة خانم - سلطان (1911) وعائشة حميدة خانم - سلطان . (1918 - 1936) . كانت السلطانة رفيعة ، مخطوبة في البداية إلي الملحن الشهير شمس الدين ضياء بك ابن جورلولو - زاده محمود جلال الدين باشا .

وعدا هؤلاء ، بنات عبد الحميد اللواتي توفين وهن صغار : السلطانات خديجة (1897 - 1898) علّية (1900 - 1900) ، جميلة (1900 - 1900) ، سامية (1908 - 1909) .

الفصل العاشـــر

السنوات الأخيرة للإمبراطورية (1909 – 1922)

1 - جلوس السلطان محمد رشاد خان الخامس (27 / 4 / 1909) :

« السلطان رشاد » الذي يسميه الشعب رسميًا « السلطان محمد الخامس » ، هو الابن الثالث للسلطان عبد المجيد . والدته كل - جمال زوجة السلطان الرابعة (1826 - 16 / 11 / 1851) ، وهي كذلك والدة السلطانتين فاطمة ورفيعة . « كانت زرقاء العينين ، ذهبية الشعر ، أجمل امرأة شهدتها في حياتي » (من مذكرات الدكتور Spilzer الطبيب الخاص للسلطان مجيد) .

السلطان رشاد ؛ مولوي ، شاعر ، عازف على البيانو ، خطاط . ولد وهو ولي عهد رابع . ظل ولياً للعهد ، طيلة مدة سلطنة أخيه عبد الحميد الثاني الذي يكبره سنتين ، والتي استمرت 32 سنة و 7 أشهر و 27 يوماً (31 / 8 / 1876 — 27 / 4 / 1909) . اعتلى هذا المقام قبل إتمامه سن 32 . أما جلوسه على العرش ، فكان كأكبر بادشاه عثماني عمراً ، في سن 5 / 64 عاماً . مدة ولايته للعهد هي أطول مدة بعد ولاية عهد اورخان غازي . حمل رتبة المشير خلال مدة ولايته للعهد . عاش في قصره الموجود داخل مزرعته الكائنة في بالموجي . كان أخوه السلطان حميد حتى في السنوات التي كان فيها أميرًا يستصغر أخاه هذا ، هو البادشاه الوحيد ذو العينين الزرقاوين والأشقر تماماً . السلطان رشاد ، الذي لم يكن موضع عناية السلطان عزيز كذلك ، والذي ظل مهملاً ، المحب للانزواء ، الضعيف الثقافة الأوروبية ، لكن الجيد الثقافة الشرقية والذي يجيد الموسيقى الغربية و لم يتعلم الموسيقى التركية ؛ ليست له أية علاقة ، لا قريبة ولا بعيدة بدهاء أخيه الكبير السلطان عبد الحميد . ويعتقد أنه كان قليل الحظ من الذكاء ، وقد اشتهر بظهوره بمظهر قليل الذكاء أمام الاتحاديين .

إن السلطنة الحقيقية انتهت مع عبد الحميد . إخوته الذين خلفوه ، محمد الخامس والسادس ، لا يمكن أن يكونا إلا ظلال حكام . ظن السلطان رشاد أن رضوخه وموافقته على كل أعمال الاتحاد والترقي القانونية وغير القانونية ، المشروعة وغير المشروعة ، هي تنفيذ الحكم المشروطي ، لم يتمكن من تقديم نموذج جيد للديمقراطية ذات التاج .

ارتباطه بوطنه وشعبه بإخلاص وأخلاقه العالية ، لم يؤمنا له تأييد الشعب . ورغم أن الاتحاديين وضعوا ثقلهم في صفتي الخاقان والخليفة ، إلا أن ذلك لم يجد نفعاً في رفع مكانته ؛ لأن الشعب أدرك في الحال أنه ألعوبة بيد الاتحاديين ، واكتفى بأن يظهر له المحبة الممتزجة بالشفقة ، واحترامه ، احتراماً لآبائه . من المؤكد أن الحوادث التي أصابت أخيه الكبير ، قد أخافته . وبالإضافة إلي ذلك ، فهنالك عدد آخر ، هو معاصرته لكارثتي الحرب البلقانية والحرب العالمية ، الشعب الذي تعود معرفة كل شيء من رئيس الدولة ، استصغر السلطان رشاد لعدم تمكنه من الحيلولة دون الدخول إلى هذه الحروب . وفوق ما تقدم فهنالك عذر أيضاً ، هو أنه لسوء حظه جاء خلفاً لحاكم فعّال جداً جعل العالم بأسره يتكلم عنه يومياً مؤيداً أم معارضاً .

2 ـ صدور أعظم فترة المشروطية :

استقال توفيق باشا ؛ من صدارته التي دامت 3 أسابيع بعد 8 أيام من جلوس السلطان رشاد ، صار حسين حلمي باشا ، صدرا أعظم للمرة الثانية (5 / 5/ 1909) . كان الصدر الأعظم الأسبق آفلونيالي فريد باشا ، ناظراً للداخلية . اضطر مجبراً علي الاستقالة . صار طلعت بك ناظراً للداخلية . سبب إجبار فريد باشا على الاستقالة ، بالتهديد ، هو محاولة الاتحاديين إعدام الكثيرين بادعاءآت وتهم سخيفة كترتيب حادث 31 مارت ، الرجعية ، مؤيد دور السلطان حميد . صار طلعت بك ناظرًا للداخلية ، هيأ لهم هذا الجو . ولكـن لـم يتحمل ضغوط الاتحاد والترقي ، حتي حسين حلمي باشا استقال بعد 7 أشهر ، 24 يوماً (28 / 12 / 1909) . مجموع صدارتيه 9 أشهر ، 21 يوماً . عمل كناظر للعدل وسفير في فيينا وتوفي في 1923 عن عمر يناهز الـ 68 عاماً .

صار سفير روما إبراهيم حقي بك برغبة الاتحاديين ، صدرا أعظم وكان عمره حينذاك 48 عاماً ، رغم أنه لم يكن وزيراً وبرتبة « بالا » تخرج في المدرسة الملكية (الحقوق) رجل قانون ، أخصائي في القانون الدولي ، قوي الثقافة الغربية ، جاهل تمام الجهل بتركيا ، معتاد علي الحياة الأوروبية ، متفرنج ، غافل ، قليل الذكاء ، محروم من الشعور بالمسئولية . صار قائد جيش الحركة محمود شوكت باشا ناظراً للحربية في هذه

الوزارة . ولأجل إنقاذ حقي باشا من الإعدام بسبب فاجعة طرابلس الغرب أشير عليه بالاستقالة بعد سنة و 9 أشهر و 3 أيام (29 / 9 / 1911) . مات في برلين عام 1918 عندما كان سفيراً لتركيا فيها .

صار كوجوك سعيد باشا ، صدراً أعظم للمرة الثامنة عندما كان رئيساً لمجلس السناتو (بالعثمانية مجلس أعيان رئيسي) أي رئيس مجلس الأعيان . استقال بعد 3 أشهر ، يوم (30 / 12 / 1911) وألّف في اليوم التالي وزارة جديدة . استقال من صدارته التاسعة هذه بعد 6 أشهر و 17 يوماً (16 / 7 / 1912) . ومجموع صدارته الـ 9 : 7 سنوات ، شهر ، 20 يوماً (تسلسله 24) . ضرب رقماً قياسياً في عدد مرات تصدره مقام الصدارة وهو 9 مرات ، بينما لم يزد من شغل هذا المقام في العهد العثماني على 6 مرات فقط ، صدارته الأولى عام 1879 ، كان عندئذ في سن 41 عاما . مات بعد مدة وجيزة (29 / 2 / 1914) عن عمر يناهز الـ 76 عاماً . ظل رئيساً لمجلس الأعيان حتى وفاته . جعله الاتحاديون صدرًا أعظم لكونه أذكى وزراء السلطان حميد ، مؤملين فيه أن يتدبر الأمر في أزمة الحرب الإيطالية . لكنه لم يستطع عمل شيء ، هرب من المسئولية بصورة مستمرة وحاز على نفور الشعب كله .

الاتحاديون الذين شاهدوا وضع الإمبراطورية الحرج ، اتجهت أنظارهم هذه المرة إلى قاطرجي أوغلو غازي أحمد مختار باشا الكبير السن العسكري الحريص الذي له شهرة عسكرية كبيرة وأعطوه مقام الصدر الأعظم . تمكن من البقاء في السلطة 3 أشهر ، 8 أيام . استقال وانسحب (29 / 10 / 1912) . قضى هذه المدة تحت تحكم وسيطرة ابنه محمود مختار باشا الذي أدخله في وزارته كناظر للبحرية . مات عن عمر يناهز الـ 82 عاماً (22 / 1 / 1919) .

جاء بدلاً عنه قبرصلي محمد كامل باشا للمرة الرابعة . سقط في حادث اقتحام الباب العالي بعد شهرين ، 25 يوماً . الحقيقة أنه كان عدواً للاتحاديين ، لكنه جيء به إلى السلطة للتخلص من حرب البلقان بأقل ضرر ، مجموع صدارته الأربع 6 سنوات ، 9 أشهر و 20 يوماً (تسلسله 27) . صدارته الأولي في 1885 . توفي بعد عدة أشهر

عن عمر يناهز الـ 81 عاماً .

ألف محمود شوكت باشا ، بعد كامل باشا وزارة نصف اتحادية (23 / 1 / 1913) . كان فريقاً أول . جعل صدرًا أعظم بعد ترفيعه إلى رتبة مشير وتكليفه بنظارة الحربية . لم يمنحه الاتحاديون الفرصة مثل كامل باشا ، قتل بعد 4 أشهر ، 19 يوماً (11 / 6 / 1913) . ولد محمود شوكت باشا في بغداد من عائلة قفقاسية ، كان عسكرياً ركنا له مؤلفات عسكرية قيمة . يجيد بشكل ممتاز اللغات العربية ، الألمانية ، الفرنسية . صار أخوه رئيساً للوزارة في العراق بعد ذلك . صار صدراً أعظم رغم اعتراض السلطان رشاد ، لأنه يميل إلى الاتحاديين . لفظ أنفاسه الأخيرة وهو يصف الاتحاديين بكلمات « مخلوقات عديمة المخ » .

جعل الاتحاد والترقي ، محمد سعيد حليم باشا ، صدراً أعظم ، رغم اعتراض السلطان رشاد أيضًا . كان أميرًا موسراً جداً من عائلة قاوالالي . كان عضواً في مجلس الأعيان . جي به إلي الصدارة بعد ترقيته إلي رتبة وزير . صار ألعوبة مسخرة بيد الحزب إلى درجة أنه لم يبّلغ بالدخول إلى الحرب العامة من قبل الثلاثي الاتحادي . مدة صدارته 3 سنوات ، 7 أشهر ، 23 يوماً . استشهد في روما على يد حركي أرمني وكان عمره 58 عاماً (6 / 12 / 1921) . كان أخوته الثلاثة اتحاديين ، أحدهم عباس حليم باشا الذي صار ناظراً للمالية وواليا على خداوندكار (بورصة) . صار محله طلعت بك الذي لا يحمل أية رتبة صدراً أعظم بعد منحه رتبة وزير ، وهذه الحادثة ، هي الوحيدة في التاريخ العثماني . وبالأساس ، كان هو ناظر الداخلية والرأس الحقيقي في وزارة سعيد حليم باشا . ظل في مقامه هذا مدة سنة ، 8 أشهر ، يومين وهو الصدر الأعظم الأخير لمحمد الخامس ، والأول لمحمد السادس . استقال عند خسران الحرب العالمية (8 / 10 / 1918) . وعندما استشهد على يد حركي أرمني في برلين ، كان عمره 5 و 46 عاماً (15 / 3 / 1921) . هو أصغر من ولد بين الصدور العظام في التاريخ العثماني . الذين تلوه ، كانوا أكبر منه سناً . كان سعيد حليم باشا ، ناظراً للخارجية في وزارة محمود شوكت باشا وشغل هذا المنصب كذلك لمدة من الزمن في وزارته هو (11 / 6 / 1913) . وعند قتله في الـ 58 من عمره ، دفن في حديقة مقبرة السلطان محمود . أما رفات طلعت باشا فجلبت من برلين عام 1944 إلي استانبول ودفنت في الحرية الأبدية

جنب محمود شوكت باشا .

شيوخ إسلام دور السلطان رشاد هم ، محمد ضياء الدين أفندي ، بيري – زاده محمد صاحب أفندي ، جلبي – زاده حسين حسني أفندي ، موسى كاظم أفندي ، عبد الرحمن نسيب أفندي (الذي اعتلى هذا المنصب عندماكان قاضياً على مصر) ، محمود جمال الدين أفندي للمرة الثانية ، محمد أسعد أفندي ، أوركوبلي مصطفى خيري أفندي وموسى كاظم أفندي للمرة الثانية . موسى كاظم أفندي الذي جيء به من عضوية مجلس الأعيان والذي ظل في منصبه هذا ملة 3 سنوات ، 10 أشهر ، 27 يوماً ، هو من معّممي الاتحاديين واشتهر بكونه ماسونياً . أما أوركوبلو زاده خيري أفندي ، الذي بقي في هذا المقام مدة سنتين ، وشهر ، 23 يوماً ، كان رجل دين ودولة قدير ، اتحادي معتدل ، هو والد سعاد خيري أوركوبلو ، أحد رؤساء وزارات عهد الجمهورية .

3 ـ السنوات الأولي للسلطان رشاد وسياحة روملي (1909 – 1911) :

خصص سراي جراغان ، أعظم سراي في دور التنظيمات ، الواقع في الضفة الأوروبية من المضيق في أورطه كوي والذي شيده السلطان عزيز ، لاجتماعات المجالس (مجلس النواب والأعيان) ، مخالفاً للأصول ورغم اعتراض السلطان . احترق السراق ، حتي قواعده بشكل يجلب الشك (19 / 1 / 1910) . كانت المجموعات التي أمكن إنقاذها من نهيبة يـيلدز قد نقلت إليها . تلفت هي الأخرى . خصص سراي فندقلي للمجالس إلي أن أغلق بحراب الإنجليز في آذار عام 1920 . وبعد مرور سنة احترقت كل من نظارة الداخلية في الباب العالي ، شورى الدولة ودوائر الصدارة بصورة تامة وأصبحت رماداً (4 / 1 / 1911) . حرق الاتحاديون أرشيف سراى ييلدز بدعوى أن جميعها تقارير الشرطة السرية وحرقوا قسمه الأكبر في ميدان بيازيد . أصبح معلومًا بشكل قطعي الآن أن أكثرية الاتحاديين قدموا تقارير سرية للبادشاه تـلت هذه الحوادث ، عصيان الدروز في حوران (سورية الجنوبية) ، الزيديين في اليمن ، والألبانيين (العرنووط) في إيالة اشكودرا في كـ سوفا كانت وراء كل منها دولة أجنبية . لكن عدم نجاح السياسة الاتحادية كان له أثر كبير في ذلك . أراد محمود شوكت باشا إخافة الألبانيين بقوة كبري مكونة من 82 سرية مشاة كأنها استعداد لفتح حرب تجاه دولة أجنبية . ولم ينتج هذا سوى

إضعاف ارتباط الألبانيين بدولتهم . ولأجل مجاملتهم قرروا إخراج البادشاه لسياحة . لم تطأ قدم أي بادشاه هذه الأراضي منذ عهد القانوني .

أبحر السلطان رشاد بواسطة أسطول ، يرافقه كبير وصغير أولاده الثلاثة ، الصدر الأعظم حقي باشا ، وعدد من النظّار (5 / 6 / 1911) . نزل في سلانيك من مدرعة « بربروس » بعد يومين . جاء إلى اسكوب بالقطار . صلى الجمعة يوم 16 حزيران في مشهد خداوندكار في صحراء كوسوفا مع 100 000 ألباني . استشهد في هذه المنطقة قبل 522 عاماً ، فاتح البلقان السلطان مراد خداوندكار وهو جده في البطن 18 ، بعد إفنائه الجيش الصليبي . مئات الألوف من الألبانيين ، داس بعضهم فوق بعض على امتداد الطريق لرؤية البادشاه . بهذا تم تأمين كسب مشاعر الدولة التي لم يتمكن محمود شوكت باشا من تأمينها بواسطة 82 سرية . لكن الدول الأجنبية التي ألقت شراكها على ألبانيا ، استمرت في تسخير عملائها الذين كانوا عبارة عن عدد من النواب العثمانيين . ذهب البادشاه بالقطار إلى مناسطر كذلك ، وهي مركز إيالة أخرى . عاد إلي استانبول في 26 حزيران . استمرت السياحة الهمايونية مدة 3 أسابيع . مرصيف 1911 هذا ، في جو مشروطي (ديمقراطي ذو تاج) لطيف . كان في انتظار الدولة ، منذ الأيام الأولي للخريف ، أولى المفاجآت المّرة التي سوف لن تنقطع .

4 – الحرب مع إيطاليا بسبب ليبيا (29/ 9 / 1911 – 1912/10/15) :

اقتسمت كل من إنكلترا وفرنسا ، بينهما ، القسم الأكبر من الكرة الأرضية ، تأخرت كثيراً كل من ألمانيا وإيطاليا في الحركة الاستعمارية ، وتمكنتا من حيازة أراض قليلة . أخذت إيطاليا من العثمانية ، الصومال الجنوبية ، أرادت أخذ الحبشة ، لكنها لم توفق . كانت تفكر في تونس ، إلّا أن فرنسا بادرت إلى استعمارها . كان هدفها منذ سنين عديدة ، ليبيا التي تبلغ مساحة أراضيها ضعفي مساحة تركيا الحالية والتي تحتوي أراضيها علي تشاد ونيجيريا ويعيش فيها 1 230 000 نسمة . كانت هنالك الإيالة العثمانية (طرابلس الغرب) ولواء (بنغازي) المنفصل الذي لا يرتبط بهذه الإيالة . كامل ليبيا ، كان مقسماً إلى 28 قضاء . كان فيها فرقة عثمانية مركزها طرابلس ولا ترتبط هذه الفرقة بأي جيش ، كانت مرتبطة بنظارة الحربية رأساً . كان السلطان

حميد قد أبقى هذه الفرقة في هذا القطر بإصرار ، إذ إنه كان يعلم بأطماع إيطاليا تجاه ليبيا . أما في طرابلس ، فعين فيها منذ مدة طويلة العسكري المشير رجب باشا بوظيفة والي على الإيالة وفي نفس الوقت ، قائد لهذه الفرقة . كان السلطان حميد ينفي معارضيه الأكثر شراسة إلى فيزان في ليبيا الجنوبية . كانت فيزان أصعب مكان للنفي . كان المنفيون يتسلمون رواتبهم ، ويؤجرون بيوتهم ويعيشون حياة حرة في مركز لواء فيزان . وبعد بقائهم فيها لسنة أو سنتين وإعلانهم أنفسهم أبطال حرّية ، يقوم رجب باشا بجلبهم إلى طرابلس ، ويزعم أنه يسمح لهم بالذهاب إلي أوروبا دون علم السلطان . كان رجب باشا بطلاً بالنسبة لـ « الشبان الأتراك » (جون تركلر) الذين لم يخطر على بالهم بأن هذه العملية تجري بموافقة الخاقان ، حيث إنهم جعلوه ناظراً للحربية ، بعد المشروطية .

تركت ليبيا دون جيش ودون رئيس ، وكأنما قدمت دعوة لإيطاليا ، نتيجة لعبة قذرة لا لزوم لتفصيلها هنا . ورغم حيازة الدولة على فرق عديدة ، سيقت الفرقة الموجودة في ليبيا ، إلى اليمن . لم يبق في البلاد التي هي عبارة عن صحراء كبيرة جدًا والتي يسكن القسم الأكبر من نفوسها على سواحل البحر الأبيض ، أية قوة عسكرية عدا الجندرمة (الدرك) . وإضافة إلى ذلك ، لم يعين وإل وبقي مقام الإيالة شاغراً . حدثت هذه الأوضاع ، في عهد صدارة إبراهيم حقي باشا الذي جاء إلى الصدارة من سفارة روما ، ولكونه متخصصاً في القانون الدولي ، كان يجب عليه أن يعلم أطماع إيطاليا تجاه ليبيا ، أفضل من أي شخص آخر . لعب الدور الأول في هذه اللعبة القذرة نائب سلانيك الاتحادي الشهير اليهودي عمانوئيل كاراسو (كتابتها على شكل « قره صو » خطأ ») الذي استغفل حقي باشا والاتحاديين .

أبلغت إيطاليا ، التي قدمت مذكرة إعلان الحرب إلى العثمانية في 29 أيلول ، الدول بأن هدفها ليبيا ، وأنها سوف لا تحتل أية منطقة أخرى من الأراضي العثمانية . أنول الأسطول الإيطالي الجنود واحتل طرابلس (4 / 10 / 1911) وبنغازي (19 / 10 / 1911) . وخلال 3 أسابيع استولت تقريباً على كامل ساحل البحر الأبيض العظيم الواقع بين تونس ومصر ، لكنها لم تتمكن من التقدم ولا كيلو متر واحد نحو الداخل . كان نشأت بك وكيل الوالي وكان هو القائد . جاء 3 ضباط أركان عثمانيين إلى ليبيا

وتقاسموا الساحل بينهم . كان ثلاثتهم في سن 31 عاماً ، الرائد أنور بك ، الرائد فتحي بك (أوقيار) ، قول أغاسي (نقيب متقدم) مصطفى كمال بك (أتاتورك) . ساعد السنوسيون ، هؤلاء ودربوا وجهزوا الشعب المحلي الذي يشكل أكثريته قل أوغوللري . كان السلطان حميد قد أسس تشكيلات القل أوغوللري هذه كجيش شعبي . لعب هؤلاء دوراً مهماً في الدفاع . ترك الضباط العثمانيون البلاد عند نشوب حرب البلقان . تمكن أفراد قول أوغوللري برتبة باش شاويش (رقيب أول) من الاستمرار في الدفاع عن الوطن و تمكن الشعب الليبي من الفتك بكثير من الإيطاليين طيلة سنوات عديدة . جاء في الحرب العالمية ، أحد الأمراء (الشهزادات) العثمانيين برتبة فريق أول عثمان فؤاد أفندي ، مع أركانه ونظم الدفاع مجدداً . لم تدخل البلاد تحت الطاعة ، إلا بعد 20 عاماً وبمساندة القوة الجوية في عهد موسوليني .

الأسطول الإيطالي الذي لم يتمكن من تسلم ليبيا ، أخذ بالضغط على جناقلعة لكنه لم يتمكن من اجتياز المضيق . احتل رودس مركز جزر البحر الأبيض (جزائر بحر سفيد) (4 / 5 / 1912) . وهكذا دام الحكم العثماني في طرابلس التي فتحها طرغد باشا من فرسان Saint – Jean ، مدة 360 سنة ، شهر ، 11 يوماً ، والحكم في رودس والجزر الاثنتى عشرة التي فتحها قبلها السلطان سليمان القانوني ، من نفس الفرسان مدة 389 سنة ، 4 أشهر ، 7 أيام . ليبيا ، كانت الأرض العثمانية الوحيدة في أفريقيا التي تدار رأساً ، كانت مصر والسودان مرتبطة بالعثمانية من الناحية القانونية فقط . استقال حقي باشا ، بعد اعترافه الحزين في اجتماع الوزارة قائلاً : « كان السلاطين قديماً يأمرون بقطع رءوس الذين هم في مثل وضعي على حجر مسلة ركوب الخيل » . اتهم نواب ليبيا ، الحكومة في المجلس ، وطالبوا برأس حقي باشا . حل البادشاه المجلس بتوصية الاتحاد والترقي ، نتيجة لعبة برلمانية قذرة لا لزوم هنا لذكر تفاصيلها وحال دون مناقشة التقرير الذي قدم ضد حقي باشا . أرسل الباشا إلى لندن على عجل وأنقذ حياته . انحل المجلس الأول الذي انتخب في ك 1 / 1908 . وشكل المجلس الثاني بالانتخابات الجديدة التي جرت في 1912 وأعلنت الإدارة العرفية التي ترفع بعدها أبدا . انقسم الضباط إلى زمرتين إحداهما معادية للأخرى ، اتحادي وخلاصكار . شكلا عصابات وأخذ القتال يجري بينهما . كان هذا في صالح دول البلقان .

أنهت معاهدة لوزان أو (Ouehy) (15 / 10 / 1912) حرب إيطاليا التي استمرت سنة ، 17 يوماً . تركت ليبيا ، إلى إيطاليا . إلا أن موظفاً عثمانيًا بمنزلة وزير سيمثل البادشاه في البلاد بلقب « نائب السلطة » . سيعين الموظفين الدينيين الكبار من استانبول . ستسدد إيطاليا ، إلي الباب العالي سنوياً مبلغ 000 90 ليرة ذهبية ضريبة عن إيالة ليبيا . تخلى جزيرة رودس والجزر الاثنتا عشرة وتعاد إلى العثمانية . توافق إيطاليا علي إلغاء الكابيتولا سيون (الامتيازات الأجنبية) .

5 – الحرب البلقانية (1912/10/18) وتطورها :

نتيجة ضيافة وغفلة لا يقبلها العقل ، نشرت حكومة حقي باشا قانون الكنائس والمدارس المشهور (3 / 7 / 1910) وصار هذا القانون حكمًا بين الأقليات البلغارية ، الصربية ، اليونانية الموجودة في مكدونيا وسببًا في مصالحتها بعضها البعض ورفع الخلاف الكبير الموجود بينها . ونتيجة غفلة لا يقبلها العقل كذلك ، سرّحت 120 سرية من الجنود المدربين ، على أثر تقديم روسيا للباب العالي ضمانات كاذبة ، بأنها سوف لن تسمح لدول البلقان بأن تشعل نار الحرب في البلقان . أرسل بدلاً عن قسم منهم ، على عجل ، أفراداً لا يجيدون حمل السلاح . والمعلوم أن صربياً دولة برّية ، لا ساحل لها . كانت قد ابتاعت من ألمانيا مدافع ثقيلة من طراز حديث ، لكن خصميها النمسا ـــ المجر لم يسمحا بمرور هذه الأسلحة من أراضيها إلى صربياً . سمح الباب العالي ، الذي يقوم بدور حمامات السلام والأخوة في البلقان ، بنقل هذه الأسلحة إلى ميناء سلانيك العثماني ومن ثم نقلها بواسطة سكك حديد العثمانية إلى بلغراد . كانت دول البلقان ، عدا رومانيا ، تتبادل فيما بينها وبين روسيا رسائل سرية جداً ضد العثمانية . لم يكن للعثمانية علم بهذه الرسائل التي كانت دبلوماسية عبد الحميد ، تقف على ما يجري فيها فوراً . اتفقت دول البلقان الأربع (بلغاريا ، صربيا ، قره داغ ، واليونان) فيما بينها ووقعت على اتفاقية عسكرية ، سياسية سرية لاقتسام الأراضي العثمانية في البلقان . في حالة الخلاف ، يحتكمون إلى القيصر الذي وافق على هذا التحكيم بصورة سرية ووعد مساعدة البلقان قدر المستطاع . أن وجود حالة الحرب بين العثمانية وإيطاليا خلال هذه الأثناء ، قصف الأسطول الإيطالي لميناء بيروت ومزاحمته مضيق جناقلعة ، كل ذلك هيأ فرصة جيدة بالنسبة للبلقان .

إن خطة قيام أربع دويلات بلقانية صغيرة ضد إمبراطورية ، كانت قد تركت إلى الصدف . لكن حظ الدول البلقانية كـان كبيراً ، لأنها كدول مسيحية كانت تعلم تماماً أن أوربا سوف تساندها ضد العثمانية كما هو الحال دائماً . قلقت الدول العظمى في بداية الحرب ، لإيقانها بانتصار العثمانية بشكل قطعي . أعلن Poincare في فرنسا ، بأنهم سوف لن يسمحوا أبداً بتغيير الـ Stqtu Quo (الحالة الراهنة) في البلقان في نهاية الحرب . هذا يعني أن العثمانية سوف لن يمكنها الحصول على أية أراض من الدويلات البلقانية .

أجاب ناظر الخارجية عاصم بك ــ الذي كان دبلوماسيًا مغفلاً يّدعي أنه ينحدر من سلالة طرغد باشا فاتح ليبيا في المناقشات التي جرت في مجلس النواب في 15 تموز ، النواب الذين أعلنوا أن هنالك حوادث تجري في البلقان وطلبوا اتخاذ تدابير ؛ بخطاب يحوي على جملته التاريخية « إنني معتمد على البلقان بقدر اعتمادي على إيماني » المشهورة جداً والتي تعتبر من شواهد أدب الغفلة . كان على مثل هذا الشخص الذي جاء من وظيفة سفير في سفارة صوفيا ، أن يعلم الأطماع الكبرى لبلغاريا . هدأت كلمات هذا المجلس وأمنت سكونه قال Gabriel Noradungi yan الدبلوماسي والمؤلف الأرمني الذي صار وزيرًا للخارجية بعده والذي خان الدولة العثمانية بعد ذلك ، للمجلس أن روسيا قدمت ضماناً قطعياً لتأمين الصلح في البلقان . وعلى أثر هذا الضمان ، سرحت الحكومة ، ــ بغرض الاقتصاد في النفقات ــ 120 سّرية من الجند في روملي ، ولم تتمكن طيلة مدة استمرار الحرب من إعادة تجميعهم وسوقهم إلى الجبهة ، لأن الضباط الذين كانوا منقسمين إلي زمرتين الاتحاديين وخلاصكار ، لم يكونوا يبالون بالعدو ، كان كل من الفريقين قد عزم على إفناء الآخر وتسلم الجيش الذي سيكون النصر الكبير في ذلك ، في النهاية ، حليفاً للاتحاديين . أحيل على التقاعد أكثر الضباط تجربة ، وخاصة ذوي الرتب العالية بسبب عدم رغبتهم في فتح المجال للضباط الاتحاديين ذوي الرتب الصغيرة وعدم رغبتهم في خدمة الاتحاديين ، وخاصة عدم رغبتهم في تسليم الجيش لتصرف الحزب . لم يكن بالإمكان أبدًا إلى الفراغ الذي أحدثه آلاف الضباط الذين أحيلوا على التقاعد والذين سيؤخذ قسم منهم إلى الخدمة ثانية في نهاية الحرب العالمية .

وبموجب اتفاقي بلغاريا ـ صربياً (13 / 3/ 1912) وبلغاريا ـ اليونان (29/ 5/ 1912) اللذين لم تستعلم العثمانية عنهما أبداً ؛ أعلنت أولاً قره داغ (8 / 10 / 1912) ، ثم بلغاريا وصربيا (18 / 10 / 1912) ، وبعد عدة أيام اليونان ، الحرب على تركية . كانت قوات العثمانية تجاه بلغاريا مكونة من 5 فيالق باسم « جيش الشرق » تحت قيادة الفريق الأول عبد الله باشا ، أما الفيلق الموجود في موقع مستحكم أدرنة ، فكان تحت قيادة شكري باشا . كان تجاه اليونان ، في سلانيك فيلق واحد وقوات الموقع المستحكم في يانيا ، وتجاه قره داغ ، كانت هنالك فرقة واحدة في اشكودرا . وكانت قيادة « جيش الغرب » في مكدونيا تجاه صربياً ، لدى الفريق الأول الذي صار صدراً أعظم بعد ذلك ـ علي رضا باشا . وعين على رأسهم جميعاً ، ناظر الحربية الفريق الأول ناظم باشا ، بلقب وكيل القائد العام . والمشهور عنه أن أحد أوامره الأولى التي أعلنها ، طلبه استصحاب الضباط لباس المراسم معهم إلي الجبهة . وقيل إن ذلك لارتدائها في الاستعراض الذي سيقام في صوفيا . جركس ناظم باشا هذا ، هو صهر رجل الدولة الكبير الصدر الأعظم عالي باشا . كان يتخيل طيلة حياته ، التوصل إلي درجة شهرة والد زوجته الذي توفي قبل 41 عاماً . كان من الجنرالات الذين نفر منهم السلطان حميد وأبعدهم واعتبرهم تافهين . كان مغفلاً ووضيعاً . كان المعلوم أن الجيوش ؛ الأول والثاني والثالث ، المتمركزة في استانبول ، أدرنة ، سلانيك قد جهزت بشكل يمكنها به بكل سهولة ، سحق الدول البلقانية الأربع ، لكن سرّحت الآن 120 سرية ، أحيل الضباط إلى التقاعد ، تشكيلات الجيش الفنية ، اللوازم ، النفير العام في حوزة إياد ليست لها خبرة وفي وضع رديء . لم يمكن سوق أية قوة جدية من الأناضول . وإضافة إلى ذلك ، كانت ألبانيا مضطربة وكان عملاء الدول الأجنبية الأجراء من النواب والأشراف الألبانيين ، يروجون الشائعات بأنه في حالة خسارة العثمانية ، سوف يؤسسون ملكية ألبانية مستقلة كبيرة تدخل بضمنها كوسوفا كذلك . لم يتمكنوا من إدراك وفهم عدم سماح أوروبا بتأسيس أية دولة إسلامية مستقلة مجدداً . وفي هذه الأثناء كانت فرنسا قد ابتلعت فاس ، وتعويضاً لذلك ، تغاضت عن ابتلاع إيطاليا ، ليبيا . إن الإمبراطورية العثمانية ، والإمبراطورية التركية في إيران ، اللتين لا تزالان مستقلتين ، كانتا من وجهة نظر المسيحيين تمثلان عدداً فوق الكفاية من الدول

الإسلامية ، كانت إنجلترا قد جعلت من الأفغان نصف مستعمرة ، ومنعتها حتى من تأسيس علاقات لها مع الدول الأجنبية . مع العلم بأنه لم يكن في البلاد جيش إنكليزي . كانت أوروبا والإمبريالية المسيحية في محاولة للوصول إلي نقطة القمة . وفي سبيل الوصول إلي هذه القمة ، كانت تستعد لمحاولة انتحارية كإشعالها نار الحرب العالمية ، لتهدم المدنية التي بنتها هي ، بأيديها . إن الرائد الحقيقي لمحاولتها هذه ، هي حرب البلقان . كانت تتمنى بلقاناً بلا عثمانية ، أوروبا وسطى بدون النمسا ـ المجر . ولم تضع في حسبانها أنه في حالة تصفية هاتين الامبراطوريتين وتقسيمهما فإن الأقوام والدول الصغيرة سوف تكون عناصر للاضطرابات ، للخصومة ، للثورة ، للحرب .

كانت العثمانية تقوم بإدارة البلقان ، والنمسا بإدارة أوروبا الوسطى منذ 500 سنة وكانت لهما تجربتهما الإمبراطورية (بالفرنسية :. experience imperiale) . كانت كيفية إدارة هذا الأمر من قبل الأقوام التي ليست لديها التجربة الإمبراطورية ، ولا حتي علي تجربة إدارة دولة ، مجهولة . وكما أن شعبًا أو ثقافة لا يمكن أن تتكون قبل مضي ألف سنة ، كذلك الدولة الحقيقية ، لا يمكن أن تتبلور قبل مضي عصر على الأقل ، وربما عدة عصور ، لا تتكون دول حقيقية بتخطيطها على الخارطة ومنحها الاستقلال . تخط الدول الحقيقية هذه الحدود بقدراتها التاريخية وبصورة فعلية على جغرافية الأرض وتحصل هي بنفسها على استقلالها . أما دول البلقان ، فكانت دولاً عثمانية بالأمس ولم تحصل أي منها على استقلالها بقدرتها . أمنت هذا الاستقلال ، الدول الأوروبية وعلى رأسها روسيا ، كما خططت لها حدودها .

لم تكن بلغاريا تملك حتى سفينة حربيه . قصف الأسطول التركي فارنا (19 — 21 ت ١) . لكن البلغار انتصروا في معارك سولو غلو وبينار حصار بين أدرنة وقير قلارايلي (21 – 23 ت 1) ومعركة لوله برغاز (28 ت 1 ÷ 2 ت 2) . انفرط جيش الشرق ، تفكك ، تشتت ، غلب على أمره ، انكسر . سقطت قيرقلارايلي . جاء العدو أمام جتالجه ، وأخذ يحاول بجهد كبير اقتلاع تحصينات جتالجه (15 – 19 ت 2) ، لم يوفق ، ظل مثبتاً أمام جتالجه .

كسر الصربيون جيش الغرب واحتلوا (كوسوفا ، 22 ت 1) وأخذوا في

الانسياب من Piristine نحو الجنوب بقيادة ولي العهد (الملك بعد ذلك) الكساندر ، استولوا على يني بازار (23 ت 1) والتقوا بقوات قره داغ من الغرب والقوات البلغارية القادمة من الشرق . استولي القره داغيون على أيبك Ipek (31 ت 1) و Yakova (2 ت2) . استولي اليونانيون على جزيرتي بوزجه آدا (20 ت1) وليمني (21 ت 1) وتمركزوا في مدخل مضيق جناقلعة . أخذوا سرفيجه Serfice (23 ت 1) ، Karaferya (25 ت 1) . دخلت القوات الصربية – البلغارية المشتركة إلى إيشتيب Istip (26ت 1) وإلى مركز الإيالة والمركز الثقافي التركي الكبير أوسكوب (26 ت 1) ، ثم إلى مركز إيالة أخري هي مناسطر . سقطت Prizrin (30 ت 1) .

احتل اليونانيون Preveze (6 ت 2) ، سار ولي العهد (الملك فيما بعد) قسطنطين ، بالقسم الأكبر من الجيش اليوناني نحو سلانيك . سلم تحسين باشا في 6 ت 2 فيلقه مع كامل أسلحته وأعطى سلانيك إلى اليونانيين دون أن يطلق رصاصة واحدة . ثم لجأ إلى اليونان . عرنووط تحسين باشا ، كان لواء جندرمه (درك) ، أعطاه الاتحاديون منصب قائد فيلق في سلانيك ، بدعوى أن السلطان حميد أهمله وظلمه ولم يهتم به أبداً . كانت سلانيك بالنسبة للاتحاد والترقي « مهد الحرية » ظل المركز العام للحزب ، بعد 1908 في سلانيك لسنوات عديدة ، ثم انتقل إلى استنبول . قام بواقعة 31 مارت رؤساء عرفاء (باش شاويش) سرايا القناصة الذين جلبوهم من سلانيك . سلانيك ، كانت عزيزة بل ومقدسة عند الحزب .

كانت مدينة متطورة ، ذات ميناء ، وكانت المركز التجاري الكبير للإمبراطورية العثمانية ، صارت إلى هذه النهاية . إن شبكة الخيانة التي حالت دون إطلاق رصاصة واحدة من فيلق كامل ، حلت مسألة سلانيك بهذا الشكل . كان الصربيون وكذلك البلغاريون يريدون سلانيك . إعطاؤها إلى اليونان ، ولد عداء كبيراً بينهم . وفي الواقع ، كان اليونانيون هم الذين احتلوا المدينة ، لكنهم حصلوا على هذا الانتصار السهل إلى هذه الدرجة ، بفضل تشتيت القوات العثمانية على يد البلغاريين في الشرق والصربيين في الغرب . احتل الصربيون لش Les (18 ت 2) ، Debre و Drac (28 ت 2) ، Qhri (29 ت 2) ، Tirana وآقجه حصار (Kroya) . وعلاوة على استيلائهم على ألبانيا

الشمالية ، فقد صعدوا إلى البحر الأدرياتيكي . استمرت في الدفاع فرقة جاويد باشا ، في ألبانيا الجنوبية وفرقة أخري انسحبت إلى القلعة في اشكودرا في الشمال .

غلب الأتراك في كل الجبهات خلال شهر ت 2 . كان الحلفاء قد استولوا علي كل الأقطار الموجودة بين جتالجه والأدرياتيك . وقلاع أدرنة ، يانيا واشكودرا . بعض القوات السّيارة فقط ، هي التي كانت تقاوم . كان الجيش التركي قد انسحب أساساً إلي خط جتالجه . استولي اليونانيون علي Nikarya (17 ت2) ، ميديلي (21 ت2) ، ساقيز (3 ك 1) وجزر بحر إيجه الأخري المتاخمة لآسيا (الأناضول) . كانت الخيانة قد سرت إلى الأسطول كذلك . التحم الأسطول العثماني مع الأسطول اليوناني ، لكن لم يستطع أحدهما أن ينتصر علي الآخر .

حاصر البلغار ، خط جتالجه (4 شباط و 10 – 30 آذار 1913) . لكنهم لم يستطيعوا اجتيازه . تكبد الطرفان خسائر جسيمة . سبب مرض التيفوس الذي ظهر في الجيش العثماني ، خسائر جمه . قاومت أدرنه 5 أشهر 5 أيام . لم يبق ما يؤكل حتى أنهم أكلوا قشور الأشجار . كان العتاد وافراً . استسلمت القلعة من الجوع (26 / 3 / 1913) . صافح الملك فرديناند ، يد شكري باشا وأعاد له سيفه ، هنأه وأطلق سراحه . دخل الجنود البلغاريون جامع سليميه وخربوه . استسلمت كذلك قلعة يانيا عاصمة Epir في الغرب وهي مركز إيالة ، كأدرنه إلى اليونانيين (6 / 3 / 1913) .
كان اللواء الشاب حسن رضا باشا ، يدافع عن اشكودرا أمام القره داغيين الصرب . استشهد حسن رضا باشا بطلقة مسدس أطلقت علي ظهره بإيعاز من نائب Drac أسعد طوبتاني أحد أعضاء الهيئة المكونة من 4 أشخاص الذين أبلغوا السلطان حميد بخلعه ، بعد أن تناولا طعام العشاء معًا . وضع طوبتاي يده على اشكودرا وسلمها بيده إلي القرة داغيين (22 نيسان) الذين كانوا شعباً بلقانياً صغيراً يحمل عداءً وحشياً للمسلمين . استسلمت كذلك في 25 مارت ، فرقة جاويد باشا للصربيين . اليونانيون الذين دخلوا Ergeri في 14 آذار لم يتمكنوا من التقدم كثيرًا في جنوب ألبانيا ، لكنهم احتلوا منطقة آهلة بالسكان الألبانيين في شمال Epir التي لا زالت لدي اليونان . كانت اشكودرا ، أمل القره داغيين ، وكان أمير قره داغ نيقولا الذي أعلن نفسه ملكاً بعد الحرب ، أباً لزوجة ملك إيطاليا . كانت إيطاليا ، حامية لقره داغ ، كروسيا . لكن

الدول العظمى خيبت أمل قره داغ وأعطت اشكودرا إلى ألبانيا في 14 آيار .

6 ـ اقتحام الباب العالي (23 / 1 / 1913) :

اعترض في بداية حرب البلقان ، قبرصلي كامل باشا وشيخ الإسلام جمال الدين أفندي عضوا وزارة أحمد مختار باشا المشهورة في التاريخ باسم « بيوك كابينه » (الوزارة الكبيرة) سميت بذلك لاشتمالها على 3 من الصدور العظام السابقين كنظار ، وإن كانت صغيرة في إنجازاتها ؛ على إجراءات الاتحاد والترقي الاعتباطية ، غير القانونية . وعندماخسرت الحكومة القاصرة الحرب ، ألف الوزارة الجديدة ، كامل باشا الكبير السن . كانت تركية قد خسرت الحرب ، وكان يجب أن تنهي بالطرق الدبلوماسية بأقل خسارة ممكنة . نقل السلطان حميد ، من سلانيك إلي سراي بكلر بك ، قبل 8 أيام فقط من سقوطها . عبد الحميد الثاني الذي كان لقبه « خاقان سابق » و « خاقان مخلوع » ، دعا عليهم ، وهو يركب السفينة من سلانيك بهذه الكلمات : « ليقهر الله باسمه القهار ، الذين سببوا هذه الأحوال ، لقد دمروا الدولة » .

ضاق الاتحاد والترقي ذرعاً من وضع ناظر الداخلية أحمد رشيد (ري) بك الصلب تجاه سوء تصرفاتهم ومؤامراتهم . كامل باشا . كان كذلك من معارضي الاتحاد والترقي . ويقال إن السلطان رشاد فكر في جعل رشيد بك صدراً أعظم وإبعاد الاتحاد والترقي . لكنه كان يخاف كثيراً من الاتحاديين . كان يخشي من إذلاله بعد خلعه . لم يغرب هذا الخوف عن بال جميع السلاطين المتأخرين . لم يكن ذلك خوفاً علي حياتهم ، بل خوفاً علي شرفهم من الإذلال . أما ناظم باشا وكيل القائد العام وناظر الحربية في الوزارة ، فكان رئيساً لزمرة الضباط الذين سموا أنفسهم « خلاصكار ضابطان » (ضباط التحرير) . لكنه في نفس الوقت ، كان يرغب في التفاهم مع الاتحاديين ويلعب علي الحبلين ، كان يناقش ناظر الداخلية رشيد بك في كل اجتماع وزاري . التقي ناظم باشا في قصر الاتحادي الأمير سعيد حليم باشا المطل علي البحر في ينيكوي والذي هو بمثابة شبه سراي ، مع رئيس الزمرة الاتحادية المقدم الركن أنور بك البالغة سنه 31 عاماً والعقيد الركن جمال بك البالغة سنه 41 عاماً ، بصورة سرية . أقسم هذان الضابطان أمام قائدهما ، ناظر الحربية علي عدم اشتغالهما بالأمور السياسية . وعلي أثر ذلك ، كلف

كلاً منهما بوظائف عسكرية . كانت حرب البلقان مستمرة وفي أقسى حالاتها . كان كامل باشا في سن 81 عاماً ورجل دولة ذا تجربة واسعة . لم يصدق القسم الذي صدّقه ناظم باشا ، أراد إخراج ناظم باشا من وزارته ، لم يوفق . كان الاتحاديون قد غشوا الشعب بالدعاية الكاذبة بأن كامل باشا قد اتفق مع البلغار حول تسليمهم أدرنه .

كان صباح يوم 23 ك 2 / 1913 ، أتعس يوم شتاء بالنسة لتاريخ استانبول . اقتحم الباب العالي أي دائرة الصدارة (رئاسة الوزارة) المقدم أنور بك مع الحركيين الذين جمعهم من هنا وهناك ، الذين نجوا من الإعدام والإجلاس علي الأوتاد والذين يتزايدون زمراً زمراً ، البالغ عددهم 200 . كان العقيد جمال بك ، قد أبعد فصيلة حرس الباب العالي ، قبل ليلة واحدة . العصابة المكونة من ذوي السوابق ، قتلت 8 جنود وضابطين ودخلت الباب العالي . التقي الفريق الأول ناظم باشا الذي خرج على أثر ذلك من الاجتماع الوزاري ، مع أنور في السلالم ، وقال:« ألم تكن أنت الذي أقسمت أمامي بشرفك الشخصي والعسكري على ألا تتدخل في السياسة ، أنذال ، غششتموني » . استشهد فوراً برصاصة مسدس . جاء طلعت بك وأنور بك إلى كامل باشا وأجبراه على تحرير كتاب الاستقالة . نصب طلعت نفسه ناظراً للداخلية وبعث أمراً برقياً بذلك إلى كل الولايات . ذهب أنور إلى السراي وأرغم السلطان رشاد على إصدار الإرادة بتعيين محمود شوكت باشا صدراً أعظم ووزيراً للداخلية . أرسل إلي الجبهة ، كوكيل للقائد العام ، رئيس أركان الجيش الفريق الأول (المشير) أحمد عزت باشا الذي صار بعد ذلك صدراً أعظم . تم اعتقال كل من كامل باشا وجمال الدين أفندي ورشيد بك وناظر المالية وأخرجوا إلى خارج الأراضي العثمانية . مئات من المعارضين اعتقلوا ونفوا أو سجنوا .

عوملت الدولة العثمانية ، بعد حادث اقتحام الباب العالي ، من قبل موظفي هذه الدولة ، بالمعاملة التي تعامل بها جمهوريات الموز والكاكاو . ألّف محمود شوكت باشا وزارة أكثريتها من الاتحاديين ، بدعوى أنها وزارة محايدة ..

7 – معاهدة لندن (30 / 5 / 1913) :

إن معاهدة لندن (**30 / 5 / 1913**) التي أنهت الحرب البلقانية ، هي إحدى أقسى

المعاهدات التي وقع عليها الأتراك طوال التاريخ . حتي إدارته تركت في هذه المعاهدة إلي بلغاريا . ولكن مدينة العرش الثانية للدولة العثمانية ، استعيدت في الحرب البلقانية الثانية التي نشبت بعد قليل .

كانت الإمبراطورية العثمانية قبل الحرب ، وبضمنها الدول التابعة لها 7 213 239 كم^2 و 55 189 000 نسمة (ليبيا التي فقدت قبل فترة ، ليست ضمن هذا التعداد) وتعداد تركية نفسها ، عدا الدول التابعة والمستقلة استقلالاً ذاتياً ، 38 019 000 .

وكان وضع الدول البلقانية كم 96 345 BWSAJ»A : «W» 2A كم^2 4 338 000 نسمة ، اليونان 64 859 كم^2 3 041 000 نسمة ، صربياً 45 427 كم^2 3 000 000 نسمة ، قره داغ 9 427 كم^2 274 000 نسمة ، المجموع 216 058 كم^2 و 10 854 000 نسمة . أما أراضي تركية الأوروبية ـ عدا كربت ـ فكانت 176 000 كم^2 7 828 000 نسمة .

حصلت دول البلقان في الحرب من تركيا علي ما يلي : بلغاريا 25 257 كم^2 984 000 نسمة ، اليونان 55 919 كم^2 1 859 000 نسمة ، صربياً 41 783 كم^2 1 942 000 نسمة ، قره داغ 5 590 كم^2 161 000 نسمة . عدا ذلك ، انفصلت عن تركية ، ألبانيا ومساحتها 25 734 كم^2 ونفوسها 800 000 نسمة .

وضع البلقان بعد الحرب : بلغاريا 121 602 كم^2 5 322 000 نسمة ، اليونان 120 060 كم^2 4 400 000 نسمة ، صربياً 87 300 كم^2 4 942 000 نسمة ، قره داغ 15 017 كم^2 435 000 نسمة .

فقد ، في نهاية الحرب التي دامت 7 أشهر و 22 يوماً حتي معاهدة لندن ، روملي الوطن التركي منذ 550 عاماً . تقلصت جغرافية العالم الإسلامي . كانت الإمبراطورية قد فقدت أحد جناحيها ، نصف روملي في كارثة 93 . وانفصل النصف الآخر في حرب البلقان . انحسرت حدود تركية من البحر الأدرياتيكي إلي مريج . مئات الألوف من الأتراك تركوا أوطانهم وهاجروا إلي الأناضول . وعشرات الألوف منهم ذبحهم البلغار في مذابح جماعية . القتل العام للأتراك الذي حدث خلال 1912 – 1913 – الذي جرى بموجب السياسة الرسمية للدولة البلغارية ـ هو من أكبر عمليات الإفتاء العرقي التي شهدها العصر 20 . لم يستثن النساء والأطفال . ضاعت الثروات ،

حصيلة العصور ، التي تعادل مليارات الليرات الذهبية . أضحت تركيا دولة ضائعة تماماً .

إن الأرقام المدرجة أعلاه ، تبين الوضع بعد الحرب البلقانية الثانية وتبين النتيجة القطعية للحرب . وفي الحقيقة ، كانت بلغاريا قد حصلت على أرباح أكثر بكثير ، في الحرب الأولي وفي معاهدة لندن .

لم تف الدول العظمى التي حرضت ألبانيا تجاه العثمانية بوعودها . صيروا ألبانيا صغيرة جداً وبقي نصف الألبانيين في صربيا ومايزال الوضع كذلك حالياً .

انتخب الألبانيون وبموافقة الدول العظمى ، بهاء الدين أفندي الابن الأوسط للسلطان عبد الحميد الثاني ليكون ملكاً على الدولة الألبانية المستقلة . لم يوافق الشهزاده (الأمير) على ذلك مشيراً إلي أنه يرفض ذلك لعدم رغبته في التنازل عن حقه في العرش العثماني . وعلي أثر ذلك ، أرسلت الدول العظمي ، أحد أمراء الألمان الصغار إلى البلاد ليكون أميراً على ألبانيا ، فكانت النتيجة تعيين حاكم مسيحي على قطر 70 ٪ من سكانه مسلمون ، وإضافة إلى ذلك ، لم تصبح ملكية وسمى أميرها « أمير ألبانيا » . أسست ألبانيا – التي حالياً على نفس حدودها السابقة – بضم لواءين من إيالة اشكودرا (التي تشكل كامل الإيالة) ، 3 ألوية من إيالة يانيا ، لواءين من إيالة مناسطر ، جمعاً من 7 ألويّة (صنجق) عثمانية . بقي في إيالة يانيا التي أعطيت لليونان سكان ألبانيون .

حصلت اليونان على إيالة سلانيك أي مكدونيا الجنوبية ، إيالة ينيا أي أبير ، عدا قسم صغير في الشمال أعطي إلى ألبانيا ، إيالة « جزائر بحر سفيد » أي جزر بحر إيجه المتاخمة لآسيا الصغرى وإيالة كريت .

أخذت بلغاريا اللواءين العثمانيين اللذين يشكلان تراقيا الغربية وعدة أقضية من مكدونيا وقضاء قيرجة علي ونفذت إلى البحر .

أخذت صربياً إيالتي كوسوفا (اسكب) ومناسطر أي مكدونيا الشمالية ولواء يني بازار وأصبحت حدودها ملاصقة لقره داغ ولم يبق لها حدود مع العثمانية .

فقدت العثمانية أراضي تبلغ مجموع مساحتها 312 167 كم^2 ونفوساً يبلغ عددهم

6 582 000 نسمة . أي أنها فقدت بالنسبة للتشكيلات الإدارية آنذاك ، 33 لواء يشتمل على 158 قضاء . إن هذه الألوية كانت تشكل 7 إيالات (سلانيك ، مناسطر ، كوسوفا = اسكب ، اشكودرا ، يانيا ، جزر البحر الأبيض ، كريت) وعدا ذلك ، لواءان من ألوية إيالة أدرنة التي تشكل تراقيا الغربية ، جزيرة سيسام ، كما كان من ضمن المفقودات شريط واقع في شمال تراقيا الشرقية .

8 - اغتيال محمود شوكت باشا (11 / 6 / 1913) :

أخذت الإدارة العرفية في محاصرة المعارضة . خمدت المعارضة وأصبحت سرية . عطل الاتحاديون الدستور وألقوا به في الدرج ، كما فعل ذلك السلطان حميد سابقاً ، كان يعلن فقط ، في النشرات السنوية الرسمية للدولة . اقترف محمود شوكت باشا ، منذ 1908 أخطاء وجرائم سياسية ، عسكرية وإنسانية كبيرة . والآن بعد أن نضج ، وأدرك بعض المفاهيم ، أخذ يسعى دون فتور لإنقاذ الإمبراطورية التي أخذت تتداعي أطرافها . ورغم أن جده من قفقاسيا الشمالية ، كان يتكلم العربية مع النواب والأشراف العرب ويقول : إنه عربي ويولي أهمية للتعاون معهم ، فالإمبراطورية بعد فقدان روملي ، أصبحت عبارة عن أتراك الغرب وعرب الشرق ، وظهور خلاف بين العرب ، من شأنه أن يقضي على الامبراطورية بشكل تام . اقتربت إنكلترا نحو خليج البصرة وأخذت تطالب العثمانية بالأقطار كالكويت ، قطر ، حضرموت . جاء الاتحاديون بشوكت باشا لمقام الصدارة ، رغم أنه لم يكن اتحادياً بصورة رسمية ، بسبب عدم وجود شخصية لديهم تليق بشغل مقام الصدارة . لم تكن علاقة محمود شوكت باشا مع البادشاه على ما يرام . تورط الباشا بالأمر الذي أصدره والذي لا مثيل له في أية دولة ، حول كتم أسرار الدولة عن البادشاه ، وزاد في ورطته ، تحكم الحزب . بدأ في تحقيرهم بشكل علني . خطط الاتحاد والترقي لإسقاط شوكت باشا بطريقة مناسبة . أخبر محافظ استانبول جمال بك ، أن المعارضة ترتب عملية لاغتيال الصدر الأعظم ، لكنه لم يخبر الصدر الأعظم الذي يرتبط به ، بذلك . رئي أن التخلص من الصدر الأعظم ، وفي الوقت نفسه اتهام المعارضة باغتياله وملاحقتهم ، سوف يلائم سياسة الحزب .

إن إطالة مدة الحرب 4 أشهر أخرى بعملية اقتحام الباب العالي ، في الوقت الذي

كان ينتظر فيه أن يحقق كامل باشا الصلح ؛ وسقوط يانيا واشكودرا وادرنة خلال هذه المدة ، وضيق سبل المساومة بالنسبة للباب العالي ، وبخاصة ترك مدينة كأدرنة إلي البلغار في معاهدة لندن ، ولدت النفور لدي الجميع . رتبت المؤامرة بادعاء عدم إعطاء أدرنة . تركت أدرنة في معاهدة لندن . كان التخطيط أن يتدخل قائد الجيش الموجود في أدرنة أحمد وأبوك باشا ، بعد عملية الاغتيال ، لكن أحمد باشا لم يجد في نفسه الشجاعة للقدوم إلى استانبول واحتلالها بعد الاغيال . صار الاغتيال في صالح الاتحاد والترقي فقط . تطهيرهم زمرة « خلاصكار ضابطان » ومعارضيهم السياسيين ، وبقاء السلطة لهم وحدهم وبشكل مطلق . ومع هذا فمن الوارد وجود إنكلترا كذلك وراء مؤامرة اغتيال محمود شوكت باشا . أدركت انكلترا أن محمود شوكت باشا ، قد يتمكن من لم شعث الامبراطورية ، وأيقنت بأنها لن تتمكن من الحصول علي تعويض كاف لأطماعها في البلاد العربية ، من الصدر الأعظم ، وأعرضت عن الاتحاديين الذين تسميهم جون تركلر (الشباب الأتراك) . كانت إنكلترا تريد أن تجعل مؤيدها الأمير صباح الدين من العائلة المالكة ، صدراً أعظم .

في صباح 11 حزيران 1913 ، خرج محمود شوكت من نظارة الحربية (بيازيد) التي اعتاد أن ينام الليل فيها ، كان ذاهباً إلى الباب العالي . وعلى أثر مرور سيارته الرسمية من طريق ديوان يولي ، تعرض لهجوم 8 متآمرين . مات بعد إصابته بخمس طلقات . دفن في اليوم التالي مع مرافقه الذي قتل ، في القبر التذكاري الواقع في قمة « حريت أبدية » . وهكذا انسحب من المسرح رجل الدولة الذي يحتمل أنه كان الرجل الوحيد الذي يستطيع صيانة الدولة من كارثة الحرب العالمية والقضاء على مغامرات الاتحاديين . ولو بقي في السلطة ، لما تمكنت فلول الأعداء من القدوم أمام أنقرة . وكان هو كذلك ، الرجل الذي يستطيع تسيير علاقات الدولة مع العرب على أحسن حال ، وحمايتهم من الوقوع في أحضان إنكلترا وفرنسا .

أعدم الاتحاديون 29 شخصاً . ونفوا الكثيرين . أحالوا إلى التقاعد العديد من الضباط وموظفي الدولة ذوي التجربة . لم يبق شيء اسمه معارضة ، سيطر الاتحاد والترقي كذلك على المجالس وجعلوا منها حديقة ورد بلا أشواك .

أهم الذين أعدموا ، اللواء داماد صالح باشا وهو ابن الصدر الأعظم تونسلي خير الدين باشا . كان عسكرياً شاباً ولم يكن له ذنب بين . زوجته السلطانة منيرة ، خر عمه على قدم السلطان . أفاد السفير الفرنسي بأن إعدام الباشا سوف يضعضع مكانة الخليفة في تونس . لكن السلطان رشاد لم يستمع إلى هؤلاء ،واستمع إلى الرئيس العام للاتحاد والترقي طلعت بك ، الذي يهدده ويريد تأكيد إمكان إعدام أي شخص حتي لو كان منسوباً إلي العائلة المالكة ، صدق السلطان على الإعدام . لم تقابل السلطانة منيرة بعد ذلك عمها حتي وفاته . أخرج الاتحاد والترقي جميع الضباط والموظفين فور الشك في إخلاصهم للحزب . كان من الواضح جداً بعد الآن ، أن كل هذا اقتبس عن الثورة الفرنسية الكبري .

أجبر الاتحاديون ، السلطان رشاد على تعيين الأمير سعيد حليم باشا للصدارة مع احتفاظه بوزارة الخارجية . لم يكن السلطان رشاد كذلك يميل إلي هذا الملياردير (صاحب المليارات) من عائلة قاوالالي ، كما كان السلطان حميد . إلا أن سعيد حليم باشا ، صار صدر أعظم مراسم . كانت السلطة بكاملها ، في الحقيقة في يد ناظر الداخلية طلعت بك . أعطيت لأنور بك ، رجل الحزب الثاني ، صلاحية مطلقة على الجيش ، وأعطي لجمال بك ، الشخص الثالث ، الأسطول أولاً ، وعندما لم يكتف بذلك ، أعطيت له صلاحيات إدارية مطلقة على كل الإيالات العربية في الامبراطورية . كان خليل منتشه بك ، هو الرجل الرابع للحزب . كلف هو كذلك بعد مدة بوزارة الخارجية . نبذ الرئيس العام السابق للحزب ، أحمد رضا بك ، وأخرج من رئاسة المجلس . صار خليل منتشه رئيساً للمجلس . أسست دكتاتورية كاملة تحت شعار المشروطية (الديمقراطية ذات التاج) . جيء بضياء كوكالب **Ziya Gokalp** إلى السكرتارية العامة للحزب وأخذ في تكوين الأسس الفكرية والفلسفية للدولة الموجودة في مخيلة الحزب وإخراجها إلي حيز الوجود . كلف بالأمور الثقافية والتعليمية .

9 ـ نشوب الحرب البلقانية الثانية (29 / 6 / 1913) :

نشبت الحرب البلقانية الثانية ، بعد 18 يوماً من مقتل محمود شوكت باشا . سبب الحرب هو : جشع وطمع بلغاريا التي أرادت سلب مكدونيا الشمالية من صربيا

ومكدونيا الجنوبية من اليونان ، وطلب رومانيا (التي أخذت تصرح بأن الميزان الدولي في البلقان قد اختل في غير صالحها) التعويض . كانت رومانيا تطلب شريطاً متواضعاً في دوبروجه . بلغاريا التي لم توافق علي ذلك ، كانت قد خططت لشن حرب خاطفة علي صربيا واليونان ، وبعد أن تستولي منهما على مكدونيا ، ستعود للتحاسب مع رومانيا . أغارت على جيوش حلفائها دون إعلان الحرب . لكنها تركت الشمال مفتوحاً . بدأ الرومان التقدم نحو صوفيا . أعلنت قره داغ كذلك الحرب علي بلغاريا . استعادت تركيا أدرنة واحتلت تراقيا الغربية . لم تتعرض هنا لمقاومة بلغارية . بلغاريا التي أصبحت تجاه 5 دول ، تضعضعت أمام هجوم رومانيا في 10 تموز وتركيا في 18 تموز . أمر المقدم الركن أنور بك بعدم دخول المدينة قبل أن يدخلها هو ، دخل المدينة دون أن يطلق رصاصة واحدة (21 / 7 / 1913) . استمر حكم العثمانية في تراقيا الغربية ، الوطن التركي ، مدة شهرين . أخلت تركية تراقيا الغربية بناء علي ضغط الدول العظمي وأعطتها إلى بلغاريا . بقيت أدرنة ، التي شهدت احتلالاً بلغارياً مفجعاً مدة 3 أشهر و 26 يوماً ، في حوزة تركية . ترك قضاء Dimetoka كذلك إلى تركيا . سوف يعطي هدية إلى بلغاريا في 1915 لقاء اشتراكها في الحرب العالمية بصفة حليف . أما تراقيا الغربية فقد أخذت من بلغاريا وأعطيت إلى اليونان في نهاية عام 1918 . وهكذا خرجت بلغاريا من الحرب البلقانية التي تزعمتها ، دون أن تحصل على شيء تقريباً . واتخمت فقط بطون جاراتها عدواتها .

انتهت حرب البلقان الثانية بعد 42 يوماً بمعاهدة بخارست (10 / 8 / 1913) . أعطت بلغاريا دوبروجه الجنوبية (سيليستره) إلى رومانيا (حالياً لدي بلغاريا أيضاً) . تحقق الصلح النهائي بمعاهدات استانبول (29 / 9 / 1913) بين تركيا ــ بلغاريا ، وبمعاهدة أثينا (14 / 11 / 1913) بين تركية ــ اليونان ، وبمعاهدة استانبول (14 / 3 / 1914) بين تركيا ــ صربيا . لم توافق تركيا أبداً على ترك جزر بحر إيجه ميدلي ،يمني ، سيسام ، نيكاريا والجزر الصغيرة الأخري ، إلي اليونان . وترك هذا الأمر لتحكيم الدول للعظمي . تركت الدول العظمى ، بوزجه آدا ، ايمروز ومئيس إلي العثمانية ، وبقية الجزر جميعًا ، إلي اليونان (16 / 12/ 1913) . ولّد هذا القرار غير العادل الذي يحاصر تركيا ويهددها ، النفور الشديد لدي العثمانية وهو القرار الجائر والسقيم الذي أعد الجو الملائم للدخول في الحرب العالمية الأولي . وإضافة إلي ذلك ، لم تخل إيطاليا رودس والجزر الاثنتي عشرة وتعيدها إلي تركية ، عند نشوب حرب البلقان ، خوفاً من

احتلالها من قبل اليونان . ثم تمادت في تأخيرها لهذه الإعادة ، نشبت الحرب العالمية الأولى ، بقيت الجزر لدى إيطاليا . أرادت ألمانيا عام 1945 إعطاء رودس والجزر الاثنتى عشرة إلى تركيا . رفضت تركيا ذلك . انتقلت الجزر إلى اليونان ، تمت حركة محاصرة اليونان للأناضول من الغرب . إن جميع هذه الجزر من ليمني إلي رودس ، سواء في المعاهدات والبروتوكولات التي أنهت حرب البلقان ، أو في معاهدة لوزان النهائية ، أعطيت إلى اليونان بالشرط الصريح الذي ينص على عدم إبقاء جنود بها وعدم احتلالها عسكرياً . تغاضت أنقرة بعد ذلك عن حكم اليونان - حليفتها في الناتو - لهذه الجزر .

10 - نحو الحرب العالمية الأولى (1914) :

انتقلت الإمبراطورية العثمانية لإدارة ثلاثي طلعت - أنور - جمال المطلقة . طلعت بك ، الرئيس العام لحزب الاتحاد والترقي ، وناظر الداخلية والرئيس المطلق لإدارة حكومة الإمبراطورية . كان الصدر الأعظم سعيد حليم باشا ألعوبة بيده . كانت نظارة الخارجية في عهدة سعيد باشا ، وكان يسير وفق تعليمات الثلاثي . أصبح جمال لفترة ، ناظراً للإعمار ، ثم ناظراً للبحرية ، وكان الثالث في التسلسل من حيث النفوذ . كان يفوق زميليه الآخرين من ناحية السن ، والتجربة والثقافة .

أعطي الجيش كاملاً لسيطرة المقدم أنور بك المطلقة . مقدم ركن ، لم يقم حتي بقيادة كتيبة على رأس جيش إمبراطورية ... شيء يصعب تصديقه ، لكنه حدث فعلاً . رفعت رتبة أنور بك إلى لواء دون أن يصبح عقيداً وصار ناظراً للحربية (3 / 1 / 1914) . كان في سن 5 . 32 عام . تزوج ناجية ، ابنة الشهزادة سليمان أفندي وحصل علي لقب « داماد » (صهر) . كان تأثير هذه المرأة الجميلة ، الحديثة السن جداً ، الحريصة ، الولوعة بالسياسة والسلطانة التي هي ابنة أخ السلطان رشاد ؛ على أنور باشا كبيراً ومعروفاً . ويقال : إن هذا التأثير كان حسناً في بعض الأحيان كما أدي في بعض الأحيان كذلك إلى كبح جماحه ووقفه وإيقافه عند حده . رزق أنور من زيجته هذه بـ 3 أولاد . أنور باشا ، مسلم مؤمن ومتدين جداً ، قومي متحمس للعرق التركي ، جسور ، جريء لكنه megalo – manyak (مجنون كبير) . لا يستشعر المسئولية ،

متبلد ، مغامر ، كان عديم الاحترام للمشروطية (الديمقراطية) . أحال إلى التقاعد أكثرية الضباط الذين يفوقونه رتبة والذين ضحى السلطان عبد الحميد بالكثير في سبيل تدريبهم وإرسالهم إلى أوروبا للتدريب . أخذت علاقته تسوء مع ثالث أعضاء الثلاثي ، الأقدم منه بكثير والذي يميز عن الباشوات الآخرين في عهده من بين الذين يحملون اسم جمال بلقب « الكبير » « الملتحي » ، ولكن سوء العلاقة لم يصل إلى درجة العراك . وعند نشوب الحرب العالمية ، أدرك جمال باشا ، عدم إمكانه العمل في استانبول مع أنور . عين والي الشام . كان تعييناً غريبًا . صار قائداً على الجيش الهمايوني الرابع مع احتفاظه بنظارة البحرية . أعطيت سورية ولبنان وفلسطين والأردن ، الحجاز لإدارة جمال باشا بصلاحيات استثنائية .

كان جمال باشا ، Franeophile (محبًا لفرنسا) ، يختلف عن طلعت وأنور من حيث كونه ميالاً للسياسة الخارجية الفرنسية . ولو أمكنه التفاهم مع فرنسا وعن طريقها ، مع إنكلترا ، لكان باستطاعته منع الاشتراك في الحرب العالمية بجانب ألمانيا . إلّا أن لندن وباريس ، لم تقتربا لمثل هذا الاتفاق وتركتا جزر الأناضول لليونان ووضعت إنكلترا يدها ، فور نشوب الحرب على بارجين عثمانيتين من الوزن الثقيل تم إنشاؤهما في مصانع السفن الانكليزية وسدد ثمنهما مقدماً ، مما تسبب في دفع جمال إلى جانب ألمانيا .

كان أنور ، ملحقاً عسكرياً في برلين لفترة من الزمن . أظهر القيصر ولهلم الثاني الذي يشهد المراقبون المعاصرون الأجانب أنه قد تملق في حينه بشكل سافر السلطان عبد الحميد ، عطفاً شديداً وإكراماً لهذا الرائد (بكباشي) الشاب . اغتر أنور الحريص جداً . بالنسبة لأنور ، فإنه كان يري أنه ليس هنالك علي وجه الأرض قوة بإمكانها أن تتغلب على الجيش الألماني . آمن بذلك بكل قلبه . وعلي مر الزمن ، نقل إحساسه هذا المؤيد للجرمانية إلى طلعت الذي تأثر به .

طلعت ، قومي متحمس للقومية التركية ، شعوره الديني غير كاف ، ذكي ، مكار كالثعلب ، مخاتل ، حركي لا يهاب أحداً ، جاهل من حيث العلم . كل عالمه ، كان الاتحاد والترقي ، كان عديم الرحمة تجاه غير الاتحاديين لم يتعرض الثلاثي كثيراً للشعراء والكتاب ذوي الشهرة العظيمة المعارضين للاتحاد ، لم يكن هؤلاء ذوي أهمية كموظفي دولة .

إلا أنه لم تمنح الحرية للصحافة المعارضة . الرقابة على الصحافة ، التي أخذت تشدد علي مر الزمن ، وصلت إلى درجة تهون معها رقابة السلطان حميد . كانت معاملة الاتحاد والترقي شديدة تجاه معارضيها في القطاعات المدنية والعسكرية والعلمية ، عدا المثقفين ذوي الشهرة .

يجب الإشارة هنا ، إلى أن الحزب ، عند إدراكه عام 1914 ، كان قد اكتسب تجربة لا بأس بها وأظهر عزمه علي تبديل تشكيلات الزمرة ، إلى تشكيلات حزب طبيعي . أخذت الاتهامات ضد السلطان عبد الحميد ــ الذي كان يسمي « خاقان سابق » والذي كان على قيد الحياة ــ تقل ، وفي النهاية ، منعت الكتابة ضد السلطان السابق . حيث أصبح دهاء الخاقان ، وخاصة في السياسة الخارجية ، يزداد شهرة سنة بعد أخري . بدأ كل من أنور بك وطلعت بك في الذهاب إلى سراي بكلر بك والحصول علي توصيات من الخاقان السابق . لكن المعروف عن السلطان عبد الحميد ، أنه خاطب طلعت بقسوة وطرده من حضوره . أخذت كتلة الشعب التي تذكر بتحّسر دور السلطان حميد في الازدياد . لم يكن في عهده عائلات تقدم شهداء ، ولا مهاجرون طردوا من أراضيهم التي كانوا يسكنونها طوال عصور ، ولا فاقة ، ولا مجاعة . كان هنالك خفية (شرطة سرية) ، التقارير ، الرقابة ، النفي . إن هذه الحريات على محدوديتها ، لم تكن موجودة الآن ، وعلاوة علي ذلك ، فهناك الفاقة المادية ومنصة الإعدام والحرب .

كان الاتحاد والترقي ، قد تسلم الحكم معلناً شعار « اتحاد أنصار » أفلس هذا الشعار . دفع هذا الوضع الحزب إلى الحركة القومية التركية والطورانية . تركت الفلسفة العثمانية القومية ـ الدينية التي كان يسير علي نهجها ضياء - كمال والتي كانت سائدة في عهد السلطان عبد الحميد كذلك ، وطبقت الفلسفة القومية الطورانية . ما دام ليس هنالك للتركي حق حياة في أوروبا ، فإنه سوف يبحث عن حقه هذا في مواطن الأتراك في آسيا . أسست علاقات متينة مع الأتراك في الخارج . كان السلطان حميد كذلك ، قد أسس هذه العلاقات بذكاء فائق ؛ كان يهتم بالمسلم الجاوي والنيجيري ، كاهتمامه بالتركي التركستاني أو أنه كان على الأقل يظهر ذلك . كان يأمل أن يؤمّن الوحدة بين المسلمين

في الخارج تحت ظل لقب الخلافة . يفهم من ذلك أن السلطان حميد ، كان يعلم ضرورة أن تقف العثمانية علي قدميها ، إلى أن يحل الموعد الذي قدره لتدهور الامبريالية من قمتها . أما الاتحاديون ، فبدأوا بمحاسبة سبب الوجود الروسي في الأقطار التركية . الحقيقة أنهم أقاموا الشعب التركي على قدميه بهياج . لكنهم ألقوا ببذور الشعور بالشك والتردد ، حتي بين الأقوام الإسلامية الأخرى .

ومن الحقائق التي لا يمكن إنكارها ، تجهيز أنور باشا ، الجيش العثماني بصورة فائقة ، خلال مدة قصيرة جداً وبجهود جبارة . تمكن من تأسيس قوة برية ، ذات طاقة حربية عالية جداً يخشي جانبها وأزال آثار هزيمة حرب البلقان . لكن ما الفائدة ؟ فهذا الجيش العظيم ، بدلاً من أن يكون حارساً ومحافظاً علي مصالح العثمانية ، أتلف في جناقلعة وصاري قامش ، فور مرور سنة واحدة . اعتمد في إصلاح الجيش علي ألمانيا ، وبذلك زاد توتر العلاقات – التي لم تكن أصلاً جيدة – مع إنجلترا – فرنسا – روسيا . ألغى الباب العالي الامتيازات الممنوحة للدول الأوروبية المسماة « Capitulations » (9 / 9 / 1914) بعد 14 عامًا من إلغاء اليابان لها (1900) . كانت الدول الأوروبية قد دخلت الحرب ، فلم تتمكن من الاعتراض . لو كانت العثمانية قد تمكنت من تفويت سني الحرب وهي محافظة – علي حيادها ، لما أمكن للدول الأوروبية أن تعترض علي أي عمل تجريه من هذا القبيل . ولما أمكن الطرف المنتصر أن ينتقم من العثمانية . فقد عجزت إنكلترا عن إرسال فرقة واحدة لنجدة اليونانيين الذين أنزلوا جيشهم في الأناضول وفي إمبراطورية عثمانية منهارة . أما حلفاؤها ، فلم يخطر علي بالهم شيء من هذا القبيل . ولو لم تشترك في الحرب ، لما أمكن في نهاية عام 1918 أية دولة أن تعترض علي العثمانية ذات الجيش الفتي المهيب ، وغير المضعضع . لقد فاتت الإفادة من هذه الفرصة الكبيرة .

كان تسلسل الدول العظمى ، من ناحية أهميتها ، عند بدء الحرب العالمية الأولى في نهاية عام 1914 كما يلي ، إنكلترا ، ألمانيا ، الولايات الأمريكية المتحدة ، فرنسا ، اليابان ، النمسا – المجر ، إيطاليا ، تركيا ، الصين . تغير عدد النفوس خلال 1900 –

1914 ، في انكلترا – بضمنها المستعمرات والدول التابعة لها – من 382 مليونا إلي 461 ، مليونا . ألمانيا من 66 مليونا إلي 79 ، أمريكا من 86 مليونا إلي 111 ، فرنسا من 76 إلي 84 ، روسيا من 133 إلي 181 ، اليابان من 56 إلي 78 ، النمسا من 45 إلي 52 ، إيطاليامن 33 إلي 38 ، تركيا من 57 إلي 29 ، الصين من 384 إلي 398 . مصر – السودان وقبرص ، لا تدخل ضمن الرقم الثاني 29 لتعداد نفوس تركيا ، حيث كانت إنكلترا قد احتلتها في نهاية عام 1914 وانقطعت علاقتها بالعثمانية .

نفوس العالم خلال الـ 15 عاماً هذه ، زادت من 000 000 491 1 إلي 000 000 782 1 . توزيع هذه النفوس بالنسبة للدول العظمي عام 1900 ، كما يلي : 000 000 282 / 1 منه لدي الدول العظمي و 209 ملايين منها لدي الدول الأخري . وبعد 15 عاماً ، ارتفعت هذه الأرقام إلي 0000 000 411 1 مليون و 371 مليون .

وخلال الـ 15 سنة هذه ، ارتفع عدد المدن التي يتجاوز عدد نفوسها المليون من 17 إلي 25 ، والمدن التي عدد نفوسها يترواح بين نصف مليون ومليون من 30 إلي 50 ، والتي عدد نفوسها يتراوح بين مائة ألف ونصف مليون من 241 إلي 377 ؛ ومجموع المدن التي يزيد عدد نفوسها علي المائة ألف ، من 288 إلي 402 .

وفي 1915 ، كان عدد المدن التي يزيد نفوسها علي مائة ألف – بضمنها جميع المستعمرات – لدي إنكلترا 90 ، الولايات الأمريكية 59 ، روسيا 39 ، ألمانيا37 ، الصين26 ، فرنسا 22 ، اليابان 16 ، إيطاليا 15 ، تركية 13 ، النمسا 11 ، أسبانيا 10 ، هولندا 10 ، البرازيل 6 ، لدي جميع بقية الدول الأخري 48 .

أكثر مدن العالم كثافة في بداية عام 1915 : لندن 3 . 7 مليون ، نيويورك 1 . 7 ، باريس 6 . 4 ، برلين 8 . 3 ، إسن الكبيرة 3 . 3 ، شيكاغو 5 . 2 ، فينا 2 . 2 ، بيتروغراد (لنينغراد ، سابقاً بطرسبورغ) 1 . 2 ، طوكيو 1 . 2 ، فيلادلفيا 2 ، بونس آيرس 8 . 1 ، غلاسكو 5 . 1 ، إستانبول 4 . 1 همبورغ 4 . 1 ، أوساكا 4 . 1 ، برمنكهام 4 . 1 ، مانجستر 4 . 1 ، ليفربول 4 . 1 ، بوستون 3 . 1 ، هانيكو 3 . 1 ، كلكوتا 3 . 1 ، ريو 1 . 1 ، بومباي مليون واحد ، شنغهاي مليون واحد .

وفي مستهل عام 1915 ، كانت نفوس مدن تركيا الكبيرة بعد إستانبول هي كما يلي : أزمير 400 ألف ، الشام 300 ، حلب 240 ، بيروت 168 ، بغداد 156 ، أرضروم 144 ، أدرنة 135 ، أفيون 114 ، مانيسا 108 ، القدس 101 ، بورصه 100 ، الموصل 100 . وكانت نفوس 23 مدينة تتراوح بين 50 و 100 ألف نسمة .

وقبيل الحرب العالمية ، كانت قدرة ألمانيا قريبة جدًا من قدرة إنكلترا وهذا أحد أسباب الحرب . كانت القوة البرية الألمانية ، القوة الأولي في العالم دون نقاش) وقوتها تفوق مجموع القوتين البريتين للدولتين العظميين اللتين تأتيان بعدها . كانت الصناعة الألمانية ، قد بدأت تفوق بقليل الصناعة الإنكليزية . أما الولايات الأمريكية فكانت قد فاقت إنكلترا في الصناعة وأصبحت الأولي في العالم ، لكنها لم تكن تملك جيشًا برّيا كما يجب .

فرنسا ، كانت تملك الجيش العالمي الثاني بعد الجيش الألماني وأكبر إمبراطورية استعمارية بعد إنكلترا والرابعة في العالم في الصناعة . لكن المسافة التي بينها وبين ألمانيا ، كانت قد اتسعت في جميع المجالات بشكل خطير ، وأصبح متعذرًا تمامًا أن تحارب فرنسا ، ـــ وحدها ـــ ألمانيا .

روسيا استندت على رءوس الأموال الإنكليزية والفرنسية في سباق الصناعة والرأسمالية والنهضة ، وكانت تملك الجيش القوي الثالث في العالم . كان الروس كما هم اليوم ، يشكلون نصف نفوس الإمبراطورية فقط .

قامت اليابان بحملة كبيرة وأصبحت دولة صناعية ، وأسست جيشًا وأسطولاً قويًا ، وأصبحت تمتلك مستعمرة ، وبدأت بالتدخل في الصين .

النمسا ـ المجر ، أصبحت صناعية ، وكانت مرتبطة بسياسة برلين الخارجية أشد الارتباط ، تخشي كثيرًا من روسيا .

إيطاليا ، كانت تبحث عن أراض خالية لتقوم باستعمارها .

كانت الصين تحت ضغط الإمبريالية الغربية واليابان المخيفة . وفي 1912 ، ألغت نظامها الامبراطوري الذي يمتد عبر آلاف السنين ، وادعت أنها أصبحت جمهورية ،

أصيبت بانقسام جذري عميق في سياستها الداخلية ، علي أيدي دكتاتورين غير جديرين .

كانت انكلترا ، لا تزال الدولة الأولي في القدرة . لكن المسافة التي بينها وبين الدول الأخرى ، لم تعد شاسعة مثلما كانت عليه قبل ربع قرن . كان أسطولها لا يزال في المرتبة الأولى بصورة قطعية . الأسطول الألماني ، ارتقي إلى الدرجة الثانية ، وقد شكل هذا ــ كذلك ــ أحد أسباب الحرب العالمية .

مثل هذا التغيير الكبير الذي حصل في الـ 15 سنة الأخيرة ، كان قد حصل في الامبراطورية العثمانية . وكان تمامًا في غير صالحها . كان التغيير الكبير ، قد حدث خلال الـ 4 سنوات التي تلت 1908 . وخلال هذه المدة ، كان نصف الامبراطورية قد تبعثر . وإذ قطعت الأقطار المرتبطة بالامبراطورية ، والحائزة على الاستقلال الذاتي ، كل علاقة لها بالعثمانية ، كبلغاريا ، روملي الشرقية ، بوسنة هرسك ، كريت ، سيسام ، بعض الأماكن في البلاد العربية ؛ وألحقت إنكلترا مصر والسودان وقبرص عند دخول العثمانية الحرب في نهاية 1914 ولم تبق للعثمانية أية علاقة مع تلك الأقطار . كذلك ليبيا التي كانت تحت إدارة العثمانية المباشرة ، قد فقدت وفقدت ألبانيا ، مكدونيا ، كوسوفا ، يني بازار ، أبير ، تراقيا الغربية ، جزر بحر إيجه الشرقية) كانت الأراضي الموجودة في حوزة العثمانية في 1915 بحدودها الحالية عبارة عن تركيا ، العراق ، سورية ، لبنان ، إسرائيل ، الأردن ، اليمن والعربية السعودية . كانت قارص وآرتفين ، خارج الحدود العثمانية . وكان النفوذ العسكري العثماني موجودًا في بعض الأماكن من البلاد العربية ، ليبيا وبعض الأقطار . الدولة التي انسحبت بشكل حاسم من الأدرياتيك إلي مريج ، كانت لا تزال محتفظة بخليج البصرة ، البحر الأحمر ، مضيق باب المندب وشرق البحر الأبيض .

كانت الدول المسيحية الكبري في أوروبا قد انقسمت قبل الحرب إلي كتلتين ، انكلترا ــ فرنسا ــ روسيا وألمانيا ــ النمسا ــ إيطاليا بالاتفاقات المتشعبة الكائنة بينها . لكن إيطاليا ، لم تدخل الحرب ، واشتركت في 1915 في الحرب ضد حليفاتها ألمانيا ــ النمسا . لكن ، لم تكن إيطاليا هي التي سببت اختلال التوازن ، بل كانت الولايات

الأمريكية التي دخلت الحربِ في 1917 وسّببت خسارة الألمان الحاسمة . ومع أن اليابان دخلت الحرب ضد ألمانيا ، فإنها اكتفت بوضع اليد على قسم من مستعمراتِ ألمانيا الموجودة في أوقيانيا ، ولم تشترك في الحرب بجيشها . ولأول مرة في تاريخ العالم تقابلت قوات هائلة لا يتصورها العقل . حدثت حرب خنادق بدرجة لا يتصورها العقل ، استمرت سنين طويلة . كثافة النار ، استهلاك العتاد فاق حدود الخيال .

1 – الحرب العالمية الأولي (1914 – 1918) :

أوقد شرارة الحرب ، مقتل ولي عهد النمسا – المجر في بوسنة سراي على يد إرهابي صربي . أعلنت النمسا الحرب ضد صربيا .

روسيا ، التي لا تسمح بسحق صربيا وازدياد النفوذ الجرماني في البلقان ، أعلنت الحرب ضد النمسا .

أعلنت ألمانيا الحرب ضد روسيا خشية أن تسحق حليفتها النمسا .

أعلنت فرنسا الحرب ضد ألمانيا والنمسا ، ودخلت بجانب روسيا لئلا تبقى أمام ألمانيا – التي من المؤكدأنها ستنحي روسيا — وحيدة . كان الاعتقاد أن إنكلترا سوف لن تزج بنفسها فيالحربالبرية ، لكن كان من المؤكد أن ألمانيا – النمسا سوف تهزم فرنسا – روسيا . عندئذ تبقي ألمانيا وحدها أمام إنكلترا وتزاحمها في الأسطول والمستعمرات . ولهذا السبب ، اشتركت إنكلترا كذلك في الحرب . حدثت هذه الإعلانات المتتالية لدخول الحرب خلال أيام .

دخلت كل أقطار أوروبا الحرب عدا أسبانيا ، سويسرا ، هولندا ، السويد ، النرويج ، الدانمرك .

كان تعداد العالم 000 000 782 1 ؛ 000 735 170 1 منه ، تشكله الدول المشتركة في الحرب ، وذلك علي الوجه التالي : دول المحور (Coalition) المسمي الإمبراطوريات المركزية : ألمانيا 79 + النمسا 55 + تركية 29 + بلغاريا 3 . 5 = 3 / 168 مليون نسمة . وفي مقابل ذلك دول الائتلاف أو الاتحاد (Coalition) المسمي (الحلفاء) : إنكلترا 461 + روسيا 181 + الولايات الأمريكية 111 + فرنسا 84 + اليابان 78 + إيطاليا 38 + بلجيكا 16 + البرتغال 15 + رومانيا 8 + الصربيا 5 + اليونان 5 + قره داغ 4 = 10024 مليون نسمة .

اشتركت تركيا في الحرب بـ 9 جيوش مقسمة إلي 63 فرقة . كان من المعتقد أن الحرب تنتهي بعد عدة شهور ، أو خلال سنة علي أكثر تقدير . كانت هذه قناعة الطرفين .

كان دخول تركية الحرب ، وعدم تمكن الحلفاء من اجتياز جنا قلعة واندحار روسيا ، من الأسباب الرئيسية لإطالة الحرب إلي ضعف ما هو مقرر أي سنتين وهو نصف مدة الحرب . ألقي رئيس الوزارة الإنكليزية Lloyd George – المتعصب وعدو الإسلام والأتراك بدرجة لا يتصورها العقل – مسؤولية إطالة الحرب لسنتين أخريين ، علي الدولة العثمانية بصورة رسمية ، وأعلن رسميًا أنه سوف يحاسب تركية علي مائدة الصلح ، علي هذا الأساس .

اشترك في الحرب بصورة فعلية من كلا الطرفين خلال الـ 4 سنوات 6 . 65 مليون جندي : 9 . 22 مليون منهم جنود دول المحور و 42.7 مليون منهم جنود دول الائتلاف (الحلفاء) ؛ دول المحور ، ألمانيا 11 مليون ، النمسا – المجر 8 . 7 ، تركيا 9 . 2 بلغاريا ، 2 . 1 مليون جندي . دول الائتلاف (الحلفاء) : روسيا 12 مليون ، انكلترا 9 . 8 ، فرنسا 4 . 8 ، إيطاليا 6 . 5 ، الولايات الأمريكية 75 . 4 ، اليابان 8 . – ، صربيا 8 . – ، رومانيا 75 . – ، بلجيكا 3 . – ، اليونان 25 . – ، البرتغال 1 . – ، قره داغ 05 . – مليون جندي .

كانت خسائر الطرفين 000 481 38 جنديًا منهم 000 323 9 قتلي . وقتل 10 ملايين من المدنيين لأسباب مختلفة كالمجاعة ، والمرض والقصف . كانت خسائر الطرفين من الجنود وعدد القتلي كما يلي : ألمانيا 000 300 7 (000 950 1 قتيل) ، النمسا – المجر 000 000 7 (000 200 1) ، تركيـة 000 050 1 (000 400) ، بلغاريـا 000 270 (000 90) = 000 620 15 (000 640 3 قتيل) . الطرف الآخر : روسيا 000 150 9 (000 700 1 قتيـل) ، فـرنسا 000 300 6 (000 390 1) ، إنكلتـــرا 000 190 3 (000 910) ، إيطاليا 000 350 2 (000 650) ، صربيا 000 740 (000 450) ، رومانيا 000 540 (000 340) ، الولايات الأمريكية 000 320 (000 120) ، بلجيكا 000 180 (000 100) ، البرتغال 000 40 (000 10) ، اليونان 000 30 (000 10) ، قره داغ 000 20 (000 3) ، اليابان 000 1 (300) = 000 861 22 (300 683 5) .

كان أساس الخطة الحربية للماريشال Schlieffen على الشكل الآتي : ستكون ألمانيا مضطرة للدخول إلى الحرب في الشرق تجاه روسيا وفي الغرب تجاه فرنسا في نفس الوقت . وفي هذه الحالة ، ستستسلم فرنسا في الحرب الخاطفة أثناء الحرب الدفاعية في الشرق . ثم تعود الجيوش إلى الشرق وتكون عاقبة روسيا كعاقبة فرنسا . سيدخل الروس إلى قسم من الأراضي الألمانية في الشرق ، خلال الحرب مع فرنسا . سوف تضحي ألمانيا بذلك مؤقتًا .

عند نشوب الحرب ، كان الفريق الأول Von Moltke – ابن أخ مولتكة الكبير – رئيسًا لأركان الجيش الإمبراطوري والقائد الفعلي له (كان القائد الاسمى Koyzer) .

لم يوافق الإمبراطور على سحبه قوة من الحدود الروسية وسوقها إلى حدود فرنسا ؛ حيث اعتبر دخول الروس إلى قسم من الأراضي الألمانية لا يليق بهيبة القيصر . لذا تعذر زيادة القوات الألمانية في الغرب إلى العدد الذي تتمكن به من القضاء على قوات المتفقين (الحلفاء) الفرنسية – الإنكليزية – البلجيكية دفعة واحدة . تمكن الفرنسيون من إيقاف الألمان على مسافة 30 كم من باريس (معاهدة Marne ، 6 – 12 أيلول 1914) . وهذا يعني إفلاس خطة Schlieffen ؛ حيث أن هذه الخطة كانت معلومة لدي العالم بأسره وكان العالم كله يعلم أن الألمان سيقضون على فرنسا بالحرب الخاطفة . إن القتال الدموي الذي يفوق الخيال ، الذي جرى على ضفة نهر Marne ، كذب هذا الاعتقاد وأوضح أن الحرب ستطول بعد الآن إلى أجل غير معلوم وفي غير صالح ألمانيا . ستطول الحرب ضد ألمانيا لعدم استسلام فرنسا ، كما وأنه في حالة اشتراك إنكلترا في الحرب بجانب فرنسا فإنها ستستطيع حشد ملايين الجند في الجبهة الفرنسية بالإضافة إلي أن إيطاليا – حليفتها على الورق – لم تكن قد اشتركت في الحرب بجانب ألمانيا – النمسا ، واتضح أنها سوف لن تشترك بل وأنها ستنضم إلى إنكلترا – فرنسا – روسيا – . لكن الشيء الأهم من كل ما مضى هو : أنه في حالة عدم تمكن ألمانيا من الانتصار بحرب خاطفة ، فإنها سوف تخسر الحرب في حالة حرب طويلة الأمد ؛ لأن الذي يسيطر على البحار المفتوحة ، هم الحلفاء وليست الامبراطوريات المركزية (دول المحور) . ولهذا السبب سيستطيع الحلفاء تأمين كل أنواع المهمات والمواد الخام ،

واستيرادها . أما في الدول المركزية فسوف تبدأ الحاجة إلى المهمات والمواد الخام بشكل كبير . ....

هكذا ارتكبت العثمانية بسهولة عملا جنونيًا كدخولها الحرب بجانب ألمانيا في هذه الأثناء ، أي بعد معاهدة Marne ، أي بعد إفلاس خطط ألمانيا الحربية . كان رائد هذه الكارثة أنور باشا . طلعت بك وجمال باشا (بوجه خاص) ، وافقاه دون أن يكونا راغبين مثله . ثم أعلن الاتحاد والترقي كرأي رسمي للدولة ادعاء أن سفينتين من سفن الحرب الألمانية لجأتا إلي العثمانية ، واجتازتا المضيق إلى البحر الأسود دون علم العثمانية وقصفتا الموانئ الروسية ، وأن روسيا ومن ثم حلفاؤها ، قد أعلنوا الحرب على تركية . ظل هذا الادعاء يتكرر إلى يومنا هذا ، ولم يسمح ، لعدد من الأسباب ، بتحليل مبلغ مجانبة هذا الادعاء ، للعقل والمنطق . واليوم بعد أن نشرت الأوامر العسكرية (عسكري أمرنامه) لجمال باشا ، وكيل القائد العام لأنور باشا ، نجد الرسائل التي بعثها إلى الأسطول العثماني بصفته ناظرًا للبحرية ، وبتوقيعه ، حول كيفية الإغارة على الموانئ الروسية وقصفها وإغراق أية سفينة روسية حربية كانت أم تجارية . وأساسًا فإن قبول إمرار بارجتين ألمانيتين وفتح مضيق جناقلعة لهما وعدم تجريدهما من الأسلحة خلافًا للاتفاقات الدولة والاكتفاء بإلباس طاقم السفن الطرابيش وتركهم على حالهم ، تظهر نوايا ثلاثي الاتحاد . ودليل آخر هو : معاهدة الاتفاق السري الذي وقع مع ألمانيا . كان أنور باشا موقنًا من هزيمة روسيا وأخذ العثمانية قفقاسيا وتركستان . اضمحلت روسيا ، لكن العثمانية لم تتمكن من أخذ قفقاسيا وتركستان ، اكتفت بأخذ ولايتي قارص وآرتفين . إذ إن الحرب كانت حربًا عالمية . لم تكن حربًا ألمانية - عثمانية - روسية . كانت قد شملت العالم كله . عقلية أنور ، لم تستوعب هذه الاستراتيجية . أصدر أمر قصف الموانئ الروسية إلى الأسطول العثماني الذي انضمت إليه بارجتان ألمانيتان . ثم عاد فكذب على المجالس ، وأفاد بأن السفينتين الألمانيتين وضعتاهم أمام الأمر الواقع ، ولذا فإننا دخلنا الحرب مضطرين وإننا سوف ننقذ مصر وأفريقيا الشمالية من الاستعمار الإنكليزي والفرنسي .

تم الاشتراك في أكبر حرب سجلها التاريخ ، وفي الطرف المحتمل خسارته ، دون علم

البادشاه ، الصدر الأعظم ، الحكومة ، البرلمان . كل هذه أجهزة تسلمت هذا القرار من الأشخاص الثلاثة الذين يشكلون الثلاثي وطبقوه ، وفي إحدى الروايات يقال إنهم أحاطوا خليل منتشه به علمًا كذلك . ولو لم تدخل العثمانية الحرب ، لخسرت روسيا واستسلمت ؛ لأنها ستغلق المضايق ، وسوف تتمكن روسيا من تسلم الإمدادات من حليفاتها الغربيات ، سيكون في نهاية الحرب جيش عثماني يقف على قدميه ، لا تجسر أية دولة على أن تمسه بسوء ، ولو لم تدخل العثمانية الحرب لما تعرضت لضياع الثروات والبشر بالقدر الذي يفوق الخيال ، ولما تهدمت واحترقت الأناضول ولما هلك في جنا قلعة ، صاري قامش ، صحراء سيناء وفي صقاريا شباب محبون لوطنهم جمعوا بين الثقافتين الشرقية والغربية ونشأوا نشأة خارقة للعادة . وعندئذ كانت تركيا سوف تصفي إمبراطوريتها في الوقت المناسب بإرادتها الشخصية ، ويحتمل أن يكون ذلك في 1945 كما عملت ذلك إنكلترا وفرنسا ، ولما تركت الأقطار العربية تحت وطأة الإنكليز والفرنسيين ، ولحصلوا على استقلالهم وهم أصدقاء للأتراك ، لا كأعداء نتيجة لدعايات الدول الأجنبية .

يجب هنا أن نسجل أن الجنرالات والضباط الأركان الأتراك قد نبهوا أنور باشا بإصرار مرات عديدة ، وبعضهم بتقارير عسكرية حول عدم دخولنا الحرب ، لكن أنور ، كان يسمع مستشاريه الجنرالات الألمان الموجودين في وزارة الحربية . كان من بين الذين نّبهوا أنور بشدة ، حول عدم دخولنا الحرب ؛ أركان لعبوا أدوارًا ذات أهمية فائقة في التاريخ التركي فيما بعد ، ككمال أتاتورك ، عصمت أينونو وكاظم قره بكر .

إن سرد وقائع الحرب العالمية الأولى ، وحتى أعمال العثمانية في هذه الحرب ، يطيل موضوعنا كثيرًا . إلاَّ أنه من الضروري أن نبحث بعض المواضيع ، التي أثرت فيما بعد على تاريخ تركية والأقطار العربية والتاريخ العالمي بشكل مهم ، وسنكتفي بهذا القدر .

بدأت الحرب في 28 تموز 1914 . اشتركت العثمانية في 29 ت 1 / 1914 . إيطاليا (23 / 5 / 1915) والولايات الأمريكية (6 / 4 / 1917) اشتركتا فيما بعد في صف الحلفاء . (اليابان 23 / 8 / 1914) . أما الدولة الوحيدة التي اشتركت بجانب 3 إمبراطوريات مركزية (ألمانيا ، النمسا ، تركيا) فهي بلغاريا (14 / 10 / 1915) .

اشتركت رومانيا (27 / 8 / 1916) واليونان (27 / 6 / 1917) بجانب الحلفاء . وأعلنت الصين كذلك الحرب على الإمبراطوريات المركزية (14 / 8 / 1917) .

لا شك أن اجتياز مضيق جنا قلعة واحتلال استانبول وتنحية العثمانية والاتصال بروسيا ، من شأنها أن تقصر أمد الحرب سنتين . وابتداء من آذار 1915 بدأت القوات البحرية والبرية الجهنمية المشكلة من القوات الإنكليزية ، الفرنسية ، الاسترالية ، النيوزيلندية بالتشديد على مضيق جناقلعة من البحر . وعندما غرقت السفن الممتازة للأسطول الإنكليزي – الفرنسي بنيران المدافع التركية ، تقرر الإنزال من البر . أنزل الجنود في شبه جزيرة غاليبولي . اشتركت في الإنزال كتيبة يهودية وأخرى يونانية من المتطوعين . انهزم الحلفاء هزيمة عظمى . أثبتت العثمانية بصورة فعلية أنها حتي وهي في سكرات الموت فإنه بإمكانها أن تبدل مجرى التاريخ العالمي ، إلا أنه استشهد في جبهة جنا قلعة فقط 000 250 تركي وقتل من الحلفاء 000 250 جندي تقريبًا . الجرحى ، والمرضى ، والمفقودون ، والأسرى خارج هذا العدد .

حتى ألمانيا ، حليفة العثمانية دهشت لمعجزة جنا قلعة . وبينما كان يولى الجيش العثماني أهمية كبيرة – خاصة في الحرب الدفاعية – قبل هزيمة البلقان ، أخذت الدول الأوربية تستصغر وتستخف بالجيش العثماني بعد حرب البلقان . وحتى برلين كانت تعتقد ذلك . كانت برلين تريد إشراك العثمانية في الحرب لتستفيد من صفة الخليفة للبادشاه ، ومن وضع تركية الجغرافي – الاستراتيجي ، أكثر من تفكيرها في الاستفادة من قدرتها العسكرية . وعند دخول العثمانية الحرب ، وجد أن جيشها قد ملأ فراغًا كبيرًا . بينما كانت الاستفادة من صفة الخليفة للبادشاه أقل بكثير مما كان يؤمل . أحدث ذلك خيبة أمل في برلين وفي إستانبول كذلك . كان السلطان رشاد ، قد أعلن الجهاد الأكبر والجهاد المقدس بصفة كونه خليفة ، لم يحدث ذلك صدى كبيرًا في العالم الإسلامي . لم تحدث ثورة في المستعمرات الإسلامية تجاه إنكلترا وفرنسا . عدا مسلمي الهند (باكستان وبنغلادش الحالية) الذين سببوا مشاكل كبيرة لإنكلترا . ولو كان عبد الحميد الثاني هو الذي أعلن الجهاد ، لكان من المحتمل أن يتغير هذا المشهد بعض الشيء . وعدا افتقاد السلطان رشاد للنفوذ والاعتبار الذي يملكه أخوه الكبير ؛ كان

العالم الإسلامي يعلم أنه صار ألعوبة مسخرة في يد الاتحاد والترقي . أما السياسة الإسلامية للاتحاد والترقي ، فلم تكن مرغوبًا فيها بدرجة سياسة عبد الحميد الثاني أبدًا . ومع ذلك فالمعلوم عن السلطان حميد الذي كان يسكن سراي بكلربك خلال هذه الأيام ، أنه عندما علم بإعلان الجهاد في نهاية عام 1914 ، قال « كان هذا سلاحًا كبيرًا ، وتأثيره يكون أكبر في حالة عدم استعماله ، ما كان يجب استعماله أبدًا » . وإن واقعية السلطان عبد الحميد الصلبة ، في السياسة معلومة . أما الاتحاديون ، فقد ورثوا تخيلات مدحت باشا غير الواقعية في السياسة الخارجية ، كما ورثوها في السياسة الداخلية .

خيبة الأمل نفسها ، شوهدت في حركات جمال باشا في قناة السويس . ودّع الباشا من إستانبول بصفة « فاتح مصر » وشُيّع من مقره الكبير في الشام ، بالشعارات نفسها باللغة التركية والعربية . هاجم جمال باشا والوحدات الممتازة للجيش الهمايوني الرابع ، القناة مجتازًا جهنم سيناء مرتين (الثانية 19 / 7 – 4 / 8 / 1916) ، لم يتمكن من اجتياز القناة . كان الإنكليز يصلون العساكر التركية بنيران رشاشاتهم الثقيلة التي ركزوها على القاطرات المصفحة المثبتة فوق سكة الحديد التي أنشأوها . استشهد ضباط أتراك ممتازون وجنود أتراك مدربون تدريبًا فائقًا . وخلافًا لما كان مؤملاً ، لم يعص المصريون أو يثوروا على أساس أن الجيش العثماني جاء إلى القناة ولم ينقضوا على الإنكليز بل على العكس ، أخذ في حشد وحدات كبيرة في مصر ، أخذت بالتعاظم على مر الزمن . إن عدم إرسال هذه الوحدات إلى الجبهة الفرنسية ، صار في صالح ألمانيا ، تحقق قصد برلين . أما العثمانية ، فقد أصبحت في وضع لا تتمكن فيه من السيطرة على جبهة فلسطين بسبب مجابهتها وحدات الحلفاء المتزايدة في كل يوم . سالت دماء تركية غزيرة . كان اليهود قد أسسوا في فلسطين تشكيلات مخابرات سرية ، كانوا يخبرون الإنكليز بتحركات الوحدات العثمانية . عثر جمال باشا على قسم منهم وأفناهم . كان الشريف حسين باشا يضغط من الجنوب ، وكان البدو التابعون له يخربون باستمرار خط شام – مدينة الحديدي ويعرقلون كثيرًا المواصلات العسكرية العثمانية .

هلك الجيش الثالث بين الجبال الثلجية ، وفي بداية الحرب في هجوم صاري قامش الذي قاده بنفسه أنور باشا بعدم كفاءة كبيرة . استشهد 000 90 جندي .

احتل الإنكليز البصرة في بداية الحرب . دافع العراق ، الجيش الهمايوني السادس تجاه الجيش الإنكليزي - الهندي الذي أخذ يزداد على مر الزمن . العثمانيون الذين هزموا الإنكليز في سلمان باك ، أسروا في كوت العمارة فرقة إنكليزية كاملة (300 13 جندي) بجنرالاتها الخمسة وكامل أسلحتها (29 / 4 / 1916) . لكن ، في النهاية ، سقطت بغداد (11 / 3 / 1917) .

كان يقوم بالدفاع عن جبهة فلسطين ، جماعة القوات السريعة التي يشكلها الجيوش الرابع والسابع والثامن . انتصروا في حربي غزة الأولي والثانية . انتصر الإنكليز وحلفاؤهم في حرب غزة الثالثة . سقطت القدس (9 / 12 / 1917) .

من الناحية الأخرى احتل الجيش العثماني ، غرب إيران على العمق واقترب إلى قفقاسيا . انهارت روسيا وطلبت الهدنة (22 / 1 / 1918) . دخل الأتراك باطوم (15 / 4 / 1918) ، قارص (27 / 4 / 1918) ، آرتفين . أعادت معاهدة Brest Litovsk - التي وقع عليها طلعت باشا - قارص آرتفين وباطوم إلي تركية (3 / 3 / 1918) . دخل الجيش العثماني للمرة الثانية إلى تبريز (14 / 6 / 1918) ، ثم احتل الجيش التاسع الذي يقوده الفريق الأول نوري باشا أخو أنور باشا ، بالكو (14 / 9 / 1918) ووصل إلى حد بحر الخزر .

اشترك الفيلق التركي الأول في حركات رومانيا . كان ضمن قوات المحور التي دخلت بخارست ، ثم نقل إلى جبهة غاليجا وتحارب مع الروس . ثم جاء إلي مكدونيا . حارب هناك تجاه القوات الإنكليزية - الفرنسية - الصربية — اليونانية — الروسية - الإيطالية . كان قائد هذه القوات (30 فرقة) الماريشال الفرنسي Franchet d;Esperey . طلبت بلغاريا التي لم تطق الحرب ، الهدنة (27 / 9 / 1918) . وهكذا انقطع ارتباط العثمانية مع النمسا وألمانيا . عند خسران الحرب وطلبت كل من تركية والنمسا وألمانيا الهدنة ، لم تكن أية قطعة من الأراضي الألمانية محتلة (عدا مستعمراتها) . بالعكس ، كانت الجيوش الألمانية تحتل على العمق كلا من فرنسا ، روسيا ، بلجيكا ، إيطاليا ، صربيا ورومانيا . إلاّ أن النظرة الاستراتيجية التي لخصها السلطان عبد الحميد في قوله « الطرف الذي يسيطر على البحار ، يكسب الحرب » إلى طلعت باشا وأنور

باشا اللذين زاراه قبل سنوات عديدة ، قد تحققت .

إن المبادئ الـ 14 التي أعلنها رئيس جمهورية الولايات الأمريكية ولسن Wilson (8 / 1 / 1918) ، كانت من العوامل التي ثبطت عزم تركيا وحلفائها . إن هذه المبادئ لم تطبق في أي وقت من الأوقات ، لا من ناحية احترامهم الأسس القومية ، ولا من ناحية منحهم الاستقلال للأقطار غير التركية التي انفصلت عن العثمانية . وعلى عكس ذلك ، سلط اليونانيين والأرمن مرة أخرى ، على أراضي الأناضول . لكن وعد ولسن ، الذي هو نسخة طبق الأصل لروزفلت ، باسم الولايات المتحدة وحلفائها ، أثر بشكل بالغ على دول المحور وثبط عزمهم على الحرب . إن الـ 42 فرقة والمهمات الثقيلة التي أرسلتها الولايات الأمريكية المتحدة إلى الجبهة الفرنسية ، أدخلت اليأس إلى قلب الألمان . كانت أمريكا ، قد أصبحت أغنى دولة في العالم . لكنها لم تتمكن على مائدة الصلح من الحيلولة دون أطماع حليفاتها ، وعادت ثانية إلى قارتها .

12 – تهجير الأرمن عام1915 :

كان عدد الأرمن من رعايا العثمانية الأرثوذكس ، الكريكوريان ، الكاثوليك (وقليل جدًا من البروتستانت) عام 1915 ، في استانبول ، الأناضول والأقطار العربية يقارب الـ 000 300 1 . كانوا يشكلون 5 ٪ من معدل نفوس الأناضول الشرقية . وفي نهاية عام 1914 (29 / 12 / 1914 – 2 / 1 / 1915) ، جمد ومات من البرد معظم أفراد الجيش الثالث المكلف بالدفاع عن الأناضول الشرقية وجبهة القفقاس تجاه الروس في هجوم صاري قامش . أصبحت الجبهة بدون دفاع تقريبًا . أرسل الروس الأسلحة إلى الأرمن في الأناضول الشرقية . شكل الأرمن عصابات ، أخذت تغير على القري ثم القصبات والمدن المسلمة المحرومة من دفاع الجيش العثماني . نفذوا مذابح جماعية واسعة النطاق دون تفريق بين أطفال ونساء . ولا يقتلون المدنيين بالرصاص ، بل يعذبونهم بألوان شتى من العذاب لمدة طويلة ويقطعون أوصالهم ثم يحرقونهم ويتركونهم للموت ، وكانوا بخاصة ينتهكون الأعراض ويمسون الشرف بسبب زيادة حرص المسلمين على ذلك . كان هدفهم إجبار المسلمين على الهرب من الأناضول الشرقية ، وربط هذه الولايات بروسيا قدر الإمكان . كانت وان ، مركز إيالة ومركزًا إسلاميًا مهمًا .

العصابات الأرمنية التي دخلت هذه المدينة ، قتلت المسلمين كافة (20 / 4 / 1915) . وعندما جاء الجيش الروسي ودخل وان (19 / 5 / 1915) ، شاهد بدهشة عدم وجود مسلم واحد فيها ، فاقت الوحشية الأرمنية ، حتى المخططات الروسية ، ولدينا بيانات وتقارير رسمية لعديد من الضباط الروس ، كانت تحاول الضغط على الأرمن لإيقاف القتل العام تجاه المسلمين . الروس الذين لم يتمكنوا من البقاء هناك ، أخلوا وان وسلموها إلى الأرمن (3 / 8 / 1915) . دخلت الوحدات التركية إلى وان ، بعد يومين فقط وشاهدوا بتأثر ، أجساد عشرات الألوف من المسلمين ، كما شاهدوا المساجد المحرّقة والمهّدمة .

حمى الأتراك السلجوقيون ومن ثم العثمانيون خاصة ، الأرمن الذين كانت تعتبرهم الإدارة البيزنطية مواطنين من الدرجة الثانية وتعاملهم بقسوة شديدة . الأكثرية الساحقة من أرمن إستانبول ليسوا أصلاً من إستانبول . وإنما جاء بهم السلطان محمد الفاتح من الأناضول وأسكنوا إستانبول . احترمت كثيرًا حرياتهم الدينية والمذهبية ، وأموالهم . ورغم أن رجال الدولة في التنظيمات لم يستحسنوا تبديل الأرمن الأرثوذكس الكريكوريان مذهبهم واعتناقهم المذهب الكاثوليكي وتبعيتهم للبابا ، بالتعليمات القادمة من أوروبا ، لكنهم لم يحولوا دون ذلك فعليًا ، عدا نصحهم بعدم تركهم مذهب آبائهم . وكذلك سمحوا للأرمن الكاثوليك بتأسيس تشكيلات البطريركية . والأرمن سواء كانوا كريكوريان أم كاثوليك ، أشغلوا بعد 1856 مناصب وزير (أعلى المراتب الشرفية) ، والي إيالة ، سفير ، موظف كبير في سراي البادشاه ، ناظر (وزير) (وحتى أحدهم شغل منصب ناظر الخارجية) . تسعة أعشارهم ، خدموا الدولة العثمانية بإخلاص كبير ، لم تفرق الدولة بينهم وبين الوزراء المسلمين ، فقط لم يكن بإمكانهم أن يصبحوا ضباطًا ، وهم بالذات لم يرغبوا بذلك . كان من بينهم أطباء عملوا بالجيش . وعدا ذلك ، كانت لهم امتيازات ، لم يحصلوا عليها في أي قطر من أقطار العالم . كان الأرمن هم الشعب المسيحي الذي تقبل الثقافة التركية ، أكثر من غيره . موسيقاهم ، أشعارهم ، مطبخهم ، لباسهم ، أعيادهم وكثير من أعرافهم اقتبست من الأتراك . برز من بينهم ملحنون عظام في الموسيقى الكلاسيكية التركية . فتحت أمامهم أرقى المدارس المتوسطة والعالية ، كذلك قاموا بالتدريس بلغتهم في مدارس الأوقاف

الابتدائية والمتوسطة كما شاءوا ، وتمكن الراغب منهم من الذهاب إلى أوروبا للدراسة العليا . لا يشاهد لدى عبد الحميد الثاني وطلعت باشا اللّذين أعلنا أنهما أكبر عدوين لهم ، أو لدى أي تركي آخر ، أي أثر لكراهية الأرمن واستصغارهم كقوم . تعاونًا مع كثيرين من الأرمن وقدما لهم مناصب عالية . تمكن نواب الأرمن من التكلم في مجلس النواب بجسارة تفوق زملاءهم الأتراك .

غير أن الباب العالي ، لم يظهر التسامح للأرمن الذين يتلقون التعليمات من الخارج ويتسلحون ، ويشكلون جيوشًا شعبية منظمة ويخرجون لقنص المسلمين وقتلهم الجماعي . كان أرمن الأناضول أناسًا متوحشين لم يستفيدوا من الثقافة العثمانية ، مثل أرمن إستانبول . أعمالهم ، كانت من النوع الذي يليق فقط بالمجتمعات المتوحشة جدًا ، نشرت كل الوثائق المتعلقة بهذا الشأن . كانت قد أخمدت حركات التمرد التي قاموا بها في السابق بإشارة من إنكلترا وفرنسا وروسيا . وقد صرفت الجهود والدقة اللازمة لغرض عدم إضرار البريء مع المذنب . وقد روعي عدم المساس بالشخص الذي لا يحمل السلاح . سعوا كثيرًا ضد عبد الحميد ، لعدم سماحه بتأسيس إمارة أرمنية ذات حكم ذاتي علي 6 إيالات من الأناضول الشرقية . سعوا مع الاتحاديين حتي تم إسقاط السلطان عبد الحميد ، ثم انقلبوا عليهم وقاموا بالحركة ضدهم .

شروع الأرمن المتكرر وعمليات القتل الجماعي للأهالي المدنيين بغرض فتحهم الطريق للجيش الروسي الذي استعد للاستيلاء علي مدن الأناضول الشرقية ، مستفيدين من التلف الشديد الذي أصاب الجيش الثالث في حركات صاري قامش ، أجبر عملهم هذا — في أكبر حرب بقاء أو فناء شهده التاريخ — الباب العالي على اتخاذ تدابير أشد وأكثر راديكالية . وبأمر من وزير الداخلية طلعت بك وتصديق الصدر الأعظم سعيد حليم باشا ، تم إبعاد الأرمن الموجودين في الأناضول الشرقية والوسطى البالغ عدده نصف مليون تقريبًا ، عن طريق الجيش الروسي وسيقوا إلى الأقطار الجنوبية من الإمبراطورية . الأماكن التي أرسلوا إليها ، وهي حاليًا سوريا ، لبنان ، الأردن ، العراق ، كانت أكثر رفاهية من الأناضول الشرقية . وهي أقطار الدولة نفسها . جرى « التهجير » (الهجرة الجبرية) في نيسان عام 1915 . هذا الموسم ، هو موسم شتاء في الأناضول الشرقية

ولا يزال كذلك . الأناضول الشرقية ، كانت بدائية في طرقها . كانت الأمراض متفشية بين الشعب والجيش التركي . إعاشة الجيش ، لم تكن منتظمة . وفي مثل هذه الأحوال ، خرج إلي الطريق ما يقارب نصف مليون أرمني مع عملائهم من الأناضول الشرقية متجهين نحو وادي الرافدين ، سورية ولبنان وتحت حماية الجيش . حدثت وفيات بينهم في الطريق ، ولكن حدثت أيضًا وفيات بين الجنود الأتراك مسلمي الأناضول الشرقية الذين يريدون الانتقام لعائلاتهم من الأرمن ، كانوا يندسون بين قوافل الأرمن ويطلقون النار ، وكان الجنود الأتراك يطلقون النار عليهم ويحمون الأرمن . لقد تم إسكان الأرمن في الإيالات العربية خلال عدة أشهر . ولأنهم شعب مجد ونشط ، تمكنوا من المعيشة تحت شروط أحسن مما كانوا يعيشونها في الأناضول الشرقية والوسطى بعد أن لقوا عونًا من الإدارة العثمانية . وقسم كبير منهم هاجر بعد انتهاء الحرب ، إلى فرنسا والولايات الأمريكية والأقطار الأخرى . إن الأرمن الموجودين اليوم في أوروبا وأمريكا ، هم أبناء أرمن الأناضول هؤلاء . ولو كانت حركة 1915 قتلاً جماعيًا وليس تهجيرًا ، كما يدعون ، لما كان هناك أرمن الآن في أوروبا وأمريكا .

يصادف وقت التهجير ، الأيام التي كانت تقوم فيها تركيا بمعركة حياة أو موت في جناقلعه ، نقلت خزينة سراي طوب قابو ، إلي قونية خوفًا عليها من احتلال إستانبول ، رفض البادشاه الذهاب إلي قونية .

وأخيرًا ، يجب ألا يغرب عن البال أن هذا التهجير ، حدث في وقت تجري فيه حرب الشوارع مع عصابات الأرمن المسلحة وتعقب فلولهم .

الحقيقة ، أن إخراج شعب من الأراضي التي عاش فيها عصورًا طويلة ، شيء غير مستحسن أبدًا . لكن الحكومات تكون مضطرة في أوقات الحرب ، إلى أن تتخذ تدابير شديدة تجاه جميع الشعب ، دون تفريق بين قوم وزمرة . لن أتحدث عن دولة كروسيا ، وإنما أكتفي فقط بأن أشير إلى أن معاملة الإنكليز للأيرلنديين في الحرب العالمية الأولى ، والأمريكيين لمواطنيهم اليابانيي الأصل في الحرب العالمية الثانية ، مما كان يقع من هذه الدول معلوم لدى الجميع وبالإمكان سرد أمثلة كثيرة جدًا في هذا المجال . جمعت الولايات الأمريكية المتحدة في ك 2 عام 1942 كل رعاياها الأمريكيي الجنسية

المنحدرين من أصل ياباني ، وأرسلتهم إلى معسكرات التمركز في أريزونا المحاطة بالأسلاك الشائكة والتي يحرسها جنود مجهزون بالرشاشات و لم يخل سبيلهم حتي انتهاء الحرب . إن هؤلاء ، لم يشهروا السلاح تجاه دولتهم كالأرمن . لكن كان هناك مجرد اشتباه في إخلاصهم فحسب . كان هؤلاء يحملون الجنسية الأمريكية وولدوا في أمريكا واعتنقوا الديانة المسيحية ، ينطقون بالإنكليزية ولا يجيدون اليابانية . إن وزارة العدل الأمريكية اعترضت على هذا التهجير ، لكن الرئيس روزفلت أصدر أمر التهجير بناء علي طلب الجيش .

وخلال استمرار الكفاح الوطني ، وقعت كل من جمهورية أرمنستان في روسيا ، وكذلك الاتحاد السوفيتي مع حكومة أنقرة علي معاهدات ، وافقت فيها كل منهن على حدود تركيا الحالية مع أرمنستان وكرجستان . وكانت هذه المعاهدات معتبرة ، في معاهدة لوزان كذلك . من الواضح أن أرمنستان التي فكروا في تأسيسها بمعاهدة سيفر ، والتي لم يصدق عليها البادشاه ورفضتها أنقره بشدة و لم تطبق أبدًا ، إنما أرادت بها الدول الإمبريالية أن تكون أداة في أيديهم لتحقيق رغباتهم والانتقام من الأتراك والمسلمين . رفضت في لوزان .

والمعلوم ، أن العصابات الأرمنية وجمهورية أرمنستان في قفقاسيا التي كانت لفترة من الزمن دولة مستقلة ، كانت قد احتلت ، مرة أخرى بعد الحرب العالمية الأولى نواحي من الأناضول ، اقترفت المظالم نفسها وطارد فلولها الفيلق 15 لكاظم قره بكر ، إلى حدودها الحالية . ثم وقعت المعاهدات التي حصل فيها التطابق على الحدود الحالية مع جمهورية أرمنستان وظهيرها الاتحاد السوفييتي .

13 – عصيان الشريف حسين باشا المسمى « الثورة العربية » :

شك السلطان حميد في إخلاص الشريف حسين باشا الذي كان برتبة وزير . أسكن حسين باشا وأبناؤه في إستانبول مدة ربع قرن ، خلال إدارة السلطان حميد ومنع من الذهاب إلي الحجاز . كان قد كلف بوظائف جيدة . ووفق لسياسة الاتحاد والترقي ، فإن جميع « المنكوبين » في النظام الحميدي ، يعتبرون مقبولين إلي أقصى درجة . ولهذا السبب ، جعل الاتحاديون عند مجيئهم إلي الحكم ، حسين باشا شريفًا علي مكة ،

بينما كان هنالك كثيرون من فروع وأعضاء السلالة الهاشمية .

كان اتصال حسين باشا بإنكلترا – بواسطة المندوب السامي الإنكليزي في القاهرة – ضد الدولة العثمانية ، قبل نشوب الحرب العالمية الأولى . وفي نهاية الاتصالات ، حصل اتفاق مع إنكلترا (30 / 1 / 1916) . ستعترف إنكلترا بحسين باشا بأنه « ملك العرب » . وستكون جميع البلاد العربية ، العراق ، سورية ، فلسطين ضمن حدود هذه الدولة . ترى هل صدّق حسين باشا وأولاده هذه الوعود ، أم تظاهروا بالتصديق ؟ على أساس أنه لا ضير من تحصيل ما يمكن تحصيله ، عمومًا هذا موضوع قابل للمناقشة . أعلن حسين باشا نفسه ملكًا على الحجاز وانفصل عن الدولة العثمانية (7 / 6 / 1916) . وبعد 3 أيام ، انتصر على الحامية التركية الصغيرة في مكة وتمكن من السيطرة على المدينة ، ثم على طائف وجدّة بعد مناوشات صغيرة . كانت الفرقة الموجودة في مكة ، قد انسحبت بسبب الحرب . والي الحجاز العثماني ، لم يتمكن من المقاومة أكثر من ذلك . إلاّ أنه كان يوجد في المدينة ، فيلقًا بقيادة الفريق فخر الدين (توركان) باشا . وهو مرتبط بالجيش الرابع الموجود في الشام . أعلن الملك حسين ، نفسه ملكًا على كل العرب ودعا جميع العرب للقتال « ضد الأتراك » (29 / 10 / 1916) . لكن إنكلترا ، حتى عند استمرار القتال ، اعترفت به « ملكًا للحجاز » فقط (15 / 12 / 1916) ولم تقبل الموافقة على لقب ملك العرب . لم ينبه هذا حسين باشا وأبناءه . لعب العقيد لورنس Lawrence من أفراد الـBis (وكالة المخابرات البريطانية) ، دورًا سيّئًا . ضرب البدو التابعين لحسين باشا ، الجيش العثماني بصورة مستمرة . وفي هذه الأثناء تمكن الإنكليز من الدخول إلى فلسطين بعد أن مدوا سكة حديدية وخط أنابيب ماء في سيناء، ومن ثم استولوا من العثمانية على غزة (21 / 12 / 1916) ، ثم رفح (9 / 1 / 1917) ، ورغم أن الإنكليز خسروا معركتي غزة : الأولى (26 - 27 / 3 / 1917) والثانية (17 - 19 / 19 / 1917) نظموا جيشهم وبدأوا بالتقدم في فلسطين ، بعد تسلم اللورد اللنبي Lord Allenby القيادة (28 / 6 / 1917) . ضرب قوات حسين باشا الأتراك بصورة مستمرة ، في وضع كهذا ، مزّق الوحدة الإسلامية وأخزاها ، وفرّق بين شعبي العالم الإسلامي الكبيرين لسنوات طويلة . إلاّ أن الفاجعة التي سبّبت برود تركية تجاه العرب وجعلتها تجيب بالرد على طلب سورية المساعدة في كفاحها ضد الفرنسيين هي :

عندما استولت القوات الإنكليزية ـ الفرنسية علي الشام من العثمانية (2 / 10 / 1918) ، أخذت الوحدات التركية المنهزمة تنسحب نحو الشمال . حاصر فيصل ، أحد أبناء الملك حسين ونائب جدّه في المجلس العثماني ، قسمًا من الوحدات التركية في أحد الوديان في الشام . كان بعض الجنود العثمانيين الفارين ، بدون سلاح . مضت أيام ، لم يذوقوا فيها الطعام ، ولاالمنام . استشهد عدد كبير جدًا من الضباط والجنود العثمانيين . ومن المؤكد أن هذه الواقعة الدموية القذرة ، كانت نتيجة تحريض إنكليزي ـ فرنسي . إذ لا نفع فيها للعرب . الجيش العثماني ، كان يترك سوريا .

الشام التي سقطت في (2 / 10 / 1918) ، بيروت (7 / 10 / 1918) ، حلب (26 / 10 / 1918) ، موصل (12 / 11 / 1918) اللواتي سقطن في فترات متقاربة جدًا ؛ هن مراكز إيالات الإمبراطورية العثمانية . استسلم فخر الدين باشا في المدينة بعد مدة طويلة (13 / 1 / 1919) . دافع عن الروضة المطهرة بشرف . كان عسكريًا متدينًا جدًا . أخلى الشهزاده الفريق الأول عثمان فؤاد ، ليبيا بعد الهدنة . استسلمت كذلك الوحدات العثمانية الموجودة في عسير ويمن ولحج . لم تبق للعثمانية صلة بالأقطار العربية . وافقت تركية في معاهدة لوزان (24 / 7 / 1923) بصورة رسمية ؛ على تركها سورية والعراق ولبنان والأردن وفلسطين ، الحجاز والبلاد العربية واليمن ومصر والسودان وتونس وقبرص .

بقي الأمير عبد العزيز آل سعود في نجد مرتبطًا بالعثمانية حتي 1916 . كان يعلم السياسة الإنكليزية بصورة جيدة للغاية . عقد في 1916 اتفاقية مع إنكلترا على أن يكون أميرًا لنجد . لكنه لم يوافق على حماية انكلترا و لم يشهر السلاح على جيوش الخليفة . أصبح ملكًا على نجد . فور انسحاب العثمانية من هذه الأراضي . ثم استولي على الحجاز كذلك من الملك حسين وأسس المملكة العربية السعودية ، انتقلت من دولة إسلامية إلى دولة إسلامية أخرى ، دون أن تقع تحت طائلة استعمار . والمشهور أن الذي دافع عن الحجاز تجاه السعوديين لحساب الملك حسين ، نقيب تركي وملازم أول تركي .

14 ـ قضية ديوان حرب (مجلس عرفي عسكري) عاليه (1916) :

اتخذ جمال باشا مقره في الشام كقائد للجيش الرابع وبصلاحيات مطلقة . كان صاحب صلاحية مطلقة في كامل أراضي دول سورية ولبنان وإسرائيل والأردن الحالية وفي الحجاز . كان ولاة إيالات حلب وشام وبيروت حجاز ومتصرف القدس ويتسلمون الأوامر من جمال باشا . ألغي لواء دير القمر الصغير الكائن في جبال لبنان والمستقل ذاتيًا . وضع اليد علي أرشيف القنصلية الفرنسية العامة في الشام وأخذ في دراسة الوثائق السرّية . اكتشف بدهشة أن الكثير من رجال الدولة العثمانية الذين هم من الطبقة السورية الراقية ، اسسوا علاقات ، منذ سنوات عديدة ، مع إنكلترا وفرنسا بوجه خاص ، ضد العثمانية وأخذوا منهم المساعدات . قّدم رجال الدولة العثمانية هؤلاء السوريين إلي المجلس العرفي العسكري (بالعثمانية ديوان حرب عرفي) الذي شكلوه في الضاحية الجميلة لبيروت ، عاليه .

توجد في الكتاب المسمي ، **علّية ديوان حرب عرفيسنده تدقيق أولونان مسألة سياسية حقنده إيضاحات ، دوردونجي أوردوي همايون طرفندن نشر ايدلمشدر ، در سعادات 1332** ، نسخ مصورة باللغات الفرنسية ، التركية ، العربية لوثائق كثيرة جدًا . وثائق كاملة لخيانة دولة . يشاهد بوضوح أن الأشراف السوريين الذين تزعمهم محمد شفيق مؤيّد بك آل العظم(*) (1861 – 1916) ، اتفقوا مع فرنسا . طمح شفيق بك ، في أن يكون أميرًا علي سوريا . كلفت فرنسا ، وقتئذ كيجه جي - زاده فؤاد باشا ، وفي 1914 جمال باشا ، أن يكونا خديوًا على سوريا . رفض كل من فؤاد باشا بإباء ، وجمال باشا بازدراء ، والمعلوم أن كليهما صديق لفرنسا وقريب جدًا إلى الثقافة الفرنسية . من الواضح أن فرنسا تريد أن تصنع باي تونس آخر في شرق البحر الأبيض ، وعمومًا فقد نالت قصدها في نهاية الحرب . وفي ضوء ما تقدم ، فإن رأي سوريا الرسمي

(*) إن مؤلف هذا الكتاب من آل العظم من جهة الأم ، وشفيق بك الذي أعدم ، هو قريب المؤلف . جد المؤلف لأمه هو محمد جميل بك آل العظم (إستانبول 1868 – شام 1933) له مؤلفات عديدة عربية وتركية ، حصل علي رتبة ملازم من السلطان عزيز ، عندما كان في سن السابعة من عمره .

الذي يعتبر الذين حوكموا في عاليه مجاهدي الدولة العربية والدولة السورية المستقلين ، رأي غير صحيح . يا ترى ، هل الاستقلال الذي لم يتمكن من تأمينه سلطان فاس بهيبته التي تعود إلي 10 عصنور مضت تجاه الفرنسيين ، سيتمكن من تأمينه أحفاد كميك أوغوللري (بالعربية : آل العظم) بكوات التركمان الذين هاجروا في أواخر العصر 17 من قونيه إلي معّره ، والذين ليس لديهم تاريخ عدا أنهم شغلوا منصب ولاة عثمانيين لمدة طويلة ؟ هل سيتمكن آل العظم باعتبارهم أعلى أشراف سورية ، من تأمين ذلك ؟ هل سيعامل الاستعماريون الفرنسيون ، شفيق بك ، في حالة فصلهم إيّاه من الاتحاد العثماني معاملة متميّزة عما عوملت به السلالات ذات الأصل التركي كآل قاولالي في مصر من قبل الإنكليز ، والحسينيين في تونس من قبل الفرنسيين ؟ .

من هو شفيق بك ؟ هو الابن العاشر لأحمد مؤيد باشا (1800 – 1888) آل العظم وعم صادق مؤيّد باشا (1858 – 1910) العظم ، رغم أنه يصغره بـ 3سنوات . خدم السلطان عبد الحميد 8 سنوات كمترجم في المابين وصار مقربًا له . حصل من البادشاه علي رتبة بالا (رتبة مدنية تعادل رتبة فريق أول) ، وعلى وسام العثماني الأول ، ووسام المجيدي الأول . انفصل عن سراي يبلدز في 1908 ، لكنه دخل في العام نفسه ، مجلس النواب العثماني كنائب للشام وانتخب لدورتين أخريين . عند إعدامه ، كان لا يزال نائبًا للشام . ابن أخيه ، صادق مؤيد باشا ، تخرج في المدرسة الحربية في إستانبول ، كان مرافقًا حربيًا للسلطان حميد ، استعمله في أشد الأعمال سرّية . كان فريقًا أوّل عثمانيًا ومنح كذلك أوسمة العثماني الأول والمجيدي الأول ، هو من الجنرالات الذين قرر السلطان حميد قبل سقوطه بقليل ، ترقيتهم إلي رتبة مشير ، لكنه لم يسعفه الوقت . زوجة شفيق بك ، كانت أرملة الصدر الأعظم جواد باشا . 3 من بنات شفيق بك الـ 4 تزوجن بشبان أتراك من إستانبول . لا يزال أولادهم يعيشون في استانبول . إن شخصًا كهذا ، يسعى للقومية العربية ، شيء يصعب تصديقه . ابن شفيق بك ، واثق مؤيد بك (1880 – 1941) وكيل المندوب فوق العادة للدولة العثمانية في بلغاريا عام 1908 . وفي 1914 ، صار سفيرًا فوق العادة لمدريد . غضب لإعدام والده وتجنّس بالجنسية السورية عام 1919 ، وصار واليًا علي الشام في سوريا ،

وناظرًا للداخلية والمواصلات .

وبناء على قرارات مجلس عاليه العرفي العسكري ، أعدم 20 سوريا ، نصفهم في بيروت والنصف الآخر في الشام أمام الشعب (6 / 5 / 1916) . كان من بين من أعدموا ، أبناء وأحفاد المجاهد الجزائري الكبير الأمير عبد القادر . أكرمت الدولة العثمانية هؤلاء كثيرًا وأسكنتهم في الشام وفي 1916 ، كانت سن علي باشا ، ابن الأمير عبد القادر ، 56 عامًا . منحه السلطان حميد الباشوية . جعله الاتحاديون وكيلاً لرئيس مجلس النواب (المبعوثان) . كتب جمال باشا في مذكراته أن هذا كان ضمن شبكة الخيانة ، وأن مكاتباته مع فرنسا موجودة لديه ، لكنه عفا عنه بسبب عدم رغبته في نكبة عائلة أمير إسلامي بطل كعبد القادر .

إن آل العظم ، هي إحدى عائلات الوزراء العثمانية النموذجية التي قدّمت للدولة العثمانية 25 وزيرًا و 100 باشا تقريبًا . إن عظم – زاده (من عائلة عظم) أسعد باشا – زاده عبد القادر بك (1882 – 1962) ، صهر شفيق بك ، عين متصرفًا (محافظ ولاية) على جناقلعة بعد إعدام والد زوجته . كان متخرجًا في المدرسة الملكية (العلوم السياسية) . وعظم – زاده علي باشا – زاده محمد فوزي باشا (1858 – 1920) هو الشخص الذي جعله السلطان مديرًا لمجلس إدارة سكك حديد الحجاز برتبة الباشوية ، وصار نائبًا عثمانيًا من عام 1911 إلي 1920 . اشترك في وزارة الغازي أحمد مختار باشا ، كناظر للأوقاف ، وقام بوظيفة النائب الأول لرئيس مجلس النواب . ابنه خالد بك ، صار رئيسًا للوزراء في سورية أربع مرات . عابد – زاده عرب أحمد عزت حلو باشا (1850 – 1924) صهر لآل العظم وهو أصلاً من بكوات الأكراد ، كان كاتبًا ثانيًا للمابين (البلاط) في الـ 13 سنة الأخيرة للسلطان عبد الحميد . كان بمرتبة وزير وحاملاً لأعلى 4 أوسمة من أوسمة الإمبراطورية .

كيف يخون بعض من أفراد عائلة كهذه ، دولتهم أثناء استمرار الحرب ؟ إن وراء هذه القضية ، جمعية التشبث الشخصي وعدم المركزية التي أسسها عميل BIS (وكالة المخابرات الإنكليزية) ، سلطان – زاده حقي بك (1860 – 1955) (الذي صار بعد ذلك رئيسًا للوزارة في سوريا ورئيسًا للمجلس مرتين) ، شعبة القاهرة لجمعية الأمير

صباح الدين هذه باسم « لا مركزية » . حكم عليه بالإعدام في مجلس عاليه العرفي العسكري ، لكنه هرب إلى القاهرة ونجا . وصار مساعدًا في علاقات شفيق بك – الذى يستند علي فرنسا – مع انكلترا . إن هذه الفعاليات بدأت في أواخر سني السلطان حميد وتكّثفت في 1908 . بينما كان الاتحاد والترقي ، حتى كارثة البلقان في 1913 ، ينتهج سياسة « اتحاد العناصر » فإنه بدأ يبدل هذه السياسة في 1913 بسياسة القومية التركية . وبناء على ذلك ، وبسبب بدء العلاقات السرية مع فرنسا وانكلترا قبل هذا التاريخ ؛ فإن ادعاء بأن مناداتهم بالقومية العربية كان بسبب أن الاتحاد والترقي نادي بالقومية التركية ، يعد غير صحيح تحت ظروف تلك السنين . كانت هنالك دولة إسلامية ، وكانت هذه الدولة ، هي الإمبراطورية العثمانية. أعطي الاتحاديون ، لمحمود شوكت باشا وسعيد حليم باشا المعروفين بأنهما من أصل عربي أعلى منصب في الدولة ، أعطوهما الصدارة . لم يبدر من الاتحاديين ، أي شعور بعدم الاحترام تجاه العروبة ، القوم العربي ، شعبه ، دينه ، ثقافته . هم فقط ، لم يتمكنوا من إدارة الدولة والسياسة كالسلطان عبد الحميد . لقد ولدت عدم كفاءتهم ، أضرارًا وكوارث كبيرة ، لكن القدر الأكبر من هذه الكوارث لم يصب رعايا الإمبراطورية العرب بالأصل ، بل أصاب مواطنيهم الأتراك . الاتحاديون لم يتمكنوا من إدراك التوازن الخارق للعادة لسياسة عبد الحميد الثاني في الاتحاد الإسلامي – الاتحاد التركي – الاتحاد العثماني التي تبدو وكأنها غير متوافقة إذا لم ينظر إليها من نقاط الاتفاق وليس من نقاط التناقض بالنسبة إلي عبد الحميد الثاني ، فإن الشعور القومي للشعوب الإسلامية ، كان مفيدًا للإسلام ، شرط ألا يضر بالاتحاد الإسلامي . إذ أن الأقوام التي ليس لديها شعور قومي ، كانت قد سّيرت الدين الإسلامي دين مستعمرات . الأقوام الحّية ، كان بإمكانها أن تكسب الإسلام عظمته السابقة . هكذا فهم السلطان حميد القضية وهكذا وضعها في إطار أن الشعور القومي فقط ، هو الذي بقي على قيد الحياة كقدرة سياسية حقيقية للإسلام في ذلك العصر ويجب الاّ يكون هذا الشعور عاملاً لإضعاف الدولة العثمانية التي تتولي الخلافة الإسلامية . كأن يفهم أن الواجب أن يكونوا قوميين تجاه أوروبا ، أما إيقاد الشعور القومي ، بتحريك من الدول الأوروبية ، فقد كان هذا ، هو أشد ما يثير نفور السلطان حميد ؛ فالأوروبيون لن يستحسنوا الشعور القومي في أي قطر إسلامي ، لكنهم

سوف يستغلونه لمآربهم .

والواقع أن الحركة القومية في الشعوب الإسلامية ، المضادة للعثمانية ، والمضادة للوحدة الإسلامية ، والمسايرة لرغبات الدول الاستعمارية ، بدأت في دور عبد الحميد الثاني . بدأت بين الألبان والعرب ، حقيقة ، إنها كانت وقائع فردية وحصيلة محاولات أفراد ، لكنها كانت موجودة . وبناء على ذلك ، فإن الذين قدّموا إلى مجلس عاليه العرفي العسكري ، هم أيضاً ، كالذين اتبعوا حسين باشا ؛ سلكوا هذا الطريق نتيجة سياسة الاتحاديين السقيمة ، وقد كان ادعاء أخذهم الدراهم من إنكلترا وفرنسا ، ادعاء كاذبًا .

ومما لا شك فيه ، أن للمسألة وجهة أخرى وهي وجهة جمال باشا . إذ إنه حتى علي فؤاد بك (أردن باشا) الذي كان وقتئذ رئيسًا لأركان جيش جمال باشا وارتقى بعدها إلي رتبة فريق أول ، يتهم قائده بالضغط على محكمة عاليه والتأثير عليها بأوامره لإصدار أحكام بالإعدام لا داعى لها . أما فالح رفقي آتاي ، الأديب والصحفي التركي الشهير الذي كان يقوم بوظيفة ضابط خدمة لجمال باشا ، فإنه يدافع عن الباشا بقوله إن الذين أعدموا هم عملاء أجراء للدول الأجنبية . موظفون كبار ، خانوا الدولة لمصالحهم الشخصية . أي الرأيين هو الصائب ؟ يجوز الدفاع عن كليهما . لأنهما مسألة اجتهاد في سياسة الحرب . جمال باشا ، كان عسكريًا شديدًا . وهولم يسع لأحكام إعدام لعداء نحو العرب ، فجمال باشا نفسه ، ألف قبل 7 سنوات في أدنه مجلسًا عرفيًا عسكريًا أعدم فيه الكثير من أشراف أدنه بتهمة قتلهم الأرمن بلا داع ، في الوقت الذي كان فيه الأرمن يقومون بعصيان مسلح . إذن ، فإن الادعاء القائل بأن جمال باشا عمل ذلك لعداء نحو العرب ليس صحيحًا بأي حال من الأحوال . من الواضح أنه استهدف بذلك سياسة الشدة خلال الحرب للحيلولة دون ظهور حركات داخلية مماثلة . وإذا كان القرار الذي اتخذه غير صائب وغير سياسي وظالما ، فمسئوليته تعود إلى جمال باشا . كان الصدر الأعظم سعيد حليم باشا ، قد أعلم جمال باشا ، بأن خيانة الذين قدموا إلى المحكمة ثابتة ، وأنه لا يعترض على ذلك ، لكن يجب ألا يصدر أحكام إعدام ، ويكتفي بوضعهم في بيوتهم تحت المراقبة ، وفي عكس ذلك ، فإنه سيتيح لإنكلترا وفرنسا الدعاية بأن ذلك نتيجة ظلم الأتراك تجاه العرب . وهذا ما حدث

بالفعل . لأن إدارة الدولة لم تكن بيد مرجعها الطبيعي الصدر الأعظم ، كانت بيد الثلاثي . أقنع جمال باشا ، عضوي الثلاثي الآخرين أنور باشا وناظر الداخلية طلعت بك ونفذ الإعدام . كان الثلاثي الذي جرد الخاقان - الخليفة والبرلمان الصدر الأعظم والحكومة من صلاحياتهم ، قد كبّد الدولة والأتراك أضرارًا كبيرة جدًا . ويقع الآن على العرب نصيبهم من هذا الضرر . هذا هو التحليل الصحيح وغير المنحاز . وإضافة إلى ذلك أن جعل هذه المسألة مسألة عداء عربي - تركي ، هوخطأ تاريخي ، فإن هذه هي بعينها النظرة الاستعمارية الرسمية التي لقنتها فرنسا لسوريا . من الواضح أن آل العظم ، لم يلقوا في دور المشروطية ، العطف والإكرام - الذي ذكر قسم منه آنفًا - الذي لقوه من عبد الحميد الثاني . لكنهم صاروا كذلك نوابًا ونظّارًا . إن فعالياتهم ضد دولتهم بسبب فقدانهم العطف السابق ، هو بلا شك ، ليس أكثر من قضية حساب شخصي ولا تسمح أية دولة بذلك . وعمومًا ، فإن الذين كانوا ينصبون شراكهم في عهد السلطان حميد ، على معارضي هذا النظام ، حاولوا التقرب في دور المشروطية إلى الذين حرموا من نعم النظام السابق . إن فعاليات المكتب الفرنسي الثاني ، أصبحت عالمية كفعاليات (British Intelligence Serivice) .

وأخيرًا ، صارت الأقطار العربية التي كانت أقسامًا من الإمبراطورية العثمانية متساوية الحقوق وأقطارًا عربية مستعمرة . لم تكن في الدولة العثمانية تفرقة الوطن الأم - مستعمرة كما هي الحال في الدول الاستعمارية . ولو كان كذلك ، لكانت الامبراطورية أكثر مقاومة ، وأطول عمرًا وأكبر اتساعًا ولما تلف العنصر التركي إلى هذه الدرجة . إن دعايات الدول الاستعمارية للأقوام التي تجهل التاريخ ، حول معيشتهم حياة استعمار في الإمبراطورية العثمانية ، مضحكة وباطلة . ومع الأسف ، إنها خدعت أقوامًا كثيرة ، وأقطارًا كثيرة انفصلت عن العثمانية ومزقت الاتحاد الإسلامي إربًا إربًا . وهذه كانت الغاية . كان تركيز هذه الدول في الأقطار المنفصلة عن العثمانية على الشعور بالنقص ، واتهامها إياهم بأنهم استعمروا هذه الأقطار لعصور طويلة إنما لكي تبرر استعمارها هي ، وبالإضافة إلى ذلك فإنها كانت تريد وقف الأتراك الشعب العسكري المسلم وذلك ببذر بذور العداء ضد الأتراك .

ورغم هذه الحقائق ، فإن مناقشة مسئولية ضغط جمال باشا ، في مجلس عاليه العرفي

العسكري — على الحكام العسكريين الذين أرادوا إصدار حكم بإعدام 4 أو 5 أشخاص وإصدار أحكام دون ذلك على الآخرين ، وحصوله على 20 قرارا بحكم الإعدام وتنفيذه الحكم فيهم جميعًا — مفتوحة . إن الحقيقة التاريخية الناصعة ، إلى الدرجة التي لا يدور حولها نقاش هي ، عرض هذه الحادثة القبيحة ، وإظهارها كأنها مظالم الأتراك تجاه العرب .

15 – موقع الحرب العالمية الأولى في التاريخ العالمي :

لتوضيح ما نراه من أن الحرب العالمية الأولى هي أهم حادثة في تاريخ العالم كله . نقول إن الحرب العالمية الثانية . كانت أكثر دموية وقد أسفرت عن مخترعات كالذرة وجلبت النظام الشيوعي إلى قسم مهم من العالم وأمنت استقلال أقطار كثيرة جدًا . إلاّ إن التجديدات التي أحدثتها في النظام العالمي ليست أكثر مما أحدثته الحرب العالمية الأولى .

إن المحدثات التي أحدثتها في المجال العسكري ، والحرب والانقلابات ، خارج نطاق موضوعنا . الذي يهمنا أساسًا هو المعطيات في المجال السياسي والاجتماعي ، وفي هذا الصدد فإننا نشير إلى النقاط التالية .

كان النظام العالمي السائد حتى 1918 ، هو نظام السلطنة والملكية . كانت الجمهورية ، نظام قارة لا ماضي لها كأمريكا . حيث إن بقية الدولة في قارة أمريكا ، إذا استثنينا الدول المتحدة التي أسست عام 1776 ، — تشكلت جميعها في العصر 19 . كانت الجمهورية الحقيقية في أوروبا ، هي سويسرا فقط ؛ استتب نظام الجمهورية في فرنسا بصعوبة ، وكان له كثير من المعارضين . الجمهورية كانت مجهولة في آسيا . في الواقع ، شوهد إعلان الجمهورية في البرتغال والصين في السنوات التي سبقت الحرب العالمية ، لكنها كانت حوادث عارضة . أما في 1918 ، فقد انقرضت سلالات عظيمة جدًا ، تاريخها يشكل التاريخ الكلّي للدول التي كان يعتقد أنها لن تنهار : بنو عثمان في تركيا ، عائلة Hohenzollern في ألمانيا . عائلة Habsburg في النمسا و عائلة Romanov في روسيا . ومن بين الدول المغلوبة ، تمكنت الدولة المحلية بلغاريا فقط ، من الحفاظ على الملكية . عملت الدول الغالبة ما أمكنها للإقلال من شأن الملكية لدى الدول المغلوبة . كانوا يظنون ، أنهم بذلك سيتمكنون من قطع علاقة تلك الدولة بالتاريخ ،

وسيمكنهم إضعافها ، لكنهم بهذا أوقدوا الشعور بقوميتهم . وهيئوا ــ دون رغبة منهم ــ الوسط الملائم لظهور دول أقوى شعورًا بالقومية ، أقوى وطنية ، أكثر تجانسًا ، أكثر مركزية في الحكم .

إن الفترة خلال الحربين (1918 – 1939) تشكل الذروة في الدكتاتورية الشخصية في العالم . من الصحيح أن الدول المرتبطة بالديمقراطية ، إنكلترا ، فرنسا ، إيطاليا ، أمريكا ، كسبت الحرب ، لكنهم لم يتمكنوا من نشر الديمقراطية ، النظام الأقل من حيث المحاذير الذي عثرت عليه الإنسانية حتى يومنا هذا . الديمقراطية ، أصبحت كنظام محلّي للدول الغربية . الحقيقة أن حب الديمقراطية لم ينطفيء . لكنه لم يتطور إلى المدى المنتظر . فشلت تجارب الديمقراطية في دول كألمانيا ، إيطاليا ، أسبانيا . وولدت دكتاتوريات قاسية عدوة للشيوعية والديمقراطية في نفس الوقت . إن قطرًا كألمانيا ، يعيش فيه أرقى مجتمع في العالم ثقافة وصناعة ، انتقل إلى سيطرة شخص واحد بشكل لا يصدق . إن هذه الإدارات الشخصية ، كانت دموية ودموية جدًا في ألمانيا وفي روسيا . على وجه الخصوص . أسبانيا سقطت بشكل لا يصدق في مستنقع حرب أخرى خلال العصر 20 ، بسبب رغبة الشيوعية في وضع يدها عليها . وفي روسيا ، عرض لينين وخلفه ستالين ، نظامها ، كدولة شيوعية وحيدة في العالم . أما دكتاتوريو اليمين ، فكانوا كثيرين جدًا . نبعوا تقريبًا في كل قطر لا ديمقراطية فيه . السلطة ، انحصرت في شخص واحد بشكل لم يسبق أن شهده تاريخ العالم أبدًا . إن بعض هؤلاء ، سفكوا الدماء بشكل لا يمكن أن يتخيله أكبر مستبد يمكن أن يخطر على البال في التاريخ .

بناء على ذلك ، فالحرب العالمية الأولى لم تقم بحل أي شيء . وبقيت كمحاولة انتحارية للمدنية الأوروبية . وفي المحاولة الثانية ، كانت القارة قد فقدت ثقلها الذي دام عصرين .

كانت انكلترا هي المنتصرة عالميًا في الحرب . وضعت يدها مجددًا على أقطار كبيرة . امتدت إلى ساحات واسعة (الإمبراطورية في (1925) بلغت 158 956 34 كم^2 ونفوسها 000 345 481 نسمة. (فرنسا كذلك استعمرت (353 530 12 كم^2 و 000 852 99 نسمة) . تقلصت ألمانيا (284 471 كم^2 و 000 367 63 نسمة) . الولايات الأمريكية المتحدة ،

أصبحت دولة رفاهية (253 700 9 كم² و 000 214 127 نسمة) اتسعت اليابان (682 258 كم² و 000 846 84 نسمة) . تقلصت روسيا 400 087 22 كم² و 000 493 145 نسمة) . وصلت إيطاليا إلى حدودها الطبيعية (302 698 2 كم² و 000 512 42 نسمة) . أصبحت الصين نصف مستعمرة لليابان (776 957 9 كم² و000 212 447 نسمة) . البرازيل (844 513 8 كم² و 000 871 34 نسمة) ، والدول كأسبانيا (565 836 كم² و000 717 23 نسمة) ، وهولندا (530 080 2 كم² و 000 530 58 نسمة) ، وبولونيا (930 388 كم² و 000 177 27 نسمة) حاولت أن يكون لها دور مع الدول العظمى .

صعد الاستعمار إلى قمته . الدول المستقلة الوحيدة في أفريقيا ، كانت ليبيا . الدول الآسيوية كانت ، تركيا وإيران والأفغان والصين واليابان وسيام ، العربية السعودية ، اليمن . وقسم منها (مثل الصين والأفغان) لم يكن قد تخلص تمامًا من سيطرة الاستعماريين ؛ ويمكن إضافة مصر إلى هذه الدول . كانت فترة حكم الدول الأوروبية لأفريقيا وآسيا .

استبدلت الثروة مالكيها . القسم الأعظم من العائلات القديمة ، فقد ثروته . انتقلت هذه الثروات إلى أيادي أشخاص جدد . وبانهيار أنظمة يعود تاريخها إلى عصور ، حدثت تغييرات كبيرة في العرف والعادات والأخلاق . ترك قسم كبير من التراث والعادات ، بل وضعف الشعور الديني . وبناء على ذلك يكون وصف ، كيسنجر Kissinger للحرب العالمية الأولى بقوله « أكبر جناية ، أكبر ذنب إنساني قضى على التوازن والتناسق الدولي» وصفًا في محله.

العثمانية ، أدخلت رأسها في هذا الجحيم دون دراية . شهدت الأناضول الاستيلاء لأول مرة منذ 700 عام (استيلاء تيمور ، هو استيلاء قوم مسلم تركي آخر) ولأنها كانت بمثابة مانعة الصواعق للإسلام ، تفيّأت أوروبا بما تملك من سموم حقدها على تركيا وكانت إنكلترا في المقدمة في هذا الشأن . تلفظ اللورد اللنبي Lord Allenby ، عند احتلاله القدس من الأتراك ، هذه الجملة التاريخية : « اختتمت الحروب الصليبية اليوم بالنصر » إن إنكلترا التي كانت في حينها تصر على أن الدولة العثمانية عنصر لا يستغني عنه من عناصر التوازن في أوروبا ، أطالت الحرب لسنتين أخريين في محاولتها لإفناء

العثمانية ، وتكبدت خسائر يصعب تلافيها . هكذا يكتب Lawrence of Arabia Richard Aldongton ، لندن 1955 ، ص 138 : Aldongton ، لندن With conciderable » 138 aid From the Russions and some from the French, the British Government expended 750.000.000 pounds, passed welle over a million troops in all through that war area, and took four years to defeat this « very very siok » Turkey »

وبمساعدة الروس وأيضًا الفرنسيين ، ساقت الحكومة الإنكليزية تجاه تركية فقط أكثر من مليون جندي ، وللانتصار على تركيا التي قيل عنها إنها مريضة إلى هذا الحد ، حاربت 4 سنوات وصرفت 750 مليون جنيه (ذهب) (استرليني) .ويفيد (World History William Langer ، لندن 1948 ، ص 951 ب) ، إن المصروفات العسكرية في الحرب العالمية الأولى بلغت 332 مليار دولار ذهبي ، والأضرار التي حصلت والثروات التي فقدت ، لا يمكن حسابها .

16 – وفاة السلطان محمد رشاد خان الخامس (4 / 7 / 1918) :

توفي السلطان رشاد ، بعد وفاة أخيه الكبير عبد الحميد الثاني بـ 4 أشهر ، و 23 يومًا (4 / 7 / 1918) . في الأشهر الأخيرة للحرب العالمية . كانت سنّه تتجاوز الـ 73 عامًا بـ 8 أشهر ويوم واحد . عاش أقل من أخيه الكبير بسنتين . دفن في أيوب سلطان في قبره المشيد من المرمر . دامت سلطنته 9 سنوات وشهرين و6 أيام . له 3 أبناء فقط ، عدا ابنته رفيعة التي توفيت في اليوم نفسه من عام 1888 :

1 – محمد ضياء الدين أفندي (26 / 8 / 1873 – 30 / 1 / 1938) : كان ولي العهد الثاني عند تركه تركية (1924) . وفي الـ 9 أشهر الأخيرة له ، كان الرئيس الثاني للسلالة . طبيب أخصائي في الأمراض الجلدية ، عازف علي القانون ، ملحن متخرج في المدرسة الطبية والحربية ، كانت رتبته فريق أول ، أولاده : ١ – السلطانة بهيّة (8 / 11 / 1900 – 1950) ، زيجاتها حسب التسلسل ، طلقت من داماد الأمير قاوالالي عمر حليم بك أفندي ابن الصدر الأعظم سعيد حليم باشا دون أن يحصل الزفاف ، ثم بزواج عرفي من جمال الدين بك ابن أخي الفريق الأول كرميان أوغلو زلفى إسماعيل باشا ، انفصلت عنه وتزوجت الدكتور داماد حافظ زكي أفندي رئيس أطباء

الملك فؤاد الأول ، ولدت من الثاني ، رشاد بك (1930) ومن الثالث رشيد بك أفندي (1936) . 2 ــ السلطانة درية (3 / 8 / 1905 ــ 15 / 7 / 1922) تزوجت بالسلطان زاده داماد محمد جاهد بك أفندي الذي هو ابن السلطانة نعيمة ابنة السلطان عبد الحميد الثاني وابن غازي عثمان باشا ــ زاده كمال الدين باشا . 3 ــ السلطانة رقيّة (11 / 10 / 1906 ــ 20 / 2 / 1927) ، تزوجت بداماد عبد الباقي إحسان بك أفندي الضابط وابن الفريق الأول عبد الكريم باشا وولدت الخانم ــ سلطان أمل نور جهان (1926) . 4 ــ السلطانة خيرية (16 / 2 / 1908 ــ 5 / 3 / 1943 لم تتزوج . 5 ــ السلطانة لطفيّة (20 / 4 / 1910) ، تزوجت بكمال باشا ــ زاده داماد حسن بك أفندي وولدت أحمد بك أفندي (1933) ، رشاد بك أفندي (1934) ، الخانم ــ سلطان بربزادة (1936) . 6 ــ محمد ناظم أفندي (26 / 10 / 1910 ــ 14 / 11 / 1984) ، أبناء هذا : جنكيز أفندي (1942) ، حسن أفندي (1946) ، ضياء الدين أفندي (1948) 7 ــ عمر فوزى أفندي (13 / 11 / 1912) ، تزوج بمقدّس خانم ــ أفندي من فرع يكنلر من سلالة قاوالايلر . 8 ــ السلطانة مهرماه (2 / 1923) زوجها داماد الأمير نائف بك أفندي (1915) ، أولاده الأمير عاصم بك أفندي والأمير علي بك أفندي ؛ الأمير نايف ، ابن مالك الأردن عبد الله .

2 ــ محمود نجم الدين أفندي (23 / 6 / 1878 ــ 27 / 6 / 1913) : عند وفاته في عهد سلطنة أبيه ، كان الوريث الـ 11 للعرش ، لم يتزوج .

3 ــ عمر حلمي أفندي (2 / 3 / 1886 ــ 2 / 11 / 1935) : ابنته ، هي السلطانة أمينة مقبلة (30 / 12 / 1911) وابنه هو محمود نامق أفندي (25 / 2 / 1914 ــ 1965) . السلطانة مقبلة تزوجت علي واصب أفندي ، رئيس بني عثمان منذ عام 1978 (انظر فصل عائلة مراد الخامس) . نامق أفندي ، تزوج شهرزاد خانم ــ أفندي وهي ابنة أميرة من عائلة قاوالالي . أولاده شهرزاده عبد العزيز عمر أفندي (ك 1 / 1941) .

17 ــ جلوس السلطان محمد وحيد الدين السادس (1918/7/4) :

هو أصغر أبناء السلطان عبد الحميد الذي اعتلى العرش بلقب « محمد السادس » والذي يسميه الشعب « السلطان وحيد الدين » . عند جلوس السلطان رشاد علي العرش ، كان يوسف عز الدين أفندي الابن الأكبر للسلطان عزيز وليا للعهد ، استمرت ولايته للعهد 6 سنوات و 9 أشهر و 4 أيام . قتل بسبب انتقاداته المستمرة حول

استعمال الجيش التركي في الجبهات المختلفة ، والتفريط في الجيش خارج القواعد العسكرية الوطنية ، وأيضا إلقائه المسئولية علي مدحت باشا وعدم اكتراثه بالتنبيهات ، تم تصوير قتله علي أنه انتحار ، واعتبرت المسألة منتهية بهدوء خلال الحرب (1 / 2 / 1916 . صار ولي العهد بدلاً منه ابن عمه وحيد الدين أفندي . ولو استمرت سلطة الاتحاد والترقي ، خلال عهده ، لما كان لهذا البادشاه مستقبل ؛ حيث إنه كان عدوًا كبيرًا للاتحاد والترقي بين بني عثمان وكان مؤمنًا أشد الإيمان بأن هذا الحزب قد هدم الدولة .

والدة السلطان وحيد الدين هي كوليستو (كلستان) قادين أفندي (زوجة السلطان) الرابعة (1831 – آيّار 1861) كانت قد توفيت منذ مدة طويلة ، وهي أيضًا والدة السلطانة مديحة زوجة الصدرالأعظم داماد فريد باشا . جلس السلطان وحيد الدين علي العرش وعمره 57.5 عام بعد سنتين ، 5 أشهر ، ويومين من قيامه بواجب ولاية العهد . كان عازفًا علي البيانو ملحنًا قديرًا في الموسيقي التركية ، حقوقيًا . كان يحمل رتبة ماريشال الإمبراطورية الألمانية ورتبة مشير عثماني . زار ألمانيا والنمسا عندما كان وليًا للعهد ، اشترك في زيارته هذه اللواء مصطفي كمال باشا (أتاتورك) كمرافق فخري ، وعند اعتلائه العرش ، استمر في مرافقته الفخرية . قلّد السلطان وحيد الدين سيف عمر (رضي الله عنه) من قبل الشيخ أحمد الشريف السنوسي ومحمد بهاء الدين ولد (ايزبوداق) جلبي ، بصورة مشتركة .

صدور عظام دور السلطان وحيد الدين هم : محمد طلعت باشا (4 / 2 / 1917) ، أحمد توفيق باشا (11 / 11 / 1918) ، داماد فريد باشا (4 / 3 / 1919) ، علي رضا باشا (2 / 10 / 1919) ، خلوصي صالح باشا (8 / 3 / 1920) ، داماد محمد فريد باشا (5 / 4 / 1920) ، أحمد توفيق باشا (21 / 10 / 1920 – 4 / 11 / 1922) . بقي فريد باشا في السلطة خلال حكوماته الخمس التي ألفها ، مدة 1 سنة ، 1 شهر ، 15 يومًا . أما مجموع صدارات توفيق باشا الأربعة فتبلغ ستين ، 4 أشهر ، 28 يومًا . صار طلعت باشا صدرًا أعظم لمدة سنتين ، 8 أشهر ، 8 أيام وكان هو الصدر الأعظم الأخير للسلطان رشاد والأول للسلطان وحيد الدين .

شيوخ إسلام دور السلطان وحيد الدين وآخر شيوخ إسلام الدولة العثمانية هم موسي كاظم أفندي للمرة الثانية (8 / 5 / 1916) . داغستانلي عمر خلوصي أفندي (14 / 10 / 1918) ، حيدري – زاده إبراهيم أفندي (11 / 11 / 1918) ، مصطفي صبري أفندي (4 / 3 / 1919) ، حيدري – زاده إبراهيم أفندي للمرة الثانية (2 / 10 / 1919) ، درّي – زاده عبد الله أفندي (5 / 4 / 1920) ، مصطفي صبري أفندي للمرة الثانية (31 / 7 / 1920) ، مدني محمد نوري أفندي (26 / 9 / 1920 – 4 / 11 / 1922) . كان مصطفي صبري أفندي ، رئيسًا لحزب الحرية والائتلاف ومعارضًا كبيرًا للاتحاديين . إن (تعيين الائتلافيين ، رجال العلمية المنتسبين للحزب في هذا المنصب الرفيع ، كالاتحاديين ، قد حط من شأن مقام المشيخة بشكل كبير .

تركت الدولة العثمانية الحرب ، بمهادنة Mondros (30 / 10 / 1918) قبل مضي 4 أشهر علي جلوس السلطان وحيد الدين . أثبت الإنكليز ، باحتلالهم مدينة الموصل (4 / 11/ 1918) بعد الهدنة وقبل جفاف حبر الاتفاقية ، بأنهم لن يلتزموا أبدًا بأحكام هذه الاتفاقية . وبموجب الاتفاقية ، فتح مضيق جناقلعه وجاء أسطول حليف إلي استانبول (12 / 11 / 1918) ورست السفن موجهة مدافعها نحو سراي دولمه بقجه ويلدز . بلغ ضغط الإنكليز علي الباب العالي حده الأقصي باحتلال الحلفاء (الإنكليز – الفرنسيين – الإيطاليين) استانبول بشكل بشع ومناف لاتفاق الهدنة (16 / 3 / 1920) ، وبتفريق مجلس النواب بالرماح ونفي نواب كثيرين إلى مالطة . انضم النواب الذين تمكنوا من الهرب إلى الذين انتخبوا حديثًا واجتمعوا في أنقرة بشكل « توركية بيوك ملت مجلسي » (المجلس الوطني التركي الكبير » (23 / 4 / 1920) . انتخبوا مصطفي كمال باشا رئيسًا للمجلس . قام هذا المجلس بإدارة الحرب مع الأرمن في الشرق أولاً والفرنسيين في الجنوب ، ومن ثم مع اليونانيين في الغرب . إن سياسة رئيس وزراء إنكلترا LloydGeorge السقيمة ، كإنزاله جنودا يونانيين في أزمير ، الأمر الذي سبب استمرار تركية في القتال 4 سنوات أخرى بعد الحرب العالمية الأولى . أملى الحلفاء معاهدات الصلح التي أرادوها على ألمانيا المغلوبة والنمسا والمجر وبلغاريا ، وتمكنوا من إجبارهم على قبول شروطهم الصعبة جدا . أما معاهدة سيفر فإنه بالرغم من توقيعها من قبل مفوضين عن العثمانية ، فإن البادشاه لم يوقع عليها . وعند عدم تصديق البادشاه عليها ، امتنعت عن تصديقها مجالس رؤساء دول ، الدول الحليفة . المجلس الوطني التركي كذلك ، لم يصادق ، وأساسا ، فإن السلطة الحقيقية في تركيا والجيش منذ 1920 ، كانت تحت إدارة أنقرة . لم يتمكنوا

من إجبار استانبول وأنقره علي قبول معاهدة سيفر ، رغم تعديلهم بعض بنودها . بقيت معاهدة سيفر كوثيقة تاريخية ، لم تطبق في أي وقت من الأوقات ، شاهدة علي ما يمكن أن تحكم به الدول الإمبريالية الأوروبية علي الدول المغلوبة وبخاصة إن كان هذا المغلوب مسلمًا وعلي وجه أخص إذا كان تركيًا .

18 - إلغاء السلطنة (1 / 11 / 1922) :

المغلوب الوحيد الذي لم تتمكن الدول الغالبة ، في نهاية الحرب العالمية الأولي ، من إجباره علي قبول معاهدة ، كان تركية . وقد سجل التاريخ أن القطر الإسلامي الوحيد الذي لم يذق طعم الاستعمار في أي وقت من الأوقات خلال تاريخه ، هو تركيا أيضًا .

ألغى المجلس الوطني التركي الكبير ، السلطنة (1 / 11 / 1922) . إن فكرة عدم إمكان عقد الصلح بأقل ضرر ممكن ، إلاً بتأسيس علاقات حسنة مع المنتصر الأول في العالم ، إنجلترا. إنما ألقاها في روع السلطان وحيد الدين ، زوج أخته ، الوزير عديم العقل داماد فريد باشا ؛ أصبحت هذه الفكرة عقيما علي إثر نجاح حكومة أنقره ، وإلقاء الأعداء في أزمير في البحر (9 / 9 / 1922) . لم يعترض المجلس الوطني، حتى هذا التاريخ ، على صفات البادشاه - الخليفة ، ورفع شعار إنقاذ الخاقان من إسار العدو ، كأحد أهداف الكفاح الوطني . لكن القائد العام المنتصر المشير الغازي مصطفى كمال باشا ، كان يريد الجمهورية . اعترض رئيس الوزراء رءوف (أورباي) بك ، لأسباب هي : إن حدوث الصراع السياسي في مقام عال كرئاسة الدولة ، أمر مضر . من الطبيعي أن يكون رئيس الجمهورية عضوًا أو مؤيدًا لحزب . أما الحاكم فليس كذلك ، فهوحيادي تام ، إذ إنه ليس بحاجة لمساندة أي حزب لأجل انتخابه . وعدا ذلك ، فإن الشعب التركي ، يؤمن فقط بمقام أو شخص سام جدًا ، في القضايا ذات الخطورة البالغة . ويحتمل ألا يتمكن رؤساء الجمهوريات المتعاقبون من توفير هذا الإيمان . ومن المحتمل أيضًا أن يأتي لرئاسة الدولة ، شخص ليس بوسعه تمثيل الشعب بصورة تامة أي من جميع الوجوه . ومن المؤكد أن السد المنيع لنظام اليسار المتطرف والأخطار ، هو النظام الملكي والسلطاني ، لا توجد ملكية يسارية . لكن وجهة النظر هذه لم تقبل .

وعلى هذا يبقي السلطان وحيد الدينّ بصفته خليفة فقط . وبسبب عدم رضائه عن إسقاط صفة الخاقانية (السلطنة) عنه وكذلك خشية من احتمال تعرضه بعد الآن لإذلال أشد ، ترك استانبول (18 / 11 / 1922) (إن عملية خطف الصحفي الشهير ، أحد نظّار عهد الهدنة ، علي كمال بك قبل فترة وجيزة ، وجلبه إلى أزمير وقيام الشعب بقتله ، تأتي علي رأس التطورات التي أخافت البادشاه) .

دامت سلطنة السلطان وحيد الدين 4 سنوات ، 4 أشهر ، 15 يومًا . كان عمره يناهز الـ 62 عامًا . مر علي مالطة ، حجاز ، مصر وسكن في سان روميو في إيطاليا . عاش بعد مغادرته إستانبول مدة 3 سنوات ، 5 أشهر ، 28 يومًا . أصبح أيضًا رئيسًا للسلالة ، بعد إلغاء الخلافة إلي أن مات بعد سنتين ، 3 أشهر ، 14 يومًا . توفي في سان روميو وسنه تتجاوز الـ 65 عامًا بـ 3 أشهر ، 13 يومًا (16 / 5 / 1926) . نقل جثمانه إلي الشام ودفن في حديقة مسجد ياووز سلطان سليم . كانت له ابنتان ، عدا السلطانة منيرة التي ولدت وماتت عام 1888 ومحمد أرطغرل أفندي الذي توفي دون أن يتزوج .

السلطانة فاطمة علويّة (12 / 9 / 1892 – 25 / 1 / 1967) ، تزوجت أولاً (1916 – 1922) داماد إسماعيل حقي (أوكداي) بك أفندي (1881 – 1977) . طلعت وتزوجت داماد علي حيدر (كرميان لُوغلو) بك أفندي في (1923) ولد من زيجتها الأولى سعادة حميراء خانم ــ سلطان 1917 . إسماعيل حقي بك ، الابن الكبير للصدر الأعظم توفيق باشا ، صار عقيد ركن وقنصلاً عامًا ينحدر من خانات قرم . علي حيدر بك ، هو ابن الفريق الأول زلفي إسماعيل باشا (1857 – 1925) الذي هو ابن حفيد سلاحدار علي باشا (1772 – 1829) أحد صدور أعظم دور محمود الثاني .

البنت الصغرى للسلطان وحيد الدين هي رقيّة صبيحة (1 / 4 / 1894 – 26 / 8 / 1971) . تزوجت (29 / 4 / 1920) بالشهزاده عمر فاروق أفندي (29 / 2 / 1898 – 28 / 3 / 1969) ابن عبد المجيد الثاني ثم طلقت (ك 2 / 1948) . وبشأن بناته السلطانات الـ 3 سيأتي ذكرهن عند الحديث عن أولاد عبد المجيد الثاني .

19 – خلافة عبد المجيد الثاني (18 / 11 / 1922) ونهاية بني عثمان بإلغاء الخلافة (3 / 3 / 1924)

عبد المجيد الثاني ، هو الابن الأوسط للسلطان عبد العزيز (1861 – 1876) .

والدته ، حيران دل قادين أفندي (زوجة السلطان) الثانية (2 / 11 / 1846 – 26 / 11 / 1895) وهي أيضًا والدة السلطانة ناضمة (1866 – 1947) . إن عبد المجيد الثاني الذي صار خليفة بلقب « عبد المجيد أفندي » ، كان وليًا للعهد طوال سلطنة السلطان وحيد الدين . كانت رتبته فريق أول . كان ملحنًا في الموسيقي الغربية ، عازفًا علي البيانو ، عازفًا علي الكمان ، شاعرًا ، خطاطًا ، نحّاتًا ، رسّامًا ومؤلفًا . أكثر بني عثمان تقدمًا في مجال الموسيقي والرسم . له 300 لوحة ، تعد ذات قيمة كبيرة وتعرض في المتاحف . كان قد تعلم بصورة جيدة 6 لغات شرقية وغربية . وفي عهد السلطان حميد ، كان وريث العرش الخامس إلي أن بلغت سنه الـ 37 عامًا . انشغل بهذه الأعمال ، لأن الشهزادات (أبناء السلاطين) كانوا تحت ضبط صارم . وفي عهد المشروطية ، أخذ يتجول بين الشعب ، كما كان يعمل في حينه ابن عمه مراد الخامس . أفرط في هذه الخصوص وزاد عليه أيضًا في هذا الشأن الابن الكبير للسلطان رشاد ، ضياء الدين أفندي . استغرب الشعب . لم تنشر مذكراته المخطوطة والتي تكون 12 مجلّدًا ، والمحفوظة لدي ابنته . قام أثناء ولايته للعهد بفعاليات واسعة . أيد في البداية أنقرة ، وعندما شعر بعد ذلك باتجاه مصطفي كمال باشا نحو الجمهورية ، بقي علي الحياد التام بين استانبول وأنقره .

اعتلى مقام الخلافة وعمره 5 . 54 . احتفل بجلوسه بقبول البيعة على العرش الذهبي الذي أخرج إلى فناء جناح البردة الشريفة في سراي طوب قابو يوم 24 ت 2 . خرج في اليوم نفسه ، إلى صالة استقبال الجمعة في مسجد فاتح . تليت الخطب باسمه في كل أنحاء العالم الإسلامي . دامت خلافته سنة ، 3 أشهر ، 15 يومًا . صار هو ، الخليفة الثاني بعد المائة للمسلمين باعتبار الخليفة الأول أبو بكر – رضي الله عنه – . اهتمت إنكلترا كثيرًا ، بألا يأتي خليفة بعد ذلك التاريخ . وعمومًا لم يظهر في نطاق العالم الإسلامي – عدا بني عثمان – شخص له هذا الاعتبار . الشريف حسين والملك فؤاد ، كانا من الذين حدث بهما الرغبة في أن يكونا خلفاء . عبد العزيز بن السعود الذي يعلم سياسة انكلترا في هذا الشأن ، لم يجابه إنكلترا . والمعلوم أن انكلترا ، كانت حتى عام 1940 لازالت الدولة العظمى الأولى في العالم وكانت تُخشى سياستها الخارجية.

أعلنت الجمهورية (29 / 10 / 1923) بعد ترك قوات الاحتلال استانبول ودخول القوات الوطنية (قواي مليّة) (6 / 10 / 1923) . أصبحت أنقرة مركزًا (عاصمة) للجمهورية التركية واستانبول مركزًا للخلافة الإسلامية . كان الخلفية يسكن سراي دولمه بقجه . لكن السرايات القديمة كسراي طوب قابو وسراي ييلدز ، كانت تحت أمره . وخلال هذه الأيام ، قرر المجلس الذي كسب الكفاح الوطني الانتخاب المبكر . كان من المحتمل أن يكون إصدار قرار إلغاء الخلافة من المجلس الأول صعبًا . وافق المجلس الثاني علي إلغاء الخلافة (3 / 3 / 1924) . كانت سن عبد الحميد الثاني ناهزت الـ 56 .

وفي ليلة المعراج ، في الساعة 30 . 5 من صباح يوم 4 آذار ، أخذ الخليفة مع المقربين إليه من سراي دولمه بقجه وسيق إلى جتالجه بالسيارات ثم أركب القطار وأخرج إلى خارج تركية . حدد آخر موعد لترك تركية بالنسبة للشهزادات (الأمراء) منتصف الليلة التي يبدأ بها يوم 6 آذار ، وللسلطانات والبقية ، مدة أسبوع واحد . وألزمهم القانون ببيع جميع أموالهم الموجودة في تركية وتصفيتها خلال سنه بواسطة وكلائهم . كان أتاتورك يفكر في إخراج الأمراء (الشهزادات) فقط . أقنع رئيس الوزراء عصمت (اينونو) باشا ، أتاتورك بإخراج السلطانات (زوجات السلاطين) ، الخانم – سلطانات وسلطان – زاده (أولاد السلاطين) ، الداماد (أزواج السلطانات) والخانم أفندي (زوجات أبناء السلاطين) . وفي الواقع ، فإنه في النظام العثماني ، لا يحق لغير الشهزادات (أبناء السلاطين) اعتلاء العرش . أدى إخراجهم من الجنسية (التابعية) التركية وإجبارهم علي تصفية أموالهم في تركية ، إلى انقراض السلالة . ثم بيع الأموال غير المنقولة ، بأسعار مضحكة وانتقلت إلى أيدي أشخاص لم يخدموا الدولة العثمانية وليس لهم أي تاريخ في خدمة الكفاح الوطني . أصيب أعضاء السلالة ، خلال سنوات نفيهم الطويلة بضيق شديد . تمكن زوجات السلاطين والشهزادات الذين توفوا وأزواج السلطانات اللاتي توفين ، من البقاء في تركية .

أقام بنو عثمان في أماكن مختلفة وتنقلوا من مكان لآخر . يلاحظ أن أكثريتهم أقام

في بيروت ونيس وباريس . ومنهم من سافر إلى الولايات الأمريكية المتحدة . رفض الملك فؤاد في البداية دخول بني عثمان إلي مصر ، ثم أقامت أكثرية السلالة في القاهرة والإسكندرية . لم يكن بينهم من ذهب إلي إنكلترا وألمانيا . تمت الموافقة بالقانون المؤرخ في 25 / 4 / 1949 على دخول زوجات الشهزادات (الأمراء) والأصهار ، إلى تركية . وكان قد سمح في 1939 بدخول أولاد أنور باشا الذين يسمون سلطان – زاده (أبناء بنت السلطان) وإضافة إلى ذلك أنتيي خانم – سلطان (حفيدات السلطان) ، إلى تركية . وفي 16 / 6 / 1952 سمح بدخول جميع أعضاء السلالة – عدا الشهزادات أبناء السلاطين – إلى تركية . وقد استمر خطر دخول الشهزادات الذين ولدوا في المنفي ، خارج تركية ، إلى تركية . ثم سمح في 1947 أي بعد 50 عامًا بالضبط من النفي ، بدخولهم إلى تركية . إن عملية النفي المريرة غير الضرورية هذه ، أهلكت السلالة .

توفي الخليفة عبد المجيد خان الثاني في باريس (في الساعة 21 من يوم 23 / 8 / 1944) كانت سنه قد تجاوزت الـ 76 عامًا بشهرين ، 24 يومًا . قضي في المنفي 20 سنة ، 5 أشهر ، 16 يومًا . صار رئيسًا للسلالة بعد وفاة السلطان وحيد الدين (16 / 5 / 1926) ، مدة 18 سنة ، 3 أشهر ، 8 أيام . دفن في الحرم الشريف ، في المدينة (30 / 3 / 1954) .

سكن الخليفة ، خلال 1924 – 38 19 في السراي القديم الخاص بولي عهد إنكلترا في نيس ، بالأجرة . وعند انتقاله إلى باريس عام 1938 – ولوفاة الملك فؤاد كذلك – ذهب أكثرية أعضاء السلالة الذين يسكن معظمهم في نيس ، إلى القاهرة وأقام فيها . دفعت لجنة خلافة الهند ، إلى البادشاه ، حتى وفاته راتبًا كبيرًا ، نظام حيدر آباد ، مول القسم الأعظم منه . كان الخليفة ، قد أوصي بدفنه في استانبول في المقبرة المسماة « تربه » جوار جده السلطان محمود ، أبيه السلطان عزيز ، أخيه الكبير يوسف عز الدين أفندي وابن عمه عبد الحميد الثاني . ماطلت أنقره في تلبية طلب أولاد الخليفة ، هذا . انتظر الجثمان مدة 10سنوات في مسجد باريس . وافقت حكومة أنقرة في 1953 علي نقل الجثمان إلى تركية وكانت قد وافقت قبل مدة وجيزة على دخول أعضاء ومنتسبي

السلالة عدا الشهزادات ، إلى تركية . أحيلت عريضة ابنة الخليفة ، حول السماح بإدخال الجثمان ، إلى لجنة العرائض في المجلس الوطني التركي الكبير . وقد كانت الموافقة على العريضة ، ستصبح تلقائية ، في حالة عدم اعتراض أي نائب من نواب المجلس ، خلال مدة شهر واحد . اعترض نائب قيرشهر ، أحد أعضاء الحزب الديمقراطي الأميرال المتقاعد رفعت اوزدش ، مفيدًا إن منع قدوم الشهزادات إلى تركية ، لا يزال مستمرًا ، لذا فلا يمكن السماح بدخول الموتى منهم أيضًا . أخذت ابنة الخليفة ، التي فقدت الأمل ، نعش أبيها من باريس ونقلته إلى المدينة ودفنته بجوار الرسول ﷺ .

خلف عبد المجيد الثاني ابنة واحدة وابنًا واحدًا فقط ، ولدا من والدتين مختلفتين . ابنته ، السلطانة خديجة خيرية عائشة درشهوار (24 / 2 / 1914) . خطّاطة ، رسامه ، كاتبة ، تجيد 8 لغات . جاءت إلى تركية – بهوية زوجها – في 1945 وتكلمت مع اينونو بشأن جثمان أبيها ، لم تتمكن من إقناعه (كان قد منع حتي مرور منتسبي السلالة من تركية كسواح) . تزوجت (14 / 11 / 1931) أمير برار (ولي عهد حيدر آباد) داماد هدايت علي خان نوّاب مير والاشان أعظم جاه بهادور (ميلاده 1907) . هو الابن الأكبر لعثمان خان الذي كان نظامًا لحيدر آباد منذ 1911 . ولد من هذه الزيجة الأمير بركت علي خان مكرّم جاه بهادور آصاف جاه الثامن (6 / 10 / 1933) والأمير كرامت علي خان مفخّم جاه بهادور (27 / 2 / 1939) ، أخذ الأول لقب نظام حيدر آباد بدلاً من جده . تزوج كل منهم ببنت تركية .

داماد عمر فاروق أفندي (29 / 2 / 1898 – 28 / 3 / 1969) . هو ابن عبد المجيد الثاني (ترك تركيا عندما كان برتبة رائد ومتخرج في الأكاديمية الحربية في بروسيا . أصبح الرئيس الثاني للسلالة مدة 15 عامًا اعتبارًا من 2 / 6 / 1954) . دفن في استانبول في مقبرة السلطان محمود بجوار جده السلطان عزيز . تزوج أولاً (29 / 4 / 1920) . بابنة السلطان وحيد الدين الصغرى السلطانة صبيحة (1894 – 1971) ، ثم طلّق (ك 2 / 1948) . تزوج بعد ذلك (31 / 7 / 1948) بابنة عمه يوسف عز الدين أفندي الصغري ، السلطانة مهرشاه (1916) . رزق من

زيجته الأولي 3 بنات : السلطانة فاطمة نسلشاه (4 / 2 / 1921) ، السلطانة زهراء هانزاده (19 / 9 / 1923) ، السلطانة نجلاء هبة الله (15 / 5 / 1926) .

تزوجت (1940) السلطانة نسلشاه بابن الخديو عباس حلمي باشا ، ولي عهد مصر (1899 – 1914) ، آخر نائب لملك مصر الداماد الأمير محمد عبد المؤمن بك أفندي (1899 – 1979) . أولادها هما السلطان – زاده (الأمراء من نسل كريمات السلطان) الأمير عباس حلمي بك أفندي (1941) ، والأميرة إقبال خانم – سلطان (الأميرات من نسل ابنة السلطان) (1944) – تزوجت (1940) السلطانة هانزاده بولي عهد مصر الثالث قاوالالي الأمير داماد محمد علي إبراهيم بك أفندي (1900 – 1977) . أولادها هما الأميرة صبيحة فاضلة خانم – سلطان (1941) والسلطان – زاده الأمير رفعت أحمد بك أفندي (1944) . قتل ملك العراق الأخير فيصل الثاني ، عندما كانت الأميرة فاضلة مخطوبة له ، ثم تزوجت بابن رئيس الوزراء سعاد خيري أوركوبلو (1903 – 1982) وانفصلت عنه – السلطانة نجلاء ، تزوجت (1943) بأخ داماد محمد علي إبراهيم بك أفندي ، الداماد الأمير عمرو إبراهيم بك أفندي (1903) . ابنها هو السلطان – زاده الأمير رفعت عثمان رفعت بك افندي (1951) .

هكذا حكم بنو عثمان مدة 693 عامًا من 1231 حتي 3 / 3 / 1924 . شغلوا مقام الخلافة مدة 407 سنوات ، 6 أشهر ، 5 أيام (29 / 8 / 1516 – 3 / 3 / 1924) . عبد المجيد الثاني ، هو الخليفة العثماني الـ 40 ابتداء من الخليفة الأول أرطغرل غازي .

تنتهي السلطنة الفعلية لبني عثمان باحتلال استانبول وافتتاح مجلس الأمة التركي الكبير بعده بقليل (23 / 4 / 1920) وسيطرته الفعلية علي تركيا . لكنهم استمروا في استعمال لقب الامبراطور ، بادامتهم السلطنة حتي عام 1922 والخلافة حتي بداية عام 1924 .

يشكل السلجوقيون المرحلة الأولى ، والعثمانيون المرحلة الثانية والكبري ، والجمهورية التركية المرحلة الثالثة من تاريخ الدولة التركية التي تأسست في 1074 . أن دور الإمارات الأناضولية التي تشكلت في الفترة التي تتخلل مجيء بني سلجوق وبني عثمان ، لا تشكل دورًا حقيقًا ، وهو عبارة عن دور فتور .

إن فترة الـ 4 سنوات من التاريخ العثماني التي تنحصر بين اتفاقية مونرو للهدنة ولحين دخول القوات الوطنية إلى استانبول ، تسمى دور الهدنه ، وهي المرحلة الأخيرة لدور المشروطية الثانية ويسمى تاريخ الأناضول لهذه السنوات ، دور الكفاح الوطنى الذي أسفر عن الجمهورية .

Osmanogullarinin Soy Kutugu ve saltanat Tarihleri buraya 2 mustakil sahife halinde qirecek (s.704, 705) (413, 402).

شجرة السلالة العثمانية

1ـ ارطغرل غازى بن كندز ألب (امير مقاطعة حدودوية : 1231-1281)

2ـ عثمان غازى (امير مقاطعة حدودية : 1281-1300)

(امير مقاطعة حدودية كبير : 1300-1324)

3ـ اورخان غازى (1324-1362)

4ـ مراد الاول (خداوندكار) (1362-1389)

5ـ يلدرم بايزيد (1389-1402) (وفاته : 1403)

6ـ سليمان الاول (1402-1410)

7ـ محمد جلبى (1413-1421)

8ـ موسى خان جلبى (1410-1413)

9ـ مراد غازى الثانى (1421-1444 + 1445 + 1446-1451)

10ـ محمد الثانى (الفاتح) (1444+1445+1445+1446+1451+1481)

11ـ بايزيد الثانى (1481-1512)

12ـ ياوز سليم (1512-1520)

13ـ سليمان الثانى (القانونى) (1520-1566)

14ـ سليم الثانى (1566-1574)

15ـ مراد الثالث (1574-1595)

16ـ محمد الثالث (1595-1603)

17ـ احمد الاول (1603-1617)

18ـ مصطفى الاول (1617-1618+1622-1623) (وفاته : 1639)

19ـ عثمان الثانى (الشاب الشهيد) (1618-1622)

20ـ مراد الرابع (1623-1640)

21ـــ ابراهيم (1640-1648)

22ـــ محمد الرابع (الصياد) (1648-1687) (وفاته : 1693)

23ـــ سليمان الثالث (1687-1691)

24ـــ احمد الثانى (1691-1695)

25ـــ مصطفى الثانى (1695-1703)

26ـــ احمد الثالث (1703 — 1730) (وفاته : 1736)

27ـــ محمد الاول (1730-1754)

28 ـــ عثمان الثالث (1754-1754)

29ـــ مصطفى الثالث (1757-1774)

30ـــ عبد الحميد الاول (1774-1789)

31ـــ سليم الثالث (شهيد) (17789-1808) (وفاته : 1808)

32ـــ مصطفى الرابع (مقتول) (1807-1808)

33ـــ محمود الثانى (1839-1808)

34ـــ عبد المجيد الاول (1839-1861)

35ـــ عبد العزيز خان (1876-1861)

36ـــ مراد الخامس (1876) (وفاته : 1904)

37ـــ عبد الحميد الثانى (1876-1909) (وفاته : 1918)

38ـــ محمد الخامس (رشاد) (1909-1918)

39ـــ محمد السادس (وحد الدين) (1918-1922)

40ـــ عبد المجيد الثانى (1924-1922) (وفاته : 1944)

1 - بادشـاه :

يستهل منجم باشي شيخ أحمد ده ده ، أحد عظماء المؤرخين الذين أنجبهم الأتراك خلال تاريخهم الطويل ، المجلد الثالث من كتابه المسمى **صحائف الأخبار** الذي حرره في أواخر العصر 17 باللغة العربية والذي يبحث عن العثمانيين بما يلي :

« اعلم أيها القارئ ، أن الذين أسسوا هذه الدولة ، هم أقدر وأعظم حكام التاريخ العالمي . أنهم أصحاب أقوى سلطة ومالكو أوسع أقطار العالم على وجه الأرض . أصحاب عقول راجحة وقوّة لا تضاهي . فتح الله عليهم حظوظهم وقسمهم أنصبتهم . يعملون الكثير من الخير والكثير من الإحسان . لا نهاية لشوكة سلطانهم . هم أصحاب أحدّ السيوف وأمضى الرماح . لا يضاهيهم فرد على وجه الأرض في الثروة ، المال ، الجنود والسلاح . ليس هنالك من يناظرهم بالتأثير والقوة . يطرقون أقوم السبل . رأيهم صائب وبيّن . هم سادة الشرق والغرب ، البر والبحر وحماة مكة والمدينة . شرّفهم الله بشوكة لم ينلها أحد بعد النبي سليمان . إن هذا بيّن لدي من يدقق حياتهم . لم يرتق حكام هذه الدولة بالظلم والإساءة إلى أسلافهم الحكام والدول وشعوبها . لم يرتكبوا ما ينافي الحق . كان العدل رائدهم على الدوام . فتحوا القسم الأعظم من بلادهم من يد الكفار والظلمة . أسسوا هذه الدولة ووسعوها بحدّ سيوفهم ونصال رماحهم . لم يرثوا أحدًا و لم يعتلوا السلطنة بالتعدّي على حقوق الغير . ملئوا الفراغ الذى كان على سرير السلطنة . لم يسبق أن جاءت علي وجه الأرض سلالة بهذه الأوصاف » .

إن الصفات التي يحملها البادشاه ، أعظم حاكم في العالم اقتدارا من 1447 إلى 1771 وحاكم عالمي حقيقي من 1517 إلى 1683 ، كثيرة إلى درجة يصعب تعدادها ، يحمل 4 تيجان إمبراطوريات : هو خاقان ، لكونه أكبر حاكم للأتراك ، خليفة . لزعامته العالم الإسلامي وكونه الخلف الشرعي للرسول ﷺ ، قيصر ، لكونه إمبراطورًا لروما الشرقية وسلطان ، لكونه حاكمًا على مصر . إن أهم التيجان الملكية التي يحملها هي المجر ، صربيا ، بوسنة ، بلغاريا ، يمن ، تونس ، Tlemsen (الجزائر) كرجستان ،

ارمنستان ، قره مان ، Ertana ، العراق ... جمع في شخصه العديد من تيجان الحكم التي تقل درجتها عن الملكية .

كانت ألقاب البادشاه كثيرة جدًا : خان ، خاقان ، خاقان الخواقين ، سلطان . سلطان السلاطين ، خليفة روي زمين ، أمير المؤمنين ، ظل الله في الأرض ، خليفة ربع مسكون ، شاه ، بادشاه ، هنكار ، خداوندكار ، بادشاه جهان ، جهان بادشاهي ، بادشاه عالم بناه ، ذات شاهانه ، ذات أقدس همايون ، قيصر ، قيصر روم ، مليك الغزاة ... كان الشعب غالبًا ما يسميه «بادشاه» ، والأوروبيون « التركي الكبير » أو « سلطان » ، العاملون في السراي « هنكار » . لقبه الرسمي « شوكتلو » ويمكن إضافة عدة ألقاب علي ذلك : كشوكتلو عظمتلو ، جلادتلو ... وأقصر الألقاب التوقيرية عند مخاطبته شخصيًا ، هو « أفنديمز » أي سيدنا ، وبصفة أكثر رسمية « ذات شاهانه لري » ، « ذات هما يونلري » و « شوكتمئابلري » ، وإذا كان الذي يخاطب السلطان من أفراد الشعب أو من المقربين له ، يقول « بادشاهم » أو « هنكارم » وكانت أمه فقط تخاطبه بكلمة « أرسلانم » أي أسدي . إن لقب « شوكتلو » أي صاحب الشوكة ، لقب رسمي خاص بالبادشاه العثماني فقط ولا يستعمل لأي حاكم آخر ، ويستعمل لقب « حشمتبلو » أي صاحب الحشمة إلى الملوك وكل الحكام المسيحيين والمسلمين بدرجة إمبراطور ، ويقال « شهامتلو » أي صاحب الشهامة إلى شاه إيران فقط .

كانت السلالة حنفية قحة ، وغير شـ[illegible] كجميع الأتراك . ليس بين بني عثمان من هو غير حنفي المذهب ، وقد كانت المذاهب السنيّة الأخرى (الشافعية ، المالكية ، الحنبلية) تعامل بالمساواة والاحترام . لكن يشاهد أن المسئولين في المركز في إستانبول ، كانوا حنفيين إضافًا ، وأن بعض السلاطين كانوا يدعون الشافيين للانتساب إلى المذهب الحنفي . كانت روملي والأناضول الأصلية حنفية المذهب . وأساسًا كان الأتراك السنّة قد انتسبوا إلى المذهب الحنفي فقط . لكن ، كان في الأقطار الأخرى الملايين من تبعه البادشاه من المذاهب الأخري ، كان هو سلطانهم وخليفتهم كذلك . كان القضاة الذين يرسلون من إستانبول إحنافًا . لكن المفتين ، كانوا من مذهب ذلك المكان . كان في

المدن الكبيرة مفتي منفصل لكل من المذاهب الأربعة .

يتبع البادشاه ، حكامًا عديدون إلى درجة لا يمكن إحصاؤهم ، سواء كان بصفته خاقانا أو خليفة ، ومتبوعيّته بنسبة درجة مقام كل واحد منهم . وبالنسبة لبعضهم ، هو متبوع متبوعهم . لم تجبر الدولة العثمانية أكثرهم علي إعلان تبعيتهم وتبعوا البادشاه برضاهم . لكن يشاهد أن الحكام المرتبطين بشخص البادشاه (وهم الحكام العظام) يميزون عن الحكام المرتبطين بالدولة والحكومة العثمانية رأسًا . ويوجد حكام وسلالات صغار ، يتبعون ولاة إيالات العثمانية الذين يسمون بكلر بكي (أمير الأمراء) وحتى ولاة المحافظات الذين يسمون سنجق بك .

وبالطبع فإن هؤلاء الحكام ليسوا جميعًا مسلمين . وحتي غير المسيحيين منهم كثيرون ، يوجد بينهم عبدة أصنام ، بوذي ، براهمي .

ظل بنو عثمان في استانبول مدة 407 سنوات ، 6 أشهر ، 6 أيام (29 / 5 / 1453 ـ 4 / 3 / 1924) . أقام « بادشاه جيهان » (سلطان العالم) في إستانبول التي تسمي « باي تخت جهان » (عاصمة العالم) . ادرنه ، مدينة العرش الثانية وبورصة ، الثالثة . إن السلاطين الذين أقاموا في أدرنة سنين طويلة وفي إستانبول مدة أقل ، هم الذين عاشوا في النصف الثاني من العصر 17 . وقبل فتح إستانبول ، كانت أدرنة مدينة العرش (العاصمة) في أوروبا وبورصة مدينة العرش في الأناضول ، فتحتا في 1326 و 1326 . أصبحت بورصة العاصمة الأصلية منذ 1326 حتي كارثة أنقرة عام 1402 ، وأدرنة من 1402 إلي 1453 .

هكذا أصبحت إستانبول عاصمة ملك العثمانية التي تسمي « سلطنت جهان » ومركزًا للعالم الإسلامي مدة 4 عصور . وقد اتفق الأشخاص ذوو الصلاحية من الدرجة الأولي في الأزمنة الحديثة على أن مدينة إستانبول هي أكثر ملاءمة بين مدن العالم ، لدولة كهذه سواء من الناحية الاستراتيجية ، أو العلمية ، أو الجمال الطبيعي . قال نابليون : « لو كانت الكرة الأرضية عبارة عن دولة واحدة ، لوجب أن تكون عاصمتها إستانبول » ؛ وقال قبله بطرس الكبير : » من يحكم إستانبول يحكم العالم بأسره » (جودت 1 ، 37 ، 356) . « أسّست إستانبول في أصلح وفي ألطف مكان في الكون » (Voyage

« استانبول ، أجمل مدينة في العالم ، هي المدينة الأولى بين جميع مدن العالم ، مركز الإسلام » (Tournefort au Levant ، باريس 1717 ، 1 ، 464 – 5 » . (La Vie Quotodienne à Constantinople, Mantran, 20, 35)

31 من بني عثمان ، البالغ عددهم 40 ، ابتداء من عهد أرطغرل غازي إلى عبد المجيد الثاني ، مكثوا في هذه المدينة ، الـ 29 الأواخر من هؤلاء ، كانوا في الوقت نفسه خلفاء أمراء مؤمنين وأئمة مسلمين .

توضح كلمات منجم باش الوجيزة التي أسلفنا ذكرها الصفات المميزة المشتركة بين حكام العثمانية ، ولا شك أن هنالك كثيرين منهم لا تتشابه صفاتهم بالمرّة ، إن ذلك موجود بكثرة حتى بين الأخوة . إن أبناء السلطان عبد المجيد ، مراد الخامس ، عبد الحميد الثاني ، محمد رشاد ، محمد وحيد الدين ، الذين تعاقب جلوسهم على العرش من 1876 إلي 1922 ، يمثلون أربع سجايا متباينة ، رغم أنهم إخوة . لكن من الممكن دون شك إيجاد الخطوط المشتركة بينهم كذلك .

من الممكن إيجاد خطوط مشتركة لجميع السلاطين . أحدها ، بعدهم عن الشعور بالخوف . إن هذه الصفة تفترق بعض الشيء عن الجسارة . الجسور ، هو الشخص الذي لا يعتريه الخوف رغم معرفته الخوف . أما لدى بني عثمان ، فإن الشعور بالخوف كان في حكم المعدوم . هكذا كان يجري تعليمهم . صفة مشتركة أخرى ، هي احترامهم الدين . يوجد بينهم من هو قوي التدين أو ضعيفه ، من لا يراعي بعض قواعد الدين ، مثلاً من يشرب الخمر ، من لا يصلي الأوقات الخمسة . لكن لم يكن من بينهم ولا شخص واحد قصّر في احترامه الدين ، الله ، الرسول والصحابة . وصفة مشتركة أخرى ، جدّيتهم في رئاسة الدولة . نعم كان هنالك من لم يتمكن من تأدية واجبه بشكل جيد ، لكن لم يكن هنالك من بينهم من لم يولِ هذا الواجب حقه . قليل منهم ظالم كمراد الرابع . كان أكثريّتهم رحماء . وأكثرهم انشغل بفرع واحد على الأقل من فروع الفنون الجميلة . ولا يوجد تقريبًا من لم ينظم قطعًا من الشعر . كثيرون منهم لهم دواوين شعر معتبرة . قليل منهم من لم يزاول فنون الموسيقي والخط ، أو من لم يهتم بها على أقل تقدير . ولم يكن عدد الموسيقيين المشهورين بينهم قليلا أيضًا .

إن سبب امتداد جذور السلالة بشكل لا يتكرر ، هو جلوس أشخاص دهاة على العرش ، في العصور الأولي . إن هذا الحدث الذي لم يشاهد في أية سلالة أخري والذي يشبه المعجزة وكأنه غير طبيعي والذي دوّخ حسابات التخمين والاحتمال ، كسقوط الكرة في لعبة الروليت ، خمس عشرة مرة بصورة متعاقبة على نفس الرقم ؛ لم يقتصر فقط على إطالة عمر السلالة . ورغم وجود سلالات منافسة في مقابل كل سلالة تركية ، إسلامية وأوروبية ؛ لا يوجد في التاريخ العثماني شيء من هذا القبيل . إن أحرص الناس وأشدهم طمعًا لم يتخيلوا الجلوس على العرش العثماني قصارى الأمر أنهم فكروا فقط في وضع اليد على الدولة باسمهم ، وقد كان هذا طبعًا ربحًا كبيرًا لصالح الدولة ؛ إذ حمى الدولة من الصراع ، الذي يحدث في الدول الأخرى ، للحصول على المقام الأول وعاشت الدولة وتوسعت بانصرافها للأمور الخارجية بصورة مستمرة .

إن السلالة العثمانية ، هي أكثر السلالات بركة في تربية وتجهيز الرجال العظام بين السلالات الأخري الحاكمة على وجه الأرض (Plus feconde en grands hommes qu, aucune de) celles qui ont règne sur la foce du globe) (Jouann in - Van Gaver, Gover, Turquie ، باريس ، 1840 ، ص 8 ب و Turquie « إن كل فرد من ملوك العثمانية منذ بداية الدولة العلية حتى يومنا هذا ، الذين اعتلوا وزينوا أريكة إمارة السلطنة والخلافة ؛ هو فريد عصره ووحيد دهره ، الحق أنه لم يسبق أن حصل في أية دولة ، أن يحكمها عشرة ذوات كهؤلاء » (جودت باشا ، 1 ، 41 - 2) .

« إن الجديّة العالية في تدين الأتراك الممتزجة مع التفاني في الخدمة والشعور بالالتزام بالواجب للدولة العثمانية التي لا مثيل لها في التاريخ الإسلامي ، بما في ذلك دور خلافة العرب ، تبرز للرائي فورًا . مثلاً ، أي خليفة من الخلفاء العباسيين ، وصل إلى درجة يمكن فيها قياسه مع المرابطة ومتانة الحالة المعنويّة والدينية التي بعثت في سلاطين العثمانيين الأوائل ، زخم الحركة ؟ أي من هؤلاء الخلفاء ، كان يملك ذلك الشعور الجبار بالالتزام بالواجب الذي يسوق شخصًا كسليمان القانوني المسن والمشرف على الموت ، إلى حملة حربية جديدة ويضعه وجهًا لوجه أمام مصاعب هذه الحملة ، وينقله من راحة مدينة العرش إلى صعوبات المعسكرات وإلى الموت الأكيد ؟ » Bernard Lewis ، The Emergence of Modern Turkey ، ص 13) .

وخاصية أخرى في نجاح الدولة العثمانية ، هي ارتباط وإطاعة المجتمع العثماني المخلصة الصادقة ودون عوض للبادشاه . بالنسبة للعثماني أن هذه السلالة ، سوف تستمر إلى يوم القيامة ، ولا يشك أحد في ذلك . (وفي مصراع من بيت شعر لعاشق باشا ـ زاده » اعلم أن نسل بني عثمان باق إلى الأبد « منشورات آدسيز » . يحكم البادشاه على القسم الأكبر من الكرة الأرضية . إن الارتباط والإعجاب والاحترام الذي يظهره الأتراك تجاه إمبراطورهم ، كان يجب أن يكون من صفاتنا النموذجية نحن المسيحيين . (74, 21, 1, 1677 **Rouen** « L'Etat Present de L'Empire OttomanLord Ricault»)

إن مكانة البادشاه في الخارج ، كانت هكذا أيضًا . وفي 1785 ، خلع سلطان فاس بردته من كتفيه وألبسها لرسول عبد الحميد الأول إسماعيل أفندي محتضنًا إياه ومقبلاً له أربع مرات قائلاً : « إنني مطيع ومنقاد للبادشاه ؛ مالي وملكي ملك له ؛ إن البادشاه هو سيّدي » (جودت ، 3 ، 272) . وفي 1787 ، قال إمبراطور الأفغان تيمور شاه لعلمدار محمد أغا رسول عبد الحميد أيضًا ، « البادشاه ، قبلة العالم » (جودت 5 ، 251 ، 342 – 6) .

البادشاه ، مقدس كالعلم . ويمثل الدولة كالعلم أيضًا . العلم ، هو رمز الدولة غير الحي المصنوع من القماش ، أما البادشاه فهو رمزه الحي . يمكن أن يقتل البادشاه ، لكنه لا يمكن أن يحقّر . كل شيء يعود للبادشاه ، وكل شيء يجري باسمه . وفي الحقيقة ، يستعمل هنا اسم البادشاه ، عوضًا عن الدولة . الدولة مفهوم معنوي ، وقد صار البادشاه رمزًا على هذا الشكل لأنه شخص حي . يرث البادشاه الملك ، عن أجداده الذين أسسوا الدولة بقوة السيف وسيّروها إمراطورية . جلس على العرش ، لأن الله أراد ذلك . يستمد إرادته من الله رأسًا وهو مسئول أمام الله ، هو صاحب كل شيء . له كل الصلاحيات . إلا أن هذه الصورة ، هي في الواقع من الناحية النظرية ، ذلك لأننا نجد من الناحية العملية الفعلية ، أن البادشاه مقيد بقيود وثيقة . من هو أكثر السلاطين استبدادًا ؟ هل هو مراد الرابع ؟ آمل ألا يتهمني قرائي ، إذا قلت بأن صلاحياته لا تفوق كثيرًا صلاحيات الرئيس روزفلت . ومن الممكن القول بشكل جازم ، إن مظاهر استبداده ، تظل متواضعة بشكل يرثى له ، إذا ما قيست بمظاهر

استبداد شخص كهتلر ، أو ستالين .

2 – علامات السلطنة :

1 – الخطبة : تلي اسم الخليفة العباسي في القاهرة فقط ، قبل اسم البادشاه في خطب الجمع وصلاة العيد من 1335 إلي 1516 . كان هذا الوضع داخل حدود الدولة العثمانية . واعتبارًا من 1516 حتي 1922 ، لم يتل ضمن حدود الامبراطورية ، اسم أي شخص على قيد الحياة ، قبل اسم البادشاه في أية خطبة . وقبل 1335 ، تلي قبل تلاوة أسماء عثمان غازي وأورخان غازي ، ليس فقط اسم الخليفة الموجود في القاهرة ، بل أسماء سلاطين الإيلخانيين والسلاجقة . والمعلوم أن الخطبة ، تأتي في مقدمة حقوق الحكم في الدول الإسلامية .

2 – المسكوكات النقدية : وعلامة أخري من علامات السلطنة ، هي سك النقود المعدنية (الذهبية ، الفضية ، النحاسية والبرونزية) . لم يعثر حتي اليوم ، علي مسكوك باسم عثمان غازي . الاحتمال الأقوي أنه سك نقوده باسم البادشاه السلجوقي (إلا أنه عثر على مسكوك باسم عثمان غازي ، انظر غالب بك ، تقويم مسكوكات عثمانية) . أما أورخان غازي ، فإن مسكوكه الفضي الأول (آقجة) الموجود لدينا والمضروب باسمه فقط ، ضرب بعد جلوسه (1324) بعدة سنوات . منذ ذلك العهد وحتى 1922 ، لم يشاهد على المسكوكات العثمانية اسم آخر عدا اسم البادشاه . ومع أن الدولة العثمانية قد سمحت لتابعيها الممتازين كخانية (بالنسبة إلى خان) قرم بسك النقود باسم حكامها ؛ لكنهم كانوا يكتبون على المسكوكات اسم البادشاه قبل اسم حكامهم .

3 – الطّبل : هو من الآلات الموسيقية الرئيسية للموسيقي العسكرية التركية التي تسمي مهترخانه وهو مقدّس كالعلم . إن إحدى علامات السلطة في الدول التركية ، هي إسماع الشعب الموسيقي العسكرية ، في أوقات معينة من اليوم أمام سراي الحاكم أو والي الإيالة الذي يمثله وأمام القلاع . ولذا ، فإن البادشاه السلجوقي ، عندما أرسل في بداية عام 1300 ، إلى عثمان غازي ، الشارة (طوغ) والراية معلنًا إياه بأنه أمير كبير لإمارة حدودية (أوج بك) وأنه تابع له ، لم يهمل إرسال الطبل كذلك . عند

عزف فرقة المهتر ، كان إلزامًا قانونيًا على الجميع بمن فيهم ولي العهد ، القيام واستماع الموسيقى وقوفًا ، عدا البادشاه الذي كان يستمع وهو جالس . يظهر من ذلك بأن هذا ، كان يعتبر نوعًا من النشيد الوطني . وحتى مجيء السلطان فاتح ، كان البادشاه كذلك ، يستمع وقوفًا ، فاتح ، استثنى البادشاه من هذه القاعدة (عالي ، كنه الأخبار ، 5 ، 30) . والواضح أن المهتر ، كان يعزف باسم البادشاه السلجوقي من عام 1300 حتى سقوط بني سلجوق عام 1308 . أما الخطبة ، فتبدأ قبل 12 عامًا مع فتح قره جه حصار في 1288 ؛ تليت بذكر اسم عثمان غازي كذلك ، للمرة الأولى .

4 – العلم والراية : إن هذين اللفظين اللذين يرادفهما باللغة التركية كلمتا بيرق وسنجق ، يعنيان قطعًا من القماش ركبت على رمح . ويمثل هذا ، سلطة الدولة ، السلالة البادشاه والشعب . وهو مقدس بشكل قطعي . يضحى بكل شيء في سبيل عدم إسقاطه على الأرض . وقد حدث وأن فضّل عدة وزراء الشهادة ، الواحد تلو الآخر ، على أن يسقط العلم أو الراية على الأرض . اللون الأحمر الذي ليس أحمر تمامًا ، قريب إلى الطرنجي ، بلون اللهب ، نوع من الأحمر الفاتح ، هو لون السلالة لخاقانات الأتراك . تقبّل بنو عثمان كذلك اللون الأحمر ، لون السلالة للسلجوقيين وسلاجقة الأناضول ، باعتبارهم الورثة الشرعيين لهم (راحة الصدور ، 144 ، 148) . وهو لون العلم التركي اليوم كذلك . لكن العثمانيين كي يبينوا حيازتهم على الخلافة وأنهم الخلف الشرعي للرسول ﷺ ، حملوا الراية الخضراء كذلك وهو لون الهاشميين . يشاهد في أماكن عديدة الرايات الحمراء والخضراء بصورة متقابلة . منحوا الدول التابعة لهم حق رفع علمهم ؛ ويشاهد اليوم كذلك في كثير من الدول الفدرالية ، أعلامها الخاصة ، بجانب العلم الفيدرالي . لكن الراية (اللواء) ، يرمز إلى الاستقلال بصورة قطعية . يوجد في الراية ، هلال ، وهو رمز وطني منذ عهد أتراك كوكتورك (النجمة رمز جديد) . إن العلم الذي كان لدى العثمانية وحاليًا على شكل هلال – نجمه ، كان لدى أتراك كوكتورك ، على شكل رأس ذئب رمادي اللون .

5 – توغ : هي شارة السلطنة المليّة ومكانتها تقارب مكانة العلم . توغ ، عبارة عن ذيل حصان مركب على رمح . يصبغ الذيل باللون الأحمر . رأس الذئب الذي كان علمًا لأتراك كوكتورك في الشارة ، لا يوجد في شارة (توغ) العثمانية . يمثل البادشاه بواسطة 9 (بعضًا 7) شارات ، وهذه تعد سعدًا لدى الأتراك القدامى . إن الشارات التي يحملها الوزراء والمسؤولون الآخرون ، يحملونها باسم البادشاه فقط . وعلى هذا الأساس يحمل الصدر الأعظم 5 شارات ، الوزير السردار (القائد) 4 ، الوزير 3 ،

بكلر بك (الفريق الأول) 2 وسنجق بك (لواء) 1 شارة . يحمل كل شارة (توغ) في الاحتفالات والحروب ، جندي خاص يسمى توغجي (حامل الشارة) ويرفعها عاليًا . يوضع في البحرية ، بدلاً من الشارة فنار . يعلق كل من القبطان دريا (مشير البحر) 3 ، بكلر بك (فريق أول) البحري 2 وسنجق بك (لواء) البحرية فنارًا واحدًا على سفنهم لبيان رتبهم .

6 – كلمتا « همايوني » و « شاهانه » : تضاف صفات « همايون » و « شاهانه » إلي كل شيء وحاجة تعود إلى البادشاه ، ولا تستعمل هذه الكلمات لأي حاكم آخر عدا حكام العثمانية . اقتبسوا كلمة « همايون » عن السلاجقة (روضة الصفا ، 4 ، 26 ؛ ابن بي بي ، نشريات Houtsma 57, 132, 168, 236, 288) . أما كلمة « شاهانه » ، فقد استعملت في العصور المتأخرة مع كلمة همايون سوية : ذات شاهانه وذات همايون ، هو السلطان العثماني : كل شيء باسم البادشاه : أوردوي همايون (الجيش الهمايوني) دونانماس همايون (البحرية الهمايونية) ، يدنجي أوردي همايون (الجيش الهمايوني السابع) ، الفيلق الهمايوني الخامس عشر ، سراي همايون ، حرم همايون ، اندرون همايون (تشكيلات السراي الداخلية الهمايونية) ، الحملة الهيمايونية ، مكتب أركان حربية شاهانو ، مكتب ملكية شاهانه ، مكتب طبيه عسكرية شاهانه ، مكتب طبية ملكية (مدنية) شاهانه ، عساكر شاهانه ، ممالك محروسة ، شاهانه ...

7 – الطغراء : وتسمي بالعربية التوقيع أيضًا ، وهو توقيع البادشاه بشكل متداخل ومنمّق بطراز فنّي جدا : السلطان محمد مراد المظفر دائمًا . هي طغراء السلطان محمد الفاتح . تنقش الطغراء علي كل بناء شيّده البادشاه أو الدولة علي كل فرمان (تعليمات) . تكون مذهبة علي الأكثر . مقتبسة من السلاجقة .

8 – مراسم تقليد السيف : بالعثمانية (قيلج آلايي . هي مراسم تقليد السيف للبادشاه في الجمعة الأولي مناعتلائه العرش ، وذلك بالذهاب إلى جامع أبي أيوب الأنصاري الذي يحوي قبره والذي شيّده باسمه في استانبول السلطان فاتح ، وإجراء مراسم تقليد السيف داخل القبر . يقلّد سيف الرسول ﷺ ، عمر — رضي الله عنه — ، عثمان غازي وسيوف أحد من أمثالهم من الرجال العظام أو اثنين منهم . ويكون ذلك بإجراء مراسم عسكرية كبري . يذهب من السراي على ظهر الحصان إلى منطقة أيوب ، ثم يرجع بواسطة قارب السلطنة . يزور البادشاه ، أثناء عودته في الطريق ، قبر أبيه ، جده ، فاتح أو من يرغب من قبور أجداده ، ويوزع صدقة كبيرة . يخرج

مئات الألوف من البشر لمشاهدة البادشاه . وهذا ، يقابل مراسم التتويج في الغرب . إن إخفاء وفاة البادشاه السابق لحين جلوس البادشاه الجديد وزيارة البادشاه الجديد لقبور أبيه وأجداده ، اقتبست من السلاجقة (ابن بي بي ، 47 ,82 ,87) . يقلد السيف للبادشاه ، إما شيخ الإسلام ، أو القاضي العسكري ، أو نقيب الأشراف أو أحد أحفاد مولانا ورئيس الطريقة المولوية الذين يسمون جلبي ، وأحيانًا يقوم شخصان معًا بعملية تقليد السيف . قلد ، السلطان سليمان القانوني ، السيف ، من قبل المتوكل آخر خليفة عباسي في استانبول عام 1520 (أولياء جلبي 10 ,38) .

9 – لقب « شوكتلو » : هو كألقاب « خاقان وهنكار » لا يحق لأحد أن يحمله عدا البادشاه .

10 – إكرامية البيعة والجلوس : إن حصول الحاكم الجديد ، فور اعتلائه العرش على قسم الطاعة المتبع في الإسلام ، من كبار مسئولي الدولة المسمي البيعة ، كما هو متبع لدي جميع حكام المسلمين . ثم يوزع مبلغ كبير لكل فرد من أفراد و-دات تشكيلات المركز للجيش المسماة « قابوقولو » حسب رتبة كل منهم ، ويسمى ذلك « إكرامية الجلوس » . آخر إكرامية للجلوس دفعت في 1757 ، ثم ألغيت بعد هذا التاريخ .

11 – المعايدة : يتقبل البادشاه تهاني العيد مرتين في السنة ، في عيد الأضحي وعيد الفطر وهو جالس علي عرشه الذهبي من كبار رجال الدولة فردًا فردًا وبمراسم تشريفاتية دقيقة وبالنسبة إلي تسلسل قائمة تشريفات الدولة . وبعد أن يقدم الصدر الأعظم تهانيه يقف علي قدميه على يمين العرش . ويقدم إلي البادشاه جميع القادمين فردًا فردًا مع بيان أسمائهم بصوت عال . يبارك البادشاه بالتحية باليد اليمني من الأرض وتقبيل حاشية غطاء العرش الذي أخذ مشيرى المابين في المدة الأخيرة يمسكونه . إن الهيئات الدبلوماسية المعتمدة في استانبول ، تفرجت علي هذه المراسم مدعوة واشتركت هي كذلك في هذا التبريك . إن حفلات التبريك التي كانت تجري في السنوات الدورية بمناسبة اليوم الأول من محرم ، المولد النبوي والليالي المباركة الثلاث الرغائب ، المعراج والبراءة ، في ميلاد البادشاه وجلوسه ، كانت بسيطة ولم تكن أعيادًا رسمية .

12 – زيارة السلطان : المثول بين يدي السلطان وتسمي بالعثمانية « حضور

همايون » بشكل رسمي أو خصوصي . كانت تقبل فيها يد البادشاه حتي 1574 ، وبعد هذا التاريخ ولحين نهاية السلطنة والخلافة كان يقبل رداؤه . إن كان الزائر امرأة ، كانت تسفر عن وجهها . إذ إن تغطية المرأة لوجهها في حضور السلطان ، كان من الأمور المعيبة . لأن البادشاه هو في نفس الوقت أب لجميع النساء. وهن كذلك كن يدخلن وينصرفن من حضوره بنفس الوضع .

13 – مراسم الجمعة : وتسمّى بالعثمانية « جمعة سلاملغي » . كان البادشاه يذهب في كل جمعة ، لتأدية صلاة الجمعة ، إلي أحد الجوامع الكبيرة التي يرغب الصلاة فيه ، سواء كان في استانبول أم في مكان آخر . وهذا يسمي « سلاملك رسم عاليسي » . كان يتجمع جميع الشعب ، لرؤية خاقانه ، والمسلمون القادمون من جميع أنحاء العالم ، لرؤية خليفتهم ، والأجانب ، لرؤية الحاكم العثماني . إن المراسم التي كانت دينية داخل الجامع ، كانت في الطريق في الذهاب والإياب ، عسكرية على نطاق واسع جدًا . كان رجال الدولة الكبار ، ينضمّون إلى هذه المراسم بملابسهم الرسمية وأوسمتهم . البادشاه ، كان يمتطي الحصان . السلاطين الأربعة الأواخر ، امتطوا العربة . كان يمكن للراغب أن يقدم عريضة موجهة إلى شخص البادشاه في الطريق ، طيلة المسيرة . يجمعها المرافقون ويسلمونها إلى البادشاه دون فتح مظاريفها .

14 – قارب السلطنة : القارب الموجود في المضيق ذو الشراع الأحمر ، ذو الـ 3 فوانيس مذهبة ، والـ 26 زوج مجداف ، رفيع طويل ، ذو مقصورة ، يسير كأنه طائر ، كان مخصصًا لركوب البادشاه فقط . قوارب الشهزادات (أبناء البادشاه) الرسمية ، 26 زوج مجداف ، ذات شراع أزرق ، قارب السلطانات (بنات السلطان) وزوجات السلطان (قادين أفندي) ، 24 زوج مجداف وشراع أبيض ؛ قارب الصدر الأعظم 24 زوج مجداف وشراع أخضر ؛ قارب شيخ الإسلام 22 زوج مجداف والقوارب الأخري على هذا المنوال ، تتميّز بهذا الشكل عن قارب السلطنة الخاص بالبادشاه .

15 – اللباس الرسمي : كان البادشاه ، يتميّز عن البقية بوضعه علي غطاء رأسه شارة تسمي « صورغوج » وهي شارة مزينة بالجواهر القيّمة والريش النادر . أصبحت

هذه الشارة ، توضع بعد عام 1826 على القلنسوة ومن ثم على الطربوش . وإذا ارتدى البادشاه اللباس العسكري ، كان يرتدي بزة المشير أو مشير بحري (أزيرال كبير) الاعتيادية ، بفرق واحد وهو أن قسم الصدر كان مشغولاً بالخيوط المذهبة . أي أنها كانت مزيجًا من لباس المشير والوزير ، وكان هذا خاصًا بالبادشاه في دور التنظيمات . لأن المشيرين كانوا يضعون علي أكتافهم شارة المشير فقط هذه فيها خيوط ذهبية ، ولا تكون علي صدورهم تزيينات مذهبة ؛ أما الوزراء المدنيون فكانوا يرتدون بدلات صدورها مشغولة بالذهب ولكن ليس فيها شارات علي أكتافهم .

16 – السرادق الهمايوني : يسمى بالعثمانية « أوطاغ همايون » يعطى هذا الاسم لسرادق البادشاه وهوشبه سراي سيار مكون من شقق عديدة . يخرج زوج من هذه السرادق ، عند سياحة البادشاه (سياحت همايون) وإن كانت لغرض الحرب (سفر همايون) ويسار بها إلى المحل المقصود وتنصب الثانية علي بعد منزل من الأولى . ألغي السرادق في دور التنظيمات لركوب السلاطين في القطر الخاصة . يركب البادشاه في سياحاته البحرية ، اليخت الخاص وترافقه علة قطع من السفن البحرية . وفي الأدوار القديمة ، كانت تجهز لشخص البادشاه سفينة الأميرال الكبير .

17 – الراية الشريفة : وتسمي سنجق شريف . هي راية الرسول ﷺ الموجودة حاليًا في قسم البردة الشريفة ضمن الأمانات المقدسة في سراي طوب قابوه ، كانت هذه الراية تلازم البادشاه في الحروب ، في الثورات الأربعة . إن هذه الراية التي يخدمها فصيلة من الجند ويقفون احترامًا لها ، كانت لا تخرج من محفظتها ولا تفتح لئلا تبلى . وبذلك كان البادشاه يظهر صفة خلافته .

18 – فرمان همايون وخط همايون : إن كل أمر كتابي تصدره الحكومة حول أي عمل يخص الدولة يصدر باسم البادشاه وموشح بطغرائه ، يسمي « فرمان » . له قوة القانون ، يحل قتل من لا يطيعه . أما خط يد البادشاه ، فكان يسمي « خط همايون » . كان يحرر للمسائل المهمة ومخاطبة الصدر الأعظم علي الأكثر . كان البادشاه يذيل علي الأكثر بخط يده الـ (تكليفنامه) التي تسمي « عريضة » والتي يقدمها إلى الصدر الأعظم بكلمات قصيرة جدًا (« أولسون » أو « مقبول همايونمدر » وما شابه ذلك)

أي « يجري اللازم ، و « حازت القبول السلطاني » . إن الكتاب الذي يهمش بملاحظته ، يسمي كذلك خط همايون . أمر التعيين لوظيفة عليا يسمي فرمان ، أما توجيه الرتبة فكان يسمي « منشور » .

3 ـ السلطانة ـ الأم :

وتسمى بالعثمانية والده ـ سلطان . في البروتوكول الإمبراطوري ، أم البادشاه ، هي الشخص الثاني عند اعتلاء البادشاه العرش إن كانت علي قيد الحياة . يسمي الموقع الذي تشغله « مقام مهد عليا » ، هي الإمبراطورة الفريدة . لا تعد زوجات البادشاه ، إمبراطورات في النظام العثماني . السلطانة ـ الأم ، تسبق ولي العهد في البروتوكول العثماني . ولي العهد هو الثالث في التسلسل وتدوم رتبة السلطانة ـ الوالدة ما دام ابنها على العرش . وفي حالة وفاة أو خلع ابنها عن العرش ، تعتبر هي كذلك مخلوعة إن كانت على قيد الحياة ويطلق عليها بالعثمانية اسم « والدة عتيق » أي الوالدة السابقة أو القديمة وتفقد تسلسلها في التشريفات .

إن عدد والده ـ سلطان 21 وهذا يقل عن عدد السلاطين بمقدار النصف تقريبًا بسبب وفاة أمهات السلاطين الآخرين قبل اعتلائهم العرش . أصبحت اثنتان منهن والده ـ سلطان لسلطانين بسبب جلوس ابنين لكل منهما علي العرش . إحداهن كوسم مهبيكر سلطان وهي والدة مراد الرابع وإبراهيم خان ، والأخرى عروستها الصغيرة (زوجة ابن ابنها) رابعة أمة الله كلنوش سلطان . وهي والدة مصطفى الثاني وأحمد الثالث .

إن كان البادشاه طفلا ، تصبح الوالدة ـ نائبة السلطنة . وفي أوقات خروج البادشاه إلي الحملة أو السياحة لا تعطي النيابة المسماة « محافظ العرش » إلى الوالدة ـ سلطان ، تعطي إلى ولي العهد أو إلى شهزاده آخر للبادشاه ، أو إلى الصدر الأعظم أو إلى وزير آخر . إن عدد « الوالده ـ سلطان » اللواتي أصبحن نائبات السلطنة 3 ، هن : السلطانة ، والدة مصطفى الأول ، ولأن ابنها كان مختل العقل ، فقد أصبحت نائبة السلطنة خلال مدة سلطنته التي تتخللها 4 سنوات ، جمعا سنة ، 6 أشهر ، 26 يومًا ـ أصبحت كوسم سلطان أولاً ، نائبة خلال مدة طفولة ابنها

الكبير مراد الرابع (8 سنوات ، 8 أشهر ، 28 يومًا) . ثم أصبحت نائبة لحفيدها الطفل محمد الرابع (3 سنوات ، 26 يومًا) . مجموع كليهما 11 سنة ،9 أشهر ، 24 يومًا – أصبحت خديجة تارخان سلطان ، نائبة لابنها الطفل محمد الرابع بعد سقوط كوسم سلطان (5 سنوات ، 12 يوما) ويتضح من ذلك أن مجموع مدة هذه النيابة في التاريخ العثماني هو 18 سنة ، 5 أشهر ، ويومان .

شغلت 21 والده – سلطان « مقام مهد عليا » لمدة مجموعها 225 سنة تقريبًا ، وبقي مقام الإمبراطورية فارغًا في الأوقات الأخرى . 6 من والده – سلطان عشن بعد وفاة أبنائهن السلاطين وأصبحن « والده – سلطان سابقة » ؛ أما 15 منهن ، فتوفين خلال سلطنة أبنائهن .

بعضهن شغلن مقام والده – سلطان لمدة قصيرة جدًا (والدة محمد الأول دولت خاتون لمدة 6 أشهر ؛ والدة مصطفي الأول التي كانت في ذات الوقت نائبة 1 سنة ، 6 أشهر ، 26 يومًا ؛ خندان سلطان والدة أحمد الأول سنة ، 11 شهرًا ، 6 أيام ؛ صالحه دلاشوب سلطان والدة سليمان الثالث سنة ، 11 شهرًا ، 27 يومًا ؛ شهسوار سلطان والدة عثمان الثالث سنة ، 4 أشهر ، 15 يومًا ؛ عائشة سينه برور سلطان والدة مصطفى الرابع سنة ، شهرين ؛ شوق – إفضاء سلطان والدة مراد الخامس 3 أشهر ، يومين .

وبعضهن بقين في هذا المقام مدة طويلة ؛ خديجة تارخان سلطان والدة مراد الرابع 34 سنة ، 10 أشهر ، 28 يومًا ؛ رحيمة بيرستو سلطان ، الأم المعنوية وامرأة أبي عبد الحميد الثاني 28 سنة ؛ كوسم مهبيكر سلطان والدة مراد الرابع وإبراهيم خان 24 سنة ، 10 أشهر ، 28 يومًا ؛ أمة الله رابعة كلنوش سلطان والدة مصطفي الثاني وأحمد الثالث 20 سنة ، 8 أشهر ، 28 يومًا ، مهرشاه سلطان والدة سليم الثالث 16 سنة ، 6 أشهر ، 9 أيام ؛ برتونيال سلطان والدة عبد العزيز خان 14 سنة ، 11 شهرًا ، 5 أيام .

قتلت من بين أمهات السلطان اللواتي شغلن مقام والده – سلطان ، كوسم سلطان فقط ، الأخريات توفين بأجلهن . هي المرأة الوحيدة التي قتلت من بين المنتسبين إلى السلالة . لا توجد بين زوجات وبنات البادشاه أيضًا امرأة قتلت .

كانت والده ـ سلطان ، هي رئيسة الحرم الهمايوني . يخصص لها أكبر شقة في سراي ابنها . إن الوالدة الوحيدة التي سكنت خارج سراي ابنها في مكان منفصل ، هي بيرستو سلطان ، زوجة أبي عبد الحميد الثاني .

4 ـ ولي العهد والأمراء الآخرون :

يطلق على الأمراء الذين ينحدرون من جهة الأب من صلب عثمان غازي اسم « شهزاده » . الشهزادة أمير امبراطوري . وليس من الضروري أن يكون أبوه بادشاه . إن ابن الشهزادة كذلك يسمي شهزادة . كما هو الحال في السلالات الأوروبية . لكن جميع الذين يعتلون العرش ، هم أبناء سلاطين . لم يعتل العرش أمير (شهزاده) ابن أمير . ومع ذلك ، فإنه من المتفق عليه تمامًا أنهم هم كذلك ورثة العرش . إذ لو استمرت السلطنة في تركية ، بعد وفاة السلطان عبد المجيد في 1944 ، لجلس على العرش أحمد نهاد أفندي ابن صلاح الدين أفندي ابن مراد الخامس بلقب « أحمد الرابع » ، بموجب النظام الوراثي على أساس أنه أكبر الشهزادات سنًا .

إن ولي العهد الذي يسمي « أولو شهزاده (الأمير الكبير) والذي سمي بعد ذلك » « ولي عهد سلطنت » (ولي عهد السلطنة) ، كان حتي 1687 ، هو الأمير الأكبر سنًا في السلالة . يدخل ضمن قواعد التشريفات التي تطبق على الأمراء الآخرين . لكن تسلسله في التشريفات يكون الثالث بعد والده ـ سلطان ، والثاني في حالة عدم وجود والده ـ سلطان .

أطلق لقب بك وجلبي على الشهزادات قبل فتح استانبول ؛ ثم سمّوا بعد ذلك سلطان ،خان . وبعد 1826 قصرت ألقاب سلطان وخان ، على البادشاه ، وأطلق على جميع الشهزادات ومن بينهم ولي العهد عنوان « أفندي » وكانت ألقابهم « دولتلو نجابتلو » أي صاحب الدولة والنجابة . إن لقب « نجابتلو » ، كان خاصًا فقط بأمراء العثمانيين . كان الشهزادات ، يأخذون أماكنهم في المراسم بتسلسل أعمارهم . ولا يمكن أن يقدم ، في المراسم ، على الشهزاده لا أخواتهم السلطانات (الأميرات) ، ولا زوجات البادشاه اللواتي يسمون قادين افندي ، ولا أي مسئول آخر . إن

السلطانات (أميرات الامبراطورية) يدخلن في المراسم حسب تسلسل أعمارهن ، حتى بعد الشهزاده الذي ولد حديثًا .

عند اقتراب الشهزاده من سن البلوغ (لكن قبل بلوغه) ، يرسل إلي السنجق (اللواء) ويسمي ذلك « الخروج إلي السنجق » . يرسَل كوال على إحدي الولايات في الأناضول بصحبة أساتذته ، مربي من الرجال ومربيّة من النساء ومعيّته الكبيرة . وكان يعطي كذلك سنجق (لواء) إلي الشهزادات أولاد الشهزادات . لا تعطى لهم ألوية خارج الأناضول في مناطق روملي أو في الأقطار العربية . واستثني من ذلك ياووز سليم إذ أعطي لواء في روملي ، لمدة قصيرة . وشوهد كذلك إعطاء السلطان سليمان القانوني وأحد أعمامه لواء في قرم . كان ولي عهد ـ شهزاده ، يرسل على الأكثر إلى مانيسا ـ ولم يكن ذلك قاعدة ضرورية ـ ويجلس على عرش ساروهان . إن عدد الشهزادات الذين منحوا إيالات (إمارات يديرها بكلر بك) قليل جدًا . وهذه عبارة عن إيالات قره مان . إذ أرسل الشهزادات لمدة طويلة إلى قونيه ، بعد سقوط بني قره مان ورجّح الشهزادات الذين أمهاتهم من بني قره مان . لأن شعب هذه المنطقة كانوا مرتبطًا جدًا بأمرائهم (بك) القدامي ، ولم يطع إلاّ من كان منسوبًا إلي سلالة تفوق سلالتهم السابقة .

أن آخر شهزاده ، صار سلطانًا بعد مجيئة من السنجق ، هو محمد الثالث (1595) . والأمراء الذين تلوه ، لم يخرجوا إلى اللواء ومكثوا في سراي آبائهم . إذ كانوا أطفالاً . توفي السلطان إبراهيم ، عندما كان يستعد لإرسال ابنه الكبير إلى مانيسا في 1648 ، ومن ثم تركت هذه العادة تمامًا . لكن الشهزادات استمروا في الخروج مع آبائهم السلاطين إلى الحملات والسياحات .

لم يُتح للأميرات (الشهزادات) أن يخلفن أولادًا ، لمدة عصرين تقريبًا ، اعتبارًا من النصف الثاني للعصر السابع العشر وفي العصر الثامن عشر والنصف الأول من العصر التاسع عشر . يستثني من ذلك ابنتا عبد الحميد الأول الذي اعتلي العرش في 1774 واللتان ولدتا في فترة إمارته .

كان الأمراء يعيشون مع أمهاتهم في الأجنحة المخصصة لهم في سراي آبائهم . وفي عهد التنظيمات خصص للأمراء عند إدراكهم سن البلوغ سرايات منفصلة ، عدا أجنحتهم

الخاصة في سرايات البادشاه . يسكن فيها مع أمهاتهم ، الأمراء الذين توفي آباؤهم ، وفي عهد التنظيمات أيضًا خصصت كلمة « سراي » لأماكن إقامات الأمراء والأميرات ، أما السرايات الخاصة بإقامة البادشاه والتي لا يمكن أن يرثها أحد والتي تنتقل من سلطان إلى سلطان آخر فسميت « سراي همايون » لتمييزها عن الآخر . رفع اسم سراي من الأماكن التي لا تسكنها السلالة مهما كانت واسعة ، وسميت « كوناك » بمعني قصر أو منزل كبير .

كان الأمراء يدفنون في قبور أحد السلاطين و على الأغلب في قبور آبائهم ، والأميرات كذلك . شيّدت قبور خاّصة لبعض منهم فقط . يشيّع جثمانهم ، كما يشيع جثمان السلاطين بمراسم الدولة الكبرى ، يصلي عليهم شيخ الإسلام ، ويحضر الصلاة الصدر الأعظم ، الوزراء ، القضاة العسكريون ، رجال الدولة والشعب . يوضع علي نعش الأمراء والأميرات (أبناء وبنات السلطان) 8 نطق مرصعة بالجواهر ، وعلى نعش زوجة السلطان (قادين أفندي) نطاقان مرصعان بالجواهر ، و على نعوش زوجات البادشاه اللواتي يطلق عليهن اسم « إقبال » ، زوجات الشهزادات ، الأميرات بنات البادشاه ، الأمراء أبناء بنات البادشاه يوضع نطاق واحد من الجواهر .

لا يجوز تقبيل وملاطفة الأمراء البادشاه باليد من قبل أي كان ، عدا آبائهم ، أمهاتهم وإخوانهم وأخواتهم ، كما هو الحال في الأميرات بنات البادشاه ، ولا يخاطبون بأسمائهم ، مهما كانت سنّهم . و لم يكن البادشاه بنفسه يخاطب بناءه وبناته بأسمائهم المجردة ، وكان يناديهم بالألفاظ التالية » ، محمد خان ، عائشة سلطان ، أحمد أفندي » .

لا يلتحي الأمير أبدًا » لكن كان بإمكانه إطالة شاربه . ويلتحي فور جلوسه علي العرش (Baron de Memoires Tott 71. 1) .. ياووز ووحيد الدين فقط لم يكونا ملتحيين . أما عثمان الثاني ، فلم يتمكن من إطالة لحيته بسبب عدم إدراكه السن الكافية لإنبات لحيته بكثافة .

يخصص لخدمة الأمير فور ولادته 20 جارية ، وعند إكماله السنة الأولي يرتفع عدد المعنيّين بخدمته إلى 6,03 منهم عقيد الغرفة الخاصة (7,96,7d'Ohsson) . شروعهم بالقراءة

وختانهم ، كان يجري بمراسم كبيرة . ولادتهم ، كانت كذلك . لكن زواجهم ، كان يجري بمراسم بسيطة في أجنحتهم الخاصّة ، عدا السلطانات (الأميرات) ، كان يجري زواجهن باحتفالات كبيرة رائعة ومفتوحة للشعب على الأغلب .

5 - السـلطانات :

بالعثمانية « سلطان » . أطلق اسم « سلطان » منذ 1453 وحتي يومنا هذا ، علي ابنة البادشاه أو الشهزادة (الأمير) ، أي علي الأميرات الامبراطوريات المنحدرات من جهة الأب من صلب غازي عثمان ، ولأجل المبالغة في الاحترام واللطف يقال « سلطان أفندي » . كان يطلق عليهن قبل فتح استانبول اسم « خاتون » . إن 5 دفعات من الإطلاقات المدفعية ، في كل دفعة٧٠ إطلاقات تطلق من ساحل سراي طوبقابو وقلعة بديكوله ، تشعر شعب استانبول بميلاد شهزادة و 3 إطلاقات ، تشعر بميلاد سلطانه .

إن زوجات البادشاة أو الشهزادات ، عند ولادتهن شهزاده أو سلطان ، سواء كانت قادين أفندي (زوجة السلطان) أم خانم أفندي (زوجة الأمراء) مضطرات للولادة وسط جمع غفير من النساء . ويحتم القانون عرض المولود عند ولادته فورًا ، علي رجال الدولة الذين ينتظرون أمام الباب .

إن السلطانات اللواتي يدركن سن البلوغ ، يلبسن الرداء الطويل ويغطين الرأس ، ولا يستعمل حجاب الوجه ، إذ إن الوجه ، يظهر تمامًا من وراء الغطاء (الياشماق) الشفّاف . ولم تكن تخفي وجهها عن الشعب على أساس قاعدة عدم نظر أي رجل بنظرة سوء إلى بنات بني عثمان . يهدي البادشاه تاجا في زواج كل سلطانة . كانت تلبس هذا التاج في المراسم . البادشاه والشهزاده ، لم يلبسوا التاج أبدًا . اعتبر التاج في النظام العثماني ، زينة تخص النساء . تمنح السلطانة الطفلة راتبا، ومخصصات سنويّة قدرها 5 000 ليرة ذهبية واعتبارًا من زواجها ، يصبح راتبها السنوي000 40 ليرة ، وعدا ذلك ، تأخذ عندزواجها 900 000 ليرة ذهبية ، وكذلك تمنح سراي مستقلا ومؤثثا تأثيثًا كاملاً . تمنح الأميرات (خانم - سلطان) ، اعتبارًا من تاريخ زواجهن 1 800 ليرة ذهبية سنويًا . كانت هناك سلطانات كثيرات ، على درجة من الغني ، لا يمكن قياسها بهذه الرواتب . إذ إنهن كن قد اغتنين بالأموال الطائلة التي انتقلت إليهن

عن آبائهن ، أمهاتهن ، أزواجهن . تمنح تيجان إلى زوجات البادشاه ، زوجات الشهزادات (الأمراء) ، الأميرات ، بنات كريمات البادشاه كذلك ويلبسنها في الاحتفالات . لكن هذه التيجان ، أصغر من تيجان السلطانات (بنات البادشاه) وأكثر تواضعًا .

يقوم بعقد قران السلطانات (كريمات السلطان) شيخ الإسلام وبنات كريمات السلطان (خانم – سلطان) قضعسكر (القاضي العسكري) روملي . كان هذا ما ينص عليه القانون . يكون آغا (آمر) دار السعادة وكيلاً للسلطانة ، ويكون الصدر الأعظم أو أحد الوزراء ، وكيلاً للصهر . السلطانات ، كن يتزوجن بشرط حيازتهن علي حق تطليق أزواجهن . وقد استعمل بعضهن هذا الحق . لا تتمكن كريمة السلطان أو حفيدة السلطان من الزواج ، ما لم يوافق ويستصوب ذلك البادشاه .

كان للسلطانات كذلك ، كما للشهزادات وزوجات البادشاه ، قوارب رسمية بألوان خاصة وعدد مجاديف معيّنة وعربات ذات 4 خيول . إن العربة ذات الـ 4 خيول ، خاصة بالشهزادات أما السلطانات وحتي الصدر الأعظم ، فكانت عربته ذات حصانين .

كان يطلق اسم « داماد شهرياري » على أزواج السلطانات بصورة رسمية واختصارًا « داماد » (صهر) . إن لم يك باشا . كانوا يستعملون لقب « بك أفندي » وتلفظ « بي أفندي » . تطبق عليهم مراسم التشريفات المخصصة للأمراء من نسل كريمات السلطان (سلطان – زاده) . ورغم أن السلطانات ، كن يدخلن المراسم بحسب تسلسل أعمارهن ، كان الأصهار يدخلون مراسم التشريفات بتسلسل تواريخ زواجهم . لا يمنح أزواج السلطانات راتبًا إضافيًا لاتصافهم بصفة داماد (صهر) . كلهم . كانوا موظفي دولة . كانوا يتقاضون رواتب وظائفهم . الأصهار الذين لم يحصلوا علي رتبة وزير . قليلون جدًا . كان اختيار الأصهار يجري من بين الرجال العسكريين ونادرًا من بين الرجال المدنيين أو من بين أولادهم . لا ينتخب الأصهار أبدًا من بين رجال الدين .

يسمى أبناء السلطانات « سلطان – زاده » و « بك أفندي » (بعضهم باشا) ؛

وتسمي بنات السلطانات « خانم – سلطان » . هؤلاء كانوا أمراء وأميرات . لكنهن لم يكن أميرات إمبراطورات كأمهاتهن السلطانات ولم يكونوا أمراء امبراطوريين كالشهزادات كانوا أميرات وأمراء اعتياديين . اعتبرت السلطانات كريمات السلطان) والشهزادات (أبناء السلطان) فقط ؛ أعضاء للسلالة . إن أبناء بنات السلطان (سلطان – زاده) وبنات كريمات السلطان (خانم – سلطان) كانوا أمراء وأميرات كزوجات البادشاه والشهزادات وأزواج السلطانات ، لكنهم كانوا « منسوبين إلي السلالة » . لا يحق للسلطان – زاده أن يعتلي العرش . لأن النسب يأتي عن طريق الأب نسب الأم ، لم يكن معتبرًا .

كان بالإمكان عقد النكاح علي السلطانات الأطفال . يصبح زوجها « داماد » (صهر) بصورة رسمية حين عقد النكاح . لكن لا يجري الزفاف أبدًا ، ما لم تدرك سن البلوغ . ولا يمكنها أن تخرج إلي سراي منفصل قبل الزفاف ، وتبقي في سراي البادشاه . سلطانات كثيرات ، أصبحن أرامل دون زفاف ، لوفاة أزواجهن قبل إدراكهن سن البلوغ ، وتسمي هذه الزيجات ، زيجات « صورية » . إن متوسط أعمار بنات عبد المجيد الأول (1839 – 1861) الـ 8 وقت تواريخ زواجهن الحقيقي ، هو 6 / 17 سنة . أما متوسط أعمار بنات ، ابنه عبد الحميد الثاني (1876 – 1909) الـ 7 في تواريخ زواجهن ، 1 / 20 سنة . ثبت زواج 6 سلطانات ، في سن 12 بالزفاف ، وسلطانتان تزوجتا بعد سن الـ 30 . هنالك سلطانات جرى زواجهن 8 مرات بسبب وفاة أزواجهن بصورة متعاقبة .

السلطانات ، لا يخرجن من استانبول . كان لا يمكنهن مصاحبة أزواجهن في حالة اشتغال أزواجهن بوظائف في مختلف أنحاء الامبراطورية . لا يمكنهن الحصول علي موافقة لأداء الحج . وكانت تحصل استثناءات قليلة جدًا لكل ذلك . تم تزويج بعض السلطانات ، قبل العصر 16 بأمراء (بكلربك) الأناضول أو بحكام مسلمين آخرين (مثلاً سلطان المماليك) . ثم تركت هذه العادة بشكل قطعي . إن السلطانات اللواتي تمكن من مصاحبة أزواجهن في الأقطار الخارجية ، كان خروجهن بعد عام 1908 .

إن أطول زيجة سلطانة ، هي زيجة البنت الكبري لعبد الحميد الثاني ، السلطانة زكية

بالمشير داماد نور الدين باشا . الابن الكبير لغازي عثمان باشا ، انتهت في سنتها الـ 61 بوفاة السلطانة عام 1950 . وأقصر زيجة فعلية هي التي حصلت بزواج السلطانة بهيجة ، إحدي بنات السلطان عبد المجيد بالداماد حميد بك أفندي ، انتهت بوفاة السلطانة بعد 14 يومًا (1876) . يشاهد أن السلطانات عشن مدة أطول من الشهزادات ، وأن اللواتي توفين وهن كبيرات السن جدًا ، لسن قليلات .

إن لقب السلطانات الرسمي ، كان « دولتلو عصمتلو » (صاحبة الدولة صاحبة العصمة) ويضاف إلي نهايات أسمائهن عبارة « عليّة الشأن » مثلاً كان الاسم في الكتابة على هذا الشكل : دولتلو عصمتلو عائشة سلطانعلية الشأن حضرتلري .

6 – زوجات البادشاه والشهزادة (أبناء البادشاه) :

البادشاه والشهزادات ، حتي 1520 تقريبًا ، كانوا يتزوجون بأميرات الإمارات الأناضولية التركمانيات أو بأميرات مسيحيات من البلقان . أصبحت الإمبراطورية في هذا التاريخ دولة عالمية عظمي بحيث لم تبق سلالة مجاورة للحصول علي ابنتها . لم تكن حينذاك عادة طلب البنت من العائلات العثمانية الكبيرة . كان البادشاه لا يرغب في تأسيس روابط قرابة مع عائلات من رعيته . كانوا يتحاشون جدًا أن يظهر أشخاص كأب زوجة البادشاه ، أخ زوجة البادشاه . إن زواج عثمان الثاني بابنة شيخ الإسلام ، حادثة استثنائية . والمعلوم أن عائلة بني عثمان ، كانت تعتبر العائلة العريقة الوحيدة للدولة . مجرد ولادة الشخص من بني عثمان ، كان امتيازا بالولادة بحد ذاته . لم يعترف لأية عائلة ، بامتياز الولادة . ولهذا ، فإن النظام العثماني علاوة علي كونه مضادًا للنظام السلالي الأوروبي ، فإنه يختلف كذلك عن السلالات الإسلامية والتركية الأخري .

وبناء على ذلك ، يبقي مصدر واحد ، وهو الزواج بالجاريات عديمات النسب . يشاهد أن السلاطين والشهزادات الذين تزوجوا بجاريات متنوعات الجنسية خلال العصر 16, 17 ؛ استقروا في العصرين الذين يليانه على الزواج بالجاريات القفقاسيات والجركسيات بصورة عامة .

كان الحرم الهمايوني بحاجة مستمرة إلى جاريات . كن يجلبن وهن صغيرات السن

جدًا . كان يجب أن يكن « جميلات لا عيب فيهن ويكن ابكارًا » (119, 1, Ricault) .
يساق هؤلاء إلى الصنف المبتدىء ، تعلمهن الجاريات المسنّات اللغة التركية ، الديانة ، القراءة والكتابة وبالنسبة لمهارتهن ، تعطى لهن دروس في الأدب ، الموسيقى ، الرقص ، النقش ويعلّمن أدب وأصول السراي . ثم يتم توزيعهن على أجنحة الجواري ذوات الرتب ، زوجات البادشاه ، السلطانات . وتختار زوجات للسلاطين والشهزادات ، من بين الجواري اللواتي أكملن تحصيلهن وتخلصن من صفة « البنت المبتدئة » (عجمي قيز) وتوصلن إلى سن الزواج (وعلى العموم سن 15) ، سلطانان فقط اختار كلاهما زوجة له من بين المبتدئات . إن الجارية التي أكملت تحصيلها ولم تكن زوجة لبادشاه أو شهزاده ، والتي خدمت براتب مدة 9 سنوات بعد مدة التحصيل ، في حالة عدم إصرارها على عدم استمرارها في الخدمة في السراي ؛ كانت تزوّج بإعطائها بائنة ضخمة وتسمى هذه « جراغ ايديلر » أي تزوج بإعطائها بائنة . إن هؤلاء يعتبرن بنات معنويات للوالدة – سلطان أو للباشقادين افندي (زوجة السلطان الأولى) ، ولا يقطعن صلتهن بهن . يزوجن بأحد رجال الدولة أو بأحد أبنائهم . كن يسمين « سرايلي خانم » أي سيدات السراي ، ولأن تربيتهن تجري بشكل فائق ولكونهن جميلات ولأنهن قد وفرن رواتب 9 سنوات والعطايا والجواهر التي تعطى لهن ، كان رجال الدولة يرغبون في طلب يد سيدات السراي لأبنائهم . لا يجوز أبدًا لغير البكر ، للمتزوجة وللأرملة أن تخدم في السراي .

كانت تخدم في السراي ألف جارية تقريبًا ، على هذا الشكل . فمثلاً ، كانت تخدم في عهد السلطان عبد المجيد (1839 – 1861) 58 جارية في جناح ولي العهد ، 42 في جناح ولي العهد الثاني ، 34 في جناح ولي العهد الثالث ، 11 إلى 17 في جناح زوجات البادشاه (أرشيف سراي طوبقابو رقم E 4002) . وفي دور السلطان عبد العزيز (1861 – 1876) كانت تخدم في جناح والده – سلطان 43 ، جناح ولي العهد 47 ، في جناح كل واحدة من زوجات السلطان من 15 إلى 23 ، في أجنحة زوجات البادشاه اللواتي يسمين « إقبال » من 8 إلى 15 (أرشيف سراي طوبقابو ، E 4002) .

وفي دور محمود الثاني (1808 – 1839) كان راتب الجواري 30 – 100 آقجه في اليوم . 100 آقجه في اليوم ، تعادل حاليًا 200 5 دولار أمريكي في الشهر . كل مصروفات الجارية ، تؤمن من السراي ، ولأنها كانت توفر راتبها الذي تقاضته عن 9 سنوات من الخدمة ، وتتسلم من السلالة خلال هذه المدة هدايا قيّمة وبائنة كبيرة عند زواجها ودارًا للسكن أيضًا ؛ فإنه يتضح سبب رغبة الجميع في الزواج بآنسة سرّحت من السراي .

كانت الجارية المبتدئة التي لم تكمل تحصيلها ، تسمي « أعجمي » لا تقبض راتبا . تخدم بعد ذلك بلقب جارية ، ثم بلقب شاكرد (معاونه) ، ثم بلقب أسطه (ماهرة) مدة 9 سنوات . ويطلق على اللواتي أكملن خدمة الـ 9 سنوات ورغبن في الاستمرار في الخدمة « كذيكلي » أي متقدمة وهي رتبة أعلي . كن يحصلن على هذه الرتب أو الدرجات بنسبة الرضي عن خدماتهن .

وفي نهاية العصر18 كان راتب زوجة السلطان الأولي (باشقادين افندي) السنوي 30 000 ليرة ذهبية . راتب الأخريات كان أقل . وإضافة إلي ذلك ، كانت كل زوجة من زوجات السلطان تمنح مبلغًا يتراوح ما ين 15 إلي 18 ألف ليرة ذهبية عند كل ولادة (d' Ohsson ,7 ,72 – 3) . فمثلاً ، كان البادشاه يلبس رأس زوجته عند ولادتها الأولى وهي علي فراش النفاس تاجًا ، هذا التاج يكون بعد ذلك ملكًا لها (Ricault ,1 ,123) .

تسمي زوجات السلاطين « هاسكي » « Haseki » (بالفارسية خاصّكي) ، ونادرًا ما سميت واحدة أو اثنتان من زوجات بعض السلاطين « هاسكي سلطان » واعتبارًا من العصر 18 ، استبدلت كلمة هاسكي بكلمة قادين أفندي واستمر ذلك إلي النهاية . حملت زوجات السلاطين ألقاب باشقادين أفندي (زوجة السلطان الأولي) ، زوجة السلطان الثانية ، الثالثة ، الرابعة نسبة إلي تواريخ زواجهن بالبادشاه . سواء أكانت أم الولد أم لم تكن ، فذلك لم يكن يغير من وضعهن وألقابهن . إن توفيت إحدى الزوجات يستمر تسلسل القدم ، عندئذ الباش إقبال تصير ، زوجة السلطان الرابعة .

إن زوجات البادشاه اللواتي يحملن لقب (قادين أفندي كن في التشريفات بمرتبة الملكة . لكن حتي زوجة البادشاه . الأولي لم تكن تعتبر إمبراطورة الإمبراطورة الوحيدة ، إن كانت علي قيد الحياة ، فهي أم البادشاه أي والدة ــ سلطان .

إن زوجات البادشاه ، القادين أفندي والاقبال ، اللواتي أصبحن أرامل بعد وفاة أزواجهن السلاطين ، يمكنهن الزواج في حالة رغبتهن في ذلك . لكنّهن يفقدن ألقابهن . وحتي يكون زواجهن ممكنًا ، يشترط أن لا يكون لهن ولد ، شهزادة أو سلطان (ابنًا أو ابنة) . وإلا فسوف يظهر أب ثان للشهزادة أو السلطان ، وهذا ما لا يسمح به . وكذلك في حالة تطليق البادشاه زوجته – وهنالك عدة نماذج لذلك – ، تتمكن من الزواج بمن تشاء في حالة عدم وجود ولد لديها .

إن زوجات البادشاه اللواتي يأتين بعد القادين أفندي مرتبة ، يطلق عليهن اسم « إقبال » ويكون تسلسلهن على شكل باش إقبال ، ايكينجي ، أوجونجي ، دوردنجي إقبال (إقبال الأولى ، الثانية ، الثالثة ، والأربع) . وتسمي زوجات البادشاه الـ 4 اللواتي يلين الإقبال « كوزده » والأربعة اللواتي يلينها « بيك » Peyk . وبالطبع لم يكن لجميع السلاطين هذا القدر من الزوجات . الإقبالات الأخريات كن في التشريفات بمرتبة الأميرات . « الإقبالات » . كن مساويات في التشريفات للخانم – سلطانات (الأميرات بنات كريمات البادشاه) ، القادين أفندي ، كن مساويات ومعادلات للسلطانات (كريمات السلطان) ويشاهد في المكاتبات ، في الخطاب إلى القادين أفندي (زوجات السلطان) استعمال ألقاب « دولتلو عصمتلو » – كالسلاطين – ، ويطلق على الإقبالات لقب « عصمتلو » فقط – كالخانم سلطان – كان يطلق على الإقبالات لقب « خانم أفندي » . أما الـ « كوزده » والـ « بيك » فكان يطلق عليهن لقب « خانم » فقط وكن أصغر أميرات .

لم يكن هنالك فرق بين الزوجات اللواتي تزوجهن البادشاه عندما كان شهزاده (أمير) وبين اللواتي تزوجهن وهو بادشاه . ولأن اللواتي تزوج بهن عندما كان شهزاده ، يحصلن على لقب قادين أفندي بعد اعتلائه العرش ، عندئذ يكن أقدم من الأخريات .

كان يطلق على زوجات الشهزادات « خانم أفندي » بصورة رسمية ، كانت درجة هؤلاء مساوية لدرجة « الإقبالات » والخانم سلطان في التشريفات . كانت الزوجة الأولى للشهزادة تسمى « باشخانم أفندي » زوجات الشهزادات ، لم يكن أميرات

إمبراطوريات كأزواجهن ، كن فقط أميرات ، لا يتزوج الشهزادة بأكثر من 4 زوجات . وإن حدث ذلك ، تعتبر عندئذ جارية اعتيادية ، ولا يمكنها الدخول في التشريفات .

زوجات البادشاه ، القادين أفندي « والإقبالات » اللواتي يتوفى أزواجهن السلاطين ، كن يسكنّ مع أولادهن . ولا يسكنّ أبدًا في حرم البادشاه الجديد . إن كان لها سلطانات (بنات) متزوجات ، فتذهب إلى سرايهن ، أو تذهب إلى بيوت أبنائها الشهزادات ، وإن كن بلا ولد ، يخصص لهن شقة في السراي القديم الموجود في بيازيد أو يعطي لهن سراي أو قصر منفصل .

7 – الحرم الهمايوني :

الحرم الهمايوني ، هو قسم السراي الذي يعيش فيه البادشاه مع أولاده وزوجاته ، وينام فيه الليل . رئيسة الحرم هي السلطانة – الوالدة ، وعند عدم وجودها ، الباشقادين أفندي (زوجة البادشاه الأولى) . إلا أن الإدارة تحت سيطرة موظفين كبار جدًا أحدهما رجل خصي ، والآخر امرأة بكر : دار الشريفة أغاسي الذي يسميه الشعب « قيزلر أغاسي » (آمر البنات) وباشخزينة دار اسطه .

قيزلر أغاسي ، خصي زنجي أو حبشي . لا يجوز للأبيض أن يكون خصيًا . هو بدرجة وزير . وهو رئيس الخصيان الموجودين في الحرم . وينتخب من بين الأغوات الخصيان الذين يرتقون إلى مناصب كمنصب خزينة دار (المسئول عن الأموال والصرف) ووظيفة مصاحب ينظم علاقات الحرم مع الخارج .

إن إدارة الجواري الموجودات في الحرم ليست تحت إشراف قيزلر أغاسي ، بل تحت إشراف الجارية الكبيرة المسماة باشخزينة دار اسطة . درجتها معادلة لدرجة وزير وتتقاضى راتب وزير . تحمل بيدها عصا طويلة تمس الأرض . إن أحد أختام البادشاه الثلاثة ، لدي هذه الجارية (الآخران لدى الصدر الأعظم ولدي خاص أوده باشي « رئيس الغرفة الخاصة ») . كان راتبها في أواخر العصر 18 ، 15 000 ليرة ذهبية سنويًا ، هذا عدا عطايا البادشاه والسلطانة (d'Ohsson, 7, 72 – 3) . الخزينة دار

الثانية والخزينة دار الثالثة ، مساعدتان لها ودرجتهما تعادلان بكلر بك (فريق أول) وسنجق بك (لواء) . إن عدد الخزينة دار 12 على الأكثر . إن هؤلاء جاريات في أعلى الرتب . إن واجب المابين الخاص بالسلطانة – الوالدة ، بالسلطانات في الحرم ، بزوجات البادشاه ، ملقي علي عاتق هؤلاء الجاريات . الخزينة دار الخمسة الأوليات ، يمكنهن الدخول إلى غرفة البادشاه بكل حرية ، أما رئيستهم الباشخزينة دار ، فيمكنها الدخول إلى غرفة البادشاه أثناء نومه وإيقاظه لأمر هام . وحتي زوجات البادشاه مجبرات على تنفيذ الإخطارات والتعليمات التي تصدرها حول تأمين النظام والتشريفات . إن الخزينة دار الـ 15 الأوليات مخولات بلفت النظر إلى التصرفات الخاطئة حتى لزوجات السلطان اللواتي يطلق عليهن اسم « إقبال » . إن الباشخزينة دار كانت تحفظ عن ظهر قلب وبصورة فائقة عادات وقواعد وأصول التربية والآداب المتبعة في السراي . وهي التي تنظم مراسم معايدات الحرم ، ترتدي في معايدات الحرم أفخر ألبستها الخاصة ، وتثبت على صدرها أوسمتها مع الختم الهمايوني النهبي . لا يحق لها الذهاب إلى الاحتفالات خارج الحرم .

لكل خزينة دار جواري خصّصن لخدمتها ، وحصص للخدمة الشخصية للباشخزينة دار ، 20 جارية تقريبًا . ومن الواضح أن وظيفة الخزينة دار ، تقابل وظيفة ضابط خاص أوده في الاندرون همايون (تشكيلات السراي الداخلية) . وتتسلسل بعد الخزينة دارات 5 كاتبات برتبة « قلفه » يعنين بأمور التشريفات والزيارات ، ثم يأتي بعد ذلك بحسب تسلسل التشريفات الجواري المسميات جماشيرجي (غسالات الملابس) ، ابريقدار (المختصات بالأباريق) ، جشنكير (المعنيات بالاحتفالات) ، قوطوجي ، كيلرجي (خازنات الذخيرة) ، شربتجي (صانعات أو مقدمات المشروبات) . وتعمل في كل صنف من هذه الأصناف جاريات عديدات . فمثلاً ، تدعي أقدمهن باشقهوة جي قلفه ومعاونتها ايكنجي قهوه جي قلفه .

وأخيرًا ، كان للحرم فرقة بنات كاملة للموسيقي التركية (ساز) وفرقه (باندو) للموسيقي الغربية وهذه الفرق ألبست ملابس الرجال بعد التنظيمات ، برزت من بينهن ، دلحيات قلفه ، أعظم ملحنة تركية (1750 – 1820) . بإمكان المدرسين الرجال الدخول إلى الحرم للتدريس .

إن الجواري الأطفال أو البنات الشابات لزوجات البادشاه والسلطانات ، كن عنصرًا من عناصر العظمة . لا يقمن بأي عمل . كن يتعلمن بالرؤية والسماع . ظهر من بين هؤلاء خاصة ، زوجات سلاطين . الجواري ذوات الرتب كن يتجولن بكامل جواهرهن . لكن النديمات بصورة خاصة ، كن يتزيّن بشكل يمكن أن يقال عنه ، إنهن غرقي في بحر من الجواهر . تبقي هذه الجواهر لديهن ، عند زواجهن .

تتمكن مولّدة (قابلة) البادشاه ، مربيته ومرضعته إن كانت علي قيد الحياة ، من الدخول إلي الحرم كيفما تشاء . إن شاءت تتمكن من المعيشة في الحرم في إحدي الشقق ، أو في قصرها في المدينة . وكان وضع المربيات الشابات للسلطانات والشهزادات لا يختلف عن ذلك . إن السلطانات والشهزادات الأطفال ، كانوا ينادونهن بخطاب « آبا ، آبام » وهي محرفة عن « آبلا ، آبلام » أي الأخت الكبيرة ، أختي الكبيرة . كانت اللهجة الاستانبولية التي تعتبر نموذجًا للغة التركية ، تقسم إلي 4 لهجات أساسية وهي لهجات السراي ، الباب العالي ، المدرسة (المدارس الدينية) ، الشعب . واللهجة النموذجية ، كانت لهجة الباب العالي ، إن اللغة التي كان يتكلمها الكاتب أفندي في الباب العالي ، كانت أرقي وألطف تركية في العالم .

كان للشهزادات (أبناء البادشاه) وللسلطانات (كريمات البادشاه الأطفال خدام – مربون من رجال الأندرون المسنين والذين يسمون « تايا » . هؤلاء كانوا يستصحبون الشهزادات والسلطانات الأطفال من الحرم إلي الخارج ويقومون بخدمتهم . وعندما يكبر سن الشهزاده قليلاً ، يخصص له مربٍ ، رجل آخر يسمي (لالا) . يختار الـ « لالا » ، من بين رجال الدولة المتقاعدين المحترمين الذين شغلوا مناصب مهمة ، لكن مع ذلك ، كان يوجد لالات شباب كذلك . كان واجب اللالا أرفع كثيرا من واجب الـ « تايا » . كان أستاذ الشهزادة في العسكرية ، استعمال الأسلحة والركوب على الخيل .

8 – سراي طوب قابو :

أشهر سرايات البادشاه ، هو سراي طوب قابو . إذا تلفظت كلمة « سراي » في الأدب الأوروبي ، بمنطوقها التركي وبمفهومها المطلق ؛ يعني بها « سراي طوبقابو » . السراي ، في الذوق العماري التركي يتكون من أقسام (سرادق) ، سرايات منفصلة ، قصور ، أبنية كبيرة وصغيرة متناثرة داخل حديقة واسعة . إن السراي المشيد من قطعة

حجرية واحدة ، والخاص بأوروبا ، دخل إلي الفن العماري التركي - مقتبسًا من أوروبا - في العصر الـ 19 . إن سراي طوبقابو هو المجمع الذي شيد فيه باستمرار من نهاية العصر 15 إلي أواسط العصر 19 أقسامًا جديدة . هو ليس سراي من قطعة واحدة . إن هذه الأقسام متناثرة على عرصة أو حديثة مساحتها 000 699 م^2 أي 7 كم^2 . إن سراي أباطرة البيزنطيين وقت عظمتهم ، كان 5 / — كم^2) .

كان يعيش في سراي طوبقابو ، نفوس مدينة كاملة . بلغ نفوس السراي قرابة عام 1640 ، 000 40 نسمة منهم 000 12 حرس عسكري وهذا أكثر ما توصل إليه . كان كالمدينة محاطًا بسور من جهة البر والبحر وكان في 6 من أبراج السور ، مدافع . سكن السلاطين ، في محل إقامتهم الرسمي هذا ، قرابة 5 . 3 عصر .

لم تكن السرايات ، أملاكًا شخصية للبادشاه لا يتمكن من بيعها ، وتوزيعها . كان ينقلها إلي خلفه فقط . جميع أثاثه ضمن هذا الحكم . ينسحب هذا الحكم أيضًا علي الأثاث الأثري والجواهر الموجودة في دائرة الخزينة . تنتقل من بادشاه إلي بادشاه آخر . إذ لو قسمت السرايات ودوائر الخزينة عند وفاة كل بادشاه بين ورثته ، لما بقي سراي لسكني البادشاه الجديد . يستثني من ذلك ، الدراهم النقدية الذهبية والفضية الموجودة في الخزينة . بإمكان البادشاه أن يستعمل هذه النقود كما يشاء ، حتي أنه يتمكن من صرفها إلي آخر مليم .

سكن السلاطين ، قبل فتح أستانبول ، السرايات الموجودة في الأماكن كبورصة ، وأدرنة ، ديمتوكا Dimetoka وعند فتح استانبول ، شيّد السلطان فاتح سرايا في المحل الذي تحل فيه الآن البناية المركزية لجامعة استانبول . ولم يرقه ذلك بسبب كونه وسط المدينة . سمي هذا المكان « السراي القديم » وخصص لزوجات السلاطين المتفوقين . اختار السلطان بعد ذلك ، موقعًا خارج المدينة نسبيًا في نهاية المضيق علي بحر مرمره في الموقع الذي سيسمي بعد ذلك « سراي بورنو » ، وبدأ بتشييد الأقسام (السرادق) الأولي لسراي طوبقابو والسكن فيها . وسمي بالنسبة للسراي القديم « سراي جديد عامره » . لكن شعب استانبول ، استصعب تلفظ هذا الاسم وسماه « طوب

قابوسرايي » (السراي ذو الباب وذو المدافع) ، إذ إن فاتح كان قد أمر في 1478 بوضع مدافع أمام أحد أبواب السراي المحاط بالأسوار رمزًا للعظمة . سكن فاتح في سراي طوبقابو مدة 15 – 16 سنة ، خلال وجوده في استانبول والمعلوم أنه لم يتمكن من السكن في مدينة العرش لمدة طويلة بسبب حملاته المستمرة . وأساسًا فإن توسع السراي ، حدث بعده .

أضاف ابنه وخلفه بيازيد الثاني (1481 – 1512) بعض أقسام إضافية . سكن السلطان ياووز سليم مدة قصيرة في السراي ، بسبب حملات (1512 – 1520) . أما في عهد السلطان سليمان القانوني (1520 – 1566) فإن السراي توسع بصورة أساسية . لم يذهب أي بادشاه بعد القانوني ، إلى السراي القديم في بيازيد ، وأصبح سراي طوبقابو بعد ذلك محلاً قطعيًا للإقامة . طول الأسوار ينيف علي الـ 5 كم .

للسراي 6 أبواب كبيرة تفتح علي المدينة ثلاثة منها على أسوارها البحرية وثلاثة على أسوارها البريّة وأبواب صغيرة عديدة تسمى « قلطوق قابوسي » . البوابة الكبيرة الأصلية المسماة باب همايون ، هي اليوم المدخل لحديقة كلخانه « كلخانه باركي » . يدخل منه إلى الفناء الأول . لقد عني بكنيسة آيا ايريني البيزنطية الصنع الواقعة علي يسار الفناء ، جمعت فيها الأسلحة القديمة كذكرى تاريخية وأصبحت اليوم متحفًا عسكريًا غنيًا جدًا . وكانت دائرة المسكوكات النقدية الإمبراطورية (ضربخانة همايون) ، في أقصى اليسار . كانت النقود العثمانية في الأدوار السابقة في استانبول ، تسك فيها . وتسك فيها اليوم كذلك ، النقود المعدنية والذهبية الخاصة بالدولة يجتاز من الباب المسمى « باب السلام » والذي يسميه الشعب الباب الثاني والباب الوسطى ؛ من الفناء الأول إلي الفناء الثاني . الفناء الثاني ، يسمي « آلاي ميدان » (ميدان المراسم) . تجري فيه الاحتفالات الكبري وتوزع فيه علي أوجاقات (حاميات) القابوقولو رواتبهم المسماة « علوفة » في كل 3 أشهر باحتفال عسكري . الباب الوسطي ، هو اليوم باب المدخل إلي متحف سراي طوبقابو . كان بإمكان الشعب نهارًا ، الدخول بحريّة إلى الفناء الأول حتى الباب الوسطي بقصد التفرج والتنزه .

وفي يمين الفناء الثاني أو ميدان المراسم ، يقع « مطبخ عامرة » المطبخ الهمايوني ذو

الـ 20 مدخنة . ويشاهد بعد مسافة ، علي اليسار ، البناية المسماة « قبّة آلطي » (تحت القبة) . إن الصالة الصغيرة في هذا البناء ، وجّهت السياسة العالمية لعصور طويلة . إذ إن مجلس الوزراء الإمبراطوري المسمى ديوان همايون ، كان يجتمع فيها .

الباب الثالث ، يسمي باب السعادة . ومنه يجتاز إلى الفناء الثالث . وسماه الشعب أيضًا « آق أغالر قابوسي » (باب الأغوات البيض) حيث كان يحرسه في وقت ما الخصي البيض . وأغا (آمر) باب السعادة ، هو موظف السراي بدرجة وزير وكان رئيسًا للخصيان البيض ، ألغيت هذه الوظيفة وترك استعمال الخصيان البيض . وتوجد مقابل الباب تمامًا ، غرفة القبول التي تمسى « عرض أوده سي » . وهي صالة صغيرة وضع فيها العرش ، يقابل فيها البادشاه رجال الدولة والسفراء بصورة رسمية . ويشاهد خلفها مكتبة السلطان أحمد الثالث ثم جناح البردة الشريفة الذي يسمى « خرقه سعادت » ، جناح الخزينة وفي النهاية الحرم الهمايوني .

إن غرفتين من غرف دائرة الخزينة الهمايونية كانت مكدّسة بالأشياء التارخية والجواهر . كانت تختم بختم يلووز العقيق .

يحتوي الحرم الهمايوني على 380 غرفة وصالات عديدة . تخطيطه كأنه متاهة معقدة ، الصالات ، المماشي الدهاليز ، الممرات السريّة والظاهرة ، السلالم ، الحمامات كدّست الواحدة فوق الأخرى . مدخل الحرم ، يقع خلف بناية « قبة آلطي » ويطلق عليه اسم « عربة قابوسي » ، أي باب العربة . كانت السلطانات وزوجات البادشاه يركبن العربة من هذه الباب ويذهبن إلى المدينة . ومن المدخل المسمى « دولابلي قبه » ، يجتاز إلى الميدان المربع الشكل المسمى « فسقية لي آولو » أو « شادروانلي آولو » أي الفناء ذا الفسقية . وتقع « كوله قابوسي » (باب البرج) علي اليمين ، وبعد مسافة وجيزة ، يشاهد أحد جوامع السراي المشتمل على عدد من الجوامع . ويجتاز من باب البرج إلي برج العدل « عدل كوله سي » (42 م) يرتقى بواسطة 105 سلالم .

وبعد الممر الذي يلي « برده قابوسي » ، يظهر حمّام أغوات الحرم ، مدرسة الشهزادات ، أجنحة باشصاحب ، باشخزينة دار أغا ، الغرف والأجنحة الخاصة بأغوات الحرم ، ثم الطريق الذهبي ، ومنها إلى أرضية الوالدة ، ثم إلى جناح الجواري

المستجدّات وبعد النزول من اليمين من السلالم الحجرية ، ينتقل إلى رواق يحتوي على 25 عمودًا من المرمر ، جناح ولي العهد ، صالة هنكار ، صالة مراد الثالث من صنع المعمار سنان ، مكتبة أحمد الأول ، صالة الفاكهة لأحمد الثالث ، حمّام الهنكار ، شقة والده ــ سلطان ، الأرضية ذات الحديقة المعلقة والفسقية ، كشك عثمان الثالث ، صالة الموسيقي لسليم الثالث ، حوض الجاريات . شقة ولي العهد ، ذات ثلاثة طوابق وقصرين . تستمر بعد ذلك صالة المابين ذات المرايا لعبد الحميد الأول والحرم الهمايوني . سميت الصالونات باسم « أوده » . والغرف الاعتيادية التي تسمى « حجرة » ، ليس لها أسماء . ولا حاجة لوصف وتعداد أكثر مما سبق .

شيد جناح الأمانات المقدسة الذي يحتوي على البردة الشريفة ، السلطان ياووز سليم ويتكون من 4 صالات ثلاث منها مفتوحة اليوم للزوار . أما الصالة التي تحتوي علي البردة الشريفة ، فتفتح حاليًا لحكام المسلمين فقط . وخلال المدة التي تنحصر بين فتح السلطان ياووز سليم لمصر وعودته إلي استانبول في 25 تموز 1518 وإلغاء الخلافة في 3 آذار 1924 ، (405 سنوات و7 أشهر ، 9 أيام ، دقيقة واحدة وثانية واحدة) ، قرئ (*) القرآن خلال هذه لمدة في هذا الجناح من قبل 24 حافظًا ويوميًا 24 ساعة دون انقطاع ولا ثانية واحدة . يصف أكبر شاعر في العصر ، هذا التقليد المهيب بهذه الجملة « أحد الأسس المعنوية للدولة التركية » (يحيي كال ، 120, Aziz Islambul) .

يحوي جناح « خرقة سعادت » (البردة الشريفة) الذي يحمل اسم البردة ، بردة الرسول ﷺ ، علم الرسول المسمى « سنجق شريف » (الراية الشريفة) ، سيف واحد لكل من الرسول ﷺ ، عمر (رضي الله عنه) ، عثمان (رضي الله عنه) ، قوس الرسول ﷺ وحاجيات أخرى للرسول والخلفاء الأوائل . جلب ياووز قسمًا منها من القاهرة وقسمًا منها ، سلّمه إلي ياووز شريف مكة الذي جلبها إلى القاهرة ، وقسمًا آخر جلب في الحرب العامة من المدينة ومن الروضة المطهرة ، وقسمًا منها تم الحصول عليه في أوقات مختلفة ومن أماكن مختلفة . توجد في استنبول بردة أخرى للرسول ﷺ ، تسمى « خرقة شريف » ، شيد جامع للحفاظ علي هذه البردة . تعرض علي المسلمين ، ليلة واحدة في السنة ، دون فتح صرتها (البقجـة) .

(*) حسب معلومات مؤلف هذا الكتاب شرع اليوم في قراءة القرآن الكريم بصورة مستمرة في جناح البردة الشريفة ، وإضافة إلى ذلك فتح محفل الهنكار والسلطان ، في جامع آيا صوفيا للعبادة

البردة الشريفة « خرقة سعادت » موضوعة وسط شبكة فضية مذهبة وداخل صندوق من الذهب الخالص داخل 40 طبقة من الصرر . الصندوق ، موضوع فوق مائدة فضية مطلية بالذهب . إن القناديل الموجودة في السقف ، من الذهب الخالص المرصع بالجواهر بصورة كثيفة . عدد السيوف العائدة لكبار رجال الدين ، 21 . أجربة السيوف صنع عثماني ، وكلها ذهب مطعّم بالجواهر .

توجد أكشاك كثيرة متناثرة ، في سراي طوبقابو وكلها آيات في الفن العماري . إن الكشكين اللذين شيدهما مراد الرابع ، كشك روان بمناسبة فتح روان عام 1635 ، وكشك بغداد بمناسبة فتح بغداد 1639 آثار كأنها قطع من الجنة . إن آخر بناء شيّد ، هو قصر مجيدية للسلطان عبد المجيد (1839 – 1861) وهو كبير بدرجة سراي مستقل . إن « جينيلي كوشك » (الكشك الخزفي) الشهير الذي شيّده فاتح ، أقدم شاهد للفن العماري المدني العثماني الذي صمد حتى يومنا هذا .

سراي طوبقابو ، مشهور كذلك بما يحويه من مجموعات . وتأتي على رأسها الخزينة . عرض قسم صغير من الجواهر الباقية في الخزائن المحفوظة في المخازن . المجموعات الأخرى كذلك ، على نفس الوضع ، لا يوجد مكان كاف لعرضها جميعًا . ألوف من القطع ، عرش ذهبي مرصّع ، عرش يدعى « عرش شاه إسماعيل » لكنه في الأصل ، يعود إلى بني تيمور في الهند ، عرشان يعودان إلى أحمد الأول ومراد الرابع ، حاجيات مختلفة مرصعة ، زمرد ولؤلؤ ملء صناديق ، ماسة قاشقجي الشهيرة 85 قيراطًا ، زوج من الماثلات (شمعدانات) تحوي كل منهن قطعًا من البرلنت (الماس) عددها – بقدر عدد آيات القرآن – 6282 قطعة (أمر السلطان مجيد بصنعها عام 1841) ، حاجيات لبس وركوب مرصعة ومشغولة بالجواهر ، الجواهر زينة ، أسلحة .

واشتهر سراي طوبقابو كذلك ، باحتوائه على أغنى مجموعة في العالم من الخزف (البورسلان) الصيني الذي جمعه السلاطين 700 10 صحن خزف صيني ، 000 4 منها « Seladon » ، بينها صحون مرصعة . وفيه كذلك أكبر مجموعة من الخزف (البورسلان) الاستانبولي ، البلّور ، جشم بلبل (عين البلبل) . مجموعة الأسلحة التي يحويها ، ليس لها مثيل . وإلى كل ذلك ، يمكن إضافة طقم ملابس واحد على الأقل

لكل بادشاه ، شارات رأس للسلاطين مرصعة ، أوسمة ، وأخيرًا ، أعظم الكتب الإسلامية المخطوطة قيمة في العالم وصورها « Miniature » ، ومذهباتها ، آلاف الكتب مع جلود بعضها المرصعة ، أرشيف لا يمكن أن يقدر بثمن . سيوف القانوني (عددها 29) وهو أكثر من له سيوف في السراي 6 سيوف لابنه بيازيد الثاني وسيف واحد لياووز . إن المجموعات المشتملة على 000 11 قطعة سلاح و 347 ساعة ، لا مثيل لها . توجد مجموعة أسلحة غنية جدًا كذلك - لكنها ليست ذات مجوهرات - في المتحف العسكري . ويجب إضافة 000 2 لوحة لأشهر الخطاطين ، وإضافة إلى كل ذلك ، توجد في السراي عدة مكتبات مليئة بالكتب المخطوطة . وأكثر الكتب قيمة ، 2367 كتاب محفوظة في مكتبة الخزينة .

9 - سراي أدرنة الهمايوني :

سراي البادشاه الذي حصل على شهرة تقارب سراي طوبقابو في الفترة الكلاسيكية ، هو سراي أدرنة الهمايوني . ولكون أدرنة أصبحت مدينة العرش خلال الفترة 1402 - 1453 ، توسع كثيرًا سراي إدرنه الذي كان موجودًا منذ 1362 . لكن التوسعة العظمى بعد 1453 وكانت في النصف الثاني من العصر 17 . مراد الثاني ، هو الذي بدأ بإدخال طراز البناء ذي الطوابق العديدة الذي لا يلائم كثيرًا طراز الهندسة المعمارية المدنية التركية وذلك بتشييده داخل مجمّع السراي قصر « جهانّما » المكون من 7 طوابق والمشهور بصالته ذات الحوض ، أكمل ذلك في 1453 . توسع على مر الزمن سراي أدرنة الهمايوني ، وغطى مساحة من الأراضي قدرها 000 000 3 م^2 أي ٣ كم^3 ، وأصبح ، أكبر حتي من سراي طوبقابو (رفعت عثمان **Edirne Sarayi** , 21) كانت الأراضي فيمدينة استانبول محدودة وذات قيمة ، ومن ثم فقد كانت أدرنة أكثر ملاءمة . السراي كان مكونًا من **75 قصر** ، وكشكًا وشقة (ولمعرفة أسمائها واحدًا واحدًا ، انظر **الكتاب نفسه** ، 52 - 5) . للسراي 17 بابًا تنفذ على المدينة (أسماؤها : انظر **الكتاب نفسه** ، 55 - ٦) . له 7 مساجد وجامع تقام فيه صلاة الجمعة (أسماؤها **الكتاب نفسه** ، 56) ، 22 حمامًا (**الكتاب نفسه** ، 56) كان له 6 جسور داخل أراضي السراي(ص 56 - 7) ، نفوسه 700 6 (ص 57) به 5 ميادين كبيرة (ص 62) ،

ومنها آلاي ميداني (ميدان ، ساحة المراسم) 000 43 ذراع مربعة . إن مساحة عرض أوده سي (صالة الاستقبال) الكائنة في ميدان جهانّما التي يستقبل فيها البادشاه رجال الدولة والسفراء ، كانت تبلغ 5 . 30 × 5 . 23 ذراع . اشتهر قصر جهانّما 000 1م^2 بشرفته الكائنة في طابقه الأول والتي تبلغ مساحتها 600 م^2 . كانت مساحة « قوم قصري » (قصر قوم) الذي شيّده فاتح ، 600 م^2 . كان جناح دار السعادة مكونًا من 8 غرف ، حمام واحد ، مساحته 28 x 20 ذراعًا . جناح الوالدة تارخان سلطان بطابقين ، ذو ديوانخانه (صالة القبول) كبيرة ، 9 غرف كبيرة ، حمّامه ذا حوضين ، وله مطبخ خاص و 9 غرف ، وأخرى مجاورة وصالتان مخصصتان لجواري الوالدة ــ سلطان .

إن مساحة حمام السلطان الذي شيده المعمار سنان تبلغ 625 م^2 . كان ارتفاع قصر ترازو الذي شيده القانوني بواسطة المعمار سنان أيضًا ، يبلغ 60 / 21 م .

بقي في حوزتنا اليوم من سراي أدرنة ، الشيء اليسير . بقي السراي تحت إشراف بوستانجيلر (حراس السراي) لتركه وعدم سكنى السلاطين له بعد 1703 ، أصابه الضرر في احتلال 1828 الروسي . أما في احتلال 1878 الروسي ، فقد تلف . وتلف سراي مانيسا الهمايوني كذلك لعدم سكناه من قبل أي أحد من الأمراء ولاة العهد بعد 1595 .

وعدا ذلك ، كانت توجد سرايات مخصصة للبادشاه في المدن كقونية ، حلقه لي ، بلغراد ، سمندره ، نيش ، Filibe, Dimetoka ، صوفيا ، بودين ، سلانيك ، يانبولو ، جورلو .

أما في استانبول ، فكانت فيها سرايات كثيرة خاصة بالبادشاه وأهم هذه السرايات التي يمر بها السلاطين بصورة أكيدة أثناء ذهابهم إلى أدرنة ، هي سراي داود باشا ، حدائق إسكندر جلبي الخاصة وقصره في فلوريا ، نشاط آباد في أورطه كوي ، كولشن آباد في جراغان ، همايون آباد في ببك ، مهر آباد في مرتفع قانليجة ، أمن آباد في فندقلي ، فرح آباد بين جنكلكوي وبكلر بك ، شوكت آباد في استافروز ، سراي إسكدار ، شرف آباد في شمسي باشا . وأخيرًا يجب ذكر المجموعة الكائنة في محيط قصر سعد آباد التي سكن فيها أحمد الثالث في دورلاله (171 ــ 1730) مدة طويلة . أما عدد

الحدائق الخاصة التي تشتمل على قصر واحد فهي كثيرة . وهي الأماكن التي يمر بها البادشاه للاستجمام والكائنة داخل الحدائق الكبيرة ، داخل بساتين الفواكه والخضراوات ، في أشهر الصيف ، البعض لمدة أسبوع أو أسبوعين ، أو ليوم أو يومين ، والبعض لعدة ساعات فقط . إن السرايات الصغيرة التي يمر بها السلطان فقط دون أن ينام فيها ، تسمى « بينيش قصري » . يمكن في هذا المجال ، ذكر قصر قلندر الكائن علي مرتفع في طرابيا ، قصر انجيرليكوي الذي شيّده القانوني ، قصر طوقات الذي شيده فاتح في هنكار اسكه سي . قسم قصور صيد . وأحد أكبر هذه القصور ، هو كشك اسكندر سراي همايون الذي انمحي في العصر 19 . وبالطبع فإن أكبرها ، كان السراي القديم أيضًا . لكن محمود الثاني ، أعطي هذا المكان إلى السرعسكرلك (القيادة العسكرية) في 1826 . واستعمل حتي نهاية الإمبراطورية (1922) ، قيادة عامة – نظارة الحربية . ثم أصبحت البناية المركزية لجامعة إستانبول .

سكن السلاطين مدة قصيرة في سراي طوبقابو بعد عام 1808 . لم يستحسن محمود الثانيْ ، السكن في هذا السراي . أقام منذ عام 1839 حتي وفاته في سرايات دولمة بقجه ، بكلربكي ، جراغان اللواتي لم يكن يحملن الأسماء ذاتها التي يحملنها اليوم . السرايات التي كانت موجودة في عرصاتها ، كانت خشبية على الأكثر . كان يطلق على سراي دولمة بقجه بشكتاش سراي همايوني ، وعلى سراي جراغان أوطه كوي همايوني . عاش ابنه عبد المجيد الأول (1839 – 1861) مدة من الزمن في هذه السرايات ، ثم شيد سرايات حديثة على الطراز الأوروبي مكونة من بناية حجرية رئيسية والتي يأتي على رأسها سراي دولمة بقجه . وانتقل إليه .

10 – سراي دولمة بقجه الهمايوني :

إن عرصة سراي دولمه بقجه ، كانت في حينها بحرًا ، وكانت قطعة من المضيق . ردمت في 1614 بأمر أحمد الأول . استمرت عملية الردم سنوات طويلة وتمت قرابة عام 1620 . وبناء على ذلك ، كان المضيق أصلاً في هذا القسم أعرض بكثير مما هو عليه الآن . شيّد عثمان الثاني هنا حديقة خاصة ، تحتوي على قصر . شيّد محمود الثاني (1808 – 1839) مكان هذ القصر سرايا حشبيا كبيرا وسكن فيه أكثر أوقاته ، إن

هذا السراي الذي كان بعض أقسامه من الحجر ، كان يسمى « سراي دولمة بقجه الهمايوني القديم » أو « سراي بشكتاش الهمايوني » . سكن ابنه ، السلطان عبد المجيد فيه كذلك ثم هدمه وشيّد مكانه السراي الحجري الحالي العظيم . كمل البناء عام 1855 . أطلق عليه اسم « سراي بشكتاش » . لكن عندما استمر الشعب على تسميته « دولمة بقجه سرايي » وأصر على ذلك تقررت تسميته بهذا الاسم . وسبب تسمية الشعب له باسم دولمه بقجه (الحديقة المردومة أو المحشوة) هو أن أراضي هذا السراي كانت في حينه بحرًا وحصل عليها بواسطة حشو البحر بالتراب .

ثم صرف مبلغ ثلاثة ملايين ونصف مليون ليرة ذهبية ، لتشييد السراي ، وصرف أكثر من ذلك على مفروشاته . إن السراي الذي يستند على رصيف مرمري طوله 600 متر ، شيّد من حجر أبيض جميل جدًا جلب من جزيرة مرمره . يطل القسم الخلفي كاملاً على البحر . والقسم الأمامي يشرف على بشكتاش والجنوبي ، على « قبه طاش » ، شيّد هنا برج ساعة ظريف وعلى مسافة قريبة منه جامع دولمة بقجه المطل على البحر الذي شيّدته « بزم عالم » والدة ـ سلطان ، والدة السلطان عبد مجيد . البناية الأصلية ، شيّدت على قطعة أرض مساحتها 16670 م^2 . الأبنية الأخرى صغيرة . صنع القسم الداخلي من المرمر المسمي (صو مرمري) ومرمر السوماكي (المرمر الملون) . باب السلطنة يشرف على الشارع العام وهو بوابة عظيمة . كانت البوابة الجنوبية الكبيرة التي تقع في جهة الساعة ، خاصة بالزوار . وتوجد 10 أبواب فرعية بعضها تشرف على جهة البحر . أثث جميعه بشكل فائق . كان البادشاه يستعمل الصالة الزرقاء الكبري والتي تحتوي على أرغن ضخم لقبول تهاني النساء في العيد بعد انتقاله إليها من صالة المعايدة التي يتقبل فيها تهاني العيد مرتين في السنة . معايدة النساء ، كانت تجري على هذا الشكل والترتيب ، أولاً السلطانة ـ الوالدة ، 4 من زوجات البادشاه (قادين افندي) ، السلطانات (كريمات البادشاه) حسب تسلسل أعمارهن ، 4 « إقبال (الأربعة الثانية من زوجات الباشاه) ، حفيدات البادشاه (خانم ـ سلطان) ، ويليهن زوجات الصدر الأعظم ، شيخ الإسلام ، النظار ، الوزراء والمشيرون والقضاة العسكرون ونسوة رجال الدولة الآخرين كنّ يعايدن على البادشاه دون تغطية وجوههن ودون تقبيلهن العرش وغطاءه ، كن يحيّين البادشاه الذي يقف على قدميه بأصول »

التحية من الأرض » وذلك بخفض أيديهن اليمني حتي الأرض ثم رفعها إلي رءوسهن . والمعلوم أن جميع السلاطين الذين تولوا السلطنة خلال العصرين 19 و 20 ومن بينهم السلطان عزيز ، أكثرهم جدية ، عاملوا زوجات الوزراء ورجال الدولة برقة متناهية . أن معايدات النسوة هذه ، كانت تديرها وتقوم بتنظيمها وتقديم السيدات واحدة واحدة إلي البادشاه مع ذكر أسمائهن وصفات أزواجهن ، الباشخزينة داراسطه .

أما صالة المعايدة التي يتقبل فيها البادشاه على عرشه الذهبي وبمراسم دولية كبيرة معايدات الرجال مرتين في السنة ، فهذه الصالة ، هي إحدى أعظم وأشهر صالات العالم . مساحة الصالة 250 2 م^2 . ارتفاع سقفها الذي يستند على 56 عمودًا ، 36 مترًا . إن إحدي الثريات الـ 36 البلورية التي تضيء الصالة ، هي الثريا البلورية المدلاة وسط الصالة تمامًا والتي تزن 5 . 4 طن المشتملة على 750 شمعة . إن قيمتها المادية عدا قيمتها التاريخية تعادل 5 ملايين دولار . إن مجموع المصابيح الكهربائية التي تضيء صالة المعايدة هي 500 4 . افتتح عبد الحميد الثاني مجلس النواب الأول في هذه الصالة (19 / 3 / 1877) . الصالة مربعة الشكل تقريبًا وتقع وسط السراي تمامًا .

إن ارتفاع برج الساعة الذي شيد أخيرًا (1860 – 1863) ، 27 مترًا وهو مربع الشكل . إن مسرح السراي الشهير ، حول بعد ذلك إلي اسطبل خاص . إن أكثرية السجاد من صنع تركي هركه Hereke ولا يقدر بثمن . المزهريات التي تبلغ ارتفاعها القامة البشرية ، صنع الصين ، يثلدز ، فرنسا ، ألمانيا (Sèvres, Dresden) بالساعات المختلفة الأحجام التي تشاهد في كل مكان والمزهريات كلها ذات قيمة كبيرة . إن الساعة الموجودة في الصالة الكبرى مصنوعة من 80 كغم من الفضة الخالصة السميكة ، هي هدية الخديو إسماعيل باشا إلي عبد الحميد الثاني في 1877 تقريبًا ، سلالم السراي الخمسة الرئيسية المزينة بالكرات البلورية مشهورة كذلك . البناية الرئيسية تحتوي على أكثر من 200 غرفة .

قضى عبد المجيد الأول الأعوام الستة الأخيرة من حياته في هذا السراي . ثم أقام فيه أخوه السلطان عبد العزيز (1861 – 1876) ولكن كان يقيم بين الحين والآخر في سراي جراغا وبكلربكي . أقام فيه مراد الخامس مدة 3 أشهر (1876) . أما أخوه

عبد الحميد الثاني الذي أخذ مكانه ، فقد أقام فيه عدة أشهر ثم تركه ، وانتقل إلي سراي ييلدز . كان يحضر مرتين في السنة لتلقي المعايدة ويعود دون أن يمكث فيه أبدًا ولا ليلة واحدة . إن النفور الذي أبداه جده محمود الثاني تجاه سراي طوبقابو ، أبداه هو كذلك – وله الحق في ذلك – تجاه دولمة بقجه . إقام أخوه محمد رشاد الخامس (1909 – 1918) في دولمة بقجه أكثر مما أقام في ييلدز ، ثم أقام محمد وحيد الدين السادس (1918 – 1922) في ييلدز أكثر من إقامته في دولمة بقجه ، أما الخليفة الأخير عبد المجيد الثاني (1922 – 1924) ، فقد سكن في دولمة بقجه . أعطيت إدارة السرايات في عهد الجمهورية إلي المجلس الوطني التركي . أقام في دولمة بقجه أول رئيسي جمهورية لمدد قصيرة ثم لم يسكنه أحد ، رغم أنه مفروش بشكل كامل كساري بكلربكي .

11 – سراي جراغان الهمايوني :

يقع سراي جراغان في أورطة كوي على الساحل الأوربي من المضيق بالقرب من شمال دولمة بقجه . كان في هذا الموقع أحد السرايات الساحلية ، كان خشبيًا يرتاده سليم الثالث ومحمود الثاني في أوقات الصيف ويمكثان فيه مدة ليست قصيرة . وسّع محمود الثاني السراي في 1839 ، لكنه توفي بعد مدة وجيزة . أقام ابنه عبد المجيد الأول مدة طويلة في قسم الحرم من هذا السراي المكون من 5 أبنية واشتمل على صالة كبير ، 50 × 20 (1000م^2 وحديقة واسعة . وبعد أن تم تشييد سراي دولمة بقجه في 1855 ، هَدَم جراغان لبنيه مجددًا على الطراز الأوروبي ، لكنه توفي قبل بدء الإنشاء. تمكن أخوه عبد العزيز خان ، خلال 4 سنوات) 1861 – 1865) من تشييد سراي يفوق في عظمته ، ما تصوره أخوه الكبير . كان طوله من جهة البحر 750 م . أخذ يقيم في جراغان اعتبارًا من 1865 أكثر من إقامته في دولمه بقجه . وصرف لتشييده ، مبلغًا مساويًا تقريبًا للذي صرفه لدولمه بقجه . وعند خلع مراد الخامس 1876 بعد سلطنة دامت 3 أشهر ؛ خصص سراي جراغان لإقامته مع عائلته . عاش السلطان مراد 28 عامًا دون أن يخرج من سراي جراغان ، وتوفي فيه في عام 1904 . وأصبح سكنًا لابنه صلاح الدين أفندي حتى 1908 . وفي المشروطية ، خُصص لمجلس الأعيان ومجلس

النواب (14 / 11 / 1909) . أراد السلطان رشاد أن يحول دون ذلك ، لكنه لم يوفق . إن سرايا كهذا يحوي حاجيات ثمينة ، لا يصح جعله برلمانًا ، وإضافة إلي ذلك ، فقد جلبت من سراي ييلدز بعض الحاجيات الثمينة ووضعت فيه فأصبح أعظم برلمانات العالم أناقة . إلاّ أن السراي احترق بعد شهرين بشكل غامض يوم 19 ك 2 / 1910 وكانت قد نقلت إليه قبل عدة أيام مجموعات من سراي طوبقابو . بقيت الجدران فقط . وحاليًا هو كذلك . كان مليئًا بالحاجيات المتحفية ولم ينقذ منه شيء ، ومن المؤكد أن الحريق كان متعمدًا .

12 ـ سراي ييلدز الهمايوني :

سراي « ييلدز الهمايوني » في التاريخ ، يعني « عبد الحميد الثاني » . أصبحت كلمة « ييلدز » تستعمل مدة ثلاثين سنة من إلغاء المشروطية الأولي إلي إلغاء المشروطية الثانية ، بمعني نظام عبد الحميد . كما كان يقصد بكلمة « الباب العالي » ، الحكومة العثمانية ... إن الطاقم العظيم الذي تكوّن في سراي ييلدز خلال هذه المدة ، أنشأ لنفسه صلاحيات فاقت صلاحيات الباب العالي ، وأخذ يحكم الامبراطورية . أصبحت يـيلدز مدينة داخل مدينة كما كان الحال سابقًا في سراي طوبقابو ، وسراي ادرنه .

كان هذا السراي ، يتكون كذلك من أبنية متناثرة علي مساحة كبيرة من الأرض كما هي الحال في سراي طوبقابو . كان حوالي 000 500 م^2 . كان سابقًا حديقة أميرية تحتوي علي كشك . كان بعض السلاطين المتأخرين يترددون علي هذا الكشك المطل علي المضيق وبحر مرمره . أخرج محمود الثاني لعدة سنوات الوحدات الأولي من الجيش التركي الحديث إلي رامي في الشتاء ، وإلي حديقة الخاصة هذه في ييلدز لغرض التدريب وانضم إليهم بنفسه كضابط برتبة عقيد . لم يكن اسم السراي حينذاك ييلدز . وعتندما خصص السلطان عبد المجيد الكشك الموجود فيها ، لإقامة إحدي زوجاته من الدرجة الثالثة (كوزده) المسماة ييلدز خانم ، اطلق عليه اسم « ييلدز » ، والأصح أن هذا ما أراده الشعب الاستانبولي الولوع بإطلاق الأسماء علي كل شيء ، حسب ما يرغب ، وعندما جعل سرايا ، أصبح اسمه « ييلدز » بصورة رسمية . وبعد أن شيّد السلطان عبد العزيز (1861 ـ 1876) هنا أكشاك بيوك ما بين الذي يعتبر سرايا بحد ذاته ،

مالطه ، جادر ، وكشك جيت ، أصبح عدد الأكشاك الموجودة في الحديقة السلطانية الخاصة ، مع الأكشاك الثلاثة الموجودة فيها سابقًا سبعة ونظمت الحديقة على شكل منتزه (بارك) ، وأخذ يتردد عليها صيفًا ويقيم فيها .

وعند جلوس عبد الحميد الثاني في 1876 ، بعد إقامته مدة في دولمة بقجه ، انتقل إلي ييلدز لاشمئزازه منه بسبب مشاهدته فيه خلال 3 أشهر ، خلع عمه وأخيه الكبير ، وكذلك بسبب كون يلدز في منطقة أكثر حصانة ، (لم يسكن جراغان بسبب تخصيصه لأخيه الكبير) ، جعل منه مدينة عظمي لدرجة أنه أسس فيه معامل . ارتفع عدد نفوس سكان السراي إلى 000 12 . جعل مقر الفرقة الثانية الشهيرة التابعة للجيش الأول والمؤلفة من (15000 جندي ، على مقربة من السراي . شيد جامع ييلدز ، خارج السراي (1885 – 1886) ، أضاف بجانبه برج ساعة (1891) . شيد مسرح — أوبرا السراي . أسس مكتبة غنية جدًا ومجموعات غنية . وأرشيفًا . شيد حوضًا كبيرًا مساحته 000 240 م^2 كانت تسير بداخلة سفن صغيرة . الحديقة الخارجية ، هي اليوم بارك ييلدز . حديقة الحيوانات ، مستشفي الحيوانات ، محل ترويض الخيل وتعليم الفروسية ، حمام كبير ، 3 أكشاك ومرافق كثيرة أخري مهدمة حاليًا . أنتج معمل الخزف من 1896 إلي 1908 ، الحاجيات الخزفية ذات القيمة العالمية كالصحون والمزهريات ، المدافىء التي تتسابق المتاحف علي حيازتها ، وكان السلطان حميد يرسل الهدايا إلي الحكام الأجانب من منتجاته . أعاد بنك سومر Sumer Bank إحياء هذه المؤسسة عام 1962 .

وفي العهد الجمهوري ، أصبح قسم من السراي ، أكاديمية حربية . وخصص قسم منه لأمر المجلس الوطني التركي ، وقسم منه لأمر بلدية استانبول . كشك « شاله » الذي يعتبر سرايا مستقلا ، يحتوي علي 64 غرفة وصالة تخص المجلس الوطني التركي . مساحة صالته الكبر 29 × 14 (406 م^2) . سجاد أرضية الصالة قطعة واحدة مساحتها 406 م^2 ، (تزن 7 أطنان) ، صناعة تركية ، وهي إحدي أكبر وأثمن السجاد في العالم . له 4 أبواب من الصدف .

إن سراي ييلدز ، هو اسم القصبة التي تقع علي المضيق بين كوزكونجك في الجنوب

وجنكلكوي في الشمال . كان في هذه المنطقة سابقًا حدائق استافروس السلطانية الخاصة . وكانت إحدى مصايف السلاطين . كانت السلطانة الوالدة كوسم ماهبيكر ، قد ولدت مراد الرابع من صلب أحمد الأول في كشك حدائق استافروس السلطانية الخاصة (1612) . شيد محمود الأول بدلاً من قصر استافروس قصر فرحفضاء (1734) وعلى مقربة من شماله ، شيد قصر شوق آباد لأجل إقامةوالدته . وبدلاً من هذه القصور وفي الموقع نفسه ، شيد محمود الثاني (1808 – 1839) ، سراي استافروز الساحلي . سماه الشعب « سراي بكلر بكي » . أقام محمود الثاني وابنه عبد المجيد الأول ، مدة طويلة في هذا السراي والذي الجزء الأكبر منه خشبي . هدم السلطان عزيز (1861 – 1876) هذا السراي وشيد مكانه السراي الفخم الموجود الآن ، على الطراز الأوروبي . وأصلح جامع بكلربكي الذي شيده أبوه محمود الثاني . استفيد من أنقاض سراي بكلر بكي القديم الذي شيده محمود الثاني في 6 أعوام (26 – 1832) ، خلال إنشاء السراي الجديد (61 – 65) . كان السراي الجديد أصغر من القديم ، لكنه على الطراز المعماري الأوروبي ، بيد أنه لم يكن كبيرًا كسراي دولمة بقجه وسراي جراغان . يتكون من طابقين من الحجر الأبيض . يحتوي الطابق الأول علي 6 صالات كبيرة و 24 غرفة . الطابق الثاني هو الحرم . حديقته منظمة على شكل حواجز وطرابق . يحتوي علي حوض مساحته 70 × 40 (2800 م^2 وعمقه 20 . 3 متر . أقام السلطان عزيز في هذا المكان بعد صلاة الجمعة ومراسم قبول الجمعة (سلاملك) التي أقيمت في جامع بكلر بكي يوم 21 نيسان 1865 ، مدة من الزمن . اشتهر بصالته ذات الـ 16 عمودا من المرمر وحوضه . تحتوي أرضية الصالة على أحد أثمن أنواع السجاد في العالم .

خصص هذا السراي لعبد الحميد الثاني بعد إعادته من سلانيك في 1 / 11 / 1912 ، وتوفي 10 / 2 / 1918 ، بعد إقامته فيه مدة 5 سنوات ، 3 أشهر ، 9 أيام واشتهر بأنه استعمل غرفتين فقط من غرف السراي . خصص سراي بكلربكي علي الأكثر للضيوف الأجانب القادمين إلي استانبول ، وأشهر زيارة ، هي زيارة إمبراطورة فرنسا أوجيني Eugènie (ت 1 / 1869) .

14 – سرايات إستانبول الاخري لدور التنظيمات :

ومن بين سرايات السلاطين الأخري في دور التنظيمات ، يجب أن نذكر أولاً **سراي فرعية** ، شيده السلطان عزيز مجاورًا لسراي جراغان لإقامة من يريد من السلطانات (الأميرات) والشهزادات (الأمراء) . قسم منها الآن يستعمل كأحد أقسام ثانوية غلطة سراي . لم تبق له قيمة كسراي ، لاستخدامه لأغراض مختلفة . والمعروف أن السلطان عزيز ، عند خلعه ، جيء به من سراي طوبقابوإلي هذا السراي ثم قتل .

قصر بيكوز الهمايوني ، شيد هذا القصر الواقع على الساحل الشمالي من الجانب الآسيوي للمضيق ، والي مصر محمد على باشا وأهدي إلى السلطان عبد المجيد . داخل بستان مساحته 200 000 م^2 .

قصر جنكلكوي ، قصر مسلخ Maslak أو إيازاغا ، قصر باغلارباشي ، قصر جامليجه ، قصر أخلامور ، سراي فندقلي ، سراي أورطه كوي ، هي من أشهر السرايات الصغيرة لدور التنظيمات وجميعها داخل حدائق واسعة . أقام في أكثرها الشهزادات والسلطانات ولاة العهد .

قصر كوجوكصو الهمايوني ، ويقع في جانب الأناضول ، هو أحد لآلِيء المضيق . اسمه الأصلي « قصر كوكصو » . يقع بين أناضولي حصار وقنديلّي . تصب من هذه المنطقة إلى البوغاز ساقيتان جميلتان ، كوكصو وعلى جنوبه كوجوكصو . شيد بقصر داخل مرعي مساحته 840 000 م^2 . هدمه السلطان مجيد عام 1857 وشيّد مكانه قصرًا أصغر منه . غيّر السلطان عزيز واجهته . وفتح المرعى الكبير للشعب بعد فصله عن القصر . هو قصر استراحة (بينيش) ولا يستعمل لأغراض الإقامة ، من المرمر . يتكون من طابقين فوق البدروم . كل طابق يحتوي على صالة وأربع غرف . بجانبه حنفية (جشمه) سليم الثالث الرائعة ومسجده ، هدم المسجد عام 1956 .

قصر عينه لي قاواق الهمايوني ، وهو ما تبقي حتي يومنا هذا من **سراي ترسانة الهمايوني** القديم . يقع على الخليج في قاسم باشا . داخل حديقة سلطانية خاصة وقريبًا من القيادة البحرية العليا (قبطان دريالك) . ولد السلطان إبراهيم من صلب أحمد الأول

والسلطانة كوسم ماهبيكر ، في هذا السراي (1615) . كان في هذه الحديقة آنئذ 12 000 شجرة سرو وأشجار مشمش وخوخ تعطي فاكهة ممتازة جدًا ، يعنى بها 300 بستاني وتصاد هنا بعض الأسماك وأنواع المحّار الذي يحاج إليه السراي . كانت الحديقة السلطانية الخاصة 9 000 ذراع مربع والسراي 15 000 ذراع مربع تقريبًا . له جامعان . إن الديوانخانه (صالة الاستقبال) التي يقابل فيها البادشاه الضيوف ، تبلغ مساحتها 979 ذراعًا مربعة وتحتوي على تخت (ديوان) سماه الشعب « آينالي قاواق سرايي « اي » سراي قاواقِ ذو المرايا » فور وضع المرايا العمودية العظمي ، على جدرانها لمختلفة التي أهداها رئيس جمهورية وقائد عام البندقية عام 171& ونسي اسم ترسانهسراي . أعطي سليم الثالث في 1808 القسم الأكبر من السراي والحديقة السلطانية الخاصة إلي البحرية ومعمل المراكب ، بقصد تأسيس بحرية حديثة . ثم وضعت البحرية بعد ذلك يدها علي أقسام السراي الأخري عدا الديوانخانه (صالة الاستقبال) الشهيرة . وفي 1876 اجتمع مؤتمر ترسانة في هذه الصالة . وفي 1924 اجتمع المؤتمر التركي ــ الإنكليزي حول مسألة الموصل في هذه الصالة كذلك وانفض مثلما انفض مؤتمر ترسانة دون أن يحقق نتيجة .

15 – أندرون همايون :

« اندرون » كلمة فارسية تعني القسم الخارجي من الشيء وهي عكس الكلمة « بيرون » ومن 1453 حتى 1826 كان لفظ « اندرون همايون » يطلق على مجموعة المؤسسات الكائنة في قسم السلاملك (المحل الذي يسمح لدخول الرجال به) من السراي . ويطلق على مرافق السراي التي تعمل خارج هذا المحل « بيرون همايون » أما المرافق الداخلية جدًا والتي يسكن فيها النساء ويرقد فيها البادشاه فتسمي « حرم همايون » .

الاندرون ، كان مشهورًا بجامعة السراي المسماة « مكتب اندرون » . كانت هذه الجامعة مكونة من قسمين ، قسم الأكاديمية الحربية – العلوم السياسية وأكاديمية الفنون الجميلة . وكان القسم الأول يخرّج الضباط لخدمة البادشاه والسراي وبعد أن يخدم مدة في السراي ، ينقل إلى الخارج للخدمة في الأماكن المختلفة . أما أكاديمية الفنون الجميلة ،

فكانت تخرّج فنانين للسراي . كانت تحتوي على أعظم مدرسة لتعليم الموسيقى وأعظم هيئة موسيقية .

لا يقبل الطلاب رأسًا ، في اندرون سراي طوبقابو . يقبل فيها من أنهى مرحلة مدارس السراي العسكرية المتوسطة الدرجة . أما بالنسبة لقسم الفنون الجميلة ، فيقبل الطلاب الذين تكون لديهم استعدادات فنية فوق العادة وإن كان قد شوهد أحيانًا قبول الأولاد الصغار للفنانين رأسًا إلى التحصيل الابتدائي .

كانت المدارس العسكرية ذات الدرجة المتوسطة التي ترسل متخرجيها إلى الاندرون هي : سراي غلطة ، سراي إبراهيم باشا في سلطان أحمد ، السراي القديم في بيازيد ، سراي اسكندر جلبي وسراي ادرنه في ادرنه . فمثلاً كان في سراي غلطه في 1802 ، 5.3 طلاب (أرشيف رئاسة الوزارة ، سراي ، 5354) . لا يحق لجميع المتخرجين ، الدخول إلى الاندرون وإنما يلتحق بها فقط الممتازون جدًا منهم ، والآخرون يصبحون ضباطًا برتب صغيرة ويدعون بالخدمة الفعلية .

تنقسم الصفوف في الأندرون التي تسمى « أوده » ، إلى 6 . أسماء هذه الغرف أو الردهات من الأدنى إلى الأعلى كما يلي : 1 – الصفوف الكبيرة والصغيرة . 2 – غرف الدوغانجي . 3 – غرفة السفرلي . 4 – غرفة الكلر . 5 – غرفة الخزينة . 6 – غرفة الخاصة .

وفي الوقت الذي يخدم فيه الطلاب السراي والبادشاه من الناحية العملية ، كانوا من ناحية أخرى ، يتلقون الدروس التربوية والتعليمية . يعتبر تعليم الأندرون هذا ، من أهم مؤسسات الدولة العثمانية وأهم مؤسسة للتحصيل العالي عدا تحصيل العلوم الدينية . ينتقي من بين الذين أنهوا مدارس السراي المتوسطة ، ذوو الأخلاق ، الذكاء ، الإمكانات ، المعلومات ، التربية ، الاستعداد ، السلامة من العاهات البدنية ، المهارة ، وينقلون إلى غرف الاندرون الصغيرة والكبيرة . كان أولاد موظفي السراي الكبار غير المتخرجين من مدارس السراي والذين أكملوا الدراسة نفسها في بيوت آبائهم ، يؤخذون للاندرون بإرادة البادشاه . « هاتان » الغرفتان « اللتان تحتويان على ما يقارب 400 طالب ، كانتا بمثابة صفوف تحضيرية للصفوف الأعلى منها . كانوا يتعلمون قواعد

السراي ، الرياضية ، استعمال الأسلحة ، الفروسية . ألغي هذا القسم التحضيري في 1675 لانتفاء الحاجة إليه . الذين حصلوا على هذه لمهارات والذين درسوا العلوم الدينية ، العربية والفارسية بدرجة كافية ، ينقلون فورًا إلى الردهة (الصف) المسماة « سفرلي كوغوش » . لأن صف الدوغانجي ، كان قد ألغي بالتاريخ نفسه . وبناء على ذلك ، أصبح آلاندرون عام 1675 ، عبارة عن الصفوف الأربعة الأخيرة (سلاحدار 648, 1) . طلاب الغرف الصغيرة والكبيرة كانوا مرشخين لأن يكونوا ضباطًا وكانوا يتقاضون خلال خدمتهم ودراستهم مبلغ 864 دولارًا شهريًا بالسعر الحالي .

غرفة سفرلي ، أسست عام 1635 وألغيت في 1831 . وفي 1675 نقلت إلى الأندرون وأصبحت المرحلة الأولى لتحصيل الشباب بصورة رسمية . عدد طلابها في (1772) ، 149 (عطا بك **تاريخ أندرون** ، 1 ,154) كلهم كانوا بدرجة ملازم . رئيس الدائرة ، عسكري بدرجة عقيد يسمي « سراي كتخداسي » وتحتوي الدائرة عدا المدرسين على 12 ضابطًا من الرتب الصغيرة و 4 ضباط من الرتب الكبيرة ، يقومون بتدريس الدروس العسكرية . وكان يقوم بتدريس الدروس العلمية ، مدرسون يأتون من الخارج . كان الطالب ، يقوم كذلك أثناء تلقيه العلوم ، بخدمات تتعلق بأمور ملابس وحمام البادشاه . الذي يتخرج من غرفة السفر ، إما أن يرفع إلى غرفة الكلر ويستمر في تحصيله ، وإما أن يتخرج من السراي ويصبح ضابطًا في الجيش .

غرفة الكلر (كلمة تعني مخزن الأرزاق) ، كانت إدارة هذه الغرفة بيد العقيد المسمي كلرجيباشي . عدد طلاب هذه الغرفة عام (1772) ، كان 144 ضابطًا . كانوا في نفس الوقت نفسه يعنون بأمور مخزن البادشاه ، مائدته ، طعامه . 7 ملازم أول ، 15 نقيبًا ، كانوا تابعين لإدارة كلرجيباشي (تاريخ اندرون 1 ,165) .

غرفة الخزينة ، هي كغرفة كلر وغرفة الخاصة أسسها فاتح . عدد طلبتها في (1772) ، كان 157 طالبًا . رئيسها اللواء العسكري للسمي خزينة دارباشي . مصانع السراي التي يعمل بها 2 000 عامل وماهر ، تحت مسئولية هذا الجنرال . يخدم في هذا القسم 5 ضباط بدرجة عقيد . يحافظون على خزينة البادشاه . سوف يأتي شرح ذلك فيما بعد .

16 ــ **الغرفة الخاصة . خاص أوده باشي وسلاحدار .**

أعلى مراتب تشكيلات الاندرون هي الغرفة الخاصة ، إن جميع منتسبي الاندرون م الذين يقومون بتحصيل العلوم العالية ويعملون في الوقت نفسه ، هم برتبة عقيد . يقدّم إلى البادشاه شخصيًا كل ضابط دخل الغرفة الخاصة ، كان البادشاه يختبر إخلاص كل واحد منهم . أديرت الإمبراطورية لعصور طويلة من قبل الوزراء من متخرجي الأندرون . لا يجوز لأحد أن يتكلم بصوت عال في السراي ، خاصة في الأندرون . كل شيء كان رهينًا بقاعدة . من النادر أن يخرج الضباط الصغار إلى المدينة ، وإذا خرجوا فإنما يخرجون تحت إشراف أغواتهم (رؤسائهم) . يجوز للضباط متوسطي الرتب الخروج إلى المدينة مرة واحدة في الأسبوع ، إلا أن الضباط ذوي الرتب العالية يمكنهم الخروج مرة واحدة في الأسبوع وقضاء الليلة في بيوتهم . لا يجوز زواج الضباط ذوي الرتب الصغيرة ، يجوز للذين لا يريدون اتباع هذا النظام ، ويرغبون في والزواج ، أن يطلبوا نقل خدماتهم إلى خارج السراي . كانت تعطي لهم الواجبات حسب درجاتهم .

وعندما فتح محمود الثاني الكلية الحربية ، ألغى الاندرون والمدارس العسكرية الأخرى في 1833 واكتفى بالحفاظ على قسم الموسيقي ، وحتى هذا القسم أخذ يتضاءل علي مر الزمن .

17 ـ **الخزينة الهمايونية :**

الخزينة الهمايونية التي سميت « خزينة خاصة » في دور التنظيمات ، هي خزينة البادشاه الشخصية ، وهي دراهمة النقدية الذهبية والفضية وجواهره. أما في نظارة الخزينة الخاصة ـ التي ناظرها ليس عضوًا في الوزارة ـ التي أسست بعد دور التنظيمات ، فقد اتسع مفهوم الخزينة الخاصة وامتد ليشمل جميع الأموال غير المنقولة للبادشاه كالأراضي والمزارع .

الخزينة قسمان : الدراهم النقدية والحاجيات . الحاجيات هي الجواهر والتحف التي لها قيمة مادية وتاريخية كبيرة والتي كانت تجمّع في غرف معينة من سراي طوقابو كذكرى ، وهي تشكل أساس المتحف والفن المتحفي . لاتباع ، لا تصرف ، لا تهدى .

وهي في الحقيقة وبطبيعة الحال كانت ملكًا للبادشاه ، لا يوجد مانع من أن يتصرف فيها كما يشاء . إلاّ أن تبديد الحاجيات التاريخية كان يعتبر مخلاً بالشرف . لم يحاول أي بادشاه بعثرة الجواهر ، شارات الرأس ، الملابس ، السيوف وما شابه ذلك من حاجيات أجداده السلاطين وإخراجها من يده . أما النقود الذهبية والفضية المسماة « آقجه » فيصرفها كما يشاء ، يعطيها كإحسان أو عطية . إن جميع مصروفات السراي ، تسدد من الخزينة الهمايونية . كذلك إكراميات الجلوس . جميع موظفي السراي كانوا يتقاضون رواتبهم من هذه الخزينة . كانت الخزينة الخاصة تعطي المالية مبالغ كبيرة في الحروب الكبيرة وفي أدوار الأزمات ولا تستردها بعد ذلك . ولم يشاهد عكس ذلك ، لم يحدث أن أعطت المالية قرضًا إلى البادشاه .

المسئول عن صيانة الأثاث والأشياء التاريخية ضباط غرفة الخزينة في الاندرون ، كانت تحفظ في سراى طوبقابو في صالتين كل منهما ذات غرفتين ، أى كانت مجموعة في أربع صالات كبيرة . كل شيء كان مسجلاً في سجلين كبيرين . آمر الخزينة برتبة بكلربك (فريق أول) المسمى خزينة دارباشي هو المسئل عن غرفة الخزينة ، لا يفارق البادشاه ، سواء في الحرب أم في السلم . ومعاونه (خزينة كتخداسي) كان برتبة سنجق بك (لواء) . كان هو المسؤول عن غرف الخزينة الأصلية . لكن سجلات الخزينة ، كانت تحفظ لدى سلاحدار شهرياري أي القائد العام للاندرون .

لا تفتح الخزينة برغبة أحد ، عدا البادشاه ؛ كان يجب الحصول على أمر البادشاه الشخصي . لا يمكن لأي شخص على وجه الأرض أن يدخل دائرة الخزينة بمفرده ، عدا البادشاه . كان يدخلها 20 – 30 شخصًا دفعة واحدة وبمراسم خاصة . كان بإمكان البادشاه ، أن يدخل وحده .

ما هو مصدر دخل البادشاه ؟ خمس الغنائم ، كان تفرز للبادشاه ، يحول إلى عملة نقدية ويرسل إلى خزينة البادشاه . هذا حكم الشريعة . إن الرسول ﷺ أخذ الخمس من الغنائم . ورافد آخر يصب في خزينة البادشاه ، هو ريع الأراضي الخاصة للبادشاه والتي تسمى « خاصّ » وبشكل أعم « خواص همايون = الخواص العائدة للبادشاه » والتي يحصل عليها في الفتوحات . كانت خزائن سلاطين دور الفتوحات مليئة وتمكنوا

من تشييد آثار عمرانية كبيرة . ولفقدان السلاطين الذين أعقبوهم هذه الإيرادات لم يصبحوا مثلهم . لم يشيّدوا آثارًا أميرية بنسبة الذين سبقوهم .

يقدّر Du Loir الألماسة المثبتة على شارة رأس السلطان إبراهيم في مراسم تقليده السيف (1640) بـ 300 مليون دولار بالسعر الحالي (ص 126) ويسجل Tavernier (ص 129 وما بعدها) بأن ابنه محمد الرابع يملك 150 شارة رأس ذوات قيم مماثلة لتلك . وفي دور القانوني كدّست المسكوكات النقدية الذهبية والفضية في إحدى قلاع يديكوله ؛ لعدم توافر مكان لوضعها في سراي طوبقابو (نعيمًا ، 1 — 38) . ويسجل Lord Ricault سفير إنكلترا في استانبول ، أن البادشاه في العصر 17 كان يملك عشرات الألوف من قطع البورسلان (الخزف) الصيني يقدر سعر الواحدة منها بالسعر الحالي 000 40 دولار (1 -262) .

ويجب أن نسجل كذلك ، مع بالغ الأهمية ، الهدايا التي يرسلها الحكام الأجانب .

18 – مرافقو البادشاه وضباط خدمته وموظفو المابين :

في الفترة الكلاسيكية ، كان يطلق على موظف المابين (مابينجي) للبادشاه « قوبجي باشي » وتعني رئيس البوابين ولمرافقي البادشاه « جاووش » Cavus . كان عدد البوابين قبيل (1640 , 400 2) (عين علي ، 93 ؛ كوجي بك ، 93) . شوهد في فترة ما ، ارتفاع عدد المابينجي (موظفي المابين) وضباط الأمر (الخدمة) إلى 150 . إن الباشمابينجي هو الفريق الأول المسمى « باشقبوجيباشي » ، وعند تعيينه للخدمة في الخارج يصبح وزيرًا (ماريشالا) (Ricault , 2 - 576) . كانت جميع فرمانات الإرادات السلطانية) البادشاه ترسل إلى كل أنحاء الإمبراطورية بواسطة « قوجيباشي » ، حتى لو كانت صادرة من قبل الحكومة .

والمرافقون الذين يطلق عليهم « جاووش » يقومون بالواجبات نفسها ، لكنهم كانوا يقومون على الأكثر بأمور التشريفات . غالبًا ما يختار ، الذين يرسلون إلى الأقطار الخارجية بوظيفة سفير موقّت من بين الموظفين الذين يسمون جاووش . كان بينهم من يجيد عدة لغات (Ricault , 2 , 578) . وفي فترة ما ، ارتفع عددهم إلى 000 1

(راشد ، 2 ـ553) . إن تقديم السفراء إلى الحضرة الهمايونية ، تنظيم المراسم في الاحتفالات ، الإلاشراف على النظام وعقوبات مخالفته ، إجراء التشريفات اللازمة للذين يرفعون ويبلغون بذلك بحضور البادشاه ، كان كل ذلك من ضمن واجبات الجاووش . ألغى محمود الثاني وظيفة الجاووش في 1836 . واجبات الفريق الأول المسمى « جاووشباشي » .. أعطاها إلى مشيري المابين الذين شكلهم حديثًا . وكلّف موظفي المابين بواجبات « قبوجيباشيلر » (رؤساء المابين) ، واستحدث اسم « باشمابينجى » بدلاً من « باشقبوجيباشي » وكلف « هنكار سرياوري » (رئيس مرافقي السلطان) ببعض واجبات الـ « جاووشباشي » . وزعت الواجبات الأخرى ، على نظارات العدلية والخارجية التي أسست حديثًا ، وعلى « سر عسكر لك » (نظارة الحربية » . وهكذا أصبحت إدارة السراي ، أكثر حداثة وأضيق صلاحية

19 – خدمات السراي الأخرى :

متفرقة لر ، موظفو المتفرقة ، كان هذا صنف خدمات يتألف من 631 شخصًا تقريبًا برئاسة جنرال يسمى « متفرقة باشي » والذين سمّوا في دور التنظيمات « خدمة همايون » (ايّوبي افندى ، **قانونّامه** ، 15) . كان الوزراء كذلك لديهم موظفون من المتفرقة . كانوا يعنون بأمور صيانة سمعة البادشاه والسلطنة . إن تشكيلات **بلطه جيلر** الذين ارتفع عددهم إلى حوالي 813 و التابعين إلى دار السعادة أغاسي ، هم تحت إدارة عقيد يسمى « بلطه جيلر كتخداسي » . كانوا يؤدون الخدمات الخارجية لمنتسبي السلالة . قسم منهم كان في السراي القديم . **زلفلو بلطه جيلر** ، بمعنى الحطّابه الطوافون ، كانوا 200 شخص تقريبًا من رجال الإطفاء يقومون بحمل الحطب إلى الحرم . **جاشنيكار لر** ، وبتعبير أكثر تركية جشنيجيلر ، عددهم 117 تقريبًا . كان هؤلاء خدمة مائدة (كارسون) يقومون بخدمات تقديم الطعام إلى البادشاه ، العائلة ، موظفي السراي الكبار .

بيكلر ، هؤلاء موظفو بريد السراي . ارتفع عددهم إلى 150 .

شاطرلر ، بمعنى المجتهدين ، عددهم 57 تقريبًا وهم موظفو بريد السراى الذين يرسلون إلى مسافات أبعد . تراهن رئيسهم العقيد المسمى شاطر باشى مع محمد الرابع

الرياضي القدير ، ذهب من أدرنه إلى Dimetoka ركضًا وعاد في ظرف 10 ساعات وربح الرهان من البادشاه وحصل منه على عطيّة .

مهتر لر ، هي موسيقى السراي العسكرية التابعة إلى « مهتر خانه همايون » . عددهم 200 تقريبًا (كوجى بك ، 93) . كانوا على الإطلاق يرافقون البادشاه في الحملات . رفع مراد الرابع في 1640 ، عددهم إلى 300 (أولياء جلبى ، 261, 1) . وحتى في أواسط العصر 16 كان لدي العثمانية 1 200 من أفراد المهتر .

جادر مهترلري ، أي مهتر الخيم ، يختلفون عن البقية ، هم ليسوا موسيقيين . ارتفع عددهم إلى 2 000 (كوجي بك ، 93) . كانوا مكلفين بنصب ورفع سرادق البادشاه الكبير المسمى « أوطاغ همايون » في الحملات والسياحات .

أمير عالم ، كان هذا آمرًا للعقيد الموسيقي المسمى مهترباشي والعقيد.قائد مهتران خيمة . وكذلك كاذ يطلق اسم مختر على **سنجقدار وبيرقدار وتوغجيلر** أي حملة رايات ، أعلام ، شارات السلطنة . هذا عدا حملة أعلام وشارات وحداتهم وجنرالاتهم الخاصة .

سيم سقالر ، أي السقاة ، هم سقاة السراي وكان عددهم 36 . يحملون الماء ، ويغسلون خاصة الأرضية الحجرية لجناح البردة الشريفة (خرقه سعادات دائرة سي) ، كان على رأسهم رائد يسمى سقاباشي (رئيس السقاة) .

أئمة ومؤذنو الهنكار(السلطان) ، عددهم جمعًا 30, 60 منهم . كان يتم اختيارهم من بين الموسيقيين . كان بين الذين زاولوا هذه الوظائف ملحنون قديرون جدًا . إن رتبة الإمام السلطاني والإمام الثاني كانت أعلى من رتبة المؤذن باشي أو سرمؤذن أي رئيس المؤذنين . ويشاهد منح رتبة قاضعسكر (القاضي العسكري) إلى العديد من الأئمة السلطانيين أي إلى رئيس أئمة السلطان . كان الأئمة من حملة الرتبة العلمية (أي أنهم متخرجون في المدارس الدينية) ، لكن المؤذنين يحملون رتبة الاندرون (خريجو مدارس لسراي).

منجّمباشي (رئيس المنجمين) ، ومعاونه منجمباشي الثاني ، كانا تابعين لأمر حكيمباشي . كانا يقومان بالأمور التقويمية وبتحديد أشرف ساعات أي ساعة السعد

الفواكه والورد لحساب السراي .

قائد الحامية هو الجنرال الذي يسمى بوستانجي باشي . هو الشخص الوحيد الذي يمتاز بإطلاق لحيته داخل السراي ، عدا البادشاه . وحتى سلاحدار شهرياري لم يكن يمكنه إطلاق لحيته . كان مسئولاً عن ذوق وجمال الأبنية في الخليج والمضيق . كانت لديه صلاحية هدم الأبنية التي لا تروقه . وكذلك هو مسئول عن أمن سواحل المدينة . يمسك سجلاً بالأبنية المشيدة على السواحل مع أسماء مالكيها . **بوستانجي باشي دفترلري** ، أي سجلات البوستانجيباشي ، وهي وثائق قيّمة لأرشيف التاريخ العثماني . بوستانجيباشي أدرنه ، كان مستقلا . قوشيجباشي ، هو الضابط المفتش العام لغابات ومزارع البادشاه .

آرايبجي ، بمعنى باحثين ، هم خدمة السراي الذين يفتشون باستمرار مجاري مياه السراي والسواحل الرملية . كانوا يعثرون على الحاجيات الثمينةالتي تسقط من نسوة السراي في المياه سهوًا .

كانت توجد معامل ومصانع تعمل خارج السراي ، لتأمين احتياجات السراي . مثلاً **حلواجيان خاصة** كان عددهم في 1755 ، 6 أسطه .. (أستاذ ماهر) ، 100 خلفه (مساعد أستاذ) ، يصنعون الحلوى للسراي . **خبازون خاصة** ، هم الفرانون الذين يصنعون الصمون والخبز للسراي . كان عدد القصابين العاملين لخدمة السراي عام 1755 ، 17 قصابًا ، 23 صانعو اللبن المختر والمعنيوين بشئون الحليب للسراي ، 31 خضراويًا ، 17 دجّاجيًا صانعوا المعجنات 23 صانعو الشموع ، 25 سقاة ، 15 طلاة القدور النحاسية ، صانعو الثلج 6 . وكان السراي يحتوي على 369 خياط ، 36 خياط ملابس رسمية . أما منظفوا ملابس السراي ، فكانوا كثيرين . وإضافة إلي ذلك ، كان في القطاعات والمجالات الأخرى 250 عامل أسطة (أستاذ) ، 3 مجلدين ، صانع حبر ، 7 نقاشين ، 8 صانعي أحذية ، 5 صانعي فرو (كركجي) ، 12صانع سيوف (قليجّي) ، و صانع قراب السيف (قينجي) .

21 ــ المطبخ السلطاني (مطبخ عامره) :

كانت تشكيلات مطبخ طوبقابو كبيرة . يطبخ الطعام لمنتسبي السراي . كان مطبخ

أو الساعة المناسبة ، ويقومان بتقوية الروح المعنوية . لكن يلاحظ أن الحكام كعثمان الثاني ، عبد الحميد الأول ، سليم الثالث هَزِئا علنًا بساعة السعد ، شوهد أن مصطفي الثالث كان يؤمن بذلك . إن الشيخ أحمد ده ده رئيس منجمي محمد الرابع يحتمل أن يكون أعظم مؤرخ أنجبه العثمانيون .

باب السعادة أغاسي ، هو الفريق الأول رئيس الخصيان البيض . وإضافة إلى ذلك كان مديرًا لإدارة 70 جامعًا شيّد من قبل السلاطين . فقد أهميته بعد العصر 16 وصار اسمه « قابو أغاسي » بمعنى رئيس الباب . ومع ذلك فقد استمر حتي 1908 .

حكيمباشي ، هو رئيس 18 طبيبًا ، 10 جراحين ورئيس صيادلة السراي . وكان كالأطباء الذين في معيّته من صنف علماء الدين (11, 7, d' Ohsson) إن إبقاء طبيبين اثنين وجراحين اثنين في السراي في الخفارة لمدة 24 ساعة كان أحد نصوص القانون . إضافة إلى ذلك كان يوجد طبيب للعيون باسم كحّالباشي ومعه طبيبان آخران اضخرين . يقوم أحد الجراحين بختان الشهزادات . الحكيمباشي (رئيس الأطباء) المسمى « سر أطباي خاصة » ، كانت لديه الصلاحية لتدقيق شهادات وإجازات كافة الأطباء الموجودين في استانبول . يترك السراي برتبة قاضٍ عسكري . **أندرون** ، 193,1 - 4 ؛ واصف ، 285,2 ؛ راشد ، 235,3) .

20 ــ بوستانجي أوجاغي (حامية الحرس) والخدمات الخارجية للسراي :

هي كتيبة حماية حقيقية للسراي وحدائق السلطان الخاصّة . وصل عددهم الأقصى إلى ما ينيف على 4 000 في 1595 ؛ 300 منهم يسمون خصكي Haseki يلبسون بدلة من الجوخ حمراء اللون ويحملون العصي ، جميعهم برتبة ضابط ومساعد ضابط ويشكلون وحدة تابعة للرائد المسمى خاصكي باشا . عند خروج البادشاه لتفقد المدينة متنكرًا (بالعثمانية : تبديل قياقت ، بالفرنسية Cognito) ، كان يستصحب معه عدة أشخاص من الخصكي بعد تغيير لباسهم . كانت في أدرنة حامية حرس (بوستانجي أوجاغي) كذلك . وصل عددهم إلى 954 . كانوا يعنون بالحدائق التابعة لسراي أدرنة . وكان تحت إمرتهم البستانيون الذين يستخدمون الحدائقيين . كانوا يبيعون الفائض من

السلالة والبادشاه منفصلاً . كان رئيس الطهاة (آشجيباشي) يشرف على ما يقرب من 400 طباخ يعملون في 9 أجنحة . كان مطبخ البادشاه والسلطانة ـ الوالدة منفصلاً ، واسم الأول « مطبخ خاص » .

يؤكل في السراي يوميًا ما يقارب 500 خروف من أجود الأنواع (قيويرجق) . لحم البقر ، لا يدخل السراي أبدًا . يؤكل الدجاج وطيور الصيد بكثرة . توجد مطابخ منفصلة للحلويات ، المشروبات ، المخللات . فمثلاً كان عدد العاملين في قسم الحلويات 400 تقريبًا .

وفي المطبخ السلطاني المسمي « قوشخانة » أو « خاص مطبخ » أو رسميًا « مطبخ خاص » ، كان يوجد 12 طباخًا لهم شهرة عالمية في مجالهم ، يطبخون لشخص (البادشاه) . يأتي هؤلاء من قصبة منكن Mengen التابعة لمحافظة بولو Bolu ، يرفّع الذين يبدون مهارة إلى رتبة طبّاخ المطبخ الخاص . كان يوجد أساتذة في الطباخة مختصون بصنع نوع واحد من الطعام ، يتعالون عن صنع نوع آخر ويعتبرون ذلك مذلّة . وإضافة إلى ذلك فللحرم فرن خاص ، كان ينتج 8أنواع مختلفة من الصمود والخبز . أما الصمون والخبز الخاص بموظفي السراي فكان يجلب من الخارج .

كانت أضخم مصروفات في ميزانية مطابخ السراي ، هي ميزانية علم 1670 . تعادل بالسعر الحالي الرائج 126 مليون دولار . بينما في دور القانوني ، دور العظمة ، كان هذا المبلغ يعادل 1 : 4.5 منه . يشاهد ازدياد الفخفخة وزياده عدد موظفي السراي على مر الزمن . يجلب إلى السراي من كل قطر أجود ما يمتاز به ذلك القطر من المحصول . مثلاً أرز السراي يجلب من مصر ، الحمّص والسكر ، من مصر كذلك ، الحنطة من المملكتين (رومانيا) ، الغنم من إيران ومن المملكتين ومن روملي ، التوابل من الهند ، الملح من قوجحصار ، العلك من استانكوي ، الفواكه جميعها تقريبًا من الحدائق الخاصة من استانبول .

22 ـ الاسطبل السلطاني (اسطبل عامره ، خاص آخرلر) :

كان الحصان هو وسيلة الركوب والنقل الوحيدة للسراي إلى نهاية الإمبراطورية .

لم يكن السلاطين المتأخرون يركبون السيارة أبدًا . تتجمع في الاسطبل السلطاني ، أجود أنواع الخيول في العالم . كانت مدربة بشكل فائق ويطلق على الخيول الخاصة للبادشاه تعبير « ركوب شاهانه يه مخصوص » أي خاصة لركوب السلطان . ويعتبر ركوب الغير عليها تجاوزًا كبيرًا لحدود الأدب . لكل حصان اسمه وشجرة نسبه . جميع السلاطين تقريبًا كان لهم ولع بالخيل . لكن لا يوجد سلاطين مولعون إلى درجة مرضيّة كما في السلالات الأخرى . كان الخصان الجيد بالنسبة لشخص ولوع بالصيد إلى درجة مرضيّة كمحمد الرابع عبارة عن واسطة لتسهيل الصيد الجيّد . والحصان بالنسبة إلى مراد الرابع ، أمهر خيال ومبارز ورام ومستعمل للسلاح في الامبراطورية ، عنصر لا يمكن التخلّي عنه في القتال . كانت توجد 8 خيول تعود لشخص البادشاه و 200 حصان تقريبًا يعود للسلالة . والخيول الباقية تعود لأفراد السراي .

عدد سياس الخيل 600 تقريبًا . آمر اسطبلات السلطان ، هو « أمير اخور شهرياري » الذي كان يسميه الشعب امراخورء » . كان معاونة يسمى « كوجوك أمراخور » (أمراخور الصغير) . كوجوك امرآخور ، كان آمرًا للعربات ولسائقي العربات « بيوك امرآخور » كان جنرالاً برتبة سنجق بك (لواء) . يترك السراي برتبة بكلر بك (فريق أول) . ارتفع عدد الضباط والسياسي العاملين في الاسطبلات السلطانية إلى 2 000 . يضاف إليهم ما يقارب 300 سرّاج و 300 نعّال ، كان يُعنى كذلك بـ 2 000 بغل لأجل السراي . على رأسهم عقيد يسمى « قاطر جيباشي » أو « خاربنده باشي » أي رئيس المعنيين بالبغال . العقيد المسمي ساربانباشي أوده جـ ـي ، أي رئـ المعنيين بالجمال ، كان آمرًا لـ 4 000 جمل تحمل البضاعة للسراي ، و 450 سائس جمل . ولأنها الوسيلة الوحيدة لخدمات النقل كان عدد أفراد الاسطبلات الخاصة قد بلغ في عهد القانوني 3341 . ازداد هذا العدد في العصر 17 . ويتبع هذه التشكيلات ، 213 شخصًا يعنون بصيانة المزارع والمراعي الخاصة بالاسطبلات السلطانية يسمون (محافظي المراعي) وصنف يقوم بتربية الأمهار ويسمون « طايجي » . أما « آربا اميري » (أمير الشعير) فهو الشخص الذي يؤمن لاسطبلات السراي الحشيش والشعير والحبوب الأخرى .

كان لدي السلالة ومقربيهم في الأعوام القريبة من عام 1670 ، وهو دور الذروة

للامبراطورية بعنايتها بمظهرها الخارجي والفخفخة ، 9000 حصان ؛ 40 منها تخص البادشاه شخصيًا ، وما يقارب 400 حصان دربت بشكل خاص على السباق (هامّر ، 389, 9 – 90) . قال السائح Paul Lucas الذي شاهد حصان البادشاه « أجمل حصان في العالم » (75, 1) . أكثرية الخيول كانت من نسل أناضولي وهذا النسل غير موجود حاليًا . انقرض نسله . بعضها كان خيولاً عربية جلبت من البادية .

« رخط خزينة سي » (خزينة رخط) ، هي خزينة سلطانية منفصلة خارج دائرة الخزينة . وبسبب إغراق نقطات خيول البادشاه (طاقم الأعنة واللجم) بالجواهر ، كانت خزينة رخط الهمايونية بدرجة لا يمكن أن يتصورها خيال إنسان اليوم . يقدر السائح المسمى Baudier الجواهر الموجودة على لجام ونطاق حصان البادشاه فقط الذي شاهده بنفسه ، بـ 136 مليون دولار بالسعر الرائج حاليًا (ص 22) ، بينما المعلوم أن البادشاه يملك درازان عديدة وأشكالا مختلفة من جواهر الأحصنة هذه . إن خروج أو دخول أي شيء من وإلى خزينة رخط هذه يدوّن بالساعة والدقيقة . وفي 1837 أطلق محمود الثاني على أمراخور ، اسم « اسطبل عامره مديري » أي مدير الاسطبل السلطاني (لطفي ، 4 ,164 ,5 ,100) . وفي دور التنظيمات تم اختيارهم من بين الرجال المقربين إلى البادشاه .

كانت حديقة حيوانات البادشاه ، التابعة لسراي طوبقابو ، مفتوحة للشعب . كانت تسمى « ارسلانخانة » وبعضًا « فيلخانة » أي مكان عرض أو ترويض الأسد ومكان عرض الفيل . تروض بعض الحيوانات وتعلم بعض الفنون . اشتهر الأسد الذي كان يستصحبه معه السلطان عبد العزيز . كان وزراؤه ومشيروه ينفرون من هذا الأسد . إذ إنهم كانوا يخشون من أن يهجم عليهم بحضور البادشاه ، حيث إنهم لم يكونوا مطمئنين إلي تربيته بشكل جيد . واشتهرت كذلك طيور عبد الحميد الثاني الأجنبية ، الببغاوات وكل أنواع الطيور الحية ومجموعة ييلدز من الطيور المحنطة كلها نهبت في 1909 . شوهد أول كركدان في استانبول عام ١٩٧٩ . كان رمضان أوغلو أحمد باشا بكلر بك الحبشة قد اصطاده بصعوبة وأرسله . دعا مراد الثالث شعب استانبول كافة إلى السراي ليشاهدوا هذا الحيوان الذي لم يشاهد سابقًا ويعرف اسمه فقط . كتب Taranowski الذي زار استانبول 1569 ، أنه شاهد أول زرافة حيّة في حياته في البادشاه في حديقة استانبول . حديقة حيوانات السراي ، كانت

مجاورة لأياصوفيا .

23 - **ما بين همايون (البلاط)** :

جدد محمود الثاني تشكيلات السراي التي ذكرناها آنفًا بإسهاب ، عام 1834 وجعلها على غرار تشكيلات الحكام الأوروبيين العظام . ألغي المؤسسات البالية التي لا تلائم العصر والتي أصبحت لا فائدة فيها . أما مؤسسات السراي الأخرى ، فبدّل اسمها فقط . واستمر على تطبيق إجراءاتها تقريبًا . أسّس تشكيلات سراي أكثر ملاءمة للعصر 19 . ولو قيّمنا ذلك اليوم نحن كمؤرخين لوجدنا أنه قد أسس تشكيلات سراي راقية ومتقنة حقًا بالنسبة لذلك العصر . ألغى العديد من وسائل الفخفخة ، الأمر الذي سبّب إلغاء وظائف كثير من المواطنين أو قلّص دخولهم . لكنه في الوقت نفسه ، قلّل مصروفات البادشاه بشكل أساسي بالنسبة للسابق . ومن ناحية أخرى كانت هنالك ضرورة لذلك أيضًا ؛ حيث إن أكثر مصادر إيرادات السلاطين القدامى قد نفدت . والحقيقة أنه لم يكن هنالك سلطان يقيّم ذلك بواقعية حقة ، كالسلطان محمود الذي اعتلى العرش عندما كان أميرًا شابًا وهو يلفظ هذا القول المأثور « Ya devlct basa, yakuzgün lese » الذي معناه « إما أن أوفق في هذا العمل الصعب أو أضع رأسي في الميزان » .

لنر الآن الخطوط الرئيسية والواجبات الأساسية لنظام تشكيلات السراي الحديث لبني عثمان في أعوامهم الـ 90 الأخيرة :

اسم اندرون همايون ، تبدل وصار ماين همايون وباسمه الكامل مابين همايون جناب ملوكانه . بلغت هذه التشكيلات أوجها في دور عبد الحميد الثاني . إن أكبر آمر للمابين **هو ما بين همايون مشيري** (مشير المابين السلطاني) . كان هذا ماريشال السراي (بالفرنسية : Marèchal dela Cour) وناظر السراي . كان أولهم أحمد فوزي باشا عام 1832 . وعند وفاة غازي عثمان باشا عام 1900 لم يعين مكانه أحد معاونو ، فريق المابين ومساعدوه الجنرالات الذين يسمون ألوية المابين . كان المشير يمتطي الجواد جنب البادشاه في مراسم قبول الجمعة (جمعة سلامليغي) وإن كان ممتطيًا عربته ، كان يجلس في العربة أمام البادشاه . يحضر أكبر المراسم . وهو المسئول عن أمن السراي .

لا يمكن لأي فرد أن يأمره ، عدا البادشاه . إن الصدور العظام ، الوزراء ، المشيرين ، القضاة العسكريين الذين يحضرون السراي لمقابلة البادشاه ، كانوا يمرون مجاملة بغرفة مشير المابين الرسمية ويتحدثون إليه . لم يكن يستقبل ويودع حتي الصدر الأعظم . إن هذا الواجب ، كان يقوم به الباشمابينجي (رئيس المابين) .

الموظف الثاني الذي يلي مشير المابين هو باشمابينجي . يكون إما برتبة بالا (بمعنى أعلى وهي رتبة مدنية تعادل رتبة فريق أول) أو وزير . لا يمكن لأحد من الخارج أن يقابل البادشاه دون علمه . ولحضوره كل مراسم القبول والمقابلات مع السلطان ، كان يسمي « سرقرين » (رئيس القرناء) أو يسمي كذلك « سرقرناي حضرت شهرياري » (رئيس قرناء جلالة البادشاه) . ثم يليه المابينجي الثاني والمابينجي الثالث (موظف المابين الثاني ، الثالث) والموظفون الذين لا تقترن رتبهم برقم . موظفو المابين كلهم مدنيون ومتخرجون من المدارس الملكية (العلوم السياسية) .

الموظف الكبير الثالث للمابين هو رئيس كتّاب المابين (سر كاتب حضرت شهرياري) . وهو برتبة بالا أو وزير . يقوم بتنظيم مراسلات وعلاقات الحكومة مع البادشاه . ثم يليه .. كاتب المابين الثاني ثم الثالث وعدة كتبة مابين آخرين لا يقترن برتبهم رقم . وهم أيضًا موظفون مدنيون .

والموظف الكبير الرابع هو المرافق الأول للبادشاه المسمي « سرياور حضرت شهرياري » ، رتبته على الأكثر فريق أول ، معيّته ، مرافق السلطان الثاني والثالث ومرافقو السلطان ذوو الرتب المختلفة (رائد ، مقدم ، عقيد) كلهم ضباط وأكثرهم ضباط ركن . أصحاب رتب ملازم ونقيب ، لا يسمون مرافقين ويسمون « هنكار أمر ضابطي » (ضابط خدمة السلطان » . يقومون بتنظيم المراسم ، وبتبليغ أوامر السلطان .

موظفو المابين الهمايوني الذين يستحقون الذكر بين موظفي المابين الكبار الآخرين ، والذين يعمل في دوائرهم عدد كبير جدًا من الموظفين ، هم الوزير ناظر الخزينة الخاصة ، رئيس أطباء البادشاه الذي يحمل الرتبة ذاتها والمسمى سر أطباي حضرت شهرياري ، الإمام السلطاني الأول برتبة قاضٍ عسكري ، الكاتب الأول للمكاتبات الأجنبية

(تحريرات أجنبية باشكاتبي) ، رئيس المترجمين (باشمترجم) ، ناظر مصروفات الحرم الهمايوني .

أما تشكيلات الحرم الهمايوني فقد ظلت كما كانت عليه سابقًا ، واكتفي فقط بتخفيض نفقاتها .

الفصل الثاني عشر

الدولة والحكومة

١) كلمة حول الصفاة المميزة للدولة العثمانية

''الامبراطورية العثمانية، امبراطورية فسيحة. لها اهمية غير متناهية من الناحية التاريخية ... مارد، اذرعة القوية تكمش 3 قارات بذات الوقت . وكجميع الامبراطوريات، ان سقطت يوما ما، فان الانقاض التى ستتركها في اسيا، افريقيا واروبا ستغمر هذه القارات الثلاث ... والامبراطورية العثمانية — حتى فى هذا اليوم (1835) — تضبط اقطارا اكبر وسعة من البيزنطية، فى قمة شوكتها ''. استهل فون هامر، التاريخ العثمانى الشهير المكون من 19مجلد، بالجملة آنفة الذكر (Histoire 1835 del'Empire Ottoman، باريس ، 1 ، ص 1—2).

'' اسس الاتراك بعد مرور الاجتياح المغولى، امبراطورية دامت عصورا طويلة، بين ايران وفاس، وقرم واليمن. لم يشهد التاريخ الاسلامى، كيانا سياسيا متينا ومستقراً كالعثمانيين ... كانت الدولة الاكبر، الاوسع، الاكثر استقراراً والتى تملك موارد مالية اعظم في اوربا، وخاصة طوال كامل العصرين 16،17، هي العثمانية . كان كيانا منتظما يحوى جهازا اداريا نظم على اساس صيانة مصالح الشعب العثمانى . اسطوله كان يحكم البحر الابيض برمته . ان النظام، احد اكبر مزايا الاتراك، كان يسود كل اطراف الامبراطورية. كانت استانبول، تبهر عيون كل سائح اوروبى يزورها، كأكبر مركز للمدنيّة في العالم'' (باريس 1943،ص 164).

'' كانت الامبراطورية العثمانية في العصرين 16— 15 ، الدولة العالمية بحق'' (reiehes Welt) (Mehmed der Eroberer, Babinger) ، ميونخ 1953،ص 469).

'' كانت الامبراطورية العثمانية دولة عالمية بحق (L'Empire du Levant, Rene Groussent) '' (vraimant mondiale Empire Ottoman, Puissanee) باريس 1949 ص 643) .

« أسس العثمانيون في آسيا وأفريقيا وأوروبا إحدى أوسع الامبراطوريات التي عرفها الكون » Morgenlhau ، ص 240) .

« الدولة العثمانية ، هي أحد مظاهر التاريخ المذهلة جدًا والخارقة للعادة جدًا . حاولت جمع كامل حضارات البحر الأبيض ، تحت ظل إمبراطورية واحدة » Soliman le Magnifique ; Downey ، ص 33) .

إن أعظم الدول قدرة اليوم ، هي دولة الأتراك » (le plus fort Etat qui paroissé pour le present au mond est œlui des Tures (Montaigne, Essais, I, 273) .

« إن قدرة تركية اليوم ، تفوق قدرة مجموع بقية الدول جميعًا » (René Herpin Apologie ، جنيف 1629 ، ص6) .

إن الدولة الوحيدة التي جمعت تحت إدارتها الشرق الأدنى (الأوسط) ، طوال التاريخ كله ، هي الإمبراطورية العثمانية . لم توفق في ذلك ، لا امبراطوريات الفرس ، ولا روما ، ولا العرب . والذي جمع الأقوام العربية بأسرها ، والشعوب التي تتكلم العربية جميعًا تحت إدارته ، هي الامبراطورية العثمانية . لم تتمكن أية دولة من الدول التي احتلت مكان العثمانية في الشرق الأدنى ، سواء كانت أوروبية أم محلية ؛ من إدارة هذه المنطقة بشكل جيد كما أدارها العثمانيون . انكلترا ، فرنسا وإيطاليا الذين تقاسموا المنطقة فيما بينهم ، كانوا موقنين بأن إدارتهم لهذه الأقطار ستكون خيرًا من العثمانية ، لكن هذا لم يحدث . كان الوضع ذاته ، بالنسبة إلى روسيا التي كانت السبّب في فقدان الامبراطورية العثمانية لأقطار جنوب – شرق أوروبا . تمكنت جميع الدول الأوروبية هذه ، من أن تحكم بالظلم هذه الأقطار التي سلختها من العثمانية . وحتي الإدارة التركية إبان أواخر الدولة العثمانية – وهو أسوأ أدوار الامبراطورية – كانت بالنسبة للشعوب القاطنة في تلك الأقطار أحسن إدارة من إدارة الدولة التي احتلت مكانها . إن الدولة العثمانية كانت خلفًا لإمبراطورية روما بكل ما في الكلمة من معنى . لم تكن إدارة أيةَ دولة ، قديمة كانت أم معاصرة ، أفضل لشعوب وأقطار الشرق الأدنى وجنوب – شرق أوروبا ؛ من إدارة العثمانية » (A . J . Toynbee, The ohoman Stateand its place in World History Lieden 1947 ، ص 15 وما بعده) .

« كان السبب الرئيسي في نجاح العثمانية ، كمال تشكيلات الدولة والتفوق في التكنولوجيا العسكرية » (Histoire de l'Europe, Pirenne ، ص 390) . « إن العامل الأساسي في نجاح العثمانية ، هو سمو نظام العدالة وإنسانيته » (L'Age Noderne Henri ص 44 – 5) .

« إن سر توفيق العثمانية هو عدم اهتمامهم بأي شيء ، عدا المزايا واللياقة الشخصية . لا الدراهم ولا النسب يمكن أن يكون عاملين للامتياز . السلالة العثمانية هي الاستثناء الوحيد . وفي هذه العائلة فقط ، تكسب الوراثة والنسب ، امتيازات بالولادة . وبناء على ذلك فإن كيان المجتمع العثماني يختلف تمامًا عن كياننا نحن الأوروبيين » (Baron von Busbecq ، ص 35 – 6) .

قدمت لكم بعضًا من آراء المؤرخين والمشاهدين المعروفين جدًا القدامى والجدد ، حول الدولة العثمانية . يمكن تقديم آلاف الأمثلة من هذا النوع . (لم أختر أمثلتي من المؤرخين الأتراك).

من الواضح أن Pax Ottomana يعني نظامًا عالميًا جديدًا بعد Pax Romana . وقد ذكر السلطان محمد الفاتح ذلك في أواخر سني حكمه ، في اصطلاح وعبارة « نظام عالم » (النظام العالمي) المدون في **فاتح قانونامه سي** (قوانين فاتح) الذي هو بمثابة دستور للدولة . ترجم مؤرخو الغرب الحديثون « النظام العالمي » للعثمانية على شكل « Pax Ottomana » .

كان الدخول في هذا النظام ، هو الدخول في الحضارة . وعلى الذي يعارض النظام ، أن يتحمل النتائج . هذه كانت عقلية العثماني . يذكر كوجي بك في العصر 17 (ص 49) ما يلي : « إن دولة آل عثمان ، خلّدت خلافتهم إلى آخر الزمان ، هي الدولة العلية العظيمة التي يمكنها بأمر الله تعالى ، أن ترد بسهولة على جميع أعداء الدين والدولة المحيطين بها ، إذا ما اتحدوا وصاروا قلبًا واحدًا وجبهة واحدة وعزموا على الهجوم من جميع الأطراف .

2 – الصدر الأعظم :

شاهدنا البادشاه ، رمز الاتحاد والنظام في دولة كهذه ، طراز حياته وأطواره . وننتقل

الآن إلى الحكومة . كيف كانت تسير الأمور بصورة فعلية في هذه الدولة ومن الذي يسيّرها ؟ .

إن الرئيس الحقيقي للعاملين هو موظف الدولة الأول المسمى « الصدر الأعظم » . أطلق على الصدر الأعظم في الأدوار الأولي ، اسم « وزير أعظم » كذلك ، هو رئيس وزراء . لكن صلاحياته بالنسبة لرؤساء وزارات اليوم ، كانت أوسع بدرجة ليست قليلة .

حتى 1362 كان يوجد وزير واحد . هو رئيس الوزراء . وفي 1362 أصبح وزيران ، ثم ازداد عددهم بتوالي الزمن . كلمة « وزير أعظم » التي تطلق علي رئيس الوزراء تعني « أكبر وزير » .

ولكي يكون الشخص صدور عظام ، كان يكفي : 1 – أن يكون مسلمًا سنّيا . 2 – أن يجيد اللغة التركية . 3 – أن يكون قد تدرج في خدمات الدولة المختلفة حتي توصل إلى المقام الذي يخوله ذلك . 4 – تعيينه لهذا المقام من قبل البادشاه بصورة رسمية . ولا يؤخذ بنظر الاعتبار بصورة قطعية اعتبارات أخرى كالنسب ، العرق ، لغة الأم ، الثروة .

كان الصدر الأعظم ، هو الوكيل المخوّل للبادشاه . ليس من السهل تصوّر شيء خارج صلاحياته . الحقيقة ، أنه ليس بإمكانه تغيير أحكام القاضي (لأحكام) (عدا الأحكام التي تتعلق بأمن الدولة) ، ولا يمكنه صرف أكثر من المبلغ المثبت في الميزانية ، كان مقيّدًا بمثل هذه القيود ، لكن كل هذه ، إنما كانت تدابير تتخذ لغرض الحفاظ على النظام وتأمين اشتغال الصدر الأعظم بانتظام أكثر . هو رئيس الحكومة . ورئيس الجيش وكالة عن البادشاه كان هو المسئول عن كل عمل في الجيش . يصادق على تعيينات شيخ الإسلام لصنف العلمية (رجال الدين) ، وفي حالة عدم رضائه وعدم تصديقه ، كان يلغي ذلك التعيين . كانت له صلاحية التدخل في كل عمل أيما كان ذا علاقة بالدولة أو لم يكن ، عدا المحاكم ، وتمحيص أية مسألة ، لكنه مع ذلك ، لا يمكنه الخروج عن المباديء الإسلامية والأخلاقية .

كان يتقاضى مخصصات عظيمة ولديه معيّة عظيمة كذلك . كان يعيش في سراي حقيقي . وحتى في دور التنظيمات الذي فقد فيه الصدر الأعظم عظمته السابقة ؛ كان راتبه الشخصي كبيرًا . إن صدور عظام دور التنظيمات ، كانوا يتقاضون حتى عام 1922 رواتبًا تتراوح بين 250 و2 000 ليرة ذهبية شهريًا . إذ إن راتب الصدر الأعظم لم يكن محددًا . وإنما يثبت الراتب بالنسبة لثروة الصدر الأعظم الشخصية وبالنسبة لإمكانات الدولة في ذلك الحين . يشاهد أن أقل راتب تسلمه صدر أعظم في أحد العصور الأخيرة ، هو 200 ، وأكثر راتب هو 2 000 قطعة ذهبية . ويعادل ذلك بالنسبة للسعر الحالي من 3 000 إلى 30 000 دولار . إلاّ أن المعيشة وقتئذ كانت أرخص م اليوم بمقدار 5 / 2 مرة ، والقوة الشرائية للدراهم كانت أقوى بمقدار 5 . 2 مرة . أي إن الأعمال التي تجرى والحاجيات التى تشترى اليوم بـ 7 500 دولار ، كان بالإمكان تحقيقها في ذلك الزمن بـ 3 000 دولار . (تلاحظ نسبة التضخم التي تجعل الصورة أكثر اختلافًا بكثير عما ذكرنا) .

إن التشريفات الخاصة بالصدر ، كانت محددة بشكل دقيق إلى أدق تفاصيلها ، ولو أنها ليست بدرجة تشريفات البادشاه .

يسمى أمر الصدر الأعظم التحريري « بويرولتي » والشفوي « أمرًا ساميًا » .

كان لقبه الرسمي « دولتلو فخامتلو » وهو اللقب العثماني الذي كان يستعمل لأمراء أوروبا أيضًا إذ إن الصدر الأعظم في أوروبا ، معادل لـ « برنس » وكذلك شيخ الإسلام ويخاطبونهما كما يخاطب الأمراء بخطاب « altes » .

من يشغل منصب الصدارة ولو ليوم واحد ، يدخل ضمن تشريفات « البرنس » (الأمير) . لكن لقب الصدور الأعظم السابقين ، كان « دولتلو ابّهتلو » .

كان الصدر الأعظم ، يقبل يد البادشاه حتى 22 / 12 / 1574 . وبدأ بعد هذا التاريخ بتقبيل ردائه . تُرك تقبيل الرداء في التنظيمات ، وحلت مكانه التحية باليد اعتبارًا من الأرض . إن التحية باليد من الأرض ، لم تكن خاصة بالبادشاه والسلالة . إذ يحيّي الشخص الذي يراد إظهار احترام زائد له بهذه التحية ؛ كذلك كان من قواعد المجاملة أن يحيّي الطرفان أحدهما الآخر في الوقت نفسه بالتحية من الأرض .

كان الصدر الآعظم ، حتي 5 / 8 / 1650 ، يحادث البادشاه بجلوسه على كرسي يوضع أمامه ، ألغيت عادة جلوسه أمام البادشاه ، بعد هذا التاريخ . أصبحوا يتكلمون وهم وقوف والبادشاه يجلس علي عرشه . أما في دور التنظيمات فكان يتكلم مع البادشاه وهو جالس معه على أريكتين متقابلتين .

يقف الصدر الأعظم علي قدميه ، عند استقبالة للمسئولين من رتبة سنجق بك (لواء) فما فوق وعند توديعه إياهم ، كان يقوم مرة أخرى على قدميه . لكنه لا يتحرك من مكانه ولا يتقدم . وكانت المراسم نفسها تطبق بالنسبة لحاملي رتب بكلر بك (فريق أول) . أما بالنسبة للذين رتبهم تعادل الماريشال (المشير) ، كالوزير والقاضي العسكري ، فكان يتقدم لاستقباله حتي منتصف الصالة ويشيّعه حتي منتصف الصالة أيضًا . كان يتكلم وهو جالس ، مع الذين رتبهم أدنى من سنجق بك (لواء) (عقيد والرتب الأدنى) ، ولا يقف علي قدميه أبدًا ، ولا يسمح كذلك لذوي تلك الرتب بالجلوس .

الكل ، كانوا يقبلون يد الصدر الأعظم ، ماعدا الوزراء والقضاة العسكريين ومنتسبي السلالة وكان ذوو الرتب الصغيرة يقبلون رداءه فقط . يستثني الوزراء والقضاة العسكريون المسنون جدًا ، هؤلاء ، لا يقبلون يد الصدر الأعظم ، كانوا يعانقونه فقط .

صلاة الميت للصدر الأعظم ، كانت تقام في جامع فاتح (جودت ، 2 ,154) . محل إقامة الصدر الأعظم قبل التنظيمات ، كان يسمى سراي ، وبعده سمي كوناك . توجد بين سرايات الصدور [illegible] أبنية فخمة جدًا ، بينها الذي يحتوي على 300 غرفة ، فرنين ، مسجد ، 15 حمـ[illegible] . إن سرايات مقبول إبراهيم باشا في آتميداني (سلطان أحمد) وسراي صوقوللو محمد باشا في قادرغه ، كانت من هذا النوع .

عند قيام الصدر الأعظم بنفسه بواجب القائد العام على رأس الجيش في الحملات والحروب ، يمنح لقب « سردار أكرم » (القائد الأعلى) وتزداد صلاحياته . إذ كان بإمكانه أن يملأ الأوراق البيضاء الموشحة بطغراء البادشاه كيفما يشاء وتنفيذ الأحكام كأنها أمر البادشاه الشخصي . كان بإمكانه استعمال صلاحيات واسعة لا يمكنه إجراؤها في الأوقات الطبيعية : كمنح أمير مسيحي لقب ملك ، إسقاط سلالة مسيحية

أو مسلمة عن العرش ، عزل وزير ، إعدام بكلربك . لكنه ، كان لا يمكنه إعدام شخص برتبة وزير ، كان بإمكانه فقط عزله وتوقيفه . ويلزم إعدام وزير ، بكلر بك (فريق أول) وقت السلم ، تصديق البادشاه . أعدم كثير من الصدور الأعظم عند عودتهم من الحملات ، لسوء تصرفهم وقت القتال . كان يمكنه كذلك ترفيع من يرغب من حملة رتبة بكلر بك إلي رتبة وزير .

7 صدور عظام سقطوا شهداء أثناء القتال في الحملات علي رأس جيوشهم بصفة سردار أكرم (قائد أعلي) في السنوات 1421, 1511, 1517, 1638, 1691, 1697, 1716 . إن القواد الأعلي الذين زاولوا الصدارة في السابق و لم يكونوا صدورًا عظام وقت القتال واستشهدوا وهم قواد أعلي ، خارج هذا العدد .

36 صدرًا أعظم تزوجوا بالسلطانات وحمل لقب « داماد » (صهر) بصورة رسمية . وهنالك الذين تزوجوا بخانم ـ سلطان (حفيدات البادشاه) ، لكن هؤلاء لا يطلق عليهم اسم (داماد) . أول صدر أعظم صهر ، جاء إلى السلطة في 1497 ، وسقط آخرهم عن السلطة في 1920 . أحد الصدور الأعظم (ملك أحمد باشا) تزوج بسلطانتين الواحدة تلو الأخرى (تزوج بالثانية بعد وفاة الأولى) . و « الصهران » الآخران اللذان تزوج كل منهما بسلطانتين بصورة متعاقبة هما مشير محمد باشا وشهزاده عمر فاروق أفندي .

5 صدور عظام ، كانوا خصيانًا ، اثنان منهم استشهدوا في ساحة القتال ، هم من الخصيان البيض . لم يقتل منصب الصدارة أي زنجي خصي أو غير خصي .

أكثر من تكرّر اعتلاؤه منصب الصدارة ، هو كوجك سعيد باشا (في عهد عبد الحميد الثاني ومحمد رشاد الخامس 7 + 2 = 9 مرات) . ثم يليه بويوك مصطفى رشيد باشا ، الذي عين لمنصب الصدارة 6 مرات في عهد عبد المجيد الأول عيّن للصدارة 6 صدور عظام كل منهم 5 مرات و 2 صدر أعظم كل منهما 4 مرات ، 6 صدور عظام كل منهم 3 مرات . الذين تصدّروا مرتين كثيرون . التعيين في وظيفة ما لمرات عديدة ، ليس مهما بقدر البقاء في تلك الوظيفة مدة طويلة . ويشاهد أن الذين بقوا في الصدارة أطول مدة ، هم الذين شغلوا هذا المنصب مرة واحدة .

أصبح مترجم رشدي باشا صدرًا أعظم لـ 4 سلاطين مختلفين من بطنين . وفي العصر 17 ، أصبح خليل باشا صدرًا أعظم في عهد 4 سلاطين مختلفين من بطنين كذلك . 4 صدور أعظم كل منهم تولى الصدارة في عهد 3 سلاطين . الذين زاولوا الصدارة في عهد سلطانين ، كثيرون .

كان هناك اهتمام كبير بألا يكون لأي فرد - وبضمنهم منتسبو السلالة - عدا البادشاه ، على أي نفوذ يتعلق بالدولة للتأثير على الصدر الأعظم . إلا أنه شوهد في بعض الأدوار ، رجال دولة ، اكتسبوا نفوذًا للتأثير على الصدر الأعظم . أشهرهم : في دور محمد الثالث خواجه (أستاذ) سلطاني سعد الدين أفندي الذي صار بعد ذلك شيخًا للإسلام ؛ وفي عهد عثمان الثاني خواجه ، سلطاني عمر أفندي - من أعضاء المشيخة - ؛ وفي عهد محمد الرابع قيزلر أغاسي (خصي) أوزون سليمان ؛ وفي عهد مصطفى الثاني شيخ الإسلام حاجة سلطاني فيض الله أفندي ؛ وفي عهد محمود الأول قيزلر أغاسي بشير أغا الأول وقيملر أغاسي بشير أغا الثاني ؛ وفي عهد عبد الحميد الأول قبطانْ دريا (مشير بحري) جزائرلي غازي حسن باشا الذي صار بعد ذلك صدرًا . وداماد نضيف أفندي ؛ وفي عهد محمود الثاني نيشانجي هالت أفندي ؛ وفي عهد عبد المجيد الأول جهان سر عسكري رضا باشا ؛ وفي عهد محمد رشاد الخامس طلعت بك الذي صار بعد ذلك صدرًا أعظم . أول صدر أعظم أعدم ، هو جاندارلي خزاده خليل باشا (10 /7 / 1453) . وآخر الذين أعدموا هم : ياغليقجي - زاده محمد أمين باشا (19 / 8 / 1769) ، اسبارطه لي خليل حميد باشا (1 / 4 / 1785) ، جلبي - زاده شريف حسن باشا (15 / 2 / 1791) ، بندرلي علي باشا (30 / 5 / 1821) ، والذي انتحر (وقيل إنه استشهد) هو علمدار مصطفى باشا (15 / 11 / 1808) . وآخر من قتل من بين صدور الأعظم القدامى بعد تصدّرهم ، مدحت باشا في طائف (6 / 5 / 1884) ، الأمير قلوالالي سعيد حليم باشا الذي استشهد في روما على يد الأرمن (6 / 12 / 1921) وطلعت باشا الذي استشهد في برلين على يد الأرمن أيضًا (15 / 3 / 1921) .

22 من الصدور الأعظم كانوا دهاة حقيقيين ، شخصيات عظيمة . أعظمهم مصطفى رشيد باشا .

من بين الصدور العظام من هم علماء ومن هم جهلة (وحتى أميون) . ومن بينهم من هم جبناء ، خونة ، عديمو الأخلاق ، عديمو الكفاءة ، لصوص . وكثير جدًا منهم قواد عظام ، سياسيون ، رجال دولة ، إداريون ، شعراء ، مؤلفون . أعظم صدر ، وأعظم شاعر ، هو داماد راغب باشا (1699 – 1763) ، والشاعر الذي يليه في العظمة ، محمد رامي باشا (1703) . أكبر أديب ، أحمد وفي باشا (1823 – 1891) .

أصغر صدر أعظم سنًّا ، هو كوبرولو – زاده فاضل أحمد باشا (في 1661 كانت سنه 26) . يوجد شخصان أو ثلاثة تصدّروا قبل بلوغهم سن الـ 30 . ويوجد من عين في هذا المنصب وأعمارهم تنيف على الـ 80 . أقل مدة قضاها شخص في الصدارة ، هو زورنازن مصطفى باشا 4 ساعات (5 / 3 / 1656) . وهناك كثير ممن قضى في الصدارة عدة أيام ، عدة أسابيع ، وعدة أشهر .

عدد الصدور العظام كأشخاص 217 . أطول مدة في هذا المقام قضاها ، علاء الدين باشا (1326 – 1348) (25 سنة) ، ويليه جاندارالي – زاده خير الدين باشا (1364 – 1387) (22 سنة ، 4 أشهر)، ثم يليه ابنه جاندارالي – زاده علي باشا (1387 – 1406) (19سنة ، 10 أشهر ، 27 يومًا) ، هؤلاء ،صدور عظام الدولة ، الأول ، الخامس والسادس . ثم يليهم كوبرولو – زاده فاضل أحمد باشا الذي بقي في الصدارة مدة 15 سنة ، 4 أيام . (1661 – 1676) .

3 – ديوان همايون والباب العالي :

يسمى مجلس الوزراء لدى العثمانية « ديوان همايون » ، ويعني « المجلس الإمبراطوري (للعثمانية) » وهذا يعني « الحكومة العثمانية » : سياسة البحر الأبيض للديوان ... وعوضًا عن ذلك قيل في العصر 18 « باب عالي » . إلاّ أن « باب عالي » تعني « الحكومة العثمانية » ولا تشمل معني « مجلس الوزراء » كما تعنيه جملة ديوان همايون . تعني كلمة « باب عالي » كما هو معلوم « البوابة العالية » ؛ سميت بهذا الاسم كناية عن بوابة الصدارة الكبيرة الموجودة في كلخانة مقابل آلاي كوشكو . كان الصدور العظام ، يجتازون من هذه البوابة إلي مقر عملهم . ترجم الأوروبيون « باب عالي » على هذا الشكل « La Sublime Porte » واختصروها بأحرف « S . P » . كان ديوان

همايون (المجلس الإمبراطوري) ، حتى 1654 ، يجتمع في قبّة آلطي ومعناها تحت القبة في طوبقابو . بدأوا بعد هذا التاريخ في الاجتماع في المكان المسمى اليوم كذلك « باب عالي » والكائن حاليًا قرب ولاية استانبول .

رئيس ديوان همايون ، هو الصدر الأعظم . وحتى 1654 كان بإمكان البادشاه - إن أراد ذلك - الاستماع إلى مذكرات الديوان من خلف شباك مغلق . لم يكن أحد يعرف ما إذا كان البادشاه موجودًا خلف الشبّاك أم لا . وفي 1654 ، الغيت هذه العادة . بدأ الصدر الأعظم بتبليغ البادشاه خلاصة اجتماعات الديوان شفويًا وتقديم قرارات الديوان للبادشاه على شكل تقرير . كان بإمكان البادشاه حتى عهد فاتح أن يشترك في مناقشات الديوان بصورة علنية ويمكنه كذلك أن يترأس الديوان . فصل فاتح ، مقام السلطنة ورئاسة الدولة ، عن أعمال الحكومة بشكل حاسم .

يترأس الديوان في حالة غياب الصدر الأعظم وزيران . لكنه في حالة احتمال غياب الصدر الأعظم مدة طويلة ، في حالة خروجه إلى الحملة أو مرضه ، يُعيّن وكيلاً لرئيس الوزراء وهو الذي يسمى « صدارت قائمقامي » ويختار من بين الوزراء ويكون إما الوزير الثاني أو الثالث .

أعضاء الديوان الذين يتلون الصدور العظام ، هم الوزراء الذين يسمون « قبه نشين » أو وزراء القبة ، وهم الوزراء ووكلاء الوزراء ووزراء الدولة والذين يعملون كالصدر الأعظم تمامًا . يعنون بكل أمور الدولة ، وليس لهم عمل غير ذلك . سموا (وزراء قبة) لتفريقهم عن وزراء الإيالات . عددهم بصورة عامة 5 ، لكن يجوز أن يرتفع إلى 8 . ولكن ، قبيل عام 1656 ، ألغي منصب ووظيفة وزارة القبة . عُيّن قليل جدًا من أعضاء الحكومة بوظيفة وزير قبّة بعد هذا التاريخ .

كان وزراء القبة يجلسون حسب تسلسل قدمهم : الثاني ، ثم الثالث ثم الرابع ... على يمين الصدر الأعظم الذي يسمى « الوزير الأول وعند افتتاح الصدارة ، يعيّن البادشاه عادة ، الوزير الثاني (بالعثمانية وزير ثانٍ) صدرًا أعظم . لكن صدارة الوزير الثالث أو صدارة وزير آخر كانت ممكنة كذلك .

أعضاء الحكومة الآخرين هم :

قبودان دريا : (تلفظ بشكل كابتان دريا) ، هو الأميرال الكبير (المشيرالبحري) الذي يحمل صلاحيات قائد القوات البحرية ، ناظر البحرية ووالي إيالة جزائر بحر سفيد (جزر البحر الأبيض) .

كاهيه بك أو صدارت كتخداسي وهو وزير الداخلية ويكون تعاونه وعلاقته مع الصدر الأعظم وثيقة .

يني جري أغاسي : قائد حامية (أوجاق) الإنكشارية . رتبته فريق أول وأحيانًا وزير (ماريشال) .

قضاة عسكر روملي والأناضول : هما المعلونان الأول والثاني لشيخ الإسلام الذي ليس عضوًا في الديوان . وهما الشخصان الثاني والثالث لصنف العلماء بعد شيخ الإسلام . ومع أن رتبتهما متساوية ، لكن مقام روملي اعتبر رتبة متقدمة بالنسبة لرتبة الأناضول . كانا المرجعين لكل الموضوعات التي تختص بها اليوم وزارات العدل ، التربية والثقافة والأوقاف والأمور الدينية . كانا يدعيان « أفندي » كبقية صنف العلمية (علماء الدين) .

نيشانجي : نيشانجي أفندي أو باشا ، من صنف القلمية (الكتّاب) بمرتبة بكلربك أو وزير ، كان حتي عام 1650 بمثابة ناظر للخارجية . وبعد 1650 ، ظل بوظيفة مهر خاص ناظري (ناظر الختم الخاص) وتسمى بالعربية « توقيع » (توقيع همايون = طغراء البادشاه) .

رئيس الكتّاب : كان مساعدًا للنيشانجي حتي 1650 ، السكرتير العام للخارجية ، كان رئيسًا لدائرة المراسلات مع الدول الخارجية . وهذا يعني بعد 1650 ، وزير خارجية . كان قبل 1650 يشترك في اجتماعات الديوان ، لكن لم يكن له حق التصويت ، يلقب أفندي في حالة كونه برتبة بكلر بك ، وباشا إذا كان برتبة وزير ، وهذا نادر .

باشدفتردار أو دفتردار شق أوّل : هو الباشا أو الأفندي ناظر المالية . وله مستشاران

اثنان دفتردار شق ثاني ودفتردار شق ثالث ، وأحيانًا ، أصبحا أعضاء ديوان ، لكن لم يكن لهما حق التصويت . الباشدفتردار فقط ، كان له حق التصويت .

كان بإمكان قاضي استانبول ، الاشتراك في الديوان عند مناقشة القضايا العائدة لمدينة العرش ، لكن ليس له حق التصويت .

كتبة الديوان الهمايوني « ديوان همايون كاتبلري » هم الذين يمسكون مضابط الجلسات . تدوّن قرارات الحكومة لكل سنة في مجلد منفصل ويسمى هذا **مهمة دفتري** وهذه تشكل أهم الوثائق الأرشيفية للتاريخ العثماني . إن وظيفة كاتب الديوان ، كانت خطوة مهمة للتدرّج والترقي في وظائف الدولة . كان كاتب الديوان يختار بعناية من بين أصحاب المعلومات ، الأذكياء ، ذوي الكفاءة والشرف . مناقشات الديوان ، كانت سريّة ومغلقة . تعلن الحكومة إلى الشعب ، القسم الذي ترغب في إعلانه .

بدأت دكتاتورية كوبرولو محمد باشا عام 1656 وفقدت قرارات الديوان أهميتها . أصبح ، صدور الأعظم ، حتى التنظيمات ، يؤثرون تسيير أعمالهم دون الحصول على قرارات الديوان . وحتى أن كوبرولو ، ألغي وزارة القبة كذلك . إذ إن وزراء القبة ، صاروا على رأس الذين يحيكون الدسائس ليصبحوا صدورًا عظام .

كان يعمل في الديوان الهمايوني 50 كاتبًا و50 معاون كاتب (كانوا قسمين 20 منهم شاكرد (طالب) و 30 منهم ملازم) . ومن ناحية أخري ، يوجد أقرب الناس إلى الصدر الأعظم وهو الكاهيابك (ويطلق عليه كذلك كتخدا الصدارة) ويعتبر ناظرًا وبمثابة وزير الداخلية ، يعمل في مكتبه 26 كاتبًا (هامر 17 ,45) . مكتوبجي الصدارة ، هو السكرتير العام لرئاسة الوزارة .ويعمل تحت إشرافه 30 كاتبًا (d'Ohsson ,7 ,169 – 70) كان للصدر الأعظم معيّة من كبار الموظفين مثل ؛ لسه دار ، مهردار ، كاتب السر ، كاتب الإنشاء . لكل وزير كتخدا (وكيل وزير) وهو الذي ينظم أمور مكتب وموظفي معية ذلك الوزير . كان منصبًا مهمًا . كثير من الوزراء والصدور العظام ، عينوا من بين كتخدا الوزراء .

4 ـ الشئون الخارجية :

لا حاجة إلى التوسع في إيضاح أهمية الشئون الخارجية في إمبراطورية واسعة

كالإمبراطورية العثمانية . كانت الدولة في علاقة مستمرة مع جميع أنحاء العالم ، إذ إنها كانت ذات علاقة بالتوازن الدولي وقد سيطرت على هذا التوازن قرابة عصرين (1517 – 1683) ، وأصبحت أكبر عامل في هذا التوازن ؛ لذا فإن الذي يهتم بالأمور الخارجية ويهتم بها أكثر من غيره هو البادشاه بالذات وقد أصبحت الشئون الخارجية ، إحدي المجالات التي يقضي فيها أكثرية السلاطين معظم أوقاتهم . وكان الذي يلي البادشاه في الاهتمام بها ، هو الصدر الأعظم . وأخيرًا الحكومة أي الديوان الهمايوني . حيث إن الاجتماعات ، كانت تجرى فيه ، والقرارات تتخذ فيه كذلك . لكن الخارجية كان لها أعمال تقنيّة خاصة وروتينية رتيبة . كانت توجد ضرورة لتشكيلات خاصة لتدوين قرارات الديوان ، أوامر الصدر الأعظم والبادشاه الخاصة بالشئون الخارجية وصياغتها بشكل تقني فنّي وإعطائها الصفة القانونية ، وهذا هو منشأ وزارة الخارجية .

إن وزير الخارجية بهذا المفهوم ، كان حتي 1650 يسمى نيشانجي ، وخلال 1650 – 1836 رئيس الكتّاب ، وخلال 1836 – 1922 ناظر الخارجية .

إن منصب الناظر الذي سمّي نيشاني ، طغرائي ، وعلى الأغلب توقيعي والأكثر من ذلك ، نيشانجي ، هو منصب انتقل عن طريق العباسيين – السلجوقيين . هو ناظر الختم الخاص والشخص ذو الصلاحية لنقش طغراء البادشاه المسماة « نيشان همايون » ، والأصح ، الإيعاز إلى الفنان الذي ينقش الطغراء المسمى « طغراكش » بنقشها . ولأنه رئيس الكتّاب الذي يترأس أمور الديوان الكتابية ويسيّرها بصورة فعلية ؛ أصبح بمثابة وزير للخارجية من الناحية التقنيّة . قام بهذا الواجب من 1453 إلى 1650 النيشانجي الذي يطلق عليه لقب باشا إن كان بدرجة جلبي ، أفندي ، وزير . وفي عام 1650 ، حدث تغيير في القانون وأحيلت المراسلات الخارجية إلى رئيس الكتاب أفندي وأصبح رئيس الكتاب عضوًا في الديوان له حق التصويت ووزيرًا للخارجية بصورة فعلية . لكن اسم النيشانجي في التشريفات ، ظل يتقدم على الرئيس أفندي . سميت التشكيلات التي يترأسها النيشانجي « توقيع » ، والتي يترأسها رئيس الكتاب « رئاسة » . والواضح أن ذلك مقتبس من ديوان الإنشاء العباسي (جرجي زيدان ، 1 ، ص 299 أ – ب) .

كان المعاون الأول لرئيس الكتاب المسمى بكلكجي أفندي أو بك ، هو السكرتير

العام أو المستشار للشئون الخارجية . وكان يسمى « بكلكجي ديوان همايون » وهو مرشح لمنصب رئيس الكتاب . كان يعمل تحت إشرافه 120 كاتبًا (هامّر ، 101, 99 1, Ricault, 45, 17) ويتبعه رئيس مترجمي الديوان الهمايوني والمترجمين ؛ حيث كانت ترسل من الخارج إلى الديوان كتب بلغات مختلفة كثيرة العدد . كان الذين يجيدون العربية والفارسية من الكتاب ، يرفّعون ويتقدمون في المراتب بشكل أسرع . والمعاون الثاني لرئيس الكتاب ، هو الشخص المسمى « آمدي ديوان همايون » كان مكلفًا على الأكثر بتأمين العلاقات في المخابرات الخارجية مع البادشاه . كان له كذلك مكتب عظيم . في حالة ترفيعه يصبح بكلكجي وسكرتير عام الأمور الخارجية ورئيس كتّاب وزير(وزير خارجية) . كانت هذه وظائف تخصصية . كانوا موظفين مقتدرين يختارون من بين صنف الكتّاب الذين تدرجوا في مكاتب الباب العالي ، وليسوا من خريجي المدرسة (المدارس الدينية) . إن تنوّع وسعة أعمال هذه التشكيلات ، كانت كبيرة جدًا . مثلاً ، استنادًا إلى أحد سجلات عام 1804 (جودت 7 ,368) كانت محاضر جلسات البرلمان الإنكليزى تترجم وتقدم إلى رئيس الكتاب .

وخلال العصرين من 1453 إلى 1650 ، عين 39 شخصًا ، 56 مرة لمنصب نيشانجي . والذين ضربوا رقمًا قياسيًا في مدة بقائهم في هذا المنصب هم موستارلي مصطفى باشا الذي بقي في هذا المنصب مدة 24 عامًا خلال الربع الثاني من العصر 17 والمؤرخ الكبير جلال - زاده مصطفى جلبي الذي شغل منصب نيشانجي في دور القانوني مدة 24 عامًا كذلك . قره نيشانجي داود 14 سنة في دور بيازيد الثاني ، أما قره ماني محمد باشا من أحفاد مولانا جلال الدين الذي صار وزيرًا أعظم بعد ذلك فقد ظل 12 عامًا في دور فاتح ، جزه ري - زاده جعفر جلبي أول نيشانجي لفاتح 12 سنة ، تاجي - زاده جعفر جلبي شغل هذا المنصب مرتين مدة 11 سنة في دور بيازيد الثاني وياووز . بينما شغل أوقجو - زاده منصب نيشانجي لخمس مرات مجموعها عبارة عن 3 سنوات وشهرين . أقصر مدة هي التي قضاها دلاور أغا - زاده عمر أفندي (48 يومًا) .

وخلال مدة (من 1650 - 1836) ، 67 رئيس كتّاب ، عيّن 95 دفعة لهذا المنصب . وبالرغم من أنهم كانوا في تشريفات الحكومة يتلون النيشانجي وكتخدا

الصدارة ، لكنهم اكتسبوا أهمية تفوقهم . وعندما اكتسب المنصب أهمية فائقة ، بدأ فيه عدم الاستقرار . إن أطول مدة في دور لاله (1718 – 1730) هي رئاسة أوجار آبادلي محمد افندي (12 سنة ، وشهرين ، 17 يومًا) يوجد كثيرون من شمعي زاده محمد أفندي بقي في هذا المنصب في دور محمد الرابع دفعتين مجموعهما 10 ، قاشهور . يوجد كثيرون من الصدور العظام عملوا في وظيفة رئيس كتّاب . رامي محمد باشا (مرتين 5 . 7 سنة) ، داماد قوجا راغب باشا (3 سنوات وشهرين و16 يومًا) نائلي عبد الله باشا (5 سنوات ، 11 شهرًا ، 16 يومًا) حمزة حامد باشا (شهر 16 يومًا) يا غلقجي – زاده حاجي محمد أمين باشا (9 أشهر و7 أيام) ، اسبارطه لي خليل حميد باشا (9 أشهر ، 24 يومًا) ، غالب باشا من رجال النظام الجديد (3 دفعات 5 . 4 سنة) ثم صار بعدها صدرا أعظم .

غيّر محمود الثاني في 11 آذار 1836 اسم هذه الوظيفة إلى « أمور خارجية ناظري » أي ناظر الأمور الخارجية ،أصبح بعد ذلك « خارجية ناظرى » فقط . إن آخر رئيس كتّاب وأول ناظر هو حاجي محمد عاكف باشا (4 سنوات وشهرين و5 أيام) . دامت هذه الوظيفة التي بدأت قبل التنظيمات بـ 3 سنوات مدة 86 سنة و4 أشهر و17 يومًا . 36 شخصًا شغلوا هذا المنصب 69 مرة . أصبحت نظارة الخارجية ، أهم مقام في الوزارة بعد الصدارة . اعتلى هذا المنصب من رجال التنظيمات ، عالي باشا 8 ، فؤاد باشا 5 ، رشيد باشا 3 ، صفوت باشا 6 مرات . الذين شغلوا منصب ناظر الخارجية أطول مدة هم : الصدر الأعظم عالي باشا (14 سنة و4 أشهر و4 أيام) ، الصدر الأعظم توفيق باشا (13 سنة و3 أشهر و7 أيام) ، كرد سعيد باشا (10 سنوات و4 أشهر و3 أيام) الصدر الأعظم كيجه جي – زاده فؤاد باشا (7 سنوات ، 11 شهرًا ، 4 أيام) ، الصدر الأعظم يوك رشيد باشا (6 سنوات ، و 3 أشهر ، 4 أيام) .

5 – سفراء وقناصل الدول الأجنبية في تركيا :

كانت الدول الأجنبية ، ترسل إلى العثمانية نوعين من السفراء : سفراء فوق العادة ، يحضرون لمهام معيّنة ، وسفراء دائمين مقيمين . أول من أرسل سفراء مقيمين ، البندقية اعتبارًا من 1454 . يسمي السفراء البندقيون « باليوز » . وأساسًا فإن البندقية هي

المؤسسة للدبلوماسية الأوروبية الحديثة . أرسلت كل من فرنسا في أواسط العصر 16 ، انكلترا في أواخره ، وتلتها فورًا ، هولندا ثم بقية الدول الأوروبية الواحدة تلو الأخرى ، سفراءها الدائمين المقيمين إلى استانبول . أما الدول الآسيوية فكانت ترسل سفراء فوق العادة فقط . الدولة الآسيوية الوحيدة (وبالأصح الدولة التي ليست من أصل أوروبي) ، التي أرسلت سفيرا دائما إلى الدولة العثمانية في التاريخ العثماني حتى 1922 ، هي إيران فقط . انتهت الدولة العثمانية ، قبل أن تتبادل البعثات الدبلوماسية مع الصين واليابان .

إن تقسيمات وزير مفوض وسفير جديدة ، وهي تقسيمات موجودة في الديمقراطية الحديثة ، ولم تكن موجودة في الماضي . لكن الدول التي يمثلها سفير لم تكن ، بالطبع ، على المستوى نفسه من الأهمية . كانت العثمانية ، في الفترة الكلاسيكية ، تعتبر مكانة السفير الإيراني (الصفوى) في الدرجة الأولى ويليه السفير الهندي (التيموري) . لكن هاتين الدولتين كانتا دولتين ترسلان سفراء فوق العادة ولا ترسلان سفراء مقيمين . إن أكثر السفراء الذين حازوا اعتبار العثمانية من بين سفراء الدول التي ترسل سفراء دائمين هو سفير ألمانيا لتمثيله الإمبراطور (Ricault, 1, 259) . ويليه رأسًا سفير فرنسا . وفي العصر 17 ، من الممكن أن نقول إن الذين يلونهم في التسلسل هم سفراء البندقية ، إنكلترا ، هولندا ، بولونيا ، السويد ، روسيا (Ricault, 1, 278) . بدأت بعد ذلك الدول كالدانمارك ، صقلّيتين ، سردونيا ، إسبانيا ، بلجيكا ، الولايات الأمريكية ، النرويج ، سويسرا ، البرتغال ، الدول التي ظهرت في البلقان ، ترسل سفراء دائمين إلى استانبول .

وفي الفترة الكلاسيكية ، كان أهم سفير بالنسبة للإمبراطوريتين الصفوية في إيران والتيمورية في الهند هو الذي ترسله العثمانية . كتب Tavernier كمشاهد ، أن بادشاه الهند تيمور أوغلو شاه جهان يتسلم الرسالة رأسًا من يد السفير الذي يرسله البادشاه العثماني فقط من بين جميع الحكام على وجه الأرض . يحتمل أن يكون ذلك بسبب كون الحاكم العثماني خليفة . إن الرسائل التي كان يرسلها شاه إيران ، كان يتسلمها الصدر الأعظم الهندي من يد السفير ويقدمها إلي الحاكم . أما رسائل لويس 14 أكبر حاكم

أوروبي ، فكانت تُستلم من السفير الفرنسي وتسلَّم إلى شاه جيهان ، بعد انتقالها بين أيدي ثلاثة وزراء ؛ سجل Tavernier الفرنسي ذلك بتأثر .

أكبر عدد من أعضاء السفارات وأكبر السفارات الأجنبية كانت في استانبول حتى العصر 19 . إذ إن السفراء المرسلين كانوا قد عيّنوا لدى الدولة العثمانية التي تعيش على أراضيها اليوم أكثر من 30 دولة . كان بالسفارة الفرنسية في استانبول في العصر 18 ، 29 دبلوماسيًّا ، 52 مترجمًا يجيد اللغة التركية . وموظفون آخرون كان عدد الموظفين الدبلوماسيين فقط في السفارة الإنكليزية في استانبول 56 . ويجب أن نضيف إلى ذلك ، الموظفين العاملين في القنصليات الموجودة في مختلف أقطار العثمانية .

إن العصر الذهبي للدبلوماسية في العالم أجمع ، هو العصر 19 . اعتبرت الدبلوماسية أرق الوظائف ، أكسب رشيد باشا هذا الاعتبار إلى النظام التركي كذلك . اكتسب موظفو السلك السياسي الأولوية ، بعد أن كانت إدارة الدولة العثمانية ، حتى ذلك التاريخ ، تحت سيطرة موظفي السلك العسكري .

كانت الدول العظمي هي التي تتبادل مع بعضها السفراء : إنكلترا ، فرنسا ، روسيا ، تركيا ، النمسا ، ألمانيا (بروسيا) ، أسبانيا ، الولايات الأمريكية . انضمت إليهم في نهاية العصر إيطاليا كل وفي السنوات الأخيرة للعصر اليابان . وعدا ذلك كانت كل الدول تتبادل فيما بينها وزراء مفوضين (بالفرنسية ministre) .

كانت الدولة العثمانية وإيران غالبًا ما تتبادلان السفراء ، ومع أن إيران خرجت في 1828 من عداد الدول العظمى كانت العثمانية لا تزال تجاملها وتعاملها كدولة عظمى .

كانت اللغة الدبلوماسية (استمرت حتى 1945) هي الفرنسية . إن جميع الدبلوماسيين العثمانيين يتكلمون الفرنسية دون استثناء ، وبعضهم كان يجيد لغة أو عدة لغات أخرى . كانت المراسلات بين نظارة الخارجية العثمانية وسفاراتها باللغة الفرنسية . انقرضت بعد 1945 تقريبًا مؤسسة أورطه الجي (سفير وسط ، وزير مفوض) . وأخذت كل الدول تتبادل السفراء (بالفرنسية : Ambassadzur) .

كان القناصل على 4 درجات : القنصل العام (باش قونصولوص) (بالعثمانية : باش شهبندر ، بالفرنسية : consul general) ، قنصل (بالعثمانية : شهبندر ، بالفرنسية : Consul) ، قنصل ثانٍ أو نائب قنصل (قونصولوص معاوني) (بالعثمانية : شهبندر وكيلي ، معاوني ، بالفرنسية Viee - Consul) ، وكيل قنصلي (بالعثمانية : قانجيلار ، بالفرنسية : agent consulaire) وهذه الدرجة لا وجود لها اليوم . يطلق على موظفي القنصلية العامة بدرجة قنصل ونائب قنصل « قنصل معيّة ونائب قنصل معيّة » .

كان لإنكلترا عام 1839 ، قنصل عام في 7 مدن من الامبراطورية العثمانية ، قنصل في 10 مدن منها ، نائب قنصل في 10 مدن منها كذلك . وفي 1912 كان لها قنصل عام في 10 مدن وقنصل في 10 مدن كذلك ، ونائب قنصل في 38 ، ووكيل قنصلي في 7 مدن من مدن الامبراطورية العثمانية .

كان لفرنسا عام 1839 ، في الامبراطورية العثمانية 4 قناصل عموم ، 11 قنصلاً ، 2 نائب قنصل ؛ وفي 1912 ، 6 قنصل عموم ، 11 قنصلاً ، 18 نائب قنصل ، 58 وكيلاً قنصلي .

كان لروسيا في 1839 ، 3 قناصل عموم ، 8 قناصل ، 1 نائب قنصل ؛ وفي 1912 ، 11 قنصلا عاما ، 11 قنصلا ، 27 نائب قنصل ، 17 وكيلًا قنصليا

كان للنمسا – المجر في 1839 ، 6 قناصل عموم ، 13 قنصلاً ، 10 نائب قنصل ؛ وفي 1912 ، 7 قناصل عموم ، 15 قنصلاً 12 نائب قنصل ، 31 وكيلا قنصليا .

ملكية بروسيا التي أصبحت في 18 / 1 / 1871 إمبراطورية ألمانيا ، كان لديها في عموم 1839 ، قنصل عموم ، 12 قنصلاً ، 1 نائب قنصل ؛ وفي 1912 ، 3 قناصل عموم ، 15 قنصلا ، 14 نائب قنصل ، 9 وكلاء قنصلي .

ملكية سردونية (Piemonte) التي أصبحت في 17 / 5 / 1861 ملكية إيطاليا ، كان لديها عام 1861 ، 9 قناصل عموم ، 5 قناصل ، العديد من نواب القنصل ؛ وفي 1912 ، 7 قناصل عموم ، 14 قنصلاً ، 6 نواب قنصل ، 56 وكيلاً قنصلي .

كان لدى إيران في 1850 ، قنصل عام و 1 قنصل ، وفي (1912) ، 10 قناصل عموم ، 7 قناصل ، 6 نواب قنصل و 8 وكلاء قنصليون .

كان لدى الولايات الأمريكية المتحدة عام 1839 ، قنصل عام 15 قنصلاً ؛ وفي 1912 ، 4 قناصل عموم 12 قنصلاً ، 17 وكيلاً قنصليًا .

كان لدى أسبانيا عام 1839 ، قنصلان عامان ، 2 قنصل ؛ وفي (1912) ، 3 قناصل عموم ، 8 قناصل ، 17 نائب قنصل ، 18 وكيلاً قنصليًا .

فتحت الدول آنفة الذكر ، في المدن التالية قنصليات عامة دائمة مؤقتة : استانبول ، القاهرة ، اسكندرية ، تونس ، طرابلس الغرب ، بيروت ، الشام ، بغداد ، بلغراد ، بخارست ، ينى بازار ، ياش ، بورسعيد ، سلانيك ، صوفيا ، البصرة ، خانيا ، أزمير ، حلب ، القدس ، أدرنة ، يانيا ، رسجك ، طرابزون ، أرضروم ، أوسكوب ، اشكودرا ، بوسنة سراي ، ادرنه وفان . ولم تفتح أية دولة في أية فترة ، قنصلية عامة في : صنعاء ، الخرطوم ، جدّة ، لكنها فتحت قنصليات أو مكاتب .

6 – سفراء وقناصل العثمانية لدى الدول الأجنبية :

كانت العثمانية ترسل إلى دول أوروبا ، آسيا ، أفريقيا سفراء مؤقتين لأغراض معيّنة . يعود السفير بعد ختام عمله ، ولا يقيم في ذلك القطر . هناك من يبقى عدة سنوات . لكن هذا البقاء مرهون بإنجاز مهمة معينة . فكّر نوشهرلي إبراهيم باشا في دور لاله (1718 – 1730) في تأسيس سفارات دائمة ، وبدأ بفيينا وباريس . إلا أن سقوطه أخّر ذلك إلى نهاية العصر 18 .

استُقْبل السفراء العثمانيون باهتمام بالغ عند إرسالهم في بعثات مؤقتة وفوق العادة . إذ إن وضع الدولة العثمانية كان كوضع الولايات الأمريكية بعد 1945 . وشيء آخر ، هو أن السفير العثماني قادم من ثقافة مختلفة ، ومختلفة جدًا . فمثلا كان الذي أدخل القهوة إلى أوروبا ، هو سفيرًا عثمانيًا ذهب إلي فيينا ، عرّفها ، حبّبها ونشرها . أسس الأوروبيون جوقة موسيقاهم العسكرية الحديثة باستماعهم لفرقة المهتر التي ترافق السفراء . انتشر الطراز العثماني في كثير من المجالات . كل سفير عثماني كان يقدم تقريرًا تحريريًا إلى

الديوان بعد إنهاء مهمته الدبلوماسية وعودته . هذا التقرير كان يسمى « سفارتنامة » . كانت بعض التقارير على شكل كتاب يحاول كل توضيح كل نواحي ذلك البلد . وهي من المصادر المهمة للتاريخ العثماني . كما أنها كبيرة الأهمية من زاوية تعريفها لنظرة العثماني إلى حضارة لم يألفها وغريبة عليه تمامًا . شوهد دبلوماسيون اشتهروا في مجال الأدب بواسطة تقاريرهم (سفارتنامة) مثل يرمي سكيز جلبي محمد أفندي (باريس) في بداية العصر 18 ، أحمد رسمي أفندي (فيينا وبرلين) في أواسط العصر . إن كان التقرير تقريرًا فنيًّا وليس على شكل كتاب ، يسمى « سفارتنامة » وإن كان على شكل كتاب يسمى « تحريرات » .

عند انقسام السفراء إلى درجتين في مطلع العصر 19 سمّت العثمانية السفير (ambassadeur) « سفيرًا كبيرًا » . أما لفظ « سفير » فيستعمل في المصطلح العثماني للدلالة على (أورطه الجي) وزير مفوض ، وكذلك بصورة عامة على جميع السفراء سواء كان سفيرًا أو وزيرًا مفوضًا . أسست سفارة لندن الدائمة (المقيمة) في 15 / 10 / 1793 وفي أيلول 1796 سفارة باريس ، وفي 7 / 9 / 1797 سفارة فيينا الدائمة . ثم سفارات برلين ، بطرسبورغ ، روما ، طهران ، واشنطن ، مدريد ؛ وأسست أورطه الجيليك أي السفارات المتوسطة (المفوضيات) في كل من أثينا ، لاهاي ، بروكسل ، نابولي ، استوكهولم ، كوبنهاك ، برن ، بلغراد ، بخارست ، وجتينه ، أما في العصر 20 ، فقد أسّست مفوضية صوفيا (22 / 9 / 1909) . أمكن في 1839 ، فتح قنصليات في 15 مدينة أوروبية فقط . وفي 1850 كان لدى العثمانية في 14 مدينة أوروبية ، قنصل عام ، وفي 33 مدينة قنصل ، وفي مدن عديدة نائب قنصل . وفي مدينة أمريكية (واشنطن) قنصل عام 1 ، وفي مدينة أخري (بوسطن) قنصل 1 وفي عدة مدن منها نائب قنصل .

الأقطار التي كان للعثمانية قنصلية فيها عام 1908 : في 6 مدن إنكليزية قنصل عام ، في 16 مدينة قنصل ، في 20 مدينة منها نائب قنصل ؛ في فرنسا ، 3 قناصل عموم ، 14 قنصل ، 2 نائب قنصل ؛ في ألمانيا 31 قنصلاً عامًا ، 4 قناصل ؛ في النمسا ــ المجر 4 قناصل عموم ، 20 قنصلاً ؛ أسبانيا 2 قنصل عام ، 18 قنصلاً ، ، 3 نواب قنصل ؛

5 قناصل عموم في الولايات الأمريكية ؛ 5 قناصل عموم في روسيا ، 7 قناصل ، 3 نواب قنصل ؛ 4 قناصل عموم في اليونان ، 6 قناصل ؛ قنصل عام في بلجيكا ، 3 قناصل ، نائب قنصل ؛ 4 قناصل عموم في هولندا ، قنصل ؛ 3 قناصل عموم في رومانيا ، 4 قناصل ، 3 نواب قنصل ؛ 2 قنصل عام في صربيا ، 1 قنصل ، 1 نائب قنصل ؛ 4 قنصل عام في قره داغ ؛ 3قناصل عموم فيالسويد ، نائب قنصل ؛ قنصل عام في النرويج ؛ قنصلان عامان في سويسرا ؛ قنصل عام في البرتغال ، نائبا قنصل ؛ قنصلان في البرازيل ؛ قنصل عام في الدانمارك ؛ وقنصل عام واحد في كل من الأرجنتين والحبشة .

كان لدى الدولة العثمانية في أدوار مختلفة قناصل عاموم في المدن الآتية : باريس ، فيينا ، بطرسبورغ ، اوديسيا ، روما ، جنوه ، ليفورنو ، واشنطن ، آنفرس ، بروكسل ، امستردام ، لشبونة ، برلين ، هامبورغ ، مرسيليا ، دانزغ ، البندقية ، تريسته أثينا ، بيره ، آغريبوز ، باتراس فونيتزا Vonitza ، لاميا ، مانشستر ، سالفورد ، بومباي ، كيبتاون ، مالطة ، بوردو ، لا ييزغ ، بشته ، راكوسا ، تامشوار ، تفليس ، باليرمو ، برنديزي ، تبريز ، طهران ، ليون ، مسّينا ، باكو ، باطوم ، تاكونروك ، بوسطن ، برشلونة ، مدريد ، كورفو ، جاكرتا ، كوبنهاك ، كولونيا ، ميونخ ، بوكبورغ ، رودولستات ، كوثا ، كوبورغ ، آرولسن ، شتوتغراد ، سوندرها وزن ، ليفربول ، نيوكاسل ، سنغافورة ، ملبورن ، نيس ، طولون ، بريسلاو ، فرانكفورت ، مانهايم ، ديسّاو ، كارلسروها ، دارمستاد ، سيرا ، كريز ، آلتبورغ ، ماينتكن ، وايمار ، بوكبورغ ، موسكو ، سفاستوبول ، قارص ، نابولي ، خوي ، كرمنشاه ، سينه ، شيكاغو ، روتردام ، أديس أبابا ريو دي جانيرو، جنيف ، نيش ، كالاس ، يني شهر ، دوسلدورف ، براونشويغ ، ديتمولد ، لوبك ، أولدنبورغ ، شويرن ، ستريلتز ، لاهاي ، كوسنتجه ، بخارست ، بلغراد ، برن ، بوسنة سراي ، رشت ، نيويورك ، صوفيا ، فيليبه ، أوسلو ، بانكوك ، بونس آيرس ، حارار ، سائو باولو ، كونه بورغ ، استوكهلم ، بريمن .

كان للدولة العثمانية عام 1900 علاقات دبلوماسية متبادلة مع 25 دولة مستقلة (18

أوروبية ، 4 أمريكية ، 2 آسيوية ، 1أفريقية) . كان لها ممثلون في 280 مدينة عالمية . (لمعرفة الأسماء انظر **سالنامهء نظارت امور خارجية** 3 ,1318 = 1900 ، ص235 - 46) .

7 – أرشيف الامبراطورية (بالعثمانية : خزينة ء أوراق) :

أحرقت جيوش تيمور ، التي دخلت بورصة عام 1402 ، أرشيف (محفوظات) الدولة العثمانية . لذا بقيت في حوزتنا وثائق أرشيفية غير كافية بالنسبة للعصر 14 . ورغم أنه تعرض لتلفيات مختلفة ، فإنه لا يزال الأرشيف العثماني ، أحد أغنى خزائن الأوراق بين أهر 1 ، 2 من خزائن الأوراق الأوروبية (Sauvaget, Introduction ، 19) إن تاريخ أكثر من 40 دولة لعدة عصور ، كانت تعيش حياة مشتركة تحت ظل العثمانية مطوي ضمن ملفات هذا الأرشيف . قليل جدًا من الدول الأوروبية التي لا يحتوي هذا الأرشيف على وثائق مهمة بشأنها . جمع هذا الأرشيف اليوم في استانبول .

سمّى الأرشيف في البداية ، دفتر خانة ، ثم خزينةء أوراق . إحدى الخزائن الثلاث التي وجدت العثمانية هذه الكلمة لائقة بها . لم تكن هذه الخزينة خزينة ذهب وجواهر كالأخريين ، بل خزينة أوراق ودفاتر ، لكنها خزينة لماض بعيد ، وتاريخ واسع . كان على رأس الأرشيف موظف يسمى دفتر أميني (أمين الأوراق) وكان آمره « نيشانجي » كان يجب الحصول على موافقة الصدر الأعظم لتسجيل أي شيء وإجراء أي تغيير في الدفاتر (الأضابير ، الأوراق) ، وفي تلك الحالة ، النيشانجي فقط هو الذي يمكنه إجراء هذا التغيير بخط يده . يدخل في هذا التغيير فرمان (أمر) الصدارة . حيث كان بالإمكان تبديل مصالح لا يتصورها العقل ، بحركة قلم بسيطة . كان لا يجوز إخراج أية اضبارة مالم يتم الحصول على أمر تحريري من الصدر الأعظم ، ولا ينفذ أمر الصدر الأعظم الشفهي في هذا الشأن . يؤشر على الإضبارة برقم خروجها من الأرشيف ، عند إعادة الاضبارة بعد تدقيق الصدر الأعظم (مهمة دفتري 3 ,616 ، وأيضًا 1113) .

كان بإمكان الدفترأميني (موظف الأوراق) أن يعثر على الدفتر (الاضبارة) أو الوثيقة من بين الملايين من أمثالها خلال بضع دقائق . كانت مصنّفة بشكل رائع . أبرز ما يذكر بين المجموعات هو : **خطوط همايون** البادشاه (الأوامر الامبراطورية للبادشاه) ، قرار – نامات (تقارير) الحكومة لكل سنة يضمها دفتر كبير جدًا

يسمى دفاتر **المهمة** ، نظمت هذه الدفاتر التي تسمى **مفصّل** والتي تعتبر بمثابة سجل ألطابو والأراضي الممسوحة للامبراطورية أجمع ، بحيث تحتوي على إجماليات مختصرة تمكن رجال الدولة من الاطلاع عليها بنظرة واحدة تسمى **دفتر مجمل** أو **دفتر إجمال** وعلى النسخ الأصلية التي وقع عليها الطرف المقابل للمعاهدات التي وقّعتها الدولة العثمانية .

مثلاً ، مضابط اجتماعات ومناقشات وقرارات مجلس وكلاء (الوزراء) للـ 37 سنة الأخيرة 1885 - 1922 ، يضمها 224 مجلّدًا كبيرًا . الارادات (الأوامر) السلطانية التي كانت تسمى سابقًا خط همايون للـ 83 سنة الأخيرة والخاصة بـ 6 سلاطين 1839 - 1922 ومجموعها 000 80 .

توجد محفوظات (أرشيف) مهمة جدًا خارج الأرشيف العثماني الأصلي ، جمعت في استانبول ويأتي على رأسها أرشيف طوبقابو سراي . وأرشيف كثير من النظارات العثمانية ، في أماكن مختلفة . ومنها المحفوظ في أنقرة ، أرشيف الأوقاف والأرشيف المحفوظ لدى دائرة تاريخ الحرب في رئاسة أركان الجيش وهذان الأرشيفان هما أهم اثنين بين خزائن الأوراق الموجودة في أنقرة . محفوظات (خزائن الأوراق) المحكمة الشرعية ، مخزون في 18 مدينة مستقلة . تحتوي على إفادات الشهود ، أحكام القضاة الشرعيين ، تقارير أهل الوقوف (الخبراء) كل جلسات الدعاوي التي نظرت في الامبراطورية منذ عصور . وعلى هذا الأساس ، يمكن القول أنه توجد في أماكن خزن الأوراق والمكتبات المختلفة في تركية عدة مليارات من الوثائق التي تسجل التاريخ العثماني . لا تملك أية دولة تركية أو إسلامية على وجه الأرض مو أرشيفية يمكن قياسها حتى من بعيد بهذه المحتويات الغنية .

مئات الملايين من الوثائق الأرشيفية باللغة التركية والخاصة بالدولة العثمانية ، ظلّت اليوم لدى الدول التى انفصلت عن العثمانية . وعلاوة علي ذلك ، فإنه توجد لدي مخازن أوراق (أرشيف) الدول الأوروبية وثائق تتعلق بالدولة العثمانية ، يبلغ عددها مئات الملايين . وكذلك لا يمكن قياس ذلك مع أية دولة إسلامية أخرى ولو من بعيد .

أمكن فقط ، تدقيق ما يقارب واحدًا بالمائة من الأرشيف العثماني ، وأمكن نشر أقل من واحد بالمائة من الوثائق . وهذا يوضح عدم إمكان تدقيق القسم الذي يسبق النصف

الثاني من العصر 19 من التاريخ العثماني .

توجد وثائق عثمانية في أماكن لا تخطر على البال . مثلاً في دير فرانسيسكن Fransisken في القدس توجد 2644 وثيقة باللغة التركية (**Catologo dei Firmani P.** **Eutimio Castellani** ، القدس 1922) . ويوجد في أرشيف رومانيا ، ما يقارب 2:0 000 ، وفي بلغاريا ما يقارب 000 500 إضبارة ووثيقة باللغة التركية (ميخائيل كوبوغلو ، **VII Turk Tarih Kongresi Zabitlari** ، 502) وفي نفس أرشيف غانة ونيجيريا ، توجد وثائق حول حكم الأتراك في أفريقيا الوسطى (**Nada Zimova** ، **الكتاب نفسه** ، 626) .

8 – باشدفتردار والماليـة :

تسمى الوزارة التي تعالج فيها الشئون النقدية والمالية « باشدفتردارلق » وفي 28 / 2 / 1838 تغير اسمها إلي « مالية نظارتي » (وزارة المالية).

وزير المالية الذي يسمى « باشدفتردار أوشقّ أوّل دفترداري أو دفتردار شقّ أوّل . عضو في الحكومة . سمّى العثمانيون ، وزير المالية الذي سمّاه السلجوقيون « مستقي » ، « باشدفتردار » . تولى خلال مدة 4 عصور تقريبًا ـــ المنحصرة بين 1453 – 1838 -166 شخصًا ، 246 مرة ، وظيفة باشدفتردار ، عُيّن بقال – زاده صارى محمد باشا لهذا المنصب 6 مرات . يوجد عدة أشخاص عينوا 4 مرات . أطول مدة قضيت في هذا المنصب هي دفتردارية جيبه جي أحمد باشا (13 سنة 3 أشهر ، 25 يومًا) . ولا يوجد من بقي أكثر من 10 سنوات غيره . إن مجموع دفتردارية صاري محمد باشا الـ 6 عبارة عن 6 سنوات ، 10 أشهر ، 15 يومًا .

أول ناظر للمالية هو عبد الرحمن نافذ باشا ، ورغم أنه جاء إلى النظارة خلال 1838 - 1852 ، 5 مرات ، فإن مجموع مدة بقائه ، في المنصب 5 سنوات ، 9 أشهر ، 20 يومًا . إن صدور عظام دور التنظيمات مثل صارم باشا ، شيرواني – زاده رشدي باشا ، محمد صادق باشا ، أحمد حمدي باشا ، تولّوا وظيفة وزير مالية .

كان يطلق على آمر مالية كل إيالة اسم « دفتردار » أو « دفتر دار الإيالة / الولاية » .

وهو تابع إلي الباشدفتردار / ناظر المالية في استانبول ، وليس إلي البكلربك / والي .

يسجل كثير من المؤرخين أنهم لم يعثروا في أية دولة من دول العالم حتى العصر 19 علي ماليّة متظمة ومتكاملة وواسعة كتشكيلات المالية العثمانية . إن الباشدفتردار ، هو شخصية دبلوماسية أكثر منها مالية . كانت الشئون الفنية للمالية ، يديرها موظف يسمى باشمحاسب (رئيس المحاسين) ، مع تشكيلات الباشمحاسبة (رئاسة الحسابات) . تولد ديوان محاسبات (الذي تسمى اليوم في تركية سايشتاي) (المحاسبات العامة) ، فيما بعد من هذه التشكيلات . كانت الشئون المالية ، فرعًا آخر من فروع البيروقراطية المدنية التي تسمى مُلكيّة (بضم الميم وسكون اللام) . كان يعمل في المالية (الباشدفتردارلق) في أواخر العصر 18 ، ماينيف على 1000 موظفًا (264, 7, d'Ohsson) كانت تشكيلات الدفتردارية ، عظيمة في الإيالات كذلك. فمثلاً ، كان عدد موظفي الدفتردارية والأوقاف في الشام عام (1715) ، 2374 (راشد 4 ,53) .

كان في الإمكان الكشف عن التزويرات والغش المدبّر بشكل فنّي حرفي . وفي إحدى المرات تمكن 3 من مفتشي المالية من الكشف عن سوء تصرف مالي مدبّر بشكل فنّي للغاية باشتغالهم 6 أشهر (راشد ، 4 ,53) . كانت المالية العثمانية صارمة ولا تتهاون في حقوقها ، فمثلا حجزت المالية جواهر السلطانة عائشة ، البنت الكبرى للسلطان بيازيد عام 1481 والتي قدّمها لها جدها السلطان فاتح كهدية عرس ، لصرفها مبلغ 000 25 آقجة فقط لصالح الدولة ولكن دون أخذ موافقة المالية (Topkapi, Sarayi Arzivi ، رقم 5 ,455) ونفهم من هذا أن السلالة لم تكن تعامل معاملة استثنائية .

كان قسم من إيرادات الدولة ، يحصّل من الضرائب الإسلامية : خمس الغنائم ، الجزية المستوفاة من غير المسلمين لعدم إيفائهم الخدمة العسكرية ، الضريبة المحصلة من الأراضي والإيرادات الزراعية والتي تكون على العموم عشر المحصول وتسمى الخراج (الأعشار) . قسم منها كان ضرائب فرضت باسم الخاقان ، وهذه تغيرت بين الحين والآخر . لكن الضرائب لم تكن باهظة ، حتي في أوقات الضيق . وهي أخف بكثير من الضرائب المالية الحديثة .

كانت ميزانية المركز والإيالات تعد سنويًا (نشر عمر لطفي باركان ، ميزانية الدولة

لعام 1527 - 28 من الأرشيف = 933 - 934 : IFM ,15 ,1954 ,243 وما بعده) . ويمكننا أن نقول أن الضرائب المقطوعة التي تدفعها الدول التابعة والضرائب التجارية وإيرادات الجمارك والموانيء ، تأتي على رأس الإيرادات .

أما مصروفات الدولة العثمانية فكانت متنوعة . وفي العصر 16 كانت العثمانية تقدم لفرنسا وإنكلترا مساعدات مالية ، تجارية ، بحرية ، وعسكرية . كانت ترسل أسلحة نارية إلى أندونيزيا ، تركستان . وفي نهاية العصر 18 كانت تهب النقود إلى السويد . وحتى في نهاية العصر 19 كان عبد الحميد الثاني يرسل إلى الصين ، فاس ، الفلبين ، أندونيزيا ، والهند ــ مساعدات ورجال تحريات . والحاصل أن العثمانية كانت إمبراطورية لا يمكن للدول القوميّة الحالية أن تدرك بسهولة مبلغ تنوع مصروفاتها . وكان الوضع في دور الانحطاط لا يختلف عما كان عليه في دور العظمة .

خصص السلطان ياوز سليم ، للسلطان بديع الزمان ميرزا (الابن الكبير لحسين بيرقدار وخلفه) آخر خاقان تركستان من بني تيمور الذي فقد عرشه وجاء إلى استانبول مبلغ 100 مليون دولار بالسعر الرائج حاليًا . أرسل أحمد الأول عند اعتلائه العرش (1604) ، 685 25 ليرة ذهبية صدقة إلى فقراء المدينة ، 806 8 إلى فقراء مكة 622 1 إلى فقراء القدس (**Topkapi Sarayi Arsivi** ، **754 N . E / 5**) . أرسل عبد الحميد الثاني طوال مدة سلطنته (**1876 - 1909**) سنويًا إلى فقراء مكة والمدينة **13** مليون دولار بالسعر الحالي من خزينته الخاصة . وكان بيازيد الثاني (**1481 - 1512**) الذي لم يكن خليفة وكان سلطانًا فقط ــ لكنه كان أكبر حاكم مسلم ــ يرسل سنويًا ما يقارب 5 ملايين دولار بالسعر الرائج حاليًا ، إلى فقراء مكة والمدينة ، الصلحاء ، العلماء ، الشرفاء والمشايخ .

لم تستدن العثمانية حتى **1854** قرشًا واحدًا من الخارج . أخذ أول قرض من إنكلترا بفائدة 6 ٪ بتاريخ (**24 / 8 / 1854**) (**3** ملايين ليرة ذهبية) على أن يسدّد مع فائدته خلال 5 . **13** سنة أي عام **1868** . وفي **1861** اقترضت **3** دفعات أخر ، حتى وفاة السلطان مجيد . بلغ مجموع القروض الأربعة التي جرت خلال دور هذا السلطان ، **700 547 16** ليرة ذهبية (عدا الفائدة) ؛ خُمسُه من فرنسا ، وأربعة أخماسه من

انكلترا . الفوائد 4 ٪ و 5 ٪ . أما في دور السلطان عزيز (1861 - 1876) ، فقد حدثت 7 قروض خلال 15 عامًا . أكبرها القرض العثماني الخارجي الحادي عشر البالغ 780 777 27 قطعة ذهب فكتوريا . أخذ من إنكلترا عام 1873 بفائدة 6 ٪ . وهكذا وكما يقال ضاع رأس خيط الشلّة . لم تستطع العثمانية ، التي لم تتمكن من تأسيس رأسمالية كبيرة حديثة ، صيرفة ، تراكم رأس المال ، صناعات ثقيلة ومؤسسات ـــ مسايرة أوروبا الغربية . ولم تتمكن من تكييف نفسها لصناعة المستلزمات الضرورية الجديدة كالسكك الحديدية ، الخطوط اللاسلكية ، مؤسسات الدولة الحديثة ، البوارج المصفحة ، الأسلحة النارية الحديثة ، وحاولت صنعها بالاستدانة من الخارج . وفي 1875 ارتفعت الديون الخارجية لإيالة مصر إلى 000 149 19 وديون إيالة تونس إلى 7 ملايين ليرة ذهبية . إذ إن الباب العالي كان قد منح كلاً من الايالتين ، فرمان الاستقراض(تعليمات سلطانية) وأعقبتها الحرب الروسية (1877 - 78) . نـــاء عبد الحميد الثاني تحت ثقل الخسائر ، ويلات وغرامات الحرب . أدار المالية بسياسة دقيقة جدًا . كافة المؤرخين الماليين اعتبروا هذه السياسة موفقة جدًا . كان لعبد الحميد الثاني ، منذ عهد إمارته ، استعداد كبير في الأمور النقدية . جرت في دور عبد الحميد الثاني 4 قروض أحدها من إنكلترا والآخر من ألمانيا ، واثنين منها من فرنسا (1890, 1893 ,1878, 1903) مجموعها 000 376 13 ، الثلاثة الأخيرة منها بفائدة قدرها 4 ٪ . الأول فقط بفائدة 5 ٪ .

وقبل عام 1900 ، كان عبد الحميد الثاني يتسلم سنويًا من ميزانية الدولة مخصصات الحاكم والسلالة والسراي مبلغ 000 900 ليرة ذهبية . أما خديو مصر ، فكان يتسلم 361 255 ليرة ذهبية (ملك إنكلترا 000 630 سكة ذهبية) . لكن هذه الأرقام الثلاثة من الممكن أن تعطي فكرة غير صحيحة عن إيراداتهم . إذ إن الإيرادات المتحققة من ثروات ثلاثتهم الشخصية تجعل الإيرادات التي يتسلمونها من الدولة ، لا أهمية لها .

كانت الدولة العثمانية تضرب النقود الذهبية ، الفضية التي تسمى « آقجه » والتي تعتبر وحدة أساسية للعملة النقدية العثمانية ، والسكة النحاسية المسماة « مانكير » ، في معامل سك النقود العديدة المنتشرة في أنحاء الإمبراطورية ، أصدرت نقود ورقية ، تعادل

قيمتها الذاتية الليرة الذهبية . توجد في حوزتنا المسكوكات المضروبة في المدن الآتية : استانبول ، سوغوت بورصة ، أدرنة ، اماسيا ، آياسلوغ ، بولو ، أنقرة ، أفيون ، تيرة ، سيروز ، نوفار ، أسكوب ، كراتوفا ، كلي بولو ، قاصتاموني ، قونية ، طوابزون ، ماردين ، أورفة ، خاربوت ، عامد (دياربكر) ، حسن - كيفاء (حسن كيف ، زعرت ، جزيرة (جزرة) ، موصل ، القاهرة ، الشام ، بغداد ، طرابلس الغرب ، جزائر ، قيصري ، بلغراد ، زبيد ، جانجا (كومشخانة) ، مولدافا (ترانسيلفانيا) ، سدرة كابسي (جنوب شرق سلانيك) ، سربرنيجه (بوسنة) ، نوفابردة (شرق بريشتينة) ، كوجانيا (كوسوفا) ، حلب ، تليمسين ، ساقيز ، جانيجا ، أوهري ، إينة كول ، تبريز ، توقات ، تونس ، البصرة ، صنعاء ، لفكوشة ، خانيا ، طرابلس الشام ، روان ، تفليس ، أرضروم ، كنجة ، قارص ، مادن ، سلانيك ، مناستر ، قاشغر (تركستان الشرقية) ، بقجه سراي .

9 - الرتب العثمانية (بالعثمانية : رتب رسمية) :

لم يبق اليوم من له معرفة بالرتب والألقاب العثمانية . ومما يبعث على الدهشة حقًا ، وقوع المؤرخين الأتراك والأجانب ، الذين يعتقد أنهم أصحاب خبرة ، في أخطاء بسيطة جدًا ، مرّ علينا في كتابنا هذا كثير من الرتب . وأريد أن أوضح الرتب العثمانية بشكل إجمالي . وسوف أتخذ الدور الأخير ، دور عبد الحميد الثاني الذي استقرت فيه الرتب ، أساسًا ، وسأشير إلى ما يقابلها في الأدوار الكلاسيكية القديمة . سبّب استعمال الرتب في أزمنة مختلفة ، بمعاني مختلفة خلال التاريخ العثماني الطويل ، وقوع كثير من المؤرخين في أخطاء . من الممكن إيضاح تشريفات الدولة العثمانية ورتبها باختصار ابتداءً من الأعلى إلى الأدنى على الشكل التالي :

- خاقان - خليفة : امبراطور . هو في قمة التشريفات ولا يوجد شخص يعادله ، باعتباره رئيسًا للدولة وزعيمًا للعالم الإسلامي . يدعي بإضافة لقب « سلطان » قبل اسمه و « خان » بعد اسمه : سلطان عبد الحميد خان ثاني أو إيكينجي سلطان عبد الحميد خان ، أي بإضافة صفة « الثاني » بقاعدة الإضافة العربية في مؤخر الاسم وإضافتها

بمفهومها التركي في مقدمة الاسم بقاعدة الإضافة التركية . في التشريفات الأوروبية S. M. I .

– والدة – سلطان : الامبراطورة الأم . وهي أم السلطان . إن توفيت قبل اعتلاء ابنها ، فبالطبع يكون هذا المقام خاليًا . تدعى بإضافة كلمة « والدة – سلطان » بعد اسمها : برتو – نيال والده – سلطان . في التشريفات الأوروبية : S. M. I .

– ولي عهد سلطنت : (ولي عهد السلطنة) . ولي عهد الإمبراطورية . هو ولي العهد (الشهزادة) الأكبر سناً بعد البادشاه . تضاف « أفندي » بعد اسمه : ولي عهد سلطنت يوسف عز الدين افندي . في التشريفات الأوروبية : S. A. I .

– الشهزادات : (الأمراء) = أمير امبراطوري ، الدوق الكبير يلقب بأفندي . أحمد أفندي . في التشريفات الأوروبية : S. A. I . ويدخلون المراسم حسب تسلسل أعمارهم . أي أن الشهزادة الأكبر سنًا بعد ولي العهد ، يعتبر الشخص الرابع في التشريفات الإمبراطورية – السلطانات : (كريمات البادشاه) في المرتبة نفسها في التشريفات مع الشهزادات . أميرة إمبراطورية ، دوقة كبيرة . في التشريفات الأوروبية : S. A. I . وهؤلاء كذلك يدخلون البروتوكول بعد الشهزادات ، حسب تسلسل أعمارهن ، عائشة سلطان .

– قادين أفندي : 4 ملكات . الزوجات الـ 4 للبادشاه . في أوروبا : S . M ، يدخلن التشريفات حسب تسلسل تواريخ زواجهن ويدعين « باشقادين افندي ، قادين أفندي الثانية ، الثالثة ، الرابعة » . ثروت سزا باشقادين (الزوجة الأولى) أفندي ، مشفقة دوردنجي (الرابعة) قادين أفندي) .

– سلطان – زاده : أمير . في أوروبا : S. A . هم الأولاد الذكور للأميرات الإمبراطوريات . يدخلون التشريفات حسب تسلسل أعمارهم . يدعون « بك أفندي » : سلطان – زاده لطف الله بك أفندي – خانم سلطان : أميرة . في أوروبا : S . A بنات السلطانات . يدخلن المراسم حسب تسلسل أعمارهن – 4 إقبال : زوجات البادشاه الأربعة اللواتي يلين زوجات البادشاه الـ 4 الأوليات اللواتي يطلق عليهن اسم « قادين أفندي » ، أميرات في أوروبا : S. A . « خانم أفندي » : باش

(الأولى) إقبال فاطمة خانم أفندي ، دوردنجي (الرابعة) إقبال خديجة خانم أفندي - وزوجات ولي العهد والشهزادات : أميرات .

يدخلن التشريفات حسب تواريخ زواجهن كما هو الحال في « الإقبال » . يدعين خانم افندي : مزّيت خانم افندي . إن هؤلاء المنتسبين إلى هذه الفئات الأربع ، يعتبرون أمراء وأميرات بنفس الدرجة ، لكن تسلسل أهميتهم ، هو كما مدون أعلاه . إن هؤلاء كلهم أعضاء السلالة (الشهمادات والسلطانات) أومنتسبيهم (النساء ، الإقبالات النساء اللواتي يدعين خانم افندي ، أولاد السلطانات) يشكلون الطبقة العليا ويعتبرون خارج الرتب الرسمية الأصلية للدولة وأرفع منها .

سنبدأ فيما يلي ، بدكر الرتب الأصلية لموظفي الدولة . يجوز أن يحمل أي شهزاداة رتبة مشيرا أو ملازم ، لكنه لا يدخل ضمن تشريفات المشير أو الملازم ، يدخل ضمن بروتوكول الشهزاداة ، لكنه يعامل معاملة مشير أو ملازم خلال عمله في الجيش .

- رتبة الصدارة أوالمشيخة : رتبة فوق العادة وفوق الرتب . في أوروبا : أمير (S. A) . هي رتبة صدور الأعظم وشيوخ الإسلام . إن رتبة « الصدارة » ، تعتبر رتبة ملكية (مدنية) إن كان الصدر الأعظم من السلك المدني ؛ وإن كان الصدر الأعظم عسكريًا أي إن كان مشيرًا ، تكون رتبة عسكرية وتصبح رتبة تفوق رتبة الماريشالية . أما رتبة المشيحة التي تمنح إلى شيخ الإسلام فهي منصب عِلمي . والذين سبق أن شغلوا مقام الصدارة والمشيخة ، يتقدمون في التشريفات ويعاملون في التشريفات الأوروبية معاملة الأمراء (برنس) حتىٰ نهاية حياتهم . الذين يحملون مرتبة الصدارة ، يسمون « باشا » والذين يحملون رتبة المشيخة يسمون « أفندي » إن هذه المراتب منحت - في النادر - إلى بعض الأشخاص الذين لم يشغلوا رتبة الصدر الأعظم وشيخ الإسلام بصورة فعلية ؛ منحت في التاريخ العثماني مرتبة المشيخة إلى 3 من القضاة العسكريين (قضعسكر) لروملي ، أحدهم (قره جلبي - زاده عبد العزيز أفندي) صار بعد ذلك « شيخ الإسلام » ، لكن الاثنين الآخرين (الأستاذ السلطاني عمر أفندي وفيض الله - زاده فتح الله أفندي) لم يكونوا في أي وقت من الأوقات شيوخ إسلام

أما رتبة الصدارة ، فقد منحت خلال المدة من 1845 إلى 1914 إلى 6 من ولاة مصر وخديويها الباشوات (محمد على ، عباس ، سعيد ، إسماعيل ، توفيق وعباس حلمي باشا) . هؤلاء هم الأشخاص الـ 9 الذين منحوا هذه المراتب دون أن يشغلوا منصب الصدر الأعظم أو شيخ الإسلام . ولا يوجد غيرهم في التاريخ العثماني .

ـ رتب الوزارة ، المشيرية ، والقضعسكرية : إن هذه الرتب معادلة لبعضها وهي بالتسلسل ملكية (مدنية) ، عسكرية ، علمية وهذه هي الرتب العليا الحقيقية . وهي تقابل رتب اللوقية في أوروبا . إن الرتب آنفة الذكر ولو أنها في البروتوكول الأوروبي تدعى « Altes » أي صاحب الفخامة ، لكن الرتب التي تلت هذه الرتب نعتت بـ « Exellence » أي صاحب السعادة أو العزة . بالرغم من أن رتبة الوزير قبل التنظيمات ، كانت عسكرية لكنها كانت تشمل كذلك الرتبة المدنية . أي أن الوزير كان من الممكن أن يكون من الصنف المدني أو العسكري حسب الحاجة . وفي 25 / 6 / 1832 ، استحدثت رتبة « مشير » ومنحت للعسكريين بدلاً من « الماريشال » وخصصت رتبة « وزير » لصنف الملكية أي إلى المدنيين فقط . أما رتبة القضعسكر ، فكانت على درجتين : قضاة عسكريين روملي (بالعثمانية صدارت روملي) وقضاة عسكريين الأناضول (صدارت آنادولي) . الأولى ، كانت رتبة أعلى يرفّع الذين يمنحون رتبة الأناضول بعد ذلك ، إلى رتبة روملي . الفئتان تدخلان التشريفات بتسلسل تواريخ حصولهم على الرتب . كان الوزراء والمشيرون يُخاطبون بخطاب « ذات دولتلري » أي صاحب الدولة أو العزّة وبالكتابة تكتب « دولتلو » فقط . يدعى الذين رتبهم مشير « باشا » ، والذين رتبهم قضعسكر « أفندي » ، والمدنيون برتبة وزير « باشا » أيضا . إلا أن دار السعادة أغاسي (أغا دار السعادة) ، يدعى بشكل استثنائي « أغا » ، مع أنه بمرتبة وزير ، ويتقدم على جميع الوزراء في التشريفات . أما الباشخوينة دار ، أكبر موظفة في الحرم الهمايوني ، فتعتبر بمرتبة وزير وتسمى « قالفا » . كان يطلق في العهد الكلاسيكي ، على قواد الأندرون الذين تعادل رتبهم الوزراء مثل خاص أوده باشي وسلاحدار ؛ « أغا » كذلك . لكن ، عند خروجهم إلى وظيفة خارج السراي وانفصالهم عن السراي ، كانوا يسمون بـ « باشا » .

- رتب بالا وفريق أول : هي رتب مدنية وعسكرية تقابل رتبة فريق أول (Orgeneral) . يخاطب هؤلاء بإضافة « حضرتلري » إلى مؤخر الاسم ، ولا يدعون « دولتلو » و « ذات دولتلري » . استحدثت رتبة بالا ، عام 1846 ، أما رتبة فريق أول العسكرية ، فقد انقسمت رتبة الفريق إلى درجتين ، ولم تستحدث إلاّ في آذار 1904، وأصبحت مألوفة بعد 1908 ، ومنحت رتب وزير ، قضعسكر ، بالا ، فريق أول إلى شخاص عديدين خلال الـ 14 عامًا التي سبقت نهاية الدولة العثمانية . يدعى الفرقاء الأول « باشا » ، أما الذين برتبة بالا ، فيطلق عليهم افندي و بك بالنسبة إلى ألقابهم في الأصل إلاّ أنه لم يبق في المدة الأخيرة ، إلا قليل من حملة رتبة بإلا ، الذين يدعون افندي ، ودعي أكثرهم بك افندى . ويدعى هؤلاء فى التشريفات الأوروبية بلفظ « Exellence » . وفي المرحلة الكلاسيكية ، كانت ارتبة التي تقابل هاتين الرتبتين معًا ، هي رتبة بكلربك ، وقد كانت رتبة عسكرية تقابل على الأكثر رتبة فريق أول وهي تقابل في أوروبا ، رتبة « ماركيز » . بكلر بك بحرى (دريا بكلربكي = فريق أول بحري) Oramiral كان المشيرون يحملون على أكتافهم علامات ذات خيوط ذهبية . وكان بقية الضباط جميعهم ، من الملازم إلى الفريق الأول يرتدون نفس اللباس . لكن لباس الرأس لضابط الخيالة كان مختلفًا ، كانوا يرتدون القالباغ (نوع من لباس الرأس) . كان بإمكان الضباط الأركان والجنرالات - إن شأوا - لبس القالباغ بدلاً من الطربوش .

- رتب فريق ، أولى روملي واستانبول : رتب متعادلة ، تعادل رتبة فريق (Ko general) الحالية ذات الـ 3 نجمات . وهؤلاء أيضًا يخاطبون بكلمة « حضرتلري » ، في التشريفات الأوروبية « Exellence » . والرتب الأدنى من هذه الرتبة ، لا تخاطب بكلمات اكسلانس أو حضرتلري (أما استثناء هذه القاعدة ، فتكون بالنسبة للذين يحملون رتبًا أدنى لكنهم يقومون أصالة بواجبات رتب أعلى ، واجبات فريق على أقل تقدير) . إن رتبة فريق رتبة عسكرية ، ويدعى « باشا » . رتب « أولى » وبكلر بك رتب مدنية ؛ يلقب الذي يحمل رتبة أولى افندي أو بك ، وبكلر بك روملي « باشا » . أما رتبة قاضي استانبول ، فهي إحدى الرتب العلمية (علماء الدين) ،

ويلقب أفندي . يجب عدم قياس رتبة بكلر بك روملي هذه مع رتبة بكلر بك في الفترة الكلاسيكية (رتبة بكلر بك القديمة رتبة عسكرية أكثر منها مدنية ؛ أما رتبة بكلربك روملي لعهد التنظيمات فهي مدنيّة على الإطلاق) . إن رتبة فريق ، قبل 1904 تقابل رتبة فريق أو فريق أول (ذات الـ 3 والـ 4 نجوم) . ظهرت رتبة فريق في الأصل في أوروبا في العصر 19 كذلك . إن رتبة الجنرالية في الأصل هي 3 : لواء Tumgeneral وفريق أول Orgeneral ومشير maresal . وبعد استحداث رتبتي فريق Korgeneral وعميد tyggeneral في أوروبا ، استحدثت في تركيا كذلك ، الأولى في العهد العثماني والثانية في العهد الجمهوري . استحدثت رتبة فريق عام 1830 . ولغاية 1904 ، كان إذا رفع الفريق ، يصبح مشيرًا ، واعتبارًا من عام 1904 أصبح الفريق ، فريقًا أول بعد الترفيع . استعملت أسماء هذه الرتب ولقب « باشا » في تركية حتى 1934 ، ثم أصبحت « جنرال » و « أميرال » . ألغي في هذا التاريخ لقب الباشوية بصورة رسمية ، إلاّ أن الشعب في تركية لا يزال يطلق لقب « باشا » على الجنرالات والأميرالات . استحدثت رتبة أولى عام 1830 ، وفي 1839 انقسمت رتبة أولى إلي فئتين ، رتبة أولى صنف أول ورتبة أولى صنف ثاني (وبالاختصار : أولى ثانيسي أي أولى من الصنف الثاني) أما لفظ أولي فقط ، فيعني ذلك ، أولى صنف أول ، وفي حالة ترقية حاملي رتب أولي وروميلي بكلربك ، تصبح رتبهم بالا . إن حملة الرتب إلي حد هذه المرتبة ، يشكلون الصنف المسمي « رجال دولت » أي رجال الدولة .

– رتب ميرلوا (أمير اللواء) ، أولى من الصنف الثاني ، ميرميران وحرمين : أصحاب هذه الرتب لا يعتبرون من صنف الرجال (رجال الدولة) ويعتبرون من أركان الدولة ولا تطلق عليهم – عدا الأوضاع الاستثنائية المذكورة أعلاه – ألقاب حضرتلري أو اكسلانس . إن رتبة ميرلوا (بكسر الراء) وبلغة الشعب : ميرلوا (بسكون الراء) ، و (لوا) رتبة عسكرية ، هي رتبة لواء أو عميد . لواء يلقب حاملها « باشا » . رتب أولى من الصنف الثاني وميرميران هي رتب مدنية معادلة لها ومساوية لبعضها ويلقب الأوائل بك أو على الأكثر افندي ، والثواني (الميرميران) باشا . إن الرتبة التي تقابل حرمين شريفين أو التي كان يطلق عليها سابقًا رتبة مكّة ، هي رتبة

صنف العلمية . ويطلق عليهم لقب أفندي مثل منتسبي العلمية (صنوف علماء الدين) .

– رتب آلاي ، متمايز ، خمسة : هي رتب عسكرية ، ملكيّة ، علمية حسب التسلسل . الميراضلاي ، هو العقيد (آلباي) الحالي في البر والبحر . المتمايز (اسم الرتبة الكامل : رتبة ثانية صنف متمايزي) أي الصنف المتمايز من الرتبة الثانية ، مدني ، افندي أو بك (الميرآلاي يلقب بك دائمًا) . أما بلاد خمسة مولويّتي أي ملائية البلاد الخمسة فهي مرتبة علمية بنفس الدرجة ويلقب حاملها أفندي . وفي العهد الكلاسيكس ، كان يطلق علي رتبة ميرلوا ، « سنجق بك » وعلى الأميرالات أمراء لواء البحرية « دريا سنجق بك » ، أو « بحرية سنجق بك » . وكان يطلق في العهد الكلاسيكي على العقداء (ميرالاي) ، إن كانوا خيالة « آلاي بكي » . يلقب السنجق بك في العهد الكلاسيكي بلقب « بك » ، « ويلقب آلاي بك وعقداء كابوكولو الذين يعادلونه « أغا » . أطلق في 1830 ، على « آلاي بك » كلمة « ميرالاي » . يسمى حاملي رتب هذا الصنف ، وبضمنهم المقدمون والرواد وما يعادلهم « أمراء » (بكوات) . ولا يعتبر الذين رتبهم دون رتبة رائد (بكباشي) من صنف الأمراء ويعتبرون من صنف « ضابطان » الضابط .

– رتب قائمقام ، ثانية ، مون ميرامراء ، مخرج : هي رتب تعادل رتبة مقدم حاليًا . القائمقام (القائمقام العسكري) ، هو مقدم برّي أو بحري ولقبه بك ، لكنه إن لم يكن متخرجًا في الحربية ، البحرية ، الهندسة العسكرية ، لا يلقب بك وإن كان تعليمه قد تم في وحدته العسكرية (لم يتخرج في كلية) يلقب « أغا » . والذين رتبهم « رتبة ثانية صنف ثانيلغي » وباختصار ذوو رتب ثانية ، هم مدنيون ، يلقبون بك أو أفندي . ميرامرا (بكسر الراء في الكلمة الأولي) ، رتبه مدنية معادلة لها كذلك ، وفرقها أن هؤلاء يلقبون « باشا » . أما درجة مديرية الاسطبل العامر (اسطبل عامره) ، فهي درجة مدنية معادلة للأخريات كذلك والفرق هو في تلقيبهم بـ « أغا » (يمنح هذا اللقب على الأكثر لخدمة السراي) . مخرج مولويتي (ملائية المخرج) ، هي رتبة علمية معادلة لها ، تلقب بـ أفندي وملاً molla . هذه الرتبة تدخل ضمن صنف الأمراء .

ـ آلاي أميني : هي رتبة رائد متقدّم عسكري . استعملت مدة من الزمن ثم تركت . لقبوا بك ، أفندي وأغا .

ـ رائد (بكباشي) ، ثالثة ، قابوجيباشي ، كبار مدرسين : هي رتب صنف الأمراء التي تعادل رتبة الرائد الحالية . يلقب الرائد البري والبحري ، بك ، أفندي أو أغا . كان الرائد ، يسمى في العهد الكلاسيكي ، باشبولوكباشي وإن كان انكشاريًا يسمى شوربه جي . أصحاب الرتب الثالثة ، يلقبون أفندي أو أحيانًا بك ، وهي رتبة مدنيّة ، رتبة قابوجيباشي ، هي من رتب السراي ، مدنيّة معادلة لها ، يلقب حاملها أغا وأحيانًا بك . يلقب العلماء من « كبار مدرسين » ، أفندي ولا يعتبرون من الملائين .

ـ قول أغاسي ، رابعة ، مدرّس : هي رتب صنف الضباط التي تعادل اليوم رتبة نقيب تقدّم (قدملي يوزباشي) وفي فترة ما ، انقسمت رتبة قول أغاسي إلى قسمين ؛ قول أغاسي أيمن ، وللأقل قدما ، قول أغاسي أيسر . هو نقيب متقدّم في البر والبحر ، يلقّب أفندي ، وإن كان من أولاد الباشوات ، بك ، وإن كان من المتعلمين في وحداتهم يلقب أغا . الرتبة الرابعة (رتبة رابعة) هي رتبة مدنية ، ويلقب حاملها أفندي . وإن كان من أبناء الباشوات يلقب بك . وإن كان مدرسًا يعادلهم من حيث الرتبة العلمية .

ـ يوزباشي (نقيب) ، خامسة ، حاجه كان ، رتب صنف الضباط . يلقب نقيب البر والبحر أفندي ، وإن كان من أبناء الباشوات يلقب بك . « بيشنجي » خامسة ، رتبة مدنية تعادلها . يلقب حاملها أفندي ، ويلقب بك إن كان من أبناء الباشوات . وإن كان تعليمه قد تم في وحدته يلقب « أغا » . حاجه كان ديوان همايون ، رتبة علمية تعادلها ، يلقب أفندي .

ـ ملازم : رتبة عسكرية تقابل الملازم حاليًا . يلقب أفندي ، وإن كان من أبناء الباشوات يلقب بك ، وإن كان تعليمه في وحدته يلقب أغا . من صنف « ضابطان » أي الضابط .. لا توجد رتب مدنية وعلمية تعادلها . رتبة الملازم انقسمت إلى قسمين :

ملازم أول وملازم ثان ، وقد تم في العهد الجمهوري استحداث ملازم أول متقدم .

– ضابط وكيلي (مساعد) : استعملت هذه الرتبة في أواخر عهد الدولة العثمانية وهي معادلة لـ astegmen (مساعد) الحالية . وضعه كالملازمين . المرحلة الأولي لصنف الضباط .

– باش جاووش : يسمى كديكلي جاووش أو assubay أي رقيب أول أو نائب ضابط . وتليها الرتب العسكرية جاووش cavus (رقيب) ثم أونباشي onbasi (عريف) . هؤلاء جنود من صنف جاووش (أرباش) أي صنف الجنود حملة الرتب (ضباط صف) . وبتوالي الزمن استحدثت درجات مثل رقيب متقدم ، رقيب أول متقدم . يسمى الجندي الخالي من الرتب لدى العثمانية نفر nefer وحاليًا يسمى في تركيا أر ER . وهؤلاء كانت درجاتهم تختلف بالنسبة لسني خدمتهم مثل جندي مستجد ، وجندي ، وجندي ممتاز .

10 – أوســمة العثمانية :

لم تكن توجد أوسمة في الفترة الكلاسيكية . كان السلاطين يمنحون الخلعة (رداء ، عباءة) ، إكليلا (علامة توضع علي الرأس) وسيفًا ، الاثنان الأخيران يكونان علي الأكثر مرصعين بالأحجار الكريمة . استحدث محمود الثاني وسام تصوير همايون ، ألغي بعد ذلك . تقررت درجات الأوسمة العثمانية بعد التنظيمات على الشكل الآتي (نزولاً من الأعلى إلى الأدنى) .

– وسام خاندان آل عثمان (الدولة العثمانية) : استحدث في 31 / 8 / 1893 . ومنذ ذلك التاريخ منح إلى ما يقارب [illegible] شخصًا . كان يمنح لكل شهزادة يصل سن البلوغ . ومنح كذلك إلى واحد أو اثنين من الحكام الأجانب وإلى اثنين من المسئولين (الخديو عباس حلمي باشا ، الصدر الأعظم توفيق باشا) . وهو على شكل وسام ذي أرضية حمراء مرصّع بالجواهر يعلق على الصدر بقلادة ذات نجوم وأهلة كثيرة .

– وسام أرطغرل : أستحدث هذا الوسام في 1908 على أن يكون أرفع وسام ،

إلا أنه صرف النظر عنه بإعلان المشروطية .

ـ وسام الافتخار : استحدثه محمود الثاني ، تغيّر شكله بعد ذلك ، وسمي القديم « عتيق نيشان افتحار » . أعلى وسام منح لرجال الدولة ومسئولين معينين عدا الصدور الأعظم .

ـ وسام الامتياز : استحدث عام 1878 . منح لأكثرية الصدور وعداهم منح لأشخاص قليلِين جدًا .

ـ وسام عثمانلي : أي الوسام العثماني . استحدث في بداية 1862 . على 5 درجات : الوسام العثماني المرصّع ، الأولَ ، الثاني ، الثالث، الرابع . إن الأوسمة الأصلية هي العثماني والمجيدي ، والأوسمة الأخرى استثنائية . كانت تمنح كبقية الأوسمة ، إلى الأجانب كذلك . وكوسامَي الافتخار والامتياز . كانا لا يمنح إلى النساء . منح وسام العثماني المرصّع إلى الوزراء الممتازين ، إلى المشيرين ، القضاة العسكريين ، الصدور العظام ، شيوخ الإسلام ، حملة رتبة بالا ، الفرقاء .

ـ وسام المجيدي : استحدث عام 1582 . إن أرضية العثماني خضراء ، لكن أرضية هذا حمراء وهو على 6 رتب : المجيدي المرصّع ، الأول ، الثاني ، الثالث، الرابع ، الخامس . وهو أدنى بدرجة واحدة من الوسام العثماني . فمثلاً ، المرصع العثماني يفوق المرصع المجيدي بدرجة . لكن العثماني الأول يأتي بعد المرصع المجيدي ؛ أي أن العثماني الثالث أعلى قيمة من المجيدي الثالث ، لكنه يأتي بعد المجيدي الثاني . المجيدي ذو السيف الذي استحدث في الحر العالمية ، هو المجيدي الذي يحتوي على سيفين ذهبيّين ، منح للذين أظهروا بطولات وأدّوا خدمات متميّزة . كان من الممكن منح وسام المجيدي بجميع مراتبه إلى النساء . والذي يمنح للنساء كان مختلف اللون وطريقة تعليقه مختلفة كذلك . إن المراتب الدنيا من وسامي العثماني والمجيدي على شكل صفيحة عارية ، وجميع درجاته الأخرى مزيّنة بالجواهر ، استعمل فيه الماس ، أكثر من الأحجار الأخرى . إن قطع الماس الموجودة في رتب المرصع والأول كبيرة جدًا . وذات قيمة كبيرة . الوسام مغطى بالماس من أوله إلى آخره . من الممكن أن يحمل البادشاه هده الأوسمة إذا رغب .

ـ وسام الشفقة : 3 رتب وخاص بالنساء فقط . استحدث عام 1878 .

– وسام المزيّة : فكّر في المشروطية الثانية أن يكون على 5 مراتب ويفوق العثماني ، ترك .

– وسام المعارف : 3 رتب . منح للذين خدموا الثقافة العثمانية في المشروطية الثانية .

أنواط (medallion) العثمانية كثيرة جدًا . وتوجد عدا التي تمنح بصورة دائمة تلك التي تمنح في مناسبات خاصة . أكثرها فضي ، قسم منها على درجتين : ذهبي وفضي . والبعض الآخر على 3 درجات . أول نوط منح في 1831 . وتوجد أنواط عثمانية سكّت لمناسبات خاصة ، لكنها ليست كثيرة كالأنواط الأخرى .

كان حملة رتبة الوزارة ورتبة القضاة العسكريين في دور السلطان سليمان القانوني حوالي 12 شخصًا في الوقت نفسه . لا يمكن قياس وضع واقتدار وزراء دور القانوني وما قبله ، إلاّ مع حكام أوروبا العظام . كانوا أرقى من الحكام المتوسطي الدرجة . ازداد عدد الوزراء والقضعسكر مع العصر 17 . كانوا كثيرين في بداية العصر 19 وأوسطه ، لكن عددهم كان لا يزال محدودًا . زاد هذا العدد بدرجة كبيرة ، خاصة في السنوات الأخيرة من دور عبد الحميد الثاني . وفي عام 1897 : كان عددهم كالآتي : 2 برتبة الصدارة + 1 من رتبة المشيخة + 50 وزيرا + 40 مشيرا + 3 مشير بحري +3 وزراء دكاترة + 14 قضعسكر روملي + قضعسكر الأناضول = 125 رجلا من أعلي ، 158 رتبة بالا ، 48 بمرتبة استانبول ، 403 برتبة أولى و 111 بكلربك روملي **سالنامه دولت عليهء عثمانية** ، 1315 = 1897 ، **السنة** 53) . مجموعهم عدا الفرقاء 848 (أما مجموعهم في 1894 ، فكان 729) . وفي أواخر عام 1907 (**سالنامه** ، **1326**) : 2 بمرتبة الصدارة + 1 بمرتبة المشيخة +53 وزيرًا +39 مشيرًا +3 مشيرين بحريين +3 طبيب مشير +8 قضعسكر روملي و 38 قضعسكر الأناضول = 150 رجلاً من أعلي المراتب +245 بالا + 43 من مرتبة استانبول + 648 والي + 156 بكلر بك روملي = 1 245 شخصًا عدا الفرقاء الأول والفرقاء .

1 – نموذج للوزارات ذات الحكم المطلق :

كنموذج لذلك أقدم أمثلة من إحدى وزارات حكومة عبد الحميد الثاني ذات الحكم

المطلق الأخيرة كما هي في ك ١ عام 1907 :

الصدر الأعظم : (آفلونيالي محمد) فريد باشا (يحمل أوسمة كلها مرصعة ؛ الافتخار ، الامتياز ، العثماني ، المجيدي) ؛ شيخ الإسلام محمد جمال الدين أفندي (كلها مرصعة، الافتخار ، الامتياز العثماني ، المجيدي) ؛ ناظر العدلية : عبد الرحمن نور الدين باشا (وزير ، صدر أعظم سابق ، كلها مرصعة ، الافتخار ، الامتياز ، العثماني ، المجيدي) ؛ سر عسكر : محمد رضا باشا (مشير ، كلها مرصعة ، الافتخار ، الامتياز ، العثماني ، المجيدي) ؛ ناظر البحرية : حسن رامي باشا (مشير بحري ، العثماني والمجيدي المرصعين) ؛ رئيس شورى الدولة : حسن فهمي باشا (وزير ، كلها مرصعة ، الافتخار ، الامتياز ، العثماني . المجيدي) ؛ ناظر الخارجية : أحمد توفيق باشا (وزير ثم صدر أعظم ، كلها مرصعة ، الافتخار ، الامتياز ، العثماني ، المجيدي) ؛ ناظر الداخلية : محمد ممدوح باشا (وزير ، كلها مرصعة ، الافتخار ، العثماني ، المجيدي) ؛ مشير طوبخانة العامرة مصنع المدافع) : مصطفى زكي باشا (مشير ، كلها مرصعة ، الافتخار ، الامتياز ، العثماني ، المجيدي) ؛ ناظر المالية : ضياء باشا (وزير ، العثماني الأول ، المجيدي الأول) ؛ ناظر الأوقاف الهمايوني : تورخان باشا (وزير ، كلها مرصعة ، الافتخار ، العثماني ، المجيدي) ؛ وزير التجارة والإعمار : مصطفى ذهني باشا (وزير ، كلها مرصعة ، الافتخار ، الأمتياز ، العثماني ، المجيدي) ؛ ناظر المعارف : هاشم باشا (وزير ، الافتخار والعثماني المرصعين ، المجيدي الأول) . كانت هذه هي الوزارة (مستشار الصدارة الأخير كان يسمح له بالكلام ، ولكن ليس له حق التصويت) .

الفصل الثالث عشر

الجيش والأسطول

1 – حول الجيش التركي قبل العثمانية :

إن تاريخ الجيش التركي ، هو تاريخ الشعب التركي وهو يمتد إلى أغوار التاريخ . ظهر الأتراك على مسرح التاريخ كجنود .

نظم مته Mete ، الجيش الهوني التركي على نظام العشرات ؛ وحدات خيالة تتألف من 10 ,100 ,1000 ,10 000 خيال ، ويمكن القول إن هذا التنظيم استمر إلى يومنا هذا . كان الجيش لدى الدولة التركية قبل الإسلام خيالة ، ورغم أن صنف المشاة كان موجودًا ، فإنه لم يكن ذا أهمية ، وهو بذلك يختلف عن جيوش مكدونيا ، وروما والبيزنطيين التي يغلب عليها المشاة .

اعتبر عام 1363 تاريخًا لتأسيس الجيش التركي ، في العهد الجمهوري ، لمدة طويلة . هذا التاريخ خاطىء تمامًا . ونتيجة لكتابتي مقالة افتتاحية في مجلة **Turk Kulturu** عام 1974 ، ومقالة في صحيفة « دنيا » صححت رئاسة أركان الجيس هذا الخطأ ، وتمت الموافقة على اعتبار عام (209 ق . م .) تاريخًا لتأسيس الجيش التركي ، وهي السنة التي اعتلى فيها مته العرش .

لم تمتلك ، حتى أعظم الدول التركية قبل الإسلام ، أسطولاً ، وأول أسطول أسّسه السلجوقيون ، عام 1074 فور تأسيس الدولة التركية في أزمير على يد جاكابك . أوضحت ذلك في كتبي المختلفة ، ونتيجة لذلك وافقت رئاسة أركان الجيش والقوة البحرية على قبول ذلك وتثبيته تاريخًا لتأسيس الأسطول التركي . ويتم الاحتفال بعيدي تأسيس الجيش والأسطول سنويًا على هذا الأساس .

أما القوة الجوية التركية ، فقد تأسست في المشروطية الثانية ، تحريت تاريخ القوة الجوية التركية مع زميلين لي في مجلّد كبير طبعته القوات الجوية التركية .

الواضح أن الجيش العثماني اتخذ الجيش السلجوقي في البداية أنموذجًا له . كان الجيش العثماني – كما كان الجيش السلجوقي – مؤلفًا من الجيش المركزي « قابوقولو » + جيش

الأيالات « تمارلي » . وكان صنف الخيالة يشكل الأكثرية الساحقة . وقد أخذت المشاة والأصناف المساعدة العديدة الأخرى ، بالانضمام إلي الخيالة في الجيش العثماني كما في الجيش السلجوقي .

2 – حول الجيش العثماني :

أسس العثمانيون جيشًا ، أصبح منذ 1396 – بعد جيش تيمور – ثاني أقوى جيش في العالم . وفي 1447 أصبح هو الجيش الأول في العالم ، ثم فقد صفته هذه في 1771 ، وحتي 1871 كان الجيش الثالث ، وفي 1878 كان الجيش الرابع في العالم . أما من 1517 إلي 1683 ، فقد كان جيشًا يعادل مجموع جميع جيوش بقية الأقطار في العالم قوّة . وكان وضع الأسطول موازيًا لذلك .

إن هذا التفوق – كما لاحظ ذلك مؤرخون أوروبيون كثيرون جدًا – يستند إلى عوامل كثيرة ؛ أولها النظام ، وثانيها التفوق التكنولوجي ، ثم تأتي بعد ذلك العوامل الأخرى . ويجب ألا ننسى الاقتدار المالي والاقتصادي الذي يمكنه إدارة جيش كهذا .

واعتبارًا من العصر 15 ، أصبحت الدول الأجنبية تسعى إلى استخدام ضبّاط العثمانية ، مدفعيّيها ، ربابنة سفنها ، ملاحيها ، وتدفع لهم رواتب ضخمة . وافقت الحكومة العثمانية ، في ضوء مصالحها ، على إرسال ضباطها إلى الدول الأجنبية لمدد معيّنة أو طيلة الحياة . قدم هؤلاء الضباط خدمات جمة ، وخاصة في الأقطار الإسلامية التي رحبت بهم وحصلوا فيها على اعتبار كبير ، وبالإمكان تقديم مئات الأمثلة على ذلك .

كانت إمارة هرمز الكائنة على خليج البصرة تحافظ على استقلالها بواسطة الجيش العثماني الأجير (**261, 2, Histoire des Arabes Huart**) وكان الأميرال العثماني خداوند خان رومي يدافع عن سلطنة كجرات بواسطة **300** مدفع عثماني سبك في تركية (**History of India, Erskine** لندن **4950, 2, 1854**) .

يشرح بابورشاه في مذكراته المسماة **بابورنامه** كيفية انتصاره في المعركتين الميدانيتين 1527, 1526 اللتين فتح فيهما الهند بواسطة المدفعية العثمانية التي كانت تحت قيادة

مصطفى خان رومي (رومي = أناضولي ، أي من أهالي تركية ؛ سلجوقي ثم تركي عثماني) .

إن يوسف عادل شاه مؤسس السلالة الإمبراطورية التركية في الهند الجنوبية ، كان مغامرًا تركمانيا عاصيًا ، ادعي أنه ابن مراد الثاني وأخو السلطان محمد الفاتح ، كان الذي أسس وحدات مدفعيته ومشاته حملة البنادق ، هو مصطفى أغا أحد ضباط المدفعية العثمانيين . إن الحرب الميدانية Talikota هي من أكبر المعارك في التاريخ الهندي (23 / 1 / 1565) . عادل شاه وحلفاؤه الحكام المسلمون هدموا إمبراطورية Vijaynagar الإمبراطورية البراهمية في أقصى جنوب الهند بانتصارهم في تلك الواقعة . قاد مدفعية الجيش الإسلامي ، ضابط المدفعية العثماني المدعو رومي خان . قتل الإمبراطور رام راج مع 100 000 من جنوده في ساحة القتال . إن أرقي وأحدث وحدات فاس خلال العصرين 16 و 17 كانت قد درّبت علي يد الضباط العثمانيين (,130, 3, IA A, Cour) . وجيش فاس كذلك ، الذي فتح سودان الغربية (مالي) ، دربه الضباط العثمانيون (481, 4, IA, G, Yver ب) . حصل أمير الحبشة أحمد كران في العصر 16 علي انتصاراته تجاه البرتغاليين والمسيحيين ، بفضل الضباط العثمانيين ومدافعهم .

إن الكونت مارسيكلي Marsigli هو الكاتب الكلاسيكي الذي كتب أهم كتاب حول تشكيلات الجيش العثماني . هو شريف إيطالي من أصل بولوني ، جنرال في خدمة الألمان ، تعلم اللغة التركية . كان موجودًا في حصار فيينا 1683 وجميع الحروب التي أجرتها ألمانيا بعد ذلك تجاه الدولة العثمانية وفي احتلال الألمان لبودين Budin. له مكتبة غنيّة تتألف من مخطوطات تركية . كتب في مؤلفه المشهور الذي حرره في 1737 العبارات التالية (ص :, 275 , 75 , 1 - 50 , 9 - 47 , 44 , 40 , 7 - 36 , 31 - 23 , 8 - 16 , 293 , 325) :

« عندما كنت في استانبول عام 1679 و 1680 ، كانت حدود الإمبراطورية التركية تمتد من فيينا إلى مسافة 16 ميلاً عن ساحلي الطونة . كانت الحدود تنتهي عند نهري Raab, Vag ، ولم تكن هذه المياه بوضع يمكن فيه أن تحمي مدينة عرش كبيرة كفيينا ... قطعة صغيرة من أراضي خرواتيا كانت قد بقيت لدي ألمانيا ، والبقية لدى الأتراك .

كان Kulpa يفصل الإمبراطوريتين إحداهما عن الأخرى ويصل حدود البندقية في البحر الأدرياتيكي . كان البحر ، اعتبارًا من هذه النقطة إلى حد استانبول ، تحت حكم الباب العالي بصورة مطلقة . إن سعة الإمبراطورية التركية إذا ما قيست بالنسبة إلى إمبراطورية روما – وإذا ما نظر إلى الخارطة بنظرة عابرة – تجعل المرأ لا يمكنه أن يخفي تعجّبه أبدًا ، كيف أسس الأتراك دولة كهذه ؟ ، كيف أمكنهم المحافظة عليها ؟ كتبت كتابي لأجيب عن هذه الأسئلة . استوطنوا في هذه الأقطار التي لا يتصور العقل سعتها ، بشكل مستقر إلى درجة لم يروا فيها ضرورة لمزاولة الظلم واستعمال الشدة ، وسمحوا للمسيحيين بالعيش في حرية في إمبراطوريتهم . ولا يزال الوضع اليوم (1737) كذلك . قبلوا حتى اليهود الذين لجئوا إلى الدولة العثمانية بعد إخراجهم من إسبانيا ... يشاهد هذا الوضع الجريء يتمثل بوضوح في سياسة السلطان محمد الثاني (فاتح) الذي جلس على عرش إمبراطورية روما ... ولا يكفي أن نقول : إن الأتراك لم يتسلطوا على أعراض تبعتهم النساء المسيحيات ، بل إنهم لم ينظروا إليهن نظرة سوء . بل إنهم ، بسبب كونهن نساء ، كانوا يعاملونهن بسماحة ولطف . شاهدت ذات الوضع ، في جميع أقطار الدولة العثمانية المسيحية . لم أصادف أي عثماني خرج على طور الأخلاق ... أكثر من ذلك نجد أنهم قد اتخذوا التدابير التي تحمي تبعتهم المسيحيين من رؤسائهم الروحانيين ورهبانهم أنفسهم . لا يجوز للكنيسة أن تتسلم من مسيحيي الأقطار التابعة للعثمانية ، دراهم يزيد مقدارها على ما هو مثبت في إرادات البادشاه . لا يتدخل الأتراك أبدًا في احتفالات المسيحيين الدينية . إن بكلر بك (أمير الأمراء برتبة فريق أول) الإيالات ، كانوا في إيالاتهم ، كملوك الأوربيين . بيد أن هذا الوضع يخدع الناظر ، لم يكن بإمكانهم إجراء أي شيء دون أخذ موافقة الديوان الهمايوني في استانبول . كانت الإدارة ، مركزية إلى هذه الدرجة . الجندي التركي قنوع . يأكل طعامًا قليلاً . لكن يجب أن يكون في طعامه لحم غنم . لا يمكنه الاستعاضة عن اللحم . لا يشرب المشروبات الكحولية . يأكل الفواكه الطازجة والمجففة . قدرته على مقاومة الحر أكثر من قدرته على مقاومة البرد .

« يعطف الأتراك كثيرًا ، على السياح ، الرهبان ، الدراويش والفقراء دون تفريق بين الأديان . يجلسون على موائدهم سواء في القرى أو في المدن . وحتى أنهم يمنحونهم

الدراهم عند مغادرتهم ، ولعدم معرفتنا نحن الأوروبيين ، اللغات الشرقية ، نظن أن الأتراك الذين يجهلون اللغات الأوروبية ، جهلة ، هم ليسوا كذلك . كل تركي مثقف ، يجيد بالإضافة إلى لغته التركية ، العربية والفارسية . إن الشخص الذي لا يجيد هاتين اللغتين ، لا يعتبر مثقفًا ، ولا يعتبر رجل علم . كم شخصًا بين مثقفينا يجيد لغة أجنبية ؟ . إن الأطالس التركية ، بالنسبة إلى بلادهم ، أرقى بكثير من خرائطنا . ثبتت فيها حتى أصغر الأماكن . أكثرها أسماء تركية . إن الأطالس المطبوعة في أوروبا تدقق في الأقطار العثمانية بعناية شديدة . يُعتنى بالجندي التركي عناية فائقة . رواتب المتقاعدين منهم ، عالية . إنجاز الأعمال بسرعة ، هو الأساس في جميع أشغالهم . لا توجد مماطلة وتسويف . وفرة مصادرهم الاقتصادية والمالية وتنظيمها بشكل فائق بالنسبة لنا ، هو أحد أسباب نجاح الجيش التركي . ومع هذا ، فإن الاعتقاد بأن الأتراك لا يمكن قهرهم ، غير منطقي . وقد اتضحت عدم منطقيته منذ 1683 ... » .

كانت مصروفات الحروب الكبيرة ضخمة . وتشكيلات منازل الجيش ، كانت معقدة . وجاء في أمر ديواني مؤرخ في 26 / 1 / 1579 (Muhimme ، 33 ,533) ، يأمر فيه أمين المعادن في كموشخانه أن يصنع بصورة مستعجلة « فندق لثلاثين دفعة مائة ألف بندقية » أي 000 000 3 رصاصة بندقية ويرسلها إلى القائد الأعلى (سردار) عن إيران الوزير لالا مصطفى باشا . وقس على ذلك إمكانات معامل العتاد الأخرى .

أفرغ 66 ملفع كروب Krupp للأتراك ما يقارب 000 10 و 150 مدفعًا للروس ما يقارب 000 50 قذيفة خلال نصف يوم واحد فقط ، من الصباح حتى المساء ، في الحرب الميدانية كديكلر في جبهة القفقاس في حرب 93 . وعند انفجار كل قذيفة مدفع ، كان يتناثر منها 500 قذيفة صغيرة تسمى شظيّة . كان قد مضى 20 عامًا على حرب قرم . وكانت الدولة العثمانية قد طورت خلال هذه المدة أسطولها بنسبة 100 وأسلحة جيشها بنسبة 90 ٪ (محمد عارف بك ، باشمزه كلنلر ، ص 151 ، 192 ، 246 ، 254 ، 259) .

أعطيت أهمية بالغة للاستخبارات . إن المخبرين السريين لفاتح ، بيازيد الثاني والقانوني على أوروبا مشهورون . كان هؤلاء ينبثون بين أفراد شعب ذلك القطر وأكثرهم من

ضباط الصاعقة العثمانيين من أصناف الهجوم والانقضاض . المخابرات الداخلية ، كانت سريعة أيضًا . كان موظف البريد المسمى طوبال صادق ، قد ضرب رقمًا قياسيًا في توصيله الرسائل من بغداد إلى استانبول خلال 7 أيام بتبديله حصانه في كل منزل (**I,H, Uzuncarsili Kutahya Sehri** ، 114) . ويتضح من ذلك أنه يقطع يوميًا مسافة 350 كم من الطريق البالغ 2 500 كم . ويسجل أحد المؤرخين البولونيين أن الاستخبارات السرية للباب العالي في بولونيا حتى في أواخر العصر 18 ، كانت فائقة (Reychman Bel . Jan ، رقم 121 ، ص 86) . يقول الدفتردار الوزير صاري محمد باشا في كتابه السياسي المسمي **نصيحة الوزراء** ما يلي (وفاته 1717) : « إن معرفة أحوال العدو من الأمور ذات الأهمية العظيمة . دول كثيرة اضمحلت بسبب عدم الاطلاع على أحوال العدو وعدم تفحّص واستقصاء أخباره . يجب إرسال جواسيس سريّين من أطراف جميع الحدود إلى العدو والسعي تدريجيًا لاستخبار أحوال عدو الدين » (نشريات Wright ، ص 75 - 6) .

تشكيلات المنازل ، كانت متقنة ومنتظمة . كان يوجد في جميع المنازل الواقعة على طريق استانبول – بودين (بودابست) البالغ الأهمية من الناحية الاستراتيجية ، مخازن مياه ومصانع ثلج . كان الجنود ، يأخذون الماء والثلج مجانًا في كل منزل (مناهل السفر) ويستمرون على السير في طريقهم (مارسيكلي ، 41) . « إن الجيش التركي متيقظ جدًا في سيره وهو أقدر وأكثر تجربة منا في قطع المسافات الكبيرة » (مارسيكلي ، 223) . « إن الخيام التركية فائقة جدًا ، لا يؤثر فيها المطر ، والثلج ، والشمس ، والريح . وإضافة إلى ذلك فهي أثر فني بجمالها وزينتها . بداخلها سجاد ووسائد . لقد شاهدت خيام قواد الأتراك التي غنمناها في حملة فيينا (1683) ، كانت نموذجًا للثروة والعظمة ، كانت سرايات وقصورًا سيّارة . للمرافق الصحية ، خيام منفصلة . وإضافة إلى ذلك ، كانت هناك خيمة كبيرة للاستعلامات . كان الجندي الضال ، يدخل ويستفسر من الضباط الموجودين فيها عما يجب عليه أن يعمله » (مارسيكلي ، 180 - 1) كان يحمل أحد سرادقي محمد الرابع الاثنين ، 600 جمل . إن هذه السرايات السيارة كان بالإمكان نصبها وفكها خلال يوم واحد (**Galland, Journal, 2, 111**) . وبالطبع فإن تجربة الأتراك في الخيام تعود إلى ألف سنة مضت . ليس بإمكان شعب

أن يتقن ويجيد شيئًا إجادة تامة ما لم تمض على استمرار ممارسته له عدة مئات من السنين .

وفي حملة بغداد لمراد الرابع ، كانت قد تجمعت في ميناء نهر (فرات) بيره جك 800 سفينة محملة بالمهمات (1639) (Muhimme, 87, 312, 333) . لم تكف . وضعت هياكل 800 سفينة أخرى في معمل بيرهجك لصنع المراكب سيقت كلها إلى بغداد عن طريق النهر . كانت السفن تفرغ حمولتها بعد مسيرتها 800 كم ، في المنحنى الذي يقترب فيه نهر الفرات إلى دجلة بمسافة 40 كم ، ويبدأ بعد ذلك النقل البري (Muhimme , 87 , 288 , 241) كان الوزير بكلر بك دياربكر ، يشرف على النقل . جيء بقذائف المدافع أمام بغداد من معامل عتاد بوسنة ، أرضروم ، حلب ، بيره جك ، وان وكيغي Kigi . نقل البارود من معامل القاهرة ، عينتاب ، حلب ، رقّة . كان بارود القاهرة ناعمًا جدًا ومرغوبًا فيه جدًا . كان القسم الأكبر من الهجمات الثقيلة ، يُجمّع في الموصل وينقل منها (Muhimme, 87, 360 - 87) . لم يبالغ الشاعر الشعبي قايقجي قول مصطفى الذي اشترك في هذه الحملة حين قال في أحد أبيات شعره : Askerin bir ueu Yurudu Van'dan - Sagindan vuruldun soluna yaslan ومعناه سار أحد أطراف الجيش من وان – إن أصبت من يمينك فاتكئ على يسارك .

الخيول ، كانت منتخبة بشكل جيد ومروّضة بشكل لا يصدق ، ومعنى بها أشد العناية. وحتى في العصر 19 ، كانت كذلك . كتب الماريشال الألماني فون مولتكه الشهير الذي خدم في الجيش العثماني الحديث الذي أسسه محمود الثاني في شبابه ، في مذكراته عن تركية ما يلي (ص 261 ، 27 / 1 / 1839) : « قليلة جدًا في العالم ، تلك الجيوش التي تمتلك خيولاً كثيرة العدد وممتازة كالجيش العثماني . الخيول العثمانية البديعة ، كانت تغذي بحليب النياق . أما الخيول العربية من أصل نجد وعنزة ، فكانت تبهر العيون » .

زار المؤرخ أولياء جلبي ، القلعتين العثمانيتين خاركوفا وزيلا Zeyla في الصومال (10, 947, 952) . وهي بنايات هائلة عثمانية الصنع على المحيط الهندي ، كان في إحداها 200 وفي الأخرى 300 حارس تركي . كانت مدافعها موجهة نحو البحر (1680) . وما زالت قلاع ومدافع العثمانيين تشاهد في الصومال .

3 ـ الخيــالة :

يذكر الأميرال الإنجليزي السير Adolphus Slode ، الذي استخدمه محمود الثاني في تأسيس جيش وبحرية حديثين ، في مذكراته التي نشرها عند عودته إلى إنجلترا ما يلي (قبودان باشا ، 238 ,240 - 3) « شاهدت الخيالة التركية في الحرب الميدانية كلفجه Kelefce (1827) . أغاروا بخيولهم على الروس وهم يصيحون الله ، الله . لم يتمكن المشاة الروس الذين كانت تجهيزاتهم على أساس نظام القلاع ، من المقاومة واندحروا. كانت الخيالة التركية كأنها تزاول حركات رياضية . وكانوا يهزءون بعجز الروس . أما المشاة الأتراك ، فكانوا لا يشتركون في القتال ويتفرجون . إن هذا اللعب استمر ساعتين ، قضى الخيالة الأتراك معظم أيامهم علي ظهور خيولهم . كانوا عند تدريب خيولهم يسوقونها نحو البراميل الملتهبة ، ويجعلونها تقفز من الجدران . يمكنهم إصابة الهدف وهي تعدو بأقصي سرعتها . لا يوجد من يضاهيهم في رمي الجريدة ، لا يمكن لأي خيّال أجنبي أن يقاتل الخيال التركي منفردًا ، ينهزم . الخيال التركي هو من الخيالة النادرين في العالم ؛ إذ يمكنه الهجوم بأصول المباغتة من مسافة قصيرة مثل 100 ياردة . ولا حاجة إلى ذكر أهمية هذه القدرة في الأراضي الوعرة . إذ إن قوزاق أوكرانيا الروس المشهورين ، عجزوا في الأراضي الوعرة ولم يتمكنوا من اللحاق بالخيالة الأتراك . وكان زميلي النقيب الخيال الإنجليزي Chesney الذي يقف بالقرب مني ، يشاهد ذلك بتعجّب شديد (هو مؤلف مذكرات سياحية مهمة عن تركية) . كانوا فرسانًا عظماء ، كأنهم أبطال دور الفروسية ، يرمون المزارق التي بأيديهم أثناء عدو الحصان بأقصى سرعته ثم يقبضونها ثانية . كانت الخيول العدّاءة ، تسير في السهل كأنها أسراب طيور طائرة . كانت صداراتهم تتفتّح كالأوراق ، وذيول الخيول العدّاءة تتموج في الفضاء . كانوا يتقدمون وهم يهزءون بالموت . أصوات صيحاتهم « الله . الله » كانت تشق عنان السماء . كانوا يسحقون الخيالة الروس ويمرون ، يتقدمون دون أن يبالوا بزملائهم الذين قتلوا أو سقطوا عن خيولهم . تكتيك انسحابهم كان باهرًا . لا يمكن مشاهدة خيالين اثنين جنبًا لجنب . عجزت المدافع الروسية . قليل من الخيالة الأتراك أصيبوا بالشظايا ، أيقن الروس عدم إمكان مجابهتهم لخيالة التركية في العراء .

اختبئوا في استحكاماتهم . وفي هذه المرة بدءوا بالهجوم على الاستحكامات . لم يكونوا يهابون الموت أبدًا . اقتربوا من خنادق الروس رغم نيران البنادق . كانوا يصلون أمام الخنادق لحظة ، ثم يعودون كالبرق . أدهش ذلك الروس . تعبت عيونهم بسبب عدم تمكنهم من تعقب حركات الخيالة التركية . كان الأتراك كأنهم يلعبون لعبة الجريدة في أحد ميادينهم . وأساسًا فإن ما يعملونه كان شيئًا يتعدى الفروسية ، كان ذلك جمنازية (حركات رياضية مدهشة) في الحصن ، لا غير . كانوا يقتربون من الخنادق بصورة مستمرة ويفرغون رصاص مسدساتهم . لكنهم في النهاية ، لم يتمكنوا من الصمود أمام نيران المدفعية الروسية . قرروا الانسحاب ؛ كانوا ينسحبون وهم يدخلون رءوسهم تحت بطن الحصان . كانوا يغيرون بخيولهم باستقامة المنطقة التي يوجد فيها المشاة الأتراك كالبرق دون أن يروا أطرافهم ، ولذا لم يتمكنوا من مشاهدة القائد العام التركي رشيد باشا الذي بقي على حصانه وحيدًا أمام الروس . تمكن أحد الضباط – برتبة نقيب – القوزاق من تمييز الباشا الذي كان ينظر مبهوتًا أمام الخنادق الروسية ، وأيقن من لباسه أنه ضابط تركي كبير . تقدم بحصانه ، أمسك ذراع الباشا . ولمدة ثوان ، ولأول مرة في التاريخ يقع قائد عام تركي أسيرًا للعدو . شاهد أحد الخيالة الأتراك المنسحبين ، قائده الباشا . تقدم بسرعة البرق وأصاب بمسدسه النقيب في جبينه . قبض أعنة حصان رشيد باشا وسحبه ، واختفى عن الأنظار باستقامة شومنو . كان الروس يشاهدون هذا الوضع من وراء خنادقهم بدهشة مثلنا . جرى الحادث وانتهى خلال ثوان . إن الخيَّال الذي أنقذ قائده الباشا ، هو أحد آخر أفراد سلالة المغاوير (آقينجي ... » .

وفي جريدة عسكرية للإمبراطورية الألمانية عام 1789 ورد : « الخيَّال العثماني ، أمهر خيَّال في أوروبا » (جودت 4 ,325) .

إن تفوق الجيش العثماني ، يعود إلى حيازة الدولة للجيش النظامي منذ تأسيسها . كان أول جيش نظامي دائم في أوروبا . لم يتمكن الأوروبيون من تحقيق ذلك ، إلا في أواسط العصر 17 (السويد ، فرنسا ، بروسيا) لا يوجد لديها جيش يدخل القتال بتجنيده وقت الحرب . كان عمل الجيش هو القتال فقط . واختصاصه العسكرية

لم تكن أوروبا قادرة على إعاشة مثل هذا الجيش . وعندما حازت على هذه القدرة الاقتصادية ، تبدل الوضع ضد العثمانية .

4 – المدفعيـــة :

تركزت الآراء بأهمية بالغة ، في موضوع تفوق العثمانية ، على عامل تفوق المدفعية وكمالها . اعتبرت المدفعية العثمانية أرقى مدفعية في العالم حتى عام 1700 . إن تفوق المدفعية العثمانية هذا ، حكم العالم قرابة 3 عصور . وقبيل عام 1700 ، تمكنت المدفعية الأوروبية من اللحاق بالمدفعية العثمانية من الناحية التكنولوجية والتكتيكية .

أراد ماكيافل (Machiavelli 1469 - 1527) أن ينبّه الأوروبيين ، إلى أهمية ذلك منذ ذلك التاريخ بقوله « تمكن الأتراك من الانتصار على شاه إيران (1514) وسلطان المماليك (1517) بفضل الأسلحة النارية (**Oeuvers Complètes, Dè** 316, 114, 2, **Discorsi**) سجل مؤرخ الأسلحة الشهير Courtlandt Canby أن قصف البيزنطيين عام 1453 ، هو أول قصف ناري مدفعي منتظم في التاريخ (le premier bombardement organisè de l'histoire, **Histoire de l'Armement,** ، لوزان 1964 ، 54 ب ، 64 ب) .

إن مؤسس الباليستك ballistic (الاختصاص بالقذائف) ، لا شك في أنه السلطان محمد الفاتح . أسد الله أغا ، هو أحد الأسماء الكبرى في مجال الباليستك في دور القانوني (هامّر ، 5 ,373) . طوّرت المدافع التركية بصورة مستمرة . وحتي في وقت متأخر كعام 1736 ، اكتشف المهندس التركي المسمى محمد سعيد أفندي للمرة الأولى في المدفعية « إيكي يايلي كادران » أي كادران ذو نابضين (pertsch **Katalog,** 166) كتب البارون دي توت Baron de Tott وهو ضابط مدفعي ، بأن المدفعية العثمانية حتي في غضون 1770 ، كانت في وضع جيد جدًا ، تملك مدافع نارية سريعة تقذف 5 إطلاقات في الدقيقة ، وأن الجيش العثماني كان يملك مدفع – صاروخ خارق يقذف 15 قذيفة في الدقيقة وأن البادشاه يتابع بنفسه تدريبات إطلاق المدفعية (1 - 120, 89, 2) .

يسجل بدقة تفوق المدفعية العثمانية في العصر 16 على المدفعية الأوروبية بشكل

حاسم « Une formidable Superiorite » (هامر ، 5, 66, Pirenne, 2, 312, 340) ويشار إلى أن المركب الكيماوي للقذائف العثمانية يتفوق بكثير على مثيلتها الأوروبية (Arthur Thomas, 264 - 5) . ورغم أن أول مدفع ذي ماسورة أخدودية صنع في أوروبا عام 1870 في بروسيا ، فإن المدافع ذات الأخاديد الموجوة لدينا والعائدة لفاتح وياووز ، تبيّن بوضوح مبلغ ما توصلت إليه التكنولوجيا لدى العثمانية . هذا ، وأشير كذلك إلى أن المدفع ذا الأخدود البروسي ، اقتبس من العثمانية في حرب قرم بواسطة الفرنسيين . أما مدفع هاون (Obus) فقد اكتشفه فاتح واستعمله . يحوي المتحف البريطاني اليوم مدفعًا من مدافع فاتح يزن 22 طنًا ويقذف قديفة زنتها 500 كيلو ، أهداه السلطان عزيز إلى الملكة فكتوريا . أما مدفع فاتح الموجود حاليًا أمام سراي طوبقابو في حديقة كنيسة آيا إيريني ، فيزن 20 طنًا ، طوله 5 . 7 متر ، قطره مقاس 25 سم ، وماسورته ذات 17 أخدودًا (انظر إبراهيم حقي قونيه لي ، **أرضروم** ، ص 274 ,277) .

يصف اللورد Rycault ، المدافع العثمانية بأنها حتى في أواخر العصر 17 ، تعد أجود أنواع المدافع العالمية (2 ,580) :

« Lears canons sont les plus grands, les mieux fondus, et les mieux moulez qui soinet dans tout le reste du monde » .

يسجل السائح الفرنسي Mourand في أواسط العصر 16 أن أكبر مسبك ومعمل للمدافع في العالم هو طوبخانة (معمل المدافع) استانبول (Jtinèraire ,204) . كتب أولياء جلبي بأن معمل مدافع استانبول في أواسط العصر 17 ، كان ذا طاقة تمكنه من سبك 1060 مدفعًا دفعة واحدة . هذا عدا وجود معامل أخرى للمدافع ، وإحدى كبرياتها ، في بيره جك Birecik (نعيما ، 3 ,348) . كان هذا السلاح مجهولاً حتى أواخر العصر 17 ، في الأقطار التي لم تُدخل العثمانية فيها المدافع . يذكر أولياء جلبي عدم وجود المدافع في السودان ، وأنه استعمل من قبل الحكام تحت حماية العثمانية ، مجانق ترمي الحجر الملتهب (10 ,851) . إن المدفعية العثمانية ، أوقعت أعداءها في اليأس من ناحية العدد والجودة « L'Artillerie Turque remise en quantitè et Qualitè »

au premier range dans le monde », Grenard, P. 97) أكبر معامل البارود ، كانت لدي العثمانية (معامل بارود استانبول ، القاهرة ، سلانيك ، بلغراد) . وفي عام 1571 كان معمل بارود استانبول ، ينتج 300 قنطار (17 طنًا) من البارود شهريًا .

5 – المزايا الأخرى للجيش العثماني :

أشير كثيرًا إلى تفوق استحكامات العثمانية كذلك . وأصبح من المعروف أن مؤسس علم الاستحكام في أوروبا ، الماريشال الفرنسي Vauban كان قد درس استحكامات وخنادق العثمانية في كانديه (كريت) (1633 - 1707) وطبّقها لأول مرة في الجيش الفرنسي . كانت استحكامات العثمانية متقنة ، حتى في أواخر العصر 19 . كما أن تفوق مهارة ضبّاط الاستحكام العثمانيين في انتصار بلونة الثالث لغازي عثمان باشا ، لفت نظر الكثير من المؤرخين العكسريين .

« كان السلطان سليمان على رأس جيش ، يسبق كل جيوش العالم الأخرى بأربعة عصور من حيث تأسيسه وأسلحته . وكان الوضع نفسه بالنسبة لجميع الأقطار الغربية كالإمبراطورية الألمانية ، إيطاليا ، فرنسا وإسبانيا . (Benoist - Mechin ص 66 - 7) . كانت أجود الوحدات العسكرية الأوروبية السرايا الإسبانية ، المشاة السويسريين الرمّاحة تضطرب أمام الجيش التركي . كان أعظم جيش في العالم ، بلا شك . يعيش لأجل الحرب فقط . وجد لهذا السبب . جسور إلى آخر درجة . سلّح بشكل متفوق جدًا . تسانده مدفعية متمكنة . يتقاضى راتبه بشكل منتظم ، إعاشته كانت جيدة . إن نظامه الحديدي الصارم ، كان بدرجة لا يمكن أن تتصورها أوروبا . كان يتحرك كأنه ماكينة نصبت جيدًا بأمر واحد أو كأنه مخلوق حي ذو جسم واحد . كان السكون يسود الجيش . ولا يسمع أقل صوت . يتفق كل المشاهدين الأوروبيين في إيراد دهشتهم لهذا السكون المطلق (**Les Dèbuts de L'Age Moderne,** Henri Hauser ، باريس 1292 ، ص 394) .

كان عدد الجيوش البرية والبحرية التي تؤمن وقوف الإمبراطورية على قدميها خلال العصرين 16 - 17 ، يبلغ 500 ألف تقريبًا . إلاّ أنه لم يمكن في أي وقت من الأوقات ،

نقل هذا العدد من الجيش إلى أية جبهة من الجبهات بسبب اتساع رقعة الإمبراطورية وتناثرها . جرت أكبر الحروب بواسطة 100 ألف جندي تقريبًا . أمكن حشد 300 ألف جندي في جبهة واحدة . ومن المدهش حقًا أن تحكم أقطار واسعة كهذه ، بهذا العدد القليل من الجند . ويجب ألا ننسي كذلك أن الإنجليز حكموا الهند بعدد قليل من الجند .

أفاد الماريشال Kont Monteeueeuli (1609 - 1680) القائد العام للإمبراطورية الألمانية وأحد مؤسسي العسكرية الحديثة في أوروبا ، بأنه لا يمكن الانتصار على الأتراك ما لم يؤسس جيش نظامي دائم في أوروبا كالأتراك ، وقد كتب ذلك قبل هزيمة فيينا (1683) (**Mèmoires** ، 1 ,222 - 3) ذكر مترجم عاصم أفندي (**تاريخ** 1 ، 264, 32,) تعلم أوروبا أنها أخذت أصول الجيش النظامي الدائم عن العثمانية ومن ثم فقد بدأت بالانتصار على العثمانية .

إن الملاحظات التالية التي سردها الماريشال **Monteeucculi** أحد كبراء العسكريين في أوروبا خلال العصر.17 تستحق الذكر : « إن الدولة العثمانية إمبراطورية مقتدرة وقوية إلى درجة أن جيشها المكون من جنود لا يحصي عددهم والمدربين بشكل ممتاز ؛ مستعد للقتال في أية لحظة . إن كمية المهمات الثقيلة ومخزون إمدادات الأطعمة التي جلبها الأتراك إلى بودابست عن طريق الطونة في حملة 1660 لا يصدقها العقل . يستعمل العثمانيون ، خداع الحرب كذلك بكثرة . إن الخدع التي يستعملونها في حرب ما لا تشبه سابقتها . يذيعون في أوروبا أنهم سيحملون على البندقية ، وإذا بهم يظهرون في ترانسيلفانيا . أذاعوا خبر ذهابهم إلى مالطة ، لكنهم أنزلوا جنودهم في كريت . ينظمون الحرب ويعدّون لها العدة بشكل ممتاز . إن نظام حرب روما ، كان كذلك . يحفزون الخنادق ويجهزون الاستحكامات بشكل فائق . إخراجهم وقلعهم من هذه التحكيمات يكون أمرًا صعبًا . الجندي التركي يتحمل الشدائد ومن النادر أن يشكو » .

الجندي التركي ، يقتل في ساحة القتال ، لكنه لا يستسلم . لا يتكلم أبدًا في المسيرة ، يسمع صوت الأقدام فقط ، لا يخرب أدنى تخرب في الأماكن التى يمر بها .

لا يدخل حصانه في مزرعة أي مسيحي ، بل إنه لا يأكل العنب من كرمته ، يعدم الجندي ، إن كان في وقت حرب ، وإن كان في وقت سلم ، يطبق عليه الحد الشرعي . يسير أسرع من الجيش الأوروبي بثلاثة أضعاف . ورغم هذا النظام الصارم فإن العسكري التركي ، ليس شخصية سلبية . يعرف واجبه جيدًا ولا يألوا جهدًا في تنفيذه ، لكنه يعرف جميع حقوقه كذلك بنفس الدرجة . حركات العصيان لم تكن قليلة . لا يطأطيء رأسه إن اقتنع بأن حقه سلب . لا يترك حقه وفي هذه الحالة ممكن أن يعصي . لا تروقه الحروب الطويلة ، يريد إنهاء الحرب خلال موسم واحد ، ينسحب لقضاء الشتاء . وفي الموسم الثاني يعاود الحرب ثانية . إن الذي أجبر ياووز سليم على ترك إيران ومصر ، وجعل القانوني يترك فيينا ، هو عدم ارتياح الجيش ، لم تكن مسألة حقوق الجنود قليلة التأثير في الحد من الفتوحات العثمانية . مؤرخون قليلون ، انتبهوا إلى هذه النقطة . توجد 7 أسباب رئيسية لعظمة العثمانية ، أحدها ، الجيش العثماني (Fernard Grenard, Grandeur de l'Asie باريس 1939 ص 118 وما بعده) .

ويجب إضافة أن الجيش العثماني يحارب لأجل أن يصبح غازيًا ولأجل أن ينتصر . لم يتردد في الاستشهاد قيد شعرة ولم يتضعضع إيمانه بدخوله الجنة رأسًا ، قيد شعرة . حقيقة لا يمكن إنكارها وهي أن قوة الدين ، جعلت من الجندي العثماني شجاعًا جسورًا مخلصًا .

6 – تيمارلي سباهي :

« تيمارلي سباهي ، هو أحسن أقسام الجيش التركي . إن الذي فتح القسم الكبير نسبيًا من الكرة الأرضية ، هو هذا الجيش الخيّال » . هكذا كتب اللورد باول ريكوت Lord paul Ryeault (Ricaut) الذي مكث في تركيا مدة 20 سنة كدبلوماسي (1661 - 81) (514, 2) . الحقيقة أن تيمارلي سباهي ، هو الصنف الأهم والأكبر عددًا بين أصناف الجيش لعصور الفتوحات في التاريخ العثماني . إن هذا الصنف ، هو المؤسس الفعلي للدولة العثمانية العالمية العظمى

تيمارلي سباهي ، هو جيش خيال . هو أهم صنف خيالة في الجيش . منتشر في

كل أطراف الأناضول وروملي . لا يوجد في استانبول جنود من هذا الصنف . لا يتسلم راتبًا . تعطي الدولة تيمارلي سباهي ، بدلاً من ذلك قطع أرض تسمي ديرليك (بالعربية : إقطاع) . إذا كانت ديرليك صغيرة تسمى « تيمار » وإن كانت كبيرة تسمى « زعامت » . يسمى ضباط السباهية ذوو المراتب العالية الذين يملكون زعامت « زعيم » ، صاحب التيمار ، يجمع ضرائب حاصلات القرويين العاملين في قطعة أرضه ويأخذها لنفسه . وفي مقابل ذلك ، يشترك في القتال مع جنود خيالة وبتجهيزات كاملة بالنسبة إلى محصول قطعة أرضه . وفي ذات الوقت ، هو مسئول عن الأمن في الأراضي التي يديرها وقت السلم . إن التيمار (الإقطاعية) متفاوتة المساحة ، من الممكن أن تكون قسمًا من القرية أو كاملها أو من عدة قرى . لا يمكنه جباية ضرائب أكثر مما هو مقرر في القانون . إن كل سباهي ، عند إبلاغه بأمر القتال ، يذهب إلى المكان الذي يوجد فيه الزعيم ، بكامل تجهيزاته . يجمع الزعماء جنودهم في المكان الذي يوجد فيه آلاي بك (آمر الكتيبة) . بكوات الكتائب ، يذهبون بجندهم إلى السنجق بك (آمر اللواء) ، وهو بدوره يرسل الجنود إلى البلكربك (الفريق الأول) ، ويذهب الفريق الأول مع الجند إلى السرعسكر (القائد ورئيس أركان الجيش) وبذلك يكون قد تم تجميع الجيش . إن هذا العمل يجري ضمن مخطط معين وبسرعة لا يصدقها العقل .

هذا النوع من العسكرية ، اقتبس عن السلجوقيين ؛ كان للسلجوقيين نوعان من الجند ، تيمارلي وقابوقولو (رواتبهم من المركز) . « سباهي » ، كلمة فارسية تقابل « فارس » وتعني « خيّال » . تيمارلي سباهي ، لا يملك الأرض المعطاة لإدارته. صاحب الأرض ، هو الدولة والذي يخدم الأرض باسم الدولة هو القروي . التيمارلي هو الجندي الذي يجمع الضرائب في هذه الأرض ويؤمن نظام الدولة فيها . إذا مات التيمارلي ، يعطى التيمار ترجيحًا ، إلى ابنه ، أخيه ، ابن أخيه . إذا كان تيمارلي في الحملة ، يعيّن مكانه في التيمار وكيلاً يسمى « قوروجو » . لم يؤسس هذا النظام ، في جميع الإيالات وكان موجودًا على الأكثر في الأناضول التي تشكل نواة الإمبراطورية وإيالات روملي وسورية . فمثلاً ، لم يكن نظام التيمار موجودًا في أية إيالة من إيالات إفريقية ،ولا في إيالات يمن وبغداد .

كان يوجد في عهد القانوني ، العهد الذهبي لهذا الصنف ، 200 166 تمارلي سباهي ؛ 600 74 منهم في إيالة روملي و 000 91 في إيالة الأناضول . لا يخلط سباهية الأناضول مع سباهية روملي ، يدخلون ساحة القتال على شكل جناحين منفصلين . يسجل أولياء جلبي ، أن الدولة كانت تملك في 1650 قرابة 566 ألف جندي تيمارلي وعلوفه لي (الذين يتقاضون رواتب) ، إن وحدات الدول المستقلة ذاتيًا والمتطوعين ، والمساعدة ، خارج هذا العدد .

هذا الصنف من الجيش ، أخذ يقل بصورة مستمرة اعتبارًا من الربع الأخير للعصر 16 . والتيمار الأخير ، ألغي عام 1850 ؛ لأن أهمية المشاة أخذت بالازدياد على مر الزمن بالنسبة للخيالة .

سباهية التيمار ، خدموا في تتريك وإسلام الأناضول وروملي ، وعند رفع التيمار ، اختل نظام الأراضي العثمانية . أخذ مكان سباهية التيمار ، أناس ضبطوا هذه الأراضي بهذا الشكل أو ذاك . بدأ هؤلاء يزعمون أنهم أصحاب هذه الأراضي الشرعيون . إن كيفية حيازتهم هذه الأراضي في أواخر العصر 18 في روملي والأناضول مجهولة ،لكن المعلوم والمؤكد ، هو أن الزمرة المتغلبة التي ظهرت والتي سميت « ده ره بكي » (إقطاعيون) ، لم تمتلك هذه الأراضي لا عن طريق الفتوحات ولا عن طريق الشراء . لم يرحم محمود الثاني هذه الزمرة . وأصلحهم على نطاق واسع .

7 – حامية يني جري (الانكشارية) :

أسّس الحامية مراد الأول ووزيره الأعظم جاندارلي خير الدين باشا عام 1363 . كان يختار الأطفال الجيّدين من العائلات المسيحية الجيدة في روملي وبنسبة أقل في الأناضول وهم في سن صغيرة ، يدخلون الدين الإسلامي ويوزعون على عائلات الفلاحين الأتراك ذوي الاعتبار لبضع سنوات ، ليتعلموا اللغة التركية ، وأعرافها ، ثم يذهبون إلى الثكنات باسم « عجمي أوغلان » (شاب مستجد) ، يجرى تدريبهم العسكري هناك ويصبحون « يني جري عجمي أوغلان » أي شابا انكشاريا مستجدا

« جري » بالتركية ، تعني « جندي » (ومع أن صو « SU » باللغة التركية القديمة تعني « جندي » ، لكنها تعني أكثر من معناها السابق ، « أوردو = جيش » . إن كلتا الكلمتين لا تستعملان في التركية منذ عدة عصور) . يصبح الذين يبدون استعدادات متميزة من الإنكشاريين صوباي (ضابط) . وبإمكانهم أن يصبحوا جنرالات . لكن يرجح في الجنرالات أن يكونوا متخرجين في مدارس السراي ذات الدرجة المتوسطة ، وكذلك المتخرجون في أكاديمية اندرون السراي .

حامية يني جري ، كانت صنفًا من المشاة . بعض سراياها فقط كانت خيّالة . أعطيت لهم البندقية منذ العص 15 . قلّت كثيرًا السرايا التي لا تعطي البنادق والمسدسات والسرايا التي تحارب بالسيف أو بالأقواس والنبال . ويمكن تعريف ذلك بشكل فرقة مشاة ثقيلة بالنسبة للمشاة الآخرين . كان جميع الإنكشارية من ذوي الرواتب وبضمنهم الشباب المستجدون . كانوا يتقاضون رواتبهم علي حساب اليومية ، لكنهم يتسلمونها في كل ثلاثة أشهر بمراسم عسكرية . راتب الإنكشاري يسمي « علوفة » ، ومع أن الإنكشاريين كانوا موجودين في المدن الكبيرة كذلك فإن القسم الأكبر من الحامية كان في ثكنتهم الكائنة في استانبول . إن نظامهم وتدريبهم وتعليمهم شديد . وربما لا يطاق . غير مسموح بالزواج إلاّ للضابط . رواتبهم كانت عالية جدًا . يضمن القانون حقوقهم . هكذا كان صنف يني جري أوجاغي (أوجاق أو حامية الإنكشارية) ، أهم الأصناف العسكرية العثمانية الذين يطلق عليهم اسم « قابوقولو أوجاقلري » . إن كلمة قابو (باب) هنا ، تعني الدولة ورمزها الخاقان ، أي باب الخاقان .

شغل هذا الطراز من الجند كثيرًا ، وكثيرًا جدًا مخيلة الأوروبي منذ عصور . إن الأتراك بالنسبة للأوروبي يأخذون أطفال المسيحيين و « يصيرونهم أتراكًا » (كلمة « ترك » هنا تعني « مسلم ») ، ثم يجعلونهم يقاتلون المسيحيين ويفتحون الأقطار ؛ ولذا فقد اهتموا بالإنكشارية اهتمامًا كبيرًا . كثير من الأوروبيين حسبوا أن الإنكشارية يشكلون معظم الجيش العثماني تقريبًا . إن كثرة تكرار اسم هذا الصنف في التاريخ العثماني ، سببها كونهم جنود المركز . إنهم في استانبول كانوا دائمًا هم الذين

يقومون بالثورات . إن جميع السباهية المنتشرين في كل أنحاء الإمبراطورية والأصناف الأخرى قاموا بواجباتهم فقط ولم يتدخلوا في السياسة . أما التاريخ العادي فإنه يهتم دائمًا بالحوادث غير العادية ، والثورات التي تفقد السلاطين عروشهم ، وتفقد البعض منهم حياتهم ، وتسبب قطع رءوس الوزراء ، تأتي في قمة الحوادث غير العادية في التاريخ .

إن هذا الطراز من جيش قابوقولو كان موجودًا لدي السلجوقيين كذلك . لا شك أن مراد الأول كان يعلم النظام السلجوقي . وعندما خطا نحو الإمبراطورية وجد ضرورة في إنشاء نظام عسكري على هذا النمط .

جذبت الإنكشارية رغبة العديد من الكتاب بسبب تشكيلاتها الخلابة جدًا والمعقدة المراسم ، وكذلك لكونها أمام الأنظار في استانبول . لكن صنف الانكشارية ، كان في العصر 16 ، الذي جرت فيه الفتوحات الكبيرة ، عبارة عن فرقة خاصة واحدة ثقيلة ، ويشكل قسمًا صغيرًا جدًا من الجيش . وبناء علي ذلك فإن الفتوحات العثمانية ، لم يحققها الإنكشاريون كما يظن الكثير من المؤرخين ، بل حققها السباهية والآقينجي (المغاوير) . وفي الحقيقة أيضًا ، فإن أعدادهم التي سنذكرها فيما بعد تبين وضعهم في الجيش . وفي الحقيقة فإن عدد الإنكشارية كان يزيد كلما قل عدد الجنود الخيالة الذين يسمون سباهي وآقينجي ، وصاروا في دور الانحطاط أكبر صنف عددًا . ولانتهاء عادة جمع أولاد المسيحيين الذين يسمون « دوشيرمه » في هذا العصر ، فإن إنكشارية العصر الأخير كانوا من أولاد الأتراك من الروملين (بالنسبة إلى روملي) ، الأناضوليين ، الاستانبوليين . دامت الحامية مدة 463 عامًا حتى إلغائها (1826) مع حاميات قابوقولو الأخري بصورة دموية ، على يد محمود الثاني .

8 ـ جنرالات وضباط الإنكشارية :

إن قائد الحامية **يني جري أغاسي** ، عسكري ، عضو في ديوان مايون (مجلس الوزراء) ، برتبة بكلر بك (فريق أول) ، يسمي « أغا » ومنح بعضهم مرتبة وزير (ماريشال) ، ويلقب هؤلاء « باشا » أو « أغا ـ باشا » . يمكنهم التكلم والتصويت في الديوان حول الموضوعات التي تهم حاميتهم ، الجيش والحرب فقط . لا يمكنهم

التصويت كالوزراء في كل موضوع.. ويتضح من ذلك أنه ناظر من الدرجة الثانية .

أكثرهم متخرجون فى الأندرون ، مقربون إلى السراي ، سياسيون أكثر مما هم عسكريون . يرفّعون ويصبحون وزراء .

كثيرون من الصدور العظام كانوا قبلاً رؤساء إنكشارية ، وبالنسبة إلى **سلطان سليمان قانون** ـ نامه سي (دستور السلطان سليمان) (ص 29) ، يتسلمون راتبًا يوميًا قدره 400 آقجه وتعادل 60 ألف دولار في الشهر بالسعر الرائج الحالي . يسكنون في قصور كبيرة تسمى « أغا سرايي » ويوجهون الحامية من هناك . كانت في العصور الأخيرة في منطقة السليمانية ، وأصبحت في عام 1826 مشيخة (مقر شيخ الإسلام) (حتي 1922) . يشكل مع جنرالات الإنكشارية التابعين له « أغا ديواني » (مجلس الأغا) لإعطاء القرارات في المسائل التي تتعلق بالحامية ، ويحيل القضايا التى تتجاوز صلاحياته إلى الديوان الهمايوني (مجلس الوزراء) . ألغى السلطان محمد الفاتح مقام رئاسة الإنكشارية (الأغا) في 1451 م لغضبه من تصرف الإنكشارية القليل الأدب أثناء اعتلائه العرش . أعاد تأسيس المقام حفيده ياووز . ولذا فقد ترأس الحامية التي ظلت 64 عامًا بدون أغا الإنكشارية ، الجنرال المسمى سكبانباشي .

كان أول أغا إنكشاري منح مرتبة وزير ، سليمان كنعان أغا ـ باشا (شباط 1653) جرى في هذا المقام 275 تغييرًا خلال 311 سنة (1515 – 1826) . اعتلى بعض الأغوات هذا المقام مرتين واعتلاه واحد منهم 3 مرات . 29 أغا حصلوا على مرتبة وزير ؛ 3 منهم ظلوا في هذا المقام أطول مدة وهي 9 و7 و 6 سنوات . 25 أغا أصبحوا فيما بعد صدورًا عظماء . بعضهم توفي أثناء الخدمة ، وبعضهم استشهد ، وأولهم شجاع الدين أغآ الذي استشهد في فتح المجر . وحتي نهاية العصر 16 (1594) كان أغا الإنكشارية يخرج إلى الحملة مع البادشاه فقط . وإن كانت قيادة الجيش لدى الصدر الأعظم ، يشترك الإنكشارية في الحملة بقيادة سكبانباشي . ويبقى أغا الإنكشارية برفقة البادشاه في استانبول . وبسبب قلة خروج السلاطين إلى الحملات بعد العصر 16 ، أصبح أغوات الإنكشارية يشتركون في الحملات بجانب الصدر الأعظم (نعيما ، 95, 1) .

سكبانباشي (بلغة الشعب : سيمنلر باشي) ، هو الجنرال الكبير الثاني للحامية ، أدار سكبانباشي الحامية مدة 64 عامًا من 1451 إلى 1515 بسبب إلغاء أغوية الإنكشارية في **فاتح قانون ـ نامه سي** .

كان يتقاضى في العصر 16 راتبًا يوميًا قدره 70 آقجه وتعادل بالسعر الرائج الحالي 5 600 دولار شهريًا . كانت له مخصصات إضافية سنوية قدرها 20 ألف دولار . وظهر بين السكبانياشي جنرالات مقتدرون كثيرون ، رجال حرب ، وبعضهم شغل فيما بعد منصب الصدر الصدر الأعظم . يدير سكبانباشي الحامية من الناحية العسكرية بصورة مباشرة بسبب كون أغا الإنكشارية وقول كتخداسي شخصين سياسيين . كان هو رئيس الأركان الحقيقي لأغا الإنكشارية . كان بدرجة سنجق بك (لواء) . وفي حالة ترفيعه يصبح أغا إنكشاريًا ،وبك على لواء كبير ، وبعد العصر 17 بكلربك .

قول كتخداسي أو كاهيه بك ، هو الجنرال الثالث للحامية . وخلال بعض الفترات تقدّم على سكبانباشي وأصبح الشخص الثاني . هو برتبة لواء وفي حالة ترفيعه يصبح بكلر بك . كان راتبه في العصر 16 بالنسبة للسعر الرائج الحالي 2 800 دولار شهريًا (35 آقجه يوميًا) . تقدم على السكبانباشي في النصف الثاني من العصر 17 . كان مسئولاً عن ثكنات الإنكشارية الموجودة في استانبول ، وعن حاميتها ، وكذلك عن أمن المدينة (562, 2, Ricault; 314, 7, d'Ohsson) .

يني جري كاتبي (كاتب الإنكشارية) وبلغة الشعب يني جري أفنديسي (أفندي الإنكشارية) ، هو الجنرال الرابع للحامية . لكنه ليس انكشاريًا وليس عسكريًا وهو لواء مالي يعينه الصدر الأعظم . ميزانية الحامية العظمي والمصروفات والرواتب كلها في عهدة هذا اللواء المالي . أصبح عملاً خطرًا بعد أن صارت حامية الإنكشارية وكرًا لسوء التصرفات اعتبارًا من أواخر العصر 16 . كان تحت إشرافه 100 كاتب ، كان راتبه عاليًا (يعادل 650 5 دولارًا بالسعر الحالي) . شغل « عالي » أكبر مؤرخ في العصر 16 هذا المنصب .

قورنا جيباشي ، هو الجنرال الخامس للحامية (564, 2, Ricault) . وكان في الحقيقة قائد الأورطة (سرية الإنكشارية) الثامن والستين إلا أن هذه السرية يديرها أحد

الرواد وكالة عنه ، ويعمل التورناجيباشي في المقر . **سامسونجي باشي هو الجنرال السادس** وكان في الحقيقة ، قائدًا للأورطة الـ 71 **زاغارجي باشي** ، هو الجنرال السابع وكان في الحقيقة قائدًا للأورطة 64 . هؤلاء الجنرالات الثلاثة ، يصبحون في حالة ترفيعهم سنجق بك على أحد الألوية الممتازة أو رأسًا بكلربك على إحدى الايالات .

صولاقباشي : ورغم أنه الجنرال السادس في الحامية ، فإنه في الحقيقة ، أحد قواد الخاصة التابعين لشخص البادشاه .

أورطات (سرايا) الإنكشارية الـ 60, 61, 62, 63 هي من سرايا الصولاق وتشكل قسمًا من جنود معيّة السلطان . كان صولاقباشي ، قائدًا على هذه السرايا . كان حملة ألقاب صولاق يرتدون الملابس المزينة بالجواهر ويرافقون البادشاه ويشتركون في القتال بصورة فعلية ، وهؤلاء يجب أن يكونوا ذوي مظهر خارجي أنيق ، مهرة في استعمال الأسلحة . كان لدى القانوني 400 صولاق من هذا النوع . لم يكن بالإمكان الاقتراب من البادشاه في ساحة القتال قبل أن يقتل جميع هؤلاء الصولاق . إن جنود الخاصة ، كانوا يضعون على رءوسهم (صورغوج) شارات مزينة بالرياش النادرة ، حتى عام 1922 . وكان لباس رأس الصولاق كذلك مزيّنًا بهذه الشارات « صول » تعني يسار ، و « صولاق » بمعنى أعسر ، أي الشخص الذي يستعمل يده اليسرى وسموا بهذا الاسم لتمكنهم من استعمال السلاح بأيديهم اليسرى لئلا يديروا ظهورهم نحو البادشاه في الحرب .

باشخاصكي ، الجنرال التاسع والأخير للحامية . هو قائد السرايا 14, 49, 66, 67 المؤلفة من جنود الحرس السلطاني الذين يسمون « خاصكي » راتبه الشهرى 200 2 دولار .

باشجاووش ، أهم عقيد يلي الجنرال التاسع للحامية . ويجب ألا نخلط بينه وبين « جاووشباشي » وهو ضابط مراسم الحامية بالاشتراك مع مقدمين اثنين يسميان أورطه – جاووش وكوجوك – جاووش . وإذا رفّع يصبح باشخاصكي .

محضر باشي : هو المقدم الثالث للحامية ، يعمل في الخدمة المباشرة للصدر الأعظم مع 60 إنكشاريا يسمون « محضر » ، وهو العسكري الحارس (حرس) له وفي الوقت

نفسه ينفذ أوامره (324, 7, d'Ohsson) .

كتخدا يرى ، هو العقيد الثالث . معاون قول كتخدا .عندما يرفع، يصبح « محضر باشي » . راتبه 1 600 دولار .

ديوه جيباشي ، هو العقيد الرابع . ويسمى كذلك « باشديوه جي » (رئيس الجمّاله) بالفارسية « سر شتربان » . كان رئيسًا لـ 25 أورطة يقومون بنقل حاجيات الحامية بالجمال .

باشياياجي ، العقيد السادس . وهو في الحقيقة ، كان قائدا للسرية 101 . وكان يشرف على معامل البنادق للحامية .

عسى باشي ، المقدم السادس . قائد الانضباط للحامية ، رئيس الشرطة العسكرية .

بيك باشي ، العقيد السابع . قائد جماعة « البيك » وهم جنود الخاصة للبادشاه .

باشبولوكباشي ، العقيد الثامن . قائد سرايا الإنكشارية الخيّالة .

زمير كجيباشي ، العقيد التاسع ، قائد سرية الزمبر كجي الـ 82 ، والزمبرك ، عبارة عن مدفع هاون صغير يحمل على البغال .

تعليمخانه جيباشي ، العقيد العاشر . المسئول عن تدريب الأسلحة لأفراد الحامية .

آوجيباشي ، العقيد الحادي عشر وهو كذلك ضابط تدريب ، للتدريب بالأسلحة النارية فقط .

تفنكجيباشي ، العقيد الثاني عشر . ويقوم بفحص بنادق الإنكشارية . (أعطيت البنادق للإنكشارية عام 1 500) .

باشتفنكجي ، العقيد الثالث عشر . وهو المهندس المسئول عن صناعة البنادق للحامية .

يني جرى أمامي ، العقيد الرابع عشر والأخير . رجل دين وليس عسكريًا .

الإنكشارية الآخرون ، وكان عددهم أكثر من 200 رائد ، وعددكبير من الضباط

ذوي الرتب الصغيرة . وبينما كان يقال شوربة جي ، لقواد الأورطة (السرية) ، وفي بعض السرايا ، ياياباشي وباشبولوكباشي ، أخذ مكان هذه الألفاظ كلمة « بكباشي » اعتبارًا من النصف الثاني للعصر 18 . كان النقيب معاون قائد السرية يسمى « باشقره قوللوقجي » . ويسمي الذين يحملون رتبة جاووش « قره قوللوقجي » . لكل سرية ، إمام ومؤذن .

كان جنرالات الإنكشارية الـ 9 الذين سلف ذكرهم ، والـ 14 عقيدًا ينتعلون الأحذية الطويلة (الجزمة) الصفراء ، بينما الضباط الآخرون ينتعلون الجزمة الحمراء ، أما غير الضباط فكانوا ينتعلون الأحذية السوداء .

كانت الملابس الرسمية لجميع الضباط والجنود من الجوخ الثمين جدًا المحيك من صوف أحمر (قرمزي) ، ولا تلبس الملابس الرسمية التي سقط خملها وفقدت لمعتها . كان للضباط ملابس خاصة للمراسم . كان لكل سرية علامة تبين رمزها الخاص .

استمر نظام الدوشيرمة (أخذ الأطفال المسيحيين الصغار وتربيتهم عسكريًا) مدة 220 سنة (1363 - 1583) . وجرت دوشيرمة لعدة مرات فقط بعد 1583 ، وآخر دوشيرمة جرت في 1703 ، وكان عدد الأطفال 1000 طفل (هامز 17,130) بعد ذلك بدأ الأطفال الأتراك بدخول تشكيلات الإنكشارية ، ولكن لم يطبق على هؤلاء نظام الدوشيرمه . يسجل d'Ohsson أنه شاهد عدة زنوج إنكشاريين ، لكنه لا يوجد أي ضابط زنجي (7 ,326 - 9) . كان المتطوعون الأتراك من أهالي المراكز الكبيرة كالقاهرة ، الشام ، بغداد ، بودين ، يدخلون تشكيلات الإنكشارية . أصبح تقليل عدد الإنكشارية ، اعتبارًا من العصر 17 وإلى نهايته ، من أهم مشاكل الدولة، قلّص السلاطين المصلحون والصدور العظام هذا العدد ، لكن العدد تضخم بعد ذلك مجددًا . كان عددهم أيام الفتوحات قليلاً ومعقولاً : 000 3 في 1 451 ,000 10 في 1 477 ,000 8 في 1 481 ,000 8 في 1 520 ,000 12 في 1 526 ,357 13 في 1 560 ,798 12 في 1 567 ,599 13 في 1574 ,900 12 في 1582 ، ثم ازداد بسرعة وأصبح 100 26 في 1595 ,000 31 في 1597 ,000 35 في 1598 ,627 37 في 1609 ، ونتيجة لتدابير مراد الرابع 000 17 في 1640 ، 000 81 في 1656 ، ونتيجة لإصلاحات كوبرولو 078 39 في 1663 و 374 26

في 1679, 974 31 في 684 1, 394 70 في 1687 ، وبإنقاص عددهم على يد كوبرولو – زاده أصبحوا 000 40 في 1689, 000 70 في 1699 ، وبتدابير عموجه – زاده انخفض العدد إلى 000 40 في 1700, 818 21 في 1706, 188 34 في 1750, 456 64 في 1804 ، وكان عددهم المثبت على الورق عام 826 1, 000 100 لكنه ارتفع لفترة إلى 000 120 .

كان الإنكشارية يرسلون للخدمة في الخارج لمدة 3 سنوات ثم يعودون إلى استانبول . رواتبهم تزداد في الخارج (جودت باشا ، **تاريخ عسكري عثماني** ، 105) كانت حاميات الإنكشارية الموجودة في الإيالات البحرية من أفريقية الشمالية (جزائر ، تونس ، طرابلس = ليبيا) حاميات مستقلة عن الموجودة في استانبول . أسست على نمط تشكيلات الإنكشارية في استانبول من المتطوعين الذين ذهبوا من الأناضول الغربية إلى هناك . سمّي أولاد هؤلاء من البنات العربيات والبربريات « قول أوغلي » ، وقد شكل هؤلاء كثافة سكّانية غير قليلة في بعض مدن أفريقيا الشمالية .

كان راتب المتقدمين من جنود الإنكشارية في العصر 16 ، ما يوازي 250 1 دولارًا بالسعر الحالي . تؤمن الدولة طعامهم ، وشرابهم ، وتدفئتهم ، وسكناهم ، ولباسهم . كانوا يتسنمون حصة من الغنائم . وفي الخدمات فوق العادة ، يمنحون العطايا . يحال الإنكشاري الذي يصاب بعاهة بدنية في الحرب ، إلى التقاعد براتب 800 4 ، إن كان جنديًا ، وبراتب 000 19 دولار إن كان عقيدًا ، ويتسلم هذا الراتب طيلة حياته .

كانت ثكنات الإنكشارية في استانبول تحتوي على 184 اسطبلاً ، 90 ساحة ، 20 قصرا ، 689 صالة مجهزة بوسائل الراحة ، وعدد كبير من المساجد . كانت الجدران مكسوة بالحجر الخزفي (الصيني) ، وكل غرفة تحتوي على فوانيس عديدة (213-3, Galland. **Journal**, 1) . صرف محمود الأول مبلغ 120 مليون دولار بالسعر الرائج الحالي لتجديد إنشاء أكبر ثكنة للإنكشاريين في ميدان آقسراي ، احترقت عام 1751 في آن . كانت فرقة إطفاء الإنكشارية تحتوي على 531 طلمبة جي (أفراد الإطفاء الذين يحملون ويستعملون آلة ضخ الماء) .

وعلى مر الزمن ارتفع عدد سرايا الحامية التي كانت في الأصل 80 ، إلى 162 . كل

سرية (أورطة) كانت تحتوي على 9 ضباط علي الأقل . خيامهم حمراء . وفي الحملات كان مكانهم في منتصف قلب الجيش .

9 - قابوقولو سباهي :

أهم حامية بعد حامية الإنكشارية هي حامية قابوقولو ، سباهي قابوقولو . يجب أن تفرق بين هذا الصنف وصنف تيمارلي سباهي . كانوا في البداية « دوشرمة » ثم أخذوا في قبول الأطفال الأتراك في أواخر العصر 16 . كانت هذه الحامية ، أكبر منافس للإنكشارية في إستانبول . لذا لم يتدخلوا في كثير من حوادث العصيان ، وفي بعضها وقفوا ضد الإنكشاررية . كان صنفًا ممتازًا يتقاضى راتبًا أعلى من الإنكشارية ، يدربون ليكونوا فرسانًا ورماة للرمح ومقاتلين بالسيف مهرة .

وهي فرقة خيالة مكونة من 6 كتائب . أسماء الكتائب الست بتسلسل أهميتها هي : سباهيلر ، سلاحدالر ، صاغ علوفة جيلر ، صول علوفة جيلر ، صاغ غريبلر ، صول غريبلر . إن رتبة كل من قائدي الكتيبتين الأولين لواء ، ويمثل الحامية قائد الكتيبة الأولى المسمى « سباهيلر أغاسي » .

كانت الكتيبة الأولى المسماة « سباه بولوكي » أي فصيلة السباهية ، أرفعهم اعتبارًا ورايتها حمراء اللون . أسسها فاتح بجمع أولاد كبار رجال الدولة وقوادها . إن مكان هذه الكتيبة ، في القتال ، خلف الحاكم أو السردار (القائد) ، تحمي خلفيته وتهتم كذلك بالرايات . تحرس السرادق الهمايوني ليلاً بالتعاون مع كتيبة سلاحدار بالمناوبه . « سلاحدار آلايي » (كتيبة سلاحدار) ، كانت ذات راية صفراء ، تتقدم الجيش لاستطلاع الطرق التي سيسلكها الجيش .

قلّت أهمية سباهي قابوقولو بعد 1660 . رغب الكل في الانتساب إلى الإنكشاريين . وأساسًا كان قد بدأ الانحطاط في أصناف الخيالة جميعها .

كانت كل كتيبة تحتوي على عقيد واحد ومقدمين اثنين وثلاثة رواد . وكل كتيبة تنقسم إلى فصائل . عدد هذه الحامية ، كان 000 8 في 1453 و 885 5 في 1566 وارتفع إلى حده الأعلى وبلغ 000 51 في 1655 ، و 177 15 في 1660 ، و 169 22 في 1713 .

ثم قل كثيرًا . وقف بجانب الدولة في الواقعة الخيرية عام 1826 ولم يشترك في عصيان الإنكشارية . ورغم ذلك ، ألغاه محمود الثاني كجميع حاميات قابوقولو . .

10 – المدفعيـــة :

هو صنف قابوقولو الذي يستعمل المدافع . تمت الموافقة في دور مراد الأول (1362 - 1389) على إدخال المدفع كسلاح من أسلحة الجيش واستعمل في الحرب الميدانية كوسوفا عام 1399 .

لكن استخدام المدفع كسلاح لا يمكن الاستغناء عنه في الجيش وبنفس الدرجة من الأهمية في البحرية ؛ تحقق في 1453 . شيّد القانوني (1520 - 1566) معملاً كبيرًا لصنع المدافع وبجواره ثكنة لجنود المدفعية على الجانب الأوروبي من مدخل المضيق ، وقد بقيت قيادة مدفعية الإمبراطورية فيها حتى 1922 ، وسميت المنطقة « طورخانة » جدد سليم الثالث (1789 - 1807) الثكنة .

كان للحامية 6 ضباط برتبة لواء . كان « طوبجيباشي » (قائد المدفعية) ، أعلى قائد للحامية . وكان آمر الطوبخانة أكبر معمل أسلحة ثقيلة في العالم لعدة عصور — هو « دوكمجيباشي » (رئيس السبّاكين) ، كان مهندسًا . يليه طوبجيلر كتخداسي أو (أوده باشي) ، هو معاون القائد . ثم يليه طوبجي كاتبي (أو أفنديسي) ، وهو جنرال مالي . يليه دو كمجيلر كتخداسي (ومعاون السباكين وأمين الطوبخانة) . (2 , Ricaut 580,)

كان للإمبراطورية — عدا استانبول ، 7معامل أخرى (بلغراد ، باج Bac قرب سمندرة ، بودين اشكودرا ، Pravişte قرب دراما ، تامشوار وفي كولانبرد على الحدود الإيرانية) . كان يوجد في مركز كل إيالة مسابك صغيرة ومصانع تصليح المدافع . كانت توجد 6 معامل لصنع قذائف المدفعية (يلة جك ، وأن ، كيغي Kigi ، Kamengrad ، قرب Banyaluka في بوسنه ، وفي Novaber على ساحل مورافا وفي خ) . تجمع القذائف التي تصنع في هذه المعامل في 4 مخازن (ازميت ، بازارجك ، يني شهر ، ادينجك) وتوزع على الأماكن التي تقتضيها الحاجة . كان مخزون القلاع

الكبيرة هائلاً . فمثلاً كان يوجد في قلعة بلغراد عام 1697 حوالي 168 000 قذيفة مدفع بأحجام مختلفة . كان بالإمكان صنع مدافع ذات أقطار كبيرة جدًا أدهشت الأوروبيين . كانت توجد مدافع عيار 76 – م .

كان باستطاعة معمل عتاد واحد ، صنع من 20 ألفًا إلى 24 ألف قذيفة سنويًا . مادته الأساسية الحديد ، يخلط النحاس والقصدير بنسب معيّنة ويوضع البارود . قل استعمال القذائف الحجرية على مر الزمن . أصغر القذائف ، من زنة 320 غم وتستعمل للمدافع المسماة « شاهي » . كانت تحمل مدافع الشاهي على البغال ويمكن أن يديرها شخصان . كانت السفن النهرية المسمّاة « اينجه دوناغا » مسلحة بمدافع شاهي .

وقبيل 1640 م . كان لدى الإمبراطورية 17 045 مدفعًا فعّالاً . كانت هذه المدافع تحت سيطرة طوبجيباشي . المدافع القديمة التي ترسل إلى المعامل لإذابتها لفقدها قياسات أقطارها أو التي تستعمل كزينة خارج هذا العدد (تصريح طوبجيباشي علي بالي بك إلى أولياء جلبي : 440, 1 (انظر 28, 12, Muhimme) .

كان القانون يحظر على أي فرد في الدولة العليّة أن يمتلك قلعة ولا يمكنه إنشاء قلعة إلاّ باسم البادشاه ، كما كان يحظر على أي فرد أن يمتلك مدفعًا ، ولا يمكنه كذلك أن يصنّع مدفعًا .

كان باستطاعة المعمل الواحد أن يسبك 320 مدفعًا في السنة . أعلى إنتاج ، كان في طوبخانة إستانبول . كان عدد المدافع في القلاع الضخمة كبيرًا جدًا . كان في قلعة بغداد عام 1685 ، حوالي 2191 ، وفي البصرة 182 ، وفي الشام 277 ، وفي قلعة خانيا في كريت 245 ، وفي قلعة كانديه 307 ، وفي ميدلّي 289 مدفعًا .

كان القانون ينص على التدريب على الرمي مرتين في الأسبوع ، لتدريب المدفعيين ، ونقل الذين لا يوفقون من الجنود إلى أصناف الجيش الأخرى . كانت الحامية في أواسط العصر 17 تتكون من 52 فصيلة ، ارتفعت بعد ذلك إلى 72 فصيلة . كان راتب الطوبجيباشي الشهري في أواسط العصر 16 ، حوالي 9،000 دولار بالسعر الرائج حاليًا وراتب كل من الجنرالات الخمسة الآخرين 4 000 دولار . كانت رواتب جنود المدفعية ، في دور القانوني كذلك ، أكثر من رواتب الإنكشارية وتتراوح بين 6 و 8

آقجه يوميًا (تعادل 960 إلى 1 280 دولارًا شهريًا) . قليلون منهم كانوا دوشيرمه (من عائلا[illegible] [illegible] يقبل المتطوعون في هذه الحامية . كان للحامية تشكيلات صحية ،

التزمت هذه الحامية جانب الدولة في الواقعة الخيرية . بدّل محمود الثاني ، اسم الحامية وحافظ عليها بإجراء تغيير طفيف ، لأن ضباط هذا الصنف لم يكونوا آلايلي (الذين تدرجوا في مراتبهم في وحداتهم منذ أن كانوا جنودًا) كما في الحاميات الأخرى ، وإنما كانوا ضباط مدفعية مهندسين من متخرجي مهندسخانه بريء همايون (كلية الهندسة البرية الهمايونية) التي فتحت منذ أكثر من نصف قرن . غيّر محمود الثاني ، الذي ألغى مقام طوبجيباشي ، اسم قيادة الحامية إلى « فريقية طوبخانة » وعين على رأس هذه التشكيلات نعمان أغا آخر طوبجيباشي ، بعد منحه لقب « الفريق نعمان باشا » . أسست بعد ذلك مشيرية الطوبخانة العامرة بعد دمج المعامل العسكرية بالمدفعية وأدخل هذا المشير إلى الوزارة كوزير عسكري ثالث .

كان عدد الحامية 5 000 تقريبًا . ومن ناحية أخرى ، كان يوجد خارج المدينة 2 000 مدفعي تمارلي تقريبًا .

11 – حامية سائقي عربات المدافع (طوب عربة جيلري أوجاغي) :

حامية طوب عربة جي أو بالاختصار عربة جي ، ذات علاقة بحامية الطوبجي (المدفعية) لكن هذه الحامية كانت صنفًا صغيرًا لقابوقولو مستقلاً عنه . أسس مراد الثاني (1421 - 1451) حامية المدفعية ، وأسّس بيازيد الثاني (1481 - 1512) سواق عجلات المدافع بفصلها منها . كان قائد الحامية عربة جيباشي آغا ، ثم صار عقيدًا ولواء . واجب الحامية ، نقل المدافع من مكان إلى آخر ، وإلى الجبهة . كان للحامية 3 عقداء ووحدات نجارة ، وحدادة ، ونعالة . كان عددهم 678 في 1550 ، و 400 في 1574 ، و 282 في 1660 و 4 414 في 1820 . وفي الواقعة الخيرية ، ربطت بفرقة المدفعية .

12 - حامية همبرة جي (قسم القنابل اليدوية) :

« همبرة » والتي يطلق عليها باللهجة الشعبية « قمبرة » ، هي قنبلة يدوية . وهناك قنابل ترمى بواسطة البندقية . كانت ثكناتهم ومعاملهم في اسكدار . كان عددهم 601 في 1733 . كانوا ينقسمون إلى 6 فصائل (أوده) كان قائدهم ، العقيد المسمى همباراجيباشي . أول تعليم على الطراز الأوروبي لهذا الصنف ، جرى في 1728 . أولى سليم الثالث عناية خاصة بهذا الصنف في النظام الجديد. حضر تدريبات الرمي والمناورات مثل عمه عبد المجيد الأول (جودت 3 ، 85 ؛ صبحي ، 58) .

13 - حامية لغمجي (قسم الألغام) :

هو صنف استحكام . كلمة « لغم » تعني النفق الذي يفتح في حروب القلاع تحت الأرض . رتبة لغمجيباشي (قائد صنف الألغام) ومعاونه عقيد . عدد أفراد الحامية حوالي 5 000 . بعض فصائله تنقسم إلى أقسام تخصصية كأصناف إقامة الجسور ، القلاع ، الخنادق . كانت قدرة الحامية في المعدات ، كبيرة . كان لديهم بصورة دائمة مخزون كبير من البارود ، الفتائل ، القطران ومعدات أخرى كثيرة . خدم في صنف الاستحكام العثماني ضباط مهندسون قديرون . كان المعمار سنان ، ضابط استحكام من قسم إقامة الجسور في الجيش العثماني في فترة شبابه . كانت الهندسة العسكرية (الاستحكام) التركية ، متفوقة . إن مؤسسي الهندسة العسكرية الحديثة في أوروبا ، هم الأتراك أيضًا . المهندس الفرنسي الجنرال Vauben الذي يعتبر أبا الاستحكامات الحديثة في الجيوش الأوروبية ، استعمل لأول مرة ، في قلعة Maestrichl في هولندا عام 1673 ، فن الاستحكام على الطراز التركي بعد أن درس فن الموانع والتحصينات الهندسية التركية ضمن الوحدات الفرنسية التي حاربت الأتراك سنين عديدة ، في كانديه في كريت ، وعلى أثر إحرازه النصر ، وافقت جميع الجيوش الأوروبية الرئيسية ، في أواخر العصر 17 ، على استخدامه **Histoire General** Lavisse - Rambaud (96, 6, (كانديه لغم محاربه لري أوزه رنده كيش تفصيلات : راشد ، 1 ,167 - 84) .

14 ـ حامية جيبة جي (قسم التجهيزات العسكرية) :

صنف تجهيزات الجيش . هو الصنف الأخير من حاميات القابوقولو الـ 7 . واجبه جمع أسلحة حامية الإنكشارية بعد الحملات ، إصلاحها وصيانتها . يقومون بتوزيعها والعناية بها في الحملات . وفي الوقت نفسه ، يشتركون في القتال بصورة فعلية . عنايتهم بأسلحة الإنكشارية فقط . كانت الأصناف الأخري ، تقوم بصيانة أسلحتها بنفسها . لذا فقد كانت هذه الحامية التي ذات ارتباط وثيق بالإنكشارية . كلمة « جيبة » تعني باللغة التركية القديمة « درع » . ثم استعملت كلمة « جبة خانة / جبخانة » في اللغة التركية للتعبير عن « ذخيرة الأسلحة النارية » .

كان بحوزة هذا الصنف ، ألوف من الجمال والبغال . ينص القانون على تسليم أسلحتهم إلى الإنكشارية ، قبل دخولهم أراضي العدو . هذا الصنف هو الذي قام بالثورة المشئومة التي أنتجت واقعة أدرنة . هي حامية قابو قولو الوحيدة التي أيّدت ـ عدا ضباطها ذوي الرتب العالية ـ الإنكشارية في الواقعة الخيرية ، أعدم على أغا آخر جبة جيباشي (**اس ظفر** ، 251) .

كان عددهم 789 في عام 1566 ,00 8 في 1748 . كانوا كثيرين خارج استانبول . وفي السنوات الأولى من القرن 19 ، كان مجموعهم في القلاع 1560 ، كان 504 منهم في بغداد ، 155 في وان ، و162 في قارص .

كانت ثكنتهم مقابل أيا صوفيا ، وحاليًا سراي العدل (200, 58, muhimme, 2 - 581, 2, Ricaut) . كانت رتبة جبة جيباشي تعادل رتبة لواء. وله 5 عقداء . كان معمل الحديد الموجود في Samako في بلغاريا ، يصنع لحامية جبة جي المعاول ، المجارف الأنابيب ، المطارق الحديدية الضخمة إلخ .. كان هناك معمل آخر للحديد في أدرنة . ومعملان للأقواس والسهام في إستانبول وغاليبولي . ومصنع واحد للسباكة في كوسنتجه . ومع ذلك ، كانت تشتري معدات من القطاع الخاص كذلك . مثلاً ، كان قد قدم عرضا من أحد المعامل الشخصية في عام 1511 لصنع 780 ألف سهمًا . كان لدى الجبة جي كميات كبيرة من المعدات الاستحكامية . مثلاً ، أرسلوا لمحاصرة

فارادين عام 1694 ، حوالي 30 ألف مجرفة و 16 ألف معول وآلات أخرى . كانت الحامية مؤلفة من 60 فصيلة من بينها سرايا مختصة بالبارود ، كانت المدفعية تطلب البارود وزيت الزيتون من صنف جبه جي ، في حالة من نفاذه . اختار محمود الثاني من صنف جبه جي ، بعد الواقعة الخيرية 1054 جنديًا وضابطًا وشكل جبه جي خانه همايون ، وقد تطورت هذه التشكيلات كثيرًا في دور التنظيمات وألحقت بمعمل المدافع الهمايوني .

15 – نبذة عن الأسلحة النارية لدى العثمانية :

إن عدم اهتمام الدول الأوروبية المسيحية الأخري والآسيوية الإسلامية بالأسلحة النارية ؛ بقدر اهتمام العثمانية بها ، وعدم تمكنهم من اللحاق بالعثمانية من الناحيتين التكنولوجية والمالية ، يأتي ضمن أسباب الفتوحات العثمانية الكبرى . لفت ذلك نظر العديد من الكتاب الأوروبيين ، من ماكيافل إلى المؤرخين الحديثين . قضى السلطان ياووز سليم على الصفويين في الشرق وفتح مصر في الجنوب خلال سنتين ونصف سنة . وسأل سلطان المماليك الأخير طومان بك الثاني عن سبب عدم حيازته الأسلحة الحديثة وأنبه على ذلك . كان تفوق العثمانية التكنولوجي هذا قد حدد مصير الشرق الأوسط إلى عصرنا هذا .

من المعلوم أن البارود ، اختراع صيني ، استعمل كمواد متفجرة لأغراض التسلية ولم يستخدم كسلاح . تركيبه بسيط نوعًا ما (نترات البوتاسيوم 75 ٪ ، كبريت 12,5 ٪ ، مسحوق الفحم 12,5 ٪) وصناعته سهلة في حالة تأمين الكبريت الذي يقل وجوده نسبيًا بالقياس إلى المواد الأخرى ، وفي حالة عدم وجود البارود ، لا يمكن صنع أي سلاح ناري . ولما كانت الحضارة الصينية مغلقة ، فإن مسلمي القرون الوسطى والعرب هم الذين عرّفوا البارود للأوروبيين ونشروه ، ومناقشة موضوع ما إذا كانوا قد اقتبسوا البارود من الصين أم أنهم تقدموا في علوم الكيمياء واكتشفوه ، لا أهمية له من الوجهة التاريخية . لكن الشيء المؤكد هو أن العرب هم الذين عرّفوا البارود لأوروبا وأن هذا الأمر له أهمية كبيرة من الناحية التاريخية .

لا يكون البارود سلاحًا ملائمًا للقتال في حالة استعماله وحده . البارود المسحوق الموضوع في البراميل ، يمكن في حالة إشعاله أن يفجر الأبنية المغلقة ، أما رمي القنابل

بواسطة البارود ، فهو الذي ولّد الأسلحة النارية ، والتي أولها وأهمها المدفع .

صنعت أول المدافع ، وكانت بدائية جدًا في أوروبا قبيل عام 1320 . كان لدى العثمانيين وكذلك لدى مماليك مصر مدافع في 1360 . كانوا يخيفون بصوته خيول الأعداء في ساحة القتال . وكانوا يعجزون عن هدم أسوار القلاع . لم تكن أية دولة ، حتى عام 1453 – ولا العثمانية – قد استخدمت المدفع كسلاح جدّي في الدفاع ، أو في الهجوم ، أو في حروب الحصار . وفي الحقيقة ، كانت المدافع صغيرة ومداها قصير . وعندما طلب فاتح عام 1452 سباكة مدافع في أدرنة بقياس وتكنولوجية لم تسبق صناعتها ، بعد إتمامه حساباته بهذا الشأن ؛ اعترض المهندسون والأخصائيون على ذلك ، وادعوا عدم إمكان سباكة مدافع بهذا القياس ، وإنها إذا سبكت ، فإنها ستتشقق بعد السباكة ، وإن لم يحدث ذلك فإنها سوف تتبعثر عند أول إطلاقة . لكن هذه المدافع سُبِكت ، ولم تتشقق ، ولم تتبعثر عند أول إطلاقة تجريبية ، سبكت بحسابات دقيقة ، سواء كانت برونزًا أو حديدًا (حلّل الكيماوي الإنكليزي F . A . Abel معدن أحد المدافع التي سبكها فاتح عام 1464 ، فوجد بدهشة أن البرونز ، كان من النوعية الممتازة ونسب الخليطة كانت جيّدة وأنه لا يمكن حاليًا صنع تركيب يفوقه : The Chemical News ، رقم 457 ، لندن ، 4 / 9 / 1868 ، ص 111 - 2) .

لم تهدم مدافع فاتح في 1453 أسوار الدولة البيزنطية فحسب ، بل هدمت معها العصور الوسطى التي يعود تاريخها إلى ألف عام مضت وفتحت العصور الحديثة . استعمل فاتح البارود – كما أشار إلى ذلك المؤرخون الأوروبيون بدقة – لتحريك الصواريخ الطيارة ، كذلك لدرجة أن أحد المؤرخين الفرنسيين المدعو (Benoit Méchin) الأشكال البدائية لأسلحة V - 2, V - 1 صنعت من قبل فاتح . استعملت تكنولوجية الصواريخ العثمانية في رمي قذائف هوائية ممتازة الصنع جدًا ، إلا أنه لم يمكن تحويلها إلى واسطة قتال . لكن مدفع الهاون الذي يرمي قذيفته بمحرك بيضي الشكل (obusier, mortier) والذي استعمله فاتح لأول مرة في فتح استانبول ، اعترفت به الدول الأوروبية الواحدة تلو الأخرى . وموجود حاليًا لدى كل الجيوش .

فاتح ، الذي أثبت بصورة قطعية ، أن المدفع سلاح يمكن به هدم قلعة ، ثم قال بأن المدفع سلاح مؤثر على نتيجة الحروب الميدانية ، وإنه سلاح بإمكانه تشتيت خيالة

بل ومشاة العدو . أثبت قوله ذلك في أو اتلوكبلي Otlukbeli عام 1473 ، لكن هذا الحادث فات على أنظار الدول الأوروبية والأسيوية أجمع ، كانت الدول الأوروبية التي أنكرت تأثير المدفع في الحروب الميدانية ، حتى بعد اوتلوكبلي بعصر واحد ، وخاصة الدول الآسيوية ؛ كثيرة . إن معركة جالديران ، جرت بعد أوتلوكبلي بـ 41 سنة . استعمل ياووز ، حفيد فاتح ، المدفع والبندقية أيضًا كسلاح من الدرجة الأولي في أوسع الحروب الميدانية ، وغيّر الميزان الدولي . ثم أزال سلطنة المماليك من الوجود ولعب دورًا مهمًا كذلك في حرب موهاج 1526 ، وفي عهد ابنه القانوني كان قد مضي 53 عامًا علي حرب أوتلوكبلي . أفاقت أوروبا من سباتها بعد ذلك .

لم يهمل الجيش العثماني المدافع أبدًا ، حتى في عصور الانحطاط . ورد في تقرير عسكري بروسي مؤرخ 1862 Unsere Tage (7 - 586, 580, 36) ، أن المدفعية العثمانية ، لا تقل عن أية مدفعية أوروبية . لكن لم تعد تسبك بعد الآن أجود المدافع في استانبول ، بل في Essen . طوّر السلطان عزيز (1861 - 1876) أسلحة جيشه بمدافع كروب وبنادق مارتيني الأمريكية وأوصلها إلي أحدث المستويات . بهذه المدفعية قضي جواد باشا علي أقوى أسطول حربي شاهده العالم حتي ذلك التاريخ ، دمّره في مدخل مضيق جنا قلعة (18 / 3 / 1915) .

تعرّف القسم الأكبر من العالم الإسلامي ، علي الأسلحة النارية من العثمانية . رحب العالم الأسلامي بالضباط المدفعيين والبحريين العثمانيين ، اعتبارًا من العصر 15 وحتى في القرن 20 ، كان الضباط العثمانيون يُرسلون إلي الأقطار الإسلامية خارج العثمانية – مثل فاس ، الأفغان ، تركستان – بواجبات رسمية .

وعندما سار ياووز إلي مصر ، كان أسطول دولة المماليك العظمي يديره العثمانيون . لم يسأل قائد أسطول المماليك الأميرال العثماني سلمان رئيس ، سلطان مصر عما يجب عليه أن يعمله بالأسطول، وسأل البادشاه العثماني . وعند قدوم الإخوة بربروس إلي تونس ، وجدوا أن سلاطين الحفصيين يملكون مدفعيين ، وأن ضباط مدفعيتهم أتراك . بدءوا بمهمّتهم التاريخية في المغرب وهم مطمئنون إلي أن مدفعية كهذه لا يمكن أن تفتح عليهم النار . كان في حيازة سلاطين السعديين في فاس في 1575 من المدافع

150 مدفعًا ، ووحدات حملة البنادق والعركبوز ، كانت تحت سيطرة الضباط العثمانيين . إن سرية المدفعية لسلطان فاس الذي فتح مالي عام 1591 مكونة من بطارية هاون 6 مدافع و500 خيال ، حملة بنادق و2000 مشاة أندلسي حملة العركبوز ، كانت قد نظمت من قبل الضباط العثمانيين . بقي بعض ضباط البنادق العثمانيين في نتبوكتي وعرّفوا أفريقيا السوداء بالأسلحة النارية . وفي الأصل فإن اصطلاحات المدفعية التي تستعمل في أفريقيا الشمالية جميعها ، تركية وليست عربية . مثل طوبجى (مدفعي) ، بُمبه (قذيفة) بششخانة (مدفع ذو ستة أضلاع) ... إلخ . (**Nouvelle Edition,** **Encyclopedie del'Islam** ، 1، **1089**ب - 190) .

لم يتمكن الصفويون ، أقوى منافس للعثمانية ، في أي وقت من الأوقات من إيصال الأسلحة النارية إلى مستوى العثمانية . كتب المؤرخ الإنكليزي Savory بأنهم حتى في العصر 18 لم يتمكنوا من استعمال مدفع الصحراء كما يجب في المعارك الميدانية . وفي الأصل ، فإنهم اقتبسوا مصطلحات المدفعية عن العثمانية ؛ الصفويون أيضًا كانوا يقولون « طوبجي ، طوبجيباشي » . كان المدفع العثماني ، يعتبر غنيمة ثمينة جدًا . ويمكننا القول بأنه لو كانت معلومات الصفويين في البحرية والمدفعية بمستوى العثمانية لتورطت العثمانية في الشرق ورطة كبيرة . كان الوضع في أزبكستان مماثلاً لذلك . كانت المدافع والبنادق تجلب من العثمانية ويستعملها ضباطهم منذ العصر 16 . أرسلت المدافع العظيمة صنع طوبخانة استانبول ، إلى أندونيزيا مع الضباط المدفعيين الأتراك . كان الوضع ذاته في إمبراطورية الهند العظمى (بني تيمور) . أسس هذه الإمبراطورية بابورشاه بن تيمور ، بفضل المدفعيين العثمانيين (**بابورنامه** ، ورق 321 ب) . وحتى ابن حفيد حفيده افرنكزيب علمدارشاه ، كان لا يزال يستخدم الضباط المدفعيين العثمانيين في بداية العصر 18 . وكذلك انتقلت البنادق والمسدسات من العثمانية إلى الهند . أوقعت العثمانية الذعر في القلوب بالمدافع والبنادق التي تسمى مسكت « Misket » التي ترمي الحبّات (الشظايا) من زنة 15 - 20 درهمًا داخل إطلاقة واحدة (نعيما ، 1 ,164) . أحكمت كيفية تنظيم وتوجيه نيران المدفعية وخاصة بالنسبة لأسوار القلاع ، بقواعد هندسية . كانت المدافع المختلفة المسماة باليمز ، جاكلوز ، شاهي ، بادالوشكا ، كولونبورنا ، شايكا ودرابزون ذات القياسات المختلفة ، تستعمل بطرق

معينـة ، لا تفتح نار المدفعية بصورة اعتباطية . لم تتمكن الأقطار الإسلامية ـ عدا العثمانية ـ من التعرف على ذلك إلا في القرن الـ 20 .

16 ـ جنود الصاعقة (آقينجيلر) :

أهم صنف عسكري في تاريخ الفتوحات العثمانية هو تيمارلي سباهي وثم آقينجيلر . آقينجي تعني كوماندو (صاعقة) خيال . أسست أوروبا جنود آقينجي التي سمتهم « Komando » ، بعد العثمانية بـ 500 سنة .

« آقين » (غارة) ، كلمة تركية وهي اسم لمصدر « آقماق » (إغارة) واسم الفاعل « آقينجي » (مغوار) . الكوماندو (آقينجيلك) ، هو المجال الذي أوفاه الخيال التركي حقّه بجدارة كبيرة منذ فجر التاريخ وحصل فيه على تجربة فائقة . إن هدف حامية آقينجي للعثمانية ، هو ضعضعة قوة العدو العسكرية والاقتصادية ، وتخريبها وفتح الطريق للجيش النظامي . ويستعمل الآقنجي كذلك في الدرجة الأولى في الحصول على الأخبار .

يشكل أولاد سكنة الأناضول الغربية وأحيانًا أواسطها ــ الذين استوطنوا في روملي ــ ، أكثرية المغاوير . لا توجد حامية مغاوير (آقينجي في الأناضول . لكن جلب أحيانًا ، آقينجي من روملي ، في الحروب الكبرى ضد الصفويين . إن صفة آقينجي تنتقل من الأب إلى الابن ، ودخول الغريب إلى الحامية صعب . توجد عدة حاميات آقينجي مشهورة : مثل ميهال أو غللري (بني ميهال) ، بالقوج أوغللري ، أورانس أوغللري ، ترهان أوغللري ، تنتقل بكويّة (إمارة) الحامية من الأب إلى الابن . يمنح أمراؤهم (بك) ، رتبة سنجق بك (لواء) ، ونادرًا بكلر بك (فريق أول) ، ومنهم من حصل على رتبة وزير . إن قادة عصرى 15 - 16 الفاتحين العظام ، تدربوا في حامية آقينجي . يتعرفون جيدًا على روملي ويجيدون اللغات البلقانية والأوروبية . اجتاحوا كامل أوروبا الوسطى والشرقية ، في سبيل تحقيق هدف الجهاد والغزو .

إن الإغارة عملية خطرة . يتحرك آقينجي بسرعة فائقة ، ويهتم بتحاشي الاصطدام

بالعدو الذي لا يدري في أية منطقة من أوروبا سيظهر . ينقسم جيش آقينجي إلى أرتال ، وهذه الأرتال تنقسم إلى جماعات ووحدات صغيرة . ثم تلتئم هذه الوحدات مع بعضها في غير الأماكن التي تفرقت منها وتعود . لا يخلعون السيف من خصورهم أثناء صلاتهم ووضوئهم (أولياء ، 528,5 - 9) . يستشهدون بأعداد كبيرة في عمليات الإغارة .

17 – العزب (عزيلر) [المشاة الخفيفة] :

عزيلر (باللغة العربية : عزب) صنف مشاة . مشاة خفيفة . وبينما كان هؤلاء يشكلون أساس مشاة العثمانية ، احتل الإنكشاريون مكانهم في أواخر العصر 16 واختفى صنف العزب . كثير من المؤرخين أسندوا النصر في دور الفتوحات إلى الإنكشارية ، لجهلهم أن العزب يشكلون مشاة الجيش العثماني . كان عددهم في حرب أنقرة (1402) 20 ألفًا ، وفي فتح إستانبول (1453) 20 ألفًا ، وفي أوتلوكبلي (1473) 30 ألفًا ، وفي رودس (1522) 20 ألفًا . أخرج السلطان سليمان القانوني هؤلاء من صنف المشاة وجعلهم حماة قلاع . وهكذا استمر العزب في مهمتهم في حماية القلاع . رغم أن الذي أوجد عزب القلاع هو فاتح ، لكن الذي غيّر صنف هؤلاء إلي حماة القلاع بشكل نهائي ، هو القانوني . إذ إن القلاع كثرت بشكل كبير على زمانه وزادت حاجة القلاع إلي الجند . ألغي السلطان محمود في 1826 عزب القلاع ، وعزب البحرية كذلك .

دنيز عزبلي (عزب البحر) ، هم مشاة البحرية المسلحون . وهم المشاة حملة البنادق الذين يرافقون السفن .

18 – المشاة (يايالر ومسلّملر) :

احتل العزب كذلك مكان يايا ومسلّم (بضم الحرف الأول وفتح الثاني) ؛ كما احتل الإنكشاريون مكان العزب . « يايا » كلمة تركية وتعني بالفارسية « بياده » أي مشاة . هم الجند الراجلون ، لا يركبون الخيل ويسيرون على أقدامهم . إن أكثرية يايا

رمسلّم ، جنود متطوعون من العشائر التركمانية . سمّوا في البداية يايا ثم مسلّم . **ألغوا** ، عندما كان عددهم في أواخر العصر 26 500, 16 (**قوانين آل عثمان** ، **45**) ثم استمر بعد ذلك استخدام الجنود المتطوعين من التركمان . لكن هؤلاء كانوا خيّالة وسمّوا **يوروكلر** .

19 – جنود الإيالات :

كان سنجق بك وبكلر بك الذي يفوقه رتبة ، هو القائد لتيمارلى سباهي . أي أن قائد السباهية الموجودين فى لواء ما هو الوالي العسكرى لذلك اللواء المسمى سنجق بك (لواء) وقائد السباهية في إيالة ما ، هو الوالي العسكري للإيالة برتبة بكلر بك (فريق أول) وهو قائد الضباط برتبة لواء (سنجق بك) الذين يشكلون تلك الإيالة . زادت حاجة جنود المعيّة للألوية (سنجق بك) ، وخاصة للفرقاء الأول (بكلر بك) . بدأ الفرقاء بتجنيد جنود متطوعين وأجراء . كان يطلق على هؤلاء أن كانوا خيالة **سكبان** ، وإن كانوا مشاة **صاريجه** ، ثم سمّوا جميعًا **لوند** (يجب تفريقهم عن لوند البحرية) .

20 – المتطوعون (الأجراء) :

اكتسب الجنود المتطوعون أهمية ، بعد أن اضمحلت صنوف تيمارلي سباهي وآقينجب وفقد الإنكشاريون طاقتهم القتالية . إن الجنود المتطوعين ، هم المسلحون الذين يتقدمون للخدمة بالأجرة في حرب واحدة . كانوا يتجمعون حول شخص من الأشراف يسمى « بكباشي » وينخرطون في سلك الجيش (**377, 7, d'Ohsson**) . وعندما سنّت التنظيمات قانون التجنيد الإجباري ، زال نظام التطوع .

توجد أصناف أخرى كذلك : **فوينوكلر** ، جنود غير محاربين من المسيحيين البلغار ، يؤخذون كسوّاس خيل .

مورتولوسلر ودربند جيلر ، استخدموا في أماكن كحماية الممرات الجبلية .

مشعلة جيلر ، صنف مهمته إضاءة طريق الجيش أثناء المسيرات الليلية ويشكله العرب

لسوريون وعلى رأسهم ضابط برتبة عقيد .

ياساقجيلر ، هم جنود انضباط (هامر ، 218, 6) .

بوزانجيلر ، هو الصنف الذي يصيح بصوت عال لكسر الروح المعنوية للعدو (نشري ، 300) .

21 – جنود مصر :

لا يوجد في مصر تيمارلي سباهي ، بسبب عدم وجود تشكيلات التيمار . لا يرغب المصريون في العسكرية ، ولم يقبلوا عليها برغبة زائدة في عهد الأيوبيين والمماليك . احتفظت الحكومة العثمانية بقسم من جنود المماليك الموجودين في مصر ، لكنها أرسلت إلي مصر جنودًا من إستانبول كذلك . من النادر تكليف مماليك مصر بواجب خارج مصر وإلي الجبهات . وفي عام 1675 كان في مصر 20 045 جنديًا أرسلوا من إستانبول ، أكثرهم في القاهرة عدا جنود المماليك (أولياء ، 10 ,146 - 7) . جنود البحرية المتمركزين في أميرالايات الإسكندرية ، سويس ، رشيد ، دمياط خارج هذا الرقم .

وكان هناك كذلك جنود مشاة بريون في إيالات الجزائر ، تونس وطرابلس (ليبيا) بالإضافة إلي جنود البحرية ، أهمها حاميات الإنكشارية . كان يوجد صنف مدفعية القلاع والأصناف الأخري كذلك . هؤلاء كانوا من الذين نزحوا من الأناضول وأحيانًا من روملي . كان العرب المحليون البرابرة ومهاجرو الأندلس يتطوّعون في السلك العسكري ، لكنهم يتفرقون بعد انتهاء الحرب .

22 – جنود قرم :

كان جنود قرم ، يشكلون قوة مهمة في الجيش العثماني . كان جيشًا مكونًا من 100 ألف إلي 200 ألف خيّال . ليست لديهم خبرة بتعبئة الوحدات الكبيرة . ولم يكونوا مدربين كجنود العثمانية ، لكنهم كانوا خيّالة ومحاربين بالفطرة . لا يملكون مدفعية . كانوا يسيرون تساندهم المدفعية العثمانية . كانوا يظهرون كجيش قليل التنظيم ، ضمن الجيش العثماني الشديد التنظيم بشكل هائل . فقدوا في العصر الأخير إمكاناتهم الحربية بالتدريج

ولم يتمكنوا من مسايرة العصر الحديث أبدًا . وقد شكلت كذلك وحدات خيّالة من المتطوعين الجراكسة .

23 ـ جنود الدول التابعة :

كان باستطاعة إمارة المجر Erdel (ترانسيلفانيا) تجنيد 50 ألف شخص على أكثر تقدير . من النادر أن يصلوا إلى هذا العدد ، ويندر كذلك أن تتمكن الإمارات الرومانية أفلاق (رومانيا) وبغدان (مولدافيا) من أن تجندا معًا 25 ألف شخص ؛ لكنهم اشتركوا مع العثمانية في حروبها مع أوروبا بأعداد تتراوح بين 10 و 15 ألف جندي على أكثر تقدير . جرت حروب أخذ فيها عدة آلاف من جنود الإمارات الكرجية . لم تستخدم جنود الدول التابعة تقريبًا بعد العصر 17 .

24 ـ جنود النظام الجديد :

بدأ التعليم والتدريب على النمط الأوروبي في الجيش العثماني ، في قسم همبرة جي (القنابل اليدوية) في دور لالة (1728) . فتحت مهندس خانة (الهندسة العسكرية) ، في هذا الدور كذلك وشرع بتدريس الضباط دروس الاستحكامات والمدفعية بالمعلومات الأوروبية . ثم صارت هذه المؤسسة بعد ذلك ، جامعة تكنولوجية عسكرية بالمعنى الصحيح وسميت مهند سخانه بريء همايون (مدرسة الهندسة البرية العسكرية الإمبراطورية) . وبعدها في 1791 ، بدأ سليم الثالث في تأسيس جيش النظام الجديد وخرّج ضباط خيالة وضباط مشاة مزودين بالعلوم الحديثة . أسس جيشًا حديثًا مهمًا ، هو الجيش الحديث الأول من نوعه على الطراز الأوروبي بين أقطار العالم عدا أوروبا . ألغي في 1807 . جُدد تشكيله عام 1808 باسم سكبان جديد . وفي السنة التالية ، ألغي بشكل تام في حادثة علمدار . سبب الانكشاريون حتى 1826 دخول الدولة العثمانية في فترة رجعية تامّة . شكل محمود الثاني الذي ألغى حاميات قابوقولو في 1826 جيشًا باسم عساكر منصوره محمّدية وبعد فترة وجيزة ، سمي هؤلاء « عساكر شاهانه » و « أوردوي عثماني (الجيش العثماني) »، « أوردوي همايون » . شُكل جيش حديث وأخذت مدرسة الحربية في تخريج ضباط المشاة والخيالة . كان توفيقًا كبيرًا جنيت ثمرته بسرعة . ولكن يجب نسيان فترة تجربة النظام الجديد الطويلة . وبفضل تلك التجربة ، وأمكن التحرك بشكل منتظم

وأساسي إلى هذه الدرجة .

25 – الجيش الإمبراطوري التركي الحديث :

نجح الجيش الحديث الذي أسس في 1826 في ظروف تخلّلتها المشقات ، اليأس ، كوارث الحرب الروسيّة ، وقد كان البادشاه يحضر التدريب بنفسه ، وتطور حتى 1839 ، وأصبح أحد جيوش العالم المعتبرة المعدودة . ترك السياسة بشكل تام . وأساسًا فإن السلاطين لم يستخدموا الجيش لسياساتهم الشخصية في أي وقت من الأوقات ، طيلة التاريخ العثماني من أوله إلى آخره . إن الذي زج الجيش في السياسة ، هو ضباطه وقواده . حدث ذلك في 1876 . عزل عبد الحميد الثاني ــ بتدابير متعدّدة جدًا ، الجيش عن السياسة . ولكن في 1908 ، انغمس ــ وبالأصح أركانه وضباطه في السياسة إلى رقابهم . ولم يعد يستطيع بعدها الخروج من السياسة . وانهارت الإمبراطورية . وبتأسيس تشكيلات الجندرمة (الدرك) والضبطية (الشرطة) ، خفت أعباء الجيش . أسست كل المدارس العسكرية .

أنشأ محمود الثاني مقام سرعسكر بعد الواقعة الخيرية فورًا . سرعسكر ، هو رئيس الجيش العثماني . هو في الوقت نفسه وزير دفاع وكذلك رئيس أركان الجيش . وفي الوقت نفسه هو قائد القوات البرية كذلك ؛ بفارق واحد ، هو أن الأسطول والقوات البحرية ، لا تدخل ضمن صلاحياته . سرعسكر ، ناظر وعضو في الوزارة وفي تشريفات الوزارة ، غالبًا يلي الصدر الأعظم وشيخ الإسلام . عسكري يحمل رتبة مشير (ماريشال) . يشترك في الوزارة بلباسه الرسمي . هو وكيل القائد العام الذي هو البادشاه ، المسئول عن رعاية شئون الجيش ، هو القائد العام الفعلي . لكن لقبه يصبح أثناء القتال « سردار أكرم » (قائد أعلي) وبعد المشروطية (1908) « وكيل القائد العام » بازدياد صلاحياته . تغير اسم سر عسكر ، بعد المشروطية (1908) إلى « ناظر الحربية » .

ضرب رضا باشا الذي يسمي « جهان سر عسكر » الرقم القياسي لشغله هذا المقام لـ 8 مرات (خلال 1843 - 1876 مجموعها 5 . 10 سنوات) . أما خسرو باشا الذي

صار صدرًا أعظم كذلك ، فقد بقي في هذا المقام 10 سنوات ، شهرين (1827 - 1836 +1846 - 1854) . أما محمد رضا باشا فهو السرعسكر الأخير الذي ضرب الرقم القياسي ببقائه 16 سنة و 10 أشهر و 18 يومًا (5 / 9 / 1891 – 23 / 7 / 1908) . شغل غازي عثمان باشا الشهير مقام سر عسكر 3 دفعات مجموعها 6 سنوات ، 4 أشهر (خلال 1878 – 1885) . وشغل أنور باشا نظارة الحربية مدة 4 سنوات ، 9 أشهر ، 12 يومًا (3 / 1 / 1914 – 14 / 10 / 1918) لم يكن نظّار الحربية مشيرين فبينهم من كان برتبة فريق أول ، فريق وحتى لواء .

إن « أركان حربية عمومية رئيسي » لا يعادل حاليًا رئيس أركان الجيش . هو رئيس أركان السرعسكر أو ناظر الحربية . رتبته مشير ، فريق أول أو فريق . تشكلت القيادة العامةللجندرمة (الدرك) في 1877 . رتبته فريق أو لواء . شكّلت نظارة أو مشيرية الضبطية (الشرطة) في 1846 . اشترك في الوزارة في بعض العهود . هو من الموظفين الذين يطلق عليهم اسم « ناظر » مع أنه خارج الوزارة على الأغلب . عين لهذا المنصب المشيرون والفرقاء ولكن غالبًا ، عين أحد متخرجي المدارس الملكية بدرجة وزير .

أسست مشيرية الطوبخانة العامرة في 1826 . ثم ألحقت بهذه النظارة ، المدفعية ، بالاستحكامات ، القلاع ، المعامل العسكرية ومن ثم المدارس العسكرية . كان مشير الطوبخانة ، ناظرًا وعضوًا في الوزارة . كان عضوًا عسكريًا ثالثًا في الوزارة ، بعد سرعسكر وقبودان دريا (ناظر البحرية) . رتبته مشير ونادرًا (1826 - 1832 + 1844 - 1873 + 1872 - 1876) فريق. ضرب مصطفى زكي باشا الرقم القياسى ببقائة في هذا المنصب 16 سنة و 10 أشهر و 24 يومًا (30 / 8 / 1891 — 23 / 7 / 1908) . هو آخر مشير للطوبخانة . ألغيت هذه المشيرية في 1908 وألحقت بنظارة الحربية . شغل أحمد فتحي باشا هذا المنصب مرتين مجموعهما 11 سنة ، 10 أشهر (1845 - 52 + 1853 - 57) .

آخر ناظر للضبطية ، هو الوزير شفيق باشا ، وضرب رقمًا قياسيًا في بقائه في هذا المقام مدة 11 سنة ، 8 أشهر ، 19 يومًا (4 / 11 / 1896 – 23 / 7 / 1908) . أدمجت هذه النظارة بعد ذلك في وزارة الداخلية باسم « مديرية الأمن العامة » .

أسست مدرسة « مكتب حربية شاهانه » في 1834 ومكتب أركان حربية شاهانه في 1848 . كلتاهما بقيادة شخص واحد برتبة فريق . انفصلت المدرستان العسكريتان

عن بعضهما في 1909 . فتحت لفترة من الزمن في أدرنة وفي مدينة أو مدينتين ، مدارس حربية أخرى . أما المدارس العسكرية المتوسطة والثانوية ، فكانت موجودة في مدن عديدة من الإمبراطورية أشهرها في المضيق في إستانبول المسماة كوله لي .

كان الجيش العثماني ، يعتبر الجيش الثالث بين جيوش العالم بعد فرنسا وروسيا حتى 1871 . وكان الرابع بعد ألمانيا ، روسيا وفرنسا حتى 1877 . كان يضم 700 ألف جندي تحت السلاح وأسلحته حديثة . تعذر الحفاظ على هذا المستوى بعد هزيمة 93 ، ومع ذلك فقد أمكن الحفاظ على جيش تفوق قوته ، قوة مجموع الدول البلقانية ، وله اعتبار بين جيوش الدول الكبرى . كان لدى العثمانية عام 1908 ، حوالي 405 آلاف (535 ألفًا مع قوات الدرك وقوات حميدية المليشية) جندي تحت السلاح ، وكانت الخامسة في عدد الجنود بين جيوش العالم (روسيا 000 260 1 ، ألمانيا 610 آلاف ، فرنسا 575 ألفًا ، انجلترا 450 ألفًا ، النمسا – المجر 380 ألفًا ، إيطاليا 280 ألفًا ، أمريكا 190 ألفًا ، اليابان 175 ألفا ، أسبانيا 130 ألفًا) عدد جيوش الدول البلقانية في هذا التاريخ كانت عبارة عن ، 70 ألف رومانيا + 36 ألف قرة داغ + 30 ألف صربي + 20 ألف من اليونان . وفي عام 1908 نفسه ، كانت ميزانية القوات البرية العثمانية 7 ملايين ليرة ذهبية وكانت العاشرة بين دول العالم (روسيا 5 . 73 ، ألمانيا 44 ، فرنسا 34 ، أمريكا 31 ، النمسا 5 , 16 ، إيطاليا 14 ، اليابان 25 , 11 ، أسبانيا 25 , 7 ، السويد 5 , 3 ، هولندا 3 ملايين ليرة ذهبية) . وميزانية القوات البرية لدول البلقان ؛ رومانيا 2 + صربيا 1 + اليونان 75 , – مليون ليرة ذهبية ، ميزانية قره داغ ، كانت ليست ذات أهمية وكانت اليونان فقط هي التي تملك قوة بحرية .

كانت ميزانية القوات البرية العثمانية عام 1876 ، 10 ملايين ليرة ذهبية ، وكانت ميزانية جيوش الدول الأوروبية حينذاك مقارنة لذلك ، ولم يكن هناك فرق كبير .

جيش التنظيمات ، كان مقسمًا إلى 7 وحدات كبيرة كل منها تسمى « جيش » (بالفرنسية Armèe ، بالإنجليزية army) . ومراكز هذه الجيوش حسب تسلسل أرقامها إستانبول ، أدرنة ، مناسطر (نقل بعد ذلك إلى سلانيك) ، لرزنجان ، شام ، بغداد وصنعاء . أما الفرقة الموجودة في مكة (وهي واحدة) والفرقة الأخرى الموجودة

في طرابلس الغرب ، فلم تكونا تابعتين لأي جيش ، وكانتا مرتبطتين كالجيوش بإستانبول (Almanach de Gothe ، 1909 ، ص 1136 ، 1145 - 6) . كانت رتب قواد الجيش مشيرًا أو فريقًا أول أو فريقًا . وقد شوهد بعد المشورطية ، قواد جيش برتبة لواء .

كانت العسكرية إجبارية بموجب قوانين 1880 ,1888 و 1904 (المشاة والبحرية 3 سنوات ، الخيالة والمدفعية 4 سنوات) يسرّح خلال 3 أشهر الذين يسدّدون بدلاً نقديًا يبلغ 50 ليرة ذهبية . لا يوجد نظام ضباط احتياط كانت المدة حتى 6 سنوات بعد التسريح ، تشكل « الاحتياط » و 9 سنوات بعدها « رديف » وسنتين بعدها تشكل « مستحفظ » . إن الأصناف المذكورة ، كانت تدعى للعسكرية وقت النفير العام بموجب هذا التسلسل . لا يدعى إلى العسكرية في الحرب من أمضى 17 عامًا على تسريحه (لم تطبق هذه القاعدة في الحرب العالمية الأولى) كان المجند تحت السلاح يسمى « نظامية عسكري » (جندي نظامي) . كانت الدولة تجند وتدرب سنويًا 70 ألف شخص على أقل تقدير . والراغبون منهم يمكنهم ترك تذكرة التسريح . أي أن الجندي الذي يرغب في الاستمرار في العسكرية ، كان بإمكانه البقاء في الجيش . وبسبب تطبيق نظام ضباط الاحتياط (بالعثمانية احتياط ضابطليكي) لأول مرة عام 1914 ، لم يكن المثقفون والموظفون يطبقون العسكرية ، كان كل الضباط ، نظاميين ، قل جدًا في هذا الدور عدد « آلايلي ضابط » أي الضابط الذي لم يتخرج من الحربية أو ما يعادلها من المدارس وتدرّج في وحدته ، لكن بعضهم كان كثير التجربة .

وكانت القوات البرية كذلك ، مقسمة بنفس النظام ، إلى 7 جيوش . وفي الحقيقة فإن هذه الجيوش كانت وقت الصلح على شكل فيالق نظامية . كان يضاف وقت النفير ، إلى كل جيش من هذه الجيوش فيلقان من الرديف وفرقة من المستحفظ . وهكذا كان كل الجيش قد خطط على شكل 3 فيالق + 1 فرقة . كل فيلق نظامي ، كان يتكون من 4 فرق . وبذلك يكون الجيش الواحد وقت الحرب = 4 نظامية + 11 رديفًا + فرقة مشتحفظ = 16 فرقة × 7 = 112 فرقة مستقلة = 114 فرقة ، تشكل جيشًا عثمانيًا . إن هذه الفرق الـ 114 ، هي فرق مشاة . وفرق الخيالة ليست ضمن هذا العدد . إلا إن ألوية وكتائب الخيالة ، ألوية وكتائب المدفعية ، ألوية وكتائب

الاستحكام الموجودة في الجيش ، الفيالق والفرق ، كانت تدخل ضمن هذا العدد . لكنه في 1904 ، تم تأسيس 5 فرق نظامية إضافية . وبناء علي ذلك يكون تشكيل الجيش في النفير العام التام 7 جيوش ، 21 فيلقًا ، 117 فرقة ؛ وفي السلم 7 جيوش و 35 فرقة نظامية .

كانت فرقة المشاة الواحدة = 4 كتائب ذات 4 سرايا+ سرية قناصة واحدة + وحدات المدفعية ، الاستحكامات إلخ .. كانت فرقة المشاة الواحدة = 17 سرية و الكتائب الأربع الموجودة في فرقة مشاة واحدة ، قد نظمت علي شكل لواءين منفصلين ؛ أي أن كل فرقة ، تتكون من لواءين والوحدات التابعة . مثلاً ، فرقة الحجاز المستقلة المتمركزة في مكة ، كانت على هذا الترتيب : 17 سرية مشاه + سريتا مدفعية جبلية + 3 سرايا مدفعية قلاع + وحدات درك خيالة . والفرقة المستقلة المتمركزة في طرابلس الغرب ، 17سرية مشاة + كتيبة مدفعية واحدة ذات 4 سرايا + لواء خيالة واحد (كل واحد منه يتكون من كتيبتين كل منهما ذات 10 فصائل) .

كانت فرق الخيالة القليلة العدد ، تتكون من 3 ألوية . وعلي هذا الأساس تكون فرقة الخيالة الواحدة = 6 كتائب خيالة . وفي 1903 ، خصص للفيلق الواحد ، كتيبة خيالة إضافية واحدة ، ولفيلق آخر كتيبتا خيالة إضافية . وهكذا ارتفع عدد الكتائب في بعض فرق الخيالة إلي 7 .

كتيبة مشاة واحدة ، كانت تتشكل من 10 وبعضها من 13 فصيلة ؛ أما كتيبة الخيالة الواحدة ، فكانت تتشكل من 5 فصائل . كتيبة المدفعية الواحدة ، كانت ذات 3 وبعضها 4 أو سريتين . وكل سرية تحتوي على 3 بطاريات (فصيلة مدفعية) . وعلي هذا الأساس ، تحتوي كتيبة المدفعية الواحدة على 10 ، لكن بعضًا يحتوي على 13 أو 7 بطاريات . إذا اجتمعت كتيبتا مدفعية تشكلان لواء مدفعيًا واحدًا . كل جيش له لواء مدفعي يحتوي على 20 بطارية . وإضافة إلي ذلك ، كان هناك 10 ألوية مدفعية على هذا الشكل . وكذلك كانت قد خصصت كتيبة هاون واحدة إلي كل من الفيلقين الثاني والثالث . كتيبة الهاون الواحدة ، كانت تحتوي على فصيلتين و 6 بطاريات .

أما وحدات الاستحكام ، فكانت قد خصّصت سرية استحكام واحدة لكل جيش .

ومن ناحية أخرى ، كانت توجد كتائب وسرايا استحكام مرتبطة بمشيرية طوبخانة . توجه في حالة الحرب لخدمة الجيوش حسبما تقتضيه الحاجة .

كان لكل جيش ، سرية واحدة أو سريتا نقل وفصيلتا لاسلكي – تلفون . كان للجيش الخامس سريتا نقل إضافيتان (أي 4 فصائل) . وتوجد كذلك 5 سرايا إطفاء .

كانت السرية الواحدة وقت السلم تضم من 400 إلى 600 جندي . وفي وقت السلم أيضًا ، كانت فصيلة الخيّالة الواحدة ، تتشكل من 60 إلى 120 حصانًا . كان المشاة يحملون بنادق ماوزر Mauser من عيار 65 , 7 و 5 , 9 ملم ذات 5 و 9 خراطيش . كان لدى الخيال عدا سيفه ، بندقيته القصيرة ، مسدسه ، بعضهم كان يحمل الرمح .

كانت المدفعية مقسمة إلى 15 لواء . تحتوي الـ 15 لواء هذه ، على 35 كتيبة مدفعية . كلها كانت 271 بطارية . كل بطارية تحتوي على 6 مدافع ، سواء في السلم أو في الحرب . وهكذا تتشكل المدفعية من 626 1 مدفعًا سيّارًا . كان توزيع الـ 271 بطارية ، على هذا الشكل : الجيش الأول 39 ، الجيش الثاني 58 ، الجيش الثالث 77 ، الجيش الرابع 39 ، الجيش الخامس 26 ، الجيش السادس 17 ، الجيش السابع 7 ، فرقة طرابلس 6 ، فرقة حجاز بطاريتان . وعدا هذا ، مدفعية القلاع 146 بطارية ؛ 79 بطارية منها تابعة لأمر مشيرية طوبخانة وليس لأمر السرعسكرية . هذه البطاريات ، كانت تحتوي على 678 مدفعًا . إذن . فإن القوات البرية العثمانية كان لديها 1626 مدفعًا سيّارًا + 876 مدفعًا ثابتًا وجمعها 2502 مدفع . أعطيت 24 بطارية من بطاريات القلاع الثابتة لاستخدام الجيش الأول ، 11 للجيش الثالث ، 23 للجيش الرابع ، 3 للجيش الخامس ، 3 للجيش السابع و 3 بطاريات أعطيت لأمر جيش الحجاز .

كان الجيش الأول يحتوي على 5 سرايا من جنود الاستحكام ، الثاني 2 ، الثالث سرية ، والرابع سرية والجيش الخامس يحتوي على فصيلة واحدة من جنود الاستحكام ، السادس 1 ، السابع 1 . ومن جهة أخري ، كانت هناك 63 فصيلة صناع على شكل لواء تابع لأمر مشيرية طوبخانة . كان يدرّب ويخرّج عمالاً متخصصين ورؤساء عمل مهرة .

قوات الدرك (الجندرمة) كانت = 544 فصيلة مشاة + 200 فصيلة خيّالة . كان الجيش يحتوي علي 519 سرية مشاة . وفي 1908 ، كان الجيش يحتوي علي 410 آلاف جندي نظامي و 50 ألف درك تحت السلاح . ويجب إضافة مجموع أفراد كتائب حميدية إلي هذه الأرقام .

كتائب حميدية كانت كما يلي : كتائب خيّالة خفيفة يشكلها في الأناضول الشرقية ، المتطوعون الأكراد ، وفي ليبيا العرب البرابرة . شكّلت في الأناضول الشرقية لمجابهة حركات العصيان الأرمنية ، وفي ليبيا تجاه احتمال سيطرة الإيطاليين . ورغم أن انكلترا وفرنسا استعملتا في ذلك العهد هذا النوع من الجند ، وبسبب تشكيل الدول الإمبريالية قوات ميليشية من هذا الطراز ، فقد تألّبت على عبد الحميد الثاني بشدة . ضباط هذه الكتائب من الأشراف المحليين أو أبنائهم . يجوز ترفيعهم إلي رتبة عقيد . رتبهم كانت معتبرة داخل كتائبهم فقط . شكل في ليبيا الضباط العثمانيون 17 كتيبة مشاة على النمط نفسه و 6 كتائب خفيفة التي يشكل مجموعها 30 فصيلة خيّالة . إن هذه الوحدات قد أذاقت الإيطاليين الأمرّين حتي عام 1930 .

كان بإمكان الإمبراطورية أن تعبيء في أوقات النفير العام 1 683000 جندي برّي ، لكن 123 ألفًا من هؤلاء لم يكونوا مدربين تدريبًا عسكريًا نظاميًا (40 ألف متطوع حميدية كردي ، 40 ألف متطوع ألباني ، 3 000 لبناني) . لم تحتسب القوات المصرية ضمن هذا العدد . إذ كان من المشكوك فيه ، في حالة نشوب حرب أن تتمكن مصر من التخلص من انكلترا والانضمام إلي جيش الإمبراطورية . كان الجيش المصري في 1908 يحوي 709 ضباط ، و 123 ضابطًا إنجليزيًا مستخدمًا بأجرة ، 381 18 جنديًا ، 207 ضابط شرطة ، 127 3 شرطيًا ، 153 ضابط درك ، 697 1 درك . أكثرية الضباط المصريين من أصل تركي (أو ألبانيون مستتركون ، جراكسة ، أباضه) .

لا تدخل قوات الأمن التركية ، ضمن الأرقام الملونة أعلاه .

وبعد المشروطية ، كانت تشكيلات القوات البرية 40 فرقة نظامية وقت الحرب 58 فرقة مشاة رديف = 118 فرقة . كانت مراكز 14 فيلقًا في 1911 كما يلي : 1 استانبول ، 2 تكرداغ ، 3 قرقلارايلي ، 4 أدرنة ، 5 سلانيك ، 6 مناسطـر ،

7 اسكب ، 8 شام ، 9 أرضروم ، 10 آرزنجان ، 11 وان ، 12 موصل ، 13 بغداد ، 14 صنعاء . وعدا ذلك ، فرقة مستقلة في مكة وأخري في صنعاء . كانت رتب قواد الفيالق ، فريقًا أو لواء .

أشهر المدارس العسكرية هي : في إستانبول ، مكتب حربية شاهانه (المدرسة الحربية) ، مكتب أركان حربية شاهانه (الأكاديمية الحربية) ، مكتب طبية عسكرية شاهانه ، مكتب بيطرية عسكرية ، مدرسة المدفعية ، مدرسة الرمي للمشاة ، مدرسة الضباط الاحتياط ، مدرسة الضباط الصغار (ضباط الصف) ، الإعدادي العسكري (كوله لي) ، مدرسة ضباط الصف الابتدائية ؛ مدرسة الفروسية ، مدرسة الخيّالة لضباط الصف ، مدرسة اللّوازم ، مدرسة الدائرة الحربية ، الرشدية العسكرية . خارج استانبول : مدرسة الضباط الصغار في كل من أدرنة ، سلانيك ، بيروت ، أرزنجان ، بغداد ، شام ، مناسطر ، طرابلس الغرب ؛ مدارس عسكرية متوسطة في 22 مدينة (أدرنة ، أرزنجان ، أرضروم ، بورصه ، طرابزون ، دياربكر ، قسطموني ، قونيه ، وان ، معمورة العزيز ، بتليس ، سيواس ؛ مناسطر ، اسكب ، سلانيك ، اشكودرا سليمانية ، بغداد ، شام ، حلب ، صنعاء ، طائف) .

القـوة البحـرية

1 – قبل العثمانية :

الجيش التركي هو من أقدم جيوش العالم التقليدية ، إذ يرجع تاريخه إلى 3 000 سنة ، ويحتمل أنه أقدمها . ولكن هذا القول لا ينسحب على القوة البحرية .

لم تشكل قوة بحرية تركية ، لحين قدوم الأتراك إلى الأناضول في نهاية العصر 11 . أما بالنسبة للمسلمين العرب ، فكانوا يملكون في القرون الوسطى قوات بحرية ذات قدرة كبيرة . وعندما استوطن الأتراك في الأناضول كوطن أم ثان لهم ، انتقلوا إلي جغرافية مختلفة ؛ كان مناخ الأناضول بالنسبة لوطنهم الأم السابق ، أكثر حرارة ، وأكثر اعتدالاً . كانت أراضيه أصغر جدًا من وطنهم القديم . ويختلف تمامًا عن وطنهم الأم السابق لكونه شبه جزيرة محاطة من جهاتها الثلاث بالبحر . ثم فتح الله عليهم بيزنطة ، والبيزنط ، كانوا يملكون أعظم أسطول في العصر 11 . وعلي ذلك ، فإنهم إن كانوا عازمين علي البقاء في هذه الأراضي – وكانوا مصمّمين على ذلك – فإنه يتحتم عليهم أن يمتلكوا قوّة بحرية .

أسسوا قوتهم البحرية بسرعة كبيرة وبقدرة فائقة . واتخذوا البحرية البيزنطية وخاصة الإيطالية قدوة لهم . لم يهتموا ببحرية المسلمين العرب التي كانت تسيطر علي البحر الأبيض والمحيط الهندي (التي كانت تشمل الأسطول الحربي والتجارة البحرية معًا) . و لم تتمكن أية دولة تركية أخرى عدا الدولة التركية ، تركية السلجوقية وتركية العثمانية من تأسيس قوة بحرية . وبناء على ذلك ، فإن تاريخ البحرية التركية ، عبارة عن 900 سنة .

أسّس جابك بك ، في أزمير الأسطول السلجوقي في السنوات الأخيرة من العصر 11 . وقهر الأسطول البيزنطي . لكن سرعان ما جهزت الحملة الصليبية الأولي . أزيح

الأتراك من كافة السواحل الأناضولية والبحار . شهدت الدولة التركية وجه البحار مجددًا ، مع بداية العصر 13 . الحقيقة أنها لم تتمكن من الوصول إلى مرمرة وإيجه كالسابق ، لكنها توصلت إلى البحرين الأسود والأبيض وأخذت في توسيع سواحلها ، واضطرت إلى تأسيس أسطولين أحدهما في سينوب على البحر الأسود وفي علائيه في أنطاليا على البحر الأبيض . وحتى قرم ، فتحها علاء الدين كيكباد بواسطة أسطول البحر الأسود .

لم يدم الأسطول الثاني هذا طويلاً . إذ تعرضت تركيا للاجتياح المغولي . ضعفت جدًا قوتها البحرية . لم يهتم المغول بالأسطول أبدًا . لكن أمراء (بك) المقاطعات الحدودية (أوج) التركمانيين الذين عينهم السجوقيون في الأناضول الغربية تجاه البيزنطيين في السنوات الأخيرة من العصر 13 ؛ تمكنوا من الوصول إلى بحر إيجه ، وحتى مرمره استولوا من البيزنطيين على كافة سواحل بحر إيجه . أسست الإمارات التركمانية التي أصبح لها ساحل في إيجه ، أسطولها ، هو الأسطول الثالث لتركية . إن هذه الإمارات (بكلك) من الشمال إلى الجنوب كاراسي ، ساروهان ، آيدن ومنتشه . كان أقوى هذه الأساطيل أسطول آيدن ثم منتشه . سيطر آيدن أوغلو أومور بك ، بعد جاكابك بعصرين – عصرين ونصف على بحر إيجه بصفة أميرال كبير . حقق إنزالات كثيرة على اليونان ، مكدونيا ، الجزر . استشهد أمام قلعة ازمير تجاه فرسان الصليبيين (1348) . وخلال السنوات التي استشهد فيها ، كان بنو عثمان قد فتحوا إمارة كاراسي ووصلوا إلى مرمرة ، إيجه ، بوغاز جنا قلعة . واغتنموا أسطول كاراسي وبحارة هذا الأسطول . وبفضل أسطول كهذا ، بدأ عثمان أوغلو سليمان باشا بفتح روملي (1354) . ثم ضم ييلدرم بيازيد بحملة واحدة كلا من إمارات ساروهان ، آيدن ومنتشه (1390) ، وانتقلت أساطيلها جميعًا إلى العثمانية .

2 ـ تشكيل القوة البحرية العثمانية :

أصبحت البحرية العثمانية اعتبارًا من 1390 قوة بحرية لا يستهان بها . إن حادثة انقره 1402 عرقلت تطور هذا الأسطول . تأثر محمد الفاتح عند اعتلائه العرش (1451)

لعدم إحراز بحريته الأولوية في العالم كما أحرزها جيشه . ضحى بالكثير في سبيل تأسيس بحرية تؤهله من وضع قواعد الدولة العالمية العظمى . كانت القوة البحرية التي لا منافس لها في العالم هي الأسطول البندقي . فاتح الذي تمكن قبيل 1470 من جعل قواته البحرية معادلة لقوات البنادقة ، ترك عرشه لابنه بيازيد الثاني (1481) بعد أن أوصل قوته البحرية إلى ضعفي قوة البنادقة قبل عام 1480 . صرف بيازيد الثاني جهودًا جبارة للمحافظة على مستوى الأسطول وتطويره . كان قورقودخان ، أحد أولاده يعشق البحر ، السفن والبحّارة ، كان يحميهم كثيرًا . صرف كامل جهده لتكوين صنف فدائيين (كوماندو بحري) . صار واليًا لمدة طويلة جدا على ولايات العثمانية الواقعة على إيجه والبحر الأبيض . بسط حمايته على الأخوة بربروس .

عني السلطان ياووز سليم (1512 - 1520) كثيرًا بالأسطول . أما السلطان سليمان القانوني (1520 - 1566) فقد اهتم للمرة الأولى والأخيرة في التاريخ العثماني ، بالأسطول اهتماما مساويا لاهتمامه بالجيش ، وفي بعض السنوات كان اهتمامه بالأسطول أكثر . وأصبحت القوة البحرية العثمانية تفوق مجموع القوات البحرية في العالم كما هي الحال في جيشها تمامًا .

تتابع ظهور العديد من أميرالات العثمانيين الأفذاذ . أولهم كال رئيس (وفاته 1511) . سار إلى غرب البحر الأبيض وإلى الأندلس . انتصر على البنادقة في أول حرب تركية في البحار المفتوحة في السنوات الأخيرة للقرن 15 (Sapienza = حرب جزيرة براق رئيس) .

أوروج رئيس (وفاته 1518) بدأ بفتح إفريقيا الشمالية من الأسبان وحال دون جعلهم المغرب كالأندلس أمريكا لاتينية .

سلمان رئيس (وفاته 1529) ، صار قائدًا بحريا لدولة المماليك ، كافح كثيرًا في البحار الهندية مع أميرالات عثمانيين قديرين في سبيل طرد البرتغاليين من المياه الإسلامية .

آيدن رئيس (وفاته 1535) الذي خدم في شبابه لدى المماليك ، احتل مكانته بين أقدر أميرالات الأخوة بربروس وحارب أسبانيا في غرب البحر الأبيض مع صديقه سنان رئيس .

بربروس خير الدين باشا (اسمه الأصلي : خضر رئيس) (وفاته 1546) أخو أوروج رئيس ، فتح كامل الجزائر وأصبح قبودان دريا (مشير البحر) للقوات البحرية العثمانية . أبناؤه بربروس – زادة حسن باشا الأول (وفاته 1549) و بربروس – زادة حسن باشا الثاني (وفاته 1572) سار على إثره ، وصار بكلر بك (أمير الأمراء برتبة فريق أول) على الجزائر لمدة طويلة .

محيي الدين بيري رئيس (وفاته 1555) – هو ابن أخي كمال رئيس – خدم كأميرال للإخوة بربروس في البحر الأبيض ، ومن ثم في بحار الهند وأصبح أشهر رسام خرائط جغرافية Cartography وجغرافي بحار في عصره .

قازداغلي (من أهالي جنا قلعة) صالح باشا (وفاته 1556) ، أصبح من الأميرالات المقربين جدًا للإخوة بربروس ، فتح فاس ، توفي عندما كان بكلر بك على الجزائر .

سيدي علي رئيس (وفاته 1563) اشتهر كذلك بكونه أميرالاً لبربروس ، جاب بحار الهند ، ولمع كعالم قدير جدا في الجغرافيا والعلوم الرياضية .

منتشلي طرغد باشا (وفاته 1566) ، تدرج على يد بربروس ، سيطر مدة طويلة على البحر الأبيض بصفة أميرال لصنف القراصنة واستشهد في مالطة .

داماد ايكينجي وزير بياله باشا (وفاته 1578) ، امّن السيطرة على البحر الأبيض لمدة طويلة جدًا بصفة (قبودان دريا) قائد القوات البحرية العثمانية .

قيليج علي باشا (وفاته 1587) . أعقبه كقائد للقوات البحرية .

رمضان باشا (وفاته 1589) ، فتح فاس وقضى على دولة البرتغال .

مراد رئيس (وفاته 1608) توفي في رودس كآخر عضو من سلالة الأميرالات الفاتحين .

ويجب أن نذكر ميزومورتا حسين باشا في أواخر العصر 17 وداماد كوجوك حسين باشا في السنوات الأخيرة للعصر 18 كحلقات أخيرة أفلتت من هذه السلسلة الذهبية .

لا يوجد في العصر 17 أميرالات أفذاذ ، ولا انتصارات بحرية كبيرة كالعصر الذي

سبقه . ما زالت البحرية العثمانية ، القوة البحرية الأولى في العالم ومسيطرة على البحر الأبيض . وفي النصف الأول من العصر 18 ، كانت كذلك . تكتسب البحرية الإنكليزية تفوقها الأكيد في كل البحار ، في النصف الثاني من العصر . حافظت البحرية العثمانية على كونها القوة البحرية الثالثة في العالم حتى 1878 بعد إنكلترا وفرنسا . ثم تدهورت بسرعة إلى المراتب المتأخرة . إذ إنها كانت محرومة من المصادر المالية التي تمكنها من مواجهة أعباء سياسة قوة بحرية عظمى .

غيّر ميزومورتا حسين باشا في أواخر العصر 17 أسطول المراكب التي تسير بالمجاديف ، إلى أسطول سفن شراعية . أسس سليم الثالث قوة بحرية جديدة تمامًا . أُحرق هذا الأسطول في نافارين عام 1826 . أسس محمود الثاني أسطولاً جديدًا . أما السفن المدرعة ، فقد أسسها السلطان عبد العزيز (1861 - 1876) .

3 – قبودان دريا (مشير البحر) :

كان يطلق في عهد السلاجقة ، على أميرال أسطول البحر الأسود « رئيس البحر » . كان مقره في سينوب ، أما أميرال أسطول البحر الأبيض المقيم في أنطالية ، فكان يسمى « أمير السواحل » ، وأحيانًا « ملك السواحل » كان العثمانيون يسمون قائد القوات البحرية باسم « قبودان دريا / قبدان دريا » ، (وبلغة الشعب قبطان باشا) .

لكنه لم يكن قائدًا للقوات البحرية. كان ناظرًا للبحرية وعضوًا في الديوان الهمايوني . وإضافة إلى ذلك ، كان واليًا بحريًا عامًا (بالفرنسية Gouverneur Moritime) على إيالة قبطان باشا المسماة جزائر بحر سفيد (جزر البحر الأبيض) . كانت هذه الإيالة ، إيالة متناثرة تشمل جزر بحر إيجه ، شبه جزيرة غاليبولي وعددًا كبيرًا من القواعد البحرية الموجودة في شرق ووسط البحر الأبيض التي تشكل ولايات بحرية . القبودان دريا ، ليس تابعًا للقوة البرية بأي شكل من الأشكال ، هو حر تمامًا . آمره المباشر ، هو الصدر الأعظم ،ثم البادشاه .

إلا أنه توجد قوات بحرية ليست تحت إشراف القبودان دريا ومرتبطة بالديوان وبالصدر الأعظم بصورة مباشرة . وهي الأساطيل الخفيفة الموجودة في الأنهار كالطونة ، الفرات ، النيل ، قبودانية (قيادة بحرية) الهند أو السويس التي تشرف

على المحيط الهندي والبحار المغلقة ، ولفترة من الزمن ، كانت قبودانية (بحر) الخزر ضمنها . قبودان دريا ؛ كان قائدًا للبحر الأبيض ، البحر الأسود وجميع البحار المغلقة والمحيط الأطلسي . أساطيل الإيالات البحرية ، الجزائر ، تونس ، طرابلس (ليبيا) ، كانت تحت إشراف بكلر بك الإيالة ، ولكن القبطان دريا ، له حق سحب تلك الأساطيل في الحروب الكبرى إلى البحار التي يرغب أن تسحب إليها . إذ إن تلك المناطق هي بحر أبيض كذلك .

شغل مقام قبودان دريا من تاريخ جلوس فاتح إلى الوقت الذي سمّي فيه القبودان دريا « بحرية ناظري » أي خلال 416 سنة ، وشهر ، 8 أيام (3 / 2 / 1451 - 13 / 3 / 1867) ، 159 أميرالاً وبعضهم شغل هذا المنصب مرات عديدة . يطلق على قبودان دريا الـ 6 الذين شغلوا هذا المقام خلال 1451 - 1463 لقب « بك » وهم برتبة لواء بحري (بحرية سنجق بكي) . والذي يليه فريق أول بحري (بكلر بك بحري)، واعتبارًا من العصر 17 ، كان أكثرهم وزراء بحرية برتبة أميرال كبير . ولم يكن عدد الصدور الأعظم الذين سبق أن شغلوا منصب قبودان دريا قليلاً . ورغم أن الصدر الأعظم داماد محمد علي باشا شغل هذا المنصب 6 مرات ، وداماد خليل رفعت باشا 4 مرات ، فإن الذين أكملوا مدة 10 سنوات في منصب قبودان دريا، هم :

الصدر الأعظم جزايرلي غازي حسن باشا 18 سنة ، وشهرًا واحدًا ، و19 يوما، (مصطفى الثالث ، عبد الحميد الأول ، وفي عهد سليم الثالث مرتين) ؛ قيليج علي باشا 15 سنة ، و 8 أشهر ، و 15 يومًا (سليم 2 ، مراد 3) ؛ الوزير الثاني داماد بياله باشا 14 سنة (القانوني ، سليم 2) ؛ بربروس خير الدين باشا 12 سنة ، وشهرين ، و 28 يومًا (القانوني) ؛ الصدر الأعظم داماد محمد علي باشا 12 سنة ، شهرا ويومين (6 دفعات ، عبد الحميد 1 وعبد العزيز 1) ؛ كوجوك داود باشا 12 سنة (دفعتين ، بيازيد 2) ؛ الصدر الأعظم قوجا محمد خسرو باشا 10 سنوات ، و 4 أشهر ، 12 يومًا (دفعتين ، محمود 2) .

أقام قبودان دريا في غاليبولي من 1354 إلى 15 / 5 / 1516 . وبعد 162 عامًا انتقل إلى قاسم باشا في إستانبول بأمر من ياووز . إن المنطقة الكبيرة المسماة قاسم باشا ،

كانت مليئة تقريبًا برجال البحرية . جميع تشكيلات القيادة البحرية ، ثكنات البحرية ، أكبر معمل ومصنع للسفن في العالم ، مخازن المصنع كلها كانت هناك . ظلّت نظارة البحرية كذلك فيها حتى 1922 .

4 ـ أميرالية السويس البحرية :

هو الأميرال الذي يسمى قبودان السويس أو قبودان الهند . هو لواء بحري مقره ميناء السويس . يتعاون مع الوزير بكلر بك مصر . لكن آمره ، ليس بكلر بك مصر ، وإنما هو الديوان والصدر الأعظم ، ولا يرتبط بالقبودان دريا (قائد القوات البحرية) ، إذ لم تكن قناة السويس قد فتحت بعد و لم يكن هناك منفذ إلى البحر الأبيض . لم تستعمل العثمانية أبدا طريق رأس الرجاء الصالح ، بسبب سيطرتها الكلية على البحر الأحمر كبحر داخلي ، حيث إنها في تلك الحالة ، تكون بعكس الأوروبيين ، قد أطالت طريق آسيا بشكل كبير . قبودان السويس كان واليًا على مدينة السويس ، كان الأسطول المرابط فيها وكذلك معمل المراكب ، تحت إشرافه . كان أعلى أميرال عثماني في البحر الأحمر ، خليج عدن ، بحر عمان ، خليج البصرة والمحيط الهندي . كان في هذه البحار ، مثلاً ، في البصرة ، في جدة ، في القطيف ، في عدن، أميرالات عثمانيون آخرون برتبة لواء ، لكن قبودان السويس ، كان آمرهم . عين ياووز عام 1517 . اول قبودان للسويس ، وهو سلمان رئيس ، قائد القوات البحرية للمماليك ، ولكنه كان في الأصل أميرالاً عثمانيًا .

كان قبودان السويس ، يرسل أساطيله حتى أندونيزيا في الشرق وموزمبيق في الجنوب . وهو مسئول كذلك عن مضيق باب المندب ، وصيانته مغلقًا . لا يمكن لأية سفينة لا تحمل الراية العثمانية أن تدخل البحر الأحمر . ولكنه لم يتسن تأسيس سيطرة مطلقة كهذه في خليج البصرة ؛ أولاً ، كان مضيق هرمز مفتوحًا جدًا بالنسبة إلى باب المندب ، وكان لا يمكن غلقه نظرًا لقوات ذلك العهد البحرية ، وثانيًا ، لم يكن خليج البصرة بحيرة عثمانية كالبحر الأحمر . جميع السواحل الشرقية للخليج كانت لدى إيران . لم تكن إيران تملك أسطولاً ، لكنها لم تكن تسمح للعثمانية ، بالاقتراب من سواحلها .

تيسّر هبوط العثمانية إلى المياه الهندية بفتح مصر 1517 . لم تكن للعثمانية ، قبل هذا التاريخ أي سواحل على خليج أو بحر تابع للمحيط الهندي . صرف فاتح جهودًا عظيمة لغلق البحر الأحمر وذلك ببقائه في 1517 مدة طويلة في القاهرة (الذين تسلّطوا على البحر الأحمر في ذلك التاريخ هم البرتغاليون) . هبط ابنه القانوني ، إلى خليج البصرة في 1534 ، لم يستطع غلق هذا الخليج .

هذا الوضع الذي لخصناه ، كان هو الوضع الرسمي . لكن الحقيقة ، أن العثمانية كانت قد نفذت إلى البحار الهندية قبل 1517 ؛ ذلك أنها كانت قد استولت بصورة فعلية على أسطولي إمبراطوريتين إسلاميتين كبيرتين ، هما سلطنة المماليك وكجرات . وبأمر بيازيد الثاني وبطلب من سلطان مصر ، أصبح سلمان رئيس قائدًا للقوات البحرية للماليك . جاء من الأناضول إلى مصر مع 2 000 لوند (بحارة)، وضباط مدفعية بحرية عثمانيين . كان بيازيد الثاني ، أبو ياووز قد وضع يده على البحرية المصرية بسياسة الحل السلمي ؛ لذا لم يبق أمامه سوي حل مسألة جيشها . أرسل سلمان رئيس ، أحد أميرالاته ، حامد رئيس ومعاونه حسن رئيس إلى شاهية كجرات دولة الهند العظمي . أسّس أميرالي العثمانية ، بدعوة من الشاه ، أسطولا في كجرات . ولم يكن أسطول كجرات فقط تحت إشراف الأتراك ، بل بقيت مدفعيته كذلك مدة طويلة تحت إشرافهم . وبناء على ذلك ، تكون العثمانية قد هبطت منذ زمن بعيد إلى بحر عمّان ، وبدأت بمناهضة البرتغال حول هذا البحر (ابن عياض ، 4 ,220 ,365 - 6) .

اجتاز الأميرال البرتغالي فاسكودي جاما من رأس الرجاء الصالح لأول مرة في التاريخ إلى المحيط الهندي . كان دليله ، مؤلف **كتاب الفوائد** للجغرافي البحري العربي المعروف ابن مجيد . رفع العلم العثماني ونزل في السواحل الشرقية من أفريقيا . أكرم أهالي أفريقيا الشرقية البرتغالي إكرامًا كبيرًا ، ظنًا منهم أنه أميرال البادشاه العثماني بيازيد الثاني . كان على سواحل موزمبيق وقتئذ ، سلاطين الشيرازيين العرب أصلاً الذين أعلنوا عام 1517 ولاءهم وتبعيتهم إلى ياووز . طلب فاسكودي جاما من السلطان الشيرازي ، شهاب الدين ابن مجيد النجدي واستصحبه معه إلى الهند .

أسس القانوني قيادة بحرية في اليمن وربطها بقيادة السويس . وأسس في جدة أميرالية

أخرى . أسّس كذلك لواءين بحريين في كل من البصرة والقطيف على خليج البصرة . وفي 1554 ، فصل منطقة نجد وجميع السواحل الغربية لخليج البصرة من إيالة البصرة وأسس إيالة لحساء (167, 2, Muhimme) . عيّن برتبة الباشوية لهذه الإيالة أمير لواء طرابزون بييقلي أوغلو مصطفى بك لمعرفته اللغة العربية بسبب ولايته على اليمن سابقًا ، وهو ابن فاتح دياربكر آق قويونلي بييقلي محمد باشا (بجوي ، 1 ,224).

وبناء على ما توافر لدي من الوثائق، فإن أول تركي اجتاز المحيط الأطلسي إلى المحيط الهندي ووصل البصرة عن طريق رأس الرجاء الصالح ، هو فائق أفندي الذي كان ملازمًا أول بحريًا في 1864 ، اسم سفينته بصرة ، قبل فتح قناة السويس بمدة قصيرة ، ثم أصبح بعد ذلك أميرالاً (1845 - 1909) . حقق ذلك بغرض إشباع هوايته وبأمر من السلطان عزيز الذي له هواية كبري بالبحار .

ذهبت الأساطيل العثمانية التي سارت إلى سومطرة وماليزيا مرات عديدة ، إلي سيام (تايلاند) كذلك . وفي عهد القانوني ، بعد اشتراك خير الدين رئيس ، في حملة الهند 1538 كأحد قواد سليمان باشا ، انفصل في ميناء ديف (Div) التابع لكجرات بأمر سليمان باشا (الذي صار صدرًا أعظم بعد ذلك) بغرض استكشاف خليج بنغال . واجتاز من مضيق بالك Palk إلي خليج بنغال . ورسا في ميناء تناسيريم . وعندما علم ملك سيام الموجود وقتئذ في Ayuthia ، بدخول سفينة عثمانية إلى مينائه ، دعا العقيد البحري العثماني لمقابلته . وأدخله في خدمته . بقي محمد رئيس 15 سنة في سيام . فتح في Ayuthia 7 جوامع ، وجلب رجال دين عربًا . وشكّل نواة الجالية الإسلامية التي يبلغ عددها حاليًا في سيام ، مليونين (**Peregrinacam,** Fernao Mendes Pinto ، لشبونه 1910 ، 3 ,37 ,4 ,161) . إن الإنجازات الأخرى للبحار التركي ، الذي كان يتقاضى من ملك سيام راتبًا قدره 12 ألف سكة ذهبية سنويًا ، لا بد وأنها مذكورة في المصادر السيامية .

والمعلوم أن إنجازات البحارة الأتراك ، تعدّت إلى الهند الجنوبية ، عدا إنجازاتهم في الهند الشمالية والوسطي ، وأن مهراجا مالابار ، اعترف رسميًا بخضوعه للبادشاه (جودت ، 158,3 - 9) . وفي 1780 ، كان حكام الهند الجنوبية لا يزالون يرسلون إلى

إستانبول رسائلهم التي تبين تبعيتهم للبادشاه .

وأعتقد أن البحارة العثمانيين وصلوا في الفترة الكلاسيكية إلى المحيط الهادي كذلك . ولمعرفة فعاليات تلك المناطق يجب تدقيق المصادر المحلية في جنوب – شرق آسيا . تبحث الوثائق العثمانية عن علاقة العثمانية بالفلبين في النصف الثاني من القرن 19 فقط . حقق خواجه بكر أفندي مخبر السلطان عزيز ، إنجازات واسعة في الفليبين ونجح في كسب جماعات كبيرة إلى الإسلام في الجنوب . حرّر عند عودته كتابه المسمي **سياحتنا مة فلبين** .

أما سلطنة آجة Ace التي تسيطر على سومطرة ، ماليزيا ، والجزر الواقعة بينها ، فقد شرعت بتلاوة الخطبة باسم البادشاه العثماني اعتبارًا من 1517 . دخل إلى هذه المنطقة عدد كبير من السفن ، البحارة والمدفعية العثمانية .

The Portugues in India, Danvers 1, 480 - 1 . **Topkapi Soroy Arsivi, 8009 - E -**

Portuguesin south Arabian, SerJeant, Coast, 119 .

كاتب جلبي ،جهانما ، 145 ، محمد ضياء ، **تاريخ آجي** ؛

A. J. S. reid Sixteenth Century Turkish influenee in western Indonesia, 1963

Sisteenth Century turkish Influenee in western Indonisia . كوالالومبور

كان سلاطين آجة يخاطبون السلطان سليمان بهذه الصفات « حامي الحرمين الشريفين ، خليفة الله في الأرض » يقول المؤرخ الإنكليزي ما يلي : « حصل سليمان العظيم ، في جنوب آسيا والشرق الأقصي بصفاته التي يتصف بها كخليفة للإسلام وأعظم حاكم في العالم ، على نفوذ عظيم ؛ كانت كلمة عثماني ، بالنسبة إلى شعب هذه المناطق ، أفخم كلمة » .

5 – أميرالية الدانوب (الطونة) :

قبودان الطونة ،برتبة لواء بحري (من النادر جدًا أن يكون برتبة فريق أول بحري) . مسئول عن المرور العسكري أو التجاري في نهر الطونة اعتبارًا من دلتا الطونة إلى استركون . كان تحت إشرافه قوة بحرية مهمة تسمي « إينجة دوناما » (الأسطول الطويل) وهي عبارة عن سفن شراعية وجدّافية وسفن مدرعة نهرية صغيرة تحمل مدافع شاهي . يتبع إداريًا الصدر الأعظم رأسًا ولا يتبع قائد القوة البحرية (قبودان دريًا) .

يشترك على الإطلاق في الحروب ضد ألمانيا ، وإضافة إلى ذلك ، ينقل إلى بودين (بودابست) العتاد ، الطعام وكل المهمات . كان الأسطول الطويل يحتوي على جنود بر مثل « آزابلر » (المشاة البحريين) والإنكشارية . مقر الأميرالية ، في ميناء Silistre النهري أما أكبر مصنع للمراكب لها ، في ميناء رسجك النهري . ينقسم إلى عمارتين بحريتين Commodore ، اقتسمتا بينهما الساحة الممتدة من الدلتا إلى فيدين ، ومن فيدين إلى بودين وما بعدها . وكانت أميرالية الطونه مسئولة كذلك عن إبقاء الطريق النهري للطونة مفتوحًا بصورة مستمرة وتطهير حوض النهر .

6 – أميرالية الفرات :

هي كأميرالية الطونة ، تشكيلاتها أصغر منها ، مسئولة عن المرور النهري من بيرة جك إلى البصرة . تنقل قسمًا من المهمات العسكرية إلى بغداد ، أكبر قلعة تجاه إيران . تزداد أهميتها خلال الحروب مع إيران . مقرها ميناء بيرة جك النهري الذي يحتوي على معمل كبير لتصليح وإنشاء السفن (ترسانة) . كان أسطول الفرات الطويل (فرات اينجة دوناماسي) عام 1565 ، مكونًا من 700 سفينة ، وكل سفينة تحتوي على 70 ملاحًا (49 ألف شخص) . كانت 200 من السفن في ميناء بغداد النهري أي على نهر دجلة . كان الأميرال يقيم في بيرة جك . وسميت كذلك « شط قبودانغلي » (أميرالية الشط أو قيادة الشط) . كان مسئولاً عن تنظيف حوض كلا النهرين . انتهت عملية تطهير حوض الفرات في 30 / 1 / 1702 وعمل فيها 40 ألف عامل . فقدت هذه الأميرالية ، ـــ التي ندر أن أعطي أميرالها مرتبة فريق أول بحري (بكلر بك) ، في القرن 18 ـــ أهميتها السابقة . آحد أسباب فقدان الأهمية هو انحطاط الدولة وترك الإيالات لحالها ، والسبب الآخر أنه لم تعد تحدث حروب مهمة مع إيران بعد 1750 . (600 .. 7 .. 164, 5. 259, 3, Muhimme)

7 – أميرالية الخزر :

أسسها في 27 / 8 / 1579 أوزدمير أوغلو عثمان باشا . كان مقرها في دربند

(بالتركية : دمير قابو ، بالعربية باب الأبواب) في داغستان على بحر الخزر . كان لها عمارة بحرية في ميناء باكو . أميرالها الأول محمد بك الذي جيء به من أميرالية آزاك (روستوف) والذي منحه اوزدمير أوغلو رتبة فريق أول بحري . انتهت هذه الأميرالية بسبب انتقال داغستان وشيروان من العثمانية إلى حيازة الصفويين ثانية وانقطاع علاقة الدولة ببحر الخزر .

8 – أميرالية كور (كورا) :

مقرها أردخان . يوجد فيها مصنع مراكب صغير ، باستطاعته إنتاج 4 أو 5 سفن حربية صغيرة في السنة (Muhimme 1579 ,37 ,380) . تراقب نهري كور (Kura) وآراس ، لها خدمات في الحروب مع إيران ومراقبة كرجستان . كان آمرها عقيد بحري .

9 – أميرالية فاشا :

قبودانية فاشا ، فاش أو Fas ، كان قائدها كذلك عقيدًا بحريًا ، أسسها قيليج علي باشا في 1579 ، كان مقرها في بوتي Poti (بالعثمانية : فاش ، فاشا) . كان لها مصنع مراكب صغير في باطوم . أسست هذه أيضًا لمراقبة كرجستان (Muhimme, 1579 ، 32 ,147 .33 ,219) .

10 – أميرالية النيل :

أسسها ياووز عند فتح مصر في 1517 . عين لقيادتها حميد أوغلو آيدن رئيس . كانت أميرالية درجتها لواء بحري تراقب السير النهري على النيل . مقرها القاهرة .

11 – الأميراليات (بدرجة لواء بحري) المرتبطة بالقائد العام للقوات البحرية (قبطان دريا) :

رغم أن الأميراليات بدرجة فريق أول بحري (تونس وطرابلس الغرب) ، لم تكونا تابعتين رأسًا إلى قائد القوات البحرية ، لكن قائد القوات له الصلاحية في حركات

البحر الأبيض الكبري ، فله أن يدعو هذه القطعات البحرية مع الأميرالين فريقي أول البحريّين لهما، الذين هما في نفس الوقت بكلر بك (ولاة) لتلك الايالتين . إن هذه الأميراليات الثلاث ، كانت مسئولة عن غرب البحر الأبيض . كان شرق البحر الأبيض ، البحر الأسود ، بحر إيجة مرمرة ، المضايق ووسط البحر الأبيض بصورة جزئية ضمن صلاحية ومسئولية القائد العام للقوات البحرية . كانت أهم الألوية البحرية (قائدها بدرجة لواء بحري) المرتبطة بالقائد العام للقوات البحرية والتابعة لإشرافه بصورة مباشرة هي : 3 ألوية بحرية في قاعدتي رشيد ودمياط البحريتين في الإسكندرية في مصر ؛ صيغلا (أزمير) ، رودس ، ساقيز ، ميديللي ، علائية (آلانية – Alanya) ، في البحر الأسود آزاك (روستوف) ، كلي بولو ، قاوالا ، سلانيك ، في كريت كاندية ، خانيا ، ريسمو ، في قبرص ماغوسا ، في قرم كفه Kefe (Feodosia) ، في مورانافارين ، مودون ، في بحر اليونان (Iyonya) . واينه بختي (Lepanto) وفي تونس مهديّة .

شرق البحر الأبيض ، كان يعتبر بحيرة تركية . وكان كذلك حتى في الأزمنة المتأخرة ، مثلاً ، أبلغ الباب العالي في 1746 ، كلاً من إنكلترا وفرنسا المتحاربتان بمذكرة (جودت ، 2 ,138 - 9) ، مفادها أن شرق البحر الأبيض هو تحت سيطرة العثمانية المطلقة ، وأنه يحظر على أية سفينة حربية فرنسية أو إنكليزية أن تجتاز المنطقة التي تقع شرق خط طول 23 ، وإن اجتازت ، فسوف تغرق ، ويسمح للسفن التجارية فقط بالمرور . وفي حالة تحرّش السفن التجارية الإنكليزية والفرنسية ببعضها البعض في شرق البحر الأبيض فسوف يضع الباب العالي يده علي هذه السفن ولا يعيدها حتي نهاية الحرب الإنكليزية – الفرنسية .

12 – تشكلات القيادة العامة للقوات البحرية (قابودان دريالك) :

كان أميرالات العثمانية في القرن 16 ، من أغنى رجال العالم ؛ لأن حصتهم في الغنائم ، كانت كبيرة جدًا . اضطروا في العصور التالية ، إلى المعيشة على رواتبهم .

كان يدير القوات البحرية ، 4 أميرالات يعقدون مجلسًا في قاسم باشا وهذا يقابل

لوردات الأميرالية في إنكلترا . هؤلاء الأميرالات حسب التسلسل كانوا قبطان دريا ، قابودانة ، باترونا ، ريالة . قابودانة ، هو لواء ثم فريق أول وكيل القابودان دريا في مختلف الأعمال . الاثنان الآخران ، كانا لواءين ويلقبان « بك » . كان الأميرال الكبير (ناظر البحرية) يحمل عصا حمراء ، والفريق أول البحري (بكلر بك البحرية) خضراء ، اللواء البحري (سنجق بك البحرية أو دريابك) زرقاء (d'Ohsson 429, 7,) . كانوا يعلّقون على سفنهم الشراعية حسب التسلسل ثلاثة ، اثنين وواحدا من الفوانيس التي تقابل الشارات الثلاث والاثنين والواحدة التي يحملها جنرالات البر .

كان القانون ينص على أن يكون الضابط البحري قد أغرق إحدي سفن العدو الحربية ، ليستحق أن يكون قائدًا لسفينة حربية شراعية كبيرة (قادرغة) أو زورق حربي كبير (galer) . كانت الجندية البحرية (لوندلك تنتقل على الأغلب ، من الأب إلى الابن كما هي الحال في ضباط البحرية . وقد قلّص ميزومورتا حسين باشا ، القانون أكثر ، بوضعه مادة أنه لا يمكن لأي جندي بحري أن يصبح ضابطًا بحريًا ، ما لم يكن أبوه ضابطًا في البحرية العثمانية . كان الضباط يتدرجون من الجنود البحريين (لوند) . وقد بدأ الضباط بالتخرج من المدارس بعد تأسيس كلية الهندسة البحرية الإمبراطورية قبيل عام 1770 .

كانت البحرية مجالاً باهظ التكاليف . يسرد لنا مؤرخ العصر راشد محتويات وتوابع القطعة الكبرى للأسطول الهمايوني الذي سار إلى البحر الأسوذ عام 1711 (3 ,353) : أقلعت سفينة الإميرالية الهمايونية (سفينة القيادة البحرية الإمبراطورية) من ميناء صناعة السفن وهي محملة بـ 300 . 3 جندي بحري (لوند) و 22 قطعة بحرية خاصة بأمراء البحر (ألوية بحريين) و 27 سفينة شراعية كبيرة (كاليون) محملة بـ 16 ألف جندي محارب (لوندات مقاتلين) 30 قطعة بحرية (كاليتة) بكل منها 220 جنديًا بحريًا و 60 سفينة (فرقتين) بكل منها 80 جنديًا و 120 قطعة من سفن النقل (قانجاباشي) ، 121 زورقًا بحريًا (vulik) بكل منها 7 جنود ، وجمعها 360 قطعة من السفن الإسلامية عليها 35 ألفًا من الجنود الغزاة .

كتب سفير لويس 14 في إستانبول Marquis de Nointel في نهاية رسالته التي يشرح

فيها بانبهار نظام الأسطول الهمايوني المرابط في جزيرة ساقز ، هذه الجملة : « كان النظام في بحرية البادشاه عظيمًا إلى هذه الدرجة » (tant l'ordre est grand dans la marine du Grand Seigneur ، Journal, Galland ، 2 ,176) .

لم تمتلك أية دولة ساحلاً على البحر الأسود ولم يكن لأية دولة الحق في رفع رايتها فيه مدة 3 قرون كاملة اعتبارًا من عهد فاتح حتى السنوات التي تسبق عام 1770 . وكان ممنوعًا دخول زورق تاجر مسيحي إلى البحر الأسود (La Vie Quotidienne ، Mantran ، 159 ؛ Babinger ، Mehmed der Eroberer ، 340) . ذكر الكونت مارسيكلي عام 1692 ، أن بالبحرية العثمانية 573 62 جنديا ، وأنه لا يمكن إطلاقًا اجتياز مضيق جنا قلعة بالقوة (ص 262, 263, 267 - 8 ,287 ,288) . ولم يكن بالإمكان كذلك الاقتراب من قاعدة بحرية عثمانية . كانت قلعة أبو قير التي تحمي الإسكندرية ، مجهزة « بـ 70 قطعة من مدافع باليمر Balyemer المدهشة ذات العشرين شبرًا » (أولياء ، 10 ,702) .

لكن البحرية العثمانية فقدت مكانتها اعتبارًا من نهاية العصر 18 . كانت حينذاك من أكبر الأساطيل ، من حيث القطع . لكن معنويات البحرية العثمانية ، كانت قد ماتت ، أو أنها على أقل تقدير ، كانت قد انحطت . انخفضت رواتب صنف البحرية إلى درجة أن سليم الثالث أولاً ، ثم محمود الثاني أضافا إليها علاوات غير قليلة لأجل الترغيب . لم تبق تلك الرغبة التي كانت لدى أهالي أناضول الغربية تجاه البحرية . بدأ أهالي شرق البحر الأسود بالانتساب إلى البحرية .

13 - معمل السفن الإمبراطوري (ترسانة همايون) :

عندما يقال « ترسانة همايون » يفهم من ذلك ترسانة إستانبول . هو أكبر معمل سفن للدولة . واليوم هو كذلك . كان في حينه أكبر معمل للسفن في العالم وأحد أكبر المنشآت الصناعية على الكرة الأرضية . وكلمة « ترسانة » ككلمة « أميرال » مقتبسة في اللغات الأوروبية وفي اللغة التركية من كلمتي « دار الصناعة » وأمير الماء » العربيتين . (Dictionnaire Etymologique, Deuzat ، الطبعة العاشرة : 1938 ، ص 31ب

50 ب) . كان عرب القرون الوسطى ، أساتذة البحر وصناعة السفن ، وحكامًا على البحر الأبيض والمحيط الهندي .

الأمراء الكبار للترسانة بالتسلسل هم **ترسانة أميني** (أمين مدير) ، **ترسانة كتخداسي** (معاون) ، **وترسانة باشمعماري** (سرمعمار ترسانة عامرة) والأخير هو مهندس إنشاء السفن .

قائد القوات البحرية ، هو الآمر على ترسانة أميني . كان تحت إشرافه 50 ألف عامل ، أستاذًا ماهرًا ، نجّارًا وما يقرب من 10 مهندسين للسفن . له سفينة رسمية كبيرة للسير في المحيطات ، و 6 أزواج من القوارب الرسمية للسير في المضيق (راشد ، 316, 5 ؛ مارسيكلي ، 146 ؛ لطفي ، 148, 3 ؛ أولياء ، 147, 1) . وكان في المعمل متحف بحري لعرض المراكب الشراعية المستعملة في الحروب القديمة .
(81, 1, **Journal,** Galland)

موظفو المعمل بدرجة عقيد ، هم : كاتب سجن فورسا ، وهو آمر ومحافظ الأسرى والفورسا (جدّافو السفن من الأسرى) ؛ موظف المالية المسمى كاتب المخزن ؛ الرقيب (باشجاويش) آمر الضباط المعمل ، الموظف المالي ، معاون الموظف المالي للمعمل ، روزنامجه جي المعمل (كاتب حسابات المعمل) ، كاتب الإجارة للمعمل ، كاتب مخزن الخشب ، كاتب مخزن الرصاص ، كاتب المراكب الشراعية ، (لم أعلد الذين بدرجة رائد) . **ترسانة أغاسي** ، والمسئول عن أمن السفن الراسية في الميناء **ليمان رئيسي** (رئيس الميناء) ، كانا برتبة لواء بحري .

يوجد حاليا معمل سفن الخليج الذي تبلغ مساحته 75 ألف م^2 ، يقع على جزء صغير من الترسانة العامرة . أكبر المعامل بين المعامل الأخرى ، هو معمل غاليبولي . استخدم فاتح فيها عام 1470 ، حوالي 100 ألف عامل دفعة واحدة لغرض التفوق على الأسطول البندقي (332, Babinger) . معمل الجزائر كان كبيرا جدا أيضا . معامل سفن القاهرة وبيرة جك هي المعامل الكبيرة التي تليها . كان في الإمبراطورية وقتئذ ، عدا المعامل المذكورة 81 معملاً حكوميا ومئات المعامل الصغيرة والمصانع التي يملكها القطاع الخاص . كانت تصنع سفنا جميلة حتى في فترة الانحطاط . « يوجد حاليا في

سينوب معمل كبير . يصنع السفن للدولة العثمانية » (الراهب Bijiskyan, 28) (1819) .

« يحتوي معمل سفن صمصون على أحواض بديعة جدًا لإنشاء السفن » (الماريشال فون مولتكه ، 154) (1838) . كانت تصنع سفنًا للأقطار الأجنبية وحتى للبندقية . وفي نهاية القرن 18 وبداية القرن 19 الذي انتهى فيه دور العمال الأسرى ، كان ثلاثة أرباع العمال من الأتراك والربع الأخير من المسيحيين (أكثرهم روم ، وقليل من الإيطاليين) .

كان الأسرى الذين يعملون في المعمل والذي يتراوح عددهم بين 30 و 50 ألفًا **Sehweigger Teutschland nach Konstantinopel** ، نورمبرغ 1619 ، ص 154) والجدّافون (فورسا) الذين يجدفون في السفن ، هم أسرى حرب أسروا من المسيحيين . يقول الراهب الدانمركي Olaf Egilsson ، الذي عمل بنفسه جدافًا في السفن التركية ، في كتابه الذي كتبه بعد عودته من الأسر » كان الطعام الذي يقدم لنا ، نحن الفورسا (الأسرى الجدّافين) ، من نفس الطعام الذي يقدم للضباط الأتراك في مقصوراتهم ؛ وشيء آخر وهو أن الأتراك كانوا يقدمون للفورسا الراغبين ، البيرة ، الشراب والبراندي رغم أنهم لا يشربون المشروبات عدا الماء » (كوبنهاكن 1641 ، ص 22) . كانت الدولة الوحيدة ، التي تعني بالفورسا ، هي العثمانية . يتقاضون الأجور وقت السلم تنقطع عنهم أجورهم وقت الحرب . يعتني الأتراك بالفورسا المسيحيين ، أكثر مما يعتني البنادقة ببحارتهم أنفسهم ، ويقدمون لهم طعامًا أكثر » (Lord Paul ,2 ,616 Ricault) . « زرت سجن معمل سفن طولون ، وكذلك زرت الذي في إستانبول . كانت معاملة المساجين في سجن إستانبول ، إنسانية وليست لها أية علاقة بالمعاملة اللاّإنسانية التي تمارس في طولون » (الأميرال Sir Adolphus Slade ، ص 64 - 6) .

14 – دور السفن الجدافيـــة :

كانت السفن تسير بالمجاديف في الفترة حتى 1700 . وفي القرن 17 استعملت السفن الشراعية التي تسمى « كاليون » بجانب السفن التي تسير بالتجديف . ولم تترك السفن المجدافية إلاّ قبيل عام 1700 . كان الطراز النموذجي للسفينة المجدافية هو « قادرغه » . كان الذين يجدفون ، هم أسرى الحرب المسيحيون ، السجناء أو المستخدمون بالأجرة وكانت

السفن المجدافية ، تحتوي كذلك على أشرعة . تنقسم السفن بالنسبة إلى أعداد مجاديفها وجدّافها إلى الأنواع التالية :

1 – **فرقاطة** Firkate : تحتوي على 10 إلى 15 مقعدًا (مجدافين) ، في كل مجداف 2 - 3 جدّاف (فورسا) عدد الجدّافين 40 - 102 .

2 – **بركنده** Perkende : 20 - 24 مقعدًا ، في كل مجداف 3 جدّافين ، عدد الجدافين 60 - 144 .

3 – **كاليتا** Kalita : 20 - 24 مقعدًا ، في كل مجداف 3 - 4 جدّافين ، عدد الجدافين 120 - 192 .

4 – **قادرغه** : Kadirga : 25 مقعدًا ، في كل مجداف 4 جدّافين ، عدد الجدّافين 200 .

5 – **باشتاردا** : Bastarda (بالفرنسية : Galère royale) : 26 - 36 مقعدًا ، في كل مجداف 5 - 7 جدّافين ، عدد الجدّافين 260 - 504 .

(كاتب جلبي ، **تحفة الكبار** ، 152) .

وكانت السفينة الأعلى والأعرض من الباشتاردا ، تسمى « ماونه » mavuna .

تحتوي القادرغه على 4 أشرعة ، 2 تندة (مظلة) . وتصنع جمعًا من 5950 ذراعًا من القماش . يبدّل الشراع في كل 3 أو 4 سنين والتندة في كل سنتين ، أما الباشتاردا الخاصة بالقائد العام ، فتبدل أشرعتها في كل سنة . تعطي لكل قادرغه 20 قنطارًا من البارود ، وتزداد هذه الكمية في الحروب . تصنع الشارات والأعلام من الحرير . يكلف صنع العلم الواحد 50 ليرة ذهبية . ولمقاعد الشرف في القادرغه ، يستعمل لكل سفينة ذراعًا من الجوخ الأحمر ويتبدّل كل سنتين . ينص القانون على ضرورة وجود قائدين بحريين اثنين في كل سفينة . كان للدولة في 11 مدينة ، معامل أقشمة للأشرعة ، وفي 8 مدن ، معامل قطران وزفت ولها 4 معامل لصنع المجاديف .

كان عدد العاملين في القوة البحرية بصورة فعلية 200 ألف وفي دور العظمة

250 ألف شخص ؛ 50 ألفًا منهم جنود بحرية (لوند) ، مدفعيون إلخ ، والبقية عمال في معمل السفن ، وجدّافين (فورسا) . وقبيل عام 1500 كان بالإمكان أن يستوعب الأسطول الهمايوني 63 ألف جندي وفورس . كان صنع السفينة الواحدة يكلف في تلك الفترة من 20 إلى 24 ألف ليرة ذهبية (تحفة ، 18) . ولما كانت تصنع سنويًا 50 قادرغه (سفينة حربية شراعية) فهذا يعني أن مبلغ 000 100 1 ليرة ذهبية تصرف سنويًا لصناعة السفن الحربية فقط . كامل القوة البحرية ، كانت تجدد كل 7 أو 8 سنوات . لا تبقى أية سفينة حربية في الأسطول أكثر من 8 سنين ، تباع إلى القطاع الخاص . أساطيل حامية المغرب والأسطول الطويل لا يدخل ضمن هذا العدد . كان بإمكان الإمبراطورية ، في الظروف الاستثنائية ، أن تصنع سنويًا 100 وفي حالة شحذ كامل طاقاتها 200 قادرغه . كان السلاطين يقولون عند حديثهم عن القوة البحرية « دونانماي همايون » (القوة البحرية الإمبراطورية) . كان سليم الثاني قد منح قسمًا من حديقته الخاصة إلى معمل سفن الخليج لغرض وضع 8 سفن إضافية في حوض صناعة السفن (بجوى ، 1 ,489) .

جنود البحر الأصليون ، هم أفراد البحرية الذين يسمون « لوند » . يسيّرون السفينة ويحاربون . كان اللوند يستعمل كل آلة حادة ، نارية وثاقبة باستثناء المدفع . يستعمل المدافع جنود صنف المدفعية البحرية . أما صنف عزب البحر ، فهم المشاة البحريون ، لا يمكنهم تسيير السفينة . ويستعملون فقط في الإنزالات التي تجرى على السواحل عبر البحار ، ويحاربون كذلك في حروب البحار المفتوحة . يستخدم جنود تيمارلي سباهي وبخاصة الإنكشارية في الأسطول في الحملات الكبرى . كان هؤلاء جنود إنزال . يوجد في كل سفينة ــ بالنسبة إلى حجمها ــ وعلى أقل تقدير ، مهندس واحد ، معمار ، نجّار ، حدّاد ، حبّال ، المختص بالأشرعة ، كاتب ، طبيب ، جرّاح ، إمام ومؤذن .

السببان الرئيسيان لتفوق الاستراتيجية البحرية العثمانية في العصر 16 هما : سرعتها وقدرتها على الحركة والدوران ، إذ لا يجوز تحميل الحاجيات التي لا لزوم لها وكان ذلك مخالفًا للقانون . لا تستعمل في الحرب السفن التي تحتوي على أقسام إضافية والمصنوعة لغرض إظهار العظمة بشكل كبير . والسبب الثاني ، تفوّق المدافع البحرية في مدى

الإطلاق . صنع كمال رئيس المدافع بعيدة المدى في الأسطول قبل 1500 . لم يتمكن الأوروبيون لمدة عصر واحد على الأقل ، من صنع مدافع تفوق في مداها المدافع العثمانية ، وهذا يسّر للسفن العثمانية أن تضرب قطع الأعداء من بعد دون أن تصاب هي . وأخيرًا ، كان النظام لدى البحارة العثمانيين فائقًا جدًا بالنسبة لأوروبا . لكن هذا النظام المتفوق ، اختل في العصر 18 .

أنزل الأتراك إلى البحر لأول مرة في التاريخ سفينة الأميرالية « باشتاردا » بحمولة 2 500 طن . كانت ماردا ذات طابقين ، طولها 54 م ، عرضها 21 م ومساحتها عدا خزاناتها 2 200 م^2 ، قطر صواريها 3 أمتار ، أثثت بشكل ممتاز ، تحتوي على 120 مدفعًا وعدد طاقمها 2 000 شخص . كان قد صرف على صنعها مبلغ 19 مليون دولار بالسعر المتداول حاليًا . ثم صنعت بعدها سفينة أخرى حمولتها 3 000 طن . لكن هذه السفن ، كانت نادرة . إن السفينة الحربية الأصلية من طراز قادرغه ، كانت أصغر بكثير . « إن السفن الحربية (القادرغة) اللاتي رأيتهن في إستانبول ، كانت كبيرة جدًا وفي حالة استعداد دائم . تزييناتها المذهبة ، تبهر العيون . السفن ، معتنى بها عناية فائقة . وكذلك بالأفراد الجدافين ، كان طعامهم وحالتهم جيدة ، ويعاملون معاملة حسنة جدًا » (1711) (De la Montraye ,1 ,168) . « كانت توجد سفن حربية تركية جبّارة كثيرة راسية في ميناء إستانبول ، أطول من السفينة الكبرى للأسطول الإنكليزي Royal Souvereign بـ 12 قدمًا . كانت السفن بطول 51 , 55 م وعرض 85 , 14 م وبارتفاع 48 , 7 م ذات أربع مقصورات وسمك 28 , 81 م ، ذات 110 مدافع ، عدد طاقمها 1 600 ، ذات 95 قنطار حديد » (A Deseription of The East, Richard Pococke ، لندن ، 1745 ، 2 / 2 ,135) . وقد أنزلت إلى البحر في 1710 ، أكبر سفينة شراعية في العالم ، عدد طاقمها 3 300 ، من نوع كاليون باشتاردا (سفينة أميرالية) . كان الأسطول الهمايوني الذي أقلع في 21 / 3 / 1715 مكونًا من 189 قطعة حربية . كانت توجد في القطع الكبرى أكثر من 120 مدفعًا ، وإضافة إلى ذلك ، توجد مدافع صغيرة تسمى « صجمة » . وهكذا بدأ دور الكاليون . وأخذ يطلق على جنود البحرية « كاليونجي » بدلاً من « لوند » .

كان عدد السفن التي تصنع في معمل سفن استانبول سنويًا قبيل عام 1640 ، 72 سفينة . إن كلاً من السفينتين الكبيرتين **Mavna** وسفينة السلطنة التي شيدها مراد الرابع ، كان طاقمها يتكون من 3120 شخصًا (1120 منهم فورسا) ، و 150 مدفعًا ؛ 50 منها من نوع باليمز **Balyemez** وهو مدفع قلاع ذو منزل طويل يرمي قذيفة حديدية تزن 40 أقة . إن هذه السفن العملاقة صنعت وجهزت خلال 3 أشهر . من الضروري أن يكون في المعمل حوض مستقل لكل سفينة . وبالنسبة لمنجمباشي فإن كل حوض من هذه الأحواض يكلف في بداية العصر 16 ، 50 ألف آقجه (وتعادل 330 ألف دولار) .

كان القانون يقضي بعدم خروج البادشاه والصدر الأعظم إلى حملات عبر البحار . يمكن فقط للوزراء ، السردار (القائد العام) ، الأميرالات ، القواد البحريين قيادة الأسطول عبر البحار ، إلا أن بعض السلاطين ساروا في حملات قصيرة جدًا عبر البحار : فاتح إلى ميدلّي (1462) وآغريبوز (1470) والقانوني إلى رودس (1522 - 23) وأمثال هؤلاء الذين فتحوا بأنفسهم هذه الجزر . لكن البادشاه ، كان يتجول في بحر مرمرة بسفينة السلطنة الرسمية المسماة **بادشاه باشتارداسي** . ترفع عليها 3 فوانيس وراية ذات طغراء ذهبية ، وتصبغ أشرعتها ، مجاديفها ، صواريها وجميع أجزائها باللون الأخضر .

15 – دور السفن الشراعية (Kalyon) :

كان طاقم سفينة قائد القوات البحرية ، الشراعية التي تسمّى كاليون في نهاية العصر 18 يتكون من 80 ضابطًا ومن 1 000 إلى 1 500 نوتي تقريبًا . ضباطه كما يلي (427, 7, d Ohsson) : قائد السفينة ضابط برتبة (عقيد بحري) ، 3 قواد معاونون (الذين كانوا يسمون ، القائد الثاني والثالث والرابع) ، 20 ضابط شراع وسطح السفينة ، رئيس المدفعية (طوبجيباشي) و 6 ضباط مدفعية ، 7 ضباط انضباط ، رئيس موظفي سكّان (دفة) السفينة ، 6 ضباط سكّان ، 2 ضبّاط قوارب ، 22 ضباط لوازم ، ضابط مالية ، ضابط تقارير ، 4 ضباط خفر ، لكل سفينة إمام واحد ، مؤذن واحد ، طبيب ، ضابط جراح ، و 8 - 10 ضباط آخرون .

اهتم سليم الثالث بالطلبة الذين سيتخرجون ضباطًا بحريين في مدرسة الهندسة البحرية الإمبراطورية ، إلى درجة أنه خصص للطلبة المقبولين فيها والذين أكثرهم أبناء قواد بحريين ، راتبًا قدره 480 دولارًا بالسعر الرائج حاليًا .

كان عدد طاقم سفينة قبودان باشا الذي أمر محمود الثاني بصنعها في 1380 وسمّاها **سليميه** إحياء لذكرى سليم الثالث ، 1 400 ، ذات 120 مدفعًا . و 19 مدفعًا صغيرًا . 120 مدفعًا كبيرًا من قياس 36 ,26 و 20 . وكانت توجد كذلك 4 مدافع ترمي قذائف حجرية . سرعتها 9 أميال في الساعة . وكانت السفينة الحربية الشراعية (كاليون) « محمودية » الذي أمر بصنعها محمود الثاني كذلك في 1829 « أكبر سفينة حربية ، في زنتها ودقة صنعها في العالم ، قابلت مهندس السفن التركي الذي صنعها » (Admiral slade ، ص 62 - 4) . وكذلك سفينة « آثار نصرت » ذات 79 مدفعًا ، هي من أكبر السفن الحربية في العالم . وكانت السفينة الحربية (كاليون) « فوزية » التي صنعت في معمل سفن ازميت عام 1836 ، وصمّمها المهندس محمود أفندي وصنعها العامل الفنّي موسي قلفه ، من أكبر السفن الحربية في العالم ، ذات 96 مدفعًا ، عدد طاقمها 960 شخصًا ، طولها 198 م وعرضها 55 م . كانت السفينة الحربية « فتحية » التي صنعها عثمان قلفه في معمل سفن كملك عام 1830 ، ذات 96 مدفعًا ، وعدد طاقمها 960 ، طولها 193 م وعرضها 52 م (جودت ، 7 ,349 - 51) . كانت السفن الشراعية (كاليون) ، تستعمل مدة أطول بكثير من المراكب ذات المجاديف (قادرغه) . فمثلاً « فتحية » آخر سفينة شراعية (إذ كان قد بدأ دور الأسطول المدرّع) صنعت في مصنع سفن إستانبول وأنزلت إلى البحر بتاريخ 14 / 12/ 1856 ، خدمت في البحرية كسفينة تدريب مدة 47 عامًا حتى 1903 .

كان الأسطول الشراعي لكوجوك حسين باشا ، عام 1801 ، هو الأسطول الثاني في العالم بعد إنكلترا ومكونًا من سفن حربية حديثة : 24 كاليون ذات 4 عنابر ، 24 فرقاطة ، 15 كورفيت Corvet ، وسفن أخرى صغيرة (نقل ، طوبجكر (حاملة مدفع ثقيل) ، نهرية ، حارقة إلخ .) غرق هذا الأسطول في نافارين عام 1826 . صنع محمود الثاني أسطولاً جديدًا . أدخل محمود الثاني في تلك الفترة إلى الأسطول أول سفينة

بخارية ، ثم أسس بحرية حديثة مكونة من سفن بخارية ، ثم بخارية ومدرعة .

16 - القراصنـــة :

وكما أنه كان لصنف الكوماندو والخيالة في الجيش الأهمية والثقل الجوهريان في صلب فتوحات العصرين 15 ، 16 ، كذلك أصبح لصنف القرصان في القوة البحرية الإمبراطورية الدرجة نفسها من الأهمية ، في التفوق البحري العثماني في العصر 16 . وفي الأصل ، فإن جميع الأميرالات الأفذاذ لهذا العصر ، كانوا كلهم قد نشئوا من صنف القراصنة . ويندر منهم من كان متخرجًا في أكاديمية الأندرون مثل بيالة باشا . القراصنة ، هم صنف المغاوير (الصاعقة البحرى الذي يشكل قسمًا من قوات الدولة البحرية . تمركز في 1513 في قاعدة المغرب وبشكل نهائيٍ في قاعدة الجزائر . ليست له أية علاقة مع أشقياء البحر الخارجين على الدولة والذين يطلق عليهم اسم « قرصان » المأخوذة عن الكلمة الفرنسية « Gorsaire » وبالفرنسية Pirate (بالعثمانية دنيز حراميسي أي لص البحر ، دريا شقيسي أي شقي البحر) خمس ما يغتنمه صنف القراصنة يعود إلى الخزينة . وإن كانت الغنيمة سفينة للعدو ، فإن السفينة بكاملها وبضمنها المدافع تعود إلى الدولة . يمكن اقتسام الأسلحة ، عدا للمدافع ، كغنائم وبيعها . تملك الدول المسيحية البحرية كذلك ، صنف القراصنة . لكن هؤلاء لم يتمكنوا من مجابهة قراصنة العثمانية ، ونقلوا نشاطهم إلى المحيط الأطلسي وبخاصة إلى بحر الانتيل . ومع هذا فإن قراصنة رودس ومن ثم مالطة المنتسبين إلى طريقة Saint - Jean (يحيى عليه السلام) ، ألحقوا أضرارًا كبيرة بالعثمانية والمسلمين . إن المؤسس الحقيقي لهذا الصنف ، هو قرقود خان Korkut Han الابن الثالث لبيازيد الثاني والأخ الكبير للسلطان سليم . جند كل إمكاناته خلال مدة ربع قرن ، لتشكيل هذا الصنف . حثّ شباب الولايات الساحلية للأناضول الغربية مثل منتشة ، أنطالية ، آيدن ، أزمير وكاراسي التي كان واليًا عليها ورغّبهم في الدخول إلى هذا الصنف ، وخرّج بحارة فاتحين أمثال أوروج رئيس ، طرغد رئيس (باشا) . ظل طرغد رئيس مدة طويلة على رأس قطع القراصنة ، ويمكننا أن نقول بقليل من المبالغة ، إن طرغد باشا ، خدم في سبيل سيطرة العثمانية على البحر الأبيض ، بقدر خدمة الأسطور الإمبراطوري . غير آن أساطيل القراصنة التي كانت

أحيانًا تبلغ حجم أسطول حقيقي ، كانت تتمكن من ضرب سفن وسواحل الدول المسيحية التي في حالة حرب مع العثمانية ، لكنها لا تستطيع ضرب الأقطار التي سمحت لها الدولة العثمانية ، منحتها موافقة بالتجارة ، حمتها ، والتي عقدت معها صلحًا . كان أسطول القراصنة ، افق الأسطول الإمبراطوري أثناء الحروب البحرية الكبرى . فمثلا ، كان رغد رئيس قد اشترك مع أسطوله في كل من الحروب البحرية Preveze ، جربة ، وفي فتح كل من طرابلس كورسيكا وكذلك في مالطة حيث استشهد فيها (1565) .

تمركز أسطول القراصنة في أفريقيا الشمالية وبصورة نهائية في ميناء الجزائر ، فور دخول أوروج رئيس المغرب في 1513 . أظهر أوروج رئيس جرأة كبيرة إلى درجة أنه أنزل جنودًا في مصب التيبر عام 1516 عندما علم بأن البابا ليو عاشر (1513 - 21) يصطاد السمك فيها . وكاد يأسره (Pfeffermann, **Renaissance Peapst mit den Turken** ، برن 1946 ، ص 175 ,178) . ومع هذا فإن أوروج رئيس لم يكن أول أميرال عثماني وطئت قدمه غرب البحر الأبيض ، فقد كان كمال رئيس قد دخلها قبله بربع قرن . أبحر بحملات أسبانية عديدة ودعم الأندلس . إن هذه الحملات والخوف من العثمانية ، أخّرت سقوط غرناطة مدة ربع قرن كما أشار إلى ذلك المؤرخ الإيطالي Marinescu بشكل مطول (**TAD**, 2, 231 - 267, 4 وما بعده) . حقق كمال رئيس في 1501 إنزال على سواحل Cote d'zur وأسر دوق Catanzara وجلبه إلى تركية (**TM**, Kissling) 15 ' 68 . وإنزاله في جزر مالطه ، Pantelleria, Gozo صقلية في 1488 بواسطة 12 سفينة حربية ، مشهور .

إن اضطرار العثمانية لوضعها أسطولا مستقلا في المحيط الهندي ، وعدم دخولها بحر الخزر بشكل أساسي ، ولّد تأثيرات سلبية في تاريخ آسيا في الشمال والجنوب . ورغم أن كلاً من ياووز ، القانوني ، سليم الثاني ، مراد الثالث ومصطفى الثالث قد تبيّنوا موضوع قناة السويس على عهودهم ؛ فإنه لم يتيسر البدء في حفر القناة . أرسل سليم الثاني الذي ورث تصميمات هذا المشروع عن جده وأبيه ، خطة السلطاني (أمره السلطاني) المؤرخ في 12 / 1 / 1568 إلى مصر ، كما يلي (**Muhimme** ، 7 ,258) :

« تقتضي عملية حفر ، لغرض مرور أساطيلي الإمبراطورية من البحر إلى بحر السويس (البحر الأحمر) . أصدر إرادتي بتنفيذ محتويات الخط فور وصوله ودون تأخر وتراخ وبصورة قطعية وتبادر بجمع المعارين والمهندسين الخبراء لتكليف أشخاص ذوي صلاحية لإجراء الكشف على المنطقة المنحصرة بين البحر الأبيض وبحر السويس وتدقيقها بصورة علمية وتحصل على معلومات كاملة بشأنها وتعلمني عن إمكان حفر القناة من عدمه وطول تلك القناة وعدد السفن التي يمكنها السير فيها جنبًا إلى جنب ليمكن تدارك الأمر وحفر القناة وإتمامها بمشيئة الله العزيز ... » لكن قناة السويس لم تتحقق ، كما لم تتحقق قناة الطونة ـ فولغا (البحر الأسود ـ الخزر)التي شرع في حفرها في عهد السلطان نفسه .

ولم تبق في البحر الأبيض تقريبًا ، جزيرة ، ميناء ، قطر ومدينة ، لم يهاجمها القراصنة الاتراك . أعطيت نماذج منها في قسم التاريخ السياسي . هناك آلاف من الغارات البحرية والحروب البحرية للقراصنة وكلها انتهت بانتصار القراصنة العثمانيين . إذ إنها كانت أعدت بصورة دقيقة . والمعلوم أن للقراصنة وكلاء تحريات في موانىء أوروبا الكبيرة ، يرسلون المعلومات الدقيقة إلى الجزائر عن هوية السفن والأساطيل وأوقات حركتها واتجاه مساراتها . إن مصادمات البحر الأبيض هذه التي صعدت إلى حدها الأعلى في القرن 16 ، استمرت في القرن 17 كذلك ، ثم خفّت بعدها .

17 ـ الأتراك في المحيط الأطلسي :

يجب تقديم بعض النماذج لفعاليات الأساطيل التركية في المحيط الأطلسي . وحتى بربروس خير الدين باشا ، سار بالأسطول الإمبراطوري إلى المحيط الأطلسي عن طريق جبل طارق (بالعثمانية : بوغاز سبتة) . لكن الحركات الرئيسية في المحيط جرت من قبل القطع التابعة لأسطول الجزائر . كانت القوة البحرية الجزائرية في تلك الفترة تتكون من 70 سفينة (قادرغة) حربية ذات 30 إلى 40 مدفعًا وقوتها معادلة للقوى البحرية للدول الأوروبية الكبرى ، ومتفوقة على أكثرها . وخلال الـ 8 سنوات التي تنحصر بين 1613 - 1621 ، جلبت 396 سفينة تخص أقطارًا مسيحية كغنائم . هذا عدا السفن

التي أغرقت . وحتى إنه في 1609 ، تم أسر ابن أخي فيليب الثالث ملك أسبانيا ، وجلب إلى الجزائر وقد سجل الشاعر الشعبي كدا موصلو هذا الحادث المهم في إحدى قصائده . حوصر كامل الأسطول الإنكليزي الذي دخل البحر الأبيض في 1580 المكون من 49 قطعة وجلب إلى الجزائر . وقد تم الاستيلاء خلال 1619 - 21 على أكثر من 400 سفينة إنكليزية وسيقت إلى الجزائر .

قام القراصنة الأتراك بفعاليات في بحر الانتيل كذلك History of the country of corwall . 496 ,1 . لا زالت إحدى مجموعات الجزر في هذا البحر تحمل أسماء تركية . وللحصول على معلومات عن حملة Madeira ,1617 ، أنظر pierre Dan, Histoire de Barbarie et de Ses Corsairs ، باريس 1637 ، ص 275 - 6) ، I Corsari Barbarcsehi, Salvatore Bono ، كورينو 1964 ، ص 178 ؛ علي حيدر أمير ، Cezayir Hakkinda ، إستانبول 1930 ، ص 44 - 5 . أحرق القراصنة الأتراك الذين دخلوا خليج لشبونه في 1674 ، على مشهد من شعب لشبونة ، سفينة برتغالية من نوع فرقاطة ذات 36 مدفعًا وطاقم 400 شخص ، وأسروا من بداخلها . أغرقت في 1693 سفينة Noterdam del Bilar البرتغالية على مقربة من مياه رأس Finister . تم الاستيلاء على السفينة الإنكليزية المسماة Nortar من نوع Corvette أمام قادش بعد 10 أشهر من هذا الحادث . وفي ك 2 / 1695 استولى على بابا ، على السفينة الهولندية المسماة Schantaklar ذات 36 مدفعًا على بعد 40 ميلاً من رأس Armada Espanolo, C. F. Duro) Sain Vincent مدريد 1895 ,3 ,237 - 40) . للحصول على معلومات عن حملات الأتراك على جزر آزور Asor أنظر Bono ، ص 177 - 8 ؛ Della Citte aRegno di Algeri ، فلورنسا 1783 ، ص 24 . وينبغي ألاّ ننسى كذلك حملات خليج قادش ,1574 ,1553 Cadiz ,1530 إلخ . التي قاد بعضها قواد القوات البحرية أمثال بربروس خير الدين باشا ، بيالة باشا . قادش ، كان أهم ميناء يؤمن اتصال أسبانيا بكامل أمريكا .

واشتهرت كذلك حملات المحيط الأطلسي التي أجراها بيوك أو (قوجا) (والكلمتان تعنيان « الكبير ») مراد رئيس وأبو زوجته علي بيجين رئيس . تدرّج وتعلّم مراد رئيس في كنف قيليج – علي باشا .تراسل حتى مع ملك إنكلترا جيمس

James الأول (History, Knolles 1603، ص 825 ؛ Grammont ،State Papers 71.1.F.12) . ضرب مراد رئيس أو « بك » جزر الكناري وخاصة Lanzarote سنتين متواليتين (1587,1586) . أجرى حملته الثانية لجزر الكناري بواسطة 18 سفينة (399, 2, Armada Espanola, Duro, 277, 273, V. S. P) . أبحر في كل سنة من السنوات العشرين التي تلتها، إلى المحيط الأطلسي .

اشتهر مراد رئيس الآخر (كوجوك مراد رئيس) أي مراد رئيس الصغير ، بغارته على ميناء بلتيمور Baltimore حزيران 1831 ، The rogal navy 'W laird clowes) لندن 1897 Bono, 23, 2, ، Fisher, 178 ، Barbary Legend, ، أوكسفورد 1957 ، ص 323) . جلب 237 أيرلنديًا إلى الجزائر ، في هذه الغارة التي وصفها المؤرخون أمثال Frizell, Kmight, Knolles, Brich, Oppenheim, Lane - Pool, Amiral Button . بقي في ميناء بلتيمور ، ليلة واحدة فقط وأدخل سفينتين إلى الميناء (20 / 6 / 1631) . أغرق السفن الثلاث التي حاولت الدفاع عن الميناء . نظم الحادث الشاعر الأيرلندي Thomas Usborne Daweys على شكل حكاية طويلة ، كتب كونت Cork إلى مجلس العموم رسالة شديدة اللهجة . عاقب شارلس الأول بشدة من ثبت إهماله في هذا الحادث .

وغارة مشهورة أخرى على إنكلترا ، وهي الإنزال الذي جرى على ميناء Looe قرب بليموث في آب 1625 وجزر Scilly (Fisher ,322 - 3) . استولى الأتراك في هذه الحملة على 27 سفينة دخلت وخرجت خلال 10 أيام من وإلى ميناء بليموث . دخل الأتراك الذين فتحوا جزر Scilly وأسسوا فيها قاعدة بحرية وحافظوا عليها مدة طويلة ، ميناء بليموث وأغلقوا الخروج لسنوات طويلة . كانت 30 سفينة تسير بصورة مستمرة بين قناة بريستول وبحر أيرلندة ، ثم تعود إلى القاعدة العثمانية في جزر Seilly أو Lundy . بقيت جزيرة لندي سنوات طويلة لدى العثمانية ولم يقدروا على إجلاء الأتراك منها رغم محاولات ملك الشخصية العديدة . وتحقق فتح لندي في 1625 أيضًا ، وهي جزيرة تقع على مقربة مياه قناة بريستول ، على بعد 20 كم من استدارة ضفاف ديفون . ولكونها على بعد 175 كم عن جزر Scilly ، كان بإمكان الأتراك تحقيق عمليات موفقة جدا بفضل هاتين القاعدتين اللتين تبعد إحداهما عن الأخرى هذه المسافة .

وفي 1631 ، أرغمت العثمانية العديد من الموانىء الإنكليزية على دفع الخراج .

تُغرق السفن التي تمتنع عن دفع هذه الضريبة ولا يسمح بدخولها إلى الموانىء الإنكليزية . كانت السفن العثمانية لا تزال تجوب قناة بريستول في 1654 . كانت الصحف الإنكليزية والفرنسية في ذلك العهد تشكو بصورة مستمرة من حركات الأتراك في قناة بريستول 1650, Gazelhe de France ، ص 1654, 1133 ، ص 171, 99 ، Histoire d'Alger Grammont, sousa Domination Turque ، 1516 - 1830) ، باريس 1887 ,28) . ولم يخل بحر المانش وخليج بسكاي (Gaskonya) من السفن العثمانية ، وكانوا بذلك يقطعون المواصلات البحرية الإنكليزية – الفرنسية ، والفرنسية – الأسبانية .

واشتهرت كذلك حملة كوجوك مراد رئيس على أيرلندة . استغرقت 3 أشهر اعتبارًا من مغادرتها الجزائر وعودتها إليه . نزل في أيرلندة ومكث فيها 26 يومًا ، عاد إلى الجزائر في 12 آب . جلب معه 400 أسير (كان لا يمكن أخذ أكثر من هذا العدد بالنظر لاستيعاب السفينة المحدود ، وقضية تأمين الطعام ، وانتفاء الحاجة لذلك) . اشتركت في الحملة 12 سفينة عثمانية .

إن أهم مصدر لتلك الفترة ، هو المذكرات التي حررها الراهب الأيرلندي البروتستانتي (لوثريان) Olaf Eigilson الذي أسر في تلك الحملة وجيء به إلى الجزار وأطلق سراحه بعد سنتين ، كتب لوثريان مذكراته باللغة الأيرلندية ثم ترجمت بعد فترة وجيزة إلى اللغة الدانمركية . حقق علي رئيس في 1642 حملة أيرلندية أخرى . غزا القراصنة الأتراك السواحل الهولندية ، الدانمركية ، النرويجية ، السويدية أيضًا . لم أعثر حتى اليوم على وثيقة تشير إلى دخولهم بحر البلطيق الأصلي .

طلب بربروس خير الدين باشا ، أن يقود أسطولا إلى العالم الجديد ، بعد أن رسم بيرى رئيس أدق خارطة لأمريكا في العالم وقدمها إلى البادشاه . راوغه الصدر الأعظم داماد مقبول إبراهيم باشا ، قائلا « لا توجد حدود مشتركة تفصل بيننا وبين دول أخرى » . لا يستسيغ الأتراك الحملات عبر البحار . الدولة التركية الوحيدة التي قامت بحملات عبر البحار ، هي العثمانية (إنني أعتبر حملة قرم لعلاء الدين كيكباد وحملة بحر الأرخبيل (الجزر) لجاكابك وأمور بك ، فترة انتقال) . أما حملة أمريكا ، فكانت تعتبر حملة ما وراء المحيطات . هذا بالإضافة إلى أن العثمانية لم تكن بحاجة إلى

مستعمرات ، لذا يجب ألا نلقي اللوم الكثير على إبراهيم باشا . إذ إن داهية كبيرًا كفولتير ، كان يستهزىء بمليكه لويس 14 لتركه أمور أوروبا وانشغاله بأراض تعيسة كأمريكا . وحتى أن رجلاً كبسمارك ، كان يرجح حيازة ناحية في أوروبا ، على حيازة قطر في المستعمرات . ولكن يجب علينا كذلك أن نقدّر بعد نظر بيرى رئيس وبربروس .

ونحن نعلم كذلك ضرب العثمانيين العديد من السفن الإنكليزية التي كانت تسير بين بوستون وبليموث وبريستول في العصر 17 . وفي 1625 استولوا في بحر المانش على سفينتين قادمتين من أمريكا . وقد وضعوا اليد على سفينة قادمة من Massachusetts إلى انكلترا في 1678 وهي التي كان أحد ركابها الدكتور Dr. Daniel Manson المتخرج في جامعة هارفارد ، والذي ظل إلى نهاية حياته في الجزائر وزاول مهنة الطب .

وغزا الأسطول العثماني في 1660 ، جزيرة نيوفوندلاند . ثم تتبع السواحل الأمريكية من ساحل كندا إلى فرجينيا . أرسلت بنت فرجينية جميلة جدًا ، هدية إلى حبم محمد الرابع . وفي 1681 ، غزا أسطول عثماني ، فوندلاند أيضًا ، سواحل كندا وسواحل نيوانكلاند العائدة للولايات الأمريكية . الأسطول الذي قام بهذه الحملة ، ضرب أيرلنده أولاً ، ثم تحرك منها (323, Godfrey Fisher ؛ 178, Salvatore Bono) .

18 – القرصنة خلال القرنين 18 - 19 :

استمرت القرصنة في القرن 18 ، رغم أنها فقدت فعاليتها السابقة . فمثلاً ، كانت قيمة حصة البادشاه – وهي خمس الغنائم – التي قدمت إلى سليم الثالث في 7 / 9 / 1791 ، تبلغ 60 مليون دولار بالسعر الرائج حاليًا . كان قد نقل الخزينة إلى حضرة البادشاه ، 61 من البحارة الغزاة الجزائريين الذين ألقوا على أكتافهم جلود النمر . كانت الغنيمة تحتوى على مسبحة لؤلؤ لا مثيل لجمالها ، 4أسود ، نمرين ، 5 ثيران ، سبائك ذهب ، أسلحة ثمينة جدًا (613, 37, Belleten) .

كان القواد البحريون الذين يحصلون على شهرة في الجزائر ، يقدمون إلى استانبول ويصبحون أميرالات وحتى قادة للقوات البحرية . أحدهم ميزومورتا حسين باشا، والآخر

هو جانه خوجه محمد باشا الذي تدرب على يده وهو الذي سار في 1707 مع 20 سفينة وأحرق ودمّر سواحل أسبانيا وقلعتين أسبانيتين تدميرًا كاملاً . صدر تعيينه بعدها في استانبول بوظيفة قبودان دريا (قائد القوات البحرية) عام 1714 .

استهل القرن 18بانتصار لامع كفتح وهران (بالفرنسية : Oran) . تسلم محمد بكتاش دابي مرسي الكبير ميناء وهران ، مع Vire . حاصر وهران ، 10 آلاف تركي و 15 ألف عربي – بربري ، بواسطة 15 مدفع حصار و 150 مدفع صحراء . استشهد 500 7 . استسلم الأسبان الذين قدموا 15 ألف قتيل و 200 5 أسير (3 / 4 / 1708) . أرسلت مفاتيح المدينة مع سفيتين أسبانيتين والغنائم إلى استانبول وقدمها إلى أحمد الثالث بارطنلي علي رئيس . كان البادشاه يعلم بأن وهران لم يتيسر فتحها على عهد جدّه القانوني . منح بكتاش دابي رتبة بكلر بك (فريق أول) (Muhimme 103, 116 ؛ راشد ، 3 ,285, Fisher, 258 - 6) . أن القنصل الإنكليزي Robert Cole الذي توفي في الجزائر بعد إيفائه هذا الواجب مدة 18 سنة ، أنار القنصلية مجاملة لمدة 3 أيام .

وفي بداية العصر 18 أيضًا ، استولى القراصنة الجزائريون على إحدى جزر الرأس الأخضر Yesil burun ، واستعملوها كقاعدة لحملات الأطلسي . أرادت أسبانيا استعادة وهران في عهد البكلر بك كور عبدي باشا . أنزلت 16 سفينة أسبانية و 500 قارب نقل ، 28 ألف جندي في وهران (29 / 6 / 1732) . كان لدى مصطفى بك آمر اللواء (سنجق بك) البحري لوهران ، قليل من الجنود الأتراك ، 000 3 قول أوغلو (الهجناء المولودون من أب تركي وأم عربية) ، 30 ألف جندي عربي و 137 مدفعًا . سقطت وهران ومرسي الكبير في 1 تموز . وبذلك يكون الحكم العثماني في وهران ، عبارة عن 24 سنة ، وشهرين ، 28 يومًا . تعذر على العثمانية استرداد وهران رغم محاصرتها حتى نهاية العصر . دخلت الجزائر فترة الانحطاط لأسباب عديدة ؛ كسيطرة الانكشارية على الجزائر وحيازتهم على التفوق الذي كان في السابق لدى الجنود البحريين (لوندة) ، قلة مجيء المتطوعين من الأناضول ، ازدياد قوة الدول الأوروبية بدرجة كبيرة . تمرد في 1767 - 1773 شعب قابليّة . قُتل آلاف الأتراك إلى أن أخمدت الحركة من قبل أمير لواء قسطنطين صالح بك . قل عدد الجنود الأتراك إلى درجة أن البادشاه

أرسل في 1770 ، إلى الجزائر 200 مدفعي لملافاة النقص . أنزلت أسبانيا التي ظنت أنها تستطيع الاستيلاء على الجزائر ، 600 22 جندي في الجزائر ، قدموا بواسطة 24 سفينة حربية (كاليون) و 344 قارب نقل (2 / 7 / 1776) . انسحبت بعد أن خسرت 7 آلاف قتيل و 12 مدفعًا . اغتم كارلوس الثالث في مدريد ، بينما أمر عبد الحميد الأول بإقامة الأفراح في استانبول . أرسل بكلر بك محمد باشا خمس الغنائم إلى استانبول مع ابنه الشرعي حسن بك . كرّم البادشاه محمد باشا بسيف مرصع مع شارة رأس شرفية . وفي 1780 أغارت البحرية الجزائرية على الأسطول الأسباني الراسي في ميناء قادش وكبّدته خسائر جسيمة . جاءت أمام الجزائر 75 سفينة أسبانية (13 / 7 / 1783) . لكن البحرية الجزائرية صدتها وشتتها . كانت القطع البحرية الجزائرية ، تدعى بأمر إستانبول إلى البحر الأبيض ؛ فمثلاً ، دعيت بالفرمان (الأمر السلطاني) المؤرخ 18 / 11 / 1781 ، 29 (ثم 15) سفينة من الأسطول الجزائري ، 6 من التونسي ، 8 من الطرابلسي إلى استانبول وانضمت إلى حركة الأسطول الهمايوني (Muhimme ,180 ,151) ، ورغم هزيمتها في العام الماضي (واصف ، 202) كرّرت أسبانيا محاولتها في السنة التالية . حضرت إلى الجزائر 136 قطعة من الأساطيل الأسبانية – البابوية – المالطية – النابولية – البرتغالية (28 / 6 / 1784) (جودت ، 3 ,81) . تصدّى لها الأسطول الجزائري المكون من 67 قطعة . انسحب الأسطول الحليف بعد مبارزة مدفعية هائلة استمرت 4 ساعات ؛ إذ إن البحرية والمدفعية التركيتين ، كانتا حتى في هذه الفترة متفوقتين على إسبانيا . وبالرغم من إطلاقهم 379 3 قنبلة ، 1068 قذيفة ، 145 2 قنبلة مدفع هاون ، 401 صندوق طلقات بندقية ، استشهد 30 بحارًا تركيًا فقط . وبهذا تكون قد انتهت آخر حرب تركية – أسبانية فعلية (22 / 7 / 1784) . استمرت هذه الحرب التي بدأت مع كمال رئيس ، واكتسبت صفة عالمية مع أوروج رئيس ، 3 قرون دون أن يعقد أي صلح . حالت هذه الحرب دون تنصير المغرب من قبل الأسبان .

استسلمت وهران التي لم تتمكن من الصمود أمام الحصار العثماني المستمر (16 / 12 / 1791) . وبذلك يكون حكم الأسبان الثاني في وهران ، قد دام مدة 59 سنة ، 7 أشهر ، 24 يومًا . دخل المدينة آمر لواء الغرب ؛ عثمان أوغلو محمد بك (24 / 2 /

1792) وأرسل مفاتيح المدينة الذهبيّين مع قارورتين مرصعتين مليئتين من مياه حنفيات المدينة إلى البادشاه من قبل بكلر بك (الفريق الأول) حسن باشا .

كانت القرصنة حرّة حتى مؤتمر فيينا 1815 . منعت في هذا المؤتمر. حرمت الجزائر ، أهم مورد لها . كتب محمود الثاني ، إلى عمر باشا الذي عين خلال تلك الفترة بكلر بك (فريق أول ، والي إيالة) على الجزائر في خطة الهمايوني (السلطاني) ما يلي : « ولّيت على إيالة الجزائر شرط تجنبك الأحوال التي تتعارض مع إرادتي ، واعلم بأنه عُفي عمّا سبق من الذنوب الكبيرة والصغيرة لمنتسبي الحامية من رعيتي وسوف يلقون من قبلي حسن القبول والسماح السلطاني السامي كما في السابق » .

ألغيت حامية الإنكشارية في الجزائر في 2 / 12 / 1817 . كان يوجد فيها 34 ألف انكشاري ، 700 منهم متقاعدون . أكثرهم أخذوا ثرواتهم وذهبوا إلى مواطنهم الأصلية في قصبات الأناضول الغربية . استوطن أغنياؤهم في أزمير واستانبول . وبهذا حرمت البلاد من الجنود المجربين في الدفاع عن الجزائر عام 1830 . إن أخير بكلر بك هو حسين باشا الذي ولد في ذنيزلي عام 1779 ، قضى أيام شبابه في أزمير ، جاء إلى الجزائر وانتسب إلى الإنكشارية ، وصار بكلر بك في 1 / 3 / 1818 . أرسل في الثورة اليونانية أسطولين في سنتين متواليتين لأمر الأسطول الهمايوني Muhimme 266, 241) .

19 – تونس :

أمر محمود الثاني في خطّه السلطاني المؤرخ في 25 / 7 / 1831 ، والي تونس حسين باشا ، أن يلغي حامية الإنكشارية الموجودة في إيالته وأن يطبق في الأيالة كل القوانين التي شرعت في استانبول . بدأ بذلك ، دور التنظيمات في تونس كذلك ، بينما تعرضت الجزائر للغزو الفرنسي قبل دخول التنظيمات فيها .

جاء أحمد باشا ، من الولاة المتأخرين ، إلى استانبول وقبّل قدم محمود الثاني وشرح له كيفية تطبيقه إصلاحات السلطان في إيالته (1836) . منح عبد المجيد الثاني الذي اعتلى العرش حديثًا في 1840 ، أحمد باشا هذا مرتبة « وزير » بتوصية من وزير

الخارجية مصطفى رشيد باشا . لم يمنح حتى ذلك التاريخ أي وال على الجزائر أو على تونس مرتبة وزير عدا واحد . كلهم كانوا بكلر بك (فريق أول) . ولغرض تمكينه من تطبيق الإصلاحات بصلاحية تامة ، أمر البادشاه بنفس الفرمان (9 / 8 / 1840) بأن تستمر ولاية أحمد باشا قيد الحياة . إن إلغاء السلطان مجيد بفرمانيه (بإرادتيه) في 1841 و 1846 الرق بصورة قطعية ، ولّد مشاكل في تونس . إلا أن أحمد باشا ، اضطر إلى غلق أسواق الرقيق في البلاد . إن محمد بك ، أحد أولاد أحمد باشا هذا ، جاء إلى استانبول في 1854 وانتسب إلى البحرية العثمانية وخدم كأميرال إلى نهاية عمره . صدر لصادق باشا الذي صار واليًا بعد ذلك (23 / 9 / 1859 – 12 / 5 / 1881) فرمانًا منح بموجبه رتبة وزير أيضًا وانحصرت ولاية تونس 1871 في رجال سلالة الحسيني التركية الأصل . إن الذي أعد هذا الفرمان هو رئيس وزراء الإيالة المسمى (رئيس مديران) جركس خير الدين باشا ، جاء بعدها إلى استانبول وصار صدرًا أعظم .

وفي أواخر عهد محمد صادق باشا ، احتلت فرنسا تونس بعد اجتيازها الحدود العثمانية من الجزائر بجيش عدده 23 000 جندي (3 فرق = فيلق واحد) . كانت فرنسا قد وعدت بتونس في كواليس مؤتمر برلين . لم تعترف الحكومة العثمانية بالاحتلال الفرنسي لتونس حتى معاهدة لوزان 1923 وأصرت على أنها قطعة من الإمبراطورية العثمانية . طبقت فرنسا التي أنزلت 8 000 من جنودها إلى بيزرته عن طريق البحر ، نظام الحماية على تونس 12 / 5 / 1881 . وأبقت سلالة الحسيني على عرش تونس بلقب « بك = أمير » . يخمن أن الدم التركي يجري في عروق ثلث نفوس تونس حاليًا (عزيز سامح 184,2 ب) . ولا تقل هذه النسبة في المنطقة الساحلية للجزائر . لم تمنح فرنسا الاستقلال لهذه الأقطار رغم أنها أخذت من الجزائر 250 000 ومن تونس 89 000 جندي وساقتهم تجاه ألمانيا في الحرب العامة الأولى . ولعبت نفس اللعبة في الحرب العالمية الثانية . تمكنت فاس ، تونس و [illegible]ائر ، بعد كفاح عظيم من التخلص من فرنسا . تمكنت الجزائر خلال ذلك من خوض أكبر حرب دموية شهدتها القارة الأوروبية جمعاء طوال التاريخ العالمي مع فرنسا وحصلت على استقلالها بعد أن قدّمت مليونًا م[illegible] شهداء وأسقطت الجمهورية الفرنسية الرابعة .

20 ـ الحرب مع الولايات المتحدة الأمريكية :

بدأت أعلام سفن الولايات الأمريكية التي نالت استقلالها من انكلترا في 1776 ، ترفرف في البحار اعتبارًا من 1783 ولو أنها متواضعة بالنسبة لأوروبا . كان عدد نفوسها 9 , 3 مليون في 1790 و 3 , 5 مليون في 1800 . كانت نفوس إيالات أفريقيا الشمالية (المغرب) للعثمانية (الجزائر ، تونس ، طرابلس) تفوقها عددًا . ولم تعد الدول الكبرى كانكلترا ، فرنسا وأسبانيا ، تتمكن بعد من إسماع كلمتها إلى حاميات المغرب . وحتى في 25 / 7 / 1785 استولى القراصنة الجزائريون على سفينة تخص الولايات الأمريكية في مياه قادش Cadiz . وهي سفينة القائد Isaak Stevens المسماة Maria التابعة لميناء بوسطن . ثم لقي القائد O'Brien' i Dauphin'i التابع لفلادلفيا ، بعد مدة قصيرة نفس العاقبة ، جلب إلى الجزائر . وفي شهري ت 1 و ت2 من عام 1893 استولى القراصنة الأتراك على 11 سفينة تخص الولايات الأمريكية . أعطى المؤتمر ، إلى الرئيس جورج واشنطن صلاحية صرف مبلغ 888 688 دولارًا ذهبًا لإنشاء سفن متينة يمكنها صد هجمات القراصنة الأتراك (27 / 3 / 1794) . تعهد Joshua Humphrey البنسلفاني بإنشاء هذه السفن . وبفضل القراصنة الأتراك ، وضع حجر الأساس لتأسيس قوة بحرية وصناعة سفن للولايات الأمريكية (G. W. Allen, Our navy and the Barbary Corsairs, 6 - 65) .

كان إنشاء أسطول يمكنه مطاولة الجزائر ، يحتاج إلى وقت طويل . اتصلت واشنطن بالجزائر . وبموجب معاهدة 21 صفر 1210 (5 / 9 / 1795) المكونة من 22 مادة باللغة التركية : تدفع الولايات الأمريكية إلى الجزائر فورًا مبلغ 000 642 دولارًا ذهبيًا وسنويًا مبلغ 000 12 ليرة عثمانية ذهبًا . وفي مقابل ذلك يطلق سراح الأسرى الأمريكيين الموجودين في الجزائر ولا تتعرض الجزائر لأية سفينة أمريكية لا في الأطلسي ولا في البحر الأبيض . وقّع وصدّق على المعاهدة جورج واشنطن وبكلر بك حسن باشا . هذه الوثيقة هي المعاهدة الوحيدة باللغة الأجنبية (غير الإنكليزية) التي وقعت عليها الولايات الأمريكية خلال تاريخها الذي يتجاوز القرنين . وفي ذات الوقت ، هي المعاهدة الوحيدة التي وافقت وتعهدت فيها الولايات الأمريكية خلال تاريخها كله بدفع

ضريبة (في المتن التركي : سنوية) لدولة أجنبية . إن صورة طبق الأصل عن الأصل الموجود في الأرشيف الأمريكي National Archives of the United States وترجمة النص التركي إلى الإنكليزية : **Treaties of the United States, Hunter Miller** ، واشنطن **1939 ,1 ,276 - 317**) .

قامت أول سفينة أمريكية بزيارة إستانبول في **1785** ، وفي خريف عام **1800** زارت السفينة المسماة جورج واشنطن ، ميناء الجزائر زيارات وديّة ، ثم جاءت من الجزائر إلى إستانبول . أرسل بكلر بك الجزائر عثمان أوغلو مصطفى إلى سليم الثالث بواسطة هذه السفينة الأمريكيه ، أسدين وضبعين وهدايا أخرى ، أراد أمير البحر (قبودان دريا) كوجوك حسين باشا ، التكلم مع قائد سفينة الدولة الجديدة هذه . قبل حسين باشا زيارة العقيد البحري **Bainbridge** ورحّب به (**Thomas Harris? Life and Services of Commodore William Bainbridge**) فيلادلفيا **1837** ، ص **45 - 61**) .

لكن السفن العثمانية التابعة لإيالة طرابلس ، بدأت في التعرض للسفن الأمريكية التي تدخل البحر الأبيض . وعلى هذا ، جاء **Bainbridge** بأسطول حربي إلى ميناء طرابلس (**7 / 10 / 1803**) . سفينة **Philadelphia** و **Vixen** ذواتا **35** مدفعًا ، أخذتا تتبادلان نيران المدفعية مع السفن الطرابلسية . جنحت سفينة الحرب الأمريكية فيلادلفيا في المياه الضحلة ، لعدم درايتها بخصائص تلك المياه ولكونها أكبر سفينة في ذلك التاريخ . أسر طاقمها المكون من **300** بحّار . طلب والي ليبيا (بكلر بك) قره مانلي يوسف باشا من الولايات الأمريكية غرامات تقدر بـ **3** ملايين دولار ذهبًا وضريبة سنوية قدرها **20 000** دولار ، قائلاً بأن السفن قد أضرت ميناء طرابلس . كان الرأي العام في الأمريكية راغبًا في تسديد هذا المبلغ . مات **5** من البحارة الأمريكيين وأخلي سبيل **5** منهم بعد اعتناقهم الإسلام ، كان **290** بحارًا مسجونين في طرابلس . كان والي تونس (آذار **1782 - 6 / 9 / 1814**) محمد حموده باشا ، يطلب كذلك ضريبة سنوية من الولايات الأمريكية قدرها **10 000** دولارًا . أرسل حموده باشا الشخص المدعو منمنلي سليمان أغا الذي يجيد اللغة الإنكليزية إلى واشنطن للتفاوض حول هذا الموضوع . إن سليمان أغا الذي غادر تونس في **1 / 9 / 1805** بواسطة سفينة عقيد

البحر الأمريكي Rodgers المسماة Congress الذي جاء إلى تونس ، وصل إلى Hampton Road في 14 ت 2 وذهب مع معيته الأتراك إلى واشنطن . استقبله الرئيس توماس جفرسون (365, 6, Barbary Wars, Naval Doeuments) .

قابل سليمان أغا وزير الخارجية الأمريكي كذلك . كان يطلب إعادة السفينتين اللتين استولى عليهما الأمريكيون وعدا ذلك غرامات . وبالأخير تقرر إهداء سفينة أمريكية محملة بصورة مكثفة بمواد إنشاء السفن . زار سليمان أغا مع القنصل الأمريكي James L. Catchcart ، الذي عيّن في تونس ، موانيء بالتيمور ، فلادليفيا ، نيويورك وبوسطن ثم عاد إلى تونس (448, 428, 6, Barbary Wars) . كانت نفوس هذه المدن في ذلك التاريخ تتراوح بين 45 ألفًا و60 ألف نسمة . ولو كان منمنلي سليمان أغا قد حرّر مذكراته لسرد لنا حوادث شيّقة . حتى يمكن المقارنة بين المدن الأمريكية المتواضعة ومدن عثمانية كإستانبول ، أزمير ، تونس . رفض 3 أتراك من معيّة سليمان أغا ، لعودة واستوطنوا في أمريكا . اثنان منهم – أحدهم من أهالي قيصري والآخر من جزيرة كريت – عادا إلى إستانبول في 1817 بعد مكوثهما في أمريكا سنتين . وقدّما لقائد القوات أمير البحر تقريرًا عن الولايات الأمريكية . يجهل مصير التركي الثالث . ويحتمل أن يكون أول مسلم توطّن في أمريكا (457, 6, Barbary Wars) .
جاء سليمان آغا إلى تونس بواسطة السفينة الأمريكية FranKlin . سدّد قنصل الجزائر الأمريكي Lear ، في 1812 إلى الوالي (بكلر بك) آماسيا خواجة حاجي علي باشا ، 26 000 دولار ذهبيًا وهي آخر ضريبة سنوية . وهذه هي الضريبة الأخيرة التي تدفعها الأمريكية للعثمانية . تخلّصت أمريكا من كونها موضعًا للخراج بالنسبة للعثمانيين . لم يكن ذلك مهمًا بالنسبة للدولة العثمانية التي ألزمت كلاً من الإمبراطور الألماني ، رئيس جمهور البندقية ، والقيصر الروسي وأمثالهم بدفع ضريبة سنوية . إن الولايات المتحدة ، بالنسبة لنا اليوم ، تلفت النظر من ناحية وضعها الحالي . حسّنت معاهدة استانبول 7 / 5 / 1830 ، العلاقات بين الأمريكية والدولة العثمانية ووضعتها على دربها الصحيح .

أما قرصنة طرابلس فقد استمرت حتى 1826 . أمر محمود الثاني في هذا التاريخ ،

الوالي (بكلر بك) (24 / 1 / 1796 – ذ / 8 / 1832) قره مانلي يوسف باشا بالإرادة السلطانية التي أرسلها له ، بمنع القرصنة وإلغاء حامية الإنكشاريين الموجودة في الإيالة . لم يعص إنكشارية ليبيا كإنكشارية الجزائر وانتسبوا إلى عسكر النظام . ثم منع السلطان مجيد الرق كذلك في ليبيا . أرسل فرمانًا إلى طرابلس يأمر فيه تطبيق قواعد التنظيمات في الأيالة . لا زالت كلمة « Tripoli » (طرابلس) ترد حاليًا في نشيد البحرية المشاة (بالإنكليزية : marine) الأمريكيين .

21 – القوة البحرية في التنظيمات :

غيّر اسم قبودان دريا إلى « ناظر البحرية » في 13 / 3 / 1867 ، لكن واجباته لم تتغيّر أبدًا . كان قائدًا للقوة البحرية وعضوًا في الوزارة ووزيرًا للدفاع البحري . عيّن لهذا المنصب على الأكثر الأميرالات الكبار ، ولكن أحيانًا الجنرالات ، الماريشالات والمدنيين . أن آخر ناظر للبحرية حتى 3 / 11 / 1922 ، هو صالح خلوصي باشا ، الذي كان صدرًا أعظم أيضًا (3 مرات مجموعها 3 سنوات ، 9 أشهر ، 16 يومًا) . استمرت وزارة البحرية في العهد الجمهوري لمدة 3 سنوات تقريبًا (1924 - 1927) ، ألغيت هذه الوزارة بعد ذلك . صلاحياتها اليوم ، لدى رئاسة أركان الجيش ، وزارة الدفاع الوطني ، وقيادة القوة البحرية . بقي جمال باشا الشهير في هذا المنصب مدة 4 سنوات ، 7 أشهر ، 9 أيام (6 / 3 / 1914 – 14 / 10 / 1918) ، وعندما كان في الشام شغل المنصب ذاته كذلك . هناك شخصيات صدور عظام ورؤساء وزارة شغلوا منصب نظارة البحرية مثل محمود نديم باشا (1868 - 1871) ، أحمد أسعد باشا (1872، 1875) ، حسين عوني باشا (1873) ، علي رضا باشا (1909) ، رءوف (أورباي) بك (1918) . رءوف بك فقط من بين هذه الأسماء ، عقيد بحري والآخرون مشيرون (ماريشال) (محمود نديم باشا وزير مدني) . وفي 1876 - 1877 عين قيصريلي أحمد باشا ناظرًا للبحرية مرة أخرى بلقب « قبودان دريا » لمدة 8 أشهر . وقد ضرب الأميرال الكبير بوزجه آدالي حسني باشا الرقم القياسي بين قواد البحرية (قبودان دريا) ببقائه في منصبه مدة 20 سنة ، 7 أشهر ، 25 يومًا بالضبط (3 / 12 /

1882 – 27 / 7 / 1903) .

كان قادة القوة البحرية العثمانية في 1907 ,3 أميرالات كبار (مشير بحري) ، 5 فريق أول بحري ، 20 فريقًا بحريًا ، 17 لواء بحريًا ، 21 عقيدًا بحريًا . كان هذا أضخم عدد . كان بعض الأميرالات طبيبًا ومهندسًا (**سالنامه** ، **آتميشنجي سنه** ، ص 327 - 50) . أما في 1912 فقد قلّصت البحرية إلى فريق بحري و 5 ألوية بحرية . وفي 1875 ، عندما كانت البحرية العثمانية القوة العظمى الثالثة في العالم ، كان ملاكها 3 فرقاء أول ، 6 فرقاء ، 11 لواء ، 208 رواد ، مقدّما واحدًا ، عقيدا ، 704 ضباط ، 000 50 جندي وأميرالاً كبيرًا واحدًا احتياطيًا ؛ 21 دارعة ، 173 سفينة حربية أخرى (المجموع 080 225 طنًا و 816 مدفعًا) . كان ملاك الولايات الأمريكية وهي الدولة العظمى الخامسة في العالم عام 1875 ، في الوقت الذي كانت فيه 20 دولة فقط تملك قوة بحرية ، 275 163 طنًا ، وأسطول إمبراطورية ألمانيا التي كانت التاسعة هو 958 66 طنًا ، 357 مدفعًا ، 10 دارعات ، 41 من السفن الأخرى ، 4 لواءات ، 58 ضابطًا كبيرًا ، 622 ضابطًا ، 7061 جنديًا .

هبطت القوة البحرية العثمانية في 1914 بين 27 دولة تملك قوة بحرية، إلى الدرجة التاسعة ، كان مجموع حمولتها 097 127 طنًا (**سالنامه** ، 66 ,348 - 50) . ولو كانت قد تسلمت الدارعات التي دفعت أثمانها والتي كانت جاهزة في معامل انكلترا ، لزادت قوة البحرية بشكل ملحوظ . لكن إنكلترا وضعت يدها على السفن عند نشوب الحرب العالمية ، وكان هذا من أسباب اشتراك العثمانية في الحرب .

ولأول مرة في التاريخ العالمي استخدمت العثمانية الغواصة (بالعثمانية : تحت البحر) كسفينة حربية ، وأدخلتها ضمن أسطولها . رفعت الراية على غواصتي عبد المجيد وعبد الحميد اللتين صنعتا في معامل الخليج وأنزلتا في البحر في 5 / 2 / 1887 وفي 22 / 3 / 1888 بعد إجراء تجارب الغوص ، الارتفاع والسير . دخل الطوربيد كذلك الأسطول الهمايوني في دور عبد الحميد الثاني وقبل إدخاله إلى أساطيل دول كثيرة .

البحث الرابع عشر

الدين والقانون
العدالة والثقافة

1 ـ الدين :

كان دين الدولة العثمانية الرسمي الإسلام ومذهبها السنية ـ الحنفية . كان الاسلام دينًا للدولة ، والحنفية منهبًا لها . المذاهب السنيّة الثلاثة الأخرى (الشافعية ، المالكية ، الحنبلية) ، كانت مكانتها متعادلة مع الحنفية . كان البادشاه خليفة لأتباع المذاهب الأربعة وممثلاً للدين الإسلامي والأصح زعيمًا لجميع مسلمي العالم ، رمزًا للوحدة ، خليفة ، وخلفًا شرعيًا للرسول ﷺ ، وهو شخصيًا حنفي المذهب ، ومن الطبيعي أنه ليس بإمكانه التفريق بين المذاهب السنيّة الثلاثة الأخرى . لكل مذهب مفتٍ خاص به .

الحاكم الذي يسمى قاضيًا كان دائمًا حنفي المذهب ، ولكن إذا حدث أن طلب المدعي أو المدعى عليه ، النظر في دعواه بأحكام أحد المذاهب الفقهية الثلاثة الأخرى ، كان مضطرًا لتلبية هذا الطلب . وطلبٌ كهذا ، لم يكن يتكرر كثيرًا لكون الحنفية أكثر ليبرالية من المذاهب الأخرى .

لكن الدولة العثمانية كانت دولة عالمية عظمى . الدول العظمى تكون لها رعية من جميع الأديان والمذاهب . لم تكن في الدولة العثمانية قضية تمييز الوطن الأم ـ مستعمرة . لا يوجد تمييز كما في الدولة العالمية العظمى الرومانية ، مواطن روماني ـ أجنبي ولا كما في الدولة الأموية العظمى ، عربي ـ عجمي ، ولا كما في الدولة العظمى بريطانيا ؛ مواطن بريطانيا العظمى والمستعمرات . كان كل أتباع الدولة سواسية . كانت توجد بعض فروق من الناحية الوظيفية ، لكن ذلك لم يكن يولد فروقًا حقوقية من شأنها أن تولد وضعًا منافيًا للحق البشري .

إن والي الإيالة (بكلر بك) الذي يكون حنفيًا على الدوام ، كان يقوم بإدارة بلاده بتوافق وانسجام تامين مع إشراف تلك الإيالة سواء كانوا شافعية أم مالكية أم حنابلة . ولكن يلاحظ أن بعض السلاطين عرضوا على رجال الدولة الشافعيين الذين شغلوا مناصب رفيعة في إستانبول ممن هم من أصل عربي وكردي ، التحول عن مذاهبهم والانتساب للمذهب الحنفي . أما أكثرية السلاطين ، فلم يفعلوا ذلك . وعمومًا فإن الفروق بين المذاهب الأربعة لا تزيد على كونها فروقًا جزئية .

كان للإمبراطورية رعايا من غير السنّة أيضًا . من الصحيح أنهم ليسوا كثيرين ،

لكنهم على كل حال موجودون : الزيديون الشيعة في اليمن ، الإثنا عشرية أوالجعفرية الشيعة في العراق ، الخوارج العباديون في بعض أماكن من الجزائر وتونس ، الدروز في لبنان وسوريا ، الإسماعيلية الشيعة (الشيعة السبعيّة) في بعض المناطق ، النصيريّون ، العلويّون ... ما وضع هؤلاء ؟ لقد كان في استطاعتهم جميعًا ممارسة معتقداتهم بكل حرية ، لا تمارس الدولة أي ضغط أو تدخل في شعائرهم ومعتقداتهم ، وبإمكانهم تدريس أصول فقههم الخاص في مدارسهم الدينية ، وأشهرها المدرسة الشيعية العالية في النجف التي سمحت الدولة العثمانية بتدريس الفقه الشيعي فيها بمستوى جامعي دون اعتراض . لكن المسلم غير السني ، لا يصبح موظفًا مهمًا ، ولا تعطى له أية وظيفة في المركز (إستانبول) . إما عليه أن يكون سنيًا ، أو عليه أن يخفي معتقده ويتظاهر بأنه سنّي . إن هذا يبدو مخالفًا لنظرتنا الحالية ، لكن كان هذا هو الواقع . وفي العالم أجمع كان الوضع كذلك . كان هذا وضع الكاثوليك في إنكلترا حتى القرن 19 ، ووضع البروتستانت في أسبانيا حتى القرن 20 ، لا يوظفون في الدولة . والحقيقة ، إن عقلية الدولة العثمانية ، كانت لا تبالي بكون قسم من رعاياها علويين ، شيعة ، خارجيين . ولو كانت تبالي بذلك ، لضغطت ، وحاولت بشتى الوسائل أن تحولهم إلى سنّة . شيئًا كهذا ، لم يحصل في أي دور من الأدوار . إن عدم توظيفهم في خدمة الدولة لم يكن بسبب تباين أساليبهم في الاعتقاد ، إنما كانت الخشية من نفوذ أذناب وجواسيس الشاه إليهم ، وبالفعل ابنثوا بينهم . إذ إن الدولة الإيرانية الصفوية ، كانت تركية كذلك . كانت تعترف بالشاه إمامًا . لم يعدم الشاعر الشعبي بير سلطان لعدم قبول العدول عن مذهبه العلوي والشيعي ، إذ إن الإمبراطورية كانت تحتوي على مئات الألوف من الرعايا ، أصحاب هذا المعتقد ، وإنما أعدم لأنه كان يحرض شعب الأناضول على الانفصال عن خاقان – خليفته وإطاعته الشاه – الإمام الصفوي ؛ إذ إن الدولة الصفوية ، أسسها نصف مليون تركماني جلبه اسماعيل من الأناضول وأدخلهم في المذهب الشيعي بعد أن كانوا سنّة . إن انفصال إخوتهم هؤلاء سبّب الأذى للعثمانية وللشعب الأناضولي .

كان عدد رعايا الإمبراطورية المسيحيين كبيرًا ، والذين يشكلون كثافة سكانية كبيرة هم الأرثوذكس ، وعدد غير قليل من الكاثوليك ، وقليل من البروتستانت . كانت هناك أقلية من الموسويين أيضًا . وسأشير فيما بعد إلى هؤلاء . كان في أفريقيا جماعة

من رعاياها عبدة الأصنام ، عبدة الطبيعة animist ، فتيشيون Fatichist ، ومعتنقو مذهب الطبيعيين naturalist . تركت الإمبراطورية هؤلاء على حالهم . الحقيقة أن العثمانية حقّقت خدمة كبيرة في نشر الدين الإسلامي في أفريقيا . لكن الاهتداء إلى الإسلام كان يحصل دون ضغط ، بالقدوة والإيمان . إن أساليب المبشرين الأوروبيين التي غالبًا ما تتحول إلى وسائل دموية ونارية ليست لها علاقة بطرق تلقين الدين التي يتبعها رجال الدين العرب والأتراك . لم يُشاهَدْ لدى مسلمي العرب ولا لدى مسلمي الأتراك ، تلقين للدين جرى بالدم والنار . وحتى كان للإمبراطورية رعايا من البوذيين (مثل الكلموكيين المغول في منطقة الخزر) . كانت توجد قبائل شامانية وحتى قبائل مجهولة المعتقد .

كانت للعثمانية علاقة بالهند وبسبب ذلك بالدين البراهمي (هندو) أيضًا . كانت لا توظف غير المسلم – عدا استثناءات – ولا تدخله إلى السلك العسكري . لكنهم كانوا اتباعًا للدولة ، وجميع حقوقهم بكاملها تحت رعاية وحماية الدولة .

هل جميع الأتراك ، أي المتكلمين باللغة التركية حنفية – ما تريدية ؟ كلاًّ ! جميع الأتراك السنة هم حنفيون . بالإمكان ، إذا ما رغب في ذلك ، تثبيت أسماء الشافعيين ومنتسبي المذهبين الآخرين الأتراك الأصل فردًا فردًا لكن كل هذه أوضاع شخصية واستثنائية . إلاّ أنه كان هناك أتراك شيع وليسوا سنة . أدخل الشاه إسماعيل الشيع بين الأتراك وولد فُرقة كبيرة . لم تهضم العثمانية ذلك في أي وقت من الأوقات . كان هناك أيضًا أتراك غير مسلمين (ديانة كوك نتكرى ، شامانيون، بوذيون، نسطوريون أو المسيحيون الأرثوذكس أو الكاثوليك الموسويون). لكن عددهم كان قليلاً جدًا وكلهم تقريبًا كانوا خارج المجتمع العثماني . إن عدد الأتراك غير المسلمين أقل بكثير من عدد العرب غير المسلمين .

سمّت العثمانية المسيحيين الذين ليسوا من أتباعها « كافرًا » وبصيغة الجمع « كفّارًا ، كفرة » لم يكن هذا اللفظ لأجل التحقير ، وإنما للتعبير عن فكرة « بربري ، تعني أجنبي ، ليس من تبعة الدولة العلية » . وهي تماثل « بربري » التي يطلقها الرومانيون على غيرهم من الشعوب ، و « عجم » التي يطلقها الأمويون على غير العرب .

الإسلام بالنسبة للعثماني التركي ، دين الحق . وهو حاليًا كذلك . يؤمن بهذا الدين وبجميع شعائره وأركانه بإخلاص وولاء . وهو حاليًا كذلك . يؤمن بأنه ليس هناك شيء ، أو رأي أو معتقد أسمى من الدين . البادشاه ، حامي هذا الدين ، خادمه ورئيسه . حامي الدولة والنظام . الدولة وكل شيء ملك للبادشاه . البادشاه مقدس ما دام لا يخرج على الدين . يجلس على عرشه بإرادة الله ، هو « ناظم عالم » أي منظم العالم . يختل النظام عند انتفاء وجوده ، يفقد الدين كما تفقد الديانة . هذا هو تفكير العثماني . مستند على الدين وعلى البادشاه .

والحقيقة أن الوضع الواقعي لم يكن كذلك بالضبط . إن هذا الحكم يحتمل أن يسبب الأذى لكثير من المسلمين من الناحية الدينية ، وكثير من الأتراك من ناحية البادشاه . لكن تمييز الوضع النظري والوضع العملي الواقعي من واجبات المؤرخ .

ما الوضع الواقعي بالنسبة للعثماني ؟ ، « الدولة » فوق كل شيء . إن زالت « الدولة » يزول كل شيء . البادشاه مقدس ، الدين أكثر قدسية لكن ، إن لم تكن الدولة ، يداس البادشاه وكذلك الدين تحت الأقدام . لا يحول هذا المعتقد إلى الصيغة اللفظية دائمًا ، لكن ، هذا هو شعور العثماني . والحقيقة أن الدولة وجدت لصيانة وحفظ رعاياها المسلمين ، الأمة ، الملّة الإسلامية وخدمتها ومنحها السعادة . والبادشاه ، هو رمز الوحدة الذي لا يستغنى عنه ، لكل ذلك . إلاّ أنه أمكن تأمين كل ذلك ، بفضل الدولة . ولأن مفهوم الدولة – بالنسبة لتلك العصور خاصة – مفهوم مبهم ، كثيرًا ما حدث وأطلق على الدولة اسم بادشاه . ولو قرئت الوثائق بقليل من الانتباه ، لاتّضح فورًا أن البادشاه المنوه عنه ، يعني الدولة وليس شخص البادشاه . وبناء على ذلك ، من الجائز أن يتضرر البادشاه في سبيل إعلاء شأن الدولة . لا يمكن إيذاء الدين ولكن ، من الممكن تشريع أحكام أخرى للدولة بدلاً من الأحكام الدينية . وقد تكون هذه الأحكام أكثر فاعلية في إعلاء شأن الدين . ومن هنا يمكننا الانتقال بسهولة إلى نظام الحقوق العثماني .

2 – **الحقوق (القانون)** :

الدولة العثمانية ، ليست دولة دينية ، فهي لكي تكون كذلك كان يجب أن تتكون

من المسلمين فقط . يوجد نظامان حقوقيان : الشريعة ، وهي في غنى عن الإيضاح ، والنظام الذي يسميه العثماني « سلطاني » وعلى الأكثر « خاقاني » ، وهو نظام تركي قديم . يمكن به تشريع أحكام لا توجد في الشريعة ووضع قوانين باسم الخاقان لحماية مصالح الدولة وكذلك مصالح الدين العليا . بشرط ألاّ تكون متعارضة مع الشريعة . كان القانون يعلن باسم الخاقان ، وبسبب عدم وجود مجلس أمة ، وبناء عليه ، فإن الحق التشريعي يتم إعماله باسم الخاقان .

طبّق الفقه الحنفي بصورة كاملة تقريبًا في القانون المدني . ولكن وضعت أحكام ونشرت قوانين جديدة في المجالات كالجزاء ، الضريبة والسياسة . وأساسًا كان مبدأ **الاستحسان** في المذهب الحنفي **والاستصلاح** في المذهب المالكي ، يوفران تسهيلاتَ وراحة وحرية لمن بيدهم الصلاحيات التشريعية في الدولة ، وأبدع الأمثلة لذلك هي القوانين التي أمر القانوني بوضعها ، وأعدها شيخ الإسلام أبو السعود أفندي . أمكن بها ، بدهاء قانوني خارق تلبية احتياجات الدولة العالمية العظمى لذلك العصر بشكل لطيف جدًا دون معارضة أحكام الشريعة .

لم يفارق القانون العثماني الذي لم يهمل وضع تدابير قانونية حتى لحماية الحيوانات ، الفقه الحنفي في مجال القانون المدني ، حتى 1926 . ظلّت **مجلة أحكام عدلية** (مجلة الأحكام العدلية) التي دونها جودت باشا ، نافذة المفعول حتى السنين الأولى للجمهورية وهي حاليًا نافذة المفعول لدى بعض الأقطار الإسلامية . إنه سجل مبدع يبين درجة ملاءمة الفقة الحنفي للأزمنة الحديثة . إن شرح نظام القانون العثماني ، يضخّم جدًا حجم كتابنا . إلاّ أن حوادث وأوضاعًا كثيرة سواء في التاريخ السياسي أو في التاريخ المدني ، يمكن أن تقدم لنا فكرة واضحة عن هذا النظام . يمكننا أن نقول باختصار ، بأنه نظام قانوني أكثر ليبرالية وأفضل صيانة لحقوق الإنسان من أي نظام آخر في العالم ، وإنه طبّق بجدارة ، وبخاصة في دور العظمة . وإن رأي المؤرخين الأوروبيين في هذا الشأن ، هو كذلك أيضًا .

3 ــ المسيحيون والموسويون :

كان للدولة رعايا من المسيحين منذ عهد تشكيل الإمارة الحدودية (أوج بكلكي)

كان المجريون يشكلون أكبر جماعة كاثوليكية من رعايا الإمبراطورية . لكنهم عاشوا تحت رعاية العثمانية مدة تقل عن القرنين . وبقية الرعايا الكاثوليك هم الخرواتيون ، السلوفينيون ، قسم من الألبانيين ، قسم من الرومانيين والعرب المارونيين في لبنان والسلوفاك . لم يكن عددهم كبيرًا . قسم من الأرمن كذلك اعتنقوا الكاثوليكية . أما الرعايا البروتستانت فكانوا أقلّيات صغيرة ، عدا مجر ترانسيلفانيا .

إن محافظة جميع الأديان والمذاهب على كنائسها بكامل تشكيلاتها ، وعدم وضع أي تحديدات على العبادات أو مراسمها ، كان مبدأ للعثمانية لا يتغير منذ بدايتها إلى نهايتها وأصبحت قدوة في هذا الشأن للعالم أجمع . « الحقيقة التي لا يمكن أن تنكر ، هي أن العثمانيين هم أول شعب اتخذ مبدأ إطلاق الحرية الدينية كحجر أساس عند تأسيس دولتهم في العصور الأولى » (**63, Gibbons**) . كتب العلامة الفرنسي **Bodin** في أواخر القرن 16 ، أنه أوصى مليكه ، بأن يدير فرنسا كالدولة العثمانية وأن البادشاه هو ليس فقط رئيسًا للدين الإسلامي ، وإنما هو في الوقت نفسه رئيس للأرثوذكس ، الكاثوليك والموسويين الموجودين في إمبراطوريته ، وإنه يعامل أتباع هذه الأديان الأربعة بالمساواة ويقسم النعم عليهم بالتساوي (**655, 5, Discours**) . والمعلوم أن **Bodin** (**1520 - 1596**) ، يعتبر مؤسس القانون الدولي في أوروبا . يقول **Chènier** الإيطالي الجنوي « أظهر الأتراك تفهمًا عاليًا وتسامحًا مطّردًا تجاه جميع الأديان » (هامّر ، **350, 15**) .

حوادث القتل ، الحرق في النار ، إشعال الحريق مجهولة في العثمانية . لا تعدم المرأة . إذا ارتكبت ذنبًا تجاه البادشاه بصورة مباشرة ، تخنق وتلقى في اليم . لا يجري تحقيق ديني . لا يعاقب أي شخص لأسباب دينية فيما عدا الإعلان بالكفر بالإسلام . وأيضًا لا يجوز لأحد ادعاء النبوة ، فعقوبتها الإعدام . يوجد من عوقب ، أعدم من الرهبان ، لأسباب سياسية كخيانة الدولة . لم يعاقب أي أحد منهم لفعل ديني .

تحل كل الجماعات غير المسلمة دعلواها المدنية فيما بينها بواسطة كنائسها . يمكنهم مزاولة التعليم في كنائسهم بلغاتهم الخاصة . إلا أن الدعلوى الجزائية ، ينظرها القاضي . وينظر القاضي كذلك في الدعاوى القائمة بين مسيحي ومسلم . وفي هذه الحالة يعمّق

التي هي نواة إمبراطورية أرطغرل بك (1231 - 1281) . كان لديها رعايا منهم كذلك في نهاية الإمبراطورية 1922 . وتوجد حاليًا كذلك أقليات مسيحية في تركية والأقطار الإسلامية التي انفصلت عن العثمانية . ويوجد موسويون كذلك . ولكن أكثرية الموسويين المستوطنين في الموانئ التركية الكبيرة مثل استانبول ، سلانيك ، أزمير ، هم اليهود الذين أخرجوا من إسبانيا والبرتغال ورفضت الأقطار الأوروبية الأخرى دخولهم ، وقبلهم بيازيد الثاني – الذي يتهم بأنه مسلم متعصّب – في الدولة العثمانية ، وهؤلاء يتكلمون إحدى اللهجات الإسبانية . وجاء كذلك يهود أوكرانيا الذين هربوا من مظالم الروس الأخيرة . لكن عدد هؤلاء قليل . واليهود الألمان (بيدش) الذين يتكلمون الألمانية ، أقل من ذلك . أما اليهود الناطقون بالعربية ، فكانوا في البلاد العربية ، مثلاً ، في اليمن ، في الجزائر ، في مصر .

لكن أكبر أقلية غير مسلمة في الدولة العثمانية في جميع الأوقات ، كانت المسيحيون الأرثوذكس . كان مقر زعيمهم المسمى « البطريرك العالمي = Patrik Okumenik » في استانبول . أباطرة البيزنط ، كانوا يتبعون للبطريرك وحماة الدين الأرثوذكسي . تقبّل فاتح بصورة رسمية كلا من هاتين الصفتين . ثم استمر السلاطين الذين تلوه على ذلك . كان قلق فاتح واضحًا في ترك الأرثوذكس مذهبهم وانتمائهم إلى الكاثوليكية وإلى البابا ، وقد أظهر ذلك مرارًا عديدة . وبناء على ذلك ، فقد امّنت الدولة للرعايا الأرثوذكس شروطًا أفضل مما كانوا عليها في العهد البيزنطي سواء كانوا ينطقون باليونانية (الرومية) ، أو بلغة أخرى . عاشوا بالأمن والرفاهية التي كانوا يعيشونها في عهد جوستينيان ، بفارق واحد ، هو عدم اشتراكهم في إدارة الدولة . كانوا يتعلمون اللغة التركية ، ولكن كان يشترط لأجل التوظف في الدولة ، أن يكون مسلمًا سنيًّا . كانوا يُستخدمون في وظائف رسمية أو شبه رسمية كالترجمة والطب . إصلاحات عام 1856 ، أزالت هذا الفارق أيضًا . فتحت لغير المسلمين في الـ 66 سنة الأخيرة للإمبراطورية ، أبواب جميع الوظائف الرسمية للدولة عدا الوظائف العلمية (علماء الدين) والعسكرية . إذ لا يمكنهم أن يصبحوا ضباطًا . عيّنوا في كل الوظائف عدا الصدارة العظمى . صاروا نظارا للخارجية ، نظارًا للمالية . كثيرون منهم منحوا أعلى المراتب كوزير وبالا . صاروا سفراء وولاة إيالة .

القاضي التحقيق لصيانة حق المسيحي تحوطا من التطرّف . وبعد 1856 ، أصبح المسيحيون كنلك حكامًا « لا يمكن تعريف التسامح الذي كان يظهره الأتراك تجاهنا نحن المسيحيين ، ولا يمكن أن يكون سبب ذلك ، إلا إيمانهم الذي لا يتزعزع بالإسلام » (ماريشال فون مولتكه ، 1837 ، ص 90 - 1) . والحقيقة أن التنصّر في العثماني ، ينحصر في عدة حوادث . يدعى المتنصّر إلى الإسلام ، يعدم في حالة رفضه . لا يستثنى من هذا الحكم من كان مهتديًا في السابق . لا يجوز زواج أية بنت أو امرأة مسلمة بغير المسلم ما لم يهتدِ . إن امرأة كهذه تقتل خنقًا في حالة عدم انفصالها وتوبتها .

يجب قراءة صور المعاملة التي كانت تعامل بها المذاهب المتنافسة مع بعضها في أوروبا في نفس العصر ، في الكتب الأوروبية . والفرق بينهما ، يبين عظم ما جاءت به العثمانية من مبادىء حديثة . إن هذه المبادىء الرصينة ، استعملت ضد العثمانية في دور الانحطاط ، بصورة دنيئة

ومما يدعو إلى الدهشة ، أن مقاومةاختلاف الدين لدى الشعب المسيحي المحلي ، كانت محدودة للغاية إذ إن الشعب المسيحي ، كان ممتنًا للحرية الدينية التي منحها له الأتراك والتي كانت مجهولة في أوروبا في ذلك العصر ... كان الأمن مختلا قبل مجيء الأتراك ، وفي بلادهم أنفسهم . العثمانية كانت تجلب الهدوء والأمن . عادت الشعوب البلقانية تعيش في أمن كانوا قد نسوه منذ عهد بعيد . عصى المجر فقط ولمرة واحدة في العهد العثماني و لم يكن ذلك تجاه الإدارة العثمانية ، وإنما كان تجاه الإقطاعيين المجر . كان الأتراك قد قضوا على قطعان الصعاليك « حيدود » (هذه الكلمة مجرية وانتقلت إلى اللغة التركية ، وجمعت على القاعدة العربية على شكل حياديد) التي كانت تذيق المجر الأمرّين قبلهم . القرويات ، كن يضعن أثمن ما لديهن من الزينة بكل حرية . كان الجندي العثماني الذي يتقاضى راتبًا كبيرًا ، من خيرة عملاء القرويين . كانت الضرائب العثمانية ، أخف بكثير من الضرائب البيزنطية . لم يكن يجبى من المسيحيين سوى الضريبة الإسلامية التى تسمى « جزية » وفي مقابل ذلك ، كان المسيحيون يعفون من الجندية ، لا تسيل دماؤهم كما كانت في العهد البيزنطي ، كانوا يتكاثرون بطمأنينة . لم يكن المسيحي يشترك في الإدارة العثمانية ، لكنه في حالة اعتناقه الإسلام ، كان

ينال هذا الحق ، ويحق له أن يكون صدرًا أعظم . هناك صدور عظام كثيرون كانوا ممن أسلموا حديثًا . الأتراك ، شعب غير استعمارى بطبيعته من ناحية السمات التاريخية ، استعمر ، لكنه لم يستغل . لم يمسوا أراضي القروي المسيحي ، لكنهم أخذوا الأراضي الواسعة التي كانت تحت سيطرة الإقطاعيين المسيحيين وأعطوها إلى خيالتهم السباهيّة (تمارلي) . ولم يمسّوا مخزنًا أو محلاً يخص المسيحيّين في المدن . كانت توجد في المدن الكبيرة وبخاصة في استانبول ، جماعة من المسيحيين وبخاصة من الروميين ، أغنياء إلى درجة أنهم كانوا يعيشون في غاية الرفاهية حتى أن زوجاتهم كن يلبسن اللباس والزينة التي لا تختلف عن لباس وزينة الأميرات الأوربيات . لم ينظر الأتراك إليهن نظرة سوء (لم يقع ولا حادث واحد من هذا القبيل) . كان هناك مسيحيون من كبار التجار ، أصحاب السفن ، أصحاب البنوك والمقاولين . خصصت العثمانية لهؤلاء حرسًا من الإنكشارية لصيانة ممتلكاتهم . احتل البنادقة بعد هزيمة فيينا ، جزيرة ساقيز لفترة قصيرة وموريا لمدة أطول . ارتكبوا ظلمًا شديدًا إلى درجة أنه عند عودة الإدارة العثمانية إلى هذه الجزر ، استقبل شعبها الأتراك بسرور صادق وأقاموا الاحتفالات والأفراح (Fernard Grenard **Grandeur de l'Asie**, 126 - 8) .

« مما لا شك فيه أن الأتراك لم يحاولوا إزالة دين وحضارة شعوب الأقطار التي فتحوها » (Pirenne, 2, 312) . وبينما ينظر المسيحيون في دعاواهم المدنية في محاكمهم الكنسيّة ، كان الرهبان يطبقون بعض القوانين العثمانية ، فمثلاً ، يحولون دون انقسام الثروة بمنحهم الرجل مثل حظ الأنثيين (A. Soloviev 559, 3, 1938 **Revue** ، **Internationale des Etudes Balkaniques**) .

كان في الإمبراطورية ، وبخاصة في الموانيء أوروبيون كثيرون ليسوا من رعايا العثمانية . كان هؤلاء آمنين في الأراضي العثمانية . الدولة كفيلة بحماية جميع حقوقهم . يتاجرون ، يزورون الأماكن الدينية ومنهم من يأتي لغرض السياحة فقط (37, 5, d'Ohsson) . كتب John Moritt of Rokeby ، بأنه قدم إلى استانبول عام 1794 عندما كان في سن 22 ، وتجول بين الأتراك بحرية كتجواله في لندن ، بل ولقي مساعدة كبيرة (**The Letters** ، لندن 1914 ، ص 67 ,70) .

العثمانية ، كانت تحترم كذلك الآثار الحضارية الموجودة في أراضيها . في العصر 19 فقط تم طلاء الموزائيك الموجود على جدران وسقف جامع أيا صوفيا الذي يتصدر المكانة الأولى في البروتوكول العثماني من 1453 إلى 1922 ، لم يمح ولم يحفر ولم تزل آثاره . توجد توجد حجارة مزيّنة بتزيينات خارقة للعادة ، قرب جامع في حلب ، يتفرج المسلمون عليها بسرور من بقايا كنيسة القديسة هيلينا . طلب القناصل الأجانب شراء هذه الحجارة بما يعادل وزنها ذهبًا . أفاد الباشا والي (بكلر بك) حلب بأن الحجارة باقية هناك منذ عهد قسطنطين الكبير ، وأنها ستستمر في مكانها (**Voyages,** 1, 123 - 4 Tavernier) .

كان البطاركة ، رؤساء الأساقفة ، الأساقفة ضمن قائمة التشريفات الإمبراطورية حتى نهايتها . كان أهمهم البطريرك الأرثوذكسي المقيم في سراياه الكائنة في فنر Fener . كان بدرجة وزير ، منح الوسامين العثماني والمجيدي المرصعين . كان لبطاركة أنطاكية والقدس أوسمة المجيدي من الدرجة الأولى وكان البطريرك الأرمني يحمل وسامي العثماني المرصع والمجيدي من الدرجة الأولى . وبطريرك الأرمن الكاثوليك ، يحمل وسام المجيدي الأول . منح جميع المطارنة أوسمة المجيدي الثالث ، وقسم منهم الثاني والأول .

4 – علماء الدين (العلمية) :

يطلق علي منتسبي صنف العلمية « علماء رسوم » . إذ كان هناك علماء ممن لا ينتسبون لهذا الصنف أي ليسوا رسميين ، وليسوا في خدمة الدولة . أكبر الكتاب نشأوا من بين منتسبي الصنف الأخير هذا (كاتب جلبي ، أولياء جلبي ، عالي ، بجوي ، مستقيم – زاده ، إبراهيم حقي وألوف آخرون ليسوا من صنف علماء الرسوم أي من صنف العلمية) .

يسمى موظف الدولة في النظام العثماني « عسكري » . واستعملت هذه الكلمة بعد ذلك للصنف العسكري فقط . كان موظف الدولة المسمى « عسكري » ، 3 أصناف علميّة ، سيفيّة (الذين انفردوا بعد ذلك باسم عسكرية) وقلميّة (الذين أطلق عليهم بعد ذلك اسم ملكية) .

ولتحقيق الخطوة الأولى إلى مرحلة صنف العلمية ، يجب الحصول على شهادة (رءوس) من القسم العالي للمدرسة و لم يحدث أي استثناء لذلك . والمرتبة الأولى ، هي التدريس في مدرسة (مدرسة دينية) متوسطة الدرجة ، أو النيابة أي مدير لناحية أو حاكم أو قاضٍ لها .

صنف السيفيّه ، هو الصنف المحارب ، كان متخرجو مدارس السراي المتوسطة الدرجة ومتخرجو الأكاديميات العسكرية المسماة أندرون همايون يرتقون بسرعة ، لكن ذلك لم يكن شرطًا . كان الشخص في الفترة الكلاسيكية يرتقي المراتب من الجندي البري أو البحري ويمكنه أن يصبح باشا ، وزيرًا ، صدرًا أعظم . كان يوجد بين هؤلاء من لا يجيد القراءة والكتابة . وكانت الخدمات الملكية (المدنية) ملقاة على عاتق هذا الصنف كذلك . لم يميّز بين هذين الصنفين حتى إصلاحات محمود الثاني الجذرية عام 1826 .

كان صنف القلمية يكّون بإدخال معاون كاتب إلى إحدى دوائر الدولة ، كان يجب على الشاب أن يكون قد أتم دراسته الابتدائية ، وحصل على بعض المعلومات بصورة خاصة ، أو قد أنهى أحد فروع المدرسة أو الجامع . وكا يُتم تحصيله المتبقي في الدائرة التي ينتسب إليها من دوائر الدولة . إن معلومات مثقفي هذا الصنف ، كانت بصورة عامة أرقى من معلومات مثقفي صنف العلمية (علوم الدين) . إذ إن تحصيلهم كان أوسع . ولكن لم تكن لديهم شهادات بصورة رسمية حتى العصر 19 . كانوا يختصون بالدرجة الأولى في فروع المالية والخارجية ، أو مكاتبات الدولة المسماة نيشا نجيلك . بالإمكان أن يصبحوا وزراء وصدورًا أعظم في حالة تدرجهم في المراتب وترقيتهم . إن محمود الثاني الذي قلّص بصورة واسعة عمل صنفي العلميّة والسّيفيّة بعد 1826 ورشيد باشا الذي اتبعه في ذلك ، أطلق على هذا الصنف اسم ملكية أي مدني ، وأصبح المجال الأوسع في وظائف الدولة من اختصاص هذا الصنف . وعهد إلى هذا الصنف بالوظائف التي كانت سابقًا في عهده صنف العلمية كالمعارك ، العدلية ، البلدية .

كان يشترط في صنف العلمية إجادته اللغة العربية . وكان الراغبون يتعلمون الفارسية أيضًا . ولا يمكن الارتقاء – بالنسبة لصنف القلمية – دون إجادة هاتين اللغتين معًا . أما الجيش ؛ فكان لا يجيد لغة أجنبية ، ما لم يتعلم لغة البلاد التي يمكث بها . يستثنى

من هؤلاء متخرجو مدارس الأندرون أو الذين يجيدون اللغتين العربية والفارسية لرغبتهم الخاصة في ذلك . أما أصناف المغاوير والقراصنة ، فكثيرون منهم يجيدون اللغات الأوروبية بصورة عملية .

أيّ نظام ذلك الذي لا يبحث عن شرط معرفة القراءة والكتابة في الصدر الأعظم ، ولكنه يشترط الشهادة العالية حتى في الذي يخطو الخطوة الأولى لصنف العلميّة ؟ صنف العلمية ، كان يدرّس ويتولى القضاء لذا كان يشترط فيه تحصيل عال . فمثلاً ، كان يجب على القاضي أن يكون مجهزًا بمعلومات عن فقه المذاهب الثلاثة الأخرى إضافة إلى الفقه الحنفي ، وإن لم تكن بنفس الدرجة ، لا تشترط شهادات (رءوس) عالية للتدريس في المدارس الابتدائية أو لإمامة مسجد أو لوظائف صغيرة في الجوامع . لكنها ضرورية لموظفي الجوامع الكبيرة . العلماء ، هم ليسوا كهنة ورهبانًا كما في الدين المسيحي . إذ إن كل عبد في الدين الإسلامي ، يمكنه الاتصال بالله رأسًا . ولا يحتاج ذلك إلى راهب ، كما في الدين المسيحي . كان العلماء ، هيئة مدرسين وقضاة . ورغم ذلك، كانت لهم امتيازات لم تعط للأصناف الأخرى . لا يمكن إعدامهم ، ولا يمكن سجنهم . كان بالإمكان عزلهم ونفيهم فقط . كان لا يمكن الحكم بالإعدام ، حتى على المراتب الأولى من صنف العلمية . والذين أعدموا – وهذا نادر – أخرجوا أولاً من سلك العلماء وأعطيت لهم رتبة عسكرية .

اكتفى صنف العلمية في التنظيمات ؛ بالخدمة في الجوامع ، المدارس (الدينية) ، محاكم الشرع (التي كانت تنظر فيها دعاوى المسلمين المدنية فقط) . استمرت على هذا المنوال إلى النهاية .

5 – شيخ الإسلام :

كان شيخ الإسلام في النظام العثماني موظفًا كبيرًا في الدولة وهو الموظف الثاني بعد الصدر الأعظم ، ما عدا منتسبي السلالة العثمانية. هو رئيس صنف العلمية . منح هذا العنوان لمفتي العرش عام 1425 وبدأت المؤسسة المسماة « المشيخة » أو « المشيخة الإسلامية » . ولكن نفوذ شيخ الإسلام بصورة تامة ، تبلور في العصر 16 . إن لفظ

« مفتي أفندي » أو « مفتي الأنام » بشكل مطلق ، كان يعني « شيخ الإسلام » . مرتبة المشيخة تعادل مرتبة الصدارة وتفوق مرتبة الوزارة . منحت هذه المرتبة لـ 3 قضاة عسكريين دون أن يكونوا شيوخ إسلام . قتل أو أعدم 3 شيوخ إسلام . أصبح شيخ الإسلام بعد التنظيمات ، كأحد النظّار ، وأصبح في التشريفات ، عضوًا ثانيًا في الوزارة بعد الصدر الأعظم . وجعلت وظيفته منحصرة في الأمور الدينية والتدريس الديني . وانطوت مع الإمبراطورية العثمانية في طيات التاريخ .

عين لهذا المقام من عام 1425 إلى 1922 ,131 شيخ إسلام (175 دفعة) . 38 منهم ظلّوا في هذا المقام ، أكثر من 4 سنوات والذين ظلّوا أطول مدة هم بالتسلسل : أبو السعود أفندي 28 سنة ، 10 أشهر ؛ ملافّخر الدين 24 سنة ، زنبيلّي علي أفندي 22 سنة ، 8 أشهر ، ملاّخسرو 19 سنة ؛ يحيى أفندي 18 سنة ، وشهران ، 24 يومًا (3 مرات) ؛ جمال الدين افندي 17 سنة ، 11 شهرًا ، 13 يومًا (مرتان) ؛ مكي – زاده عاصم أفندي 17 سنة ، 7 أشهر ، 18 يومًا (3 مرات) . أنجبت أكثر من 17 عائلة علماء ، أكثر من شيخ إسلام واحد : من عائلة خواجه – زاده 7 شيوخ إسلام ، 34 سنة ، 8 أشهر ، 7 أيام ، من عائلة أبي السعود — زادة شخصان ، 34 سنة ، 5 أشهر ، 8 أيام ، من عائلة فيض الله — زادة 3 أشخاص : 21 سنة ، 8 أشهر ، 24 يومًا ، من عائلة دري — زاده 6 أشخاص : 20 سنة ، 11 شهرًا ، 27 يومًا ؛ من عائلة بايرام — زادة شخصان 19 سنة ، 4 أشهر ، 27 يومًا ؛ من عائلة مكّي – زاده شخصان 19 سنة ، وشهر ، 14 يومًا ؛ عائلة أبي إسحق – زاده 5 أشخاص 9 سنوات ، 6أشهر ، 6 أيام ...

متوسط المدة لشيخ الإسلام الواحد ، 3 سنوات ، 10 أشهر . 9 من 131 من شيوخ الإسلام من أصل غير تركي (عربي ، بشناق ، كرجي ، شركسي ، ألباني) . آباء وأجداد أكثريتهم العظمى من صنف العلمية ، بعضهم قضاة عسكريون وحتى شيوخ إسلام . أكثرية شيوخ الإسلام ، أصلهم من العائلات الإستانبولية ساكنة الأناضول الغربية والوسطى . رغب أتراك روملي في السلك العسكري ، أكثر من رغبتهم في سلك العلمية . ويوجد بين شيوخ الإسلام جماعة ممتازة من العلماء ، الكتاب ، الشعراء ، الخطّاطين ، الملحّنين ، الحقوقيين ، رجال دولة كبار . الشخصيات الوسط قليلة . عديمو الكفاءة قليلون جدًا . إذ إن اعتلاء مقام المشيخة كان يتم بعد تدريب شاق .

كان شيوخ الإسلام الذين بدرجة قاضي عسكر روملي يعينون من قبل البادشاه . غالبًا من بين الذين شغلوا وظيفة قاضي عسكر روملي . وحتى 1589 ، وأيضًا حتى 1601 ، كان شيخ الإسلام « يعزل » ويعيّن في المشيخة مدى الحياة . نفي قسم منهم بعد ذلك إلى الأماكن القريبة لا يشاهد تقريبًا شيخ الإسلام ، نفي إلى مكان بعيد . طلب السلاطين فتاوى من شيوخ الإسلام في بعض المسائل الشخصية ، لمعرفة ما إذا كان وضعهم ملائمًا للشرع الشريف أم لا ، كان يزيد في نفوذهم ؛ ذلك أن البادشاه كان خليفة ، رمزًا للوحدة والأخوة الإسلامية وموحدها وأكبر شخصية وزعيم يمثل الدين ولكنه ليس رجل دين ولا عالم دين ، وليس معصومًا من الخطأ كالبابا . ولا يمكنه البتّ في الأحكام الدينية شخصيًا كالبابا . إن الخاقان الخليفة العثماني يستفتي في أعماله شيخ الإسلام .

كان وضع شيخ الإسلام استثنائيًا إلى درجة أنه رغم عدم كونه عضوًا في الديوان الهمايوني (الحكومة) ، فإن معاونيه الاثنين ، قاضى عسكر) روملي والأناضول عضوين في الحكومة . أُدخل شيخ الإسلام في عضوية الوزارة في 1830 وبذلك قل نفوذه ، وسُحب معاوناه قاضيا العسكر إلى خارج الوزارة . وفي الفترة الكلاسيكية ، كان شيخ الإسلام ، يجمع شخصيًا في مقامه الذي يسمى « دائرة المشيخة » مجلسًا . يتداول فيه اقتراحات تعيين قضاة العسكر ، وتعيينات المدرسين التي ترد من شيخ الإسلام شخصيًا ، وترسل إلى الصدر الأعظم للتصديق عليها بعد تدقيق وتصديق شيخ الإلاسلام عليها . لا يجوز لشيخ الإسلام أن يجري تعيينات مهمة حتى داخل صنف العلمية ما لم يصدق عليها الصدر الأعظم . وذلك لئلاّ تكون الدولة مخلوقًا غريبًا ذا رأسين . وحتى يكون هناك مرجع واحد فقط . كان راتب شيخ الإسلام الشهري في 1567 ، يقارب 12 ألف دولار بالسعر الرائج حاليًا (هامّر ، 306, 6) . يسجل Ricaut (338, 2) الراتب بالنسبة للربع الثالث من العصر 17 كان حوالي 82 ألف دولار والواضح أن موظفى الدولة في العصر 16 كانوا يقبضون أعلى الرواتب في تاريخ تركية كلها ، وأن الرواتب أخذت في التناقص بصورة مطّردة ودون استثناء منذ 1590 وإلى يومنا هذا .

خصص في الواقعة الخيرية (1826) مقر الإنكشارية الكبير « أغا سراي » الكائن

في سليمانية لشيخ الإسلام ليكون مقرًّا للمشيخة وبقي فيها حتى ت 2 / 1922 . انتقلت في 1836 إلى هذه البناية كذلك مقار قاضي العسكر وقاضي استانبول (لطفي ، 5 ,66) . احترقت هذه البناية عام 1927 . Satir base وبموجب أحكام الدستور ، ترك أمر انتخاب شيخ الإسلام وانتخاب الصدر الأعظم في العهد المشروطي إلى البادشاه ، كما كان الحال في دور التنظيمات ، لكن البادشاه كان مقيدًا ؛ فأولاً ، يجب أن يكون الشخص الذي ينتخبه ، بدرجة قضعسكرروملي ، وثانيًا ، عليه ضمنيًا أن يستمزج رأي وارتياح الصدر الأعظم ، إذ يجب أن يكون شخصًا يمكنه التعاون معه بشكل منسجم . وفي عهد المشروطية كان يجب على البادشاه أن يعيّن مرشح الحزب الحاكم الذي فاز في الانتخابات صدرًا أعظم .

يرتدي شيخ الإسلام فروا أبيض ، ولا يمكن لأحد غيره ارتداؤه . وفي الصيف كان يرتدي جبة من الأطلس أو الحرير الأبيض تسترسل حتى الأرض . إن طراز جبّة عمداء الجامعة حاليًا اقتبس من لباس شيخ الإسلام الصيفي . يندر أن يعيّن شيخ الإسلام المعزول في وظيفة أخرى غير وظيفته .

إن أحد أكبر الامتيازات التي يتمتع بها شيخ الإسلام هو عدم تمكن البادشاه من استقباله وهو جالس ، واستقباله في المراسم وقوفًا على قدميه ، إمساكه يدي أو كتفي البادشاه بكلتا يديه (بالعثمانية : مصافحة) وتقبيله بعد ذلك ياقة أو كتف الحاكم ، وعدم تقبيله يده أبدًا . كان امتيازًا كبيرًا . بذلك يكون البادشاه قد احترم الدين والعلم والعدالة في شخص شيخ الإسلام الذي يرأسها . أما الصدر الأعظم فكان البادشاه يستقبله وهو جالس . وحتى في فترة التنظيمات ، كان البادشاه يستقبله في مقابلاته اليومية وقوفًا ، ولكنه كان يستقبل الصدر الأعظم في الاحتفالات الرسمية (بالعثمانية : معايذة) وهو جالس . بإمكان البادشاه أن يستصحب شيخ الإسلام في مسيرته في الحملات الهمايونية . اشترك عدد كبير من شيوخ الإسلام في الأسفار بهذا الشكل ، ولكن شيخ الإسلام لا يشترك أبدًا في الحملات التي يقودها الصدر الأعظم – السردار الأكرم (القائد الأعلى) ، ويرسل أحد القضاة العسكريين . يفطر الصدر الأعظم ليلة القدر في قصر شيخ الإسلام . وفي السابع والعشرين من رمضان القادم يذهب شيخ الإسلام إلى الصدر الأعظم لأجل الإفطار ، وفي اليوم الخامس عشر من رمضان يأتي الصدر الأعظم وشيخ

الإسلام إلى سراي طوبقابو بعد أدائهما صلاة الظهر في جامع أيا صوفيا ، يحضن البادشاه بنفسه البردة النبوية الشريفة ويعرضها على المدعوّين الرسميين . كان ذلك احتفالاً دينيًا كبيرًا . كانت عربة شيخ الإسلام الرسمية من الجوخ الأخضر ، وعربات القضاة العسكر من الجوخ الأحمر (d' Ohsson,4 ,181) .

يلقب شيخ الإسلام ، كمنتسبي العلمية ، بلقب « أفندي » . إلا أن بعض أبناء الباشوات ، أبناء الوزراء أو أحفادهم ، لقبوا بلقب « بك » وعلى الأصح « بك أفندي » . تركت في العصر 16 الألقاب كـ : ملا ، جلبي ، مولانا التي كانت تطلق على شيخ الإسلام في العصور السالفة .

كان واجب شيخ الإسلام الأصلي الإفتاء . ولانشغاله بأمور كثيرة يحضّر الفتوى التي تطلب منه ، موظف العلمية الكبير بدرجة قاضي عسكر المسمى « فتوى أميني » (أمين الفتوى) ويعرضها لمصادقة شيخ الإسلام . كان أمناء الفتوى أعظم فقهاء عصرهم . يحق لأبسط مواطن أن يطلب الفتوى من المشيخة في موضوع ما . يجاب طلبه بصورة أكيدة . كثيرون من شيوخ الإسلام ، جمعوا فتاواهم على شكل مجلة ، هي مراجع قيّمة في العلوم الإسلامية وفي التاريخ الاجتماعي والحقوقي للعثمانية . يشترط في طالب الفتوى أن يكون مسلمًا ، بالغًا ، وعاقلاً . يدير الأمور الكتابية لشيخ الإسلام ، الأفندي سكرتيره العام (الذي يسمى مكتوبيء مشيخت) .

إن مؤسسة الفتوى استشارية . المفتي هو الشخص الذي يستفتى ويستشار . أما حكم القاضي – شرط أن يكون قابلاً للتمييز – فقطعي ، ينفذ ويجرى فورًا (258,1, **Hukuuk - 1 Islamiyye O.N. Bilmen**) . لا تحمل الفتوى رأيًا قطعيًا ، مع أنها تبيّن شرح تلك القضية من الناحية الشرعية ، لكنها تختتم دائمًا بالعبارة الشرعية « الله أعلم » . وفي الحقيقة فإن هذا كان بابًا قد ترك مفتوحًا لسياسة الدولة . القرار النهائي يرجع إلى القاضي ممثل هذه السياسة .

إن الشخصية المسماة درس وكيلي والتي تكون على الأكثر بمرتبة قضعسكر ، هو أحد كبار معاوني شيخ الإسلام ينظم المناهج التدريسية للمدارس (الدينية) والأمور العائدة لها .

6 ـ نقيب الأشراف والأستاذ السلطاني (خواجه سلطاني) :

نقيب الأشراف ، هو قاض عسكري ، ينظر في أمور السادة والشرفاء ، وهو الموظف الذي يسعى لاتخاذ التدابير التي تكفل عدم وقوع الأسر التي تنحدر من نسل الرسول ﷺ ، أو التي يعتقد أنها كذلك ، في مشاكل ، ويجب أن يكون هو بالذات سيّدًا أو شريفًا من نسل الحسين « رضي الله عنه » أوالحسن « رضي الله عنه » . كثيرون منهم أصبحوا كذلك شيوخ إسلام بعضهم قلّد البادشاه السيف . كان تسلسلهم في المراسم ، قبل قضاة العسكر ، لكنهم لا علاقة لهم بأمور الدولة وسياستها .

أما خواجهء سلطانيلر (أساتذة السلطان) ، فلهم دور مهم في التاريخ العثماني بنفوذهم على السلاطين واشتراكهم في السياسة وأكثرهم ذوو دور إيجابي . يمنح البادشاه عند اعتلائه العرش رئيس معلميه المنسوب إلى صنف العلمية مرتبة قاضي عسكر – إن لم يكن قد حصل عليها مسبقًا – ويشرفه باللقب الرسمي « خواجه سلطاني » (المعلم ، الأستاذ السلطاني) . إن هذا اللقب لا يمكن أن يمنح إلا لمعلم واحد فقط من معلمي السلطان ولا يمكن منحه إلى معلميه الآخرين . إن أساتذة السلطان كانوا يتقدمون في المراسم على القضاة العسكريين . والذي يجمع في شخصه الصفتين « المعلم السلطاني » و « شيخ الإسلام » يسمى « جامع الرئاستين » . هم 3 شيوخ إسلام في التاريخ العثماني : الخواجه سعد الدين أفندي معلم محمد الثالث ، أرضروملي سيد فيض الله أفندي معلم مصطفى الثاني ، وحسن فهمي أفندي معلم السلطان عزيز . إن أساتذة السلاطين ، كانوا أعظم علماء متميّزين في عصرهم ؛ إذ إن العلماء الذين يمتازون بهذه الصفة كانوا يعيّنون رؤساء أساتذة للأمير – ولي العهد . ولا يمكن عزلهم . لا واجب رسمي له . كان المستشار الأول الخاص للبادشاه . ويتّضح مبلغ إمكان حيازة أساتذة السلطان على النفوذ ، بسبب استمرار السلاطين الذين يعتلون العرش في سن الشباب ، على تحصيلهم العلمي أثناء سلطنتهم كذلك .

قضاة العسكر لروملي وأناضول :

إن أول قاضي عسكر هو جاندارلي قره خليل خير الدين أفندي ، الذي عيّن لهذه

الوظيفة عندما كان قاضيًا على بورصة من قبل مراد الأول الذي اعتلى العرش حديثًا في 1363 ، وبقي وزيرًا أعظم حتى وفاته ، وهو أحد مؤسسي ومنظمي تشكيلات الدولة العثمانية .

كان هناك قاضي عسكر واحد حتى 1480 (117 سنة) ، وفي هذا التاريخ رفع فاتح عددهم إلى اثنين . حتى 1922 ، أي مدة 442 سنة ، كان عددهم اثنين (بالعثمانية : صدرين أفنديلر) .

قضعسكر « قاضيء عسكر » وبالعربية الفصحى « قاضي العسكر » هو الشكل الذي تحورت إليه الكلمة العربية آنفة الذكر في لغة الكلام التركي . وتعني قاضي العسكر ، « قاضي الجيش » . لكن واجبه لم يكن كذلك . قضعسكر روملي ، هو آمر وأكبر حاكم لجميع القضاة في أوروبا ، أما قضعسكر أناضول ، فهو آمر وأكبر حاكم للذين في آسيا أفريقيا . هم الذين يعيّنون القضاة ، يقدمون التعيينات للتصديق عليها إلى شيخ الإسلام أولاً ، ثم إلى الصدر الأعظم وإن كانوا قضاة كبارًا ، تعرض على البادشاه .

كان لقب قضعسكر روملي وأناضول يمنح لكبار العلماء كمرتبة (رتبة) . هي رتبة العلميّة التي تلي رتبة قضاء استانبول وكانت تعادل رتبة وزير (ماريشال) . كانت هذه الرتبة تقسم من حيث القلم إلى درجتين ، الأولى قضعسكر أناضول ثم روملي . كان الموظف يرفّع من رتبة قضاء استانبول إلى الأناضول ثم إلى رتبة روملي . يلاحظ عدم خلط هذه الرتب مع رتب قضاة عسكر روملي وأناضول الفعليين . إن قاضييّ روملي وأناضول الفعليين ، يختاران غالبًا من بين العلماء الذين ارتقوا إلى رتبة (قضعسكرية روملي) (بالعثمانية : صدر روملي) . كانا ناظرين أي عضوين في الديوان حتى 1830 . كانا معاونين فعليّين لشيخ الإسلام . إن الشخصية التي تقوم بوظيفة قضعسكرية روملي الفعلية ، تكون غالبًا مرشحة لمقام المشيخة . كان أقدم قضعسكر لروملي ، أي الذي نال هذه الرتبة قبل غيره ، يمنح لقب « رئيس العلماء » . يطلق اسم « صدور » على قضاة العسكر بأجمعهم ، وهي صيغة الجمع لكلمة « صدر » العربية . كان المقعد الأول الكائن على يمين الصدر الأعظم في الديوان ، يجلس عليه الوزير الثاني ،

والمقعد الاول الذي على يمينه يجلس عليه قاضي عسكر روملي والمقعد الثاني لقاضي عسكر أناضول .

إن قاضيي العسكر الاثنين هما أرفع قضاة الإمبراطورية . كانا المرجع الوحيد المأذون له في نقض قرارات القضاة . كانا ينظران في الدعاوى المقدمة إلى الديوان الهمايوني (مجلس الوزراء) رأسًا وبجلسة واحدة دون إحالتها إلى مرجع آخر . ويمكن تمييز القرار الذي يصدره قضعسكر روملي بالاستشارة مع قضعسكر أناضول في الدعوى المقدمة إلى اجتماع الديوان ، حتى من قبل البادشاه ، يجرى وينفذ في الحال . أعطي لأمر كل من قاضيي العسكر 20 مُحْضرًا (شرطة عدل) ، وكتبة يطلق عليهم « تذكره جي » وأعضاء آخرون بدرجة كافية . ولكل من قاضيي العسكر الاثنين مستشار برتبة قاضي عسكر أيضًا (**نخبة الوقائع** ، 3 ,190) .

8 ـ القضاة والمحاكم :

كانت المحاكمات ، لدى العثمانية مفتوحة وعلنية بشكل تام . يندر أن يصدر القاضي قرارًا بعقد جلسة سريّة . لا يدّعي القاضي معرفته بكل المواضيع المقدمة إليه . وهذا مبدأ آخر ؛ لذا يجلب القاضي ، بالنسبة لموضوع الدعوى ، خبيرًا واحدًا أو عدة خبراء إلى المحكمة . تدوّن أقوالهم في السجل . لكن القاضي غير ملزم بالآراء التي يقدمها الخبراء . وكذلك هو غير ملزم بالفتوى . بإمكان القاضي ، المدعي ، أو المدعى عليه أن يستفتوا المفتين للمذاهب الأربعة (لا يشترط كونه حنفيًا) . تدون الفتوى المطلوبة في سجل المحكمة . لكن القاضي حر في قبوله أو عدم قبوله الرأي الوارد في الفتوى . لأن المفتي يمثل نظرة الدين والمذهب . أما القاضي ، كما يظهر بوضوح ، فهو ليس رجل دين ، هو الشخص الذي يرعى ويمثل نظرة الدولة .

لم يكن بالإمكان من الناحية العملية نقض قرار القاضي ، أو على الأقل كان صعبًا جدًا . إذ لم تكن هناك محاكم لفترة من الزمن . كان يجب مراجعة محكمة قضاة العسكر في استانبول رأسًا ولا يؤخذ ذلك بنظر الاعتبار إلاّ في الدعاوى الكبيرة جدًا بسبب صعوبة المواصلات في ذلك العهد كان المواطن الساكن في استانبول ذا حظ من هذه

الناحية . لكن ماذا يعمل المواطن الساكن في بودين أو القاهرة ؟ يكون سجل القاضي سيئًا جدًا فيما إذا نقض قراره من قبل محكمة القضعسكر . إذا كان القاضي ظالمًا ومرتشيًا فإن مراجعة المدعي أو المدعى عليه أو الشعب المشتكي إلى والي الإيالة ، تبلّغ إلى استانبول . إذ ليس هناك ما يفعله الوالي شخصيًا . كان القاضي تابعًا إما لقاضي عسكر روملي أو أناضول ، والوالي (بكلربك) لم يكن آمر له . ليس بإمكان الوالي أو أمير اللواء وقفه إلا لأسباب أمنيّة تتعلق بالدولة (بالعثمانية : سياسة) . لا يمكنه التدخل في قراره الذي يصدره . كان فقط يرسل مفتش قاضي عسكر أو مفتش ديوان للتحقيق مع القاضي المشكو في حقه .

كان القاضي حاكمًا وفي الوقت نفسه رئيسًا لبلدية موقعه . ينظر في الدعاوى قبل الظهر وفي أمور البلدية بعد الظهر . كان القاضي الصغير الذي يسمى « نائبًا » ، هو الآمر الملكي لناحيته (مدير ناحية) ، وفي الوقت نفسه رئيس بلديتها وحاكمها . أما الشخص الذي يسمى قاضي فكان الآمر الملكي لقضائه (قائمقام ، وفي الوقت نفسه رئيس بلديتها وحاكمها ، ويسمى القضاة في مراكز الألوية (المحافظات) ومراكز الإيالات « ملاّ » وتعني « القاضي الكبير » . الملاّ ، هو رئيس بلدية تلك المدينة وحاكمها الأكبر . لكنه ليس آمرها الملكي . الآمر الملكي ، هو أمير اللواء (سنجق بك) وفي مركز الإيالة الوالي الفريق الأول (بكلر بك) .

أسست مجالس ورئاسة البلديات في عهد التنظيمات . واستمر القاضي كذلك في النظر في قضايا المسلمين المدنية . ولكن ، عدا ذلك ، حوّلت كل القضايا القانونية والجزائية إلى المحاكم المدنية التي تأسست . بيد أنه ، كان من الجائز أن يصبح منتسبو العلمية حكامًا أو أعضاء في المحاكم . كان كتخدا (ممثل) أرباب العمل في تلك القصبة أو المدينة ، مساعدًا كبيرًا للقاضي في الأمور البلدية .

كان القاضي على الإطلاق متخرجًا في القسم العالي للمدرسة (الدينية) وحاصلاً على شهادتها . لا يمكن عزله ما لم يكن له ذنب صريح ، يمكن نقله من مقامه في حالة ترفيعه إلى مقام أعلى ، فقط . كان محظورًا عليه المتاجرة ، أو الاشتراك في شركة . لا يجوز له أن يقترض أو يقرض كما لا يجوز له قبول الهدية وحضور الولائم العامة .

كان يقيم العدل باسم البادشاه الذي هو خليفة ، لذا لا يعتبر نفسه مأمورًا للصدر الأعظم . يعيّن من قبل الصدر الأعظم ، ولكن الصدر الأعظم ، لا يستطيع أن يتدخل في قراراته . تجري كل تعيينات القضاة من استانبول . أما المفتون فكانوا من المحليين الذين ينتخبون من رجال الدين في مناطقهم . تصدر تعييناتهم من قبل الدولة بصورة رسمية . لكنهم لم يكونوا موظفين ، لا يتقاضون رواتب ، يقبضون رسومًا معيّنة لفتاواهم . وكانوا يقومون كذلك بالعناية بجوامع مواقعهم . كان مذهب المفتي مطابقًا لمذهب سكان المنطقة التي يسكنها . كانت المدن الكبيرة كالقاهرة ، الجزائر تحتوي على أكثر من مفتٍ واحد وحتى على 4 مفتين مستقلين للمذاهب السنيّة الأربعة . كان القاضي حنفيًا . كان القاضي يستفسر من الطرفين عن أي من المذاهب الأربعة ، في مجال القانون المدني ، يطلبون أن تنظر المحكمة ، ويمتثل للطلب . ولعدم ضلاعته في الأساليب الفقهية ، عدا الفقه الحنفي ، كان يستصحب كتبه إلى المحكمة ، ويستدعي في المحاكمات المهمة مفتي مذهب تلك المنطقة إلى المحكمة كمشاور له . كان للمحكمة الحق من الناحية النظرية في استدعاء أي شخص حتى البادشاه . على أن القاضي كان يعمل في الدعاوى الجزائية ودعاوى العامة ، بموجب الفقه الحنفي دائمًا والقوانين الصادرة باسم الخاقان . « إن عدم إمكان إصدار الجزاء وإنفاذه دون حكم القاضي ، هو أحد المبادىء الأساسية للإدارة العثمانية » (ROBert Anhegger ، **قانونّامه سلطاني** ، ص 17) . يستثني من ذلك القضايا التي تتعلق بأمن الدولة ، إن هذه القضايا ، كانت من اختصاص أمير اللواء أو البكلربك (الفريق الأول ولي الإيالة) .

كان يتعيّن على القاضي معاملة المدعي والمدعى عليه بالمساواة . لا يمكنه إقامة أية علاقة شخصية مع الأطراف في الدعوى ، لا يمكنه مكالمتهم بصورة سريّة ولا يمكنه أن ينكّت ، أو يظهر انفعالاً خاصًا ، أو يظهر على وجهه حركات ذات مغزى ، أو يؤشر . لا يمكنه أن يتفوّه بكلمات تبين انحيازه لأحد الأطراف . ولا يجوز استماعه بعدم مبالاة وعدم انتباه إلى كل من الطرفين . لا يمكن الإخلال بالجلسة من قبل أية قوة . والبادشاه نفسه لا يمكنه التدخل في الجلسة . يكتب الكاتب جميع الأقوال ويدونها في السجل . ثم يوقع القاضي على الحكم . لا يجوز للحاكم أن ينظر دعوى أحد أقاربه ، وحتى

لو حكم ضده . ولا يمكن الأخذ بأقوال أحد آقاربه كشاهد في الدعاوي العامة (204, 4 - 182, 6, d'Ohsson) .

إن العدالة البطيئة ، تعتبر ظلمًا ، في النظام العثماني . الحكم السريع هو أساس نظام الحقوق العثماني . « الجلسات الثانية أو الثالثة نادرة ؛ أكثرية الدعاوى يفصل فيها خلال ساعة واحدة » (5 - 204, 6, d'Ohsson) . « يفصل في أهم الدعاوي خلال ساعة واحدة وينفذ الحكم في الحال . لا تطبّق أية ألاعيب لتأخير الحكم ، كما تجري لدينا في أوروبا » (327, 2, Lord Poul Ricaut) . هذا ما قاله دبلوماسيان أوروبيان اثنان (سويسري وإنكليزي) مكثا ربع قرن في تركيا ، الأول في نهاية العصر 17 والثاني في الربع الثالث من القرن الـ 18 ، في كتابهم الذي أصبح كلاسيكيًا ، حول العثمانية . وبالإمكان سرد شهادات أخرى كثيرة جدًا . إن عشرات الألوف من سجلات المحاكم الشرعية المتوافرة لدينا ، مرجع في هذا الشأن . « لا يمكن فصل أية دعوى سواء كانت مدنية أم جزائية بالسرعة التي تفصل بها في تركيا . بالإمكان أن تستمر أكبر الدعاوي ثلاثة أو أربعة أيام بجلسات متتالية » (148, Voyage du Levant, Stochove) . كان هنري الثالث قد طلب تدقيق النظام القضائي العثماني في دور القانوني وأجرى إصلاحًا في نظام العدل الإنكليزي . إن نظام الحصول على نتيجة فورية في الدعوى بجلسات متتالية ، هو الأساس في نظام القضاء الأنكلو – سكسوني .

كيف كان يتسنى إقامة العدل بهذه السرعة في إمبراطورية مترامية الأطراف بشكل لا يصدقه العقل ، بعدة آلاف من القضاة ؟ إن جواب هذا السؤال هو : إن الخلافات الصغيرة ، لم تكن تقدم أبدًا لحضور القاضي . واقع الأمر أن القاضي ، كان مجبرًا على النظر حتى في أصغر الدعاوي التي لا تتجاوز قيمتها آقجة واحدة (قطعة فضية) إذا قدمت إليه لكن الطرفين كانا يتفاهمان قبل مثولهما أمام الحاكم . رئيس العائلة ذو النفوذ الكبير ، رؤساء النقابات العمّالية ، مختار القرية ، إمام المحلة ، شخصيات من الأشراف ، يصبحون حكامًا ويحلون الخلافات . لم يكن المجتمع مجتمعًا أفراده متخالفون ، متضادون ، متخاصمون .

كان القرار الذي يصدره القاضي ، ينفذ على الفور ، عدا الإعدام . أما المحكوم عليه

بالإعدام فيمثل أمام آمر اللواء ، وإن كانت مركزًا لإيالة أمام والي الإيالة مستصحبًا معه حجة معه حجة القاضي . لأن القاضي ، لا يمكنه الأمر شخصيًا بإنفاذ حكم الإعدام . بإمكان أمير اللواء (سنجق بك) أو والي الإيالة الفريق الأول (بكلر بك) إعطاء أمر التنفيذ . إن تردد أمير اللواء في حكم الإعدام ، يساق المحكوم مع حجّته إلى استانبول . القرار الذي يعطيه القاضي العسكري الخاص بمنطقته ، هو القرار النهائي .

يلحق قاض واحد من الدرجة العليا بالجيش أو الأسطول الذي يخرج إلى الحملة بلقب « أوردوى همايون قاضيسي » (قاضي الجيش الإمبراطوري) أو « دونانماى همايون قاضيسي » قاضي الأسطول الإمبراطوري) . يكون هؤلاء معاونين للسردار القائد) وتعلى رتبهم فور عودتهم (راشد ، 1 ,304 ,2 ,105 ,516) .

كان هناك قضاة في معية القضاة الكبار ، يسمون قسّام ، وهم حقوقيون اختصوا في حقوق الإرث .

9 – القاضي الأكبر (استانبول أفنديسي) :

إن القاضي الأكبر هو قاضي إستانبول الذي يسميه الشعب « إستانبول افنديسي » (افندي استانبول) . يجلب لهذا المقام برتبة قضعسكر أناضول ويعيّن بعد أن يمارس العمل كقاضي عسكر لأناضول بصورة فعلية . لا يمكن لأي شخص أن يشغل مقام قاضي عسكر أناضول بصورة فعلية ، ما لم يكن قد زاول وظيفة قاضي إستانبول . كان مقامًا خطرًا . إذ إن كل شيء كان أمام أعين البادشاه والديوان . كان رئيسًا لبلدية وحاكمًا أكبر لأكبر مدينة في العالم . ومن ناحية أخرى ، فقد كانت مرتبة استانبول ، هي الرتبة التي تأتي قبل رتبة قضعسكرية أناضول بين الرتب العلمية ومعادلة لرتبة فريق. إن قضاة غلطة ، أيّوب ، اسكدار ، نواب (قضاة صغار) مراكز عديدة ، 44 نائبًا تابع لغلطه ، 26 لأيوب ، 44 لاسكدار ، قضاة جتالجه وسيليورى وزمرة كبيرة من شرطة والكتاب تابعون لأمر إستانبول أفنديسي . خضر بك – جلبي ، أول قاض لإستانبول (1453) . من أحفاد خواجه (ملا) نصر الدين . إن منطقة « قاضي كوي » سميت باسمه . كان يتبع إدارة قضاء إستانبول ما يقرب من 1500 قرية .

القاضي الذي يزاول وظيفة ملا في القاهرة ، بورصة وأدرنة ، يعيّن قاضيًا على إستانبول برتبة قاضي عسكر أناضول اعتبارًا من نهاية العصر 16 بعد إيفائه وظيفة القضاء في مكة وفي المدينة . كان عامري ، قاضي عسكر على روملي (4, 64, Muhimme) .

10 – الملاءون :

كان يطلق على قضاة المدن الكبيرة « ملا » إن متخرج المدارس (الدينية) العالية ، بعد أن يصبح مدرسًا أو نائبًا ، يرقى إلى رتبة قاضي ، ثم ملا ، ثم يصبح قاضيًا لإستانبول . وبالطبع فإنه لا يمكن لكل متخرج في العلمية أن ينال هذه الرتب .

كانت المدينة التي تعقب إستانبول في أهميتها وكثافة سكانها ، هي القاهرة . كان يطلق على قاضي القاهرة « مصر قاضيسى » (قاضي مصر) الأولياء جلبي، (10 , 147 - 50) . أول قاض على مصر بعد (1517) ، هو كمال باشزاده أحمد شمس الدين أفندي من أكبر علماء العثمانية والذي صار بعد ذلك صدرًا أعظمًا ، له مئات المؤلفات باللغات العربية ، والتركية والفارسية . كان 100 موظف و 100 خادم تابعين لأمر قاضي مصر (مصر أفنديسي) . وله مشاورون من المذاهب الأربعة . وضعت سجلات المحكمة في بناية ذات قبّة حجرية ، تراكمت الوثائق منذ عهد عمر (رضي الله عنه) على شكل جبل من الأوراق . 300 محضر (شرطة عدل) تابعون لإدارة الأفندي قاضي مصر . إن القاضي الذي هو في الوقت نفسه رئيس للبلدية ، يدير في معيته 80 قاضيًا تقريبًا من قضاة مصر . إن أكثرية هؤلاء القضاة ، ليسوا من استانبول ، هم مصريون شافعيون ويوجد بينهم من هم حنابلة ومالكية . يوجد في مصر 174 000 شخص يعمل في قطاعات الدين ، العلم والعدل (الأولياء ، 10 ,150) . عدد طلاب الأزهر 12 000 و57 000 شخص حفظة القرآن . لا يستطيع قضاة مصر المحليون ، مزاولة واجب القضاء خارج هذا القطر .

ومع أن الملائين لهم تسلسل في التشريفات ، إلا أن هذا التسلسل تغيّر بين فترة وأخرى . واستقر في النهاية على أن يكون ملاء مكة في التشريفات بعد قاضي إستانبول ويليه ملاءو مدينة ، أورفه ، بورصه ، مصر ، بودين ، بغداد ، شام وقدس ... منح

قضاة مكة ، مرتبة إستانبول . أما مرتبة مكة أو الحرمين ، فكانت رتبة العلمية التي تسبق مرتبة إستانبول وكانت معادلة لرتبة لواء .

أصبح القضاة بعد التنظيمات ، أشخاصًا يفصلون في المحاكم الشرعية في دعاوى المسلمين المدنية ويوفون واجبات هذا المجال . سلخت عنهم كل صلاحياتهم الأخرى .

11 - المدرس والمدرسة (الدينية) :

المدرسة ، هي المؤسسة التي أسسها السلجوقيون في نهاية العصر 11 وطوروها . هي المؤسسة الثقافية الرئيسية في الدولة العثمانية للفترة الكلاسيكية ، ألا أنه كانت هناك صفوف تدريسية في درجات مختلفة خارج تلك المدارس . المدرسة ، هي المؤسسة التي تدرس اللغتين العربية والتركية والتي تتشكل من قسمين متوسط وعال . ولأجل الدخول في القسم المتوسط ، يجب إنهاء الدراسة الابتدائية أو أن يبرهن على أنه حائز على معلومات معادلة لتلك الدرج . ثم تبدأ مراحل المدرسة . كانت المراحل العالية في المدن الكبيرة (إستانبول ، القاهرة ، أدرنة ، بورصة ، بغداد ، شام ، حلب ، قونية ...) . أما مدارس الدرجة المتوسطة ، فكانت موجدة في كل مدينة وقصبة . الانتقال من صف لآخر يجري بالامتحان . كان من الممكن اجتياز أكثر من صف واحد خلال سنة واحدة ، وكان يوجد كذلك من تبلى مرافقهم ببقائهم سنوات عديدة في صف واحد . كانت شهادة إستانبول (رؤوس استانبول) هي الأكثر اعتبارًا ، بخاصة المدارس العالية في سليمانية وفاتح . وبعد العصر 15 قل كثيرًا عدد شبان الأناضول الذين كانوا يذهبون إلى مصر وسوريا لغرض التحصيل فيها أو انعدموا .

يطلق علي معلمي المدرسة ، أيًّا كانت درجاتهم « مدرّس » . توجد درجات كثيرة للمدرس ، والارتقاء يقتضي اجتياز تلك الدرجات . يجب عدم خلط « مدرس » الجامعة التي استعملت في دور التنظيمات حتى 1933 ومدرس المدرسة (الدينية) . إذ إن صفة « مدرس » في الجامعة ، استعملت بدلاً من أورديناريوس بروفسور « أستاذ كبير » معلم = بروفسور ، أستاذ ، معاون معلم = مساعد أستاذ) أما مدرس المدرسة ، فإنه بالإمكان أن يكون متخرجًا من الدراسة المتوسطة ، كما أنه يمكن أن يكون بدرجة

أستاذ الجامعة الكبير (أوردينالايوس بروفسور) . « إن أساتذة الجامعة في تركية يتقاضون رواتب أعلى من ألمانيا والأقطار الأخرى وكذلك يلقون احترامًا أكبر . ولا يختلف الوضع بالنسبة إلى انكلترا وفرنسا » (هامّر ، 17 ، ص 41 ، 19 ، 52 ب) .

تجوز دراسة الأولاد الذكور في المدارس . ولا تجوز دراسة البنات فيها . أول المدارس النظامية في القطر العثماني ، فتحت في 1330 في ايزنيك وبعد فترة وجيزة في بورصة من قبل أوهان غازي . تطورت جدًا مدرسة بورصة قبل عام 1400 . وفي الربع الثاني من العصر 15 ، فتحت مدارس عالية في بورصة كذلك (أوج شرفه لي ومدرسة دار الحديث) . أسس فاتح في 1453 ، مدرسة فاتح التي شكّلت نواة جامعة إستانبول . ثم أسس القانوني مدرسة سليمانية . كانت توجد في إستانبول مدارس عالية أخرى أيضًا . لم يعد يشاهد بعد العصر 16 من يذهب إلى مصر ، سورية ، عراق ، إيران وتركستان للتخصص .

كانت المدرسة منذ أواسط العصر 16 ، إلى أواسط العصر 19 تنقسم إلى 12 درجة بعد الدراسة الابتدائية . الدرجات الأربع الأخيرة هي الدراسة العالية . ويطلق على مدرسي الدرجات الأربعة الأخيرة « كبار مدرسين = الأساتذة الكبار » . كان يطلق على طلاب القسم العالي من المدرسة « طلبة علوم » أو « صوفته » . كانوا طلابًا يلقون احترامًا من الجميع . ويسمى الذي يختاره المدرس مساعدًا له « دانشمند » . كان الدانشمند الذي يحصل على شهادة ، يصبح « معيدًا » . وهي تعادل رئيس المساعدين . ثم يصبح « ملازمًا » ، ثم يبدأ بعد ذلك في اجتياز درجات المدرس . يجب على المدرس الذي يرغب في أن يصبح قاضيًا ، أن يكون بدرجة كبار المدرسين . لا يمكن لمدرس مدرسة متوسطة أن يكون قاضيًا .

وفي أواسط العصر 17 ، كان في داخل إستانبول – عدا الضواحي – 63 مدرسة متوسطة الدرجة ومدرستان عاليتان ، عدد طلاب المدرستين الأخيرتين 000 7 تقريبًا . لا يدرس كل طالب في القسم العالي ، أكثرهم يتركون الدراسة من صفوف أقل درجة ويعملون في وظائف لا تستلزم الشهادة ، كالإمامة والتدريس في مدرسة ابتدائية . كانت

مدرسة فاتح ذات 300 غرفة ، مطبخ ذي 70 قبّة ، 300 خادم (أولياء ، 1 ، 314 – 5) . هنا 8 كليات تسمى « صحن ثمان » . أعلى مدرس ، هو مدرس « دار الحديث » الذي هو عميد مدرسة سليمانية . لا يوجد في الإمبراطورية مدرس أعلى منه درجة . راتبه الشهري بالسعر الحالي 000 20 دولارًا تقريبًا (هامّر ، 6 ,156 - 7) . يمكنه إذا أراد ، أن ينتقل إلى إحدى الأقضية الكبيرة ويصبح ملاّ . كامل مدرسة فاتح ، تقريبًا مهدومة حاليًا . أما مدرسة سليمانية ، فإن قسمًا غير قليل منها باق ويستعمل لأغراض مختلفة .

بدأ الفساد يعتري نظام المدرسة اعتبارًا من السنوات الأخيرة للعصر 16 إلى أن أصبح في نهاية العصر 18 عاجزًا تمام العجز وحتى باليًا لايلائم العصر وفي حالة يرثى لها . لم يكن لمدرس العصر 18 معلومات بقدر طالب مدرسة عالية (صوفته) في العصر 16 . لم تعد هناك مناهج منتظمة حتى في قسم الدراسة المتوسطة للعلوم الدينيّة في مدارس شام ، مكة ، مدينة التي فتحها القانوني كمدارس عالية . إن تأسيس « معلمخانهء نواب » في 1854 لتخريج الحكّام الشرعيين ، إضافة إلى المدارس الموجودة ، دليل على عدم اعتماد الدولة على متخرجيها في مدارسها . افتتح في 3 / 1 / 1914 قسم الدكتوراه ، وجعلت مدرسة دار الخلافة العليّة (إستانبول) ، جامعة دينيّة نموذجيّة . وفتح من ناحية أخرى في الجامعة ، قسم دراسة العلوم الإلهية . وكانت النيّة فتح مدرسة صلاح الدين الأيوبي في القدس بالمواصفات نفسها ، لكن اشتعال الحرب العالمية حال دون ذلك ، وبينما كانت مدرسة إستانبول كفيلة بأن تكون جامعة أزهر ثانية ، ناءت تحت أنقاض الحرب العالمية . وفي 1916 ، كان بها أكثر من 100 مدرس قدير جدًا و 1354 طالبًا (**علميه سالنامة سي** ، 174 وما بعده) .

12 ـ التعليم خارج المدينة :

يطلق على المدرسة الابتدائية اسم « مكتب » وعلى مدرسها « خواجه » (تلفظ بالتركية على شكل خوجا) وفي التنظيمات « معلّم ، معلّمة » . لم يطبق التعليم الإلزامي في أي وقت من الأوقات ، رغم صدور فرمان (تعليمات) في دور القانوني ، وآخر في دور محمود الثاني يقضي بالإلزام في مرحلة التعليم الابتدائي . التعليم الابتدائي الذي

كان منتشرًا جدًا في العصر 16 ، تردّى كثيرًا في العصور المتعاقبة . ولم يبد تقدمًا ملموسًا إلا في أواخر العصر 19 . وفي سنوات الحرب التي تعقب 1910 ، تردّى بشكل كبير وكان إقبال البنات خاصة ، والبنات القرويات بوجه أخص ، على التعليم الابتدائي قليلاً . وبقليل من المبالغة ، يمكن القول بأن البنات اللواتي يواصلن الدراسة ، كن عبارة عن بنات الموظفين فقط .

كان التعليم الابتدائي أبسط مما عليه اليوم . كان عبارة عن مواد كتعليم القراءة والكتابة باللغة التركية ، التمكن من قراءة **القرآن** ، العمليات الأربع في الرياضيات ، المعلومات الدينية الضرورية والكتابة الجيّدة (الخط) . وضعت مادتا التاريخ والجغرافيا في عهد التنظيمات . بيد أنه كانت في المدن الكبيرة كاستانبول مدارس ابتدائية فريدة وراقية ، ولها أوقاف غنيّة . كان التعليم فيها أكثر حيويّة وذلك بجهود المدرسين الذين يجلبون بصورة إضافية ، فمثلاً ، مدرسون لدروس الموسيقى ، الخط ، الفارسية .

كان الولد ، يرسل إلى المدرسة في سن 4 إلى 6 . والدراسة في الابتدائية على العموم 4 سنوات ، ولكن الذين دخلوا المدرسة في سن صغيرة ، يدرسون مدة أطول . كان المدرس الابتدائي على العموم مثقفًا بشكل جيد . يوجد باستانبول مؤسسات تعليمية أكثر من جميع عواصم العالم الأخرى »(هامر ، 19 ، أطلس ، 52 ب) . إن هذه الملاحظة ، تعود إلى دور الانحطاط في بداية العصر 19 وللفترة التي لم تؤسس فيها بعد مؤسسات التنظيمات التعليمية الكبرى وطبعًا بالنسبة إلى إستانبول . أما الإمبراطورية العثمانية ، فهي ليست عبارة عن إستانبول .

مكتب الصبيان أو مختصرًا المكتب ، كان مختلطًا . أي ان دراسة البنات كانت مشاركة مع الأولاد الذكور ، كانوا يجلسون في الصف ذاته على قمطرات منفصلة . كانت رءوس البنات والذكور مغطاة ، يضعون شيئًا على رءوسهم . كان الرأس المكشوف علامة على عدم الاحترام وعدم إطاعة النظام . كان أولاد الذوات والأغنياء بخاصة البنات منهم ، لا يدرسن في مكاتب المحلات ، بل يتممن تحصيلهن الابتدائي في القصور . الحقيقة أن التعليمَ الابتدائي كان منتشرًا في القرن 16 » كانت القرى خاصة تحتوي على مكتب واحد على الأقل ، ولا يدرس فيه الأولاد الذكور فقط ، بل البنات

كذلك » (2, Belon ، ورق 180) . هذه ملاحظة أحد السياح الفرنسيين ، في عهد القانوني . كان عدد مدارس الصبيان في أواسط العصر 17 ، في إستانبول نفسها عدا ضواحيها 1993 مدرسة ، في مدينة أماسيا 200 وفي مدينة أرضروم 110 مدارس . ويجب أن نسجل هنا ، أن المدارس الابتدائية لم تكن كما هي اليوم ، وإنما كانت صغيرة ، عدد طلابها أقل من 100 ، وبعضها 20 - 30 طالبًا ، كبيرها قليل وتسمى « طاش مكتب » وعلى العموم كانت المدارس الابتدائية وقفًا يعود للبادشاه . كان في أدرنة 14 مدرسة ابتدائية من نوع أوقاف البادشاه . كانت توجد 6176 مدرسة ابتدائية في القاهرة وضواحيها في نهاية القرن 17 . كان بين مدرسيها ، أتراك من الأناضول (أولياء 60 ,234 - 5) . وبالنسبة إلى أحمد أمين يالمان ، زادت نسبة متعلمي القراءة والكتابة في تركية خلال الأعوام 1875 إلى 1900 ، إلى 3 أضعاف (**The Emer gence, B. Lewis** ، 462) . وقبيل 1900 ، لم يبق تقريبًا ولد ذكر لم يتعلم القراءة والكتابة . عدا أولاد عائلات المهاجرين من الخارج إلى المدن الكبيرة حديثًا . لكن نفوس المدن في الإمبراطورية ، كانت تشكل نسبة ضئيلة جدًا .

كانت مكاتب تحفيظ **القرآن** منهلاً للتعليم الابتدائي بطريقة أخرى وكانت منتشرة بكثرة . ويجب أن نضيف إلى ذلك محلات التعليم الخاصة في القصور والسرايات ومكاتب تعليم الخط في التكايا . كان التعليم في السرايات والتكايا الكبيرة هذا ، بمستوى التعليم العالي . كانت الثكنات وأماكن التدريب ، مدارس عسكرية بالمعنى الصحيح . ويوجد نظام آخر ، هو التعلّم لدى أسطه (أستاذ) وهو أصول التلمذة لدى عامل فنّي وهي طريقة تعليم عملي .

إن 99 ٪ من البنات المستمرات في الدراسة ، لا يواصلن التحصيل بعد الدراسة الابتدائية . وبالأساس فإنه لم يكن قبل التنظيمات مدرسة للبنات كهذه . إذن كيف نشأت شاعرات ، ملحنات ، عالمات من النساء ؟ إن هؤلاء السيدات كن من أصحاب الرغبة وتلقّين تحصيلهن في أماكن كالقصور ، السرايات ، التكايا . فمثلاً ، كان أشهر أساتذة عصرهم يدرسون في الحرم الهمايوني ، الجواري وبنات السلالة اللواتي يبدين استعدادًا متفوقًا . كان التعليم العملي أكثر انتشارًا . وعلى سبيل المثال ، كان التوليد .

النقش ، حياكة السجّاد منحصرة في النساء . كن يتعلّمن بالاشتغال مع النساء المحترفات بشكل عملي . بهذا الشكل أنتجن السجاد الكبير الذي يعتبر آيات فنية نادرة . فتحت أول مدرسة للقابلات في إستانبول عام 1843 ، كانت مدة الدراسة 3 سنوات .

« إن أصول التربية والتعليم لدى الأتراك ، هى أحد أهم الأسس التي تستند عليها سياستهم وعنصر مهم في ديمومة إمبراطوريتهم . إن هذا العمل يجري ضمن حدود الكفاءة والنظام » (Ricaut, 1, 75, 78) . من المؤكد أن التربية والتعليم لدى العثمانية في القرن 16 ، كانت على أعلى مستوى في العالم . ويأتي بعد ذلك دور التعادل مع أوروبا ، ثم دور التأخر عن أوروبا . ومع ذلك فإن أحد المشاهدين الأمريكيين ، حتى في 1832 ، لا يستهين بالتعليم لدى العثمانية : « زرت ودقّقت مدرسة الهندسة البحرية الإمبراطورية التي تخرج المدفعي خلال 3 سنوات ، تكلمت مع التلاميذ . كانت مؤسسة متقدّمة . يستمر في التحصيل العالي في 16 مدرسة في إستانبول ، 300 إلى 500 طالب في كل واحدة منها ، هذا عدا المدارس الأخرى . توجد مدرسة ابتدائية في كل زقاق من أزقة المدينة وعددها أكثر من 1000 » (**Sketches of Turkey in 1831 and 1832,** J. de Kay نيويورك 1833 ، ص 142 - 4) .

استمر التعليم في المساجد جنبًا إلى جنب مع التعليم الذي يجري في المدارس . التعليم الإسلامي ، هو تعليم المساجد ، فصل السلاجقة في العصر 11 التعليم العالي من المساجد ، وأسسوا أول المؤسسات التي سميت « مدرسة » . ولكن دروس المساجد استمرت . معلم الجامع ، لا يسمى مدرسًا ويسمى « درس عام » . لا يعتمد التدريس هنا على الحفظ وعلى نفوذ المدرس كما هى الحال في المدرسة . هو تعليم يجري بطريقة النقاش والمناظرة . كان الطالب لا يستمر في دروس المعلم المسمى « درس عام » فيما لم ترقه دروسه ولا يخشى من « درس عام » كخشيته من المدرس تسمى الشهادة التي يعطيها « الدرس العام » عن الدراسة في الجامع « إجازت » أي إجازة التي يستطيع أصحاب الإجازات أن يتقدموا إلى امتحان في المدرسة للحصول على الشهادة الرسمية المسماة « رءوسًا » . فمثلاً ، أحمد مختار أفندي ، أحد شيوخ الإسلام في دور السلطان عزيز وابن أحد باعة الطرشي ، تقدم بعد إتمامه دروس الجامع ، نجح في الامتحان وحصل على شهادة استانبول وانتسب إلى صنف العلمية .

ويجب ألا ننسى أكاديميّتي العسكرية والفنون الجميلة للسراي المسماة اندرون همايون ومدارس السراي المتوسطة التي تمدّها بالطلاب . وهناك التكايا وبعض التكايا الكبيرة (دركاه) ، التي تمنح تعليمًا عاليًا بحق ، في العلوم والصناعات المختلفة . كثيرون من أشهر الشعراء ، الملحنين ، الخطاطين ، العلماء والمؤلفين تخرجوا في التكايا .

كان التعليم العلمي ، أوسع مجالاً في التعليم . كان الذي يريد أن يصبح معمارًا ، يعمل مع المعمار سوية ، والمهندس مع المهندس ، الطبيب مع الطبيب ويتلقى عنه علمه ، ثم يقدم امتحانًا في الجدارة ويحصل على الشهادة التي تسمى « اجازتنامه » وينتمي للسلك . والحقيقة أنه كان يوجد لهذه المجالات وشبيهاتها مدارس ومدارس للسراي ، لكنها لم تكن كافية لحاجة الإمبراطورية . لذا فإن كل واحد من أصحاب هذه المهن كان يستصحب معه في عمله عدة تلامذة على الأقل يسمون « شاكرد » ويدربهم على المهنة .

13 ـ الأوقاف والتعاون الاجتماعي :

كانت الدولة في النظام العثماني ، مسئولة عن حماية أنفس وأموال وحرية المواطن والمحافظة على الأمن . ولم تكن ملزمة ببناء آثار عمرانية ، بتعليم المواطن ، بإنشاء المعابد للعبادة . شيّدت الطرق والجسور ، لكن ذلك كان بغرض إقامة تسهيلات لمرور الجيوش ولتأمين أمن الدولة ، ولم يكن لأجل الشعب بصورة مباشرة . إن المؤسسات العمرانية والثقافية المشيدة لأجل الشعب ، بدأت مع التنظيمات في الفترة الحديثة . لا يوجد جامع واحد ، مكتب ، ولا أية مدرسة ، عمارة (مؤسسة خيرية لتوزيع الطعام على الفقراء) ، مستشفى ، سبيل للماء وأمثالها شيَّدته الدولة في العهد الكلاسيكي . إذن ، عمن ورثنا آلاف وعشرات الألوف من المنجزات المختلفة ؟ ومن الذي أمر بصنعها ؟ إنهم المواطنون .

هذه المنجزات لو لم يشيدها الشعب ؛ لما تحقق منها شيء ! وفّر الأغنياء كل حاجات الشعب الاجتماعية . ومن الطبيعي أن السلاطين ، هم على رأس هؤلاء . لأن البادشاه كان أغنى شخص في الإمبراطورية . لم يحدث في تاريخ الدولة كلها ، أن فاق شخص

البادشاه في الغنى .

جميع هذه المؤسسات الاجتماعية ، شيّدت بفضل مؤسسة الأوقاف . الوقف ، يوقف رضاء لله . الوقف ليس عبارة عن تشييد بناء مجرّد . الوقف ، إضافة إلى ذلك ، هو تأمين مصادر إيرادات لإدامة هذا الوقف عصورًا طويلة . كتب داماد لطفي باشا أحد صدور عظام السلطان سليمان القانوني وزوج أخته في مذكراته السياسية الكلاسيكية المسماة **آصافنامه** ، إن على رجل الدولة المثالي أن يقسم إيراداته إلى ثلاثة ، ثلث لمصروفاته ، والآخر للمؤسسات الخيرية ، والثالث للتوفير . هكذا كان النظام العثماني تقريبًا

إن صاحب الوقف الذي يسمى « واقف » كان بإمكانه أن يوقف كل أنواع مصادر الإيرادات التي يمكن أن تخطر على البال لأجل تأمين إدامة وقفه : دراهم نقدية ، مزرعة ، خان ، حمّام ، دار ... كان ينظم الاتفاقية التي تسمى « وقفنامه » والتي تشرح كيفية تشغيل وقفه ، حسب رغبته . يتسلم خَدَمَ الوقف ، رواتبهم من هذا الإيراد ، مدير الوقف يسمى « متولّي » وغالبًا ما يكون أحد أفراد نسل الواقف .

توجد أوقاف لمجالات تفوق التصور : تجهيز البنات الفقيرات ، ترصيف الأزقة التي لا تحتوي على أرصفة ، تأمين حاجة البارود لإحدى القلاع ، العناية باللقالق المعوّقة والمريضة ، توزيع اللحم على الكلاب ورئات الغنم للقطط ، تسديد ديون المسجونين بسبب الاستدانة ...

إن تنوع أوقاف العثمانية ، وغرابة شروط الوقف ، تصيبان المرء بدوار الرأس . وأعتقد أن مستشفى اللقالق الذي يسمى « غرباء خانهء لقلقان » هو الوقف الوحيد في مجاله على وجه الأرض . الوقف لطيور الحمام ، كثيرة . لا يأكل الأتراك لحم الحمام اللذيذ أبدًا . يسرّهم جدًا التفرج عليه وهو يطير في فناء جوامع المدن » إن حب الخير لدى الأتراك ، يشمل الحيوانات أيضًا . لا يجوز لأحد معاملة الحيوانات معاملة سيّئة . تقبض عليه الشرطة التركية . ويمنع كذلك إرهاق الحيوانات بالشغل . يشاهد في كل يوم وفي كل مكان ، معاملة الأتراك الممتازة للحيوانات . إذ إنهم أيضًا مخلوقات الله . لا شك أن ذلك من دواعي الشرف بالنسبة لشعب (**d'Ohsson, 4, 307 - 8**) .

وبالطبع فإن المؤسسات التي تستجيب للمطالب الاجتماعية المهمة جدًا ، تأتي على رأس المؤسسات الوقفية الخيرية ، كالجوامع ، المساجد ، سبيل المياه ، المدارس ، المكاتب ، مؤسسات إطعام الفقراء ، المستشفيات الحمّامات ، منازل القوافل ، الخانات . إن أصحاب الخير الذين شيّدوا في أماكن مختلفة من الإمبراطورية أكثر من اثني عشر جامعًا ، حنفيات للماء ، ليسوا قليلين ، إلا أن أصحاب الخير شيّدوا كل ما يخطر على البال وجهّزوا الوقف بمصادر ماليّة غنيّة (بالعثمانية : عقارت) ومن أمثلة ذلك : كليّة ، سبيل ، سلسبيل ، حوض للوضوء ، يالاق (حجر مجوف يوضع أمام المساكن لإطعام الحيوانات) ، فسقية ، حوض ، بئر ، بناية حمّام المياه الصحيّة ، حمّام مزدوج ، فتح عيون المياه المعدنية ، مرافق صحية ، طريق جسر ، مكتبة ، مصلّى ، مغسل للأموات ، تكية ، تكية صغيرة ، زاوية ، حجرة تكية كبيرة (دركاه) ، مقبرة ، قبّة ، سوق ، سوق موقت ، حديقة أساس ، مجاري ، ثكنة ، قلعة ، سدود استحكام ، سد استحكام مع حديقة ، هودج ، برج ، خندق ، خنادق ، استحكام ، رصيف ، زقاق ، حديقة كبيرة (بارك) ، شارع ، دار العجزة ، دار التقويم ، دار القرّاء ، دار الحفّاظ ، دار الحديث ، دار التوقيت ، ميناء ، فنار ، فنار للبحر ، محل غسيل الملابس ، مصنع زيوت ، مصنع شموع ، مصنع سكر ، مصنع حديد ، مصنع سباكه ، مصنع أسلاك ، فرن ، مذبح ، مصنع مدافع ، مصنع قذائف ، مصنع رماح ، اسطبل ، حاره ، حظيرة مواش ، محل دراسة ، مستشفي أمراض عقلية ، دار الشفاء ، محل تعليم الرمي ، محل فتاوى ، منزل للسابلة ، مسلة الرمي ، عريش ، قمرية ، خيمة ، طريق مياه ، مخزن مياه ، مصح ، دار الافتاء ، محكمة ، ملجأ ، مدفن ، كشك ، قصر ، سراي ، سراي ساحلي ، دار على البحر ، دار ، دار للإمام ، ميناء ، رصيف بحري ، كرمه ، مقهى ، مصنع بوظه (مشروب غير كحولي يصنع من بعض الحبوب) ، مصنع شيره (مشروب غير كحولي يصنع من عصير العنب الجاف) ، ناد ، صيدلية ، مخزن ، جدول (قناة) ، تأسيسات توزيع المياه ، ... إلخ .

المستشفيات على سبيل المثال ، كانت مؤسسات عظيمة ذات أبنية ممتازة ، نظامية ، تدرّس فيها دروس التطبيقات العملية لتلامذة الطب . إن مستشفى خاصة كي الذي أسسته السلطانة خرّم زوجة القانوني ومستشفى غرباء الذي أسسته بزم عالم والده -

سلطان ، أم عبد المجيد الأول ، لا يزالان أكبر مستشفيين في إستانبول . أما دار الشفاء التي أسسها القانوني فهي حاليًا مطبعة عسكرية . كانت مستشفى للتطبيقات لمدرسة سليمانية . وتوجد مستشفيات لأمراض معيّنة ، للنساء فقط . ومثال ذلك ، مستشفى الجذام في أدرنة (1451) وفي إستانبول قرة جه أحمد (1514) . كانت العناية بالمريض ، مداواته الخارجية ، أدويته من خيرات أصحاب الخير . كانت دار شفاء جينيلي في إسكدار ، من خيرات كوسم والده - سلطان ومخصّصة للأمراض العقلية للنساء فقط .

« عمارت » (المطابخ العامة) ، هي نوع آخر من المؤسسات الخيرية . تقدّم الطعام مجانًا إلى المعوزين والمسافرين . أسست في كل مكان . وغالبًا ما تكون على طريق القوافل ، كانت عمارت مراد الأول في إيزنيك ، تقدّم وجبتين من الطعام يوميًا لألفي شخص . وعمارت بيازيد الثاني في إستانبول ، كانت تقدم يوميًا بمعدل وجبتين وتشبع 1000 شخص (صرّاف هوانيسيان ، ورق 72 ؛ اينجيجيان ، 135) . كانت عمارات سليمانية وفاتح ، مؤسسات عظيمة كذلك . والحقيقة أن المعوزين كانوا يدعون ويطعمون ، حتى في القرى النائية . كان ذلك واجبًا اجتماعيًا لأشراف كل منطقة . لكن العمارات ، هي الشكل الرسمي الذي أصبح مؤسسة لهذه العادة . يقول d'Ohsson إن أكثر من 30 000 شخص تقدم لهم وجبتان يوميًا في مطابخ إستانبول العامة (2 ,460 - 1) . كانت ميزانية « عمارت » مراد الثاني في مرادية أدرنة في العام (1436) تعادل 8 , 4 مليون دولارًا سنويًا بالسعر الرائج الحالي . وميزانية عمارت سليمانية (إستانبول) السنوية تقارب 30 مليون دولار **وقفلر دائرة سي** ، (122, 113, 9). كان يقدم في عمارة فاتح ..ًا وجبتان ، 1650 شخصا وتوزع إضافة إلى ذلك 300 3 صمونة (فودلا ، ..ـ وفي مستهل العصر 15 ، كان في بورصة 7 مطابخ عامة » يوزع الطعام على كل القا..ين دون تفريق بين مسيحي ، وموسوي أو وثني » (Schiltberger ، نشريات Telfer ، 404) (نفوس بورصة في تلك الفترة يقارب 000 200) كان ضروريًا وجود لحم الغنم في أطعمة المطابخ العامة .

أما الكروانسراي (المنازل) فكانت خانات كبيرة جدًا وقسم منها كالقلاع

المستحكمة ، شيّدت على الطرق التجارية الكبيرة خارج المدن وهي إضافة إلى إطعامها القادمين إليها ، تؤمن مبيتهم كذلك . وتسمى صغارها « خان » شيّد السلجوقيون 112 والعثمانيون 221 كروانسراي ضخمًا جدًا داخل حدود تركية الحالية (قائمتها : Tarihi, Turk Hanlari, Ilter Jsmet ، أنقرة 1969) . وكلها بنايات فخمة تعتبر من الناحية العمارية . آيات فنيّة رائعة (495, 2, Ricault) .

أوقفت وقفيات للعناية بالمقابر . لم يستسغ العثمانيون ، تشييد قبور ضخمة ، كأتراك الهند مثلاً . أعظم السلاطين دفن تحت قبب متواضعة . لكنها كانت موضعًا للعناية . إن أشرف قبر في إستانبول ، هو قبر أبي أيوب الأنصاري (رضي الله عنه) حامل راية الرسول ﷺ ، الذي يسميه الإستانبوليون « أيوب سلطان » . كان يخدم في هذا القبر ، 10 متولي (تربة دار) ، 27 حافظًا يتلون **القرآن** باستمرار لمدة 24 ساعة ، وجمعًا 117 شخصًا (T, Oz **Istanbul Camileri** ، 55, 1) . كان يقوم بخدمة قبر فاتح في إستانبول 12 متولي بصورة دائمة و 90 حافظًا آخرون يقرأ كل منهم **القرآن** يوميًا لمدة 16 دقيقة في موضع رأس فاتح . لم يصمت صوت **القرآن** في موضع رأس فاتح في قبره مدة 444 عامًا ولا لحظة واحدة . وكذلك كانت قد اتخذت جميع التدابير لإطعام والعناية بآلاف اللقالق والحمام المتجمع حول قبر أبي أيوب (رضي الله عنه) (قل جدًا عدد اللقالق في الوقت الحاضر) .

إن وقف المياه ، كان نوعًا غنيًا آخر من الخيرات . كان جلب المياه في المدن الكبيرة من أماكن بعيدة إلى المحلات التي تستخدمها ، مشكلة صعبة . فمثلاً ، خصّص القانوني عام 1564 لأمر المعمار سنان 140 مليون دولار لغرض حل مشكلة ماء إستانبول التي زاد عدد نفوسها بصورة فجائية وهذه آخر خدمة قدمها الحاكم الكبير إلى مدينة استانبول . والقانوني أيضًا ، جلب إلى مكة ماء وافرًا وسقّف الحرم الشريف بـ 360 قبّة . والقانوني كذلك ، خصص لأمر المعمار سنان لإنشاء جسر جكمجه والطرق الرئيسية المتصلة به ، مبلغ 108 مليون دولار (هامّر ، 6 ,169 ,456) كان في القاهرة 55 حمّامًا كبيرًا للأوقاف ، 9060 حمّامًا في السرايات والقصور (أولياء ، 10 ,258 - 9)

استمرت نزعة حب الخيرات حتى في سكرات موت الدولة العثمانية . وهبت ابنة الخديو إسماعيل باشا ، الأميرة فاطمة خانم في 18 / 11 / 1920 ، عند وفاتها عن عمر يناهز 5 و67 عامًا ، ثروتها البالغة مليوني ليرة ذهبية إلى جامعة إستانبول .

14 ـ نظارة الأوقاف الهمايونية :

أسّس محمود الثاني في 1829 ، نظارة الأوقاف الإمبراطورية ، لغرض إدارة الأوقاف من قبل مرجع واحد وناظر عضو في الوزارة . كان در السعادة أغاسي ، يشرف على أوقاف الحرمين (مكة ومدينة) وسراي روزنامه جي (مدوّن حسابات السراي) يشرف على أوقاف السلاطين (السلالة) ، والمتولين على الأوقاف الأخرى . شغل منصب هذه النظارة حسيب باشا . 10 سنوات ، وشهرين (5 مرات خلال 1834 - 1859) ، عبد الله غالب باشا 8 سنوات (1894 - 1902) ، تورخان باشا 6 سنوات (1902 - 1908) ، أحمد كامل باشا 5 سنوات ، 7 أشهر ، (مرتين خلال 1870 - 1877) ، قبرصلي أحمد كامل باشا الذي صار بعدها صدرًا أعظم 4 سنوات ، وشهرين (مرتين خلال 1880 - 1885) . وفي عهد المشروطية أصبح مصطفى خيري أفندي ، الذي صار بعدها شيخًا للإسلام كذلك ، ناظرًا للأوقاف .

ولخروج العقارات التي تؤمن مؤسسات الأوقاف الموجودة في البلدان التي أوقفت فيها خيرات كبرى كإستانبول ، أدرنة ، بورصة ، مكة ، مدينة ؛ مع مرور الزمن من حوزة الإمبراطورية العثمانية وبقائها في الأقطار التي فقدتها ، تلف قسم كبير من الأوقاف القديمة . مثلًا ، كان قسم من أوقاف سليمانية في المجر . كانت في تشيكوسلوفاكيا الحالية ، قرى أوقفت للحرمين . أخذ الإعمار يتقلص على مرور الزمن في الإمبراطورية اعتبارا من 1638

15 ـ المساجد :

أطلق العثمانيون على المساجد التي تصلى فيها الجمعة « جامع » ، واستعملت كلمة « المسجد » للجوامع الصغيرة التي لا تصلى فيها الجمعة ولا تقرأ فيها الخطبة والتي

بدون منبر . شيّد العثمانيون جامعين في القرى المتواضعة وشيّدوا أحيانًا جامعًا ذا قبّة . عرفت مدن العثمانية وعلى رأسها إستانبول بـ « مدينة الجوامع » . فمثلاً ، رغم هدم الروس في قرم، من 1771 إلى 1805 جوامع كثيرة ، كان في (1805) ,1558 جامعًا و 5139 إمامًا – خطيبًا . وفي 1914 ، كان قد بقي 942 إمامًا وخطيبًا . لا يوجد واحد اليوم . يوجد جامع واحد فقط بقي في المجر . والوضع نفسه في كثير من الأقطار العثمانية القديمة .

شيّد في استانبول في دور فاتح فقط (1453 - 1481) خلال 28 عامًا ، 192 جامعًا ومسجدًا . 95 منها سالمة حاليًا ومفتوحة للعبادة (**Osmanl, Mimarisinde Fatih Devri,** **E, H, Ayverdi** ؛ 1973 ; ص 538 - 41) . يحصى هامّر بالنسبة لبداية العصر 19 في إستانبول ، 877 جامعًا بأسمائها واحدًا واحدًا ، 19 منها جوامع سلاطينية و 4 منها حوّلت من الكنائس ، ويذكر اسم 275 مدرسة في إستانبول نفسها عدا الضواحي (18 ,109 ,128) « إن جوامع الأتراك عظيمة جدًا . عظمتها ، ليست فقط في طرازاتها المعمارية . تلفت النظر من حيث الموارد التي وقفها مؤسسوها ومن حيث عدد المعوزين الذين تؤمن حاجاتهم من هذه الموارد : إن هذا الوضع ، يشكّل عارًا بالنسبة لنا نحن المسيحيين الذين نتبرع بالقليل من أجل الكنيسة » (**Ricault, 2, 343, 345**) .

إن ملاك جامع بيازيد الثاني في أدرنة ، كانوا 160 (**Edirne ve pasa Livasi, 3,2** وما بعده). كانت موارد جامع فاتح السنوية 54 مليون دولار بالسعر الرائج حاليًا (**The Travels Sanderson, 16 - 70**) . صرف على جامع شهزاده الذي أمر القانوني بإنشائه من قبل المعمار سنان 81 مليون دولار بالسعر الحالي وصرف لإنشاء جامع سليمانية 208 مليون دولار (هامّر ، 5 ,377 ,6 ,88 ,4) .

يطلق على الجوامع الكبيرة جدًا التي شيدها السلاطين العثمانيون أو أعضاء السلالة والتي تحتوي على أكثر من مئذنة واحدة (2 ، نادرًا 4 وفي سلطان أحمد فقط 6 مآذن) « سلاطين جامعي » أي جامع سلطاني يوجد منها في إستانبول 38 جامعًا . كان لكل من هذه الجوامع تسلسل في التشريفات (**d'Ohsson, 2, 448 - 50**) ؛ **علميّة سالنامه سي** ، 137 - 8) : أيا صوفيا (بناه فاتح) ، سلطان أحمد (أحمد 1) ، سليمانية

القانوني) ، بيازيد (بيازيد 2) ، فاتح (اسمه القديم : سلطان أحمد (فاتح) ، نور عثمانية (محمود 1 - عثمان 3) ، سلطان سليم (ياووز) ، أيوب سلطان (فاتح) ، لاله لي (مصطفي 3) ، بكلر بكي (عبد الحميد 1) ...

اعتبر جامع أيا صوفيا ، أكبر جامع لمركز الخلافة وجامعه الأول بين جوامع العالم كله . إن ملاك جامع سليمانية فقط ، الثالث في التسلسل بالنسبة إلى وقفية السلطان سليمان ، 280 شخصًا . إن ملاك المؤسسات الكبيرة الأخرى التي تشكل كلية سليمانية ، لا يدخل ضمن هذا العدد . إن 164 دفترًا لحسابات إنشاءات سليمانية موجودة حاليًا في أرشيف سراي طوبقابو ونشرت أهم أقسامه في كتاب عمر لطفي باركان المكون من مجلدين عظيمين ، الذي نشر عام 1972 باسم **Suleymaniye Insaatl** ، ويفهم منه أنه تم صرف ما يقارب مبلغ 600 مليون دولار بالسعر الرائج حاليًا على إنشاء كامل الكليّة . وقد صرف تقريبًا نصف هذا المبلغ على إنشاء الجامع والعمارت (مطبخ توزيع الطعام) . وبلغت مصروفات إنشاء جامع سلطان أحمد مع مشتملاته ، 444 مليون دولار . إن إنشاءات كبيرة جدًا كهذه تجرى في أرقى أماكن من المدينة وقبل ضربة الفأس الأولى ، كانت حقوق أصحاب الأملاك تبلغ أرقامًا خيالية ، وكان الاتفاق يجري مع صاحب العرصة ويقبض القيمة ، وكثيرًا ما دفع أكثر من القيمة الحقيقية ؛ لأن العثماني يؤمن بصورة جازمة ، أن التأسيس الذي يشيّد على أراض أخذت قسرًا من صاحبها ، لا يكون مقبولاً عند الله ولا يمكن أن تكون هذه خيرات . وقد شوهد من دخل في مساومة قاسية مع السلطان بالذات وطلب مبالغ فاحشة وحصل على طلبه

لقد ظهر أن السراي ، الكاتدرائية ، القصر وأمثاله من الأبنية التي شيدت في القرون الوسطى ، يرفع على الأغلب أسعار نقل الحجر من مكانه أو سعر شرائه بحيث يصل إلى 4 أضعاف وأحيانًا 6 أضعاف . على هذا الأساس ، لو تم تشييد البناء في مكان يتوفر فيه الحجر ، لأمكن تأمينه في أحوال كثيرة بنصف السعر . لأن الطرق كانت رديئة وملتوية وطاقة العربات لسحب الحجر كانت محدودة . إن العربة التي يجرها زوج من الثيران يمكنها فقط حمل حجر واحدة بحجم 1 $م^3$ وبزنة 5 , 1 طن . وإن كان مكان

الحجر على بعد 30 كم ، تحمل العربة عندئذ الحجر الواحد خلال يومين ، وإن كان الحجر على بعد 60 كم ، تحمل العربة عندئذ حجرًا واحدًا في كل 4 أيام ، إذ انه لم يكن باستطاعة العربة أن تسير أكثر من 15 كم في اليوم الواحد . وإن كان الطريق مرتفعًا ، كانت العربة تسحب بواسطة 10 ثيران وأحيانًا 20 ثورًا ، أو كانت تصنع عربات تزحلق غالية الثمن . ولهذا السبب كان يرجح طريق النهر أو البحر . وإن كان مصدر الحجر بعيدًا جدًا ، فإنه يتعذر تمامًا تشييد أبنية ضخمة ، وفي تلك الحالة يستفاد من الأبنية الأثرية القديمة المبنية من أحجار كثيرة العدد . كثير من المدن الأثرية زالت من الوجود بهذا الشكل . فمثلاً ، نجد أن أكثرية الأبنية في دور الرونيسانس (التجدّد) بنيت من أنقاض أبنية عهد روما بعد هدمها ونقلها . دونت هذه العبارة لتوضيح مبلغ العناء والصعوبة التي لاقتها العثمانية في إنشاء جوامعها وقلاعها وأمثالها من الأبنية .

وعلى سبيل المثال ، جلب رخام جامع سليمانية الأبيض من جزيرة مرمرة ، رخامها الأخضر من البلاد العربية ، بعض الأعمدة من مصر . اختير من أحد معابد مصر القديمة عمود كان قد بقي فيه . نقل العمود إلى الإسكندرية بواسطة فرش 460 قطعة خشبية طول كل منها 15 ذراعًا ، عرضها 7 أذرع وسمكها 6 أصابع . وأرسل إلى إستانبول بواسطة البحر . والأعمدة الثلاثة الأخرى من الأربعة الموجودة في سليمانية جلبت من بعلبك في لبنان ، ومن قيزطاشي في إستانبول ، ومن داخل سراي طوبقابو . اختار هذه الأعمدة معمارو الخاصة الذين بعثوا إلى أماكنها . أرسلت الأعمدة الحجرية من ميناء أمين أونو إلى سليمانية التي تقع على مسافة قصيرة منها ، أنزلت من السفن وسحب العمود الواحد بواسطة 7 أزواج من الثيران ، أما الأعمدة الحديدية فكلفت على نوعين 8 / 296 أقة و4 / 103 أقّة وجلبت من منجم حديد Samakov ومعمل سباكتها في بلغاريا . ربط سنان الأحجار ببعضها بمسامير حديدية كبير تسمى « زوانة » كل واحد منها يزن أقّة واحدة . وحفرت كذلك قنوات في الأحجار وصبّ فيها الرصاص . ولذا لم تستطع زلازل إستانبول الشهيرة إلحاق الضرر بها ، وكان الرصاص يرسل من مناجم شمال صربيا وبوسنة على دفعات ، كل دفعة 300 10 قنطار . كان استهلاك الرصاص كبيرًا بسبب تغطية السقف برصاص سميك . ولأجل صنع حجر القرميد ، خصص 400 1 قارب لنقل الطين الأسود إلى المعمل . كان القرميد يصل على دفعات ، كل دفعة

403 900 قرميدة . وكانت الحاجة إلى الخشب كبيرة أيضًا بسبب الهياكل التي ترتفع باستمرار . ويمكن قياس المواد الأخرى على ذلك .

لبناء جامع سلطان أحمد نزعت ملكية 5 سرايات وبيوت كثيرة . سدد البادشاه لسراي واحد منها وهو سراي عائشة خانم – سلطان مبلغ 30 000 ليرة ذهبية وكان هذا المبلغ أكثر من سعره ، الحقيقي وسدّد إلى سراي سنان باشا مبلغًا كبيرًا كذلك وكان سنان باشا قد بناه في 1553 لشرائه 300 دار تقريبًا . إن بناء جامع كبير يستغرق وقتًا وجهدًا كبيرين ولذا فقد بنى معمار سلطان أحمد قوجا محمد آغا مسجدًا مؤقتًا داخل الإنشاءات . لئلا يذهب العمال لأداء الصلاة في أماكن بعيدة ويضيع الوقت . إن 12 نوعية من المرمر (البلاط) التي استعملت في تشييد جامع سلطان أحمد والأماكن التي جلبت منه هي كما يلي (**رسالهء معماريه** ، ورق 54 ب ، 57 آ – ب) : بلاط أبيض مالكي ؛ بلاط مرمرة (جزيرة) وقابوداغ الأبيض ؛ بلاط لشام الأسود ؛ بلاط اسكدار الأسود ؛ بلاط دهنه (نجد) الأخضر ؛ بلاط يشيم لأخضر ؛ بلاط سوماكي الأحمر ، بلاط سرجة كوزي الأحمر ؛ بلاط زيله وآماسيا لملون بالأخضر على الأبيض ؛ بلاط قوردباغي ملون أحمر على أحمر بدرجات احمرار مختلفة ؛ بلاط سرجة كوزي بألوان مختلفة ممزوجة ؛ بلاط بألوان مختلفة ممزوجة من نوعيات كثيرة ، ميهالج ، تكرداغ . ويمكن تصوّر مبلغ صعوبة نقل كتل المرمر من نجد بوسائل ذلك العهد .

16 – الطرق والتكايا :

الطريقة والتكية ، هما احتياجان لا يمكن الاستغناء عنهما في الحياة الاجتماعية العثمانية . توجد تكية في كل قصبة . توجد تكايا خاصة لطرائق عديدة في كل مدينة . هي بمثابة نوادي ذلك العهد . تجرى فيها أحاديث ومسامرات علمية ، فنيّة ، تصوفيّة ، دينيّة ، واحتفالات وفقًا لما تقتضيه آداب وأعراف تلك الطريقة وتعلم فيها صناعات علوم ، آداب ولغات كثيرة جدًا . ومن هذه الناحية ، كانت الطرق والتكايا مؤسسات تربوية وتعليمية لا مثيل لها بالنسبة لعصرها . شيوخ التكايا محترمون ، وحتى البادشاه

يظهر احترامه لشيوخ التكايا الكبيرة . البادشاه زعيم ديني لكونه خليفة . وحامي جميع الطرائق بعنوان « سلطان المشايخ » . إن انتساب البادشاه إلى الطريقة المولوية أو إلى طريقة أخرى لا يبدل الوضع . يجوز الانتساب إلى أكثر من طريقة واحدة . ولكن لا يمكن الاشتغال بالسياسة في التكية . قاومت الدولة العثمانية الشيوخ المشتغلين بالسياسة بشدّة . إذ إن الشيخ ، سلطان للقلوب وإذا ما ادعى سلطنة الدنيا كذلك ، يكون قد أنكر سلطنته للقلوب . يعامل على هذا الأساس . وفي الأصل فإن العثمانية بخاصة البادشاه حسّاس جدًا تجاه اشتغال الشيخ بالسياسة . لأن شيخًا كهذا ، كالشاه إسماعيل ، ظهر ومزّق وحدة الأتراك والعالم الإسلامي .

كانت طريقة النقشبندية (النقشية) التي أنشئت في تركستان ، منتشرة جدًا . وحاليًا ، وبخاصة في الشرق هي أكثر الطرائق انتشارًا في تركية . إن الطرق ذات المنشأ العربي كالقادريّة ، الرفاعية والخلوتيّة كانت منتشرة كذلك . توجد كذلك طرق تركية : مولويّة ، بكتاشيّة ، قلندريّة ، سنبليّة (فرع الخلوتية) ، جلوتية ، بايراميّة ، كلشنيّة ، ملامتيّة ، عشّاقيّة (شعبة الخلوتية) سعديّة (شعبة الرفاعيّة) ... لكن كان أكثرها انتشارًا بين الشعب هي البكتاشية ، وبين المثقفين ، المولوية . كانت الإنكشارية بكتاشيين . وضعت هاتان الطريقتان من قبل مولانا جلال الدين الرومي وحاجي بكتاش ولي اللذين جاء كلاهما من خراسان إلى الأناضول ، وقت انقراض الإمبراطورية التركية السلجوقية المفجع

تسمى التكية الصغيرة زاوية والكبيرة دركاه ، والكبيرة جدًا آستانة . لكل منها شيخ . ينشأ الشيخ بانتسابه إلى شيخ آخر . وهكذا تعود سلسلة المشيخة وتستند إلى المتصوفين القدامى قبل عصور . التصوّف ، قطعة لا تتجزأ من حياة العثماني . وكثيرًا ما تدور المشيخة بين أعضاء عائلة واحدة . هناك عائلات شيوخ مشهورة . وعلى رأسها سلالة مولانا . حصل أحد أعضاء هذه السلالة على عنوان « جلبي » ويقيم في تكية مولانا في قونية ، أشهر تكية عثمانية (حاليًا متحف) . هو الذي يعيّن كل شيوخ تكايا المولوية التي تسمى مولوي – خانه . مرتبة المولوي الجلبي ، تعادل مرتبة وزير . عدة أفراد منهم قلّدوا البادشاه السيف . رئيس الطريقة البكتاشية ، من سلالة حاجي

بكتاش وكان مقيمًا في قصبة حاجي بكتاش . أغلقت التكايا في تركية بتاريخ 2 / 9 / 1925 . يعيش التصوف والطرق في القلوب كذوق روحاني . المرأة العثمانية شديدة الرغبة في التصوف . كانت هناك ساعات مخصصة لاستقبال النساء من قبل الشيوخ .

والذي يكفل استمرار الطريقة هم مؤيدوها الذين يسمون واحدهم « محب » . وإن كانت امرأة تسمى « محبّة » كمؤيدي النوادي الرياضية حاليًا . المحب لا يعتبر من أتباع الطريقة بصورة مباشرة . هو الذي أحب أحد الشيوخ في هذه التكية وأخذ في الحضور إليها والاستفادة ، وإن كان موسرًا ساعد تكيته . إن أتباع الطريقة الأصليين هم الدراويش الذين يحيطون بالشيخ في التكية ، والذين ينامون فيها . إن نظام إطاعة الدرويش لشيخه هو كما في الجيش . أمر الشيخ ليس فقط لا يناقش ، بل وحتى لا يفكّر في علّته .

توجد تكايا عظيمة كالسراي يخدمها مئات الدراويش . وتوجد كذلك في الأماكن الصغيرة زوايا ذات درويش واحد أو اثنين . ويجب أن نذكر أن التكية العثمانية في العصور المتأخرة لم تكن لامعة كما كانت في العصور القديمة . أخذت التكايا التي أصبحت أوكارًا للمسكنة والكسل والأكل على حساب الغير في الازدياد . يجب استثناء التكايا التي حافظت على مستواها إلى النهاية ، بل وتطورت ، والأكثر من ذلك أصبحت مؤسسة حديثة . ولا حاجة للإفراط في نقد الذين لم يستطيعوا الحفاظ على وضعهم السابق . إذ إن عاقبة المؤسسات في أية جمعية ، تتبع قانون الأواني المستطرقة .

إن أحد أسباب حصول الشيخ والدرويش على الأهمية في المجتمع العثماني ، هو اشتراكهم بصورة فعلية في تأسيس الدولة . ويسمى هؤلاء « درويش غازيلر » (الد راويش الغزاة) . هم على سيرة عثمان غازي . خدموا في الدرجة الأولى في إسكان روملي وإسلامها والحفاظ على المثل الإسلامية بشكل حي .

إن التوازن بين مدرسة ــ تكية ، وعلماء ــ شيخ في نظام المجتمع العثماني ، دقيق ومنتظم جدًا . والحقيقة أن الذين يسيطرون على الموظفين هم علماء الرسوم . لكن الشيوخ كذلك كانوا قد حكموا القلوب . اختلفت الزمرتان أحيانًا ، مما استوجب أن يفصل على أنه يلاحظ أنه لم يحصل في العثمانية أن صارت للشيوخ سيطرة و نفوذ عظيم

كما في الأقطار الإسلامية الأخرى . لأن فكرة الدولة ، كانت نظامًا يطغى على الدين ، وحتى على البادشاه ، كيف يمكن لنظام هذا شأنه أن يعطي ذلك الامتياز إلى التكية ؟ عامل مراد الرابع الشيوخ من هذا النوع بشدة ، وقضى على قسم منهم . انقلب الشيخ في الأناضول الشرقية إلى إقطاعي في الأراضي . ولكنه حافظ في الأقسام الأخرى من الأناضول ومن روملي على هوية محبوب القلوب ورجل فن وتصوّف .

كانت التكايا مؤسسات تعيش على تبرعات وأوقاف محبي التكية . كانت الدولة تعترف بالشيخ بصورة رسمية وكان للشيخ موقع في التشريفات ، ولكنه لم يكن موظفًا للدولة ، ولم يكن له راتب يتقاضاه .

ويوجد بين علماء الرسوم وشيوخ الإسلام كثيرون من المنتسبين للطرق .

كان في استانبول عام 1640, 714 15 جامعًا ومسجدًا ومصلى ، 557 تكية و 000 22 زاوية وحجرة يعيش فيها الدراويش . إن 150 تكية من بين التكايا التي ذكرها أولياء جلبي آنفًا ، تكايا مهمة .

كان يجوز للمسيحيين أن يدخلوا التكايا للاستطلاع كدخولهم إلى الجوامع والتفرج على الاحتفال . أشهر الاحتفالات هو احتفال المولوية الذي يسمى « آيين شريف مولوي » (الاحتفال المولوي الشريف) الذي هو بالأصل طقس موسيقي ورقص ديني – تصوفي يجري بالقراءة والعزف وسمي « سماع » . كانت الكلمات التي تتلى في المراسم ، عبارة عن منتخبات من الشعر الديني من ديوان مولانا ، لحنها ملحنون قديرون .

يجرى السماع مرة واحدة في الأسبوع في كل تكية مولوية ويسمى ذلك « مقابلة » وقد حدث حضور البادشاه ومشاهدته الحفل واستماعه . أكبر التكايا المولوية في استانبول ، كانت في غلطة (كوله دبيي) ، يني قابو ، أيّوب (بهاريّة) واسكدار . كانت كل واحدة منها مدارس حقيقية لتعليم الموسيقى ومدارس حقيقية لتعليم اللغة الفارسية .

17 – تشكيلات القضاء في دور التنظيمات :

وضعت في دور التنظيمات قوانين للجزاء والتجارة مقتبسة من أوروبا . بقي الفقه

الحنفي الذي نظّمه جودت باشا في مؤلفه الذي يعد ذروة في القانون المدني الإسلامي على شكل موسوعة قانونية وجيزة للغاية باسم **مجلة أحكام عدلية** ، سارى المفعول في القانون المدني حتى 1926 . يقول (Jurist of genius) « Bernard Lewis » (ص 122) . نشرت **المجلة** التي هي « من أعظم إنجازات القانون التركي » (one of the great achievement of Turkish Jurisprudenee) (Lewis, 123) باللغات العربية ، الإنكليزية والفرنسية بعد ترجمتها من التركية .

لم يتمكن سلاطين دور التنظيمات ، سواء كانوا ليبراليين أم دكتاتوريين من التدخل في القضاء . إذ لا يشاهد في الفترة الكلاسيكية للعثمانية ، حادث تدخل من البادشاه في شئون المحكمة ، حتى أن مراد الرابع ، أعظم السلاطين نفوذًا وتحكّمًا ، لم يقدم على شيء من هذا القبيل . لم يتدخل عبد الحميد الثاني ، ـ الذي لم يدع مجالاً لم يتدخل فيه ـ لا في القضاء ولا في العلم . وفي عهد ناظر العدل عبد الرحمن باشا ، أصبح القضاء التركي أحد أنظمة العالم النموذجية .

كان مجلس شورى الدولة يضع القوانين ثم تعرض على الحكومة والخاقان للتصديق عليها . أخذ البرلمان ذو المجلسين هذا العمل على عاتقه في دور المشروطية . بقي رؤساء شورى الدولة التي تأسست في 5 / 3 / 1868 والذين يسمون « رئيس » أعضاء في الحكومة حتى 1922 . إن أول رئيس فاشل لشورى الدولة ، هو مدحت باشا (11 شهرًا ، 23 يومًا) . كانت شورى الدولة من أرقى مؤسسات الدولة في فترة عالي باشا الذي أسّسها . وقد حقّق أعمالاً كبيرة في عهد عبد الحميد الثاني ، إلاّ أن شورى الدولة عند تشكيل المجالس في النظام المشروطي ، هبط وأصبح بمثابة محكمة إدارية . شغل عارفي باشا الذي صار صدرًا أعظم والذي هو في الأصل رجل سياسة ، هذا المنصب لمدة 6 سنوات ، 10 أشهر ، 5 أيام (3 مرات خلال 1879 - 1891) وكذلك شغل هذا المنصب يوسف كامل باشا الذي صار صدرًا أعظم وهو صهر محمد علي باشا 3 مرات (1869 - 1876) مجموعها 6 سنوات ، وشهران ، 21 يومًا .

قام « مجلس عالي تنظيمات » كأعلى مؤسسة في الدولة ، من أيلول 1854 إلى 14 / 7 / 1861 ، بجملة واسعة من الإصلاحات . كان رئيسه الذي يسمى « رئيس » ،

عضوًا في الوزارة . شغل هذا المنصب 6 وزراء مشهورين ، كلهم شغلوا منصب الصدر الأعظم ، 10 مرات وهم حسب التسلسل (عالي باشا ، يوسف كامل باشا ، كيجه جي – زاده فؤاد باشا ، قبرصلي محمد باشا ، مصطفى رشيد باشا ، مترجم رشدي باشا) . أطول من بقي في هذا المنصب هو قبرصلي محمد باشا (سنتان ، 7 أشهر ، 26 يومًا) وعالي باشا (سنتان ، 21 يومًا) اندمج هذا المجلس بعد ذلك ، في مجلس والا ، وألغي بعد نقل واجباته إليه .

أسس محمود الثاني « مجلس والاى أحكام عدلية » (مجلس أحكام العدلية العالي) ومختصرًا مجلس والا ، في نيسان من عام 1838 . كان رئيسه ، الذي يسمى « رئيس » ناظرًا للعدل ومسئولاً عن الاصطلاحات . كان يعمل بالتشاور مع مجلس ويوزعون الأعمال فيما بينهم . ثم أصبح اسمه « ديوان أحكام عدلية » ، وأخيرًا في 25 / 1870 ، « نظارة العدلية » أو « عدلية ومذاهب نظارتي » . كان ينظر في جميع قضايا الأقلية غير المسلمة . أول ناظر للعدل هو الأمير قاوالالي مصطفى فاضل باشا أخو الخديو إسماعيل باشا . رؤساء مجلس وإلا كانوا أعضاء في الوزارة . أما ناظر العدلية ، فكان تسلسله في تشريفات الوزارة الرابع بعد الصدر الأعظم ، شيخ الإسلام ، السر عسكر ، وأحيانًا الثالث قبل السرعسكر .

شغل رئاسة مجلس والا ، كبار شخصيات التنظيمات ، مثل رشيد باشا ، عالي باشا وفؤاد باشا . كان أطول من شغل وظيفة رئيس والا أو ناظر العدل ، هم الصدور العظام كرميان أوغلو عبد الرحمن نور الدين باشا (12 سنة ، 8 أشهر ، 29 يومًا) (1895- 1908) ؛ أحمد جودت باشا (10 سنوات ، ويومان) (5 مرات خلال 1868 - 1890) ، داماد عارف حكمت باشا ، ابن عبد الرحمن باشا هذا شغل المنصب أيضًا 3 مرات .

بدّل محمود الثاني اسم « صدارت كتخداسي » إلى « أمور ملكية ناظري » أي ناظر الأمور الملكية ، ثم سمى « داخلية ناظري » (ناظر الداخلية) . إن آخر كتخدا وأول ناظر ، هو المصلح الشهير محمد برتو باشا ، أستاذ مصطفى رشيد باشا . ألغيت هذه النظارة في 2 / 7 / 1839 ، ثم أعيد تأسيسها في 19 / 3 / 1869 ، ثم ألغيت في آب

1871 ، وأعيد تأسيسها في 5 / 2 / 1877 .

أنيطت الأمور الداخلية ، في أوقات إلغائها بشخص الصدر الأعظم وبمستشار الصدارة الذي انضم إلى الوزارة (كان كتخدا الصدارة وقتئذ ، مستشارًا للصدارة وعضوًا في الوزارة أيضًا) . بقي محمد مملوح باشا في هذه النظارة مدة 12 سنة ، 8 أشهر ، 27 يومًا (1895 - 1908) ، أحمد منير باشا 5 سنوات ، 11 شهرًا ، 14 يومًا (1885 - 1891) ، الصدر الأعظم خليل رفعت باشا 4 سنوات ، وشهرين ، و 3 أيام (1891 - 1895) ، الرئيس العام للاتحاد والترقي الصدر الأعظم طلعت باشا 6 سنوات ، 7 أشهر ، 13 يومًا .

18 ـ نظارة المعارف :

وفي دور التنظيمات ، تأسست « مكاتب عموميّة نظارتي » (نظارة المدارس العامة) (8 / 11 / 1846) خارج تشكيلات الوزارة للنظر في أمور المدارس ، ثم نظارة المعارف العامة ضمن عضوية الوزارة (17 / 3 / 1857) . شغل هذا المنصب أحمد كمال باشا لمدة 12 سنة ، 7 أشهر ، 19 يومًا (7 مرات خلال 1848 - 1878) ؛ أحمد زهدي باشا . 10 سنوات ، 7 أشهر ، 8 أيام (1891 - 1902) ، منيف باشا 9 سنوات ، شهر ، 9 أيام (3 مرات خلال 1877 - 1891) ؛ هاشم باشا 5 سنوات ، شهر (1903 - 1908) ؛ الصدر الأعظم السياسي صفوت باشا 4 سنوات ، 9 أشهر ، 15 يومًا (3 مرات خلال 1868 - 1876) ؛ عبد الرحمن سامي باشا 4 سنوات ، 8 أشهر ، 9 أيام (1857 - 1861) شكري بك 5 سنوات ، 5 أشهر ، 28 يومًا (- 1918 1913) . اعتلى جودت باشا مقام النظارة 3 مرات . شغل منصب « نظارة المعارف عدد من الشخصيات الأدبية التركية ، وهؤلاء هم : المؤرخ خير الله أفندي ، الصدر الأعظم أحمد وفيق باشا ، رجائي ـ زاده محمود أكرم بك ، المؤرخ منصوري ـ زاده مصطفى نوري باشا ، المؤرخ عبد الرحمن شرف أفندي ، متخصص الموسوعات أمر الله افندي ، داماد جاودار أوغلو محمد شريف باشا ، الشاعر رضا توفيق بولوكباشي ، الصحفي علي كمال بك

كان لنظارة المعارف مجلس علمي يسمى « مجلس معارف » أو « مجلس كبير معارف » وهو الذي سمي بعد ذلك « تعليم وتربية دائرة سي » (دائرة التربية والتعليم) . كانت الجامعة ، المدارس العالية ، المتاحف والمكتبات تابعة لهذه النظارة .

19 ـ التعليم في عهد التنظيمات :

كانت فلسفة التعليم في التنظيمات هي : تعليم الغرب + ثقافة الشرق . اتضح عدم كفاية تعليم المدرسة والاندرون عند حلول القرن 18 . إن أولى المدارس العالية التي نقلت العلوم الأوروبية افتتحت في القرن 18 . وقد تم البدء بالمدارس العسكرية التكنولوجية . افتتحت في 1728 مدرسة صناعة القنابل ، وفي 27 / 12 / 1734 ، افتتحت في اسكدار هندسة خانهء همايون (مدرسة الهندسة الامبراطورية) لتخريج ضباط استحكام وقد خرّجت مهندسين عسكريين لمدة طويلة . نقلت هذه المدرسة في 1759 ، إلى قره أغاج في كاغدخانه . وفي 1784 ، وسّعت بشكل كبير وطورت على الطراز الغربي تمامًا وأطلق عليها اسم مهندسخانهء بري همايون (مدرسة الهندسة البرية الامبراطورية) . واستمرت في تخريج مهندسين عسكريين ضباط مدفعية واستحكام . وهي حاليًا جامعة استانبول االتكنولوجية . وفي 1793 انتقلت من قاسم باشا إلى سراي بهارية في أيوب ، ثم إلى خاصكوى ومن ثم إلى ماجكة . وانتقلت « مهندسخانه بحري همايون » « مدرسة الهندسة البحرية الامبراطورية » التي فتحت في (18 / 11 / 1776) لتدريب وتخريج ضباط بحريّين من سراي ترسانه في قاسم باشا إلى خاصكوي بعد توسيعها في 1796 . كانت لهذه المدارس مكتبات بلغات أجنبية ، مطابع وأساتذة أجانب . في هذه المدارس كان التلاميذ يجلسون على القماطر ولا يجلسون أرضًا متربعين كما في المدارس الدينية .

بدأ الانقلاب الحقيقي ، بافتتاح محمود الثاني مدرستين عسكريتين عاليتين . طبخانة عامرة (14 / 3 / 1827) وهي التي سميت بعد مدة قصيرة باسم مكتب طبية عسكرية عدلية شاهانه ، وهي الكلية الطبية العسكرية (اسمها الحالي = كلخانة) . ولكون كل الدروس بالفرنسية ، فقد نشأ جيل أخذ يتعمق في الثقافة الغربية . تخرّج كيجه جي ـ

زاده دكتور بيوك محمد فؤاد باشا ، شخصية التنظيمات الثالثة ، من هذه الكلية ، أبوه عزّت ملا ، أكبر شاعر في عصره وجدّه قونية لي قضعسكر صالح أفندي . افتتحت الطبية في غلطة سراي . تلاها مكتب فنون حربية شاهانه (1834) في ماجقه – التي نقلت بعد ذلك إلى حربية – وهي على أقل تقدير ، بنفس الدرجة من الأهمية . بدأ ضباط المشاة والخيالة الذين سيشكلون صلب الجيش ، يتخرجون فيها . منح السلطان محمود متخرجي الدورة الأولى ، راتب عقيد ، إذ كان الذي سيحافظ على الدولة هو الجيش ، والضابط هو أساس الجيش ، فتحت كلية الأركان الحربية السلطانية عندما بدئ بالأخذ بنظام أركان حرب في الجيوش العالمية وقدّمت أول دفعة من متخرجيها عام 1849 ، أصبح ثلاثة منهم مشيرين ، أحدهم حسين عوني باشا الذي أصبح صدرًا أعظم وسكرتيرًا . انتقلت إدارة الجيش العثماني على مر الزمن إلى الضباط الأركان . امتاز الأركان بما لم يشاهد مثله تقريبًا في الدول الأخرى ، ويحتمل أن يكون بتأثير من المدرسة البروسية . والحقيقة أن التدريس كان على نظام المدارس العسكرية الفرنسية . غير أن النظام البروسي كان يبرز بالتدريج ، إلى أن ترك النظام الفرنسي بعد 1878 ، وتغير التدريس إلى النظام البروسي .

إن « التعليمخانة » (مقر التعليم ، مدرسة) التي افتتحت في 1826 للعساكر المنصورة ، هي نواة الحربية . بإمكان الذين قضوا فيها سني التعليم الـ 8 ، الدخول إلى الحربية . أما التعليم في فرع الطب ، فكان 4 سنوات . أسست بعد ذلك جرّاحخانهء عامرة (كلية الجراحة) (9 / 1 / 1832) لتخريج جراحين . وبدأ محمود الثاني بإرسال متخرجي الحربية إلى فيينا ، باريس ، لندن لتعلّم اللغة والتدريب .

فتح أول معهد لتعليم الموسيقى الغربية (كونسرواتوار) باسم موسيقاي همايون .

أسّست غرفة ترجمة الباب العالي . علّمت هذه الغرفة الموظفين اللغة الفرنسية بصورة جيدة جدا . لا يتاح للموظف الذي لم يتعلم هذه اللغة أن يرقى في وظيفته . ومنذ ذلك التاريخ وحتى عام 1945 ، كانت اللغة الفرنسية هي الأساس في الثقافة الغربية .

والحقيقة أن الفرنسية والإنكليزية كانتا تدرسان ، لكن الذين أسّسوا أدب التنظيمات وأدب اللغة التركية أخيرا ، هم على العموم الذين نشأوا على الثقافة الفرنسية . وفي الأدب الإنكليزي ، يمكن القول بأنه كان لشكسبير تأثير . ولا يمكن البحث عن تأثير

أدب الدول الأوروبية الأخرى على الأدب التركي ، إذ إن هذا الأثر سطحي للغاية . أما تأثير الشعر الفارسي في الشعر فقد استمر حتى العهد الجمهوري . كان تأثير الشعر العربي شبه معدوم ، في الأدب التركي بعد القرن 16 . لكن اللغة العربية هي الأساس في العلوم الإسلامية في تركيا إلى يومنا هذا .

فتح محمود الثاني قبل وفاته بقليل « مكتب معارف عدلية » (11 / 2 / 1839) وهو نواة الاقتصاد والعلوم السياسية حاليًا .

تطورت الكليتان العسكريتان التكنولوجيتان المسماة « مهندسخانة » واستمرتا في التدريس . كان التحصيل فيها لمدة 4 سنوات . كانت الفرنسية إجبارية ، وتدرس كذلك اللغتان العربية والفارسية . وفي 1842 أصبحت اللغة الإنكليزية إجبارية في كلية الهندسة البحرية ، والفرنسية اختيارية . ومنذ عهد سليم الثالث (1789 - 1807) كان هناك ضباط مدفعية واستحكام يجيدون الفرنسية إجادة تامة وضبّاط بحرية يجيدون اللغة الفرنسية بشكل متقن ، وبعضهم كان قد تعلم اللغة الإنكليزية كذلك **Revolutions de Constantinople, Saint - Denys** ، باريس 1819 ,1 ,76) وعندما استخدم محمود الثاني ضباطا بروسيين للحربية (الذي سيكون أحدهم بعد ذلك الماريشال فون مولتكة) ، ظهر من تعلم الألمانية كذلك ، وقد تعلم متخرجو الحربية الذين ذهبوا إلى فيينا ، هذه اللغة بشكل أكمل (**تاريخ أندرون** ، 1 ,126 - 7) . أرسل محمود الثاني في البداية 4 طلاب إلى باريس في 1827 ، ولكن قبل ذلك ، كان هناك في دور سليم الثالث من هو مستمر في الدراسة في انكلترا . افتتحت الحربية على طراز Saint Cyr .

وفتح Donizetti باشا في 1831 معهد تعليم الموسيقى الغربية على الطراز الإيطالي ، لذا تأخر دخول الموسيقى الفرنسية والألمانية الأكثر جدّية إلى تركية ، وقد كانت الموسيقى الإيطالية هي المألوفة أساسًا في إستانبول منذ عصور بواسطة الأوبرا والمسارح الموجودة في بك أوغلو . على أن الموسيقى الغربية أصبحت فنًا يتذوقه المثقفون . وحتى اليوم لم يهبط إلى المستوى الشعبي .

افتتح محمود الثاني «مكتب علوم أدبيّة » لتكون نواة لكلية الآداب .

اعترف في 1847 بشهادة الكلية الطبيّة العسكرية في كل الأقطار الأوروبية

كشهادة للعاملين في مهنة الطب ، وصودق على جدارتهم في العمل في مهنة الطب في أوروبا كذلك . وفي هذه الأثناء أسست الكلية الطبية ، ثانوية طبية مدتها 4 سنوات وأخذت طلابها من متخرجي هذه الثانوية . زيدت مدة الدراسة من 4 إلى 5 سنوات . دراسة الجراحين والصيادلة كانت 3 سنوات . فتحت خلال فترة متوسطة طبية ، إلاّ أنها أغلقت بعد ذلك ، وقبل الطلاب المتخرجون من المتوسطة في الثانوية الطبية . وأمر محمود الثاني فتح مدرسة للبيطرة العسكرية أيضًا .

إن الجملة الآتية مقتطفة من خطاب افتتاح محمود الثانى للكلية الطبية : « سوف تدرسون هنا فن الطب باللغة الفرنسية . إن قصدي من تدريس اللغة الفرنسية هو ليس تعليم اللغة بل تعلّمكم فن الطب ونقله بالتدريج إلى لغتنا . اجتهدوا في تحصيل علم الطب من أساتذتكم ، واسعوا بالتدريج إلى نقله إلى التركية ليكون متداولاً في لغتنا » .

تخرج معظم كبار رجال الدولة في عهد التنظيمات في غرفة الترجمة التي فتحت في الباب العالي في 23 / 4 / 1821 . أدخل رشيد باشا متخرجي هذه الغرفة في السلك الدبلوماسي وأسّس الدبلوماسية التركية الحديثة . أسست مدرسة اللغات بعد مدة . كان يدرس فيها اللغات الفرنسية ، الإنكليزية ، الألمانية ، الإيطالية ، اليونانية ، العربية ، الفارسية . كانت خاصة بالموظفين . يلتحق بها الموظف الراغب ، وفي حالة حصوله على شهادة في إحدى اللغات يرتقي بسرعة . هناك رجال دولة قديرون من بين متخرجي هذه المدرسة . لكن كلهم تقريبًا تعلموا الفرنسية . والراغبون في تعلم اللغة العربية ، فضلوا دروس المدرسة والجامع ، والذين رغبوا في تعلم الفارسية ذهبوا إلى التكايا المولوية .

ومن المرحلة التى تركها محمود الثاني في 1839 ، واصل ابنه السلطان مجيد ورشيد باشا ، ثم أعقبه عالي باشا والسلطان عزيز ، ثم أعقبهم عبد الحميد الثاني .

سار عبد الحميد الثاني في نظام التعليم والمعارف على مسار خط التنظيمات تمامًا . وفّق أكثر من غيره في تطوير ونشر معارف التنظيمات حتى في الأماكن النائية . هو الذى خرق احتكار إستانبول . وساعده فى هذا الشأن نخبة راقية من نظّار المعارف

مثل كمال باشا ، منيف باشا ، جودت باشا .

أسس السلطان حميد نظامًا تعليميًا شاملاً وربّى جيلاً مجهّزًا بالثقافتين الغربية والشرقية ، ولقّن فكرة الوحدة العثمانية و لم يفرّق بين القوميات التي يحكمها . إن الاهتمام بالأتراك والعرب أكثر من غيرهم طبيعي ؛ إذ إن هذين الشعبين كانا يشكلان أكثرية نفوس الإمبراطورية ، لكنه مع ذلك اهتم بتعليم كل شعب بنسبة عدد نفوسهم وأضاف إلى هؤلاء غير المسلمين كذلك . وبالنسبة له فقد كان السلطان حميد يرى أن كل غير مسلم تعلّم في المدارس العثمانية ، فإن ذلك يعني أن الأتراك قد كسبوه مقدمًا بمقدار النصف .

وبقدر اتّساع انتشار التعليم ، اكتسب محتواه جودة وقوة . وتخرج أساتذة قديرون ذوو معلومات عالية . يذكر أبو الضياء توفيق بك ، أن عدد متعلمي القراءة والكتابة قد زاد بين الأتراك في الإمبراطورية خلال السنين 1868 إلى 1909 بمقدار 10 أضعاف (**Yeni Osmanlilar** نشريات زياد أبو الضياء ، 1 ,193) .

تطوّرت صناعة الطباعة بشكل كبير . فتحت المتاحف ونظمت المكتبات .

كانت المدرسة الابتدائية التي تدرس التعليم المتوسط للبنات بصورة رسمية هي رشديّة الإناث التي فتحت عام 1858 . كان يطلق على المدرسة الابتدائية « مكتب ابتدائي » وعلى المتوسطة « رشديّة » ، وعلى الثانوية « إعدادي » ، وعلى الكليّة « سلطاني » .

وفي 1847 ، فتحت مدرسة دار المعلمين (لتخريج معلمين ذكور) ثم مدرسة دار المعلمات التي تقدم الدراسة الابتدائية بدرجة ثانوية ، ثم فتحت الأقسام العالية لهاتين المدرستين .

شكّلت كل هذه المدارس العمود الفقري لنظام المعارف التركي وفتحت كل المدارس الجديدة على غرارها . بدأت المدارس الابتدائية التابعة للمعارف ، عدا مدارس المحِلات ، تفتح في 1872 . والمدرسة التي لفتت النظر كثيرًا هي المدرسة الثانوية التركية التي فتحها محمود الثاني في باريس عام 1834 .

افتتحت المدارس الأجنبية كذلك . الكليات الفرنسية ، الإنكليزية ، الأمريكية ... إلخ فتحت هذه في مدن عديدة مثل إستانبول ، بيروت ، سلانيك ، أزمير ، طرابزون ، هاربوت . التحق المسلمون بهذه المدارس كما التحق غير المسلمين .

طوّرت المدرسة التي فتحها السلطان محمود لتعليم وتدريب الموظفين ، باسم مكتب فنون ملكية وقدّم أول فوج من متخرجيه في 1860 . أمر عبد الحميد الثاني بعد ذلك بتنظيمه وجعله بمستوى Sciences Politiques في باريس . قدّمت هذه المدرسة الجديدة « مكتب ملكية شاهانة » أول دفعة من متخرجيها عام 1879 . كان فيها قسم ثانوي لمدة 3 سنوات . كانت تقبل التلاميذ بالامتحان من هذه الثانوية ومن كلية غلطة سراي ومن متخرجي الثانويات الأخرى . كانت 3 سنوات ثم أصبحت 4 . ورغم أن المدارس العسكرية العالية كانت محظورة بالنسبة للمسيحيين ، لكن المدارس الملكية ، أو المدارس المدنية في جميع مراحلها ، كانت مفتوحة للمسيحيين كذلك .

وفتح السلطان حميد كلية الطب المدني أيضًا . فتحت كليات الحقوق وكلّيات أخرى ، وهذه الكليات فتحت في مدن كثيرة كبغداد وسلانيك . فتحت مدرسة حربية أخرى في أدرنة . كان متخرجو مدرسة الأركان الحربية ، المدرسة الحربية ، كلا من الطبيتين ، غلطة سراي ملكية وكلية الحقوق يشكلون الزمرة الممتازة . تسلم خريجو هذه المدارس إدارة الدولة بالتدريج . أدركوا عدم كفاية نظام السلطان حميد ، وتأخر الإمبراطورية . ارتقى 7 من متخرجي مكتب الملكيّة إلى مرتبة وزير ، وارتقى واحد منهم إلى مرتبة صدر أعظم .

هاشم أتاسي بك الذي أصبح رئيسًا للجمهورية في سوريا من خريجي الملكية لعام 1893 ، كان متصرفًا لبوردور عام 1918 . ومدحي فراشيري الذي أصبح رئيسًا للوزارة في ألبانيا من خريجي عام 1897 ، كان متصرفًا لمدس عام 1913 ، وهو مؤلف كتاب حقوق باللغة التركية ، وعطاء الله أيوبي بك الذي أصبح رئيسًا للجمهورية في سوريا من خريجي 1897 ، كان متصرفًا لـ Icel عام 1918 ، وسليمان فهمي بك الذي صار رئيسًا للوزارة في ألبانيا من خريجي عام 1899 ، قام بتدريس الأدب التركي في غلطة سراي من 1905 إلى 1919 ، ورشيد تالي بك الذي صار رئيسًا للوزارة في

لبنان من خريجي عام 1900 ، وكان متصرفًا للاذقية عام 1918 ، وإلياس فيرون بك بن محمد علي باشا ، متخرج عام 1905 ، وهو كذلك أصبح رئيسًا للوزارة في ألبانيا ، سعد الله جابري بك من خريجي 1913 ، صار رئيسًا للوزارة في سوريا ، ورئيس جمهورية سوريا شكري القوتلي بك متخرج عام 1913 ، ومظهر أرسلان بك (باشا) الذي صار رئيسًا للوزارة في الأردن ، كان قائمقام لزاخو عام 1918 ، متخرج عام 1909 ، صار رئيسًا للوزارة في العراق ، مصطفى عاصم كوروبا ، متخرج عام 1910 ، صار رئيسًا للوزارة في ألبانيا ، عارف حكمت سليمان بك من خريجي عام 1910 ، هو أخو الصدر الأعظم محمود شوكت باشا ، صار رئيسًا للوزارة في العراق ، باجه جي - زاده أحمد حمدي بك ، ابن عبد الوهاب رشدي باشا من خريجي عام 1908 ، صار رئيسًا للوزارة في العراق ، زكي خطيب بك من خريجي عام 1907 ، كان قائمقام لفيرانشهر (أورفة) عام 1918 ، صار رئيسًا للوزارة في سوريا ، سعد الله قول أوغلو ، متخرج عام 1901 ، كان واليًا على بينكول ، صار رئيسًا للوزارة في ليبيا ، ولا داعي لسرد أمثلة عن الذين شغلوا مناصب عالية عدا رئاسة الدولة والحكومة في الأقطار الإسلامية التي انفصلت عن الإمبراطورية العثمانية ، إذ لا تكفي صحائفنا لتقديم أمثلة عن متخرجي المدارس العثمانية العالية الأخرى .

هناك رجال دولة من البلقان ، بين متخرجي مكتب غلطة سراي السلطاني (Collège Imperial) الذي أسسه فؤاد باشا والذي يدرّس باللغة الفرنسية ، والذي به مكتبة تشتمل على 40 000 كتاب وله مكانة مدرسة عالية . وهناك أسماء شهيرة جدًا بين أعضاء كل من الناديين الرياضيين غلطة سراي الذي تأسس في 1905 ونادي فنربقجة الذي تأسس في تلك الفترة كذلك .

البحث الخامس عشر

العلم والفن تاريخ الثقافة

1 ـ المدخل إلى الثقافة العثمانية :

الأتراك ، قوم من أقوام شمال آسيا . ظهروا في غرب آسيا الشمالية ، أسّسوا إمبراطورية في شرقها وشمال شرقها الأقصى ، ثم نقلوا مركزهم منها في 840 م إلى الجنوب ـ الأوسط ، إلى تركستان الشرقية ، ثم لجئوا إلى الشرق الأوسط عن طريق تركستان الغربية وخراسان ، وأسسوا الدولة التركية عام 1074 . وبذلك فإنهم بينما كانوا مجاورين للمحيط الهادي ، هبطوا إلى المحيط الهندي ، وانتقلوا إلى البحار التابعة للمحيط الأطلسي ، إلى البحر الأسود والبحر الأبيض ، كالعرب الذين كانوا في المحيط الهندي وذهبوا إلى المحيط الأطلسي وأسسوا دولة في أسبانيا وفاس . الأتراك والعرب الذين حقّقوا ذلك كانوا في الأصل قوما رحلا . وبالطبع ، كانت لهم مدن لكن الكتلة الأساسية كانت رحّالة .

كان الأتراك طورانيين والعرب ساميين ، ولذلك فقد كان فرق الثقافة بينهم عميقًا ، وأساسًا كان الأتراك من سكان الأقاليم الباردة ، والعرب من سكان الأقاليم الحارّة . عدم تشابه العامل الجغرافي يكون عاملًا له أهميته .

تتكون الثقافة من مئات العناصر . والثقافات التي تقل النقاط المشتركة في عناصرها ، تنفصل عن بعضها ، والثقافة تظهر سجية تلك الأمة .

إن محاولة إيضاح الثقافة التركية القديمة وبوجه خاص العرق التركي ، بعامل أو عاملين ، من الطبيعي ألا تكون عملية مكتملة الصحة ، إلا أنه من الممكن أن يقدم ذلك فكرة عنها . وهذا ما سأحاوله .

إن الأتراك في أصلهم ، قوم مقاتلون رحّل . ارتقوا مسرح التاريخ لمعرفتهم الجيّدة بكيفية استخدام الحصان في الأزمنة المبكرة ، ولصناعتهم أسلحة متفوقة من معادن جبال التاي . هم خيّالة ، والمشاة في جيشهم لا يكاد يكون لهم وجود . كل من يستطيع حمل السلاح ، فهو جندي . للمرأة مكانة اجتماعية رفيعة . لا مانع من ظهور النساء بين

الرجال ، لكن شرف المرأة وحشمتها وعفة وبكارة البنت ، مبادىء لا يمكن التخلّي عنها . لا يأكلون لحم الخنزير ويقومون بتربيته . يأكلون لحم الغنم والحصان ، وعند الحاجة الماعز ، الجمل ، البقر . اللحم ، غذاؤهم الرئيسي . يؤمنون **بالإله الواحد** . إن تأثير الشامانية المغولية سطحي . إن إله الأتراك القدامى تنكري Tengri ، في الحقيقة إله واحد ولكن ، إله الأتراك فقط ، وليس « رب العالمين » كالله . لا يوجد تقريبًا ، لدينهم معبد ولا راهب وليس لديهم كتاب مقدس ونبي بصورة مؤكدة ؛ لذا يمكن أن يصيروا بوذيين ، مانويّين ، مسيحيين ، نسطوريين . كان الإسلام هو الدرع المانع لهم من الانتقال إلى دين آخر . التركي الذي أسلم لا يترك دينه إلى دين آخر حتى ولو كان الثمن حياته .

الأتراك قوم يعيش في **السهول** ، لا يروقهم البحر . يقفون عندما يصلون إلى البحر أو إلى الجبال الشامخة . ولأن المنطقة التي تنحصر بين بحر اليابان وأوروبا الوسطى أكبر سهل في العالم ، والذي يبلغ عشرات الملايين من الكيلو مترات ، فإنهم يتنقلون فيه كأنه أراضي آبائهم ، وإن حدث وقابلهم أقوام تعوق تجوالهم في هذه الأراضي ، يقاتلونهم ، ويجعلونهم تحت سيطرتهم . توصلوا بصورة تامة إلى فكرة وشعار وفلسفة **الانتشار والفتوحات** في سنة 200 ق . م . وحتى قبل عام 700 ق . م . وحتى تكون الفتوحات ممكنة ، فقد اكتسبوا مهارة وتجربة **تعبئة الوحدات** في أزمنة مبكرة . يسرعون في تعبئة الوحدات في الأقطار والأقوام الأجنبية ويأخذونهم تحت إدارتهم . ولا يتدخلون أبدًا في معتقدات وثقافة ذلك القوم . ليست لديهم سياسة دينية وثقافية . إلا أن تلك الشعوب عليها ألّا تصطدم بالدولة التركية . يعتنقون مبدأ **كل شيء لأجل الدولة** ، ليس فقط تجاه الأقوام الأخرى ، بل تجاه أنفسهم كذلك . يطيعون الكبير . من خصالهم الاستماع إلى الأمر ، وإصدار الأمر . شعب اجتماعي . الشخص الذي يأمرهم لكي يطاع بشكل مطلق ، يجب أن يكون قد انحدر من نسل متة خان Mete Han الذي يبجلونه بعنوان « أوغوز خان » ، ويحمل دمه ، والذي مات في 174 ق . م . والحقيقة أن أكثرية السلالات الخاقانية (السلطانية) ، هي من سلالة متة . وينحدرّ بنو عثمان من كونخان كبير أولاد متة الـ 6 ، وقايي خان كبير أولاد كونخان .

يؤمنون بالأصالة . كل الأتراك أحرار . لا يمكن للتركي أن يكون عبدًا أو أن تكون التركية جارية ولكن ، توجد طبقات اجتماعية . والواجبات العسكرية خاصة ، مسئولية الأشراف ، بل ومسئولية أعضاء السلالة بالذات . يتزوجون على أساس هذا المفهوم . هدم الإسلام هذا التقليد ، وأزاله العثمانيون تمامًا . لا يوجد في المجتمع العثماني صنف يمتاز بالأصالة ، صنف اجتماعي وشخص ذو امتياز . بنو عثمان ، هم العائلة الوحيدة في الإمبراطورية التي تعتبر ذات امتياز بالولادة .

الأتراك ؛ من الأعراق الإمبراطورية النادرة في التاريخ (بالفرنسية : race Impèriale) . لا تروقهم الدولة الصغيرة . وإن أدركوا أنهم صغروا بالنسبة لقطعة جغرافية ، ينتقلون إلى إقليم مختلف تمامًا ويؤسسون فيه إمبراطورية جديدة . قبائل تركية لا تحصى انصهرت مع الصينيين والأقوام الأخرى . ولكنها لم تُمْحَ . عدم وجود سياسة ثقافية لهم ، ومعاملتهم الأقوام الأخرى بالحرية والسماحة ، سبّبت لهم كوارث كثيرة في التاريخ . كذلك لا يمكن الادعاء بأن انتشارهم الجغرافي على مساحات واسعة لا يتصورها العقل كان عاملاً في صالحهم . لا شك أن قرّائي المحترمين أدركوا في الحال نقائص وعيوب الأتراك القدامى - كإدراكهم لمزاياهم - من خلال الأسطر التي قدّمت فيها الخطوط الرئيسية لمزاياهم . عيب آخر في الأتراك القدامى ، هو عدم رغبتهم في الزراعة ، وحبهم الرعي . وحاولوا أن يعوّضوا عن نقصهم هذا بتحكّمهم في المعادن . تمكنوا في 1500 ق . م . من فصل الحديد عن المعادن الأخرى واستعماله ، هذا قبل مصر بـ 300 سنة وقبل أوروبا بـ 700 سنة . تمكنوا من تشكيل جميع المعادن وإنتاج آثار فنية رائعة . اهتم جدًا René Grousset من الأكاديمية الفرنسية ، بصورة خاصة بموضوع تفوق الأتراك في صناعة المعادن .

العنان ، السرج ، الركاب ، أصول الركوب على الحصان ، بنطلون وسروال ملائم للفروسية ، سترة ، ثوب ، منديل ، حزام ، سيف طويل ، جزمة تركية ، صناعة دباغة الجلود ، تكتيك الحرب الميدانية ، كل هذه عناصر علمها الأتراك للصينيين أولاً ، ثم لليونانيين ، ثم انتقلت إلى الرومانيين وإلى أوروبا . ورغم أنه بالإمكان القول بأن هذه اكتشافات عسكرية ، لكنه يجب ألا تغرب عن بالنا جوانبها الفنيّة أيضًا .

Influences, Darko; Touranicnnes sur l'Evolutien de l'Art Milihaire des Grecs, des Romains et des Byzantins, Byzantion, XII, 1937, 119 - 47; Von Le Cog, Bilderatles, g; Eberhard, Cin in Simal Komsulari, 67, 91; Moravcisk, Byzantinoturcica, I, 239 - 40, 250 - 3;

كتب المؤرخين الأتراك محمد كويمر ، فاروق سومر ، عثمان طوران ، إبراهيم قفس أوغلو ، بهاء الدين أوكل .

إن عرقًا هذه سجاياه ، عندما اعتنق الإسلام في 924 ، صار وجهًا لوجه أمام حضارة وثقافة جديدة . كانت ثقافة إسلامية ، ثقافة عربية وتحمل عناصر غنيّة من الثقافة الفارسية . بالطبع لقد تقبل الأتراك الإسلام مع كامل إيجابياته . التركي الموجود في كاشغر ، يؤمن ولا يؤمن بنفس المعتقدات تمامًا التي يؤمن بها المسلم الموجود في قرطبة . لكن الثقافة والفن شيء آخر . وبطبيعة الحال ترك الأتراك عند انتقالهم إلى الإسلام ، قسمًا من ثقافتهم ومعتقداتهم ، إذ إن قسمًا منها لم يكن ملائمًا لدينهم الجديد . ولكنهم حافظوا على معظم عناصر ثقافتهم . اقتبسوا عناصر جديدة وكثيرة جدًا من العرب والفرس وبالأصح من الثقافة والحضارة الإسلامية ، قد يكون ذلك تعويضًا لملء فراغ ما تركوه . بعبارة أخرى ، لقد خرجوا من محيط الحضارة التركية القديمة ودخلوا إلى محيط الحضارة الإسلامية . أصبحوا قطعة فعّالة في تلك الحضارة . لكن الثقافة لا تعني الحضارة كذلك . تكونت بالتدريج ثقافة تركية إسلامية ، وصلت في العهد العثماني إلى مرحلة كاملة . نشرت العثمانية هذه الثقافة في جميع أرجاء الإمبراطورية ، بل إن تأثيرها الثقافي كان له وقع مهم خارج الإمبراطورية كذلك . استمرت الثقافة التركية خارج العثمانية في إيران ، تركستان والهند كقطعة من المدنية الإسلامية وهذا لا يدخل ضمن موضوعنا . يمكن في بحثنا هذا تقديم نماذج محدودة فقط عن ماهية الثقافة العثمانية . إذ إن الموضوع واسع جدًا ، ويحتوي على فروع عديدة من التاريخ ، ويمتد من تاريخ الموسيقى إلى تاريخ الإعمار ، ومن تاريخ العلم إلى تاريخ الحقوق .

2 ـ انتشار الثقافة والفن العثماني :

إن فعاليات العماريين العثمانيّين في الهند لا تنكر . استخدم بابور ، أكبر شاه جهان ،

معماريين والخطّاطين العثمانيين(Le Tadj Mahal, A . Tchagotai 11 ; A.H. 505 , 5 ,Rose (IA . إن قسمًا من الآثار العمرانية العملاقة الكائنة في دلهي ، آكرا وجوارها وتاج محل الشهير ، شيدها العماريون العثمانيون . إن أكبر قبة في العالم ، كل كونبت (1656) هي على الطراز العثماني بشكل بارز ، وإضافة إلى ذلك فإن العلم الذي هو على شكل الهلال ، الموضوع على القبّة ، خاص بالعثمانيين فقط . وبالذات فإن سلالة عادل شاه التي أمرت بصنع القبر ادعت أنها تنحدر من السلالة العثمانية .

تبدأ الآثار العمرانية بالظهور في الجزائر عام 1518 ، في القاهرة 1528 ، في تونس 1534 (IA , Diez ، رقم 80 ، ص 69 ، 97 ب) . شيد المعمار سنان جامعًا في قرم (جامع كوزلوه خان ، 1552) . تُشاهد آثار عمرانية في أماكن غير متوقعة أبدًا ، كما هو الحال في مصوّع في أريتره ، في سواكن في السودان (السوداني أحمد صلاح نجّاري ، Milletlerarasi I, Turk Sanatlari ,93) الآثار العمرانية التركية ، اللباس التركي ، الأطعمة ، « القهوة التركية » في الجزائر ، القائمة التي نشرها سي محمد بن شنب الحاوية على 634 كلمة تركية متداولة في العربية التى تتكلم في الجزائر ، لا زالت مستمرة حتى اليوم (Milletlerarasi , Georges Marcais 5 - 283 , I . Turk Sanatlari) . هذه التأثيرات في تونس ، أكثر . وللاطلاع على التأثيرات في فاس انظر O. B. Riottot ، **الكتاب نفسه** ، 335 .

وللاطلاع على معلومات عن التأثيرات الفنيّة العثمانية في روسيا ، انظر **الكتاب نفسه** ، 370 - 1 ,377 - 8 . ولأجل الاطلاع على معلومات عن التأثيرات العثمانية على العمران ، المطبخ ، الموسيقى ، الطراز النسائي ، في تونس ، عربية تونس ، الصناعات الخفيفة ، انظر سليمان مصطفى Zbiss (مدير المتحف الوطني الأركيولوجي في تونس) **الكتاب نفسه** ، 417 . وللاطلاع على تأثيرات العثمانية في تشيكوسلوفاكيا ، انظر Josef Blqskovics 294 , VI . TUrk Tarih Kongresi .

قدّمت أمثلة من عدة أقطار لا تتشابه بعضها مع بعض أبدًا . كان انتشار الفن والثقافة العثمانية يحظى بحماية الدولة ، ورجال الدولة ، وعلى رأسهم البادشاه . حريّة التفكير ، كانت متوافرة كذلك . تمكن « باقي » من أكبر شعراء العثمانية ، الذي كان قضعسكر في روملي ، من قدح البادشاه محمد الثالث بهذا الصراع Memleketde Fitne peyda oldu

Sultan bi - Haber ومعناه (عمّت الفتنة في البلاد والسلطان لا يدري) . وأشعار نديم التي تعرض بمحمد الثالث مشهورة . تمكن الشاعر الكبير فهيم في عنفوان شبابه من نظم أبيات فيها عدم مبالاة بسلطان مهيب كمراد الرابع (**ديوان فهيم** ، 15) . إن الأقوال التي تلفظها الشاعر نفعي **في سهام قضاء** حول صدور عظام العصر ، من الصعب أن يتفوه بها أحد تجاه رئيس وزارة ، حتى في الأقطار الديمقراطية اليوم . فقد حياته في النهاية ، لكنه كتب وقال ما أراده لسنوات طويلة إلى أن حل موعد عدا . نكتفي بهذا القدر من الأمثلة . صرّح القانوني قبل انتهاء سلطنته بأنه قد وفّق في عدة أمور خلال سلطنته ، أحد هذه الأمور هو اكتشافه شخصية شاعرة مثل باقي وتمكنه من حمايته .

إن الثقافة العثمانية في بعض المجالات أضحت عنصرا أساسيا لا يستغنى عنه في ثقافات أقوام عديدة ، ومن أمثلة ذلك سيطرة الموسيقى والمطبخ العثماني على أذواق كل الأقوام البلقانية . وللتعرف على عمق تأثيرات العثمانية في كل المجالات الثقافية والفنية في المجر انظر :

Gerfrucd palotay , les influences turcues dans la Broderie Hongroise , La Nouvelle Revoe Hongroise , 1937 ; Géza Fhér وكذلك **Nandor Paradi , Macariston daki Turk Zanaati ,** ترجمة تركية **Belleten , XXIV , 548 , 557 .**

وتشاهد نفس التأثيرات العميقة في بولونيا كذلك البندقية 1963 .

(Jan Reychman , Influenees turques dans Art sPolonais , Ile congrés International d'art ture Lehistan Uygarliginda Turk Etkileri . Belleten , XXVIII , 758 - 67 : نفس الكاتب ، **Wendt , Schlesien und der Orient , Breslau 1916 ; Van'lutter - welt , De Turske Schiklerijen , 1958 , Reychman , Orient w .'Kulturze polskiego , Breslau 1964 .**

ككثيرين بحثوا عن التأثيرات الكبيرة التي تركها الإعمار وصناعة الأقمشة العثمانية في بولونيا . وهناك كثير من الأشراف البولونيين الذين تعلموا التركية ونطقوا بها .

اقتبست الشعوب الأوروبية موسيقى الجيش التركي وأسست موسيقاها العسكرية الحالية (هامّر ، 17 ، ص 42) . إن كمال الفن المعماري العثماني يدهش المرء ويمتد أثره

إلى الهند » (هامّر ، 17 ، ص 42) . « إن شعراء العثمانية العظام هم بمستوى شوقي والمتنبي » (هامّر ، 17 ، ص 42) . والمعروف أن هامّر ؛ ترجم دواوين الشعراء العرب والفرس والأتراك ، وله مؤلفات قيّمة في تاريخ الشعر في كل من هذه اللغات الثلاث ، وقد يكون أكبر مستشرق .

« إن تأثير العثمانية في اليونان من القوة بحيث يمكن قياسه بتأثير العرب في أسبانيا » (من الأكاديميّة الفرنسية Siegfield, **Milletlerin 31 Andren Karaklerleri**) . ويشاهد التأثير العثماني حتى في هندسة الحدائق الفرنسية , Lavisse - Rambaud 779 ,7) . عندما احتل الفرنسيون الجزائر لم يروا بدًا من الاستمرار على تشكيلات ونظام العثمانية (Lavisse - Rambaud 896 , 882 , 10) . نظّم الأمير عبد القادر مجاهديه على الطراز العسكري العثماني أيضًا واستعمل المصطلحات العسكرية التركية . ما زالت المصطلحات العسكرية العثمانية تعيش في الأقطار العربية الأسيوية والأفريقية حتى الآن .

إن ما تركه اللباس ، الصّور المصغرة (المنياتور) ، والألوان التركية من تأثير في إيطاليا في عصر النهضة العلمية Renaissance معلوم (**Dèbuts de L'Age Moderne,** **Renaudet, Hauser** ، باريس **1929** ، ص **455, 442, 118**) . وللاطلاع على مبلغ ما تركته صناعة المنسوجات العثمانية من أثر والذي امتد إلى سكانديناقيه ، والأقمشة العثمانية المصدرة إلى كل الأقطار الأوروبية ، انظر **A. J. B. Wake Turk Kumasve Kaditelari** ، 4, 3 . وللاطلاع على ما تركته الفنون العثمانية من أثر في رومانيا ، انظر **TM,** Popeseu Judet 16 ,117 - 8 ,126 . إن الفولكلور الجيكي كذلك حافل بأثر الثقافة العثمانية (**XI.** **1968** ، **Turk Dil Kurultayi Cek Folklorunda Turkler.** Josef Blaskovic, ص 189 - 207) ثم تدقيق أثر العثمانية في المسرح البولوني (Jean Reyehman **Polonye** **Tiyatrosunda Turk Tesirleri,** ، رقم 71 ، ص 33 - 6) . وللاطلاع على تأثيرات أزهار . علم الأزهار ، الصناعات التزيينيّة العثمانية العميقة في العصر 16 عصر النهضة العميقة Renaissans في إيطاليا ، النمسا ، ألمانيا ، هولندا ، انظر **Historische Blaetter,** Heinrich Gluck ، 2 / 1 ، فيينا 1921 ,303 - 25 .

أدخل البارون Von Busbecq سفير ألمانيا لدى القانوني ، بذور أزهار السنبل (بالتركية : لا له ، بالإنكليزية : Tulip) ، الزنبق ، السوسن وطوغ شاهي لأول مرة إلى أوروبا (إلى هولندا ومنها إلى الأقطار الأخرى) في أواسط العصر 16 . يحتفل في هولندا حاليًا بذكرى جلب بذور السنبل من تركيا إلى هولندا كعيد وطني . وسفير آخر Ulrich Von Konigsberg جلب من تركيا إلى أوروبا في 1579 بذور أشجار الصفران ، كستنة الحصان (قسطلة الحصان) ، الفندق (TAD, Karl Teply ، 7 , 262,) .

ويجب ألّا نتجاوز البحث دون أن نذكر تأثير العثمانية في بناء المدن .

طوّر العثمانيون الكثير من المحلات المتواضعة إلى مدن كبيرة ، مليئة بالحركة ، غنية . وعلى سبيل المثال ، كانت الجزائر قبل مجيء العثمانية قصبة بربرية بسيطة وبعيدة عن كونها أكبر مدينة للقطر ؛ جعلها العثمانيون طوال 300 عام إحدى المدن الأكثر فعالية في البحر الأبيض . والذي حوّل بوسنة سراي (Sarajevo) من قرية إلى مركز ثقافي كبير ، هم العثمانيون . بالإمكان تقديم آلاف الأمثلة .

والحركة الحقيقية لبناء المدن في البلقان تبدأ مع العثمانية . كان في البلقان مدن قليلة جدًا قبل دخول العثمانيين إليها . فمثلاً ، لم يكن أبدًا في صربيا محل آهل يمكن أن يقال عنه إنه مدينة . أسس العثمانيون مدنًا عظيمة وقل عدد نفوس هذه المدن بعد 1683

Restes, P . Skok de la longue Turque dans les Balkans, Etudes Balkaniques,II,) 585 - 98; Karel Kadlec, **L'Histoire du Droit Public des Peuples Slaves,** Paris 1933, P. 103; Rosfovtzeff, **La Vie Economiques des Balkans dans l'Antiquitè, Revue Internationale des Efudes Balkaniques,** II, 396

أثر العثمانيون في الأقوام الصغيرة من غير المسلمين تأثيرات إيجابية جدًا طورت ثقافاتهم ، مستندين على أقدر عنصرين ثقافيين كالدين الإسلامي واللغة التركية . وعلى سبيل المثال ، فإن للشعر الشعبي التركي تأثيرا عميقا في المجريين ، الأوكرانيين ، البلغاريين ، الصربيين ، الرومانيين ، الألبانيين . لا توجد موسيقى وشعر أرمني ، كلاهما اقتبس من العثمانية . كانت العبادة في الكنائس الرومية والأرمنية ، تجري

بالموسيقى التركية تمامًا ، واليوم هي كذلك . لدينا معرفة بكثير من الأرمن والروم الذين انتسبوا – مع الاحتفاظ بدياناتهم المسيحية – إلى الطرائق البكتاشية والمولوية .

3 – اللغة التركيـة :

إن موضوعنا هنا هو اللهجة العثمانية ، وليس اللهجة الأناضولية والتركية ، وهي إحدى لهجات أوغوز أو اللهجة الغربية للغة التركية . هي أهم لهجة بين اللهجات التركية بشكل لا يقبل القياس ، وإحدى اللغات الأدبية الكبرى في العالم . أسلوبها المثالي في الكلام هو أسلوب استانبول ، وطريقة نطق الباب العالي القديمة من أسلوب استانبول .

من الطبيعي أن تؤثر اللغة التركية من حيث كونها لغة الإمبراطورية العثمانية الرسمية على لغات الأقوام الكبيرة والصغيرة التي تشكلها الإمبراطورية العثمانية . إذ هناك من بين هذه الأقوام من عاش تحت إدارتها 600 سنة . ومن الطبيعي أن تكون اللغة التركية كذلك قد اقتبست من هذه الأقوام بعض الشيء . إن لغات الأقوام التي تشكل الإمبراطورية هي لغات تقتبس كلمات كثيرة من اللغات الأجنبية وتعطي كلمات كثيرة إلى لغات عديدة . إن اللغة التي لا تقتبس كلمات أجنبية لغة بدائية جدًا . وأساسًا لا توجد لغة كهذه حاليًا . وحتى اللغات الكلاسيكية الكبرى الثلاث في العالم ، العربية واليونانية واللاتينية اقتبست في كل عصر كلمات من لغات مختلفة . إن اللغة الكلاسيكية للعالم الإسلامي هي العربية . إن عدد الكلمات العربية الموجودة في اللغة التركية ، كما في الفارسية ، يتجاوز بكثير الـ 10 000 كلمة . وعدد الكلمات الفارسية في اللغة التركية يبلغ الآلاف أيضًا . دخلت إلى اللغة التركية خلال المائة والخمسين سنة الأخيرة عدة آلاف كلمة فرنسية . الاقتباسات من اللغات الأخرى لا تتجاوز الـ 1000 كلمة ، دخلت كما دخلت الكلمات اليونانية والإيطالية التي دخلت في العصور العثمانية القديمة . أما الكلمات الإنكليزية فقد دخلت إلى التركية في الـ 40 سنة الأخيرة .

توجد في اللغة التركية 900 كلمة يونانية الأصل . وتوجد اليوم في اللغة اليونانية

كلمات تركية الأصل (Turkceden Geeme Yunanca Kelimeler Sozlugu, C.
Coukidis ، باليونانية أثينا 1960) وتوجد في اللغة الصربية 9000 كلمة تركية . A)
Skalgic , Trueizmi V Srpstohrvatskom Jeziku , Sarajevo 1966) . وعدد الكلمات
التركية في اللغة البلغارية 6778 كلمة . أدرج Skalyic (شكاليج) ، في قاموسه ذي
الـ 700 صحيفة ، 9 000 كلمة تركية موجودة في اللهجات الصربية ، الخرواتية ،
البوشناقية و 1 000 تعبير تركي . وبالنسبة للبلغارية : **Recnik na Blogarskiy Yazik,**
Najden Gerov ، فيليه ، 1895 - 1904 ، **Recnik na Licnite i Famllni Imena u Blgarite**
Stefan Ilcev أكاديمية العلوم البلغارية ، صوفيا 1969 . وللاطلاع على الكلمات التركية
الموجودة في اللهجة المكدونية من اللغة البلغارية : Mile Korvezirovski وكوثر سيف
الله ، **Makedonsko - Turski Recnik** ، 700 صحيفة ، اسكب 1967 . إن اللغات
السلافية الشمالية كالجيكية ، السلوفاكية ، الأكرانية ، الروسية ، الروسية البيضاء ،
البولونية مليئة بآلاف الكلمات التركية (Miklosich **Die Turkischen Element in den,**
Sudost - Europaeischen Sprachen ، مجلد 2 ، فيينا 1884) . أما في اللغة الألبانية فإن
كلمة واحدة من كل 3 كلمات مأخوذة عن التركية . وللاطلاع على الكلمات
التركية الموجودة في اللغة الروسية انظر : **Dimitriev, Turetskie Elementi V Russkikh**
Argo, Yaziki Elementi, Yazik i Literatura, 1931, VII, 157 - 79; ، نفس الكاتب ،
O Tyurskikh Elemantakh Russkogo Slovarya, Leksikagroficeskiy Sbornik, III, 1958 -

ورغم نشر 1000 كلمة تركية انتقلت إلى اللغة الرومانية ، في بخارست على شكل قاموس ، لكنه كان عملاً ناقصًا . وتوجد كذلك آلاف الكلمات التركية في اللغة المجرية (**Turk Sanat Tarihi . Geza Féhr Arastirmalari 205 , 2**) . اللغة الأرمنية مليئة بالكلمات التركية بشكل كثيف ، وقد لا تقل عن 10 000 . وللاطلاع على الكلمات التركية في اللغة الفرنسية انظر **Dictionnaire Etymologique, L, M,** Devic des Francais d'Origine Orientale ، باريس 1876 . ولا ضرورة للبحث عن الكلمات الموجودة في اللغة الإيطالية وجميع اللغات الأوروبية .

كثير من اللهجات العربية مليئة بالكلمات التركية . لكن الكلمات ذات الأصل التركي في اللغة الفارسية أكثر (**Turkische Elemente im Neupersichen, G. Doerfer** ، مجلد

2، ويسبادن، Edebiyat Fakultesi Turk dili ve Edebiyali Dergisi, 21, 57-127, 1963،65) . يوجد شعراء إنكليز ، فرنسيون ، إيطاليون ، رومانيون ، مجريون ، عرب ، فرس ، يونانيون ، أرمن ، صربيون – خرواتيون ومن الأقوام الأخرى ، نظموا أشعارهم باللغة التركية .

إن الكلمات التركية الموجودة في اللغة الصينية واللغات الهندية ، تخرج عن موضوعنا ، إذ إنها لم تؤخذ عن اللهجة العثمانية ، وإنما أخذت عن اللهجات التركية الأخرى . وأخيرًا ، يجب أن نذكر أن الكردية مليئة بالكلمات التركية ، وكذلك كل اللغات القفقاسية (الكرجيّة ، الشركسية ، الابهاضيّة ، الججنيّة) مليئة بالكلمات التركية .

تأثير اللغة التركية يشاهد على الأغلب في مجال الجغرافية . إن لغات الأقطار الآسيوية والأوروبية حافلة بالكلمات الجغرافية التركية (The New Caxton Eneyclopdia , 1969 ، أطلس ، فهرست) . وفي أفريقيا كذلك كثيرة . يستهل التونسي حاجي محمد ، كتابه الجغرافي الشهير الذي حرره في 1559 بهذه الجملة « كتبت هذا الكتاب باللغة التركية إذ إن هذه اللغة تحكم العالم اليوم » .

4 – الشعر العثماني :

الشعر العثماني من أغنى أشعار العالم . يستعمل العروض (العروض الإيراني) . الشكل مأخوذ عن الشعر العربي والفارسي ؛ عاشت « أشكال » الأشعار التركية القديمة على الأغلب في الشعر الشعبي أيضًا ، إلا أنه استعمل على الأكثر وزن **هجه** الذي هو وزن شعر تركي أقدم منه بكثير .

سنكتفي هنا بذكر أسماء النوابغ الحقيقيين من الشعراء العثمانيين . يونس (1240- 1320) أكبر شاعر في التصّوف والأدب الشعبي التركي ، نشأ خلال تشكيل الدولة العثمانية على سواحل نهر سقاريا . نسيمي (وفاته 1405) ، شاعر كبير في التصوف الكلاسيكي . نشأ خارج المجال العثماني ، لكن تأثيره في الشعر العثماني ، كان كبيرًا . الشاه إسماعيل (1487 - 1524) نظم الشعر باللغة التركية بالخصائص نفسها بالاسم

المستعار « حياتي » ويمتاز بالصفات نفسها . لكن مؤسسي الشعر الكلاسيكي العثماني هم الشعراء العظام مثل أحمدي ، شيخي ، عطائي ، نجاتي وخاصة أحمد باشا (1420- 1797) . إن نوابغ الشعر العثماني الكلاسيكي ابتداء من أحمد باشا هم :

فضولي (1480 ?- 1556) وهو شيعي بغدادي ، دخل المجتمع العثماني بعد ذلك ، أعظم شاعر تركي ؛ أكثرية الذين اتبعوه ، استانبوليون ، كلهم نشأوا على الإطلاق في استانبول وعاشوا فيها ، باقي (1527 - 1600) ، نوعي (1533 - 1599) وهو قضعسكر مثله ، روحي بغدادي (وفاته 1605) ، شيخ الإسلام يحيى (1553 - 1644) ، شاعر القصيدة التركية الكبير ، من بني دولقادر نفعي (1572 - 1635) ، عطايي (1583- 1635) هو ابن نوعي ، شيخ نشاطي (1600 - 1674) ، نائلي (- 1610 1666) ، فهيم الذي توفي وسنه 21 عامًا (1627 - 1648) نابي أورفه لي - 1642 1712) ، نديم (1681 - 1730) ، الصدر الأعظم راغب باشا (1699 - 1763) ، شيخ غالب (1758 - 1799) ، كيجه جي زاده عزت ملاء (1785 - 1829) ، يني شهرلي عوني بك (1827 - 1884) ، لسكوفجه لي غالب بك (1829 - 1867) ، ضياء باشا (1829 - 1880) ، نامق كمال بك (1840 - 1888) ، عبد الحق حامد تارهان (1851- 1937) ، توفيق فكرت بك (1867 - 1915) ، جناب شهاب الدين بك (1870 - 1934) ، محمد عاكف أرصوي (1873 - 1936) ، أحمد هاشم بك (1884 - 1933) ، يحيى كمال بياتلي (1884 - 1958) .

5 ـ التاريخ والجغرافيا :

إن أدب التاريخ والجغرافية في العثمانية رفيع . فاق العثمانيون الأدب الإيراني في هذه المجالات . ورغم أنهم لم يتوصلوا في التاريخ إلى مستوى العرب ، لكنه من الممكن اعتبارهم في المجال الجغرافي على مستوى واحد مع العرب .

كانوا يعلمون بكروية الأرض . يذكر ركن الدين أحمد في كتابه **عجائب المخلوقات** ، إلى جلبي سلطان محمد (1413 - 1421) بأن الأرض كروية . وقد اكتسب هذا الأمر صفته القطعية في كتاب بيري رئيس بعد عصر واحد . إذ إن بيري رئيس عندما

كتب كتابه كان كوبر نيكوس قد نشر كتابه وكولومب قد أكمل رحلته لأمريكا وماجلان على وشك الإبحار للطواف حول العالم . اكتسبت كروية الأرض صفتها القطعية في الجغرافية العثمانية بعد بيري رئيس .

إن أكبر جغرافي وراسم للخرائط الجغرافية في العصر 16 على نطاق عالمي ، هو الأميرال المعروف محيي الدين بيري رئيس (1474؟ - 1554) ابن أخ قره مانلي كمال رئيس . وسيدي علي رئيس (1498؟ - 1563) ، أميرال جغرافي وعالم رياضي آخر اشتهر بمؤلفاته المهمة . أشهر الأسماء في المجال الجغرافي في العصر الذي يليه هم « كاتب جلبي » و « مصطفى أفندي » (1609 - 1657) المعروف في الغرب باسم « حاجي خليفة » و « أولياء جلبي » (1611 - 1684) .

إن قسم أمريكا - أوروبا من خارطة العالم الملوّنة التي رسمها بيري رئيس من أجل السلطان ياووز سليم عام 1513 والذي صرّح بكروية الأرض بصورة قطعية محفوظة حاليًا في سراي طوبقابو . « بصحّة تدهش العقل ، فوق مستوى عصره في علم الجغرافيا وتفوق بكثير مستوى علم الجغرافيا لدى الغربيين » (**Jane Laroche Connaissance des Arts** ، باريس 1963 ، ص 125آ) . كتاب بيري رئيس « **كتاب بحرية** » الذي يحتوي على مئات الخرائط والمخططات والذي يصوّر فيه البحر الأبيض بصخوره ، بخلجانه ، بتيارات مياهه ، كتاب عظيم أيضًا .

والصورة المصغّرة (Miniature) التي صنعت في العصر 16 ، على زمان مدير مرصد استانبول تقي الدين أفندي ، والتي يشاهد فيها قارات أفريقيا ، أوروبا ، أمريكا الجنوبية وقسم من آسيا من الكرة الأرضية ، توضّح اشتغالهم على الكرات كذلك ، وليس على الخرائط والأطلس فحسب (**Istanbul Rasadhanesi**, Suheyl Unver ، ص 16 ,43) .

إن كتاب **جهانّما** لكاتب جلبي كتاب عظيم في الجغرافية العالية ، ترجم إلى اللغات الأوروبية في حينه . استفاد كاتب جلبي من الكتب والأطالس الجغرافية الأوروبية كما استفاد أسلافه وأخلافه من الجغرافيين ، وقد ترجم أطلس Atlas Mayer من اللاتينية إلى التركية . وإن المرء ليدهش عندما يقرأ المقطع الذي يوضّح أخلاق وعادات اليابانيين في **جهانّما** . أما بالنسبة للأقطار العثمانية فإنه يقدم معلومات مهمة جدًا عنها .

تجوّل أولياء جلبي مدة 40 سنة في الأقطار العثمانية وفي قسم من الأقطار المجاورة ، بقي ما يقارب الـ 10 سنين في القاهرة وزار السودان والحبشة أيضًا . كتابه يتكون من 10 مجلدات ويحتوي على 10 000 صحيفة . وقد يكون أكبر محرر عثماني . ومما لا شك فيه أنه رحّالة كبير نشأ في الشرق بصورة أكيدة . كتب مؤلفه بأسلوب شيّق جدًا ، قريب إلى لغة الشعب وليس بأسلوب علمي مثل كاتب جلبي . ترجمت مقاطع عديدة من كتابه إلى جميع اللغات . إن المعلومات التي جمعها من شعب السودان المحلي الذين قابلهم ، عن النيل وبحيرة فيكتوريا (10 ,927) لم يتمكن من جمعها الأوروبيون إلا في أواسط العصر 19 .

أعجب محمد الرابع جدا بأطلس **Atlas Major** ، الذي نشره **Jan Blear** في النمسا عام 1662 المكون من 11 مجلّدا ، ترجمه بأمره أبو بكر أفندي من اللاتينية بعد أن أجرى عليه تنقيحات مهمّة وإضافات في قسم الأقطار الشرقية . صرّح **Paul Kahle** » بأن أبا بكر أفندي ، جغرافي يفوق **Bleur** قدرة « (**Islam Tedkiykleri Enstitusu Dergisi**, 2, 89) . والجغرافية العالمية التي حررها التونسي حاجي محمد أفندي في 1560 ، كتاب مهم وقد نشر في أوروبا كأمثاله من كتب الجغرافيين العثمانيين .

واسم مهم جدًا آخر ، هو مطرقجي نصوح بك (1480؟ - 1564) . سنجق بك (عميد بحري) اشترك في كثير من حملات عهد القانوني ، وخلالها اشترك في حملة بربروس على فرنسا . عالم رياضيات ، متخصّص في الأسلحة ، مختص برسم الخرائط الجغرافية ، رسّام ، مؤرخ . زيّن مؤلفاته المهمة بالتصاوير المصغّرة التي رسمها شخصيًا .

« سجايا الأتراك تظهر بوضوح في مؤلفاتهم من الكتب التاريخية . المؤرخون العثمانيون الكلاسيكيون رجال قديرون وذوو معلومات متقدمة على عصرهم . إن مؤلفاتهم هي من أنجح المؤلفات الثقافية العثمانية في فروعها » (**Bernard Lewis** ، ص 329 - 30) . نحن نعلم أن كاتب جلبي قد حرّر كتابه بعد مطالعته **1 300** كتاب في مجال التاريخ فقط . أهم المؤرخين العثمانيين الذين قدّموا مؤلفات مهمة في مادة التاريخ هم :

قره مانلي محمد باشا (وفاته 1481) ، من سلالة مولانا ، آخر صدر أعظم لفاتح . أكبر حقوقي في عصره . حرّر التاريخ العثماني باللغة العربية . كمال باشا - زاده أحمد شمس الدين أفندي (1468 - 1534) ، شيخ إسلام شهير . أكبر حقوقي في عصره ، مؤلف كتاب عظيم وذو قيمة كبيرة جدًا باللغة التركية في التاريخ العثماني مكون من 10 مجلّدات . طاشكوبرولو - زاده أحمد عصام الدين أفندي (1495 - 1561) ، مؤلف الموسوعة المسماة **موضوعات العلوم** وكتاب سير كبير لعلماء ومشايخ العثمانية المسمى **الشقائق النعمانية** ، كلا المؤلفين باللغة العربية . جلال - زاده مصطفى جلبي (1495؟ - 1568) ، أشهر نيشانجي (رئيس مكاتبات الدولة الخارجية) للقانوني . أهم مؤلف له هو التاريخ العثماني المسمى **طبقات الممالك** (كل الكتب التي لا يذكر أنها عربية هي باللغة التركية) . خواجه سعد أفندي (1536 - 1599) ، شيخ إسلام وأستاذ سلطاني . مؤلف تاريخ عثماني مهم جدًا في مجلدين باسم **تاج التواريخ** . عالي (هو مصطفى عالي جلبي أو باشا من غاليبولي) (1541 - 1600) ، رجل مالية ، صار بكلر بك على الشام لفترة من الزمن ، له مؤلفات كثيرة جدًا ومهمة جدًا ، أكثرها تاريخية . اسم كتابه الكبير في التاريخ العالمي **كنه الأخبار** . مصطفى أفندي السلانيكي (1540؟ - 1600) ، مؤلف **تاريخ سلانيك** . عطايي (نوعي - زاده عطاء الله أفندي) (1583 - 1635) ، من أكبر الشعراء وصاحب الكتاب العظيم في السير المسمى **حدائق الحقائق في تكملة الشقائق** . بجوي إبراهيم أفندي (باشا) (1574 - 1649) ، ابن أخ الصدر الأعظم صوقوللو محمد باشا ، ضابط صاعقة . هو مؤلف التاريخ العثماني المسمى **تاريخ بجوى** الذي يصوّر فيه الحياة في حدود الإمبراطورية في رملي بصورة حيّة وحرّر بلغة تركية نقيّة جدًا . كاتب جلبي (1609 - 1657) مر بحثه أعلاه . هو أعظم عالم في العصر 17 . له **فذلكة** مجلدان في التاريخ العثماني ، **وتحفة الكبار في أسفار البحار** وهو تاريخ البحرية العثمانية ، أعظم مؤلف له ، موسوعته الكبرى في السير باسم **كشف الظنون** الذي كتبه باللغة العربية . **وميزان الحق** ، أهم كتاب فكري له . شيخ أحمد ده ده المسمى « منجمباشي » (1631 - 1702) هو مؤلف كتاب عظيم في تاريخ العالم 3 أجزاء باللغة العربية باسم **جامع الدول** . نعيما (مصطفى أفندي) (1655 - 1716) هو مؤلف الكتاب الشهير جدًا **تاريخ نعيما** في 6 مجلدات ويسرد فيه تاريخ الدولة

العثمانية في النصف الأول من العصر 17 بشكل حي جدًا . مستقيم – زاده سليمان سعد الدين أفندي (1719 - 1788) أكبر عالم في العصر 18 متخصص في الموسوعات ، له مؤلفات كثيرة في 3 لغات . وأحد مؤلفاته **تحفة الخطّاطين** وهي مذكراته عن أشهر الخطّاطين . مترجم عاصم أفندي (1756 - 1819) ، ومع أنه مؤلف كتاب **تاريخ عاصم** المكون من مجلدين ، فإن أهم مؤلفاته هي قاموسه باللغة الفارسية وخاصة باللغة العربية . اشتهر جدًا قاموسه الإنسكلوبيدي العربي – التركي . شاني – زاده عبد الله أفندي (1764 ? - 1826) ، ومع أنه مؤلف كتاب **تاريخ شاني – زاده** في 4 مجلدات ، فإنه اشتهر بالدرجة الأولى كعالم طب . أحمد جودت باشا (1823 - 1895) هو رجل الدولة الكبير في التنظيمات ، أكبر حقوقي ومؤرخ في العصر 19 . ويعتبر كتابه **تاريخ جودت** في 12 مجلدا (1774 - 1826) وكتابه **تذاكر ومعروضات** اللذين يعالج فيهما الفترة الأخيرة من التاريخ العثماني ؛ مصدرين مهمين . وحرر كتابه في التاريخ الإسلامي المسمى **قصص أنبياء** ، بعناية فائقة وبلغة تركية لطيفة جدًا . ابن الأمين محمود كمال إينال (1870 - 1957) ، أكبر كاتب سير (بيوغرافي) ، أكبر متخصص في الفترة الأخيرة من التاريخ العثماني الداخلي ، حرر معظم مؤلفاته في العهد الجمهوري . أهمها **Son Asir, Son Sadrazamlar Turk Sairleri** (كل منهما 12 مجلد) (1890 - 1966) . محمد فؤاد كوبرولو ، مؤسّس علم التاريخ الحديث (**1918, Turk Edebiyalinda ILK Mutesavviflar** .

6 – الطب :

حاول العثمانيون إجراء إضافات على طب ابن سيناء . أخذ طب الغرب كذلك في الدخول اعتبارًا من العصر 17 . اهتموا خاصة بالطب العملي . صرفواجهدًا في جعل المستشفيات بحالة جيدة . من الطبيعي أن تولي دولة تخوض الحرب مثلها الأهمية للطب العملي والجراحة . شرح الجراح آماسيالي صابونجي أوغلو شرف الدين ، في كتابه المسمى **جرّاحية ء إيلخانيّة** الذي أهداه إلى فاتح عام 1465 ، فنَّ الجراحة في عصره

بصورة ممتازة مع احتوائه على تصاوير ملوّنة . وسار أنطاليه لي داود في العصر الذي يليه ، على غراره . حرّر آخي جلبي في العصر 15 مؤلفه المهم في **المسالك البولية** . وفي بداية العصر 17 حرّر شيخ الحرمين شمس الدين أفندي كتابه المسمى **تشريح الأبدان** ويلاحظ فيه أنه استفاد من كتاب Vasabius المسمى **De Humani Carporis Fabrica** . يلاحظ أن قسمًا من كتب الطب العثمانية مصوّرة .

شرحت أعراض الأمراض السريرية وتشخيصها بصورة جيدة جدًا في كتاب **شفاء الأسقام** الذي حرّره حاجي باشا قبل فتح استانبول . وتشاهد في أواخر العصر 16 ، في **قاموس الحكمة والطب** ترجمة المصطلحات الطبيّة العربية إلى التركية . أحمد بن محمد ، درس الطب في استانبول ، ذهب إلى الهند وصار طبيبًا خاصًا لشاه جهان عاد إلى استانبول وألّف كتابه **قاموس الأطبّاء** . تشاهد أول بوادر نقل الأعضاء . وفي 1624 ، يبحث أمير جلبي الطبيب الخاص لمراد الرابع في كتابه **أنموذج في الطب** بأنه قام بتشريح الجثث . وكتاب عياشلي شعبان **الشفاء في تدبير المولود** ، أحسن كتاب في عصره عن التوليد والأمراض النسائية . وفي العصر 18 ، شرع في ترجمة الكتب الطبية الأوروبية إلى اللغة التركية رأسًا .

انفصلت الأمراض العقلية والنفسية كفرع مستقل ، منذ مدة طويلة . وحتى قبل 1453 ، كان سينوبلي مؤمن جلبي قد دقّق الأمراض العقلية والنفسية ، العصبية وفصّلها على 25 بابًا في كتابه **ذخيرة المراديّة** الذي أهداه إلى مراد الثاني . ثم أخذت مستشفيات الأمراض العقلية والنفسية العثمانية الشهيرة بالتطوّر واستخدامها كعيادات لاختصاص المدارس الطبيّة .

حافظ العثمانيون على أعلى المستويات العالمية في مداواة الأمراض العقلية والنفسية حتى العصر 19 . لم يعامل المرضى العقليون معاملة سيّئة بتاتًا . يبحث شعوري أفندي في كتابه **مرآة أمزجة** عن مداواة الأمراض النفسية بواسطة الموسيقى . تعلّمت أوروبا مداواة المرضى العقليين من الأتراك . أسّس الأتراك مستشفيات خاصة للأمراض العقليه قبلنا بمدة طويلة جدًا . وحتى في 1788 كتب الدكتور **John Howard** الإنكليزي ،

أن المستشفيات العقلية التركية في حالة انحطاط بالنسبة للسابق ، لكنها مع ذلك ما زالت أرقى من مثيلاتها في أوروبا » (Dr. Kraft **Traitè Clinique de psychiatrie**, Ebing ، باريس 1897 ، 53) . نقلت الأسطر آنفة الذكر عن كتاب لأكبر علماء الطب النفساني في العصر الأخير . « لا يعتبر المرضى العقليون في فرنسا عام 1818 ، مرضى ، ويعاملون معاملة أسوأ من الحيوانات والجناة ، أما [illegible] السالفة ، فكانوا يحرقون » (**Rapport**, Esquirol ، باريس 1874 ، 2 ؛ **Les Malad[illegible]**, Jean [illegible] Vin chan ، باريس 1930 ، 24) . كذلك كان الروم الذين يعيشون في الدولة العثمانية ، يستهزئون بإدخال الأتراك المجانين في المستشفيات ، ويضربون المجانين من جماعتهم بقصد طرد الشيطان الذي دخل في أجسامهم ويتركونهم دون طعام وشراب (الصرّاف هوانيسيان ، نقل اينجيجيان ، 120) . لا يعدم القاتل إن ثبتت جنّته ، ويودع بالمستشفى (جودت ، 7 ,148) .

كان الأطباء العثمانيون يتمكنون من التفريق بين أمراض : الانفصام (الشيزوفرانيا) ، وداء السوداء (الماليخوليا) والهوس (الهستيريا) ويستخدمون أسلوبًا خاصًا لمداواة كل منها . شيّدت كل من زوجة القانوني خرّم سلطان مستشفى للمجانين النساء ، والقانوني بالذات ، داخل كلية السليمانية ، مستشفى للمجانين الذكور ، وكانت توجد قبلها في إستانبول والمدن الأخرى مستشفيات مماثلة لها شيد في السابق . أشهرها مستشفى بيازيد في أدرنه ، التي شيّدها جد القانوني ، بيازيد الثالث (أولياء ، 3 ,468 - 70) .

كتب شيخ السلطان فاتح ، آق شمس الدين المشهور ، في كتابه المسمى **مادة الحياة** ما يلي بالضبط (على أميري ، طب ، رقم 126 ، ورق 50) : كل الأمراض ، بالنسبة لأنواعها لها بذور وجذور ، كما في النبات والحيوان ، كبذر الحشيش وجذوره لا ترى بالعين . ويجب ألا ننسى أن هذا الكلام قيل في عام 1450 أي قبل اكتشاف المجهر وقبل باستور بـ 4 قرون . ولو لم يكن باستور يملك مجهرًا ، لما تمكن أن يقول أكثر من ذلك .

لقاح **الجدري** كذلك ، اكتشاف تركي . لدينا معلومات عن تطعيم الأطفال في إستانبول ضد الجدري عام 1695 (**Osmanli Turkerinde Ilim**, A. A. Adivar ,194) .

وفي عام 1721 شاهدت Lady Montague عندما كانت سفيرة لإنكلترا في إستانبول ، كيفية صنع هذا اللقاح ، وأخبرت المعنيين عند عودتها إلى إنكلترا . قاومت أوروبا مدة طويلة ، اللقاح الذي طبّقه الأتراك لعصور طويلة . وفي 1764 ، وافقت الأكاديمية الطبية الفرنسبة على أن هذا اللقاح « قد يكون مفيدًا » . لكن لويس 15 أصيب بمرض الجدري ، رفض اقتراح تلقيحه ومات . أول لقاح في أوروبا ، جرى في إنكلترا عام 1764 (Lavisse - Rambaud, 7, 756 ؛ جودت ، 1, 234 - 7, 353 - 4) . إن حدوث الاكتشاف من قبل الأتراك ، أوقع أوروبا في تردد طويل الأمد جدًا . أعلن الرهبان بأن الذي يسمح بإجراء تطعيم له ، يعتبر خارجًا على الدين . بينما كانت الليدي مونتاغ ، قد أجرت اللقاح لولدها في إستانبول . أيّد فولتير عام 1759 فائدة لقاح الجدري . لكن الأطباء خشوا جانب الكنيسة مدة طويلة . ولم يلق فولتير الذي اشتهر بإلحاده ، أذنًا صاغية من أحد . ورغم أن الليدى مونتاغ صرّحت بأنه لم تحدث واقعة وفاة لأي أحد لقّح في تركية ، فإن أحدا لم يصدقها .

يبدأ قبول وتطبيق الطب الغربي مع شاني – زاده محمد عبد الله أفندي . كان يجيد عدة لغات غربية واللغات الشرقية كذلك . نقل المصطلحات الطبيّة الغربية من اللاتينية إلى اللغة العربية . إن آلاف الكلمات التي اشتقتها العثمانية من جذور الكلمات العربية ، والتي هي من إيجاد العثمانيين ، تقبلتها الأقطار العربية كذلك . بدأ دور أشعة رونتكن في الطب العثماني في 1897 مع الدكتور أسعد فيضي أفندي .

7 – العلوم الرياضية :

كانت العلوم الرياضية التي يسميها العثمانيون « رياضيات » و « علم رياضيّة » في مرحلة متقدمة . آثار وسفن العثمانيين تشهد على ذلك . المدافع العثمانية ، تبيّن تفوق العثمانية الحاسم في علم البلّستك . إن الجبر الذي كان يدرّس في مدرسة فاتح في إستانبول ، اقتبس طبق الأصل ، اعتبارًا من أواخر العصر 15 وبدء بتدريسه بالتسلسل في جامعات البندقية ، بادوفا ، بولونيا فلورنسا (II. Turk Tarihi Kongresi, 2, 632) . كان العالم الرياضي الكبير لدور فاتح ، قاضي – زاده رومي قد توصل إلى نتيجة أن جيب الكسر ذا (1°) درجة واحدة ، يعادل 0 , 017452406437 ، على اعتبار أن

نصف القطر يساوي 1 (**آثار باقية** ، 1 ,133 - 9) . كاد علي بن ولي أن يكتشف اللوغاريتمات قبل Napier بـ 23 سنة في كتابه **تحفة الأعداد** ، الذي حرّره في إستانبول عام 1591 ، شرح اللوغاريتم ، لكنه لم يتوصل إلى نتيجة بسبب بدئه في سلسلة الأعداد من رقم 1 بدلاً من (0) الصفر (**آثار باقية** ، 2 ,290) .

كانت تكنولوجية صناعة الساعات الجدارية (ساعات الحائط) والمنضدية العثمانية في العصر 16 ، أرق من مثيلاتها الأوروبية . إن تقي الدين أفندي (1520 - 1585) الذي حصل على 9 آلاف ليرة ذهبية من السلطان وأسّس مرصد إستانبول ، هو مخترع « جرخلي ساعت » (الساعة ذات الدولاب) والآلة الفلكية المسماة « ذات الثقبين » . إن ساعة ذات الدولاب ، كانت تشير إلى الثواني أيضًا **Istanbul Rasadhanesi** ، 43, 30, 72, 23) . وقد اخترع يني شهرلي سعيد أفندي ، أحد أساتذة اسكدار هندسة خانه سي (مدرسة الهندسة) التي افتتحت في اسكدار عام 1734 ، الآلة التي أطلق عليها اسم « ربع مجيّب ذو القوسين » التي تستعمل في قياس زوايا المثلثات وكذلك في قياس الأراضي (**Katalog,** Pertsch ، رقم 166) . يسجل Toderini (166) إنه كان من بين أساتذة مدرسة الهندسة البحرية الهمايونية ، في 1784 ، قواد سفن أتراك ذهبوا إلى أمريكا والهند ، ويجيدون اللغات الفرنسية ، الأسبانية ، الإيطالية . كان يانيالي خواجه محمد أسعد أفندي الذي أصبح مدرسًا عام 1699 ، قد تعلم اللغتين اللاتينية واليونانية ، وقام بترجمة كتب عن هذه اللغات ، وترجم كتاب **الشفاء** لابن سيناء من العربية وهو عالم موسوعات له تجربة في استعمال المرقب (التلسكوب) والمجهر (المايكروسكوب) . وبناء على ذلك ، فإن الذي أدخل الرياضيات العالية ، هو ليس خواجه إسحق أفندي الذي توفي عام 1834 . إنه فقط نقل الفيزياء والرياضيات الأوروبية إلى اللغة التركية ، وألّف كتابه **مجموعة علوم رياضية** في 4 مجلدات وقد طبعه محمود الثاني . كان يجيد اللغات العبرية ، اليونانية ، اللاتينيّة ، الفرنسية ، العربية ، الفارسية . وفي عام 1815 ، عين أستاذًا في مدرسة الهندسة البرية الهمايونية (أسعد ، **مرآة مهندسخانه** ، 34 - 42) . وأخيرًا ، أنجبت العثمانية عالمها الرياضي الكبير الأخير صالح زكي بك (1864 - 1921) . كان أستاذًا للرياضيات العالية وعميدًا لجامعة إستانبول . وهو الزوج الأول للروائية الكبيرة خالدة أديب آديوار . هو مؤلف الموسوعة

الرياضية المسماة **قاموس رياضيات** وتاريخ العلوم المسمى **آثار باقية** .

يبرز مستوى علم الفلك ، في المراصد وفي الساعات العثمانية المصنوعة بأحجام وأنواع مختلفة . وفي وقت مبكّر كالنصف الأول من العصر 16 ، أوضح مطرقجي نصوح بك المنظومة الشمسية بصورة مضبوطة تمامًا (**مجموعة التواريخ** ، 1 ، ورق 12 آ – ب) .

كان علم الميكانيكا متقدمًا ، لكنه لم يكن مستندًا إلى الرياضيات العالية بل إلى الناحية العملية . ومن جملتها طيران هزارفن أحمد جلبي بحضور مراد الرابع في 1640 بواسطة طائرة نموذجية من برج غلطة إلى إسكدار ، أي من الجهة الأوروبية إلى الجهة الآسيوية وهبط هبوطًا ليّنًا . والتجربة الناجحة للغواصة التي جرت في الخليج بتاريخ 3 / 12 / 1719 . إن سفينة الغوص التي ركبها أشخاص كثيرون ، غاصت وظلّت تحت الماء مدة طويلة . إن الغواصة موضوع البحث ، التي جرت تجربتها أمام أحمد الثالث ، صنعها رئيس مهندسي مصنع السفن الإمبراطوري إبراهيم أفندي . اكتشف مدير الإطفاء محمد آغا في 1753 ماكينة ضخ الماء للحريق بالأنابيب **413, Murut - Tevarih** – ب) . باستطاعة هذه الماكينة سحب الماء من أعمق (مخازن المياه والآبار . وانتفت ضرورة البحث عن حنفية مياه . بدأ الأوروبيون والأتراك الذين ذهبوا لتحصيل العلم في أوروبا ، القادمون إلى إستانبول بتطيير مناطيد ذات ركاب . وفي أيلول 1786 ، طيّر الجنرال المدفعي إنجليز مصطفى باشا ، منطادًا يحمل ركابًا أمام أنظار الإستانبوليين . وكان الجنرال ميراندا بنفسه (63) حاضرًا .

وكذلك تم تأليف كتب قيّمة في حقل الزراعة . كما كان تفريخ الدجاج الصناعي ، معلومًا ويطبق قبل العصر 17 . يسجل **Galland** أن رسامي الخرائط الأتراك ، كانوا يرسمون خرائط مضبوطة ومتقنة في العصر 17 (**Journal, 1, 168, 253**) .

صدرت موسوعات ومؤلفات عثمانية عظيمة في الفلسفة ، الأخلاق ، السياسة . لا تستوعب صحائفنا هنا تقديم نماذج منها . إن كتاب **معرفتنامه** للشيخ إبراهيم حقي الأرضرومي (1703 - 1780) من أهم إنجازات تاريخ الفكر العثماني . يحوي بحوثًا طريفة جدًا ، من فلكيات كوبرنيك إلى معالجة الأمراض النفسية والعصبية ، ومن الذرّة (الجزء الذي لا يتجزأ) إلى الفلسفة . وبالإمكان قراءة الأسطر التالية في **معرفتنامه** ، قبل داروين

(1859) بـ 105 سنوات : « حصلت المعادن في البداية من امتزاج العناصر ، ومنها حصلت النباتات ، ومنها الحيوانات . وعندما استكملت خلقة الحيوان ، ظهر الإنسان ... لكن أبرز المتوسطين بين الحيوانات والإنسان ، هو القرد . إذ إنه شبيه للإنسان ظاهرًا وباطنًا عدا شعره وذنبه .

8 - الإعمـــار :

إن الهندسة العمارية العثمانية ، هي إحدى أكبر مظاهر المدنية الإسلامية ، ومن أهم بحوث تاريخ الفن البشري ، وعند النظر من مسافة بعيدة إلى إحدى المدن ، يمكن تمييز الآثار الإعمارية العثمانية فورًا . إذ إنه أسلوب عماري يمتاز بصفاته المميزة وطابعه الخاص . هدمت 90 ٪ من الآثار العمارية العثمانية الموجودة داخل يوغوسلافيا الحالية في 1976 (نعمة الله حافظ ومجاهد عاصم ، **Vakiflar Dergisi** 205, 11,) . وهدمت 99 ٪ من الآثار الموجودة في اليونان ، بلغاريا ، رومانيا ، وهدمت 9 , 99 ٪ من الموجودة في المجر . وهدمت كذلك 40 ٪ من تلك الموجودة ضمن حدود تركية الحالية .

إن أيا صوفيا ، هو أقدم أثر أوروبي دام حتى اليوم بفضل ترميمات واهتمام الأتراك المستمر (، و **Teasch ne** ، **Encyclopedie de l'Islam** ، **Sussheim nouvelle èdition** ، 1 - 799) . سمّيت حركة الإعمار العثماني باسم « حمّى الإعمار العثماني » . اشتهر في العصر 15 مراد الثاني وحفيده بيازيد الثاني كسلطانين اهتمّا بحركة الإعمار . ليس لمحمد الثاني الفاتح (1451 - 1481) الذي هو ابن الأول وأبو الثاني شهرة كهذه . لأنه سار للقتال في كل عام ولم يتمكن من الانشغال كثيرًا بالإعمار . ورغم ذلك فإنه تم على عهد سلطنته التي دامت 30 سنة تشييد الآثار التالية (**Fatih Devri Mimarisi,** **E.H. Ayverdi** 6 ب — 37 ,87 ,447 ب) : 308 جوامع ؛ 17 منها حوّل من كنيسة (184 منها في إستانبول ، 33 في بورصة 28 في أدرنة ، 59 في مدن أخرى) ، 57 مدرسة دينية) (24 في إستانبول ، 13 في بورصة ، 7 في أدرنة ، 13 في مدن أخرى) ، 59 حمّامًا عامًا (32 في إستانبول ، 11 في بورصة ، 6 في أدرنة ، 10 في مدن أخرى)

29 سوقًا مسقوفًا لبيع الحاجيات الثمينة ، ومنزل كبير للمسافرين (12 في إستانبول ، 6 في بورصة ، 11 في مدن أخرى) ومنشآت أخرى معادلة لما ذكر .

كان لدى العثمانية مهندسون عماريون ذوو خبرة واسعة . زار سنان جميع الأقطار من إيران إلى المجر ودقق الآثار العمرانية منذ العصور الغابرة إلى عصره ، التي ما زالت قائمة والتي اندثرت ، من الناحية التكنولوجية ومن الناحبة الفنيّة الجمالية . خرج المهندس العماري قوجا محمد أغا باني جامع سلطان أحمد ، بجولة تدقيقية إلى الأناضول ، البلاد العربية ، دول البلقان ، قرم ، المجر، مالطة ، ألمانيا ، إسبانيا والأقطار الأخرى وزار الآثار العمرانية الموجودة فيها وقدّم تقريره إلى السلطان مراد عند عودته (جعفر جلبي ، **رسالة عمارية**) . كان المهندس العماري العثماني يخطط أولاً ، خارطة الجامع الذي سيقوم بإنشائه ، ثم يعمل نموذجًا مجسمًا منه إلى الشخص الذي سيتولى الصرف عليه ، ولا يبدأ بالبناء إلاّ بعد أن يحوز إعجابه ويحصل على موافقته حول ميزانية الإنشاء . كتب جعفر جلبي كيفية تقديم محمد أغا نموذج جامع سلطان أحمد إلى أحمد الأول وحصوله على موافقته (**تاريخ جامع شريف نور عثماني** ، 6) . كانت نقوش الجامع تخطط أولاً على الورق ، ومن ثم تؤخذ موافقة مهندس المعمار النقاش (باركان **Suleymaniye Camii** ، 64, 1) . إذ إن المعمّار كان مسئولاً عن ملاءمة كل زينة ونقش يجرى لذلك الأثر من الناحية الذوقية والجمالية . بدأ سنان بإنشاء صالة في سراي طوبقابو بعد أن عرض خارطتها على سليم الثاني وحصل على موافقته (أحمد رفيق **Turk Mimarlari** ، 74) . لا ينشغل المعماربأمور الصرف . ويعيّن لهذا الغرض أحد متخصصي المالية – المحاسبات المسمى « بناء ناظري » أو « بناء أميني » أي ناظر أو أمين البناء . إن لرئيس المهندسين الحق في اختيار الفني ، المعمار ، الأستاذ (الأسطة) ، والعمال .

كان يوجه اهتمام كبير لصيانة الأثر العماري من الناحية الجمالية . لا تشيّد أبنية من شأنها أن تضيّق الشارع . تهدم فورًا الأبنية التي تقترب إلى الجامع مسافة تقل عن 5 أذرع من جميع أطرافه . إن المنطقة الممنوعة بالنسبة لجامع أيا صوفيا ، كانت 35 ذراعًا . لا يجوز لأي بناء الاقتراب إلى أيا صوفيا مسافة 35 ذراعًا من جميع

جهاته . تهدم البيوت التي تقترب من أسوار إستانبول مسافة 5 أذرع من الداخل والخارج . هدم سنان في 1539 البيوت التي اقتربت إلى الأسوار مسافة 5 أذرع . ثم أخل بالمنع ثانية . عاد سنان وهدمها في 1559 . والمعلوم أن أسوار إستانبول لم تستعمل أبدًا منذ 1453 لأغراض عسكرية و لم يوجد فيها جيش وحوفظ عليها وعني بصيانتها من الناحية الجمالية ومن الناحية الأثرية التذكارية . تم اصلاح الأجزاء البالية في الحال (أحمد رفيق ، **XVI Asirda Istanbul ,67**) .

إن وزير إعمار الإمبراطورية ، كان رئيسًا لمهندسي السلطان . بقي سنان في هذا المنصب الذي أنشيء عام 1453 مدة 50 عامًا (31 / 8 / 1538 - 9 / 4 / 1588) . نظم الإمبراطورية بموجب ذوقه الفني الهندسي . كان رئيس المهندسين ، تابعًا للسلطان . و لم يكن عضوًا في الديوان الهمايوني . ولكن كانت تجوز دعوته إلى الديوان للتشاور . ألغى محمود الثاني في 1831 منصب رئاسة المهندسين العماريين ونظارة القلاع ووحدها تحت اسم مديرية الأبنية الخاصّة ، وشكلها في نهاية 1836 باسم « مجلس أمور نافعة » (مجلس الإعمار) ، وأخيرًا أسس نظارة التجارة والإعمار (1839) وأدخلها في عضوية الوزارة . إن آخر رئيس مهندسين للسلطان (خاصة عماري) (1825 - 1831) هو عبد الحليم أفندي ، وأصبح أول مدير للأبنية الخاصة . إن مهندسي الخاصة كانوا يتخرجون في مدرسة الهندسة العمارية للحدائق الخاصة (السلطانية) . أغلق محمود الثاني مدرسة السراي هذه . وحول العمل إلى المهندسين العسكريين . ولكن على إثر ثبوت قصور الأبنية التي شيدها العسكريون من الناحية الذوقية الجمالية أسست في 1881 أكاديمية الفنون الجميلة التي كانت تسمى صنائع نفيسة مكتبي . وأصبح الأركيولوجي والرسام عثمان حمدي بك أول مدير لها .

إن الفن العماري العثماني هو استمرار للفن العماري السلجوقي . إلاّ أن العماريين الأتراك وجدوا أن النقوش المتداخلة والتزيينات الكثيفة للإعمار السلجوقي ، غير ملائمة للذوق التركي ، وإنما تلائم الذوق الفارسي والعربي . والمئذنة العثمانية ، لا تشابه المآذن الإسلامية السابقة ، كما أنها لا تشابه المآذن السلجوقية ؛ رفيعة وطويلة . اقتبست من الأبراج الأربعة في القلاع التركية وطوّرت على هذا الأساس .

أكسب سنان هذا الطراز، العمارى أسلوبه الكلاسيكي . وبالنسبة إلى المؤرخ العماري الألماني Heinrich Gluck (487) فهو عماري أعظم من ميخائيل أنجيلو . « أعظم عماري عثماني ، وأحد أعظم عماري العالم » (IA, Thomas Menzel ، 392, 5 ب) ، إن الآثار العمرانية التي بناها سنان ، ليست أقل من الناحية الفنيّة ، من الآثار العمرانية الأوروبية لعصر النهضة العلمية » (Islam, Wilhelm Barthold Medeniyeti ، 140) . شيّد سنان 441 أثرًا عماريًا في أقطار مختلفة جدًا من الإمبراطورية وعلى رأسها إستانبول (81 جامعا ، 50 مسجدا ، 55 مدرسة ، 19 مقبرة ، 14 منزلا ، 3 مستشفيات ، 7 سدود ، 8 جسور ، 16 منزلا استراحة كبيرة (كروانسراي) ، 33 سراي ، 32 حمّاما ، 6 مخازن ، 7 دور الحفّاظ) .

يعتبر جامع سليمية (سليم الثاني) في أدرنه ، الذروة بين الآثار العمرانية لسنان . إن لكل من منائره الأربع 3 شرفات وارتفاعها 50 , 70 مترًا . إن المنارة الوحيدة في العالم التي يفوق ارتفاعها هذه المنائر الأربع هي منارة قطب منار في دلهي (50 , 72 مترا) ، لكنها سميكة ومشيّدة على قاعدة مساحتها 14 م^2 . يصعد إلى كل من الشرفات الثلاث في اثنتين من منائرها من سلم مستقل ، والصاعدون لا يرى أحدهم الآخر ويسمعون أصوات أقدامهم فقط . إن قطر قبّته الوحيدة العظمى 28 , 31 م . أعلى من قبة أيا صوفيا بـ 6 أذرع وأعمق منها بـ 4 أذرع . تكلف تشييده خلال 1568 - 74 مبلغًا قدره 265 مليون دولار بالسعر الرائج حاليًا .

إن المساحة التي تشغلها الكليات العثمانية والتي يشترط أن يكون في وسطها جامع ، واسعة جدًا . فمثلاً ، أسّست كلية سليمانية على مساحة قدرها 700 ألف م^2 ، وللمقارنة ، سراي طوبقابو 699 ألف م^2 ، سراي أدرنة الإمبراطوري 3 ملايين م^2 ، دولة الفاتيكان 500 ألف م^2 ، دولة موناكوميلون 500 000 ألف م^2 ، ، مجمّع الكرملين في موسكو 120 ألف م^2 ، كلية فاتح في إستانبول 120 ألف م^2) .

أعظم أثر عماري لسنان في إستانبول هو جامع سليمانية ذو 4 منائر . العماري قوجا محمد أغا ، هو تلميذ سنان . وهو معمار جامع سلطان أحمد . بني لهذا الجامع 6 مآذن وجاهد في أن يكون داخل الجامع مضيئًا جدًا ويبعث على الانشراح كما يشاهد ذلك في بعض جوامع بورصة (أولو جامع لييلديرم بيازيد ، ويشيل جامع لابنه جلبي

محمد) . ويعرف في أوروبا باسم « الجامع الأزرق » Blue Mosque بسبب ألوان خزفه . قطر قبته 60 , 33 م وهو أكبر من أياصوفيا بـ 60 , 2 م (تحسين أوز ، 126) . مجموع الشرفات في المآذن الستّة 16 . يضاء بواسطة 22 ألف قنديل (حاليًا مصباح كهربائي) . كان عدد موظفيه ومستخدميه في العصر 17 ، 750 شخصًا . صرف لتشييده مبلغ 450 مليون دولار تقريبًا بالسعر الرائج حاليًا . إذ إن الأراضي التي شيّد عليها كانت تحتوي على سرايات قيّمة جدًا ، اشتريت من أصحابها .

أشهر المهندسين المعماريين للعثمانية هم : معمار يشيل جامع ويشيل تربة في بورصة الوزير الثاني حاجي عوض باشا (وفاته 1429 ؛ معمار جامع ياووز سلطان سليم في إستانبول علاء الدين علي بك (وفاته 1537) ؛ المعمار قوجا (الكبير) سنان أغا الذي عاش 98 عامًا (29 / 5 / 1490 - 9 / 4 / 1588) ؛ معمار جامع سلطان أحمد قوجا محمد أغا (?1553 - ?1625)؛ معمار « يني جامع » مصطفى أغا (وفاته 1666) .

إن مجرد ذكر الآثار العمرانية العثمانية المتنوعة جدًا والتي وصلت إلى الذروة في نوعيّتها ، بل وحتى ذكر أثر واحد من كل نوع منها . سوف يطول جدًا ، لذلك ، سأكتفي بذكر عدة أمثلة للآثار العمرانية خارج الإعمار الديني وهو بناء الجسور .

الجسر الذي شيده القانوني في الهور على منعطف نهر الطونة – درافا والبالغ طوله 665 8 خطوة ، ظل مدة طويلة كأطول جسر في أوروبا (TAD 262, 7) . يمر ذكره في التاريخ العثماني باسم « جسر أوسيك » Osiyek . مرت عليه جيوش عثمانية كبيرة جدًا إلى المجر ذهابًا وإيابًا . جسر أركنة Ergene (أوزون كوبري) لمراد الثاني (1421 - 1451) ذو 174 قنطرة طوله 240 1 م . ولا يزال قائمًا في تركية (سداد جتينطاش ، 1 ,13) إن عرض جسر Moster الذي أمر القانوني في 1566 بإنشائه من قبل سنان على نهر Narenta في هرسك 34 , 27 م وارتفاعه 19 م . طوله 100 م . إن بلوغه هذا الارتفاع بقنطرة واحدة تدعو إلى العجب والدهشة . وهو قائم حاليًا في يوغوسلافيا. كتب السائح الفرنسي A. Poullet الذي شاهد الجسر عام 1658 « دهشت للجرأة في إنشاء هذا الجسر الذي لا يقبل المقارنة ؛ كانت قنطرته الوحيدة ، أعرض من جسر Realte الذي يعتبر من خوارق الفن المعماري البندقي ». وعبّر التمساوي

R. Michel الذي زاره في 1912 أي بعد 346 سنة ، عن إعجابه ودهشته بالكلمات التالية « هلال صار حجرًا ... أثر لا مثيل له في كل العالم ... » (IA Mostar ، 1430) . إن الجسر الذي شيّده الوزير الثاني داماد غازي جوبان مصطفى باشا في 1529 كأعمال خيرية ، موجود حاليًا على بعد 10 كم من الحدود التركية داخل بلغاريا . يجتاز، نهر مريج من جهتيه وطوله 295 مترًا (Belleten S. Eyice ، 28 ,730 - 747,1 - 52) . ويذكر المؤرخ البلغاري Radzeff في 1960 أن « تخطيطه متقن إلى درجة يستحيل معها أن تكون هناك خطة أخرى بديلة عنه . إن جميع الآثار الموجودة في بلغاريا جديرة بأن تحوز إعجاب من يشاهدها . وهي اليوم متينة كما في السابق » شيّد مصطفى باشا بالقرب من هذا الجسر منزلاً عظيمًا للمسافرين (كروانسراي) تبلغ مساحته 725 4 م^2 ويستوعب اسطبله 3 آلاف حصان . وقرب المنزل ترتفع أبنية جامع ، مطبخ لإطعام المحتاجين ، خان ، حمّام ، سوق كبير ، أسواق صغيرة ، مدرسة وهي خيرات الباشا نفسه . وقد شيّد الباشا ذاته أيضًا كليات مشابهة لهذه في كبزه واسكي شهر ,Salomon Sehweigger **Reysebesehreibung aus Teutschland Constantinople** ، نورمبرغ 1608 ,47 - 8) قال Cornelius Von den Driesch الذي شاهد الجسر في 1723 « جسر خارق للعادة بجماله ، يندر أن يشاهد مثيل له في أوروبا كلها » (Ungemein Schonen Brucke, dergleichen man in ganz Europa Wenig sehen wird) **Historische Nachricht**) ، نورمبرغ 1723 ، 125 - 6) . صرف مصطفى باشا ، لإنشاء جسر مصطفى باشا وكليّته مبلغًا قدره 42 مليون دولار بالسعر الرائج حاليًا » . يجب أن نذكر أن العثمانيين من أكبر مشيدي الجسور في التاريخ العالمي . إن الجسور العثمانية ، مظاهر حضارية وفنيّة حقيقية » .K) Kienitz **Alte Turkenbrueken, Mitteinlungen d'Deufsch - Turk . Gesel.**, No. 51, Bonn 1963, P . 6 - 10) ، وهناك جسور من صنع سنان (جسر سنانلي في آلبولّي Alpullu (تراقيا الشرقية) ، جسر بيوك جكمجه ذو 32 قنطرة في سيليوري قرب إستانبول ، جسر كبزه Gebze ، جسر Drina قرب Visgrad في بوسنة الذي موّله صوقوللو محمد باشا) ، تحتل مكانها كذلك بين الآثار العمرانية المتفوقة للعثمانية . اكتسب جسر درينا صفة الخلود في القلوب والأذهان عندما ذكره الكاتب الروائي Ivo Andriç الذي حصل على جائزة نوبل ، في إحدى رواياته

(Na Drini Euprija = جسر درينا ، 1945) . ومن أجمل نماذج الجسور العثمانية التي هدمها اليونانيون جسر Vardar قرب سلانيك 210 م ، جسر يني شهر (Larissa) على نهر بينتوس قرب تيساليا ، جسر Narda (Arta) 142 م على نهر Arahtos .

إن منشآت توزيع المياه العثمانية ، الجداول ، قناطر المياه ، البنود تعتبر آثارًا هندسية عظيمة كذلك . جلب القانوني في 1532 الماء إلى مكة ، وفي 1552 إلى القدس من أماكن بعيدة جدًا . إن قناة كربلاء التي تربط الفرات بماء عبيد التي أنشأها القانوني في 1544 هي إحدى المنجزات العثمانية العظيمة (Stripling The Ottoman Turks and the Arabs ، 1511 - 1574 ، أوربانا 1942 ، 81) .

إن عظمة النظام والكمال العمراني والقيمة الفنية لشبكة الطرق العثمانية والمنازل والخانات المشيدة عليها ، تخلب الألباب . تشمخ هذه الآثار العثمانية على طريق حج إستانبول ـــ مكـة والطـرق التجاريـة الرئيسيـة كإستانبول ـــ أرضروم ، استانبول - بغداد ، إستانبول - القاهرة ، إستانبول - بودين ، وفي الأقطار الأبعد كتونس والجزائر وفي الأماكن من الدرجة الثانية الأقل عددًا في السكان (J . Sauvaget, Les Caravansèrails Syriens du Hadjdj de Constantinople, Ars Islamica, 1937, 98 - 121) . إن الخان التجاري الذي شيّده فاتح قبرص لالا مصطفى باشا فيها في فترة شبابه عندما كان واليًا (بكلر بك) على الشام ، كان يحتوي على 360 غرفة ، بقي مسجده فقط حاليًا (Wulzinger, Watzinger Damaskus ، برلين 1924 ، 52 - 4) . إن الكلية التي شيدها الباشا ذاته في قنيطرة قرب الشام (أولياء ، 133, 3) والكلية التي شيدها في إيلغين 1574 - 84 ، والجوامع في مدن كثيرة كقارص ، تفليس ، لفكوشه جميعها أعمال خيرية .

إن الأسواق العثمانية المسقوفة وأسواق الحاجيات الأثرية منجزات تدهش المرء . إن سوق إستانبول المسقوف هي أكبر سوق مسقوف على وجه الأرض حاليًا أيضًا . تبلغ المساحة التي يشغلها 300 ألف م^2 ويحتوي على 20 ألف صاحب عمل . ويحتوي كذلك على 4 آلاف مخزن ، 5 جوامع ، مدرسة ابتدائية ، 10 حنفيات عامة ، و 61 زقاقًا ؛ هذا عدا 21 خانًا كبيرًا خارجه لكنه ملاصق له . إن جميع شوارعه مسقوفة تمامًا وهذه الأزقة والمخازن جميعها تحت هيكل سقف واحد . لا يجوز دخول

الخيل أو العربات والسيارات فيه . كان البادشاه فقط في العهد العثماني يدخله ممتطيًا حصانه والسلطانة ـ الوالدة تدخل بالعربة . إن أبوابه الـ 18 التي تفتح على المدينة ، ذات سلاسل . وتعتبر كذلك سوق مصر في إستانبول التي شيدتها تارخان والدة ـ سلطان (1662) بواسطة المعمار مصطفى أغا ، من أكبر الأسواق المسقوفة .

إن فن البناء العسكري العثماني ، متقدم كذلك بنفس الدرجة . تشاهد القلاع العثمانية شامخة في أقطار لا تخطر على البال . وقد حافظ العثمانيون على القلاع القديمة الموجودة في الأقطار الداخلية و لم يهدموها لفقدانها قيمتها العسكرية . كانت قلعة إسكندرية (أبو قير) التي شيّدها في 1528 بكلر بك مصر سليمان باشا الذي صار بعدها صدرًا أعظم ، قلعة عظيمة يحيطها البحر الأبيض من جهاتها الأربع (أولياء ، 9 ,1 - 7) . ما زالت بقايا القلاع العثمانية شاخصة في بودين ، في المجر ، استركون وفي Sigetvar .

إن « المنازل » التي شيّدت لتشكيلات « البريد » ، كانت محطات لتبديل خيول سعاة البريد . البقايا المتبقية من آثار معامل السفن ، المدافع والبارود تثبت لنا مبلغ عظم الأبنية والمنشآت العثمانية بصورة واضحة .

إن هندسة الحدائق العثمانية ، هندسة المياه ، الهندسة الداخلية ، أيضًا بالمستوى نفسه . إن تعلق العثمانيين بالأزهار ، مشهور . الدولة الوحيدة التي أطلقت على فترة من فترات تاريخها اسم زهرة ، هي الدولة العثمانية (دور لاله « سنبل » 1718 - 1730) . دوّن أحمد كامل أفندي في كتابه الذي حرّره في 1753 عن زهرة اللالّه ، اسم 558 متخصّصًا في زهرة اللالّه . تمكن العثمانيون من استنباط 1350 نوعًا من زهرة اللاله وأطلقوا على كل نوع منها أسماء خاصة .

إن الزينة والتأثيث الداخلي ، بسيط ، بعيد عن المبالغة في المظهر ويمتاز بالوقار . لا يوجد أثاث كثير . يبدأ دور الأثاث الكثير والمبالغة في المظهر في الهندسة العمارية الداخلية ، مع التنظيمات وتزول مظاهر الوقار السابق .

9 ـ الرسم (المنيمنات (الرسم الصغير جدًا) Minia ture) والكتابة (الخط) :

كان الأتراك القدامي يصنعون التماثيل . استمر السلجوقيون على هذا التقليد رغم

تحريم الإسلام لذلك . أمر علاء الدين كيكباد بصنع هياكل كثيرة (ابن بي بي ، 254) . سياح كثيرون بحثوا عن التماثيل في قونية . ولكنها رفعت بعد ذلك باعتبارها مخالفة للإسلام . ومع ذلك توجد نماذج تماثيل كثيرة جدًا متبقية من العهد السلجوقي ، حتى يومنا هذا . استعاض العثمانيون في إشباع رغبتهم بالتماثيل ، بنحت أحجار القبور . إن المقبرة الكائنة في أخلاط Ahlat التي عاش فيها العثمانيون عصرًا ونصف العصر قبل مجيئهم إلى ضفاف سقاريا ، هي مدينة موتى مليئة ببدائع فن النحت الحجري . ويشاهد الفن الأثري ذاته في أحجار القبور كذلك .

اعتبر الرسم ذو البعدين (المجسم) محرّمًا في الإسلام . لكن الرسم المصغر ذا البعد الواحد (منياتور) كان موجودًا . وبالطبع لم تكن العثمانية تجهل اللوحات على الطراز الأوروبي ؛ حيث إنها كانت الدولة التي حكمت أقطارًا أوروبية عديدة لعصور طويلة . جلس فاتح أمام الرسام البندقي Bellini ليرسمه بالأصباغ الزيتية . أما نشوء الرسامين الأتراك ، فيبدأ مع حماية السلطان عزيز (1861 - 1876) الذي سمح بصنع تمثاله لأول مرة والذي كان هو رسامًا بالذات . إن أكبر رسام عثماني ، هو الأركيولوجي الشهير عثمان حمدي (1842 - 1910) ، وهو ابن الصدر الأعظم أدهم باشا .

إن أشهر رسامي المنيمات (الصور المصغرة) هم : نكاري حيدر بك (وفاته 1572) ، النقاش بوسنه لي سيّد عثمان أفندي (وفاته 1590؟) ، ولوني (وفاته 1732) في دور لاله . وهناك نقاشو الخاصة الذين يرسمون دائمًا الصور المصغرة على الكتب في السراي . أرسل فاتح ، بورصة لي سنان بك الذي رسم تصويره الجانبي وهو يشم الورد ، إلى البندقية لتحصيل الرسم وتعلّم على يد Mastori Pavli Dragoza . وتعتبر كذلك ، الصورة الجانبية لفاتح وهو جالس متربعًا يشم القرنفل التي رسمها سيّد لقمان ، من أرقى نماذج طراز المنيمات القريب إلى الرسم . والمعروف عن ياووز أنه رسّام وأنه رسم لوحة واقعة جالديران . كان للسراي في عام 1525 ,41 رسامًا . إن شاهقولو الذي قدم من تبريز في غضون عام 1520 إلى سراي إستانبول واستوطن فيه ، هو تلميذ بهزاد (?1455 - ?1537) الرسام المنياتوري لتركية الشرقية وأكبر أستاذ في طراز رسم المنيمات في التاريخ . وقد نشأ كذلك ، عدة أساتذة في الفن المسمى « قطع » وهو

عمل نقوش على الورق بطريقة قصّه .

والمعروف عن الأتراك العثمانيين أنهم اشتهروا كذلك في التاريخ بإنجابهم أعاظم الفنانين في الخط . إن أشهر الخطاطين في العثمانية هم شيخ حمد الله (1429 - 1520) ، وقره حصاري أحمد شمس الدين أفندي (1468 - 1556) ، ستّار أفندي الإستانبولي الذي ذهب إلى الهند لأجل خط كتاب تاج محل (وفاته 1670) ، حافظ عثمان أفندي (1642 - 1698) ، قضعسكر مصطفى راقم أفندي (1758 - 1826) ، قضعسكر يساري – زاده مصطفى عزّت أفندي (1776 - 1849) ، وقضعسكر توسيالي مصطفى عزت أفندي (1801 - 1876) وهو ملحن كبير في الوقت ذاته . لم يتمكن العثمانيون من سبق الإيرانيين في خط التعليق . العثمانيون ، هم الأوائل في كل أنواع الخطوط الأخرى (يجب استثناء العرب في الخط الكوفي ، لم يستعمل العثمانيون الخط الكوفي بكثرة) . نشأ خطاطون عظام بين السلاطين : مثل أحمد الثالث ، محمود الثاني وعبد المجيد الأول ، إن أعظم **المصاحف** المخطوطة كتبت بيد الخطاطين الأتراك . لقي الخط العثماني إعتبارًا كبيرًا لدى العالم الإسلامي بأسره . إن لقب « خطاط » كان رسميًا . ويلزم لحيازة هذا اللقب بجدارة ، أن يعمل سنوات طويلة مع خطّاط واحد على الأقل ويحصل منه على إجازة (شهادة) موقعة بتوقيعه . لم تخل إستانبول من آلاف الخطّاطين في جميع الأدوار . ويمكن القول إن العثمانيين قد أشبعوا رغبتهم في الرسم ، باشتغالهم بهذا الفن . كل تركي ، أظهر محبة فائقة تجاه فن الخط .

10 – صناعة الخزف :

إحدى أرقي الصناعات العثمانية ، هي صناعة الخزف . أطلق العثمانيون على هذه الصناعة ، التي سمّاها الإيرانيون « كاشي » ، اسم « صيني » بسبب انتقال فن صناعة الخزف من الصين ، وهي إحدى الصناعات التي اشتهر بها العثمانيون عالميًا ، لم يهتم العثمانيون بصناعة الموزائيك البيزنطية ، رغم أنهم يملكون نماذج كثيرة منها . وفضلوا الصيني (الخزف) . وقد نشأ رسامون ، خطاطون وأساتذة مختصون بتناسق الألوان وامتزاجها على الخزف . يستهلك الكثير من الخزف في الأبنية الكبيرة . استعمل لجامع

سلطان أحمد 043 21 قطعة خزف . كان في إيزنيك ، في العصر 16 ، عدد 300 معمل للخزف . وقس على ذلك بالنسبة للمدن الأخرى ؛ إذ إن العثمانيين أحبّوا صناعة الخزف واستعملوها في أبنيتهم العسكرية ، الدينية ، والمدنية ومختلف أبنيتهم . قام متخصص الخزف المسمى دلي محمد ، بتزيين الجامع الأخضر لمحمد جلبي وقبره الأخضر بقطع من الخزف وصيّرها كأنها أركانًا نموذجية من أركان الجنّة ، إن جامع الصدر الأعظم رستم باشا في إستانبول (أمين أونو) الذي بناه سنان ، وشقة الحرم التي شيّدها سنان كذلك في سراي طوبقابو وباطن مقابر سليم الثاني ومراد الثالث التي شيّدها سنان كذلك في فناء أيا صوفيا ، مليئة ببدائع فن الخزف العثماني . إن أكثر الألوان استعمالا ، هي « الأزرق التركي » « أحمر طماطم العثماني » ، الأزرق الغامق ، الأصفر ، الأخضر .

11 – صناعة السجاد :

صناعة عثمانية كبيرة أخرى ، هي صناعة السجّاد . صناعة تركية قديمة جدا . إن المنيمات وصناعة السجاد ، انتقلت من الأتراك إلى الإيرانيين (TK, Alessio ، Bombaci رقم 48, Rasonyi: 9 - 38, 20) . حتى 1918 ، كانت الدولة العثمانية تبيع للأقطار الأجنبية سجادًا بمبالغ تزيد على 8 ملايين ليرة ذهبية سنويًا . يتّضح من هذا الرقم ، أهمية صناعة السجّاد . يصنع السجّاد والأبسطة في جميع نواحي تركية . إن نقوش التركمان ، لها طابع خاص متناسق . لا تبهت الأصباغ النباتية ولو مضت عليها عصور . لا يمكن تصوّر عدد الغرزات المتراصة التى تغرز على 1 سم^2 من السجّاد . يصنع السجاد الحريرى بالإضافة إلى السجّاد الصوفي . لكن صناعة السجاد الحريري في إيران ، أرقى . ومنذ 1860 وحتى يومنا هذا ، يصنع السجاد من النوعية الفاخرة جدا في معمل هركه Hereke الذي أسّسه السلطان عبد المجيد . فرشت كل سرايات التنظيمات بسجاد هركه . ولغرض الاطلاع على أسماء كبار أساتذة صناعة السجاد العثماني للعصر 16 ، انظر Turk Sanati Tarihi Arastirmalari ، 1 ,731 .

12 – صناعة الأقمشة :

إن تركية من الدول المصدرة للمنسوجات ، الألبسة الجاهزة والأزياء وحاليا هي

كذلك . ومنذ العصر 15 ، لم يفقد القطن ، الكتّان ، الصوف ، الأقمشة الحريرية قيمتها في العالم أجمع ، كمستوردات من الدرجة الأولى (لوكس) . كانت بورصة مركزًا للمنسوجات الحريرية . أما مركز منسوجات صوف الماعز الذي يسمى « Sof » (Angora) فكان في أنقرة . كانت منسوجات العثمانية في العصر 16 ، تعتبر درجة ممتازة (لوكس) وفي الوقت ذاته أرقاها من ناحية قيمتها الصناعية . ولغرض الاطلاع على أسماء 650 نوعًا من المنسوجات العثمانية ، انظر **Tarih Dergisi, Turkcede** **Kumas, Adlari. M. E. Ozen** 33 ,1982 , 291 - 340 .

13 – صناعة الجلود :

أظهر الأتراك تفوقًا كبيرًا في مجال صناعة الجلود منذ فجر التاريخ . إن الحذاء الطويل التركي الذي يستخدم في ركوب الخيل ، حافظ على أفضليته في العهد العثماني . كانت المصنوعات الجلدية ، حتى العصر 18 كأنها محتكرة في الأناضول وروملي . أرسلت إنكلترا وفرنسا عمالها المهرة إلى العثمانية ليتعلموا دقائق الصناعة . الأحذية الخشبية (القباقيب) العثمانية هي كذلك صناعة فنيّة عثمانية مشهورة جدا .

14 – التجليد ، تأليف الكتب وخطّها ، التذهيب :

كان التجليد فرعًا مستقلا مهمًا . إن الجهد الذي يصرف لكتابة وتذهيب وتجليد الكتاب والدراهم التي تنفق لجعل الكتاب أثرًا فنيا في الوقت ذاته ، مذهل . صرف سليم الثالث مبلغًا قدره 3 000 ليرة ذهبية لكتابة **ديوان** الشيخ غالب أكبر شاعر في عصره البالغ عمره 34 عامًا الموجود حاليًا في متحف مكتبة جامعة إستانبول (رقم 5531) .

منحت بيخان – سلطان ، أخت السلطان نفسه الشيخ غالب 10 000 ليرة ذهبية عن القصيدة التى أتحفها لها ، كعطية (أجر تأليف) .

صرف مبلغ 284 930 آقجة (تعادل 2 , 7 مليون دولار بالسعر الرائج حاليًا) كأجور رسم المنينات وتذهيب وتجليد 6 مجلدات من كتاب **سير نبي** باللغة التركية

التي جهزت خصيصًا للسلطان مراد الثالث والمشهورة لدى الأوساط العالمية .

التذهيب ، هو تزيين الكتب المخطوطة النفيسة بطبقة من الذهب الذي يكون على شكل طبقات ورقية رقيقة . كان يطلق على الذي يصنع هذه الأوراق اسم « آلطون ورقجي » (ورّاق الذهب) والذي يشغل هذه الأوراق على الكتب اسم « مذهّب » . أرق النماذج ، صنعت في إستانبول . كان 345 مذهبًا يعملون في هذه المدينة قبيل عام 1640 (أولياء ، 1 ,608 - 9) ، إن ورّاقي الذهب خارج هذا العدد . استعمل التذهيب على نطاق ضيق ، في الإعمار المدني وخاصة في جدران وسقوف شقق الحرم . والمعلوم أن سفينة السلطان وسفينة الأميرالية لقائد القوات البحرية ، تطلى بالطلاء الذهبي . وتكسى النطف الموجودة على قبب الجوامع والمآذن التي تسمى « علم » بطبقة سميكة من الذهب وهكذا كانت تستهلك كمية كبيرة من الذهب لتزيين الجوامع السلاطينيّة .

15 ـ صناعة فخار (البورسلان) ، الزجاج ، الجواهر :

كانت هناك صناعة فخار (بورسلان) . لكنها لم تصل إلى مستوى الفخار الصيني . لذا جمع السلاطين وخاصة سلاطين العصر 16 في سراي طوبقابو أغنى مجموعات الفخار الصيني والتي من بينها ما كان مقدمًا كهدايا من الحكام الآسيويين أو كضرائب . ما زالت هذه المجموعة ، موجودة حاليًا ، يشاهدها بإعجاب وتقدير أولئك الذين يقدرون قيمة البورسلان الصيني القديم .

يبلغ عدد قطع الفخار الصيني (البورسلان) الموجودة في طوبقابو 12 000 قطعة من أنواع يستحيل تقليدها حاليًا ، وإنه لمما يدعو إلى الدهشة أن يتم في العصر 16 تجميع مجموعة كبيرة كهذه من قطر كالصين . إن 269 قطعة من البورسلان الموجود في سراي طوبقابو ، مرصّع (مطعم) بالجواهر . أما عدد البورسلان المرصع المسجل في الكتالوك في بقية أقطار العالم كله فهو 5 (خمسة) ، ويوضح ذلك قيمة البورسلان الصيني الموجود في مجموعة طوبقابو . ويأتي الزمرّد والياقوت ، على رأس الأحجار الكريمة التي طعّمت به قطع البورسلان وتكمّلها التزيينات المصنوعة من اللؤلؤ ، الياقوت الأزرق ، الفيروز ، المرجان ، الذهب ، الفضة وما شابه ذلك .

كانت صناعة الزجاج والزجاج الملوّن العثمانية ، متقدّمة أيضا . سرخوش إبراهيم الذي صنع زجاج جامع سليمانية الملوّن ، كان الأستاذ الأكبر لهذه الصناعة . وفي النصف الثاني من العصر 19 ، أصبحت صناعة البورسلان والزجاج العثمانية صناعة كمالية ، وأخيرًا ، أسس المعمل الهمايوني ومعمل زجاج باشا بقجه . توجد أنواع فخّار (بورسلان) ، خزف وزجاج ثمينة جدًا لا يمكن صناعة مثيل لها في الوقت الحاضر كالمزهريات الزجاجية ، الكاسات وأمثالها الخاصة بالعثمانية والمسماة « جشم بلبل » ، أصبحت موجودة في المتاحف فقط . إن صناعة الكهرب (بالفارسية : كهرباء) ، صناعة المسابح ، صناعة الجبك (غليون طويل لشرب الدخان) ، صناعة الغليون القصير للسجائر ، هي صناعات عثمانية كبيرة لفروع صغيرة . كانت تصنع المسابح من اللؤلؤ والزمرد .

اشتهر العثمانيون بالصياغة كذلك . اشتغل واحد أو اثنان من السلاطين بالصياغة ، كلهم تقريبا كانوا أخصائيين في الأحجار الكريمة . ما زالت الصياغة مستمرة بنسبة معيّنة حاليًا . أيضًا صناعة الحبر ، وإن كانت هذه الصناعة قد زالت بظهور الحبر الصناعي .

16 ـ الأثاث :

انقرضت صناعة الأثاث والأدوات المنزلية والمطبخية العثمانية بسبب قبول واستعمال الطراز الأوروبي في الأثاث بصورة كاملة . بقيت عدة فروع قليلة تعيش حتى اليوم كصناعة النحاس التي ما زالت تنتج صناعات نفيسة وجميلة . تشاهد في المتاحف ، السرايات .

نماذج كثيرة جدًا من الصناديق العثمانية ، الرحلات المطعمة بالصدف ، الموائد ، العلب ، المقصّات ، السكاكين ، الملاعق وأنواع كثيرة أخرى من الأدوات المنزلية التي لا تخطر على البال .

17 ـ صناعة الأسلحة :

وعدا العناية بالجودة في صناعة الأسلحة العثمانية ، فإنه كان يُعنى أيضًا بصورة فائقة

بالناحية الجمالية فيها وتستلفت النظر العناية بهذه الناحية حتى في أبسط الأسلحة . التزيينات التي صنعت في الكبيرة منها ، لا تقدر بثمن ، وكذلك الحال بالنسبة للأسلحة النارية . تشاهد أجمل نماذج في جناح الخزينة والأسلحة في سراي طوبقابو وفي المتحف العسكري في إستانبول وفي المجموعات الأجنبية المختلفة .

صنعت الأدوات الحديدية بعناية وبإتقان فائق . أكثرها كتبت عليها آيات وكتابات جميلة . كثير منها مرصع بالجواهر . وكذلك الحال بالنسبة للحاجيات المصنوعة من الجلود والأقمشة التي تستعمل لحفظ الأسلحة كالأجربة والجعب . يدهش المرء عند مشاهدته الجعب (محفظات النبال) المكسوة في خزينة طوبقابو . وأدوات الصيانة كالدروع (بالتركية : جبة ، Cebe) ، المغافر (بالتركية : توكولغا وبلغة الشعب تولغا) ، والتروس ، تعتبر آيات فنيّة رائعة ولدينا نماذج غنية منها منذ العصر 13 . ومن جملة الأسلحة النارية الغدارات (المسدس الذي يحشى بالبارود) والبنادق ، كانت تصنع على أحجام وأنواع مختلفة ، وتوجد أنواع مختلفة من الأسلحة الغارزة والضاربة كالمزراق ، الحربة ، البلطة (ضرب من الفئوس) ، والبلطة ذات المزراق التي تسمى « طبر » ويضاف إلى ذلك أنواع أخرى إليها كالششبر (كرة ذات 6 قطع تستعمل في القتال) والكرة الحديدية ذات المقبض (بالتركية = طوبوز) . إن نماذج الصفائح ، السيوف المعقوفة القصيرة ، السكاكين ، السكاكين الطويلة والسكاكين الصغيرة ، تشاهد بدهشة كبيرة ، ولكن أرق أنواع التفنن تشاهدها في **الخنجر** المعكوف **والسكين والسيف** . وكل هذه من خناجر وسيوف مرصعة نجدها في خزينة طوبقابو .

18 – صناعة القوارب :

اشتهرت القطع البحرية ، السفن والزوارق التركية بأنها آيات فنيّة كذلك . إن زوارق السلطنة والزوارق الرسمية الخاصة ، وزوارق طراز بوغاز إيجي ذات المجدافين ، لفتت أنظار جميع السياح بطرافتها . أمكن الاحتفاظ بنماذج نادرة منها في المتحف البحري . لا نجد في عصرنا زوارق عثمانية من طراز بوغاز إيجي ، لا تستعمل . وللتعرف على مشاهير أساتذة صناعة الزوارق طراز بوغاز إيجي في النصف الثاني من العصر 19

انظر Istanbul Ansiklopedisi, 3, 652, 1,1) .

19 – الموسيقى :

الموسيقى الكلاسيكية والشعبية والتصوفيّة العثمانية غنية جدًا . إن العثماني شديد التعلق بالموسيقى « يحتمل ألا يوجد أبدًا شعب على وجه الأرض يعشق الموسيقى كالأتراك » **(il n'y a peut - ètre aucun peuple surla terre qui soit plus passionè qu eux pour la musique) (d'Ohsson, IV, 414) .**

تنقسم الموسيقى إلى الفروع التالية :

1 – الموسيقى الشعبية : توجد موسيقى شعبية خالصة ، إلا أن الموسيقى الشعبية المتأثرة من موسيقى المدينة ، هي أكثر انتشارًا وأجمل . لها ميزات خاصة نسبة لكل منطقة . موسيقى الساز (الآلية) قليلة . الموسيقى اللفظية أكثر . تستعمل مقامات وأصول الموسيقى الكلاسيكية نفسها ، ولكن في إطار أضيق وبأسلوب أبسط . أغنى نماذج هذا النوع نجده في أغاني روملي وأغاني إستانبول الشعبية .

2 – الموسيقى الدينية : تنقسم إلى قسمين : موسيقى الجامع والموسيقى التصوفية أو موسيقى الطرق (التكايا) . لا تستعمل آلات الساز في موسيقى المساجد ، تستعمل الأنغام الصوتية فقط . وعلى رأسها تلاوة **القرآن** . يجب على كل حافظ أن يكون قد أتقن الموسيقى أولا بصورة تامة . إن تلاوة القرآن على المقامات التركية ، مرغوب فيها ومقبولة كما هي الحال في كتابة **القرآن** بيد الخطاطين الأتراك . **والمولد** ، هو موسيقى مسجدية أخرى خاصة بالأتراك . يطلب الأتراك تلاوة المولد النبوي في كل مناسبة . والمولد قصيدة منظومة طويلة ومؤثرة جدًا نظمت على طراز المثنوي عن حياة الرسول ﷺ في بورصة في السنوات الأولى من العصر 15 من قبل سليمان جلبي . يتلى المولد بأنغام وبمراسم خاصة ، في المساجد أو في البيوت .

تجرى الموسيقى التصوفية ، بتلحين الأشعار المنظومة لشعراء التصوف وعلى رأسهم يونس أمرة . إن شكله (Form) الرئيسي ، هو الغناء الديني الذي يسمى « إلّهي » ، وإن كانت المنظومة عربية تسمى « شغل » . وتوجد أشكال أخرى أيضًا إن الموسيقى

المولويّة ، تشكل أكبر شعبة من شعب الموسيقى التصوفية . تتلى في مراسم المولوية التي تسمى « مقابلة » منظومة ملحنة طويلة جدًا ، تسمى « آيين شريف » (المراسم الشريفة) وتكون على العموم تلحينات من أبيات مولانا الفارسية . تشترك هيئة الساز (الموسيقى) أيضًا مع الموسيقى التصوفية . مثلاً ، الناي ، هو الآلة الموسيقية المقدسة لدى المولويين . وتوجد كذلك موسيقى الساز . لكن الموسيقى اللفظيّة تشكل الناحية الأساسية .

3 – الموسيقى غير الدينية (pro fane) : موسيقى كلاسيكية . وتنقسم إلى قسمين موسيقى الساز (الآلة) والموسيقى اللفظية ، الثانية أغنى بكثير . وتقسم الموسيقى اللفظية إلى قسمين « الأغاني الصغيرة » (وشكلها الرئيسي الأغنية المسماة « شرقي ») و « الأغاني الكبيرة » . إن « الأغاني اللفظية ذات الشكل الكبير » تشكل القطع الأكثر كلاسيكية (كار ، بسته ، سماعي) .

4 – الموسيقى العسكرية : وهي موسيقى المهتر .

« الساز التركي » هو الطنبور الكمنجة والناي . أخذ العود والكمان عن العرب والسنطور عن الفرس ، دخل إلى الموسيقى التركية وخرج منها في فترات ، وتوجد آلات أخرى كثيرة . ومنذ أكثر من عصر واحد ، استعملت آلات موسيقية غربية عديدة وعلى رأسها الكمان .

أشهر الملحنين العثمانيين النوابغ هم خواجه عبد القادر مراغى (1360؟ - 1435) ، شيخ عبد العلي أفندي (وفاته 1575؟) ، خطيب ذاكري حسن أفندي (1545؟ - 1623) ، غازي كيراي خان الثاني (1554 - 1608) ، حافظ بوست (1630؟ - 1694) ، شيخ على شيروغي أفندي (1635؟ - 1714) ، رجب جلبي (وفاته 1701) ، بخارى – زاده مصطفى أطري أفندي (1640؟ - 1712) ، قطبي نايي شيخ عثمان ده ده (- 1730 1652؟) ، طنبوري مصطفى جاووش (وفاته 1745؟) ، أبو بكر أغا (- 1759 1685؟) ، طبعي مصطفى أفندي (1705؟ - 1765) ، حاجي سعد الله أغا (وفاته 1801) ، كوجوك محمد أغا (وفاته 1800؟) ، السلطان سليم الثالث (- 1808 1761) . حمّامي – زاده إسماعيل ده ده أفندي (1778 - 1846) ، دلّال – زاده

إسماعيل افندي (1797 - 1869) ، طنبوري عثمان بك (1816 - 1885) ، زكائي ده ده (1825 - 1897) ، حاجي عارف بك (1831- 1885) ، طنبوري علي أفندي (- 1902 1836) ، شوقي بك (1860 - 1891) ، رحمي بك (1865 - 1924) ، إسماعيل حقي بك (1866 - 1927) ، طنبوري جميل بك (1871 - 1916) ، سعد الدين آريل Arel (1880 - 1955) - أكبر علماء الموسيقى (موزيكو لوغ) عبد القادر مراغي ، الدكتور صبحي أزكي (1869 - 1962) وآريل . إلا أن علم الموسيقى (موزيكولوجي) ، يستند على سيف الدين عبد المؤمن عمروي (1224? - 1294) .

وأهم الملحنين في هذه القائمة هم أطري ، ده ده ، عارف بك ، جميل بك وآريل . عبد القادر ليس عثمانيًا ، هو آذرى (نسبة إلى أذربيجان) كان يروح ويغدو إلى العثمانية ويهدى قطعة الموسيقية إلى البادشاه ، عاش في السرايات التركية في تبريز ، بغداد ، سمرقند ، هرات . لحن أشعارًا فارسية ، منظوماته العربية والفارسية قليلة . إن أطرى وده ده ، من أكبر أساتذة التلحين ، الأول بالنسبة للمدرسة الكلاسيكية ، والثاني بالنسبة للمدرسة النيوكلاسيكية . عارف بك ملحن كبير في شكل « شرقي » وهو الموسيقي الذي فتح دور الرومنطيقية . أما جميل فهو أكبر طنبوري وعازف على الكمنجة وملحن أغاني الساز الكبيرة . آريل أعظم أستاذ تلحين للمدرسة الحديثة وأكبر أستاذ تلحين في الموسيقى التصوفية وموسيقى الساز .

إن أكثر من نصف المقامات الموسيقية الحالية من اختراع العثمانيين . والمقامات الأخرى أخذت عن السلجوقيين .

والرقص الشعبي العثماني ، والرقص الديني (خاصة سماع المولويّة) والرقص الكلاسيكي ، غني جدًا وجذاب للغاية .

المبحث السادس عشر

الحياة المعنوية والمادية
التاريخ الاجتماعي والاقتصادي

1 ـ أخلاق وسجايا العثمانية :

ما السمات والخصائص الأخلاقية التي اشتركت في تكوين العثمانية ؟ ؛ للإجابة عن ذلك ، أفضل تقديم الخطوط المميزة للناحية الأخلاقية العثمانية عن الكتّاب الأوروبيين في العهود المختلفة ، باعتبارهم مشاهدين محايدين .

شعور **حب الوطن** لدى العثمانية مبني على قدسية مفاهيم الدين ، الدولة ، البادشاه ، العائلة ، الشرف . أى شيء يمكن التضحية به في سبيل عدم الإخلال بهذه المفاهيم وصيانة بقاء الدولة وإن أدى ذلك إلى الاستشهاد . ضحى الذين لم يتمكنوا من نيل مرتبة الشهادة ، بأموالهم ؛ ومن أمثلة ذلك القاضي جابان أوغلو عبد الفتاح أفندي الذي صار فيما بعد قاضيعسكر ، فقد وهب ثروته العائلية البالغة 18 ألف ليرة ذهب . في حرب الحياة والموت تجاه الروس عام 1829 قائلاً « يكفيني الراتب الذي تقدمه الدولة » (لطفي ، 2 ,58) .

الشعور بالاستعلاء (بالفرنسية: Complexe de supèriorcté) واضح لدى العثماني . لا يشك لحظة في كونه من رعايا أشرف دولة .

العثماني مشهور **بوقاره** ، العثماني جاد ، متأن ومتواضع . ليس هناك تعارض بين التواضع والشعور بالعظمة ، « يندر أن يضحك الأتراك . كلامهم جاد . يتكلمون باقتضاب . ويرغبون في أن يكلمهم المخاطب باقتضاب » (**L'Elat Militaire de l'Empire Ottoman, Kont Marsigli** ، لاهاي 1732 ,1 ,142) .

العثمانيون شعب وقور ، خلوق ومهذب . لا يهمل العثماني أبدًا قواعد الأخلاق والمجاملة . يشاهد الوقار جليًا في جميع حركاتهم مهما كانت طبقاتهم الاجتماعية . يحبون السكينة والهدوء . لا يزعجون أحدًا ، ولا يستسيغون من يزعجهم . قليلو الهياج وقليلو الفضول . لا تشاهد في المدن العثمانية التزاحم في الشوارع لحاجة ما ، أو مطاردة شخص لآخر ، أو الخروج عن الطور المعتاد (d'Ohsson, 4, 356, 370, 402 - 3 » .

الأتراك شعب رزين ، مفكر ، وقور ، مجامل ، ذو مهابة . ينفر من الصخب والصياح ، تروقهم جدا السكينة ، ينامون في وقت مبكر وينهضون للصلاة قبل طلوع الشمس » Etat Actuel de la. Thornton Turquie ، باريس 1812 ,2 ,226 ,311 ,314) .

الأتراك شعب جاد وقور ، لا يتفاخرون ، ويستغربون من المتفاخرين . شعب حسن الطلعة ، طويل القامة . نظيف . يشربون الماء فقط . إن أرباب العمل الأتراك ، بعيدون تمامًا عن ضوضاء جماعتنا ، أناس لطفاء . كل مشغول بعمله ، لا يتدخل في عمل غيره . ذوو جلد وصبر أمام المصائب والشدائد » (Ubicini ,1855 ، 288 ,342) .

« يلعب الأطفال الأتراك في الشوارع بهدوء ، لا يبكون ، ولا يسبّبون الصخب ولا يصرخون » (Neuf, A. Brayer Annèes a Constantinople ، باريس 1836 ,224- 5) .

« إن احترام الآباء لدى الأتراك مهم إلى درجة كبيرة ، لا يجلسون أمام آبائهم دون استئذان . يعتبر كلام الأب أمرًا قاطعًا » (Amèdèe Jaubert Voyage ، باريس 1821 ,298 - 9) .

إن رقة ودماثة أخلاق العثماني مشهورة « إن الأتراك خلوقون إلى درجة قصوى ويراعون القواعد الأخلاقية بدقّة . إن القواعد التي يراعونها ، ليست أدنى من القواعد المرعية في أى قطر مدني في العالم ، خاصة معاملة وطراز مخاطبة منتسبي السراي بعضهم لبعض ، تجري بأقصى ما يمكن أن يتصور على وجه الأرض من الدقة في القواعد الأخلاقية وقواعد المجاملة » (100,97, Lord Ricaut ,1677 ,1) .

« تشكّل الأخلاق العالية والرقيقة التي يتعامل بها في السراي ، الأساس في كل معاملة . إن الخادم أو البنت الخادمة التي تقوم بأبسط الأعمال ، تدرّب على هذا الأساس » (زياد أبو الضياء ، 261,2) .

« لا يمكن مشاهدة أى أثر للخشونة في تركيا ، اللطف والرقة يلفتان النظر في كل مكان » (Histoire, Prens Demetrius Cantemir de L'Empire Othoman ، باريس 178,1,1743) .

« لايصدق الأتراك أبدًا على الأرض » (Marsigli ، 1732 ,1 ,37) .

« يجب أن تكون معاملة الأتراك لنا نحن النساء نموذجًا لجميع الأقطار . لا يمكن أن يحط من شأن المرأة أبدًا في الشارع » (Vayage a Constantinople, Lady Craven ، باريس 1789 ,201) .

« يعتبر التواضع الزائد بالنسبة للأتراك تملقًا ومنافيًا للوقار ، لكن عدم الاحترام نقيصة أكبر (Moeurs et Usages des Turcs ، باريس 1746 ,1 ,393) .

« الأتراك محبوبون ، غير متكلفين ، مخلصون ، لطفاء ، ليس لديهم تصنّع أبدًا في حركاتهم . ظاهرهم كباطنهم . ولاكتسابهم هذه الأخلاق فإنهم لا يستغربون أبدًا عند ارتقاء الشخص المتواضع النشأة مراتب عالية جدًا كما يشاهد ذلك في أحوال كثيرة . الشخص الذي يرى الآخر أولاً هو الذي يبدأ بالتحية . الكبير يحيّي الصغير بسلام بسيط ، والصغير يحيي الكبير باحترام زائد . اللغة التركية مليئة جدًا بتعابير الرقة والمجاملة الزائدة » (d'Ohsson ,4 ,367 - 7) .

« إن الرقة في تركية متأصلة في طبيعة شعبها ، والمجاملة المتكلفة لا تعرف . إن الرقّة في تركية خلق فطرى . إن التركي مجتهد هادىء ، نظيف ، أنيق الملبس . لغتهم منطقية وموسيقية . إن امتزاج المقطع الطويل بين المقاطع القصيرة في اللغة التركية ، يجعل وقعها على الأذن كالموسيقى . لغة ممتازة . شخص واحد يتكلم ، والبقية تستمع . إن الغيبة والفرية عيب وخطيئة . مجالسهم هادئة ونزيهة . يستمعون الموسيقى بهدوء ، ويشاهدون الرقص بسكون ، لا يشاهد أثر للضوضاء الموجودة في مجالسنا المماثلة لها Neuf, A. Brayer Annèes à Constantinople ، 1836 ,1 ,293 - 5) .

« الأتراك أرق وأنبل قوم في الكون . هم أناس ظرفاء ومجاملون بأصالة » (Ubicini ، 1855 ,144) .

« التركي ، سواء كان بائعًا في الشارع أم وزيرًا ، رزين، وقور بصورة توحي بالعظمة . إن أخلاقهم متأصلة إلى درجة لا يمكن معها التفريق بين الباشا ورجل الشارع إلا من لباسه . وإن مرّ أوروبي ينظرون إليه بطرف أعينهم برقّة ولا يحرجونه بالنظر إليه .

وعندما يدخل الأوروبيون مساجدهم لزيارتها لا يلتفتون إليهم أبدًا . يعتبر إشغال الشارع أو المخزن أكثر من اللزوم عيبًا . لا يرتكبون الفاحشة . (**Constantinople,** Edmondo **da Amicis** ، **1883, 415, 420**) .

إن السلطانات الأميرات الإمبراطوريات العثمانيات بنات البادشاه ، لا يغطين وجوههن . يتكلمن وهن مكشوفات الوجه حتى مع الرجال الأوروبيين . إن غطاء الوجه الذي يضعنه على وجوههن شفّاف . يمكن مشاهدة وجوههن من خلاله . جميع النساء الأخريات يغطين وجوههن » (**Castellen, Lettres, 1811, 2, 226**) .

يعتبر الكبر والغرور عيبًا ونقيصة . وخاصة إن بدرت بوادر التكبر من الشخص الذي يشغل مقامًا رفيعًا ، فإن ذلك يعتبر رذالة . وبالأساس فإنهم طبيعيون بالفطرة متواضعون . يهتف ضباط التشريفات في الاحتفالات الرسمية علنًا وأمام البادشاه بهذه الجملة : « مغرور أولما بادشاهم سندن بيوك الله وار » (لا يصيبنك الغرور أيها السلطان ، الله أكبر منك) . يعتبر الكبر والغرور ، من خصال الشيطان » (**Brayer** ، **836, 198 - 9**) .

ومن العناصر الأساسية في الشخصية التركية **احترام الكبير والشفقة على الصغير** . يقف خلف هذه العناصر أمور ثلاثة : العمر ، المقام ، والثروة ؛ الشاب يحترم المسن ، والأدنى يحترم الأعلى ، والفقير يحترم الغني ، والشفقة متبادلة بالتسلسل نفسه . « يندر أن يجد المرء في المجتمع التركي ولدًا [illegible] على طور الأخلاق وارتكب ما يخجل . احترام الأب والأم مهم جدًا . يحترم أمر كبار العائلة » **(Guer, 1746, 1, 374**) .

« يظهر حب الأولاد بشكل بارز لدى الرجال ولدى النساء » (**Brayer** ، **1836, 1, 224**) .

« لا تحترم الشيخوخة في أي مكان كما تحترم في تركية . لا أعرف بلدًا يربي أولاده بشفقة واهتمام يفوقهم . يشاهد في الطريق كثير من الآباء الذين يسيرون وهم يحملون أطفالهم على أكتافهم وفي أحضانهم خشية إرهاقهم . لكن الولد عندما يكبر ، يظهر لأبيه احترامًا كبيرًا . لا يجلس إلا إذا أمر أبوه . لا يخاطب أباه بمجرد كلمة « بابا » وإنما

يخاطبه بها مقرونة برتبة أبيه مثل « أفندي بابا » ، « أغا بابا » « بك بابا » ، « باشا بابا » . الأخ الصغير يحترم الأخ الأكبر . لا يخاطب الأخ الكبير أبدًا باسمه . وتخاطب بكلمة « أبله » إن كانت أختًا و « أغا بك » إن كان أخًا ، وهذه الكلمات مجهولة في لغتنا . يخاطب الأب ابنه باسمه المجرد ولو كان صدرًا أعظم . تنتقل إدارة العائلة بعد وفاة الأب إلى الابن الأكبر » (Ubicini, 1855, 343, 284 - 6) .

الإخلاص واجب بالنسبة للعثماني . **والوفاء** من أبرز الصفات الإنسانية . الذي لا يخلص خائن . والعاري من الوفاء لا يعتبر حتى إنسانًا ، بل أدنى من الحيوان . « لا يخلف الأتراك وعودهم التي قطعوها ، ويوفون بقسمهم بصورة أكيدة » (**Anecdoles,** Comte de Bonneval ، 1740 ,1 ,24) .

أيضًا من أبرز صفات العثماني **حب الخير** ، إن المؤسسات الخيرية التي غمروا بها أرجاء الإمبراطورية التي تسيطر على قارات هي شواهد حية على حبهم الخير وأعمال الخير التي تجري سرًا ، لا يعلمها إلاّ الله . « الأتراك ، قوم محبون جدًا للخير . لا يوجد زقاق بدون حنفية . كلها أعمال خيرية في سبيل الله . وضعوا حنفيات في القرى ، على الطرق العامة ، وحتى في الصحاري » (الراهب الأرمني Simeon ، 1608 ، ص 27) .

« إن الحديقة العظمى لسراي قبطان دريا (قائد القوات البحرية ، مشير البحر) جزائرلي غازي حسن باشا مفتوحة للشعب ، تسرّه زيارة الشعب لحديقته ومشاهدتهم للورد » (General Mironda ,1786 ، ص 44) .

« حللت في منزل (كروانسراي) تركي . مكثت فيه ثلاثة أيام أكلت وشربت بجانًا . كانوا يضيّفون المسيحيين أيضًا كما يضيّفون الأتراك (المسلمين) » (Villamont ، 1596 ,227 ب) .

« كانت هناك مؤسسات خيرية خاصة بالحيوانات كذلك . لا يوجد مجال لعمل الخير لم يفكروا فيه . ومع الأسف ، فإن ثروة كهذه لم تصرف لدين صحيح » (**Les Voyages, Du Loir** ، باريس 1654 ,189 - 90) .

« آغنياء الأتراك ينفقون صدقات وافرة يبحثون عن الفقراء المتعففين الذين لا يصرّحون بفقرهم ويتصدقون عليهم . يسرهم بشكل خاص مساعدة هؤلاء . يسدّدون ديون المدينين . يهتمون بجيرانهم المعدمين . لا يسمحون أبدًا بإلحاق الأذى بالحيوان . هناك من أوقف وقفيات لأجل الكلاب والقطط » (Reltion d'Un Voyage Fait au Levant, de Thevenot ، 1665 ,95 - 7) .

« يوجد في إستانبول نحو 100 مستشفى ضخم كامل التشكيلات ، 417 منزلا ، خان ومطبخ عمومي للمسافرين ، 935 5 سبيل مياه . كل هذه أعمال خيرية » (Grelot ، 1680 ,293 - 4) .

كل الجوامع ، المطابخ العمومية (عمارات)*، المستشفيات ، مستشفيات الأمراض العقلية ، المدارس (الدينية) ، تأسيسات المياه ، السبيل (توزيع المياه مجانًا) — آثار خيرية أسسها الأغنياء . لم تؤسس الدولة ولا واحدة منها » (Memoires, de la Croix ، 1684 ,1 ,128 , 132 ,132) .

« لا تجد تقريبًا السائل والمتسول » (Voyages, de la Montraye ، 263 , 1 , 1727) .

« يكرم الرعاة المعدمون المسافرون في الجبال ، ولا يدفعون شيئًا ؛ يكرم المسافر في القرى العثمانية إكرامًا كبيرًا . أما في المدينة والقصبات فإن هذا الإكرام يصبح شبه رسمي » (Kont Marsigli ,1732 ,134 ,38 - 9) .

« لا يمكن إنكار إقامة الأتراك للمنشآت الخيرية أكثر مما نفعله نحن المسيحيين بكثير . ويستفيد من هذه المنشآت المسيحيون والموسويون كاستفادة المسلمين منها . يستصحب الغني عند ذهابه إلى الحج عدة فقراء ويسدّد جميع مصروفاتهم . هناك كثير من التجار الأتراك الأغنياء جدًا الذين يهتمون بالفقراء ، وهؤلاء يسمونهم « أبو الفقراء » (فقير بابسي) . عرفني القنصل Tordli بتاجر تركي غني جدًا كهذا . كانت سن الرجل 84 عامًا . حجّ 8 مرات ، وكل حجة كلفته 20 ألف ليرة ذهب . كان يزكّي سنويًا بـ 10 آلاف ليرة ذهب . أما الخيرات التي يقدمها فلا تحصى . حصل على إجلال الجميع إلى درجة أن كل الجميع يقبلون حاشية ردائه . كنت أنا ذاهبًا إلى القدس لغرض

الحج . وعندما دعا لي استغربت وعلمت أن الأتراك لا يمارسون التفرقة بين الأديان »
. (1 - 60, 2, 8 - 257, 1, 1732 ، Corneille le Bruyn)

« يبالغ الأتراك في عمل الخير . أولاً ، هم لا يفرقون بين أتباع الأديان المختلفة . ولا ينظرون إلى ماضي الشخص . ويقومون كذلك بالأعمال الخيرية الخاصة بحماية الحيوانات والنباتات . إن موسر المحلة ، يرعى كل المحتاجين الموجودين في تلك المحلة »
. (213, 1, 1740 ، Comte de Bonneval)

« هناك كثير من المعتوهين بين الأتراك الذين يعملون الخير . إن المستشفى الخاص بالقطط والكلاب الموجود في الشام هو إنجاز أحد هؤلاء الذين أصابهم العته »
. (221, 1, 1746 ، Guer)

« هناك مؤسسات أخرى للأتراك تدعو إلى الدهشة وهي المستشفيات ذوات الأبنية الضخمة . تروح وتغدو الهيئات الموسيقية للترفيه عن المرضى في المستشفيات التي تحتوي على حدائق وأحواض **La Lègislation Orientale,** Anquetil Duperron ، أمستردام ، 1778 ,28) .

« يسكن الأتراك أنفسهم في الأبنية المتواضعة ، إن جميع الأبنية الفخمة التى تشاهد ، هي الأبنية التي منحوها لأغراض خيرية » **Histoire de Turquie, Durdent** ، 1818 ,466) .

وخصلة أخرى للعثمانيين ، هي **الكرم** . ينفر العثمانيون من الشح . ويحبون الكرم والكريم .

المرحمة والتسامح ، عنصران أساسيان في الأخلاق العثمانية . لا يرحبون بأن يخلو الشخص من المرحمة والتسامح ؛ إذ إن أحدًا لا يصدق أن شخصًا كهذا يحب بني جنسه .

« لا يشاهد التعصّب في تركيا لدى الأتراك ، ويشاهد لدى المسيحيين من رعايا العثمانية » (30 - 29, 1843, Gerard de Nerval) .

« الأتراك أناس طبيعيون على فطرتهم ، صريحون ، حسنو النيّة ، ولو دقّقتم أصل الأشحاء والبخلاء منهم ، لظهر أنهم ليسوا من الأتراك القدامى وأنهم من أصل مسيحي (دوشيرمه) . أما الروم فإنهم مخادعون ، خونة ، وإضافة لذلك فإنهم عرق مغرور » (Du Loir ، 1654 ,166) .

« الأتراك بالنسبة لنا – نحن الأوروبيين – كسالى فاترون ولكنهم يحبون المساعدة ، يشفقون على من ضاقت مواردهم ، ولا يمكن إنكار رقّتهم ولطفهم » (Voyage, Delamarre 1802 ,208 - 9) .

« الأتراك متعصبون لدينهم ، مغرورون ، معجبون بأنفسهم ، حريصون على الدراهم ، مستهزئون بالأجانب . إلا أنهم يملكون مزايا حسنة تجاه نقائصهم هذه ، فهم صبورون ، شجعان ، متفهمون ، يحبون الضيف ، نبلاء » (Amèdèe Jaubert ، 1821 ,315 - 6) .

« إن شعور المرحمة متفوق جدًا لدى الأتراك ، خشيتهم لله هي التي تشكل أساس هذا الشعور . لا يهملون أبدًا تقديم الزكاة ، الصدقة وأعمال الخير . إن خير شعب في معاملة عبيده وخدمه هم الأتراك . يعاملونهم كأنهم من أفراد العائلة . يخافون من الفرية . ويعتقدون أنها من الذنوب الكبائر . يعتبرون قطع الأشجار بلا ضرورة وحشية ، ويعاملون قاطعها بقسوة » (Brayer ,1836 ,1 ,281 - 7) .

« إن الادعاء القائل بأن أخلاق الأتراك القدامى أمتن من أخلاق الأتراك الحاليين (1855) صحيح . لا نشاهد تقريبًا لدى الجدد عدم التكلّف ، الاعتدال ، الوقار ، القناعة ، التديّن ، الاستقامة ، حب الواجب ، هواية صرف الثروة لأعمال الخير ، الموجودة لدى الأتراك القدامى » (Ubicini ,1855 ,322 - 3) .

« لا يمكن إنكار شعور الشفقة الإنسانية ، المرحمة ، الوفاء والاعتدال لدى الأتراك . لكنهم بالغوا في ذلك ، وبذلك سبّبوا العطالة والكسل في المجتمع وبالتالي الفقر . إذ لم يكن أي فقير يخشى من المستقبل . يستمر على تراخيه وكسله موقنا بأنه لن يتركه الموسرون دون طعام ودون ملجأ . إنني أعتقد أن الناحية التي تستحق المدح والتقدير

أكثر من غيرها لدى الأتراك ، هي عدم التفرقة بين الطبقات الاجتماعية كبشر »
. (Amicis ، 1883 ,428) .

سجية أخرى للعثمانيين ، هي **التوكّل** . ورغم أن التوكل مزيّة بصورة أكيدة ، فإنه ينقلب إلى مصيبة إذا تجاوز حدّه . وبالأساس فإن التوكل الزائد يعارض الاعتقاد الماتريدي . إذ إن الإنسان هو مالك لإرادته الجزئية . إن الله ، جل جلاله ، منح هذه الإرادة للإنسان . وترك الأعمال وإحالة النتيجة إلى الله ، هما إلقاء المسئولية على الله واتهامه .

يسرد Sir Adolphus Slade الحادث التالي (ص 112 - 3) : « إن كلمة باقالم (دعنا نرَ) ، كلمة بلا معنى يستعملها الأتراك للتسويف كجواب للتخلص من مسئولية أمورهم الحسنة وغير الحسنة . إن كلمة « باقالم » (لنرَ ما سيحدث ، بالعاميّة : نشوف) التي كان يستعملها رجال الدولة في استانبول ، أفقدت المارشال Kont Sebastiani سفير الإمبراطور نابليون في استانبول أعصابه ، وهو كورسيكي كنابليون . كانت تركيا حينذاك في حالة حرب مع روسيا وانكلترا في ذات الوقت وبسبب ذلك ، كانت حليفة لفرنسا . وفي إحدى المناسبات ، لم يحتمل Sebastiani وقال مخاطبًا سليم الثالث : « يا صاحب الجلالة ، إن للأتراك ثلاثة أعداء أقوى بكثير من الإنكليز والروس » قال البادشاه : « ماذا تعني بذلك؟ لا يمكن أن يكون بالنسبة لنا عدو أكبر من انكلترا وروسيا » . أجاب سباستياني « نعم يا صاحب الجلالة ؛ للأتراك ثلاثة أعداء هم : إن شاء الله ، كريم ، ولنرَ ما سيحدث ! » .

« يؤمن الأتراك بالقدر ، ويخضعون له . لا يوجد تقريبًا تركي واحد لجأ إلى بلد أجنبي . وحتى السلاطين ، لا يقاومون عند خلعهم ويقولون يحصل ما يقدر الله »
. (Castellan ، 1811 ,2 ,229 - 30) .

« يعيش الأتراك عاطلين دون حركة ، لإيمانهم بالقضاء والقدر ، لا يمكنهم الحصول على النتيجة في أي عمل » (Jaubert ,1821 ,317) لكن الوضع في إيران أسوأ . إذ إنهم يؤمنون في إيران بالعلوم الغيبيّة إضافة لذلك ، كالفأل ، السحر ، قراءة المستقبل . توجد هذه الأمور في تركية كذلك ، لكنها تجري لغرض التسلية وقضاء الوقت ، ولا يؤمن

بها بصورة حقيقية » (الكتاب نفسه ، 318) .

« يعيش الأتراك وهم غافلون عن قيمة ومفهوم الزمن . يكثرون الدعاء وينتظرون كل شيء من الله » (424, 1883, de Amicis) .

الشرف ، عنصر آخر من عناصر الأخلاق العثمانية . « إن التجار وأرباب العمل الأتراك شرفاء إلى درجة قصوى . التاجر الرومي وأرباب العمل الروم غشاشون إلى درجة قصوى » (259, 1, 1727, de la Montray) .

« أكثر ما ينفر منه التركي ، الكسب غير المشروع . يستمدون روح أعمالهم من الشرف والاستقامة » (261, 4, 1791, d'Ohsson) .

« لا ضرورة للسند والوثيقة التحريرية بين الأتراك ، كما هي الحال في الشعوب الأخرى . هم أسرى أقوالهم التي لفظوها ووعودهم التي قطعوها . لا تختلف معاملتهم تجاه جميع البشر ، دون تفريق بين الأديان . يخشون جدًا من اغتصاب حق الغير . كل همّهم ، التفريق بين الحلال والحرام » (12 - 309, 4, d'Ohsson) .

« تتدنى نفس أفقر الأتراك إلى السرقة . إن الاستقامة خصلة تشرّف الأتراك » (3 - 222, 2, 1811 ، Castellan) .

« يجهل التجار وذوو المهن الحرة الأتراك ، الحيلة والخداع . يميزون فورًا بهذه الصفة عن الروم والأرمن واليهود » (4 - 323, 1812, Thornton) .

« إن خيانة الأمانة بالنسبة للأتراك أمر جلل . طبقات الشعب مستقيمة جدًا . كان الإنكشارية مصدر انعدام الأخلاق . تمكن محمود الثاني من إعادة الأمن كاملاً بعد سنتين من إزالتهم . إن مهابة السلطان وصلت الآن إلى درجة يمكن معها التجوال بكيس من الذهب في أقصى الأماكن النائية . ومع ذلك فإن الارتشاء كان منتشرًا بين رجال الدولة الكبار » (268, 177, 1, 1829, Mac Farlane) .

« والأطفال كذلك ذوو أخلاق عالية . إن الطفل الذي يعثر على شيء في الشارع ، يبدأ بالبحث عن صاحبه » (247, 2, 1897 Voyage, Lamartine Crient) .

الزنا مجهول . يتأهب الكل لترويج البنت والشاب اللذين وصلا إلى سن معيّنة . يعتبر ذلك ثوابًا كبيرًا . لا يجوز للمرأة المسلمة أن تكون زانية بصورة معلنة . الزنا السري نادر ؛ أصيبت به المرأة التركية في 1918 . إن عقوبة هتك العرض هي الإعدام .

القمار نادر . والألعاب كالشطرنج ، الداما ، تلعب بدون ربح . يشاهد في السجلات الشرعية عدم قبول بعض القضاة شهادة الأشخاص الذين يتعاطون المشروبات الكحولية ولاعبي القمار . القمار ممنوع ، وعند التفتيش الفوري تضع الخزينة يدها على الدراهم الموجودة على مائدة القمار (Jaubert 313 ؛ Le Bruyn 434, 1 ؛ Guer ، 394, 1) .

النظافة ، عنصر آخر من سمات شخصية العثماني ، مصدر النظافة هو الإيمان . يقول Jean de Thèvenot الذي زار استانبول وأناضول الغربية عام 1655 ما يلي : « الأتراك عرق معتدل القامة ، ذو جسم متناسب . إن العاهات البدنية التي تشاهد في أوروبا ، مثل العرج وخاصة الحدب قليلة جدًا . لم يضرب المثل الذي في لغتنا (الفرنسية) « قوى كالأتراك » عبثًا . هم أناس أصحاء البدن ، أقوياء وذوو عمر مديد . يمرضون قليلاً . يعتنون بمرضاهم في بيوتهم باهتمام بالغ . لا يملئون بطونهم حتى التخمة ، أكلهم معتدل ، لا يأكلون أنواعًا متعددة من الطعام في وجبة واحدة ، يغسلون جسمهم بكثرة ، يندر شربهم الشراب . كثير من الأمراض الموجودة في أوروبا ليست موجودة لديهم ، مثلاً « أحجار الكلى » « المرافق الصحية للأتراك نظيفة جدًا » (64, Mirando) .

« أنظف بشر في العالم » (199, 2, Belon) .

« يغسلون أيديهم وأفواههم قبل وبعد الطعام بصورة أكيدة » (Ricout ، 285) .

« المطبخ التركي نظيف جدًا . لا يتحملون حتى أبسط الأوساخ . أدوات موائدهم تلمع وتشع نظافة » (117, 8 - 77, 1678, Travenier) .

« إن مجموع عدد المعوقين والمصابين بتشويهات جسمانية الذين صادفتهم في مدينة أوروبية كبيرة واحدة ، لم أصادف بقدر عددهم في أنحاء الإمبراطورية التركية كلها .

يأكلون قليلاً ويغتسلون كثيرًا . وأعتقد أنهم لهذا السبب لا يمرضون إلا قليلاً . إن نساءهم يظهرن بملابسهن الطويلة ، طويلات القامة بشكل فخم (422, 1, 1732, Le Bruyn) .

« إن نظافة بيت أفقر القرويين الأتراك ، تدعو إلى الدهشة . المستشفيات التركية ، أنظف بكثير من المستشفيات الأوروبية . يعيش الأتراك حياتهم هذه منذ عصور . أما النظافة لدينا . فلم تبدأ إلا قبل نصف عصر » (Neuf Annèes à Constantinobe, Dr, A, Brayer ، باريس 1836, 335 - 8) .

« البصق على الأرض عادة إفرنجية وهي من العادات التي تثير الاستغراب لدى الأتراك ، إذ إن التركي يخرج منديله ويبصق » (جودت ، 7 ,115) .

حب الحيوانات والنبات ، من خصال العثماني التي لا يمكن أن يستغني عنها . وقد توصلوا في تربية الحيوان والنبات إلى مراحل متقدمة . يستخرجون الأفراخ الصناعية بدفن البيضة (134, Busbecq) .

« يؤتى بالشخص الذي يصيب الحيوان أمام القاضي ، ومن الطبيعي أن يعترض الكل على عمله مسبقًا » (6 - 145, Busbecg) .

« الأشجار ، وخاصة التي مرت عليها عصور ، تلقى اهتمامًا كبيرًا » (Baron de Tott 1 ,39) .

تقدم الأزهار للمرضى (نعيما ، 5 ,48) . يوجد العديد من مخازن الأزهار والحيوانات . كان ف أواسط العصر 17 ، في إستانبول فقط 500 مخزن تقريبًا لبيع الطيور المغردة فقط » (أولياء ، 1 ,585 ,587) .

كانت في إسكدار مستشفى للقطط (فون مولتكه ، 1837 ,80 - 1 ,261) .

« يشاهد وزراء عظام يطعمون قططهم وحتى قطط الشوارع بأيديهم » (Du Loir ، 1654 ,192 - 3) .

« إن عدم إيذاء الحيوان ، مؤمن تحت حماية القانون (المحامي Guer ، 1746 ,1 ,369) .

« يعتبر قتل الحيوانات التي لا يؤكل لحمها ، وحشية (d'Ohsson 307, 4,1791 - 9) .

« لم تشاهد حالة داء الكلب في تركية » (Thrornton ,1812 ,287 - 9) .

« تنعدم تقريبًا في المجتمع العثماني حوادث الانتحار المتفشية في أوروبا بكثرة » (Dr. Brayer ,1836 ,302) .

« يوجد نظام إخلاء المحكومين بكفالة مشروطة وبيمين الندامة » (Topkap'i Sarayi ، Arsivi E 10, 422) ولكن إذا تكرر الذنب ، تضاعف العقوبة بشكل متزايد .

كانت العدالة الاجتماعية قائمة بشكل جيد . يشيد فولتير في العصر 18 بالبادشاه التركي وتمكنه من إدارة 20 ملّة ذات 20 ديانة ومذهبا مختلفا والسماحة التي يبديها لهم ، ويقدم ذلك إلى الحكام الأوروبيين ومليكه هو كمثل يقتدى به .

كتب Porter سفير إنكلترا في استانبول في النصف الثاني من العصر 18 ، إن أكمل استقرار في العالم ، متوافر في الدولة العثمانية ، وإن تشكيلات أية دولة ، ليست أحسن من تشكيلاتها : « لا تشاهد في المجتمع العثماني حوادث وحشية تقشعر لها البشرية وتخجل وتخل بالشرف الإنساني ، كالتي تشاهد في الأقطار الأخرى » (d'Ohsson ، 4 ,473) .

« الطبقة الوسطى قوية جدًا وذات خلق قويم ، هؤلاء ، هم الأتراك الحقيقيون . تبدأ المؤامرات بين الطبقة العليا » (Thornton ,1812 ,2 ,323 - 4) .

« العثمانيون ، مجتمع فخم » (Voyagaurs'Lorga ,14) .

« لا يجبر الأتراك أحدًا على أن يعيشوا على الأصول التركية ، يسمحون للجميع بأن يعيشوا وفق أعرافهم ولا يعارضون ذلك » (Les Turcs ne Contraignent Personne à vivre à la mode Turquoise. Ils souffrent et Permettent chaseun vivre en saloy) (Geuffroy, II, 180).

« وعند استيلائهم على إحدى القلاع أو القصور ، لا يخربون أبدًا أي شيء وبضمنها

التصاوير ويتركون كل شيء كما هو تمامًا (Les Turcs ont tousiouvs en ceste costume que, quelque chasteau ou fortresse qu'ilz aient iamais pris, est demeurè mesme estat en quoy ilz l'ont trouvè, car ilz ne demolissent iamais rien des eddifices et en graveures) (belon, 90) ، والشهادتان الأخيرتان تعودان إلى العصر 16 .

« إن التربح ، الاحتكار ، القمار تعتبر خطايا كبيرة بالنسبة للأتراك . يجول الحراس الليليون وبأيديهم عصي فقط . لا يجوز للعسكريين حمل السيف داخل المدينة . لا يحدث شجار ، وإن حدث ، يتدخل فورًا ، أول الذين يشاهدونه ، ومن غير الممكن أن يدوم الشجار ، يحل الخلاف فورًا . يجلّون سلطانهم ويحبونه بإخلاص كبير . لا يُتصور أن تركيًا لايخلص لسلطانه » (Thevenot ,1665 ,111 - 2) .

كان العرف ساريًا وكأنه قانون . أسست أرملة أحد الباشوات المسماة أمينة خانم ، علاقة جنسية مع خادمها . كان ابن السيدة الكبير ، كاتبا في غرفة الترجمة في الباب العالي والصغير طالبًا في مكتب الرشدية (المتوسطة) . ذاع الخبر ، انتقلت الدعوى إلى محكمة الجنايات العلمانية ، حكمت المحكمة بمنع الابنين الشابين من الدخول إلى الوظائف الحكومية مدى الحياة ، وحرمانهما من تمثيل الدولة في أي مجال ، وإن سكوتهما على وضع والدتهما رغم معرفتهما ذلك ، يعتبر تحديًا للأعراف والعادات العثمانية . صادق عبد المجيد الأول على هذا القرار الذي لا يستند على أية مادة قانونية ، دون أى تغيير (Istanbul Ansiklopedisi ,ج 5068 ب) .

لا شك أن قرائي المحترمين قد أدركوا أن كلمة « ترك » التي استعملها السائحون والمشاهدون الغربيون في المقتطفات آنفة الذكر ، تعني في كثير من الأماكن « عثماني » ، وحتى « مسلم » فقط . إن استعمال الأوربيين لكلمة « ترك » بمعنى « مسلم » كان دارجًا . ويجب ملاحظة أن تعبير « أصبح تركيًا » الذي يمر في بحوث أوروبية قديمة كثيرة ، تعني « أصبح مسلمًا ، اهتدى » . ولا تستعمل بالنسبة للمجتمع العثماني فقط ، واستعملت كذلك بالنسبة للمجتمعات الآسيوية الإسلامية الأخرى الموجودة خارج العثمانية .

2 ـ اضمحلال السجايا العثمانية :

يقول كاتب جلبي ، أكبر عالم ومفكّر في العصر 17 ، في نهاية كتابه **تقويم التواريخ** ما يلي : « إن علامة شيخوخة المرء هي بياض الشعر واللحية . وعلامات شيخوخة الدولة ، هي تهافت رجالها إلى السلطة والزينة ، وهذا دليل الانحطاط » .

تأتي هذه الفترة ، بعد فترة التوقف . تزداد الرغبة بشكل كبير في الزينة ، الرفه ورغد العيش . يهجرون طراز الحياة السابق ، ويستولي عليهم الصراع على السلطة والمكانة ، ويستشري توزيع الألقاب على الجميع دون جدارة أو استحقاق فعلي . تبدأ طبقة الشعب الوسطى بالخروج عن طورها إلى درجة تقليد السلاطين في سكناهم وملبسهم . ويصبح الأنس ، الراحة ، الطرب والرفة أعرافًا وعادات لا يستغنى عنها ، وتكون من الأمور الطبيعية . الكل يدعي حقًا في هذه النعم . الجنود ، لا يصبرون على صعاب الحرب ويطلبون الصلح والسكون . لا أحد يمد يده في أمور البلد التي يكون فيها مشقة . ويفقد الجيش الذي سحب يده من الحرب ، اعتباره لدى الشعب .

لا نرى تقريبًا في العهود المتأخرة ، الحيوية العثمانية السابقة ، والسياسة العالمية التي دوّخت القارات . انسحب الجميع ، كل إلى معقله ، شلّت الحيوية . « لم يعد الأتراك يشعرون بالرغبة في زيارة الأقطار الأخرى ومشاهدتها . لذا لم يتمكنوا من إيجاد الحلول لكثير من مشاكلهم . وصلت الدولة إلى الوضع الذي أصبح فيه البادشاه (محمود الثاني) يضحي بنفسه في سبيل إنقاذ ولو قسم من أمور الدولة الجوهرية . رجال الدولة ، لا يقدرون على السير على نهجه » (Amiral Slade ,137 ,204) .

تضعضعت الطبقة الوسطى التركية في الربع الأول من العصر 20 بشكل واسع . كان للإمبراطورية جناحان ولا يمكن الطيران إلاّ بجناحين : روملي وعلى نطاق واسع الأناضول (آسي) . اقتطع نصف جناح روملي في 1878 ونصفه الآخر في 1913 . انسحب أتراك روملي من الأدرياتيك والطونه إلى مريج تاركين ثرواته والأراضي التي كانت تحت تصرفهم منذ 500 عام . من كان يدري أنه ستحدث في هذه المرة مصيبة أكبر وتشمل الأناضول كذلك ؟ بدأت هذه المصيبة بعد سنتين وأكتملت بعد أربع سنوات من بدايتها . وحتى الحرب العالمية (1914 - 18) ، زالت الطبقة الوسطى العثمانية وكذلك القرى ولم يبق رب عمل من الطبقة المتوسطة له دار واحدة في المدينة ،

وعدة رؤوس من الماشية ، يعيش عيشة متواضعة دون أن يحتاج إلى أحد . اختلت بشكل مخيف الطبقة الوسطى التي اعتادت معيشة مرفهة شريفة دون إسراف ، أما الطبقة العليا ، فقد تقوضت بشكل تام تقريبًا . لم يبق إعمار ولا صناعة . استمر تضخم العملة . عمدت القوى الخارجية إلى خفض سعر الليرة التركية ، لاستغلال مواد تركيا الخام بسعر بخس . وكان التوازن النقدي بين العملة الذهبية والورقية قد زال منذ عهد بعيد . الموظف الذي كان يتقاضى راتبه بالعملة الذهبية ، أصبح يتسلمه بالعملة الورقية ، وصار فريسة للتضخّم . اختل نظام التعليم . وفي نفير عام 1914 ، تم وضع اليد على جميع مواشي القرويين بدون تعويض . تركت بقرتان وفرسان في القرى التركية العظيمة الواسعة . أكثرية المواشي التي جمعت ، بقيت بأيدي من جمعها . وتكونت الطبقة الفظيعة التي تسمى أغنياء الحرب ، أعقب ذلك القضاء على الشعب إلى درجة أن الجيش القوي الذي تمكن من لم شعثه ، أتلف في ثلوج صاري قامش ، في شبه جزيرة غاليبولي ، في قناة السويس ، في صحاري الجزيرة العربية ، في مستنقعات غاليجا وفي جبال القفقاس . استشهاد كل جندي تركي ، يعني موت 5 أفراد من عائلته ، المرأة والشيخ المسن والأطفال الموجودين في الداخل بسبب الجوع والمرض وعدم العناية . كانت الأخلاق العثمانية قد دمّرت كذلك ، مع اختلال الاقتصاد والميزان الاجتماعي التركي منذ 1914 وقبل دخولها الحرب . سحب الأتراك الذين تتراوح أعمارهم بين 18 و 50 من حقولهم وأعمالهم وبيوتهم وسيقوا إلى الجبهة . أدخل الذين لا يستطيعون القتال في سرايا العمل وأرسلوا للعمل في سكك حديد أنقرة – سيواس ، قدس – غزة ، في أنفاق طوروس والأماكن المشابهة .

3 – طبقات الشعب :

يأتي المتسوّلون في نهاية الطبقات الاجتماعية . « إن كان هناك تسوّل ، فليس بالمعنى الذي نعنيه في الغرب . هم الزمرة التي كانت تأكل في المطابخ العامة (عمارت) وفي القصور مجانًا والتي تقبل الصدقة . إن مستوى حياة الإستانبولي ، كان أرقى من مستوى حياة الباريسي واللندني . حتى أنه لم يكن هناك لزوم بالمعنى الصحيح للكفاح في الحياة

في إستانبول . إن كل إستانبولي كان مطمئنًا لمستقبل حياته » (Robert Mantran
Levant DeshayesCormenn ,Voyage de ، 1624 ,110)(, 158) لا يوجد بين الأتراك متسوّل علني

« لم أشاهد ولا سائلاً واحدًا » (De la Montraye ,1727 ,1 ,263) .

« ناهيك عن التسول ، لا يوجد حتى معدم بالمعنى الصحيح » (,1 ,48 Marsigli) .

« يعيش في إستانبول وضواحيها مليونا شخص . لم أشاهد ولا سائلا واحدًا » (Comte de Bonneval ، 1 ,212) .

« لم يصادفني في إستانبول أي سائل » (Guer ,1746 ,1 ,219) .

«شاهدت في البلاد العثمانية قليلا جدا من المتسولين » (La Bruyn , 1732 , 1 , 357)

« يوجد قليل من المتسولين في البلاد العثمانية وهؤلاء لا يزعجون المارة كما في فرنسا » (Du Loir ، 1654 ,191) .

وأساسًا ، كان التسول ممنوعًا ، والذين يشاهدون منهم كانوا محترفين قادمين من الشرق . قبض على هؤلاء في 24 / 9 / 1759 وأرسلوا إلى أزمير ، كانوا 43 سائلاً (أحمد رفيق ، Istanbul Hayati ,3 ,194 - 5) .

كان غجري برتبة عقيد ويسمى صوباشي أو جريباشي ، مسئولا عن جميع الغجر الموجودين في الإمبراطورية . كان يتعقب مع ضباطه ، الغحر الموجودين في جميع الأماكن . يتمكن الغجر المسلمون من السكن في المدينة في محلاتهم الخاصة فقط ، ولا يمكن لأي غجري أن يتخذ له مسكنًا في محلة أخرى . لا يخطب من الغجر ولا تعطى لهم أي بنت أبدًا . إن الغجري الوحيد الذي له اعتبار ، هو رئيس جلادي البادشاه . يختار من الغجر . أشهرهم رئيس الجلادين المسمى قرة علي أغا جلاد مراد الرابع (1623 - 1640) وعهد أخيه إبراهيم خان (1640 - 1648) ، وقد وصفه أولياء جلبي ، الذي قابله بالكلمات التالية « العياذ بالله ، لم يبق على وجهه أثر للنور » . إن مهمة

الجلد كان يقوم بها الغجر . بزغ منهم موسيقيون شهيرون ، أصبح هؤلاء بفضل فنهم هذا أصحاب ثروة . الراقصات الشهيرات ، كن كذلك من الغجريات . كان يغض النظر عن فحشهن . لا يمكن أبدًا أن تتخذ الغجرية جارية أو خادمة في الدار . كان بالإمكان دخولها إلى الدار وحتى إلى السراي لغرض الرقص والإنشاد . .

لا يمكن أن يصبح الإستانبولي خادمًا ، وكان الذين يقومون بمثل هذه الأعمال في استانبول ، هم الذين يردون من أنحاء الإمبراطورية ، كان اتخاذ رجال الدولة خادمًا لهم من المسيحيين ، محظورًا . لم يكن الأغنياء يستخدمون الخادم بل يتخذون عبدًا أو جارية ، ويقومون بتربيتهم كأولادهم ثم يزوجونهم . هناك كثيرون منهم أصبحوا صدورا أعظم بينما كانوا عبيدًا .

كان يوجد في إستانبول صنف كبير العدد جدا ، وهم العتالون . هؤلاء أيضا كانوا من الخارج . كانوا ينقسمون إلى قسمين رئيسين ؛ عتّالي الميناء وعتالي السوق ، كانت لهم تشكيلات ، ونقابات . عتالو الموانئ ، كانوا يؤخذون للخدمة بعد تمحيص كبير . لأنهم كانوا يحملون أموالا ثمينة جدا . ولم يحدث أبدًا تقريبًا أي حادث سرقة مهم . كان يطلق اسم « إيش إيري » على العامل في الفترة الكلاسيكية . ثم عرّبت هذه الكلمة في العصور المتأخرة وأصبح « عمله » . العامل الماهر ، لا يعتبر عاملًا ، وكان يسمى رب مهنة ومحترفا ، وكان لأرباب المهن نقابات . كانت الأجور اليومية للعمال مرتفعة ، وكانوا يجلبون من الخارج عندما تزداد الحاجة إليهم بين الفترة والأخرى . جاء من ألمانيا في (1581) ، 12 عاملاً ألمانيًا ، استفسر هؤلاء من آمر لواء (سنجق بك) فلك Filek ، عن أجور العمال وشروط عملهم ، وافقوا ومنحوا وثائق تخولهم العمل في الأراضي العثمانية (**623, 2,Turk Vojteeh Kopean Tarih Kongresi**) .

كان الباعة المتجولون الذين اقتسموا أزقة المدن ـ لكل زقاقه الخاص – والذين يجوبون المدن بالحصان ، بالبغل ، بالحمار ، بالعربة ، وبالعربة اليدوية ؛ يجلبون بضاعتهم إلى النساء في بيوتهن . لم تكن جماعة كبيرة العدد . لم تكن لديهم نقابة .

كان أرباب المهن الحرّة الذين يسيطرون على الصناعات الصغيرة والتجارة واقتصاد المدينة ، صنفًامستقلا وله مكانته . سوف يأتي ذكره فيما بعد . وبالطبع فإن زمرة

القرويين ، كانت تشكل أكبر كثافة سكانية في الإمبراطورية . كانوا يعملون في الفلاحة والزراعة . ويعملون كذلك بتربية المواشي . وكان يوجد من يعمل فى المهنتين معًا . كان يطلق على مجموعهم اسم « رعايا » لكن هذه الكلمة أطلقت في العصور الأخيرة على الرعايا المسيحيين . كان القروي ، عماد الاقتصاد العثماني . كان يدفع الضريبة عينًا أو نقدًا . كان صنفًا شريفًا ، قال القانوني « سيدنا جميعنا والذي يطعمنا ، هو القروي » ولم يكن هناك إقطاع وعبودية أراض كما في أوروبا .

كان الرّجل منهم يشتغل بتربية المواشي فقط . يدفعون الضرائب عن عدد ما يملكون من رءوس الحيوانات . بذلت الدولة جهودًا كبيرة لعصور طويلة لإسكان هؤلاء وصيّرتهم مزارعين وقلّلت عددهم كثيرًا . قابل الرّحل سياسة الدولة هذه بالمعارضة في جميع الأوقات تقريبًا . ورفضوا السكنى في القرى . كان قد تقرر إسكان التركمان والأقوام القفقاسية وأجبروا على ذلك ؛ ولأن العشائر الكردية والعربية اعتادت العيش في الأراضي الجبلية والمناطق الصحراوية ، فإن سياسة إسكانهم لم تنجح كالآخرين . كان يطلق على التركي الأوغوزي Ogyz إن أسلم « تركمن » ، وإن استوطن في الأراضي « تورك » ، وإن جاء إلى المدينة وتعلم آداب الدولة « عثمانلي » أي عثماني .

استترك المهتدون إلى الإسلام وتطبّعوا على الإسلام . لكن الإمبراطورية العثمانية لم تكن من حيث نفوسها أكبر دولة إسلامية في العالم فحسب ، بل كانت في الوقت ذاته أكبر دولة مسيحية وموسوية في العالم . لا يوجد قروي موسوي . سكنوا مدن الموانئ . استوطن الموسويون الذين يتكلمون العربية في الداخل أيضًا . أما الأقوام المسيحية المختلفة ، فكانت تعيش في قراها ومدنها . القرى المختلطة أي الإسلامية – المسيحية ، نادرة .

الشرف من العمل لا من النسب ؛ تفتخر العائلات بالخدمات التي قدمها أجدادها للدولة والوظائف التي شغلوها فقط . الأرستقراطية العثمانية ، ليست بالمعنى الغربي . إذ إنها كانت محرومة من جميع الامتيازات العائلية الموجودة في الغرب . أما تشكيل العائلات التي تمد الدولة بموظفين كبار ، الطبقة العليا في الإمبراطورية ، فهذا أكيد . أما الأرستقراطية بالمفهوم الذي نعنيه نحن ، فهذا غير موجود في تركية . لا توجد

شريحة اجتماعية نالت حقوقا وامتيازات عن طريق الوراثة ، ولم تكن موجودة في السابق أيضًا . موظفون الدولة الكبار الذين يطلق عليهم اسم « رجال دولت » هم صنف يحوز على حقوق بحكم موقعه (نسبة إلى سلسلة المراتب) (Hièrarchie) فقط . لم يقطع هذا الصنف علاقته بالشعب الذي نشأ منه ، وهو ليس ذا امتياز » (La Ubicini Actuelle Turquie ، باريس 1855 ، 320 - 1) . إن إنكار الشرافة بشكل مطلق إلى هذه الدرجة ، رغم وجود عائلات عثمانية شهيرة ، ليس دليلاً على سلامة اجتماعية مطلقة كما يظن . إن النظام الذي يجعل من العبد ومن ابن أكثر العائلات تواضعا ، صدرا أعظم وشيخًا للإسلام ويزوجهم ببنات البادشاه ، من الممكن أن يكون خطرًا ، فعدم استمرار التراث العائلي من المحتمل أن يؤدي إلى مجتمع يشكله أفراد لا يملكون قيمًا معنوية انتقلت إليهم عن آبائهم وأجدادهم .

4 – العبيد والجواري :

العبيد (عبد بالتركية = كوله) والجارية ، بشر ملكوا بالشراء . يجب التفريق بينهم وبين الأسرى والأسيرات الذين يؤسرون في القتال . أما المماليك (مملوك بالتركية = قل Kul) فهم العبيد القدامى الذين يستخدمون في الدولة وفي الجيش . والغلام ، هو العبد الذي يستخدم في البيوت . كوله = عبد تقابلها بالفرنسية esclave (كوله لك = العبودية بالفرنسية : csclavage) ، الأسير بالفرنسية : captive . (الأسر = captivtè) ولأن هذه المفاهيم يخلط بعضها مع البعض الآخر ، فقد أوضح ما يعنيه العثمانيون بهذه الألفاظ .

العبيد في الغرب هم الأسرى الذين اختطفوا من أفريقيا والذين يشغّلون كعمال في الأراضي . اشتغل الأسرى البيض في أوروبا ، في السرايات والقصور . إنّ العبيد الزنوج الذين يستخدمون كعمال أراض ، هو اختراع أوروبي للعصر 16 مجهول لدى العثمانية وبصورة عامة لدى العالم الإسلامي والآسيوي . العبيد والجواري لدى العثمانية ، هم البشر الذين يجرى تشغيلهم في الخدمات المنزلية . يستند ماضي أكثريتهم إلى كونهم أسرى حرب أيضًا . أما في العصور الأخيرة ، فقد كانوا أطفالاً يبتاعون من قفقاسيا . وبصورة عامة ، فقد جلب السود منهم من الصومال ومن الحبشة . كان الأغوات

الخصيان ، في السرايات ، وكان عددهم في العصر 18 في استانبول 500 تقريبًا . قل عددهم على مر الزمن . كانت عملية الخصي ، تجرى في مصر الجنوبية في سن الطفولة . إن نسل الرجل الحر من الجارية ، يكون حرًا (حكم الشريعة الاسلامية بهذا الشأن ، عكس حكم القانون الروماني) كان يسمح للمسيحيين في الدولة العثمانية ؛ باتخاذ عبد مسيحي أو جارية مسيحية ، ولا يجوز لهم استخدام عبد مسلم أو جارية مسلمة .

« إن الفرق بين العبد في تركية ، والعبد في جزر الأنتيل ، فرق هائل كالفرق بين الثرى والثريا . إن وضع الخادم التركي المشترى ، أحسن بكثير من وضع الخادم الأجير . ولكونه بضاعة غالية لسيده ، فإنه يراعي بصورة جيدة . لا يرهق في العمل . يلقى الاهتمام الكلي في مرضه . أما الأعمال الشاقة كالاشتغال في المزرعة ، فلم تكن موضوعًا للبحث في أي وقت من الأوقات . حرياتهم أكثر بكثير من حرية عبيد الأراضي المحليين الموجودين في أوروبا . العبد هو أحد أعضاء البيت . يأكل ويشرب مع أولاد البيت يلبس مثلهم . وبطبيعة الحال فإن من يكون لديهم عبيد أو جوار لابد أن يكونوا أغنياء . والواجبات التي على أكثرهم أن يقوموا بها هي أعمال بسيطة كمرافقة السيدات . تجهيز غليون سيّده . وعند بلوغ أكثريتهم سنًا معينة يزوجهم سيدهم ، بفك رقابهم ، ويصيرهم أرباب بيوت ويؤمن معيشتهم مدى الحياة بصورة أكيدة . ومن الجائز أن يصبح العبد الذي يحصل على رضا سيده ، صهرًا له » (مارشال فون مولتكه ، 1836 ,26 - 7) .

جميع الحقوق الإنسانية للعبيد ، كانت محفوظة . كان لا يجلد ، لا يظلم ولا يقتل . للعبد والجارية الحق في شكاية سيدهما إلى القاضي ولا يختمون كما في أوروبا .

5 – الاحتفالات الإمبراطورية (بالفرنسية : Fete Imperiale) :

كان الشعب يشترك في أفراح الكبار ويلهو في داره ، ويلهو الرجال في المقاهي ذات الجوقات الموسيقية وأمثالها وفي المسيرات . كانت الأفراح التي يقيمها البادشاه في مناسبات ختان الأمراء (أبناء البادشاه) وكذلك أعراس زفاف الأميرات السلطانات

(بنات البادشاه) ، وميلاد الأمراء والأميرات ، شعبية على الأغلب . ولشهرة هذه الاحتفالات العثمانية ، فقد يكون من المفيد أن نتناولها بنبذة مختصرة .

يشترك في هذه الاحتفالات بجهودهم جميع أرباب الفن من الصياغ إلى الرسامين . إن الأفراح التي تقيمها البحرية وإطلاق الزينات الهوائية تسمى « شهرآيين » يخطط لها المهندسون البحريون ، وأشهر هذه الأفراح ، تلك التي أجراها مراد الثالث لختان ابنه ولي عهد – شهزاده محمد (الثالث) ، والتي استمرت 55 يومًا و 55 ليلة . أفخم احتفال جرى على سطح الكرة الأرضية في العصر 16 » Elliot Stou The Stout **Humayun of Murad III** ، 1966 ، ص 48) . اشترك شعب استانبول برمته ، المدعوون من الأقطار الأجنبية ، والشعب القادم من خارج استانبول » جرت فنون وعروض وزينات تدهش العقل » (Labelski, **La Description à Constantinople, 1583** ، 80) .

أما أعظم احتفال جرى في العصر 17 ، فهو الاحتفال الذي جرى في أدرنة 1675 . أجرى محمد الرابع ختان ابنه الكبير ولي عهد – شهزاده مصطفى (الثاني) ، أثناء تزويج ابنته الكبرى خديجة سلطان في الوقت ذاته . جرت عملية ختان 8 000 طفل ، 6 000 منهم جلبوا من الأناضول مع الشهزاده . أجرى عمليات الختان 300 جراح (هزارفن ، **تلخيص البيان** ، 166 ، آ) . اشترك الجيش والبحرية في هذه الأفراح ، بآلاف من الجنود وقاموا بألعاب حربية كأنها معارك حقيقية . وأثاروا فضول الشعب . كان الشعب يأكل ويشرب على الموائد التي نصبت في الشوارع والميادين .

6 – الرياضــــة :

تأتي رياضة الصيد وألعاب الفروسية في مقدمة الألعاب الرياضية التي يهتم بها العثمانيون . إن الألعاب التي يلعبها أتراك الغرب والتي تسمى « جريد » وأتراك الشرق بضرب الكرة والتي تسمى « جوكان » ، هي ألعاب فروسية تؤدى بواسطة المزراق والعصي والتي انتقلت إلى الغرب بواسطة الإنكليز باسم « بولو » . وكان يوجد كذلك سباق الخيل ، والركض الرياضي أيضًا ، لكن الرياضة المرغوب فيها جدًا هي المصارعة .

وأخيرًا ، كان الرمي سواء بالسهم أو بالأسلحة النارية منتشرًا جدًا .

اشتهرت في استانبول نوادي المصارعة في زيرك (أولياء ، 583, 1) ، ونادي الرمي وألعاب السيف في بيازيد (Lubenau, 1, 183 - 4) ، وكانت توجد نواد مماثلة لها في كل مدينة .

كان بعض السلاطين أبطالاً في رمي السهام في عصورهم . تشيّد مسلة حجرية لكل رامٍ للسهم حقق إصابة الهدف من مسافة تقارب الـ 800 م ، ويسجل عليه الرقم القياسي الذي أحرزه ويكون شاهدًا تاريخيًا لا يمحى . كان بعض الرماة يتمكنون من إصابة الهدف الذي وضع على مسافة تفوق 800 م بمسافة كبيرة ، 10 - 12 مرة متتالية (Thèvenot ، 1687 ، 109) ؛ Taverier, 1675 ، 71 ؛ اينجيجيان ، 79) .

7 ـ الحياة المنزلية :

بيوت العثمانيين خشبية ، وبعضها حجري ، وأحيانًا مزيج من الإثنين . ذات حديقة . البوابة الخارجية مستقلة وتخص عائلة واحدة . لا يوجد نظام عمارات . قيمة الإيجارات قليلة . وعلى العموم تكون الدار ملكا للذي يسكنها . الأثاث قليل وبسيط . تقسم البيوت الكبيرة والقصور إلى قسمين ، للنساء (حرم) وللرجال (سلاملك) . يستقبل رب البيت ضيوفه في قسم السلاملك . وفي البيوت الصغيرة يجرى ذلك في الطابق الأول ويخصص الطابق الثاني للنوم . البيوت العثمانية نظيفة جدًا . الحذاء يخلع عند الدخول . من الأمور الأكيدة أن تكون في حديقته إي مزروعات مهما كانت .

الشوارع نظيفة . كل مسئول عن تنظيف القسم الذي يقع أمام داره . لكن الطين في الشتاء والتراب في الصيف كثير . شوارع جميع المدن تحتوي على أرصفة يعتنى بها باستمرار (أحمد رفيق ، 1 ,13 ,67 ,3 ,21 ,30) . تم وضع الأرصفة في شوارع لندن وباريس ، بعد إستانبول والمدن العثمانية الأخرى بعصور طويلة . المساكن على العموم خشبية . وتكون الأبنية العسكرية ، الدينية ، والعامة حجرية . وحتى العصر 19 ، كانت شروط المعيشة في المدن العثمانية ، بالنسبة للمدن الأوروبية أكثر راحة ، أرخص ، أحسن وأكثر رفاهية . أما في الفترة التي تسبق العصر 18 ، فقد كانت أرق

بشكل لا يقبل القياس . الغلاء وخاصة الفاقة نادرة . لكن يحتمل وجود أمراض سارية .

لا توجد مشكلة الأولاد غير الشرعيين التي تنتشر في المجتمعات الأوروبية . إذ لا يوجد زنى . يحتمل وجود أطفال مات آباؤهم وأمهاتهم . يلجئون فورًا إلى أقرب الأقارب .

8 ـ **الأطعمة والمشروبات** :

مشروب العثماني هو الماء . المشروب الكحولي حرام . لكن هناك رجالا يشربون الشراب ، العرق . توجد حانات الشرب . تشرب المشروبات غير الكحولية كالبوظة (خلاصة بعض الحبوب تعمل بطريقة خاصة) ، الشيرة (عصير العنب المجفف) ، عصير الفواكه . لا يشرب العثمانيون شراب قيميز (حليب الفرس المخمّر) كالأتراك الشرقيين . يشربون الحليب . وصل التخصص في تذوق الماء وخاصة في استانبول إلى درجة مدهشة . بإمكان الاستانبولي الأصيل التعرف على منبع الماء فورًا بعد ارتشافه شربة واحدة .

يؤكل الخبز والبيدة (الرغيف) . يصنع من نوعية جيدة من الطحين . إن صمون (فرانجولا) استانبول مشهور عالميًا . يؤكل الأرز بكثرة . لا يستغنى أبدًا عن لحم الغنم . الأطعمة الأخرى ، هي الفواكه الطازجة والمجففة والخضراوات .

أصبح المطبخ الاستانبولي على مر الزمن ، بفضل السرايات والقصور ، مطبخًا لصنع أنفس وأجود الأطعمة في العالم . توصل إلى القمة في 1908 وبدأ في الهبوط من قمته بعد ذلك التاريخ . ثم عطل تقريبًا بعدها . تستمر اليوم أيضًا المعجنات (البورك) حلويات العجين ، المخللات (الطرشي) ، المحلّبي ، أنواع الكباب . لكنها ليست بتلك النفاسة لعدم توافر تلك النوعية الجيدة من الطحين ، الرقاق واللحم .

9 ـ **أرباب الحرف (أصناف)** :

أرباب الحرف هم عماد الطبقة الوسطى . طبقة كبيرة مرفهة ، ذات اعتبار وكبيرة العدد ، يصنّعون المواد ويبيعونها ، ويعيشون في المدن ، وينقسمون إلى طوائف بحسب

المواد التي يصنعونها ويبيعونها . كان يوجد 100 1 نوع من الحرف في العصر 17 في استانبول . كل طائفة من هؤلاء متخصصة في عمل ، وكان الانتقال من إحداها إلى الأخرى ، يبدو غير ممكن .

لا يمكن قبول أصحاب الحرف الذين لا ينتمون إلى النقابات « لونجه » . كل محترف كان عضوًا بالضرورة في نقابته الخاصة بصناعته . وكانت الرقابة الذاتية (autoeontrol) لكل منظمة تسير بصورة دقيقة . كان من غير الممكن صنع بضاعة بنوعية غير جيدة مخالفة للمواصفات المطلوبة . وعلى العموم ، كان أرباب الحرف ينتمون إلى حرفة أبيهم . ولأجل الانتساب إلى السلك ، كان يجب العمل عند المحترف (الأسطة) في عمله كعامل مستجد (صانع بالتركية : جيراك) . وعند إتمامه دورة المستجد ، يكون الصبي قد أدرك سن الشباب ، عندئذ يطلق عليه اسم « قلفة » مساعد . ولكي يفتح القلفة مخزنًا مستقلاً ويصبح « أسطة » ، فإنه يلزم موافقة النقابة لا يجوز لأي أحد أن يفتح مخزنًا يزيد على الحاجة ، كل مخزن كان معملاً للإنتاج ووحدة تجارية للبيع . ولكي يحصل على عنوان محترف (أسطة) يجب أن يحصل على تزكية الأسطة الذي كان يعمل عنده وأن يجتاز امتحانًا أمام الهيئة الإدارية للنقابة

كانت هناك هيئة إدارية لكل نقابة ، تتشكل من 6 أساتذة محترفين يطلق عليهم اسم « آتيلر » . (الستّة) ينتخبون من بين أعضاء النقابة بالتصويت ويكون هؤلاء عادة أساتذة (أسطة) مسنّين ، مستقيمين ، مجربين ، عقلاء ، أغنياء . لكل نقابة صندوق (خزينة) يسمى « عوارض صندوقي » كانت صناديق بعض النقابات كالبنوك . إن النقابات التي تمتلئ صناديقها بشتى الطرق كبدلات اشتراك الأعضاء ، التبرعات ، الأوقاف ، الهبات ، تحرص على ألا يتعرض عضو من أعضائها إلى الضيق ، وتقدم لهم القروض . يطلق على رئيس النقابة « شيخ » وعلى معاونه « كتخدا » أو « كاهيا » . كان هؤلاء مخولين بمراجعة الدولة . كان مرجعهم الأول هو القاضي الذي هو رئيس بلدية المدينة . لا يمكن لأي أحد أن يفتح دكانًا دون أن يكون عضوًا في النقابة . والمسيحيون كذلك كانوا مجبرين على أن يكونوا نقابيين . لم يكن الباعة المتجولون نقابيين . كان الدكان على العموم يتكون من أسطة واحد ، خلفه (مساعد) واحد

أو اثنان أو ثلاثة صنّاع (مستجدين) . كانت هناك أيضًا دكاكين كبيرة . لكن المخازن الكبيرة كانت في البدستان (سوق الحاجيات الثمينة جدًا) . لم يكن هؤلاء أعضاء في النقابة ولم يكونوا عمالاً من أرباب الحرف بل كانوا تجارًا . وبالنسبة لتعداد عام 1637 ، كانت مدينة استانبول تحتوي على 264 79 صانعا مستجدًا ، خلفه واسطة أي أرباب حرف ويفهم من ذلك أن 000 400 شخص على أقل تقدير يكسبون عيشهم بفضل حرفهم . عدد الدكاكين والمحترفين (الأسطة) كان 214 23 . كان عدد النقابات 158 ، لأن أصحاب الحرف المتقاربة ، كانوا ينتمون إلى نقابة واحدة . كانت هناك نقابات لا يتجاوز عدد أعضائها 100 ، بجانب النقابات التي يبلغ عدد أعضائها الآلاف . كانت النقابات الموجودة في المدن الأخرى ذات ارتباط مع استانبول . كانت الصناعات الحقيقية ، خارج قطاع أرباب الحرف والصناعات الأصلية الكبرى والثقيلة ، في قطاع الدولة .

« لدى الأتراك أساتذة عمل وعمال مهرة في جميع المجالات » . (Philippe du Fresne - Canaye Voyage en Orient ، 1572 ,264) .

إن المصنوعات الأوروبية تعتبر ترقيعا عاديا إذا ما قيست بالمصنوعات التركية (Observations , Pierre belon , 451) .

« خياطة الملابس ، تجليد الكتب وتزيينها ، صناعة الجلود ، صناعة الأحذية ، صناعة الأحذية الطويلة (الجزمة) في تركيا ، أرق من صناعتنا . أما في مجال السراجة وصناعة أطقم ركوب الخيل ، فإن تفوقهم يدهش . والمصنوعات التركية في المجالات الأخرى ، كما هي عندنا » (Pietro della Valle ,46 - 7) .

10 – الاقتصاد والنقود :

يكون الاقتصاد مكتفيًا بذاته (بالفرنسية : autarcique) في إمبراطورية عالمية حقيقية . الدولة مكتفية بذاتها في كل المواد الخام والمصنوعة التي يمكن أن تخطر على البال . كانت الإمبراطورية العثمانية على هذا الوضع لعدة عصور تمارس التجارة لغرض الربح . لم يستورد خلال العصور 15 - 17 أي شيء للجيش ولا للبحرية . أما المواد التي منع تصديرها ، فهي الخيل ، الأسلحة ، البارود ومعدن الرصاص . إلا أنه صرف النظر عن المنع خلال فترات معيّنة لدرجة أن هذه المواد كانت ترسل إلى الخارج كهدايا

من البادشاه .

كانت الإمبراطورية العثمانية بلاد السعة والبركة ، والرخص والرفاهية إن لم تدخل في حرب طويلة الأمد ، أو إن لم تتعاقب سنوات الجفاف وقلة الأمطار . كانت حتى العصر 18 من أكثر الأقطار رفاهية في العالم . وبالطبع فإنه لم يكن هناك تعادل بين المناطق ، طبيعي ألا يكون هناك تساوٍ بين المناطق في امبراطورية تحكم أقطارًا غير متجانسة إلى درجة كبيرة . ولكن الفرق بين أغنى مناطق الإمبراطورية وأفقرها لم يكن شاسعًا بقدر ما نجده من فرق بين انكلترا ومستعمراتها في الهند في تلك الفترة . ولم يكن كذلك بقدر الفرق بين فرنسا والسنغال . إن المناطق الأكثر رفاهية في العثمانية ، كانت المدن الكبيرة وضواحيها كاستانبول ، مرمره ومنطقة أناضول الغربية ، بورصة ، أدنة ، مانيسا ، والموانئ المفتوحة للخارج كسلانيك ، جزائر ، بيروت ، تونس ، وعلى العموم روملي .

دامت السعة والبركة ، الرخص والرفاهية في عصور الانحطاط كذلك . ومن الممكن القول إنها استمرت حتى 1912 . ولكن يجب ألا يغرب عن البال الذروة في مخطط الرفاهية للإمبراطورية هي قرابة عام 1540 ، ويصادف ذلك أواسط عهد القانوني . ولقلة النفوس بالنسبة للعصر 17 ، كانت الرفاهية أكثر وضوحًا . كانت المدينة العثمانية في العصر 16 ، أقل نفوسًا وأكثر تنظيمًا ، بالنسبة لمدينة العصر 17 ، وقرية العصر 16 العثمانية كانت منظمة . بدأ في القطاع القروي العثماني للعصر 17 اختلال الأمن وترك المزارع والنزوح إلى المدن . إن العصر 16 هو عصر الانفتاح الأوروبي على العالم . انفتحت على العالم ، لكنها لم تكن بعد قد تمكنت من حيازة الثروة العالمية . كانت تحاول استعمار أمريكا . لم تكن بعد قد تمكنت من الاستعمار في آسيا وأفريقيا . كانت مكتفية بالتجارة البحرية . وبناء على ذلك كانت المسافة - بينها ، وبين الشرق الذي وفّر الثروات الأساسية ، وبين العثمانية أقوى دولة في الشرق - بعيدة ، كانت الرفاهية والرخاء لا يزالان موجودين في الأقطار العثمانية عام 1912 . ولم تكن الكتل البشرية تموت من المجاعة كما في الهند وأيرلندا ، لم يكن هناك ملايين من المهاجرين الأوروبيين يفرون بأنفسهم إلى أمريكا للنجاة من الموت جوعًا . لكن أوروبا كانت قد أطلقت

العنان وتقدمت و لم يبق للشرق حتى أمل اللحاق بها . قبضت أوروبا على جميع مصادر الثروة بقوة .

كان الشخص الواحد يستطيع في عام 1843 في مدينة عثمانية غالية كاستانبول ، أكل 3 وجبات من الطعام بعشرة بارات . (عشرة بارات تعادل جزءًا من 400 جزء من الليرة الذهبية) ، لا يمكن اليوم أكل وجبة واحدة بهذا الثمن نفسه ، وليس 3 وجبات (Gerard de Nerval ، ص 66, 60) . لم يحدث تغيير في مستوى الأسعار حتى 1912 ، بقي التضخّم جزئيًا . كان بالإمكان في 1912 أيضًا شراء دار مستقلة في مدينة كاستانبول وفي منطقة جيدة لا بأس بها على الإطلاق بعدة قطع ذهبية (لم تتجاوز نفوس استانبول مع ضواحيها في العهد الإمبراطوري المليون ونصف مليون نسمة في أي وقت من الأوقات) . إن شيئًا كهذا ، لا يمكن أن يتحقق اليوم . قيمة الإيجارات ، كانت منخفضة جدًا .

انخفض التضخم الذي بدأ في تموز 1908 ، في ت1 / 1912 . الارتفاع الذي حدث خلال ت 1912/I - آيار 1913 كان كبيرًا . انخفض ثانية في الفترة آيار 1913 - تموز 1914 . زاد التضخم خلال تموز - ت 2 / 1914 وأصبح 50 ٪ خلال 3,5 شهر ، وتتضح درجة زيادته المخيفة إذا ما نسب إلى سنة كاملة . يحتمل أن الشعب العثماني لم يكن قد شهد طوال تاريخه ارتفاعًا في الأسعار إلى مثل هذه الدرجة ، أصبحوا في حالة اجتماعية واقتصادية يرثى لها . إن نهب الحكومة المخازن والدكاكين ووضعها اليد على الأرزاق والثروة الحيوانية في القرى بحجة النفير ، صيّر من التضخم آفة مخيفة . وفي ك2 / 1916 وصل التضخم في مدينة استانبول إلى 300 ٪ . تركت زراعة نصف الأراضي الصالحة للزراعة . حدث قحط فظيع .

كتب محيي الدين بك في جريدة طنين (30 / 10 / 1916) أنه لم يصادف خلال سفره من اسكي شهر إلى قونية أي مظهر للحياة .

إن رجلاً كأحمد رضا بك (كان مستقيمًا ، شريفًا ومحبًا للوطن ، بصرف النظر عن أخطائه السياسية) مؤسس حزب الاتحاد والترقي ، رئيسه السابق ، رئيس مجلس النواب لتلك الفترة وعين في المجلس مدى الحياة ، ألقى خطابًا شديد اللهجة في مجلس سناتو الإمبراطورية الذي يسمى « مجلس أعيان » . أفاد بأنه بسبب سوء التصرفات ،

تعذر تأمين الخبز حتى لشعب استانبول . إن شخصًا كهذا ورغم حصانتة التشريعية ، أوقف لمدة 24 ساعة وأخلي سبيله بعد أن وعد أنه لن يتحدث بحديث مشابه .

تجاوز الوضع الذي انتهجه صاحب أنور باشا ورئيس شعبة اللوازم في نظارة الحربية طوبال إسماعيل حقي باشا ، حده المعقول . أسست نظارة الإعاشة وجيء بقره كمال بك على رأسها . حاول مكافحة سوء التصرفات هذه ، لكنه لم يوفق ؛ إذ إنه وزّع كثيرًا من الأعمال الممتازة التي تدر الربح الكثير ، على أصدقائه من كبار الاتحاديين ، وعلى أصحابهم وعلى أقربائه . كان كل شيء متوافرا بالنسبة للغني . شوهد في أغنى مدينتين للإمبراطورية كاستانبول وبيروت اللتين كانتا لعدة سنوات مضت متخمتين من الرفاهة ، أناس سقطوا على الأرض من الجوع . صرخ الشعب عندما ارتفع سعر السكر في 1913 إلى 200 بارة (1 / 200 من القطعة الذهبية) ، أما عندما ارتفع فجأة سعر كيلو الصمون الأبيض (فرانجولا) في آب 1916 إلى 16 قرشا ، لم يسمع صوت اعتراض مع أن الذين يمكنهم دفع 16 قرشًا كانوا قليلين جدًا . وزّع على شعب استانبول في (1917) ، 150 جرامًا يوميًا من الخبز الأسود المخلوط ببذر المكانس . شوهد زواج بنات عائلات الوزراء وقضاة العسكر الشهيرة والعريقة بأغنياء الحرب الذين لا يُعرف كيف ومن أين أتوا والذين لا يعرفون أسماء أجدادهم . أما الطبقة الوسطى في استانبول فقد سمع أن بنات كثيرات منهن تورطن في الفاحشة . تلك هي الطبقة الوسطى ، التي كانت حريصة على الاستقامة بما يفوق الطبقة العليا بكثير . هزلت المرأة التركية الممتلئة قوة وحيوية ، وخارت قواها . برزت الهياكل العظمية للشيوخ الذين كان تركيبهم الجسماني كالأبطال . شوهد أطفال ضمرت بطونهم من الهزال ، وأصبحوا معرضين لمرض السل في كل لحظة . أما الرجل الشاب ، فلم يكن يشاهد أبدًا ، كان في الجبهة .

حدثني أبي محيي الدين أوزتونا الذي حارب الإنكليز كضابط احتياط في جبهة العراق عام 1916 بما يلي : « وبعد 1915 انهارت تمامًا إعاشة الجيش أيضًا . كانت هناك وحدات أكلت اللفت (الشلجم) فقط ، البطيخ ، حتى قشور البطيخ أيامًا عديدة . وأنا أكلت كذلك لعدة مرات قشور البطيخ . كان يوجد على العموم في جيوب الضباط

حفنة من العنب المجفف ، البندق أو الأيغده (الهيده) ، لكننا لم نكن نتمكن من أكلها لخجلنا من الجند » بدأت الأمراض . الإسهال الدموي كان مخيفًا .

كان شعب استانبول يشكو في صيف عام 1914 من ارتفاع سعر السكر إلى 5 , - (نصف) قرش ، وزيادة الأسعار على أسعار عهد السلطان حميد عدة أضعاف . ارتفع سعر السكر في آب 1916 إلى 60 وفي تموز 1917 إلى 120 قرشًا (نصف قطعة ذهبية) .

أصبح سعر صفيحة النفط الواحدة (16 كغم) 50 قرشًا أي نصف ليرة ذهبية . وبسبب ذلك ، بقيت استانبول في ظلام حالك . لأن الكهرباء لم تكن موجودة إلا في بيوت الأغنياء فقط ، في الضواحي ؛ كبك أوغلو ، شيشلي . والإنارة بواسطة غاز الاستصباح لم يكن شاملاً جميع المدينة . عادوا مرة أخرى إلى عهد الشموع . أصبح الشمع بعدها نادر الوجود . ثم بدأت الإنارة بواسطة حرق جذوع أشجار الصنوبر (جيرا) والأشجار الأخرى . عادت استانبول تعيش دور الكهوف ؛ إذ إن سعر النفط ، ارتفع في 1917 إلى 250 قرشًا (5 , 2 قطعة ذهبية) . كانت الصحيفة الموالية للاتحاد والترقي النصف الرسمية تكتب ما يلي : « لا تحزنوا على قضاء لياليكم في الظلام ، سيتنوّر العالم العثماني عن قريب بأنوار النصر ! » .

أغلق القصابون حوانيتهم في ت 2/ 1916 . إذ لم يكن لديهم اللحم ليبيعوه . ظهرت مشكلة لم يسبق أن شوهد مثيلها في المجتمع العثماني حتى ذلك التاريخ . الأطفال الذين مات عائلهم وظلوا دون عائل . أحصى عددهم في النصف الأول من عام 1917 في استانبول فقط فكان 20 000 طفل وسيقوا لملاجئ الأطفال الحكومية . رفض أقارب وجيران هؤلاء الأطفال أن يعولوهم بسبب عدم عثورهم على الطعام . حدث اختلال اجتماعي كبير في المجتمع العثماني . الكل يحاول أن ينجو بنفسه . لم يكن أحد يهتم بمشاكل غيره . كان يوزع على شعب استانبول بموجب القرار الذي صدر في 24 / 3 / 1917 شهريًا للشخص الواحد وبالبطاقات ، 150 جرامًا من السكر بسعر 20 قرشًا للكيلو ، و 300 غرام من الفاصولية اليابسة بسعر 10 قروش للكيلو . كانت الكارثة الكبرى ، في المدن الكبرى ، إذ إن القصبات والقرى نجت من الكارثة لأنها لم تكن محتلة ، وكانت قريبة من الأرض وبذلك كان بإمكانها الحصول على الغذاء . إن مركز الإمبراطورية والخلافة المسمى إستانبول ،

لم يعد قادرًا على حمل عبئه ، وأصبحت استانبول بلدة يرثى لها . بدأت نفوسها بالهجرة والذهاب إلى هنا وهناك . ثم بدأ احتلال العلو واقترب إلى مسافة تسمع منها أصوات المدافع من أنقره . سحقت القصبات والقرى تحت الأقدام وتلفت .

اختل ميزان النقد المبني على أساس ليرة ذهبية = 1 ليرة ورقية عثمانية . لم يبق أحد يعتمد على النقود الورقية للدولة . والذين حصلوا على نصف ليرة ذهبية أخذوا يخبئونها تحت وساداتهم . كان سعر الليرة العثمانية (الورقية) = 45 , 18 مارك ألماني = 70 , 3 دولار = 17 فرنكًا سويسريًا . كتبت صحيفة **Temps** (باريس) المؤرخة 11 / 6 / 1916 أنه لا يمكن شراء العملة الذهبية الإنكليزية الواحدة في إيالات حلب ، شام ، بيروت وألوية لبنان وقدس العثمانية بأقل من 137 قرشًا عثمانيًا ، وإن العملة الورقية العثمانية الواحدة فقدت قيمتها إلى هذه الدرجة الوخيمة (!) تجاه العملة الذهبية ، وإن بدل العملة الورقية العثمانية الواحدة في بلد محايد كسويسرا ، يعادل 3 دولارات وإن الاقتصاد التركي قد انهار . ثم ارتفعت قيمة الليرة الذهبية الواحدة في استانبول إلى 3 عملات ورقية عثمانية وفي الأناضول إلى 4 وفي بغداد إلى 5 عملات ورقية . وفي الهدنة 1919 ، كانت قيمة الليرة الذهبية الواحدة = 7 ليرات ورقية ، عندئذ أعلن إفلاس الميزان النقدي ومعادلة الليرة الذهبية للعملة الورقية ، ويجب أن نذكر أن أحد أسباب ذلك هو قيام الشعب بسحب الذهب من السوق بصورة مستمرة والاحتفاظ به . كان في الإمبراطورية العثمانية عام 1914 : 000 000 40 ليرة ذهبية عثمانية عملة نقدية متداولة ، وكان انتشار العملة الورقية قليلاً بالنسبة لذلك . وإضافة إلى ذلك ، فإن الرقم المذكور هو بالنسبة إلى العملة الذهبية العثمانية المتداولة فقط (عزيز ، حميد ، رشاد) . العملات الذهبية الأجنبية لم تحسب ضمن هذا الرقم . والحال ، أنه كانت توجد في تركيا كذلك ، كما في جميع أقطار العالم كمية كبيرة من الليرات الذهبية الأجنبية وكانت متداولة (وخاصة الإنكليزية ، الفرنسية ، النمساوية ، الألمانية ، السويسرية ، الهولندية ، البلجيكية وحتى العملة الذهبية الروسية) وفي بداية عام 1917 بلغت العملة الورقية المتداولة مبلغ 000 000 46 ليرة تركية (كانت توجد كذلك

عملات ورقية ذات قيمة 1000 ليرة) . وخلال عام 1917 ، فاقت العملة الورقية المتداولة ، العملة

الذهبية المتداولة . وهذا سبّب ارتفاع سعر الذهب . كانت ميزانية الحرب لسنة (1915) ، 83 مليون ليرة تركية وبالنسبة لتلك الفترة ، من الممكن القول إن الليرة الذهبية الواحدة تعادل 1,5 ليرة ورقية تركية . إن المصروفات الظاهرة للحرب ، هي المصروفات المنظورة فقط . وحقيقة الأمر أن الحكومة كانت تستولي على الكثير من حاجيات الشعب عن طريق السخرة ووضع اليد .

لم تخرج الدولة العثمانية من الحرب العامة ، بجيوش مغلوبة ، وأقطار محتلة وإمبراطورية متداعية فحسب ، بل إنها كانت قد دمرت اقتصاديًا كذلك . أصبح المدني والقروي فيها معدمًا . كانت الروابط الاجتماعية قد ضعفت . بدأ الانهيار الأخلاقي الذي لم يسبق أن عرف حتى ذلك التاريخ . لم تعد إستانبول بعد الآن قادرة على تسيير دفة الدولة وفقدت عظمتها وطاقتها المعنوية والثقافية . اضمحلت التجارة ، الزراعة العثمانية والصناعة التي كانت بالأساس محدودة ، وكذلك المعادن . وقد يكون الأكثر من ذلك بلاء ، انهيار الاعتماد المطلق على الدولة الذي يعود تاريخه إلى مئات السنين .

11 – الصناعــة :

قانونًا : الذهب ، الفضة ، الحديد ، الرصاص ، النحاس وجميع المعادن الأخرى الموجودة في الممالك السلطانية ، تعود إلى الشخص الذي يعثر عليها . على أن يقدم خمس المستخرج إلى الخزينة (d'Ohsson , 4 , 24 - 6) . كانت الإمبراطورية مكتفية بذاتها من حيث المعادن . كانت هناك كذلك معادن ثمينة (الذهب في بوزقير ، كركر ، شيرو ، كموشخانة ، اسبية ، الفيروز في ايسبير ، الزمرّد في أسيوط والفضة في أماكن كثيرة جدًا إلخ .) كانت للمعادن أهمية كبيرة في صناعات الإمبراطورية .

كان القسم الأكبر من الصناعات الثقيلة والصناعات الكبرى التي تستخدم عددًا كبيرًا من العمال تحت تصرف الدولة . وكانت موجهة إلى الصناعات الحربية . كان الجيش والبحرية لأغراض السراي . لكن الشراء من القطاع الخاص لتأمين احتياجات الجيش ، الأسطول والسراي كان سائدًا كذلك . وبناء على ذلك ، كانت الصناعات الثقيلة والكبرى الموجودة في القطاع الخاص ، تعمل لأجل الدولة أكثر من عملها لأجل

الشعب . كان أرباب الصناعات الصغيرة والحرف ، هم الذين يقومون بتأمين حاجات الشعب ، على الأغلب .

إن المنسوجات المتقدمة جدًا والتي أصبحت من مواد التصدير ، كانت منتشرة في جميع أنحاء الإمبراطورية . كان للدولة كذلك معامل لصنع الأقمشة الصوفية الثقيلة (الجوخ والقماش الأسمك من الجوخ) للجيش . كانت معامل السكر في كل مكان ولدى القطاع الخاص . وحتى في قبرص ، كان يوجدمعملان للسكر في ليماسول وباف (**Belgeler** ، 4 ,11) . « أرقى من كل شعوب العالم » (88, 1, Ricaut) . صناعة النحاس ، كانت صناعة منتشرة . والمصنوعات الجلدية التي كانت أجود نوعية في العالم بصورة جازمة كانت واسعة الانتشار كذلك (**158, La Cour Ottoman**) .

كانت هناك معامل للورق في بيكوز ، كاغدخانه ويالوه وفي أماكن كثيرة أخرى . وكانت توجد معامل للقطاع الخاص لصناعة الأسلحة النارية والحادة بجودة فائقة ، عدا المدافع .

كانت مدينة بورصة مركزًا عالميًا للنسيج الحريري لعدة عصور . ثم احتلت ليون مكان بورصة . وحتى في 1914 ، كان مجموع ما ينسجه 35 معملاً في بورصة من الحرير الخام 1 000 طن (بلغ نسيج بورصة من الحرير الخام في 1958 : 140 طنًا) . الشاش ، الملاءات الحرير (Vale) ، الشال وكل أنواع النسيج الدقيق ، كانت موجودة . وعندما دخل السلطان ياووز سليم في 1514 ، إلى شقة الشاه إسماعيل في سراي تبريز ، أحصى 91 بدلة من بدلات الشاه مصنوعة من قماش بورصة . كانت الهند ، أكبر منافس للعثمانية في المنسوجات . ثلاثة مصانع تنسج أقمشة بأسلاك ذهبية وفضية (سيمكشخانة) ، في إستانبول ، بورصة وسلانيك ، كانت تتبع للدولة .

كانت تكنولوجية النسيج التركي في عام 1800 ، لا تزال أرقى من أوروبا . تطوّرت جدًا صناعة النسيج الأوروبي بعد هذا التاريخ بالاختراعات الجديدة واضطرت العثمانية إلى استعمال تلك الماكينات . إلا أن ماكينات النسيج الإنكليزية الحديثة قضت على تفوق منسوجات العثمانية والهند في العصر 19 .

فتح عبد المجيد الأول (1839 - 1861) معملاً حديثًا يستخدم حوالي 150 ماكينة مستوردة من الغرب (457, The Emergence, Lewis) . عرضت بضاعتها في الردهات المؤقتة للمعرض الصناعي في إستانبول 1863 بصرف مبلغ 000 30 ليرة ذهبية . تلقت عروضًا كبيرة من أوروبا . ولكن لم يبق هناك أمل في اللحاق بالصناعة الأوروبية ، بعد هزيمة 93 .

كان النساء والأطفال يعملون فيما مضى في الصناعات كالنسيج والسجاد . سبّبت الصناعة ذات الماكينات الحديثة زيادة عدد العاملات النساء والأطفال في العثمانية أيضًا . كان عدد العاملات النساء في معمل الكبريت (الشخاط) في إستانبول عام (1897) , 121 من مجموع 201 عامل وعاملة و 1 000 عامل في معمل الخام في باقركوي في التاريخ نفسه ، كان نصفهم تقريبًا أطفالاً شارفوا سن الشباب (475, Lewis - 9) . إن أول منظمة عمالية أسست في 1871 ، عدا نقابات أرباب الحرف ، هي المنظمة المسماة « عالم برور جمعيتي » . وحدث أول إضراب في 1872 ، وهو إضراب 600 عامل من عمال معمل سفن قاسم باشا ، وتمكن من تأمين زيادة في الأجور . وقد سجل في آب وأيلول من عام 1908 ، ثلاثون إضرابًا .

12 - التجــارة :

يورد الفريق الأول الكونت مارسيكلي Kont Marsigli في كتابه المشهور (57 - 61) عن التجارة العثمانية في بداية العصر 18 ، الفقرات التالية التي تستحق الذكر .

« سواء الأتراك ، أو الأقوام الأخرى التي تعيش ضمن الإمبراطورية التركية ، كانت نشطة في مجال التجارة . كانوا تجارًا أتقنوا مهنتهم ، مهرة ، مقتدرين . كانت سياسة الباب العالي الثابتة ، هي تقديم كل المساعدات للعاملين بالتجارة . ترغب الحكومة العثمانية في دخول وخروج الأموال التجارية وتحريكها قدر الإمكان . تزداد واردات الدولة ويغتني الشعب بنسبة دخولها وخروجها . تتحاشى الضرائب العالية . وتعتقد أن الضرائب العالية تعرقل الحركة التجارية وتعوق دخول وخروج سلع كثيرة ، وإضافة

ذلك فإنها تؤدي إلى التهريب. لا يجسر أي تاجر على ذلك . تسحب منه إجازة الاستيراد والتصدير . ولو فكرنا في سبب رفاهية الإمبراطورية التركية ، لاتضح أن السبب هو التجارة . إن سعة الأراضي وإنتاجيتها تأتيان في الدرجة الثانية . وفي الواقع فإن كثيرًا من أقطار الإمبراطورية ليست مناطق مدرة للمحاصيل ، لم أكن في البداية قد تعرفت على الأتراك . إذ إننا نحن الأوروبيين نقضي أوقاتنا في بك أوغلو بين الجالية الأوروبية ، ونعود إلى أوروبا مدعين أننا قد تعرفنا على العثمانية . يجب الولوج داخل العائلة العثمانية . إن مظهرهم الخارجي يوحي بأنهم مجتمع إسلامي نظيف الملبس ، لكن لا نرى في لباسهم المبالغة في الزينة التي نراها في أوروبا ، لا يرغب في حب الظهور ، وقور ، قنوع . إن هذا ، هو التركي في الشارع . ولو دخلنا إلى بيوتهم ، للفت نظرنا قلة مصروفاتهم ، ولكن إذا مكثنا مدة طويلة في تركية واطلعنا على بواطنهم ، لاتضح أن لكل عائلة كيانا وتصرفا خاصا بها . لا يوجد من يشحذ في الطرقات . يوجد معدمون ، لكن لا يوجد معدم لا يلقى معونة . إن هذا الكيان الاجتماعي ، تحقق بفضل التجارة التركية المتقدمة جدًا ، أكثر مما تحقق بفضل الصناعة التركية المتقدمة . إذ إن جغرافية الإمبراطورية العثمانية ملاءمة للحصول على ربح متزايد من التجارة ، وقد أدرك الأتراك هذه الملاءمة في وقت مبكر جدًا وشمّروا عن سواعدهم للعمل . تقع الإمبراطورية ، وسط القارات الثلاث . وهي في وضع يمكنها من بيع المواد الخام والمصنعة المختلفة وشراء ما يروقها من آسيا وأوروبا من محاصيل بيعها . لا توجد دولة أوروبية واحدة لا تتعرض لمشاكل كبيرة في حالة قطع تجارتها مع العثمانية . إنهم مضطرون لاستيراد بعض المواد من العثمانية بصورة حتمية لا يمكن تصور مدى غناء الإمبراطورية في موادها الخام . تصدّر من تركيا إلى أوروبا أخشاب إنشاء السفن ، الحرير ، الصوف ، القطن ، شمع العسل ، الزيت ، المواشي الكبيرة والصغيرة . ويأتي على رأس المصنوعات المصدرة الأقمشة من كل الأنواع أو الخيوط ، الجلود ، والمصنوعات النحاسية .

تصدير الأسلحة ممنوع ، ولكن الأسلحة النارية والحادة الجميلة جدًا ، تُهرّب إلى أوروبا وتجد هناك من يرغب في شرائها بأسعار فاحشة .

يتاجر الأتراك بالمقايضة في بعض السلع . ولكن مهما كان الأمر ، فإنهم حتى في

أتعس أيامهم ، كانت صادراتهم تفوق وارداتهم . ولهذا السبب فإن البضاعة الأوروبية التي ترسل إلى تركيةُ ، لا تكفي ، وكذلك فإن الدول الأوروبية جعلت العثمانية تستوعب الذهب والفضة الأمريكيين كمسكوكات نقدية . إن هذا وضع سيء بالنسبة لنا ، وإضافة لذلك فإن الأتراك لم يكونوا يبيعون أموالهم . فقط يشترون من الدولى الآسيوية بضاعة بسعر رخيص جدًا ويخزنون قسما كبيرًا منها ثم يصدرونه إلى أوروبا . إن هذا نهب فاحش في حد ذاته . لا يستطيع الأتراك حاليًا نهب أوروبا كما كان في السابق ؛ إذ إن السفن الأوروبية أخذت تدخل بصورة فعلية إلى المحيط الهندي . لكن طرق التجارة البريّة ، ما زالت في يد العثمانية .

الأصباغ التركية ثابتة لا تمحى ، تصنع بتكنولوجيا متقدمة جدًا . تباع في أوروبا بأسعار باهظة . يصبغون سجادهم بهذه الأصباغ . السجاد ، الجلود ، القماش الفاخر ، هي مصنوعات تركية تفتش عنها طبقة الأغنياء الأوروبية بإصرار . إن السجاد والأقمشة التركية تعتبر آيات فنية من ناحية الذوق السليم في تصميم نقوشها . شاهدت مصنوعات معمل جانفس (الحرير الناعم) الذي فتح حديثًا في إستانبول الحقيقة ، كانت منتجات ممتازة مصنوعة بذوق سليم . يحب الأتراك الفرو كثيرًا ويستعملونه بكثرة رجالاً ونساء للدلالة على الأبهة ، أكثر من كونه للتدفئة . فروهم الخام لا يكفي . يستوردون الفرو الخام من روسيا ويصنعونه بشكل ممتاز ، يبيعون الفرو المشغول إلى أوروبا وهو مرغوب فيه جدًا لدى أشراف أوروبا . لا يتمكن الروس من تصنيع الجلود وشغلها وخياطتها بصورة ممتازة .

الطبقة الغنية والمرفهة التركية مغرمة بالسلع البندقية الزجاجية ، الكريستال ، الورق ، تماثيل الزينة والمرايا العمودية . يزينون قصورهم بمواد الاستيراد هذه .

أما السلع التي تستوردها العثمانية من فرنسا ، فهي للطبقة المتوسطة . ويستوردون الحاجيات المعدنية من ألمانيا .

كان الأتراك إلى زمن قريب ، مغرمين بذهب الدوكا البندقي المزيّن المسكوك بشكل جميل جدًا . من الممكن القول بأن ذهب الدوكا متداول في تركية بدرجة الذهب العثماني . احتل الآن ذهب هولندا المسمى فلوري مكانة ذهب الدوكا . يسر الأتراك

استبدال ذهبهم بالفلوري الذي يروقهم جدًا .

يظهر من هذا التصوير أن واردات الأتراك عبارة عن حاجيات طفيفة ، ومن الواضح أن أوروبا لن تلفح في حالة بقائها مضطرة إلى شراء البضاعة من العثمانية بصورة دائمة ودفع سعر فاحش جدًا مقدما . إن حجم التجارة العثمانية مع انكلترا الآن ، قد فاق البندقية وحتى فرنسا . تستورد من إنكلترا المواد الخام الرصاص والقصدير . المعادن العثمانية غير كافية بالنسبة لهاتين المادتين ؛ إذ إن الأتراك يستهلكون هذين المعدنين أكثر من جميع الدول في العالم . أما انكلترا فتستورد من العثمانية الغنم ، الماعز ، الصوف الإبل ، (الوبر) ، الحرير الخام ، الخيوط الحريرية ، الأقمشة الحريرية وما شابه ذلك . إن هذه المواد تأتي في المقدمة ولكن توجد مواد كثيرة تؤخذ بالمقايضة . الإنكليز تجار عقلاء جدًا . يجلبون الأقمشة التي اشتروها من العثمانية إلى أمريكا ويبيعونها بسعر فاحش ، بل وإنهم يبيعونها إلى أقطار أوروبية أخرى . تتعطل معامل النسيج الإنكليزية ، في حالة عدم ورود الصوف من تركيا ويؤدي ذلك إلى حدوث ضيق شديد . تأتي السفن الإنكليزية إلى الموانئ العثمانية مرتين في السنة ، على شكل أسطول ، يأخذون الصوف ويعودون . يشكل العمال في إنكلترا ، طبقة بائسة تعمل بأجور زهيدة جدًا . تبيع إنكلترا هذه الأقمشة الصوفية إلى جميع أقطار العالم . تشتري فرنسا من العثمانية كميات كبيرة من الحنطة والسمن ، بسبب وفرة عدد سكانها . وعندما تتوتّر علاقاتها مع العثمانية ، تمنع العثمانية تصدير الحنطة ، ويحصل قحط في فرنسا . ومن المواد التي تصدرها العثمانية ، المصوغات . يدرك الباب العالي ، سحبه مبالغ نقدية كبيرة من أوروبا . لذا فإنه قلّل المعاملات إلى الحد الأدنى . أمّن كل التسهيلات للتاجر الأوروبي . أنّى كان التاجر الأوروبي ، فإنه يتمتع بحماية قانونية أكثر من التي يتمتع بها في قطره . الحقيقة أن تأمين التجار والتجارة ، قد أكسب الدولة العثمانية شرفًا . أطلق الأوروبيون على هذه الامتيازات الممنوحة « كابيتولا سيون » (Capitulation) .

يحصل الباب العالي من البضاعة التي استوردها من أوروبا رسمًا جمركيًا منخفضًا . توزع البضاعة التي استوردتها من أوروبا على الأقطار التي تحتاج إليها في أنحاء الإمبراطورية بمهارة فائقة وفورًا ، بالقدر الذي يحتاج إليه كل قطر . يقوم بهذه العملية ، التجار العثمانيون .

يجلب الأوروبي بضاعته إلى الميناء العثماني فقط . ولا يمكنه نقل بضاعته إلى داخل البلاد العثمانية فذلك ممنوع . وكذلك العثماني ، مضطر إلى تسلم بضاعته من الموانئ بدفع الدراهم مقدمًا . والأوروبي لا يمكنه الدخول إلى داخل القطر العثماني واستلام البضاعة من البائع رأسًا . إن التجار العثمانيين الذين يشترون هذه البضاعة من مصدرها يقومون بنقلها إلى الموانئ ، ويحصلون على أرباح كبيرة . وهناك أصحاب سفن ينقلون بضائعهم بسفنهم ويجلبونها إلى الموانئ الأوروبية ، ويوجد في البندقية خان تجاري تركي كبير . لا يفرّق الباب العالي بين تاجر مسلم ومسيحي شرط أن يكون من رعاياه . كلاهما يخضع للقانون ذاته . ولا تخشى العثمانية أبدًا من اغتناء رعاياها المسيحيين . ولا شك أن هذه المعاملة تكسب العثماني شرفًا » .

13 – المرور البري والبحري :

استانبول ، نقطة التقاء لجميع الطرق سواء كانت برية أم بحرية . أطلقت العثمانية في عصور عظمتها وقت أن كانت دولة عالمية عظمى ، على استانبول اسم بأي تخت جهان (مركز العالم) ولها الحق في ذلك . كانت الطرق البرية العثمانية أجود الطرق في العالم (244, La Méditerranée. Brandel) . كانت مرصوفة بحجر الجرانيت . صالحة لمرور الجيوش ، القوافل ، الخيالة والمشاة . كان سوق الماشية فيها محظورًا . والطرق الفرعية ، كانت ترابية ممهدة . كان طريق استانبول – بودين ، الطريق الرئيسي في البلقان . إن طريق استانبول – أدرنة الذي يشكل القسم الأول من الطريق ، كان أكثر الطرق ازدحامًا في المرور على وجه الأرض (العصرين 16 - 17) كانت أدرنة ، فيليبه ، صوفيا ، نيش ، بلغراد ، أوسيك أهم نقاط التقاء في هذا الطريق . يستدير الطريق بعد بودين إلى الغرب ، ويمتد إلى براتيسلافا عن طريق استركون ويانق (Gyor) ومنها إلى فيينا . ثم تأتي طرق استانبول – سلانيك ، سلانيك – بوسنة سراي ، سلانيك – مورا . والطريق الذي يصعد من أدرنة إلى الشمال موازيًا لغرب البحر الأسود ، كان يمتد إلى رومانيا وقرم . وطرق بوسنة كانت تمتد إلى البندقية . يستغرق طريق استانبول – البندقية بواسطة القافلة مدة 30 إلى 45 يومًا ، بريا إلى حد Dubrovink ، ثم عن طريق البحر إلى البندقية الذي كان يستغرق 20 إلى 25 يومًا .

بريا إلى حد Split ، ومنها عن طريق البحر استانبول – البندقية يستغرق 30 يومًا .

إن الشارع الكبير في آسيا هو طريق استانبول (اسكدار) – بغداد – بصرة . كان يربط خليج البصرة ببحر مرمرة . وكان طريق استانبول – سورية – فلسطين – القاهرة مهما ، وكلا الطريقين يمران بأزميت . كان طريق استانبول – ازميت مماثلاً لطريق استانبول – أدنة في ازدحام المرور . كان طريق استانبول – أنقرة – أرضروم طريقًا مهمًا جدًا ويمتد إلى تبريز .

كانت القافلة (بالتركية : كروان)الواحدة تحتوي على 300 إلى 2 000 ونادرًا 2 000 إلى 12 000 حيوان .

الإبل والخيول تشكل أكثرية الحيوانات ، كانت البغال موجودة كذلك . القافلة لها خط سير يبين حركتها والمنازل (المحطات) التي ستمر بها وأوقات مرورها وأيام وصولها وأماكن مبيتها ومدة بقائها فيه ؛ فمثلاً ، كانت قافلة واحدة تحرك من أزمير إلى استانبول في صبيحة كل يوم . لكن مرور استانبول – أزمير الأصلي كان عن طريق البحر . كانت تأتي من تبريز قافلة واحدة في كل 3 أشهر ، وسنويًا قافلة واحدة من دوبرونيك ، ومن حلب في كل 3 أشهر ، من البصرة في كل 6 أشهر قافلة واحدة ، ومن بولونيا (Krakovi) شهريًا قافلة واحدة . الكروان (القافلة) الذي يحتوي على أقل من 300 رأس حيوان ، لا يسمى كروانًا ويسمى قافلة . ولم يحتسب هؤلاء ضمن هذا العدد .

كانت القوافل تقطع المسافة من استانبول إل أدرنه – حسب الموسم – في 5 - 6 أيام ، إلى فيلبيه 9 - 10 أيام ، إلى صوفيا 13 يومًا ، إلى نيش 15 يومًا ، إلى بلغراد 20 - 30 يومًا ، وكذلك من استانبول إلى بورصة 2 - 3 أيام ، إلى أزمير 10 - 20 يومًا ، إلى أنقرة 13 يومًا ، إلى سينوب 20 - 25 يومًا على مهل ودون استعجال . كان من الجائز أن ينضم الخارجيون من غير التجار إلى القافلة بعد حصولهم على إذن من الكروانباشي (قائد القافلة) ويتابعون سفرهم .

إن أهمية المرور البحري بالنسبة إلى إمبراطورية قيل إنها تحكم 7 بحار ، واضحة .

كانت جميع الطرق البحرية أيضًا ترتبط باستانبول . لم يكن للدولة أسطول تجاري رسمي ، كانت جميع السفن التجارية يملكها القطاع الخاص ، كانوا ينقلون البضاعة وكذلك البشر . كلها كانت مسجلة في ميناء واحد . إذ إنه كان يسمح لهم من قبل الدولة بحمل المدافع والسلاح . لا يجوز لأية قطعة بحرية أن تحمل السلاح قبل أن تسجله لدى الدولة . هذا التسلح ، كان تجاه القراصنة .

كانت السفن الحربية ترافق الأساطيل التجارية والأساطيل التي تحمل الحجاج . البضاعة الخاصة بالدولة ، تحملها البحرية . كانت للبحرية سفن نقل كثيرة العدد جدًا ومن كل النوعيات . ولكن لا تعمل في التجارة .

البحر الأسود وبحر آزاك ، بحر مرمره ، بحر الجزر الذي يسمي حاليًا إيجه ، شرق البحر الأبيض ، البحر الأحمر كلها كانت بحيرات عثمانية . السواحل الجنوبية لوسط وغرب البحر الأبيض ، السواحل الغربية لخليج البصرة ، كذلك كانت تحت سيطرة العثمانية . ولعدم وجود قناة السويس ، لم يكن للبحر الأبيض ارتباط بالبحر الأحمر والبحر الهندي . كانت السفن التجارية منفصلة كأساطيل البحرية تمامًا . يطلق على الذين يشغّلون سفنهم في الأول « آق دنيز تجاري » (تاجر البحر الأبيض) ، وعلى الذين يشغّلون سفنهم في الثاني « هند تجاري » (تاجر الهند) .

يستغرق السفر بالسفن من استانبول إلى الموانىء الموجودة إلى مصب نهر الطونة من 3 إلى 4 أيام ، إلى موانىء قرم 6 أيام . إن أهم طريق بحري طويل ، هو طريق استانبول – اسكندرية ويستغرق 15 يومًا ؛ 7 أيام منها أيام سير و8 أيام للمنام في مختلف موانىء إيجه . كان طريق استانبول – اسكندرية بالنسبة لسفن الأسطول يستغرق 7 أيام . ويستغرق طريق استانبول – قاهرة بالقافلة 5 أشهر . وإن كان بواسطة الخيل فإن المدة تكون أقل بكثير . ولكن على العموم يرجح السفر إلى مصر عن طريق البحر . إذ كان يوفر كثيرا من الوقت . كان الحجّاج يقطعون الطريق من الأسكندرية إلى السويس مشيًا ، ثم ينقلون منها بواسطة السفن إلى جده . والحجاج الذين ليسوا موظفين في الدولة ، كانوا يذهبون عن طريق البحر من استانبول إلى الأناضول ويجتازون سوريا ويصلون إلى مكة ، وهذا يعتبر أكثر ثوابًا . وبذلك يكونون قد شاهدوا الأقطار ،

وزادت معلوماتهم .

وتأتي أزمير وسلانيك على رأس الموانئ ذات حركة المرور الواسعة بعد استانبول . ومن الممكن اعتبار Pire مثلها أيضًا .

كان طريق إستانبول – البندقية واستانبول – مرسيليا عن طريق البحر بالنسبة للسفن التجارية ، يستغرق من 30 إلى 60 يومًا . يقل المرور البحري شتاء بين أوروبا وتركية . كانت كل سفينة تجارية بعد تحركها من استانبول ، خاضعة للتفتيش في جناقلعة (جمرك غاليبولي) وعند عودتها إلى استانبول ، تفتش في جناقلعة كذلك ، وتملأ الأوراق .

وبينما كان 93 ٪ من أصحاب السفن وربابنتها خلال 1500 -1650 مسلمين والأكثرية الكبرى منهم أتراك و7 ٪ روم ، زادت نسبة الروم خلال 1650 - 1800 ، إلى 21 ٪ . كان هؤلاء تجار البحر الأبيض » . أما تجار البحر الأسود وربابنته فقد كان 69,5 ٪ منهم أتراكا . وجميع أصحاب السفن في منطقة المحيط الهندي ، كانوا عربًا وأتراكًا . كان عدد السفن التجارية المسجلة في ميناء استانبول في أواسط العصر (17) ، 2600 ، 600 منها سفن كبيرة . و 3 000 بحار حازوا على إجازة ربّان (قبطان) سفينة تجارية . كان عدد الملاحين بصورة مستمرة 27 000 . يضاف إليهم ملاحون آخرون حسب الحاجة . إن أشهر أصحاب السفن الاستانبوليين نحو عام 1640 هم حاجي قاسم ، حاجي أنور ، حاجي فرهاد وحاجي نعمة الله . كانوا في الحقيقة حائزين على إجازة « تاجر البحر الأبيض » لكنهم كانوا يجلبون أموالاً كثيرة من الهند . كانت ثروة حاجي قاسم تقدر بـ ملياري آقجه وتعادل بالسعر الرائج حاليًا 4 , 5 مليار دولار تقريبًا . وثروات الثلاثة الآخرين مقاربة لذلك . كان نحو من 100 عبد وجارية يخدمون في قصور كل منهم . كانوا مساهمين مع الشركات الموجودة في جميع الأقطار الآسيوية والأوروبية . يقرضون الخزينة في أوقات الحرب . لكنهم كانوا لا يسترجعون قروضهم هذه . وفي العصور 16 - 17 ، كانت جزيرة Sandvip الطويلة نسبيًا الواقعة بالقرب من شمال – غربي ميناء Cittatong في بنكلادش الحالية ، تعود إلى العثمانية ، هي على الشرق تمامًا من الجزيرة الواقعة في دلتا مصب نهر الكانج (Vie Bouvier , Maynial

d'Aureng Zeb ، 208) . كانت فيها قاعدة بحرية عثمانية ومخازن تجارية . ومصانع تصليح وإنشاء سفن للقطاع الخاص . كانت حتى البندقية توصي بصنع سفنها في مصانع السفن العثمانية في إستانبول والبحر الأسود (Annales d'Histoire Economique et Sociale, L'Febvre ، 7 ,1935 ,83) . كان عشرات الألوف من الملاحين يعملون في السفن التجارية العثمانية العاملة في الطونة ، الفرات ، دجلة والنيل .

14 – تاجر بدستان (سوق السلع الثمينة والأثرية) :

ثلاثة أنواع من أرباب التجارة يسمون « تاجر » وبصيغة الجمع « تجّار » : النوع الأول أصحاب السفن الذين مر ذكرهم أعلاه . والثاني بائعو الجملة الذين يشترون المواد وخاصة الغذائية ويبيعونها . والثالث هم الذين يبيعون في المدن الكبيرة الأغراض المستوردة الفاخرة والبضائع الثمينة . ويطلق على الذين يقومون بإرسال اللحم إلى المدن « جَلَب » (بفتح الحرفين الأول والثاني) ، والذين يقومون بإرسال الفاكهة والخضروات « قبض مال » وهكذا كان هناك الذين يقومون ببيع الدقيق والمواد الغذائية الضرورية الأخرى . لكن التجار الأصليين ، هم الذين يملكون مخازن كبيرة (مغازة) في البدستان ويبيعون السلع الفخمة والثمينة . كان هؤلاء يملكون مخازن للتجارة الداخلية والخارجية . كانت لهم علاقة مع الأقطار الخارجية . وفي أواسط العصر 17 ، كان يوجد من هؤلاء 188 3 تاجر بدستان مسجلين في إستانبول . ويشتغل في مخزن كل منهم من 15 إلى 160 شخصًا . كانوا يبيعون الحاجيات الثمينة فقط . يعملون بإجازة من الحكومة . ويدفعون ضريبة باهظة .

أطلق العثمانيون على مجمّع المخازن التي تبيع البضاعة الشعبية « جارشي » (سوق) هذا السوق مسقوف ويطلق عليه اسم « قابالي جارشي » ، ويطلق على المجمّع المختلط الذي يبيع السلع المتنوعة في مساطب مستقلة على شكل معرض في الهواء الطلق « بازار » ، وتسمى المخازن الكبيرة التي تبيع السلع الثمينة « بدستان » يوجد البدستان في المدن المهمة والمراكز التجارية فقط . ولا يوجد في المدن الصغيرة . كان في إستانبول سوقان (بدستان) من هذا النوع وكلاهما داخل سوق مسقّف وفي مكان مستقل ،

وهو موجود حاليًا ومستمر في المكان نفسه كان يباع في أحدها الجواهر ويباع في الآخر قماش الأطلس (حرير سميك) الثمين جدًا المسمى « صندل » . إن الفرو ، البورسلان (الخزف الصيني) ، البلور ، الأسلحة الثمينة ، الروائح الغالية ، الأشياء الأثرية ، وأنواع البضاعة الثمينة المستوردة كانت تباع في البدستان . كان يتحتم على التاجر الذي سيفتح مخزنًا في البدستان ، ألا يكون في سجله التجاري أدنى ما يعاب عليه . كانت المهنة ، في كثير من الأحيان تنتقل من الأب إلى الابن كما في المهن الأخرى أسس فاتح بدستان إستانبول في 1453 ، كان جده جلبي سلطان محمد قد أسس بدستان أدرنة نحو 1420 . إن البضاعة الثمينة الوافرة في بدستان القاهرة ، أضحت حديث الألسن . كان سعر فرو زبلن الذي يتمكن البادشاه وشيخ الإسلام من ارتدائه بصورة رسمية بـ 100 ليرة ذهبية ، في باريس 450 ليرة ذهبية . إن Pedro (183) الذي مكث في إستانبول في عهد القانوني مدة طويلة جدًا ، دوّن مشاهداته بأمر فيليب الثاني ، يذكر أن البضاعة الموجودة في مخزن واحد من مخازن بدستان استانبول ، يحوي على مجوهرات تفوق مجموع كل موجودات مخازن المجوهرات الكائنة في ميدان Medina del Campo في مدريد ، كميّة وقيمة .

كان العبيد والجواري يباعون في الخانات التجارية المسقّفة . كان الباعة الذين يسمون « اسيرجي » يدخلون في قائمة التجار الكبار والأغنياء . كان يرد إلى إستانبول سنويًا في الربع الثالث من العصر 17 ، 20 000 عبد وجارية (Ricaut ,1 ,252) . كان سعر بنت مجرية لا بأس بجمالها 34 قطعة ذهبية . إن الجواري اللاتي يبعن بسعر يتراوح بين 500 1000 ليرة ذهبية وأكثر من ذلك في بعض الأحيان ، إما أن يكن جميلات إلى درجة ، منقطعة النظير أو أن يكن عازفات أو مغنيات أو راقصات . سوق الأسرى ، كان خارج السوق المسقّف (قاپالي جارشي) . لا تشترى العبيد والجواري من هذا السوق لأجل السراي . إذ إن الذين يدخلون السراي يشترط فيهم أن يكونوا أطفالاً . كان هؤلاء يختارون من قبل ولاة الإيالات ويرسلون إلى السراي .

إن سوق الجواهر الموجود في سوق جارشي والمسمى « بدستان عتيق » أثر عماري فني رائع . مساحته 1 365 م^2 . ويطلق على بدستان صندل « بدستان جديد » ومساحته 1 280 م^2 ، جميع جدرانه تحتوي على أطر حديدية مدفونة بداخلها

من بدايته إلى نهايته . ويعتبر قلاعًا حقيقية لسوق قابالي جارشي .

15 – الأسواق (جارشي) ، الأسواق المفتوحة (بازار) ، الخانات :

بالرغم من عدم وجود بدستان (سوق الحاجيات الثمينة) في كل مدينة ، فإنه كان يوجد سوق (جارشي) في كل مدينة وحتى في كل قصبة . كانت توجد في المدن الكبيرة أسواق كثيرة جدًا . الدكاكين الكائنة على طرفي زقاق واحد تعتبر توجد . توجد في المدن الكبيرة أسواق مستقلة لبيع نوع واحد من السلع . مثلاً ، سوق سرّاجخانه في إستانبول ، كان أكبر سوق على وجه الأرض لبيع كل أنواع المنتجات الجلدية . تحتوي الأسواق الكبيرة على عدة أزقة . يندر أن تغطى الأزقة بسقوف ، إن غطيت ، تصبح « قابالي جارشي » (سوق مسقّف) . إن السوق المسقف في إستانبول ، هو المعهد الحقيقي لأسواق Shopping center الغربية . السوق المسقف الإستانبولي ، كان أكبرها . وحاليًا هو كذلك رغم أن مساحته قلت بالنسبة للسابق . إن خمس الـ 48 000 مخزن الموجودة في إستانبول في العصر 17 كانت مجموعة في سوق قابالي جارشي . وسوق آخر شهير جدًا في إستانبول ، هو سوق الصحافين (صحافلر جارشيسي) الذي يبيع الكتب فقط .

البازار ، أسواق مفتوحة . اشتهر منها في إستانبول ، طووق بازاري (سوق الدجاج) ، قوش بازاري (سوق الطيور) ، آط بازاري (سوق الخيول) . أصبحت أسواق إستانبول المفتوحة حاليًا ، لبيع الأطعمة الطازجة على الأكثر وتخاطب الشعب ذا الدخل المحدود . وكانت هناك معارض موسمية تباع فيها الفواكه في مواسمها .

كانت الفنادق – كذلك تسمى خان – . وكانت توجد خانات تجارية أيضًا ، وهي الأماكن التي يستعملها تجار الجملة كمخازن ومكاتب عمل في الوقت نفسه . وهي أمثال خانات العمل (إيثر خان) الحالية . كان في العصر 17 مثلاً ، في مدينة الشام 240 خانًا من هذا النوع وعدد غرف بعضها 170 ، وعدد الدكاكين والمخازن التي تحتويها تصل إلى 100 (أولياء ، 9 ,543) . كان في أدرنة 18 خان عمل (أيش خان) كبير ، 28 أوتيل – خان . عدا خانات عمل صغيرة . إن والدة خان (خان

الوالدة) الذي شيّدته كوسم سلطان في جغالوغلو كأعمال خيرية يحتوي على 366 غرفة كبيرة . قسم منه قائم حاليًا ، إنه أثر مدهش يستحق المشاهدة .

16 – التجارة الخارجية :

كان التاجر العثماني أيضًا يستفيد من اتفاقية الامتيازات الأجنبية copitulation لعقدها على أساس المعاملة بالمثل ، فمثلاً ، بينما تدفع السفينة الإنكليزية التي تخرج البضاعة من فرنسا ، الضريبة ، كانت السفن العثمانية لا تدفع (أوزون جارشيلي 3 ,2 ,582 - 3) . ولكن أصبحت السفن التركية ، على مر الزمن ، لا تذهب إلى أوروبا . إذ إن السفن البخارية ارتبطت بخط سير خاص وانتقلت لسيطرة الأوروبيين . لم تتمكن العثمانية من تشكيل الشركات ولم تتمكن من تطبيق نظام البنوك وانتقال رءوس الأموال ، وبالتالي لم تستطع المنافسة . الميكنة ، غيرت النظام من أساسه أما أوروبا التي أصابها الغرور ، فقد فرضت نظامها جبرًا . تركيا التي كانت حتى 1850 ، تفوق صادراتها وارداتها ، اضطرت بعد هذا التاريخ إلى أن تستورد أكثر مما تصدّر ؛ إذ إنها لم تتمكن من منافسة البضاعة الأوروبية التي كانت تصنع بالماكينة وتصدر بكميات هائلة وبسعر أرخص . العثمانية التي لم تستورد السلاح أي شيء للأسطول في أية فترة من فتراتها ، اضطرت إلى استيراد الأسلحة والأسلحة الثقيلة . إذ إنها كانت تعلم ما أصاب الأقطار الشرقية التي لم تتمكن من حيازة هذه الأسلحة . أما العثمانية ، فقد كانت في رأس أنف أوروبا ، وكأنما كانت في داخلها . كانت حدودها تمتد إلى أوروبا الوسطى . إن المؤسسات التي تستوجب امتلاك العثمانية لها بصورة أكيدة ، كالسكك الحديدية واللاسلكي عرقلت تجارة ومالية العثمانية .

وبعد عام 1878 ، احتل العداء المطلق في إنكلترا ، تجاه العثمانية ، مكان الصداقة التقليدية وأعقبتها فرنسا أيضًا وقد يكون ذلك لخشيتها من ألمانيا . كلتا الدولتين ركّزتا أنظارهما على الأقطار العثمانية . واجه عبد الحميد الثاني هاتين الدولتين بتقليص استيراده منهما وتحويله ذلك إلى منافستيهما ألمانيا والنمسا . وقد ولّد ذلك في فرنسا ، وبخاصة في إنكلترا عداء متزايدًا ضد عبد الحميد الثاني . أخذتا تنظران إليه بعين الشخص الذي

يمنع أرباحهم الكبيرة جدًا . يتضح الوضع من الأرقام التالية : بينما كانت 61 ٪ من واردات العثمانية ، تستورد من إنكلترا في 1878 ، هبطت هذه النسبة في 1910 إلى 35 ٪ ، وهبطت الواردات من فرنسا في التاريخ نفسه من 18 ٪ إلى 11 ٪ . وخلال الوقت ذاته ، ارتفعت الواردات من ألمانيا من 6٪ إلى 21 ٪ ومن النمسا من 12 ٪ إلى 21 ٪ (Almanach de Gotha; 531, Mandelstam; 14, Sarkda Almanya, Jaeck) ، السنوات ذات العلاقة) . وارتفعت الواردات من إيطاليا من 3 ٪ إلى 12 ٪ .

وبينما كانت صادرات العثمانية إلى انكلترا عام (1861) ,13 مليون ليرة ذهبية وارتفعت في 1865 إلى 28 مليون ليرة ذهبية ، هبطت في 1867 إلى 20 مليون ليرة ذهبية . كانت العثمانية تبيع إلى إنكلترا في النصف الأخير من القرن 19 المواد الرئيسية التالية : كل أنواع المنسوجات ، الخيوط ، المصنوعات النحاسية ، المصنوعات الجلدية ، العرق ، السجاد ، الأكنمة ، الصابون ، زيت الزيتون ، زيت الورد ، النحاس ، الأفيون ، القمح ، الجوز ، البندق ، الجلود ، البن ، القطن ، الجاودار (جويدار) ، التبغ والعنب . وكانت تستورد من إنكلترا المواد الرئيسية التالية : كل أنواع المنسوجات ، البيرة ، المصنوعات الحديدية ، العاج ، المخمل ، المواد الكيماوية ، الأدوية ، الرصاص ، الشراب . ويمكن قياس التجارة الخارجية مع الدولة الأخرى على هذا الأساس .

أما حرب البلقان والحرب العالمية ، فقد قضتا على الاقتصاد العثماني من أساسه . وعلى سبيل المثال ، عند دخول اليونان إلى أزمير (1919) ، كان في هذه المدينة ، ثاني مدينة كبيرة في الإمبراطورية ، أكثر من ألف شركة تجارية تركية . أغلقت تقريبًا كامل هذه الشركات التي نهبت منها اليونان ثلاثة ملايين ليرة ذهبية ولم تتمكن من الاستمرار في تجارتها . أفلس المليونيرات من تجار الأتراك أمثال قير – زاده لر ، شيخ – زاده لر ، زعيم – زاده لر ، علائية لي – زاده لر ، سليمان شوكت بك (طيّب كوكبيلكين Lilli Mucadele Baslarken, 1, 137, 160) .

لا نكون مبالغين إذا قلنا إن الرفاهية العثمانية أخذت في التقلص اعتبارًا من العصر 16 . إذ إن أوروبا أيضًا كانت تكسب مجالات كثيرة ، خرجت من سيطرة العثمانية . كان بإمكان العثمانية أن تجلب بواسطة سفنها 000 21 كنتال دفعة واحدة من الفلفل

الأسود والبهارات الأخرى من سلطنة آجه في أندونيزيا التابعة لها وتخزنها في مخازن التصدير في القاهرة (6 / 6 / 1564) . ثم تبيعها إلى شعبها بسعر رخيص جدًا إلى أوروبا بعد إضافة ربحها إليه ومع مرور الزمن ، اضطرت إما أن تشارك في هذه المجالات ، أو أن تتركها كلية إلى أوروبا . كانت في العصر 17 لا تزال غنية إلى درجة غفلت فيها واستصغرت معها أعمال وإنجازات أوروبا . أدركت ذلك في العصر 18 عندما بدأت كل هذه الحقائق تطفو . لكن المستفيدين من النظام القديم ، كانوا أكثرية ساحقة ، ولم تتمكن من إنجاز ما تصبو إليه . ومع حلول العصر 19 ، لم يعد هناك مجال للصبر وأصبحت قضية تحقيق بعض الإنجازات مسألة حياة أو موت . لكن المصاعب الداخلية كانت كبيرة . أما المصاعب الخارجية فقد كانت أكبر . كان الأوروبيون يفترس بعضهم البعض ليكون أغنى من الآخر ، أما بالنسبة للعثمانية التي يعتقدون أنها ليست منهم ، فقد كانوا قساة بصورة كبيرة . خارت أنفاس العثمانية بتورطها في الحروب دون تدبير وبشكل جنوني . كان اللحاق بأوروبا سهلاً جدًا عند بدء النظام الجديد فى 1793 ، كان الأمر يحتاج إلى قليل من الصبر والعزم . وقد أصبح ذلك صعبًا في 1826 ، لكنه كان ممكنًا على أية حال . وفي 1876 ، كان تدارك الأمر لا يزال ممكنًا . لكنه أصبح مستحيلاً بعد هذا التاريخ .

رأى عبد الحميد الثاني أن الحيلة الوحيدة الممكنة ، هي كسب الوقت . كان يؤمن بأن الإمبريالية الأوروبية ستفقد اندفاعها ، أو أنها قد تضمحل ولكن شيئًا من هذا لم يحدث .

كانت السياسة التجارية والاقتصاديةالكلاسيكية العثمانية المعلنة حتى في العصر 19 ، كما يلي : توفير جميع البضائع في العثمانية . يشتري الذي لديه نقود ما يحلو له . تحريك البيع والشراء وتأمين سيولة الدراهم النقدية قدر الإمكان . تقوية الإيرادات الجمركية للدولة . التنبيه إلى عدم حدوث اختناق في أي مادة ، تأمين عدم خروج الذهب والفضة من البلاد قدر الإمكان ، وتأمين دخولهما. العمل على أن يكون مخزون الحنطة وشمع العسل (المادة الرئيسية للإنارة) كبيرًا وبصورة دائمة . الانتباه إلى عدم تهريب المواد التي تسد بالكاد حاجة الإمبراطورية كالرصاص والحديد . تأمين استفادة

الأوروبيين كفرنسا ، إنكلترا وهولندا من هذا النشاط التجاري ، لكي تتمكن من الوقوف أمام أسبانيا ، ألمانيا وإيطاليا أكبر أعداء العثمانية ، تسهيلات تصدير السلع إلى إستانبول بدفع رسوم جمركية قدرها 3 ٪ وشراء البضاعة التي يرغبونها وإخراجها والذي منح إلى فرنسا في 1533 ، وإلى إنكلترا في 1581 ، وإلى هولندا في 1609 والذي سمي بعد ذلك (Capitulation) . تأمين مرور القوافل ذات 10 - 12 000 رأس حيوان ومنحها حرية المرور من كل الأقطار ونقل البضائع التجارية المختلفة (**Devrinde Istanbul Kaanuni**, Pedro, 90) . جمع وتخزين لبضائع الهند وآسيا في البصرة ، بغداد والقاهرة ، وبيع العثمانية هذه المواد إلى أوروبا بالسعر الذي تريده (يخمن أن ربح العثمانية من مبيعات المرور هذه سنويًا 500 000 ليرة ذهبية من البيع المباشر ، 500 000 قطعة ذهب أخرى من الرسوم الجمركية التي تحصلها أثناء دخول البضاعة إلى الجمارك ، Grenard ,90 - 1) . حماية التاجر العثماني وجعل الرسم الجمركي للبضائع التي يستوردها 5 ٪ وتحصيل جمركي قدره 10 ٪ من التاجر الأوروبي وتأمين الربح المستمر للتاجر العثماني . السعي لدرء الضيق عن مركز العرش وتأمين حاجة إستانبول السنوية من الأناضول وروملي البالغة 7 ملايين رأس غنم ، 200 000 رأس بقر ، يوميًا 500 طن دقيق ، وما يعادل ذلك من الأرز ، السمن والمواد الأخرى وتأمين وصولها في فسحة من الوقت وبسعر رخيص ، وذلك بتخزينها على دفعات تكفي لسد الحاجة لمدة 6 أشهر على الأقل . تخزين كميات كبيرة من المواد الصناعية التي تستهلكها إستانبول بكثرة ولا تتمكن معاملها المحلية من توفير كامل حاجتها منها ؛ الورق والسكر ، وتأمين توفر هذه المواد بصورة دائمة . ولكون المدن الأخرى أقل نفوسًا وقريبة للمناطق الريفيّة فإنه يمكن عندئذ الحصول على النتيجة نفسها بجهد أقل . الاكتفاء بالربح المعقول وعدم الدخول في مضاربات ، المصنوعات كلها بسعر موحد ونوعية موحدة ومواصفات موحدة تقريبًا ويضاف إلى تقدم توجيه الاهتمام الزائد للحفاظ على النظام وعدم الإخلال به بالنسبة لـ 10 000 عامل ؛ عمال 29 معملاً كبيرًا في إستانبول ، و 29 264 عاملاً يعملون في 23 214 مصنعًا صغيرًا (ورشة) و 48 000 نقابي يعملون في 39 معملاً كبيرًا وللعاملين خارج هذا القطاع الخاص ، وفي مؤسسات الدولة العسكرية الصناعية الكبرى والثقيلة (العصر 17) .

إن هذه السياسة ، كانت تحول دون المنافسة الحرة ، وبالتالي فإنها كانت تحول دون تطور التجارة وحتى الصناعة وتستهدف فقط تأمين إعاشة المواطن بسعر رخيص وبشكل جيد ، ولا يرد على بالها وجود حياة أرقى وأفضل (Moitiè du XVII, Siècle Istanbul Dans la Seconde, Mantran ، 1962 ، ص 287) .

كانت رفاهية المناطق خارج إستانبول ، بدرجة قريبة من رفاهية إستانبول ؛ فمثلا ، كان يرد إلى طرابزون حتى في عام 1834 بضاعة من آسيا تصل قيمتها إلى حوالي 100 مليون ليرة ذهبية وكانت تصدّر إلى أوروبا رأسًا ، وكان 5 , 7 ٪ من هذا المبلغ تربحه الدولة ، 7,5٪ منه يربحه التجار وطرابزون (Iorga, 5, 445 - 6) . وقد كانت طرابزون أساسًا مركزًا لصناعة منسوجات الكتان وكانت تبيع الكتان ، البندق ، التبغ ، الشراب إلى الأقطار الممتدة من الهند إلى أوروبا ، فإذا ما أضفنا الربح الناشئ عن هذه الصناعات وبيعها يتضح لنا مبلغ رفاهية مدينة ليست كبيرة كطرابزون . وعلى سبيل المثال ، فإن هذه المنطقة ، كانت تربح في التبغ فقط سنويًا مبلغ 10 000 ليرة ذهب .

ونجد في بورصة مركز صناعة الحرير في العالم ، كان تجار الحرير فقط يسدّدون للدولة في عام 1485 ضريبة قدرها 35 مليون دولارًا بالسعر الرائج حاليًا (4 , 5 آقجة) ، ثم زيدت هذه الضريبة بشكل كبير في العصر 16 (مصطفى آقداغ ، 2 ، 184 - 5 ، 188 ، 349) . وهكذا ، فإن الرفاهية كانت شاملة ولم تكن مقصورة على إستانبول فقط . إلا أن هذا التوازن والنظام اختل في العصر 19 وتداعى في العصر 20 .

البحث السابع عشر

الوصف الجغرافي للإمبراطورية العثمانية

1 ـ الكيان الجغرافي للإمبراطورية

يوضح تعداد عام 1607 أن الإمبراطورية تشتمل على 553000 مدينة ، قصبة وقرية . ولايشمل هذا العدد الرحّل المزارع والإيالات المستقلة ذاتيا الموجودة في الإمبراطورية .

ليس من السهل أن نصف ، جغرافيا ، دولة لها تلك الحدود الواسعة وبخاصة إذا كانت قد مرت على حدودها تغيرات جمة في عصور مختلفة . ولكن المحاولة ضرورية في هذا المجال .

كان الحصان ـ كما كان في أقطار العالم أجمع ـ أسرع واسطة للاتصالات في هذه الامبراطورية الواسعة قبل 1850 ، قبل اللاسلكى والسكك الحديدية .

كان سعاة بريد الدولة الذين يطلق عليهم اسم « تاتار » و « أولاق » يقطعون طريق إستانبول ـ بغداد في 14 يوما ، طريق استانبول ـ عكا في 13 يوما . قطع أحد سعاة البريد طريق استانبول ـ بغداد في 9 أيام وسجل بذلك رقما قياسيا (Adolphas Slade ،2 ـ 300) . وقد استعملت العثمانية المرور النهري والبحري بكفاءة ، كما تمكن العثمانيون من إدارة الإمبراطورية لعصور طويلة بتقسيمات إدارية بإدارات تناسب كل قطر وتلائم حاجات العصر بصورة ممتازة .

2 ـ الإيالات والألوية :

لم يكن للإمارة (بكلك) العثمانية خلال 95 عاما 1231 ـ 1326 أراض يمكن أن تشكل إيالة . كان لديها أراض يمكن أن تشكل ولاية (سنجق ، إيل) واحدة . ويعتبر فتح بورصة في 1326 سببا مهيئا لتشكيل أول إيالة عثمانية .

تعرضت بمرور الزمن حدود الإيالات إلى تغيير كبير . كانت مساحاتها متفاوتة جدا . أسست الإيالات لاعتبارات عسكرية ، وإدارية وقومية . بينما وسعت الفتوحات حدود الإيالات القديمة ، كذلك أسست إيالات جديدة على الأراضي التى فتحت حديثا . كما شكلت أيضا إيالات عديدة باستقطاع بعض الأراضي من الإيالات وتقسيمها .

هناك إيالات تبلغ مساحاتها الملايين من الكيلومترات (كمصر) وفي الوقت نفسه توجد كذلك إيالات صغيرة مكونة من لواءين أو ثلاثة ألوية لا تتعدى بضعة آلاف من الكيلو مترات . وبينما توجد إيالات مستقرة تماما ، كذلك توجد إيالات أخرى لم تدم غير سنين معدودة فقدت بعدها أو ألحقت بإيالات أخرى .

ويمكن تقديم القائمة التالية بالنسبة للإيالات العثمانية قبل التنظيمات وحسب تسلسل تواريخ تأسيسها :

(1) ايالة أناضولى (الأناضول) (مركزها بورصة ، ثم أنقرة ، وفى 1451 كوتاهية) أسست في 1326 .

(2) **روملي** 1363 (أدرنة ، ثم مناسطر ، صوفيا) .

(3) **قره مان** 1397 – 1402 وبعدها اعتبارا من 1470 (قونية) .

(4) **روم** روميه صغرى 1398 (توقاط ، آماسيا ، وفي 1526 سيواس) .

(5) **ديار بكر** 1515 Diyar - Bekr (قره عامد = دياربكر Diyarbakir)

(6) **شام** 1516 .

(7) **مصر** 1517 (قاهرة) .

(8) **يمن** 1517 (صنعاء) ، وفي 1567 – 69 انفصلت إيالة زبيد .

(9) إيالة **جزائر** البحرية 1519 .

(10) **حلب** 1521 .

(11) **دولقادر** 1522 (مرعش ، وبعضا البستان) .

(12) أرضروم 1534 (قبلها لفترة من الزمن أرزنجان) .

(13) **جزائر بحر سفيد** 1534 (الإيالة البحرية لقبطان باشا) .

(14) **عراق العجم** (همدان) 1534 (ألغيت بعد فترة وجيزة ثم أسست مرتين في الأدوار المتعاقبة لفترات قصيرة) .

(15) **بغداد** 1535 .

(16) **بوسنة** 1541 (بوسنة سراي ، ترافنيك ، بانيالوكا) .

(17) **بودين** 1541 المجر .

(18) **وان** 1548 .

(19) **كوجوك نوكاي** 1548 – 1555 (شمال – شرق قفقاسيا) .

(20) إيالة **طرابلس الغرب** البحرية 1551 (ليبيا) .

(21) **بصرة** 1552 .

(22) **تامشوار**1552 .

(23) **حبش** 1554 (مصوّع ، ثم سواكن ، ثم جدة) (انفصلت من الحبشة في بعض الفترات وشكلت إيالة الحجاز المنفصلة ، وفي بعض الفترات انفصلت مكة والمدينة وجعلتا إيالتين منفصلتين دستوريا) .

(24) **قبرص** 1751 .

(25) إيالة **تونس** البحرية 1574 .

(26) **شهر زور** 1578 (كركوك) .

(27) **جلدر** Gildér 1578 (جلدر ، آخيسكا) .

(28) **سوخوم** Sohum 1578 (آبهازستان ، ألغيت بعد عدة سنوات) .

(29) **داغستان** 1578 (دربند) .

(30) **شيروان** 1578 – 1604 (باكو) .

(31) **تفليس** 1578 – 1586 .

(32) **كاكهيتي** Kakheti 1578 (في كرجستان وقد ألغيت بعد عدة سنوات) .

(33) **أردلان** 1578 – 1607 (نهاوند) .

(34) **بلنكان** 1578 .

(35) **دينور** Dinever 1586 (بيلور Pilever) .

(36) **كردستان** (كرمنشاه ، وأحيانا سنة 1534 ، 1588 – 1607 ، 1630 ، والسنوات التالية ، 1723 والسنوات التالية ؛ اتحدث الإيالات الثلاث الأخيرة باسم سينة في 1588 – 1607.

(37) **فاش** 1579 (بوتي) .

(38) **لحساء** 1579 (قطيف) .

(39) **كفه** Kefe (في قرم) .

(40) **لوري** 1585 (في كرجستان) .

(41) **توماتيس** 1584 (في كرجستان) .

(42) **شماهي** 1583 (ألغيت بعد عدة سنوات ، عرّان =قره باغ) .

(43) **روان** 1583 – 1604 ، 1774 والسنوات التالية (اريوان) .

(44) **غورى** Gori 1588 (في كرجستان ، ألغيت بعد عدة سنوات) .

(45) **كنجة** 1588 – 1606 ، 1723 – 1735 .

(46) **طرابزون** 1588 .

(47) **قارص** 1589 .

(48) **رقّة** 1594 (أورفة) .

(49) **يانق** 1594 – 1598 (Gyor) .

(50) **أكرى** 1596 (في المجرEger) .

(51) **كانيجه** 1596 (مركزها لغاية Sigetvar1600) .

(52) **أوزو** Ozu مركزها لغاية 1620 Silister ثم Ozu = Oezakov في اوكراينا .

(53) **نهجوان** 1603 (ألغيت بعد مدة) .

(54) **آزاك** (آزوف قرب روستوف) .

(55) **باطوم** 1617 .

(56) **طرابلس الشام** 1593 .

(57) **موصل** 1624 .

(58) **مورا** 1660 .

(59) **أدنة** 1660 .

(60) **صيدا** 1660 (صيدا ، بيروت) .

(61) **كريت** 1669 .

(62) **Varad** 1661 .

(63) **Yanova**1661 (jenoe) .

(64) **Uyvar** 1663 (جنوب سلوفاكيا) .

(65) كامانيجة 1674 – 1699 (Podolya) .

(66) **استانبول** 1453 ، كانت كايالة مستقلة بدون فريق أول (بكلربك) وتابعة للصدر الأعظم بصورة مباشرة .

ويمكن عرض قائمة بالإيالات ذات الحكم الذاتي والدول التابعة كما يلي :

(1) **أفلاق** 1391 – 1878(Tragoviste ثم بخارست) .

(2) **بغدان** 1455 – 1878 (Sucava) ، ثم ياش .

(3) **أردل** 1526 – 1691 .

وهن بالتسلسل إمارات رومانية وترانسيلفانية والأخيرة منها مجرية في ذلك العهد . وقد منح العثمانيون أمراء الأخيرة أحيانا لقب « ملك » .

(4) ملكية **المجر** « بودابست » ، كانت ضمن نظام الدولة التابعة قبل إلحاقها بإيالة بودين : 1526 – 1541 .

(5) ملكية **المجر الوسطى** ، الدولة المجرية التابعة للعثمانية في العصر 17 وتقع في جهة سلوفينيا .

رقم 1 و 2 أرثوذكس ، أما رقم 3 ، 4 ، 5 فهم كاثوليك أو بروتستانت (كلفيني او لوثري) .

(6) إمارة (هتمانية) **أوكرانيا** القوزاقية ، أرثوذكسية وقد تبعت العثمانية في فترات خلال العصر 17 .

(7) ملكية **بولونيا** (كراكوفي ثم وارشو) ودوقية ليتوانيا الكبرى – التي تشمل روسيا البيضاء كذلك – التابعة لها ، تبعت العثمانية في نهاية العصر 16 ، (كاثوليكية) .

(8) الملكيات والإمارات الموجودة في **كرجستان** تبعن العثمانية بين فترة وأخرى خلال العصور 16 – 18 ، (أرثوذكسية) .

(9) إمارة (خانلق) **قرم** (ملكية) 1475 – 1783 ، هي الدولة التركية السنية – الحنفية لبني جنكيز (بافجه سراي) .

(10) إمارة **قازان** 1521 – 1531 – 1546 +1533 – 1546 – 1551 ، الدولة التركية السنية – الحنفية لبني جنكيز (قازان) .

(11) إمارة **قسيم** 1486 – 1512 (هذه سنوات تبعيتهم للعثمانية) دولة تركية سنية – حنفية لبني جنكيز (قسيم قرب موسكو) .

(12) **إمارة استرخان** 1543 – 1557 ، دولة تركية سنية – حنفية لبني جنكيز (استرخان) .

(13) إمارة **باشكردستان** دولة تركية سنية – حنفية لبني جنكيز ، تبعت العثمانية لفترة من الزمن في لعصر 18 ، امراء (خانات) القوزاق **Kazak** .

(14) إمارة **كاشغر** دولة تركية سنيه – حنفيه تابعة للعثمانية في نهاية العصر 19 .

(15) بعض الإمارات (خاقانلقر ، خاقانيات) التركية في **تركستان** عرضت أحيانا تبعيتها إلى العثمانية (سنية – حنفية) .

(16) بعض الإمارات (خانلق) التركية والقفقاسية في قفقاسيا تابعة كذلك (سنية – حنفية ، أحيانا شافعية) .

(17) إمارة **كيلان** (رشت) ، تبعت العثمانية في 1534 ، إيرانية سنية – شافعية .

(18) أمراء (بك) **الأكراد** ، بكوات الأكراد في إيران ، تابعة للعثمانية في العصور 16 – 19 ، سنية – شافعية .

(19) سلطنة **آجه** كانت تابعة في العصر 16 سنية – حنفية وشافعية (سومطرة وماليزيا) .

(20) دول كثيرة في **الهند** عرضت تبعيتها للعثمانية في العصور 16 – 19 ، قسم منها دول سنية – حنفية ، وبعضها براهمي هندو* .

(21) إمارات (بكلك) البندقيين والجنويين الإيطالية الكاثوليكية (دوقية ، إمارة ، كونتية .. إلخ .) جزرها الكائنة في الأرخبيل وبحر ايونيا ، تبعت العثمانية ثم تم إلحاق أكثرها .

(22) تشاهد تبعيّة الإمبراطورية **البيزنطية** كذلك للعثمانية في غضون 1390 .

(23) يصرح العديد من المؤرخين القدامى والجدد بأن روسيا القيصرية كذلك ، دولة أرثوذكسية تابعة للعثمانية فى العصرين 16 – 17 .

* حتى الإمبراطورية التيمورية الهندية ، التي هي أعظم دولة شهدها تاريخ الهند كله ، لم تكن بعيدة عن التأثر بتفوق العثمانية . كان همايون شاه بن وخلف بابور شاه مؤسس هذه الإمبراطورية ، قد طلب إلى سيدي علي رئيس اللواء البحري العثماني والجغرافي الشهير ، أن يجعله صدرا أعظم له . وظل همايون شاه يخاطب السلطان سليمان القانوني في رسالته المؤرخة في 25 / 10 / 1548 التي يبعثها إليه والمحفوظة في أرشيف سراي طوبقابو بجملة « عزيز باد شاه بابام » (أبي السلطان العزيز) ويفيد بأنه لتخذه أبا في الدنيا والآخرة ويقترح محو إيران وإزالتها من الوجود ، وأنه فى حالة تقسيمها ، يطلب خراسان فقط ، وأن القسم الباق من إيران سيكون للعثمانية ، كان همايون شاه شاعرا كذلك في اللغة التركية ولو أنه لم يكن بدرجة أبيه .

(24) سلطنة فاس والدول الزنجية التابعة (سنية - مالكية) تبعت العثمانية بين فترة وأخرى في النصف الثاني من العصر 16 وفي العصر 17 .

(25) إمامة **عمان** الخارجية - العبادية ، تبعت العثمانية من النصف الثاني للعصر 16 إلي العصر 19 .

(26) أمراء مشعشع العرب في **خوزستان** ، تبعوا العثمانية اعتبارا من 1534 .

(27) الدولة العربية **الشيرازية** كانت تابعة للعثمانية في العصر 16 (سنية - شافعية) (سواحل موزمبيق ، تنزانيا ، كينيا) .

(28) الحكام المحليون السنة - الشافعيون في **الحبشة** وعلى رأسهم إمارتا هرر وصومالي ، تبعوا العثمانية في العصور 16 - 19 .

(29) دولة بورنو الزنجية (كوكا) (سنية - مالكية) تبعت العثمانية في العصور 16 - 19 (نيجيريا الشمالية ، كمرون الشمالية ، جاد) .

(30) دول زنجية كثيرة تبعت العثمانية في العصور 16 - 19 **في السودان** وفي أقصى جنوبها وغربها . سنية - شافعية ، أحيانا مالكية ، وقسم منهم كانوا عبدة أصنام .

(31) أمراء وشيوخ **حضرموت** وعلى رأسهم سلطان لحج ، كانوا تابعين أيضا خلال 1517 - 1919 .

(32) الأئمة الشيعية - الزيدية في **اليمن** ، كانوا كذلك خلال 1517 .

(33) كانت سلالات الحسيني في تونس ، قرة مانلي في ليبيا وقاوالالي في مصر - السودان - أوغنده ، تدخل ضمن نظام الولاة الوراثيين وليست ضمن نظام التوابع كلهم أتراك وسنة - حنفية .

(34) **أمراء مكة** ، كانوا في حالة تعاون وثيق مع العثمانية ويلقون اعتبارا كبيرا في الإمبراطورية كشرفاء من سلالة الرسول ﷺ .

يطلق اسم « بكلربك » علي والي الإيالة . وهذه الكلمة تعني في الوقت نفسه رتبة عسكرية بدرجة فريق أول ، وإن كانت الإيالة ، إيالة بحرية فعندئذ تكون رتبة الوالي فريق أول بحري . منحت رتبة وزير (مارشال) إلى جميع ولاة (بكلربك) الإيالات المهمة وبخاصة اعتبارا من العصر 17 ، ولم تكن هناك ضرورة لذلك بالنسبة للإيالات الصغيرة .

كان البكلربك ممثلا مطلق الصلاحية للبادشاه في إيالته . يعرف البادشاه جميع ولاة الإيالات (البكلربك) شخصيا ويجتمع بهم قبل ذهابهم إلي إيالاتهم .

كانت الإيالة الواحدة تتشكل من 2 إلى 40 ولاية (سنجق ، إيل) . وبناء على ذلك ، وكما يتضح من القائمة آنفة الذكر ، فإننا نرى أن الإيالات كانت متباينة بصورة كبيرة ، وكان على رأس كل ولاية وال عسكري يطلق عليه اسم « سنجق بك » . إن هذه الكلمة في الوقت نفسه رتبة لواء (رتبة دريا أو بحرية سنجق بك = لواء بحري Tumamiral) .

واعتبارا من العصر 17 منحت رتبة بكلربك إلي ولاة الألوية (سنجق) الكبيرة ، وهؤلاء سمّوا سنجق بك أيضا ، إلا أنهم يطلق عليهم لقب « بك » وكذلك لقب « باشا » الذي يطلق على البكلربك والوزراء . لا يعرف السلاطين ولاة الألوية (سنجق بك) شخصيا ، لكنهم يعرفونهم بأسمائهم ولهم علم بخدمات كل منهم . لكن نجد في العصر 17 أن بعض السلاطين لا يعرفون جميع أسماء ولاة الألوية . كانت الألوية تقسم إلى أقضية (ايلجة) وكان لكل قضاء عدة نواح (ناحية = بوجاق) ، وكانت لكل ناحية قرى عديدة (قرية = كوي) تابعة لها .

(3) الإدارة المدنية لعهد التنظيمات .

الإيالات التي شكلت في عهد التنظيمات أصغر من الإيالات القديمة . اسم ولاة الإيالة « والي » .

ومنح ولاة الإيالات الكبيرة مرتبة وزير ، وفي عهد التنظيمات لم تعد هذه المرتبة تعني الرتبة العسكرية مارشال (بالعثمانية : مشير) ، بل كانت تعني أعلى رتبة ملكية (مدنية) . ويوجد ولاة برتبة بالا ، بكلربك روملي ، أولى .

وبالنسبة للعسكريين نجد ولاة برتبة مشير ، فريق أول ، فريق . استمرت عادة زيارة ولاة الإيالات للبادشاه قبل التحاقهم بإيالاتهم ، كما ظلت هذه العادة جارية بالنسبة للسفراء أيضا .

وفي عهد التنظيمات أطلق على الإيالات اسم « ولاية » ، كل ولاية تتكون من عدة ألوية (سنجق) .

احتفظ بكلمة « سنجق » ، لكن سمي ولاة السنجق (الألوية) ، « متصرف » . وكذلك كانت الألوية تقسم إلى أقضية ولم تعد إدارة الأقضية بعهدة القضاة كما كانت في السابق ، وأصبحت بعهدة الإداريين من المدنيين الذين يطلق عليهم اسم « قائمقام » . وكذلك ، لم تعد إدارة الناحية بعهدة القضاة الصغار الذين يطلق عليهم اسم « نائب » بل أصبحت بعهدة إداري مدني يسمي « مدير » و « ناحية مديري » (مدير ناحية) . ومدراء القرى يعينون بالانتخاب ويدعون « مختار » . كان لكل من الولايات ، الألوية والأقضية مجالس تشكل من الأعضاء المتخبين . [illegible] ي الولايات كذلك سكرتير عام يسمى « مكتوبجي » « كما كان الوضع في النظارات (الوزارات) .

يسجل J.J. Hellert في أطلسه الفخم Atlas de l' Empire Ottoman (باريس 1844 ، النادر جدا) الذي نشره كملحق لتاريخ in folio المكون من 18 مجلدا ، أن الإمبراطورية العثمانية في عام التنظيمات أي عام 1839 تحتوي علي 628000 قرية ، 94 مدينة يزيد عدد سكانها علي 10000 نسمة ، وعدة آلاف من القصبات . ويذكر أن 25 مدينة يتجاوز عدد سكانها 50 000 ويذكر هذه مع المدن الكبيرة .

حصلت تغيرات كثيرة في الإدارة المدنية في عهد التنظيمات أيضا . وفيما يلي نموذج للوضع الإداري للإمبراطورية العثمانية في عام 1908 .

الإمبراطورية العثمانية (1908) : 880 128 كم ^{2} ، عدد السكان 000 689 62 نسمة (1 / 27 من مجموع نفوس العالم) : في آسيا 112 582 3 كم ^{2} و 000 177 30 نسمة + في أفريقيا 180 213 5 كم ^{2} و 000 671 17 + في أوروبا 588 333 كم ^{2} و 000 841 14 نسمة . كان 825 161 4 كم ^{2} و 36655000 نسمة منها تدار من إستانبول رأسا . وكانت تحتوي على 352 قضاء ضمن الـ 63 ولاية التي ظلت في تركيا حاليا + 327 قضاء ضمن الـ 62 لواء التي بقيت خارج تركيا = 679 قضاء ضمن 125 لواء . والبقية كانت دولا تابعة ومستقلة إيالة ، ألوية وإمارات . كانت الإمبراطورية تشتمل على 55 مدينة يتجاوز عدد سكانها الـ 000 50 نسمة ومجموع نفوسها الكلي 000 744 7 نسمة ، منها 19 مدينة يبلغ مجموع سكانها 000 4944 نسمة يتجاوز عدد سكان الواحدة منها 000 100 نسمة . بقي من هذه الإمبراطورية – في 1918 – بعد 10 سنوات 254 606 3 كم ^{2} وتقلصت الإمبراطورية 1919 إلى حدود تركيا الحالية .

مما يلي الولايات (بمعنى إيالة) والألوية (سنجق) (بمعنى ولاية إيل) التي كانت تديرها وزارة الداخلية في إستانبول عام 1908 :

إستانبول 3 900 كم^2 ونفوسها 000 400 1 نسمة : (المدينة 000 300 1) (10 دوائر بلدية « دائرة بلدية » .

لواء **جتالجة** 1 900 كم^2 و 85 000 نسمة (لواء درجة أولى ذو 3 أقضية) .

ولاية **أدرنة** 46 400 كم^2 و 1 524 000 نسمة (الكثافة السكانية 33 شخصا كم^2) (مدينة أدرنة 000 140) (ألويتها : المركز أدرنة درجة أولى ذو 7 أقضية ، قيريق كليسه (قيرقلايلي) درجة أولى ذو 7 أقضية ، ده ده آغاج درجة 2 ذو 3 أقضية ، كمولجينه درجة 2 ذو 6 أقضية ، غاليبولي درجة 3 ذو 5 أقضية ، تكفور داغي (تكرداغ) درجة 3 ذو 4 أقضية ، المجموع 6 ألوية ذات 32 قضاء .

ولاية **سلانيك** 35 000 كم^2 و 1 415 000 نسمة (الكثافة 40.5) (مدينة سلانيك 250 000) (المركز سلانيك درجة أولى ذو 14 قضاء + سيروز (Serez) درجة 2 ذو 8 أقضية + دراما درجة 3 ذو 5 أقضية + تامشوار درجة 3 ذو قضاء واحد = 28 قضاء ضمن 4 ألوية) .

ولاية **مناسطر** 28 000 كم^2 و 1 061 000 نسمة (المركز مناسطر درجة 1 ذو 6 أقضية + سرفيجة درجة 2 ذو 6 أقضية + Debre درجة 2 ذو 4 أقضية + Goriee درجة 3 ذو 4 أقضية + Elbasan درجة 3 ذو 3 أقضية = 23 قضاء ضمن 5 ولايات) .

ولاية **كوسوفا** 32 000 كم^2 و 1 726 000 نسمة (المركز أسكب درجة أولى ذو 11 قضاء + Pristine درجة 2 ذو 6 أقضية + Ipek درجة 2 ذو 5 أقضية + Prizrin درجة 2 ذو 4 أقضية + Serice درجة 2 ذو 4 أقضية + طاشليجة درجة 3 ذو 2 قضاء = 32 قضاء ضمن 6 ولايات) نسمة .

ولاية **اشكودرا** 10 800 كم^2 و 368000 نسمة .
المركز اشكودرا درجة أولى ذو 5 أقضية + Drae درجة 3 ذو 5 أقضية = 10 أقضية ضمن 2 لواء) .

ولاية **يانيا** 17900 كم ^{2} و 649 000 نسمة (المركز يانيا درجة أولى ذو 7 أقضية + Ergiri درجة 2 ذو 6 أقضية + Berat درجة 2 ذو 4 أقضية + بيروزه Piruze درجة 2 ذو 3 أقضية = 20 قضاء ضمن 4 ألوية) . إن مجموع روملي المكونة من 7 ولايات + لواء مستقل (جتالجه) الذي أحصى حتى الآن أعلاه : 300 177 كم ^{2} و 000 228 نسمة .

ولاية **جزائر بحر سفيد** (جزر البحر الأبيض) 900 6 كم ^{2} و 415 000 نسمة (60) (المركز رودس درجة أولى ذو 6 أقضية + ساقيز درجة أولى ذو 4 أقضية + مديللي درجة أولى ذو 3 أقضية + يمني درجة 3 ذو 3 أقضية = 16 قضاء ضمن 4 ولايات) .

ولاية **أزميت** 100 8 كم ^{2} و 000 349 نسمة (لواء درجة أولى ذو 6 أقضية) .

ولاية **بيغا** (جناقلعة) 600 6 كم ^{2} و 000 187 (لواء درجة أولى ذو 6 أقضية) .

ولاية **خد اوندكار** 800 65 كم ^{2} و 1890 000 نسمة (مدينة بورصة 100 000 ، مدينة أفيون 000 120) (المركز بورصة درجة أولى ذو 7 أقضية + كاراسي (باليكسير) درجة 3 ذو 9 أقضية + كوتاهية درجة 3 ذو 5 أقضية + أرطغرل (بيله جك) درجة 3 ذو 4 أقضية + قره حصار (أفيون) درجة 3 ذو 4 أقضية = 29 قضاء ضمن 5 ألوية) .

ولاية **آيدن** 900 55 كم ^{2} و 000 873 1 نسمة (مدينة أزمير 000 300 ، مدينة مانيسا 100 000) (المركز أزمير درجة أولى ذو 13 قضاء + ساروخان (مانيسا) درجة أولى ذو 11 قضاء + آيدن درجة 2 ذو 6 أقضيه + دنيزلي درجة 3 ذو 6 أقضية + منتشة (موغلا) درجة 3 ذو 6 أقضية = 42 قضاء ضمن 5 ألوية) .

ولاية **قونية** 100 102 كم ^{2} و 000 380 1 نسمة (المركز قونية درجة أولى ذو 11 قضاء + نيغدة درجة 3 ذو 7 أقضية + حميد (اسبارطة) درجة 3 ذو 5 أقضية + تكه (انطالية) درجة 3 ذو 5أقضية + بوردور درجة 3 ذو 2 قضاء = 30 قضاء ضمن 5 ألوية .

ولاية **أدنة** 39 900 كم^{2} و538 000 نسمة (المركز أدنة درجة أولى ذو 3 أقضية + قوزان درجة 2 ذو 4 أقضية + jeel (سيليفكه) درجة 2 ذو 4 أقضية + جيل بركت درجة 3 ذو 5 أقضية + مرسين درجه 3 ذو 2 قضاء = 18 قضاء ضمن 5 ولايات) .

ولاية **أنقرة** 70 900 كم^{2} و000 277 1 نسمة (أنقرة درجة أولى ذو 10 أقضية + قيصرية (قيصري) درجه 2 ذو 3 أقضية + يوزغات درجة 3 ذو 4 أقضية + قير شهري درجة 3 ذو 4 أقضية = 24 قضاء ضمن 5 ألوية) .

ولاية **قسطموني** 50 700 كم^{2} و 000 211 1 نسمة (المركز قسطموني درجه أولى ذو 8 أقضية + بولو درجة 3 ذو 9 أقضية + سينوب درجة 3 ذو 3 أقضية + كنكري (جانقيري) درجة 3 ذو 2 قضاء = 22 قضاء ضمن 4 ألوية .

ولاية سيواس 62100 كم^{2} و 000 318 1 نسمة (المركز سيواس درجتي أولى ذو 22 قضاء) + آماسيا درجة 3 ذو 7 أقضية + قره حصار شرقي (شين قره حصار) درجة 3 ذو 5 أقضية + توقاط درجة 3 ذو 4 أقضية = 27 قضاء ضمن 4 ألوية) .

ولاية **طرابزون** 32 400 كم^{2} و 589 000 نسمة (المركز طرابزون درجة أولى ذو 9 أقضية + جانيك (صمصون) درجه أولى ذو 6 أقضية + لازستان (ريزة) درجه 2 ذو 3 أقضية + كموشخانة درجة 3 ذو 4 أقضية .

ولاية أرضوم 49 700 كم^{2} و 859 000 نسمة (مدينة أرضوم 140 000) (المركز أرضوم درجة أولى ذو 8 أقضية + بيازيد (آغري) أولى ذو 5 أقضية + أرزنجان درجة 2 ذو 5 أقضية + Hinis درجة 3 ذو قضاء واحد = 19 قضاء ضمن 4 ألوية) .

ولاية معمورة **العزيز** 32 900 كم^{2} و 50 200 نسمة (المركز معمورة العزيز Elazig) درجة أولى ذو 6 أقضية + ملاطية درجة 2 ذو 5 أقضية + درسيم (طونجلي) درجة 2 ذو 5 أقضية = 16 قضاء ضمن 3 ألوية) .

ولاية **بيتليس** 27 100 كم^{2} و 451 000 نسمة (المركز بيتليس درجه أولى ذو 4 أقضية + موش درجة أولى ذو 5 أقضية + زعرت درجة أولى ذو 5 أقضية + كنج (بينكول) درجه أولى ذو 3 اقضية = 17 قضاء ضمن 4 ألوية) .

ولاية **وان** 39300 كم^{2} و 315 000 نسمة (المركز وان درجة أولى ذو 6 أقضية + حكاري درجة أولى ذو 5 أقضية = 11 قضاء ضمن 2 لواء .

ولاية **دياربكر** 500 37 كم² و 468000 نسمة (المركز دياربكر درجة أولى ذو 6 أقضية + ماردين درجة أولى ذو 5 أقضية + أركاني معدني درجة 3 ذو 3 أقضية = 14 قضاء ضمن 3 ألوية) . مجموع 13 ولاية أناضولي و2 لواء مستقل : 900 687 كم² و 14 632000 نسمة (عدا 2 لواء أناضولى تابع لولاية حلب) .

ولاية **حلب** 000 86 كم² و000 1040 نسمة (مدينة حلب 000 240) (المركز حلب درجة أولى ذو 14 قضاء + أورفة درجة 2 ذو 5 أقضية + مرعش درجة 2 ذو 5 أقضية = 24 قضاء ضمن 3 ألوية) (هاتاي وعينتاب = غازي عنتب ، كانا قضاءين تابعين للواء المركز لولاية حلب) .

ولاية **سورية** 900 95 كم² (مدينة شام 320000 (المركز شام درجه أولى ذو 10 أقضية + حوران درجة 2 ذو 7 أقضية + حماه درجة 2 ذو 4 أقضية + كرك درجة 3 ذو 4 أقضية =25 قضاء ضمن 4 ألوية) .

لواء **دير الزور**000 78 كم² و 000 90 نسمة (لواء درجة أولى ذو 4 أقضية) .

ولاية **بيروت** 000 16 كم² و 000 801 نسمة (مدينة بيروت 000 170) (المركز بيروت درجة أولى ذو 5 أقضية + عكا درجة أولى ذو 4 أقضية + طرابلس الشام درجة 2 ذو 4 أقضية + نابلس درجة 2 ذو 3 أقضية + لاذقية درجة 3 ذو 4 أقضية = 19 قضاء ضمن 5 ألوية) .

لواء لبنان 100 3 كم² و 000 550 نسمة (لواء مستقل ذاتيا مركزه دير القمر) .

لواء **قدس شريف** 100 17 كم² و 000 420 نسمة (مدينة القدس 000 100) (لواء درجه أولى ذو 6 أقضية) .

ولاية **موصل** 100 91 كم² و 000 420 نسمة (مدينة الموصل 000 100) (المركز موصل درجه أولى ذو 6 أقضية + كركوك درجة أولى ذو 6 أقضية + سليمانية درجة أولى ذو 5 أقضية = 17 قضاء ضمن 3 ألوية)

ولاية **بغداد** 000 182 كم² و 000 880 نسمة (5) (مدينة بغداد 000 200) (المركز بغداد درجة أولى ذو 12 قضاء + ديوانية درجة أولى ذو 4 أقضية + كربلاء درجة 2 ذو 4 أقضية = 20 قضاء ضمن 3 ألوية) .

ولاية **بصرة** 184 500 كم^2 و 819 000 نسمة (المركز بصرة درجة أولى ذو 4 أقضية + نجد = إحساء درجة 2 ذو 4 أقضية + عمارة درجة 3 ذو 2 قضاء = 13 قضاء ضمن 4 ألوية) .

ولاية **يمن** 197 000 كم^2 و 3 000 000 نسمة (مدينة صنعاء 100 000) (المركز صنعاء درجة أولى ذو 9 أقضية + حديدة درجة أولى ذو 9 أقضية + عسير درجة أولى ذو 7 أقضية + تعز درجة أولى ذو 6 أقضية = 31 قضاء ضمن ألوية) .

ولاية **حجاز** 589 975 كم^2 و 3 200 000 نسمة (مدينة مكة 100 000) (المركز مكة درجة أولى ذو 1 قضاء + المدينة درجة أولى ذو 4 أقضية + جدة درجة أولى ذو قضاء = 7 أقضية ضمن 3 ألوية) . مجموع 8 ولايات و 3 ألوية التي تشكل الأقطار العربية : 1 581 175 كم^2 و 12 220 000 نسمة .

ولاية **طرابلس الغرب** 1 059 450 كم^2 و 900 000نسمة (المركز طرابلس درجة أولى ذو 9 أقضية + فيزان درجة أولى ذو 5 أقضية + حمص درجة 3 ذو 5 أقضية + جبل غريب درجة 3 ذو 4 أقضية = 23 قضاء ضمن 4 ألوية) .

لواء **بنغازي** 700 000 كم^2 و 330 000 نسمة (5 / –) (لواء درجة أولى ذو 5 أقضية) . مجموع الاثنين يشكل ليبيا : 1 759 450 كم^2 و 1 230 000 نسمة .

خديوية **مصر** (انفصلت في 1914) (مدينة القاهرة 752 000 ، إسكندرية 402 000) : مصر 994 300 كم^2 و 12 416 000 نسمة + سودان 2 294 600 كم^2 و 4 050 000 نسمة (خرطوم) = 3 288 900 كم^2 و 16 466 000 نسمة .

ألوية مصر العشرون : القاهرة ، الإسكندرية ، دمياط ، قنال (بور سعيد ، سويس) ، سيناء (العريش) ، الغربية (طنطا) ، الدقهلية (منصورة) ، الشرقية (زقازيق) ، البحيرة (دمنهور) ، المنوفية (شبين الكوم) القليوبية (بنها) ، أسيوط ، جرجا (سوهاج) ، قنا ، المنيا ، الجيزة ، الفيوم ، بني سويف ، نبيه (أسوان) .

ألوية سودان مصر الـ 9 : النيل الأزرق (واد مدني) ، كردفان (عبيد) ، دار فور (فاشر) ، أعالي النيل (ملكال) ، كسلا ، بحر الغزال (فو) نوبة (دامر) ، خرطوم ، خط الاستواء (جوبا) .

إمارة **بلغارستان** (بلغاريا) (انفصلت في 1908) (صوفيا 103 000) : إمارة بلغاريا الأصلية 3751 $كم^2$ و 3088 000 نسمة + ولاية روملي الشرقية 32 594 $كم^2$ و 1250 000 نسمة (5 /38) (فيليبه) = 35 345 و 4 338 000 نسمة .

ألوية بلغاريا الـ 9 : صوفيا ، شومنو ، كوسنتديل ، بلونة ، روسجك ، ترنوفا ، فارنا ، فيدين ، فراجا .

ألوية **روملي الشرقية** الـ 3 : فيليبه ، بورغاز ، اسكى زاغرا .

ولاية **بوسنه** – هرسك 51 564 $كم^2$ و 1 932 000 نسمة (بوسنه سرايي) (انفصلت في 1908) 6 ألوية : بوسنه سرايي ، بانيالوكا ، بيهاج ، توزلا ، ترافنيك ، هرسك (موستار) . تحت حكم النمسا – المجر المؤقت .

لواء **يني بازار** 133 000 نسمة ، اعيدت إلى تركيا في 1908 عندما كانت هي أيضا محتلة مؤقتا من قبل النمسا – المجر ، انفصلت عن تركيا في 1912 .

لواء **قبرص** 9 282 $كم^2$ و 280 000 نسمة ، 6 أقضية . محتلة مؤقتا من قبل إنكلترا ، انفصلت في 1914 .

ولاية **كريت** 8 379 $كم^2$ و 344 000 نسمة (جزيرة رومية مستقلة ذاتيا ، انفصلت في 1912) المركز خانيا ذو 4 أقضية + كاندية ذو 5 أقضية + ريسمو ذو 3 أقضية + لاشيد ذو 4 أقضية + أسفاكيا ذو 3 أقضية = 5 ألوية ذات 19 قضاء .

لواء **سيسام** 833 $كم^2$ و 80 000 نسمة (جزيرة رومية مستقلة ذاتيا انفصلت في 1912) ، إمارة ذات 4 أقضية .

الإمارات **العربية ضمن العثمانية** : إمارة **نجد** الوهابية 1 390 000 $كم^2$ و 2800 000 (إمارتا : السعوديين والرشديين) .

إمارة **الكويت** 5000 $كم^2$ و 55 000 نسمة .

مشيخة البحرين 552 $كم^2$ و 20 000 نسمة .

إمارات **حضرموت** وسلطنة **لحج** 153 850 $كم^2$ و 400 000 نسمة (9 نواحي تابعة للواء تعز) . ولا حاجة في هذا المجال لذكر الإمارات والمشيخات العربية الأخرى .

كانت الرتب التي يحملها ولاة الإيالات ، في عام 1893 هي كما يلي : 3 مشير (مارشال) ، 4 فريق ، صدارة واحدة من الرتب الملكية (خديو مصر) ، 14 وزيرا (رتبة مدنية تعادل مارشال) ، 6 بالا (رتبة مدنية تعادل فريق أول) ، 6 روملي (رتبة مدنية تعادل فريق) .

والوضع في 1907 كما يلي : مشير بحري (أميرال كبير ، 3 مشير (مارشال) ، 2 فريق أول ، فريق ، صدارة واحدة (خديو مصر) ، 9 وزراء ، 10 بالا ، 6 روملي ، 1٠ أولى (رتبة مدنية تعادل فريق)

4 – استانبول

كانت استانبول من 1520! إلي 1820 (مدة تقرب من 3 عصور) أكثر بلاد العالم كثافة في السكان. إن نفوس استانبول في العهد البيزنطي ، من أوائل العصر 6 وحتى السنوات الأخيرة من العصر 12 ، تراوحت بين 000 1000 نسمة ، وتجاوزتها قليلا في بعض الأحيان . شتت الاجتياح اللاتيني هذه النفوس تماما (M. Andreades, De la population de Constantiropie Sous Empereurs Byzantins, Metron, Rovigo, 1920, I, NO 97) إذا كان عدد السكان داخل السور الذي فتحه فاتح عام (1453) ، 000 50 يمكن عندئذ تقدير عدد سكان البوغاز وسواحل مرمرة ، والجزر ، وإسكدار ، و أيوب مع نفوس الساكنين داخل الحدود الحقيقية لمدينة استانبول 000 150 . ومن الممكن كذلك القول بأن عدد النفوس هذا قد تجاوز الـ 000 300 في 1478 ، ويحتمل أنه قد أقترب من 000 400 . كان 000 148 من هذا العدد داخل الأسوار . وكان 000 90 منهم تقريبا مسلمين و 000 58 مسيحيين (قليل جدا من الموسويين) .

وفي 1520 يتوقع أن يكون عدد سكان استانبول الكبري قد بلغ 000 800 نسمة . إن إحصاء النفوس لعام 1577 بعد إحصاء عام 1478 موجود لدينا وقد أشرف إعلى هذا الإحصاء قاضي حلب زكريا أفندي (عثمان ، مرآة جهان ، 46) .

بالنسبة إلى هذا الإحصاء ، كان تقسيم الأزقة في مدينة استانبول كما يلي : 973 3 زقاقا مسلما + 585 4 مسيحيا + 585 2 موسويا . والحقيقة أن عدد سكان المسلمين كان يفوق هذا العدد بسبب تجمعهم في الأماكن كالسرايات والتكنات .

كانت توجد 1 653 مدرسة ابتدائية ، 485 جامعا ، و 4 494 مسجدًا ، و 948 سبيلاً ، و 4985 حنفية مياة مبنية ، 150 تكية كبيرة و 285 تكية صغيرة ، و 285 فرنا ، و 743 كنيسة وأبنية أخرى كثيرة . كانت مدينة مليئة بخليط من كل الأجناس البشرية .

وفي العصر 17 كان في المدينة من العبيد والجواري ما يقرب من 20 000 بولوني ، وما يقرب من 20 000 روسي وأوكراني . وقس علي ذلك بالنسبة للأجناس الأخرى .

وفي الإحصاء الذي أجراه مراد الرابع عام 1638 تم تعداد 9 990 زقاقا يسكنها مسلمون و 957 مسيحيون ، و 304 روم أرمن 27 و 17 زقاقا إفرنج (أوروبي) ، و 74 جامعا سلطانيا ، 1985 جامعا ، و 6 665 مسجدا ، و 19 مطبخا عاما (عمارت) ، 9 مستشفيات ، و 1993 مدرسة إبتدائية ، و 180 مدرسة (دينية) ، و 979 منزل مسافرين كبير (كروانسراي) ، و 686 خانا (اوتيلا) ، و 91 مضيفة ، و 557 مطبخا عاما ومضيفة ، و 55 مخزن مياه ، و 155 سوقا ، و 200 سبيل ، 22 073 محل وضوء وحنفيات مياه مبنية ، و 600 فرن وما شبه ذلك (أولياء ، 1 ، 510) .

لم يتجاوز عدد سكان المدينة في العهد العثماني في أي وقت من الأوقات المليون والنصف (Buyuk Istanbul) .

ويمكن القول إن المدينة وصلت في 1680 إلى الحد الأعلى في السكان .

يقول الجغرافي الأرمني الشهير إينجيجيان في 1804 « يتجاوز نفوس المدينة المليون ، لكن 400 000 منهم فقط أتراك ، و 300 000 روم ، و 300 000 أرمني ، أكثر من 10 000 موسوي ويوجد عدة آلاف من الأوروبيين » (ص 14 ، 25 ، 35) ، ويضيف أنه توجد 1 255 مدرسة ابتدائية ، و 518 مدرسة (دينية) ، و 490 جامعا ، و 4 494 مسجدا ، وأن 10 جوامع تعتبر من أكبر وأشهر الأبنية في العالم . ويوضح أن أستانبول ليست أكبر مدينة تركية فقط وإنما هي في الوقت نفسه أكبر مدينة يونانية وأكبر مدينة أوروبية .

وفي 1638 ، يقول أولياء جلبي إن 40 000 شخص يعيشون في سراي طوبقابو والأبنية التابعة له ؛ 12 000 منهم حرس (بوستانجي) ، وإنه يوجد في غلطه ـ بك أوغلـو 200 000 « كافر » مع نحو 60 000 « مسلم » و 1 160 زقاقا ، و 8 أسواق ، و 3 080 دكانا ، وإن الروم يشكلون أكثرية الكفرة ، والبقية الصغرى من الأوروبين ، والأرمن ، واليهود . ويمكن تقدير عدد السكان في الجانب الأناضولي من المدينة بـ 500 000 شخص (أولياء ، 3 ، 76) .

إن ميزة مدينة استانبول هي تناثرها ، وانتشارها على مجال واسع جدا ، بشكل شرائط وليس بشكل مجتمع .

وطبعا إن أكبر ميزة لها ، هي كونها المدينة الوحيدة في العالم التي تقع في قارتين . ويقدر أن ثلثي نفوس استانبول عاشوا في الجانب الأوروبي ، وثلثا في الجانب الآسيوي .

الساحل الغربي من مضيق (بوغاز) استانبول أوروبا (روملي) ، والساحل الشرقي منها آسيا (أناضولي) ، وتشكل إسكدار ، النواة في جانب آسيا ، وتشكل النواة في الجانب الأوروبي المدينة الأصلية التي تسمى « نفس استانبول » التي تقع في جنوب الخليج . ويطلق اسم غلطة وبك أوغلو علي القسم الشمالي من الخليج ، وأيوب علي القسم الواقع على السواحل الشمالية من الخليج . ثم تأتي الأماكن المسكونة التي تصطف على طرفي ساحل بوغاز إيجي ، وهي التي أخذت من البيزنط كقرى قليلة السكان وفي حالة يرثى لها ثم أصبحت قصبات سكنية فخمة تنتهي في قصبتي روملي قاواغي وأناضولي قاواغي علي مقربة من البحر الأسود .

ومن ناحية أخرى ، تمتد أسكدار بمحلاتها السكنية على طول مرمرة ، حتى جسر بوستانجب في الساحل وفي الداخل .

أما نفس استانبول في الجانب الأوروبي ، فتمتد كذلك على طول ساحل مرمرة حتى كوجوك جكمجة . والمدينة التي تبقي داخل هذه الحدود كلها هي (استانبول الكبرى) .

ذكر سفير البندقية في استانبول Contarini (Relazioni ، 1 ، 337) أن عدد سكان المدينة « يتجاوز الـ 000 1000 » (1640) ، وذكر سفير بندقي آخر Civrano (Relazioni ، 2 ، 268) أن العدد « 000 800 » (1680) ، وذكر General Miranda (ص 56) إن « عدد السكان 000 100 1 ، وأكثر من ذلك يعد مبالغة » ، إلا أنه يوضح أن عدد السكان نقص بما يقارب 000 200 نسمة نسبة لعدد السكان السابق بسبب الحرائق . ومن الممكن القول إن عدد سكان استانبول الكبرى شارف لفترة من الزمن 000 000 2 . وعلى العموم فإن العدد يتراوح بين 1 و 1.5 ، مليون في العصر 19 ، ومن 1915 إلى 1930 تناقص عدد النفوس بصورة مستمرة حتي هبط في 1927 إلى 000 691 : ثم أصبح 000 741 (1935) ، و 000 794 (1940) ، و 000 844 (1945) ، و 000 010 1 (1950) ، و 000 215 1 (1955) ، و 000 460 1 (1960) ثم زاد باطراد جنوني حتى وصل إلى أرقام لم يصل إليها في التاريخ أبدا ، فقد وصل في 1985 إلى 5 ملايين .

قال نابليون : « لو أصبحت الكرة الأرضية دولة واحدة ، فيجب أن تكون عاصمتها استانبول » (جودت ، 1 ، 37 ، 356) . أما بطرس الكبير فإنه يستهل البند التاسع من وصيته بما يلي : « الذي يحكم استانبول يحكم العالم أجمع . هذا رأي لايمكن مناقشته . إن الدولة الأكثر قربا من استانبول ، هي الدولة ذات المستقبل الباهر » .

أدهش موقع استانبول الفريد ، السائحين الأوروبيين كافة . وقد امتدح جميعهم – دون استثناء – جمال موقعها ، والتناسق في منظرها وآثارها ، وتفوق مينائها من الناحية العملية . إن كونها أكبر مدن العالم كثافة في عدد النفوس ، وكونها مركزًا للإسلام ، جعلاها على الدوام بؤرة للإعجاب والتقدير . إن الدولة التي كانت هي عاصمة لها ، طوّرت استانبول من النواحي الفنية والثقافية حتى في فترة انحطاطها « Robert Mantran ، 322 ، 20) .

لاتوجد في العالم أجمع ، مدينة ثانية موقعها الجغرافي ملائم كاستانبول Devrinde Istanbul Kanunl Pedro ، 178 ، 182 » .

« كان أمل كاترينا الثانية في الحياة أن تشاهد استانبول ولو مرة واحدة . كانت تكرر دائما إنها سوف تتنكر في زي عاملة ألمانية وتزور المدينة . ماتت وهي آسفة على عدم تحقق رغبتها » (Gerard de Nerval, 39, 40, 1843) .

« استانبول هي عاصمة العالم . ولايوجد ما ينافسها في موقعها الجغرافي . يتفق الجميع على أن هذا الموقع فريد على وجه الأرض . أن بوغاز إيجي (البوغاز ، المضيق) قد أضفى رونقا خلابا على أجمل ميناء في العالم . ولقد تأسست استانبول على 7 هضاب كما في العهد البيزنطي (Hallert ، Atlas ، 53 ب ، 55ب ؛ 1844)

Constantinople n'a pas de rivale Sous la rapport de la situation . Tous Sont d'aecord :) C'est une Position unique. Ce Canal lui Forme un des plus beaux port du monde . Comme la Romeantique, elle Oecupe sept collines) .

يصف البارون فون هامّر Hammer ، أعظم مؤلف في التاريخ العثماني ، قدومه الأول إلى استانبول بتاريخ 1 / 7 / 1799 في مذكراته(Erinnerungen ، فيينا 1940 ، ص 37 ، 40) فيقول : بهرت عيناي ، دهشت وأعجبت . نموذج مبعثر للغرابة ، كانت لوحة

Naples et tous ses enchantements, comparer quelque chose ce magnifique et gracieux ensemble, c' est injurier la creation) .

يعّبر سفير الولايات الأمريكية المتحدة Morgenthau (ص 57) عن إحساسه عند دخوله بوغاز إيجي (منطقة المضيق) بالجملة التالية (1913) : « لم تشاهد عيناي أبدا منظرا على هذا القدر من الجمال » .

يصف نيكولاي Nicolay الذي قدم إلى استانبول في النصف الثاني من العصر 16 ، أحوال ميناء إستانبول بالجمل التالية (118, Voyages) : « في ميناء استانبول فيه جمال لايمكن أن نعثر على مثيل له في العالم ، وهو فريد من ناحيته العملية كذلك ؛ له مجال واسع جدا يبلغ 4 – 5 أميال . عرضه في المدخل يقارب الميل الواحد في بعض الأجزاء ويقل إلى نصف الميل في أجزاء أخرى ، عمقه عملي جدا بحيث تتمكن أكبر سفن الشحن من الاقتراب تماماً إلى الأبنية الساحلية » .

أما أولياء جلبي ، فيقول : تعمل في الميناء 800 سفينة ، 8000 برمه جي (ملاح زوارق الغناديل) ، 7000ملاح زوارق .

ويسجل Grelot أن 16 000 زورق وقارب – ويقول Fermanel 15 – تسير باستمرار في طرفي الساحلين وتحمل البشر والبضائع وهذه الأرقام تؤيد الأرقام التي قدمها جلبي .

إن كون استانبول أكبر قاعدة بحرية للإمبراطورية إضافة إلى أن بها أكبر معمل للسفن العسكرية ، تظهر أهمية البحر بالنسبة لمدينة تقع وسط البحر .

كان عدد العاملين في المعمل في العصر 16 ، 000 30 فورس (أسير يعمل بالأجرة) ، أرتفع هذا العدد في العصر 17 إلى 000 48 . لم يستطع أي عامل أسير الهروب من المعمل أو إحداث أي شغب . كان بإمكان المعمل استيعاب 110 ، وفي أقوال أخري 150 هيكلا للسفن في آن واحد (أولياء ، 1 ، 417) .

كان هناك سوقان للبحارة ، في غلطة وفي أمين أونو ، تبيعان كل أدوات السفن ، والتي لا يمكن أن تخطر علي البال ، لأصحاب السفن والبحّارة العثمانيين .

كتب Tournefort في نهاية العصر 17 مايلي (1 ، 464 – 5) إن استانبول من أكبر

المدن المبهجة والمفيدة في الكون ، كما يشهد على ذلك المؤرخون القدامى وجميع السواح حاليا (la Plus agréable et la plus avantageuse de l'univers) وكأن خيرات مضيقي جناقلعة والبحر الأسود وخيرات العالم من مختلف أمصاره خلقت لنقلها إلي هذه المدينة . تكدس في هذه البلدة العظيمة خيرات المغول ، الهند ، أقصى الشمال ، واليابان ، بواسطة البحر الأسود ؛ وخيرات الجزيرة العربية ، مصر ، الحبشة ، سواحل أفريقيا ، الانتيل ، أوروبا ، بواسطة البحر الأبيض .

إن الغناديل الظريفة التي تسمى « برمة » Perme الخاصة بالبوغاز والزوارق الكبيرة التي تسمي « قايق » ، كانت تؤمن المرور في بلدة تكتسب تلك الأهمية البالغة في المرور البحري الداخلي .

كتب أولياء جلبي (1 ، 553) أن 8000 برمه جي (ملاح الغناديل) يشغّلون 4614 عند أول مسجل في الميناء . وجاء في سجل أرشيفي مؤرخ في 1802 (Tarih dergisi ، 16 ، 127) أن 6 572 ملاح زوارق يشغلون 3 996 زروقا وغندولا وتسجل أسماؤهم فردا فردا مع أسماء كفلائهم . إن 189 5 من هؤلاء الملاحين مسلمون ، ومنهم 924 مسيحيًا ، و 464 يهوديًا ، وإضافة إلى ذلك يوجد 189 1 ملاحا ليسوا أصحاب زوارق ويعملون عند الحاجة لكنهم مسجلون كذلك لدى إدارة ميناء استانبول ويطلق عليهم اسم «. آيلاقجي » .

يرغب غالبًا في هذا العمل أهالي شرق البحر الأسود .

« يجلس المسافر الذي يركب الزورق على وسادة في مؤخرة الزورق ويتكيء بظهره علي القارب .

الجدافون لونهم نحاسي ، يرتدون القمصان الحريرية والحزام الأطلسي . مؤدبون وطيبون جدا . يقبلون على مهنتهم في رضا ، وكأنها ضرب من الفن الجميل » (Gerard de Nerval ، ص 87 ، 1843) . « توجد الآن سفن بخارية كثيرة في البوغاز ولكن سير الزوارق التي تروح وتغدو كالريح في البوغاز بأعلامها الحمراء ذات الهلال والنجمة وكأنها شارع فخم يسير في البحر ، منظر يستحق المشاهدة . (Von Moltke ، 120 – 1؛ 1837) .

لايوجد موقع على وجه الأرض فيه تنوع الأسماك وطعمها اللذيذ كما في البوغاز .

يقول Gyllius في العصر 16 مايلي : « إن مارسيليا ، البندقية ، وتورنتو ، مشهورة بأسماكها . لكن استانبول تتفوق علي كل هذه المدن .
يمتليء الميناء بزوارق السماكة التي لا تحصى القادمة من كلا البحرين . إن وفرة الأسماك تدعو إلى العجب . إن شبكة واحدة تملأ 20 قاربا بالأسماك . لكن الأتراك مولعون بلحم الغنم إلى درجة كبيرة ولا يأكلون السمك بكثرة . هذه الأسماك الوافرة والحيوانات ذات القشور يأكلها غير المسلمين القاطنين في استانبول » .

الحقيقة أن سوق السمك في استانبول محل يستحق المشاهدة . إن سوق غلطة (بك أوغلو) ، أجمل من سوق استانبول (أمين أونو) . يصاب المرء بالدهشة من كثرة أنواع الأسماك . تباع الأسماك فقط في هذين السوقين » (Tourne fort ، 1 507) .

« أخرجوا الشباك من البحر أمام عيني ، ولو لم أشاهد ذلك بنفسي لما صدّقت . كانت الشبكة تحتوي على نصف مليون من سمك الأسكمرو Uskumru وهذا يعني 1000 ليرة ذهب » (Von Moltke ، 75 ؛ 1836) .

أجود وأنفس أنواع الأسماك في استانبول هو سمك قيليج (سمك السيف) ، لورك Levrek ، باربونية Barbunye ، ثم تكير Tekir ، قير لانغج Kirlangiç وأمثاله ، وأيضا الاستاكوز istakoz والقريدس Karides والمحّار . حاول أحد أرقى المطاعم في استانبول ، إطعام كاتب هذه السطور شيش سمك القرش على أنه سمك السيف .

كانت أحب أكلة لدى محمود الثاني ، هي شيش سمك السيف .

يجب أن أشير إلى أن الذي سيزور استانبول لأول مرة بعد قراءته ملاحظات السائحين القدامى التي دونتها آنفا سيصاب بالخيبة نسبيًا ، فالمدينة كانت على تلك الدرجة من الجمال ، وقت كان عدد سكانها مليونًا ، ومن الطبيعي أن يختلف الوضع عندما يصبح سكانها خمسة ملايين من النفوس . لقد سببت العقلية القاصرة عن تفهم القليل من فن الذوق والجمال الكثير من القبح ، هدمت لآلئ الفن العماري العثماني وشيّدت مكانها كتلا كونكريتية .

تصّوروا مدنا كلندن و باريس تعرضّت لمثل هذا ... كيف تصبح حالها ؟! ...

في عصور العظمة ، كانت تهدم فورًا المباني التي تشوّه الناحية الجمالية للمدينة والتي ليست متينة . يخرج 140 مفتشا معماريا يوميا لتفتيش الأبنية في إستانبول (أولياء ، 1 ، 627) . كان مائة ألف من النفوس في ذلك العهد يعتبر كبيرا جدا ، ناهيك عن المليون والمليونين . إن المستوى الحضاري الذي يفرض رصف الطريق البري الذي يربط إستانبول بأدرهة في العصر 16) (وهو من أشد الطرق زحاما في العالم) ، بصورة كاملة (الراهب البولوني Simeon ، ص 23 ؛ 1611) – لمستوى يستحق الاحترام الزائد . إن إنجلترا لم تشرع في إنشاء الأرصفة في مدينة لندن إلا في عام 1824 . ولم يشيد نابليون أول مجزر لذبح المواشي في باريس إلا عام 1813 ، وكان ذلك بعد عصور طويلة من إنشاء العثمانيين لهذه المجازر .

ولكي تتعرف على مدى تأخر لندن وباريس أكبر مدن العالم تطورا حتى 1850 ، من ناحية الإثارة وتوزيع المياه ولنرى أي درجة بدائية كانوا عليها ، انظر Halier ، L' Ancien Regine et le Monde, Contemporain(1715 – 1870) ، باريس 1966 ، ص 198 .

يلاحظ أنه بعد أن تطورت الخدمات البلدية في المدن الأوروبية بعد 1850 ، لم تتمكن المدن العثمانية ومن بينها استانبول من مسايرة هذا التقدم ؛ لأنها لم تكن تستطيع الإنفاق على هذا التطوير .

كانت إنارة عدة شوارع في لندن بغاز الاستصباح في 1813 لأول مرة في تاريخ الكرة الأرضية ، وبعد فترة في باريس ، إحدى أكبر الانقلابات في بناء المدن .

أنيرت المدن الغربية خلال الفترة 1850 إلي 1860 بغاز الاستصباح وأصبحت تتلألأ نورا .

أُسس معمل توليد غاز دولمه بقجه في استانبول في 1853 . وأنير سراي دولمه بقجه ، حدائقه وشوارعه . ثم أنير جاده كبير (شارع الاستقلال) بغاز الاستصباح في 1856 . واعتبارًا من عام 1856 ، بدأت استانبول في وضع لوحات تبين أسماء الشوارع ، وفي بك أوغلو تم إنشاء فنادق كبيرة على الطراز الغربي ، وكازينوهات ، وافتتحت المطاعم . وفي 1864 ، افتتح معمل توليد غاز الاستصباح الثاني في قوزغونجق ، وفي 1880 / افتتح المعمل الثالث في يدي كوله ، وفي 1891 افتتح الرابع

في حسن باشا وشاعت الإنارة بواسطة الغاز . ولايفوتنا أن نذكر أن الإنارة بالنفط وحتى بالشمع ، قد استمرت إلى عهد قريب في المناطق الفقيرة من إستانبول .

وفي ك 2 / 1875 ، أسس خط مترو قره كوى - غلطه الذي يسميه الأتراك « تونيل » ، وهو المترو الوحيد في تركيا حتى الآن . استفاد الشعب كثيرا من هذا المترو لاختراقه مرتفعا عاليا جدا .

مدت السكك الحديدية في إيلول 1869 وبدأ النقل بواسطة الترام الذي تسحبه بغال مجرية ضخمة ، وقد حول في شباط 1914 إلى ترام كهربائي . وقبل 1908 ، كانت الكهرباء والسيارات موجودة في المنطقة التي تحيط بسراي ييلدز فقط . ورغم أن الإنارة بالكهرباء دخلت سلانيك بيروت وأزمير منذ مدة طويلة ، فإن الإنارة الكهربائية ، وسيارات الأجرة (التاكسي) لم تقم في استانبول إلا اعتبارا من 1908 .

أما حاجة المدينة إلى الماء فقد رصدت في جميع الأدوار مبالغ كبيرة لتأمينها . دهش فاتح عند دخوله المدينة ، لاكتفاء أهلها بمخازن المياه تحت الأرض ، جلب لهم المياه .

إن آخر إنجاز عثماني كبير هو مياه حميدية التي أسسها عبد الحميد كخيرات من جيبه الخاص ليستعمله فقراء إستانبول ، وكان صالحا للشرب والاستعمال . ومازال كذلك حتى اليوم . وفي غضون 1850 ، جهزت إستانبول باللاسلكي ، والسكك الحديدية ثم الهاتف .

إن كارثة استانبول الكبرى هي الحرائق . والسبب الرئيس في هذه الكارثة هو شغف العثمانيين بالسكن في البيوت الخشبية (عدا الأبنية العامة التي تبنى بالحجر) . هناك حرائق كبيرة أحرقت أكثر من 80 000 دار . أما الكوارث الكبيرة التي حدثت بعد ، فهي الهزة الأرضية في 1894 ، وحرائق 1908 ، 1911 ، آذار 1918 ، 13/ 6 / 1918 .

كان أمن أستانبول جيدا للغاية . كان معدل الجنايات في عهد القانوني جناية واحدة في السنة . تسببت الإنكشارية في الإخلال بهذا الأمن في الربع الأخير من العصر 18 والربع الأول من العصر 19.

يمتدح Sir James Porter في 1769 (ص 311) شرطة استانبول The polis of the great city of Constantinople is admirable. No riots, no mobs, no desorders are known in the street).

يقول Thevenot في 1665 (ص 112) إن عدد المدينة بلغ المليون وأنه حدثت خلال السنوات الأربع 4 جرائم قتل .

نفي Du loir في 1654 وقوع جرائم القتل في استانبول وذكر أنها نادرة الوقوع خارج استانبول (ص 188) .

يذكر De la Montraye في 1727 أنه مكث في استانبول 14 عاما لم يسمع خلالها بحادث سرقة واحد ، وأن 6 من الأشقياء أجلسوا على الأوتاد ، وكلهم من الروم (1 ، 258) .

يسجل أولياء جلبي ، أن باستانبول 12000 حارس مسئول عن أمنها وخاصة في الليل ، وأنهم يحملون العصيّ فقط كسلاح ، وهؤلاء يعرفون أهالي أزقتهم فردا فردا .

« تُجهل تقريبا في تركيا السرقة ، السلب ، قطع الطرق ، الاحتيال ، النشل . الأمن متوافر في الشوارع وقت الحرب والجند في جبهات القتال بقدر ما هو متوافر وقت السلم . وخاصة في الطرق الرئيسية ، إذ إنه يمكن اجتياز الإمبراطورية من أولها إلى آخرها بسلام ودون التعرض إلي أصغر حادث . الحوادث قليلة ، ويندر وقوع حادث واحد على مدى سنوات .

أردت تدقيق ماهية الأسلوب الذي تتبّعه الحكومة لتأمين أمن كهذا .
وقد توصلت إلى أن الإمبراطورية مقسمة إلى مناطق صغيرة ، وأن بكل منطقة شخصا واحدا مسئولا عن أمنها ، وإلى جانب ذلك السرعة الكبيرة في تطبيق العدالة ، ولا أمل في الإفلات من العقاب ، يرسل مفتش واحد من استانبول في أقل الحوادث أهمية ليقوم بتحقيق الحادث بصورة دقيقة وتتحمل القصبة أو المدينة التي وقع الحادث بكل نفقات المفتش ومصروفاته . وقد تراءى لي أن كل هذه الضوابط لا تكفي لتحقيق أمن كامل ، فالإمبراطورية التركية مترامية الأطراف ، والذي يقدم على السرقة يستطيع أن يهرب

ويختفي في مكان ما ، في مثل هذه الإمبراطورية ، إلا أنني وجدت أن الشعب ـ وبخاصة الطبقة المتوسطة ـ يخشى عقاب الدولة ، ويحاول جهده ألا يقترف مايستوجب العقاب . إن هذه الخشية لم تكن من عقوبة السجن أو العقوبة المادية فقط ، وإنما كانت كذلك من الضغط الأدبي ، إذ إن الشعب ينظر إلى مثل هذا الشخص على أنه قليل الشرف . صادفت خلال سفري أوروبيا يسافر وحده من إستانبول إلى إيران دون أن يحدث أي تغيير في لباسه الأوروبي ، تكلمت معه لأنه بالنسبة لي ، مشاهد جيد ومحايد . استفسرت منه عما جرى له خلال سفره ، فأجاب بأنه قطع القسم الأكبر من الطريق بدخوله بين صفوف الجيش التركي ، وأنه لجأ إلى ذلك لشعوره بأن ذلك أكثر أمنا ، لكنه علم أخيرا بأنه حتى لو لم يعمل ذلك لما مسه أحد بسوء . وسألته عما إذا كان قد تعرض لمعاملة سيئة من قبل الجيش التركي ، فأجاب بأن الجيش التركي لم يكترث به و لم يتلق إخطارا من أي ضابط بالابتعاد عن داخل الجيش .

إن حوادث النشل ، والاحتيال ، والسرقة نادرة للغاية وخاصة في استانبول . سمعت عن بعض حوادث الغش ، وبعد الاستفسار والبحث والتمحيص علمت أن الفاعلين ليسوا أتراكا ، وإنما بلغار وروم .

يلاحظ أن شعب استانبول لم ير ضرورة في اتخاذ أي تدابير أمنية تجاه السرقة ، وهذا طبعا لاعتماده على استتباب الأمن (Sir James Porter ، 1769 ، 2 ، 50 – 3)

« لايمكنكم أبدا أن تصادفوا عملا يحيد عن العدالة أو يمثل ظلما ، ولم أتمكن من تعليل ذلك ، ربما يمكن القول بأن ذلك يرجع إلى الخوف من العقاب ، وإلى التربية الوجدانية ، وقد يكون الأمران معا . ولكن يجب تحاشي المسيحيين الذين يعيشون في الإمبراطورية والحذر منهم ، وأيضا الأوروبيين الذين يعيشون في استانبول . وبخاصة الروم ، فإنهم محتالون جدا » (General Comte de Bonneval ، 1740 =1, 512) .

الأتراك أناس مدنيون جدا . تكفي مشاهدة تفوق انضباط الأمن ، ليس فقط في إستانبول بل في جميع أنحاء الإمبراطورية » (Guer , 2 , 188) .

« إن الأمن مستقر ليلا في إستانبول ، كما هو في النهار . من انادر حدوث سرقة . وفي حالة عدم العثور على السارق فإن سكان ذلك الزقاق يكونون ملزمين بتحمل السداد ، وأن عثر على السارق ، يعاقب بالحبس الشديد . لاتقع تقريبا السرقة المسلّحة ،

إذ إن عقوبتها الإعدام » (Castellan ، 1811 ، 2 ، 221) .

اضطررت خائفا إلى اللجوء ليلا إلى بيت صغير لأحد التركمان لأكون ضيفا عليه . إذ إن مظهرهم كان وحشيا ، لكنني خجلت إثر المعاملة اللطيفة التي لقيتها داخل الدار . وعلمت فورا أنني في أمان كما لو كنت في أفخم فندق أوروبي » (Mac Farlane ، 1829 ، 1 ، 360) .

إن كيفية السيطرة على الأمن بهذا الشكل ، وخاصة في مدينة كاستانبول ، التي بقدر ماهي كبيرة ، فإن سكانها خليط من مختلف الجنسيات والمذاهب ، موضع تدقيق بالنسبة للأوروبي . إن السكون بعد غروب الشمس كان عجيبا ، كأنه سكون مطلق . لاتشبه استانبول المدن الأوروبية أبدا . لم أجد صعوبة في معرفة السبب ، لم يكن في الشوارع أناس كثيرون في الليل ، المرأة لاتخرج ليلا إلى الشارع أبدا ، كان حمل السلاح ممنوعا ، لم يكن الأتراك يشربون المشروبات أو يلعبون الورق (القمار) . ينامون مبكرين . لأنهم مجبرون على النهوض مبكرين . كان المسيحيون يخشون من ارتكاب أية مخالفة وإضافة إلى ذلك فإنهم لم يكونوا كالمسيحيين الموجودين في أوروبا ، إذا إنهم كانوا قد تطبّعوا بالأخلاق العثمانية بصورة أساسية ، تعوّدوا على السلوك مثلهم . كانت تشكيلات الأمن كثيرة في المدن . لكنهم جميعا لم يكن لديهم ما يعملونه . لاتعرف أبدا المبارزة، الانتحار والجرائم المدهشة التي تحدث في المدن الأوروبية الكبيرة . لم أشاهد حتى من ينظر إلى الآخر شزرا (Brayer ، 1836 ، 1 ، 196 – 7) .

« علمت أن معدل حوادث السرقة السنوي في استانبول هو 6 حوادث . وهذا الوضع كان واضحا . كان الإمكان التعرف على مدى الأمان من الناس الذين يذهبون لصلاة الظهر ، تاركين مخازنهم المليئة بالحاجيات الثمينة ، مفتوحة دون أن يغلقوا أبوابها » (الكتاب نفسه ، 1 ، 234 – 5) .

إن معدل حوادث السرقة في استانبول سنويا 4 . منطقة بك أوغلو غلطه ، تبقى خارج هذه الإحصائية . تشاهد هناك سرقات بل وجرائم . إن الأمن خارج المدن ، هو كما في المدن على حد سواء . لم يسمع أبدا ، ارتكاب الجندي التركي سرقة ، إن عقوبة السرقة بالنسبة للعسكري ليست السجن كما عند المدنيين وانما الإعدام رميا

بالرصاص . يجب أن يحكى عن أخلاق الأتراك هذه ، في كنائس لندن في مواعظ أيام الآحاد كنموذج يقتدى به (Ubicini ، 1855 ، 329 – 30) .

يستطيع أي شخص ، ينتسب إلى أي دين كان ، ترك بضاعته الثمينة أو نقوده ، في أي جامع تركي ، دون أن يسدّد أي أجور . توضع في الخزائن الموجودة في الطابق العلوي من الجوامع . يستطيع تسلمها كما هي ولو مضت عليها سنوات . لم تسمع أي شكاية في هذا الشأن (Eudel ، 1872 ، 190) .

في الفترة الكلاسكية كان الضباط الذين يطلق عليهم اسم سوباشي ، يشرفون على الأمن نهارا ويشرف الذين يطلق عليهم اسم أساس باشي على الأمن ليلا .

أما رئيس الانضباط العسكري (الشرطة العسكرية) فكان يطلق عليه اسم محضر آغا . لا يعلم أحد أنه شرطي ، كان لديه شرطيات سرّيات من النساء كذلك .

لا يمكن للشرطي أن يتدخل أو يتعرض بأي شكل من الأشكال إلى شخص لم يرتكب حادثا .

كان طوبجيباشي هو المسئول الأعلى عن الأمن في الطوبخانة (معمل المدافع) ، وقبودان دريا (مشير البحر) مسئولا عن قاسم باشا ، الخليج ، بك أوغلو وغلطه ، وبوستانجيباشي هو المسئول عن الحدائق العامة (البارك) والحدائق .

كان رئيس البلدية (شهر أميني) مسئولا عن الخدمات البلدية أمام قاضي استانبول ، و المعمار باشي ، مسئولا عن نظام الإعمار ، وناظر إسالة الماء عن حاجة المدينة إلى الماء ، وسوباشي النفايات ، مسئولا عن النظافة . والإمام مسئولا عن شرف المحلة .

كان مختار المحلة مسئولا أمام الحكومة ، تسدد عائلة القاتل ، وإن كانت غير مقتدرة على ذلك ، فسكنة محلة القاتل ، إلى عائلة القتيل من 250 إلى 700 ليرة ذهب على حسب سن ووضع القتيل الاجتماعي ، كان ذلك مادة قانونية . وإن حدثت أي عاهة جسمانية ، يسري نظام الدية نفسه .

في العصر 16 كان في استانبول 100 كنيسة أرثوذكسية وغريغوريانية تقريبا ، 12 كنيسة كاثوليكية ، والعديد من معابد اليهود ، وكنائس بروتستانتية تابعة للسفارات

الأوروبية . وقد ظل هذا العدد على حاله تقريبا في العصور التالية ، لم يسمح للكنائس في أي وقت من الأوقات وفي أي حال من الأحوال أن تدق الأجراس . عباداتهم ومراسمهم الأخرى ، كانت كما هي عليها في أوروبا ، كان يجوز للكنائس التي توجد في مدن أو قرى يشكل المسيحيون فيها أكثرية ساحقة أن تدق أجراسها ولكن لايسمح بذلك في الأماكن التي تعيش فيها أكثرية مسلمة .

وقد صرف النظر جزئيا عن هذا الحظر في عهد التنظيمات .

كانت الجماعات المسيحية غير متوائمة معا . بعضها يكره بعضها الآخر . وإن تخاصمت جماعتان تتدخل الشرطة العثمانية وتعاقب المتخاصمين ، وكذلك تأتي بالمسئول الروحي لتلك المحلة لغرض التحقيق ، وإن اقتضى الأمر تعزل المسئول الروحي وتستبدله بآخر . كانت رتبة البطريك (رئيس رؤساء الأساقفة) العالمي في فنر Fener في التشريفات العثمانية وزيرا ، البطاركة الآخرون بكلربك (فريق أول) ، رؤساء الأساقفة سنجق بك (لواء) ، والأساقفة آلاي بك (عقيد) . كانت السلطات العثمانية تعاملهم بموجب تلك الرتب . وإن اقترفوا ذنبا فإنهم يعاملون كما يعامل بقية المسئولين من رعايا العثمانية .

لم يكن جميع الروم الموجودين في استانبول من أصل بيزنطي . كان فاتح قد أسكن في استانبول العائلات الرومية التي قدمت من أدرنة ، غاليبولي ، بورصة ، فيليبة ، ازمير ، سمسون ، سينوب ، طرابزون ، تاشوز ، سمنديرك ، مورا ، وقد توافد في العصر 16 على المدينة عائلات من اليونان ، تراقيا ، الأناضول ، وكانوا يسكنون في محلاتهم التي تمركزت في بك أوغلو ، وجانب روملي من البوغاز وسواحل الخليج . كانت لهم 30 كنيسة تقريبا ، منع تشييد كنائس جديدة ، وإنما كان يمكن فقط إصلاح وترميم القديم منها .

دخل العثمانيون استانبول ، كما دخلوا مدنا كثيرة أخري دون سفك دماء . اقتداء بأسلوب دخول النبي ﷺ إلى مكة .

كان عدد اليهود لدي البيزنط قليلا . والقسم الأكبر من يهود إستانبول هم أولئك اليهود البالغ عددهم 60 000 تقريبا الذين طردوا من إسبانيا والبرتغال نحو عام 1500 و لم

يقبلهم أي قطر في أوروبا ، ثم الذين وافقت العثمانية على طلب لجوئهم ومنحتهم حق المواطنة ، وأسكن القسم الأكبر منهم في إستانبول والباقي في مناطق أخرى كأزمير وسلانيك . لم يكن اليهود يتمكنون حتى من المرور بإسبانيا والبرتغال لعصور طويلة ، والذي يقبض عليه منهم كان يحرق حيًا . هؤلاء هم يهود اسكنازى Eskenazi الذين يتكلمون إحدى لهجات اللغة الإسبانية وكانوا أصحاب نفوذ في إستانبول .

هناك اليهود الذين طردوا من بافييرا والأقطار الأوروبية الأخرى نحو 1470 ، وجاءوا إلى الأراضي العثمانية ، وهؤلاء لم يكن عددهم كبيرا كالسابقين ، وهم يتكلمون اللغة الألمانية الخاصة باليهود التي تسمى ييديش Yidis . وهم موسويون سفارديد Sefaridis . أما موسويو رومانيوت Romaniot فقد كانوا قليلي العدد ، يتكلمون الإيطالية ، قدموا إلى الأراضي العثمانية من إيطاليا . والذين هربوا من أوكرانيا ، روسيا ومن بولونيا وقدموا إلى الأراضى العثمانية ، فإنهم يشكلون زمرة أخرى ويتكلمون الأوكرانية ، ويقال إن أصل هؤلاء ينحدر من أتراك الخزر . أما موسويو قرايم Karaim أو قاراي Karay فإن منشأهم تركي وخزري بصورة مؤكدة وعددهم عدة آلاف ، ولغتهم الأم التركية ، وهم قد جاءوا من قرم وأسكنوا في قره كوي .

أدخل اليهود نظام العمارات إلى إستانبول منذ العصر 16 . كان قسم من حاخامات اليهود يجيد اللغة العبرية ، ولا يوجد أي يهودي عثماني يتكلم تلك اللغة كلغة أم أساسية .

أسس اليهود منذ 1494 مطبعة في إستانبول ، واشتغلوا غالبا بالأعمال المالية .

كان عدد الأرمن في المدينة قليلا جدا عندما فتحها فاتح . جلب عائلات أرمنية كثيرة جدا من أماكن كقيصرى ، طوقات ، سيواس ، بورصة ، أنقرة ، أدرنة وبايبورت وأسكنهم إستانبول . وفي بداية العصر 17 جاء قسم من الأرمن من الأناضول الشرقية . انصرف هؤلاء إلى وظائف كالتجارة ، صناعة الباسطرما (اللحم المجفّف) ، الصياغة ، الصيرفة والموسيقى . كان محل سكناهم على الأغلب في مرمرة ، خليج ، سواحل روملي من البوغاز واسكدار ، كانت لديهم 9 كنائس .

كان البطريك العالمي الأرثوذكسي في فنر ـ استانبول مسئولا أمام الحكومة العثمانية عن كل الروم وبقية الأرثوذكس في الإمبراطورية العثمانية .

وكان الحاخامباشي (رئيس الحاخامات) في استانبول مسئولا عن كل اليهود .

كان البطريك الموجود في استانبول مسئولا عن جميع الأرمن الغريغوغوريان ، وكان تابعا لبطريك إجميازدين غريغوريان Eçmiazdin Gregoryen الذي يقيم قرب روان . ثم استحدثت بطريركية أرمنيه كاثوليكية تابعة للبابا .

كان الأوروبيون (إيطاليون ، فرنسيون ، إنجليز ، وشعوب أخري) يعيشون في بك أوغلو ، ويوجد من بين هؤلاء من لم يشاهد ، لا هو ولا أبوه ولا أمه ، وطنهم الأصلي أبدا . كانت لغتهم الفرنسية . أكثرهم كانوا قد تزوجوا ببنات روميات أرمنيات ، أو يهوديات ، ويطلق علي هؤلاء (Levanten) . وكانت لهم كنائس كاثوليكية .

كان باستانبول مسلمون ألبانيون ، شركس ، إباضة ، بوشناق ، كريتيون (من جزيرة كريت) ، كرجيون ، عرب ، إيرانيون واكراد ، وأقوام أخري كثيرة جدًا . نسي هؤلاء لغتهم الأم وأصبحوا بعد بطن أو بطنين ، أتراكا .. يقول يحيى كال بياتلي أكبر شاعر تركي :

« لم يتم إعمار استانبول علي أيدي السلاطين والاستانبوليين فقط وإنما اشترك فيه أولئك الذين قدموا من أنحاء الوطن كافة ؛ من قونية ومن بورصة ومن أدرنة ، ومن سيواس ، من طوقات ، من أرضروم ، من اسكدار ، من المجر ، من الحجاز ، من بغداد ، من الأراضي المغربية كتونس ، طرابلس ، الجزائر ، من الذين يروحون ويغدون إلي تلك الأماكن أو الذين يقدمون منها ويقيمون في استانبول ، من العديد من المسلمين والأتراك الذين استوطنوا بنسائهم وأطفالهم وشيوخهم . شارك هؤلاء جميعا بفنونهم اليدوية ، بموسيقاهم ، بأشعارهم الشعبية والكلاسيكية ؛ بمهاراتهم في إعمار المدن ، الأزقة ، البيوت والغرف ، بخبرتهم في بناء الجوامع ، والحمامات والقبب ، بحصيلة فنونهم وذكرياتهم التي جلبوها من كل عصر ، كل هؤلاء شاركوا في إنشاء هذه المدينة التي أصبحت مركّبا وخلاصة للتاريخ التركي والجغرافية التركية . لقد أخذ المفهوم ، يسيطر عليّ كلما مرت الأيام وعلمت أن الوطن الحقيقي والمكان الوحيد الذي يسعد الإنسان

فيه هو هذه المدينة التي تشكل روح الوطن بأسره (يحيى كمال بياتلي ، Hatirat ، 51) .

يزور السفراء الأجانب ، بعد حصولهم على الموافقة ، كل الأماكن الدينية ، العلمية ، العسكرية ، الصحية ، الاجتماعية ، الآثار الخاصة باستانبول ، ويجد أكثرهم نفسه مضطرا للاعتراف بعدم وجود مثيل لاستانبول على وجه الأرض (هامر ، 11 ، 151) .

يقدر Pedro أن 50 000 شخص يؤمون المدينة يوميا في العصر 16 (ص 31 ، 136) .

« إن جمال استانبول جمال عالمي . يشعر عالم الآثار ، والشاعر ، والسفير والتاجر ، والأميرة والبحّار ، وأقوام الشمال وأقوام الجنوب بنفس الشعور بالإعجاب أمام هذا الجمال . ويكفي أن نتذكر أهم الكتّاب الذين وصفوا لنا استانبول ، Perthusier عاجز عن النطق . و Tournefort يصف عجز جميع الألسن عن التعبير وPouquevill يشعر أنه انتقل إلى عالم آخر ، و Croix يبدى وله ، و De Marcellus شغوف بها مدله ، ولامارتين يشكر الخالق لإبداعه هذا الجمال وإتاحة الفرصة له لمشاهدته ، و Gauthier لايصدق عينيه . ويكرر Chateaubriand المعنى نفسه ، وأنا كذلك حمدت الباري على إبداعه هذا الجمال . واعجبت بذوق الذين زينوا هذا الجمال بالآثار في تناسق منقطع النظير (Constantinople, Edmondo de Amicis ، 1883 ،2 – 3 ، 17 – 8) .

« استانبول تحتوي على 1200 مدرسة ابتدائية و 518 مدرسة (دينية) و 36 مكتبه متطورة على غرار المدن العظيمة في أوروبا » (Hellert ، 1843 ، 57ب) (L' instruction public est aussi florissant à contantinople que dans nos villes littéraires de l'Europe)

« ترتفع القبب الكبيرة والمنائر بعدد لا يصدق بين الأبنية المعتادة . جميع محاريب الصلاة مكسوة بالرصاص ، وجميع نطف القبب (علامات الأهلة) مكسوة بالذهب » (Grelot ، 1680 ، ص 83 – 4) . « الجوامع السلطانية ، أجمل بدرجة غير متناهية من أياصوفيا (infiniment plus belles) (Hellert ، 156) .

إن معالم استانبول المميزة هي الأسوار البيزنطية التي تحيط بداخل المدينة بطول 20 000 قولاج (مسافة مابين الذراعين إذا فتحتا بشكل أفقي) (Hellert ، 57ب) ، سراي طوبقابو التي بمثابة مدينة ، يدى كوله (سبعة أبراج) التي هي عبارة عن قلعة ذات 7 أبراج ، جسر غلطة المتبقي من الجنويين ، برج بيازيد الذي أمر بصنعه محمود الثاني ، قيز كوله سي (برج البنت) الذي شيّد في عهد أحمد الثالث وسط البحر وفي مدخل البوغاز ، وأخيرا جسر الخليج .

لم يكن في العهد البيزنطي جسر على الخليج . هدم فاتح الجسر الذي شيّده أثناء الحصار لأغراض عسكرية . أراد ابنه بيازيد الثاني تشييد جسر مرتين خلال 1502 إلى 1500 لكنه لم يوفق . افتتح محمود الثاني الجسر الأول (1836/9/3) . قال فون مولتكه الذي مر على الجسر بعد يومين من افتتاحه (ص 61) : « طوله 637 خطوة ، وعرضه 25 خطوة ، لقد غرس في قاعدة هذا الجسر غابة من أجود أنواع الأشجار الصالحة لتكون دعائم إسناد . صنع الجسر في معمل سفن استانبول ، اسمه « جسر خيراتيه » وسمي بعد ذلك « جسر عتيق » كان يصل بين عذابقابو وأونقابوسي . شيدت جسر الخليج الثاني بعد 9 سنوات زوجة محمود الثاني بزم عالم والدة – سلطان التي أوصت معمل السفن بصنعه في 1845 ، وتم نصبه بين قره كوي وأمين أونو . وسمي « جسر جديد » . وهكذا أصبح على الخليج جسران . انسحب نوتية القوارب إلى البوغاز ، لبقائهم في الخليج دون عمل . وبعد 18 عاما رفع السلطان عبد العزيز بن محمود الثاني ، الجسر الذي أطلق عليه الشعب اسم : والده كوبروسي (جسر الوالدة) . وفي 1863 أمر بصنع جسر جديد ، وهو الذي استعمل مدة 12 سنة حتى 1875 . لم يعجب السلطان عبد العزيز بالجسر الذي صنعه ، وأوصى بصنع جسر جديد في 1870 بتكلفة قدرها 000 105 ليرة ذهب ، وتم تثبيته عام 1875 . استعمل 37 عاما حتى 1912 . كانت له 24 طوافة ، حديدي ، طوله 480 م . وعند صنع جسر جديد مكانه في 1912 ، نصب هذا الجسر القديم بين عذابقابو – أونكاباني ، وبقي هناك كجسر ثان مدة 24 عاما حتى 1936 (خدم جمعا 61 عاما) . وكان السلطان عزيز قد نصب كذلك في 1875 جسر عذابقابو – أونكاباني ، تكلف 000 135 ليرة ذهبية . كانت له 26 طوافة ، طوله 480 م عرضه 18 م . تم فك هذا الجسر وتركيبه في 1912 بمكان

جسر قره كوي القديم . أما جسر قره كوي الحالي فقد صنعه الألمان في 1912 وتكلف 350 000 ليرة ذهبية ، وهو مكون من 12 قطعة ، يفتح قبيل الضحى بمدة قصيرة لاجتياز السفن . يقصد الشعب الاستانبولي بقوله « كوبري » هذا الجسر . افتتح في 1940 جسر جديد بدلا من جسر أونكاباني الذي حطمته عاصفة 1936 . أما جسر الخليج الثالث فقد افتتح في 1974 بعد جسر بوغاز إيجي بسنة واحدة .

بدأت المراكب البخارية ، القوارب البخارية ، ووسائط البحر البخارية التي كانت تسمي « موتور » وأخيرا بواخر « شركت خيريه » العمل في العصر 19 . وفي ذات الوقت ، كان لكل مالك دار ساحلية قاربه الخاص ، وفي أواخر العصر 19 زورقه الطويل (KIK) . وهكذا فقد توقف تقريبا استخدام الغناديل التي كانت تحمل الركاب لقاء أجور في البوغاز الذي كان يطلق عليهم اسم « برمنه جيلر » ، وكذلك استخدام القوارب .

تقع « أيوب » ، المدينة الإسلامية الخالصة ، في شمال الخليج كقطعة من استانبول . وهي المنطقة التي كان يفضل منتسبو صنف العلماء السكن فيها ، وكان يطلق اسم « بهاريه » علي قسمها الذي يقع علي ساحل الخليج . في هذه المدينة قبر أبي أيوب الأنصاري خالد بن زيد وجامع كبير شيده فاتح ، وقد جدد سليم الثالث الجامع كله تقريبا . يمنع دخول المسيحيين هذا المكان كما هي الحال في « خرقهء سعادت » (البردة الشريفة) . كانت تجري مراسم تقليد السيف للبادشاه ـ خليفة التي تناظر مراسم التتويج التي تجري للحكام الغربيين داخل مرقد أيوب ، ويقلد البادشاه الذي اعتلى العرش حديثا سيف الرسول ﷺ

تقع محلات طوبخانه في مدخل روملي من البوغاز ، وتقع دولمه بقجه علي مسافة قريبة من شمالها . وهي أراض كبيرة مكتسبة من البحر بواسطة ردمه بالحجارة والتراب ، الأولي ردمها قبودان دريا (مشير البحر) قليج علي باشا نحو عام 1580 ، والثانية ردمها عثمان الثاني في 1620 . شيّد قليج علي باشا جامعه الفخم في قطعة الأرض هذه التي اكتسبت من البحر . وسراي دولمه بقجه الحالي شيّد على الأراضي التي ردمها عثمان الثاني .

يذكر أولياء جلبي ، أنه كان يوجد في استانبول في العصر 17 ، عصر الظرافة والأبهة للمدينة 168 حماما مفتوحا للشعب ، جزء منها حمامات مزدوجة (قسم للرجال وقسم للنساء) . كان أحدث هذه الحمامات ، « جوقور حمام » وبه 110 أحواض . أما سرايات وقصور استانبول ، فكانت تحتوي على مايقرب من 14000 حماما . المعلومات التالية جميعها مأخوذة عن أولياء جلبي :

إن أرق مستشفى للأمراض العقلية في المدينة ، دار الشفقة في فاتح . ذات 80 غرفة ، 80 قبه ، 200 مستخدم ، وصيدلية . كانت لها عيادة خارجية أيضا . كان المرضى الداخليون يُطعمون لحوم طيور الصيد وتعزف لهم الموسيقى يوميا . كانت مقبرة أدرنة قابو ، أكبر مقبرة في المدينة . يدون في سجل المقبرة الخاص أسماء المدفونين منذ عهد فاتح . كانت قطع القبور العائلية مدونة في السجلات . كانت أيوب وسوتلوجة التي تقع على الساحل المقابل لها ، تحتوي على 9 800 دارا سكنيه ، عدة جوامع ، نحو 80 مسجدا ، و 26 ناحية ، ونحو 700 قريه تابعة لملائية أيوب (دالا قضاء اللواء) . كان المسلمون الوافدون من مختلف أنحاء العالم ، بعدزياراتهم قبر أيوب وتبركهم به ، يأكلون رغيف أيوب الشهير ، كبابه ، جبنته البيضاء ، لبنه ، قشدته ولبنه المختر . كانت الجزر الصغيرة الموجودة في الخليج أماكن سباحة للرجال والأطفال . كانت خاصكوي الواقعة في الخليج مدينة لليهود بها 11 محلة يهودية ، 2 محلة رومية ، ومحلة واحدة أرمنية ومحلة واحدة تركية . كانت بها المقبرة الموسوية الوحيدة في استانبول . كان محظورا على الموسويين دفن موتاهم في مكان آخر .

كان في حديقة ترسانة السلطانية الخاصة في خاصكوي 12000 شجرة سرو ، وكانت هذه الحديقة سابقا حديقة لأباطرة البيزنط ، وكان السلطان إبراهيم ، قد شيّد فيها قصرا شبه سراي ، وكانت الحديقة مفتوحة للشعب .

وبالنسبة إلى الإحصاء الذي أجراه مراد الرابع فقد كان بمنطقة قاسم باشا 11085 دارا سكنية 10 محلات رومية ، محلة واحدة أرمنية والبقية .

كان بمعمل السفن (ترسانة) 31000 أسير حرب (فورس) . تجري عليهم أجرة نظرية عن كل يوم عمل ، وبعد اشتغالهم لعدة سنوات يفترض تسديدهم لما يعادل

ما يجب عليهم سداده ، ويعطى لكل منهم كمية من الدراهم ويرسلون إلي أقطارهم . كان أسرى الحرب الممتازون كالأميرال الجنرال الكنت يسجنون في يدي كوله ولا يرسلون مع هؤلاء ، وتخصص لهم غرف حسب درجاتهم ولا يستخدمون في الأعمال ، أما الإفراج عنهم فكان يعتمد على الاتفاقيات التي تعقد مع دولهم ، أو على دفع الفدية من أقطارهم .

يعتبر جامع المشير البحري الوزير الثاني داماد بياله باشا أكبر جامع في قاسم باشا ، وقد عثر على 7 جرار مليئة بالذهب البيزنطي أثناء حفر قطعة من أرض الجامع أنفقها الباشا على إنشاء كلية تحيط بالجامع .

يتجول بحارة المغرب القادمون من تونس بزيهم الخاص وعددهم كبير دائما .

كان يسكن في غلطة وبك أوغلو 200 000 مسيحي ، 60 000 مسلم ، و 1000 يهودي . كانت المنطقة تتكون من 1 160 زقاقا ، وبها 70 كنيسة ، و 8 أسواق ، 3 080 دكانا . لاتوجد فيها حدائق ولا حقول ، ويوجد بها 200 محل مشروبات على الساحل . كانت ملاّئية غلطة تنقسم إلى 44 ناحية . أي أنه كان 44 قاضيا صغيرا يدعي كل منهم « نائبا » تابعين لقاضي غلطة . كان قد تم إسكان المهاجرين العرب القادمين من الأندلس في قره كوي نحو عام 1610 . كان لايستطيع أي مسيحي الدخول إلي محلاتهم ، وإن دخل كانوا يشبعونه ضربا ويخرج نادما على دخوله . إذ إن أمهاتهم وآباءهم كانوا قد أحرقوا في الأندلس لكونهم مسلمين .

كانت محلة طوبخانه تحتوي على 70 زقاقًا للأتراك ، و 20 للروم ، و 7 للأرمن . و 700 قصر يحتوي كل منها علي حمّام خاص . وضعت تماثيل أسود علي البوابة الفخمة لأكبر معمل سباكة علي وجه الأرض والذي يسمى طوبخانه .

كانت بشكتاش مع دولمه بقجه تحتويان على 6 000 دار سكنية ، وأورطه كوي على 2 300 دارا .

وكان ساحل روملي من البوغاز مقسما إلى نواح تابعة لقضاء غلطة .

تحتوي قورو جشمه علي 11 زقاقا لليهود ، و 3 للروم ، وواحد للمسلمين ، وفيها كنيستان و 3 معابد لليهود ، وكان الساحل مليئا ببيوت رجال العثمانية .

عرنا ووطكوي تحتويان على 1000 دار لليهود والروم .

كان القسم الأعظم من بيك حدائق سلطانية خاصة ومفتوحة للشعب ، وعلى هذا المنوال كانت تتوالى قصبات روملي في البوغاز . وأخيرا كانت قرية أناضولي قاواغي تحتوي على 200 مسكن للمسلمين ، وشمالها الأقصى كان يعتبر خارج حدود مدينة ستانبول .

كـان جانب أناضولي من البوغاز يبدأ من قصبة بيكوز بعد قرية كوجوك أناضولي قاواغي . كان عدد المسيحيين قليلا في قصبات ساحل أناضولي . كانت الأكثرية الساحقة مسلمة . كان هذا الساحل مصيفا مفضلا لرجال العثمانية . كان الساحل من أوله إلى آخره مليئا بالسرايات الساحلية لرجال العثمانية وبالقصور الساحلية .

جنكلكوي التي تحتوي كذلك على كثير من الأروام هي أكبر قصبة ، بها 3060 دارا .

كانت مدينة اسكدار تشكل نهاية الجانب الآسيوي للبوغاز في الجنوب ، وكان بها 900 دار تحتوي على 70 زقاقًا للمسلمين ، و 11 للروم والأرمن ، وزقاق واحد لليهود ، 8 جوامع سلاطينية وجوامع ومساجد كثيرة جدا .

كانت المطابخ العامة (عمارت) التي شيدتها مهرماه سلطان ، ونوربانو والده ـ سلطان ، وكوسم والده ـ أكبر مؤسسات خيرية تحيط بالجوامع .

كان بمدينة استانبول 16 ميدانا كبيرًا (ساحة) . وكان بالمدينة 8 سجون ، 4 منها للجُنح ، و 4 للجنايات . لم يكن هذان النوعان من المذنبين يسجنون في سجن واحد . سجّل نحو 300 استانبولي في سجل سوابق النشل ، ونحو 200 في سوابق الدعارة ، ونحو 500 في الشذوذ الجنسي . تستهلك المدينة يوميا 000 30 رأس من الغنم ، ويذبح في عيد الأضحى مايقرب من 6 ملايين رأس غنم .

كان تجار العبيد في استانبول يدفعون للدولة سنويا 5 ملايين آقجه (13 مليون دولار) . كانت خيرة الجواري حسب تسلسل أثمانهن ، الشركسيات الكرجيات ، الإباضنيات واللواتي من أقوام أخرى كن أرخص ، إن لم تكن لهن مزايا خاصة . هناك

جوار وعبيد سود . يجلب في كل عام عدة أطفال ذكور جرى خصاؤهم في أفريقيا ، وهؤلاء يطلبهم السراي فقط . لا تجرى عملية خصاء في استانبول أبدا ، إذ تعتبر خطيئة . وكان قد منع منذ مدة خصاء العبيد البيض منعا باتا .

كان أغنى أصحاب الأعمال هم أصحاب السفن الذين يستوردون السلع من آسيا وأوربا غالبا ، والذين لهم شركاء في الأقطار الآسيوية والأوروبية كافة . كان منهم من يمتلك 50 000 كيس (2.5) مليار آقجه = أكثر من 6 مليارات دولار) ، و 10 سفن كبيرة ، و 7 خانات عمل كبيرة ، وعدة مخازن للبضاعة المستوردة . كان تجار العبيد هم رجال الأعمال الذين يتلونهم فى حجم الثروة .

كانت استانبول تحتوي على أرباب الصناعات من جميع النوعيات . وقد سجل أولياء جلبي أن هناك 12426 عاملا يعملون في 509 أنواع من الأعمال فمثلا هناك نحو من 100 مروّض للحيوانات الوحشية . كانوا يبيعون الحيوانات كالأسود ، النمور والضباع ، إلى السراي بعد ترويضها ، و70 شخصا كانوا يصنعون الساعات ، ونحو 100 شخص يبيعون اللؤلؤ ، و 155 شخصا يبيعون الجواهر الثمينة جداً ، و 600 تقريبا يبيعون الجواهر العادية . وعدا هؤلاء 5000 صائغ تقريبا يُصنّعون الأحجار الثمينة .

كان الأجانب الذين يردون إلى استانبول مستهلكين بدرجة شعب استانبول .

كان هناك كذلك نحّاتون . وكان 1180 فنانا يشتغلون برسم المنمنمات (الرسم المصغر) ، النقش والتذهيب . ونحو 300 مجلّد كتب . وكان بالمدينة 510 مهندسين معماريين ومهندس معمار معيد ، هذا عدا المهندسين الآخرين ، ونحو 6000 رجل و 3000 امرأة أصبحوا حفاظا بعد اجتيازهم امتحانا أمام هيئة الامتحانات ، يكسب هؤلاء عيشهم بقراءة القرآن .

كان هناك 9 469 موسيقيا محترفا و 3 100 راقصو من المحترفين . كان جميع الراقصين المحترفين من الروم الأرمن اليهود والغجر . كانوا يعملون كفرق وليس كأفراد . لايدخل ضمن هذا العدد الراقصات الجواري اللواتي في السراي

كانت الموسيقى أكبر تسلية . وكانت الموسيقى الشعبية معتبرة بدرجة الموسيقى الكلاسيكية .

5 - بورصـــة

تعتبر بورصة مدينة العرش الثالثة ، بعد استانبول وأدرنة وكانت تعامل على هذا الأساس معاملة متميزة . وأصبحت عاصمة فعلية من 1326 إلى 1402 ، ثم اعتبرت بعد ذلك بصورة نظرية ، إحدى مدن العرش الثلاث .

دفن سلاطين العثمانية الـ 8 الأوائل ، من عثمان غازي إلى مراد الثاني في بورصة . ودفن جميع السلاطين اعتبارا من فاتح إلى مجيد الخامس ، في استانبول . قد نجد سلطانا توفي في أدرنة ، ولكننا لا نجد سلطانا مدفونا فيها .

أصبحت بورصة إلى أن فتحها البيزنطيون كمدينة صغيرة ، من أكبر المدن العالمية لذلك العهد وعدا الوضع الاستثنائى لاستانبول في الآثار العثمانية ، فإنها تنافس أدرنة في هذا الصدد ، وقد ظلت عصورا طويلة مركزا عالميا لصناعة الحرير .

حتى نحو 1390 ، كان عدد سكانها قد جاوز 100 000 نسمة ، تضعضعت نتيجة تخريبات تيمور . قل عدد نفوسها عندما انتقلت العاصمة إلى أدرنة .

وقد بلغ عدد سكانها نحو عام 1570 ، 129 000 ؛ منهم نحو 4 000 فقط مسيحيون و 3 000 تقريبا يهود .

بلغ عدد نفوسها في أواسط العصر 17 ، نحو 250 000 نسمة ، ثم بدأ تعدادها يقل بعد ذلك .

كانت تحتوي في العصر 17 على 205 محلة ؛ 176 منها للأتراك ، 357 جامعا ، 683 مسجدا .

كان السراي الهمايوني في بورصة ، لايزال قائما في ذلك العهد ، لكنه كان متروكا وخارجا عن قائمة سرايات البادشاه . لم يبق اليوم أي أثر منه لدرجة أننا لانعرف ماهية المساكن التي أقامت بها شخصيات كلورخان غازي وييلديرم بيازيد .

كانت بورصة مركزا للواء خداوندكار وهذا اللواء كان تابعا لايالة اناضولي التي كان مركزها كوتاهية . يعيّن لها رجال ممتازون جدا برتبة سنجق بك (لواء) وفي حالة ترفيعه ، يصبحون فورا بكلربك (فريق أول) . كان قاضي بورصه ، رئيسا لبلدية المدينة وحاكمها الأكبر . في حالة ترفيعه ، يصبح أولا قاضيا لأدرنة ، ثم مكة أو مدينة ، ثم قاضيا لاستانبول بمرتبة قاضي عسكر . كانت المدينة تنقسم إلى 7 نواح . كانت لها مولويخانة (موقع تجرى فيه المراسم الدينية المولوية) فخمة ذات 80 غرفة ، كان بالمدينة 27 مطبخا عموميا ، 10 أوتيل مجاني ، 70 خانا للمسافرين بعضها به 200 غرفة وعدد كبير من الخانات (عمارات كبيرة) التجارية . كان الماء توافرا بكثرة . ويوجد 2 030 دورة مياه وسبيل ماء في الشارع يصل الماء إلى 23 000 دار . وتحتوي على 9 محلات رومية ، 7 أرمنية ، 6 يهودية ، ومحلة واحدة للغجر . بالسوق السلطاني 9 000 دكان . والبدستان (محل بيع السلع الثمينة) يتكون من 300 دكان . كان محاطا بالكروم وأشجار التوت .

كانت محلة مرادية التي تحتوي على قبر فاتح بورصة أورخان غازي وبجواره أبوه عثمان غازي والتي جعلها مراد الثاني من أعظم الزوايا الروحانية الإسلامية في العالم ، من المزارات الكبيرة ، وفي 1970 ، جاوز عدد سكانها 276 000 وبذلك جلوز عدد سكانها حتى أقصى مابلغته في العهد العثماني . وهي اليوم بعدد سكانها البالغ نصف المليون ، المدينة التركية الخامسة .

أصبحت بورصة في 1844 ، مركزا لإيالة خداوندكار . كانت تتكون من 5 ألوية (بورصة ، قاراسي = بالق أسير ، كوتاهية ، أرطغرل = يله جك ، قرة حصار = أفيون) . إن اللواءين الآخرين (أسكي شهر وأوشاق) اللذين أصبحا حاليا ولايتين ، كانا قضاءين تابعين للواء كوتاهية . كانت مساحة الإيالة 879 81 كم^2 . كان عدد سكانها في 1903، 000 1691 ، % 95. 14 منهم مسيحيون ، % 0.25 موسويون و % 80. 84 مسلمون .

كان بالإيالة 29 قضاء ، 78 ناحية ، 3578 قرية . وتحتوي على 065 660 2 رأس حيوان صغير وكبير (313 ألف رأس من البقر) ، 34 ألف رأس جاموس ، 76 ألف حصان ،8

آلاف بغل ، 8 آلاف جمل ، 128 ألف حمار ، 715 ألف عنز ، 582 ألف عنز انكور ، و 363 1 (ألف من الغنم) .

كانت أربعة أخماس القرى ، تحتوي على مدارس ابتدائية ، وعلى مدرسة متوسطة في مركز قضاء ، وعلى مدارس ثانوية نظامية ومدارس (دينية) في مركز كل لواء . وتوجد كذلك مدرسة متوسطة ومدرسة (دينية) في بعض مراكز النواحي . كانت الإيالة تحتوي على 28 مكتبة عامة ، هذا عدا مكتبات أخرى داخل المدارس .

6 ـ أدرنة .

فتح أدرنة مراد الأول الذي كان قد اعتلى العرش حديثا في 1363 ، أصبحت عاصمة من 1402 إلى 1453 . واستمرت في جميع الأوقات على وضعها كمدينة عرش للإمبراطورية بعد استانبول . سكن السلاطين أدرنة في النصف الثاني من العصر 17 حتى 1703 أكثر مما سكنوا إستانبول وبلغت المدينة غاية اتساع لها ، وأصبحت من أكبر مدن العالم وأكثرها إعمارا . كانت أدرنة أو لواء باشا أيلي ، تابعة لإيالة روملي . تأسست إيالة أدرنة في عهد التنظيمات وكانت تشمل تراقيا الشرقية والغربية كلها وروملي الشرقية .

إن المدينة التي كانت في 1529 تحتوي على 144 محلة ارتفع عدد محلاتها في 1609 إلى 321 (290 للمسلمين ، 19 للمسيحيين و 12 لليهود) .

وفي 1669 كانت تحتوي على 160 محلة ، 28 مكتبة ، 300 جامع ، 24 مدرسة (دينية) ، 220 مكتبا (مدرسة) ، 53 خانا (عمارة) تجارياً ، 8 ارتفع عددها فيما بعد إلى 13 ، 53 منزلا كبيرا (كروانسراي) ، معامل صابون ، نسيج ، عربات ... إلخ ، ويوجد فيها 450 حديقة عامة (بارك) مفتوحة للشعب .

أصيبت المدينة بتلف كبير خلال الاحتلالين الروسيين في 1829 و 1876 ، وفي الاحتلال البلغارى في 1913 ، والاحتلال اليوناني في 1919 . وهي بعيدة اليوم جدا عما وصلت إليه في وفرة عدد السكان خلال جميع العصور العثمانية .

تلك المدينة التي كانت تحتوي على سراي همايوني أوسع من سراي طوبقابو ، كان

عدد سكانها قبل الفتح قد وصل مابين 150 إلى 200 ألف نسمة . لم يبق محل واحد من محلات توزيع المياه (سبيل) الثلاثة عشر التي كانت في المدينة ، بقي القليل من دورات المياه الـ 124 .

أسست المدينة في الموقع الذي يلتقي فيه رافد آردا بنهر مريج ، علي ارتفاع 41 م عن مستوى البحر ، ويلتقي نهرا أوزونجة وطونجة ، بمريج في ذات للموقع أيضا .

الجوامع السلطانية في أدرنة هي جامع خداوندكار الذي شيده فاتح أدرنة مراد الأول ، جامع ييلديرم الذي شيّده ابنه بيازيد الأول ، أسكي جامع أو أولو جامع الذي شيّده أولاد الأخير سليمان الأول ، موسي خان و محمد الأول ، وجامع مراديه الذي شيّده مراد الثاني وخاصة جامع دار الحديث ذا الثلاث شرفات الذي شيّده هو أيضا ، جامع بيازيد الذي شيده بيازيد الثاني ، جامع طاشلق الذي شيّده القانوني وجامع سليميه الذي يعتبر أفخم جامع عثماني وهو الذي كلّف سليم الثاني المعمار سنان ببنائه . وبالنسبة لتعداد عام 1638 ، كان بالمدينة 14 جامعًا سلطانيا ونحو 300 جامع ، 1386 مسجدا في الأزقة والقصور .

وكانت مدرسة أدرنة تقدم خدمات ثقافية بمستوي عال ، وكذلك بدرجة دكتوراة التي تفوق التحصيل العالي .

ينير جامع سليميه 12000 قنديل ، ويدخله ضوء النهار من خلال نحو 250 زجاجة بلورية ونجف . خطّ الكتابات بداخله قرة حصاري حسن جلبي ، أقدر تلامذة قرة حصاري أحمد شمس الدين أمهر خطاطي كتابات سليمانية . مساحة الفناء 180 × 180 قدما مكسو بالمرمر الأبيض وبه 26 عمودا . للجامع 10 أبواب ، وله 4 منائر كل منها ذات 3 شرفات طويلة جدا ورفيعة جدا .

كانت تكية بهلوانلر التي أسسها مراد الأول في 1363 من أمواله الموقوفة ، ناديا رياضيا تجري فيه كل أنواع الألعاب ، طبقت شهرته العالم في العصور القديمة . خرّج أبطالا كثيرين . وكذلك استمرت شهرة دار الشفاء (مستشفي الأمراض العقلية) العالمية الذي أسسه السلطان بيازيد ، لعصور طويلة . كانت بالمدينة في 1653 ؛ 6170 زقاقا ، 700 6 دكان .

7 – روملي .

تأسست إيالة روملي عام 1363 ، كإيالة ثانية بعد إيالة أناضولي . وبينما كان مركز الإيالة أدرنة ، نقل أولا إلى فيلبيه ، ثم مناسطر ، ثم صوفيا .

يقيم والي الإيالة (البكلربك) حسب رغبته في إحدى هاتين المدينتين ، كان بكلتيهما سرايات رسمية .

ويمكن القول بأن الإيالة – عدا الجزر – كانت تشمل شبه جزيرة البلقان بأسرها التي تقع في جنوب ألطونة ، إلا أن تأسيس إيالتي بوسنة في العصر 16 وسيليسترة (Ozu) في العصر 17 ، سبّب تقليص حدود إيالة روملي وقطع ارتباطها بالبحر الأسود ، واستمرت في امتدادها إلى بحر الأدرياتيك غربا ، وإيجه جنوبا . كانت تمتد في أقصى الجنوب إلى البحر الأيوني والبحر الأبيض . وبينما كانت جائزة على المرتبة الأولى في التشريفات العثمانية ، تقدمت عليها مصر في 1517 وبودين (المجر) في 1541 وهبطت روملي في التشريفات العثمانية إلى المرتبة الثالثة .

كان مركز الإيالة أدرنة خلال 1363 –1453 ، ثم فيليبة ، وفي السنوات الأولى للعصر 16 صارت صوفيا واستمر الوضع على ذلك ، أقام الولاة في بعض الأدوار ، في مناسطر .

بلغت الولاية حدها الأقصى بألويتها الواسعة التي يبلغ عددها 32 ، في 1521 . أعطيت بعض ألويتها إلى إيالتي بوسنة وبودين عند تأسيسهما . وتقلصت أكثر ، عند تأسيس إيالتي سيليسترة (OZU) في 1608 ، ومورا في 1715 . نقل مركزها إلى أدرنة في السنوات الأخيرة من العصر 18 وإلى مناسطر في بداية العصر 19 . ثم تأسست إيالات Vidin ، Nis ، Varna ، وأخيرا وحّدت هذه الإيالات وشكلت إيالة طونا (Tuno) في 1864 وجعل مركزها روسجك .

تشمل إيالة طونا – عدا روملي الشرقية وعدا احتوائها على بلغاريا الأصلية ، ألوية دوبروجة ونيش وتطغى بشكل واسع على رومانيا ، وخاصة يوغسلافيا . أما روملي الشرقية (Filibe) ، فقد ألحقت مع ميناء بورغاز بإيالة أدرنة . وتنقسم في مكدونيا إلى قسمين شمالي وجنوبي وشكلت إيالات كوسوفا (Uskub) وسلانيك ، وبينهما إيالة مناسطر ، أما في الغرب فقد تم تشكيل إيالتي أشكودرا ويانيا . وهكذا فإن إيالة روملي التاريخية ، انقسمت في عهد التنظيمات على الصورة آنفة الذكر . وفي 1878 ، تأسست إمارة بلغاريا (إيالة مستقلة ذاتيا) على الأراضي الأصلية لإيالة طونا .

يمكنني هنا استنادا إلى النشرة السنوية لولاية طونا لسنة 1868 (**طونا ولايتي سالنامة سي**) أن أقدم أعداد بعض المؤسسات الإسلامية الفعالة منها فقط .

في صوفيا 44 جامعا ، و 4 مدارس (دينية) ، و 8 مكاتب (مدرسة) ، 18 تكية ،

في شومنو 40 جامعا ، و 19 مكتبا ، و 4 تكايا .

في روسجك 30 جامعا ، و 6 مدارس ، و 9 مكاتب ، و 7 تكايا .

في Vidin 24 جامعا ، ومدرسة ، و 12 مكتباً ، و7 تكايا .

في حاجي أوغلوبازاري 20 جامعا ، و 4 مدارس ، و 12 مكتبًا و تكيتان .

في لوفجة 20 جامعا ، و 4 مدارس ، تكية .

في زيشتوفي 19 جامعا و مدرسة ، و 3 مكاتب .

في فارنا 19 جامعا ، و مدرسة و 12 مكتبا ، و تكية .

في Plevne 18 جامعا ، و 3 مدارس ، و 4 مكاتب ، و 5 تكايا .

في أسكي جمعة 17 جامعا ، و 6 مدارس ، و 6 مكاتب ، و تكيه .

في Kostendil 16 جامعا ، و 3 مدارس ، و 7 مكاتب و 16 تكية .

في نيغبولو 12 جامعا ، و مدرسة ، و 8 مكاتب ، وتكية .

في سيليسترة 12 جامعا ، و 6 مدارس ، و 7 مكاتب .

في Razgrad 11 جامعا ، مدرستان ، 7 مكاتب ، 4 تكايا .

في Pravadi 11 جامعا ، و مدرستان ، و 3 مكاتب .

في Balecik 10 جوامع ، و مدرسة ، و 3 مكاتب .

في Servi 10 جوامع ، ومدرسة ، و 5 مكاتب .

في Samakov 10 جوامع ، و مدرستان ، و 3 مكاتب ، وتكيتان

في Berkofca 9 جوامع ، و مدرسة ، و 5 مكاتب ، و تكيتان .

في عثمانبازارى 8 جوامع ، 3 مدارس ، 8 ، مكاتب ، تكية .

في Vraca 7 جوامع ،ومدرسة و5 مكاتب، تكتيان .

في Lom 5 جوامع ، مدرسة ، تكتيان .

في Tutrakan 3 جوامع ، مدرسة ، 4 مكاتب ، .

في باباداغي 3 جوامع ، مدرسة ، تكتيان .

في Rahava 3 جوامع ، مدرسة ، مكتب ، تكية .

في Jhtiman جامعان ، مدرستان ، تكيتان .

وفي كوسنتجة جامعان ، و 3 مكاتب .

وأنقل فيما يلي عن أولياء جلبي ، وضع بعض المدن المهمة لإيالتي روملي و Silistre (OZU) في أواسط العصر 17 : .

جورلو ، مركز قضاء تابع لأدرنة ، يحتوي على 3000 دار ، و 3 جوامع ، و 12 مسجدا ، و 20 مكتبًا ، و 180 خانا صغيرا .

لولة برغاز ، مركز قضاء في لواء قيرقلارايلى به 700 دار . و 3 جوامع ، و 3 مساجد ، يحتوي على كلية صوقوللو هندسة المعمار سنان ،ومنزل فخم للمسافرين وجسر .

آيدوس ، قضاء قيرقلارايلى ، وبه 1000 دار ، و جامع ، و 4 مساجد ، و 6 خانات

شومنو ، قضاء نيغبولو ، وبه ، 2000 دار ، و 10 جوامع ومساجد ، و 7 مكاتب .

هزاركراد ، قضاء نيغبولو ، وبه ، 1700 دار ، و 17 جامعا ومسجدا .

روسجك ،قضاء نيغبولو ، به ، 200 2 دار .

يركويو ، قضاء نيغبولو ، في الساحل الشمالي للطونة (رومانيا) به ، 600 دار .

زيشتوفي ، قضاء نيغبولو ، وبه ، 300 دار .

وكان لكل من هذه المدن الصغيرة قلاع وجنود .

Nigboluأو **Nigebolu** ، مركز لواء في إيالة أوزو . تقع على جنوب ساحل الطونة ، وبه ، 3950 داراً ، و 26 جامعا ومسجدا ، و 26 مكتبًا ، و 10 حمامات ، و 7 خانات

Silistre ، مركز إيالة أوزو . والي (بكلربك) أوزو يسكن في هذه المدينة . تقع على الساحل الجنوبي من الطونة . إن جميع سواحل البحر الأسود ، من قيرقلارايلى إلى قرم ، السواحل الجنوبية للطونة تشكل إيالة أوزو التي كانت ضمن إيالة روملي في العصر 16 . قلعتها ذات 500 برج ، و 11 برجا عاليا ، و 40 مدفعا ، و 7 جوامع ، و مساجد كثيرة ، مدرسة ، و 40 مكتبا ، و 3 حمامات ، و 48 حماما داخل قصور ، و 10 حنفيات مياه مبنية ، و 20 سبيلا للمياه المجانية .

حاجي أوغلوبازاري ، مركز قضاء للواء سيليستره المركزي ، وبه ، 2000 دار ، و 4 جوامع ، و مساجد كثيرة ، و 11 مكتبًا ، و 3 حمامات ، و 3 خانات ، و 9 حنفيات مياه مبنية .

Mangalya ، قضاء سيليسترة ، و 7 مكاتب ، سوق لبيع الحاجيات الثمينة (بدستان) ، و 3 خانات و ميناء فعّال .

كوسنتجة ، قضاء سيليسترة ، و جامع ، و عدة مساجد ، و 150 دارا ، ورصيف بحري فعّال .

باباداغي ، قضاء سيليسترة ، 3000 دار ، و جامع سلطاني لبيازيد الثاني ، وتكية بكتاشية مشهورة جدا باسم صاري باسم سالطق ، و 3 مدارس ، و 20 مكتبًا ، 8 خانات ، 3 حمامات . ويحتوي على جامع وقبر (1571) شيخ النقشية الشهير

نقّاش - زادة مصطفى جلبي .

أستراباد ، مركز قضاء آخر ذو 1500 دار على مقربة منه .

Karasu ، مركز قضاء آخر ذو 7 مكاتب ، و 7 أسبلة .

أسليمية ، مركز قضاء ذو 12 جامعًا ومسجدا .

يني زاغرا أو زاغرا ينيجه سي ، مركز قضاء به 7 محلات ، و جامعان ، و 5 مساجد ، و 7 مكاتب ، و 3 خانات .

اسكي زاغرا مركز قضاء تابع لولاية جيرمن Girmen ، (أدرنة) كاللواتي مرّ ذكرهن آنفا ، به ، 3000 دار ، و 6 جوامع ، و 11 مسجدا ، و 5 حمامات ، و 855 دكانا ، ونحو 200 قصر .

فيليبة Filibe ، مركز قضاء في لواء صوفيا اللواء المركزي لإيالة روملي . المدينة ذات 3 نواح ، وفوق ذلك ، فإن 9 نواح تابعة لهذا القضاء ، وبه ، 600 80 دار ، كانت تحتوي على 23 محلة للأتراك ، و 6 للمسيحيين ، و 1 لليهود . و 10 جوامع ، و 43 مسجدا ، و 11 تكية ، 880 + 300 دكان على شكل سوقين ، 165 قصرا وحماما ، مطبخان عموميان وجسر كبير . شيّد أول جامع مراد الأول الذي فتح المدينة بعد أدرنة مباشرة في 1363 .

تاتاربازارجيغي ، على ساحل مريج الشمالي . وعلى الشمال الغربي من **فيليبة** التي تقع على ساحله الجنوبي . مركز قضاء في لواء صوفيا . ويحتوي على 8 جوامع ، و 12 مسجدا ، و 876 دارا ، و 7 تكايا ، و 3 حمامات ، و 7 خانات ، و منزل مسافرين كبير (كروانسراي) مقبول إبراهيم باشا الذي يستوعب 5000 حيوان . أسس المدينة جلبي محمد لكن الذي وسّعها هو بيوك إبراهيم باشا .

Ihtiman مركز قضاء في لواء صوفيا ، به 600 دار وتكيتان ، وحمّام ، و عدة جوامع ، و مسجد وحنفيات مياه .

صوفيا ، مقر إقامة الوالي (بكلربك) في إيالة روملي . مخصصات الوالي الذي برتبة

وزير السنوية مليون آقجة (000 700 1 دولار) . تقدّم الإيالة 000 40 تمارلي سباهي . للوزير ، 4 مساعدين بدرجة بكلربك (فريق أول) . يعيش التركمان الذين فتحوا روملي في النصف الثاني من العصر 14 في 8 أماكن منفصلة ، بحالة شبه مستقلة ، ولهم 8 بّكات برتبة لواء (سنجق بك) .

تنقسم الإيالة إلى الالوية التالية ، المركز صوفيا ، كوستنديل ، أشكودرا ، ترهالا ، أوهرى ، آفلونيا ، لآجاحصار ، بريزرين ، فولجترين ، يانيا ، جيرمن (أدرنة) ، مناسطر وقاوالا .

تغيرت الألوية بين الحين والآخر . يعين لواء بحري لقلوالا . يقدم اللواء المركزي صوفيا ، 3000 سباهي . يوجد في المدينة من الجوامع والمساجد ما ينيف عددها على 100 ، لايوجد جامع سلطاني . يوجد نحو 70 سراي تحتوي على حمّامات . بها منزلان كبيران للمسافرين . اثنتان من مدارسها (الدينية) كانت لهما شهرة ذائعة .

لها 4 حمامات جوفية حاره فتحها مراد الأول وتتسع لـ 1000 شخص . تحتوي أيضا على تكية وقبر الشيخ الكبير بالي أفندي الذي عاش على عهد القانوني ، من أكبر شيوخ الطريقة البايرامية وهي من أكبر تكايا روملي . كل شيء في المدينة من أثر العثمانيين ، يقول بعض المؤرخين « إن صوفيا تركية إلى درجة أنه لايمكن أن يرى فيها شيء يرجع إلى ماقبل الأتراك .

اسكي كوسنتجة ، قضاء صوفيا ، بها 700 دار ،وجامع ، 6 مساجد .

جسر مصطفى باشا ، هي المدينة التي أسسها داماد مصطفى باشا ونصب جسرها العظيم ، وشيّد جامعها وكلّيتها . وبالإضافة إلى ذلك ، توجد 6 مساجد . وعلى مقربة منها توجد قصبة **هارمان** التي تسمى Cirmen أيضا . وللواء (سنجق بك) الخيار في الإقامة في أدرنة أو في هذه القصبة .

أسست حفصة والده ـ سلطان والدة القانوني مدينة **حفصة** ، وفي 1576 ، وسّعها صوقوللو وطلب إلى سنان أن يشّيد فيها كلية ، وبها بالإضافة إلى ذلك 7 مساجد .

بابا ايسكي ، مركز قضاء ، يحتوي على 1060 دارًا ، وجامع ، و7 مساجد و7 خانات ،

و 7 مكاتب ، و 3 دكاكين . يقع على الضفة الغربية من رافد بابا ايسكي (بابا عتيق) الذي يصب في أركنه وذو جسر . يحتوي على الكلية التي كلف الصدر الأعظم سميز علي باشا ، سنان بإنشائها .

جتالجه ، قضاء إستانبول ، يحتوي على 5 جوامع ، و 42 مسجدا و 7 تكايا .

قرق كليسة (Kirklareli) ، مركز لواء في إيالة سيليستره (Ozu) .

Varna ، ميناء مهم ذو قلعة كبيرة . يحتوي على 5 جوامع ، و 36 مسجدا . يدخل ميناءه سنويا 1500 سفينة . محلاتها ، 7 للأتراك ، و 1 للروم ، و 2 للأرمن ، و 1 لليهود و 1 للبلغار .

Tulca أو **Tolcu** ، مركز قضاء . ذو 5 نواح في شمال دوبروجا ، وبه 600 دار . يقع على الساحل الجنوبي من الطونة . وعلى مقربة من شماله تقع **إسماعيل** ، مركز قضاء . ولم تعد هذه المنطقة دوبروجا وإنما بوجاق (بيسارابيا الجنوبية) . فتحها إسماعيل قبودان في عهد بيازيد الثاني ، بها 2000 دار .

Akkerman ، قلعة كبيرة وميناء على الخليج الذي يصب فيه نهر تورلا (Dnyestr) . مقر إقامة أمير اللواء (سنجق بك) . استولى عليها بيازيد الثاني من إمارة بغدان وقطع ارتباط الإمارة بالبحر الأسود وجعلها لواء . إيالتها أوزو . يقدم اللواء 500 جندي تمارالي . تحتوي القلعة على 180 مدفعًا كبيرًا جدًّا ذات 13 محلة و 4 جوامع و 17 مكتبًا ، ومدرسة .

Bender ، فتحها بيازيد الثاني تقع على الضفة الغربية من نهر تورلا ، بين آكرمان و كيشينيف . والضفة المقابلة للنهر ، هى أوكرانيا وليست بيسارابيا . هى مركز لواء آخر في إيالة أوزو . يقدم اللواء 3000 سباهي . وإضافة إلى ذلك ، فإنه يوجد في اللواء 500 12 جندي . إحدى القواعد الكبرى العثمانية .

بقلعتها 12 برجا من صنع سنان . هاجمها الروس بـ 6 طلعات بـ 000 100 جندي وارتدوا خاسرين . مثوى للغزاة . بها 100 1 دار و 6 جوامع .

Hotion ، تقع على الساحل الجنوبي من نهر تورلا ، في قطر Bukovina و Podolya

و غاليجيا ، تشكلان الضفة الجنوبية للنهر . مركز لواء إيالة أوزو . قلعة تم الاستيلاء عليها من بولونيا على عهد عثمان الثاني وحصنت بصورة فائقة . استشهد بكلربك (امير أمراء ، والي) بودين الوزير قره قاش محمد باشا مع آلاف الجنود (15 /9 1621) المسجلة اسماؤهم فردا فردا في مقبرة الشهداء ، عندما حاصر محمود الثاني القلعة .

كامانيجة (بالاوكرانيّة : Kamenets - Podolsky) ، قلعة كبيرة في القطر المسمى بودوليا ، تقع على شمال نهر تورلا ، وهي قطعة من غاليجيا . فتحت على عهد محمد الرابع وجعلت مركزا للإيالة .

Kiev ويسميها أهالي القرم « Mingkerman = ألف قلعة » ويطلق عليها العثمانيون غالبا اسم « Korlo » . مدينة أرثوذكسية مقدسة . خضعت للعثمانية بين الفترة والأخرى ، وخضعت على الأغلب لبولونيا ، وخضعت لروسيا في نهاية العصر 17 .

خوجابك Odesa ، ميناء يقع على رأس الشمال - الغربي للبحر الأسود ورصيف على خليج بين قلاع وموانى أوزو و Akkermann . لها قلعة ، مركز ناحية .

Ozu (Oczakov) ، على مقربة من شرق أوديسا ، قلعة وميناء على البحر الأسود . سميت باسم نهر أوزو (Dnyepr) الذي يجري على الشرق منها . ومع أنها تشمل كامل غرب البحر الأسود من قرقلارايلي إلى قرم وأقطار سواحل الطونة الجنوبية ، وكونها مركزا لإيالة أوزو الكبرى التي أسست بعد انفصالها عن روملي ، فإن والي الإيالة يقيم على الأغلب في سيليسترة . إن إفلاق (رومانيا) وبغدان (مولدافيا) ، تعتبران لواءين لهذه الإيالة . هي الإيالة الكبرى الممتدة بين قرقلارايلي وكييف . يقيم بالقلعة 000 10 جندي ، 210 أمراء لواء موظفين لإدارتها . وهذا يبين مبلغ ما أولته العثمانية لهذه القلعة من الأهمية . تحتوي على معمل سفن وأسطول حربي ، و قاعدة عسكرية بها 880 دارا . قلعة قيل بورنو العظمى التي شيدها مراد الرابع ، ترتفع على السحل المقابل لها .

Kili (Kilye) ، قلعة وميناء على الضفة الشمالية من دلتا الطونة ، في شرق إسماعيل . أكبر موضع لنصب الشراك الثابتة لصيد الأسماك للدولة ، تحيط بها 200 سفينة . تستخرج منها جبال من الأسماك ، وهو أيضا من أهم الأماكن التي يستخرج منها بيض السمك (Caviar) من سمك مرسين . بها مركز قضاء ، وجامع ، و7 مساجد ، و 2000 دار .

Hirsova (Harsova) ، مركز قضاء في Dobruea الوسطى ، بها 1 600 دار ، و 17 جامعا ومسجدا .

إيسالا Ipsala ، Inoz (Enez) ، كشان ، مالقارا ، اينه جك ، مراكز أقضية في إيالة روملي .

كاريناآباد أو بويحد Boyhad ، بها ، 1 000 دار ، مركز قضاء في لواء سيلسيترة المركزي في إيالة أوزو .

Ishakçi ، مركز قضاء في إيالة أوزو . في دوبروجا الشمالية على ضفة الطونة الجنونية . الساحل المقابل بوجاق .

شاركوى مركز قضاء في إيالة روملي ، بها 1000 دار .

نيش هو الموضع الذي يلي صوفيا ، بعد شاركوى وموسى باشا بالانغاسي . يقع على الضفة الجنوبية من نهير شلفا فرع موارافا . مركز قضاء به 2 060 دارا ، فتحه مراد الأول 1375 ، به جامع سلطان مراد ، و جامعان ، ومساجد كثيرة ، و 22 مكتبًا ، وتكايا كثيرة ، تحتوي على مقبرة دفن فيها بعض أعضاء أسرة ميهال – زاده لر .

Yogodin ، قضاء في لواء Semendire ، به 1600 دار فتح في 1375 .

بلغراد ، مركز لواء سمندره . يقيم أمير اللواء (سنجق بك) حسب رغبته في بلغراد أو على مقربة من جنوبها في سمندره . لواء تابع لإيالة بودين (المجر) . تبع إيالة روملي أحيانا . من أهم الألوية . يرسل إلى قلعة بلغراد أحيانا محافظ بدرجة وزير . وفي تلك الحالة ، ينسحب السنجق بك إلى سمندره . ورغم محاصرة مراد الثاني و ابنه فاتح وابنه بيازيد الثاني هذه القلعة المجرية 3 مرات ، لم يتمكنوا من فتحها ، وفتحها السلطان سليمان القانوني في أول حملة همايونية له في 1521 . هي البوابة التي تفتح إلى أوروبا الوسطى والمجر . تقع على ملتقى نهرى الطونة وسافا وعلى الجنوب من ضفتى كلا النهرين . قلعتها التي تشتمل على 116 برجا و 5 060 مزغلا ومكونة من 4 طوابق ، تعد من أقوى القلاع العثمانية تحصينا . بها جامع سلطاني للسلطان سليمان ، فاتح بلغراد . وعدا ذلك ، توجد 3 جوامع أخرى . كان يتجمع في أوقات الحملات الأوروبية جيش كامل في بلغراد . يستوعب المخزن الموجود تحت القلعة ، 3 000 أسير عدا الجنود من جميع الأصناف الموجودين خارج القلعة ، فإن لواء سمندره يقدّم 2 000 من جنود

تمارلي سباهي .

يعيش في اللواء نحو 200 000 مسيحي البقية مسلمون . يعد والي المحافظة (سنجق بك) من أهم ولاة المحافظات في الدولة مخصصاته السنوية تبلغ 260 540 آقجة ، وإن نقل من وظيفته ، ينقل واليا لإحدى الإيالات برتبة فريق أول (بكلربك) . يعيش في المدينة والقلعة نحو 150 000 نسمة . من أكبر المدن الأوروبية . تحتوي على 17 000 دار ، 160 سراي وقصر ، و 28 جامعا و 189 مسجدا ، و 17 مدرسة ، و 270 مكتبًا ، و 17 تكية ، و 26 حنفية مياه مبنية ، 600 حنفية عامة ، 8 كنائس أرثوذكسية ، ومعبد يهودي ، 11 000 بئر ، و منازل كبار المسافرين 7 خانات مسافرين (أوتيل) ، و 21 خان عمل ، سوق به 3 700 دكان . يحتوي منزل المسافرين الكبير (كروانسراي) الذي شيّده صوقوللو ، وكأنه قلعة خارج المدينة ، على 1660 غرفة . إن حجم كروانسراي السلطان سليمان مقارب لحجمه. جميع القوافل التي تروح وتغدو إلى أوروبا ، تتوقف في بلغراد . إن مخازن السلع المستوردة و مصانع المدافع الخاصة بالجيش و مصانع السباكة كلها أماكن تستحق المشاهدة . قبر شيخ الإسلام أدنه لي عبد الرحيم أفندي موجود في بلغراد . إن أشاغي شهيد لك ، تحفة للناظرين . دفن فيها آلاف الجنود الذين استشهدوا في محاصرة بلغراد الثانية التي أجراها فاتح 1456 . وفي 1521 ، أي بعد 65 عاما دفن فيها أيضا بأمر السلطان سليمان آلاف من الذين استشهدوا .

Valva ، قضاء سمندره به ، 870 دارا ، و جامع واحد ، 9 مساجد .

يني بازار ، مركز قضاء يتبع أحيانا بوسنه وأحيانا إيالة روملي . حوّله فاتح إلى مدينة . يحتوي على 23 جامعا ، و 11 مسجدا ، و34 مكتبًا ، وتكيتين ، و 49 دورة مياه ومطبخين عموميين ، و 3 000 دار ، وحمامين ، و 1 100 دكان . يحتوي على معامل البنادق ، و المسدّسات ، و الأقفال ، و المطارق الحديدية .

Mitroviçe ، 300 دار تقع بين يني بازار و Pristine .

Vulcitrin ، في ذات المنطقة ، مركز لواء لإيالة روملي . 4 000 جندي تمارلي سباهي بها 2 000 دار و بها جامع سلطاني لمراد الأول . **مشهد خداوندكار** ، هي المقبرة التي دفنت فيها الإحصاء الباطنية للسلطان مراد خان الأول وتقع وسط صحراء كوسوفا ، أحد ثاني الأماكن المقدسة الكبرى للعثمانية في روملي . أكثر الأماكن تقديسا ، هو قبر الأخ

الأكبر للسلطان مراد فاتح روملي ، غازي سليمان باشا في بولاير . تحيط بمشهد خداوندكار ، قبور 10 000 جندي عثماني استشهدوا في كوسوفا ، وكأنهم يحرسون سلطانهم .

Pristine ، وهو أيضا من فتوحات السلطان مراد ، قضاء للواء **Vulçitin** ، في حافة صحراء كوسوفا ، به 2 060 دار .

Kaçanik ، قضاء للواء أسكب ، وهو في الأصل قريب جدا من أسكب .

Uskub ، مركز لواحد من أهم ألوية إيالة روملي . يعين فيه على الأغلب سنجق بك (والي المحافظة برتبة بكلربك (فريق أول) . من فتوحات غازي أفرنوس بك . قضاؤه المركزي ذو 5 نواحٍ ، و 350 قرية . يقدم اللواء 4500 جندي تمارلي . إن مناجم Kratova للفضة والحديد قريبة جدا للمدينة . تحتوي اسكب على أحد أكبر معامل البارود . إذ يتم إخراج نترات البوتاسيوم على مسافة قريبة منه . ذو 70 محلة ، 1 060 دارا ، جامعين سلطانيين لمراد الثاني وفاتح ، و 43 جامعا ، و 75 مسجدا ، و 70 مكتبة ، و 20 تكية ، و 14 مدرسة ، و 110 حنفية مياه مبنية ، و 200 سبيل مياه مجانية ، و 1 060 قصرا ذا حمّام ، و 7 منازل كبيرة ، و 13 خان مسافرين ، وخانات عمل كثيرة ، و 9 مطابخ عمومية (عمارات) .

Kumanova ، مركز قضاء في شمال – شرق أسكب ذو 600 دار .

Kratova ، مركز قضاء في أسكب ، و 800 دار و 350 دكان . من فتوحات افرنوس بك . مشهور بفضته ، يحتوي على مناجم ذات 7 عروق جوفية للفضة الخالصة والبقية مناجم للفضة الممزوجة بالحديد والنحاس . به 20 جامعا ومسجدا .

Kostendil ، مركز لواء في إيالة روملي ، يقع في جنوب – غربي صوفيا ، على طريق صوليا – أسكب ، يحتوي على 1100 دار . و جامع سلطاني للسلطان مراد الأول ، و جامعين ، و مساجد كثيرة ، و 3 مدارس ، و 6 مكاتب ، و 5 تكايا ، وكروانسراي السلطان مراد . مياهه الجوفية مشهورة .

Dobniçse ، مركز قضاء من فتوحات لالا شاهين باشا . **Koprulu** ، قضاء كذلك للواء

كوسنتديل ، على الضفة الشرقية من واردار ، وعلى الجنوب ـ الشرقي من أسكب ، ذو 4 محلات .

Pirlepe ، مركز قضاء ، من فتوحات تيمورطاش باشا ، به ، 1000 دار .

Manastir ، بها **3 000** دار ، و **70** جامعا ومسجدا ، و **9** مدارس . من فتوحات مراد الأول . وهي مدينة كبيرة ، مركز لواء في إيالة روملي . سكن قسم من ولاة إيالة (بكلربك) روملي ، هذه المدينة بدلا من صوفيا .

Florina ، قضاء مناسطر ويقع في جنوبه **6** محلات ، و **1500** دار ، و **17** جامعا ومسجدا ، و **3** مدارس ، و **7** مكاتب ، و خانان ، وتكية .

كسرّية (باليونانيه : **Kastoria** مركز قضاء من فتوحات مراد الأول ، بها جامعان سلطانيان للسلطان سليمان ووالده ـ سلطان ، جوامع ومساجد كثيرة ، **2500** دار ، وهى مدينة رومية على الأغلب وبها **70** كنيسة . وشوارعها ذات أرصفة .

صاري كول Sarigol ، قضاء به **300** دار .

Serfice ، مركز قضاء في شمال ـ غربي يني بازار ، به 1800 دار . و 6 جوامع ، و 6 مساجد و 7 كنائس . هذه الأقضية تقع في لواء Vulcitrin .

Novoberda ، وهو مركز قضاء اشتهر بعروقه الجوفية الثلاثة لمناجم الفضة .

كورشونلو ، يتبع قضاء فولجيترين كذلك .

آلاجه حصار (بالصربية : Kurgujevac) ، مركز لواء في إيالة روملي ، يحتوى على 9 محلات ، و جامع مراد الثاني ، و جامع آخر ، و 7 مساجد ، وتكيتين ، و 3 مكاتب .

Semendire ، مركز لواء في جنوب ـ شرقي بلغراد ، على ساحل الطونه الجنوبي ، في إيالة بودين ، كان سابقا تابعا لإيالة روملي وكان أمير اللواء (سنجق بك) يقيم أحيانا فيها ، وأحيانا يقيم في بلغراد . تبع هذا اللواء العثمانية على عهد ييلديرم بيازيد ، وعلى عهد مراد الثاني ، لكنه فتح بصورة نهائية في عهد فاتح . يقدم اللواء **4 000** جندي تمارلي . قلعته ذات **30** برجا مرتفعا ويحرسها **350** جنديا . به جامع فاتح ، و **4** جوامع ، **20** مسجدا ، ومدرستان ، و**10** مكاتب ، و **4 000** دار . مثوى للغزاة .

Yejan ، مركز قضاء في Ohriو Les ، و مركز قضاء في Dukagin .

اشكودرا ، فتحت مع لش Les على يد فاتح بعد حروب شديدة . تقع على رأس بحيرة اشكودرا الجنوبي - الشرقي . مركز لواء في إيالة روملي . تقدم 4000 تمارلي ، وبها 2600 دار ، و جامعان سلطانيان لفاتح وبيازيد ، و 9 جوامع ، و 70 مسجدا . وقسم من المدينة يقع في الضفة الشرقية من نهر درين Drin . ويقال لاشكودرا « إسكندرية » وكذلك « عرنووط إسكندرية سي » (إسكندرية الألبان) .

Podgorie (بالصربية : Titograd) ، في شمال البحيرة ، قلعة شيدها فاتح بها 300 دار .

Kotor ، **Budva** ، **Bar** ، **Ulgun** (بالإيطالية : Dulcigno) ، **Busat** ، **Mat** ، **Yakova** ، قلاع من فتوحات فاتح أكثرها تقع في منطقة اشكودرا ، قسم منها أقضية (على نهر أدريا) ، أحيانا مراكز ناحية .

Istib ، من فتوحات مراد الأول ، فى شمال مكدونيا ، مدينة تركمانية خالصة بها 2 420 دارا ، و 24 جامعا ، و 24 مسجدا ، ومدرسة ، و11 مكتبًا ، و 7 تكايا ، و كروانسراى . وفيها جامع مراد خان .

Samakov ، قضاء في لواء صوفيا ، 1 700 دار ، و 12 جامعًا ، و 8 مساجد ، ومدرستان ، و 3 مكاتب . بها منجم كبير جدا للحديد . ينقل سنويا إلى الأقطار العثمانية بالبحر عن طريق سلانيك ، 800 عربة من الحديد . فتحها لالا شاهين باشا عام 1370 .

جربان ، مركز قضاء ذو 302 قرية في روملي ، و 600 دار ، و جامعان ، و 4 مساجد ، و 3 تكايا ، و 3 مكاتب .

قنزيل آغاج ينيجة سي ، مركز قضاء ذو 25 قرية ، تابع للواء قيرق كليسة في إيالة أوزو ، يقع على الضفة الشمالية لنهر طونجة شمال أدرنة ، وبه 300 دار .

كوجك أسكب ، قضاء قيرق كليسة ، به 300 دار ، وجامع ، و 6 مساجد .

Vize ، مركز لواء في إيالة أوزو . وفي الجنوب الشرقي منها قرق كليسة ، به ، 300 دار . يوجد في هذا اللواء أيضا أمير لواء (سنجق بك) آخر للعشائر الرحل .

بينار حصار ، مركز قضاء طو ، به 400 دار .

سراي ، مركز قضاء ذو 800 دار في لواء ويزة أيضا .

حلقة لي ، اسمه الكامل حلقه لي بينار ، قريب جدا من استانبول ، يحرس السراي الهمايوني الذي كلف القانوني ، سنان بإنشائه ، 60 بستانجي (حرس عسكري يعني كذلك بالحدائق) داخل الحديقة السلطانية الخاصة .

قيزانلق ، مركز قضاء على مقربة من شمال طونجة ، تابع للواء أدرنة ، وبه 1060 دارا ، ومدرستان ، و 3 تكايا ، وشعبة تركماني .

Lofea ، قضاء في لواء نيغبولو ، من فتوحات غازي ميهال بك ، على عهد مراد الأول ، به 3000 دار ، و 16 محلة تركية ، و 4 بلغارية ، وواحدة يهودية ومحلة واحدة غجرية ، وبه أيضا 7 جوامع ، و 23 مسجدا ، و 3 جسور ، و 3 مدارس ، و 6 مكاتب ، و 5 تكايا ، و 6 حنفيات مياه مبنية ، وحمامان ، و 7 خانات ، و 215 دكانا . جامع هنكار ، جامع سلطاني شيّد بأمر السلطان مراد الأول .

Plevne ، قضاء نيغبولو ، من فتوحات ميهال بك أيضا وأحد مراكز بني ميهال ، به 2000 دار ، وسراي فخم ، وجامع ، ومساجد ، ومدرسة ، و6 تكايا ، و 6 خانات ، و حمّام ، مطبخان عموميان ، أكثرها من أعمال بني ميهال الخيرية .

Vraea ، قضاء نيغبولو ، به 1500 دار و 9 جوامع ومساجد ، ومدرستان ، و 4 حمامات و تكيتان ، 200 دكان .

Vidin ، مركز لواء في إيالة روملي . على الساحل الجنوبي من نهر الطونة . وقالافات Kalafat ، في الساحل المقابل في رومانيا ، تابعة لفيدين . وعلى الغرب منه يصب نهر Timok الذي يشكل حدود لواء سمندرة (بلغراد) لإيالة روملي وإيالة بودين . من فتوحات اقرنوس بك عام 1389 . يقدم 2000 تمارلي . ترسو على نهر الطونة في فيدين 10 سفن حربية . مدينة مهمة تشتمل على 19 محلة تركية و 4 بلغارية

وواحدة يهودية ، و 4700 دار . بها 10 جوامع و 14 مسجدا ، و 9 مدارس ، و 11 مكتبًا ، و 7 تكايا ، و 200 قصر ذي حمامات .

ايليجة ، قضاء فيدين ، به 200 دار ، و جامعان ، و 4 مساجد ، و 2 تكيتان ، و مدرسة ، ومكتبان .

يني بازار قضاء في لواء سيلسترة ، به ، 150 دارا ، و جامعان .

يانبولو ، مركز قضاء على نهر طونجة . من فتوحات مراد الأول في 1363 ، 3500 دار . يحتوي على 17 محلة للأتراك ، وواحدة للبلغار ، وواحدة لليهود ، و 17 جامعا ومسجدا ، له سوق لبيع السلع الثمينة ، و 3 حمامات ، و 6 خانات مسافرين و 5 خانات عمل ، و 3 مدارس ، و 11 مكتبًا ، و 5000 بغل تخص الدولة تنتظر بصورة دائمة في منزل المسافرين (الكروانسراي) خارج المدينة ، لخدمة الجيش وقت الحرب .

خاصكوي ، قضاء تابع للواء قرق كليسة يقع بين أدرنة وفيليبة ، على مقربة من جنوب مريج Meric ، به 250 دارا ، و 6 جوامع ، و حمام .

Dimetoka ، قضاء تابع للواء أدرنة . به سراي كبير لفاتحها مراد الأول الذي أقام فيه عدة سلاطين وبه ، 600 دار ، جامع سلطاني ليلديرم ، و 11 مسجدا ، و 4 مدارس ، و 5 مكاتب و 5 تكايا ، ومطبخان عموميان و 2 كروانسراي (منزل) ، و خانان ، و 3 حمامات ، و 70 قصرا ذا حمّام .

Ferecik ، قضاء أدرنة ، من فتوحات غازي سليمان باشا ، وبه ، و 4 مساجد ، ومدرستان ، و تكيتان .

ده ده آغاج ، قضاء أدرنة ، من فتوحات أفرنوس بك ، على بحر إيجة وعلى مسافة ليست بعيدة عنه جزيرة سماديرك Semadirek . يوجد به جامع يلديرم خان .

كمو لجينا Gumulcina قضاء من فتوحات أفرنوس بك وهو مدينة مهمة تحتوي على حمامات و 4000 دار ، 16 جامعا ، 11 مسجدا ، و 5 مدارس ، و 7 مكاتب ، و 7 خانات عمل و 10 خانات مسافرين . أكثرها أعمال خيرية لعائلة أفرنوس . بك الغجر المعترف به من الدولة ، يقيم في كمولجينه . و المحيط ، من أملاك عائلة أفرنوس .

أورهانية ، مركز قضاء في لواء سلانيك في روملي ، Sidrekapsi ، كسابقتها

أيضا . يوجد فيها أحد معامل النقود للدولة التي يبلغ عددها 47 . ناحية Aynaroz ، ضمن هذا القضاء ، ومشهورة بديرها العائد للروم . والذي يقع في جبل Athos (2030 م) ولا يمكن لأحد أن يدخله .

آوراتحصاری ، قضاء آخر لسلانيك . Doyran ، مركز قضاء آخر لسلانيك .

ينيجه ، هي قرة صو ينيجه سي قضاء سلانيك من فتوحات أفرنوس بك ، به 1000 دار ، على نهر اسكجه ، وعلى مسافة قريبة من البحر . به منزل للمسافرين وجامع فخم لاكمكجي - زاده أحمد باشا .

قاوالا Kavala ، في مكدونيا ، ولم تعد في تراقيا الغربية . ميناء جزيرة تاشوز ذو القلعة مقابل لها .

مركز إمارة اللواء البحري في إيالة روملي . تضع تحت أمر أمير لوائها سفينتين حربيتين . يقدم اللواء نحو 2000 تمارلي ، به 7 أقضية ، و 700 دار ، بالقلعة 50 مدفعا . معظم أبنيتها من أعمال مقبول إبراهيم باشا الخيرية . فتحها مراد الأول .

Drama ، مركز قضاء ، على مقربة من شمال - غربي قاوالا ، من فتوحات أفرنوس بك ، به 800 دار ، 13 جامعا ، 7 مساجد ، مدرستان ، 3 مكاتب ، تكيتان ، 10 خانات ، حمام . اسكي جامع ، جامع سلطاني لبيازيد الثاني .

Zihne ، قضاء سلانيك ، من فتوحات أفرنوس بك ، بها 200 دار ، جامع سلطان بيازيد الثاني .

Serez أو Siroz ، قضاء سلانيك ، وهي مدينة كبيرة ذات 6000 دار بها 12 جامعا ، 87 مسجدا ، 30 مدرسة ، وتكية ، 21 مكتبًا ، 717 حنفية مياه مبنية (جشمة) وحنفيات (مصلق) ، وبها أيضا سوق للسلع الثمينة ، 5 حمامات ، 1060 قصرا بها حمامات ، 7 خانات عمل و 9 خانات للمسافرين ، جسر ، 30 محلة تركية ، 10 مسيحية . **دمير حصار** ، مركز قضاء في لواء سلانيك به 1600 دار .

سلانيك ، ميناء كبير . فتحه اولا يلدرم بيازيد ، ثم مراد الثاني . مركز إمارة اللواء البحري في إيالة روملي . يقدم اللواء 6000 تمارلي سباهي ، ويمكن تجنيد 12000 متطوع

يستقر في اللواء 40000 جندي برّي وبحري بصورة مستمرة . يعزف المهتر (الموسيقى العسكرية) في كل مساء في 4 أماكن مختلفة من قلعتها الكبيرة ذات الـ 150 برجًا و 4000 مزغل (مرمى) . أعاد سليمان القانوني إنشاء القلعة في 1545 . تحتوي المدينة على نحو 150 جامعًا و 150 مسجدًا ومنشآت أخرى توازي ذلك ، 48 محلة تركية ، 57 يهودية ومسيحية . يعيش في لواء سلانيك 000 500 نسمة ، قسمها الأعظم في مدينة سلانيك ، وهي تحتوي على 340 محلا للمشروبات الروحية و 17 مقهى فيها جوقات موسيقية فخمة ، فيها أيضا ما يقرب من 300 قصر ذي حمام ، و 11 حماما داخل السوق ، و تكية المولويين الشهيرة جدا وتكايا الطرق الأخرى ، ومنازل مسافرين كبيرة ، وخانات مليئة بالبشر والبضائع .

فاردار ينيجة سي (ينيجة فاردار) ، قضاء سلانيك ، من فتوحات أفرنوس بك ، وبها 1500 دار ، و 17 جامعا و 5 مساجد ، ومدرسة ، و 7 مكاتب و 3 مطابخ عمومية ، و 740 دكانا ، و حمامان ، و 2 كروانسراي (منزل كبير) ، و 9 خانات ، و 20 حنفية مياه مبنية (جشمة) ، و 41 سبيل مياه مجانية ، أكثرها من أعمال أفرنوس – زاده لر الخيرية .

Vodine ، قضاء سلانيك ، به 1060 دارا ، و 8 جوامع ، و مسجدا ، و مدرسة ، و 4 مكاتب ، و 10 خانات ، و مطبخ عمومي ، و 7 كنائس نحو 300 دكان . على مقربة منه دير أرثوذكسي يقبل البنات الأبكار .

Karaferye ، من فتوحات أفرنوس بك ، قضاء سلانيك ، مدينة ذات 4000 دار . وبها 16 محلة تركية ، و 2 يهودية ، و 15 مسيحية ، و جامعان سلطانيان لمراد الأول وموسى خان ، و جامعان ، و 19 مسجدا ، و 3 مدارس ، و 10 مكاتب ، و 5 تكايا ، و 5 حمامات مزدوجة (للنساء والرجال) ، نحو 70 قصرا تحتوي على حمامات ، و 3 مطابخ عمومية ، سوق للسلع الثمينة ، 600 دكان .

Alasonya ، مركز قضاء به 655 دارا ، وأيضا 4 جوامع ، 7 مساجد . له جسر على نهر أوليمبوس

Tirnovi ، ورغم أنها كانت ناحية لها لكنها أكبر منها بكثير ، وبينما كانت قرية إلى عهد قريب فقد أصبحت مدينة رومية ذات 3500 دار . شوارعها قذرة جدا وضيقة .

يني شهر (باليونانية : larissa) ، مركز قضاء في لواء Tirhala (Tesalya) ، يقيم فيها أمراء الألوية أحيانا بدلا من ترخالا ، يتبع هذا القضاء 200 قرية ، ويحتوي على 22 جامعا ، 49 مسجدا ، 8 مدارس ، 22 مكتبًا ، 10 تكايا ، 5 حمامات ، نحو 400 قصر ذي حمام ، 21 خانا ، 880 دكانا ، 10 جسور على رافد Kustum (Pintos) ، 300 حنفية مياه مبنية (جشمة) ، سبيل وحنفيات ، 160 3 بئر مياه وتكيتها المولوية من التكايا الكبيرة .

Tirhala ، مركز لواء في إيالة روملي . من أهم الألوية ، به ، 300 2 دار ، 8 جوامع ، 8 مساجد ، 6 مدارس ، 9 مكاتب ، 8 تكايا ، 3 حمامات ، نحو 70 قصرا يحتوي على حمّام ، وجسر جميل جدا ذو 6 قناطر . أكثرها من الأعمال الخيرية لابن عمة السلطان سليمان القانوني سلطان ـ زاده (سليل العائلة السلطانية) عثمان ـ شاه بك ، وهو الذي صيّر المدينة على هذا الشكل ، شغل وظيفة أمير لواء (سنجق بك) لمدة طويلة في Tesalya وتوفي فيها .

فنار Fener (يني شهر فنار) قضاء ترخالا ، به 160 دارًا، و 5 جوامع ، و 3 مساجد ، و مدرسة ، و مكتب .

Kardiçe ، رغم أنها ناحيتها لكنها أكبر منها بكثير ، بها تقريبا 1000 دار ، 9 جوامع ، 8 مساجد .

ناردا (Arta) ، قضاء تابع للواء يانيا (Epir) وفي أقصى جنوبه ، به 2000 دار ، 10 محلات رومية ، 3 مسلمة ، 4 يهودية . لها جامع سلطاني لبيازيد الثاني وجامع آخر ، مساجد ، 3 مدارس ، 5 مكاتب و 3 تكايا ، 11 كنيسة ، جسر .

Yanya ، مركز لواء في إيالة روملي . ، وهو لواء مهم ذو 22 قضاء ، قلعة كبيرة ، 23 محلة للمسلمين ، 14 للروم ، 1 للغجر ، 4 لليهود ، 4800 دار ، 845 قصرا ذا حمامات ، 260 2 دكانا ، 23 جامعا ، 12 مسجدا ، 16 مدرسة ، 11 مكتبا ، 7 تكايا ، 3 خانات ، حمامين ، 400 4 بئر مياه . جامع فتحية لبيازيد الثاني يقع في القلعة .

Aydonat ، قضاء تابع للواء Delvine ، وهو قصبة ألبانية مسلمة ، به 840 دارا ، 3 جوامع (أحدها لبيازيد الثاني) ، 3 مساجد ، 6 مكاتب ، 3 تكايا ، حمامان ، 17 حنفية مياه مبنية .

Margalic ، مركز قضاء Delvine ذو 40 قرية ، وبه 1 300 دار ، 3 جوامع (أحدها لبيازيد الثاني) ، 7 مساجد ، مدرسة ، مكتبان ، تكيتان .
قلعة Parga قريبة لها ومقابلة لجزيرة Korfu مسقط رأس الصدر الأعظم مقبول إبراهيم باشا .

Delvine مركز لواء في إيالة روملي . من فتوحات بيازيد الثاني ، وهي لواء صغير يقدم 2 200 تمارلي . تقع على مقربة من جنوب Ergeri ، قصبة ألبانية صغيرة . لها جامع ، مسجدان ، 3 مدارس ، مكتبتان ، و 3 تكايا .

أركري (Argyrokastro) ، قضاء دلفين ، ترتبط بها 68 قرية ، يحتوي على قلعة بيازيد الثاني وجامعين في الضواحي ، و 7 جوامع أخرى و 7 مساجد ، و مدرستين ، و 5 مكاتب ، ويسكن أمير لواء دلفين أحيانا في هذه المدينة .

Pogonya ، مركز قضاء آخر في اللواء نفسه ، **تبه ده لن** Tepedelen مركز قضاء في آفلونيا له 80 قرية ، و 240 دارا .

Iskarapar ، قضاء تابع للواء بآفلونيا له 47 قرية ، به جامع لبيازيد الثاني ، وعلى مقربة منه قرية Rosnik ، التي ولد فيها الصدر الأعظم كوبرولو محمد باشا الذي اهتم بعمرانها وجعلها قصبة . أما قرية Lavdani الواقعة على مقربة منها ، فهي مسقط رأس كانكش قرة مصطفى باشا الصدر الأعظم الأخير لمراد الرابع والأول لإبراهيم خان . أما قرية Jotom التي تقع بعد عبور إحدى السواقي ، فهي مسقط رأس آغا الإنكشارية وزير مصطفى باشا الذي سقط شهيدا في النمسا في الحرب الميدانية Sen Gotar .

Berat ، وتدعى كذلك بـ « عرنووط بلغرادي » (بلغراد ألبانيا) ، يقيم بها أمير لواء آفلونيا أكثر مما يقيم آفلونيا . تقع بين آفلونيا و Goriee ، يتبع قضاءها المركزي 120 قرية . لها 9 أقضية ، للواء 4000 تمارلي وجنود آخرون ، وبيرات مدينة مهمة .

تحتوي على 4 جوامع مستقلة لبيازيد الثاني ، 480 5 دارا ، وعدا ذلك فإن بها 26 جامعا ، 17 مسجدا ، 5 مدارس ، 4 تكايا . ولها 170 قصرا ذا حمام ، وبها 19 محلة البانية مسلمة ، 10 محلات البانية مسيحية (سكانها يجيدون اللغة التركية) ، 3 مطابخ عمومية ، 11 خانًا .

Avlonya ، تقع على الجنوب – الغربي من بيرات ، جانب منها يقع على الخليج وجانبها الآخر يقع على البحيرة . يجري نهر Viyosa في شمالها . وعلى مسافة منها جزيرة Sazan . وتقع على مضيق Otrano الذي يربط البحر الأدرياتيكي بالبحر اليوناني (الأيوني) . شيّد السلطان سليمان القانوني فيها قلعة كبيرة وجامعين ؛ بها 300 1 دار ، 4 جوامع ، 5 مساجد ، 3 مدارس . ميناؤها كبير .

Drac ، قضاء ذو 73 قرية في لواء الباسان . ميناء على الأدرياتيكي ، وقضاء Kavaya ، على مقربة من ضواحي دراج .

Pekin مركز قضاء آخر لباسان ، وبه 430 دارا ، 5 جوامع ، 7 مساجد ، 3 مدارس ، 5 مكاتب ، تكيتان ، 7 حنفيات مياه مبنية ، وأكثرها أعمال خيرية للوزير عبد الرحمن باشا آغا الإنكشارية عند فتح كاندية التي ولد فيها .

إلباسان Elbasan ، أصلها « Ilbasan » أطلق هذا الاسم السلطان محمد الفاتح . مركز لواء في إيالة روملي . يقدم اللواء 4600 جندي ، ويتبعه 426 قرية . يقع على الضفة الشمالية لفرع Iskombi . شيّد فاتح قلعة المدينة مع جامعين . يحتوي اللواء على 44 جامعا ، 24 مسجدا ، 11 تكية ، 7 مقاه فخمة ذات جوقات موسيقية ، 11 خان عمل ، 9 خانات مسافرين ، 2060 بئرا ، 18 محلة ألبانية مسلمة وتركية ، 10 محلات ألبانية أرثوذكسية ، محلة واحدة ألبانية كاثوليكية ، أكثرية الألبان يجيدون التكلم بالتركية كذلك .

اوهري ، مركز لواء صغير آخر في إيالة روملي ، على الضفة الشمالية – الشرقية من بحيرة أوهري بين الباسان ومناسطر ، يستقر في اللواء نحو 7000 جندي . قضاؤها المركزي ذو 3 نواح . تعد أوهري من أكبر مدن روملي . تحتوي على مايقرب من 15000 دار و 400 قصر ، 10 محلات للمسلمين ، 6 للأرثوذكس وواحدة للكاثوليك . يشكل الألبان أكثرية السكان ثم يليهم الأتراك ، ثم الروم ، ثم المكدونيون ، باللواء 17 جامعا ، 18 مسجداً ، 3 مدارس ، 7 مكاتب ، 3 مطابخ عمومية .

Resne ، مركز ناحية تابع للقضاء المركزى أوهرى ، به 180 دارا ، محلتان ، جامعان ، مدرستان ، قصبة صغيرة نصف سكانها من المسلمين والنصف الآخر أرثوذكس .

Astrova ، تقع على ساحل البحيرة المسماة بالاسم نفسه ، Presba (Prespe) ، كلاهما قضاءان في لواء أوهري .

Ardoviste ، قضاء تابع للواء كزستندل ، به 400 دار ، 5 جوامع ، مسجدان .

تكوش Tikves ، مركز قضاء آخر في اللواء ذاته ، به 300 دار ، 3 جوامع ، مسجدان .

أوستروجة (Strumice) ، مركز قضاء في جنوب شرقي إيشتب ، قصبة تركانية بها 1000 دار ، 14 جامعا ومسجدا ، مدرسة ، 6 مكاتب ، 12 دورة مياه ، 13 خانًا ، وعلى مقربة من جنوبها تقع بحيرة Doyran وقصبتها .

Petric ، مركز قضاء كوستندل به ، 240 دارا ، جامعان ، مسجدان ، مدرستان ، 3 مكاتب ، حمامان ، تكية واحدة

Vetirne ، مركز قضاء يتبعه 48 قرية في اللواء نفسه .

Stanimaça ، مركز قضاء في لواء فيليبه ، يحتوي على 300 دار للبلغار ، 100 للأتراك .

خيرابولو Hayrabolu ، من فتوحات غازي سليمان باشا فاتح روملي ، مركز قضاء في لواء أدرنة .

تكفور داغي (تكرداغ) مركز لواء في إيالة روملي ويقع على ساحل مرمرة ، فتحه سليمان باشا على عهد أبيه أوخان غازي وهدم قلعته ، وهو من الألوية المهمة ، ويعتبر رصيفا بحريا رئيسيا لأدرنة ، وهى مدينة كبيرة وغنية .

إركلي Eregli (Marmara Ereglisi) قصبة صغيرة ولكنها ميناء فعال ، من فتوحات سليمان باشا أيضا ، بها 300 دار .

قال نامق كمال بك (1840 – 1888) ، « إن حد الدولة العثمانية الطبيعي هو خط ألطونة (الدانوب صباح ، 5 /11/ 1912) . واضافة إلى ذلك « إن فقدان هذا الخط يعني فقدان الوطن » . أما المؤرخ الأستاذ (أورديناريوس بروفسور) مكرمين خليل يينانج فيقول « إن أكبر خسارة في تاريخنا ، هي فقداننا روملي » (على جانقايا 4 ، 1707) .

إن روملي التي وصفها لنا أولياء جلبي في أواسط العصر 17 والتي سلف وصفها فقدت على مرحلتين في 1878 و 1913 ؛ في هزيمتي حرب 93 وحرب البلقان . ورغم الحفاظ على لقب « سلطان البحرين » (البحر الأبيض والأسود) للبادشاه العثماني ، فإن نصف لقب « خاقان البرين » (خاقان القطعتين) الأناضول وروملي) أصبح موضعا للشك . كيف يفقد وطنا أما يرجع تاريخه إلى 500 سنة مضت ؟ إنها حكاية لا تكاد تصدق .. لكنها وقعت حقا . تراجع خط ألطونة للمسلمين إلى مريج . عشرات الملايين من المسلمين يرقدون حاليا في الأراضي المسيحية .

أسست إمارة بلغاريا في 1878 من 6 ألوية من إيالة طونا وإيالة روملي الشرقية ومن لواءين من إيالة أدرنة (فيليبة وأسليمية) ، ومنح الاستقلال الذاتي لكليهما . وقبل الحرب في 1877 كان يسكن في الألوية الستة 1 130 000 بلغاري + 1 120 000 تركي = (2 250 000 نسمة) ، أما سكان اللواءين اللذين يشكلان روملي الشرقية ، فكانوا 483000 بلغاري + 681 000 تركي = (1 164 000 نسمة) ، وجمعا 1 613 000 بلغاري + 1801000 تركي = 3 414 000 نسمة . وهذا هو المجموع للألوية الثمانية التي كانت تشكل ملكية بلغاريا التي انفصلت عن العثمانية عام 1908 . كان عدد نفوس الأتراك في الأحصاء والذي تم عام 1887 هو 676 215 . وإذا كان نفوس الأتراك بالنسبة لاحصاء 1876 هو 1 801 000 وإذا ما أضيف إلى ذلك الزيادة الحاصلة في النفوس فإنه يتضح أن 1 300 000 تركي زالوا عن الوجود . إن مايقرب من ثلثي هذا الرقم تركوا وطنهم الذي يعود تاريخه إلى 5 عصور وهاجروا إلى تركية ، أما ثلثه الباقي ، فقد قتلهم الروس والبلغار بشكل جماعي ، ومات قسم منهم في الطريق أثناء هروبه بسبب البرد والجوع والمرض . كان 53 ٪ من مجموع السكان في الألوية الثمانية

في 1876 أتراكا ، وكان بها 45 مدرسة متوسطة وثانوية للأتراك 2255 ، إبتدائية ، ومابنيف على 100 مدرسة (دينية) ، عدا المدارس التي توجد بالجوامع . انخفض عدد السكان الأتراك في بلغاريا بعد كارثة 93 إلى الثلث ، ولم يتمكنوا من خفض هذه النسبة إلى الربع رغم جميع المحاولات والضغوط التي مورست خلال مدة طويلة جدا . وفي 19 / 2 / 1946 أصدر السكرتير الأول للحزب الشيوعي البلغاري رئيس الوزراء جورجي ديميتروف التعليمات التالية :

« يجب علينا أن نسعى لتأمين بقاء البلقان للبلقانيين فقط ، وعدم السماح للسلاف أن يلعبوا الدور الرئيسي في البلقان . يجب أن تنمحي تماما آثار الإمبراطورية العثمانية للعصور السالفة التي كانت تحكم فيها البلقان » .

إن هذا البيان يمثل خطأ تاريخيا ، حيث يغفل كون الأتراك من الأقوام الرئيسية التي تشكل البلقان ؛ حتى إنه حتى في العام الدراسي 1949 / 1950 ، كان في بلغاريا 3037 مدرسا تركيا يعملون بالتدريس في 1199 مدرسة تركية ابتدائية ومتوسطة ويدرسون لـ 376 100 طالبا تركيا ، وأتراك كثيرون آخرون يتلقون تعليمهم في المدارس البلغارية .

هاجر 156000 تركي من بلغاريا إلى تركية خلال سنة واحدة 1950 / 1951 وخلال 1878 – 1908 كان في بلغاريا المستقلة ذاتيا ، 15 صحيفة تركية و 12 مجلة ، وفي الوقت الذي كانت تصدر فيه في بلغاريا الملكية خلال (1908– 1944) ، 28 صحيفة تركية 38 مجلة ، هبط هذا العدد في غضون 1960 إلى 3 صحائف ومجلة تركية واحدة وكان شرط صدورها أن تروج الدعاية الشيوعية . وفي 1985 كان لايزال عدد سكان الأتراك يتجاوز كثيرا 1 : 10 من سكان البلاد ولايزال عددهم حاليا ، يتجاوز المليون نسمة بكثير . يعلن السكرتير الأول للحزب رئيس الوزراء تودور جيفكوف Todor Jivkov ببيانه الصادر في 28 /5 / 1962 أن « بلغاريا ليست دولة جمهورية شعبية ذات شعوب مختلفة » يعلن أن كيان الدولة يختلف كل الأختلاف عن السوفييت والصين ويوغسلافيا وكان يقول للأتراك « لكم الفناء أو الموت » . وأخيرا في 1985 شرعت بلغاريا في تطبيق السياسة التي طبقتها أسبانيا على العرب قبل عصور ، بأقسى مظاهرها ، على المسلمين فيها .

منحت معاهدة برلين 1878 لواءين من إيالة طونا يشكلان Dobruca إلى إمارة رومانيا التي انفصلت عن الإمبراطورية ، ولواء نيش إلى صربيا التي انفصلت كذلك عن الإمبراطورية . وبالنسبة لإحصاء النفوس لعام 1868 كان 945 125 تركيا وعدد من Ulah (الرومان) والبلغار يسكنون في ألوية كوستنتجة و تولجا . وبالنسبة للإحصاء الروماني لعام 1930 ، كان نفوس الأتراك في (Dobruca) 720 345 ، وكانوا يشكلون الأكثرية . وهبط في 1965 ، إلى 000 250 . أما أتراك لواء نيش فقد تركوا اللواء بأجمعهم تقريبا منذ 1878 .

وهكذا أسفرت كارثة 93 ، عن فقدان نصف روملي العثمانية في 1878 ، وضاع النصف الآخر بعد 35 عاما . تحقق ذلك أيضا عام 1913 . محيت الآثار العمرانية العثمانية بالأسلوب ذاته .

8 بوسنة .

كانت بوسنة – هرسك في البداية ، قسما من إيالة روملي ، ثم انفصلت عنها وأصبحت إيالة بذاتها . البوشناق أى الخروات المسلمون ، كانوا يشكلون أكثرية نفوسها ، كانوا سنة حنفيين . وهم حاليا يشكلون الأكثرية في القطر . تطبعوا بالثقافة العثمانية العميقة . ظهر منهم صدور عظام ووزراء كثيرون ، وعلماء وكتاب لغة وشعراء وفنانون . يوجد كذلك في بوسنة أتراك ، وخاصة فى هرسك . أخذ هؤلاء يتكلمون اللغة البوشناقية وعلى مر الزمن تطبعوا وأصبحوا بوشناقا . الألبانيون قليلون جدا . والأقوام الأخرى هم الخروات الكاثوليك والصرب الارثوذكس . كانت تأثيرات الثقافة العثمانية في الصرب أكثر عمقا . يميل الخروات على الأكثر إلى المجر والالمان .

يشرف لواء هرسك التابع لبوسنة ، على البحر الأدرياتيكي . دالماجيا هو الشريط الجبلي الطويل للبحر الأدرياتيكي الذى يفصل بوسنة عن البحر . كان هذا الشريـط موضع خلاف مستمر بين العثمانية والبنادقة . شعبه خروات وإيطاليون أي إنهم كاثوليك . توجد في الجنوب منطقة صغيرة تسمى قره داغ تفصل هرسك عن ألبانيا . يسكن فيها أحد فروع الصرب الأرثوذكس الذين يطلق عليهم اسم قرة داغلي . كان هؤلاء قوما جبليا متوحشا . العثمانيون الذين دخلوا ملكية بوسنة (التي كانت كاثوليكية) منذ أواخر

العصر 14 فتحوا القطر كاملا في حملات فاتح . أدى اهتداء الخروات الذين كانوا على مذهب بوغوميل Bogomil ، وأخذهم عن الدين الإسلامي بعض مبادئه في العصر 15 ، واختلاطهم بالسكان الأتراك الذين قدموا إليها لغرض الاستيطان . إلى جعل القطر قطرا إسلاميا ، وهو حاليا وبصورة جزئية كذلك ، إلى درجة أنه كان في مدينة Mostar عاصمة هرسك في عام 1878 ، 36 جامعا ، فى مقابل كنيستين صربيتين أرثوذكسيتين وواحدة خرواتية كاثوليكية فقط (Vakiflar Dergisi ، 7 ، 215) .

لواء **يني بازار** ، يفصل بين قره داغ وصربيا ، ومع أنه يتبع إيالة بوسنة أحيانا ، فانه تبع على الأكثر إيالة روملي .

كانت بوسنة سراي (Sarajevo) المركز حتى سنة 1550 ، ثم أصبحت Travnik الواقعة في الشمال – الغربي مركزا حتى 1583 ، ثم Banyaluka التي تقع في أقصى الشمال – الغربي حتى 1639 ، ثم بوسنة سراى مرة أخرى إلى 1648 ، ثم Travnik مرة أخرى حتى 1850 ، ثم بوسنة سراي مرة ثالثة بعد 1850 .

ولكننا نجد الوالي يقيم في بوسنة سراى على الأكثر وحتى في فترات انتقال المركز إلى مدن أخرى . كانت إيالة حدودية (سرحد) حيث كانت ألمانيا تحدها من الشمال والبندقية من الشمال – الغربي . كان ثلثا النفوس مسلمين ، بوشناقا وأتراكا أو خليطا من كليهما .

انفصلت في 1521 ، ولاية بوسنة عن إيالة روملي وأصبحت لواء مستقلا ، وفي 1583 رفعت وأدخلت إلى نظام الإيالات . انقسمت الإيالة في 1866 إلى 7 ألوية (محافظات) ، كانت إحداها هرسك . افتتح في 1872 خط بانيالوكا – نوفي ، ثم مدت السكك الحديدية الأخرى . وفي 1876 ، كان في بوسنة سراي ، مدرسة حقوق شاهانه (كلية الحقوق) ، مدرسة غازي خسرو بك العليا ، 28 مدرسة ثانوية ومتوسطة ، 917 مدرسة ابتدائية ومدارس متوسطة كثيرة ، هذا عدا مدارس المسيحيين التابعة للكنيسة . وبالنسبة لإحصاء السكان لعام 1953 ، فإن 42.6 ٪ من سكان جمهورية بوسنة – هرسك الائتلافية الشعبية مسلمون بوشناق ، 1 / 35 ٪ منهم صرب

أرثوذكس ، 21,5 ٪ خروات كاثوليك ، 9, ٪ أتراك مسلمون ، ألبانيون وغجر .

وفي 1957 كان في بوسنة - هرسك 635 جامعا من جملة 1514 جامعا كانت مفتوحة للعبادة في يوغسلافيا . بينما كان عدد الجوامع في بوسنة - هرسك حتى في عام (1939) ، 1173 جامعا .

إن عدد الجوامع في بوسنة سراي الذي كان في عام (1939) ، 108 ، أصبح في عام (1955) ، 87 ، وكان في Gradiska عام (1943) ، 26 جامعا ، ثم هبط العدد في 1957 إلى (واحد) .

فوجا Foça التي كان عدد سكانها في العصر (19) ، 12000 نسمة و بها 12 جامعًا (**قاموس الإعلام** ، 5 ، 3443) ، هبط عدد سكانها في 1934 إلى 600 4 (Pelletier ، Sarajevo ، 242) . وفد إلى البلاد كثيرون من الخروات ، وخاصة الصرب واستوطنوا فيها .

جسر Drina (الطول 179 م ، العرض 4,35 م) الذي شيّده المعمار سنان قريب جدا إلى Visgrad ، ويقف شامخا بقدر شموخ جسر Mostar لسنان أيضا . منحت الإيالة لإدارة أوستريا - المجر عام 1878 ، وفي 1908 ، ألحقت بأوستريا - المجر وانقطعت علاقتها بالعثمانية ، ثم انتقلت في نهاية عام 1918 بتسميتها يوغسلافيا ، إلى ملكية صربيا التي وسعت جدا . يسرد أولياء جلبي معلومات مفصلة جدا عن الإيالة في الفصول الأخيرة من مجلده الخامس . وسنكتفي هنا بنقل بعض أسطرمنه ، وسننقل لكم فيما يلي بعض المعلومات التي دونها الرحّالة عن المدن مراكز الألوية فقط :

بوسنة سرايي أو بوسنة سراي أو سراي بوسنة ، ومختصرا سراي ، وبالصربية - الخرواتية Sarayevo ، أصبحت مركزا للواء في إيالة روملي في 1436 ، ثم اتخذت بعد ذلك مركزا لإيالة بوسنة - هرسك ، وتتميز خلال فترات عدم اتخاذها مركزا بأنها أكبر مدينة في الإيالة ، ومركز ثقافي عثماني ، ومن أهم مدن الإمبراطورية . تقع على ضفة نهر بوسنة الذي يصب في سافا . وفي 1436 ، شيّد أمير لواء (سنجق بك) أسكب غازي باشا ييغيت محمد بك - زاده غازي إسحـق بك ،

عند تعيينه ، دائرة حكومية كبيرة سميت « سراي » ، أصبحت اسما للمدينة . وسراي التي كانت قصبة صغيرة ، أصبحت مدينة كبيرة (يستعمل حاليا سراي إسحق بك ، دائرة حكومية في جمهورية بوسنة – هرسك) . يتبع الإيالة 8 ألوية ، يتولى إدارتها غالبا الفرقاء الأول (بكلربك) برتبة وزير . تحتوي الإيالة على 773 قلعة وحصن وقلاع مصنوعة من عواميد خشبية (بالأنغة) ، وتقدم 15 000 جندي . يبلغ عدد المسيحيين 385 000 نسمة وتعداد المدينة التي تحتوي على 92 محلة للمسلمين ، 10 للمسيحيين ، 2 لليهود ، يبلغ نحو 170 000 نسمة . بها جامع فاتح السلطاني في القلعة . وبها أيضا 77 جامعًا ، 93 مسجدا ، 18 مدرسة (مدرسة غازي خسروبك ، مدرسة عالية) ، تكية كبيرة للمولويين مع 47 تكية أخرى ، 180 مكتبًا ، وحوالي 100 حنفية مياة مبنية ونحو 300 حنفية بسيطة ، 700 بئر ونحو 670 قصرا ذا حمّام ، 3 منازل كبيرة للمسافرين ، 23 خان تجارة و 8 خانات للمسافرين ، سوق لبيع السلع الثمينة ، 1 080 دكانا ، 7 جسور ، عدة كنائس وأديرة ومعبد يهودي واحد مع مدرسته ، 7 مطابخ عمومية .

يتكلم الشعب في المدينة اللغة البوشناقية والتركية ، و يجيد التكلم بهما . أما الجنود الموجودون في القلاع فإن أكثرهم يتكلم التركية فقط .

تستهلك المدينة يوميا 2 000 رأس غنم وسنويا الباسطرما المصنوعة خارج المدينة من لحوم 40 000 رأس من الغنم وعدة آلاف من البقر . والجبن المصنوع من 100 000 برميل من حليب الماعز ، ويستهلك الطرشي المصنوع من مئات الألوف من رءوس الكرنب (لهانة) . يبلغ عدد الخبز الذي يستهلك في المدينة وضواحيها 600 000 يوميا . إن الكلية الكبرى الموجودة في المدينة ومنشآت كثيرة أخرى كلها من إنجازات غازي خسرو باشا ابن عمة القانوني الذي تقلّد الولاية فيها مدة طويلة جدا . وقبره مزار كبير مفتوح للجميع .

Travnik ، مركز لواء في الأوقات التي لا تتخذ فيها مركزا للإيالة . تقع في شمال غربي ، بوسنة سراي في القسم الكائن بين مصب رافدي Bosna & Vrbas . مدينة صغيرة ذات 2 000 دار وقصر ذي طابقين ، تحتوي على 17 جامعا ومسجدا . إن Helvina التي تلي قضاء كليس بعد آقحصار (Dolnji - Asagi = Vakuf Vakif) ذات 800 خانه ، هي مركز لواء كليس Klis . لواء صغير على حدود البندقية . في خرواتيا ودلماجيا ،

على البحر الأدرياتيكي . يقدم نحو 2000 جندي تمارلي ، به 1400 دار ذات طوابق عديدة ، به جامع القانوني ، و7 جوامع أخرى ، 6 مساجد ، 3 مدارس (دينية) ، 6 مكاتب (مدرسة) ، 6 تكايا .

(Sin Sinj) قلعة في قضاء Klis .

Klis ، في دلماجيا قريبة جدا إلى بحر دلماجيا ، وقريبة جدا من شمال – شرقي Split (Spalato) . فتحها سلطان – زاده خسرو باشا عام 1536 ، وانتقلت إلى حوزة البنادقة في 8/ 9 / 1647 .

Knin ، مركز لواء Kerka (Krka) . يقدم اللواء 3300 جندي . فتحه غازي مالقوج في 1553 ، يقع على فرع Krka ، شرق Zara ، وعلى الشمال الشرقي من Sibenik (Sebeniko) .

Obroça ، كانت مركز لواء في عهد القانوني . وحاليا ، قضاء تابع للواء Kerka . تقع في شمال – شرقي زارا . فتح Split (Ispelet= Spolato) غازي خسرو باشا ، واسترجعتها البندقية Kalamue ، قضاء في لواء كليس . Papicsa ، مركز قضاء آخر .

Banyaluka أو Banaluka ، تقع على رافد Vrbas الذي يصب في سافا ، في شمال Yayçe ، مركز لواء وهي المدينة الكبيرة الثانية في الإيالة . من فتوحات غازي فرهاد باشا . يقيم فيها بكلربك بوسنة أحيانا ، تحتوي على 3700 دار ، 45 جامعا ومسجدا ، 11 مكتبًا ، وسوق للسلع الثمينة .

Kradiska ، من فتوحات خسرو باشا ، قضاء بانيالوكا ، بها جامع القانوني ، 7 جوامع ، 18 مسجدا .

Kostaniçse (Kostajnica) ، قضاء آخر لبانيالوكا يتكون من 40 قرية . و Koknovi قضاؤها أيضا .

Bihke (Bihaç) ، قضاء في أقصى شمال بانيالوكا وعبرها خرواتيا .

يني حصار (Bosanski Novi) ، مركز لواء في نقطة تلاقي نهري أونا و سانا وتقع خرواتيا في الساحل المقابل لفرع أونا .

Siska (Sissek , Sisak) ، مركز قضاء في لواء Krka ، من فتوحات رستم بك ، تقع في الجنوب – الشرقي من زغرب وهذه المنطقة هي خرواتيا .

Zagreb (بالألمانية : Agram) ، مركز خرواتيا وأكبر مدنها . كانت في العهد العثماني تابعة للواء Krka وتدفع الجزية للعثمانية ويديرها البانات (بان = لقب أمراء الألوية في خرواتيا) . احتلها للمرة الأخيرة غازي رستم باشا في 1595 ، ثم عادت فانتقلت إلى الألمان .

Çernik ، مركز لواء . يقع شمال سافا وفي سلافونيا . فتحه سلطان ـ زاده غازي محمد بك (باشا) ابن عمة القانوني عام 1539 . فيه جامع القانوني ، 3 جوامع ، 18 مسجدا .

Pakriçe ، مركز قضاء تابع للواء باكريجة .

Pojega (Pozega) ، مركز لواء يقع على نهر Pakra في سلافونيا . فُصِل هذا اللواء من إيالة بوسنة وألحق بكانيجة عند تأسيس إيالة كانيجة عام 1600 . من فتوحات سلطان ـ زاده محمد باشا . من الألوية الكبيرة ، تقدم 4 000 سباهي .

Rahoviçe ، مركز لواء آخر ، فصل كذلك في 1600 عن إيالة بوسنة وألحق بإيالة كانيجة . وهو كذلك من فتوحات محمد باشا . وهو لواء كبير يوجد فيه 5 000 جندي . والمناطق التي تليه ، هي حدود ألمانيا . ويبدأ القطر الذي يديره ألبانات (الأمراء) الخروات من بني زرين (Zrin Ogullari) بصورة متوارثة ، وهذه العائلة ، لاتميل إلى الألمان ، وعلى الأغلب تتبع العثمانية . وسلوفينيا تشكل أقصى شمال خرواتيا . يشتبك العثمانيون في هذه المنطقة مع الألمان بصورة دائمة . يحكم هذه المنطقة بنو زرين (زرين أوغللري) منذ 800 سنة . لقبهم دوق .

Visegrad ، مركز قضاء ، فيه ، 700 دار في لواء هرسك . جميع المؤسسات الخيرية في القصبة من الأعمال الخيرية لصوقوللو . يقع في هذا المركز جسر Drina المشهور عالميا والذي كلف سنان بصنعه ، وقرب الجسر منزل عظيم للمسافرين .

Priboy و Yeni Varos ، قضاءان تابعان للواء بوسنة سراي المركزي ، أراضي كل من القضاءين في صربيا . بالأول 300 دار وبالثاني أكثر من 2 000 دار . والمنطقة التي تلي هذين القضاءين هي إيالة روملي .

زار الولياء جلبي لواء هرسك بعد 3 أعوام (1664) . وخصص في المجلد السادس فصلا كبيرا لوصف هذا اللواء ، أنقل لكم بعض سطوره .

أوزيجة (Uzice) ، قضاء تابع للواء Semendir (بلغراد) التابع لإيالة بودير شرق فيشغراد ، في صربيا ، وهي مدينة مهمة تحتوي على 800 4 دار ، 34 جامعا ، 29 مسجدا ، 5 مدارس ، 11 مكتبًا ، 9 تكايا بكتاشية ، تكية واحدة خلوتية ، 3 جسور ، حمامين ، سوق للسلع الثمينة ، 140 1 دكانا ، منزل واحد كبير للمسافرين ، 11 خان عمل ، وفي الضواحي 060 1 بستان كروم .

Pripol (Pripolye) ، مركز قضاء هرسك ، على الضفة الشرقية من فرع ليم في جنوب أوزيجة . شيّد السلطان محمد الفاتح جسرا على النهر . يحتوي على 6 محلات للمسلمين و 4 للمسيحيين . 11 جامعا ومسجداً ،3 مدارس ، تكيتين للخلوتية ، تكية واحدة قادرية وواحدة بكتاشية ،

Miloseve ، ناحية لها ، وهي إحدى القلاع التي شيّد فيها السلطان محمد الفاتح جامعا .

طاشليجة (Plevlje) ، مركز قضاء في لواء هرسك ، وأحيانا يصبح مركز لواء بدلا من موستار . وأساسا ، فإنه يقع خارج هرسك الأصلية وعلى أقصى الشرق . ولد فيها طاشليجة لي يحيى بك من أمراء اللواء (سنجق بك) وأكبر شاعر في العصر 16 في هذا المركز 5 محلات تركية ، 5 مسيحية ونحو 70 قرية تابعة للقضاء . القصبة فيها 700 دار ، 6 جوامع ، 4 مساجد ، مدرستان ، مطبخ عمومي (عمارت) ، تكيتان . من أهالي طاشليجة الوزير حسن باشا الذي أصبح واليا على مصر ، وقد أحيا القصبة على عهد القانوني وأذاب 000 10 قطعة نقود ذهبية واستعملها لطلاء ذوائب الجامع .

Caniçe ، ناحية طاشليجة لكنها كمحلة بعيدة عنها ، بها 700 دار ، 5 محلات مسلمة ، 3 مسيحية ، 10 جوامع ، 5 مساجد ، 11 تكية ، 3 مدارس ، مطبخ عمومي ، على مسافة نصف ساعة من طاشليجة . تحتوي على كلية سنان باشا ، صهر صوقوللو وفيها قبره أيضا .

Foca ؛ مركز قضاء في لواء هرسك . فتحه ، فاتح بنفسه بصورة نهائية عام 1464 . يحتوي على 10 محلات مسلمة ، 8 مسيحية ، 1 يهودية ، 166 2 دارا ، 17 جامعا

وبضعة مساجد . يحتوي على جامع بيازيد الثاني و جامع فاطمة سلطان ، 19 تكية ، 6 مدارس ، سوقها يحتوي على 540 دكانا ، 3 حمامات ، مطبخين عموميين .

Ustikolina ، قضاء هرسك ، بها 175 دارا .

Nevesin (Nevesinye) ، قضاء هرسك ، يتبعه 70 قرية . مسقط رأس صالح باشا صدر أعظم إبراهيم خان وعدة وزراء آخرين . يحتوي على 500 1 دار ، 4 محلات مسلمة ، محلتين مسيحيتين ، 11 جامعا ، 8 مساجد ، 3 تكايا . Ustulea ، قضاء هرسك ، به 280 دارا .

Lobin ، قضاء هرسك ، به 200 دار .

Dobrovenedik (بالخرواتية : Dobrovink ، بالإيطالية : Ragusa) ، ميناء على البحر الأدرياتيكي ، جمهورية ومقاطعة تجارية خرواتية كاثوليكية . على شمالها نهر Trebinçika الذي يجري موازيا للبحر ، ويشكل الحدود مع ولاية هرسك . تابع للدولة العثمانية منذ عهد مراد الأول ويدفع ضريبة سنوية . يؤمن معيشته عن طريق التجارة البحرية . يتاجر مع إيطاليا ويجيد تجّاره اللغات الإيطالية واللاتينية . لم تمس العثمانية استقلاله ، إذ إنه يشكل منفذه المفتوح إلى إيطاليا . ويؤم إليه التجار المسلمون كذلك بكثرة يديره 12 بك (أميرا) شرفاء وأغنياء يرتدون القبعة الأفلاطونية اللون .

Nove (Hersegnovi) ، تقع على البحر الأدرياتيكي ، في الشمال – الغربي من الخليج ، وميناء كتّارو يقع على الرأس الآخر للخليج . قريبة من قرة داغ . فتحها فاتح ، واسترجعتها البندقية ، وأعيد فتحها في عهد القانوني . تتبع قضاء هرسك ، يحرس قلعتها 1900 جندي . لها 080 3 دارا ، 44 جامعا ، ومسجدا ، ومدرستان ، 7 مكاتب . وفيها جامع بيازيد الثاني . لها عدة نواح أكثرها يحتوي على قلاع ، إحداها Niksik . Satra . devam edilek

polgay ، قضاء هرسك . فتحه الفاتح ، به جامع ، 450 داراً ، تكية خلوتية ، له قلعة محكمة كما هي الحالة في جميع قصبات بوسنة – هرسك .

Gabela ، قضاء هرسك ، يقع في جنوب موستار ، به جامع ، مسجدان ، 180 دارا . شيّد الفاتح قلعته وجامعه .

Mostar ، مركز لواء هرسك . ويعني باللغة البوشناقية « المدينة ذات الجسر » . شيد القانوني قلعتها . جسر موستار الشهير ، من أعمال القانوني الخيرية ومن بناء سنان ، يؤمه الناس من جميع أمصار العالم لمشاهدته . اكتمل في 1566 . يصاب بالدهشة الذين لهم إلمام بالهندسة المعمارية ، عند مشاهدتهم الجسر . إذ إن الأستاذ كان قد أقدم بجزأة على إجتياز النهر بقنطرة واحدة . تحتوي المدينة على 3 040 دارا ، 45 جامعًا ومسجدًا ، 127 قصرًا ذا حمام ، 350 دكانا مبنيًا بالحجر ، وسوق واحدة ، ومنشآت أخرى مماثلة . يتكلم أغلب الشعب اللغة التركية ، وقسم قليل منه اللغة البوشناقية ، أما الأقلية المسيحية فإنها كاثوليكية وتتكلم الخرواتية ، لكن الجميع يجيدون اللغة التركية . كثير من الأتراك قدموا إليها من الأناضول واستوطنوا فيها .

كونيجة (Konyika) ، مركز قضاء في هرسك يقع في منتصف طريق موستار – بوسنة سراي على ضفتي نهر نارنتا ، ذو 6 محلات وجسر واحد ، 8 جوامع ومسجد ، مدرستين ، 3 مكاتب ، تكيتين ، حمّام ، خانين ، 75 دكانا . وعلى مقربة منه تقع مناجم الفحم والحديد . ينتهي لواء هرسك في هذا الموقع . يحد اللواء شمالا لواء بوسنة سرايي ، وشرقا لواء Dukagin ، جنوبا لواء أشكودرا .

يني قصبة ، قصبة لواء بوسنة سراي . أسسها موسى باشا أحد وزراء مراد الرابع . تحتوي على 170 دارا ، 3 مساجد ، تكيتين ، خانين ، حمّام ، 18 دكانا ، كلها من أعماله الخيرية .

Izvornik (Zvornik) مركز لواء في إيالة بوسنة ، يقع على حدود لواء سمندرة (بلغراد) التابع لإيالة روملي .

Drina لها لواءان ، من فتوحات السلطان محمد الفاتح . اللواء ذو 18 قضاء ويجّهز نحو 2000 سباهي . يحتوي على أكثر من 3 800 دار ، جامع فاتح ، جامع فتحية للقانوني ، وعدا ذلك 16 جامعًا ، 8 مساجد ، 8 تكايا ، 3 مدارس ، 7 مكاتب . مجاري نهري درينا وسافا نظيفة و موضع عناية فائقة ، إذ إن السفن تسير باستمرار عن طريق النهر بين أزفونيك وبلغراد .

Tuzla و Byelina ، قضاءان من أقضيـة أزفورنيك . يقـع أحـدهما على الشمال ـ الغربي منه ، والثاني على الشمال ـ الشرقي .

Raça (Braçka) ، يقع على الضفة الجنوبية من سافا . تبع لواء Sirem بينما كان قضاء في لواء أزفورنيك . يحتوي على 7 محلات للمسلمين ، 4 للمسيحيين ، 550 دارا ، 5 جوامع ، مدرستين ، 3 مكاتب ، تكيتين ، خانين ، حمّام ، عدة جسور ، ليس به مسجد .

Moravaç و Nemse ، قضاءان تابعان للواء Sirem تحتوي Nemse على 1 040 دارا ، 6 محلات للمسلمين ، 3 للمسيحيين .

9 ـ المجر :

فتح السلطان سليمان القانوني المجر في 1526 . عاشت ملكية المجر 15 عاما تابعة للسلطان . ألغى السلطان سليمان الذي جاء إلى بودابشته (بودابست) بنفسه في 29 / 8 /1541 ، الملكية وألحقها بإدارة العثمانية المباشرة باسم « إيالة بودين » ورفع درجتها إلى الإيالة الثالثة في تشريفات الإمبراطورية بعد إيالة مصر التي تأسست في 1517 وقبل إيالة روملي التي تأسست في 1363 . وشرع في إدارتها بواسطة الأمراء (فرقاء الأول ، بكلربك) نواب السلطنة الحقيقيين في المجر وكلهم تقريبا برتبة وزير . جعل القانوني ترانسلفانيا التي تسمى « أردل » خارج إيالة بودين ، وسمح بأن تستمر فيها إمارة مجرية مستقلة ذاتيًا ، كما سمح بأن يحمل ملك المجر الأخير يانوش الثاني (بالمجرية : Janes) الذي كان طفلا ، لقب الملك وعين أمير (فويفودا) أردل ووالدته الملكة نائبا له ، وهكذا كانت عاقبة ملكية المجر الكاثوليكية التي كانت إحدى أكبر الدول الأوروبية منذ 6 عصور . إن تاج هذه الملكية أضحى أحد الأحجار العديدة التي ترمز إلى الملكيات في شارة رأس السلطان .

وبعد أن أسست إيلات جديدة ، تقلّصت مساحة إيالة بودين . وإحدى هذه الإيالات هي إيالة كانيجة التي أسست في 1600 والتي كانت تشمل جنوب شرقي المجر وسلوفينيا ، والأخرى إيالة أكري (Egri) التي تأسست في 1596 وكانت تشمل شمال ـ شرقي المجر وشرق سلوفينيا ، والأخرى إيالة تامشوار التي تشمل جنوب شرقي ترانسلفانيا وقطر Banat . تم فصل لواء بيوك سمندرة (بلغراد) ، عن إيالة روملي

وألحق بإيالة بودين ، كان قسمه المسمى فويفودينا وأراضيه التي كانت تخص الصرب في السابق والتي تقع في جنوب سافا ، كانتا موقعين يسكنهما المجر أكثر مما يسكنهما الصرب .

كان والي بودين ، مأذونا بصفته نائبا للملك المجر ، بمراسلة إمبراطور ألمانيا شخصيا ، وإرسال سفير إلى فيينا واستقبال سفير الإمبراطور باسم البادشاه . استمرت إمارة (بكلربك) بودين 145 سنة ، 4 أيام (29 / 8 / 1541 – 2 / 9 / 1686) .

أطلق العثمانيون اسم « بودين » على ضفة بوداً (بالألمانية : Ofen من إيالة بودابشته (بودابست) ، وكان يطلق على قسمها الذي يقع في الجانب المقابل من ألطونة اسم بشتة . ورغم أنه تم خلال 145 عاما تعيين 98 واليا ، فإن عدد الولاة أقل من ذلك ، إذ إن بعضهم عين في هذه الوظيفة مرتين و 3 و 4 مرات . 10 ولاة منهم فقط تمكنوا من البقاء في هذا المنصب مدة يزيد مجموعها على 4 سنوات . صوقوللو – زاده مصطفى باشا 12 سنة ، 3 أشهر ، 7 أيام ؛ وقد أحرز كل من داماد أوزون إبراهيم باشا وقاضي – زاده علي باشا الرقم القياسي ببقاء الأول ثلاث دفعات مدتها 9 سنوات ، 5 أشهر ، وبقاء الثاني أربع دفعات مدتها 9 سنوات .

أول وال هو رمضان أوغلو أوزون سليمان باشا ، وهو أول وال (بكلربك) على بغداد (العراق) أيضا ، ظل 6 أشهر ، وهو من سلالة بكات التركمان في أدنة . أما سلطان – زاده غازي كوجوك بالي باشا الذي احتل مكانه فهو حفيد بيازيد الثاني ، ابن يحيى باشا وابن عمة القانوني ، بقي في الولاية حتى وفاته مدة 1,5 سنة . عين مكانه أخوه سلطان – زاده محمد باشا وبقي هو الآخر واليا حتى وفاته مدة 4,5 سنة .

وعدا أن بودين كانت تدخل في أعماق أراضي يوغسلافيا الحالية ، فإنها كانت في الشمال تتجاوز الأراضي الجيكوسلوفاكية . كانت سلوفاكيا تحتوي على 4 ألوية عثمانية : Uyvar (بالسلوفاكيـة : Mové Zamky ، بالمجريـة : Ersekujvar ، بالألمانيـة : Neuhausel) ، Komaron (Komorn) (بالسلوفاكيـة : Kamarno ، بالمجريـة : koemoern ، Filek (بالسلوفاكية : Filakovo بالمجرية : Fulek) و Rima Sonbat (بالسلوفاكية : Rimavska Sobota ، بالمجرية : Rimas Zombat بالألمانية : Gross - Steffelsdorff) .

ثم أسست إيالة Uyvar في سلوفاكيا . وإضافة إلى ذلك فإن ملكية المجر الوسطى التي تتعدى منطقة ماوراء الكاربات والعائدة لسلوفاكيا والموجودة حاليا في حيازة روسيا ، كانت تابعة للعثمانية . منحت الحكومة العثمانية لقب (ملك المجر الوسطى) لبعض أمراء المجر .

يقول المؤرخ السلوفاكي لتلك الفترة Michal Matunak (Kremnice ، 385 – 7) :
« عندما كانت القرية السلوفاكية المسماة Oçova تابعة للألمان ، كان أهالي القرية يهربون برمتهم ويختبئون في الغابات حالما يقترب الجنود الألمان . أما الآن ، فإن القرية التي تتبع العثمانيين ، تعيش برفه وتتاجر مع الجيش التركي . كان خطرا في العهد الألماني التجوال بدون سلاح أو بدون بندقية . وحاليا ليست هناك حاجة حتى إلى حمل العصى أثناء التجوال » .

تم إلحاق قسم من سلوفاكيا ، إيالة أكري التي أسست في 1596 . كانت Rimavska Sobota مركزا للواء Filek ، (1554 – 1593 و 1596 – 1686) . تحتفظ سلوفاكيا حاليا في أرشيفها بنحو 1 000 وثيقة أرشيفية ، بقيت من ذلك العهد ، وفقدت البقية في الحروب .

أنقل إليكم بعض مادونه أولياء جلبي عن المجر في الربع الثالث من العصر 17 :

Tamesvar (بالمجرية : Tamesvar ، بالرومانية : Timisoara) مركز إيالة . تقع على فرع Bega الذي يصب في Tisa . من فتوحات داماد قره أحمد باشا الذي صار فيما بعد صدرا أعظم للقانوني . يتكون من 6 ألوية : Orsova , Morava, Gole, Cenar, Lipve, Tamesvar يوجد بالإيالة 10 000 جندي . يسكن المدينة 36 000 مسيحي . وفي 1659 ، فصل كوبرولو محمد باشا 3 ألوية (Lugos, Sebes, Yanova) من إمارة أردل وأضافها إلى إيالة تامشوار ورفع عدد ألويتها إلى 9 تحتوي القلعة على نحو 200 مدفع . وبالمدينة 2 700 دار ، جامع سليمان خان ، و 4 جوامع أخرى .

Arad ، مركز ناحية في قضاء تامشوار المركزي . Lipve (Lippa) ، مركز لواء في إيالة تامشوار .

فتحه صوقوللو محمد باشا في 1551 . به 1 500 دار ، جامع سليمان خان ، جامعان ، مسجدان ، 3 تكايا .

Yanova (بالمجرية : Jeno) ، مركز لواء آخر . يقيم فيه والي تامشوار منذ 1659 ويحتوي على 800 دار ، 3 جوامع .

Lugos ، مركز لواء آخر يقع في شرق مدينة تامشوار . Kohlabos ، أحد مراكز ألوية تامشوار .

Kolçovar (بالمجرية : Kolozsvar بالرومانية : Cluj) ، أكبر مدن إمارة أردل . أردل بلغرادي (ببلغراد الأردلية) (بالمجرية : Gyulafehérvar ، بالرومانية : Alba Julia بالألمانية : Karlsburg) مدينة العرش لأمير أردل .

Kase (بالمجرية : Kassa ، بالألمانية : Kasehau بالسلوفاكية : Kosice) مدينة مجرية أخرى في سلوفاكيا ، كانت موضع نزاع بين ألمانيا والعثمانية .

Brasov (بالمجرية : Brasso) تقع جنوب أردل وبعد مسافة قصيرة تبدأ إيالة إفلاق .

Seben (بالمجرية : Szeben ، بالرومانية : Sibiu) ، مدينة أردلية أخرى تقع في الجنوب – الشرقي من بلغراد الأردلية . يوجد في المدن الأردلية جيش مجري وقلاع ومدافع . أما في إفلاق وبغدان ؛ فلا توجد قلاع . بك (أمير) أردل ، بدرجة وزير ، أما بكّات (أمراء) إفلاق وبغدان ؛ فهم بدرجة بكلربك (فريق أول) . يتولى بعض الصدور الأعظم أو مرافقوهم تتويج أمراء أردل ويمنحونهم لقب « ملك » باسم البادشاه .

Mitroviçe ، مركز لواء Sirem في إيالة budin . يقع في الشمال – الغربي من بلغراد . يعسكر في اللواء ذي الـ 9 أقضية ، 3 600 جندي .

(يجب تمييزه عن Mitroviçe الموجود في Kosova) ، بالمركز 12 محلة ، 12 جامعًا ، 6 مساجد ، 5 مدارس ، 10 مكاتب ، 3 تكايا ، 3 حمامات ، 3 خانات ، 400 دكان ، 1 500 دار . بنى أحد جوامعه سليمان خان .

Osek (بالمجرية : Eszek ، بالألمانية Essek ، بالخرواتية : Osijek أو Osek أو Osiyek ، تقع في Esklavonya (Slavonya) وعلى الساحل الجنوبي من Drava . فتحها مقبول إبراهيم باشا الذي كان يقود مقدمة الجيش في حملة موهاج في 1526 وهي من أوائل القلاع التي فتحها إبراهيم باشا في تلك الفترة من بين ما يقرب من 40 قلعة صغيرة وكبيرة . ارتبطت حتى 1541 بإيالة روملي كلواء ثم إيالة بودين ، وفي 1600 ارتبطت بإيالة كانيجة . بها 18 محلة ، جامعان لسليمان خان ، 10 جوامع أخرى ، 40 مسجدا ، 4 مدارس ، 5 مكاتب ، 4 تكايا ، مطبخ عام لتوزيع الطعام المجاني (عمارت) ، حمام ، 12 سبيلا . جسر Osek من إنجازات إبراهيم باشا العظيمة وهو عريض بحيث تتمكن واسطتا نقل من العبور عليه جنبا إلى جنب ، وعلى مسافة قريبة منه جسر Drava وهو كبير جدا أيضا . يجتاز الجيش هذه الجسور للعبور إلى المجر .

Mohaç ، مركز لواء في إيالة بودين . أفنى السلطان سليمان القانوني ، الجيش المجري مع مليكه Layos الثاني في المستنقعات التي تقع خارج هذه القصبة وفتح المجر . يحتوي المركز على 350 دارا وجامع سليمان خان .

Peç أو Peçuy (بالمجرية : Pécs بالألمانية : Funfkirchen) ، مدينة مهمة ، مركز أحد ألوية إيالة بودين يقع في شمال – غربي موهاج . له قلعة جميلة بها 87 برجًا ، 5 500 مزغل و 200 جندي . يحتوي على 17 محلة للأتراك ، 1 للمجر ، 2 200 دار وقصر ذي عدة طوابق . أكثرها به حديقة ، أحواض وفسقيات ، أسطحها مكسوة بالقرميد الأحمر اللون ، ويتعاقب نحو 40 قصرا وسراي فخما على الشارع الكبير تحصى البكات الأتراك . له 17 جامعا ، 10 مساجد ، 5 مدارس ، 6 تكايا . (مساحة جامع سليمان خان 250 × 1 000 ذراع . الصعود للمحراب بواسطة سلم ذي 40 درجة) ، جامع ياكوفالي حسن باشا ومدرسته بها 70 غرفة ، تكيته المولوية وسط حديقة من الورد على درجة من الجمال لايمكن وصفها وكلها من أعمال الباشا الخيرية . إن عدد غرف البناية التي تقع في الفناء الخارجي فقط للتكية يبلغ 80 غرفة . إيرادات التكية السنوية 10 000 ليرة ذهب ، أيضا تكية فرهاد باشا الخلوتية عظيمة ، وبالمدينة أيضا 47 حنفية مياه مبنية (جشمة) ، 3 خانات نحو 400 دكان . كامل شعبها تقريبا أتراك . أكثرهم ينطق المجرية وقسم منهم ينطق الصربية . معظم المثقفين ينطقون اللغة الفارسية أيضا

لايستغنون في المطالعة عن كتب **المثنوي ، كلستان ، بستان ، ديوان حافظ ، خمسة نظامي ، رباعيات الخيام .**

Segsar (بالمجرية : **Szegszard**) مركز لواء في إيالة بودين . يحتوي اللواء علي 1 600 جندي . وتحتوي القلعة علي جامع سلمان خان ، وعدا ذلك 4 جوامع ، ومساجد ، وجسر كبير .

بودين ، مركز الإيالة المسماة بنفس الاسم . ويطلق على جزئها الواقع في الجانب الآخر على الضفة الشرقية من ألطونة اسم بشتة **Peste** . تبلغ مخصصات الوالي (البكلربك) السنوية 000 880 12 آقجه (وتعادل 150 مليون دولار) ، يمنح في الإمبراطورية ، بكلربك مصر فقط راتبا يفوق هذا المبلغ . كل أصناف الجيش موجودة عدا جنود التمارلي ، وهي بشكل خاص وكر للمغاوير (الصاعقة) . مدة خدمة الجندي عدا التمارلي والمغاوير ، سنة واحدة .
يتردد علي بودين ذهابا وإيابا في كل عام 000 36 جندي سراي قيزيل الما (التفاحة الحمراء) ، هو سراي ملوك المجر . لم يسكنه الوالي لمكوث سليمان خان فيه خلال زياراته العديدة بعد عام 1526 ، وصار كمتحف مفتوح للشعب ، حيث يتمكن الجميع من زيارته . كتب فاتح المجر السلطان سليمان القانوني علي جدار الديوانخانة (صالة الاستقبال الكبري) بخط يده شخصيا البيت الذي معناه :

إنه مثوى الغزاة ، سادتي لاشك في ذلك ، ومن ظلم فيها ، أبشره بسوء العاقبة .
يقرأ الكل من الوزير إلي أبسط الزوار تهديد السلطان هذا بدهشة وخوف واعتبار .
كتب السلطان سليمان تحت هذا البيت من الشعر ، الحديث النبوي الشريف التالي باللغة العربية « وعدل ساعة ، خير من عبادة ستين عاما » .

يتكون قضاء بودين المركزي من 10 نواح . أما لواء بودين المركزي فيتكون من 21 قضاء و 060 1 قرية وفي كامل الإيالة 900 3 قرية ، 306 قلاع بالأنغة (قلاع مصنوعة من عواميد خشبية) . عدد الرجال المسيحيين الذين يدفعون الضريبة في الإيالة 053 600 . يشكل نهر **Raba** (بالألمانية : **Raab**) في الغرب ، الحدود بين الإيالة والإمبراطورية الألمانية . ويحد إيالة بودين شمالا نهر الطونة وتبدأ إيالة أويفار في الضفة

الشمالية من الطونة ، ومن الشمال – الشرقي إيالة أكري ، ومن الجنوب – الشرقي إيالة تامشوار وفي منتصف كلتيهما إيالة فارادين ، ومن الجنوب – الغربي إيالة كانيجة ، ويحدها جنوبا إيالة روملي وإيالة بودين . وفي حالة عدم إقامة قائد الطونة البحري اللواء البحري (دريا سنجق بك) في بودين ، يترك نيابة عنه في المدينة عقيد بحري (دريابك) .

حيث إن لديه سفنا في نهر الطونة . ترسو في ميناء ومصنع سفن بودين 52 قطعة بحرية حربية . يتبع قائد الطونة البحري 2000 ضابط تقريبا ، لكن قسمًا منهم يرابطون في بودين .

يبلغ عرض أسوار القلعة 56 ذراعا ويمكن أن تسير عليه عربتان جنبا إلى جنب ، للقلعة 90 برجا عاليا و 17 حصنا كل منها يستوعب ألف جندي ، وبكل حصن منها 10 – 15 مدفع من نوعًا باليمز بعيد المدى ، ولكل حصن اسم خاص . يحرس القلعة الداخلية 500 جندي ، ولا يمكن لأحد أن يقيم فيها أو يدخلها . تحتوي القلعة على أكثر من ألف غرفة . يقيم في القلعة المسئولون الكبار والجنود . سراي قيزيل الما وسراي البكلربك ذوات الـ 200 غرفة وطوبخانة (التي هي من أكبر مصانع سباكة المدافع ، داخل القلعة) مساحة جامع سليمان خان 200 × 100 ذراع وهو أكبر الجوامع التي يبلغ عددها 21 الموجودة داخل القلعة . وبالقلعة سوق للحاجيات الثمينة وسوق يحتوي على 300 دكان ، 75 سبيلا ، و حماما ، و 170 خزان مياه تحت الأرض وبئر و 7 مدارس ، و 6 مكاتب ، وقبور الباشوات الذين توفوا في بودين . وتحتوي كذلك على برج ساعة .

بمنطقة طبقخانة خارج القلعة 1 000 دار ، 11 جامعا ومسجدا ، 4 مكاتب ، 3 تكايا ، 3 خانات ، 3 حمّامات بالمياة المعدنية الجوفية الحارة و 100 مصنع لدباغة الجلود والمدينة الأصلية هي بيوك فاروش ، خارج القلعة ، لكنها محاطة بالأسوار . لها حصن ذو 5 طوابق ، 10 أبواب ، 13 محلة . بها 2 500 دار ، و 24 جامعا ومسجدا ، و 5 مدارس ، و 6 مكاتب ، و تكية كلبابا البكتاشية ، 3 مطابخ عامة للمحتاجين ، وتحتوي بودين على محلتين لليهود ومعبد لهم ، و 3 كنائس أرثوذكسية . ربطت 70 سفينة بعضها إلى بعض بالسلاسل وجعلت جسرا بين بودين وبشتة ، يقطع الجسر ويمنع العبور في الليل . يحرس الجسر 300 جندي . يجيد جميع المسلمين تقريبا في بودين التكلم باللغة المجرية

إجادة تامة .

بشته (Pest) ، تقع على الجانب الشرقي من الطونة . بها 5 جوامع ، 6 مساجد ، 11 محلة ، ونحو 1000 دار حجرية ذات طابقين ، و مدرستان ، و 3 مكاتب ، و تكيتان ، و مطبخان عامان ، و حمامان . هي ناحية القضاء المركزي لبودين . يسكن بشته مسئول برتبة لواء .

Estergon ، تقع في شمال – غرب بودين . على الساحل الشمالي من الطونة والساحل المقابل لم يعد المجر ، بل سلوفاكيا وهي مثوى جنود الصاعقة المغاوير الغزاة (بالمجرية : **Estergon** ، بالألمانية : Gran) . و هي مركز لواء في إيالة بودين . يتكون اللواء من 6 000 جندي تمارلي وتحتوي القلعة على جنود من جميع الأصناف . يشكل جنود العثمانية أكثرية شعب المدينة وبخاصة الصاعقة وهم يحسنون التكلم باللغة المجرية بصورة جيدة . جانب الطونة من القلعة حجر صلد بارتفاع ثلاث منائر . تحتوي على معمل للمدافع . باشا سراي ، داخل القلعة ، يسكن فيه اللواء (سنجق بك) . الساحة المجاورة ، هي ساحة الشهداء وجامع قيزيل الما الذي يصعد إليه بواسطة 110 درجات . بالمدينة 3 100 دار ، و 3 جوامع ، و مسجدان ، و مدرستان ، و 4 مكاتب ، وسوق فيه 210 دكاكين . المجريون أكثرية . أسوار المدينة في بعض الأماكن خمسة طوابق . فتحها السلطان سليمان القانوني بنفسه . سقطت بيد الألمان مدة عشرة أعوام واسترجعها الصدر الأعظم صوقوللو – زاده لالا محمد باشا . أتراك استركون لطفاء ، ذوو شهامة ، يتصفون بالكرم والشجاعة . لايمكن للمخاتلين والمخادعين والأنذال أن يندسوا بينهم . حصّنت القلعة بشكل يمكنها من أن تقاوم 100 000 من جنود العدو شهورا عديدة . يعبر إلى الساحل سلوفاكيا المقابل بواسطة 17 سفينة مصفوفة جنبا لجنب . والجسر منفصل عادة . يلتئم عند الاجتياز ، وبعد الانتهاء من الاجتياز يفصل مرة أخرى .

جكرده لن (بالمجرية : **Parkany**) ، هو قسم قلعة استركون الباقي في ساحل سلوفاكيا المقابل للطونة أسسها السلطان سليمان وأطلق عليها اسمها عام 1543 . تتكون حاميتها من 250 جنديا ، وبها جامع واحد و مرتبطة باستركون . تستطيع تحكيماتها أن تستوعب عشرات الألوف من الجنود وقت الحرب . تحرك العثمانيون من هذه القاعدة وتمكنوا من السيطرة على 700 قرية .

Uyvar ، مركز إيالة في سلوفاكيا . لها قلعة كبيرة جدا . **Nitro** ، مركز لواء في إيالة أويفار يقع في غرب سلوفاكيا وشمال أويفار وعلى الساحل الغربي من نهر **Nitra** . وعلى بعد 75 كم من براتسلافا و 145 كم مسافة مستقيمة من فيينا . بها 3 600 دار ، 7 كنائس ، وعدة أديرة . أحد الجوامع شيّده محمد الرابع والآخر شيّدته والدته تارهان والده – سلطان . ويوجد في أويفار كذلك جامعان .

Leve (بالسلوفاكية : **Levice**) ، تقع بالقرب من الضفة الشرقية لنهر **Horn** (**Gran**) في سلوفاكيا تتبع إيالة أويفار ويتبع لواءها 300 قرية بها جامع محمد الرابع وفاضل أحمد باشا .

Novigrad (**Neograd**) ، تقع بين استركون و **Vaç** ، على الضفة الشمالية للطونة ، من فتوحات سلطان – زاده محمد باشا في 1549 . استولى عليها الألمان في 1593 ، استعيدت من الألمان في 5/ 11 / 1663 ، وهي مركز لواء في إيالة أويفار . تحتوي على جامع سليمان خان .

Vaç (بالمجرية : **Vacz** ، بالألمانية : **Vac**) ، مركز لواء في أويفار يحتوي على 1 000 دار ، 7 جوامع ، 3 كنائس . أحد الجوامع لسليمان خان فتحها في 1541 أوزون سليمان باشا والى بودين الأول ، استولى عليها الألمان في 1602 استرجعت في 1663 .

Rudnik ، مركز قضاء في لواء سمندرة ، يحتوي على 800 دار ، 11 جامعا ، ومسجدا ، 3 مكاتب ، وحمام .

جاجكا (بالصربية : **Cacak**) ، قضاء في اللواء ذاته ، يقع بين **Rudnik** و **Ozice** على الضفة الجنوبية من نهر مورافا ، يتبعه 96 قرية ، وبه 7 جوامع ومسجد ، و 3 مدارس ، و 4 مكاتب ، و 3 تكايا ، و خانان ، وحمام .

Pojegaeik (بالصربية : **Pozega**) ، قضاء فى اللواء ذاته ، يتبعه 110 قرى ، وبه 1060 دارا ، و 10 جوامع ومساجد ، و 3 مدارس ، و 6 مكاتب ، و 4 تكايا .

Valpo (بالخرواتية : **Valpovo**) ، ناحية القضاء المركزي للواء **Pojega** به 3 جوامع ومساجد ، ومدرسة واحدة ، و مكتب واحد ، و تكية واحدة ، وحمام واحد ، وخانان .

Siklos (بالمجرية : **Siklos**) ، مركز لواء في إيالة كانيجه . يقع في جنوب **Pec** من

فتوحات سليمان خان في 1543 . قلعته ذات 3 طوابق و 17 برجا ، به 850 دارا ، جامع سليمان خان ، وعدا ذلك 14 جامعا ومسجدا ، و 3 مدارس ، و 3 تكايا ، و خانان ، ومكتب واحد .

Sigetvar (بالمجرية : Szigetvar) ، تقع في غرب|بـج ، مركز لواء | في إيالة كانيجة . فتحه السلطان سليمان في حملته السلطانية الثالثة عشرة عام 1566 ومات أمام القلعة . تتكون حامية اللواء من 600 3 سباهي . باللواء 6576 دارا ، و 8 جوامع ، و 3 مساجد ، و 8 تكايا .

Kanije (بالمجرية : Nagrk anizsa) ، قريبة من حدود سلوفينيا وأوستريا . فتحها الصدر الأعظم داماد إبراهيم باشا في 1600 وجعلها مركزًا للإيالة . أسست هذه الإيالة بعد فصل ألوية من إيالات بودين وبوسنة ، وتتكون من 10 ألوية : المركز كانيجة ، بـج ، Sigetvar ، Sislos ، Kaposvar ، Kopan ، Pojega ، Yakova ، Kemenvar و Egersek . جدد إنشاء القلعة في 1661 . ترى فيها حتى الآن المدافع التي غنمها غازي ترياكي حسن باشا من الألمان بالقلعة على 77 مدفعا . وبها 500 1 دار ، و 3 مصانع للبارود ، و جامع محمد الثالث ، و 5 جوامع ، و 6 مساجد ، و مدرستان ، و 6 مكاتب ، و 3 تكايا ، و 4 خانات .

يني قلعة (بالمجرية : Serinvar ، Zrinvar) ، تقع في جنوب كانيجة عند مصب نهر Mur في Drava شيّدت في 1661 ، بها 7 مواقع مستحكمة ، وبكل موقع من 40 – 50 مدفعاً . صنع جسرها من تجميع 50 قطعة بحرية .

Kosek (بالمجرية Kozeg ، بالألمانية Guns) ، من فتوحات سليمان خان ، وهي حاليا لدى الألمان .

Kopan ، مركز لواء في كانيجة ، يجهز 000 3 جندي سباهي . يحتوي على 17 محلة ، و جامع سليمان خان ، و 3 جوامع ، و 11 مسجدا . اللواء صغير وذو قضاء واحد . **قبر سليمان خان** ، خارج سكيتفار وتسمى « تربة » وهي في الأصل فإنها عبارة عن قلعة صغيرة . رأى المهندس العثماني أنه من اللائق أن يشيد لأحشاء السلطان الغازى

الذي مات أمام العدو في هذا الموقع قبرا على شكل قلعة . وضع قلب ، ورئتا ، و كليتا وأمعاء سليمان خان في طبق ذهبي ودفن في الموضع الذي نصب فيه السرادق الهمايوني . ذؤابة القلعة مطلية بالذهب الخالص ، تبهر العيون . محيط القبر 500 1 ذراع . تحيط به (المشتملات والمرافق ، التي هي عبارة عن جامع ، و مسجد ، ومدرسة ، ومكتب ، وتكية ، وخان ، بناها جميعا كوبرولو - زاده فاضل أحمد باشا . يزور هذا المكان المجريون والسائحون على أساس أن « قلب سليمان العظيم مدفون فيها » .

Simontorana (Simontornya) ، مركز لواء في إيالة بودين . يقع في جنوب استولني بلغراد . يجهز 060 3 جنديًا تمارلي سباهي . يتبع قضاءه المركزي قرية . من فتوحات سليمان خان . له جوامع ، مدارس (دينية) وتكايا .

Istolni Belgrad أو Istuni Bedgrad (بالمجرية Székesfehervar ، بالألمانيـة : Stuhlweissenburg) ، مركز لواء مهم جدا في إيالة بودين ، ولاته بمرتبة فريق أول (بكلربك) . يقع بين الرأس الشمالي لبحيرة Balatan وبودين . « استولني) تعني « اسكملة » أي كرسي . إذ إن ملوك المجر ، يحضرون بعد اعتلائهم العرش إلى الكاتدرائية الموجودة فيها ويشرعون في الدعاء وهم جلوس على الكرسي . ينقل جثمانهم بعد وفاتهم إليها ويدفنون في مخزن الكاتدرائية . فتحها سليمان خان في 543 1 وعين ابن عمته سلطان - زاده أحمد بك واليا (سنجق بك) عليها وهو الأخ الأصغر لبالي باشا ومحمد باشا ، وجميعهم أبناء غازي داماد يحيى باشا والسلطانة ابنة بيازيد الثاني . حاصرها الألمان مدة 4 أشهر في 1594 وخسروا 47000 جندي ، ولم يتمكنوا من الاستيلاء عليها . استولى عليها الألمان في 1601 ، ثم استرجعت في السنة التالية 1602 . تحتوي القلعة على 9 مواضع استحكامية ، يمكث فيها نحو 000 2 جندي ، وتحتوي على 14 محلة ، جوامع ومساجد كثيرة جدا . خمس من تكاياها البالغة إحدى عشرة ، بكتاشية و بها 7 مكاتب . أكبر بناء فيها هو جامع سليمان خان . يقوم الحرس العثماني بحراسة الكاتدرائية التي بقيت داخل القلعة بكل دقة ، لها زوار كثيرون . إذ إنها من الأماكن التي تستوجب الزيارة وهي مقدسة بالنسبة للمجريين . يرقد فيها كل ملوك المجر داخل قبور فخمه ويهتم الجند العثمانيون جدا ألا تصاب اللحود بأدنى ضرر .

وعند وفاة يانوش Yanos الذي نصبه السلطان سليمان ملكا على المجر ، دفن فيها كذلك بأمر البادشاه . ودفن كذلك في هذا المكان بأمر البادشاه الملك Layos الثاني الذي قتله سليمان خان في حملة موهاج في 1526 .

Petervaradin أو مختصرا Varadin ، فتحها الصدر الأعظم مقبول إبراهيم باشا الذي كان يقود الطليعة أثناء ذهابه لحملة موهاج . تقع في الساحل الجنوبي من الطونة . وتوجد Novi Sad في ساحلها الشمالي المقابل . وهي مركز قضاء في لواء Sirem التابع لإيالة بودين ، تحتوي على جامع سليمان خان ، و جوامع ، و مساجد ، و 3 مدارس ، و 4 مكاتب وتكايا .

Hatvan ، مركز لواء في إيالة أكري . يرابط فى اللواء 6 000 جندي ، 300 منهم في قلعة Hatvan . تقع بين بودين وأكري . في القلعة 8 مواقع استحكامية وجسران ، 107 مدافع . وتحتوي القلعة على برج ساعة مرتفع فوق البوابة الكبرى . يحتوي المركز على 700 دار ، و جامع محمد الثالث ، وجوامع وأبنية أخرى .

Egri (Eger ، بالألمانية Erlau) ، تقع في الشمال ـ الشرقي من المجر . كان قد حاصرها على عهد سليمان خان ، الوزير الثاني (وبعدها الصدر الأعظم) فاتح تامشوار غازي داماد قرة أحمد باشا ولم يتمكن من فتحها ، وفتحها محمد الثالث بنفسه من الألمان عام 1596 وسمّي « فاتح أكري » . هي مركز إيالة منذ ذلك العهد . فصل القسم الأكبر من الإيالة من إيالة بودين . واعتبارا من 1 640 ، شرع في تعيين ولاة بمرتبة وزير على الأغلب . تحتوي على 7 ألوية : Egri ، Hatvan ، Sonluk ، Seçan ، Baçka ، Segedin و Keçkemet . وبذلك فإن القسم الأكبر من سهل Alfold الكبير الواقع بين الطونة وتيسا ، بقي في هذه الإيالة . وتشمل تقريبا كامل المجر الشرقية . عدد المجريين في هذه الإيالة ، يفوق عددهم في إيالة بودين وكانيجه . يمكث في الإيالة نحو 20 000 جندي منهم 4 500 يمكثون في قلعة أكري . يبلغ راتب البكلربك السنوي 650 000 آقجه . تحتوي الإيالة على 40 مدينة و 111 قلعة وبالأنغة (قلعة خشبية) . يبلغ ارتفاع أسوار أكري 47 ذراعًا وعرضها 50 ذراعًا . يحيط بالقلعة خندق عميق جدا وعريض . يوجد في القلعة جامع علم شريف لمحمد الثالث . سمي بهذا الاسم بسبب أن محمد الثالث قطع من حافة الراية النبوية الشريفة خيطا وعلقه

بنفسه على المنبر في 1596 . مساحة باشا سراي 200 × 100 ذراع ، وباشا جامع داخل القلعة كذلك . إن جامع « كوجوك باشا جامعي » ومخزن العتاد ، موجود في سراي ميدان . يوجد على البوابة الكبرى برج يحتوي على ساعة . يبلغ محيط السور 12 000 ذراع ، ويتصل بالخارج بواسطة 5 أبواب . القلعة مستحكمة بواسطة عشر طبقات من الأسوار . إن الشارع الذي يصل بين باب ايليجة وباب Malatoz ، والذي يبلغ طوله 500 ذراع ، مكسو بالخشب الثمين (باركه) . تبقى قلعة بارود خانة في الجهة الجانبية . محيطها 500 ذراع . شيّدها كوبرولو عام 1658 . تحتوي المدينة على أكثر من 3000 دار ، 46 جامعا ، و 31 مسجدا ، و 4 مدارس ، و 17 مكتبًا ، و 7 تكايا ، و 20 سبيل ماء ، حمامين ، و 5 خانات ، 600 دكان ، ونحو 800 قصر تحتوي على حمامات . هي ثاني المدن في المجر بعد بودين التي سكنها عدد كبير من الأتراك . تحتوي المدينة على جامع فتحية لمحمد الثالث . وتقع مدينة أكري ، في شمال الإيالة . ويسمى أقصى شمالها ، المجر الوسطى ، يوجد فيها أمير مجري تابع للعثمانية ويمنح أحيانا لقب « ملك » .

Haçova ، على مسافة 7 ساعات من شمال أكري . سهل مخيف . استولى محمد الثالث في 1596 على أكري بعد إفنائه الجيش الألماني . وبالرغم من مرور 70 عاما ، كانت أكوام عظام المسيحيين القتلى تظهر في سبعين أو ثمانين مكانًا . استخدمت حافة السهل كمقبرة لنحو 30 000 من شهداء العثمانية في هذه الحرب الميدانية الكبرى . دفن زملاء القتال متجاورين .

Debrecin (Debrecen) ، مدينة مجرية كبيرة تقع في أقصى شرق المجر ، في إيالة أكري لا قلعة لها ، فيها 12 800 دار و 40 ديرًا وكنيسة . يسكنها الأتراك ، كذلك تحتوي على 4000 ماكينة لحياكة الجوخ .

Kenkus (بالمجرية : Miskolc) مدينة حرة في إيالة أكري أيضا ، لا يوجد فيها أتراك . تمتد هذه المدينة على طول 8000 ذراع ، وبها نحو 200 كنيسة وأديرة كبيرة ، و دكاكين ، و للمدينة قلعة ولكنها فارغة . يمر الأتراك عن طريق هذه المدينة لكنهم لا يتخذونها محلا للإقامة ويقيمون في مدينة أكري . يسلم رئيس بلدية كنكوش سنويا الضريبة المعيّنة التي جمعها إلى أكري . ليس بالمدينة جنود عثمانيون .

Fulek ، مركز لواء في جنوب منتصف سلوفاكيا ، تابع لإيالة بودين . تم فتحه في 1564 . استولى عليها الألمان في 1594 ، واسترجعها محمد الثالث في 1596 ، ثم انتقلت لحيازة الألمان في 1604 ، ثم فتحها للمرة الثالثة فاضل أحمد باشا في 1662 خلال حملة أويفار . لها قلعة ذات 7 أبراج ، وبها ماينيف على 1000 دار ، جامع محمد الرابع ، 300 دكان و 10 كنائس . شعبها مجري .

Seçen (بالمجرية : Széchen ، Szécheny ، أحد مراكز لواء إيالة بودين ، يقع بين أكري ونيوغراد في جنوب Fulek . فتحت في 1592 ، استرجعها الألمان في 1594 . ثم أعيد فتحها في 1662 . يحتوي اللواء على نحو 3000 جندي وفي القلعة جامع محمد الرابع .

Germat (بالمجرية : Balassa - Gyarmat) مركز لواء في إيالة بودين في الساحل الجنوبي لنهير Ipoly والجانب المقابل ، سلوفاكيا . في الشمال – الشرقي من بودين . فتح في 1592 وفقد في 1594 ، ثم فتحه فاضل أحمد باشا مجددا في 1662 .

Tata ، مركز لواء آخر لإيالة بودين . يقع بين استركون ويانق (Gyor) . فتح على عهد القانوني ، فقد في 1565 ، ثم استرجع في 1593 ، وعاد لحيازة الألمان في 1597 ، ورغم أنه استرد في العام نفسه ، إلا أنه عاد مرة أخرى لسيطرة الألمان في 1601 . يحتوي على 2000 دارا . ثبّتت على هذه الأراضي علامات الحدود العثمانية – الألمانية بمسافات منتظمة .

Komran أو Komorn أو Komorno ، تقع في جنوب أويفار ، على مسافة 12 ساعة من استركون ، بها 2000 دار ، 300 دكان ،7 كنائس . كانت سابقا مركز لواء في بودين .

يانق أو Yanikkala (Yanikkal'a = يانق قلعة أي القلعة المحروقة) (بالمجرية Gyor ، بالألمانية : Raab) في الساحل الجنوبي من نهر Raba (بالألمانية : Raab) . منتصف طريق بودين وبج (فيينا) . أطلق السلطان سليمان هذا الاسم على القلعة وذلك أن الجيش الهمايوني أحرقها أثناء ذهابه لمحاصرة فيينا . فتحت في عهد القانوني

استرجعها الألمان ، ثم أعيد فتحها مرة أخرى في 1594 وفقدت في 1597 . أصبحت مركز إيالة في تلك الفترة الأخيرة . كان يحمي قلعتها 20 000 جندي . وتعتبر المنفذ إلى فيينا ، وجودها بحوزة الأتراك يمثل تهديدا كبيرا لفيينا . يحمي القلعة 7 مواضع استحكامية . وتحتوي على 2000 دار .

Samorin (Samorin ، شامورين) أو Samartin أو Sen Marten ، فتحت وفقدت مع يانق ، كانت مركز لواء . يقع ين يانق و براتسلافا .

Kasevar (بالألمانية : Kaschau ، بالسلوفاكية Kosiee ، بالمجرية Kassa) ، بلا قلعة ، وبها 8 000 دار . تبعت/العثمانية ، يديرها على الأغلب ملك المجر الوسطى .

Sonlok (بالمجرية : Szolnok) ، مركز لواء في إيالة أكري ، يقع على ساحل الطونة الغربي في الجنوب - الشرقي من بودين . يحتوي اللواء على 3500 جندي . فتحه أولا سليمان خان في 1526 ، ثم والي بودين علي باشا في 1552 ، ثم محمد الثالث في 1596 . تحتوي القلعة على جامع محمد الثالث ، وفي الضواحي عدة جوامع وأبنية أخرى .

Keckemet (بالمجرية : Kecskemet) ، مدينة مجرية في إيالة بودين تحتوي على أكثر من 1000 دار ، 3 كنائس . تدفع ضريبة سنوية ، ولايوجد في المدينة مسلمون .

Sombor (بالمجرية : Zombor) ، مركز قضاء في لواء Segedin . من فتوحات برتو باشا عام 1552 ، تحتوي على جامع سليمان خان ، 5 جوامع ، 9 مساجد ، مدرستين ، 6 مكاتب ، تكيتين .

Bac (بالمجرية : Bacsalmas) ، مركز قضاء في لواء سكدين . يسكنها أمير لواء سكدين أكثر مما يسكن سكدين . يحتوي على جامعين شيّدهما سليمان خان ، بها 7 مساجد ، 400 دار ، سوق جديد به 140 دكانًا . وجنوبا على مسافة 6 ساعات قلعة **Votok** الخشبية ، مركز ناحية يحتوي على جامع سليمان خان ، 3 مساجد ، 180 داراً .

Titel ، قضاء سكدين ، يحتوي على جامع سليمان خان ، ومسجدين ، 3 مدارس ، 4 مكاتب ، تكيتين ، حمامان .

Sente (Senta ، على مسافة 6 ساعات ، قلعة ذات جامع واحد .

Sobocka (بالصربية : Subotica بالألمانية : ariatheresiopel ، من فتوحات سليمان خان في 1526 ، ناحية سكدين فيها 140دارا وتحتوي على جامع سليمان خان .

Segedin (بالمجرية : Szeged ، بالألمانية : Szegedin) ، في الساحل الغربي من نهر تيسا من فتوحات سليمان خان . بها قلعة ذات 7 أبراج وفي كل برج من 40 – 50 مدفعا . مركز لواء في إيالة أكري ، يقيم أمير اللواء الذي يتقاضى مخصصات سنوية قدرها 000 500 آقجة الأغلب في مدينة بج . من الألوية الكبيرة ، ويوجد جامع سليمان خان .

Canad (بالمجرية : Csanad) ، مركز لواء في إيالة تامشوار . وإيالة تامشوار هي الأراضي الواقعة في شرق تيسا . أما شمال نهري Koros و Berettyo فهي إيالة أكري كذلك . تقع جاناد بين تامشوار وآراد في جنوب نهر ماروش ، من فتوحات داماد قرة أحمد باشا . يحتوي اللواء على مايقرب من 6000 جندي ، 7 نواح و تتبع 240 قرية لقضائها المركزي . تحتوي على جامع سليمان خان وعدا ذلك ، جامعين ، 10 مساجد ، 3 مدارس ، 4 مكاتب ، 3 تكايا ، 535 دارا حجرية وقصرا ، ونحو 300 دكان .

Gole (بالمجرية : Gyula) ، مركز لواء . يحتوي اللواء على 800 8 جندي . قلعتها ذات 60 مدفعا ويوجد فيها ما ينيف على 100 1 دار وقصر ذي حديقة ، جامع سليمان خان ، جامع ومسجدين ، 3مكاتب ، تكيتين ، 11 خانا ، 3 كنائس ، نحو 300 دكان .

Varadin (بالألمانية : Grosswardein ، بالرومانية : Oradea ، بالمجرية : Varod) ، انفصلت في 1661 عن إمارة أردل وأسست إيالة فارادين . تقع في جنوب شرقي Debrecen . يتقاضى أمير أمرائها (بكلربك) الوالي وهو بمرتبة وزير ، راتبا سنويا قدره 800000 آقجة . يحتوي لواؤها المركزي على 8000 جندي و12 قلعة . يمنح الوالي عدا ذلك مخصصات سرّية سنوية قدرها 24000 ليرة ذهبية ليصرفها في الأغراض التي يراها مناسبة . تتكون الإيالة من 5 ألوية ويحتوي لواؤها المركزي على 10 نواح ونحو 340 قرية تحتوي القلعة على 60 مدفعا وبرج وساعة و 5 مواقع مستحكمة كبيرة مع

جامع محمد الرابع . تحتوي مدينة فارادين على 1 250 دارا ، 3 جوامع ، 14 مسجدا ، 3 مدارس ، 4 مكاتب ، تكيتين ، 3 خانات ، مطبخ عام (عمارت) ، 7 أسبلة و 300 دكان . ويشاهد خارج المدينة كذلك 66 مدفعا و 12 موقعا استحكاميا صغيرا .

Senkoy ، مركز لواء في إيالة فارادين ويحتوي اللواء على مايقرب من 9 000 جندي .

Bohar ، مدينة مجرية أخرى ، ومركز لواء في الإيالة ذاتها ، يحتوي اللواء على 9 000 جندي .

Verse ، قضاء في تامشوار يحتوي على جامع سليمان خان .

يني بالأنغة لواء Medova في إيالة تامشوار . يحتوي اللواء على نحو 5000 جندي ، 350 دارا نصفهم مسلمين ، جامع السلطان محمد الفاتح ، وجامع آخر ومسجدين .

Medova ، فتحها بيوكبالي بك على عهد فاتح . يحتوي على 200 دار ، وجامعين . كان أمير اللواء يقيم فيه سابقا .

Orsova أو Irseve أو Irsova ، من فتوحات بيوك بالي بك كذلك ، وهو مركز اللواء الكائن في أقصى جنوب إيالة تامشوار . يقع على الضفة الشمالية لأحد منعطفات الطونة وعلى الشرق منه تقع إمارة إفلاق . يحتوي اللواء على نحو 3000 جندي ، 350 دارا ، وجامعين ، ومسجد ، مدرسة . وعلى مقربة من جنوب أورشوفا ، تقع دميرقابو وهي دوّامة مائية مخيفة . من المعلوم أن نهر الطونة مليء في هذا الموقع بالصخور التي يبلغ حجمها قدر حجم قبب الحمامات ، وتسير السفن بواسطة المرشدين الذين يعرفون مواقع هذه الصخور بصورة جيدة . يمنع مرور السفن بدون دليل . تحصل الدولة على ضريبة عن كل سفينة تتولى إمرارها حسب حجمها ، من 100 إلى 250 ليرة ذهب . وفي حالة اصطدام السفينة تسّدد قيمة الأضرار بالليرات الذهبية .

فتح الإسلام (بالصربية : Gladova) هي جارة أورشوفا التي بقيت في جانب الطونة الجنوبي . مركز قضاء في لواء Vidin التابع لإيالة روملي . دخلت تحت الحماية العثمانية قبل عام 1400 ، تم فتحها في عهد فاتح وعلى يد/ بيوك بالي بك (باشا)

يحتوي على جامع سليمان خان ، وجامعين آخرين ، ومسجدين ومدرستين ، 5 مكاتب وتكيتين .

10 – رومانيا .

كانت رومانيا الحالية ، تحتوي على إمارتين (فويفودا) مستقلتين استقلالا ذاتيا ، عدا ترانسلفانيا ، بانات ودوبروجه : إفلاق وبغدان . كونت هاتان الإمارتان قسما من الإمبراطورية العثمانية حتى معاهدة بخارست في 1878 . تبعت الإفلاق ، العثمانية على عهد يلدرم بيازيد وبغدان على عهد فاتح ، وارتبطتا بالعثمانية بروابط وثيقة جدا .

كانت درجة كل من الأميرين (فويفودا) في التشريفات العثمانية بكلربك (أمير الأمراء فريق أول) لكن كان أمير بغدان يتقدم على أمير إفلاق . لم تكن هاتان الإمارتان دولتين مستقلتين ، قبل انضمامهما إلى العثمانية ؛ فقد كانت إفلاق تابعة للمجر غالبا أما بغدان فكانت تابعة لبولونيا . عين الديوان لهاتين الإمارتين حتى 1711 ، أمراء من أشراف الرومانيين الذين يطلق عليهم أسم « بويار » Boyar ؛ ولم تكن التعيينات لمدى الحياة ، وإنما كان الأمراء يتغيرون في فترات قصيرة جدا . واعتبارا من 1711 ، شرع بالنسبة لكل من الإمارتين ، في تعيين أشراف الروم المقيمين في إستانبول الذين كان يطلق عليهم اسم فنار بكلري (بالفرنسية : Phanariote) ، وأصبحت الإمارتان تحت رقابة عثمانية أشد .

أساسا ، كانت كلتا الإمارتان تحت رقابة والي روملي أولا ، ومن ثم تحت رقابة والي أوزو . كانت كلا من الإمارتين ترسلان إلى العثمانية في حالة الحرب مع ألمانيا ، وحدتين قوام كل منها على أكثر تقدير 10 000 شخص . كان الأمراء يترأسون جنودهم بأنفسهم ، وكانوا يقدمون إلى استانبول عند [illegible] واستدعائهم ، ويرسلون إلى استانبول في كل عام ضريبة سنوية مقطوعة . هدمت كل القلاع الموجودة في كل من الإمارتين ومنع تشييد القلاع . ومقابل ذلك ، لم يكن المسلمون يسكنون في كلا الإمارتين ، وإنما كانوا يقيمون إقامة مؤقتة كتجار فقط . وضعت حامية قوية من الانكشارية في سراي كل من الأميرين بدعوى للحراسة . قلصت العثمانية على مر الزمن حدود الإمارتين ، وحتى أن صلة بغدان بالبحر الأسود انقطعت في نهاية القرن 15 . وبناء على ذلك ، فإنه لم يكن لكلا الإمارتين

اللتين تسميهما العثمانية « مملكتين » ساحل على البحر . يطلق على الإفلاقيين « Ulah ، وعلى البغدانيين « Moldav » وينطقون بلهجتي الرومانية .

كانت Tragoviste عاصمة الإفلاق حتى 1661 ثم أصبحت العاصمة بخارست ؛ أما عاصمة بغدان فكانت سوجافا Suçava حتى 1568 ، ثم أصبحت العاصمة ياش .

يتم إجلاس كلا الأميرين على العرش أمام الشعب في عاصمتهما ، من قبل أحد مرافقي البادشاه . يلبسانهما القبعة الحمراء ، ثم تتلى براءة السلطان بالتعيين وتوضع على أكتافهما الخلعة . كان لكل من الأميرين فرقة موسيقى عسكرية (مهترم) مكونة من الموسيقيين العثمانيين . كان في روما ، كما كان في جميع أنحاء أوروبا عبيد يعملون في الأراضي يطلق عليهم Serf » . أعتقت رقاب هؤلاء العبيد عام 1740 ، وقد حدث ذلك قبل ألمانيا بـ 50 سنة وقبل روسيا بـ 125 عاما . اهتدى بعض الأمراء (Voyvoda) إلى الإسلام . يوجد في كل من العاصمتين قاض عثماني . ينظر القاضي في الدعاوى القائمة بين المسلمين الذين كانوا يقيمون في الإمارتين كحرس عسكريين ، أفراد الموسيقى العسكرية (مهتر) والتجار ، وبين الرومانيين . كان القانون ينص على أن يكون لكل أمير 24 مرافقا ؛ 12 منهم من الضباط العثمانيين ، و 12 من الضباط أتراك قرم . كان لكل من الأميرين مكتب يشكله الكتبة العثمانيون وعلى رأسهم رئيسهم المسمى « ديوان أفنديسي » (رئيس الديوان) لتأمين المراسلات باللغة التركية . كانت عروش إفلاق وبغدان وفويفودات (أمراء) أردل التي تعامل معاملة مرتبة الوزير في التشريعات ، تسمى « اسكمله » (كرسي) كان أمير أردل بمرتبة ملك كملوك المجر الوسطى وخانات قرم ، زيدت حريات إدارات الحكم الذاتي في الإمارات في العصر 19 وفي 1859 ، أدمجت الإمارتان وأصبحت العاصمة بخارست (بالعثمانية بكرش) .

ياش أوياش يازاري أو Papaz Yaska (القس ياشكا) (بالرومانية :Iassi) ، كانت بالنسبة لما كتبه أولياء جلبي في 1659 ، تحتوي على 20 000 دار ، قصورها وسراياتها على الأسلوب العثماني من الناحية المعمارية والتأثيث . وتحتوي على أكثر من 2000 دكان ، 11 كنيسة .

بكرش(بالرومانية : بخارست Bucarest) ، كانت بها 12 000 دار ، ويوجد خارج

المدينة منزل كبير للمسافرين المسلمين . كانت إفلاق تحتوي على 120 مدينة وقصبة و 3600 قرية . كان بالمدينة عدد أكبر من العثمانيين بالنسبة إلى ياش . علم إفلاق ، كان على شكل صقر مفتوح الجناحين .

11 – بودوليا :

كانت بودوليا تتبع في السابق ، بولونيا ، واليوم تتبع جمهورية اوكرانيا السوفيتية ، وهي القطر الذي ينحصر بين شمال رومانيا وشمال Dnyestr . وبينما كانت قلعة Hotin تابعة لبغدان سيطرت عليها بولونيا (بجوي ، 2 ، 379 ؛ نعيما ، 2 ، 206) . انتقلت إلى العثمانية نتيجة لحملة بولونيا الهمايونية لعثمان الثاني عام 1622 وأصبحت قلعة عثمانية مستحكمة ومهمة جدا . بقيت لدى العثمانية حتى 26 / 11 / 1806 .

احتلها الروس في هذا التاريخ (Iorga ، 5 ، 159) . أما القطر الأصلي المسمى بودوليا ، فقد فتحه قبلان مصطفى باشا عام 1672 وأسست إيالة كامانيجه (30 / 8 / 1672) . أعيدت إلى بولونيا عام 1699 وانتقلت إلى روسيا عام 1793 . تقع كامانيجه (بالأوكراينية : Kemanets - Podolski) في شمال – شرق هوتين على مسافة من الساحل الشمالي لدنيستر . أما Bukovina الشمالية التي تقع في جنوب Prut وجنوب Hotin ، فإنها تركت لألمانيا مع مدينة جرنوفيج عام 1792 .

12 – القرم :

كما أن بعض الإمارات لبني جنكيز أمثال قسيم ، قزان ، استرخآن ، نوكاي وباشكردستان وكذلك الخاقانيات التابعة لأتراك الشمال التي تسيطر عليها دولة جوجي ، تبعت العثمانية بين حين وآخر ، كذلك ارتبطت قرم بالعثمانية اعتبارًا من 1475 . كانت قرم تجّهز جيشا يتكون من 000 200 خيال ؛ 000 100 منه تحت إشراف الخان ، 000 60 تحت إشراف كالغاي (ولي العهد) و 000 40 تحت إشراف نور الدين (ولي العهد الثاني) . كان تعيين ولاة العهد (كالغاي) وولاة العهد الثانيين (أنوار الدين) يصدر من أستانبول ، كالخانات . كان الخان سابقا ، في مستوى الصدور العظام في التشريفات وذي 5 شارات توضع على الرأس . اعتبر في العصر 16 ، في مستوى الوزراء ذوي 3 شارات (طوغ) .

Kefe ، ألحقت كفه بالعثمانية رأسا كلواء في 5 /6 / 1475 وفي 1580 ، أصبحت إيالة . كان هذا اللواء يشمل المنطقة التي تمتد من سفاستوبول إلى كرج ، ويشمل كامل الساحل الجنوبي - الشرقي من القرم وشبه جزيرة تامان التي تقع تجاهه وكان مسيطرا على مضيق كرج . ولواء آزاك (روستوف) أيضا ، أصبح بعد ذلك إيالة . وكان هذا اللواء كذلك ، مسيطرا على بحر آزاك ومصب نهر الدون . وقد اعتبرت كفه وآزاك في بعض الفترات لوائين لإيالة واحدة . تولى كل من شهزاده (ولي العهد) محمد أحد أبناء بيازيد الثاني ، وبعده ، ابن أخ هذا شهزاده سليمان (القانوني) ، إدارة لواء كفه . الحق باللواء عام 1479 ، قضاء تامان وناحيتي آنابا Anapa و Kopa . وفي 1479 ، بدأت آزاك ، قبل أن تكون لواء - بتشكيل أحد أقضية كفه الستة (الأقضية الأخرى هي : Sogdak ، Mengup ، Kerç) . كان عدد سكان كفه في 1671 ، 40 000 ، 8000 منهم مسيحيون والباقي مسلمون . كان ميناءً فعالا (Chardin ، 1 ، 104 ، 107 - 8) . نقتبس من أولياء جلبي بعض ماسرده من سطور في مجلده السابع عن جولته في قرم .

اورقابو Orkapi (بالروسية : Perekop) ، مركز قضاء في إمارة قرم . هي القلعة التي شيّدها صاحب كيراي خان في العصر 16 . وهي قطعة الأرض الضيقة جدا التي تربط قرم باوكرانيا وأوروبا ، ولولا وجود هذا البزرخ الضيق لأصبحت قرم جزيرة تامة . حامية القلعة ليسوا جنودا من قرم ، دائما جنود عثمانيون يرسلون من استانبول . إذ إن أهالي القرم لا إلمام لهم بشئون المدافع ، والبنادق والقلاع ، وإنما يحاربون بالنبال والسيوف على ظهور الخيل . ملأ محمد كيراي خان في نهاية القرن 16 الخندق المقابل للقلعة بالماء وجعل من قرم جزيرة . أعدم قائد البحر (قبطان دريا) قيليج علي باشا الذي حضر إلى قرم بقصد التفتيش ، محمد كيراي وأعاد ملء الخندق بالتراب .
إلا أنه في أواخر القرن 17 ، حفر أهالي القرم الخندق ثانية وملؤوه بالماء بموافقة الحكومة العثمانية ، واليوم ، قرم كجزيرة ليس لها إتصال بالأرض . يمكن العبور إليها عن طريق الجسور المنصوبة في أماكن معيّنة . لا يمكن أن يخرج أو يدخل أي شخص من وإلى قرم عن طريق البر خفية وبدون إذن . يجهز قضاء اورقابو 12000 خيالا . يحتوي القضاء على 1 680 دارا ، 14 جامعا ومسجدا ، ونحو 500 دكان ، مدرسة واحدة ، مكاتب ، خانات ، تكايا . ويمتاز جامع صاحب كيراي بجماله .

غازي كيرمان أو قلعة دوغان كجيدي (ممر دوغان) ، خارج قرم ، في زاوية البحر الأسود التي يصب فيها دنيبر . مركز لواء إيالة أوزو . شيد القلعة في 1661 كوبرولو محمد باشا . يحميها 1800 جندي عثماني و 1200 قرمي . إرتفاع أسوارها 27 وعرضه 20 ذراعا . يحتوي على جامع محمد الرابع (حاليا Kherson) .

قلعة Gozleve (بالروسية : Yevpatorya) ، ميناء على البحر الأسود . غرب قرم . شيد صاحب كيراي قلعتها الكبرى التي يبلغ طول محيطها الخارجي 400 3 ذراع وتحتوي على 13 جامعا ، 12 مسجدا ، 5 مكاتب 3 كروانسراي (منزل مسافرين) ، 14 خانا ، 5 حمامات ، 7 دورات مياه ، 795 دكانا . تتبع 300 قرية تقريبا لقضاء اورقابو ، تتبع 110 لـ Gozleve . جامع بهادركيراي ، من أبنية المعمار سنان الفخمة .

Inkerman ميناء كبير وناحية قضاء باليكوفا لإيالة كفه العثمانية . تحتوي على 750 دارا ، جامعين ، مسجدين ، مدرسة ، مكتبين ، تكية خلوتية واحدة . إن قلعتي **Serkerman** وتجاهها **Salonya** الواقعتان على مسافة 6 ساعات هما أيضا ناحيتان لباليكوفا . **Balikova** ، ميناء ذو قلعة في الجنوب . و شمالا Akyar (Sivastopol) . قلعته ذات 50 مدفعا . تحتوي على 250 دارا ، جامع واحد ومسجد واحد .

Menkup أو Mengup قضاء كفه ، ميناء ذو 70 قرية وقلعة . يحتوي على جامع بيازيد الثاني . وعلى 1000 دار يملكها القرميون Karaim (الموسوي التركي الذي ينطق بلغة قرم التركية) . وعلى مقربة منها قلعة **جوهركيرمان** وهي الأخرى تحتوي على 150 1 دارا للقرميين حامية القلعة موسويون ، لذا سميت جفود = Gfit قلعة سي (قلعة اليهود) ، ولا يوجد في الدولة العثمانية نظير لها ، إذ إنها القلعة الوحيدة التي يسيطر عليها الموسويون . تحتوي على جامع صاحب كيراي لكن جماعته قليلة جدًا .

سالاجك ، قلعة ذات 3000 دار ، 5 جوامع . كان لخانات قرم المتأخرين قصور جميلة في المنطقة المحيطة بالسراي الذي بناه منكلي كيراي في القرن 15 .

باغجه سرايي ، مدينة عرش قرم . تحتوي قرم بكاملها على 21000 جامع ، ومسجد ، وتكية . تنتشر فيها الطرق الخلوتية والجلوتية . كلا الطريقتين لها 000 40 مريد .

شعبها سني – حنفي . الشافعيون قليلون . تقع باغجه سرايي في جنوب قرم لكنها ليست على الساحل . عبارة عن 5000 دار حجرية وقصر . سميت بهذا الاسم لأن السراي الذي شيّده صاحب كيراي الذي عمر المدينة خلال 7 سنوات ؛ كان داخل حدائق جميلة جدا . كانت جزيرة قرم تحتوي على 25 قضاء ، 4 تديرها العثمانية مباشرة . وعدا أمراء قرم ، كان هناك 40 بك من أشراف التتر . كان هؤلاء كولاة برتبة عقيد ولواء في العثمانية . تحتوي قرم بكاملها على نحو 1600 قرية وما يقرب من 6000 مزرعة . يسكن في قرم نحو 000 20 مسيحي (أروام وأرمن) عدا الأسرى ويعملون بالتجارة يبلغ عدد الأسرى في بعض السنين مئات الألوف . تحتوي باغجه سرايي على 24 جامعا ومسجدا ، وعدة مدارس دينية ، و 17 مكتبا ، و 9 تكايا ، و 117 جشمة (دورة مياه) ، وسبيل ، و 14 خانا ، و 4 حمامات ، و 3 مطابخ للمحتاجين وعدد غير قليل من سرايا وجهاء قرم . يجري الماء في كل مكان . جامع صاحب كيراي ، أكبر جامع تبلغ مساحته 110 × 70 ذراعا . حدائق مدينتي Salacik و Sala تجاور باغجه سراي . تحتوي ثلاثتها على 8000 دار ، قصر وسراي . يحتوي منزل المسافرين الذي بناه غازي صفر آغا في 1661 داخل السوق ، يحتوي على 177 غرفة، والحمام الذي شيّده محمد كيراي في نفس العام داخل السوق ، يحتوي على 6 أقسام خاصة ، فسقيات أحواضها وطاساتها مطلية بالذهب . الحمام بكامله مكسي بالبلاط الأبيض . أطقم الحمام من الحرير . العبيد القفقاسيون والسلاف يخدمون ويوزعون العطور اللطيفة بصورة مستمرة . لا يوجد في استانبول حمام مشابه له . إذ إن هذا البذخ يعتبر خطيئة لدى العثمانيين . نحو 600 قصر يحتوي على حمام خاص . خانات قرم ، يدعون الموسيقين ، الملحنين ، الشعراء والخطاطين المشهورين في إستانبول إلى سراياتهم ، يضيفونهم وأحيانا يضيفونهم لفترات طويلة تستغرق السنين . يعشقون الفنون الجميلة العثمانية .

آق مسجد (بالروسية : Simferepol) ، على مقربة من شمال – شرق باغجه سراي في منتصف قرم نحو الجنوب . يقيم فيها كالغاي ولي عهد قرم تحتوي على 2370 داراً ، قصر ، وسراي ، ونحو 200 دكان و 5 جوامع و 4 مساجد ومدرستين و 3 تكايا و 4 دورات مياه وخانين وحمام . الجامع الذي شيده منكلي كيراي عام 1508

فخم جدا ؛ فيه منزل مسافرين كبير شيّده محمد كيراي عام 1652 في قرية عزيزلر على طريق آق مسجد قرة صوبازاري .

قرة صو بازاري ، يقع في شمال شرق آق مسجد وبين آق مسجد – كفه . تحتوي المدينة على وحده إنكشارية أرسلها والي كفه . نهر قرهصو يجري وسط المدينة . سكنة دورها الـ 500 ، أتراك أناضوليون هاجروا من آماسيا ، سيواس وتوقاظ . فيها 8 جسور على نهير قرهصو ، 5 جوامع ، 23 مسجدا 5 مدارس ، 8 مكاتب ، 4 تكايا ، 27 سبيلا ، 8 خانات ، 4 حمامات ، 296 1 دكانا . البيوت ذات حدائق ، وخان غازي صفر آغا الذي شيّده في 1651 ، له 4 أبراج ، بوابتان حديديتان و 120 غرفة .

Sudak ، ميناء مركز قضاء في اللواء المركزي لإيالة كفه . ذو قلعة . يقع بالقرب من جنوب – غربي كفه . تحتوي قلعته التي يبلغ محيطها 300 ذراع ، على 24 برجا وجامع بايزيد الثاني . المدينة المسماة **اسكي قرم** (قرم القديمة) ، قضاء تابع للواء كفه المركزي يقع في شمال – غربي كفه ، به 500 دار . يحتوي على جامع منكلي كيراي الذي بني في 1512 ، وجامع آخر ، 3 مساجد ، مدرستين ، تكيتين . تأخرت نهضتها عند تطّور بغجه سراي . يشاهد فيه بقايا ... خربه لخاقانات الطون اوردي .

كفه Kefe (بالروسيه : Feodosiya) ، مرفأ وقلعة في جنوب – شرقي الجزيرة ، مركز إيالة عثمانية فتحها قبودان دريا (مشير البحر) كديك أحمد باشا من الجنوبيين في 1475 . يتقاضى الوالي راتبا سنويا قدره 766 504 آقجه . لاتوجد في الإيالة تشكيلات تيمار .

يقيم فيه الأميرال أو عقيد البحر المسمى كفه قبوداني (قائد كفه) ، يتجول بواسطة أسطوله في بحر آزاك والمناطق المجاورة . للوالي عدا ذلك مخصصات سرية تترواح مابين 500 19 إلى 000 25 قطعة ذهبية . تنقسم الإيالة إلى 8 ألوية في قرم Kefe ، Kerc ، ولاية Tat . والألوية الخمسة الأخرى تقع خارج قرم (Bolva ، Adahun ، Azak ، Balasira و Taman) .

Taman ، هو المرفأ الواقع في الجانب المواجه لقرم من مضيق كرج .

Azak (بالروسية : Azov ، ضاحية روستوف) ، مرفأ في الموضع الذي يصب فيه نهر الدون في البحر ، في الرأس الشمالي – الغربي لبحر آزاك (آزوف) .

Bolva ، مرفأ على بحر آزوف ، يقيم فيه لواء بحري يتجول بصحبة 20 قطعة بحرية حربية . يراقب مصب نهر كوبان وأطرافه ، يعتبر آزاق من أهم الألوية . راتب أمير اللواء البحري (سنجق بك) 000 800 آقجه في السنة . وهو بمرتبة فريق أول (بكلربك) . وهذا اللواء هو أقصى وحدة إدارية حدودية تابعة لإدارة العثمانية متوغلة في قلب روسيا . لا يستطيع الروس أن يروا قفقاسيا والبحر الأسود ولو من بعيد ، دون سحق هذا اللواء . يقيم والي كفه في آزوف ، منذ 1657 . وتوجد عدا هذه الألوية الـ 8 ، أقوام ، قبائل وأراض تابعة لإيالة كفه ، وهي الأقوام التي تعيش في جبال القفقاس ، وأهمها الشراكسة . إن 40 بك (أمير) شركسي حلفوا يمين الإخلاص للعثمانية .

والي كفه وآزوف وخان قرم لهم نفوذ قوي في هذه الجبال . لايمكن أن يصل نفوذ روسيا من الشمال ولا نفوذ إيران من الجنوب ، إلى هذه الجبال . يبلغ محيط قلعة تكفه 8000 ذراع . أسوارها البرية مزدوجة وبإرتفاع 30 ذراعا . وأمامها خندق بعرض 50 ذراعا وعمق 20 ذراعا . لها 117 برجا مرتفعا . وهي مرفأ فعال ، و مدينة كبيرة تحتوي على 10 جوامع ، نحو 50 مسجدا ، 5 مدارس ، 9 تكايا ، 45 مكتبًا ، 10 حمامات نحو 600 قصر ذي حمام ، أكثر من 4000 دار ذات بئر ، أكثر من 1000 دكان ، 23 مقهى فخما به جوقات موسيقية وشعراء وجامع سلطاني عظيم لولي العهد سليمان (القانوني) خان مساحته 150 ×100 قدم ، ذي 5 قبب قائمة على 6 أعمدة : شيده السلطان سليمان عندما كان أمير لواء على كفه . معظم التكايا خلوتية ، جلوتية ، كلشنية وقادرية . يرقد منتسبو السلالة العثمانية تحت صناديق مرمرية في فناء جامع سليمان خان . إذ إن 3 ولاة عهد ، تقلدوا وظيفة أمير لواء كفه . المدينة من المراكز الكبيرة لبيع العبيد والجواري . أكثرهم قفقاسي وسلافي .

كرج ، مركز لواء في إيالة كفه ، مرفأ ذو قلعة . واقع على ضفة قرم لمضيق كرج .

في أقصى شرق قرم . يرى في مواجهته شبه جزيرة تامان . قلعته وجامعه من أعمال بايزيد الثاني . وعدا ذلك هناك جامعان و 520 دارا . مليء بمنشآت الميناء والمخازن .

13 – جزر البحر الأيض :

جزائر بحر سفيد وباللغة التركية آق دنيز آدالري (جزر البحر الأبيض) ، هي إيالة قبودان دريا (قبودان باشا ، مشير البحر) للإمبراطورية العثمانية . ناظر البحرية المسمى قبودان دريا ، هو في نفس الوقت أمير لواء (بكلربك) والِ لهذه الإيالة . يوجد في كل لواء من ألوية الإيالة ، أمير لواء بحري (سنجق بك) وكل منهم يشرف على أساطيل تحت إمرته . أن « آق دنيز » (البحر الأبيض) تعني في علم الاصطلاحات الفنية (Terminology) العثماني ، المجال الممتد من استانبول إلى البحر الأسود بما فيها أرخبيل بحر الجزر (إيجه) وبحر مرمره . وما بعده هو البحر الأسود . يطلق على مضيق جناقلعة ، أسم مضيق البحر الأبيض كذلك . البادشاه العثماني ، خاقان هذين البحرين ، البحر الأسود والأبيض (خاقاقان بحرين) . قلّصت حدود هذه الإيالة البحرية في فترة التنظيمات بشكل كبير وأصبحت مقصورة على الجزر الآسيوية لبحر إيجه (رودس ، ساقز ، مديللي ، لمني) وحتى 1878 قبرص وسميت أيضا « جزائر بحر سفيد » ، لم يعّين فيها بحريون بل ولاة مدنيون . وحّدت قبرص في الفترة الكلاسكسة أحيانا مع عدة ألوية أناضولية وشكلت إيالة منفصلة ، وضمّت أحيانا كلواء إلى جزائر بحر سفيد .

أما مورا فإنها ربطت كليا أو جزئيا بإيالة جزر البحر الأبيض عندما كانت لـواء لإيالة روملي ، ومن ثم أصبحت إيالة مستقلة . كريت ، إيالة أخرى ليس لها علاقة بهذه الإيالة . كانت تمتد إلى البحر الإدرياتيكي . ارتبط بهذه الإيالة بين الحين والآخر ، قسم من الجزر الأيونية (اليونانية) ، بعض الألوية في الساحل الأناضولي ، 3 ألوية بحرية على البحر الأبيض في مصر (إسكندرية، دمياط ، رشيد) . وفي الوقت الذي كان يقيم فيه ناظر البحرية في غاليبولي حتى 1453 ، بدأ يقيم بعد هذا التاريخ ، في استانبول . كانت ساقز ، مركزا للإيالة على عهد التنظيمات ، لفترة أصبحت جناقلعة ثم ظل المركز في ردوس وفقدت غاليبولي أهميتها على مر الزمن . وفي 1836 ، هبط

عدد سكانها من 000 80 إلى 000 17 (Hallert ، Atlas ، 61 ب) . بينما تطورت في الجانب المقابل جناقلعة الحالية التي كانت تسمى قلعة سلطانية . كان يحمي مضيق جناقلعة في 1836 ، 580 مدفعا وكان قد « رصد لهذه الأسلحة مبلغا كبيرا » (Von Moltke ، 42) . أنقل إليكم فيما يلي بعض ماكتبه أولياء جلبي حول جزائر بحر سفيد (جزر البحر الأبيض) :

قره بيغا ، مركز لواء في إيالة آق دنيز ، في غرب خليج أردك ، وشمال بيغا . يجهز 500 جندي تمارلي (الجنود الذين لا يتقاضون رواتب من الدولة ويكسبون عيشهم من زراعة الأراضي التي توزعها لهم الدولة لكنهم يشتركون في القتال بأسلحتهم) . جامع ؛ وعلى مقربة من جنوبه **جارداق** ، ذي جامع ، ومسجد يقع على جناقلعة وعلى مقربة من جنوبها مرفأ Lapeški ذي 300 1 دار وجميعها مراكز أقضية مواجهة لغاليبولي .

كليد البحرين تعني بالعربية قفل البحرين أو كما يسميها الشعب « كليد بحر » ، المواجهة تماما لمدينة جناقلعة وفي الجانب الأوروبي ، وهي أضيق نقطة في المضيق . قلعة سلطانية (جناقلعة) تقع في مواجهتها ، يمكن لهاتين القلعتين في حالة فتح نار المدفعية منهما معا ، إغراق أي نوع كان من السفن التي تجتاز دون الحصول على موافقة .

شيّد السلطان محمد الفاتح هذه القلعة الكبيرة . لأول مرة في التاريخ أغلق مضيق جناقلعة كما أغلق مضيق استانبول وأصبحا تحت سيطرة الدولة . كانت المضائق قبل 1453 ، طرقا مائية مفتوحة ، وكان من المتعذر قطعها بواسطة المدافع . تحتوي هذه القلعة على أكبر المدافع العالمية . في القلعة 1530 مدفعي ، 24 منهم ضباطا . لا يوجد جنود من أصناف أخرى ، إذ لا حاجة لذلك . كان بإمكان المدفعيين أن يسجلوا إصابات على النقطة أو الهدف الذي يشاءونه في البحر لدرجة أنهم كانوا يجعلون القذائف المنطلقة من طرفي المضيق ، تصطدم مع بعضها . إن اتخاذ تدابير كهذه ، كانت في محلها تماما ، إذ إن أية سفينة أو أسطول يجتاز المضيق يجد نفسه أمام استانبول .

من الصحيح أنه لايمكنه أن يعمل شيئا في إستانبول ، لكن دخوله سوف يوّلد اضطرابا وهياجا كبيرين ، ومن غير المستطاع أو المستساغ أن يقال لشعب استانبول إن عدوا توصل جبرا إلى استانبول . منطقهم لا يمكن أن يتقبل ذلك ، لقد كانوا يقلقون

من احتمال حدوث أيّ ضرر على استانبول ، عند حدوث قتال أمام استركون وبودين وأزوف . إن **جناقلعة** وبلغة الشعب قلعة سلطانية تواجه قلعة كليد البحر ، في جهة آسيا . تحتوي على جامع فاتح ، وجامعين آخرين ومساجد ، وسوق ذي 800 دكان . شيّد القلعة فاتح .

بوزجه آدا ، جزيرة صغيرة قريبة جدا من شبه جزيرة جناقلعة . ولأنها واقعة في مدخل البوغاز ، فإنه يعتني بقلعتها حتى لا يتمكن العدو من اتخاذ موضع له فيها ، يحميها 2000 جندي . شعبها رومي خارج القلعة . وهي قضاء للواء غاليبولي مثل كليد البحر .

غاليبولي Gelibolu ، معمل سفن ومرفأ وقاعدة بحرية واقعة في نقطة انتهاء البوغاز قرب مرمرة في جانب روملي ، نحو الشمال - الشرقي من الجزيرة المسماه بنفس الاسم . مركز لواء . وهو في الحقيقة مركز إيالة ، إلا أن ناظر البحرية الذي بمثابة أمير الأمراء (بكلربك) ، فريق أول ، للإيالة ، لا يقيم فيه بل في استانبول .

لكنه بصفته فريقا أول بحريا لإيالة البحر الأبيض ، يتقاضى راتبا إضافيا قدره 885 000 آقجه في السنة . ينقسم المركز إلى 13 لواء : غاليبولي ، آغريبوز ، قارلي ايلي ، إينه بختي ، رودس ، مديللي ، قره بيغا ، قوجا ايلي ، صيغلا (أزمير) ، Mizistre ، ساقز ، نقشة (جزر كيكلاد) ومهدية في تونس . الألوية الثلاثة الأخيرة فقط ليس فيها تشكيلات التيمار .

كانت مور سابقا ضمن إيالة البحر الأبيض عدا ميزسترة ، وحاليا هي إيالة منفصلة . وقبرص ، ضمن إيالة إيجل Içel وحاليا إيالة منفصلة . وكذلك كريت إيالة منفصلة . يوجد في لواء غاليبولي نحو 3000 جندي بحري تمارلي . مخصص ناظر البحرية (قبودان دريا) ، مبلغ 32 500 ليرة ذهب سنويا من المخصصات السرية عدا راتبه السالف ذكره لإدارة هاتين الإيالتين . كانت هناك فصيلة غوص . يتمكن أفرادها من الغوص لعمق 60 قولاجًا (مسافة بين اليدين من الإصبع إلى الإصبع إذا فتحتا بشكل مستو) . قلعتها ذات 70 برجا و 1 200 موضع رماية (مزغل) ، لكن مدافعها صغيرة . إذ لايحتمل أن تجتاز سفن العدو من البوغاز وتصل أمام غاليبولي . تحتوي المدينة على نحو

من 1200 دار ، ومجموع عدد الجوامع والمساجد والتكايات 164 ، اثنان من الجوامع . جامعان سلطانيان (فاتح ومراد الرابع) . بها 8 أسواق ، يحتوي أكبرها على مايقرب من 800 دكان ، وبها 11 خانا للمسافرين ، ونحو 200 قصر ذي حمام خاص . وعلى شمال الميناء فنار بحري كبير يضيء على بعد أميال ويرشد السفن . بها مزار وتكية يازجي أوغلو (يازجي – زاده شيخ محمد أفندي) خليفة حاجي بايرام ولي ، وهي من أكبر تكايا القطر العثماني . حررت هذه الشخصية **محمديّة** في غاليبولي . ويرقد بجواره أخوه يازجي – زاده أحمد بيجان أفندي مؤلف **أنوار العاشقين** .

بولاير Bolayir ، ناحية غاليبولي ، تقع في شمال غاليبولي داخل حدائق السنبل ، فيها 1000 دار ، جامع ، 6 مساجد ، تكية ، مطبخ عام ، نحو 100 دكان . تحتوي على قبر فاتح روملي أولو شهزاده غازي سليمان باشا ، كان السلاطين يقدمون إلى بولاير لمجرد تقبيل حاشية غطاء ضريحه . علق سيفه على مقربة من رأس الضريح . وهو ولي العهد الذي فتح قارة أوروبا للعثمانية ، والعم الكبير لجميع السلاطين . هو الابن الأكبر لا ورخا غازي ونيلوفر خاتون ، لم يعتل العرش لوفاته واعتلى العرش بدلا منه أخوه المولود من الأم ذاتها ، مراد الأول ؛ واستمر في فتوحات أخيه ووصل حتى البحر الإدرياتيكي والطونة وفتح البلقان .

سماديرك Semadirek أو سمنديرك (باليونانية : Samothraki) . مركز قضاء ذو قمة شهيرة بإرتفاعها البالغ 1 600 م يقع بين إيمروز وطاشوز ، Semendirek عبارة عن جزيرة سكانها روم . ميناؤها وقلعتها كبيرتان .

Ezdin ، مركز قضاء في لواء آغريبوز التابع لإيالة البحر الأبيض (آقدنيز) . لكنه ليس في جزيرة آغريبوز بل في شبه جزيرة Attika . يحتوي على 13 محلة للمسلمين ، 8 للمسيحيين ، 2 550 دارا ، 4 جوامع ، 4 مساجد ، 5 جسور ، نحو 40 قصرا ذي حمام ، تكايا عديدة ، ومدارس . فتحها السلطان الفاتح من البندقيين .

Bardacik و Modononuç ، قضاءان لنفس اللواء . اشتهر في باردا جك جسر السلطانة كوسم ذو 7 قناطر على نهر Barda

Livadye (Levadia) مركز قضاء آخر لنفس اللواء وكان مركزا للإيالة في السابق . يقع في جزيرة آتيكا ج فتحه تورهان باشا على عهد فاتح من البندقيين . يحتوي على 7 محلات للمسلمين ، 6 للمسيحيين ، 2000 دار ، 7 جوامع ، مدرستين ، 3 تكايا ، 3 مكاتب ، 3 جسور . أحد جوامعها ، الجامع الذي شيّده سلطان – زاده بالي بك (باشا) ابن خالة القانوني عام 1525 .

Istife ، قضاء آغريبوز أيضا ، من فتوحات تورهان باشا ، به 2500 دار ، 4 جوامع ، 3 ساجد ، 4 مدارس .

آغريبوز أو أكريبوز (باليونانية Halkis , Euripos) ، قلعة ومرفأ ومركز لواء آغريبوز الذي يشمل شبه جيرة Attik أيضا واقع في منتصف ونحو الساحل الغربي لأكبر جزيرة (4 297 م^2) من جزير بحر أرخبيل فتحه السلطان فاتح من البندقيين حيث سار إليه بالجيش برا وبالأسطول بحرا بعد حرب ضارية . لواء بحري (أمير لوائها « سنجق بك » برتبة لواء بحري) يتقاضى أمير اللواء سنويا 000 440 آقجه راتبا و 000 200 3 آقجه مخصصات . من الألوية الكبيرة . اللواء تابع لإيالة البحر الأبيض للقبودان – باشا . قلعتها التي يبلغ محيطها 000 6 ذراعا وعرض أسوارها من 40 - 50 ذراعا بإرتفاع 40 ذراعا ذات الـ 7 طوابق ، مخمسة الشكل وتقع على الساحل . كل برج من أبراجها الـ 111 يحتوي على مابين 10 إلى 15 مدفعا و 40 إلى 50 مزغلا . قليل من القلاع تحتوي على هذا العدد من المدافع . ولكن هذا التدبير كان تحسبا للبنادقة . ان معمل مدافع القلعة الذي شيّده سليمان خان ليس لتصليح المدافع فحسب بل لسبك مدافع جديدة أيضا . يحتوي داخل القلعة على 10 محلات للمسلمين ، 11 جامعا (من جملتها جامع فاتح 130 ×90 ذراعا) ، 6 مساجد ، 19 حنفية مياه مبنية (جشمه) ، مدارس (دينية) عديدة ، مكتب (مدرسه) وتكيه . أما في الضواحي (خارج السور) فتوجد نحو 2000 دار ، قصر وسراي ، جامع ، 9 مساجد ، مدرستان ، 5 مكاتب ، 4 تكايا ، حمامان ، خانان . تقع مقبرة الشهداء بين القلعة والضاحية . يرقد فيها آلاف الجنود الذين استشهدوا في فتح آغريبوز . يستوعب المرفأ 400 سفينة . جزيرة باشا (باشا آداسي) الواقعة في مدخل الميناء ، هي الجزيرة الصغيرة التي نصب فيها فاتح سرادقه وأدار الحرب منها .

Kese وDopoz ، مركز قضاء في لواء آغريبور قرب أثينا . قصبتين صغيرتين ذواتي 200 أو 300 دار .

أثينا ، مركز قضاء في لواء آغريبوز . تبعت العثمانية على عهد يلدرم بايزيد ، دخل فاتح المدينة بنفسه كأبيه وألحقها بإدارة العثمانية المباشرة . وهى مدينة رومية كبيرة تحتوي على 7000 دار ، المسلمون قليلون جامع فاتح ، داخل قلعتها المسماة Agora ومجاور لمعبد Partenon . بالإضافة إلى ذلك ، توجد 3 جوامع أخرى ، 7 مساجد ، مدرسه ، 3 مكاتب ، 3 تكايا ، 3 حمامات،خانان ، 118 حنفية مياه مبنية ، هذا عدا الأبنية الخاصة بالمسيحيين . توجد في أثينا وأطرافها نحو 300 كنيسة ودير أرثوذكسي . يقوم بالخدمة فيها نحو 3000 راهب وقس . إن مرفأ Terzi (Pire) هو مرفأ أثينا ، وتقع جزيرة Salamis أمام المرفأ ، أما بين مورا واتيكا ،

فتوجد جزيرة **Egine** الواقعة داخل الخليج الذي يطلق عليه الاسم ذاته ، وهي تحتوي على قلعة وجامع و 100 محلة للمسلمين و 400 للروم .

AyaMavri (Leukas) ، لواء بحري واحد في الجزر السبع الأيونية (اليونانية) والواقعة على البحر الذي يحمل الاسم ذاته . أما جزر Zanta (zakyntohos) و (Kefellenia) **Kefalonya** فإنها قد انتقلت حاليا من العثمانية لحيازة البندقية . أما جزيرة كورفواهم الجزر الأيونية ، فلم يتم الاستيلاء عليها من البنادقة بشكل تام في أي وقت من الأوقات ، رغم أن العثمانيين والسلطان سليمان بالذات دخلوها .

Satirbasi جزر **Kiklad** مجموعة جزر واقعة جنوب بحر أرخبيل الجزر وتمتد من آغريبوز نحو الجنوب ـــ الشرقي إلى رودس . لواء بحري في إيالة البحر الأبيض . تم فتحه من البنادقة في القرن 16 . إن كل جزيرة من الجزر ، كنقشه (Nokos) ، ودكير منلك (Milos) قضاء منفصل . يسكنها الروم المولّدين من الإيطاليين . توجد في الجزر قواعد بحرية عثمانية .

Salone ، قضاء آغريبوز الواقع في أقصى الغرب ثم يبدأ بعده لواء اينه بختي .

اينه بختي (بالإيطالية : Lepanto ، باليونانية : Navpaktos) ، مرفأ ، قلعة وقاعدة بحرية . مركز اللواء البحري في إيالة البحر الأبيض . يقع على مضيق ضيّق جدا بين خليجي Korinthos-Potras وتجاهه Mora . فتحها بايزيد الثاني من البندقيين . باللواء 6 000 جندي ، 5 سفن حربية ، راتب الوالي (سنجق بك) 300 000 آقجة في السنة ومخصصاته 3 500 قطعة ذهبية . قلعته ذات 70 برجا و 5 أبواب . يحتوي المركز على 3 000 دار ، 8 جوامع 11 مسجدا ، 3 مدارس ، 6 تكايا ، 45 دورة مياه ، 3 حمامات . أكبرها جامع فتحية لبايزيد الثاني . المدينة كبيرة وأكثرية سكانها مسلمون . يحتوي قضاؤها المركزي على نحو 27 000 مزرعة كروم ونحو 245 نبع مياه . المدافع التي تطلق من قلعة اينه بختي يمكنها دك سواحل مورا المقابلة .

Zeban ، قضاء في لواء قارلي ايلي ، يحتوي على 4 جوامع ، و 11 مسجدا ومدرستين .

Voniçse (Vonitsa) قضاء في لواء AyaMavri مواجه لـ Preveze يحتوي على جامع بايزيد الثاني .

Behor ، قضاء تابع لقارلي ايلي ، يحتوي على 20 دار وجامع واحد .

Angeli Kasri (Argyrokasto) ، بالمركز الجديد للواء قارلي ايلي البحري في إيالة البحر الأبيض . يتكون المركز من أقضية Ekseromoz ، Valtoz ، Voliçe ، Lahar .
كان في السابق لواء واسعا جدا وكانت كل من جزر Preveze ، Aya Mavri و

Kefalonya أقضية تابعة لهذا اللواء . كان طرغد باشا الشهير ، واليا على هذا اللواء قبل أن يعين واليا على طرابلس (ليبيا) . إن قصر آنجيلي من فتوحات فائق باشا عام 1500 ، استولي عليه من البندقة . باللواء 4000 جندي ، 3 سفن حربية ، ويتبعه 46 قرية ، أكثرها قرى ألبانية أرثوذكسية . يحتوي على 300 دار ، جامع بايزيد خان ، مسجد واحد ، مدرسة واحدة ، تكيتين .

Verehor (Agrinion = Vrahori) ، كضاحية لقصر آنجيلي ، يوجد فيها 300 دار ، 3 جوامع ، 11 مسجدا ، مدرستان ، تكيتان ، 3 مكاتب ، شعبها أتراك .

Aya Mavri أو Aya Mavra (بالإيطالية : Santa Maura ، باليونانية : Levkas) ، جزيرة كبيرة واقعة في جنوب Preveze ومركز لواء بحري في إيالة البحر الأبيض ، استرجع قيليج علي باشا هذه الجزيرة بمنحه جزيرتي Kefalonya و Ithaki إلى البنادقة ، إذ إنها كانت أقرب إلى الساحل العثماني . لكن كيفا لونيا أكبر منها . باللواء 2000 جندي تمارلي ، 4 سفن حربية . راتب أمير اللواء 400 000 آقجه و مخصصاته 1 880,000 آقجه في السنة . يشاهد في القلعة 196 مدفعا . يحتوي على جامع سليم الثاني ، وعدا ذلك 4 جوامع ، 11 مسجدا ، مدرسة واحدة ، تكية ، جسر ، 500 دار . جزيرة Lefka (Megarasi) تابعة لآيا مافري .

Preveze ، مرفأ يقع في مدخل خليج Arta ، قلعة بحرية ، لايمكن لأية سفينة أن تدخل الخليج جبرا في حالة فتح نار المدفعية من هذه القلعة بالاشتراك مع القلعة الواقعة في الساحل المواجه ، بصورة متقابلة . تحتوي على 400 دار ، جامع سليمان خان ، 3 مساجد ، مدرسة . يستوعب ميناؤها 200 سفينة .

Preveze ، مركز قضاء في لواء قارلي ايلي . حقق بربروس خير الدين باشا انتصاره الكبير على الأسطول الصليبي بالقرب من هذه المنطقة .

منه من كوزل حصاري ، قرة فوجا ومنه من Menemen 3 مراكز أقضية في لواء صيغلا Sigla . يحتوي Menemen ، على نحو 3000 دار وقصر ، 29 جامعا ومسجدا .

أزمير ، مركز لواء صيغلا البحري لإيالة البحر الأبيض ، ميناء كبير وقاعدة بحرية .

سميت المنطقة بهذا الاسم نسبة إلى صيغلا أوغلو علي بك أحد بكّات التركمان الذي فتح في هذه المنطقة من البيزنطيين في أواخر عهد السلجوقيين . للمدينة قلعتان إحداهما في الجانب البحري والأخرى في الجبلي . إيرادات الخزينة السنوية من ضريبة جمارك هذه المدينة تبلغ 000 200 ليرة ذهبية .

إن كلا من أورلا ، سنجق بورون ، قرة بورون ، جمعة آباد ، وترنده آباد ، نواح تابعة لقضاء أزمير المركزي . بالمدينة قناصل 7 دول أوروبية . فيها تجار كبار نّموا ثرواتهم أبًا عن جد . منهم مليارديرات مثل محمود أفندي ، حسن آغا ، كوجوك حسين آغا تتراوح ثروة أغناهم أوزون أحمد آغا ، بين 1000 إلى 2000 كيسه (وتعادل بالسعر الرائج حاليا مبلغ 0,9 إلى 1,8 مليار دولار) . بنى فاتح القلعة الحالية المشرفة على البحر . من أكبر مدن العالم التي تحتوي على 300 12 دار وقصر . عدد المسيحيين أكثر ، ويشكل الأوروبيون بينهم عددا ضخما . تحتوي على 15 جامعا ، 77 مسجدا ، 43 مدرسة ، 11 حماما عموميا ، نحو 600 قصر يحتوي على حمّام خاص ، 82 خانًا عمل كبير جدا ، 40 مكتبا ، مطبخ للمحتاجين ، 87 حنفية مياه مبنية وسبيل ، نحو 3000 دكان وما يقرب من 300 مخزن للبضائع ، نحو 200 حانة مشروبات ومقهى ، محل بيع البوظة (مشروب غير كحولي يستخلص من عصير بعض الحبوب) ، 70 معمل صابون و 20 مصنعًا للأصباغ ، سوق واحدة للسراجين ، معمل واحد للشمع . بناية عظيمة للجمارك وأبنية أخرى تناظرها . أسواقها شديدة الزحام ببشر من جميع الأقوام ، جلب بلطه جي محمود آغا الماء إليها من مكان على بعد 6 ساعات . أنفق الكثير على ذلك . وهو عمل خيري كبير . ترسو في المرفأ المقابل لكمر كخانة (بناية الجمارك) ، 200 سفينة ، تتجول سفينتان عسكريتان بصورة مستمرة للطوارئ ؛ الكل يعمل بالتجارة ، يشترون ويبيعون . نرى في سنجق بورنو (Alsancak) القلعة التى شيّدها كوبرولو محمد باشا . ترابط فيها حامية أزمير . تفرغ السفن الأوروبية حمولتها وتعود بعد تحميله مجددا ببضاعة أكثر من الذي جلبته . يمنع سيرها بين مرفئين عثمانيين فمثلا ، جميع السفن التي تنقل البضاعة من وإلى مصر يملكها المسلمون . يوجد في سنجق بورنو جامع محمد الرابع .

وبينما كانت **أورلا وقرة بورون** ناحيتين لقضاء أزمير ، فإنهما الآن قضائين في لواء صيغلا . أورلا ، عبارة عن 11 محلة ، 5 جوامع ، 35 مسجدا . أحد الجوامع هو جامع قيليج علي باشا .

جشمه ، قضاء آخر لصيغلا يقع على بوغاز ساقيز ومرفأ ساقيز لجزيرة مواجه له . له قلعة ، به 200 دار ، شوارعه مزينه بأشجار النخيل .
شيّدت القلعة والجامع بيازيد الثاني في 1518 .

ساقيز Sahiz ، هي الجزيرة الكبيرة المواجهة لجشمه (902كم٢) ، المرفأ والقلعة والمدينة التي تحمل الاسم ذاته تشرف على مرفأ جشمه وهي مركز لواء ساقيز البحري التابع لإيالة البحر الأبيض . يفصل الجزيرة عن الأناضول بوغاز ساقيز وتظل في قارة آسيا . وبينما عاشت مدة طويلة كإمارة (بكلك) تحت حماية العثمانية ، الحقت في 1560 من قبل بياله باشا ، مشير البحر الذي كان عائدا من حملة جربه Gerbe . يتقاضى الوالي (سنجق بك ، أمير اللواء) سنويا 700 000 آقجه راتبا و 10 000 ليرة ذهبية مخصصات . تحتوي الجزيرة على عدة قصبات أخرى و 25 قرية جبلية و 25 قرية رومية على الساحل تعمل بزراعة أشجار العلك (ساقز) . تصّدر أشجار العلك من الجزيرة إلى كل أنحاء العالم لعدم توفرها في مكان آخر . كثافة النفوس كبيرة جدا . تشم رائحة العلك في جميع أطراف الجزيرة . تقف بالجزيرة سفينتان حربيتان و 12000 جندي على أهبه الاستعداد . ترسل الجزيرة سنويا من ضريبة الجمارك إلى أستانبول مبلغ 4 ملايين آقجه . يستوعب مرفؤها نحو ألف سفينة . تحتوي القلعة على 2100 دار ذات طابقين . كل البيوت يملكها الأتراك . تحتوي على جامع سليمان خان ، 5 جوامع ، ومسجد . يسكن الروم في الضاحية ويشكلون 40 محلة ، 5 محلات للكاثوليك ، 3 محلات لليهود ومحلتان للمسلمين وتحتوي على ما يقرب من 4000 زقاق ونحو 2000 دكان . فيها جامع بياله باشا وقيليج علي باشا . يسدد شعب ساقز ضريبة سنوية قدرها 28,4 مليون آقجه .

سيوري حصار ، **جمعه آباد** ، **قنزيل حصار** ، **آيا سولوك** ، كلها مراكز أقضية في لواء صيغلا . يوجد في آياسولوك الواقعة في رأس خليج قوش آداسي الشمالي – الشرقي ، جامع آيدن أوغلو عيسى بك الخارق للعادة .

قوش آداسي ، قضاء آخر لصيغلا . يحتوي على 4 جوامع ، 5 مساجد ، 4 مدارس ، 7 مكاتب ، 7 حنفيات مياه مبنية ، وعلى منزل مسافرين أنشأه الصدر الأعظم داماد أوكوز محمد باشا به 80 غرفة .

Balat ، **Mandaliyat** ، **Ineabad** و **Soke** سوكة ، 4 أقضية أخرى لصيغلا . يقيم والي صيغلا في سوكة ، أكثر من إقامته في أزمير . صيغلا ، من الألوية المهمة جدا . يتقاضى الوالي (بكلربك) أمير اللواء البحري برتبة فريق أول 000 800 آقجه راتبًا ، و 000 20 ليرة ذهبية مخصصات سرية في السنة ، ويخضع له 2000 جندي و سفينتان حربيتان . تتكون من 17 قضاء ونواح كثيرة جدا . تحتوي سوكة على 100 1 دار ، 6 جوامع و 3 مساجد .

جزيرة استانكوي (Kos) ، قضاء في لواء رودس . استانكوي ، جزيرة رفيعة وطويلة وكبيرة نوعا ما ، تقع على مدخل خليج استانكوي (Kerme) ، على الجنوب – الغربي من بودرم . فتحت في 1522 من الفرسان . تحتوي على 4 نواح ، والناحيتان الأخريتان منها هما جزيرتا باشا و Kalimnos . يدير جزيرة استانكوي عقيد بحري ، يتبعه نحو 500 جندي وسفينة حربية واحدة . تحتوي قلعتها على 205 مدافع وجامع سليمان خان ، وفي الضاحية 200 3 دار ، 5 جوامع ، مسجدين ، 7 مكاتب ، تكية ، وليس بها مدرسة (دينية) . عبارة عن 26 محلة للروم و 8 للأتراك . تصنع النساء الروميات العرقي و الشراب في بيوتهن .

Rodos رودس ، لواء في إيالة البحر الأبيض . فتحه السلطان سليمان في 1522 في حملته الهمايونية الثانية . أرسل قبله فاتح أسطولا على دفعات لكن الجزيرة لم تسقط . لا توجد تشكيلات التيمار في اللواء . تتكون الجزيرة من 44 قرية وقصبة . يتسلم اللواء البحري راتبا قدره 000 870 آقجه . من أهم الألوية . ترابط فيه بصورة دائمة 4 قطع بحرية حربية . قاعدة بحرية كبيرة وإحدى أكبر قلاع الإمبراطورية . محيط القلعة 700 5 ذراع ، طول الأسوار 700 9 ذراع ، تركت في القلعة التي بنيت بحجر Kufeki بعض الفتحات التي أحدثتها قذائف سليمان خان من زنة 40 – 50 آقة للذكرى ، على

وضعها السابق و لم ترمم . إن الزنازين الموجودة في القلعة تحت الأرض وكأنها علب ، تشكل عبرة . كان الفرسان يحجزون فيها مايقرب من 12000 أسير مسيحي . لازالت كتابات الأسرى المسلمين تقرأ على الجدران . كتب أحد الأتراك المسنين ، أنه أسر منذ 40 سنة ، وأنه خلال هذه المدة لم يهمل ولا وقت من أوقات صلاته ، وتمنى أن يهب الله عز وجل له السعادة في الدار الآخرة .

وفي كتابة أخرى لتركي آخر كتب أنه وقع في أسر الرودسيين للمرة الثالثة . وكتب آخر أن الكفار استولوا على شحنة سفينتين من بضاعته ، وأنه بحار أسير منذ 30 عاما وأنه خلال هذه المدة ضرب 3000 عصا . وتقرأ في كتابة أسير آخر أن عينه فقئت لمحاولته الهرب ، وقلعت جميع أسنانه . وعلّق من يديه لمدة 3 أيام و 3 ليال . وكتابة أخرى دونها قاضي عسكر مملوك مصر سلطان اينال ، يذكر فيها أنه خلال مدة أسره قام بواجب الإمامة للأسرى .

تحتوي القلعة على نحو 700 مدفع . و جامع سليمانية ، داخل القلعة 3000 موضع رماية . الطاقة الاستيعابية للمرفأ ، 300 سفينة . يرسو فيها أسطول عثماني بصورة مستمرة . بإمكان مرفأ السفن الحربية إيواء 500 سفينة أخرى وبإمكان المرفأ الخارجي استيعاب 1000 قطعة من السفن . يحتوي معمل السفن ، على السفينة التي ركبها السلطان سليمان في حملته على رودس والمسماة يشيل ملك (وتعنى الملك الأخضر) مصبوغة باللون الأخضر ، تعرض على المتفرجين بعد سحبها إلى البر . وتحفظ فيه كذلك أشياء تاريخية أخرى . مخازن المعمل مليئة إلى آخرها بالأدوات البحرية . ينفى خانات قرم الذين تغضب عليهم الدولة ، إلى رودس . شيّد لهم فيها قصر يقيمون فيه ويدعون للدولة . بعضهم توفي فيها ، ودفنوا في جامع مراد رئيس . تحتوي على 20 محلة للأتراك ، و 4 للروم ، 2 لليهود و400 دار وقصر ، 10 جوامع ، 30 مسجدا ، 4 مدارس ، 17 مكتبًا ، 4 تكايا ، 4 حمامات ، 70 حنفية مياه مبنية . دفن بجوار قبر مراد رئيس ، بحارة مشهورون جدا . يسكن نحو 7000 رومي في Lindos ، المدينة الثانية في جزيرة رودس (1 341 م ^{2}) . الجزر الاثنا عشر ، أقضية تابعة لرودس . إحداها جزيرة سنبكي (Sym) . توجد في الجزر قلاع ومرافئ . جزيرة سوسام Susam (Sisam ، Samos) كذلك مركز قضاء .

مديللي Midilli (Midillu باليونانية : Lesbos) (1696 كم^{2}) لواء بحري في إيالة البحر الأبيض .

14_ مورا :

مورا (21 , 643 كم^{2}) ، أصبحت إيالة بحرية مستقلة ، بعد أن كانت تابعة في البداية لإيالة روملي ، ثم لإيالة البحر الأبيض . تتكون من 7 ألوية : كردس Gordes (Korinthos) ، باللي بادرا (Patras) إينه بختي (Lapento) ، آيا مافـرا (Leukas) ، قارلي ايلي (Preveze) ، Manya و Mizistre . ومنها كردس ، باللي بادرا ، مانيا ومزسترة ، تشكل مورا ، وتبقي الألوية الأخرى خارج مورا .

وكذلك يبقي قضاء Megara للواء Gordos في Attika خارج مورا . جزيرة مورا تحتوي على 24 مدينة وقصبة يسكن الأتراك المدن الساحليه . بدأ فتح مورا على عهد يلدرم بايزيد . وفتح كاملها تقريبا بحملات مورا الهمايونية لفاتح ، إلا أن قواعد البنادقة البحرية لم يتم الاستيلاء عليها إلا في عهد بايزيد الثاني ، بل إن بعضها تم الاستيلاء عليه على عهد القانوني .

Gordos (Korinthos) ، مركز لواء . يقع على الرأس الجنوبي – الغربي للبرزخ الذي يصل مورا بـ آتيكا . يحتوي اللواء على 306 قرية ، نحو 3000 جندي . يحيط بقلعته سور طوله 000 14 ذراعٍ ، به 7700 موضع رماية . وبالرغم من وجود هذه القلعة ، اجتاز البرزخ بكّات تورخان أوغللري (بني تورخان) المغاوير مئات الدفعات ودخلوا مورا إعتبارا من عهد يلدرم . بالإمكان ملء البرزخ بالماء وبذلك تنفصل مورا عن آتيكا وتصبح جزيرة كاملة (تعتبر مورا حاليا جزيرة ، بواسطة قناة كورينثوس) . تحتوي على جامع فاتح و 6 جوامع آخر ، مسجدين ، 3 تكايا ، 7 مكاتب ، 700 دار ، ونحو 70 قصرا ذي حمام .

Kalavrata ، مركز قضاء في شمال مورا ، بين كردس وباتراس ، ذو 70 قرية ، يحتوي المركز على 420 دارا ، و جامع ، مدرسة .

Vosticse ، مركز قضاء كذلك .

Mora Kasteli (وتعني قلعة مورا) ، ناحية قضاء باتراس المركزي ، هي القلعة التي شيّدها بربروس خير الدين باشا ، وعلى الضفة المقابلة توجد إينه يختي . إن نار المدفعية الصادر من كليهما يقطع السبيل على مرور أية سفينة من الخليج .

Ballibadra (Patras) ، مركز الإيالة وأكبر مدينة في مورا ، تقع على الساحل الشمالي لمورا وعلى الساحل الجنوبي للخليج المسمى بالاسم ذاته . يقيم البكربك (الفريق الأول البحري أو الاميرال الكبير « المشير ») فيها أو في Gordos . في المدينة قناصل 6 دول أوروبية . تحتوي على 3 400 دار ، 4 جوامع ، 4 مساجد ، 4 مدارس ، 5 مكاتب ، 4 تكايا ، 3 حمامات ، نحو 40 قصرا يحتوي على حمام .

Helomic ، مركز قضاء ، يحتوي على جامع بايزيد الثاني .

Gastun (Gastuni) ، قضاء في لواء باتراس المركزي ، يحتوي على جامعين ، ومسجدين ومدرسة ، و 4 تكايا .

Fener (Mora Feneri) وتعني فنار مورا) ، مركز قضاء ذو 2000 دار ، و جامع ، و مدرسة . فتحه الصدر الأعظم قوجا مصطفى باشا في 1 500 .

Arkadya (Arkadia ، Kyparissia) قضاء في لواء باتراس المركزي . فتحه بايزيد الثاني في 1 500 من البندقية . يحتوي على 380 دار ، وجامعين ، ومسجد ، و مدرسة و تكية . أحد الجوامع ، الجامع الذي شيّده سليمان خان .

نافارين Navarin أو Anavarin (باليونانية : Pylos ، بالإيطالية : Navarino) ، ميناء ، قلعة وقاعدة بحرية على الساحل الغربي من شبه الجزيرة التي تقع في أقصى الغرب من بين أشباه الجزر الثلاث الصغار في جنوب مورا . فتحها بايزيد الثاني من البندقية في حملته الهمايونية لمورا . تحتوي على 913 دارا ، جامعي بايزيد خان ومراد الثالث وعدا ذلك جامع واحد و 3 مساجد

Moton (باليونانية : Methoni) ، على مقربة من جنوب نافارين ، قلعة ، ميناء ، وقاعدة بحرية . وعلى مسافة من جنوبها ، توجد جزيرة **Sapienza** التي يطلق عليها الأتراك اسم « جزيرة براق رئيس » **Barak Reis** التي استشهد فيها براق رئيس في

1499 . أجهز زميله كمال رئيس على الأسطول البندقي في هذا الموقع . فتح بايزيد الثاني Moton من البنادقة عام 1500 . تحتوي على جامعي بايزيد ومراد الثالث ، رصيف كاسر الأمواج لسليمان خان ، وفي قلعتها برج ذو 12 ضلعا ، 9 طوابق وذو 12 مدفعا ، بها 5 مساجد ، تكيتان ، مطبخان للمحتاجين ، مدرسة بايزيد و 950 دارا . أعاد المعمار سنان إنشاء كاملا لقلعتها تقريبا ، التي أنتقلت إليهم من البنادقة . مركز قضاء وقاعدة بحرية عثمانية كبيرة .

Koron ، تقع شرق Modon وتجاهها تماما . مركز قضاء آخر ، ميناء ، قلعة وقاعدة بحرية . من فتوحات بايزيد خان من البندقية عام 1500 . وعند سقوطها في أيدي البنادقة عام 1533 ، أدركها بربروس خير الدين باشا فورا واسترجعها . هو اللواء المركزي لمورا . له قلعة ذات موقع مستحكم ، 47 برجا ، 1900 موضع سلاح ، نحو 1300 دار وقصر ، جامع بايزيد ، جامع ، مسجد ، تكية ، مدرسة .

Kalamata ، قضاء في لواء مزستره . فتحها فاتح . تحتوي على جامع محمد الرابع ، وجامع آخر ، 9 كنائس ، و 800 دار . مشهورة عالميًا بزيتونها .

Andorese ؛ قضاء في اللواء ذاته ، وبه جامع بيازيد خان وجامع ، و مدرسة ، تكية ، 125 دارا .

Kritna ، مركز قضاء Petretna في اللواء ذاته . تحتوي على جامع بايزيد خان ، جامع ، مسجدين ، مدرسة ، تكية ، جسر واحد .

قلعة **Londar** ، ناحية اللواء المركزي ، تحتوي على جامع بايزيد خان ، مدرسة ، تكية

Mizistre ، هي مدينة Sparta للعصور القديمة . وقد سماها العثمانيون « Isparta ، Misehor ، Misistre ، Mizistre ، Mistra » . مركز إيالة . يتقاضى الوالي (أمير اللواء) سنويًا 219 000 آقجة راتبا و 1200 000 آقجة مخصصات . فتحها فاتح من الأمراء البيزنطيين . يحتوي اللواء على نحو 3000 جندي و 3 سفن حربية تحت أمر أمير اللواء البحري . طول أسوارها 9020 ذراعا ، ذات 8 أبواب . تحتوي على 1 600 دار ، جامعي فاتح وفتحية ، جامع ، 4 مساجد ، 7 كنائس ، 29 ديرا ، مدرستين ، 3

تكايا ، منزلين للمسافرين ، 5 خانات ، 380 دكانا ، معبد لليهود . نصف شعبها أتراك والبقية روم وقسم آخر يهود .

Bardonya ، مركز قضاء في مرستره ، يحتوي على جامع فاتح .

Benefse (Monemvasia) ، ميناء ، قلعة وقاعدة بحرية في جنوب – شرقي مورا ، على بحر الأرخبيل . وعلى أقرب نقطة إلى ميناء خانيا في كريت . مركز قضاء في لواء مورا المركزي . كان على عهد القانوني مركزا لأحد الألوية البحرية . يحتوي على 1 600 دار ، جامعي السلطان سليمان وفتحية للقانوني ، 3 جوامع أخرى ، مسجدين ، مدرسة .

Tana ، قضاء في اللواء المركزي ، به 500 دار .

Trapoliçe (Tripolis) ، قضاء في اللواء المركزي في منتصف مورا تماما ، في شمال Sparta . فتحه فاتح من الأمراء البيزنطيين . يحتوي على نحو 1000 دار ، جامعين ، 6 مساجد ، مدرستين ، تكيتين ، مطبخ عمومي ، 14 حنفية مياه مبنية (جشمة) ، 160 دكانا ، قلعته فارغة .

Arhoz (Argos) ، مركز قضاء في شمال – شرقي Trapoliçe . يحتوي على قلعة ، جامع فاتح ، جامعين ، 10 مساجد ، مدرسة ، تكيتين ، 1045 دارا .

Anapoli (Nauplion ، Nauplia ، Napoli ، Mora Napolisi) ميناء في الرأس الشمالي للخليج الذى يحمل الاسم ذاته ، قلعة وقاعدة بحرية . مركز قضاء في اللواء المركزي . لم يتمكن من فتحها لا فاتح ولا بايزيد الثاني وفتحت على عهد القانوني من البندقية . سكنت في هذه المدينة أسر البحارة المشهورين الذين أنجبوا للدولة أميرالات عديدين ، يسكنون في قصورهم الشبيهة بالسراي . تحتوي على 1805 دار وقصر ، جامع سليمان خان ، جامعين ، 250 دكانا ومنشآت أخرى .

Zaranta ، قضاء في لواء مزستره ذو قلعة . هي منطقة مانيا Manya . المانيون قوم متوحش يتكلم اليونانية بشكل غريب . لايسكن المسلمون هذه المنطقة . جعلت مانيا لواء نحو عام 1666 .

15 – كريت

جزيرة كريت (8 379 كم^2) ، إيالة عثمانية منفصلة . تأسست هذه الإيالة مع فتح يوسف باشا خانيا في 19 / 8 / 1645 وأصبحت مركزا للإيالة . انتقل إليها مركز

الإيالة ، عندما فتح فاضل أحمد باشا كاندية في 27 / 9 / 1669 ؛ وفي 1850 نقل المركز إلى خانيا أيضا . فتحت كريت من البندقية ، بعد حروب دامت ربع قرن . يقدم أولياء جلبي الذي كان في الجزيرة خلال فتح كاندية ، معلومات وافية عن الإيالة التي كانت قد تأسست حديثا . تم إعمار الجزيرة في العصور التالية بشكل فائق وأصبح نصف سكانها مسلمين . عين في كثير من الأحيان وزير مستقل لكل من خانيا وكاندية بلقب « محافظ » واتخذت تدابير واسعة لحمايتها تجاه أي تعرض بندقي وأوروبي . إذ إن أوروبا بأسرها دافعت عن كريت تجاه العثمانية . وأنقل إليكم فيما يلي بعض السطور عن أولياء جلبي حول الوضع في 1669 :

Hanya (Kanea ، Hania) ، ميناء وقلعة وقاعدة بحرية . تقع على ساحل الجزيرة الشمالي – الغربي . يعسكر فيها تحت أمر الوالي الفريق الأول ، 500 1 جندي . مخصصاته السنوية 25 000 ليرة ذهب . ورتبته وزير . يحتوي الميناء على 6 جوامع ، 7 مدارس (دينية) ، مكاتب (مدارس) كثيرة ، تكايا ، 6 حمامات ، خانات ، حنفيات مياه مبنية ، 520 دكانا ، شيّدت في الـ 25 سنة الأخيرة .

Suda ، ميناء وقلعة ، تستوعب 3000 سفينة قريبة لخانيا .

Aporkon ؛ مركز لواء . وقلعة خارج شرم Suda . يوجد في القلعة 500 جنديا .

Zibartma (باليونانية : Armyro) ، مركز لواء آخر . قلعة في الشمال قريبة إلى البحر ، تحتوي على جامع السلطان إبراهيم . يرابط في اللواء 5000 جندي وتحتوي على تشكيلات التيمار .

Retme (Resmo) مركز لواء ، ميناء وقلعة في الساحل الشمالي المشرف على بحر ارخبيل الجزر ، ثالث مدينة في الجزيرة ، بها 3700 دار وقصر . تحتوي على جامعي إبراهيم خان ووالده ـ سلطان ، و 4 جوامع أخر ، 9 مساجد ، مدرستين ، 3 مكاتب ، 3 تكايا و حمامين ، 10 مطابخ عمومية ، 10 حنفيات مياه مبنية ، 3 خانات ، و 150 دكانا . ازدهرت المدينة على يد فاتحها دلي ″حسين باشا .

عنادية Inadiye ، القلعة والمدينة التي أسسها دلي حسين باشا على مقربة من غرب كاندية . تحتوي على جامع سلطان إبراهيم ، 7 جوامع ، نحو 40 مسجدا ، 3 مدارس ،

5 مكاتب ، تكيتين ، 6 حمامات ، 7 خانات ، 2000 دكان ، نحو 7500 بيت بسيط . ترك الجيش هذه المدينة ، عند فتح كاندية ، قل شأنها وقل عدد نفوسها بسبب إنتقال سكانها إلى كانديه .

Kandiye (باليونانية : **Heraklion** ، بالإيطاليه : **Candia** ، **Megalokastron**) ، مركز كريت الجديد . أكبر مدينة فيها ، قلعتها وميناؤها . **Candia** ، هي في نفس الوقت الاسم الذي أطلقه الإيطاليون على جزيرة كريت التي سماها اليونانيون « Kreta » والعرب « اقريطش » . تقع على الساحل الشمالي من الجزيرة وفي منتصفها وعلى مسافة منها جزيرة Dia الصغيرة . فتح كوبرولو – زاده ، هذه الجزيرة الشديدة المنعة التي دافعت عنها أوروبا بأسرها بعد أن أسس تحت الأرض وحول كاندية مقر جيش – مدينة عظيمة تحتوي على 160 مسجدا ، واغتنم معدات حربية وافرة تملأ مدينة كامله . قلعتها ذات 12 770 موضع سلاح . وتحتوي على مصنع سفن عظيم ومعملين مدهشين للمدافع والبارود ، وجامع السلطان محمد خان الرابع ، بناء بيزنطي . كان جامعا على عهد العرب وأصبح كنيسة مرة أخرى بعد استرجاع البيزنطيين له ، وكاتدرائية على عهد البنادقه ، ثم عاد الآن وأصبح جامعا . مساحته 250 × 100 ذراع وإرتفاعه 40 ذراعا . وعدا جوامع تارهان – والده ، إبراهيم خان كوبرولو – زاده ، شيّد خلال مدة قصيرة 8 جوامع ، 71مسجدا ، 70 حنفية مياه مبنية ، حمامان ، 9 مدارس ، 9 مكاتب ، 17 تكيه ، 3 منها تكايا بكتاشية وإحداها تكية أوقجولر . كانت تحتوي عند فتح المدينة على 1 700 دكان . شيد فيها الآن 3 أسواق ذات 150 و 50 و 30 دكانا . فيها أيضا 68 مخزنا لخزن البضائع ، 17 خانا ، 10 مقاه ، 20 بوظه خان (معمل صنع البوظه ، مشروب غير كحولي يصنع من عصارة بعض الحبوب) .

في المدينة الآن حركة نشطة لإنشاء الابنية الجديدة وإصلاح القديمة المنهدمة . وتحتوي على 4000 دار وقصر وتحتوي على نحو 9 000 بئر ماء ونحو 7000 خزّان مياه تحت الأرض . تركها الآن عدد كبير من الإيطاليين وخرجوا منها . ظل الروم ومحلة يهودية واحدة في أماكنهم . وقبل عهد فاتح كان يسكنها 20 محلة للإيطاليين الكاثوليك ، 20 محلة للأرثوذكس الروم . تم وضع اليد على الكنائس الكاثوليكية فقط من بين 172 كنيسة وديرا . وتركت الكنائس الإرثوذكسية على وضعها . يمنح واليها (بكلر بك) الذي بمرتبة وزير ،

راتبا قدره 270000 1 آقجه . قسمت الجزيرة إلى 5 ألوية و 20 قضاء . وبدا الشعب الرومي المحلي بالتسجيل في دائرة النفوس فردا فردا . تحتوي على 861 قريه ، 200 قصبة و 25 قلعة مليئة بالجنود .

Kisamo (Kisamos Kasteli « قلعة كيساموس ») مركز لواء ، قلعة وميناء يقع في أقصى الشمال – الغربي من الجزيرة . شيّد فيها كل من محمد الرابع وكوبرلو – زاده جامعا . يتبع اللواء 84 قرية .

Isfakya (Sphakia) ، مركز لواء ، قلعة وميناء في الجنوب – الغربي . هو الموقع المهم الوحيد في جنوب الجزيرة المشرف على البحر الأبيض .

تحتوي الجزيرة على 3 مناجم نحاس ، منجمي فضة ، 7 ملاحات ، 40 منجم نترات البوتاسيوم ، 4 مناجم شب ، 7 مناجم كلس وحجر الكلس ومنجم واحد لكل من الذهب ، والحديد ، والرصاص ، و الزرنيخ ، و الزفت ، الكبريت ،

استغلت جميع هذه المناجم وجدّدت عقودها مع الدولة . وتحتوي الجزيرة على نحو 8000 طاحونة قربية ، 000 71 خلية نحل ، 41000 حظيرة مواشي ، نحو 160000 حقل ، مايقرب من 000 200 مزرعة كروم وحدائق ، 2800 حصان ، 000 70 بغل ، 000 400 حمار ، 000 263 رأس بقر وجاموس ، 280 جملا و 000 600 رأس غنم وماعز . أجري تعداد النفوس في الجزيرة ، فبلغ 000 324 عدا الأطفال الذين لم يبلغوا سن العاشرة .

كانت نفوس الجزيرة أكثر في السابق ، واتضح أن نحو 7000 رومي اهتدى إلى الإسلام خلال الـ 25 سنة الأخيرة .

16 – أناضول الغربية .

إيالة اناضولي ؛ هي نواة للإمبراطورية العثمانية . تكونت الدولة في 1326 واتخذت بورصة مركزا لها (مدينة العرش) . واعتبارا من 1360 حتى 1451 اتخذت أنقرة مركزا للإيالة . نقل فاتح عند اعتلائه العرش مركز الإيالة من أنقرة إلى كوتاهية . وظل المركز في كوتاهية حتى العصر 19 . كانت حتى تشكيل إيالة روملي الإيالة الأولى في تشريفات الدولة ، ثم الثانية ، وعند تشكيل إيالتي مصر وبودين في 1517

و 1541 ، أصبحت الإيالة الرابعة في التشريفات وعندما خرجت بودين من حوزة العثمانية في 1686 ، أصبحت الثالثة . تغيّرت بين الفترة والأخرى الوية أقدم الإيالات هذه . في 1520 ، كانت 17 لواء : كرميان Germiyan المركز (كوتاهية خد اوندكار (بورصه) ، قوجا إيلي (أزميت) ، كاراسي (بالكسير) ، بيغا (جناقلعه) ، ساروهان (مانيسا) ، سلطان أونو (أسكي شهر) ، أنقرة (أنكرو) ، بولو ، قسطموني ، آيدن ، تكة (انطالة) ، منتشه (ميلاس) ، حميد (اسبارطه) ، قرة حصار صاحب (أفيون) ، جنقرى (كنكرى) ، علائية (آلانيه) . كانت كل من سقاريا ، زنغلداق ، سنوب ، نوشهر ، قيرشم ، بيله جك ، أوشاق ، دنيزلي ، بوردور .. اللواتي أصبحن اليوم ولايات ، عبارة عن أقضية تابعة للألوية المذكورة وأصبح بعضها بعد ذلك مراكز ألوية (مثل دنيزلي ، بيله جك ، سينوب ، اوشاق) .
كان للوائي خداوندكار (بورصه) و ساروهان (مانيسا) ، مكانا متميزا بين هذه الألوية . إذ ان أولها كان الثالث في تشريفات الإمبراطورية وأخر مدينة عرش ، أما مانيسا ، فكان اللواء الذي يديره ولي عهد - شهزاده بالذات . قسم من إيالة أناضولي ، هو الأراضي التي فتحت من البيزنطيين - التي كانت الأراضي الأصلية لبني عثمان - أما القسم الأكبر منها ، فقد تكون بإلحاق الإمارات (بكـلك) التركمانية ، وهذه الإمارات التركمانية ، كانت قد فتحت أراضيها - باسم بنـي سلجوق - من البيزنطيين أيضا . فتح بنو عثمان معظم المناطق القريبة من مرمرة ، بالذات من البيزنطيين . ومن ثم إبتداء من أمارة كراسي ، الحقوا الإمارات التركمانية كبني كرميان ، ساروهان ، تكه ، آيدن ، منتشه ، حميد وآهى بإيالة أناضولي ، كألوية . ولو كانوا قد جعلوا كل إمارة من الإمارات التي ألحقوها ، إيالة منفصلة ، لكان من المحتمل أن تطول مدة انصهارها مع بعضها ضمن إطار ذولة موحدة . تمزقت فى عهد التنظيمات تلك الإيالة العظمى ، التي تمتد من البحر الأسود إلى البحر الأبيض ، من مرمرة وإيجه إلى قيزيل إيرماق ، وتكونت على أراضيها 4 إيالات : خداوندكار (بورصة) ، آيدن (أزمير) ، انقرة وقسطموني Kastamoni . وظلت على الوضع ذاته حتى 1920

إيالة أناضولي ، أغنى الإيالات وأكثرها تقدما في الإمبراطورية . وأحد أكثر الأقطار

تطوّرا بالنسبة لأقطار ذلك العصر . كانت مهدا للحضارات الكبرى طوال العصور التاريخية ، ويمكن القول إنها قد حافظت تقريبا على وضعها هذا حتى أواسط القرن 19 . وعاشت قمة دور عزها في عهد القانوني. ولايوجد اليوم قسم من القرى التي كانت موجودة على عهد يلدرم بايزيد (1389 – 1402) في سهل بورصة ، زالت (Dergisi Vakiflar ، 8 ، 39 ب) . كانت كثافة النفوس فيها كبيرة في العهد العثماني ، كما كانت عليه في العصور القديمة وفي عهد السلاجقة . أنقل إليكم فيما يلي بعض ما كتب أولياء جلبي الذي زار قسما من مدن إيالة أناضولي في أواسط القرن 17 :

بورصة Bursa ، مركز لواء خداوندكار . سميت المنطقة باسم « خداوندكار » إضافة إلى لقب مراد الأول . فتحها أورهان غازي في نيسان 1326 وجعلها مدينة العرش ، وبقيت كذلك حتى تموز 1402 . من أهم الألوية . راتب أمير لوائها 079 618 آقجة .

مودانيا Mudanya ، أحد أقضية لواء خداوندكار . يحتوي على 3 جوامع ، 7 مساجد ، 3 خانات ، حمام .

أزنكميد Iznikmid أو أزميت Izmit ، ميناء مرمرة ، تقع في رأس الخليج المسمى بالاسم نفسه . مركز لواء قوجا إيلي . ربطت بإيالة البحر الأبيض (آقدنيز) عندما كانت لواء في إيالة أناضولي . إذ إنها لواء بحري وقاعدة بحرية . سميت المنطقة قوجا يالي نسبة إلى آقجاقوجا ، أحد بكات (أمراء) عثمان غازي الذي فتحها من البيزنط . شيّد مراد الرابع في المدينة سرايا هما يونيا . يحرسه 200 بوستانجي (حارس وبستاني في نفس الوقت) . تحتوي على 3500 دار وقصر ، 19 محلة تركية ، 3 مسيحية ، ومحلة يهودية ، 23 جامعا ، ومساجد عديدة ، مدرسة ، تكية ، 1140 دكانا ، 200 مخزن لتخزين المواد الواردة إلى الجمارك كلية برتو باشا ، حمام رستم باشا ، جوامع محمد بك ، علاء الدين بك ، عبد السلام بك من بناء المعمار سنان .

يالوه Yalova أو يالاق آباد Yalakabad ، مركز قضاء في لواء خداوندكار ، اشتهر بحمّاماته المعدنية الحارة ، يحتوي على 700 دار ، 7 جوامع ومساجد ، 3 خانات .

شيلة Sile ، قضاء قوجايلي ميناء ذو 600 دار .

آقجه قوجا Akeakoca مركز قضاء في لواء بولو ، به 600 دار . رصيف بحري لبولو .

أما سرا Amasra ، قضاء بولو ، ذو قلعة ، ميناء جميل .

إينه بولو Inebolu ، قضاء قسطموني ورصيفها البحري . قلعتها بناء جنوي مثل آماسرا .

سينوب Sinop ، مركز لواء ، ميناء على البحر الأسود . أقصي شمال الأناضول وتجاه قرم . قاعدة بحرية لها مصنع للسفن . استولى على قلعتها من بني أسفنديار أولا يلدرم ، ثم فاتح بعد آماسرا بدون قتال . لها 24 محلة ، أولو جامع أحد الآثار الفنية النفيسة الباقية من عهد السلاجقة ، جامع سليمانية ، 4 جوامع أخرى ، 15 مسجدا ، مدرسة علاء الدين كيكباد ، و4 مدارس أخرى ، ونحو 60 مكتبا ، مطبخ عمومي ، 1080 دكانا .

كبوزة Gebze) قضاء قوجايلي ، يحتوي على 1000 دار ، 3 جوامع ، 41 خانا ، 180 دكانا ، رصيفه البحري درايجه Darica . تحتوي كبوزة علي كلية الوزير مصطفى باشا الذي شيّد الجسر المسمي جسر مصطفى باشا والكلية بالقرب من أدرنه وقد شيّدها في بداية العصر 16 جامع الكلية الفخم ذو أنصاف القبب السبع وخاصة منزل المسافرين الذي شيّده والذي يستوعب 2000 حصان و 300 شخص ، يستحق المشاهدة . يقوم الخدم بتوزيع الطعام ونقله إلى غرف المسافرين دون مقابل . شرط الباشا الواقف ذلك في وقفيته مقدرا أن المسافرين يحتمل أن يكونوا\علي درجة من التعب بحيث لايمكنهم النزول إلى صالة الطعام . إلا أنه يصادف كثيرا أن يمر بأمثال هذه المنازل التجار الأغنياء جدا فيغدقوا على الخدم مبالغ كبيرة ويرمموا بعض أماكنها .

سابانجة Sapanca ، مركز ناحية في قوجايلي ، به 1000 دار . موّل كل من رستم باشا وبرتو باشا المعمار سنان في عهد القانوني وبنى لكل منهما منزلا عظيما للمسافرين .

يشتمل المنزل الذي أنشأه رستم باشا على 170 غرفة ، حمامات وأسواق .

خندق Hendek ، قضاء بولو . **دوزجه** Duzee ناحية قضاء بولو المركزي ، ويقال أيضال دوزجه بازاري . له جامع وخانان ، وهو من الأعمال الخيرية للوزير اسفنديار اوغلو شمسي باشا . الباشا الذي له جامع في أسكدار على البحر .

بولو Bolu ، مركز لواء . فتحه أوهان غازي في 1326 من أومور بك . فقد لفترة من الزمن ثم استرجع في 1354 . راتب أمير اللواء السنوي 122 300 آقجه ومخصصاته 5000 سكة ذهبية . تجهّز 3600 جندي تمارلي سباهي . يحتوي اللواء على 3 محلات ، 34 جامعا ومسجدا ، 7 خانات ، 1 بدستان (سوق التحف الثمينة) عدة مدارس ، 70 مكتبا ، 3000 دار ، 400 دكان . لاتسكنه الأقليات . جامعا مصطفى باشا وفرهاد باشا من هندسة المعمار سنان . معظم الأعمال الخيرية تعود إلى بني أسفنديار وبخاصة شمسي باشا .

كرده Gerede ، قضاء بولو ، يحتوي على 10 جوامع ومسجد ، 100 دار ، 3 تكايا .

جركش Cerkes ، قضاء جانقيري ، به 300 دار . شيّد فيها الوزير الثاني مصطفى باشا ، نديم مراد الرابع ، كروانسراي (منزل مسافرين) مكونا من 150 غرفه وسوق وقف به 100 دكان .

توسية Yosya ، قضاء قسطموني ، مدينة تحتوي على 3000 دار ، 340 دكانا ، 21 جامعا ومسجدا ، سوق للسلع الثمينة (بدستان) ومنشآت أخرى عديدة . فتحها مراد الأول ومن ثم جلبي محمد .

قلعة جك (Kalecik) ، قضاء جانقيري ، يحتوي على 220 1 دارا ، 18 جامعا ، ومسجدا .

أنقرة Ankara (Enguru) ، مركز لواء . راتب أمير اللواء 400 263 آقجه في السنة ومخصصاته 000 20 ليرة ذهب . يجهز اللواء نحو 3000 تمارلي سباهي . يحيط بقلعتها الواقعة على رابية سور طوله 6000 ذراع ، وبالقلعة 86 مدفعا . تحتوي المدينة على 6000

دار ، ونحو 200 قصر به حمام خاص ، 76 جامعا ومسجدا 18 تكية 170 حنفية مياه مبنية ، مدارس كثيرة ، نحو 180 مكتبا ، 2000 دكان ، ما يقرب من 200 سبيل ماء ، سوق للسلع الثمينة .

شوارعها نظيفة ومكسية بالحجر الأبيض . بالمدينة أكثر من 1000 حافظ قرآن . لها جامعان مشهوران لحاجي بايران وجنابي أحمد باشا (بناهما سنان) . يقيم في تكية حاجي بايرام أكثر من 300 درويش وشيخهم من أحفاد حاجي بايرام . شعبها المحلي تركمان . وقد هاجر إليها عدد كبير من سكان البحر الأسود واستوطنوا فيها . يسكنها عدد من اليهود ، الأرمن ، الروم ، الغجر . ماعز مالطز (معز أنقرة « Angora ») يعيش في هذه المنطقة فقط ؛ لأنه يأكل ورق البرنار (شجر البلوط) وإن لم يتغذ بهذا الورق يتحول صوفه فى الحال إلى صوف الماعز العادي . عقوبة تهريب ماعز أنقرة إلى الخارج ، هي الإعدام وعلى الرغم من هذه العقوبة المشددة ، فإن الربح الكبير الناشئ عن ذلك أغرى الأوروبيين بتهريب الماعز ، إلا أنه من الملاحظ أن هذا النوع من الماعز إذا أطعم النبات المشابه للنبات الموجود في أنقرة . وتحوّل في الأقطار التي سيق إليها إلى ماعز ذي صوف اعتيادي . ولذلك ومن أجل الحصول على ربح بمقدار النصف ، اشتروا الخيوط المصنوعة من صوف الماعز (تيفتيك) أي ضوف معز أنقرة المسموح بتصديره ، لكنهم لم يتمكنوا من نسج الأقمشة التي تحاك فى أنقرة ، ونسجوا القماش الأسود غير المموج الذي يرتديه الرهبان ، وهو قماش لا يمكن مقارنته إطلاقا بصوف أنقرة . أن صوف أنقرة المعمول من خيوط الماعز (تيفتيك) مشهور عالميا ، يهدى إلى الحكام . يمكن صباغة هذا الصوف بجميع الألوان وحياكته ، وهو نوعان : صيفي وشتوي . يرتدى رجال العلمية (رجال الدين) لدينا الألبسة المصنوعة كلها من الصوف (Sof) . ويمتاز بنعومة كالحرير ، رغم أنه صوف خالص .

آياش Ayas ، قضاء أنقرة ، يحتوي على 1000 دار ، 10 جوامع ومساجد .

بلك بازاري Beypazari قضاء أنقرة ، بها 41 جامعا ومسجدا ، أكثر من 3000 دار ، 3 مدارس ، نحو 70 مكتبا ، 7 خانات ، 600 دكان يرجع الفضل في رفاهية المدينة إلى صناعة خيوط الماعز ، حيث تصنعها وتبيعها في كل مكان ، في السهول والجبال .

ورغم أن **نالِلي خان** Nalli han و **نازلي خان** Nazli han قريتان ، فإن نظيف باشا شيد في كل منهما منزلا للمسافرين لأنهما تقعان على طريق المسافرين . يحتوي كل من هذين المنزلين على 150 غرفة واسطبلات للحيوانات تستوعب 2000 حيوان كما أن بهما جوامع و حمامات وأسواقا .

كوينوك Coynuk ، من فتوحات عثمان غازي ، مركز قضاء في بولو بها 2 200 دار ، 18 جامعا ومسجدا ، ونحو 20 مكتبا ، ولا توجد بها مدرسة . فيها قبر الشيخ محمد آق شمس الدين ، فاتح إستانبول المعنوي . دفن بجواره ابنه الصغير الشاعر الكبير حمد الله حمدي جلبي .

تاراقلي Tarakli من فتوحات عثمان غازى ، عبارة عن 500 دار ، 11 جامعا ومسجدا ، 5 خانات ، 6 مكاتب و 200 دكان .

كيوه Geyve ، فتوحات عثمان غازي ، مركز قضاء ، بها 300 دار . على مسافة قريبة منها على نهر سقاريا يوجد جسر بايزيد الثاني الكبير .

أيزنيك Iznik ، قضاء بورصة ، من فتوحات أورهان غازي . وعلى ساحل بحيرة إيزنيك ، توجد قلعته التي تحتوي على 366 برجا ويحيط بها سور طوله 6000 ذراع ، تحتوي على 1000 دار ، 26 جامعا ومسجدا ، 9 مدارس ، 46 مكتبًا ، 7 تكايا ، 7 مطابخ عمومية ، حمامين مزدوجين (للرجال والنساء) ، و 1 كروانسراي ، 7 حنفيات مياه مبنية ، 600 دكانا ، 7 معامل خزف . كانت قديما مدينة كبيرة ويتضح ذلك من آثارها ، وبمرور الزمن أنتقل شعبها إلى مدينة بورصة . وانتقلت صناعة الخزف إلى أستانبول وكوتاهية . احترق جامع أوهان غازي على عهد السلطان سليمان . شيده سنان مجددا . يرقد المتصوف والشاعر الكبير أشرف أوغلو رومي في زاوية من زوايا الجامع المسمى باسمه . جامعا فاتح روملي سليمان باشا ، وجاندارلي – زاده خير الدين باشا ، وكروانسراى (منزل) رستم باشا من بناء سنان ، تكية أشرف أوغلو تستحق الذكر . الأواني ، الصحون والأباريق الخزفية المصنوعة في إيزنيك مشهورة عالميا ، تشتري وتباع كتحف وهي ذات قيمة كبيرة .

بورصة يني شهري Bursa Yenisehri ولفكة Lefke (عثمان إيلي Osmaneli) ، **قضاءان في** لواء بورصة ، يتبع بورصة 70 قرية تحتوي على 600 دار ، 5 جوامع ومساجد و 4 خانات .

سوكوت Sogut ، ناحية لقضاء بيله جك ، بها 700 دار . أصبح قبر أرطغرل غازي الموجود فيها مزارا وطنيا . فتح أرطغرل غازي القصبة من البيزنطيين في 1231 واتخذها مركزا له .

إسكي شهر Eskisehir ، مركز قضاء في لواء سلطان أونو (بيله جك يحتوي على 18 محلة ، 800 دكان ، 7 تكايا ، 7 خانات وعدة مدارس . دخلت ضمن إدارة الدولة في 1280 .

سيدي غازي Seydigazi ، قضاء بيله جك ، من فتوحات مراد الأول . يرقد المجاهد الملاطية لي (نسبه إلى ملاطية سيد بطال غازي في قبره الموجود فيها . وبجواره تكية بكتاشية ، قبره مزار كبير جدا . كل موضع في القبر مكسو بالفضة دون استثناء . له صندوق ضريح عظيم يبلغ 10 أذرع . يحتوي على 150 دارا ، يتبع هذا القضاء 76 قرية ، يحتوي على كروانسراي (منزل) مصاحب سلاحدار مصطفى باشا به 70 غرفة .

بولفادين Bolavadin ، قضاء تابع لولاية قره حصار . يحتوي على جامع رستم باشا من بناء سنان .

جانقيري Cankiri ، مركز لواء . يجهز 1500 جندي تمارلي سباهي . راتب ومخصصات أمير اللواء (سنجق بك) 781 350 آقجه و 5000 ليرة ذهب . يتشكل قضاؤه المركزي من 13 ناحية . من فتوحات يلدرم بايزيد . تحتوي المدينة على 4000 دار ، وجامع سليمان خان .

جاغا Gaga ، مركز قضاء تابع لبولو ذو 47 قرية .

مودورنو Mudurnu ، من فتوحات عثمان غازي ، تتبع قضاء بولو . بها أكثر من 3000 دار . فيها جامع يلدرم خان .

بازاركوي Pazarkoyu (أوهان غازي) ، قضاء بورصة ؛ به 1300 دار و جامعان وعدة مساجد .

إنكروجك Engurucuk (كوجوك أنقرة = أنقرة الصغيرة) تتبع قضاء بورصة ، من فتوحات عثمان غازي ، بها 1000 دار .

كملك Gemlik ، قضاء بورصة ، فتحها أورهان غازي من البيزنط في 1334 .

آبوليوند Apolyond ، قضاء بورصه ، بها ، 1000 دار ، آخر موقع فتحه عثمان غازي من البيزنط .

أولوباد Ulubad ، قضاء بورصة فتحه أوهان غازي في 1334 من البيزنط ، به 2000 دار .

كرماستي Kirmasti (مصطفى كمال باشا) ، تابع قضاء بورصة من فتوحات أورهان غازي من البيزنط عام 1342 .

ميهالج Mihaliċ (قره جه بك Karacabey) ، تابع قضاء بورصة . فتحها غازي مهال بك من البيزنط في 1342 . تحتوي على كلية قرة جه بك ، كروانسراي ، وجامع .

باندرمه Bandirma ، قضاء بورصة ، من فتوحات أورهان غازي من البيزنط عام 1342 ، ميناء فعال ذو 17 جامعا ومسجدا .

قابوداغي Kapidagi (إردك Erdk) ، تابع قضاء بورصة ميناء ، فتح غازي سليمان باشا شبه جزيرة قابوداغي من البيزنط . تحتوي على 1000 دار ، جزر مرمرة نواحي هذا القضاء .

إدينجك Edineik ، يتبع قضاء بورصة . ميناء في خليج إردك ، بها 2000 دار ، فتحها أورهان غازي من البيزنط . وتقع بحيرة مانياس في جنوب باندرمه . أطلق التركمان عليها هذا الاسم . مجال كبير للصيد حيث البحيرة مليئة بالأسماك . كما يجري صيد الطيور في الشتاء ، وفرة الطيور وتنوعها لا مثيل لهما في أي مكان في العالم . غير مسموح بالصيد دون موافقة الدولة وسداد الرسوم اللازمة ، كما أنه هنالك خط على صيد بعض

أنواع الحيوانات .

Dimetoka (بيغا Biga) ، من فتوحات أورهان غازي من البيزنط . قضاء بورصة . أما **كونن** Gonen فهي ناحيتها .

إينه كول Inegol ، يتبع قضاء بورصة ، ذو 1000 دار ، و 60 قرية . فتحه عثمان غازي من البيزنط عام 1299 ، به جامع يلدرم خان واسحق باشا ، 3 مساجد ، مدرستان ، 3 مكاتب ، 7 دورات مياه يرقد اسحق باشا في ضريحه الكائن في كلّيته .
جوقورجه Cukurea قضاء بورصة .

كوتاهيه Kutahya ، مركز إيالة أناضولي . يسمى لواها المركزي كرميان سنجاغي (لواء كرميان) . انتقلت من بني كرميان إلى بني عثمان في 1378 . يتقاضي والي أناضولي ، وهو بمرتبة وزير ، مليون آقجه راتبا سنويا . كانت أكثر اتساعا ، وهي الآن (1671) 14 لواء : كرميان (كوتاهيه) ، خداوندكار (بورصة) ، ساروهان (مانيسا) ، آيدن (قسطموني) ، بولو ، منتشه (موغلا) ، سلطان أونو (بيله جك ، اسكيشهر) ، أنكروا (أنقرة) ، قرة حصار صاحب (أفيون) ، تكه (أنطاليا) ، كانغري (جانقري) ، حميد (إسبارطة) ، كاراسي (بالكسير) . كانت سينوب لواء ، ثم أصبحت قضاء تابعا إلى قسطموني . أما لواء جانيك Conik سمسون (Samsun) ، فقد ارتبط بإيالة روم سيواس) . يوجد في الإيالة 4 موظفين بدرجة أمير لواء يطلق عليهم اسم مُسلّم (بضم الحرف الأول وفتح الثاني وشد الثالث) يرعون شئون الأتراك المهاجرين . وفي الإيالة 36 800 جندي ، منهم 13 800 تمارلي سباهي ، ويبقي 3000 مع أمير الأمراء (الوالي) بصورة دائمة . تتمكن الدولة في حالة الحاجة من تجهيز 90 000 جندي من هذه الإيالة ، إذ إنه من السهل جدا تسجيل 50 – 60 ألف متطوع كجندي . يذهب متطوعون كثيرون من شباب هذه الإيالة ، وبخاصة من الألوية الساحلية كمنتشه وآيدن ، إلى حاميات المغرب « مغرب أوجاقلري » (جزائر ، تونس ، طرابلس) ، للتسجيل كجنود بحارة (لوند) وانكشارية ، وتصبح لهم هناك مكانة وشهرة . يحد الإيالة شمالا البحر الأسود ، جنوبا البحر الأبيض ، غربا بحر أرخبيل ، الجزر أو إيالة البحر الأبيض شرقا– من الشمال إلى الجنوب – إيالتا روم

(سواس) ، قرة مان ورمضان (أدنة) . ينقسم لواء كرميان المركزي إلى 25 قضاء ، أما قضاء كوتاهية المركزي ، فينقسم إلى 10 نواح . يربط في قلعة كوتاهية 70 جنديا لإجراء المراسم ، ويوجد بالقلعة جامع كرميان أوغلو . المدينة كبيرة وبها 7000 دار . تحتوي على 28 محلة للأتراك ، 3 محلات لكل من الروم والأرمن . ولا يوجد يهود .

أن باشا سراي ، الذي يقيم فيه الوزير أمير الأمراء ، هو سراي بني كرميان القديم الذي أقام فيه بعض ولاة العهد العثماني . يحتوي على 360 غرفة وعدة صالات استقبال (ديوان خانة) ، ذو حمام وحديقة . يعمل فيه 40 خادما بصورة مستمرة لغرض التنظيف فقط . وتحتوي الإيالة على 11 جامعا ، 37 مسجدا ، 8 مدارس ، 70 مكتبا ، 3 مطابخ للمحتاجين ، 3 حمامات ، 23 سراي وقصر ذي حمام ، 17 خان عمل ، 70 حنفية مياه مبنية وسبيل ، 8 أبار مياه جوفية ، 3 كنائس للأرمن و 2 للروم ، سوقين للتحف الثمينة إحداها لكديك أحمد باشا ، سوق ذي 860 دكاناً (سوق سلطاني) .

مساحة أولو جامع 180 × 90 ذراعا ، بناه يلدرم بايزيد ، وأتم نواقصه موسى جلبي ، أما سليمان خان ، فإنه أمر سنان بإصلاحه . تم ترميم جامع كيخسرو في 1642 . جامع سليمان – شاه من مخلفات بني كرميان . (13 مسجداً من مساجدهم مكسية بالرصاص) . التكية المولوية . تكية كبيرة جدا من بين تكاياه الـ 6 . خان كابان ، ذو 12 عمودا ، رواقه ذو فسقيه وحوض ، كل غرفة من غرفه تحتوي على موقد ، به 200 غرفة ، تاريخ بنائه 1506 . أقضية لواء كرميان هي : المركز كوتاهية ، عنيد ، إكريكوز ، سيماو ، سيركه ، جاقيرجه ، كوكأويوك ، دنيزلي ، شيخلي ، بأقلان ، دازقيري ، سوما ، كنكر ، أوشاق ، باناز ، هوناز ، أزنية جهاشمية ، داغاردي ، جال ، كركيفران ، افرنجيك طاوشانلي ، كموش ، عرموطلو ، Armatlu (Ermudlu) وآلطونطاش Altintas ذو 200 دار .

قرة حصار صاحب (أفيون) Afyon ، مركز لواء في إيالة اناضول . وسمي « قرة حصار » أي القلعة السوداء ، لميل لون قلعته إلى السواد ، ولتميزها عن القلاع الأخرى ، أضيفت كلمة « صاحب » ان أحد وزرائه المسمى صاحب عطا ، هو الذي عمر المدينة . ويقال « افيون قرة حصاري » أيضا لكثرة الأفيون في المنطقة . يرابط في المنطقة

200 4 تمارلي سباهي . راتب ومخصصات أمير اللواء 299 240 آقجه ، 100 كيسة .
ينقسم اللواء إلى الأقضية التالية :

المركز قرة حصار ، صندوقلي ، سنجانلي ، شهد ، جلة ، قيرامق ، جاي ، بيوك بارجن كوجوك بارجن ، أصلح السلاجقة قلعته التي شيدها البيزنط ، ثم أصلحت مجدّدا نحو عام 1570 ، يرابط فيها نحو 200 جندي . انتقلت المدينة إلى الإدارة العثمانية على عهد مراد الأول . تحتوي على 600 5 دار ذات حدائق وبساتين ، 1000 منها تقريبا يملكها المسيحيون ، 12 جامعا ، 3 مساجد ، 7 تكايا ، 5 حمامات ، مدارس ومكاتب ، سوقين للتحف الثمينة ، 2048 دكانا ، 19 خانا ، أكثر من 200 حنفية مياه مبنية وسبيل . جامعا علاء الدين كيكباد وهنكار داخل القلعة . تكيتها المولوية فخمة . يعمل 3000 عامل بالسراجة ، ويعمل عدد مماثل بصناعة الزيوت . مصنوعاتها من الجلود التي تمتاز بليونتها ، مرغوبة حتى في إستانبول .

شهد Suhud ، قضاء أفيون ، ذو 40 قرية ، 200 1 دار ، 9 جوامع ومساجد .

سنان باشا Sinanpasa ، مركز قضاء سبحانلي التابع لأفيون ، ذو 200 دار ، يحتوي على كلية سنان باشا .

صندوقلي Sandikli ، بقضاء أفيون ، 350 دارا ، جامع ، 3 مساجد ، له 70 قرية .

باناز Banaz ، قضاء في لواء كرميان ، قرية كبيرة ذات 100 دار ، كانت ناحية للعشاق ، أصبحت نحو عام 1660 قضاء ، ارتبط بها 40 قرية .

أوشاق Usak ، قضاء كرميان ، بها 3600 دار ، 4 جوامع ، 14 مسجدا ، حمامان ، 7 خانات ، 377 دكانا ، خان السلطان علاء الدين كيكباد شبيه بالكروانسراي (المنزل الكبير) .

كديز Gediz ، قضاء كرميان ، به 2000 دار ، 20 جامعا ومسجدا ، يحتوي على كلية دار السعادة آغاسي غضنفر آغا .

سيماو Simav ، قضاء كرميان ، به 200 1 دار ، 4 جوامع ، 13 مسجدا ، 255 دكانا ، ألولو جامع مخلفات السلاجقة .

دميرجي Demirei ، قضاء ساروهان ، يحتوي على أكثر من 3000 دار ، 7 جوامع ، 35 مسجدا ، 4 مدارس ، 10 مكاتب ، 17 حنفية مياه مبنية ، تكيتين ، 7 خانات .

جامعه الكبير من مخلفات بني ساروهان .

كولا Kula ، قضاء كرميان ، يحتوي على 1 200 دارا ، 24 جامعا ومسجدا ، 11 مكتبا ، 6 خانات ، لايحتوي على مدرسة .

آلا شهر Alasehir ، قضاء آيدن من فتوحات يلدرم خان من البيزنط ، يحتوي على 2070 دارا ، 24 جامعا ومسجدا ، مدرستين ، 16 مكتبا ، 9 خانات ، حمامين . وكلية يلدرم خان تحتوي على 70 دكانًا من 800 دكان ، يستخرج الأصباغ من النباتات بشكل جيد ، يصنع فيها أجود أنواع الصبغ النفطي (الأخضر الغامق) فى العالم .

سارت Sart ، قضاء ساروهان ، به 150 دارا .

كوردس Gordes ، قضاء ساروهان ، به 2 200 دار ، 3 جوامع ، 8 مساجد ، مدرسة ، 9 مكاتب ، تكيتان ، 6 حنفيات مياه مبنية ، 3 خانات .

قاياجك Kayacik ، قضاء ساروهان ، يحتوي على 300 دار ، و جامـع ، و مسجدين .

آقحصار Akhisar ، قضاء ساروهان ، يحتوي على 2 600 دار ، 10 جوامع ، 37 مسجدا ، سوق تحف ثمينة ، نحو 1000 دكان ، 9 مدارس ، 23 مكتبًا . يحتوي على جامع سلطان علم _ شاه .

كول مرمرة Golmarmara أو مرمرة ، قضاء ساروهان يحتوي على 1 200 دار ، 22 جامعا ومسجدا ، له قرية ، وفيه كلية لالا باشا .

طرغدلو Turgutlu ، قضاء ساروهان ، يحتوي على 1 500 دار ، 5 جوامع ، 16 مسجدا ، 11 حماما ، 3 خانات .

نيف Nif ، قضاء ساروهان . يحتوي على 1 200 دار ، 9 جوامع ومساجد ، حمامين ، قضاء نيف وهو نهاية لواء ساروهان غربا ، ويبدأ في الغرب لواء صيغلا (أزمير) التابع لإيالة البحر الأبيض .

مغنيسا Magnisa (مانيسا Manisa) ، مركز لواء ساروهان . كان هذا اللواء في السابق خاصا بولاة العهد _ الأمراء ، كان ولي العهد يقدم منها إلى أستانبول ويعتلي

العرش . من أهم ألوية الدولة . راتب أمير اللواء 600000 آقجه . تتبع هذا اللواء 500 قرية . يجهز اللواء مايقرب من 4000 تمارلي سباهي . له قلعة محاطه بسور طوله 6000 ذراع . مانيسا ، مدينة عرش ينى ساروهان القديمة فتحت أولا على عهد يلدرم بايزيد من ثم على عهد ابنيه جلبي محمد . مدينة كبيرة بها نحو من 6700 دار . فيها قصور وسرايات كبيرة ، 105 جوامع ومساجد . وعند اعتلاء مراد الثالث الذي تقلد أمور الولاية فيها مدة 9 سنوات العرش في 1586 ، شيّد فيها جامع مراديه ذا المئذنتين ، انفق مبلغ 40000 ليرة ذهب على طلائه الذهبي فقط . زجاجه من البّلور والنجف . أقامت حفصه والده _ سلطان ، أم القانوني مدة طويلة في مانيسا ، عندما كان ابنها يرعى أمور الولاية فيها . جامع « كوجوك والده جامعي » الذي شيّدته والدة الأمير شهنشاه ابن بايزيد الثاني في 1491 ، وجامع زال داماد محمد باشا ، يستحقان الذكر . تحتوي المدينة على 3040 حنفية مياه مبنية ، من بينها حنفيات المياه الموجودة في القصور والبيوت ، 6 من مدارسها تقدم دراسات في المدارس العالية ، المدارس الأخرى متوسطة الدرجة . كان لقسم الطب من المدرسة السلطانية ولطلابها ، مستشفى خاص بالأمراض العقلية « دار الشفاء » قسم حفاظ القرآن الذين أشرف عددهم في المدينة على 3000 ، كانوا من النساء والأطفال . تحتوي المدينة والمناطق القريبة منها على نحو 600 مكتب ويوجد أكثر من 100 خان ، 6 مطابخ للمحتاجين ، نحو 70 تكية . تكيتها المولوية فخمه ، 760 بناية سقوفها مكسوة بالرصاص . إن قبّة حمام حفصة سلطان ، مماثلة لقبب استانبول الكبيرة ، شيّد البناء بالمرمر الأبيض . يلجها ضوء النهار من خلال نحو 300 نافذة ذات زجاج بلوري ونجف . تحتوي على سوقين لبيع التحف الثمينة ، 3360 دكانا ، مقاهيها الفخمة المليئة بالمغنين والمغنيات والفرق الموسيقية الشرقية ، الرقاصين ، المهرجين والشعراء ، مزدحمة بالبشر . جميع الشوارع دون استثناء نظيفة ومرصوفة بالحجر الأبيض . لهجة وأخلاق ومعاملة الشعب ، كالشعب الاستانبولي تماما . يكرم أصحاب الدكاكين عملاءهم بتقديم عصير العنب (شيري) في أقداح خزفية صينية . يرى في جميع الدكاكين داخل المزهريات ، باقات من أجمل أنواع الزهور التي تبدل كل يوم . يعيش حاليا في المدينة 17 شاعرا من أصحاب الدواوين . ولا يعلم عدد الشعراء الذين ليست لهم دواوين إلا الله . الطرق المولوية منتشرة جدا .

الكل محب لمولانا . سراي مانيسا الهمايوني فخم ، أقام فيه العديد من السلاطين عندما كانوا أمراء (شهزداه) . إن ضريح ساروهان بك الذي فتح مانيسا من البيزنط مزار وطني .

برغاما Bergama ، مركز قضاء في لواء بورصة .

كوزل حصار Guzelhisar (آيدن Aydin) ، مركز قضاء في لواء آيدن . مدينة كبيرة . كان يقيم فيها أمير لواء آيدن ، ويقيم الآن بمدينة تيرة . تحتوي على أكثر من 6700 دار ، قصر ، سراي ، 56 جامعا ، ومسجدا ، 18 مدرسة ، 40 مكتبًا ، 9 خانات ، سوق تحف ثمينة ، 600 دكان ، 4 حمامات .

تيرة مركز لواء آيدن الحالي . من أهم ألوية الدولة . تجهز 3500 سباهي . يتسلم أمير اللواء سنويا 000 847 آقجه راتبا و 25000 سكة ذهبية مخصصات . ينقسم اللواء إلى 19 قضاء : تيرة ، فوانا ، بيوك برغاصو ، كوجوك برغاصو ، معدن ، بايندر ، بركي ، سارت ، باليامبولو ، كليس ، كوزل حصار ، كشك ، سلطان حصاري ، نازللي ، آرباز ، آماسيه ، إينه كول ، آلاشهر ، وقف . يتبع اللواء نحو 1000 قرية . تيرة ، مدينة كبيرة . تحتوي على 36 جامعا ، 8 مساجد ، مدارس عديدة ، 60 مكتبًا ، 270 حنفية مياه مبنية وسبيل ، 27 خاناً ، 13 حماما عموميًا أكثرها ذات أحواض ، 8 مطابخ للمحتاجين ، 2800 دكان . يشتغل الجميع بالصناعة والتجارة . تنافس أزمير . ازدحمت فجأة . تحتوي ضاحيتها ، قره قاضي وينيجه على حوالي 5000 دار . ويرى فيها أبنية فخمة ترجع إلى ياوز ، القانوني ، ووزراء العصر 16 .

بايندر Bayindir ، قضاء في آيدن ، من فتوحات يلدرم خان ، يحتوي على 200 دار ، و جامع ، 3 تكايا .

بيركي Birgi ، يتبع قضاء آيدن . انضم إلى إدارة الدولة العثمانية عندما ألحق يلدرم خان إمارة آيدن . يحتوي على نحو 3000 دار ، 24 جامعا ومسجدا . شيّدت نحو من 3000 دار جبلية في هضاب بوزداغ . وهو مصيف بيركي . كان مستوى التعليم في مدرسة بيركي في القرن 16 ، عاليًا . شيّد آيدن أوغلو محمد بك اسكي جامع

قبر سلالة محمد بك موجود في هذا الموقع ، فقد كان مدينة العرش لبني آيدن .

كولشن Gulsen (كوكجن Gokcen) ، قضاء آيدن ، ذو 20 قرية .

باليامبول Balyambolu ، قضاء آيدن ، عبارة عن 300 دار ، 7 قرى .

كشك Kosk ، قضاء آيدن ، يحتوي على 200 دار ، جامع ، ومسجدان .

دندرار . Donduran ، قضاء آيدن ، به 100 .

آن آماسيه Amasya ، **بوزدوغان** Bozdogan ، به 200 دار ، **آربان** Arpan ، **وسلطان حصاري** Sultanhisari ، به 300 دار ، وهذه أيضا 4 مراكز أقضية للواء آيدن .

نازللي Nazilli ، مركز قضاء كبير في ولاية آيدن . يحتوي على قلعة من مخلفات بني آيدن ، محاطة بسور طوله 6000 ذراع ، بها 3170 دارا ، 12 جامعا ، سوق تحف ونحو 2000 دكان . الحقت بإمارة آيدن في 1390 . ونازللي رازاري ، ناحيتها خارج المدينة ، ذات 300 دار ، سوق كبيرة جدا . تحتوي على خانين للعمل و 5 للمسافرين ، ودكاكين لاتحصى ، 300 منها تعمل كل يوم باستمرار .

قويوجاق Kuyucak ، قضاء آيدن . يحتوي على 1200 دار ، و جامع ، و 5 مساجد .

سراي Saray ، قضاء دنيزلي بها 200 دار ، جامع ، مسجدان ؛ ويسمى كذلك سراي قويو وازينه آباد . **هوناز** Honaz ، قضاء دنيزلي ، به 400 دار ، جامع ، مسجد .

دنيزلي Denizli ، وفي الوقت الذى كان فيه مركزا للواء ، ربط نحو 1660 ، بلواء كرميان كقضاء . يحتوي على 3600 دار ، 440 دكانًا ، 20 جامعا ، و 37 مسجدا ، 8 مدارس ، 7 مكاتب ، 11 تكية ، 6 حمامات ، نحو 100 قصر ذي حمام . مدرستان من مدارسها عالية المستوى .

عاشقلر Asiklar ، قضاء دنيزلي ، يحتوي على 450 دارا . **قيزيلجه بوركلو** Kizilcaborklu أو Kizilcaboluk ، قضاء آيدن عبارة عن 150 دارًا ، كانت سابقا تابعة لمنتشه .

تلكلي Telekli ، قضاء منتشه ، يحتوي على 300 دار ، و جامع ، و مسجد .

تاواس Tavas ، قضاء منتشه ، به 350 دارا ، 5 جوامع ومساجد ، 3 مكاتب ، تكيتان ، 6 زوايا (تكية صغيرة) ، يحتوي القضاء على نحو 300 مزرعة كروم

مغله Mugla ، مركز لواء منتشه . ألحقت إمارة منتشه على يد يلدرم خان بدون قتال عام 1390 . من الألوية الكبيرة . راتب أمير اللواء 800 400 آقجه . ويجهز نحو 3000 جندي سباهي . يحتوي على 2170 دارا ، 70 جامعا ومسجدا ، 200 دكان ، حمامين ، 7 مدارس ، 11 مكتباً ، 13 جسرا مشيّدا على مسافات متقاربة ، مطبخين عموميين للمحتاجين . يحتوي قضاؤها المركزي على 11000 مزرعة كروم . يدرس أكثر من 1 000 طالب وطالبة في مدرستها الابتدائية المسماة « شاهدي مكتبي » . المكاتب (المدارس) التي يصل عدد طلابها إلى هذا الرقم قليلة جدا ، وهي مدارس مرغوبة لتطبيقها الأصول التربوية للشيخ شاهدي . كل شعبها أتراك مشهورون بالرغبة في تلقي العلم ، وكثير منهم يذهب إلى إستانبول لإكمال تحصيله العالي .

أولا Ula ، قضاء منتشه ، به 2000 دار ، 19 جامعا ومسجدا ، مدرستان ، تكيتان ، حمامان ، 300 دكان . تقع كوك آباد على مسافة 3 ساعات وهي رصيف بحري لـ « أولا » .

يركسيغى Yerkesigi ، قضاء منتشه ، وبه 150 دارا و جامع .

بوزويوك Bozoyuk ، قضاء منتشه ، عبارة عن 150 دارا ، و جامع ، نصب سليمان خان ، في حملة رودس الهمايونية عام 1521 ، سرادقه الهمايوني في هذا الموقع ، واستقبل كل شعب منتشه وتحدث إليهم مجتمعين . تقلد الأمراء منصب الولاية في منتشه .

اسكى حصار قضاء منتشه ، به 280 دارا ، وجامعان .

ميلاس Milas ، قضاء منتشه ، به 1000 دار ، 3 جوامع ، مسجدان ، حمامان ، خانان ، 50 دكانا ، ومدرسة ، يتبع القضاء 75 قرية . كانت في السابق مدينة مهمة ويقال إنها كانت مقرا لبني منتشه . فتح بنو منتشه لواء منتشه من البيزنط . الجوامع الثلاثة الموجودة من بناء بني منتشه . وأصبحت **بجين** كذلك مركزا لإمارة

منتشه ، وحاليا هي ناحية ميلاس ، بها 120 دارا . توجد كلية عظيمة لمنتشه اوغلو غازي أحمد بك . **كمر** Kemer مركز قضاء في اللواء ذاته ذو 100 دار .

بودرم Bodrum قضاء في منتشه ، قلعة وميناء مقابل جزيرة استانكوي . كانت سابقًا لدى العثمانية ظلت عصرا واحدا لدى فرسان رودس استعيدت عام 1522 . آخر موقع تم الإستيلاء عليه من المسيحيين في الأناضول كلها . قلعته التي بها جامع سليمان خان ، الحقت بقضاء استانكوي البحري التابع للواء رودس العائد لإيالة البحر الأبيض ، وبقيت الضواحي في لواء منتشه ؛ ولذا فإن قاضي بودرم يقيم في كمر . كان الأسطول البندقي قد حاصر قبل عدة سنوان في حرب كريت 17 سفينة حربية عثمانية كانت راسية في ميناء بودروم التابعة لإمارة الجزائر ، وتبودل القصف المدفعي الشديد ، فانسحب البنادقة الذين لم يتمكنوا من الصمود تجاه نيران ملفعية الأسطول العثماني وقلعة بودرم ، بعد أن غرقت سفينتان من سفنهم وعادوا أدراجهم . لم تصب أية سفينة من السفن العثمانية ، غير أن أحد قوادها استشهد . انتشلت إحدى السفن الغارقة مع من فيها من البحر .

كليسه لي kiliseli ، قضاء منتشه ذو 47 قرية ويطلق عليها كذلك اسم Penice ، Zarahiye ، وبخاصة داتجه Datca .

كره مه Gereme قضاء منتشه ذو 47 قريه . **كوك أوفا** Gokova ، قضاء آخر ذو 70 قرية .

مرمريس Marmaris ، قلعة وميناء في قضاء منتشه . قلعتها من بناء سليمان خان وكل الأعمال الخيرية الأخرى الموجودة في القصبة أقامتها والدته حفصه سلطان .

مكري Mekri ، قضاء منتشه ، به 50 دارا و جامع و 70 قرية . **آغير دوس** Agirdos قضاء منتشه به 100 دار .

فينيكه Finike ، مركز قضاء في لواء تكه ، قلعة وميناء ، بها 300 دار .

أكيردر Egirdir ، قضاء في ذات اللواء ، يقع في شرق فينيكه ، وهو ليس Egirdir الكائن في أسبارطه .

إلمالي Elmali ، قضاء في اللواء ذاته . يسكن فيه حاليا أمير لواء تكة بدلا من أنطالية . راتبه 000 328 آقجه ، تكة ، إمارة أخذها يلدرم خان من بني تكه عام 1391 بدون قتال . يقسم اللواء إلى 10 أقضية : المالي ، قاش ، قالقانلي ، فينيكه ، أكيردر ، آدريسان ، إنطاليه ، إيستانوس ، قيزيلقايا ، تكه قره حصارى . كانت قاش وقالقانلي ، قديما تابعة إلى منتشه . تحتوي المالي على نحو 900 8 دار بسيطة ، 32 جامعا ، ومسجدا ، 4 مدارس ، 77 مكتبًا ، 7 حمامات ، مطبخ عمومى ، 3 خانات ، نحو 300 دكان .

استانوس Istanos (قورقوداپلي Korkuteli) ، قضاء تكة ومدينة العرش القديمة لبني تكة . تقلد منصب الولاية في تكه بعض الأمراء (شهزاده) من أولاد السلاطين . الكليّة مع الجامع الكبير من بناء السلطان علاء الدين كيكياد ، أصلحه قويوجو مراد باشا . كل السكان موزعون في الجبال على أطراف استانبوس ، ويوجد ما يقرب من 200 مسجد .

إسبارطه Isparta أو حميد آباد ، مركز لواء حميد . راتب أمير اللواء 000 200 آقجه . يجهز اللواء 400 5 جندي . يتسلم أمير اللواء مخصصات قدرها 15000 ليرة ذهبًا . كانت مدينة العرش لبني حميد ألحقت بالعثمانية على عهد مراد الأول . جامع فردوس بك ، من بناء سنان .

آداله أو **أنطاليه** Antalya ، ألحقت بالعثمانية في عام 1391 ، ميناء وقلعة فى أقصى شمال خليج أنطاليه . مركز لواء أنطالية ، لكن أمير اللواء يسكن حاليا في المالي . أنتقلت قلعتها المحاطة بسور طوله 400 4 ذراع من البيزنطيين إلى السلاجقة . لم يقم العثمانيون بإصلاحات فى القلعة . تحتوي القلعة على 80 برجا . تبلغ إيرادت الخزينة السنوية من جمرك أنطاليه 7 ملايين آقجه . المرور البحري في طريق انطاليه – إسكندرية كثيف . لها 24 محله للأتراك ، 190 دارا للروم (الروم في إيطاليا لايجيدون التكلم بالرومية ، ويتكلمون التركية باللهجة القره مانية ، يحتوي على 11 جامعا ومساجد كثيرة جدا ، 9 مدارس ، 17 مكتبًا ، 7 تكايا ، 11 قصرا ذي حمام ، خانات كثيرة جدا ، نحو 500 دكان وأكثر من 200 حنفية مياه مبنية ، بها خان ديزدار جعفر آغا ، وهو في الحقيقة

منزل مسافرين ذو 600 غرفة . تكيتها المولوية كبيرة جدا . تحتوي على 8 حمامات عامة ، جامع علاء الدين كيكباد ، اسكي جامع ، 3 مدارس وبعض الأبنية الأخرى من مخلفات السلجوقيين . شيّد السلطان قورقود خان ، يني جامع عندما كان واليا عليها المنطقة مليئة بكثافة بأشجار التين ، والزيتون ، و قصب السكر ، و الرمان ، و السرو و الليمون والبرتقال .

تكه حصاري Teke Hisari ، مركز قضاء لولاية تكة ذو 70 قرية . **فتحها** السلاجقة من البيزنط كأنطاليا .

17 - أناضول الوسطى .

يحتوي قطاع أناضول الوسطى على إيالات ؛ روم (سيواس) ، قره مان (قونية) ، دلقادر (ماراش) و رمضان (أدنه) . يحدها شمالا البحر الأسود ، وجنوبا البحر الأبيض . وتغطي إيالة أناضولي الغرب تماما ، أما شرقا - من الشمال إلى الجنوب - فتوجد إيالات طرابزون ، أرضروم ، دياربكر . وبينما فتح السلاجقة وأمراء الحدود التابعون لهم والعثمانيون الأناضول الغربية ؛ فإن كامل أناضول الوسطى فتحت على يد السلاجقة أو قبلهم .

أسس فاتح ، إيالة قره مان ذات الستة ألوية (المركز قونيه ، قيصري ، ايجل (سلفكه) ، نيغده ، آقسراي ، بكشهري) . أسس ياوز إيالة دلقادر ، ذات 6 ألوية (المركز ماراش ، البستان ، عينتاب ، عُزير (بضم الحرف الأول) ، طرسوس ، أدنه) . كوّنت إيالة أدنة في العصر 17 وتقلّصت حدود إيالة دلقادر . ألغى القانوني إيالة أرزنجان التي أسسها والده ياوز وكون إيالة أرضروم بعد أخذه لواء من إيالة روم أيضا . إيالة روم (إيالت روميه ، صغري) التي تكونت في نهاية العصر 14 ، عبارة عن 8 ألوية (المركز سيواس ، آماسيا ، جورم ، جانيك (صصون) ، توقاط ، مالاطيه . ديوريكي ، كركر) (أصبحت كرر بعد ذلك كاهيا **Kahya** ومن ثم حصن منصور = لواء آدي يامان . نقل مركز هذه الإيالة في 1520 ، من توقاط إلى سيواس . فقدت أناضول الوسطى أهميتها في العهد العثماني بالنسبة إلى ماكانت عليه في عهد

السلجوقيين ، وبذلك فقدت رفاهيتها كذلك ، إذ إن أناضول الوسطى كانت نواة السلجوقيين . أما نواة العثمانيين فقد كانت أناضول الغربية وروملي . ازدهرت آماسيا كمركز ثقافي عثماني مهم جدا وبخاصة في القرن 15 . تقلد فيها منصب الولاية 7 شهزادات (أمراء من أبناء السلاطين) خلال الفترة 1393 _ 1559 والذين اعتلوا العرش من بين هؤلاء هم جلبي محمد الأول (والي في 1393 – 1403) ، مراد الثاني (والي في 1417 – 1421) ، فاتح (1437 – 1438) ، بايزيد الثاني (1457 – 1481) . الاثنان الأخيران هما ابنا القانوني أولو شهزاده مصطفى (1541 – 1549) وشهزاده بايزيد (1558 –1559) . ولد في آماسيا كل من مراد الثاني في 1404 وياوز سلطان سليم في 1470 .

أنقل فيما يلي عن أولياء جلبي بعض الملاحظات عن الأناضول الوسطى في أواسط القرن 17 :

بافره Bafra ، مركز قضاء في لواء جانك (سمسون) التابع لإيالة روم (سيواس) ، له جامعان .

سمسون Samsun ، مركز لواء جانك في إيالة سيواس . من فتوحات يلدرم خان . يقع على الساحل لكن ليس له مرفأ . له قلعة .

انيه Unye ، قضاء جانك . ناحيته فاجا (**فطسه** Fatsa) بها 300 دار . **فونا** (أوردو Ordu) قضاء جانك . ان كركواز Kerkevaz ذو 60 قرية ؛ **وعثمانجك** Osmaneik به 7 جوامع ومساجد و 10 خانات وهما قضاءان للواء جورم التابع لإيالة سيواس .

آماسيا Amasya ، مركز لواء في إيالة سيواس . راتب ومخصصات أمير لوائها السنوية 000 200 آقجه + 35000 ليرة ذهبية . تقسم إلى 12 قضاء : آماسيا ، وزير كوبروسي ، سمره ، زيتون ، كوموش ، بولاق ، مرزفون ، كركواز ، لادك ، فراى ، سنون آباد والوان جلبي . يحيط بالقلعة سور طوله 9000 ذراع . في آماسيا جامع يلدرم خان ، 48 محلة تركية و 5 أرمنيه وروميه ، وبها 56000 دار قصر

وسراي ، 2 سراي همايوني ، 240 جامعا ومسجدا ، 11 مدرسة ، نحو 200 مكتب ، 9 دور للقراء (الحفاظ) ، 40 تكية ، 5 كروانسراي ، 10 مطابخ عمومية ، 6 حمامات ؛ 3 منها مزدوجة (للنساء والرجال) ، سوق تحف ، 1060 دكانا ، 5 منازل مسافرين ، وخانات كثيرة جدا . أقام السلطان سليمان مدة من الزمن في آماسيا ، خلال سلطنته ، ومن آثاره العظيمة في آماسيا كلية بايزيد خان التي اكتملت في 1488 ، جامعه ذو المأذنتين والبالغ مساحته 100 × 100 ذراع ، مدرسته التي تقدّم التحصيل العالي ، مطبخه العام وأقسامه الأخرى أثر عظيم ، تكيته المولوية .

نيكسار Niksar ، قضاء في اللواء المركزي التابع لسيواس ، له 12 ناحية ، 3000 دار ، 500 دكان ، 9 جوامع ، 51 مسجدا . فيها جامع دانشمند أوغلوا مليك غازي ، وهو من بدائع الأسلوب القديم .

لادك Ladik ، قضاء آماسيا بها 3020 دارا ، 3 جوامع سلطانية ، 3 جوامع و 41 مسجدا ، 7 تكايا ، 7 خانات ، 6 مدارس ، 19 مكتباً ، مطبخان للمحتاجين ، وبها نحو 40 قصرا ، و400 دكان . بها جامع سلطان أحمد ، وهو من الأعمال الخيرية لابن بايزيد الثاني الكبير .

مرزفون Merzifon ، قضاء آماسيا ، وبها 4000 دار ، 74 جامعا ومسجدا ، عدة مدارس ، نحو 70 مكتبا ، 7 تكايا . قلعتها من أعمال دانشمندلي ، وبها جامع مراد الثاني ومدرسته .

كوبري Kopru ، وتذكر كذلك باسم وزير كوبروسي ، بسبب أن كبرولو محمد باشا بدأ بإعمارها اعتبارا من عام 1660 تقريبا . قضاء آماسيا ، تتبعها 140 قرية ، وبفضل كوبرولو ، ازدادت إلى 6000 دار . شيد فيها 11 جامعا ، 11 خانا ، ومطبخين للمحتاجين ، 48 مكتبا ، نحو 1000 دكان ، و مساجد وتكايا عديدة .

زيتون Zeytin ، قضاء آماسيا ، بها 2000 دار . و **كوموش** Gumus ، قضاء آماسيا ، بها 1000 دار ، 11 جامعا ومسجدا . **وعلى مقربة من شمالها الشرقي ، كوموش** حاجي كوي ، التي **تستخرج منها الفضة ، من 7 عروق جوفية ومن 70 موقعا .**

جورم Gorum ، مركز لواء في إيالة سيواس . يقبض أمير اللواء راتبا قدره 300 000 آقجه . يحتوي على 42 جامعا ، 300 4 دار ، 40 قصرا ذي حمام ، 7 مدارس ، 11 مكتبًا ، 7 خانات ، 3 تكايا ، 18 حنفية مياه مبنية ، 300 دكان . والحقيقة أن جامع السلطان علاء الدين كيكباد ، هو الجامع الذي قام سليمان خان بإصلاحه ، وكلّف سنان بإعادة إنشائه بصورة كلية . يوجد في جورم جامع وكليّة مراد الرابع .

ألوان جلبي Elvangelebi ، قضاء آماسيا ، به 200 دار .

آقشهر Aksehir ، مركز لواء في إيالة قرة مان . يتقاضى أمير اللواء سنويا 190 500 + 000 800 آقجه راتبا ومخصصات . يرابط فيه 1300 جندي . في هذه المدينة قبر نصر الدين خواجا الذي طبقت شهرته أرجاء العالم .

إيلغن Iligin ، قضاء آقشهر . يحتوي على كروانسراي مصطفى باشا وعين المياه الحارة لعلاء الدين كيكباد . مات فهيم (1627 –1648) – من أكبر الشعراء – في 21 من عمره أثناء عودته من واجبه كمستشار (ديوان افنديسي) لوالي (بكلربك) مصر ودفن أمام محراب الجامع . كان صديقا مقربا لي .

قونيه Konya ، مركز إيالة قرة مان والعاصمة القديمة للسلاجقة وبني قرة مان . كثير من الأمراء (أبناء السلاطين) تقلدوا منصب الولاية في هذه المدينة . أشرفت قلعة قليج أرسلان على السقوط حاليا لعدم استعمالها . راتب الوالي 070 660 آقجه . يرابط في الإيالة 12000 جندي . يحدها من الغرب والشمال إيالة أناضولي ، ومن شمالها – الشرقي سيواس ، وشرقا ماراش ، وجنوبا إيالة أدنة ، ليس لها منفذ إلى البحر ، وهي حاليا 7 ألوية : قونيه ، آقشهر ، بيشهري ، نيغده ، اقسراي ، قيصري ، قير شهري . تقع المدينة في شرق مزارع كروم مرام . تحتوي القلعة على جامع علاء الدين كيكباد ، وجامع سليمان خان ذي المنارتين . أما الجوامع والمساجد والمدارس فإنها كثيرة تحتوي على نحو 170 مكتبًا ، وما يقرب من 40 تكية ، 11 مطبخا للمحتاجين ، 11 دارا للقراء (الحفاظ) ، 3 دور الحديث ونحو 340 قصرا وسراي ، 26 خانا للمسافرين ، وعدد كبير من الخانات التجارية ومنازل المسافرين . سوق خف ، 900 دكان ، عدد كبير من حنفيات المياه المبنية ، 700 2 بئر ، ويوجد في قضائها

المركزي نحو 9000 مزرعة كروم وحديقة . آلاف من البيوت ، المساجد ، الخانات ، الحمامات منتشرة في مزارع كروم « مرام » . يصعب المرور بسبب كثرة أشجار الفواكه ، لدرجة أن شعب مو . يضل فيها . تكية مولانا من أكبر أماكن الزيارة في الدولة العثمانية . يقيم عندها شيخ الطريقة المولوية الكبير المسمى « جلبي » ويكون عادة من سلالة مولانا جلال الدين الرومي ، ولا يمكن لأي شخص أن يصبح شيخا لأية تكية مولوية ما لم يحصل على إذنه . مما زاد في اعتبار هذه الطريقة ، كونها الطريقة الأكثر انتشارا لدى بني عثمان وكون كامل السلاطين تقريبا محبين للمولوية ، وزيارة الخاقانات السلجوقيين والعثمانيين لمرقده وإعلانهم خضوعهم له . صرف السلطان سليمان أثناء ذهابه إلى حملة بغداد ، 8 ملايين آقجة (380 مليون دولار) وجدّد التكية الحالية مع الجوامع بصورة كلّية ، وزين جميع أطرافها بالفضة والذهب والأحجار الكريمة . تعادل منزلة الجلبي في التشريفات العثمانية ، الوزراء ، ومع ذلك ، فإن وزراء وقضاة عسكر كثيرون ، يقبلون يد الجلبي . لا يرد والي قونيه أي رجاء للجلبي . يتولى الخدمة في التكية نحو 1000 درويش ، 300 منهم سماعزن (الراقصون بشكل خاص) . جامع سلطان سليم ذو المنارتين الذي يجاوره ، يتبع التكية . يوجد قبر الشيخ صدر الدين قنوي ، وهو ربيب الشيخ الأكبر محيي الدين العربي من زوجته ، بالقرب من التكيه . أكثر سلاطين السلاجقة في قونيه دفنوا في جامع علاء الدين . جامع سليمان الموجود في السوق من بناء المعمار سنان .

أركلي Eregli أو قونيه إركليسي ، أو قره مان إركليسى ، قضاء في لواء قونيه المركزي . فيه جامع صوقوللو محمد باشا ومنزل مسافرين رستم باشا ، وهما من أعمال المهندس المعمار سنان .

أولو قشلاق Uiukislak ، قضاء نيغده . يحتوي على كلية (مجمّع أبنية ومرافق) محمد أوكوز باشا ، ويحتوي على منزل مسافرين به 170 غرفة ، حوض اسطبلات للجمال والخيل ويوجد بها كذلك سوق وقف يحتوي على 300 دكان مبني بالحجر .

تنتهي إيالة قره مان في بوغاز **كولك** Kulek ، وتبدأ إيالة أدنة . توجد في البوغاز الموجود على جبال طوروس ، قلعة وجامع فاتح .

باياس Payas أو ياقاجك Yakacik ، مركز قضاء في لواء أدنة المركزي ، ميناء وقلعة . ويحتوي على كلّية صوقوللو وكروانسراي صوقوللو العظيم ، يحتوي على 1 150 دارا .

اسكندرون ، ميناء وقضاء في لواء حلب المركزي . إيرادات جمرك حلب السنوية تبلغ 7 ملايين آقجه . ترده وترسو فيه سنويا 200 سفينة عثمانية وأوروبية . وفيه نواب قناصل لـ 7 دول أوروبيه ويقيم القناصل فى حلب .

بلن Belen ، قضاء في لواء حلب المركزي ، به 700 دار .

مرج دابق (بالعربية مرج الدابق ، بالتركية دابق جايري) ، قضاء اللواء المركزي لحلب ، به 150 دارا . هو الموقع الذي هزم فيه السلطان ياوز سليم المماليك وقتل سلطانهم وأسر الخليفة .

أنطاكية ، قضاء في لواء حلب المركزي ، كانت سابقا مدينة كبيرة . قل عدد سكانها عند ازدهار حلب . وضع على قلعتها لغرض الزينة ، 20 مدفعا قديما . طول السور 48000 ذراع ، ويشير ذلك إلى وفرة عدد سكانها فى السابق .

(أسوار إستانبول تبلغ 87 000 ذراع . أسوار بغداد 51 000 ذراع . أسوار القاهرة ، شام ، حلب ، كفة وسلانيك أقصر من أسوار أنطاكية) . الحقيقة أن هذه المدن قد فاضت إلى خارج الأسوار تماما ، لكن ذلك يعطي لنا فكرة عن نواة هذه المدن . ترتفع الأسوار حتى 80 ذراعا . آخر من قام بإصلاحها المماليك ، أما العثمانيون فقد تركوا القلعة والأسوار على ماهي عليه ، إذ إنها صارت وسط الدولة العثمانية تماما وفي حماية من التعرضات الأوروبية . تحتوي المدينة على 8 سراي ، 10 مدارس ، نحو 40 مكتبًا ، 9 خانات مسافرين ، وكثير من خانات العمل والجوامع والمساجد ، وسوق فيه 300 دكان .

قيصرية (قيصري Kayseri) ، مركز لواء في إيالة قره مان . تناقص عدد سكانها عما كان عليه في عهد السلاجقة يجهز اللواء 5000 جندي . يحتوي على 1 600 دار وقصر ، و17 جامعا ، ومساجد كثيرة جدا ، و تكية مولوية عظيمة و تكايا أخرى ،

وسوقين لبيع التحف الثمينة ومنشآت خيرية أخرى كثيرة . يلاحظ أن آثار السلاجقة أكثر ؛ أولو جامع أثر سلجوقي . جوامع لالا باشا ، عثمان باشا ، حاجي باشا من بناء سنان . نشأ المعمار سنان فى إحدى قرى قيصري . لا يجيد الروم الموجودون فى المدينة التكلم باللغة الرومية ، ويتكلمون التركيه ومازالت بعض مدارسها تدّرس العلوم العالية

بور Bor أو بوربازاري Borpazari ، قضاء نيغده ، يحتوي على 7 جوامع ، 46 مسجدا ، 7 مدارس ، نحو 40 مكتبا ، 4 تكايا ، 12 منزلا للمسافرين ، سوق تحف به جامع علاء الدين كيكباد القديم وكلية صوقوللو .

اورطة كوي Ortakoy ، قضاء اقسراي يتبعه 36 قرية . اقسراي Aksoray ، مركز لواء في إيالة قره مان . به 23 محلة ، 5 جوامع ، 98 مسجدا . به جامع قره مان أوغلو إبراهيم بك ومدرسته ، وهما أثران جميلان .

البستان Elbistan ، قضاء اللواء المركزي لماراش ، مركز لواء سابق . آجتي ، قضاء ماراش ، به 1000 دار . **كورون** Gurun ، قضاء فى لواء سيواس المركزي ، وبه 1000 دار . **دارنده** Darende ، مركز قضاء في لواء سيواس المركزي ، به 1000 دار ، 7 جوامع ، ومساجد . **أولاش** Ulas ، قضاء فى اللواء ذاته ، به 500 دار .

سيواس Sivas ، اسمه الأصلي إيالت رومية صغرى (الإيالة الرومية الصغرى) ويسمى كذلك (إيالة أناضولي الصغرى وهو مركز الإيالة التي تسمى أيضا إيالة روم وإيالة سيواس . كانت مدينة توقاط مركز هذه الإيالة قبل عام 1520 ، يجهز اللواء المركزي 3133 جنديا سباهيا من مجموع الـ 000 10 سباهي الموجودين فى الإيالة . راتب الوالي (بكلربك) 000 900 آقجه . تنقسم الإيالة إلى 8 ألوية : سيواس ، توقاط ، آماسيا ، جورم ، بوزاوق (يوزغات) ، ديفريكي ، جانيك (سمسون) وعربكير . وبهذا تصل حدودها شمالا إلى البحر الأسود . يحدها غربا إيالة أناضولي ، شرقا إيالة أرضروم ، من الجنوب الغربي إيالة قره مان ، ومن الجنوب الشرقي إيالة ماراش ودياربكر . هدم تيمور قلعتها في 1400 ، ولانتفاء الحاجة إليها تركت بعد ذلك على وضعها . شيّد جلبي سلطان محمد الذي تقلد الولاية فيها القلعة الداخلية . يشاهد في القلعة نحو 40 مدفعا قديما . تحتوي سيواس على 38 محلة للأتراك ، ومحلة

واحدة لكل من الروم والأرمن . بها 4600 دار وقصر ، عدد كبير جدا من المساجد ، المدارس ، نحو 140 مكتبًا ، 11 تكية ، 18 خانا ، و7 حمامات عامة كلها مزدوجة (للنساء والرجال) ، 18 قصرا يحتوي على حمام ، سوق كبير لبيع التحف فيه 1000 دكان . لم يبق ذلك الازدهار الذي كانت عليه سيواس في عهد السلاجقة . شيّد أولو جامع الذي تبلغ مساحته 200 × 200 ذراع ، شيّد السلطان قيليج - أرسلان الثاني ، كما شيّد قيزيل مدرسة في عام 1171 ، بها 80 غرفة في 7 طوابق وهي من بدائع الفن العماري السلجوقي . اشترط في وقفيته ، تقديم أنواع الطعام لطلاب المدرسة العالية على دفعتين وداخل 8 صحون فغفورية (خزف صيني) . ليس بالإمكان حاليا تحقيق ذلك الشرط . تكية عبد الوهاب غازي ، وقبر شيخ قره شمسي أفندي أماكن زيارات كبرى فى سيواس .

ديفريكي Divrigi (ديفريك Divrik) ، مركز لواء في إيالة سيواس . يحتوي اللواء على 2000 جندي ، 46 محلة . شيّد أولو جامع علاء الدين كيكباد وهو بمثابة القانوني بالنسبة لبني سلجوق . شُغل مرمره بالنقوش وُخرّم كما يخرّم القماش . ترك بعدها العثمانيون هذا النوع الدقيق من الزينة واعتبروه فنا عماريا مؤنثا .

أكين Egin (كالية) ، قضاء ديفريكي الذي تبدأ شرقه إيالة ارضروم . به نحو 1000 دار .

عربكير Arabgir ، مركز لواء فى إيالة سيواس يحتوي على 2000 جندي . الفرات الغربي ، يفصل بين لواء عربكير التابع لإيالة سيواس ولواء جميشكزك التابع لإيالة دياربكر . أما فى الجنوب فيبدأ لواء ملاطية التابع لإيالة مراش .

آريكوفا Arikova (آرتوفا Artova) ، قضاء في لواء سيواس المركزي ذو 7 نواح .

بوزوك (يوزغات Yozgat) ، لواء فى إيالة سيواس يتقاضى أمير اللواء سنويا 300275 آقجه راتبا ، و 5500 ليرة ذهبًا مخصصات . يرابط فيه 1100 جندي سباهي ، لا يوجد في اللواء مكان آهل يمكن أن يقال عنه أنه مدينة . يقيم أمير اللواء في القصبة التي يرغب أن يقيم فيها ، يفصل نهر دليجه Delice ، لواء بوزوك عن ألوية أنقرة وقير شهري ، وفى الشمال - الغربي ، يقع لواء جوروم . يقسم اللواء إلى 9 أقضية : صورغن ، آقداغ ، حسين أوفا ،

بوداك أوزو ، قيزيل كوجالي ، بشكوزو ، كدك ، جبك ، قازاوفاسي صونغور ايجي (صونغورلو) ، ناحية قضاء حسين أوفا .

زله Zile ، قضاء توقاط التابع لإيالة سيواس ، كان فى السابق تابعا للواء سيواس المركزي . يحتوي على 3000 دار ، 12 جامعا ، 24 مسجدا ، 7 مدارس ، 12 مكتبًا ، 3 حمامات مزدوجة ، 20 قصرا ذي حمام ، 4 خانات ، 800 دكان ، وسوق تحف .

إسكيلب Iskilip ، قضاء جوروم ، يحتوي على نحو 40 مكتبًا .

ملاطية Malataya ، مركز أحد الألوية الكبيرة التابعة لإيالة لقادر (ماراش) راتب أمير اللواء 500 000 آقجه . يحتوي اللواء على نحو 2000 جندي ، محيط القلعة 100 5 ذراع . تحتوي محلاتها البالغة 25 محلة للمسلمين و 7 للأرمن ، على 565 5 دارا ، 11 سراي ، 12 جامعا ، 20 مسجدا ، 7 حمامات ، نحو 200 قصر ذي حمام ، 7 كنائس أرمنية . ويشاهد على بعد 5 أميال نحو الجنوب جسر سلطان حسن ذو الـ 40 قنطرة . كلية الوزير الثاني لمراد الرابع صاحب مصطفى باشا وبخاصة محطة إستراحة المسافرين ذات 170 غرفة التي شيّدها هو كذلك ، عظيمة . يحتوي مركز القضاء على 7800 مزرعة كروم و 600 بستان . استولى يلدرم خان على ملاطية في البداية ، من المماليك ، انتقلت ثانية إلى المماليك فى 1402 ، وفي 1516 ضمها ياوز إلى الدولة العثمانية .

توقاط Tokat ، مركز لواء فى إيالة سيواس وهو مركز الإيالة قبل 1520 . يُهبط من قلعتها البالغ محيطها 6000 خطوة إلى نهر يشيل إيرمق بواسطة سلّم مكون من 62 درجة . هناك جامع ملك غازي الذي انتقل من الدانشمنديين وأصلحه يلدرم ، خان وتوجد 10 جوامع آخر ومساجد كثيرة جدا . ومن الآثار الدانشمنديه العظيمة مدارس كوك مدرسة ، خاتوّنية وأولو جامع . مازالت المدارس تدّرس بعض العلوم العالية . أكبر تكية بين تكاياها العديدة تكية مولويخانة . توجد مئات من حنفيات المياه المبنية والأسبلة . و 1045 سراي وقصرا يحتوي على حمام خاص . وكذلك 11 حماما عاما ، كنيسة رومية وأخرى أرمنية . ومحطات استراحة للمسافرين تستحق الذكر أيضا .

ماناوغات Manavagat ، مركز قضاء في لواء علائية ، به 75 دارا ، جامع . له 40 قرية .

علائية Alaiye (آلانيا Alanya) ، مركز لواء إيالة آدنة الكائن في أقصى غربها ، سمي بهذا الاسم لفتحه من البيزنط على يد علاء الدين كيكباد . وضعت تحت تصرف أمير اللواء البحري الذي يتسلم سنويا راتبا قدره 000 250 آقجه ومخصصات قدرها 15000 ليرة ذهبا ، سفينتان حربيتان و 3000 جندي سباهي . يستوعب الميناء 2000 سفينة . **قلعته** على رابية مرتفعة جدا ومهيبة .. أعاد السلجوقيون بناءها . تحتوي على 83 برجا ، و 4000 حائط . له 5 أقضية (علائية ، ماناوغات ، آق سكي ، دوشنبه ، ايبرادي) و 26 ناحية . قصبة كبيرة تحتوي على 100 1 دار ، 16 جامعا ومسجدا ، مدرستين ، 6 مكاتب ، 3 خانات ، حمام ، 150 دكانًا .

سلينتي Selinti (غازي باشا Gazipasa) ، قضاء صغير في لواء سلفكه (بكسر الحرفين الأول والثاني) ذو 26 قرية .

معمورية Mamuriyye (آنامور Anamur) قضاء سلفكه تتبعه 30 قرية وأقرب رصيف بحري أناضولي إلى قبرص . تسير سفن كثيرة بين قبرص وآنامور . **كونلر** Cunler (كولنار Culnar) ، قضاء سلفكه ذو 37 قرية و 200 دار .

أرمنك Ermenek ، مركز أحد الأقضية الكبيرة في لواء سلفكه (إيجل Icel) . له ناحيتان ، 70 قرية ، 800 دار ، 4 جوامع ، مساجد عديدة ، 3 مدارس ، 6 مكاتب ، 3 خانات ، حمامان ، 17 حنفية مياه مبنية ، تكيتان وتكية مولوية واحدة . كانت قديما تابعة لإيالة قره مان . من مراكز بني قره مان القديمة .

كافرآباد ، قضاء فى لواء قونيه المركزي ، يحتوي على قلعة ذات 30 برجا ، و جامعين ، 8 مساجد ، 3 مدارس .

لارنده Larende (قره مان karaman) أحد الأقضية الكبيرة للواء قونيه المركزي . أحد مدن عرش بني قره مان ، إلا أن العثمانيين عند انتقال إمارة قره مان إليهم لم يسكنوها و سكنوا المدينة الكبيرة قونيه . تحتوي على قلعة يحيط بها سور طوله 000 7 ذراع ، 126 7 دارا ، 10

جوامع و 43 مسجدا ، 8 مدارس ، و مطبخين للمحتاجين ، نحو 70 سراي وقصرًا ذا حمام ، 23 حنفية مياه مبنية ، 470 دكانًا وأبنية أخرى مماثلة .

موت Mut ، مركز قضاء في لواء إيجل (سلفكه) ، به 157 دارا ، و جامعا و مسجدا . يحتوي على منزل استراحة للمسافرين (كروانسراي قره مان أوغلو إبراهيم بك) ذو 200 غرفة ذات مواقد .

زين شريف Zeyn Sherif ، قضاء فى اللواء ذاته ، به أكثر من 200 دار .

سلفكه Silifke أو سَلَفكه (بفتح الحرفين الأول والثاني) Selefke ، مركز لواء Icel في إيالة أدنة . قريب إلى البحر الأبيض . كان اللواءان البحريان علائية وسلفكه تابعين لإيالة قبرص ، وعندما أصبحت أدنة إيالة ضما إلى إيالة أدنة ؛ وارتبطت قبرص بإيالة البحر الأبيض كلواء . يتسلم أمير اللواء سنويا 000 470 آقجه + 000 10 ليرة ذهبا . يرابط فيه 700 1 جندي . يحتوي على قلعة ذات 23 برجا ، بايزيد ، جامع علاء الدين كيكباد ، وجامعين آخرين ومساجد عديدة .

مرسين أوغلو أو مرسين Mersin ، قرية تركانية مكونة من 70 دارا ، تابعة لقضاء قره طاش التابع لولاية سلفكه (مدينة مرسين الحالية) .

طرسوس Tarsus ، مركز لواء في إيالة أدنة . يتقاضى أمير اللواء راتبا قدره 235 260 آقجه ، يرابط فيه 200 2 جندي . يتكون من 5 أقضية : شرقا طرسوس ، كاسون ، شمالا أولاش ، وغربا كوكجه لي وفي أقصى الغرب الوانلر (الوانلي) . ويحتوي على قلعة ، 15 جامعا ، ومسجدا ، 6 مدارس ، 7 مكاتب ، حمامين ، سوق تحف ، به 80 دكانًا ، وسوق به 317 دكانا .

أدنة Adana ، مركز إيالة رمضان أو أدنة . كانت سابقا لواء لإيالة حلب . تكّونت إيالة أدنة بأخذ لواءي (علائية وسلفكه) من إيالة قبرص ولواءي أدنة وطرسوس من إيالة حلب ،ولواء سيس (قوزان) من إيالة مرعش (دلقادر) . كان بنو رمضان حتى عهد ياوز ، يحكمون لواء ادنه تحت إشراف المماليك ، ولما أعلن هؤلاء الأمراء التركمان خضوعهم لياوز ، فإنهم بالإضافة إلى إبقائهم قرابة عصر كامل ، إلى بداية العصر 17 ،

كأمراء لواء على أدنة ، فإن كثيرين منهم أصبحوا ولاة (بكلربك) وأمراء (بك) على العديد من الإيالات والألوية العثمانية . تعتبر أدنة من الإيالات الكبيرة . يتقاضى الوالي سنويا 000 1095 آقجه + 15000 ليرة ذهبا . يجهز 3000 جندي سباهي ، وعدا ذلك فإن للوالي 200 من جنود المعية . تحد الإيالة الإيالات التالية ؛ غربا أناضولي ، شمالا قره مان ، شرقا دلقادر ، وجنوبا نحو الشرق إيالة حلب . جنوبا البحر الأبيض وشمالا جبال طوروس . لواء أدنة المركزي يشمل السهل المسمى جوقواوفا وينقسم إلى 11 قضاء : أدنة ، نور ، برندي ، ميسيس ، قورد قولاغي ، قينق ، صاريجام ، قره قشله ، ديندارلي ، حاجيلي ، قره عيسالي (حقت) . تجهز الإيالة وقت الحرب 10000 جندي . لها قلعة ، وهى مدينة كبيرة تحتوي على 8720 دارا ، 5 جوامع ، 65 مسجدا ، 25 مدرسة ، 40 مكتبًا ، حمامين ، 17 خانا ، مطبخين للمحتاجين ، سوق رمضان أوغلو ذو 360 دكانا مبنيا بالحجر و 730 دكانا آخرى . ومما يجدر ذكره أيضا ، الجامع القديم في الكلية التي شيّدها رمضان أوغلو بيري محمد باشا في 1558 ، المدرسة ذات التحصيل العالي ومنزل للمسافرين به 120 موقدا . يصل طرفي المدينة الجسر الكائن على نهر جيحان والمزدحم ذو البرجين على طرفيه والبالغ طوله 550 ذراعا والمكون من 21 قنطره . قضاؤه المركزي ، يحتوي على نحو 11000 مزرعة كروم وحديقة . أسلوب الري ، الذي هو أحد أعمال بني رمضان الخيرية ، متفوق جدا .

ميسيس Misis ، قضاء في لواء أدنة المركزي له قلعة ، 380 دارا . يحتوي على جسر جيحان الكبير الذي شيّده محمد الرابع في 1661 . كانت في السابق مدينة كبيرة . وعندما تطّورت أدنة ، نزح سكانها إليها .

سيس Sis (قوزان Kozan) ، مركز لواء فى إيالة أدنة . راتب أمير اللواء 299 260 آقجه + 3000 ليرة ذهبا . هو اللواء الشمالي للإيالة ، يجّهز 1080 جنديا سباهي ، يتبعه 70 قرية . كانت كثافتها السكانية كبيرة فى السابق . والآن عبارة عن هضبة وقرية . أمير اللواء يحكم التركمان المقيمين فى الهضاب .

اثنين Isneyn ، مركز قضاء Kinik التابع للواء أدنة المركزي ، تتبعه 48 قرية .

ماراش Maras (مرعش Maras) ، مركز إيالة دلقادر أو ماراش . أحد مركزي بني دلقادر الذين تبعوا العثمانية منذ عهد يلدرم بايزيد (المركز الآخر البستان) وأسسوا روابط قرابة متينة مع بني عثمان . شغل بنو دلقادر مراكز مهمة فى إيالات وألوية الدولة الأخرى . راتب أمير الأمراء (بكلربك) 450 648 آقجه + 500 23 سكة ذهبية . تنقسم إلى 5 ألوية : ماراش ، عينتاب ، ملاطيه ، ساماد وقادرلي . تجّهز الإيالة 500 5 جندي يرابط فى لوائها المركزي 169 2 جنديا سباهيا » . ينقسم لواؤها المركزي إلى 12 قضاء : ماراش ، هاوسستول ، كورجينلك ، ينيجه ، زيتونيه ، برتيز ، كوينك ، يوروكان ، هارونية ، آندورون ، ألبكي ، نواهي . أصلح إبراهيم خان القلعة بعد سليمان خان في 1643 . توجد في جانبي القلعة أربعة تماثيل لـ 4 أسود مهيبة من الحجر الأسود . مدينة كبيرة تمتد على مسافة 7000 ذراع . تحتوي على 100 11 دار ، وقصر وسراي ، 28 مسجدا ، 11 مدرسة ، 40 مكتبًا ، مطبخين للمحتاجين ، 70 حنفية مياه مبنية ، 6 خانات ، 7 أسواق تحف و 1045 دكانا . إحدى مدارسها عالية .

بسني Besni ، قضاء في لواء ماراش المركزي ، يحتوي على 1040 دارا ، 10 جوامع ومساجد ، مدرستين ، 6 مكاتب ، 4 حمامات ، 75 دكانا . به قلعة وجامع سليمان خان .

عثمان ده ده Osman Dede ، قضاء عينتاب ذو 45 قرية ، 50 دارا .

عينتاب Ayntab (غازى عنتب Gaziantep) ، مركز لواء فى إيالة ماراش من فتوحات ياوز سلطان سليم من المُماليك . يتقاضى أمير اللواء راتبا قدره 130 235 آقجه + 25000 ليرة ذهبية . يرابط في اللواء 2800 جندي ، ويحتوي قضاؤها المركزي على 107 قرى . مدينة كبيرة . لها قلعة ، تحتوي على 8067 دارا وقصرا ، 19 جامعا و 121 مسجدا، 14 مدرسة ، أكثر من 140 مكتبا ، سوقي تحف ، 900 3 دكان ، نحو 46 تكية ، مطبخين للمحتاجين ، نحو 70 حنفية مياه مبنية فى الشوارع (جشمة) . تحتوي التكية المولوية التي شيّدت في 1638 على 45 غرفة . قلعتها ذات 26 برجا ، ويمكن إحصاء 70 مدفعا بها .

كلس Kilis ، مركز قضاء في لواء حلب المركزي ، مدينة مهمة . تحتوي على

4660 دارا ، 8 جوامع ، 22 مسجدا ، 7 مدارس ، 11 مكتبًا ، 9 حنفيات مياه مبنية ، 11 خانا ، 170 2 دكانا ، 40 مقهى ، 7 تكايا وأكثر من 20 قصرا ذا حمام . أكثرية الأعمال الخيرية أقامتها أسرة جان بولاد . تحتوي على قلعة .

18 _ أناضول الشرقية :

تتكون هذه المنطقة في أواسط العصر 17 من 7 إيالات : طرابزون ، جلدر ، قارص ، وأن ، أرضروم ، دياربكر و رقّه (اورفه) . إيالتا دياربكر وارضروم مهمتان ، إيالة وأن متوسطة الأهمية والبقية إيالات صغيرة . كانت إيالات جلدر ، قارص ، طرابزون تمتد نحو قفقاسيا ، وأما إيالة رقّة ، فإنها تمتد نحو سورية والعراق . كانت هذه الإيالات السبعة واقعة بين جنوب - شرقي البحر الأسود سوريا والعراق ، وأناضول الوسطى وبين قفقاسيا وإيران .

على الرغم من أن جنوب - شرقي الأناضول خضع للحكم الإسلامي منذ القرن 7 ؛ فإنه توجد مناطق - كالمناطق المحيطة بطرابزون مثلا، لم يتم التحاقها بالأراضي الإسلامية إلا بعد فتح استانبول . ومن الممكن القول بأن أناضول الشرقية التي كوّنت بصورة عامة ، مناطق متطّورة في العهد السلجوقي ، أخذت تفقد أهميتها في العهد العثماني . يرجع هذا الوضع إلى وجود إيران شيعية ، تقطع ارتباط أناضول الشرقية بالشرق . أما في أواخر العصر 19 ، فإنه نتيجة تغير الطرق التجارية العالمية بصورة كلّية ، أو ربما الشغب والاضطرابات التي قام بها الأرمن بتحريض روسي وإنكليزي وفرنسي ، وأصبحت الأناضول الشرقية في عداد المناطق المتخّلفة . لقد أدى الوضع الجغرافي للمنطقة واتساعها ، إلى عدم إمكان استفادتها من وسائل المواصلات بالدرجة الكافية ، وهناك سبب آخر لتخلفها ، وهو عدم تمّكن الدولة العثمانية في هذه المنطقة _ على عكس نجاحها في أقطار كثيرة أخرى _ من القضاء على نظام القبائل والإقطاع والأغوات الشرقي الطراز جدا . بينما أخذت التكايا في روملي وأناضول القريبة سمة النوادي فقد كانت لها في أناضول الشرقية هوية أخرى .

فتح طرابزون فاتح في 1461 من إحدى السلالات الإمبراطورية البيزنطية ، ثم تبعت بعد ذلك إيالة روم (توقاط) كلواء ، حتى 1470 ، ثم أصبحت لواء مستقلا وتولى

إدارتها أولو شهزاده عبد الله (1470 – 1481) ، ثم أخوه ، شهزاده ياوز سليم – شاه (1487 – 1512) . كان اللواء يشمل ، عدا ولايتي طرابزون وريزه الحالية ، القسم الساحلي من آرتفين وشمال ولاية كموشخانه . وبعد إضافة لواء باطوم كذلك في 1512 ، تكّونت إيالة طرابزون أو باطوم . وفي دور التنظيمات ، أصبحت طرابزون إيالة تشمل كامل المنطقة الساحلية للبحر الأسود وجنوبها من آلاجام (داخله) إلى باطوم (داخله) . ازدهرت المدينة بتجارة الترانزيت ووصل عدد نفوسها في بداية القرن 18 إلى 180 000 نسمة ، ثم أخذت اعتبارا من هذا العصر في الضمور والتقّلص . كان بالإيالة في (1889) ، 690 1004 نسمة ؛ 986 194 منهم مسيحيون ، اللواء المركزي طرابزون 700 447 نسمة ؛ (975 334 أتراك ، 91000 روم ، 000 20 أرمن ، 200 1 أرمن كاثوليك ، 235 أرمن بروتستانت ، 290 أقليات أخرى) ، أما مدينة طرابزون فكان فيها 000 35 نسمة (500 19 أتراك ، 200 8 روم ، 6000 أرمن ، 300 1 أقليات أخرى) تعداد السكان في (1891) ، 315 45 نسمة).

أسس ياوز إيالة دياربكر عام 1515 من 12 ولاية (المركز ، ماردين ، سنجار ، بيره جك ، أورفه ، سيوه رك ، جرميك ، ارغاني ، خربوت ، عربيكر ، كيغيي ، جميشكزك) . أضيف إليها في 1526 ، ألوية موصل ، هيت ، دير ، رحبه ، عانه ، أما ميره جك ، فقد جعلت قضاء كسعرت وحسن كيفا . وأسس ياوز كذلك في 1515 ، إيالة ارزنجان من 8 ألوية (ارزنجان ، طرابزون ، بايبورت ، قره حصار ، كموشخانه ، كه ماه ، ترجان ، أسبير) . ثم ضم لواء طرابزون لإيالة أناضولي ، وأصبح بعد ذلك إيالة منفصلة كما كان في الفترة خلال 1512 – 1515 .

فصل القانوني بعد مدة شمال العراق عن دياربكر . وقّلص حدود الإيالة كثيرا وجعلها 23 لواء ، تشمل الولايات الحالية دياربكر ، بنكول ، طونجلي ، ألازغ ، أورفه ، ماردين ، بتلس ، حكّاري ، سعرت ، موش ومنطقة عربكير التابعة لملاطيه وعماديه الواقعة في جنوب حكّاري . كان أمراء اللواء المعينون من المركز يديرون منها 12 لواء (المركز ، كيغي ، جميشكزك ، عربكير ، أرغاني ، خربوت ، جرميك ، سيوه رك ، أورفه ، بيره جك ، ماردين ، سنجار) . و 11 لواء منها ، كان يديرها أمراء

(بكّات) الأكراد بصورة وراثية ومن قبل عائلة واحدة تسمى (يوردلك أو أوجاقلق) (بتلس ، جاباقجور ، بالو ، هزان ، جزره ، أكيل ، حسن كيفا ، سعرت ، شيراون ، ساسون ، عماديه ، حكاري) .

ألغى القانوني إيالة ارزنجان وأسس إيالة ارضروم (5 / 10 / 1535) ، وكان أول من تولى الإدارة (بكلربك) فيها ، هو ابن خال ياوز ، دلقادر أوغلو محمد باشا . تكّونت الإيالة من 12 لواء : ارضروم ، باسينلر (آفنيك) ، ليفانه (آرتفين) ، طرابزون ، قره حصار ، بايبورت ، ايسبير ، كيغي ، كه ماه ، ارزنجان ، جميشكزك ، أولطو . أسس القانوني في 1548 (آب) ، إيالة قارص ، وكان أول وال (بكلربك) عليها هو أخو محمد باشا وابن خال ياوز دلقادر أوغلو ميرزا - علي باشا (جد الشاعر الكبير نفعي لابيه) الذي صار فيما بعد واليا على تفليس أيضا . في 1548 ، أسس القانوني إيالة وان . وفي 1578 ، ارتفع عدد ألوية إيالة ارضروم إلى 22 لواء ، وإيالة وان إلى 15 لواء (وان ، عادل جواز ، بتلس ، حيزان ، شيروان ، أسبايرت ، مكس (بضم الحرفين الأول والثاني) ، أختمار ، وسطان (كواش) ، حكّاري ، الباك (باش قلعة) ، آغاكيس (أرجيش) ، كوتر الباقية حاليا لدى اذربيجان الجنوبية ، سلماس (دلمان) ، أورميه) .

أسست إيالة جلدر في 9 / 8 / / 1578 من 9 ألوية (المركز آخيسكه ، آخيلك ، آلطون قلعة ، أوسكخا ، ججرك ، اسبنجه ، خرطوس ، بوسوف ، جلدر . لم تفتح أقضية قارص ، طوزلوجه ، ايغدر ، آرالق من الصفويين ، إلا في 1583 ، بينما كانت حدود العثمانية تصل وقتئذ إلى أندونيزيا ، أفريقيا الوسطى وأوروبا الوسطى . ولم يتم الإستيلاء على آغري الحالية من الصفويين ، إلا في 1578 .. وفي غضون ذلك ، أسس العثمانيون مدينة جلدر وعمّروا وأسكنوا بوجه خارص أرضروم وقارص اللتين خلتا من السكان . وعند انتهاء إعمار قارص في 20 / 10 / 1579 ، أعيد تأسيس إيالة قارص من 5 ألوية (قارص ، كوله ، كاغزمان ، مكزبرد (عرب جاي) و كجيفان) . وأعيد تأسيس إيالة طرابزون مجددا في 1585 ، وأضيف إليها ألوية إيالة أرضروم الواقعة على البحر الأسود .

يصف أولياء جلبي هذه المنطقة التي تلت 1640 كما يلي (خلاصة قصيرة جدا) :

كيره سون Giresun ، مركز قضاء كبير فى لواء طرابزون المركزى ، ميناء وقلعه .

طرابزون Trabzon مركز إيالة طرابزون ، قلعة وميناء على البحر الأسود . يجهز 3000 جندي . إيالة صغيرة ذات 4 ألوية : طرابزون ، باطوم ، كونيه و جنحه (كموشخانه) . تحتوى المدينة على 7 جوامع ، ومساجد كثيرة جدا ، يذكر منها جامع أورطه حصار لفاتح ، وجامع دلقادر أوغلو عائشة خاتون والدة ياوز (وهي مدفونة فى قبرها الكائن فيه) (ولد السلطان سليمان القانوني في طرابزون عندما كان والده أمير لواء فيه) . بها 9 مدارس ، قبور كثيرة ، 7 حمامات ، 245 سراي وقصرا ذا حمام . مركز كبير للتجارة والثروة السمكية والصياغة .

سرمنه Surmene ، مركز قضاء ذو قلعة في لواء طرابزون المركزي .

ريزه Riza ، مركز قضاء وميناء في لواء طرابزون المركزي فتحها السلطان محمد الفاتح مع طرابزون .

كونيه Gonye ، مركز لواء فى إيالة طرابزون . ميناء وقلعة بعد ريزه . من الألوية الصغيرة . تجهّز 1 100 جندي . جميع الساحل حتى نهر جورره Coruh تابع لهذا اللواء .

اسفكسر Isfekser ، قضاء فى لواء شرقي قره حصار فى إيالة ارضروم .

قويلحصار Koyulhisar ، قضاء فى اللواء ذاته . فتحه أولا يلدرم خان ، وبصورة نهائية فاتح من آقويونلو .

ارضروم Erzurum ، كلمة محورة من Erzen - i Rum وقيل من أرض روم Arz -i Rum أيضا . مركز إيالة . يتكون من 12 لواء : ارضروم ، قره حصار شرقي ، ملازغرت ، طورطم ، اسبر ، تكمان ، خنس (بكسر الحرفين الأول والثاني) ، ياسين ، كيغي ، قورجان ، ميجنكرد ، ممروفان . راتب الوالي 1 200 000 آقجه . تجهز الإيالة 5269 جنديا « سباهي » ، ويبلغ مجموع ما تجهزهم مع الأصناف الآخرى 13000 جندي ، 2 500 منهم قابوقولو (الجيش العثماني الدائم غير الأجير الذى يتسلم راتبه من

الدولة رأسا) . تحتوى قلعتها على 180 مدفعا ملتصقا بعضها ببعض ، موضوعة على مسافات متقاربة . ارتفاع الأسوار 50 ذراعا . ذات 210 أبراج ، وجميعها تحتوي على مواضع لرمي الرصاص ، بها 2080 مانعا (بند) . بداخل القلعة 1 700 دار وتوجد في الضواحي 70 محلة للمسلمين و 7 للأرمن . يتكون باشا سراي ذو الـ 110 غرف من قصرين ، عدة صالات استقبال ، عدة حمامات واسطبلات . وتوجد 7 جوامع ، 70 مسجدا ، عدد كبير من المدارس ، 110 مكاتب ، تكايا وحنفيات مياه مبنية كثيرة جدا ، نحو 70 سبيل ماء ، 70 خان تجّار و 11 خان مسافرين ، سوق تحف ، دار مسكوكات النقود ، سوق كبير فيه 800 دكان ، وسوق آخر للصياغ وآخر للسراجين ، سوق السباهية ، وسوق القزّاز . مساحة أولو جامع 200 × 200 ذراع وهو من آثار آقويونلولر . يظهر أن المدينة كانت كبيرة على عهد السلاجقة ، و عندما تسلمها العثمانيون ، كانت عبارة عن أطلال خربة مهجورة . عمّرها وأسكنها مجددا سليمان خان

حسن آباد Hasanabad ، مركز لواء فى إيالة ارضروم ، وكان يطلق عليه كذلك اسم حسن قلعه سي ، حسن قلعه و باسينلر . راتب أمير اللواء 124000 آقجه ، لواء صغير . يجهز 15 00 جندي . شيّد مراد الرابع فى قلعته قصرا خلال ذهابه لحملة روان . وقد مّر بهذا الموقع قبلها كل من ياوز والقانوني لغرض الاستراحة . يحتوي على 590 دارا ، نحو 700 جندي ، 9 جوامع ومساجد ، أحدها جامع سليمان خان . ولد فيه الشاعر الكبير نفعي .

خنس Hinis ، مركز أحد الألوية المهمة فى إيالة ارضروم . راتب أمير اللواء 484000 آقجه . يجهّز 2000 جندي . يحتوي على 1 200 دار ، 7 جوامع ومساجد .

آهيسكه Ahiska ، مركز إيالة جلدر . أقام والي هذه الإيالة التي انفصلت عن إيالة ارضروم ، في الموقع الذى شيّدته العثمانية المسمى جلدر وأقام كذلك في قارص ، وحاليا يقيم في آهيسكه . يتكون من 13 لواء : آهيسكه ، جلدر ، أولطو ، أردانوج ، أردخان ، شاوشاد ، هرتز ، هاجره ك ، بوستهار ، محجل ، بورته كرك ، ليفانه (آرتفين) ونيم ليفانه . كانت ألوية لورى ، برتك ، ساسن ، جكه لك ، هتاله ، ايسبير تابعة لهذه الإيالة أيضا . يتقاضى أمير الأمراء سنويا 000 400 آقجه راتبا + 000 3200

آقجه مخصصات . تحتوى الإيالة على 1060 قرية ، 1500 جندي سباهي ، 2000 جندي قابوقولو . أعطيت إدارة ألوية ساوشاد وليفانه إلى أمراء لواء ينحدرون من عائلة واحدة (بالتركية : أوجاقلق) . تتراوح رواتب أمراء اللواء بين 000 65 إلى 190 462 آقجه . تقع مدينة آهيسكه (حاليا في كرجستان) على نهر كورا Kura (Kur) ، ذات قلعة ، 28 جامعا ، ومسجدا ، سوق تحف (بدستان) ، 100 1 دار و 300 دكان . وتقع Kutalis على مسافة مرحلتين نحو الشمال ، كانت سابقا مركز إيالة ؛ والآن هى مركز حكومة آجيقباش الكردية ، وهى كالإيالة كذلك تحت إشراف والي جلدر . تبعد تفلس عن آهيسكه ، مسافة 5 مراحل .

قلعة **هاجرك** Hacerek ، مركز لواء يقع بين آهيسكه و أرد خان وقلعة **بوستهار** Postahar ، كذلك مركز لواء وهي أيضا من فتوحات فاتح قبرص لالا مصطفى باشا في 1577 . قلاع **شاوشاد** Savsad ، وفي أقصى الجنوب ــ الغربي **آردانوج** Ardanuc **و محجل** Mahcil أو حـــدجـــي Avhatei كلها مراكز ألوية صغيرة .

أردخان Ardahan مركز لواء آخر فى الإيالة . ويطلق عليها كذلك قره أردخان . راتب أمير لوائها 000 300 آقجه ، له 1000 جندي . قلعة جميلة .

أولطو Oltu ، على نهر Oltu مركز لواء آخر .

برتك Pertek كذلك مركز لواء من فتوحات لالا باشا أيضا ، وهي من القلاع التي استولى عليها الصفويون من الكرج سابقا .

كوله Gole ، كانت مركز لواء يتقاضى أميرها 300000 آقجه وحاليا مركز قضاء .

ينك Yenek ، على مسافة 8 ساعات نحو الغرب من كوله ، من فتوحات ياوز ، مركز لواء يتقاضى أميره 000 400 أقجه

مامردان Mamerdan ، على مسافة ساعتين من ينك ، قلعة أخرى فتحها لالا باشا ، وحاليا مركز لواء فى إيالة ارضروم . بها 800 دار . راتب أمير اللواء 000 203 آقجه

وتشكل خان ده ده سي ، الحدود بين إيالتي ارضروم وقارص .

كيج قوان Geckovan ، مركز لواء صغير فى إيالة قارص يتقاضى أميرها 153 500 آقجه ، من فتوحات سليمان خان فى حملته إلى نهجوان . تجهّز 1200 جندي . تحتوي على 1 200 دار ، 50 دكانا ، 3 جوامع .

قارص Kars ، بينما كان لواء فى إيالة أرضروم ، ولفترة من الزمن في إيالة جلدر ، أصبح بين حين وآخر مركزا للإيالة . وحاليا مركز لإيالة صغيرة . راتب أمير الأمراء (الوالي) 600 000 . عبارة عن 8 ألوية صغيرة : قارص ، كغيزمان ، مغازبرد ، وريشان ، كجوان ، زارشاد ، خوجه جان وكوجوك آردخان . يرابط فى الإيالة 3000 جندي ، 1 500 منهم فى قلعة قارص . يتبع اللواء المركزى ، 10 أقضية و 18 ناحية . شيّد لالا مصطفى باشا المدينة وجميع مافيها . طول محيط القلعة 5 700 ذراع ، وبها 2080 موضع رماية . وتحوى على 3 200 دار ، 8 جوامع ، 39 مسجدا ، 7 مدارس ، 18 مكتبًا ، حمامين عموميين وسوق ذي 200 دكان . فى المدينة عدد قليل من المسيحيين الأرمن .

كاغيزمان Kagizman ، مركز لواء في قارص ، عبارة عن 700 دار ، ويرابط فيها 900 جندي .

مغازبرد Magazbird ، مركز لواء قارص من فتوحات سليمان خان ، به 600 دار ، يجري نهير Arpa أسفل قلعته . **زارشد** Zarsed ، مركز لواء قارص .

كموشخانه Gumushane وتعني باللغة العربية دار الفضة ، مركز في إيالة طرابزون . أطلق الشعب عليها هذا الاسم ، اسمها السابق جنحه Cenha أو جنحه Canea . حفرت الجبال والأحجار لاستخراج الفضة . هو أغنى منجم للفضة بين الـ 70 منجما العاملة حاليا فى الدولة العثمانية .

بايبورد Bayburd ، قلعة قضاء للواء ارضروم المركزي . فيها 1 300 دار . فتحها أولا يلدرم خان ثم فاتح من آقويونلولر ، وجلبوا 3000 شخص من تيره Tire وأسكنوهم فيها .

تورطم Tortum ، مركز لواء في إيالة ارضروم . يجّهز اللواء 6000 جندي . يحتوي

على 7 محلات ، 7 جوامع ومساجد ، 718 دارا ، 70 دكانا ، 10 مكاتب ، خانين ، ليس به مدرسة .

كماه ، مركز أحد الأقضية الكبيرة في لواء ارضروم المركزي ، به 600 دار ، 3 جوامع ، 8 مساجد ، قلعة ركز فيها 36 مدفعا قديما للزينة .

ارزنجان Erzincan ، مركز قضاء في لواء ارضروم المركزي . كانت لواء فى السابق ومركزا لإيالة قبل تأسيس إيالة ارضروم يحتوي على نحو 2000 دار ، قلعة ، 7 جوامع ، 63 مسجدا ، 7 تكايا ، عدة حمامات ، 11 خانا متوسط الحجم ، نحو 40 مكتبًا ، ويحتوي على سوق للتحف الثمينة . مكتبة تكيتها المولوية غنية جدا .

قره صار شرقي Karahisar - i Sarki (شيين قره حصار ، شرقي قره حصار ، دوغو قره حصار) ، يطلق عليها هذا الاسم للتفريق بينها وبين آفيون قره حصار . مركز اللواء الواقع في أقصى شرق إيالة ارضروم . فتحها أولا يلدرم خان ثم فاتح . يتقاضى أمير اللواء سنويا 000 130 آقجه راتبا + 000 600 1 آقجه مخصصات . لواء صغير يحتوي على قلعة ذات 50 مدفعا ، 1670 دارا ، 42 جامعا ومسجدا ، 3 تكايا ونحو 750 دكانا ، 4 خانات ، 7 مكاتب وسوق تحف . بداخل القلعة جامع فاتح .

نزب Nizip ، مركز قضاء فى لواء بيره جك فى إيالة رقه ، قصبة صغيرة .

بيره جك Bircck ، مركز لواء في إيالة رّقه (أورفه) . راتب أمير اللواء 220 295 آقجه . يرابط باللواء حوالي 2000 جندي وبه نحو 70 قرية تابعة لقضائها المركزي . ويحتوي على قلعة ، بها حوالي 1000 دار ، 11 جامعا ومسجدا ، ليس فيه مدرسة .

سروج Suruc (سرج Suruc) ، مركز لواء فى إيالة حلب . راتب أمير اللواء 900 277 آقجه .

أورفه Urfa ، مركز إيالة رّقه . فتح السلطان ياوز سليم كامل الإيالة من المماليك عام 1516 . وتسمى كذلك إيالة أورفه . اسم المدينة الأصلي رحا (بضم الحرف الأول) و « رحاوى » « Ruhavi » تعني « أورفه لى » أى من أهالى اوروفه ، وحّورت بلغة الشعب وبشكل خاطىء إلى « رحاوى » (بفتح الحرف الأول)

« Rehavi » . إيالة صغيرة . راتب أمير الأمراء 076 600 آقجه ، مخصصاته 000 20 سكة ذهب . تجّهز نحو 2600 جندي ، 1000 منهم فى اللواء المركزي . تحتوي المدينة على 4 مفتين على المذاهب الأربعة . للإيالة 8 ألوية ؟ أورفه ، جماسي ، خايور ، رّقه ، درجه ، بني ربيعة ، رحبه ، بيره جك . بها 2620 دارا ، قصر وسراي ، 22 جامعا ، 67 مسجدا ، 5 مدارس ، 30 مكتبًا ، سوقان للتحف ، 400 دكان ، معمل سراجه . أكثرية الأبنية من آثار العرب السلاجقة والمماليك . إن الماء الذى انبثق من النار وقت أن كان النمروذ يريد إحراق إبراهيم عليه السلام ، حاليا حوض جامع خليل الرحمن . وهو موقع زيارة كبير للمسلمين يحتوي على تكية ، مطبخ للفقراء (عمارت) ، أوقاف غنية . تحتوي المدينة على 10 خانات ومنزل مسافرين ، حوالي 70 قصرا ذا حمّام ، 8 حمامات عامة .

كرك Kerek ، مركز قضاء في إيالة ماراش .

صمصد Samsad ، قضاء آخر لماراش قريب منه ، وصار مركزا للواء أحيانا .

حرّان Harran (**الطوق باشاق** Altinbasak) ، بينما كانت مدينة كبيرة جدا على عهد العباسيين ، أصبحت الآن ناحية وقلعة خربة على أثر تردّي طرقها المائية .

رقّه مركز لواء يقع فى الصحراء قريب إلى الساحل الشمالي للفرات . وتسكن اللواء عشائر تركمانية وعربية .

قلعة جابر Cabir Kalesi ، تقع بين رقّه ومسكنه ، في الصحراء وعلى الشمال ـ الشرقي من الفرات . مركز قضاء فى لواء رقّه . قصبة صغيرة قرب القلعة والنهر . كامل المنطقة يسكنها التركمان ، ولا يسمحون للغريب بالقرب منها ، إذ إنها تحتوي على قبر سليمان ـ شاه الذي يقدسه التركمان ، ويطلق عليه كذلك « تورك مزارى » أى « القبرالتركي » .

بالس Balis ، مركز لواء فى إيالة حلب . راتب أمير اللواء 000 280 آقجه . يحتوي اللواء على 1060 جنديا . يقع بين حلب ورقّه . على مسافة منزل واحد من غرب رقّه .

جولاب Gulab ، قضاء لواء اورفه المركزي ، به 000 1 دار .

سيوه رك Siverek ، شمال جولاب ، مركز لواء في إيالة ديار بكر . راتب البك (الأمير) 043 213 آقجه . تجهّز 00 12 جندي . لها قلعة . رحبة ، Rahbe ، مركز أحد الألوية الكبار في إيالة اورفه . راتب البك 000 600 آقجه . يرابط فيه 800 جندي سباهي وجنود آخرون . يصب الزاب الأصغر في دجلة من أسفل قلعته . جنوب الموصل ، لواء إيالة اورفه الواقع في أقصى شرقه .

جرميكCermik ، مركز أحد الألوية في دياربكر . يتقاضى أميرها 400 299 آقجه .

كاهطهKahta ، قضاء ملاطيه . إن **حصن منصور** (منصور قلعه سي) ، يطلق عليه التركمان اسم « آدي يامان » Adiyaman ، هو قضاء اللواء المركزي لماراش ، تتبعه 70 قرية .

خربوت Harput ، مركز لواء في إيالة دياربكر . يجهز 200 2 جندي . قلعة جميلة من فتوحات بيبقلي محمد باشا على عهد السلطان ياوز سليم (لم تكن مدينة معمورة العزيز = ألازغ Elazig التي أسسها السلطان عبد العزيز نحو أواخر العصر 19 ، موجودة في ذلك الحين) . يحتوي على أكثر من 000 1 دار ، 9 جوامع ، مساجد كثيرة جدا ، 6 مدارس ، مايقرب من 50 مكتبا ، 20 قصرا ذا حمام ، سوقين للتحف ، سوق ذي 600 دكان ويوجد كذلك سوق للسراجين .

برتك PERREK ،مركز لواء في ديار بكر . راتب أمير اللواء 000 380 آقجه . تجهّز 800 جندي .

ساغمانSagman ، مركز لواء آخر في شرق برتك . راتب أميرها 057 369 آقجه . تجّهز 850 جنديا .

جميشكزك Cemiskezek ، مركز اللواء الواقع في أقصى غرب إيالة دياربكر . راتب أميرها 223 334 آقجه .

بالو Palu ، أحد مراكز الألوية في دياربكر يجهّز 000 2 جندي ، به 000 1 دار .

جابا قجور Capakcur (بنكول Bingol) ، مركز أحد الألوية في إيالة دياربكر ،

راتب أميرها 000 370 آقجه ومخصصاته 4 ملايين آقجه . يسكن في هذا اللواء نحو 000 200 من العشائر الرحل مع حوالى مليون رأس من أغنامهم .

كنج Gene ، مركز أحد الألوية فى دياربكر ويجهز نحو 000 1 جندي .

آتاك Atak ، مركز أحد الألوية الكبيرة في دياربكر ، يجهز 800 جندي ويتقاضى أميره 300 447 آقجه .

حازو Hazo (حزرو Hazro) ، مركز أحد الألوية في دياربكر يتقاضى أميره 000 200 آقجه ، وبه 500 جندي .

موش Mus ، مركز لواء في إيالة وان .

كيل Gil ، مركز أحد الألوية في دياربكر .

ارغني Ergani ، مركز أحد الألوية في دياربكر . به 3000 جندي .

مركز إيالة دياربكر ، هو **عامد** Amid (**دياربكر** Diyarbakir) ، ويطلق عليه التركمان اسم « قره عامد » (عامد الأسود) نسبة إلى قلعته المبنية بالحجر الأسود . مدينة كبيرة ، ظلّت في حوزة المسلمين منذ بداية االقرن السابع . فتح المنطقة والمدينة من الصفويين بأمر السلطان ياوز سليم في 1515 ، الوزير بييقلي محمد باشا وقد تكوّنت في الحال إيالة ، وأصبحت مركزها من الإيالات الكبيرة . كانت مساحتها أكبر من قبل تكوين إيالتي رقّه (أورفه) و وان . يتقاضى أمير الأمراء راتبا قدره 200 1 000 آقجه + 000 50 ليرة ذهبًا مخصصات في السنة ، ويتقاضى قاضيها راتبا قدره 500 آقجه في اليوم + 000 800 آقجه مخصصات في السنة . شعبها شافعي وحنفي . وفور فتح هذه المنطقة التي تحمل اسم قبيلة بكر بن وائل من البيزنط ، أسكنت هذه القبيلة فيها . يسكن الإيالة حاليا ، قليل من العرب . تحتوي الإيالة – بموجب قانون السلطان سليم خان – على نوعين من الألوية وهي التي تسمى « الألوية العثمانية » و « الألوية الكردية » . الألوية العثمانية ، كألوية الإمبراطورية الأخرى يرسل إليها أمير اللواء (سنجق بك) من استانبول وهي : المركز عامد ، سعرت ، أرغاني ، سيوهرك ، نصيبين ، آقجه قلعة حصن كيفا ، ميّافارقين (سلفان) ، جميشكزك (تونجلي) ، خربوت (ألازغ) ، سنجار ، خابور ، قربنصيبين Vrb - Inusaylin ، والأخير لواء مكون من العشائر . والألوية التي كانت كردية في السابق وأصبحت الآن ألوية عثمانية هي = برتك ، جابا قجور (بينكول) ، جرميك ، كولب ، صاغمان ، آتاك ،

ترجيل ، مهرانية . والألوية الكردية حاليا هي الألوية الـ 5 التالية : جزيرة (جزره) ، أكيل ، كنج ، بالو وهازو (هازرو) . وكما أن هذه الألوية أعطيت إلى بكّات الأكراد بصورة وراثية ، وإلى ذات العائلة ، فإنها كذلك خالية من تشكيلات التيمار . يشترك أمير اللواء الكردي بعدد محدد من جنده في القتال تابعا لأمر أمير أمراء (بكلربك) دياربكر ويرسل سنويا ضريبة معيّنة إلى عامد . لكن القاضي يرسل من استانبول ؛ حيث أن رتبة القضاء ، رتبة العلمية (صنف رجال الدين) لايمكن منحها إلا من استنابول . ولا يجوز لأي وزير أن يمنح رتبة « علمية » . والسبب في تبديل الوضع السابق للألوية التي كانت كردية في 1515 ثم أصبحت خلال عصر ونصف ، ألوية عثمانية ، هو اما وفاة الوالي (بكلربك) الذي لم يخلف ابنا ، واما أن أمراءهم خالفوا أمر والي دياربكر . يرابط في لواء عامد المركزي 5 000 جندي سباهي وفي كامل الإيالة ، 30 000 جندي . قلعة عامد كبيرة جدا . يجري نهر دجلة من تحت القلعة ويرى كالخيط . جدّدها البيزنطيون ، العرب ، السلجوقيون ، دولة آق قويونلو والصفويون . ارتفاع السور 40 ذراعا محيطه 4 000 ذراع . سراي أمير الأمراء الذي يحتوي على 150 غرفي وعدة صالات استقبال ، وله مشتملات ، من أفخم سرايات الولاة الكائنة فى الأراضي العثمانية . بدأ إنشاءه فاتح دياربكر بـيـيقلي محمد باشا ، ووسعه كل من الولاة الذين تلوه ، وذلك ببناء أقسام إضافية له . كسا العثمانيون أولو جامع ، أحد الجوامع الـ 16 بالرصاص . قواد عديدون ابتداء من خالد بن الوليد إلى بـيـيقلي محمد باشا ، بنوا جوامع . مدرسة مرجانية المجاورة للجامع ، مدرسة عالية . هناك 7 مدارس أخرى تدرس العلوم العالية . عدا ذلك يوجد عدد غير قليل من المدارس وعدد كبير من المساجد والمكاتب والتكايا . وحوالى 70 سراي وقصرا . صناعات الحديد ، الأسلحة الجارحة والصياغة متقدمة جدا ومنتشرة . يحتوي على 13 حماما كبيرا ، بضعة حمامات صغيرة ، والعديد من دورات المياه . المدينة مرفأ نهري فعّال على نهر دجلة . تجري سفرات منتظمة عن طريق النهر بالكلك (الطوف) من عامد إلى بغداد والبصرة . تسير السفن في الفرات ولكن يسير الكلك في دجلة بواسطة قرب منفوخة . وفي 1655 ، صرف الوزير سلاحدار قره مصطفى باشا كل ثروته البالغة 40 مليون آقجه (92 مليون دولار) في سبيل الله لإصلاح مجرى ديالي قرب بغداد وتنظيف مجرى دجلة وتوزيع الماء ، وحقّق عملا

خيريا كبيرا جدا . تحتوي الإيالة على 176 قلعة وحوالي 100 قلعة مهدمة .

ماردين Mardin (Mardin) ، مركز لواء في إيالة دياربكر . يتقاضى أمير اللواء سنويا مبلغ 200000 آقجه راتبا + 10000 ليرة ذهبا مخصصات . يحتوي اللواء على 1060 جنديا سباهيا و نحو 1000 جندي من الأصناف الأخرى . فتح بييقلي محمد باشا ، ماردين كذلك من الصفويين . **سنجار** ، مركز لواء في دياربكر . يقع فى السفح الجنوبي لجبل سنجار (حاليا في العراق) . قصبة صغيرة ذات قلعة يحيطها سور طوله 7000 ذراع . يسكن اليزيديون في المنطقة . له جامع واحد ومدرسة واحدة . تسمى هذه المنطقة ديار ربيعة ، وهي القبيلة العربية التي أسكنت هذه المنطقة في الفتح الإسلامى الذي جرى في أوائل القرن السابع .

ميافارقين Meyyafarikiyn (سلفان) ، مركز لواء في إيالة دياربكر . يقع بين عامد وسعرت . قلعة صفوية استسلمت لبييقلي محمد باشا دون قتال . ويُظن أنها كانت مدينة كبيرة في الماضي . يحيط بالمدينة سور طوله 11 000 ذراع . تحتوي على حوالي 1000 دار . توجد فيها آثار إسلامية غنية من مخلفات العصور القديمة .

حازو Hazo (حزرو Hazro) مركز لواء في دياربكر ذو 1 150 دارا .

بتليس Bitlis ، مركز لواء فى إيالة وان . يعين لها منذ عهد ياوز أمراء لواء (سنجق بك) وباستثناء مرة أو مرتين ، أعطيت إلى العائلة المسماة شرف _ خانلر . وكما هو الحال بالنسبة لبكات الأكراد الآخرين ، فإنهم لا يلقبون بلقب « بك » ويلقبون بلقب « خان » . وهؤلاء أغنى وأشهر بكّات الأكراد . يشغل سراي الخان « خان سرايي » نصف المساحة التي تشغلها قلعته البالغة 4000 × 4000 ذراع . الخان بمرتبة بكلربك (أمير الأمراء) وله 2000 جندي . أحد أطراف اللواء ، يصل إلى بحيرة وان وتسكنه نحو 70 عشيرة . يبلغ عدد نفوس مدينة بتليس 40 000 نسمة . يسكن في اللواء 43000 مسيحي . يتقاضى الخان نصف ضريبة الجزية التى يدفعها هؤلاء ويرسل النصف الباقي إلى والي وان .

يوجد في اللواء تشكيلات تيمار ويجهز نحو 1000 تيمارلي سباهي ، وهم الذين أعطيت إدارتهم لبكلر بك وان . وهؤلاء غير جنود شرف خان . قضاء بتليس المركزي ينقسم إلى 18 ناحية . أكثرية الشعب المسلم وسلالة شرف خان شافعيون . ورغم ذلك فإن

بعض بكّات هذه العائلة تعاونوا مع الصفويين . تحتوي المدينة على 110 جوامع ومساجد ، 4 مدارس ، نحو 70 مكتبًا ، حوالي 70 دورة مياه ، 41 سبيلا ، نحو 20 تكية ، 9 خانات ، 11 جسرا حجريا ، 1 200 دكان ، نحو 5000 دار . وعدا ذلك توجد مكاتب (مدارس) تدريس القرآن الكريم التابعة لأكثرية الجوامع والمدارس . يعيش حاليا في المدينة 7 شعراء أصحاب دواوين تركية . الخان الحالي متزوج بخانم ـ سلطان ، هي ابنة بنت سليم الثاني . نحو 100 جارية في خدمة الخانم ـ سلطان ونحو 600 قصر يحتوي على حمام خاص . يحتوي القضاء المركزي على مزارع كروم كثيرة جدا .

تطوان Tatvan ، هو رصيف بتليس المائي على بحيرة وان ، وهو ناحية لواء وان المركزي . بحيرة وان كاملة محاطة بإيالة وان . يوجد على طريق بتليس ـ تطوان منزل المسافرين الكبير الذي بناه خسرو باشا ، من ولاة وان السابقين .

آهلاط Ahlat ، مركز لواء موش في إيالة وان . سكنها أمير لواء موش بدلا من موش منذ مدة . من أمراء اللواء الكبار الذين يتقاضون راتبا قدره 000 410 آقجه + 20 كيسة مخصصات . له جنود عددهم 1000 جندي سباهي و 500 جندي معية . آهلاط ، رصيف مائي على الساحل الشمالي ـ الغربي من بحيرة وان . يظهر أنها كانت مدينة كبيرة في الماضي . عاش فيها العثمانيون عصرا ونصف عصر قبل مجيئهم في 1231 إلى سواحل سقاريا . يرقد في آهلاط جميع أجداد عثمان غازي ، وقبر قايا ألب جد أرطغول غازي ، مزار وطني كبير . حنَّط أكثرهم . سلم الصفويون آهلاط إلى العثمانيين خربة وخالية من السكان . أحيا المدينة الوزير داماد زال محمود باشا ، أبو زوجة شرف خان الحالي بواسطة المعمار سنان . وفي 1556 بنى فيها قلعة ، 350 دارا ، جامع سليمان باشا ، خانا وحماما .

عادلجواز ، مركز لواء في إيالة وان . مرفأ وقلعة على الساحل الشمالي من وان . وعلى السفح الجنوبي من جبل سبحان (434 4 م) وهذا الجبل أعلى قمة بين جبال الأناضول بعد جبل آغرى . لواء صغير يتقاضى أميره 154036 آقجه راتبا + 4000 ليرة ذهبا مخصصات . له 1000 جندي سباهي ونحو 600 جندي معيّة وجنود حامية القلعة .

تحتوي القلعة على 76 مدفعا وجامع سليمان خان ، طول محيط القلعة 4000 ذارع تحتوي على 8 محلات ، 8 جوامع ومساجد نحو 70 قصرا ذا حمام . ولها أيضا كلية زال محمود باشا . يحتوي قضاؤها المركزي على مايقرب من 7000 مزرعة كروم .

أرجش Ercis ، أحد مراكز الألوية في إيالة وان . قريب إلى ساحل الخليج في شمال ـ شرق البحيرة . يتقاضى أمير اللواء 000 300 آقجه راتبا + 10 كيسة مخصصات . له 1000 جندي سباهي وألف جندي معية ، وعدا ذلك جنود حامية القلعة . ومن الممكن أن يجهز نحو 6000 جندي تحتوي قلعته على 110 مدافع ، 1000 دار ، 200 دكان ، جامع سليمان خان ، ومنشآت خيرية أخرى . لايوجد في أرجش سكان محليون . جلب سليمان خان الأتراك ، الألبان والبوشناق من روملي إلى المدينة وأسكنهم فيها ، سكانها هم أبناء أولئك . ذلك أن الصفويين تركوا أرجيش إلى العثمانيين خربة وخالية من السكان كذلك .

باركيري Bargiri مركز لواء غير كبير في إيالة وان . راتب أمير اللواء 000 200 آقجه . لواء كردي يتولى إدارته أمراء (بكّات) عشيرة محمودي . والأمير الحالي هو صهر آبدال خان حاكم بتليس الحالي من سلالة شرف خان . يشترك أمير اللواء في القتال مع 3000 جندي . ورغم أن اللواء من الألوية الوراثية ، لكنه يحتوي على تشكيلات التيمار . خضع الأمير المحمودي ، لسليمان خان في 1548 دون قتال ، ترك البادشاه اللواء وله ولعائلته بصورة وراثية .

وان Van ، فتحها السلطان سليمان خان من الصفويين . وكون إيالة وان ، شرق إيالة دياربكر وعلى حدود الصفويين . قلعة وان ، هي إحدى أقوى قلاع العثمانية تحكيما . يبلغ ارتفاع القلعة من الأسفل إلى أعلى نقطة فيها 100 4 ذراع . لها 600 مخزن مليئة إلى نهايتها بالمهمات ، الذخائر العتاد . لها 70 برجا . طول محيطها 11000 ذراع . وفي كل 24 ساعة ، يبدل 500 حارس لحراسة القلعة . أكثرية المدافع الموجودة والبالغة 760 مدفعا موضوعة في أماكن خفية . لايمكن تحديد أماكنها أبدا قبل فتح النار . يرابط في القلعة 3000 إنكشاري ، 1000 جيبه جي (صنف تجهيزات الجيش) ، 1000 مدفعي (جمعا 5000 جندي) قابوقولو مع نحو 1000 جندي حامية للقلعة . إيالة وان من الإيالات الكبيرة ، يتقاضى أمير أمرائها الوزير سنويا 000 132 1 آقجه راتبا + 000 20 ليرة ذهبا

مخصصات . إيرادات الإيالة سنويا من الضرائب 24 مليون آقجه . تجهز الإيالة نحو 3000 جندي تمارلي سباهي ، هذا عدا الأصناف الأخرى . تتكون من 38 لواء ، منها 21 لواء عثمانيا + 17 لواء كرديا . وحوالي 700 قرية ، تتبع للوائها المركزي . ترك الصفويون مدينة وان وقلعتها إلى العثمانيين بصورة خربة وخالية من السكان ، وصلت المدينة إلى وضعها الحالي بفضل سليمان خان . استمر الاعمار بعدها . يحتوى باشا سراي على 600 غرفة بطابقين . الشوارع ، نظيفة جدا وذات أرصفة . مدينة كبيرة ذات 800 8 دار ، 3 محلات من محلاتها للأرمن ، وتحتوي على نحو 700 قصر ذي حمام . تحتوي القلعة وكذلك الضواحي على جامعي سليمان خان . أعدت وان بشكل تتمكن فيه الحملات الإيرانية من تجهير 48000 جندي . سار الصدر الأعظم السابق ملك إبراهيم باشا ، بصفته واليا على وان ، من وان وجاء إلى بتليس يوم 28 / 7 / 1655 مع 000 40 جندي .

خوشاب Hosâb ، مركز لواء ارثي في إيالة وان . يديرها منذ قرنين ونصف فرع من فروع المحموديين .

قره جه قلعة Karacakale ، مركز أحد الألوية التي أعطيت إلى أحد الأمراء المحموديين كذلك .

بنياش Pinyanis ، مركز أحد الألوية الصغيرة المعطاة إلى أمير محمودى آخر . الحياة هنا بدائية ، ولا تشبه الحياة فى بقية المناطق العثمانية

سعرت Siirt (سعرد Si'ird) ، مركز لواء فى إيالة دياربكر ، وشرقها لواء **حكارى** Hakkâri ، يتقاضى أميره 883 333 آقجه ، له 800 جندي سباهي ، 500 حندي معيه .

زريكلي ، مركز أحد الألوية الوراثية التي تسكنها 20 قبيلة .

ملازغرت Malazgirt ، مركز أحد الألوية الصغيرة التي يتقاضى أميرها 000 100 آقجه . له 500 1 جندي تمارلي سباهي ، ولكن يمكن تجهيز 8000 جندي . مدينة صغيرة تحتوي على 2000 دار ، 50 دكانا ، مدرستين ، 7 مكاتب ومؤسسات خيرية أخرى .

19 _ قفقاسيا

إن الإيالات العثمانية الواقعة بين قفقاسيا الجنوبية والشمالية وبين إيران الغربية ، هي الإيالات التي كانت تتناوش مع إيران بصورة مستمرة خلال القرون 16 و 17 ، و 18 والتي تتبع العثمانية أحيانا ، وإيران فى أكثر الأحيان . أما خوزستان (عربستان إيران) المنطقة الواقعة في إيران الغربية والممتدة من خليج البصرة إلى قفقاسيا من الجنوب إلى الشمال ، شمالها لورستان (سينة) ، وشمال هذه كيرمان _ شاه ، وشمالها _ الغربي همدان ثم أردلان أو كردستا ، شرقها خمسة ، فكلها إيالات إيران الغربية التي بقيت تحت حكم العثمانية بصورة مؤقتة . سكان هذه الإيالات خليط من الأتراك والفرس والأكراد ، (يشكل الأتراك الأكثرية في خمسة وهمدان) يوجد عرب كذلك فى خوزستان في الجنوب . أما فى الشمال _ الغربي في آذريجان الجنوبية (آذربيجان إيران) أهم إيالة فى إيران ، فإن كل سكانها أتراك ، تمتد بين الأناضول وبحر الخزر ويشكل نهر آراس حدودها الشمالية ، وعدا ذلك ، دخلت في حكم العثمانية أو تبعتها ، بعض المناطق التي ظلت ضمن إيران الحالية . وإحداها إيالة كيلان الواقعة على الجنوب _ الغربي من بحر الخزر والتي يسكنها الإيرانيون الخلص ، إلا أن الشافعيين يشكلون أكثرية هؤلاء السكان وأصبح للعثمانيين نفوذ فى إيالة فارس كذلك ، التي يسكنها الإيرانيون والأتراك بصورة مشتركة

أما قفقاسيا ، فإن قفقاسيا الجنوبية هي البلاد الواقعة بين نهر آراس وجبال القفقاس والتي تمتد بين البحر الأسود وبحر الخزر ؛ وقفقاسيا الشمالية هي البلاد الممتدة بين البحرين كذلك والتي تقع شمال جبال القفقاس تقع قفقاسيا الجنوبية في قارة آسيا ؛ أما قفقاسيا الشمالية فإنها تقع في قارة اوروبا ؛ إذ ان جبال القفقاس الكبرى تفصل بين القارتين . سكان البلاد الواقعة في شرق قفقاسيا الجنوبية والتي تصل حتي بحر الخزر والمسماة آذربيجان الشمالية (آذربيجان السوفيتية الحالية) أتراك تماما . تنقسم إلى مناطق كشيروان ، عرّان ، ناهجوان . جنوبها ـ الغربي ، هو المنطقة التي تسمى

روان وهي أرمنستان السوفيتية الحالية ، وحتى العصر 19 كان في هذه المنطقة أقلية قليلة جدا من الأرمن ، ويسكنها الأتراك ، وكانت جزءا من آذربيجان الشمالية . أما القسم الكائن في غرب قفقاسيا الجنوبية والذي يصل حتى البحر الأسود ، فهو كرجستان . كون الكرج هنا عدة ملكيات وإمارات . عاشوا يتبعون العثمانية حينا والصفويين حينا آخر ، كما توجد أيضا أقلية تركية . ورغم أن قسما من الكرج أصبحوا مسلمين خلصا ضمن الإدارة العثمانية ، فإن الأكثرية بقيت على الديانة المسيحية الأرثوذكسية .

القسم الجنوبي – الغربي من هذا القطر ، هو آجارستان (باطوم) الواقع على البحر الأسود ، والآجاريون أتراك قيبجاق ، وقد أصبحوا كرجا من الناحية اللغوية وتقبلوا الأرثوذكسية ، واهتدوا إلى الإسلام في القرن 16 تحت ظل الإدارة العثمانية ، وقسم منهم فقط بدأ يتكلم اللغة التركية ، وقسم آخر منهم ما زال يتكلم اللغة الكرجية رغم إسلامه . الكرج هم أكثف الأقوام القفقاسية نفوسا

وقسم كرجستان الشمالي – الغربي الذي يتاخم البحر الأسود أيضا ، هو آبهازستان أو آبهاضستان ، ويسكن فيه الأبهاضة الذين أسلموا على عهد الإدارة العثمانية (الأبهاض العثمانيون) ، وهم قوم قفقاسي يتكلم لغته القومية ، وقد استترك الذين هاجروا منهم إلى القطر العثماني

أما قفقاسيا الشمالية فتمتاز بأنها تموج بالقوميات واللغات الصغيرة ، وهي تفوق في ذلك بكثير قفقاسيا الجنوبية . أكثر سكانها هم الجركس . يعيشون في الجبال كقبائل . استترك الذين هاجر منهم إلى البلاد العثمانية . لم يتمكن العثمانيون من إدخال الذين ثبتوا في أماكنهم إلى الدين الإسلامي إلا في نهاية العصر 18 . مازال هؤلاء ينطقون باللغة الجركسية . تعيش كذلك أقوام كثيرة في القسم المتاخم لشرق بحر الخزر من قفقاسيا الشمالية . الآفاريون منهم أتراك (الشيخ شامل ينتسب إلى هذا القوم) وقد كانوا في الأزمنة المتقدمة مسلمين شافعيين وبعضهم أحناف قاوموا الصفويين كثيرا وناصروا العثمانية لكونهم سنّة . على نطاق واسع ، اهتدت قوميات كثيرة على يد العثمانيين في قفقاسيا إلى الدين الإسلامي ، كانوا وثنيين يحيون حياة قبلية (الأوسيت Oset ،

اللزكيون Lezgi الججان œcen ، الانكوش Ingus ... إلخ) أما البلقاريون Balkar والقره جاى Karacay فإنهم أتراك ، النوكاى أتراك كذلك . وهناك قسم قليل من المغول أيضا .. تقّبلت أقوام قفقاسيا الشمالية الثقافة التركية . واستترك الذين تركوا الجبال على نطاق واسع وهاجروا إلى الأقطار العثمانية .

الإيالات العثمانية غير المستقرة والتى تبدلت ألويتها ، وتغيرت ملكيتها ، والتي انحلت ثم أعيد تأسيسها في هذه المنطقة ــ لا تشابه الإيالات التي دامت عصورا طويلة ــ بعضها 400 و 500 سنة ــ في الأقطار العثمانية الأخرى . لذا يجب تجاوزها بعد تقديم بعض النماذج فقط . فمثلا إيالة كنجه ، 1588 − 1606 = 18 + 1723 − 1735 = 12 = (جمعا مدة 30 عاما) . كانت 8 ألوية : كنجه ذات 12 قضاء ، برزعه ذات 5 أقضية ، هاجين ذات 9 أقضية ، آهس آباد ذات 5 أقضية . ديزاك ذات 4 أقضية ، هكّرى ذات 4 أقضية وفيرندة ، ذات القضاء الواحد (أرشيف رئاسة الوزارة ، **طابو** ، 699) . كانت تشمل شرق آذربيجان الشمالية المسمى شيروان . انتهى نفوذ الأتراك في تفليس في 15 / 8 / 1783 وذلك باضطرار الملك هيراكليوس الذي يلقبه الأتراك بـ « أركلي خان » للخضوع لروسيا ، رغم أنه أصبح حاكما رسميا في 1776 بمنشور العثمانية . كان الخان التركي فى باكو لايزال في 1813 يعلن تبعيته للبادشاه . لكن نهايته كانت قريبة ، ونفوذ العثمانية في الخزر كان على وشك الانتهاء .

إيالة **تبريز** كذلك تأسست وانحلت مرات عديدة . كانت الإيالة التى تكونت في 21 / 8 / 1534 تتألف من 15 لواء ؛ 5 من هذه الألوية بقيت حاليا لدى تركية ، 3 منها لدى روسيا و 7 لدى إيران : تبريز ، ناهجوان ، مراغة ، مشكين ، آفوهكان (موش) ، مهراني (Lice / دياربكر) ، وستان (Gevas / وان) ، جولمريك (حكّارى) ، سلماس ، روان ، كمرل ، اورميه ، درياس ، داين (آغرى Avri) ، جالديران (ماكو) . وإيالة همدان التي أسسها القانوني فى ذات التاريخ ، كانت 6 ألوية ؛ همدان ، كاشان ، قم ، شاو ، شهريار ، اسنجك . بني الصدر الأعظم اوزدمير أوغلو عثمان باشا في تبريز خلال 45 يوما قلعة طول الأسوار المحيطة بها 12 700 ذراع وتستوعب 45 ألف جندي ، وبها منزل استراحة للمسافرين وكلية ،

هدم الشاه عباس هذه القلعة من الأساس عند استرجاعه تبريز بعد 20 عاما (**تاريخا اعلم آراي عباسي** ، 441 ، 451) يقال إن نفوس تبريز في 1673كانت لاتزال 000 550 نسمة (Chardin ، 2 ، 328) . هذه المدينة التركية المهمة جدا التي فتحها ياوز لأول مرة ، وأول عاصمة للصفويين ، دخلت بين الحين والآخر ضمن النفوذ العثماني وخرجت منه . دخل الجيش العثماني المدينة ثانية فى 8 / 1/ 1915 . جاء الروس بعد 23 يوما . أخذت تبريز مرة أخرى في 18 / 6 / 1918 . دخل المدينة في 8 تموز علي إحسان سابس باشا ، وفي 25 آب كاظم قره بكر باشا . لكن المدينة أخليت بعد 5 أشهر .

دخل العثمانيون منطقة كرجستان بالأسطول الذي أرسله فاتح في 1451 ، وفتحهم آبهاضستان (قلعة سوخم) وفتحهم آجارستان (باطوم) في 1479 . ظلت آجارستان بحوزة العثمانية حتي 1877 ، ثم انتقلت ثانية إلى العثمانية في 1918 _ 19 وبذلك يكون حكم العثمانية قد استمر فيها 400 سنة . أما في آبهاضستان ، فقد دام حكمها 359 سنة حتي الاستيلاء الروسي في 1810 . كذلك سواحل آنابا وجركز ستان من شبه جزيرة تامان إلى سوجي ، بقيت لدى العثمانية من عام 1479 حتى الاحتلال الروسي فى 1810 . أما فى كرجستان الأصلية ، فإن الإيالات العثمانية تأسست ثم انحلت ، وظلت على الأكثر كمنطقة محمية لدى ملوك وأمراء الكرج تحت إشراف وتبعية العثمانية .

أسس القانونى في 1548 إيالة نوكاي Nogay في شمال جركزستان وداغستان ، في المنطقة المنحصرة بين بحر آزاك ودلتا الفولغا في شمال قفقاسيا . وفي 1580 ، وحّدت الألوية القديمة . أسست إيالة البحر الأسود الشمالية التي تسمى « إيالة كفة » ، وأعطيت لهذه الإيالة إدارة كل السواحل الشمالية وبحر آزاك الذي يسميه الأتراك « بحر قرم » . كانت 6 ألوية : كفة ، كرج ، بندر ، آكرمان ، قيلبورون ، آزاك (روستوف) .

كانت إيالة Kiçi Nogay لاتزال مستمرة في 1578 . أسس أوزدمير أوغلو إيالة تفليس في 24 / 8 / 1578 . أخذت إيالة تفليس في 1728 ، من إدارة ملوك الكرج وشكلت مجّددا من6 ألوية : تفليس ، غوري ، سومهورت ، آغجاقلعة ، Tiryaled ، قايغولو : وتأسست فى 1578/9/1 إيالة Kakhet في شرق كرجستان . أعيد تأسيس إيالة شيروان

في 1578 من 12 لواء : Saadru, Zerdab Saburan, Aktas, Kabala, Eres ، باكو ، ساليان ، حوض لحج ، كورة ، شكي ، آهتي . كانت هذه الإيالة الواسعة تشمل القسم الأعظم من السواحل الغربية لبحر الخزر ، حتى حدود الأناضول . ولصعوبة إدارتها ، تجزأت بعد 4 سنوات و 9 أشهر 11 يوما إلى 3 إيالات (قرار الديوان الهمايوني المؤرخ (26 / 6 / 1583 : Muhimme 49 ، 373) : تحتوي إيالة Eres على ألوية : (أرش ، شكي ، قبالة ، اقتاش ، قضالي ، آجن ، سالق ، جواد) ، إيالة شماهي (شماهي ، آختي ، زرداب ، سعدرو ، باكو ، ساليان ، حوض لحج) ، إيالة دمير قابو (دربند / داغستان) (دربند ، شابوران ، كوبا ، مسكر ، كورة ، جراك ، رستاف) . وفي 1590 أدمجت إيالة أرش برمتها في شماهي

كانت روان وكوكجه كول أكثر المناطق ازدحاما بالسكان الأتراك . وفي العصر الأخير بدأ الأرمن يردون إليها بكثرة ، وهؤلاء إما أنهم أفنوا الأتراك عن بكرة أبيهم ، وإما اضطهدوهم وسببوا هربهم . وفي الاحصاء الذي أجراه الروس في 1908 ، كان لايزال في لواء روان (Erivan) الروسي 149 65 تركيا مقابل 329 55 أرمنيا

تأسست في كرجستان إيالات لورو (8 / 8 / 1584) ، تومانيس (30 / 9 / 1584) ، كورو Goru (Gori) (2 / 10 / 1587) . وفي 1578 ، رفعت سوخوم من نظام اللواء إلى نظام الإيالة . وتأسست خلال هذه الأيام كذلك إيالة ناهجوان . وينبغي هنا أن نذكر أن تبعية إمارة (خانلق) باشكردستان لبني جنكيز في أقصى الشمال إلى العثمانية كانت في تاريخ متأخر (1708 _ 1728 + 1735 – 1737)

وننقل فيما يلي سطورا من كتابة أولياء جلبي عن هذه المنطقة في أواسط العصر 17 :

آنابا ، ميناء وقلعة ، مركز قضاء في لواء تامان التابع لإيالة كفة . على مقربة من جنوب نهر كوبان ، مجاور لخليج كرج . فتحه كديك أحمد باشا في 1475 بواسطة أسطول بحرى **تامان** ، على مقربة من الشمال الغربي ، على الساحل الشرقي من

بوغاز كرج . آزاك ، مركز لواء آخر (Azov / Roshov) في إيالة كفة . قلعة كبيرة على مصب نهر الدون . أعيد إنشاء القلعة مجددا نحو 1640 وجهزت بمهمات كثيرة وتكلف ذلك مبلغ 200 مليون آقجه (350 مليون دولار) .

كانت قلعة **مكو** مركزا للواء أو قضاء عثماني ، هي الآن لدى إيران . عبارة عن 700 دار . **قره باغ** و **ناهجوان** ، كانا مركزين لإيالتين عثمانيتين ، هما الآن لدى إيران شعبها أتراك . الأول 10 000 دار ، 40 جامعا ، 30 مسجدا . الثاني 3000 دار ، 7 جوامع ، 63 مسجدا ، 600 دكان ، 7 حمامات ، 3 خانات ومازال موجودا فيها 33 جامعا ومسجدا من بناء العثمانيين . **تبريز** ، لم تعد مدينة العرش الإيرانية ، لكنها مازالت مدينتها التي تفوق مدنها الأخرى بكثافتها السكانية ، مركز إيالة عثمانية سابق . أهم إيالة في الدولة الإيرانية بعد خراسان . هدم الشاه عباس قلعتها لكونها أثرا عثمانيا . وبالنسبة إلى الإحصاء الذي أجراه أمير الأمراء جعفر باشا فإن عدد سكان الإيالة قبل 1600 ، كان 800 000 نسمة ؛ 300 000 منهم في المدينة . تحتوي على 19 جامعا سلطانيا ، 50 جامعا ، 270 مسجدا ، جامعين من مخلفات العهد العباسي . أعظمها جامع قويونلو سلطان أوزون حسن . و 47 مدرسة أكبرها مدرسة قره قويونلو سلطان جهان ـ شاه و 27 دارا للقراء (الحفاظ) ودار الحديث ونحو 600 مكتب ، وحوالي 160 تكية ، 1046 حنفية مياه مبنية وسبيل ، 1070 قصرا ، 1060 زقاقا ، وحوالي 200 كروانسراي (منزل مسافرين) ، 70 خان عمل ومسافرين ، 7000 دكان ، 21 سوقا ، 700 دار تحتوي على حمامات . يعيش في المدينة 178 شاعرا من أصحاب الدواوين . وتحتوي على 4 مطابخ عامة ، 42 كنيسة للأقلية الأرمنية . مازالت كلية جعفر باشا قائمة .

قوملة ، لواء تبريز ، به 11 جامعا ، 59 مسجدا ، أحد الجوامع من بناء فرهاد باشا .

مراغة ، مركز لواء في تبريز ، يحتوي على نحو 7160 دارا ، 11 جامعا ، 60 مسجدا ، 40 خانا ، 40 تكية ، 11 حماما ، 3000 دكان . يتظاهر الشعب التركي بالمذهب الشيعي خوفا ، رغم أنه حنفي .

أردبيل ، مركز لواء يعتبر قريبا إلى بحر الخزر وهو مكان نشوء السلالة الصفوية .

خوي ، مركز لواء تبريز ، بها 7000 دار ، 1000 دكان ، 70 جامعا ومسجدا ، قلعتها التي تستوعب 1000 جندى صفوي تركي ، من بناء الصدر الأعظم فرهاد باشا .

جورس ، مركز لواء آخر على بعد 3 ساعات من خوي . يحتوي على جامعي اوزدمير أوغلو عثمان وحسن باشا .

روان ، مركز إيالة في غرب كوكجه كول فتحها سليمان خان ، ثم فرهاد باشا قائد مراد الثالث العام ، ثم مراد الرابع ، وهي حاليا لدى إيران أيضا . استسلمت في 1604 ، إلى طقماق خان تركمن بسبب المجاعة . ورغم أن مراد خان استرجعها في 8 / 8 / 1635 ، فإنها فقدت أيضا . تحتوي القلعة على 100 مدفع صنع عثماني ، وتحتوي المدينة على 2 600 دار ، وبالإيالة 13000 جندي صفوي .

كنجه ، مركز إيالة آخر لإيران ، مركز إيالة عثماني سابق . فى شمال شرقي كوكجه كول ، وعلى طريق تفليس – باكو ، به 6000 دار ، كل سكانه أتراك .

آراس ، فتحها فاتح قبرص لالا مصطفى باشا ، وجعلت مركز إيالة (إيالة شيروان) (Eres) ، بنى الباشا قلعتها كذلك ، يحتوى المركز على 10 000 دار ، 40 جامعا ومسجدا ، 800 دكان ، 16 حماما . **شكي** ، من فتوحات مصطفى باشا كذلك ، حاليا لدى إيران أيضا ، قلعة ومركز لواء يحتوي على 3000 دارا ، 7 جوامع . جامع مراد الثالث ، وجامعين آخرين عثمانيـي البناء . **نياز آباد** ، مركز لواء يحتوي على نحو 40 جامعا ومسجدا . هدم فرهاد باشا قلعتها . **شماهي** ، مركز إيالة فى إيران . له 48 قضاء ، 70 قلعة ، 1 300 قرية . مدينة ذات 7000 دار صغيرة . مسجدا اوزدمير اوغلو و فرهاد باشا أفخم مسجدين بين جوامعها ومساجدها البالغ عددها نحو 70 . جعل الصفويون حاليا الأول منهما مدرسة . فيها 7 مدارس ، نحو 40 مكتبًا ، 44 كروانسراي (منزل مسافرين) ، خان ، 7 حمامات . **باكو** ، مرفأ على بحر الخزر . له قلعة محاطة بسور ارتفاعه 40 ذراعا . تحتوي على 70 برجا ، 600 مانع (بند) ، وفيها 1070 دارا . مركز لواء في إيالة شيروان (شماهي) . مركز قضائها يشمل 8 نواح . شعبه أتراك وأغلبهم سنّة . اشتهر في ساحل الخزر بمعدن زيت النفط ، يملأ في القرب ويرسل إلى جميع الجهات . يستعمل بكثرة عسكريا في صنع المشاعل التي تشعل وتلقى على

الأعداء . كل قلعه عثمانية تحتوي على مخزون من زيت النفط .

شابوران ، هى المدينة التي فتحها اودمير أوغلو وجعلها لواء في إيالة داغستان ، ذات 70 جامعا ومسجدا . جامع أوزون حسن جميل جدا . يشمل قضاؤها المركزى 8 نواح . ويطلق العرب على **دميرقابو** أسم « باب الأبواب » والإيرانيون « دربند » . وحاليا تسمى على الأكثر دربند . ميناء على الخزر ، أكبر مدينة فى داغستار فتحها اوزدمير اوغلو وسكن فيها مدة طويلة مع 15000 من جنده . حاليا يرابط فيها 9000 جندي صفوي . يحيط بقلعتها سور طوله 11060 ذراعا له 70 برجا ، 7060 موضع سلاح . شاهدت بتأثر أن مدافعها الـ 70 الموجهة نحو بحر الخزر ، عثمانية الصنع ومن نوع باليمز (مدفع بعيد المدى) . إذ إن الإيرانيين لا يمكنهم صناعة المدافع ، ويحصلون عليها أما باغتنامها من العثمانية أو بشرائها من الأوروبيين . لاتباع المدافع العثمانية لاية دولة . بيعها ممنوع ؛ تهدى كمساعدة عسكرية إلى الدول الصديقة فقط . لم تكن إيران في أي وقت من الأوقات في عداد هذه الدول إذ إنها كانت أكبر منافس للعثمانية . لازال حتى الآن سراى أوزدميرا أوغلو الفخم وكليته قائم فى المدينة التى تحتوى على 2 200 دار . الشعب سنّي المذهب ولا يحب الصفويين أبدا ، كلهم محبون للعثمانية وموالون للخليفة ، عدا جنود الصفويين . كانت إيالة شيروان على عهد مراد الثالث ، مؤلفة من 8 ألوية و 71 قضاء حاليا تحت إداراة إيران ومؤلفة من 19 لواء . كانت تجبى من الإيالة فى العهد العثماني ضريبة قدرها 000 700 4 آقجه . توجد فيها قبور عثمانية كثيرة[1] . ورغم أن شعب شيروان وداغستان تحت إدارة إيران حاليا ، إلا أنه أقام قبل مدة الأفراح عند فتح كريت وخانيا وعند ولادة محمد (الرابع) أول مولود (شهزاده) للسلطان إبراهيم .

كوره ، مركز لواء يسكنه 000 10 نسمة . **اوردوبار** ، مركز لواء ذو قلعة كبيرة و 2000 دار .

تفليس (بالعثمانية : Tiflis ، بالكرجيه : Tbilisi) ، أكبر مدينة في كرجستان على نهر كورا . فتحها اوزدمير اوغلو عثمان باشا مع قلاع كرجستان الأخرى البالغ عددها 26 ، كانت مركزا للإيالة . حاليا لدى إيران . تحتوي المدينة على الأتراك الآذريين

(أتراك آذربيجان) أكثر مما تحتوي على الكرج وعلى قبور وشواهد قبور العثمانيين . لكن محيط كرج مسيحي تماما .

كوتور Kotur ، مركز لواء قلعة بين وان وخوي . تداولها الطرفان مرات عديدة جدا ، وانتقلت في المرة الأخيرة في 1640 من العثمانية إلى الصفوية مع مكو .

أورميه ، مركز إيالة في جنوب غرب البحيرة الكبيرة التي تحمل الاسم ذاته ، وعلى الحدود العثمانية ، وفي أقصى جنوب القطر الآذري الكبير . يحيط بها سور طوله 11000 ذراع عرض السور 30 ذراعا وارتفاعه 70 ذراعا . بناه العثمانيون وحاليا لدى إيران . كان بالقلعة 4000 جندي . تجهّز الإيالة 15000 جندي . طول محيط المدينة 17000 ذراع . تحتوي على 8 جوامع ، مساجد كثيرة ، 6 مدارس ، 40 مكتبًا ، 3 تكايا ، 11. خانًا . أن جوامع كازان الهان ، فرهاد باشا ، جعفر باشا ، جغالوغلو سنان باشا ، طواشي سليمان باشا ــ تلفت الأنظار . كان الشعب تركيا سنّيا . يحتوي لواؤه المركزي على 50 مدينة وقصبة ذات قلعة . 41 قرية كبيرة ، ونحو 20 000 مزرعة كروم ، وعلى 12 جزيرة في بحيرة أورميه .

دمدمي ، قلعة صفوية تحتوي على جامع جغالوغلو سنان باشا . **دنبلي** ، مركز لواء في أورميه ، مدينة تركمانية ذات قلعة ، وسوق يحتوي على 3000 دكان ، وأجمل جوامعها الـ 7 الجامع الذي بناه قره قويونلو جهان شاه . **سلماس** ، مركز لواء في إيالة تبريز ، به 3000 دار و 3 جوامع . شعبها أتراك سنّة ، لكنهم لا يصرحون بأنهم سنّة .

سلطانية ، مركز لواء في إيالة خمسة ، في جنوب شرقي زنجان . يعتقد أنه كان فيما مضى مدينة كبيرة جدا ، ولفترة كان مدينة العرش للإلخانيين . يحتوي خارج القلعة حاليا على 1000 دار .

سراف ، مركز لواء مكون من 4000 دار . حاليا لدى إيران ، ولكن تشاهد فيه شواهد قبور ولاة العثمانية مثل بييقلي حسن باشا ، أرسلان باشا ، مصطفى باشا .

نهاوند ، أصبحت لفترة من الزمن مركز إيالة عثمانية . تقع في جنوب همدان ، يحيط بالمدينة سور طوله 13000 ذراع ، ذو قلعة ، ويتكون من 70 جامعا ومسجدا ، 7 مدارس ،

40 مكتبًا ، 6 تكايا ، 40 حنفيه مياه مبنية ، 20 سبيلا ، 7 منازل مسافرين ، 70 سرايا ، 7 حمامات ، 130 قصرا وسوق ذي 1000 دكان . يحتوي قضاؤها المركزي على نحو 150 قرية . حاليا مركز لواء صفوي . يشاهد في قلعتها جامعا عمر رضى الله عنه وهارون الرشيد ، وحمام جغالوغلو سنان باشا .

كنغور Kengur (كنكاور Kengâver) وبيستون ، مدينتان فتحهما جغالوغلو في 1586 و 1590 في شمال غرب نهاوند ، بنى قلعة كل منهما جغالوغلو سنان باشا .

همدان مركز إيالة . يسكنها الأتراك ، في أقصى غرب الإيالة ، ويعتقد أنها كانت فيما مضي مدينة أكبر مما هي عليه الآن ومركزا للإيالات المجاورة المسماة عراق عجم ، وأصبحت مركزا للعرش لبعض الدول (السلجوقيون مثلا) . ولفترة من الزمن ، أصبحت مركزا لإيالة عثمانية . تحتوي الإيالة على نحو 500 قرية . لها قلعة ذات 70 برجا ، 8000 دارا ، سوق شاه فيه 2000 دكان ، 200 قصر ، 7 حمامات ، 11 تكية ، 40 مكتبًا وحوالي 150 حنفية مياه مبنية (جشمة) . المنزل الذي بناه فرهاد باشا أفخم منزل للمسافرين بين منازلها الثلاثة . أبوابه مصنوعة من فولاذ ناهجوان . فيها 3 مطابخ للمحتاجين ، 7 كنائس ، ومعبد لليهود . فيها شاهدا قبري فقي باشا وصحابي باشا . فتحها أولاً في 1533 مقبول إبراهيم باشا ، ثم جغالوغلو سنان باشا ، ثم خسرو باشا ، استرجعها الصفويون .

كرمان ـ شاه ، مركز الإيالة التي تحمل الأسم ذاته . يشكل الأكراد أكثرية شعب الإيالة .

دركوزين ، مدينة تحتوي على 7000 دار ، 7 جوامع ، مساجد كثيرة ، 5 مدارس 15 مكاتب ، 4 حمامات ، 600 دكان ويسكنها حاليا الخان بكلربك كرمان ـ شاه . يلقب ولاة الإيالات البكلربك في إيران بلقب « خان » وأمراء اللواء السنجق بك بلقب « سلطان » . يحتوي قضاؤها المركزي على 6000 مزرعة كروم . فتح دركوزين رستم باشا في 1534 ، وجغالوغلو في 1584 ، وخسرو باشا في 1629 .

دينور أو دينلور ، مركز لواء . فتحه جغالوغلو في 1585 . قلعة متينة ، تحتوي على 500 دار .

قصرشيرين ، مركز لواء صفوي على الحدود العثمانية تماما . يتضح من طول محيطها البالغ 12000 ذراع ، أنها كانت كبيرة جدا . أصابها الخراب بسبب كثرة فقدانها واستردادها بين العثمانيين و الصفويين . وقد أبرمت فيها الاتفاقية الأخيرة التى أنهت في 1639 أكبر حرب عثمانية ـ صفوية . أسس قصبة حلوان الكائنة في شرقها السلطان سليمان القانوني ، وهي آخر موقع صفوي آهل على حدود إيالة بغداد .

قلعة باغ جاح ، بالقرب من همدان ، فتحها رستم باشا في 1534 ، جغالوغلو في 1585 ، خسرو باشا في 1629 . يقوم بإدارتها أمير لواء صفوي يتبعه 3000 جندي .

مهربان ، فتحها للمرة الأخيرة في 1629 خسرو باشا . هي حاليا مركز لإيالة إيرانية كان مركزها إلى عهد قريب **سينة** (سنندج) . يحيطها سور طوله 6000 قدم . بنى قلعتها خسرو باشا .

قم ، مركز اللواء الذي في أقصى جنوب غربي إيالة ري (طهران) . دمّرها الجيش العثماني بأمر السلطان سليمان القانوني ، لم تخضع أبدا لإدارة الأتراك .

كاشان ، أو **كشان** ، دمّرت كذلك بأمر البادشاه ذاته . مركز إيالة بين قم وأصفهان . مركز صناعة الخزف الإيراني .

ينتقل أولياء جلبي في تموز من عام 1666 ثانية من قرم إلى قفقاسيا الشمالية . أنقل لكم فيما يلي بعض المعلومات المدرجة في نهاية مجلّده السابع :

تامان ، مركز لواء في إيالة كفة ، راتب أميره 320 000 آقجه ، فتحه كديك أحمد باشا من الجنويين في 1475 بواسطة اسطول . لا يحتوي على تشكيلات التيمار . ميناء مقابل كرج في جانب قفقاسيا من بوغاز كرج وقلعة بحرية . به 7 جوامع ، مساجد ، 5 تكايا ، 9 مكاتب ، 3 مدارس ، حمامان ، 5 خانات .

تمرك كيرمان ، قضاؤها . بنى قلعتها ياوز « Kermen / Kirmañ » تعني في لغة التتر التركية « قلعة » . رصيف بحري ذو 4 جوامع ومسجدين . أحد جوامعها من بناء

ياوز سليم خان . **صوغوجاق** Svgucak (Sovucuk) ، مركز ناحية ذو 400 دار ، وجامع ، 3 مساجد . فيها سلسلة من القلاع العثمانية كلها مراكز ناحية .

تسلّطت روسيا على الولايات الإسلامية التركية منذ 110 ستين . صغرت الآن المدن التركية الكبيرة ، وتهدمت أكثرية الجوامع ، وبدأ الروس بالاستيطان . فمثلا تبلغ حاليا نفوس استرخان Astirhân (Ejderhan) مركز إحدى الإمارات (خانلق) والميناء النهري في دلتا نهر الفولغا الذي كان تابعا في حينه للعثمانية ، 000 40 نسمة ، ويبلغ عدد المسلمين نصف هذا العدد فقط ، بقي فيها 7 جوامع ، بني فيها 49 كنيسة و 22 ديرا . وتقريبا نصف نفوس **سراي** عاصمة خاقانات ألطون أوردي الواقعة على نهر الفولغا مُسلمون ، فيها 7 كنائس . إن كامل شعب **قازان** مركز الإمارة التي تبعت العثمانية كذلك فى السابق مسلمون ولكن فيها 000 10 جندي روسي . بقي فيها 7 جوامع وبنيت 20 كنيسة . وفي **ألاتر** Alatir ، إحدى المدن التترية الكبيرة القديمة ، حوّل 77 جامعا إلى كنائس و لم تبق إلا 7 جوامع . وفى مدينة **أوفا**Ufa (Mujik) في باشكردستان ، مازال هناك 50 جامعا رغم تحويل 20 جامعا إلى كنائس وأديرة . وتحتوى المنطقة على 000 20 جندي روسي . لكن نحو نصف مليون تتري مسلم يسكنون هذا القطر . ويسمى الموقع الذي تتقارب فيه استدارة نهر الدون (بالتركية : Ten) مع نهر فولغا (بالتركية : Idil) الذي يقابله ، **ترك** Turk أو **أورو** Oru أو قلاج Kalaç . وتعني « الخندق العثماني » . أمر سليم الثاني في حينه بحفر القناة المشهورة في هذا الموقع . بقيت مسافة أقل من ساعتين لالتقاء النهرين كلاهما مع الآخر . ومازالت ترى تلال التراب المكومة على الجانبين . استخدم في هذه العملية 000 100 عامل . ألقى سليم خان مسئولية عدم إكمال حفر القناة على الصدر الأعظم صوقوللو ، وألقى صوقوللو بدوره مسئولية ذلك على خان قرم محمد كيراي الذي أعدمه شنقا في سوق مدينة كفة .

آزاك ، مركز لواء في إيالة كفة . قلعة وميناء في حوض نهر الدون ، وعلى مقربة من نهاية رأس بحر آزاك ، يتجمّد بحر آزاك من 7 إلى 8 أشهر في السنة . ويعتبر اللواء من الألوية الكبيرة نوعا ما حيث يتقاضى أميره 000 400 آقجه . الرتب الحالية للوالي

(بكلربك) و لمعاونة ، فريق أول (بكلربك) . يرابط في اللواء 13000 جندي ، 4000 منهم إنكشاريون ، 2000 جيبه جي (صنف تجهيز الأسلحة) ، 2000 مدفعيون . يبدل هؤلاء مع الوحدات الجديدة القادمة من استانبول سنويا . قلعة كبيرة جدا . المسافة بين بابيها على امتداد نهر الدون 10 000 ذراع . فيها 2 400 دار . وتحتوي القلعة على جامع بايزيد الثاني . باشا سراي ذو الـ 55 غرفة ، واسطبله يستوعب 100 حصان .

سد إسلام ، القلعة الجديدة التي بناها محمد الرابع مع جامع واحد . وعلى مسافة قريبة منه شاه كوله سي (برج شاه) الذي بناه السلطان نفسه ، وقلعة « سلطانية » التي بنتها والدته ، والدة - سلطان . لا يتمكن القوزاق الاوكرانيون المعتادون على السطو والنهب ومغول قالمق البوذيون من اجتياز نهر الدون والوصول إلى بحر آزاك بفضل هاتين القلعتين : إذ إن هاتين القلعتين متقابلتان على نهر الدون ولا يمكن اجتيازهما عنوة من خلال نيران المدفعية المتقابلة .

20 - العراق

موقع العراق في أقصى شرق العالم العربي . يحده شرقا إيران . كانت إدارته لدى السلالات التركية من 1055 إلى 1918 : السلجوقيون ، الإيلخانيون ، الجلايريون ، التيموريون ، قره قويونلولر (أصحاب الخرفان السود) ، آق قويونلولر (أصحاب الخرفان البيض) ، الصفويون . ضم السلطان سليم العراق الشمالي الذي أخذه من الصفويين في 1515 إلى إيالة دياربكر التي أسسها في السنة ذاتها . وبعد مضي 20 عاما أسس ابنه السلطان سليمان إيالة بغداد ، بعد أن استولى على العراق كاملا من الصفويين . وعند تأسيس هذه الإيالة ضم العراق الشمالي أيضا إلى بغداد . وبعد مدة أسست إيالة البصرة بانفصالها عن إيالة بغداد ، وإيالة لحساء بانفصالها عن إيالة البصرة كانت إيالة لحساء تشمل غرب خليج البصرة ، أما إيالة البصرة فكانت تشمل سواحله الشمالية . ثم انفصل العراق الشمالي كذلك وأسست منه إيالة شهر زور أو كركوك أو موصل . خضعت جزيرة بحرين إلى العثمانية في 1559 (Muhimme ، 3 ، 364 ، 366) .

كانت درجة إيالة بغداد في التشريفات العثمانية الخامسة ، أما اليمن فكانت السادسة ، سورية السابعة . أسست إيالة لحساء في 1554 بعد انفصالها عن البصرة . كانت تشمل 6 ألوية . لحساء ، قطيف ، بادية ، عيون ، صفوة ، تهمية . وكانت هذه الألوية تشرف على العشائر في نجد كذلك . القطيف كان لواء بحريا ، فتحه والي البصرة علي باشا في 1550 . أول وال (بكلربك) على لحساء بييق اؤغلو مصطفى باشا ، توفي في جزيرة بحرين في ك 1/ 1559 ودفن فيها بعد تقلده منصب الولاية لمدة 5 أعوام . عين لهذا المقام عندما كان أمير للواء طرابزون . وعين مكانه واليا على لحساء أولاً ، أبوه بييقلي محمد باشا الذي كان أميرا لآق قويونلو (أصحاب الخرفان البيض) ثم أصبح وزيرا للسلطان ياوز سليم وفتح دياربكر . ثم عين مراد باشا وأعقبه أوزدمير اؤغلو عثمان باشا .

أخذ العثمانيون بغداد في 28 / 11 / 1534 ، والبصرة في 1538 ولأول مرة في ذلك التاريخ يلجون خليج البصرة وقد كان هذا بعد ولوجهم البحر الأحمر بمدة طويلة . وفي 1538 أعلن شيخ جزيرة هرمز العربي ، الكائنة على بوغاز هرمز ، خضوعه وتبعيته للعثمانية ، وعرض فى العام ذاته كل من شيخ قطيف وشيخ البحرين خضوعهما للعثمانية . وفي 26 / 12 / 1546 ، أسست إيالة البصرة . كانت تتألف من 22 لواء : بصرة ، غرّاف ، حمّار ، مدينة قرنة ، رحمانية ، زكيه ، فتحيه ، صدر سويب ، طرة ، جزاير ، زرنوق ، ابو عربة ، معدن ، كنكد ، واقع ، جاروز ، طاشكوبر ، آقجه قلعة ، آرجا ، محّرى ، رملة ، شرير . كان ميناء البصرة يحتوي على معمل تصليح وصنع السفن ، وله أمير لواء بحري . كانت الأخشاب تنقل إلى البصرة عن طريق بيره جك . وفي 1563 كانت 5 سفن حربية مرفوعة على الأعمدة في حالة إنشاء (Simao da Costa ، 5 ، 141 ـ 2) . تأسس اللواءان البحريان رملة وقطيف في 1577 لم تؤسس تشكيلات ألتيمار في إيالة لحساء كاملة وفي معظم ألوية إيالة البصرة . إذ لم يكن في هذه الأقطار سكان أتراك ، وإنما كان السكان كلهم عربا . أما أئمة عمّان ، فإنهم كانوا يتبعون العثمانية اسما للاطلاع على عرض وتأييد تبعيّة إمام عمان للبادشاه في 1780 ، انظر جودت باشا ، 2 ، 148 ـ 9) .

انضمت بعد ذلك إيالة لحساء ثانية إلى إيالة البصرة . كانت العراق تنقسم في عهد التنظيمات ــ كبقية أقطار غرب خليج البصرة ــ إلى 3 إيالات ، بغداد ، بصرة ، موصل . استمرت على هذا الوضع حتى 1918 . تعطى أحيانا إدارة إيالتين وأحيانا إدارة ثلاث إيالات لعهدة وال واحد . كانت بغداد مركزا للجيش السادس . إن كان والي بغداد عسكريا (مشيرا) ، يعطى الجيش لأمره . احتل الإنكليز البصرة في الحرب العالمية الأولى يوم 21 / 11 / 1914 ، بغداد في 11 / 2 / 1917 ، الموصل في 3 / 11 / 1918 وانهوا الحكم العثماني في البلاد .

تمكن أولياء جلبي من زيارة بغداد فقط ومر بعدة أماكن أخرى . خصص نهاية مجّلده الرابع لجولته في العراق . ومن الممكن أن تعطينا كتابته فكرة عن وضع القطر في أواسط القرن 17 (ك 2 / 1656) :

درتنك ، مركز لواء في إيالة بغداد . لواء كبير يتقاضى أميره 430000 آقجه و 20 كيسة مخصصات . نحو 90 قرية تتبع قضاءه المركزي . تحتوي قلعته على 300 من أفراد الحرس . وتأتي **درنة** على بعد 9 ساعات من درتنك نحو القبلة ، مركز لواء كبير في إيالة بغداد . يتقاضى أمير لوائها راتبا قدره 406931 آقجه . يحتوي اللواء على مايقرب من 1000 جندي .

كيلان ، مركز لواء في بغداد ذو راتب 000 200 آقجه .

صالح ، مركز لواء آخر في بغداد راتبه 000 200 آقجه

قره داغ ، مركز أحد الألوية الكبيرة لإيالة بغداد ، راتب أميره 387 884 آقجه ، لواء وراثي . **زنكاباد** ، مركز أحد ألوية بغداد راتب أميره 000 270 آقجه . يحتوي اللواء على نحو 1000 جندي ، ويتبع قضاءه 70 قرية . **بيات** ، مركز ألوية بغداد ، راتب أميره 000 200 آقجه ، يقيم فيه التركان من قبيلة بيات . الشاعر فضولي بغدادي ينتسب إلى هذه القبيلة . **يني قصبة** مركز لواء في بغداد راتب أميره 000 260 آقجه ، 86 قرية تتبع لقضائه المركزي . يحتوي هذا اللواء على تشكيلات التيمار .

كرند ، مركز أحد ألوية بغداد راتب أميره 926 230 آقجه .

بغداد ، إحدى المدن الشهيرة المعدودة في الكرة الأرضية . إذ إنها أصبحت مدينة العرش للعباسيين ومركزا للمسلمين وأكبر مدينة في العالم مدة 5 قرون . أسست في الضفة الشرقية من دجلة . ويجرى نهر ديالي في جانبها الشرقي . فتحها السلطان سليمان خان القانوني من الشيعة الصفويين (28 / 11 / 1534) وسدد لقبري الإمام الأعظم والشيخ عبد القادر الكيلاني فقط مبلغ 000 100 ليرة ذهبا . ثم تعرضت بغداد مجددا للاحتلال الصفوى لمدة 15 سنة . استرجعها مراد خان الرابع بعد خوضه أكبر معركة شهدها عصرنا . حاصر مراد خان بغداد بجيش يبلغ عدده 000 170 جندي لمدة 40 يوما و 40 ليلة دون أن يتوقف إطلاق النار دقيقة واحدة . استشهد الصدر الأعظم طيار محمد باشا . كان في المدينة 11 خانا صفويا (بكلربك = فريق أول) ، 70 سلطانا صفويا (سنجقبك = لواء) ، 000 110 جندي صفوي ، 000 30 من أرباب الحرف الصفويين . استسلمت المدينة بعد مقتل 87000 جندي صفوي . أنفق مراد خان مبالغ كبيرة لإصلاح الدمار الكبير الذي أصاب المدينة . كساكل قبر الإمام الأعظم أبو حنيفة الذي كان الصفويون يحّقرونه ويستهزئون به كلما مروا عليه في ذهابهم وإيابهم ، بالفضة وزيّنه بمئات القناديل والثريات الذهبية ذات الأحجار الكريمة . كما أولى العناية ذاتها لإعادة إنشاء قبور : الإمام موسى الكاظم ، الشيخ عبد القادر الكيلاني ، الشيخ شهاب الدين السهروردي . أصلح القلعة وكل الأبنية . ارسل جميع حكام العرب في نجد وعمّان 130 مفتاح قلعة إلى الخاقان خلال وجود مراد خان في بغداد ، معلنين طاعتهم . حضر إلى بغداد نحو 600 من شيوخ العرب واستقبلهم الخليفة ، كان بعضهم من حضرموت واليمن . خصص السلطان مراد لقلعة بغداد 8000 إنكشاري ، 2000 جيبه جي ، 2000 جندي مدفعية وركز أكثر من 1000 مدفع . أعاد التنظيم الإداري لإيالة بغداد وجعلها 18 لواء . وأسس تشكيلات ألتيمار في 7 ألوية منها (بغداد ، حلّة ، زنكآباد ، جوارز ، رماحّية ، جنكوله ، قره داغ) . أما الألوية الخالية من نظام ألتيمار فهي : درتنك ، سماوات ، بيات ، درنة ، واسط ، كرند ، دميرقابو ، كيلان ، صالح ، قرانيه ، مهبالا . ودمج لواء عمادية الوراثي في الشمال بإيالة شهرزور . أعاد تنظيم تشكيلات إيالتي البصرة في جنوب بغداد ولحساء التي في جنوبها . أكسب الديار العربية التي تعتبر درر الخلافة والسلطنة العثمانية ، الأهمية التي تستحقها ونفخ فيها روحا جديدة

بحيث يخال أن عهد جديه السلطان سليم والسلطان سليمان قد عاد من جديد . بغداد من الإيالات الكبيرة . راتب الوالي (الوزير) 16 000 آقجه . يرابط في الإيالة 40 000 جندي تتجاوز مصروفات هذا الجيش الصغير السنوية 320 مليون آقجه .

وفي الحملات الإيرانية تعطى القيادة العامة للجيش إلى والي بغداد الذي يكون وزيرا على الأغلب ، ويخضع كل ولاة الإيالات القريبة من إيران لأمره . قاد 3 سلاطين فقط حملات همايونية على إيران ، السلطان ياوز سليم حملة واحدة ، ابنه السلطان سليمان القانوني 3 حملات ، السلطان مراد الرابع حملتين . أما الحملات الأخرى فقد قادها الصدور العظام والوزراء القواد . إذ إنها لا تشبه الحملات الأوروبية ، فهي بالغة المشقة وتستمر مدة طويلة . أما حملة السلطان محمد الفاتح ، فإنها لم تكن تجاه الصفويين ، بل تجاه آقويونلولر (أصحاب الخرفان البيض) والأناضول الشرقية . كان يلدرم بايزيد خان قد وصل قبلها إلى الاناضول الشرقية ، لكنه لم يذهب إلى إيران . يتسلم قاضي بغداد 500 آقجه في اليوم + 800 000 آقجه في السنة + 10 000 ليرة ذهبا في السنة راتبا ومخصصات . وآغا الإنكشارية في بغداد يتسلم 1500 ليرة ذهبا راتبا سنويا + 50 000 ليرة ذهبا مخصصات سنوية . يتقاضى موظفو المالية الأول والثاني للإيالة سنويا مبلغ 100 000 و 80 000 آقجه . أمراء ألوية (سنجق بك) الإيالة يتقاضون مبالغ تتراوح بين 200 000 (4 ألوية) و 951000 آقجه (حلة) في السنة .

يحيط بمدينة بغداد سور طوله 28000 ذراع . لكن المدينة امتدت خارج السور بشكل واسع النطاق . قلعتها احدى أكبر قلاع الإمبراطورية . عرض خندقها 60 ذراعا . مجرى دجله ، ميناء من أوله إلى آخره . ارتفاع السور 60 وعرضه من 10إلى 15 ذراعا . تسمع الموسيقى العسكرية التي تعزفها 8 فرق من دار الموسيقى العسكرية (مهترخانه) ، من القلعة الداخلية ، من الأعظمية . وطبل المهتر الكبير الذى يصعد إليه بثلاث درجات من السلم أمر يستحق المشاهدة . له دوي يهز الأرض والسماء . وصلت شهرته إلى استانبول وسمّي « كوس بغداد » أى طبل بغداد . لايوجد طبل يفوقه حجما . تحتوي على 665 جامعا ومسجدا . يسمى حاليا جامع سليمان خان

الموجود داخل القلعة ، باسم جامع مراد خان ، حيث هو الذي جدّده . بنى سليمان خان جامع الشيخ عبد القادر الموجود داخل المدينة . الآثار المتبقية من العباسيين والسلالات الحاكمة قبل العثمانية كثيرة إلى درجة لايمكن إحصاؤها . مدرستا المرجانية والخلفاء ، تقدّمان دروسا عالية . تحتوي على مدارس ومكاتب كثيرة جدا ، نحو 700 تكية أكثرها صغيرة ، 300 دورة مياه وسبيل تحصل على مياهها من دجلة . أن أجمل الأبنية الحاوية على الحنفيات (جشمة) ، هى التي بناها العثمانيون . إن تكيتها المولوية تستلف النظر بين تكاياها الأخرى . في المدينة 24 منطقة . نحو 150 سراي وما يقرب من 350 قصرا تحتوي على حمّامات خاصة . سوق بغداد ، يشمل 2000 دكان . وعدا ذلك أسواق كثيرة جدا ، وسوق لبيع التحف الثمينة . يمكن شراء أثمن السلع الموجودة في قارة آسيا من سوقها هذا . معظم الحمامات والمطابخ العامة بناء عثماني . بنى سليمان خان مطابخ للمحتاجين بكل من مراقد الكيلاني ، السهروردي ، موسى الكاظم وأبو حنيفة التي أعاد إصلاحها بشكل شامل كأنها شيدت من جديد . وينبغي أن نضيف أن بمدينة بغداد 8 كنائس و 3 معابد لليهود . تتكون الإيالة من 75 قضاء . اشتهرت عالميا سيوف بغداد ، مصنوعاتها من جلد الغزال ، منسوجاتها ، مصوغاتها ، مصنوعاتها النحاسية ، وهي تباع بأسعار جيدة في كل أنحاء العالم . معظم الشعب من العرب السنة والشيعة . الأتراك كثيرون جدا كذلك . ويوجد قليل من الأكراد ، العجم ، اليهود ، الأرمن . وفي شرقها طاق كسرى ، من بقايا الآثار الساسانية . جسر بغداد ، جسر كبير صُنع منْ شد 45 قطعة من السفن جنبا لجنب ، يصرف مبلغ 3000 قطعة ذهبية سنويا لصيانة الجسر . توجد أنقاض كثيرة في الأطراف . إن أطلال المدائن مشهورة ، وهي التي كانت مدينة عرش الساسانيين . تربية الحمام في بغداد مهنة كبيرة انتقلت عن العباسيين . هناك أنواع من الحمام تباع بسعر 250 قطعة نقود ذهبية ؛ إذ إنه يحمل الرسائل ويعيد أجوبة الرسائل بسرعة لا تصدق . لا يخطىء في المكان الذي يحط فيه في المدينة ، ولا يمكن أبدا القبض عليه . يذهب ويعود إلى الهند ، اليمن ، فاس ، مصر ، جزائر ، تونس ، وإلى المدن الحجازية المختلفة . تسمى المراسلة بواسطة الحمام « بريدا » . **الأعظمية** ، خارج بغداد على مسافة قريبة منها . بنى قلعتها سليمان خان . فيها قبر الإمام الأعظم أبو حنيفة الفخم . بناه سليمان خان مع كلية فخمة . وجدّده مراد خان

محاط بسور طوله 8000 ذراع . صرفت مبالغ كبيرة بسبب استهلاك كمّيات كبيرة من الذهب ، والفضة والأحجار الكريمة . يدخل إليه كما لو كان المرء يدخل إلى خزينة .

كاظمية ، ضاحية خارج بغداد وأبعد من الأعظمية ، فيها قبر الإمام موسى الكاظم . ـل يقدسه الشيعية ، وتجله السنة كذلك إجلالا كبيرا . القبر من بناء هارون الرشيد إلا أنه جدّد بعده . جدده للمرة الأخيرة سليمان خان ومراد خان . جميع جوانبه مزينة بالفضة ، والذهب ، والأحجار الكريمة . يؤمه زوار كثيرون من إيران . تحتوى القصبة على نحو 2000 دار ، مايقرب من 300 دكان وآثار خيرية كثيرة . يرقد بجوار موسى الكاظم (رضي الله عنه) حفيده الإمام التاسع محمد التقي (رضي الله عنه) الذي توفي في سن 21 . والقسم الأبعد من بغداد صحراء وتحتوي على أسود .

21 – سورية وفلسطين :

فتح السلطان سليم سورية ولبنان ، فلسطين ، الأردن من المماليك في 1516 ، وألحقها بالدولة العثمانية . أسس ياوز إيالة شام على هذه الأراضي (27/ 9 / 1516) . وأما في سوريا الشمالية فقد أسست إيالة حلب (28/ 8 / 1516) . وألحقت بهذه الإيالة بعض الألوية من الأناضول . أما شطر سورية في شرق الفرات فقد أصبح إيالة رقّة (أورفه) التي ذكرناها في حديثنا عن الأناضول الشرقية ، ثم تجزأت إيالة شام (سورية) . ونحو 1620 ، انفصلت الوية طرابلس ، حماه ، حمص ، جبله ، سلمّيه (بضم الحرف الأول وفتح الثاني) وأسست إيالة طرابلس الشام (نعيما ،2 ، 242) . وانفصلت بعدها لبنان وفلسطين وأسست إيالة صيدا . وفي عهد التنظيمات ، كان يوجد عدا إيالات سورية (شام) ، بيروت ، الأناضول مع الويتها وحلب ؛ لواء القدس الشريف الذى لم يكن مرتبطا بأية إيالة وكان تابعا لنظارة الداخلية بصورة مباشرة كالإيالات . ثم تأسس بعد ذلك في جبال لبنان ، لواء جبل لبنان المستقل ذاتيا .

حجّاج كثيرون كانوا يقدمون من أوروبا إلى القدس ، كما كان ذلك في عهد الأمويين ، العباسيين ، الفاطميين ، السلجوقيين ، الزنكيين ، الأيوبيين ، المماليك كانت الدولة في 1626 تتقاضى من كل حاج 5 آقجه (12 دولارا) كرسم دخول .

كان الشام في العهد العثماني مركزا صناعيا ، وحلب مركزا تجاريا . والمدينتان ذواتا حركة وفعالية كبيرة . كان في حلب في القرن 17 _ 4 قناصل لدول أوروبية (1619) ، وتجار من جميع أطراف العالم ومن الهند وأوروبا ، 16000 من السكان الروم الأرثوذكس ، 12000 أرمن غريغوريان ، 000 10 سرياني ، 000 10 ماروني كاثوليكي عربي ، وعدا ذلك عدد كبير جدا من العرب والأتراك ، 120 جامعا ، 40 كروانسراي (منزل مسافرين كبير) ، 355 خانا ، نحو 50 حماما عموميا ، وتحتوي الإيالة بأكملها على 000 250 عربي كاثوليكي وليفانتن (Tavernier ، 123 _ 5 ؛ Simeon ، 154 _ 5)

وفي عهد التنظيمات سميت الإيالة « إيالة سوريا » بدلا من تسميتها « إيالة شام » احتلت الإنكليز شام في 1 / 10 / 1918 ، وحلب في 27 / 10 / 1918 وانفصلتا عن الدولة العثمانية ، وسقطت بيروت كذلك في الشهر ذاته . أسست إيالة بيروت في 1883 بانفصالها عن إيالة سورية . كانت إيالة سورية في 1882 تتكون من ألوية شام ، بيروت ، طرابلس ، لاذقية ، عكا ، حماة ، بلقاء ، حوران . ولما كان عدد نفوس الذكور في هذه الإيالة 987 405 شخصا ، فإنه يتضح من ذلك أن عدد النفوس الكلي يبلغ نحو 000 1600 نسمة . تحتوي الإيالة على 3390 قرية و 29 قصبة، لم تصبح ناحية ، 78ناحية، 29 قضاء، 8 ألوية . كان عدد نفوس الرجال (البالغين) في مدينة شام يبلغ 605 38 (976 31 مسلما ، 1816 روميا أرثوذكسيا ، 2050 رومي كاثوليكيا ، 115 عربيا مارونيا ، 17 روميا برتستانتيا ، 54 سريانيا ، 158 سريانيا كاثوليكيا ، 123 ارمنيا غريغوريانيا ، 126 ارمنيا كاثوليكيا ، 65 أوروبيا كاثوليكيا و 115 2 موسويا) . يمكن تقدير عدد نفوس المدينة بـ 000 194 نسمة . أما عدد نفوس الرجال البالغين في الإيالة فقد كان 000 331 مسلم ، 671 38 روميا أرثوذكسيا ، 309 17 روميين كاثوليكيين ، 13800 ماروني عربي كاثوليكي ، 547 بروتستانتيا (رومي ، أرمني ، ليفانتن) ، 645 سريانيا ، 162 سريانيا كاثوليكيا ، 513 أرمنيا غريغوريا ، 217 أرمنيا كاثوليكيا ، 268 اوروبيا كاثوليكيا ، 3043 موسويا . كانت قد حدثت في الإيالة أجمعها خلال شهر آيار 1881 ، 3 جرائم قتل ، لكن حدثت خلال شهر أيلول 22 جريمة قتل ، 17 حادث سرقة ، وحادث هتك عرض واحد

كانت إيالة حلب في 1902 ، تتكون من 3 ألوية (حلب ، أورفة ، ماراش) ، 24 قضاء ، 88 ناحية ، 3769 قرية ، 415 محلة . كان لواء حلب ينقسم إلى 14 قضاء ، أورفة 5 ماراش 5 . كانت مدينة حلب مكونة من 106 محلات ، أورفة 51 ، ماراش 42 ، عينتاب 82 ، مدينة كيليس 43 محلة . كانت ولايتا غازى عنتب وهاتاي الموجودتان حاليا في تركيا ، تابعتين إلى لواء حلب المركزي ، هذا عدا أورفة وماراش . وبالنسبة لعدد نفوس عام 1899 ، فقد كان عدد نفوس الإيالة 443 858 (992 747 مسلما ، 712 51 أرثوذكسيا غريغوريانيا أرمنيا ، 212 11 كاثوليكيا أرمنيا 635 10 بروتستانتيا أرمنيا ، 8377 أرثوذكسيا روميا ، 408 8 كاثوليكيين روميين ، 395 مسلما غجريا ، 694 9 موسويا ، 4595 أجنبيا ، 773 كاثوليكيا ليفانتنيا ، 1897 كاثوليكيا مارونيا عربيا ، 2584 أرثوذكسيا سريانيا ، 164 أرثوذكسيا كلدانيا ، 18 سريانيا قديما ، مجموع المسلمين السنّة 387 78 ، ومجموع عدد غير المسلمين 854 109 كان الشام مركزا للجيش الهمايوني الخامس .

كانت الدولة قد حصلت ضرائب في 1899 ، من لواء حلب 276500 ، من أورفة 319 63 ، من ماراش 57043 ليرة ذهب . وصرفت من مجموع هذه الضرائب البالغة 863 396 ، 67153 ليرة ذهب في المنطقة التي جمعت منها الضريبة . وانتقلت البقية إلى نظارة المالية في استانبول . استحقاقات البادشاه الخاصة خارج هذا المبلغ ، أما المبالغ المصروفة على لواء الشام المركزي فإنها كانت تتعدى بكثير إيرادات هذا اللواء حيث كانت ترسل البقية من استانبول .

كان عدد النفوس في 1899 ، في مدينة حلب 561 108 وكانت المدينة تحتوي على 549 10 دارا وقصرا ، و قصر حكومي واحد ، قلعة ، تكية ، مخزن عسكرى ، مستشفين ، 19 مركز شرطة ، 106 محلات ، 169 جامعا ، 182 مسجدا ، 19 تكية ، مدرسة ثانوية ، مدرسة متوسطة عسكرية ، مدرستين متوسطين ، مدرسة صناعة ، 90 مدرسة ابتدائية ، 32 مدرسة ، 39 مكتبا لغير المسلمين ، 3 مدارس بنات ، كلية فرنسية ، 21 ضريحا مشيّدا ، 21 كنيسة وديرا ، 3 معابد لليهود ، 77 سبيلا ، 40 حماما ، 76 حنفية مياه مبنية (جشمة) ، داري توقيت ، برج ساعة واحد ، 7

مكتبات ، 7635 دكانا ومخزنا ، 23 صيدلية ، مطبعتين ، سوق تحف 113 خانا ، 29 طاحونة مائية ، 128 طاحونة تديرها حيوانات ، 109 أفران ، 2915 آلة حياكة يدوية (تزكاه) ، 4 مكابس ، 8 ورش دباغة ، 27 ورشة طبع الأقمشة ، 97 مقهى ، 129 معمل صباغة ، 12 معمل صابون ، 15 مصنع سباكة معادن ، 4 مصانع للأنسجة القطنية ، 4 معامل مشروبات كحولية ، 5 كازينوهات ، 38 حانة مشروبات ، 577 مزرعة كروم ، 373 حديقة ، 1885 عرصة ، 12 جسرا ، مستشفيين للأمراض العقلية ، 3 معامل أوان فخارية ، 20 معمل كلس ، مذبحين (سلخانة)

ومدينة أورفة في 1899 كانت تحتوى على : قصر حكومي واحد ، ثكنتين ، 3 مراكز شرطة ، مستشفى واحد ، 58 جامعا ومسجدا ، 4 تكايا ، 11 كنيسه وديرا ، معبد يهودي واحد ، 31 مدرسة ابتدائية ، مدرسة متوسطة ، 11 مدرسة ومكتبة ، 342 9 دارا وقصرا، 2052 دكانا ، 32 خانا ، 18 فرنا ، 43 حنفية مياه مبنية وسبيل ، 14 حماما ، 51 طاحونة ، معمل واحد ، 295 عرصة وحديقة ، 4 مروج .

وكانت مدينة ماراش في التاريخ ذاته تحتوى على : قصر حكومي واحد ، مخزن عسكري واحدة ، قلعة واحدة ، ثكنة واحدة ، 10 مراكز شرطة ، 55 جامعا ، 50 مسجدا ، 8 مدارس (دينية) ، 5 تكايا ، كنيسة واحدة ، مدرسة متوسطة واحدة ، 30 مدرسة ابتدائية ، مكتبة واحدة ، 9 كنائس ، ودير ، 20 مكتبا للمسيحيين ، 192 7 دارا وقصرا ، 42 محله ، 1638 دكانا ، سوق تحف واحد ، 41 فرنا ، 150 حنفية مثبتة على بناية (جشمة) ، 12 حماما ، معملي صابون ، 75 طاحونة ، 285 آلة حياكة ، 300 آلة لحياكة الأقمشة الصوفية السميكة ، 4 صيدليات ، معملي قطنيات ، معملي بكرات ، دار توقيت واحدة ، 12 خانا ، 552 حديقة .

وكانت مدينة غازى عنتب في التاريخ ذاته تحتوي على : 986 6 دارا وقصرا ، 38 جامعا ، 57 مسجدا ، 21 مدرسة ، 7 تكايا ، مدرسة متوسطة واحدة ، مدرسة أيتام واحدة ، 20 مدرسة ابتدائية ، كلية أمريكية واحدة ، 5 كنائس ، معبد يهودي واحد ، 31 حماما ، 320 2 دكانا ، 4 أسواق تحف ، 15 خانا ، 30 فرنا ، 6 ورش دباغة ، 45 مصبغة ، 11 طاحونة ، 8 معامل مشروبات كحولية ،

طاحونة واحدة تعمل بإشعال النار ، 5 معامل صابون ، مكتبة واحدة ، مستشفى واحد ، قلعة واحدة ، مخزن عسكري واحد ، مخزن عتاد واحد ، قصر حكومي واحد ، 210 2 آلة حياكة .

وكانت مدينة أنطاكية في التاريخ ذاته تحتوى على : قنصلية لدولة واحدة ، معاونية قنصلية لأربع دول ، قصر حكومي واحد ، ثكنه واحدة ، 120 جامعا ومسجدا ، 27 مدرسة ومكتبة ، 5 تكايا ، مدرسة متوسطة واحدة ، 39 مدرسة ابتدائية ، 7 مدارس للأقليات ، 3348 دارا وقصرا ، 15 كنيسه وديرا ، 5 حمامات ، 2093 دكانا ومخزنا ، 24 خانا ، 122 طاحونه ، 32 فرنا ، 30 حنفية مياه مبنية ، 11 مصنع صابون ، 29 معمل خيوط ، 520 1 مخزن غلّه (عنبر) ومخزن تبن ، 420 2 حديقة وعرصة .

ومدينة كليس في التاريخ ذاته ، كانت تحتوي على : قصر حكومي واحد ، مخزن عسكري واحد ، 4700 دار وقصر ، 34 محله ، 37 جامعا ، 14 مسجدا ، 24 تكيه ، 8 مدارس ، مدرسة متوسطة واحدة ، 25 مدرسة ابتدائية ، 4 كنائس ومعبد واحد لليهود ، 5 حمامات ، 59 طاحونه ، 3 اسواق تحف ، 3 مصانع صابون ، 31 فرنا ، 50 خانات ، 638 1 دكانا ومخزنا ، 72 مصنع بكرات ، 48 مقهى ، 10 مصابغ ، 5 خانات مشروبات ، 120 آلة حياكة ، 5 صيدليات ، 23 حنفية مياه مبنية (جشمه) .

أورد فيما يلي بعض المقتطفات من بداية المجلد 3 لأولياء جلبي الذي يبين فيه الوضع عام 1649 :

حما ، مركز لواء في إيالة طرابلس . أخذها سليم خان من المماليك كما أخذ كامل سورية وفلسطين . أصبح كوزلجه قاسم بك الذي عيّنه كأول أمير لواء ، وزيرا بعد ذلك . وقونيه لي مصلح الدين حجابي افندي الذي عيّنه أول قاض ، هو زوج أخت شيخ الإسلام كمال باشا ـ زاده . راتب الأمير 360 354 آقجه . له نحو 2000 جندي . يوجد على نهر العاص نحو 1000 دار ، سراى عرنووط محمد باشا ذو 300 غرفه وحمّامين ، 7 جوامع ، ومساجد عديدة ، عدة مدارس ، 72 مكتبا ، وتكايا ، 7 خانات ، 181 قصرا . إن جامع عبيدة بن الجراح وهو من العشرة المبشرين ، وجامع كوزلجه قاسم ، جامعان جميلان .

حمص ، مركز لواء آخر للإيالة ذاتها ، بمسافة 6 ساعات نحو جنوب حما . راتب أميرها 290 220 آقجه . تجهز حوالي 2000 جندي سباهي . قلعتها متروكة لحالها ، إذ إن البدويين امعنوا في تخريبها . تحتوي على 4 مدارس ، 7 مكاتب ، منزل مسافرين ، 3 خانات ، 3 تكايا حمام .

قطيفه ، مركز قضاء . فيها كروانسراي قوجا سنان باشا الذي يستوعب 10 000 شخص ، واسطبلاته منظمة بحيث يمكنها استيعاب 5000 حيوان . نموذج مدهش للحضارة العثمانية وسط الصحراء . يحيط به منشآت ، أقسام ومرافق (كلية) كاملة

رياق ،قلعة ، مركز لواء في إيالة شام في شمال غربي الشام . راتب أميرها 485 253 آقجه وتجهز 150 1 جنديا سباهيا

بعلبك ، مركز قضاء في شمال شرقي رياق . قلعته موجوده . تحيط بها انقاض المدينة الفخمة

زيداني ، **قلعة مركز قضاء على طريق شام** ـ بيروت وتليها في الخطة التالية قلعة قاسمية على البحر الأبيض التي بناها كوزلجه قاسم باشا

صور ، ميناء وقلعة على البحر الأبيض ، قضاء في لواء صيدا قصبة صغيرة تحتوي على 300 دار ، 3 محلات ، جامع . محيط القلعة 6000 ذراع وهي مدينة تير Tir القديمة

عكا ، قلعة وميناء على البحر الأبيض في أقصى الجنوب في شمال فلسطين . محاطة بـ 7 طوابق من الأسوار التي يبلغ طولها 9000 ذراع . بني فاتح قبرص قوجا سنان باشا في القلعة ، البرج الذي . . . محيطه 800 ذراع . فيه جامع سليمان خان وكلية قوجا سنان باشا ذات الجامع . . . وانسراي

صفد ، مركز قضاء آخر في شمال غربي بحيرة طبريّة . يقيم في هذا القضاء 80 000 يهودي متعصّب ينطقون العربية فقط

حيفا ، ميناء في جنوب صفد ومركز قضاء في لواء عجلون . **يافا** ، مركز قضاء في لواء غزه ، قلعة جميلة جدا في شمال غربي القدس ، ميناء فعّال يحتوي على 500

دار ، بمسافة مرحلة واحدة عن القدس وأقرب مرفأ إلى القدس . **لوط** (بالعبرية : Lydda) قضاء غزة ، يحتوي على 1000 دار ، 3 جوامع ومساجد ، تحمل اسم نبي الله لوط . **رملة** ، قلعة قريبة لها جدا ، **قضاء غزة** . تلي مدينة غزة بعد الاتجاه نحو الجنوب - الشرقي . وهو مركز للواء كبير في إيالة شام ، في جنوب غربي فلسطين ، وعلى باب شبه جزيرة سيناء . راتب أميره 328 508 آقجه ومخصصاته 000 40 ليرة ذهب . يجهّز اللواء 1 150 تيمارلي سباهي . مليء بالقرى المنتجة والعامرة . وما بعده صحراء . يحتوي على 1 200 دار ، 11 جامعا 59 مسجدا ، نحو 200 سبيل ، حمامين ، 600 **دكان** ، جامع قوجا سنان باشا بمنارته ذات الشرفات الثلاث ، و جامع حسين باشا ، حمّامه ومنزله ، جميل جدا . **قنيطرة** ، قضاء في جنوب غربي الشام بين شام وصفد ، شهير بكلية فاتح قبرص لالا مصطفى باشا الفخمة . **معرة النعمان** ، مركز لواء في إيالة حلب ، بين حما وحلب ، أقرب إلى حلب . راتب أمير اللواء السنوي 230 000 آقجه + 20 000 ليرة ذهب مخصصات . يرابط في اللواء 1 560 تيمارلي . شعبه تركمان وعرب . تحتوي القصبة على 800 دار ، 26 جامعا ومسجدا ، 45 دكانا ، خان ، حمّام ، مكاتب ، تكايا . ينتسب إليها الشاعر العربي الشهير أبو العلاء المعري. **باب** ، قضاء في لواء حلب المركزي ، في شمال شرقي حلب . سكانه تركمان وعرب ، 76 قرية تابعة لهذا القضاء . يحتوي على أكثر من 1000 دار ، 11 جامعا ومسجدا . فيه قبر عقيل أخي علي (كرم الله وجه)

ترجع مشاهدات أولياء جلبي هذه لسنة 1649 أما مشاهداته عن سورية وفلسطين والتي سنوردها فيما يلي ، فإنها ترجع إلى سنة 1671 (9 ، 364 - 585) :

عبرت من الأراضي الأناضولية لإيالة حلب ، إلى الأراضي السورية . المرحلة الأولى **مرج دابق** (بالعربية : مرج الدابق ، بالتركية : دابق جاييري)

أفنى السلطان سليم في هذا الموقع الجيش المملوكي مع سلطانه واسر الخليفة العباسي الأخير . سبب هذا الانتصار بسط نفوذ العثمانية على سورية وفلسطين كاملتين . حاليا قرية . **عزيز** ، مركز لواء في إيالة حلب وتسمى كذلك عزز Azez وعزاز Azaz ولعدم وجود تشكيلات التيمار في هذا اللواء ، فإن عدد خيالة المعيّة لأمير اللواء هو

1000 فقط . يتكون اللواء من 4 أقضية ونحو 300 قرية . قلعته وأولو جامع من آثار الأيوبيين . ويوجد من الأبنية العثمانية جامع آخر وعدة مساجد و 290 دكانا . يحتوي قضاؤه المركزي على نحو 70 قرية . سكان اللواء عرب وأتراك وقليل من الأكراد .

حلب الشهباء ، فتحت أبوابها لسليم خان بعد انتصار مرج دابق ، تليت الخطبة باسم الخاقان الذى دخل المدينة يوم الجمعة ، كخليفة ، بدأت الخلافة العثمانية . وجعلت على الفور مركزا للإيالة . كانت مركزا للإيالة في عهد الدولة المملوكية كذلك . منح قره جه باشا وإليها الأول مرتبة الوزارة . راتب البكلربك 760 817 آقجه ومخصصاته 000 35 سكة ذهبية . عدد جنود المعيّة 2000 جندي . يتكون لواؤها المركزي من 9 أقضية : حلب ، باب ، بوصبوح ، حنتمان ، سليمن ، ريحا ، أدلب ، بكفلون ، أنطاكيه .

أما ألوية الإيالة فهى : حلب ، كلس ، بيره جك ، معّرة ، عزز ، بالس ، مازك ، وتركمن . إن ألوية عزز ، مازك وتركمن ، لم تشكل فيها تشكيلات ألتيمار ولا توزع عليهم اراض ويتقاضون رواتب من الدولة رأسا ، ويطلق على أمثال هذه الألوية (سالسانه) . تستطيع حلب وقت القتال أن تجهّز 000 100 جندي . يتقاضى قاضي حلب راتبا قدره 500 آقجه يوميا ومخصصات سنوية قدرها 15000 ليرة ذهب . قلعة حلب إحدى أكبر وأجمل وأفخم قلاع الإمبراطورية . مازالت قائمة وتلقى اهتماما فى المحافظة عليها ، ولكن ليس لها قيمة من الناحية الحربية ، ظلّت في الداخل وبعيدة عن الحدود . تحتوي المدينة على 72 محلة . شعبها خليط من مختلف القوميات . الأكثرية العظمى من الأتراك والعرب . لكنها تحتوي كذلك على عدد من الأكراد ، الأرمن ، اليهود ، النصيريين ، اليعقوبيين وعدد كبير من الأوربيين الذين يؤمونها لغرض التجارة . يرتكز أولو جامع الذى أعلنت فيه خلافة السلطان سليم على 64 عمودا ومساحته 400 × 100 ذراع . ويوجد عدا ذلك 19 جامعا كبيرا ، جوامع صغيرة ، مساجد ، 84 مدرسة ، 217 مكتبا ، مستشفيان كبيران جدا ، 70 خانا ، 47 منها مسقوفة بالرصاص والبقية بالقرميد الأحمر ، 7 كروانسراي وأبنية مختلفة أخرى . الخانات كبيرة وعليها زحام كبير . يصلها الماء من الفرات ، ويصل ماء دجلة إلى مئات الحنفيات المشيّدة

(جشمة) في المدينة ، وإلى نحو 7000 بئر . تحتوي المنطقة على ما يقرب من 7000 بستان كروم وحدائق منظّمة بشكل جميل جدا ، وفي المدينة حديقة هنكار الخاصة بالبادشاه والتي بها قصور . أمضى فيها السلطان سليمان أحد الأشتية . هناك سوق حلب الذي يحتوي على 5700 دكان وهو من أكبر الأسواق في العالم . حركة البيع والشراء فيه كبيرة جدا . يمكن أن يعثر المرء في سوقه الخاص بالتحف على أثمن السلع في العالم . وفيه تجار يصدرون ويستوردون من والي أوروبا ، بضاعة تبلغ قيمتها 100 000 ليرة ذهبا . أهالي حلب ، أصحاب طرب ومرح يوجد مايقرب من 500 مقهى : يدوي صوت الموسيقى والرقص بحيث يسمع من كل مكان . يستوعب مقهى أرسلان 2000 شخص ، مشهور جدا ومزّين بشكل يستهوي الناظر ، لابد للقادم إلى حلب من زيارته ولو مرة واحدة يمتاز باشا سراى الموجود في القلعة الداخلية بالفخامة بين السرايات الأخرى ومخصص لإقامة الوزير - البكلربك التكية — المولوية (مولويخانه) في حلب ، أفخم تكية بين تكايا 70 طريقة . أن الباب الظلماء ، المقام الذي سلخ فيه جلد السيد نسيمي ، يزوره أناس كثيرون . ارتفع عدد نفوس المدينة حسب التعداد الذي أجراه خسرو باشا في 1533 ، إلى 400 000 نسمة . وتحتوي على قبور شخصيات تاريخية كثيرة جدا .

سرمين ، قضاء في اللواء المركزي ، في جنوب غربي حلب ، به 1000 دار ، جامع ، 7 مساجد ، 70 دكانا ، خانان ، حمامان . وتسمى كذلك سليمن . شعبها عرب . **ريحا** ، قضاء في اللواء المركزي ، بمسافة ساعة واحدة عن جنوب غربي سرمين ، به 600 دار ، جامعان ، 7 مساجد ، خانان ، حمام ، قصبة عربية ذات 70 دكانا . **بكفلون** ، تليها بعد اجتياز أشجار الزيتون مدة ساعتين . كانت قضاء ، حاليا ، ناحية سرمين ، بها 250 دارا . **ادلب** ، قضاء في لواء حلب المركزي في شمال غربي أدلب به 1345 دارا ، 3 جوامع ، 11 مسجدا ، حمامان ، 3 خانات ، مدرسة ، 6 مكاتب ، 300 دكان ، 4 مصانع صابون . المنطقة مليئة بأشجار الزيتون وصابونها جيّد . كامل شعبها عرب . **شاطر** ، مركز ناحية ، بنى فيها كوبرولو محمد باشا ، كلية عظيمة وقلعة .

لاذقية ، قلعة وميناء ومركز لواء في إيالة طرابلس . يولجه نهاية رأس شبه جزيرة

Karpas لقبرص ، لا يوجد في اللواء تشكيلات تيمار . يحتوي على 900 دار وقصر ، 3 جوامع ، 6 مساجد ، حمامين ، 3 خانات ، 3 مدارس ، 3 مكاتب ، 200 دكان ، مايقرب من 50 مخزنا مليئا بالمواد التجارية ، جسر واحد . ميناء تجارى فعال . **جبلة** مركز لواء في الإيالة نفسها ، يقع بين لاذقية وبانياس ، 360 قرية تابعة لهذا اللواء . لم تؤسس في اللواء تشكيلات تيمار . يحتوي هذا اللواء على عدد كبير من العرب الدروز . له قلعه ، لكنها خالية ، لم يخصص لها جند . ويحتوى على أكثر من 300 دار ، 3 جوامع ، 3 مساجد ، مدرسة ، 3 مكاتب ، 7 تكايا ، حمامين ، 3 خانات و 70 دكانا . يزار قبر إبراهيم أدهم بكثرة . **طرسوس** ، مركز قضاء في لواء طرابلس المركزي ، ميناء وقلعة على البحر الأبيض ، بين طرابلس وبانياس . قلعته من مخلفات الصليبيين ، وحاليا يرابط فيها 100 جندي . شيّد كوبرولو محمد باشا ، عندما كان واليا على طرابلس ، قلعة في الجزيرة الكائنة في مدخل الميناء . **حصن آباد** ، أو قلعة الحصن ، مركز قضاء في لواء طرابلس المركزي ، في جنوب طرسوس وفي شمال شرقي طرابلس ، ذو 8 نواح و70 قرية ، تحتوي قلعتها ذات الـ 500 موضع سلاح و 3 طوابق على 70 جنديا . بالقضاء 300 دار ، 45 دكانا ، جامع ، ومسجد .

طرابلس الشام (بالتركية : شام طرابلسي) ، انفصلت عن الشام قبل نصف قرن وجعلت مركزا لإيالة جديدة . من الإيالات الساليانة أى التي لاتحتوي على تشكيلات تيمار . كانت 10 ألوية . وكان حصن آباد مركز لوائها . حاليا 6 ألوية : طرابلس ، لاذقية ، كلبن ، جبلة ، معن ، قدموس . يكثر العرب من المذهب الدرزي في المنطقة الجبلية . ويكثر كذلك العرب المارونيون في هذه المنطقة وهؤلاء كاثوليك . وفيها العرب الشيعة أيضا . ويشاهد كذلك التركمان . ويشكل العرب السنّة معظم سكان الإيالة . ميناؤها فعّال ، ويؤمن ولردات كثيرة للدولة . ويشاهد السفن الإنكليزية ، الفرنسية والفلمنكية فارغة وتعود وهي بكامل حمولتها بالبضاعة . للوالي 2000 جندي معيّة . تحتوي قلعته على جنود وجامع سلطان قلاوون . وفي المدينة ، نحو 6300 دار مبنية بالحجر ، 13 جامعا ، مساجد كثيرة جدا ، 10 مدارس ، 17 مكتبا ، تكية مولوية كبيرة ، مع 7 تكايا أخرى ، 12 حماما ، سوق تحف ، 2700

دكان ، نحو 70 حنفية مياه مشيدة (جشمة) ، ميناء يستوعب ألف سفينة ، نحو 200 مخزن ، وخانات كثيرة جدا . كل الشوارع ذات رصيف ومرصوفة بالحجر الأبيض .

جبيل ، أو جبل ، قضاء في هذه الإيالة يحتوي على حوالي 100 قرية . من قرى لبنان الجبلية . تحتوي هذه الجبال على نحو 3000 جندي درزي حامل بندقية . يقدّم بكّات (أمراء) الدروز ، هؤلاء الجنود لإمره الوالي عند طلبه . مركز القضاء بطرون ، ميناء في شمال بيروت على شرم من البحر ، به 200 دار ، جامع سليم خان ، 4 مساجد ، 20 دكانا ، خان ، مكتب ، ويوجد في قلعته 50 حارسا . وعلى امتداد البحر الأبيض ، على مسافة 3 ساعات نحو الجنوب يقع نهير إبراهيم ويشكل الحدود بين إيالة طرابلس وإيالة صيدا . يقع نهر بيروت بعد مسيرة 3 ساعات بين بساتين التوت وبعد مسافة 8000 ذراع بعد اجتياز النهر ،.يقع ميناء بيروت وقلعته .

بيروت ، وتسمى كذلك موز ، شهرموز أو قلعة موز . داخل خليج ، موقع جميل على البحر الأبيض . مركز لواء في إيالة صيدا . لايوجد فيها تشكيلات تيمار . لاميرها نحو 1000 جندي معيّة ، ويتبع هذا اللواء نحو 600 قرية . معظمها قرى درزية جبلية . يقوم بحراسة قلعتها التى تتجه مدافعها نحو الميناء ، 150 جنديا . يحيط بالقلعة سور طوله 450 4 ذراعا . وتحوى على 2700 دارا ، 8 جوامع ، 30 مسجدا ، 4 حمامات ، 17 مدرسة ، 8 مكاتب ، 7 حنفيات مياه مشيدة ، 300 دكان ، 40 مقهى ، 8 خانات ، 200 مخزن قصور ، مبنية على شكل شبه سراى ، كشك سليمان خان . ينطق الشعب اللغة العربية لكنهم ينتمون إلى شتى المذاهب منهم الدروز ، الشيعة والمارونيين . إلا أن الموظفين والجيش من الأتراك . وتقع صيدا ، بعد مسيرة 9 ساعات نحو الجنوب . يسميها الأفرنج « Sidon » . وهي ميناء وقلعة على البحر الأبيض بين بيروت وصور . تكونّت هذه الإيالة في أوائل 1661 بناء على طلب كوبرولو - زاده فاضل أحمد باشا ، عندما كان واليا على الشام ، وفصلت عن إيالة شام وانقطع بذلك ارتباط إيالة شام بالبحر . لايوجد في الإيالة تشكيلات « تيمار » . وهى 6 ألوية : صيدا ، بيروت ، صفد ، عكا ، معن وترابي . راتب الوالي 000 811 آقجه ومخصصاته السنوية 250 كيسه وله 2000 جندي معيّه . يحتوي قضاؤها المركزي على 8 نواح . يحرس القلعة 200 جندي . ميناؤها وجمركها فعالآن وإيراداته كبيرة.

ترد السفن الكثيرة من أوروبا وتحمل البضائع . تحتوي على 1400 دار ، جامع سليم خان و 8 جوامع أخرى ، مساجد غير قليلة 10 مدارس ، 7 مكاتب ، 3 حمامات ، 4 خانات كبيرة جدا ، 400 دكان وعدة قنصليات أوروبية . لكنها ليست مزدحمة كبيروت . شعبها عرب . وتحتوي كذلك على أتراك وعدد قليل من اليهود . وعند السير نحو الجنوب على امتداد البحر الأبيض نجد **صور** . ويسميها الإفرنج « Tir » . أكبر ميناء بين صيدا وعكا . ناحية في قضاء صيدا المركزي . قلعته التي يبلغ محيطها 6000 ذراع ، عبارة عن أنقاض في الوقت الحاضر . تحتوي على 300 دار . شعبها كاثوليكي .

صفد ، في شمال شرقي فلسطين . مركز لواء في إيالة صيدا . راتب لوائها 373000 آقجه . يحتوي اللواء على تشكيلات تيمار . قلعتها انقاض وخالية من الجند . تحتوى على 1 300 دار شعبها من العرب واليهود . بها 8 جوامع ومساجد كثيرة ، مدرستان ، عدة مكاتب ، 7 تكايا ، 6 حمامات ، 3 خانات . باشا خان كالقلعة ذو 4 طوابق . محيطه 600 ذراع . يقال. إن عدد اليهود في المدينة سابقا كان 12000 توزعوا هنا وهناك ، انخفض عددهم الآن إلى 2000 . حركة البيع والشراء في سوق تحف سنان باشا كبيرة . عدد غرف باشا سراي 70 غرفة وكتب على السراي : بناه أمير اللواء (سنجق بك) بيري لوغلو محمد بك عام 1572 . المنطقة بكاملها مليئة بأشجار التوت والزيتون ، فيها حوالي 40 مصنعا لنوع سميك جدا من القماش يسمى (كجه) . لا يقيم الأكراد في هذه المناطق ، إلا أنه يوجد زقاقان يسكنهما الأكراد الذين جاءوا واستوطنوا هنا . الأتراك عبارة عن الموظفين ، إلا أن الجميع يحسنون التكلم بالتركية . يوجد فيه غار بيت الحزن ، الذي يقصد الكثيرون لزيارته ، ويقال إن هذا الغار هو المكان الذي مكث فيه يعقوب عليه السلام سنوات عديدة وابيضت عيناه من الحزن تحسّرا على يوسف ، ثم أبصر فيه بعد ذلك عندما ألقي عليه قميص يوسف فارتد بصيرا . وفي منعطف الطريق على مسافة 8 ساعات من صفد ، بنى قوجا سنان باشا في **عين تجّار** ، جامعا مساحته 80 × 80 ذراعا ، وكلية ذات منزل للمسافرين كالقلعة . إذ إنها ملتقى طرق شام ومصر وقدس .

نابلس ، مركز لواء في إيالة الشام . في شمال القدس بين القدس وناصره . يحتوي

على تشكيلات تيمار . راتب أميره 645 290 آقجه ، ومخصصاته 8 500 ليرة ذهب . وتتبع نحو 200 قرية لقضائه المركزي . مدينة مزدحمة تحتوي على 4000 دار . حوّل صلاح الدين لولو جامع من كنيسة إلى جامع ، مساحته 300 × 100 ذراع . البناية رفيعة وطويلة لأنها كانت كنيسة في الأصل . وتوجد 3 جوامع أخرى ، ومساجد كثيرة ، 7 مدارس مع 7 مكاتب ، 7 تكايا ، حمامان ، سوق طوله 1200 ذراع ذو 370 دكانا ، كروانسراي ذو 150 موقدا وجامع . الجامع والكروانسراي والسوق من أعمال لالا مصطفى باشا الخيرية الكبيرة .

قدس ، يسميها الأتراك « قدس شريف » والعرب « القدس » ، المسيحيون واليهود « Yerusalem » مقدس لدى كل من الأديان الثلاثة . مدينة عرش سليمان عليه السلام ، أولى القبلتين . مركز لواء في إيالة شام . تقع وسط فلسطين ، لكنها في شمال غربي بحيرة لوط وأقرب إلى وادي الشريعة منها إلى البحر الأبيض . كانت بها تشكيلات تيمار . راتب ومخصصات أميرها السنوية 485 257 + 000 20 ليرة ذهب ، وراتب قاضي القدس 500 آقجه يوميا + 000 20 ليرة ذهب سنويا . قضاؤها المركزي كبير جدا ، يحتوي على أكثر من 1000 قرية . تبلغ إيرادات الدولة السنوية من الحجاج المسيحيين القادمين من 20 إلى 25 ألف ليرة ذهب . لا يعد المسيحي حاجّا مالم يزر كنيسة قيامة . أهم يوم مقدس للزيارة لدى المسيحيين ، هو عيد الفصح Paschol عيد البيض الأحمر . يفتتح كنيسة قيامة في ذلك اليوم ، أمير لواء القدس أو ملاء (قاضي القدس فقط بالمراسم وقراءة الفاتحة وسط الاحتفال الديني المسيحي بين تهليلات البطاركة . إن افتتاح مسلم لأكبر مهرجان ديني مسيحي شئ غريب ولكن ذلك يعني إشارة ضمنية لإفهام المسيحيين القادمين من جميع أرجاء العالم أن هذه الزيارة يمكن أجراؤها بكل حرية وأمان وأطمئنان ونظام كامل ، بفضل الدولة العثمانية ، كي يتعلم الأوروبيون كيفية معاملة الذين لا يدينون بدينهم . يزور الكنيسة في ذلك اليوم عدد يتراوح بين 5 إلى 10 آلاف مسيحي ويصبحون حجّاجا . ويعودون إلى أوروبا فرحين . يتقاضى قسس كنيسة قيامة ، الخراج من كل حاج ـ عدا المعوزين ـ بمقدار 5 إلى 5 . 7 ليرة ذهب . يقود الحرس العثماني الحجاج المسيحيين إلى بيت لحم الذى ولد فيه المسيح (عليه السلام) في جنوب القدس وإلى المدينتن المقدستين الخليل والناصره

ويرافقونهم عند العودة كذلك . المسيحي الذي يزور تلك الأماكن علاوة على زيارته الكنيسة ، يكون قد حج حجّا كاملا . أقضية القدس هي : المركز قدس ، الخليل في جنوبه ، كرك في الجهة الأخرى من لوط في الأردن و لجون شمال غربي رمله . إن ناظر الـ 700 وقف الموجودة في القدس مسئول أمام أفندي (قاضي) القدس . القدس من فتوحات سليم خان . شيّد القلعة الحالية لالا مصطفى باشا . تحتوي القلعة المحاطة بسور طوله 7 050 ذراعا ، على 4 040 مرمى سلاح وقبة جامع رستم باشا . داخل السور 1110 دار ، به جامع و عدة مساجد ، وعدد غير قليل من القصور والسرايات وجميعها مبنية بالحجر . المسجد الأقصى من أعظم المساجد تقديسا لدى المسلمين . يحتوي داخله على مئات السجّاد والثريات الثمينة جدا ، 7 000 قنديل وأشياء ثمينة أخرى ، كلها هدايا من كبار سلاطين الأيوبية المماليك والعثمانية . صلّى عمر (رضي الله عنه) الذى فتح القدس من البيزنطيين في المحراب الواقع في الجهة الشرقية منه . يتولى 800 شخص ، الخدمة في المسجد الأقصى . يصعد الخطيب يوم الجمعة على المنبر متقلدا سيف عمر (رضي الله عنه) ويتلو الخطبة باسم حضرة البادشاه خليفة روى زمين (الكرة الأرضية) . للمذاهب الأربعة ، 4 خطباء وكل منهم يعتلي المنبر مرة في الأسبوع بالتناوب . للمسجد 50 مؤذناً وقس على ذلك بقية الذين يقومون بالخدمات الأخرى . بنى السلطان سليمان القانوني مسجد الصخرة الموجود في زاوية المسجد الأقصى بالأموال التي حصل عليها من حصتّه الشرعية من غنائم غزوات بلغراد وموهاج . بنى المعمار الجامع حسبما وجهه البادشاه بنفسه واستعمل المرمر الأبيض . حضر المعمار سنان إلى القدس خصيصا لهذا الغرض وقد أشرف الصدر الأعظم لالا مصطفى باشا على البناء خلال ذلك ، عمود الذوآبة الوسطى في القبة البالغ طوله 12 ذراعا مكسو بطبقة سميكة جدا من الذهب . يرى لمعانه من الأرض عن بعد مرحلة واحدة . أعمدته الاثنا عشر من مرمر السوماكي (الملون) ، سجاده الحرير بمثابة ثروة كبيرة « صخرة الله » ، عبارة عن صخرة بيضاء محاطة بسياج طوله 100 ذراع . وبسبب وجود القبة فوقه ، سمي المعبد قبة الصخرة . إن هذه الساحة المقدسة التي بدأ ببنائها عمر (رضي الله عنه) وأتمها سليمان خان ، تسمى الحرم الشريف (بالتركية حرمِ شريف « بكسر حرف الميم ») . يحظر دخول غير المسلمين فيها كما هو الحال

في مكة ، المدينة ، البردة الشريفة (خرقة سعاوت) وأبو أيوب الأنصاري (أيوب) في إستانبول . صرف سليمان خان من حصّته من الغنائم 1 000 كيسة لكل من مكة ومدينة وقدس (3 000 كيسة = 120 مليون آقجة = وتعادل حوالي 2و5 / مليار دولار بالسعر الحالي الرائج) إن الـ 240 جامعا ومسجدا الموجودة في القدس وجوارها ، أكثر ابنية صغيرة ، إذ إن المسجد الأقصى كبير بدرجة يمكن أن يستوعب فيها أهالي القدس برمتهم . يحتوي على 17 مدرسة ، 40 مكتبا ، 70 تكية ، 6 خانات ، حمامات ، 3 مطابخ للمحتاجين ، 18 حنفية مشيّدة بشكل خاص (جشمة) ، 70 حوضا وفسقيه وشادروان (حوض مسقّف تحيط به حنفيات عديدة ، بني على الأكثر في الجوامع لغرض الوضوء) ، 2045 دكانا ، 4 خانات كبيرة جدا و 4 حمامات جميلة . شيّد سليمان خان 18 حنفيه وكسا جميع أرصفه شوارع المدينة وأزقتها بالحجر الأبيض المصقول . فيها معبدان لليهود و كنيستان غريغوريانية ، 3 كنائس أرثوذكسية ، ومنها كنسية قمامة ، أكثر الكنائس قداسة لدى المسيحيين . قس كنيسة قمامة ، تحت إشراف ملاء القدس . تقف قطعة عسكرية عثمانية أمام الكنيسة مدة أربع وعشرين ساعة مستعدة لتنفيذ أوامر البطريك . إذ يتجمع أمام الكنيسة دائما جمع غفير من المسيحيين القادمين من مختلف أنحاء العالم ، لا يفهم أحدهم لغة الآخر . ومن الممكن أن يتهور مسيحي أو أن يتشاجر في سبيل حصوله على قطعة صغيرة جدا من أحجار الكنيسة ، لذا فإن أمير القدس أو قاضيها فقط يمكنه فك ختم باب الكنيسة المختوم في عيد الفصح مرة واحدة في السنة ويعاد الختم مرة ثانية بعد انتهاء زيارة الحج ، ولايسمح بالدخول في الأوقات الأخرى . يختلي بداخله 300 راهب ويغلق عليهم الباب ، ويدخل إليهم طعامهم وشرابهم كل يوم من ثقب مخصص لذلك ، والراهب الكاثوليكي أو الذي ينتمي إلى مذهب آخر ، الذي يبقى داخل قمامة مختليا لمدة سنة ، يحصل على رتبة عظيمة . يتجمع داخل وخارج الكنيسة في أيام الحج 20 000 شخص . ولكي يفض خاتم باب الكنيسة للدخول فى غير أوقات الحج ، لابد من الحصول على موافقة الوزير والي (بكلربك) الشام الشخصية ، ولا يملك أمير لواء القدس تلك الصلاحية . آخر أمر كهذا ، أعطاه قبل 23 سنة والي الشام زيله لي جاووش – زاده محمد باشا ، حيث رغب الباشا الذي حضر لتفتيش القدس، في زيارة الكنيسة، وبعد انتهائه من الزيارة، جدد قاضي القدس ختم الباب

فورا ، ذلك أن داخل الكنيسة عبارة عن خزينة أرسل ملوك أوروبا المسيحية كافة منذ عصور طويلة أشياء ثمينة جدا . الثريات والقناديل التي يرجع تاريخها إلى ألف عام ، تدهش البصر . لايمكن مشاهدة ذلك في أية كنيسة أخرى ، وتحرص الدولة العثمانية جدا على عدم تهريب أية واحدة منها إلى الخارج . كان عدد سكان المدينة فى التعداد الذي جرى عام 1648 ، 000 54 . لكن إذا ما أضيف إليه عدد الزوار ، فإن العدد يزيد بطبيعة الحال .

بيت اللحم ، تقع على مقربة من جنوب القدس . يسميها المسيحيون « Bethlehem » والموسويون « Beit Lahm » . ناحية القضاء المركزي للقدس ، بها 200 دار . ولد فيها عيسى (عليه السلام) ؛ لذا فإنها تكون مزدحمة جدا بالمسيحيين القادمين من أمصار العالم المختلفة . يعودون إلى القدس في ذات اليوم بعد إتمام زيارتهم ، إذ لاتوجد فيها أماكن للمبيت . تهبط إلى الكهف الذي سمّيت القصبة باسمه بسلّم مكون من 12 درجة . له ثلاث زوايا ، يستوعب 100 شخص فقط بصعوبة . يشاهد مهد عيسى (عليه السلام) من الحجر الأحمر ومحل جلوسه من المرمر الأبيض . جعل الكهف على شكل كنيسة . صرف السلطان محمد خان قبل عدة سنوات مبالغ كبيرة من النقود لهذه القصبة واستشار علماء المسيحيين فى هذا الشأن ، وبذلك زالت صعوبة الزيارة . مسلمون كثيرون كذلك يؤمونها لغرض الزيارة . إذ إن المسلمين يؤمنون بكل الأنبياء . طريق قدس ـ الخليل ، 7 ساعات ، وقد شيّد مراد الرابع في منتصف هذا الطريق قلعة لتأمين مرور المسيحيين بأمان ، وتسمى مراديّة ، وهي عبارة عن ناحية تحتوي على مدافع وحامية مؤلفة من 90 جنديا .

خليل الرحمن (بالعبرية : Hebron) ، ويسميها العرب باختصار : الخليل ، والأتراك : خليل . مركز قضاء في لواء القدس تتبعه 75 قرية و 3 فصائل عسكرية . له قلعة تحمل اسم الخليل إبراهيم (عليه السلام) (أبو الأنبياء) . وهي من الأماكن المقدسة لدى المسلمين . والجامع الذي يحتويه شيّد كالقلعة . ويوجد على مقربة من خارجه قلعة وجامع عثمان (رضي الله عنه) . يظهر أن عدد السكان كان كبيرا في الماضي شعبها عرب سنّة ، بينهم عدد غير قليل من الأتراك واليهود . تحتوي على كروانسراي لالا

مصطفى باشا العظيم . ذو 200 غرفة واسطبل يستوعب 2 000 حيوان ، 7 مساجد ، تكيتين ، 3 حمامات ، خانين ومكاتب عديدة . وأقصى جنوبها صحراء .

عجلون ، مركز لواء في إيالة شام . يقع في أقصى شمال غربي ماوراء الأردن . وتفصل بحيرة لوط ونهر شريعة الذي يصب فيه الحدود الفلسطينية عن الحدود الأردنية . شرق النهر يسمى ماوراء الأردن ، ويسمى الشريط الذي يقع على غربه الأردن وفلسطين الأصلية ، هو الشريط السميك الذى يمتد في أقصى غربها حتى البحر الأبيض . راتب أميرها 260 000 آقجة ومخصصاته 40 كيسة . تجهّز 1200 تمارلي سباهي . عدد القرى في قضائها المركزي 140 . يسكن في المنطقة التي تحيط بجبل عجلون من 40 إلى 50 ألف تركماني . العرب السنّة وبعض الدروز يشكلون سكانها الأصليين . تحتوي قلعتها على 150 جنديا من حرس القلاع . بنى لالا مصطفى باشا خانا في الجزيرة الواقعة على بحيرة طبرية (Tiberias) .

قنيطرة مركز قضاء في اللواء المركزي للشام . في أقصى جنوب غربي سورية وفي جنوب غربي الشام . أسس القصبة على هذا المرج الذي كان مرعى للإبل في السابق ، وشيّد جميع أبنيتها دون استثناء ، فاتح قبرص الصدر الأعظم لالا مصطفى باشا عندما كان واليا على الشام مرضاة لله ومن حصته الشرعية من الغنائم . يرابط في قلعتها 300 جندي عدا الحرس . طول سورها 2700 ذراع وقلعتها 800 ذراع وتحتوي على منزل مسافرين به 170 غرفة واسطبل يستوعب 3 000 حصان ، جامع ، سوق وقف ذي 150 دكانا حجريا ، وآثار كثيرة أخرى ، كلها من الأعمال الخيرية لمصطفى باشا . أهدى 22 مصحفا إلى جامعها ، منها ما كان بخط ياقوت ، شيخ حمد الله وقرة حصاري وهيَ ثمينة إلى درجة أنه لا يمكن تقدير أسعارها . زيّن جامعها بالسجاد والخزف الثمين جدا . وخاصة أنه كان فى الاعتبار أن هذا الموقع ملتقى طرق مهم على الشارع الرئيسي الذي يصل الأناضول وسورية بمصر والحجاز . وهو على طريق الحج . لالا مصطفى باشا هو الذي فتح قبرص وكرجستان ، وحارب في اليمن ، مصر ، إيران ، قفقاسيا ، المجر ، وتقلّد الولاية ، القيادة العامة والصدارة في أماكن عديدة ، له فى الأقطار العثمانية آثار خيرية لا تعد ولا تحصى .

صعصعة ، مركز قضاء في لواء الشام المركزي . أسس هذه القصبة وشيّد جميع أبنيتها الصدر الأعظم قوجا سنان باشا ، عدو لالا باشا اللدود لئلا يكون أقل شأنا من منافسه . القلعة ذات 120 غرفة واسطبلا ، منزلها الخاص بالمسافرين الذي يستوعب 2000 حصان ، جامعها الذي يضاهي جوامع الوزراء في استانبول ، كلها من خيرات سنان باشا . وبعد مسيرة ساعتين تجد ناحية داوديّة ذات 600 دار وبعدها بساعتين كذلك الشام .

شام ، ولبيان شرفها يقال باللفظ العثماني « شام شريف » (بكسر حرف الميم) وهو اسم المدينة التي يطلق عليها العرب اسم « دمشق » . والقطر الذي يسميه العرب « شام » ، يسمّيه العثمانيون « سورية » . تقع المدينة في جنوب غربي القطر وقريبة من لبنان . فتحها خالد بن الوليد من البيزنط بأمر أبي بكر (رضي الله عنه) في السنة 13 للهجرة . أصبحت مركزا لعرش الخلافة الأموية خلال 661 – 750 . أخذها سليم خان في 1516 من المماليك وجعلها مركز إيالة . كانت الإيالة كبيرة جدا في القرن 16 . تقلصت الآن لانفصال إيالتي طرابلس وصيدا عنها ، وانقطعت علاقتها بالبحر (البحر الأبيض) . راتب واليها (بكلربك) مليون آقجه . وهي 12 لواء : شام ، قدس ، غزّة ، صفد ، كرك ، نابلس ، عجلون ، جلّونة ، تدمر ، قنقنوح ولواء البدوى الذي يسكنه 40 000 بدوي من الرجال ، لاتوجد تشكيلات ألتيمار في اللواءين الأخيرين . يحكم القبائل البدوية شيوخها . تحتوي الإيالة على 9065 تمار سباهي ، 2000 جندي معيّه الوالي ، ويوجد جنود معية أمير اللواء وأفراد حرس القلاع . يحرس قلعة الشام ألفا جندي ؛ 3 فصائل منها إنكشارية . يتقاضى الوالي مخصصات سنوية قدرها 40 000 ليرة ذهب . للقاضي راتب قدره 500 آقجة في اليوم + مخصصات قدرها 20000 ليرة ذهب في السنة . عدد الموظفين التابعين للقاضي والعاملين في المدينة 2000 . مدينة كبيرة جدا ولها قلعة واسعة . مساكنهم واسعة وفخمة . بنى الخليفة عبد الملك جامع أميّة (الأموي) ، وهو من أشهر جوامع العالم الإسلامي . مساحته 600 × 160 ذراعا وله 40 عمودا من المرمر الملوّن ويعتبر تحفة . يحتوي على 24 بابا ، 280 طاقة داخلية ، 280 نافذة ، 4 قباب نحو 10 000 قنديل ، و 150 عمودا وحوالي 150 طاقة في الخارج . يقوم بصيانة الجامع ، أكثر من 800 شخص . يحتوي كوك

ميدان على جامع سليمانية ذي المنارتين للمعمار سنان . جامعا عداس وسنانيه (سنان باشا) جامعان كبيران . تحتوي المدينة على 2100 جامع ومسجد وتكية ومدرسة ومكتب . توجد بين تكاياها الـ 70 تكية مولوية* شيّدت في الموضع الذي التقى فيه مولانا بشمس التبريزى وكلمه فيه . تحتوي على ما يقرب من 70 غرفة، صالة اجتماع كبرى ومشتملات أخرى . مدرسة سليمانية للمحتاجين ، مؤسستين كبيرتين بين مطابخها العامة البالغ عددها 7 . أحد مستشفياتها الثلاثة هو مستشفى سلطان نور الدين ، أحد أكبر المؤسسات الطبية في العالم الإسلامي .

تبلغ قيمة استهلاكه السنوي للأدوية ، 5000 ليرة ذهب . وقس على ذلك مصروفاته الأخرى . وهى مؤثث تأثيثا فاخرا يضارع أثاث السرايات ، عدد الخدم فيه 70 خادما . تحضر فرقة موسيقى السّاز ثلاث مرات في اليوم لعزف الموسيقى للمرضى . توجد حّمامات خاصة في مايقرب من 2000 سراي وقصر . ويوجد كذلك 240 خان تجار . بعضها كبير كالكروانسراي ، فمثلا الخاص منها بلالا مصطفى باشا يحتوي على 170 غرفة وأبواب حديدية . إيرادات خان الجمرك السنوية لخزينة الدولة تتراوح ما بين 4 إلى 5 ملايين آقجه . ومن جملة أوقاف كلية سنان باشا مقهى سنانيّة ، وهو مقهى يستحق المشاهدة حقا ، من بين مقاهيها البالغ عددها 217 ، لها 4 مسارح . تتناوب على مسارحها فرق من أرباب الموسيقى ، الرقص ، ومن أرباب الفنون الأخرى . ومقهى « منصب » في الحقيقة ليس فخما لكنه كبير جدا ، حديقته تستوعب عشرة آلاف شخص ، ويستهلك يوميا من القهوة حمل أربعة جمال . تعزف فرق مختلفة موسيقى الساز في كل من مسارحها الـ 7 . تحتوي مدينة الشام تقريبا على 20 000 دار ، قصر ، وسراي ، نصفها داخل السور والنصف الباقي في الضواحي . ويوجد على الشارع العام سوق سنان باشا ، سوق لالا سنان باشا المفتوح ومراكز الأوقاف التجارية الكبيرة . كل الأماكن مليئة بالأسواق . يتجول 200 موظف أمن في 75 شارعا و 3800 زقاق . تحتوي المدينة على 9000 موظف دولة . ماء النبع الأكثر غزارة الذي يصل إلى المدينة ، هو عين سنانية وهو من الأعمال الخيرية لسنان باشا .

صالحية ،ناحية في شمال غربي الشام ، على مسافة نصف ساعة وكأنها ملتصقة بالمدينة ، وهذه مكونة كذلك من 3000 دار .

توجد في الصالحية كلية السلطان سليم الفخمة . تحتوي على أبنية كثيرة كالجامع ، منزل مسافرين ، مستشفى ، مطبخ للمحتاجين ، مدرسة ، مكتب ، حمام ، محكمة ، وجميع سقوفها مكسوة بالرصاص ، فيها كذلك قبر الشيخ الأكبر محيي الدين العربي الذي جدّد السلطان سليم بناءه بشكل فخم للغاية . جدران 70 غرفة من غرف باشا سراي ، مكسوة بالخزف الصيني . أمر كوبرولو ـ زاده فاضل أحمد باشا ، عندما كان واليا على الشام في 1661 ، بتنسيق حديقتها الكبيرة بشكل رائع . يسكن في قضائها المركزي مع النواحي والقرى التابعة 000 600 شخص . قبور وأضرحة سلاطين ، رجال دين ودولة وعلماء عديدون ، موجودة فى الشام . تحتوي على قبور : معاوية ، الخليفة عمر ابن عبد العزيز ، أتابك نور الدين زنكي ، المتصوف الشاعر فخر الدين عراقي ، وقبور سلاطين أيوبيين عديدين ، وفيها قبر صلاح الدين الأيوبي الذي لا يضاهي . نظّفت خديجة تارهان والدة ـ سلطان ومهدت مجدّدا الطريق البري الذي يهبط من الشام إلى الحجاز في الجنوب ، وهو من أعمال الخير الكبرى .

مزيرب ، مركز قضاء حوران في اللواء المركزي للشام ، 270 قرية تابعة لهذا القضاء . الشعب ، عرب ، دروز وسنّة . **الكرك** ، مركز لواء في إيالة شام على طريق الحجاز كذلك ، قريب من ساحل بحيرة لوط الشرقي ، وأحيانا يتبع كقضاء للواء القدس . يحتوي على 70 قرية ، 200 جندي قلعته مخمسة الشكل من بناء سلطان بايبارس . يقال أن المماليك كانوا يسجنون المجرمين السياسيين في هذه القلعة ، وهي كقلعة قهقهة (آلاموت) التابعة للصفويين . وبعد ناحية **معن** ، على مسافة 16 ساعة نحو الجنوب ـ الشرقي ، تقع ناحية **عقبة** ، وهي ميناء يقع على اقصى الشمال ـ الشرقي من البحر الأحمر . تنتهي هنا الأراضي الأردنية وإيالة شام (سورية) . وبعد مرحلة 10 ساعات تقع قلعة **جكيمان** ، وبعدها تدرك البلاد العربية وحجاز .

22 ـ البلاد العربية :

كان القسم الغربي من شبه الجزيرة العربية إيالتين عثمانيتين ، غربيهما ملاصق للبحر الأحمر ، هما الحجاز واليمن . وعسير الكائنة بين الحجاز واليمن كانت تارة تتبع اليمن

وتارة تتبع الحجاز . كانت إيالة اليمن تتولى الإشراف على المشيخات الموجودة في حضرموت (اليمن الجنوبية) ، وخلال تلك الفترة تكون لواء عدن . عنيت إيالات بصرة ، بغداد ، شام ، وبخاصة إيالة لحساء ، بأمور أواسط الجزيرة العربية التي تشكل الصحراء قسمها الأعظم وبأمور قسمها المطل على خليج البصرة . ولم يتدخل أحد أبدا في حرّيات وطراز حياة القبائل البدوية ، ولكن تم القضاء على إخلالهم بالأمن وتهديدهم للطرق . تعامل المسئولون العثمانيون مع الشيوخ البدو كمراجع رسمية . كانت البلاد العربية ، المنطقة الأقل كثافة في المدن والأضعف في تشكيل المدن وإسكانها في الإمبراطورية العثمانية . لم تكن هناك مدينة كبيرة ، وكان المتوسط منها قليلا . كانت حياة البداوة المتنقلة مسيطرة أكثر من الحياة القروية .

قابلت الإدارة العثمانية حياة البدو بتفهّم . كان المسئولون العثمانيون الذين يجيدون اللغة العربية ، شعرها ، أدبها ، ثقافتها بصورة ممتازة ، يدركون أن البدويين شريحة أساسية من الشعب العربي . كان يطلق على العرب في الإمبراطورية العثمانية « ملّت نجيبة = القوم الأصيل » . كان وضع العرب ممتازا جدا في الإمبراطورية ؛ لكون الرسول ﷺ عربيا ، ولنزول **القرآن** باللغة العربية ، ولأن اللغة العربية وأدبها ، كونت ثقافة غنية جدا ، ولأن المجتمع العثماني التركي جزء لا ينفصل عن تلك الثقافة وقد تعلّم هذه الثقافة بعد لغته مباشرة . كان المتعلم للغة العربية ، يعامل معاملة متميزة جدا ويلقى احتراما فائقا في جميع أنحاء الإمبراطورية . إلا أن العرب قوم محب لوطنه بصورة فائقة ، ولا يستحسنون ترك أقطارهم . ويحتمل أنهم لم يشاركوا في الإدارة العثمانية كما ينبغي إما لهذا السبب ، وإما بسبب عدم اهتمامهم بالسلك العسكري . وكان النظام العثماني لا يجبر الناس على الدخول في السلك العسكري . أما في الأقطار العربية التي تجابه العدو مباشرة ووجها لوجه كالمغرب فإن العرب البرابرة والأندلسيين اشتركوا في الإدارة العثمانية ، وجيشها الموجود في تلك الأقطار على نطاق واسع . لا نجد هذا الوضع في المشرق . إذ لم يكن هناك احتمال لاحتلال مسيحي بالنسبة للمشرق . أما الدولة العثمانية فإنها كانت دولة إسلامية بدرجة الدول الأيوبية أو المملوكية . وبناء على ذلك ، فإنه لم يطرأ على عرب المشرق تبدّل يستحق الذكر بالنسبة لما قبل العثمانية .

أطلق العثمانيون على إيالة حجاز اسم « حبش إيالتي » ، وذلك أنه قد حدث في أوقات كثيرة أن أدمجت سواحل البحر الأحمر من السودان ، إريترة ، الصومال والحبشة وبعض أقسام الحبشة الأصلية والحجاز ، بالإيالة ذاتها . أقام والي الحبشة أو الحجاز ، أحيانا في جدة وأحيانا في مكّة ، وأحيانا في مصوّع (إريترة) ، ونادرا في سواكن (السودان) . وفي عهد التنظيمات تأسست إيالة حجاز على أن يكون مركزها مكة ، وفي 1871 (9 أيلول) تأسست إيالة يمن ، على أن يكون مركزها صنعاء . أما السودان ، أوغندة – ونحو 1870 مناطق إريترة والصومال – فقد ارتبطت بإيالة مصر .

انتهى الحكم العثماني بصورة فعلية في مكة في 29 / 10 / 1916 ، وفي المدينة في 13 / 1 / 1919 ، وفي اليمن وحضرموت في ك 2 / 1919 ، وانتهى بصورة قانونية بمعاهدة لوزان 1923 . أصبح كل من الحجاز واليمن دولتين إسلاميتين دون تعرضهما للاحتلال الأجنبي . أما حضرموت (اليمن الجنوبية) فقد دامت فيها الحماية الإنكليزية مدة طويلة . استمر حكم الأئمة الزيديين في اليمن من 15 ت 1 / 1635 إلى 9 أيلول 1871 ولم يعين لها وال .

بدأ الحكم العثماني في الحجاز في 1517 مع سلمان رئيس . تعاون ولاة وأمراء لواء العثمانية في الحجاز مع أشراف وأمراء مكة ومدينة الهاشميين في إدارة البلاد بتناسق تام . أما في اليمن فقد بدأ النفوذ العثماني فيها منذ عهد المماليك . لأنها كانت على بحر مفتوح ومهددة بالاستيلاء البرتغالي . تقلّد حسين بك أحد الأميرالات العثمانيين ، منصب أمير لواء في اليمن من 1511 حتى 28 شباط 1517 . الحقيقة أنه كان واليا على المماليك ، ولكن لأن إرساله تم من قبل الدولة ، فقد كان أسلوب تحرّكه واضحا . تم حكم اليمن الذي انتقل إلى الإدارة العثمانية بصورة رسمية في 1517 بواسطة أمراء اللواء ، أما إيالة اليمن فقد أسسها في 1541 السلطان سليمان . ورغم أن الإدارة في الحجاز كانت تجري على الأكثر بالتنسيق بين أشراف الهاشمية وولاة العثمانية بسبب انتمائهم إلى ذات المذهب ، فإن الوضع كان مختلفا في اليمن . عارض الإمام الزيدي في اليمن في كثير من الاحيان ، الحكم العثماني ، وأهدرت بذلك دماء كثير من المسلمين بلا داع ، ولم يحدث ذلك في الحجاز أبدا . بُدّل الأشراف الذين لم يتلاءموا مع الإدارة العثمانية في الحجاز

في هدوء ، حدثت مصادمات مسلحة قليلة جدا ، لكن العثمانيين لم يمسّوا بالمرة امتيازات أشراف بني قتادة . لم يتسن تأمين الوضع ذاته في اليمن بسبب وضعها الجغرافي وكونها جبلية ، وكذلك بسبب مقاومة الأئمة الزيديّة ، وقد أصاب العثمانيون الملل من جراء القضية اليمنية وتركوا إدارتها إلى الإمام مدة 236 سنة حتى 1871 . ولكن في القرن الـ 16 لم يكن بوسعهم الاستمرار في ذلك ؛ إذ لم يكن بإمكان اليمن أن تقف وحدها أمام البرتغاليين ، وقد كان بإمكان البرتغاليين الذين أسقطوا اليمن والذين حاولوا النفاذ إلى البحر الأحمر ، أن يسيطروا على جدّة . زال هذا الخطر في القرن 17 . أما في القرن 19 ، فقد بدأت تهديدات الدول الاستعمارية من جديدا .

وفي 1839 ، بدأت انكلترا لأول مرة في التدخل في شئون اليمن وذلك باستيلائها على ميناء عدن وجزيرة بريم ، وحتى إن إيطاليا بدأت كذلك في السعي في قضية اليمن ، فاضطرت الدولة العثمانية لإدارة اليمن من المركز مجدّدا إلى درجة أنها أسست في 1871 جيشا من أجل اليمن ، (الجيش السابع) . أما في الحجاز ، فكانت توجد فرقة عثمانية واحدة فقط .

ورغم أن كل هذه الأقطار العربية وامتداداتها الموجودة في آسيا وأفريقيا ، قد ضمها السلطان سليم إلى الاتحاد العثماني في 16 - 1517 ، إلا أن استتباب النظام العثماني بشكل كامل ، تم على عهد ابنه السلطان سليمان (1520 - 1566) . لم يدخل الأتراك إلى المشرق وإلي العالم العربي مع العثمانية . دخل الأتراك في خدمة الخلفاء على شكل جيوش كبيرة في العهد العباسي ابتداء من القرن التاسع لدرجة أنهم كونوا سلالات حاكمة في الأقطار كمصر . لكن التدخل التركي الأصلي بدأ مع حركة السلاجقة لحماية الخلافة العباسية السنيه والعالم الإسلامي السنّي من السيطرة الشيعيّة . أمر الخليفة العباسي في 21 رمضان 447 (15 / 12 / 1055) بتلاوة خطبة الجمعة في بغداد باسم الخاقان السلجوقي سلطان طغرل بك . أصبح الأتراك بعد السلاجقة من العناصر التي لا غنى عنها في المشرق . يلاحظ هذا الوضع بجلاء في الخوارزم مشاهين ، الإلخانيين ، الجلايريين ، التيموريين ، قره قوينلولر (أصحاب الخرفان السود) ، آقوينلولر (أصحاب الخرفان البيض) ، الزنكيين ، الأيوبيين والمماليك . السلالات الثلاث

الأخيرة ، حققت التركيب العربي ـ التركي بنجاح كبير . وأخيرا ، تسلّم السلطان سليم الأقطار العربية من المماليك التي أطلقت على نفسها اسم « الدولة التركية » . وبناء على ذلك ، فإن الأتراك لم يكونوا قوما مجهولين بالنسبة للعرب عند مجيء العثمانيين ، دائما كانوا معلومين معروفين . كان العرب قد تعلموا منذ عصور كيفية تعاملهم مع الأتراك ، وكان الأتراك كذلك قد تعلموا كيفية تعاملهم مع العرب وجرّب وعلم كل منهم إمكان تعايشهم سويا بوئام تحت راية دولة إسلامية موّحدة . بالطبع حدثت مصادمات ، لكنها لم تكن مصادمات قومية . كانت إما مصادمات مذهبية، أو بين السلالات والدولة . نجد نفس الوضع بين السلالات التركية البحتة ، كما نجده كذلك بين الدول العربية ، هذا علاوة على أن مفهوم القومية بمعناه الحالي ، الذي بدأ في العالم في القرن 19 ، لم يكن موجودا خلال تلك القرون . ويضاف إلى ما تقدم أيضا أن الأتراك ، هذا الشعب العسكري ، كان قد دافع عن الدين الإسلامي بنجاح تجاه الصليبيين . ولولا ذلك ، لكان من المحتمل أن يضمحل المسلمون ، كما حدث في الأندلس ، كما أن المماليك توجوا هذا بإزالتهم بنجاح كبير من شرق البحر الأبيض (بالفرنسية : Levant) بقايا الصليبيين ، الأمر الذي يسّر للعثمانية وسطا أكثر ملاءمة . وليس هنالك شك في أن الأتراك والعثمانيين خدموا قضية انتشار الدين الإسلامي ودخول كتل كبيرة فيه .

أما في المغرب وأفريقيا الشمالية ، فقد اتضح قطعيا وبصورة جازمة أن العثمانية هي العامل في إنقاذهما من اعتناق المذهب الكاثوليكي وإنقاذ عرب المغرب من الإبادة . ولو أن التدخل العثماني في المغرب تأخر ربع قرن آخر ، لكان مصيرها مصير الأندلس ، لايوجد قطر عربي لم يتدخل فيه الأتراك . لم تغرب « المقبرة التركية » الموجودة بالقرب من قلحاط ، عن أنظار السواح الأوروبيين في أواسط القرن 19 ، وهي مقبرة الأتراك الذين كانوا يعملون بخدمة أئمة عمان في العصر 13 (**Haurt ، Histoire des Arabes ، 2 ، 261**) .

لم تحقق الأقطار العربية كالحجاز واليمن بخاصة ، للدولة العثمانية أية فائدة اقتصادية ، بل إنها استنفدت الكثير من الدراهم والجنود . غير أنه كان أمرا واجبا ومحتما على الدولة الحائزة على صفة الخلافة الإسلامية ، أن تهتم بهذه الأقطار .

جهزت كل من الحجاز واليمن بالخطوط اللاسلكية ، منح عبد الحميد الثاني من جيبه الخاص 5 / 2 مليون ليرة ذهب ومدّء خط الحجاز الحديدى . لقد كان لهذا العمل أهميته ، من ناحية كونه وسيلة لإظهار الوحدة الإسلامية ، إذ تبرع له شاه إيران ، خديو مصر ، نظام حيدر آباد ، نوّابين الهند ، وحتى جماعات المسلمين في جزر اوقيانيا . كان السلطان حميد يرغب في أن يوصل الخط حتى اليمن ، ولكنه خلع .

أدركت إنكلترا أن هذا الخط إنما مدّ بغرض منع تدخلها في الأقطار العربية ؛ إذ إن خط بغداد الذي سيمتد إلى خليج البصرة ويصل حتى الكويت كان من تصميم السلطان عبد الحميد كذلك . قرر الباب العالي في 1912 ، مد خط سكة حديدية ـ زبيد ـ تعز ، عب ـ يريم ـ صنعاء ، وقد اندلعت نار الحرب مع إيطاليا التي كان لها أطماع في اليمن بقدر ما كان لها أطماع في ليبيا ، واعقب ذلك حربا البلقان والعالمية الأولى .

بنو قتادة ، هم الأشراف الموجوْدون في مكة منذ 1202 . اشتركوا في الحكم باسم الأيوبيين ، ومن 1250 إلى 1517 باسم المماليك ، وبعدها باسم العثمانيين ، أو حكموا بأنفسهم بين فترة وأخرى كل أنحاء الحجاز تقريبا وليس مكة فحسب . اعتنقوا المذهب الحنفي في 1517 لمسايرة العثمانيين ، بينما كانوا شافعيين . وكان من الطبيعي كذلك أن تهتم الدولة العثمانية بالحجاز قبل 1517 . وبالدرجة الأولى ؛ لأنها كانت ترسل في كل عام آلاف الحجاج إلى الحجاز .

الكعبة والروضة المطهرة ، لم تكونا عائدتين إلى المماليك ولا للعرب ، كانتا تعودان لكل المسلمين . كان المماليك يقومون بإدارتها باسم كل المسلمين . بدأ يلدرم بايزيد (1389 ـ 1402) بإرسال مبلغ 3500 ليرة ذهبا سنويا لتوزيعها على فقراء مدن ؛ مكة ، والمدينة ، قدس ، الخليل . ويطلق على هذا اسم « صره » . زاد مراد الثاني (1421 ـ 1451) هذا المبلغ إلى 3500 ليرة ذهب لكل من مكه والمدينة زاد ابنه السلطان محمد الفاتح (1451 ـ 1481) هذا المبلغ إلى 800 كيسه (1451).وعند فتحه استانبول (1453) ، أرسل من أموال الغنائم إلى شريف مكه مبلغ 9000 ليرة ذهبا . زاد ابنه بايزيد الثاني (1481 ـ 1512) الصّرة التي ترسل إلى مكة والمدينة ، إلى 14000

ليرة ذهب ، وعند اعتلاء ابنه السلطان سليم العرش في 1512 ، زاد المبلغ إلى 000 28 ليرة ذهب وفي 1517 عند فتحه مصر ، زاده إلى 000 200 ليرة ذهب . وهكذا فإن الدولة العثمانية ، استمرت في رعاية كل التزامات الدولة المملوكية في الحجاز واستمر ذلك حتى 1916 .

كان أحد شرفاء قتادة ، ينتخب أميرا على مكة . وكان برتبة وزير أو قاضي عسكر . تعلن إمارته بعد تلاوة المنشور المرسل من استانبول بصورة علنية وإطلاق 19 مدفعا . تعزف الموسيقى العسكرية (مهتر) أمام السراي عصرا كالوزراء الآخرين . ومع أنه يتقاضى من استانبول راتبا سنويا قدره 000 15 ليرة ذهب ، فإن نصف إيرادات جمرك جدّة ، تترك للأمير . كان للأمير جنود معيّة وهم من البدو . كان بمكة حامية عثمانية ذات مدافع وبنادق ، لكن هؤلاء الجنود لا يتلقون أوامرهم من الأمير . لا يفتر الخلاف بين شرفاء قتادة وينقلب في بعض الأحيان إلى خلاف شديد وكانت الحكومة العثمانية تحاول التأليف بينهم . وفي 1701 ، قلّصت الدولة العثمانية صلاحيات الأمير إلى درجة كبيرة وجعلت صلاحياته كصلاحيات رئيس بلدية مكة . إذ إن الحكومة العثمانية ابتداء من 1701 إلى نهاية السلطنة ، بدأت في تعيين شخصين بلقب شيخ الحرم بمرتبة وزير أحدهم في مكة والآخر فى مدينة ، علاوة على واليها الموجود في الحجاز . أعطيت للأول كل المهام والصلاحيات العائدة لمكة والكعبة والحرم الشريف ، وللثاني ، المهام والصلاحيات العائدة للروضة المطهرة ، وفي هذا نجد من ناحية ، المركزية التي لا تجارى في نظام الدولة العثماني ، ومن ناحية أخرى نرى حرص الدولة في الحفاظ على التقاليد ، إذ إنها لم تلغ مقام الإمارة . كلا شيخا الحرم كانا واليين فعليين لمكة والمدينة . والحامية العثمانية الموجودة في تلك المدينة وفي المنطقة المحيطة بها تابعة لأمرهما . لم يكن هناك تشكيلات التيمار في إيالتي الحجاز والحبشة . كان للأمير معيّة من زمرة الحرس والكتبة يبلغ عددهم نحو 600 . استمر الأمير بمرتبة وزير حتى النهاية .

كان والي مصر يرسل موكب الصرّة مع كسوة الكعبة من القاهرة إلى مكة حتى عام 1714 . ومن 1714 حتى 1916 كان موكب الصرّة يرسل من استانبول في كل عام .

تبدأ المراسم بحضور البادشاه ، ويتحرك الموكب بحيث يكون وصوله إلى مكة والمدينة في عيد الأضحى . كان ذلك احتفالا دينيا كبيرا . كانت النقود الذهبية والفضية المرسلة تحمل على ثلاثة بغال . وفي الدفتر الذي يحمله الشخص المسن والوزير المتقدم المسمى « صرّه أميني » (أمين الصرّه) أسماء وعناوين الذين ستوزع عليهم هذه المبالغ . وعند وصول الموكب إلى الشام يأخذ الوزير ، الذي يعيّن أميرا للحج « حج أميري » لتلك السنة ، مكانه في مقدمة الموكب .

يستقبل أمير مكة وشيخ الحرم ، الموكب في منى ، ويفتح الأمير الكتاب السلطاني « نامه ء همايون » بعد تقبيله ثلاث مرات ووضعه على رأسه احتراما ، ويدخل مكة على رأس القافلة ، ولقد أصبح استقبال أمير مكة ، موكب الصرّه في المدينة ، في القرن 19 عادة . آخر موكب للصرّه ، أرسل عام 1915 ، ولم يتمكن الموكب من الذهاب إلى مكة عام 1916 بسبب عصيان الأمير حسين . وآخر صرّه في 1918 ، وصلت إلى الشام ووزعت فيه . وفي 1922 ، أرسل للمرة الأخيرة السلطان وحيد الدين صدقة إلى أصحاب الحاجة في مكة والمدينة ..وبعد 1923 ، ترك الخليفة عبد المجيد الثاني هذه العادة .

كان إرسال « الكسوة » إلى الكعبة من مقتضيات واجب الخلافة . أرسل العباسيون الكساء إلى مكة حتى عام 1258 من بغداد ، وحتى 1517 من القاهرة . وأخذ بنو عثمان هذا الواجب بعد ذلك على عاتقهم . تشغل الآيات بخيوط الذهب فوق الحرير الأسود السميك جدا . كان الغطاء الأصلي (الستارة) المسمى « حجاب » يصنع من 1060 ذراعا من القماش ، وله نطاق من 50 ذراعا . يشغل عليه الآيات واسم الخليفة الذي أرسله بالخط الثلث .

كان هذا الغطاء حتى 1609 يحاك في القاهرة ، واعتبارا من ذلك التاريخ وحتى عام 1916 حيك في استانبول . يستهلك 48000 درهم من الحرير في حياكته . تعذر إرسال الصرّه والكسوة لمدة 4 سنوات من 1808 إلى 1811 .

كانت الكسوة تبدل كل عام ، يؤتى بالكسوة القديمة إلى استانبول ، وترسل إلى سراي طوبقابو بعد شهرها على الشعب باحترام كبير في جامع أيوب . تجدّد ستارة الكعبة التي تصنع من الأطلس الأخضر ، كل 7 سنوات بحيث يصادف موعد تبديلها ، وقت

الحج الأكبر . حفظت مفاتيح الكعبة في قسم الأمانات المقدّسة من سراي طوبقابو منذ 1517 .

أولّي اهتمام كبير للحفاظ على الحرم الشريف والروضة المطهرة بشكل يليق بشأن الإسلام . وقد جعل الخلفاء العثمانيون خاصة من الروضة المطهرة مكانا يليق بقدرها . جمعت الأشياء الثمينة الموجودة في الروضة في صناديق وأرسلت إلى استانبول في الحرب العالمية الأولى على يد فخر الدين باشا ، وهي موجودة حاليا بين مجموعة الأمانات المقدسة في سراي طوبقابو . أمر أحمد الأول ـ المتديّن جدا ـ في 1612 بصنع الميزاب الذهبي الشهير للكعبة المسمى « ميزاب رحمت » (ميزاب الرحمة » . علقت الماسة المسماة « شب ـ جراغ (قنديل الليل) في ناحية رأس الرسول ﷺ . كان محمد الثالث والد السلطان أحمد قد اشترى ماسة شب ـ جراغ بمبلغ 50 000 ليرة ذهبا وكان لا يخلعها من أصبعه . صُنّعت شب ـ جراغ على شكل لوحة ، وذلك بتعليق 220 ماسة إضافية على أطرافها وأرسلت إلى المدينة (حاليا في سراي طوبقابو) . وفي 1818 ، أرسل محمود الثاني إلى المدينة 3 ثريات مطعمة بالجواهر بصورة كاملة ، إضافة إلى الثلاث ثريات (اثنتان منها من الماس والأخرى من الزمّرد الخالص) الموجودة في الروضة المطهرة (جودت ، 10 ، 241 ـ 2) . صرف ابنه عبد المجيد الأول (1839 ـ 1861) من خزينته الخاصة مبلغ مليون ليرة ذهبا للعناية بالمسجد النبوي في المدينة . صرف ابنه عبد الحميد الثاني (1876 ـ 1909) مبلغا ضخما لتنظيم الروضة مجدّدا وطلا داخلها بالطلاء الأخضر .

وفيما يلي أنقل إليكم بعض المعلومات عن وضع إيالة الحجاز في 1889 لتوضيح وضع الإدارة العثمانية الأخير فيها (**حجاز ولايتي سالنامه سي** ، سنه ء هجرية : 1306 ، دفعه : 4 ، مطبعة مكة المكرمة ، ص 306) :

تعداد الإيالة التقريبي 2500 000 نسمة (الإمبراطورية بصورة عامة 42 557 617 نسمة) مركز الإيالة مكة . لغة الإيالة العربية لكن الشعب يفهم التركية كذلك . مصطفى صفوت باشا والي الحجاز وفي نفس الوقت شيخ الحرم لمكة ، عسكرى (مشير) ، حامل أوسمة عثماني ومجيدي من الدرجة الأولى ، أمير مكة الشريف عون الرفيق

باشا ، برتبة وزير ، ويحمل أوسمة الامتياز العثماني والمجيدي وكلها من النوع المرصّع . قاضي مكة أحمد مختار أفندي برتبة « استانبول » ، حامل وسام المجيدي من الدرجة الثانية . قابو كتخداسي حاجي كامل أفندي الذى يترأس الموظفين التابعين لأمر الأمير ، برتبة بالا ، حامل وسامي العثماني والمجيدي من الدرجة الثالثة . هؤلاء هم كبار الموظفين ايضا ، كان 22 موظفا يعملون في مطبعة الولاية . تطبع المطبعة الكتب والصحف باللغة العربية وباللغة التركية كذلك . 8 قضاة يعملون في محكمة التمييز . ترابط فرقة واحدة في مكة ، قائدها الفريق أحمد فيضي باشا ، حامل أوسمة العثماني والمجيدي من الدرجة الثانية . في المدينة قائد حامية برتبة فريق وبلقب « محافظ » (عثمان فريد باشا ، أوسمة العثماني والمجيدي من الدرجة الأولى) ، وهو فى ذات الوقت متصرف (والي ولاية) المدينة . تتكون الفرقة الموجودة في الحجاز من كتائب المشاة الـ 64 ، 65 ، 66 التي تتكون كل منها من 4 سرايا تتكون السرية من 4 فصائل ، سريتي مدفعية ، كتيبة درك (جندرمه) ذات 5 سرايا وفصيلتي موسيقى . تنقسم إلى لوائين . وتحتوي كتيبة الدرك على 77 ضابطاً . مجموع المدفعية 5 بطاريات و 41 ضابطا ، هذا عدا الضباط الأطباء العاملين في المستشفى العسكري في جدة تحت إشراف المقدم الدكتور هارون بك . رئيس أطباء الفرقة الدكتور محمد بك ، برتبة مقدم أيضا .

بمدينة مكة 7 جوامع ، 68 مسجدا ، قلعتان ، قصر حكومي ، محكمة ، دائرة بريد ، ثكنتان ، مستشفى عسكري ومستشفى مدني ، 3 تكايا ، 12 مقبرة ، 40 حنفية مياه مشيّدة (جشمه) وسبيل ، حمامان ، 3000 دكان ، 6500 دار ، مطبعة ، 25 مغازه (مخزن كبير) ، سوقان للتحف ، 9 خانات ، 19 رباطا (ملجأ للفقراء) ، 80 طاحونة ، 7 مطابخ للمحتاجين (عمارت) ، 6 مدارس ، مدرسة متوسطة ، مكتبتان ، دار توقيت ، 60 فرنا ، 95 مقهى ، صيدلية ، 43 مكتبا ، 17 مصنع كلس ، مذبحان (سلخانة) ، 8 معامل أواني وقوارير فخارية ، مخزن نفط ، بناية محجر صحي ، مصنعا دباغة .

الطائف ، ناحية مكة ، يسكنها شتاءً 1 500 من السكان المحليين ، بها 7 جوامع ، 7 مساجد ، مدرسة ، 4 مكاتب ، سبيل ، ثكنة ، 400 دار ، 200 دكان ، 16 كشكا ،

حمام ، 9 أفران ، 10 قصابين ، مذبحان (سلخانة) ، 3 أحواض . يزداد عدد سكانها صيفا بالقادمين من مكة .

« شيخ الحرم حضرت نبوي » في المدينة المنورة ، عسكري أيضا (المشير عادلي باشا ، أوسمة العثماني الثاني والمجيدي الأول) . القاضي محمد فوزي آفندي ، برتبة حرمين ولا أوسمة له . أمير اللواء الدكتور حسني باشا ، المفتش الصحي للمدينة (العثماني والمجيدي الرابع) « فراشت شريفة وكيلي وشيخ الخطباء » ، قاضي عسكر وهو أحمد أسعد أفندي (العثماني والمجيدي الأول) . تحتوي المدينة على 10 جوامع ومسجد ، 8 تكايا ، 17 مدرسة ، قلعة ، سراي حكومة ، مدرسة متوسطة ، 11 مكتباً ، ثكنة ، 21 سبيل ماء ، مستشفى ، دار توقيت ، 4000 دار ، 932 دكانًا ، 18 فرنا ، 26 مقهى ، 4 خانات ، حمامان ، 108 رباطات ، 10 مراكز شرطة 4 مصابغ ، 485 بستان نخيل .

ينبع ، مرفأ المدينة ، قضاء قائمقامه عسكري أيضا ، الرائد (بكباشي) نسيم بك ، يدير القضاء ومعه 19 موظفا . عدد نفوس القصبة 5000 نسمة ، وتحتوي على دار حكومة ، 3 جوامع ، 800 دار ، 300 دكان . وناحية هذا القضاء خيبر .

الوجه ، قضاء آخر للمدينة وهو مرفأ على البحر الأحمر كذلك . تحتوي القصبة على 200 دار ، جامع ، قلعة ، دار حكومة ، 20 دكاناً ، مركز حجر صحي و 2500 نسمة .

متصرف لواء جدة مدني (محمد شريف بك ، برتبة متمايز ، وسام المجيدي الثالث) . جدة ، مركز أسطول البحر الأحمر ، قائده أمير اللواء البحري موسى باشا . يتكون الأسطول من 4 سفن حربية (Corvet) و سفينة حربية (Gunboat) ، 68 ضابطا بحريا ونحو 600 جندي . تحتوي مدينة جدة على قنصلية إيرانية عامة ، قنصليات إنكلترا ، فرنسا ، هولاندا والسويد ، معاونيات قنصاليات النمسا ، اليونان ، سكانها 25000 نسمة ، وبها ، دار حكومية ، قلعة ، ثكنة ، دائرة جمرك ، دائرة ميناء ، دائرة بلدية ، دائرة حجر صحي ، مستشفى مدني ، مستشفى عسكري طاقته 100 سرير ، 6 مراكز شرطة ، دائرة بريد ، 5 جوامع ، 30 مسجدا ، 7 مقابر ، حمامان ، خزان ماء ، فسقية ذات حوض ، مخزن مياه للسفن ، مصبغة ، 4 أحواض ، حنفية مياه مشيّدة ، 300 3 دار ، 900 دكان ، 10 مخازن كبيرة ، 47 طاحونة ، 47 فرنا ، 40 مقهى

ومعمل ، 30 خانا و 12 مطعما وصيدلية وسوق للسمك ومعمل صدف ومصنعا كلس ومذبح (سلخانة) ومعمل لغاز الاستصباح ، مدرسة متوسطة ، 10 مكاتب .

الليث ، مركز قضاء في لواء جدة . تحتوي القصبة على جامع ، دار حكومة ، 50 دكانًا ، 550 داراً ، 2000 نسمة .

رابغ ، مركز ناحية تابع لهذا القضاء ، ميناء على مسافة بعيدة من جدة ، عبارة عن قلعة ، دار حكومة ، 7 آبار . 10 خزانات مياه أرضية ، 116 دارا ، 5 جوامع ، 60 دكانا و 369 نسمة من السكان المحليين والموظفين الأتراك :

دوّن في السالنامة (النشرة السنوية) أن سلاطين القرون الأخيرة ورجال الدولة في استانبول أهدوا إلى « المدينة » 22914 كتاباً باللغتين العربية والفارسية ومخطوطات باللغة التركية وقد تم تسجيلها جميعا ، كما أرسل السلطان عبد العزيز (1861 ـ 1876) إلى الروضة المطهّرة 143 سجادة من نوع أوشاق ذات قيمة كبيرة .

سافر أولياء جلبي ، في 1672 ، عندما كان في 61 من عمره ، إلى العقبة ـ المدينة ـ مكة ـ جدة وحّج . وهو يقص علينا سفرته هذه في مجلده التاسع (ص 585 ـ 825) . وتشرح لنا في السطور القليلة التالية المقتبسة منه وضع مكة والمدينة في أواسط القرن 17 :

أدركت قافلة الحج قلعة جكيمان بعد 10 ساعات من العقبة وتركت إيالة شام ، ودخلت إيالة حجاز . جلبت الماء إلى هذه المنطقة ، أسمهان سلطان الابنة الكبرى لسليم الثاني وزوجة صوقوللو محمد باشا . يعد هذا عملا خيريا كبيرا إذ لايوجد ماء في مكان آخر طول الطريق . يطلق الأتراك على بسيط بيعتيه التي تقع على بعد مرحلتين و 20 ساعة في منتصف طريق شام ـ مكه تماما « قورو قاواق » . جدّد محمد الرابع في 1652 القلعة التي كان قد بناها نور الدين زنكي . وبعد 4 مراحل و 45 ساعة ، نجد قلعة المعظم وهو كروانسراي عظيم من بناء قوجا سنان باشا . المرحلة التالية بعد 18 ساعة هي شق العجوز . فتحت تارهان والدة ـ سلطان فيها آبار المياه . ثم تأتي المرحلة التي تليها بعد 18 ساعة ، هي حدود الكعبة وخرائب مدائن صالح ، لا يجوز لغير المسلم أن يجتاز أبعد من ذلك . وبعد 38 ساعة و 3 مراحل ، نجد بئرا

جديدا يسميها الأتراك « بني قويو » ، وقد جلبت تارهان سلطان الماء لهذه المنطقة أيضا . فيها قبر النبي هود عليه السلام . وبعد 51 ساعة و 3 مراحل ، قلعة خيبر ، لكن طريق الحج لا يمر بخيبر ، وإنما يمر بالقرب منه . والمرحلة التالية هي المدينة استقبل عشرات الالوف من الحجّاج بتحية 80 إطلاقة مدفع اطلقت من قلعة المدينة

كانت « المدينة » تسمى قبل وفاة الرسول ﷺ في 622 ، « يثرب » ، ثم سميت « مدينة النبي » ومختصرا « مدينة » ولإظهار الاحترام « المدينة المنورة » تقع في بطن الصحراء وعلى ارتفاع 639 عن مستوى البحر ، وهي المدينة المقدسة الثانية في العالم الإسلامي بعد مكة . أصبحت عاصمة للدولة الإسلامية قبل أن ينقل علي (كرم الله وجهه) مركز الخلافة إلى الكوفة . بنى قلعتها السلطان سليمان ، ويقال إن ذلك بناء على رؤيا تمثل له فيها الرسول ﷺ عام 1552 . من المعلوم أنه لا يرى الرسول عليه الصلاة والسلام في رؤياه إلا النادر من الناس .

المدينة ، مركز لواء في إيالة حبش (الحبشة) . لايجوز لأمير مكة في قانون سليمان خان أن يحضر إلى المدينة أكثر من مرة واحدة في السنة . في حالة ترفيع قاضي المدينة ، يصبح رأسا قاضي استانبول . وبموجب القانون الذي وضعه محمد خان في هذه الأيام ، فإنه لايمكن أن ينال القاضي مرتبة استانبول ، مالم يزاول القضاء في مكة أو المدينة . رغب الكثيرون في تولي قضاء الحرمين . كان الملائون في السابق لايرغبون في تولي القضاء في مكة والمدينة بسبب كونهما بعيدتين وغريبتين جدا بالنسبة لأولاد روملي . تأثر البادشاه بشدة لهذا الوضع ، وأعلن على أثر ذلك القانون الذي أسلفنا ذكره والذي يقضي بأنه لا يرفع إلى منصب قاضي عسكر من لم يرتق إلى رتبة قاضي استانبول .

يعمل مع القاضي عدد من 40 ـ 50 موظفا تابعين لأمر القاضي ، أما شيخ حرم المدينة فيتبعه 500 جندي عثماني . يطلق على أمير لواء المدينة « شيخ الحرم » ، يرسل من استانبول . يرابط في قلعته 100 جندي حمايه (محافظ) ، 80 مدفعا ، يحتوي داخل السور على 2080 دارا . محيط القلعة 3350 ذراعا . سمك السور 6 وارتفاعه 20 ذراعا

رصيف ينبع ، قضاء تابع للمدينة . ونواحيها حديدة ، صفراء دار القرى ، فدك

علي وخيبر .

تقع الروضة المطهرة داخل الجامع الكبير . لاتصلى صلاة الجمعة ولا تتلى الخطبة في جامع آخر في المدينة ، بما في ذلك مسجد سليمان خان الموجود في القلعة . يصلي الناس في وقت الحج في الشوارع التي تحيط بالجامع أيضا . زيّن الجامع وكأنه قطعة من الجنّه . بني البناء الأصلي بأمر سليمان خان ، ولكننا نرى كذلك إنجازات السلطان قيتباي ، السلطان قنصوة ، مراد الثالث وأحمد الأول . وضع مراد الثالث المنبر الحالي في 1594 . يضاء بواسطة 7000 قنديل . قبة الروضة المطهرة من بناء السلطان قايتباي . يرقد أبو بكر (رضي الله عنه) بجوار الرسول ﷺ ، وترقد فاطمة (رضي الله عنها) في قسم مجاور آخر . يُعني بتنظيف الروضة « شيخ الحرم حضرت نبوي » وهو الذي بمرتبة وزير ، مع 700 من معيّته السود . يشاهد 300 مفتاح ذهبي وفضي معلقة على جدار مقام الشيخ . المقصورة الموجودة وسط القبة تنقسم إلى أربعة أشطار ومصفوفة بالجواهر من بدايتها إلى نهايتها . يرقد الرسول ﷺ تحت المقصورة وداخل ستار القبة الأخضر . لايمكن لأي فرد أن ينفذ إلى داخل المقصورة . كل الأشياء المحيطة بالمقصورة كالشمعدانات ، القنّاديل ، المباخر ، الكلبدانات (أواني رش ماء الورد) ، مرصعة بالأحجار الكريمة . يفتح شيخ الحرم الباب بمفتاحه الذهبي مرة في السنة مع رجاله ويكنس وينظف بيده تلك المقصورة . وأبو بكر (رضي الله عنه) كذلك تحت المقصورة ، وإلى جواره عمر (رضي الله عنه) ، فاطمة (رضي الله عنها) في مكان خارج المقصورة . ولم يدفن فيها غيرهم . المقصورة محاطة بسياج على بعد ثلاثة أذرع . ويستطيع الزوار الاقتراب إلى حد هذا السياج فقط . من الممكن الالتفاف والدوران من جهات السياج الأربعة . طعمت الأرضية بآلاف الأحجار الكريمة . لذا فإنها لا تغطى بالسّجاد . تلمع آلاف الأحجار الكريمة على الثريات الموجودة في القبة . كل واحدة منها نذر لأحد السلاطين . الشمعدانات من الذهب الخالص ومغطاة بالأحجار الكريمة كليا . توجد 7 شمعدانات كل واحدة منها بارتفاع قامة بشرية أهديت بالتسلسل من آتابك نور الدين ، سلطان قايتباي ، سلطان قنصوة ، السلطان ياوز سليم ، السلطان سليمان القانوني ، تيمور أوغلو أكبر شاه والسلطان

أحمد الأول . والماستان المعلقتان أمام قبر الرسول ﷺ زنة 70 قيراطا . طلا السلطان أحمد الأول داخل القبة بالذهب . دوّن على القبة اسم السلطان أحمد وأجداده حتى عثمان غازي بالخط الثلث .

تدّرس مدارس السلطان سيف الدين ، السلطان قايتباي وصوقوللو ، التحصيل العالي . توجد 202 مدرسة ، 20 مكتبا ، سوق فيه 700 دكان ، 70 سبيلا ، أكثرها من بناء السلطان سليمان و حمامان . يفتح السوق بصورة مستمرة لمدة 24 ساعة في الأشهر الثلاثة (أشهر الحج) . تبقى هذه الأبنية داخل السور . ويوجد عدا ذلك ، خارج السور مايقرب من 2000 دار ، مدرسة الخاصكية العالية ، 4 مطابخ للمحتاجين بناها العثمانيون وأعمال خيرية أخرى . وهناك كلية لكل من سليمان خان وزوجته خّرم سلطان . يرقد في مقبرة البقيع الواقعة في شرق القلعة كبار الشخصيات الإسلامية ، الحسن (رضي الله عنه) ، بنات وزوجات الرسول ﷺ ، العباس (رضي الله عنه) ، الإمام زين العابدين (رضي الله عنه) ، ابنه الإمام محمد الباقر (رضي الله عنه) ، ابنه ، الإمام جعفر الصادق (رضي الله عنه) ، الإمام مالك بن أنس (رضي الله عنه) ، الخليفة الأموي الوليد والعباسي الواثق وآلاف آخرون . تشاهد في **قباء** وبها 200 دار خارج المدينة ، مساجد الرسول ﷺ ، عائشة (رضي الله عنها) وعلي (رضي الله عنه) . ثم يشاهد بارك (حديقة) صوقوللو ، مسجد عثمان (رضي الله عنه) وقبر حمزة (رضي الله عنه) .

تقع **بدر** ، بعد 45 ساعة و 4 مراحل . وتقع المدينة ، بعد بدر بمسافة 97 ساعة و 7 مراحل . تشاهد الآثار العثمانية على امتداد الطريق . وسع مراد الرابع الطريق وسوّاه ، وأصلح طريق **عقبه شكر** بصورة جيّدة ووسعه . وعندما شوهدت مكة ، سمعت الموسيقى العسكرية (مهترخانة خاقاني) وهي تهز السماء والأرض بأنغامها ، وبدأت قافلة الحج في دخول المدينة .

مكة المكرمة ، في جنوب الحجاز ، أكبر مدينة في ، القطر ، والمدينة المقدسة الأولى في العالم الإسلامي . فيها الكعبة المعظمة ، الموقع المقدس الأول عند المسلمين . على ارتفاع 265 م عن مستوى البحر . وعلى غربها ، رصيفها البحري جدة وفي جنوبها الشرقي

مصيفها طائف . وبحره ، هي المرحلة التي بين مكة وجدة كان الحج الأكبر قد تحقق عند وصولنا إلى مكة ، وكان اليوم يوم جمعة . تليت الخطبة باسم السلطان محمد خان ، أولا في جامع إبراهيم (عليه السلام) الذي أعاد إنشاءه السلطان أحمد ، ومن ثم في جبل عرفات . كان السلطان أحمد ، جد سلطاننا الحالي محمد الرابع ، قد جدّد ووسّع جامع ضيف وهو أكبر جامع بين جوامع المدينة التي يبلغ عددها نحو 70 . شعب مكة ، مولع بالتسلية والطرب . تطلق الألعاب النارية في الأعياد . تستمر الموسيقى في المقاهي ليلا دون انقطاع . طلقات الألعاب النارية السماوية التي تصنع في الشام والقاهرة ، تزين سماء مكة الصافي بأشكال الفراشات المارد ، الكلب ، الحمار ، الكبش ، القلعة العديدة الألوان وأمثالها من الأشكال الأخرى . وكلما ارتفعت الطلقات ، تنقسم إلى شعب وكل شعبة منها تكوّن شكلا جديدا . إن هذا الفن الرائع خاص بالعثمانية . الاطلاقات السماوية التي شاهدتها أوروبا في ألمانيا مثلا ، كانت بسيطة بالقياس إلى تلك . كان قد حضر هذا العام إلى الحج ، العديد من رجال الدولة العثمانية . كل شريف من أشراف مكة ، اصطحب واحدا منهم وضيّفه في داره . الشعب العثماني ، يحب شعب مكه كثيرا ويكن له الاحترام الزائد . كان المكّي الذي يذهب إلى أي مكان من الإمبراطورية ، يقابل بإكرام كبير ولا يسمح له بالإنفاق من جيبه . يتبرع الكثيرون لشعب مكة ، حتى من خارج الدولة العثمانية . يتقاضى أمير مكة من الدولة في كل يوم عرفة ومرة واحدة في السنة ، مبلغا رمزيا قدره ألف ليرة ذهب . دخله الأصلي ، هو نصف حاصل إيرادات جمركي جدة وينبع . لكن هذا ، كان لايكاد يفي بمصروفات . إذ إنه كان يقوم بإعاشة حرسه البالغ عددهم 3000 . تقوم بحماية المدينة 12 فصيلة من الجند حملة البنادق الذين يرسلون من استانبول ، وهؤلاء يتلقون أوامرهم من شيخ الحرم وليس من الأمير . المسافة إلى البحر وجدّة 12 ساعة ، التوقف مرة واحدة في منتصف الطريق . المنطقة صحراوية تماما . توجد بعض القصبات ، تحتوي كل منها على ممثل للأمير وهو من العائلة نفسها ، أي شريف . منصب قضاء مكة ، يعتبر من أكبر المناصب العلمية في الدولة .

أحيط الحرم الشريف بسور ، ولو وضع مدفع لأصبح قلعة . تتوسطه الكعبة .

الكتابة التي تعلو قوس بابها الأوسط من بقايا عهد القانوني ومن خط قره حصاري . وضعه الحالي من عمل السلطان سليمان . بنى مراد الثالث بعض الإضافات . يحتوي على 678 عمودا مرمريا ، أكثره أبيض اللون . طول أحد أضلاع الحرم الشريف 320 ذراعا . بنى المعمار سنان بأمر القانوني على جبهاته الأربع 36 + 24 + 36 + 24 = 120 قبة .

وسقّف مشتملاته من الأبنية بقبب مغطاة بالرصاص وجعلها شبيهة بمدارس إستانبول (الدينية) كان والدي درويش محمد ظلّي آغا قد صنع ميزاب الرحمة بأمر السلطان أحمد خان ، حضر والدي بنفسه إلى الكعبة وأشرف على تركيب الميزاب الذهبي (حاليا في سراي طوبقابو) . يحتوي على توقيعه . يتجمّع ماء المطر الذي يمطر على الكعبة في هذا الميزاب الذهبي وينسكب على حجر السجدة . حجر السجدة هو الموقع الذي سجد عليه الرسول ﷺ عند صلاته وإمامته للناس عند الكعبة . جعل كمحراب . وضع على طرفيه شمعدانان فضيان مكسوان بالذهب وبارتفاع قامة واحد ، مع 200 قنديل .

الحجر الأسود (وكما يلفظه الأتراك : حجر أسود « بكسر حرف الراء » ، وبالتركية : قره طاش) يقدسه المسلمون . يصعب على كثير جدا من الحجاج لمس أو تقبيل الحجر الأسود خلال موسم الحج بسبب الزحام ، قد يمكن ذلك خلال العمرة في غير موسم الحج . يقوم بتنظيف ومسح وكنس الحرم الشريف نحو 200 من حرم آغاسي وهم الموظفون المسنون الذين تقاعدوا من خدمة الحرم الهمايوني في السراي العثماني. هؤلاء لا مثيل لهم في العالم في دماثة أخلاقهم ، ورقّتهم وتدينهم ، وقد اكتسبوا تربيتهم هذه في دائرة حرم البادشاه . يؤدون أشرف خدمة .

زمزم ، نبع في الحرم الشريف، على مسافة قريبة من الكعبة ، بارد في كل المواسم ، لذيذ الطعم ومتدفق . بنى محمد الرابع للمرة الأخيرة الباب والقوس الموجودة فوق بئر زمزم . يدلي 4 رجال بـ 4 دلاء ويسحبون الماء في كل دقيقة مرة واحدة مدة 24 ساعة . يبدلون 5 مرات في اليوم ، لا عمل لهم غير هذا . لم تنقص ولا قطرة من الماء منذ آلاف السنين .

يتلو خطبة الجمعة في الحرم الشريف أحد العلماء الكبار الرتبة . يعتلي المنبر وبيده السيف . إذ إن الرسول ﷺ فتح مكة من المشركين بالسيف . وفي البداية يذكر اسم الله ويحمده . ثم يصلي ويسلم على الرسول ﷺ . ثم يذكر الخلفاء الراشدين فردا فردا . ثم يدعو لآل عثمان ويسلسل كل ألقاب الخليفة الحالي السلطان محمد خان الرابع . ثم يتلو بالتسلسل ـ راجعا إلى الوراء ـ كل أسلاف وأجداد السلطان محمد من السلاطين ويذكر أسماءهم ، القابهم وصفاتهم ، بشكل يمكّن مستمع الخطبة من إدراك ماكانت عليه دولة بني عثمان . ويتعرف على كيفية بناء أجزاء الإمبراطورية العالمية في زمن كل سلطان . يقطع الخطيب خطبته بعد تعريفه السلطان ياوز سليم ، ولا يرجع إلى ماقبله ، ذ إن السلاطين الذين يسبقون السلطان سليم ، لم يكونوا خلفاء . يستمع 000 70 حاج لهذه الخطبة برهبة واحترام وهم بملابس الإحرام ، يرسلون التحيات والتكريمات لى خليفة روى زمين (خليفة الرسول على وجه الأرض) . كان كل المسلمين كتلة احدة . يلفظ البشر القادمون من أعراق ، لغات ، أجناس ، ألوان ، أقاليم مختلفة ، والذين ارتدى أميرهم وفقيرهم اللباس ذاته ، كلمة « آمين » لشوكة بني عثمان . كان العالم الإسلامي شامخ الرأس ، وكان ذلك بفضل استانبول . هلل 000 70 حاج تكبيرات عيد الأضحى بمقام سيكاه للموسيقي أطرى أثناء هبوط الخطيب على سلم المنبر بخطوات بطيئة جدا ، مع انتظاره فترة في كل خطوة . فى الحرم المكي يصلي الناس حول الكعبة ، ومن ثم فإنه قد يقابل الصفَّ صف ، وهو أمر لايكون أبدا في الصلاة في غير الحرم المكي الشريف .

تحتوي مكة وجوارها على 740 جامعا ومسجدا ، لكن أكثرها صغير جدا . وهى المساجد الموجودة في زوايا التكايا والمدارس . وضعت محاريب في بيوت جميع الصحابة وجعلت منها مساجد . قبر خديجة (رضى الله عنها) وبيتها الذي سكنه الرسول ﷺ 27 عاما حتى الهجرة ، يفوق كل الأماكن في عدد زواره . ان بيوت الخلفاء الراشدين الأربعة ، المستقلة ، هى حاليا مساجد . تحتوي مكة على نحو 40 مدرسة . أكثر من نصفها إنجاز عثماني ، وعدد منها من بناء المعمار سنان . أكبر مدرسة هي مدرسة سليمانية ، ذات 4 كليات ، وهى مدرسة عالية ومن الأبنية الخيرية لسليمان خان ، يسميها العرب « مدرسة الأربعة » ، التكية المولوية الكائنة وسط حديقة الورود والأحواض

والفسقيات هى أكبر التكايا الموجودة البالغ عددها 78 . يُضيِّف المسافرون المارون في مطبخ التكية إرضاء لله ومحبّة لمولانا . بني بادشاه الهند تيمور أوغلو أكبر شاه كذلك تكية كبيرة . يُضيف فيها الحجّاج القادمون من الهند . يوجد 53 خانا ذو عدة طوابق . يسمون الخان « وكالة » ، وفي كل منها مابين 100 إلى 200 غرفة . إحداها ، خاص بتجار الهند فقط . وخانات الأقطار العثمانية كمصر ، العراق ، سورية ، حلب ، واليمن ، خانات مستقلة . لايكفي كل ذلك في إيواء الحجاج وقت الحج . كثير من المكيين يؤجرون بيوتهم ، وهى بدورها لا تكفي ، فينصبون الخيام .

كانت مكة تعاني شحّا كبيرا في المياه قبل السلطان سليمان . صرف هذا السلطان مبلغا كبيرا جدا وجلب ماء غزيرا جدا من مسافة مرحلة واحدة عن جبل عرفات . مياه سليمان خان ، تجرى في كل مكان . وبنى حنفيات مياه مشيّدة كثيرة ، و 70 قصرا يجهز من تلك المياه . و 700 دار بها آبار . يوجد بدستان (سوق تحف) ذو 50 دكانا وسوق ذو 1300 دكان ، 145 قصرا يحتوي على حمام خاص . وهناك كذلك عدة حمامات عامة في السوق حماما صوقوللو محمد باشا وفوجاسنان باشا جميلان . تحتوي على نحو 150 مكتبًا ، ما يقرب من 40 دارا ، للقرّاء (الحفاظ) وحوالي 40 دارا للحديث . أكثرية الدارسين في مكة هم من المسلمين القادمين من الأقطار الأجنبية . تحتوي مكة على قبور كبار الشخصيات الإسلامية وصحابيين كثيرين .

جدة ، مرفأ مكة ومركز لواء فيها . ليست محظورة على غير المسلمين . وهى على مسافة مرحلتين من غرب شمال غربي مكة . الساحل المقابل لها هو السودان . يزيد عمق البحر الأحمر في هذا القطاع (2360 م) . شيّدت قايا سلطان ابنة مراد الرابع ، على مسافة من جدة في الموقع الذي يقال إنه هبطت فيه أُمنا حواء ، 7 قباب . بنى المهندسون العثمانيون قلعة جدة في الأيام الأخيرة من عهد المماليك بأمر السلطان قانصوه . تلك السنوات تسلّط البرتغاليون على البحر الأحمر ، إلى حد جدة . ولابد للسفن التجارية التي تغدو وتروح بين الهند ومصر (السويس) ، من المرور بجدة . وهكذا تدخل ألف سفينة إلى الميناء في السنة . إيرادات جمرك السنوية 60 مليون آقجة (نحو 5 .1 مليار دولار) . تأخذ الدولة نصف هذا الإيراد وتترك النصف الباقي لأمير

مكة . أمير مكة مضطر لتقسيم هذا الدخل بين جميع السادة والأشراف وإنجاز أعمال معينة في الحجاز . يُرسل أمراء اللواء إلى جدة كولاة ويتسلمون الأوامر من والي حبش . يقيم والي حبش أحيانا في جدة وليس في أفريقيا . ويأتي إلى جدة مرارا ويتفقد أحوال الحجاز . تحتوي مدينة جدة على 8 خانات ، 3 دكاكين ، دكاكين ومخازن كثيرة جدا في الميناء . لم يشيّد فيها مدرسة ، ولا مطبخ للمحتاجين ولا سوق .

ينبع البر ، قضاء مدينة ، تحتوي على 300 دار ، 75 دكاناً . ينبع الأصلية هي **ينبع البحر** وهو ميناء وقضاء المدينة . قضاء كبير ذو قلعة . قلعته ذات 12 مدفعا . يحتوي على 300 دار . الميناء ذو حركة وفعّالية . يقوم بإدارة كل من القصبتين شريف مع 500 من رجاله . لكن قاضيهم يأتي من استانبول والجند قليلون ، منشآت الميناء تحت إشراف العثمانية .

عقبة ، باب كل من الحجاز جنوبا ، وفلسطين شمالا ، ومصر غربا ، ميناء يقع على رأس البحر الأحمر الشمالي ـ الشرقي . بنى قلعتها ذات الـ 7 أبراج ، والـ 4 زوايا ، ومحيطها 400 ذراع ، في 1524 ، الصدر الأعظم مقبول إبراهيم باشا . وبعد مسيرة 17 ساعة ومنزلين نحو الغرب نجد على طريق علاية ، شبه جزيرة سيناء وأراضي إيالة مصر .

23 ـ مصر .

يطلق اسم مصر على الإيالة العثمانية الكائنة في شمال شرقي أفريقيا . أسسها السلطان سليم في 8 / 4 / 1517 . كانت تحتل الدرجة الأولى في تشريفات الدولة حتى قطعت علاقتها مع الدولة العثمانية في 19 / 12 / / 1914 . ظلّت مصر كاسة سلطانية (امبراطورية) في رأس البادشاه ـ الخليفة العثماني . أما في أقصى الجنوب ، فقد وسّعت الأراضي التي أسست في 1517 كلواء وأسس اوزدمير باشا والسلطان سليمان إيالة حبش في 5 / 7 / 1555 .

شعب هذه المنطقة سني ـ شافعي وينطق اللغة العربية . أكثرية الحنفيين ينحدرون من عائلات تركية الأصل . الشعب شافعي المذهب ، والمذهب الحنفي كان كأنه مذهب يتبعه الارستقراطيون . توجد أقلية مسيحية حافظت على مذهبها الأرثوذكسي

والكاثوليكي ، لكنها تتكلم العربية . وهناك عرب بروتستانت 9 ٪ حاليا من نفوس مصر مسيحيون) .

خصص أولياء جلبي مجلّده العاشر المكون من 1062 صفحة لأفريقيا بصورة كاملة ، سرد فيه رحلاته إلى السودان ، إريترة ، صومالي ، وخاصة سياحته لمصر ، وقدّم تفصيلات في مئات الصحائف عن مدينة القاهرة وأنقل لكم فيمايلى بعض السطور التي دونها جلبي عن مصر خلال السنوات التي تلي 1670 :

السويس ، شرق القاهرة تماما ، ميناء على البحر الأحمر ، مركز لواء بحري . ويمكن القول بأنه عبارة عن مدينة ، ميناء ومنشآت مصانع السفن وإصلاحها . توجد خانات كبيرة لصوقوللو محمد باشا واوكوز محمد باشا جلبْ الماء من مسافة 3 ساعات . هو المحطة الأخيرة للسفن القادمة من الهند . تفرغ حمولتها فيه . وتعود بعد تحميلها بالبضائع العثمانية .

للأميرال أمير لواء السويس أسطول قوى ومصنع كبير للسفن . ويسمى كذلك قبودان (قائد) الهند ، قبودان مصر ، قبودان السويس وكذلك يسمى قائد البحر الأحمر (بحر أحمر قبوداني) وهو أهم أميرالات العثمانية الموجودين في البحار الهندية . يملك حق مخاطبة الديوان الهمايوني مباشرة ، لايتدخل القبودان دريا (مشير البحر) في أموره . وعندما تولي كتخدا إبراهيم باشا الذي أصبح صدرا أعظم بعد ذلك ، مصر (1669 – 73) ، جهّز نحو 50 سفينة لربط النيل بخليج السويس بواسطة قناة والنفاذ إلى البحر الأبيض . تحدث معه وجوه مصر حول الموضوع وأخبروه أنه في حالة تحويل مياه النيل وجعلها تصب في البحر الأحمر ، ستحرم ما يقرب من 170 مدينة وقصبة من المياه ، وسوف ينشأ عن ذلك نقص في المحصول . صرف الباشا النظر عن هذا المشروع وذهبت كل الاستعدادت التي قام بها سدى .

كانت مصر التي ألحقها السلطان سليم بالدولة العثمانية بدخوله إلى القاهرة في 22 / ك 2 / 1517 ، أهم إيالة في الدولة ، يعيّن فيها الولاة على الدوام من أبرز الشخصيات وبرتبة وزير . أسس مدينة القاهرة في القرن العاشر الخلفاء الشيعة _ الإسماعيلية الفاطمية الذين جاءوا من تونس وأطلقوا عليها اسم « مصر القاهرة = المدينة الكبيرة القاهرة » ويطلق على المدينة كذلك اسم « مصر » عوضا عن « قاهرة » . كانت عاصمة

مصر قبل الفاطميين ، هي مدينة الفسطاط التي أسسها عمرو بن العاص ، بقيت حاليا في زاوية من زوايا القاهرة وغير مأهولة . تلي أول خطبة في القاهرة في جامع قلاوون باسم السلطان سليم ، شمس الدين أفندي الذي عين في ملاّئية مصر وأصبح بعدها شيخا للإسلام . ذكر اسم البادشاه بدلا من اسم الخليفة العباسي خرّ السلطان سليم ساجدا سجدة الشكر عند سماعه الخطيب وهو يتلو كلمات « خادم الحرمين الشريفين السلطان سليم خان ابن السلطان بايزيد خان » . والنقود التي سكت في العام ذاته تحتوي كذلك على عبارة « سليم خان بن بايزيد خان » .

راتب والي مصر السنوي 000 247 1 آقجه ، له 1000 محافظ (جندي حراسه) ، 3000 جندي معيّة ، وكذلك 324 ضابطا تابعون له . وعدا ألوية السويس ، الإسكندرية ، دمياط ورشيد اللواتي ارتبطن كألوية بحرية بإيالة البحر الأبيض ، فإن الإيالة تنقسم إلى 17 لواء . لايرسل أمراء اللواء – عدا امراء لواء البحرية – إلى الألوية المصرية من استانبول ، وإنما يتم اختيارهم من بين بكوات المماليك المصريين ويقال لهم « كاشف » بدلا من سنجق بك (أمير لواء) ، صلاحياتهم كصلاحية أمراء في الإيالات الأخرى . كل كاشف له من 600 إلى 700 جندي معيّه هؤلاء كذلك يختارون من مماليك مصر . لاتوجد تشكيلات التيمار في مصر والضريبة التي ترسل إلى استانبول مقطوعة ، لاتتبدل في عام . يصرف القسم الأعظم من الدخل ، داخل القطر . وعدا ذلك فإن مصر مكلفة بإرسال الحبوب مع 65000 ليرة ذهبا + 600 كيسة (24 مليون آقجه) إلى الحجاز سنويا . لا تستطيع الحجاز تسيير أمورها ، إن لم تصلها هذه الحبوب والنقود . تم ترتيب كل ذلك بموجب قانون سليم خان .

يطلق على الموظف برتبة سنجق بك (أمير لواء) أو بكلربك (أمير الأمراء) الساكن في السويس والذي يقود سنويا ما يقرب من 000 40 حاج من السويس إلى الحجاز عن طريق البحر إلى جدّه « أمير حج مصر » . تعمل في البحر الأحمر حوالي 200 سفينة تجارية عثمانية . من حق أمير اللواء البحري في السويس تفتيش هذه السفن إن رغب في ذلك . الذهاب إلى الحج عن طريق البحر ، خال من المشقات يتسلم قائد السويس مخصصاته السنوية البالغة 12 كيسة ، من ميزانية مصر

يوجد في مصر نحو 40 مسئولا كبيرا من حملة شارة واحدة أو شارتين على لباس الرأس (لواء أو فريق أول) . الشخص المكلف بنقل الضريبة السنوية المسماة « خزينة مصر » بالسفينة إلى استانبول ، هو بك (أمير) من حملة شارة (توغ) واحدة ، وله 500 جندي معيّة . يقوم بحراسة مصر القديمة (الفسطاط) أحد أمراء (بك) المماليك بواسطة 500 خيال ، وآخر يحمي بولاق (شمال القاهرة) بواسطة 500 خيال كذلك ، وثالث يحمي محلة الإمام الشافعي بواسطة 500 خيال أيضا . يعبىء الوالي (بكلربك) في الحملات من ألوية الجنود المصريين ، بالقدر المطلوب منه . يستخدم الجيش المصري عند الحاجة في أماكن كأفريقيا الشرقية والبلاد العربية . يندر إرساله إلى مسافات بعيدة . أمراء لواء إسكندرية ، رشيد ودمياط ، أميرالات تابعون لأمر مشير البحر ، ستة ألوية تابعة لشمال مصر (دلتا = الوجه البحري) التي تسمى مصر السفلى : شرقي أو الشرقية (مركزها الزقازيق) ، غربي أو الغربية (طنطا) ، المنوفية (شبين الكوم) ، البحيرة (دمنهور) ، الدقهلية (منصورة) ، القليوبية (بنها) . و 8 ألوية تشكل مصر الجنوبية المسماة مصر العليا (الصعيد) : الجيزة ، بني سويف ، الفيوم ، المنيا ، جرجا (سوهاج) ، أسيوط ، أسوان ، قنا ، ويحتل في بعض الأحيان لواء الواحات وأبرم ، بدلا من الألوية الثلاثة الأخيرة وواحة صيوا تابعة للواء البحيرة ، واحتا بهاريه والفرافرة تابعة للواء المنيا ؛ أما واحتا الداخلة والخارجة فهما تابعتان للواء أسيوط . يحتوي كل لواء على مابين 300 ـ 400 قرية . أهم لواء في الجنوب هو جرجا ، له 5000 جندي . يعين له أحيانا ، والي (أمير لواء) برتبة فريق أول (أمير الأمراء) له مخصصات سنوية تبلغ 200 كيسه ويرسل سنويا كمية كبيرة من الحبوب إلى القاهرة مع 380 كيسة . كانت مصر العليا سابقا مقسمة إلى 24 كاشفية (لواء) ، اختصر عددها في الوقت الحاضر .

كان دفتر دار (المسئول المالي) مصر برتبة فريق أول . يحسن المماليك فقط في مصر ، تكلم التركية وليس العربية . تعلم قسم من موظفي العثمانية التكلم باللغة العربية . لكن أكثرية الوزراء برتبة فريق أول ، لا يجيدون أية لغة عدا التركية . يفهم الشعب في المدن اللغة التركية . لكن التركية لاتستخدم ولا نفع لها في القطاع القروي .

يرسل عدد كبير من الجنود من استانبول إلى مصر ، هذا عدا الجنود المحليين وأكثرهم يرابطون في القاهرة . يرسل إنكشارية مصر كذلك من استانبول ، قائدهم بدرجة أمير لواء .

يتقاضى قاضي مصر سنويا مخصصات تتراوح مابين 200 إلى 300 كيسة ، ويخصص لمعيته نحو 100 شخص ، يتبعه أربعة مفتين من المذاهب الأربعة ، وعدا ذلك 100 موظف آخر مختصون بالأمور العدلية يتبع القاضى أيضا فصيلة من الإنكشارية و 300 محضر (شرطة عسكرية) . يسكن القاضي الذي يسمى « مصر أفنديسي » في سراى من مخلفات الفاطميين . يحكم باسم القاضي 24 نائبا (وكيل قاضي) في مختلف محلات القاهرة . يقوم قاضي مصر بالإشراف على كل القضاة الموجودين في الإيالة . تنقسم إيالة مصر إلى 76. قضاء رئيسيا وعدة أقضية صغيرة تسمى « مضافات » ، النواحي ليست ضمن هذا العدد . قضاة المحلة الكبرى ، دمياط ، رشيد ، إسكندرية ، المنصورة ، المنيا ، قضاة كبار ذوو درجة عالية . كل منهم يتقاضى راتبا يوميا قدره 500 آقجه ومخصصات سنوية تتراوح مابين 25 إلى 40 كيسة . فى القاهرة حوالي 20 000 عالم مأذون بالافتاء ، 57000 حافظ ، 12000 إمام وخطيب ، 12000 طالب أزهر ، 10 000 شيخ ودرويش . ضريبة مصر المقطوعة التي ترسل سنويا إلى استانبول هي 1 200 كيسة . عدا ذلك ، ترسل كميات كبيرة من الأطعمة كضريبة عينيّة .

تحتوي الإيالة على حوالي 8000 قرية ونحو 3800 مدينة ، قصبة ، قلعة ، وناحية . ترسل 8.1 الضرائب المحصلة في مصر إلى استانبول و 8.7 منها تصرف داخل القطر . لكن يضاف إلى ذلك البضاعة العينية التي ترسلها مصر إلى استانبول . يبلغ الدخل السنوي لمصر 61 خزينة مصرية أى 000 800 48 ليرة ذهبا . تسمى الضريبة النقدية السنوية التي ترسلها إلى إستانبول والبالغة 000 800 ليرة ذهبا « خزينة مصرية واحدة » . يصرف 61.7 منها داخل إيالة مصر و 53 . 61 تبقى للشعب . والضريبة البالغة 61.8 ، تزيد بقليل على 8.1 الدخل ، ولا تعد هذه ضريبة باهظة . الضريبة العيّنة أو المقطوعة التي تعطي في السودان ، منفصلة عن دخل مصر ، واحد كيسة مصرية = 300 ليرة زهبًا . والكيسة العثمانية الواحدة التي تسمى كيسة رومي = 250 ليرة ذهبا . أن (واحد) كيسه ذهب فى جميع أنحاء الإمبراطورية تعني 250 ليرة ذهب . وفي مصر فقط 300 ليرة ذهب . ينفق القادمون إلى مصر من غير التبعة

العثمانية ، لغرض الذهاب إلى الحج أو التجارة أو المسلمين أو غير المسلمين القادمين لغرض الزيارة ، سنويا في مصر ما يقدر بـ 3 خزائن مصرية من النقود . وهذا كذلك دخل لمصر . مصروفات الشعب في مصر قليلة بالنسبة للأقطار العثمانية الأخرى . إذ لا توجد مصروفات تدفئه . القطر حار في جميع الفصول . ولذلك لاتوجد مصروفات بالنسبة للملابس الشتوية أيضا . يرتدي الشعب الملابس الخفيفة . وبسبب ازدحام الناس في شريط ضيق ، فإن المسافات ليست بعيدة . يستعمل النيل كأكبر طريق للنقل . ويؤمن السهولة في المواصلات .

24 _ القاهــرة :

قلعة القاهرة أساسا من بقايا أواخر القرن 12 ومن بناء صلاح الدين الأيوبي رمّمت وأضيف إليها بعض الأقسام من قبل المماليك والعثمانيين . القلعة كبيرة جدا ، وتحتوي على قلعتين داخليتين . سراي الوالي ومصنع البارود داخل القلعة . بارود القاهرة ذو نوعية جيدة وأرق من البارود الإنكليزي . يعمل مصنع البارود 24 ساعة بصورة مستمرة . يوزع هذا البارود على الوحدات العسكرية الموجودة في مختلف أنحاء الدولة . سراي الوالي ، أصلا من بناء السلطان قايتباى . شيّد ولاة العثمانية في فترات متفاوتة خلال الفترة من 1555 إلى 1672 ، 5 أكشاك مستقلة داخل حديقة السراي . حكام قليلون يملكون سرايات فخمة كسراي والي مصر . كانت صالة الاستقبال التي يصعد إليها بواسطة سلم ذي 25 درجة ، صالة استقبال سلاطين المماليك . يستعمل الوالي هذه الصالة لعمله اليومي ، الصالة 80 ×15 ذراعا ومن بناء السلطان قايتباي . أما صالة الاستقبال الكبرى فهي من بناء قانصوه وتستعمل في الاحتفالات فقط . محيط السرّاي 8500 ذراع . يجلب الماء من مسافة ساعة واحدة بواسطة 313 قنطرة . جلبه صلاح الدين الأيوبي ، وجدّده السلطان قانصوه وقد بنى داماد أوكوز باشا الذي صار صدرا أعظم بعد ذلك ، خزانا للماء تحت الأرض ستوعب من الماء بقدر حمولة 20 000 جمل ، ويبدل هذا الماء من النيل في كل سنة .

أحصى بايرام باشا عدد الآبار في المدينة وضواحيها فتبين أن عددها 274 000 بئر ولكن مياهها مالحة وليست عذبة ، لاتشرب ، يغتسل بها فقط وتزود الحمامات بهذا الماء . تتكون المدينة من 740 محلة للمسلمين ، و 26000 دار . أكبر مدينة في الدولة

بعد استانبول ، والمدينة الثالثة أدرنة . العربية لغة الشعب . وهناك أتراك كثيرون ، كذلك تحتوي المدينة على 78 سرايا حقيقيا وآلاف من القصور . ان 22000 بيت من بيوتها البالغ عددها 26000 تخص المسلمين ، 4000 منها لغير المسلمين . 20 محلة ، 600 دار ، و 900 نسمة من السكان أقباط (عرب مسيحيون) . يتجمع أكثر من 6000 يهود في محلة واحدة ، بيوتهم مكونة من 5 أو 6 طوابق وأزقّتهم ضيّقة إلى درجة لا تسمح بمرور حصان . مجموع نفوس 4 محلات للروم و 2 محلة للأرمن تبلغ 3000 نسمه . الأوروبيون ورعايا الدولة العثمانية الذين يقدمون إلى المدينة بصورة مؤقتة كثيرون جدا . وهكذا فإن عدد الأوروبيين الذين يقيمون في المدينة بصورة مؤقتة ، لايقل عن 6 _ 7 آلاف شخص ، ولا يعلم عدد الزوار من الرعايا العثمانية إلا الله إذ إنها مدينة تجارية كبيرة تقع قنصليات 7 دول أجنبية ، في محلة واحدة . من الممكن أن يصادف المرء فيها بشرا من جميع الأجناس . المسلمون الزنوج كثيرون . يوجد بينهم السودانيون ، الفاسيون ، قسم من الغجر . العبيد والجواري رخاص الثمن يخدمون في بيوت كثيرة ، وهم من أعراق مختلفة يتكلمون العربية في مساكن العرب ، والتركية في مساكن الأتراك . المدينة محاطة بسور طوله 393000 ذراع .

من الممكن القول ان مدينة استانبول فقط في العالم هي التي تحتوي على جوامع أكثر من القاهرة . الكثافة السكانية الكبيرة من نفوس غير المسلمين الموجودة في استانبول ، لاتوجد في القاهرة . 156 من جوامعها سلطاني (الجوامع المبنية بأمر السلطان و بثروته الخاصة) . أقدمها الجامع الذي شيّده فاتح مصر عمرو بن العاص في الفسطاط على عهد عمر (رضي الله عنه) . ولم يبن أكبر منه في العالم الإسلامي لمدة طويلة ، وهو أول جامع كبير للمسلمين . أصلحه الصدر الأعظم داماد بايرام باشا بصورة أساسية ، عندما كان واليا على مصر . بنى الفاطميون جامع الأزهر في عام 969 عندما سيطروا على مصر ، جعله صلاح الدين الأيوبي على شكل مدرسة . وزّع تلامذتها البالغ عددهم 12000 على الحجر المجاورة . يشاهد فيها طلاب من جميع الأقطار الإسلامية ، لها 9000 خزانة مليئة بالكتب . يؤمها كثير من الأناضوليين لتعلم اللغة العربية الجيّدة والدراسة فيها لعدة سنوات . يدرّس فقه المذاهب الأربعة بصورة مستقلة . أما في المدارس العثمانية ، فيدرس الفقه الحنفي أساسا ، وباختصار المذاهب الثلاثة

الباقية . أكثرية الطلاب والمدرسين شافعيون ، ويليهم الأحناف . لايمكن هنا أن يتفاهم طلاب العالم الإسلامي الذين تختلف لغاتهم الأساسية مع بعضهم إلا باللغة العربية . كان عدد الطلاب الأتراك أكثر فيما مضى . قل منذ قرن أو قرنين ؛ إذ إن الدولة العثمانية تعيّن الذين حصلوا على شهادة (رءوس) مدارس (العلمية) استانبول العالية ، موظفي دولة في سلك العلماء (العلمية) . وإن اراد متخرجو مدارس المدن الأخرى وبضمنهم الأزهر ، الانتساب لصنف العلماء ـ عدا خدمات الجوامع والإفتاء ـ ، فإن عليهم أن يؤدوا امتحانا أمام هيئة الامتحانات المشكلة في مدارس استانبول ، إذ إن المعلومات اللازمة لخدمات الدولة العثمانية الفعلية تدرّس بصورة أوسع في مدارس استانبول . لاضرورة لأداء امتحان في استانبول بالنسبة لمتخرجي المدارس العالية الذين يرغبون في البقاء في خدمات الجوامع والإفتاء ؛ إذ إنها خدمات دينية ولا علاقة لها بخدمات الدولة . للأزهر 170 مدرساً . لأيحترم مدرس الأزهر في مصر وفي كل أنحاء الدولة العثمانية فحسب ، بل في العالم الإسلامي بأسره . إلا أن التدريس في الأزهر كان على النمط القديم إذا ما قيس بالتدريس في المدارس العثمانية . وهناك كثير من الطلاب الأتراك التركستانيين والسنّة الإيرانيين . يطلق على عميد الأزهر « شيخ » ، له مساعدون من المذاهب الأربعة . عدا ذلك فإنه يتولى مسئولية طلاب كل شعب أحد المدرسين . والمدرس المسئول حاليا عن الطلبة الأتراك هو مصطفى أفندي .

الحقيقة أن الجامع الذي بناه أحمد بن طولون والي مصر التركي في القرن 19 في الفسطاط ، جامع فخم . مساحته 220 × 120 ذراعا ، ارتفاعه 40 ذراعا ، يبدو وكأنه قلعة ، يستند على 90 عمودا ، له 160 نافذه و ستّة أبواب . مر قره حصارى ، أكبر خطاطي العثمانية بهذا الموقع أثناء ذهابه إلى الحج وخط **بسملة** على يسار جدار المحراب ، تدهش الرائي . إذ إن طول الكتابة 40 ذراعا ، طول كل حرف ألف فيها 8 أذرع . والجوامع التي ترجع إلى فترة المماليك الأولى فخمة كذلك . جامع الخليفة حاكم ، سلطان بيبرس ، سلطان مؤيد ، سلطان حسن ، سلطان قانصوه ، سلطان برقوق ، سلطان قلاوون ، سلطان جنبلاط ، اوزبك بك وجامع الخليفة عبد العزيز هي من بدائع الفن المعماري المملوكي ، وجوامع الأيوبيين التي بنيت في الفترة بين الفاطميين والمماليك جميلة كذلك . وقد بنى العثمانيون كذلك جوامع ومساجد كثيرة . دوّن

في السجلات أن كامل إيالة مصر تحتوي على 46000 مسجد . لم أتمكن من معرفة العدد الموجود منها في القاهرة . مضى 150 عاما على فتح العثمانية لمصر . شاهدت جميع الجوامع و 29 من مساجد العثمانية وصليت فيها أكثرها أبنية جميلة . لا يوجد بينها من كان بدرجة عظمة جوامع المماليك ولكنها ظريفة وتذكر بجو استانبول . وأساسا فإنه لم تكن هناك حاجة إلى جامع كبير ، إذ إن بمصر 356 جامعا سلطانيا .

عندما خرجت القاهرة عن كونها عاصمة للدولة المملوكية ، قل عدد سكّانها بالنسبة لما كانت عليه في السابق ، يبدو أن القطر المصري كان يحتوي سابقا على 3600 مدرسة عالية ومتوسطة . غير موجودة حاليا . لكل جامع سلطاني مدرسته ، ومعظمها مدارس عالية . لم يبن أى بادشاه عثماني جامعا أو مدرسة في مصر . إذ لم تكن هنالك حاجة لذلك . لكن الوزراء والوجهاء العثمانيين شيّدوا مدارس جديدة ، حيث كان أكثرها قد أشرف على الانهدام في أواخر العهد المملوكي . أجمل المدارس العثمانية في القاهرة ، هي التي بناها كل من سليمان باشا ، إسكندر باشا وداود باشا . وتسمى المدارس التي تعلم الحديث « دار الحديث » . يوجد منها في القاهرة 860 دارا . لكن أكثرها أبنية صغيرة تحتوي على مدرس واحد وعدة طلاب . يوجد في القاهرة أكثر من 000 50 مدرس من الذين تخرجوا في تلك الدور . بينهم من حفظ 20 إلى 30 ألف حديث مع سلسلة رواتها . حفظ الحديث منتشر جدا في مصر وهناك كثيرون ممن حفظوا صحيحي مسلم والبخاري من البداية حتى النهاية . ويطلق على المدارس التي تعلم ترتيل القرآن وتخرج الحفاظ « دار القراء » . تحتوي القاهرة على 370 دارا للقراء و 700 مدرس . الحفظ أساس في التعليم المصري . حفظ العميان يكون أقوى . لايوجد في أي بلد آخر عميان بقدر ماهو موجود في مصر . لكن الوضع لايختلف بالنسبة لغير العميان . يوجد 2015 مكتبا ، وقد اتضح أنه في العصور الأخيرة تم إغلاق 2000 مكتب (مدرسة إبتدائية) لعدم توافر الطلاب . عدد المكاتب في جميع أنحاء مصر 6176 . أكثرية المكاتب خاصة بالطلاب العرب وتدرس اللغة العربية . وتدرّس التي تخص الأطفال الأتراك منها ، اللغة التركية .

بالقاهرة 360 تكية وزاوية (تكية صغيرة) . شعب مصر محب جدا للطرق ، 200 تكية من مجموع 1060 تكية خاصة بالطريقة البدوية ، 000 300 مصري ينتمون إلى هذه الطريقة في مصر ، مركزها طنطا . تحتوي كامل مصر على أكثر من 2000 تكية . يلي

ذلك الطريقة الرفاعية . لها 100 000 مريد في البلد . مركزها ، التكية الكائنة في أسفل جامع السلطان حسن . وتكية اوقجولر (النّبالة) مشهورة كذلك .

الطرق التركية ، تخاطب المثقفين ولا تخاطب الشعب . وتأتي على رأسها الكلشنية . بنى إبراهيم الكلشني في 1534 ، مركز تكية الطريقة في القاهرة . يرتادها كثير من العرب الراغبين في تعلم اللغتين التركية والفارسية . الحقيقة أن الدراويش كلهم أتراك جميعهم يجيدون العربية والفارسية هناك في هذه الطريقة مجال واسع للموسيقى . الموسيقى وألفاظها تركية . تختلف عن الموسيقى المصرية . قبر الشيخ كلشني ، قرب التكية . أوقف السلطان سليم الذي يعرفه شخصيا ، وكذلك ابنه السلطان سليمان ، أوقافا كثيرة لهذه التكية . للشيخ ثلاثة دواوين شعر مختلفة باللغات التركية الفارسية والعربية . والتكية البكتاشية الموجودة في القلعة تكيه عظمى كذلك . يقيم فيها على الأغلب ، الجنود العثمانيون لكثرة مناهجها التركية . وتكية عظمى أخرى في القاهرة ، هي التكية المولوية عشاقها على الأكثر من الطبقة العليا من العثمانيين والمماليك . الكل يرغب في مشاهدة أحتفال السماع الذي تجريه كل أسبوع .

قيل لي إنه كان في حينه لكل جامع في القاهرة نحو 700 مطبخ للمحتاجين (عمارت) ، وأن هذا العدد هبط عند دخول السلطان سليم إلى المدينة إلى 156 . حاول العثمانيون المحافظة على هذا العدد . أكثرها من أعمال المماليك الخيرية . وقسم منها عثماني . عدد الحمامات العامة الموجودة في المدينة 53 بناها كلها تقريبا العثمانيون . إذ لم يكن الحمام على الطراز العثماني شائعا هنا . بعضها حمامات مزدوجة . ولكن قيل لي أن هناك أكثر من 9000 قصر تحتوي على حمامات خاصة وبعض السرايات تحتوي على 4 أو 5 حمامات . الحطب والأخشاب ، نادر وثمين في مصر ، يرد إليها من الخارج ، وحتى من الأناضول . يستعمل الروث الحيواني في الوقود بدلا من الحطب في مواقد الحمامات .

في المدينة نحو 850 خانا صغيرا و 32 خانا كبيرا . معدّل الغرف في الخانات الكبيرة نحو 300 . مثلا ، خان الخليل مساحته ، 100 ×100 ذراع ، به 4 طوابق ، ذو جامع ويحيط به 200 دكان مبني بالحجر . ومعظم الخانات الكبيرة بناء عثماني . سوق التحف

المصري مشهور عالميا ومن الممكن أن يبتاع منه أغلى وأندر الحاجات في العالم . بنى مؤخرا ذو الفقار كتخدا في 1672 خانا مساحته 150 × 80 ذراعا ذا 3 طوابق ، يحيط به سوق . خان الأسرى ذو الـ 300 غرفة ، هو مركز مبيعات العبيد والجواري ومن الممكن أن تجد فيه العبيد والجواري من كل الأجناس وبجميع الأوصاف . خان بهار ، يمكن أن يقال عنه إنه مركز عالمي لتجارة التوابل (البهارات) . ترد التوابل القادمة من أندونيزيا ، الهند ، الحبشة واليمن وتوزع على الأقطار العثمانية ويباع الفائض منها إلى أوروبا . تجبي الحكومة من هذا الخان ضريبة سنوية قدرها 2000 كيسة (80 مليون آقجه) . توجد 4 مستشفيات كبيرة ومستشفيات أصغر منها . أشهرها مستشفى السلطان قلاوون . مساحتها 150 ×150 ذراعا ، كامل الأرضية من المرمر الأبيض المصقول ، ذو حوض . صيدليته ، مؤسسة عظيمة إلى درجة انها تبيع أدويتها إلى كل الأقطار العثمانية وأوروبا . تحتوي المدينة على مايقرب من 4000 حنفية داخل بناية (جشمه) ، سبيل للمياه المجانية ، أحجار محفورة (أحواض) يتجمع فيها الماء لتشرب منه الحيوانات والطيور (يالاق) ، حنفيات عامة . أكثرها من الأعمال الخيرية للمتقاعدين من آغوات الحرم الهمايوني في استانبول الذين فضّل معظمهم السكن في القاهرة لقضاء بقية أعمارهم فيها .

8900 زقاق لها أبواب ، وأبواب الأزقة هذه يقوم الحراس بإغلاقها ليلا . في المدينة 17 شارعا مفتوحة للمرور ليلا . يتجول صوباشي (ضابط أمن) القاهرة ليلا مع 6 ـ 700 من رجاله . وضع الأمن هنا يختلف عما هو عليه في استانبول . الفقر المدقع والغنى المفرط جنبا إلى جنب . الشعب محب للراحة والكسل . إذ إن المناخ حار حقا . أسست المدينة في جانب الضفة الشرقية من النيل . وتسمى ضفتها الغربية الجيزة وتوجد فيها جزر على النيل ، بها 18 جسرا ، وعدد الجسور الموجودة على النيل في القطر كله 346 جسرا . ويسمي العرب الجسر أحيانا ، « قنطرة » ، والحوض « بركة » . أطرافها مليئة بالأشجار ، والأماكن اللطيفة . تزوّد المدينة من مياه الأحواض الكبيرة في مواسم هبوط مياه النيل . وعند إرتفاعها تنتفي الحاجة إليها . المسلّة الحجرية القائمة في بركة عين الشمس ، من بقايا المصريين القدامى ومليئة بالكتابات العجيبة ، لأحد يتمكن من قراءتها .

يطلق على شمال القاهرة « بولاق » ، وهي مدينة طولها 2 500 ذراع وعرضها يتراوح بين 300 إلى 800 ذراع . مرفأ كبير للقاهرة على النيل ، 10 000 سفينة مسجلة وفي سجل مدير ميناء بولاق . المدينة مكونة من 45 محلة ، 6 700 دار ، 56 جامعا ، 304 مساجد . جامع السطان بيبرس الكائن داخل سوق السلطاني العظيم من أعظم وأفخم الأبنية . وعلى الساحل ، الجامع الذي بناه الصدر الأعظم قوجا سنان باشا عندما كان واليا . ذو قبة واحدة بني على نمط إستانبول ككل الأبنية العثمانية ، كأنه نسخة مصغرة لجامع السلطان سليم في استانبول . لاتوجد في الابنية العثمانية النقوش المتشابكة جدا الموجودة في الجوامع الأيوبية والمملوكية . تعتبر المبالغة في الزينة حراما بالنسبة للعثماني . توجد في بولاق 20 مدرسة ، نحو 40 مكتباً ، 6 تكايا ، 73 خانا أكبر التكايا هى التكية الكلشنيّة . يحتوي الميناء على 200 مخزن طول محيط بعضها 600 ذراع ، تمتلىء بالبضاعة المستوردة من آسيا ، 1600 دكان ، 200 منها في سوق سنان باشا . معمل سفن بولاق كبير ، محيطه 2 000 ذراع ، كدّس فيها الخشب الذي جلب من الأناضول الجنوبية ولبنان . كأنه الجبال . وأدوات السفن مكدسة كذلك . أمين مصنع السفن تابع لاميرال السويس . قصر سبتيّة الجميل ذو 7 طوابق في شمال المدينة ، وسط الحدائق ، مخصص لاستراحة الوالي (البكلربك) يومًا واحدا في الأسبوع تحتوي مرتفعات قايتباى قرب بولاق على 1000 دار ، 11 سرايا ، 70 دكانا ، 17 جامعا ، 70 مسجدا . يعتقد إنها كانت في السابق 10 000 دار . فيها جامع وكلية قايتباي ، وخان ذو 200 غرفة . يقوم 200 شخص بخدمات صيانة الجامع . السلطان قايتباي ، أشهر سلاطين المماليك في الاعمار ، له 700 عمل خيري 300 منها في الحجاز . وبالقرب منه تتسلسل جوامع سلطان برقوق ، سلطان أشرف ، سلطان إينال ، سلطان جقمق ، سلطان فرج ، سلطان قانصوه ، سلطان طومان باي . بعضها ذو 3 شرفات ومنارتين . تسمى المنطقة التي بها جامع قانصوه عادليّة .

الاسم الأصلي للمدينة التي يطلق عليها أسماء مصر عتيقة ، مصر قديمة ، اسكي مصر ، اسكي قاهرة هو فسطاط . وهي ضاحية للقاهرة وملتصقة بها . أسسها عمرو ابن العاص فاتح مصر . يتضح من مناطقها غير المسكونة المترامية الأطراف أنها كانت

كبيرة جدا . حاليا تحتوي على 4 600 دار . ميناء على ساحل النيل يمر بها سنويا 10 000 سفينة لها قلعة محيطها 2 000 ذراع . تشاهد أنقاض أكثرية الـ 270 جامعا التي كانت تحتويها . فيها جامع عمرو . شيّد عابد بك كذلك جامعا في 1660 . لايزال جامعا الملك الطاهر وسلطان جقمق قائمين . تحتوي على 3 مدارس ، 20 مكتباً ، 10 تكايا ، خانين ، حمام ، 10 مقاه . يقال إنه كان بها نحو 700 قصر وسراي . تشكل جزيرة الروضة الكائنة وسط النيل قسما من القاهرة .

تعزف الموسيقى العسكرية (مهترخانة خاقاني) في 45 موقعا من الإيالة المصرية ، والطبل السلطاني الكبير (كوس سلطاني) في نحو ألف موقع . تفتح سنويا أبواب السد الذي يزود الحوض الكبير ـ الذي يسمى مقياس ـ بماء النيل . تقام احتفالات كبيرة في ذلك اليوم . تطلق المدافع والبنادق . يرعى الوالي الوزير الاحتفال ويضحّي لذلك بـ 200 خروف و50 بعيرا . يرمي في النيل 2 000 كلّة (قطعة من السكر كبيرة الحجم) من السكر البلوري وحمولة 80 بعيرا من الخبز وأطعمة أخرى . عادة لا معنى لها ، لكن شعب مصر متمسك بها ؛ لأنه يتشاءم إن لم يفعلها .

لايؤمن العثمانيون بمثل هذه المعتقدات ، إلا أن مبدأ الإدارة العثمانية الذي لايتغير ، هو عدم التدخل في عادات الشعب في كل قطر ما لم تكن ضارة بمصلحة الدولة . يذهب الوزير ليلا إلى قصر أم المقياس ويشرف على مراسم تحية نحو 2 000 سفينة مزيّنة بالأنوار تمر من أمامه على النيل لتحيّته . تعلو أصداء الموسيقى من كل دار ، فالمصريون يعشقون الموسيقى . تعزف هيئة موسيقية بحضور الوزير . إن السفن التي تطلق قذائف الألعاب النارية السماوية في شهر تموز بسبب صفاء الجو في ذلك الشهر ، من الأمور التي تستحق المشاهدة ، فانقسام كل قذيفة إلى 3 أشطار مختلفة بفواصل معيّنة من الزمن واندفاعها بألوان خلابة ، وانقسام كل قطعة إلى أربعين أو خمسين قطعة وارتفاعها إلى أعلى ثم هبوطها حتى الأرض يبدو عملا فنيا كبيرا . أطلقت مئات الألوف من القذائف السماوية في تلك الليلة بحضور الباشا . للقذائف أنواع عديدة ، ولكل نوع اسم خاص . ويطلق على النوع الذي يهبط إلى الماء ثم يرتفع ثانية سبعة أو ثمانية مرات « سمكي » ، وسير القذيفة داخل الماء بسرعة كأنها سابحة شيء جميل حقا . تظهر من كل قذيفة أشكال

مختلفة عند ارتفاعها في الجو . دامت الاحتفالات سبعة أيام بلياليها . أطلقت خلال أسبوع قذائف تبلغ قيمتها 5000 ليرة ذهب . استأجر بعض الناس دورا ساحلية بسعر 50 ليرة ذهب لأسبوع واحد لمشاهدة الاحتفالات على النيل بصورة أوضح . ان أكبر لإطلاقات هي التي ترسم في السماء شكل القلعة بكامل تفرعاتها ، الواحدة منها تكلف 300 ليرة ذهب أكل وشرب عدد كبير من الناس بحيث أنفق 4 ملايين آقجه خلال أسبوع واحد . يشترك المسئولون في الأيام الثلاثة الأولى من الاحتفال ، ويستمر الشعب في الاحتفال أربعة أيام أخرى

يجري النيل كاملا داخل أراضي العثمانية . لكن منابعه في أعماق أفريقيا . توجد تماسيح كثيرة . وفي مصر ينزل المطر مرة أو مرتين في السنة . ولولا وجودَ النيل وفيضانه ، لحدثت مجاعة ، ولما تمكن الشعب من تأمين عيشه .

تحتوي القاهرة على 643 مقهى . بينها التي تستوعب 1000 شخص وذات فرق موسيقية كبيرة . يباع التبغ في أكثر من 1000 دكان . وتباع القهوة في 70 دكانا . توجد 200 حانة مشروبات ، 75 محلا لصنع وبيع البوظة (مشروب غير كحولي يصنع من عصير بعض الحبوب) . في المدينة أكثر من 3 000 مهندس معماري 600 عامل في 70 فرنا ، 3800 تاجر كبير ، 600 دكان قصّاب ، 600 مطعم ، 206 محلات لبيع الكباب ، 70 محلا لبيع (الحلويات المصنوعة من الحليب) ، 60 جرّاحا ، 40 طبيباً ، 290 صيدليا ، 350 صرافا ، 12 ساعاتيا ، أكثر من 2000 صائغ ، 3200 حلاّق ، 700 موسيقي محترف ، 2000 مومس ، 300 من مروجات الفحش من النساء المسنّات ، 9000 مسئول لهم تجمعات خاصة فيما بينهم . تحتوي القاهرة على 40 000 حمار . الكل يركبون الحمير . و 300 لص سجّلوا في سجل سوابق الأمن .

لايمكن إحصاء قبورالشخصيات الشهيرة المدفونة في القاهرة . يرقد الإمام الشافعي في القاهرة . محلّة كبيرة جدا مسماة باسمه . زيّن قبره بأشياء ثمينة جدا . لايسمحون باقتراب أحد من الضريح . يوجد بجواره جامع سلطاني وكلية . يرقد سلاطين مصر الأيوبيون ، سلاطين المماليك ، خلفاء مصر العباسيين في قبور فخمة . الستار الذهبي والذي يغطي ضريح الخليفة المستنجد الذي لايزال موجودا هدية من السلطان محمد

الفاتح . وفي القاهرة كذلك قبور كثيرة لرجال العثمانية وقبور 3 وزراء ماتوا خلال ولايتهم على مصر . ولا يمكن إحصاء رجال الدين ، التصوّف ، العلم والفن المدفونين في القاهرة .

25 ـ مصر السفلى :

غادرت القاهرة في 7 / 8 / 1672 متوجها نحو طنطا . شبرا ، ضاحية القاهرة ، بها 1000 دار ، 7 جوامع .

زفتة ، مركز قضاء في لواء الغربية ، ميناء على النيل تتبعها 70 قرية ، بها 500 دار ، 3 جوامع ، 7 تكايا .

ميت غمر مركز قضاء في لواء المنصورة ذو 4000 دار ، يقع على الساحل الشرقي الآخر من النيل . بها 9 جوامع ، 35 مسجدا ، 7 مدارس ، 12 مكتبا ، 7 خانات ، 600 دكان .

منوف : مركز قضاء يتبعه 320 قرية ، و 18 محلة ، 3 جوامع ، 3 مدارس ، 40 مكتبا ، 7 خانات ، 400 دكان ، حمامان .

طنطا ، أحيانا مركز لواء غربية وأحيانا قضاء له ، تقع وسط الدلتا وعلى أحد فروع النيل . فيه قبر السيد أحمد البدوي . بها 1 500 دار ، 8 جوامع ، 32 مسجدا ، 7 مكاتب ، 7 خانات . بنى السلطان قايتباي جامعا فخما ذا منارتين . قبر البدوي مليء بالأشيا الثمينة . **محلة مرحوم** ، قضاء في المنوفية وأحيانا مركز لواء له ، يتبعها 70 قرية ، 2 000 دار ، جامعان ، 38 مسجدًا ، 200 دكان ، 7 خانات ، 8 مكاتب .

آبيار ، مركز قضاء ذو 150 قرية في اللواء ذاته ، 3 000 دار ، 3 جامع ، 37 مسجدا ، 3 تكايا ، 200 دكانا .

نهاريّة ، مركز قضاء ذو 700 دار ، 13 جامعا ، 27 مسجدا في اللواء ذاته

أبو علي ، قضاء ذو 800 دار ، جامعين ، 7 مساجد ، خانين ، 50 دكاناً .

دسوق ، مركز قضاء في لواء غربيّة . فيه جامع سلطان قايتباي و 5 مساجد .

دمنهور ، مركز لواء البحيرة . يقع في الجنوب ـ الشرقي من الإسكندرية . كان جانبه الشرقي صحراء ، وجميع البدويين في البادية تحت إشراف هذا اللواء . يحتوي قضاؤه المركزي على 360 قرية و 7 نواحي . وفيه 5 500 دار ، 14 جامعا سلطانيا ، 63 جامعا ومسجدا ، 7 تكايا ، 3 مدارس ، 40 مكتباً ، 680 دكانا ، 8 خانات ، 254 مصنعا . فيه جامع سلطان قايتباى ، وهو جامع كبير .

حوش عيسى ، مركز قضاء في لواء بحيرة ، يقع في غرب دمنهور . به 2000 دار ، جامع ، 10 مساجد ، 360 دكاناً .

إسكندرية ، تقع في أقصى غرب الدلتا ، على البحر الأبيض ، أكبر ميناء لمصر و أحد أشهر مدن التاريخ . أسسها قبل الميلاد في أواخر القرن الرابع فاتح مصر الإسكندر الأكبر . صغرت كثيرا بالنسبة للسابق بعد أن أخذت القاهرة المكانة الأولى . وبينما كانت الإسكندرية عاصمة لمصر في الفتح الإسلامي ، أسس عمرو بن العاص مدينة الفسطاط التي نقلت العاصمة إلى القاهرة . مازالت أنقاض فنار الإسكندرية تشاهد حاليا . أحد الألوية البحرية الثلاثة لإيالة البحر الأبيض الواقعة على السواحل المصرية . أمير لوائها أميرال تابع لمشير البحر . محيط قلعتها 11700 ذراع ، ذات 175 برجا . تحتوي المدينة على 3 075 دارا ، 680 دكانا ، سوق تحف ، 6 خانات ، 27 جامعا ، 53 مسجدا ، 6 حمامات ، 130 مخزن مياه أراضي . فيها 4 قنصليات أوروبية ، 85 جامعا ومسجدا مهدما ومغلقا ، أخذ السكان على مر العصور ينتقلون منها إلى القاهرة . وفي مدخل الميناء توجد قلعة سلطان قايتباي ، سراية وجامعة . قلعة صغيرة محيطها 850 ذراعا ، ذات 3 طوابق ، طرفاها بحر ، وذات 55 مدفعا صغيرا . قيزيل قولة (البرج الأحمر) ، 300 ذراع ، من بناء سلطان جقمق . ويوجد في شرقها قلعة أخرى أصغر منها محيطها 200 ذراع من بناء السلطان قايتباي . جدار كاسر الأمواج الموجود أمام المرفأ من بناء قيليج علي باشا الذي كان أمير لواء فيها . وعلى مسافة من الميناء توجد ثكنة جنود البحرية (لوند) ، وجميعها ليست أبنية محليّة . أغلب الأتراك ، بعد القاهرة ، يسكنون في هذه المدينة . قلعة أبو قير تقع على البحر كذلك وهي موقع للدفاع عن الميناء الذي يحمل اسمها أيضا . بناها الصدر الأعظم سليمان باشا عندما كان واليا على مصر . تحتوي هذه القلعة على 300 جندي حراسة ، وعدا ذلك جنود مدفعية وعتاد كبير و 70 مدفعا . فنار عظيم يضيء كل يوم ويشاهد على بعد 100 ميل . أبو قير ، ناحية الإسكندرية وجزء من المدينة .

إدفو ، مركز قضاء في لواء رشيد ، يقع على جنوب ـ شرقي رشيد . به 4 000 دار ، جامعان ، 18 مسجدا ، 3 خانات ، 300 دكان .

رشيد ، أحد الألوية البحرية الثلاثة في مصر ، تابع لإيالة البحر الأبيض . شمال شرقي الإسكندرية ، مرفأ على البحر الأبيض . أميره برتبة أميرال ، تابع لمشير البحر . يوجد حاليا في هذا المنصب أحد فرقاء أول البحر . يحتوي اللواء على 4 أقضية و 76 قرية ، 10960 دارا للمسلمين أكثرها ذات 5 ـ 6 طوابق ، 1060 دارا للمسيحيين واليهود . حاليا أكثف سكانا من الإسكندرية ؛ إذ إنها مركز تجاري كبير . ترد إليها وتصدر منها البضاعة عن طريق البحر . يعمل نحو 2000 تاجر في هذا العمل . تحتوي على مايقرب من 200 جامع ومسجد ، وحوالي 7 خانات عمل ، 7 مدارس ، نحو 70 مكتبا ، سوقين للتحف كل واحد منهما ذو 100 دكان ، بها أيضا 3040 دكانا ، 70 مقهى ، 240 طاحونة ، 70 حانة مشروبات ، 5 حمامات ، أكثر من 6000 مخزن بضائع ، مصنع صباغة تابع للدولة . المدينة ذات 610 أزقة ، إن الخانات التي بناها الصدور العظام الذين تقلدوا ولاية مصر وعلى رأسها التي شيّدها داماد أوكوز باشا ، كخادم سليمان باشا ، داود باشا حافظ أحمد باشا ، قوجا سنان باشا ، كل منها في الحقيقة عبارة عن كروانسراي (منزل مسافرين كبير) . بنى قلعة رشيد سلطان بيبرس في أواخر القرن 13 ، وسّعها قايتباي في أواسط القرن 15 وأضاف إليها جامعا ، وفي 1595 أضاف وزير علي باشا إليها طابقا آخر ، تحتوي على نحو 100 مدفع .

محلة متوبس ، مركز قضاء في لواء الغربية يتبعه 70 قرية ، به 3 000 دار ، 5 جوامع ، 70 مسجدا وتكية ، 200 دكان .

سنديون ، مركز قضاء في اللواء ذاته ، وأحيانا مركز لواء ، ذو 80 قرية ، 3000 دار ، نحو 200 دكان .

فوّة ، احيانا قضاء واحيانا مركز لواء تابع للغربية . يحتوي على 4000 دارا ، 12 جامعا ، 40 مسجدا .

شيراحيس ، مركز قضاء ذو 2 000 دار ، جامعين ، 10 مساجد في لواء بحيرة .

ميت جناح ، قضاء في الغربية به 2000 دار ، جامعان ، 20 مسجدا .

صح ، مركز قضاء آخر في الغربية ذو 2000 دار ، جامعين ، 20 تكية .

نقلة ، قضاء في البحيرة به 2 000 دار ، 3 جوامع ، 20 مسجدا .

امبابة ، مركز لواء الجيزة . يقع على الساحل الغربي من النيل ، وتواجهه محلة شبرا في القاهرة . تبقى الجيزة في الجنوب وهي مقابلة للفسطاط في الجانب المواجه . الرأس الشمالي لجزيرة الجزيرة ، مواجه لامبابة . يقيم حاليا فيها أمير لواء جيزة ، والحقيقة

أن امبابة عبارة عن ناحية لقضاء الجيزة المركزي . كما أنها ، إحدى ضواحي القاهرة . تحتوي على 5000 دار ، 8 جوامع ، نحو 70 مسجدا ، مدارس عديدة ، نحو 20 مكتبا و 20 معمل أصباغ تابعا للدولة .

البرلّس ، مركز قضاء في لواء دمياط ، يحتوي على أكثر من 300 دار . ويتبعه 70 قرية . يقع بين رشيد ودمياط . **بلطيم** ، ناحيته وميناؤه . **سنانيه** ، ناحية أخرى له وهي التي أسسها قوجا سنان باشا ، تحتوي على 300 دار ، 3 جوامع ، خانانين .

دمياط ، مركز أحد الألوية البحرية الأربعة الموجودة في مصر . تابعة لإيالة البحر الأبيض (آق دنيز) أي إلى مشير البحر . ميناء على البحر الأبيض . يقع على الرأس الشمالي ـ الغربي من الخليج المغلق تقريبا والمسمى بحيرة المنزلة وفي شمال شرقي المنصورة . اشتهرت عالميا بأرزها . يكون أميرها في بعض الأحيان برتبة فريق أول بحري . تعد مع الوية اسكندرية ورشيد البحرية سواحل الدلتا في البحر الأبيض ، إذ لم تربط الدولة العثمانية سواحل البحر الأبيض لمصر ، بإيالة مصر ، وجعلتها تابعة لإيالة البحر الأبيض . وأدمجت أحيانا مع لواء رشيد . تدخل الميناء سنويا نحو 500 سفينة ، وتبلغ إيراداتها من ضريبة الجمارك ما يقارب 250 كيسة . **قضاؤها** المركزي عبارة عن 3 نواح و 16 قرية . جميع أطرافها بحر . تحتوي المدينة على 40 محلة ، 260 زقاقا ، 50 جامعا ومسجدا ، 7 كنائس ، أكثر من 2000 دكان ، وحوالي 3000 مخزن . يزرع الأرز فقط ، والثروة السمكية جيدة . تشتهر بصناعة المنسوجات . إن هذه المدينة التي يسكنها نحو 000 300 نسمة تلي القاهرة في القطر المصري ، فيها 600 دار لغير المسلمين 9 . 1 منها لليهود ، بها جامع سلطان قايتباي ومدرسته التي يتلقى فيها أكثر من ألف من طلبة العلوم الدينية تحصيلهم العالي ، عدا ذلك 6 مدارس ، 11 تكية ، 18 خانا ، 4 حمامات ، 32 مقهى ، 6 منها يستوعب كل واحد منها ألف عميل . أكثرية الخانات من بناء العثمانيين . تحتوي القلعة على جامع سليم خان ونحو 30 مدفعا . شرع داماد أوكوز محمد باشا في بناء قلعة جديدة على ساحل النيل ، لكنه لم يتمكن من اتمامها . تحتوي المدينة أيضا على تكية مولوية وتقع قلعة تنة Tine وجامع سليم خان على مسافة 7 ساعات . تحتوي على 30 مدفعا . **عريش** ، ناحية في لواء سيناء وهي نهاية أفريقيا وأقصى شمالها ـ الشرقي . وتجاهها آسيا .

فرسكور ، مركز قضاء في لواء دمياط . في شمال غربي المنصورة . يحتوي على 1 100 دار ، 6 جوامع ، 11 مسجدا ، 300 دكان ، 3 خانات . **شربين** ، مركز قضاء في لواء الغربية ذو 40 قرية . يحتوي على 1 700 دار ، 7 جوامع ، نحو 50 مسجدا ، عدة مدارس ، تكايا ، 54 دكانا .

المنصورة مركز لواء، يقع على شرق الدلتا وعلى ساحل أحد فروع دلتا النيل ، بين طنطا ودمياط . سمّيت هذه البلدة « منصورة » في 1235 بعد انتصار الأيوبيين على الصليبيين الذين أحتلوا المنصورة بعد دمياط واجلائهم عن مصر . في اللواء 787 قرية ، قصبة ، مدينة . يدفع اللواء للدولة سنويا ضرائب تبلغ 3 000 كيسة مصرية . يحتوي قضاؤها المركزي على 320 قريه . والمدينة عبارة عن سوق أسبوعية يجتمع فيها مابين 40 ـ 50 الف شخص ، بها 9000 دار ، قصر وسراي ، 14 جامعا ، 291 مسجدا ، 6 ، مدارس ، 70 مكتباً ، 40 سبيلا ، حمامان ، 18 خانا ، 40 مقهى ، 1 150 دكانا ، 7 مصانع زيوت ، 75 طاحونه . ويوجد كذلك 22 خاناً للمسافرين . الجامع الكبير الذي تبلغ مساحته 180 × 180 ذراعا ، من بناء السلطان الصالح الأيوبي ، أصلحه جوربة جي في 1671 .

المنزلة ، قضاء المنصورة . قريب من الأراضي الآسيوية وشبه جزيرة سيناء . تحتوي المنطقة المجاورة لخليج البحر الأبيض الذي يسمى بحيرة المنزلة على 1000 دار ، 8 جوامع ، 62 مسجدا ، 1 مدرسة ، 6 مكاتب ، 7 اسبله ، 8 مقاه ، 180 دكانا . **سمنود** ، مركز أحد أقضية الغربية ، تتبعه 47 قريه ، يقع على مقربة من جنوب غربي المنصورة . به 1300 دار ، 3 جوامع ، 3 مساجد ، 12 مكتبا ، 7 أسبلة ، حمام ، 51 دكانا .

المحلة الكبرى ، أو محلة الكبير ، مركز لواء في الغربية . يقع بين منصورة ودمنهور ، في منتصف الدلتا ، وقليلا نحو الشمال . يمنح أمير لوائه مرتبة فريق أول على الأغلب . تحت إمرة الأمير 2000 جندي ومخصصاته السنوية 150 كيسه ، وإن كان قاضيا يتقاضى راتبا يوميا قدره 500 آقجه ومخصصات سنويه تترواح مابين 40 إلى 50 كيسه مصرية . يحتوي اللواء على 370 قرية . ينقسم داخل المدينة إلى 3 نواح . المحلة مدينة كبيرة تحتوي على 16000 دار ذات طوابق عديدة و 78 محلة . ونحو 70 جامعا ، 70 مسجدا ، 16 مدرسة ، مايقرب من 70 تكيه ، 200 سبيل ، 46 خزان مياه أرضيا ، 5 حمامات ، حوالي 200 مكتب ، 2345 دكانا ، 48 مقهى ، نحو 200 مصنع زيوت ، 380 طاحونه ، 10 أفران ، 77 خانا ، 7 كنائس في محلتين للأقباط وحوالي 1000 دار

تعداد قضائها المركزي 000 600 نسمة ، وهى مدينة عربية صرفة . الأتراك القاطنون فيها ، عائلات الموظفين . بني جعفر آغا في 1674 جسرا على النيل ذا 3 قناطر . شكل أولو جامع الحالي الموجود في المدينة يرجع إلى السلطان بيبرس .

قليوب ، مركز لواء قليوبية ، ويمكن اعتباره كذلك الضاحية الشمالية للقاهرة ، يتبعه 280 قرية . يتقاضى أمير اللواء سنويا مبلغ 100 كيسة . مدينة جميلة تحتوي على 2000 دار ، 7 جوامع ، 33 مسجدا ، 20 مكتباً ، 8 خانات ، 7 مقاه ، 200 دكان . المرجح أنها كانت في الماضي أكثر نفوسا .

الجيزة ، تقع على الساحل الغربي للنيل ومواجهة للفسطاط (مصر العتيقة = اسكي مصر) ، وهى في الحقيقة شطر مدينة القاهرة الباقي في الضفة المقابلة ، لكنه جعل مركزا للواء مستقل عن لواء القاهرة المركزي . يعتبر هذا اللواء في مصر العليا (الجنوبية) وهو أقصى شمال مصر العليا الذي يجاور الدلتا (السفلى = مصر الشمالية) . تقع أهرام سقارة في جنوب المدينة وتواجهها مدينة منفيس عاصمة مصر القديمة ، وفي جنوبها تقع **حلوان**. منفيس وحلوان تابعتان للواء القاهرة ، وهي رأس الطرف الجنوبي للقاهرة . تحتوي الجيزة على 1000 دار ، 3 جوامع ، 37 مسجدا ، خانين ، 6 مقاه ، 7 مكاتب ، 8 أسبلة ، 3 تكايا ، حمام . أكبر الأهرامات الفرعونية موجودة في الجيزة وسط الصحراء ويجاورها تمثال أبو الهول الجبّار . Sphin . **خانكة** ، مركز قضاء ذو 150 قرية . يحتوي على جامع سلطان أشرف ، و 8 جوامع أخرى . **بلبيس** ، مركز لواء الشرقية في شمال شرقي القاهرة . هذا اللواء يغطي شرق الدلتا ويحدّه شرقا برزخ السويس . وتبدأ سيناء أو باسم مركزها **العريش** بعد البرزخ . يحدها شمالا خليج المنزلة على البحر الأبيض . وجنوبا نحو الغرب لواء قليوبية ، وغربا لواء المنصورة ، يحتوي لواء بلبيس على 340 قرية . مخصصات ألبك (الأمير) 70 كيسة . بها جامع سلطان محمد ، 5 جوامع أخرى ، 81 مسجدا ، 15 خانا . قلعتا **قرائم وصالحيّة** ناحيتان لهذا اللواء تحتويان على قلاع وجوامع السلطان قايتباي . أسس الثانية منهما ، سلطان صالح .

26 _ مصر العليا

تسمى **مصر الجنوبية** (**مصر العليا**) ، وهى وادي النيل الذي يبدأ من جنوب دلتا النيل (السفلى = **مصر الشمالية**) **ويمتد** إلى النوبة والسودان . تبدأ مصر العليا اعتبارا من جنوب **القاهرة وتمتد نحو الجنوب** . الوادي عبارة عن ساحلي النيل وماعداه صحراء . تعتبر محلة الجيزة **للقاهرة والتي** تبقى في غرب النيل ، ضمن مصر العليا . تشمل مصر العليا كذلك عدة واحات بعيدة عن النيل . وجنوب لواء الجيزة ، هو لواء بني سويف .

بني سويف ، مركز لواء على النيل . يحده شمالا لواء الجيزة ، جنوبا لواء المنيا . تقع مدينة بني سويف في منتصف المسافة بين القاهرة والمنيا تماما ، تتبعها 740 قرية . توجد في المدينة وحدة إنكشارية تابعة لآغا الإنكشارية في القاهرة ، هذا عدا 1000 جندي مع أمير اللواء . وتحتوي على نحو 5000 دار ذات عدة طوابق ، سراي ، 6 جوامع ، نحو 80 مسجدا ، 9 مدارس ، مايقرب من 40 مكتبا ، 20 سبيلا ، 10 خانات 10 مقاهي ، 10 مصانع صباغة ، نحو 500 دكان ، ليس لها سوق تحف . جامع طاسلاق _ زاده أحمد آغا بناء جديد وعلى أسلوب استانبول . **فشنة** أو الفشن ، هى آخر قضاء لهذا اللواء نحو الجنوب فيه 60 قرية عبارة عن 7 محلات ، 3 جوامع ، 4 مساجد ، 7 أسبلة ، 6 مكاتب ، 4 خانات وعدة تكايا . ويبدأ لواء المنيا على مقربة من جنوب ناحية **سمالوط** .

المنيا ، مركز لواء يعيّن له أحيانا أمير لواء بمرتبة أمير أمراء (بكلربك) . يحتوي قضاؤه المركزي على 8 نواح و 220 قرية . تقع المدينة على ضفة النيل ، بين بني سويف وأسيوط . تحتوي على 6000 دار ذات عدة طوابق ، 6 جوامع ، 99 مسجدا ، نحو 70 قصرا ، أكثر من 100 سبيل ، 11 خانا ، 300 دكان و 3 تكايا . جامع عمر (رضي الله عنه) (90 × 60) الذي حوّل من كنيسة ، بناه عمرو بن العاص باسم خليفته . وبجواره مدرسته العالية .

أشمونين ، يتبعها 40 قرية ، بها 300 دار ، جامع . **ملوي** ، تتبعها 60 قرية ، 4500 دار ، 5 جوامع ، 35 مسجدا ، 400 دكان ، 38 مصنع سكر ، 57 طاحونة ، 3 خانات ، 7 مقاه ، 7 مكاتب ، مركزي قضاء في المنيا **صنبو** ، يتبعها 67 قرية وبها 1000 دار ، 3 جوامع ، وله أيضا قضاء . **منفلوط** ، مركزا قضاء كبير في لواء المنيا . نحو 300 قرية تابعة له . محيطه 1000 ذراع في الضفة الغربية من النيل مدينة كبيرة تحتوي على 600 8 دار ، ذات عدة طوابق ، 8 جوامع ، 30 مسجدا ، 8 مدارس ، 47 مكتبا ، 70 سبيلا ، 8 خانات ، نحو 1000 دكان ، حمام ، 190 طاحونة ، 20 مقهى . محلة واحدة للمسيحيين وواحدة للموسويين . وعلى مسافة 6 ساعات نحو الجنوب على غرب النيل تقع أسيوط .

أسيوط ، في منتصف مصر تماما . مركز لواء ذو 420 قرية ويحتوي قضاؤها المركزي على 105 قرى بها مايقرب من 800 4 دار ذات عدة طوابق ، 9 جوامع ، 17 مسجدا ، 6 تكايا ، 10 مدارس ، نحو 40 مكتبا ، حمام ، 70 سبيلا ، 7 مقاه ، 360 دكانا . يعتقد أنه كان بها في السابق 27000 دار وتعدادها 000 146 جامع أُميّة ، من بقايا عهد عمر (رضي الله عنه) . شيّد أمير لوائها الحالي يوسف بك ، الجامع الجديد الذي تبلغ مساحته 50 × 50 ذراعا . **أبو تيج و طهطا** ، مركزا قضاء على الساحل الغربي من النيل بين أسيوط وسوهاج . أولها يتبعها 80 قرية ، وبها 2000 دار ، 3 جوامع ، 4 مساجد . جنوب أسيوط بمسافة 6 ساعات . أما طهطا فقد أصبحت حاليا مركزا للواء صغير . بها 2000 دار ، 9 جوامع ، 61 مسجدا ، تكيتان ، حمام ، 20 سبيلا ، 3 خانات وعلى مسافة قريبة من النيل . **جزيرة** ، قضاء آخر ذو 200 قرية . **سوهاج** أو باللهجة المصرية سوهاك مركز لواء صغير يقع على الساحل الغربي من النيل **وأخميم** مواجه له في الساحل المقابل للنهر . يتبعها نحو 300 قرية 160 منها في قضائها المركزي . تحتوي المدينة على 160 2 دارا ، 6 جوامع ، 44 مسجدا ، 18 تكية ، 7 مدارس ، 17 مكتبا ، 20 سبيلا ، 6 خانات ، حمام ، 100 دكان . اثنان من الجوامع جوامع سلطانية ، بنى أحدها آبيك أول سلطان مملوكي . **منشيّة** ، أو المنشاة ، تقع كذلك على الساحل الغربي للنيل ، على مسافة 7 ساعات من جنوب شرقي سوهاج ،

مركز قضاء يتبعه 67 قرية . يحتوي على 2000 دار ، 3 جوامع أحدها سلطاني ، 17 مسجدا ، 200 دكان ، 7 مقاه ، خانين ، 3 مكاتب ، 7 أسبلة .

جرجا أو باللهجة المصرية كركا Girga ، على مسافة 3 ساعات جنوب المنشاة وعلى الساحل الغربي للنيل ، جنوب شرقي سوهاج ، مركز لواء كبير يتولى إدارته الباشوات ذوي الشارتين (طوغ) في الرأس . لأمير هذا اللواء صلاحية تفتيش كل الألوية في مصر العليا باسم الوزير والي مصر إذ إن والي مصر لايترك القاهرة مالم يكن هناك حادث مهم . وعند عزل أمير اللواء الذي يتقاضى راتبا قدره 600 000 آقجه يعين على الأغلب في وظيفة أمير حج مصر ، يتبع اللواء 1070 قريه . يحصل أمير اللواء كذلك على مخصصات سنوية قدرها 300 كيسه مصرية ، ويتقاضى قاضيها راتبا يوميا قدره 300 آقجه ومخصصات سنوية قدرها 3000 ليرة ذهب ، تتبع قضاءها المركزي 180 قرية . (تحتوي على مصر العليا على 6170 قرية) . تحتوي المدينة على 10068 دارا ، 11 جامعا ، 53 مسجدا ، 12 مدرسة ، 18 مكتبا ، 9 تكايا ، 7 أسبلة ، 1200 ساقية ، 2000 بئر ، حمامين ، 860 دكانا . 3 من جوامعها بناء عثماني وقد جيء للجامع الذي بناه شهيد محمد بك عام 1634 بالخزف من ايزنك . أكبر جامع هو الجامع الذي بناه أحد سلاطين الأيوبيين ومساحته 60 × 60 ذراعا . موقع كثير البركة . سعر الخروف الذي يزن ما بين 40 ـ 50 آقة ، 15 بارة (جزء من الأربعين من القرش) وفي رمضان يبلغ سعره 20 بارة ، سعر الجمل الواحد 300 بارة ، سعر 2 آقة خبز دقيق نقي 1 بارة ، سعر 3 آقة خبز أسمر 1 بارة ، سعر أردب الحنطة نصف ليرة ذهب ، أردب الشعير 10 بارة ، يباع العبد الحبشي بسعر يتراوح بين 7,5 إلى 10 ليرة ذهب . لكن البضائع كالأقمشة الممتازة والأدوات المصنوعة من النحاس ترد من الأناضول وهى غالية الثمن . مكثت 11 يوما في جرجا . منح لي أمير لوائها أوزبك باشا 400 ليرة ذهب ، كان من أمراء المماليك .

بلابيش ، مركز قضاء ذو 70 قرية ، به 60 دارا فقط ، وجامع . **فاو** ، مركز قضاء يقع على مسافة 8 ساعات نحو الجنوب على الساحل الشرقي (الشمالي) من النيل فيه 1300 دار ، جامعان ، 7 تكايا . يقال إنه كان في السابق مركز لواء .

قنا ، مركز قضاء في شمال الساحل (الشرقي) من النيل ، مركز لواء سابق . كان تابعا لجرجا . به 7 جوامع ، 20 مسجدا ، 7 تكايا ، مدرستان ، 150 دكانا ؛ 7 خانات متوسطة سوق كبير واحد ، 7 مقاه ، حمام . كان حسن آغا قد صرف في 1664 مبلغ 5000 ليرة ذهب وشيّد جامعا جديدا .

القصير أو قص تفع على مسافة 10 ساعات من جنوبه في الساحل الشرقي من النيل ، بين قنا والأقصر . وهي من الأماكن النادرة التي نجد بها قلعة في مصر العليا . قلعتها من بناء سلطان بيبرس ، لها 17 مدفعا ونحو 200 جندي حراسة تحتوي على 60 قرية ، 800 دار ، 4 جوامع ، 22 مسجدا ، 6 مكاتب عدة تكايا و 20 سبيلا . فيها جامع الخليفة العباسي المستكفي الذي مات منفيا فيها في 1305 . تبعد القصير عن مرفأ مدينة ينبع مسافة 300 ميل ، وعن مرفأ جدة 360 ميلا . تخرج البضائع التجارية من الصحراء إلى ساحل البحر الأحمر وتنقل إلى هذه المواني الحجازية .

الأقصر ، في شرق النيل . شمالها إحدى أكبر المدن العالمية الميّتة (عاصمة مصر القديمة طيبة وكرنك) . مركز قضاء تابع لجرجا في جنوب غربي القصير ويرجح أنه كان لواء في السابق . يحتوي على 1200 دار ، وهو أثر قديم مليء بالأنقاض . نقلت الأعمدة الأربعة العظيمة الموجودة في جامع سليمانية في إستانبول من هذه الخرائب وأرسلت إلى إستانبول . به 3 جوامع ، 17 مسجدا تكثر التماسيح جدا في النيل في هذه المنطقة مناخها جميل لكن شعبها فقير . الأراضي المليئة بالأحجار الكبيرة الكائنة في شرق ناحية **كولمبو** ؟ تحتوي على كهوف كثيرة تسمى جبل تمساح . تكدّست في الكهوف الآلاف من جثث التماسيح المحنطة الواحدة فوق الأخرى أكفانها من ألياف النخيل ، ولم تتعفن .

أسوان ، يقع على ساحل النيل الغربي ، على مقربة من شمال الشلال الأول ، هو قضاء جرجا ، وأحيانا مركز لواء . يتبعه 60 قرية ، وقلعة ذات 20 مدفعا ، 150 جندي حراسة ودار للموسيقى العسكرية (مهترخانة) . تحتوي على 1600 دار . يتّضح من الأنقاض الموجودة في المنطقة أنها كانت كبيرة فيما مضى . يستخرج الزمرد من الأراضي الجبلية في جنوب المدينة . وعلى مسافة 15 دقيقة ، توجد إحدى أكبر الأشجار في العالم ، استراح السلطان قايتباي تحت ظلها سابقا

يحتوي النيل على 6 شلالات . الأول فقط في الأراضي المصرية والبقية في نوبية « النوبة » (السودان الشمالية) . الشلال الأول ، في جنوب أسوان رأسا . تحصى الشلالات من الشمال إلى الجنوب . **أزرق** ، مركز قضاء أسوان ، يحتوي على 200 1 دار ، 26 جامعا ومسجدا ، 6 مكاتب ، 7 أسبلة ، 24 دكانا ، وعلى مسافة قريبة جدا من جنوبه **ابرم** أو أقصر ابرم ، تقع على الساحل الشرقي من النيل ، بنى قلعتها التي يبلغ محيطها 800 ذراع ذات الشكل المخمس ، أودمير باشا . تحتوي القلعة على 40 مدفعا ، جامع السلطان سليمان ، به 80 دارا ، و 200 جندي عثماني يرسلون من القاهرة . تشاهد في ابرم قصور رجال العثمانية القدامى الشبيهة بالسراي ؛ إذ إن كثيرا من المذنبين السياسيين نفوا من إستانبول إلى ابرم ، بعضهم مات فيها ، وآخرون صدر العفو عنهم وعادوا إلى إستانبول . **ابرم** ، هي آخر قلعة تعود للدولة العثمانية في الجنوب في مصر . وتشكل ناحية **توسكي** أو توشكا التي في جنوب ابرم ، نهاية الأراضي المصرية . وفي أقصى جنوبها تبدأ النوبة بقصبة **فرس** ثم يليه وادي حلفا . المسافة بين ابرم ووادي حلفا 8 ساعات . يجري النيل في هذه المنطقة نحو الجنوب الشرقي . السودان تابعة لإيالة مصر ، لكن سواحل البحر الأحمر ، تدخل ضمن إيالة حبش .

إسنا ، مركز قضاء كبير في لواء جرجا ، يقع على الساحل الغربي من النيل . عبارة عن قلعة ، 500 دار ، 11 جامعا ومسجدا . جامع عمر (رضي الله عنه) من بقايا فتح مصر . **فاو** ، مركز القضاء الكبير لجرجا يقع على الساحل الجنوبي (الغربي) من النهر مواجه لقنا . يحتوي على 100 دار ، 7 جوامع ومساجد . **فرشوط** ، مركز قضاء كبير على مقربة من الشمال ـ الغربي لفاو وقريب من الساحل الجنوبي (الغربي) للنيل ، تابع لجرجا . يتبعه 70 قرية ، وبه 800 دار ، 11 جامعا ومسجدا . **سمحود** ، مركز قضاء كبير تابع لجرجا بالقرب من غرب فرشوط ، على الساحل الغربي (الجنوبي) للنيل ، فيه 2000 دار ، 3 جوامع ، 17 مسجدا ، **برديس** ، مركز قضاء كبير لجرجا يقع بين سمحود وجرجا ، قريب جدا من الساحل الجنوبي (الغربي) للنيل ، يحتوي على 50 قرية ، 800 دار . **ألواح** ، مركز قضاء كبير تابع لجرجا وأحيانا لمنفلوط وسط أنقاض مدينة قديمة ، وبه جامع ، 17 مسجدا ، 3 مدارس ، 17 مكتبا ، 7 تكايا ، 3 خانات ، 356 دكانا ، 40 سبيلا ، مركز صناعة المنسوجات .

الفيوم ، اسمها الكامل مدينة الفيّوم ، مركز لواء . على مسافة ليست قريبة من الساحل الغربي للنيل ، داخل واحة واسعة . وعلى مقربة من جنوبه الشرقي ، مدينة بني سويف . وسط الصحراء . يحد اللواء من ناحية النيل لواء بني سويف ، شمالا لواء الجيزة ، جنوبا لواء جرجا . يحتوي على 110 قرى . يظن أنه كانت يتبعه سابقا 360 قرية . مدينة كبيرة لها 67 محلة ، 11 جامعا ، 39 مسجدا وأكثر من 9000 دار ، 7 مدارس ، 40 مكتباً ، حمامان ، 16 خانا ، 900 دكان . جامع قايتباي البالغ مساحته 70 × 70 ذراعًا فخمًا جدا .

يزور الفيوم عدد كبير من الناس على أنها مدينة يوسف (عليه السلام) . **اطفح** ، مركز قضاء كبير في لواء بني سويف في شمال شرقي المدينة ، موقع صغير عبارة عن 26 قرية .

مكث أولياء جلبي في القاهرة مدة 10 سنوات حتى عام 1683 . وهى المدينة التي سكنها أطول مدة بعد إستانبول . عاد إلى استانبول في 1683 وهو في الـ 72 من عمره وتوفي في السنة التالية 1684 . ويمكننا أن نكوّن فكرة عن تعداد المدن المصرية إذا ما ضربنا أعداد الدور التي ذكرها لنا × 10 ، وهكذا يمكن أن نقدر تعداد القاهرة 463000 ، دمياط 300 000 ، المحلة الكبرى 160 000 ، رشيد 109000 ، جرجا 100680 ، الفيوم 90600 ، المنصورة 90000 ، في السودان سنّارة 90000 ، منفلوط 86000 ، في السودان دنقلة 60 000 ، المنيا 60000 ، دمنهور 55000 ، بني سويف 50000 ، أسيوط 48000 ، ملوي 45000 ، فوة 40000 ، ادفو 40000 ، ميت غمر 40000 ، في السودان دنقلة العجوز 36000 ، إسكندرية 33750 ، في السودان ارباجي 37000 ، آبيار 30000 ، الفشن 30000 ، في السودان لولو 30000 ، متوبس 30000 ، سنديون 30000 ، سوهاج 21600 و 14 مدينة أخرى تعداد كل منها 20000 نسمة .

27 _ السودان .

وادي حلفا ، قريبة جدا إلى ضفة النيل الشرقية . ونحو الجنوب بمسافة قليلة ، الشلال الثاني ، وبعد مسيرة 7 أيام هبوطا نحو الجنوب على امتداد النيل بين الغابات البكر تقع **قلعة ساي** . توجد جزيرة مواجهة لها داخل النيل في الساحل الجنوبي

(الشرقي) من النيل بين وادي حلفا ودنقلة . بني أوزدمير أوغلو عثمان باشا قلعة في هذه الجزيرة . تحتوي القلعة حاليا على 70 مدفعا و 450 جنديا عثمانيا . يبدلون سنويا بالجنود الذين يجلبون من القاهرة . القضاء مركزي ، ولكن لايمكن معرفة ما إذا كان لواء أم إيالة ، عند النظر إلى حدوده يسيطر هذا القضاء على أواسط السودان وعلى المناطق حتى حدود الحبشة . 450 جنديا عثمانيا موجودون داخل جزيرة . هى أكبر قلعة للدولة العثمانية على النيل في أقصى الجنوب . تحتوي على جامع سليمان خان ، مكتب اوزدمير باشا ، 22 دكانا، بيوت للجنود . شعبها مسلم من قبيلة بني حلفه . يتكلمون بالعربية . لكن غلب عليهم الدم الزنجي . المنطقة صحراوية وعلى بعد مسافة 20 مرحلة من مصوع يدرك مركز إيالة الحبشة . وللذهاب من ساي إلى مصوّع لابد من اجتياز الصحارى ، والغابات واتخاذ ترتيبات الحماية الجيدة من أخطار الأسود ، النمور ، الفيلة ، الكركدان والنسور . كان الجنود قد اصطادوا في قلعة ساي 3 أسود ، كانوا يطعمونهم اللحم . أوغلت في السير إلى الجنوب داخل الصحراء على امتداد النيل . حاكم قلعة **مغرق** ، حسن بك . هو قائد ملك الفونج (مملكة سنّار) لكنه يتبع أوامر العثمانية . ملك الفونج ، تابع لوالي مصر . له 17 قلعة و 17000 جندي من حملة المزارق . يرسل سنويا ضريبته إلى القاهرة . استضافني الملك المالكي المذهب واهداني نابي فيل . أرسلت أحدهما إلى قائد قلعة ساي العثماني . وقلعة **تنّارة** Tinnare التي تقع على مسافة يومين نحو الجنوب تخضع للملك ذاته . يسيطر هنا قائد القلعة كور حسين بك ، على نحو 40 ـ 50 ألفا من السكان بقوة قوامها 800 جندي من حملة المزارق ، كان من ضباط العثمانية القدامى . كانت القلعة تحتوي على المنجنيق بدلا من المدفع . وتسيطر قلعة **سهسة** الواقعة على مسافة 4 ساعات نحو الجنوب على ما بين 40 - 50 ألفا من السكان . وتقع **نازنارنيته** ، على مسافة 3 ساعات نحو الجنوب ، وبعد مسيرة 7 ساعات تصل إلى قلاع **ماديه** ، وهى على النيل وكالسابقات .

تقع **حفير** ، بعد مسافة قصيرة من الشلال الثالث على الساحل الشرقي (الجنوبي) للنيل وتواجهه جزيرة داخل النيل ، قلعة مملكة الفونج (مملكة سنّار) . يرابط في القلعة 1000 خيال وتحتوي على عدة مدافع قديمة ، أكثر من 1000 دار ، خانين ، نحو 50 تكية ، مطبخ للمحتاجين ، 6 مكاتب ، حمام ، مدرسه ، 20 مدرسة ، 130 دكانا . شعبه شافعي المذهب . احصيت 4 جوامع و 16 مسجدا . كنا نتجول مع قافلة عثمانية تتألف من 800 شخص . استقبلنا محافظ القلعة بكل احترام . اجتزنا قلعة **كانغدي** ،

نحو الجنوب وبعد 7 ساعات تقع قلعة **نافرى** الأخيرة ، كانت قضاء يسكنه 40 000 نسمة و 1000 جندي . أكرمنا قائدها المسمى كمال الدين . وبعد مسيرة 17 ساعة ، وصلنا قلعة **شندي** ، في ساحل النيل . كنا لانزال في مملكة الفونج . كانت قرونة الكركدان ، أشجار الأبنوس ، أنياب الفيلة ، جلود التماسيح مكدسة كالجبال في السوق . وتقع **دانيكا** (Dongola) بعد مسيرة يوم واحد . كانت هذه المنطقة إمارة في مملكة الفونج (مملكة سنّار) . اجلسني الأمير على يمينه واكرمني لكوني رئيسا للقافلة العثمانية . هذه المنطقة تابعة أيضا للعثمانية . لكنهم لايملكون الدراهم النقدية ضرائبهم عينية . وصلنا **هانكوج** ، وهذه أيضا تابعة لمملكة سنّار . أراد قائد القلعة الزنجي تقبيل يدي ، لكنني رفضت . دهشت عندما خاطبني بالتركية . إذ إننا لم نسمع التركية من أى شخص محلّي منذ دخولنا ساي . وإذا به كان قد تعلم التركية عندما كان في شبابه في أسوان . شاهدت في هانكوج 6 مدافع بدائية . كان كل من يشاهد كتاب والي مصر ، يقف على قدميه ويطأطيء رأسه احتراما وخضوعا . إذ إن والي مصر ، يعني امبراطور أفريقيا في هذه المناطق . أما البادشاه ، فإنه ظل الله ولا أمل لهم في التوصّل إليه . لكنهم كانوا فقط يعلمون أنهم رعايا حاكم يتّصف بتلك الصفات .

قلعة **تومبوسو** ، مركز قضاء على ساحل النيل يسكنه 20 000 نسمة، أهدى لي فيها فيللا . قلعة **شقراوى** على مسافة 9 ساعات نحو الجنوب ، مركز قضاء يسكنه 50 000 نسمة . قلعة **حفير** (حفير مملكة سنّار) على مسافة 10 ساعات نحو الجنوب ، مركز قضاء سكانه 60 000 نسمة . اجتزنا نحو الجنوب قلاع **مشو** ، **تومبول** ، **فردانيه** ، **دفنه** ، **اركو** ، **بتني** ، **ارتد** ، **ايرمش** اللواتي تبعد إحداها عن الأخرى مرحلة واحدة . كل واحدة منها مركز لقضاء . ثم واصلنا اجتياز النيل نحو الجنوب ووصلنا قلعة **جيريه** ، وقلعة **ختّاق** مركز قضاء ، سكانه 100 000 نسمة ، ووصلنا إلى قلاع **كولي** ، بقر ، دنقلة القديمة (دنقلة العجوز) التي تبعد كل منها عن الأخرى مسافة مرحلة واحدة . كانت قلعة على الساحل الشرقي من النيل فيها 650 دارا ، 7 جوامع ، 9 مساجد ، 6 مكاتب و في الضواحي (خارج القلعة) 3000 دار . كانوا ينطقون بالعربية بشكل معقد يصعب فهمه . استمعنا إلى خطبة الجمعة التي تليت باسم سلطاننا . كانوا يأكلون لحم الزرافة . اطعموني منها . والمرحلتان القادمتان هما قلعتا

سرتاقوسي و زكاوه . **عفات** أو عفاريت ، موقع في شمال النيل (شرقه) وعلى الضفة المواجهة له ، قصبة الدبّة . هذه المنطقة هى أقصى جنوب زاوية منعطف النيل العريض جدا وبعد هذه النقطة يجري النيل نحو الشمال ـ الشرقي وليس نحو الجنوب ، ثم يعود فيتوجه ثانية نحو الجنوب . اجتزنا قلعتي **كنيسه و آبكر** (Abdum) . تقع الأخيرة على الساحل الجنوبي (الغربي) للنهر ، فيها 200 دار . قلعة **دفّارة** ، التي بناها سلطان آيبك في 1250 بعد مرحلتين . المراحل القادمة هى قلاع **ملك ادريس** ، بها 700 دار ، **غرّى** ، **الكون** ، **كوسراي** ، فيها 700 دار ، **حلة الملك** ذات 600 دار ، **نوجى** ذات 200 دار ، وبعد الشلال الرابع قلعة **ارباجي** . ارباجي ، مدينة مزدحمة ، فيها 3700 دار ، لها 7 جوامع . يحكمها أخو ملك الفونج خان جرجيس Kan Cerecis ، يسيطر على 640 000 نسمة . تسلم كتاب الوالي بعد أن انتصب على قدمية وقبّله ووضعه على رأسه . قدّم لي كيسا مليئا بالأحجار الكريمة وزنجيتين بكرا و 3 عبيد سمر اللون . وقدمت أنا له فيلي وتخلصت من عبء ثقيل . إذ إن هذا الفيل كان يأكل حمولة 100 بعير من الحشيش ويشرب الماء كأنه يوشك أن يقضي على ماء النيل . المرحلة الثانية قلعة **عطشان** على الساحل الغربي ، بها 600 دار . صادفت فيها 3 تجّار أتراك من قره مان أسرهم البرتغاليون أثناء نقلهم البضائع من الهند إلى سواكن وقد تخلّصوا من الأسر بعد اصطدام السفينة البرتغالية بساحل أفريقيا وغرقها . عاشوا فى شدة 7 أعوام في افريقيا . اتخذت كل التدابير لايصالهم سالمين إلى القاهرة ؛ حيث الذهاب من القاهرة إلى قره مان سهل . سرّوا كثيرا واوشكوا أن يقبلوا يدي . والمراحل التالية هى قلاع **بقيس** ، **حلة الركابي** ، **حلة الجندي سور** . تقابلت مع ملك الفرنج في الأخيرة منها والتي يحتوي على 1000 دار . استقبلني الملك وامسك بيدي وخاطبني باللغة العربية . قبّل كتاب وزير مصر ووضعه على رأسه . **ذهبنا مع الملك إلى قلعة سنّارة (11 /12 / 1672)** ، تركنا النوبة (**السودان الشماليه**) **خلفنا ، كانت هذه المنطقة هى السودان الأصلية** . مدينة عرش الملك . كانت الخطبة تتلى باسم سلطاننا . **كان الشعب ينكبّ على الأرض عند مرور الملك . محيط قلعة سنّارة 3000 ذراع ، تحتوي على 8000 دار بسيطة . أكبر مدينة في السودان تقع على الساحل الغربي من النيل الأزرق (البحر الأزرق) . في المنطقة قبائل رحّل لون بشرتهم اسمر غامق قريب من**

بون الزنوج . يتكلمون اللغة العربية كما يتكلمون اللغات المحليّة . لا محل للغة التركية هناك . وللتفاهم باللغة التركية ، يستلزم الأمر الوصول إلى سواحل البحر إلى السودان والحبشة . كان بالقلعة 50 مدفعا عثمانيا من نوع شاهي وبنادق ، لكنها كانت قديمة جدا . شاهدت 8 جوامع ، وما يقرب من 40 مسجدا . الشعب مالكي المذهب وهناك أيضا كثير من الشافعيين . لم تكن النسوة يستترن . إذ المناخ حار جدا ، ولا عيب فى عدم الاستتار . كان بينهن الجميلات جدا . أجسامهن رقيقة بديعات التكوين ، ورغم أن لباسهن كان يكشف عن أجزاء من أجسامهن ، فإن أحدا لم يكن يلتفت لينظر إليهن . كلهم مسلمون . بقيت في سنّارة 40 يوما وقضينا وقتا ممتعا مع الملك في رمضان . قدّم لي هدايا كثيرة جدا ، وأرسل كذلك إلى وزير مصر إبراهيم باشا ـ الذي أصبح بعد ذلك صدرا أعظم ـ من السلع الثمينة ملء قافلة ، وهى ضريبته السنوية .

المحطات بعد سنّاره ، هى قلعة **أبسوكا** ، أبو تمير ، بها 2000 دار ، 7 جوامع ، **بورروسش** ، مركز إحدى الولايات في مملكة سنّار (فونجستان) ، سكانها 500 000 نسمة . ولأول مرة في حياتي شاهدت فيلين لونها أبيض . بعد ذلك ، **بروسته** ، وهى قلعة ومركز لمنطقة سكانها 600 000 نسمه في مملكة سنّار . وتليها **قلعة دونكوده** ، وتتكون من 6000 دار حجرية . شهدت هنا رجم أحد الرجال بتهمة هتك العرض . وبعد مرحلتين ، اصطدنا في وادي **شلجلان** 70 فيلا ، 16 كركدانا ، آلافا من النمور ، حمارا مخططا زرافة وحيوانات أخرى . ومع ذلك ، لم نتمكن من إصابة واحد من مئة ألف من مخلوقات هذه الصحراء . حيوانات الصيد كانت كثيرة لدرجة لاتصدق . وبعد مرحلتين تقع رميله ، بها 1000 دار ، 7 جوامع 121 دكانا . وصلنا **جرسينكا** التابعة لمملكة الفونج بعد مسيرتنا 7 مراحل على امتداد نهر النيل . حاكمها شان الله خان ، كان يرسل ضريبته إلى الملك وهي حمولة 40 فيلا و 100 جمل من البضائع .

وهكذا نزلنا من النيل الأبيض (البحر الأبيض) إلى الجنوب والي أقصى جنوب السودان . تنتهي المناطق الإسلامية في هذا الموقع وتبدأ قبائل عبدة الأصنام . ينقسم إلى فروع ويستمر نحو الجنوب . ينبع النيل من بحيرة كبيرة جدا ، تسكن بجوارها سبعة أقوام يرتاد السكان المحليون هذه البحيرة مدينة **قمر** تقع على جبل قمر في البحيرة الكبرى ، يقال إنها من بناء سليمان (عليه السلام) . وعلى مسافة 7 مراحل من

البحيرة نحو الغرب ، المحيط الهندي . قلّت حاليا القوافل التي تتاجر بين البحيرة الكبرى والمحيط والسودان ومصر ، وحتى القوافل التي تذهب إلى فاس لمدة 5 أشهر ، إذ تسلّط البرتغاليون على سواحل المحيط . وعندما تشاهد القبائل التي تحيط بالبحيرة الكبرى شخصا ابيض اللون تذبحه وتطبخه وتأكله . عدنا إلى سنّارة ثانية بعد 45 يوما من مغادرتنا إياها . مكثنا قليلا وتوجهنا إلى الجنوب ، ثم إلى الشمال ، ثم الشمال _ الشرقي . **أرباجي** ، تبعد عن سنّاره 3 أيام .

28 _ إيالة الحبشة (حبش) .

أسست إيالة ابرم بين مصر الجنوبية والنوبه ، لفترة من الزمن . انضمت إلى إيالة مصر ثانية قبل مرور سنين (13/ 2 / 1584- 26 / 12 / 1585) . كانت 4 ألوية (ابرم ، محاس ، قصير ، الواح) يتقاضى أميرها 000 1300 آقجه سنويا . قصير ، رصيف بحري على ساحل البحر الأحمر . تحتوي ابرم على مناجم الزمرّد .

كانت إيالة الحبشة على أيام مراد الثالث (1574 - 95) 10 ألوية (المركز مصوع ، سواكن ، عقيق ، حركيك (Arkiko) ، سام ، بور ، ماترو ، هنديه (Hindibe) ، صراوه ، آنديا) . اصدر الديوان في 1582 قرارا بصرف مخصصات إضافية قدرها 000 40 ليرة ذهبا لإصلاح القلاع الموجودة في إيالة الحبشة ، وهذا يشكل نموذجا للمبالغ المصروفة للأقطار النائية لأغراض إعمارية _ سياسية . كلف والي اليمن اوزد مير باشا (1548-54) بتولى إيالة الحبش بعد تأسيسها في 5 / 7 / 1555 . توفي في دباروا عن عمر يناهز الـ 60 . حمل ابنه اوزدمير أوغلو عثمان باشا _ صار فيما بعد صدرا أعظم _ الذي أخذ مكانه في 1560 ، نعش ابيه إلى مصوّع . بنى هناك قبرا وجامعا وكلية . اهتدت إلى الإسلام على يد هذين الحاكمين ، قبائل كثيرة من الاقوام الحبشية . وكما أصبح المسلمون في اريتره ، نتيجة لهذه السياسة العثمانية ، أكثرية ساحقة ، كذلك أسلمت مناطق كثيرة في الهضاب الحبشة . هزم ومات الملك Glavdevos في الحرب الميدانية في 1559 . وبالرغم من مساندة البرتغاليين لهم بالأسلحة النارية ، لكونهم مسيحيين (أرثوذكسا يعقوبيين) ، لم يتمكن ملوك الحبشة من مقاومة العثمانية .

وقد انهزم (20 / 4 / 1562) ميناس (1559 - 1563) أخو الملك المقتول الذي أخذ مكانه في الحرب الميدانية اندرتا Enderta أمام اوزدمير اوغلو . أسر والي اليمن الملك ميناس هذا ، سحق والي الحبشة (14 / 12 / 1579 - 21 / 12 / 1582) خضر باشا ، الجيش الحبشي في الحربين الميدانيتين Harikko (1580) و Debarva (1582) . انسحب الاحباش المسيحيون نحو الجنوب والجنوب ـ الغربي . استولت العثمانية على قسم كبير من الحبشة . ايقن ملوك الحبش أنه ليس بإمكانهم الوقوف أمام العثمانيين بالأسلوب القديم . أسسوا وحدة حبشية من حملة البنادق . اطلقوا على قائد الوحدة التي أسسوها اسم « باشا » وعلى ضباطها اسم « آغا » . أعطوا صلاحية تأسيس أول وحدة مدفعية في الجيش الحبشي ، إلى ضابط مدفعي تركي قديم اسمه عبدي آغا . وأطلقوا على هذا الضابط الذي منحوه قيادة هذه الوحدة « عبدي باشا »

Pank hurst, Fire - Arms in Ethiopia Prior tothe Nineteneth Century, Ethiopia)
Observer, 3 Adis Ababa 1968 p. 214)

كان الباب العالي قد جعل من البحر الأحمر ، حتى عام 1778 بحرا عثمانيا مغلقا و لم يفتحه للتجارة العالمية . واعتبارا من ذلك التاريخ ، سمح للسفن التجارية الإنكليزية بالدخول إلى البحر الأحمر ، والمرور بالمواني العثمانية التي بين ضفتي آسيا وافريقيا .

رفض قصي أمير كوندار على أيام السلطان عبد العزيز (1861 - 1876) الخضوع لملك الحبشة في الوقت الذي كان فيه خاضعا للعثمانية . كوندار ، تقع على مقربة من شمال بحيرة تانا . وبذلك سيطرت العثمانية ، عدا اريترة ، على تيكرة Tigre ، وحتى على القسم الأكبر من امهارا ، وتبعت إمارة حرار المسلمة في شرق أديس أبابا ، العثمانية كذلك . ذهب رءوف باشا في 1875 إلى هرر وانهى هذه الإمارة ودخلت المنطقة في إدارة العثمانية المباشرة . وافقت انكلترا في 1877 على أن تكون الصومال الشمالية حتى رأس دانته (بالعربية رأس الخافون Hafun) والواقع على خط العرض 10° ، أراضي عثمانية . لكن الصومال الجنوبية (الشرقية) اعتبارا من هذه النقطة وحتى كينيا ، كانت تحت السيطرة العثمانية . ونحو 1876 ، كان الحكم العثماني يشمل كل الأراضي التي تمتد إلى البحيرات الكبيرة (أوغندا) ، الصومال والكونغو (زائير) . كان جعفر

مظهر باشا في 1867 ، قد رفع العلم العثماني على رأس الخافون (رأس دانته) . ثم وصل مختار باشا إلى النقطة ذاتها . وهي الرأس الذى في أقصى شرق القارة الأفريقية (خط طول 51°) . فصل الباب العالي الرصيف البحري زيلا Zeyla الواقع على مقربة من جنوب جيبوتي ، من إيالة اليمن وتركه لإيالة مصر لقاء 15 000 ليرة ذهبًا ، كانت الأراضي الواقعة بين زيلا ومصوع أي جيبوتي وأريترة تابعة لإيالة الحجاز . أما الساحل من مصوع نحو الشمال ، فقد كان تابعا لإيالة مصر . استولت انكلترا التي احتلت رصيف عدن البحري وجزيرة بريم الصغيرة في 1839 على رصيف بربره البحري في 1884 . كان أملها سدّ باب المندب . وفي 1885 فصل الباب العالي زيلا عن مصر وألحقها بإيالة اليمن كقضاء . احتلت فرنسا في 1888 رصيف تاجورا البحري وشرعت في تكوين مستعمرة الصومال الفرنسي (جيبوتي) . أما إيطاليا فإنها احتلت في 1884 رصيف آساب البحري ووطئت أفريقيا الشرقية . وفي 1885 دخلت وحدة إيطالية يساندها الإنكليز إلى ميناء مصوّع . أنزلت العلم التركي ورفعت العلم الإيطالي . أرسلت الوحدة العثمانية الموجودة فيها إلى مصر ، وهكذا خرجت سواحل البحر الأحمر من السيطرة الكاملة للعثمانية ، حيث تمكنت إنكلترا وإيطاليا وفرنسا من اتخاذ مواقع لها في تلك السواحل . لكن الأوروبيين لم يتمكنوا من القضاء على السيطرة الكاملة للعثمانية على السواحل الآسيوية (الشرقية) للبحر ولم يتمكنوا من الحصول على ساحل فيها . استمر وضع العثمانية في هذا الجانب حتى عام 1916 بل وحتى 1919 ، ولم يتمكن الأورويون بعد هذا التاريخ من الحصول على شيء يذكر ، إذ تأسست ملكيات العربية السعودية واليمن . لم تتمكن إيطاليا من الحصول على اريترة ، إلا بعد جهود كبيرة في 1896 . ثم أسست مستعمرة الصومال الجنوبية (الشرقية) (1910) . لم يكن هناك اتصال بين مستعمرتيها ، إذ كان يفصل بينهما الصومالان الإنكليزي (الشمالي) والفرنسي (جيبوتي) . كانت السواحل الجنوبية للصومال الإيطالي ترجع لسلطنة زنجبار (الأرصفة البحرية كسمايو ، مرقا ، مقاديشو الخ .) . استأجر الإيطاليون في البداية هذه الأرصفة من زنجبار ثم سيطروا عليها فعليا . لم تنتقل كسمايو لحيازة الإيطاليين إلا في 1905 . ساندت انكلترا إيطاليا في سياستها هذه .

كانت السياسة الأفريقية لعبد الحميد الثاني مستندة على السياسة الإسلامية أكثر من استنادها على عرض القوة العسكرية ، وتعتبر بعثة الفريق الأول عظم ـ زاده

صادق مؤيد باشا الأفريقيه نموذجا لذلك ، كان هذا الشخص رئيسا لمرافقي البادشاه وأحد أفراد عائلة عظم ـ زاده (بالعربية : آل العظم) الشهيرة التي سكنت الشام . حضر مع معيّته إلى هرر 1896 ، بلغ الأحباش المسلمين تحية حضرة خليفة روى زمين (وجه الأرض ، الكرة الأرضية) السلطانية ، كانت هرر مدينة تجارية فعّالة يسكنها 40 000 نسمة ومركز مسلمي الحبشة . كانت تحتوي كذلك على أتراك أناضوليين استوطنوا فيها وأصبحوا من رعايا الحبشة . قبل الباشا في أديس أبابا استقبل Menelik الثاني الباشا في أديس أبابا ، أفاد ملك أو امبراطور الحبشة الباشا بأن رعيّته ينقسمون إلى نصفين مسيحيين ومسلمين ، وأن كليهما يعاملان بالتساوى ومنحه وسام ختم سليمان من الدرجة الأولى ، ومنح الباشا مرتبة رأس (أمير) وهى مرتبة لم تمنح لأى أجنبي من أعلى الرتب حتى الآن (19 / 5 /1896) . يسرد الباشا تفاصيل بعثته التي دامت 3 أشهر في كتابه **حبش** سياحتنامه سى ، أما القسم السرى منها فقد قدمه إلى البادشاه ، وهو موجود حاليا في تقاريره المحفوظة في الأرشيف العثماني . وأرسل صادق باشا ، إلى الصحراء الكبرى مرتين في 1884 و 1893 لإجادته اللغة العربية ولمعرفته أفريقيا بصورة جيدة . ويشرح لنا تفاصيل بعثته هذه في كتابه المعنون **بر عثمانلي ضابطنك آفريقيا صحراي كبير كده سياحتي** . كان الباب العالي ، يعتبر الأطفال المولودين من أب عثماني ولأم حبشية ، من الرعايا العثمانيين ويمنحهم جواز السفر التركي . كانت الحكومة الحبشية تعتبر هؤلاء من رعايا الحبشة ولا توافق على غير هذا ، لكنها لم تكن تستطيع المعارضة بصورة علنيّة . يظهر من ذلك أن الحبشة تهاب العثمانية بقدر ماتهابها الدول الأوروبية . وبقبول إمبراطورية فاس الحماية الفرنسية في 1912 ، لم تبق في أفريقيا دولة مستقلة عدا الحبشة وليبيريا .

أنشأت فرنسا التي ابتاعت منطقة أوبوك العثمانية من أحد الشيوخ المحليين الصوماليين في 1863 رصيفا بحريا فيها في 1883 وأسست في 1888 ، قصبة جيبوتي . لكنها لم تتمكن من توسيع منطقتها . وكأن الحبشة تركت للنفوذ الإيطالي . كانت انكلترا وفرنسا اللتان تريدان فصل إيطاليا عن اتفاق ألمانيا ـ اوستريا ، قد تغاضتا عن ذلك . اعتلى العرش بعد وفاة Menelik ، حفيده Yasu البالغ عمره 17 عاما (11 / 12 / 1913) . اهتدى إلى الإسلام . وهب البناء المقابل لسراياه في أديس أبابا إلى القائم بالأعمال العثماني وأخذ

يتحرك بموجب توصيات مظهر بك السياسي العثماني الذي يمثل الخليفة . شيّد الجوامع . لم يعترف عبد الحميد الثاني بصورة قطعية باقتسام الصومال واريتره بين ثلاث دول أجنبية . لم تترك هذه الأقطار ، إلا فيما بعد بمعاهدة لوزان 1923 . ولم يعترف الباب العالي في العهد المشروطي كذلك باحتلال هذه الأقطار . لكن الحرب العالمية الأولى كانت قد اسدلت ستار الخاتمة على مسرح السياسة الأفريقية العثمانية .

ذكر رئيس الدولة الصومالي محمد سياد بري في بيان له في 1978 ما يلي : الآثار العثمانية قائمة في كل مكان في الصومال . القلاع التركية واستحكامات المدفعية لازالت قائمة كما هي . ان قواتنا المليشية ، مازالت تستفيد منها . قسّم الأوروبيون قطرنا عندما أخذوه من العثمانيين إلى خمسة أقسام (ترجمان ، 7 / 8 / 1978) الأقسام الخمسة التي عناها رئيس الدولة هى الصومال الإنكليزي ، الصومال الإيطالي ، الصومال الفرنسي ، إيالة أكوان التي يعيش فيها القوم الصومالي في الحبشة ، والشريط الشمالي ـ الشرقي لكينيا وتتكون الصومال الحالية من اتحاد الاثنين الأولين الصوماليين الايطالي والإنكليزي . نفذ الاستعماريون الأوروبيون عملية التجزئة هذه في كل قطر سلبوه من العثمانية .

أنقل فيما يلي بعض السطور من جولة أولياء جلبي في الحبشة :

يقع وادي كوز بعد مسيرة 8 أيام من آرباجي . يحتوي الوادي على قرى كثيرة جدا . يقدر عدد السكان في هذه القرى ب 40 000 نسمة . كان لديهم جامع . وصلنا مدينة بوريغا بعد اجتيازنا دمبيه في 6 أيام عن طريق جبل ترجاش ذي الغابات الأبنوسية . وبهذا كنا قد خرجنا من مملكة الفونج بعد اجتيازنا نهر عطبرة نحو الشرق . قلعة نازدي ، تقع بعد مرحلتين من بوريغا . ملك دمبيه تابع لوالي الحبشة كتبعية ملك الفونج لوالي مصر . نازدي تابعة لهذا الملك . عبارة من 2000 دار قصبية ، جامعين . تنتهي أراضي دمبيه على مسافة مرحلة من البحر الأحمر . وتبدأ بعد ذلك مباشرة الأراضي التابعة لإيالة الحبشة . إذ شوهد البحر الأحمر في اليوم التالي . دنقلاب ، مركز ناحية يقيم فيها 100 000 حامي ، قريبة إلى البحر . ناحية القضاء المركزي سواكن وتواجهها جزيرة لؤلؤ . عبارة عن 3000 دار قصبيّة . يستخرجون اللؤلؤ من البحر ، ومنها ما حجمه قدر البندقة . عشر اللؤلؤ المستخرج عائد للدولة . والمرحلة التالية وادي أتله الذي يعيش فيه 40 000 من الرحّل . المنزل التالي ميناء قسم وبعد 3 أيام ، سواكن .

سواكن ، أكبر مرفأ للسودان . يواجهه في ضفة البلاد العربية ، مرفأ قنفذه لعسير . المسافة بينه وبين جده قريبة . أخذ والي مصر سليمان باشا سواكن من ملك دمبيه خلال سفره إلى الهند (حزيرا 1538) . ثم عيّن اوزدميرا بك بعد عودته من الهند أمير لواء لها . فتح اوزدمير بك الحبشة مبتدئا بهذا الموقع ومتجها نحو الجنوب وأصبح أول وال على إيالة حبش . حاليا مركز لواء في إيالة حبش . يقيم البكلربك (الوالي) في مصوّع ولكنه يتردد كثيرا على سواكن وجدّه كذلك ويمكث فيها مدة طويلة . الإيالة التي تبدأ من سواحل البحر الأحمر والتي تنتهي بها إيالة مصر ، تمتد حتى تشمل الأراضي حتى خط الاستواء . يحكم والي الحبشة الحجاز وعسير الواقعتان على الجهة المقابلة ، ويشرف على حكام الحبشه العديدين ومن يفهم ملك دمبيه أيضا . يحتوي مرفأ سواكن في الرصيف على بناية كبيرة للجمارك وبجواره باشسراى ، جامع اوزدمير باشا ، مساجد ، مخازن نحو 180 جنديا في قلاعها الثلاث ، وعدا ذلك فلأمير اللواء 500 جندي . هو بناء وليست مدينة للإقامة .

كيف Kif ، من فتوحات اوزدمير باشا ، مركز لواء ، موقع صغير عبارة عن 300 داو . يقع بين سواكن ومصوّع . يعتقد أنه كان اكثف سكانا عندما كان مركز قضاء . ميناء . يحتوي على جامع واحد ، مساجد ، فيه حوالي 50 دكانا ومخزنا . قريب إلى سواكن . هبطنا من سواكن نحو الجنوب ـ الغربي على امتداد البحر الأحمر جزر دهلق ، مجموعة كبيرة من الجزر الصغيرة . تواجه مصوّع . جزيرتها الكبيرة ومركزها يحمل اسم دهلق . ميناء دهلق مواجه لميناء مصوع . أحدهما يقابل الآخر . وهو من فتوحات أوزدمير باشا . مركز قضاء في لواء مصوّع المركزي . يستخرج اللؤلؤ . به جامع واحد ومساجد ، جمرك ، ونحو 50 مخزنا . وتدرك مصوّع بعد مسافة 6 أميال .

مصوّع ، مركز إيالة حبش . أكبر مرفأ في الحبشة . يتقاضى والي الحبشة 1 200 000 آقجه راتبا ، وهى من الإيالات الكبيرة . هى الإيالة السادسة في ترتيب التشريفات ، السابعة ، هى إيالة الشام . في الإيالة 110 قلعات . تشكل الدولة المحلية التابعة ، القسم الأعظم من الإيالة . تجبي الخزينة من الضرائب من هذه الإيالة 80 مليون آقجه . ترسل بعض الدول ضرائبها بصورة مستقلة وبعضها الآخر يحصل

الضرائب منها الجنود الذين يرسلهم الوالي . لم تشاهد أية جماعة محلية تثور ضد الجيش . تجوّل اوزدمير باشا مع ابنه عثمان باشا في هذه الأقطار قبل أكثر من عصر يرافقهم 40 000 جندي . لم تنس أقطار أفريقيا الشرقية هذا الحادث . لايشك أحد في إمكانات البادشاه في إرسال مثل هذا الجيش مرة ومرات ، وهذا هو سبب النجاح في إدارة أقطار يفوق حجمها حجم الأناضول مرات عديدة ، بمثل هذا العدد القليل من الجند . يلبّي فورا أمر الوزير والي حبش ، الذي يرسله بواسطة خيال بسيط إلى أبعد الأماكن . مناخ مصوّع حار إلى درجة لا تصدّق . ولعدم رغبة أي قاضٍ في المجيء من استانبول إلى هذا المكان ، فإن الوالي عند قدومه من استانبول يستصحب معه القاضي والمسئولين الآخرين ويستبدلهم بالقدامى . مصوّع جزيرة تبعد مسافة مرمى مدفع عن الساحل . تحتوي المدينة على 1600 دار بسيطة ، جامع لوزدمير باشا ، 6 مساجد ونحو 100 خان ، ومخزن في الرصيف . قبر (1560) اوزدمير باشا الذي تولى الإدارة مدة 5 سنوات ، مجاور للجامع بناه ابنه عثمان باشا . يرقد موستارلي مصطفى باشا الذي تولى الإدارة مدة 11 عاما في القبر ذاته (1665) . يمكن العثور على كل سلع المناطق الاستوائية ، آسيا وأفريقيا في نحو 100 دكان . ترد إليها سفن تجارية كثيرة . جميع أصحاب السفن من العرب والأتراك ، بسبب منع دخول المسيحيين إلى البحر الأحمر . يتسلم قاضي مصوّع راتبا يوميا يتراوح مابين 300 إلى 500 آقجه ومخصصات سنوية تبلغ 500 ليرة ذهبا . إن عدد سكان الأقطار التابعة لوالي حبش ، عشرة ملايين نسمة تقريبا .

• قلعة **هاركوفا** أو غاركوكو ، ميناء في جنوب غربي مصوّع . قضاء في لواء مصوّع . أحد الأقضية الـ 20 الكائنة في القسم الواقع في القارة الأفريقية من إيالة حبش . الأقضية التي بتولى إدارتها الحكام المحليون ، لاتدخل ضمن هذا التعداد . بالقلعة 200 جندي ، 700 دار حجرية بسيطة ، سوق ذو 27 دكانا ، جامع اوزدمير باشا ، 7 مساجد وتكية . وادي **فوله** بعد مسيرة يومين وميناء **هندية** (حنفيلا) يقع بعد الهبوط نحو الجنوب ـ الشرقي . ألحقت كقضاء لمصوّع ، بينما كانت مركزا للواء . تحتوي على جامع اوزدمير باشا ، قلعة ، مسجدين ، 10 مدافع . شيّد اوزدمير باشا في **طوزله**

(طوز = ملح) على مسافة 3 مراحل ، **قلعة صغيرة** . ناحية يسكنها 10 000 نسمة . محجر ملح كبير **بهلوله** (بلول) ، ميناء من فتوحات اوزدمير باشا . كان قد خربها البرتغاليون في السابق . تقع مواجهة لميناء مها اليماني على ساحل آسيا المقابل وقرب مضيق باب المندب . يحتوي هذا القضاء على مايقرب من 150 000 نسمة . **زيلا** ، ميناء في الصومال خارج باب المندب والبحر الأحمر ، على الجنوب ـ الغربي من خليج عدن . بداية المحيط . طرد اوزدمير باشا البرتغاليين منها وفتحها . لها قلعة كبيرة مخمسة الشكل طول محيطها 700 5 ذراع . محفوظ ، ميناء لها يستوعب 2000 سفينة وفيه 70 مدفعا . مركز قضاء وأكبر قلعة في الإيالة ، تحتوي على 000 1 دار ، وفي المدينة قنصلا إنكلترا والبرتغال ، **شهرشا** ، مركز قضاء سكانه مابين 40 ـ 000 50 نسمة . وبعد مسيرة 6 أيام ، تقع **قلعة وكات** ، من فتوحات اوزدمير باشا ، مركز ناحية وميناء ، به 1000 دار . وبعد مسيرة يوم واحد **هديّه** ، مركز ناحية ذو 6000 دار بسيطة ، 3 جوامع . وفي اليوم التالي **رازدين** ، وبعد مسيرة يوم واحد **فرّان** ، وتدرك **مقديشو** (موكاديشو) بعد مسيرة 4 أيام . في أقصى الجنوب وهي تحت حكم العثمانية المباشر ، وجنوبه ، مرتبط بالعثمانية عن طريق التبعيّة . مقديشو ، قريبة جدا من خط الاستواء (°2) ، ميناء على المحيط الهندي . على طريق زنجبار . ينطق الشعب باللغة المحلية لكن العربية شائعة كذلك . يسيطر المذهب المالكي .

29 ـ المغرب .

يحتوي المغرب على إيالات الجزائر ، تونس ، وطرابلس (ليبيا) البحرية والأقطار المحلية التابعة . كانت أهمها إيالة الجزائر. ومما زاد في أهميتها اسطولها القوى ، ووجودها في أقصى الغرب وجها لوجه أمام إسبانيا التي كانت من أكبر أعداء الدولة العثمانية . أود أن أدون بعض المعلومات عن النظام العثماني في هذه الإيالة كمثال :

كان أسطولها هو القوة الأصلية للإيالة . كان الشباب المتطوعون القادمون من الأناضول الغربية يشكلون جنود البحرية (لوند) . كان والي الجزائر الفريق الأول البحري ، يقود أسطول الجزائر إلى منطقة العمليات المطلوبة في البحر الأبيض ، بموجب أمر مشير البحر . ولضرورة وجود قوّة بريّة ، تكوّنت في الجزائر قوّة مشاة تتألف من 6000 شخص وسميّت « يني جرى » (انكشارية) تأسيسها على غرار تشكيلات

الإنكشارية تماما . ولم يكن لها أية علاقة مع حامية (أوجاق) الإنكشارية الموجودة في استانبول . لم يكونوا دوشيرمه (الأطفال المسيحيون الذين يؤخذون فى صغرهم ويربون على النظام الإنكشارى) . بل من الشباب القادمين من الأناضول الغربية . كان لآغا الإنكشارية الجزائرى ممثلون في ازمير ، انطاليه واستانبول . كان هؤلاء يقومون بإرسال المتطوعين الذين يرغبون في الذهاب إلى الجزائر . يصبح الشاب القادم إلى الجزائر جنديا بحريا ، بعد انتسابه إلى سرية انكشارية (أورطة) وتدريبه فيها لمدة 3 سنوات برتبة « عجمي أوغلان » (شاب مستجد) . يقيم في غرف الثكنة التي تستوعب كل منها 3 أشخاص . يتدرج الضباط في المراتب ابتداء من الجندية ويمكنهم الارتقاء والوصول إلى منصب آغا الإنكشارية . كان يرسل أحيانا إلى الجزائر ، آغا (قائد) انكشارى من ضباط الإنكشاريه الموجودين في استانبول . كانت رتبة الآغا ، أمير لواء . يعين على الأكثر في هذه الترتبة معاونه العقيد المسمى « كتخدا » . يتزوج الإنكشاريون في الجزائر أما بفتاة تركية أو محلية (عربية أو بربرية) . بإمكان الطفل المولود من أم تركية أن يكون انكشاريا . أما الطفل المولود من أم محلية والذي يتكلم التركية كذلك ، فيدعى « قول أوغلو » (ابن الجاريه) . تم تشكيل صنف مشاة منفصل من أبناء الجوارى . كانت امتيازات هؤلاء أقل . وبينما كان صنف البحارة (لوند) مسيطرا على البلاد في القرن 16 ، تبدل الوضع في القرن 17 ، وزاد نفوذ الإنكشارية وقول أوغللري (أبناء الجواري) . لعدم كفاية هذين الصنفين من المشاة ، كان يستفاد من المتطوعين وخاصة وحدات الخيالة ومن مهاجرى الأندلس والقبائل البربرية وكان هؤلاء يدعون عند الحاجة فقط لأنهم كانوا يحاربون بأسلوبهم الخاص وليس بالأسلوب العثماني . لا يرغب العرب في سكني المدن العسكرية ، وكانوا يحيون حياة مرفهة من خلال الانتعاش التجاري الذي أوجده الأتراك .

لاتعين استانبول آغا الانكشارية ، وإنما يعينه والي الجزائر. يكون الوالي بطبيعة الحال مرتبطا بالصدر الأعظم ، لكنه كان أكثر ارتباطا بمشير البحر بالوالي بسبب إدارته إيالة بحرية وحيازته أسطولا . وإذا كان مشير البحر ، في ذات الوقت واليا (بكلربك) على الجزائر ، فإنه يحكم الإيالة بواسطة وكيل له . ضعف بعد ذلك نفوذ الولاة المرسلين من استانبول . أصبح الجنرالات الذين يعينون بلقب « دايي » والذين يتدرجون في

المراتب من ضباط الإنكشارية ، هم حكام الإيالة الفعليون . انقلب التنافس الكبير الموجود بين الانكشارية وجنود البحرية (لوندلر) إلى حالة خصام . كانت المدفعية ثلاثة أقسام المدفعية البحرية ، مدفعية القلاع والمدفعية السيارة .

إيالة الجزائر البحرية ، التي تمتلك قوة عسكرية ، بحرية واقتصادية على مستوى ملكية أوروبية متوسطة الوضع ، كانت تنقسم إلى 5 ألوية بحرية يديرها أمراء ألوية : اللواء المركزي جزائر ؛ اللواء الشرقي ومركزه قسنطينة ؛ اللواء الغربي الذي أصبح مركزه حتى عام 1701 مزونة ، وحتى عام 1791 مسكرة ، وبعد هذا التاريخ وهران (أوران) ، وفي الجنوب لواء تيتري مركز ميديا ولواء تلمسان على حدود فاس . تأسست كذلك ، بين فترة وأخرى ، ألوية أخرى مثل بجايه وتنس . كان لواء تيترى يشرف على القبائل البربرية في منطقة قبيلية الجبلية وعلى الصحراء الكبيرة في الجنوب . يختار الإداريون الذين يتولّون إدارة الأقضية ويطلق عليهم اسم « قائد » ، أو رؤساء النواحي الذين يطلق عليهم اسم « شيخ » من المحليين على الأغلب . وتوجد قيادات مستقلة ذاتيا تابعة إلى الوالي رأسا ، وكان هؤلاء في الجنوب في الجبال والصحراء .

المفتون المالكيون والحنفيون الموجودون في مدينة الجزائر ، هم الذين يختارون المفتين الآخرين . كان الشعب مالكيا سواء من العرب المستوطنين في المدينة والما اجرين من الأندلس أو من القبائل البربرية . أما المذهب الحنفي ، فقد كان مذهب الأتراك ، وقول أوغللرى (أبناء الجوارى) ومذهب الذين اعتنقوا هذا المذهب بتأثير من كليهما .

يقيم الوالي في سراي جنينه ويترأس مجلس الإيالة أيام الثلاثاء ، ولايشترك في اجتماعات المجلس الذي يجتمع في الايام الأربعة الأخرى . كان المجلس يجتمع ـ عدا أيام الجمع والثلاثاء ـ 5 أيام في الأسبوع . يحضر المجلس كل من قاضي الجزائر ، الدفتردار (الموظف المالي للإيالة) ، آغا الانكشارية ، آغا العرب الذي يرعى شئون السكان المحليين ، الموظف المختص بالأمور الإدارية والمالية للأسطول (يالي وكيلخرجي) ، موظف الخزينة الذي يعنى بالأملاك الأميرية ، موظف بيت المال الذي يرعى شئون الأوقاوف (بيت المالجي) ، وهم حنفيون كبقية الموظفين المرسلين من استانبول ، وعدة أشخاص آخرون .

رئيس بلدية الجزائر الذي يطلق عليه اسم « شيخ البلد » ، كان يعيّن على الأغلب من بين أشراف العرب الحضريين ، كانت تلك المدينة أكبر مدينة في القارة الأفريقية والإمبراطورية في ذلك العصر ، وقد وصل عدد سكانها لفترة من الزمن مع الضواحي إلى 150 000 نسمة . معظم السكان الأتراك وأبناء الجواري كانوا يسكنون في مدينة الجزائر . والبقية هم العرب والبرابرة المستعربون أو الذين لم يستعربوا بعد والعرب المهاجرون من الأندلس ومايقارب 2000 يهودي ، التجار الأوروبيون وعشرات الألوف من العبيد ذوي الألوان والأعراق المختلفة . كان لشيخ البلد 3 أعوان : قائد العيون المختص بأمور إسالة الماء ، قائد الزبل المختص بأمور التنظيف والحرس والشئون الإعمارية . وقائد الوثّان الذي يقوم بالإشراف على الشئون الإجتماعية والاعاشة . كان 8 من ضباط الشرطة الذين يطلق عليهم « جلووش » هم المسئولون عن أمن المدينة ، لايحملون أي سلاح لكنهم كانوا مطاعين بشكل مطلق . وفي جالة طلبهم مساعدة من أحد أفراد الشعب ، كان يتعين على ذلك أداء المهمة المطلوبة . يسكن في الشريط الساحلي مع الضواحي البعيدة وفي الـ 10 000 بستان الموجودة في الداخل وبضمنها 25000 مزرعة و 12000 دار ، ما يقرب من 300 000 نسمة .

كانت الدولة العثمانية في القرن 16 تساند انكلترا وخاصة فرنسا لئلا تكونا لقمة سائغة لإسبانيا ـ ألمانيا . تم إبلاغ فرنسا في 1564 ، بإمكان فتحها قنصلية في مدينة الجزائر . لم تفتح فرنسا قنصلياتها إلا في 1576 . اعقبتها انكلترا في 1580 . وفتحت القنصليات الأخرى في القرنين 17 و 18 .

ومع مرور الزمن ، حصل العثمانيون الموجودون في الجزائر ، على الاستقلال الذاتي . كانوا يتحرشون بدول كثيرة من بينها جارتهم الغربية فاس دون أن يتلقوا أمرا من استانبول . استدعى سلطان فاس في 1785 السفير العثماني اسماعيل افنيدي ، وشكا اليه أن والي الجزائر رغم أنه تابع للبادشاه ، يقوم بأعمال تعارض مصالح فاس (فائق رشيد أونات (nameler) (Sefaref ، 140) .

وفد الأتراك بالملايين من الأناضول إلى المغرب خلال ثلاثة عصور . لكن هؤلاء كلهم رجال معظمهم شباب عزّب . لم تذهب إلى أفريقيا الشمالية ـ عدا مصر ـ أية

امرأة من الأناضول الغربية . تزوج الأتراك بالفتيات المحليّات . كثر المولّدون الهجناء من الأتراك ــ العرب الذين يطلق عليهم اسم قول اوغلوا في جميع أنحاء أفريقيا وعلى سبيل المثال ، في أواخر القرن 19 ، كان ربع سكان تلمسان التابعة للحكم الفرنسي والقريبة من فاس ، قول اوغلو (Yver ، IA ، 12 ، 395 ب) . اصرّ الأتراك الخلّص الدم ، على عدم منح أولادهم الذين من اصلابهم (قول اوغلو) وظائف تعادل وظائفهم . إذ كانت الرغبة في حصر الحكم في مجال اضيق . كان أولاد الجوارى يعتبرون أنفسهم اتراكا ويعادون آباءهم الذين يصرّون على عدم اسناد الوظائف العالية لهم ، لم يكن هؤلاء بمستطيعين التطبّع بالمجتمع العربي بصورة تامة . من الواضح أن هذه السياسة العنصرية التي لا ترى في أى قطر آخر والتي تظهر كأنها خاصة بالمغرب ، معارضة للسياسة العثمانية العامة . ولكنها جرت بهذا الشكل و لم تتمكن استانبول من التدخل ، لأنها لم تكن في العصور التي ازداد فيها جدا عدد ابناء الجوارى (قول اوغللري) ، تتدخل في شئون هذه الإيالات إلا في أضيق الحدود . ذلك في الوقت الذي كان يشك في عقلية من يسأل أي شخص تركي في استانبول عن قومية أمه وحاليا كذلك . ولو تعرض خليفة روى زمين (خليفة الكرة الأرضية) لمثل هذا السؤال لما أمكنه الإجابة إلا بأن أمه مسلمة .

ومن الأمور الأكيدة ، أن العثمانية جلبت الإعمار والإسكان إلى المغرب والأمن أيضا بالقياس إلى الأدوار السابقة . وجلبت الرفاهية كذلك . والأهم جدا من كل هذا ، أنها حالت دون اعتناق الشمال الأفريقي ، الكاثوليكية ونطقه باللغة الاسبانية والقطلونية والبرتغاليه . أسس بربروس خير الدين باشا بالذات مدينة بليده وعند دخول (28 / 9 / 1555) الفريق الأول (بكلربك) صالح باشا إلى بجايه (الفرنسية : Bauige) بعد أن احتلها الاسبان مدة 45 عاما ، شاهد بتأثر أن هذه المدينة التي فقد استاذه اوروج رئيس فيها ذراعه اليسرى عند مواجهته الاسبان ، أصبحت مدينة كاثوليكة و لم يبق لها علاقة بالإسلام ، رغم أنها كانت سابقا المدينة التي يقيم فيها السلاطين الحفصيون وعندئذ اتخذ تدابيره فورا . وفي 1542 ، جاء بربروس ــ زاده حسن باشا الأول إلى بسكره في الصحراء ، وفي 1552 صالح باشا ، وفي القرن 18 والي

قسطنطينة صالح بك وحاولوا تعليم البدويين أسلوب التعامل مع الدولة (J . Despois, EI[2],I, 1284 b) . كان أمير لواء فيزان لإيالة طرابلس مسئولا عن كل الدول المحلية في افريقيا الوسطى حتى نيجيريا . كان يقوم بحماية التابعين للعثمانية ، يقدم لهم السلاح ، ويتبع سياسة خاصة مختلفة تجاه الذين لا يتبعون العثمانية . كان البادشاه في الربع الثالث من القرن 19 يصادق على حكم سلطان بورنو في نيجيريا ، سلطان دارفور في السودان على حدود تشاد وعلى كثير من أمثالهم . تقلد أمين باشا الولاية في أوغندا التي كانت تسمى إيالة خط الأستواء ، مدة 5 . 16 سنة (7 / 5 / 1876 - 23 / 10 / 1892) .

من المؤكد أن الذي انقذ الإسلام ووطد الحكم العثماني في شمال افريقيا ، هو أوروج رئيس . وقد أتم عمله أخوه بربروس خير الدين باشا وطرغد باشا وصالح باشا اللذان حضرا إلى المغرب كضباط بحريين لاوروج رئيس وغيرهم . اعترف الجميع باقتدار العثمانية في كامل افريقيا . وفي أواخر القرن 19 ، تمكنت الدول الأوروبية ، الاستعمارية التبشيرية ، دون أدنى حياء ، من رفع العلم العثماني ذي الهلال والنجمة والدخول إلى المناطق الأفريقية النائية . إذ إن القبائل المحليّه ، كانت تقتل البيض الذين ليسوا أتراكا . كانوا يشكون في نيّاتهم . إذ إنهم كانوا قد قبضوا على ملايين من مواطنيهم وساقوهم كعبيد إلى الأقطار الأخرى . كانت تشاد الشمالية المسماة « بوركو » في القرن 16 ، أراضي .تتبع لواء فيزان . كانت لاتزال حتى عام 1911 ، في قصبتي بوركو و بارداي ، حامية عثمانية مرسلة من استانبول . ولكن عندما احتلت إيطاليا ليبيا ، اعطيت بوركو إلى فرنسا و لم تعط لايطاليا . بينما كانت في إيالة طرابلس ، وهذا هو منشأ إدعاءات ليبيا الحالية حول تشاد (Charles le Coeur ، EI ، 1 ، 1296 ب) .

كانت إيالة طرابلس في 1593 ، تتكون من ألوية طرابلس ، بنغازى ، فزّان ، جربه ، سفسقس ومناسطر . الألوية الثلاثة الأخيرة ، لدى تونس حاليا ، وتشكل وسط جنوب تونس . أعطيت هذه الألوية الثلاثة بعد ذلك إلى إيالة تونس . احتل العثمانيون لمرات عديدة جزر مالطة وكوزو ، لكنهم لم يتمكنوا من الاستيلاء على قلعة مالطة . إلا أن السلطان عبد العزيز (1861 - 1876) اشترى أراضي في مالطه وبنى فيها جامعا ومقبرة للشهداء . وهى ساحة الكولف التي تواجه نادي Marsa (بالعربية : مرسى

ميناء) وهو الموقع الذي استشهد فيه أكبر عدد من العثمانيين في حصار مالطة عام 1565 . لايزالون يعثرون على عظام بشرية ونقود عثمانية كلما حفرت الأرض (Ernle Bradford ، 95) .

كانت ليبيا في 1908 ، 5 ألوية ؛ المركز طرابلس الغرب ، حمص ، جبل غريب ، فزّان وبنغازي . أقضية اللواء المركزي : المركز طرابلس (نواحيه : المركز ، تاجورا ، حفاره ، زنزور) ، النواحي الأربعة (مركزها هاني) نواحيه : هاني ، منشيّه ، ساحل ، رفيعات ، علاونه) ، غريان (نواحيه : المركز طرخوخة ، زاوية ، زوارة عزيزية) ، عرفّلا (نواحيه : المركز ، عجيلات ، نيجات ومركزه جوش) . ـ أقضية لواء حمص : المركز ، مسّوراتا ، ظلّتين ، مصالته ، سرت (نواحيه : المركز ، تفوركا ، تابيه) . ـ أقضية لواء جبل غريب : المركز قصيبة (نواحيه : المركز ، حوض ، ككلة ، مزدة ، زنتان ، يفرين) ، كدامس ، نالوط ، فساطو (مركزه جادو) . ـ أقضية لواء فزّان : المركز مرزق (نواحيه : المركز ، سبتة ، وادي عتبة ، زيلة ، قطرون ، وادي الشرقي ، وادي الغربي) ، سكنه ، شاطىء ، غات (نواحيه : المركز ، جانت ، بركه) ، تيبور شاده (المركز برادي) (هذا القضاء حاليا لدى تشاد . ـ أقضية لواء بنغازي المستقل : المركز (نواحيه : المركز ، برأسا ، سلوك ، قمص ، برسيس) ، درنة (نواحيه : المركز ، طبرق ، بومبا ، قبّه ، سلّوم) ، برج (نواحيه : المركز ، حاسة ، درسة) ، جالو ، اوجلّة ، كفره ، جدابيّه (نواحيه : المركز ، برقة) .

قضاء غات Gaat ، تأسس على أيام ولاية مصطفى عاصم باشا في 1875 بإرساله وحدات عسكرية واحتلاله له . إذ كانت موضوع خلاف مع فرنسا . وقد تأسس قضاء تيرشاده الذي بقي حاليا لدى دولة تشاد باحتلاله في 1881 لئلا ينتقل إلى حوزة فرنسا .

كانت إيالة طرابلس ـ عدا لواء بنغازي ـ تحتوي في 1908 على 24 مدرسة متوسطة وابتدائية تركية للذكور والإناث تدّرس باللغة التركية ، مدارس ومكاتب كثيرة جدا على الطراز القديم تدّرس باللغة العربية ، 3 مدارس متوسطة لليهود للذكور ، 2 للاناث

و 9 ابتدائية مدرسة إيطالية واحدة . مدرستين تدرسان باللغة الفرنسية للذكور و 2 للإناث . أما في لواء بنغازي ، فكانت توجد 12 مدرسة متوسطة وابتدائية تدرس بالتركية ، 39 مدرسة تدرس بالعربية ومدرسة واحدة تركية للمعلمين ، 3 مدارس للبنات بالتركية ، مدرسة موسوية واحدة ، مدرسة إيطالية للبنات ، مدرستين فرنسيتين واحدة للبنات والأخرى للذكور .

كان في 1890 في مدينة طرابلس 9 جوامع ، 18 مسجدا ، 3 مدارس ، مدرسة متوسطة ، مدرستان ابتدائيتان عدة مكاتب في المحلات ، 6 تكايا ، 13 خانا ، 2490 دارا ، 1075 دكانا ، 40 مغازة (مخزن كبير)، 4 حمامات ، 5 كنائس ، 7 معابد لليهود ، 27 مقهى ، 72 طاجونة ، مصنعا صابون ، 3 صيدليات ، 20 فرنا ، مستشفى ، 82 حانة مشروبات (**سالنامه ولايت طرابلس غرب** ، 1305 ، ص 135) .

وبينما كانت بنغازى أحد ألوية الإيالة انفصلت وأصبحت لواء مستقلا . وانقطعت علاقتها بطرابلس وارتبطت بوزارة الداخلية . وهكذا انقسمت ليبيا في الحقيقة إلى وحدتين . كانت الفرقة 15 في ليبيا تابعة إلى القيادة العليا دون ارتباطها بأى جيش . كانت هذه الفرقة في 1900 تتألف من : لواءى المشاة التاسع واللواء الثلاثين (الكتائب 57 , 58 , 59, 60) ، لواء خيالة واحد (الكتائب 37 و 38) ، اللواء المدفعي 15 ، سرية مدفعية قلعة طرابلس (3 بطاريات) ، سرية الرماة 15 . وإضافة إلى ذلك جنود قول أوغللرى المنظمون في كتيبتي رديف . وبذلك فإن القوة العسكرية العثمانية في ليبيا ، كانت في الحقيقة فيلقا واحدا . وفي 1895 ، نظم الوالي نامق باشا بأمر عبد الحميد الثاني ، قول أوغللرى وجعلهم كتيبتين . جميع ضباطهم كانوا قول أوغلو (أبناء الجواري) من الليبيين . إلا أن رتب ضباطهم كانت معتبرة في كتائبهم فقط . يلاحظ أن هذه التشكيلات شبيهة بكتائب خيالة حميديه الخفيفة التي تأسست في الأناضول . وفي 1910 ، سحبت نظارة الحربية هذه الفرقة القوية من ليبيا وأرسلتها إلى اليمن . وبذلك تحقق الاحتلال الإيطالي .

بدأ الاحتلال الإيطالي ، في الوقت الذي استدعى فيه والي ليبيا الذي كان أحد

المارشالات في عهد السلطان حميد إلى استانبول ، ولم يكن بكر سامي بك الذي عين بدلا منه ، قد تحرك بعد من استانبول . وكان العقيد الركن نشأت بك يقوم بالألوية كوكيل في قطر تبلغ مساحته ضعفي مساحة تركيا الحالية . وبعد أن تم إنزال الإيطاليين 40 000 جندي بمساندة كامل أسطولهم ، تمكنت سفينة درنة القادمة من استانبول من إنزال 25000 طلقة بندقية وعتاد و 100 جندي تركي في 26 أيلول . كان اليهود الليبيون يتجسسون لحساب الإيطاليين منذ سنين ، قاموا بإرشاد الإيطاليين . اضطر رئيس بلدية طرابلس قره مانلي حسونة باشا إلى تسليم المدينة يوم 5 ت 2 . إذ لم يكن في مركز تلك الإيالة الكبيرة غير 100 جندي مشاة ، وعدة بطاريات وبعض وحدات من الدرك .

وفي 1915 ، عندما دخلت إيطاليا الحرب العالمية إلى جانب الحلفاء وضد الدولة العثمانية ، أرسل الباب العالي إلى ليبيا عددا كبيرا من الاسلحة والجند . ظل الإيطاليون محصورين في بضعة قصبات ساحلية . كان قائد جبهة القوات العثمانية في ليبيا الفريق الأول الشهزاده عثمان أفندي حفيد السلطان مراد الخامس . وعند وقف العثمانية لإطلاق النار في هدنه مونترو ، كان حفيد عثمان غازي في البطن الـ 22 ، لايزال مسيطرا على ليبيا . حاول إقناع الباب العالي بعدم تركه للقطر بموجب أحكام الهدنة . تباطأ مدة من الزمن ، لكنه عاد أخيرا إلى استانبول يائسا . كانت الأيام الأولى من عام 1919 . كان هو آخر قائد مظفر لبني عثمان . انقطع ارتباط القارة الأفريقية بالدولة انسحبت الآن الدولة العظمى التي لعبت دورا مهما في التاريخ والتي امتدت حدودها على ثلاث محيطات ، إلى مابين نهر مريج وجبل آغري وبدأت في صراع الحياة والموت .

﴿ قل اللهم مالك الملك تؤتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير إنك على كل شيء قدير ﴾

(آل عمران ، 3 ، 26) .

والحمد لله رب العالمين

الفهرس

الموضوع | الصفحة